في ظلال السيرة العطرة

على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام



رمضان خضير خضير

في ظلال السيرة العطرة

على صاحبها أفضل صلاة واتم سلام

كتبه الفقير الى عفو ربه / أبو محمد رمضان بن خضير خضير

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بين يدي الساعة شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

أما بعد...

فإنَّ السيرة النبوية ليست صفحات تُطوى، ولا وقائع تُروى، ولا تاريخًا يُحكى لتمضية الوقت!
السيرة النبوية هي الروح التي بها تُبعث الأمة من رقْدتها، والنور الذي به تُهتدى في ظلمات الفتن، والبوصلة التي تُعيد القلوب إلى القبلة، والعقول إلى الحق، والناس إلى خالقهم.

ولست أول من كتب، ولا آخر من يؤلف، فقبلي أفذاذ العلماء، وأئمة السلف والخلف، كتبوا، وصنّفوا، وحرّروا، ونقّحوا، وبذلوا من أعمارهم وأوقاتهم ما لا يُقادر قدره، حتى وصل إلينا هذا العطر النبوي، محفوظًا، مشروحًا، مستنبطًا منه الهدى والخير الكثير.

فكل فضلٍ في هذا الباب بعد الله، فإنما هو امتداد لفضلهم، وميراث علمهم، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ورفع ذكرهم في العالمين.

لكن لما رأيت كثيرًا من الناس يشتاق إلى السيرة، ثم ينفر من طول الأسفار، وتشعّب الأخبار، أو يقرؤها ولا يدرك روحها، أو لا يستخرج منها ما يعيد بناء النفس ويبعث همّتها، أردت أن أقدم شيئًا مختلفًا...

شيئًا لا يزاحم الأوائل، ولا يدّعي التجديد المطلق، ولكنه محاولة لأخذ السيرة بروح جديدة، وبأسلوبٍ يقربها من القارئ، ويجعلها حديث الساعة، ونبض القلب، ووقود العمل.

جاء هذا الكتاب **"في ظلال السيرة العطرة "**ليروي السيرة في فقرات أدبية مشوّقة، تحمل المعنى، وتُلهب الوجدان، وتُبسّط الفكرة دون أن تبتذلها، وتُغني عن الحشو، دون أن تُفرّط في البيان.

فهو للكبير والصغير، ولطالب العلم والمثقّف، وللخطيب والمعلم، ولكل مسلم يريد أن يعيش مع نبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم لحظةً بلحظة، وموقفًا بعد موقف، ومشهدًا يبعث الإيمان، ويزرع اليقين، ويُحرك العزائم.

وما أردت بهذا العمل رياءً، ولا طلب شهرة، ولا تزكية نفس، فإن النفس أمّارة بالسوء، ولكنني أسأل الله أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يرزقني به رضاه، وسترًا في الدنيا والآخرة، وأن لا يحرمني أجر ما نويت وإن قصّر عملي.

وفي الختام:
كتبه الفقير إلى عفو ربه،
الراجي ستره وبرّ ه،
أبو محمد رمضان بن خضير

الباب الأول: أهمية السيرة النبوية

مقدمة

حين تتأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تقرأ تاريخًا مضى، ولا أحداثًا طواها الزمن... بل تقف على نورٍ خالد، وحياةٍ تهتف بالقيم، وتسير على هُدى الوحي، وتغرس في الأرواح معنى الكمال البشري.

السيرة ليست سردًا لأيامٍ خلت، بل هي مرآةُ الرسالة، ومجلى الوحي في واقع الناس، وهي التطبيق الحيُّ للقرآن، في رجلٍ مشى على الأرض، فأقام الحُجّة، وأتمّ النعمة، وعلَّم البشرية كيف تكون الرحمة، وكيف يكون الثبات، وكيف يُصنع التغيير.

إنها سيرة من عاش يتلو القرآن بلسانه، ويُجسّده في أفعاله، ويصوغ به أمةً من بين ركام الجاهلية، فأشرقت بها الأرض بعد ظلمة، وسما بها الإنسان بعد هوان.

وفي زمن التغيّر والتقلّب، تبقى السيرة النبوية مرسى الثابتين، وبوصلة الحائرين، ونورًا لا يخبو لمن أراد النجاة في طريق الحق.
فمن أراد أن يعرف الإسلام في صفائه، فليقرأ السيرة...
ومن أراد أن يعرف النبي في أخلاقه وجهاده وتوكّله، فليتدبر السيرة...
ومن أراد أن يعرف كيف تُبنى الأمم وتُزكّى النفوس وتُدار الأزمات، فليتعلّم من السيرة.

فليست السيرة علمًا يُتلقى، بل حياةٌ تُحتذى، وسراجٌ يُهتدى به في دروب الزمن.

الفقرة الأولى: منزلة السيرة النبوية في قلوب السلف

ليست السيرة النبوية مجرّد علمٍ يُدرَّس، أو تاريخٍ يُروى، بل هي حياةٌ نابضة، عاشها خيرُ من وطئ الثرى، وأحبُّ الخلق إلى ربّ العالمين. حياةٌ تفيض بالنور والهداية، وتنبض بالرحمة والعدل، وتُسطّر أروع معاني الجهاد والدعوة، والصبر والثبات.

وقد عظّم السلف الصالح هذه السيرة أعظم تعظيم، فعدّوها من أركان التربية، وجعلوها نبراسًا للعلم والعمل، لا تُفارق مجالسهم، ولا تغيب عن قلوبهم. كانوا يُربّون أبناءهم عليها كما يُربّونهم على القرآن، ويقيسون بها الأقوال والأفعال، ويجدون فيها الشرف والمجد والعزّ.

قال زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله:
"كنا نعلّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلّم السورة من القرآن".
وقال محمد بن سعد بن أبي وقاص":كان أبي يعلّمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه، ويقول: يا بني، هذا شرف آبائكم، أو هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوها".

فإذا أردتَ أن تعرف منزلة السيرة، فانظر إلى قلوب من عرفوا قدر النبي صلى الله عليه وسلم حقًّا، وتعلّموا منه، وساروا على هداه... تجدها تفيض حبًّا، وتنبض اتّباعًا، وتنطق ولاءً لا يخبو.

الفقرة الثانية: خطر الجهل بالسيرة النبوية

ليس الجهل بسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مجرّد جهلٍ بأحداثٍ طواها التاريخ، أو مواقف خُطّت في بطون الكتب... بل هو جهلٌ بروح هذا الدين، وغفلةٌ عن نَبْض الرسالة، وقطيعةٌ عن النور الذي أرسله الله ليهدي به القلوب الحائرة، ويقيم به الحجة على العالمين.

فمن لم يعرف سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، لم يعرف دينه حق المعرفة، ولم يدرك كيف تتجسد أوامر الوحي في واقع الحياة، وكيف يتحول القرآن من كلمات تُتلى، إلى أفعال تُرى، وسلوكٍ يُحتذى، وخُلقٍ يُجسّد الكمال البشري في أبهى صوره.

السيرة النبوية ليست صفحات من الماضي، بل هي حياة تتجدد في كل زمان، وهي المِرآة التي ترى فيها كيف يُعبد الله على بصيرة، وكيف تُقاد الأمم بالحكمة والعدل، وكيف تُبنى الحضارات على التقوى، لا على الهوى.

أليس الله جلّ في علاه قد قال في محكم التنزيل:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾]الأحزاب: ٢١[؟
فمن جهل تلك الأسوة، كيف له أن يقتدي؟ ومن لم يعرف مناهج النبي صلى الله عليه وسلم، كيف يسير على هديه، أو يزن أقواله وأفعاله بميزان النبوة؟

أين نحن من جيلٍ كان يعلّم أبناءه المغازي كما يعلّمهم سور القرآن؟!
روى ابن سعد في "الطبقات" عن زين العابدين بن علي بن الحسين أنه قال":كنّا نُعلّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نُعلَّم السورة من القرآن".
بل قال محمد بن سعد بن أبي وقاص":كان أبي يُعلّمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه، ويقول: يا بنيّ، هذه مآثر آبائكم، فلا تضيّعوها".

فانظر في حالنا اليوم... كم من أبناء المسلمين يحفظون أسماء اللاعبين والممثلين، ويتتبّعون أخبار المغنّين والمشاهير، قلبًا وقالبًا، صورةً وصوتًا... بينما يجهلون متى وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يعرفون أين بُعث، ولا كيف بدأ دعوته، ولا كيف صبر حين اشتدّ الأذى، ولا كيف ثبّت الله به أقدام المؤمنين، ولا كيف بنى دولة الإيمان على تقوى من الله ورضوان.

من جهل السيرة، ضاع عليه باب القدوة، وانطفأ من قلبه نور الاتباع، وتاه في دروب الغلو أو التمييع...
فمن لم يعرف المنهج النبوي، قد يتشدد في موطن الرحمة، أو يُفرّط في موطن الحزم، وقد يُعجب بكلامٍ منمّق من هنا وهناك، فيتّبع غير سبيل المؤمنين، وهو يظن أنه يحسن صنعًا!

ومن لم يتربّ على السيرة، تخلّى عن المعايير النبوية في الحكم على المواقف، وتزيّنت له العبارات الرنّانة ولو كانت على غير هدى، فأصبح كالسفينة بلا ربّان، تميل بها رياح الفتن شرقًا وغربًا.

فالسيرة هي الحصن، وهي الميزان، وهي النور الذي قال الله فيه:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾]القلم: ٤[
فأيّ جهلٍ أعظم من الجهل بهذا الخلق العظيم؟ وأيّ خسارة أشدّ من فقدان المعرفة بسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء، وقدوة الأصفياء؟

اللهم ارزقنا علمًا بسيرته، وفهمًا لهديه، واتباعًا صادقًا لا يزيغ، وصلاةً وسلامًا دائمين عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفقرة الثالثة: علاقة السيرة النبوية بعلوم الشريعة

ليست السيرة النبوية علمًا مستقلًا على هامش علوم الشريعة، يُروى للوعظ أو السَّمر، بل هي قلب هذه العلوم النابض، وروحها المتغلغلة في تفاصيلها، وهي النور الذي تتضح به معاني العقيدة، وتُفهم من خلاله أحكام الشريعة، وتُستنار به دروب الدعوة والتزكية والسلوك.

فالعقيدة مثلًا، لا تُبنى بالكلام المجرد، بل تُغرس في القلب حين يرى المؤمن ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في مواقف الشدة، وتوكله الصادق على الله في المواطن العصيبة، كليلة الهجرة، ويوم بدر، ويوم حُنين. وعندما نقرأ في السيرة كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم أمته التوحيد في كل حركة وسكنة، ندرك أن العقيدة ليست دروسًا تُلقَى، بل حياة تُعاش.

والفقه، بمدارسه ومسائله، إنما يستمد روحه من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته، وهو من أظهر ما تجلّى في سيرته. فكم من مسألةٍ فقهية لا تُفهم على وجهها إلا إذا رُبطت بواقعها الذي وقعت فيه! وكم من حكمٍ يُخطئه الناظر إن لم يضعه في سياق السيرة والظروف التي أُبِين فيها!

أما التفسير، فإنك تقرأ الآية، فتضرب في فهمها يمينًا وشمالًا، حتى تقف على سبب نزولها، وسياقها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فتتضح لك معانيها، ويتكشف لك وجه إعجازها وبلاغتها. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **"والله الذي لا إله غيره، ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه]** "رواه البخاري.[

وأما الحديث، فهو كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يُفهم فهمًا صحيحًا إلا في ضوء سيرته، وظروف الزمان والمكان، وطبيعة المخاطب، وسياق الحدث. فالسيرة هي الإطار الذي تُوضَع فيه نصوص السنة فتُفهم على وجهها، وتُنزَّل في مواضعها.

بل السيرة النبوية ليست مجرد وسيلة لفهم الشريعة، بل هي **نفس الشريعة في صورتها التطبيقية**، وهي **القرآن مفسَّرًا بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله**، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت**"كان خلقه القرآن]** "رواه مسلم.[

وقد فهم هذا المعنى السلف والعلماء، فقال الإمام الزهري رحمه الله**"في علم المغازي علم الآخرة والدنيا"**، وقال بعضهم – كما نقل ابن القيم":– **السيرة روح العلوم، ومن جهلها جهل روح الدين".**

فكل من أراد أن يتعلم العلم الشرعي على بصيرة، وأن يدعو إلى الله على هدى، وأن يسير في طريق الاستقامة بثبات... فليجعل السيرة النبوية زاده، ومصباحه، ودليله.

إنها ليست ماضٍ يُذكر، بل مرآة تنعكس فيها كل معاني الشريعة حيّة نابضة، تراها في خُلق النبي صلى الله عليه وسلم، في عدله، في صبره، في حُلمه، في تواضعه، في تعامله مع المؤمن والكافر، القريب والبعيد، في سلمٍ أو في حرب، في الفقر والغنى، في القوة والضعف.

فيا طالب العلم، ويا داعيةَ الحق، ويا محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم...
اقرأ السيرة، وتأمّلها، واغترف منها...
فهي مفتاح الفهم، ومفتاح الاتباع، ومفتاح الوصول إلى الله على بصيرة.

الفقرة الرابعة: كيف غيّرت السيرة النبوية التاريخ والبشر

ليست السيرة النبوية مجرد وقائع مضت، ولا سردًا لأحداثٍ سكنت صحائف الزمن، بل هي زلزال في مسار البشرية، وبداية لتحوّلٍ عظيم، غيّر وجه الأرض، وأعاد صياغة الإنسان، وأقام صرحًا شامخًا للحق والعدل والنور.

لقد نزل النبي محمد صلى الله عليه وسلم في بيئةٍ موغلة في الوثنية، غارقة في الجاهلية، ممزقة الأواصر، مغلقة القلوب، فكانت السيرة النبوية هي الحبل الذي انتشل الناس من غيابات الشرك، إلى فضاءات التوحيد، ومن عبودية البشر إلى عبودية رب البشر.

قال الله جلّ وعلا:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾]الجمعة: ٢.[

لقد نقلت السيرة البشرية من التمزّق إلى الوحدة، ومن الفوضى إلى النظام، ومن عصور الظلم والتمييز الطبقي إلى عدلٍ لا يفرّق بين حر وعبد، ولا بين عربي وأعجمي، إلا بالتقوى.

أنجبت السيرة رجالًا صنعهم النور، وخرّجتهم مدرسة النبوة، فجعلوا من الإيمان طاقة تغيّر الوجود:
أبو بكر، الذي بذل ماله ونفسه في سبيل الدعوة،
وعمر، الذي حمل العدل على كتفيه كأنه مسؤول عن الأرض كلها،
وعثمان، الذي اشترى الجنة بحيائه وإنفاقه،
وعليّ، الذي جمع بين الشجاعة والعلم والزهد،
وخالد، الذي خاض المعارك كأنه يمشي إلى الصلاة،
ومصعب بن عمير، الذي خرج من النعيم إلى التضحية،
وسميّة، أول شهيدةٍ في الإسلام، التي صنعت من دمها رايةً ترفرف في سماء العقيدة.

هؤلاء لم يكونوا رموزًا في كتاب، بل كانوا ثمارًا نضجت على شجرة السيرة، ولبناتٍ في بناءٍ أقام الدنيا على أُسسٍ جديدة.

لقد بدأت هذه السيرة في غارٍ مظلم، وانتهت بإخراج أمةٍ من العدم، أمةٍ علّمت العالم، وحرّرت الشعوب، وأقامت حضارةً سادت الأرض قرونًا طويلة، حضارةً بُنيت على العلم والعدل، والرحمة والكرامة، حتى شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء.

قال الله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾]الأنبياء: ١٠٧[
وكأنّ هذه الرحمة كانت شِعارًا للسيرة كلها، فمنها انطلقت كل تحوّلات البشر.

وقد فهم هذا المعنى العظيم الإمام مالك رحمه الله، حين أطلق كلمته المضيئة التي تُعد دستورًا للإصلاح في كل زمان، فقال" :لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

نعم، لن تنهض أمة الإسلام، ولن تستردّ كرامتها، ولن تستعيد دورها في قيادة البشرية، إلا إذا عادت إلى ذلك النبع الصافي... إلى سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سيرةٍ صنعت الأبطال، وبنت الأوطان، وربّت الأرواح، ورفعت الرايات.

فليست السيرة تراثًا يُعرض في المتاحف، بل مشكاةُ نورٍ حيّة، من تمسّك بها قاده الله، ومن أعرض عنها تاه في ظلمات الجاهلية المعاصرة، مهما لبست من مظاهر التقدّم.

الفقرة الخامسة: السيرة ليست قصصًا تُروى، بل حياة تُحتذى

ليست السيرة النبوية حكاياتٍ تُروى لتُؤنس المجالس، أو تُتلى كما تُتلى القصص الغابرة للتسلية أو الإعجاب العابر... لا، بل السيرة حياةٌ متجددة، ونداءٌ رباني نُسأل عن مدى اقتفائنا لآثاره، واتّباعنا لمنهج صاحبها، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

لقد أنزل الله جلّ وعلا أعظم آية في التأسي، فجعلها معيار صدق الإيمان، وميزان صدق الرجاء في الله واليوم الآخر، فقال سبحانه :﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾]الأحزاب: ٢١.[

فلا يكفي أن نقرأ سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم نُعجب بحِلمه، ونُطرب لشجاعته، ونتأثّر بمواقفه، ثم نطوي الصفحة ونمضي كما نحن... فإن لم تُحدث السيرة فينا تغيرًا، ولم تُوقظ في القلب يقظةً، ولم تُحرّك في النفس سعيًا نحو الاتباع... فقد ضيّعنا الثمرة، وفوّتنا المقصود.

إن السيرة النبوية لم تُكتب لتكون زينة المجالس، ولا ليتفاخر بها الخطباء، بل لتكون **مرآةً نرى فيها عيوبنا، وبوصلةً نُهتدي بها في دروب الحياة**.

في كل مشهد من السيرة لفتةُ هدى، وفي كل موقفٍ منها درسُ تربية، وفي كل خطوةٍ من خطى النبي صلى الله عليه وسلم طريقٌ إلى الله.

لقد كانت السيرة النبوية **مدرسةً كبرى تخرّج فيها الأئمة والقدوات**:

فتعلّم أبو بكر الصديق الصدق والثبات فيها، حتى أصبح أعظم رجلٍ بعد الأنبياء.

وخرج منها عمر بن الخطاب، يحمل العدل في يمينه، والحكمة في قلبه، يفرق بين الحق والباطل بسيفٍ لا يظلم، ولسان لا يخشى إلا الله.

وتربّى فيها مصعب بن عمير، فصار أول سفيرٍ للإسلام، ناطقًا بحجته، وداعيًا إلى ربه على بصيرة، متخليًا عن كل زينة الدنيا.

ونهل منها خالد بن الوليد، فصار سيفًا من سيوف الله، لا يُهزم، ولا يُقهر.

ووقفت فيها سمية بنت خياط، تُسطّر أول سطرٍ في سجل الشهادة، بجسدٍ ضعيف، لكن بروح لا تنكسر.

واحتضنت فيها خديجة أم المؤمنين، فكانت أول من آمن، وأول من واسى، وأول من فهم عظمة الرسالة وآمن بحاملها، فخلّد وفاؤها في ذاكرة النبوة.

هذه ليست شخصيات نقرأها للإعجاب، بل **نماذج واقعية** خرجت من رحم السيرة النبوية، لتُثبت أن الإسلام قادر على أن يصنع رجالًا ونساءً يحملون النور في العيون، والثبات في القلب، والبصيرة في الطريق.

فيا من يقرأ السيرة... لا تقرأها كما يُقرأ الأدب الجميل، بل اقرأها لتتربّى، لتتعلّم، لتتغيّر، لتعود إنسانًا ربانيًّا كما أرادك الله.

فالسيرة ليست تاريخًا، بل نبضُ الرسالة...
ليست ماضٍ قد انتهى، بل سبيلٌ لمن أراد أن يبدأ...
ليست قصصًا تُروى... بل حياةٌ تُحتذى.

الفقرة السادسة: السيرة ميزان الفهم الصحيح للدين

ما أكثر من ضلّوا في فهم دين الله، وتاهوا في مسالك الغلو أو التفريط، لا لأن النصوص قصرت في البيان، ولكن لأنهم حملوها على غير نورٍ من السيرة، ولا فهمٍ من هدي النبي صلى الله عليه وسلم.
لقد فُتحت أبواب التأويل، وتبدّدت معالم الوسطية، يوم غاب عن الناس أن السيرة هي **الميزان الذي توزن به الأقوال، وتُفهم به الأحكام، وتُعرف به مقاصد النصوص.**

ففي زمنٍ باتت فيه العقول تائهة بين الإفراط والتفريط، نحتاج أن نُعيد العقول والقلوب إلى المدرسة الأولى: سيرة خير الورى صلى الله عليه وسلم.

السيرة ليست شيئًا يُتلى... بل هي الضياء الذي يُجلي النصوص، ويعيدها إلى معناها الصحيح، والوجه الذي أراده الله بها.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله"**:ومن ظن أنه يستغني عن السيرة، فليعلم أن فقه الدين لا يستقيم له، ولا تُفهم النصوص إلا في ضوء هديه صلى الله عليه وسلم]** "زاد المعاد.[

ففي السيرة يتجلّى **التوازن المدهش:**

نرى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم **غاضبًا لله** إذا انتهكت حرماته، لكنه **أرحم الناس بضعف خلقه،** يغفر، ويصفح، ويعفو حتى عمّن أدموا وجهه وأهدروا دمه.

نرى فيه **الحزم يوم يقتضي الحزم،** كما فعل في بدر وخيبر، و**اللين حين يقتضي اللين،** كما فعل في صلح الحديبية، ويوم الفتح، حين عفا عن من آذوه وطردوه.

نرى فيه التوازن بين **الزهد في الدنيا،** إذ رُبط الحجر على بطنه، ولم يُوقد في بيته نار، وبين **التمكين في الأرض،** إذ جاءته مفاتيح كسرى وقيصر، وقسّمت غنائم حنين تحت يديه.

نرى فيه الجمع بين **العبادة والعمل،** فلا هو انقطع للعبادة فحسب، ولا هو صرف عمره في الحركة والسياسة دون ذكر، بل قام بالليل حتى تفطّرت قدماه، وقاد الجيوش ودوّن العهود، وربّى الأمة في الوقت ذاته.

نرى فيه الإيمان بالغيب، ومع ذلك يُنظّم الجيوش، ويحفر الخندق، ويُرتّب الصفوف... فيجمع بين **الإيمان بالغيب والوعي بالواقع. قال الله تعالى :﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]
فالسيرة هي هذا البيان، وهي هذا التوضيح العملي، الذي لم يُترك لأفهام المتأولين ولا لاجتهادات المتحمّسين دون علم.

وما من فتنة في الدين إلا كان من أسبابها الابتعاد عن هديه صلى الله عليه وسلم:

خرج الخوارج حين عزلوا النصوص عن سياق السيرة، فحكموا بالكفر على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ووقع أهل الأهواء في التأويلات الفاسدة، لأنهم لم يرَوا كيف طبّق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن واقعًا حيًّا.

فمن أراد الفهم الصحيح للدين، فعليه أن يضع السيرة بين عينيه، **يقرأها لا ليستزيد معرفة، بل ليضبط بها فهمه، ويهذّب بها سلوكه، ويستبصر بها في مواضع الخلاف، ويتبيّن بها حدود العدل، ودرجات الإنكار، وموازين الرحمة.**

فالقرآن كلام الله،
والسيرة تفسير النبي صلى الله عليه وسلم له بحياته كلها...
وما أحوج الأمة إلى من يقرأ النص بلسان السيرة، ويرى الآية من خلال عين المصطفى صلى الله عليه وسلم.

الفقرة السابعة: السيرة مفتاح الإصلاح الفردي والمجتمعي

إذا أردت أن تصلح نفسًا ضلّت، أو قلبًا قسا، أو أمةً تفرّقت وتنازعت، فابدأ من السيرة... فإنها المفتاح لكل مغلق، والنور في كل ظلمة، والبداية لكل طريق.

فالسيرة لا تعلّمك فقط كيف تركع وتسجد، بل تعلّمك كيف تنهض بعد كبوة، وكيف تصبر في الفتنة، وكيف تتعامل مع الخصم، وكيف تمسك بيد الجاهل برفق، وتضمّ قلب الضعيف بحنان، وتواجه الباطل بثبات.

من أراد إصلاح نفسه، فعليه بالسيرة.
ففيها تزكو النفوس، وتتهذّب الأخلاق، وتعرف القلوب كيف تحب الله كما أحبه نبيه، وكيف تفرّ منه إليه، وكيف تسير على طريقه دون اعوجاج ولا التواء.

ومن أراد إصلاح بيته وأسرته، فعليه بالسيرة.
ففيها نرى الزوج الرحيم، والمربّي الحكيم، والقائد العادل، والرفيق الذي يُصغي لهموم زوجاته، ويغرس في قلوب بناته الحب والثقة، ويربّي رجالاً ونساءً يغيّرون وجه الزمان.

ومن أراد إصلاح الأمة، فعليه بالسيرة.
ففيها نزل القرآن، ومنها بُنيت الدولة، وعلى هديها انتقل الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

قال الإمام ابن حزم رحمه الله":ولا خلاف في أنه يجب على كل من تعاطى علم الشريعة أن يعلم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ بها يُعلم كثير من الأحكام"
]الإحكام، ٨٣/٦.[

ففي السيرة تنكشف مراتب الأحكام، وتُعرف مقاصد التشريع، وتُفهم حدود الأمر والنهي، ويتجلّى التدرج في الدعوة، والحكمة في التعليم، والسياسة في الإدارة، والعدل في القضاء، والرحمة في الإمارة.

قال الله تعالى :﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧.[
وتلك الرحمة لم تكن مجرد مشاعر؛ بل كانت عملاً، وتخطيطًا، وتربيةً، وجهادًا، ودولةً، وعدلاً، ونظامًا يصلح الدنيا ويهدي الآخرة.

لقد رأينا في السيرة مجتمعًا جاهليًّا يموج في الظلم والهوى، كيف تحوّل على يد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى خير أمة أُخرجت للناس... لا بالسيف وحده، ولا بالكلمات وحدها، بل بالسيرة... حياةً تُعاش، ومواقف تُترجم، وأخلاقًا تُورّث.

فيا من تبحث عن الإصلاح...
اقرأ السيرة لا لتكتب بحثًا، ولكن لتُبعث قلبًا...
ولا لتخطب في الناس، ولكن لتصلح ذاتك أولًا...

فمن هنا يبدأ الإصلاح، ومن هناك تُستعاد الأمة.

الباب الثاني: أهداف دراسة السيرة النبوية

مقدمة

السيرة النبوية ليست حكايات تُروى، ولا أحداثًا تُسترجع للتسلية، بل هي مدرسةٌ تربوية، ودستورٌ عمليٌّ للإيمان، ومشكاةٌ يهتدي بها السالكون إلى ربهم، ومرايا صادقة يرى فيها المسلم ملامح الدين متجسدة في بشرٍ اصطفاه الله، وكمّله خلقًا وخُلقًا، وهداه صراطًا مستقيمًا.

ومن أجل ذلك، لم يكن الاهتمام بالسيرة ضربًا من الترف، ولا لونًا من الفضول، وإنما هو ضرورة لفهم حقيقة الإسلام، وكيف يُعاش واقعًا، ويُحمل رسالة، ويُبذل في سبيله الغالي والنفيس، كما فعل رسول الله **صلى الله عليه وسلم**، وصحبه الكرام من بعده.

فمن الناس من يقرأ السيرة ليعرف، ومنهم من يقرؤها ليُحب، ومنهم من يقرؤها ليقتدي...
لكن السعيد من جعلها منهجًا لحياته، ووقودًا لمسيرته، وسراجًا لطريقه.

في هذا الباب نُسلّط الضوء على **أهداف دراسة السيرة النبوية**، لندرك لماذا ندرسها؟ ولماذا نُعلّمها للناس؟ وما الذي يجعلها حاضرةً في كل زمان ومكان؟
ولِمَ كانت الحاجة إليها اليوم أشد من أي وقت مضى؟!

إننا لا ندرس السيرة فقط لنعرف محمدًا **صلى الله عليه وسلم**، بل لنعرف من نحن، ولماذا نحن، وإلى أين نسير. نقرؤها لنُدرك عظمة الرسالة، وجلال المهمة، وثقل الأمانة... ونستلهم منها الإيمان، والصبر، والحكمة، والثبات.

فلتكن قراءتنا لهذا الباب بعين القلب، ونية العمل، وطمع الثمرة، عسى أن نخرج من السيرة لا بمجرد المعرفة، بل بتجديد العهد مع الحبيب **صلى الله عليه وسلم**...
أن نكون له أتباعًا صادقين، وسالكين على أثره، مبلّغين عنه، داعين إلى سنته، عاملين بما دعا إليه.

الفقرة الأولى: الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم هو الغاية الكبرى

ليست السيرة النبوية صفحات تُقرأ، ولا تاريخًا يُروى، بل هي مرآة الحق ومشكاة النور، وميزان الاتباع، ومفتاح النجاة.

إنّ الغاية العظمى من دراستها ليست أن نملأ بها أوراقنا ولا أن نزين بها أحاديثنا، بل أن نملأ بها قلوبنا، ونُقيم بها حياتنا، ونقتفي بها أثر النبي صلى الله عليه وسلم في إيمانه وعبادته، في سَمتِه وهديه، في بيته وسوقه، في جهاده وسلمه، في حكمه ورحمته، في صمته وكلامه، في نومه ويقظته... حتى كأننا نراه رأي العين، ونسير خلفه خطوة بخطوة.

قال تعالى:﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾]الأحزاب: ٢١[

فهو صلى الله عليه وسلم النموذج الأكمل، والقدوة الأعظم، والسراج الذي يُهتدى بنوره في ظلمات الحياة، والرحمة التي وسعت القلوب والعالمين.

قال الإمام ابن حزم الأندلسي رحمه الله":**فرضٌ على كل مسلم أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة سيرته وأخباره وأيامه**] "النافع من الأثر.[

وكيف يقتدي امرؤٌ بنبي لا يعرفه؟ وكيف يُحسن طاعته من جهل أحواله وأفعاله؟
السيرة ليست علمًا يُضاف إلى مكتبة العقول، بل حياةٌ تُسكب في القلب، حتى تُولد في النفس خشيةً، وفي الجوارح اتباعًا، وفي الحياة صلاحًا.

قال ابن القيم رحمه الله":**وكانت سيرته صلى الله عليه وسلم ترجمانًا عمليًّا للوحي، فما أمر الله به فعله، وما نهى عنه اجتنبه، وكان خلقه القرآن**] "زاد المعاد ٨٤/١.[

وقد سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت كلمة هي مفتاح هذا الباب كلّه:
"**كان خلقه القرآن**] "رواه مسلم.[

فمن أراد أن يرى التفسير العملي لكل آية، والنموذج الحي لكل قيمة، فليقرأ السيرة، لا بعيونه فقط، بل بقلبه، وبنفسٍ ترجو الله واليوم الآخر.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن النجاة لا تكون إلا بالتمسّك بسنّته، فقال" :**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**] "رواه أبو داود والترمذي.[

فالسيرة النبوية ليست نافلة، بل ضرورة، ولا ترفًا معرفيًا، بل سبيل النجاة.
هي خارطة الطريق لمن أراد أن يعيش كما أراد الله، ومرآة الصدق لمن زعم المحبة.
قال تعالى:﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾]آل عمران: ٣١.[

فلنُقبل على سيرته صلى الله عليه وسلم لا لنرويها، بل لنحييها، لا لنُعجب بها، بل لنقتدي بها، لا لنعرف كيف كان يعيش، بل لنعيش كما كان.

الفقرة الثانية: السيرة النبوية.. غيث الإيمان ومصدر اليقين

السيرة ليست كتابًا يُقرأ لمجرد الثقافة، ولا أحداثًا تُسرد لمحض المعرفة، بل هي النور الذي يبدّد ظلمة الجهل، والغيث الذي يسقي أرض القلوب، فيورق فيها شجر الإيمان، وتورق معها الحياة.

فليست هناك وسيلة أعظم في تثبيت العقيدة، وبناء الإيمان، وإحياء القلب، من التأمل في حياة خير الخلق صلى الله عليه وسلم.
من عرفه حق المعرفة أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه اهتدى بهديه، وسار على صراطه المستقيم، وذاق طعم الإيمان الحق.قال تعالى :﴿وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾]هود: ١٢٠[
فإذا كان ذكرُ أنباء الأنبياء يُثبّت فؤاد خاتمهم صلى الله عليه وسلم، فكيف بذكر أنبائه هو، ومواقفه هو، ومشاهدة عظيم صبره وجهاده، وشمائل رحمته وعدله؟

كل مشهد من سيرته صلى الله عليه وسلم نفحةٌ من نور، وكل موقف منها شُعاع يهدي القلوب:
في بدر تُبصر اليقين يعلو فوق السيوف، والتوكل يُسبق العدد والعدة،
وفي أحد ترى دموع الخذلان ممزوجة بالصبر والثبات،
وفي الهجرة يُعلّمك صلى الله عليه وسلم كيف يتلاقى حسن التخطيط مع كمال التوكل، وكيف يُدار الخطر بالعقل والإيمان،
وفي الحديبية تتجلى مدرسة فقه الواقع، والموازنة بين المبادئ والمصالح، دون تنازل عن الدين ولا تفريط في الرسالة،
وفي حياته اليومية مع الناس، ترى الدين وقد نزل من السطور إلى السلوك، ومن الأوراق إلى الأرواح، فتراه يمشي في الأسواق، ويواسي المهموم، ويقضي حوائج الأرامل، ويمسح على رؤوس اليتامى، حتى لا تبقى شريعة في ذهنك بلا تطبيق.

قال ابن القيم رحمه الله":فإن القلوب لا تحيا إلا بذكره، ولا تطمئن إلا بمعرفته، ولا يزكو الإيمان إلا بحبّه، ولا يثمر العمل إلا بمتابعته، فالسير في ركابه حياة، ودواؤه شفاء، والاقتداء به سعادة] "بتصرف من زاد المعاد.[

بل إن معرفة سيرته صلى الله عليه وسلم تُكسب القلب الطمأنينة، والعقل الفهم الصحيح، وتُعلّم الإنسان كيف يعيش الإيمان في قلبه، لا مجرد كلام على لسانه، أو شعارات في محيطه.

إنها سيرة نبيٍّ لم يكن في حياته لحظة بلا معنى، ولا موقف بلا هداية، ولا كلمة بلا مقصد.
فليست السيرة شيئًا يُروى، بل حياة تُحتذى، ودرب يُهتدى، ونورٌ يُقتدى به.

الفقرة الثالثة: السيرة النبوية.. مصنع النفوس العظيمة ومهد التوازن الإيماني

ما السيرة النبوية إلا مرآة صافية يرى فيها المؤمن ملامح شخصيته، ويكتشف فيها موازين التوازن التي تجمع بين الروح والجسد، وبين الدنيا والآخرة، وبين القلب والعقل، فلا إفراط يودي، ولا تفريط يُقصي، بل اعتدال يزكي ويسمو.

في رحاب سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يجد المسلم ما يبني به كيانه، ويُهذب به أخلاقه، ويُقوم به سلوكه، ويتعلّم كيف يكون ربانيًّا في نظرته، واقعيًّا في تعامله، ثابتًا في مبادئه، متزنًا في مشاعره، جادًّا في عمله، رقيقًا في قلبه.

فيها العبادة التي تخشع فيها القلوب، بلا تكلف ولا غلو،
كما قال صلى الله عليه وسلم»:**إن الدين يُسر، ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا**] «رواه البخاري.[

وفيها العزة التي لا تعرف الذل، ولكن بلا كِبر ولا استعلاء، بل تواضع عزيز، وهيبة رفيقة،
قال تعالى:﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾]المائدة: ٥٤.[

وفيها اللين الذي يفتح القلوب، لا الضعف الذي يُذهب الهيبة،
قال تعالى:﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾]آل عمران: ١٥٩.[

وفيها الجِدّ الذي يربّي النفوس، لا القسوة التي تنفّر،
وفيها الرحمة التي تُمسك القلوب، لكن مشفوعة بالحزم الذي يحفظ النظام ويقيم الحق،
وفيها التخطيط الدقيق المترسِّم لأسباب النجاح، جنبًا إلى جنب مع **التوكل** العميق على رب الأرباب.

وفيها الدعوة التي تلامس العقول برفق، وتغزو القلوب بحكمة، فلا فظاظة في القول، ولا تهور في المنهج.

هذه السيرة لم تكن نصوصًا تُقرأ فقط، بل كانت مدرسة تصوغ العظماء، فخرج منها جيل لا نظير له في صفحات التاريخ:

فكان **أبو بكر** في رقّته كنسمة الفجر، وفي ثباته كجبل لا يهتز،

و**عمر** في شدته كالسيف على الباطل، وفي عدله ميزانٌ لا يختل،

و**عثمان** في حيائه كالغصن إذا لامس النسيم، وفي جوده بحر لا يغيض،

و**علي** في علمه كالنور إذا أشرق، وفي زهده كعابر سبيل في دار غرور،

و**مصعب بن عمير**، ذلك الفتى المخملي، لما دخلت السيرة قلبه صار داعيةً لا تَكلّ قدماه في طرق المدينة، ولا يَكلّ لسانه عن تبليغ النور،

و**خالد بن الوليد**، حين شرب من معين السيرة، صار سيفًا لا يُغمد، ودهاءً لا يُخدع، وبأسًا لا يُقهر.

وهكذا كل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كان مرآةً لصفة من صفات النبوة، وامتدادًا لنور الرسالة، وسطرًا حيًّا في كتاب السيرة.

إن السيرة لا تصنع فقط فردًا متدينًا، بل تصنع إنسانًا متزنًا، يعيش بدينه، ويعمر دنياه، ويتعامل بحكمة، ويتفاعل بإيجابية، ويُشعّ من حوله خيرًا ورحمةً ونورًا.

قال الحسن البصري رحمه الله:**كانوا – يعني الصحابة – إذا جلسوا مع النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا، وقد ازدادوا إيمانًا ويقينًا، وصاروا أقدر على أن يسوسوا الدنيا بالدين."**

فمن أراد أن يرى تجسيد الإسلام حيًّا، فلا يطلبه في الكتب الجامدة، بل يتتبّع خطى محمد صلى الله عليه وسلم، ويستلهم من سيرته ملامح الرجولة، وجمال الشخصية، وكمال التوازن.

الفقرة الرابعة: السيرة النبوية... مِشكاة تزكية النفوس

ليست السيرة النبوية مجرد وقائع تُروى، أو أحداث تُدرّس، أو أخبار تُسرد على الأسماع؛ بل هي روح تهب الحياة للقلوب، ونور يبدد ظلمات النفس، وبحر زلال تغتسل فيه الأرواح من أدران الهوى، وأمراض الشهوات، وأوحال الغفلة.

إنها ليست علمًا جافًا تحفظه الأذهان، بل شعاعًا يُطهر الأرواح، ويزكي السرائر، ويحيي موات القلوب.
من تأمل في سيرته صلى الله عليه وسلم، لم يخرج منها كما دخل، بل يرجع بنفسٍ أخرى، وروحٍ جديدة، وعينٍ تبكي من خشية الله.

تأمل في رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسمع القرآن، فإذا هو يبكي حتى تبلّ دموعه لحيته، ويخشع قلبه حتى يضطرب صدره، كما في قوله تعالى:﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾]المائدة: ٨٣.[

تأمل في حيائه، وقد كان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها،
وفي عفوه عمّن ظلمه، يوم عاد إلى مكة ظافرًا، فقال لأعدائه الذين نكّلوا به وطردوه» :**اذهبوا فأنتم الطلقاء.**«

تأمل في قيامه لله ليلًا، يناجي مولاه حتى تتورم قدماه، ويُسأل» *أتفعل هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟* «
فيجيب، والدمع في صوته»:**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**] «رواه البخاري.[

تأمل في خشيته لله، وقد قال»:**إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له**] «رواه البخاري.[

لقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم تزكيةً تمشي على الأرض، ودروسًا عملية في كيف يُطهّر الإنسان قلبه، ويزكّي نفسه، قبل أن يحمل علمًا أو يدعو إلى الله.

ولذلك، لما بعثه الله إلى هذه الأمة، لم تكن مهمته الأولى تعليماً فحسب، بل **تزكية** قبل التعليم، كما قال تعالى:
﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة**﴾]الجمعة: ٢.[

فقدّم الله التزكية على التعليم، لأن القلوب إن لم تُطهَّر، ضلّ علمها عن الطريق، وانقلب نفعها ضررًا، وكانت كمن يحمل النور بيد، ويغرق في الظلمة بقلبه.
قال ابن القيم رحمه الله":**التزكية قبل التعليم، لأن القلب إذا طُهر، قبِل العلم، وانتفع به، وأثمر، أما إذا كان مريضًا ملوثًا، فإن العلم لا يزيده إلا عنادًا.**"

السيرة النبوية إذًا، ليست قصصًا تُقال، وإنما هي مجالس صفاء، ومواقف تطهير، وأحاديث تزكية، من عاش معها؛ رقّت روحه، وسمت همته، وتطهرت سريرته، حتى كأنما جالس النبي صلى الله عليه وسلم، وعاش في كنفه، وتنفس من عبير خُلقه، وشرب من كوثر قلبه.

الفقرة الخامسة: السيرة... مفتاح لفهم القرآن والسنة

ما نزل القرآن في فراغ، ولا تشكّلت السنة في معزل عن الواقع؛ بل نزل الوحي وسط أحداث، وتحركت الآيات بين وقائع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الترجمة الحيّة، والبيان العملي، والتطبيق الكامل لما نزل من كلام الله.

ومن هنا، كانت السيرة النبوية ضرورة لا غنى عنها، لفهم الوحيين، وتذوق معانيهما، وربط نصوصهما بالحياة.

فالقرآن لا يُفهم فهمًا سليمًا إلا من خلال السيرة، لأنها السياق الذي نزل فيه، والميدان الذي جرت فيه أحداثه، ومفتاح ما استُغلق من آياته.

فهل يمكن أن تفقه معنى قوله تعالى:﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾]الفتح: ١[
وأنت تظن أن الفتح هنا هو نصرٌ عسكري، دون أن تعلم أن هذه الآية نزلت عقب *صلح الحديبية*، ذلك الصلح الذي بدا في ظاهره انكسارًا للمسلمين، لكنه في جوهره كان أعظم الفتوح، كما بيّنته السيرة بأحداثها وتحولاتها؟!

وهل يمكن أن تدرك عمق قوله تعالى :﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾]الأنفال: ١٧[
دون أن تقف على مشهد النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وهو يأخذ قبضة من تراب ويرمي بها في وجوه العدو، فينهزم الجمع بإذن الله، وتُسطر الآية تفسيرًا سماويًّا لهذا الفعل النبوي؟!

وكيف تفهم السنة؟ كيف تتذوق الحديث؟ كيف تطبق الهدي النبوي في الصلاة والبيع والزواج والقيادة والتعامل مع الأعداء، دون أن ترى هذه السنن حيّة متحركة في سيرته، تحيا مع الناس، وتُعالِج مشكلاتهم، وتُربي أرواحهم؟!

إن الحديث عن السنة دون سيرة، كمن يصف الدواء دون أن يرى المرض، أو يرسم خريطة بلا أرض.
السيرة هي "الخلفية التفسيرية" لنصوص الشرع، وهي التي تُزيل الإشكال، وتوضح المراد، وتربط النظرية بالتطبيق، وتحوّل الأحكام من مفاهيم جامدة إلى حياة نابضة.

ولذلك، قال العلماء :لا غنى لطالب العلم عن السيرة، لأنها عُمدة في فهم القرآن، وأساس في تدبّر السنة، وأصل في تنزيل الأحكام على الواقع.

من أراد فهم الوحي، فليقرأ سيرة من نزل عليه الوحي، وليتأمل حياته، فهي الترجمان الأمين للقرآن، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه :من كان مستنًّا فليستنّ بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة... أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلّفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم."

.

الفقرة السادسة: السيرة النبوية... طريق لصناعة الوعي الحضاري

في زمن الاضطراب الحضاري، ووسط طوفان التبعية والانبهار بنماذج الشرق والغرب، يقف المسلم حائرًا: من أين يبدأ بناء ذاته وأمته؟ وأي طريق يسلك نحو النهضة؟
وهنا تشرق السيرة النبوية بنورها، لتقول :*عندكم في سيرة نبيكم ما يغنيكم عن كل فلسفات البشر وتجارب الأمم*.
فهي ليست مجرد حكاية عن رجل صالح في زمن غابر، بل هي مشروع حضاري متكامل، غيّر مجرى التاريخ، وبنى أعظم أمة عرفها الإنسان.

في السيرة، نرى كيف يُبنى الإنسان من الداخل: عقيدةً تُحرره من العبودية لغير الله، وعبادةً تزكّي روحه، وأخلاقًا تضبط سلوكه، وتربيةً تصوغ قلبه وعقله معًا.
وفي السيرة، نرى بناء المجتمع على أسس من: العدالة التي لا تحابي، والأخوّة التي تذيب الفوارق، والتكافل الذي لا يدع محتاجًا يئن.
وفي السيرة، نرى دولة تُقام على الوحي، لا على الأطماع، تُحسن إدارة السلم والحرب، وتؤسس علاقات دولية قائمة على العدل والكرامة، وتُربي القادة كما تُربي الأفراد، وتُشيد المؤسسات كما تُقيم القلوب.

لقد استطاعت السيرة أن تحوّل جماعة من المستضعفين في مكة، إلى سادة يقودون العالم بنور الوحي وعدل الإسلام.

وهكذا يتضح أن السيرة ليست تراثًا يُروى، بل منهاجًا يُحتذى، وهي السبيل إلى نهضة أمتنا، إن أردنا حقًا أن ننهض.

قال تعالى:﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا**﴾]الأحزاب: ٢١[.

الباب الثالث: مصادر السيرة النبوية ومناهج الاستمداد منها

مقدمة

إنَّ من أراد أن ينهل من معين السيرة النبوية فلا بد أن يعرف مورد الماء أولًا، وأن يتبيَّن مواضع العذوبة من موارد الكدر، ويفرق بين اللؤلؤ والصدف، وبين الصحيح والدخيل، وبين ما يُستنار به وما يُحذر منه.

فالسيرة النبوية شرفها من شرف صاحبها، محمد بن عبد الله **صلى الله عليه وسلم**، فلا يصح أن يُؤخذ الحديث عن حياته وأيامه إلا من أبوابها الصحيحة، ومصادرها المعتمدة، ومنهج علميٍّ راسخٍ يقوم على التوثيق والتحقيق.

ولأنّ السيرة باب من أبواب العلم، فقد خدمها العلماء كما خدموا السنة، وميّزوا صحيحها من ضعيفها، ونقّحوا أخبارها، ووضعوا لها قواعد تُعرف بها الحقائق من الأوهام.

في هذا الباب، نُسلِّط الضوء على أهم **مصادر السيرة النبوية**، تلك التي حفظت لنا دقائق الأحداث، وجمعت الروايات، ونقلت الأقوال والآثار، من كتب الحديث، والمغازي، والتفسير، والشمائل، وغيرها.

ثم نُبيّن معالم **المنهج الأمثل في الاستمداد من هذه المصادر**، فما كل من روى أصاب، ولا كل ما حُكِيَ يُقبل، ولا كل ما اشتهر يُسلَّم... وإنما العبرة بقواعد التحقيق، وأصول النقد، وميزان أهل العلم.

إنه باب مهم، لا يستغني عنه طالبُ علمٍ ولا داعيةٌ ولا كاتبٌ في السيرة، فمن عرف مصادرها، وأتقن مناهج التمحيص، نجا من الزلل، وأدى الأمانة، وكتب عن السيرة بوعيٍ وصدقٍ وإنصاف.

الفقرة الأولى: القرآن الكريم... هو المصدر الأول للسيرة

ليس في الدنيا كتابٌ وصف حياة نبيٍّ كما وصفها القرآن الكريم.
فهو لا يروي الأحداث كما تسردها كتب التاريخ، بل يصوّر المواقف، ويكشف المقاصد، ويغرس الدروس في القلوب.
من أول نداء في مكة:﴿**يا أيها المدثر * قم فأنذر**﴾]المدثر: ١-٢ [إلى آخر ما نزل في المدينة:﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾]النصر: ١ [يسرد القرآن مسيرة النبوة من بعثتها إلى تمامها، لا بصيغة سَردٍ بارد، بل في آيات تتلى، توقظ الأرواح، وتصوغ العقول، وتُربّي الأمم.

إنه كتاب سيرة وهداية، كتاب بناءٍ وتزكية، فيه قصة الدعوة، والهجرة، والجهاد، وبناء الأمة، وفيه مشاهد المواجهة مع الكفار، والتربية للأصحاب، والبيعة، والدستور، والصلح، والفتح، والوداع.

وفي ثنايا كل ذلك، ترى النبي صلى الله عليه وسلم حيًّا بين الآيات:
خائفًا يتلوّى، ورحيمًا يدعو، وثابتًا يُكذّب، ومتوكلًا يهاجر، وقائدًا يجاهد، وزاهدًا يعيش على التمر والماء، وصابرًا على فقد الأحبة، حتى يتم النور، ويبلّغ الأمانة، ويقف على ثغر الرسالة، مودِّعًا لا متراجعًا.

فالقرآن ليس كتاب أحكام فحسب، بل هو كتاب سيرة نبوية خالدة، سيرةٍ رواها الله عز وجل، ليثبّت بها القلوب، ويهدي بها الأمة، ويُعلي بها القدوة، ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾.

الفقرة الثانية: السُّنَّة النبوية... الوعاء الأكبر لحياة النبي صلى الله عليه وسلم

ليست السُّنَّة النبوية مجموعة أحكام فقهية جافّة، تحفظ في بطون الكتب، وتُطلب لمعرفة الحلال والحرام فحسب، بل هي سجلّ حيّ لحياة النبي صلى الله عليه وسلم بكل دقائقها وجوانبها، ناطقٌ بمشاهد سيرته، موثّق لأيامه ولحظاته، كما لو كنت تراه رأي العين.

ففي السُّنَّة ترى النبي صلى الله عليه وسلم في بيته زوجًا حنونًا، يرقّ لحال أزواجه، ويخيط ثوبه بيده، ويمزح ولا يقول إلا حقًّا.
وتراه في مسجده مربّيًا ومعلّمًا، يعظ ويُبَصّر، ويستقبل الأعرابي فيبسط له حلمه، ويسمع الطفل فيخفّ له قلبه.
وتراه في ميدان الجهاد قائدًا حازمًا، شجاعًا لا يفرّ، رفيقًا بجنده، يربط الحجر على بطنه، ويأبى أن يميز نفسه عنهم بطعام أو راحة.
وتراه في السفر، ومع الوفود، وبين أعدائه، في كل حالاته إنسانًا نبيًّا، نورًا يمشي على الأرض.

كل حديث صحيح عنه صلى الله عليه وسلم هو مشهدٌ نابض من مشاهد السيرة، يزيد الصورة وضوحًا وعمقًا، ويربط بين التشريع والحياة، بين العبادة والموقف، بين النصّ والواقع.

ففي الصحاح والسنن والمسانيد، مئات الروايات التي تتحدث عن أقواله وأفعاله، عن صبره في الشدائد، وعدله في الخصومات، ورحمته في التعامل، وتواضعه مع الخدم، وثباته في الأزمات.

ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله":كل ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو مما فَهِمه من القرآن "]الرسالة:
فالسُّنَّة لا تنفصل عن الوحي، بل هي بيانه وتطبيقه، وهي روح السيرة النبوية التي جعلت من النبي صلى الله عليه وسلم قرآنًا يمشي على الأرض، كما قالت عائشة رضي الله عنها:كان خلقه القرآن] "رواه مسلم.[

فمن أراد أن يعرف النبي صلى الله عليه وسلم حقًّا، فليُقبل على سنّته، ولينهل من حديثه، ففيها سيرته بأدقّ تفاصيلها، وملامح شخصيته الطاهرة، وأعظم ما تركه لنا من ميراث الهداية.

.

الفقرة الثالثة: كتب السيرة المدوّنة... مرآة الزمن الأول، وصدى الحفظ الصادق

ما أعظم تلك الأيادي المباركة التي دوّنت، والصدور الطاهرة التي حفظت، والأقلام النيّرة التي سطّرت!
فبعد أن أُضيئت حياة النبي صلى الله عليه وسلم بنور الوحي في كتاب الله، وتجلّت أفعاله وأقواله في السنة المطهرة، تولّى العلماء الربّانيون جمع ما بقي في الصدور، وما تناثر في الروايات، ليكتبوا لنا كتب السيرة، التي هي في حقيقتها مرآة لما حفظه الأوائل، وصدى لما صدّقه الحفاظ، ونقله المحدثون عن الثقات الأثبات.

كانت البداية مع الإمام محمد بن إسحاق، الذي شمّر عن ساعد الجدّ، وجمع الروايات، وسافر في البلاد، واستقى من أفواه الشيوخ، فكتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في أول ما كُتب من هذا الباب الجليل.
ثم جاء عبد الملك بن هشام، فهذّب تلك الروايات، ونقّحها، وأسقط ما لا يليق، فكانت سيرة ابن هشام أشهر ما وصلنا من كتب السيرة، وأكثرها تداولًا بين أيدي الناس إلى يومنا هذا، لما فيها من سعة المادة، وعمق التحليل، وجمال السبك.

ثم جاء الإمام البيهقي، العَلَم الحافظ، فصنّف كتابه الجليل "دلائل النبوة"، فجمع بين السيرة والمعجزات، ورصد فيه آيات التأييد الإلهي، وما أكرم الله به نبيَّه صلى الله عليه وسلم من كراماتٍ وبراهين نبوّة.

ولا ننسى ابن سعد في كتابه البديع "الطبقات الكبرى"، حيث رتّب حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على مراتبهم، ودوّن سيرهم في تسلسل زمني، فكان كتابه كأنه معرضٌ حيّ لحياة الصحابة والتابعين.

وأما القاضي عياض، فعظّم النبي صلى الله عليه وسلم بقلبه ولسانه وقلمه، وكتب كتابًا لا يكاد يُستغنى عنه في باب السيرة" :الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، حيث جمع فيه بين سيرته، وحقوقه، وأوصافه، ووجوب محبته وتعظيمه، فكأنك تقرأ السيرة بقلبٍ محبٍّ متبتّل، لا بعين ناقلٍ فقط.

تلك الكتب، وإن كانت لا ترقى إلى درجة القرآن الكريم في العصمة، ولا إلى منزلة السنة الصحيحة في التوثيق، إلا أنها من أعمدة التراث الإسلامي، ومفاتيح لفهم السيرة على مرّ العصور.
غير أن العقل الناقد، والقلب المتعلق بالسنة، لا بد له من التمحيص، والرجوع إلى أهل النقد الحديثي، ليميّز صحيح الرواية من سقيمها، وثابت الخبر من مختلقه، فلا يغترّ بكل ما يُروى، ولا يُعرض عن ما هو ثابت بحجة كثرة الطاعنين.

وقد قال عبد الله بن المبارك رحمه الله" :الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء] "مقدمة صحيح مسلم.[

فلنقرأ هذه الكتب، لا بأعين المبهورين، ولا بعيون المتربصين، بل بعيون أهل التمحيص، وقلوب أهل المحبة، وعقول أهل الإنصاف، نستخرج منها العِبر، ونغرف من بحرها المدد، ونصوغ منها وعيًا يُعيد لهذه الأمة مجدها.

الفقرة الرابعة: روافد السيرة... كتب الشمائل والدلائل والمغازي

ما أعظم السيرة النبوية حين تُقرأ بعين المتدبر، وما أبهى ملامحها حين تُستقى من ينابيعها المتعددة.
فليست كتب السيرة الكبرى وحدها كافية لرسم الصورة الكاملة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم، بل هناك كتبٌ أفردت لجوانب مخصوصة، فكانت بمثابة الروافد التي تصبُّ في نهر السيرة، وتمنح القارئ فهمًا أعمق، ونظرة أكمل.

فمنها كتب الشمائل، كـ*الشمائل المحمدية* للإمام الترمذي، حيث ترى النبي صلى الله عليه وسلم في بيته، وفي مشيته، وفي ضحكته ودمعته، تأكله وتنامته، ثوبه وعمامته، كأنك تراه رأي العين، يعيش في قلبك لا في سطور الكتاب.
إنها الكتب التي تُظهر جمال خَلقه وخُلقه، وتوقظ في القلوب شوق المحبة، وفي الأرواح حنين القدوة.

ومنها كتب الدلائل، كـ*دلائل النبوة* للإمام البيهقي، و*دلائل النبوة* لأبي نعيم، حيث تثبت النبوة لا بالشهادة التاريخية فحسب، بل بشواهد المعجزات، وبشارات الأنبياء، وعلامات التأييد الرباني، فتُقرأ السيرة كآية من آيات الله، لا ككحكاية من حكايات البشر.

ومنها كتب المغازي، كـ*مغازي ابن إسحاق*، *والواقدي*، *وابن سعد*، التي تغوص في تفاصيل الوقائع، وتصف أرض المعركة، وعدد المقاتلين، وخطط النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية، لتكشف كيف قاد رسول الله أمته في ميدان الصراع، كما قادها في ميدان الرحمة والدعوة.

فإذا اجتمعت هذه الكتب في قلب القارئ، وامتزجت بالسيرة العامة، تكوّنت في نفسه صورة نبوية متكاملة:
يرى فيها **الإنسان الكامل**، و**النبي المؤيد**، و**القائد المحنّك**، و**المربي الحكيم**، في **سِلْمه وحربه، وخلوته وجلوسه، ودعوته وسياسته**.

وهكذا تتجاوز السيرة أن تكون سردًا تاريخيًا، لتصبح نورًا يُقتدى به، ومنهاجًا يُتّبع، ووعيًا يُبنى على هدي النبوة المباركة.

الفقرة الخامسة: ضوابط التعامل مع السيرة النبوية

ليست السيرة النبوية مجرد قصة تُروى، أو تاريخ يُستعرض، بل هي جزء من الدين، ومصدر من مصادر الهداية، وميدان للتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن هنا وجب التعامل معها بمنهج علمي رصين، وضوابط دقيقة، حتى لا تختلط الحقائق بالأوهام، ولا تتحوّل القدوة إلى حكاية.

ومن أبرز هذه الضوابط:

◆الرجوع إلى المصادر الأصلية:
فالسيرة تُستقى أولًا من القرآن الكريم، ثم من الأحاديث الصحيحة الثابتة، ثم من كتب السيرة المعتمدة التي نقلها الثقات من أهل العلم.

◆التمييز بين الصحيح والضعيف:
فقد دخل في كتب السيرة ما لا يصح، من أخبار منقطعة، أو روايات موضوعة. فلا يُقبل منها إلا ما ثبت سنده، أو قوّاه أئمة التحقيق والنقد من أهل الحديث.

◆فهم المقاصد لا مجرد الوقائع:
فالسيرة ليست سردًا للأحداث بجمود، بل هي منهاج في التربية، ودليل في الدعوة، وسبيل في الإصلاح. فلا يصح الوقوف عند ظاهر الحدث دون إدراك غايته التربوية والدعوية.

◆توظيف السيرة في واقع الأمة:
إن السيرة ليست للتسلية أو العاطفة المجردة، بل هي زاد المصلحين، ومصدر المربين، ودليل القادة، ومَعين الدعوة في كل زمان ومكان.

◆الاعتدال بين الغلو والتهوين:
فلا يُغالى في شخص النبي صلى الله عليه وسلم بما لم يثبت، ولا يُهوَّن من عظمة سيرته ومكانته. فكلا طرفي الغلو والإجحاف خطرٌ على الفهم الصحيح والاتباع السليم.

وقد لخّص الإمام الذهبي رحمه الله ذلك بقوله:
"ما أحسنَ قولَ من قال: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أصدق ما يُروى، وأجمل ما يُقتدى به، وأعظم ما يُحيا به" *سير أعلام النبلاء*.

الباب الرابع: مراحل السيرة النبوية وأهم سماتها

مقدمة

السيرة النبوية ليست مجرد أحداث مرت وتوارت، بل هي **رحلة النور التي أضاءت الوجود**، وارتسمت فيها معالم النبوة في أبهى صورها، خطوةً بخطوة، منذ أن بزغ فجر الوحي إلى أن أُدركت أنفاس النبوة في آخر العمر، لتبقى أثرًا خالدًا وهدًى دائمًا.

وقد شاء الله بحكمته أن يمرَّ النبي **صلى الله عليه وسلم** خلال حياته بمراحل متمايزة، **كل مرحلة لها سماتها، وأحداثها، ورسائلها، وتربيتها، ودروسها**؛ لتكون نموذجًا لكل زمان ومكان، ولتُرشد الأمة إلى منهج النصر والتمكين، كما تُرشدها إلى سُبل الصبر والتزكية.

فالمرحلة المكية ليست كالمدنية، ومرحلة الدعوة السرية ليست كالجهرية، ومرحلة الاستضعاف غير مرحلة الدولة، وما بين الهجرة والفتوحات، كانت هناك **محطات ربانية تُربّي، وتُهذّب، وتُمهّد، وتبني**.

وفي هذا الباب، نسير مع النبي **صلى الله عليه وسلم مرحلةً مرحلة**، نُبرز أهم معالم كل فترة، ونكشف عن السمات العامة التي تميز بها كل طور، لنفهم السيرة لا كأحداث متفرقة، بل كـ **بناء متكامل، ووحي مُرَبٍّ، وتربية إلهية متدرجة**.

ومن تأمل تلك المراحل، وأحسن فهمها، أيقن أن السيرة ليست عبثًا من الأحداث، بل **خطة ربانية دقيقة**، تُنشئ أعظم أمة، على يد أعظم نبي، في أعقد ظروف.

تمتد السيرة النبوية على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهي ليست سردًا زمنيًّا فحسب، بل دروسٌ مترابطة، يُظهر كلُّ فصلٍ منها نوعًا من التربية، وشكلًا من أشكال التمكين، وصفحة من صفحات الدعوة والجهاد، والهجرة، وبناء الأمة.

وقد قسّم العلماء السيرة إلى مراحل كبرى، لكل مرحلة سماتها ومقاصدها، نعرضها في الفقرات التالية:

الفقرة الأولى: مرحلة ما قبل البعثة – إعداد رباني

لم تكن حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فراغًا من الرسالة، بل كانت تمهيدًا إلهيًّا، وإعدادًا ربانيًّا لاحتضان النور الإلهي العظيم.

نشأ يتيمًا، فغذّى اليُتمُ في قلبه رقّةً، وفي روحه تواضعًا، وفي نظرته للحياة عمقًا لا يدركه إلا من تجرّع مرارة الحاجة ولفحات الحرمان.

لم يعرف طريق الوثنية، ولم يسجد لصنم، بل حفظه الله من دنس الجاهلية، ليظل قلبه نقيًّا، وعقله سليمًا، وأخلاقه على فطرةٍ زكِيّة، فكان يُعرف في قومه بالصادق الأمين.

وكانت خلوته في غار حراء إشراقة روحٍ تتوق إلى الحق، وعزلةَ متفكّرٍ في الكون، وتحنثَ نفسٍ لم تشبعها الجاهلية، بل كانت تظمأ لربّ السماء. قال تعالى في رسم هذا المسار الرباني :﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨].

إنها مرحلة التربية الصامتة، حيث لا خطب تُلقى، ولا آيات تتنزل، ولكنها تربية تصنع النبي، وتهيئ القلب لحمل الوحي، والروح لتلقي الرسالة.

الفقرة الثانية: المرحلة المكية – غرس العقيدة والثبات على الحق

ما إن انشقّت السماء بنور الوحي، حتى تغير وجه الأرض، وانقلبت موازين الحياة، فقد نزل جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، يحمل أول آيات النور، فقال:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].
كلمة واحدة فجّرت ينابيع الهداية، وفتحت أبواب العلم، وأعلنت بدء أعظم ثورة عرفها التاريخ: ثورة على الجهل، والشرك، والظلم، والهوى.

ثلاث عشرة سنة قضاها النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، لم يُسمع فيها أمرٌ ولا تشريعٌ ولا أحكام للجهاد، إنما كانت كلها تدور حول لبّ الدين وجوهره: التوحيد، تجريد العبودية لله وحده، غرس الإيمان بالبعث، بالجنة والنار، وتثبيت القلوب على اليقين.قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

لقد كانت هذه المرحلة مدرسةً في الثبات، وميادينَ للتمحيص، ومعارجَ للتزكية. لُوحِق فيها المؤمنون، وجُلدت فيها الظهور، وأُحرقت فيها الأقدام على الرمضاء، وهُجّر فيها الصادقون من أوطانهم، لا لذنب اقترفوه، إلا أن قالوا: ربنا الله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى الأذى بالصبر الجميل، واليقين العميق، ولم يكن يدعو على قومه في بداية دعوته، بل يدعو لهم، ويشتاق لهدايتهم.

روى البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال :شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال»:كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق باثنين، وما يصده ذلك عن دينه... ولكنكم تستعجلون.«

في مكة، لم تُبْنَ دولة، ولكن بُنيت أمة، واشتدّت جذور العقيدة في القلوب، فكان الصبر زادَهم، والتوكل على الله دثارَهم، والإيمان هدفهم الذي لا يساومون عليه مهما اشتد العذاب.

لقد كانت مكة ميدان الغرس، وغار حراء بداية الإشراق، وكان الثبات على الحق هو أول الدروس، فصبرت القلوب حتى اشتد عودها، وصدّقت الوعد حتى نزل النصر من السماء.

الفقرة الثالثة: الهجرة – نقطة التحوُّل الكبرى في السيرة

لم تكن الهجرة حدثًا عابرًا في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل كانت لحظة انعطاف كبرى، انتقل فيها الإسلام من ضيق الاستضعاف إلى سَعة التمكين، ومن دعوةٍ تُهمَس في الظلال إلى دولةٍ تعلن الحق جهارًا في وضح النهار.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، لا فرارًا من بطش، ولا طلبًا لراحة، وإنما خروج المحبّ المكلوم، الحامل لأمانة النور في قلبه، يغادر الأرض التي نشأ بين جبالها، وترعرع بين أحيائها، وقضى فيها طفولة الرسالة وشباب النبوة، لكنه خرج وهو يُودّعها بكلمات تقطّر حبًا وحنينًا، فقال»:والله إنكِ لأحبُّ أرضِ الله إليَّ، ولولا أن قومكِ أخرجوني منكِ ما خرجت«رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

لقد سُطّرت الهجرة بحبر من نور ويقين، وكانت ملحمة فريدة يتجلى فيها اجتماع *التوكل على الله* مع *الأخذ بأعلى درجات الأسباب*.
اختار النبي صلى الله عليه وسلم الصاحب الأنيس: أبا بكر، ودرس الطريق، وخبّأ الأثر، واختبأ في الغار، وعيّن الدليل، وحدّد نقاط التزوّد والمؤونة، حتى قال الفاروق رضي الله عنه":أخذ بالأسباب كأخذ أحرص الناس، وتوكل على الله كأوثق الناس."

وفي ظلال الغار، حيث تحاصر القلوبَ الخشيةُ، كانت لحظة التوكل الأعظم، حين قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا.فأجابه الحبيب صلى الله عليه وسلم، بثقة من أُلهم السكينة: »يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما«رواه البخاري

قال تعالى:﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].
يا لها من آية، تتردد على ألسنة الخائفين في الليالي الحالكات، وتُسكِنُ القلوب في فوضى الحياة.

ثم كانت المدينة، لا نهاية الرحلة، بل بدايتها، وُلدت فيها دولة الإسلام، وارتفعت فيها راية الإيمان، واجتمعت تحت سقفها قلوبٌ من المهاجرين والأنصار، صنعت أعظم حضارة عرفها الإنسان.

قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

لقد كانت الهجرة ميثاقًا خالدًا: أن الإسلام لا يبنى بالتمني، بل بالعزائم، ولا يُرفع بالهتاف، بل بالتضحية والعمل والبذل، وأن طريق التمكين محفوف بالمشقة، لكنه مضمّخ بعطر الجنة.

الفقرة الرابعة: المرحلة المدنية – بناء الدولة وتكميل التشريع

في المدينة، تحوّلت السيرة من كلماتٍ تُتلى في الظلال، إلى دولةٍ تنبض بالحياة، ومن غرس العقيدة إلى تشييد البنيان، ومن التوحيد القلبي إلى التشريع العملي الذي يهدي الناس في تفاصيل حياتهم: في العبادة، والسلوك، والمعاملة، والحكم.

لقد بدأت مرحلة التمكين، التي قال عنها ربنا :﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

في المدينة، بُني المسجد أولًا، لا بوصفه مكانًا للعبادة فقط، بل مركزًا تربويًّا، ومؤسسةً جامعةً، تُدار فيه شؤون الأمة، وتُحل فيه القضايا، وتُقام فيه الصلوات، وتُنسج فيه الأخوة.
ومن داخله، آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، فصهرت الأخوةُ الإسلامية الفوارقَ القبلية، وصنعت وحدةً لا نظير لها في التاريخ.

ثم كُتبت الوثيقة، أول دستورٍ من نوعه، ينظّم العلاقة بين المسلمين وغيرهم، يؤصّل لمبدأ المواطنة، ويحفظ الحقوق والواجبات، ويقيم العدل بين أبناء الدولة الواحدة.

ونزلت التشريعات شيئًا فشيئًا، فأقيمت الحدود، ونُظّمت البيوع، وفُرضت العبادات، وشُرّعت الأحكام، حتى غدت المدينة مهوى القلوب، ومنارة الفقه، ومصدر الهداية.

وفي المدينة، أُذن بالجهاد، لا انتقامًا، بل دفعًا للعدوان، وكسرًا للقيود التي تُحاصر الدعوة وتخنق الكلمة.
قال تعالى :﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وخاض النبي صلى الله عليه وسلم الغزوات، فكانت بدرًا أول نصرٍ سماويّ، وكانت أُحدًا درس الثبات، وكانت الأحزاب يوم الفرقان، وكان الحديبية فتحًا تمهيديًّا، فتهدّمت قلاع الشرك، وسقطت هيبة قريش السياسية، وسار الناس أفواجًا نحو نور الإسلام.

وفي المدينة، نزل أكثر القرآن، وتربّت أجيال الصحابة في كنف النبوة، حتى بلغت الرسالة تمامها، وكمل الدين، ورضي الله عن هذه الأمة أن تسير على هذا المنهج.

قال الله تعالى :﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي المدينة، خُتمت الرسالة، ووقف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يخاطب الدنيا كلها:
»اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام دينًا» [المائدة: ٣].

فهنا، في هذه الأرض الطيبة، اكتملت المسيرة، وبلغت الشمس كبد السماء، وأضحى الإسلام دينًا وحياة، لا عقيدةً فحسب، بل حضارةً، وعدلًا، ونورًا للعالمين..

الفقرة الخامسة: ختام السيرة – الوفاة وبقاء المنهج

بلغت الرسالة نهايتها، ولكن لم تنتهِ سيرتها. أشرق نورها في كل قلب، وامتد أثرها في الزمان والمكان.

في حجة الوداع، وقف النبي صلى الله عليه وسلم على صعيد عرفات، ينظر إلى وجوه أصحابه وقد اكتمل الجمع وبلغ الإسلام مداه، ثم قال بصوتٍ يخلد في ذاكرة الدهر»:اللهم هل بلّغت؟«قالوا: نعم .قال: «اللهم فاشهد» [رواه مسلم.[

وفي ذلك اليوم، نزلت الآية الخالدة، كأنها توقيع السماء على اكتمال الرسالة:
﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾ [المائدة: ٣.[

لقد أتم الله النعمة، وأكمل هذا الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دينٌ يتعبد به الناس في صلاتهم، ويتحاكمون إليه في شؤونهم، ويُربّون عليه أبناءهم، ويُقاس عليه صلاح الأمم وقيام الحضارات.

ثم آن أوان الرحيل، فمرض الحبيب صلى الله عليه وسلم، واشتد وجعه، ودمعت أعين الصحابة، وزُلزلت المدينة من بعده، ومات أعظم بشرٍ وطأت قدمه الأرض، لكن لم يمت منهجه، بل بقي في القرآن يتلى، وفي السنن تُروى، وفي القلوب يسكن، وفي الواقع يُستضاء به.

لقد مات الجسد، لكن السيرة لا تموت، والحبيب غاب عن العيون، لكنه حي في القلوب.
بقي اسمه يقرن باسم الله في الأذان، وبقيت أمته تسير على خطاه، ما تمسكت بالوحيين، وأخلصت لله الدين.

سيرته ليست ذكرى في كتاب، بل هي ميراث النبوة، وهي المنهج الباقي ما بقي الزمان.
قال تعالى:﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾ [القلم: ٤ [وقال:﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١.[

فالسلام عليه في العالمين، يوم وُلد، ويوم بعث، ويوم عاد إلى الرفيق الأعلى، ويوم يُبعث حيًّا، صلّى الله عليه وسلّم عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

الباب الخامس: خصائص السيرة النبوية

مقدمة

السيرة النبوية ليست سيرة رجل عظيم فحسب، ولا قصة مصلح في زمانه، ولا تاريخ قائد نادرٍ غيّر مجرى الأحداث، بل هي سيرة **خير الخلق وأشرف المرسلين**، الذي اصطفاه الله لحمل آخر رسالة، وجعله قدوة العالمين، ومثال الكمال الإنساني في كل شؤون الحياة.

ومن هنا، جاءت السيرة النبوية متفرّدةً عن سائر السير، **بخصائص لا يشبهها فيها تاريخ ولا سيرة**؛ فهي **سيرةٌ موحى بها، محفوظةٌ بحفظ الله، مشمولةٌ بالعناية الربانية، متكاملةُ الجوانب، متوازنةٌ في العرض، صادقةٌ في النقل، متجددة الفائدة، خالدة الأثر**.

ففيها نجد **النبوة تمشي بين الناس، والكمال الإنساني في أسمى درجاته، والتشريع في صور عملية، والدعوة في أبهى مظاهرها، والسياسة في أعدل صورها، والحرب في أطهر معانيها، والرحمة في أوسع أبوابها**.

ولأنها السيرة الخاتمة، والرسالة الخاتمة، فقد شملتها خصائص تُؤهّلها لأن تكون **صالحةً لكل زمان ومكان**، قادرة على علاج أدواء البشرية، وهداية الناس إلى الحق، مهما تباينت عصورهم واختلفت ثقافاتهم.

وفي هذا الباب، نقف مع هذه **الخصائص العظيمة**، لا لنحصيها عدًّا فحسب، بل لنتأمل آثارها، ونُبصر دلالاتها، ونزداد يقينًا بأن هذه السيرة ليست ميراث أمةٍ مضت، بل هي **نبض أمة قائمة، وروح حياة متجددة، ومنهج نهضة لا يموت**.

الفقرة الأولى: السيرة النبوية محفوظة بحفظ الله

لم تكن السيرة النبوية مجرد سطور في كتب، ولا روايات تُحكى عن نبي مضى، بل كانت وما زالت نبض هذه الأمة، وضياء طريقها، ومصدر إلهامها الأول في كل شؤون الحياة.

وقد شاء الله عز وجل أن يحفظ هذا الدين، فقال:﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، ومن تمام حفظ الذكر: حفظ بيانه، وسيرة مبلّغه، وعمل النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو التفسير العملي للقرآن.

فسُخّرت لهذه السيرة رجالٌ أمناء، نقّاد ثقات، دقّقوا في الألفاظ، وتثبّتوا من الأسانيد، وميزوا الصحيح من السقيم، حتى أصبحت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أوثق سيرة نُقلت عن إنسان في تاريخ البشرية قاطبة.

قال الإمام الذهبي رحمه الله" *لو رُفعت السنة، ما عرفنا عدد الصلوات، ولا كيفية الزكاة، ولا مناسك الحج، ولا تفصيل الحلال والحرام*".

فكيف لنا أن نفهم القرآن دون السيرة؟ وكيف نُطبّق الإسلام دون أن نعرف حياة من بلّغه لنا؟ لقد كانت سيرته صلى الله عليه وسلم منهاجًا يُحتذى، ودستورًا عمليًا لحياة الفرد والمجتمع والدولة.

فيا من تبحث عن الحق، لا تتوقف عند الشبهات، بل اقرأ السيرة بعين القلب والعقل، لتعلم أن الله لم يُبقِ لنا نبيه حيًّا، لكن أبقى لنا حياته كلها محفوظة، شاهدة على صدقه، ومصدّقة لوحيه، ومبشّرة لأمته من بعده.

الفقرة الثانية: السيرة شاملة لكل جوانب الحياة

لم تكن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم صفحات من التاريخ تُروى، بل كانت حياةً نابضة تشمل كل جانب من جوانب الإنسان، وكل ميدان من ميادين العمران.

فهي عقيدة تُحيي القلوب، وعبادة تزكّي النفوس، وأخلاق تسمو بالضمائر، ومعاملة تبني المجتمعات، وجهاد يرسم ملامح العزّة، وسياسة تقوم على العدل والرحمة، وأسرة تُبنى على المودّة والسكينة، واقتصاد يُؤسَّس على القسط والحلال، وإعلام يصدح بالحق، وقضاء يُقيم القسط، ودولة تحمي وترشد وتنهض.

إنها السيرة التي لا تستثني جانبًا من جوانب الحياة، ولا تترك مسألة بلا توجيه.

قال تعالى:﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ففي سيرته صلى الله عليه وسلم هديٌ لكل سائل، وجوابٌ لكل واقع، ونورٌ يُضيء ظلمات الحيرة والتشويش.

فليست السيرة درسًا عابرًا، بل هي مدرسةٌ كبرى، من دخلها بفهمٍ ويقين، خرج منها بوعيٍ وبصيرة، وعزيمة لا تنكسر .

الفقرة الثالثة: السيرة محفوظة بالثقة، منقولة بالأمانة

ما كانت سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم مجرد حكاياتٍ تروى، أو أخبارٍ متفرقةٍ تنقلها الألسن كيفما شاءت، بل كانت ميراث النبوة، وعصارة الرسالة، ومصدر الهداية، حفظها الله كما حفظ كتابه، وصانها كما صان دينه.

هي سيرةٌ نُقلت بالإسناد المتصل، من أفواه الثقات، إلى سطور العلماء، تنقيحًا وتمحيصًا، وتمييزًا بين ما صح وثبت، وما زاغ وزاد. فكانت الرواية علمًا، والتحقيق فريضة، والنقل أمانةً تُؤدّى كما أُدِّيت الصلاة والزكاة.

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله" :**الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء".**
وهكذا أقام الله في هذه الأمة من يحفظ آثار نبيها صلى الله عليه وسلم، يذبّون عنها، وينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

فأيُّ تاريخ هذا الذي حفظه الله بأسانيد الرجال، وأقلام الجهابذة، وقلوبٍ تتقرب بحفظه إلى الكبير المتعال؟
إنه تاريخ النور، تاريخ الصدق، تاريخ الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الرابعة: السيرة واقعية لا خيال فيها

ليست السيرة النبوية أسطورةً نُسجت في ظلال الخيال، ولا خرافةً تجمّلت بزينة الوهم، بل هي حياةٌ حقيقية، عاشها بشرٌ يوحى إليه، يمشي في الأسواق، ويأكل الطعام، ويُصاب ويُفرح، ويجوع ويُؤذي، ويجاهد ويعفو، ويُحب ويُبغض، ثم يعلو فوق كل ذلك بالوحي والنبوة.

قال الله تعالى:﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾]الكهف: ١١٠ [وقال جل في علاه:﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾]التوبة: ١٢٨[

واقعية السيرة سرّ جاذبيتها، فهي لا تقدّم مثالًا خياليًا لا يُطال، ولا كائنًا فوق الطبيعة لا يُحتذى، بل تعرض نموذجًا بشريًا كاملًا، عاش بين الناس، فربّى، ووجّه، وقاد، وصبر، حتى استقامت البشرية على صراطٍ قويم.

ولهذا كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مرآةً صافية، تعكس حقيقة الإنسان حين يتصل بالسماء، وحقيقة الواقع حين يُزهر بنور الوحي، دون تزييف ولا تهويل، ودون خيالٍ يطغى على الحقيقة.

الفقرة الخامسة: السيرة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان

ليست السيرة النبوية صفحاتٍ تُتلى من كتب التاريخ، ولا ذكرى تروى في المجالس ثم تُنسى، بل هي منهج حياةٍ نابض، يصلح لكل عصر، ويهدي كل جيل، مهما تنوّعت الحضارات، واختلفت الأزمنة وتبدّلت الأحوال.

فهي لم تُبنَ على أعراف أرض، ولا خضعت لخصوصية بيئة، بل نزلت بوحي السماء، وامتدت رحمتها لتشمل الأرض كلها. قال الله تعالى :﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾]الأنبياء: ١٠٧[

وفي كل موقف من سيرته صلى الله عليه وسلم تجد توجيهًا يُصلح النفس، وحلًا يُقوّم المجتمع، وتشريعًا يُقيم العدل، وموقفًا يُرشد الحائرين. فحيثما وُجد الإنسان، وُجد في السيرة ما يهديه، ويقوّمه، ويقوده إلى سواء السبيل.

فهي السيرة التي لا تشيخ، ولا يعجزها زمان، لأنها خرجت من مشكاة النبوة، وبقيت ضياءً لا ينطفئ، ودستورًا لا يُنسخ، ونموذجًا لا يُبدَّل.

الفقرة السادسة: السيرة مترابطة متكاملة لا تنفصل أجزاؤها

ليست السيرة النبوية مجرد مشاهد منفصلة أو وقائع متفرقة تُروى بلا رابط، بل هي نسيج محكم، وحلقات مترابطة، ينسجم أولها مع آخرها، وتتكامل بداياتها مع نهاياتها، كأنما نُسجت بخيط من نور الوحي، لا خلل فيه ولا اضطراب.

في كل مرحلة تمهيد لما بعدها، وفي كل موقف بناء لما سيأتي، فالهجرة لم تكن فرارًا بل انتقالًا لمرحلة بناء الدولة، والفتوحات لم تكن توسعًا عسكريًا، بل دعوة تمتد إلى القلوب والأمم.

فلا يُفهم جهاد المدينة دون دعوة مكة، ولا تُدرك حكمة التشريعات إلا بعد التأمل في التربية الإيمانية التي سبقتها، ولا يُقدّر أثر الانتصارات إلا على ضوء صبر الاستضعاف.

من تأمل السيرة علم أنها منهج رباني يسير في خط مستقيم، لا عشوائية فيه ولا تضاد، وإنما كل حدث فيها يضيء الحدث الذي يليه، ويمنحه بُعدًا أعمق وفهمًا أنقى.

ولذا قال الله تعالى :﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾]الأحزاب: ٢١[

فمن أراد أن يقتدي، فليأخذ السيرة بمنهجها الكامل، لا يقطّعها على هواه، بل يتتبع خطاها كما مضت: دعوةً، وتربيةً، وتشريعًا، وجهادًا، ورحمةً، وعدلًا.

الفقرة السابعة: السيرة مصدر لفهم الإسلام وتذوق حقيقته

السيرة النبوية ليست شرحًا نظريًا ولا دروسًا جامدة، بل هي روح الإسلام النابضة، ونصوصه تمشي على الأرض، تتكلم بلسان، وتتحرك بخلق، وتُقنع بالفعل قبل القول.

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم:**كان خُلُقه القرآن]** "رواه مسلم[، فكان صلى الله عليه وسلم ترجمان الوحي، وتطبيقه العملي في كل تفاصيل الحياة.

السيرة تعلّم بالصورة والموقف، لا بالكلمات المجرّدة. فيها نرى الصلاة خشوعًا لا وصفًا، ونشهد الصبر فعلاً لا شعارًا، ونفهم الرحمة حين يعفو عن من آذاه، ونذوق التوحيد حين يقف وحده يواجه العالم كله بكلمة: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا."

هي السراج الذي يُضيء لنا فهم الإسلام، في عقيدته، وعبادته، وسلوكه، ومقاصده. فمن أراد أن يعرف الإسلام كما أنزله الله، فليقرأه في سيرة نبيه، فهي الوحي الثاني، والنموذج الحي، والدعوة التي سكنت القلوب لا بمجرد القول، بل بحكمة القدوة.

الباب السادس: مراحل الدعوة النبوية

مقدمة

ليست الدعوة النبوية حدثًا طارئًا، ولا حركةً مرتجلة، بل هي **رسالة السماء إلى الأرض**، نزل بها الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، محمدٍ **صلى الله عليه وسلم**، فأضاءت بها البشرية ظلمات الجهل، واهتدت بها القلوب الحائرة إلى طريق ربها.

وقد بدأت هذه الدعوة العظيمة **من خلوة في غار حراء، إلى أن عمّ نورها الآفاق، ودخل الناس في دين الله أفواجًا**، في مسيرة ربانية حكيمة، مضبوطة بأمر الله، مرعية بعنايته، تسير وفق سنن التدرّج، وتنتقل من مرحلة إلى أخرى بحكمة وتخطيط، وعزم لا يلين، وصبر لا ينفد.

إن تأمل **مراحل الدعوة النبوية**، يُعلّمنا كيف تُبنى الأمم على أعين النبوة، وكيف يُغيّر الإيمان مجرى التاريخ، ويُشكّل الوعي، ويُصنع الرجال. فكل مرحلة كانت لبنة في صرح الرسالة، وخطوة في طريق التمكين، وعِبرة للمصلحين والدعاة إلى يوم الدين.

في هذا الباب، نسير مع هذه المراحل مرحلة مرحلة، لنستلهم منها المنهج، ونقتبس من نورها الهدى، ونرى كيف رَبّى النبي **صلى الله عليه وسلم** جيلًا فريدًا، وصنع أمةً من لا شيء، وواجه العالم كلّه بكلمة التوحيد.

فما أحوجنا أن نعيد قراءة هذه المراحل، لا قراءة التاريخ الجامد، بل قراءة البصيرة والعبرة، لنفهم كيف يُبنى الإنسان، وتُقام الدعوة، وتنهض الأمة.

الفقرة الأولى: المرحلة السرية للدعوة – حكمة البدايات

حين تسللت أنوار الوحي إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء، وحُمّل أمانة البلاغ، لم يصدع بالدعوة في وجه الجاهلية مباشرة، بل بدأها همسًا في القلوب، وزرعها سرًّا في الأرواح، بصبرٍ وحكمةٍ وتدرّج.

ثلاث سنوات من البذر الصامت، والعمل الهادئ، بعيدًا عن ضجيج قريش وغوغاء الجاهلية، كانت كافية لتأسيس اللبنات الأولى لمجتمع إيماني فريد.
اختار النبي دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيتًا صغيرًا على سفح الصفا، لكنه كان في الحقيقة نواةً لعالم كبير. فيه اجتمع السابقون الأولون، يتلقون الوحي، ويتربّون على التوحيد، ويُصاغون على عين النبوة إعدادًا للمرحلة القادمة.

في تلك الدار المباركة، دخل الإيمان قلوبًا طاهرة: خديجة الطاهرة، وأبو بكر الصدّيق، وعلي الفتى الأريب، وزيد، وبلال، وعمار، والمقداد، وصهيب، وعثمان، والزبير... وغيرهم ممن نقش التاريخ أسماءهم بماء الذهب.

لم تكن السرية ضعفًا، بل كانت ذكاء البدايات، وفطنة التخطيط، ورعاية الغرس قبل أن يواجه الرياح. فالدعوة الناشئة تحتاج إلى تأصيل وتربية، قبل أن تصطدم بالعداوة والمواجهة.

الفقرة الثانية: إعلان الدعوة – بداية المواجهة

بعد ثلاث سنوات من الغرس في الخفاء، والتربية في صمت، جاء الأمر الإلهي الحاسم :﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ [الحجر: ٩٤]
فحان أوان الصدع بالحق، وارتفع صوت النبوة في وجه الباطل، ليشقّ ظلام الجاهلية بنور الهدى.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من دار الأرقم، وارتقى جبل الصفا، ونادى في بطون قريش، يناديهم بأسمائهم، حتى اجتمعوا من كل فجّ، يحدوهم الفضول، ويجمعهم الحذر .فصاح فيهم بلهجة الصدق والإنذار»:أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ «قالوا: «ما جربنا عليك كذبًا«!فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد«. عندها ارتجّ الموقف، وانقسم الجمع، وبدأت مرحلة جديدة من الدعوة؛ مرحلة الجهر والمواجهة.
تكسرت الأقنعة، وظهرت العداوات، واشتعلت نار التكذيب والتهم: هذا ساحر! بل شاعر! بل مجنون!
وتوالت حملات السخرية والاضطهاد، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت كالجبل، لا تهزّه العواصف، ولا تزعزعه الألسنة.
صبر وصابر، وأمر أصحابه بالصبر، فصبروا، واحتملوا، وجهروا بالحق، ورفعوا راية التوحيد في وجوه الشرك والظلم.

لقد تحوّلت الدعوة من همس في دارٍ مستورة، إلى نداء يهزّ مكة ويقضّ مضاجع الطغاة.
وهكذا بدأ الإسلام يُسمع في المجالس، ويظهر في القلوب، ويشق طريقه بين التحديات بثباتٍ وإيمانٍ ويقين.

الفقرة الثالثة: أذى قريش وتكثيف الحرب على الدعوة

ما إن صدع النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة التوحيد، حتى تسعّرت نار الحقد في صدور قريش، واشتدت رياح البلاء على المؤمنين. لقد استشعرت الجاهلية خطر هذا النور الوليد، فسعت بكل ما أوتيت من مكرٍ وبطشٍ إلى إطفائه.

بدأ الأذى من بوابة الكلمة، فانهالت الألسن بالتهم: كذّاب، ساحر، مجنون!
سخروا منه في مجالسهم، وأشاعوا بين الناس تشويهاتٍ تقلب الحق باطلًا والهدى ضلالًا، وما ازدادت الدعوة إلا إشراقًا، ولا صاحبها إلا ثباتًا.

ثم انتقلوا إلى السيف والسوط، وإلى نار الرمال والعذاب.
ذاك بلال، العبد الصادق، يُجرّ على صخور مكة تحت شمسها اللاهبة، ويُجبر على الكفر، فلا يردّ إلا بكلمة عظيمة تهزّ السموات" :أحدٌ أحد."
وتلك سمية، أول شهيدة في الإسلام، تموت تحت السياط والطعن، ويُقتل زوجها ياسر بعدها، وتمرّ عليهم بشارات الجنة من فم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم" :صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة."
وخباب بن الأرت، يُحرق ظهره بالجمر حتى ذابت شحومه، فكان جسده شاهد صدق على شدة البأس.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان له من الأذى نصيب عظيم.
وُضِع سلى الجزور على ظهره وهو ساجد لربه، وضحك السفهاء ساخرين، وتناوبت الأيدي على الإهانة، وأغرته قريش بالملك والمال والنساء، يساومونه على الكف عن دعوته، فكان جوابه حاسمًا كالصواعق:
"والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه."

لقد كان صلبًا كالجبل الأشم، لا تزعزعه الريح، ولا تغريه الدنيا، فثبت، وثبت معه الصف المؤمن، واستمرت القافلة تسير، رغم الجراح، تنثر النور في دروب الظلام.

الفقرة الرابعة: الهجرة إلى الحبشة – أول ملجأ آمن

حين ضاقت مكة بأنفاس الموحدين، واشتدت سياط الأذى على ظهور الصادقين، أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يشدّوا الرحال بعيدًا عن الأرض التي آذتهم، إلى أرض لا يعرفونها، لكنها تفيض عدلًا وإنصافًا.
قال لهم" :إن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، فليخرج إليها من أحب منكم "...رواه أحمد بسند حسن.

فخرجت قلوب مؤمنة، تحمل الإيمان زادًا، واليقين مركبًا، وتركوا خلفهم الديار والأموال والأحباب، يحملهم الشوق إلى حرية العبادة، والنجاة بالدين.
وكان في طليعة المهاجرين عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله، وجعفر بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة وأم سلمة، وغيرهم من خيرة من حملوا هذا الدين في بداياته الصعبة.

لكن قريشًا لم تهدأ، فأرسلت خلفهم وفدًا ماكرًا، يحمل الهدايا ويطلب تسليم الهاربين.
غير أن الله هيّأ لهم قلبًا ملكيًّا فيه بقية من نور النبوة.
وقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي، وخاطبه بخطبة خالدة، وصف فيها حالهم قبل الإسلام: قومٌ يعبدون الأصنام، ويأكل

القويّ فيهم الضعيف، ثم جاءهم رسول من أنفسهم، دعاهم إلى التوحيد، وإلى مكارم الأخلاق.
فبكى النجاشي، وقال في مشهد عظيم تهتز له الأرواح :إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة".ورفض تسليمهم لقريش، وأمر برعايتهم وحمايتهم.
فكانت الحبشة أول أرضٍ تُؤوي الدعوة، وأول محطةٍ يُمارس فيها الإسلام دون خوف، وأول تجربة للهجرة في سبيل الله، فتح الله بها بابًا للأمل في زمن البلاء.

الفقرة الخامسة: عام الحزن وثبات النبي صلى الله عليه وسلم

كان العام العاشر من البعثة عامًا انطفأت فيه شمعتان من أشد ما كان يضيء قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشدّ من أزره؛ عامًا ذاب فيه الفؤاد حزنًا، وخفّت فيه السندات من حوله، فسمّاه التاريخ "عام الحزن."

فيه رحلت خديجة رضي الله عنها، تلك التي لم تكن فقط زوجًا، بل كانت قلبًا يحتضن دعوته، وصدرًا يسكّن غربته، وروحًا آمنت به حين كذّبه الناس، وواسته حين خذله القريب والبعيد. رحلت أم المؤمنين، فغابت السكنى، وغامت سماء الأنس.

ولم تكد أيام الفقد تبرُد حتى تبِعها أبو طالب إلى دار البقاء؛ العم الذي لم يُسلِم، لكنه ظلّ جبلًا يحمي ابن أخيه من زوابع قريش، فكان موته إيذانًا بانكشاف الظهر، وتمزق الحماية، وجرأة الأعداء.
حتى قال أحد الصحابة" :ما زالت قريش تزداد في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أبي طالب".

وفي ذروة الانكسار، خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، يفتش عن قلوب تُؤوي رسالته، عن أرض تسمع النداء، فكان الألم هناك أشدّ من مكة، والسخرية أمرّ، إذ أغروا به سفهاءهم، فرموه بالحجارة، حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، ونزف الجسد كما نزف القلب.

وفي عتمة الطريق، وبكاء السماء، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي مولاه بكلمات تهزّ الأرواح وتُذيب الصخور":اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس "...رواه الطبراني، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

ورغم كل ذلك، لم تضعف عزيمته، ولم ينكسر قلبه عن الرجاء، بل ظل يدعو، ويربي، ويغرس الإيمان في القلوب، منتظرًا فتحًا من الله.

وهكذا، كان عام الحزن جسرًا من الدمع إلى الفجر، وتمهيدًا لرحلة الإسراء، وبشارةً لما هو آت من نصرٍ وتمكين، فهذه سنن الله :يبتلي ليصفّي، ويكسر ليجبر، ويُمهّد بالعسر لليسر العظيم

الفقرة السادسة: عرض الدعوة على القبائل – بحث عن النصير

في موسم الحج، حين كانت مكة تضجّ بوفود العرب من كل فجّ، وتسير الركبان من كل قبيلة، كانت الخيام تُضرب، والأحاديث تدور عن مفاخر الآباء، وصفقات التجارة، وسوق المجد...

لكن في زحام الأصوات، كان هناك صوت واحد يعلو، لا يشبه أصواتهم، ولا يحمل طين الدنيا في نبراته... كان محمد صلى الله عليه وسلم، يسير وحيدًا، لا مال في يده، ولا عشيرة تحميه، يحمل في قلبه نور السماء، وفي عينيه دمعة الرجاء، وعلى لسانه نداء من رب العالمين.

يمشي بين القبائل، من خيمة إلى خيمة، يعرض نفسه ودعوته، ويقول" :*من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي* ".رواه أحمد بسند صحيح.

مرّ على بني كندة ...فلم يأبهوا .وقف بين بني عامر ...فساوموه على الملك .خاطب غطفان ...فتهكموا.
عرض دعوته على بني شيبان ...فهابوا مواجهة العرب.

كان بعضهم يضحك ساخرًا، وبعضهم يدير ظهره مستنكرًا، وبعضهم يخشى غضب قريش فيُعرض عنه خائفًا.
قال الزهري رحمه الله" :*كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا* "...رواه البيهقي في *دلائل النبوة*.

فأي صبرٍ هذا؟! وأي يقينٍ؟!
كان صلى الله عليه وسلم يزرع في أرضٍ سبخة، وينثر الدعوة في قلوبٍ أغلقت، لكنه ما عرف لليأس سبيلًا، ولم يفقد إيمانه أبدًا بأن النصر آت، وإن طال الطريق.

حتى جاء اليوم الموعود... فسمع ستةٌ من شباب يثرب نداء السماء، فاستجابوا، وبلغت البذرة تربة طيبة، فانطلقت من هناك أول شرارة لدولة الإسلام، من أرضٍ ما خُطبت قبل ذلك بخطبة، ولا مشى إليها نبيّ، فإذا بها تحتضن الرسالة، وتكون مهد الهجرة، ومنطلق النور إلى العالمين.

هكذا يصنع الله الفرج من قلب الألم، وينبت الأمل من بين ركام الخذلان، وتبقى دعوته صلى الله عليه وسلم، أعظم درس في الثبات، والتوكل، والصبر على الطريق، وإن طالت مسافته واشتد ظلامه.

الفقرة السابعة: الإسراء والمعراج – تثبيت في زمن الانكسار، ونقلة روحية إلى آفاق النور

حين ضاق الفضاء بالألم، واسودّت صفحة الأيام بالحزن، وجفّت ينابيع المواساة، وكان القلب النبوي الجليل قد اعتصره الفقد مرتين: مرة بفقد الحبيبة المؤنسة خديجة رضي الله عنها، ومرة بفقد السند الحامي أبي طالب، جاء التكريم الإلهي العظيم ليجبر الكسر، ويجدد في الروح النبوية أملًا لا يخبو، وينقله صلى الله عليه وسلم من ضيق الأرض إلى فسحة السماء، ومن جراح الطائف إلى حضرة القدس، ومن صدمة الناس إلى لقاء رب الناس.

في ليلة من ليالي القدر الرباني، طوى الله له الزمان والمكان، فأسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي بارك الله ما حوله، حيث اجتمع له موكب الأنبياء، فصلى بهم إمامًا في أرض النبوات، ثم عُرج به إلى السماوات العلا، يخترق الحُجب، ويرى من آيات ربه الكبرى.

قال تعالى:﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾]الإسراء: ١.[

صعد الحبيب صلى الله عليه وسلم في ملكوت السماء، يصحبه جبريل عليه السلام، فمرّ بأبواب السموات، والتقى بآدم في الأولى، وبعيسى ويحيى في الثانية، وبيوسف في الثالثة، وبإدريس في الرابعة، وبهرون في الخامسة، وبموسى في السادسة، وبإبراهيم عليه السلام في السابعة، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه في الصحيحين، وبلغ سدرة المنتهى، ورأى البيت المعمور، واطّلع على الجنة والنار، وشاهد من عجائب الآخرة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهناك، فوق السبع الطباق، فُرضت الصلاة، فكانت هدية السماء لأهل الأرض، وكانت معراج الروح بعد معراج الجسد، وكانت الصلة التي لا تنقطع، والتثبيت الذي لا يزول.

وحين عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة في صباح اليوم التالي، مضى يخبر قريشًا بهذا الحدث العظيم، فتضاعف التكذيب، وازداد الاستهزاء، حتى إنهم ذهبوا إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه يختبرون إيمانه، فقال كلمته الخالدة التي خلّدها الزمان:
"إن كان قال فقد صدق، إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء يأتيه في لحظة من ليل أو نهار".
فاستحق يومها وسام الصدّيق من السماء قبل الأرض.

قال الله تعالى تأييدًا لهذا الحدث الجليل :﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾]الإسراء: ٦٠[،
وفي هذا إشارة إلى أن الإسراء والمعراج كان رؤيا حق رآها النبي صلى الله عليه وسلم بعينه، وليست منامًا كما زعم المكذبون.

لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج ليست مجرد انتقال جسدي في ملكوت الله، بل كانت إعلانًا سماويًا بأن هذا النبي ليس وحده، وأن الطريق وإن طال، فموعد النصر قريب. إنها رسالة للمستضعفين في كل زمان: إذا ضاقت عليك الأرض بما رحبت، فارفع طرفك نحو السماء، فإن فيها ربًا يسمع ويرى ويجبر ويعطي.

كانت هذه الرحلة الربانية لحظة فاصلة في تاريخ الدعوة، أثبتت أن وراء كل محنة منحة، وأن أشد ساعات الليل ظلمة تسبق طلوع الفجر، وصدق الله :﴿فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا﴾]الشرح: ٥-٦.[

الفقرة الثامنة: الهجرة الكبرى – انتقال النور إلى المدينة

حين اشتدت الظلمات على الأرض، وضاقت صدور المؤمنين بما يصبّه أهل مكة من الأذى والعنت، جاء الأمر الإلهي كفجرٍ صادق يمزّق ليل الابتلاء: أن ارتحل يا نبي الرحمة، فإن الأرض ستشهد انتقال النور من مكة الحزينة إلى يثرب الوعد والأمل.

كان ذلك مفترق الطريق الأعظم في مسيرة الرسالة، وساعةً اختلط فيها وجيب القلوب بنداء السماء. ففي دار الندوة اجتمعت قريش تتآمر، يحدوهم الحقد، ويجمعهم الخوف من نور الإسلام، ليُجهزوا على حياة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم. لكنّ الله جل في علاه، فوق كيدهم جميعًا، قد دبّر أمرًا لا تخطر عواقبه إلا في عليائه، فقال تعالى:
﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾]الأنفال: ٣٠.[

فأوحى الله إلى نبيّه صلى الله عليه وسلم خطّة الهجرة، وبدأت أعظم رحلة في تاريخ الدعوة، لا على بساط الراحة، بل في طريق محفوفٍ بالمطاردين، مسكونٍ بالمخاطر، لكنه ممهّدٌ بعناية الله.

خلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع صور التضحية حين ترك عليًّا رضي الله عنه ينام في فراشه، ليؤدي الأمانات إلى أهل الغدر والعداوة، وأخذ معه أبا بكرٍ رضي الله عنه، رفيق الطريق، وسَنا القلب في وقت الشدّة. وخرجا في جنح الليل، متوجّهين إلى غار ثور، ليختبئا عن أعين المتربّصين.

هناك، في الغار، حين اقتربت خطوات القوم حتى كادت أن تفضحهم، التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى صاحبه، وطمأنه بكلمات من نور" :**لا تحزن إن الله معنا**."فجاء الجواب من السماء في كتاب لا يأتيه الباطل:
﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾]التوبة: ٤٠.[

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مطمئنًّا، ينام والكون حوله في اضطراب، قلبه معلق بوعد الله، وعينه لا ترى إلا الأفق المفتوح نحو المدينة التي تتهيأ لاستقبال النور.

مكثا في الغار ثلاث ليالٍ، وكل شيء حول النبي صلى الله عليه وسلم يسبّح بحمد الله، ويحرس رسول الله بأمر الله.

ثم انطلقت القافلة النورانية، تمزق رمال مكة، لا تحمل الزاد الكثير، ولكنها تحمل يقينًا لا ينفد، وشوقًا إلى دار الإيمان.
وفي قباء، كانت أولى محطات النور، حيث أسّس النبي صلى الله عليه وسلم أول مسجد، وغرس أول بذرةٍ في أرضٍ أعدّها الله لحمل الرسالة.

وحين دخل المدينة، انفجرت الأرض بالتكبير، واهتزّت القلوب بالدموع، وخرج الرجال والنساء، الصغار والكبار، ينظرون إلى طلعته البهية فاستقبلوه بالتهليل والتكبير والترحيب

لقد دخل النور إلى المدينة، وبدأ عهد جديد في تاريخ الإسلام، فصارت يثرب "المدينة"، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّدها، وقائدها، وحبيبها إلى الأبد.

الباب السابع بناء الدولة في المدينة

مقدمة

حين هاجر النبي **صلى الله عليه وسلم** إلى المدينة، لم تكن الهجرة مجرد انتقال من دار إلى دار، بل كانت **نقلة من الدعوة إلى الدولة، ومن التبشير إلى التأسيس، ومن البناء الفردي إلى البناء المجتمعي** .لقد بدأت مرحلة جديدة من مراحل السيرة النبوية، كانت هي اللبنة الأولى لقيام أعظم أمة في التاريخ.

في المدينة، **وُضعت اللبنات الصلبة لدولة الإسلام** :دولة لا تنبني على العصبية، ولا تجمعها المصالح الضيقة، بل تُقام على أساس الإيمان، ويُربط أفرادها برباط العقيدة، وتُحكم بشريعة الرحمن.

لقد بدأ النبي **صلى الله عليه وسلم** فور دخوله المدينة ببناء المسجد، ليكون مركز النور، وقلعة الإيمان، ومنارة القيادة. ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، ليبني مجتمعًا على الحب والتكافل، لا على الدم والنسب. ثم كتب الوثيقة، وأرسى قواعد التعايش والعدل، ثم بسط الأمن، ونظّم شؤون السياسة والاقتصاد، وأعدّ الأمة لحماية كيانها وحمل رسالتها.

إن دراسة **بناء الدولة في المدينة** تكشف لنا عظمة هذا النبي الكريم في تأسيس مجتمع راشد، يوازن بين الروح والمادة، بين الحقوق والواجبات، بين القوة والرحمة، وبين الانفتاح على الآخر والثبات على المبدأ.

وفي هذا الفصل، نقف مع أعمدة هذا البناء، ونتأمل أسسه ومقوماته، لنستلهم منها النموذج الرباني للدولة، ونعرف كيف نعيد بناء الأمة في زماننا على هدي النبوة ونور الرسالة.

الفقرة الأولى: استقبال الأنصار – القلوب قبل الدور، والدموع قبل الدار

ما أعظم ذلك اليوم الذي دخل فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم مدينةَ يثرب، حتى تحولت الأرض فيها إلى رياض، وتبدلت الأجواء إلى أفراح، وسكنت الأرواح بعد طول انتظار! لم يكن دخوله صلى الله عليه وسلم إليها مجرد انتقال جسد من أرض إلى أرض، بل كان عبور النور إلى قلوب طالما تاقت، وأنفاس لهجت، وأعين ذرفت شوقًا إليه، حتى قبل أن تراه.

كان الأنصار – رجالًا ونساءً، شيوخًا وصبية – يخرجون كل صباح إلى ظاهر المدينة، ترنو أعينهم نحو الأفق، يحدوهم الشوق، ويضرب القلق في قلوبهم أوتاره، لعلهم يظفرون بنظرة إلى طلعته البهية صلى الله عليه وسلم. فإذا ما عادوا في المساء ولم يروه، عادت معهم القلوب خائبة إلا من رجاء الغد.

حتى إذا جاء اليوم الموعود، وأقبلت بشائر الطلعة النبوية، ضجّت يثرب بالتكبير، وارتفعت الأصوات من كل صوب:
"جاء رسول الله! جاء رسول الله "!خرج الناس من دورهم، بل خرجت قلوبهم قبل أقدامهم، تتسابق إلى موكب النور. النساء تزغرد، والرجال يكبرون، والصبية ينشدون، والهواء يحمل حبات الدموع كأنها قطرات من مطر الرحمة.

وكانت لحظة الاستقبال أعظم من مجرد لحظة ترحيب، بل كانت مبايعةً عاطفية، وانصهارًا روحيًّا، وتعاهدًا صامتًا على النصرة والإيواء، تجسده عبارات الوجوه قبل كلمات الألسن، واحتضان البيوت قبل أن تُفتح الأبواب.

تسابق الأنصار إلى ضيافته، كلٌّ منهم يأخذ بخطام ناقته، يرجو أن يحظى بالبركة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم بلطف القائد، ويقين العارف بربه" :دعوها، فإنها مأمورة".
فسارت الناقة، تتهادى وكأنها تعرف وجهتها، حتى بركت في موضع المسجد النبوي اليوم، ثم نزل صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وكان بذلك أسعد أهل المدينة قاطبة، إذ نزل النور في داره، وبات الوحي بين جدرانه، ورفرفت الملائكة على سطح بيته.

وفي ذلك قال أهل السير: إن المدينة ما عرفت الفرح الحقيقي إلا يوم قدوم الحبيب صلى الله عليه وسلم، وكان يومًا لا يشبهه يوم.وصدق الله إذ قال:﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ...﴾]الحشر: ٩[
فهم لم يتبوأوا دارًا فحسب، بل تبوأوا الإيمان معها، فكانوا مزيجًا من الأرض والإخلاص، ومن الحب والوفاء.

وهكذا نزل النور في دار الإيمان، وبدأت الصفحة الأعظم في تاريخ الرسالة، صفحة حملها الأنصار بأمانة القلوب، وصدق النوايا، وجعلوا شعارها :الأنصار أمان الدعوة، وحملة الرسالة".

الفقرة الثانية: بناء المسجد النبوي – صرحُ الإيمان ومؤسسةُ الدولة الأولى

ما إن استقر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في دار الهجرة، حتى بادر إلى غرس أولى لبنات الدولة الإسلامية، لا في دارٍ للحكم، ولا في قصرٍ للسلطان، ولا في حصنٍ يحمي الجيوش، بل في بيت من بيوت الله، كان هو النواة، والنبض، والراية.
فالدولة التي تبدأ بالمسجد، دولةٌ تحرسها الملائكة قبل الجيوش، وتشدّ أركانها سكينة السماء قبل أسوار الأرض، لأن الدولة التي تُبنى على السجود، لا تُهدّ أركانها بالحديد والنار.

نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الموضع الذي بركت فيه ناقته الشريفة، فإذا به مربدًا – مكانًا لتجفيف التمر – لغلامين يتيمين من بني النجار، فعرض النبي صلى الله عليه وسلم شراءه، فأبى الغلامان إلا أن يهباه، فأصرّ النبي صلى الله عليه وسلم على شرائه بثمنه، ليُؤسّس المسجد على الطهر والحق والعدل منذ اللحظة الأولى.

ثم أمر ببنائه، وشارك صلى الله عليه وسلم بنفسه في رفع حجارته، يحمل الطين والحجارة على كتفه الشريف، يكدّ مع أصحابه، ويرفع صوته بالتوحيد والدعاء، يردّد" :**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة]** "رواه البخاري]

فما أعظم هذا البناء! وما أبهى هذه الصورة! نبيٌ قائد، يعلّم الأمة أن البناء الحقيقي لا يكون بالأوامر فقط، بل بالقدوة، والعرق، والصدق.

ولم يكن المسجد موضعًا تؤدى فيه الصلوات فحسب، بل كان القلب النابض للأمة، مركزًا شامخًا تتفرّع منه كل خيوط الدولة الإسلامية: فيه تُوضع خطط السلم والحرب، وتُرسم ملامح التربية والتعليم، وتُحسم فيه القضايا الكبرى، وتُغاث فيه الأرواح المنكسرة، ويأوي إليه الفقير، ويُعلَّم فيه الجاهل، وتُربّى فيه القلوب على الصدق والخشية واليقين.

كان المسجد جامعةً ومؤسسةً ومركز قيادةٍ وروح أمة.
ومن هذا المنبر المقدّس، أُطلقت أولى سرايا الدعوة، وتخرّج الرجال الذين غيّروا مجرى التاريخ.

وفي هذا كلّه، صدق قول الله تعالى :﴿**لمسجدٌ أُسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه**﴾]التوبة: ١٠٨[فلم تكن تقوى العمارين فقط، بل تقوى الغاية، وتقوى البدايات، وتقوى الأسس التي لا تبنى على طمع أو دنيا أو سلطان.

وهكذا، خطّ النبي صلى الله عليه وسلم لأمته أول درس في بناء المجد:
ابدأوا ببيوت الله، فإنها الحصن الأول، والمنارة التي تهدي، والمهد الذي تصنع فيه الحضارات.

الفقرة الثالثة: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار – نسيجُ القلوب ووحدةُ المصير

ما إن أشرقت شمس النبوة على يثرب، حتى بدت التحديات تُطوّق الداخل والخارج معًا... فالمهاجرون خرجوا من ديارهم مجروحي القلوب، مجردي الأيدي، لا يملكون إلا إيمانهم، والأنصار حديثو عهد بالإسلام، جمعهم الإيمان، وفرّقتهم القبائل والمصالح والماضي القريب.

كيف تصهر هذه الأرواح المختلفة في بوتقة واحدة؟
كيف تُبنى أمة وهي لا تزال تضم بين جنبيها قريشيًّا من مكة وخزرجيًّا من المدينة، وثريًّا مهاجرًا وفقيرًا أنصاريًّا، وعربيًّا وحبشيًّا، وسابقًا في الإسلام وحديث عهد به؟

هنا جاء الحلّ النبوي العجيب... تجربة اجتماعية فريدة في التاريخ، لم يعرف لها الزمان مثيلاً:
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

لم تكن المؤاخاة ترفًا اجتماعيًّا، ولا شعارًا سياسيًّا، بل كانت دمًا يسري، وعهدًا يُبرم، ونَسَبًا جديدًا تنعقد به قلوبٌ لا تربطها الأرحام، بل يجمعها "إنما المؤمنون إخوة."

لقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، رجلًا برجل، فصار لكل مهاجر أخٌ أنصاريٌّ في الله، لا في النسب ولا في المال.

ويروي أنس رضي الله عنه مشهدًا من هذه الآيات الواقعية":لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد: إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي بيني وبينك، ولي امرأتان، فانظر أيتهما أعجبتك فسمّها لي أطلّقها، فإذا انقضت عدتها تزوجتها]"رواه البخاري[

يا الله! أيُّ نفوسٍ هذه التي تقدم الدنيا على طبق من الإيمان؟
وأيُّ تجرّدٍ هذا الذي يجعل المال والأهل تحت قدمي العقيدة؟

لكن عبد الرحمن، وهو التاجر الذكي، صاحب النفس العفيفة، أجاب بإباء المؤمن:
"بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّني على السوق".

لقد رُفِع في هذه المؤاخاة أول راية لوحدة لا تُبنى على الدم ولا النسب، بل على العقيدة الصافية، فذابت الطبقية، وسقطت الجاهلية، وتربّى الجيل على المحبة والإيثار.

بل بلغت المؤاخاة في بداياتها درجة الإرث بين المتآخيين، حتى نُسخ ذلك، وبقيت الأخوة في الله ثابتة، خالدة، لا توارث فيها، لكن لها في ميزان الآخرة أعظم من كل ميراث.

وهكذا، بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمع على دعائم الحب والتضحية، لا الحسد والتنازع، ورفع البناء على أكتاف رجال جعلوا "آثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" واقعًا لا مجرد شعار.

وما تزال كلماتهم تضيء لنا طريق الوحدة:
"أنت أخي في الله... لا في الدم، ولا في النسب، ولكن في العقيدة التي لا تهتز".

الفقرة الرابعة: وثيقة المدينة – عهد العدل والتعدد تحت راية التوحيد

ما إن استقر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، واطمأنت القلوب بوصله، حتى شرع في تثبيت دعائم الدولة الوليدة، لا بالأبراج والأسوار، بل بأساسٍ أقوى: القانون والعدل والوحدة.
لم يترك المدينة تمضي في فوضى الأعراف القبلية، ولا في غياهب العصبيات الجاهلية، بل أمسك صلى الله عليه وسلم بزمامها، وأعلن بداية عهدٍ جديد، تُدار فيه المجتمعات بوثيقة من نور...
وثيقة المدينة، أول دستور في الإسلام، وأسبق وثيقة مدنية شاملة تحفظ الحقوق، وتحدد الواجبات، وتضبط العلاقات.

سطرها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بمداد النبوة، فجاءت أعظم من أن تكون مجرد معاهدة، بل كانت إعلانًا صريحًا لقيام دولة تُبنى على الشرع، وترعى العدل، وتُقرّ بالتعدد تحت مظلة الإسلام.
لقد شملت الوثيقة جميع سكان المدينة: من المسلمين مهاجرين وأنصارًا، ومن يهود المدينة، وسائر من دخل في عقدها من قبائلها، فجاءت عادلة شاملة.

جاء في بنودها النورانية:

"إن المسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس".

"وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم".

"وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة".

"وأن المدينة حرم لأهل هذه الصحيفة".

"وأن المرجع في كل اختلاف إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم".

فكانت الوثيقة:

ترسيخًا لمبدأ *الوحدة الإسلامية* :أمة واحدة من دون الناس.

تأكيدًا لحق *حرية المعتقد لأهل الذمة* تحت سلطان الإسلام.

تنظيمًا للحقوق والواجبات المشتركة، في السلم والحرب.

تأصيلًا لمبدأ *سيادة الشرع* :فكل خلاف مردّه إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

لقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدستور أن الإسلام لا يعرف الفوضى، ولا يقبل الفتن، وأن إقامة الدولة ليست في العسكرة، بل في حكم الكتاب، وميزان العدل، ومظلة الرحمة.

وهكذا خطّ النبي صلى الله عليه وسلم بمداد الحكمة والنبوة، أولَ سطور الحضارة الإسلامية، التي جمعت بين العقيدة والشريعة، وبين الحقوق والواجبات، وبين التعدد والانضباط، فكانت *وثيقة المدينة* شهادةً خالدة على أن الإسلام دينٌ ينظم الحياة، ويصون الإنسان، ويقيم العدل، وإن اختلفت الأديان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]

الفقرة الخامسة: تنظيم الجبهة الداخلية – إصلاح النفوس وتثبيت الصف

في الوقت الذي كانت فيه أنظار الناس مشدودة إلى الأخطار المحدقة من خارج المدينة، من مشركي قريش، ويهود المدينة، وقبائل العرب المتربصة، كان هناك تهديد أعظم وأخطر يزحف بهدوء في الظل، لا يُرى بالسيوف والرماح، بل يُبث في النفوس والقلوب: إنه التهديد الداخلي.

لم يكن المجتمع الوليد، الذي بدأت لبناته تتماسك في طيبة الطاهرة، مجتمعًا ملائكيًّا؛ بل كان مزيجًا من قلوب فتحتها أنوار الإيمان، وأخرى ما زالت عالقة ببقايا الجاهلية، ونفوس ضعيفة لم تذق بعد حلاوة الإخلاص، وألسنة تهمس وتلمز، وقلوب تُضمر ولا تُظهر، حتى نشأت أخطر فئة عرفها تاريخ الدعوات :**المنافقون**.

هنا تجلّت عبقرية النبوة، وظهر عمق البصيرة المحمدية، فلم ينشغل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخطر الظاهر ويغفل عن الخطر الكامن، بل بدأ من الداخل، حيث تُبنى الأمم أو تُهدم، فأسس بناءً متينًا من الإيمان والتزكية، وغرس في القلوب عقيدة خالصة لا تشوبها الأهواء، وجمع الأرواح على راية التوحيد، لا رايات القبيلة والدم والنسب.

بدأ بتطهير المجتمع من رواسب الجاهلية، فوقف حازمًا أمام العصبيات القبلية، التي كادت أن تشق الصف، فقال صلى الله عليه وسلم حين تعارك المهاجرون والأنصار يوماً على خلفية قبلية:

"دعوها فإنها منتنة) "رواه البخاري ومسلم(،
فهي نتنٌ يُفسد القلوب، ويدمر الصفوف، ويبدّد وحدتهم التي بُنيت على العقيدة لا الدم.

وفي الوقت ذاته، كانت آيات القرآن تنزل تبني النفوس لبنة لبنة، وتهذّب الطباع، وتفضح المنافقين، وتربط الناس بالله لا بالأشخاص، وتُعلي من قيمة الطاعة لله ورسوله على كل ولاء آخر:
قال تعالى :﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾]الحجرات: ١[،
﴿**ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**﴾]الحجرات: ١١[، ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾]الحجرات: ١٠.[

وهكذا، أصبحت المدينة مدرسة إيمانية تُصنع فيها الأرواح، وتُغربل فيها القلوب، حتى صارت الجبهة الداخلية صلبة كالفولاذ، مطمئنة راسخة، إذا أمرت أطاعت، وإذا نوديت لبّت، وإذا أُوذيت صبرت، وإذا جُرحت في عزيز نفَسِها قالت: حسبنا الله.

وكانت ثمار هذه التربية النبوية يانعة، حتى أثنى الله عليهم في كتابه الكريم بقوله :﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾]الأحزاب: ٢٣[،
فما أجمل أن تبني دولة الإيمان رجالها من داخلها أولًا، رجالًا صدقوا، وثبتوا، وحملوا الرسالة بدمائهم قبل كلماتهم، وساروا خلف نبيهم صلى الله عليه وسلم صفًا كأنهم بنيان مرصوص.

الفقرة السادسة: بدايات المواجهة العسكرية – تحويل القوة إلى سياسة

ما إن استقرت أركان الدعوة في المدينة، وتوطدت دعائم البناء الداخلي، حتى انطلقت عبقرية النبوة لتنتقل من مرحلة التأسيس إلى مرحلة الحماية والتحصين، ومن تثبيت الصف إلى ترسيخ السيادة، فما كانت الدعوة لتبقى حبيسة الجدران، وهي تستشعر تهديدًا يحيط بها من كل صوب، لا سيّما من عدوٍّ لدود لا يهدأ له بال، ولا تخمد له نار.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدرك ببصيرته النبوية أن قريشًا لن تقف مكتوفة الأيدي، ولن ترضى بقيام كيانٍ مستقل يتحدّى كبرياءها ويهدّد نفوذها، فكان لابد من اتخاذ خطوات حازمة، تُظهر القوة دون تفريط، وتجمع بين السياسة والبصيرة، والحزم والرحمة.

فأذن الله سبحانه وتعالى لأول مرة للمؤمنين، بعد سنين من الصبر وكظم الغيظ، أن يردّوا على الظلم، وأن يحملوا السلاح للدفاع عن العقيدة والأرض والعِرض، فقال جل جلاله:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]وكان هذا الإذن الإلهي إيذانًا بمرحلة جديدة تُكتب فيها ملامح القوة المؤمنة، وتُرسم فيها خرائط السياسة العسكرية الإسلامية، كما أرادها الله لا كما يرسمها الطغاة.

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال السرايا، وهي طلائع صغيرة من الصحابة، تخرج بتوجيهه وإشرافه، ليس غرضها القتال المباشر دائمًا، بل ترصد وتراقب، وتؤمّن وتحاصر، وتبعث برسائل صامتة تقول: "إن الدولة الجديدة قد وُلدت، ولن تسكت عن عدوان، ولن تسمح بتهديد، ولن تفرط في شبرٍ من أرضها، أو ذرةٍ من كرامتها."

وكان في تلك السرايا من السياسة ما يفوق أعتى الخطط الحربية، فقد سدت على قريش منافذ التجارة، وأربكت تحالفاتها، واختبرت ولاء القبائل المحيطة، ورسّخت هيبة المسلمين، وأظهرت أن المدينة لم تعد فقط دار هجرة، بل أصبحت مركز قيادة وأمة تنهض وتُهاب.

وما كانت تلك التحركات إلا تربية عملية للصف الإسلامي، تُنمّي فيهم روح الانضباط والطاعة، وتعلّمهم فنون الجهاد والبأس، وتعدّهم ليوم الزحف الأكبر. فهؤلاء الذين كانوا بالأمس يطوون بطونهم من الجوع في مكة، صاروا اليوم يلبسون لامة الحرب، ويضربون في الأرض بجهادهم، وقلوبهم معلّقة بالسماء، يرومون النصر أو الشهادة.

حتى جاءت غزوة بدر الكبرى، الفاصلة بين مرحلتين: بين الاستضعاف والتمكين، وبين الصبر والمواجهة، وبين السكون والعزة. جاءت بدر، لا لتكون معركة عابرة، بل لتُسطر في ذاكرة التاريخ بداية المواجهة الكبرى بين الإيمان والباطل.

فهناك، على أرض بدر، وقف الصحابة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم صفًا واحدًا، لا يملكون إلا إيمانًا لا يتزعزع، وثقةً لا تهتز، وسيوفًا صدئة يحرّكها يقينٌ ناصع، فنزل نصر الله من السماء، وأبصر العالم لأول مرة جيشًا تحرسه الملائكة، وتقاتل معه السماء، فقال سبحانه:﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]
وقال أيضًا:﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]

وهكذا تحوّلت القوة إلى سياسة، وتحولت السياسة إلى دعوة، وتحول المؤمن الضعيف إلى قائد لا يُقهر، لأنه استمد قوته من السماء، وسار خلف نبي يوحى إليه، صلى الله عليه وسلم، يقود الأمة نحو النصر، بخطوات الحكمة، وعين البصيرة، وقلبٍ ممتلئ بالإيمان.

الفقرة السابعة: غزوة بدر الكبرى – الفرقان بين الحق والباطل

ليست بدرًا مجرّد معركة طواها التاريخ بين صفحاته، بل كانت لحظةً فاصلةً تهتزّ لها الموازين، وتنبثق من قلبها معالم النصر الإلهي، يومٌ خُلّد في كتاب الله، وسُمّي **"يوم الفرقان** ..."يومٌ التقى فيه الجمعان، فتميّزت فيه صفوف أهل الحق عن جحافل الباطل، ﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ [الأنفال: ٤١.]

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين لا يطلبون قتالًا، وإنما خرجوا يعترضون قافلة قريش التي نهبت أموالهم، وسلبت بيوتهم، وأذاقتهم ألوان العذاب، في محاولة لاسترداد بعض ما أُخذ ظلمًا وعدوانًا.
لكن قدر الله ساق الأمر إلى مواجهة فاصلة، إذ خرجت قريش بكل ما تملك من سلاح وعدد، زهاء ألف مقاتل مدججين بالعدة والعتاد، ليقف في وجههم جيش الإيمان... ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، ما بين راجل وراكب، لا يملكون إلا فرسين وسبعين بعيرًا، يعتقبونها بينهم.

وفي ليلة المعركة... سجد القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم بين يدي مولاه، يناجي ربه بدموع المخلصين ودعاء المضطرين، رافعًا يديه نحو السماء، يناشد الله عز وجل قائلاً:
"اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض."وظل يدعو حتى سقط رداؤه من على منكبيه، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد أُجيبت دعوتك.رواه مسلم

وفي صباح يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان، من السنة الثانية للهجرة... بزغ فجر بدر، وكان المؤمنون على موعد مع وعد الله...
أوحى الله إلى ملائكته أن يثبتوا المؤمنين، فنزلت جنود من السماء تُقاتل معهم، وتبشّرهم بالنصر، ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين﴾ [الأنفال: ٩.]

واندلع القتال، فثبت المؤمنون، وقذف الله الرعب في قلوب المشركين، وسقط جبابرة قريش صرعى، وأُسر سبعون، وأُهلك قادة الكفر، وكانت الهزيمة نكراء رغم الفارق الهائل في العدد والعدة.

رجع المسلمون من بدر وهم أعزة بالله، مرفوعي الرأس، منصورين بنصر من السماء، بعدما كانوا بالأمس قِلّة مستضعفة.
قال الله تعالى:﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ [آل عمران: ١٢٣.]

لقد كانت بدر بداية عهد جديد...
عهدٍ لا يُقاس فيه النصر بالكثرة، بل بالإيمان والصدق والثبات.
فرّقت بين عهد الاستضعاف والتمكين، بين زمن المطاردة وزمن المواجهة، بين أهل العقيدة وأهل الهوى، بين من باعوا أنفسهم لله، ومن باعوها للشيطان.

وكانت بحق...
الفرقان بين النور والظلام، بين الإيمان والعدوان، بين الحق المضيء والبغي الزائل.
فسلامٌ على بدر، وعلى رجالها، وعلى من نصر الله بهم دينه، وجعلهم نجومًا في ليل هذه الأمة لا تنطفئ.

الفقرة الثامنة: العهود والخيانات: صفحات من التعامل النبوي مع يهود المدينة

حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، لم يكن دخوله فتحًا بالسيف، ولا استيلاءً بالقوة، بل كان دخولَ نبيٍ رحيم، يحمل في قلبه نورَ الوحي، وفي يده راية السلام، وفي خُطاه نَفَس النبوة التي تريد أن تبني مجتمعًا آمنًا، على أساس من العدل والتعايش والكرامة.

وكان في المدينة طوائف من اليهود، يتوزّعون بين بطون ثلاثة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعاملهم بما فعلت أيدي آبائهم في سالف العصور، فقد بدأ عهده معهم على أساس جديد، صفحة بيضاء تكتبها وثيقة المدينة، تلك الوثيقة التي تعدُّ في ميزان التاريخ أقدم دستور للتعايش السلمي بين الأديان والقبائل.

ضَمِن لهم النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الوثيقة حرية الدين، وأمن النفوس والأموال، وحقّ التعايش الكريم، بشرطٍ وحيدٍ واضحٍ: أن يكونوا عونًا في حفظ السلم الأهلي، وألا يخونوا الأمة، وألا يتحالفوا مع عدوٍ ضدها.

لكن اليهود – وكأنّ الخيانة تجري في دمائهم – سرعان ما أزاحوا النقاب عن وجوههم، وكشفوا ما تخفي صدورهم من غدرٍ وضغائن.

- بنو قينقاع:

كانوا أول من أشعل فتيل الفتنة. لم يراعوا حرمة عهد، ولا صانوا ذمّة، بل أهانوا امرأة مسلمة شريفة في سوقهم، فكشفوا عن عورتها، وضحكوا ساخرين، فثار لها أحد المسلمين فقتل يهوديًا، فتكالبوا عليه وقتلوه، ثم أعلنوا النكث. فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يومًا، حتى استسلموا، فأجلاهم عن المدينة، صيانةً لكرامة الأمة، وصونًا لعهودها، وردًّا لاعتبار المرأة المسلمة.

- بنو النضير:

لم يكتفوا بنقض العهد، بل بلغت بهم الوقاحة أن دبّروا محاولةً خبيثة لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس إليهم يستعين بهم في دية قتيلين. فأوحي إليه بالخيانة، فقام مسرعًا وتركهم، ثم أعطاهم مهلة للجلاء، لكنهم تحصّنوا واستكبروا، فحاصرهم المسلمون، حتى نزلوا على الجلاء، بعد أن كشف الله زيف نفاقهم. قال الله تعالى:
﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا...﴾ [الحشر: ٢.]

●بنو قريظة:

أشدُّهم خيانةً، وأبعدُهم عن الشرف. فبينما المسلمون محاصرون في يوم الأحزاب، والأعداء من كل صوب قد أقبلوا، خان بنو قريظة العهد، وفتحوا الجبهة الداخلية للعدو، وهددوا أمن النساء والذرية، وتحالفوا مع المشركين من قريش وغطفان، يريدون أن يُطبقوا على المدينة من داخلها وخارجها.

وفي ذلك الظرف العصيب، لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر خيانتهم، قال» :**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، هذا النصر أتاكم من عند الله**]«رواه أحمد]،

ثم سلّم أمرهم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي كان حليفًا لهم في الجاهلية، فحكم فيهم بحكم الله: أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذراري، وتُقسم الأموال، فأنزل الله عز وجل :﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦.]

هكذا لم يُقاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم لدينهم، بل لعدوانهم، ولغدرهم، ولأنهم لم يكونوا شركاء وطن، بل خناجر في خاصرة الدولة، وخطرًا داخليًّا مهددًا لبقاء الأمة.

ففي سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم تتجلى عظمة العدل، ونُبل الرحمة، ويقظة القائد الرباني، الذي لا يستسلم للخديعة، ولا يسكت على الخيانة، لكنه في كل ذلك لا يتجاوز حدود الشرع ولا يبطش بهوى، بل يزن الأمور بميزان رباني. قال تعالى :﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]
وقال سبحانه في تمام عدله :﴿والله يحكم لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ [الرعد: ٤١.]

الفقرة التاسعة: غزوة أُحد – دروس في الثبات والوعي

لم تكن غزوة أُحد صفحة عابرة في سجل المعارك، بل كانت مدرسةً خالدةً في الطاعة والثبات، وتجربة قاسية كشفت المعادن، وغربلت الصفوف، وربّت النفوس على معاني الفداء والوعي.

بعد أن هُزّت قريش في بدر، وانكسرت هيبتها، استشاطت غيظًا، وتحزّبت تنتقم، فجمعت ثلاثة آلاف مقاتل، تتقدمهم رايات الكِبر والحقد، يقودهم أبو سفيان، يملأهم التشفّي ويُعمِيهم الكِبْر، وتوجّهت القلوب الحاقدة نحو المدينة المنوّرة، تريد الثأر لقتلى بدر، وتصفية حساب العقيدة.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعمائة من الصفوة، رجال نحتت أرواحهم على الصبر والتضحية، وثبّت الرماة على جبل أُحد، وأوصاهم وصية العارف بمكامن الفتح والثغور، فقال" :**إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم** ".

لكن السمع والطاعة في لحظة الشهوة والاختبار... هي التي تصنع الفرق.

ودارت رحى المعركة، وبدأت بشائر النصر تلوح في الأفق، وفرّت قريش تجرّ أذيال الخوف، غير أن لمعان الغنائم ألقى بظلاله على الأبصار، فخالف الرماة أمر الحبيب صلى الله عليه وسلم، ونزلوا عن مواقعهم، فاستغل خالد بن الوليد - وكان يومها في صف الكفر - الثغرة، والتفّ بجنوده من الخلف.

فاضطربت الصفوف، وسالت دماء الأطهار، وارتقى سبعون شهيدًا، وكُسرت رباعية الحبيب صلى الله عليه وسلم، وشُج وجهه، وسقط في الجب، فصرخت الملائكة في السماء، واهتزت المدينة... لكن الإيمان لم يهتز!

رغم الجراح... ثبت الصف، وبقيت راية التوحيد مرفوعة.
ورجع المشركون دون أن يحققوا ما أرادوا، ظنوا أنهم انتصروا، لكن الهزيمة كانت من نصيب من خالف أمر السماء.

قال الله تعالى يربي النفوس ويعلّم الأمة :﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾]آل عمران: ١٥٢[
فكانت أُحد آية من آيات الله، تُلقّننا أن النصر لا يُنال بعدد، ولا يُؤتى بعُدّة، بل يُهدى لمن أطاع... وثبت.

الفقرة العاشرة: تثبيت الأركان في وجه العواصف: الغزوات الدفاعية بعد بدر وأحد

لم يكن النصر في بدر خاتمة المطاف، ولا كانت جراح أحد نهاية الطريق، بل كانت الغزوتان إعلانًا صريحًا بأن الإسلام قد خرج من طور الاستضعاف، وأن المدينة النبوية لم تعد ملجأً للمهاجرين فقط، بل أصبحت دولة فتية تقف شامخة في وجه التهديدات، وتحمل بين جنباتها رسالة السماء.

لقد أيقنت قريش، ومن وراءها من القبائل والمتحالفين، أن شجرة الإسلام قد ترسّخت جذورها، وأنها لم تعد نبتة رخوة يسهل اقتلاعها، بل دوحة باسقة تزداد قوة كلما عصفت بها الرياح. فبدأت سلسلة من الغزوات، كان هدفها الأول: حماية المدينة، وصون بيضة الدين، وتثبيت أركان الدولة التي أقامها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بمداد الوحي ودماء الشهداء.

- غزوة حمراء الأسد ٣)هـ:(

لمّا انقضت معركة أحد، وتسللت الهزيمة بجراحها إلى قلوب الصحابة، إذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يُنادي منادٍ بالجهاد، يدعو من شهد أحدًا إلى النهوض من جديد، وملاحقة العدو.
خرج بهم صلى الله عليه وسلم رغم آلامهم النازفة، ليُري قريشًا أن المسلمين لا يُكسرون بجولة، ولا تفتّ في عزائمهم الخسائر.
قال تعالى في وصف هذا المشهد العظيم:﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم**﴾]آل عمران: ١٧٢.[
وكان خروجهم هذا سببًا في أن ترتدع قريش عن العودة، إذ خُيّل إليهم أن المسلمين استجمعوا قواهم من جديد.
قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: "ما كنت أظن أن أحدًا منا يُجيب، وقد أصابنا ما أصابنا، فإذا نحن نغدو جميعًا". رواه ابن إسحاق.

- غزوة بني المصطلق ٥)هـ:(

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن أبي ضرار، سيد بني المصطلق، يُعد العدّة لغزو المدينة، فتحرك صلى الله عليه وسلم بسرعة وحزم، فباغتهم قبل أن يُباغتوه، وكانت الغلبة للمؤمنين.
وقد كان في هذه الغزوة فتنة عظيمة، سُمّيت بفتنة **الإفك**، حيث طعن المنافقون في عرض الطاهرة المطهّرة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، فأنزل الله قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، يُبرئها من فوق سبع سموات:
﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم﴾]النور: ١١.[

- غزوة دومة الجندل (٥هـ):

تحرك النبي صلى الله عليه وسلم على رأس قوة مسلحة لمسافة بعيدة، تجاوزت الألف كيلومتر شمال المدينة، ليبلغ صوت الإسلام القبائل التي ظنت أنها بمنأى عن هيبة الدولة النبوية.
كانت هذه الغزوة رسالةً بليغة، مفادها: أن دعوة الإسلام لا تعرف الحدود، وأن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم لا يسعى إلى توسيع سلطان أرضي، بل إلى هداية العالمين.
قال ابن كثير رحمه الله: "وفيها إشارة إلى بُعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم، في تأمين الثغور، وتحجيم النيات العدائية حتى من الجهات البعيدة."

- غزوة الأحزاب (الخندق ٥) (هـ):

هنا بلغت التهديدات ذروتها، واجتمع الكيد من كل صوب: قريش بغطرستها، وغطفان بقوتها، ويهود المدينة بخيانتهم.
جيش مشترك عرمرم زحف نحو المدينة في أخطر تحالف شهده التاريخ الإسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.
لكن النبي صلى الله عليه وسلم بعقله النبوي وشورى أصحابه، استجاب لرأي سلمان الفارسي رضي الله عنه، فحُفر الخندق، وثبت المسلمون رغم الجوع والبرد والخوف.
قال الله في وصفهم :**﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾**]الأحزاب: ١٠.[
ورغم هذا الحصار الرهيب، نصر الله نبيه وأذل الكافرين:
﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا﴾]الأحزاب: ٢٥.[

وهكذا، لم تكن هذه الغزوات نزوات حربية أو شهوة توسّع، بل كانت صولات دفاعية تحمي الرسالة، وتصون المدينة، وتردع المعتدين، وتُرسي دعائم دولة الإسلام.
إنها معارك فاصلة في مسيرة التمكين، قادها النبي صلى الله عليه وسلم برجاحة العقل، وصدق التوكل، وثبات الإيمان.

فيا لها من صفحات مشرقة، سُطرت لا بالحبر، بل بالدمع والدم، وبالصبر الذي لا يعرف الانكسار!

الفقرة الحادية عشرة: صلح الحديبية: الفتح الأعظم قبل أن تُفتح مكة

في السنة السادسة للهجرة، وفي أجواء المدينة التي تعاظم فيها الإيمان واشتد فيها الحنين إلى البيت العتيق، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا تهزّ الوجدان: رأى نفسه يدخل مكة مع أصحابه معتمرين، آمنين، محلقين ومقصرين، لا يخافون.
وما كانت رؤيا الأنبياء إلا حقًّا، فهبّ النبي صلى الله عليه وسلم ملبّيًا نداء السماء، وخرج في جمع كريم من أصحابه، قُدّر عددهم بنحو ألف وأربعمائة، يلبون لا يحملون إلا سيوف المسافر المُغمّدة، قلوبهم معلّقة بالكعبة، وأعينهم دامعة شوقًا للطواف والسجود بين الركن والمقام.

لكن قريشًا – بما ورثته من عناد واستكبار – أبت أن تسمح لهذا الموكب الإيماني أن يخطو خطوة واحدة داخل مكة، رغم وضوح مقصدهم وسلم نيتهم.
فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم سفراء الحكمة، يعرضون صلحًا لا ضعف فيه، بل قوّة في صورة حلم، وعزّة في لباس تواضع.
وتوالت جولات التفاوض، حتى خُتمت ببنود صلحٍ، بدا في ظاهرها الانكسار، لكنها كانت في جوهرها انكسارًا لعناد قريش نفسه.

فما هي تلك البنود التي اختبر الله بها قلوب المؤمنين؟

أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هذا العام دون عمرة.

وأن من جاء من مكة مسلمًا إلى المدينة، يُردّ إلى قريش.

ومن خرج من المدينة إلى مكة مرتدًا أو هاربًا، لا يُردّ.

وهدنة عشر سنين بين الطرفين، يأمن فيها الناس ويضع الجميع السلاح.

هنا ارتجّت قلوب الصحابة، وبدت لبعضهم بنودًا مُجحفة، وصرّح عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما في صدره، فقال« *يا رسول الله، ألسنا على الحق؟* »!، فقال« *بلى* .»قال« *فلم نعطي الدنية في ديننا؟* »فقال النبي صلى الله عليه وسلم : »*إني عبد الله ولن يضيعني*] .»أخرجه البخاري ومسلم[
كانت كلماته كالوعد المكنون، فيها من الإيمان ما يكفي أمة، ومن التوكل ما يُزلزل الجبال.

وفيما المسلمون في حيرة من أمرهم، جاء التثبيت من فوق سبع سماوات، فإذا بالوحي ينزل بكلمات تخلّد هذا الصلح لا كتنازل، بل كـ**فتح مبين:﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾**]الفتح: ١[
قال ابن عباس رضي الله عنه :*هو صلح الحديبية، وما كان فتح أعظم منه، ولكن الناس قصر رأيهم عنه.*
وقال الإمام الزهري رحمه الله" :*ما فُتح في الإسلام فتح كان أعظم من الحديبية؛ إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتذاكروا، فلم يُكلم أحد بالإسلام إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين مثل من كان في الإسلام قبلها أو أكثر.*"

وفي ظل هذه الهدنة، انطلقت دعوة الإسلام إلى القلوب بلا سيف، وفتحت العقول بلا حصار، وسرت أنوار التوحيد إلى ديارٍ ما كانت لتسمع من قبل صوت القرآن.
بل إن هذا الصلح كان البوابة التي مهّدت لأعظم نصر بعد ذلك :**فتح مكة**، حين نقضت قريش العهد، فعاد النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثامنة على رأس جيشٍ لم تعرف مكة له مثيلًا، وفتحها بسلام، قائلًا لأهلها« :*اذهبوا فأنتم الطلقاء.*»

وهكذا يعلّمنا صلح الحديبية درسًا خالدًا:
أن النصر لا يُقاس بضرب السيوف، وإنما بثبات البصائر، وحكمة القيادة، واستحضار سنن الله في التمكين.

لقد كان الحديبية فتحًا، لا في أرضٍ تُفتح، بل في صدور انشرحت، وفي قلوب آمنت، وفي أمة تعلّمت أن الصبر في ساعة الضيق، مفتاح للفتح في ساحة النصر.

الفقرة الثانية عشرة فتح مكة: نصرٌ يُضيء بلا دم، وتمكين بلا انتقام

تكسرت عهود قريش على صخرة الغدر، حين وقفت مع بني بكر المعتدين على خزاعة، حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، في خيانة فاضحة لنصوص صلح الحديبية.
وحين بلغت أنباء الغدر المدينة، انطلق في صدر النبي صلى الله عليه وسلم صوت الحق :**أن العهد نُقض، وأن للبيت ربًّا يعيده إلى أهل التوحيد.**

لم تكن مكة مجرد أرض، بل كانت الموطن الأول، والقبلة التي حُرم منها أهلها ظلمًا، والمهد الذي طُرد منه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، يوم قالوا" *:أخرجوه فإنه مجنون أو شاعر أو كاهن."!*

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز، وسرى الخبر بين المؤمنين سريان النور في الدجى، حتى اجتمع في المدينة جيش لم تعرف له جزيرة العرب مثيلًا :**عشرة آلاف مؤمنٍ، تفيض قلوبهم بالشوق، وتشتعل عزائمهم بنور الإيمان.**
خرجوا في رمضان، السنة الثامنة للهجرة، صائمين، متعبدين، لا طلبًا للدم، بل طلبًا للبيت، لا ليرفعوا رايات الثأر، بل راية : **لا إله إلا الله.**

وسار هذا الجيش كأنه قدر الله في الأرض، لا يرفع سيفًا إلا إن رُفع عليه، ولا يُري قوةً إلا ليُطفئ نار الجاهلية.
وصلوا إلى مشارف مكة في سكينة تشبه سكينة الأنبياء، فلما رآهم أهلها، أصابهم الذهول، ووقفت قريش حائرة، عاجزة، مدهوشة من هيبة هذا الزحف الإيماني.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة **متواضعًا، منكّس الرأس، متخشّعًا، راكع القلب،** لا منتصرًا كبقية الملوك، بل خادمًا لرسالة السماء، يحمل بين جنبيه رحمة لا حدود لها.
فطاف بالبيت، ثم وقف أمام الكعبة، والكفار يُحدّقون في من أخرجوه يومًا، فإذا به يسألهم بصوت مهيب:
*"ما تظنون أني فاعل بكم؟"*قالوا، وهم بين الرجاء والخوف" :*خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم".*
فقال صلى الله عليه وسلم كلمةً تمزق ثوب الجاهلية من الجذور، وتكتب أول سطور العهد النبوي في مكة:
"اذهبوا فأنتم الطلقاء".رواه البيهقي وصححه ابن كثير.

ما أروعها من لحظة! لحظة يُمسك فيها القائد برقاب من عادوه، فيعفو، ويملك رقاب من طردوه، فيصفح.
لحظة تُذبح فيها الكراهية على أعتاب الرحمة، ويتبخر فيها دخان الأحقاد في سماء العدل النبوي!

ثم دخل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة، ووقف بين الأصنام التي عُبدت من دون الله لقرون، فضربها بعودٍ في يده وهو يردد قول الله تعالى :﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا**﴾]الإسراء: ٨١[
فتهاوت الأصنام، وانكسرت أوثان الشرك، كما تنكسر الأكاذيب عند أول شروقٍ للحق.

لم يكن فتح مكة فتح مدينة فحسب، بل كان فتح قلب، وبعث عقيدة، وانطلاقة أمة.
كان عودة الفجر بعد ليلٍ طويل من الطغيان، وبداية عهدٍ جديدٍ عنوانه:
"ورحمتي وسعت كل شيء".

لقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، لا خوفًا من السيف، بل إعجابًا بعدل هذا النبي، ورحمة هذا الدين، وجلال هذه الرسالة.

الفقرة الثالثة عشرة: غزوة حنين: حين غَشِيَ الغرورُ الأبصار، وكشف الثباتُ عن جوهر النصر

لم تكن مكة آخر المطاف، بل كانت بداية الطواف الجديد للدعوة، في ربوعٍ طال ليلها، وجاء وقت إشراقها.
دخل الناس في دين الله أفواجًا بعد فتح البلد الحرام، لكن الحقد الذي تعمّد في كهوف الجاهلية، لم يُسلِّم رايته بعد، ولم يطفئ نيرانه.
من بين هذه الجيوب، برزت قبيلتا هوازن وثقيف، في تحالفٍ عنيف، ينقض على الإسلام من بوابة الطائف، يجمعون الجموع، ويستعدّون للثأر ممن رأوا فيه خطرًا على سلطانهم وكيانهم.

فهبّ النبي صلى الله عليه وسلم في جيش لم تعرف له الأرض مثيلًا حتى تلك الساعة، اثنا عشر ألف مقاتل، زحفوا في صفوف متراصّة، يملؤهم اليقين... أو هكذا ظنوا!

لكن بعض النفوس لم تحتمل فتنة الكثرة، وتسللت إلى ألسنتهم كلمات لم تُعرض على ميزان التوحيد بعد:
"لن نُغلب اليوم من قلة"!
فزلّت هذه العبارة، لتكشف أن القلب إذا استند إلى العدد لا إلى الله، خُذل ولو اجتمعت له الدنيا بأسرها!

عندما سجّل القرآن الكريم الحقيقة الموجعة :﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾]التوبة: ٢٥[
انهار الصف فجأة، وانتشر الذعر، وفرّ كثير من الناس، وارتبك الموقف ارتباكًا عظيمًا، حتى لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قليل من الثابتين.

لكنّه صلى الله عليه وسلم، حين تساقطت القلوب، ثبت كالطود العظيم، وسار إلى وجه المعركة لا يلوى على أحد، وهو يصرخ بثقة الأنبياء ورباطة جأش المرسلين":أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"!رواه مسلم.

صوته اخترق صفوف الفارين، وأيقظ فيهم جذوة الإيمان، فانقلب الخوف عزيمة، والفرار التفافًا، وتماسك الصف من جديد، فأنزل الله نصره، وأدبر العدو في هزيمة ساحقة.

وإذا بالغنائم تتكدّس، حتى قُدّر أن يوم حنين شهد أعظم غنائم الإسلام: آلاف الإبل، وقطعان الغنم، وأوزانًا من الفضة.
لكن الحكمة النبوية لم تُفتنها كثرة المال، فوزّع النبي صلى الله عليه وسلم العطاء على من دخلوا في الإسلام حديثًا من زعماء قريش، أمثال صفوان بن أمية، وأبي سفيان، ومعاوية وغيرهم، تأليفًا للقلوب، وتثبيتًا للنفوس.

هنا اشتعلت الغيرة في صدور بعض الأنصار، الذين رأوا أنفسهم أصحاب النصرة الأولى، وحملة الرسالة من يومها الأول، فبلغت كلماتهم مسامع النبي صلى الله عليه وسلم، فجمعهم في موقف من أروع مشاهد التربية النبوية.

وقف فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لا مُعاتبًا ولا غاضبًا، بل ناصحًا، مُحبًّا، حزينًا أن تُخدَش صدورهم، فخاطبهم خطاب العارفين بقلوب الرجال" :يا معشر الأنصار، ما حديث بلغني عنكم؟ ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟ "قالوا" *بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل*".
قال":ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله؟"!فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا بقلوب مخلصة" *برضينا برسول الله قسمًا ونصيبًا*]"!رواه البخاري ومسلم[

ما أعظمك يا رسول الله!
تعطي من حرمك، وتؤلّف من عاداك، وتربّي من نصرك، وتُجدد عهد القلوب معك بالحكمة لا بالعطاء.

وهكذا كانت حنين...
غزوة لم تُكتب بالسيوف فقط، بل كُتبت بالقلوب:

قلوب غُرّت بالكثرة فخُذلت،

وقلوب ثبتت فانتصرَت،

وقلوب غضبت، فربّتها يد النبوة،

وقلوب عادَت، فاحتضنها عفو النبوة.

في حنين، تعلّم المسلمون أن النصر من عند الله، لا بعدد ولا عُدة،
وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قائدًا عسكريًّا فحسب، بل مربّيًا، وأبًا، ورسولًا أرسله الله رحمةً للعالمين.

الفقرة الرابعة غزوة تبوك: في ساعة العُسرة يُعرف الرجال

في عامٍ شديد القيظ، حيث تتلظى الرمال بحرارة الصيف، وتُدمي العيون لفحات الهجير، وتشتدّ حاجة الناس إلى قطرة ماء وظل شجرة، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزوةٍ لم تُشبه ما قبلها، لا في زمانها، ولا في ظروفها، ولا في عدوّها.
إنها غزوة تبوك، آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، وأشدّها محنةً، وأعظمها تمحيصًا للقلوب.

ما كانت الغاية قريبة، بل كانت الطريق طويلةً موحشة، قُدّرت بمئات الكيلومترات شمال المدينة،
وما كان العدو هينًا، بل كان الروم، أعظم قوة على وجه الأرض آنذاك، مدججة بالسلاح، مدعومة بالإمبراطور، محصنة بالمدن والحصون.
وما كان الزاد وفيرًا، بل جدبٌ، وجفافٌ، وقلوبٌ تتقلّب بين الطاعة والتردد، والجيوب خاوية، والدواب شحيحة.

ومع ذلك ...خرج النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسه لواء التوكل، وحوله ثلاثون ألفًا من المجاهدين الصادقين، سُمّوا في كتاب الله بـ "جيش العُسرة"، وقال عنهم الرب سبحانه:﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾]التوبة: ١١٧[

كانوا يتزودون بالإيمان حين عزّ الطعام، ويعتصرون صبرهم ليكملوا المسير، وقد وصف الصحابة شدّة الحال، حتى قال بعضهم" :*كنا نتعاقب على البعير، وكان أحدنا يأكل التمرات ويتحسس الماء كما يتحسس الضمآن السراب*".

وتهاوى في الطريق المنافقون، وتذرّع المتخلفون بالأعذار،
ولكن قلوب المؤمنين لم تنحنِ للعطش، ولا لانكسار الراحلة، بل ثبتوا في ساعةٍ سماها الله :العُسرة، لأنهم لم يعرفوا أحنك منها ولا أمرّ.

ولم تكن تبوك معركة سيوف، بل معركة هيبةٍ وصبر، معركة بلغت فيها الرسالة تخوم الروم، فارتجف لها عرش الإمبراطورية، وانكمش العدوّ أمام جيشٍ لا يحمل معه إلا التوكل على الله، واليقين بوعده.

لم يقع قتال... لكن النصر وقع.
نصر على الفقر...
ونصر على النفس...
ونصر على المنافقين الذين أرادوا الفتنة فانكشفت عوراتهم.
ونصر على الروم الذين ما تجرؤوا على المواجهة بعد ذلك.

ورجع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك منتصرًا بلا معركة، ولكنه حاسم بلا دماء، وكان الرجوع رجوع القائد الذي ربح القلوب، وثبّت الصف، وكتب في السيرة آخر سطر من سطور الجهاد النبوي بالسيف.

وكانت تبوك امتحانًا عظيمًا، كشف معادن الرجال، وفرز الصفوف، وأظهر الصادق من المتخاذل، وجعل من التاريخ شاهدًا أن النصر ليس في الرمح والسيف، بل في الإرادة والعقيدة.

وهكذا ختم النبي صلى الله عليه وسلم غزواته بسطرٍ من ذهب، لا يسطّره إلا نبي، ولا يخطّه إلا رسولٌ علّمه الله أن النصر صبر ساعة، وأن التمكين يبدأ من شقوق المشقة.

أتراك الآن ترى أن النصر يُولد من الرخاء؟
كلا... إنما يولد من رحم العُسرة، ومن بين قطرات العرق، ودموع الصادقين، وقلوبٍ آمنت أن وراء كل تعبٍ، فتحًا من الله، إن صدقوا.

الفقرة الخامسة عشرة: حجة الوداع: إعلان التمام وتأكيد البلاغ

في العام العاشر من الهجرة، وبعد مسيرةٍ ملأ نورها الجزيرة، وامتد أثرها في قلوب العرب والعجم، أذّن النبي صلى الله عليه وسلم بالحج.
فلم يبقَ مؤمنٌ إلا وشدّ رحاله، ولم تبقَ قبيلةٌ إلا وأرسلت وفدها.
اجتمع أكثر من مئة ألف حاجٍ، في أول مؤتمرٍ إيماني جامع، تحت راية التوحيد، يقودهم نبي الرحمة، في موسمٍ لا يُنسى.

وفي يوم عرفة... وقف النبي صلى الله عليه وسلم على صعيده ، وقد علت جبينه أنوار الرسالة، فخطب الناس خطبته الخالدة، خطبةً لا تزال تزلزل الضمائر، وتُوقظ الغافلين، وتؤسس لمعالم أمةٍ خالدة.

قال صلى الله عليه وسلم بصوت الوحي، وحرارة البلاغ، وحنان المودّع:

"إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"...

كلماتٌ لا تُحفظ فقط، بل تُكتب في سويداء القلب، فهي دستور العدالة، وبداية نهاية الجاهلية.

"استوصوا بالنساء خيرًا"...
"كل أمر من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع"...
"تركت فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله".

خاطبهم وكأنه يودّعهم...
خاطبهم وكأنّه يحمّلهم أمانةً أثقل من الجبال:
أمانة العقيدة، أمانة الشريعة، أمانة الرحمة المهداة.

ثم، في ذروة هذا المشهد الجليل، نزل الوحي من فوق سبع سماوات، يخبر أن الرسالة قد كملت، فسمع الصحابة الآية التي سكنت القلوب رجفة، وأدمعت العيون رهبة:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾[المائدة: ٣]

آهٍ... ما أجلّها من آية!
آيةٌ نزلت في عرفات، في حجة الوداع، من فوق سبعٍ شداد، لتخبر أن النبوة أتمت دورها، والرسالة بُلّغت، والدين كَمُل.

ثم التفت إليهم النبي صلى الله عليه وسلم، وألقى السؤال الذي يحمل في طياته أعظم لحظات الحسم:

"ألا هل بلّغت؟ "فقالوا :نعم فرفع بصره إلى السماء، وقال:
"اللهم فاشهد... اللهم فاشهد... اللهم فاشهد"!

أي مشهد هذا؟
إنه الختام النبوي، التوقيع الأخير على صحيفة البلاغ، إيذانٌ بانتهاء عهد النبوة، وبدء عهد الأمة.

حجة الوداع كانت:

إعلانًا بخاتمة الرسالة.

وختمًا لوحي السماء.

وتأهيلاً للأمة أن تحمل الشعلة، وتبني حضارةً على هدى النور الذي بلّغه الحبيب.

الفقرة السادسة عشرة: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم – انقطاع الوحي وامتداد الرسالة

يا لها من لحظات، تنكسر لها القلوب، وتجف فيها العيون، وتضطرب لها الأرواح، حين بدأت شمس النبوّة بالأفول... لا لأنها غابت، ولكن لأنها أوشكت أن تشرق في سماء الخلود، في رحاب الجنة، حيث المقام المحمود.

في أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحاد ية عشرة للهجرة، بدأت أنفاس المدينة تختنق بشبح الفقد، فقد ألمّ برسول الله صلى الله عليه وسلم المرضُ الذي لم يُعرف له مثيل، وكان صلى الله عليه وسلم يدخل على الناس، وقد اعتصره الألم، ومع ذلك يبتسم، ويعلّم، ويوصي، ويبلّغ، وكأن المرض لم يتمكن من جسده، بل الجسد هو من يتقوى بنور الرسالة.

وفي صباحٍ سابق، وهو على منبره يخطب، قال قولًا غريبًا، يشفّ عن أمر عظيم:
"إن عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عند الله – "رواه البخاري.
وما إن سمعها أبو بكر رضي الله عنه حتى ارتجف قلبه، وتدفقت دموعه، وعلم أن العبد هو الحبيب، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم... فبكى، وأدرك قرب الرحيل.

ثم أذِنَ الله أن تكون آخر يوم من أيامه، يوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، فأشرق النور للحظة أخيرة...
خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم في الصلاة، فكشف الستار، ووقفت الأعين، وتوقفت الأنفاس... ونظر إليهم نظرة المودّع، وابتسم، كأن وجهه ورقة مصحف، أو فجر نازل من السماء.
ففرح الصحابة، وظنوا أن العافية قد عادت، فازدادوا تسبيحًا، وكادت الصفوف تنكسر من شدة فرحهم.

ثم أرخى الستر... وكانت تلك آخرُ إطلالةٍ لأطهر وجه على وجه الأرض.

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على أهله، ووضع رأسه الشريف على صدر عائشة رضي الله عنها، وأخذ يردّد في سكرات الموت:
"بل الرفيق الأعلى... بل الرفيق الأعلى – "رواه البخاري.
حتى أسلمت روحه الطاهرة إلى بارئها، وارتقى من دار العمل إلى دار الجزاء، من أرض الرسالة إلى سماء القبول، من بين الصحابة إلى الملأ الأعلى.

فإذا المدينة ترتج، وتضجّ بالبكاء، وتعلو الأصوات، وتضيع العقول... ويخرج عمر رضي الله عنه، ذلك الجبل الراسي، لا يصدق ما سمع، ويقول:
"والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليبعثنّه الله فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم"!

لكن الرحمة كانت هناك... فخرج أبو بكر رضي الله عنه، ثابتًا كأنه الجبل، وهو الذي كان أول من بكى حين فهم التلميح، فوقف وقال قولته التي خلدها الله في قلوب المؤمنين:
"من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيّ لا يموت".
ثم تلا عليهم قول الله تعالى، الذي كأنما نزل لتلك اللحظة: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾]آل عمران: ١٤٤[

فوقعت الآية على قلوبهم وقع الرعد على الأرض اليابسة، فإذا بالبكاء يهدأ، وإذا بالعقول تعود، وإذا بالقلوب تسلّم، وتفهم أن النبوّة قد ختمت، وأن الرسالة قد بُلّغت، وأن الطريق واضح لمن أراد النجاة.

ثم دُفن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرته، في موضع فراشه، حيث كانت حياته، وهناك كان مرقده. وبُدئ عهدٌ جديد، لا نبوّة فيه، لكنه امتداد لها، وسار الخلفاء من بعده على الدرب، ينقلون النور إلى الآفاق، ويحملون الرسالة إلى العوالم، وكانت الأمة بعد وفاته شاهدةً على أن الرسالة لا تموت بموت حاملها، وإنما تحيا في القلوب المؤمنة، والسواعد الصادقة، والألسن الذاكرة.

فهنيئًا له صلى الله عليه وسلم، فقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

الباب الثامن :الشمائل النبوية – صورة الجمال الكامل

مقدمة

إذا كانت السيرة النبوية تُحدّثنا عن مسار الدعوة وجهادها، فإن الشمائل النبوية تُحدّثنا عن صاحب الرسالة وجماله، عن ذلك الإنسان الكامل، الذي اجتمع فيه **بهاء الخَلق، وكمال الخُلق، وعظمة السلوك، ورقة الشعور**.

لقد أكرم الله البشرية **بأجمل الخلق خَلقًا وخُلقًا، محمد صلى الله عليه وسلم**، فكان كما قالت أم معبد" *ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخَلق، لم تُعِبه ثُجلة، ولم تُزْرِ به صَعْلَة*"...، وكما قال الله تعالى:﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **[القلم: ٤]**

في هذا الباب، لا نقف فقط مع صفاته الشكلية من طول ووجه وطيب ريح وصوت، بل نتنسم **عبق الرحمة في نظرته، ونرى العدل في مشيته، ونستشعر الهيبة في سكوته، والحكمة في كلامه**.

إن الحديث عن شمائله **صلى الله عليه وسلم** ليس ترفًا أدبيًّا، ولا وصفًا عابرًا، بل هو **زاد للمحبين، ومثال للمربين، ومنهج للسالكين، وتجسيد عمليٌّ لكمال الإنسانية كما أرادها الله**.

ومن خلال هذا الباب، نرجو أن نقترب من هذا النور الذي ملأ الدنيا، ونغرف من هذا الجمال المحمدي، لنحيا به، ونتأدب معه، ونُحبّه أكثر، حبًا يُثمر اتباعًا، ويُورث شوقًا، ويجعلنا نُكثر من الصلاة عليه، **صلى الله عليه وسلم**.

الفقرة الأولى: جمال خلقه صلى الله عليه وسلم – كأن الشمس تجري في وجهه

كيف تصف النور إن تجلّى؟
كيف يُرسم البدر إذا اكتمل؟
وكيف تُكتب الشمس إن ضحكت في السماء؟
ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم، آية الجمال البشري، ومثال الكمال الخُلقي والخلقي، إذا أقبل كأنّ النور يسبق خطاه، وإذا تبسّم فوجهه أبهى من فجرٍ رقراق، وإذا تكلّم أحيا بكلماته الأرواح، كأنما يُسكب من فيه الطهر والضياء.

ما وصفه أحد من أصحابه إلا شبّهه بالبدر في تمامه، أو بالشمس في إشراقها.
يقول كعب بن مالك رضي الله عنه:
"**وكان إذا سُرّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه** – "رواه البخاري.
ويقول جابر بن سمرة رضي الله عنه":**رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة أضحيان، وعليه حُلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فوالله إنه عندي أحسن من القمر** – "رواه الترمذي.

وجهه أنور من أن يُنسى، وأجمل من أن يُقارن، بل قال أنس رضي الله عنه:
"**ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت ريحًا قط أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم** – "متفق عليه.
فكان الجمال في وجهه، والطيب في جسده، والهيبة في طلّته، والمحبّة في عشرة لحظات معه.

وكان صلى الله عليه وسلم معتدل الخلق، لا بالطويل البائن فيطغى، ولا بالقصير فيُستضعف، بل كما وصفه البراء بن عازب رضي الله عنه"**:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خَلقًا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير** – "رواه البخاري.

وإذا ضحك، لم يكن ضحكًا مستهترًا، بل كان تبسّمًا يضيء، يملأ القلوب طمأنينة،"**كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم التبسم** – "رواه الترمذي.
فلا صخب، ولا فظاظة، ولا تكلف... بل بساطة الملوك، وعظمة الأنبياء، ورفق المعلّمين.

وإذا مشى كأنما ينحطّ من صبب، يمشي بقوة وسكينة، كأن الأرض تتشرف بخطاه.

وإذا تكلّم، فكأنّ السكون يصغي إليه،
"**كان إذا تكلّم تكلّم بكلام فصلٍ، لا هذر ولا نزر، كأنّما تُعدّ كلماته عدًّا** – "كما وصفته أم معبد الخزاعية رضي الله عنها.

هو الجمال الذي لا يُدرَك وصفه، والكمال الذي لم يُعطَ لأحد من قبله ولا بعده، جمع الله له جمال يوسف، وهيبة موسى، ووقار إبراهيم، ورحمة عيسى، وخُلق خاتم النبيين.
قال الله تعالى:﴿**وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم**﴾]القلم: ٤ [فإذا كان الخلق بهذا العلو، فالخَلق أعلاه وأجمله وأكمله.

صلى الله وسلم وبارك عليه، عدد ما ذكَره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

الفقرة الثانية: رائحة طيّبة تفوق الطيب – عطر النبوة الذي لا يُشترى

ما كان الطيب إلا ظلًّا من طيبه، وما المسك والعنبر إلا شهودًا عاجزين أمام نفحات جسده الطاهر... كان صلى الله عليه وسلم يُفوح طِيبًا لا تصنعه يد، ولا يُستخرَج من زهر، ولا يُقطَر من شجر، بل هو طيب فطَره الله عليه، علامة طُهره، وسِرّ جماله، وسُلوى من صافحه أو اقترب منه.

إذا مشى، عبقت الأرض بأثره،
وإذا سلّم، بقيت يده تنشر الريح العطرة أيامًا،
وإذا عرِق، تحوّل عرقه إلى طِيب يُتبارك به.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد خدمه عشر سنين فما نسي لحظة من لحظات جماله :**ما شممت عنبرًا، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم** – "رواه البخاري (٣٥٦١).
وقال أيضًا" :**ما مسست شيئًا قط ديباجًا ولا حريرًا ألين من كفّ النبي صلى الله عليه وسلم** – "متفق عليه.
فكان لين اللمسة، وعطر النفَس، ونور الوجه... مجتمعين في رجل واحد، هو خاتم الرسل، صلى الله عليه وسلم.

وكان عرقه أعجوبة من عجائب الكمال؛ عرقٌ لا يُشمّ منه أثر تعب، بل طِيب يطغى على أزكى العطور.
وكانت أم سليم رضي الله عنها تأخذ عرقه الشريف فتجعل منه طيبًا، حتى إذا سئلت عن ذلك، قالت:
"**هو من أطيب الطيب** – "رواه مسلم.
وفي رواية" :**كنا نأخذ عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم في القوارير، فنخلطه بالطيب، فيكون أطيب الطيب.**"

وكان إذا مرّ بطريق، وشمّ الناس عطرًا فواحًا لا يُعرف له مصدر، قالوا :**مرّ من هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

وكان الأطفال يفرحون إذا مرّ بهم، لا لطَيف ابتسامته فحسب، بل لأن المكان من بعده يشمّون فيه رائحة لا مثيل لها.

ولم يكن ذلك من الطيب الذي يتجمّل به، بل من الطِيب الذي جُبل عليه، إذ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **"كنا نعرف مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بطيب ريحه** – "رواه الطبراني.

إنه طِيبٌ يحمل معناه الكامل: طِيب الذات، وطِيب السيرة، وطِيب الأثر، وطِيب الذكر...

فكان كما قال الله: **﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾**]الأحزاب: ٤٥–٤٦.[

وما العطر إلا ظلٌّ من سيرته،
وما المسك إلا عاجز عن إدراك مقامه،
صلى الله عليه وسلم، ما هبّ النسيم، وما فاح الطِيب، وما دام العطر أثرًا في الطرقات.

الفقرة الثالثة: هيبة النبوة – لا يملأ أحدٌ عينيه منه

كان الجلال يكسوه كما يكسوه النور، وكانت الهيبة تسبق خطاه كما تسبق الرهبة صوت الرعد... فليس هو كأيّ قائدٍ أو زعيم، بل هو نبيّ الله، مصطفى السماء، ومهابة الأرض.

لم يكن في مجلسه صياحٌ ولا صخب، ولا يُرى أحد يرفع صوته فوق صوته، ولا يسبق بصره بصرَه، بل إذا جلس، جلس الجميع وكأنّ على رؤوسهم الطير، لا يتحرّك أحدهم إلا بأدبٍ يليق بمقام النبوّة.

كان الصحابة رضي الله عنهم يحبّونه أكثر من أنفسهم، لكن مع هذا الحبّ الجارف، كانت الهيبة تعتري قلوبهم إذا نظروا إليه، حتى قال عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان من دُهاة العرب وخيرة القادة، كلمةً خالدة تعبّر عن الموقف بدقة نادرة" :**وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه** – " رواه مسلم.

فما أعظم هذا المقام... رجلٌ عاش معهم، وسار بينهم، وبات على الأرض كما يبيتون، يأكل ممّا يأكلون، ويمشي في الأسواق، لكنهم مع ذلك لا يملأ أحدٌ عينيه منه، لا عن نفور، بل عن خشوع، لا عن كِبر، بل عن هيبة تُرهب القلب وتُلجمه.

وهكذا اجتمعت فيه صفاتٌ لا تجتمع إلا لنبيّ:
محبّةٌ لا توصف، وهيبةٌ لا تُقاوَم، وقربٌ لا يُشبِه الملوك، وسموّ لا يُدرَك بالوصف.

وكانت هذه الهيبة آية من آيات النبوّة، فقد رُوي أن من رآه من بعيد، هابه، ومن جالسه أحبه، حتى قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في وصفه:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ
لكان منظرُه يُغنيك عن الخبرِ

فوجهه المضيء كان يُحدّث عن النبوة، وصمته يفيض بالحكمة، ونظراته تشي بأنك في حضرة من لا يشبه أحدًا.

ولذلك، فإنّ وصفه لم يكن أمرًا هيّنًا... فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
"من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبّه، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله – "رواه الترمذي.

فما أعجب جمع الله له بين العظمة والتواضع، وبين القرب والمقام، وبين الرهبة والمحبّة!
وكيف لا، وهو من قال الله فيه:

﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا. لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعزّروه وتوقّروه﴾]الفتح: ٨–٩.[

فكان صلى الله عليه وسلم، معظَّمًا في الأرض والسماء، لا يملأ أحدٌ عينيه منه، لكنّ قلبه لا يمتلئ بغيره.

الفقرة الرابعة: مشيته– كأنما ينحدر من صبب

لم تكن مشيته مشية المترفين، ولا اختيال المتكبرين... بل كانت مشية رجلٍ عظيمٍ يحمل همَّ الرسالة، ويطوي الأرض بهمّة من أُرسل رحمة للعالمين.

كان إذا مشى، يمشي بسكينة ووقار، لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، ولا يضيع وقته في فضول النظر والكلام، وكأنّ عينيه تقولان: "إن لي ربًّا يدبّر أمري، وأنا على موعدٍ مع البلاغ".

ووصفه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه – وهو من أصفى الناس نظرًا وأدقّهم وصفًا – فقال:
"كان إذا مشى تقلّع، كأنما ينحدر من صبب – "رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

أي: يرفع قدميه بقوّة، ويمشي بثبات، كأنّه ينزل من منحدر، لا يجرّ قدميه جرّ الكسلان، ولا يخطو خُطى المتفاخرين.

فكانت مشيته آية من آيات النبوّة:
جمعت بين الهمة والتواضع، وبين النشاط والسكينة، وبين حسن الهيئة ووقار المؤمنين.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه":ما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنما الأرض تطوى له] – "رواه الشمائل للترمذي.[

ومع هذا كله، لم يكن يتبختر، ولا يعرف الكبر إلى خطاه سبيلًا، فقد قال الله فيه:﴿ولا تمش في الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا﴾]الإسراء: ٣٧[
فكان أول الممتثلين، وأكمل المطبّقين.

فيا لله!
حتى في مشيه، رسالة...
رسالةٌ تقول: إن من عرف الله، لا يضيع وقته في التماوت، ولا يعلو على الناس بخطاه،
بل يمشي كما يمشي الأنبياء...
كأنما ينحدر من صبب..

الفقرة الخامسة: حياؤه صلى الله عليه وسلم – خُلقٌ كان يستحي منه الملَك

إذا ذُكر الحياء، فاعلم أنّ سيده وإمامه هو محمد صلى الله عليه وسلم...
حياءٌ لا ينبع من ضعف، بل من نقاء سريرة، وسمو خُلُق، وشدة تعظيم لله تعالى.

كان حياؤه أشدّ من حياء العذراء في خِدرها، لا يُواجه أحدًا بما يكره، ولا يُحرج قلبًا، ولا يُخدش خاطرًا، بل يلفّ الموقف بحكمةٍ وصمتٍ ووجهٍ يَشِي بالعتب دون أن ينطق بكلمة.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه":كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه – "رواه البخاري.

فما كان يُصعّب الأمور، ولا يُغلّظ القول، ولا يواجه بالكلام الجارح، بل كانت قسمات وجهه تنطق قبل لسانه، وتؤدّب بلطفٍ دون جرح، وتنكر منكرًا دون فضيحة.

فإذا سمع كلامًا لا يليق، أو رأى فعلاً يُستحى منه، احمرّ وجهه حياءً، وطأطأ رأسه كأنما يعتذر عن رؤية ما لا يرضي الله، حتى قال الصحابة: كأن الشمس تجري في وجهه حياءً، فنعرف الإنكار من غير أن يتكلم!

وقد أدّبه ربُّه على هذا الخلق العظيم، فقال له: ﴿وإنك لعلى خُلق عظيم﴾]القلم: ٤[
فكان حياؤه صلى الله عليه وسلم من أعظم صور هذا الخُلق، حتى قال بعض السلف: كان النبي صلى الله عليه وسلم يستحي من الله أن يُرى منه خلاف ما يحب، فكيف لا يستحي من الناس؟

وكان جبريل عليه السلام يأتيه بالوحي، وما مسّه إلا وقارٌ وهيبة، حتى قيل :إن الملَك كان يستحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أكرمه الله من مخلوقٍ إلا وجعل له نصيبًا من حيائه.

حياءٌ يملأ القلوب نورًا، ويُعلّمنا أن القوة لا تُلغِي الحياء، وأن الشجاعة لا تُعارض الستر، وأن الحياء لا ينقص من الرجولة شيئًا، بل يزيدها جلالًا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم" :الحياء لا يأتي إلا بخير] – "رواه مسلم.[

فما أعظمك يا رسول الله...
حياءك أدّب القلوب، وسيرتك زكّت النفوس،
وجعلتنا ندرك أن الخلق قبل الفعل، وأن الطهر زينة النبوة،
وأنك كنت حيِيًّا، يستحيي منك الملَك!

الفقرة السادسة: مزاحه صلى الله عليه وسلم – لا يقول إلا حقًّا

لم يكن ضحكه صلى الله عليه وسلم صخبًا، ولا مزاحه عبثًا، بل **كان تبسّمه صدقة، ومزاحه عبادة، وكلامه حقًّا في ثوب لطيف من الدعابة الراقية التي لا تجرح قلبًا ولا تهتك سترًا.**

كان يمازح أصحابه وأهله، يلاطفهم ويبتسم في وجوههم، يُدخل السرور على نفوسهم، دون أن يتخلى عن وقار النبوة، أو يخرج عن دائرة الصدق.

عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال":ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم" – [رواه الترمذي.]

ومن طرائف مزاحه الهادفة:
دخلت عليه امرأة عجوز تطلب منه أن يدعو لها بدخول الجنة، فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال لها:

"لا تدخل الجنة عجوز"فاغرورقت عيناها بالدموع، وظنت أن الكِبَر قد حرمها من النعيم، فقال لها برحمة الأب وحنان المربي مازحًا وهو يقرأ :﴿**إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكارًا**﴾]الواقعة: ٣٥–٣٦[
أي: إنك يوم تدخلين الجنة، **ستدخلين شابةً نضرةً، في أبهى صورة وأجمل حال!**

فهكذا كان مزاحه ...**ابتسامة تحمل بشارة، وطرفة تفتح باب الأمل، وكلمة خفيفة تنقل معاني عظيمة.**

وكان يقول":**إني لأمزح، ولا أقول إلا حقًّا**] – "رواه الطبراني بإسناد حسن.[

فمزاحه لم يكن لإضحاك فقط، بل كان **كالسراج ينير القلوب، ويُبهج الأرواح، ويجمع الناس من حوله بالمحبة،** وما ضحك أحد في وجهه إلا زاده هيبة، وما مازحه أحد إلا زاده حبًّا...

صلى الله عليك يا رسول الله، يا من جمعت بين وقار النبوة وبسمة القرب، فمزحت ولم تَكذب، وقلّت كلماتك وعظُم نفعها.

الفقرة السابعة: صمته وكلامه – إذا تكلم سكت جلساؤه

ما كان كثيرَ الكلام، ولا مسترسلًا في الحديث، بل **كان صمته وقارًا، وكلامه دررًا،**
يسكت فينصت له المكان، ويتكلم فيخيم السكون على الجلساء، فلا يُسمع إلا صوته المبارك، كأنه يُتلى من مصحف قلبه.

كان لا يتكلم إلا فيما يعنيه، **فإذا نطق، نطق بحكمة، وإذا سُئل، أجاب بجوامع الكلم،**
يفصل بين المعاني ببلاغة، فلا حشوًا يشوش، ولا تقصيرًا يخلّ،
بل كلام **تتذوقه الآذان وتحفظه القلوب، وتغشاه مهابة الرسالة وبساطة المعنى.**

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهي من أعلم الناس بشأنه":**ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم هذا، ولكن كان حديثه فَصْلًا، تفهمه القلوب، وتحفظه الآذان**] – "رواه البخاري في الأدب المفرد.[

فهو **إذا سُئل أجاب بجواب يغني عن السؤال، وإذا تحدث اقتنص من الكلام أعذبه، ومن البيان أوجزه،** كأن كلماته من نور، وكأن منطقه قرآن يتلى.

وإذا تحدث، **سكت الجالسون، ومالت الرقاب، وأرهفت الآذان، وسكنت القلوب،** لأنهم يعلمون أنهم لا يسمعون صوت بشر، بل صوت من لا ينطق عن الهوى.

فحديثه **هدى، وصمته عبادة، وسكوته فكر، وكلماته شفاء...**

صلى الله عليه وسلم، ما أهيب منطقه، وما أندى حديثه، وما أجمل صمته وكلامه!

الفقرة الثامنة: نظره – خفض الطرف ونظر التقدير

لم يكن صلى الله عليه وسلم من أولئك الذين **يُطلقون أبصارهم بلا حياء، أو يحدّقون في الوجوه بلا حدود،**
بل كان طرفه مغموسًا بالحياء، **لا يسبق نظرُه قلبه، ولا تتقدّم عينه على أدبه،**
كان غضّ الطرف حياؤه، ورفع البصر حكمته، ونظراته لا تعرف التطفل، بل تعرف التقدير واللطف.

كان نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، لا لأن السماء ليست موطنًا له،
بل لأن **تواضعه الجليل يمنعه من التطلع إلا لما أذن الله له أن ينظر إليه،**
وإذا نظر إلى السماء، فهو نظر تبتل ودعاء، لا نظر غفلة ولهو،
وإذا التفت، لم يكن يلتفت برأسه فقط، بل كان **يلتفت بجسده كلّه،** كأنما **يُعطي من أمامه مقامًا ومهابة، ويُشعره أنه في موضع اهتمامٍ لا يُزاحم.**

وفي وصفه المدهش الذي خلدته أم معبد، تلك المرأة البدوية الذكية، قالت:

"أبْلج الوجه، أزْجى الحاجب، في عينيه دعَج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صَهَل، وفي عنقه سَطَع، أحْوَر أكْحل، أزَجّ أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سماه وعلاه البهاء."

ما أبلغ هذا الوصف!
فنظرته جمعت بين الوقار والجمال، وبين الحياء والبصيرة، وبين الهيبة والمحبة،
وما رفع صلى الله عليه وسلم بصره إلى أحد إلا وأشعره بعزّ، ولا خفضه إلا وأدّبنا بدرس في التواضع والحياء.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه"**:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحدّ النظر**] – "رواه الترمذي، وصححه الألباني.[

وفيه أعظم الآداب، لمن أراد أن يتأسى بنبيّ الهدى، فلا يملأ عينه من الناس، ولا يتتبع العورات بالنظر، بل يُلقي من عينيه السلام، ومن طرفه الحياء.

نظره صلى الله عليه وسلم نور، ولكنه لا يؤذي، وهيبة، لكنها لا تُرهب، ورحمة، لكنها لا تُستباح.

فما أطيب عينه إذ تفيض بالنور، وما أكرم طرفه إذ يفيض بالحكمة...
صلى الله عليه وسلم، ما أحياه بنظره، وما أزكاه بحيائه، وما أعلاه بأدبه!

الفقرة التاسعة: مظهره – نظافة وأناقة وتوازن

لم يكن مظهره صلى الله عليه وسلم صاخبًا يطلب به شهرة، ولا باهتًا يدلّ على إهمال،
بل كان توازنًا بديعًا بين **نظافة البدن، وأناقة الثياب، وطيب الرائحة، ووقار الهيئة.**

كان إذا مشى، أسرع بخطًى واثقة، يتكفأ تكفؤًا كأنما ينحدر من صبب،
وإذا التفت، التفت جميعًا، لا يلتفت بجزءٍ من جسده كما يفعل المتكبرون،
وإذا مرّ، عبقت الطرقات بشذى طيبه، كأنما عطر النبوة له أثر لا يزول.

قال علي رضي الله عنه" **:كان يعجبه الطيب، ويهتم بالسواك والوضوء**] – "رواه أحمد والبزار.[

كان الطيب له زينة، والسواك له طُهر، والماء له حياة...
فلا تراه إلا مهندمًا، جميل الرائحة، نقي الثوب، كأن الجمال خُلِق له ومنه.

بل كان يُسَرّح شعره، ويضع الطيب في مفارقه، ويحب أن يلقى الناس على هيئة طيبة،
يقول أنس رضي الله عنه" :**ما شممت عنبرًا ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم**] – "متفق عليه.[

فيا من ظننت أن الزهد إهمال، تأمل هيئة نبي الزهد والجمال،
ويا من حسبت أن العبادة تخالف الأناقة، **تعلّم من نبيّ الطهر كيف جمع بين جمال الروح ونظافة الجسد.**

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يلبس الغالي، لكن إذا لبس، نظّف وكمل واعتدل،
ثوبه نقيّ، شعره مرتّب، رائحته عطرة، سمته مهيب، وبساطته أجمل من التكلّف.

فما أحلى هيئته، وما أكمل خلقه، وما أزكاه ظاهرًا وباطنًا...
صلى الله عليه وسلم، جمالٌ يمشي على الأرض، ووقارٌ يُعلّم الأجيال كيف يكون الأدب مع النفس والخلق والخالق.

الفقرة العاشرة: نومه واستيقاظه – عبادة بين جنبيه

لم يكن نومه غفلة، ولا صحوه عادة،
بل كانت **كلّ لحظة من حياته عبادة** ...حتى إذا أغمض عينيه، سكنت جوارحه، ولم تسكن روحه

ينام على شقه الأيمن، ويضع يده تحت خدّه الطاهر،
ويلقي بين يدي الله آخر ما ينطق به لسانه" :**اللهم باسمك أموت وأحيا"**
كأن النوم موتٌ صغير، فلا ينام إلا وهو مسلم وجهه لله، مستودعًا روحه بين يديه.

فإذا انشقّ الصباح عن وجهه، انبعث منه التسبيح والامتنان،
فيقول بأول نفس بعد اليقظة" :**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور**] – "رواه البخاري ومسلم.[

هكذا كان... نومه تسليم، واستيقاظه شكر، ومابينهما طهارة قلب لا تغفو.

لم يكن يعرف كثرة النوم، ولا يطلب فراش الراحة،
بل يقوم من الليل **يصلي حتى تتفطر قدماه، وترتجف أركانه، ويبكي خشيته،**
فإذا قيل له" :*أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"*
قال في تواضع العارفين" :**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟"**

نامت العيون، وغفت الأجساد،
أما هو، فقد قام بين يدي ربّه يناجي، ويستغفر، ويشكر،
في سكون الليل تجلّت أعظم معاني العبودية.

كان ينام، لكن لا تغفل روحه،
ويستريح، لكن لا تنقطع صلته بالله،
فكل سكنة منه طاعة، وكل حركة قربى، وكل لحظة نور بين جنبيه.

فيا من ظن أن العبادة صلاة فقط،
تعلّم من نبيّك أن **النوم إذا اقترن بالنية، وصحبه الذكر، صار عبادة تُكتب في صحائف الطائعين.**

الفقرة الحادية عشر ضحكه وبكاؤه – توازن في المشاعر

كان متوازنَ القلب، لا يطغى عليه الفرح حتى ينسى الآخرة،
ولا يغلبه الحزن حتى ييأس من رحمة الله.
يضحك تبسمًا، ويبكي خشيةً وإنابة.

لم يكن فظًّا غليظًا، ولا دائم الكآبة،
بل كان وجهه الوضيء يفيض **ببشاشة المحبة ونور السكينة.**

يقول عبد الله بن الحارث" :**ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم**] – "رواه الترمذي.[
كان إذا ضحك، **تبسّمت روحه قبل ثغره،**
ضحكة لا تُفزع، ولا تُخجل، ولا تُسرف،
ضحكة تحمل القرب، وتغمر القلوب طمأنينة.

وفي المقابل، إذا وقف بين يدي ربه،
انكسر قلبه، وسالت دموعه، حتى يُسمَع لصدره أزيزٌ **كأزيز المرجل من البكاء**] –رواه أبو داود.[
يبكي خشوعًا، **لا جزعًا ولا ضعفًا، بل حُبًا وخشية وتعظيمًا.**

يضحك مع أصحابه ليؤنسهم،
ويبكي مع ربه ليرتقي في عبوديته.
هكذا كان... توازنًا نادرًا بين فرح الروح وانكسار القلب، بين طلاقة الوجه وخشوع السجود.

إنه **النبي الإنسان**، الذي علم الدنيا أن **الضحك لا يُسقط الهيبة، والبكاء لا يُنقص الرجولة.**

الفقرة الثانية عشرة: تعامله مع الأطفال – رحمة تتجلى في أبهى صورها

كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يعيش الرحمة لا يحدّها وصف، وتفيض من حنانه أنهار من العطف، حتى تفتّحت قلوب الصغار على أنسام حنانه، كما تتفتّح الأزهار على قطرات الندى. ما كان يرى طفلًا إلا وانفرجت شفتاه الطيبتان عن ابتسامة صادقة، تبعث الأمن في قلبه، وتغرس الطمأنينة في وجدانه.

كان يحمل الحسن والحسين رضي الله عنهما، ويقبّلهما، ويضمهما إلى صدره الشريف، فإذا وضع الحسين فاه الصغير على فم جده صلى الله عليه وسلم، جعل الحبيب يُدخل لسانه في فم الحسين، رحمةً ومؤانسةً، ثم يرفع يديه إلى السماء ويقول في محبة صافية ونفَسٍ مكللٍ بالدعاء» :اللهم إني أحبهما فأحبهما «رواه البخاري ومسلم.

أي حنان هذا الذي بلغ أن يعلّق النبي صلى الله عليه وسلم محبة عبدين صغيرين بمحبّة الله عز وجل؟!

وكان إذا رأى طفلًا في صلاته يبكي، خفف القراءة، وأوجز الركوع والسجود، رحمةً بأمّه ورفقًا بحاله. يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم»:إني لأقوم في الصلاة، فأريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوّز في صلاتي، كراهية أن أشقّ على أمّه «رواه البخاري ومسلم.

وما أروع صور الرحمة حين تتجلى في سجوده الشريف، فإذا بالحسن يرتقي ظهره الطاهر وهو ساجد بين يدي ربه، فلا ينهره، ولا يقطعه، بل يطيل السجود إيناسًا له، حتى ظنّ الصحابة أن شيئًا نزل بالوحي! فلما قضى صلاته قال لهم: »إن ابني هذا ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته «رواه النسائي والحاكم وصححه الألباني.

هكذا كانت نبوته صلى الله عليه وسلم مشفوعةً بالأبوة، وهكذا كانت صلاته مرصّعةً بالرقة، وهكذا عرف الناس أن الرحمة ليست في القول، بل في الموقف، لا في الشعارات، بل في سلوك النبوة وأفعالها.

إنها الرحمة التي قال الله عنها :﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾]الأنبياء: ١٠٧[،
رحمة امتد ظلّها حتى ضمّ الأطفال في حضن النبوة، ومسح دموعهم بيده المباركة، وكتب فيهم سنّةً خالدة تتوارثها القلوب الرحيمة إلى قيام الساعة.

الفقرة الثالثة عشرة عدله صلى الله عليه وسلم – لا يُجامل في الحق، ولا يَميل عن العدل

ما عرف الناس عدلًا كهذا العدل، ولا رأت الدنيا ميزانًا أقسط من ميزان محمد صلى الله عليه وسلم؛ عدلٌ لا تميل به العاطفة، ولا تهزّه القرابة، ولا تغرّه المناصب والوجاهة. كان صلى الله عليه وسلم إذا غضب، لم يخرجه الغضب عن حدود الحق، وإذا قضى، لم يمل عن جادة الإنصاف، ولو كان القضاء على من أحبّ من الخلق.

بلغ به تعظيم العدل أن أعلن على الملأ، في كلمة خالدةٍ دوت في أسماع الدهر، وأقامت موازين الحق في أرجاء الزمان، فقال في حزم لا يعرف التردد، وفي عدل لا يعرف الهوى» :لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها «رواه البخاري ومسلم.

أين المحاباة؟! وأين المجاملة؟! هذه فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين، وفلذة كبد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، لا تمنحها القرابة حصانةً، ولا ترفعها المحبة فوق حدود الشريعة.

ولم يكن عدله مقتصرًا على الخصام بين الناس، بل أنصف الخصوم من نفسه، وردّ الحقوق على أصغر أصحابها.
فقد خطب يومًا فقال للناس، في مشهدٍ تهتزّ له القلوب من روعة الإنصاف:
»من كنتُ جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنتُ شتمتُ له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه«
رواه أحمد والطبراني، وحسنه الألباني.

بل بلغ به الورع والعدل أنه في مرض موته صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس مع شدة الألم، يطلب منهم أن يُعطوا كل ذي حق حقه، ويقتصّوا منه إن ظلمهم، فقال في جمعٍ حاشد»:من كنت جلدت له ظهرًا، فهذا ظهري فليقتص منه، ومن كنت أخذت له مالًا، فهذا مالي، ومن كنت شتمت له عرضًا، فهذا عرضي، ولا يقولن أحد: أخشى الشحناء من رسول الله، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني«رواه الطبراني في الكبير، والهيثمي في المجمع، وحسنه الألباني.

كيف لا يكون عدله هكذا، وقد قال له ربه في محكم التنزيل:﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾]المائدة: ٤٩[
وقال جل جلاله:﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾]النحل: ٩٠.[

لقد أقام صلى الله عليه وسلم دولةً على الحق، وأسس مجتمعًا لا يُبنى على المجاملة ولا يُدار بالتحيّز، بل يُدار بميزان الشريعة، ولو على النفس والأهل.

فطوبى لمن جعل النبي صلى الله عليه وسلم قدوته في العدل، وطوبى لقلبٍ تنبض فيه هذه المواقف فتقيمه على الصراط المستقيم.

الفقرة الرابعة عشرة: تواضعه صلى الله عليه وسلم – عظمة تتخفى في بساطة، ومقام يتجلى في التواضع

كان تواضعه صلى الله عليه وسلم كالنسيم، لا يُرى ولكن يُلمس في كل موقف، ويُشعر به في كل تعامل، تواضعٌ لا يُمثل، بل ينبع من قلبٍ عظيم عرف الله، فأذله له، فرفعه فوق الخلق جميعًا.

ما كان يجلس على عرش، ولا اختصّ لنفسه مجلسًا، بل إذا دخل مجلسًا، جلس حيث ينتهي به المجلس، لا يطلب صدارة، ولا يحب الترفُّع، وإنما كان مجلسه مجلس عبدٍ عرف مقامه مع الله، فهانت عليه الدنيا وما فيها.
قال عبد الله بن عمرو»:لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا«رواه البخاري ومسلم.

كان إذا مشى في طرقات المدينة لا يُفرّق بينه وبين الناس بلباس أو هيئة، ولا يُرى عليه مظهر تكبّر أو ترفُّع، بل يشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، يزور المرضى، ويجالس الفقراء، ويُجيب دعوة المساكين، ويُجالسهم على الأرض، ويقول: »إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد«رواه أبو يعلى وابن سعد، وحسنه الألباني.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه – وقد خدمه عشر سنين – وهو يصف مشهدًا يهزّ الجبال من تواضعه صلى الله عليه وسلم» :إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به حيث شاءت«رواه البخاري.

وما كان يخجل أن يخدم نفسه، فيخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويعجن مع أهله، ويقول كما جاء في الحديث الصحيح: »كان في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج«رواه البخاري.

وكان يأكل كما يأكل الناس، لا يترفّع عن الطعام البسيط، ولا يستنكف أن يشارك أحدًا في لقمة أو تمرات، حتى قال أصحابه» :كان صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك« رواه الترمذي وأحمد، وصححه الألباني.

وكيف لا يكون هذا حاله، وقد ربّاه الله على عينه، وقال له في كتابه:﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾]الشعراء: ٢١٥[
وقال جل في علاه:﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم * لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم﴾]الحجر: ٨٧–٨٨[.

لقد كان تواضعه صلى الله عليه وسلم تاجًا على رؤوس العظماء، ودستورًا يُعلّم أهل الكبرياء أن الرفعة في الانكسار لله، والعظمة في خفض الجناح لعباد الله، وأن من تواضع لله رفعه، ومن تعاظم قصمه.

فهل بعد هذا التواضع من قدوة؟ وهل بعد هذا النور من سبيل؟

الفقرة الخامسة عشرة: رحمته بالحيوان – نورٌ عمّ كل حي، ورحمةٌ وسعت حتى البهائم

لم تكن رحمته صلى الله عليه وسلم قاصرة على البشر، ولا مقتصرة على من يعقل الخطاب ويدرك الفهم، بل كانت رحمةً تفيض حتى عمّت من لا ينطق، وبلغت قلوب الدواب والطيور، حتى استشعرت النفوس كلها، أن هذا نبيٌّ قد أرسله الله رحمةً للعالمين، لا يستثني من عوالم الرحمة أحدًا.

رأى ذات يوم طائرًا مفزوعًا يرفرف بجناحيه فوق رؤوس الصحابة، يبحث عن فرخه الذي أُخذ من عشه، فوقف صلى الله عليه وسلم وقد ارتجف قلبه لجزع هذا المخلوق الضعيف، وقال بلهجة من تُفطر قلبه الشفقة:
»من فجع هذه بولدها؟! ردوا ولدها إليها «رواه أبو داود، وهو حديث حسن.

تأمل! طائرٌ لا يُكلم، وصرخة لا تُفهم، لكنه صلى الله عليه وسلم فهمها، لأنها خرجت من أمٍ مكلومة، فرأى أن ردّ الفرخ إلى أمه طاعة لله، ورحمةً منبثقة من قوله تعالى :﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

وفي يوم آخر، دخل صلى الله عليه وسلم حائطَ رجل من الأنصار، فإذا بناقةٍ تبكي، قد خنقها العطش أو الجوع، فاقترب منها النبي الرحمة، ومسح دموعها بيده المباركة، ثم قال»:من ربّ هذه الناقة؟«فقال فتى من الأنصار: أنا.
فقال له صلى الله عليه وسلم»:أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ إنها شكت إليّ أنك تجيعها وتدئبها« رواه أبو داود وأحمد.

ثم عمّم وصيته الخالدة لكل من كان له بهيمة أو دابة، فقال صلى الله عليه وسلم»:اتقوا الله في هذه البهائم المعلّقة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة«رواه أبو داود، وصححه الألباني.

بل جعل الرفق بالحيوان من أسباب دخول الجنة، فقال»:بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفّه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له«قال الصحابة: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟قال»:في كل كبدٍ رطبة أجر «رواه البخاري ومسلم.

فرحمةٌ كهذه، كيف لا تُتبع؟ ورحمةٌ كهذه، كيف لا تملأ القلوب حبًا واتباعًا؟
لقد كانت الرحمة النبوية معجزة تمشي على الأرض، تطعم الجائع، وتجفف دموع الحيوان، وتُنقذ الطير من الفزع، وتُذكّر الخلق أن هذا الدين ليس شعائر جامدة، بل حياةٌ تسري في كل شيء حي.

الفقرة السادسة عشرة: شمائله كلها دعوة ناطقة – هديٌ يتحرك على الأرض

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيةً بالكلمات فحسب، بل كانت حياته كلها آية تمشي، ومنهجه دعوة صامتة أبلغ من الخطب، وسيرته تجسيدٌ حيٌّ للقرآن الذي أنزله الله رحمة للعالمين.

كان صلى الله عليه وسلم إذا مشى سارت الهداية، وإذا جلس فاضت الطمأنينة، وإذا تبسَّم أشرق النور، وإذا غضب لم يتجاوز العدل، وإذا خاصم لم يفجر، وإذا وعد لم يخلف، فشمائله كانت دينًا حيًّا، يرى فيه الناس صورة الإسلام قبل أن تُتلى عليهم آياته.

ولذلك قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه – وكان حبرًا من أحبار اليهود قبل إسلامه:–
"لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب"رواه الترمذي، وصححه الألباني.

ما هذا البيان الذي يتدفق من غير لسان؟! ما هذه الدعوة التي تتحدث من غير حروف؟!
إنها دعوة الأخلاق التي هزّت القلوب، قبل أن تخترقها آيات الكتاب.

ولم يكن ذلك مقصورًا على فردٍ أو حادثة، بل كم دخل في دين الله رجال ونساء، لا لحُجّة نُقِلت، ولا لمعجزة رُويت، بل لحُسن خُلقٍ شاهدوه، وعدلٍ لمسوه، ورحمةٍ احتوَتهم من غير أن يُسألوا.

في مكة، لم يكن يملك المنبر ولا السلطان، لكنه ملك القلوب بأمانته وصدقه، فسمّاه أعداؤه "الصادق الأمين."
وفي المدينة، دخل الناس في دين الله أفواجًا، وكان كثير منهم يقولون" :ما رأينا مثل هذا الرجل في حُسن الخلق، والوفاء، والرحمة." وكيف لا تكون شمائله دعوة، وهو الذي قالت فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها»:كان خُلُقه القرآن«رواه مسلم.

تأمّل هذا التعبير الجليل: لم يكن يقرأ القرآن فقط، بل كان قرآنًا يُرى، وآيةً تمشي بين الناس، وحجة ناطقة بلغة الخُلق، تشهد أن الإسلام ليس طقوسًا جامدة، بل نورًا في القلب، ورحمة في التعامل، وعدلًا في الميزان.

هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم، دعوته لا تقتصر على منبر، بل كانت تسري في كل سطر من حياته، لتشهد الدنيا أن من أراد أن يبلغ القلوب، فليتبع نبي الأخلاق، وليجعل من سلوكه دعوةً قبل أن يجعل من لسانه خطبة

الباب التاسع: النبي صلى الله عليه وسلم في حياته اليومية – دقائق السيرة العملية

مقدمة الباب

ليست العظمة الحقيقية في الكلمات والخطب، ولا في لحظات النصر والمعارك، فحسب، بل تكمن أيضًا في **تفاصيل الحياة اليومية، في المواقف التي تتكرر كل يوم، في تعامل الإنسان مع أهله، وخدمه، وأصحابه، وخصومه، وفي الطعام، والنوم، والمشي، والدعابة، والابتسامة.**

في هذا الباب، نغوص في **دقائق السيرة العملية**، لنرى النبي **صلى الله عليه وسلم** كما رآه أهل بيته في بيته، وكما عاشه الصحابة في طرقات المدينة، نرقب كيف كان إذا دخل بيته، كيف يأكل، كيف ينام، كيف يداعب الأطفال، كيف يتفاعل مع من حوله، وكيف يزرع في النفوس الأمل والطمأنينة.

نحن هنا لا نتحدث عن نبي فقط، بل عن **القدوة في كل شيء، الإمام في كل حال، الإنسان الكامل في كل وضع** .إننا في هذا الباب لا نستعرض وقائع، بل نستلهم **منهجه التربوي، وبساطته، وتواضعه، ومحبته، وحكمته في أدق المواقف.**

ولأننا نؤمن أن **السيرة ليست تاريخًا يُروى، بل سلوكًا يُحتذى**، فإن تأمل هذه التفاصيل اليومية هو ما يُحوّل الإعجاب بالنبي **صلى الله عليه وسلم** إلى **اتباع له في كل موطئ قدم، وكل حركة وسكنة.**

فما أحوجنا إلى أن نعيش السيرة في بيتنا كما عاشها في بيته، ومع أبنائنا كما عاشها مع الحسن والحسين، وأن نتعلم كيف كان رحيمًا، كريمًا، بسيطًا، أنيقًا، حلو العشرة، عظيم الأدب!

هنا تبدأ **دقائق السيرة العملية** ...فهلمّ إلى عالم النور، لننظر كيف كان الحبيب **صلى الله عليه وسلم** في حياة الناس، ومع كل الناس، كل يوم.

الفقرة الأولى مع أسرته – الرحمة في أسمى صورها، ونبل القيادة في أدق تفاصيلها

في بيت النبوة، حيث تنزل الوحي، وتتنزل السكينة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضع تاج النبوة ليعلو به على أهل بيته، بل كان يخلع عن كتفيه جلال القيادة ليحمل معهم أعباء الحياة، ويغمرهم بحنانه الفياض.

لم يكن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم في بيته نبيًّا يعلو ولا سيّدًا يُرهَب، بل كان زوجًا رحيمًا، وأبًا عطوفًا، وجدًّا محبًّا، يملأ البيت دفئًا، وينشر بين جدرانه عبق المودة، ويبني بالأخلاق حصنًا من الطمأنينة.

تقول عائشة رضي الله عنها عن أعظم رجل وطأت قدمه الأرض"**:كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة وكأنه لا يعرفنا"**رواه الترمذي.
أي أدب هذا؟! أي تواضع ذاك؟! يقف خادمًا في بيته، يرقّع ثوبه، ويخيط نعله، ويعجن عجينه، فإذا نودي للصلاة، تنقّل من خدمة الخلق إلى مناجاة الخالق، وكأنما فُصِل عن الدنيا كلها.

وكان صلى الله عليه وسلم يبدأ دخوله البيت بالسواك، ليقابل أهله بأطيب رائحة، وأندى خُلُق، ما اعتاد أن يعبس في وجوههم، بل كان يسبقهم بالسلام، ويمازح، ويلاطف، ويُقبّل.

وقد قال صلى الله عليه وسلم»**:خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**«رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

كان يقبّل الحسن والحسين على رؤوس الأشهاد، ويُعلن حبّه لهما بلا خجل ولا تحفظ، ويقول»**:اللهم إني أحبّهما فأحبّهما** «رواه أحمد،
ويقول للناس»**:من لا يَرحم لا يُرحم**«رواه البخاري .وفي رواية: لما رأى رجلاً لا يُقبّل أبناءه قال: «أوَأملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟.«

وفي أسمى معاني الوفاء، بقيت خديجة رضي الله عنها في قلبه حيّةً بعد رحيلها، يكرم صديقاتها، ويُكثر ذكرها، ويقول عنها في مواقف عديدة»**:إنها كانت وكانت «...**حتى غارت عائشة، فقال لها صلى الله عليه وسلم»**:إني قد رزقت حبها** «رواه مسلم.

وفي بيته، لم تكن الغيرة تخفى، ولا الخطئ يغيب، ولكنه كان يغضّ الطرف عن الهفوات، ويصبر، ويحسن المعاتبة، ويبتسم في مواضع الغضب، ويقول»**:رفقًا بالقوارير**«رواه مسلم،
مشبهًا النساء بالقوارير من الرقة، وحاثًّا على اللطف بهنّ.

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم في بيته، حيث تتجلّى الرحمة في أسمى صورها، وتُصاغ القدوة بأدق حركاتها وسكناتها، ليُعلّم الدنيا أن النبوة ليست مقامًا يُستعلى به، بل خُلُقٌ يُحتذى، ورحمةٌ تُبث، وإنسانيةٌ تسري في أدق تفاصيل الحياة. قال الله تعالى:**(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) {**النساء: ١٩[،وهو الذي جسّد هذه الآية بكل أحواله..

الفقرة الثانية :في السوق – حيث يُباع الصدق قبل السِّلع، وتُوزن الأخلاق قبل البضائع

لم يكن السوق عند النبي صلى الله عليه وسلم مكانًا تضطرب فيه الأهواء، أو تغيب فيه القيم، بل كان ميدانًا يُختبر فيه الصدق، وتُوزن فيه الأمانة، وتُقاس فيه الديانة بما تنطق به الموازين وتَشهد به المعاملات.

دخل يومًا إلى السوق، فرآى طعامًا معروضًا للبيع، فمدّ يده فيه، فوجد بللًا تحت سطحه اليابس، فقال»**:ما هذا يا صاحب الطعام؟**«قال: أصابته السماء يا رسول الله.فقال في غضب النُّبلاء، لا غضب التجار»**:أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشّ فليس مني**«رواه مسلم.
ما أبلغها من كلمة! لم يقل: "فليس من الصالحين"، بل قال» **:فليس مني**«، إشارة إلى براءته الكاملة ممن يبيع الضمير في سبيل الدينار والدرهم.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا باع، باع بالعدل والحق، وإذا اشترى، اشترى بالسماحة والرفق.
ما عرف المُماكسة، ولا رضي بالظلم، ولا تلكّأ في أداء الحقوق. بل كان يُثني على من جمع بين المعاملة الحسنة والتديّن

الصادق، فيقول»:**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى**«رواه البخاري.
وهكذا يُربّي الأمة على أن الأخلاق لا تُعلَّق على باب المسجد، بل تُمارَس في كل مقام وميدان.

وكان إذا مشى في السوق، لا يرفع صوته، ولا يُكثر الجدل، ولا يُعيب سلعة، ولا يُغالي بثمن، بل يتحلى بالحِلم والرفق، ويُوصي من بعده فيقول»:**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء**«رواه الترمذي وحسنه.

لقد كان السوق عنده مجالًا للتعبّد كما هو مجال للربح، وكان التديّن في عرفه لا يُقاس بطول القيام، بل بميزان الصدق والعدل والإحسان.قال الله تعالى}:**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**] {الأنعام: ١٥٢[
وقال سبحانه}:**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**] {المطففين: ١-٣[

هكذا كان نبيّنا صلى الله عليه وسلم: يُعلّم الناس أن الإيمان يظهر في السوق كما يظهر في الصفّ الأول من الصلاة، وأن الصدق في الميزان لا يقلّ قدرًا عن الخشوع في الركوع.

الفقرة الثالثة :في السفر – عبادة وقيادة وتواضع

ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر إلا وسبقهم خُلقه قبل خطاه، وسَمت بهم روحه قبل أن تسير بهم ركائبهم.
كان في كل رحلة يُثبت أن القيادة ليست بالأوامر، بل بالقدوة، وأن السيادة ليست بالتعالي، بل بالتواضع.

كان إذا سافر، أكثر من الذكر، وألحّ في الدعاء، وحافظ على الجماعة، وصار رفيقًا يُضحك أصحابه، ويُلاطفهم، ويُعلّمهم، ويخدمهم، ويقضي حاجاتهم بنفسه.

وكان من دعائه إذا ركب»:اللهم هوّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنا بُعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل«رواه مسلم.
كان يستودعهم الله، ويستودع نفسه، لأنه يعلم أن المسير إلى الله أعظم من كل مسير.

وما كان يُحب أن يُخدم دون مشاركة، ولا أن يُعفى من الجهد لمجرد أنه القائد.
في أحد الأسفار، اجتمع الصحابة لإعداد الطعام، فقال أحدهم: أنا أذبح، وقال آخر: أنا أطبخ، وقال ثالث: أنا أُعِدّ.
فقال صلى الله عليه وسلم»:وأنا أجمع الحطب«فقالوا: نكفيك يا رسول الله !قال»:إني أكره أن أتميز عليكم«رواه الطبراني في *الأوسط*، وحسنه الألباني.
يا الله! أي تواضع هذا! نبيٌّ مؤيَّد بالوحي، يحمل الحطب بين الصحابة ليغرس فيهم أن الشرف في العمل، لا في المنزلة.

كان يسير في سفره وظهره يحنو، لا يستعلي، ولا يفرض نفسه، بل يشارك في كل شأن، حتى إذا ضاقت الطريق، وسع بصدره قبل قدميه.
كان في السفر كما في الحضر: نبيًّا في محرابه، وأخًا في خيمته، وقائدًا على ظهر راحلته، لكنه عبدٌ لله في كل حين.

هكذا علّمهم أن السفر مدرسة، تُدرّس فيها دروس الإيمان، والخلق، والصبر، والرحمة.
قال تعالى}:قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا] {العنكبوت: ٢٠ [فساروا، وقلوبهم تنظر إلى السماء، وأعينهم تقتفي أثره على الرمال.

الفقرة الرابعة :في المجلس – حسن الاستماع والتوجيه الرشيد

إذا دخل النبي صلى الله عليه وسلم مجلسًا، دخل معه النور، وسكنت الأرواح، وأزهرت القلوب، كأنما الجلسة روضة من رياض الجنة.
لم يكن يَجلس ليُقال جلس، بل يجلس ليُربّي، ويُعلّم، ويُهذّب.
يجلس حيث ينتهي به المجلس، لا يُقيم أحدًا، ولا يُحبّ أن يُميز عن أحد، فإذا دخل أحدٌ وسّع له، وأكرمه، وحيّاه، وأشعره أنه في بيت المحبة.

وإذا تحدّث أحدٌ في حضرته، أنصت له كأنما هو أحبّ الناس إليه، لا يقطع حديثًا، ولا يُعرض بوجهه، بل يُقبل عليه بجسده وقلبه، وكأنه وحده في المجلس.
وإذا تكلم هو، نزل الكلام من فمه كالنور، عدّه الصحابة عداً، لفصاحته، وجزالة لفظه، وتمام بيانه، حتى قيل: "ما رأيتُ أحدًا أحسن منه حديثًا."ولم يكن يقسو في رد، ولا يَحرج في تعقيب، بل إذا رأى منكرًا، قال» **:ما بالُ أقوامٍ«...**فلا يُسمّي، ولا يُشهّر، بل يربّي بالحكمة، ويُقوّم بالستر، ويُعلّم بالرفق.
وكان مجلسه مجلس علم، لا تخلو زواياه من مذاكرة، ولا تخلو أطرافه من ذكر.
وكان فيه من الوقار ما يهيّب، ومن البشاشة ما يأنس، ومن المزاح ما يُضحك القلوب دون أن يُسقط الهيبة.

جلساتُه كانت دواءً للقلوب، ومنارةً للعقول، يخرج منها الجالس وقد ارتوى من العلم، وشبع من الأدب، وتزوّد من الإيمان.
مجالسٌ ليست كبقية المجالس، بل هي مجالس النبوة، ومصابيح الهداية، ومحاضن التربية الربانية.

الفقرة الخامسة :في الضحك والبكاء... حين تتجلّى إنسانيّة النبوّة

ما كان النبي صلى الله عليه وسلم جافّ القلب، ولا قاسي الطبع، ولا ممن تغلّفهم قشرةٌ من الجمود العاطفي، بل كان قلبه أنقى من الغمام، ورقّته تسري في أوصاله كما يسري النسيم في أكمام الزهر. عاش مشاعره بصدق، وبكى وضحك، ولكنه ما خاض في شيء من ذلك إلا بوقار الأنبياء، وخشوع العارفين بالله، وسمت المقرّبين.

بكى لفقد فلذة كبده، وقرّة عينه، إبراهيم، فاضت عيناه، واهتزّت جوارحه، ولكنّ لسانه لم ينطق إلا بما يُرضي الربّ الجليل، فقال والدموع تنحدر من عينيه الطاهرتين»:**إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفِراقك يا إبراهيم لمحزونون]** «رواه البخاري.[
بكاءٌ بلا اعتراض، ودموعٌ بلا سخط، حزنٌ يرضي الله ولا يسخطه، وتلك ذروة التوازن الوجداني في مدرسة النبوة.

وكان إذا ضحك، ضحك تبسّمًا، لا قهقهة، يشرق وجهه كالبدر في ليلة تمامه، فيتخلل ضحكه النور، وتنساب هيبته مع بشاشته فيسكن القلب قبل أن يضحك الوجه.عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال**:"ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم]** "رواه الترمذي.[

وكان يمازح أصحابه، ويلاطفهم، ويُدخل على قلوبهم السرور، ولكن لم يكن في مزاحه كذبٌ، ولا في دعابته خُروج عن الحق، بل هو مزاح الأنبياء: حقٌّ يُضحك، ولا يجرح، أدبٌ يُلاطف ولا يُهين.
روى الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال:**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خُلقًا، وكان لي أخ يُقال له أبو عمير، وكان له نُغر (طائر صغير) يلعب به، فمات، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: يا أبا عُمير، ما فعل النُّغَير؟."**

تأمل كيف شارك النبي صلى الله عليه وسلم طفلًا صغيرًا حزنه على طائره، بكلمةٍ حانية، ومزاحٍ رقيق، فيه دفء الأبوة، ولُطف النبوة، وعظمة الإنسانية.

وقد نقلت كتب السيرة صورًا عظيمة لهذا التوازن الشعوري؛ فعندما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الحُسين بن علي وهو طفلٌ صغير يلعب، قبّله واحتضنه، فلما استنكر أحد الأعراب وقال: "إن لي عشرةً من الولد ما قبّلت واحدًا منهم!" أجابه النبي صلى الله عليه وسلم بحكمة النبوة»:**أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟**] «رواه البخاري.[فكانت الرحمة عنده أصلًا، لا تصنُّعًا، ومشاعره منضبطة بهدي السماء لا بهوى النفوس.

وهكذا كان الحبيب صلى الله عليه وسلم في تعامله:
ضحكٌ لا يُسقط الهيبة، وبكاءٌ لا يفقد الصبر، ومشاعرٌ مروّضةٌ بوحي السماء، لا تطيش ولا تنفلت. فكان صلى الله عليه وسلم في كل حالاته مرآةً صادقةً للآية العظيمة:﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾]القلم: ٤.[

إنها الإنسانية حين تهتدي بالوحي، والعاطفة حين تُهذّب بالنبوة، والمشاعر حين تُربّى في حضن الشرع.

الفقرة السادسة في المرض... حين تتجلى عظمة الصبر، وجمال الرضا

ما عرفَتِ البشرية قلبًا أصبر ولا نفسًا أصفى من نفسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، في عافيته كما في مرضه، في رخائه كما في شدته، كان نبيًّا مؤيدًا بالوحي، لكنه في البلاء عبدٌ محض، وقف على باب الله خاشعًا، متجردًا من حوله وقوته، راضيًا بكل ما قضى به ربّه.

لم يُعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اشتكى وجعًا أو تأوّه من ألمٍ إلا صبر واحتسب، لا تضجّر ولا جزع، بل تسليم مطلق لرب الأرباب. كان إذا ألمّ به المرض أو اشتد عليه الوجع، لا ينفلت منه سوى كلمات الذكر والدعاء، يسكّن بها ألمه، ويعطّر بها آخر أنفاسه.
كان يقول» :**اللهم أعنّي على سكرات الموت**«، ويضع يده في الماء يمسح بها وجهه الشريف، ويُردّد» :**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**] «رواه البخاري.[

من شدّة ما نزل به في أيامه الأخيرة، كان يُصاب بالإغماء تارة، ثم يُفيق ليُصلّي، ثم يغشى عليه من شدّة الحمى، وهو مع ذلك لا يزال يُوصي، ويذكر الله، ويرفع طرفه نحو السماء، ولسانه يلهج»:**اللهم في الرفيق الأعلى**] «رواه البخاري.[

وحين رآه بعض أصحابه يتألم، تعجّبوا من شدة ما أصابه، فقال لهم صلى الله عليه وسلم:
»**إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**] «رواه أحمد وصححه الألباني]، فكان بلاؤه شرفًا، وصبره مقامًا، ورضاه مقام تسليم يفوق الوصف.

روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فقال :يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديدًا!فقال» :**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم** «فقال: ذلك أن لك أجرين؟ قال» :**أجل، ما من مسلم يُصيبه أذى؛ شوكة فما فوقها، إلا كفّر الله بها سيئاته، كما تحطّ الشجرة ورقها**] «رواه البخاري ومسلم.[

ومع كل ألمٍ اعتصر جسده الطاهر، بقي قلبه معلقًا بالأمة، لا ينسى أن يوصي بها حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، فكان آخر ما نُقل عنه قبل وفاته صلى الله عليه وسلم أنه قال»:**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**] «رواه ابن ماجه وصححه الألباني]، حتى فاضت روحه الزكية إلى بارئها وهو يلهج بذكر الله، راضيًا قانعًا، مستسلمًا خاشعًا.

ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه: عبدٌ خاشع، لا يرى لنفسه رفعةً ولا منزلة، وإنما يقول في تواضعٍ جمّ:

»**بل أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**] «رواه أحمد وحسنه الألباني.[

لقد جسّد صلى الله عليه وسلم في مرضه وصبره أعظم صور التوحيد والتسليم، وامتثل لقوله تعالى:

﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾]البقرة: ١٥٥-١٥٦.[

كان مريضًا، لكنه في كل لحظةٍ يعلّمنا كيف يكون الرضا، وكيف يكون الذكر، وكيف تكون العبودية في أبهى صورها.

الفقرة السابعة :في الأزمات... حيث يولد الثبات، ويُروى العقل بحسن التدبير

لم تكن حياة النبي صلى الله عليه وسلم سلسلة انتصارات متتابعة، ولا أيامًا من اليسر والتمكين المتصل، بل كانت طريقه محفوفة بالأشواك، محاطة بالمكائد، مزروعة بالعقبات، لكنه ما اهتز، ولا ضعف، ولا تراجع، بل كلما اشتد البلاء، زاد يقينه، وكلما ضاق الخناق، ازداد أمله في الفرج، ثابتًا في موضعه كالجبل، لا تزلزله العواصف، ولا تقتلع جذوره الأعاصير.

حُوصر صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب ثلاث سنين كاملة، حُبس فيها مع بني هاشم، مسلمهم وكافرهم، لا طعام يدخل، ولا تجارة تُباع لهم، حتى سُمع بكاء الأطفال من خلف الصخور، وخشخشة الجلود اليابسة التي غلوا بها ليأكلوها، وأوراق الشجر التي كانت قوتهم، وما تراجع، وما قال: "إني متعب"، بل كان قلبه معلقًا بربه، ولسانه يلهج باليقين أن العسر يعقبه يسر، وأن الليل مهما طال، فإن الصبح آتٍ.

وقد وصفت كتب السيرة تلك المأساة العظيمة، فقال ابن هشام" :*حتى إن الرجل ليخرج بالليل فيسمع بكاء الأطفال يتضاغون من الجوع، وإنهم ليأكلون أوراق الشجر والجلد اليابس، وحتى أن فم أبي طالب تقرّح من كثرة الجوع*"، ومع ذلك، كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من الشعب في موسم الحج، يطوف على قبائل العرب، يعرض عليهم الإسلام، ويقول» :من يؤويني؟ من ينصرني؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي] «رواه أحمد.[

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم أن هذا الدين أعظم من أن يتوقف على راحة فرد، أو على لحظة رخاء، فصبر، وصابر، وثبّت من حوله، وربّى رجالًا لا تهزمهم المحن.

وحين اشتدت عليه الأحزاب، وجاءت قريش واليهود وغطفان بعشر آلاف مقاتل ليحاصروا المدينة، والريح تقلب خيام المسلمين، والجوع يقرصهم، والخوف يتسرّب في النفوس، كان النبي صلى الله عليه وسلم يحفر معهم الخندق بيده، يحمل التراب على كتفيه، ويقول موقنًا بوعد الله»:اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار] «رواه البخاري.[

وإذا رجفت القلوب، واضطربت الأفئدة، كان هو جبل الأمان، والركن الركين، يقول الله تعالى عن ذلك الموقف العظيم:﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾]الأحزاب: ١٠]، لكن مع هذا، ما نزلت به هزيمة، بل نزلت عليه السكينة، لأنه عَلِمَ أن النصر لا يولد إلا في رحم الشدة.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يُسلم نفسه للانفعال في الشدائد، بل يقود بعقلٍ راجح، وتدبيرٍ حكيم. ففي الهجرة مثلًا، لما اشتد الطلب عليه، واتجهت قريش إلى غار ثور، وكان الصديق رضي الله عنه خائفًا، قال له النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات تُخلّد الثقة بالله»:لا تحزن إن الله معنا] «التوبة: ٤٠]، فسكن قلب الصدّيق، وسكن الغار، ونجا النور.

تلك هي المدرسة النبوية في الأزمات:
ثباتٌ لا يتزلزل، وتخطيطٌ لا يغيب، وثقةٌ مطلقةٌ بالله لا تخدشها المخاوف، ولا تضعفها المحن .

الفقرة الثامنة :في النوم والاستيقاظ... عبادة لا تنقطع

ما كانت لحظة من لحظات حياة النبي صلى الله عليه وسلم تخلو من ذكر، ولا ساعة من ليله أو نهاره تخرج عن دائرة العبودية، حتى نومه الذي تخلد فيه الأجساد إلى الراحة، كان عنده بابًا من أبواب القرب، ووسيلة لشكر المنعم، ومجالًا لتحقيق التوازن بين حق النفس وحق الله.

كان ينام أوّل الليل، ليأخذ من الراحة ما يعينه على القيام، ثم يقوم في آخره، حين يسكن العالم، وتخفت الأصوات، ويصفو الجو، فيقف بين يدي ربه، يناجيه بقلبٍ خاشع، ولسانٍ ذاكر، وجوارح قد تطهرت من كل شواغل الدنيا.
قال صلى الله عليه وسلم حين سُئل عن فضل قيام الليل» :أفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل] «رواه مسلم]، فكانت أحبّ عبادة إليه بعد الفرائض، ومصدر أنسه وسكينته.

كان إذا أوى إلى فراشه الطاهر، لم يكن ينام كما ينام الغافلون، بل يجعل آخر عهده في يومه دعاء وذكرًا، فيجمع كفيه الشريفتين، وينفث فيهما، ثم يقرأ:﴿ قل هو الله أحد ﴾، و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾، و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ برأسه ووجهه، ثم ما أقبل من جسده، تأسّيًا بوحيٍ وهدى [رواه البخاري.]

وكان ينام على شقّه الأيمن، واضعًا يده اليمنى تحت خدّه، ويقول في خشوع»:اللهم باسمك أموت وأحيا«، وإذا استيقظ قال»:الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور] «رواه البخاري]، فكل لحظة عنده مفتاحٌ للذكر، سواء أكانت في وعي أو نوم، في حركة أو سكون.

وقد أخبرته زوجه الكريمة حفصة رضي الله عنها أنه كان يطوي فراشه، ويقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وإذا قيل له : *أتصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟* ، قال» :أفلا أكون عبدًا شكورًا؟] «رواه البخاري ومسلم]، فكان نومه عبادة، واستيقاظه شكرًا، وصمته تفكرًا، وكلامه ذكرًا، وسكونه خشوعًا.

وفي كل سُنة نبوية في نومه واستيقاظه، تربية لأمته على ألا يكون النوم هروبًا، بل راحةً بنية العبادة، وألا يكون الاستيقاظ عادةً، بل بعثًا جديدًا لحياة الطاعة، كما قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾]النبأ: ٩]، أي: راحةً لتجديد العزم، لا غفلةً عن الطاعة.

هكذا علّمنا الحبيب صلى الله عليه وسلم أن الإنسان المؤمن يمكنه أن يحوّل نومه إلى قرب، واستيقاظه إلى عبادة، إذا صحّت النية، ورافقها الذكر، وسار على هدي النبي المختار صلى الله عليه وسلم.

الفقرة التاسعة :في طعامه وشرابه... قناعة الشاكر، واعتدال الحكيم

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن عرفوا الشره، ولا ممن تعلقت قلوبهم بالتنوع والبذخ، بل كانت مائدته عنوان البساطة، وسيرته مع الطعام درسًا خالدًا في الزهد والرضا والاعتدال. لم يكن يأكل ليُسرف، ولا يشرب ليشبع، بل كان يأكل ليقوّي الجسد على الطاعة، ويشرب ليحفظ الصحة ويقيم العود.

لم يعرف الناسُ عنه يومًا أنه عاب طعامًا، أو استقذر ما وُضع بين يديه، بل كان يأخذ ما وجد، فإن اشتهى أكل، وإن لم يشتهِ ترك، من غير ذمٍّ ولا تأفف.
قال أنس بن مالك رضي الله عنه»:ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه «]رواه البخاري[،
فيا له من خُلقٍ يفيض أدبًا ورضا، ويعلّمنا أن النعمة إن لم تُشكر فهي نقمة، وإن لم تُحترم فهي محقورة.

وكان إذا جلس على الطعام، جلس جلسة المتواضعين، لا المتكئين، يأكل بثلاثة أصابع، ويسمّي الله أول طعامه، ويحمده في آخره، فكان يرى في كل لقمة فضلًا، وفي كل شربة رزقًا، وفي كل مائدة منّة من الله.

وقد روى المقدام بن معديكرب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال»:ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم لُقيمات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفَسه] «رواه الترمذي وقال: حسن.[
وما أبلغها من وصيةٍ نبوية، تجمع جوامع الطبّ والروح، وتؤسس لفنّ الاعتدال الذي بات مفقودًا في حياة كثيرين.

كان صلى الله عليه وسلم يشكر الله على القليل قبل الكثير، فإن أكل، قال» :الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه، وجعل له مخرجًا] «رواه أبو داود وصححه الألباني[،
فلم يكن يرى الطعام عادة يومية، بل كان يراه آية من آيات الله، ورزقًا يُوجب الحمد، ويستحق التذلل بين يدي الرزّاق الكريم.

وقد كانت تمرات قليلة تكفيه، وربما بات جائعًا ولم يملأ بطنه، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال":ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدَّقل (التمر الرديء) ما يملأ بطنه] "رواه مسلم.[

ومع هذا الزهد، ما اشتكى، وما تبرّم، بل كان يقول كما في دعائه»:اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا] «رواه مسلم]، أي: قدر الكفاية دون سرفٍ ولا حرمان.

هكذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم في الطعام والشراب:
قناعة في المبدأ، شكر في النهاية، واعتدال في كل لقمة، فكان نموذجًا لمن أراد أن يتعامل مع نعم الله بعين الرضا، لا عين الطمع.

وقد صدق قول الله تعالى في وصفه:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾]الأحزاب: ٢١[،
في أكله، وشربه، ونومه، وقيامه، وكل تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم.

الفقرة العاشرة :في ملبسه ومظهره... وقارٌ يعلوه الجمال، وبساطة تتلألأ بالنور

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أسير ثوب، ولا عبد مظهر، ولكنه في كل ما لبس وعَنِيَ بمظهره، كان يُعلّم الأمة كيف تجمع بين الجمال الحقيقي، والبساطة التي لا تنسلخ عن الوقار. فكان لباسه امتدادًا لرسالته: لا إسراف، ولا تكلّف، ولا تعلّق بالمظاهر، بل هندامٌ يعكس طهارة الداخل، وهيئةٌ تعبّر عن صفاء القلب، وسكينة الروح.

كان يلبس ما تيسّر، من غير اعتناء بنوع القماش أو ثمنه، فإن وجد القطن لبسه، وإن وجد الكتّان لبسه، وإن أعطي بردًا أو حُلّة لبسها، ما لم تكن فيها خيلاء أو مظهرُ مُتكبّر. وكان يقول صلى الله عليه وسلم كما روى مسلم:
»إن الله جميل يحب الجمال«، فجمال الملبس عنده جزء من جمال الروح، ولكن لا يكون مدخلًا للرياء ولا بابًا للغفلة.

وكان صلى الله عليه وسلم يُحب البياض من الثياب، لا لأنها أفخم أو أغلى، بل لأنها أنقى وأطهر، وكان يقول:
»البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفّنوا فيها موتاكم] «رواه أبو داود وصححه الألباني[،
فالثوب الأبيض عنده شعار حياة وممات، رمز النقاء والزهد والصفاء.

وقد وصفه أصحابه الذين لازموه وعرفوا هديه، بأبلغ وصف فقالوا» :ما رأينا أحدًا أشد بياضًا، ولا أحسن وجهًا، ولا أنظف ثوبًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم«،
فكان وقارُ الملوك في هيبته، وجمالُ الأنبياء في طلّته، وصفاءُ الصالحين في ثوبه ورائحته.

وكان يعتني بشعره، يدهنه ويمشّطه، ويهتم بلحيته، لا حبًا للزينة وحدها، ولكن لأن الجمال الطاهر عنوان المسلم، كما قال»:إن لبدنك عليك حقًّا] «رواه البخاري[،
فلا يهمل نفسه، ولا يُبالغ في زينته، بل توازنٌ يفيض سكينة، ويُجسّد الجمال النبوي في أكمل صوره.

وإذا لبس ثوبًا جديدًا، لم يغفل عن ربه، بل كان دعاؤه يسبق إعجابه، فيرفع كفّيه لله قائلًا:
»اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنع له] «رواه أبو داود وصححه الألباني[،
فهذه معاني العبودية تتسلل إلى كل خيط من لباسه، فلا يتحوّل الجديد إلى غفلة، ولا يتحول المظهر إلى مصدر فخر أو تفاخر.

لقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الزينة عبادة إذا وُضعت في موضعها، وأن الملبس وسيلة لا غاية، وأن الجمال لا يكتمل إلا إذا اكتسى بالحياء، وتوشّح بالتواضع، واقترن بشكر المنعم.

وقد قال الله تعالى في محكم كتابه :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾]الأعراف: ٣١[،
فكان صلى الله عليه وسلم يلبس أجمل ما عنده يوم الجمعة والعيد، لا للزينة في ذاتها، ولكن تعظيمًا للعبادة، وإجلالًا للمقام.

هكذا كان ملبس النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان مظهره:
بساطةٌ مغموسة في الوقار، وجمالٌ موشّح بذكر الله، لا يغيب عنه شكر، ولا يتسلل إليه كِبر.

الفقرة الحادية عشرة :في بيته... تواضعُ نبي، وحنانُ أب، وخُلقُ رسول

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في بيته نبيًّا تُشدّ إليه الرحال، ولا قائدًا تهابه القلوب، بل كان في بيته عبدًا لله، زوجًا رحيمًا، وأبًا حانيًا، وبشرًا من البشر، يعيش مع أهله بقلبٍ مفعم بالرحمة، وسلوكٍ يُدرّس في مدرسة النبل والخلق الرفيع.

تقول عائشة رضي الله عنها واصفة هديه الشريف"**:كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**] "رواه البخاري[،

فما جلس في بيته متعاليًا ينتظر الخدمة، بل كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم أهله بنفسه، لأن التواضع لم يكن عنده خُلقًا يُدرَّس، بل حياة تُعاش، وسلوكًا يُمارس.

كان إذا دخل بيته، دخل باسمًا، يحمل معهم همومهم، ويقاسمهم مشاعرهم، يلاطف هذا، ويداعب ذاك، ويستمع للشكوى، ويُشعر كل من في البيت أنه الأقرب، وأن له في قلبه منزلةً لا ينازعه فيها أحد.
ما رفع صوته في وجه امرأة، ولا وبّخ زوجة، ولا استخدم سلطته النبوية ليُرهب بها أهل بيته، بل كان بيته روضة من رياض الحنان، ومأوى من مأوى الطمأنينة.

وكان كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها" :**ألينَ الناسِ كلامًا، وأوفاهم عهدًا، وأعفَّهم يدًا**"،
فما امتدّت يده يومًا لتضرب امرأة، ولا تفوّه بلفظٍ يُحزن قلبًا أو يُكسر خاطرًا، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يعيش مع أهله كسيّد متسلّط، بل كرسول يُعلّمهم بسيرته معنى الحُب والسكينة والمودّة.

بيته صلى الله عليه وسلم لم يكن قصرًا يُبهر الأنظار، بل كان كوخًا صغيرًا يضيء بنور النبوّة، ودفء الحنان، ورقة الخلق.
ومع ذلك، فقد خرجت منه أنقى النفوس، وأطهر القلوب، وأعظم الرجال، لأنه بيتٌ تملؤه الرحمة، ويظلّله الحياء، وتُغشاه الملائكة.

لقد قدّم لنا صلى الله عليه وسلم نموذجًا فريدًا في فنّ العيش داخل البيت، ليس بالكلام، بل بالفعل:
بيته كان مدرسة لتعليم كيف يكون الرجل رجلًا في أخلاقه، أبًا في حنانه، زوجًا في وفائه، نبيًا في رحمته.

قال تعالى:﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾]الأحزاب: ٢١[،
ومن أعظم مواطن الاقتداء به: بيته، حيث تتجلّى الأخلاق في أنقى صورها، ويظهر الإسلام في سلوك لا في أقوال.

الفقرة الثانية عشرة :في تعامله مع الأطفال... قلبٌ كبير، ويدٌ حانية، وتربيةٌ راقية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبًا لكل صغير، وملجأً لكل قلبٍ غضّ، يدخل الأطفال عليه فيُقبلون عليه كما يُقبل الزهر على النور، يمازحهم، ويحملهم على كتفيه، ويُجلسهم على فخذه الشريف، ويدعو لهم بالبركة، ويُقبّلهم، فيراهم في عينيه قُرّة، وفي قلبه سُكنى.

حتى إن الأقرع بن حابس، حين رأى النبي يُقبّل الحسن أو الحسين، تعجب وقال: "إن لي عشرةً من الولد، ما قبّلتُ واحدًا منهم!"، فردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خالدة تهزّ القلوب القاسية» :من لا يَرحم لا يُرحم] «رواه البخاري ومسلم[،
كأنما يقول: الرحمة ليست ضعفًا، بل مِفتاح القرب من الله، وأساس التربية، ومصدر المحبة.

وكان صلى الله عليه وسلم في صلاته لا يغيب عن حاجات الصغار، فإذا سجد وارتقى الحسن أو الحسين على ظهره، أطال السجود حتى يفرغ الطفل من لعبه، فلما سُئل عن ذلك، قال» :إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله] «رواه النسائي وصححه الألباني[،
فما أعظم الحنان حين يتجلى في السجود، وما أكرم السجود حين يُزيّنه حب الأطفال!

وما كان يبصر طفلًا يبكي إلا وسَكنت ملامحه، وبسط وجهه الشريف لطفًا ورحمة، وربّت على قلب الصغير، يُكلّمه بما يملأ فؤاده أمانًا وسكينة.
لم يكن يعنّف، ولا يُهين، ولا يزرع الخوف في قلوبهم، بل كان يغرس فيهم الحب، والثقة، والفرح، ويعلّم أمته أن التربية لا تكون إلا بلُطف، وأن الرحمة مع الصغير صدقة، وأن اللعب مع الطفل عبادة إذا صلحت النية.

في بيته، في مسجده، في طرقاته... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم للأطفال مصدر فرحٍ، ونبع أمن، وقدوة في التربية، لم يُهمل شأنهم، ولم يزدَرِ عقولهم، بل خاطبهم على قدر عقولهم، وأكرمهم على صغرهم، فكانوا يحبونه كما يحب الطفل أمّه، ويأوون إليه كما يأوي اليتيم إلى صدر الحنون.

فمن أراد قلب طفلٍ، فليبدأ بالرحمة، ومن أراد تربية صالحة، فليتعلّم من نبي الرحمة.

الفقرة الثالثة عشرة :في تعامله مع الضعفاء... قلبٌ يحنو، ويدٌ تنصر، ورحمةٌ تفيض

ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ضعيفًا إلا وانحنى له قلبه، وما لمح مظلومًا إلا وتقلّب فؤاده من أجله. كان يمشي بين الناس، يرفع شأن الأرملة، ويجبر خاطر اليتيم، ويُجلس العبد بجانبه، ويُنصت للشكوى، ولو صدرت من صوت مبحوح متعب.

جاءته امرأة، تكاد الكلمات تخرج من فمها مثقلةً بالهمّ والحرقة، فأنصت لها بكل كيانه، ثم قال بكلمة تكتب بماء الذهب:

»يا أمةَ الله، أهوّني عليك، إنكِ لم تُستغاثي بغير سامع] «رواه الطبراني وحسنه الهيثمي[،

كأنه يقول لها: إن الله أقرب إليكِ من كل قريب، يسمع خفّة الشكوى قبل جَهر الصوت، وهو أرحم بكِ من كل راحم.

وكان يحذّر أمته من التهاون بحقوق الضعفاء، ويُشدد في أمرهم، فيقول»:اللهم إني أُحرّج حقّ الضعيفين: اليتيم والمرأة] «رواه ابن ماجه وصححه الألباني[،

أي: أجعل من يتعدّى على حقّهما في حَرَج شديد بين يدي الله، يُوشك أن يؤخذ من عزه ويُرمى في مذلّة، فحق الضعفاء ليس يُهدر، بل يُصان ويُرعى.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يرى مسكينًا إلا قرّبه، ولا ذا حاجة إلا أجابه، يواسي، ويُعين، ويأمر الناس بأن لا يحتقروا أحدًا، ولو بدا في ثوبٍ مرقّع، أو هيئة متواضعة، فقد يكون عند الله خيرًا وأكرم.

وما دخل عليه أحد من أهل البلاء إلا وخرج بقلبٍ أدفأ، وأملٍ أكبر، وعينٍ أغزر دمعًا لله، وثقةً أعظم بوعده.

لقد علّمنا أن الضعف ليس نقصًا، وإنما هو اختبارٌ للناس:

هل ينصرون؟ هل يواسون؟ هل يرحمون؟

الفقرة الرابعة عشرة :في تعامله مع النساء – احترامٌ ينبع من الرحمة، وإنصافٌ تُظلله النبوة

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيَّ هدى فقط، بل كان نبيَّ رحمة، تتنزّل الرقة من أفعاله كما يتنزّل الوحي على قلبه، وكان في تعامله مع النساء تجسيدًا عمليًّا لوصية ربانية، حيث قال الله عز وجل:﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾]النساء: ١٩[.

فكان صلى الله عليه وسلم خير من عاشر النساء بمعروف، لا يجرح لهن شعورًا، ولا يمس لهن كرامة، ولا يُشعرهن لحظة واحدة أنهن أدنى مقامًا أو أقل قدرًا، بل كان يفيض عليهن من حنانه، ويلفّهن برعايته، ويغمر بيوتهن بسكينة الحب.

كان إذا دخل بيته، خلع عن كتفيه أعباء النبوة والقيادة، ولبس ثوب الزوج الحنون، يدخل على أزواجه باسمًا، يتلطّف معهن بالحديث، ويشاركهن الأحاديث والمزاح، حتى كانت عائشة رضي الله عنها تقول" :*كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيته ألين الناس، وأكرم الناس، ضحّاكًا بسّامًا."*

وكانت وصاياه بالنساء لا تفتر، يرددها في المجالس والخطب، وكأنما يخشى على أمته من نسيان حقّ المرأة، فيقول:
»استوصوا بالنساء خيرًا] «رواه البخاري ومسلم[،
ويقول في وصيته الجامعة»:خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي] «رواه الترمذي، وصححه الألباني[،
فجعل معيار الخيرية لا في قيام الليل، ولا في كثرة الصلاة، بل في حسن المعاملة للزوجة.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يرفع صوته في بيته، ولا كان يضرب بيده امرأة قط، بل كان يعفو ويتغافل، ويتلطّف ويحتمل، حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها" :*ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط، بيده، لا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يُجاهد في سبيل الله*] "رواه مسلم.[

وكان عليه الصلاة والسلام يسمع لشكوى النساء، ويصغي لحديثهن، ولا يستخفّ بكلامهن مهما طال، وقد نزل القرآن في شأن المرأة التي جاءت تشكو زوجها، فسمّاها الله في كتابه:﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾]المجادلة: ١.[

بل بلغ من رقيّ خلقه صلى الله عليه وسلم أنه كان ينهى الرجال عن ترويع النساء أو إهمال مشاعرهن، فيقول:
»اللهم إني أحرّج حقّ الضعيفين: المرأة واليتيم] «رواه ابن ماجه، وصححه الألباني[،
أي أحمّل أمتي الحرج العظيم إن هم فرّطوا في حقّهما.

كان يعدّ الزوجة شريكة العمر، وسكن النفس، ورفيقة الطريق، ولم يجعلها متاعًا يُستهلك، ولا خادمة تُستخدم، بل إن عائشة رضي الله عنها سُئلت" :*ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟*"، فقالت":*كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة*] "رواه البخاري.[

أي قلبٍ كان يحمله هذا النبي العظيم؟! وأي رحمةٍ تسري في أوصاله؟!

فليت كل رجل يطأ أرض بيته بقدم هذا النبي الكريم، ويلبس ثوب خلقه، ويعيش مع زوجته بنور هديه، فيكون في بيته كما قال الله تعالى:﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾]الروم: ٢١.[

الفقرة الخامسة عشرة :في تعامله مع أصحابه – وفاءٌ يسمو، ومحبّةٌ تُؤنس، وتقديرٌ يزرع الولاء

كان النبي صلى الله عليه وسلم إمام الوفاء، ومعلّم المودّة، وحارس القلوب من الجفاء، ما عاش بين أصحابه كزعيم فوقهم، بل عاش كأب رؤوف، وأخ عطوف، وصاحب ودود، فربّى قلوبهم على المحبة، وزرع في نفوسهم معاني الإخلاص، وكان كما وصفه الله:﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾]التوبة: ١٢٨.[

كان لا ينسى لأحد منهم فضلًا، ولا يجهل لأحد منهم قدرًا، بل يذكر جميل صنيعهم في المجالس، ويثني عليهم في الغياب والحضور، ويترحّم على من مضى منهم، ويدعو لمن بقي، ويكرم من ارتبط به ولو من بعيد، حتى قال في وفاء نادر لأصدقاء خديجة رضي الله عنها»:**إنّي لأُحبّ حَبيبَها**] «رواه مسلم[،
أي: أحبّ من كانت خديجة تحبه، حتى بعد وفاتها!

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهّد أصحابه دعاءً وثناءً، ويخصّهم بما يُشعرهم أنهم في قلبه، لا في هامش حياته، فيقول عن أبي بكر رضي الله عنه»:**لو كنتُ متخذًا من الناس خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته «**]رواه البخاري ومسلم[،
فما أعظمها شهادة! وما أكرمها منزلة!

ويقول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه»:**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه]** «رواه الترمذي، وصححه الألباني[،
فكأن الحق يتحدث إذا تكلّم عمر، ويستنطق إذا سكت.

وكان لا يُطيق غياب أحد منهم، فإذا افتقد رجلاً سأل عنه، وإذا مرض زاره، وإذا مرض أحدهم بكى من رقّة قلبه، كما بكى يوم مرض سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقال»:**رحم الله سعدًا]** «رواه البخاري.[

وإذا مات أحدهم، خُسف في قلبه شطر، وتألم لفقده، وبكى عليه، كما بكى عبد الله بن عمرو حين أخبروه بوفاة الصحابي الجليل النجاشي، وقال»:**إن أخاكم النجاشي قد مات، فقوموا فصلّوا عليه]** «رواه البخاري.[

وكان صلى الله عليه وسلم يعيش معهم الحاضر بكل جوارحه، فيمازحهم بلا فُحش، ويضحك معهم بلا ابتذال، ويشاركهم طعامهم، ويخدمهم أحيانًا، ويحمل أمتعتهم، كأنّه واحدٌ منهم لا يتميّز عليهم بشيء، وقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه" :*خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أُفّ قط، ولا قال لي لشيءٍ فعلته: لمَ فعلتَه؟*] "رواه البخاري.[

وكان إذا سمع من يسيء إلى أحدٍ من أصحابه، ردّ الغيبة بشجاعة وأدب، فإذا سمع مَن يؤذي أبا بكر أو عمر أو غيرهما، انتصر لهم، وذكّر الناس بفضلهم، وعدّ الإساءة إليهم جُرمًا كبيرًا.

ومع كل هذا، لم يكن يُحبّ أن يُفضّل على إخوانه من الأنبياء، تواضعًا ووفاءً لمن سبق، فكان يقول»:**لا تُفضّلوني على موسى]** «...رواه البخاري[،
وهو القائل»:**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة]** «رواه البخاري ومسلم[،
فلم تمنعه عظمته من الاعتراف بفضل إخوانه.

هكذا كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعيش بين أصحابه بقلبٍ مفعم بالحب، ولسانٍ لا يعرف الجفاء، ونفسٍ لا تقبل الكبر، بل يبني بقربه من قلوبهم صرحًا من الوفاء، لا يزال حيًّا في كتب السير، وقلوب المحبين، وبيوت الصالحين، جيلاً بعد جيل.

الفقرة السادسة عشرة :في صفاته الشاملة – كمالٌ لا يُجارى، وجمالٌ لا يُوارى

لم يكن صلى الله عليه وسلم كغيره من البشر، بل خُلق خلقًا آخر، واصطفاه الله ليكون الإنسان الكامل، والنموذج الأعلى، والقدوة المطلقة في كل جانب من جوانب الكمال الإنساني.

اجتمع فيه من جلال الصفات، ومحاسن الشمائل، وكريم الأخلاق، ما لم يُجمع في بشر قبله ولا بعده. فكان في الصدق كأنه الصدق يمشي على الأرض، وفي الحِلم كأن الرحمة تجسّدت فيه، وفي الوفاء كأنه عَقد لا يُنكث، وفي العفو كأنه باب لا يُغلق، وفي الصبر كأنه جبل لا يهتز، وفي الشكر كأنه لسان لا يسكت، وفي الرضا كأنه قلب لا يضطرب.

كيف لا وهو الذي أثنى الله عليه في كتابه فقال:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾]القلم: ٤[
خلقٌ لا تحدّه خصلة، ولا تحصره صفة، بل هو جامعٌ لكل خير، بعيدٌ عن كل نقص، ما رؤي في غضب إلا وقد غلب حلمه، ولا في عطاء إلا وقد سبق سخاؤه، ولا في بلاء إلا وقد سبقه رضاه.

يقول":انس رضي الله عنه خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أُفٍّ قط، وما قال لي لشيء فعلته: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَه؟"رواه البخاري ومسلم[،
وهذا أعظم ما يقال في شهادة خادمٍ لسيده، لا تصنع فيها ولا مبالغة، بل هي الحقيقة العذبة التي عاشها كل من اقترب من النبي، أو جالسه، أو خدمه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتحدث عن نفسه مباهاة، بل بيانًا للناس، وتذكيرًا لهم بحقيقة الرسالة، فيقول:
»إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق] «رواه أحمد، وصححه الألباني[،
فما أعظمها بعثة! وما أجلّها رسالة!

لقد كان كاملًا في خلقه، وفي خلقه، وفي منطقه، وفي صمته، وفي دعائه، وفي بكائه، وفي ضحكه، حتى إذا ذكره الذاكرون، أو وصفه الواصفون، لم يملكوا إلا أن يقولوا كما قال حسان:

وأحسن منك لم ترَ قطُّ عيني
وأجملَ منك لم تلد النساءُ
خُلِقْتَ مبرَّأً من كل عيبٍ
كأنك قد خُلِقْت كما تشاءُ

ذلكم هو محمد صلى الله عليه وسلم، من أراد أن يرى كمال الخُلق فليقرأ سيرته، ومن أراد أن يتذوّق جمال الروح فليعش في ظلال أقواله، ومن أراد أن يتعلّم الإنسانية فليتعلّمها من بين يديه، فلن يبلغ أحد الكمال إلا على دربه، ولن يذوق أحد صفاء الروح إلا من مورد حُبه.

الباب العاشر: أثر السيرة والشمائل في بناء الإنسان

مقدمة

لم تكن السيرة النبوية مجموعة من الوقائع المجردة، ولا كانت الشمائل النبوية حشدًا من الصفات المعزولة، بل كانت – وما تزال – **مَعينًا لا ينضب لبناء الإنسان الكامل**: الإنسان الذي يعرف ربه، ويهذب نفسه، ويحسن للناس، ويصلح الأرض، ويتخلق بأخلاق النبوة في كل شأن.

فالسيرة تبني الفكر، والشمائل تزكي القلب، والمواقف النبوية تغرس المبادئ، والملامح الخُلقية تهذب السلوك، حتى لا يبقى في النفس خُلُق إلا وقد وُجِّه، ولا في السلوك انحراف إلا وقد قُوِّم، ولا في الطريق حيرة إلا وقد وُضِع لها دليل.

لقد كانت **شمائل النبي صلى الله عليه وسلم مدرسةً في الرحمة، والصدق، والحزم، والتواضع، والحياء، والشجاعة، والعفو**، وكان كل مشهد من سيرته **ترسيخًا لمبدأ، أو تقويمًا لنفس، أو هدمًا لفساد، أو إحياءً لفضيلة**.

وحين غابت السيرة عن العقول، والشمائل عن السلوك، **ضَعُف الإنسان، واضطربت الفطرة، وانهار البنيان التربوي في النفوس**، وما أحوجنا اليوم أن نسترد هذا البناء... لا بعاطفة عابرة، ولا بقراءة عارضة، بل **بتفاعل واعٍ، وتطبيق عملي، وتربية تنبض من معين النبوة**.

في هذا الباب، نكشف كيف تؤثر السيرة في الإنسان من الداخل، **كيف تصنع منه قلبًا حيًّا، وعقلاً راشدًا، وسلوكًا مستقيمًا، وشخصيةً متزنةً تواجه الحياة بمعايير محمدٍ صلى الله عليه وسلم**.

فهنا ترى أثر النور حين يسري في الأعماق، وأثر القدوة حين تحيا في القلوب، وأثر الحب حين يتجسد في الاتباع.

الفقرة الأولى: السيرة النبوية: زاد الإيمان، وسرُّ الثبات

إذا اهتزّت القلوب، واضطربت الخطى، وتكاثرت الفتن، فلا ملجأ للمؤمن ولا مرفأ إلا في رياض السيرة، حيث الطمأنينة تتنزل، واليقين يتجدد، والعزائم تُشحذ.

من أراد أن يُثبّت الله قلبه إذا ادلهمّت الخطوب، وتوالت المحن، فليُكثر من التأمل في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم.
ومن أحب أن يتذوق طَعم الإيمان، وأن يستيقن من صدق النبوة، فليغُص في أعماق شمائله، وليتأمل روعة خُلقه، وعظمة جِهاده، وصبره، وتواضعه، ورفقه، وعدله، ورحمته، فإنها لا تكون لبشرٍ من عند نفسه، بل هي شاهد صادق على أن هذا النور من عند الله.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يدركون أن السيرة ليست حكايات تُروى، ولا قصصًا تُتلى، بل إيمانًا يتجدد، ومجالسَ تهطل فيها السكينة، وتشتعل فيها جذوة المحبة، وتصفو بها القلوب، وتسمو بها الأرواح.

كانوا يتذاكرون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كما يتذاكرون سور القرآن، حتى قال زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله"**:كنا نُعلِّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نُعلِّم السورة من القرآن**]"رواه البيهقي في *دلائل النبوة*

١/٦].
فهي عندهم ليست فرعًا من فروع الثقافة، بل أصل من أصول التربية، وزادٌ لا يُستغنى عنه في مسير الطريق.

ولذا قال الله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾]الأحزاب: ٢١[،
والأسوة لا تكون إلا بالعلم والدراسة والاتباع، ولن يُتّبع النبي صلى الله عليه وسلم من جهل أخباره، وغفل عن أيامه ولياليه، ولم يذق لذة معايشة لحظات دعوته وجهاده وتبليغه وعبادته.

ويا لَله!
كم من قلبٍ ذاب حُبًا حين قرأ عن لطفه صلى الله عليه وسلم بطفل، وكم من عينٍ دمعت حين سمعت بثباته تحت الحصار، وكم من نفسٍ انتفضت من غفلتها حين تأملت كيف عفا عمّن آذاه، ورحم من سبّه، وواسَى من خذله!

فالسيرة نور، والنور إن خالط القلوب أزهرت، وإن نزل على القلوب أنبتت، وإن سكن الأرواح طهّرها.

فيا من يريد الثبات في زمن الزلل، والإيمان في زمن الشك، والقرب من النبي صلى الله عليه وسلم في زمن الغفلة، الزم السيرة، واغمس قلبك في بحرها، وارتوِ من نبعها، تجد فيها من الهداية والأنس، ما لا تجده في غيرها.

الفقرة الثانية: السيرة النبوية: عقيدة تمشي على الأرض

السيرة ليست حكاية تُروى، ولا تاريخًا يُسرد، بل هي العقيدة حين تخلع جلباب النظريات، وتمشي على الأرض بشرًا سويًّا.

في كل مشهد من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، ترى التوحيد حاضرًا، لا يخفت بريقه، ولا يضعف وهجه؛
تراه حين ثبت في شعاب مكة وقد حوصر،
وحين طُرد من الطائف والدماء تسيل من قدميه، فلم يزد على أن قال:
"إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي"؛
تراه في بدر، حين خرج في قلة من العدد والعتاد، يحمل راية: "لا إله إلا الله"؛
تراه حين رفض أن يُساوم على العقيدة، ولو بذلوا له ملك مكة بين يديه.

لقد جسّد صلى الله عليه وسلم كل ما دعا إليه من التوحيد والإيمان والاستسلام لأمر الله، في أقواله وأفعاله ومواقفه.
لم يكن يُلقي دروسًا في العقيدة داخل المساجد فقط، بل كانت مواقفه في السوق، وفي السلم، وفي الحرب، وفي بيته، وفي الحكم، دروسًا ناطقة تقول للعالم:
"هكذا تكون لا إله إلا الله."

وحين خُيّر بين أن يكون مَلِكًا نبيًّا أو عبدًا رسولًا، لم تُغره العروش، ولم تبهره القصور، بل اختار العبودية لله، والبلاغ عنه، والزهد في زخرف الدنيا، فكان كما قال الله تعالى:
﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾]الضحى: ٨[،
فأغناه الله بعبوديته، ورفَعه بزهده، وأعزّه بطاعته.

فما أعظم السيرة!
هي صرح العقيدة حين يُبنى على أرض الواقع،
هي التوحيد حين يُختبر بالدموع والصبر والحرمان،
هي الإيمان حين يُجابه الجاهلية وحده، فلا يتزحزح، ولا يلين، ولا يساوِم.

من أراد أن يرى كيف يُثبت الإنسان على دينه في زمن الفتن، فليقرأ السيرة.
ومن أحبّ أن يعرف كيف يعيش المؤمن لله وحده، في وسط دنيا صاخبة، فليقرأ السيرة.
ومن اشتاق أن يُعانق التوحيد لا بالكلام، بل بالمواقف، فليُبحر في سيرة النبي الأمي، الذي صنع الله قلبه بيده، وأدّبه فأحسن تأديبه.

الفقرة الثالثة: السيرة النبوية: مَعين الأخلاق ومصنع التزكية

من أراد أن يرتقي بأخلاقه، ويتطهّر قلبه، وتسمو نفسه، فليغترف من معين السيرة النبوية، فهي ليست رواياتٍ تُروى، بل حياة تنبض بالأخلاق الكاملة، والنفوس الزكية، والتزكية الإلهية.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم الناس بمواعظ جافة ولا خطب منبرية فحسب، بل علّمهم الأخلاق وهو يسير بينهم، يأكل معهم، ويعاملهم في السوق والبيت والمسجد، كان خُلقه قرآنًا، وفعله دعوة، وصبره مدرسة، وتسامحه منهاجًا يُدرَّس.

ما من خُلُق كريم، ولا خَصلة نبيلة، إلا وكانت له صلى الله عليه وسلم فيها القِدحُ المُعلّى والمقام الأعلى:

- هو الصادق الأمين، صدَقَ فصدّقه الناس، ثم صدَق فآذوه، فثبت على الصدق، فما كذب في سرٍّ ولا علن.
- وهو الحليم، يُستفَزُّ فلا يغضب لنفسه، ويُساء إليه فيعفو، ويُستضعف فيصبر، وما انتصر لنفسه قط.
- وهو الكريم، ما سُئل شيئًا فقال: "لا"، حتى قال عنه جابر: "ما سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فقال: لا" [رواه البخاري].
- وهو الرحيم، لا يطرد من حوله ضعيفًا، ولا ينهر سائلًا، ولا يردّ دمعة مكلوم، بل كانت الرحمة تتفجر من قلبه، حتى مع أعدائه.
- وهو الشجاع، يثبت يوم تزلزلت الصفوف، ويُقتَدى به حين يرتجف الشجعان، وكان أقربهم للعدو يوم بدر، وأشدّهم ثباتًا يوم أُحد.
- وهو العادل، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يُحابي في الحق قريبًا ولا بعيدًا.

أثنى عليه رب العزة في محكم التنزيل فقال:﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤]
تأمل كيف قال "على خلق"، لا "صاحب خلق"، فكأن الخُلق بسُموّه وعظَمه صار منصبًا شامخًا اعتلاه النبي صلى الله عليه وسلم.

وليست تلك الأخلاق هبة جبلية فقط، بل هي ثمرة تربية ربانية، ومدرسة وحي متصلة بالسماء؛ تزكّاه الله حين قال:﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ [الجمعة: ٢]،
فما كانت أخلاقه مجرد محاسن طباع، بل صناعة إلهية، وتربية نبوية، وسموٌّ لا يُجارى.

لقد كان صلى الله عليه وسلم **الأسوة** لا في العبادة وحدها، بل في التعامل، في البيت، مع الطفل والشيخ، مع العدو والحبيب، مع الغني والفقير.
إنه تجسيدٌ حيٌّ لمكارم الأخلاق، حتى قال عن نفسه»:**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**[رواه أحمد وصححه الألباني.] «

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد:"
"وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا، وأوسعهم صدرًا، وأصدقهم لهجة، وأوفاهم عهدًا، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة."...

فيا من يطلب الأخلاق... دونك السيرة،
ويا من يشتاق لتزكية النفس... دونك محمدًا صلى الله عليه وسلم،
ففي سُطور حياته، دروس لا تملّ، وفي مواقفه، نور لا يخبو.

الفقرة الرابعة: السيرة تهذّب العاطفة وتضبط الانفعالات – مدرسة التوازن النبوي

من تأمل في سيرة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، أدرك أن العاطفة في الإسلام ليست جموحًا بلا زمام، ولا قسوةً تُخرس المشاعر، بل هي انضباطٌ ربانيٌّ، وتوازنٌ نبويٌّ يُهذّب الوجدان، ويُقوّم الانفعالات، حتى تصير العاطفة جندًا من جنود الحكمة، لا عدوًّا لها.

ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا يُستَفَزّ فيثور لغضب نفسه، ولا رأيناه يَجفُو من أحبّ لمجرد نزوة مزاج، بل كان توازنه النفسيّ والعاطفيّ مظهرًا من مظاهر النبوّة، ودليلًا على عظمة تربيته بوحي السماء. كان يبكي، لكن بكاءه من نور، لا من ضعف، وتدمع عيناه، لكن بقلب ساكن خاشع، لا مضطرب جازع. فقد بكى لفقد ولده إبراهيم، وأبكى من حوله، حتى قالوا له" *وأنت يا رسول الله؟ "!*فقال صلى الله عليه وسلم:
"إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون"رواه البخاري.

وكان إذا دخل عليه أحد من أصحابه يشكو قلبًا مكسورًا، أو نفسًا مثقلة، لم يقل له: تجلّد، بل رقّ له، وأدنى المجلس، وأسمعه من القول ألينه.
وإذا غلبه الضحك، ما زاد عن التبسّم، وإذا مازح، لم يخرج عن الحق، وإن غضب، فما كان يغضب لنفسه قط، وإنما يغضب إذا انتهكت محارم الله، ويغضب للحق لا للهوى.

وحين أوذي، صبر، وإذا خير بين الانتقام والعفو، اختار العفو ما لم يكن في تركه ذلٌّ للدين. دخل عليه رجل فأخذ بتلابيبه حتى أثر الثوب في عنقه، فابتسم في وجهه، وأمر له بعطاء. ولما عاداه أهل الطائف، ورموه بالحجارة، وأدموا قدميه الشريفتين، قال وقد احتمى في ظل شجرة يستغيث بالله:
"اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس "...ثم لما جاءه مَلَكُ الجبال يعرض أن يُطبق عليهم الأخشبين، قال" **:بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئًا"**رواه البخاري ومسلم.

إنه الاتزان في أسمى مظاهره، حيث لا يُجمّده الحزن، ولا تُذهبه الفرحة، قال الله تعالى:
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩.]
وكأن السيرة تفسير عملي لهذا الميزان في المشاعر والتصرفات.

دخل في قلبه حب خديجة، فظل يذكرها بعد وفاتها بسنوات، ويكرم صاحباتها، ويُثني عليها كلما ذكروها عنده، حتى غارت السيدة عائشة، وقالت له" *:ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيرًا منها؟ "*، فقال صلى الله عليه وسلم:
"والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس"...رواه أحمد.

وبكى صلى الله عليه وسلم يوم أحد، على عمّه حمزة، وبكى في وفاة سعد بن عبادة، وقال:
"إن القلب ليخشع، وإن العين لتدمع"، وكان إذا رأى القبور بكى حتى يُبلّ لحيته، ويقول:
"إني نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تُذكّركم الآخرة"رواه ابن ماجه.

ومع ذلك كله، ما خرج به الحزن عن جادة الصبر، ولا أضعفته المواقف عن القيام بأمر الله، ولا تركت العاطفة في قلبه مدخلًا للضعف، بل كانت زينة في الرجولة، ووقارًا في الإنسانية، ورحمةً في القيادة.

لقد جسّد صلى الله عليه وسلم في سيرته التوازن الحقّ، فلا إفراط في الانفعال، ولا تفريط في الإحساس، بل عاطفة تُهذّبها الشريعة، ويضبطها الوحي، وتزكّيها النبوة، فتسير النفس مستقيمة في طريق الله، لا تميلها العواطف ولا تعصف بها الأهواء.

الفقرة الخامسة: السيرة تعلّمنا كيف نعيش لله لا للناس – دروس في الإخلاص النبوي

السيرة النبوية ليست مجرد سردٍ لأحداثٍ خلت، بل هي حياة تنبض بالإخلاص، وقلوب تعلقت بالله، ونفوس سمت عن مدح الناس أو ذمّهم، لتعيش لله، وبالله، وفي الله.
لقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن طريق الدعوة والعمل الصالح لا يُقطع بطلب الشهرة، ولا يُعبد لمرضاة الخلق، وإنما يُسلك لوجه الله وحده.

ما من خطوة خطاها، ولا كلمة قالها، ولا دمعة سالت من عينه، إلا وكانت لله، لا يطلب بها رياءً ولا يتطلع من ورائها إلى مديح أو جاه.قال تعالى على لسانه:﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾]الأنعام: ٩٠[،وقال أيضًا:﴿إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾]يونس: ٧٢.[

وحين دعا قومه، وسخّر لرسالته كل طاقته، وتحمّل ما لا يطيقه بشر من أذى وتكذيب وصدّ، لم يطلب مالًا ولا جاها، بل صرخ صرخة الخلود":يا قوم لا أسألكم عليه مالًا، إن أجري إلا على الله."

وفي أحلك الظروف، حين طُرد من مكة، ووقف على مشارفها يودّع أرضها التي أحب، ما قال: "أين قومي؟ أين مدحي؟ أين نصرتي؟"، بل قال":والله إنك لأحب أرض الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"، ثم مضى في طريقه، لا يطلب شيئًا إلا رضا الله.

وحين فتحت له الدنيا أبوابها في بدر، ومُدّ له بساط النصر، لم تغره الرايات ولا الغنائم، بل وقف يردد":اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"رواه البخاري.
كأنه يقول: مهما زُينت لنا الحياة، فالحياة الحقيقية هناك، حيث يُوزن العمل لا الكلام، ويُنظر إلى القلوب لا الصور.

وما جلس مجلسًا مع أصحابه إلا وذكّرهم بالله، لا بنفسه، وما سمع مدحًا إلا وحوّله إلى شكر لله، لا إلى تضخيم ذاته، فإذا أثنوا عليه قال":أنا عبد الله، لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم"رواه البخاري.
كان يعيش لله، لأن قلبه امتلأ بالله، ولأن مقام النبوة عنده لم يكن إلا عبودية محضة، ومقام الذكر لم يكن إلا دعوة خالصة لله.

إن من تأمل سيرته صلى الله عليه وسلم، علم أن أعظم ما يورّثه الاقتداء به، أن يعتاد القلب أن لا يرى الناس، وأن يتوق النفس للأجر من الله وحده، وأن يربّي العامل نفسه كل لحظة على قول يوسف عليه السلام:﴿إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

فيا طالبَ الثناء، ويا من يؤرقك رضا الناس، عد إلى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، وتعلم منه كيف تحيا لله، وتغيب عن الناس بقلبك، وأنت بين أيديهم بعملك

الفقرة السادسة: السيرة ترسم طريق الصبر في زمن الشدائد – مدرسة الثبات النبوي

إذا أردت أن تتعلم الصبر في زمن الشدة، والثبات في لحظات الانكسار، فافتح سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، تجدها أنصع مدرسة، وأصدق رواية، وأبلغ شاهد على أن القلوب التي تتصل بالله لا تنكسر، وإن انكسرت الدنيا حولها.

ما من نبيٍّ أو عبدٍ مرّ بما مرّ به النبي صلى الله عليه وسلم من أذى متنوع: سخرية في العلن، ومكر في الخفاء، وخذلان من القريب، وطرد من الديار، وجراحٌ في الجسد، وأحزانٌ في القلب.
ومع كل هذا، لم يضعف، ولم يتزلزل، بل كان كالجبل الراسخ، يأوي إلى ربه كلما اشتدت العاصفة، ويربط قلبه بالله، حين تنقطع أسباب الأرض.

صبر في مكة وهو يسمع الاستهزاء يُرمى به صباح مساء":**أهذا الذي يذكر آلهتكم؟**"،"**إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا**"،
"**وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون**"،ومع هذا، ثبت، وما لانت له قناة، بل كان إذا اشتد الأذى قال لأصحابه":**صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.**"

وصبر يوم الطائف، حين لم يكتف القوم بتكذيبه، بل أغروا به السفهاء، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، فما دعا عليهم، بل رفع بصره إلى السماء وقال:
"**إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي.**"
ثم أتى ملك الجبال، يعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين، فيقول بلسم الرحمة وصاحب القلب الكبير:
"**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله**"رواه البخاري.

وصبر في بدر، وأصحابه قلة، لا يملكون إلا القليل، يقابلون جيشًا يفوقهم عددًا وعدة، ومع ذلك كان يرفع يديه ويقول":**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض**"رواه مسلم،
وكان في تلك الليلة يكرر دعاءه ويبكي، حتى سقط رداؤه من على كتفيه.

وصبر في أُحد، حين رأى حمزة مضرجًا بدمه، ومُثّل بجسده، وكسرت رباعيته، وسال دمه، وشجّ وجهه الشريف، ورأى أصحابه يتساقطون من حوله، لكنه لم يصرخ، ولم يجزع، بل قال" :**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.**"

وصبر يوم الأحزاب، حين اجتمعت القبائل، وأحاطت المدينة من كل جانب، وجاع الناس، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك كان يزرع الطمأنينة في النفوس، ويرفع معنويات أصحابه وهو يكسر الصخر ويقول:
"**الله أكبر، فُتحت فارس، الله أكبر، فُتحت الروم**"رواه أحمد.

وصبر في الحزن، حين فقد خديجة، وسند قلبه، وعمه أبا طالب، الذي كان يحميه، ثم تبع ذلك موت إبراهيم ابنه الرضيع، الذي حمله بين يديه ودموعه تسيل، ويقول":**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**"رواه البخاري.

وكان إذا اشتد عليه الأمر، أو تكاثر عليه الهم، قال في تواضع المحب" :**رحم الله موسى، أوذي أكثر من هذا فصبر** "رواه البخاري ومسلم.

هكذا كان صبره، لا يصدر عن قسوة، ولا عن برود، بل عن يقين، وثقة، وتوكل.
صبره لم يكن خنوعًا، بل ثباتًا على الحق، ولم يكن جمودًا، بل سكينة ترسو في الموج العاتي.
علّمنا أن الصبر ليس صمتًا فحسب، بل هو حسن ظن، وقوة عزم، ورضا بالقضاء، وانتظار للفرج من الله.

فيا من أثقلتك الهموم، وتوالت عليك الابتلاءات، اقرأ سيرة نبيك صلى الله عليه وسلم، تقرّ عيناك، وتطمئن روحك، وتعلم أن كل بلاء مهما عظم، فهو في ميزان العاقبة خير، إذا رُبط القلب بالله.

الفقرة السابعة: السيرة توقظ الوعي وتفتح البصيرة – مدرسة الحكمة والتفكير العميق

ليست السيرة النبوية سردًا عابرًا لأحداثٍ مضت، ولا قصصًا تُروى لتُمتع الأسماع، بل هي مدرسة للوعي، ومشعل للبصيرة، ومنجم للحكمة التي تهدي العقول في ظلمات الواقع.

في كل موقف من حياة النبي صلى الله عليه وسلم دروسٌ تربوية تفتح آفاق التفكير، وتزرع فقه المآلات، وتربي في النفوس سعة النظر قبل الحكم، والتمهل قبل القرار.
لقد صنع من أصحابه رجالًا يُحسنون قراءة الواقع، ولا يندفعون بالعاطفة، بل يزنون الأمور بميزان الشرع والعقل، وكان يُربيهم على اختيار أحسن القول وألطف الأسلوب، ويُغرس فيهم الفطنة في الخطاب، وذكاء الكلمة.

ومن أعجب ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب:
"لو كنتُ في دارٍ فيها تسعة وتسعون عبدًا ومعهم واحد حرّ، فدخلتَ عليهم، فسلّمتَ، فقلتَ: السلام عليكم أيها العبيد، فقد أغضبتهم كلهم، وإن قلتَ: السلام عليكم أيها الأحرار، سُرّوا كلهم إلا واحدًا]"رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨١٨٩) وحسنه بعض أهل العلم.[

تأمل هذا المثال العجيب!
كلمة واحدة قد تفتح القلوب أو تغلقها، وقد تُدخل السرور أو تولّد النفور.
إنه تعليم راقٍ في فنّ التعامل مع الناس، وتقدير مشاعرهم، وفهم طبيعتهم النفسية، والتفكير بنتائج الكلمة قبل أن تخرج.

فهذا الحديث ليس مجرد أدب في التخاطب، بل تربية شاملة على عمق النظر، وبُعد الأثر، ولباقة التعبير، وذكاء الموقف.
وفي هذا غرس لقيم عظيمة: الإنصاف، الحذر، الحكمة، والاعتدال.

إن من يقرأ السيرة بعين الباحث عن الحكمة، لا يخرج منها إلا وقد نضج عقله، واستنارت بصيرته، وقويت قدرته على قراءة الأحداث من منظور إيماني عميق.

فيا من تريد فهم الواقع وتحصيل الحكمة، لا تغفل عن السيرة، ففيها النور، وفيها البصيرة، وفيها أعظم مدرسة في التربية العقلية والنفسية والاجتماعية.

الفقرة الثامنة: السيرة تُخرِّج رجالًا لا تُكسرهم الدنيا – مدرسة صناعة العظماء

لم تكن السيرة النبوية مجرد دروس في التعبد والخشوع، بل كانت مصنعًا للرجال، وميدانًا يُصقل فيه الأبطال، وتُبنى فيه النفوس التي لا تهزّها العواصف، ولا تُلينها شدائد الأيام.

في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم تخرّج جيلٌ إذا سار زلزل الأرض هيبةً، وإذا نطق أسمع الدنيا حكمة، وإذا ابتُلي ثبت كالطود الراسخ، لا يتزعزع ولا ينكسر.

منها خرج أبو بكر بثباته الذي لا يعرف التردد، وعمر بعدله الذي أقام الموازين، وعثمان بحيائه وإنفاقه حتى في الشدة، وعليّ بعلمه وشجاعته التي لا تعرف الوهن، وخالد بسيفه الذي لا يغمد إلا على نصر، وبحنكته التي حيرت القادة.

هؤلاء لم تصنعهم خطب المنابر ولا صفحات الكتب، بل صنعتهم السيرة، التي غرس فيها النبي القيم في القلوب، وربّى فيها على المواقف لا النظريات، وعلى القدوة لا الخطب.

إن السيرة لا تُخرج رجالًا يعتزلون الحياة، بل رجالًا يخوضونها بإيمان وعقل وقوة، يزرعون فيها الخير، ويحمون فيها الحق، ويُثبتون للعالم أن التربية على الإيمان تصنع رجالًا لا تكسرهم الدنيا.

الفقرة التاسعة: السيرة تُحيي الأمل وتكسر جدران اليأس

ليست السيرة النبوية مجرّد سرد لأيام مضت، بل هي أنفاس حياةٍ تتجدّد، وروحٌ تُبعث في قلب كل مكلوم، ونورٌ يُشرق في درب كل مهموم. إنها سفر الأمل المفتوح في وجوه العتمة، وعَلَم الرجاء المرفوع في وجه اليأس، وقصة الإنسان الذي واجه القمم والهوام، السهول والعواصف، فكان دومًا يبتسم للقدر، ويركن إلى ربه، ويضيء السبيل لأمته.

حين ضاقت عليه مكة، حتى لم يعد له فيها مأوى ولا سند، وأُوصدت دونه الأبواب، واشتد الإيذاء حتى سالت الدماء من قدميه الشريفتين في الطائف، ورفضه القريب والغريب، لم يصرخ، ولم ييأس، بل وقف في مناجاة مفعمة بالرضا، يرفع بصره إلى السماء، لا إلى وجوه الخلق، وقال في دعاء تهتز له القلوب» :إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي]«...رواه الطبراني في *الدعاء* بإسناد حسن.[

ما هذا النور الذي يشع من بين أنين التعب، ما هذا الرضا الذي يسكن في أحلك المواقف؟!
هو يقين الأنبياء، وثقة المتوكلين، وعِزّة من اختار أن يعيش لله، لا للناس.

وفي غار ثور، والرؤوس تفتّش فوقهم، والسيوف تشهر خلفهم، والنفوس تتحفّز لقتلهم، التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى صاحبه وقد رأى القلق في عينيه، فسكب في قلبه طمأنينة من نور، وقال:
»لا تحزن إن الله معنا] «التوبة: ٤٠.[
فما إن نزلت هذه الكلمات، حتى انكسرت شوكة الخوف، وتلاشى صوت المطاردة، وعمّت السكينة أرجاء الغار، وكتبت السيرة من جديد درسًا خالدًا :*إذا كان الله معنا، فلا خوف، ولا حزن، ولا يأس.*

ولم تكن هذه اللحظات استثناءً في حياته، بل كانت قاعدته، ومنهاجه، وصورته التي لا تتغير؛ فكل شدةٍ قابلها برضا، وكل عثرةٍ تبعها بأمل، وكل غيمةٍ قرأ من خلفها بشرى المطر.
كان يُعلّمنا أن الله لا يُسلم عباده للعذاب، وأن مع العسر يُسرًا، بل »إن مع العسر يُسرًا] «الشرح: ٦]، فلا عسرٌ إلا ويُتبَع بيسرَين، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: "لن يغلب عسرٌ يسرين."

بل حتى في لحظات النصر، لم ينس أن يُثبت في قلوب أصحابه أن الدنيا ظل زائل، وأن العيش الحق هو ما كان عند الله، فكان يقول يوم بدر، وهو منتصر والملائكة تقاتل معه»:اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة] «رواه البخاري.[

يا الله، ما أعظمك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أصفى سريرتك، وما أوسع قلبك، وما أبهى سيرتك، تمشي فوق الأرض، وتُشبه الملائكة في السماء.

فالسيرة لا تروي حكاية رجل، بل تحيي أمّة، وتزرع في قلوبها الرجاء، وتقول لكل قلبٍ حزين: لا تيأس، فإن الله معنا، وإن بعد الليل فجراً، وإن مع العسر يُسرًا.

الفقرة العاشرة: السيرة.. مدرسة القلوب وفن التعامل مع الناس

من أراد أن يتعلّم فن التعامل مع الناس، فلا يبتغِ طريقًا أقوم، ولا دربًا أسلك، من السيرة النبوية العطرة؛ فإن فيها من اللطف والحكمة، والحنان والحزم، والعدل والرحمة، ما يدهش العقول ويأسر القلوب.
لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يُخاطب الناس بخطابٍ واحد، ولا يعاملهم بمعاملةٍ جامدة لا روح فيها، بل كان يُنزل الناس منازلهم، فيختار لكل نفسٍ مفتاحها، ولكل عقلٍ خطابه، ولكل مقامٍ مقاله.

كان إذا مرّ على الصبيان، انحنى لهم بوجهه الباسم، يمازحهم ويُشعرهم أنهم ليسوا على هامش الحياة، بل هم لبنتها وغدها، وكان يُسلّم عليهم بنفسه، وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم وقال» :كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله.«

وإذا دخل على الشيوخ والوجهاء، أكرمهم بما يليق بمقامهم، لا رياءً ولا مجاملة، بل تقديرًا للفضل، ومراعاةً للحقوق، وكان يقول»:ليس منّا من لم يُوقّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه] «رواه أحمد.[

وكان إذا جلس بين أصحابه، لا يفرّق بين غنيّهم وفقيرهم، ولا قويّهم وضعيفهم، فإذا أقبل المخالف والمنافق، لم يواجهه بالتجهّم والفضيحة، بل بالحكمة والسكينة، علّه يرجع أو يهتدي. وإن أقبل الجاهل، صبر عليه وعلّمه، وإن أخطأ المسيء، نصحه أو عفا عنه، وإذا استقام رجع إليه بوجهٍ مشرق، يزرع في نفسه الثقة والأمل.

تأمل كيف جاءه أعرابي فبال في المسجد، فقام الناس عليه، فأوقفهم صلى الله عليه وسلم وقال»:دعوه، وأريقوا على بوله سَجْلًا من ماء؛ فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين] «رواه البخاري.[

أيّ تربية هذه؟ وأيّ عقلٍ يحمل هذا اللين دون أن يُفرّط في الحق أو يُضعف من الهيبة؟

وكان صمته أبلغ من كثير كلام، فإذا حضرت الحاجة تكلّم، وإذا لم يكن للكلام موضعٌ، سكت، وربّ صمتٍ منه صلى الله عليه وسلم فتح أقفال القلوب، وكان إذا رأى من يُخطئ، لم يُحرجه في العلن، بل يقول» :ما بال أقوامٍ«...، ليُبقي للناس ماء وجوههم، ويصلح دون أن يفضح.

فإذا انتهكت حُرُمات الله، تغيّر وجهه، واشتد بيانه، وغضب لله لا لنفسه، إذ كان لا يغضب لنفسه قط، ولكن إذا استُهين بالحق أو تُعدي على الدين، هبّ كأنه السيف المُجرد، يقول الحق ولا يخشى فيه لومة لائم.

ومع كل هذا، كان خلقه صلى الله عليه وسلم في بيته أعجب وأكرم، فقد قال أنس رضي الله عنه":خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أُفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلتُه: لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَه؟"رواه البخاري ومسلم.[

أيّ خلقٍ هذا؟! عشرة أعوام، والغلام يُخطئ ويقصر، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يعنّفه، ولا يعاتبه، ولا يوبّخه! بل يحتمل، ويصبر، ويُربّي بالمحبة والقدوة، لا بالصراخ ولا بالتأنيب.

لقد امتثل أمر ربه}:فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ] {آل عمران: ١٥٩.[فكان لِينُه سحرًا حلالًا، وخلقه مفتاحًا للقلوب، وسيرته دستورًا في فن احتواء البشر.

فيا من تشتكي جفاف العلاقات، وضيق النفوس، وغلظة القلوب، اقرأ السيرة، واقترب من شمائل من قال عنه ربه: }وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ] {القلم: ٤.[

في السيرة دروسٌ لا تُعد، وفنونٌ لا تنضب، فطوبى لمن جعلها دليله، وتعلّم من نبيّها صلى الله عليه وسلم كيف يعيش مع الناس إنسانًا ربانيًّا، يُحب ويُحتمل ويحتوي ويُصلح.

الفقرة الحادية عشرة: السيرة تغرس العدل وتنشر الرحمة

ما عُرف في تاريخ البشرية رجل جمع بين العدل والرحمة كما جمع بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم أو مفسدة، ليس تهاونًا، بل رأفةً ورحمةً، ولطفًا بالناس، وحرصًا على تيسير ما يُقربهم من الله، لا ما يُنفرهم عنه.

لقد كان صلى الله عليه وسلم نبع عدلٍ لا ينضب، وسحابة رحمة لا تجفّ. لا يُفرق بين غني وفقير، ولا يُحابِي شريفًا على حساب ضعيف، ولا يمنعه حب أحد من أن يحكم بالحق، بل كان كما وصفه ربه:﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾]الشورى: ١٥[،
وقال تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾]النحل: ٩٠[، وهو أول من امتثل لهذا الأمر.

دخل عليه رجل ذات يوم، وكان في هيبته صلى الله عليه وسلم ما يملأ القلوب هيبة وإجلالًا، فارتعد الرجل واضطرب، فما إن رآه النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحال حتى بادره بكلمات تذيب الخوف وتسكب الطمأنينة، فقال له بلطف الأب وحنان المربّي»:هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة] «رواه ابن ماجه، وصححه الألباني.[
لم يَستعلِ على الناس بنبوّته، ولم يتكبّر بمقامه، بل كان عدله ممزوجًا بتواضع يُدهش العقول.

ويوم أُتي إليه بامرأة مخزومية شريفة قد سرقت، فطلب بعض الناس أن يُعفى عنها لشرف نسبها، غضب صلى الله عليه وسلم، وخطب في الناس خطبة تموج بالحق والعدل، فقال»:إنما أهلكَ الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها] «رواه البخاري ومسلم.[
أرأيتَ عدلًا أبلغ من هذا؟ أن يُقيم الحد على أحبّ الناس إليه لو وقعت في الذنب؟ إنه ليس مجرّد قول، بل يقين يسكبه في نفوس أمته: أن لا عدل بلا مساواة، ولا عدل بلا حزم.

وكان صلى الله عليه وسلم رحيمًا لا تفارقه الرحمة حتى في أشد المواطن، فقد روى البخاري ومسلم أن غلامًا كان يخدمه مرض، فزاره النبي صلى الله عليه وسلم، وجلس عند رأسه، وقال له بحنوّ» :قل: لا إله إلا الله«، فنظر الغلام إلى أبيه، فأشار له أن أطع أبا القاسم، فقالها، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول»:الحمد لله الذي أنقذه بي من النار.«
أي قلبٍ هذا الذي لا يأنف من زيارة عبدٍ مريض، بل يُنقذه من النار ويُفرح به، ويجعل النجاة هدية لا عقوبة!

هكذا كان، صلى الله عليه وسلم، عدله يرفع الناس، ورحمته تحييهم، وكل موقف من حياته سطر من كتاب لا يموت، كتابٍ يُدرَّس للأمم، يُعلِّم الحكام، ويُهذِّب النفوس، ويُقيم الموازين.

الفقرة الثانية عشرة: السيرة تربي على التواضع وتسقط الكِبر

في زمانٍ طغى فيه المظهر على الجوهر، وتباهى الناس بالرياش والمراكب والمجالس، تقف السيرة النبوية شامخةً كمنارة تهدي القلوب الحائرة، وتغرس في الأرواح فضيلة التواضع، وتمحو من النفوس داء الكِبر.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سيّد ولد آدم وأشرف خلق الله، أبعدَ الناس عن مظاهر العظمة المتكلفة أو الهيبة المصطنعة. كان إذا دخل مجلسًا، لم يُعرف له مكانٌ خاص، ولا وسادةٌ موضوعة، بل كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، كأحد أصحابه تمامًا، حتى يدخل الغريب فلا يميز من فيهم النبي، فيقول: أيّكم محمد؟!

وإذا مشى، لم يتقدَّمهم تيهًا، ولم يتمايز عنهم زهوًا، بل كان كأحدهم في هيئته وحركته، لا يعرفه المارّ من بين صفوف أصحابه إلا من نظر إلى وجهه المضيء الذي أشرق عليه نور النبوة. وإذا طُلب منه أن يختصّ بلباس أو طعام، ردّ بلطف قائلاً»:**إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**] «رواه أبو يعلى وصححه الألباني.[

دخل عليه أعرابي ذات يوم، فلما رأى هيبته ارتعد، فتبسم الحبيب بلين القلب، وخفض له جناح التواضع، وقال: »**هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة**] «رواه ابن ماجه وصححه الألباني.[
يا الله! ما أعظم هذا القلب وما أنقاه، سيد الخلق يطمئن رجلاً من البادية بأنه بشرٌ مثله، ليس بينه وبينهم حجاب كبرياء ولا أسوار تعالٍ!

كان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه بيده، ويرقع نعله، ويحلب شاته، ويقضي حوائجه بنفسه، ويعود المريض، ويزور الفقير، ويحمل متاع اليتيم، ولا يرى في ذلك ما ينقص من قدره، بل كان يراه رفعةً وقربة.

ومع مكانته الرفيعة، كان صلى الله عليه وسلم يكره أن يُقام له الناس إذا دخل، كما يروى عنه أنه قال»:**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضًا**] «رواه أبو داود، وصححه الألباني.[
وكان يقول» :**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**] «رواه أبو داود وصححه الألباني.[

يُحذّر من الكِبر، ويقول»:**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**«، فيقول رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، فقال صلى الله عليه وسلم»:**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس** «]رواه مسلم.[

وقد ربّى أصحابه على ذلك عمليًا، فكانوا يرون فيه التواضع، لا في الخطب وحدها، بل في المواقف اليومية، في البيوت والأسواق، في الغزوات والمجالس، فخرج جيلٌ نقيٌ لا يعرف الكبر إلى قلوبهم سبيلاً، ولا للغرور إلى أرواحهم مدخلاً.

إنه التواضع النابع من قلبٍ ممتلئٍ معرفةً بالله، وتعلقًا بالآخرة، وثقةً بأن العظمة الحقيقية ليست في الملبس والمركب، بل في التذلل لله، وخفض الجناح لعباد الله، كما قال سبحانه:**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**] {الحجر: ٨٨[
وقال أيضًا:**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**] {الإسراء: ٣٧.[

فيا أيها القارئ! إذا وجدت في قلبك ميلًا للرياء أو إعجابًا بالذات أو حبًا للمدح، فتأمل حياة رسولك الكريم صلى الله عليه وسلم، وتعلّم من سيرته كيف تكون عبدًا حقًا، وكيف تُحطم جدار الكبر من قلبك قبل أن يحطمك في الدنيا والآخرة.

الفقرة الثالثة عشرة: السيرة تفتح أبواب الرجاء للتائبين

في ظلال السيرة النبوية، تنبثق أنوار الرجاء، وتنبسط طرق العودة، وتُفتح أبواب الرحمة لكل من أذنب وعاد، وأخطأ وندم، وطرق باب التوبة باكيًا كسيرًا.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يومًا طاردًا لتائب، ولا قاسيًا على عائد، بل كان قلبه مأوى للمذنبين، وصدره رحبٌ للخاطئين، ولسانه مرشدٌ للحيارى والتائهين. كان إذا أتاه مذنبٌ نادم، قابله بعين الشفقة، وبلسان الرفق، وبقلب يغمره الرجاء في رحمة الله.

جاءه ماعز بن مالك رضي الله عنه، معترفًا بجرمه، معلنًا زناه، فلم يزجره النبي، ولا طرده من حضرته، بل أعرض عنه مرارًا، وكأنه يقول له: "ارجع، استر على نفسك، تب بينك وبين ربك". لكن ماعز أصرّ على التطهير في الدنيا قبل الآخرة، فأقيم عليه الحد، ثم مدح النبي صلى الله عليه وسلم توبته بقوله»:لقد تاب توبةً لو وُزعت على أهل المدينة لوسعتهم] «رواه مسلم.[
توبة عظيمة، صادقة، عميقة، لو قسمت على آلاف النفوس، لكفتها.

ثم جاءت الغامدية، تبكي وتطلب تطهيرًا من خطيئتها، فكان صلى الله عليه وسلم يردها المرة تلو الأخرى، حتى وضعت حملها، وفطمت طفلها، وأصرّت على إقامة الحد. فلما طهّرها الحد، قال النبي صلى الله عليه وسلم في توبتها: »لقد تابت توبةً لو تابها صاحبُ مكسٍ لغُفر له] «رواه مسلم[،
وصاحب المكس هو الجابي الذي يأخذ أموال الناس ظلمًا، والمكوس من أشنع الذنوب عند الله، ومع ذلك لو تاب بتوبتها، لغفر له.

وكان دائمًا يفتح للناس باب الرجاء بقوله»:التائب من الذنب كمن لا ذنب له] «رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني[، يا لها من بشارة! تمحو آثار الذنب من صحيفة العبد كأن لم تكن!

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يُعامل التائب بلقب ماضيه، ولا يوصمه بخطيئته، بل يُلبسه ثوب الكرامة من جديد، ويُعيد له مكانته بين الناس. فكم من عاصٍ أصبح بعد التوبة من خيار الصحابة! وكم من زلّةٍ محتها دمعة ندم، فكانت سببًا في صلاح ما تبقى من العمر!

السيرة تعلمنا أن الله لا يرد تائبًا، وأن النبي لم يكن يومًا فظًا غليظًا على المذنبين، بل كان لهم أبًا رؤوفًا، ومربيًا حكيمًا، يُربّت على الأكتاف، ويبعث في الأرواح حياة جديدة.
فيا كل من أذنب، ويا كل من أثقلته خطاياه، تعال إلى باب الله، وطرقه بقلب نادم، فلن يغلق في وجهك أبدًا، فقد قال سبحانه}:قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا] {الزمر: ٥٣.[

الفقرة الرابعة عشرة: السيرة تعلّمنا كيف نتعامل مع الخطأ

في مدرسة النبوة، لا مكان للقسوة في التربية، ولا للتجريح في الإصلاح، بل هناك رحمةٌ تُظلّل، وحكمةٌ تُوجّه، وفهمٌ عميقٌ لطبيعة النفوس واختلاف أحوالها.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى خطأً صاح بصاحبه، ولا إذا أخطأ جاهل نهره أو فضحه، بل كان يتعامل مع الزلّة بعين الشفقة، ويهدي صاحبها بألطف الأساليب وأعذب العبارات.

دخل أعرابيٌّ المسجد، لا يدري عن آدابه شيئًا، فبال في ناحيةٍ منه، فهبّ الصحابة غاضبين، ليوقعوا عليه العقوبة، فكان ردّ النبي صلى الله عليه وسلم مفاجئًا لقلوبهم» :دعوه، وأريقوا على بوله سَجْلًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين «رواه البخاري ومسلم.[
أطفأ غضبهم، وعلّمهم درسين في آن واحد: كيف يرفقون بالجاهل، وكيف يُطهّرون الخطأ بلطفٍ لا بعنف، بإصلاح الفعل لا بكسر الفاعل.

وفي موقف آخر، حين أطال معاذ بن جبل رضي الله عنه الصلاة بالناس، وكان فيهم الكبير والضعيف وذو الحاجة، لم يعنفه النبي، بل قال له في لطف عاتب، وحكمة مربٍّ»:أفتّان أنت يا معاذ؟«!رواه البخاري ومسلم]، ثم وجّهه بلينٍ إلى ما يناسب أحوال الناس، فقال»:إذا أممت الناس فخفف«...

هكذا كانت طريقته صلى الله عليه وسلم:
يرى الخطأ، فيُصلحه من غير أن يكسر القلوب،
ويواجه الخلل، فيُعدّله من غير أن يجرح الكرامة،
ويعلّم الصحابة أن الهداية تحتاج قلبًا واسعًا، وصدرًا حليمًا، ولسانًا حكيمًا.

لقد كانت السيرة النبوية تربية قبل أن تكون رواية، وخلقًا قبل أن تكون سردًا، ومن تأمل مواقفها، تعلّم أن الإصلاح لا يكون بالغِلظة، وأن التأديب الحقيقي هو ما يُبقي كرامة المخطئ، ويأخذ بيده إلى الصواب في حب.

فكم نحن بحاجة اليوم إلى هذا المنهج النبوي العظيم في بيوتنا ومدارسنا ومساجدنا ومنابرنا، حيث صار البعض يظن أن الغِلظة غيرة، وأن القسوة حزم، ونسوا أن نبي الرحمة قال»:ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه«
]رواه مسلم.[

الفقرة الخامسة عشرة: السيرة تُربّي على الوفاء وحفظ الجميل

في زمنٍ يتبدّل فيه الناس ويتغيّرون، وتُنسى فيه الأيادي البيضاء، تُعلّمنا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم معنى الوفاء الأصيل، والاعتراف بالفضل، والصدق في المحبة، والوفاء في العهد، ولو بعد الرحيل.

ما نسي يومًا من أحسن إليه، ولا جحد فضل أحد، ولو مضى عليه الزمان، فكان وفيًّا في صداقاته، وفيًّا مع أعدائه إن عاهدوا، فكيف بمن أحبّوه وناصروه؟

ذُكرت خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها، فاهتز قلبه صلى الله عليه وسلم، وقال»:إني قد رُزِقتُ حبها]«رواه مسلم[، وكان يذبح الشاة ثم يهديها إلى صديقاتها، ويكرم صويحباتها وفاءً لذكراها، فإذا سمع صوتًا يُذكّره بها، ارتجف صوته، واهتزت روحه، وكأنها لم تغب.

وقال في أبي بكر رضي الله عنه، وفاءً لمواقفه الجليلة في الإسلام»:لو كنتُ متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا]«رواه البخاري ومسلم[،
فأيّ مقامٍ هذا الذي رفعه إليه؟ مقام الخلّة، التي لا تكون إلا لأحد.

وحين فُتحت مكة ودانت له الرقاب، لم يُهِن من آذوه، ولم يُعنّف من حاربوه، بل رفع راية العفو، وقال في مشهدٍ أبكى الصخر وأذلّ الطغيان»:اذهبوا فأنتم الطلقاء«رواه البيهقي في *دلائل النبوة*[،
فكان أوفى من عرفه التاريخ، يردّ الأذى بالحلم، وينقض حقد السنين بكلمة صفح، لا تُقال إلا من نبيّ أوفياء.

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليست فقط كتاب تاريخ، بل مدرسةُ وفاءٍ تُعلِّم الأجيال أن الشكر خلق عظيم، وأن حفظ الجميل دينٌ لا يسقط بالتقادم، وأن الحب لا يموت إن كان لله.

الفقرة السادسة عشرة: السيرة تعلّمنا كيف نواجه الحياة بقلب المؤمن

ليست السيرة النبوية قصصًا تُروى، ولا مشاهد تُستعرض، بل هي مرآة يطلّ منها المؤمن على حقيقة الدنيا، ويرى فيها كيف يعيش العظماء حين يشتد البلاء، وكيف يصبر المقرّبون حين يعظم الابتلاء.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يرفل في النعيم، ولا عاش في قصرٍ منيف، بل خاض غمار الحياة بكلّ ما فيها من تعبٍ وجراح، وذاق من مشقّاتها ما تتزلزل له الجبال، لكنه واجهها بقلب المؤمن، وصبر المحتسب، ويقين الصادق الموقن بوعد الله.

فُجع صلى الله عليه وسلم بأحبّ الخلق إليه، دفن أولاده بيديه، واحدًا تلو الآخر، وماتت زوجته الوفية خديجة، وسنده عمه أبو طالب، وطُرد من أحبّ أرض إليه، وسالت دماؤه الطاهرة يوم أُحد، وحوصر في شعب بني هاشم حتى أكل ورق الشجر، وجاع حتى شدّ الحجر على بطنه الشريف من شدة الألم، وكان مع ذلك يُردد»:اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة«]رواه البخاري[،
كأنّه يُعلّمنا أن الدنيا لا تُقيم لمحبّ قدرًا، ولا تُنصف عبدًا، وأن العيش الحق هو ما أعدّه الله لعباده الصابرين.

وما كان يفرّ إلى البشر، ولا يشكو إلى الخلق، بل كان إذا حزبه أمر فزع إلى ربّه،وإذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة]رواه أحمد وأبو داود[،
لأنها ملاذُه، وسلوته، وراحة روحه، وكان يقول لبلال حين تضيق الدنيا وتدلهمّ الخطوب»:أرحنا بها يا بلال«]رواه أبو داود وصححه الألباني[،
ففي الصلاة راحة العارفين، وسكون المحزونين، وطمأنينة القلوب المؤمنة.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا اشتد الكرب، رفع يديه إلى السماء، يناجي ربّه، ويبثّ شكواه لمن لا تخيب عنده الرجاء، وكأنّ الدنيا كلها تضيق، ثم تتسع في لحظة دعاء.

فمن أراد أن يعيش حياةً مطمئنة، فليقرأ السيرة لا بعينه، بل بقلبه، ولينظر كيف عاش نبيُّه صلى الله عليه وسلم في الدنيا، ليتعلّم كيف يواجهها. قال الله تعالى}:لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا{
]الأحزاب: ٢١.[

الباب الحادي عشر :منهج السيرة في تربية الجيل

مقدمة

ليست أمتنا بحاجة إلى نصوص أكثر، فقد ورثت أعظم كتاب، وسارت خلف أكمل نبي، لكنها بحاجة إلى **جيلٍ يتربى على هذا النور، ويجسده في واقعه**، جيلٍ لا يكتفي بالقول، بل يترجم الهداية فعلاً، ويعيش الرسالة خلقًا وسلوكًا.

وقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم جيلًا هو الأعظم في تاريخ الإنسانية، لم يكن يملك مقومات القوة المادية، ولا وسائل التأثير الحديثة، لكن السيرة النبوية صاغتهم **بعقيدة راسخة، وتربية ربانية، ومنهج نبوي متوازن**، حتى أصبحوا شعلةً تُضيء الدروب، ولبنةً أولى في بناء أمة الخير.

لم تكن تربية النبي صلى الله عليه وسلم تلقينًا نظريًّا، بل كانت **نموذجًا حيًّا، يُعلّم بالصبر، ويربّي بالموقف، ويغرس القيم بالحكمة والموعظة، ويقوّم النفوس بالرحمة والعدل**. وكان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أصناف البشر – الصغير والكبير، الذكر والأنثى، الحليم والغليظ – بمنهج يراعي الفطرة، ويخاطب العقل، ويزرع الإيمان.

وفي زمن التيه التربوي، والانفلات القيمي، وغربة القدوة؛ **لا خلاص لنا إلا بالعودة إلى هذا المنهج النبوي في التربية**، نستقرئ ملامحه، ونستلهم خطواته، ونُفعّل وصاياه في بيوتنا ومدارسنا ومجتمعاتنا.

في هذا الباب، سنكتشف كيف بنت السيرة النبوية جيلًا ربانيًّا، وكيف نستطيع نحن أن **نعيد إشعال قبس النبوة في قلوب الجيل الجديد**، لننقذهم من الظلمة، ونأخذ بأيديهم إلى صراط الله المستقيم.

الفقرة الأولى: السيرة منهج تربوي متكامل لا نظير له

السيرة النبوية ليست صفحات من التاريخ نطالعها، ولا أحداثًا من الماضي نسترجعها، بل هي نورٌ يتلألأ في ظلمات الحياة، ومنهجٌ رباني تربوي صاغ به النبي صلى الله عليه وسلم أعظم جيلٍ عرفته البشرية، جيلًا بدّل الله به وجه الأرض، وأقام به قواعد العدل والإيمان، بعدما تربى في مدرسة النبوة، لا على مقاعد الجامعات، ولا في رحاب النظريات الجافة، بل على يدي معلم البشرية، في ظلال الوحي، وتحت سمع الله وبصره.

في السيرة، تتجلّى أعظم مدرسة في التربية، تربية لا تعرف القهر، ولا تمارس التلقين، بل تغرس الإيمان في القلوب بماء الرحمة، وتُعلّم العقيدة بالحب لا بالرهبة، وتُرسّخ العبادات بالتدرّج والرفق، وتُنشئ الأخلاق بالمواقف الصادقة لا بالخطب الرنانة، وتُصنع الرجال بالقدوة الحيّة لا بالشعارات الجوفاء.

لقد رأينا في سيرته صلى الله عليه وسلم كيف كان يبني النفوس قبل أن يبني الدول، ويصوغ الأرواح قبل أن يكوّن الجيوش، ويُهيئ القلوب لربها قبل أن يُحرك الأبدان لنصرة دينها. وكان أول من يطبّق ما يقول، فلا يُلقي الأمر على أصحابه إلا وقد فعله، ولا يأمرهم بشيء حتى يكون هو القدوة فيه.
لذلك لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِه، قالت قولتها الخالدة التي اختزلت عظمة التربية النبوية في جملة واحدة: **»كان خلقه القرآن]«**رواه مسلم[،
فكأنّ القرآن تمثّل إنسانًا، فسار على الأرض، بأخلاقه، ورفقه، وعدله، وصدقه، وصبره، وزهده.

ومن تأمل في سيرته صلى الله عليه وسلم، وجد أن التربية فيها لم تكن عشوائية، بل كانت محكمة موزونة، فكان يُنزل الناس منازلهم، ويراعي أحوالهم، ويُربي كل نفس بما يناسبها. يُلين للضعيف، ويشدّد على الغافل، ويصبر على الجافي، ويبتسم في وجه المسيء ليرده بالحسنى. وكان إذا أراد أن يُقوّم سلوكًا، لم يصرخ، ولم يعنّف، بل يُشير بالحكمة، ويلمس موطن الخطأ بلين، ليُثمر تغيّرًا ينبع من الداخل.

وقد شهد الله له بذلك فقال**}:لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ{**
]التوبة: ١٢٨.[

وكان أعظم ما يميز تربيته صلى الله عليه وسلم أنه ربّى أصحابه على الارتباط بالله لا به، وعلى أن يكونوا دعاةً لا أتباعًا، وروّادًا لا مقلّدين، فخرج من تحت يده رجالٌ لو وُضع أحدهم في صحراء قاحلة، لأقام فيها أمة، وبثّ فيها روح الحياة.

فيا من تطلب النماذج التربوية، وتبحث عن المناهج التعليمية، وتُفتّش عن أساليب صناعة الأجيال:
اقرأ السيرة بقلبك، واغترف من نبعها، فإنها ليست حكاية نُسلي بها السامعين، بل ميراث النبوة، ومنهج الإصلاح، وبوابة التغيير الحقيقي للأمم.

الفقرة الثانية السيرة تغرس الإيمان قبل الأحكام

لم تكن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس جافةً تبدأ بتفصيل الأحكام، ولا كان أول ما نزل من الوحي هو إلزام العباد بالصلاة أو الصيام أو تفصيل الحلال والحرام، بل بدأ صلى الله عليه وسلم حيث يبدأ البناء الصحيح: من القلب.

غرس في النفوس أوّلًا تعظيمَ الله، وبثّ في الأرواح نور التوحيد، وصحّح التصوّرات، وأحيا العقيدة الخالصة، فتعرفت القلوب على ربها، وذلّت له محبةً وتعظيمًا، قبل أن تُؤمر بسجدة أو يُحرّم عليها شيء.

ثلاث عشرة سنة في مكة، كانت مدرسةً للإيمان، يغذّي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم النفوس بزاد العقيدة، ويعلّمهم من هو الله، وما هي الآخرة، وما حقيقة الدنيا، حتى إذا استقرّ الإيمان، نزلت الأحكام، فاستقبلوها بقلوب تهتف: }سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا{البقرة: ٢٨٥.[

وقد عبّر عن هذا المنهج التربوي الأصيل أحد فتيان الصحابة، وهو جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه، فقال واصفًا حالهم":كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ فتيانٌ حَزاورَةٌ، فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعلَّمَ القرآنَ، ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازددنا بهِ إيمانًا]"رواه ابن ماجه وصححه الألباني.[

لقد تعلّموا الإيمان أولًا، فصار القرآن حين نزل على قلوبهم غذاءً يزيدهم يقينًا، لا ألفاظًا تحفظها الألسن دون أثر في الجوارح. وهذا هو الفرق بين التلقّي الروحي الإيماني، والتلقّي القائم على الحفظ والتكرار فقط.

وشهادة أخرى تأتينا من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، حين وقف أمام النجاشي يصف حالهم قبل الإسلام، فقال:
"كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش... حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان"
]رواه أحمد والبيهقي بإسناد حسن.[

وهكذا تعلّم الصحابة أن الطاعة تبدأ من معرفة من يُطاع، وأن القلب إذا عمر بالإيمان، انقادت الجوارح للطاعة بلا تردد ولا تثاقل.

ومن هنا نتعلم: أن إصلاح الظاهر لا يكون إلا بإصلاح الباطن، وأن الإيمان إذا استقرّ في القلب، صار الحلال محبوبًا، والحرام مرهوبًا، لا بمجرد الحكم، بل لأن القلب قد أحبّ الله، وأحبّ ما يُرضيه.

فالسيرة النبوية تعلّمنا كيف نربّي الناس على معرفة الله أولًا، قبل أن نأمرهم بالطاعة، وتعلّمنا أن الغراس الذي يبدأ من الجذور، هو وحده الذي يثمر في العواصف.

الفقرة الثالثة: السيرة تُعلّم قبل أن تُلزم

لم يكن منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التربية قائمًا على الزجر والفرض والإلزام منذ اللحظة الأولى، بل كان منهجًا ربّانيًّا لطيفًا، يبدأ بالتعليم، ويمهد بالفهم، ويزرع الفكرة قبل أن يقطف ثمرتها في العمل.
كان يُهيئ النفوس ويشرح العقول، ويوقظ الأرواح قبل أن يُطالب الأبدان بالحركة، فإذا أمرهم بعد ذلك، استجابوا، لا لأنهم أُجبروا، بل لأنهم أحبّوا، وفهموا، واقتنعوا.

فهو صلى الله عليه وسلم لم يأمرهم بإتقان الوضوء قبل أن يريهم كيف يتوضأ، توضأ أمامهم مرارًا، حتى حفظوا عنه عدد مرات الغسل، وهيئة الأعضاء، ودعاء البداية والنهاية، فكان التعليم هو المدخل، والطاعة هي النتيجة.

ولم يُنزّل الله تحريم الربا دفعةً واحدة، ولا نزلت آيات تحريم الخمر في أول العهد، بل مكثت سنوات، تُذكِّر القلوب بالله، وتعرّفهم خطورة الخطيئة، حتى إذا استوى القلب على عرش الإيمان، نزل الحكم، فسكبوا دنان الخمر في طرقات المدينة، وما سأل أحدهم: "لِمَ؟"، بل قالوا جميعًا:
"انتهينا ربّنا، انتهينا."

لقد علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم كيف يُفهم الأمر قبل أن يُفرض، وكيف يُبصَر الطريق قبل أن يُمشى فيه.
كان يفتح لهم أبواب الجنة قبل أن يحدّثهم عن تفاصيل البيوع، ويرسم لهم مشاهد النار قبل أن يبيّن لهم أحكام المواريث.
لأن الهداية لا تُورث بالإجبار، بل تُثمر حين تُفهم وتُحبّ.

قال الله تعالى:﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبيّن لهم﴾]إبراهيم: ٤[
فلم يكن التبليغ وحده كافيًا، بل لا بُدّ من البيان، والبيان لا يسبق التكليف فحسب، بل يُمهّد له الطريق، ويجعل القلوب تتشوّق لما يُلقى عليها من أمر الله ونهيه.

وهكذا فهم الصحابة، وهكذا أحبّوا، وهكذا أطاعوا.
ما أحبّوا الشرع لأنه فُرض، بل أحبّوه لأنهم فهموه، وتعلّقوا بمشرِّعه، وآمنوا بربه، فتذلّلت نفوسهم لأحكامه، وسعدت قلوبهم بالتزامه.

لقد ربّاهم نبي الرحمة على أن الشرائع لا تُغرس في القلوب بالإكراه، بل تُسقى بالتفهيم، وتُثمر حين يُضيء فيها نور اليقين، فتنقاد النفس للطاعة، لا فرارًا من العقاب، بل شوقًا إلى الرضا والقُرب.

الفقرة الرابعة: السيرة تُربّي بالعِبرة لا بالعصا

لم تكن العصا يومًا في يد النبي صلى الله عليه وسلم أداةً للتأديب، بل كانت الكلمة الهادئة، والنظرة البليغة، والموقف المعبّر، هي أدواته في تهذيب النفوس وتربية القلوب.
كان يُربي بالعِبرة، ويوقظ الضمائر بالموعظة، ويهدي العقول بالمشهد المؤثّر، لا بالقسوة، ولا بالخوف.

مرّ ذات يومٍ على قبر، فتوقّف وبكى، ثم قال»:يا إخواني، لمثل هذا فأعدّوا]«رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني.[
ما ضرب، وما صرخ، وما خوّف، بل بكى، فبكى معه من سمع، وانسابت العبرة في القلوب، فكانت أبلغ من ألف موعظة.

ورأى أعرابيًّا يبول في المسجد، فهاج الصحابة، وكادت الأيدي تمتد، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أوقفهم، وقال: »دعوه، لا تزرموه«،ثم قرّبه إليه، وقال في رفق»:إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله]«...رواه مسلم.[
فخرج الأعرابي وهو يقول»:اللهم ارحمني ومحمّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا«!
لقد تعلّم في دقائق ما لم تُعلّمه قبيلة، وخرج محبًّا بعدما دخل جاهلًا، لأن الرحمة سبقته إلى قلبه قبل أن تصله الكلمات.

فهذا هو منهج النبوة:
تربية بالعاطفة والعقل، لا بالخوف والعصا.
تربية تُعلي من شأن الإنسان، وتُخاطب فطرته، وتُحرّك وجدانه، وتجعله يتغير من الداخل، لا لأن سوطًا فوقه، بل لأن نورًا سكن قلبه.

وإنّ القلوب لا تصفو بالضرب، ولا تُهذّب بالقسوة، وإنما تُصلحها العبرة، وتُهذّبها الرحمة، ويُلينها الموقف الذي يُريها الحق دون أن يُجبرها عليه.

هذا هو الفرق بين المعلّم والمربّي، فالمعلّم ينقل المعلومة، وأما النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يبني الإنسان.

الفقرة الخامسة: السيرة تهذّب الغرائز... لا تلغيها

لم يأتِ الإسلام ليُطفئ جذوة الغرائز، ولا ليكبت الفطرة، ولا ليُحوّل الإنسان إلى تمثال بارد لا يحسّ ولا يشتهي، بل جاء ليهدي هذه الغرائز إلى جادّة النور، ويرتقي بها من وحل الغريزة إلى أفق العبودية.

فالإنسان خُلق وفيه شوق إلى الطعام، وتوق إلى المال، وميل إلى الجمال، ورغبة في الجاه؛ لكن السيرة النبوية تعلّمنا أن هذه ليست عيوبًا يجب نزعها، بل طاقات يجب توجيهها.
الغريزة في ميزان السيرة ليست عدوًا، بل مطيّة، إن أحسنت توجيهها قادتك إلى الجنة، وإن تركتها بلا زمام جرفتك إلى الهاوية.

رأينا في سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم بشرًا يحب الطيب، ويأكل مما يشتهي، ويتزوج، ويلبس الجميل، ويضحك، ويمازح ...لكنّه كان لا يُسرف، ولا يترف، ولا يُفرط، وكان في كل ذلك عبدًا لله.
قال صلى الله عليه وسلم»:حُبِّبَ إليّ من دنياكم: النساء والطيب، وجُعلت قُرّة عيني في الصلاة«رواه النسائي وأحمد، وحسنه الألباني.[

وفي هذا الحديث بُعدٌ تربوي عظيم؛ إذ لم يقل: "أحببت"، بل قال: "حبّب إليّ"، إشارة إلى أن المحبة منهج إلهي، يزرعها الله في القلب لتكون سببًا في عمارة الأرض، لا وسيلة إلى التهلكة.

وما أبلغ الجمع بين "النساء" و"الطيب" و"الصلاة !"كأنّه صلى الله عليه وسلم يربّي الأمة على أن الغرائز لا تُلغى، بل تُهذّب، وأنه لا تعارض بين متعة الجسد ونقاء الروح، إذا سار الإنسان على هدي الشريعة.

وقد قال الله تعالى :﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ... وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾]آل عمران: ١٤[،
لكنه أردفها بقوله :﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾، فلم يُنكر أصل الميل، بل وجّهه إلى ما هو أزكى وأبقى.

وهذا هو جوهر الزهد في السيرة:
أن تملك الدنيا ولا تملكك،
أن تلمس الجمال لكن لا تسجد له،
أن تكون بين النعمة والعبادة على صراط مستقيم.

لقد كانت الغرائز في الجاهلية تندفع كالسيل الجارف، لا عقل يضبطها، ولا وحي يهديها، فجاءت السيرة لتقيم لها السدود، وتفتح لها الممرات الآمنة، فصارت الغريزة طريقًا إلى الطاعة، بدل أن تكون مزلقة إلى المعصية.

هكذا تعلّمنا السيرة أن التدين ليس حرمانًا، بل هو فن التوازن،
وأن القرب من الله لا يعني الجوع والخشونة، بل يعني أن ترفرف الروح وإن شبعت المعدة،
وأن العبادة لا تلغي الإنسان، بل تُنضجه وتسمو به.

الفقرة السادسة: السيرة... توازن بين الروح والجسد

ما بين مطالب الروح واحتياجات الجسد، أقام النبي صلى الله عليه وسلم ميزانًا ربانيًا لا يميل، لا يُقصي جانبًا، ولا يُغرق في آخر.
فكما دعا إلى تهذيب النفس وتزكية القلب، أمر بالعناية بالجسد، تغذيةً ونومًا وراحة.
وكما حثّ على الصيام، نهى عن الوصال،
وكما أمر بقيام الليل، بيّن فضل النوم،
وكما ربّى الصحابة على التبتل والخشوع، علّمهم الفروسية والرمي والمشي والتجارة.

لقد فهم السلف هذا الميزان النبوي فحرصوا عليه، لكن بعضهم غلّب جانبًا على آخر بحسن نية، فجاء التصحيح من مشكاة النبوة.

جاء ثلاثة نفرٍ إلى بيوت أمهات المؤمنين يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا بها كأنهم استقلوها، وقال أحدهم»:أما أنا فأصلي الليل أبدًا ولا أنام«،وقال الثاني: «وأنا أصوم الدهر ولا أفطر«،وقال الثالث: «وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا«فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، خطب في الناس وقال»:أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني]«رواه البخاري ومسلم.[

لم يُنكر النبي عليهم حبهم للعبادة، لكنه أنكر عليهم اختلال التوازن، لأن الدين لا يريد إنسانًا ينهك جسده ليُرضي روحه، ولا من يُتخَمت روحه بعبادة لا تليق بضعف الإنسان البشري.

السيرة ترفض الغلو، ترفض التحليق المنفصل عن الواقع، ترفض التديُّن الذي يُشوّه صورة الدين في عيون الناس.
السيرة تعلّمنا أن التوازن عبادة، وأن الوسطية ليست رخاوة، بل قوّة في موضعها، ورحمة في وقتها، وانضباط في كل حال.

في ضوء هذا التوازن، نشأت أعظم أمة، ربّانية الروح، واقعية الخُطى، تعرف كيف تُناجي ربها في جوف الليل، وتبني حضارتها في ضوء الش

الفقرة السابعة: السيرة تُربي على العِزَّة لا الانكسار

ما ربّت السيرة نفوسًا ذليلة، ولا غرست في القلوب الخنوع والانكسار، بل أنشأت رجالًا يرفعون رؤوسهم بعز الإيمان، ويطأطئونها لله وحده، لا يحنون ظهورهم لمخلوق، ولا يسكتون على باطل، ولا يخشون إلا الله.

غرس النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه معنى الكرامة، وعلّمهم أن المؤمن لا يذلّ نفسه، ولا يعرضها لما لا تطيق، فقال»:**لا ينبغي للمؤمن أن يُذلّ نفسه**«قالوا: وكيف يُذلّ نفسه؟قال» :**يتعرض من البلاء لما لا يطيق**]«رواه أحمد، وصححه الألباني.[

ولم يكن صلى الله عليه وسلم متعاليًا بعظمته، بل إذا رأى من أحد رهبةً زائدة، أزالها بحنانه، كما في موقفه مع رجلٍ جاءه يرتجف من هيبته، فقال له بلطف الأب ورفق المعلّم»:**هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة**«]رواه ابن ماجه، وصححه الألباني.[

فالسيرة تربي على **تواضع لا ذل فيه**، وعلى **عزة لا كبر معها**، وعلى **هيبة لا خوف فيها**.
تُعلِّمنا أن الطريق إلى الله لا يُمشى بانكسار المهزوم، ولا بغرور المنتفخ، بل بخطى الموقن الواثق، الذي يعرف قدر نفسه، ويعرف ربه.هكذا كانت السيرة، وهكذا تبني النفوس :**كبارًا في الأخلاق، عِظامًا في العبودية، أعزاء في كل مقام**

الفقرة الثامنة السيرة تُبني الرجال لا الأتباع

لم يكن غرض النبي صلى الله عليه وسلم أن يُخرّج جمهورًا يُصفِّق، أو جيشًا يُنفّذ بلا وعي، بل أن يُنشئ رجالًا يفهمون قبل أن يسمعوا، ويتحرّكون بدافع المسؤولية لا دافع الإشارة، يقفون في الميدان قادة لا مجرد منفذين.

ربّاهم على التفكير لا التلقين، وعلى المبادرة لا التواكل، وعلى إدراك المقاصد لا التوقف عند الحروف. ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يُراجعونه، ويقترحون، ويجتهدون، فيُصغي إليهم، ويثني على صوابهم، ويقوم خطأهم بلين ورحمة.

في غزوة بدر، لما رأى الحُباب بن المنذر رضي الله عنه موضع الجيش، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بأدب القائد المتفكر":**يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟**"
فقال النبي" :**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**"، فقال" :**فإن هذا ليس بمنزل** "...ثم قدّم رؤيته العسكرية، فاستجاب له النبي فورًا، وعدّل الموضع دون حرج ولا تعصب.

فالسيرة لا تصنع **أتباعًا مقلدين**، بل **رجالًا راشدين**، يعرفون أن القيادة ليست سلطة، بل مسؤولية، وأن الطاعة لا تعني إلغاء العقل، بل ضبطه بشرع الله.

هكذا ربتهم السيرة، وهكذا تبني الأجيال :رجالًا يُفكرون، ويتحملون، ويقودون، وينهضون بالأمة لا بها يسيرون.

الفقرة التاسعة: السيرة تُربي على المبادرة وتحمل المسؤولية

في مدرسة النبوة، لم يكن الصحابي ينتظر التعليمات، ولا يتعلّق بحرفية الأوامر، بل كان قلبه حيًّا، يسابق إلى الخير إذا لاح له، ويتحرك لسد الثغرة إن رأى خللاً، ويستشعر مسؤوليته في كل موقف، كأنه وحده المطالب بالقيام بحق الإسلام.

فالنبي صلى الله عليه وسلم ربّاهم على المبادرة لا التلقّي السلبي، وعلى الاستباق لا التواكل، وعلى أن كل واحدٍ منهم راية تمشي على الأرض.

لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه آية تُتلى، خرّ مغشيًّا عليه، إيمانًا لا تصنّعًا، ولما نزل الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قام أبو بكر رضي الله عنه يُثبّت الناس، ويقرأ عليهم":وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل"...، فكأن الناس لم يسمعوها إلا يومئذ.

وفي ليلة الهجرة، لم يحتج عبد الله بن أبي بكر، ولا أسماء، ولا عامر بن فهيرة، إلى أوامر مفصّلة، فقد كان كلٌّ منهم يعرف موقعه، ويؤدي دوره في صمتٍ وإتقان، لأن السيرة علّمتهم أن الدين مسؤولية تُحمَل، لا تكاليف تُنتظر.

السيرة تُخرج رجالًا يسألون" :ما واجبي؟ "لا" :ما الذي طُلب مني؟"

الفقرة العاشرة: السيرة تُربي على الصبر لا التبرم

لم يكن طريق النبي صلى الله عليه وسلم مفروشًا بالورود، بل كان مليئًا بالأذى والحصار والجراح، ومع ذلك، لم نسمع منه ولا من أصحابه شكوى متبرّمة، ولا تذمرًا ساخطًا، ولا قولًا من قبيل: "إلى متى؟" أو "لماذا نحن؟"، بل كانوا كلما اشتدّ البلاء، ازدادوا يقينًا، وكلما طال الطريق، قويت عزائمهم، وكأن المحن تُنضج الإيمان، لا تُضعفه.

قال خباب بن الأرتّ رضي الله عنه"*:شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟* فقال" *قد كان من قبلكم يُؤتى بالرجل، فيُحفَر له في الأرض، فيُجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه...*
والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله]"...رواه البخاري[

السيرة تُعلّمنا أن الصبر ليس خنوعًا، بل **قوة داخلية** تمسك النفس عند الجزع، وأن الشكوى لغير الله لا تُقرّب الفرج، بل قد تُباعده.

الفقرة الحادية عشرة: السيرة تصنع الثقة لا التردد

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة مطاردًا، ودخل المدينة مهاجرًا لاجئًا، لكنه لم يكن يومًا مترددًا ولا مرتابًا، بل كان واثقًا بربه، مطمئنًا إلى نصره، ثابت الخطى، عميق الإيمان.

وفي الغار، وأعداء الله يحيطون به، يقول لأبي بكر رضي الله عنه بكلمات تُدوّي في التاريخ» *ما ظنك باثنين الله ثالثهما*«رواه البخاري ومسلم]

وفي بدر، يوم التقى الجمعان، وقف يضرع إلى الله بثقة العارف بحقه، لا خوف المتشكك في نصره، حتى سقط رداؤه عن كتفيه من شدة الابتهال، وجاءه الوعد" *سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ*."

السيرة تُعلّمنا أن **الثقة بالله تُبدّد المخاوف**، وأن القيادة الراسخة تبدأ من **قلب مطمئن، ونفس تعرف من تعبد**.

الفقرة الثانية عشرة: السيرة تُعلّم الحزم لا التهور

في مدرسة النبوة، لا مكان للعجلة المتهورة، ولا للاندفاع الأهوج، ولا للتردد المهزوز. فقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن القائد الناجح هو من يمزج بين **نار الحماسة وبرد الحكمة**، بين **صوت القلب ونداء العقل**، فلا يتقدم خطوة حتى يوزنها بميزان الشرع والعقل، ولا يتأخر عن واجب إذا ظهر له وجه الصواب.

لم يكن صلى الله عليه وسلم متهورًا ينجرف مع المشاعر المتأججة، ولا مترددًا تشلّه كثرة الحسابات، بل كان **حازمًا حين يتضح له الرشد، متأنيًا حين تُخفى عليه العواقب، حكيمًا في تقديم مصلحة الدين على حظ النفس، صادقًا مع الله في كل قرار**.

تجلّى هذا المنهج الرباني في أعظم مشاهده يوم صلح الحديبية، ذلك اليوم الذي بدا لكثير من الصحابة أنه انكسار، بينما كان في عين النبوة انتصارًا مؤجلًا. فقد نزل النبي صلى الله عليه وسلم على شروطٍ رأوها مُجحفة، فثار في نفوس بعضهم الغضب، واشتد الحزن في قلوبهم، كيف نرد من جاء مسلمًا؟ وكيف نكتب: "محمد بن عبد الله" ونحذف "رسول الله"؟! حتى قال عمر رضي الله عنه" *ألسنا على الحق وهم على الباطل؟* ."!ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ما لا يرونه، يبصر بعين البصيرة ما غاب عن أعين العاطفة، حتى قال له" *إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري*."

فما هي إلا أيام، حتى نزل قول الله عز وجل، يُثبّت النبي ويُطمئن المؤمنين، ويكشف عن جوهر ذلك الصلح المبارك :﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ **[الفتح: ١]**، فكان الحديبية في ميزان السماء فتحًا، وفي ميزان التاريخ نقطة تحوّل غيّرت وجه الدعوة إلى الأبد.

لقد كانت كل خطوة من خطواته صلى الله عليه وسلم في ذلك الصلح، وكل كلمة نطق بها، وكل سكوت سكت عنه، درسًا خالدًا في **فنون القيادة، وفقه الأولويات، وحسن تقدير المآلات**.

بل حتى في مواقف الحرب والاشتباك، لم يكن يتبع حماسة الجند أو غضب اللحظة، بل كان يقول" *لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا*] "...رواه البخاري ومسلم]، لأنه يعلم أن الحزم لا يعني الاصطدام، وأن العافية نعمة لا تُزهد، ما دامت لا تُضيّع حقًا ولا تُعطّل واجبًا.

وفي فتح مكة، حين تاقت النفوس إلى الانتقام من صناديد قريش الذين أخرجوه وآذوه، دخل صلى الله عليه وسلم مكة في أعظم موكب للفتح عرفه التاريخ، لكنه دخلها مطأطئ الرأس تواضعًا، رافعًا راية الرحمة لا راية الثأر، قائلاً لهم : "*اذهبوا فأنتم الطلقاء*."

فهكذا تعلّمنا من سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم أن **الحزم ليس تهورًا، والتريّث ليس ضعفًا، والعقلانية ليست جبنًا، بل هي صفة النبوة، وطريق الفلاح، وأعظم خصال القيادة الراشدة**.

الفقرة الثالثة عشرة: السيرة توازن بين الرحمة والعدل

من تأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وجد نفسه أمام ميزانٍ دقيق يزن به القلوب والأفعال، ميزانٍ يجمع بين لين الحنان وشدة السلطان، بين دمعة الرحمة وسيف العدل، في آنٍ واحد.

لم يكن نبيّ الرحمة صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي تذوب حواجز الهيبة في حضرته، ولا ذلك القائد الذي تطغى شدّته فتقسو بها القلوب، بل كان إمامًا ربانيًّا يُعطي كل خلقٍ موضعه، فلا الرحمة تُفضي إلى التسيّب، ولا العدل يُفضي إلى الغلظة، بل وازن بينهما بميزانٍ دقيق، لا يميل إلا للحق، ولا ينحاز إلا لما يُرضي رب العالمين.

فحين دخل أعرابي المسجد، لا يعرف ما يجوز ولا ما لا يجوز، فبال في طرفه، فهبّ الصحابة – غيرةً للمسجد، ومحبّةً لله ورسوله – ليزجروه ويوقفوه، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يرفع يده الحكيمة، ويقول:
"دعوه، لا تُزرموه (أي لا تقطعوا عليه بوله)، ثم صبوا على بوله ذنوبًا من ماء] "رواه البخاري ومسلم.[

لقد رأى صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل جاهل، لا يعرف الحكم، وأن الزجر في غير موضعه يُفسد ولا يُصلح، فبسط الرحمة، وسكت عن الخطأ رحمةً لا رضًا، ولما انقضى الموقف، ناداه بالحكمة، فقال له كما في رواية:
"إن المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن] "رواه مسلم.[

فخرج الأعرابي وهو يقول منشرح الصدر "*اللهم ارحمني ومحمّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا*"!، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ممازحًا ومعلّمًا" :لقد حجّرت واسعًا."

رحمةٌ تسبق الغضب، وبصيرة تسبق الانفعال، ورحمة تفتح القلوب المغلقة، حتى لمن لم يعرف قدر المسجد.

لكن هذه الرحمة، لم تكن على حساب الحق والعدل، بل كانت في إطار الشريعة، لا تتعداه. ولذا لما جاءه أقوام يشفعون في امرأة من بني مخزوم، سرقت، وكانت من بيتٍ شريف، كأنّهم أرادوا أن تُعفى من الحدّ لعلوّ نسبها، قال النبي صلى الله عليه وسلم – وهو يخاطب الأمة في غضبةٍ لله :– وأيمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها] "رواه البخاري ومسلم.[

فلا نسب يشفع في حدود الله، ولا مكانة تجير من عدل الله.
إنه نبيّ الرحمة، نعم، لكنه نبيّ العدل كذلك، يجمع بين اللين حيث تنفع الرحمة، والشدة حيث لا يقوم الدين إلا بها.

قال تعالى في وصفه :﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال أيضًا:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

فهو رحمة للعالمين، لكنه أيضًا ناصرٌ للحق، حاكمٌ بالعدل، لا تأخذه في الله لومة لائم.

وهكذا تُعلّمنا السيرة أن المؤمن ليس إمعة، يرقّ قلبه لكل موقف حتى يضيع به الحق، ولا هو غليظ القلب فيفقد لذة الرحمة، بل هو رقيق المشاعر، قوي القرار، يعرف متى يعفو ومتى يَقصِم، متى يحتضن ومتى يحسم، يَزن الأمور بميزان النبوة، ويضع كل شيء في موضعه، كما فعل المعصوم صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الرابعة عشرة السيرة تُعلِّم فقه الأولويات

من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، وحكمة تبليغه، ودقّة منهجه، أنه ما وضع أمرًا في غير موضعه، ولا قدّم شأنًا دون ما هو أولى منه، بل رتّب الدعوة كما يُرتّب البناء؛ يبدأ بالأساس، ثم الأعمدة، ثم السقف، فلا يسبق فرعًا على أصل، ولا زينة على جوهر.

ففي مكة، حيث لا دولة ولا شوكة، وحيث الضعف ظاهر، والبطش مستعرّ، لم يكن السلاح هو الحل، ولا المواجهة هي الفرض، بل كان المنهج النبوي قائمًا على الصبر والتبليغ والتربية، لأن بناء العقيدة وتوحيد القلوب، هو الأساس الذي تُبنى عليه الأمة .قال تعالى :﴿فَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥.]

في تلك المرحلة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يُربي أتباعه على معرفة الله، وعلى صدق الإيمان، وعلى الاستعلاء على الشهوات، ويغرس فيهم اليقين حتى لو سُحِلوا على الرمال الحارقة، أو أُحرقت ظهورهم بسياط قريش .كان الإيمان قبل القرآن، والعقيدة قبل القتال، والتزكية قبل التمكين.

روى الصحابي الجليل جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه فقال":كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيانٌ حَزاورة، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا به إيمانًا] "رواه ابن ماجه وصححه الألباني.[

فلما انتقل إلى المدينة، وباتت الأرض أرض إيمان، والدولة تضع لبناتها الأولى، بدأ يضع لكل مرحلة ما يناسبها؛ فأسّس المسجد ليكون مركز الإشعاع، وآخى بين المهاجرين والأنصار ليذيب الفوارق، ووضع وثيقة المدينة لتنظيم التعايش، ثم أقام السلم مع من أراد السلم، وأخذ بأسباب القوة بعد أن استقرت الدعوة، فبدأت فصول التمكين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الحج: ٤١.]

ولم تكن هذه الرؤية النبوية اجتهادًا عابرًا، بل كانت منهجًا مستمرًا، ولهذا لما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، قال له":إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات] "...رواه البخاري ومسلم.[

فانظر كيف رتّب النبي دعوته على أساسٍ متين: التوحيد أولًا، ثم الصلاة، ثم الزكاة، فهكذا تُبنى القلوب، ثم المجتمعات.

إن فقه الأولويات في السيرة، يُعلّم الدعاة والعلماء والمصلحين، أن يُحسنوا ترتيب المراحل، وأن يُقدّروا الأحوال، وأن لا يُنزلوا الأحكام في غير وقتها، ولا يشتغلوا بالمفضول عن الفاضل، ولا يطلبوا الثمرة قبل أن تُروى الشجرة.

فما أحوج الأمة اليوم إلى العودة إلى هذا الميزان النبوي، حيث يُقدَّم أصل الدين على فروعه، والعلم على العمل، والتربية على الحشد، والمقاصد على الشكليات، فتعود الحياة إلى الدين، ويعود الدين إلى الحياة.

الفقرة الخامسة عشرة: السيرة ترسم طريق الإصلاح الشامل

ما جاءت السيرة النبوية لتعالج جانبًا واحدًا من جوانب الانحراف البشري، ولا لتُقوّم خَلَلًا أخلاقيًا أو اجتماعيًا بعينه، بل نزلت بالحق لتكون مشعلًا يهدي البشرية في كل مفاصل الحياة، ويرتقي بها من حضيض الجاهلية إلى ذروة الكمال الإنساني.

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم المصلح الأعظم، والمهندس الأول لمشروعٍ إصلاحيٍّ متكامل؛ لم يبدأ من قصر الحُكّام، ولا من خزائن الأغنياء، بل بدأ من القلوب .أصلح العقيدة أولًا، فطهَّر النفوس من أدران الشرك، ومن عبادة الحجر والبشر والهوى، ثم بنى الأخلاق، فأرسى للصدق أعمدة، ورفع للعدل راية، وأعلى للرحمة شأنًا.

ومع ذلك لم يكن إصلاحه حبيس المحراب ولا حكرًا على العبادات، بل امتد ليشمل الأسرة والمجتمع، السوق والميدان، الحرب والسِّلم، الحكم والشورى، الحقوق والواجبات.

كان صلى الله عليه وسلم إمام المسجد الذي يُعلّم الناس كيف يسجدون، وقائد الجيش الذي يضع الخطط ويحسم المواقف، وقاضي المظلوم الذي يُنصف الضعيف من القوي، ومعلّم الأطفال الذي ينزل لمستواهم برفق، وراعِيًا للمرأة والفقير والمسكين وابن السبيل، وكان – فوق كل ذلك – رسولًا من الله، يوحى إليه، ويبلّغ الأمانة، ويؤدّي الرسالة، ويجاهد في الله حتى أتاه اليقين.

إن السيرة النبوية لم تُقصِ جانبًا من الحياة، بل مزجت بين الروح والجسد، بين الدنيا والآخرة، بين العلم والعمل، بين العبادة والسياسة، وبين الحقوق والواجبات .فهي لا تُخرج راهبًا معتزلًا، ولا سياسيًا متجردًا من الإيمان، وإنما تُخرّج الإنسان المتكامل الذي يعرف ربه، ويقيم دينه، ويعمر دنياه، وينفع أمته، ويزن كل ذلك بميزان الوحي والعدل.

ولذلك كانت سيرته صلى الله عليه وسلم أنموذجًا خالدًا لكل مصلح، ودستورًا حيًا لكل حاكم، ومنهجًا راقيًا لكل مربٍّ ومعلّم وداعية، فيها يجد الحاكم نظام الدولة، والتاجر أخلاق السوق، والزوج أسس الرحمة، والوالد آداب التربية، والمجاهد فقه الحرب، والعابد طريق القرب.

فيا من تبحث عن الإصلاح، انظر إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لا في لحظة عابرة، ولا مشهد واحد، بل في سيرته كلها، فستجد أن كل درب من دروب الإصلاح يبدأ من هناك، ويهتدي بنوره، ويثمر بسنته.

الفقرة الخامسة عشرة: السيرة لا تُدرّس فقط، بل تُعاش

ليست السيرة النبوية حكايات تُروى في المجالس، ولا فصولًا تُدرّس في المعاهد والدورات، ولا خطبًا تُلقى على المنابر ثم تُنسى بانتهاء الصلاة .**إنها حياة تُعاش، وسلوك يُترجم، وواقعٌ يُجسّد، لا كلمات تُسطَّر ولا شعارات تُرفع.**

إن أعظم مظاهر الانحراف عن السيرة أن نحصرها في الكتب، أو نُحيلها إلى الماضي، أو نحصرها في المواعظ دون أن نرى لها ظلًّا في المعاملة، وأثرًا في الطريق، وصدقًا في البيع والشراء، وعدلًا في الحكم، ورحمةً في التربية، وخشيةً في الخلوات.

لقد رأى الصحابة السيرة حيّة تمشي على الأرض، لا تُحكى بلسان، بل تُجسَّد بكيان .**كانوا يتعلمون من النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يتكلم، يتلقّون الدرس من نظرته، والوصية من سكوته، والخطبة من فعله قبل قوله.**

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم **يتخوّلنا بالموعظة مخافة السآمة** "]رواه البخاري ومسلم]، لأن التربية في مدرسته لم تكن كلامًا يُمل، بل حياة تُحتمل، وتجربة تُعايش، وقلبًا يُلامس.

لقد علمهم أن التدين ليس عبادةً جافة، ولا تزمتًا متكلفًا، ولا مظاهر خداعة، بل هو **صدق في الباطن، وصفاء في الظاهر، واتساقٌ بين ما نعتقده ونقوله ونفعله.**

كانوا يرون فيه التطبيق العملي لكل آية يسمعونها، وكل خلق يُحدَّثون عنه، يرونه يضحك مع أهله، ويبكي في صلاته، ويُمازح الأطفال، ويقود الجيش، ويعفو عند المقدرة، ويغضب إذا انتُهكت حدود الله، ويرحم الصغير، ويوقّر الكبير، ويعدل في الخصومة، ويصدق في القول.

فهل يُعقل بعد هذا أن نُعلّم أبناءنا السيرة، ثم يروننا نكذب في البيع، ونظلم في الحكم، ونتكبر على الناس، ونتكاسل عن الصلاة؟

كيف نطلب من الأجيال أن يحبوا النبي، ونحن لم نحببه إليهم بسلوكنا؟ وكيف ندعو إلى الاقتداء به، ونحن لا نُظهر شيئًا من هديه في تفاصيل حياتنا؟

السيرة ليست برنامجًا في شهر، ولا مقررًا في سنة، بل **منهج عمر، ودستور حياة**، لا يُعطى بدرس، بل يُورَث بقلبٍ يحيا بها، **ويُرى أثرها في مواقف الشدّة، وفي مفترق الطرق، وفي لحظات الخلوة، وفي ميدان العمل**.

السيرة إن لم نَحْيَها، فكيف نُعلّمها؟ وإن لم نُجسدها، فكيف ندعوا اليها

الباب الثاني عشر: معالم الطريق – كيف نسير في دروب السيرة؟

مقدمة

من أحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدق، فليسر على خطاه، وليجعل السيرة النبوية دليله في الحياة... ولكن **كيف نسير؟ وأين نبدأ؟ وما المعالم التي تهدينا السبيل؟**

ليست السيرة صفحات تُقرأ، ولا أحداثًا تُروى، بل **طريقٌ ممتدٌ عبر الزمان، يترسّم المؤمنون فيه آثار نبيهم، ويهتدون بنوره، ويستمدون من خطاه عزائمهم وأخلاقهم وتوجهاتهم**. فالسير في دروب السيرة ليس مجرد محبة قلبية أو تعلق وجداني، بل **اتباعٌ واعٍ، وبصيرةٌ ناضجة، وخطى ثابتة على درب الحق**.

لكن الطريق طويل، والدروب ملتوية، والفتن كثيرة، والجهل يطمس معالم الهدى، فلا بدّ من إشاراتٍ واضحة، **تبيّن معالم السلوك في ضوء السيرة، وتدلّ السالكين على أبواب الفهم والعمل والتأسي الصحيح**، وتجنّبهم مزالق الغلو أو التفريط، أو تحويل السيرة إلى خطاب عاطفي فقط، بلا أثر في الواقع.

في هذا الباب، نرسم بإذن الله **خريطةً عمليةً للسير في ظلال السيرة** العطرة ، نضيء فيها مفاتيح الفهم، وأصول الاتباع، ونحذّر من الانحراف في التصورات أو التطبيق، وندعو كل محبّ للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل السيرة **نهجًا يحييه، لا قصةً يرويها**.

هنا نضع بين يديك المعالم الكبرى... فمن شاء المسير فليتأهب، ومن نوى الاتباع فليشمّر، **فهذه السيرة... طريق النجاة**.

الفقرة الأولى: السيرة ليست سردًا زمنيًا... بل رسالة خالدة ومنهج حياة

ليست السيرة النبوية تقويمًا محفوظًا، يُتلى في المناسبات ويُطوى بانتهائها، ولا هي مجموعة من الأحداث المجردة، تُروى لغايات الترف الذهني أو المتعة الثقافية ...**بل السيرة نور من السماء، أنزله الله هداية للبشر، واصطفى له خير خلقه ليُجسّد هذا النور في واقع الحياة**.

إن كل مشهد من مشاهد السيرة، وكل واقعة من وقائعها، ليست مجرد حدثٍ وقع، بل هي **درس سماوي أُنزِل، وتجسيد نبويّ وُضِع، وتطبيقٌ عملي سُطّر بدموع الليل وعرق النهار**.

فليست العبرة في معركة بدر بوقوعها، ولا في يوم أحد بخسائره، ولا في الحديبية بصلحها، بل **العبرة في الذي أنزل القرآن فأرشد، والذي ربّى النبي فأعدّ، والذي اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم فهدى وعلّم ووجّه.**
وما السيرة إلا تفسيرٌ تطبيقيّ حيّ للقرآن، **كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن]** "رواه مسلم.[

لقد اختزل الله لنا أعظم معاني السيرة، وأعلى مقاصدها، في قوله تعالى :﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]،**
فهو قدوتنا في الشدّة والرخاء، في النصر والانكسار، في الحكم والمعاملة، في الأسرة والسوق، في السفر والحضر، في الفرح والحزن، **قدوةٌ في الحياة بكل تفاصيلها، لا في مواسم منقطعة، أو مواقف معزولة.**

وقال ابن حزم رحمه الله كلمةً تُكتب بماء القلب" :**فرضٌ على كل مسلم أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يتمّ ذلك إلا بمعرفة سيرته وأخباره وأيامه"،**
فمن أراد النجاة ولم يتتبع خطوات القائد، ضل الطريق، وإن كان مخلصًا.

من قرأ السيرة ليحفظ الأسماء والسنوات، فقد حَسُن؛ ومن قرأها ليُزكّي بها قلبه، ويقوّم بها سلوكه، ويُصلح بها بيته ومجتمعه، فقد أحسن وأصاب الخير كله.

فليست السيرة تُدرَس في زمنٍ محدود، بل تُرافق المسلم ما دام حيًّا، ينهل منها عند الحيرة، ويستنير بها عند الغموض، ويتعلّم منها كيف يغضب لله، وكيف يرحم، كيف يصبر، وكيف يُدير، كيف ينهض بعد كبوة، وكيف يُصلح ما فسد.

فيا من تتلو السيرة... هل ترى نفسك فيها؟
وهل جعلت منها ميزانًا تقيس به أخلاقك؟ وهل سألت نفسك يومًا:
"لو كان النبي صلى الله عليه وسلم بيننا، هل سيرضى عن فعلي؟ عن بيتي؟ عن لغتي في الحوار؟ عن حُسن ظني أو سوئه؟"

ما السيرة إلا بوابةٌ للاتباع، وليست نافذة للتأثر العابر. ومن لم يَعبُر منها إلى حياة جديدة، فقد فاتته الهداية التي لأجلها سُطّرت السيرة وبلغها النبي صلى الله عليه وسلم وأحياها الصحابة رضوان الله عليهم.

الفقرة الثانية: السيرة النبوية بعين الفقيه والمربّي والمصلح

ليست السيرة النبوية معرضًا عاطفيًّا للذكريات، ولا متحفًا للبطولات تُعرض فيه الصور وتُطوى العِبر، بل **هي مدرسةُ بناءٍ وصناعة، وميدانُ تربيةٍ وتغيير، ومنبعُ تشريعٍ وتوجيه.**
هي الرسالة التي تفيض بالحياة، وتموج بالحكمة، وتُنير الطريق أمام الفقيه والمفكر والداعية والمصلح...
من أراد أن ينهض بالأمة فلينظر إلى السيرة لا بعين المُتأثِّر، بل بعين المُقتدي المستنبط، الذي يغوص في أعماقها ليستخرج الدروس كما يستخرج الغواص الدرّ الثمين من جوف البحر.

فالسيرة ليست ورقة من الماضي، بل هي **مصنع الحياة**، فيها الخطة، وفيها القيادة، وفيها التعامل مع الأزمات، وفيها كيف تُبنى الدولة، وكيف يُصنع الفرد الصالح والأسرة الراشدة والمجتمع المتماسك.

حين نقرأ **الهجرة النبوية**، لا نقف عند حدود الألم والغربة، ولا نراها مجرد فرارٍ من ظلم قريش، بل **نقرأها كخطة إلهية محكمة، ومرحلة مفصلية في إقامة دولة الإسلام، حيث التوكل لا ينفي الأخذ بالأسباب، والتخطيط لا يُنافي**

الإيمان.

ألم يقل الله تعالى :﴿**إِلا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ **[التوبة: ٤٠]؟**

لقد كان في الغار **توحيدٌ وتخطيط، وطمأنينة وإيمان، وصحبة صادقة وبذلٌ بلا تردد**، فهل نقرأ هذا المشهد بعين القلب أم نمر عليه كما تُروى القصص؟

وحين نقرأ **بدرًا**، لا نراها مجرد معركة انتصر فيها الحق، بل **نرى فيها لحظة تحوّل عظيمة من الضعف إلى القوة، ومن الاستضعاف إلى التمكين، بالصبر والتضحية والتوكل.**

نرى فيها كيف يُقاتل ثلاثةُ مئة مؤمن قلوبهم متعلقة بالله، ويُهزم ألفٌ يملكون العدة والعدد.

وهنا تتراءى أمامنا آيات النصر الإلهي :﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ **[آل عمران: ١٢٣]**،

فليست القضية في ميدان القتال فقط، بل في صناعة الرجال، وفي إعداد القلوب، وفي تحويل الهزيمة إلى عزيمة.

وحين نصل إلى **فتح مكة**، لا يكفينا أن نذرف دموع الفرح على نصر طال انتظاره، بل يجب أن **نُمعن النظر في أعمق دروس الرحمة والوفاء بعد التمكين.**

ذاك اليوم الذي دخله النبي صلى الله عليه وسلم منتصرًا في عشرة آلاف من أصحابه، لكنه لم يرفع سيف الانتقام، بل طأطأ رأسه تواضعًا لله، ودخل مكة خاشعًا مطأطئًا حتى إن لحيته لتكاد تمس ظهر راحلته .ثم وقف أمام من آذوه وطردوه وحاربوه، فقال كلمته التي خلدها التاريخ بمدادٍ من نور" :**اذهبوا فأنتم الطلقاء** ."أيُّ قلبٍ هذا؟! وأيُّ عظمةٍ تسكن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؟!

وهنا تجلّت السيرة **كمنهج إصلاحي متكامل: العفو بدل البطش، والرحمة بدل الانتقام، والعقل بدل الغضب.**

فالسيرة النبوية ليست نصوصًا تُتلى فحسب، بل **هي ينبوع لا ينضب من الأحكام والمفاهيم والمواقف التي تزرع في الأمة روحًا جديدة تصلح لكل زمان ومكان.**

فيها غذاء الفقيه، وعدة الداعية، وزاد المصلح، وسراج المربي...

ومن تعامل معها بعين المحب فقط، غفل عن كنوزها؛ ومن نظر إليها بعين المقتدي المتأمل، ارتوى منها وبنى بها مجدًا جديدًا للأمة.

الفقرة الثالثة: وثيق السيرة وتمييز الصحيح من الضعيف: بين أمانة الرواية ونور الهداية

لم تكن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم قصة تُروى للتسلية، ولا مشهدًا تاريخيًّا يُتناقل دون تمحيص، بل هي دستور حياة، ومصدر تشريع، ونبراس هداية، تهتدي به القلوب، وتستنير به العقول، وتتشكل على ضوئه النفوس.

لكن من المؤلم أن كثيرًا من الناس يقرؤون السيرة لا كما أُنزلت، ولا كما عاشها أصحابها، بل كما شوهتها القصص الضعيفة، والروايات المنكرة، والأساطير التي نُسجت بغير علم، حتى باتت سيرة أعظم خلق الله محشوة بما لا يليق بمقامه الشريف، ولا يتوافق مع ميزان الوحي المعصوم.

وقد وضع أهل العلم الربانيون قواعد دقيقة لضبط هذه السيرة، كما وضعوا للحديث الشريف ميزانًا للقبول والرد، فجعلوا الإسناد هو العَمود الفقري للرواية، لا العاطفة، ولا الرغبة في التهويل، ولا ما يُروى في المجالس من غرائب الحكايات.

ولذلك قال عبد الله بن المبارك رحمه الله":الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء."

وكما أن في الحديث الصحيح والمكذوب، فكذلك في السيرة الصحيحة والمروية بالهوى، فليس كل ما دُوّن في كتب السير ـ كـ"ابن إسحاق" و"الواقدي" ـ يُؤخذ على علاته، بل لا بد من ميزان دقيق، تعرض عليه الأخبار، وتُرد الروايات التي تخالف العقل الصريح، أو تناقض النصوص الصحيحة، أو تنال من مقام النبوة المعصوم.

وقد قال الإمام الذهبي رحمه الله في "سير أعلام النبلاء:"

"ومجمل السيرة النبوية يعرف بأسانيد صحيحة، وإنما يُغضّ الطرف عن بعض الأخبار التي لا تُخالف أصلاً ولا تجرح عدلاً، إذا لم تكن من أصول الدين."

وما أصدق الإمام ابن القيم رحمه الله حين قال في "زاد المعاد":"ومن له معرفة بالسيرة وتفاصيلها، ومعرفة صحيحيها من سقيمها، يعلم قطعًا أن غالب ما يُروى في السيرة مما لا أصل له، أو هو من روايات من لا يُحتج به."

والله تعالى قد أمرنا بتوقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، فقال:﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾]الفتح: ٩[،
ولا يكون توقير النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام فقط، بل بتحري الحق في سيرته، وتنقيتها من شوائب الوضع، حتى لا يتسرب إلى الناس من الأكاذيب ما يُشوش على صورتها النقية.

ومن هنا كانت دراسة السيرة بعين المحدث الناقد، لا عين الراوي المسلوب، فرضًا على كل من أراد أن يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن يقتدي به.

وقد قال ابن حزم رحمه الله قولًا يكتب بماء الذهب" :فرضٌ على كل مسلم أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يتمّ ذلك إلا بمعرفة سيرته وأخباره وأيامه."

فالواجب اليوم على طلاب العلم والدعاة والكتّاب أن يُعيدوا النظر فيما يُنقل من السيرة، وأن يصطفوا الروايات كما يصطفّ الذهب الخالص، وأن يغربلوا النصوص كما يُنخل الطحين، حتى لا يُنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله، ولا يُروى عنه ما لا يليق بمقام النبوة، فيبوء الراوي بإثم عظيم.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم» :من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» [رواه البخاري ومسلم.]

فحُقّ للسيرة أن تُروى كما نزلت، نقية من الشوائب، طاهرة من الدسائس، يُكتب بها التاريخ كما يُكتب النور، وتُقرأ كما تُتلى الآيات، وتُحكى كما يُحكى القرآن في المحاريب.

الفقرة الرابعة: فقه الغزوات والجهاد في ضوء مقاصد الإسلام

ليست غزوات النبي صلى الله عليه وسلم صفحات دامية تُسرد لمجرد المتعة الحربية، ولا مشاهد بطولية تُتغنّى بها المجالس، بل هي ملاحم نورانية تفيض بالحكمة، وتشع بالرحمة، وتُكتب بمداد البلاغ والعدل والهداية. إنها محطات مشرقة من البلاغ المبين، وردّ العدوان عن المستضعفين، وإزاحة الطغيان عن طريق الدعوة، وتمهيد السبيل لنور الله ليتسلل إلى القلوب بلا عوائق من السيف أو السجن أو القيد أو الكلمة الجارحة.

لقد خاض النبي صلى الله عليه وسلم تلك الغزوات لا طلبًا للدماء، ولا حبًّا في السيطرة أو الهيمنة، بل خاضها مضطرًّا، بعد أن أُوذي في مكة، وطُرد من دياره، وقُتل أصحابه، وحُوصرت دعوته، حتى قال له ربه عز وجل:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾]الحج: ٣٩.[
فكانت معاركه صلى الله عليه وسلم بلاغًا لا عدوان فيه، ورحمة لا قسوة معها، وإنذارًا لا غدر فيه، فلم يُشهر سيفه إلا بعد أن أوصدت في وجهه أبواب الكلمة، ولم يبدأ قتالًا إلا بعد أن بذل في الدعوة جهد البيان والإحسان.

كان صلى الله عليه وسلم في ساحات الوغى إمامًا للرحمة كما هو إمام في المسجد، يوصي جنوده ويوجّه جيوشه بقوله:
"اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا] "رواه مسلم.[
وفي رواية" :لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً، ولا امرأة] "...رواه أبو داود، وصححه الألباني[،
فأيُّ خلق هذا؟ وأيُّ قائدٍ هذا الذي يمنع الدم في قلب المعركة؟!

ومن لم يفقه الغزوات فقهًا مقاصديًّا، رآها مجرد اصطدامات عسكرية، وأغفل أنها تجسيد عملي لأرقى المعاني الإسلامية في إدارة الصراع، وتحقيق الأمن، وكفّ يد البغي، وإعلاء قيمة الإنسان.

وفهم الغزوات النبوية ليس بالأمر الهين، بل هو باب واسع في فقه الواقع والمآلات، من خلاله نقرأ فقه المراحل، كيف تنقل النبي صلى الله عليه وسلم من استضعاف إلى تمكين. ونفهم فقه إدارة الصراع، حين كان يُوازن بين السلم والقتال، ويختار

من الأساليب ما يحقق أقل الخسائر وأكبر المكاسب. وندرك فقه الرحمة في الحرب، حين يُطلق الأسرى بلا فداء، أو يرفع راية الأمان لمن دخل دار أبي سفيان. ونتعلّم فقه الثبات في الابتلاء، حين يحاصر الخندق وتضرب القلوب من الخوف، ويثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كالطود الراسخ. ونتأمل فقه التعامل مع الضعفاء والنساء والأسرى والرسل، حيث كانت إنسانيته صلى الله عليه وسلم تاجًا يعلو هامته في أشد الأوقات حرجة.

وهكذا، فالجهاد في الإسلام ليس عبثًا يُرتجل، ولا دماءً تسيل بلا ضابط، بل هو فريضة منضبطة بقواعد العدل، ومقاصد الشرع، ومحكومة بالرحمة، لا تُستعمل إلا حين تُسدّ كل أبواب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى :﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾]البقرة: ١٩٠.[
فالمبدأ واضح: لا قتال إلا لردّ القتال، ولا سفك للدم إلا لدفع الظلم، ولا جهاد في الإسلام إلا وهو مظلة للحق، وراية للرحمة، وجسر للهداية.

الفقرة الخامسة: كيف نقرأ السرايا والبعوث؟

كثير من الناس يمرّ على السرايا والبعوث في كتب السيرة مرور العابر، يظنها تفاصيل هامشية، أو تحركات عسكرية محدودة لا تستحق الوقوف، لكنه لا يدرك أنه يُعرض عن صفحات زاخرة بالحكمة، ومدرسة ميدانية خرّجت أعظم القادة، وغرست في قلوب الصحابة أعمدة الولاء، وروح الانضباط، ومعاني الطاعة، ومهارات القيادة، وفقه المبادرة في الميدان لا في الكتب.

لقد كانت السرايا والبعوث محاضن تربية، ومعسكرات إعداد، لا تقف عند حدود السيف، بل تتعداها إلى بناء الصف، وربط الجندي بالرسالة، وتدريبه على اتخاذ القرار تحت ضغط الميدان، وتكليفه بمهمات دقيقة يواجه فيها العدو تارة، والمنافقين تارة، وقلقه الذاتي تارةً أخرى.

فليست كل بعثة خرجت لتقاتل، بل منها ما خرجت للتبليغ، أو لعقد تحالف، أو لجسّ نبض القبائل، أو لاختبار ولاء الداخل، أو لتحطيم أصنامٍ في النفوس قبل أن تُهدم في المعابد.

وكان صلى الله عليه وسلم يراقب أداء رجاله، فإن زلّ أحدهم لم يُهلكه، بل صحّح، وعلّم، وأعاد بناء الصف. وإن أحسن أحدهم، كافأه ورفع شأنه، وغرس في القلوب أن الجهد لا يضيع، وأن الميدان مِعيار الرجال، لا مجرد الأنساب ولا الحسب.

وهكذا، من قرأ هذه السرايا والبعوث بعين المؤرخ البارد، فاته فقه السياسة النبوية، وأُغلق عنه باب من أبواب التربية المرحلية، وفهم التمكين القادم لهذا الدين.
إنها ليست أخبارًا تُسرد، بل خطوات محسوبة في طريق إقامة دولة الرسالة، وصياغة جيل النصر، وإعداد الأرض لوراثة الهداية.

الفقرة السادسة: فقه المراحل الدعوية في سيرة خير البرية صلى الله عليه وسلم

إنَّ من أعظم ما ينبغي على كل مسلمٍ أن يتأمله في السيرة النبوية، وأن يقف عنده طويلاً ببصيرة ووعي :فقه المراحل الدعوية، فإن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن حركةً مرتجلة، ولا اجتهادًا بشريًّا معزولًا، وإنما كانت دعوةً تمضي على نسقٍ ربانيٍ حكيم، بخطى ثابتة، وتدرّجٍ إلهيٍ مقصود، وتعليمٍ عمليٍ للأمة في فنون التغيير والإصلاح.

فقد ابتدأت الدعوة في مكة المكرمة بمرحلة التأسيس العقدي والتزكية الفردية، حيث ركّز القرآن المكي على ترسيخ معاني التوحيد الخالص، وتعميق الإيمان باليوم الآخر، وربط القلوب بربها جلّ وعلا، مع تعهد المؤمنين بالتربية على الصبر والثبات في وجه الابتلاءات، حتى صاغهم القرآن رجالًا عقيدتهم أقوى من الجبال، قلوبهم متعلقة بالسماء وإن أرغمتهم الدنيا على الانحناء.

وفي هذه المرحلة نزل قول الله تعالى}:فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا] {المعارج: ٥[،وقوله جل وعلا}:إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ] {الصافات: ٣٥[،وقوله عز وجل}:إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ] {...الأنفال: ٢.[

ثم انتقلت الدعوة إلى طور جديد، يوم أن أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة المنورة، فبدأت مرحلة بناء المجتمع الإسلامي، مرحلة التشريع والتنظيم، والجهاد في سبيل الله، وإرساء قواعد الدولة الإسلامية على أسس العدل والشورى، والرحمة، وإقامة العلاقات الخارجية على مبدأ الدعوة والسلام مع القوة والاستعداد.
وفي المدينة نزلت الأحكام، وفُرضت الشعائر، وبُني المسجد، وعُقدت المؤاخاة، وأرسى النبي صلى الله عليه وسلم معالم أمةٍ جديدة، تُنير الأرض بهدي السماء.

وفي هذه المرحلة نزل قول الله تعالى}:وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ] {الأنفال: ٦٠[،
وقوله سبحانه}:كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ] {البقرة: ٢١٦[،
وكانت بيعة العقبة، وأُحد، والخندق، والصلح، فتحًا في التكوين قبل أن يكون في الميدان.

ثم جاءت مرحلة التمكين والفتح، التي بلغت فيها الدعوة ذروتها، وانتشر الإسلام في الآفاق، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتحقق وعد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، وتمّ نور الله، واكتملت الرسالة، وتمّت النعمة، وكان فتح مكة خاتمة المجد وبداية الرحمة، ونزل قول الله تعالى} :إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ • وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا • فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ] {...النصر: ١–٣.[

وقد وعى الصحابة هذا التدرّج، ففهموا طبيعة كل مرحلة، وخصائصها، وأدواتها، وأهدافها، فما خلطوا بين مرحلةٍ وأخرى، ولا قدّموا ما وجب تأخيره، ولا سوّفوا ما وجب المبادرة إليه.

أما نحن اليوم، فإن من أعظم أسباب الانحراف في الفكر، والاضطراب في التربية، والتخبط في الدعوة، هو الخلط بين المراحل، وإسقاط أحكام المدينة على ظروف مكة، أو العكس، حتى صار بعض الدعاة يستعجلون الحصاد قبل الزرع، ويريدون التمكين قبل التزكية، ويطالبون الناس بفقه الدولة قبل أن يقيموا في قلوبهم دولة الإيمان.

وفي الحديث الشريف، حين سألت السيدة عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم» :إن أول ما نزل منه ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا] «...رواه البخاري[،
يتجلّى لنا حكمة التدرج، وعمق فقه المراحل، وأن كل مرحلة لها خطابها المناسب وأدواتها الخاصة.

فمن لم يفقه المراحل، عَمِي عليه الطريق، وضلّ في السُبل، وربما أراد الخير فأفسده بجهله، وصدق من قال: "وضع الشيء في غير موضعه ظلم."

الفقرة السابعة: فقه الابتلاء في السيرة النبوية: تربيةٌ بالنار، وتمييزٌ في المحنة

ما كانت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نزهة في روضٍ مُنعّم، ولا طريقًا مفروشًا بالورود واليُسر، بل كانت ملحمة صبرٍ وميدان ابتلاء، وساحة تربيةٍ بالنار، لا بالماء البارد .لقد شاء الله عز وجل أن يجعل طريق النبوة محفوفًا بالابتلاءات، لتصفو النفوس، وتُزكّى القلوب، ويتميّز الصف، وترتقي الأرواح، وتُصنع الأمة على عين الله.

بُعث النبي صلى الله عليه وسلم في قومٍ جاحدين، قلوبهم كالصخر، وألسنتهم كالسيوف، وأيديهم لا تتورع عن البطش والأذى، فأعرضوا عن دعوته، واستهزؤوا به، وسلّطوا عليه ألوانًا من الاضطهاد، وسخّروا له صنوفَ الأذى والتكذيب. ومع ذلك، لم تضعف عزيمته، ولم تزلزل المحن يقينه، بل ازداد صلابةً وثباتًا، كالجبل إذا نزلت عليه العواصف لا يزحزحه شيء.

في الطائف، خرج صلى الله عليه وسلم يبحث عن موطن جديد للإيمان، بعد أن أُغلقت في وجهه أبواب مكة، فإذا بأهلها يردّونه أقسى رد، ويُغرون به السفهاء والصبيان، فيرجمونه بالحجارة، حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، وجعل لا يفيق إلا في قرن الثعالب، وهو يقول»:اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس] «...ابن هشام.[

وفي مكة، طُرد وشُتم، وسُبَّ، وأُهين، وحُوصِر ثلاث سنين في شعب أبي طالب، حتى أكل المسلمون أوراق الشجر، وسمع بكاؤهم من وراء الجدران، واشتد الكرب، حتى صار النهار كسواد الليل .ومع ذلك لم يُسمع من فمه شكوى، بل كان يُثبّت أصحابه ويقول»:والله ليُتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله «...]رواه البخاري.[

وفي أحد، شُجَّ وجهه الشريف، وكُسرت رباعيته، وسقط في حفرة حفرها له المشركون، وكادت أن تصل الضربة إلى نفسه، لكنه نهض، ورفع يديه، لا ليدعو على من ضربه، بل ليقول»:اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون] «رواه البخاري.[

وفي الخندق، تحزبت الأحزاب، وتكالبت قوى الشر، وأظلمت المدينة، وبلغت القلوب الحناجر، وظن المؤمنون بالله الظنون، حتى قال الصحابة» :كان أحدنا لا يجرؤ أن يذهب لقضاء حاجته«، ومع ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يبشّرهم بفتح الشام وفارس واليمن، وهم يرتجفون من الجوع والخوف.

وهكذا كانت سيرته صلى الله عليه وسلم مَصهرًا للرجال، وميدانًا لتمحيص القلوب، ومدرسةً تُخرّج الصادقين والصابرين والثابتين .لا تزدهر فيها الدعوة إلا بعد أن تمر على نار المحن، ولا يرتفع البناء إلا بعد أن تُغرس أعمدته في أرض الصبر والثبات.

وقد قال الله عز وجل} :أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ] {البقرة: ٢١٤.[

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال» :أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.«

فليست الابتلاءات عقوبةً من الله، بل هي وسام شرفٍ على صدور أهل الدعوة، وتزكية من رب السماء لعباده المصطفين .فمن ظن أن الدعوة تثمر من غير محن، أو أن النصر يأتي بلا صبر، فقد جهل سنة الله في خلقه، ونام عن سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الثامنة: السيرة النبوية تُقرئنا فقه الانتصار والانكسار: كيف يولد النصر من رحم الألم

ليست السيرة النبوية سجلًّا للفتوحات ولا متحفًا للانتصارات فحسب، بل هي **كتابٌ مفتوح يُقرئ القلوب فقه النصر والانكسار، ويُعلّم الأجيال أن الشدائد ليست عارًا، بل معبرًا، وأن العثرة ليست نهاية، بل بداية المسير على بصيرة.**

لقد أراد الله أن تكون حياة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم **مرآةً لسنن الكون، وأن تكون لحظات الألم فيها حافلةً بالدروس، ولحظات النصر مشبعةً بالوعي، حتى لا تغرّنا الانتصارات، ولا تقعد بنا الانكسارات.**

ففي **بدر**، كان النصر الخاطف مع قلة العدد والعتاد، وما مع النبي صلى الله عليه وسلم يومها إلا ثلثمائة وبضعة عشر، **بلا رايات ضخمة، ولا دروع متينة، ولكن معهم الصدق، والتوكل، والدعاء في جوف الليل حتى سالت دموع النبي صلى الله عليه وسلم على ردائه وهو يناجي ربه» :اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض] «...**رواه مسلم.[

فنزل النصر من السماء، لا من الأرض، ونزلت ملائكةٌ تقاتل معهم، ليعلِّمنا الله أن **النصر لا يُوزن بعدد، ولا يُقاس بسلاح، بل هو عطاء رباني يُمنح لأهل الصدق والتقوى، قال الله تعالى}:وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ] {...**آل عمران: ١٢٣.[

ثم جاءت **أُحد**، ليذوق المؤمنون طعم الانكسار، لا ليُذَلوا، بل ليُربَّوا، فجاءت الهزيمة **بسبب معصية الرماة، وتسرّع البعض، والتفلت من أمر القيادة**، فسقط منهم سبعون شهيدًا، وجرح النبي صلى الله عليه وسلم، وشُج وجهه، وكُسرت رباعيته، وسال الدم على وجنته الطاهرة، ومع ذلك ما تراجع، وما وهَن، وما نادى بالانسحاب، بل قال بكل ثبات: **»اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون] «**رواه البخاري.[

لقد كانت أحد **لحظة عتاب إلهي، لا لحظة سقوطٍ للإيمان**، وامتحانًا يكشف المعادن، ودرسًا يرسّخ أن التوفيق لا يُنال إلا بالطاعة، وأن الغرور بعد النصر، قد يُفضي إلى الكسر.

قال الله تعالى:**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ] {...**آل عمران: ١٦٥.[

ثم جاءت **الحديبية**، معاهدة ظنّها الصحابة هزيمة، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه»:يا رسول الله! ألسنا على الحق؟ فلمَ نعطي الدنية في ديننا؟» [رواه البخاري.]
لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى **ما لا يُرى، ويبصر من وراء السطور، ويقرأ النصر وهو في ثوب الهزيمة**، فإذا بالحديبية تتحول إلى أعظم انتصار سياسي، وأرضية خصبة لفتح مكة العظيم، ولذلك قال الله عنها**{ :إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا] {**الفتح: ١.[وهكذا تُعلِّمنا السيرة أن **الانكسار الظاهري قد يكون تمهيدًا لنصرٍ باهر، وأن الله يُنضج القلوب بالابتلاء، ويختبر الصدق بالدموع والتضحيات، ليهب العاقبة لأهل الثبات**.

قال الله تعالى**{:إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ۖ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ] {...**آل عمران: ١٤٠.]

وصدق من قال"**:الهزيمة لا تكون حين يُكسر السيف، بل حين تُكسر النفس.**"

فمن السيرة نتعلّم أن النصر **ليس لحظة تفوق عسكري أو سياسي، بل هو ثمرة صبرٍ طويل، وثباتٍ في الميدان، وطهارة في النية، ونقاء في الغاية**.

الفقرة التاسعة: السيرة النبوية وتأسيس الدولة المسلمة: حين تتحول الرسالة إلى حضارة

لم تكن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مجرد دعوةٍ تلتحف العزلة، أو كلماتٍ تُلقى في الأسحار، أو هروبًا من الواقع إلى عالم المثل، بل كانت **مشروعًا ربانيًّا متكاملًا لبناء أمةٍ شاهدة، وصياغة مجتمعٍ يعيش بالوحي، ويتنفس القرآن، ويجعل من الإيمان نظامًا يحكم الوجدان والمؤسسات معًا**.

لقد شاء الله أن تكون **المدينة المنورة** مهدًا لهذا المشروع، ومسرحًا لتجسيد الرسالة في واقعٍ يُرى ويُلمس، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم **بإرساء اللبنات الأولى لدولةٍ فريدة، تجمع بين الإيمان والتنظيم، بين الروح والبنيان، وبين القيم والتشريع**.

فأول ما فعله في المدينة أنه **آخى بين المهاجرين والأنصار**، أخوّةً تجاوزت الدم والنسب، فصهرت القلوب في بوتقة العقيدة، وقال لهم»**:تآخوا في الله أخوين أخوين**] «رواه ابن هشام[،
فصار الغريب كالأخ، والمهاجر كأهل الدار، حتى قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما»**:هذا مالي، أقسمه بيني وبينك نصفين**«،
فكانت تلك المؤاخاة **أول نواةٍ لوحدةٍ إنسانية قائمة على العقيدة لا على العِرق**.

ثم كتب **وثيقة المدينة**، أو كما يسميها المؤرخون "دستور الدولة النبوية"، فأرست مبدأ التعايش، وضبطت العلاقات بين المسلمين واليهود، والمهاجرين والأنصار، ووضعت حُكم الفصل في النزاعات لله ولرسوله، فجاء فيها:
»**وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.**«

وجعل **المسجد النبوي** هو القلب النابض للأمة، منه تنطلق الجيوش، وفيه يُقام العدل، وتُعقد الرايات، وتُلقى الخطب، وتُحل المشكلات، وتُفصل الخصومات. لم يكن المسجد مكان عبادةٍ فحسب، بل كان **المدرسة والمجلس والشورى والمقرّ السياسي والإعلامي والعسكري**، في صورة بديعةٍ للربط بين الدين والدولة.

ثم نزل **التشريع القرآني** تدريجيًّا، لتكتمل الملامح السياسية والاقتصادية والعسكرية والقضائية للدولة المسلمة، فكان **القضاء العادل، وتنظيم الجهاد، وتعيين الجباة، وإرسال السفراء، وكتابة المعاهدات، وتأسيس الجيش، وتحديد صلاحيات القيادة**، فغدت المدينة **أنموذجًا فريدًا لدولةٍ تُحكم بالوحي، وتُدار بالحكمة، وتُساس بالشورى.**

فأركان تلك الدولة لم تكن كأركان الدول المستبدة، تقوم على البطش والطغيان، ولا كالدول المدنية المفصولة عن الوحي، تقوم على الهوى أو المصالح العابرة، بل كانت دولةً تُقام على **العدل المطلق، والشورى الملزمة، والطاعة لله ورسوله، والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، دون تفريق بين عربيٍّ أو أعجمي، أو أبيض أو أسود.**

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع» :**يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى**] «...رواه أحمد.[

ولم تكن تلك الدولة دينية كهنوتية تُصادر العقول باسم السماء، ولا دولةً علمانية تُقصي السماء عن الأرض، بل كانت **دولة الرسالة**، التي **تُقيم الصلاة وتُؤتي الزكاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر**، وتبني الحضارة لا على أنقاض القيم، بل على أساسها. قال الله تعالى}:**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**] {الحج: ٤١.[

لقد قدّم النبي صلى الله عليه وسلم **أنقى نموذجٍ لحكمٍ راشدٍ عادل، تلتقي فيه السماء بالأرض، وتُصان فيه كرامة الإنسان، وتُربّى فيه النفوس، وتُبنى فيه الحضارات.**

الفقرة العاشرة: السيرة النبوية وتزكية النفوس: حين تتنزل التربية من السماء

ليست السيرة النبوية سجلًا عسكريًّا لأيام السلم والحرب، ولا مجرد وقائع وأحداثٍ تحفظها الذاكرة، وتمضي كما تمضي الحكايات، بل هي مدرسة ربانية خالدة، تنفذ إلى القلب، وتُهذّب النفس، وتبني الإنسان من الداخل قبل الخارج .إنها محرابُ تزكيةٍ وميادينُ تربية، تُطهّر القلوب من الأدران، وتغرس في الأرواح دوحة الإيمان، وتُخرِج الأمة من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، ومن وحشة الطبع إلى صفاء الروح.

لقد بعث الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليُعلّم ويُزكّي، ويُربّي الأمة تربيةً متكاملة، لا تكتفي بتلقين النصوص، بل تُجسّد الإيمان في السلوك، وتُحوّل الوحي إلى واقعٍ يُعاش، وترفع الناس إلى مراتب الصدق والخشية والزهد والإيثار والعفاف والكرم والشجاعة والتواضع.

قال الله تعالى عن جوهر هذه البعثة المباركة}:هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ] {...الجمعة: ٢.[

فالتزكية لم تكن في الدعوة، بل كانت لبها ، كانت جوهرا في رسالتها، وغاية من غايات النبوة، ولذلك كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مشحونة بمواقف تُربّي القلوب وتصوغ الأرواح، وتصفّي الأنفاس من كدر الدنيا.

انظر إليه صلى الله عليه وسلم يرى في الصدق أصلًا في التربية، فيقول» :عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة] «...رواه مسلم[،
ثم يُجسّده في حياته كلها، حتى لُقّب قبل البعثة بالصادق الأمين.

وانظر إليه يُعلّم الإخلاص في السرّ والعلن، ويرفض الرياء ولو في موطن الجهاد، فيقول:
»إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجل استُشهد... فقيل له: قاتلت ليُقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار] «رواه مسلم.[

ويُربّي الصحابة على التواضع، فلا يميّز نفسه عنهم في اللباس ولا في الجلسة، وكان يخدم نفسه، ويخصف نعله، ويعقل بعيره، ويجلس على الأرض، ولا يأنف من ذلك، حتى إذا دخل رجلٌ عليه صلى الله عليه وسلم فأخذته الرعدة، قال له:

»هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد] «رواه ابن ماجه.[

وكان الزهد والخشية والعفة والإيثار والشجاعة والحياء... كلها محاريب تربوية تنبض في مواقف السيرة، يتعلّم منها الصحابة، وتنطبع بها الأمة، فتحوّل الدين من محفوظات على الألسن، إلى أخلاق تمشي في الأسواق.

حين نام النبي صلى الله عليه وسلم على الحصير، فقام وقد أثّرت فيه، قال له عمر: ألا تتخذ فراشًا ألين من هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم»:ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرة، ثم راح وتركها] «رواه الترمذي.[

وفي غزوة تبوك، يأتي الصحابي يطلب حملًا، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم:
»أما إني أحملك على ولد ناقة«،فيتعجّب الرجل ويظنها مزحة، فيرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم بابتسامة تربية: »وهل تلد الإبل إلا النوق؟] «رواه أحمد[،
ليغرس في قلبه البساطة، ويمنع الغضب، ويعالج الموقف بروح المربّي الحاني.

فما من موقف في السيرة إلا وهو لمسةُ تزكية، أو نفحةُ إصلاح، أو ومضةُ تربيةٍ تُصفي القلب، وتُهذّب النفس، وتُقيم النفس على جادّة الاستقامة. وقد قال الله تعالى}:قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] {الشمس: ٩-١٠.[

وهكذا كانت السيرة :معهدًا ربانيًّا لتخريج جيلٍ ربانيّ، فقهوا أن الإيمان ليس كلماتٍ تُقال، بل أحوالٌ تُعاش، وأن التزكية لا تكون بالموعظة فقط، بل بالموقف، والنموذج، والتربية اليومية في مدرسة النبوة.

الفقرة الحادية عشرة: السيرة تربي جيلًا ربانيًّا

لم يكن الصحابة رضوان الله عليهم مجرّد أتباعٍ لرجلٍ عظيم، ولا أنصارًا لقائدٍ ملهم، بل كانوا ثمرة تربية نبوية فريدة، تشرّبت أرواحهم من معين الوحي، وتزكّت قلوبهم على يد المعلم الأعظم، محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

لقد خرجوا من مدرسة النبوة بأرواحٍ معلقة بالسماء، وقلوبٍ لا ترى العزّ إلا في طاعة الله، ولا النصر إلا بالثبات على الحق، ولا الفلاح إلا في الآخرة.

كانوا جيلًا ربانيًّا...
جيلًا عاش القرآن واقعًا، لا حروفًا تُتلى فحسب...
جيلًا تقدّم إذا دُعي إلى الله، وثبت إذا اهتزّت الأرض، واحتمل الحق ولو كان مُرًّا، وترك الدنيا ولو كانت مُزَيَّنة...
جيلًا قدّم الدين على النفس، والنفس على المال، والحق على الهوى، والآخرة على الدنيا.

جيلًا لا تُغريه التجارة، ولا تُفتنه الشهوات، ولا تفتّ في عزيمته زخارف الحياة، لأنه نشأ في حضن النبوة، وتربّى على عيني الرسالة، وصُقلت إرادته بصبر الصادقين، وبُنيت عزيمته في شعاب مكة ومواقف بدر وأحد وحنين، وذابت روحه في قول الله تعالى}:قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] {الأنعام: ١٦٢.[

جيلٌ لو نظرتَ إلى أحواله، رأيتَ الصدق عنوانًا، والإخلاص راية، والخشية زادًا، والآخرة أملًا، والجنة غاية.
جيلٌ ربطته السيرة بالله لا بالأشخاص، وبالحق لا بالعواطف، وبالعمل لا بالأماني.

قال الله تعالى مادحًا إياهم}:مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا] {الفتح: ٢٩.[

نعم ...كانوا ركعًا في الليل، فرسانًا في النهار، دموعهم تسقي محراب الخشوع، وسيوفهم تحمي بيضة الدين، وأقوالهم تُصدّقها أفعالهم.

وقد وصفهم عليٌّ رضي الله عنه فقال":قد باتوا لله سُجّدًا وقيامًا، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، يناجون ربّهم ويسألونه فكاك رقابهم"،
ثم قال":أما الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يترنّمون به كترنّم الشاة، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم."

فمن أراد أن يُخرِج جيلًا ربانيًّا في هذا الزمان، فليُربِّهم في مدرسة السيرة، وليتعلّم من هدي المصطفى كيف يصوغ النفوس، ويطهّر القلوب، ويُقيم الرجال كما يُصاغ الذهب في النار، لا يثبت منه إلا الخالص.

الفقرة الثانية: السيرة وتزكية المجتمعات

ليست السيرة النبوية مجرد حكاياتٍ تُروى، أو مواقف تُحكى، بل هي مشروع إلهي لتزكية المجتمعات، وصياغة الأمم من جديد.
فكما زكّت السيرة نفوس الأفراد، طهّرت كذلك جسد الأمة، وغسلت درن الجاهلية من أعماق المجتمع، لتُخرج للناس خير أمة أُخرجت، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

لقد نزل الوحي على بيئةٍ موبوءة بالشرك والوثنية، تسودها عبادة الأصنام، وتُحكمها العصبية، ويأكل القوي فيها الضعيف، ويُستعبد الإنسان ويُوأد البنت حيّة، فجاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم فبدأ بالقلوب، يُطهّرها بالتوحيد، ويغسلها بماء الإيمان، ويربّيها على التقوى، حتى تغيّر الفرد، ثم تغيّر المجتمع كله.

فانقلبت القيم...
حلّ محلَّ الكذبِ صدقٌ، ومحلَّ القسوةِ رحمة، ومحلَّ الجشعِ إيثار، ومحلَّ العصبيةِ أخوّة، ومحلَّ الجهلِ علمٌ، ومحلَّ الفوضى نظامٌ وعدلٌ وإيمان.

كانت المدينة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم مدينة ممزقة ...أوسٌ وخزرج، أحقادٌ وثارات، دماءٌ لا تُنسى، وقلوبٌ لا تصفو، واليهود ينفثون سمومهم بين الفريقين ليأكل بعضهم بعضًا.
فلمّا وطئت قدم النبي صلى الله عليه وسلم أرضها، أضاءت بالنور، وغمرها الإيمان، وصارت مدينةً جديدة، يعلو فيها نداء التوحيد، ويسودها خُلُق الإسلام، وترفرف فوقها راية القرآن.

قال الله تعالى في وصف هذا التحوّل العظيم}:وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {الأنفال: ٦٣.[

بل بلغ من أثر التزكية أن تقاتل الصحابة ذات يوم في سبيل الله وهم إخوةٌ في الله، يتقدّم بعضهم بين يدي بعضٍ إلى الشهادة، ويتمنّى أحدهم أن يُقتل لا ليُذكر اسمه، بل لينال الرضا الإلهي، كما في قصة سعد بن الربيع وعبد الله بن عمرو وأمثالهم، رضي الله عنهم جميعًا.

ولم يكن هذا التحول العميق نتاج قوانين صارمة، ولا أنظمة مُغلّفة بالشعارات، بل كان بفضل إيمانٍ ترسّخ في القلوب، وتربيةٍ نبوية غيّرت النفوس، وقدوةٍ عُليا تمشي على الأرض، هي محمد صلى الله عليه وسلم.

علمتنا السيرة أن المجتمعات لا تزكو بالأوامر واللوائح، وإنما تزكو إذا زكت القلوب، وصلحت السرائر، وخشعت النفوس، وتحوّلت العقيدة إلى سلوك، والدين إلى حياة، والقرآن إلى عمل.

قال الله تعالى في بيان وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم}:هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ] {الجمعة: ٢.[

فما أحوجنا اليوم أن نعيد قراءة السيرة، لا لمجرّد الحفظ، بل لنُعيد بناء المجتمعات الممزقة، والأوطان الجريحة، بنفس المنهج النبوي :تزكية الإيمان، وتطهير القلوب، وصناعة الإنسان

الفقرة الثالثة عشرة: السيرة ميزانٌ للرجال والأفكار

ليست السيرة النبوية صفحاتٍ من التاريخ تُقرأ، أو مواقف تُسرد، بل هي ميزانٌ ربّانيٌّ تُوزن به الرجال، وتُمحّص به الأقوال، وتُختبر به المناهج والدعوات.
فما وافق هديه صلى الله عليه وسلم قُبِل، ولو خالف هوى الناس، وما خالفه رُدّ، ولو زخرفه أصحابه بالخطاب الديني، أو غلّفوه بشعارات الحماسة والصلاح.

في زمنٍ كثرت فيه الشعارات، وتشابهت العبارات، وتزيّف الباطل بلباس الحق... تبقى السيرة هي المعيار الأصدق، والميزان الأدق، والضوء الكاشف للطريق.

قال الله عز وجل}:فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] {النساء: ٦٥.[

من أراد أن يزن دعوةً ما، فليعرضها على سيرة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن وافقت هديه فهي الحق، وإن خالفته فهي الباطل، وإن زُخرفت بالشعارات.

السيرة تُعلّمنا الفرق بين الشجاعة والتهور، حين نراها في بدر وأحد وحنين، وفي فداء الصحابة بأرواحهم لا بكلماتهم.
وتُعلّمنا الفرق بين الحِلم والعجز، في عفو النبي عن أهل مكة وهو القادر على سحقهم، لا خوفًا، بل رحمة.
وتُبيّن الفرق بين الحكمة والتفريط، حين قبل صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية بشروطٍ ظاهرها القسوة، وباطنها الفتح.
وتُظهر الفرق بين العدل والقسوة، حين يقطع يد السارق ويأبى أن تشفع فيه فاطمة، وحين يبكي على ابن المنافق رغم جراحاته في الإسلام.

وما أكثر من يلبسون الباطل ثياب الحق، ويوهمون الناس بالغيرة على الدين، وهم يفسدون في الأرض ولا يُصلحون، فتأتي السيرة فتفضحهم، لا بالمناظرات، بل بالمواقف والسلوك، وبالحق الثابت الذي لا يتغير مهما تبدّلت الأسماء واللافتات.

لقد سأل سائل:يا رسول الله، أرأيت إن صلّى وصام وزكّى، أفيدخل الجنة؟
قال :إلا أن يكون قد عمل، ولم يكن له هدي كهدينا.«

فالسيرة ليست خيارًا نقرؤه وقت الحاجة، بل مرجعيةٌ دائمة، ومنهجٌ معصوم، وقنديلٌ يُضيء الطريق في زمن الفتن.

ومن أراد الصدق، والعدل، والوسطية، والربانية، فليُحكّم سيرة نبيه في كل فكرة، وكل قرار، وكل وسيلة، وكل دعوة، وكل موقف.

الفقرة الرابعة عشرة: السيرة... مصدر الإلهام، ومنبع الصبر، وسرّ الثبات

ليست السيرة النبوية مجرد أوراقٍ تُقلّب، أو فصولًا تُروى، بل هي مصدرُ طاقةٍ روحية لا تنفد، ونبعُ أملٍ لا ينضب، ومشعلُ نورٍ يُضيء دروب اليائسين، ويشدّ أزر الثابتين، ويرفع هامات المنكسرين إلى السماء.

في كل موقف من حياة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، نسمع نداءً خفيًّا يقول:
اصبر كما صبر نبيك، واثبت كما ثبت حبيبك، وتوكّل كما توكّل قلبه الطاهر.

حين ضاقت به الأرض في الطائف، وامتدت إليه الأيدي ترميه بالحجارة، وتسيل الدماء من قدميه الشريفتين، لم تغلق في وجهه أبواب الدعوة، بل رفع يديه إلى السماء يناجي ربّه بكلماتٍ تنضح خضوعًا ومحبة»:اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.«...

وفي الهجرة، نام في الغار مطمئنًا، والدنيا من حوله تموج بالعداوة، والأرض تضيق بالمطاردات، لكنه قال لصاحبه:

}لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا] {التوبة: ٤٠[، قالها لا ليواسي أبا بكر فقط، بل لتتردد في أسماع كل خائفٍ إلى يوم القيامة.

وفي بدر، وقد قلّ العدد، وضعُف العتاد، وقف صلى الله عليه وسلم يناجي ربه حتى سقط رداؤه الشريف من على منكبيه، وهو يقول» :اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض.«
فجاءه النصر من حيث لا يحتسب، ليعلّمنا أن الصدق في التوكل أعظم من كثرة العدد.

وفي أُحد، جُرح وجهه الشريف، وسقط في الحفرة، ومات حوله أعز أصحابه، وتهامست قريش أنها قتلته، ومع ذلك ما وهن قلبه، ولا لانت عزيمته، بل ثبت يعلّم أصحابه الرجوع إلى الله، ويقول في كل بلاء: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.(

وفي صلح الحديبية، وقد بدا في ظاهره انكسارٌ وذُلٌّ للمسلمين، قبل الشروط القاسية لأنه يرى بنور النبوة فتحًا قادمًا، فجاء النصر بعد شهور، ونزل قوله تعالى} :إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا] {الفتح: ١.[

أجل، إن السيرة ليست سردًا للعِبر، بل سراجًا يُضيء القلب في العتمة، ونداءً للثبات حين تميد الأرض، ووعدًا بأن مع العسر يسرًا، ومع الظلمة فجرًا. قال الله تعالى} :وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ] {هود: ١٢٠.[

وفي لحظة الحزن، أو ساعة الغربة، أو وقت المِحنة، لا تحتاج إلى دروسٍ طويلة، بل إلى نظرةٍ في السيرة، أو تذكّرٍ لدمعةٍ من عين النبي صلى الله عليه وسلم، أو دعوةٍ خاشعة من قلبه الطاهر، لتستمد منها القوة، والسكينة، والثبات.

فيا من ضاقت بك الدنيا، اقرأ السيرة... ففيها محمدٌ صلى الله عليه وسلم، وفيه لك أسوة لا تنتهي.

الفقرة الخامسة عشرة: السيرة... ميزان فقه الأولويات

السيرة النبوية ليست مجرّد سجلٍّ زمنيٍّ للأحداث، بل هي **خطة إلهية مُتقنة**، تسير وفق سننٍ ربانية، تُعلّمنا كيف نُرتّب الأولويات، ونُوازن بين الوسائل، ونُقدّم الأهم فالمهم، ونُراعي تفاوت العقول، واختلاف البيئات، وتنوّع الظروف.

ففي مكة، لم يُشرَع الجهاد، ولا فرضت الزكاة، ولا نزلت الحدود، لأن القلوب كانت تحتاج أولًا إلى التوحيد، واليقين، والتزكية، والثبات.

ركز النبي صلى الله عليه وسلم على غرس الإيمان، وتطهير النفوس، والصبر على الأذى، وبناء الفرد المؤمن.

ثلاث عشرة سنة من التربية العقائدية والروحية، أخرجت أبا بكر الذي أنفق ماله كله، وخبّأ الإيمان في قلبه حتى الساعة الحرجة، وخالدًا الذي قاد الجيوش بعد إسلامه بأشهر، وعمارًا وبلالًا وسمية رضي الله عنهم الذين ثبتوا على كلمة التوحيد تحت السياط والنيران.

ثم في المدينة، بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بناء الدولة: بالمؤاخاة، والوثيقة، والتنظيم، والتشريع، والسياسة، والجهاد.

فما كان يؤخّر شيئًا عن موضعه، ولا يقدّم سُنّة على فرض، ولا يشتغل بالنوافل قبل استقرار الأصول.

هذه **حكمة النبوة**، التي توازن بين الوقت والطاقة، بين الإعداد والتكليف، بين الواقع والمأمول.

ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

"حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبّون أن يُكذّب الله ورسوله؟] "رواه البخاري[

أي أن **الكلمة الحقّة إن أُلقيت على غير محلّها، فقد تُفسد أكثر مما تصلح.**

وهكذا تعلّمنا السيرة أن:

البدء بالعقيدة قبل الشريعة منهج.

غرس القيم قبل تكليف الجسد بالسلوك فرض.

التربية تسبق التمكين.

والتدرج سنة ربانية لا تتبدّل.

فمن أراد أن يُصلح، فليبدأ كما بدأ محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أراد أن يُربّي، فليفقه فقه النبوة في الأولويات.

الفقرة السادسة عشرة: السيرة مشروع حياة لا ينطفئ

السيرة النبوية ليست فصلاً في كتاب التاريخ، ولا منهجًا جامدًا في دروس المدارس، بل **روح تُغذّي القلب، ونورٌ يهدي العقول، وطريقٌ نسير عليه ما حيينا.**

ليست السيرة تذكّرًا لزمانٍ مضى، بل **نبض حياة يُحْيي القلوب التائهة، ومرآة نُبصر بها الطريق وسط العتمة، ونبراس نهتدي به في زمن الحيرة والاضطراب.**

نقرأ السيرة لا لتعلّم الوقائع، بل لنستلهم منها المعاني:
–في صبره نرى دروس الثبات،
–في رحمته نتعلم كيف نكون بشرًا،
–في شجاعته نعرف أن الحق لا يُرهب،
–في دعائه نوقن أن الأبواب لا تُغلق دون الله.

كما لا يُستغنى عن الماء والهواء، **لا يُستغنى عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم** ، لأنها ليست ماضيًا يُبكى عليه، بل حاضرًا يُبنى به، ومستقبلاً يُستشرف بنوره.

قال الله تعالى:﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا**﴾]الأحزاب: ٢١[
فالأسوة باقية ما دامت السماوات والأرض، لمن أراد النجاة، والرجاء، والذكر.

فاجعل السيرة زادك كل يوم، فإن فيها حياة لا تموت، وعزًّا لا يُهزم، ونورًا لا ينطفئ.

الباب الثالث عشر: الحاقدون على السيرة... ماذا أرادوا؟ وماذا خسروا؟

مقدمة

ليست السيرة النبوية مجرد تاريخ يُعاد، بل **نورٌ يبدد الظلمات، ومنهجٌ يُصلح الأرض والناس**، ولذلك لم تسلم من الحقد والافتراء، عبر القرون والأزمان.

منذ أن بزغ نور محمد صلى الله عليه وسلم، وأُشعلت نار الحسد في صدور الكافرين، **تكالبوا على شخصه، وسيرته، ورسالته، وشرّقوا وغرّبوا في تشويهها، لأنهم علموا أن القلوب إذا خفقت بحب النبي، فإنها تتحرر من عبودية الخلق، وتستعلي بإيمانها على الظلم والهوى.**

فما الذي أراده هؤلاء الحاقدون؟
لقد أرادوا أن **يطفئوا نور الله بأفواههم، وأن يقطعوا الصلة بين الأمة ونبيها، وأن يجعلوا سيرته بين الغلو والتفريط، أو بين التجهيل والتحريف.**
أرادوا أن يُطفئوا وهج التأسي، وأن يصنعوا جيلًا لا قدوة له، ولا هوية تحميه.

لكنهم ...**خابوا وخسروا.**
فالسيرة محفوظة بحفظ الله، تشع في قلوب المؤمنين، وتزداد قوةً كلما حوربت، وتسمو رفعةً كلما حاولوا إسقاطها.

في هذا الباب، نكشف **وجوه الحاقدين وأدواتهم، ونكشف المؤامرات القديمة والمعاصرة، ونفضح الأساليب التي أرادوا بها تشويه السيرة أو طمسها، ثم نرصد ما خسروه من الحق والنور والهدى، لأنهم أعرضوا عن حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم.**

فمن بغض السيرة تبدأ الهزيمة، ومن محبتها ينبعث المجد من جديد...

الفقرة الأولى: لماذا تُهاجَم السيرة النبوية؟

ليست السيرة النبوية سِجلًّا تاريخيًا يُروى، ولا قصة رجل عظيم تملأ الأسماع لحظة ثم تُنسى؛ بل هي فيض من النور الإلهي، تجلّى في حياة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت منارًا للأجيال، ومصدرًا لفهم الوحي، ومثالًا حيًا لتجسيد القرآن في واقع البشر.

لقد هوجمت السيرة لأن فيها حياة، ومنهجًا، وسلاحًا لأهل الحق في مواجهة الباطل. فيها التربية التي تُقيم النفوس، والهداية التي تضيء دروب الحائرين، وفيها المعيار الذي يُكشف به الزيف وتُسقط به أقنعة المنافقين، وتُمحَص به الدعاوى الواهمة والأصوات المضلِّلة.

فمن عجز عن الطعن في كتاب الله، اتجه إلى الطعن في التطبيق العملي له، المتمثل في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. ومن لم يجد في قلبه إيمانًا يُسلمه للنبوة، حمل سهام التشكيك ليغرسها في تفاصيل حياة خير الورى، محاولًا طمس معالم القدوة، وتبديد ضوء الهداية.

هاجموها لأنها توقظ القلوب بعد غفلة، وتبعث الإيمان في زمن الجفاف، وتحرّك العزائم التي خدرها الترف والتيه، وتُقيم حُجّة الله على الخلق واقعًا مشهودًا، لا نظريات ولا فلسفات.

هاجموها لأنهم وجدوا فيها حائط صدّ أمام دعاوى التمييع والانفلات، ووجدوا في نورها حارسًا يمنع التغريب، ويردّ الناس إلى أصالة الدين، ويثبت أن الإسلام ليس مجرد شعائر، بل حضارة وسلوك وتاريخ ورجال.

ومن السيرة ما يهزّ القلوب، كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم: **"كان خلقه القرآن]** "رواه مسلم]. فكيف لا تُهاجَم حياة من كان قرآنيًّا في سكونه وحركته، في صمته وكلامه، في سلمِه وحربه، في بيته وسوقه؟

قال تعالى مؤكدًا سنة الابتلاء لكل نبي وداعية:﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾]الأنعام: ١١٢.[
فهؤلاء الأعداء، وإن تنوّعت وجوههم، واختلفت ألسنتهم وأقلامهم، فإنهم متفقون في الغاية: النيل من هذا النور.

وفي السيرة ما يجعل القلوب تخشع والعيون تدمع، ففي كل مشهد من حياتِه صلى الله عليه وسلم معنى يُعلّمنا كيف نحب الله، وكيف نعيش القرآن، وكيف نصبر ونُجاهد ونَرحم ونعفو ونقود ونتواضع.

هاجموها لأنهم علموا أنها كتاب التطبيق العملي للوحي، فهي مرآة النبوة، وأعظم شاهد على عظمة الرسالة، ومن أراد أن يطفئ نور الله في الأرض، فلا سبيل له إلا أن يحاول عبثًا تلويث هذه المرآة، ولكنه لا يزيدها إلا صفاءً ونقاء.

قال تعالى:﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾]الصف: ٨.[

وفي كتب السيرة شواهد لا تُحصى على استهداف حياته صلى الله عليه وسلم؛ ففي كل غزوة، وفي كل محاولة اغتيال، وفي كل كلمة استهزاء قيلت في مكة أو المنافقين في المدينة، كانت السيرة تُهاجَم، ولكنها بقيت محفوظة، لأنها ليست ملك مؤرخين، بل ميراث نبي، وحياة أمة.

فطوبى لمن عاش مع السيرة، وأحياها في نفسه وأهله، وذاد عنها ببيانه وسلوكه، ووقف على ثغرها ينافح عن خير البرية، ويُضيء الطريق للأجيال بنور محمد صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الثانية: الطعن في السيرة طعن في النبوة

السيرة النبوية ليست صفحات من التاريخ نقرؤها كما نقرأ سِيَر العظماء، ولا هي حكاية رجل صالح من الماضي نُعجب بها ثم نطويها، بل هي حياة النبوة، ومرآة الوحي، وترجمة عملية للقرآن على أرض الواقع. إن السيرة هي البيان التطبيقي لرسالة السماء، هي التفسير العملي للكتاب العزيز، وتجليات النور الإلهي في قلب الزمان والبشر، ولهذا فإن المساس بها ليس إلا مساسًا بالنبوة ذاتها، وإن تنكّر أصحابه خلف عباءة "النقد الموضوعي" أو "القراءة الحديثة."

فمن طعن في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد طعن في نبوته، وإن لم يُظهر ذلك بلسانه، فجوهر فعله ناطق بما أخفى.
وما هجوم الطاعنين على غزواته، ولا تشغيبهم على زواجه، ولا طعنهم في تفاصيل حياته الخاصة، إلا سيوف مغمّدة يُراد بها ضرب أصل الرسالة، لا فروعها.
إنهم يريدون أن يُسقطوا مهابة النبي صلى الله عليه وسلم من القلوب، فإذا سقط المقام، هان الكلام، وتلاشى الاتباع، وذبل نور الهدي.

إن هدفهم الأكبر أن يُسلخوا الأمة من نبيها، ليتحقق بعد ذلك سلخها من وحيها، ثم من دينها، ليعود الناس إلى جاهلية جديدة، ولكنها بأسماء براقة وشعارات خداعة.

قال الله تعالى في محكم التنزيل:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾]النجم: ٣-٤[
فإذا كان نطقه صلى الله عليه وسلم وحيًا، فكيف لا تكون أفعاله وسيرته تبعًا لهذا الوحي؟
كيف تُفصَل سيرته عن رسالته، وهي الشاهد الأكبر على صدقها؟
إن من يطعن في سلوكه، يطعن ضمنًا في مصدر هذا السلوك، أي في الوحي ذاته، ومن فعل ذلك فقد كذّب بالله تعالى، وكذّب برسوله صلى الله عليه وسلم، ولو لفّ كلماته بستار التأويلات.

وما أصدق ما قاله الإمام مالك رحمه الله حين بلغه أن رجلًا يتكلم في النبي صلى الله عليه وسلم، فقال" :لو أن رجلاً ارتكب كل ذنب إلا الكفر، لرجونا له التوبة، أما من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم فلا نرى له توبة، نُقاتله إن قَدَرنا."

لقد علم أعداء الإسلام أن القرآن محفوظ، وأن الطعن المباشر فيه مكشوف مفضوح، فانتقلوا إلى الهجوم على السيرة، لأنها تمثّل التطبيق الحيّ له، ولأنهم إن نجحوا في تشويه شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، تهاوت كل معالم الهداية بعده.

لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، ويأبى التاريخ إلا أن يشهد بجلال هذه السيرة، ويأبى الحق إلا أن يعلو.
قال تعالى:﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾]التوبة: ٣٢.[

فيا من غارت قلوبكم على نبيكم، تمسّكوا بسيرته، وادفعوا عنها ما استطعتم من شبهات، وبلّغوها للناس بلسان الحبّ، وقلم الفقه، ونبض العزة، فإن الذود عن سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم هو ذودٌ عن الدين كله، وهو برهان صدق المحبة، وعلامة الولاء لهذا النبي الأميّ الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور.

الفقرة الثالثة: أدوات الطاعنين: القطع، والتأويل، والتشويه

إن الطعن في السيرة النبوية لم يكن يومًا نابعًا من حرص على الحقيقة، ولا من رغبة في الإنصاف، ولا من قلب يبحث عن النور، بل هو ناتج عن قلب أُشرب الحقد، وهوى أعمى البصيرة، وعقل اختار الزلل، وإن تستّر بأثواب البحث العلمي، وتزيّا بعبارات المنهجية والموضوعية.

فالذين يتسللون إلى السيرة لا يدخلون من أبوابها الواسعة، ولا يلجون إليها بنور الفهم وفقه الزمان، بل يتخفّون خلف مكرٍ بارع، يبتغون به الطعن لا البيان، والقدح لا التقويم، والتشويه لا الفهم.

ولهم أدوات، ظاهرها الحُجّة، وباطنها الفتنة:

❖أولها: القطع من السياق

يقتطعون الموقف من موضعه، ويجتزئون الحدث من سياقه، ويفصلونه عن سببه وزمانه ومكانه، ثم يعرضونه في صورة مشوهة مغلوطة، ليوهموا العامة بأنه فعلٌ لا يُقبَل، أو تصرّف لا يليق.

كمن يلتقط من غزوة بدر قول النبي صلى الله عليه وسلم" **:قَدِّمْ يا عبيدةُ] "!**رواه ابن إسحاق وغيره]، ثم يعرضه كأنما هو أمر بالعنف أو سفك الدم، متغافلًا عن أن بدرًا كانت معركة للدفاع عن الدين والنفس والعقيدة، بعد سنوات من الصبر على الأذى والإعراض عن القتال.

❖وثانيها: التحريف بالتأويل

يأتون إلى الأفعال النبوية الثابتة، ثم يلوون أعناقها بتأويلات سقيمة، تُلبِس النور ظلمة، وتُلبِس الحكمة هوى.

فيزعم أحدهم – جهلًا أو افتراءً – أن تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كان دافعه شهوة، ويغفل – أو يتغافل – عن أن زواجه كان تشريعًا وبيانًا ورحمة وسياسة ودعوة.

ولو علموا أن أغلب نسائه صلى الله عليه وسلم كنّ أرامل أو مسنّات، وأنه عاش مع خديجة رضي الله عنها وحدها ربع قرن لا يلتفت لغيرها، لما جرؤوا على هذا الافتراء.

قال تعالى :﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾]القلم: ٤[

فهل يُنسب مثل هذا التأويل إلى من زكّاه الله في خُلقه وخصاله؟

❖وثالثها: التشويه الممنهج

لا يلتزمون صحيح الروايات، ولا يُحسنون التمييز بين الثابت والضعيف، بل يتعمدون خلط الروايات الصحيحة بالمكذوبة، والمقبولة بالواهية، ويستندون إلى كتب غير محررة، وينتزعون الأقوال من مظانها، ويضربون بعضها ببعض، ثم يصوغون منها سيرة مشوّهة، وواقعًا لا يمت إلى النور النبوي بصلة.

وهذه صنعة قديمة، لكنها تجد في كل عصر من يتقن لبسها الجديد.

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأدواء قائلًا:

"يَحْمِلُ هذا العِلْمَ من كلِّ خلَفٍ عُدُولُهُ، يَنفُونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المبطلينَ، وتأويلَ الجاهلينَ"

]رواه البيهقي في "المدخل"، وصححه ابن عبد البر وغيرُه.[

فالطاعنون في السيرة ثلاثة أصناف:

من يحرّف السياق، ومن يحرّف المعنى، ومن يحرّف المصدر.

وكلهم يجتمعون على هدف واحد: زلزلة الصورة النبوية في القلوب، ليُسقِطوا المهابة، ويمحوا القدوة، ويمهدوا لفصل الناس عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، تمهيدًا لفصلهم عن دينهم.

لكن يأبى الله إلا أن يُظهر الحق، ويُعلي قدر نبيه صلى الله عليه وسلم، ويجعل من جُند السُّنّة من ينفون عنها شوائب التحريف، ويُجلّون حقيقتها لكل صادق.

الفقرة الرابعة: الطعن في الغزوات: تشويه أنقى راية رُفعت في التاريخ

من أكثر محاور السيرة النبوية تعرّضًا للطعن، وتشويشًا من خصوم الإسلام، غزوات النبي صلى الله عليه وسلم.
وقد أداروا حولها دوائر التهم، وألبسوها ما ليس فيها، وزيّفوا معانيها النقية بعبارات كاذبة من قبيل: "حروب دموية"، أو "غزوات توسعية"، أو "صراعات انتقامية."
لكنّ القلوب المنصفة، والعقول المتجرّدة، ما إن تتأمل تلك الغزوات، وتقرؤها في سياقها الزماني والقرآني والنبوي، حتى تكتشف الحقيقة الناصعة:
إنها كانت **أنقى راية رُفعت في وجه الظلم، وأشرف سيفٍ سُلّ في سبيل تحرير الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد.**

غزوات النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن طلبًا لثروة، ولا حرصًا على سلطان، ولا سعياً لتوسيع رقعة حكم.
بل كانت دفعًا للظلم، وكسراً لأصنام الطغيان، وردًا على عدوان دام سنينًا طويلة، ذاق فيه المسلمون ألوان القهر والاضطهاد والقتل والنفي والحصار.

لقد عُرِض على النبي صلى الله عليه وسلم المُلك، فأباه، وعُرضت عليه مفاتيح الأرض في مكة قبل الهجرة، فاختار أن يبيت في شِعب أبي طالب على أن يُساوم على رسالة السماء.
ثم لما اشتد البلاء، وأُخرج هو وأصحابه من ديارهم، ونُهبت أموالهم، وقُتل بعضهم، أذن الله لهم بالقتال، فقال سبحانه:
﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾]الحج: ٣٩.[

فكان القتال دفاعًا لا عدوانًا، وكانت الغزوات تشريعًا يُعلّم الأمة متى تُقاتل، ولِمَ تُقاتل، وكيف تقاتل.

وقد كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم في ميدان الحرب أعجبَ من أخلاق الناس في مجالس السلام؛
فلم يكن يقتل شيخًا هرمًا، ولا امرأةً ضعيفة، ولا وليدًا بريئًا، وكان يوصي جنوده في كل معركة بوصايا الرحمة حتى في أجواء السيوف والرماح.
روى أبو داود رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:**انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلّوا، وأصلحوا وأحسنوا، فإن الله يحب المحسنين**] "رواه أبو داود: ٢٦١٤، وصححه الألباني.[

أيُّ عظمة هذه التي تجعل الجهاد مشحونًا بالأخلاق، ومضبوطًا بأوامر السماء؟
أيّ قائد هذا الذي لا يتحول إلى طاغية حين ينتصر، ولا إلى سفّاح حين يُستفَز، ولا إلى منتقم حين تُمكّنه الظروف؟
إنه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، نبي الرحمة، وسيد المجاهدين.

بل انظر إلى أعظم مشهد من مشاهد النصر في تاريخ الرسالات :**فتح مكة**
تدخل جيوش الإسلام المدينة التي أُهين فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وضُرب وشُتم وطُرد، فإذا به يدخلها وهو يطأطئ رأسه تواضعًا لله، حتى كاد جبينه الشريف أن يمسّ سرج راحلته، ويعلنها مدوّية:
"اذهبوا فأنتم الطلقاء."

أيّ قائد هذا؟!
لقد امتلك القوة، لكن لم تفقده القوة الرحمة.
وأمسك بزمام مكة، لكنه لم يجعل من النصر ذريعة للانتقام، بل جعله بوابة للعفو والإحسان والدعوة.

لقد كان جهاده صلى الله عليه وسلم مدرسةً في العدل، وسُلوكه في المعارك نموذجًا للرحمة، وغزواته صفحات من نور، تقود المظلومين إلى العدل، وتنقل البشرية من فوضى الشهوات إلى عدل الرسالات.

قال تعالى :﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾]الأنفال: ٣٩[
فليست الغاية سبيًا، ولا نهبًا، ولا قهرًا، بل هي إزالة الفتنة، ورفع الظلم، وإقامة العدل تحت راية التوحيد.

ومن طعن في هذه الغزوات، دون فقه ولا وعي، إنما طعن في الحكمة الإلهية، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بل في إنسانية الإسلام التي لا مثيل لها حتى في أرقى دساتير العصر.

الفقرة الخامسة: الطعن في زواجه صلى الله عليه وسلم: شبهات الباطل في وجه أطهر المقاصد

ما أكثر ما يتناول الطاعنون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من باب زواجه، ظانين أنهم يطعنون في جانب ضعيف، أو ثغرة في شخصيته، وما علموا أنهم إنما يطعنون في أطهر القلوب، وأنقى السلوك، وأسنى المقاصد، فهم لا يرمون الزواج بذاته، بل يرمون النبوة من ورائه، ويتخفّون خلف شعارات "حقوق المرأة" و"النقد الأخلاقي"، وهم أبعد الناس عن الأخلاق، وأغرب الناس عن الإنصاف، وأجهل الناس بالتاريخ والشرع والعقل.

لقد كان زواج النبي صلى الله عليه وسلم تشريعًا حيًّا، وتجسيدًا لمقاصد سامية، لا يُدركها إلا من عرف مقام النبوة، وقرأ السيرة بعين الإيمان والفهم لا بعين الهوى والارتياب.

فقد تزوّج النبي صلى الله عليه وسلم أكثر زواجه بعد سن الخمسين، أي بعد عمر الشهوة والفتوة، وكان قد عاش مع زوجته الأولى خديجة رضي الله عنها ربع قرن لم يتزوج عليها، وما ذاق في شباب قوته غيرها، فكيف يُقال بعد ذلك: إنه كان شهوانيًا؟!
بل إن من نظر في سير أزواجه رضي الله عنهن، علم أن أغلبهن كنّ ثيّبات، وأرامل، ومسنّات، منهن من كانت بحاجة إلى مأوى، أو سند، أو تكريم، أو تقوية رابطة دعوية أو قبلية.

فتزوجه من أم سلمة رضي الله عنها، بعد وفاة زوجها، كان وفاءً ورحمةً لها، واحتواءً لأيتامها.
وزواجه من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها، كان سببًا في إسلام قبيلتها كلها، حتى قال الصحابة" *ما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها*."
وزواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان، كان تقويةً لرابطة الإسلام مع بيتٍ كان بالأمس بيت العداوة، ثم أصبح بيت الولاء.

أما زواجه من عائشة رضي الله عنها، والذي يُكثر فيه الطاعنون الكلام، فليس فيه ما يُستنكر شرعًا، ولا عقلًا، ولا عرفًا.

فقد كان الزواج المبكر شائعًا في العرب وسائر الأمم قبل الإسلام، وكان سنُّ البلوغ هو المعتمد في العقد، وهو ما لا يُستنكر في سياق زمانه وظروفه.
وقد تربّت عائشة رضي الله عنها في بيت النبوة، ونشأت في كنف أكرم خلق الله، فكانت ذكيةً نجيبة، حتى أصبحت من أكثر النساء رواية للحديث، وأفقه نساء الأمة، يرجع إليها الصحابة في الفتيا، وكانت تقول" :ما رأيت أحدًا كان أعلم بالقرآن، ولا بالفرائض، ولا بالحلال والحرام، ولا بالشعر من عائشة."

إن الذين يهاجمون زواج النبي صلى الله عليه وسلم بها، يتناسون أن مجتمعاتهم الغربية – التي يزعمون التحضّر – قد أباحت الفواحش، وشرّعت الرذيلة، وسمحت بما تستحي منه البهائم، ثم إذا واجهوا أطهر إنسان بأطهر زواج، سلّوا سيوف الشبهة، وتزيّفوا ثوب الفضيلة، وقالوا" *انظروا إلى محمد."!*

قال تعالى:﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾]الأحزاب: ٦[
فهنّ أمهات المؤمنين، وليس في زواجه بهن إلا الحكمة، والرحمة، والتشريع، والدعوة، والوفاء، والعفة.

وهذه الشبهات – وإن علا صوتها – لا تنال من مقامه، بل تنال من قائليها، وتنزع البركة من ألسنتهم، إذ كيف يُقدَح في من قال فيه ربه:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾]القلم: ٤[؟
ومن زكّى الله زواجه وفعله فقال:﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾]الأحزاب: ٣٨[؟

لقد بقيت ألسنتهم تلوك الشبهة، وبقي التاريخ يُنكر عليهم، وبقيت الأمة تستنير بزواجه صلى الله عليه وسلم، علمًا، وأخلاقًا، وحكمة.

الفقرة السادسة: منهج المحدثين في تدوين السيرة – عدالة وضبط لا مثيل له

ما كانت سيرةُ خير البريّة صلى الله عليه وسلم حكاياتٍ تروى بلا ميزان، أو أخبارًا تتناقلها الألسن كما تنقل القصص والأساطير، وإنما كانت – ولا تزال – علمًا قائمًا على أركان من الصدق، وأسُس من الدقة، ومنهجًا لا يُجارى في ضبطه ولا يُدانى في تحرّيه. فقد قيّض الله لها رجالًا من أهل العلم والعدالة، نذروا أعمارهم، وأفنوا أيامهم ولياليهم، ليجمعوا آثار النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، وينقّحوا رواياتها، كما يُنقّى الذهب من غشّه، وكما يُصفّى العسل من شوائبه.

لقد خضع تدوين السيرة النبوية لنفس القواعد الصارمة التي خضع لها الحديث النبوي الشريف؛ فكما لم يُقبل في الحديث إلا ما صحّ سنده واعتدل راويه، وثبت متنه، واستقام لفظه، كذلك كان الحال في السيرة. وكانوا إذا أرادوا الحكم على رواية من رواياتها، نظروا في رجال سندها، وسبروا حال رواتها، ووازنوا ألفاظها بالشريعة، وعرضوها على القواعد والقرائن، فما وافق قبلوه، وما خالف ردّوه غير هيّابين، ولا مجاملين.

وقد زخرت كتب السيرة المعتمدة بروايات متينة السند، سليمة المتن، ناطقة بالصدق، ومنها *سيرة ابن إسحاق* التي اختصرها وهذّبها *ابن هشام*، و*تاريخ الطبري*، و*البداية والنهاية* لابن كثير، و*سير أعلام النبلاء* للذهبي، وغيرها من كتب السِّيَر التي التُزِم فيها جانب النقد والتحقيق.

أما الذين يطعنون اليوم في السيرة، فإنهم يرمونها بسِهام الشك والارتياب، ويخلطون الغث بالسمين، فلا يفرّقون بين الروايات الصحيحة والمكذوبة، ولا يميّزون بين ما نُقل بعلم ودراية، وما نُسج على منوال الحكايات، فتراهم يستدلّون برواية لا خطام لها ولا زمام، ثم يرفعون منها راية الطعن والتشكيك! أو يعتمدون في نقدهم على كتب أدب وملاحم، لا على دواوين السنة وأصول السيرة، ويجعلون الروايات الموضوعة كأنها من المسلّمات، فيظلمون السيرة وهم لا يشعرون.

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا المسلك فقال" :**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين** "رواه البيهقي في "المدخل"، وصححه ابن عبد البر وغيره.

وفي هذا الحديث الشريف تأصيلٌ جليل، أن العلم لا يُؤخذ إلا عن العدول، الأمناء، الصادقين، الذين يُنقّون روايات الدين من كل شائبة، ويذبّون عنها كل تحريف أو انتحال أو تأويل فاسد.

فيا ويح من يتكلّم في سيرة نبيّنا صلى الله عليه وسلم بغير علم، ويتجرّأ على مقام النبوّة بأوهى الشُّبَه! وهل بعد هذا المنهج النقيّ حُجّة لمتشكك، أو مبرّر لطاعن؟! لقد أدّى المحدثون الأمانة، ورفعوا لواء العلم، وتركوا للأمة تراثًا يُشرق نوره في وجه الظلام، ويصدح صدقه في زمن الأكاذيب.

فواجب أهل العلم اليوم: أن ينهضوا بالسيرة كما نهض بها السلف، فيُعيدوا عرضها بمنهج المحقّقين، لا بمنطق المتشككين، وأن يُبيّنوا للعالم أن سيرة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم محفوظة، موثّقة، نقية، تشهد لها الأسانيد، وتعضدها القواعد، ويزكّيها التاريخ، ويجلوها نور الوحي والحق.

الفقرة السابعة: الرد على الطعن لا يعني تنزيه كل رواية

ليس من الأمانة في شيء أن يُردّ الطعن عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بتصحيح كل ما نُقل فيها، فإن السيرة لم تُنقل في مرتبة واحدة، ولم تُجمع كليًّا تحت راية الصحاح، بل فيها الغثّ والسمين، والضعيف والصحيح، والمنكر والمستفيض، وكلٌّ له حكمه واعتباره.

ففيها ما أُودِع الصحيحين من الروايات المحكمة، المتصلة الإسناد، القوية في المتن والمعنى، وفيها ما صحّ بشواهده وطرقه، وفيها ما لا تقوم به حجة، من روايات ضعيفة أو منكرة أو حتى موضوعة. وقد نبّه على ذلك الإمام أحمد رحمه الله، حين قال"**:ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير**"
كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في *مجموع الفتاوى*.
ومراده: أن كثيرًا مما ورد في هذه الأبواب لا يصحّ إسناده، وإن اشتهر في كتب القصص والسير، مما يوجب التمحيص والتحقيق قبل الاعتبار والاحتجاج.

لقد تعامل أهل العلم مع روايات السيرة بمنهج دقيق، لا يغالون في التصحيح، ولا يتهوّكون في التضعيف. بل كانوا إذا وقفوا على رواية نظروا في سندها، وعرضوها على الأصول، واستخرجوا ما فيها من عبر ومقاصد إن ثبتت، وردّوها إن لم تصح، من غير تكلّف ولا تساهل.

فالمنصف في الدفاع عن السيرة، لا يتعصّب لرواية ضعيفة فيلصقها بساحة النبوّة، ولا يهوّن من شأن السيرة كلها بسبب خيط واهٍ أو رواية مرجوحة. بل عليه أن يكون عارفًا بمراتب الروايات، بصيرًا بمقاصد السيرة، حكيمًا في مواضع التثبت، عالمًا أن الذبّ عن السيرة لا يكون إلا بميزان الحق، لا بعاطفة الانتصار المجرد.

إن من الخطأ البين أن يُقال: إن كل ما ورد في السيرة صحيح. كما أن من الجهل الفاضح أن تُطعن السيرة كلها لرواية لم تثبت أو قصة لم تصح. وبين هذا وذاك، يقوم منهج أهل الحديث كالسراج المنير، يهدي من أراد الإنصاف، ويهتك أباطيل المتخرّصين.

الفقرة الثامنة: من يطعن في السيرة... ماذا قدّم للبشرية؟

تُرى... هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم خصومًا لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وجعلوا الطعن فيه هواية، والسخرية منه منهجًا، والمزايدة عليه دليلًا على التنوّر والتقدّم... ماذا قدّموا للبشرية؟
بماذا أضافوا إلى رصيد القيم، وإرث الحضارة، وميزان الرحمة؟
هل عرف الناس على أيديهم معنى الكرامة الحقة؟

هل تنفّس الضعفاء في ظل أقوالهم نسائم العدل؟
هل ازدهرت القلوب بمعاني الطهر والفضيلة من كتبهم؟
هل علت حضارة، أو رُفِع جهل، أو أُنقذَت أمة على أيديهم؟
لا شيء... إلا الضجيج، وتكدير الصفو، والمتاجرة بالعقول باسم العقل!

أما النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جاء يوم كانت الأرض تئنّ من الظلم، والقلوب عمياء عن النور، والإنسانية تنحدر في دركات الجهل والسُّكر والدماء... فجاء رحمةً للعالمين، كما قال تعالى:
﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

علّم الناس كيف يعيشون لله، لا للهوى ولا للطاغوت،
علّمهم كيف يرحمون بعضهم بعضًا، كما في الحديث»:**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء]** «رواه الترمذي.[
أسّس نظامًا أخلاقيًّا يُحترم فيه الضعيف، ويُعطى كل ذي حقٍ حقّه، وتُصان فيه الحرمات، وتُكرَّم فيه المرأة، ويُربّى الإنسان على معاني العدل، والحياء، والإحسان.

أنشأ حضارةً لا تزال شواهدها ناطقةً على امتداد القرون،
حضارةٌ بَنَتْها القلوب المؤمنة، لا الآلات الباردة،
وصاغها التربويّ الأول محمد صلى الله عليه وسلم، يوم صنع من الأعراب الفاتحين، ومن الأميين معلمين، ومن الرقيق سادة، ومن المتناحرين أمّة واحدة.
قال الله تعالى:**﴿هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: ٢].**

فهل فعل هؤلاء الطاعنون شيئًا يُذكر؟
كلا... ما رأينا منهم بناءً يُشاد، ولا قيمةً تُغرس، بل غاية أمرهم أن يهدموا صرحًا لم يبنوه، ويشكّكوا في نور لم يذوقوا حلاوته، ويزدروا رجلًا أقام صرح الهداية حتى قال الله فيه:**﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤].**

وهنا يَصدق القول:
الناس لا تخلّد من يهدم... بل ترفع من يبني،
وما بُنيَ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، هو أعظم ما عرَفته الأرض من بناء،
بناءٌ في القلوب، قبل أن يكون في الحجارة،
بناءُ إيمان، وعدل، ورحمة... لا يزال شامخًا، لا تهزّه رياح الطاعنين، ولا تنال منه سهام الحاقدين .

الفقرة التاسعة: لماذا لا يُطعن في سيرة غيره كما يُطعن في سيرته؟

تأمل صفحات التاريخ... واقرأ في دفاتره أسماء العظماء كما يسمّونهم: من ملوكٍ أُحيطوا بالهالة، إلى قادةٍ صنعوا الملاحم، إلى فلاسفةٍ أرهقوا العقول جدلًا...
فماذا ترى؟
مظالم تقطر من قراراتهم،

أخطاء يتلعثم فيها التاريخ وهو يسردها،
نقائص في الأخلاق، وكِبرٌ، واستعلاء، وربما استعبادٌ للبشر باسم المجد!

ومع ذلك... لا ترى هذا السيل المتدفق من السخرية والطعن والتشويه الذي يُكال لسيرة نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم.
لا يُشنّ عليهم عشر معشار ما يُشنّ عليه،
لا تُنشر الكتب لتقليب سيرهم بكل هذا الحقد،
ولا تُصوَّر الأفلام لتجريحهم بهذا الكم من الافتراء،
ولا تُسخَّر الأقلام والمنابر والبرامج للتقليل من شأنهم كما يحدث مع من زكّاه الله من فوق سبع سماوات!

فلماذا هو بالذات؟
لِمَ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم هي الميدان المفضّل للطاعنين؟
الجواب أظهر من الشمس في رابعة النهار...

لأن سيرته ليست كغيرها...
هي السيرة الوحيدة التي تنبع من الوحي، وتفيض بالنور، وتقطع على الباطل سبيله.
هي التي لا تجامل الظلم، ولا ترضى بالدنيّة، ولا تساير الانحراف.
هي التي تفضح الطغيان ولو تستّر بشعارات الحرية،
وتُوقظ الفطرة ولو غطّاها غبار الشهوات.
هي التي تهتف في ضمير الإنسان: عُد إلى الله... عُد إلى النور... عُد إلى الحق.
فهل يرضى أهل الظلام بهذا الصوت النقيّ؟!

إنها ليست مجرد سيرة...
بل مرآة تُظهر عورات الباطل،
ومِشكاةٌ تهدي السائرين في دروب الحياة،
ومنهجٌ يربّي، ويهذّب، ويحرّر.

لذلك تراهم يتحالفون عليها، وتتكالب أقلامهم، وتتقاطع مصالحهم عند نقطة واحدة:
إسكات هذا النور...
طمس هذا الهدى...
توهين هذه العظمة.

لكن هيهات...
فما تحالفوا عليه إلا لأنه صدقٌ يُؤلمهم، ونورٌ يفضح ظلامهم.
وما اجتمعوا على حربه إلا لأنه الحق،
قال الله تعالى:﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة: ٣٢].

فهذه الهجمة المتكررة على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ليست طعنًا يُضعفها...
بل هي وسامُ صدقٍ، وشهادةُ فخر، وإعلانُ فشلٍ من خصوم لا يملكون سوى أن يرموا بالحجارة نورًا أعمى أبصارهم، لا لأنه ظلم... بل لأنه ساطعٌ لا يُحتمل في أعين أهل الظلمة.

الفقرة العاشرة: لماذا السيرة هي المستهدفة الأولى؟

السيرة النبوية... ليست مجرد قصة تُروى، ولا سردًا لأيامٍ خلت،

بل هي حياةٌ تهتدي بها القلوب، ومنهجٌ يُترجم الوحي إلى واقع.
هي التطبيق العملي لما جاء في القرآن، والمفتاح لفهم السنة،

هي النور الذي سار به جيل الصحابة، فسادوا به الدنيا عدلًا ورحمة وعلما.

ولذلك ...منذ أن بزغ نورها، وخصوم الحق لا يملّون الطعن فيها.
لأنهم يعلمون :أن الطعن في السيرة ليس طعنًا في أحداث التاريخ،

بل هو طعن في القدوة، وفي المنهج، وفي ثبات المبدأ.
السيرة ليست كتابًا يُركن على رف، بل هي مصدر إلهام، ومدرسة تربية، ودليل النجاة.

فالقرآن يُفسَّر بالسنة،
والسنة تُفهم بالسيرة،
فإن نُقضت السيرة، ضُربت جسور الفهم، وتزعزعت معالم الهداية.

لذا... رأيت أعداء الإسلام يتواصون على غمز النبي صلى الله عليه وسلم في أخلاقه،
ويُهوّنون من فضائله،
ويُثيرون السخرية حول غزواته،
ويُلوّحون باتهامات بالية حول زيجاته،
وكل ذلك يُغلّفونه بشعاراتٍ كاذبة: حرية التعبير! نقد التاريخ! حقوق المرأة!

وما هي في حقيقتها إلا سكاكين طعنٍ مغلّفة بورق التقدّم.
لأنهم يعرفون أن السيرة النبوية هي الجدار الأخير الذي يحمي الإيمان،
هي الصخرة التي تتحطم عليها سهام الشبهات،
هي الحصن الذي إن انهار، تداعت بعده الثوابت، وضاعت المعاني.

ومن هنا...
فإن الدفاع عن السيرة، ليس عاطفة دينية فحسب،
بل هو دفاع عن الوحي، عن المنهج، عن الإسلام كله.
وردُّ الشبهات عنها من فروض الكفاية،
لأنها إن تُركت نهبًا للطاعنين، ضاعت الثقة، واضطربت البصائر، وتسلل الشك إلى القلوب.

إن السيرة النبوية، بكل تفاصيلها، هي المعركة الحقيقية التي يراها أعداء النور،
فلا عجب أن تكون المستهدفة الأولى...
لكنهم – وإن اجتمعوا – لا يطفئون نورًا تولّى الله حفظه، ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾... ولكن :﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾]الصف: ٨.[

الفقرة الحادية عشرة: السيرة أعظم من أن تُشوه، وأطهر من أن تُدنّس

قد يتوهم البعض أن السهام التي تُطلق صباح مساء على سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، قد تُصيبها في نقائها، أو تُضعف من إشراقها...

لكن الحقيقة الخالدة أن السيرة النبوية أسمى من أن تُنال، وأطهر من أن يُمسّ شرفها، وأثبت من أن تهتزّ تحت أقدام المشككين.

فأيُّ سيرة في تاريخ البشر حُفظت كما حُفظت سيرة محمد صلى الله عليه وسلم؟
أيُّ سيرة خضعت لما خضعت له من تمحيص الأسانيد، وضبط الروايات، وتصنيف الأخبار، وتنقية الدخيل؟
لقد سطرها علماء هذه الأمة بسهر الليالي، ونقد العقول، وأمانة القلوب، فخرجت سيرةً نقية كأنها الدرّ المصون، خالية من الأكدار، صافية من الزيف.

ومع مرور القرون، لم تزدها محاولات الطعن إلا بهاءً، ولم يزدها تشكيك الأعداء إلا بروزًا وعلوًّا...
فهي السيرة التي غيّرت مجرى التاريخ، وأنشأت رجالًا ملؤوا الدنيا نورًا وعدلًا.
هي السيرة التي حوّلت البدو في صحراء قاحلة إلى حملة مشاعل العلم، وروّاد الحضارة، وسادة الأمم.

وأما أبواق الطاعنين، فما هي إلا غبارٌ يعلو قليلًا ثم يتبدد،
وما محاولاتهم إلا كمن ينفخ في الشمس ليُطفئ ضياءها!
فأنّى لسهامهم أن تخرق النور؟! وأنّى لغبارهم أن يحجب الحق؟!

لقد تولّى الله – عز وجل – رفع ذكر نبيه، كما قال في محكم التنزيل :﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾]الشرح: ٤.[
فما من أذانٍ يُرفع، إلا وفيه اسمه صلى الله عليه وسلم يُعانق اسم الله جل جلاله،
وما من مسلمٍ يُصلي، إلا ويُثني على حبيبه بدعاء،
وما من قلبٍ مؤمن، إلا ويتوق إلى معرفة سيرته، والاقتداء بهديه، والسير على خطاه.

فليطعن من شاء أن يطعن...
وليشكك من شاء أن يشكك...
فالسيرة النبوية أشدّ ثباتًا من الجبال، وأعلى مقامًا من أن تطالها أيدي المرجفين.
وسيظل هذا النور، بإذن الله، ممتدًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الفقرة الثانية عشرة: الطعن في السيرة... طعنٌ في قلب الإسلام النابض

ليست السيرة النبوية مجرد سجلٍ لأحداثٍ تاريخية طواها الزمن،
ولا سردًا لسيرة رجلٍ عظيم فحسب،
بل هي النور الذي به يُستضاء، والمثال الذي به يُقتدى، والمصدر الذي تُبنى عليه معالم الإيمان، وموازين الإصلاح، وسبل المواجهة.

إنها الترجمة الحيّة للوحي، والبيان العملي للقرآن، والعين التي يُنظر بها إلى الواقع، والميزان الذي تُوزن به المواقف.
فمن عرف السيرة، عرف كيف يفهم الدين، وكيف يفسّر الحوادث، وكيف يزن الناس والمناهج والاتجاهات.
ومن فقدها، تاه في ظلمات الأهواء، وتخبّط في دروب الحيرة.

وما أشد خطر تلك السهام التي تُوجّه إلى السيرة،
فكل طعنة تُصيبها، إنما تُصيب في الحقيقة روحَ الأمة، وتُزلزل بنيانها، وتُضعف بصيرتها.
فحين يُشكك في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، ويُتهم بأنه كان قائدًا دمويًّا لا رحيمًا ناصحًا...

وحين يُطعن في عدله وزهده، ويُساء إلى بيته وزوجاته، ويُشكك في اختياراته...
وحين يُنال من أصحابه، ويُتهم حَمَلةُ السيرة بالكذب والهوى...
فإنما يُقصَد بذلك هدم الجدار الذي تستند إليه الأمة، وبتر الجذر الذي تنبع منه الحياة.

قال الله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾]الأحزاب: ٢١[،
فإذا سقطت صورة "الأسوة"، لم يبقَ في يد الأمة مرآةٌ تهتدي بها، ولا دليلٌ تسير وراءه، ولا نموذجٌ تقتدي به في المواجهة والبناء والإصلاح.

وإن أخطر ما في هذا الطعن أنه يُقدَّم في ثوب البحث العلمي، والتحليل المحايد، وحرية التعبير، بينما هو في حقيقته تفجيرٌ للأساس الذي يُبنى عليه كل صلاح، وتشويشٌ على الميزان الذي به يُعرف الحق من الباطل.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم»:تركتُ فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي] «رواه مالك بلاغًا، وصحّحه أهل العلم من طرقٍ أخرى[
وما السنة إلا مفسَّرة بالسيرة، وما السيرة إلا التطبيق الحيّ للكتاب.

فهل بعد هذا يُقال: إن الطعن في السيرة مسألة هامشية؟!
بل هو قلب المعركة، ولبُّ المواجهة، وسهمٌ يُصوّب إلى صدر الأمة.

فليعلم كل مسلم أن الدفاع عن السيرة ليس ترفًا علميًّا، ولا ترفًا دعويًّا،
بل هو واجب الوقت، وفريضة المرحلة، وواجب من فروض الكفاية إذا ضيّعه الناس، أثم الجميع.
قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:
"فمن الناس من يكون عنده من اليقينيات في السيرة النبوية ما لا يُحصى، فإذا أُزيل ذلك، زال من قلبه كثير من الإيمان."

الفقرة الثالثة عشرة: ما الذي دفع الطاعنين إلى النّيل من السيرة النبوية؟

وما الذي أقلقهم من ذكر رجلٍ طاهرٍ عاش على أرض الجزيرة قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان؟
وما الذي يجعل سطور حياته صلى الله عليه وسلم تُقرأ في مشارق الأرض ومغاربها، فتزلزل عروش الباطل، وتزعج قلوب الظالمين؟

الجواب:
أن السيرة النبوية ليست سجلًا تاريخيًا يُحفظ على رفوف المتاحف، ولا مجرد قصة تُروى لتسلية العقول، بل هي **منهج حياة، ومشروع نهضة، ووقود بعثٍ حضاري** لا ينضب، وما أزعجهم منها: أنها لا تزال تُنبت رجالًا، وتُخرج من رحم كل جيلٍ من يُشبه الصحابة صدقًا وثباتًا وبطولة.

لقد رأوا أن هذه السيرة ليست كلمات تُقال، بل **قوة تُوقظ، وروح تُبعث، ومِشكاة تنير دروب التائهين** ...فيها الهداية لمن أظلمت دروبه، وفيها العدل لمن طغى عليه جور الدنيا، وفيها الرحمة لمن أرهقه الألم، وفيها الشجاعة لمن أذلّه الخوف، وفيها النقاء لمن لوّثت قلبه الشهوات.

إنهم يخافون منها لأنها تُحيي أمة كانت تغطّ في سبات، وتبعث في الناس الوعي من جديد، وتحرر القلوب من وثنيّة العصر الحديث: من عبادة المال، والمناصب، واللذات، والمشاهير، والهوى، وتُعيد النفوس إلى مقام العبودية لله وحده، حيث الطمأنينة والعز.

هم لا يكرهون السيرة لأنها قصة، بل لأنها **قوة تغيير لا تُكسر، وقوة وعي لا تُشترى، وقوة ثبات تُقاوم التيه والانحراف**، ولهذا فإنهم يسعون إلى تشويهها، وطعنها، وتفريغها من عظمتها، **فهي العائق الأكبر أمام مشروعهم لتغريب الأمة وسلخها عن دينها.**

وقد قال ربنا جلّ وعلا عن مثل هؤلاء الطاعنين:﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾]التوبة: ٣٢.[

وكيف لا يخافون من سيرةٍ قال عنها جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي وهو يصف ثمرتها":كنّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش... حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان... فأمَرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء] ."رواه أحمد والبيهقي وغيرهما، وسنده حسن.[

هي السيرة التي غيّرت حال البادية إلى حضارة، والقبائل المتناحرة إلى أمة، والجهل إلى علم، والخوف إلى أمن، والظلم إلى عدل... فهل يُستغرب بعد هذا أن يُحارب نورها؟!

إن الدفاع عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليس مجرد ردٍّ على شبهات، بل هو **صيانة للمنهج، وحماية للوعي، ورباط في ثغر من أعظم ثغور الأمة**، وإننا لعلى يقين أن هذا النور الذي جاء به الحبيب صلى الله عليه وسلم سيبقى مشتعلاً، يهدي القلوب، ويوقظ الضمائر، ويكسر أغلال الباطل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾]الحجر: ٩٥[﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾]الحجر: ٩[

الفقرة الرابعة عشرة: السيرة ليست حكرًا على المسلمين، بل هدية للعالمين

ما أحوج العالم اليوم إلى أن يعيد اكتشاف السيرة النبوية، لا ككتاب تاريخٍ يروى، ولا كمأثرة عظيمة مضت وانقضت، بل **كهدية ربانية مُشرقةٍ لكل البشر، عربهم وعجمهم، مؤمنهم وكافرهم، غنيّهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم** ...إنها سيرة من لم يُبعث لفئة محدودة، ولا لقوم بعينهم، بل بُعث **رحمةً للعالمين.**

لقد تظن بعض العقول أن السيرة النبوية ملك للمسلمين فقط، ومصدر إلهامٍ لهم وحدهم، لكنها في حقيقتها نور أطلّ من مكة فعمّ الأرض، وهدايةً نزلت من السماء لتنتشل الإنسان من ظلمات الجهل والظلم والهوى إلى نور الإيمان والعدل والرحمة.

قال الله تعالى عن نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

فمن أعماق السيرة يفوح عطر الرحمة :رحمته بالأرامل واليتامى...
رحمته بالفقراء والضعفاء ...رحمته بالأعداء حين يقع سيف النصر بيده، فلا يطغى، بل يعفو ويصفح...
رحمته بالحيوانات والطيور وحتى الجمادات، فيبكي خشب المنبر لفراقه، وتئنّ الجذع شوقًا إليه.

إنها ليست سيرة رجلٍ عاش لنفسه، أو جمع المال والجاه ليبني مجده، بل هي سيرة **رجلٍ وهب حياته لغيره، يحمل همّ الخلق صباحَ مساء، يطرق قلوبهم قبل أبوابهم، يُنقذهم من عبودية الطغيان، ويقودهم إلى حرية الإيمان، ويهتف فيهم: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا."**

ما ترك طبقة من الناس إلا ودعاها...
دعا الملوك في قصورهم، والعبيد في أكواخهم، دعا العرب في صحرائهم، والعجم في أعاجمهم، دعا القريب في أهله،

والبعيد في مشارق الأرض ومغاربها...
لأنه صلى الله عليه وسلم **رسولُ الناس كافة، لا يستثني أحدًا من رسالته.**

وقد شهد له بذلك عظماء العالم من غير المسلمين، فقال "لامارتين" المفكر الفرنسي:

"إنه لفريدٌ من نوعه... لا يمكن لأحدٍ أن يتفوّق عليه... لقد هدف إلى تحطيم الأصنام وإقامة الإيمان بإلهٍ واحد... وإذا كانت عظمة الهدف، وقلة الوسائل، ودهشة النتائج، هي مقاييس العبقرية، فمَن ذا الذي يُقارن بمحمد؟"!

وقال آخر":ما عرفتُ إنسانًا أحبّ الخير للبشر كما عرفته في محمد".

إن من يقرأ السيرة بعين الإنصاف، لا يمكنه إلا أن يُقرّ بعظمتها...
ومن يقرأها بنصف قلبٍ، سيُحبّ صاحبها...
ومن يقرأها بقلبٍ كاملٍ، وعقلٍ مُنصف، وروحٍ متجردة من الهوى، سيشهد أن محمدًا صلى الله عليه وسلم **ما كان إلا رحمة ونورًا وسلامًا للعالمين.**

وهذا ما يُفسر قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه –وكان حبرًا من أحبار اليهود– لما رأى وجه النبي صلى الله عليه وسلم عند قدومه المدينة، قال" :فلما نظرت إلى وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب" [رواه الترمذي.]

فلئن كان هذا قول يهودي في اللحظة الأولى، فكيف بمن أبحر في سيرته، وتغلغل في مواقفه، واستنشق عبير أخلاقه، وتذوق طُهر قلبه؟!

وإنّا والله لا نعرض سيرته صلى الله عليه وسلم تعصبًا، ولا ننافح عنها تزلفًا، وإنما نفتح للناس كنزًا إلهيًّا مكنونًا، ونقول لكل باحث عن النور في هذا العالم:
اقرأ السيرة... فإن فيها الدواء لكل داء، والهدى لكل تائه، والنور لكل مظلم.

الفقرة الخامسة عشرة: الطعن في السيرة ارتداد عن الفطرة

بكل فطرةٍ نقية، وقلبٍ لم يُغشَّه الهوى، وذوقٍ لم تُفسده الأهواء...
يشرق حب النبي صلى الله عليه وسلم في الأرواح كما تشرق الشمس في الصباحات الندية.
فمن قرأ سيرته بعينٍ صادقة، وبصيرةٍ منصفة، وضميرٍ لا تحكمه العقد ولا الكبر ولا التعصّب، أُشرب قلبُه حبّ هذا النبي، وامتلأت روحه توقيرًا وإجلالًا له، وتعاظمت في عينيه شمائله وسيرته، حتى ليكاد يُقسم أنه ما مشى على الأرض أطهرُ ولا أصدقُ ولا أرحمُ منه.

ذلك لأن الفطرة السليمة لا تملك إلا أن تنجذب إليه...
فهي تحب الصدق، وتعشق الأمانة، وتُفتن بالطهر والعفاف، وتُعظّم الرحمة والعدل...
فإذا عُرضت عليها سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، اهتزت كما تهتز الأرض إذا نزل عليها المطر، وازدهرت فيها بذور المحبة، وورود التصديق.

ولهذا فإن الطعن في السيرة النبوية ليس موقفًا علميًّا جادًّا، ولا رأيًا نقديًّا رشيدًا، وإنما هو ارتكاسٌ في الفطرة، وانحرافٌ في الذوق، وتحجّر في القلب، وغشاوة في البصيرة...
ولو أن الحواجز التي أقامها الناس بأيديهم من الكبر، والعناد، والتقليد الأعمى، والتعصّب المقيت، زالت عن القلوب، لانجذبت الأرواح إلى هذا النبي الكريم كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس، لا تملك دفعًا ولا تردُّدًا.

وكأنّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يقف شامخًا أمام النجاشي، يرسم لنا هذه الحقيقة حين قال في وصف النبي صلى الله عليه وسلم :بعث الله فينا رسولًا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه"...رواه أحمد بسند حسن.[

كلماتٌ خرجت من قلبٍ لم تتلوث فطرته، من رجلٍ عرف الحق حين رآه، ولم يكن بحاجةٍ إلى برهانٍ طويلٍ ليدرك طُهر هذا النبي الكريم...
فالفطرة، حين تكون حية، لا تحتاج إلى جدلٍ طويل، بل يكفيها أن ترى النور، لتتبعه.

وصدق الله العظيم إذ قال:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾]الحج: ٤٦.[

وما يُهاجم السيرة النبوية اليوم إلا قلبٌ أُغلق بالشهوات، أو عقلٌ أسكرته الشُبهات، أو نفسٌ أعماها الغرور والعُجب.
أما القلوب التي بقي فيها بقية من حياة، فإنها ما إن تقرأ سيرته صلى الله عليه وسلم، حتى تُنبت فيه المحبة، وتذوب فيه الهيبة، وتُضيء فيه أنوار الهداية.

ومن العجيب أن أعداءه في حياته –رغم كفرهم– لم يجدوا منفذًا للطعن في صدقه وأمانته، ولهذا لما أراد أبو جهل أن يُعرض عن دعوته، لم يستطع أن يُنكر صدقه، فقال":إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به".
فأنزل الله تعالى:﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾]الأنعام: ٣٣.[

فهذا هو الداء ...ليس في السيرة ما يُهاجَم، بل في النفوس ما يعجز عن تقبُّل النور، ومن لم يُبصر الشمس فليتهم عينيه، لا الشمس...

الفقرة السادسة عشرة: مهما طعنوا فيها... ستبقى السيرة

مهما علت أصوات الطاعنين، ومهما توهّم الواهمون أنهم بسهام كلماتهم يشوّهون التاريخ أو يُطفئون النور...
فستبقى السيرة النبوية تاجًا على رؤوس الزمان، وضياءً يتلألأ في ليل الحضارات، وعطرًا خالدًا لا تطمسه الأعاصير.

فالسيرة ليست مجرد صفحات تُطوى، ولا مدوّنة يُعبَث بها في غفلة من الدهر، ولا حكايات تُنسى مع مرور الأجيال...
بل هي **وحيُ حياةٍ يسري في قلوب الصادقين، ومجدٌ تتناقله الأرواح قبل الألسن، وسراجٌ لا يخبو مهما اشتدت الظلمات.**

كم من لسانٍ تطاول عليها فانقطع، وكم من قلمٍ تربّص بها فانكسر، وكم من مشككٍ تهاوى في دروب النسيان، واندثر اسمه ولم يُعرف له أثر...
بينما **بقيت السيرة نهرًا رقراقًا، ينهل منه الباحثون عن الصدق، والعاشقون للطهر، والمشتاقون للهداية.**

لقد حاول المبطلون جهدهم، وتكالب المغرضون بحملاتهم، وأجلب المارقون من كل ملة وصوب...
لكنهم **نسوا أن هذا النور محفوظٌ من فوق سبع سماوات**، وأن الله تعالى تكفّل به يوم تكفّل بدينه، فقال:
﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾الحجر: ٩٥.[

إنها ليست فقط محفوظة، بل **هي محبوبة، معصومة، منصورة، شاهدة على النبوة، ودالة على الرسالة، وآية خالدة على أن هذا الدين حقٌّ من رب العالمين.**

فهي في صدور المؤمنين نورًا، وعلى ألسنتهم ذِكرًا، وفي سلوكهم عملًا، وفي دمائهم عشقًا لا يبرد، وفي أحلامهم شوقًا لا ينطفئ.

وسيبقى هذا النبع العذب – سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم–
هو الملجأ في الفتن، والمرفأ في العواصف، والزاد في المسير، والضياء في العيون، والنور في القلوب...
نهل منه الصحابةُ فنصروا، وارتوى به التابعون فثبتوا، وسار عليه الصالحون فنجحوا، وها نحن نرتوي منه وبه نحيا.

وسيظل الزمان يروي سيرة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم
كما يروي الندى زهرةً في الصباح، حتى يرث الله الأرض ومن عليها،
ويأبى الله إلا أن يُعلي ذِكره، ويرفع ذكره، ويعظّم شأنه، كما قال:﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾[الشرح: ٤.]

فإن كنت من أولي الألباب، فاعتصم بهذا النور، وتشبّث بهذا الحبل، واغرف من هذا النبع، فإنه **لا يُطهر القلب شيء كما تطهره السيرة، ولا تُزكّي النفسَ ريحٌ كما تزكيها نسائمُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم**

الباب الرابع عشر: ما يجب على الأمة تجاه السيرة

المقدمة

ليست السيرة النبوية إرثًا تاريخيًّا نُعجب به، ثم نطويه، بل هي **أمانة في أعناق الأمة، وميثاقٌ بين المحبة والاتباع، وبين الانتماء والوفاء.**

إن كل أمة تُقاس بحجم وفائها لعظمائها، **فكيف بأمة شرفها الله بخاتم النبيين، وبخير خلقه أجمعين؟**
كيف يُعذر من فرّط في سيرة من قال فيه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟

إن ما يجب علينا تجاه السيرة ليس مجرد دراسة أو تدريس، بل هو **فهمٌ عميق، وحبٌّ صادق، واتباع عملي، ونصرة دائمة، ودعوة حية تعيد السيرة إلى المجالس والمدارس، إلى القلوب والعقول، إلى البيت والمنبر، إلى السوق والمحراب.**

في هذا الباب، **نرسم معالم الواجب على الأمة كلها: أفرادًا، وعلماء، ودعاة، ومؤسسات، وأُسرًا، ومناهج، ووسائل إعلام،** لنستبين كيف نؤدي حق السيرة علينا، وكيف نسهم في بعثها من جديد، **لا بالكلمات فحسب، بل بالحياة التي نعيشها على هدي من سار على الهدى.**

فالسيرة ليست كنزًا نحتفظ به في خزائن الكتب، **بل نورًا نضيء به ظلام الواقع، وسلاحًا نواجه به الجهل، وأملًا نُبقيه حيًّا في نفوس الأجيال.**

الفقرة الاولى: اول واجب على من عرف السيرة ان يحب صاحبها حبا صادقا لا يشوهه تردد ولا يخالطه شك

فحبُّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليس ميلًا عاطفيًّا عابرًا، ولا حالة وجدانية وقتيّة، بل هو فريضة ربانية، وأصل من أصول الإيمان، وعلامة فارقة في صفاء القلوب وسلامة الفطرة. وكيف لا يكون كذلك، وهو الذي أخرجنا الله على يديه من الظلمات إلى النور؟ وهو الذي حمل عنا الهموم، وسهر الليالي، وجاهد في سبيل هدايتنا، حتى اكتملت لنا النعمة، وتم الدين؟

لقد جعل الله حبّ نبيه صلى الله عليه وسلم ميزانًا يُوزن به صدق الإيمان، فقال نبيُّ الرحمة صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق عليه:
"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين."
وفي رواية أخرى عند البخاري"**:ومن نفسه التي بين جنبيه."**

وما قال ذلك تكبُّرًا ولا طلبًا لمكانةٍ دنيوية، وإنما لأن من لم يقدّر هذا النبي حقّ قدره، لم يعرف الله حق معرفته، فإن الله عز وجل قرن بين طاعته وطاعة نبيّه، ومدح من اتّبعه، وذمّ من خالفه، فقال جلّ في علاه :﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١.]**

وحبّ النبي صلى الله عليه وسلم ليس ادعاءً على اللسان، بل حقيقة تظهر آثارها في الحياة:
في توقيره عند ذكر اسمه، والصلاة عليه كلما ذُكر، والذبّ عن سنّته، والغيرة عليه إذا تطاول عليه السفهاء، والاقتداء به في الهدي والسمت، في الملبس والمأكل، في السكينة والعفو، في الجدّ والمرح، في قيام الليل وبسمة النهار.

لقد أحبه الصحابة حبًا ملك عليهم قلوبهم، حتى قال عمر رضي الله عنه:
"يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي"، فقال: "لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال عمر: "فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليّ من نفسي"، فقال: "الآن يا عمر] "رواه البخاري.[

وهكذا ينبغي أن يكون حبنا له صلى الله عليه وسلم: حبًّا يورِث طاعة، ويقود إلى اتباع، ويمنح القلب سكينة، ويجعل صاحبه من المحبوبين عند الله، فإن من أحبّ نبيّ الله تبعه، ومن تبعه سار في ركاب الهداة المهتدين.

اللهم اجعل حب نبيك صلى الله عليه وسلم أغلى عندنا من أنفسنا وأهلينا وأموالنا، وارضَ عنا برضاك عنه، واجعلنا من أهل شفاعته يوم نلقاك.

الفقرة الثانية: أن نقرأ السيرة بعقلٍ واعٍ، وقلبٍ محب، وعزيمة على الاتباع

إن السيرة النبوية ليست كتابًا يُقرأ كما تُقرأ القصص، ولا رواية تُقلب صفحاتها بحثًا عن أحداثٍ مشوّقة أو حكاياتٍ مثيرة، وإنما هي منهاج حياة، وهدىً من الله، وتجربة نبوية خالدة، نزلت من السماء لتُرَبّي الإنسان على نور الوحي، وتُعلِّمه كيف يسير في دروب الحياة بنجاح وفلاح.

فالسيرة لا تُقرأ تسليةً ولا ترفًا ثقافيًا، بل تُقرأ بعقلٍ يعقل، وقلبٍ يخشع، ونفسٍ تتهيّأ للعمل والتطبيق.
كم من قارئٍ للسيرة مرّ على مشاهدها، وتأمل أحداثها، لكن لم يتغير في حياته شيء!
ذلك لأنه قرأها بعين المتفرج، لا بعين المتّبع، وتناولها كمعرفةٍ ثقافية، لا كمنهاج إصلاح وتزكية وهداية.

من قرأ السيرة بعقله: أبصر أسرارها، وتجلّت له مقاصدها، وفهم الحكمة من أفعال نبيّها صلى الله عليه وسلم في السلم والحرب، في الحزم واللين، في التدرج والصرامة.
ومن قرأها بقلبه: أُشرب حبّ النبي صلى الله عليه وسلم، وانجذب كيانه لشمائله، وذاب وجدًا عند سيرته، وأحبّه كما لم يحب بشرًا من قبل.
ومن قرأها بنيّة الاتباع: تبدّلت حياته، وصار يسير على نور، ويرى في كل موقف من السيرة دربًا يهديه، ونبراسًا ينير عتمته.

وما أحسن ما قيل :**السيرة حياةٌ تمشي على الأرض، فإن لم تُحْيِك، فلست من أهلها.**

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين أمرنا بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، لا بمجرد معرفته، فقال الله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]**،وقال أيضًا :**﴿فَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨.]**

فإذا لم تكن قراءتنا للسيرة باعثةً على تغييرٍ في السلوك، وتحولٍ في النظر إلى الحياة، وزيادةٍ في الإيمان، وتعظيمٍ لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فإننا لم نقرأها كما أراد الله.

السيرة دعوةٌ لأن نحيا بالإسلام كما عاشه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نكون في زمننا كما كان هو في زمنه: هداةً مهتدين، رحماء بالخلق، رافعين راية الحق في زمن الفتن والمحن.

الفقرة الثالثة: أن نُعلِّم السيرة للأجيال كما نُعلِّم القرآن الكريم

إنّ من أعظم ما يُنشَّأ عليه الجيل، وأشرف ما تُربّى عليه القلوب، أن يُجمَع بين نور القرآن الكريم، وهُدى السيرة النبوية الشريفة؛ فالقرآن هو الوحي المنزّل، والسيرة هي الترجمة الحيّة، والمثال الواقعي الذي تجلّى فيه هذا الوحي في حياة نبيٍّ اختاره الله على علم، وأدّبه فأحسن تأديبه، وزكّاه ظاهراً وباطناً، ثم جعله للناس إمامًا وقدوة.

فكما نحفظ أبناءنا آيات الكتاب المبين، ونُعلِّمهم تفسيره ومعانيه، فلنُعلِّمهم سيرة من نزل عليه هذا الكتاب العظيم، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان القرآن في حياته ليس حروفًا تتلى، بل خُلقًا يُجسَّد، وواقعًا يُعاش، ومنهجًا يُطَبَّق.

ولقد صدقت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خُلُقه صلى الله عليه وسلم، فقالت كلمة تختصر الطريق وتفتح أبواب الفهم" :**كان خُلُقُه القرآن** "رواه مسلم.

فالسيرة النبوية هي القرآن حين يمشي بين الناس، ويعالج مشاكلهم، ويُربّي نفوسهم، ويؤسس المجتمع على تقوى من الله ورضوان.

هي البيان العملي لقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]،
وهي الترجمة النبوية لقوله تعالى:﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وما أَضْيَعَنا إن كان الطفل يحفظ أسماء لاعبي الكرة ولا يحفظ أسماء العشرة المبشرين بالجنة، ويعرف تفاصيل حياة المغني والممثل ولا يعرف شيئًا عن غزوة بدر ولا عن دمعة النبي صلى الله عليه وسلم في أحد ولا عن بكائه حين فقد حمزة أو سعدًا أو زينب.

ما أَضْيَعَنا إن تربّت الأجيال على الفخر ببطولات الملاعب، ولم تُربَّ على فخر الإسلام الأعظم: أن يكون قدوتهم رجلًا اجتمع له الكمال البشري كله، وبلغ في الخلق، والرحمة، والشجاعة، والقيادة، والعبادة، غايات الكمال، إنه محمد صلى الله عليه وسلم.

إن من تمام الأمانة في التربية، وكمال البلاغ في الدعوة، أن نُرسّخ في وجدان أبنائنا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كما نُرسّخ فيهم حروف القرآن، وأن نُشيع في بيوتنا سيرته كما نُشيع فيها ترتيل كتاب الله، فلا تنفصل المعرفة عن الممارسة، ولا العلم عن التطبيق، ولا القرآن عن السيرة.

الفقرة الرابعة: أن نُدافع عن سيرته ، ونردّ عنها سهام الطاعنين والشبهات

ما الطعن في السيرة إلا طعنٌ في جوهر الرسالة، وما التشكيك في هدي النبي صلى الله عليه وسلم إلا طعن في صاحب الشريعة، وفي مصدر النور الذي أنقذ الله به العالم من ظلمات الجهل والضياع.

إن السيرة النبوية ليست مجرد حوادث تاريخية تُروى، بل هي جزء لا يتجزأ من الدين، وهي السياج الذي يحيط بالوحي، والتجسيد العملي لآيات القرآن، والتطبيق الواقعي لشريعة الرحمن.
ومن هنا، فإن الذبَّ عنها، وردَّ الشبهات التي تُثار حولها، ليس ترفًا فكريًا، ولا اجتهادًا شخصيًا، بل هو فرضٌ في أعناق المؤمنين، وواجب شرعيٌّ على من يملك البيان والحُجة، وهو من أعظم صور النصرة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

كم من سهمٍ مسمومٍ رُمي في صدور الشباب عبر باب السيرة!
يطعنون في الغزوات، ويصفونها بالدموية،
ويشككون في سنن النبي صلى الله عليه وسلم، ويصمونها بأنها لا توافق "حقوق الإنسان!"
ويثيرون الشبه حول تعدد زوجاته، أو مواقفه في القتال، أو حُكمه في المنافقين واليهود والمشركين...

ولا يعلم أولئك أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قد طهّرها الله من كل دنس، وحفِظها كما حفِظ كتابه، وأعزّها كما أعزّ دينه.
وكفى بربنا عزّ وجلّ مدافعًا عن نبيّه حيث قال:﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]،
وقال سبحانه:﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

لكن الله جلّ في علاه، وهو القادر على أن يدافع عن نبيه دون حاجة لعبدٍ من عباده، ابتلى هذه الأمة، ليُظهر الصادق في نصرته، ممن خان وخذل، وليُقيم الحُجّة على الخلق في الدفاع عن نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى:
﴿مَّا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فيا أبناء هذا الدين ...كونوا جنودًا في حراسة هذا النور، لا تتركوه لعابثٍ جاهل، أو حاقدٍ موتور، أو مأجورٍ ماكر، بل قفوا على الثغور، وانصبوا رايات الحق، ونافحوا عن سيرة نبيّكم كما تُنافَح الأعراض، وتُدافَع الأوطان.

قال النبي صلى الله عليه وسلم :من ردّ عن عرض أخيه، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة "رواه الترمذي، فكيف بمن يذبّ عن عرض سيّد الخلق، وخاتم الرسل، وقائد الأمة، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؟! ذلك والله من أعظم القربات، وأجزل الحسنات، وأبهى صور الولاء والإيمان.

الفقرة الخامسة: أن نُحيي السيرة في واقعنا وسلوكنا

ليست السيرة النبوية أثرًا نُعلّقه على الجدران، ولا مناسبةً نحتفل بها عامًا بعد عام، ولا فصولًا تُروى في محاضرة أو كتاب ...**بل السيرة حياةٌ يجب أن تُستعاد، ونهجٌ يجب أن يُبعث، وروحٌ يجب أن تُسرى في الأفراد والمجتمعات.**

وإن من أعظم صور الخيانة لها: أن تبقى حبيسة الصفحات، في حين أن الأمة بأمسِّ الحاجة لهديها.
أن نقرأها، نُعجب بها، نُحدّث الناس عنها... ثم لا نُترجمها سلوكًا ولا واقعًا...
تلك خيانة للميراث، وخذلان للأمانة.

فالسيرة لا تُحييها الشعارات، بل تحييها المواقف.
ولا تُصدّقها الحناجر، حتى تُشهد لها الجوارح.

حين يلتزم التاجر بالأمانة، فقد أحيى سيرة محمدٍ الأمين.
وحين تُؤثِر الزوجة رضا زوجها على هوى نفسها، فقد أحيت سيرة خديجة وعائشة.
وحين يُحسن الجار إلى جاره، فقد أحيا وصية خير البشر:
"ما زال جبريل يُوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه."
وحين يُقيم القاضي العدل، ويُغلق باب الرشوة، فقد سار على خُطا عمر بن الخطاب.
وحين يصبر المظلوم، ويثبت الداعية، ويصدق المصلح، فقد أحيوا طريق الصدّيق والفاروق وآل ياسر.

إن السيرة ليست كلمات تُردّد، بل سلوك يُجسَّد.
وكل مسلم، في أي موقع كان، هو مسؤول عن إحياء السيرة في مجاله.

في الإعلام؟ اجعل رسالتك كرسالة النبي: تربية وهداية.
في الاقتصاد؟ اجعل تجارتك على خُلق، وميزانك بالحق.
في التعليم؟ علِّم كما علّم رسول الله: بالرفق، والحكمة، والرحمة.
في البيت؟ اجعل حياتك آيةً في العدل، واللين، والمودة.

فما أحوج الأمة اليوم إلى السيرة حيّةً تتحرّك في الشوارع، تُنطَق في الأسواق، تُرى في المعاملات، وتُجسَّد في القلوب والسلوك.
هكذا تُبعث السيرة من جديد، لا بالاحتفاء العابر، بل بالاحتداء الدائم

الفقرة السادسة أن نجعل السيرة مصدرًا لوحدة الأمة ونهضتها

لم يجتمع المسلمون يومًا على أحد كما اجتمعوا على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، لا يُذكر اسمه في شرق الأرض أو غربها إلا ارتجفت القلوب حبًا، وتلهّفت الأرواح شوقًا.

فهل يُعقل أن يتّحدوا خلفه أحياءً، ثم يتفرقوا من بعده أمواتًا؟!
وهل من المنطق أن نسير خلف نوره، ثم نُطفئه باختلافاتنا وتنازعنا؟!

السيرة النبوية ليست تراث طائفة، ولا حكرًا على مدرسة فكرية، بل هي نبعٌ صافٍ، **يجمع المذاهب، ويوحّد القلوب، ويختزل الخلاف، لأنها تمثّل الأصل المشترك الذي لا يختلف عليه اثنان من هذه الأمة.**

إننا حين نعود إلى السيرة، نعود إلى النقطة التي انطلقت منها أمتنا:
إلى **الغار**، حيث بدأت الخلوة بالتوحيد.
إلى **الدار**، حيث كانت التربية على عين النبوة.
إلى **المحراب**، حيث تتنزل الآيات.
وإلى **الميدان**، حيث كان الفعل قبل القول، والعمل قبل الشعارات.

لا يمكن لأمة أن تنهض بلا قدوة، ولا أن تتوحّد بلا إمام،
وقد جمع الله لنا القدوة والإمامة، والنور والرحمة، في محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى :﴿**لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة**﴾ **[الأحزاب: ٢١]**
فمن ضلّ عن الأسوة، ضلّ عن الوحدة، ومن تنكّب عن السيرة، تنكّب عن النهضة.

فلنُعد الأمة إلى أصلها، إلى سيرة نبيها، إلى النور الذي لم يخفت، والمَعين الذي لا ينضب.
وحينها فقط، سنلتقي... مهما تفرقت الطرق، عند محمد صلى الله عليه وسلم.

.

الفصل الثاني

من ظلال التمهيد إلى شمس الإعلان

مدخل

ها نحن نطوي بساط الزمن، لنخطو إلى الظلال الأولى التي سبقت ميلاد النور، حيث كانت الأرض تئن من جور الظلمة، والسماء تتهيأ لإرسال آخر أنفاس الوحي.

في هذا الفصل، نُطل على زمن لم يكن عاديًا؛ بل كان تاريخًا يُنسج في الخفاء، حيث تتحرك المقادير في صمت، وتتهيأ النفوس، وتتشكل الأحداث، ليولد في مكة طفل، لكنه ليس ككل الأطفال، بل **هو دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، وخاتمة الرسالات**.

من ميلاده صلى الله عليه وسلم، مرورًا بصباه، فشبابه، إلى لحظة الوحي المهيبة، ثم الجهر بالدعوة، والمواجهة، والأذى، والهجرة...

نعيش هنا في ظلال التمهيد الطويل، والإعلان العظيم، حيث تتجلى لنا عناية الله في التفاصيل، ويتضح أن النبوة لا تأتي بغتة، وإنما تسبقها سنن، وتُهيَّأ لها قلوب وأماكن وأزمنة.

هنا، نتتبع خطى النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها، في تمهيدٍ قرآنيٍ دقيق، وإعدادٍ ربانيٍ بديع، حتى تشرق شمس النبوة على أرض طال ليلها، وتعلن السماء:

أن قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين.

الباب الأول الأرض تنتظر – ضياع النبوات وغياب الهداية

مقدمة

قبل أن يُبعث محمدٌ صلى الله عليه وسلم، كانت الأرض تموج في ظلامٍ كثيف، جهلٍ مطبق، وانحرافٍ عام، وتيهٍ طال حتى تعب التائهون.

انطفأت مصابيح النبوات، وغاب عن العالم صوت السماء، وتقطّعت سُبل الهداية بين الأمم، فما بقي للناس من نورٍ يسيرون به، ولا من نبعٍ يروون منه عطش أرواحهم.

لقد طال ليل الجاهلية حتى تصور الناس أن السماء قد هجرت الأرض، وأن الوحي قد انقطع إلى الأبد، وأن الرحمة لن تتنزل من جديد.

كان العالم كله – بشرقه وغربه، عربه وعجمه – يتخبط بين عبادة الأوثان، وظلم الملوك، وضلالات الكهان، وانحراف الكتب السابقة.

وكانت البشرية في أشد الحاجة إلى رسالة جديدة، تحيي ما مات، وتصحح ما انحرف، وتُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وهنا، تُطلّ السيرة النبوية لتجيب عن هذا النداء، وتروي للعالم قصة البعثة التي انتظرها التاريخ، وبشر بها كل نبي، وتاقت إليها الأرواح، فكان مولد الهادي رحمةً للعالمين، وخاتمًا لسلسلة النور والهدى.

في هذا الباب، نعود إلى ما قبل البعثة، لنفهم مشهد العالم حين غابت النبوات، ونقدّر عظمة الرسالة بقدر ما ندرك عمق التيه قبلها.

الفقرة الأولى: الأرض تنتظر – ضياع النبوات وغياب الهداية

في لحظة من لحظات التاريخ الثقيلة، خفتت أنفاس النبوات، وسكت صوت السماء، وخيم على الأرض ليلٌ طويل لا تنيره نجومُ العلم، ولا تدفئه نارُ الفطرة، ولا يخرقه نداء من وحيٍ أو كتاب.

كانت البشرية تائهة، تتخبط في دروب الجهالة، تمشي بلا هدى، وتبحث بلا دليل، وتعبد بلا بصيرة. في فارس والروم، عظمت الدول وضاعت القيم، أباطرة يتألهون على رقاب الشعوب، وكنائس تتاجر بالمغفرة، وأنظمة تسحق الضعفاء تحت أقدام الطبقية، وتوأد إنسانية الإنسان باسم الحق الإلهي أو الملكي.

وفي الهند، غاص الناس في أوحال الخرافة، وخرّوا سجّدًا أمام بقرة لا تعقل، ونسجوا حولها أساطير تقدّسها وتُحقر الإنسان، فأُغلق باب العدل، وانطفأت شمعة الرحمة، وجُعل الناس طبقات لا يعلو منها أحد، ولا يُغفر فيها ذنب، ولا يُقام فيها ميزان. أما العرب، فكانوا في صحراء القلوب قبل صحراء الرمال، أوثان تُعبد من دون الله، وربا يسحق المحتاج، وأنثى تُدفن حيّة، ورَحِم يُقطع، وحروب تنشب لأتفه الأسباب ثم لا تخمد إلا لتشتعل من جديد. أمة مقطوعة من شجرة النبوة، مشرّدة عن دروب الرسالة، لا كتاب لها، ولا وحي يهديها، ولا نبيّ ينير ظلمتها.

لقد طُمِست معالم النور، ومُزّقت بقايا الرسالات، وذُبحت الفضيلة على مذبح الهوى، وسُفكت الكرامة قربانًا للغرائز، وانحنت الجباه للتراب والحجر والبشر. وفي عمق هذا الظلام، كانت هناك صرخة خفيّة في قلوب الصادقين، لا يسمعها الناس، لكنها تصعد إلى السماء، صرخة تقول: يا رب، أين النور؟ أين من يرفع عن الأرض هذه الغشاوة؟ من يوقظ المدى بنداء التوحيد؟ من يعيد ميزان العدل والرحمة؟ من يأخذ بأيدينا من ضيق الشهوة إلى فسحة الهداية؟

لقد كانت الأرض تنتظر، تنتظر أن تمطر السماء بوحي جديد، وأن تُبعث الرحمة من جديد، وأن يُبعث في الناس نبي جديد، نبي يُخرِجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، إلى صراط العزيز الحميد، نبي يُعيد للإنسان إنسانيته، ويعيد للعقل رشده، وللقلب طمأنينته، ويعيد للعالم نداء السماء بعدما طال صمته.

الجوانب المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- انقطاع الوحي قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أعظم مظاهر حاجة البشرية للهداية، مما يدل على أن الوحي هو النور الوحيد الذي لا يُستغنى عنه في ظلمات الحياة.
- عبادة البشر للبشر، والحجر، والبقر، دلّت على أن الإنسان إذا تُرك لفطرته دون هداية الوحي، انقلبت موازينه، وضل عن الحق، ولو ظن أنه على هدى.
- ما سُمي بألوهية الأباطرة وحق الملوك الإلهي هو من أعظم صور الشرك التي وقع فيها الناس حين غاب التوحيد، فدل على أن توحيد الله أعظم قوام للعدل والتحرر.
- تساؤل الصادقين في الظلمات عن النور وطلبهم الهداية يدل على أن الفطرة السليمة تبقى حيّة في النفوس، تنتظر من يحييها بالوحي والنبوة.
- إن إرسال الأنبياء رحمة من الله لعباده، فلا يُقيم عدلاً، ولا يُصلح حالًا، إلا من بعثه الله بالنور والهدى، ولا هداية إلا بإذنه سبحانه.
- تضييع الرسالات وتحريفها أو نسيانها سببٌ رئيس لوقوع البشرية في الضلال، مما يوجب شكر الله على حفظه لهذا الدين وبقائه على منهاج النبوة إلى يوم القيامة.
- غياب النبوة عن الأرض يُنتج جهلًا في التوحيد واضطرابًا في ميزان القيم، وفي ذلك ردٌّ على من يُهوّن من شأن بعثة الرسل أو يدّعي إمكان الهداية بدونهم.

فوائد فقهية

- لا عبادة مقبولة عند الله إلا إذا كانت قائمة على بصيرة من كتاب الله أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فما لم يُبْنَ على الوحي فهو مردود.
- لا يجوز التقرب إلى الله بما لم يشرعه، ولو عَظُم في نظر صاحبه، فعبادة البقر والأوثان والخرافات تذل الإنسان وتُخرج العبادات عن معناها الصحيح.
- الفقه الصحيح يُثمر ميزانًا عادلًا في التعامل بين الناس، فإذا فُقدَ العلم بالشرع، ساد الظلم، وانتشرت الطبقية، وتسلّط

القوي على الضعيف.

- لا يُقيم العدلَ في الأرض إلا شريعةٌ من السماء، وهذا أصلٌ في باب الحكم والسياسة الشرعية، أن المرجعية لله وحده، لا للأهواء أو الأنظمة البشرية.
- من أهم وظائف النبوة في الأمة: بيان الحلال والحرام، وإقامة العدل، وتنظيم العلاقات بين الناس، وهذا يؤكد أن كل فراغ في التشريع يُسد بالوحي لا بالهوى.

فوائد أخلاقية وتربوية

- عندما تغيب الهداية، تُسفك الكرامة وتُذبح الفضيلة، فارتباط الأخلاق بالوحي ارتباط وجودي، لا تزدهر القيم إلا في ظلال الإيمان.
- لا قيمة لأي حضارة أو قوة إذا كانت قائمة على الظلم وسحق الضعفاء، فالرقي المادي دون قيم هداية يجعل الإنسان وحشًا بلباس مدني.
- تأليه البشر وتعظيمهم فوق الحق يفسد ضمير الإنسان ويخدّر حسّه الأخلاقي، ولهذا كان التوحيد أساسًا لتحرير النفس من التبعية العمياء.
- إشعال الحروب لأتفه الأسباب، وقطع الأرحام، ووأد البنات، كلها ثمار طبيعية لغياب الرحمة والهداية، مما يُظهر أن التربية على الإيمان تحفظ حقوق الضعفاء.
- الذين يعيشون في ظلمات الشهوة والهوى هم في ضيق حقيقي، وإن تزينت حياتهم بالمظاهر، ولا تُفتح القلوب إلا بنور التوحيد.

فوائد حضارية وتاريخية

- التاريخ الإنساني مرّ بفترات حالكة حين غابت النبوة، وهو درس متكرر يُؤكد أن النهضة لا تقوم إلا على بعث جديد من وحي السماء.
- ما قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يُسمّى "الجاهلية" لا لغياب العلم الدنيوي فقط، بل لغياب النور الرباني، وهو ما يميز الإسلام كمنهج حياة.
- إصلاح البشرية لا يكون بإعادة توزيع السلطة أو المال، بل بإقامة العدل على هدى من الله، إذ لم تُغنِ الدول الكبرى عن شعوبها شيئًا حين غابت الهداية.

مخالفات الواقع

- **عبادة غير الله** لا تزال قائمة اليوم في صور معاصرة، كتعظيم القبور، والطواف بالأضرحة، والاستغاثة بالمخلوقين من دون الله، وكلها من جنس ما فعله أهل الجاهلية الأولى.
- **الفصل بين الدين والحياة**، والسخرية من الوحي أو استبعاده من نظم السياسة والتعليم، هو مما ابتُليت به الأمة اليوم، ويعيد واقع الجاهلية في صورة حديثة.
- **الطبقية والظلم الاجتماعي** لا تزال حاضرة بقوة، في أنظمة تكرّس الامتيازات وتحتقر الفقراء، كما فعلت كنائس العصور المظلمة وأباطرة فارس والروم.
- **انتكاس الفطرة** ظاهر في قبول الناس بأساطير معاصرة وترويج الخرافات باسم "الطاقة" أو "الأبراج" أو "أسرار الكون"، وهي امتداد لما فعله أهل الهند مع البقر.
- **سكوت كثير من الناس عن المنكرات**، وغياب الغيرة على الفضيلة، يشبه حالة الذبح الأخلاقي التي كانت في الجاهلية، حين صارت الفضيلة تُسفك على مذبح الشهوات.
- **تساهل بعض الناس في شأن النبوة والرسالة**، وتقديم العقل على النص في أبواب العقيدة، هو من جنس ما وقعت فيه

الفرق الضالة من تقديم الأهواء على الوحي.

- **التطاول على أحكام الله** والتجرؤ على الطعن في السنة أو شريعة الإسلام بدعوى الحرية الفكرية، هو من أعظم صور الردة الفكرية المعاصرة، ويتشابه مع من مزّقوا بقايا الرسالات.
- **ظهور الفرق المنحرفة** التي تدعو الناس إلى خلاص مزعوم دون حاجة إلى الوحي، أو تروج لمناهج فكرية تُخالف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، كفرق الرفض، والتجهم، والغلو، والحداثة الملحدة.

الفقرة الثانية: العرب... شعب بلا دولة، ولكن يحمل الميراث

لم يكن للعرب في تلك المرحلة دولةٌ تُوَحِّدهم، ولا ملكٌ يجمع كلمتهم، ولا قانونٌ يُنظّم شؤونهم، بل كانوا قبائل متفرقة، متناحرة، كلُّ قبيلة تغني على نارها، وتحتمي بسيفها، وتستعلي على غيرها بأنسابها وعددها، فلا عهد يجمعهم، ولا قيادة تُؤلّف قلوبهم، ولا مؤسسات تُقيم فيهم عدلًا أو تحفظ لهم حقًّا.

كانت السيادة لمن غلب، والكلمة للأقوى، والحرب تُوقد لأتفه الأسباب، وقد تظل نارها مشتعلة سنينَ طوالًا من أجل ناقة أو سباق أو كلمة.

ومع ذلك، لم يكونوا خواءً من كل فضيلة، ولا فراغًا من كل استعداد، بل كانت فيهم بقايا نور، وشيء من الميراث الذي أهّلهم – بعد حين – لحمل راية الهداية وقيادة العالم. فلغتهم كانت أعذب الألسنة، وأقواها بيانًا، وأغزرها مفردات، وأشدها تماسكًا، لغةٌ نقية لم تختلط بلسان الغزاة، ولم تتبدل بأهواء الملوك، فتهيّأت لتكون الوعاء الذي يحمل الوحي الخاتم، ويحفظ كتاب الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكان في أرضهم البيت الحرام، بيت إبراهيم عليه السلام، وقبلة الأنبياء من قبل، ومهوى أفئدة الحجيج من كل صوب، وقد بقيت له في قلوب العرب مهابة، رغم ما أحاط به من الأصنام، ورغم ما شُوّهت به معالم التوحيد. فظلّ البيت رمزًا موصولًا بالسماء، يحمل في جدرانه صدى دعاء الخليل" *.رب اجعل هذا بلدًا آمنًا، وارزق أهله من الثمرات*"...، ويستبطن وعدًا ربانيًّا بأن يكون لهذه الأرض شأنٌ عظيم، ومقامٌ جليل في تاريخ الإيمان.

ورغم ما ران على عقولهم من جهل، وما تفشّى فيهم من عادات جاهلية، إلا أن فطرتهم لم تُطمس كما طُمست في غيرهم. فلم يعرفوا عبادة الملوك، ولا خضعوا لكهنوت سياسي، ولا جعلوا الإنسان إلهًا يُعبد من دون الله. ظلّت فيهم بقايا من الحنيفية السمحة، وبقي في بعضهم توقٌ إلى الحنيفية، وتبرُّم من عبادة الأصنام، ونفور من الشرك. ولذا، فإن العرب – رغم جهلهم – كانوا من أقرب الناس فطرةً إلى استقبال النبوة، وأسرعهم تجاوبًا مع صوت الحق إذا بُعث فيهم نبي.

لقد كانوا بلا دولة، لكنهم لم يكونوا بلا أهلية، وكانوا بلا نظام، لكنهم لم يكونوا بلا استعداد، وكان فيهم من المؤهلات ما لا تملكه أعظم الإمبراطوريات :الحرية من سلطان الكهنة، ونقاء الفطرة، وصفاء اللسان، ووجود البيت الحرام في أرضهم، وكلها إشارات إلى أنهم كانوا، وإن بدا عليهم الشتات، أقرب الأمم لتلقي الرسالة الخاتمة، إذا أذن الله بانبلاج النور.

الفوائد والعِبر المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- لا يكون الاصطفاء الإلهي عبثًا، فاختيار العرب لحمل الرسالة كان لحكمة، إذ توفرت فيهم المؤهلات التي أرادها الله

لتلقي الوحي، رغم تخلفهم عن غيرهم ماديًا.

- وجود البيت الحرام في أرضهم قبل البعثة إشارة إلى الربط الوثيق بين تاريخ التوحيد وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، مما يدل على امتداد رسالة الأنبياء ووحدة العقيدة.
- بقاء المهابة لبيت الله الحرام في نفوس العرب رغم الوثنية، يدل على أن الفطرة لا تنطفئ كليًا، وإنما تُشوّه، فإذا جاء الوحي انبعث فيها النور من جديد.
- توق بعض العرب إلى الحنيفية ورفضهم لعبادة الأصنام يؤكد أن التوحيد مركوز في الفطرة، لكن لا يُصان ولا يُهتدى إليه إلا بوحيٍ من الله.
- عدم خضوع العرب لسلطان الكهانة أو تأليه البشر، يُظهر أن الله هيّأ لهم بيئةً نقية من الشرك السياسي والديني المعقّد، تمهيدًا لنزول الرسالة الخاتمة.
- حمل العرب للغة التي نزل بها القرآن وحُفظ بها الدين، دليل على عناية الله بإعداد الوسيلة الحافظة للوحي، فهي معجزة لفظية وعقلية في آنٍ واحد.

فوائد فقهية

- لا يُشترط في الأمة التي تُرسل إليها النبوة أن تكون متقدمة ماديًا أو موحدة سياسيًا، بل الاعتبار بالأهلية الفطرية والاستعداد النفسي لاستقبال الوحي.
- ثبوت كعبة إبراهيم عليه السلام في أرض العرب، وبقاؤها قبلةً للأنبياء، يُشير إلى استمرار مشروعية هذا الموضع الشريف وفضله العظيم قبل الإسلام وبعده.
- وجود الأصنام حول الكعبة لا ينفي قداستها الأصلية، مما يدل على أن الأماكن المقدسة قد تُبتلى بالتحريف، لكنها تبقى محتفظة بقدسيتها إذا طُهِّرت وأُعيد إليها التوحيد.
- معرفة تاريخ العرب قبل الإسلام من الفقه في الدين، لأنه يُعين على فهم عظمة التغيير الذي أحدثه الإسلام، وبيان الفرق بين الجاهلية والهداية.
- الشريعة تُبنى على استعداد القلوب لا على واقع القوة والسيادة، فالعبرة دومًا بقابلية الناس للحق لا بحجم سلطانهم أو قوتهم.

فوائد أخلاقية وتربوية

- تعدد القبائل وتناحرها يُظهر خطورة غياب القيادة الموحدة، والحاجة الدائمة لمرجعية تربط الناس بالحق وتوحد كلمتهم على العدل والرحمة.
- بقاء الحياء من الشرك والتبرم من الأصنام عند بعضهم، دليل على أن النفس السوية تنفر من الظلم، وتشتاق إلى الخضوع لله لا لغيره.
- الفطرة النقية عند العرب ساعدت على سرعة قبولهم للإيمان، مما يؤكد أن صلاح القلوب مقدم على تحصيل العلوم أو الحضارة.
- الاعتداد بالنسب والقوة دون حق يُورث الحقد والشتات، بينما يُصلح المجتمعات التواضع والعدل والتراحم، وهي أخلاق جاء بها الإسلام.
- امتلاك المقومات دون استثمارها يجعل الأمة في موقع الانتظار بدل القيادة، فالأهلية لا تغني عن الفعل إن لم تُقترن بالوحي والمنهج.

فوائد لغوية وبيانية

- لغة العرب كانت من أعظم ما أهّلهم لحمل الرسالة، فهي لغة الإيجاز والبيان والتأثير، مما يدل على عناية الله بأن يكون

للوحي وعاء يُظهر إعجازه.

- صفاء اللغة قبل اختلاطها بالألسنة الأخرى حافظ على طهارة النص القرآني، مما يُبرز أهمية العناية باللغة في فهم الدين ونقل العلم.
- جمال اللسان وبلاغته لا يكفيان إن لم يُسخَّرا لحمل الحق، وإنما تُكرم اللغة إذا خُدمت بها الرسالة، وهذا ما فعله الإسلام بالعربية.

مخالفات الواقع

- كثير من أبناء الأمة اليوم لا يدركون قيمة اللغة العربية، فاستبدلوها بلهجات مائعة أو لغات أعجمية، مما أضعف الفهم للوحي والاعتزاز بالدين.
- نُكست الفطرة عند كثير من الناس فصاروا يُمجدون من يُخالف الوحي، ويحتقرون من يتمسك به، ويظنون أن الدين سبب التخلف لا سبب النهضة.
- سقطت بعض البلاد الإسلامية في صور من الكهنوت العصري، حيث تُؤلَّه الزعامات، وتُحاط بالألقاب والتقديس، كما كان في الأمم التي سبق ضلالها.
- النزاعات القبلية والمناطقية لا تزال تتكرر في صور حزبية أو فئوية، تُمزق جسد الأمة، وتُحيي العصبيات المقيتة التي جاء الإسلام ليطفئها.
- تغافل كثير من المسلمين عن مكانة الكعبة وبيت الله الحرام في حياتهم، فلا يُقدّرونه حق قدره، ولا يربطون أنفسهم بتاريخ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
- تنكّر بعض المنتسبين إلى الأمة لمكانة العرب، إما طعنًا فيهم أو استصغارًا لشأنهم، خلافًا لما دلت عليه النصوص من أن فيهم خصائص أهلية لا تنكر، وهذا التنكر يُشبه مسلك الفرق الشعوبية التي طعنت في قدر الصحابة والعرب.
- ارتضى بعض المنتسبين للعلم أن تكون مرجعياتهم في الفقه والفكر والسياسة من الشرق والغرب، بدلًا من الرجوع إلى الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا من آثار الانبهار بالحضارة دون هدى.
- ظهور فرق غالية تمجد القوة والهيمنة دون اعتبار للهدى، وتدعو إلى نهضة مادية مفصولة عن الوحي، مما يعيد في الأمة جاهلية جديدة بثوب عصري، كحال الخوارج الجدد ودعاة التغريب.

الفقرة الثالثة :قريش – القبيلة المُصطفاة لحمل آخر رسالة

ما كانت النبوّة لتُرسل جزافًا، ولا الرسالة لتُنزّل عشوائيًّا، وإنما هي حكمةٌ ربّانية، تصطفّي من الخَلق أطهرهم، ومن البيئات أنسبها، ومن الأماكن أشرفها، لحمل خاتمة الوحي إلى العالمين.

فاصطفى الله من بني آدم نسلَ إسماعيل، ومن نسل إسماعيل كنانة، ومن كنانة قريشًا، ومن قريش بني هاشم، ومن بني هاشم عبد الله بن عبد المطلب، ثم اختار من عبد الله خاتم النبيين، محمدًا صلى الله عليه وسلم.

فكان اجتماع المجد في رجلٍ واحد :شرف النبوة، وعظمة النسب، وسموّ المكان.

وكانت قريش – قبل الإسلام – سيدة العرب ومهوى القلوب، لا لأنها كانت تحمل كتابًا سماويًّا، ولكن لأن الله هيّأها لحمل الرسالة بما خصّها به من مزايا.

فقد سكَنوا مكة، وكان فيهم البيت الحرام، وفيهم السدانة، والسقاية، والرفادة، وارتبطوا بطرق التجارة والحج، فصارت لهم زعامة في الحجاز، وسيادة في العقول والقلوب.

حجّوا وطافوا، وعظّموا الأشهر الحرم، وتمسّكوا ببقايا من دين إبراهيم، وإن خالطها الشرك والضلال.
فلم يكن لهم نبي، ولا كتاب، بل كانوا على موعد مع النور، ينتظرون الخاتمة، ويتهيّؤون – دون أن يشعروا – لقدومها.

فجاءهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم، ليُتمّ الله عليهم النعمة، ويختم بهم الرسالات،
ويجمع لقريش المجد كله :مجد النسب، ومجد الوحي، ومجد الهداية للعالمين.

قال النبي صلى الله عليه وسلم» :إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم – «رواه مسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الاصطفاء سنّة ربانية جارية باختيار الله لأطهر الأنساب وأشرف البيئات لحمل الوحي؛ فاختياره لقريش ثم لبني هاشم ثم لمحمد صلى الله عليه وسلم يدل على حكمةٍ وتقديرٍ سابق لا عشوائية فيه.
- الشرف الحقيقي هو شرف الدين والاتباع، والنسَبُ إنما يَكمُل بالإيمان والعمل؛ فاجتماع المجد في النبي صلى الله عليه وسلم جمعٌ بين النسب والوحي لا بين النسب وحده.
- الاصطفاء لا يقتضي الألوهية ولا يرفع التكليف؛ فالمصطفى عبدٌ رسول، والقبيلة المختارة مكلَّفة بخدمة التوحيد لا معصومة من الخطأ.
- تعظيم البيت الحرام والأشهر الحرم من بقايا دين إبراهيم كان تمهيدًا للتوحيد الخالص؛ ما يدل على بقاء آثار الفطرة في الأمم لتكون جسراً إلى الحق.
- ختمُ النبوة بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم يقرر كمال الدين وتمام الحجة، وأن الهداية بعده بطريق الاتباع لا بطريق وحيٍ جديد.
- سيادة قريش قبل الإسلام كانت تهيئةً لقدرتها على تبليغ الرسالة بعد الإسلام؛ فالله يسوق الأسباب قبل المقاصد.
- اختيارُ مكة موطنًا للوحي لما لها من أمنٍ ومكانةٍ وقلوبٍ تهوي إليها، دليلٌ على ارتباط العقيدة بمقاصد حفظ الدين والنفس والنسل والمال.
- الحديث الصحيح: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (رواه مسلم) أصلٌ عقديٌّ في باب الاصطفاء الرباني.

فوائد فقهية

- ثبوت الفضائل والخصائص إنما يكون بالنص الصحيح؛ فلا يُثبت لقبيلةٍ أو نسبٍ حكمٌ شرعيٌّ زائدٌ إلا بدليل معتبر.
- الأصل في أحكام الشريعة العموم والعدل؛ فلا يُفرَّق بين الناس في الحقوق والواجبات لمجرّد النسب أو البلد.

- تعظيم الحرم والأشهر الحرم عبادةٌ شرعية تُؤخذ من الوحي، لا من عادات الجاهلية إذا خالفت الحق.
- يُستفاد من النص ضبطُ ألفاظ الفضائل؛ فالإضافة إلى قريش أو بني هاشم فضيلةٌ شرعية لا تُنشئ حقوقًا دنيوية بغير برهان.
- كل فضيلة نسبٍ تُطلب معها أعمالٌ تُصَدِّقها؛ فمن ادعى فضيلةً بلا عمل لم يترتب عليها حكمٌ نافذ.
- باب المناقب بابٌ تعبدي، يُروى فيه الصحيح والثابت، ويُحذر فيه من الضعيف والغلو والتوسع بغير دليل.

فوائد أخلاقية

- النسبُ الشريف يورث صاحبه تواضعًا وخشية، لا كِبرًا واستطالة؛ فهذا خُلق حملته قريش حين شُرِّفوا بالوحي.
- شكر النعمة يكون بخدمة الدين لا بالافتخار؛ فخير الشكر تحويل الشرف إلى نفعٍ وهداية.
- الاعتراف بالفضل لأهله خُلقٌ نبوي، وهو أدعى لجمع القلوب على الحق.
- تركُ العصبية والحمية الجاهلية خُلقٌ لازمٌ مع تذكّر الاصطفاء؛ فالعصبية تُفسد ما تُصلحه النعمة.
- التوازن بين الاعتزاز بالدين ولين الجانب للخلق سمتٌ أخلاقيٌّ لازم لحَمَلة الرسالة.
- الإنصاف في ذكر التاريخ والقبائل خُلقٌ يمنع التنازع ويصون الحقوق.

فوائد سلوكية

- طريق الانتساب لخير هذه الأمة إنما هو الاتباع العملي لسنة النبي صلى الله عليه وسلم لا الادعاء اللساني.
- تحويلُ المكانة إلى خدمةٍ يوميةٍ للدين سلوكٌ تعبدي يزكّي النفس ويبارك الجهد.
- لزوم الجماعة والسمع والطاعة في المعروف من مقتضيات حمل الرسالة.
- تعاهد القلب على الإخلاص عند الحديث عن الفضائل سلوكٌ يحفظ العمل من الرياء.
- التفكّر في حكمة التهيئة الإلهية يزيد اليقين ويقود إلى الصبر على مراحل التغيير.
- ملازمة العلم الصحيح قبل القول والعمل منهجٌ سلوكيٌّ يحفظ من الانحراف.

فوائد سياسية وعسكرية

- تسخير المكانة القبلية والاقتصادية (الحرم، الرحلتان) لخدمة المقاصد العليا نموذجٌ لبناء القوة قبل التكليف.
- الشرعية في الإسلام تُبنى على الوحي والعدل لا على العصبية؛ فالمجد القرشي اكتمل بالرسالة لا بالقبيلة.
- مركزية مكة الدينية صنعت مركزيةً سياسيةً لاحقًا؛ فالمعنوي يسبق المادي في مشروع النهضة.
- إعدادُ البيئة الحاضنة للدعوة (أمنُ الحرم، احترامُ الأشهر الحرم) جزءٌ من استراتيجية الانتشار.
- توحيدُ الكلمة تحت راية الوحي حسم صراعات العرب الداخلية ووجّه الطاقة إلى البلاغ للعالمين.

- استثمارُ الشبكات التجارية والطرق الموسمية رافعةٌ لنشر الرسالة بوسائل سلمية قبل السيف.
- التفريق بين الزعامة الجاهلية والقيادة الشرعية ضرورةٌ تمنع تحويل العصبية إلى مصدر فتنة.

فوائد إدارية وقيادية

- الاختيار الإلهي يُبرز مبدأ "وضع الرجل المناسب في المكان المناسب": صفاء السيرة، قوة التأثير، شرف المقصد.
- بناء السمعة المؤسسية (السقاية، الرفادة، خدمة البيت) قبل الرسالة أسّس لقبول القيادة بعد الرسالة.
- وضوح الهوية والرسالة يحوّل الموارد المبعثرة إلى مشروع واحد ذي أثر.
- الاعتناء بالبنية التحتية للثقة (الأمان، الصدق، الوفاء) قبل إطلاق الرسالة درسٌ إداريٌّ سابق للوحي.
- القيادة تجمع بين الرمز والقيمة؛ فلا تكفي اللافتات دون محتوى من عدل ورحمة.
- التدرّج سنةٌ قيادية: تهيئة ثم بلاغ ثم تمكين، بلا استعجال ولا فوضى.

فوائد اجتماعية

- رابطة الإيمان تُهذِّب الانتماء القبلي؛ فتحفظ المجتمع من التعصب وتحوّل النسب إلى خدمةٍ للصالح العام.
- تقديرُ الفضائل المشتركة يجمع الكلمة ويُقلّل الشقاق بين المكوّنات الاجتماعية.
- الحفاظ على حرمة الحرم والأشهر الحرم يصنع ثقافةَ سلمٍ داخلي تُهيئ لازدهار الدعوة.
- تحويل المواسم (حجًّا وتجارة) إلى منصات للتعارف على الحق يوسّع قاعدة المجتمع المؤمن.
- احترام العهود والأعراف الصحيحة يرسّخ السلم الأهلي ويُقوّي النسيج الاجتماعي.
- الوعي بأن الشرف بلا أخلاق يُنتج طبقيةً مرفوضة، وبالأخلاق يصير الشرفُ نافعًا للأمة.

فوائد نفسية

- اليقين بحكمة الله في الاصطفاء يورث طمأنينةً ويزيل شعورَ النقص أو الغيرة بين الشعوب.
- الاعتزاز المشروع يوازن بين كرامة الانتماء وتواضع العبودية.
- استحضار الخاتمية يضع حدًّا لقلق التيه ويثبّت الهوية على منهج الاتباع.
- التفكّر في التمهيد الإلهي يربّي النفس على الصبر المرحلي لا الاستعجال.
- ربطُ الشرف بخدمة الحق يعالج داءَ التفاخر ويبعث دافع الإنجاز.

فوائد تاريخية وحضارية

- قيام قريش على السقاية والرفادة والسدانة إرهاصٌ حضاري لخدمة مقصدٍ أعلى هو تبليغ الرسالة.
- موقع مكة وتقاطُع طرق التجارة جعلاها عقدة اتصال حضاري؛ فانتقلت الرسالة سريعًا عبر شبكاتٍ قائمة.
- بقايا الحنيفية عند العرب دليلٌ على رسوخ الفطرة وإمكان إحيائها بالوحي.

- انتقال القيادة من العصبية إلى الرسالة نقطةُ انعطافٍ في تاريخ المنطقة.
- ختم الرسالات بمكة وبالعربية ربط الرسالة بوعاءٍ حضاريٍّ صالحٍ للبقاء والانتشار.
- الحديث الصحيح في الاصطفاء تأريخٌ نبويٌّ موجز لسلسلة النسب والمجد الممهِّد للبعثة.

مخالفات الواقع لنص الفقرة

- تحويل الحديث عن الاصطفاء إلى عصبيةٍ عِرقية أو محلية تُقَدَّم على رابطة الدين، مع أن النص يُقَرِّر فضلَ الاتباع لا لونَ الدم.
- الغلو في الأنساب والانتسابات، وادعاء مزايا شرعية لمجرّد النسب، مع إهمال العمل والاتباع.
- اتخاذ الفضائل ذريعةً لاحتقار المخالف أو تنقُّصِ الشعوب الأخرى، فينقلب الشكرُ كِبرًا يُمقِتُه الشرع.
- قراءة التاريخ لِصناعة صراعاتٍ معاصرة، بدل تحويله إلى رصيد وحدةٍ ونفعٍ للأمة.
- التعصبُ القومي والقَبَلي الذي يبدّل معيار الكرامة من التقوى إلى الراية واللون.
- رفع شعارات "الهوية" مع ترك الفرائض والسنن، فيصير الشعارُ ستارًا لفراغٍ ديني.
- التوسّع في مناقب لا تثبت بدليلٍ صحيح، وبناءُ أحكامٍ ومواقف عليها؛ وهذا من أسباب الفتن.
- إنكارُ ختم النبوة عمليًّا بدعوى "تجديد رسالة" أو "وحيٍ معاصر"، وهي دعوى باطلة تُنكرها النصوص وتَصدُّ عنها عقيدةُ أهل السنة.
- التعلّقُ بالألقاب والأنساب لطلب مناصب وامتيازات، مع تعطيل معيار الكفاءة والأمانة.
- تقليدُ رواسب الجاهلية في تقديس المواسم بلا توحيدٍ ولا عبادةٍ صحيحة، فتصير الشعائرُ عاداتٍ فارغة.
- استيرادُ مناهج فكرية تُذيب الخصوصية الإسلامية تحت عناوين "الكونية"، فتسوّي بين الحق والباطل.
- سرعةُ بعض الناس إلى الطعن في خيار الصحابة وقرابات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مسلك تُنكره نصوص الشرع ومنهج أهل السنة، وقد سلكت الخوارجُ أمثالَه في تاريخ الأمة.
- جعلُ نصوص الفضائل مطيّةً لإثارة العامة على ولاة الأمر بالطعن الإجمالي؛ والواجبُ حمل النصوص على معانيها الشرعية، والنصحُ بضوابطه، واجتنابُ الفتن.
- ادعاءُ "التمكين بالهوية" دون إعدادٍ علميٍّ وخلقيٍّ ومؤسسي، خلاف سنن الله في التمكين.
- ظنُّ أن المكان وحده يصنع المجد، مع إهمال صناعة الإنسان المتّبع للحق.
- خلطُ الولاء للدين بولاءاتٍ حزبيةٍ تُشبه العصبيات، فتُفتّت الصف وتُعطّل مقصد البلاغ للعالمين

الفقرة الرابعة :البيت الحرام – مركز النور ومهوى القلوب

لم يكن في الأرض مكان تشرئبّ إليه الأعناق، وتتطلع إليه الأرواح، وترتفع نحوه أعين القلوب، كما ترتفع نحو **البيت الحرام**.

ذلك البيت الذي جعله الله أول بيت وُضع للناس، فكان مبدأ الرحلة الإيمانية في الأرض، وبداية إشعاع الهداية للبشرية.

بناه الخليل إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل بأمر الله، فجاء من الطين والحجارة، لا من الذهب والفضة، لكنه شامخ بقداسته، عظيم ببركته، جليل بما أودعه الله فيه من أسرار العبودية ومهابة التقديس.

شاء الله أن يُبنى هذا البيت في صحراء قاحلة، لا زرع فيها ولا ماء، لا أنهار تجري، ولا قصور تُشيَّد، ولا ملوك يُعبدون، فجُعل في موضعٍ لا يملكه جبار، ولا تُنَصَّب فيه تماثيل الطغاة، ولا تُعلَّق فيه أعلام الأباطرة، بل يُعلَّق فيه القلب بخالقه وحده، ويُرفع فيه التهليل والتكبير، دون شِركٍ أو تمجيدٍ لبشر.

ومع قساوة الطبيعة وشظف العيش، كان الناس يأتونه من كل فجّ عميق، حفاة أو ركبانًا، أغنياء أو فقراء، تُحرّكهم نداء الفطرة، وتشدّهم أواصر العقيدة، لا زخرف الحضارة.

وكانت مكة تحظى بمكانة رفيعة بين العرب: لا يُسفك فيها دم، ولا يُقطع طريق، ولا يُنتهك عرض، فكانوا يُجلّونها تعظيمًا لما فيها من هذا البيت.

فأراد الله - سبحانه وتعالى - أن يكون هذا الموضع الجليل هو مهد النبوة الخاتمة، ومهبط الوحي الأخير، والمنطلق الأول لأعظم دعوة شهدتها البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

الفوائد المستخلصة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية

- البيت الحرام هو أول بيت وُضع لعبادة الله في الأرض، مما يدل على أن التوحيد كان أصل الرسالات منذ أول الزمان، وأن العبادة الصحيحة لا تقوم إلا على مكانٍ شرّفه الله وخصّه بوحيه.
- بناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام بأمر من الله عز وجل يدل على أن التقديس الحقيقي لا يكون للمباني ذاتها، بل لما اختصه الله من أمكنة بوحيه وعبادته.
- اختيار الله لموضعٍ خالٍ من مظاهر الملك والسلطان ليكون فيه بيته المحرم، فيه إبطال لكل صور الشرك السياسي والديني، وتأكيد أن المهابة للرب وحده لا لسواه.
- كون البيت الحرام مباركًا وهدًى للعالمين بنص القرآن، يثبت أنه ليس للعرب فقط، بل هو ميراث إيماني عالمي، يُقصده الموحدون من كل أمة وجنس.
- عدم وجود ملوك يُعبدون أو طغاة يُمجدون حول البيت الحرام، يؤكد أن الإسلام جاء ليقطع كل وسائط التأليه البشري، ويغرس التعلق بالله وحده.
- جعل الله من مكة مهدًا للنبوة الخاتمة، فيه بيان أن الدين الخاتم لا بد أن ينطلق من مركزٍ طاهر، لا تحكمه الأهواء، ولا تعبث به أيدي البشر.
- إجلال العرب للبيت الحرام قبل الإسلام، وامتناعهم عن القتال فيه، دليل على بقاء آثار التقديس الفطري لهذا الموضع، وإن كانوا على شرك وضلال، وفي ذلك شاهد على بقاء الفطرة.

فوائد فقهية

- تعظيم البيت الحرام من شعائر الله، وهو واجب شرعي، يُعد من التقوى، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].
- في الآية الكريمة إثبات أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس، وهو ما يُستدل به في أولوية مكة على سائر البقاع، حتى على المسجد الأقصى في التشريف.
- لا يجوز القتال في الحرم ولا سفك الدم فيه، وهو من خصائص الحرم المكي، وهو حكم ثابت قبل الإسلام وأقره

الإسلام وبيّن أحكامه وحدوده.

- شدّ الناس إلى البيت الحرام رغم قسوة الصحراء يُظهر فقه العبودية الحقيقي، إذ العبادة لا تُقاس بالراحة والرفاه، بل بتعلق القلب بالله.
- البيت الحرام وُضع للناس كلهم، لا يُحتكر لقوم دون قوم، وفي ذلك دليل على عالمية الشريعة، وأن مناسك الحج فريضة دولية للموحدين كافة.

فوائد أخلاقية وتربوية

- اختيار الله لموضع فقير في الطبيعة ليجعل فيه بيته الحرام يُعلّمنا أن الكرامة لا تُقاس بالمظاهر، وإنما بعظمة المعنى وقرب القلب من السماء.
- تكريم مكة بمنع الظلم فيها حتى في الجاهلية يُبين أن بعض القيم الأخلاقية تُحترم حتى في أزمنة الانحراف، وأن الفطرة تنفر من العدوان خصوصًا على حرمات الله.
- تقاطر الناس على البيت الحرام دون دعايات ولا إغراءات حضارية، يدل على قوة الجذب الإيماني إذا صدق القلب في طلب الله.
- إجماع الناس على احترام البيت، رغم اختلاف قبائلهم وأوضاعهم، يعلّم الأمة أن وحدة العقيدة قادرة على جمع المتفرقين، ولو اختلفت طباعهم وألسنتهم.
- احترام المواضع المقدسة يولد في النفس المهابة والسكينة، ويربّيها على التواضع لله، والإحساس بعظمة الوحي وشرف الانتماء إليه.

فوائد دعوية وحضارية

- مركزية البيت الحرام في الدعوة الخاتمة تدل على أن بناء الأمة يبدأ من موضع الإيمان لا من موضع السلطة، ومن مركز التوحيد لا من محور القوة الدنيوية.
- انبعاث النور من موضع بسيط في الجغرافيا يؤكد أن الحضارات تُبنى على القيم لا على الزينة، وعلى الرسالة لا على المباني.
- كون البيت الحرام مهوى القلوب يثبت أن الدين له بعد روحي عالمي، يفوق المصالح الوقتية ويشد النفوس إلى معنى سامٍ لا يُقاس بالذهب ولا العمران.

مخالفات الواقع

- تهاون بعض المسلمين في تعظيم البيت الحرام، وتحويل قصد الحج والعمرة إلى سياحة أو تصوير، مما يُفرغ العبادة من روحها، ويسيء إلى قدسية الشعائر.
- انشغال بعض الحجاج والمعتمرين بالمظاهر والتصوير والهواتف داخل الحرم، يدل على غياب تعظيم شعائر الله من القلوب، وهو خلاف ما أراده الله من زيارة بيته.
- ظهور بعض المناهج الفكرية التي ترى أن البيت الحرام لا يتميز عن غيره من البقاع، بدعوى كونية الدين، وهذا طعن في نصوص القرآن وتزييف لأصول العقيدة.
- التوسّع المادي حول الحرم دون مراعاة للسكينة والمهابة يُشوّه بعض معاني العبودية، ويحوّل مركز التوحيد إلى مركز جذب دنيوي فقط، وهو خطر يحتاج إلى وقفة.
- وجود أصوات منحرفة ترى أن التوحيد ليس شرطًا لزيارة الحرم، وتُجيز أداء الشعائر لمن لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا من أقوال الفرق الضالة التي تبطّن طعنًا في ختم الرسالة.
- ضعف ارتباط كثير من أبناء الأمة اليوم بالبيت الحرام، وعدم إدراكهم لمكانته في العقيدة، مما جعلهم لا يتألمون

لحرماته إذا انتُهكت، ولا يغارون عليه كما يغارون على أمور دنياهم.

- غلبة الاعتزاز بالحضارات الزائفة عند بعض المثقفين، والتقليل من قدسية الحرم بدعوى أنه مجرد موروث عربي، وهذا من آثار الفكر التغريبي المائل إلى طمس معالم الدين.

الفقرة الخامسة :زمزم – الماء المبارك في الأرض المباركة

في أرضٍ جرداء، لا زرع فيها ولا نهر، انبثق فجأةً ماءُ الحياة، كرامةً لهاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، فإذا بالفرج ينفجر من تحت قدمي طفل، وبالثقة تُثمر المعجزة، وإذا بالبشرية تتعلّم أن **من توكل على الله كفاه، ومن رجاه لم يخيّبه**.

زمزم ليس مجرّد ماء، بل **آيةٌ ناطقة، ورحمةٌ جارية، وتاريخٌ نابع من الإيمان**.

زمزم ماءٌ يروي العطش، ويشبع الجائع، ويغسل الأرواح من ظمأ التعلّق بالمخلوق، ويصبُّ فيها برد اليقين بالله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« **:ماء زمزم لما شُرب له** – «رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

وعلى مدى قرون، كانت **زمزم شريان الحياة** في وادٍ لا زرع فيه، ومورِدًا لا ينضب، يروي الحجيج، ويسقي أهل مكة،

حتى صار هذا الماء المبارك مقصدًا للمحبّين، يُحمَل إليه الشوق من كل فجٍّ عميق، وتُروى عنده القلوب قبل الأجساد.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية:

- إثبات قدرة الله المطلقة على خرق السنن الكونية، كما فجّر الماء من صخر في وادٍ لا زرع فيه، وهذا من دلائل اسمه *القدير*.
- أن الله سبحانه يُكرم أولياءه ويستجيب لدعائهم، كما أكرم هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، فهذه الكرامات تُثبت أن الله يجيب المضطر إذا دعاه.
- زمزم آية من آيات الله الباقية، تُثبت أن الإيمان بالغيب أصلٌ من أصول العقيدة، إذ يشربه المؤمن ويُوقن ببركته كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.
- أن الله تعالى يُجري الأسباب الخارقة لمن صدق التوكل عليه، وهذه سنة ربانية ثابتة، توجب على المسلم أن يُعلّق قلبه بربه لا بالأسباب.
- التصديق بخبر النبي صلى الله عليه وسلم حول خصائص ماء زمزم يدخل في باب الإيمان بالغيب، ومن أنكره فقد أنكر خبرًا ثابتًا، وهذا انحراف عقدي.

فوائد فقهية:

- حديث «ماء زمزم لما شُرب له» يُؤخذ منه أن نية الشرب تُؤثّر في حصول البركة، وفيه دليل على مشروعية التوسل بالعمل الصالح، كالشرب بنيّة الشفاء أو العلم أو السقيا.
- يجوز التداوي بماء زمزم، ويُسن شربه عند القدوم إلى مكة، وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يشربه ويقول: اللهم إني

أشربه لما شُرب له.

- في الحديث حثّ على حضور القلب عند شرب ماء زمزم، وهذا يدخل في باب آداب الشرب المقترنة بالنية والدعاء.
- يجوز حمل ماء زمزم من مكة إلى سائر البلاد، كما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم، وكانوا يُهْدونه.
- من السنن المهجورة: الشرب من ماء زمزم قائمًا، واستقبال القبلة، والدعاء بعده، وقد وردت في ذلك آثار عن السلف.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- قصة تفجر زمزم تُعلّم النفس الثقة بالله والتوكل عليه وقت الأزمات، فهاجر عليها السلام لم تسأل الناس، بل نظرت إلى السماء.
- من أعظم صور البر: موقف الأم مع طفلها، فالله كافأها ببركة باقية، مما يُبين أن الأمومة المحاطة بالإيمان تصنع التاريخ.
- زمزم يروّي من قصدها بيقين، ففيه إشارة إلى أن من طرق أبواب السماء بثقة – لا بخور ولا شرك – جاءه الفرج، وهذا منهج السالكين إلى الله.
- ماء زمزم يربي النفس على تعظيم شعائر الله، فالارتواء منه ليس عادة بل عبادة، تُوقظ القلب وتُعمّق صلته بالله.
- السعي بين الصفا والمروة لم يكن عبثًا، بل سعي الأم في سبيل الحياة، فالأخلاق الإيمانية تقتضي بذل الأسباب والرضا بالنتائج.

فوائد دعوية وتربوية:

- الدعوة إلى الله تبدأ من القدوة، وهاجر عليها السلام أصبحت قدوة في التوكل، فالدعاة الحقيقيون لا يُربّون الناس على الصراخ، بل على الصبر والثبات.
- زمزم يُذكّر الدعاة أن النفع الحقيقي ليس في كثرة الأتباع، بل في الأثر الباقي، فبئرٌ واحد بقي أثره آلاف السنين خير من آلاف الكلمات التي تذروها الرياح.
- إشاعة المعجزات الثابتة مثل زمزم تُعزز الإيمان وتُجدد اليقين في النفوس، بخلاف أهل البدع الذين يُشيعون الخرافات باسم الكرامات.
- في زمن المادية، يجب أن نعيد تذكير الناس أن البركة لا تُقاس بالمقاييس الأرضية، فزمزم تُبارك الجسد لأنها باركت قلب الشارب.
- ماء زمزم باب من أبواب الدعوة إلى تصحيح العقيدة، بردّ الناس إلى الاستغاثة بالله وحده، لا بالقبور ولا بالأموات ولا بالطلاسم.

مخالفات الواقع المعاصرة:

- اعتماد بعض الناس على ماء زمزم اعتمادًا سحريًا، دون اعتقاد أن البركة مرهونة بالنية واليقين، وهذا من الغلو المنافي للعقيدة.
- انتشار بدع متعلقة بماء زمزم، كمن يكتبه في ورق ثم يضعه في الماء، ويظن أن ذلك يكفيه عن الرقية الشرعية، وهو من محدثات الصوفية والمتكلمين.
- إهمال بعض الحجاج لشرب ماء زمزم أو احتقاره، وهو من استخفاف الشعائر، وقد قال تعالى :**ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.**
- تساهل كثير من الناس في نسبة الكرامات دون توثيق شرعي، فيدخلون في زمزم ما ليس منه، ويُلبّسون على الناس

باسم الكرامة، وهذا من طريقة الفرق المنحرفة.

- في واقعنا المادي الموبوء بالإلحاد الخفي، يُنكر البعض خصائص زمزم لأنهم لا يُؤمنون بالغيب، ويستبدلون الإيمان بالتجربة، ويُسمون ذلك "العقلانية"، وهذا انحراف عن منهج السلف.
- بعض وسائل الإعلام تسخر من الحديث عن بركة ماء زمزم وتعتبره خرافة، وهي بذلك تسير على خطى الزنادقة الذين كانوا يطعنون في المعجزات.

الفقرة السادسة :حادثة الفيل.. حينما تولّى الربُّ حماية البيت الحرام

في عامٍ جللٍ من أعوام التاريخ، سبق مولد خير الورى محمد صلى الله عليه وسلم، تجلّى مشهدٌ مهيبٌ، سجّله القرآن ووعاه الزمان، حينما ظنّ جبارٌ من جبابرة الأرض أنه قادرٌ على أن يُخضع حرمة الله، ويطأ بيتَه المحرم، ويمحو من قلوب الناس قِبلةً ارتبطت بالسماوات.

ذاك كان أبرهة الأشرم، والي اليمن من قِبل النجاشي، لمّا رأى حج أفواج العرب إلى الكعبة، وقد شيّد كنيسةً عظيمةً في صنعاء، أراد أن يصرف وجوه الحجيج عن بيت الله إلى بنيانه، وأعلن في غرور: "لأهدمنّ هذا البيت حجراً حجراً."

فجمّع جيشًا عظيمًا، تتقدّمه الفيلة، يتقدمها فيلٌ ضخمٌ يُقال له "محمود"، لم يُر مثله في حجمه وقوّته، وكان أبرهة يُراهن عليه لهدم الكعبة، ذلك البيت الذي رفع قواعده إبراهيم الخليل عليه السلام، مع ابنه إسماعيل، ليكون أول بيت وُضع للناس، مباركًا وهدًى للعالمين.

ولما اقترب أبرهة وجيشه من مكة، خرج إليه أهلها على رأسهم عبد المطلب بن هاشم، جدّ النبي صلى الله عليه وسلم، وكان سيّد قريش يومها، فلم يخرجوا للحرب ولا المواجهة، بل سلّموا الأمر إلى الله، وقال عبد المطلب في مشهد يُروى عنه" :**للبيت ربٌّ يحميه."**

وها هو رب البيت يُري خلقه كيف يدافع عن حرمه، بلا سلاحٍ ولا جندٍ من البشر. أرسل عليهم جنودًا من خلقه لا قِبل لهم بها، طيرًا تحمل في مناقيرها حجارةً من طينٍ متحجّرٍ، سجيلٍ محرقة، تنزل عليهم كالرجم من السماء، ترميهم رمياً، فتهلكهم بلا رحمة، وتذرهم هشيماً تذروه الرياح.

قال الله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم وعباده من بعده في سورةٍ كاملة، خُصصت لهذا الحدث العجيب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

لقد كانت هذه الواقعة آيةً باهرة، سطّرها الله في كتابه، وجعلها معجزة ظاهرة، تُذكّر الأجيال أن حرمة بيته لا تُنال، وأن قداسة الكعبة ليست حكرًا على العرب، بل لها ربٌّ يدفع عنها، ويردّ عنها كيد الطغاة مهما بلغ مكرهم وعظم جيشهم.

وقد حفرت هذه الحادثة في قلوب العرب قبل عقولهم، وجعلت من ذلك العام تاريخًا فاصلاً يُعرف بعام الفيل، حتى صار العرب يؤرّخون به، ويحسبون به الأعوام، وتناقلوا خبره جيلًا بعد جيل.

ولقد أراد الله أن يولد نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم في ذات العام، وكأن الحادثة تمهيدٌ لقدوم الرحمة المهداة، والبشير النذير، الذي قال عنه الله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فسبحان من جعل طيورًا صغيرة تُهلك جيوشًا مدججة، ليرى الناس جميعًا أن الأمن لا يُنال بالقوة، وأن العز لا يكون بالكثرة، وإنما هو في معية الله، وفي حفظه ورضاه، ومن توكل عليه فهو حسبه..

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية:

- الله تعالى هو المتفرد بالحفظ والقدرة المطلقة، فقد تولّى سبحانه حماية بيته بنفسه دون أن يُكلِّف أحدًا من خلقه بذلك، مما يثبت وحدانيته في التصرف والتدبير.
- واقعة الفيل تؤكد أن لله جنودًا لا يعلمهم إلا هو، يرسلهم متى شاء وكيف شاء، ومن آمن بهذا لم يغترّ بقوة البشر ولا بأسبابهم.
- الحادثة دليل واضح على أن الله يُجري آياته على مرّ العصور، وأن المعجزات ليست منقطعة بل يقدّرها سبحانه وقت الحاجة.
- قول عبد المطلب: "للبيت رب يحميه" شهادة فطرية بالتوحيد، وإقرار أن الحماية من الله لا من قوة البشر، وهذا من التوحيد العملي الذي يجب أن يُغرس في القلوب.
- في تكرار الخطاب: ﴿ألم ترَ﴾ تنبيه إلى أن ما جرى ليس مجرد قصة، بل آية إلهية ينبغي الإيمان بها والاتعاظ بها، وهذا من أصول الإيمان بالكتب والآيات.
- حادثة الفيل ردٌّ مباشر على كل فرقة تُنكر أن لله تصرفًا في الكون، كالمعتزلة الذين غلّبوا العقل على النقل، أو الجبرية الذين ينفون حكمة الله في أفعاله.

فوائد فقهية:

- لا يجوز تعظيم الكعبة على وجهٍ يجعلها صنمًا، فتعظيمها مشروع من جهة كونها بيت الله لا لذاتها، وهذا ظاهر من نسبة الحماية لله لا لها.
- الواقعة تدل على أن دفع العدوان حقّ مشروع، وأن الله يشرّع للناس أحيانًا التسليم، وأحيانًا الدفاع، بحسب المقام والمصلحة، كما فعل أهل مكة يومها.
- لا يلزم أن يكون في كل موقف جهاد بالسلاح، بل من الفقه ترك المواجهة إذا غلب على الظن أنها لا تجلب إلا الهلكة، وتفويض الأمر لله.
- اتخاذ الناس عام الفيل مرجعًا في التأريخ يُفهم منه مشروعية ضبط الحوادث بالأعوام والأحداث الكبيرة، وهذا أصل في التوثيق والتقويم.
- لا يجوز للولاة أن يستخدموا الشعائر ذريعة للسيطرة، كما فعل أبرهة ببناء الكنيسة وصرف الناس إليها بالقهر، فإن العبادة لا تُفرض بالإكراه.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- من تواضع عبد المطلب وتفويضه لأمر الله نتعلم خُلق التسليم، والثقة بالله في الشدائد، وهو من أعظم أخلاق التوكل.
- الغرور الذي أظهره أبرهة مثال لطغيان القوة حين يُزَيِّن لصاحبها أنه قادر على كسر المحرمات، وفي مصيره عبرة للمستكبرين.

- في هلاك أبرهة وجنوده عبرة لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على حرمات الله، ولو كان في ظاهر الأمر غالبًا، فإن مصيره الهلاك والذل.

- اختيار الله أن يولد نبيّه في عام الفيل إشارة تربوية أن النصر الحقيقي يكون بمقدمات التزكية، لا بالحسابات المادية وحدها.

- في نجاة مكة دون قتال درسٌ في الصبر وانتظار الفرج، فليس كل نصر يُنال بالحرب، بل أحيانًا يكون النصر من حيث لا نحتسب.

فوائد تاريخية وسياقية:

- حادثة الفيل واقعة متفق على تأريخها، وكانت من أشهر الحوادث التي ضبط بها العرب تاريخهم قبل الإسلام، مما يدل على عمق أثرها في الوجدان العربي.

- الربط بين الحادثة ومولد النبي صلى الله عليه وسلم يُعطي بُعدًا قدريًّا لما جاء به من رسالة، كأنها بداية لإعلان مرحلة جديدة في تاريخ البشرية.

- القرآن حين أفرد سورة كاملة لهذا الحدث، أراد تخليده وتثبيته في وجدان المسلمين، ليبقى عبرة لكل جيل يظن أن أعداء الله يفلحون.

مخالفات الواقع:

- غفلة كثير من المسلمين عن أن حماية الدين ليست مرهونة بالقوة الظاهرة فقط، بل بالثقة بالله والتوكل عليه، فيعتمدون على دعم الشرق أو الغرب بدل الاعتماد على الله وحده.

- انتشار مناهج فكرية تُنكر وقوع المعجزات أو تأويلها تأويلاً عقلانيًّا باطلاً، مثل فِرَق أهل الكلام من المعتزلة ومن سار على دربهم، ممن يقول إن الطير الأبابيل رموز أو أوبئة، وهذا ردٌّ لنصوص الوحي.

- محاولة بعض القوميين أو الحداثيين تصوير الكعبة بأنها رمز تراثي لا ديني، والتقليل من شأنها كقبلة للأمة، وهذا يخالف ما قرره القرآن من قدسيتها وحفظ الله لها.

- دعوة بعض دعاة الضلال إلى التعامل مع الغرب الكافر كمصدر للأمان والحماية، بينما حادثة الفيل تقول بلسان الحال: "من كان الله معه فلا غالب له"، فكيف يُستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

- استهانة بعض المفسدين بأمر الشعائر وحرمة الحرم، واستخدام الدين كوسيلة للوصول للسلطة، كحال المبتدعة الذين يتوسلون بشعارات دينية بينما قلوبهم خالية من التوحيد.

- محاولة الفرق المنحرفة تشويه هذا الحدث العظيم وغمط دلالته العقدية، مثل الرافضة الذين يدّعون أن الله لا يتدخل إلا عبر الإمام المعصوم، فيعطّلون بذلك الإيمان بالقدرة المباشرة لله عز وجل.

الفقرة السابعة :عام الفيل.. عام الميلاد والنور والاصطفاء

في عامٍ جللٍ من أعوام التاريخ، عامٍ لم يكن رقمًا في سجل الزمان فحسب، بل كان مشهدًا عظيمًا تتجلى فيه عزة الله وقدرته، وُلد خير من وطئ الثرى، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، النور الذي بزغ في ليل الجاهلية، والبشرى التي طال انتظارها، والرحمة التي عمّت بها الأرض والسماوات.

ذاك العام الذي شاء الله تعالى بحكمته أن يكون ميدانًا لآية باهرة، تُظهر للعالمين كيف يدفع الله عن بيته الكيد، دون حاجة إلى سلاحٍ أو جند، وتُعلن أن للكعبة ربًّا يحميها. فقد أرسل الله عز وجل على أصحاب الفيل طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وسُجلت الحادثة في كتابه العزيز بآياتٍ تتلى آناء الليل وأطراف النهار.

ولم يكن هذا الحدث معزولًا عن ميلاد النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، بل كان من تدبير الله تعالى، أن يولد خاتم النبيين في عامٍ أظهر فيه ربُّ العالمين قدرته على نصرة دينه، وكأن الحادثة إعلانٌ إلهيٌّ عن قرب بزوغ شمس الرسالة، وبداية عهد جديد من النور والهدى.

وُلد صلى الله عليه وسلم في مكة، في بيت من بيوت بني هاشم، يتيمًا من الأب، لكنه لم يكن يتيم العناية، بل كانت رحمة الله تحفه، ولُطفه يُظلله. قال أهل السيرة: وُلد في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم الإثنين، في عام الفيل، ذلك العام الذي سيبقى خالدًا في ذاكرة الأمة، لأنه كان بداية التحوّل في مسار البشرية.

سمّى عبد المطلب حفيده محمدًا، اسمًا لم تعرفه العرب من قبل، وقال حين سُئل عن سر التسمية: "أحببت أن يُحمد في السماء والأرض". وهكذا كان، فكان المحمود في العالمين، والمصطفى على العالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

ميلاده صلى الله عليه وسلم كان انفراجًا بعد ظلمة، وبداية لمرحلة تمهيدٍ إلهيٍّ لبعثةٍ تغيّر وجه الأرض، وتُنقذ الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال أيضًا:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

فكان عام الفيل هو عام الميلاد، ميلاد الرسالة، وميلاد الفتح، وميلاد النور الذي لا ينطفئ.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية

- إظهار قدرة الله تعالى في حفظ بيته الحرام بلا سلاح ولا جند، دليل على أن الأسباب وحدها لا تكفي، وإنما النصر من عند الله لمن شاء، متى شاء، وكيف شاء.
- ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام الفيل فيه إشعار باصطفاء الله له وتهيئة الكون لرسالته، وهذا من دلائل النبوة، وأنه رسول مرسل لا مدعٍ مفترٍ.
- تسمية عبد المطلب للنبي صلى الله عليه وسلم باسم "محمد" الذي لم تعرفه العرب فيها توجيه إلهي أن هذا النبي سيُحمد في السماء والأرض، وذلك من دلائل علو منزلته عند الله.
- قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، يدل على أن الله سبحانه رفع قدر نبيه صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، وهذا جزء من العقيدة في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم من غير غلو ولا جفاء.
- حادثة الفيل وتزامنها مع ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الله تعالى يُمهّد برسله لأمر عظيم في الكون،

وأن الله هو المدبر الحكيم.

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ...﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...﴾ تؤكد عقيدة إرسال النبي محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين، وأنه خاتم النبيين برسالة عالمية خالدة.

فوائد فقهية

- تثبيت تاريخ مولد النبي صلى الله عليه وسلم كما نقله أهل السيرة، له أهمية في تمييز الحق من البدعة في الاحتفال بمولده، فيُعرف من خلال ذلك المشروع من المبتدع، وفق ضوابط الشرع.
- الربط بين الأحداث التاريخية والشرعية، مثل حادثة الفيل ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، يُعزز فهم السيرة كمصدر للتشريع والاستدلال، لا كأحداث للتسلية فقط.
- التأمل في نصوص الكتاب عن حادثة الفيل يربي على فقه التوحيد والاعتماد على الله وحده، وهذا أصل فقهي في باب التوكل.
- استنباط الحكمة من أسماء الأشخاص من السنة، كما في اسم "محمد"، يدل على جواز اختيار الأسماء الحسنة ذات المعاني الطيبة للأطفال.
- في تقديم الله ذكر نبيه ورفعة شأنه، توجيه للمسلمين إلى تعظيم سنته صلى الله عليه وسلم والذب عنها، وهذا يدخل في باب فقه الاتباع.

فوائد أخلاقية وتربوية

- كون النبي صلى الله عليه وسلم وُلد يتيمًا، لكنه نشأ في عناية الله، يعلّم الناس أن الفقد لا يعني الضياع، وأن من تعلق بالله كفاه.
- إشراق نور النبوة في زمن الجاهلية يُعلّمنا أن النور يمكن أن يبزغ في أحلك اللحظات، وأن القلوب الصادقة لا تُطفئها ظلمات المجتمع.
- حرص عبد المطلب على أن يُحمد حفيده في السماء والأرض فيه درس للآباء في حسن نية التسمية وتطلّعهم لصلاح أولادهم، فلكل اسم أثر.
- بداية الرسالة في عام الفيل تعلّمنا أن الله يهيئ للمصلحين والأنبياء ظروفًا استثنائية تبدأ فيها مسيرتهم، وعلى الدعاة ألا يتعجلوا الثمرات.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه "رحمة للعالمين" يوجب على أتباعه أن يكونوا هم أيضًا مصدر رحمة وهداية، لا أذى ولا غلظة.

فوائد دعوية وإصلاحية

- حادثة الفيل وإهلاك المعتدين دون تدخل بشري تربي الداعية على اليقين أن الله يحفظ دينه بوسائل فوق ما يراه البشر، فعليه ألا يجزع إن تأخر النصر.
- ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم في وقت اشتدت فيه الظلمات يشير إلى أن التغيير قد يبدأ بفردٍ مخلص، فعلى الداعية أن يستبشر ويعمل.
- الربط بين النصوص والمواقف التاريخية يُقوّي الخطاب الدعوي، فيرتقي من الوعظ العاطفي إلى التوجيه المربوط بالوحي والسيرة.
- في رفع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وتبشيره، دعوة للمسلمين أن يعتزوا بنبيهم ويبينوا للناس محاسنه، لا أن يُخفوا سنته أو يميعوا أحكامها إرضاءً للناس.
- كون النبي صلى الله عليه وسلم "سراجًا منيرًا" يجعل الدعوة قائمة على النور والبيان، لا على الغموض أو التلبيس، كما تفعل الفرق المنحرفة التي تتستر خلف شعارات براقة لتروج باطلها.

مخالفات الواقع

- تفشي الجهل بعقيدة التوحيد في الأمة، وتوهم الناس أن بيت الله محفوظ بالحكومة أو العسكر فقط، غافلين عن أن الحفظ من الله أولًا.
- غلو بعض الناس في النبي صلى الله عليه وسلم حتى يرفعوه فوق منزلته البشرية، فيقعون في الشرك، كما تفعل بعض الفرق التي خالفت نهج الصحابة في توقيره.
- تقليد كثير من المسلمين لأعياد الجاهلية واحتفالات لا أصل لها، في حين لا يعرفون تاريخ ميلاد نبيهم صلى الله عليه وسلم ولا يستثمرونه في تعظيم سيرته وسنته.
- ضعف الاعتزاز بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم، وظهور تيارات تدعو للتقليل من شأن السيرة بدعوى "تاريخ بشري"، وهم في حقيقتهم من دعاة التغريب الذين يهونون من قدسية الرسالة.
- ظهور فرق ضالة تدّعي العمل للإسلام وهي تنشر الفوضى باسم الجهاد أو الثورة، على خلاف ما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم دعوته بالحكمة والتدرج والإصلاح، وهم في حقيقتهم من "الفرق" التي حذّر منها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة.»

الفقرة الثامنة :نسب النبي صلى الله عليه وسلم... أطهر الأنساب، وأشرف الأصول

لم يكن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبًا عاديًّا كسائر الأنساب، بل كان سُلالةً مصطفاةً نقية، انتقل فيها نور النبوة من صُلبٍ طاهر إلى رحمٍ زكِيّ، حتى أشرقت الأرض بولادته، وانطلقت الرسالة من بين أضلعه، رحمةً للعالمين.

لقد شاء الله تعالى بحكمته ورحمته، أن يُمهّد لمبعث خاتم أنبيائه برعاية نسبه قبل أن يُولد، فجعله صلى الله عليه وسلم من نسل الأنبياء، ومن ذرية إبراهيم عليه السلام، الذي جعله الله للناس إمامًا، واختار له من نسله إسماعيل الذبيح، فامتد النسب الكريم حتى بلغ كنانة، ثم اصطفى الله منها قريشًا، ومن قريش بني هاشم، ومن بني هاشم عبد الله وأمّه آمنة، فكان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن طُهر نسبه، وشرف اختياره، فقال في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم:
»إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم.«
فهو صفوة الصفوة، وخيرة الله من خلقه، وخاتم النبيين بلا مدافعة، ولا يُنكر شرفه إلا من في قلبه مرض.

ولم يكن في سلسلة آبائه من يُعاب عليه بشيء في دين أو نسب، فلم يكن فيهم كاهنٌ يعبث بالعقول، ولا ساحرٌ يضل الناس، ولا عبدٌ مملوك، بل كلهم أحرارٌ أشراف، موحدون على ملة إبراهيم عليه السلام، يحملون جذوة التوحيد في زمن كثرت فيه الأوثان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما" *:إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: ما ولدتني بغي، من آدم إلى أن ولدتني أمي، وما زلتُ أنقل في الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية*] ".أورده البيهقي وغيره بإسناد حسن.[

وكم هي مؤثرةٌ تلك الكلمة التي رُويت عنه صلى الله عليه وسلم في معرض مدحه لآبائه:
"لم يزل ينقلني الله من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة، مصفّىً مهذّبًا، لا تتشعّب شعبتان إلا كنتُ في خيرهما "
]ورد في كتب السيرة.[

إنه النسب الذي تنحني له الهامات، ويستحيي القلم أن يُحيط بجلاله، نسبٌ اصطفاه الله ليحمل خاتم الرسالات، ويخرج منه خاتم الأنبياء، وأكرم من مشى على الثرى، الذي مدحه ربّه فقال :﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤.]

فقد كان ميلاده المبارك تتويجًا لمسيرةٍ من الطُهر، وبدايةً لعهدٍ من النور، وقد اجتمع له صلى الله عليه وسلم شرف النسب والنفس، ورفعة المقام والرسالة، فكان أكرم الناس أصلًا، وأكملهم عقلًا، وأطهرهم سريرةً، وأحسنهم سيرة.

ومن تأمل سيرة أجداده، وجد أنهم وإن عاشوا في جاهليةٍ من حيث الواقع، فقد حفظ الله توحيدهم، أو كفَّهم عن تلويث الفطرة بما كانت عليه العرب من سفاهة،

فحُقّ لهذا النسب أن يُوصف بأنه أطهر الأنساب، وأعلاها مقامًا، وأكرمها مبدأً ومُنتهى، لأنه الطريق الذي ساق الله به إلى البشرية خيرها، وبه أخرجها من الظلمات إلى النور، فصلى الله على محمد، ما تعاقب الليل والنهار، وما هبّت الأرواح، وما طابت الأنفاس بذكره.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن الله سبحانه وتعالى يختار رسله ويصطفيهم من أطهر الأنساب وأشرف البيئات، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.
- التأكيد على أن النبوة لا تنال بالاكتساب أو الاجتهاد البشري، وإنما هي محض اختيار رباني.
- بيان أن الأنبياء محفوظون في أنسابهم من دنس الفاحشة والشرك، مما يزيد حجّة دعوتهم وصدق رسالتهم.
- إثبات أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، وصفوة الصفوة من الخلق، وهذا مما يدخل في أصول الإيمان بالرسل.
- تقرير أن بقاء جذوة التوحيد في بعض آبائه دليل على حفظ الله لرسالته قبل نزولها.

فوائد فقهية

- مشروعية مدح النبي صلى الله عليه وسلم بصفاته وأخلاقه وأنسابه الطاهرة إذا كان خاليًا من الغلو والشرك.
- جواز رواية الأخبار الصحيحة والآثار الحسنة في السيرة النبوية للاستدلال والاعتبار.
- استحباب بيان خصائص النبي صلى الله عليه وسلم في الخطب والمواعظ لزيادة محبته في قلوب المسلمين.

فوائد أخلاقية

- الحث على حفظ العرض والنسب وصيانته من مواطن الريبة، اقتداءً بما حفظ الله به نسب أنبيائه.
- التحذير من الوقوع في أعراض الناس أو الانتقاص من أنسابهم بغير حق.
- إبراز قيمة النقاء والطهارة في حياة المسلم، وأنها سبب في رفعة المكانة بين الناس.

فوائد سلوكية

- استحضار النسب الشريف للنبي صلى الله عليه وسلم يولّد في قلب المسلم تعظيمًا لسنته وحرصًا على الاقتداء به.
- تعلّم أن شرف النسب لا يغني عن العمل، وإنما هو معين على القيام بالحق.

فوائد سياسية وعسكرية

- إدراك أن اجتماع الشرف الديني والدنيوي في القيادة يعين على قبول الناس لها واجتماعهم حولها.
- فهم أن إعداد القادة الربانيين يبدأ بتهيئة البيئة والأسرة، كما هيأ الله بيئة النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد إدارية وقيادية

- القائد الناجح يُعدّ إعدادًا متكاملًا يجمع بين المؤهلات الذاتية والبيئة المهيئة، وهذا ما تراه في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد اجتماعية

- مكانة النسب الصالح في المجتمعات عامل مهم في التأثير والإصلاح إذا اقترن بالأمانة والدين.
- أهمية تماسك الأسرة وصيانة الذرية من الانحرافات الفكرية والسلوكية.

فوائد نفسية

- معرفة طهارة نسب النبي صلى الله عليه وسلم تعطي للمسلم اعتزازًا بدينه ورسوله وثقةً برسالته.

فوائد تاريخية وحضارية

- يبيّن النص أن التاريخ لم يعرف نسبًا حُفظ في طهارته كما حُفظ نسب النبي صلى الله عليه وسلم.
- إبراز أن العرب وإن عاشوا الجاهلية، فقد بقيت فيهم بقايا من ملة إبراهيم عليه السلام، فكانت تمهيدًا لظهور الإسلام.

مخالفات الواقع

- انشغال بعض المسلمين بالأنساب الجاهلية والافتخار بها على حساب العمل الصالح.
- وجود من يطعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم من أعداء الإسلام أو من الفرق الضالة لتشويه الرسالة.
- الغلو في النسب حتى يُرفع صاحبه فوق منزلته الشرعية أو يُدعى له ما لا يليق إلا بالله.
- انحراف بعض الناس إلى التفاخر بالأنساب مع ترك مكارم الأخلاق والعمل الصالح.
- التهاون في صيانة الأعراض والأسر في بعض المجتمعات، مما يهدد نقاء الأنساب.
- قلة دراسة السيرة النبوية والتركيز على نسب النبي صلى الله عليه وسلم لإبراز عظمة الرسالة.

الفقرة التاسعة :بشارة الكتب السابقة بالنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم

لم يكن مجيء محمدٍ صلى الله عليه وسلم مفاجئًا للتاريخ، ولا طارئًا على موكب النبوات، بل كان وعدًا إلهيًّا قديمًا، يتردد صداه في كتب الأنبياء، وتتهامس بذكره ألسنة المرسلين، ويتناقل أهل الكتاب ملامحه وصفاته جيلاً بعد جيل. لقد كان ذكره مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وكان اسمه يتردد في مجالسهم، ينتظرون ظهوره، ويترقّبون زمانه، ويوقنون أنه خاتم المرسلين، ورحمة العالمين.

ما من نبيٍّ بعثه الله إلى قومه، إلا أخذ الله عليه العهد والميثاق، أنه إن بُعث محمدٌ صلى الله عليه وسلم في زمانه، لَيؤمننّ به، ولينصرنّه، وليأخذنَّ العهد على قومه أن يتبعوه. قال الله عز وجل :﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١.]
فهو صلى الله عليه وسلم غاية النبوات، ومسك الختام، وكلمة الله التي بشّر بها من سبق من المرسلين.

ولقد جاءت البشارة باسمه وصفته في صحف الأولين، يعرفه أهل الكتاب معرفةَ الأبناء لملامحهم، لا خفاء في صفته، ولا غموض في نبوّته، قال تعالى :﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وما أصدق ما قاله عبد الله بن سلام، حبر اليهود الذي أسلم بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ قال:
"لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي بمحمد أشد، لأنني لا أدري ما صنعَتِ النساء، أما محمد فنعته الله لنا في كتابنا، فلا أشك فيه".

ولم تكن هذه البشارات مقتصرة على التوراة، بل نطق بها الإنجيل على لسان عيسى بن مريم عليه السلام، حين قال لبني إسرائيل :﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].
فالبشارة به صلى الله عليه وسلم لم تكن عابرة، بل كانت وعدًا موروثًا، وأملاً مشتركًا بين أتباع الرسالات.

حتى إن أحبار اليهود الذين سكنوا يثرب –المدينة لاحقًا– ما استوطنوها إلا انتظارًا لظهور هذا النبي الذي وُصف لهم أنه يُهاجر إلى أرضٍ ذات نخل، بين حرتين، فقالوا لأهلها من الأوس والخزرج: "قد أظلّكم نبيٌّ يُبعث، فنتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم."

لكن لما جاءهم ما عرفوه، وجاءهم من كانوا يبشّرون به، كفروا به حسدًا، وولّوا عنه استكبارًا، لا جهلًا بصفته، ولكن جحودًا لما في قلوبهم من كِبر، كما قال تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]،
وقال: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مدخلًا إلى الإيمان، وحجة على من أنكر، ونورًا سابقًا لظهور الرسالة، ليعلم الخلق أن الله تعالى لم يبعث نبيه بغتة، بل بشّرت به النبوات، واشتاقت إليه الأرواح، وأحاطته العناية من كل جانب، حتى قال الله عز وجل:﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فصلى الله على من بُشِّر به في صحف إبراهيم وموسى، ومُنِّي به موسى حين استبطأ النصر، وبشّرت به مريم في مهدها لولدها، وبشّرت به الملائكة، وانتظره المرسلون، وسار إليه الركبان من أهل الإيمان، ونكص عنه أهل الحسد والطغيان.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية:

- إثبات أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست دعوى مبتدعة، بل هي **وعد إلهي موثق** في الكتب السماوية السابقة، وفيه تصديق للتوحيد واستمرار رسالة السماء.

- تصديق القرآن للتوراة والإنجيل في أصولها الصحيحة، وفيه ردّ على من زعم أن الإسلام جاء قاطعًا مع ما قبله من الشرائع.

- أن الأنبياء جميعًا بشروا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وآمنوا برسالته قبل بعثته، وهذا يدل على وحدة مصدر الرسالات، وهو الله عز وجل.

- إبطال دعوى أهل الكتاب بأنهم على الحق بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم **كتموا البشارة** وعصوا الميثاق الذي أُخذ عليهم.

- أن الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد معرفة حقيقته وصفته هو **كفر عناد وجحود**، لا عن جهل، وهو أعظم جرمًا عند الله.

فوائد فقهية:

- وجوب **الإيمان بجميع الأنبياء** وتصديق ما صحّ من بشاراتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو من أركان الإيمان الستة.

- أن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام تُبنى على هذه البشارات، فهي حُجة على أهل الكتاب، ويجوز الاستدلال بها في الحوار والدعوة.

- مشروعية الاستشهاد بنصوص التوراة والإنجيل إذا ثبت موافقتها للقرآن والسنة، بشرط التوثق والتحقيق، وهذا فعل السلف والعلماء.

- في الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ دلالة على وجوب **نصرة الحق إذا ظهر**، ولو بعد بعثة النبي الآخر، وهي قاعدة فقهية في بيان الأولويات عند التعارض.

- بطلان تأويلات أهل البدع الذين ينكرون عالمية رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فالكتب السابقة قد بشّرت به للناس كافة، لا للعرب وحدهم.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ترسيخ محبة النبي صلى الله عليه وسلم في القلب حين يعلم العبد أنه **منتظر منذ قرون**، وبُشّر به على لسان أولي العزم من الرسل.

- التربية على **اليقين بالوعد الإلهي**، فكما تحقق وعد الله بإرسال محمد، فإن باقي وعوده لا شك في وقوعها (كالنصر والتمكين والبعث.)

- التحذير من الحسد والبغي، كما وقع من أحبار اليهود والنصارى، حين عرفوا الحق وكتموه، فكانوا عبرةً لمن خلفهم.

- استشعار أن المؤمنين الأوائل –كعبد الله بن سلام وغيره– كانوا **مخلصين في طلب الحق**، فلما تبين لهم اتبعوه، بخلاف من أعماه الهوى.

- التواضع لسنن الله، فقد جعل الهداية لمن شاء، وأضل من شاء، ولو كانوا أهل كتاب، فلا يُغترّ المرء بعلمه أو مكانته إذا لم يكن تابعًا للحق.

مخالفات الواقع للنص:

- كثير من المسلمين لا يعرفون شيئًا عن **بشارات التوراة والإنجيل** بمحمد صلى الله عليه وسلم، مما يضعف حجتهم في الدعوة.

- انتشار دعاوى التعايش المطلق مع أهل الكتاب **دون تبيين الحق**، بل والسكوت عن كتمانهم للبشارات، مما يُخالف نصوص الوحي.

- قبول بعض المسلمين أقوال المستشرقين الذين يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُذكر في الكتب السابقة، وهذا تكذيب للقرآن.

- ضعف الحضور العلمي في الرد على المحرّفين من أهل الكتاب، مع أن عندنا نصوصًا محكمة تُثبت صدق البشارات، لكن يُهملها كثير من الدعاة.

- الانبهار ببعض الديانات، والثناء عليها دون النظر إلى **تحريفها وكتمانها لحق محمد صلى الله عليه وسلم**، وهو جهل بالعقيدة.

- ضعف الاعتزاز برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنها محلية أو وقتية، بينما الآيات أثبتت أنها **رسالة عالمية وخاتمة** للشرائع.

الفقرة العاشرة :دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى... ومولد الوعد المنتظر

لم تكن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم حادثةً طارئةً في كتاب الزمان، ولا مفاجأةً اقتحمت مجرى التاريخ من غير تمهيد، بل كانت ثمرةَ دعوةٍ خاشعةٍ في جوف الحرم، خرجت من قلب نبيٍّ كريم، ودمعةٍ صادقة من عينٍ موصولة بالسماء، وتحقّقَ بشارةٍ سارت بها الرسل وتناقلها الأحبار والأنبياء، حتى كانت هي النور الذي بُشّرت به الأرض قبل أن تُبصره العيون.

حينما فرغ إبراهيم الخليل عليه السلام من رفع قواعد البيت الحرام، هو وابنه إسماعيل عليه السلام، لم يكن البناء آخر ما يطلب، بل كان القلب معلقًا بما هو أعظم: أن يُبعث في هذه الأرض رسولٌ يحمل النور، ويُحسن البلاغ، ويأخذ بأيدي الناس من رجس الوثن إلى طُهر التوحيد.

فوقفا، والبيت قائم، والسماء شاهدة، والأرض تتهيأ للرحمة، ورفعا الأكفَّ في خشوع، يقولان:
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وتمضي القرون، وتتداول الأمم هذا الدعاء، لا ينسى في السماء، ولا يَضيع في الأرض، حتى أذن الله أن تُستجاب الدعوة، ويُحقّق الرجاء، فجاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، العربي القرشي، من ذرية إسماعيل، ومن أرض مكة، ومن بيت عبد المطلب وسلالة بني هاشم، ليكون هو المستجاب به، والنبي المنتظر، والخاتم المرسل.

ولم تقتصر البشارة عليه من لسان إبراهيم وحده، بل جاء عيسى ابن مريم عليه السلام، آخر أنبياء بني إسرائيل، ليجدّد الوعد، ويؤكّد الرسالة القادمة، وينبئ قومه بقدوم نبيٍّ يحمل اسمًا فريدًا، ويأتي بدينٍ جديد، فقال كما حكى الله عنه:
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فاجتمع في النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم دعاء الخليل، وبشارة الكليم، وتوصيف الإنجيل، وتحقق وعد السماء، فكان هو أحمد الذي بشّرت به النبوءات، وهو محمد الذي أضاء الله به الظلمات، قال المفسرون:

"أحمد هو اسمه في الكتب السابقة، ومحمد هو اسمه في القرآن، وكلٌّ منهما مأخوذ من الحمد، فهو أكثر الخلق حمدًا، وأعظمهم مقامًا، وأشرفهم ذكرًا في السماء والأرض".

فلم يكن ظهوره صلى الله عليه وسلم صدفة، ولا نبوته اجتهادًا، بل كان على ميعادٍ مع الأرض، والسماء، والقلوب، ومواعيد الله لا تُخلف. جمع الله له المحامد في اسمه، والخصال في ذاته، والهدى في رسالته، فخُتمت به النبوات، واكتملت به البشارات، وصدّق الله وعده في قوله:
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فصلى الله على من دعت له الأنبياء قبل أن يُبعث، وبشّر به الرسل قبل أن يُرى، وسار نوره في قلوب الموحدين قبل أن يراه الناس ببصرهم، فكان مولده بشرى، وبعثته رحمة، وذكره رفعة، وسيرته هدى، ونبوته خاتمة، لا نبي بعده، ولا رسالة بعد رسالته.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية

- *من قوله: «لم تكن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حادثةً طارئة»...*

وهنا نعلم أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت بتقدير إلهي سابق، لا حادثًا عارضًا، فهي جزء من وعد السماء وتحقيق لعلم الله الأزلي، مما يُعزّز أصل الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه لا شيء يقع صدفة.

- *من قوله: «بل كانت ثمرةَ دعوةٍ خاشعة»...*

وفي هذا بيان أن إرسال النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو إجابة دعاء نبيٍّ مرسل، مما يدل على تعظيم شأنه ومكانته، وأنه مصطفًى من الله، مصطفىٌ في نسبه، مصطفىٌ في اسمه، مصطفىٌ في مهمته.

- *من قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا ...﴾*

وهنا إشارة إلى أن أعظم أماني الأنبياء كانت ظهور هذا الرسول الخاتم، مما يدل على عظمة منزلته عند الله، وأن الله استجاب دعاء إبراهيم عليه السلام بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا تأصيل لقولنا في العقيدة: إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مثبتة بالنقل والعقل والإرادة الإلهية.

- *من قوله: «فجاء محمد بن عبد الله... من ذرية إسماعيل»*

وهنا تقرير لعقيدة وجوب الإيمان بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم المرسلين، وأنه هو النبي المنتظر، الذي بشّر به الأنبياء، فلا يقبل الله من أحدٍ دينًا غير دينه بعد بعثته، ولا يُؤمن أحد حتى يؤمن برسالته.

- *من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي...﴾*

وفي هذا إثبات أن البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت من أنبياء بني إسرائيل، مما يدل على وحدة الدين، وأنه لا تناقض بين الأنبياء، ويُثبت أيضًا أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي امتدادٌ لرسالات من سبقه، وناسخةٌ لما قبلها.

- *من قوله: «فكان هو أحمد... وهو محمد»...*

وهذا يبيّن أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم جاء موافقًا لما ورد في كتب الأنبياء، مما يؤكد صدق نبوّته، وأن الله عظّمه في التوراة والإنجيل قبل أن يُذكر في القرآن.

- *من قوله: «فلم يكن ظهوره صدفة»...*

وفي ذلك تقرير لأصل من أصول العقيدة، أن الله يختار رسله بعلمه، ويُنزّل وحيه بحكمته، وأن النبوة لا تُنال بكسبٍ أو اجتهاد بشري، بل باصطفاء رباني، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

الفوائد الفقهية

- *من وصف إبراهيم وابنه بالدعاء بعد بناء الكعبة*

وهنا فائدة فقهية في أن الدعاء في مواطن الطاعة ومواطن القرب كرفع القواعد هو من أعظم ما يُرجى فيه القبول، وهذا يدل على مشروعية التوسل بالعمل الصالح.

- *من دعاء إبراهيم عليه السلام أن يكون الرسول منهم*

فيه دليل على أهمية أن يكون الداعي إلى الله عارفًا بأحوال قومه، قريبًا من بيئتهم، فقهًا ولغةً وثقافة، وهو أصل معتبر في فقه الدعوة.

الفوائد الأخلاقية والتربوية

- *من تعبير النص عن دمعةٍ خاشعةٍ ودعاء نبي*

وهنا قيمة عظيمة للدعاء الخاشع، وبيان أثر الإخلاص في الدعاء، وأن النفوس الطاهرة هي التي تُستجاب لها الدعوات عبر الأجيال.

- *من وصف الأنبياء بتناقل البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم*

يدل ذلك على صدق الإخلاص بينهم، وأن الدعوة إلى الله هي ميراث الأنبياء، يجمعهم هدف واحد وإن اختلفت الأزمان، مما يغرس في النفوس خلق الإخلاص في البلاغ، وتقدير الدعوة.

- *من قولك: «جمع الله له المحامد في اسمه، والخصال في ذاته»...*

وهذا يُربّي في النفوس محبة النبي صلى الله عليه وسلم، ويُعلي شأن الاقتداء به، ويرسّخ الخلق النبوي كمثال أعلى.

المخالفات الواقعية المعاصرة

- **التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم كرمز تاريخي لا كنبيٍّ واجب الطاعة والإتباع.**

كثير من الناس اليوم يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم في القصائد والاحتفالات، لكنهم لا يلتزمون بهديه، ولا يتحاكمون إلى سنته، وكأن رسالته انتهت تاريخيًا، وهذا مخالفة عقدية عظيمة، فالإيمان به يتضمن الإتباع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

- **القول بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم جاء بدين خاص بالعرب فقط، أو أنه مصلح اجتماعي لا أكثر.**

وهذا طعن ضمني في عموم رسالته، وفي عقيدة ختم النبوة، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

- **التشكيك في بشارات الأنبياء به، أو إنكار وجود اسمه في الكتب السابقة.**

وهذا مما وقعت فيه بعض الفرق المنحرفة، والطعن فيه طعن في صدق القرآن الذي نقل البشارة به، وهو مما يُخرج من أصل الدين.

اعتبار الدين أمرًا قابلًا للتغيير حسب الأذواق والعصور، لا وحيًا ثابتًا من الله.

وهذا يُناقض معنى اصطفاء الله لرسوله، ومعنى قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، فالدين وحي، لا اجتهاد بشري، ومن بدّله أو حرّفه فقد خان الرسالة.

الفقرة الحادية عشرة :الجزيرة قبل البعثة – ظلمات بعضها فوق بعض

قبل أن يسطع نور النبوّة على أرض الجزيرة، كانت العرب تعيش في ظلامٍ دامسٍ حالك، تتخبط في دروب الجهالة، وتترنح تحت وطأة الضلال، كأنها أمةٌ انطفأ فيها المصباح، وغاب عنها العقل، وانقطع عنها وحي السماء، فلا نبي يُذكِّر، ولا كتاب يُتلى، ولا عقل يُهتدى به.

أشرقت شمس الدنيا، ولكن جزيرة العرب كانت في ليلٍ بهيم، يمدّ أطنابه على العقول والقلوب، حتى صار المعروف منكرًا، والمنكر فضيلةً، والحق مهجورًا، والباطل مرفوع الرايات.

عُبدت الأحجار، ونُسيت آثار الفطرة، فركع الناس لما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا، وصنعوا بأيديهم أصنامًا، ثم جثَوا أمامها طائعين، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله!

تسلّط الجهل، حتى صارت الخرافة دينًا، والسحر مهنةً، والكهانة سبيلًا للنفوذ.

أما القيم، فقد بارت في سوق الحياة، فالعصبية مقدَّسة، والدماء مهدورة لأتفه الأسباب، والحروب تشتعل لعقابيل ناقةٍ أو سباق فرس.

المرأة كانت تُورَّث كما يُورَّث المتاع، وتُحرَم من الإرث، وتُدفن حيّة تحت الرمال؛ خشية عارٍ موهوم، قال الله تعالى:
﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩.]

والفقير لا يُؤبه له، والمظلوم لا نصير له، والأمان لا يُرجى، والعدل غائبٌ في زوايا النسيان.

قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي حين سأله عن حالهم قبل الإسلام":كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف]"...رواه أحمد والبيهقي، وإسناده حسن.]

ولم تكن بلاد العرب وحدها الغارقة في التيه، بل كان الكون بأسره يستعد لبعث النور، فكما ورد في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال»:إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب.«

فلما بلغ الظلام مداه، وعمّ الفساد كل شبر، وارتفعت الحيرة في القلوب كأمواج البحر في ليلة ظلماء، أذن الله جلّ جلاله أن ينشقّ ستار الغيب، ويُرسل رحمته إلى العالَمين، فاختار من بني الإنسان عبدًا أمينًا، لم يعرف الكذب، ولم يخن أمانة، ولم يسجد لصنم، فبعثه الله رحمةً تتغلغل إلى الأفئدة قبل أن تصل إلى الأسماع.

قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢.]

فجاء محمد صلى الله عليه وسلم، ليُعلن فجرًا جديدًا، ويكسر قيود الجهل، ويقيم بناء العدل، ويردَّ للمرأة كرامتها، وللضعيف حقه، وللإنسان إنسانيته.

جاء بالنور في زمن الظلام، وبالهدى في زمن التيه، فكان كما وصفه ربه :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية:

- افتقاد النبوة والكتاب سببٌ مباشر في انحراف الأمم، فالناس إذا انقطع عنهم الوحي، ساد الجهل، وانتشر الشرك، وضاعت الفطرة.
- عبادة الأصنام مع كونها لا تسمع ولا تبصر تدل على مدى ضلال العقول عند غياب التوحيد، وأن الشفاعة المزعومة للأصنام باطلة.
- السحر والكهانة والخرافة تنتشر في غياب العقيدة الصحيحة، فتُتخذ آلهةً بديلة عن الله، أو وسائل باطلة لطلب علم الغيب.
- إرسال النبي محمد صلى الله عليه وسلم رحمةٌ إلهية بعد أن عمّ الضلال، وهذا يدل على أن النبوة نعمة من أعظم النعم، وأن البشرية لا تستغني عن الوحي طرفة عين.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأمي والرحمة، وذكر مهمته (التلاوة، التزكية، التعليم) يؤكد أن الرسالة جاءت لإعادة بناء الإنسان على التوحيد، لا على العصبية أو الوثنية أو الأهواء.
- مقت الله لأهل الأرض عربًا وعجمًا قبل البعثة، إلا من ثبت على التوحيد، فيه بيان أن الكفر والابتداع ممقوتٌ عند الله، حتى وإن انتشر وتعددت صوره.
- بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أعادت تعريف الفضيلة والحق، وربطت المعروف بما شرعه الله، لا بما استحسنته الأعراف الجاهلية.

الفوائد الفقهية:

- مواريث النساء كانت تُنتهك في الجاهلية، فجاء الإسلام بتشريعات الميراث العادلة، فرفع عن المرأة الظلم، وأعطاها حقها كاملاً في التركة، وهذا من عدل الشريعة.
- وأد البنات جريمة جاهلية كبرى، والإسلام أتى بتحريمها وتجريمها، ورفع شأن المرأة بنتًا وأمًّا وزوجةً، فأصبح من يُنجب البنات يُبشَّر ويؤجر إن أحسن تربيتهن.
- قتل الأنفس دون حق كان شائعًا، فجاء الإسلام بتحريم الدماء، وتشريع القصاص والديات لحفظ النفوس، مما يُظهر أن الشريعة جاءت لحفظ الضرورات الخمس.
- التزكية والتعليم من وظائف النبي صلى الله عليه وسلم الشرعية، وفي هذا بيان أن التربية والتعلم أساس في بناء الأمة، وليست مجرد أدوات تكميلية.
- الحديث عن أكل الميتة والفواحش وغيرها يوضح أن الشرائع تنظم حتى المطاعم والمناكح، فالفقة الإسلامي شاملٌ لكل شؤون الحياة.

الفوائد الأخلاقية:

- التباهي بالعصبية والقبلية في الجاهلية دليل على فساد الأخلاق حين تغيب الهداية، فالإسلام جاء ليُرسخ مبدأ الأخوة على أساس الدين لا الدم.
- ظلم القوي للضعيف كان هو السائد، أما النبي صلى الله عليه وسلم فجاء برسالة العدل، ونصرة المظلوم، وتحريم التعدي، فكانت الأخلاق جزءًا من الرسالة.
- الفواحش كانت منتشرة بلا رادع، فدلّ ذلك على أثر غياب الضمير الديني، وجاءت الرسالة لتنشر الحياء والعفة، وتُقيم حدودًا تمنع الفساد الأخلاقي.
- قطع الأرحام، وسوء الجوار، من أعظم صور الجاهلية الأخلاقية، فجاء الإسلام ليُعيد صلة الأرحام، ويُرسخ مكارم الأخلاق في المعاملات.
- تكريم الإنسان لم يكن حاضرًا في الجاهلية، فجاء الإسلام بردّ إنسانية المظلوم والمسكين والمرأة والفقير، وهذا يدل على أن الأخلاق في الإسلام لا تنفصل عن العقيدة.

الفوائد التربوية والدعوية:

- التربية لا تبدأ إلا بإزالة الجهل، فبعثة النبي صلى الله عليه وسلم بدأت بتعليم وتزكية، مما يدل على أن أول خطوات الدعوة إصلاح التصورات والعقيدة.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة لصفاته (الصدق، الأمانة، نقاء التوحيد) يعلّم الدعاة أن حامل الرسالة لا بد أن يتحلى قبل كل شيء بالصفات الخُلقية والدينية.
- الجاهلية كانت ظلماتٍ متراكبة، فلن ينفع فيها إلا نورٌ رباني، فالداعية لا يتكئ على ذكائه وحده، بل يطلب الهداية من الوحي.
- دعوة جعفر بن أبي طالب تُبيّن أن توثيق الواقع الفاسد وتقديمه بصراحة للناس مهمٌ في توضيح فضل الدين، وهو أسلوب دعوي مؤثر.

مخالفات الواقع المعاصر لما في الفقرة:

- لا تزال بعض الفرق المبتدعة تُقدّس القبور والأولياء وتطلب الشفاعة منهم كما كانت الجاهلية تقول: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، فيشركون بالله من حيث لا يشعرون.
- عاد السحر والكهانة بثوبٍ جديد، من خلال ما يسمى بـ"قراءة الطالع" و"الطاقة" و"التنويم الإيحائي"، وهي شعوذات تُمارس حتى اليوم، وتلقى رواجًا في القنوات واليوتيوب.
- أصبح الظلم اليوم قانونًا عند الطغاة، حيث يُسحق الضعفاء، وتُهدر الحقوق، وتُشترى الذمم، وهذا من أشد أوجه الجاهلية الحديثة.
- بعض الأنظمة تشرّع الظلم وتُقصي شرع الله، وترى في الغرب الكافر قدوةً، وتُبقي القرآن مهجورًا في الحكم والتعليم.
- قطع الأرحام عاد بقوة، بسبب النزاعات المالية، والعقوق، والغرور، بل بلغ الحال أن يُحارب الأخ أخاه من أجل إرث تافه، كما كانت الجاهلية تقتل من أجل ناقة.
- المرأة يُتاجر بها إعلاميًا وجسديًا، بعد أن حررها الإسلام، فأعادها أهل الأهواء اليوم سلعةً إعلاميةً تُروَّج على شاشات الإعلانات والأفلام.
- عاد وأد البنات بصورة مختلفة، فبعض الآباء والأمهات يتمنون عدم ولادة البنت، بل يُجهضونها عمدًا، وكأنهم يخشون العار الذي حرره الله منهم.
- يوجد من يدّعي الانتساب للإسلام، وهو يُعظّم العصبية القومية أو القبلية، ويقاتل لأجل الأرض دون الدين، مما يُعيد

الجاهلية في أشرّ صورها.

♦تُرَك الصلاة، ويُؤكل الربا، وتُشرب الخمور، وتُزنى النساء، ثم يقال: (نحن مسلمون في القلب)، وهو قولٌ يردّد منطق الجاهلية بأن الفضيلة ما استحسنته العقول لا ما شرعه الله.

الفقرة الثانية عشرة :أهل الكتاب قبل البعثة – علم يعرفون ويكتمون

لم يكن حال أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – في زمن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بأفضل من حال العرب، وإن اختلفت صور التيه والضياع بين الفريقين. فالعرب كانت تتخبط في ظلمات الجهل، وتعبد ما لا يسمع ولا يبصر، تماثيل وأحجار لا تنفع ولا تضر، بينما كان أهل الكتاب يتقلبون في ضلالة من نوع آخر، ضلالة مغطاة بلباس العلم، ومعرفة خالية من العمل، بل مشوبة بالتحريف والكتمان والبهتان.

لقد أوتوا نصوصًا مقدسة، أنزلها الله عليهم هدى ونورًا، وأورثهم التوراة والإنجيل، فيهما بشرى للمهتدين، ولكنهم قلبوا النعمة نقمة، وجعلوا الكتاب الذي أنزل لهداية الخلق وسيلة للسلطة والتكسب، يتاجرون بآياته، ويتخذونه وسيلة للعلو والجاه، كما قال تعالى:﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾]البقرة: ٧٩.[

لقد حُمّلوا أمانة العلم، ولكنهم خانوها، وبدلوا الكلم عن مواضعه، وحرّفوا وكتبوا بأيديهم ما ليس من عند الله، ثم نسبوه إليه زورًا، فغضب الله عليهم، وسلبهم بركة الكتاب، كما قال سبحانه :﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾]النساء: ٤٦.[

وكان من أعظم ما كتموه، وأخطر ما حرفوه، ما يتعلق بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جاءت البشارات به واضحة في كتبهم، جلية في توراتهم وإنجيلهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : *"لقد كنت أعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أعرف ابني، ومعرفتي بمحمد أشد"*،]رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي]، فلم يكن أمره عنهم خافيًا، ولا وصفه في كتبهم خفيًّا، ولكنهم كتموا الحق حسدًا وكبرًا، إذ خرجت النبوة من بني إسرائيل، وانتقلت إلى بني إسماعيل، إلى ذلك الفرع الذي طالما أنكروه، ونظروا إليه نظرة استعلاءٍ واحتقار.

قال الله تعالى مصورًا هذا المشهد في آية عظيمة تكشف خبايا القلوب :﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾]البقرة: ١٤٦.[

بل كانوا قبل بعثته صلى الله عليه وسلم يهددون العرب ويقولون" *قد أظل زمان نبي يبعث، فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم*"، كما جاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى:
﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾]البقرة: ٨٩.[

فيا لله، ما أشد عاقبة الهوى حين يُغلب، وما أقبح الحسد إذا تمكّن! لقد عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأوا أوصافه، وسمعوا خبره من أنبيائهم، ولكنهم لما بُعث من غيرهم، أنكروه وعادوه، فخابوا وخسروا، كما قال الله تعالى:
﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾]النمل: ١٤.[

وهكذا ضاع أهل الكتاب، لا لجهلهم، ولكن لعلمهم الذي لم يتبعوه، ومعرفتهم التي كتموها، فلم ينفعهم ما علموا، وساء ما عملوا، وكانت النتيجة كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم" *العلماء إذا فسدوا فسد الناس*"،]رواه أبو نعيم في "الحلية"]، وأي فساد أعظم من كتمان الحق، وهو بين أيديهم واضح كالشمس في رابعة النهار؟

فهل بعد هذا البيان من عذر؟ وهل بعد هذه الحجج من حجة؟ لقد شهد الله عليهم، وشهدت كتبهم، وشهدت فلتات ألسنتهم، ولكن الكبر إذا دخل القلوب، أعماها عن نور الحق، وختم الله على قلوبهم، فهم لا يفقهون.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية:

- انحراف أهل الكتاب لم يكن بسبب الجهل، بل بسبب كتمان الحق ومعاندة الوحي، مما يدل على أن الضلال العقدي قد يقع مع وجود العلم إذا غاب الإيمان والاتباع.
- علم أهل الكتاب ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومعرفتهم به يقينًا، يدل على أن نبوته حق ثابت شهدت به الكتب السابقة، وأن من كفر به بعد معرفته فقد كفر عن بينة.
- الحسد والكبر كانا من أعظم أسباب جحدهم للحق، وفي ذلك بيان أن العقبات الكُبرى أمام الإيمان ليست فكرية، بل نفسية وأخلاقية كحب الجاه والعلو والحسد.
- تحريف النصوص الدينية من أعظم صور الكفر، وفيه خطرٌ عظيم يُخرج صاحبه من ملة التوحيد، لأنه ينسب إلى الله ما لم يقل، ويفتري عليه الكذب.
- انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل هو أمرٌ إلهي فيه حكمة عظيمة، ويجب التسليم له، والرضا بما قسمه الله، ومن ردّه فقد عارض ربوبية الله في تشريعه واختياره.
- كتمان أهل الكتاب للبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، رغم وضوحها، فيه ردٌّ على من يُلبّس على الناس بأن اليهود والنصارى على هدى أو دين مقبول، وقد لعنهم الله على كفرهم بعد العلم.
- العلم وحده لا ينجي من العذاب، بل لا بد من الإيمان والعمل، ولهذا كان فساد العلماء من أعظم أسباب ضياع الأمم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "العلماء إذا فسدوا فسد الناس."
- الله تعالى شهد على كتمانهم الحق، وأقام الحجة عليهم في الدنيا، فلا عذر لهم عند الله يوم القيامة، وفي ذلك تحذير من اتباع خطواتهم، ومن التشبّه بهم في طمس الحق.

الفوائد الفقهية:

- تحريف أهل الكتاب لنصوصهم يدل على أن حفظ الشريعة نعمة عظيمة، وقد تكفل الله بحفظ القرآن، ليبقى حجة ناصعة إلى يوم القيامة، بخلاف الكتب السابقة التي وُكِل حفظها إلى أهلها فخانوا الأمانة.
- من أعظم الجرائم الفقهية: نسبة القول إلى الله كذبًا، ولو كان لغرض التكسب أو إرضاء الناس، كما قال الله: ﴿ويقولون هذا من عند الله وما هو من عند الله﴾، وفيه تحذير لأهل الفتوى والوعظ أن لا يقولوا على الله بلا علم.
- التجارة بالدين واستغلاله في طلب الجاه والمال من أعظم المحرمات، سواء كان ذلك بالفتاوى المدفوعة أو بالمناصب المزخرفة، وهذا يُبطل أجر العمل ويجعله من الرياء.
- كتمان العلم الواجب نشره جريمة يعاقَب عليها صاحبها، وقد توعد الله أهل الكتاب على كتمانهم البشارات، وفيه تحذير لأهل العلم أن يكتموا ما يُنقذ الناس من الضلال.
- لا عبرة بادعاء العلم إذا لم يُعمل به، فكل علم لا يُثمر عملًا ولا هداية، فهو حجة على صاحبه لا له، وهذه قاعدة عظيمة في باب العمل بالعلم.

الفوائد الأخلاقية والتربوية:

- الكِبر من أقبح الأخلاق وأشدها خطرًا، فقد حجب أهل الكتاب عن قبول الحق رغم علمهم به، فليحذر المؤمن من الترفع عن الحق، أو ردّه لأن قائله ليس من قبيلته أو فئته.
- الحسد هو الدافع الخفي وراء كثير من العداوات، وهو مرضٌ قلبي يُعمي عن الاعتراف بالفضل لأهله، وقد حذّر الله منه في قصة إبليس وأهل الكتاب، فلا بد من تطهير القلب منه.
- طلب العلو في الأرض من أعظم الأسباب في فساد العقيدة، كما وصف الله اليهود: ﴿واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا﴾، فطلب الرياسة والسلطة باسم الدين مدخل إلى الهلاك.
- أهل الكتاب عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، لكنهم أنكروه، فدلّ ذلك على أن الهوى إذا تمكن، يُعطِّل حتى أوضح البراهين، ويصدّ عن قبول الحق.
- العلماء إذا لم يتقوا الله، صاروا أدوات فتنة، وأبواب ضلال، كما فعل أحبار اليهود، فصلاح الأمة بصلاح علمائها، وفسادهم فسادٌ عام.

مخالفات الواقع المعاصر لما في الفقرة:

- لا تزال فرقٌ من المسلمين تنتسب للعلم، لكنها تكتم الحق، وتُضلّ الناس، وتُعادي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، كما كتم أحبار اليهود البشارات، وهذه الفرق هم "الفرق الضالة" التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بظهورها.
- هناك من يدّعي التنوير والعقلانية من المعاصرين، وهم يُحرّفون النصوص ويؤولونها ليُوافقوا أهواء الغرب، كما كان أهل الكتاب يحرّفون الكلم عن مواضعه.
- كثير من المنتسبين للدعوة اليوم يتخذون الدين وسيلة للتكسب والظهور والجاه، ويُسايرون الباطل، ويكتمون الحق، خشية ضياع المناصب أو الجماهير، كما فعل أهل الكتاب.
- بعض دعاة العصر يعرفون السنة والحق، ولكنهم يجحدونها، أو يسخرون منها، أو يُظهرونها كأنها تخلف أو جمود، وهم يعلمون صدقها، وهذه صورة من صور الجحود بعد العلم.
- من الناس من يُظهر التدين، لكنه يرفض دعوة التوحيد الخالص إذا خالفت هواه أو تقاليد مجتمعه، وهذا عين ما فعل أهل الكتاب حين خالف النبي صلى الله عليه وسلم قومهم.
- بعض أنظمة التعليم والمناهج تحارب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أو تقلل من شأنه، وتُعظّم الغرب، وتُهمل كتب السُنة، بل تُدرّس كتبًا محرّفة بأيدٍ عربية، كما فعل اليهود بكتبهم.
- لا يزال من المسلمين من يُكذّب السنة أو يشكك فيها بحجة أنها "ليست قرآنية"، كما شكك أهل الكتاب في الأنبياء بعدهم، وهذه بدعة من بدع العقلانيين المعاصرين.
- يظن بعض المسلمين اليوم أن اليهود والنصارى لا زالوا على شيء، مع أن الله لعنهم على كتمانهم الحق، وهذا مخالف لنصوص صريحة لا تحتمل التأويل، كقوله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾.

الفقرة الثالثة عشرة طلائع النور – دلائل قرب البعثة النبوية

لم تكن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومضًا عابرًا في ليل التاريخ، بل كانت شمسًا موعودة بزغت بعد طول انتظار، قد أُرسلت أنوارها قبل طلوعها، فأضاءت الآفاق إرهاصًا وتمهيدًا، حتى إذا آن وقتها، تلقّتها الأرض والسماء بالبِشر والرجاء.

لقد تهيّأ الكون كله لاستقبال هذه اللحظة الفاصلة في مسيرة البشرية. ما من شيء إلا وشارك في إعلان النبأ العظيم، وكأن الكائنات كلها كانت على موعد مع الوحي، تبشّر به وتنذر، وتستعد لنور الله الذي سيتنزل على قلب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

في ليلةٍ مباركة...

ولد فيها خير من وطئ الثرى، سيد ولد آدم، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. في تلك الليلة، خمدت نار المجوس التي ظلت موقدة في معابد الفرس ألف عام لم تنطفئ، وكأنها انحنت خاشعة لمولد من سيطفئ ظلمات الكفر بنور التوحيد.

وفي ذات اللحظة، ارتجّ إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، كأنها شواهد على أفول ملكٍ جبّار، إيذانًا بانهيار دولة الظلم أمام زحف الحق. قال أهل التاريخ: كانت تلك الشرفات بعدد ملوك فارس، فلم تلبث دولتهم أن تهاوت، كما تهاوت أعمدة الإيوان، وتوزعت بعد كسرى أربعة عشر ملكًا في سنين قليلة، ثم لم تقم لهم قائمة، وصدق وعد الله.

ومن بحيرةٍ غاض ماؤها...

جفّت بحيرة ساوة التي كانت تفور بالماء سنين طويلة، فكأنها أغمدت سيف العذاب، إذ جاء وقت الرحمة. أما الكهنة، فقد سمعوا في تلك الليلة همساتٍ في السماء، ثم خمدت، فانقطعت أخبار الجن، وسُدّت عليهم مسالك السمع. قال الله تعالى في وصف حالهم بعد البعثة :﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩.]

لقد أغلق باب التخرص، وآن أوان الحق، حين تنزل جبريل عليه السلام بوحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، إيذانًا بعهد لا يُبنى على الظن، بل على اليقين والنور المبين.

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج٢»:(وقد تواترت الأخبار بما وقع من العجائب ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم، مما كان إرهاصًا لرسالته، وتمهيدًا لبعثته.«

وذكر البيهقي وغيره في "دلائل النبوة "ما جرى من خمود نار المجوس، وغور بحيرة ساوة، وسقوط الشرفات، وأثر ذلك في زلزلة قلوب أهل الشرك والجبروت، حتى قال قائلهم: "لقد حدث الليلة أمر عظيم."

فأي ميلادٍ هذا، تهتزّ له أركان الممالك، وتخرس له ألسنة السحر والكهان؟!

لقد كانت الإرهاصات نداءً من السماء إلى الأرض:

أن يا أهل الأرض، استعدوا، فقد أظلّكم زمان النور، زمان من قال الله فيه :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦.]

فما أكرم هذا الميلاد، وما أعظم هذا المولود، الذي به ختمت الرسالات، وبه تنزلت الرحمة، وبه عرف الناس ربهم على الحقيقة، بعد طول التيه، وضياع السبيل

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة.:

الفوائد العقدية:

- بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن صدفة، بل بوعد رباني سابق، وتمهيد كوني شامل، مما يرسخ عقيدة أن الله يُدبّر أمر الكون بحكمة، ويُرسل أنبياءه في أقدار معلومة.
- إرهاصات الميلاد النبوي كانت آيات كونية شاهدة على صدق النبوة، ودلالة على أن الله عز وجل يُظهر آياته على الخلق، ليُقيم عليهم الحجة.

- انطفاء نار المجوس وسقوط شرفات الإيوان وغور بحيرة ساوة تدل على أن الله يهيّئ الأسباب لتبدل الأحوال، وأن التغيير يبدأ من لحظة البعثة النبوية، بإرادة الله لا بقوة البشر.
- انقطاع استراق السمع عن الجن إيذانٌ بأن الوحي أصبح محفوظًا، مما يدل على أن دين الإسلام لا يتلقى من الظنون، بل من وحي السماء فقط، وهذا أصلٌ عقديٌ عظيم في بناء مصادر التلقي.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بـ(السراج المنير) يدل على أن الهداية لا تُنال إلا من نوره، فمن ضلّ عنه تاه في الظلمات، وهذه عقيدة أهل السنة في أن النبي صلى الله عليه وسلم وحده هو المبيّن للدين بعد الوحي.
- الإرهاصات المتواترة تثبت أن النبوة لا تأتي عبثًا، بل بتمهيد، وتصديق من الله بآيات بينات، مما يُبطل دعوى من يزعم النبوة كذبًا بعد محمد صلى الله عليه وسلم.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم النبيين، وسراجٌ منير، دليل قطعي على ختام الرسالات به، وأن أي دعوى لنبوة بعده فهي ضلال وكفر، كما هي حال "الفرق الدجّالة" كالقاديانية والبهائية.

الفوائد الفقهية:

- علمنا من البعثة أن الوحي لا يُستقبل بعد محمد صلى الله عليه وسلم، فالوحي انقطع بموته، وهذه قاعدة فقهية في باب الرد على من يزعم الكشف أو الإلهام التشريعي.
- معالم البعثة النبوية تبيّن أن الكهانة محرّمة ومبنية على كذب وافتراء، وقد بطل استراق السمع بعد البعثة، مما يدل فقهًا على تحريم تصديق العرّافين والمنجمين.
- الآيات الكونية الدالة على البعثة تدل على أن المعجزات والإرهاصات ليست محل تشريع مستقل، لكنها قرائن تصديق للنبوة، فلا يُبنى عليها أحكام إلا ما وافق النص.
- إرهاصات البعثة دليل فقه على أهمية التمهيد للدعوة وتبشير الناس بها، وقد فعله الله نفسه قبل بعثة نبيه، وهذا أصلٌ في الحكمة والرفق في الدعوة.

الفوائد الأخلاقية والتربوية:

- الاستعداد الكوني لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّمنا أن للأحداث الجليلة تمهيدًا، فليكن للدعاة اليوم هَيبة وبِشارة وتمهيد في قلوب الناس قبل أن يُنكروا عليهم.
- عظمة النبي صلى الله عليه وسلم كما ظهرت في آثار الميلاد تُعلّمنا أن نُجله ونُعظمه بقدر ما عظّمه الله، لا إفراطًا في الغلو، ولا تفريطًا في التهوين.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير فيه تربية على الاقتداء بنوره وهديه، والبعد عن الاستمداد من غيره في منهج الدعوة والتربية والسلوك.
- تمهيد الله للبعثة بهذه الآيات العظيمة يربي فينا التوكل على الله في تمكين الحق، لا العجلة أو الاتكال على الوسائل وحدها.
- فرح السماء والأرض بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى أن نفرح بالهداية كما فُرِحت به الأكوان، وأن نُحب النبي حقًا لا شعارًا.

الفوائد الدعوية والإيمانية:

- بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت نقطة تحول في تاريخ البشرية، والداعية ينبغي أن يستلهم من هذه اللحظة كيف يُحدث أثرًا حقيقيًا في الناس بالحق لا بالصخب.

- من دلائل النبوة أن يتغير الكون بأسره عند ميلاد نبي، وهذا يُعزّز إيمان الناس بالرسالة، ويدفعهم إلى تصديقها، ومنهج الدعوة يبدأ بتقوية الإيمان قبل التشريع.
- إرهاصات البعثة دعوة مفتوحة للتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وأن للكون إشارات من الله، لا يراها إلا أصحاب القلوب الحية.
- ختم الرسالات بنبينا صلى الله عليه وسلم يُحتم على كل داعية أن يقتدي به، ولا يبتدع طريقًا غير طريقه، ولا يهتدي بغير هداه.

مخالفات الواقع المعاصر لما في الفقرة:

- بعض "الفرق الضالة" تنكر ختم النبوة وتزعم بقاء الوحي، كالقاديانية والبهائية، وهذا تكذيب صريح للقرآن والسنة وإجماع الأمة.
- انتشر اليوم التنجيم وقراءة الأبراج بزعم أنها من علوم الطاقة أو الفلك، وهي صورة معاصرة من الكهانة التي أغلق الله بابها يوم البعثة.
- يُروّج بعض المتصوفة لغلوٍ في النبي صلى الله عليه وسلم يرفعه إلى مرتبة تصرف الكون، وهذا مخالف لعقيدة أهل السنة التي ترى أن النبي عبدٌ رسول، لا يُعبد ولا يُغلى فيه.
- يُهمل كثير من الناس اليوم دراسة سيرة الميلاد النبوي والتأمل في إرهاصاته، ويُستبدَل ذلك بالاحتفالات الخالية من المعنى، مما يُفرغ المناسبة من مضمونها الإيماني.
- يزعم بعض الدعاة أن تغيير الواقع لا يحتاج إلى وحي، وإنما يكفي فيه العلم والإنسانية، وهم بهذا يُبطلون أصل الرسالة، ويُشبهون مَن قال: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾.
- من الناس من يستخف بأهمية دلائل النبوة، ويزعم أنها خرافات أو أساطير الأولين، وهذا هو حال "العقلانيين الحداثيين" الذين يُنكرون المعجزات ويُحاكمون الوحي لعقولهم.
- يُربّي بعض المعلمين والأهالي أبناءهم على حب الشخصيات الغربية أو الرموز الفنية أكثر من حب النبي صلى الله عليه وسلم، في حين أن الكون نفسه اهتز لمولده الشريف.

الفقرة الرابعة عشرة :الناس يبحثون عن النور – قلوب تعلّقت بالسماء

رغم أن ظلمة الجاهلية كانت قد أحكمت خناقها على الأرض، وسكنت الأرواح في ظلالها الباردة، وتبدّت للعيون صور من الانحراف والتخبط والضياع، إلا أن هناك في زوايا التاريخ ظلالًا واهنة من نورٍ خافت، تنبض في القلوب الحيّة، وترتجف في الأرواح المستيقظة، كأنها شموع فطرة لم تنطفئ، وأشواق أرواح ما زالت ترقب فجر الهداية، وتتشوف إلى يوم يبدد فيه الله ليل الجهل بنور النبوة.

لم تكن كل القلوب سواء، ولم تكن الأرض كلها أرضًا ميتة، بل بقيت فيها بقع مباركة لا تزال تحتفظ ببذور الإيمان، تنتظر الغيث من السماء. ومن هذه القلوب قلب ذلك الشاب الفارسي الذي لم يهدأ له بال، ولم يسكن له قرار، قلب سلمان الفارسي رضي الله عنه، الذي سمع أن في الأرض نبيًّا يُنتظر، وأن بقايا الكتب المنزلة ما زالت تبشّر بطلوع شمس من جزيرة العرب، فترك وراءه القصور، وتخلى عن الراحة، وخرج من حضن المجوسية التي ورثها، ليبحث عن الحقيقة بين الرهبان والزهاد، فكان كلما سمع عن عابدٍ أو عالمٍ صالح شدّ إليه الرحال، حتى انتهى به المطاف عبدًا في يثرب، منتظرًا

النبي الذي وصفه له الراهب الصالح بأوصافٍ لا تُخطئ: "يُهاجر إلى أرض بين حرتين، بين لابتيها نخل، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة."

وجاء اليوم الموعود، وطلعت شمس النبوة، فإذا بسلمان يرى أوصاف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم تنطبق عليه واحدة تلو الأخرى، فيخرّ باكيًا، ويقول بلهفة العارف" :**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.**"

وفي الجزيرة نفسها، وعلى أطراف مكة، وداخل جنباتها، كانت هناك قلوب أخرى قد ملّت عبادة الحجارة، وتفطّرت أرواحها من قبح الوثنية، فأنكرت الأصنام، وتنكرت للتقاليد الفاسدة، وشرعت تبحث عن ملة إبراهيم عليه السلام، موقنة أن خلف هذا الضلال نورًا سيأتي لا محالة.

كان زيد بن عمرو بن نفيل يقف في وجه قومه قائلًا: "يا معشر قريش، ما منكم على دين إبراهيم غيري!"، يأنف أن يأكل مما ذُبح على النُصُب، ويرفض أن يشارك في عبادات الأصنام. وكان يجوب الشام والحجاز بحثًا عن الحقيقة، حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح»:**يدخل الجنة وحده بيني وبين عيسى بن مريم**] «رواه أحمد بسند حسن.[

وكان ورقة بن نوفل من أولئك الذين قرأوا الكتب، وتدبروا النبوءات، وكان قد تنصر في الجاهلية ودرس التوراة والإنجيل، وكان يقول: "يُوشك أن يُبعث فيكم نبي، وأنا لئن أدركته لأنصرنه نصرًا مؤزرًا"، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهبت إليه خديجة بعد نزول الوحي، قال كلمته الخالدة" :**هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى.**"

وكان من هؤلاء أيضًا عثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وغيرهم من الذين أضاء الله بصائرهم وهم في ليل الجاهلية الحالِك.

وهكذا، وفي خضم هذا الليل المدلهم، كانت هناك قلوب تنادي السماء، وتلهج بالدعاء، تقول" :**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه**"، وهم لا يعلمون أن النور بات قريبًا، وأن الوحي يستعد للهبوط، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد طُهر قلبه، وشُقّ صدره، وأعدّه الله لحمل الرسالة الخاتمة.

قال الله تعالى :﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب**﴾]آل عمران: ١٩٩.[
وقال سبحانه :﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾]الأعراف: ١٥٩.[

فهؤلاء السابقون من أهل الفطرة وأهل الكتاب، كانوا كأنهم مشاعل تمهّد لطريق النبوة، وتُبشّر بعصرٍ جديد، عصرٍ تنقشع فيه ظلمات الجهل، وتشرق فيه شمس الرحمة، ويُبعث فيه رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، نورًا وهدًى وبشرى للمؤمنين.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية

- فطرة الإنسان السليمة لا تموت مهما اشتد ظلام الضلال، وهي دليل على أن التوحيد مغروس في قلوب الناس بفطرة الله التي فطرهم عليها.
- الله عز وجل يهيّئ في كل زمن من يحفظ دينه، ولو كان في أزمنة الجاهلية، فيظهر من يشتاق إلى الحق وينفر من الشرك، كما كان حال سلمان وزيد وورقة.
- وجود بشارات الأنبياء السابقين بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المنزلة يدل على وحدة الرسالات السماوية في أصلها، وأن الإسلام امتداد لها.
- الإيمان الحق لا يأتي من التقليد الأعمى، بل من طلب الحق والصبر في سبيله، كما كان حال سلمان الفارسي الذي ضحى بكل شيء ليهتدي.

- الإيمان بأن النبوة لا تكون إلا بوحي من الله، وأن صفات النبي صلى الله عليه وسلم كانت علامة على صدقه لمن بحث بتجرد.
- الإقرار برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كان واجبًا على من أدركه من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم، ومن آمن منهم فله أجره عند ربه.
- الله تعالى يصطفي من عباده من يشاء لهداية الناس، ويهيئ قلوبًا لتكون أوعية للنور قبل أن ينزل الوحي، وهذا من دلائل العناية الإلهية.

فوائد فقهية

- لا حرج في الاستفادة من علم أهل الكتاب إذا وافق الحق، كما حصل مع سلمان وورقة، بشرط أن يُعرض ذلك على ما جاء به الإسلام.
- يجوز للمسلم أن ينتقل ويترك بلده بحثًا عن العلم والدين الصحيح، بل قد يكون ذلك واجبًا إذا تعذر عليه إقامة الدين في مكانه.
- وصف الراهب الصالح للنبي صلى الله عليه وسلم بأوصاف دقيقة يُظهر مشروعية تتبع دلائل النبوة والاستدلال عليها قبل نزول الرسالة.
- ما فعله سلمان الفارسي من ترك المجوسية ودخول الإسلام يبيّن أن من نشأ في غير ملة الإسلام ثم بحث عن الحق حتى وجده يُعد من أهل الفضل.
- زهد زيد بن عمرو في أكل ما ذُبح على النصب يدل على تحريم ما ذُبح لغير الله حتى قبل بعثة النبي، فكيف بعد ذلك!
- قول النبي صلى الله عليه وسلم في زيد يدل على أن الله يثيب من اجتهد في طلب الحق قبل الإسلام، إذا لم يُدركه الوحي وعمل بما علم.

فوائد أخلاقية وتربوية

- الصدق في طلب الحق يورث الهداية، فمن كان صادق النية، ولو ضل فترة، فإن الله يوفقه إلى الصراط المستقيم.
- التضحية بالراحة والجاه والمال في سبيل الوصول إلى الحقيقة من أعظم دلائل الإخلاص، كما فعل سلمان الفارسي رضي الله عنه.
- ترك التقاليد الباطلة – ولو كانت من دين الآباء – من شيم أصحاب العقول الواعية والقلوب الحيّة.
- الشوق إلى النور والرغبة في الهداية خلقٌ شريفٌ، وهو ما دفع أولئك الأفراد لترك الشرك والسفر الطويل طلبًا للحق.
- المثابرة في البحث، وعدم التسرع في تبني أي قول، يدل على حسن التربية الفكرية التي تبني القلوب على التثبت لا التهور.
- الدعاء بصدق كما جاء في العبارة: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه) هو من أعظم أبواب الهداية.
- تسليم سلمان وورقة وزيد للحق حين ظهر، وعدم التردد أو المكابرة، مثال عملي على التواضع للحق والانقياد له.

فوائد تاريخية وسياقية

- فترة ما قبل البعثة لم تكن ظلامًا كاملًا، بل كان فيها نفوس تستعد للنور، وهو ما يعرف بـ (الحنفاء) الذين بقوا على التوحيد.
- بعض أهل الكتاب لم يطمسهم التحريف، بل ظلوا ينتظرون نبيًا، واستدلوا بأوصافه في كتبهم، مما يدل على بقاء الحق

رغم التحريف.

- مكة والجزيرة لم تكن خالية من بذور الخير، بل كانت تُهيأ لتكون مهدًا للنبوة الخاتمة.
- هذه القصص التاريخية تُظهر أن الإيمان لا يقتصر على بيئة أو نسب، فقد يكون المهتدي من فارس، أو من قريش، أو من النصارى.
- دعوة الإسلام لم تبدأ من فراغ، بل سبقتها تمهيدات في القلوب، وهذا من تدبير الله في إعداد النفوس لاستقبال الحق.

مخالفات الواقع

- التعلق بالأفكار الجاهلية الحديثة تحت مسمى "الحرية الفكرية" جعل كثيرًا من الناس يرفضون الحق لمجرد مخالفته لثقافتهم الموروثة.
- تساهل كثير من الناس في مسألة اتباع الأهواء، بل والاعتزاز بالفرقة التي ينتمون إليها، دون طلب للحق ولا تثبت، وهذا من سمات الفرق الضالة.
- قلّ من يضحي اليوم براحة دنياه بحثًا عن طريق الله، بل صار الدين عند البعض تبعًا للمصلحة، لا هادٍ في الطريق.
- الكثيرون يجهلون البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة، ويتأثرون بدعاوى أعداء الإسلام أن الإسلام مبتدع جديد.
- بعض من ينتسبون للإسلام اليوم، إنما يأخذون دينهم بالتقليد من الأهل أو المجتمع، دون تحقيق ولا فهم، وإذا خالفهم الحق أعرضوا عنه.
- ظهور فِرق منحرفة في هذا الزمان تبنّت دعوات تحريفية باسم الدين، تزعم أن الأنبياء لم يكن لهم دلائل واضحة، أو أن الوحي أمر نفسي، كحال بعض المنحرفين الحداثيين.
- ضعف روح البحث عند شباب الأمة، وقلة الصبر على طلب العلم، جعلت فئات تنجرف خلف كل ناعق من أهل الهوى والضلال.

الفقرة الخامسة عشر شيبة الحمد.. المولد المبكر للهيبة والوقار

في مكة المكرمة، حيث تهفو الأفئدة، وعلى ثرى الحرم الشريف الذي باركه الله وجعل له مهابةً في القلوب، بدأت حكاية رجلٍ اجتمعت فيه صفات السؤدد والمجد، فدان له العرب في جاهليتهم، وهابه الملوك، وأجله القريب والبعيد، حتى كأن المهابة وُلدت معه، ووقار العظمة خُطّ على جبينه مذ كان صبيًا.

ذلكم هو **عبد المطلب بن هاشم**، جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، واسمه في الأصل **شيبة الحمد**، سُمِّي بذلك لأن خيوطًا من الشيب ظهرت في ناصيته وهو لا يزال غضّ الإهاب، صبيًّا صغيرًا في حجر أمه، وكأن الله أراد أن يجعل في مظهره إشعارًا مبكرًا لما سيكون عليه من سكينة الوقار، وهيبة العقل، وعلو المنزلة. لقد كان الشيب في زمانه رمزًا للوقار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم"**من وَقَّر ذا شيبةٍ مسلمًا، وقَّره اللهُ يومَ القيامة)** "رواه أبو داود.(

نشأ شيبة الحمد في أحضان أخواله من **بني النجار** في يثرب، فأحاطوه بحنانهم، وربّوه بعاداتهم، ونشأ على مكارم الأخلاق في بيئةٍ تعرف النُبل وتأنف من الضيم. ثم امتدّت يد العناية الإلهية لتأخذه من هناك، حين قدم عمه **المطلب بن عبد مناف** يبحث عنه، فأخذه واصطحبه إلى مكة، فلما رآه الناس قادمًا ومعه غلام في وسامة الملوك وهيبة العظماء، ظنّوا أنه

عبد اشتراه، فقالوا: "هذا عبد المطلب"، فغلب اللقب على اسمه، وطغى المجاز حتى طمس الأصل، وبقي النداء الجديد شاهدًا على تلك اللحظة.

كبر عبد المطلب فكبرت معه السيادة، وتدرج في مراقي المجد حتى صار زعيمًا لقريش، وسيدًا لبني هاشم، لا يُنافَس في رأي، ولا يُرد له قول، وكان من صفاته ما يُفتن به الفؤاد من حسن الخلق، وسخاء اليد، وسمو النفس، وكرم الضيافة، وعظمة الهيبة. تولّى **سدانة الكعبة**، ورفع لواء **سُقيا الحجيج**، فكان يطعمهم في الموسم، ويجلب لهم الماء في القحط، ويكرم الوفود، ويعظّم شعائر الله، على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، دون أن يعرف تفاصيل الرسالة، لكنه سار على الفطرة.

وما لبث أن تجلّت مكانته حين أراد الله له شرف إحياء سنةٍ اندثرت، ومعجزةٍ خالدة، وذلك حين رآى في منامه رؤى تتكرر وتدعوه إلى حفر بئر زمزم، تلك البئر المباركة التي غارت آثارها منذ أمد بعيد، وطُمِس ذكرها في أعماق الرمال. ولما همّ بحفرها، لاقى من قريش اعتراضًا شديدًا، وخذله الناس، إذ لم يكن له في ذلك الوقت سوى ولدٍ واحد. فرفع عبد المطلب كفيه إلى السماء، وناجى ربه بإيمانٍ صادق، ونذر لله نذرًا مهيبًا فقال:
"اللهم إن رزقتني عشرة من البنين، وبلغوا من القوة مبلغ الرجال، لأذبحنَّ أحدهم قربانًا لك عند الكعبة."

كان نذرًا عظيمًا، لا تصدر مثله الكلمات إلا من قلبٍ يعلم أن القرب من الله أسمى من الأبناء، وأن الوفاء بالعهد لله أعظم من التعلّق بالمحبوب. ومرت الأعوام، فإذا بعبد المطلب يُرزق عشرةً من البنين، كلهم بلغوا مبلغ الرجولة، وكل منهم فيه سمت الزعامة وأثر النجابة. وحان وقت الوفاء بالنذر، فأجرى عبد المطلب قرعةً بينهم، فخرج سهم القدر على أحبهم إلى قلبه، على **عبد الله**، ذلك الشاب النقي الذي ما انطفأ نور الطهر عن وجهه منذ وُلد، والذي شاء الله أن يُربَّى ليكون أبًا لأعظم خلقه، النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولم تكن نهاية القصة هنا، بل كانت بدايةً لمشهدٍ من مشاهد النور، وسَطْرًا أول في صفحة النبوة، تلك التي ستُكتب بنور الوحي، وتُروى للعالمين**{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}**[الشرح:٤]
فرفع الله ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم، كما رفع ذكر أجداده الأطهار، فجعل عبد المطلب منارًا في التاريخ، تتلمس منه القلوب معاني الفطرة، والهيبة، والوفاء.

الفوائد المستخرجة من الفقرة:

فوائد عقدية

- الهيبة والعظمة قد يجعلها الله هبة فطرية يخلق بها من يشاء من عباده، فيكون ذلك إعدادًا لمقام عظيم يُهيّأ له في مستقبل الأيام.
- ظهور الشيب على الصبي شيبة الحمد كان علامة ظاهرة على أن الله يصطفي من عباده من يحملون سمات الوقار والتمهيد لمكانة محورية في الدين والتاريخ.
- إقامة عبد المطلب على الفطرة قبل الإسلام، وتعظيمه لشعائر الله دون علم مفصل بالرسالة، يؤكد أن من الناس من تبقى فطرته نقية حتى يبعث الله الرسول.
- رؤيا عبد المطلب في شأن زمزم ثم تحققها يؤكد أن الله قد يرسل للناس إشارات وعلامات في المنام تمهيدًا لأمر عظيم، والرؤيا الصادقة جزء من النبوة.
- نذر عبد المطلب قربانًا لله يدل على عمق استشعاره لعظمة الله، رغم أنه لم يكن نبيًا، مما يدل على وجود الإيمان الفطري قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.
- اختيار القدَر لعبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم في القرعة تمهيدًا للنبوة، يدل على أن الله يصطفي لرسالته خيار الناس نسبًا وأدبًا وخلقًا.

فوائد فقهية

- حديث النبي صلى الله عليه وسلم في توقير ذي الشيبة يدل على فضل إكرام كبار السن وهي سنة متروكة في واقعنا، وقد جعل لها النبي وعدًا إلهيًا بالمقابل يوم القيامة.
- الوفاء بالنذر لله واجب إذا كان نذر طاعة، كما فعل عبد المطلب حين أتمّ قرعة النذر، وهذا أصل فقهي معتمد.
- إحياء السنن المهجورة كإعادة حفر بئر زمزم يُعد من الأعمال الجليلة التي تُؤجر، وهو من فروض الكفايات إذا تعلق بمصالح الناس.
- تولّي عبد المطلب لسدانة الكعبة وسقاية الحجاج يشير إلى مشروعية خدمة الحرم وضيوف الرحمن، وهو من أعمال البر الموروثة منذ ملة إبراهيم عليه السلام.
- عمل القرعة عند تعارض المصالح مشروع، وقد فعله عبد المطلب لاختيار من يُقدم للنذر، ويظهر من هذا مبدأ الرجوع إلى القرعة عند التساوي، كما في قصة أصحاب السفينة في القرآن.

فوائد أخلاقية وتربوية

- الوقار لا يُكتسب فقط مع السنين، بل قد يولد مع الإنسان كصفة تُرافقه، ويجب على المربين ملاحظتها وتنميتها عند الصغار.
- حسن الخلق وكرم الضيافة من أسباب السيادة في الناس، حتى في الجاهلية، فكيف إذا اقترنت بالإيمان والتقوى؟
- النبل وكراهية الظلم خُلقان لا يولدهما الدين وحده، بل تربيهما الفطرة السليمة، وهذا ما نشأ عليه عبد المطلب في يثرب.
- إكرام الضيف، والسعي لسقيا الحجيج، والقيام بخدمة الناس من دلائل المروءة والرجولة التي ينبغي غرسها في الأجيال.
- رفع عبد المطلب يديه داعيًا متضرعًا، وهو وحده بلا أنصار، يعلمنا أن الدعاء سلاح المؤمن في الشدة، ولو خذله الناس.
- استعداد عبد المطلب للتضحية بأحب أولاده عند صدق النذر يدل على الإخلاص العظيم في الوفاء، وعلى أن الحب لا ينبغي أن يزاحم حق الله تعالى.
- جمال النفس والسمت الحسن يترك أثرًا في القلوب حتى قبل أن يتكلم صاحبه، كما ظهر في وصف عبد المطلب عند قدومه مع عمه.

فوائد تاريخية وسياقية

- اسم "عبد المطلب" لم يكن اسمه الحقيقي، بل أطلق عليه مجازًا ثم غلب على اسمه، وهذه من ظواهر التاريخ الشفهي في الجاهلية.
- نشأة عبد المطلب في يثرب ثم انتقاله إلى مكة يشير إلى الصلات العائلية العميقة بين أهل مكة وأهل المدينة قبل الإسلام، وقد مهّد هذا الارتباط لمرحلة الهجرة لاحقًا.
- قصة حفر زمزم بعد اندثارها قرونًا تثبت أن الكعبة وحماها لم تخلُ يومًا من الرموز الإيمانية التي حافظت على شيء من الدين قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.
- ذكر عبد الله بن عبد المطلب والد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الله اصطفاه ليكون من نسله خير البرية، يبيّن أن النبوة لا تأتي من فراغ، بل بتمهيد سابق في النسب والطهارة.

مخالفات الواقع

- كثير من المجتمعات اليوم لم تعد ترى الوقار والشيب رمزين للتقدير، بل تنظر إليهما كعلامة ضعف، مما يخالف تعظيم الشريعة لوقار الشيوخ.
- يُهمل كثير من الناس اليوم الوفاء بالنذر، فيتلفظون به في الشدة ثم يتناسونه في الرخاء، وقد قال الله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].
- باتت خدمة الحجاج والزوار في بعض البلدان عملاً تجاريًا لا عباديًا، تغلب عليه المظاهر بدل النيات، بينما كان عبد المطلب يطعم الحجيج إيمانًا وتعظيمًا.
- ضعف فقه القرعة واللجوء إليها في حل النزاعات اليوم، بل ينفر منها الناس رغم أنها مشروعة وقد أقرها النبي صلى الله عليه وسلم.
- فقد كثير من الآباء اليوم روح التضحية والصدق في الالتجاء إلى الله في الشدائد، كما فعل عبد المطلب حين رفع يديه يطلب العون وحده.
- قلّ في زماننا من يُربّي أبناءه على العزة والفطرة، كما ربّى بنو النجار شيبة الحمد في صغره على مكارم الأخلاق دون تكلف.
- هناك من ينكر كرامات الصالحين ورؤى المبشرات بحجة العقلانية الزائدة، متأثرين بأفكار الفرق العقلانية المنحرفة التي أنكرت دلائل الإيمان غير المحسوسة.

الفقرة السادسة عشرة :عبد الله بن عبد المطلب... النور الذي اصطفته العناية الإلهية

في رحاب مكة المكرمة، وتحت ظلال البيت الحرام، وُلد عبد الله بن عبد المطلب، ذاك الغلام القرشي الذي نشأ في بيت الطُّهر، وتربى في حجر السيادة والمروءة والمكانة، بيتٍ عريقٍ تجتمع فيه أنساب بني هاشم، وتتشابك فيه خيوط الشرف والنبالة.

كان عبد الله – كما وصفه المؤرخون – من أجمل شباب قريش وجهًا، وأطهرهم سريرة، وأكرمهم خلقًا، وكانت هيبته تسبق خطاه، ويُروى أنه كان مضيئًا كالقمر ليلة البدر، كأن في وجهه قبسًا من نور النبوة الذي ستحمله صلبُه، فيغمر به الأرضَ بعد حين.

وقد بلغ من حب عبد المطلب له، ما جعله أقرب أولاده إلى قلبه، وأعزهم عليه منزلة، فكان قلبه معلقًا به تعلق الروح بالجسد.

لكن عبد المطلب، ذلك الرجل الذي كان يرى ما لا يراه سواه، نذر لله نذرًا عظيمًا حين أكرمه الله بحفر زمزم، بعد أن طُمست على أيدي قبيلة جرهم، إذ قال في لحظة يقين" :**اللهم إن رزقتني عشرة من البنين، وبلغوا من القوة مبلغ الرجال، لأذبحنَّ أحدهم قربانًا لك عند بيتك الحرام."**

كان نذرًا من نوع خاص، لا يُطلقه إلا قلب امتلأ يقينًا بالله، وعقيدة تُدرك أن القُرب من الله أعظم من قرب الأب من فلذة كبده.

فلما استجاب الله له، وبلغ عدد أبنائه عشرة، وكان آخرهم عبد الله، وبلغوا أشُدّهم، جمعهم عبد المطلب، وكتب أسماءهم في قداح، ثم أتى بها إلى هُبل – وكان منصوبًا عند الكعبة – وأجرى القرعة عنده، فوقعت على عبد الله... قلبه، وروحه، وفلذة كبده.

ومع أن المصاب كان جللاً، فإن عزيمة الوفاء كانت أقوى، فمضى بعبد الله إلى المذبح، ليحقق نذره دون تردد، وقد اجتمع الناس يبكون ويصرخون، ويعجبون من هذا الصدق، وهذا الوفاء الذي لا تزعزعه العواطف.

لكن قريشًا لم تقف مكتوفة الأيدي، فتدخل سادة الحي، وقالوا له: "لا تذبحه حتى تعذر فيه"، فأخذوه إلى كاهنة بني سعد، فاقترحت أن يفديه بمائة من الإبل، فأجرى القرعة بين عبد الله والإبل، فوقعت القرعة أول مرة على عبد الله، ثم أعادها مرارًا، حتى وقعت على الإبل، فذبحها وفدى ابنه بها، وسرت هذه السنة في العرب بعده، فجُعلت الدية مائة من الإبل، كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" **:في النفس المؤمنة مائة من الإبل]** "رواه البخاري ومسلم.[

وقد حفظ الله بذلك ذلك النور المكنون في عبد الله، النور الذي لم يكن نور جسد، بل كان نور الرسالة، نور الهدى، نور محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيه:﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾]المائدة: ١٥.[

ثم ما لبث عبد الله أن زُفَّ إلى آمنة بنت وهب، تلك المرأة الطاهرة النسب، الزكية الحسب، من أشرف نساء قريش في قومها بني زهرة. كان زواجه بها زواجًا مُقدّرًا في السماء قبل أن يُكتب في الأرض، إذ اجتمع فيه أطهر نسبين، وأكرم أصلين، فكان ذلك الزواج منطلق النبوة، ومبتدأ النور.

ولم تمضِ على زواجه سوى شهور، حتى خرج عبد الله في تجارة إلى الشام، ضمن قافلة لقريش، فلما رجعوا، مرّ بيثرب، وأصابه المرض، فنزل عند أخواله من بني النجار – الذين سيأوي إليهم ابنه يوم الهجرة – فاشتد عليه المرض، ولم يُكتب له أن يرى ولده، ولا أن يسمع صوته، ولا أن يضمّه إلى صدره.

مات عبد الله في دار الغربة، وترك خلفه جنينًا لم يُبصره، حملته أمه آمنة، وهي لا تدري أنها تحمل في أحشائها خاتم النبيين، وسيد المرسلين، ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

لقد كانت تلك اللحظة بداية التاريخ، حين شاء الله أن يهيّئ لهذا النبي يتمًا قبل الميلاد، ليكون معتمدًا على الله وحده، مكفولًا بعناية الرحمن، كما قال سبحانه:﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾]الضحى: ٦.[

وكانت بداية النور الذي سيتلألأ في بطحاء مكة، ثم يشقّ الظلمات حتى يملأ الأرض هدى ونورًا ورحمة، كما قال عز وجل :﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية

- العناية الإلهية تسبق الأحداث، وتختار من تصطفيه لرسالته قبل أن يُولد، فتُهيئ له النسب، والبيت، والقدر، كما فعلت مع عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم.
- النور المحفوظ في عبد الله لم يكن نورًا جسديًا، بل كان نور الرسالة الذي سينتقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مما يثبت أن النبوة اختيار رباني سابق للوجود الزمني.
- مشروعية الإيمان بالقدر لا تعني الخضوع السلبي، بل تدفع للوفاء بالعهود كما فعل عبد المطلب رغم شدة البلاء، واليقين بالاختيار الإلهي لعبد الله لحمل النور.
- اختيار نسب النبي صلى الله عليه وسلم من أطهر الأنساب دليل على أن الله يصطفي لرسالته خيار الخلق، نسبًا وخلقًا، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤.[
- يتم النبي صلى الله عليه وسلم قبل ميلاده دليل على أن كفالته كانت من الله مباشرة، ليربى على عين الرحمن، وتُقطع أسباب التعلق بالبشر من أول لحظة.
- الفداء بالإبل بدل الذبح، ثم تقرير الشريعة له بعد ذلك، يدل على أن الله يقر أفعالًا قد تكون قبل الإسلام إذا وافقت الحكمة والحق، ويجعلها أصلًا في التشريع.

- تأخر موت عبد الله، ومروره على بني النجار، فيه تهيئة ربانية مبكرة للهجرة النبوية، فارتباط النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة بدأ من رحم النسب.

فوائد فقهية

- النذر إذا تعلق بطاعة يجب الوفاء به، وله ضوابط، وقد كان عبد المطلب في زمن الجاهلية، ولكن فعله وافق أصلًا من أصول الإسلام.
- مشروعية الفداء في النذر، وأنه يجوز العدول إلى فدية بإشارة من أهل الرأي والمشورة، كما فعلت قريش، واستقرت به الدية مائة من الإبل.
- الأصل في الذبائح أن تُفعل لله، ولكن لا يجوز أن تُفعل على معبود باطل، ولهذا لم يُقر الإسلام إجراء القرعة عند صنم كما كان في الجاهلية.
- تقرير النبي صلى الله عليه وسلم لقيمة الدية بمائة من الإبل يؤكد أن بعض السنن الجاهلية إن وافقت الحكمة أقرها الإسلام، وجعلها جزءًا من شريعته.
- حفظ الأنساب من مقاصد الشريعة، ويظهر ذلك في الاعتناء التام بنسب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ اختير له والدان من أشرف البيوت.
- الجنين في بطن أمه له شأن عظيم في الشريعة، ويُؤخذ بحقوقه قبل أن يولد، كما حفظ الله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو في بطن أمه آمنة.

فوائد أخلاقية وتربوية

- الحب الشديد لا يمنع المؤمن الصادق من الوفاء بعهدٍ لله، كما فعل عبد المطلب حين قدم عبد الله للمذبح وفاءً بنذره، وهذا من أعظم صور الإخلاص.
- عظمة الرجل لا تقاس بكثرة ولده فقط، بل بقدرته على الوفاء، وحكمته في الاختيار، وصدقه في التوكل، كما تجلى في مواقف عبد المطلب.
- تحمل البلاء دون جزع، والمضي في العهد رغم المصيبة، من دلائل الرجولة التامة، والتربية العميقة على تحمل التبعات.
- المرأة الصالحة لا تُختار لجمالها فقط، بل لحسبها ونسبها وديانتها، كما اختيرت آمنة بنت وهب لتكون أمًا لخاتم النبيين.
- الوفاء العاطفي لا يتنافى مع العقل والحكمة، فعبد المطلب أحب عبد الله حبًا شديدًا، لكنه لم يمنعه من تقديمه للنذر.
- موت الأب لا يعني ضياع الابن، فالعبرة بكفالة الله، لا بكثرة الخلق، وهذا درس تربوي عظيم في الاعتماد على الله لا على البشر.

فوائد تاريخية وسياقية

- العرب في الجاهلية كانوا أهل نبل في بعض خصالهم، كتعظيم النذر، وحفظ النسب، والصدق في الوفاء، مما مهّد لدعوة الإسلام.
- ارتباط بني هاشم ببني زهرة في النسب والزواج مهد لصلة قوية بين القبائل الكبرى في مكة، وأسهم في انتشار دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته.
- قصة موت عبد الله في يثرب، وإقامته عند بني النجار، تبيّن عمق العلاقة المبكرة بين النبي صلى الله عليه وسلم والمدينة قبل أن يُبعث.

- تقدير قريش لحياة عبد الله، وتدخلهم لطلب فديته، يدل على مكانته في قومه، وأن قريشًا كانت ترى فيه شيئًا فريدًا، وهو ما تحقق في ذريته.
- انتشار سنة الفداء بالإبل بعد عبد الله، ودخولها في عرف العرب، يوضح كيف تتأصل الأحكام بالتجربة، ثم تأتي الشريعة فتُقر ما وافق الحق.

مخالفات الواقع

- فقدان روح الوفاء بالنذر في زماننا، حتى صار كثير من الناس ينذرون في الشدة، ثم يتكاسلون عن الوفاء به بعد الفرج.
- الاستخفاف بمكانة النسب الشريف في بعض الأوساط، رغم أن الإسلام اعتنى به، ورفع نسب النبي صلى الله عليه وسلم فوق سائر الأنساب.
- ضعف الوعي بقيمة المرأة الصالحة في الزواج، إذ يكثر اليوم النظر إلى الجمال والمال دون التفات إلى الطهر والحسب والدين.
- التشكيك في النبوة، وفي سير أجداد النبي صلى الله عليه وسلم، من بعض الفرق المنحرفة التي تطعن في السيرة وتزعم أن النبوة لا تُختار.
- الجهل بقدر النبي صلى الله عليه وسلم، وظهور من يقلل من مكانته أو يشكك في كماله الخَلقي والخُلقي، وقد جاء من صلب أطهر الناس.
- ضياع فقه الاعتماد على الله في تربية الأبناء، واعتماد كثير من الآباء على الدنيا وحدها، وترك التوكل الحقيقي كما فعله عبد الله بن عبد المطلب حين تركه الله يتوفاه ليكفله سبحانه مباشرة.
- انتشار الثقافة المادية التي ترى اليُتم سببًا للضعف، بينما اليُتم في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كان مدخلاً للتربية الربانية الفريدة.

.

الفقرة السابعة عشرة :آمنة بنت وهب – مهد النور وأمه

لم يكن عبد الله ليقترن إلا بامرأة كريمة النسب، طاهرة الأصل، نقية العرض، تليق بمقام النور الذي يحمله.
فكانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، من خير نساء قريش نسبًا، وأكملهن خُلقًا، وعقلًا، وأدبًا.
زُفّت إلى عبد الله في زواج مبارك، جمع الله فيه بين أطهر نسبين، من أكرم بيوت العرب، وقد كانت تُبصر فيه المهابة والجمال، وكان يرى فيها السكينة والوقار.

وما لبث عبد الله أن خرج في تجارة إلى الشام، وتركها حاملًا بنور العالمين، فلم يلبث أن بلغها نبأ وفاته في يثرب، فترمّلت وهي في ريعان الشباب، وحملت جنينها الذي لم يسمع صوت أبيه، ولم يرَ وجهه.

وحين وضعت وليدها، شعرت كأن الكون كله قد استبشر، فقد كان ميلاده صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، في عام الفيل، بمكة المكرمة، كما أخبرت هي بنفسها.

وقد رأت آمنة في حملها رؤيا أدهشتها، إذ جاءها من يقول:
"إنكِ قد حملتِ بسيّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شرّ كلّ حاسد، ثم سَمّيه محمدًا."

فأطاعت، وسمّته محمدًا، وكان اسمًا جديدًا على العرب، وكأن الله ألقى في روعها أن ابنها سيكون محمودًا في الأرض، مشهودًا له في السماء.

ربّت آمنة ابنها ست سنين، تحوطه برعايتها، وتغذّيه بعاطفتها، ثم خرجت به إلى يثرب تزور قبر زوجها، فلما عادت، مرضت في الطريق، وأسلمت روحها في الأبواء، بين مكة والمدينة.
فصار محمدٌ صلى الله عليه وسلم يتيم الأبوين في أول عمره، لكن الله آواه، وربّاه، واختصّه بقوله :﴿**ألم يجدك يتيمًا فآوى**﴾]الضحى: ٦.[

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية:

- اصطفاء الله لآمنة بنت وهب لتكون أمًّا لخاتم الأنبياء يدل على أن الله يختار لأمره من هو أهلٌ له، وهو معنى من معاني قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

- ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم كان حدثًا ربانيًّا فارقًا في التاريخ، اختاره الله في الزمان والمكان، مما يُظهر عظمة العناية الإلهية بسير المقادير.

- رؤية آمنة أن ابنها سيكون "سيد هذه الأمة"، وتوجيهها لتسميته محمدًا، من البشارات الربانية التي تدل على صدق النبوة، وأن الله يُمهّد لبعث الرسل بما يسبقهم من دلائل.

- الآية ﴿ألم يجدك يتيمًا فآوى﴾ تُظهر عظمة الرعاية الربانية التي لا تغيب عن أوليائه، مهما اشتدت ظروفهم، وأن اليتيم لا يعني التخلي، بل قد يكون بداية التشريف والتكريم.

- تسمية النبي صلى الله عليه وسلم باسم "محمد" بإلهام من الله، مع كونه اسمًا غير مألوف، فيه دلالة على تميّزه وعلوّ منزلته عند الله منذ ميلاده.

فوائد فقهية:

- في الحديث عن زواج عبد الله بآمنة بنت وهب، واعتبار ذلك زواجًا مباركًا، تنبيه على أن النكاح ميثاق شرعي عظيم تُبنى به بيوت الطهر والنسب، وهو الأساس في بناء الأُسر الكريمة.

- مشروعية تعويذ المولود عند ولادته كما فعلت آمنة، وهو ما جاء لاحقًا صريحًا في سنن النبي صلى الله عليه وسلم بالأذكار المشروعة عند الولادة وحماية الأبناء.

- زيارة القبور للتذكر والاتعاظ مشروعة، وقد فعلتها آمنة حين خرجت إلى يثرب لزيارة قبر زوجها، وهذا أصلٌ في جواز زيارة المرأة للقبور إن أمنت الفتنة وكانت على أدب المشروع.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- في اختيار عبد الله لآمنة ذات الأصل الطاهر والنسب الكريم، تأكيد على أهمية اختيار الزوجة الصالحة، فالأصل الطيب أساس في صلاح النشء واستقامة الأجيال.

- وفاء آمنة لزوجها بعد وفاته، وبقاؤها دون زواج، فيه صورة من صور الوفاء والحياء والكرامة عند المرأة، وهو خُلُق نبيل فقده كثير من نساء هذا الزمان.

- حمل آمنة بابنها، وتحمّلها مشاق الحمل والفقد في سنٍّ صغيرة، يدل على ما تختزنه المرأة من صبر وقدرة على الرعاية والبذل، وهو تكريم عملي لدور الأمومة.

- غرس المشاعر في قلب الطفل منذ صغره -كما رعت آمنة النبي صلى الله عليه وسلم ست سنين بحنانها- له أثر باقٍ في تكوين الشخصية القوية، المتزنة، المحبة للناس.

- خروجها بابنها لزيارة قبر والده فيه تعليم عملي لغرس معاني الوفاء في قلب الولد، وتذكيره بأصله وأبيه، وهي تربية وجدانية سامية.

فوائد تاريخية وسِيَرِيّة:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلد في عام الفيل، وهو العام الذي أراده الله علامة فارقة في التاريخ، بإهلاك أبرهة وجيشه، تمهيدًا لميلاد أعظم بشر.

- اسم "محمد" كان جديدًا في العرب، مما يدل على عناية الله بالرسول منذ ولادته، وأنه سيكون ممدوحًا في الأرض والسماء، كما دلت أسماؤه في كتب الأنبياء السابقين.

- وفاته صلى الله عليه وسلم يتيم الأبوين ولم يبلغ السابعة، ثم كفالته من جده ثم عمه، مما يدل على أن النبي نشأ محرومًا من عطف الوالدين، لكن الله تولاه وأعدّه إعدادًا ربانيًّا.

مخالفات الواقع:

- تَساهُل كثيرٍ من الناس في اختيار الزوج أو الزوجة على غير أساس الدين والطهر، بل على الجمال الزائل أو المال، مما يؤدي إلى فساد البيوت وتفككها.

- تفريط بعض النساء اليوم في تعويذ أولادهن، أو تعلّقهن بالخرافات عند الولادة، وترك السنة النبوية في التحصين والدعاء المشروع للمولود.

- غياب الوفاء في العلاقات الزوجية، وقلّة من تُكمل حياتها بذكرى شريكها المتوفى، بل يُشاهد من البعض الجحود والنسيان والانهماك في حياة جديدة دون اعتبار أو وفاء.

- طمس دور الأمومة الحقيقي اليوم، بإشغال المرأة عن بيتها وولدها، حتى صار كثير من الأبناء يتربّون بين أيدٍ غريبة، أو على الشاشات، لا في أحضان أمهاتهم.

- اعتقاد بعض الناس أن اليتيم محكوم عليه بالضياع، بينما الواقع الشرعي أن اليتيم قد يُصبح سيدًا وأمينًا، كما فعل الله مع نبيه صلى الله عليه وسلم، مما يدعونا لإعادة النظرة لليتامى.

- استبدال كثير من المسلمين اليوم أسماء أجنبية لأبنائهم، والتفاخر بها، بدلًا من الأسماء المباركة ذات المعاني النبيلة مثل: محمد، أحمد، عبد الله، وهذا انحدار عن هُوية الأمة.

- تجاهل كثير من الناس اليوم زيارة القبور بغرض التذكر والدعاء، أو انحرافهم عنها إلى بدع وشركيات، بين غالٍ يعبد القبور، وجافٍ لا يعرف الموت ولا يعتبر به.

الفقرة الثامنة: عشر حادثة الفيل

لم يكن عام الفيل ككلّ الأعوام، ولم تكن مكة في ذلك العام ككلّ المدن، فقد شاء الله أن يُهيّئ الأرض لمولد خير البشر صلى الله عليه وسلم ، فمهّد له بأحداث عظيمة تلفت الأنظار إلى هذا البلد الأمين، وتزرع في القلوب خشية الجليل، وتؤذن بأنّ لهذا المولود شأنًا، فابتدأ العام بحادثة رجّت جزيرة العرب، وسارت بها الركبان، وتناقلتها الأجيال، وخَلّد الله ذِكرها في كتابه الكريم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١.]

كان أبرهة الحبشي والي اليمن من قِبل النجاشي، قد رأى العرب يفدون إلى مكة لحجّ البيت الحرام، فأراد أن يصرفهم إلى كنيسة بناها بصنعاء، لم يُر مثلها في زمانها، فكتب إلى النجاشي يُخبره أني بنيت لك كنيسةً لم يُبن مثلها لملكٍ قبلك، وسأصرف إليها العرب، فلما بلغ العرب ذلك، استنكروا ما أراد، فدخل رجلٌ من كنانة الكنيسة ليلًا، فبال فيها، وقيل بل أحدث فيها حدثًا قبيحًا، فلما بلغ أبرهة ما وقع، أقسم ليهدمنّ الكعبة، فجهّز جيشًا عظيمًا، يتقدّمه فيلٌ ضخم يُقال له "محمود"، وسار يقود كتيبة من الخراب، لا تبقي ولا تذر.

وفي الطريق، خرب بعض القبائل التي وقفت في وجهه، وأخذ أموال قريش وإبلها، فخرج عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان سيّد قريش، إلى أبرهة يطلب منه رد إبله، فتعجب أبرهة، وقال: أتيت تهدم بيتكم وتطلب الإبل؟! فقال عبد المطلب قولته الخالدة" *أنا رب الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه.*"!

تقدّم أبرهة بجيشه نحو مكة، فلما بلغ وادي محسر بين مزدلفة ومنى، أوقفوا الفيل ليدخل مكة، فأبى أن يتحرّك، فوجّهوه إلى اليمن فقام يسير، وجنّبوه عن الكعبة فمشى، فإذا وجّهوه إلى الكعبة برك على الأرض، فعلموا أن في الأمر سرًّا، وهنا نزلت نقمة الجبار، فجاءهم عذاب الله من فوقهم، فأرسل عليهم طيرًا أبابيل، جماعات متتابعة، مع كل طائر حجر من سجيل، يُصيب الواحد منهم، فيثقب جسده حتى يخرج من الجهة الأخرى، وانهزم الجيش، وهلك أبرهة، وماتوا كأوراق محترقة، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل:٥.]

وروى الإمام **أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال" :*كان لا يخرج من الجيش أحدٌ إلا حُمّ، فبعث الله عليهم طيرًا أبابيل، مع كل طير ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه، فكانت لا تصيب أحدًا إلا هلك.*"

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" :"*وكان هذا من أعظم آيات الله، وأدلّها على قدرته وسلطانه، فلقد هلك الجيش كله، ونجا البيت العتيق، وعلِم العرب أن له ربًّا يحميه.*"

لقد كانت حادثة الفيل من أعظم دلائل العناية الإلهية بمكة قبل مولد خير من وُطئت قدماه الثرى، كما كانت إيذانًا بأنّ زمن الجاهلية قد بدأ يَأفُل، وأن نور الهداية سيولد قريبًا في هذا الوادي المبارك، من بني عبد المطلب، حفيد من وقف في وجه أبرهة بكلمة ملؤها الثقة بالله" :**للبيت ربٌّ يحميه.**"

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- أن الله تعالى هو المدبّر للأقدار، يُمهّد الأسباب العظيمة لوقوع ما شاء من الخير، كما مهّد الأرض بمحنة الفيل لمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك إثبات لحكمة الله في التقدير.

- إهلاك أصحاب الفيل قبل ولادة النبي صلى الله عليه وسلم فيه دليل على أن حفظ الدين وتأييد دعوته يكون بأمر الله وحده، لا بقوة البشر، وفيه إثبات لقدرة الله القاهرة.

- في امتناع الفيل عن دخول مكة دلالة على أن الجمادات والبهائم مسيّرة بأمر الله، تعلم ما لا يعلمه البشر، وتطيع خالقها، وهذا من دلائل الإيمان بالقضاء والقدر.

- إرسال الطير الأبابيل ومعها الحجارة دلالة على أن الله يُسخّر جنده من كل شيء، من طير وريح وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، وهو من دلائل الإيمان بالغيب.

- قول عبد المطلب: "للبيت ربٌّ يحميه" يقرر عقيدة التوكل على الله والتفويض إليه، وهو الأصل في النجاة من المكائد والشرور، ويُثبت أن لله وحده الحفظ والولاية.

- نزول العذاب من السماء بأصحاب الفيل يؤكد صفة العلو لله، وأنه سبحانه يُرسل عذابه من فوق عباده، وهو ما يقرّره أهل السنة خلافًا لأهل البدع الذين ينكرون العلو.

الفوائد الفقهية:

- حفظ الله للكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يدل على تعظيم هذه البقعة شرعًا، ووجوب صيانتها وحمايتها من كل عدوان، مما يُستفاد منه حكم حماية الحرم وما حوله من تعديات.

- سكوت عبد المطلب عن مقاومة أبرهة ماديًا واكتفاؤه برد الإبل مع التفويض لله، يدل على جواز ترك الأسباب الظاهرة إذا علم العبد أنها لا تُجدي وأن أمر الله واقع، ولا يُعارض ذلك أخذ الأسباب في مواضعها.

- عدم مواجهة أهل مكة للجيش بالرغم من العدوان فيه إشارة إلى فقه الموازنة بين القدرة والعجز، وأن من الفقه ترك المواجهة حين تُعلم عاقبتها المحققة بالهلاك دون نكاية في العدو.

- معاقبة الله لأبرهة وجيشه بلا واسطة بشر تدل على أن الحدود الربانية قد تقع من غير أن تُنفذها الأيدي البشرية، وتؤيد مبدأ أن الله قد يعجّل العقوبة على الظالمين في الدنيا.

الفوائد الأخلاقية:

- في حادثة الفيل دروس في الثقة بالله في أحلك الظروف، كما فعل عبد المطلب حين فوّض الأمر لله، فكان جزاؤه نصرة ربانية خارقة للعادة، وفي ذلك غرس لخلق التوكل في النفوس.

- تدنيس الكنيسة من بعض العرب رغم بُطلان الفعل يُظهر الغيرة الدينية التي كانت في النفوس، وإن كانت الوسيلة خطأ، وهو ما يدل على أن الأصل في الفطرة حب التوحيد وإن لم تكن الهداية قد اكتملت.

- حكاية امتثال الفيل لعدم التقدم نحو الكعبة مع أنه لا يعقل، فيها درس في الطاعة والانقياد، وتربية للنفوس على الخضوع لأمر الله وإن خالف ظاهر العقل أو العادة.

- واقعة أبرهة مثال عظيم على أن من أراد الشر بالمسلمين سلط الله عليه شرّه، وهو ما يغرس في النفس حسن الظن بالله والثبات أمام الظالمين.

مخالفات الواقع:

- انتشار من يقلل من شأن حادثة الفيل ويعدّها مجرد خرافة شعبية، وهذا طعن في القرآن وتكذيب لآية من آياته، مما يدل على خلل في العقيدة والجرأة على النصوص.

- وجود فرق في زماننا تُنكر علو الله وتستحي من قول إن الله فوق، بينما حادثة الفيل جاءت بنزول العذاب من السماء، مما يدل على ثبوت علوه سبحانه، وهو ما تُنكره الجهمية والمعتزلة ومن سار على دربهم من المعاصرين.

- تساهل بعض المسلمين في تعظيم الكعبة والمشاعر، وظهور من يُريدون النيل من الحرم إما بتقليل مكانته أو إثارة الفتن حوله، في غفلة عن أن الله توعّد من أراد بيته بسوء، ولو بعد حين.

- انشغال الناس اليوم بالأسباب المادية وحدها، دون تفويض أو توكل على الله، بينما عبد المطلب لم يشغل نفسه إلا برد الإبل وفوّض أمر البيت لله، فعاش مطمئنًا.

- الاستهانة بالقصص القرآنية والتقليل من قيمتها في نفوس بعض الشباب بدعوى أنها ماضٍ لا يُبنى عليه واقع، مع أن هذه الحوادث نزلت للعظة والعبرة والاعتبار، كما قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف:١١١.]

- كثرة من يروّجون اليوم للتطاول على المقدسات بحجة الفن أو التعبير، كما فعل أبرهة حين أراد أن يُصرف الناس عن الكعبة لبنائه، وكأن الزمان يعيد نفسه ولكن بوسائل جديدة.

انتهى هذا الباب ويليه الباب الثاني بإذن الله جل وعلا

الباب الثاني التمهيد للنبوة: من الميلاد إلى البعثة

مقدمة الباب التمهيد للنبوة

حين يُراد لنورٍ أن يعمّ الوجود، فلا بد أن تُمهَّد له السبل، وتُطهَّر له الأرض، وتُصفَّى له القلوب.
فما كان ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم حدثًا عابرًا في التاريخ، بل كان منعطفًا في مسيرة البشرية، ومبشّرًا بانبلاج فجرٍ جديد بعد ليلٍ طويل من التيه والضلالة.

وفي هذا الباب من الكتاب، نُطلُّ على المرحلة الأولى من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، منذ لحظة ميلاده الشريف، وحتى بزوغ فجر النبوة عليه، تلك المرحلة التي تُشكّل التهيئة الربانية المتأنية، والإعداد الدقيق، لإنزال آخر رسالات السماء.

نرصد كيف نشأ صلى الله عليه وسلم يتيمًا لتتعلّق قلبه بالعليِّ الكبير، لا بالأب ولا بالأم، ولا بالقريب ولا بالحبيب، وكيف رُبِّي على مكارم الأخلاق، ونُقِّيَ من أدران الجاهلية، فلم تلامس قلبه شائبة شرك، ولم تطأ قدمه مجلس لهو، فكان نقيًّا كما يُراد للرسول أن يكون.

نتأمل في اختيار الله له من أطهر البيئات، وأكرم السلالات، وأوسط الأنساب، وكيف ظل محفوظًا بعناية الله في أطوار عمره كلها، فلا يصيبه ما يُشوّه مقام النبوة، ولا ينحرف به الظرف عن جادّة الكمال الإنساني.

ونقف عند أحداث مفصلية من تلك المرحلة، كحادثة الفيل، وحفر زمزم، ورحلات التجارة، وسفره إلى الشام، وعصمته من عبادة الأوثان، وغير ذلك من ملامح التهيئة المكية التي سبقت نزول الوحي، وكل مشهد منها يبوح بعظيم تدبير الله، ولطيف صنعه، وكمال اصطفائه.

الفقرة الأولى ميلاده صلى الله عليه وسلم – يوم وُلدت الشمس من جديد

لم يكن ذلك اليوم المهيب الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا عاديًا يُعدّ في رزنامة الزمان، بل كان نقطة تحول كونية، وميلادًا للفجر بعد ليلٍ طويل، يومًا تبدّلت فيه معالم التاريخ، واهتزّت له قلوب الموحّدين في السموات، وإن لم تعِ الأرض بعدُ حجم الحدث. لقد كان ميلاده صلى الله عليه وسلم *نورًا من نور الله، وبشارةً كتبها الرحمن منذ الأزل*، يومٌ فيه اكتملت رحمات السماء، وتفتّحت الأرض لأعطر زهرة في بستان الوجود.

وُلِد سيّد ولد آدم صلى الله عليه وسلم في **يوم الاثنين**، كما قال هو عن نفسه»:ذلك يوم وُلدتُ فيه، ويوم بُعثتُ فيه، أو أُنزِل عليّ فيه» (رواه مسلم.(
وكان ذلك في **الثاني عشر من شهر ربيع الأول** على الأرجح، في **عام الفيل**، وهو العام الذي جعله الله علامة فارقة في تاريخ الجزيرة، حين أباد الطغيان القادم من اليمن، ليهيئ لمولود الطهر والهدى أرضًا نقية من رجس الأفيال.

وُلِد صلى الله عليه وسلم في **مكة المكرمة**، في الشِّعب المبارك من شِعاب بني هاشم، في بيت أبي طالب، فكان مولده في أطهر بقاع الأرض، وفي أشرف بيوتاتها، من نسبٍ هو أعلاها، ومن أصلٍ هو أزكاها، وكأن الله سبحانه أراد أن يكون مولد خاتم رسله **في قلب الحرم الآمن، تحت ظلال الكعبة، ومهبط الوحي الأول**.

وقد روت أمه آمنة بنت وهب – رحمها الله – كما جاء في بعض الروايات، أنها رأت حين حملت به **نورًا خرج منها أضاء لها قصور الشام**، وكأنّ الكون كله كان في حالة استعداد وانتظار، لتبدأ رحلة النور التي ستبدّد ظلمات القلوب والعقول.

وما أعجب أمر هذه الولادة المباركة! فقد ولدت آمنة ولدها دون ألم ولا وجع، في خلاف عادة النساء، وكأن الرحمة سبقت الأقدار، والمبشّرات سبقت المخاض، فكانت ولادته ميسّرة كما كانت دعوته بعده رحمة ميسّرة، وكما قال سبحانه:﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧.[

ولم يكن الحدث عاديًا، بل كان ميلادًا تصاحبه آيات وعلامات، واهتزّ له ما في الأرض وما في السماء. فقد نُقل في كتب السيرة أن العالم في ذلك اليوم شهد وقائع خارقة، كأنها كانت تُعلن نهاية عهدٍ وبداية عهد:

اهتزّ إيوان كسرى العظيم، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، رمزًا لانكسار مُلك الظلم.

وخمدت نار المجوس التي لم تخمد منذ ألف عام، إشارةً إلى أفول الشرك واندثار عبادة النار.

وغاضت بحيرة ساوة التي كانت تُعبد، فجفّ ماؤها، وكأن الأرض لفظت الشرك عن جسدها الطاهر.

وقد نقل الإمام ابن سعد في *الطبقات الكبرى*، وابن كثير في *البداية والنهاية*، والإمام السيوطي في *الخصائص الكبرى* كثيرًا من هذه الروايات، وإن كان بعضها مما يُروى للاستئناس لا للتوثيق، إلا أن معناها فيه من الرمزية العظيمة ما يجعل القلب يخشع والعين تدمع، وكأنها نذير بزوال الباطل، وبشارة بقدوم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم.

نعم، لقد ولد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، وولد معه الأمل، وانشقَّت السماء بالبشرى، واستبشر الكون بمولده، فقد عاد صوت الوحي إلى الأرض، وعاد الأمل إلى الإنسان الذي أثقله الشرك، وسَكرته عبادة الطواغيت.
وما أجمل قول البوصيري يصف هذا الحدث العظيم:

أبانَ مولدهُ عن طيبِ عنصرهِ ** يا طيبَ مبتدإٍ منهُ ومُختَتَمِ

وهكذا بدأ النور يشق طريقه، وتباشير الرسالة تخط أول السطور، وصدق الله العظيم إذ قال:

﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عنِتّم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨.]

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة :

فوائد عقدية:

- ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليس مجرد حدث زمني، بل هو نقطة تحوُّل كونية كتبها الله منذ الأزل، مما يدل على أن أفعال الله سبحانه مقدّرة بحكمة وسبق علم.
- اعتقاد أهل السنّة أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر يوحى إليه، لكن له مكانة عظيمة، يتجلى ذلك في كون مولده كان مصاحبًا لآيات وعلامات، دون أن يُرفعه ذلك إلى مقام الألوهية كما تزعم الفرق الضالة.
- نور النبي صلى الله عليه وسلم هو نور الهداية لا نور ذات، وهذا تأصيل مهم يردّ على الغلاة الذين جعلوا له نورًا ذاتيًّا يخالف طبيعته البشرية.
- اصطفاء الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في أعظم الأنساب، وفي أطهر البقاع، يدل على حكمة الله في تهيئة من يحمل آخر الرسالات، وأن النبوة لا تكون إلا لمن جمع الكمالات البشرية الممكنة.
- تصديق ما ورد من الآيات التي رافقت الميلاد – وإن لم يكن كلها ثابتًا توثيقيًا – يجوز من باب الاستئناس، بشرط ضبطه بمنهج أهل السنّة وعدم الجزم بما لم يثبت.
- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم كان أعظم مظاهر الرحمة، وهذا من أصول العقيدة في معرفة أسماء الله وصفاته، حيث يتجلّى اسم الله "الرحمن" في بعثة النبي الكريم.
- زوال المظاهر الشركية عند ميلاده كإطفاء النار وجفاف البحيرة إشارة إلى بداية عهد التوحيد، وفي ذلك تصديق بوعد الله أن رسله يبطلون الباطل مهما طال أمده.
- تصديق القرآن للرسالة المحمدية، كما في قوله تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ [التوبة: ١٢٨]، هو من الإيمان بالكتب والرسل، وهو أصل من أصول العقيدة.

فوائد فقهية:

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ذلك يوم وُلدتُ فيه...» مشروعية الاهتمام بيوم الاثنين، وصيامه، لما له من فضل، دون أن يُتخذ يوم مولده عيدًا، وهو ما يُضبط بضوابط الشرع.
- ورود بعض الأخبار عن أحداث ميلاده من غير ما ثبت توثيقًا يُبيّن أهمية التفريق بين ما يُروى للاستئناس وبين ما يُستدل به في العقائد أو الأحكام.
- تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم مشروع، لكن في حدود الشرع، دون غلوّ أو ابتداع، وفيه حفظ للتوحيد وتنزيه لله عز وجل.
- ميلاده في مكة واختياره من أشرف النسب فيه فقه تربية الأمة على الاعتزاز بمكارم الأخلاق والأنساب النقية، لا العنصرية، مع الالتزام بأن التفاضل عند الله بالتقوى.
- رواية آمنة بنت وهب – وإن كانت لا تُبنى عليها أحكام – تدل على أهمية تناقل الأخبار التي تُرقق القلوب وتربط المسلمين بسيرة نبيهم صلى الله عليه وسلم ضمن المنهج الصحيح.
- الاستئناس ببعض الآثار الواردة في كتب السيرة والخصائص، مع التنبيه على مراتب الصحة، يدل على فقه الجمع بين الرواية والتربية.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بعد ليل طويل من الجاهلية يعلمنا أن الأمل لا يُفقد، وأن الله يرسل النور بعد الظلمة، وهذه تربية على التفاؤل والثقة بوعد الله.
- ولادة النبي صلى الله عليه وسلم من غير ألم لأمه فيه إشارة إلى تيسير الله الأمور العظيمة، ويعلّمنا أن الرحمة مفتاح كل بركة.
- اختيار الله لنبيه من أطهر النسب، وأشرف البيوت، وأكرم الأرض، يعلّمنا أن الشرف الحقيقي هو في الطهارة والعفاف والكرامة، لا في المال والمظاهر.
- ظهور علامات في الكون عند ميلاده صلى الله عليه وسلم يُربي فينا الشعور بعظمة الرسالة، ويحث على تعظيم دين الله ورموزه.
- البدء بذكر ما رآه الناس من نور وظواهر عند مولده صلى الله عليه وسلم، يربينا على النظر في الآيات الكونية، وربطها بما يُذكّر بالله.
- قول البوصيري: "يا طيب مبتدأٍ منه ومُختتمِ" يلهمنا الأدب الرفيع في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون غلو، مما يُنمّي الذوق الإسلامي الصحيح.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس اليوم يجعلون مولد النبي صلى الله عليه وسلم موسمًا للبدع، من غلوّ في المدائح، وتمثيلات، وإنشاد لا ينضبط بالشرع، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلو فقال: «إياكم والغلو في الدين» (رواه النسائي).
- انتشار اعتقاد فاسد أن النبي صلى الله عليه وسلم "نور من نور الله" بمعنى أنه مخلوق من ذات الله تعالى، وهذا اعتقاد باطل مخالف لعقيدة أهل السنة.
- تعظيم المولد النبوي على هيئة الأعياد والاحتفالات المخترعة، وكأنه عيد ثالث، مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه من بعده.
- الانشغال بقصائد لا تخلو من الشرك أو الغلو، كمن يقول إن النبي يعلم الغيب أو يملك الضر والنفع، مما يخالف قول الله: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله﴾ [الأعراف: ١٨٨].
- ضعف الارتباط بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في واقع التربية والتعليم، إذ يُحتفى بالمولد مرة في السنة، ولا يُجعل منهجًا حياتيًا يوميًا كما أمر الله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١].
- التوسع في سرد الحكايات والقصص غير الثابتة في المناسبات الدينية، دون تحرٍّ أو تمحيص، مما يُفسد العقول ويُربك العقائد.
- انحراف بعض الفرق الضالة، كأهل وحدة الوجود والحلول، الذين يجعلون النبي صلى الله عليه وسلم تجليًا للذات الإلهية، وهو من الكفر والضلال المبين.

الفقرة الثانية تسميته محمدًا – الاسم الذي لم يُسمّ به أحد قبله

لم يكن اختيار اسم "**محمد** "لابن عبد الله مجرد اختيار تقليدي، ولا تقليدًا لأحد من سادات قريش، بل كان هذا الاسم الغريب على أسماع العرب يومئذ، إيذانًا بأن المولود الجديد **سيكون موعودًا لا يشبه غيره، ومحمودًا لا يُدانيه سواه، ورسولًا سيحمده أهل الأرض والسماء.**

لقد أسمته أسرته "محمدًا" في زمانٍ لم تكن العرب تعرف هذا الاسم إلا نادرًا، بل يكاد لا يُعرف فيهم أحدٌ يسمى به، وقد قيل" **:لم يُسمَّ به أحد قبله** ."قال ابن فارس" *:المُحمد: هو الذي يُحمد حمدًا بعد حمد، مرة بعد مرة، لكثرة خصاله ومحاسنه"*، فكان الاسم موافقًا للمسمّى، كأنما نُقش على لوح القدر قبل أن يولد، بل قبل أن يُخلق الخلق.

وقد رُوي أن عبد المطلب لما سُئل: لِمَ سميتَه محمدًا، وليس من أسماء آبائك؟ قال" **:أردت أن يُحمَد في الأرض، ويُحمَد في السماء** ".فانظر إلى هذا الإلهام الذي وافق مراد السماء، وكيف ألهم الله جدّه أن يختار له اسمًا يُعبّر عن حقيقته، ويُشير إلى نبوّته، ويُبشّر برسالته.

اسمٌ لم تعهده الجاهلية، لكنه سيكون بعد بعثته على ألسنة المؤمنين في كل أذان، وعلى كل شفةٍ ولسان، محفورًا على قلوب العاشقين، مرفوعًا في الذكر، مشفوعًا عند الله، مقرونًا بالرحمة، إذا ذُكر، صلّى عليه الذاكرون، واستغفرت له الملائكة، ورقّت له القلوب.

فمحمدٌ ليس مجرد اسم، بل هو **عنوان نبوة، وعَلَم هداية، وراية أمة، وسراج أبدية**، حتى غدا لا يُذكر اسم الله إلا ويُذكر معه اسم محمد صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستخرجة من الفقرة

فوائد عقدية:

- اختيار اسم "محمد" لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، وفي زمن لم يُعرف فيه هذا الاسم، يدل على أن كل ما يتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم كان بتقدير إلهي، وهو من دلائل النبوة وتمام حكمة الله في تهيئة رسوله.
- اسم النبي صلى الله عليه وسلم كان موافقًا لمعناه، وهذا من دلائل صدق نبوته، فاسمه يدل على كمال وصفه، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ٤].
- ما قاله عبد المطلب: "أردت أن يُحمَد في الأرض ويُحمَد في السماء" هو من الإلهام الموافق لوحي السماء، وليس وحيًا شرعيًا، لكنه من علامات التوفيق الرباني لآل النبي قبل البعثة.
- من معاني الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أن نعتقد أن الله قد اصطفاه وخصّه بكل ما يليق بمقامه، حتى في اسمه، فهو نبيٌّ محبوبٌ في السماء، محمودٌ في الأرض، صلى الله عليه وسلم.
- اقتران اسم محمد صلى الله عليه وسلم باسم الله تعالى في الأذان والصلاة والخطبة والذكر، من دلائل رفع الله له الذكر، وهي آية ظاهرة لكل من تأمل.
- كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب الملائكة المغفرة له مما ورد في النصوص، فيها بيان منزلته الرفيعة عند الله، وأن الله شرّفه في الدنيا والآخرة، وهذا من أصول الاعتقاد في نبوته.

فوائد فقهية:

- قول عبد المطلب: "أردت أن يُحمَد..." يدل على جواز أن يسمي الإنسان ابنه باسم حسن يُعبّر عن المعاني الطيبة، ما دام الاسم لا يحمل محذورًا شرعيًا، وهو أصل في اختيار الأسماء.
- اسم "محمد" من الأسماء المستحبّة شرعًا، بل هو من أحب الأسماء، وقد ورد في بعض الآثار: "أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن"، ويليه ما كان فيه مدح وفضل.
- تكرار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر اسمه من السنن المؤكدة، ولهذا رفع الله اسمه مقرونًا بذكره، فقال: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ٤].
- اقتران اسم النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة والشفاعة، يوجب على المسلم أن يحسن أدب الذكر والصلاة عليه، كما أمر الله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦].
- فقه التربية يظهر في ربط الأجيال باسم النبي صلى الله عليه وسلم، وتعويدهم على توقيره، وتكرار ذكره في المنازل والمدارس، لتكون التربية على الهدي النبوي لا على الرموز الفارغة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- كان اسم "محمد" نادرًا في الجاهلية، لكنه أصبح الاسم الأكثر تكرارًا في الأمة، مما يعلّمنا أن الحق لا يُقاس بشيوع الناس، بل بما يريده الله، فقد يُمهّد الله لأمر عظيم دون أن يشعر الناس.
- توافق الاسم "محمد" مع صفات النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن المسمّيات يجب أن تعبّر عن المعاني، وأن جمال المعنى ينعكس في أثر الاسم والسيرة.
- انتشار اسم النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين في كل أذان وصلاتهم وتربيتهم، يدل على مركزية سيرته في بناء الأمة، وأنه لا نجاة للأمة إلا باتباعه.
- ذكر الملائكة واستغفارهم للنبي صلى الله عليه وسلم عند الصلاة عليه يُربّي المسلم على تعظيم النبي، لكنه تعظيم منضبط لا يُفضي إلى الغلو.
- ارتباط محبة النبي صلى الله عليه وسلم باسمه، وتعلق القلوب به، يزرع في النفوس معنى القدوة، ويجعل كل مسلم يشعر أنه ينتسب لراية كبرى واسم خالد.
- إدراك أن اسم محمد صلى الله عليه وسلم أصبح عَلَمًا على الرسالة، يربّي فينا الاعتزاز بالهوية الإسلامية، والولاء للنبوة، والانتماء لدين الحق.

مخالفات الواقع:

- غفلة كثير من المسلمين عن معنى اسم النبي صلى الله عليه وسلم، واقتصارهم على التسمية به دون تعظيم حقيقي أو اتباع لسيرته، فأصبح الاسم شائعًا والاقتداء غائبًا.
- التسمية بـ "محمد" دون أدب في التربية ولا تربية على السنة، مما يجعل بعض الناس يحمِلون الاسم ولا يحمِلون أثره، بل قد يُهان الاسم بأخلاق حامله السيئة.
- قلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في مجالس الناس وأحاديثهم، مما يخالف أمر الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].
- تفريط بعض المسلمين في توقير اسم النبي صلى الله عليه وسلم، بالسخرية أو الاستهزاء، خصوصًا في وسائل الإعلام، وهو من مظاهر الاستخفاف بالدين وخطره كبير.
- تغافل بعض المؤسسات التعليمية والإعلامية عن ربط الأجيال باسم النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، والانشغال برموز غربية منحرفة، تُقدم قدوة زائفة لأبنائنا.

♦وقوع فرق ضالة، من المرجئة وأصحاب الطرق الصوفية الغالية، في الغلو باسم النبي صلى الله عليه وسلم، حتى جعلوه يعلم الغيب ويُغاث به، وهذا مخالف لتوحيد الألوهية، ولم يسمّهم النبي إلا فرقًا ضالّة تمزق الدين وتخرج عن الهدي المحمدي.

الفقرة الثالثة مراحل الرضاعة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم – لمسات الرحمة منذ اللحظة الأولى

ما إن بزغ نور الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم في أفق الحياة، حتى ابتدأ مشهد من مشاهد العناية الربانية التي كانت تظله في كل خطوة، وتحتضنه في كل طور من أطوار عمره المبارك. لقد ولد صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، في عامٍ حفلت وقائعه بالإشارات والبشارات، عام الفيل، فكان ميلاده صلى الله عليه وسلم كالفجر الصادق الذي شقَّ ظلمات الجاهلية، وبعث في القلوب رجاءً جديدًا، وفي الأرض هدىً ورحمة.

وما إن استهل صرخته الأولى في هذه الدنيا، حتى ابتدأت أنامل العناية الإلهية تُمهّد له طريق الطهر، وتنسج له من المواقف أولى صور الحنان والرعاية، فلم يكن شأنه في رضاعته كشأن بقية الأطفال، بل كانت قصة رضاعته صلى الله عليه وسلم لوحةً من الجمال الإلهي، تداخلت فيها لمسات السماء برقة قلوب البشر.

أرضعته أولًا أمه الطاهرة آمنة بنت وهب، تلك السيدة الصالحة التي شعرت وهي تضم وليدها أن بين يديها سرًّا عظيمًا، وكنزًا مودَعًا في جسد صغير. وما لبثت أن أرضعته أيامًا يسيرة، ذاقت فيها من حلاوة الأمومة ما يفيض طمأنينة، وشعّت على قلبها أنوار النبوة، حتى خالط وجدانها خشوعٌ من نوع آخر، وكأنها كانت تحتضن الوحي في مهده.

ثم كانت ثويبة – جارية أبي لهب – ثاني من أرضعه، وهي التي أسرعت بالبشرى إلى سيدها بولادة محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت من أوائل من تقرّب إليه، وأرضعته من لبنها، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، فكان له أخًا في الرضاعة، وتلك الأخوّة التي خطّتها الأقدار بينه وبين عمّه حمزة ستظل خيطًا من المحبة والمناصرة يربط بين قلبيهما، حتى يُسجَّل حمزة بعد ذلك "أسد الله وأسد رسوله" في ساحة الجهاد والفداء.

ثم جاءت المرحلة الأبرز، حين حملته الأقدار إلى البادية، إلى ديار بني سعد، مع امرأة من خير نساء البادية طبعًا وخلقًا، إنها **حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية**، التي جاءت مكة تلتمس طفلًا ترضعه، لتنال من ورائه رزقًا أو دعاء، فما إن وقعت عيناها عليه صلى الله عليه وسلم، وهو يتيم فقير لا تُقبل عليه المرضعات، حتى شعرت بشيءٍ في قلبها يدفعها إليه، وشهدت مع زوجها من أول لحظة علامات بركة لا تُنسى.

فلقد عاد ضرع ناقتها يمتلئ بعد أن كان يبسًا، وسار حمارها العجوز فجأة في مقدمة الركب، وعادت ديارها تموج بالخيرات والبركات، حتى قالت عنها جاراتها":يا حليمة، أرجعي إلى ذلك الغلام، فإنك قد أصبتِ خيرًا منذ أتيتِ به." وكانت تُحدّث الناس بما ترى من بركته، فتقول" :ما أُصيبَ أحدٌ من قومنا مثلُ ما أُصِبنا به من البركة."

وفي كنف هذه المرأة المباركة، نشأ صلى الله عليه وسلم في أجواء البادية، حيث الهواء الصافي، واللسان الفصيح، والقيم النبيلة، فشرب من لبنها طهارة الجسد، ومن صفاء البادية نقاء النفس، ومن بيئتها الشامخة صلابة الرجولة، حتى إذا بلغ عامين، أعادته حليمة إلى أمه، ثم عادت به إلى ديارها مرة أخرى لما رأت من الخير المقيم في بيتها بوجوده.

وكانت تلك السنوات الأربع، إعدادًا ربانيًّا وتربية سماوية لأعظم قلب عرفته البشرية.

قال تعالى:﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ**﴾]الضحى: ٦[،
وها هو التأييد الإلهي يتجلى منذ أن كان رضيعًا، في صورة إيواءٍ وعطف وحنان، يُشعر كل قلب أنه ليس فقط نبيًّا، بل هو محبوب السماء، ومسكين الأرض، الذي تتبعه القلوب حيثما سلك.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه المرحلة العظيمة من حياته بقوله، كما في صحيح *مسلم*" :**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن**"،
إشارة إلى أن عناية الله كانت تُحيط به حتى قبل النبوة، وأن كل شيء حوله كان يُدرك شرف مقامه، ويتهيّأ لمولده، ونشأته، وبعثته.

هكذا بدأت حياة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ترسم بخيوط الرحمة الربانية أول ملامح الرسالة، وتهيّئ له أرضًا طاهرة، وقلبًا طيبًا، ولسانًا عربيًّا مبينًا، ليكون أهلاً لما سيُلقى إليه، ﴿**سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾]المزمل: ٥.[

ويا له من قول! ويا لها من بداية، كلها رعاية، وكلها إشارات إلى أن هذا الطفل الصغير، سيُبدّل وجه الدنيا، ويُقيم ميزان العدل، ويُهدي القلوب الحائرة إلى فاطرها.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- رعاية الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم منذ ولادته وقبل بعثته، من دلائل عناية الله بأنبيائه، وهو من الإيمان بالقدر واللطف الإلهي، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦.[
- البركة الظاهرة التي لحقت بمن أرضع النبي صلى الله عليه وسلم، كحليمة السعدية، دليل على أن الله يكرم من يخدم أولياءه، وفي ذلك تصديق للإيمان بفضل الأنبياء ومنزلتهم.
- معرفة النبي صلى الله عليه وسلم للحجر الذي كان يسلم عليه قبل البعثة، كما في صحيح مسلم، دليل على كرامة الله له، وأن الله قد أظهر له من الآيات ما يطمئن قلبه، وهي من دلائل النبوة.
- اختيار الله لنبيه أن ينشأ في بيئة البادية الطاهرة، فطرةً ونقاءً، دليل على أن إعداد الأنبياء ليس عشوائيًا، بل هو من علم الله وحكمته، وهو من أركان الإيمان بحكمة الله وعدله.
- رعاية الله للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته من خلال أشخاص مختلفين (آمنة، ثويبة، حليمة) من مظاهر عناية الله الخاصة، وتدل على أن الله يهيئ من يشاء لمن يشاء، وهو مظهر من مظاهر التوحيد في التدبير.
- النبي صلى الله عليه وسلم هو محبوب السماء ومسكين الأرض، كما ورد في العبارة، وهذه مكانة لا تكون إلا لنبي مصطفى، وهي جزء من عقيدة أهل السنّة في توقير النبي وتعظيم منزلته.

فوائد فقهية:

- الرضاعة من النساء الأجنبيات كانت شائعة في الجاهلية والإسلام، وهي أساس في ثبوت أخوة الرضاع، كما وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة، ويترتب عليها أحكام شرعية كتحريم النكاح.
- حديث "إني لأعرف حجرًا بمكة..." فيه دليل على ثبوت كرامات الأنبياء قبل النبوة، دون أن يكون ذلك وحيًا يُبلغ، وهو فرق دقيق يميز بين النبوة وما قبلها.
- نقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى البادية للرضاعة، يدل على مشروعية الحرص على البيئة الصالحة للنشأة والتربية، وهو أصل فقهي في باب تربية الأبناء.

- حديث البركة التي لحقت بحليمة السعدية من أول يوم، يثبت أن الخير المقيم يكون مع أهل الطاعة والبركة، ومن ذلك الصحبة الصالحة ومجالسة الأتقياء.
- رضاعة الطفل من عدة نساء تقتضي العلم بأحكام الرضاع الشرعي، وأن خمس رضعات مشبعات تثبت بها المحرمية، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، وهو مما يجهله كثير من الناس.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- تربية النبي صلى الله عليه وسلم في بيئة صافية خالية من التلوث الأخلاقي واللفظي يعلّمنا أهمية اختيار بيئة التربية النقية للأبناء.
- الطمأنينة التي شعرت بها آمنة وهي ترضع النبي صلى الله عليه وسلم، تبين أثر النور الإيماني في القلب الصالح، وأن القلوب النقية تدرك الخير حين تراه.
- تأثر حليمة السعدية بعين النبي صلى الله عليه وسلم حتى اختارته رغم فقره ويُتْمه، يعلّمنا أن البركة ليست في المال بل في القرب من أهل الصلاح.
- شعور أهل البادية بتغير الحال ببركة النبي صلى الله عليه وسلم يُربينا على الاعتراف بالفضل وعدم جحود أثر الصالحين في المجتمع.
- الرضاعة من أمه أولًا ثم من ثويبة ثم من حليمة، يكشف عن تنوع مراحل الطفولة، وأن التربية ليست مرحلة واحدة بل محطات متراكبة يجب أن تُبنى بتدرج وتنوع.
- وصف تربية النبي صلى الله عليه وسلم بأنها "إعداد رباني" يرسّخ مفهوم أن التربية ليست فقط فعل الآباء بل هي توفيق من الله وتقدير من السماء.

مخالفات الواقع:

- ضعف العناية بتربية الأطفال في بيئات صالحة، وتركهم في بيئات فاسدة، يخالف سنة الله في تربية الأنبياء، وواقع كثير من الناس اليوم فيه تساهل في اختيار البيئة والمحيط.
- جهل كثير من الناس بأحكام الرضاع الشرعي، مما يُوقعهم في مخالفات كبرى، كزواج من يحرم عليه بسبب رضاع ثبت شرعًا، ولا يُعلم عند العامة.
- نظرة كثير من الأسر إلى تربية الطفل باعتبارها عبئًا ماليًا فقط، لا مهمة ربانية، في حين أن حليمة اختارت محمدًا صلى الله عليه وسلم رغم يتمه وفقره، فصار سببًا لبركتها.
- ضعف الاعتراف بالفضل لمن كان سببًا في الخير، مثل حليمة وثويبة، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من تكريم لهما حتى بعد البعثة، وهذا واقع يفتقده مجتمعنا.
- غياب مفهوم "الإعداد التربوي المسبق" للأجيال، إذ يُترك الطفل بلا تهيئة دينية ولا نفسية ولا لغوية، مما يخالف سنة الله في إعداد نبيه من أول لحظة للحياة.
- انتشار ثقافة الإهمال في مراحل الطفولة المبكرة، بخلاف ما جاء في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أُحاط من رضاعته بالعناية، والنقاء، والفصاحة، والكرامة.
- تجاهل كثير من المسلمين لدور المرأة في التربية الأولى، رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم نشأ في حجر ثلاث نساء: أمه، وثويبة، وحليمة، وكل واحدة كان لها دور في تكوينه، بخلاف من يقللون من أثر الأم اليوم.

الفقرة الرابعة محمد الرضيع... حين أُرضع النور

في بيتٍ خافت الأضواء، لا مال فيه ولا زاد، لا حُليّ فيه ولا جاه، وُلد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يتيمًا... لا يلقّه دفء أب، ولا يحيط به عزُّ جاه، ولكن غمره منذ اللحظة الأولى **نورُ الله الذي لا يُطفأ، وبركةُ السماء التي لا تُحدّ.**

كان من الممكن أن يمرّ مولده كما يولد سائر الأطفال، لكنه كان الحدث الفاصل بين ظلمة وجاهلية، وبين فجر يضيء على الدنيا كلها. وما كانت **الرضاعة** التي هي أول غذاء للروح والجسد إلا صفحة من صفحات العناية الإلهية بهذا المولود المبارك.

أرضعته أمه آمنةُ بنت وهب أيامًا قلائل، شعرت خلالها بنفحات لا توصف، كأنما ترضع نورًا لا بشرًا، ثم تولت أمره **ثويبة** مولاة أبي لهب، فكانت بذلك أول مرضعة بعد أمه، وقد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، فصار له أخًا في الرضاعة، وهذا مما رسّخ وشائج القربى والمودة بينه وبين عمّه الجليل رضي الله عنه.

لكن الله أراد لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم أن ينشأ في البادية، في صفاء الطبيعة، ونقاء الألسنة، حيث الهواء الطلق والخلق الفطري القويم.

ففي عام قحط وجفاف، خرجت **حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية** تبحث مع رفيقاتها عن رضيعٍ تُرضعه لقاء أجر، **لكن قلبها لم يكن يعلم أن رحلتها هذه ستكون ميلادًا جديدًا لحياتها كلها.**

مرت على النبي صلى الله عليه وسلم، فزهدت فيه كما زهدت فيه الأخريات، فهو يتيم لا مال له، ولا أب ينفق عليه... لكنها لما لم تجد غيره، قالت لزوجها: "والله لأرجعنّ بذلك اليتيم، علّ الله أن يجعل لنا فيه بركة"، فابتسم القدر، وبدأت البركات تُكتب على سطور الحياة.

وما إن وضعته في حجرها، حتى تفجّرت ينابيع الرزق في أرضٍ قاحلة!
فثدياها اللذان كانا قد يَبسا، امتلآ لبنًا حتى شرب محمد صلى الله عليه وسلم وشرب معه ابنها حتى روي،
وناقتها العجفاء التي كانت تمشي متثاقلة، انطلقت تسبق الركب نشاطًا،
وشياهها التي كانت تذوي هزالًا، عادت من المرعى مملوءة الضروع، حتى قال زوجها": **يا حليمة، والله لقد أخذتِ نسمةً مباركة"!**

وهكذا بدأت **سنوات البركة** في بادية بني سعد، ترضعه حليمة، وتراه يكبر كل يوم في جسده وخلقه، وترى فيه ما لم تره في أحد من الأطفال، تقول: "ما رأيت غلامًا أطيب منه، ولا أنظف منه، ولا أهدأ منه، ولا أصدق لهجة"،
وكانت ترى في وجهه **نورًا يضيء في الدجى**، وتلمح في سكونه **سكينة الأنبياء**، وفي صمته **وقار المرسلين**.

وقد أشار القرآن إلى هذه العناية الخفية منذ بداياته، فقال الله تعالى:

﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى** ﴾]الضحى: ٦[
﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى** ﴾]الضحى: ٧[
﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى** ﴾]الضحى: ٨[

فلما بلغ حولين كاملين، ذهبت به حليمة إلى أمه آمنة، فلما رأته احتضنته بحرارة، وشمت فيه رائحة الحنان والرسالة،
لكن قلب حليمة لم يطاوعها، فقد اشتد حبها له، وامتلأ صدرها بخشية أن تفارقه، فقالت": **يا آمنة، لو تركتِه عندي، فإني أخشى عليه وباء مكة"**،فأذنت لها آمنة، فعاد معها الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى بادية بني سعد،
وعادت البركة تحلّ من جديد، وتتنزل الرعاية من السماء يومًا بعد يوم.

وفي أحد الأيام، وبينما كان يلعب مع الغلمان في مضارب بني سعد، **وقعت الحادثة العظيمة: حادثة شق الصدر**، جاءه **جبريل عليه السلام**، فصرعه إلى الأرض، وشقّ صدره، وأخرج قلبه، وغسله في طست من ذهب بماء زمزم، ونزع منه **حظ الشيطان**، ثم أعاده مكانه،

فرجع الغلمان إلى حليمة مرتاعين، وقالوا: "إن محمدًا قد قُتل!"، فهرعت إليه حليمة، فوجدته قائمًا متغير اللون، لكنه لم يُصب بأذى.

قال صلى الله عليه وسلم عن ذلك فيما بعد" :**أتاني جبريل، فشقّ عن صدري، فاستخرج القلب، ثم شقّه، فأخرج منه علقةً سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان منك**] "...رواه مسلم.[

فخافت حليمة عليه، وحملته إلى أمه، وأخبرتها الخبر، لكنها لم تكن تدري أن الله تعالى كان **يعدُّه للإعداد الأكبر، والاصطفاء الأعظم، والرسالة الخاتمة**.

وهكذا كانت **أيام الرضاعة** في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم، **أيام نور وبركة، وعناية سماوية تمهّد للطريق**، وتُهيّئ الارض لبعثة سيُبعث بها خاتم الأنبياء، ورحمةً للعالمين.

الفوائد المستخلصة من قصة الرضاعة :

فوائد عقدية:

- ولادة النبي صلى الله عليه وسلم يتيمًا وفي بيت فقير، ثم غمرته عناية الله، تأكيد على أن الفضل لا يُنال بالحسب والمال، وإنما باصطفاء الله، وهو من أركان الإيمان بالقدر.
- عناية السماء بالنبي صلى الله عليه وسلم منذ ولادته، وتوالي البركات عليه، دليل على أنه نبي مصطفى منذ أن كان رضيعًا، وفي ذلك إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومكانته العالية عند ربه.
- حادثة شق الصدر وإخراج حظ الشيطان، تُبيّن أن الله قد طهّر نبيه تطهيرًا ذاتيًا داخليًا، لا يملكه بشر، وهو من دلائل العصمة التي اختصّ بها الله أنبياءه.
- ذكر الآيات من سورة الضحى بعد كل مشهد من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، يرسّخ ربط الواقع بأقدار الله، وأن التفسير الإيماني للأحداث هو الأصل في عقيدة المسلم.
- نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام، وتولّيه تهيئته، دليل على أن الإعداد للنبوة من الله وحده، وبواسطة ملائكته، وفيه إثبات لوجود الملائكة وقيامهم بمهام ربانية.
- حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن شق صدره، وذكره لحظ الشيطان، يدل على إيمان أهل السنة بأن الشيطان لا سلطان له على الأنبياء، فهم معصومون من تسلطه.
- حادثة شق الصدر التي رواها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه تقوّي الإيمان بالغيبيات وتُعلّم المسلم قبول ما ثبت في السنة ولو خالف الحس والعادة، ما دام ثابتا بالأسانيد الصحيحة.

فوائد فقهية:

- إرضاع ثويبة للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم لحليمة، وتعدد المرضعات، يثبت أن الرضاع الشرعي تنتج عنه أحكام محرّمة بالنكاح عند وجود شروطه (خمس رضعات مشبعات في الحولين).
- بقاء النبي صلى الله عليه وسلم في البادية مع حليمة رغم رجوعه المؤقت إلى أمه، يُبيّن أن رضا الأم ورغبتها في مصلحة الابن معتبر شرعًا، وهذا أصل في فقه تربية الأطفال.

- طلب حليمة للنبي صلى الله عليه وسلم لأجل البركة يبيّن جواز طلب الخير من الصالحين الأحياء بسبب ما يُرجى من بركتهم، لا بمعنى التوسل المنهي عنه، ولكن بمعنى صحبة الخير ومجالسته.
- حديث شق الصدر في صحيح مسلم من الأحاديث المتفق على صحتها، ما يُؤكد أن العقيدة تُبنى من نصوص الوحيين، لا من التأويل العقلي أو الشك المنهجي، وهذا من أصول أهل السنّة.
- في وصف النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام بـ "أصدق لهجة" و"أهدأ خلقًا"، دليل على جواز الثناء على الأخلاق الطيبة منذ الصغر، وتقرير أن الأخلاق تتشكل باكرًا، مما يدل على مسؤولية التربية المبكرة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- تولّي أمه، ثم ثويبة، ثم حليمة، أمر رضاعته، يعطينا درسًا في تنوع الرعاية والاهتمام في سنوات الطفولة، وأثره في التربية المتكاملة.
- زهد المرضعات في النبي صلى الله عليه وسلم بسبب يتمه، ثم ظهور بركته، يُربي النفوس على ألا تحتقر أحدًا بسبب فقره، فإن العبرة بالجوهر لا بالمظهر.
- حرص حليمة على بقاء النبي صلى الله عليه وسلم معها رغم تعلق أمه به، يدل على صدق المحبة ونُبل النية، وهي صفات تُغرس في القلوب الطاهرة.
- رؤية حليمة النور في وجهه صلى الله عليه وسلم، وإحساسها بالسكينة في حضرته، يعلمنا أن أهل الفطرة يشعرون بفضل الصالحين دون تكلف أو شرح.
- تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الغلمان، ولعبه معهم، ثم تعرضه لحادثة شق الصدر، دليل على أهمية توازن الطفل بين اللعب والتربية الروحية، لا إهمال جانب على حساب الآخر.
- قوله "أخرج منه علقة سوداء"، تعبير عن التخلية قبل التحلية، وهي قاعدة تربوية عظيمة، فالتزكية تبدأ بإزالة الشر قبل زرع الخير.

مخالفات الواقع:

- النظر إلى اليُتم على أنه ضعف أو نقص، بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يتيمًا، يُظهر خللاً في فهم القدر وأهمية الابتلاء، واليوم كثير من المجتمعات تُقصي اليتيم بدل أن تكرمه.
- ضعف اهتمام الناس بالأطفال الفقراء أو الأيتام، كما زهدت المرضعات في محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه نظرة جاهلية ما زالت باقية في بعض النفوس.
- إنكار بعض المنتسبين للعقلانية لحادثة شق الصدر بحجة أنها "غير علمية"، هو مخالفة صريحة لعقيدة أهل السنّة في التسليم لثوابت الوحي.
- اعتبار كثير من الناس أن البركة غير موجودة، أو أنها مجرد خرافة، بينما الواقع النبوي يُثبت أن البركة أمرٌ ثابت شرعًا وواقعًا، لكنها تُنزع من المجتمعات بالذنوب.
- تقليل بعض الناس من شأن الأخلاق في الصغر، بينما الفقرة تُظهر كيف أن حليمة لاحظت صدق النبي وهدوءه منذ طفولته، ما يُخالف واقع من يبرر الكذب أو سوء الأدب من الطفل بأنه "صغير."
- الانبهار بالدنيا والجاه عند اختيار الأبناء أو مجالستهم، مقابل ترك الأيتام أو الفقراء، هو عكس ما فعلته حليمة، التي اختارت النبي صلى الله عليه وسلم رغم يتمه وفقره.
- تجاهل تربية القلب، وغلبة الاهتمام بالشكل أو المهارات الظاهرة، بينما حادثة شق الصدر تؤكد أن تطهير القلب هو الأساس في الإصلاح والتربية، وهذا ما تهمله كثير من المناهج التربوية المعاصرة.

الفقرة الخامسة شقّ الصدر: حين أعدّت السماء قلب الأرض ليستقبل الوحي

في صباح نديّ من صباحات الطهر، حيث السكون يكتنف بادية بني سعد، وحيث لا يعكر صفاء الهواء صوتُ مدينة ولا ضجيج حضارة، كان الطفل الهاشمي المبارك، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، يسير بخُطى بريئة خلف أغنام أهله، رفقةَ إخوته من الرضاعة، لا يدري أن هذا اليوم سيكون موعدًا مع حدثٍ سماويٍّ، لن تنساه الأرض ولن تسجله الأيام عبثًا، بل ستحمله كتب السِّيَر في صدور صفحاتها، وتطرّزه بمداد الإجلال.

وفجأة، شقّ صراخ مذعور سكينة الأفق :**أدركوا أخي القرشي! لقد جاءه رجلان، فأضجعاه، وشقّا صدره"!**
كان الطفل الذي أطلق الصرخة يرتجف، يلهث، وعيناه تفيضان بالفزع.

خرجت حليمة وزوجها مذعورَين، تقودهم قلوبهم قبل أقدامهم، حتى وصلوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فوجدوه جالسًا، وجهه قد علاه شحوب، كأنما عاد من سفرٍ في عوالم الغيب، لكنه ساكنٌ وقور، تحفّه سكينة لا توصف، كأنها هالة من نور.

سأله والداه من الرضاعة، فقال بصوت نقي، يفيض صدقًا وعذوبةً" :**أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني، فشقا بطني، ثم استخرجا منه علقةً سوداء، فقالا: هذا حظ الشيطان منك، فطرحاها، ثم غسلا قلبي في طستٍ من ذهب، بماء زمزم، ثم أعاداه كما كان".**

إنه ليس حلمًا، ولا خيالَ طفلٍ نسجه تحت ظلال البادية...
بل هو أول الغيث من وحي السماء، وأول لمسة من لمسات الإعداد الإلهي لقلوب الأنبياء.
إنه التمهيد لرسالةٍ ستشقّ عنان السماء، وتبدّد ظلمات الأرض.

لقد تطهّر قلب محمد صلى الله عليه وسلم تطهيرًا لا يُشبهه تطهير، غُسل بماء طاهر، في إناءٍ طاهر، على يد أطهر الخلق من ملائكة الرحمن. نُزع منه حظ الشيطان، ليُصفّى من أدران الغفلة البشرية، ويُهيأ لحمل نور الوحي، كما قال الله تعالى}:**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**] {الضحى: ٧]
أي: كان في حال البشرية التي تحتاج إلى توجيه، فهداه الله أعظم الهداية وأصفى التربية.

وهذا الحدث لم يكن لمرة عابرة، بل وقع في ثلاث محطات مفصلية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة:

أولها وهو طفل في بادية بني سعد.

والثانية: عند بعثته، لتهيئته لاستقبال الوحي.

والثالثة: قبيل الإسراء والمعراج، حين عُرج بروحه وجسده إلى السماوات العلا.

وقد ثبتت هذه القصة الصحيحة في "صحيح مسلم" (حديث رقم ١٦٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:
"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقةً، فقال: هذا حظ الشيطان منك"...

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على ثبوت هذه المعجزة، وجعلوها من دلائل النبوة، إذ لا يتصوّر وقوعها لغير نبي، ولا يُعدّ هذا الحدث خرافة كما زعم بعض المتأخرين، بل هو تصديقٌ لما أعدّ الله له من مقام الرسالة، ومظهرٌ من مظاهر العناية الربانية به منذ نعومة أظفاره.

شقّ صدره صلى الله عليه وسلم كان بمثابة الطهارة الكبرى، التي تُنقي القلب ليستوعب أثقال الرسالة، وليرتقي بصاحبه إلى مقامٍ لا يبلغه أحد من البشر إلا بإذن الله...
وما أكرمه من قلب، وما أعظمه من إعداد!

الفوائد المستنبطة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى يُعدّ أنبياءه إعدادًا خاصًا، ومن ذلك شق صدر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تطهيرًا لروحه وقلبه استعدادًا للوحي.
- إثبات أن للشيطان نصيبًا يسعى إليه في بني آدم، لكن الله ينزعه ويطهر من شاء من عباده، كما نُزع من قلب النبي صلى الله عليه وسلم في صغره.
- التصديق بعالم الغيب وملائكته، وبأنهم يتدخلون بأمر الله في شؤون الخلق، كما في قصة الملكين اللذين شقّا صدر النبي صلى الله عليه وسلم.
- الإيمان بأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم معدّ من الله ومصطفى، وأن معجزاته من دلائل نبوته لا تخضع لمقاييس البشر.
- الاعتقاد بأن الرسالة لا تكون إلا باصطفاء رباني، يُرافقه تهيئة ربانية للروح والجسد، وهذا من أصول العقيدة في النبوات.
- إثبات أن المعجزات التي وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم حق، وثابتة، وليست رمزية أو أسطورية كما تزعم الفرق العقلانية المنحرفة.
- الإيمان بأن الوحي من الله لا من إلهام بشري أو اجتهاد عقلي، بل هو تنزيل سماوي يبدأ بإعداد خاص، كما حدث في شق الصدر.

الفوائد الفقهية:

- الحديث دليل على أن المعجزات النبوية تُعد من دلائل النبوة ويجب الإيمان بها، مما يدخل في باب العقائد لكنه أصل في باب دلائل النبوة الفقهية.
- لا يجوز إنكار القصص الثابتة في الصحيحين بحجة مخالفتها للعادة أو أنها خوارق، فالإيمان بها واجب، ومنكرها على خطر عظيم.
- شق الصدر رغم كونه خارقًا للعادة، إلا أنه وقع مرارًا، مما يدل على مشروعية التصديق بخرق السنن الكونية إذا ثبت النص، ويدخل ضمن باب الإيمان بالغيب المأمور به شرعًا.
- الحديث يثبت حجية أخبار الآحاد إذا صحت، حتى في أمور الغيب، وهو أصل فقهي مخالف لبدعة أهل الكلام الذين يردون الآحاد في العقائد.

الفوائد الأخلاقية:

- صفاء الفطرة يسبق صفاء الرسالة، فالطهارة الأخلاقية مقدمة للقيام بمهمات الإصلاح، كما طهّر الله قلب نبيه قبل أن يبعثه.
- في طمأنينة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الحدث درسٌ في الثبات وعدم الفزع عند الابتلاء، فالسكينة من علامات القلوب المتصلة بالله.

- تنقية النفس من آثار الشيطان طريق لكل إصلاح أخلاقي، وهو ما فعله الملكان عند نزع العلقة السوداء، ففي ذلك رمزية عملية لطهارة الداخل.
- إعداد النفس لحمل الأمانة يتطلب تزكية مستمرة، وقلوب الأنبياء أعظم مثال على ذلك.

الفوائد التربوية والدعوية:

- التربية الإلهية تبدأ منذ الصغر، ويُعلّمنا ذلك ضرورة العناية بتربية الأبناء من نعومة أظفارهم، لأن الاستعداد للمهام الكبرى يبدأ مبكرًا.
- الحدث يُعلّم الدعاة أن إصلاح القلب مقدم على إصلاح الظاهر، وأن الحامل للرسالة لا بد أن يكون نقيًّا من الداخل أولًا.
- الله يصطفي لحمل الدين من صفَت قلوبهم وزكيت نفوسهم، فليس كل ناطق بالحق يصلح لحمله، بل لا بد من تهيئة ربانية.
- العناية الإلهية المرافقة للدعاة تعلّمهم الثقة بالله، مهما كانت بداياتهم بسيطة، فالنبي صلى الله عليه وسلم بدأ راعيًا بين الأغنام ثم صار نبيًا للأنام.

مخالفات الواقع:

- إنكار بعض المثقفين والعقلانيين اليوم لواقعة شق الصدر واعتبارها خرافة أو رمزية، وهذا من تمييع العقائد ومشابهة لقول الفرق الضالة كالمعتزلة.
- تقليل كثير من الناس اليوم من أهمية الإعداد القلبي والنفسي للدعاة، وتقديم مظاهر الشكل على جوهر القلب، خلاف ما فعله الله مع نبيه صلى الله عليه وسلم.
- الغفلة عن عالم الملائكة والجنود السماوية، واستبداله بتفسير مادي بحت للأحداث، وهذا من آثار الفكر الغربي المنحرف الذي يُنكر الغيب.
- طعن بعض من يُنسب للثقافة الدينية في ثوابت السيرة النبوية بحجة "التأويل المعاصر"، وهي طريقة الفرق التي فرّغت الدين من حقيقته بإسم العقل.
- ضعف اليقين عند بعض طلاب العلم حين يُحرجون من ذكر هذه المعجزات في وسائل الإعلام خوفًا من السخرية، فيكتمون ما ثبت من الصحيح.
- خلط البعض بين الإعداد النبوي والإعداد البشري في الدعوة، واعتقادهم أن أي أحد يمكنه حمل الرسالة بلا تزكية، مما جعل دعاة السوء يتصدرون المشهد.

الفقرة السادسة عودة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمّه آمنة – لقاء قصير لكنه خالد في الوجدان

بعد حادثة شقّ الصدر، تلك الواقعة المهيبة التي وقعت للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو في كنف حليمة السعدية، وأخرج فيها جبريل قلبه الشريف فغسله بماء زمزم وملأه حكمةً وإيمانًا، تيقّنت حليمة أن الطفل الذي ترعاه ليس كغيره من الأطفال، بل هو مُعَدّ لأمر عظيم. لقد خافت عليه، لا من أذى الناس فقط، بل من عظمة القدر الذي ينتظره، وأحسّت أن مهمتها قد انتهت، وأنها لا تملك القوة لحمله فوق ما تحمله الأقدار.

وفي قلبها المنفطر، قرّرت أن تعيده إلى أمّه آمنة، لكن أي عودة هذه؟ لقد كانت تعود به كما تُعاد الروح إلى الجسد، لكنها في الحقيقة كانت تفارقه كما يفارق القلب قطعةً من نبضه.

حملته بين ذراعيها وقلبها يتصدّع في كل خطوة، فقد أحبّته حبًّا يفوق ما تهبه الأم لطفلها، لقد أرضعته من لبنها، ثم أرضعته من حنانها، وضمّته إلى صدرها كما لم تضمّ أحدًا من أولادها، حتى صار قطعةً من روحها، وسرًّا من أسرار سعادتها.

وفي مكة... كانت لحظة اللقاء، لحظة لا تنسى، فيها بكى الحنين المكتوم، وسجد الشوق في محراب العيون، حين فتحت آمنة ذراعيها لحبيب قلبها، وضمت إليه فلذة كبدها، وشمّت فيه رائحة عبير غاب عنها طويلًا، فقبّلته قبلةً جمعت بين لوعة الفقد، وفرحة اللقاء، ثم همست بصوتٍ دامع:

"الحمد لله الذي ردّك إليّ سالمًا، يا قرة عيني ونور فؤادي".

لكنها لم تكن تدري أن الزمان يخفي لها فراقًا آخر، فراقًا لا لقاء بعده في الدنيا... فقد عاش محمد صلى الله عليه وسلم مع أمّه عامين فقط، ثم شاء الله أن تفارقه في طريق عودتهما من المدينة، في موضع يُسمّى الأبواء، وهو لا يزال ابن ست سنوات. ماتت آمنة، وغُرِس الحزن مبكرًا في قلبه الطاهر، ليذوق يتمًا ثانيًا بعد يتمه الأول.

أجل، كان يتمه يتمين:

الأول حين لم يجد يد الأب تربّت على كتفه يوم وُلِد،

والثاني حين تعلّق بقلب أمّه، وتعلّق قلبها به، ثم فارقها قبل أن يشبع من حنانها.

لقد شاء الله سبحانه أن ينشأ نبيّه في مدرسة الفقد، ويتربّى في حضن الألم، ليتعلّم منذ صغره أن الأمان لا يكون في حضن أمّ، ولا في ظلّ أب، بل في كنف الله وحده، في قوله تعالى:﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾]الشرح: ٦ [﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾]الضحى: ٦.[

أراده الله أن يُصقل مبكرًا، وأن يُربّى على أعين الرعاية الربانية، فشبّ على الصبر، ونما على الرحمة، وكبُر على الإحساس بالضعفاء والمكسورين.

فكان قلبه من حديد لا تلينه المحن، ومن نور لا تطفئه العتمات، ودمعه قريبًا من اليتيم، وحِلمه عظيمًا على الجاهل، ومحبته تسع الأرض ومن عليها.

إنها مشاهد تصوغ النبوة... وتهيّئ هذا القلب الشريف ليكون أهلًا لحمل الرسالة الخاتمة، وتبليغ أعظم نور عرفته الأرض.

صلّى الله عليه وسلم، ما تعلّق يتيم بأمه، وما بكَت أمّ على فراق طفلها، وما سكن حزنٌ قلبًا إلا وجعل فيه الله رحمةً لمحمد صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- من حكمة الله تعالى في تربية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن نشّأه في بيئة الألم والفقد، ليعلم الناس أن الكمال لا يصنعه الترف، وإنما تربيه يد العناية الربانية.

- يتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبيه ثم أمه يدل على أن الله أراد أن لا يتعلّق إلا به وحده، وهو معنى عقدي رفيع في التوكل والاعتماد على الله وحده.
- الآيات: ﴿وَوَجَدَكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ و﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فيها تقرير أن الله سبحانه يتولّى شؤون أوليائه منذ نعومة أظفارهم، وهي عقيدة أهل السنة في الولاية الإلهية الخاصة للمؤمنين والأنبياء.
- مشاهد الفقد والحرمان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ليست ضعفًا بل من دلائل النبوة، لتكون حياته برهانًا على أن النصر ليس حكرًا على أصحاب القوة الدنيوية.
- تكرار أقدار الفقد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم تعليم لنا أن الخير فيما اختاره الله، لا فيما نميل إليه بطبعنا البشري، وهي من أصول الإيمان بالقدر.
- في رعاية الله لنبيه عبر تقلبات الحياة بيان لعقيدة "العناية الربانية"، وهي أن الله يُعدّ من يشاء لرسالته برعاية خاصة، لا يدركها الناس بظاهر النظر.
- النبوة لا تُنال بسعيٍ بشري، بل باصطفاء إلهي خالص، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ابن ملك، أو ربّاه الملوك، لادّعى الناس أن النبوة نابعة من النسب أو القوة، فجعله الله يتيمًا فقيرًا لقطع كل شبهة.

الفوائد الفقهية:

- القصة تدل على مشروعية رعاية اليتيم والشفقة عليه، كما فعلت حليمة، مما يندرج في أبواب البر والصلة والفضل العظيم الذي حث عليه الشرع.
- بُكاء الأم عند رؤية ولدها، وضمّها له وتقبيله، يدل على مشروعية إظهار العاطفة والرحمة بين الأم وولدها، ولا يُعدّ ذلك ضعفًا أو تكلّفًا، بل هو فطرة سليمة.
- رعاية النبي صلى الله عليه وسلم في البادية ثم في مكة يُفيد مشروعية التربية في بيئات متنوعة تناسب صفاء النفس وقوة التكوين، مما يُستأنس به في فقه التربية.
- في الحديث الشريف: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» دلالة على فضل كفالة اليتيم، وما ذكر في الفقرة يُعد تطبيقًا حيًا لهذا الأصل.

الفوائد الأخلاقية:

- الحنان الذي أظهرته حليمة للنبي صلى الله عليه وسلم رغم أنه ليس ابنها الصلبي، يعلّمنا أن الرحمة لا تُحصر في روابط الدم، بل تشمل من ربطتهم المحبة في الله.
- الحزن الصادق الذي شعر به النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أمّه يدل على وفائه، ويُعلّمنا الوفاء والعرفان لأهل الفضل، ولو قلّ بقاؤهم في حياتنا.
- عناية النبي صلى الله عليه وسلم بالضعفاء في كبره كانت امتدادًا لحرمانه في صغره، ويعلّمنا أن مَن ذاق ألم الحاجة هو أولى الناس برحمة المحتاجين.
- شفقة الأم وحنينها لطفلها، وما في اللقاء من مشاعر جياشة، يُبيّن أن الشوق والدمع ليس ضعفًا، بل مظهر من مظاهر إنسانية راقية.
- في ترك النبي صلى الله عليه وسلم لحضن الأم مبكرًا، ثم نشأته قويًا، ما يدل على أن الألم لا يمنع البناء، بل قد يكون أساسًا فيه، وهو خلق الصبر والمصابرة.

الفوائد التربوية والدعوية:

- إعداد النفوس العظيمة لا يكون في بيئة رخاء، بل في مدرسة الشدة، وقد ربّى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في حضن الفقد، ليكون قدوة في التربية بالألم.
- يُفهم من تنقّل النبي صلى الله عليه وسلم بين أحضان مختلفة في صغره أن تعدد المربين لا يفسد النشأة إذا وُجدت العناية الربانية، وهو توجيه للمربين بعدم اليأس من فقدان بعض الوسائل التربوية.
- غرس الله في نبيه صلى الله عليه وسلم مشاعر إنسانية راقية منذ الطفولة، كالرحمة والشفقة، مما يُبرز أهمية العناية بالجانب العاطفي في تربية الأبناء.
- في قصة اللقاء القصير بين آمنة والنبي صلى الله عليه وسلم تذكير أن الأثر التربوي لا يُقاس بطول الزمان، بل بصدق المشاعر وحرارة اللقاء، وهو درس للمربين في جعل كل لحظة ذات أثر.

مخالفات الواقع:

- انتشار فكرة أن البيئة المثالية لتنشئة الأبناء يجب أن تكون خالية من أي فقد أو نقص، وهو مخالف لما وقع لأشرف الخلق صلى الله عليه وسلم.
- تعظيم بعض الناس اليوم لمظاهر القوة الدنيوية، وربطهم النجاح بوفرة المال والجاه، مع أن الله اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم يتمًا وفقرًا.
- تقصير كثير من الناس في العناية باليتيم، حتى من الأقربين، وتركهم يُربّون في أجواء القسوة والحرمان، بخلاف ما فعله الله بنبيه صلى الله عليه وسلم.
- وجود تيارات فكرية تُحارب إظهار المشاعر، وتصفها بالضعف، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بكى وتحنّن، وكان أرقّ الناس قلبًا.
- غياب القدوة التربوية الصالحة في حياة كثير من الأطفال، حيث يُربّون في بيئات لا روح فيها، ولا عاطفة، مما يخلّف قلوبًا قاسية غير مستعدة لحمل المسؤوليات.
- اختزال التربية في توفير المال والتعليم دون العناية بغرس معاني الرحمة والصبر والإيمان، مع أن هذه هي التي صاغت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في صغره.

الفقرة السابعة :إلى كنف الجد: عبد المطلب... ومهابة النبوة المبكرة

عاد اليتيم إلى مكة، يجرّ وراءه ظل الحزن الطويل، وقد ازداد يتمًا على يتمه، فما كاد يعرف دفء صدر أبيه، حتى وُئِد في تراب الغياب، ولا حظي بحنان أمه طويلًا، حتى اختطفه الموت من بين يديه، وتركه على أعتاب المجهول. عاد محمّدٌ صلى الله عليه وسلم طفلًا لا يعرف إلا دموع الفقد، ووجع الوحدة، لكنه ما كان وحده أبدًا... فربّه الذي اصطفاه، ما تركه، بل تولّاه بالرعاية، وصنعه على عينه، في كنفٍ من العناية الرحيمة، والحفظ الإلهي العجيب.

لقد تلقّفه عبد المطلب، سيد قريش، وشيخها المُطاع، وقد شاخ جسده، لكن قلبه بقي غضًّا بنبضات الجدّ الحنون. احتضن محمّدًا صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتي من محبة، وجعل له مكانًا خاصًّا في قلبه ومجلسه، فكان يُقرّبه إليه، ويُدنيه من فراشه، ويقعده على بساطه، ذاك البساط الذي ما كان يجلس عليه أحد من أبنائه مهابة له، فإذا حاولوا أن يُبعدوا محمّدًا، صاح بهم قائلاً :**دعوا ابني، فإنّ لابني هذا لشأنًا".**

كان يقدّمه على سائر أولاده، ويكرمه كما لم يُكرم غيره، ويحنو عليه برفقٍ خالصٍ لا يشبه رفق أحد، وإذا غاب لحظةً عنه، اضطرب قلبه، وسأل عنه، وأرسل في طلبه، فإذا عاد إليه، تنفّس صدره الطمأنينة، كأنما عاد إليه قلبه بعد

غياب.
كان يراه بعين الجدّ، لكنه يشعر أنه أمام صبيّ ليس كالصبيان، نورٌ في الوجه، صدقٌ في الهيئة، وقارٌ في الصمت، وسمتٌ مهيبٌ يلفّ الطفل اليتيم، حتى إنّ كل من يراه، كان يشعر بشيء غير مألوف، كأنّ لله في هذا الغلام سرًّا عظيمًا.

وهكذا نشأ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في كنف الجدّ، بين هيبة الزعامة ودفء الحنان، في بيتٍ عريق النسب، جليل المكانة، لكنه محفوف بالحنين والألم.

حتى إذا بلغ الثامنة من عمره، ودّع عبد المطلب الحياة، كما ودّع قبلَه عبد الله وآمنة، واصطبغ قلب محمّد صلى الله عليه وسلم بلونٍ جديد من ألوان الحزن.
فُتحت صفحةٌ جديدة من يتمه الطويل... لكنها كانت أيضًا فصلًا من فصول الإعداد الإلهي، لمن سيحمل نور الرسالة، ويهدي البشرية كلها بإذن ربّه.

الفوائد المستفادة من هذه المرحلة

الفوائد العقدية:

- نشأة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ظل الحزن والفقد دليل على أن الله يصطفي أنبياءه ليكونوا قدوات للناس في الصبر، وهو من دلائل العناية الربانية الخاصة.
- قول الراوي: "ما كان وحده أبدًا... فربّه الذي اصطفاه ما تركه" يبيّن عقيدة أهل السنة في *الرعاية الإلهية الخاصة* التي تصحب أولياء الله لا سيما الأنبياء، وهي من لوازم الإيمان بحكمة الله ورحمته.
- إشعار عبد المطلب بأن لابنه هذا شأنًا، هو من دلائل الإلهام الفطري، الذي يجعله الله أحيانًا لبعض عباده تجاه الأنبياء، تأكيدًا لاصطفائهم المبكر.
- المهابة التي كانت تكسو النبي صلى الله عليه وسلم في صغره آية من آيات التهيئة الإلهية، وهي شواهد على النبوة، دلّت عليها سيرته من بدايتها.
- كل ما مرّ بالنبي صلى الله عليه وسلم من يتم متتابع هو من أقدار الله التي تُصدّق بها القلوب المؤمنة، وتُسلّم أن الله يربي عباده لحكمة، لا عبثًا، وهو أصل في باب القدر.
- لا يصح أن يُقال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان ضحية بيئة أو مجتمع، بل هو مُعَدّ ومُربّى من فوق سبع سماوات، وهي عقيدة أهل السنة في النبوة.

الفوائد الفقهية:

- يدل تقديم عبد المطلب للنبي صلى الله عليه وسلم على إخوته على جواز تخصيص الهدية والتكريم لمن ظهرت عليه ملامح الفضل والصلاح، ما لم يُقصد به الجور أو الظلم.
- قيام الجدّ برعاية حفيده يتيمًا من بعد موت أبويه، يُعدّ تطبيقًا عمليًا لحكم كفالة اليتيم، وهو من أعظم أبواب البر في الشريعة.
- في حفظ النبي صلى الله عليه وسلم من صغره دون مشاركة في لهو الأطفال، ما يدل على أن الله يحفظ أولياءه من السوء، وهو يُستأنس به في أن الصلاح قد يظهر على الصغير مبكرًا، فتصح معاملته بما يناسب حاله.
- استبشار الجدّ بأن له شأنًا لا يتعارض مع أحكام الشرع في عدم الجزم بمآلات الغيب، لأن ذلك لم يكن عن دعوى كشف، وإنما من فرط المحبة وملاحظة الوقار، وهو مما يجري على ألسنة الناس ولا يُؤاخذ عليه.

الفوائد الأخلاقية:

- حرص عبد المطلب على النبي صلى الله عليه وسلم، واهتمامه به فوق سائر أولاده، يُعلّمنا أن الرفق بالضعفاء والمحتاجين عاطفيًا أعظم من مجرد أداء الواجب.
- حنان الجدّ، وتعلّقه بالنبي صلى الله عليه وسلم، يذكّر بأهمية دور كبار السن في التربية، وأن الحنان لا يشيخ.
- في المهابة التي كانت تحيط بالصبي محمد صلى الله عليه وسلم درسٌ في أن الوقار لا يُكتسب فقط بالعمر، بل يُمنح من الله، ويُربّى في النفس منذ الصغر.
- الحزن النبيل الذي مرّ به النبي صلى الله عليه وسلم دون تذمر، يدل على خلق الصبر والرضا، وهو خلق يجب غرسه في الأبناء منذ الطفولة.
- رؤية الجدّ لطفل مميز وتخصيصه بعناية خاصة يُعلّمنا أن التميّز لا ينبغي طمسه باسم المساواة، بل ينبغي توجيهه بحكمة.

الفوائد التربوية والدعوية:

- تربية النبي صلى الله عليه وسلم بين فقد الأبوين ودفء الجدّ تربية متوازنة بين الشدة والرحمة، وهي أنفع أسلوب تربوي في صناعة النفوس العظيمة.
- كان عبد المطلب لا يُبعد النبي صلى الله عليه وسلم عن مجلس الكبار، بل يُقعده معه، مما يعلّم المربين أهمية إشراك الأبناء في مجالس الوقار، لتأهيلهم للقيادة.
- الشعور المبكر بأن هذا الطفل له شأن، هو من دلائل البصيرة التربوية، التي يجب أن يتحلى بها كل من يتعامل مع الأبناء، خاصة في رصد الملامح النبوغية والتوجيه نحوها.
- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على يتمه الطويل مدرسة لكل من مرّ بظروف مشابهة، أن لا يجعل من ماضيه مبررًا للفشل، بل منصة للعلو.
- في العناية بنشأة النبي صلى الله عليه وسلم من دون أب وأم دعوة واضحة للمجتمعات أن ترعى اليتيم لا بجسده فقط، بل بروحه ومكانته وثقته بنفسه، ليكون مؤثرًا.

مخالفات الواقع:

- التخلّي عن الأيتام وتركهم للمؤسسات أو الشوارع دون حنان أو رعاية خاصة، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بُنيت شخصيته بالرعاية الفردية من الجدّ.
- مظاهر الجفاء والغلظة من بعض الآباء والأجداد في زمننا، بحيث يُعامل الأطفال بجفاء شديد، بخلاف ما فعله عبد المطلب من الحنان والاحتضان.
- ضعف الشعور بمكانة الأطفال الصالحين في بعض البيوت، ومساواتهم بمن يُظهر الفساد بحجة "أنهم جميعًا أولاد"، مما يُفوّت على المربين فرص التوجيه.
- تأثّر بعض من ينتسب إلى الثقافة الإسلامية بأفكار تربوية وافدة تُنكر المهابة، وتُحطّم صورة الوقار، وتُعلّم الأطفال الجرأة المذمومة لا الأدب والسمت.
- كثرة من يُصدّرون في مناصب التعليم والتوجيه لا يملكون سِمات الهيبة ولا سمت الصالحين، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعرف بالوقار منذ صغره.
- غياب القدوات المؤثرة في البيوت، وخصوصًا من جهة الأجداد، وانشغالهم باللهو أو الدنيا، بينما عبد المطلب قدّم نموذجًا رائعًا في التوجيه الصامت والتربية بالمهابة والمحبة.

الفقرة الثامنة إلى بيت العم – كفالة أبي طالب، والرحمة الموروثة

مضت أيام الجد الحنون، وسُدّ بابٌ من أبواب الحنان، لكنّ عناية الله التي لا تنقطع، فتحت بابًا آخر، فكان الانتقال إلى بيت العم الكريم: أبي طالب، بداية فصل جديد في سيرة الرحمة والعناية الربانية.

لم يكن أبو طالب أكثر إخوته مالًا، بل كان كثير العيال، محدود الدخل، ولكنه كان غنيًّا بالوفاء، عامرًا بالمروءة، عظيم القلب، رحيماً رغم صعوبة الحال. فبمجرّد أن أوصى به عبد المطلب، قبِل أبو طالب الوصية لا كأنها حمل ثقيل، بل كأنها شرف عظيم، وتكفّل بمحمد صلى الله عليه وسلم كما يتكفّل الأب بابنه، بل أكرم.

فاحتضنه صغيرًا، وآواه شابًا، وصحبه في سفره، وكان لا يفارقه في حلّه وترحاله. لقد شعر تجاهه بمحبة فيّاضة، وعاطفة جياشة، لم يكن يملك لها تفسيرًا إلا أن شيئًا في قلبه يقول: لهذا الغلام شأن عظيم.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكن إلى عمه، ويرى فيه معاني النبل والرجولة، والكرم وعزّة النفس، ونصرة الضعفاء، فنهل من أخلاقه، وتشرّب من بيته مكارم الآباء. لقد غُرست في قلبه صلى الله عليه وسلم بذور الرحمة في بيت أبي طالب، قبل أن تفيض رحمة النبوة على الخلق أجمعين.

ولم يكن أبو طالب يبخل عليه بمحبته، بل كان يخصه بها ويُقدّمه على أولاده، حتى إذا بُعث النبي صلى الله عليه وسلم قال عمه كلمته المشهورة" **:والله لا يُسلموه ما دمت حيًّا"**، وهي عبارة لا تعبّر فقط عن موقف سياسي أو اجتماعي، بل عن عمق المحبة التي غُرست في قلبه منذ نعومة أظفار النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد كان بيت أبي طالب مدرسة صامتة، لكنها فعّالة، علّمت النبي صلى الله عليه وسلم كيف يعيش الكرامة وسط الضيق، وكيف يحمل الضعفاء على قلبه، وكيف يصنع الرحمة من قلبٍ ذاق الحاجة، وعقلٍ شاهد الوفاء في أشد أوقاته.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة

الفوائد العقدية

- عناية الله تعالى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لم تنقطع لحظة، بل كانت تتنقّل به من يدٍ حانية إلى أخرى، لتتحقق الرعاية الربانية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].
- إن انتقال النبي صلى الله عليه وسلم بين البيوت والمراحل لم يكن عشوائيًا، بل بتدبير حكيم من الله تعالى، ليُربّى على أعين العناية، ويُعدّ لحمل الرسالة.
- الله سبحانه يهيّئ للأنبياء أسباب الحفظ والرعاية ولو في بيوتٍ فقيرة، لتكون دلائل العناية قائمة رغم قلة المال وكثرة الشدة.
- أبو طالب رغم عدم إسلامه، سخّره الله عز وجل لخدمة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك دليل على أن الله يستخدم بعض الكفار لحماية دينه وأنبيائه، لحكمة يُجريها في الكون.
- تربية النبي صلى الله عليه وسلم في بيتٍ كثير العيال، قليل المال، غني بالمروءة، هي مظهر من مظاهر إعداد الله له لقيادة الأمة، وهو من دلائل الإيمان بالغيب.

الفوائد الفقهية

- كفالة اليتيم من أعظم القربات، وقد دلّت سيرة أبي طالب مع النبي صلى الله عليه وسلم على أن الكفالة ليست فقط توفير مأوى، بل أيضًا عناية وحضور واصطحاب ومرافقة.
- لا حرج في أن يُقدِّم الكافل اليتيم في المحبة والرعاية على أولاده، إذا كان ذلك لمصلحة شرعية ولم يظلم الباقين.
- الاستجابة للوصية في رعاية اليتيم من الوفاء المشروع، بل قد تكون واجبة إذا لم يوجد غيره.
- حفظ المعروف والوفاء لمن قدّمه إلينا حق واجب، وقد حفظ النبي صلى الله عليه وسلم لعمه وفاءه حتى بعد موته، واستغفر له حتى نُهي.
- لا يُشترط الغنى المادي لكفالة اليتيم، بل المدار على غنى النفس، كما دلّ بيت أبي طالب، وهذا باب عظيم لرفع الحرج عن الفقراء الذين يظنون أنهم لا يصلحون للكفالة.

الفوائد الأخلاقية

- الوفاء يظهر في أصعب اللحظات، وقد أظهر أبو طالب وفاءه في استجابته للوصية، وفي كفالته للنبي صلى الله عليه وسلم رغم فقره.
- الرحمة لا تحتاج إلى ثراء، بل يولّدها القلب الكبير، وقد أثبت أبو طالب أن القلب المحب قادر على العطاء مهما ضاق ذات اليد.
- علوّ الهمة والكرامة قد تجتمع مع الفقر إذا كان الإنسان ذا مروءة، وهذا ما تربى عليه النبي صلى الله عليه وسلم.
- الاقتران بأهل الفضل يؤثّر في النفس ويزرع فيها مكارم الأخلاق، وقد اكتسب النبي صلى الله عليه وسلم من بيت عمه صفات الرجولة والنبل.
- التقدير النفسي للطفل اليتيم يزرع فيه الثقة، ويعوّضه عن الفقد، ويؤسس فيه شعور الانتماء، وقد كان ذلك من أبي طالب تجاه النبي صلى الله عليه وسلم.

الفوائد التربوية والدعوية

- المواقف العملية التي يعيشها الطفل تغرس في نفسه القيم أكثر من آلاف الكلمات، وقد تعلّم النبي صلى الله عليه وسلم من بيت عمه الكرامة والعزة.
- وجود شخصية راعية في حياة الطفل تؤمن به وتُقدّره، يترك في قلبه أثرًا لا يُنسى، وقد شكّل موقف أبي طالب من نبيّه صلى الله عليه وسلم نموذجًا عظيمًا في الرعاية المعنوية.
- التربية على القناعة والعزة معًا تصنع شخصية متوازنة، فلا يعيش المرء ذليلًا لفقره، ولا طاغيًا عند غناه.
- رعاية الضعيف في البيت، وتقديمه بالحنان والعناية، يُعلّمه كيف يحنو على الناس حين يُصبح قويًا، وقد تربى النبي صلى الله عليه وسلم على هذا.
- الصمت الذي يُمارَس في البيوت قد يكون أبلغ من الكلام، فبيت أبي طالب لم يكن بيت دروس، لكنه كان مدرسة مواقف، وهذا من أرقى وسائل التربية.

مخالفات الواقع

- قلّ في هذا الزمان من يتكفّل اليتيم كما يتكفّل أحد بنيه، بل قد يُسلَّم لجهات أو دور رعاية تُجرّده من الحنان والاحتواء الحقيقي.
- كثير من الأسر تُسقِط الوصايا، ولا ترى في تربية اليتيم أو قريبه شرفًا، بل عبئًا، وتبحث عن التخلص منه، بعكس ما فعله أبو طالب.
- غابت معاني الوفاء والمروءة في كثير من البيوت، فصارت النفقة هي المعنى الوحيد للرعاية، دون عناية أو مشاركة

وجدانية.

- كثير من أبناء هذا الزمان لا يرون في الفقر إلا مذلة، ويعيشون بذهنية الحاجة والانكسار، بخلاف ما ربّى أبو طالب عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الكرامة والعزة.
- بعض **الفرق المرجئة** اليوم تُضعف جانب العمل والخلق بحجة أن الإيمان في القلب، ولو تأملت حياة أبي طالب، لرأيت أن المروءة والعمل الصادق وإن لم يصحبه الإيمان ينفع الناس ويخلّد الذكر، فكيف إذا اقترن الإيمان بالعمل؟
- تنشئة الأطفال على الرفاه الزائد والتكاسل عن مرافقة الكبار في الأعمال أفقدتهم صفات النخوة وتحمل المسؤولية، بخلاف نشأة النبي صلى الله عليه وسلم في بيت أبي طالب، حيث شارك في الحياة فعليًا.
- ضعف القدوة في كثير من البيوت المعاصرة، حيث يغيب النموذج الأخلاقي أو الرجولي، ويُترك الطفل لتربية الأجهزة أو المجتمع، بخلاف التربية التي تلقاها النبي صلى الله عليه وسلم في ظلال الرجولة والمروءة.

الفقرة التاسعة رحلته الأولى إلى الشام – أولى خطوات المجد النبوي

كان الفتى الهاشمي قد قارب الثانية عشرة من عمره، لكن ملامح الهيبة كانت تُطلّ من قسمات وجهه، ووقار الحكماء يسبق خطاه. كان صامتًا كثير التأمل، لكنه في أعماقه يحمل قلبًا أوسع من الصحراء، ونظرة تتجاوز الآفاق.

في تلك السن الغضة، قرر عمه أبو طالب أن يصحبه معه في قافلته التجارية إلى الشام، لتكون أول تجربة حقيقية له خارج حدود مكة، وأول احتكاك مباشر بالعالم الخارجي. ولم يكن هذا السفر كسفر التجار، بل كان *رحلة تمهيدية في طريق النبوة، وإرهاصًا لما سيأتي من عظائم الأمور*.

تحرك الركب الهاشمي في طريقه شمالًا، يقطع الصحارى ويعبر القرى، حتى إذا بلغوا مدينة **بُصرى** في أطراف الشام، شاء الله أن يلتقي محمدٌ صلى الله عليه وسلم هناك برجل من النصارى، راهبٍ يقال له :**بَحِيرَى**، وكان قد اعتزل الناس في صومعته، يرقب الزمان وينتظر ظهور النبي الذي بشرت به الكتب السابقة.

نظر الراهب في القافلة، ثم وقعت عيناه على الفتى محمد صلى الله عليه وسلم، فلم تكن نظرة عادية، بل نظرة فاحصة، عميقة، كأنها تفتش عن آيات مكتوبة في ملامحه. رأى غمامة تظلله إذا مشى، وشجرة تميل إليه إذا جلس، وسمتًا ليس كسمت الفتيان.

فلما دعاهم إلى الطعام، امتنع عن الأكل وقال" :لا آكل حتى يأتي هذا الفتى"

ثم أقبل عليه وسأله عن أحواله، ونظر بين كتفيه فوجد **خاتم النبوة**، كما ورد في الكتب، فعلم أنه هو، النبي المنتظر، الذي بشرت به النبوات، وانتظرته القلوب المؤمنة.

فأسرع إلى أبي طالب وقال له بلهجة تحذير مشفقة" :**ارجع بابن أخيك إلى بلدك، فإن له شأنًا عظيمًا، وإني أخاف عليه من يهود.**"

لم يكن الوحي قد نزل بعد، لكن الله كان يُمهّد الطريق، ويُصنع نبيه على عينه، كما قال سبحانه:﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]

عندها أيقن أبو طالب أن هذا الغلام ليس فتى عاديًا، وأن مسؤوليته تجاهه أعظم من مجرد قرابة رحم، فعاد به إلى مكة، وقد ازداد حبًّا ورعاية، وشعورًا بأنه يحمل أمانة الزمان.

لقد كانت تلك الرحلة صفحة مبكرة من كتاب النبوة، تبشّر بعهدٍ سيُبدّل الله به وجه الأرض.

الفوائد المستفادة من هذا الحدث العظ

الفوائد عقدية

- إثبات علم الله المحيط، وتدبيره الدقيق لأمر نبيه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾، فالله يصطفي أنبياءه ويهيئهم لما خُلقوا له.
- أن النبوة لا تُكتسب بالاجتهاد البشري، وإنما هي اصطفاء من الله، وهذا يتضح في إرهاصات النبوة الظاهرة في الرحلة قبل نزول الوحي.
- إثبات صدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما وافق أخبار الكتب السابقة، ومنها علامات النبي التي عرفها بحيرى الراهب.
- بشارات الأنبياء السابقين بمحمد صلى الله عليه وسلم حجة باقية على من أنكر نبوته من أهل الكتاب، لأن بحيرى عرفه بما عنده من العلم.
- التحذير من كيد أهل الباطل، كاليهود الذين كانوا يعلمون أن نبيًا سيُبعث، لكنهم كتموا الحق، وهذا من دلائل انحرافهم عن الإيمان الحق.

فوائد فقهية

- جواز اصطحاب القُصّر في السفر إذا تحققت المصلحة والقدرة على رعايتهم، كما فعل أبو طالب مع النبي صلى الله عليه وسلم.
- مشروعية النظر في العلامات الشرعية إذا ظهرت على الشخص، وهذا ما فعله بحيرى في تفقده لعلامات النبوة، مما يدل على اعتبار القرائن الشرعية في التحقق من الأمور المهمة.
- أن من رأى خطرًا على مسلم، وجب عليه نصحه وتحذيره، كما نصح بحيرى أبا طالب بإرجاع النبي صلى الله عليه وسلم خوفًا عليه من يهود، وهذا أصل في النصيحة المشفقة.
- أن معرفة العلوم الشرعية السابقة والربط بينها وبين الشريعة الخاتمة هو سبيل للثبات على الدين، كما فعل الراهب حين صدّق بما لديه من علم بالنبوة.

فوائد أخلاقية

- أن الوقار والتأمل سمت النبوة منذ الصغر، وهذا يدعو إلى تربية الأبناء على تعظيم المعاني الكبرى لا اللهو واللعب فقط.
- أن أبو طالب أدرك عِظم الأمانة تجاه النبي صلى الله عليه وسلم، فرعاه رعاية عظيمة، فدلّ ذلك على أن عِظم المسؤولية يوجب مزيدًا من العناية والرعاية.
- موقف الراهب من النبي صلى الله عليه وسلم يعكس خُلق التواضع للحق، والاعتراف بفضله، رغم أنه من أمة أخرى، مما يدعو إلى الإنصاف والاعتراف بالحق ولو جاء ممن خالفنا.
- الحرص على حماية الصالحين وأهل العلم من الأذى خُلق نبيل، فعله الراهب حين خشي على النبي صلى الله عليه وسلم من يهود، مما يدل على أن الغيرة على الخير خلق فطري في أهل الفطرة السليمة.

فوائد دعوية وتربوية

- أن التمهيد للداعية قبل دعوته مرحلة مهمة في تكوينه، كما مهّد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم الطريق قبل البعثة.

- أن التربية بالتجارب الواقعية، كالسفر والاحتكاك بالعالم الخارجي، أسلوب فعّال في إعداد النفوس الكبيرة.
- أن الدعوة إلى الله تحتاج رجالًا يحملون في قلوبهم هِممًا تتجاوز الآفاق، لا أصحاب همم دُنيا وشهوات زائلة.
- أن التدرج في إعداد القادة سنة ربانية، فقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم رحلته من قافلة صغيرة، لكنها كانت أول خطوة في أعظم طريق.

مخالفات الواقع

- كثرة من يُهملون بناء الأبناء تربويًا في سن مبكرة، وينشغلون عنهم باللهو أو العمل، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في مثل هذا السن يُمهد له أمر عظيم.
- أن كثيرًا من الناس اليوم يحتقرون أصحاب الهمم والتأمل من الصغار، ويرون الجدّ في الصغار عيبًا، مع أن ملامح المجد تظهر منذ الطفولة.
- أن بعض الآباء أو الكبار يُهملون الصحبة الصالحة للأبناء، بينما أبو طالب اصطحب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ليكون له راعيًا وموجهًا.
- أن كثيرًا من المسلمين اليوم يُقللون من شأن العلم الشرعي السابق، ولا ينظرون في كتب أهل الكتاب ليروا البشارات بنبينا صلى الله عليه وسلم، رغم أن فيها حجة قائمة عليهم.
- أن بعض الفرق المنحرفة تُنكر إرهاصات النبوة وتطعن في أخبار السيرة الثابتة بحجة العقل أو المنهج العقلي الحديث، وهذا من الضلال عن منهج أهل السنة الذين يثبتون ما صح من ذلك.
- أن من الناس من لا يُقدّر خطر أعداء الدين، فلا يحذر منهم ولا يُربي أبناءه على الحذر، بينما بحيرى حذر من اليهود وأوصى بكتمان الأمر عنهم.

الفقر العاشرة في ساحة السهام... قلب لا يميل إلى الظلم

في أزقّة مكة الصاخبة، حيث كانت الأصوات تعلو في الأسواق، والقبلية تعلو على القيم، والدم يُسفك لأتفه الأسباب، نشأ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، نشأة الطهر في وسطٍ يعجّ بالقسوة، وغُذّي بالصدق في بيئةٍ تشربت الكذب، وحُفّ بألطاف العناية الإلهية في كل خطوة من خطواته، كأنما كان الله يصوغ له طريقًا مختلفًا عن كل من حوله، طريقًا ممهّدًا للنبوة.

وفي سن الخامسة عشرة، وهو في ريعان فتوته، ما زال الغصن طريًّا، لكن قلبه كان أبلغ من سنواته، وحكمته كانت تسبق عمره، شهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم واحدةً من أعنف معارك العرب، معركة "الفِجَار"، التي دارت رحاها بين قريش وحلفائها من جهة، وهوازن وحلفائها من جهة أخرى، في انتهاكٍ صارخٍ لحرمة الأشهر الحرم التي عظّمها الله في قوله:﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا... مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وكانت العرب تُوقّر هذه الأشهر، وتُكفّ فيها عن الحروب والثأر، فلما جرى القتال في هذه الأوقات، سُمّيت الحرب "الفِجَار"، لِما فيها من فجور وانتهاك للمقدسات.

أما هو صلى الله عليه وسلم، فلم يكن ممّن سلّ سيفًا، ولا غمز رمحًا، ولم يشارك في سفك دمٍ، بل اقتصر دوره على مناولة السهام لعمه، يجمعها لهم ليقاتلوا بها، وكأن الحكمة الإلهية أرادت أن يُرى بين الناس، حاضرًا لا غائبًا، مشاركًا لا مقاتلًا، شاهِدًا لا قاتلًا، ليشهد الشرّ بعينه، لكن لا يكون من صانعيه.

لم يكن قلبه يميل إلى سفك الدماء، ولم تكن نفسه تميل إلى الثأر، لقد رأى الفوضى، وعاين كيف يُظلم الضعيف، ويعلو صوت الجاهلية على صوت العقل، وكيف تموت النفوس من أجل الكبرياء. فامتلأ قلبه الطاهر كرهًا للظلم، وازدادت نفسه شوقًا إلى العدل، حتى كأن الفطرة النقية فيه تهتف من أعماقه" :هذا ليس طريقك، بل طريقك نور، وسلام، ورحمة".

وتمرّ الأيام، وتُخزن ذاكرته تلك المشاهد لتكون عبرة، ويحتفظ قلبه بتلك المرارة ليكون طبيبًا شافيًا لأوجاع أمّته يومًا ما.

نعم... لم يُكتب له أن يخطو وسط ساحة القتال بسيفٍ أو رمح، لكنه خَطَا في قلب الفتنة بثبات، ليرى كيف يصنع الجهل بالناس، وكيف يُفسد الحقد عقول الرجال، وكيف تضيع الحقوق حين تُقاد الأمة بالهوى.

وما إن أشرقت عليه أنوار النبوة بعد سنوات، حتى فهم لماذا رأى ما رأى، ولماذا عاش تلك الوقائع دون أن يكون جزءًا منها.

لقد كان إعدادًا ربّانيًّا بديعًا، كما أعدّ الله موسى عليه السلام من قبل بقوله:﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩.]

وكذلك صُنِع محمد صلى الله عليه وسلم على عين الله، ليكون نبيّ العدالة، وسيد الحلم، ورسول الرحمة، لا يظلم عنده أحد، ولا يُهدر دم، ولا يُؤخذ البريء بجريرة الجاني.

حتى إذا نزل عليه الوحي، وأُمر أن يبلغ الرسالة، كان قلبه ممتلئًا بمعاني الإصلاح، وحين قاد الناس بعد ذلك، لم يكن قائد حرب، بل كان هاديَ سلام، يقول لهم" :إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا".

إنه محمد صلى الله عليه وسلم، رسولٌ لم يُربَّه السيف، بل رَبّاه الألم، ولم تُشكله الدماء، بل شكّلته الحكمة، ولم تُعظّمه القبائل، بل عظّمه الله، فجعله للناس رحمةً تمشي على الأرض. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧.]

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- دلّت نشأة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في وسط بيئة مشبعة بالظلم والجهل، على أن الله تعالى يصطفي أنبياءه ويُعدّهم بعنايته الخاصة، لتكون حياتهم برهانًا على لطف الله وقدرته في تهيئة المصطفَين لحمل رسالته.
- حضور النبي صلى الله عليه وسلم لمعركة الفجار دون مشاركة فعلية في القتال، مع كونه في ريعان الشباب، دليل على عصمة الأنبياء من الذنوب قبل النبوة وبعدها، وهذه العصمة شرط فيهم ليكونوا موضع الثقة في تبليغ الوحي.
- إعداد النبي صلى الله عليه وسلم في سنينه الأولى بما فيها من مشاهد الألم والظلم، هو من صور التربية الربانية التي تسبق البعثة، لتمتلئ القلوب المؤمنة بيقين أن اختيار الله لا يكون عبثًا، بل هو ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.
- ما ذكر من امتلاء قلب النبي صلى الله عليه وسلم رفضًا للظلم وشوقًا للعدل، شاهد على أن فطرة الأنبياء محفوظة، وأن النفوس المؤهلة لحمل الرسالة لا تأنس بالشر مهما عاشته من قريب.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام..." هو نص نبوي يُبيّن أن شريعة الإسلام مؤسسة على حفظ الضروريات الخمس، وأن النبي مبلغ عن الله، وليس مشرّعًا من عند نفسه.

فوائد فقهية

- الأشهر الحرم لها حرمة ثابتة في الشريعة، لا يجوز انتهاكها بالقتال أو الظلم، وهذا الحكم باقٍ في الإسلام، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦.]

- تعظيم الدماء المعصومة من أعظم مقاصد الشريعة، ومن تعدّى على دم مسلم بلا حق، فهو على خطر عظيم في الدنيا والآخرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: "لا يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يُصب دمًا حرامًا." [البخاري.]
- الأصل في المسلم إذا شهد منكرًا أو ظلمًا أن لا يشارك فيه، فإن عجز، فليكن حاضرًا بحكمته لا بسيفه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الفِجار، فيكون حضوره ناصحًا وشاهدًا لا مشاركًا.
- من مقاصد النبوة الإصلاح لا الفساد، والسلام لا النزاع، ولهذا كانت الدعوة مبنية على السلم والرفق ما لم يكن عدوٌ يقاتل، فالأصل في الإسلام الدعوة بالحكمة، لا حمل السلاح ابتداءً.

فوائد أخلاقية وتربوية

- امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال في شبابه، مع أنه قادر، دليل على أن الشجاعة الحقة ليست في حمل السلاح، بل في الترفع عن الباطل، والتمسك بالحق.
- كره النبي صلى الله عليه وسلم للظلم منذ صغره يعلّمنا أن القلب الذي لم يتطبع على الغلظة في الطفولة، سيكون أقدر على أن يكون رحيمًا حين يكبر.
- من تربية الأبناء أن يُنشأوا على مراقبة الله لا على مسايرة الناس، كما نشأ النبي صلى الله عليه وسلم في بيئة الجاهلية، لكنه لم يتأثر بها بل نجا بفطرته وهداية ربه.
- الحكمة والوقار لا يُقاسان بالسن، بل بتربية النفس، ومثال ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الخامسة عشرة كان أبلغ من سنّه، وأرحم من شيوخ زمانه.
- الاحتفاظ بمرارة الأحداث لا يعني الحقد، بل يعني تحويل الألم إلى طاقة للإصلاح، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى الفوضى، فقاد الناس إلى العدل.

فوائد دعوية

- كان من إعداد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يشهد واقع الناس ويتأمله، دون أن يغرق فيه، وهذا منهج تربوي في الدعاة: أن يفهموا الواقع جيدًا، دون أن يصبحوا جزءًا من فساده.
- المشاهد التي خزنها النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة كانت وقودًا دعويًّا بعد النبوة، وهكذا يكون الداعية الصادق: لا ينسى آلام الناس، بل يداويها حين يمكنه ذلك.
- الدعوة إلى الرحمة لا تكون خطابًا فقط، بل تبدأ بقلبٍ رأى القسوة، ثم أنكره، ثم عزم على تغييره، وهذه رحلة كل مصلح صادق.
- التربية على أن يكون المسلم "هادياً لا قاهرًا"، "شاهداً لا مشاركًا في الشر"، هي من أعظم وسائل إعداد النفوس للقيادة الراشدة.
- القائد في الإسلام ليس من جمع الأتباع بسيفه، بل من هدى القلوب بحكمته، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم.

مخالفات الواقع

- الانخراط في القتال الأهلي، والصراعات الحزبية، وسفك الدماء بين المسلمين تحت شعارات كاذبة، هو انحراف عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان هاديًا لا سفّاكًا، حاضرًا لا مشاركًا.
- استخفاف كثير من الناس بحرمة الدماء، ونشر مشاهد العنف والقتل بدعوى البطولة، يخالف تعظيم الشريعة لحرمة النفس، خاصة في الأشهر الحرم.
- غلبة الجهل والهوى في إدارة الخصومات والنزاعات، وغياب صوت العقل والحكمة، كما حدث في الجاهلية، يُعيد مشهد معركة الفجار بشكل جديد.
- التغني بالقبلية والانتماءات الضيقة، واعتبارها مقياس الكرامة، رغم أنها سبب لسفك الدماء وإهدار الحقوق، يخالف

تمامًا ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم من الترفع عن العصبية الجاهلية.

- تصور بعض الناس أن التغيير لا يكون إلا بالعنف، وأن الإصلاح لا يأتي إلا بالقوة، هو تصور باطل، يخالف سيرة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أُرسل رحمة للعالمين، لا هادمًا ولا مخرّبًا، ومن تبع غير طريقه ضلّ وأضل.

الفقرة الحادية عشر في دار العدل... يدٌ وُضعت لنُصرة المظلوم

في مكة... حيث تعلو الأصوات في الأسواق، وتُعقد الصفقات تحت ظلال الكعبة، وتتنافس القبائل في الفخر والنسب والتجارة، كان الظلم -وإن تستر بثوب الجاهلية- لا يزال يمشي بين الناس بثقل الجبروت، ولا يجد المظلوم من يقتصّ له إلا أن يشاء الله.

وفي تلك الأجواء، جاءت حادثةٌ لا يُمكن أن تنسى، نُقشت في صفحات التاريخ الأخلاقي العربي، وكانت نقطة تحول في مسار القيم والمروءة، بل كانت أول إشراقة في طريق النبوة الذي يمشي فيه محمد صلى الله عليه وسلم.

رجلٌ غريبٌ من أهل **زبيد اليمن**، حلّ بمكة حاملًا بضاعته، وتوجه إلى "العاص بن وائل السهمي" التاجر المعروف، فاشترى منه سلعًا وأبى أن يدفع له ثمنها، استضعفه لغرابته، وتطاول عليه بسلطانه، ومضى كأنما لم يكن هناك بيع ولا عقد.

صرخ الزبيدي في طرقات مكة، طرق أبوابها حيًّا حيًّا، ونادى في شعابها "يا معشر قريش! أنصفوني من العاص بن وائل! فقد ظلمني وأخذ مالي"، لكن الأصوات خفتت، والقلوب قست، والأنفس خنعتها المصلحة. أين من ينصر الغريب؟ وأين من يردّ المظلمة؟ لقد كانت مكة تفيض بعبَرات المظلومين، لكن قلّ من يجففها.

لكن الله لا يُسلم الحق إلى الضياع، ولا يترك الشرف مهدورًا، وفي كل زمنٍ يوجد من يرفض أن يُباع الضمير في سوق النفوذ، وتلك الفئة المباركة اجتمعت يومها لتقول: "كفى للظلم!"، وكان فيهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، شابٌ لم تكتمل العشرين من عمره، لكن فطرته الطاهرة، وعقله النقي، وشهامته الأصيلة، جعلته في قلب هذا الحدث.

اجتمع نفرٌ من بني هاشم، وبني زهرة، وبني تيم، وغيرهم من قبائل قريش ممن بقي فيهم بقية من الشرف، في **دار عبد الله بن جدعان**، وكان بيتًا عامرًا بالكرم والوجاهة، فصاغوا عهدًا عظيمًا، وعقدوا ميثاقًا مشرفًا، عرف في التاريخ باسم **"حِلف الفضول."**

وما أجمله من حلف! اتفقوا أن لا يُظلم أحد في مكة من أهلها أو من خارجها، من قويّ أو ضعيف، من حرٍّ أو عبد، من قريش أو من غيرها، إلا وقفوا له حتى يُردّ إليه حقه، لا يبالون من أي أرض أتى، ولا أي دين يدين به، إنما هو ميثاق الإنسانية والشهامة والعدل.

لقد حضر النبي محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف، وشارك فيه بنفسه، ورأى كيف تُصاغ المبادئ على أيدي الرجال الصادقين، فلما بُعث نبيًّا، بعد سنوات، وكان بين يديه وحي السماء، لم ينسَ هذا الموقف، بل قال بفخرٍ واعتزاز:

"لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت"

]رواه أحمد (١٦٥٥)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٩٠٠).[

أرأيت كيف لم تمنع النبوة النبي صلى الله عليه وسلم من الثناء على موقف شهده في الجاهلية؟ بل زاده ذلك تصديقًا بأن **القيم لا يختص بها زمن، وأن العدل لا يُحصر في أمة، وإنما هو فطرة الله التي فطر الناس عليها.**

ولقد صدق قول الله تعالى}:وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ{]المائدة: ٨.[

هكذا كانت تربية الله لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة، يخط له طريق النور في دروب الجاهلية، ليعرف طعم المظلوم وهو في صفوف الناصرين، ويشهد ميلاد العدالة قبل أن يُبعث رسولها.

لقد كان حِلف الفضول **بابًا من أبواب التمهيد الإلهي للنبوة**، يُعلّمه أن الدفاع عن الحق لا يتطلب وحيًا، بل فطرةً حية، وضميرًا حيًّا، وقلبًا لا يرضى بالظلم ولو سُكبت عليه أنهار الذهب.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- ما وقع من استعداد النبي صلى الله عليه وسلم لنصرة المظلوم قبل البعثة دليل على أن الفطرة التي فطره الله عليها كانت مستعدة لحمل الرسالة، وأن الاصطفاء الإلهي يسبق النبوة سلوكًا واستعدادًا، قبل أن يكون وحيًا وتكليفًا.
- شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لحِلف الفضول، وثناؤه عليه بعد نبوته، فيه دلالة على أن الإسلام لا ينكر الخير الموجود قبل البعثة، بل يقرّه ويُهذّبه ويضبطه بالوحي، فهو دين فطرة لا يصطدم بها بل يُكمّلها.
- قبول النبي صلى الله عليه وسلم الدخول في ميثاق لحماية المظلوم قبل أن يكون نبيًا، يشير إلى أن العدل قيمة ثابتة في شريعة الله في كل أزمنة الأنبياء، لا تتبدل باختلاف التشريعات.
- ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على الحلف بعد نبوته فيه إثبات أن أصول الأخلاق التي أقرها الإسلام ليست حادثة، بل هي امتداد لسنن الله في خلقه، وأن منبعها الفطري مؤيد بشرع الله.

فوائد فقهية

- حِلف الفضول أصل فقهي معتبر في باب التعاون على الحق، وقد استدل به بعض العلماء على جواز المشاركة في المواثيق والاتفاقات التي تهدف إلى رفع الظلم، ولو كانت قبل الإسلام، بشرط ألا تخالف الشرع.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت"، قاعدة عظيمة في فقه التعاون، فالمعيار هو المبدأ لا الأشخاص، والمقصد لا الشعارات.
- في الحلف بيان لأهمية العقود المجتمعية والاتفاقات الجماعية في دفع الظلم، وهي مما يُؤيده الإسلام إذا خلت من محظور شرعي، وهذا من باب السياسة الشرعية لتحقيق العدل.
- اجتماع القبائل المختلفة على أمر واحد مشروع، يدل على أن اختلاف الأنساب والبيئات لا يمنع من وحدة الموقف إذا كان المبدأ عدلًا، وأن رابطة الدين والمروءة أسمى من رابطة العِرق أو القبيلة.

فوائد أخلاقية وتربوية

- موقف النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه من نصرة المظلوم يعلّمنا أن الرجولة تُقاس بالوقوف إلى جانب الحق لا بالقوة والبطش، وأن النبل يُعرف في المواقف لا في الأعمار.
- الحلف الذي أُقيم بين القبائل دليل على أن الأخلاق ليست محصورة في الأفراد، بل يمكن غرسها في المجتمع كله إذا وُجدت العزائم، واتفقت القلوب على الحق.
- ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على موقف مضى عليه سنوات طويلة يدل على قيمة الوفاء الأخلاقي، وأن الذكرى الجميلة تُحفظ في قلب الأوفياء ولا تُنسى.
- أخلاق الشهامة والنجدة لا تنشأ فجأة، بل تُربّى في النفس منذ الصغر، ويؤيدها التوجيه الرباني لاحقًا، ولهذا فإن التربية على معاني النصرة والعدل تبدأ من الطفولة.

- صورة الرجل الغريب الذي طاف أحياء مكة يطلب حقه دون مجيب، تذكّرنا بمرارة الظلم، وتعلّمنا أن قيمة الإنسان لا يجب أن تُقاس بمنصبه أو نسبه، بل بإنصافه وظلمه.

فوائد دعوية

- هذا المشهد من حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يعلّم الدعاة أن الإصلاح يبدأ قبل التمكين، وأن مَن لا يحمل هم العدل قبل أن يُؤمر بالدعوة، لن يكون أهلًا لحمل الرسالة.
- الدعوة ليست كلامًا يُلقى، بل مواقف تُعاش، ومَن لا يُجَرّب الوقوف مع المظلوم، فلن يشعر بحاجته يوم يُكلّف بهدايته، ولذلك فإن إعداد الله للدعاة يكون بالمواقف لا بالدروس وحدها.
- تعاون القبائل المختلفة في الحلف يُرشد الداعية إلى ضرورة فتح أبواب التعاون على البر حتى مع غير الملتزمين، إذا كان الهدف مشروعًا، بلا تنازل عن الثوابت.
- الحلف كان خطوة إصلاحية وسط بيئة مليئة بالظلم، وفيه إشارة إلى أن الدعوة لا تنتظر مجيء "اللحظة المثالية"، بل تبدأ بما يمكن فعله في الواقع المتاح.

مخالفات الواقع

- من أعظم مخالفات هذا المشهد في واقعنا اليوم، انتشار الظلم القانوني والإداري، حيث يُسلب الناس حقوقهم جهارًا نهارًا، ولا يجدون من ينصرهم، وكأن صوت المظلوم لم يعد يُسمَع.
- غياب الشهامة المجتمعية في نصرة المظلوم، وتخاذل أصحاب النفوذ عن نصرة الضعفاء، إلا من رحم الله، يُعيد مشهد مكة قبل الحلف، وكأننا نحتاج اليوم إلى "دار ابن جدعان" جديدة.
- تغافل بعض الجماعات والفرق المنحرفة عن قيمة العدل، وتقديمهم لمصالحهم الفئوية على إنصاف الخلق، يُخالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي فضّل الحلف المكي على حمر النعم لأنه ينصر المظلوم، لا لأنه يخدم قومه.
- اعتقاد بعض الشباب اليوم أن الإصلاح لا يكون إلا من خلال السلطة أو المنصب، بينما علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن النُبل يبدأ من الموقف، وأن الإنسان يُصلح بيده ولسانه قبل أن يُصلح بحكمه وسلطانه.
- الاستهانة بالعهود والمواثيق، سواء بين الأفراد أو الدول، صارت ظاهرة منتشرة، على خلاف ما فعله الصحابة الكرام قبل الإسلام من الوفاء بحلف الفضول، مما يدل على تراجع قيمة الميثاق في حياة الناس.

الفقرة الثانية عشر: اليد التي رفعت الحَجَر وبنت القلوب

في مشهدٍ من أعظم مشاهد مكة، كانت الأيدي تعمل، والقلوب تنبض بالعزم، والحجارة تُرفع في شموخ. فقد قررت قريش إعادة بناء الكعبة بعدما نالت منها السيول، فهدمت جدرانها، ووهنت أركانها. فتقدمت بطون قريش، رجالًا يتزاحمون على شرف المشاركة، كلٌّ يريد أن يضع بصمته في هذا البناء المقدّس.

وفي وسطهم، كان الشاب الطاهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، لم يُبعث بعد، لكنه كان يُبصر بنور الفطرة، ويعمل بصدق اليد وطيب النية. لم يكن حضوره رمزيًا، بل كان يرفع الحجارة على كتفه كما يفعل الرجال، حتى أثرت الحجارة في جسده الشريف. فأشفق عليه عمّه العباس، وقال له أن يضع إزاره ليقي به جسده، فلما همّ بذلك، سقط مغشيًا عليه، فقد عصمه الله أن يُرى عاريًا ولو خطأً. فلما أفاق صاح: "إزاري! إزاري!"، فشده على نفسه، وعاد إلى عمله في البناء.

ولم يقف دوره عند حمل الحجارة، بل تجلّت مكانته حين أوشكت نار الفتنة أن تشتعل بين القبائل بسبب من يضع الحجر الأسود في موضعه، وكادت السيوف تُشهر. فقال أحدهم: "نرضى بأول داخل علينا"، فإذا بمحمد صلى الله عليه وسلم يدخل، فهتفوا جميعًا: "هذا الأمين! رضينا به."

فبسط ثوبه، ووضع عليه الحجر، ثم دعا كل قبيلة أن تمسك بطرف من أطراف الثوب، فلما بلغوا به موضعه، رفعه بيده الشريفة، ووضعه في مكانه، فانطفأت نار النزاع، وعلت راية الرضا.

هكذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم شاهدًا على البناء فقط، بل كان حجر أساس في بناء السلام، تمامًا كما كان وسيظل حجر أساس في بناء أمة الرحمة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- ما وقع من إغماء النبي صلى الله عليه وسلم حين كاد أن يكشف عن عورته خطأً، يدل على أن الله عز وجل تولى حفظه بعصمة كاملة حتى قبل النبوة، وأن طهارته ليست مكتسبة بل محفوظة بعين الله.
- إجماع القبائل على رضاه صلى الله عليه وسلم واختيارهم له لحلّ النزاع، رغم أنهم لم يكونوا بعد مؤمنين بنبوته، دليل على أن الله ألقى له الهيبة والمكانة في قلوب الناس قبل أن يُبعث، وهذا من تهيئة الله لأنبيائه.
- قوله صلى الله عليه وسلم: "إزاري! إزاري!" عند إفاقة بدنه، شاهد على أن الله غرَز في قلب نبيه حياءً فطريًا نادرًا، وبه يُعلم أن الحياء خلق أصيل في الأنبياء، متفرع من صفاتهم العقدية في العصمة والكمال.
- اجتماع القبائل كلها على رأي النبي صلى الله عليه وسلم فيه إشارة إلى أن الله جعله مقبول الكلمة، جامعًا للقلوب، قبل أن يُكلّف بجمعها بالوحي، وهذا من دلائل النبوة قبل البعثة.
- مشاركته صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة وهو لم يُبعث بعد، يُثبت أن خدمة شعائر الله لا يُشترط فيها النبوة، بل هي من دلائل الإيمان والفطرة السليمة، وكلما عظّم المرء حرمات الله كان أقرب إلى رضاه.

فوائد فقهية

- قصة الحجر الأسود أصل في مشروعية المصالحة الجماعية وتوزيع المهام بين المختلفين لتفادي النزاع، وهو من فقه إدارة الخلاف الذي أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم بفعل عملي.
- ما فعله صلى الله عليه وسلم من رفع الحجر بنفسه بعد أن شاركت القبائل بحمله، يدل على جواز تقسيم الفعل الواحد بين أطراف متعددة لتحقيق المصلحة ودفع الفتنة.
- تعاون الناس في بناء الكعبة يُعدّ من التعاون المشروع على البر والتقوى، ومنه يُستنبط جواز مشاركة عامة المسلمين في عمارة المساجد وسائر ما يُعظم فيه شعائر الله.
- ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في إصلاح ذات البين بين القبائل أصل عظيم في فقه السلم الأهلي والاجتماعي، ويُستدل به على أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.
- ما فعله العباس رضي الله عنه من نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم بوضع الإزار لحماية جسده، فيه دلالة على فقه المروءة والرحمة، وأن ستر العورة يُقدّم على المصلحة الجانبية.

فوائد أخلاقية وتربوية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على ستر بدنه ولو في موضع لا يُرى فيه، يدل على أن الحياء لا يتجزأ، ومن فقده في الخفاء، سيُجاهر بالخطأ في العلن.
- مشاركته صلى الله عليه وسلم في حمل الحجارة رغم مكانته، يُعلّمنا أن الشرف لا يمنع من العمل، وأن التواضع هو

سِمة الكبار حقًا.

- حلّه الحكيم للنزاع بين القبائل بحُسن التصرف يدل على أن العقل الراجح يهزم السلاح، وأن القائد الناجح لا يُسكِت الخصوم بالقوة، بل بالحكمة.
- رضا القبائل بحكم النبي صلى الله عليه وسلم في زمن الجاهلية يُظهر أن الصدق والأمانة يصنعان في الناس أثرًا لا تصنعه المناصب، فالأخلاق تسبق الهيئات.
- قصة الثوب والحجر تُعلّمنا أن إشراك الجميع في العمل المشترك يطفئ نار النزاع، وأن القلوب تتآلف حين تتوزع الأدوار بعدل وإنصاف.

فوائد دعوية

- كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة نواة عملية لما سيكون عليه حاله بعد البعثة: مُصلحًا، جامعًا للناس، مانعًا للفتن، رافعًا لشأن البيت الحرام ماديًا ومعنويًا.
- الحادثة تُرشد الدعاة إلى أن إصلاح القلوب يبدأ بإطفاء الفتن، ولو بين من يختلفون في الأصل، فإن السعي في الإصلاح باب عظيم للدعوة الصامتة.
- موقف النبي صلى الله عليه وسلم علّم من حوله أن الرجل لا يُعرف بما يملك، بل بما يقدّمه من حلول وقت الأزمات، وهكذا يجب أن يكون الداعية: مبادرًا حكيمًا.
- ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم يعطينا مبدأ مهمًا في الدعوة: أن الفضائل تُبنى بالمواقف العملية، لا بالشعارات، وأن سيرة الإنسان قبل نُطقه أبلغ من خطابه.
- الحكمة في توزيع أطراف الثوب على القبائل تُرشد الداعية إلى فنّ إدارة التعدد والاختلاف في المجتمعات دون ظلم أو محاباة.

مخالفات الواقع

- من أشد المخالفات في واقعنا اليوم غياب الحكمة في إدارة النزاعات، وتركها تتفاقم حتى تسفك الدماء، بينما موقف النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الحجر علّمنا أن فتنة عظيمة قد تُطفأ بكلمة عادلة.
- إهمال كثير من الناس للحياء بدعوى الحرية الشخصية، حتى صار التعرّي في الشوارع والأماكن العامة أمرًا معتادًا، خلافًا لما فُطر عليه النبي صلى الله عليه وسلم من حياء شديد حتى قبل البعثة.
- الاستعلاء على الأعمال اليدوية والمشاركة المجتمعية، واعتبارها منقصة، يخالف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين شارك في البناء بنفسه، دون تكبّر ولا ترفع.
- ترك كثير من أصحاب الشأن والفضل إصلاح الخلافات بين المتخاصمين، وتفضيلهم الوقوف على الحياد السلبي، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم حاسمًا حكيمًا في وأد الفتنة.
- ظهور فِرقٍ منحرفة تدّعي نصرة الدين، لكنها تُشعل الفتن الداخلية وتُفرّق الأمة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم جمع شمل القبائل المتنازعة بحل سلمي حكيم، وهذا فرقٌ بين دعاة البناء ودعاة الهدم

الفقرة الثالثة عشر في كنف الدعاء – شبابه بين الفقر والطهر

نشأ النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في أحضان الحياة القاسية، لا يملك من الدنيا شيئًا يُغري أو يُغنيه، ويفتقر إلى سَنَد الأب، ودفء الأم، وغنى المال، لكنه كان مشمولًا بعناية الله، محفوظًا بعين لطفه، يكسوه جلال الطهر، وتُضيء وجهه أنوار النقاء، وتتشكل روحه في مدرسة الفقر والعفاف.

شبَّ صلى الله عليه وسلم شابًا عفيفًا نزيهًا، لم تُدنّس فطرته جاهليةٌ ولا لهو، وكان قلبه يفيض بالإيمان، وسريرته تشرق بالحكمة، حتى ليُخيل لمن يراه أنه قد خُلق للصفاء، وغُذِّي بالتقى، وهيئ لِما هو أعظم من مجرد حياة تُعاش.

رعى الغنم صغيرًا، على قراريط من المال، يبيت بها في شعاب مكة وجبالها، يؤنسه صمت الليل وهمس الرياح، وترافقه أنجم السماء، كأنها تتلمّح منه النبأ العظيم، وتُرسل إليه رسائل الأنس والرعاية. فكان ذلك أول ما غُرست في نفسه معاني الصبر، والتواضع، والتأمل، والانفراد عن أهل اللهو، وقد قال صلى الله عليه وسلم" **:ما من نبي إلا وقد رعى الغنم**] "رواه البخاري: ثم انتقل إلى التجارة، فكان مضرب المثل في الأمانة والصدق، يشهد له بها القريب والبعيد، حتى لُقّب في مكة قبل البعثة بـ"الصادق الأمين". ولم يُرَ يومًا في موطن لهو، ولا عُرف عنه أنه شارك في منكر، ولا زلَّ لسانه بكذبة، ولا خان أمانة، بل قال صلى الله عليه وسلم" **:ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمّون به من اللهو مرتين، إلا صرفني الله عنه، وما هما بمرّتين حتى كنت من أكرم خلق الله عليه** "رواه ابن هشام بإسناد منقطع.

لقد تربّى صلى الله عليه وسلم في بيئة تموج بالجهل والفساد، لكنّه خرج منها أطهر ما يكون، وكأنّ الله سبحانه قد اصطفاه منذ اللحظة الأولى، وأحاطه بسياجٍ من الحفظ الربّاني، لئلا تدنو منه الشبهة، ولا تلطّخه الجاهلية، ولا تسقطه الغفلة.

الفوائد المستفادة من هذه المرحلة:

فوائد عقدية

- نشأة النبي صلى الله عليه وسلم في يتمٍ وفقرٍ وغيابٍ للسند البشري، مع بروز الطهر والصفاء في سلوكه، تدل على أن الله تعالى يتولى أولياءه بالرعاية حتى قبل أن يُبعثوا، وأن الافتقار إلى الخَلق ليس نقصًا ما دام العبد في كنف الخالق.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمّون به... إلا صرفني الله عنه"، يُثبت أن العصمة الربانية للأنبياء تشملهم حتى في مرحلة الشباب، وأن الله يحفظ أولياءه عن مواضع السقوط، ويصرف عنهم دواعي الانحراف.
- تربّيه صلى الله عليه وسلم في بيئة فاسدة دون أن تمسّه لوثتها يُبيّن أن الهداية ليست من البيئة وحدها، بل هي من الله الذي يصطفي من يشاء ويصنعه على عينه، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].
- ارتباطه بالتأمل في شعاب مكة، وسط ليلها وسكونها، دليل على أن الفطرة السليمة تميل إلى الخلوة ومناجاة الله، وأن الله يهيئ أنبياءه بتربية قلبية قبل أن يُكلّفهم بالتبليغ.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من نبي إلا وقد رعى الغنم"، يشير إلى أن سُنن الله في إعداد رسله لا تتغير، وأن التدرج في الابتلاء والصبر هو طريق النبوة والاصطفاء.

فوائد فقهية

- عمل النبي صلى الله عليه وسلم في رعي الغنم والتجارة دليل على جواز العمل الشريف ولو كان بسيطًا، وهو أصل في فضل الكسب الحلال وتَرك الاتكال على الناس.
- وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه "الصادق الأمين" قبل البعثة يدل على أن الصدق والأمانة من أعظم أخلاق الأنبياء،

وأن هذه الصفات لا تتعلق بالتكليف الشرعي وحده، بل هي من مكارم الأخلاق التي يُثاب عليها العبد ولو قبل البعثة.

- صرف الله النبي صلى الله عليه وسلم عن مواطن اللهو في الجاهلية، مع وجود الدافع البشري لذلك، يدل على أن من نجا من الفتن فبفضل الله، وفيه تعليم للمؤمن أن يفرّ من مواضع السقوط، ولا يتكل على نفسه.
- الحديث عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة مشروع، وهو من دلائل صدقه، ومن جملة السيرة التي يُتعلم منها الفقه والدين.
- الفقر لا يمنع من الكمال الإنساني، بل قد يكون وسيلة لتهذيب النفس، وفي هذا رد على من يربط الكرامة بكثرة المال، ويُهمل المعاني الإيمانية.

فوائد أخلاقية وتربوية

- حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة كانت مدرسة عملية في الطهر والحياء والصدق والجد في العمل، وفيها قدوة لكل شاب أن يكون نزيهًا في قلبه ولسانه وسلوكه، ولو عاش في بيئة فاسدة.
- امتناعه عن اللهو ومواضع الانحراف رغم صغر سنه يدل على أن العفّة ليست مقصورة على الكبار، وأن التربية الصحيحة تبدأ من سنين الفطرة الأولى.
- عفته صلى الله عليه وسلم من لهو الجاهلية نموذج يُرشد الشباب إلى الاستغناء عن المعاصي بما يُغني النفس من الطهارة والصفاء، وأن الزهد عزة لا حرمان.
- تأمله في الليل وهو راعٍ صغير، يعلمنا أن التفكر لا يحتاج إلى كتب أو منابر، بل يكفي قلب طاهر وليل ساكن وسكونٌ يربط العبد بخالقه.
- تلقيه لقب "الصادق الأمين" قبل الإسلام، يؤكد أن الصدق لا يحتاج شهادة من السماء فقط، بل يُكتسب من معاشرة الناس وحُسن التعامل معهم، وأن السمعة الطيبة طريقٌ إلى التأثير قبل الدعوة.

فوائد دعوية

- النبي صلى الله عليه وسلم قدّم صورة عملية للداعية الذي يُربّي نفسه قبل أن يُربّي غيره، ويُزكّي روحه قبل أن يدعو الأرواح الأخرى، فالإصلاح يبدأ من الداخل.
- فقره صلى الله عليه وسلم لم يمنعه من أن يكون محترمًا مهابًا في قومه، مما يدل على أن الداعية لا يُشترط فيه الغنى، بل الغنى الحقيقي في أخلاقه وقيمه.
- وصفه بالعفاف في مجتمع جاهلي يُدل على أن الداعية لا يُغيّره الواقع، بل يُقاومه بسلوكه، ويثبت فيه على الحق حتى يُصبح هو المعيار.
- صرف الله له عن مواطن اللهو مرتين فقط، ثم لم يعد يفكر فيها، فيه دلالة على أن التجربة السيئة لا يجب أن تتكرر، بل يجب أن تكون واعظًا دائمًا في قلب الداعية.
- عيشه صلى الله عليه وسلم بين الفقراء والمساكين يعلمه لغة الناس البسطاء، وهذا من أهم ما يجب أن يتحلى به الداعية: فهم الناس، ومشاركتهم همومهم، لا التعالي عليهم.

مخالفات الواقع

- نشأ كثير من شباب اليوم في بيئات أقل قسوة من بيئة مكة، ومع ذلك استسلموا للهو والترف والكسل، بينما النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيئة جافة فاسدة لكنه خرج منها أطهر الخلق.
- غابت عن كثير من البيوت اليوم تربية العفّة والحياء، وأصبح التعلق بالشهوات والانخراط في اللهو أمرًا معتادًا يُزكّى ويُبرر، وهو خلاف حال النبي صلى الله عليه وسلم الذي زهد في ذلك صغيرًا.
- أصبحت القدوة عند كثير من الشباب هي الشهرة والمظاهر، لا الصدق والأمانة، فقلّ أن يُوصف أحد بـ"الصادق

الأمين"، وكأن هذا الوصف أصبح غريبًا في مجتمع اختلط فيه الكذب بالمصالح.

- انشغال النفوس بلهو الحديث والأغاني والمسلسلات، وإدمان التسلية، عطّل قلوب الناس عن التأمل في خلق الله، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يأنس بالسكينة والصمت في شعاب مكة.
- ازدراء بعض الناس للمهن البسيطة والعمل اليدوي، وكأن الكرامة لا تكون إلا بالوظائف الكبرى، بينما أعظم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم رعى الغنم، وسار في الأسواق، وصدق في تجارته، فنال العظمة الحقة.

الفقرة الرابعة عشر :كان محمدًا قبل أن يكون نبيًّا – أمانة تشهد لها الجاهلية

قبل أن يُبعث رسولًا، كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول صدق في قومه، وسفير أمانة في عشيرته.
لم يكن غنيًّا ولا صاحب نفوذ، لكنه كان غنيًّا بمروءته، نافذ الكلمة برجاحة عقله، عظيمًا في عيون الناس قبل أن يُوحى إليه .كان يُعرف بـ"الصادق الأمين"، وهو لقب لم يمنحه الناس له تكريمًا، بل اعترافًا، ولم يكن مدحًا في لحظة صفاء، بل **شهادة مجتمع بأسره**.

كانوا إذا اختلفوا في أمر، رجعوا إليه .وإذا خافوا على أموالهم، وضعوها أمانة عنده .وإذا احتيج إلى حكم عدلٍ في نزاع، جعلوه حكمًا، كما حدث يوم اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود .ولم يكن أصغرهم سنًّا ولا أكثرهم مالًا، لكنه كان أكثرهم ثقةً عند الجميع،
فلما رآوه أقبل، هتفوا :هذا الأمين، قد رضينا به"، فابتكر لهم حكمًا أرضى جميع القبائل، وحمل الحجر على ثوب، وطلب من كل قبيلة أن تُمسك بطرف، ثم رفعه هو بيده الشريفة، فوضعه في موضعه.

لم تُغره الحياة، ولم تُغيره التجارة، ولم تُفسده الجاهلية، بل كان قلبه معلقًا بخالقه، وكان يُحب الخلوة، يأنس بالصمت، ويتأمل في الخلق، ويستبشع عبادة الأصنام .لم يسجد لها قط، ولم يذق خمرًا، ولم يعرف لهوًا، وإنما شبَّ عفيفًا، صادقًا، رحيمًا، حليمًا، شهمًا.

فلما جاءه الوحي، لم يكن في نظر الناس شخصًا مجهولًا، بل كان عندهم أصدق الناس حديثًا، وأكملهم خلقًا، حتى إن خديجة رضي الله عنها، لما سمعته يروي ارتجافه عند اللقاء الأول بجبرائيل، طمأنته بقولها الصادق المطمئن :كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا." لقد كانت السيرة قبل النبوة تمهيدًا من الله،
فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يُولد عظيمًا فقط، بل **صُنِع على عين الله، ليكون النبي الموعود**.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

- حفظ الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة من المعاصي والمنكرات دلالة على الاصطفاء الإلهي والولاية الربانية السابقة، وهذا من معاني قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ومن دلائل الإعداد الرباني للأنبياء قبل الوحي.

- شهادة الناس للنبي صلى الله عليه وسلم بالصدق والأمانة قبل البعثة دليل على أن الرسالة لا تُمنح إلا لمن كان محلًّا للأمانة والخُلُق والقدوة، وهذا يُبيّن حكمة الله وعدله في اختيار الرسل من خيرة خلقه.

- وصف خديجة رضي الله عنها له بقولها: "كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا" فيه دليل على أن الإيمان بستر الله ورحمته وعنايته لا يُنافى بشريّة الخوف، بل هو من كمال الثقة بالله، وهذا من أصول التوحيد العملي.

- تعلّق قلب النبي صلى الله عليه وسلم بربه في زمن الجاهلية، ونفوره من الشرك قبل أن يُبعث، يدل على أن الفطرة السليمة إذا لم تفسد، فهي تهتدي إلى التوحيد وتنأى عن عبادة غير الله.

- قولهم: "هذا الأمين قد رضينا به" فيه برهان على أن الله يُلقي الهيبة والمحبّة والقبول في قلوب الناس لمن اختاره، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦.]

فوائد فقهية

- مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم للقبائل، وتوزيع أدوارهم في رفع الحجر الأسود يدل على فقهه في إدارة الخلافات بحكمة، واستعمال الحيل المشروعة في جمع الكلمة، وهو أصلٌ فقهي في إصلاح ذات البين.

- وضع الأمانات عند مَن عُرف بالعدالة والنزاهة أصل في فقه الأمانات، وفيه أن العدالة الظاهرة سبب في قبول الشهادة والرعاية للحقوق، وهو مما يُرجع إليه في القضاء والمعاملات.

- امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن شرب الخمر قبل تحريمها يُستدل به على مشروعية الورع وترك المشتبهات، وهو باب من أبواب الفقه التربوي.

- سلوك النبي صلى الله عليه وسلم للخلوة في الجاهلية يدل على مشروعية العزلة المؤقتة للعبادة والتأمل، إذا فسدت المجتمعات، كما قال الشافعي: "لو خشيت على ديني، لآثرت العزلة."

فوائد أخلاقية

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على خُلق الصدق والأمانة، رغم البيئة الفاسدة، دليل على أن القيم لا تُبنى من الخارج، بل من يقين الداخل، وأن الاستقامة ممكنة في كل زمان.

- حسن التعامل والسمت الطيب للنبي صلى الله عليه وسلم جعله محبوبًا مقبولًا بين الناس، وفي هذا دعوة لأن نكون قدوة بأخلاقنا قبل كلماتنا، فالقدوة هي أبلغ وسيلة دعوية.

- رحمة النبي صلى الله عليه وسلم، وحلمه، وشهامته، كانت قبل البعثة، وهذا يعلّمنا أن بناء النفس يبدأ قبل المهام الكبرى، ومن أراد التأثير فعليه أن يتخلّق أولًا.

- صيانة النفس عن اللهو والانحراف، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه، تؤكد أن الطهارة الخُلُقية هي زاد الداعية، وأن من شبّ على الحياء، شاب على النقاء.

مخالفات الواقع للنص

- كثير من شباب اليوم لا يرون في العفّة خُلقًا، بل يعتبرونها ضعفًا، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم نشأ عفيفًا، وهذه مخالفة لما ينبغي أن يكون عليه القدوة.

- باتت الأمانة عملة نادرة في التجارات والمناصب، مع أن الناس في الجاهلية اختاروا "الأمين" ليحكم بينهم، فكيف يُستهان بها في أمة أُنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ [النساء: ٥٨.]

- نشأ النبي صلى الله عليه وسلم كارهًا للأصنام، بينما نرى اليوم من ينتسبون إلى الإسلام، ويُعلّقون التمائم والخرافات، ويطوفون بالقبور، ويُعظّمون الأضرحة، وهي أفعال فرق الضلال التي انحرفت عن توحيد الله.

- عُرِف النبي صلى الله عليه وسلم بالصدق، بينما شاع الكذب اليوم حتى بين الدعاة والكتّاب والمُصلحين، وربما كذب أحدهم باسم "المصلحة"، وهذا مسلك الفرق الضالة التي تبرر المنكر بلباس الشرع.

- لم يُعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم لهوٌ ولا عبثٌ، أما اليوم فقد بات الترف واللهو طريقًا عامًا عند كثير من الشباب، وصار طلب الشهرة والضحك والملذات شغلهم، على حساب الجد والعمل والدين.

- الخلوة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يأنس بها للتأمل والعبادة، استُبدلت اليوم بالعزلة مع الأجهزة والشاشات، دون نظر في النفس أو الخالق، وهذا قلب للمقاصد وانشغال بالمادة عن المعنى

الفقرة الخامسة: عشر زواج النور بالنور – خديجة في حياته

لم يكن زواج النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها مجرد ارتباط بين رجل وامرأة، بل كان لقاءً فريدًا بين روحين زكيتين، طاهرتين، جمعتهما السماء قبل أن تجمعهما الأرض، وألف بين قلبيهما ربّ كريم، ليكون هذا الزواج اللبنة الأولى في بناء بيت النبوة، وواحة السكينة التي تُظلّ دعوةً عظيمة ستُغيّر وجه البشرية.

خديجة، المرأة الناضجة الحازمة، وسيدة قريش بلا منازع، صاحبة الجمال والحسب، والعقل الراجح، والمال الوفير، لم تكن تنظر إلى زينة الدنيا بعين الإعجاب، بل كانت تبحث عن معدن الرجولة الأصيل، والسيرة العطرة، فوقع نظرها على محمد صلى الله عليه وسلم، الشاب الأمين الطاهر، الذي لم تعهد عليه القوافل إلا الصدق في القول، والوفاء بالعهد، والعفّة في السلوك.

حين أرسلت معه تجارتها إلى الشام، لم يكن ما عاد به من ربح مضاعف هو غايتها الكبرى، بل كان حديث غلامها ميسرة عن أخلاقه، ورؤاه، وكرامته، وعفّته، وعن الغمامة التي تظلّه، والسكينة التي ترافقه... كل ذلك جعل قلبها يهفو إليه، لا طمعًا في مال، ولا رغبة في وجاهة، بل توقًا إلى رجلٍ اجتمعت فيه خِصال الأنبياء قبل أن يُبعث نبيًّا.

فأرسلت تخطبُه، فقبلها، وكان لها نعم الزوج، وكانت له نعم الزوجة: كانت ستره في الفقر، وسنده في الدعوة، وعونه في المحنة. كانت أول قلب احتضنه حين نزل عليه الوحي، وأول من آمن به وصدّقه، وأول من طمأنه حين ارتجف قلبه، وقالت كلمتها الخالدة التي خُلدت في كتب السيرة وقلوب المحبين" :**كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق** رواه البخاري

عاش معها صلى الله عليه وسلم ربع قرن، لم يُذكر عنها كلمة تؤذيه، ولم يُؤثر عنها إلا النبل والوفاء، وكانت رفيقته في درب الرسالة حتى رحلت، فظلت ذكراها عطرة في قلبه، لا تُنسى، حتى أغارت منها عائشة وقالت: "ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة، وما تزوجني إلا بعد ما ماتت..." [رواه البخاري.]

لقد كان زواجه من خديجة نقطة تحول في حياته، حيث دخل بيتًا تتفيأ فيه ظلال المودّة، وتتشكل فيه ملامح النبوة، وترعرع فيه الأبناء الذين حملوا مشعل الإسلام، فكان بيتًا لا يشبهه بيت، وسكنًا لا يعادله سكن، فيه اجتمع النور بالنور، والنبوة بالحب، والرسالة بالوفاء.

الفوائد المستفادة من هذا المشهد:

فوائد عقدية:

- تأييد السماء لهذا الزواج يدل على أن أقدار الدعوة ماضية بتقدير الله، وأن تدبير الله لعباده المؤمنين أدق وأرحم من تدبيرهم لأنفسهم، وهذا يُغرس في قلب المؤمن اليقين بأن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه.

- قول خديجة "كلا والله ما يخزيك الله أبدًا..." فيه دليل على أن حسن السيرة سبب لحفظ الله وتوفيقه، وأن من أحسن مع الناس أحسن الله إليه، لأن الله لا يخزي أهل البر والخير، وهذا من أصول عقيدة أهل السنة في إثبات الجزاء على الأعمال.

- حفظ النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه من الذنوب والموبقات، رغم كونه لم يُبعث بعد، دليل على أن العصمة في أصلها فضلٌ من الله، وهي تهيئة من الله لأنبيائه منذ نشأتهم، وهنا نعلم أن الله يصطفي من عباده من يشاء ويهيّئهم للرسالة قبل إعلانها.

- الغمامة التي كانت تظلّ النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، ورؤى ميسرة، فيها إشارات إلى أن الله يُظهر على أوليائه من الآيات ما يثبتهم، وهذا يدل على كرامات تسبق النبوة، وهي ثابتة عند أهل السنة دون غلو.

- تصديق خديجة للوحي لحظة نزوله دليل على أن الفطرة السليمة تقرّ بصدق الرسالة، وأن الإيمان بالنبوة يسبق أحيانًا كثيرًا من دلائلها، إذا كان القلب مستعدًا للحق.

فوائد فقهية:

- زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة، مع أنه كان هو الطالب في الظاهر، فيه جواز أن تعرض المرأة الصالحة نفسها على الرجل الصالح، إذا كان ذلك بنية طاهرة وبوسيلة شرعية، وقد فعله خيار النساء كما فعلته خديجة.

- زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة، مع فارق السن بينهما، يُبيّن أن معيار الزواج الشرعي ليس السن ولا المال، بل الدين والخُلق، وهذا أصل في باب اختيار الزوج والزوجة في الفقه الإسلامي.

- استمرار زواجه بخديجة دون أن يتزوج عليها طيلة حياتها، فيه إشارة إلى الوفاء في العِشرة، ومنه استنبط بعض أهل العلم أن مراعاة حال الزوجة في حياتها من كمال المروءة والفضل، وإن لم يجب ذلك شرعًا.

- سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن عرض خديجة وقبوله، يدل على جواز تفويض الولي أو المرأة لغيرها في الخطبة والعرض، ما دام ذلك برضى الطرفين، وهو أصل معتبر في باب التوكيل في الزواج.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- خديجة لم تنظر إلى المال والجمال، بل إلى الدين والخلق، وهذا أعظم درس في تهذيب معيار الاختيار في القلوب المؤمنة، وأن المرأة العاقلة هي التي تبحث عن جوهر الرجل لا مظاهره.

- خديجة كانت سكنًا ورحمة، ووقفت مع النبي صلى الله عليه وسلم في أشد لحظات الدعوة، وهذا يُعلّمنا أن الزوجة الصالحة عونٌ على الطريق، وشريكة في النصر والثبات، لا مجرد تابع أو زينة.

- استمرار ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة بعد وفاتها، وتذكره لمواقفها، من أعظم صور الوفاء الزوجي، وفيه تأديب للنفوس على حفظ الجميل، وشكر العِشرة، وعدم نسيان المعروف.

- خصال النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرتها خديجة تدل على أن القيم الأخلاقية هي أعمدة الاحترام في البيوت، وأن الرجل الكريم لا يُكرم لماله، بل لرجولته وخُلقه ومروءته.

- كون خديجة أول من صدّقه وآمن به، يُربّي على سرعة نصرة الحق، والسبق إلى الإيمان، وأن المبادرة إلى دعم الخير من صفات النفوس النبيلة.

مخالفات الواقع:

- أصبح المعيار السائد في الزواج هو الشكل والمال، لا الدين والخلق، ولهذا كثر الطلاق والنزاع، لأن ما بُني على باطل لا يدوم.

- عزف كثير من النساء عن الزوج المتدين العفيف، ولو كان أمينًا خلوقًا، وفضلن أصحاب المظاهر الكاذبة، بحجة المكانة الاجتماعية أو المستوى المادي.

- كثرة من يردّون الخاطب الصالح بحجة أنه غير مناسب ماديًا أو وظيفيًا، مع أن خديجة، سيدة قريش، لم تنظر إلى ذلك أمام طهارة محمد صلى الله عليه وسلم.

- قلّ أن نجد اليوم من النساء من تقف مع زوجها وقت المحن، كما وقفت خديجة، بل أصبحت كثير من الزوجات عبئًا على الزوج في الشدائد بدل أن يكنّ عونًا له.

- ضعف الوفاء في الحياة الزوجية، فسرعان ما تُنسى العِشرة، وتمحى المواقف، بل ربما سبّ الرجل زوجته السابقة، أو أهان ذكراها، بينما النبي صلى الله عليه وسلم ظل يذكر خديجة حتى بعد موتها.

- كثرة من يستهزئون بعرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، ويجعلونه خضوعًا أو ضعفًا، مع أن ذلك فعله خير النساء، وخير الرجال، لكن بضوابط الطهر والعفّة.

- استهانة كثير من الناس اليوم بصفات العفة والأمانة والصدق، فلا يُقيمون لها وزنًا عند الخطبة، مع أنها كانت سبب اختيار خديجة لمحمد صلى الله عليه وسلم.

انتهى الباب الثاني ويليه الباب الثالث من نزول الوحي الى الهجر

الباب الثالث باب بدايات النور: من أولى بشائر الوحي إلى رفع الصوت بالحق

مقدمة

في أفق الزمان، حين ضاقت الأرض بأهلها من وطأة الظلم والضياع، وحين تاهت القلوب في متاهات الوثنية والجهل، كان في قلب مكة قلبٌ يتأمل، وروحٌ تتفكر، ونفسٌ تتشوق للنور. لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم كأهل عصره، بل كان قلبه يأنف من رجس الأصنام، ويسمو عن عبث الحياة الصاخبة، فيلوذ إلى غارٍ قصيٍّ يجاور السماء، يسكب فيه شوقه إلى الحق، ويبثه حيرته وهمومه.

كانت الأرض تستعد لحدثٍ عظيم، والسماوات تتهيأ لبعث خاتم المرسلين. سُخّرت المقادير، ورتبت الأسباب، حتى إذا ما آن أوان البعث، وخبا ضوء الجاهلية في قلبه تمامًا، أشرقت شمس النبوة في غار حراء، فسمع الكونُ كله النداء: "اقرأ."

من تلك اللحظة، لم تعد الحياة كما كانت، ولم يعد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كما كان؛ فقد حمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وخرج من الغار وقلبه يرتجف رهبة، لكنه كان على موعدٍ مع الطمأنينة في حضن خديجة، وعلى موعدٍ مع التثبيت من فوق سبع سماوات.

ثم دُثِّر فنهض، ووُجِّه فمضى، واصطفاه ربه فبلغ، فكانت الأيام الأولى للدعوة، سرًّا ثم جهرًا، وكانت البدايات المضيئة في دار الأرقم، والصدع الشجاع عند الصفا، والتحدي الصامد في وجه قريش بكل عنادها وكبرها. وكانت خطى الحبيب صلى الله عليه وسلم تسير بثقة في طريقٍ طويلٍ شاق، لكنه ممهَّد بعناية إلهية، محفوفٌ بالعناية، مشمولٌ بالتأييد.

إنه الباب الذي تفتح فيه السماء بوحيها، ويبدأ فيه التاريخ صفحة جديدة من النور... إنه فجر النبوة، حين بدأ الله بكلمة، وبعث نبيه بكلمة، فصنع أمةً بكلمة" :**اقرأ."**

الفقرة الأولى: تمهيد النبوة – الخلوة في غار حراء

كانت مكة تغلي بفساد العقيدة، وتضجُّ بأصنام تُعبد من دون الله، وتئنُّ تحت وطأة الظلم الاجتماعي، والانحدار الأخلاقي، وتتيه في ليلٍ طويل من الجاهلية الحالكة... وكانت الأرض تترقّب.

لكن في ركنٍ قصيٍّ من هذه البقعة المباركة، كان قلبٌ يُطهَّر، وروحٌ تُهيَّأ، ونفسٌ تُصفّى.

لم يكن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث بعد، لكنه كان يسير، بخطى الفطرة، نحو طريق النبوة، وإن لم يُدرِك كُنه ذلك بعد.

كان يتحنث في غارٍ بعيد، على جبلٍ شامخ، يفرُّ فيه من صخب الجاهلية، وضجيج الأصنام، ولهو الأسواق، ومظاهر الفجور والظلم.
غار حراء... لا فيه طعامٌ وثير، ولا فرشٌ ناعمة، لكنه كان مليئًا بالسكينة، عامرًا بالخلوة، غنيًا بالتهيئة.
كان يخرج إليه الليالي ذوات العدد، يحمل زاده، ويقطع صلته بالدنيا، ليخلو بنفسه، ويتأمل في السماء، وفي آيات الله، وفي ما آل إليه حال قومه.

وزوجه خديجة رضي الله عنها كانت له عونًا، تعدّ له الزاد، وتعلم صدقه وطهارته، وتؤمن في أعماقها أنه لا يطلب جاهًا ولا مالًا، وإنما يبحث عن الحق، ويهفو إلى النور.

لقد ألقى الله في قلبه كراهية الأصنام ومقت الجاهلية، فكان هذا الانقطاع تمهيدًا لانفصالٍ قلبيٍّ وعقليٍّ عن الباطل، استعدادًا لحمل أعظم رسالة في تاريخ البشرية.

وكان في تحنثه هذا إحياءٌ لسُنّة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي اعتزل قومه وأوثانهم، وجعل بصره إلى السماء، يطلب ربه.

فغار حراء لم يكن مجرّد كهف صخريّ، بل كان أول مدرسة نبوية... فيها التقى القلب بالله، قبل أن يلتقي الوحي بالسماء.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية

- إن الله عز وجل يهيئ أنبياءه قبل البعثة ويطهّر قلوبهم، دلالة على أن النبوة اصطفاء إلهي وليست اجتهادًا بشريًا، وهذا من تمام عدل الله وحكمته.
- كراهية النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام قبل البعثة دليل على أن التوحيد فطرة، وأن الله يصطفي من عباده من هم أطهر فطرةً وأشد نفورًا من الشرك.
- خلوة النبي صلى الله عليه وسلم واعتزاله الجاهلية تدل على أن التصفية القلبية والتهيئة الروحية شرط لازم قبل نزول الوحي، وهذا من دلائل صدق النبوة.
- توافق تحنث النبي صلى الله عليه وسلم مع سُنّة الخليل إبراهيم عليه السلام يدل على وحدة الرسالات في أصل التوحيد.
- إدراك النبي صلى الله عليه وسلم لحال قومه قبل البعثة يدل على أن معرفة الواقع ومقدار الانحراف جزء من مهمة النبي، ليقيم الحجة على الناس.
- ما كان من تأييد خديجة رضي الله عنها له قبل البعثة يدل على أن الله يلطف بأنبيائه ويهيئ لهم من يعينهم على أمر دعوتهم، من البشر والملائكة.

فوائد فقهية

- الخلوة المشروعة مع التفكر في خلق الله والبعد عن الفتن تُعد من وسائل تزكية النفس إذا كانت على هدى وبصيرة.
- يجوز للمرأة أن تعين زوجها على طاعة الله وتوفير أسباب العزلة المؤقتة إذا كان فيها صلاح لدينه، كما فعلت خديجة رضي الله عنها.
- لا يُشترط في العبادة وجود مكان فاخر أو زاد كثير، بل قد يكون المكان البسيط أكثر مناسبة للتجرد والخشوع.
- الانقطاع للتفكر في نعم الله وفي أحوال الناس وسنن الكون من العبادات القلبية التي تقرّب العبد من ربه.
- الإذن للزوجة بمعرفة مكان خلوة زوجها وأمره المشروع يُعد من الشفافية الزوجية المقرّبة بين الزوجين، خاصة في مواطن الطاعة.

فوائد أخلاقية

- الابتعاد عن الضجيج والفتن علامة على نُبل النفس وسُمُوّ المقصد، وهذا خُلق الأنبياء ومن سار على نهجهم.
- الصدق في النفس وترك الطمع في المال أو الجاه سبب لأن يُنزل الله الطمأنينة في القلب ويثبت صاحبه على طريق الحق.
- من أخلاق العظماء أنهم لا يرضون بواقع فاسد، بل يتألمون له، ويتفكرون في تغييره بالحكمة والرفق.
- الدعم الأسري في الأوقات الصعبة – كما فعلت خديجة رضي الله عنها – من مكارم الأخلاق التي تُعين على الثبات والاستمرار في طريق الإصلاح.
- من دلائل الصدق: أن يسبق التفكر العمل، وأن تسبق التزكية الدعوة، فلا ينشغل الداعية بدعوة الناس عن إصلاح نفسه.

فوائد تربوية ودعوية

- غار حراء كان أول مدرسة في طريق إعداد النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أهمية التدرج والتأني في بناء النفوس قبل النهوض بالأمم.
- الابتعاد المؤقت عن الناس والخلوة للتهيئة الدعوية ليست انزواءً سلبيًا، بل مرحلة تأسيس وتزكية إذا كانت في طاعة الله.
- طلب النبي صلى الله عليه وسلم للحق قبل البعثة يعلمنا أن الداعية الصادق لا ينتظر المناصب، بل يطلب الحق لذاته ولو في الخفاء.
- دعم الزوجة الصالحة لأعمال الطاعة دعوةٌ صامتة في بيتها، وهي شريكة في الأجر، وإن لم تخطب أو تكتب أو تظهر.
- في هذا المشهد تربية على أن العمل الدعوي لا يبدأ بالخطابة والجهر، بل بخلوة النفس، وتزكية القلب، وفهم الواقع.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يحتقرون الخلوة ويعدّونها ضعفًا أو عزلة مرضية، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقوّى بها على حمل الرسالة.
- التعلق بالمظاهر والراحة والترف المادي صار معيارًا للتدين والدعوة، بينما أول مدرسة نبوية كانت في غار بعيد فقير في زاده.
- غابت عادة التفكر في خلق الله وحال الأمة، وعمّ بدلها الانشغال المَرَضي بالماديات والجدل والفضائح.
- قلّ في واقعنا من ينظر إلى فساد مجتمعه بقلبٍ يئن، بل صار المنكر مألوفًا، والتوحيد غريبًا، والبدعة مقبولة!
- كثير من المتصدرين للدعوة اليوم لم يمروا بخلوة صادقة ولا تزكية قلبية، فخرجت الدعوة بلا حرارة ولا أثر، تلهث خلف الشهرة والجدال العقيم.
- النساء في كثير من البيوت يثبطن أزواجهن عن الطاعة، ويجررنهم إلى الدنيا والمجالس الفارغة، بدل أن يكنّ معينات على التزكية والعبادة.

♦ انتشر في بعض فرق الضلال اليوم – ممن سمّاهم رسول الله فرقًا – استهزاءهم بالمنهج النبوي في التدرج والتزكية، ويُسارعون إلى التصدر والتهييج والفتنة باسم الإصلاح، فخاب سعيهم وضاع أثرهم.

الفقرة الثانية : النبوةُ اصطفاءٌ إلهي، لا تُنال بكسبٍ ولا تُدرَك بجهد

ما كانت النبوةُ يومًا مقامًا يُدرَك بطول المجاهدة، ولا شرفًا يُنال بكثرة التعب والسعي، ولا رتبةً يبلُغها صاحبُ حسبٍ أو نسب، ولا درجةً تُعطى لمن ملك المال أو أوتي العلم، وإنما هي رحمةٌ خالصة من الله، يصطفي بها من شاء من عباده، قال تعالى:﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾]الأنعام: ١٢٤[،

وقال سبحانه :﴿**وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربك**﴾]القصص: ٨٦[،
فهذه الرحمة ليست عن استحقاق، بل عن علمٍ إلهي، ينظر إلى صفاء السريرة، ونقاء الطوية، واستعداد القلب لحمل أمانةٍ تُثقِل الجبال، وتصهر النفوس.

لم يكن محمدٌ صلى الله عليه وسلم يَرقُبُ يومًا أن يكون نبيًّا، ولا خطرت بباله عظمةُ ما ينتظره من تكليف، بل كان عبدًا آمنًا في غار حراء، يأوي إليه بعيدًا عن صخب الجاهلية، قد هجَر الأصنام وما يُعبد من دون الله، يُؤثر العزلة على المجالس، ويأنس بالتفكّر في ملكوت السموات والأرض، حتى إذا بلغ الأربعين، واستكمل عقله ونضج قلبه، جاءه النبأ العظيم.

فجأةً، ومن غير ميعادٍ بشري، اخترقت مشيئة الله صمتَ الغار، وأشرقت الدنيا بقدوم جبريل عليه السلام، يحمل آياتٍ بيّنات، ونداءً يُبدِّد سكينة الليل" :**اقرأ**."
لقد بدأ عهد النبوة، لا بطلبٍ من محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولا بانتظارٍ منه، بل بإرادةٍ من السماء، جرت بمفاجأةٍ أرهقت الجسد، ورجَّت القلب، تقول عائشة رضي الله عنها كما في "الصحيحين" :"أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة... حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ... فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: زملوني، زملوني"...

أفهل يليق بعد هذا أن يتوهّم متوهّم أن النبوة نِتاج سعيٍ بشري؟ كلا، بل هي أمرٌ من الله، وتكليفٌ لا يُحمَل إلا بعنايةٍ ربانية، ولذلك لم يخرج صلى الله عليه وسلم من حراء منتشيًا بما نزل، ولا متعاليًا بما أُوحي إليه، بل خرج مرتجفَ الفؤاد، تفيض عيناه خشية، يرتجف من عِظم ما حمل، ويهرع إلى زوجته خديجة رضي الله عنها، يلتمس منها التثبيت والطمأنينة، ويُقرّ صادقًا" :**لقد خشيتُ على نفسي**."

ومن عجبٍ، أن خديجة رضي الله عنها، بفراستها وصدق فطرتها، أدركت أن هذا الاصطفاء لا يُعطى عبثًا، وإنما يُمنَح لأصحاب الخُلق العظيم، فقالت له في كلماتٍ خالدة، خففت عنه بها رهبة اللقاء الأول:

"كلا، والله ما يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق."

ويا لَجلالِ هذه الشهادة! إن من اجتمعت فيه هذه الصفات، لهو أهلٌ لأن يُكرَم بأعظم أمانة، وأثقل رسالة.

فالنبوةُ ليست حرفةً تُطلَب، ولا شرفًا يُنافَس فيه، ولا مقامًا يُتبارى عليه، بل هي ميثاقٌ غليظ، ومسؤوليةٌ عظيمة، لو نزلت على الجبال لتصدّعت من خشيتها، قال تعالى:﴿**إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلا**﴾]المزمل: ٥[،
وقال جلّ من قائل :﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله**﴾]الحشر: ٢١.[

ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم، ما افتخر يومًا بالنبوة، ولا طلبها لنفسه، بل كان كلما اشتد عليه التكليف، لجأ إلى ربه بالدعاء، وطلب المعونة، فكان من دعائه في الطائف":**إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك أوسع لي.**"...

وهكذا كانت بداية الرسالة الخاتمة:
اصطفاءٌ إلهي، ورحمةٌ من فوق سبع سماوات، وبعثةٌ إلى الناس كافة، لا يدّعيها عاقل، ولا يتحمّلها إلا من نَقَّاه الله وطهّره، وأهّله لحمل لواء النور في عالمٍ غارقٍ في الظلمات.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية:

- النبوة لا تُكتسب بالاجتهاد البشري، بل هي اصطفاء إلهي خالص يدل على حكمة الله وعلمه بمن يستحق هذا المقام، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.
- الله سبحانه لا يعطي النبوة إلا لمن علِم صفاء قلبه واستعداده لحمل الأمانة، وهذا من آثار علمه المحيط بعباده.
- مشهد بدء الوحي يُثبت أن النبوة منزلة عظيمة لا يملك البشر اختيارها أو السعي إليها، بل يُبتلى بها المختارون من الله.
- ارتجاف النبي صلى الله عليه وسلم عند أول لقاء مع جبريل عليه السلام دليل على أن النبوة تكليف عظيم، وليست تشريفًا مجردًا، وأن النبي بشر يخاف ويخشع لعِظم ما أُمر به.
- قول خديجة رضي الله عنها "ما يخزيك الله أبدًا" يحمل دلالة على أن حسن الخلق من أسباب نيل الكرامة الإلهية، مما يؤكد علاقة الاصطفاء الإلهي بالصفات القلبية الباطنة.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف يُظهر توحيده الكامل، ورضاه بقضاء الله، وتفويضه المطلق، وهذا من كمال الإيمان والتوكل.
- كون النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب النبوة ولم يسعَ لها، فيه رد على أهل الضلال الذين يزعمون أن النبوة مكتسبة، أو ثمرة سعي فكري أو رياضة روحية.
- حمل النبي صلى الله عليه وسلم للوحي مع خوفه وطلبه للثبات، يدل على أن المعونة الإلهية ملازمة للرسالة، وهو من لوازم عدل الله ورحمته.

الفوائد الفقهية:

- النبوة ليست موضع تنافس أو طلب، ومن ادعاها فقد كفر، لأنها توقيفية، ولا يجوز التجرؤ على هذا المقام بالباطل.
- في حديث بدء الوحي تعليم للناس ألا يُسارعوا إلى تأويل الرؤى والأحلام بتكليفات أو مهام شرعية لم يؤمروا بها.
- الرجوع إلى أهل الفطنة والرأي (مثل خديجة رضي الله عنها) عند حصول المواقف العظيمة من السنة النبوية في طلب المشورة والتثبيت.
- من فقه الدعاء: أن يُقدّم العبد رضا الله على راحته الشخصية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إن لم يكن بك

غضب علي فلا أبالي."

- الآية ﴿إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلا﴾ تدل على أن العلم الشرعي، وخاصة الوحي، يحتاج استعدادًا نفسيًا وبدنيًا، فلا يستهان بحمله ولا يُنال بلا مؤهلات قلبية.

الفوائد الأخلاقية:

- صفات النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة (صلة الرحم، إكرام الضيف، إعانة المظلوم) تدل على أن مكارم الأخلاق مُمهدة لعطاء الله، وأن الخلق هو موطن نظر الله.
- إيثار النبي صلى الله عليه وسلم للعزلة في غار حراء يدل على قيمة التفكّر، والبعد عن الفوضى والضجيج، وهذا من أخلاق النضج والعمق.
- خديجة رضي الله عنها كانت زوجة صادقة مُثبتة، تُحسن الظن بربها وزوجها، وتُعينه عند الشدة، وهذا من أعظم الأخلاق الزوجية.
- الاعتراف بالضعف وطلب الطمأنينة من أهل الثقة دليل على التواضع، وخلق كريم يتنافى مع الكِبر أو التظاهر بالثبات الزائف.

الفوائد التربوية والدعوية:

- بداية الرسالة كانت في وقت الخلوة والتأمل، مما يدل على أن الدعوة تحتاج تهيئة قلبية وروحية، لا أن تُطلق في الفراغ بلا إعداد.
- مشهد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خديجة عند نزول الوحي يُعلِّم الدعاة أهمية وجود الحاضن الصادق والمُعين النفسي في طريق الدعوة.
- عدم افتخار النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة رغم عظمتها، يُربّي الدعاة على التواضع والبعد عن الرياء وطلب العلو في الأرض.
- خديجة رضي الله عنها بدأت بذكر خصال الخير التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم، مما يُعلِّمنا أن تذكير الإنسان بفضائله وقت الخوف يُثبته ويعينه.

مخالفات الواقع:

- يعتقد بعض الناس اليوم أن النبوة أو الولاية تُنال بالرياضات الصوفية، والخلوات البدعية، وهذا مخالف للحق، فقد ختمت النبوة، ولا تُنال لا بكسب ولا بسعي.
- ادّعاء بعض الفرق الضالة كالقاديانية والباطنية نزول الوحي على غير الأنبياء، هو من الكذب على الله، وقد وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم من الثلاث وسبعين فرقة الهالكة.
- تساهل بعض المتكلمين والمفكرين في جعل النبوة مقامًا فلسفيًا يمكن الوصول إليه بالمعرفة أو "الصفاء العقلي"، وهذا قول باطل فيه مشابهة لأقوال الفلاسفة وأهل وحدة الوجود.
- وجود فئة من الناس تنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم كزعيم سياسي فقط أو مصلح اجتماعي، وتتجاهل أنه نبيٌ مرسل من رب العالمين.
- ضعف تعظيم مقام النبوة في قلوب البعض، مما يتجلى في السخرية من سنة النبي صلى الله عليه وسلم أو إنكار بعض ما ثبت عنه بزعم مخالفة العقل أو التطور.
- انفصال بعض الدعاة المعاصرين عن أخلاق النبوة عند الشدائد، فترى منهم الكِبر والعلو والفظاظة، بخلاف حال النبي

صلى الله عليه وسلم في الطائف، حيث كان متواضعًا خاشعًا رغم ما نزل به.

♦ التنافس على المناصب الدينية والدعوية لأجل الظهور والزعامة هو من صور تحويل الدعوة إلى شرف دنيوي، يناقض معنى الاصطفاء النبوي والتكليف الرباني.

الفقرة الثالثة : إشراق النبوة... حين أذن الله للسماء أن تتكلم

قبل أن تفتح السماء أبوابها، وقبل أن يضيء الكون بنور الوحي، كان ثمة إشراقٌ رباني يتسلل إلى قلب محمدٍ صلى الله عليه وسلم في هدوء، كضوء الفجر إذا انبلج، لا يوقظ المدينة، لكنه يوقظ الوجدان.

في ظلال مكة، وبين شعابها التي ألفت صمته، كان القلب العظيم يُهذّب على مهل، يُربّى في مدرسةٍ سماوية خفية، بلا ضوضاء ولا معجزةٍ خارقة، بل برؤى صادقة، تأتيه في المنام، فتُشرق بها روحه، وتضيء بها بصيرته، وكأنها قبس من نور الرسالة يلوح من بعيد.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في الصحيحين" :**أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.**"

فأي إشراقٍ هذا الذي يكون أول مفتاح للنبوة؟ وأي صفاءٍ ذاك الذي ترى فيه الأرواحُ ما وراء الحُجب، في زمنٍ غارقٍ في ظلمات الجاهلية؟

لقد كانت تلك الرؤى نافذةً إلى عالم الغيب، ورسالةً من السماء بأن القلب الذي أُعدّ لحمل النور قد اقترب موعده، وأن العالم على وشك أن يسمع كلامًا من فوق سبع سماوات، لا يشبه كلام البشر.

ستة أشهر كاملة، والنبي صلى الله عليه وسلم يرى في منامه ما يقع كما رآه، فتكون تلك المدة، كما قال العلماء، جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، إذ مكث بعدها ثلاثًا وعشرين سنة في الرسالة، فكأنّها فصلٌ تمهيدي، فيه لطائف التربية الإلهية، وفيه إعدادٌ نفسي وروحي لاستقبال اللحظة الأعظم، حين يُكلَّف بأمر السماء.

وهكذا بدأ عهد النبوة، لا بنداءٍ مجلجل، ولا باصطفاف الملائكة، وإنما بلحظةٍ هادئة، يراها صلى الله عليه وسلم في المنام، فيراها كأنها شمسٌ أشرقت، لا شُبهة فيها ولا اضطراب، قال تعالى:

﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين**﴾]الأنعام: ٧٥[،

وإن كان الله قد أرى إبراهيمَ في اليقظة، فقد أرى محمدًا صلى الله عليه وسلم في المنام تمهيدًا، فالوحي ألوان، والرؤى الصادقة من أبوابه، قال النبي صلى الله عليه وسلم"**:لم يبقَ من النبوة إلا المبشّرات**"، قالوا: وما المبشّرات؟ قال" :**الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له**] ."رواه البخاري.[

ولأن البدايات من دلائل العظمة، فإن هذا الإشراق الأول، كان نقيًّا من شوائب العجب أو الدعاوى، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر الناس بها، ولا يتحدّث عنها، وإنما كانت سرًّا بينه وبين الله، تزداد بها نفسه طمأنينةً، ويزداد بها حبّه للعزلة، فيمكث الليالي ذوات العدد يتعبّد في غار حراء، حتى صار الغار ملتقى التأملات، ومهبط الخلوات، ومهب الريح الطيبة من عالمٍ آخر.

لقد كانت مكة تضجّ بأصوات الأوثان، وتتعالى فيها نداءات الجاهلية، لكن في طرفٍ منها، على جبلٍ من صخر، كان قلبٌ واحدٌ يسمع همساتٍ من عالَم الحق، تُمهد له ما سيأتي، وتقول له: اقترب الموعد.

وفي تلك الأيام، ازداد انقطاعه عن الدنيا، وازداد صفاء روحه، حتى اكتملت فيه معالم الفطرة، واكتسى وجهه بنور الطاعة، حتى إذا جاءه جبريل عليه السلام، كان القلب مهيّأً، والروح مستعدة، والنفس قد نُقّيت من كل دنس، فاستقبل الوحي لا كمن فوجئ، بل كمن انتظر طويلًا دون أن يدري أنه ينتظر.

فأشرقت الأرض برسالةٍ لم تعرف لها البشرية مثيلًا، وبدأت السماء تتكلم لا بالرؤيا فقط، بل بالوحي الجلي، في قوله تعالى :﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾]العلق: ١[،
فتحوّلت الرؤيا إلى رسالة، وتحولت الخلوة إلى دعوة، وتحول الصمت إلى كلامٍ يُحيي القلوب، ويدلّ الناس على ربهم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- الرؤى الصادقة جزء من أجزاء النبوة، وهي من وسائل الاتصال بالغيب التي يفتح الله بها على من شاء من عباده، وهي تصديق لعظمة الوحي وتنزّله من عند الله.
- الله سبحانه وتعالى هو الذي يُهذّب أنبياءه ويُهيّئهم للوحي تهيئة ربانية خفية، تدل على عنايته بهم قبل التكليف، مما يدل على علمه المحيط، ورحمته الواسعة.
- اختلاف طرق الوحي بين الأنبياء (كما رأى اللهُ إبراهيم ملكوت السماوات في اليقظة، وأرَى محمدًا صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة) دليل على سعة قدرة الله، وتنوع سننه في التعامل مع خلقه.
- ما كان في صدر النبي صلى الله عليه وسلم من طمأنينة وسكون أثناء الرؤى دليل على أن الفطرة النقية تُبشَّر بالحق وتتهيأ له، دون اضطراب أو تشويش.
- الربط بين الرؤيا الصادقة والنبوة يبيّن أن الله يفتح على عباده الصالحين شيئًا من نور النبوة بعد انقطاعها، كما في الحديث: "لم يبقَ من النبوة إلا المبشّرات."
- الوحي ليس اضطرابًا نفسانيًا كما تزعم الفرق المنحرفة التي طعنت في النبوة، بل هو اتصال حقيقي بالسماء، يمهَّد له بطهارة النفس وإعداد من الله تعالى.

الفوائد الفقهية:

- الرؤيا الصالحة حق، وهي من المبشّرات التي يجوز للمؤمن أن يستأنس بها، لكنها لا تُبنى عليها الأحكام ولا تُشرَّع بها الواجبات، وهذا من دقة فهم الشريعة.
- التعبد في العزلة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يدل على مشروعية الخلوة المؤقتة للتفكر والتأمل، بشرط أن لا تُهجر فيها الجماعة ولا تُخترع طرقٌ بدعية.
- حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للرؤى وعدم إذاعتها، دليل على فقهه قبل البعثة، وتعليمه لنا أن الأمور القلبية الخاصة لا تُظهر للناس دائمًا، بل قد يكون إخفاؤها أقرب إلى الإخلاص.
- مداومة النبي صلى الله عليه وسلم على التعبد في غار حراء تُبيّن حرصه على العبادة رغم خلو الأرض من وحي، مما يُستفاد منه أهمية العمل الصالح حتى في زمان الغفلة.

الفوائد الأخلاقية:

- التهيئة الربانية للنبي صلى الله عليه وسلم بالرؤى الصادقة تدل على أن الله يُعدّ قلوب عباده قبل أن يُكلفهم، وفي ذلك تربية على الصبر والثقة في التدبير الإلهي.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعجّل إعلان رؤاه ولا جعل منها وسيلة للتميّز، بل كتمها في تواضع، مما يدل على كمال

خلقه، وبعده عن الرياء والعجب.

- حُب النبي صلى الله عليه وسلم للعزلة في زمن الجاهلية، وانصرافه عن صخبها، يدل على نُبل الطباع ونقاء النفس، وهو من الأخلاق التي تهيئ العبد للفضل.
- المشهد الذي وصفته الفقرة يُربّي على التمهّل والتأمل، وأن العظماء لا يُبنون في ضوء الشهرة، بل في صمت الطاعات، وخفاء الصبر، وطول ملازمة التأمل.

الفوائد التربوية والدعوية:

- إعداد النبي صلى الله عليه وسلم بالمنام قبل الوحي الظاهر، فيه دلالة على أن التربية الربانية لا تبدأ فجأة، بل تُبنى على التدرج والبصيرة، وهذا منهج للدعاة والمربين.
- استمرار الرؤى لستة أشهر قبل بدء الرسالة فيه إشعار للمربين بأهمية التدرّج في بناء النفوس، وأن التربية الحقيقية تسبق الدعوة بالكلمة.
- كون النبي صلى الله عليه وسلم اعتزل الجاهلية قبل أن يُؤمر بالدعوة يُعلِّم الداعية أن يتهيأ بالانفصال القلبي عن الباطل قبل دعوة الناس للحق.
- الفقرة تُظهر أن لحظة الاتصال بالوحي لم تكن لحظة نشوة دنيوية، بل لحظة هيبةٍ وخشوع، وعلى الدعاة أن يُربّوا أنفسهم على استقبال التكليف بعقلٍ راجح وروحٍ خاشعة.

مخالفات الواقع:

- انتشار الاعتقاد عند بعض المنحرفين أن الرؤى تُشرّع أو تُوجب تكاليف على الأمة، وهذا من البدع التي وقعت فيها بعض الفرق المتأثرة بالباطنية وأهل التصوّف الغالي.
- افتتان بعض الناس اليوم بمن يدّعي الرؤى كثيرًا ويتكلم بها في المجالس، ويجعل منها وسيلة لتصدر الناس والتسلط على عقولهم، وهذا من مسالك أهل الأهواء والفرق الضالة.
- ضعف ثقافة التفكّر والعزلة المشروعة في واقع كثير من الناس اليوم، حيث استُبدلت بالخوض في التفاهات وضجيج الإعلام، في وقت كانت فيه الخلوة طريقًا للإشراق.
- الجفاء تجاه معنى "الإعداد التربوي"، فترى من يتصدر الدعوة وهو لم يُمهّد نفسه لا بالعلم ولا بالتأمل ولا بالصفاء، مخالفًا بذلك سُنة إعداد النبي صلى الله عليه وسلم.
- الجرأة على التحديث عن الرؤى في وسائل التواصل بلا ضوابط، واستغلالها لإيهام الناس بالتقوى، وقد حذّر السلف من ذلك، وعدّوه بابًا من أبواب الكذب على الله.
- انتشار الفرق الضالة التي تزعم أن الرؤى تُنزل على زعمائهم بوحي جديد، وتزعم اتصالهم بعالم الغيب، وهم في الحقيقة من الفرق الهالكة التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم.
- ازدراء بعض الحداثيين لمعاني الوحي والرؤيا، واعتبارها أساطير قديمة، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل الرؤيا الصالحة من المبشرات، وهذا من الإيمان بالغيب الذي لا يستقيم الدين إلا به

الفقرة الرابعة الليلة التي غيّرت وجه التاريخ... إشراق النبوة وارتجاف الجبل

في ليلةٍ من ليالي رمضان المباركة...
وفي زاويةٍ منعزلةٍ من جبلٍ جافٍ لا حياة فيه، على صخور "جبل النور"، في غارٍ ضيق لا يكاد يتسع لجسدٍ واحد، وقع الحدث الأعظم في تاريخ البشرية منذ أن خلق الله آدم عليه السلام!

ما كان شيءٌ يُنبئ أن شيئًا هائلًا سيحدث تلك الليلة، لم تكن هناك أصوات أو مواكب أو أعلام، بل سكون الليل، وهمس النسيم، ونبيٌّ من بني الإنسان، يلوذ بصمتِ الغار، يفرُّ من ضوضاء الشرك، ومن رجس الأصنام، إلى حضرة ربّه، متأملًا في ملكوت السماوات والأرض، متبتلًا، منقطعًا عن ضجيج مكة، معلّق القلب بالسماء، يبحث عن الحق، ويشتاق للنور.

ثم... فجأة، تتبدّل السكينة رجفة، ويهتز الغار بصوتٍ لم تعرفه البشرية من قبل!
إنه جبريل عليه السلام، أمين الوحي، نزل بأمرٍ عظيم من رب العرش، نزل على من لم يسبق له أن قرأ أو كتب، ليقول له كلمة واحدة زلزلت كيانه:

"اقرأ"!

كانت صدمة... ليس لأنه لا يقرأ فحسب، بل لأن النداء جاء من عالمٍ لا يُدرَك بالبصر، ولا يُحتمل بثبات الجسد.
قال صلى الله عليه وسلم ـ كما في الصحيحين ـ: **"فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق"...**

وهنا... نزل أول النور، وتجلّت أول آيات السماء، لتهز الأرض بكلماتٍ ستُغيّر مجرى التاريخ، قال الله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾]العلق: ١–٥].

إنها أول خمس آيات من القرآن العظيم... إعلان من الله تعالى أن عهد الجهل قد أوشك على الزوال، وأن عالم النور بدأ من تلك اللحظة يتسلل إلى القلوب.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم من الغار، لا يجرّ رجليه فقط، بل يحمل على قلبه أعظم ما كُلّف به بشر، يرتعد جسده، وترتجف أوصاله، وتسابق أنفاسه قلبه، حتى دخل على خديجة رضي الله عنها يقول:
"زملوني زملوني"، ثم قال" **:لقد خشيت على نفسي."**

يا لها من لحظة! رجلٌ صادق، لم يكذب قط، يشعر بعِظم ما نزل عليه، لا يطير فرحًا، بل يَفزع من الأمانة، يُدرك أن ما نزل عليه ليس رفعةً دنيوية، بل تكليف من رب العالمين، وثِقلٌ لو أنزل على جبلٍ لرأيته خاشعًا متصدّعًا من خشية الله.

وكانت خديجة رضي الله عنها في الموعد...
امرأة، لكنها كانت أمة في قوتها وبصيرتها، لم ترتبك، ولم تتردد، بل ثبتت كالصخر، وقالت كلماتٍ خالدة، شهد بها التاريخ كما شهد بها الوحي" **:كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق**] "رواه البخاري.[

كانت خديجة أول من صدّق، وأول من طمأن قلبه، وأول من فهم أن ما حدث ليس أمرًا عابرًا، بل فجر الرسالة، ومطلع النور، وميلاد أمةٍ ستغير وجه الأرض.
ومن غارٍ ضيّق في جبلٍ جاف، خرجت أول شرارة النبوة، ومعها بدأ تاريخ جديد لأمةٍ ستكون شاهدةً على الناس، تحمل نور

السماء إلى الأرض، وتصدح بأمر الله:
"اقرأ ..."فكانت أول كلمة، وأول أمر، وأول عهدٍ بين السماء والأرض.

لقد أراد الله أن يكون مفتاح الرسالة :**المعرفة... والوعي... والارتباط باسم الرب الكريم**، لا باسم القلم وحده، بل باسمه سبحانه، لتكون حضارة القرآن حضارة علمٍ تعظّم الخالق، وتُنير القلب قبل العقل.

وهكذا...
بدأ تاريخُ أمةٍ... برسالة، مفتاحها "اقرأ"، وبدايةُ النور... من صوتٍ جبريليّ، ونبيٍّ أُمّي، ورسالةٍ ختمت بها النبوات، لتخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا... إلى سعة الآخرة.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية:

- النبوة وحي إلهي يُؤتى من الله وحده، ولا دخل للبشر فيه، وقد بدأ نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بأمرٍ من الله لا من اجتهاد بشري، قال تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.
- الوحي حقٌّ من عند الله، يُنزل على من اصطفاه من عباده، ويُؤتى من عالم الغيب بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام، وهو من أركان الإيمان.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم للحدث، وارتجافه من عظم ما نزل، دليل على أن النبوة تكليفٌ ثقيل، وهي منزلة عظيمة لا تُنال بالسعي ولا بالطلب.
- ظهور جبريل عليه السلام بالنور والرهبة يثبت أن الملائكة حق، وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، وهم سفراء الوحي بين الله ورسله.
- إيمان خديجة رضي الله عنها وتصديقها لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم في لحظة الفزع الأولى، شاهد على أن الفطرة السليمة تهتدي للحق ولو قبل البيان التفصيلي.
- أول ما نزل من القرآن الكريم يقرر أن العلم منحة إلهية مرتبطة باسم الله لا بمنهج بشري محض، وأن العلم الحقيقي يُثمر عبودية لله، لا كبرًا واستعلاء.
- الوحي ابتدأ بأمر: (اقرأ)، ليؤسس لرسالة الإسلام على أركان الوعي والمعرفة، وأن هذا الدين لا يقوم على الجهل بل على العلم المربوط بالله.

الفوائد الفقهية:

- حديث "زملوني زملوني" يدل على جواز طلب العون النفسي في لحظات الشدة، وأن تطييب خواطر المكلَّفين مما يُعين على الثبات.
- تكرار الأمر "اقرأ" ثلاثًا ثم نزول الآيات الخمس يدل على أهمية التثبيت والتدرج في التكاليف الشرعية، وأن من رحمة الله أن يُمهّد للعبد قبل أن يأمره.
- البدء بآيات تعظم الله وتربط القراءة باسم الرب الكريم فيه تعليم بأن كل علم لا يُستفتح باسم الله ولا يُقصد به وجهه، فهو ناقص أو مفضي إلى الضلال.
- النبوة لم تبدأ بمعجزة مادية، وإنما بكلمة ووحي، ما يدل على أن الإعجاز الحقيقي في الإسلام هو في القرآن وهدايته، لا

في مظاهر خارقة.

- مكان نزول الوحي –غار حراء– يعلّمنا أن البركة قد تكون في المواضع الخفية لا الظاهرة، وأن الله يختار حيث يشاء ويجعل لخلقه أسرارًا في الأسباب.

الفوائد الأخلاقية:

- فرار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغار تأملًا وتعبدًا، يُرشد إلى أن من أعظم الأخلاق: صدق التوجّه إلى الله والبعد عن ضجيج الفساد.
- موقف خديجة رضي الله عنها يُعَدّ مثالًا خالدًا في الحكمة، والطمأنينة، والثبات النفسي، مما يدل على عظمة خلق المرأة المسلمة حين تصدق مع ربها.
- خشية النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي دليل على حيائه وتواضعه وخوفه من المقام، وأنه ما رأى النبوة تشريفًا دنيويًا، بل أمانة عظيمة.
- كلمات خديجة تصف مكارم الأخلاق التي كانت سببًا في الطمأنينة، وتعلّمنا أن الأخلاق أساس الثقة، وبها يُرجى الخير من الله.
- ارتجاف النبي صلى الله عليه وسلم رغم عِظم قدره يُربّي الناس على تجنب العُجب، وأن الكرامة عند الله ليست مدعاة للزهو بل مسؤولية وخشية.

الفوائد التربوية والدعوية:

- رسالة الإسلام بدأت بكلمة "اقرأ"، وهذا تأسيس لحضارة العلم، وتأكيد على أن أعظم وسيلة للدعوة هي نشر العلم المرتبط بالله تعالى.
- النبي صلى الله عليه وسلم ما خرج من الغار يفاخر بالوحي، بل خرج مرتجفًا، يعلم الدعاة أن الثبات لا يعني الجفاء، بل أن ترفق بالنفس وتطلب التثبيت.
- خديجة رضي الله عنها بدأت في تطمين النبي صلى الله عليه وسلم بذكر أعماله الصالحة، مما يُعلّمنا أن تذكير الإنسان بأفعاله الطيبة يثبّت قلبه في الملمات.
- تدرّج الوحي من الرؤيا الصالحة ثم النداء ثم القراءة ثم التكليف، يُعلّم المربين أن التهيئة النفسية سُنّة ربانية لا بد من مراعاتها في التربية.
- القرآن نزل ليغيّر وجه الأرض، ولكنه بدأ في قلب رجلٍ واحد، مما يدل على أن التغيير الحقيقي يبدأ من القلب ثم يُشعّ إلى الأمة.

مخالفات الواقع:

- تساهل بعض الناس في التعامل مع مقام النبوة، واعتبارها وظيفة لا تختلف عن غيرها، أو أنها تشريف فقط، في حين أنها أعظم تكليف عرفته البشرية.
- إنكار بعض الفرق والضالين لمقام جبريل عليه السلام أو لوصف نزول الوحي عليه، كما فعلت الجهمية ومن تبعهم، طعنٌ في أصل من أصول العقيدة.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه "رجلٌ عبقريّ" فقط، أو أنه مفكر مصلح، هو من مزاعم أهل البدع والحداثيين الذين جهلوا مقام الرسالة.
- استبدال العلم الشرعي الموصِل إلى الله، بالعلوم الدنيوية المنفصلة عن الإيمان، حتى أصبح الناس يُعظّمون القلم ولا

يربطونه باسم الرب الكريم.

- ضعف يقين كثير من المسلمين اليوم في عظمة الوحي، وانشغالهم بعلوم ظاهرية مادية دون أن يجعلوها وسيلة لعبادة الله ومعرفته، مخالف لروح قوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾.
- فتنة بعض من يدّعون الرؤى والكشف والوحي الباطني في زمننا، ويتكلمون كما يتكلم الموحى إليه، وهم من الفرق الهالكة، التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم، مثل الغلاة في التصوف والباطنية.
- غياب الزوجة المثبتة الصالحة عن واقع كثير من البيوت، حيث أصبحت المرأة في بعض البيئات عنصرًا لهدم الثبات لا لبنائه، خلاف خديجة رضي الله عنها التي كانت أمةً وحدها.
- ترك كثير من الناس اليوم "القراءة" والوعي، رغم أن أول أمر في الرسالة كان "اقرأ"، مما يبيّن مدى الانحراف عن مسار الأمة الحقيقي في طلب العلم الشرعي والنافع.

الفقرة الرابعة :" اقرأ"... أول نداءٍ من السماء يهزُّ صمت الأرض

في غارٍ عالٍ، على سفح جبلٍ جافّ، بعيدًا عن ضوضاء مكة وعبث الأصنام، حيث لا أنيس إلا صمتُ الليل، ولا جليس إلا همسُ التأمل... وقعت اللحظة التي غيّرت مجرى التاريخ، وهتف الكون بكلمةٍ واحدةٍ لم تسمع الأرض مثلها من قبل:

"اقرأ."

لم يكن هذا النداء صوتًا عاديًّا، ولا دعوةً عابرة، بل كان أول خيطٍ من النور يتسلل إلى ظلام الجهل، وأول شعاعٍ يشرق على صفحة الأرض بعد قرون من الغياب عن وحي السماء.

جبريل عليه السلام، الروح الأمين، نزل بأمر الله، فضمّ محمدًا صلى الله عليه وسلم ضمًّا شديدًا، حتى بلغ منه الجهد، ثم قال له:

"اقرأ..."

فقال النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، الذي لم يعرف قلمًا ولا كتابًا" **:ما أنا بقارئ."**

فعاد الأمر مرةً، ثم أخرى، وفي الثالثة، كان البيان الإلهي الذي ستهتز له الدنيا:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾]العلق: ١–٥.[

يا الله...

ما أعظمها من آيات! أول كلماتٍ تتنزل من السماء في الرسالة الخاتمة، لا تحمل أمرًا بالقتال، ولا دعوةً إلى التملك، ولا نداءً بالعز والسلطان، وإنما تبدأ بالعقل... بالوعي... بالمعرفة.

"اقرأ..."

إنه صوتُ النبوة الأول، لا يطرق الأذن فقط، بل يهزُّ الوجدان، ويوقظ في القلب أن العلم هو طريق التحرير، وأن أول خطوة في مسيرة الهداية تبدأ من كتاب.

في تلك اللحظة، لم يكن في الغار قلم، ولا كتاب، لكن كان هناك قلبٌ طاهرٌ يتلقّى عن الله، وروحٌ تتهيأ لحمل أثقل أمانة نزلت على بشر.

لقد أراد الله أن يكون مفتاح الرسالة: "اقرأ"، لتكون أمةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم **أمةً لا تقوم إلا على العلم، ولا تنهض إلا بنور الوحي، ولا تنجو إلا بفهم ما أنزل الله.**

ليست "اقرأ" مجرّد فعل أمر، بل هي **مشروع نهضة، وبداية حضارة، ودستور حياة.**
ولذلك لم يكن عجبًا أن تكون هذه الكلمة هي أول ما نزل، وأن يكون من بعدُ في القرآن أكثر من سبعمائة آيةٍ تأمر بالتفكّر، والتعقّل، والنظر، والتدبّر.

إنها رسالةٌ خالدة:

لا تسجد حتى تفهم،
ولا تتبع حتى تعلم،
ولا تصل إلى ربك إلا على جسرٍ من نور المعرفة، وزادٍ من يقين العلم.

لم تبدأ الرسالة بـ"انتصِر"، ولا بـ"اجمَع"، ولا بـ"قاتِل"، بل بـ"اقرأ"، لأن الجهل هو العدو الأول، والباطل لا يُهزَم بالسيف قبل أن يُكسر في العقول، والقلوب لا تنقاد إلا لنورٍ يضيء من الداخل.

وحقّ لهذه الكلمة أن تكون مفتاح الوحي، لأنها نداءُ الله إلى الإنسان: أن اصعد، أن ارتقِ، أن تحرّر من عبودية الجهل، إلى عبودية الرب الأكرم...
الذي **علّم بالقلم**، وجعل القلم أول أداةٍ للخلود، ووسيلةً لبناء الإنسان.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة :

الفوائد العقدية:

- *اقرأ باسم ربك الذي خلق* "دليل على أن أول ما يُبنى عليه الإيمان هو التوحيد، فالعلم يجب أن يُربط بالله لا أن يكون مجرد تجريدٍ معرفي.

- تكرار الأمر بـ"اقرأ" يُعلّمنا أن الوحي لم يكن من اجتهاد بشري، بل هو تنزيل من رب العالمين، ووسيطه جبريل عليه السلام، وهذا إثبات لعقيدة الوحي وأنه من عند الله.

- قول" :*علّم الإنسان ما لم يعلم* "فيه بيان أن الله هو مصدر العلم، وهو الذي فطر العقول، وهذا رد على من نسب المعرفة إلى الطبيعة أو المادة.

- جعل الله أول ما نزل في الرسالة الخاتمة هو الوحي المتعلق بالعلم، مما يدل على أن الإسلام دين هداية للعقول، لا خرافة ولا جهل، وهذا يثبت تميز الدين الحق على سائر الملل الباطلة.

- نزول جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم فيه إثبات لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يتعلم من بشر، بل وُحيٌ يوحى.

الفوائد الفقهية:

- الآية تُعلّمنا أن التعلم والتعريف بالله من أول واجبات المسلم، فـ"اقرأ" أمر، والأمر يقتضي الوجوب ما لم يصرفه صارف، فطلب العلم فريضة.

- قوله تعالى" :*علّم بالقلم* "فيه استحباب التوثيق والكتابة، وأن العلم المحفوظ بالقلم أدعى للبقاء، ولذلك اعتمدت الشريعة على التدوين والحفظ.

- تعلق القراءة باسم الله يُفيد أن كل علم لا يُربط باسم الله ولا يُقصد به وجهه، فهو مردود شرعًا، وهذا أصلٌ في النية في طلب العلم.

- قوله" *لا تسجد حتى تفهم، ولا تتبع حتى تعلم* "يدل على أن من شروط صحة العبادة الفهم والعلم، فلا تُقبل العبادة مع الجهل المركب.

الفوائد الأخلاقية:

- في مشهد الغار تواضُع النبي صلى الله عليه وسلم في قوله" *ما أنا بقارئ* "رغم أن جبريل عليه السلام يأمره، وهذا من أدب النبوة والتواضع في طلب العلم.

- النداء بالقراءة أولًا يُربي الإنسان على تحكيم العقل والوعي قبل الانفعال، وأن الأخلاق تبنى على فهم، لا على غريزة أو رد فعل.

- تصوير الغار والهدوء والانفراد قبل نزول الوحي يُعلّم أن التأمل والخلوة والصدق مع النفس من أعظم أسباب الوصول إلى الهداية.

- جعل أول نداء من السماء يبدأ بالعلم يُعلّمنا أن الأخلاق لا تنضبط إلا بالعلم، وأن الجهل سببٌ في انفلات الأخلاق وانتكاس الفطرة.

الفوائد التربوية والدعوية:

- افتتاح الرسالة بالعلم يُلزم الدعاة أن يبدأوا بالإفهام لا بالإلزام، وأن الدعوة تبدأ ببناء العقل لا بفرض الشعائر.

- بناء الوحي على القراءة والعلم يرسم منهج التربية الإسلامية: تحرير العقول من الجهل أولًا، لا السيطرة على الجوارح بالقهر.

- تصوير العلم على أنه أول شعاع يبدد الظلام، يُشعر الدعاة بأهمية الكلمة والبصيرة، وأن النور الحقيقي ليس في الصوت العالي، بل في الفكرة الصادقة.

- التأكيد على "*لا تسجد حتى تفهم* "يُربي الأمة على عبادة واعية، ويمنع التقليد الأعمى، وهذا أصلٌ في تربية المجتمعات المسلمة.

مخالفات الواقع المعاصرة للفقرة:

- تسطيح العلم الشرعي عند كثير من المسلمين، حتى صار يُؤخذ من مقاطع قصيرة أو آراء بلا دليل، مع أن الله بدأ بالعلم كأول وحي.

- ربط بعض المسلمين العلم الحديث بالحداثة فقط، دون ربطه بالله، وهذا انحراف في المنهج؛ فـ"اقرأ باسم ربك" لم تُفصل القراءة عن التوحيد.

- تضييع فريضة طلب العلم الشرعي، حتى صار يُعد ترفًا لا واجبًا، مع أن أول آية في القرآن هي أمرٌ بالقراءة.

- ترك التأمل والخلوة ومحاسبة النفس، والغرق في صخب الدنيا ووسائلها، حتى انقطع كثير من الناس عن لحظة الصدق مع الله التي حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار.

- ظنّ بعض الناس أن النصر يُنال بالصدام لا بالبصيرة، وأن التمكين يبدأ بالقوة لا بالعلم، مع أن الله بدأ رسالته الخاتمة بـ"اقرأ" لا بـ"قاتل."

- جعل بعض المتكلمين من الفرق المنحرفة كالمعتزلة ومن سار على طريقتهم العقل فوق الوحي، فجعلوا "اقرأ" دعوة إلى تقديم العقل على النص، لا إلى فَهم النص بالعقل المأمون.

- غياب قيمة القلم في حياة المسلمين، حتى صار كثيرٌ من طلاب العلم لا يكتبون ولا يدوّنون، رغم أن الله قال: *"علّم بالقلم"*، مما أدى لضعف رسوخ العلم وانتقاله.

- انتشار بدعة "العبادة الجاهلة"، التي تمارس طقوسًا لا تُفهم، ويتبع فيها العامة من لا علم عنده، مخالفين لنداء السماء الأول" *:اقرأ باسم ربك."*

الفقرة الخامسة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها... أول الثابتين، وسيدة اليقين

في اللحظة التي ارتجّ فيها الجبل، وارتعدت فيها أوصال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، بعد أن تجلّى له نور الوحي لأول مرة...
في تلك الساعة التي تزلزلت فيها الأرض تحت قدمي النبي صلى الله عليه وسلم، واضطرب فيها صدره لرؤية الملك العظيم، لم يكن ثمة مَفرّ يلجأ إليه، ولا قلبٌ يطمئن إليه، أعظم من قلب خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم من غار حراء، والرهبة تسكن عينيه، والفزع يرتجّ في أنفاسه، وهو يقول:
"زملوني زملوني"، فأسرعت إليه خديجة، لا تسأل، ولا تعاتب، ولا ترتبك، بل احتوته بثوبها، واحتوته بقلبها، واحتوته بإيمانها، وظلّت تُهدّئ من روعه حتى سكن، ثم جلس يحدثها بلهجةٍ صادقة مرتجفة، يقول:
"لقد خشيتُ على نفسي."

فما إن أنهى جملته، حتى نطقت خديجة بكلماتٍ نقشتها كتب السيرة بأحرفٍ من نور، كلماتٍ لا تخرج إلا من قلبٍ مملوء باليقين، مغمورٍ بالإيمان، فقالت له، تفيض ثقة" **:كلا والله لا يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق**] "رواه البخاري.[

يا لها من امرأة!
ما اهتزّ فيها يقين، وما داخَلَها شك، في لحظةٍ كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها محتاجًا لكلمة واحدة، فأنطقت اللهُ بها على لسانها تثبيتًا وتكريمًا له.
إنها لم تكن تنظر إلى الحدث بعيونٍ دنيوية، بل ببصيرة الإيمان... أدركت أن من جمع هذه الصفات التي عددتها، لا يمكن أن يخزيه الله، لأنه مؤهَّلٌ لحمل الرسالة، حتى وإن لم تُدرك بعدُ حجم ما سيأتي.

ولم تكتفِ خديجة بالتهدئة والمواساة، بل كانت أول من أخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم إلى من يُعينه على الفهم والتثبيت، فذهبت به إلى **ورقة بن نوفل**، ذلك الشيخ الطاعن في السن، الذي بقي على التوحيد في زمانٍ كثرت فيه الأوثان.

فلما سمع ورقة من النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى، قال قولته المشهورة التي كانت كأنها إشارة السماء على لسان الأرض"**:هذا الناموس الذي نزل الله على موسى"**، ثم قال بلهفة المشتاق" **:يا ليتني فيها جذعًا إذ يخرجك قومك"**، فتعجب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال" **:أوَمخرجيّ هم؟"!**،
قال" **:نعم، ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا**] "رواه البخاري.[

تأمّل هذا المشهد جيدًا...
رسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه أول موقف من مواقف النبوة، ويُصدم بوقعه، لكن إلى جواره امرأة، ليست فقيهةً ولا حافظةً، ولكنها موقنة، واعية، ثابتة، لم تهتزّ ساعةَ الاضطراب، بل صارت الجدار الذي استند إليه أول نبيّ في الإسلام، والروح التي أمدته بالسكون.

لقد آمنت خديجة رضي الله عنها، في اللحظة الأولى، بلا تردد، ولا حاجة إلى برهان، ويكفي في فضلها أن **كانت أول من أسلم على وجه الأرض**، قبل الرجال والنساء، وقبل أن يُعرض الإسلام على أحد.

وكان جزاؤها أن حملت مشعل النور في أول خطواته، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينسى فضلها، حتى بعد موتها بسنوات، تقول عائشة رضي الله عنها كما في الصحيحين"**:ما غرتُ من أحدٍ من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرتُ من خديجة، وما رأيتُها، ولكن كان يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة.**"...

وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم" :**إني قد رُزقتُ حبها**] "رواه مسلم.[

أجل...
إن خديجة ليست مجرد امرأة في السيرة، بل هي **أيقونة الثبات، ومَعلمٌ من معالم النور، وأول السند حين عزّ السند**

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية:

- أن تثبيت القلوب في مواقف الفزع من أعظم دلائل رحمة الله بعباده، وهذا يتجلى في تسخير الله لخديجة رضي الله عنها لتكون سببًا في طمأنينة النبي صلى الله عليه وسلم في أول لحظات الوحي.
- أن الله لا يخزي عباده الصالحين، وأن من صدق في عمله وعبادته فإن الله يدفع عنه الخذلان، كما قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وهذا ما نطقت به خديجة بيقينها.
- أن التصديق بالنبوة والإيمان بالغيب لا يتطلب علمًا فلسفيًّا أو جدلًا عقليًّا، بل يتطلب قلبًا سليمًا مملوءًا باليقين كما فعلت خديجة رضي الله عنها.
- أن الله سبحانه يسخّر بعض عباده الصالحين في لحظات حساسة لتأييد دعوته ونصرة دينه، كما سخّر ورقة بن نوفل ليكون أول من يفسر للنبي صلى الله عليه وسلم ما رأى من الوحي.
- أن من آمن بالرسل والأنبياء السابقين وآمن بالناموس (جبريل) الذي نزل على موسى، فإنه يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا من لوازم التوحيد الصحيح.

الفوائد الفقهية:

- أن أول من أسلم وصدّق بالنبي صلى الله عليه وسلم كانت امرأة، مما يدل على أن المرأة شريكة في حمل الدين منذ اللحظة الأولى، ولها دور في تثبيت الدعوة ونشرها.
- جواز الاستعانة بأهل المعرفة من أهل التوحيد لفهم الأمور العظيمة والمواقف الجليلة، كما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم مع خديجة إلى ورقة بن نوفل.

- أن التثبيت بالكلام الطيب والصدق والتذكير بفضائل المرء في حال فزعه مشروع، كما فعلت خديجة حين عددت للنبي صلى الله عليه وسلم مكارمه لتطمئنه.

- مشروعية إكرام أصدقاء الزوجة بعد وفاتها وفاءً لها، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع صديقات خديجة رضي الله عنها، وهو من باب البر.

- جواز التعبير عن محبة الزوجة والثناء عليها وإن كانت ميتة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إني قد رزقت حبها"، وهذا فيه رد على من يتشدد في الكتمان في مثل ذلك.

الفوائد الأخلاقية:

- أن المواقف العصيبة تُظهر معادن الناس، وقد أظهرت تلك اللحظة معدن خديجة رضي الله عنها في ثباتها، واحتوائها، وحكمتها، فكانت قدوة لكل امرأة في حمل همّ زوجها.

- أن الإيمان الصادق يُنتج ثقة وثباتًا في المواقف، وهذا ما بان في يقين خديجة، ويبيّن أن الثبات ليس بالعلم فقط، بل باليقين والصدق.

- أن الوفاء لا يُنسى، فالنبي صلى الله عليه وسلم ظل يذكر خديجة ويبر أصدقاءها، رغم وفاتها، وهذا من أعلى صور الوفاء بين الزوجين.

- أن الكلمة الطيبة في وقت الضعف قد تُغيّر مصيرًا، وقد تُثبت نفسًا، وقد تُقيم أمة، وخديجة رضي الله عنها قالت كلمة ما زالت تتردد في كتب السيرة ومجالس الإيمان.

- أن الحياء والمروءة والنجدة كانت صفات لازمة في النبي صلى الله عليه وسلم حتى قبل البعثة، وهي دليل على أن الأخلاق تمهّد لحمل الرسالة.

المخالفات الواقعية:

- التساهل في أمر النساء، والاستخفاف بدورهن التربوي والدعوي، مع أن خديجة رضي الله عنها كانت أول من ثبت الدعوة وبذل لها مالها وروحها.

- مظاهر الجفاء بين الأزواج في هذه الأزمنة، فلا تجد الزوجة تواسي زوجها في ضيقه، ولا الزوج يذكر زوجته بخير بعد موتها، في مقابل وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة.

- اعتبار بعض الناس أن المرأة لا تصلح في مواقف الشدة أو العلم أو المساندة، بينما أول موقف نبوي عظيم ثبتت فيه امرأة وليس رجلًا.

- استبدال التثبيت بالكلمات القاسية أو التشكيك، بينما خديجة رضي الله عنها كانت تبث الطمأنينة في أشد المواقف، دون لوم أو عتاب أو جزع.

- بروز فرق اليوم التي تُقصي دور المرأة وتحتقره، مع أن السيرة تشهد بأن أول من حمل لواء الإسلام قلب امرأة موقنة، لا منتمية إلى فكر خارجي أو جماعة تكفيرية، بل إلى الفطرة والتوحيد.

الفقرة السادسة : أبو بكر الصدّيق... قلبٌ أضاء بنور اليقين قبل أن يُخاطَب بالوحي

ما كان قلبُ الصدّيق رضي الله عنه قلبًا عاديًا... بل كان مرآةً صافيةً تعكس نور الفطرة الأولى، فطرة الصدق، والوفاء، والبحث عن الحق بلا تكلّف ولا مراء.

لقد عرف محمّدًا صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحي... عرفه نقيّ الصفحة، طاهر اليد، كريم الخُلق، لا يكذب، ولا يخون، ولا يتطلّع إلى جاهٍ ولا سلطان، فكان كلّما التقى به ازداد له حبًا، وكلّما سمع سيرته رقّ له قلبه. وحين جاء اليوم الموعود، وقال له نبيّ الرحمة صلى الله عليه وسلم" **:يا أبا بكر، إني رسول الله إليك وإلى الناس كافة".**
لم يُكثِر السؤال، ولم يطلب برهانًا، ولم يتردّد في الخطو، بل أشرق وجهه، واهتزّ قلبه، وانطلق لسانه يقول من أعماقه:
"صدقتَ، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله".

وهكذا، وُلِد الصدّيق في لحظةٍ واحدة... لا بصرخة الميلاد، ولكن بنداء الإيمان!
أسلم ولم ينتظر أن يُمتحَن، ولم يكن بحاجة إلى معجزة، لأن نفسه كانت من الداخل مهيأةً للوحي، وكأن قلبه كان موصولًا بالسماء قبل أن يُبعث رسولها.

كان أولَ من أسلم من الرجال الأحرار، بل قيل: لم يتقدّمه أحد في هذا المقام. أسلم قبل أن يُدعى إلى دار الأرقم، وقبل أن يتجمّع الصحب حول النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل أن تظهر دعوة الإسلام في الآفاق.

ولم يكن إسلامه باردًا كسائر الناس، بل ما إن نطق بالشهادة حتى قام داعيةً إلى الله في أول يوم، لا ينتظر تكليفًا ولا مقامًا، بل يحمل همَّ الرسالة وكأنه وُلد بها. فخرج إلى قومه يُعرّفهم بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، ويأخذ بأيديهم إلى النور... فأسلم على يديه خمسة من أعظم الرجال :**عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص** رضي الله عنهم أجمعين، وكلهم من العشرة المبشرين بالجنة!

ما كان الصدّيق صاحب منصب، ولا صاحب شوكة، ولكنه كان ثقةً بين الناس، موفور الكرامة، محبوبًا، كريمًا، صدوقًا، فكان هو الدليل إلى النبي، وشخصُه في ذاته دعوة.

ولم يكن هذا الإيمان بلا ثمن... فحين سمع به المشركون، اجتمعوا عليه ضربًا وسبابًا حتى سقط لا يُدرى أحيّ هو أم ميت، وحُمل إلى بيته مغشيًّا عليه.
فلما أفاق من غيبوبته، لم يسأل عن وجهه، ولا عن جراحه، ولا عن من آذاه... بل فتح عينيه وسأل سؤال العاشق المحبّ : **"ما فعل رسول الله؟** "قالوا: "هو بخير." فقال بصوتٍ متهدّج يمزقه الشوق"**:والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أنظر إليه"!** فما إن رأى النبي صلى الله عليه وسلم حتى فاضت عيناه، وأشرق وجهه، وكأن الحياة قد عادت إلى قلبه.

هذا هو الصدّيق... رجل سبق الناس بيقينه، وثبت على الحقّ بثبات الجبال، ورافق الحبيب في كل مراحل الدعوة، حتى نزل فيه قول الله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾]التوبة: ٤٠[

وقوله تعالى :﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى**﴾]الليل: ١٧–٢٠]، وقد أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عنه"**:إن أمنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودّته**] "رواه البخاري ومسلم.[

رضي الله عنك يا أبا بكر... كنتَ القلبَ الذي آمن قبل أن تُكلَّم، واللسان الذي صدّق قبل أن يُؤمر، والروح التي سبقت بخطوةٍ في زمنٍ لم يكن فيه أحد يجرؤ على النظر إلى السماء.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

الفوائد العقدية:

- أن الفطرة السليمة تقود صاحبها إلى الإيمان الصادق عند أول نداء للحق، وهذا يتجلى في قلب أبي بكر رضي الله عنه الذي صدّق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم فور سماعه لها دون طلب دليل.
- أن التصديق بالرسول صلى الله عليه وسلم من أصول العقيدة، ويكفي فيه معرفة صدقه وأمانته وسيرته، كما آمن أبو بكر من معرفته السابقة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم، دون حاجة إلى آيات حسّية.
- أن الله يهيئ لرسله من يثبتونهم ويشاركونهم الطريق منذ اللحظة الأولى، وأبو بكر رضي الله عنه كان أول من حمل همّ الدعوة، وهذا يدل على عناية الله بدعوته.
- أن الإيمان الصادق يُثمر اليقين، واليقين يُثمر الثبات، كما ثبت الصدّيق أمام الضرب والإيذاء دون أن يضعف إيمانه أو يتزعزع يقينه.
- أن الصحبة الصالحة المؤمنة –كصحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم– من أعظم دلائل رضا الله عن العبد، وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠].

الفوائد الفقهية:

- أن من بادر إلى الإيمان ونشره يُثاب على دعوته وعلى من أسلم على يديه، كما أسلم خمسة من العشرة المبشرين على يد أبي بكر رضي الله عنه، وهو أصل في فضل الدعوة الفردية.
- أن الإيمان لا يشترط فيه الإكثار من السؤال أو طلب المعجزات، بل يكفي التسليم لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما فعل أبو بكر حين قال: "صدقت."
- أن من السنة الوفاء لأهل الإيمان وأصحاب الفضل، ولهذا شهد النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر بفضله في الحديث الصحيح، وأمر الأمة بردّ جميله.
- أن إنفاق المال في سبيل الله تطهير للنفس وسبب في النجاة من النار، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى...﴾ [الليل: ١٩]، في وصف أبي بكر رضي الله عنه.
- أن طلب رؤية النبي صلى الله عليه وسلم والتأكد من سلامته كان أول ما خطر على قلب أبي بكر عند إفاقته، مما يدل على عظيم المحبة، وهي سنة القلوب المؤمنة تجاه أهل الفضل والخير.

الفوائد الأخلاقية:

- أن الصدق في المحبة والوفاء يظهر في الشدائد، وأبو بكر رضي الله عنه لم يسأل عن نفسه حين أفاق من الغيبوبة، بل سأل عن أحب الناس إليه: رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- أن المؤمن الحق لا ينتظر التكليف ليدعو إلى الله، بل يدفعه الحب واليقين إلى المبادرة، كما فعل أبو بكر في أول يوم من إسلامه.
- أن الشهامة والكرم والصدق تجعل من الإنسان قدوةً في قومه، حتى قبل أن يحمل رسالة، وهذا ما كان عليه الصدّيق في الجاهلية، فكان محل ثقة الناس.

- أن الشجاعة في الدعوة لا تحتاج إلى سلاح، بل إلى صدق وهمة، وأبو بكر رضي الله عنه واجه قومه وحده في أول يوم له في الإسلام، وأُوذي حتى غُشي عليه.

- أن الوفاء في الصحبة من أعظم مكارم الأخلاق، وكان أبو بكر أكثر الناس وفاءً للنبي صلى الله عليه وسلم في السراء والضراء، حتى شهد له القرآن والنبي معًا.

المخالفات الواقعية:

- ضعف يقين كثيرٍ من الناس اليوم في تصديق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الغيب، وطلبهم المستمر للبرهان، خلافًا ليقين أبي بكر الذي لم يحتج إلا إلى صدق محمد صلى الله عليه وسلم.

- تأخر كثير من الناس عن الدعوة إلى الله، وانتظارهم للتكليف أو المناصب، في مقابل مبادرة أبي بكر بالدعوة منذ اللحظة الأولى لإسلامه، بلا أمر مباشر.

- غياب الوفاء والإخلاص عند كثير من الأتباع تجاه العلماء والدعاة، فبمجرد ضعف أحوالهم أو وفاتهم، تُنسى سيرتهم، بينما كان أبو بكر لا يهدأ حتى يطمئن على النبي صلى الله عليه وسلم.

- ما تفعله اليوم بعض الفرق المنحرفة من زعم أنها تحمل الإسلام، وهي تُكفّر الصحابة أو تُنقص من قدر الصدّيق رضي الله عنه، في خيانة صريحة للقرآن والسنة، فإن من طعن في أبي بكر فقد كذّب القرآن.

- مظاهر الجبن والتردد والخوف من المجاهرة بالدعوة والحق، حتى من بعض المنتسبين للعلم، في مقابل شجاعة الصدّيق وهو رجل واحد في وجه قريش، وهو لمّا يسلْه إسلامُه يومًا واحدًا.

الفقرة السابعة :عليّ بن أبي طالب... الفتى الذي سبقه النور، ومهد له القدر بأمر الله

لم يكن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مجرد فتى يفتح عينيه في دارٍ كسائر الدور، بل كانت عينه أول ما أبصر النور في بيتٍ تتنزل فيه الرحمات، وتسري في جدرانه أنفاس النبوة.

كان صغيرًا في سنّه، لكنه كبير في فطرته، نقيُّ القلب، طاهرُ الجنان، تتربى نفسه على مائدة العفاف، وتتشرب روحه من معين الحياء والصدق، في كنف رجلٍ ما عرف الكذب قط، وما عبد صنمًا يومًا، محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان له بمنزلة الأب والمربي، يرعاه بعينه، ويغذّيه بعقله، ويؤدّبه بأخلاق النبوة، وكأنّ الله أراد لهذا الغلام أن يشبّ على عين رسوله، ليكون من السابقين إذا أظلّ الوحي، ومن الثابتين إذا اشتدت المحن.

ولد عليّ رضي الله عنه في جوف الكعبة، في بيت الله الحرام، كما ذكره ابن عبد البر وغيره، ولا يُعرف عن أحد من الناس أن الله قدّر له مولدًا في أقدس بقعة كهذه، وهو ما اعتبره كثير من العلماء **تكريمًا وتشريفًا**.

نشأ في بيت النبي صلى الله عليه وسلم مذ كان صغيرًا، وذلك حين أصاب قريشًا قحط شديد، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخفّف عن عمّه أبي طالب بعض ثقل العيال، فأخذ عليًّا ليربّيه في بيته، كما في الصحيح. وهكذا قضى عليّ طفولته وشبابه في حضن النبوة، لم يختلط قلبه بأدران الجاهلية، ولم يعرف من الأصنام إلا ما رآه من كفر قريش. لم يسجد لصنم، ولم يلوث لسانه بشرك، بل كانت حياته صافية من بدايتها، كأنها تُمهد لحمل مشعل الهداية منذ اللحظة الأولى.

وفي يوم مشهود من أيام مكة، عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من غار حراء، يرتجف فؤاده من هول ما رأى، وقد جاءه الوحي لأول مرة. فدخل على خديجة فزِعًا، وقال كلمته الخالدة" :**زملوني زملوني** ."وكان عليّ حاضرًا في البيت، يرى ويصغي، ويسمع من خديجة ما لم يكن لغيره أن يسمعه، في اللحظات الأولى التي نزل فيها النور من السماء. لامس قلبه الطاهر إشراق الوحي، دون تردد ولا خوف، وكأنّ فطرته التي لم تعكّرها الجاهلية كانت تنتظر كلمة الحق منذ زمن بعيد.

وفي أحد الأيام، دخل عليّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه يصلي مع خديجة، لم يعرف هذا المشهد من قبل، لم يشهد مثل هذه الخشية، ولم يرَ هيئة السجود تركع فيها الجباه لرب واحد، فقال متعجبًا:

"يا محمد، ما هذا؟"

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بكل رفق وصدق" :**يا عليّ، إنه دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى".**

وكانت لحظة من لحظات الفطرة التي لا تنسى...

توقف عليّ لحظة وقال":**إن هذا أمر لم أسمع به من قبل، حتى أستأمر أبا طالب ".**لكن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أوتي حُسن الدعوة، قال له بلطف عجيب":**يا عليّ، إنك إن لم تسلم، فاكتم الأمر".**

ومضى الليل على عليّ وهو يتقلّب في فراشه، بين دهشة المشهد، وصدق الداعي، ونقاء الدعوة... حتى طلع الصباح، فذهب مسرعًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له" :**إني قد استخرْتُ الله فهداني، فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله".**

فأسلم رضي الله عنه، وهو لم يبلغ الحُلم بعد، لكنه بلغ من صفاء القلب ونقاء السريرة ما لم يبلغه كثير من الرجال. وكُتب اسمه في صحائف السابقين الأولين، ليكون ثاني من آمن من أهل بيت النبوة، بعد خديجة رضي الله عنها، وأول من أسلم من الصبيان.

ولم يُعلَن إسلامه في ذلك الحين، ولم يعلم أبو طالب، لكنه ثبت وثاق الإيمان في قلبه، ومضى في طريق الحق لا يرجو مالًا ولا جاها، ولا يطلب ذكرًا ولا مجدًا... وإنما وجد المجد كله في **سجدته الأولى**، فاستراح قلبه، وسكنت روحه، وابتدأ مشواره في مدارج العظمة. وقد قال الله تعالى**{:وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ]** {الطور: ٢١]،

فكان عليّ من أهل بيتٍ اجتمع فيه النور والإيمان، وعاش في ظلال النبوة، وتربّى في حضن الرسالة، حتى غدا من أعمدة الإسلام وأركان الأمة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- أن الفطرة السليمة إذا لم تفسدها الجاهلية كانت مهيأة لتلقي النور، كما كان حال عليّ رضي الله عنه، فآمن دون حاجة إلى معجزة أو جدال، لأنه نشأ في بيت النبوة بعيدًا عن الشرك.

- أن الله سبحانه يهيّئ قلوبًا خاصة لتكون أوعية للوحي والنور، وقد قدّر لعليّ رضي الله عنه أن يُولد في الكعبة، وينشأ في بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فكان من السابقين للإيمان بإرادة الله وتدبيره.

- أن الإيمان الحق ليس مربوطًا بالسنّ أو الجاه، بل منة من الله على من زكّى قلبه، فقد آمن عليّ وهو لم يبلغ الحلم، وكان من السابقين الأولين، وهذه سُنّة ربانية في اصطفاء القلوب.

- أن الرسالة الإلهية لا تحتاج إلى وقت طويل لإقناع من كان قلبه على الفطرة، فقد آمن عليّ رضي الله عنه بعد ليل واحد من التأمل، وصدّق بالدعوة التي لم يُعرضها عليه أحد من قبل.

- أن من دلائل النبوة صدق الداعي، وهيئة العبادة، وأثرها على من يشهدها، فقد رأى عليّ خشوع النبي صلى الله عليه وسلم وخديجة في الصلاة، فدخل النور إلى قلبه قبل أن يُنطق بالحجة.

الفوائد الفقهية:

- أن الصبيّ إذا بلغ سنّ التمييز وفهم التوحيد جاز له الإسلام، ويُثاب عليه، كما أسلم عليّ رضي الله عنه وهو دون الحلم، ومع ذلك كان من السابقين بالإجماع.

- أن من أدلة قبول العمل السرّ في الإسلام أن عليًّا رضي الله عنه أخفى إيمانه في البداية حفظًا للدعوة، وهذا يُشرّع الكتمان عند الخوف على النفس أو الدين في مراحل الدعوة الأولى.

- أن الإسلام لا يُفرض بالإكراه، ولا بالتعجل، بل يُعرض بالرفق واللين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لعليّ: "إن لم تسلم، فاكتم الأمر"، وهو أصل في التدرج والدعوة بالحكمة.

- جواز الاستئناس برأي وليّ الأمر للصغير إذا تعلق الأمر بتحول كبير في الدين، بدليل قول عليّ: "حتى أستأمر أبا طالب"، وهذا مما يدل على منزلة الأبوين وحقهم في المشورة.

- أن سبق الصحبة والمكانة في النشأة لا يعفي الإنسان من اتخاذ القرار عن علم وبصيرة، فعليّ رضي الله عنه مع قربه من النبي صلى الله عليه وسلم لم يُسلم إلا بعد أن استخار الله، فكان من المؤمنين عن يقين لا تقليد.

الفوائد الأخلاقية:

- أن صفاء النشأة، والعيش في بيئة طاهرة، يسهمان في بناء الشخصية الإيمانية، كما نشأ عليّ في بيت النبي صلى الله عليه وسلم، بعيدًا عن رجس الأصنام وأخلاق الجاهلية.

- أن الحياء والصدق والذكاء تظهر على ملامح الطفل الصالح من صغره، وقد كان عليّ رضي الله عنه نقيّ الجنان، ذكيّ الفطرة، حتى تأثّر بالمشهد الإيماني دون وعظ أو تأنيب.

- أن الكبار قد يصنعون العظماء من خلال رعايتهم وتربيتهم، وقد رعى النبي صلى الله عليه وسلم عليًا منذ صغره، فربّاه بخلق النبوة، حتى صار من رجال الإسلام الكبار.

- أن التواضع في الاستجابة للدعوة، وقَبول الحق من أول وهلة، خلق كريم، وسبب في الرفعة، وقد ظهر في عليّ رضي الله عنه الذي لم يتكبر أو يستنكف عن اتباع الحق رغم صغر سنه.

- أن من علامات العظمة الإيمانية أن لا يُشترط لها شهرة ولا تصدر، فعليّ رضي الله عنه آمن سرًا، ولم يكن يطلب مجدًا أو علنًا، بل غاية ما أراده هو وجه الله والصدق في الطاعة.

المخالفات الواقعية:

- ضعف التربية الإيمانية اليوم، وترك الأولاد نهبًا لوسائل الفساد، بخلاف تربية النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ، حيث ربّاه على العفاف، والصدق، والحياء، فكان قلبه نقيًّا مستعدًا للإيمان.

- اعتقاد بعض الناس أن الصغار لا يُؤخذ برأيهم أو لا قيمة لاختيارهم، بينما أثبتت سيرة عليّ رضي الله عنه أن الصبي إذا نشأ على الفطرة السليمة كان أسبق إلى الحق من كثير من الرجال.

- تفريط كثير من الناس في الأمانة التربوية، فلا يحرصون على من يتولى تربية أبنائهم، بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخذ عليًا من بيت عمّه ليربيه تربية إيمانية راشدة.

- الجرأة المذمومة في بعض النشء على الدين والعبادات، وعدم توقيرهم للصلاة والمساجد، بينما كان عليّ رضي الله عنه يرى أول صلاة فأثرت في كيانه، وأسلم بسبب مشهد سجود.

- ما تروجه بعض الفرق الضالة من تشويش على فضل الصحابة والطعن في السابقين، في محاولة لتشويه فضل عليّ رضي الله عنه وادعاء احتكاره، وهم بذلك يخالفون ما ورد في القرآن والسنة من الثناء على الصحابة جميعًا، ويُحدثون فتنة بين أهل الإسلام باسم "محبة آل البيت" وهي منهم براء.

الفقرة السابعة : زيد بن حارثة... العتيق الذي باع الرق ليشتري المحبة

في صخب الجاهلية، وبين دهاليز الأسواق التي تُباع فيها الكرامات، وتُشترى الأرواح كما يُشترى المتاع، كان هناك غلام صغير اسمه **زيد** .لم يكن يعرف أن خطواته الصغيرة، التي قادته عنوة من حضن أمّه إلى قسوة الرق، إنما تسير به إلى حضنٍ آخر... أشد حنانًا، وأعمق دفئًا... حضن النبوة.

اختطفته أيدي السُّراق وهو في عمر الزهور، وشُحِن إلى أسواق الجاهلية كما تُشحَن البضائع، ليقف على منصّة الذلّ، يُنادى عليه كما يُنادى على السلع، ويباع كما تباع الأشياء التي لا تُبكي أصحابها إذا افترقوا عنها.

ابتاعه **حكيم بن حزام** لعمّته **خديجة بنت خويلد**، فوهبته إلى **محمد بن عبد الله** صلى الله عليه وسلم، وكان النبي آنذاك لم يُبعث بعد، لكنّه كان يحمل في قلبه نبوءة الرحمة، ويُفيض على من حوله من أنوار الرفق، ما يجعل حتى العبيد أحرارًا في كنفه.

دخل زيد بيت محمد صلى الله عليه وسلم عبدًا، لكنه لم يعش فيه لحظةً واحدةً كالعبيد، بل عاش كما يعيش الأبناء في حضن آبائهم، وكما يذوق الأيتام حنان من كُتب لهم أن يجدوا في غير آبائهم بديلًا فيه من الرحمة ما يفوق كل نسب.

وذات مساء، رآه النبي صلى الله عليه وسلم يتأمّل السماء ودموع الشوق تتساقط على خديه، فاقترب منه، واحتضنه، ومسح دموعه بكفّه المباركة، وقال له في كلمات لا تُشترى بمال:"**أما ترضى أن أكون لك أبًا وتكون لي ولدًا؟**" فارتسمت على وجه زيد أول ابتسامة صادقة بعد طول فقد، وكأن قلبه سمع لأول مرة همس المحبة الخالصة، فذاب فيها، وباع عبوديته بثمنٍ واحد: أن يكون قريبًا من هذا الرجل العظيم.

ومضت الأيام، وجاء إلى مكة رجالٌ من قبيلته يبحثون عنه، حتى عرفوه، وفرحوا لرؤيته، وكادوا يطيرون به شوقًا إلى حضن أمه، فجاؤوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقالوا له في رجاء" :**هذا ولدنا، فخذ ما شئت من المال، وفكّ لنا أسره**".

فنظر إليهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بشرفٍ لا تصنعه مجالس السادة ولا مقامات العزّ الدنيوي:
"ادعوه، فإن اختاركم فهو لكم، ولا آخذ منكم شيئًا، وإن اختارني، فما كنت لأمنعه".

وقف زيد أمام أهله، بين دمِه ونبضه، وبين محبته ورحمته... فأدار وجهه إليهم، ثم عاد بقلبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال كلماتٍ خلدها التاريخ" **:والله، ما أنا بمفارقه أبدًا، هو فيّ كلّ أهل، وما رأيت منه إلا خيرًا".**

فوقف النبي صلى الله عليه وسلم في صحن الكعبة، يُعلن أمام الملأ موقفًا لم يُسبق إليه" **:اشهدوا أن زيدًا ابني، أرثه ويرثني".**

فصار يُعرف بين الناس بـ**زيد بن محمد**، بعد أن كان يُعرف بزيد بن حارثة... حتى نزل الوحي في قوله تعالى: **﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾**]الأحزاب: ٥[،

فعاد إلى اسمه الأول، لكنه لم يفارق قلب النبي صلى الله عليه وسلم أبدًا، وكان يُلقّب بـ**الحِبّ**، أي: المحبوب، وكان يُقال عنه :**حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم**.

ولما أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالدعوة، لم يتخلّف زيد، بل كان من السابقين إلى الإسلام، وممن تحملوا أعباء المرحلة الأولى بثبات الرجال، وإن كان بالأمس عبدًا.

ثم كانت له المواقف تلو المواقف، حتى بلغ من المحبة والقرب أن جعله النبي صلى الله عليه وسلم قائدًا لجيش المسلمين في غزوة مؤتة، ورفع اسمه فوق رايات المجد، وقال للناس"**:إن قُتل زيد فجعفر، فإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة] "...**رواه البخاري.[

وفعلاً... مضى زيد، وارتقى شهيدًا، يقود الراية بيدٍ، ويمسك بالإيمان بالقلب، ويمضي إلى الله بنفسٍ راضية، ليكون أول أمير في الإسلام يُقتل تحت راية الجهاد.

لقد كان عبدًا في أعين الناس، لكنه كان حرًّا في قلب محمد صلى الله عليه وسلم، بل كان حرًّا عند الله قبل أن يخلقه، وأحبّ إلى السماء من كثيرٍ من أحرار الأرض

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية:

- محبة النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ليست عاطفة بشرية فقط، بل هي من أنوار الرسالة التي يغمر الله بها من اختصهم، وهذه المحبة من دلائل نبوته وصدق رسالته.

- الاصطفاء الإلهي لا يُقاس بالمظاهر، فالله يصطفي من يشاء من عباده، وقد يصطفي عبدًا رقّ في أعين الناس، لكنه كريم عند الله، كما وقع مع زيد رضي الله عنه.

- لا تعارض بين كون الإنسان عبدًا في الظاهر وكونه حرًّا عند الله، فإن العبودية لا تُنقص من كرامة المؤمن شيئًا، ما دام قد تحرر قلبه بالإيمان.

- من دلائل النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُفيض بالرحمة على من حوله قبل البعثة، وهذه الرحمة هي صفة لازمة له حتى قبل الوحي، وهذا يدل على إعداد إلهي له.

- الشريعة الإسلامية راعت حفظ الأنساب، ولهذا جاء تصحيح نسبة زيد في قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾، مما يدل على عدل الإسلام وتنزيهه عن الهوى والعاطفة المجرّدة.

- النسب في الإسلام لا يُغيّر مكانة العبد عند الله، فالمكانة عند الله تُنال بالإيمان والعمل الصالح لا بالحسب والنسب.

فوائد فقهية:

- لا يجوز نسبة الشخص إلى غير أبيه ولو من باب المحبة أو التبني، وقد نسخ الإسلام عادة التبني من حيث النسب والاسم، وأبقى على معاني الرحمة والرعاية.

- الهبة جائزة من غير وليّ العبد إذا كانت المرأة تملك العبد وحدها، كما وهبت خديجة زيدًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على أن المرأة إذا كانت مالكة كاملة فلها أن تتصرّف بالهبة.

- الإسلام لم يفرض تحرير العبيد دفعة واحدة، بل عالج الأمر بالتدريج، فحرر القلوب أولًا قبل الرقاب، حتى إذا زال الرق، لم يبق في النفوس منه أثر.

- خيار التخيير بين البقاء عند المولى أو الرجوع إلى أهله يدل على أن الإسلام ينظر إلى العبد كإنسان كامل الأهلية في اتخاذ القرار المصيري في حياته.

- من وَلِي أمر عبد أو يتيم أو صغير، يجب عليه أن يعرض عليه خير الأمرين وأقسطهما، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع زيد، وهذا من فقه العدل في الإسلام.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- في محبة النبي صلى الله عليه وسلم لزيد، وتقديره له، أعظم درس في أن الأخلاق لا تبنى على اللون ولا النسب ولا المال، بل على المودة والعدل والوفاء.

- حسن العشرة وحفاوة المعاملة من النبي صلى الله عليه وسلم جعلت زيدًا يختار البقاء معه على الرجوع لأهله، وهذا أعظم برهان على أن القلوب تُملك بالإحسان لا بالقرابة فقط.

- الرفق بالضعفاء وتطييب خواطرهم ومواساتهم في لحظات الحزن، كما مسح النبي دموع زيد، من أعظم الخصال التربوية التي تبني الإنسان وتحرره من جراحه.

- من أعظم صور الوفاء أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينسَ زيدًا حتى بعد وفاته، وظل يُلقّب بـ"الحِبّ"، وهذا تعليم للأمة بحفظ الجميل والوفاء لأصحاب الفضل.

- القيادة في الإسلام تُبنى على الكفاءة والثقة، لا على النسب أو الحرية أو المكانة الاجتماعية، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم زيدًا أميرًا على الجيش، مع أنه كان عبدًا بالأمس.

فوائد دعوية وسلوكية:

- الإسلام يرفع المهضومين والمظلومين في الجاهلية إلى مواقع القيادة والعز، فيجب على الدعاة أن يُحسنوا الظن بالمستضعفين، ويهيّئوهم للنهوض.

- المواقف الدعوية العظيمة قد تصنعها لمسة رحمة أو كلمة طيبة، كما كانت عبارة: "أما ترضى أن أكون لك أبًا..." مفتاحًا لتحول زيد، والداعية الناجح هو من يلتقط هذه اللحظات.

- من معالم القيادة النبوية أنها لا تعتمد على التملّك بل على الإقناع، فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطى زيدًا حرية الاختيار، رغم أنه كان عبده، وهذا فقه دعوي عظيم.

- الصدق في الحب والبذل هو ما يصنع أتباعًا ثابتين على الطريق، كما ثبت زيد، لا بالكلمات المجردة، بل بالمواقف المخلصة.

مخالفات الواقع:

- اليوم تُباع الكرامة في أسواق المنافع، ويُستعبد الناس بالشهوات، ولا تجد من يحرص على تحرير النفوس بالإيمان كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

- ما زالت بعض القلوب تُقيّم الناس بحسب ألوانهم أو أنسابهم أو أموالهم، وتنسى أن معيار الكرامة عند الله هو التقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

- تُقدَّم المناصب اليوم لأهل الوجاهات لا لأهل الكفاءة، بينما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة لعبدٍ معتوق لأنه أهل لها، وهذا من أعظم الخلل في الواقع السياسي والدعوي.

- كثير من الناس يُربّون أولادهم أو من تحت أيديهم بالقسوة، ويعتبرون ذلك رجولة، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي بالحب والرفق، فملك بذلك القلوب والعقول.

- تنتشر اليوم دعوات مغلوطة تنسب الأولاد إلى غير آبائهم بدعوى التبني أو الرحمة أو المصلحة، مخالفين بذلك صريح القرآن، بدعوى التطور الإنساني، وهذا من أعظم الفساد العقدي.

- بعض الفرق المنحرفة تنشر شعارات الحرية الزائفة وتدعو إلى تحرير الإنسان من الدين، بينما الحرية الحقيقية في الإسلام هي تحرر القلب من عبودية الخلق، والتذلل لله وحده.

- كثرت الفرق التي تسوّق لمبادئ ظاهرها الرحمة وباطنها تخريب، تزعم نصرة المستضعفين، لكنها لا تقتدي بهدي النبي صلى الله عليه وسلم في تحرير النفوس وتزكيتها، بل تُضلهم عن سواء السبيل.

الفقرة الثامنة حين ارتفعت تكبيرة الجماعة الأولى... البداية الخاشعة في شعاب مكة

في عالمٍ يضجُّ بالجاهلية، وتحت سماءٍ لم تعتد أن ترى وجوهًا ساجدة لربّها، شقّ صوت التكبير سكون شعاب مكة...

لم يكن صوتًا عاليًا، لكنه كان أعظم من جلبة قريش، وأرسخ من صدى الوثن.

كانت تلك اللحظة أشبه ما تكون بإشراقة فجر جديد على الأرض، لحظة خرجت فيها الصلاة من خزائن السماء إلى قلوب البشر.

وقف الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، يرفع بصره إلى السماء، ويخفضه ساجدًا لربه، يناجيه بكلمات لم تعرفها الأصنام، ويُصلي صلاةً لم يشهد لها التاريخ مثيلاً... صلاة الوحي، وصلاة الروح، وصلاة الحبّ الخالص لرب العالمين.

لم تكن هناك قبّة، ولا محراب، ولا أذان، ولا صفوفٌ من المصلين،
ولكن كان هناك نبيٌّ **أحبّ الله**، وشابٌّ **صدق الله**، وغلامٌ **آثر الله ورسوله**،
فكان أول من صفّ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم :**علي بن أبي طالب رضي الله عنه**، ابن عمه وربيبه، فتى الطهارة، الراكع الأول بعد خديجة من هذه الأمة،
ثم زيد بن حارثة، العتيق المحبّ، الذي اختار محمدًا صلى الله عليه وسلم على أبيه وعشيرته، فكان له الابن، والحبيب، والتابع الصادق.

فصلّى بهم النبي صلى الله عليه وسلم في شعاب مكة أول صلاة جماعة، في أول مساجد الأرض التي عُبد الله فيها بالتوحيد بعد البعثة...

لم تكن مئذنة تؤذن، ولكن الإيمان هو الذي أذّن في القلوب.

لم يكن خطيبٌ ينادي، ولكن جبريل قد نزل من علياء السماء مؤيّدًا للصادق الأمين.

وقد أخرج الإمام أحمد عن زيد بن حارثة":أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى شعبًا من شعاب مكة، يصلي فيه، فجعل عليٌّ يختلف إليه، فيصلي معه سرًّا، فإذا أصبح مشيا إلى البيت) ".السند فيه ضعف، لكن يشهد له عموم ما في السيرة.(

وبينما كان هذا المشهد النوراني يجري في خفاء، جاء **الصدّيق أبو بكر**، فكان كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم" :**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر، ما تردد ساعة".**رواه ابن ماجه وصححه الألباني[

فما إن أسلم حتى حمل همّ الدعوة، ودعا عثمان بن عفان، والزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، فأسلموا جميعًا على يديه، وكانوا من العشرة المبشرين بالجنة!

وكانوا يتسلّلون في لحظات خفية إلى شعاب مكة، يبتعدون عن أبصار قريش، ويتجهون إلى وجهة واحدة :**وجه الله.**

يقيمون الصلاة جماعة وهم مطاردون، يركعون تحت تهديد السيوف، يسجدون على حجارة الأرض لا على فرش ناعمة، ويكتمون البكاء خوفًا من أن يهتدي العدو ببكائهم إلى مكانهم، لكنّ الله كان معهم.

هكذا وُلدت صلاة الجماعة في الإسلام:

لا تحت قبّة فارهة، بل تحت نجومٍ شاهدة لا على سجاد فاخر، بل على أرضٍ قدّستها دموعُ العابدين

لا بالأمان والطمأنينة، بل بالخوف والتوجس واليقين الراسخ لا بكثرة العدد، بل بحرارة القلوب ونقاء الأرواح

فكانت هي النواة الأولى لأمة **ستركع جماعة، وتسجد جماعة، وتُقبِل على الله جماعة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.**﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الحج: ٤١[﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾]التوبة: ٧١[

ومنذ ذلك اليوم... لم تنقطع الصلاة جماعة عن هذه الأمة، وكل ركعة تُقام في مسجد، وكل صفٍّ يصطفّ خلف إمام، إنما هو امتدادٌ لتلك اللحظة العظيمة التي كبرت فيها الجماعة الأولى في شعاب مكة...

...ملحوظة الصلاة التي كانوا يصلونها قبل الاسراء والمعراج ركعتين في الصباح وركعتين في المساء قال تعالى (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا.(

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أول ما نزل من أحكام التعبد في الإسلام كان الصلاة، مما يدل على عِظَم شأنها وعلو منزلتها عند الله، وأنها مفتاح العلاقة بين العبد وربه منذ لحظة البعثة.

- ارتباط الصلاة بالخشوع والإيمان في أصعب ظروف الضعف والمطاردة دليل على أن العبودية لله لا تحتاج ظروفًا مثالية، بل تحتاج قلبًا متصلًا بالسماء.

- نُصرة الله للمؤمنين في أشدّ حالات الضعف والخفاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، تتجلّى في هذا المشهد الخاشع الذي تفتّحت فيه بذور النور تحت ظلال الخوف.

- تكليف الله لأنبيائه بالصلاة قبل فرضها على الأمة يدل على أن الصلاة ليست مجرّد تكليف شرعي، بل هي صِلَة روحية بين النبي وربه، ومنه تتفرّع كل الطاعات.

- اصطفاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليكونوا أول من ركع وسجد معه، دليل على أن الله اختار لأعظم مهمة من هم أهلها، ممن زكّاهم في قلوبهم قبل أن يزكّيهم في أعمالهم.

- الصلاة التي شرعها الله قبل الإسراء والمعراج، وإن كانت ذات عدد محدود، إلا أنها كانت كافية لتزكية النفوس وبناء الروح، وهذا يدل على أن العبادة جوهرها الإخلاص لا كثرة الصور.

فوائد فقهية:

- صلاة الجماعة شُرعت في أوائل الدعوة، مما يدل على أن الجماعة مقصد شرعي أصيل، لا يُغني عنه الاجتهاد الفردي مهما بلغ.

- لا يُشترط المسجد المعماري في انعقاد الجماعة، فحيثما صُفّت الأقدام وقامت النية، فذلك مسجد تُقام فيه شعيرة الإسلام، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في شعاب مكة.

- قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، كان المسلمون يُصلون ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل الغروب، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

- تثبت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي قبل البعثة الفريضة المعروفة بعد ذلك، ولكن وفق وحي سابق محدود، مما يدل على مراحل التشريع الحكيم.

- لا يُشترط في الجماعة الإشهار أو الإعلان، بل يجوز إقامتها سرًّا عند الحاجة، كما فعل الصحابة في مكة، ما دام شرط الجماعة متحققًا، وهذا أصل فقهي في الرخص.وهذا يكون في دول الكفر التي يخشى فيها المسلمون على انفسهم ان هم اعلنوا ذلك

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الإخلاص في العبادة يُعلّم الإنسان أن يبذل جهده الكامل ولو لم يرَ النتائج الفورية، فالصلاة التي بدأت في الخفاء انتشرت إلى أقطار الأرض.

- تربية الصحابة في المرحلة المكية كانت تربية إيمانية قلبية خالصة، يظهر فيها أثر القائد الرباني الذي يزرع الصلاة في الأرواح لا في الجدران.

- الحرص على العبادة مع الخوف والمطاردة درسٌ في التضحية والثبات، ويعلّم الأمة أن المؤمن لا يُؤخّر حق الله مهما كانت التحديات.

- الصحبة الصالحة تظهر في مثل هذه المشاهد؛ فكان علي وزيد وأبو بكر يتعاقبون على الصلاة خلف النبي صلى الله عليه وسلم، في صورة راقية من التآلف على الطاعة.

- اجتمعت في أول جماعة بمكة صفات عظيمة: الحب، الإخلاص، التضحية، المبادرة، الثبات... وكلها ركائز لا بدّ أن تُبنى عليها الجماعة المسلمة.

فوائد دعوية وسلوكية:

- من سنن الدعوة أن تبدأ بخاصة الخاصة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ بأفراد معدودين، ولكنهم كانوا نواة بناء الأمة، وهذا أصل مهم في تخطيط الدعوة.

- القدوة العملية أولى من كثرة الكلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يجلس ليشرح لهم أهمية الصلاة، بل أقامها أمامهم فأُشربت قلوبهم معناها.

- الاستمرار في العبادة ولو في الخفاء هو أعظم وسيلة لحفظ الإيمان في المراحل الصعبة من حياة الداعية، وهو سلاح روحي في وجه الابتلاءات.

- ترتيب الفضل في الدعوة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر "ما تردد ساعة"، يعلّم الدعاة أن يتعرّفوا على أهل المبادرة والسبق فيشدّوا بهم عضدهم.

- الجماعة الأولى في مكة لم تكن تملك أدوات القوة الظاهرة، لكنها كانت أقوى من قريش كلها، لأن القلب إذا سجد لله، صغُرَ ما سواه.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس لا يُقيمون الصلاة إلا في المساجد المكيّفة، ويتركون الجماعة في العمل والسفر، بينما الجماعة الأولى صلّت بين الصخور وتحت التهديد.

- أصبحت الصلاة اليوم عادة لا روح فيها عند كثير من الناس، بينما كانت أول صلاة في الإسلام تُمزج بالدمع والخوف والحبّ، لأنها كانت لقاءً مع الله.

- يستخفّ البعض بصلاة الجماعة، ويجعلها ثانوية، مع أنها أول عبادة جماعية فُرضت على الأمة، وشرّف الله بها صفوة خلقه في بدايات الإسلام.

- هناك فرق ضالة تُقلّل من شأن الجماعة وتدعو إلى عزلة فردية زائفة باسم "الروحانية"، وتنسى أن الإسلام أُسس على الجماعة والتعاون، لا على التفرد والانطواء.

- يظهر في زماننا من يزعم أن الدين لا يُقام إلا إذا تهيأت له البيئة والسياسة، بينما سُنة النبي صلى الله عليه وسلم تُبيّن أن العبودية تبدأ بالقلب، ولو في شعاب مكة.

- بعض الفرق المحدثة تصرف الأمة عن فقه التدرج والبناء الروحي، فتستعجل التمكين قبل التكوين، بينما بُنيت الجماعة في مكة على عبادة خفية وصبرٍ طويل قبل أي مواجهة.

- كثرت اليوم الدعوات لتجاوز الصلاة أو إفراغها من معناها باسم "الروحانية المعاصرة"، وهي دعوات من فرق تزيّنت بالكلام الباطني والهوى، فابتعدت عن روح الصلاة الحقّة التي بدأت في الشعاب

الفقرة التاسعة :دار الأرقم... البيت الصغير الذي هزَّ أركان الجاهلية

في سفح جبل الصفا، بين بيوتات مكة العتيقة التي تزدحم فيها الخطى، وتتعانق جدرانها من شدة التقارب، كان هناك بيت صغير، لا يُلفت النظر، ولا يطرق القلوب بتصميم فخم أو زينة مبهرة، بيت متواضع في ظاهره، لكنه كان يخفي في جدرانه أعظم سرٍّ نزل من السماء... كان بيتًا ينضح بالنور، رغم أنه في وسط الظلمات.

إنه دار الأرقم بن أبي الأرقم، الفتى الذي سبق سنَّه فكرُه، وغلب عمرَه إيمانه، ذلك المخزومي الشاب، الذي ما كان من وجهاء قريش، ولا من أصحاب النفوذ، لكن الله شرح صدره للحق، فكان من أوائل من أسلم، وهو لم يبلغ بعد الثامنة عشرة، فصار اسمه محفورًا في ذاكرة النبوة إلى الأبد، ليس بكثرة ما روى أو غزا، ولكن بعظم ما قدّم.

حين اشتد أذى قريش، وضاقت الأرض بالدعوة، واحتاج المؤمنون إلى مأوى لا تترصده العيون، ولا تبلغه الآذان، قام الأرقم رضي الله عنه في شجاعة السابقين، وقال بلسان حاله: "بيتي لله، ورسوله، ودعوته". فكانت دار الأرقم أول مقر سري للدعوة الإسلامية، أول حضن آمن يجتمع فيه الموحدون، وأول قاعة لتكوين الإنسان القرآني الجديد.

في تلك الدار جلس النبي محمد صلى الله عليه وسلم، المعلم الأول، والمربّي الأعظم، يسكب من قلبه نور الوحي، ويغرس في قلوب تلامذته جذور التوحيد، ويصوغ منهم نواةً صلبة تحمل الحق، ولا تفتّ في عضدها الشدائد.

دخلوا إلى الدار متخفّين، لا يحملون سلاحًا، لكن أرواحهم كانت مشتعلة بعزيمة الأنبياء. هناك كان أبو بكر، وعلي، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وخباب بن الأرت، وبلال، وعمار، وسمية، وخديجة، وأم عمّار ...رجال ونساء ليس في يدهم إلا صدق الإيمان، وفي قلوبهم شوق إلى جنان الرحمن.

ثلاث سنوات كاملة ظل النبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّم في دار الأرقم، لا تنقطع أنفاسه تربية وتعليمًا، يفتح صدورهم لآيات القرآن، ويُهذب نفوسهم بمكارم الأخلاق، حتى صارت تلك الدار مدرسةً ربانيةً، خرج منها جيلٌ تغيّر به وجه الزمان، وارتفعت على أكتافه راية التوحيد.

في تلك الدار نزل الوحي، قال تعالى:﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾]الأنعام: ٣٣ [وقال :﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾]المعارج: ٥[، فنزلت هذه الآيات بردًا وسلامًا على قلوب أولئك الذين يُعدّون للمرحلة الأصعب.

ثم جاء يومٌ عظيم... أسلم فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فخرج المسلمون من دار الأرقم، وخرج معهم الإسلام إلى العلن... وارتفعت راية الحق في وضح النهار، وولّى زمن السرية والخوف.

لقد كانت دار الأرقم معلمًا لا يُنسى في سيرة الدعوة، فيها صيغت النفوس التي ستحمل الرسالة، وفيها عُجن الإيمان باليقين، وكان لها شرف التأسيس والبداية... إنها ليست مجرد بيت، بل أكاديمية النور، ومصنع الإيمان، وبذرة الحضارة التي غيّرت التاريخ.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية:

- اختيار الله لبيت الأرقم ليكون أول مركز للدعوة السرية، مع أنه بيت صغير مغمور، دليل على أن العبرة ليست بالمظاهر، بل بما في القلوب من إخلاص ويقين، وهذا من دلائل التوحيد.

- إن الله يفتح على عباده الصادقين أبواب الخدمة لدينه ولو لم يكونوا من أهل الجاه والمكانة، كما اصطفى فتى لم يبلغ الثامنة عشرة ليكون بيته مهبط النور، وهذا يؤكّد أن الله يرفع من يشاء بطاعته لا بحسبه ونسبه.

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يُربّي أصحابه على التوحيد في أشد الظروف، مما يدل على أن التوحيد هو الأصل الذي تُبنى عليه الأمة، وأن أي دعوة لا تبدأ من هذا الأصل، فليست على منهج النبوة.

- في بقاء الوحي نازلًا في تلك الدار ثلاث سنوات، بيان أن بناء العقيدة يحتاج إلى وقت وصبر وتكرار، وليس مجرد دروس عابرة، وهذا أصل في المنهج النبوي في التربية.

- نزول آيات مثل ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾، و﴿فَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ في دار الأرقم، دليل على أن التسديد الرباني والتثبيت الإلهي يصاحب من صدق مع الله، وإن قلّ عدده وضعُف مظهره.

فوائد فقهية:

- إباحة اتخاذ الأماكن الخاصة كمقرات للدعوة والتعليم إذا تعذر الإعلان، ما دام الغرض فيها مشروعًا، وقد يكون ذلك واجبًا لحفظ الدين وأهله في حال الخوف.

- من السنة التدرج في الدعوة والتعليم، فقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنوات يزرع العقيدة سرًا، ثم انتقل إلى العلن، وهذا يدل على أن المراحل الشرعية لا تُقفز، بل تُبنى بتأنٍ وحكمة.

- فضل من هيّأ مكانًا للدعوة – كالأرقم – عظيم، ولو لم يكن من كبار العلماء أو المجاهدين، وهذا أصل في فضل خدمة الدين بجميع الوسائل الممكنة، فكل بحسب طاقته.

- الاجتماع على التعليم في مكان خاص يُعد من السنن العملية في طلب العلم والدعوة، ما دام خاليًا من البدع والمحدثات، ويُراعى فيه العلم المأخوذ عن الوحي، كما في دار الأرقم.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- من دلائل صدق الأرقم أنه قدّم بيته دون تردد، في وقت كان الناس فيه يتوارون بإيمانهم، وهذا يُعلّمنا أن التضحية لا تحتاج إلى سنٍّ أو مالٍ، بل إلى قلب صادق.

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يغرس العقيدة في القلوب ويُهذب الأخلاق في الوقت نفسه، مما يدل على تكامل التربية النبوية، فلا يكفي التعليم بلا تهذيب، ولا التزكية بلا علم.

- التواضع الذي عاشه الصحابة في تلك الدار، بعيدًا عن المظاهر والترف، أسّس لجيلٍ لا تغرّه الدنيا، وهذا تعليم للأمة بأن البناء الحقيقي للرجال لا يتم في بيئة الدعة والترف.

- تربية الصحابة على الثبات في السرّ، قبل العلن، صنعت فيهم الصدق مع الله، وهذا هو سرّ قوتهم لاحقًا، فالله لا يرفع إلا من ثبت على الحق حين يخفى لا حين يُمدَح.

- الصبر ثلاث سنوات في مقر صغير متواضع دليل على أن التربية الجادة تتطلب عزلة عن ضجيج المجتمع أحيانًا، لصياغة النفس صياغة متينة، ثم الخروج إلى الناس بنورٍ قويّ.

فوائد دعوية وسلوكية:

- الدعوة تبدأ من الداخل لا من الخارج، ومن القلوب لا من المنابر، وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم في دار صغيرة، لا في سوق ولا ميدان، ومع ذلك خرج منها جيل التغيير.

- مركزية المعلم في صناعة الأمة لا تُغني عنها أي وسيلة تقنية أو إعلامية، فكان النبي صلى الله عليه وسلم هو قلب دار الأرقم، يعلّم ويزكّي ويُعيد صياغة القلوب والوعي.

- من أعظم ما في دار الأرقم أن مَن خرج منها لم يكونوا دعاة بالكلام، بل شهدت لهم المواقف، وكل من خرج من تلك المدرسة كان صاحب أثر في بناء الدعوة.

- تعلّم المسلمون في تلك الدار الانضباط، والسرية، والشجاعة، وحُسن التلقي، وملازمة المعلم، وهذه الصفات هي مفاتيح النجاح في أي عمل دعوي ناجح.

- تهيئة المقر الآمن للدعوة من أولى خطوات نجاحها، فإن قريش لم تكن ترى في دار الأرقم خطرًا، لكنها كانت تنضج فيه ثورة فكرية عقائدية أخرجت العالم من ظلمات إلى نور.

مخالفات الواقع:

- اليوم يُهدر كثير من الشباب أعمارهم في الجدل والانشغال بالقشور، بينما كانت دار الأرقم تشتغل بتزكية النفوس وتثبيت التوحيد، لا بالاستعراضات الفكرية الفارغة.

- في زماننا تُبنى مراكز ضخمة بلا روح، وتُقام مؤتمرات باسم الدين بلا محتوى إيماني صادق، بينما دار الأرقم كانت صغيرة لكنها مليئة بالقرآن والإخلاص.

- لا يفتقر بعض الدعاة اليوم للمكان، بل يفتقرون للروح التي تُنشئ الرجال، بخلاف دار الأرقم التي كان الأساس فيها هو النبوة والإيمان، لا عدد الحضور أو فخامة البناء.

- هناك من الفرق المنحرفة من يحتقر فقه التدرج، ويدعو إلى الصدام المبكر باسم الحماسة، ويُفسد على الناس دينهم، بينما النبي صلى الله عليه وسلم مكث ثلاث سنوات في تربية خفية بصبرٍ وتدرج.

- تظهر اليوم فرق وأفكار تُقدّم العمل الجماهيري قبل التربية الإيمانية، وتدّعي التغيير السريع، بينما سنة النبي صلى الله عليه وسلم بدأت ببناء العقيدة سرًا قبل كل شيء.

- بعض المناهج المنحرفة تعيب السرية في الدعوة، وتعتبرها ضعفًا، بينما السرية كانت ضرورة لحماية الدعوة وبنائها، وقد اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم، لا جبنًا، بل حكمةً وشرعًا.

- فرّقت بعض الفرق الناس عن العلماء والمربين الربانيين، ودعت إلى نُظُم فكرية تنظيمية تفتقر إلى روح القرآن، بينما دار الأرقم كانت مركز تربية بالوحي، لا بالتنظيمات ولا الأهواء.

الفقرة العاشرة حين أقبل الصادقون... إشراقة الإيمان في قلوب الصفوة

في قلب ظلمة الجاهلية، حين كانت مكة تضج بأنفاس الأصنام وتتماوج على ألسنة الشرك، وبين أروقة الكعبة التي غشاها دخان الوثنية، وقلوبٍ تتخبط في ليلٍ دامس من التيه والضلال... كانت هناك أرواح طاهرة تنتظر بزوغ النور، وقلوبٌ تواقة للحق، عطشى لوحيٍ من السماء يروي ظمأها ويهدي حيرتها.

وفجأة... ارتفع الصوت الأبهى، صوت محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، يملأ الوادي الصامت بكلمات لم تعهدها العرب من قبل"**:قولوا لا إله إلا الله تفلحوا."**

وكانت تلك الصرخة المباركة كالوميض الذي يشقّ سُحب الظلام، فتنبّهت لها القلوب النقية، وسارعت الصفوة من البشر إلى مصدر النور. إنهم الصادقون، السابقون، الذين قال الله تعالى فيهم :﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ **[الواقعة: ١٠-١١]**وهم الذين قال فيهم:﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ **[الأحزاب: ٢٣.]**

أول من لبّى النداء فتى من قريش، مصعب بن عمير، الغني النبيل، المدلّل في بيت أمه، صاحب الأناقة والعطر والثياب الفاخرة... لكنّ قلبه لم يُخدع ببريق الدنيا، فلما سمع آيات الله ترتل، خلع ثوب الترف، وارتدى لباس الإيمان، وسار مع المحرومين من أهل الدعوة. أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل الهجرة، فكان أول سفير للإسلام، يدخل البيوت قبل أن يطرقها المهاجرون، ويهيئ القلوب قبل أن تطأها أقدام الأنصار.

وجاء عمار بن ياسر، الفتى الهادئ، الذي لم يكن يرفع صوته، لكنه رفع راية الصبر في وجه الظلم، رأى أمه سمية تُطعن حتى الموت أمام عينيه، وأباه يُقضى عليه في حرّ الرمضاء، ومع ذلك ثبت، فكان مما قيل فيه:
"**صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**] "رواه الطبراني وغيره بإسناد حسن.[

ثم أطلّ بلال بن رباح، العبد الحبشي، الأسود اللون، النقي القلب، لم يكن له نسب يُذكر، ولا جاه يُلتفت إليه، لكنّ التوحيد رفعه حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه"**:إني سمعت دف نعليك في الجنة**] "رواه البخاري.[
ذلك الصوت الذي كان يُجلجل في جبال مكة" :**أحدٌ... أحد "!**حتى صار نغمة لا تموت، وصار بلال رمزًا للحرية حين صمتت أصوات العبيد الأخرى.

ثم جاء عبد الله بن مسعود، راعي الغنم، نحيل الجسم، خفيف الوزن، لكنه كان ثقيلًا في ميزان الله، حتى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم"**:خذوا القرآن من أربعة... منهم عبد الله بن مسعود**] "رواه البخاري.[

وفي ركبهم جاء خباب بن الأرت، المملوك الضعيف، الذي سُلِّط عليه الحديد والنار، فكان إذا كُشف ظهره قال الصحابة: "ما رأينا مثل هذا الظهر!" لكنه لم يَضعف، بل دخل على النبي صلى الله عليه وسلم يومًا يشكو شدة الأذى، فقال له الحبيب" :**قد كان من قبلكم يُؤتى بالرجل، فيُجعل في حفرة، ويُؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُشقّ باثنتين... ما يصده ذلك عن دينه**] "رواه البخاري.[
فصبر خباب، ومضى على طريق الإيمان دون أن يلتفت خلفه.

ثم انساب إلى مكة رجل من أعماق البادية، أبو ذر الغفاري، يحمل قلبًا صادقًا، وعقلاً باحثًا، لم يرضه ما عليه قومه من عبادة الأصنام، فجاء يسأل عن محمد، فلما سمع منه، أسلم في الحال، وذهب إلى قلب المسجد الحرام يُجاهر بإسلامه، فقامت عليه قريش بالضرب، وما زاده ذلك إلا صلابة.

هؤلاء وغيرهم... كانوا طليعة الفجر، رجالًا ونساءً لم ينتظروا دعوةً خاصة، ولا منصبًا، ولا مالًا... بل رأوا النور، فاتبعوه، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.
كانوا قليلي العدد، معدومي القوة، لكنهم كانوا يحملون في صدورهم إيمانًا لا تهزمه الجبال، ويقينًا يجعلهم يقولون كما قال أحدهم"**:واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته."**

لقد كانوا الشموع الأولى في ليل البشرية الطويل، بهم أضاءت الطرق، وتمهّدت السُبل، وقامت أمة لن تزول حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوحيد هو أول دعائم الإيمان، وأول ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال" *قولوا لا إله إلا الله تفلحوا*"، فالتوحيد هو مفتاح الفلاح والنجاة، وأصل كل دعوة الأنبياء.
- الإيمان الصادق يتجاوز النسب والمكانة الاجتماعية، كما ظهر في حال بلال وعبد الله بن مسعود وخباب، مما يدل على أن التفاضل عند الله يكون بالتقوى لا بالعرق أو الجاه.
- أهل الإيمان يُبتلون على قدر دينهم، وثباتهم في المحنة علامة صدقهم، كما وقع لآل ياسر وخباب، وهذا من دلائل السنة في الابتلاء.
- التقوى الصادقة تُثمر رفعة في الدنيا والآخرة، كما رأينا في مصعب بن عمير الذي أُعطي شرف السفارة قبل الهجرة، وبلال الذي بُشّر بالجنة، وعبد الله بن مسعود الذي وُصف بثقل ميزانه عند الله.
- سبق الصالحين في الإيمان يُوجب لهم القرب من الله تعالى، كما في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، فالمسارعة إلى الطاعة من صفات أولياء الله.
- الإيمان الحق لا يقبل التنازل، ولو وُضع المؤمن بين الشمس والقمر كما في مقالة النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه، فهو ثابت على الحق لا يساوم عليه.
- الله يرفع من شاء بطاعته، وينزع الجاه والعزة ممن خالف أمره، وهذا ما تكرر في أحوال السابقين الأولين، الذين لم يملكوا قوة دنيوية ولكن ملكوا القلوب والآخرة.

فوائد فقهية

- الدعوة إلى الله تبدأ بالتوحيد قبل التشريعات، كما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وهو ترتيب نبوي لا يُغفل.
- يجوز إرسال الدعاة إلى أرض لم يدخلها المسلمون بعد، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع مصعب بن عمير حين أرسله إلى المدينة قبل الهجرة، وهذا أصل في التمهيد للدعوة قبل الفتح.
- جهر المسلم بدينه في موضع الخوف من أعظم القربات، وقد فعله أبو ذر في مكة فتعرض للأذى، لكنه أثبت بذلك مشروعية إعلان الحق ولو مع الخطر إذا دعت المصلحة.
- الصبر على الأذى في سبيل الله واجب على الداعي، وقد صبر الصحابة على ألوان العذاب ولم يرخص لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالتراجع، مما يدل على وجوب التحمل في سبيل العقيدة.
- لا يُشترط في الداعية نسب ولا مكانة، بل يُنظر إلى العلم والصدق، كما اختار النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود لتعليم القرآن، رغم هيئته.
- ثبات المسلم في الفتن علامة على صحة الإيمان، ويُستفاد من حديث النبي صلى الله عليه وسلم لخباب أن الصبر سنة سابقة، لا يُرخص في تركه عند أول بلاء.

فوائد أخلاقية وتربوية

- الصدق في طلب الحق يورث الهداية، كما وقع لأبي ذر الغفاري، الذي جاء باحثًا بصدق فوفّقه الله للإسلام في أول لقاء.
- الزهد في الدنيا طريق للصدق مع الله، وقد تجلى ذلك في حال مصعب بن عمير، الذي ترك الترف ورضي بالبساطة إرضاء لله.

- الثبات وعدم التراجع من صفات الرجولة الإيمانية، وقد اجتمعت في السابقين، وهو خلق يجب أن يتربى عليه شباب اليوم.
- الإيمان يحرر العبد من ذل البشر، ويرفعه إلى مقام العزة، كما في قصة بلال، وهذا يُربي المسلم على عزة النفس ورفض الخنوع.
- التضحية من أجل الدين ليست خيارًا بل ضرورة، وقد ضرب السابقون أروع الأمثلة في بذل النفس والراحة لأجل الإسلام.
- كل من صدق في بدايته صدق في عاقبته، والصفوة الذين أسلموا في أول الأمر كانوا هم قادة الأمة بعد التمكين.
- الشجاعة الأدبية في قول الحق من صفات أصحاب الهمم العالية، كما فعل أبو ذر حين جهر بإسلامه في وجه قريش.

مخالفات الواقع

- انتشار الدعوات التي تدّعي الانتماء إلى الإسلام مع التفريط في أصل التوحيد، مما يُشبه حال المشركين الذين قالوا : *"أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ "*في رفض صريح لكلمة التوحيد.
- تهافت كثير من الناس على المظاهر والمال والجاه، وإهمالهم للجوهر والصدق، في مقابل ما فعله مصعب حين ضحى بكل ذلك من أجل الإيمان.
- ضعف الصبر في مواجهة الأذى الديني؛ فترى من يترك الصلاة أو يُفرّط في الحجاب أو يجامل في الدين لأجل وظيفة أو زواج أو رضا الناس.
- احتقار بعض الناس للفقراء والغرباء في الدعوة، وهذا مخالف لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين قدّم بلال وابن مسعود وخباب على غيرهم.
- تعلّق كثير من شباب الأمة بمشاهير لا يستحقون القدوة، وابتعادهم عن السير على نهج الصحابة الذين ضحوا بدمائهم في سبيل الله.
- جهل عدد من الناس بأصل الولاء والبراء، فترى من يُعظم رموز فرق الضلال وأصحاب الأهواء، ويطعن في أهل الحق بدعوى الاعتدال، وهم لا يعلمون أن هذه الفرق قد سماها النبي صلى الله عليه وسلم **فرقًا ضالة**، لا جماعات دعوية.
- غياب الشجاعة في قول الحق، وتغلّب مبدأ المجاملة والمداهنة على الصدع بالحق، بخلاف ما فعله أبو ذر في أول لحظة لإسلامه.

الباب الرابع: حين ارتفع صوت التوحيد في بطاح مكة

مقدمة

حين تهيّأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم لحمل أمانة البلاغ، لم تكن دعوته سرية استحياء، بل كانت مرحلة السرية **تدريبًا للقلوب وتثبيتًا للصف**، حتى إذا اشتد عود الجماعة المؤمنة، جاء الأمر الإلهي واضحًا صريحًا:
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

كانت تلك اللحظة **شروقًا للشمس** في قلب ليلٍ كثيف، فيه ترتعد قلوب المتجبرين من صوت الحق، ويتكسر صمت الأصنام تحت أقدام المصلين الموحدين. جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة، فكان أول من حمل صوته إلى بطاح مكة، يُنادي بأن لا معبود إلا الله، وأن ما يعبدون باطل لا يضر ولا ينفع.

وما إن ارتفع هذا الصوت، حتى اهتزت مكة، لا من صداه، بل من **قوة معناه**. فبدأت قريش تسلك كل طريق لوقفه: من التهديد إلى الإغراء، من التعذيب إلى المقاطعة، ومن الحرب النفسية إلى الحصار الاجتماعي.

الفقرة الأولى النداء في دار الأسرة... حين أشرق صوت النبوة في بيت العشيرة

في لحظة فاصلة من لحظات البعثة المباركة، وفي بدايات الطريق الطويل إلى النور، جاء الأمر من السماء صريحًا جليًّا :﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤.]
كانت هذه الآية بمثابة ناقوس بدء مرحلة جديدة؛ فالدعوة التي ظلت همسًا في دار الأرقم، وتربيةً للصفوة المختارة في

سراديب الإيمان، قد آن لها أن تتغلغل إلى بيت النبوة ذاته، أن تنفذ إلى صدور القوم الأقربين الذين يعرفون محمدًا صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره، ويشهدون له بالأمانة، ويثقون بصدقه، ويعلمون من أخلاقه ما لا يعلم أحد من الغرباء.

فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أن البلاغ لا يبدأ من المساجد، ولا من منابر الأسواق، بل من البيت... من العشيرة، من الوجوه التي اعتادت رؤياه، من الأرواح التي استأنست بصمته قبل أن تسمع صوته.

فدعا صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب إلى طعام أعده له عمه الحاني أبو طالب، فاجتمع في داره نحو خمس وأربعين رجلًا من وجوه قريش، فيهم أعمامه الأربعة: أبو طالب، والعباس، وحمزة، وأبو لهب، وغيرهم من أبناء العم والعمومة.

وكان الطعام يسيرًا، لا يكاد يكفي الواحد منهم، فلما وُضع بين أيديهم أكلوا وشبعوا جميعًا، وبقي كما هو لم ينقص منه شيء! فعلم من أنار الله بصيرته أن البركة ليست من الطعام، بل من قلب من أعده، ومن نور من دعا إليه.

همَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم بينهم خطيبًا، أن يقول الكلمة التي ستغيّر وجه الأرض، لكن أبا لهب -الملدوغ من نوره، المغيظ من صدقه- قاطعه بكلمات خبيثة، شوشت المجلس، وبددت السكون، فتفرّق الحاضرون قبل أن يُسمع صوت الدعوة.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف في حياته طعم اليأس، بل دعاهم مرة أخرى، وأعدّ لهم طعامًا ثانيًا، فلما اجتمعوا، وأكلوا، وقرت عيونهم بالبركة مرة أخرى، وقف صلى الله عليه وسلم، والسكينة تظلل هيبته، والنور يلوح في كلماته، وقال بصوت ملأ المكان جلالًا وصدقًا:

يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟"]رواه الطبري وغيره بإسناد حسن في سيرة ابن هشام.[

كانت الكلمات قاطعة، وكان الموقف عظيمًا... نظرات تتبادل، ووجوه تتهامس، وسكون يلف المكان... إلا صوت واحد كسر الجمود، صوت فتى لم يبلغ الحلم بعد، لكنه كان يحمل قلبًا لا تهزه العواصف، ولا ترهبه النظرات... إنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قام في حضرة الكبار وقال بملء الفم: "أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه".

فضحك القوم، وسخروا من صغر سنه، وقال بعضهم لأبي طالب: "لقد أمّرك أن تسمع لابنك وتطيعه"!

لكن الموقف قد سُجّل، والصوت قد ارتفع، والتاريخ قد بدأ يسطر فصول البلاغ الأول، فقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم على أعتاب أول مرحلة من مراحل التحدي، ورفع أول نداء في قلب العشيرة، بين قومه، وأمام أقرب الناس إليه، فكانت هذه اللحظة هي اللبنة الأولى في صرح الرسالة، وبدء الانتقال من دعوة الفرد إلى دعوة الأمة.

ومع أن الاستجابة يومئذٍ لم تكن عظيمة، ولم يسارع أحد إلى الإيمان غير علي رضي الله عنه، إلا أن تلك الليلة كانت فاصلة... إذ لم يعد الدين سرًا في الخفاء، بل بات له صوت يتردد في بيوت مكة، وهمسات تسري في المجالس، وأنظار تترقب من هذا الشاب الصادق ما سيفعله بعد ذلك.

لقد بدأ التغيير من البيت، من دار العشيرة، كما يبدأ النور من قلب الفجر، ثم لا يلبث أن يملأ الأرض.
وهكذا نادى النبي صلى الله عليه وسلم في قومه، فرفع الصوت الأول، ووضع الحجر الأول في صرح أمة ستظل إلى آخر الزمان، تنادي الناس إلى الله كما ناداهم أول مرة: ﴿قُولُوا لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا﴾.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- دعوة الأنبياء تبدأ بتوحيد الله عز وجل، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم لقومه" *قولوا لا إله إلا الله تفلحوا*"، فهذه الكلمة هي أصل الدين وأول الواجبات، ومنها يُبنى الإيمان كله.
- الإيمان الحق لا يُقاس بكثرة المستجيبين ولا بقوة الاستجابة، بل بثبات الداعية على الحق، كما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم رغم التفرق والصدود.
- النبوة لا تكون باكتساب ولا باجتهاد شخصي، بل باصطفاء من الله، وقد جاء التصريح بقوله" *وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه*"، فالدعوة وحي لا اجتهاد بشري.
- البركة في أفعال الأنبياء من دلائل صدق نبوتهم، كما ظهر في طعام النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم ينقص، وهو مما يُعرف بخرق العادة، وقد يقع كرامة أو معجزة.
- تأييد أهل الإيمان للرسل في بدايات الدعوة من أعظم ما يُرجى به القرب من الله، وقد بادر عليّ رضي الله عنه إلى النصرة في اللحظة الحرجة، فاستحق الشرف العظيم.
- الصبر على التكذيب والسخرية من صفات الأنبياء وأتباعهم، وهو من صفات المؤمنين الموحّدين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أعاد الدعوة بعد الإعراض.
- بدء التبليغ من الأقربين هو من سنن الدعوة الربانية، وقد أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم أولًا، وهو تأصيل لأهمية دعوة الأهل قبل الغريب.

فوائد فقهية

- دعوة الأقربين مقدّمة على غيرهم في ترتيب الأولويات الدعوية، لقوة تأثيرهم وقربهم، وهذا مستفاد من الأمر القرآني المباشر ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾.
- يجوز إعداد الطعام واستخدامه كوسيلة لجمع الناس وسياق الدعوة، بشرط خلوه من الإسراف والرياء، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم دون تكلف.
- يُستفاد من إعادة النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة بعد فشل المجلس الأول مشروعية تكرار الدعوة وعدم الاقتصار على الفرصة الأولى، ما دامت المصلحة راجحة.
- من المشروع عرض النصرة على المدعوّين ولو كانوا أقارب، وأن يُدعى الناس للبلاغ لا للغلبة ولا المصالح، فقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم البلاغ مقرونًا بالثواب الأخروي لا المكاسب الدنيوية.
- لا يُشترط في المؤازر للنبي أو للدين بلوغ سن معينة ما دام لديه عقل وإخلاص، فقد قُبل من علي رضي الله عنه النصرة رغم صغر سنه.
- الضحك والسخرية من الداعية ليست عذرًا للتراجع، بل تستوجب مزيدًا من الثبات، وهذا من فقه الدعوة في مراحلها الأولى.
- الاستجابة الضعيفة لا تُبطل البلاغ، بل يظل التبليغ قائمًا وإن كذّب الناس أجمعون، وهو من أصول البلاغ في الدعوة.

فوائد أخلاقية وتربوية

- من دلائل عظمة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يبدأ دعوته من فوق المنابر، بل بدأها من داره، فالقرب والصبر والموعظة أسبق من الجهر والمواجهة.
- الشجاعة الأدبية في نصرة الحق لا تُنتظر من الكبار فقط، بل يُربى عليها الصغار، وقد تجلى ذلك في موقف عليّ رضي الله عنه، فالقوة ليست في الجسد بل في اليقين.
- الصبر على إفشال المجالس الدعوية من أخلاق الأنبياء، فقد تفرّق القوم أول مرة، فلم ييأس، بل أعادهم بحكمة ولين.
- من حسن الأدب والقيادة أن يُعطى الأقارب حق البلاغ المباشر، وأن لا يُبدأ بالغريب والجار بينما البيت في غفلة.

- الدعوة لا تتطلب مؤثرات خارجية، بل يكفي فيها صدق الداعي وصفاء النية، كما تجلّى في بساطة الطعام وجلال الموقف.
- احتقار الصغير لمجرد سنه خلق مذموم، وقد وقع فيه القوم حين سخروا من عليّ رضي الله عنه، وهو مما ينبغي التحذير منه في التربية الإيمانية.
- الدعوة ليست كلمات تُقال بل بناءٌ متدرّج، وقد كان هذا الموقف لبنة في بناء الأمة، وهو يُعلمنا ألا نحتقر البداية مهما كانت ضئيلة.

مخالفات الواقع

- ضعف اهتمام كثير من الدعاة بدعوة الأسرة والأقربين، مع أن الوحي بدأ بها، فتُرى الدعوة تنتشر في وسائل الإعلام، بينما بيوت الدعاة خاوية من الهداية.
- تساهل بعض الناس في تقديم الدين لأهليهم بحجة الخصوصية أو الخوف من الخلافات العائلية، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا قومه مباشرة دون تردد.
- غلبة اليأس على بعض الدعاة بعد أول محاولة فاشلة، بخلاف سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعاد المحاولة بلا تراجع.
- كثرة من يربطون نجاح الدعوة بعدد المتابعين، بينما تُظهر القصة أن أعظم دعوة لم يستجب لها في أول مجلس إلا طفل واحد.
- السخرية من الشباب المتدينين، والطعن في قدرتهم أو وصفهم بالطفولية، كما سُخر من عليّ رضي الله عنه، وهذا خلل في فهم النضج الحقيقي المبني على الإيمان لا السن.
- كثرة من يقبلون الدين إذا جاء من الغرباء المشاهير، بينما يرفضون الموعظة من الأب أو الأخ أو القريب، وهذا عكس ما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم.
- قلة التقدير في واقعنا اليوم للبركة الربانية، وتعلق الناس بالماديات وحدها، مع أن بركة النبي صلى الله عليه وسلم ظهرت في أبسط الطعام، فاليقين مفتاح الرضا.

الفقرة الثانية الجهر بالدعوة... حين انشق ليل مكة بصوت التوحيد

مضت ثلاث سنين من عمر الدعوة، تسير الهوينى في دروب السرية، تتغلغل كالماء الزلال في أعماق النفوس، وتزهر في الظلال، بعيدًا عن أعين الطغيان. قلوب مؤمنة تلتقي على نور الوحي في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ووجوه نضرة باليقين تعتنق الحق خفيةً، لا تخشى في الله لومة لائم، وإن كانت تتوارى عن البطش والجبروت.

لكن آنَ أوان الجهر... فقد جاء أمر السماء يحمل نداء الصدع، وأي صدع! ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، أمرٌ من فوق سبع سماوات بأن يتحطم جدار الصمت، ويشق صوت الحق صميم الباطل، وأن تعلن الدعوة عن نفسها في وضح النهار، مهما عظمت التضحيات.

فخرج النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بقلبٍ ملؤه اليقين، ونفسٍ تفيض عزيمة، إلى جبل الصفا، حيث تتردد الأصوات وتُسمع النداءات. نادى قبائل قريش واحدة تلو الأخرى" :يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني عبد مناف"... نداء الصدق في زمن التزييف، نداء الرحمة في وادٍ قاسٍ لا يرحم. فاجتمع الناس، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم، فقد عهدوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا ينادي إلا في أمر عظيم.

فلما سكنت الأصوات، ونصت الآذان، قال صلى الله عليه وسلم بحكمة الناصح، وصراحة الداعية، وعيناه تدوران في وجوه القوم":**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟**"قالوا جميعًا" :**ما جربنا عليك كذبًا قط** "!فقال صلى الله عليه وسلم، وقد تجلّت في كلماته رحمة النبي، وحرقة الداعية، وخوف الحبيب على أحبته: "**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**] ".رواه البخاري.[

وهنا انبعث صوت السخرية، لا من بعيد، بل من أقرب الناس نسبًا: من عمه أبي لهب، فقال متجهمًا مستهزئًا: "**تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟**"!

فرد الله عليه من فوق سبع سماوات بردٍ قاطعٍ خالد :﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]

سورة نزلت كحد السيف، لم تترك لعمه عذرًا ولا مهربًا، وجعلته مضربًا للمثل في الخزي، يتلى اسمه ذمًّا في كل صلاة، ويتردد في المحاريب والمساجد إلى قيام الساعة.

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد الدعوة همسًا في الزوايا، بل باتت نداءً يصدح في أسواق مكة، وآيات تُتلى عند الكعبة، وقلوبًا تُفتح على نور.

لكنها لم تكن مرحلة سلام... بل كانت بداية الإعصار.

فقد اجتمع كبراء قريش على الكيد":أنترك محمدًا يفرّق جماعتنا؟! يسفّه أحلامنا؟! يعيب آلهتنا؟"!

فأطلقوا الألسنة بالسب، وأطلقوا الأيدي بالبطش، وضُرب الطاهرون، وحوصر المؤمنون، واشتعلت مكة بنار العداوة.

لقد بدأ عهد الجمر... لكنه كان جمرًا يصهر النفوس لتصبح ذهبًا، ويصقل القلوب لتليق بحمل الرسالة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الصدع بالدعوة أصل من أصول الدين، لا يتم الإيمان إلا بإعلان التوحيد والجهر بالحق، كما أمر الله نبيه بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فالدعوة الجهرية مظهر من مظاهر توحيد الله وتكذيب الشرك.
- النبوة ليست مقامًا دنيويًا يُجلب بالعلاقات أو النسب، والدليل أن أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم كان أول من عارضه، فأبطل الله حجته بسورة تتلى، فالاتباع مبني على الحق لا القرابة.
- الرحمة النبوية مظهر من مظاهر العقيدة في تبليغ الرسالة، وقد تجلت في قول النبي صلى الله عليه وسلم" *إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد*"، فهو يخاف عليهم من عذاب الله، لا من ردودهم.
- الإيمان بالوحي يستلزم الامتثال الكامل ولو ترتب عليه الأذى، وقد استجاب النبي صلى الله عليه وسلم للأمر الإلهي بالصدع، رغم علمه بالمواجهة والمخاطر.
- الله تعالى يدافع عن أوليائه، وينتصر لرسله ولو بعد حين، كما أنزل سورة المسد ردًا على أبي لهب، فجعل ذكره مقرونًا بالخزي في كل صلاة، وهو من دلائل عدل الله في نصرة دينه.
- الرسالة النبوية ليست خاصة بزمنها بل هي إلى قيام الساعة، وقد تكرر فيها التحذير من العذاب كما في الأمم السابقة، تأكيدًا لعقيدة البعث والجزاء.
- مخالفة الحق لا تُغني صاحبها شيئًا ولو كان من آل البيت، فالحساب على العقيدة لا النسب، وقد خُلد ذكر أبي لهب ذمًّا لأنه رد الحق وصد عن السبيل.

فوائد فقهية

- يجوز للداعية أن يستخدم وسائل التنبيه والتشويق في الخطاب الدعوي، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : "*أرأيتم لو أخبرتكم*"...، وهو أسلوب فيه تمهيد وتدرج في التبليغ.

- يُشرع البدء بالأقربين عند الجهر بالدعوة، وهذا منهج متكرر في السيرة، إذ بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بنداء قبائل قريش الأقرب فالأقرب.
- من سنن البلاغ أن يبدأ الداعية ببيان صدقه وثقة الناس به، كما قالوا" *ما جربنا عليك كذبًا قط*"، لتكون الكلمة مؤثرة ونافذة.
- لا يسقط وجوب الدعوة بالمعارضة أو السخرية، بل يجب الاستمرار فيها مهما لقي الداعية من الأذى، كما واصل النبي صلى الله عليه وسلم البلاغ رغم استهزاء أبي لهب.
- جواز تخصيص منبر علني للدعوة إن دعت الحاجة، كما اختار النبي صلى الله عليه وسلم جبل الصفا ليجتمع الناس حوله ويُبلغهم، مما يدل على فقه الوسائل.
- لا يُشترط القبول في أثر الدعوة، فالنذارة واجبة حتى مع العلم المسبق بعدم الاستجابة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإنذار رغم رفض قريش.
- الموعظة الصريحة قد تكون أوقع في النفوس من التلميح، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بقوله المباشر" *إني نذير لكم*"...، فالصراحة عند الحاجة أفضل.

فوائد أخلاقية وتربوية

- من صفات الداعية الصادق أن يتحمل التكذيب والسخرية ولا يتوقف، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم رمزًا للثبات في أشد المواقف إحراجًا.
- الصدق في السيرة الذاتية للداعية يسبق دعوته، فثقة الناس بقولهم" *ما جربنا عليك كذبًا قط* "دليل أن الاستقامة تسبق التبليغ.
- الدعوة لا تُقاس بنتائجها الظاهرة، بل بنيّة الداعي وثباته، فقد تحوّلت مكة إلى ساحة إيذاء، ومع ذلك كانت الدعوة ماضية، وهو مبدأ تربوي في مواصلة الحق.
- الاستهزاء لا يُضعف الدعوة بل يكشف معادن القلوب، وقد فضح موقف أبي لهب حقيقته، وجعل اسمه عبرة في التاريخ.
- من خصال النبي صلى الله عليه وسلم اللين والرفق في أحرج اللحظات، فلم يقابل السخرية بمثلها، بل ترك أمرها لله، فأنزل الله الرد.
- البيئة القاسية لا تعني تأجيل الدعوة، بل ربما تكون أحوج ما تكون لصوت الحق، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في مكة القاسية.
- الإيمان الحقيقي يُثمر العزة والشجاعة في الحق، وهذه تربية قلبية يجب غرسها، إذ لا يصدع بالحق إلا من امتلأ يقينًا.

مخالفات الواقع

- التراخي في الجهر بالحق خشية الخلافات الاجتماعية أو العائلية، وهو ما يخالف فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين جهر في مجتمع مغلق معادٍ.
- تقديم المجاملات على العقيدة، كما يفعل البعض حين يسكتون عن منكرات المقربين بدعوى "الحياء"، والنبي صلى الله عليه وسلم صدع لأقرب الناس إليه.
- طغيان خطاب المجاملة في الدعوة اليوم، وتجنّب أسلوب الإنذار، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" *إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد*."
- تعظيم النسب دون النظر إلى الإيمان، فتُعطى المنزلة لمن له حسب، ولو كان بعيدًا عن الحق، بخلاف ما وقع لأبي لهب الذي خُلد ذمه في القرآن.
- ترك بعض الدعاة للصدع بالحق خوفًا من الإعلام أو الجماهير، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم صدع بالوحي في أحرج بقاع الأرض آنذاك.

- الانهزام أمام السخرية، والانكسار من كلمة مستهزئ، بينما واجه النبي صلى الله عليه وسلم الاستهزاء بالثقة والبلاغ، ولم يردّها بحدة ولا سكوت سلبي، بل واصل طريقه.
- ضعف التربية الإيمانية التي تُعدّ الناس لتحمّل الأذى في سبيل الله، مما جعل كثيرًا من المنتسبين للدعوة اليوم يتراجعون عند أول امتحان، بخلاف الصحابة الذين صبروا على البطش.

الفقرة الثالثة حين اضطرب الباطل من جلال صوت الحق

ما كانت دعوة الحق التي أطلقها النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم في بطاح مكة دعوةً عابرة أو رأيًا طارئًا، وإنما كانت زلزلةً هزّت أركان الجاهلية من قواعدها، وهتافًا صادقًا خرقت أصداؤه سكينة الباطل الكاذبة. إنها "لا إله إلا الله"... الكلمة التي شقّت ظلمة الشرك كما تشقّ الصواعق جلاميد الصخور، وانبثقت في جنبات مكة كالنور الوليد الذي يعيد للأرض اتزانها وللسماء معناها.

كانت صرخة التوحيد التي صدع بها النبي صلى الله عليه وسلم أول مرة، نذيرًا عنيفًا في أذن الوثنية، فارتجفت قريش من وقعها كما يرتجف الطغاة حين يُكشف زيف سلطانهم. ما إن سمعت قريش بتلك الكلمة المباركة حتى اضطربت مجالسها، وسُحبت الهيبة من أصنامها، وكأن الصخر الذي نُحتت منه بدأ يتصدع من الداخل، وسُمع صداه في أودية مكة، يقول: "قَرُب السقوط! قَرُب السقوط"!

كانت هذه الكلمة المضيئة إيذانًا بسقوط حضارة فاسدة، وبداية عهدٍ تتصدع فيه عروش الطغيان، وتُخلع فيه الأصنام من فوق هامات الكعبة، ويُزال الستار عن قلوبٍ طالما كانت مغلقة دون النور. لقد علم سادة قريش بفطرتهم أن هذه الدعوة لا تقبل التعايش مع الباطل، وأنها لا تجامل ولا تساوم، ولا ترضى بنصف حق ونصف باطل، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢].

أدركوا أن هذا الصوت المجلجل هو نهاية مكاسبهم، ونقضٌ لعروشهم التي بنيت على عبادة الحجارة والمتاجرة بالدين. إنه تهديدٌ مباشرٌ لتجارتهم في الأصنام، ولسلطان الكهانة والزعامة، ولتحكم بطون قريش بأهواء الناس تحت ستار الدين.

فزعوا... نعم، فزعوا، لأنهم لم يروا في محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً يبحث عن مجدٍ شخصي أو سلطان دنيوي، بل رسولًا يقول بثقة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، ويعلنها صريحة على رؤوسهم: ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه: ٩٨].

فماذا فعلوا؟! في أول الأمر تظاهروا باللامبالاة، وسخر بعضهم قائلًا: "دَعُوه، فإنه شاعر، أو مجنون، أو كاهن، وسيملّ كما ملّ غيره!" هكذا قالوا، ﴿وَقَالُوٓاْ أَئِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَئِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا * قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٠].

لكنهم ما لبثوا أن تيقنوا أن صاحب هذا الصوت لا يتعب ولا يتراجع، وأن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم لا يساير في دين الله أحدًا، فانتقلوا من التجاهل إلى العداء، ومن الاستهزاء إلى الأذى الصريح، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

كانوا يمرّون بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بين يدي ربه عند الكعبة، خاشعًا باكيًا، يناجي من فوق سبع سماوات، فيهمسون ساخرين: "أهو ذا الذي يزعم أنه خيرٌ منا؟!" وكانوا يضحكون ويستهزئون قائلين: "هؤلاء أتباعه؟! عبدٌ

حبشي، وغلامٌ مملوك، وامرأة عجوز!"، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ؟﴾ [الأنعام: ٥٣]. وما علموا أن ميزان الله يختلف عن موازينهم، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣.]

وحين استعصى عليهم الرجل، صلى الله عليه وسلم، ووجدوا أن عزيمته أصلب من جبال تهامة، اجتمع كبراؤهم في دار الندوة يتشاورون، يتآمرون، يتخبطون في ظلام حيرتهم: ماذا نصنع بهذا الرجل؟! لقد فرّق بين المرء وزوجه، وبين الحر وعبده، وبين الابن وأبيه. لقد قلب مجتمعهم رأسًا على عقب!

وهكذا بدأت سلسلة المؤامرات: حصارٌ لبني هاشم، وتشويهٌ متعمدٌ لصورته، وضغوطٌ على القبائل لترك نصرته. كل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم يمضي في طريقه لا يلتفت، متسلّحًا بالوحي، مشبعًا باليقين، يقول كما قالها من قبل: "والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه "]سيرة ابن هشام.[

إنه صوت الحق، إذا ارتفع، خرس الباطل وإن تعالى، وإذا انبعث من قلبٍ متصلٍ بالله، فإنه يمضي كالسهم، لا توقفه الجبال ولا تصده الرمال.

إنها قصة التوحيد إذا خالطت القلوب... تضيء، وتعصف، وتطهّر... وإن الباطل وإن علا صوته يومًا، فإن له موعدًا مع الزوال، ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: ١٨.]

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية:

- إن التوحيد الحق لا يقبل التعايش مع الباطل، بل يصادمه ويكشف زيفه، وهذا من خصائص كلمة "لا إله إلا الله" التي جاءت لإزالة كل سلطان غير سلطان الله.
- الرسالة المحمدية قامت على إعلان أن الحكم والتشريع والعبودية لا تكون إلا لله وحده، وهذا يبيّن أن خصومة الدعوة لم تكن مع الشرك فقط، بل مع كل صور الطاغوت والتحاكم إلى غير شرع الله.
- إصرار النبي صلى الله عليه وسلم على الحق رغم الأذى دليل على أن العقيدة لا تُساوَم، وأن ثبات الداعية على التوحيد من أعظم علامات صدق الإيمان.
- إن الله سبحانه يُكرم عباده المتقين لا بحسب أنسابهم أو أموالهم، بل بحسب تقواهم، وفي هذا رد على من يجعل ميزان الكرامة في غير ما جعله الله، وهو أصل من أصول العقيدة.
- الصدّ عن سبيل الله وتكذيب الرسل والاستهزاء بالمؤمنين هو دأب المجرمين في كل زمان، وقد وصفهم الله في كتابه، مما يرسّخ في القلب سنّة التدافع بين الحق والباطل.
- الحق لا يُغلب، بل له الغلبة في النهاية، وهذه من سنن الله التي ينبغي أن تُرسّخ في قلوب المسلمين حتى لا ييأسوا في زمن الاستضعاف.

فوائد فقهية:

- في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على دعوته وعدم تنازله عنها مع كل الضغوط أعظم شاهد على أن المصالح لا تُقدّم على الثوابت، وأن المداراة لا تكون في أصول الدين.

- يظهر من تعامل قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم كيف أن الإيذاء والهمز واللمز ليست أعذارًا للتراجع عن الدعوة، بل تستوجب مزيدًا من الصبر، وهذا أصل من أصول فقه الدعوة.

- دخول المستضعفين في الإسلام يدل على أن الدعوة لا تُخاطب فئة دون أخرى، بل هي عامة للناس كافة، وأن التفاضل في القَبول عند الله لا بالرتب الاجتماعية بل بالإيمان.

- عدم استجابة النبي صلى الله عليه وسلم لعروض التنازلات (المال، الجاه، الملك) يؤكد أن الرسالة لا تُباع، ولا يجوز تقديم الدنيا على الدين في مواضع التبليغ والبلاغ.

فوائد أخلاقية:

- التواضع في حمل الدعوة، والصدق في النية، هما سر تأثير النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أعدائه قبل أوليائه، وهذا خلق ينبغي أن يتحلى به كل داعية.

- يظهر من هذا المشهد أن الاستهزاء لا ينبغي أن يُقابل بالردود الهابطة، بل بالثبات والسمو كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فالأخلاق تُثبت الرسالة.

- احتقار الكفار للمؤمنين بسبب فقرهم أو ضعفهم الجسدي يُظهر خبث الطبائع الجاهلية، ويؤكد أن المعيار الأخلاقي الرباني هو التقوى، لا المظاهر والأنساب.

- صبر النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة الهمز واللمز وتآمر القوم يُعلّم الأمة خُلق الحِلم والثبات، وهو خُلق لا غنى عنه في طريق الإصلاح.

فوائد دعوية وتربوية:

- البدء بالدعوة الجهرية رغم خطورة المرحلة يعلم الدعاة أن لكل مرحلة وسائلها، وأن الحسم مطلوب حين يحين وقته ولا يجوز التأخير.

- النهي عن المساومة في العقيدة والتنازل لأجل إرضاء الناس، يُربي النفوس على أن مرضاة الله مقدمة على كل رضا.

- ترك النبي صلى الله عليه وسلم للمؤامرات تمضي دون انشغال مفرط بها، والتفرغ للدعوة، فيه درس للدعاة أن لا يغرقوا في دوامات الردود بل يثبتوا على دعوتهم.

فوائد سياسية واجتماعية:

- الطغاة دائمًا ما يتوجسون من دعوات التوحيد، لأنها تُفقدهم سلطانهم المبني على الخرافة والظلم، ولهذا يُحاربونها، وفي ذلك كشف لحقيقة معركة الدين مع الطغيان.

- تدمير الأصنام لم يكن فقط تحطيمًا للحجارة، بل إعلانًا بانتهاء هيمنة نظام كامل من الفساد السياسي والديني، وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام دين يبني أمة متكاملة.

- الفصل بين الولاء القبلي والولاء الإيماني أصل في بناء الأمة، فقد فرق الإسلام بين الأب وابنه إذا اختار أحدهما الكفر، وهذا من أسس بناء المجتمع الإيماني.

مخالفات الواقع لنص الفقرة:

- تحالف بعض المنتسبين إلى الإسلام مع أعداء الدين بحجة "الوطنية" أو "الحرية"، وتنازلهم عن ثوابت التوحيد بزعم الواقعية أو المصلحة السياسية، مع أن الدعوة النبوية لم تساوم ولم ترضَ بأنصاف الحلول.

- التكاسل عن إعلان كلمة الحق في زمن الغربة، والتذرع بالخوف على النفس أو العائلة، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم جهر بالدعوة وهو بين بطون قريش المتآمرة.

- تهوين شأن العقيدة في الدعوة، والاكتفاء بالأخلاقيات العامة دون بيان أصول الدين ومعركة التوحيد مع الطغيان، مع أن أول كلمة نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم كانت "لا إله إلا الله."

- تقديس بعض الرموز الدينية أو الزعامات السياسية كما لو كانت فوق النقد أو المساءلة، على شاكلة الأصنام الجاهلية، وهذا من أشنع ما يكون في ميزان التوحيد.

- التباهي بالأنساب والحسب والمال عند اختيار القادة والرموز الدعوية، واحتقار البسطاء من الدعاة، مع أن الله رفع بلالًا وصهيبًا وخفض أبا جهل وأمية.

- سخرية بعض المسلمين من الملتزمين بالدين أو المستضعفين من أهل الدعوة، ووصفهم بالتخلف أو الرجعية، وهذا نفس ما فعله مجرمو قريش بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

- تصدر بعض أهل الأهواء المنحرفة -كالمرجئة الذين يهونون من شأن المعاصي، أو الخوارج الذين يخرجون على الأمة ويكفّرونها- للساحة الدعوية، فينحرفون بالناس عن مسار دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الصافية الثابتة.

الفقرة الرابعة الابتلاء في مكة... نارٌ تصهر القلوب وتصنع رجالًا من نور

ما إن صدح النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بنداء التوحيد، حتى علا أنين الأرض، واهتزت أوثان قريش من سكونها الكاذب. كان الباطل نائمًا على وسائد الجاهلية، فلما جاءت دعوة السماء، أيقظته مذعورًا؛ فقد فهم القوم – وهم أهل دهاء وتجربة – أن الأمر ليس رأيًا يُطرَح في سوق الكلام، بل نورٌ نزل من السماء ليُطهر الأرض من رجس الشرك، ويُقيم العدل مكان الظلم، والرحمة محل الطغيان.

وما هي إلا لحظات في ميزان الزمن، حتى أعلن الباطل حربه القذرة على النور الوليد. كانت ضربة الغضب الأولى موجَّهة إلى أولئك المستضعفين الذين استنشقوا نسائم الإيمان، فارتوت أرواحهم من نبع التوحيد. لم تعد السخرية كافية، ولا الشتم والتكذيب يشفي الغيظ، بل تفجّرت الوحشية في نفوس المشركين، فراحوا يصبّون لهيب غضبهم على أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، الذين ما نادوا إلا بكلمة: "ربنا الله."

لقد عجزت قريش أن تمس النبي صلى الله عليه وسلم بأذى مباشر، لأن العصبية القبلية لأبي طالب وبني هاشم كانت سياجًا يحيط به، وإن كانوا هم أنفسهم لا يؤمنون برسالته. فحوّل الطغاة سهامهم نحو من لا ظهر لهم، نحو العبيد والفقراء والنساء، كأنهم يظنون أن الدين يُنتزع من القلوب بالحديد والنار!

وها هي بطحاء مكة تشهد أول فصول العذاب، تحت شمس لافحة، ورمال تلتهب كالجمر، وسياط تُمزق الأجساد كما تُمزق السكاكين جلدًا حيًا.

بلال بن رباح رضي الله عنه

كان عبدًا حبشيًا، لكنه كان في سماء الإيمان ملكًا حرًّا. سحبه سيده أمية بن خلف سحبًا إلى الرمضاء، وجعل على صدره

صخرة عظيمة تكاد تطحن أنفاسه، وصرخ فيه بوحشية: "اكفر بمحمد!"، لكن قلب بلال كان قد ذاق طعم العبودية لله، ولن يقبل بعدها عبودية لبشر. وما إن فتحت شفتاه حتى خرجت منها كلمة واحدة لا غير: "أحدٌ أحد!"... كلمة كانت في ظاهرها قصيرة، لكنها في جوهرها كانت زلزالًا أذهل جلاديه، ووقودًا أشعل روح الدعوة في زمنٍ قاسٍ.

خلّد الله بها ذكره، فكان أول من صدح بالأذان فوق الكعبة يوم الفتح، بصوتٍ رقيقٍ أذاب صخور الشرك، وأبكى أعين الموحدين. ولما قال الفاروق عمر رضي الله عنه: "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا"، كان يعني بلالًا... سيدًا في عبوديته لله، عزيزًا في ذلّه لخالقه.

آل ياسر: مدرسة الصبر وراية الثبات

تلك الأسرة المظلومة التي صعدت في سُلّم الابتلاء إلى القمة، لم تكن تملك من الدنيا إلا الإيمان، وكان ذلك أعظم الزاد. عمار بن ياسر يُسحب على الرمضاء، والنار تُلهب جسده، وأمه **سمية** تُطعن بالحربة في موضع عفّتها حتى تموت شهيدة، وأبوه ياسر يُصرع من شدة العذاب. مشهد تقشعر له الجلود وتبكي له القلوب، والنبي صلى الله عليه وسلم يمر عليهم، بعينٍ دامعة، وقلبٍ يتفطر ألمًا، فلا يملك إلا أن يقول تلك الكلمات التي حفرت في التاريخ معاني الصبر:

"صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة] "ابن سعد، الطبقات الكبرى.[

وما كانت الجنة يومًا وعدًا مؤجلًا، بل كانت تعزية السماء لهم، ووسام الخلود على صدورهم.

خباب بن الأرت رضي الله عنه

كان عبدًا لقريشية شرسة القلب، فما كانت تجد في قلبها رحمة تردها عن إحراق لحمه بجمر النار. كانت تأتي بالحديد المحمى، فتضعه على ظهره، فيشتعل الجلد، ثم ينطفئ الجمر بشحم لحمه. جاء يومًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والدم يسيل من ظهره، يناجيه والدمع في عينيه" :**ألا تستنصر لنا؟"!**

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم":**قد كان من قبلكم يُؤتى بالرجل فيُنشر ما بين عظمه ولحمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون]** "رواه البخاري.[

كأن الله أراد أن يجعل من جسد خباب لوحًا محفورًا بآثار العذاب، تشهد على أن العقيدة لا تُنتزع من القلب إذا سكن فيه اليقين.

ولم تكن هذه القصص استثناءً، فقد ذاق صهيب الرومي العذاب، وباع كل ماله لقريش ليفرّ بدينه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه خبره" :**ربح صهيب]** "رواه الحاكم وصححه.[

وضُرب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حتى شُجّ وجهه، لأنه تجرأ على تلاوة سورة الرحمن في مسامع المشركين، وما كان منه إلا أن قال: "والله لا يزيدني ذلك إلا حرصًا."

وزنيرة، وأم عبيس، وأبو فكيهة، وزيد بن حارثة، وآخرون لا يعلمهم إلا الله... كانوا جميعًا شموعًا تحترق لتضيء للأجيال طريق النور.

لقد ظن الطغاة أنهم بإحراق الأجساد سيُطفئون نور الإيمان، وما علموا أنهم كانوا يصنعون من هذه النار معدنًا من الصدق لا يلين، يصهر الله به القلوب، ويطهر به الصفوف، ويعدّ به الرجال لليوم الموعود.

إنها **مكة المكرمة**، رحم الرسالة، ومهد العقيدة، وميدان الابتلاء العظيم، حيث نزل قول الله عز وجل :﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾]العنكبوت: ٢ .[فهكذا يُنقّى الذهب من خبثه، وهكذا يُصنع التاريخ من دماء وأرواح ودموع، وهكذا يُصهر الرجال ليخرجوا رجالًا من نور، كانوا فيما بعد قادة الفتح، وحملة الراية، وصُنّاع المجد، وناشري النور في الأرض بعد ظلمات طويلة.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية:

- الابتلاء سنة ماضية في أهل التوحيد، وهو من أعظم الأدلة على صدق العقيدة؛ إذ لا يُمتحن الناس في دينهم إلا إذا كان الأمر حقًا يغيظ أهل الباطل ويكشف زيفه.

- إن حماية الله لدعوته لا تعني أن يمنع عنها الأذى، بل يربي بها القلوب على الثبات، ويصطفي بها الصادقين، وهذا من أقدار الله الحكيمة في تربية الأمة.

- قوة الإيمان تُحرر الإنسان من الخوف، مهما اشتدت العبودية الظاهرة، كما كان بلال عبدًا بالجسد، لكنه حرّ بالإيمان، فكان سيدًا في ميزان العقيدة.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على الحق، رغم ضعف أنصاره في مكة، يبيّن أن نُصرة الدين لا تتوقف على كثرة العدد، بل على صدق الصلة بالله والتوكل عليه.

- الإيمان يعلو على الألم والعذاب، لأنه يُورث في القلب يقينًا بأن الدنيا فانية، والجنة موعد الصابرين، وهذه العقيدة هي التي ثبتت بها قلوب آل ياسر وخباب وبلال وغيرهم.

فوائد فقهية:

- يجوز للمؤمن أن يظهر شيئًا من الضعف اللفظي تحت الإكراه إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، كما ثبت في قصة عمار بن ياسر رضي الله عنه، وهذا أصل في فقه الإكراه.

- الصبر في موضع الضعف لا يعني ترك الدعاء والاستنصار، بل كما فعل خباب رضي الله عنه، لجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالشكوى، فجمع بين الصبر والطلب.

- التثبيت بالكلمة الصادقة والقول الطيب للمبتلين من أهم وسائل المواساة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع آل ياسر بقوله: "صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"، وهذا أصل في فقه التثبيت.

- لا يُشترط في نصرة الدين أن تكون الوسائل مادية دائمًا، فقد نصر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بكلمة، ورباهم على الثبات، لا على رد العدوان بالسلاح في مكة، وهذا يُبيّن فقه المراحل في الدعوة.

- الابتلاء لا يسقط التكليف بالثبات على الحق، بل يُوجب مزيدًا من اليقين، وهو ما فعله بلال وخباب، فرغم العذاب لم يبدلوا دينهم، فثبت لهم الأجر وأعطاهم الله العاقبة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الثبات على المبادئ في وقت المحنة هو ما يصنع الرجال، ويعلو بالهمم، ويُربي النفوس على الصدق، ولهذا صارت هذه النماذج قدوة لكل مؤمن في كل زمان.

- الصبر على الأذى في سبيل الله من أعظم أخلاق الدعاة والمصلحين، وقد جسّده هؤلاء الصحابة بجلَدٍ نادر، حتى صاروا مَثَلًا للصابرين.

- التواضع في طلب النصر، كما فعل خباب رضي الله عنه، خُلقٌ عظيمٌ ينبغي للدعاة أن يتأسوا به؛ فهو لم يغضب من تأخر النصر بل تضرع إليه، وهذا أدب مع الله ورسوله.

- الإيمان الراسخ يجعل المستضعف عزيزًا، ويجعل العبيد أحرارًا في مواقفهم، كما قال الفاروق عمر: "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا"، مشيرًا إلى بلال، وهذا يعلّم الناس كيف يُبنى المجد بالإيمان لا بالأنساب.

فوائد دعوية وإصلاحية:

- ينبغي للدعاة أن يُعدوا أنفسهم وأتباعهم لتحمل الأذى، وأن يربوهم على الصبر والثبات كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا جزء أصيل من طريق الإصلاح.

- التربية بالتجربة، لا بالوعظ فقط، هي السبيل الأصدق لبناء أمة قوية، وقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم جيل الصحابة في ميدان الابتلاء العملي لا في القاعات والكتب فقط.

- الدعوة لا تتوقف عند حد الأمان، بل تتوسع مع التضحية، فالذين ثبتوا في مكة، هم الذين فتحوا البلدان بعد ذلك، وهذا من أسرار النصر في الإسلام.

فوائد اجتماعية وسياسية:

- قريش لم تخشَ سيوف المسلمين بل خشيت عقيدتهم، وهذا يدل على أن التغيير الحقيقي لا يبدأ من الخارج، بل من القلوب والعقائد التي تؤسس واقعًا جديدًا.

- اتخاذ الضعفاء أداة للضغط على الدعوة يُظهر جبن الطغاة وخوفهم من الكلمة، وهذا يُبيّن أن الطغيان لا يقوم إلا على استضعاف الفقراء وتهميشهم.

- الإسلام لم يُفرّق بين عبد وحر، ولا بين رجل وامرأة، بل رفع الجميع بالثبات والعقيدة، فكان أول المؤذنين عبدًا، وأول شهيدة امرأة، وفي ذلك هدم للعنصرية الطبقية الجاهلية.

مخالفات الواقع لنص الفقرة:

- ضعف استعداد كثير من المنتسبين إلى الدعوة لتحمل الابتلاء، فيتركون الحق من أول ضغط أو تهديد، مما يُظهر الحاجة إلى إعادة بناء العقيدة في النفوس كما بُنيت في الصحابة.

- تقديم بعض الدعاة المصالح الدنيوية أو الشعبية على الثبات على المنهج، في حين أن خباب وبلال وغيرهم اختاروا العذاب على المساومة، وهو ما يُخالف سمت الدعوة الصافية.

- ظهور فِرق من أهل الأهواء تزعم نصرة الدين ثم تتبرم من التضحية والبلاء، وتُفتن عند أول محنة، وهذا من علامات الانحراف عن المنهج النبوي.

- ازدراء بعض المسلمين اليوم للمستضعفين أو الفقراء من أهل الخير والدين، كما كانت قريش تزدري بلالًا وصهيبًا وسمية، وهو عَودٌ إلى جاهلية الأنساب والطبقية.

- الاعتقاد بأن النصر يجب أن يكون عاجلًا، وعدم فهم سنة التدرج والابتلاء، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ربط النصر بوعد الله لا بتسرع البشر، وهذا خطأ منهجي شائع.

- انشغال بعض المنتسبين إلى العمل الإسلامي بحصد المكاسب السياسية، أو الهتافات الثورية، دون تربية حقيقية على الصبر واليقين والتجرد، مما يؤدي إلى الانهيار عند أول محنة.

- الاستعجال في الحكم على نجاح الدعوات من خلال النتائج الظاهرة فقط، لا من خلال ثباتها على الحق رغم قلة أتباعها أو شدة الأذى، وهذا مقياس مخالف لميزان الشرع.

الفقرة الخامسة: إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه السيف الذي نصر الدعوة

في لحظة من لحظات الألم، حين يُظلم النور، ويُضرب الصدق، وتُغمد في القلب الشريف سهام الكذب والعدوان، كان الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يمضي في طرقات مكة هادئًا، لا يحمل سلاحًا ولا يُثير فوضى، بل يحمل دعوة تسير على قدمي الرحمة، ويقودها قلبٌ يُحب الخير لأعدائه كما يُحبه لأحبائه.

وبينما هو في حاله ذاك، اعترضه رأس الكفر وجبار قريش **أبو جهل عمرو بن هشام**، فانطلقت من فيه كلمات لا تُحتمل، مليئة بالشتائم والسب، يقذفها أمام صناديد قريش، في سوقٍ من الإهانة لم تعرف لها مكة مثيلًا.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم صابرًا، لا يرد بكلمة، ولا يرفع يده، لكنه عاد إلى بيته وقلبه تقطّع وجعًا، لا لنفسه، بل لِما بلغه من قساوة القوم وإصرارهم على حرب هذا النور.

لكن عينًا كانت تراقب المشهد من بعيد، **جاريةٌ لعبد الله بن جدعان**، رقّ قلبها لما رأت، ولم تُطق أن يُهان نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم هكذا دون نصير. انتظرت أن يعود **حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه** من رحلته، وهو الرجل الذي إذا ذكر في قريش ذُكر معه الشجاعة والهيبة. كان أسدًا بين الرجال، فارسًا لا يُشق له غبار، ولم يكن قد أسلم بعد، لكنه كان فطرة نقية تنتظر لحظة الانبعاث.

ما إن وضعت الجارية بين يديه خبرًا يُزلزل الجبال: "أتعلم ما فعله أبو جهل بابن أخيك؟! سبّه وأهانه جهارًا نهارًا، ولم يجد من يرد عنه!"، حتى اشتعلت الدماء في عروقه، واستيقظت فيه نخوة الهاشمي الغيور، وهاج فيه الدم القرشي الأصيل.

ما تريّث، ولا راجع، ولا هدأ... بل انطلق كالسيل الهادر، يشقّ طريقه نحو **المسجد الحرام**، لا يُبصر شيئًا إلا وجه أبي جهل، ولا يسمع صوتًا إلا نداء الغضب في داخله.

دخل المسجد بثبات الأسود، والرجال حول الكعبة يترقّبون، وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى أبي جهل، فرفع قوسه وضربه بها ضربةً على رأسه شجّت جلده، وأسالت الدم من جبينه، وسط ذهول الصناديد وسكوت المشركين، ثم نطق بكلمات كانت كالصاعقة" :**أتشتمه وأنا على دينه؟! أقول ما يقول! فإن كان صادقًا فصدّقته، وإن كان كاذبًا كففت عنه"!**

توقفت قلوب الكافرين، وارتعدت مفاصلهم، فمن هذا الذي يتكلم؟! إنه **حمزة** ...أسد بني هاشم، سيد من ساداتهم، وقوة ضاربة تُرهب الأعداء. لقد كان لإسلامه وقعٌ عظيم، ليس لأنه مجرد فرد، بل لأنه ركنٌ من أركان مكة، وصوتٌ له وزنه، وسيفٌ إذا رُفع في وجه الظلم لا يُرد.

في تلك اللحظة، خُيّل لقريش أن المعركة بدأت تتغير، وأن شيئًا ما يتسلل إلى صفوفهم كالنور من تحت الأبواب المغلقة. لم يكن إسلام حمزة صامتًا، بل كان مدوّيًا كالرعد، يُعلن أن الحق بدأ يجد له أذرعًا وسيوفًا تحمله وتذود عنه.

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر، أشرق وجهه، وسجد شكرًا لله، فقد جاءه النصير الذي وعده الله، وارتفع صوت من السماء يواسي هذا الطريق، ويشدّ من أزر المصلحين :﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا**﴾]الأنعام: ٣٤.[

ولئن كان الإسلام في يومه ذاك يتنفس بصعوبة، فقد صار بعد حمزة يتنفس بعزة، وأصبح للدعوة ظهرٌ وسند، وسيفٌ لا يُغمد في وجه الطغيان.

ولم يكتف حمزة بالإعلان، بل تعلّم الإسلام، وتعمّق في القرآن، وصار من بعد ذلك من أبطال بدر، وأسد أحد، وسيد الشهداء، رضي الله عنه وأرضاه

فيا لها من بداية... ويا له من سيف!
لقد كان إسلام حمزة في تاريخ الدعوة لحظة انفراج، وفي ميزان السماء نقطة انعطاف، ولعلّ أعظم ما نصر به الإسلام، قبل سيفه، هو غيرته على الحق، وحميته الإيمانية التي فجّرتها كلمة جارية... فجعلها الله سببًا لإسلام رجلٍ أحيا الله به الدعوة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- لا يكون النصر من الله حكرًا على القوة المادية، بل قد تأتي أسبابه من أضعف الناس، كما جعل الله جاريةً لا حول لها ولا قوة سببًا في إسلام حمزة، نصرةً للدعوة ورفعةً للحق.

- إسلام حمزة رضي الله عنه يثبت أن الفطرة السليمة تهتدي إلى الحق إذا سُمِع صوت التوحيد، وأن القلوب التي لم تتلوث بالهوى، تسجد لله من أول صدمة حق.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في وجه الإهانة والسب دون رد، يُظهر كمال التوكل على الله، وحقيقة الإيمان بأن النصر بيد الله لا بيد البشر.

- ما حدث من انتصار حمزة لدين النبي صلى الله عليه وسلم يُثبت أن الغيرة للحق وحماية الدعوة من أعظم علامات صدق الإيمان، وأن الغيرة لله مقدمة على العصبيات.

- سجود النبي صلى الله عليه وسلم شكرًا لله عند سماع خبر إسلام حمزة دليلٌ على أن النصر الحقيقي ليس بكثرة العدد، بل بثبات النصرة وتأييد الله، وهو من أصول الاعتقاد في سنن النصر.

فوائد فقهية:

- من فقه الاستجابة لنصرة الدعوة: أن النية الصادقة، ولو بدأت بنخوة جاهلية، يمكن أن تتحول إلى عمل صالح إذا قُرنت بالإيمان، كما حصل مع حمزة رضي الله عنه.

- لا يُشترط في قبول الإسلام أن يأتي بعد طول دراسة أو مجادلة، بل يكفي الصدق والانقياد، كما نطق حمزة بالشهادتين فورًا، ثم تعلّم وتفقه بعد ذلك.

- لا يُشترط الإشهار أمام الناس عند الدخول في الإسلام، لكن الجهر به عند الحاجة يُعد من أعظم القربات، كما فعل حمزة في المسجد الحرام نصرةً للنبي صلى الله عليه وسلم.

- ضرب حمزة لأبي جهل كان دفاعًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه دليل على جواز رد العدوان ونصرة المظلوم عند القدرة، وهو من فقه النصرة الشرعية.

- سجود الشكر سنة ثابتة بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد فعله هنا عند بلوغه خبر إسلام حمزة، وهو من السنن المهجورة التي ينبغي إحياؤها.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ما حمل حمزة على الإسلام في ظاهره هو الغيرة والمروءة، لكنها كانت بوابةً إلى الإيمان الكامل، وهذا يدل على أن الأخلاق الفطرية قد تكون بابًا للهداية.

- السكوت عن الإهانة ليس ضعفًا، بل حكمة وخلقٌ عظيم حين يكون المقصود هو نصرة الدين لا الانتصار للنفس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

- الغيرة على الحق يجب أن تتجاوز العصبيات الشخصية، وتتحول إلى موقف عملي مناصر للدعوة، لا مجرد عاطفة، وقد جسّد حمزة هذا المعنى.

- إيمان الجارية، مع ضعفها، كان سببًا في إحياء قلب فارسٍ عظيم، ما يدل على أن العمل الصادق لا يُقاس بحجمه، بل بأثره، وأن الله قد يكتب الهداية بكلمة صادقة من عبدٍ مجهول.

- النبي صلى الله عليه وسلم حين فرح بإسلام حمزة وسجد شكرًا، يُعلمنا أهمية الفرح بانتصار الدين ولو بموقف واحد، وأن هذا الفرح عبادة يُؤجر عليها العبد.

فوائد دعوية وإصلاحية:

- بداية الهداية لا تُشترط أن تكون ببحث طويل، بل قد تكون شرارةٌ واحدة تُوقظ القلب الغافل، كما فعلت كلمة الجارية في قلب حمزة، مما يبين أهمية الكلمة الصادقة في ميدان الدعوة.

- بعض القلوب تحتاج إلى الموقف العملي لتستفيق، لا إلى الجدل الطويل، وصدقُ الغيرة على الحق قد يهدي الله به من لم تؤثر فيه الكلمات المجردة.

- الدعوة تحتاج إلى حماية من أهل الهيبة والقوة، كما تحتاج إلى الدعاة والعباد، ولذلك فرح النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام حمزة، فحمل السيف كما يحمل غيره الكلمة.

- إشراك أهل الفضل والمكانة في نصرة الدين، وتوظيف وجاهتهم في سبيل الله، من أهم أدوات التمكين للدعوة، وهو ما حدث بإسلام حمزة رضي الله عنه.

فوائد سياسية واجتماعية:

- لم يكن تأثير حمزة في قوة سيفه فقط، بل في رمزيته الاجتماعية ومكانته القبلية، مما يبين أن توظيف رموز المجتمع الصادقين في نصرة الحق من أساليب كسر هيبة الباطل.

- تصدع قريش من موقف حمزة يؤكد أن الباطل هشّ في داخله، وأنه لا يصمد أمام الحق إذا حمله رجالٌ يعرفون قدر دعوتهم ويغارون عليها.

- وزن الأفراد في الدعوة لا يُقاس بالعدد، بل بالتأثير والصدق، وإسلام حمزة غيّر موازين مكة كلها، وكان نقطة انعطاف في مسار الدعوة.

- لا يُشترط أن يبدأ كل نصير للإسلام من لحظة إيمان كاملة، بل قد يُؤتى من باب الغيرة أولًا، ثم تكتمل الهداية، كما هو حال حمزة رضي الله عنه.

مخالفات الواقع لنص الفقرة:

- غياب الغيرة الإيمانية في قلوب كثير من المسلمين، حتى يُهان الدين، ويُسبّ النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يتحرك فيهم وجدان، في حين أن حمزة أسلم بسبب كلمة سبٍّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

- تحقير دور الضعفاء والمستضعفين في نصرة الإسلام، مع أن جاريةً ضعيفة كانت سببًا في إسلام رجلٍ هو أحد أعمدة الدعوة، وهذا من سوء الفهم لطبيعة النصر.

- بعض المنتسبين للإسلام اليوم يفرحون بتقارب رموز الهيبة والسلطة مع الدعوة لا لنصرة الحق، بل لتوظيف الدين لأهوائهم، وهذا خلاف ما فعله حمزة حين أسلم لله لا لمصلحة دنيوية.

- انتشار ثقافة الرد على الإهانة بالسبّ والعنف، لا بالحكمة والصبر كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، مما يُخالف خُلق الدعوة النبوية.

- تثبيط همم الشباب الصادقين في الغيرة على الدين، واتهامهم بالعاطفة والجهل، رغم أن غيرتهم قد تكون بوابة لهدايتهم ونصرة الإسلام، كما حصل مع حمزة.

- خوف كثير من الدعاة من إظهار الفرح بنصرة الإسلام أو بانتصار الدعوة في موقف أو حدث، بدعوى الحذر أو التوازن، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر الفرح وسجد لله شكرًا.

- ظهور فِرق منحرفة تزعم نصرة الدين بقوة السلاح وحده دون علم أو عقيدة، ويُخالفون بذلك نصرة حمزة التي كانت عن غيرة صادقة، ثم أُتبعت بعلم وتعلم وفقه وبطولة شرعية منضبطة.

الفقرة السادسة: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... حين انحنى السيف للنور

في مكة، حيث كانت القلوب تُضطهد كما تُضرب الأجساد، وكان الإيمان يتنفس بصعوبة بين جدران الخوف والبطش، وُجد قلب كالصخر لا تلين جوانبه، ولا تعرف الرحمة إليه سبيلًا... إنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رجلٌ عُرف بالصرامة والهيبة، إذا ذكر اسمه في الطرقات خشيه الرجال، وإذا سار أفسح له الناس الطريق.

كان في تلك الأيام، والإسلام لا يزال في مهده، صوتًا صارخًا في وجه النور، ويدًا باطشة على من اختار الهداية، ولسانًا فظًا لا يعرف إلا القسوة في الدفاع عن الموروث الجاهلي. لم يكن أحد يظن أن هذا الجبل الأشم قد يهتز يومًا خشيةً من آية، أو أن تنحني هامته يومًا لذكر الرحمن... لكنه الله، الذي يهدي من يشاء، ويجعل من القاسي واحة، ومن المتوحش رحيمًا، ومن أشد الأعداء أحبَّ الأولياء.

بلغ الحنق في قلب عمر مبلغًا عظيمًا، فانتزع سيفه من غمده، وخرج في نية سوداء ليطفئ النور من مصدره، ويقطع شريان الدعوة من أصله... خرج يريد قتل محمد صلى الله عليه وسلم!

وفي طريقه اعترضه رجل من قومه، فرآه يمشي متوشحًا سيفه يتطاير من عينيه الشرر، فسأله إلى أين المسير؟ فأجابه عمر بصوتٍ يقطر عزمًا: "إلى محمد، أقتله!" فردّ عليه الرجل بما أذهله: "ابدأ بنفسك يا عمر! فقد صبأت أختك فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد!" فصُعق عمر، وتحوّلت نية القتل إلى بيت أخته، حيث تُتلى آيات الله.

طرَق الباب بعنف، وما إن فتح حتى دوّى البيت بصوته الجهوري، واقتحمه كالعاصفة، وإذا بخباب بن الأرت يفرّ خوفًا، وفاطمة وسعيد يتسمران في مكانهما، والقرآن لا يزال يتردّد في جنبات الدار:
﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١-٢].

فهاج عمر، وضرب سعيدًا، ثم لطَم أخته فاطمة حتى سال الدم من وجنتيها الطاهرتين، لكن الدم لم يُخمد صوت الإيمان، بل زاد الموقف اشتعالًا حين وقفت فاطمة بثباتها النادر، وقالت بصوتٍ فيه عزة المؤمنين: "افعل ما شئت، فنحن قد أسلمنا وصدّقنا."

وهنا... تكسّرت في داخله أسوار الغضب، وسكنت العاصفة، وبدأ قلبه المتحجّر يلين... طلب الصحيفة، فأبت أن تعطيه إياها حتى يغتسل، ففعل، ثم أخذها، وبدأ يقرأ. وبين آيةٍ وأخرى، كانت معاول القرآن تنقّب في قلبه، تزيل صدأ الجاهلية، وتفتح نوافذ النور: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. فارتجف قلبه، واهتز كيانه، وقال وهو يلهث من أثر الآيات: "دلّوني على محمد".

وما إن وصل دار الأرقم، وطرَق الباب، حتى تجمهر الصحابة في الداخل، يظنون أن السيف قد أتى على آخر معقل للإيمان. وهنا قال حمزة رضي الله عنه بيقين الشجعان: "هذا عمر! فإن يرد الله به خيرًا يُسلم، وإن يُرِد غير ذلك يكن قتله علينا هينًا".

فلما دخل، تقدّم إليه النبي صلى الله عليه وسلم بشجاعة النبوة وجلالها، وأمسك بثوبه وقال" **:أما آن لك يا ابن الخطاب أن تُسلم؟"**

فلم يتردّد هذه المرة، بل أجاب من أعماق قلبه المفعم بالنور" **:أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله".**

فكبّر النبي صلى الله عليه وسلم، وردّد الصحابة التكبير، حتى سُمعت في أرجاء مكة كلها، وارتجت دار الأرقم فرحًا بهذا النصر العظيم.

نعم، لقد كان إسلام عمر فتحًا كما وصفه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال"**:ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر** ". رواه البخاري.

ولما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث"**:اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل** "رواه الترمذي وحسنه الألباني(،
فكان عمر هو من اختاره الله، ليكون حارسًا للنور بعد أن كان عدوّه.

وهكذا، تحوّل قلبٌ من نار إلى قلبٍ ملأه النور، وأصبح السيف الذي خرج ليطفئ الرسالة هو نفسه السيف الذي حماها، وصدّ عنها، ونصرها حتى آخر لحظة من حياته.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية:

- قدرة الله المطلقة تظهر في تحويل أعدى أعداء الإسلام إلى أحد أعمدته، كما فعل بعمر رضي الله عنه، وهذا من دلائل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، فهو يهدي من يشاء بلطفه وحكمته.

- الهداية ليست بالظاهر أو الأمنيات، فقد كان عمر من ألدّ أعداء الدعوة، ثم اصطفاه الله، مما يُرسّخ في قلب المؤمن أن الهداية بيد الله وحده، وليست بالقرابة أو الاجتهاد العقلي.

- الإيمان إذا استقر في القلب، يصبح أثبت من الجبال، كما ظهر في ثبات فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها، حيث لم تَخَف من بطش أخيها، بل واجهته بيقين صادق.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أما آن لك يا عمر أن تسلم؟" دلالة على علمه صلى الله عليه وسلم بأن قلب عمر بات قريبًا من الهداية، وهذا من إرهاصات النبوة، وأنه كان يدعو له بالهداية، مما يثبت شفقته صلى الله عليه وسلم على الخلق.

- التكبير الذي عمّ دار الأرقم عند إسلام عمر يدل على أن فرح المسلمين به كان فرحًا دينيًا، لا شخصيًا، لأنهم رأوا في هدايته قوة للدين، وهذا أصل في عقيدة الولاء والبراء أن الفرح بإسلام الشخص نابع من حبه لله لا لمكانته الدنيوية.

- النص القرآني الذي أثّر في عمر رضي الله عنه يبيّن أن القرآن هو النور الحقيقي الذي يبدد ظلمات القلب، وأن الهداية تأتي من التلاوة الخاشعة لمعانيه، لا بمجرد المعرفة أو الاطلاع، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

فوائد فقهية:

- لا يُعطى الكافر المصحف أو ما فيه إلا بعد الطهارة، كما فعلت فاطمة رضي الله عنها مع أخيها عمر، حيث أمرته بالاغتسال قبل أن يمس الصحيفة، وفي ذلك دليل على تعظيم كلام الله، وهو قول جمهور أهل العلم.

- لا بأس من كتمان الإيمان في بداية الإسلام للضرورة، كما فعلت فاطمة وسعيد، فقد كانوا يقرؤون خفية خشية الأذى، وفي هذا رخصة لمن خشي على نفسه من البطش.

- في منع خباب من الظهور أول الأمر، ثم خروجه بعد التأكد من هدوء عمر، مراعاة لحال الدعوة، وهذا أصل في فقه الموازنات، بأن لا يُعرض الدعاة أنفسهم للهلاك إن لم يكن في الظهور مصلحة راجحة.

- تغلظ القول للمعتدي لردعه، كما فعل حمزة رضي الله عنه بقوله: "إن يكن غير ذلك يكن قتله علينا هينًا"، يدل على أن القوة والهيبة في الدفاع عن الدين مشروعة إذا احتيج لها.

- في قول عمر رضي الله عنه: "دلوني على محمد" دليل على جواز طلب العلم والدعوة من الخصم بعد ظهور البينة، وفيه أن الرجوع إلى الحق فضيلة، وليس عيبًا.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ثبات فاطمة أمام بطش أخيها، وعدم تنازلها عن دينها، يمثل قمة الشجاعة والثقة بالله، ويُعلّمنا أن المؤمن قد يكون أقوى من جلاده بالإيمان واليقين.

- الرجوع عن الخطأ فضيلة عظيمة، وهو ما فعله عمر عندما خمد غضبه، وطلب قراءة القرآن، مما يدل على أن العناد ليس خلقًا لازمًا للشدّة، بل الأصل أن تكون القلوب مفتوحة للحق.

- مشهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقف لعمر، ويأخذه بثيابه، يبين عظمة القيادة النبوية التي تمزج بين الشدة والرحمة، وبين الحزم والبشارة.

- في تكبير الصحابة فرحًا بإسلام عمر، درس في الفرح الجماعي بنعمة الدين، وأن المؤمنين يفرحون بإسلام الناس لا انتصارًا للعدد بل لأنهم يحبون الخير لغيرهم.

- في تسامح فاطمة وسعيد بعد إسلام عمر، وعدم تعنيفه على ضربهم، مظهر من مظاهر الصفح والعفو عند المقدرة، وهو من مكارم الأخلاق.

فوائد دعوية:

- دخول عمر الإسلام كان نقلة في سير الدعوة من مرحلة الضعف إلى مرحلة المواجهة، وهذا يدل على أن التمكين قد يتأخر لحكمة، ويأتي من حيث لا يُحتسب.

- صدق خباب في التعليم رغم الخطر، وجلوسه مع فاطمة وسعيد في خفاء، يعكس أهمية التربية والتعليم في بناء الصف الأول، فالتعليم هو الجبهة الداخلية للدعوة.

- الحرص على دعوة من يُظن بعده عن الدين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر، يعلمنا عدم الحكم على القلوب، وأن الله قادر أن يبدل البغض حبًا، والعداوة نصرة.

مخالفات الواقع:

- قلة يقين بعض المسلمين بقدرة الله على هداية الناس، فنسمع من يقول: "فلان لا يُرجى صلاحه"، وهذا خلاف ما جرى مع عمر رضي الله عنه الذي كان يُرى أنه لا يُرجى إسلامه.

- استهانة بعض الناس اليوم بتمكين أهل الشدة في الدين، فيظنون أن الحازم لا يصلح للدعوة، مع أن عمر رضي الله عنه كان شديدًا في الجاهلية، فأصبح ركنًا من أركان الدعوة بعد الإسلام.

- تهاون الكثير في تعظيم المصحف وكلام الله، فنرى من يمسه بلا طهارة، أو يُهمل حفظه، بينما فاطمة رضي الله عنها لم تُمكّن أخاها من الصحيفة حتى يغتسل.

- عدم الفرح بإقبال الناس على الدين، بل أحيانًا يُشكّك في توبتهم، وهذا على خلاف ما فعله الصحابة الذين كبروا عند إسلام عمر، وفرحوا فرحًا عظيمًا، ففرحوا للدين لا للشخص.

- افتقاد بعض الدعاة اليوم للشجاعة في الدعوة، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر حين واجهه مباشرة، وقال له: "أما آن لك أن تسلم؟" دون تردد أو مداهنة.

- غياب التربية المنزلية المؤمنة، فاليوم كثير من البيوت تفتقر إلى مثل بيت فاطمة رضي الله عنها، الذي كان فيه تلاوة، وتعليم، وجرأة في إعلان الإيمان، حتى في وجه البطش.

- غياب الحكمة في التعامل مع الغاضب، فكم من النفوس تُستفز بطريقة خاطئة، بينما الصحابي الذي واجه عمر وجّهه لحقيقة أقرب، فحرّك في قلبه شيئًا غيّر مساره، وهو فن دعوي رفيع.

- انتشار منهج فرق الغلو والتكفير الذين لا يرون في الشدة سوى طريق للعنف والتدمير، بينما عمر رضي الله عنه كان شديدًا، فلما دخل الإسلام صار درعًا له، فأهل السنة لا يُقصون أهل الغيرة بل يوجهونها بنور العلم والرحمة.

الفقرة السابعة :حين أرادت قريش أن تشتري الرسالة... محاولات المساومة السياسية

في لحظةٍ من لحظات اليأس السياسي، وبعدما خاب رجاء قريش في إسكات صوت الحق بالتعذيب والترهيب، وبعد أن رأوا أن سوطهم لم يُطفئ نور الدعوة، ولا الحديد كسر عزم المؤمنين، انقلبوا إلى حيلةٍ أخرى... حيلةٍ تتوشح بثوب اللين، وهي في باطنها السم الزعاف... إنها المساومة السياسية الناعمة.

لقد جلس كبراء قريش، وتباحثوا، ثم قرروا أن يسايروا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأسلوب جديد: لا تهديد فيه ولا وعيد، بل كلمات مزخرفة تنضح بالغواية، وتخفي تحتها خنجرًا مسمومًا.

لقد ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يُفتن ببريق الجاه، أو يُغرى بسلطان المال، أو يُفتن بحب الملك، فقال بعضهم لبعض: "إنما محمد بشر مثلنا، وكل بشر له شهوة في نفسه، فلنجرب معه باب الترغيب."

فانتدبوا وفدًا من علية القوم، فيهم عتبة بن ربيعة، وشيبة، والوليد بن المغيرة، وأبو سفيان، وآخرون من سادة مكة، ووقفوا بين يدي الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، وقالوا بكلام أملته قلوبهم المريضة:
"يا محمد، إن كنت تريد بما جئت به مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تصير أغنانا، وإن أردت شرفًا، سوّدناك علينا، فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تطلب ملكًا، ملكناك علينا، وإن كان بك ما نراه من أمرٍ غريب – أي رئي أو جن – جئنا لك بأطباء، فأنفذناك إليهم حتى يُبرئوك."

وهنا... سكت النبي صلى الله عليه وسلم لحظة، أطرق فيها رأسه كأنما يسمع من السماء، ثم رفع بصره، وتلا بصوت خاشع مهيب يهزّ القلوب ويقرع الآذان، آياتٍ من سورة فصلت: ﴿حم • تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

وظل يتلو حتى بلغ قوله تعالى:﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣.]

وإذا بصوت السماء يزلزل قلوبهم، وإذا بعتبة بن ربيعة، سيدهم، يُمسك فم النبي صلى الله عليه وسلم ويستحلفه بالله أن يكف، وقد تغيّر لونه، وارتعد فؤاده، وارتسم الرعب في عينيه.

رجع عتبة إلى قومه مضطربًا، وقد تغيرت ملامحه، وقال لهم: "والله لقد سمعت من محمد قولًا ما هو من شعر، ولا من كهانة، ولا من سحر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه... والله ليكونن له شأنٌ عظيم."

ولم تيأس قريش... بل زادت في الغواية، فأتوه في مرة أخرى، وقالوا له: "يا محمد، تعالَ إلى حلّ وسط... نعبد نحن إلهك عامًا، وتعبد آلهتنا عامًا!"، فجاء الرد من رب العزة، فاصطفّت الكلمات الإلهية في سورة الكافرون، لتُعلن البراءة الكاملة من الشرك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ • لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ • وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ • وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ • وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ • لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ثم طمعوا أن يُبدّل القرآن، أو يُلطف في لهجته، فقالوا له: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾، فجاءهم الجواب الحاسم:

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِيۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥.]

نعم، لقد أرادت قريش أن تشتري الرسالة بوهم السلطان، وبريق المال، وبجاه العشيرة، ولكنهم لم يفهموا أن هذا النبي صلى الله عليه وسلم يحمل نورًا من السماء، لا يُساوَم عليه، ولا يُشترى بثمنٍ بخس.

هنا قال كلمته الخالدة التي خلدتها كتب السيرة، وسمعها الزمان ووعتها الأرض والسماء، كلمة الثبات والبذل والفداء:

"والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يُظهره الله، أو أُهلك دونه."

قالها وهو وحده... فارتجفت قريش، وسقطت آخر أوراقهم، وأدركوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يطلب مالًا، ولا جاهًا، ولا مُلكًا... وإنما هو رسول، يحمل وحي السماء، ونورًا لا يُطفأ، ومهمة لا يُفرّط فيها، وإن سُفك في سبيلها الدم، وضُيّق عليه المكان، وهُجّر من الأوطان.

فكان درسًا خالدًا للأمة: أن الدعوة لا تُباع، وأن المبادئ لا تُقايض، وأن الحق لا يخضع للمساومة، ولو اجتمعت الأرض على إغراء أصحابه.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم أمام مغريات قريش يؤكد أن الرسالة النبوية وحي من عند الله لا يملك النبي صلى الله عليه وسلم تغييره، وهذا يرد على من يزعمون أن الدين نتاج واقع اجتماعي أو تطور تاريخي.
- قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ يُظهر أن مصدر التشريع الإسلامي إلهي محض، والنبي صلى الله عليه وسلم مبلغ لا مشرّع من تلقاء نفسه، وهو ما يخالف عقيدة أهل الأهواء الذين يجعلون الهوى مصدرًا للتشريع.
- استجابة النبي صلى الله عليه وسلم للوحي دون تردد، ورده القاطع على عروض الكفار، دليل على أن المؤمن الصادق لا يُفرّط في التوحيد مهما كانت المغريات، وهذا من أصول العقيدة: الثبات على التوحيد والبراءة من الشرك.
- سورة الكافرون نزلت ردًّا على محاولة التقريب بين التوحيد والشرك، وهي أصل في مفاصلة العقيدة، وأنه لا التقاء أبدي بين الإيمان والكفر، وهذا يؤصل مبدأ المفاصلة العقدية التي هي من منهج أهل السنة.
- استعمال القرآن في الرد على الكفار كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن القرآن هو السلاح الأول في مواجهة الشبهات، وأن الجدال لا يقوم على العقل المجرد بل على نور الوحي.

فوائد فقهية:

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل التنازل عن جزء من الدين ولو كان ظاهريًا، وهذا أصل فقهي في عدم جواز التفريط بأي جزء من الشريعة في مقابل أي مكسب سياسي أو دعوي.
- في رفض النبي صلى الله عليه وسلم لعبادتهم عامًا مقابل عبادته عامًا، رد على فقهاء التنازلات المعاصرين الذين يجيزون القبول بمظاهر الشرك أو البدع بدعوى التعايش أو المكاسب المرحلية.
- الآيات التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم تؤكد أهمية البدء بالوحي عند الرد، وهذا تأصيل لطريقة النبي في الدعوة، وهي أن البداية تكون بالقرآن لا بالجدال ولا بالتحليل العقلي المجرد.
- استعمال آيات الوعيد الشديد من القرآن يدل على أن أسلوب التذكير بالعقوبة مشروع في مواضعه، وليس كل الدعوة موعظة لينة، بل لكل مقام مقال.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم رغم الضغوط النفسية والاجتماعية يعلّم الدعاة أن الثبات على المبدأ أعظم من كل العروض والمغريات، وأن الدعوة ليست تجارة رابحة دنيويًا بل ابتلاء.

- رفض النبي صلى الله عليه وسلم لعروض الشرف والمال والملك يعلم المربين والزعماء أن القيادة لا تُشترى، وأن من يحمل مبدأ لا يخضع للابتزاز السياسي أو المالي.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم" *لو وضعوا الشمس في يميني* "..يُظهر عظمة الصدق مع النفس، وأن الرسالي الحق مستعد أن يُضحّي بحياته ولا يبيع دينه، وهذا درس في الإخلاص لله تعالى.

- في رجوع عتبة خائفًا بعد سماعه القرآن، درس في أثر كلام الله تعالى على الفطرة إذا خلت من العناد، وأن الفطرة السليمة تستجيب إذا خاطبها الحق بقوة الوحي.

فوائد دعوية:

- محاولة قريش مساومة النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب "ناعم" يكشف أن الباطل أحيانًا لا يأتي بالعنف فقط، بل بالمكر والدهاء، وعلى الداعية أن يكون يقظًا أمام كل أساليب الحرب الناعمة.

- لم يدخل النبي صلى الله عليه وسلم في نقاش مطول مع القوم، بل واجههم بالقرآن، وفي هذا إشارة إلى أن الجدال العقيم لا ثمرة له، وأن المواجهة بالحق أنفع وأوجز.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على الحق، وعدم قبوله التنازلات، هو ما جعل قريش تعترف أنه لا يريد دنيا، وهذا يؤكد أن الصدق والاستقامة هما طريق كسب القلوب ولو بعد حين.

- رد القرآن على محاولات تبديل الدين يعلمنا أن القبول بالتحريف أو التأويل الباطل يُعد خيانة للدعوة، وهو ما يقع فيه بعض المتصدرين اليوم حين يميعون الثوابت باسم التجديد.

مخالفات الواقع:

- محاولة بعض من يتكلمون باسم الإسلام اليوم تقديم صورة "معدلة" من الدين ترضي أعداءه، كما حاولت قريش، فيتنازلون عن الجهاد، أو الولاء والبراء، أو أحكام المرأة، بحجة "تحسين صورة الإسلام"، وهذا عين ما رفضه النبي صلى الله عليه وسلم.

- انتشار دعوات "التسامح الديني" التي تعني تمييع العقيدة، والقول بـ"وحدة الأديان"، بينما النبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، فلم يقبل بأي صورة من الشرك، ولا حتى بالتناوب في العبادة.

- تراجع بعض الدعاة أو المؤسسات الإسلامية أمام الضغوط السياسية أو المالية، ورضاهم بتغيير أو حذف أجزاء من الدين لإرضاء الممولين أو الأنظمة، وهذا يشبه ما أرادته قريش تمامًا.

- قبول بعض المفكرين المعاصرين بأن "النصوص قابلة للتبديل" أو أنها "نتاج بيئة"، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾، فالدين توقيفي لا اجتهادي في أصوله.

- عدم استعمال القرآن في الخطاب الدعوي لدى كثير من الخطباء والدعاة، واستبداله بالقصص أو التحليل السياسي، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه أعظم عرض سياسي بتلاوة القرآن فقط.

♦اتباع بعض الفرق المنحرفة كـ"المرجئة" الذين يسكتون عن الكفر أو يهادنون أهله تحت شعارات فاسدة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يسكت لحظة عن باطل قريش، ولم يتنازل عن كلمة توحيد واحدة.

الفقرة الثامنة : ضغط قريش على أبي طالب... حين أرادوا خنق النور من باب القرابة

فلما أعيت الحيلة قريش، وبهتت أمام عزم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وارتدت سهامهم عن قلبه الصامد كما ترتد الرياح عن الجبال، مالوا إلى مكر أشد مضاءً من السيف، وأخبث من صريح العداء؛ فراحوا يلتفون حول الحصن الذي احتمى فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، يريدون هدمه بالحيلة بعدما عجزوا عن اقتحامه بالقوة.

ذلك الحصن لم يكن حجارةً ولا جدرانًا، بل كان رجلًا من لحم ودم، عمّه أبو طالب، الذي حمله النسب على الوفاء، ودفعت به المروءة إلى أن يقف سدًا منيعًا في وجه السهام المنطلقة نحو ابن أخيه، رغم أنه لم يتبع دينه، لكنه تبنّى نصرته بصدق لم يعرفه كثير من أبناء العقيدة.

تآمرت قريش واجتمع سادتها من كل بطونها: من بني عبد شمس، وبني مخزوم، وسائر بطون قريش العظمى، وتحركوا صوب أبي طالب، وجوههم مغلّفة بالغضب، وألسنتهم تقطر تهديدًا، فقالوا:
"يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وشتم ديننا، وعاب ما كان عليه آباؤنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنا كفيناكه."
كلماتهم لم تكن مجرد شكوى، بل تهديدًا مبطّنًا بحرب لا تبقي ولا تذر.

لكنه بحكمة الشيخ، وحنان العم، ووفاء العربي الأصيل، ردّهم ردًا حسنًا، وأمهلهم، مؤمّلًا أن يجد في قابل الأيام مخرجًا يطفئ النار دون أن يُطفئ نور الرسالة.

ولكن الطغاة لا يعرفون التراجع، فعادوا بعد أيام بخطة أخرى، تزدان ظاهرًا وتخفي السمّ دُخلاً، جاءوا ومعهم فتى من أجمل فتيانهم، عمارة بن الوليد بن المغيرة، وقالوا لأبي طالب:
"هذا الفتى نقدمه لك، فخذه، هو لك، عقله معك وسيفه معك، ونحن نأخذ ابن أخيك، فقد خالف دينك ودين آبائك، ونقتله، فتسلم من قطيعتنا وعداوتنا."! فقام أبو طالب، وقد علا وجهه غضب المروءة، وقال كلمته المشهورة التي دوّى صداها في بطون مكة" :والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم لأغذوه لكم، وأعطيكم ابني لتقتلوه؟! هذا والله ما لا يكون أبدًا."!

فلما باءت حيلهم بالفشل، لجؤوا إلى الضغط الأخير، وأيقنوا أن أبا طالب لن يُسلّم لهم محمدًا صلى الله عليه وسلم حيًّا، فلجأوا إلى تحريكه من الداخل.
فاضطر أبو طالب ـ وقد أثقله العبء، وضاقت عليه سبل المدافعة ـ أن يدعو ابن أخيه ويكاشفه، فقال له:
"يا ابن أخي، إن قومك جاؤوني بما ترى، فابقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق."

كان موقفًا يهزّ القلوب، عمٌّ أنهكته السنون، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ونبيٌّ يحمل نور السماء بين جنبيه، ولا يملك من الدنيا إلا يقينه.

فنظر النبي صلى الله عليه وسلم في عيني عمّه، وقد فاض الإيمان من قلبه إلى لسانه، وقال كلمته التي زلزلت أعمدة الباطل، وارتقت في سماء الخلود"**:يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه .**"فاهتزّ لها وجدان أبي طالب، وبكى قلبه قبل عينه، وقال"**:امضِ يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا ما حييت."**

وهكذا ثبت النبي صلى الله عليه وسلم، وثبت معه من لم يسلم، لكنه آمن بالنسب والمروءة والنصرة.
ثبت عمّه، رغم كل الضغوط، حتى كأن الله ساقه ليكون جدارًا يحجب عنه السهام، حتى يأذن الله للرسالة بالظهور.

لقد بلغ الأمر بقريش أن تبيع أبناءها وتشتري الباطل، لكن محمّدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن لِيُباع، لأنه لم يكن سلعة من الدنيا، بل كان رحمةً مهداة من السماء.

وقد قال الله تعالى في مثل هذه المواقف التي تثبت صدق النبوة وعلوّ الهمة :﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [**الحجر: ٩٤**]وقال سبحانه عن ثباته في وجه التهديد:﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...**﴾ [**الإسراء: ٧٣**]

وثبت النبي صلى الله عليه وسلم على أمر الله، فثبّته الله، كما وعده في قوله:﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ [**الإسراء: ٧٤**]

وهكذا، انكفأت قريش خائبة، فقد سدت آخر أبوابها، وظل محمد صلى الله عليه وسلم ماضيًا في طريقه، لا تزيده المحن إلا ثباتًا، ولا تغريه العروض إلا عزوفًا، حتى أذن الله للنور أن يتمدد، وللحق أن يعلو، ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [**التوبة: ٣٣**.]

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة :

فوائد عقدية:

- **ثبات النبي صلى الله عليه وسلم** على دعوته رغم الضغوط من أقرب الناس، يؤكد أن الرسالة ليست اجتهادًا بشريًا، بل وحيٌ من عند الله لا يقبل المساومة أو التعديل.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم" :*حتى يُظهره الله أو أهلك دونه* "يدل على **تمام التوكل على الله** في تبليغ الرسالة، وهي صفة نبوية لازمة لكل من يدعو إلى الله بصدق.

- الآيات التي وردت في ختام النص (الحجر: ٩٤، الإسراء: ٧٣-٧٤) توضح أن الله عز وجل هو الذي **يثبت القلوب على الحق**، ولو لا ذلك لركن النبي صلى الله عليه وسلم إليهم شيئًا قليلًا، وهو درس في الحاجة الدائمة إلى عون الله في الثبات.

- **حماية الله لدعوته من خلال وسائط بشرية**)كأبي طالب)، دون أن يكونوا مؤمنين، دليل على أن الله يسخر من يشاء لنصرة دينه، دون أن يعني ذلك نجاتهم إن لم يؤمنوا، وهذا من دقائق التقدير الإلهي.

- في قول قريش" :*فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه* "دلالة على **عداوة أهل الباطل للتوحيد**، وليس للشخص، فهم ما أرادوا قتل محمد بن عبد الله، بل قتل النور الذي يحمله.

فوائد فقهية:

- رفض النبي صلى الله عليه وسلم أي تسوية فيها تعطيل أو تعطيل جزئي للدعوة يُعد أصلًا فقهيًا في **تحريم التنازل عن شيء من الدين مقابل السلامة أو المصالح**، وهو ما يعرف بـ"فقه الثوابت."

- استخدام أبي طالب لكلمة" :*والله ما لا يكون أبدًا* "!ردّ على من يزعم أن **التحالفات مع أهل الباطل** على حساب الحق مصلحة راجحة، فحتى غير المسلم رفض ذلك لعِزّة النفس.

- لا يجوز للمسلم أن يرضى بأن يُفدى داعيةٌ أو عالمٌ بغيره، كما في عرضهم لابنهم عمارة مقابل قتل النبي صلى الله عليه وسلم، لأن **النفس لا تُفدى بالباطل**، ولا يصح تمييع الحدود الأخلاقية ولو باسم العقل أو السياسة.

- موقف أبي طالب - رغم كفره - لا يُعدّ دليلًا على صحة موقفه عند الله، بل هو دليل على أن **المواقف الأخلاقية لا تعني النجاة العقدية**، فالإيمان هو الأساس، وهذا تفريق مهم بين الولاء الفطري والولاء الإيماني.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- وفاء أبي طالب، رغم كفره، يعلمنا أن **المروءة والنخوة** صفات يمكن أن توجد في غير المسلمين، لكنها لا تُغني عن الإيمان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن عمه في الحديث الصحيح" *لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من نار*."...

- في كلمات النبي صلى الله عليه وسلم لعمّه مشهدٌ تربوي عظيم في **الصدق مع النفس ومع القريب**، وعدم التنازل حتى أمام العاطفة أو الضغوط الأسرية.

- يظهر في رد أبي طالب الأخير بعد موقف النبي صلى الله عليه وسلم، أن **الثبات يولّد الدعم**، فثباتك على الحق يُلهب في غيرك مشاعر النخوة ويثبته أيضًا.

- كشف النص عن نوع من **الحيلة الاجتماعية**، وهي أشد من العداء المباشر، مما يدل على أهمية الفطنة والحذر في مواجهة الضغوط، وخاصة حين تأتي في صورة "نصيحة داخلية."

- في استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بالله، وثباته رغم ضعف الأسباب، درس في أن **الثقة بالله لا تقف عند حدود المنطق البشري**، بل تتجاوزها إلى وعد الله الصادق.

مخالفات الواقع المعاصر:

- كثير من الدعاة اليوم يُعرض عليهم من قِبَل الأنظمة أو الإعلاميين أشكال من **التنازل التدريجي** عن بعض القيم تحت مسمى "الحكمة" أو "التدرج"، بينما الموقف النبوي واضح في الرفض القاطع.

- قبول بعض المنتسبين للدعوة أن يُشترى موقفهم بثمن دنيوي أو منصب أو حماية، كما أرادت قريش استبدال النبي صلى الله عليه وسلم بعمارة، هو **خيانة للدين** واتباع لخطط الباطل.

- يُشبه ضغط قريش على أبي طالب ما يحدث اليوم من **استخدام الآباء أو الأقارب** للضغط على الأبناء أو الدعاة للتراجع عن الحق، تحت شعار "احمِ نفسك"، بينما الواجب هو الثبات والنصح الحكيم لهم.

- في الواقع الإعلامي والسياسي، كثيرًا ما تُستخدم **أدوات "التحييد الأسري" أو الضغط الاجتماعي** لإخضاع المصلحين، على نمط "اضغطوا على أقاربه"، وهو أسلوب قديم يعاد بعناوين جديدة.

- طمس حدود الحق والباطل باسم "المصلحة" هو تكرار لمحاولات قريش، والموقف النبوي يكشف أن **الدين لا يُساوَم**، لا من الداخل ولا من الخارج.

الفقرة التاسعة: حين فشلت المساومة... صعدت سياط الأذى

فلما أعيت الحيلةُ قريشًا، واستنفدت كل سبل الترغيب والترهيب، وفشلت محاولاتهم في كسر عزيمة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ووجدوه جبلًا أشم لا تهزه رياح المساومة، ولا تنال من ثباته بوارق العروض البراقة، أزاحوا قناع الحياء، وأطلقوا سعارهم وحقدهم في وجه الدعوة وصاحبها صلى الله عليه وسلم.

لقد رأوا أن الكلمة قد استقرت في قلبه كالجبال، وأن رسالته ليست اجتهادًا فرديًا يمكن إقناعه بعدمه، بل وحيٌ من السماء، ونورٌ لا يُطفأ، ويقينٌ لا يتزلزل، فقالوا: لا سبيل إلى هذا الدين إلا بقطع عروقه! فتحولوا من أسلوب اللين والمساومة إلى سوط البطش والاضطهاد، وجعلوا من مكة ساحةً للفتنة، وأرضًا تستعر بالنار والحديد، تستهدف كل قلب آمن، وكل لسان صدع بالحق.

وكان أعظم من نالهم الأذى هم أولئك المستضعفون الذين دخلوا في الإسلام خفافًا بلا سند من نسب أو عشيرة، فصبّت عليهم قريش جام غضبها، ودفعت بهم إلى ساحة البلاء، تُلهب جلودهم سياط الكفر، وتذيب أجسادهم رمال مكة التي تلفحها شمس الصحراء، فلا رحمة تُرجى، ولا شفقة تُرتقب.

فهذا **بلال بن رباح** رضي الله عنه، يُجرّ على الصخور المحرقة، ويُطرح في رمضاء مكة، ويُجعل الحجر العظيم على صدره، فلا يزيد على أن يقول: "أحدٌ أحد"، وقد خلّد الله ذكر هذا الصابر المجاهد، حين قال :﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وهذه **سمية بنت خياط**، أول شهيدة في الإسلام، تُغرس فيها الحربة غرسًا أمام عينَي زوجها وابنها، لأنها قالت: ربي الله. وذاك **عمار** يُعذّب حتى لا يدري ما يقول، فينزل فيه قول الله تعالى :﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

أما النبي صلى الله عليه وسلم، فكان نصيبه من الأذى مضاعفًا، لا لأنهم يكرهونه لذاته - وهو الصادق الأمين فيهم - بل لأنه حمل النور الذي يبدد ظلامهم، فكانوا لا يجرؤون على قتله خوفًا من قبيلته، فأعملوا فيه ألسنتهم، وسلطوا عليه سفهاءهم، ورموه بالحجارة، وسجد بين يدي ربه عند الكعبة فوضعوا سلى الجزور على رأسه، وسبوه وآذوه، حتى ضاقت مكة بما رحبت، ولم تضق عليه نفسه صلى الله عليه وسلم، بل ظل يقول بثبات النبوة" :اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (رواه البخاري ومسلم.)

وفي أشد هذه اللحظات حرجًا، لم يأتِه الفرج من أهل الأرض، بل من مالك الملك جل في علاه، حين أذن لأصحابه، رحمة بهم، أن يفروا بدينهم إلى أرض الحبشة، حيث الملك العادل النجاشي، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أم سلمة" :إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه" (رواه الإمام أحمد بسند حسن.)

فخرجوا في ركب من النور، يبتغون وجه الله، تاركين خلفهم الأهل والدار، والمقام والقرار، ولكنهم حملوا معهم العقيدة التي لا تموت.

وأما النبي صلى الله عليه وسلم، فقد بقي في مكة، يعاني من ضيقها وجفوتها، يواجه صلف الجاهلية، وثقل العداوة، وغيظ القوم، ولكن بقي واقفًا شامخًا، لا تلين له قناة، ولا يُرى عليه جزع، لأنه يعلم أن وعد الله آتٍ لا محالة، وأن مع العسر يسرًا، وأن من وراء الصبر نصرًا.

لقد كان هذا الفصل من السيرة فصلًا دامعًا، تتهدج له الأرواح وتخشع له القلوب، ولكنه في ذات الوقت كان إعلانًا لبداية التمكين، إذ اشتد البلاء ليقرب الفرج، وازداد الليل ظلمة ليلوح الفجر.

وسنقف في الفقرات القادمة على فصول أخرى من مشاهد الألم والتضحية، لنرى كيف صنع الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على عينه، وخرّجه في مدرسة الابتلاء، حتى غدا أسوةً للعالمين، وقدوةً للموقنين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم أمام كل أشكال المساومة يدل على صدق نبوته، إذ لا يمكن لبشر أن يتحمل هذا الأذى دون يقين رباني يُمدّه بالصبر والثبات.
- إرسال الله الإذن بالهجرة إلى الحبشة يُظهر أن التقدير الإلهي يسبق الحدث، وأن الله يتولى عباده المؤمنين بلطفه، وهو توكل رباني لا تخطيط بشري.
- بقاء النبي صلى الله عليه وسلم في مكة رغم اشتداد الأذى عليه دليل على أن الدعوات لا تُبنى على المصلحة الشخصية، بل على وحي من الله يُطاع، ويُنتظر أمره.
- تيسير النجاشي العادل كمأوى للمستضعفين يثبت أن الله يُسخر من يشاء من عباده لحماية دينه، ولو كانوا من غير المسلمين، ما داموا من أهل العدل والإنصاف.
- شدة البلاء التي لحقت بالمؤمنين تبيّن أن طريق الإيمان محفوف بالابتلاء، وأن الصدق في العقيدة لا يُقاس بالرخاء بل بالثبات في المحن.
- عدم تراجع النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته في مقابل كل الإغراءات والعروض يُفند شبهات أهل البدع الذين يطعنون في صدق الرسالة ويزعمون أن دعوته كانت طمعًا في الملك أو السيطرة.

فوائد فقهية:

- الهجرة من دار الكفر إلى دار يمكن إقامة الدين فيها سنة ماضية شرعها الله لعباده عند الضرورة، كما فعل الصحابة عندما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة.
- في الهجرة للحبشة تثبيت لمبدأ فقه الضرورات، حيث رُخص للمؤمنين بترك أوطانهم مؤقتًا حفاظًا على دينهم وأنفسهم من الفتنة.
- يدل المشهد على أهمية فقه الموازنات؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُهاجر مع أصحابه في بداية الأمر، بل قدّر المصلحة في بقائه بمكة لنشر الدعوة واستمرار المواجهة.
- الموقف يُثبت مشروعية الاستعانة بالمُنصفين من غير المسلمين عند الحاجة، كما استُعين بالنجاشي، شريطة أن يكونوا أهل عدل لا ظلم.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في وجه الأذى يُعلّمنا أن طريق الحق لا يخلو من الألم، وأن الصبر زاد الدعاة.
- في تحمل النبي صلى الله عليه وسلم للأذى وحده دون أن يشكو أو يتذمر، أعظم درس في الإيثار وتحمل الأعباء عن الجماعة.
- مشهد الجلد بالسياط في رمال مكة الحارقة يعلّمنا معنى الصدق والتجرد، إذ ما كان يحبسهم على الإيمان إلا حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

- الهجرة إلى الحبشة لم تكن هروبًا بل بحثًا عن موطن يُحفظ فيه الدين، وفيها درس في طلب العافية دون التنازل عن المبدأ.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه "تحمل ما لا تتحمله الجبال" يُغرس فينا معنى الرجولة والثبات في وجه المصاعب مهما عظُمت.

فوائد دعوية:

- فشل أسلوب المساومة مع النبي صلى الله عليه وسلم يبين أن الدعوة لا تُدار بالعقليات السياسية التي تبحث عن التنازلات، بل بالثبات على المبادئ.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على بقاء بعض أصحابه في دار الكفر لحماية من لم يستطع الهجرة يُبرز فقه ترتيب الأولويات في العمل الدعوي.
- في إرساله لأصحابه دون نفسه تعبيرٌ عملي عن أن الداعية قد يضحي بنفسه ليُمهّد الطريق لغيره.
- ما واجهه النبي صلى الله عليه وسلم من أذى يُعتبر جزءًا من البلاغ، ليبقى في سجل التاريخ أنه أدى الأمانة كاملة في أشد الظروف.

مخالفات الواقع:

- تقاعس كثير من المسلمين عن نصرة دينهم اليوم عند أقل الأذى أو التضييق، ورضاهم بالتنازلات الفكرية والدينية مقابل مكاسب دنيوية زائلة.
- ضعف اليقين في قلوب بعض الناس حتى صاروا يظنون أن التمسك بالدين يعني الحزن والشقاء، بينما طريق النبي صلى الله عليه وسلم رغم آلامه هو طريق العزّة والنجاة.
- اتهام الثابتين على الحق بالتشدد والجمود، وكأن الصبر على الأذى من أجل العقيدة غلوٌ وليس ثباتًا مشروعًا.
- اللجوء إلى أهل البدع أو الدخلاء على الدين في مواجهة الابتلاء، بدل الصبر على طريق أهل السنة والجماعة الذي سلّكه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
- ضعف مفهوم الهجرة في قلوب الناس، فتجد من يهاجر للدنيا والمال، بينما يغفل كثير من أهل الدين عن فقه الهجرة لله بدينه وعقيدته.
- اتخاذ المواقف السياسية أو الدعوية اليوم بناءً على رضا الغرب أو الحكومات، لا بناءً على رضا الله والاتباع المحض للسنة، بخلاف موقف النبي صلى الله عليه وسلم الذي رفض كل عروض قريش وثبت على منهج ربه.

الفقرة العاشرة: لهيب البغضاء في بيت القرابة... أبو لهب وزوجه

ما أعجب المفارقات حين ينبثق النور من بين جدران الظلام، فيحاربه من كانوا بالأمس أقرب الخلق رحمًا، فإذا هم اليوم أعدى الخلق قلبًا!...

لم يكن أول من ناوَأ دعوة التوحيد غريبًا عن البيت الهاشمي، ولا بعيدًا عن مجلس عبد المطلب، بل كان العمّ الذي جاور المصطفى صلى الله عليه وسلم نسبًا، وعاداه بغضًا وحسدًا... إنه *عبد العزى بن عبد المطلب*، الشهير بـ **أبي لهب**، وما له من هذا الاسم من نصيب في اللظى، كما أخبر القرآن العظيم.

فما إن صدح النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، ونادى على جبل الصفا بإنذار العشيرة الأقربين، حتى بادره عمّه بسخريةٍ فاجرة، وكلماتٍ حادة كالسيف في خاصرة القلوب" :**تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟"!**
فما سكتت السماء عن هذا البغي، وما تراخت عدالة الله عن القصاص، فهبط الوحي بآياتٍ تقطع دابر الظلم وتُخلّد الخسران:﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ • مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾المسد: ١-٣]

وهكذا كُتبت نهايته بمداد من لعنة، وخُلد اسمه في كتاب الله شاهدًا على بغضاء الأقربين، وحماقة المتكبرين، وسوء خاتمة من عادى خير المرسلين.

أما زوجه، **أم جميل بنت حرب**، أخت أبي سفيان، فقد كانت نِدَّه في العداء، وقرينته في الكيد، تشعل نار الحقد وتنفخ في رماد الجاهلية...
لم تكتفِ بكلماتٍ مسمومة، بل كانت تخرج ليلاً تخفي الأشواك والأذى في طريق النبي صلى الله عليه وسلم، تقصد جرح القدم، ولكن الله أراد لها أن تُجرح في الذكر والقدر، فلقبها القرآن بلقبٍ خالِد لا يُمحى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ • فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾]المسد: ٤-٥]

كانت تحمل الحطب في الحقيقة، وتحمل النميمة في المجالس، فجمعت بين الشر الظاهر والباطن، فاستحقت أن يُضرب بها المثل، وتُسمّى بما كانت عليه في الدنيا والآخرة.

ولم يقف أذاهم عند حدّ السخرية والطعن في الطرقات، بل بلغ بيت النبوة، وامتلأ قلب النبي صلى الله عليه وسلم بجرح لم يكن من سهام الكفار، بل من قلوب القربى التي لم ترعَ لله حرمة، ولا للرحم عهدًا.

فلقد خطب **عتبة وعتيبة**، ابنا أبي لهب، *رقيّة وأم كلثوم*، ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة، وما إن نزل عليه الوحي، وأشرق النور في مكة، حتى اسودّت قلوبهم، وأمرهم أبو لهب أن يطلّقوا ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم، فأطاعوا، لا عن قناعة، بل عن عُقوقٍ للأرحام وطاعةٍ عمياء لحقدٍ دفين.

ولم يكن الطلاق جرحًا شخصيًا فحسب، بل كان سهمًا أراد أبو لهب أن يغرسه في قلب النبي صلى الله عليه وسلم، علّه يثنيه عن دعوته، أو يطفئ جذوة النور المتقدة... ولكن الله تكفّل بنوره، وهيّأ لرقية من هو خير من عتبة...
هيّأ لها **ذي النورين عثمان بن عفان** رضي الله عنه، الزوج التقي النقي، فكان زواجها منه خيرًا لها في الدنيا والآخرة، ومقامًا رفيعًا لأبيها صلى الله عليه وسلم، فارتدّ كيد أبي لهب على نفسه، ونقلب السحر على الساحر.

لقد اجتمع أبو لهب وزوجه وأولاده على عداوة النبوة، ووقفوا جميعًا في وجه الوحي، لكن الله لا يترك نبيه، ولا يخيب أولياءه، فجعل لهم سورةً كاملة تُقرأ في كل ركعة، وتُخلّد الخسارة والهلاك في صفحات الزمان.

شواهد من السيرة النبوية

روى الإمام **الطبري** في تفسيره، و**ابن إسحاق** في السيرة، قصة تصدي أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا، وقد جاءت في صحيح البخاري بمعناها، وفيها من الجُرأة والعداء ما يُبين خبث الطوية وقسوة القلب.

وجاء في **مسند الإمام أحمد** أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا الناس إلى الله، قالت أم جميل: "إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فإني قبيحة"، فهي لم تُؤمن حتى بعد ظهور الحق، بل ازدادت عتوًا واستكبارًا.

وقد روت كتب السيرة قصة تطليق رقية وأم كلثوم، وقالت بعض الروايات إن عتيبة لما طلق أم كلثوم، أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيه بالكلام، فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فافترسه **أسد** في إحدى أسفاره، وكان هذا من آيات الله في الانتقام من أعداء رسوله.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- عداوة أقرب الناس للنبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الهداية بيد الله وحده، لا تُنال بالقرابة ولا يُحرَمها بالبعد، وإنما يَهَبُها الله لمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

- سورة المسد تأكيد على أن معاداة النبي صلى الله عليه وسلم معاداة لله عز وجل، ومآلها الهلاك الأبدي، وهذا من دلائل العقيدة في الولاء والبراء.

- إثبات عدل الله عز وجل في معاقبة من يستحق العذاب، وإن كان من أشراف الناس أو من أقارب الأنبياء، فليس في دين الإسلام محاباة في العقوبة أو الجزاء.

- العقوبة التي نزلت بأبي لهب وزوجه دليل على عقيدة الإيمان بالوعيد، وأن الله قد يعجّل لبعض الكافرين الخزي في الدنيا مع العذاب في الآخرة.

- يظهر في القصة أن الكيد للمؤمنين لا يضرهم إذا كان الله معهم، مما يعزز أصل الاعتصام بالله، والإيمان بحفظه لأوليائه.

- الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يتطلب تصديق ما أخبر به، ومن ذلك صدق وعيد الله لأبي لهب، وقد وقع كما أخبر القرآن، وهو من دلائل صدق النبوة.

- وجود السور التي تتحدث عن الكافرين بأسمائهم في القرآن دليل على أن التبرؤ من أهل الكفر والبدع أصل من أصول العقيدة.

فوائد فقهية:

- جواز ذكر أسماء أهل الشر والكفر في سياق التحذير والتنفير، كما ورد اسم "أبي لهب" وزوجته في القرآن، وهذا أصل في فضح دعاة الباطل، دون الإغراق في الخصومة أو الغيبة.

- فسخ الخطبة قبل الدخول لا يُعد طلاقًا شرعيًا، بل هو فسخ، وفيه إثبات لحِكمة الشريعة في رفع الضرر قبل حصوله، خاصة في حال ظهور العداوة للدين.

- في طلاق ابني أبي لهب لابنتي النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أهمية الموازنة بين صلاح الزوج والقرابة، وأن الزواج يُنظر فيه إلى الدين لا فقط النسب.

- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على من آذاه دليل على جواز الدعاء على الظالمين، خصوصًا إذا تعلق الأمر بالعداوة للدين.

- العدل في الزواج لا يقتصر على الاختيار المادي، بل يراعى فيه صلاح الدين، كما اختار الله لرقية عثمان بن عفان رضي الله عنه، بدل ابن أبي لهب.

فوائد أخلاقية:

- لا تغني القرابة عن حسن الخلق، فقد كان أبو لهب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك كان شديد الأذى، فعلى المسلم أن يزن الناس بالتقوى لا بالأنساب.

- الحقد والغلّ قد يعمي الإنسان عن رؤية الحق، كما فعلت أم جميل التي قابلت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بالحرب والسعي في إيذائه ليلًا ونهارًا.

- من الأخلاق الذميمة: الطاعة العمياء، فقد أطاع ابنا أبي لهب أباهما في طلاق بنات النبي صلى الله عليه وسلم، رغم أنهما لم يريا سببًا مقنعًا لذلك.

- الوفاء والنبل يظهر في تَحمُّل النبي صلى الله عليه وسلم الأذى من قرابته، وصبره على تطليق بناته، دون أن ينتقم أو يرد بالمثل، بل احتسب الأجر عند الله.

- في القصة دلالة على أن شدة العداوة قد تأتي ممن يُفترض أن يكون أولى الناس بالنصرة، وهذا من بلاءات الأنبياء والصالحين.

- الشر قد يكون ظاهرًا (كحمل الحطب) أو باطنًا (كالنميمة والسعاية)، وكلاهما مذموم شرعًا، وهو ما اجتمع في شخصية أم جميل.

فوائد تربوية ودعوية:

- على الداعية ألا يُفاجَأ إذا بدأت العداوة من أقرب الناس إليه، فإنها سنة ماضية في حياة الأنبياء، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم مع عمه.

- الثبات على الدعوة وعدم التراجع أمام الإيذاء من أهم صفات الداعية الناجح، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين استمر في دعوته رغم أذى أبي لهب.

- ينبغي على المربين أن يعلّموا أولادهم التمييز بين الحق والباطل، وألا يطيعوا آباءهم إذا دعوهم لمعصية الله، كما فعل ابنا أبي لهب.

مخالفات الواقع المستفادة من النص:

- انتشار تقديم النسب والمكانة الاجتماعية على الدين والتقوى في اختيار الأزواج، بينما يُقدّم الدين في الشرع، كما قال صلى الله عليه وسلم: "فاظفر بذات الدين."

- ما زال بعض الناس يوالون أقاربهم وأبناء عشيرتهم على حساب الدين، حتى إن ظلموا أو عارضوا الحق، كما فعل أبو لهب وأبناؤه، وهذا من عصبية الجاهلية المذمومة.

- ظاهرة الحقد على الملتزمين بالدين ومظاهر الطعن فيهم لا تزال قائمة، كما فعل أبو لهب وأم جميل مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهي طريقة تسلكها الفرق المنحرفة من زنادقة وحداثيين وعقلانيين يكرهون الالتزام ويستهزئون بالشعائر.

- النميمة ونقل الكلام والتحريش بين الناس ما زال يُمارس في المجالس، ويُنظر له على أنه ذكاء اجتماعي، كما كانت أم جميل "حمّالة الحطب" تمارس.

- التشكيك في صدق الدعاة ونياتهم، وتسفيه دعوتهم، ظاهرة منتشرة، وتقوم بها الفرق المنحرفة من المرجئة وأهل التمييع الذين يُسمّون الثبات على الحق "تشددًا."

- وجود من يتمنى فشل الدعاة والمصلحين في أسرهم وأولادهم، ويتتبعون عثراتهم الأسرية للنيل من دعوتهم، كما فعل أبو لهب بطلاق بنات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي سلوكيات نراها من أهل البدع والأهواء والليبراليين الذين يحاربون الدين تحت ستار النقد الاجتماعي.

الفقرة الحادية عشر: أبو جهل.. طاغية قريش، وعدو الوحي الأول

لم يكن اسمه يومًا "أبا جهل" حين كان يَسير مزهوًّا في طرقات مكة، بل كانوا يلقبونه "أبا الحكم"، لما كان يُعرف به من رجاحة في الرأي، ومنزلة في قومه. لكن ما إن لاحت أنوار النبوة في أرض الحرم، وصدع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالحق، حتى انقلب ذلك الرجل إلى شيطانٍ مريد، وجبّارٍ عنيد، فاستبدل الله لقبه بلقبٍ يُعبر عن حقيقته، فسُمي في صحائف السماء قبل أن تسير به ألسنة البشر :أبو جهل.

لقد كان أبا جهل رأس الكفر، وشيطان قريش الأكبر، الذي جمع خصال الطغيان والكبر والكيد، واجتمعت فيه قسوة القلب، وسخرية اللسان، وأذى الجوارح، حتى صار أشد الناس عداوةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يهدأ له بال إلا إذا آذى النبي، ولا يقر له قرار إلا إذا طعن في دينه، أو سفّه دعوته.

كم تربّص برفيقنا صلى الله عليه وسلم عند الكعبة، وهو قائم يناجي ربه، يقف أبو جهل فوق رأسه يتأمل سجوده الطويل، ثم يهمّ أن يطأ جبهته الشريفة بقدمه النجسة، يريد أن يُطفئ نور السماء، فخسأ وخذل، فالنور لا يُطفأ، والله لا يُخزي من اختاره لحمل الرسالة! فلما أراد تنفيذ وعيده، فإذا به يرتد مذعورًا، يتقهقر يتقي بيديه كأنما يصدُّ عنه أهوالاً لا تُرى، فلما سُئل عن حاله قال: "إن بيني وبينه خندقًا من نار، وأهوالًا وأجنحة."!
فقال النبي صلى الله عليه وسلم" :لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا] "رواه مسلم.[

بل روى أهل السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ عند الكعبة، فمرّ به أبو جهل، فقال بغلظة: "ألم أنهك عن هذا؟!" ثم تهدده، فزجره النبي صلى الله عليه وسلم، فانطلق ذليلًا يحرّض قومه على رسول الله، وقد أعمى الله بصيرته، فما رأى في النور إلا خصومة، ولا في الحق إلا عداوة.

وذات يوم، اجتمع هو وسفهاء قريش في نفر من أنداد الباطل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد لله قرب الكعبة، لا يسمع من حوله، فقد أغلقت الدنيا دون سمعه، وانفتحت أبواب السماء، فجاءوا بأقذر ما تهوى النفوس الخبيثة، سَلا ناقة، فألقوه على ظهره الطاهر، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يتحرك، حتى جاءت فاطمة، الزهراء الباكية، تمسح القذارة، وتبكي القسوة، وتدعو على الظالمين.
فقال صلى الله عليه وسلم بعدما انتهى من صلاته" :اللهم عليك بقريش"، وسمّى من بينهم أبا جهل، فوالله، لقد رأى الذين سمعوا الدعاء كيف نزل العقاب بالواحد تلو الآخر يوم بدر.

وكان أبو جهل لا يسمع بآية تُتلى إلا استهزأ، ولا يرى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أطلق لسانه بالسخرية والافتراء. وبلغ من عناده أن قال متحديًا رب السماء :﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾]الأنفال: ٣٢[،
فلم يسأل الهداية، بل سأل الهلاك، فأنزل الله به من الذلّ ما جعله عبرة للطغاة.

كان يؤلّب قريشًا، ويحرّض القبائل، يشعل نار الفتنة على المستضعفين من الصحابة، يأمر بجلد بلال، ويشجع على تعذيب ياسر وعائلته، حتى أزهقوا روح سُمَيّة أول شهيدة في الإسلام، وهو الذي بارك طعنها وأمر به، وما درى أن دمها سيكون لعنة عليه إلى يوم الدين.

لقد وقف في وجه الدعوة كما تقف الصخرة العمياء، لا تسمع، ولا ترى، ولا تلين، وما تحركت إلا لتؤذي، ولا نطقت إلا لتكذب وتطعن، فكان أشبه بجدار الظلام أمام فجر النور.

لكن الطغاة وإن اشتدّوا، فلن يطول بقاؤهم، فإن معركة بدر جاءت، وإذا بالضعفاء الذين استُضعفوا، يطؤون رأس فرعون هذه الأمة تحت أقدامهم، ويلقون به في قليب بدر مع صناديد الكفر، وها هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يعلو صدره، فيلفظ أنفاسه الأخيرة، فيذله بكلمة فقال: "لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا يا رُويعي الغنم!"، ثم أجهز عليه، فمات أذلّ ميتة عرفها طاغية!

وسُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن مصرعه، فأمر أن يُلقى في قليب بدر، ثم وقف عليه ينادي" :يا أبا جهل بن هشام... هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا."

مات أبو جهل، وذهب ذكره إلا في كتب العار، وبقي ذكر محمد صلى الله عليه وسلم يملأ الدنيا عدلًا ونورًا، وصدق الله :﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾]المائدة: ٦٧.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- لا قيمة للمنزلة الاجتماعية أو اللقب بين الناس إن لم يُقترن بالإيمان، فقد كان يُلقب "أبا الحكم"، فلما كفر وناصب النبوة العداء سُمي "أبا جهل"، وهذا يثبت أن العبرة بحقيقة الدين لا بالألقاب والهيبة الظاهرة.
- حماية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم معجزة ظاهرة، فقد أراد أبو جهل إيذاءه، فمنعته الملائكة، وهذا يدل على صدق نبوته وأنه مؤيد من الله.
- استهزاء الكفار بآيات الله وقوله: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ...﴾ دليل على عمى البصيرة، وأن الكفر قد يصل بصاحبه إلى تفضيل الهلاك على الهداية.
- الله عز وجل يكرم أولياءه وينتقم من أعدائه، كما حصل لأبي جهل في بدر، وهذا من دلائل عدله، ونصرة لدينه وأوليائه.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم مستجاب، فهو نبي معصوم مؤيد، ومن عادى رسول الله فقد عادى الله، ومن دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم نزل به الهلاك، كما وقع لأبي جهل ومن معه.
- الكرامة لأهل الإيمان ولو كانوا مستضعفين في الأرض، كما أن الذلة والخزي للطغاة، ولو كانوا أصحاب قوة، وهذا من سنن الله في خلقه.
- بقاء اسم أبي جهل في كتب السيرة ذمًّا وعارًا، وخلود ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، من دلائل صدق النبوة، وأن العاقبة للمتقين.

فوائد فقهية

- يجوز تسمية من اشتهر بصفة ذميمة بلقب يناسب فعله كـ "أبو جهل"، وهذا من باب الوصف لا السباب، وهو استعمال قرآني وسُني للتنفير من الكفر والضلال.
- النهي عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الأوامر الشرعية، ومن أعظم الجرائم التي يُعجّل الله العقوبة عليها في الدنيا قبل الآخرة.

- يُشرع دعاء المظلوم على الظالم، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على جواز رد الأذى بالدعاء مع الصبر.
- يجوز إخراج القذر من المسجد أو مكان الصلاة ولو أثناء الصلاة، كما فعلت فاطمة رضي الله عنها حين أزالت الأذى عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- يجوز تخصيص من ظلم بالدعاء عليه باسمه، كما سمّى النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهل ومن معه عند دعائه عليهم.
- من السنن الوقوف على قبور الكفار للدعاء عليهم والتذكير بعاقبة أعداء الله، كما وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر.

فوائد أخلاقية

- العبرة ليست بالمظاهر أو المكانة الدنيوية، وإنما بالأخلاق والإيمان، فأبو جهل كان سيدًا في قومه، لكنه مات أذل الناس، بينما عبد الله بن مسعود كان راعي غنم فارتقى أعظم مرتقى.
- موقف فاطمة رضي الله عنها يجسد عظمة البنت الصالحة، التي كانت شريكة والدها في البلاء والصبر، وهذا نموذج يُحتذى في بر البنات بآبائهن.
- الاستهزاء بالدين وأهله صفة دنيئة، لا تصدر إلا عن أصحاب القلوب المريضة والعقول السفيهة، كما كان أبو جهل يستهزئ بالنبي صلى الله عليه وسلم.
- الصبر على الأذى سمة أهل الحق، فقد تحمل النبي صلى الله عليه وسلم أقسى أنواع الإهانة الجسدية والنفسية ولم يرد إلا بالدعاء.
- من تواضع لله رفعه، فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان ضعيفًا في قومه، لكنه هو من أجهز على رأس الكفر، في مشهد من مشاهد نصر الله لعباده.
- تعذيب الضعفاء وتحقيرهم جريمة أخلاقية، ولا يصدر ذلك إلا عن الطغاة، كما فعل أبو جهل مع بلال وسمية، وهذا نذير نهاية مَن يفعل فعلهم.

فوائد تربوية ودعوية

- من أعظم وسائل الثبات في الدعوة التأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكيف واجه السخرية والأذى بالحكمة والصبر والدعاء.
- التربية على تحمل الأذى في سبيل الله ضرورة للداعية، حتى يرى في مشقة الطريق سبيلًا إلى الجنة لا سببًا للتراجع.
- الدعوة لا تقوم إلا على البذل والثبات، لا على الرفاهية والراحة، فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وبلاؤه تربية للأمة أن التمكين لا يكون إلا بعد ابتلاء.
- لابد من كشف رموز الطغيان والفساد في واقع الناس بالعلم والبيان، وعدم السكوت عنهم بدعوى الحكمة الزائفة، كما خلد الله ذكر أبي جهل في الذم.

مخالفات الواقع لنص الفقرة

- تمجيد الكفار والعصاة في وسائل الإعلام، وتصويرهم على أنهم أبطال قوميين أو مفكرين عقلاء، كما يُفعل في عصرنا مع بعض طغاة الكفر رغم محاربتهم للدين علنًا.
- التهاون في الاستهزاء بالمتدينين والدعاة إلى الله، بل والسخرية من شعائر الإسلام في بعض المجتمعات تحت مسمى "حرية التعبير."
- عدم تعظيم النصرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند سبه أو إيذائه، والاكتفاء بالردود الباردة، أو الدعوة إلى "عدم التصعيد."
- تصوير أهل الإيمان – خاصة الضعفاء منهم – بأنهم متشددون أو متخلفون، بينما يُمجد من يعذبهم أو يضطهدهم، كما كان يفعل أبو جهل.

ضعف اليقين بأن الله ينصر أولياءه، وانبهار البعض بسطوة الطغاة وكأنهم لا يُهزمون، مع أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تكشف زيف هذا الوهم.

كثرة من يطلبون الهلاك لأنفسهم أو يفرحون بعذاب الله بدلًا من طلب الهداية، كما فعل أبو جهل حين قال: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الفقرة الثانية عشر : هجرة المسلمين إلى الحبشة... حين فرّ الإيمان من بطش الظلم إلى حضن العدل

في مكة، مهبط الوحي، وموطن الطهر، كانت الأيام تمضي ثقيلةً كأنها الجبال، والأرض تضيق على المؤمنين بما رحبت، حتى صار الليل فيها سجناً، والنهار محنة، لا يُذكر فيها اسم الله إلا خفية، ولا يُتلى فيها القرآن إلا خطرًا. كانت السيوف تَشهر في وجه الدعوة، والسياط تُلهب ظهور الضعفاء، والإيمان يُطارَد كأنه جرم، وأهله كأنهم لصوص في أرضهم، غرباء بين أقوامهم!

وفي خضم هذا الليل الحالك، أذن الله بفسحة، بملجأ، بمهرب للإيمان من بطش الوثنية، فكانت أول هجرة في الإسلام.

لكن إلى أين؟
إلى مدينة مجاورة؟ لا.
إلى قبيلة ناصرة؟ لم توجد.
بل كانت الهجرة إلى أرضٍ بعيدةٍ خلف البحر، إلى الحبشة، تلك البلاد التي لا يعرفها العرب إلا من أخبار التجارة، ولا يربطهم بها نسبٌ ولا عهد.

ولم يكن فيها نبي، ولا مسجد، ولا مؤذّن، لكنها كانت تملك ما هو أعظم من كل ذلك في هذه اللحظة الحرجة :ملكٌ لا يُظلم عنده أحد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ضاقت مكة بالمستضعفين":إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه] "رواه أحمد والبخاري تعليقًا، وسنده حسن بشواهده.[

كانت هذه الكلمات النبوية نورًا يهتدي به المؤمنون، وأول درس عظيم في أن العدالة وطنٌ، ولو لم يكن الوطن دار إسلام، وأن الإيمان إذا طُرد من أرض الظلم، فإنه يبحث عن ظل العدل، ولو في قلب الغربة.

فخرجوا ليلاً، تسللوا من أعين قريش كالطيور المذعورة، لا يحملون معهم مالاً ولا سلاحًا، بل يحملون أعز ما يملكه المؤمن :الإيمان، وشيئًا من الزاد، ودموعًا في العيون، ويقينًا في القلوب، بأن الله لن يضيعهم، وأن البحر الذي يفصلهم عن الحبشة أهون من بطش قريش.

ركبوا البحر الأحمر، وهم يعلمون أنهم لا يعلمون ما ينتظرهم، لكنهم يعلمون من وعدهم بالنصر، ويثقون بمن وجّههم للهجرة.

وقد انقسمت هجرتهم إلى مرحلتين:

◆الهجرة الأولى:

وكان عددهم أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، كان من بينهم وجوه من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أول بيت في الإسلام يهاجر في سبيل الله. أبو سلمة، وزوجه أم سلمة، التي ستصير بعد حينٍ زوجةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

الزبير بن العوّام، عبد الرحمن بن عوف، مصعب بن عمير، عثمان بن مظعون، سعيد بن زيد ...وغيرهم من الكرام.

وصلوا إلى الحبشة منهكين، قلوبهم ترجو، وعيونهم تترقب. فلمّا بلغوا أرض النجاشي، آواهم، وأكرم مثواهم، وأذن لهم أن يعيشوا آمنين، يصلّون ويعبدون، لا يُساء إليهم ولا يُفتنون.

لقد وجدوا في أرض الحبشة ما فقدوه في مكة:
السكينة التي تبني النفس، والأمن الذي يحفظ الدين، والحرية التي تعين على العبادة.

ولكن... لم تكتمل الفرحة، إذ شاع في مكة أن قريشًا قد أسلمت، فاشتاقت القلوب للعودة، ورجع بعضهم، فلما اقتربوا من مكة، تبيّن كذب الخبر، وعادت قريش إلى طغيانها، بل ازدادت قسوة، فعاد كثير منهم إلى الحبشة مرة أخرى، وقد ازدادوا ثباتًا وإصرارًا.

◆الهجرة الثانية:
وكانت أوسع وأعمق أثرًا، إذ بلغ عدد المهاجرين فيها أكثر من ثمانين رجلًا، ومعهم من النساء من يحملن الدين في قلوبهن، والأمل في أرحامهن، فأسسوا في أرض الغربة جاليةً إسلاميةً هي الأولى من نوعها، تؤمن وتعبد، وتبني، وتُنشئ الجيل القادم بعيدًا عن سياط قريش، وتربص الجبابرة.

وكان النجاشي، الرجل العادل، لا يرضى أن يُظلم عنده أحد، فحاولت قريش أن تثيره عليهم، فأرسلت عمرو بن العاص بذكائه ولباقته، وجاء بالهدايا والدهاء، يُحرض الملك على طردهم، ويخوفه من دينهم الجديد...
فوقف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أمام الملك، ثابت القلب، صادق البيان، وألقى بين يديه كلمات من نور، تُروى إلى يوم الدين، فقرأ عليه سورة مريم، حتى بكى النجاشي وبكت بطارقته، وقال كلمته الخالدة:
"إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة." ثم التفت إلى قريش فقال" :اذهبوا، فوالله لا أُسلِمهم إليكم أبدًا، ولا يُكادون وهم في جواري."

وبذلك، صارت الحبشة أول أرض تؤوي الإسلام وأهله بعد مكة، وصار النجاشي أول من حمى دعوة التوحيد من خارج الجزيرة، وكتب الله له القبول، فأسلم بعد حين، وصلّى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب، وقال:
"إن أخًا لكم قد مات، فقوموا فصلّوا عليه] "متفق عليه.[

لقد كانت هجرة الحبشة هجرة المبادئ قبل الأجساد، هروبًا من القهر لا من الدعوة، بحثًا عن حضن عدلٍ لا عن وطن، درسًا خالدًا في أن الحق إذا ضُيّق عليه في موطنه، فإنه يصنع موطنًا جديدًا، يُنبت فيه الله شجرةً لا تُقتلع.

والله سبحانه علّمنا هذا المعنى حين قال :﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾]النساء: ٩٧.[

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

◆الهجرة إلى الحبشة تدل على أن أرض الله كلها لله، وأن الإيمان لا يُحدّ بحدود الأوطان، بل حيثما وُجد الأمن على الدين، فهناك دار هجرة، وهذا أصل من أصول الولاء لله والدين لا للتراب والطين.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم" *إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد* "دلالة على أن العدل من صفات يحبها الله، ولو وُجدت في غير المسلم، وأن عدل الكافر قد يكون ملاذًا للمؤمن إذا غاب عدل المسلم، وفي هذا رد على أهل البدع من الخوارج والمرجئة في فهم الولاء والبراء.

- ثبات النجاشي على الحق بعد سماع سورة مريم، وإيمانه بما جاء به عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم، يدل على أن الفطرة السليمة تهتدي بالوحي الصحيح، وهذا فيه إثبات أن دين الأنبياء واحد في التوحيد.

- صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي مع أنه لم يُهاجر إلى المدينة تدل على أن الله يقبل من عباده أينما كانوا، ما داموا على التوحيد، حتى ولو لم يستطيعوا الظهور بدينهم علنًا، وفيه إثبات للقبول عند الله لمن صدق وإن خفي عمله.

- الهجرة من بلد الكفر والظلم إلى بلد العدل دليل على أن الغاية الأولى هي حفظ الدين لا مجرد البقاء بين الأهل والعشيرة، وهذا فيه إثبات أن المحافظة على التوحيد مقدّمة على الروابط الدنيوية.

- في مشهد جعفر بن أبي طالب وهو يقرأ سورة مريم أمام النجاشي إثبات لسلطان الوحي على القلوب، وأن القرآن إذا قُرئ بصدق، أبكى القلوب وأنار العقول، وهذا من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية

- الهجرة من دار الكفر أو الظلم إلى دار يُمكن فيها إقامة الدين واجبة عند العجز عن إظهاره، كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وهذه قاعدة فقهية معتبرة في باب الهجرة والولاء.

- في تكرار الهجرة مرتين إلى الحبشة مع رجوع بعض الصحابة ثم عودتهم، دليل فقهي على جواز تعدد الهجرة بحسب الحاجة والظرف، وأن الرجوع إلى أرض الفتنة قبل زوالها خطأ قد يستدرك.

- سماح النجاشي للمسلمين بإقامة شعائرهم دون إكراه، يُستدل منه على أن إظهار شعائر الإسلام في دار غير إسلامية إن أُذن بها، لا يُعد كفرًا أو ولاءً لغير المسلمين، بل هو من باب الضرورة.

- قبول النجاشي للإسلام دون أن يُهاجر إلى المدينة، وعدم رؤيته للنبي صلى الله عليه وسلم، وصلاة النبي عليه صلاة الغائب، يدل على صحة إسلام من بلغته الدعوة على وجهها، وإن لم يلتقِ بالنبي، وفيه جواز الصلاة على الغائب إذا كان له أثر في نُصرة الدين.

فوائد أخلاقية وتربوية

- تسلل المهاجرين ليلًا، وتحملهم مشاق السفر والبعد عن الأهل والمال، فيه درس في التضحية لأجل العقيدة، وأن العزائم لا تُقاس بالراحة بل بالصبر على مشاق الطريق.

- الهجرة لم تكن هروبًا بل كانت انتقالًا بالإيمان إلى أرض يشتد فيها عوده، وهذا يُعلّمنا أن المواقف الكبيرة تُبنى في الخفاء أولًا، بعيدًا عن الضجيج، وأن الحكمة أن تبدأ الدعوة من حيث تكون أكثر أمانًا.

- تصرف جعفر بن أبي طالب في موقفه مع النجاشي، وتقديمه الحق بالحجة والهدوء دون سبّ أو تهجم، يعلمنا أن الخلق الرفيع أقوى في بيان الدين من التحدي والغِلظة.

- بقاء الصحابة في الحبشة رغم البعد عن مكة دليل على أن النفس المؤمنة تؤثر راحة القلب وحرية الدين على الراحة الجسدية والاجتماعية، وأن الغربة من أجل العقيدة شرف لا مذلة.

- تكوين جالية إسلامية في الحبشة رغم بُعدها يُعلّم المسلمين في أي مكان أنهم قادرون على البناء والتأثير متى ما حافظوا على هويتهم، حتى وإن كانوا قلة أو في بلاد غير المسلمين.

فوائد دعوية

- كلمات النبي صلى الله عليه وسلم الموجزة" *إن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد* "كانت مفتاح هداية وقرارًا مصيريًا لأصحابه، وفيها تعليم للدعاة أن الكلمة الموجزة الصادقة قد تغيّر مصير أمة.

- دعوة جعفر للنجاشي لم تكن بإكراه ولا غلظة، بل بعرض صادق لوحي الله وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه أن الدعوة تبدأ بربط الناس بالأنبياء والوحي، لا بالخلافات الجانبية.

- بكاء النجاشي وبطارقته حين سمعوا سورة مريم، فيه تربية للدعاة على استخدام الآيات المؤثرة الموافقة لحال المدعو، لا الكلام العشوائي أو الاستعراض الخطابي الذي يُنفر.

مخالفات الواقع

- كثير من المسلمين اليوم يظنون أن الهجرة لا تكون إلا من الكافر إلى المسلم، وينسون أن العدل والحرية قد يُوجدان عند الكافر ويُعدمان في ديار تدّعي الإسلام، وهذا جهل بحقيقة مقاصد الشريعة.

- بعض الناس يُخطئون في فهم الولاء والبراء، فيُكفّرون من أقام في بلاد غير المسلمين، ويزعمون أن ذلك من موالاة الكفار، وهو انحراف عن منهج أهل السنة، وقد وقعت فيه الفرق الغالية كالخوارج.

- هناك مَن لا يزال يُربّي أبناءه على الخوف من الغربة والاغتراب، ويمنعهم من الهجرة النافعة لأجل الدين، بحجة التعلّق بالوطن، وينسى أن الوطن الحقيقي هو حيث يُعبد الله بحرية وأمان.

- في المقابل، هناك مَن يهاجرون من بلاد المسلمين إلى الغرب، لا لحفظ الدين، بل لأجل الدنيا، ويتنازلون عن دينهم هناك، وهذا عكس مقصد الهجرة، وهو من الانحراف الذي وقع فيه بعض المفتونين بالدنيا.

- من المخالفات الظاهرة اليوم: تشويه صورة من يلجأ إلى العدل في بلاد غير المسلمين، ووصمهم بالخيانة، في حين أن الصحابة فعلوا ذلك بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فمن خالفهم فقد خالف سبيل المؤمنين.

- بعض المنتسبين للدعوة اليوم يُهاجمون أهل العدل من غير المسلمين، ولو لم يؤذوا المسلمين، ويُحرّضون على العنف باسم الدين، وهم بذلك أقرب إلى فِرَق الضلال من أمثال الخوارج والمعتزلة الذين يُفسدون باسم الغيرة والحق.

- هناك من يسخر من إقامة المسلمين في بلاد الغرب، ويستهزئ بتكوين الجاليات، ويجهل أنهم امتداد لنهج الصحابة الذين أقاموا في الحبشة أول جالية تحفظ الدين وتُنميه، وهو جهل بحقيقة التاريخ والدين.

الفقرة الثالثة عشرة: رحلة العودة: صدمة الواقع ومرارة الانتظار

حين لامست أقدام المهاجرين تراب الحبشة، وأظلّتهم سماؤها الوادعة، شعروا ولأول مرة منذ إسلامهم بشيء من الطمأنينة ...لا سيوف تشهر، ولا سياط تنهال، ولا سباب يملأ الآذان،
بل أرض آمنة، وملك عادل، وقلوب تنبض بالإيمان في كنف الغربة، ولكن مع ذلك... لم يكن القلب ليهدأ أو يسكن، فبين الضلوع حنين جارف، لا يُقهر، إلى مكة... إلى الكعبة... إلى الأهل والذكريات... إلى الأرض التي ولدوا فيها، وعليها عرفوا الله أول مرة.

وفي لحظة خاطفة، كما يهب النسيم العابر في صحراء ملتهبة، حملت الرياح إليهم بشرى!
"قريش قد أسلمت" كبار سادتها سجدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم عند الكعبة"!
يا الله...
أي بشارة أعظم من أن يُرفع الظلم؟
وأي رجاء أصدق من أن تعود الأرض دار توحيد بعد أن أرهقتها الأصنام؟!

انبثقت الفرحة في القلوب كأنها النور بعد عتمة، واشتعل الأمل كجذوة لا تُطفأ، وتاقت الأرواح إلى معانقة البيت العتيق، وإلى سماع صوت النبي صلى الله عليه وسلم يصدح بالقرآن بين جدران مكة، فشدّوا الرحال إلى الوطن، تسبقهم الدموع، وتحلق في صدورهم الأحلام، وكأنهم يرون جبال مكة تعانقهم من بعيد.

لكن الحلم سرعان ما تصدّع تحت وطأة الواقع، والرجاء الجميل تحطم على صخرة الغدر!

فلما اقتربوا من مكة، فإذا بها كما تركوها... بل أشد قسوة، وأقسى قلباً.
قريش لم تسجد، ولم تُسلم، بل اشتدت في عنادها، وازداد طغاتها شراسة، وكانت الشائعة التي حملوها معهم **كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماء**، فإذا جاءه لم يجد إلا نار العداوة، وسُعَار الكفر.

ولما عادت أقدامهم تطأ تراب الحرم، لم يكن في انتظارهم الأحضان، بل العيون الغاضبة، والسياط التي تلهب الجلود، والسخرية التي تمزق الأرواح.
كانت **الخيبة موجعة**، والخذلان مرًّا، كأنما صفعهم الواقع بقسوة، بعد أن داعبهم الحلم برفق.

فما كان من بعضهم إلا أن تراجعوا سريعًا، يطوون المسافات نحو النجاشي، لكن هذه المرة **عادوا بإيمان أصلب، وثبات أشد، ونفوس تعرف أن الحق ليس نزهة، بل ابتلاءٌ، وجهادٌ، وانتظار.**

أما من لم يستطع العودة، فقد بحث عن ملاذ في جوار بعض سادة قريش، كعثمان بن مظعون رضي الله عنه، الذي دخل في جوار الوليد بن المغيرة، ثم ما لبث أن رد عليه جواره، واختار أن يذوق مع إخوانه مرارة الأذى، ولا يعيش في ظل الحماية وهو آمن.

ومنهم من صبر وربط على قلبه، وتحمل العذاب، وبقي شاهداً على أن ثمن الإيمان باهظ، وأن الله يبتلي المؤمنين ليميز الصادقين من المدّعين. قال الله تعالى :﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾]العنكبوت: ٢.[

لقد كانت هذه الحادثة درسًا خالدًا في معنى **الابتلاء، ومرارة الانتظار، وحقيقة التوكل**، فإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود، بل هو طريق تختبر فيه القلوب، ويُوزن فيه الصبر، وتُمحص فيه العزائم.

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال" :**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**] "رواه الترمذي.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الابتلاء سنة ماضية في حياة المؤمنين، به يميز الله الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.
- الإيمان الحق لا يكتمل إلا بالصبر على البلاء والرضا بحكم الله في الشدائد.
- التحذير من الاغترار بالشائعات أو الأخبار غير الموثوقة في أمور الدين، فالمعيار هو الحق الثابت لا العاطفة المؤقتة.
- بيان أن النصر والفرج بيد الله وحده، وليس متعلقًا بمظاهر أو أمانٍ، ولو كانت متعلقة ببيت الله الحرام.
- أن من صفات المؤمنين ترك التنازل عن دينهم ولو وجدوا حماية أو ملاذًا عند أهل الكفر، كما فعل عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

فوائد فقهية

- جواز الهجرة من دار الكفر إلى دار الأمن إذا تعذر إقامة الدين.
- مشروعية قبول الجوار من غير المسلم عند الحاجة، ثم تركه إذا زال السبب أو كان فيه مفسدة.
- الحذر من نشر الأخبار التي لم تثبت، لما قد يترتب عليها من مفاسد وفتن.

فوائد أخلاقية

- الوفاء للأمة والصبر على مشاقها خير من العيش في أمان فردي بعيدًا عن معاناة المسلمين.
- قوة المروءة في ترك الامتيازات الخاصة إذا لم يشارك بقية المؤمنين فيها.
- الإيثار في احتمال الأذى مع الجماعة بدلًا من الانفراد بالراحة.

فوائد سلوكية

- عدم التعجل في الحكم على الأحداث قبل التثبت، والصبر على التبين.
- ترسيخ خلق الثبات عند الصدمات، وعدم الانكسار أمام أول اختبار.
- فهم أن طريق الدعوة محفوف بالعقبات، ويتطلب إعداد النفس لاحتمال الخيبة المؤقتة.

فوائد سياسية وعسكرية

- ضرورة التثبت من الأخبار قبل بناء قرارات استراتيجية عليها، لأن الشائعة قد تفسد خطة كاملة.
- أن العدو قد يستغل الأخبار الكاذبة لإضعاف عزيمة المؤمنين وإرباك صفوفهم.

فوائد إدارية وقيادية

- القائد الحكيم يعد أتباعه نفسيًا لاحتمال الانتكاسات، حتى لا تنهار عزيمتهم إذا جاءت النتائج عكس المتوقع.
- أهمية وجود خطط بديلة عند فشل الهدف الأساسي، كما عاد بعض الصحابة للحبشة مباشرة.

فوائد اجتماعية

- تلاحم المؤمنين في الشدائد يزيد ترابطهم، بخلاف من ينعزل عن معاناة إخوانه.
- التضحية بالأمان الفردي لمصلحة الجماعة من أخلاق القادة الصالحين.

فوائد نفسية

- الأمل المفرط غير المبني على واقع ثابت يؤدي إلى صدمة نفسية شديدة إذا انهار.
- البلاء يربّي النفس على الصلابة والاعتماد على الله بدل التعلق بالمظاهر.

فوائد تاريخية وحضارية

- حادثة رجوع بعض المهاجرين من الحبشة تكشف كيف كانت مكة في عنادها قبل الفتح، وأن الفتح لم يكن وليد لحظة بل ثمرة صبر طويل.
- إبراز دور النجاشي كملجأ آمن للمسلمين في وقت كانت فيه الجزيرة كلها تقريبًا تحت سلطان الشرك.

مخالفات الواقع

- سرعة تصديق الأخبار الزائفة وتداولها دون تثبت، خاصة في القضايا الكبرى التي تخص الأمة.
- بحث بعض الأفراد عن الأمان الشخصي ولو على حساب مصلحة الأمة أو ترك الجماعة في محنتها.
- ظن بعض الناس أن طريق الإصلاح أو النصر سيكون سهلًا، دون جهد أو تضحيات.
- الانكسار النفسي أمام أول فشل أو خيبة، بدلًا من تحويل التجربة إلى درس في الصبر والثبات.
- التعلق بالأماني الكاذبة بدل الأخذ بالأسباب الشرعية والواقعية.
- غياب مبدأ المشاركة في تحمل آلام الأمة، والاكتفاء بالمشاهدة من بعيد.

الفقرة الرابعة عشرة : الهجرة الثانية إلى الحبشة: أملٌ جديد وتحدٍّ قديم

بعد أن تبدد سراب الأمل في مكة، وانكشفت الشائعات الكاذبة على صخرة الواقع الأليم، أدرك المسلمون أنه لا مقام لهم في ديارهم، ما دامت قريش ماضية في غيها وجبروتها. فقرروا أن يشدوا الرحال من جديد إلى أرض الحبشة، ولكن هذه المرة لم تكن هجرة أفراد متفرقين، بل كانت هجرة جماعة مؤمنة، يقودها إيمان راسخ، وقلوب موقنة بوعد الله.

في مقدمة هذه الرفقة المباركة كان جعفر بن أبي طالب، صاحب الفصاحة والبيان، وزوجته أسماء بنت عميس، ومعهما لفيف من خيرة الصحابة، بلغ عددهم قرابة الثمانين رجلًا ونحو عشرين امرأة، حملوا إيمانهم زادًا، وتقدمهم الأمل في أرض النجاشي، الملك العادل.

وصلوا إلى الحبشة، فوجدوا الأمن والطمأنينة كما عهدوها. لكن قريشاً، وقد بلغها خبر ازدياد أعداد المهاجرين، لم تطق أن ترى المسلمين يفرّون من سطوتها وينعمون بالأمان، فأرسلت وفدًا داهيةً من سادتها، يتقدمه عمرو بن العاص - وكان يومئذٍ على شركه- وعبد الله بن أبي ربيعة، يحملان الهدايا الثمينة للنجاشي ولبطارقته، في محاولة لاستمالتهم قبل أن يسمعوا كلمة واحدة من المسلمين.

وصل الوفد القرشي، وقدم الهدايا، ثم خطب عمرو في النجاشي قائلاً": أيها الملك، لقد لجأ إلى أرضك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك أشراف قومهم لتردّهم إليهم، فهم أعلم بهم وأدرى بما قالوا وفعلوا."

وكانت كلماته تمهيدًا لخطة خبيثة، تُفضي إلى تسليم المسلمين دون تحقيق أو إنصاف.
لكن النجاشي، وقد كان عادلاً لا يُخدع، رفض أن يسلم قوماً لجؤوا إليه حتى يسمع حجتهم. فأرسل في طلب المسلمين، فاجتمع الجمع، والأجواء مشحونة بالترقب.

قام جعفر بن أبي طالب، بثبات الجنان وفصاحة البيان، يروي للملك قصة قومه، فقال":أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونقطع الأرحام، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده...". ثم سرد عليه تعاليم الإسلام ومكارمه، وكيف تبدّلت حياتهم من ظلمة إلى نور، ومن ظلم إلى عدل، وأنهم ما خرجوا إلا فرارًا بدينهم.

فطلب النجاشي أن يسمع من كلام نبيهم، فتلا جعفر آيات من سورة مريم، فاهتزّ لها وجدان الملك، وبكت عيناه، حتى خضلت لحيته، وقال":إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا! فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا، ولا يُكادون."

هكذا انهزمت قريش في أول معركة دبلوماسية لها، وعاد وفدها يجر أذيال الخيبة، بينما بقي المسلمون في كنف النجاشي آمنين، ينعمون برعاية ملكٍ أنصفهم قبل أن يعرفهم، وصدقهم قبل أن يختبرهم، فكان لله جنديًّا من حيث لا يعلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الهجرة في سبيل الله دليل على صدق الإيمان ويقين المهاجر بوعد الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، فخروجهم لم يكن لأجل الدنيا بل فرارًا بدينهم.
- في ثبات النجاشي وعدله وهو نصر للمؤمنين، إثبات أن الله يسخّر من يشاء من عباده لنصرة دينه، حتى لو لم يكن ظاهرًا من أهل الإسلام، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.
- بيان أن الإسلام جاء بدين الفطرة، دين التوحيد والنقاء، الذي يربط أتباعه بالله تعالى وحده، ويحررهم من عبادة البشر والحجر.
- في بكاء النجاشي من سماع القرآن تصديقٌ بأن كلام الله تعالى يهز الفطر السليمة، ويؤثر في القلوب المنصفة مهما كانت بعيدة عن الإسلام.
- جعل الله سبحانه وتعالى النصر حليفًا للحق، وإن لم يكن مع أصحابه قوة مادية، كما نصرت قلوب العدل أهل الحق وهم غرباء.
- وصف جعفر لحال الجاهلية ثم نعمة الإسلام يرسّخ أن الهداية والتوحيد هما أعظم النعم، وأن ما عداها من مكارم الأخلاق لا تغني عن الدين شيئًا.
- تلاوة جعفر لآيات من سورة مريم فيها بيان أن القرآن هو الحجة الكبرى، وأن ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم يوافق ما جاء به عيسى عليه السلام من التوحيد الخالص، لا كما تزعم الفرق الضالة.
- أن الصحابة، وهم صفوة هذه الأمة، لم يكن إسلامهم مجرد تقليد، بل إيمان مبني على معرفة بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته، وهذا من أصول أهل السنة في الإيمان بالنبوة.

فوائد فقهية:

- الهجرة في سبيل الله واجبة عند عدم القدرة على إقامة الدين، وهذا أصل من أصول فقه الهجرة، دل عليه فعل الصحابة.
- لا يُسلّم المسلم للكفار إن خاف عليه، وهذا أصل في باب الأمان والولاء، وهو ما فعله النجاشي، فامتنع عن تسليمهم دون سماع حجتهم.

- جواز الاستعانة بالكافر العادل إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين، بشرط أن لا يؤدي إلى مفسدة أعظم.
- في تلاوة جعفر للقرآن حُجّة أمام النجاشي، بيان لجواز الاستدلال بالقرآن في الحوار مع غير المسلمين لبيان صدق الرسالة.
- أن الشفاعة في الباطل مردودة، ولو كانت من سادة القوم، كما رفض النجاشي شفاعة عمرو وعبد الله بن أبي ربيعة رغم مكانتهما.
- تقديم جعفر للبيان قبل التلاوة فيه منهج دعوي راقٍ: يبدأ بالشرح ثم يستشهد بالنص، وهو من فقه الدعوة.
- حرص الصحابة على اجتماعهم تحت قيادة جعفر يدل على أهمية التنظيم والتشاور الجماعي في أحوال المسلمين.

فوائد أخلاقية:

- ثبات جعفر بن أبي طالب أمام ملكٍ غريب وجمعٍ مهيب فيه شجاعة وإيمان وعزة، لا وهن فيها ولا انكسار.
- إنصاف النجاشي وعدله في الاستماع للطرفين قبل الحكم نموذج للأمانة والحكمة، وهو خُلق عزيز في زمن الأهواء.
- وصف جعفر لحال الجاهلية فيه صدق مع النفس واعتراف بالخطأ قبل الإسلام، وهذا من علامات التواضع والاعتراف بنعمة الهداية.
- اجتماع الصحابة رجالًا ونساءً على الإيمان والتضحية فيه تكافل وتعاضد أسري واجتماعي يُبنى على العقيدة لا النسب.
- قوة جعفر في عرض الإسلام دون خجل دليل على فقهه وشجاعته الأدبية، وعدم خشيته من استهزاء الناس.
- رفض النجاشي للهدايا المقدمة على باطل درس في النزاهة وعلو الهمة والعدل، وعدم بيع القيم بالمكاسب.
- بكاء النجاشي عند سماع القرآن فيه رقة قلب وتجاوب فطري مع كلام الله، وهو من علامات القلب الحي.

فوائد دعوية وتربوية:

- ما فعله جعفر هو دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، لا سبّ فيها ولا شتيمة، بل عرض صادق ونزيه للدين.
- التربية النبوية أثمرت رجالًا يعرفون متى يتكلمون وكيف يقدمون الإسلام في أحسن صورة، كما فعل جعفر.
- حسن اختيار القائد لهذه الهجرة – وهو جعفر – دليل على أن الدعوة تحتاج إلى أصحاب بيان وقوة شخصية وفقه.
- في مخاطبة النجاشي باللين والتقدير درس للدعاة في احترام المقام والمخاطبة بما يناسب عقول الناس وطبائعهم.

مخالفات الواقع:

- تساهل كثير من المسلمين اليوم في أمر الهجرة الشرعية، حتى صار بعضهم يتنازل عن دينه ليبقى في بلاد الكفر، ولا يتحمل لأجل دينه أذى أو غربة.
- انخداع بعض الشباب اليوم بزخارف الغرب وتبريرهم للعيش في المجتمعات الفاسدة بدعوى الحرية، رغم أنهم لا يجدون فيها أمن الدين.
- تغييب روح الإنصاف عند كثير من القضاة والحكام في العالم الإسلامي اليوم، فيسلَّم المظلوم دون تحقيق، وتُقبل الشفاعة في الباطل.
- خضوع بعض القيادات الإسلامية لمنطق السياسة والمصلحة، ولو على حساب المبادئ، عكس ما فعله النجاشي الذي أنصف قبل أن يعرف.
- غياب النموذج الدعوي المتزن الذي يجمع بين البيان والتأثير والصدق كما كان جعفر، فضعف كثير من الدعاة في خطاب غير المسلمين، وخلطوا بين الاعتذار والانبطاح.
- تقاعس البعض عن بيان حقيقة الإسلام والتوحيد عند الحوار مع الآخرين، خوفًا من ردود الأفعال، عكس جعفر الذي بيّن

الشرك والجاهلية بوضوح.

- وجود من ينتسب إلى الإسلام لكنه يشكك في أن القرآن يُقرأ على غير المسلمين أو يؤثر فيهم، مخالفين بذلك ما فعله جعفر وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع الوفود.
- انتشار مناهج فكرية منحرفة، تدّعي أن كل الأديان واحدة بلا تمييز، وتذوب فيها معالم التوحيد، بينما النجاشي فرّق بين ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وما عليه قريش والباطرقة.

الفقرة الخامسة عشر: حصار الشعب: ليل الظلم وسراج الإيمان

حينما خاب سعي قريش في استرداد المهاجرين من أرض الحبشة، وعجزت مكائدها عن كسر شوكة الإسلام الغضّة، وانكشفت لها ثباتُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم، وازدياد أتباعه يومًا بعد يوم، انفجرت أحقاد الجاهلية، وتفتحت عروق الحسد والغيظ، فاندفع زعماء الشرك إلى مكرٍ مظلم لا يرقى إليه شرف، ولا تقبله مروءة، ولا يعرفه وجدان.

في دار الندوة، حيث يجتمع كبراء قريش لتدبير أمرهم، التأم جمعهم في ليلة خبيثة، واتفقوا على أعظم جريمة أخلاقية واجتماعية عرفها العرب في جاهليتهم، إذ خطّت أيديهم وثيقةَ قطيعةٍ جائرة، حرّموا فيها كل معاني الإنسانية تجاه بني هاشم وبني المطلب، ما داموا يناصرون النبي صلى الله عليه وسلم.
علقوا تلك الصحيفة الظالمة في جوف الكعبة، في بيت الله الحرام، كأنهم يستبيحون قدسيته، ويدنسون حرمته، بما سطرت أيديهم من ظلمٍ يندى له جبين الكرام، كُتب فيها" :ألا يُناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يكلموهم ولا يجالسوهم، حتى يسلّموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم للقتل".

فما كان من المؤمنين، ومن شاركهم النخوة من الكفار من بني هاشم والمطلب، إلا أن انسحبوا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى شِعب أبي طالب، ذلك الوادي الضيق بين الجبال، الذي صار لهم سجنًا بلا قضبان، ومقبرةً باردةً تُدفن فيها الحياة شيئًا فشيئًا.
ثلاث سنوات عجاف، لا يُسمع فيها إلا أنين الأطفال، ولا يُرى فيها إلا وجوهًا ذابلة من الجوع، وأعينًا سهِدة من الخوف والحزن، يُقطِّعون الجلود اليابسة، ويقتاتون على أوراق الشجر، كما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : "لقد كنتُ أطأ الجَلْدَ فأشويه وآكله، وأشرب عليه من الماء] ".رواه البخاري.[

تُسمع صرخات الأطفال في جنح الليل تنادي الجوع، وتُغلق دونهم أبواب القلوب والرحم، فلا أحد يجرؤ أن يمد يدًا بخبز أو جرعة ماء، ومن تجرأ فإن مصيره النكال من قريش.
إنه البلاء في أقسى صوره، بلاء يفصل الإنسان عن الإنسان، ويُبلي وشائج القرابة، ويختبر معادن الرجال.

لكن الله تعالى لا يُضيع أولياءه، فقد قال سبحانه :أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا] {...البقرة: ٢١٤.[
وكانت تلك الليالي الحالكة تضيء في القلوب نورًا لا ينطفئ، إذ كان الإيمان أعظم قوتهم، والصبر زادهم، واليقين بالله دثارهم.
وقد ثبت في الصحيح أن الله أرسل على تلك الصحيفة دابةً أكلت كل ما فيها من جور وقطيعة، ولم تُبقِ إلا اسم الله، فكانت الآية الباهرة، وكانت بداية الفرج.

وبينما تئن القلوب من ألم الجوع والعزلة، كانت النفوس تُصقل، والمواقف تُبنى، وتاريخٌ نقيّ يُكتب بالدمع والعرق والتضحية.

وخرجوا من الشعب بعد ثلاث سنين، وهم أصلب عودًا، وأثبت قدمًا، وأشدُّ يقينًا بأن هذا الدين منصور، ولو كره الكافرون.

إنها سنّة الله في عباده، يبتلي ليزكي، ويمتحن ليصطفي، ويشتد الظلام قبيل الفجر، ثم تشرق الشمس، ويُزهق الباطل، وتبقى القلوب المؤمنة تنبض وفاءً وصبرًا ويقينًا.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسط الجوع والحصار برهانٌ على أن الإيمان الحق يُثمر اليقين والثبات، ولو اجتمعت الدنيا على إيذاء المؤمنين، فإن قلوبهم مربوطة بالله وحده.
- الإيمان بأن النصر لا يأتي إلا بعد تمحيص وابتلاء، كما قال الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...}، فهذا من أصول الاعتقاد في سنن الله الجارية، أن الابتلاء سنة ماضية لا يستثني الله منها أحدًا من أوليائه.
- إرسال الله الدابة لتأكل الصحيفة الجائرة معجزة ظاهرة، تثبت قدرة الله وتصرفه في الكون، وتعضد الإيمان بالكرامات التي يجريها الله لأوليائه.
- قَبول الصحابة للجوع والعزلة والتضحية بأجسادهم وراحتهم لأجل الدين دليل على إخلاصهم، ومنهج أهل السنة إثبات فضل الصحابة وعدالتهم ومكانتهم.
- أن الله عز وجل لا يُضيع أولياءه، وإن طال البلاء، فإنه ناصرهم ولو بعد حين، وهو توحيد في الربوبية والولاية، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.}
- ما فعله الكفار من تعليق الصحيفة في الكعبة مع ما فيها من ظلم، فيه دلالة على أن الشرك يفسد الفطرة، فلا قداسة عندهم لحرم ولا تقدير لمقدّس، وهذا حال فرق الغلو التي تتاجر بالدين وهي تمتهن حرماته.
- استقواء قريش على فئة مستضعفة مع علمهم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم يبيّن أن الحسد والهوى قد يطمسان أعين الناس عن نور الوحي، وهو مما تقرره كتب العقيدة في باب اتباع الهوى ورد الحق.

فوائد فقهية:

- ما فعله المؤمنون من ترك ديارهم والدخول إلى الحصار معهم، دليل على مشروعية مناصرة الحق وإن ترتب عليها ضرر دنيوي، وهو أصل في باب الولاء والنصرة.
- امتناع الناس عن إيصال الطعام والماء للمحاصَرين يُظهر أثر المقاطعة الاقتصادية في الإسلام، ويُبيّن أنه سلاح ذو حدين، تُذمّ إن كانت على الباطل.
- صبر الصحابة على الجوع والتضييق فيه مشروعية تحمل المشقة في سبيل الله، وهو من أبواب الاحتساب، ويظهر فيه جواز أكل الضرورات عند الحاجة القصوى كما فعل سعد.
- يدل الحديث عن أكل الجلود على قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات" بضوابطها، وهي من القواعد الكبرى في الفقه.
- كتابة الصحيفة الظالمة وتوقيعها من وجهاء قريش يؤسس لحكم شرعي في حرمة الظلم الجماعي، وأن كل من شارك في الظلم فهو شريك في الإثم.
- تعليق الصحيفة في الكعبة لا يُكسبها شرعية، فالمكان لا يقدّس العمل الفاسد، وهذا أصل في التمييز بين صورة العمل

وحقيقته.

- تدخل الله بمعجزة أكل الصحيفة يبين أن الفرج قد يكون بغير الأسباب الظاهرة، وهو باب فقه السنن الإلهية وتعلق القلوب بالله لا بالأسباب وحدها.

فوائد أخلاقية:

- مشهد الصبر الجماعي، رجالًا ونساءً وأطفالًا، يبيّن أن الأخلاق الإسلامية تتجلى في الشدائد أكثر منها في الرخاء.
- التحاق بني المطلب وبني هاشم بالحصار رغم كفر بعضهم، فيه درس في الوفاء والنخوة، وهي من مكارم الأخلاق التي لا تتعارض مع العقيدة ما دامت لا تنصر الباطل.
- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الظلم رغم قدرته لاحقًا على الانتقام، يُعلّمنا الحِلم وضبط النفس وانتظار أمر الله.
- وجوه الأطفال الجائعة، وعيون النساء الساهرة، صورة من صور التضحية الاجتماعية في سبيل المبادئ، لا يقدر عليها إلا أصحاب قلوب حية.
- الحصار لم يُنتج في المؤمنين نقمة ولا حقدًا، بل قوّى فيهم العزيمة، فكان دربًا لصقل الإيمان لا لتشويهه.
- في صبر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على أكل الجلود، قدوة للجيل في تحمل المشاق في سبيل ما يؤمن به، لا التعلل بضرورات وهمية كما يفعل كثيرون اليوم.

فوائد دعوية وتربوية:

- الحصار كشف المعادن، وميز الصفوف، وهي سنة دعوية تربوية ربانية، أن البلاء يصنع القادة، ويغربل الطاقات.
- هذا الابتلاء أظهر صدق الدعوة، إذ لم يكن فيها إغراء دنيوي، بل شدائد واختبارات، ومن ثبت معها علم صدقه.
- كلما اشتد الظلام، ازداد تعلق المؤمنين بالله، فكانوا يوقنون أن الله ناصرهم، وهذه تربية عملية على التوكل والرجاء.
- العزلة التي فُرضت على المؤمنين لم تمنع الإيمان من النمو، مما يعلم الدعاة أن القوة ليست في الوسائل، بل في الصدق والإيمان.

مخالفات الواقع:

- تساهل بعض الناس في نصرة المظلومين اليوم، حتى مع علمهم بالحق، فيرضون بالحياد البارد كما لم يفعل بنو المطلب حين شاركوا في الحصار نُصرة للنبي صلى الله عليه وسلم.
- تزييف الإعلام للحقائق في زماننا يشبه صحيفة قريش، إذ يُكتب فيها ما يشاء أهل الباطل دون عدالة أو إنصاف، ويُحجب صوت المظلوم.
- وجود فئات اليوم تعلّق الشعارات البراقة على مؤسسات دينية أو وطنية وهي تمارس الظلم باسم القيم، يشبه استباحة قدسية الكعبة لتعليق وثيقة الجور.
- سكوت بعض العلماء والمفكرين عن الظلم خوفًا من بطش السلطان، كحال من سكت عن حصار بني هاشم، مما يخالف واجب البيان.
- ضعف الصبر على الأذى في سبيل الله، فتجد من يترك الدين أو يُجامل الباطل لأجل لقمة العيش، بينما الصحابة أكلوا الجلود ولم يساوموا على دينهم.
- ظهور بعض الفرق المنحرفة التي تزعم أن النصر لا يأتي إلا بالقوة والسلاح، بينما تُظهر السيرة أن الابتلاء والصبر

والتدرج سنة ماضية في التمكين.

♦انتشار فكر "الانسلاخ من الجماعة" في مواجهة الأزمات، بينما الصحابة ازدادوا تمسكًا بجماعتهم في الشعب، فهذه الفرق تفرّق ولا تبني، وتخالف هدي السلف.

♦جحود كثير من الناس اليوم لنعمة الإيمان، فيعيشون في رخاء ويبيعون دينهم، بينما أولئك في الشِّعب فدوا الإيمان بالجوع والعطش.

الفقرة السادسة عشر: نقض الصحيفة... صرخة العدل في وجه الظلم، ونصرة من خارج أسوار الشعب

ثلاث سنوات مضت كأنها الدهر، حملت فيها شعاب مكة آهات الجوعى، ودموع الأطفال، وأنين الأمهات، وزفرات الرجال الذين ضُربت عليهم العزلة والقطيعة، لا لذنب اقترفوه، بل لأنهم ناصروا كلمة الحق، وآمنوا برسالة النور، واصطفوا خلف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

لقد كانت تلك السنين كأنها صخرة تنهال على الأجساد، تنهشها الجوع والحرمان، لكنها في المقابل كانت تغسل الأرواح، وتصفّي القلوب، وتزيد الثابتين ثباتًا، والموقنين يقينًا، والمتوكلين توكلًا.

وفيما بدا للناس أن مكة كلها قد رضيت بالظلم، وسكنت للعدوان، وأن القلوب قد تحجرت كأصنامها، انبعث من تحت الرماد قبس من المروءة، ينبض في صدور رجال لم يعتنقوا الإسلام، ولكن ضمائرهم أبت أن تسكت عن باطل، وأرواحهم أبت أن تلبس ثوب الحرية على جوع إخوتهم وذل قومهم.

كان هشام بن عمرو العامري – وليس من بني هاشم – واحدًا من هؤلاء النبلاء، يحمل قلبًا لا يرضى الدنية، ويأبى أن يرى بني قومه يهلكون في الشعب، بينما يأكل الناس ويشربون.

كان يتسلل ليلًا، يحمل الطعام على كتفيه، والماء في قربته، يخفيه كما تُخفى النفوس المؤمنة في زمن الطغيان، لا يريد شكرًا ولا جزاء، إلا أن يرى أولئك المحاصرين يحيون لا يموتون، يصبرون ولا يُذلون.

ثم جمع حوله نفرًا من أحرار مكة:

–زهير بن أبي أمية،

–والمطعم بن عدي،

–وأبو البختري بن هشام،

–والمطعم بن الحارث.

رجالٌ قد اجتمعوا على فطرة السليمة، وإن لم تجمعهم بعد كلمة التوحيد، وقال هشام يخاطب نخوتهم:

"أترضون أن تأكلوا وتشربوا، وبنو عبد المطلب في الشعب، لا يباع لهم ولا يشترى منهم؟! والله لا نقبل بهذا أبدًا"!

فتواعدوا أن يكون لهم موقف، وأن يقفوا أمام قريش وقفة رجلٍ واحد، يُنكرون فيها الظلم، ويدفعون فيها الظالمين عن غيّهم. فكان الرأي أن يبدأ زهير بن أبي أمية بالكلام، وكان من أقرب الناس إلى بني هاشم؛ إذ أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فجعلوه المتكلم الأول، والصدح الأول بنداء العدل.

وفي صباحٍ من صباحات مكة التي ما زالت تغلي بنار الجاهلية، دخل زهير المسجد الحرام، عليه حُلة حسنة، وطاف بالكعبة سبعًا، ثم وقف في الناس صارخًا بصوت الحق الذي لا يخاف:

"يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يبيعون ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة الظالمة"!

فردّ عليه أبو جهل، المتعصب للوثيقة، المستميت في نصرة الباطل، قائلًا بسخرية"*:كذبت، والله لا تُشق*"
ولكن المطعم بن عدي وقف يؤيد زهيرًا، وقال" *:أنت أصدق منه*"!
ثم تتابع أبو البختري، وهشام بن عمرو، والمطعم بن الحارث، حتى تزلزل موقف أبي جهل، وبدأ الناس يتناقلون كلمات الحق، وكأنها صيحات في جوف صمتٍ طال أكثر مما يجب.

ثم جاء أبو طالب، سيد بني هاشم، فقال"*:إن لي خبرًا غير ما تعلمون... لقد أخبرني ابن أخي محمد صلى الله عليه وسلم أن ربه قد بعث على صحيفتكم الأرضة، فلم تبقَ فيها من قطيعة ولا ظلم، إلا أكلته، ولم تُبقِ إلا اسم الله فيها*"!

فانطلقت قريش إلى جوف الكعبة، وتناولوا الصحيفة، فإذا هي – كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم – لم يبق فيها إلا" *:باسمك اللهم*"!
فبهت الذي كفر، وسُدّت أفواه الظالمين، وانطلقت قلوب المؤمنين تحمد الله وتسجد له على الفرج بعد الشدة، والنصرة بعد الظلم.

وهكذا انقضى الحصار، وتمزقت الصحيفة، وانكسر القيد، وخرج المسلمون من الشعب، وقد زادهم الله عزة وثباتًا، خرجوا بجباه عالية، وقلوب صقلت بالنار، لكنها لم تُحرق، وخرجت الدعوة أقوى وأشد بأسًا، لأنها مرت في المحك، ونجحت في الامتحان.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية:

- محنة الشعب تثبت أن البلاء سنة ماضية في طريق الدعوات، وهي من قدر الله الذي يميز به الخبيث من الطيب، ويُمحص به أهل الإيمان، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره.
- ثبات المؤمنين في وجه الحصار يُظهر أثر التوكل الحقيقي على الله، والاعتماد الكامل على نصرته لا على حولهم وقوتهم، وهذا أصل من أصول التوحيد.
- إخباره صلى الله عليه وسلم عن أكل الأرضة للصحيفة هو من دلائل النبوة الغيبية، ومن علامات صدقه صلى الله عليه وسلم، وهو مما يقوّي العقيدة في صدق الرسالة.
- عدم بقاء شيء في الصحيفة إلا "باسمك اللهم" فيه دلالة على أن الله يُعظم اسمه حتى في أيدي الكفار، ويمحو ما عداه من ظلم، وهو إثبات لعظمة اسم الله في العقيدة الإسلامية.
- في قول أبي طالب: "لقد أخبرني ابن أخي..." ثم تبين صدقه، تصديقٌ ضمني للنبوة، واعتراف ضمني بالوحي، وهو شاهد من الكفار على صدق دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، مما يزيد اليقين في قلوب المؤمنين.
- قول الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم "الصادق المصدوق" يعكس اعتقادهم بأنه لا ينطق عن الهوى، وهذا مما ينبغي ترسيخه في العقيدة تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية:

- الاستعداد النفسي والتخطيط المسبق الذي فعله هشام وأصحابه قبل المواجهة العلنية، يعلّمنا فقه الإعداد قبل العمل، لا الفوضى والعجلة، وهي قاعدة فقهية في الإصلاح.
- تنسيق الأدوار بين الرجال الخمسة، وأن يبدأ زهير لقرابته من بني هاشم، يُستفاد منه مراعاة الحكمة في اختيار المتحدث وفق المقام والمكانة الاجتماعية، وهذا من فقه الدعوة.

- طواف زهير قبل إعلانه الموقف يدل على مشروعية ربط الإنكار بالعبادة، لما فيه من تأثير نفسي وروحي، وهذا يُظهر فقه توظيف الشعائر في إظهار المواقف.
- نصرة المظلوم من غير المسلم، كما فعل هؤلاء، لا تعني الموافقة على دينهم، لكنها تدخل في باب العدل الذي جاءت به الشريعة، قال تعالى} :ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا.{
- الموقف الجماعي ضد الظلم يعكس فقه "التناصر في المعروف"، ويُبيّن أن الإنكار العلني يكون حين تظهر المصلحة وتُدرأ المفسدة، وليس بمجرد الحماسة كما تظنه بعض الفرق المنحرفة.
- في سكوت الناس ثم تجاوبهم مع نداء زهير بيان لفقه "تحريك القلوب بإنكار المنكر"، وأن الكلمة الصادقة المخلصة توقظ المجتمع الراكد.

فوائد أخلاقية:

- إقدام هشام بن عمرو على المساعدة خفية، ليلًا، فيه خلق الإيثار والخدمة دون رياء، وهو من أسمى مراتب الأخلاق.
- التواطؤ الإيجابي بين رجال من غير المسلمين لنصرة المظلوم، يدل على أن المروءة والعدالة ليست حكرًا على المسلمين، وأن الإسلام لا يحتكر الفضل لكنه يُعلي الحق.
- قول زهير: "والله لا أقعد حتى تُشق..." فيه شجاعة الأخلاق، وعلو الهمة، ورفض للسكوت على الباطل، مما يُربي النفوس على المبادرة.
- خروج المسلمين من الشعب بجباه عالية رغم المحنة، يعكس خُلق العزّة الإسلامية، وأن الكرامة لا تُؤخذ من المال أو الجاه، بل من الثبات على المبدأ.
- السجود شكراً لله بعد تمزيق الصحيفة فيه خلق الاعتراف بالفضل، وتربية على شكر النعمة، وعدم نسبتها إلى النفس أو الناس.
- العمل الجماعي النزيه، الذي خالطه الإخلاص والجدية، يربي على خلق التعاون والتجرد، وهو مما تحتاجه الأمة في زمن التشرذم.

فوائد سلوكية

- انبعاث "قبس من المروءة" كما وُصف، يدل على أن الضمير الحي قد يوجد في غير المسلم، وعلى الداعية أن يفرّق بين الكفر كدين، والعدل كقيمة يمكن أن يشترك فيها الناس.
- في تخطيط هشام ثم خطب زهير، تدرج دعوي وحكمة عملية، وهو درس في أن الدعوة تحتاج إلى إعداد ذكي، لا مجرد اندفاع.
- الحدث يُعلّم المربين أن الصبر الطويل لا يضيع، بل يؤتي أكله في الوقت الذي يريده الله، لا الذي نريده نحن.
- ثناء المؤمنين على نصر الله بعد الحدث يعلم الدعاة ألا ينسبوا النصر لأنفسهم، بل لله وحده، وهذا فقه دعوي مهم لتزكية النفس.
- الحصار صنع رجالًا مؤهلين للمرحلة القادمة، فهذه الأزمات تُخرج القيادة من رحم المعاناة، لا من أريكة الراحة.
- فطرة العدالة، كما ظهرت في زهير وأصحابه، تُبيّن أن الدعوة إلى الإسلام لا تحتاج إلى حملات كبرى دائمًا، بل قد تبدأ بومضة عدل تشقّ الظلام.

مخالفات الواقع:

♦كثير من المسلمين اليوم يشاهدون الظلم يُرتكب على إخوانهم، ولا يتحركون، بل يسكتون كما سكت أهل مكة قبل زهير، وكأن الأمر لا يعنيهم، وهذا من ضعف الدين والضمير.

♦تساهل البعض في نصرة المظلوم بحجة "عدم التدخل"، يُشبه موقف من رأوا بني هاشم في الشعب ثم استراحوا في بيوتهم، وهذه سلبية محرّمة.

♦ظهور فرق تدّعي نصرة الدين لكنها تسلك طريق التصعيد الأهوج والثورات، وتترك فقه التدرج والحكمة الذي سار عليه زهير ومن معه، فهؤلاء فرق منحرفة عن هدي النبوة.

♦في واقعنا نجد من يُكذّب خوارق الأنبياء ويعتبرها "رمزية"، مثل حادثة الأرضة، وهم ممن تأثروا بأفكار الفرق العقلانية الباطنية التي تُنكر الغيب وتُعلي العقل على الوحي.

♦كثير من الدعاة اليوم يغفلون عن توظيف اللحظات المؤثرة مثل زهير عند الكعبة، فتضيع الفرص في الدعوة، لأنهم لا يقرؤون الواقع كما قرأه أولئك النبلاء.

♦استهزاء بعض الإعلاميين أو المثقفين اليوم بإنكار الظلم، وسخريتهم من الأصوات الشريفة، يُشبه قول أبي جهل: "كذبت!"، وهو ما تفعله فرق المرجئة الجدد الذين يُزيّنون للظالمين ظلمهم.

♦ضعف الشكر لله عند تحقق النصر في واقع بعض الحركات الإصلاحية، حيث يُنسب الفضل للخطط أو القادة، لا إلى توفيق الله، وهذا من ضعف التوحيد العملي عند تلك الفرق.

الفقرة السابعة عشر عام الحُزن... حين تكسّرت الدعوة على صخرة الفقد

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من شعاب بني هاشم منهك البدن، مثقل القلب، بعد ثلاث سنين من الجوع والحرمان، لم يذق فيها طعام الشبع، ولا استراح إلى ظل الأمن، يسمع أنين الأطفال، وبكاء النساء، ويرى الشيوخ قد نحلت أجسادهم، وجفّت عروقهم، لكنّ القلب ما وهن، واليقين ما تزلزل، بل ازداد ثباتًا، وتوهّج إيمانًا.

ظنّ الخارجون من الشعب أن البلاء قد ولى، وأن بواكير الفرج قد بدأت تلوح، لكنّ الله أراد أن يمتحن قلب نبيّه صلى الله عليه وسلم بصنوف من الألم لا يقدر عليها إلا من اصطفاه الله وأحبه. لقد بدأ عام جديد... لكنه لم يكن كبقية الأعوام، بل كان العام الذي حفر في وجدان النبوة أخاديد الأسى، وسُمي في كتب السيرة :**عام الحزن**.

أول نازلة نزلت في هذا العام كانت **وفاة أبي طالب**، عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، وسنده في قومه، ودرعه أمام قريش. لم يُسلم، نعم، لكنه كان في صفّ الدعوة لا في صف الشرك، وقف دون رسول الله صلى الله عليه وسلم كالطود الأشمّ، يذبّ عنه بأس قومه، ويصدّ عنه أذاهم، ويصرّح في وجوههم متحديًا" :والله لن يصلوا إليك بجمعهم **حتى أُوسَّد في التراب دفينًا**."

لقد خسر النبي صلى الله عليه وسلم برحيله الحصانة القبلية، التي كانت تكفُّ عنه ضربات السيوف، وتمنع الألسن من أن تنهش جسده الطاهر. وما أقسى لحظة الوداع! جلس النبي صلى الله عليه وسلم عند رأس عمه، والدمع يملأ عينيه، يهمس له بنداء المحبة»:يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله«
لكنّ الطغاة ما تركوه يرحل إلى الله بكلمة التوحيد، بل وقف أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يُثنونه عنها، ويقولان له:
"أترغب عن ملة عبد المطلب؟ "!فكان آخر ما لفظ به أبو طالب: "بل على ملة عبد المطلب."
ومات... ومات النبي صلى الله عليه وسلم على صدره ألم لا يُحتمل، حُرقة الفقد، ومرارة العجز، وكأنّ جبلًا انهدّ على

صدره، فما استطاع أن يشفع له، وهو من قال فيه بعد موته»:والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنهَ عنك «فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣.]

وما إن لملم النبي صلى الله عليه وسلم جراحه، حتى أتاه ما هو أشد وقعًا... فقد رحلت إلى الرفيق الأعلى **خديجة بنت خويلد رضي الله عنها**، رفيقة الدرب، وأول من آمن به حين كفر الناس، وصدّقته حين كذّبه الخلق، وآوته حين طرده القريب والبعيد. كانت قلبه الساكن، وصوته المطمئن، وجناحه الذي يرفرف كلما أثقلت الدعوة كاهله.

هي التي ضمّته يوم ارتجف من نزول الوحي، وقال: «زملوني زملوني»، فقالت له بثقة المُحِبّ» :كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق«]صحيح البخاري.[

كانت رحمته في بيتٍ جافاه فيه الرحمة، وسكينته في زمنٍ لا يعرف السكينة، فما زالت تؤازره، وتبذل مالها وجهدها وروحها، حتى أتمّت دورها العظيم، ثم رحلت، وتركته طيفًا من الحزن يتنقل بين أطلال الذكريات.

دفنها النبي صلى الله عليه وسلم بيديه، وغاب نورها عن البيت، فغابت معه بهجة الأيام، حتى إن الوحي من السماء نزل يُواسيه، ويخبره ببشرى من الله، فقال جبريل عليه السلام»:يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك، فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب « صحيح البخاري ومسلم.[

لقد فُجِع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الحزن بفقد السندين :**ظهره في مكة، وقلبه في البيت** .فاستُبيحت دعوته، وازدادت قريش في الإيذاء، حتى اضطر إلى الخروج من مكة يبحث عن مأوى جديد... وكانت **الطائف**، التي استقبلته بالحجارة بدل الأذرع، وبالدم بدل الكلمة الطيبة.

• لكن، ورغم الظلمة، ظلّ قلب النبي صلى الله عليه وسلم مشرقًا بنور الأمل، تضيئه آيات الله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧.]

ما كان عام الحزن مجرّد عامٍ مات فيه الأحبة، بل عامٌ تهاوت فيه الركائز، وتكاثرت فيه الأشواك، لكنه كان أيضًا العام الذي اختبر الله فيه معدن نبيه، فزاده رفعة، وأعدّه لمرحلة جديدة، ستُتوّج في النهاية بقول الله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١.]

فمن بكَى في عام الحزن، سينتصر في عام الفتح... ومن ثبَت في الشدة، سيحيا في ظل النصر.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في الشدائد أعظم برهان على صدق نبوته، إذ لم تفتنه المصائب عن يقينه بالله، ولم تزده المحن إلا إيمانًا وتسليمًا.

- موت أبي طالب على غير الإسلام مع شدته في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد قاعدة أهل السنة أن الولاء لا يكفي دون الإيمان، وأن القرابة لا تنفع مع الكفر.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عم، قل لا إله إلا الله» يؤصل عقيدة التوحيد كشرط وحيد للنجاة، ويدحض عقائد الفرق الضالة التي تزعم أن مجرد المحبة أو العمل الصالح ينجي.

- نزول النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أقرب الأقربين يؤسس لعقيدة البراء من الكفر مهما بلغت المحبة أو القرابة، وهو رد على الفرق التي تميع مسائل الولاء والبراء.

- تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالوحي بعد الفقد، وتبشير خديجة بالجنة، دلالة على أن الله لا يضيع أولياءه، وأن الصابرين على الشدائد يُعوضون في الآخرة أعظم الجزاء.

فوائد فقهية

- نصرة غير المسلمين للمسلمين – كحال أبي طالب – لا تخرجهم عن حكم الكفر، ولكن تُذكر مواقفهم بالعدل، دون غلو في التقدير، ولا جحود للجميل.

- وفاة خديجة وأبي طالب في عام واحد، ومظاهر الحزن التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم، تبين مشروعية الحزن والدمع دون جزع، وأن الإسلام لا يُجرد الإنسان من مشاعره.

- دفن النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة بيده، مع أنه نبي مرسل، يبين تواضعه صلى الله عليه وسلم ومشروعية دفن الرجل لأهله، وأنه من مكارم الأخلاق.

- تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه وخديجة بخروجه للطائف يشير إلى فقه الأخذ بالأسباب، وعدم الاستسلام للألم، بل السعي في تبليغ الدعوة حتى في أقسى الظروف.

فوائد أخلاقية وتربوية

- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على فقد السند والعون، وتعاظم الابتلاءات، درس في الثبات على المبدأ، وأن الشدائد تصنع القادة، لا تقتلهم.

- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة بعد وفاتها من أعظم الدروس في الإخلاص الأسري والوفاء الزوجي، وقد ظل يذكرها بالخير حتى بعد وفاتها بسنين.

- رفض النبي صلى الله عليه وسلم التنازل عن دعوته رغم استباحة قريش له بعد وفاة عمه، يعلّم الدعاة الصدق والثبات في وجه الأذى، لا المساومة والانبطاح.

- عام الحزن يعلم أن القائد لا تُبنى قوته بالراحة والتمكين، بل بالألم والشدائد، فهي التي تُصقل النفس وتُربّيها على اليقين بالله والعمل لدينه.

فوائد دعوية

- تحمُّل النبي صلى الله عليه وسلم للأذى بعد فقد السند المادي والعاطفي يعلم الدعاة أن العقبة الكبرى ليست في فقدان الأنصار، بل في فقدان الإخلاص والثقة بالله.

- ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف بعد عام الحزن يؤكد أن طريق الدعوة ليس معبّدًا، وأن البلاء سنة ماضية مع كل صادق في تبليغ الرسالة.

- بشارة خديجة بالجنة من الله، ومن جبريل، تعلّم الدعاة أن بذل النفس والمال للدين لا يضيع، وأن من ضحّى في الظل، جزاؤه عند الله نور لا يزول.

مخالفات الواقع للنص

- كثير من الناس اليوم يقدّمون روابط الدم والقرابة على روابط الإيمان والعقيدة، بخلاف ما علمنا الله في نهيه عن الاستغفار للمشركين من الأقارب.

- التقديس الزائد لبعض الشخصيات التاريخية غير المسلمة بسبب نصرتها الظاهرة للإسلام دون اعتبار لعقيدتها – كما هو الحال مع أبي طالب – انحراف عقدي واضح، تروّج له بعض الفرق المنحرفة.

- تعاطي الناس مع الحزن اليوم إمّا بجزعٍ يخرج إلى الاعتراض على القدر، أو بجفاء ينزع عن الإنسان إنسانيته، بينما حزن النبي صلى الله عليه وسلم كان متزنًا، دمع بلا سخط، حزن بلا تسخّط.

- في واقعنا، يفرّ كثير من الدعاة والمصلحين من الميدان بعد أول موجة أذى، بينما النبي صلى الله عليه وسلم خرج من أحزانه إلى الطائف، ثم إلى الهجرة، فلم يهن، ولم يضعف.

- في زمن النكبات، تُروج بعض الجماعات المنحرفة لفكر الانقلاب والتمرد بحجة الظلم والقهر، بينما النبي صلى الله عليه وسلم علّمنا أن الإصلاح يبدأ بالصبر والثبات، لا الفوضى والتمزيق

الفقرة الثامنة عشر: الرحلة إلى الطائف: حين تحدّثت الجراح... وناجى الألم السماء

ضاقت مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يضيق الصدر بغيوم الهم، وتكاثرت عليه الهموم حتى غطّت أفق الدعوة، فما عاد يجد في طرقاتها مأمنًا، ولا في وجوه أهلها بشاشة، ولا في قلوبهم موضعًا لكلمة حق. رحل سنداه في الأرض؛ عمّه أبو طالب الذي كان يذود عنه سوءَ قريش، وزوجته خديجة التي كانت أنس روحه وسَكَن فؤاده. رحل الحنان، وتكشفت القلوب عن قسوة، وكأن الأرض ضاقت بما رحبت.

ومع اشتداد الظلم وازدياد الأذى، لم يتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبليغ، ولم يبرح قلبه الأمل. رفع رأسه إلى السماء وهو يعلم أن فوقها ربًّا يسمع ويرى، فتوجه ببصره وبصيرته إلى مدينة أخرى، يبحث عن قلوب لم يُقفل عليها بعد، لعل فيها من ينصر، أو يؤوي، أو على الأقل يسمع!

أين؟ إلى الطائف... مدينة تقع على بُعد نحو مئة كيلومتر من مكة، تأوي قبيلة ثقيف، المعروفة بالعدد والمنعة، قومٌ لهم شوكة وقوة، وربما يكون فيهم من يفهم، أو يلين، أو يهتدي.

خرج صلى الله عليه وسلم إليها ماشيًا على قدميه، لا راحلة تحمله، ولا ظهر يأويه، ومعه مولاه وأحبّ الخلق إليه في ذلك الحين :زيد بن حارثة رضي الله عنه. وكان قد مضى على بعثته المباركة عشر سنوات، عِقدٌ من الزمان مليء بالصبر، والتضحية، والجهاد، والصمود.

دخل الطائف دخول من يرجو الرحمة، لا فتح المنتصرين. سار في طرقاتها بهدوء، ينظر في الوجوه، يبحث عن موضع قدَر، لعل الله أن يفتح له بابًا لم يُغلق.

اتجه إلى سادة ثقيف، إلى ثلاثة إخوة :عبد ياليل، وحبيب، ومسعود أبناء عمرو بن عمير، دعاهم إلى الله، وكلمهم بالكلمة التي أحيت قلوبًا وأخرجت أجيالًا من الظلمات إلى النور، قال لهم: "يا قوم، إني رسول الله إليكم، جئتكم بدين الله لتعبدوه وحده، وتخلعوا عبادة ما سواه."

لكنهم ردّوا عليه ردًّا جارحًا، فيه من السخرية والإنكار ما يُدمي القلب قبل الجسد.
قال أحدهم" :أما وجد الله أحدًا غيرك ليبعثه؟"!
وقال الآخر" :لو كنت نبيًا فأنت أعظم من أن أكلمك، ولو كنت كاذبًا، فأنت أحقر من أن أرد عليك"!
وقال الثالث" :والله لا أكلّمك أبدًا، فإن كنت رسولًا حقًا، فأنت أعظم من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا، فلا ينبغي لي أن أتكلم مع كذّاب"!

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عندهم مكلوم الفؤاد، مثقل القلب، لكنه لم يُسقط الراية.
راح يعرض نفسه على سادة الطائف ووجوهها، بيتًا بيتًا، وشارعًا شارعًا، لكنهم قابلوه بالإعراض، لا بل بالطرد والاعتداء. أغروا به سفهاءهم وصبيانهم، ووقفوا له صفَّين على جانبي الطريق، وجعلوا يرمونه بالحجارة، فتطايرت على جسده الشريف، وأصابته في قدميه الطاهرتين حتى سال الدم من عقبيه، وزيد رضي الله عنه يبذل جسده ليحمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يستطع أن يمنع الأذى كله.

ولمّا أعياه التعب، واشتد عليه الألم، لجأ إلى بستان لبني ربيعة بن عبد شمس، ملكٌ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجلس فيه تحت ظل نخلة، والدم يقطر من ساقيه، والطين يلطخ ثيابه، والسماء من فوقه صامتة، والأرض من تحته موحشة، والقلوب من حوله مغلقة.

وهناك، في لحظة تتجلى فيها إنسانية النبي صلى الله عليه وسلم، انفجر قلبه بالدعاء، دعاء من سُدّت في وجهه أبواب الأرض، لكنه يعلم أن باب السماء لا يُغلق، فرفع يديه إلى ربه يناجيه بكلمات خالدة" :اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

وهنا، تنزّلت رحمات السماء ...بعث الله إليه ملك الجبال، يقول له" :يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين (وهما جبلا مكة)، لفعلتُ."

فردّ عليه صلى الله عليه وسلم بكلمة تُسطّر بماء الذهب، قال":بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا "رواه البخاري ومسلم

في تلك اللحظة، لم يكن العطاء في صورة نصر، بل في صورة طمأنينة، وسكينة، وقرب من الله.
وها هو غلام نصراني اسمه عدّاس، كان يعمل في البستان، قد رأى ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم، فَرَقّ قلبه، واقترب منه يحمل قطفًا من العنب، فوضعه بين يديه.

فلما مدّ النبي يده إليه قال:بسم الله"
فقال عداس متعجبًا" :والله ما يقولها أحد من أهل هذه البلاد"!
قال له رسول الله: "ومن أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟"
قال: "أنا نصراني من أهل نينوى."
قال النبي: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟"
فقال عداس: "وما يدريك ما يونس؟"!
قال: "ذاك أخي، كان نبيًا، وأنا نبي."
فكبّ عداس على يدي رسول الله ورجليه يقبّلهما، وأسلم على يديه في الحال.

وهكذا، خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف مجروح الجسد...
لكن قلبه كان أنقى من الجراح،
ورجلاه كانت تنزف، لكن خطاه كانت تمشي في طريق الأنبياء،
خرج مرفوضًا من أهل الأرض، لكن مقبولًا عند رب السماء...

قال تعالى} فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قومًا غيركم ولا تضرونه شيئًا إن ربي على كل شيء حفيظ] {هود: ٥٧ [وقال سبحانه} :واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون {]النحل: ١٢٧[

وكان من دروس هذه الرحلة أن النجاح ليس في النتيجة، بل في صدق التبليغ، وثبات القلب، ونقاء النية.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة :

فوائد عقدية

- إثبات صفات الله العليا من السمع والبصر، كما قال الكاتب: "يعلم أن فوقها ربًّا يسمع ويرى"، وهو من عقيدة أهل السنة في إثبات الصفات بلا تعطيل ولا تشبيه.
- الدعاء في الشدة والرخاء حق من حقوق التوحيد، وفيه دليل على تعلق القلب بالله وحده في كل حال.
- تأكيد أن الله هو المالك للقلوب والهداية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أرجو أن يخرج الله من أصلابهم..." وهذا من توحيد الربوبية.
- الاعتقاد بأن رضا الله مقدم على كل شيء، كما قال: "إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي"، وهذا من كمال الإيمان بالله والرضا بقضائه.
- الإيمان بأن الله يبتلي من يحبهم، وأن الابتلاء سنة ماضية في الأنبياء، وهو دليل على كمال التوحيد، لا نقضه.
- الملائكة تنفذ أوامر الله، ومن ذلك إرسال ملك الجبال بأمر من الله تعالى، وهذا إثبات لعقيدة الملائكة.
- اعتراف النبي صلى الله عليه وسلم بيونس عليه السلام كنبي، فيه إثبات لنبوة الأنبياء السابقين، وهو جزء من أركان الإيمان.
- العلم بأن النصر ليس دائمًا ماديًا، بل قد يكون في صورة السكينة والطاعة والثبات، وهو مما يزيد يقين المؤمن بعناية الله.

فوائد فقهية

- جواز طلب النصر من الناس إذا تعذّر الطريق، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بطلبه من أهل الطائف، وهذا لا ينافي التوكل.
- الدعاء بما فيه شكوى الحال إلى الله لا يُعد اعتراضًا، بل هو عبودية، كما في دعائه صلى الله عليه وسلم.
- جواز ذكر النفس بالضعف أمام الله، كما قال "ضعف قوتي، وقلة حيلتي"، وهو من التذلل المشروع في الدعاء.
- التأدب في الدعاء بافتتاحه بذكر الله، والاستعاذة بنور وجهه، وذكر أسمائه الحسنى.
- قبول إسلام غير المسلم من أهل الكتاب إذا ثبت صدقه وشهادته، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عدّاس.
- بيان فضل البسملة، وأنها من شعار أهل الإسلام، وأن قولها يميّز المؤمن عن غيره.
- في صبر النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الدعوة تتطلب احتمال الأذى، وأن ذلك من تمام العمل الصالح.

فوائد أخلاقية

- الوفاء والإخلاص يظهر في ربط النبي صلى الله عليه وسلم بزيد بن حارثة، ومحبته له، ومشاركته في الشدة.
- التواضع العظيم في دخول الطائف دخول من "يرجو الرحمة" لا دخول الغالبين، رغم مكانته.
- العفو والتجاوز من النبي صلى الله عليه وسلم عن قوم الطائف رغم ما فعلوه به، وهو أعلى درجات الخلق.
- الحياء من الله وطلب العافية حتى مع شدة الابتلاء، كما في قوله "ولكن عافيتك أوسع لي."
- اللين والرفق حتى في أشد المواقف، كما ظهر في رفضه صلى الله عليه وسلم تدمير أهل الطائف.
- تقديم الدعوة على النفس، فقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ رغم الأذى والجرح، بلا طلب للراحة.
- تكرار المحاولات في الدعوة وعدم اليأس من الناس، وهي صفة الصادقين في دعوتهم.
- كسب القلوب بالإحسان، كما حصل مع عدّاس الذي رقّ قلبه لما رأى حال النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد سيروية

- الرحلة إلى الطائف جاءت بعد عشر سنوات من البعثة، وهو ظرف زمني يُظهر امتداد صبر النبي صلى الله عليه وسلم.
- خديجة وأبو طالب كانا من أعظم الداعمين، وموتهم شكّل نقطة تحول في دعوته، وهي محطة مهمة في السيرة.
- ما فعله سادة ثقيف من ردّ الدعوة وسوء الرد يبين طبيعة التحديات التي واجهها النبي صلى الله عليه وسلم.
- إسالة الدم من عقبيه الشريفين صلى الله عليه وسلم يُظهر حجم الأذى الذي تعرض له في سبيل تبليغ الدعوة.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوقف عن التبليغ رغم فقدان النصير، وهو درس في الثبات للدعاة.

مخالفات الواقع للنص

- ترك كثير من المسلمين الدعاء في الشدائد، أو التعلق بالأسباب دون رفع القلب إلى السماء.
- قسوة بعض الناس في رد الحق والدعوة، تشبه ما فعله سادة ثقيف، فيرفضون الحق بسخرية أو كبر.
- هناك من يدعو للانتقام والتدمير للمخالفين، بينما خلق النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف كان العفو والرجاء في الهداية.
- ضعف الإيمان بالملائكة عند بعض الناس، أو عدم استشعار عناية الله وملائكته بالمؤمنين.
- سوء معاملة بعض الدعاة للناس، بينما النبي صلى الله عليه وسلم قابل عدّاس بالرحمة والكلمة الطيبة.
- الظن أن النجاح في كثرة الأتباع أو النتائج المادية، بينما النص يقرر أن النجاح في "صدق التبليغ وثبات القلب."
- كثير من الناس اليوم لا يعظمون البسملة ولا يبدؤون بها، رغم كونها شعار الإسلام.
- بعض المسلمين يغضبون لأعراضهم أو دنياهم، لكن لا يغضبون لدين الله كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي."

الفقرة الثامنة عشر... تسلية السماء لقلبٍ كُسِر في الأرض

(في ظلال الإسراء والمعراج)

كان عام الحزن أشبه بليل طويل بلا فجر، توالت فيه المصائب كالسيل المنهمر على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كاد ينكسر. فقد العم أبا طالب، الذي كان سنده في وجه قريش، ورحلَت خديجةُ، التي كانت أنفَسَ ما في قلبه، وأقربَ من روحه إليه، وفوق ذلك، أُوصدت أبواب الأرض في وجهه في الطائف، فسالت دماؤه الشريفة على قدميه الطاهرتين، وخذله الناس، وأغلقوا أبوابهم وقلوبهم دونه.

لكن السماء، وإن تأخرت، لا تنسى أحبابها.
وإذا ضاقت الأرض، فإن للسماء بابًا لا يُغلق، ورحمة لا تنقطع.

وهناك، من علياء المجد الإلهي، جاء النداء:
لقد آن لقلبك المكسور أن يُجبر،
وآن لدمعك الساكن في العين أن يُجفف،
وآن للسماء أن تفتح أبوابها لحبيب الله ومصطفاه.

في ليلة مباركة من ليالي مكة، هبط جبريل عليه السلام، ليأخذ النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة لم يُسافر مثلها بشر. رُكب البُراق، ذلك المخلوق العجيب الذي يضع حافره عند منتهى طرفه، فسُري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث اجتمع له الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى، ثم صلى بهم إمامًا، فكانت الصلاة إعلانًا أن الرسالة ختمت، وأن النبوة قد اكتملت.

ثم كانت الرحلة الأعظم...
عرج به جبريل عليه السلام، يصعد به من سماء إلى سماء، كل سماء تستقبله بتحية وتكريم.
ففي السماء الأولى، رأى آدم عليه السلام،
وفي الثانية: عيسى ويحيى،
وفي الثالثة: يوسف،
وفي الرابعة: إدريس،
وفي الخامسة: هارون،
وفي السادسة: موسى،
وفي السابعة: إبراهيم، مسنودًا إلى البيت المعمور، يحيي الحبيب محمّدًا صلى الله عليه وسلم في أبهى مشهد من مشاهد اللقاء النبوي السماوي.

ثم مضى، ومضى به جبريل... حتى قال: «يا محمد، هذا مكاني، لو تقدّمتُ لاحترقت»، ووقف الأمين عند سدرة المنتهى، ليدخل النبي صلى الله عليه وسلم وحده، في حضرة الجلال، حيث لا ملكٌ مُقرّب ولا نبيٌّ مُرسل، حيث خاطبه ربه، وكلمه، وشرّفه، وقربه، وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات، هي زاد الطريق، وعزاء القلوب، وصِلة الأرواح بمليكها.

وقد جاء في صحيح *مسلم* أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال»:فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً... فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسٌ وَإِنَّهُنَّ خَمْسُونَ، لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ.«

ثم عاد الحبيب صلى الله عليه وسلم، والليل لا يزال في أوله، والجراح لا تزال نازفة، لكنها صارت تنبض بالأمل. عاد وهو يعلم أن مولاه لم يتركه، ولن يخذله، وأن بعد كل حزن فرجًا، وبعد كل دمعة نورًا، وأن دعوته التي ضاقت بها مكة والطائف، ستملأ الأرض رحمةً ونورًا.

فإذا كانت قريش قد سخرَت، وقالت: كيف لمحمد أن يُسري به في ليلة واحدة، ونرحل نحن شهورًا؟ فإن الله تعالى أجابهم بآية خالدة، تُتلى آناء الليل وأطراف النهار، فقال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾]الإسراء: ١[

إنه عبد الله، الذي كرّمه الله، وأحبه الله، ورفعه الله،
وكلما اشتد الضيق، نادى جبريل في السماء: آن لهذا القلب أن يُكرَّم، آن لهذا النبي أن يُسرَّى به.

في ظلال الإسراء والمعراج، نوقن أن السماء لا تنسى، وأن الجراح إذا غُسلت بدموع الصبر، مُسحت ببلسم الرحمة، وأن بعد الطائف، لا بد من سدرة المنتهى.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإسراء والمعراج دليل قطعي على قدرة الله المطلقة التي لا تُحدّ بقياس بشري، فالله سبحانه هو الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماوات العلى، وهذا من أعظم ما يُغرس به في القلوب توحيد الربوبية.

- تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء، إذ أمّهم في الصلاة في المسجد الأقصى، وجُعلت له مكانة لا يبلغها أحد من المخلوقين، فخُصّ برؤية سدرة المنتهى وكلام الله عز وجل له.

- عبودية النبي صلى الله عليه وسلم لله أعظم وسام شرف، إذ عبّر الله تعالى عنه بقوله" *بعبده* "في مقام التشريف، وهذا يدل على أن أعلى مراتب الكمال الإنساني هي تحقيق العبودية لله.

- الصلوات الخمس ركن عظيم فُرض مباشرة من فوق سبع سماوات، دون وساطة، مما يدل على منزلتها في الإسلام، وأنها صلة يومية بين العبد وربه.

- علم أهل السنة أن الله سبحانه يُرى في الآخرة لا في الدنيا، وهذا ظاهر من توقف جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى، إذ لا يجاوزها أحد إلا بإذن خاص، كما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم.

- الإيمان بالإسراء والمعراج واجب، وإن لم تستوعبه العقول، وهو من المسائل التي يفترق فيها أهل الإيمان من أهل البدع الذين يطعنون في هذه المعجزة أو يؤولونها.

- تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يخبر به من أمور الغيب أصل من أصول العقيدة، بخلاف أهل الأهواء الذين يردّون ما لا يوافق عقولهم أو أهواءهم.

فوائد فقهية:

- الصلاة فُرضت أولًا خمسين ثم خُفّفت إلى خمس مع بقاء الأجر، ما يدل على رحمة الله بأمته، وأن التكاليف الشرعية قائمة على اليسر، لا على المشقة المقصودة.

- معرفة توقيت فرض الصلاة وأهميتها في حياة المسلم، وأنها عبادة لا تسقط بحال، ومكانها في الدين لا يدانيه عبادة أخرى.

- الصلاة هي مفتاح القرب من الله، وفيها من الطمأنينة والسكينة ما يثبت القلوب وقت الأزمات، وهي أول ما يُحاسب عليه العبد.

- لا يُشترط أن يكون كل أمر شرعي قابلًا للإدراك العقلي، فكما آمن الصحابة بالإسراء دون رؤيته، يؤمن المسلم بالغيبيات كلها لأن مصدرها وحيٌ صادق.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الوفاء في المحبة والذكرى من خلق النبي صلى الله عليه وسلم، ففقده لخديجة وأبي طالب لم يُنسه مواقفهما، بل بقيت في قلبه أثرًا حتى بعد وفاتهما.

- الثبات في الشدائد من أعظم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يتوقف عن الدعوة رغم الحزن والألم والخذلان.

- الدعاء في الأزمات ليس مجرد طلب، بل مناجاة تُعبّر عن ضعف العبد وافتقاره إلى ربه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال" *اللهم إليك أشكو ضعف قوتي*."...

- التواضع في أعظم اللحظات، فرغم عروجه إلى السماء، بقي النبي صلى الله عليه وسلم عبدًا خاشعًا، لا يتكبر ولا يتعالى، وهذا درس في ألا تغرّ المؤمن كرامة أو مكانة.

- تعليم الناس بأدب، فحين تعجب عدّاس من ذكر النبي ليونس عليه السلام، لم يسخر منه بل خاطبه بلطف وأدب حتى أسلم، وهذه دعوة بخلق الأنبياء لا بفظاظة أهل الغلو.

فوائد دعوية:

- عرض الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة أساس دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد طرق أبواب الطائف رغم جراح مكة، دليل على حرصه على هداية الناس.

- الصبر على نتائج الدعوة، وأن النجاح ليس في عدد الأتباع أو حجم القبول، بل في الصدق والثبات.

- استثمار كل فرصة دعوية، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُضيّع حتى لحظة جلوسه في البستان مع غلام نصراني، فكانت سببًا في إسلام عدّاس.

- مراعاة أحوال الناس في الخطاب، كما راعى النبي صلى الله عليه وسلم فهم عدّاس حين بدأ معه بالحوار عن النبي يونس عليه السلام، ليكسر الحاجز بينهما.

مخالفات الواقع لنص الفقرة:

- الاستهزاء بحديث الإسراء والمعراج أو إنكاره أو تأويله تأويلًا ماديًا (كأن يُقال: كان مجرد حلم أو خيال) من انحرافات فرق الضلال كالمعتزلة وأشباههم ممن يقدمون عقولهم على النصوص.

- التهاون في أداء الصلاة، والتكاسل عنها، بل وتركها أحيانًا، مع أنها الفريضة التي فُرضت في أعظم مقام، وبغير واسطة، وهذا من أعظم التهاون بالدين.

- التعلّق بالدنيا ونسيان الآخرة، في حين أن رحلة الإسراء والمعراج تعلّمنا أن القلوب لا تُشفى إلا بالقرب من الله، لا بمطامع الدنيا.

- قسوة القلوب على الدعاة والمصلحين، كما فعلت ثقيف بأشرف خلق الله صلى الله عليه وسلم، يتكرر في زماننا بمن يطعن في العلماء الربانيين ويخوّنهم، ويستهزئ بدعوتهم.

- سوء الخلق في الدعوة، والعنف في الرد على المخالف، بخلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي واجه الاستهزاء بالصبر، والدعاء، وحسن المعاملة، لا بالسبّ والتشهير.

- ترك التوكل على الله عند المحن والبحث فقط عن الأسباب المادية، بينما النبي صلى الله عليه وسلم علّمنا أن القلوب لا تُفرج إلا برفعها إلى السماء.

- نسيان عظمة المسجد الأقصى ومكانته في الإسلام، وقد جعله الله جزءًا من الإسراء، وهذا واقع كثير من المسلمين الذين لا يعرفون قداسته، ولا يعتنون بشأنه.

الفقرة التاسعة عشر: الحدث الذي زلزل مكة: الإسراء والمعراج وبزوغ فجر الصدّيق

كان صباح مكة مختلفًا عن كل صباح، لم يكن في الأفق إلا همسات مذهولة، تتهامس بها الأزقة، وترددها الجدران، وتطير بها الطيور فوق رؤوس الناس، كأنها تحمل سرًّا عجيبًا. ارتجّت المدينة رجفة الدهشة، وتسرّب إلى الأسماع نبأ يهزّ الوجدان: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السموات العلى، ثم عاد في ذات الليل!

نعم... في ليلة واحدة!
ذاع الخبر، فتناقلته الألسن ما بين ساخر ومكذّب، كأنما وُلدت فتنة تهزّ يقين القلوب. صاح المستهزئون في أسواق مكة:
"أيزعم محمد أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلة؟! إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا"!
وكان هذا هو الامتحان العظيم. امتحان لا يقف عند حدود العقل، بل يتجاوز إلى عمق الإيمان، إلى التصديق بالغيب، إلى الثقة المطلقة في من لا ينطق عن الهوى.

وحين سمع أبو بكر رضي الله عنه بالخبر، أقبل إليه بعض قريش، يريدون زعزعة إيمانه، وقالوا: "انظر ما يقول صاحبك"!
فما أن سمع ما زعموه، حتى ارتفع صوته بكلمة خالدة سطّرها التاريخ بمداد الذهب:
"إن كان قاله، فقد صدق. إني أصدّقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء"!
وهنا بزغ فجر جديد في الدعوة، فجر الصدّيقية. فلقّبه النبي صلى الله عليه وسلم بـ **الصديق**، تشريفًا لمقامه، وتخليدًا لموقفه، وهو ما ذكره ابن هشام في سيرته، والإمام البيهقي في دلائل النبوة، وغيرهم من أهل السيرة.

وكانت قريش لا تزال تحاول الطعن، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصف لهم بيت المقدس. ولم يكن قد رآه من قبل بعينه، لكن الله الذي أسرى به أراه إياه رؤيةً يقينًا. فقال عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح:
"فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه".
فأخذ يصفه بابًا بابًا، حجرًا حجرًا، حتى قال بعضهم: "أما الوصف فقد أصاب." فخرست ألسنة السخرية، وارتجفت قلوب الشاكين، وتزلزل الباطل أمام يقين النبوة.

وهكذا ثبت النبي صلى الله عليه وسلم ثبات الجبال، لم تزده السخرية إلا يقينًا، ولم يزده التشكيك إلا رسوخًا.
وكيف لا؟! وقد أيده الله تعالى بقوله الخالد:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]

نعم، لقد كانت لحظة فاصلة في مسيرة الدعوة.

لحظة ميّز الله بها بين القلوب، بين قلب يوقن بالغيب فيرتقي، وقلب يعمى عن النور فيتردى.

كان موقف أبي بكر رضي الله عنه **نبراسًا للمؤمنين في كل زمان** :أن الصدق مع الله يجعل المستحيل ممكنًا، ويجعل من المحنة منحة، ومن الابتلاء طريق تمكين.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة، مرحلة يهيئ الله فيها لدعوته رجالًا كأبي بكر، ويُظهر فيها صدق نبيه صلى الله عليه وسلم على رؤوس الأشهاد، تمهيدًا لفتح القلوب، قبل فتح البلاد.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان برحلة الإسراء والمعراج واجب على كل مسلم، لأنها ثبتت في القرآن والسنة، وإنكارها جحدٌ لمعجزة من معجزات النبوة، يوقع في الكفر.
- تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في الغيبيات التي لا تُدرك بالحواس من أصول العقيدة، والإيمان بخبره مُقدَّم على العقول والظنون.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم لبيت المقدس رغم أنه لم يره، ثم تطابق الوصف مع الواقع، برهان حسي على صدق نبوته، ومظهر من مظاهر الإعجاز النبوي.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم أمام السخرية دليل على أنه مؤيد من ربه، وأن العصمة والصدق من خصائص النبوة.
- موقف أبي بكر رضي الله عنه يبين أن الإيمان بالغيب نابع من صدق التوحيد، وأن تسليم القلب للوحي أصل في النجاة.
- تسمية أبي بكر بـ "الصديق" من قبل النبي صلى الله عليه وسلم فيها إثبات أن ألقاب التفضيل والتشريف التي يُطلقها المعصوم حق، ويجب قبولها.
- آية الإسراء الكريمة نص قاطع في وقوع الإسراء، مع صيغة التنزيه ﴿سُبْحَانَ﴾ مما يدل على أن المعجزة لا تُناقش بمقاييس البشر، بل تُعظم لقدرة الله.
- في قوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم بلقب العبودية، وهو أشرف مقامات الإنسان عند الله.
- إثبات صفتَي السمع والبصر لله تعالى في الآية على الوجه اللائق بجلاله، من غير تأويل ولا تعطيل، وهذا من أصول منهج أهل السنة.
- التفريق بين القلوب في لحظة المعراج سنّة إلهية جارية، تُظهر الإيمان من النفاق، والتصديق من التكذيب، وتُرسّخ سنة الامتحان العقدي عبر التاريخ.

فوائد فقهية

- قبول خبر النبي صلى الله عليه وسلم واجب في كل ما صح سنده، ولو خالف القياس أو العادة، لأنه وحي من الله لا مجال لرده.
- السخرية من أمور الدين جريمة عظيمة، وهي كفر إذا تعلقت بثابت قطعي من الدين، كما قال الله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.
- في مشروعية سؤال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس، دليل على أن تحدي الخصوم لا يمنع من تبيين الحق بدقة ووضوح، وهذا منهج دعوي راشد.
- المواقف التاريخية الثابتة من السيرة، كقول أبي بكر، تُعد من مصادر الاستدلال الفقهي والعقدي، ويُبنى عليها أحكام في

باب الإيمان.

- لا يصح تأويل معجزات النبي صلى الله عليه وسلم بحملها على الرؤى المنامية، بل الواجب إثباتها على الحقيقة، كما هو في الإسراء والمعراج.
- تعظيم النصوص واجب، ولا يجوز ردّها لمجرد الاستبعاد العقلي، وهو ما خالفه أهل البدع كالجهمية ومن وافقهم.
- في ذكر "فطفق يخبرهم عن آياته" إثبات أن التحديث بالتفاصيل الشرعية في مواجهة المكذبين مشروع، بل مرغوب عند الحاجة لبيان الحق.

فوائد أخلاقية

- موقف أبي بكر رضي الله عنه يجسد كمال الوفاء والإخلاص للنبي صلى الله عليه وسلم، واليقين المطلق في صدقه، وهو خلق نادر في زمن الفتن.
- الثبات على المبدأ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، من أعظم الأخلاق القيادية التي ينبغي غرسها في الدعاة والمصلحين.
- قوة اليقين تجعل الإنسان يواجه السخرية بثقة، دون أن يضطرب أو يتراجع، وهذا من صفات أهل الصدق والثبات.
- مشهد تفصيل النبي صلى الله عليه وسلم لبيت المقدس يرشد إلى أهمية الأمانة في النقل والدقة في الشهادة، وهي من صميم الأخلاق الإسلامية.
- التفاعل العاطفي مع حدث الإسراء، وتقدير مكانته، من علامات حياة القلب، وتعظيم شعائر الله، وهو من تعظيم الإيمان.
- إظهار المواقف الصادقة في الأزمات، كما فعل أبو بكر، من علامات صفاء النفس ونُبل المعدن، وهي قدوة للمؤمنين في المحن.
- وصف الفتنة بأنها تهزّ يقين القلوب، فيه إشارة إلى وجوب تحصين الإيمان في القلب، وعدم تركه يتعرض للزلزلة بلا علم ويقين.

مخالفات الواقع المعاصر

- إنكار كثير من المثقفين اليوم لرحلة الإسراء والمعراج بحجة أنها خرافة أو خيال، تأثر بالفكر المادي الغربي، وتكذيب صريح للقرآن والسنة.
- ترويج بعض المدارس العقلانية المنحرفة لفكرة أن خبر النبي صلى الله عليه وسلم لا يُقبل إلا بعد إخضاعه للفهم العقلي، وهو قول فرقة المعتزلة.
- شيوع التردد في تصديق الغيبيات بين شباب المسلمين، بسبب غياب التربية العقدية الصحيحة المبنية على التسليم للنصوص.
- ضعف المعرفة بسيرة الصحابة، ومنهم أبي بكر الصديق، مما جعل القدوات المعاصرة تنحرف عن جادة اليقين والصدق والوفاء.
- الإعلام والمناهج المعاصرة تُسوق قصص الأنبياء كأنها رموز أو أساطير، مما يُهين النصوص ويُزعزع اليقين بها.
- انتشار ظاهرة السخرية من السنن والمعجزات على المنصات الساخرة، وهو تطاول على الدين يروج له أهل الأهواء تحت شعار "الكوميديا."
- قلة من يتأملون آيات القرآن في ضوء الواقع، فيفصلون الإسراء عن التزكية والربط بالعقيدة، وهو تقصير كبير في فهم المقاصد التربوية للسيرة.
- تجاهل وصف الله لرسوله بلقب "عبده" في آية الإسراء، مما يفوّت على الناس أعظم دروس العبودية والخضوع لله.
- الغلو في تعظيم العقل في بعض مناهج التعليم الإسلامي اليوم، يُخرج الناس عن منهج أهل السنة، ويفتح الباب لأفكار الفرق الضالة في تصور الوحي والنبوة.

- ضعف بيان صفات الله – كالسمع والبصر – في خطاب الدعوة، مما أفسح المجال لتحريفات فرق التعطيل، وجعل الناس يتقبلون الأقوال المخالفة بلا وعي.

انتهى هذا الباب ويليه الباب الثالث بمشيئة الله تعالى

الباب الثالث من دعوة القبائل إلى فجر الدولة

مقدمة

حين ضاقت أرض مكة بصوت التوحيد، واشتدت وطأة الباطل على أهل الإيمان، بدأت الرحلة المباركة في البحث عن أرض تحتضن الرسالة، وقلوب تنصر الدين، وسواعد تذود عن حامل الوحي. لم يكن ذلك فرارًا، بل كان امتدادًا لصبرٍ طويل، وجهدٍ شاق، ومرحلة من مراحل التمكين التي كتبها الله لعباده الصادقين.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في مواسم الحج، لا يسأل مالًا، ولا يطلب دنيا، بل يعرض نفسه على القبائل، ويقول بكلمات الهدى: "من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغَ رسالة ربي؟"، فيردّه الناس بغلظة، ويتفنن زعماء القبائل في الصدّ والسخرية، ويمضي عليه العام بعد العام، تتقاذفه مواقف الرفض، ويزيده الأذى ثباتًا وإصرارًا.

ثم إذا بالقلوب التي كانت في أطراف المدينة - يثرب - تتفتّح لكلمات الحق، وإذا بثمرات الدعوة تغرس جذورها في أرض جديدة، بدأت ببيعة، ثم ثانية، ثم هجرة، ثم ميلاد أمةٍ وكيان.

هذا الباب يسرد أيامًا من أعظم أيام السيرة:

- فيها التجوال بين الخيام، والنداءات الصادقة في ظلال الليل،
- وفيها اللقاء المبارك مع الأنصار الذين بدؤوا صفحة جديدة من التاريخ،
- وفيها التضحية، والانتظار، والخروج، والتوكل، ورفيق الطريق،
- وفيها رحلة الهجرة الخالدة، التي لم تكن انتقالًا في المكان، بل في الزمان والقدر والمستقبل.

هنا تبدأ الدولة من قلب الأذى، وتنبثق النصرة من بين ركام الخذلان، وينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من مرحلة البلاغ والصبر، إلى مرحلة البناء والتمكين.

إنه فجر الدولة الذي بزغ من قلب الظلام، وسطور هذا الباب تحكي تفاصيله، وتبثّ عبره، وتنقل إلينا عطر الثبات والتضحية والعقيدة الحيّة.

الفقرة الاولى: العرض على القبائل... طرق الأمل حين تُغلق الأبواب

حين ضاقت مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا بأرضها فحسب، بل بصدور أهلها، وتآمر قريش على دعوته بكل صنوف الإيذاء والتهكم والحصار، لم تكن تلك نهاية الطريق، بل كانت بداية لانطلاقة جديدة. فقد علم النبي

صلى الله عليه وسلم أن الرسالة التي يحملها لا يحدّها جدار، ولا يكبلها ظلم، ولا يطفئ نورها حجر أو بشر، إنها رسالة رب العالمين، نور يسري في الظلام ليبدده، وحقٌّ يتقدم مهما تكاثفت سُحب الباطل.

وفي موسم الحج، كانت القبائل العربية تفد إلى مكة من كل فجّ، وفودًا شتّى: قوم جاءوا للتجارة، وآخرون للعبادة، وغيرهم يبحثون عن مجد أو شرف، فصار هذا الموسم منبرًا دعويًا عالميًا على أرض محدودة. وهناك، في منى وعرفات، وعلى مشارف الكعبة، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيد الدعاة، يعرض دعوته على القبائل، واحدًا تلو الآخر، ويده تشير إلى السماء، وقلبه يفيض يقينًا"**:من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي "!**رواه ابن إسحاق في السيرة، وذكره البيهقي وابن كثير وابن هشام وغيرهم.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمشي بين الخيام، لا يطلب مالًا، ولا يسعى إلى ملك، ولا يريد مدحًا أو ثناء، بل يبحث عن قلوب صادقة، عن نفوس طاهرة تحتضن النور الذي أرسله الله به، كما قال تعالى :**﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]**

لقد كانت خطواته تلك تأكيدًا على أمر الله له:**﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]**، وتطبيقًا عمليًا للصبر والثبات، فلم يكن ينتظر أن تأتي النصرة إليه، بل يسعى لها سعي الواثق الموقن بربه.

عرض دعوته على أكثر من خمس عشرة قبيلة من كبرى قبائل العرب، عامًا بعد عام، وموسمًا بعد موسم، دون أن يتسلل إلى قلبه يأس، أو يعتريه فتور، وهو القائل كما في الحديث الصحيح" :**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس "...**وهو القائل يوم الطائف بعدما رُمي بالحجارة" :**إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي".**

لكن الأرض كانت كأودية من حجارة، والقلوب أقسى من الصخور.
فمنهم من ردّ الدعوة استكبارًا، ومنهم من قال: "إن اتّبعناك، أفتجعل لنا الأمر من بعدك؟" كما فعل بنو عامر بن صعصعة، ومنهم من خاف بأس فارس أو بطش الروم، ومنهم من ساوم على الملك، ومنهم من سكت إعجابًا، لكنه لم يجرؤ على حمل الأمانة.

ومع ذلك، لم تتوقف الدعوة، بل كانت كل محاولة، وكل رفض، وكل حوار، **بذرةً مغروسة في تربة الغيب**، تُسقى ظلام الليل وصبر النهار، حتى يؤذن الله أن تثمر.

وقد سجل أهل السِّيَر هذه اللقاءات، ونقلوها لنا تفصيلًا، قبيلةً قبيلة، وموقفًا موقفًا، لتبقى **مدرسة للدعاة في كل زمان:**
كيف يُعرض الحق؟
وكيف يُجابَه بالرفض؟
وكيف يُستقبل بالصبر، ثم يُثمر بالتمكين؟

وسنقف مع هذه القبائل تباعًا، نستنطق كلماتهم، ونستنير بحواراتهم، ونتعلّم من ردودهم، ونستلهم الدروس من صبر النبي صلى الله عليه وسلم ومهارته في عرض الدعوة، وكيف كان يُغلّف الحق بالحكمة، ويزرع الرجاء في بيداء القلوب المقفرة.

هكذا كان العرض على القبائل:
سفر أملٍ يُكتب بحبر المعاناة، وخطوة على درب النصر، في زمن يظنه الناس شدةً، ويجعله الله رحمةً وتمكينًا.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

- يقين النبي صلى الله عليه وسلم بنصرة الله له، رغم تتابع الإعراض والرفض، دليل على صدق التوكل على الله، وأن المؤمن يثق بوعد الله لا بظاهر الأسباب.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته رغم الإعراض والردود القاسية، شاهد على عصمة الأنبياء في البلاغ، وقوة يقينهم بالله.
- عرض النبي صلى الله عليه وسلم دعوته على الناس، وتكرار ذلك، تأكيد أن الإسلام دعوة عالمية لا قومية، ولا تخص زمانًا ولا مكانًا.
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من يؤويني؟ من ينصرني؟" إثبات أن الأنبياء بشر يحتاجون للأسباب، مع توكلهم الكامل على رب الأسباب.
- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الأذى، وعدم استعجاله للنصر، من دلائل النبوة، فإن هذا الصبر لا يكون إلا لمن يعلم يقينًا أن الأمر بيد الله.
- وصف الله لدعوة نبيه بأنها "سبيل إلى الله على بصيرة" دليل على أن الدعوة إلى التوحيد لا بد أن تكون قائمة على العلم والهدى، لا العاطفة ولا الجهل.
- تأكيد النبي صلى الله عليه وسلم أن رسالته "من عند ربي" يُثبّت الأصل العقدي أن مصدر الدين هو الوحي، وليس الرأي أو الذوق أو الفكر البشري.
- تقديم النبي صلى الله عليه وسلم لبلاغ الرسالة رغم قسوة القلوب وعدم القبول، برهان أن الهداية بيد الله، لا بمهارة الداعية، وأن البلاغ واجب ولو لم يُقبل.

فوائد فقهية

- في موقف النبي صلى الله عليه وسلم دعوة صريحة إلى بذل الأسباب في تبليغ الحق، والسعي في نصرته، وعدم انتظار التمكين بلا عمل.
- تعدد المحاولات الدعوية في كل موسم حج، دليل على مشروعية استثمار المواسم والأوقات الجامعة في الدعوة، كالمؤتمرات والمناسبات العامة.
- عرض النبي صلى الله عليه وسلم دعوته على القبائل رغم رفضهم السابق يدل على أن الدعوة لا تسقط بعد المحاولة الأولى، بل تُكرر بلا كلل.
- في اشتراط بعض القبائل أن يكون لهم الملك بعده، رفض النبي صلى الله عليه وسلم لذلك يعلمنا أن الشروط الفاسدة في الدعوة لا تُقبل، ولو كانت سببًا في نصرة ظاهرة.
- عدم توقف النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته عند أول العقبات درس فقهي في أن الفتور واليأس لا يجوزان في طريق تبليغ الدين.
- مشي النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه بين القبائل، يدل على أن المباشرة في الدعوة، والمبادرة إليها، من أعظم وسائل البلاغ الشرعي.
- الدعاء الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الدعاء سلاح الداعية، يلجأ إليه في الضعف، وهو مشروع في المحن الخاصة والعامة.

فوائد أخلاقية وتربوية

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم رغم الصدود والخذلان يعلم الدعاة أن النجاح الحقيقي ليس في النتائج، بل في الصدق والثبات والاستمرار.
- لم يسع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك أو جاه، بل إلى إبلاغ الرسالة، وهو خلق الإخلاص الذي يجب أن يكون أساس

كل عمل دعوي.

- قوله "فإن قريشًا قد منعوني" فيه صدق في عرض الواقع بلا شكوى، ولا تهويل، وهو أدب رفيع في الحديث عن الابتلاء دون التذمر.
- تصرّف النبي صلى الله عليه وسلم حين مشى بين القبائل يُعلّمنا التواضع للدعوة، وأن من حمل هم الدعوة لا يتعالى على الناس.
- حرصه على قلوب صادقة يدل على أن غاية الداعية ليست كثرة الأتباع، بل صدق الأتباع، ونقاوة النفوس التي تحتضن الحق.
- تعبيرك بـ "سفر أمل يُكتب بحبر المعاناة" يترجم الحقيقة التربوية أن الشدائد تصنع القادة، والمحن تُخرج كنوز النفس، وتصقل الإخلاص.
- عرض النبي صلى الله عليه وسلم دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة دون تهجم ولا عداوة يُرسي مبدأ اللين في مواضع الدعوة، ولو كانت النفوس قاسية.
- تسجيل أهل السِّيَر لهذه المواقف بتفصيل دقيق يعلمنا أهمية التوثيق في العمل الدعوي، وأن الخبرة المتراكمة يجب أن تُنقل للأجيال.

مخالفات الواقع المعاصر

- انقطاع همّة كثير من الدعاة اليوم بعد أول رفض أو نقد، وتركهم للدعوة لقلّة التفاعل، خلاف لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في الثبات والمواصلة.
- تساهل بعض الدعاة في قبول الدعم المشروط من جهات علمانية أو منحرفة، بعكس النبي صلى الله عليه وسلم الذي رفض الدعم المشروط بالملك أو التنازل.
- ضعف اليقين عند بعض من يدّعون العمل للدين، حيث يربطون الدعوة بالنتائج المادية فقط، بينما النبي صلى الله عليه وسلم علّمنا الصبر وانتظار وعد الله.
- سعي بعض المتصدرين اليوم إلى الشهرة أو المال باسم "الدعوة"، بينما دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانت خالصة لله، لا يبتغي من ورائها دنيا.
- بُعد كثير من الدعاة عن التواصل المباشر مع الناس، واكتفاؤهم بالمظاهر، يخالف منهج النبي صلى الله عليه وسلم في النزول إلى الناس والسير إليهم.
- عدم استغلال مواسم الناس الاجتماعية والثقافية للدعوة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في موسم الحج، من مظاهر الفتور الدعوي اليوم.
- اشتراط بعض الفرق والمنتسبين للدين اليوم شروطًا تناقض أصل العقيدة، كالمشاركة في الدعوة بشرط تقديم الفكر القومي أو الحزبي، كما فعلت بنو عامر لما اشترطوا الملك، وهذا من طريقة الفرق لا أهل السنة.
- اختزال كثير من الناس للدعوة في التنظير دون بذل واقعي أو حركة، مما يفقدها الروح التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم في بذله وتعرضه ومشيه بين القبائل.
- بروز أساليب الدعوة القائمة على المجاملة والتنازلات المخالفة للشرع بحجة التأثير، بينما منهج النبي صلى الله عليه وسلم كان الدعوة على بصيرة، لا على مساومة.
- غياب التربية على الإخلاص، حيث صار بعض الدعاة يربطون قبول الناس لدعوته بمكانته أو جاهه، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرضها خالصة لوجه الله، لا يطلب مدحًا ولا مكانة.

.

الفقرة الثانية بنو عامر بن صعصعة... الطموح السياسي يُعمي البصيرة

في موسمٍ من مواسم الحج، والحرُّ المكي يلهب الرمال، كانت القبائل تتقاطر إلى مكة، وفوق هذه الرمال الحارقة، كان الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يجول بين الخيام، يعرض دعوة السماء على قلوب طالما أرهقتها عبادة الأصنام، وكم كانت تلك المشاهد مؤثرة؛ نبيّ يحمل نورًا في يده، ويبحث له عن أوعية تصونه، وصحائف تطويه بين ضلوعها، ومناصرين يحمونه وينشرون رسالته في الآفاق. وفي إحدى تلك السنين، وقف عند بني عامر بن صعصعة، تلك القبيلة التي كان يُشار إليها بالبنان، قوةً ومهابةً ومنعة، فقال لهم بما قال لكل قبيلة: "يا بني عامر، هل لكم إلى خير؟ إني رسول الله، أُرسلت إلى العباد، أدعوهم إلى أن يوحّدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأن يخلعوا عبادة الأصنام".

فجاءه رجل منهم يُدعى بيحرة بن فراس، وكان من رجالاتهم العقلاء الفصحاء، لكنه كان يحمل بين ضلوعه طموحًا لا يعرف طهارة النية، ولا إخلاص القلب، فسأل سؤالًا يحمل بين حروفه لهفة إلى السيادة لا رغبة في النجاة: "أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟" وهنا تتجلى روعة النبوة التي لا تُخادع، ولا تساوم، ولا تبيع أمر الله في سوق السياسة، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بصدق التوكل وجلال الثقة: "الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء".

فإذا بوجه الرجل يعبس، وإذا بحديثه يتحول من التماس هداية إلى مساومة على العزّ، فقال: "أفنُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك." ثم انصرفوا عن نور الدعوة كما تنصرف الحجارة عن المطر، لم يروا في الرسالة إلا سلّماً إلى المجد الدنيوي، فلم يفهموا أن النبوة لا يطلبها طامع، ولا يرثها من يسأل عن الحُكم قبل أن يسأل عن الصدق في الإيمان.

وهكذا، ضيّع بنو عامر شرفًا لم تُدركه رايات القبائل، وخسروا فرصة أن يكونوا ممن اصطفاهم الله لحمل هذا الدين، فخرجوا من التاريخ في لحظة كان يمكن أن تُخلدهم، وكان فيهم رجال أسلموا بعد فتح مكة، فلما رأوا تمكين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، تحسّر أحدهم وقال: "لو أن قومي أجابوه يومئذ، لكنا نحن الذين تحملنا هذا الأمر من بعده." لكن الله لا يورث هذا الدين لمن يبحث عن الزعامة قبل التضحية، ولا يرفع لواء الوحي مَن لا يُفرغ قلبه من الطمع، فإن الله عز وجل يقول" :**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**] "الأنعام: ١٢٤]، ويقول سبحانه في موضع آخر" :**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**] "هود: ١٢٣.[

وهنا نتعلم سنّة من سنن الله في الدعوات؛ أن الراية لا تُسلَّم لمن يطلبها، بل لمن يُطلب بها وجه الله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثٍ عظيم" :**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنِعْم المرضعة، وبئست الفاطمة**] "رواه البخاري]. ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم رأى كيف كان لا يُعطي المناصب لأهل الطموح السياسي، بل لأهل القلوب المؤمنة التي تقدِّم الآخرة على الأولى، والتضحية على المكسب، والحق على السلطان.

فيا ليت بيحرة فهم أن من نصر محمدًا صلى الله عليه وسلم إنما نصر الحق، لا شخصًا، وأن من آوى هذا الدين في لحظات غربته، أورثه الله مجدًا لا تدركه عروش الأرض. إن الدعوة إلى الله لا تُعطى لمن سأل عن المقابل، بل لمن باع نفسه لله بلا قيد ولا شرط، قال تعالى" :**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**] "التوبة: ١١١.[

وصدق من قال: إنها سنة الله... أن لا يرث النبوة طامع، ولا يحملها من يطلب العزّ لنفسه دون أن يذوق مرارة التضحية، فالله لا يختار لحمل نوره إلا من خلع حظوظ النفس، وتجرد للحق، واستعد أن يُنحر دون أن يسأل: من بعدي لمن يكون الأمر؟

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوحيد هو محور الرسالة ومركزها؛ إذ جاء الأمر الإلهي: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ لإعلان بطلان الشرك وإفراد الله بالعبادة، فصار ميزان الحق والباطل هو عبادة الله وحده لا شريك له.
- الإيمان بأن البلاغ إنما يصدر عن وحيٍ معصوم لا عن أهواء البشر؛ فـ«بما تؤمر» دليل على أن مرجعية الدعوة من السماء، والعبد مأمور بالاتباع لا الابتداع.
- سنّة الابتلاء ماضية لتمحيص القلوب؛ فاهتزاز مكة لم يكن لصوت مرتفع بل لقوة المعنى، وفي ذلك أن العاقبة لأهل الحق إذا صبروا وصدقوا.
- تقديم حق الله تعالى على هيبة الخلق؛ فالصدع بالتوحيد إعلان عملي أن الخوف من الله أعظم من رهبة المتجبرين.
- بطلان كل معبود سوى الله ظاهرًا وباطنًا؛ فالآلهة الموهومة لا تضر ولا تنفع، وإنما الضر والنفع بيد الله وحده.

فوائد فقهية

- مشروعية التدرج في البلاغ بحسب القدرة والمصلحة؛ فمرحلة السرية كانت تهيئةً للقلوب، ثم جاء وجوب الجهر عند اكتمال الاستعداد.
- اعتبار قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد في وسائل الدعوة؛ فلا يُستجلب مفسدة راجحة باسم الحماسة، بل يُختار الأرفق الأقوم طريقًا.
- وجوب البيان عند ظهور الشرك والباطل؛ فالأصل في التوحيد الإعلان والبراءة من الأوثان مع الحكمة والموعظة الحسنة.
- تحريم مقابلة أذى الخصوم بالظلم والبغي؛ فثبات المؤمنين كان على الحق والصدق لا على الاعتداء وردّ الباطل بباطل.

فوائد أخلاقية

- الشجاعة الأدبية في قول الحق، والصدق في البلاغ، مع رحمةٍ تثبّت الضعفاء وتُشعرهم بالانتماء.
- الصبر على الأذى مع العفّة عن الإغراءات؛ فالثبات عند العروض والمساومات خلق الأنبياء وأتباعهم.
- الوفاء بالعهد مع الله وعدم النكوص عند الشدائد؛ فالمؤمن يزداد ثباتًا كلما اشتد الهجوم على الحق.

فوائد سلوكية

- صناعة العبد الرباني تبدأ ببناء القلب سرًّا قبل الظهور علنًا؛ فالسرية مدرسة تربية ثم تأتي مرحلة الشهادة على الناس.
- الانضباط في الصف وترك العشوائية؛ فالجماعة المؤمنة تتحرك وفق أمر ربها وتوجيه نبيها صلى الله عليه وسلم.
- تعاهد النية وتجديدها؛ إذ المقصود وجه الله لا مجرد الغلبة الإعلامية أو الانتصار الذاتي.

فوائد سياسية وعسكرية

- تجنّب الصدام المبكر قبل اكتمال أسباب القوة؛ فالمرحلة المكية منهج في ضبط الإيقاع وتفادي الاستفزاز.
- وعيٌ بطبائع الخصوم وأساليبهم (ترهيب، ترغيب، حصار)؛ وتُقابل بإستراتيجيات شرعية: ثباتٌ، حكمة، وحدة صف.
- شرعيةُ القيادة النبوية مستمدة من الوحي لا من السيف؛ ومن ثم تُبنى القوة على الشرعية الإيمانية قبل القوة المادية.

فوائد إدارية وقيادية

- بناء الفريق قبل رفع الشعار؛ «تدريبٌ للقلوب وتثبيتٌ للصف» قاعدة قيادة تُقدّم التكوين على التمكين.
- وضوح الرسالة وبساطتها: «لا معبود إلا الله» خطابٌ موجز جامع، يختصر الطريق ويمنع التشتت.

- إدارة المخاطر وتوقع ردود الأفعال (تهديد، إغراء، حصار) مع خطط صبرٍ وتماسكٍ داخلي.
- التكليف بحسب الكفاءة؛ فحَمَل الصوت إلى بطاح مكة مَن تأهّل قلبًا ولسانًا.

فوائد اجتماعية

- كسرُ الصمت الجمعي حول الباطل يحرّر المجتمع من الهيبة الزائفة للأصنام المادية والمعنوية.
- الحصار والمقاطعة اختبارٌ للروابط الاجتماعية؛ فيُظهر المجتمع المؤمن روحَ التكافل ورسوخ الأخوّة.
- الجهر بالتوحيد يعيد تشكيل الوعي العام ويقلب موازين القيم من تقديس الحجر إلى تعظيم خالق البشر.

فوائد نفسية

- قوةُ المعنى تصنع الهزّة الداخلية قبل أي تغيير خارجي؛ فالإيمان يغلب الخوف حين يستقر في القلب.
- التربية على تحمّل الضغط النفسي (ترهيب/ترغيب) دون تنازل، فتتشكل المناعة الإيمانية ضدّ الابتزاز.
- الانتقال من الخفية إلى العلنية يداوي رهاب المجتمع ويصنع الجرأة المسؤولة.

فوائد تاريخية وحضارية

- لحظة الجهر بالتوحيد نقطة تحوّل في مسار البشرية؛ إذ خرج الإسلام من نطاق الأفراد إلى صناعة هوية أمة.
- ترسيخُ أن الحضارة إنما تُبنى على عقيدة صحيحة وعبادة خالصة، لا على ركام الأصنام والتقاليد.

مخالفات الواقع لنص الفقرة

- تحويل «الصدع بالحق» إلى ضجيجٍ إعلامي بلا إعدادٍ قلبي ولا وحدة صف، فيضيع المقصود وتبقى الشعارات.
- استعجالُ الصدام وإثارةُ الفوضى باسم الدين، ومخالفةُ منهج السلف في الصبر والحكمة، وهو مسلكُ **فرق الخوارج** في التهييج وشق عصا الطاعة.
- تمييعُ التوحيد لصالح قضايا جانبية؛ فيُغفل أصل الدين وتُقدَّم مسائل ثانوية على عبادة الله وحده.
- قبولُ الإغراءات الدنيوية والتنازل عن ثوابت الشريعة بحجّة «المصلحة»، مع أن المصلحة الشرعية لا تُناقض التوحيد.
- ردّ الأذى بالباطل: سبّ، شتم، تعدٍّ؛ وهذا يناقض خُلق الدعوة التي بُنيت على الصدق والعدل والرحمة.
- تسويقُ مفاهيم الحداثة المنحرفة لهدم اليقين بربانية الوحي، واستبدال الوحي بأذواق البشر.
- اليأسُ والقنوط عند ضغط المجتمع؛ فينهار الثبات وتُترَك الدعوة بدلًا من الصبر واحتساب الأجر.
- اتخاذُ نصوص البلاغ ذريعةً للطعن في حكّام المسلمين بالجملة، وتحويلها إلى سلاح للفوضى؛ وهذا انحراف تلبّسته **فرق الأهواء**، والهدْيُ المستقيم هو النصيحة الشرعية بضوابطها، لا التشهير ولا التحريض.
- تشويهُ صورة الدعوة بإقصاء أهل العلم، وتقديم الحماسة على العلم، مع أن القيادة في الدين لأهل البصيرة.
- الركونُ إلى العادات والأصنام المعنوية (تعظيم الأشخاص والرموز) بدل تعظيم الله تعالى وشريعته.

الفقرة الثالثة: بنو شيبان بن ثعلبة... حكمة الرجال لا تغني عن نور الإيمان

في موسمٍ من مواسم الحج، حين تحتشد القبائل في مكة، كلٌّ يحمل تراثه وعصبيته وبأسه وأنسابه، كان بينهم رجل مختلف، لا يحمل في يده سلعًا، ولا في صدره مفاخرة، بل يحمل في قلبه نورًا من السماء، وكلمة تهزّ الجبال: "لا إله إلا الله"، ويصدع بها بلسان النبوة والرحمة، إنه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

وفي أحد تلك المجالس التي تنبض برجال العرب، اقترب النبي صلى الله عليه وسلم من مجلس بني شيبان بن ثعلبة، وكان فيه وجوه القوم: مفروق بن عمرو، ذلك السيد الجليل صاحب القسمات المهيبة، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة الشيباني، رجل السياسة والحروب، والنعمان بن شريك، فجلس إليهم، وجلسوا إليه، كأن السكينة نزلت، وكأن القلوب تتهيأ لسماع نبأ عظيم.

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم، بكلمات ملؤها الصدق واليقين: "أدعُوكم إلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وتؤووني وتنصروني حتى أبلغ عن الله ما بعثني به". فرفع مفروق رأسه، وقال في فصاحة الفارس العربي: "وإلامَ تدعونا يا أخا قريش؟" فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم لا يزيد ولا ينقص، بل يتلو القرآن على من تُليت عليهم التوراة والإنجيل والقصائد الجاهلية، فقال:﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾]الأنعام: ١٥١ [حتى ختم الآيات الخمس التي هي من أمهات الأخلاق والتشريع.

فانبهرت الأسماع، وسكنت الأبصار، ثم قال مفروق كمن مسّه نور: "والله، ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه!" وهنا بلغ الكلام مبلغه، وأوشك القلب أن يفتح بابه، لولا أن المثنى بن حارثة – بوعي القائد وبُعد نظر السياسي – تدخّل وقال: "إنك دعوتنا إلى أمر حسن، يدعو إلى مكارم الأخلاق ورضا الله، ولكن لنا عهودًا مع كسرى لا نخفرها، ولسنا ممن يُشعل الحروب عبثًا، فإن أردت أن نمنعك مما يلي مياه العرب فعلنا، أما ما وراء ذلك فلا طاقة لنا به."

كلام فيه حكمة السياسة، لكنه لا يحمل حرارة الإيمان. وهنا تجلت النبوة مرة أخرى، فلم يُساوم النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يُلِن القول من أجل حلف أو عُهد، بل قال كلمات تحفظها السماء" :**إذا أبيتم إلا هذا، فلا تسيئوا في الرد. إن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه."**

فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم عنهم، قلبه مطمئن، وعينه ترى أن القوم أصحاب رأي وبأس، لكن الإيمان لم يتغلغل بعد في القلوب، واليقين لم يملك زمام النفس. لقد امتلكوا الحكمة، لكنهم فقدوا الإقدام، وتأنّوا حيث كان ينبغي أن يسبقوا إلى المجد، ففاتهم ما لا يُشترى بكنوز كسرى.

وبعد سنوات، دخل الإسلام ديار بني شيبان، وأسلم المثنى بن حارثة نفسه، وكان من قادة الفتح الإسلامي العظيم في العراق، ذلك الفتح الذي مزّق تاج كسرى، وهدم إيوانه، وقاد فيه المثنى الجيوش التي فتحت البلاد التي كان يخشاها بالأمس، فصدق الله وعده، وأورث الأرض لعباده المؤمنين، كما قال تعالى:
﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾]الحج: ٤٠[، وقال سبحانه :﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾]غافر: ٥١.[

لكنّ الشرف الذي ضيّعوه يوم العقبة لم يعد إليهم، فقد سبقهم إليه رجال من المدينة، قلوبهم معلّقة بالسماء، لا تحكمهم عهود الملوك، ولا يخافون بطش الطواغيت، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الخالدة من ليالي العقبة" :**فإنا نمنعك مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا، فإن وفيت لنا، وفيْنا لك، وإن قتلت قُتلنا دونك، وإن خذلتنا فأمر الله إليك** ."فهؤلاء هم الأنصار، الذين باعوا أنفسهم لله، واشتروا الشرف يوم أغفله السادة، واختاروا التضحية حيث اختار غيرهم التريّث.

وهكذا، كان بنو شيبان رجال عقلٍ ورأي، لكن **الحكمة وحدها لا تكفي ما لم يُضيء نور الإيمان القلب**، ومن لم يُقدّم رضا الله على رضا كسرى، فاته المجد الذي لا يصنعه السيف بل يصنعه التوحيد، ويُخلّده اليقين.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

- التوحيد هو أصل الرسالات، وبه تُفتح القلوب لله، ولا ينجو عبدٌ دونه، كما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم دعوته للقبائل.
- لا تُقبل دعوى الإيمان إلا مع الاستعداد لبذل النفس في سبيل الله، فالإيمان الحق يقتضي عملاً وتضحية لا كلامًا فقط.
- نور الرسالة لا يُشبه كلام البشر، ومن صفا قلبه ميزه كما فعل مفروق بن عمرو، وهذه علامة من آيات النبوة.
- لا يُؤتى هذا الدين إلا لمن أحاطه من جميع جوانبه، قولًا وفعلاً وولاءً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ينصره من يجعل ولاءه موزعًا بين الله والخلق.
- النصر لا يكون إلا لمن نصر الله بإخلاص، وجعل ولاءه كله لله ورسوله، لا للأنظمة أو الزعامات، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾.
- العقيدة تقتضي تقديم ما يُرضي الله على أي عهد دنيوي أو ميثاق بشري، مع حفظ العهود ما لم تمنع من شرع الله.
- الإيمان ليس حكمة سياسية ولا حسابات مصلحية، بل تسليم واتباع لما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتلك مرتبة لا يبلغها من لا يثق في وعد الله.

فوائد فقهية

- لا يجوز التقييد في نصرة الدين بشروط تعطل حمل الرسالة، بل يجب النصرة المطلقة للدين وفق الشرع، مع مراعاة العهود المباحة ما لم تتعارض مع نصرة الحق.
- البيعة في الإسلام لا تكون إلا مع استعداد كامل للنصرة، ولا تُقبل بيعة من يتردد أو يشترط شروطًا تُضعف الدين.
- التريث الزائد في قبول الدعوة، ولو بحجة الحكمة، قد يُفوّت على الإنسان فضلًا عظيمًا لا يُعوض، كما حدث مع بني شيبان.
- من فقه النبي صلى الله عليه وسلم في إدارة الدعوة أنه لم يساوم على شيء من ثوابت الدين، ولم يُرِد النصرة المجتزأة، بل نصرةً تُحيط بالدين كله.
- لا يُختار للدعوة والمناصب الشرعية من يُظهر ميلًا للمصالح على حساب الحق، بل يُختار من آثر رضا الله على غيره.
- نصرة الدين شرف عظيم لا يُنال بالمفاوضة، وإنما بالصدق في العقيدة والتجرد لله، وهذا أصل في فقه الولاء للدعوة.

فوائد أخلاقية

- من الأخلاق الإيمانية أن تُقدّم رضا الله على أي اعتبار دنيوي، ولو كان عهدًا مع ملوك الأرض.
- الأدب في الحوار لا يُغني عن الإقدام في نصرة الحق، فمن سمع الحق وتردد فقد فرّط في واجب الوقت.
- التردد في نصرة الحق ليس من الحلم في شيء، بل هو ضعف في التوكل وثقة القلب، خاصة إذا ظهرت الحجة وقام الدليل.
- يجب أن يُربى المسلم على الحزم مع الحق، لا على الحسابات التي تُضيّع الفرص وتُفوّت الفضل.
- من الخلق الرفيع أن يرد الإنسان على الدعوة بأدب إن لم يُجبها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فلا تسيئوا في الرد"، ولكن الأدب لا يُغني عن الانقياد لله.
- لا تكفي الحكمة المجردة دون الإيمان، فالإقدام في سبيل الله لا يكون إلا لمن أشرقت في قلبه أنوار اليقين، ورضي أن يقدّم دينه على دُنياه.

فوائد دعوية وتربوية

- يجب على الدعاة أن يعرضوا التوحيد بلا مجاملة، ولا يختزلوه في مكارم الأخلاق وحدها، بل يُصرّحوا بأنه دعوة إلى إخلاص الدين لله ونبذ الشرك بجميع صوره.
- من وسائل فشل الدعوة أن تُعطى لمن يشترط قبل البذل، أو يُقيد نفسه باعتبارات سياسية، فالصدق في الدعوة يعني أن يُقدم العبد لله بلا قيد.
- لا بد من إحياء قيمة التقدم للحق ولو خالف المألوف، وألا ينتظر الداعية تغير الموازين قبل التحرك.
- يجب أن يُربى الجيل الجديد على أن المجد الحقيقي هو مجد الرسالة، لا مجد السياسة أو الزعامة، وأن الله هو من يرفع من يشاء.
- من خذل الحق أول الطريق، فقد لا تُفتح له أبواب الشرف بعد ذلك، لأن سنة الله في التمكين قائمة على المسارعة لا على التردد.
- الدعوة الصادقة لا تستجدي الأنظمة ولا تستأذن القوى البشرية، بل تثق أن الله هو الذي يُظهر دينه، ويهيئ له جنوده.

مخالفات واقعية

- من الأخطاء الواقعة أن يتردد بعض الناس في إعلان الحق العقدي خوفًا من النقد أو الطعن، فيُخفون التوحيد خلف عبارات عامة لا تُظهر البراءة من الشرك والبدع.
- من مظاهر الخلل في زماننا اشتراط بعض العاملين للدين توفر الدعم أو الأمان قبل المشاركة في العمل الدعوي، مما يعكس ضعفًا في التوكل.
- وجود من يعطل واجب نصرة الدين بحجة الالتزام باتفاقيات أو اعتبارات سياسية، مع أن نصرة الدين تكون دائمًا في إطار المشروع المشروع.
- من الخطأ أن يحصر البعض العمل الدعوي في الأخلاقيات العامة دون التطرق للتوحيد وأصول العقيدة، بدعوى تجنب الحساسية أو منع الاتهام بالتشدد.
- الخشية من فقدان المكانة أو الرزق تمنع بعض الناس من بيان الحق، وهذا مخالف لخلق الأنصار الذين قدّموا التضحية على المصالح.
- الإعراض عن الدعوة إلى التوحيد الكامل بحجة تجنب التصادم أو حفظ المصلحة، قد يُفسح المجال لأهل البدع لنشر باطلهم، لذا وجب الحذر والاعتدال، دون تعدٍ ولا تشدد

الفقرة الرابعة :بنو حنيفة... قبيلة القوة التي اختارت الضلال

في مواسم النور، حين كانت القلوب تهفو للحج وتتهادى قوافل العرب إلى مكة، كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لا يلهث وراء جاه، ولا يطلب حلفًا لأجل دنيا، بل يحمل في صدره أعظم أمانة أوتيها بشر، رسالةٌ من السماء تدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ الأوثان، وترك الظلمات إلى النور.

مضى في تلك الأيام الطاهرات يعرض دعوته على القبائل، واحدًا تلو الآخر، ويقول لكل قوم كما قال لغيرهم: "هل لكم إلى خير؟"، لا يسألهم مالًا، ولا منصبًا، بل يطلب منهم أن يؤووه وينصروه حتى يُبلّغ عن ربه، وكان يعلم أن هذا الدين لا يقوم إلا برجال يضحّون، ويؤمنون قبل أن يحسبوا الغنائم.

ووقف صلى الله عليه وسلم ذات يوم على قبيلة بني حنيفة، من أعظم قبائل اليمامة، وأكثرهم عددًا وسلاحًا وثراءً، فكانوا أهل بأسٍ وظهور، تُخشاهم القبائل وتُطلب ودادهم. فدعاهم إلى توحيد الله، وإلى كلمة تُخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وقال كما قال لغيرهم: "أدعُوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وتؤووني وتنصروني حتى أبلغ عن الله ما بعثني به."

لكن ما كان من بني حنيفة إلا أن قابلوا هذا النور بظلمات نفوسهم، فغلّظوا القول، وأظهروا الكِبر، وسخر بعضهم من الدعوة وأعرضوا عنها، حتى قال أهل السير في وصفهم: "ما ردت عليه قبيلة ردًّا أغلظ من ردّ بني حنيفة"، فما من قبيلة إلا وكان فيها شيء من الاستماع أو الحياء أو التأمل، إلا بني حنيفة، فقد أعرضوا بوجوههم، وأغلقوا قلوبهم، وكأن آذانهم صُمّت عن الوحي، وأبصارهم عميت عن الحق، وقلوبهم نُزعت منها الرقة، وكانوا كما قال الله تعالى :﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾]النمل: ١٤.[

فانصرف عنهم النبي صلى الله عليه وسلم، لم ينصرف مُحبطًا، فإن اليقين لا تزعزعه غلظة قوم، ولكنه خرج من عندهم حزينًا على أناس ردّوا باب الرحمة، وأعرضوا عن المبعوث رحمة للعالمين، وانغلقوا على أنفسهم في تيه الغرور والجاه والكبر، وكأنما كُتبت عليهم الخسارة من أول الطريق، إذ لم يُحسنوا استقبال النور حين مرّ من بين أيديهم، يقول الله تعالى :﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾]الحج: ٤٦.[

ولم يمضِ الزمان طويلًا حتى خرج من أصلابهم رجل هو رأس الضلالة، وأكذب الكذّابين، مسيلمة، الذي نافق على الناس بادّعاء النبوة، فافتتن به بعض السذج من قومه، وظنّوا أن النبوة مُلكٌ يُتوارث، لا نورٌ يُؤتى لمن اصطفاه الله. فنزل بأس الله على فتنتهم، وقاتله الصحابة الكرام قتالًا شديدًا في معركة اليمامة، فاستشهد فيها خيار القراء من حفظة القرآن، وعلى رأسهم زيد بن الخطاب، وأبو دجانة، وثابت بن قيس بن شماس، حتى قُتل مسيلمة شر قتلة، وانكشفت فتنة بني حنيفة، وطُويت صفحتهم في سواد الردة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم محذرًا من الكذابين" :**لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه نبي]** "رواه مسلم.[

لقد خسر بنو حنيفة شرف البدايات، فخسروا البركة، وردّوا نور النبوة حين كان في متناول أيديهم، فكانوا ممن قال الله فيهم :﴿**وَلَوْ رَأَيْتَ إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾]الأنعام: ٣٠.[

فما أغنى عنهم مالهم، ولا سلاحهم، ولا عزّ عشيرتهم، حين عميت بصيرتهم، وغُلّف قلبهم، **فالمعيار في هذا الدين ليس في القوّة، بل في القبول، ولا في الكثرة، بل في التجرّد لله**، ومن ركب مركب الكِبر في مواجهة الحق، قاده الكبر إلى الضلال، ثم إلى الخذلان، ثم إلى الخزي في الدنيا والآخرة.

وهكذا، تُثبت السيرة أن القلوب إذا لم تُفتح للحق، فإن أبواب السماء تُغلق دونها، وأنه لا شرف يُنال بالجاه ولا بالسلاح، بل بالتسليم لنداء الله، واللحاق بركب النبوة في أول الطريق، لا التمادي في العناد حتى يُغلق الباب.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

الفوائد العقدية:

- دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت خالصة للتوحيد، لا لدنيا ولا لمكانة، وفي ذلك تقرير لعقيدة الإخلاص في الدعوة إلى الله.
- الإيمان الحق لا يُبنى على الطمع في الغنائم أو المصالح، بل على التصديق والتسليم لله، وهذه قاعدة عقدية أصيلة.
- من صفات الكافرين والمنافقين أنهم يعلمون الحق لكنهم يعاندونه، كما قال الله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾،

وفيه تقرير لحقيقة العناد والكبر كمانع من الإيمان.

- القلب هو محل الهداية والعمى، لا العين، كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب﴾، وهذه قاعدة عقدية عظيمة في فهم طريق الضلال والهداية.
- النبوة لا تنال بالوراثة أو الطموح البشري، بل بالاصطفاء الإلهي، ومن ادّعاها فقد كذب على الله، وهذا أصل من أصول العقيدة.
- كل من ادّعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم كذاب دجال، وهذا مما استقر في العقيدة الإسلامية، كما ورد في الحديث الصحيح.
- الهداية والبركة تكون لمن استجاب للحق أولًا، لا لمن تردد أو كابر، ومن فوّت شرف البداية، فاته الخير العظيم، وهو معنى عقدي في باب الفضل والسبق إلى الطاعات.

الفوائد الفقهية:

- دعوة الناس إلى الإسلام تكون بالحكمة والبيان، لكن من رفضها لا يُكره عليها، وهذا أصل في باب الدعوة وضوابطها.
- جهاد المرتدين ومن ادّعى النبوة واجب على الأمة، وقد قام به الصحابة رضي الله عنهم، وفيه دليل فقهي على قتال البغاة والكذابين حماية للدين.
- يجوز للحاكم الشرعي أن يُقاتل من خرج عن الإسلام وأثار الفتنة، كما فعل أبو بكر الصديق في الردة، وهو أصل فقهي متفق عليه.
- حفظ القرآن الكريم فرض كفاية على الأمة، وفي قصة استشهاد القراء دلالة على أهمية وجود الحفظة واستمرارهم.
- لا يجوز اتباع الدعاوى الباطلة حتى لو زخرفها أصحابها، فالنبوة لا تثبت إلا بنص من الله، وهذا مما يُبنى عليه في باب الإمامة والدعوة.

الفوائد الأخلاقية والتربوية:

- من أعظم الأخلاق في الداعية أن يواصل البلاغ ولا ييأس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، رغم الإعراض والغلظة.
- الكِبر من أسوأ الصفات التي تصدّ الإنسان عن قبول الحق، وهو مفتاح للضلال والحرمان من الهداية.
- غلظة القلب وسخرية الإنسان من دعوة الحق، دليل على قسوة في النفس تُوجب الخذلان.
- ترك الحياء عند سماع الدعوة من دلائل فساد الفطرة، بخلاف من يصمت أو يتأمل.
- قوة الإنسان وسلطته لا تعني شيئًا إذا لم تقترن ببصيرة وإيمان، فالحق لا يُعرف بالرجال، بل الرجال يُعرفون بالحق.
- الحزن على ضياع الهداية من الناس خلق نبوي يدل على رحمة القلب، وهو خُلق ينبغي للدعاة التأسي به.

الفوائد الدعوية والاجتماعية:

- على الدعاة أن يدعوا الناس على تفاوتهم، فلا يُقصى أحد بسبب جاهه أو ماله، فالهداية بيد الله.
- التمكين للدعوة لا يكون بالقوة المادية، بل بالإيمان والتجرد لله، ومن ظن أن الدعوة تنتصر بالكثرة والسلطان وحدهما فقد أخطأ الطريق.
- لا بد أن تكون بداية الدعوة إلى التوحيد قبل أي شيء آخر، وهذه سنة الأنبياء جميعًا.

- الزهد في مصالح الدنيا هو من أعظم أسباب القبول عند الله في الدعوة، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- فتنة الجاه والقوة قد تُعمي الإنسان عن الحق، لذا لا بد من محاسبة النفس دائمًا.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس اليوم يُعرضون عن دعوة التوحيد الكاملة خشية وصفهم بالتشدد أو التطرف، رغم أن التوحيد هو أول واجبات الدين.
- بعض دعاة الضلال في هذا الزمان يدّعون أنهم مصلحون أو مُلهَمون أو أصحاب رؤى، ويتكلمون باسم الدين بلا علم، ويُفتنون العوام.
- كثرة من الناس تُنكر الدعوة إلى نبذ الشرك السياسي والتشريعي، خشية سخط الناس، فتُقدّم المجاملات على بلاغ الدين.
- هناك من يتبع الشخصيات ذات النفوذ والمال في الدين والدنيا دون النظر إلى مدى مطابقة أقوالهم للحق، وهذا من مظاهر الجاهلية الحديثة.
- ظهرت فرق تزين الكفر وتدّعي أن كل الديانات طريق إلى الله، وتُنكر حصرية النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذه من أوسع أبواب الردة المعاصرة.
- بعض الناس يُفتنون بالمظاهر الدنيوية للقوة والسلاح، ويظنون أن الغلبة معيار الحق، فيُخطئون في موازين الهداية.
- غابت عن كثير من المجتمعات قيمة الحياء من الله ومن الدعوة، فصار الاستخفاف بالقرآن والسنة يُبثّ عبر وسائل الإعلام دون نكير.
- لا يزال في بعض البيئات من يُهاجم الدعاة المخلصين، ويسخر منهم، ويصفهم بالرجعية، تكرارًا لما فعله بنو حنيفة من قبل.

الفقرة الخامسة: بنو كندة... الطمع في المُلك يُفسد نية الدعوة

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في مواسم الحج بين القبائل، لا يطلب مالًا ولا سلطانًا، ولا يطمع في جاهٍ أو رياسة، بل يحمل على عاتقه أمانة عظيمة، هي دعوة الناس إلى توحيد الله، وإقامة الدين، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وكان مما مرّ به في طريقه قبيلة كندة، قبيلة عريقة، لها تاريخ في الملك والسيادة، وكان يجلس فيهم رجل يُقال له مُليح، من سادة القوم وعقلائهم.

اقترب النبي صلى الله عليه وسلم من مجلسهم، فجلس بينهم، وحدّثهم عن الإسلام، عن نور الوحي، عن عدل السماء، عن رب واحد يُعبد، ودينٍ قويم يُتّبع. لكن ما إن انتهى، حتى تكشفت سرائر القلوب، وبان معدن النفوس، فإذا بمليح يقول له" :إنك إن جعلت لنا الأمر من بعدك أجبناك."!

فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن أجاب بكلمة سماوية تُغلق باب الطمع وتفتح باب الإخلاص، قال" :ليس ذلك إليَّ، إنما ذلك إلى الله، يضعه حيث يشاء ."نعم، فالأمر ليس بيد بشر، ولا يُورث النبوة كما تُورث الممالك، إنما هي أمانة واصطفاء من الله العليم الحكيم، كما قال سبحانه:﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾]الأنعام: ١٢٤.[

لكن القوم لم يعجبهم الجواب، فقد كانوا يُريدون دينًا يكون سلّمًا لمطامعهم، ويُقايضون على الإسلام بملك زائل. فأعرضوا عنه، وولّوا وجوههم، وأداروا ظهورهم، وقد خسروا بذلك أعظم فرصة في التاريخ... أن يكونوا من أوائل أنصار خاتم الأنبياء.

ومضى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم، وهو يعلم أن الله لا يُؤيد هذا الدين بمن أراد به الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾]هود: ١٥.[

ثم دارت الأيام، وفتحت اليمن، فدخلت كندة في الإسلام، لكنها ما لبثت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن كانت من أوائل المرتدين، وقام فيهم الأسود العنسي مدّعي النبوة، فزعزع صفوفهم، وضلّ خلقٌ منهم، حتى أذن الله بزوال فتنه، فقُتل شر قتلة، لكن الفتنة تركت أثرها في القلوب والديار.

وهكذا، صدق وعد الله، ووقع قوله:﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾]الرعد: ١٧.[

لقد كانت نيتهم في أول الأمر مشوبة، فابتُلوا بفساد في آخر الطريق، جزاءً وفاقًا.
والله يُطهر الصفوف، ولا يُقيم دعوته إلا على أكتاف من أخلص له.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

الفوائد العقدية:

- دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت خالصة لله، لا تتعلق برغبة في ملك أو جاه، وهذا أصل في باب الإيمان والإخلاص في التوحيد.
- النبوة لا تُورّث ولا تُطلب، بل هي اصطفاء إلهي محض، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وفيه رد على كل من ادّعى النبوة أو ظنها حقًّا مكتسبًا.
- الدين لا يُقايَض ولا يُساوَم عليه، ومن جعل قبوله للإسلام مشروطًا بمصلحة دنيوية، فقد خالف جوهر الإيمان.
- الله لا يُقيم دينه على أيدي طلاب الدنيا، بل ينصره بالمتجردين الصادقين، وهذه سنة ربانية جارية في الخلق.
- ادّعاء النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم كفر بيّن، والوقوع فيه ضلال مبين، وقد ظهر في كندة بعد الإسلام، مما يدل على أهمية التمسك بالعقيدة واليقين.
- من لم يُخلِص النية لله في بداية الطريق، عوقب بفساد في الخاتمة، وهذا من جزاء الله العدل، وهو أصل في عقيدة الجزاء.
- سنة الله في تطهير الصفوف ثابتة، فلا يثبت في ميادين الدعوة إلا من صدق، وهذا يُعلمنا أن الله لا يرضى بفساد العقيدة ولو كان في صف ظاهر القوة.

الفوائد الفقهية:

- لا يجوز اشتراط المناصب أو الرياسات مقابل الدخول في الإسلام أو نصرته، لأن الدين عبادة لا تجارة، وهذا أصل في باب شروط الإسلام وصحة النية.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم يُفوّض إليه أمر الملك، بل هو عبدٌ رسول، وما كان له أن يُعطي أحدًا مقامًا لا يملكه، مما يُقرر قاعدة فقهية في حدود صلاحيات النبوة.
- الردة بعد الإسلام جريمة عظيمة توجب القتال، وقد وقعت في كندة، فقام الصحابة بجهاد أهلها، مما يقرر حكم المرتد في الفقه الإسلامي.
- الإسلام يجبّ ما قبله إذا كان عن إخلاص، أما إذا دخله المرء طمعًا في الدنيا ثم ارتد، لم تنفعه الشهادة التي لم يصحبها يقين.

- مدّعي النبوة يُقاتل قتال المرتدين، كما فُعل مع الأسود العنسي، وهذا محل اتفاق بين أهل العلم، مما يدل على عناية الشريعة بحماية العقيدة.

الفوائد الأخلاقية والتربوية:

- الطمع في الرياسة يفسد النيات، ويحول الدين إلى وسيلة لمطامع النفوس، فيفقد أثره، ويضيع شرفه.
- على الداعية أن يكون حازمًا في مواجهة المطامع، وألا يُراعي طلبات المفسدين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين رفض شرط مُليح.
- الإعراض عن الحق بسبب فقدان المصلحة الشخصية هو من أسوأ صور الجحود، ودليل على فساد القلب.
- لا يغتر المرء بكثرة قومه أو تاريخهم أو ماضيهم، فالثبات في الدين لا يُؤخذ بالميراث، بل بالنية والإخلاص والعمل الصالح.
- التهاون في بداية الطريق قد يؤدي إلى سقوط مدوٍّ في نهايته، ولذا فالإخلاص من أول لحظة ضرورة لكل عامل في طريق الدعوة.
- المخلصون في صفوف الدعوة هم الثابتون وقت الفتنة، وغيرهم ينكشف وينهار عند أول زلزلة، وهذا من سنن الله في تمحيص الصفوف.

الفوائد الدعوية والاجتماعية:

- لا يجوز تقديم تنازلات عقائدية بغرض استرضاء الناس أو جذبهم إلى الدين، لأن الحق لا يُساوَم.
- على الداعية أن يُبين بوضوح أن الدين لله، لا يُطلب به دنيا، ولا يُستخدم كسلم للوصول إلى السلطة.
- ينبغي للدعوة أن تُبنى على التوكل على الله لا على عون الملوك وأرباب الرياسة، فالتاريخ أثبت أن كثيرًا منهم لا يُنصرون الحق إلا إذا وافق أهواءهم.
- الإخلاص في الدعوة شرط لقبول العمل، فإن تشوبه شائبة رياء أو طمع، بطل الأثر، وخاب المسعى.
- الوقوف أمام المدّعين للنبوة واجب على الأمة، ويجب كشفهم بالحجة والبيان، وتحصين الناس منهم، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس اليوم لا يقبلون نصحًا أو دعوة إلا إذا جرّت لهم مصلحة، أو دعمت نفوذهم، فيُسوّون بين الحق والدنيا، وهذا انحراف عن مقاصد الدين.
- ظهرت في هذا الزمان فئات تُقدّم الإسلام بصورة مُفرغة من توحيده وأحكامه، ليرضى عنها الطامعون في السلطة أو الشهرة، فيُستخدم الدين وسيلة للتمكين السياسي، لا غاية شرعية.
- بعض الدعاة لا يواجهون أهل الشهوات والمطامع بحزم، بل يُجاملونهم ويُدلّلونهم، فيفسدون الدعوة من حيث لا يشعرون.
- هناك من يُلمّع مدّعي الإلهام والرؤى من مدّعي النبوة المعاصرين، أو من يعتقد أن لهم كرامات توازي الأنبياء، وهذا من آثار الانحراف العقدي المعاصر.
- كثرة من الناس تخلط بين النجاح الدنيوي والحق الشرعي، فإذا رأوا أحدًا ذا نفوذ أو مال، حسبوه على هدى، ولو خالف صريح التوحيد والسنة.
- بعض المجتمعات تُقابل الدعوة بالتشكيك والريبة إذا لم تُقدّم لهم وعودًا دنيوية، فتُقاس المواعظ بقدر ما فيها من تحقيق

المصالح لا من بيان الحق.

♦ هناك من يتبع دعاوى دينية ظاهرها الإسلام، لكن حقيقتها طموح سياسي مغطّى بلباس الدين، فينخدع الناس بأصحاب الألسن المعسولة والنيات الفاسدة.

الفقرة السادسة : من شدة الظلام... إلى إشراق الفجر: لقاء النور بأهل يثرب

ظلّ النبي صلى الله عليه وسلم سنواتٍ طوال، يجوب أرض العرب في كل موسم، يتنقل بين القبائل في منى وعكاظ ومجنة، يطرق أبواب العشائر بيتًا بيتًا، وخيمةً خيمة، يعرض نفسه، ويبلغ رسالة ربه، لا يسألهم مالًا ولا مكانة، بل يقول لهم في نبرة تمزج بين الرجاء والإباء: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي؟» [ابن هشام]. وما طلبها لنفسه، وإنما لله وحده، حُقّ له أن يقول كما في الحديث الصحيح: «إني رسول الله إليكم جميعًا» [رواه البخاري].

لكنّ القلوب مغلقة، والعيون عمياء، والأنفس مشدودة إلى جاهها وسلطانها، فكان الردّ في كثير من الأحيان صادمًا، كأن يُقال له: "أما والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلتُ به العرب!"، فشتّان بين من يطلب نصرة الدين، ومن يبتغي به الدنيا.

في ظلال هذا الظلام الدامس، حيث سدت الأرض في وجوه الدعاة، وتكالبت قريش عليه بالأذى والتكذيب والاستهزاء، بقي قلب النبي صلى الله عليه وسلم موقنًا بوعد الله، لم ييأس، ولم يتوقف، لأنه يعلم أن الذي أنزل عليه قوله تعالى} :فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ] {الحجر: ٩٤]، لن يتركه، وأن الذي ناداه من فوق سبع سماوات} :وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ] {المائدة: ٦٧]، لا يُخلف وعده.

حتى جاء موسم الحج في عامٍ جديد، والنبي صلى الله عليه وسلم يطوف بخيمات القبائل كعادته، يبحث عن قلوب حرة لم تُشوَّه بالعناد، مرّ بستة نفر من شباب الخزرج، لا وجاهة لهم في أعين العرب، ولا سلطان لهم في قومهم، لكنّ الله اصطفاهم لكرامةٍ ستُخلّد في الدنيا والآخرة، فجلس إليهم، وحدثهم عن الله، وقرأ عليهم شيئًا من القرآن، فكانت كلماته كالماء على الأرض القاحلة، أنبتت في قلوبهم إيمانًا خالصًا، واشتياقًا عجيبًا، وذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما تقوله يهود لهم: "إنه قد أظلّكم زمان نبيّ يُبعث، فنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم"، فقال بعضهم لبعض في دهشةٍ وفرح: "والله إنه لهو النبي الذي توعّدتكم به يهود، فلا يسبقنّكم إليه أحد!" [ابن إسحاق].

هكذا، وفي زاوية من زوايا منى، لا تلتفت إليها العيون، بزغ نور جديد، وابتدأ طريق الهجرة، فقد عاد هؤلاء النفر إلى المدينة، يحملون النور في صدورهم، فدعوا أقوامهم، وما هي إلا أشهر، حتى عادوا في العام التالي اثني عشر رجلًا، يبايعون النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى، على الإسلام والطاعة، ثم عادوا في العام الثالث سبعين رجلًا وامرأتين، يبايعونه بيعة العقبة الكبرى على الجهاد والنصرة، وقالوا له: "ما ثمن الجنة؟" [ابن هشام].

وصدق الله وعده} :وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ۖ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] {العنكبوت: ٦٠]، فقد رزق الله نبيّه بأعظم نصرٍ في زمن الغربة.

هكذا يخلق الله الفجر من رحم الظلمة، لا حين تتجه الأبصار إلى القوي، بل حين تتوجّه القلوب إلى الله، ويتعلق الأمل بالسماء، فيصطفي الله من لا يُؤبه لهم، ليجعلهم مفاتيح الخير، ومفاصل التحوّل، وصناع المجد.

ومن أولئك الستة من الخزرج، وُلد فجر الإسلام في المدينة، فكانوا نواة الدولة، وبشائر النصر، وسببًا في أن تخرج الدعوة من طور الاستضعاف، إلى مرحلة التمكين، ليُصدح بالأذان في قباء، ولتُبنى على أرضهم أول دولةٍ تقيم شرع الله، وتحمل راية الحق، وتفتح الدنيا بنور الهداية.

فسبحان من جعل من اللقاء العابر نواة الخلود، ومن ستة رجالٍ مجهولين في الأرض، أعلامًا في السماء

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم قامت على إخلاص التوحيد، لا طلبًا لملكٍ أو وجاهة، وهذا من تمام الإيمان بأن الدعوة دين لا دنيا.
- اليقين بنصر الله والثقة بوعده من أعمدة العقيدة، كما تجلّى في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم رغم تكذيب الناس.
- اختيار الله لعباده للهدى ليس بالمقاييس الدنيوية، بل بحكمة إلهية، فالله يصطفي القلوب التي تستحق النور، لا العروش وأهل الرياسة.
- الهداية من عند الله وحده، لا يملكها رسول ولا ملك، كما أن الرزق والنصر بيد الله، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.
- إن الله سبحانه يفتح الفرج في أحلك الأوقات، وهذه سنة إلهية تُقرّ في العقيدة باسم الله "الفتاح" و"الناصر."
- أن من استحق الهداية واستجاب للحق، رفعه الله ولو لم يكن ذا جاه، وهذا أصل في فهم مراتب القَبول عند الله.

الفوائد الفقهية:

- عرض الدعوة على الناس لا يتوقف على حالتهم الاجتماعية، بل تُعرض على الجميع، وهذا أصل في فقه الدعوة.
- بيعتي العقبة الأولى والثانية دليلان فقهيان على مشروعية المبايعة على الإسلام والجهاد والطاعة، وهو مما استند إليه العلماء في عقد البيعة الشرعية.
- الجهاد في سبيل الله لم يبدأ بالسيف بل بدأ بالبيعة والنية والعهد، وهو ترتيب فقهي واضح في مراحل إقامة الدين.
- استجابة الأنصار للدعوة مع قلة عددهم تدل على أن النصر لا يُقاس بالعدة والعدد، بل بتحقق الشروط الشرعية للتمكين.
- دخول المرأة في بيعة العقبة الكبرى يؤكد مشاركتها في النصرة والدعوة، وهذا أصل في باب مسؤوليات المرأة المسلمة.

الفوائد الأخلاقية والتربوية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم أمام الإعراض والصدّ يعلمنا الصبر في طريق الدعوة مهما طال الطريق.
- التواضع في مخاطبة الناس، والتنقل بين خيامهم، أدب دعوي عظيم يدل على رحمة الداعية وحرصه على هداية الناس.
- من أعظم الأخلاق أن لا تيأس حين تُغلق في وجهك الأبواب، بل تستمر في العمل وتثق في تدبير الله.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم يلتفت إلى جاه العرب ولا مكانتهم، بل رأى في قلوب الشباب الصادقين أمل النصر، وفي هذا تحفيز لمن يرى نفسه قليلًا.
- إيمان النفر الستة من الخزرج يظهر أثر صدق القلوب وتلقي الحق بصفاء، ويعلّم أن التربية القلبية مفتاح الهداية.
- الالتزام بالعهد والنصرة في بيعة العقبة يدل على الخلق العظيم في الوفاء والتضحية لأجل الدين.

الفوائد الدعوية والاجتماعية:

- الدعوة تحتاج إلى صبر طويل، وتجوال دائم، ومخاطبة مستمرة، فلا يُؤتى النصر دون تعب وبذل.
- الله يُمهّد للدعوة أنصارًا من حيث لا نحتسب، وقد يكون النصر على أيدي من لا يُعرفون في الأرض، لذا لا يُحتقر أحد في طريق الإصلاح.
- تأثير الكلمة الصادقة قد يكون في لحظة واحدة، لكن أثرها يمتد إلى الآفاق، كما كان مع نفر الخزرج.
- تهيئة الله للأنصار بذكر اليهود لهم أن نبيًّا سيُبعث، يعلّمنا أن الله يُهيّئ القلوب للحق حتى قبل سماع الدعوة، وهذه لفتة في التربية الدعوية.
- لا يشترط أن تكون التحولات الكبرى من مراكز القوة، بل قد تبدأ من زوايا صغيرة، وهذا من حكم الله في تغيير المجتمعات.
- المدينة المنورة لم تُختر بقرار سياسي بل اصطفاها الله بأن جعل فيها من حملوا النور، وهي رسالة للمصلحين ألا ينظروا دومًا للمواقع الكبرى، بل للقلوب الحيّة.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس اليوم لا ينصرون الدعوة إلا إذا ضمنت لهم مصالح دنيوية أو رفعت مكانتهم، كما فعل من قال: "لو أخذتُ هذا الفتى لأكلتُ به العرب."
- يُعرض التوحيد الصافي على المجتمعات اليوم، فيُقابل بالصدّ أو بالاشتراطات، ويُطلب من الدعاة أن يتنازلوا عن وضوحهم في سبيل القبول العام، كما رفضه النبي صلى الله عليه وسلم.
- بعض من ينتسب إلى الدعوة اليوم إذا لم يجد استجابة من الكبار أو الأثرياء ترك الفقراء والضعفاء، وهذا خلاف سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا من لا يُؤبه لهم.
- نرى في هذا الزمان من يتوقف عن العمل للدين إذا تأخرت النتائج، وكأن النصر يُشترى بالعجلة، لا بالتوكل والصبر كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- في واقعنا تُهمل فئة الشباب في ميادين الدعوة، بينما كانوا في صدر الإسلام هم طلائع النصر، وهذا من الخلل في ترتيب الأولويات.
- كثير من المجتمعات تستخفّ بالأعمال الصغيرة، واللقاءات العفوية، ولا تدري أن من تلك اللحظات تُصنع التحولات الكبرى، كما وقع في لقاء الستة من الخزرج.
- بعض الحركات المنحرفة اليوم تنسب الفتح والتمكين لنفسها وجهودها، وتُقصي توفيق الله عن الصورة، وهذا شرك في التقدير وردّ للتوحيد الرباني.

الفقرة السابعة: بيعة العقبة الأولى... قلوبٌ بايعت السماء في صمت الجبال

في عامٍ كاد يُطوى كسابقيه من أعوام الدعوة في مكة، حيث الظلام يُطبق على الأفئدة، والقلوب تُغلّفها الجفوة، والنور يُطارَد كأنه رجسٌ، خرج النبي صلى الله عليه وسلم في موسم الحج بعينٍ تبكي وجعًا، وقلبٍ يفيض رجاءً، يعرض دعوة الله على القبائل، ينشد منعةً لا لذاته، بل لحمل الرسالة، وكان يُجاب بالردود القاسية كالسياط: **"أهلك أعلم بك"**، و"لو كان فيك خير لاتبعتك قريش"، وكأنهم يزنون الحق بموازين الجاه والسلطان لا بموازين السماء!

لكن الله، الذي يعلم خفايا القلوب، كان يُعدّ أرضًا أخرى لاحتضان الرسالة، بعيدًا عن صلابة قريش، قريبًا من شوقٍ في صدور رجال لم يروه بعد، لكن قلوبهم رأت النور... إنها يثرب.

أرسل الله ستة نفر من الخزرج في ظلال موسم الحج، فتلاقوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، وحدث اللقاء الذي هزّ القلوب، فشرح الله صدورهم، وآمنوا به من أول وهلة، وعادوا إلى قومهم دعاةً في صورة حجاج، يحملون إلى المدينة نسمات النور الأولى، وقد قُذف في قلوبهم الحب الصادق لمحمدٍ ودينه، فأثمرت دعوتهم في التربة المتهيئة، وبدأت تباشير الأمل تلوح في الأفق.

وفي العام التالي، جاء منهم اثنا عشر رجلًا من الأوس والخزرج، اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم سرًّا تحت جنح الليل، عند منحدر العقبة، حيث الصفاء والسكينة، فكانت **بيعة العقبة الأولى** .مدّوا أيديهم إليه في صفقةٍ لم تُبْنَ على مال ولا جاه، بل على الصدق والوفاء والطهر، على عهدٍ راسخ" :**ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتانٍ يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف."**

وحين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم":**إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غدرتم فأمري إلى الله"** أجابوه بلسان واحد، كأنما تصوّرت القلوب في قلب" :**يا رسول الله، لا نغدر ولا ننكث، نحن لك كما نحن لأبنائنا ونسائنا، فخذ عنا ما شئت."**

كانت لحظةً عظيمة، شهدتها صخور العقبة وأملاك السماء، لحظة وُلد فيها وطنٌ جديد، وتأسّس فيها نصرٌ لم يكن بعد قد بدا، لحظة غيّرت مسار التاريخ، وكتبت أول سطر في فصل الهجرة والنصرة.

نعم، كانت **يثرب** في أعين الناس مدينةً منسية بين الجبال، لكن الله اصطفاها لتكون **دار الإيمان، ومأوى الرسالة، وأرض الأنصار** .قال تعالى:**(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**)الأنفال: ٧٤.[

ومنذ تلك الليلة، بدأ العد التنازلي لزوال قبضة قريش، وبدأت الشمس تتهيأ لتشرق من المدينة... مدينةٍ صارت حاضنة النبوة، ومنارة الهداية، ومحضن الدولة، ومهوى قلوب المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها.

الجوانب المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

- عناية الله عز وجل بدعوته ماضيةٌ رغم صدود الناس، ففي الوقت الذي تُغلق فيه أبواب الأرض، يُفتح بابٌ من السماء، يعلّمنا أن الحق محفوظ برعاية الله لا برضا البشر.

- تصديق أن الهداية بيد الله وحده، إذ شرح الله صدور أولئك النفر من الخزرج للإيمان من أول وهلة، فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم دون سابق معرفة، مما يؤكد أن القلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء.

- إثبات النبوة لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم من خلال تأييد الله له، بتيسير القلوب لقبول دعوته في الوقت الذي أُعرضت عنه قريش، مما يُظهر أنه رسول مؤيَّد من ربه.

- أن الإيمان الحق لا يُقاس بموازين الجاه والسلطان، بل بموافقة الحق المنزل من السماء، كما دل عليه رفض القبائل للدعوة بدعوى "لو كان فيك خير لاتبعتك قريش."

- أن من علامات صدق الإيمان ترك الشرك والفسوق والمعاصي، كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم في بنود بيعة العقبة: "ألا يشركوا بالله شيئًا..."، وهذا هو التوحيد الخالص الذي لا نجاة إلا به.

- أن الجنة لا تنال إلا بعهدٍ صادق مع الله ورسوله، كما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "إن وفيتم فلكم الجنة"، مما يرسخ العقيدة في أن الفوز الأبدي مرهون بالثبات على الطاعة.

- بيان أن أهل الإيمان والنصرة هم المؤمنون حقًا، كما وصفهم الله في قوله: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا}، وفي هذا ردّ على من يفرّق بين الإيمان والعمل، ويزعم أن الأعمال ليست من الإيمان.

فوائد فقهية

- جواز بيعة النساء والرجال على الإسلام والطاعة في المعروف، دون اشتراط الإمارة السياسية، كما وقع في بيعة العقبة الأولى، حيث لم تكن للدولة بعد، إنما كانت بيعة على الإسلام والالتزام بشرائعه.

- أن من واجب الداعية أن يسعى في طلب النصرة وحمل الدعوة حيث توجد الفرص، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين عرض نفسه على القبائل، وهذا أصل في فقه الدعوة.

- يُستفاد من السرية في اللقاءات الدعوية عند الحاجة، كما اجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بأهل يثرب ليلًا، مما يدل على جواز اتخاذ الوسائل المناسبة لحماية الدعوة.

- أن البيعة تشتمل على الالتزام بترْك المحرمات، كالشرك والسرقة والزنا وقتل الأولاد، مما يدل على أن التوبة منها شرط لدخول الإسلام الصحيح، لا مجرد النطق بالشهادتين مع الإصرار على المعاصي.

فوائد أخلاقية

- أن الصدق والوفاء أساس العلاقات الإيمانية، كما بايع أهل يثرب على "الصدق والوفاء والطهر"، فدلّ ذلك على منزلة هذه الأخلاق في ميزان الإسلام.

- في قولهم: "نحن لك كما نحن لأبنائنا ونسائنا" درسٌ في التضحية، والانقياد الكامل للحق، وفيه صورة من صور الإخلاص التي قلّما توجد اليوم.

- أن المبادرة في الخير برهان صدق الإيمان، فقد حمل أولئك النفر دعوة الإسلام إلى قومهم دون تكليف، وكانوا دعاةً صادقين، لا يطلبون مقابلًا ولا سمعة.

- في استقبالهم للنور قبل أن يروا صاحبه صلى الله عليه وسلم، دلالة على سلامة القلوب حين تتجرد من الهوى، وهذا من أنقى صور التواضع للحق.

فوائد دعوية وتربوية

- الدعوة إلى الله لا تتوقف بزمن ولا ظرف، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يترك موسمًا إلا وبذل فيه الدعوة، مما يعلمنا المثابرة وعدم اليأس.

- أن البدايات المتواضعة قد تثمر فتحًا عظيمًا، فقد بدأت الدعوة في يثرب بستة نفر وانتهت إلى أن صارت عاصمة الإسلام، وهذا يُورث الأمل وعدم الاستهانة بالبذور الصغيرة.

- في قَبول النبي صلى الله عليه وسلم البيعة على ترك المعاصي دون شروط سياسية أو اجتماعية، توجيه للتركيز أولًا على بناء الإيمان والتزكية، قبل الدخول في تفاصيل الأحكام أو شؤون السياسة.

- أن النصرة الحقيقية للدين تبدأ من البيوت، كما قالوا: "نحن لك كما نحن لأبنائنا ونسائنا"، فالإصلاح لا يبدأ من الشارع قبل أن يبدأ من داخل الأسرة.

مخالفات الواقع

- التفريط في نصرة الدين بحجة قلة الناصر وكثرة المعارض، وها هم النفر الستة يُقدِمون على نصرة النبي صلى الله عليه وسلم دون تردد، بينما يعتذر كثير من أهل الخير اليوم عن حمل الدعوة بحجج واهية.

- جعل القبول بالدعوة مرهونًا بالمكانة الاجتماعية، كما قال أولئك المشركون: "لو كان فيك خير لاتبعك أشراف قومك"، وهو عين ما يفعله بعض الناس اليوم حين يردّون الحق لأنه لا يوافق هوى الجماهير أو لا يحمله صاحب منصب.

- الاستخفاف بالمبادرات الدعوية الصغيرة، والحكم عليها بالفشل، وها قد بدأت الهجرة والنصرة من لقاءٍ سريّ في ظلام الليل، فصار بداية الدولة الإسلامية.

- انشغال كثير من المسلمين اليوم بوسائل النصر المادية، وتركهم أسباب النصرة الإيمانية التي أسّسها النبي صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة، كترك الشرك والمعاصي والطاعة في المعروف.

- ضعف التواصي بالحق والدعوة إليه داخل البيوت، مع أن هؤلاء الصحابة عادوا من بيعة العقبة دعاةً إلى أقوامهم وأهليهم، لا مكتفين بأنفسهم، ولا خائفين من الرفض.

- انتشار بعض الفرق التي تدّعي نصرة الدين، لكنها تنكث العهود، وتُظهر الغدر والبهتان، وتُشوّه صورة الإسلام، بخلاف ما اشترطه النبي صلى الله عليه وسلم على المبايعين من صدقٍ وطهر ووفاء، فهذه الفرق ليست إلا فِرَقًا ضالة حذّر منها النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر باعتزالها.

الفقرة الثامنة: مصعب بن عمير... من الترف إلى التضحية، ومن نعيم الدنيا إلى سفارة السماء

في زمنٍ كانت فيه مكة تضجُّ بالترف، وتزدان بزينتها، برز شابٌّ اسمه مصعب بن عمير، يُضرب به المثل في النعومة والهيئة واللباس، حتى إذا مرّ في الطرقات تساءل الناس عن عبير العطر الذي يعمّ المكان، فإذا هو مصعب، فتى قريش المدلل، وأحد أنعم شبابها حالًا، وأوسمهم منظرًا، وأرَفَهُم معيشة. نشأ في بيتٍ أغدق عليه من كلّ صنوف الترف، حتى كانت أمه خُنَاس بنت مالك تكسوه من أبهى الثياب وتغمره بأغلى الطيب، وتطعم فؤاده قبل معدته.

لكنّ نور النبوة اخترق قلبه يوم بلغه خبر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فمضى متخفيًا إلى دار الأرقم، حيث المجلس الأول للإيمان، فسمع آياتٍ من القرآن، فاهتز قلبه، وانهمرت أنواره على روحه، فما كان منه إلا أن أسلم، وكان من أول السابقين إلى الإسلام.

ثم كان الابتلاء، وذاق مرارة الحبس حين حبسته أمه، وحُرم من لباسه وزينته، وتقطعت به أسباب النعيم، لكنه قال كما ورد عنه" **:إني لأذكر النعيم، ولكن حب الله ورسوله غلبني**"، فانطبق عليه قول الله تعالى:
}وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ] {البقرة: ٢٠٧.[

ثم لما اشتد الأذى هاجر إلى الحبشة، باحثًا عن مأوى للإيمان، ثم عاد إلى مكة، فقابل مزيدًا من البلاء بثبات أعظم. حتى إذا رآه النبي صلى الله عليه وسلم يومًا وقد لبس جلد كبشٍ خشن بعد أن كان أنعم شباب مكة، تأثر وبكى، وقال كما في الحديث الصحيح"**:انْظُرُوا إِلَى هَذَا نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يُغْذِيَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ**] "أخرجه الحاكم وصححه الألباني.[

ولما جاءت بيعة العقبة الأولى من أنصار المدينة، وطلبوا مَن يُفقّههم في الدين، بعث النبي صلى الله عليه وسلم مصعبًا إليهم، وقال"**:ابعثوا إليّ منكم من يقرئهم ويعلمهم**"، فوقع الاختيار على أول سفير في الإسلام.

سافر مصعب لا يحمل سيفًا، ولا جندًا، ولا مالًا، بل كان سلاحه كتاب الله، ولسانه الصادق، وإيمانه الثابت. نزل عند أسعد بن زرارة، وطاف معه قبائل المدينة، يقرأ القرآن، ويشرح الإيمان، فأسلم على يديه رجال كُثر، كان منهم سعد بن معاذ الذي بإسلامه اهتز له عرش الرحمن.

لقد كان مصعب بن عمير البذرة الأولى التي نبتت في أرض يثرب، فمهّدت لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، حتى قال فيه بعض العلماء: "كان فتح المدينة على يديه قبل أن يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنده."

فيا لله! كيف باع هذا الفتى الدنيا بكل ما فيها من نعيم ومال، واشترى الجنة، فصدق الله فصدقه الله، وسبق بسيرته كل السائرين، حتى نزل فيه قول الله**{:إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ}** [التوبة: ١١١.]

رحمك الله يا مصعب... كنتَ فتى النعيم، فصرتَ رجل التضحية، وكنتَ زينة الدنيا، فصرتَ نجم السماء... فهنيئًا لك مقام الشهداء، وجوار الأنبياء، ورضى رب الأرض والسماء.

الفوائد المستخلصة من الفقرة

فوائد عقدية

- محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم مقدَّمة على كل نعيم دنيوي، بل هي المحرك الأعظم للمؤمن، ولو خسر لأجلها الدنيا كلها، كما قال مصعب: "ولكن حب الله ورسوله غلبني."

- أن الهداية ليست محصورة في بيئة الفقر أو العذاب، بل قد يهتدي من يعيش في أقصى درجات الترف إذا فتح الله قلبه، كما وقع لمصعب وهو في أوج النعيم.

- إثبات أن الله سبحانه يشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة، وهذا يرسّخ الإيمان بالقَدَر والمقابل الأخروي، كما في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ.{...

- أن الابتلاء في سبيل الدين من سنن الله في عباده الصالحين، ليُمَحّص إيمانهم ويرفع درجتهم، كما وقع لمصعب بعد إسلامه، فصبر واحتسب.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "نوّر الله قلبه" إثبات لعقيدة أهل السنة أن لله إرادة وفعلاً، وأن النور والهداية فضل من الله يضعه في قلب من يشاء.

- أن التوفيق للعمل الصالح دليل على رضا الله، إذ لم يكن اختيار مصعب سفيرًا أول في الإسلام جزافًا، بل لأنه ممن اشتراهم الله لنصرة دينه.

فوائد فقهية

- جواز تفويض العالم أو القائد لمن يقوم مقامه في التعليم والدعوة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أرسل مصعبًا إلى أهل المدينة ليعلّمهم، وفيه تأصيل لمنهج التبليغ بالنيابة.

- أن المسلم ينبغي أن يتعلم دينه ويبلّغه ولو لم يكن صاحب سلطان، فقد علّم مصعب أهل المدينة دون أن يكون معه جيش أو مال، بل فقط العلم والإيمان.

- فيه دلالة على جواز استخدام المال والنعيم في الطاعة قبل الإسلام، لكنه لا يُعتد به بعد الهداية إن لم يُوظّف في خدمة الدين، كما تخلّى مصعب عن ترفه بعد الإيمان.

- أن أول ما يُعلَّم الناس من الدين هو التوحيد والقرآن، كما كان منهج مصعب، مما يدل على أولويات الدعوة وبدء الإصلاح من العقيدة.

فوائد أخلاقية

- ترك مصعب النعيم طوعًا يعلّمنا أن الزهد ليس بالهيئة الظاهرة فقط، بل هو صدق اختيار رضا الله على زينة الدنيا، وإن كان بيده المال والجاه.

- ثباته بعد الحبس والحرمان نموذج للشاب الصادق في إيمانه، الذي لا تفتنه المغريات ولا تثنيه المصاعب، وفيه درس في الصبر والثبات.

- حسن خلقه، ورفقه، وهدوء دعوته، كانت سببًا في دخول الناس في الإسلام، وفي هذا توجيه عملي لحسن الخلق في الدعوة.

- اعترافه بالنعيم السابق دون تعلّق به يُعلّم التوازن النفسي؛ فلا يُنكِر النعمة، ولا يركن إليها، بل يجعلها خلف ظهره إذا خالفت مراد الله.

فوائد دعوية وتربوية

- أن الدعوة لا تحتاج إلى أدوات القوة الظاهرة، بل إلى الصدق في البلاغ، والتوكل على الله، كما فعل مصعب حين ذهب بلا سلاح ولا مال، وفتح الله به قلوب الناس.

- أن اختيار الداعية لا يكون بحسب الجاه أو النسب، بل بحسب الثبات والعلم والصدق، ولهذا وقع اختيار النبي صلى الله عليه وسلم على مصعب دون غيره.

- أن دعوة الأفراد قد تفتح للأمة أبوابًا عظيمة، فقد كان مصعب واحدًا، لكنه مهّد لفتح المدينة كلها، وهذا يحفز الشباب على حمل الدعوة مهما بدا الأثر ضعيفًا.

- أن دعوة غير المسلم تحتاج إلى بيان القرآن وشرح التوحيد والصدق في القول، كما فعل مصعب، وليس إلى جدال عقيم أو فكر متفلت من النصوص.

- أن التمهيد لنصرة الدين لا يكون بالمواجهة أولًا، بل بنشر الإيمان وتربية القلوب على الطاعة، ثم يأتي النصر من الله، كما كان ترتيب المدينة.

مخالفات الواقع

- وقوع كثير من الشباب اليوم في الانبهار بالترف والموضة والمظاهر، ومطاردة نعيم الدنيا دون حساب، في الوقت الذي باع فيه مصعب الدنيا ليشتري الآخرة.

- تعظيم كثير من الناس اليوم لأهل النعيم واتباع الموضة، واعتبارهم قدوة، بينما مصعب بنى قدوته على الإيمان لا على الترف، فصار نجم السماء لا نجم الأسواق.

- تضييع كثير من الشباب النعمة التي هم فيها بتمردهم على الدين، بينما مصعب انتقل من النعيم إلى الحبس ومع ذلك صبر وثبت، لأن النعمة عنده كانت في الدين لا في الدنيا.

- عزوف بعض المتعلمين والدعاة عن الخروج بالدعوة للناس وتبليغ الدين، بحجة قلة التأثير أو الظروف، بينما مصعب طاف على قبائل المدينة وحده، ففتح الله به.

- شيوع خطاب بعض الفرق التي تسمي نفسها إصلاحية وهي تنشغل بالسياسة والسلطة وتُغفل بناء العقيدة والإيمان في القلوب، بينما أول سفير في الإسلام لم يحمل شيئًا من السلاح أو المنابر السياسية، بل حمل الإيمان وحده، وهذا منهج النبوة لا منهج الفرق المبتدعة التي تُفسد باسم الإصلاح.

- اختلال مفهوم القدوة عند كثير من الناس اليوم، فأصبح القدوة هو من يملك المال والجاه، لا من يملك الصدق والثبات، في حين أن مصعبًا كان قدوة حين خلع الدنيا من قلبه وأبقى الإيمان.

الفقرة التاسعة : بوادر النور في يثرب... وثمار الدعوة الأولى

في تلك الأرض الطيبة، المدينة المنورة قبل أن تُنير، كانت القلوب متلهفة للنور، والأرواح تبحث عن مخرج من ظلمات الجاهلية، حتى بعث الله إليهم فتى نحيف الجسد، قوي الإيمان ...**مصعب بن عمير**.

نزل ضيفًا على **أسعد بن زرارة** رضي الله عنه، وجعل يجوب معه أحياء المدينة، يعرض الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقرأ القرآن على من شاء السماع، ويُصلي بالناس، حتى صار الناس يتحدثون عن "الغريب القادم بدين جديد."

وذات يوم... قال أسعد لمصعب: "انطلق بنا إلى ديار **بني عبد الأشهل**، فإن فيهم رجالًا، وإن يهدهم الله يكون فيهم خير كثير".

فأخذا طريقهما إلى هناك، حتى جلسا عند بئر في حديقة بني ظفر، فاجتمع عليهما الناس.

فلما بلغ الخبر **أسيد بن حضير**، سيد قومه، اشتعلت فيه الغيرة، والتفت إلى سعد بن معاذ وقال" :**أما ترى ما جاءنا به أسعد؟ رجلٌ غريب يفسد ضعفاءنا! والله لئن لم تكن لك حاجة بأسعد، لأكفيتكه".** فقال له سعد: "هو ابن خالتك، فاذهب إليه، وانظر ما يصنع". فأخذ رمحه، وذهب مغضبًا، يتهادى بجسده، يظهر الهيبة، ويخفي الغليان، حتى إذا اقترب من مصعب وأسعد، قال بلهجة التهديد" :ما جاء بكما إلى رجالنا؟ اعتزلا إن كنتما لا تريدان بأنفسكما شرًّا"! فقال له مصعب بلطف وأدب" :**أوَتجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره".** كان الأسلوب هادئًا، وواثقًا... فهدأ أسيد، وغرس رمحه في الأرض، وقال: "أنصفتَ".
فجلس. فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن... كلمات ليست كالكلمات، نور يتسلل إلى قلب قد أُعدّ للهداية، فما هي إلا لحظات، وإذا بأسيد يتغير وجهه، وتدمع عينه، ثم يقول":**ما أحسن هذا القول! وكيف تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا**

الدين؟" فقالا له: "تغتسل، وتطهر ثوبك، وتشهد شهادة الحق، وتصلي ركعتين ".ففعل. ثم قال: "إن ورائي رجلًا إن اتبعكم لم يتخلّف عنه أحد من قومه. أبعثه إليكم الآن... إنه **سعد بن معاذ**".

عاد أسيد، وقد حمل نور الإسلام في صدره، وهمس في أذن سعد: "كلّمتُ الرجلَين، فلم أرَ بهما بأسًا، فإن شئت أن تراهما، فافعل". فذهب إليهما **سعد بن معاذ**، سيد الأوس، كأنه قادم لحسم معركة، فلما رآه أسعد همس لمصعب:**هذا سيد قومه، إن يُسلم يتبعه قومه كلّهم".**

وقف سعد، وقال بغضب" :يا أسعد، أما والله لولا بيني وبينك قرابة ما رُمتَ هذا مني! أتأتينا بمن يُفسد ضعفاءنا؟"! فقال له مصعب بنفس الهدوء" :**أوَتجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره".** قال: "أنصفتَ".

فجلس. فقرأ عليه مصعب كما قرأ على أسيد... وما إن مضت دقائق، حتى خفّت حدة الغضب، وسكنت نفسه، وتفتّح قلبه، وقال بلهجة المتأثر:

"ما أحسن هذا القول! كيف يصنع من أراد الدخول فيه؟ فقالا له ما قالا لأسيد... فاغتسل، وتشهد، وصلى.

ثم رجع إلى قومه، وكان سيدهم المطاع، فجمعهم وقال" :**يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟** "قالوا: "سيدنا، وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة".

فقال" :**فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله".** فلم يُمسِ ذلك اليوم إلا وكل أهل الحي من **بني عبد الأشهل** قد أسلموا، رجالهم ونساؤهم. اللهم الا رجلا واحد وهو الاصيرم الذي تأخر اسلامه الى يوم احد فاسلم يومها وقاتل وقتل ودخل الجنة دون ان يركع ركعة او سيجد سجدة

وما هي إلا أيام قليلة، حتى شاع النور، وسرى الإسلام في دور المدينة، في بني النجار، وبني عبد الأشهل، وبني عمرو بن عوف، حتى قيل" :**ما بقي بيت من بيوت الأنصار إلا ودخله الإسلام".**

وهكذا... تحولت المدينة من جاهلية متراكمة إلى أرض موحدة، تستعد لاستقبال النبي صلى الله عليه وسلم، وقد فرشت له القلوب قبل الأرض، ومهّد له الإيمان الطريق قبل الأقدام.

الفوائد المستخلصة من الفقرة:

الفوائد العقدية

- هداية القلوب بيد الله وحده، يصرفها كيف يشاء، ففي دقائق معدودة تغيّر حال أسيد وسعد من خصومة إلى إيمان، مما يؤكد أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن.

- أن القرآن هو أعظم أسباب الهداية، كما ظهر في تغير حال أسيد وسعد بعد سماع آيات منه، مما يدل على أن كلام الله له سلطان على القلوب لا يملكه غيره.

- في قول سعد لقومه: "كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا" دليل على أن الإيمان الحقيقي يوجب الولاء لله ورسوله، وتقديمه على كل الروابط القبلية والاجتماعية.

- أن الله يهيّئ للحق رجالًا من أهل القوة والهيبة، كما هدى الله سيدَي الأوس وبني عبد الأشهل، فجعلهم أنصارًا للدين، وهذا من ألطاف القدَر في نصرة الحق.

- تأكيد عقيدة "الطاعة بالمعروف" عند الأمر بالإيمان، فلم يُجبر النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا على الدخول، بل دعا بالحكمة والموعظة، فأسلموا طوعًا، كما هو منهج الأنبياء.

الفوائد الفقهية

- تعليم الداخلين في الإسلام أول ما يُعلَّم: الشهادة، ثم الغسل، ثم الصلاة، كما فعل مصعب مع أسيد وسعد، مما يدل على ترتيب مراتب التعليم والدخول في الدين.

- جواز دخول غير المسلم إلى مجالس الدعوة، بل ودعوته إلى الإسلام بالحسنى، وهذا أصل في التبليغ، بشرط عدم التعدي أو الإضرار.

- في دعوة مصعب للأحياء والقبائل بلا إذن خاص من كل واحد منهم، دلالة على أن التبليغ لا يشترط فيه استئذان الناس ما دام يُعرض الحق ولا يُفرض.

- أن تعليم القرآن يجب أن يُقدَّم مع الشرح والبيان، كما فعل مصعب، لم يكتفِ بتلاوته، بل فسّره ودعا به، وهذا أصل في منهج التعليم الصحيح.

الفوائد الأخلاقية

- أن حسن الخلق والهدوء في الطرح سلاح فعّال في الدعوة، فقد دخل مصعب على قوم غاضبين، فكسب قلوبهم بأسلوبه، لا بقوة الرد.

- أن التواضع في الدعوة، وعدم مقابلة الغلظة بمثلها، طريق لفتح القلوب، فقد قال مصعب لأسيد وسعد: "أوَتجلس فتسمع؟" دون مجادلة أو استفزاز.

- المبادرة التي أظهرها أسعد بن زرارة في جلب مصعب إلى الأحياء، وتعريفه على الناس، تبيّن أن الحماسة الدعوية من الأخلاق التي تُثمر الخير في الأمة.

- في قول القوم لسعد: "سيدنا، وأفضلنا رأيًا"، بيان أن احترام المجتمع لرجال الحكمة والفضل من الخلق الكريم، بخلاف حال كثير من المجتمعات اليوم التي تقدّم السفهاء وتُقصي الحكماء.

فوائد دعوية وتربوية

- أن الدعوة تحتاج إلى رجال يجمعون بين العلم والخلق والقدوة، كما كان مصعب: قارئًا للقرآن، فقيهًا في الدعوة، حسن الخلق، صادق الإيمان.

- أن دعوة الفرد الواحد قد تؤثر في مجتمع كامل، فقد أسلم أسيد ثم سعد، فأسلمت قبائلهم تباعًا، مما يعلّم الداعية عدم الاستهانة بأي نفس يُعرض عليها الحق.

- أن تقديم القدوات الصالحة في المجتمع سبيلٌ لنشر الحق، فسعد بن معاذ بإسلامه أسلم قومه، وفي هذا توجيه لبناء رموز صادقة في الأمة تُتبع لا تُرهب.

- أن ثمار الدعوة لا تظهر دفعةً واحدة، بل تنتشر تدريجيًا بفضل الثبات والصبر، فقد بدأ الأمر بجلسة عند بئر، وانتهى بانتشار الإسلام في بيوت المدينة.

- أن الأرض تُمهَّد بالإيمان قبل الأقدام، فقد نُشر التوحيد في المدينة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أن التمهيد المعنوي للدين مقدم على التمكين السياسي أو الظاهري.

مخالفات الواقع

- غلبة الصوت العالي والغضب والانفعال على أساليب الدعوة اليوم، بخلاف هدوء مصعب وثقته في عرض الحق، مما يُظهر انحراف بعض المنتسبين للدعوة عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

- استعجال النتائج في كثير من المشاريع الدعوية، وعدم صبرهم على ثمرات التبليغ، بينما هذا المشهد يعلمنا أن الهداية تحتاج وقتًا وبذلًا.

- استبعاد بعض الناس لفكرة التأثير بالفرد، والتركيز فقط على الحشود، مع أن أسلم فردًا واحدًا هو سعد فأسلمت قبيلته كلها، بينما تضيع الجهود اليوم في الصراخ الجماهيري بلا أثر في الواقع.

- ضعف العناية بتحفيظ الناس القرآن وتعليمه كمدخل للدعوة، مع أن مصعب بدأ بالقرآن فأثمر الإيمان، بينما كثير من الدعاة اليوم يقدمون كلامهم على كلام الله.

- إهمال كثير من الدعاة لتعليم الأحكام العملية للإسلام عند دخول الناس فيه، فيكتفون ببيان العقيدة أو العاطفة الدينية دون تربية عملية، بخلاف مصعب الذي أمرهم بالاغتسال والطهارة والصلاة.

- انتشار بعض الفِرَق التي تُسمِّي نفسها إصلاحية، وهي تنفّر من الدين بأسلوبها الفجّ أو أسئلتها الشاذة أو غلوّها في معاملة الناس، وتخالف بذلك منهج الدعوة بالحكمة والموعظة الذي سلكه مصعب، فهذه الفرق ما هي إلا فِرَقٌ ضالة حذّر منها النبي صلى الله عليه وسلم، لا تمتّ إلى سنّته بصلة.

الفقرة العاشرة : حين نبتت نواة الدولة من دموع الشوق وبذور الإيمان

مضى عام على إرسال النبي صلى الله عليه وسلم لمصعب بن عمير إلى يثرب، لكنه لم يكن عامًا عاديًّا... كان عامًا تفتّحت فيه أزهار العقيدة على ضفاف القلوب، وتجذّرت فيه شجرة الإيمان في تربة خصبة مهيّأة لاستقبال النور.

عامٌ سُقي فيه الشوق، فاشتعل في القلوب حنين إلى طلعته صلى الله عليه وسلم، وكان السؤال يتهامس به الكبير والصغير: "متى يأتي محمد؟ متى نبايعه ونحمل عنه همَّ هذا الدين؟"

وحين أقبلت قوافل الحجاج، خرج من يثرب رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه... ثلاثة وسبعون قلبًا نابضًا بالإيمان، وامرأتان من النساء اللواتي يصنعن المجد في صمت، خرجوا بلباس الحُجاج، ولكن قلوبهم كانت تلبس ثوب البيعة، وأرواحهم مشدودة إلى شرف النصرة، وكلّهم على استعداد أن يقدِّموا أرواحهم قبل أموالهم.

كانت وجوههم تنضح بالعزيمة، وعلى رأسهم: أسعد بن زرارة، وسعد بن عبادة، وعبادة بن الصامت، والبراء بن معرور، وعبد الله بن رواحة، وأبو الهيثم بن التيهان، ومعاذ بن جبل... ومن بين الصفوف وقفت نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو، تحفران اسميهما في صحائف الخلود.

ولأن الأمر جلل، فُرضت عليه السرية، فكان اللقاء في جوف الليل، في شِعب العقبة، حيث اجتمعوا على غير ميعاد بشري، بل على موعد رباني، وهناك كان النبي صلى الله عليه وسلم في انتظارهم، يصحبه عمه العباس، الذي لم يُسلم بعد، لكنه كان قلبًا ناصحًا، وعقلًا حصيفًا، يتفطّن لعواقب الأمور.

تحدث العباس أولًا، بكلمات الأب العاقل والحريص: "إن محمداً في منعة من قومه، فإن كنتم ترون أنكم ستوفون بعهدكم فامضوا، وإلا فدعوه، فوالله إنه في عِزٍّ من قومه." فتكلمت قلوبهم قبل ألسنتهم: "سمعنا، فتكلم أنت يا رسول الله".

فقال صلى الله عليه وسلم: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم". وهنا ارتجف الليل من صدى كلماتهم، فقال البراء بن معرور: "نعم، والذي بعثك بالحق، لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله".

وقام أسعد بن زرارة يحذّرهم بحكمة العارف، فقال: "إنها مفارقة للعرب كافة، ومواجهة للسيوف، فمن أراد الثواب فليتقدم، ومن أراد السلامة فليرجع." فصرخوا جميعًا بلسان رجل واحد: "مد يدك نبايعك، فوالله لا نطيب بشيء دونك".

وبدأت البيعة... بيعة على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، في العسر واليسر، على قول الحق، وعلى أن يُمنع كما تُمنع الأنفس. مدّوا أيديهم، لا إلى رجل، بل إلى عهد مع السماء. ومن أعظم من بايع عبادة بن الصامت، وعبد الله بن رواحة، الذي سأل: "فما لنا إن وفينا؟" فأجابه صلى الله عليه وسلم: "لكم الجنة." فقالوا: "ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل".

واختار منهم النبي اثني عشر نقيبًا، كأنهم حواريّوه، وقال لهم: "أنتم على قومكم كفلاء، وأنا كفيل على قومي".

ولمّا انتهى الليل، وبدأت قريش تستشعر ما جرى، صاح العباس بن عبادة: "يا رسول الله، إن شئت لنميلنّ على أهل منى بأسيافنا." لكن الحبيب صلى الله عليه وسلم قال بكلمات الوحي: "لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم".

وهكذا انفض الجمع، لكن لم ينفض المجد... ففي وادي العقبة، زُرعت بذرة الدولة، وارتفع أول صرح للأمة الخالدة، وكانت بيعة العقبة الثانية هي النور الذي سبق الفجر، والفجر الذي سبق الهجرة، والهجرة التي سبقت التمكين.

.

الفوائد المستخلصة من الفقرة

الفوائد العقدية

- أن البيعة في الإسلام عقدٌ شرعيٌ مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لا مجرد عهد بشري، ولهذا قال الصحابة: "مدّ يدك نبايعك"، ولم يقولوا: "نصافحك"، مما يدل على أن الولاء يكون لله ورسوله قبل كل شيء.

- أن الجنة لا تُنال إلا بالبذل والوفاء والصدق في البيعة، ولهذا لما قال عبد الله بن رواحة: "فما لنا إن وفينا؟" أجابه النبي صلى الله عليه وسلم: "لكم الجنة"، فدلّ ذلك على أن الجنة ثمرة الالتزام بعهد الله ورسوله.

- أن النصر والتمكين يبدأ من الإيمان الصادق لا من السلاح، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين رفض القتال: "لم نؤمر بذلك"، مما يبيّن أن النبوة لم تكن حركة تمرّد، بل دعوة ربانية تسير بأمر الله.

- في اختيار النبي صلى الله عليه وسلم للنقباء، دليل على أن الأمة تُبنى على مؤسسات مسؤولة، لا على الفوضى، وهذا من معالم الدين في التنظيم والتكليف المحكوم بالشرع.

- أن الولاية والنصرة في الإسلام تُعطى لمن ثبت صدقه في الدين، لا لمن له نسب أو جاه، فكان من النقباء أناسٌ عُرفوا بالتقوى، لا بالزعامة القبلية.

الفوائد الفقهية

- أن البيعة مشروعة في الإسلام، وهي على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وهي عهدٌ يُلزِم صاحبه، لا يُنقض إلا بعذر شرعي، كما قالوا: "لا نقيل ولا نستقيل."

- مشروعية اختيار ممثلين عن الجماعة (نقباء) لضبط الأمور وتنظيمها، وهو أصل لما يُعرف اليوم بأهل الحل والعقد، أو ما يُبنى عليه من المؤسسات الشرعية.

- أن المرأة لها حق البيعة، وأنها شريكة في حمل أمانة الدين، كما ورد ذكر نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو، مما يدل على مكانة المرأة المؤمنة في بناء الأمة.

- أن من شروط النصرة والولاء في الإسلام: أن يُمنع النبي صلى الله عليه وسلم مما يُمنع منه النفس والعيال، وفيه دليل على تقديم الدين على النفس والمال.

- أن ترك القتال حين لم يُؤمر به شرعًا دليلٌ على أن القتال لا يكون إلا بإذن الشارع، فلا يُتَسرع فيه تحت حماسة أو اندفاع، كما قال صلى الله عليه وسلم: "لم نؤمر بذلك."

الفوائد الأخلاقية

- في صبر المؤمنين على الترقب والشوق حتى أذن الله باللقاء، تربية على الإخلاص والصدق، وعلى أن الثمار لا تُقطف قبل أوانها.

- أن التهيئة النفسية قبل اتخاذ القرار الخطير من أخلاق الصادقين، كما فعل أسعد بن زرارة حين قال: "من أراد الثواب فليتقدم"، مما يدل على التروي قبل العمل.

- أن الوفاء بالعهد من أبرز صفات المؤمنين، فقد التزم الأنصار ببيعتهم، وقالوا: "لا نقيل ولا نستقيل"، مع علمهم بخطورة المواجهة.

- في حضور العباس مع أنه لم يُسلم بعد، وفاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم، ومناصرته له، وهو من أخلاق العرب الأصيلة التي يقرها الإسلام.

- في مشهد نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو، تأكيدٌ أن النساء في الإسلام لسن متفرجات على مجد الرجال، بل هنّ صانعات للمجد في صمت وتضحية.

فوائد دعوية وتربوية

- أن الدعوة تحتاج إلى تربية طويلة قبل التمكين، فقد مكث مصعب بن عمير عامًا كاملًا يزرع الإيمان حتى أتى حصاد البيعة، مما يدل على أن التمكين ثمرة التربية لا الثورة.

- أن السرية في العمل الدعوي عند الحاجة وسيلة مشروعة، إذا كانت تحفظ مصلحة الدين، كما اجتمع الأنصار ليلًا بعيدًا عن أعين قريش.

- أن من صفات القائد الرباني أن يُحذّر أصحابه من التبعات قبل اتخاذ القرار، كما فعل أسعد، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين عرض عليهم طبيعة البيعة.

- أن العمل الجماعي والتخطيط المشترك سرٌّ من أسرار نجاح الدعوة، فالأنصار اجتمعوا على قلب رجل واحد، لم يخرج منهم مخالف أو معترض.

- أن الارتباط العاطفي بالنبي صلى الله عليه وسلم من أعظم دوافع العمل للدين، فقد اشتعل شوقهم إليه قبل أن يروه، وكان السؤال بينهم: "متى يأتي محمد؟"

مخالفات الواقع

- تسرّع بعض من يُحسبون على الدعوة اليوم في النزول إلى ميادين المواجهة دون إذن شرعي، خلافًا لما فعل الصحابة حين قالوا: "نميل عليهم بأسيافنا"، فردّهم النبي صلى الله عليه وسلم: "لم نؤمر بذلك"، وهذا من أعظم الردود على أصحاب الفتن والاندفاع.

- انفصال بعض المتدينين عن القيادة الشرعية، أو تقديم الحماسة على الحكمة، بينما كانت القيادة النبوية هي المرجع والضابط، ولم يُقدِم أحد على عمل حتى سمع توجيه النبي صلى الله عليه وسلم.

- تغييب دور المرأة في بعض البيئات الإسلامية باسم الغيرة أو الحذر، بينما أثبتت نسيبة وأسماء رضي الله عنهما أن المرأة الصالحة قادرة على النصرة الحقيقية للدين.

- كثرة نقض العهود والمواثيق في مجتمعات المسلمين، من أفراد وجماعات، مما يناقض حال الأنصار الذين بايعوا وقالوا: "لا نقيل ولا نستقيل"، وصدقوا في العهد حتى الموت.

- تقديس بعض الناس لآرائهم الشخصية فوق نصوص الشرع، بخلاف ما فعله الصحابة حين وقفوا عند أمر النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: "سمعنا وأطعنا"، مما يفضح حال الفرق المنحرفة التي تقدّم عقولها على الوحي.

- صعود جماعات تتزيّا بثوب الدين وهي تخالف منهج النبوة في إقامة الدين بالعلم والبيعة والولاء والطاعة، وتدعو للثورات والفوضى، وهذه فِرَق ضالة كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم، وليسوا من أهل السنة وإن تسمّوا بها.

الفقرة التاسعة: الشوق إلى الخروج... حين ضاقت الأرض بالإيمان وتفتحت السماء لبذر النور

ضاقت مكة بالإيمان كما يضيق الصدر بالشهيق الأخير، واشتدت وطأة العذاب، حتى غدت كل زقاقٍ فيها جمرة، وكل حجرٍ فيها عينًا تترقب المؤمنين، وكل ليلٍ فيها مصيدة تُنصب لقلوب نذرت أرواحها لله. ثلاث عشرة سنة... والإيمان يُطارد، والصدق يُهان، والنور يُكتم... حتى بدت الأرض وكأنها تطلق صرخة: أين المفرّ؟

وهناك، في الشمال البعيد، كانت يثرب تزهر. زرع الله فيها قلوبًا طاهرة استجابت للحق فورًا، فكانت بيعة العقبة الثانية بيعةَ رجالٍ وأرضٍ بكل ما تحمل من معنى: استعداد لحمل الرسالة، ودفء لاستقبال النور، وصناعة وطنٍ ينبض بالإيمان.

فلما عاد الأنصار إلى ديارهم، ظل قلب النبي صلى الله عليه وسلم معلّقًا بهذا الوعد الإلهي الذي وعده الله به في القرآن}:**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] {**الأنفال: ٧٤].

ثم وصل الإذن المبارك، فإذا القلوب تتسابق إلى المدينة، مهاجرة قبل الأقدام، تترك خلفها المال والولد والذكريات، وتدق أبواب السماء بصدقٍ، لا حبّ إلا لله، ولا دار إلا حيث يُرضى الله.

خرج أبو بكر وحده ممزق الفؤاد، إذ فرق بينه وبين أهله، ثم تباع الركب المباركة: عامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وعياش وهشام وعبد الله بن جحش، وسعد بن عبادة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وصهيب الرومي، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح... كلٌ منهم قصة فداء، وكلٌ منهم لبّى نداء السماء. خرجوا خفية في ظلمة الليل، يسلكون المسارب الوعرة، وكأنهم يقولون: "الموت خير من أن نموت شهوة لأرضٍ تتوب عن نورها".

وفي المدينة، فتحت البيوت، واستعدّت القلوب، وارتعشت العيون ترقبًا لقدوم الفجر. وعلى الجانب الآخر، بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر وعد السماء، يُطمئن أبا بكر قائلاً:

"على رسلك يا أبا بكر... فإني أرجو أن يؤذن لي".

فمسك أبو بكر بالراحلتين، وأعلفهما بيده، وعلّق قلبه بأمل اللقاء، منتظرًا ألا يفارقه حتى يبلغ إلى حد العود، متأمّلًا رضا الله في مرافقة خير البشر.

وهكذا، تفرغت مكة، وامتلأت المدينة، واكتملت الخطة السماوية: خروج خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم من مكة، وبزوغ فجر الدولة من رحم الألم، مقدمة للنصرة التي وعد الله بها راعي الرسالة.

الفوائد المستخلصة من الفقرة

الفوائد العقدية

- الهجرة ليست فرارًا من الضعف، بل طاعة محضة لوحي السماء، ولهذا لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد الإذن الرباني، مما يرسّخ قاعدة عظيمة في العقيدة: أن اتباع الوحي مقدم على كل اعتبار.
- في تعليق النبي صلى الله عليه وسلم الخروج على إرادة الله، بقوله: "فإني أرجو أن يُؤذن لي"، دلالة على كمال العبودية لله، وأن النبي لا يتصرف من تلقاء نفسه، بل هو عبدٌ مرسل مأمور.
- أن الابتلاء سنة ماضية لأهل الإيمان، وميزانٌ لتمحيص القلوب، فقد طُرد الإيمان من مكة، لكن في هذا الضعف الظاهري كانت تنبت نواة التمكين، وهذا من حكمة الله في تدبير أمر الدعوات.
- أن التوكل لا يُناقض الأخذ بالأسباب، فمع انتظار النبي صلى الله عليه وسلم للوحي، كان أبو بكر يُعدّ الراحلتين ويُعلّفهما، ليعلّم الأمة أن الطاعة لله لا تعني ترك العمل، بل مزج الإيمان بالاستعداد.
- أن الحب في الله هو أسمى الروابط، يتجلّى في مشهد أبي بكر وهو يعلّق قلبه لا على الرحلة فقط، بل على أن يكون فيها رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من صفاء العقيدة وصدق الولاء.

الفوائد الفقهية

- مشروعية الهجرة حين لا يُستطاع إظهار الدين، كما فعل الصحابة حين تركوا ديارهم لله، وهذه قاعدة فقهية يُستنبط منها وجوب الهجرة من ديار الكفر أو الظلم إلى حيث يُمكن إقامة الدين.
- جواز التورية والكتمان في حال الخوف من الفتنة، كما خرج الصحابة خفية، وسلكوا الطرق الوعرة، مما يدل على أن المداراة في بعض المواطن مشروعة، بخلاف الكذب المحرم.
- أن المفارقة للأهل والمال والولد من أجل الله من أعظم القربات، ومن أعظم دلائل الإيمان، كما فعل أبو سلمة وغيره، وكل هذا داخل في معنى الهجرة التي تُثاب عليها أعظم الأجور.

- أن ترتيب أولويات الهجرة كان بحكمة، فلم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم أولًا، بل هيّأ المدينة لذلك بالتدريج، وفيه فقه الدعوة والتخطيط دون استعجال.

- أن مساعدة المهاجرين من السنة المؤكدة، إذ كانت الأنصار يُعدّون البيوت والقلوب والموارد لاستقبالهم، وفي هذا تأصيل لفقه التراحم والتكافل بين المسلمين.

الفوائد الأخلاقية

- أن الحب الحقيقي يُقاس بالبدل والتضحية، لا بالكلام، كما فعل المهاجرون حين خرجوا بلا مال ولا زاد، لكن قلوبهم مملوءة بيقين لا تزعزعه الدنيا.

- الوفاء من أبي بكر كان عظيمًا، في علفه للراحلتين بنفسه، وعدم مفارقته لهما، مما يُبرز معاني الصحبة والرفقة الصادقة التي تُؤثِر الحبيب على النفس.

- حياء النبي صلى الله عليه وسلم وتواضعه ظاهرٌ في انتظاره للوحي وعدم التقدم خطوة دون إذن ربه، وهو خلق الأنبياء الذين يعلمون حدودهم مع الله.

- صبر المهاجرين على الفقد والفراق، وتحمّلهم مشاق الطريق، يدل على صدقهم، ويُعلّم الأمة أن المجد لا يُنال بلا تعب.

- ترقُّب الأنصار، وتهيئة بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين، يعبّر عن كرم الضيافة والتواضع والمحبة، وهي من أخلاق الإسلام الأصيلة التي قلّت في بعض مجتمعات اليوم.

الفوائد الدعوية والتربوية

- أن الهجرة لا تكون فقط بالأجساد، بل تبدأ بالقلوب، وقد كانت قلوب الأنصار والمهاجرين تسبق أقدامهم إلى المدينة، وهذا يُربّي على أهمية القصد والنية.

- أن الدعوة تحتاج إلى تخطيط مرحلي، فلم تأتِ المدينة فجأة، بل سبقها مصعب، ثم البيعتان، ثم الهجرة، مما يدل على أن التدرج سنة دعوية ناجحة.

- أن القيادة الربانية لا تنشغل بالعواطف فقط، بل تنتظر أمر الله، وتُهيّئ النفوس والناس وفق مراحل واضحة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

- أن من آثار الابتلاء والتضييق، فتحُ أبواب جديدة للتمكين، فقد اشتد البلاء في مكة، ففُتحت أبواب المدينة، وهذا يربّي النفوس على التفاؤل في أشد الأزمات.

- أن التضحية الجماعية لأجل الدين تُثمر الأمة، فقد خرج المهاجرون فرادى، لكنهم صنعوا وحدة لا تُقهر، وبُنيت بهم الدولة، وفي ذلك درسٌ للدعاة أن البناء يبدأ بالتضحيات لا بالمنابر.

مخالفات الواقع

- أصبح كثير من الناس اليوم يظنون أن النصر لا يأتي إلا بالقوة الظاهرة، بينما هذا المشهد يعلمنا أن التمكين يبدأ من قلوب صادقة، وخطى هادئة، لا من شعارات جوفاء.

- تفريط كثير من المسلمين في الهجرة القلبية، فقلوبهم متعلقة بالدنيا، والمال، والراحة، بينما كان الصحابة يتركون كل شيء طلبًا لرضا الله.

- ضعف التوكل الحقيقي، فكم من الناس ينتظرون الحلول السياسية أو الاجتماعية بدل انتظار أمر الله والاعتماد على الوحي، بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم يتحرك حتى أُذِن له.

- في زمننا من يجعل الولاء لغير الله ورسوله، ولحزبه أو قومه، بينما كان المهاجرون والأنصار لا تجمعهم قبيلة أو مصالح، بل العقيدة، وهي الرابطة الأسمى.

- ظهور فِرَق ضالة تزعم أن الفرار من الفتن ضعف، وتُحرّض الشباب على المواجهات العمياء دون وحيٍ أو إذن شرعي، بينما النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته هاجروا بأمر الله، لا بهوى أنفسهم، فتلك الفرق لا علاقة لها بالمنهج النبوي، بل هم من الفرق التي أخبر عنها صلى الله عليه وسلم، التي تُضل الناس بزخرف القول.

الفقرة الحادية عشر: الصحابة يهاجرون خفيةً... والمدينة تفتح قلبها لنور الإيمان

كان الموعد قد أزف... ونزل الإذن من السماء، فهَبَّ الصحابة يغادرون مكة الحبيبة، يتسللون خفيةً تحت أستار الليل، ما بين قلبٍ يخفق خوفًا وترقبًا، وآخر يخفق شوقًا وهجرة. تَركوا الديار والعشائر، وغادروا الأحباب والمآثر، وكلّهم يحمل في قلبه يقينًا: أن اللقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم أقرب من أن تؤجله يد بشر.

شدّت قريش قبضتها، وضيّقت الخناق، فمنهم من ضُرب، ومنهم من حُبس، ومنهم من فُرّق بينه وبين زوجه أو ولده... لكنها لم تقدر على سلاسل الإيمان التي شدّت قلوبهم إلى المدينة. خرجوا بلا زادٍ من مال، ولا سلاحٍ من عتاد... خرجوا بإيمانهم وحده، يحملونه كالشمس في صدورهم، لا تملك له ظلمة الجاهلية حجبًا.

خرج أبو سلمة أول الناس، أخذ زوجه وطفله، لكن عيون القبيلة كانت ترصده، فانتُزعت منه زوجته، وخُطف طفله، وتفرّقت الأسرة المؤمنة في مآسي الغربة، وهي لم تبرح الديار. بقيت أم سلمة تبكي وحدها على بطحاء مكة، حتى رقّ لها قلب أحدهم، فأطلق سراحها. جمعت شتاتها، وخرجت وحدها في رحلة الإيمان، وولدها الصغير يمشي إلى جوارها... لا أنيس لها إلا الله.

وخرج صهيب الرومي، يتبعه رجال من قريش، فأوقفهم بثبات وقال: "تعلمون أني من أرماكم، ولن تصلوا إليّ حتى أقتل بكل سهمٍ رجلًا... فإن أردتم مالي فخذوه، واتركوا لي ديني." فقبلوا المال، وتركوه للهجرة. فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم، استقبله بالبشرى التي خلدها التاريخ" :**ربح البيع أبا يحيى! ربح البيع أبا يحيى"!**

وهاجر عبد الله بن جحش، وعتبة بن غزوان، والزبير وطلحة وسعد... وخرج سعد متخفيًا، فلما اعترضهم المشركون، كان أول من أراق دمًا دفاعًا عن الدين، فخلّد الله شجاعته في صفحات المجد.

أما عياش بن أبي ربيعة، فقد خُدع بكذبة الأم التي لا تمتشط حتى تراه، فخرج إليهم قلبًا رقيقًا، فما إن صار في قبضتهم حتى قيدوه بالحبال، وأرجعوه أسيرًا إلى مكة، ليبقى ثابتًا على دينه، حتى فُك أسره بنور الله بعد حين.

وكان عمر بن الخطاب مشهدًا آخر... لم يخرج خائفًا ولا متخفيًا، بل طاف بالبيت، ونادى في قريش" :**من أحب أن تثكله أمه أو يُيتم ولده، فليلقني خلف هذا الوادي "!**ومضى في ركبٍ من المستضعفين، مرفوع الهامة، موقنًا أن طريق النور لا يُمشى فيه برؤوس منحنية.

وفي المدينة... كانت البيوت تتزين لاستقبال النور، والأنصار يفتحون قلوبهم قبل أبوابهم، يعدّون الطعام، ويهيئون الدور، ويُهيبون بعضهم بعضًا: "أقبل إخواننا من مكة... مرحبًا بهم في دار الإيمان".

وهكذا... خرج آخر المهاجرين، وبقي الحبيب صلى الله عليه وسلم في مكة، ينتظر الأمر الأكبر، والخروج الأعظم، لتكون المدينة على موعد مع شمس لا تغيب، ونورٍ لا ينطفئ... إنها الهجرة التي خطّت بداية الأمة، ومهدت لميلاد الدولة، وكتبت في صفحات السماء: أن الحق لا يُؤخره حصار، ولا تُطفئه ظلمات .

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية

- أن الإيمان متى تمكّن من القلب، لا تستطيع قوى الأرض أن تقتلع جذوره، فقد ضُرب الصحابة، وحُبسوا، وفُرّق بينهم، ومع ذلك لم يُنتزع منهم حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لأن الله وعدهم بقوله{:يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧].

- أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم الغيب، ولا يقرر الهجرة بنفسه، بل ينتظر أمر ربه، وفي ذلك ردٌّ على من يغلون في الأنبياء أو يزعمون أنهم يتصرفون بالكون، فهديهم وحي، وأمرهم توقيفي.

- أن الصدق في الإيمان يثمر الثبات في المحنة، فقد خرج الصحابة بلا زاد، ولا ظهر، وتحمّلوا الفقد والفقر والغربة، لأن الإيمان يغني القلب عن متاع الدنيا، ويجعل المِحَن خطوات على طريق الجنة.

- أن الإسلام دين لا يُجبر الناس على ترك أهلهم ومالهم، ولكن يُربّيهم على تقديم حب الله على كل محبوب، كما فعل صهيب حين اختار الآخرة على المال، فنزل فيه قول الله:
}وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ} [البقرة: ٢٠٧].

- أن الله سبحانه لا يضيع عباده، بل يختبرهم ثم يُكرمهم، كما فعل مع عياش وصهيب وأم سلمة وغيرهم، وفي ذلك تقوية لعقيدة "اللطف الإلهي" و"جبر القلوب" بعد الكسر، وهو أصل عقدي ثابت.

الفوائد الفقهية

- مشروعية الهجرة للمستضعف الذي لا يستطيع إقامة دينه، وهي سنة ثابتة في حياة المؤمنين، يُغترب فيها عن الديار، لا لهوى، بل لإقامة دين الله، كما هاجر الصحابة خفية رغم التهديد.

- مشروعية الكتمان في السفر والفرار من الظالم إذا تعذّر إظهار الدين، كما فعل الصحابة، وهو أصل من أصول فقه المداراة عند الحاجة، بشرط عدم التنازل عن الثوابت.

- جواز فداء النفس بالمال عند الاضطرار، كما فعل صهيب، وفيه دليل على أن حفظ الدين مُقدّم على المال، وأن هذا من فقه الأولويات، وهو أصل في أبواب الضرورات.

- مشروعية مفارقة الزوج لزوجه إذا حال أهل الكفر بينهما كما حدث مع أبي سلمة وأم سلمة، وأن المودة في الإسلام مربوطة بالإيمان، لا بعُرف الناس وأعراف القبائل.

- أن الجهاد قد يبدأ بالدفع عن النفس كما فعل سعد بن أبي وقاص، فكان أول من أراق دمًا في الإسلام، مما يدل على أن الجهاد المشروع يبدأ بدفع الظلم، لا بالعدوان.

الفوائد الأخلاقية والتربوية

- أن الصبر على البلاء طريق التمكين، فقد كانت أم سلمة تبكي وحدها على بطحاء مكة، حتى رقّ لها بعض أهل القلوب، وفي هذا تعليم أن القلوب إذا ثبتت على الحق، فرّج الله عنها من حيث لا تحتسب.

- أن الصدق في النية يبلغ بصاحبه أعلى المقامات، فصهيب رضي الله عنه ضحّى بماله، فبلّغه الله رضاه، وجعل بيعه رابحًا، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه.

- أن المروءة والرجولة ليست في القوة البدنية، بل في الثبات على الدين، كما ثبتت النساء المهاجرات، وهاجرت أم سلمة وحدها، تدفع ولدها وتبكي، لكنها تمضي في سبيل الله.

- أن الإخلاص يظهر في الخفاء، لا في العلن، فهؤلاء الصحابة هاجروا خفية، ولم يرفعوا شعارات، بل كانت خطواتهم خافتة، لكن أعمالهم عظيمة عند الله، وفي هذا درس للدعاة أن الإخلاص مقدّم على الظهور.

- أن البطولة ليست بالصوت المرتفع، بل بالفعل الصادق، كما فعل عمر حين أعلن هجرته وواجه التهديد، وفي هذا توازن بين التوكل الظاهر والخفاء المشروع، حسب الأحوال والقدرات.

الفوائد الدعوية والإيمانية

- أن الإيمان لا يُحبس خلف الأسوار، بل يسري في القلوب ولو كانت مغلقة، ولهذا انتشر الإسلام رغم الحصار، لأن الدعوة الصادقة لا تحتاج إلى منابر عالية، بل إلى قلوب مخلصة.

- أن التربية النبوية نجحت في غرس معاني الفداء والتضحية في كل الطبقات، فالهاجرون نساء ورجال، شباب وشيوخ، فقراء وأغنياء... كلّهم لبّوا نداء السماء بلا تردد.

- أن النصرة الصادقة لا تكون بالكلمات فقط، بل بالفعل والموقف، كما فعل الأنصار الذين استعدوا لاستقبال إخوانهم في الله، وفرشوا الأرض بالترحاب، وأعدّوا البيوت والقلوب.

- أن الهجرة ليست انتقالًا جغرافيًا فقط، بل انتقال روحي من الجاهلية إلى النور، من حب النفس إلى التضحية، من البقاء مع الأهل إلى المجاهدة مع المؤمنين.

- أن العمل الجماعي المنظم له أثر عظيم، فالهجرة لم تكن عشوائية، بل تدريجية، ومنظمة، ومتدرجة، وهذا مما يُربّي الدعاة على فقه السنن الربانية في التغيير.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم إذا أوذوا في دنياهم أو دينهم تركوا الدين، بينما الصحابة تركوا الدنيا لأجل الدين، فضعف اليقين صار من آفات الزمان.

- تفريط البعض في الحياء والعفة، بينما الصحابيات خرجن وحدهن في الصحاري وهن متسترات محتشمات، رابطات الجأش، مستعينات بالله.

- أن كثيرًا من الشباب اليوم يُقدم على مواجهة الباطل بلا حكمة ولا إذن شرعي، بخلاف ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقد خرجوا وفق وحيٍ وإذنٍ وقيادة، لا بشعارات متهورة.

- استبدال رابطة العقيدة بروابط الجاهلية، فنرى العصبيات تفرق بين المسلمين، بينما المهاجرين والأنصار جمعهم الإيمان فقط، وهذا هو الأصل الذي تُبنى عليه الأمة.

- أن من الفرق المنحرفة في هذا الزمان من يجعلون كل مواجهة مع الباطل فرضًا متعيّنًا، وينكرون المداراة، ويُحرضون الناس على المجازفات غير الشرعية، وهذه طريقة الخوارج الذين خرجوا عن منهج أهل السنة، وقد أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وحذر من غلوّهم.

الفقرة الثانية عشر: الصحبة يا رسول الله... حين اختار النبي رفيق الدرب

مكة تفرغ شيئًا فشيئًا من وجوه الإيمان، والمدينة هناك تنتظر الوعد، تتهيأ بالقلوب والبيوت لنور قادم من بطحاء مكة، والنبي صلى الله عليه وسلم باقٍ، لا يتحرك إلا بإذن السماء، يرقب اللحظة التي تأذن فيها الإرادة الإلهية برحيلٍ هو ميلاد أمة.

وكان الصديق رضي الله عنه قد استأذن رسول الله في الخروج، فقال له بلطف المربي وبشارة الحبيب" :لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحبًا".
ففهم القلب ما لم تنطق به الشفاه، وارتجف الفؤاد بشوق الصحبة، فحبس أبا بكر نفسه منتظرًا، وهيّأ راحلتين، وأخذ يُعلفهما بورق السَّمُر أربعة أشهر، كل لقمة فيهما قُدمت استعدادًا ليومٍ تتسابق فيه الأرواح إلى الطاعة، لا تُبالي بدنيا ولا تعب.

ثم... أشرقت اللحظة المنتظَرة.

في الظهيرة، ساعة السكون وهدوء الناس، دخل الحبيب المصطفى بيت صاحبه، ووجهه مغطّى بستار الهيبة والخوف على السر، ثم قال بصوته المألوف الجليل":أخرج من عندك".فقال أبو بكر :إنما هم أهلك يا رسول الله".
فقال صلى الله عليه وسلم":قد أُذن لي في الخروج ".فلهج أبو بكر بلهفة عاشق" :الصحبةَ يا رسول الله؟"
قالها وقلبه يُصارع الدمع من شدّة الشوق، فجاءه الجواب:
"الصحبة".
فبكى... بكى حتى قالت عائشة رضي الله عنها" :فوالله ما شعرت أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذٍ يبكي".

ثم بدأ الإعداد الدقيق، الإعداد الذي يُعلّم الدعاة أن الأخذ بالأسباب جزء من التوكل، لا نقيض له.

اختار النبي صلى الله عليه وسلم واحدة من راحلتي أبي بكر، ودفع ثمنها، لأن الهجرة لله، لا تقبل منةً من أحد، ولو كان أحبّ الناس إليه.

ثم استأجرا عبد الله بن أريقط، رجلًا مشركًا... لكنه أمين، خبير بمسالك الصحراء، فكانت الثقة به درسًا خالدًا: أن الكفاءة تُقدَّر، ولو من غير أهل الملة.

واتفقوا أن يأتيهم بالراحلتين بعد ثلاث ليالٍ إلى غار ثور، ليسلكوا طريقًا غير مطروق، بعيدًا عن أعين الأعداء، وقلوبهم تتوكل على الحفيظ العليم.

وفي تلك اللحظة، كانت قريش تتآمر، تجتمع في دار الندوة، يحرّكهم الخوف من نور الحق، وجاءهم إبليس في صورة شيخ نجد، فزيّن لهم القتل، وأشاروا بقتل محمد صلى الله عليه وسلم ضربة رجل واحد، يتفرق بها دمه فلا تقوم لبني هاشم قائمة.

لكنهم نسوا... أن الحارس هو الله.

وسينام عليٌّ على الفراش بكل شجاعة، وسينطلق محمد في أعظم رحلة عرفها التاريخ...
لكن تفاصيلها... في الفقرة القادمة.

الفوائد المستخلصة من الفقرة

الفوائد العقدية

- أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتصرف من تلقاء نفسه، بل لا يتحرك إلا بإذن الله، وفي ذلك إثبات لعقيدة "اتباع الوحي"، ونفي للغلو في شخصه، وبيان أنه عبدٌ رسول، لا يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

- أن الصحبة في سبيل الله منزلة عالية، اختارها النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه، مما يدل على أن ولاية القلوب ومقامات الإيمان ليست بالأنساب، بل بالإخلاص والسبق في الدين، وصدق المحبة.

- أن الله يحفظ نبيه، ولو اجتمع أهل الأرض على مكره، فقد اجتمع الكفار في دار الندوة، وأشاروا بقتله، لكنهم نسوا أن الحافظ هو الله، وهذه عقيدة من عقائد أهل السنة في التوكل على الله وحده.

- أن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل هو كمال العقيدة، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين التوكل والإعداد المادي الكامل، وهذا أصل من أصول أهل السنة، خلافًا لمن يزهد في الأسباب أو يغلو في التوكل حتى يترك العمل.

- أن الله جل وعلا يُمكِّن لعباده من حيث لا يحتسبون، فاختار له رفيقًا من أهل الإيمان، ودليلًا من غير أهل الإسلام، ليعلِّمنا أن أمر الله نافذ فوق كل المقاييس البشرية، وهذا يدخل ضمن باب "حسن الظن بالله" من مسائل العقيدة.

الفوائد الفقهية

- جواز الاستعانة بالكافر الأمين في الأمور الدنيوية التي لا يُخشَى فيها التمكين له، كما استعان النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أريقط، وقد كان مشركًا، لكنه أمين خبير، وهذا أصل في فقه السياسة الشرعية والمصالح العامة.

- استحباب شراء وسيلة السفر أو الانتقال إذا كان ذلك أدعى للإخلاص، فقد دفع النبي صلى الله عليه وسلم ثمن الراحلة، رغم حب أبي بكر له، ليُبيّن أن الهجرة لله لا تقبل منةً ولا عطاءً بشريًّا، وهو أصل في فقه النية والإخلاص.

- أن التخفّي من الأعداء مشروع في حال وجود الخطر، بل هو من فقه الهجرة المشروع، ولا يُعد من الجبن ولا ضعف التوكل، بل هو اقتداء بالسنة، ودفع للشر، وهو من فقه الحيلة الشرعية المباحة.

- أن إعداد الوسائل اللازمة للدعوة والعمل للدين داخل في التوكل، لا ينافيه، بل هو لازم له، كما خطط النبي صلى الله عليه وسلم لخروجه ومكث في الغار، وهذه مسألة فقهية متصلة بمبدأ "الاحتراز المباح."

الفوائد الأخلاقية والتربوية

- أن الصحبة الصالحة نعمة عظيمة، تُبنى على الصدق والإيمان، لا على المصالح، ولذلك اختار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر، وهو الذي بكى من الفرح، لا من الدنيا، بل من نعمة أن يكون رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- أن الصبر على الانتظار عبادة، فقد حبس أبو بكر نفسه ينتظر أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهيّأ الراحلتين بالصبر والعناية أربعة أشهر، وكل ذلك في صمت، ليعلِّمنا أن خدمة الدين لا تحتاج صخبًا بل ثباتًا وإعدادًا.

- أن حسن الظن بالله يُورث البشرى، فقد قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا"، فأدرك أبو بكر المراد، وكان جزاؤه الصحبة، وفي هذا دلالة على أن الرجاء في الله لا يُخيّب.

- أن إخفاء السر من شيم العقلاء، فقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة السكون، وغطى وجهه، ودخل مطمئنًا، وكل ذلك دليل على فقه الستر، وسلوك الحكماء، وهي خُلق مهم في التعامل مع الأزمات.

- أن من دلائل التواضع النبوي أنه لم يقبل أن يركب راحلة أُعدت له مجانًا، بل اشتراها، وهذه من آداب العفة، وسلوك النبلاء.

الفوائد الدعوية والإيمانية

- أن التخطيط للعمل الدعوي لا ينافي التوكل، بل هو جزء أصيل منه، وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم خطة الهجرة بدقة، واختار الوقت والمكان والدليل والطريق، مما يدل على أن العمل المنظم سبب للتمكين.

- أن الثقة لا تُمنح إلا لمن ثبتت أمانته وخبرته، ولو لم يكن على ملّتك، وهذا يُربّي الداعية على فقه تقدير الكفاءات، لا على العصبيات والولاءات العمياء.

- أن التضحيات في سبيل الله لا تكون بالحديث فقط، بل بالإعداد العملي، كما فعل أبو بكر في تجهيز الراحلتين، وكما فعل عليّ حين نام على فراش النبي صلى الله عليه وسلم.

- أن الدعوة لا تنقطع في أحلك الظروف، بل تنمو وتثمر في وقت الأزمات، كما أثمرت خطة الهجرة أعظم تغيير عرفه التاريخ الإسلامي.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يزعمون التوكل ويتركون الأسباب، بل بعض الفرق الغالية تنتقص من قيمة التخطيط بحجة الاعتماد على الله، بينما السنة تدعو إلى التخطيط مع الإيمان، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة.

- أن كثيرًا من الناس لا يقدّرون الكفاءة إذا كانت من غير جماعتهم أو طائفتهم، بينما النبي صلى الله عليه وسلم استأجر مشركًا لأنه أمين خبير، وهذا خلاف ما عليه بعض الفرق المنحرفة من التكفير بلا علم ولا عدل.

- أن جماعات من أهل البدع اليوم تستغل قصص الجهاد والهجرة للتحريض والفوضى والطعن في حكام المسلمين، بينما النصوص تؤكد أن الهجرة كانت بإذن الله، وبقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، وبحكمة وستر، لا بإثارة ولا خروج.

- ضعف منزلة الصحبة الصادقة في زماننا، حيث تتبدل الصداقات لمصالح دنيوية، بينما كانت الصحبة في صدر الإسلام تُبنى على الإيمان، وتُبذل من أجلها الأرواح، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه.

- أن أهل الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة قد يُفرطون في تعظيم الأشخاص حتى يجعلوا من النبي صلى الله عليه وسلم إلهًا يملك التصرف في الكون، بينما في هذه الفقرة نراه لا يخرج إلا بأمر ربه، ولا يقبل منةً في دين الله، وهذا هو توحيد الاتباع.

الفقرة الثالثة عشر غار ثور... حين رعَت السماء أقدار الرسالة

في ليل الهجرة... حين خيّم الصمت الثقيل، كان الخطر يهمس في الظلام، وكانت السيوف تُشحذ على أبواب دار النبوة، وشباب قريش يُحكمون الطوق حول البيت الطاهر... يترقبون خيوط الفجر، ويمنّون النفس بوأد النور قبل شروقه.

لكنّهم ما دروا أن المقادير قد سبقت، وأن السماء لا تسلم الراية لمن خان، ولا تترك قلبًا طاهرًا في قبضة الدسائس.

دخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم على عليٍّ، يوصيه أن يبيت في فراشه، ليؤدّي الودائع إلى أهلها... فالنبي أمينٌ وإن خانته الأمانات، صدوقٌ وإن كذبوه، وفيٌّ وإن جحده القريب.

وخرج الحبيب من بين صفوف المتربّصين، يقرأ آيةً تكسوهم بالعمى عن نوره :﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وانسلّ الليل دون أن يشعر به أحد... وبقي عليّ، يُغالب الوحشة على فراش النبوة، بينما صاحب الرسالة قد سبق إلى الغار... إلى موضعٍ ناءٍ في جبلٍ يُدعى ثور.

هناك، وقف النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الوفيّ أبو بكر على عتبة الغار، تغلف المكان ظلمةٌ موحشة، وتحيط به وعورةٌ لا تألفها الأقدام.

دخل أبو بكر أولًا، يمهّد الطريق لمَن يُحب، كان قلبه يرتجف لا من خوفٍ على نفسه، بل خشية أن يصيب الحبيب أذى.

ثم دخل النبي صلى الله عليه وسلم، ومكثا في الغار ثلاثًا... ثلاث ليالٍ امتدت كأنها دهور، لكنها كانت أقصر مما تظنّ قريش، وأقرب لفجرٍ تشرق فيه شمس النصر.

وفي مكة... جنّ جنون الطغاة، وارتفعت مكافأة الدم" :مَن جاء بمحمد حيًّا أو ميتًا فله مئة ناقة"!

فانطلقت الخيول، وتحركت العيون، حتى وقف أحدهم على الغار نفسه، فوق الصخر مباشرة... لا يحول بينه وبين خير الخلق سوى رحم من صخر.

فهمس أبو بكر، والخوف يملأ قلبه لا من أجل نفسه، بل من أجل من بجواره:
"يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا"!

فجاء الجواب بردًا وسلامًا، بكلمةٍ من نور تهدّ الجبال وتطمئن القلوب" **:يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"**

وفي الغار، لم يكن الحبيب وحده، فقد كانت الأسرة كلها تسابق الزمن لخدمته:

عبد الله بن أبي بكر، يندسّ في النهار بين أهل مكة، ويتسلل في المساء بأخبارهم إلى الغار.

وأسماء، تمشي تحت جنح الليل، تحمل الزاد، وتخبئ الخطى، حتى شقّت نطاقها نصفين، فكانت "ذات النطاقين."

وعامر بن فهيرة، يرعى الغنم ويمرّ بها على الطريق، فيطمس الآثار، ويمنح اللبن، ويخفي الحقيقة عن العيون.

سكونٌ تديره السماء، وتدبيرٌ تُشرف عليه العناية الإلهية...

فلما انقضت الليالي، وحان الموعد، أقبل عبد الله بن أريقط – الدليل الأمين – براحلتين، وركب النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الطريق، يطويان الفيافي نحو دار الهجرة...

وها هي المدينة تفتح قلبها وتبسط ذراعيها ...تتهيّأ لاستقبال الشمس التي طال انتظارها.

الفوائد المستخلصة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بأن الله تعالى يدبّر أمر هذا الدين بنفسه، وأن السماء ترعى أقدار الرسالة وتُجري المقادير بما لا يدركه البشر، كما ظهر في خفاء النبي صلى الله عليه وسلم عن أعين المتربصين.
- إثبات أن الله مع أوليائه المؤمنين، بعنايته ولطفه ونصره، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».
- التوكل على الله من أعظم أبواب الإيمان، وهو لا ينافي اتخاذ الأسباب، بل يكمله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين استخدم الدليل وأخفى مسيره.
- وقوع الكرامة للأولياء حق، وهي ثابتة عند أهل السنة، كما ظهر في العمى الذي أصاب أعين القوم، فلم يبصروا النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج بين أيديهم.
- المعية الخاصة من الله تعالى لعباده المؤمنين، هي معية نصر وتأييد، كما كانت للنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار.
- إثبات صدق النبوة في هذا المشهد، حيث اجتمعت فيه معجزات حسية وتدبير رباني يدل على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم مؤيد من السماء.
- حفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم تحقيق لوعده في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].
- عناية الله تمتد لتشمل من نصروا دينه، مثل عليٍّ وأسماء وعبد الله وعامر، وكل من شارك في الحدث، وهذه سنة ربانية باقية.

فوائد فقهية:

- جواز المبيت في غير بيت الإنسان لحاجة شرعية، كما بات علي رضي الله عنه في فراش النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ الأمانات.
- أداء الأمانات إلى أهلها واجب، حتى لو كانوا كفارًا، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع ودائع قريش رغم عداوتهم.
- جواز الاستعانة بالمشرك الأمين في الأمور الدنيوية كالدلالة في الطريق، كما استعان النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أريقط.
- اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل، بل هو من تمام التوكل، كاستئجار الدليل، واختيار طريق غير مألوف، وتمويه الأثر.
- يجوز إخفاء الحقيقة عن العدو إن كان في ذلك مصلحة شرعية، كما أخفى النبي صلى الله عليه وسلم وجهته وخطواته وأقام في الغار.
- يُشرع التعاون الأسري في طاعة الله ونصرة الدين، كما تعاونت أسرة أبي بكر في خدمة النبي صلى الله عليه وسلم أثناء الهجرة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الوفاء خُلُق عظيم، يظهر في إصرار النبي صلى الله عليه وسلم على رد الودائع لأهلها رغم خيانتهم له.
- التضحية في سبيل الله أعلى مراتب الإيمان، كما فعل علي رضي الله عنه حين عرض نفسه للخطر في سبيل النبي صلى الله عليه وسلم.
- محبة الصالحين تدفع إلى التفاني، كما ظهر في خوف أبي بكر الشديد على النبي صلى الله عليه وسلم لا على نفسه.

- التعاون على البر والتقوى بين أفراد الأسرة يُثمر نصرًا وخيرًا، كما كان من آل أبي بكر رضي الله عنهم.
- الرفق في الأزمات، وحسن التوجيه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في لحظة الخوف: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟.»
- الصبر والثبات في الملمات خلق القادة والمصلحين، وقد تجلى في النبي صلى الله عليه وسلم في أحلك لحظات الهجرة.
- المرأة المسلمة لها دور عظيم في نصرة الدين، كما فعلت أسماء بنت أبي بكر، وهذا يرد على دعاوى إقصاء المرأة من مجالات الخير.

فوائد دعوية وتاريخية:

- الهجرة ليست هروبًا بل انتقال إستراتيجي لحفظ الرسالة، وتوسيع رقعة الدعوة، وهو من فقه الدعوة الراسخة.
- التخطيط الدقيق في العمل الدعوي مطلوب، ولا تعني الثقة بالله ترك الترتيب والاحتياط، وهو منهج نبوي.
- الثبات في الشدائد من أعظم أسباب نشر الدعوة، وقد أثمر صبر الغار عن انتصار الإسلام بعد سنوات.
- المبادرة الفردية من الشباب والنساء والرجال جميعًا كانت جزءًا من نجاح الهجرة، وهذا يعلّم الدعاة أهمية استنهاض طاقات الأمة كلها.

مخالفات الواقع المعاصر:

- ضعف التوكل على الله، والاعتماد على الأسباب المادية وحدها، دون يقين في معية الله ونصره لعباده المؤمنين.
- تهاون كثير من الناس في رد الأمانات، حتى داخل بيوت المسلمين، رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم ردها إلى المشركين.
- ضعف خُلق الوفاء في العلاقات، فتجد من ينكث عهده لأقرب الناس إليه، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مثل في الوفاء.
- تجاهل دور الأسرة في نصرة الدين، وتضييع الطاقات الشبابية والنسائية في التوافه، بدل استثمارها في طاعة الله.
- التسرع في الحكم على الأشخاص بالفسق أو الضلال دون تبيّن، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل مشركًا أمينًا حين دعت الحاجة.
- النظرة الدونية للمرأة المسلمة، وكأنها بلا قيمة في ميادين العمل للدين، مع أن أسماء كانت نموذجًا مشرّفًا للمرأة المؤمنة المجاهدة.
- ضعف الصبر على الأذى في سبيل الله، وعدم احتمال التكاليف الدعوية، مقابل صبر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الغار.
- ترويج بعض الفرق الضالة – كالقدرية ومن وافقهم – لفكرة أن الأمور تجري صدفة أو عبثًا، والمشهد كله شاهد على دقة تقدير الله وتدبيره.
- وقوع بعض الناس في تمجيد أصحاب الأفكار المنحرفة بدعوى أنهم "مخططون ومنظّرون"، بينما النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم من خطط وأحكم، لكنه فعل ذلك بنور الوحي، لا بحيل البشر وأهواء المفسدين.

الفقرة الرابعة: عشر سراقة... والسواران الموعودان

كانت الرمال الحارقة تبتلع الخطى، والسماء تظلل الرحلة بخيوط الرحمة، والنبوّة تمشي في ثوب الهجرة إلى دارٍ جديدة

تُبنى على أعين الله.
وفيما كان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر يشقان طريقهما بين حجارة الهاجرة، كانت مكة قد أطلقت خلفهم قلوبًا يلهثها الطمع، وأعينًا لا ترى إلا مئة ناقة... وفي طليعة المطاردين: سراقة بن مالك. فارسٌ خبِرَ الفيافي، وسليل قومٍ لا تخطئ أبصارهم الأثر. خرج يظنها رحلة صيد، لا يعلم أن بينه وبين غنيمته سدرةٌ من حراسة السماء.

اقترب... فاضطرب جواده كأن الأرض لفظته، وغاصت حوافره في الرمل كأنها تأبى عليه أن يصل إلى أطهر خُطى. فألقى قداحه يستقسم، فخرج له السهم الذي لا يريده: "لا يضره"... لكنه عاد. عاد يظن أن القدر لعبة فارس، لا نداء الله.

لكنه كلما اقترب، ازدادت الأرض نفورًا، وبدت له الهزيمة من حيث لم يحتسب. وهنا أيقن... أيقن أن هذا الركب ليس ككل من عرف، وأن هذا الرجل ليس مطاردًا بل مؤيَّدًا. فصاح يستأمن، ونادى بأمانه، فقال: "يا محمد، أنا سراقة، انظرني أكلمك، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني ما تكرهون."

فأجابه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بما يخلع الطمع من القلوب ويغرس اليقين فيها، قال له":**كيف بك يا سراقة إذا لبست سوارَي كسرى؟**"
يا الله... أي وعدٍ هذا؟
نبيٌ مُطارَد، لا يملك من الدنيا مأوى، يعد رجلًا من قلب صحراءٍ مشتعلة بسوارَي أعظم ملوك الأرض؟!
لكنها ليست نبوءة طامع، بل وعدُ نبيٍّ لا ينطق عن الهوى، وما كان لله فإنه يبلغ ولو بعد حين.

كتب له عامر بن فهيرة كتاب الأمان على أديمٍ من جلد، وعاد سراقة يُخفي ما علم، ويدفع المطاردين عن الطريق قائلًا: "نفضت الأرض نفضًا، فلا تتعبوا أنفسكم فيما لا يُدرَك."

ومضت الأعوام... وأسلم سراقة بعد الفتح، ومات النبي الكريم، وخلفه أبو بكر، ثم عمر. وها هي ممالك الفُرس تتهاوى، وتُؤتى بغنائمهم إلى المدينة، وفيها **سوارا كسرى** ...فينادي عمر بصوت المنتصرين لوعد السماء" :**أين سراقة؟**" ويُؤتى به، فيلبسه السوارين بيديه، ويقول بلسان الامتنان":**الحمد لله الذي نزعها من كسرى بن هرمز، وألبسها سراقة بن مالك.**"

إنها ليست سُوَارَيْن... بل هما قُبلة النبوة على جبين الأقدار، وعدٌ من قلب المطاردة، صدقه الإيمان، ودوّنه القدر

الفوائد المستخلصة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان الجازم بأن وعد الله حق، وأن ما وعد به رسوله صلى الله عليه وسلم يقع لا محالة، ولو بعد حين، كما وقع وعد السوارين.
- تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به من الغيب، من لوازم الإيمان بنبوّته، ومن أنكر ذلك فقد ضل عن سبيل أهل السنة.
- قدرة الله تعالى تتجاوز المألوف، فهو يهيئ الأسباب لخدمة دينه من حيث لا يحتسب الناس، كما جعل سراقة أحد حماة الطريق بعد أن كان من المطاردين.
- ما يكون من تقدير الله لا يمكن لأحد من الخلق دفعه، فقد غاصت أقدام فرس سراقة مرارًا حتى أيقن أن الأمر ليس بيده، وإنما بيد الله.
- إثبات أن النصر والتمكين وعدٌ إلهي، لا يتوقف على المظاهر الدنيوية، فقد بُشّر سراقة بالسوارين والنبي صلى الله عليه

وسلم لا يملك في تلك اللحظة سوى توكله ويقينه.

- لله ملَكوت السموات والأرض، فهو يرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقد نزع الملك من كسرى الجبار، وألبس غلامًا عربيًا أعرابيًا سوارَيْه، دلالة على قهره وعزته.
- النصرة التي يهبها الله لأنبيائه لا تقتصر على لحظة بعينها، بل تمتد حتى بعد وفاتهم، كما نُصر وعد النبي صلى الله عليه وسلم في عهد عمر رضي الله عنه.

فوائد فقهية:

- يجوز كتابة الأمان لمن خشي من العدو إذا ظهر منه الرغبة في السلم أو الكف، كما كتب عامر بن فهيرة الأمان لسراقة.
- يجوز إظهار خلاف ما في النفس إذا ترتبت عليه مصلحة شرعية، كما كتم سراقة ما علم ودفع الناس عن الطريق حماية للنبي صلى الله عليه وسلم.
- لبس الرجال ما ليس من الذهب جائز، كما ألبس عمر سراقة السوارين، مع أنهما كانا من ذهب، لكنه كان للعرض، لا للزينة.
- الشكر لله عند تحقق النصر والفتح سنة ماضية، كما قال عمر: "الحمد لله الذي نزعها من كسرى."...
- تكريم من خدم الدعوة، والثناء عليه، والوفاء له، مشروع كما فعل عمر مع سراقة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- حسن الظن بالله، ويقين الصادقين بوعده، كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم حين وعد سراقة بما لا تراه العيون لكنه كان يراه بقلبه.
- التحول من العداوة إلى النصرة من خصال الكبار، وسراقة مثال لمن غيّرت الهداية مجرى حياته بعد أن كان من الطامعين.
- الوفاء بالوعد ولو بعد زمن من مكارم الأخلاق، وقد وفّى عمر بوعد النبي صلى الله عليه وسلم لسراقة بعد سنين طويلة.
- الثقة المطلقة بالله تصنع القادة، والنبي صلى الله عليه وسلم كان في ذروة الثقة حين قال لسراقة وهو لاجئٌ مطارد: "كيف بك إذا لبست سوارَي كسرى؟"
- الصدق في القول والفعل مفتاح الهداية، وقد أظهر سراقة صدقه حين قال: "لا يأتيكم مني ما تكرهون"، وكان كما وعد.
- كتمان الخير أحيانًا يكون من الحكمة، كما كتم سراقة خبر الركب عن بقية المطاردين.

فوائد دعوية وتاريخية:

- الإسلام يفتح القلوب، ولو كانت البداية خصومة، فكم من مطارد أصبح من أنصار الدعوة، كما حصل مع سراقة.
- التخطيط في العمل الدعوي لا ينافي التوكل، بل هما جناحا النجاح، ويُلاحظ ذلك في حماية النبي صلى الله عليه وسلم بالوسائل الممكنة ككتمان الطريق.
- الدعوة تنتصر حين تصبر وتوقن، فقد تحقق وعد النبي صلى الله عليه وسلم بعد أكثر من عشر سنوات، والنصر جاء في وقته المقدّر.
- الأثر العميق للدعوة بالقدوة، فإن سراقة ما أسلم إلا لما رأى النور في وجه النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة الموقف ويقينه.

مخالفات الواقع المعاصر:

- ضعف التصديق بوعد الله ورسوله، والتعلّق بالأسباب الدنيوية فقط، وهذا من آثار ضعف الإيمان بالغيب.
- سوء الظن بالله، والجزع عند الشدائد، وتكذيب تحقق النصر، وقد نُصر النبي صلى الله عليه وسلم وهو مطارد لا يملك شيئًا.
- نكث العهود وكثرة الخيانة في المعاملات والاتفاقات، بخلاف ما فعله سراقة الذي صدق الوعد وكتم السر.
- انبهار بعض المسلمين بالغرب ومظاهر القوة، مع أن السوارين كانوا رمزا لعظمة كسرى، ثم صاروا بيد عمر المسلم البسيط، مما يثبت أن العزة بيد الله.
- الجري خلف الدنيا بأي وسيلة، ولو على حساب الدين، كما خرج سراقة أولًا طلبًا للمال، وهذا حال كثير من الناس اليوم في لهاثهم خلف المناصب والمكاسب.
- الغفلة عن الوفاء لأهل الفضل، ونسيان مواقف العطاء، بخلاف عمر الذي أوفى بوعد نبيه صلى الله عليه وسلم لسراقة.
- تسويق بعض الفرق الضالة لفكرة أن الإسلام دين مغلوب لا ينتصر، مع أن الوقائع تثبت خلاف ذلك، كما وقع مع سراقة وسوارَي كسرى.
- محاربة الإيمان بالغيب من بعض التيارات الفكرية الحديثة، ووصمه بالخرافة، في حين أن أعظم وقائع النصر في الإسلام جاءت من بوابة الغيب.

الفقرة الخامسة عشر: اللقاء المبارك عند خيمة أم معبد

في رَحلة الهجرة المباركة، إذ كان الطريق موحشًا والصحبة عظيمة، مرّ النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصدّيق أبو بكر رضي الله عنه بخيمةٍ على طرف الصحراء، إنها خيمة أم معبد الخزاعية، امرأة بدوية من خِيار النساء، تُؤوي الغريب وتُكرم الضيف، وكانت في ذلك اليوم تعاني ما يعانيه الناس من قحطٍ وجدبٍ وضيق حال، فلا ماء ولا زاد.

اقتربا منها وسألاها: "هل عندك شيءٌ يُشترى؟" فلم تجد ما تقدمه لهما، فالسنة شهباء، والماشية هزيلة لا تملك ما يُطعم أو يُسقى. فشكت لهما حالها، وعيناها تنطقان بما لم تنطق به شفتاها.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم، الذي أُرسِل رحمةً للعالمين، لمح شاةً ضعيفة في جانب الخيمة، قد أنهكها الجوع، فلم تبرح مكانها، فقال لها عليه الصلاة والسلام برقة المؤمن ونُبل النبوة: "هل بها لبنٌ يا أم معبد؟" قالت بأسى: "لا والله، إنها أجهدها الجوع، وخلّفها الغنم عن الرعي، فلا تدرُّ لبنًا." فأجابها بابتسامة الواثق بربه: "أتأذنين أن أحلبها؟" قالت وقد راعها قوله: "بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها".

فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على الشاة، ومسح ضرعها بيده الشريفة، ودعا الله دعاء المحب الواثق، فامتلأ ضرعها لبنًا حتى فاض، في مشهدٍ يشهد أن القلوب إذا تعلقت بالله لا تخيب، وأن بركة النبي صلى الله عليه وسلم تسبق خطاه أينما حل. فطلب إناءً كبيرًا، فحلب حتى امتلأ، وسقى أم معبد أولًا، ثم صاحبه أبا بكر، ثم شرب هو صلى الله عليه وسلم آخرهم، ثم عاد فحلب مرة أخرى حتى ملأ الإناء وتركه عندها ومضوا في طريقهم المبارك.

فلما عاد زوجها أبو معبد مساءً، وإذا به يرى اللبن في الخيمة، فدهش وقال من أين هذا يا أم معبد؟! فقالت وهي تكاد لا تصدق ما جرى: "مرّ بنا رجل مبارك"، ثم راحت تصف له النبي صلى الله عليه وسلم وصفًا يُذهل القلوب ويأسر الألباب، كأنما كانت تنسج نورًا بكلماتها، فقالت":رأيتُ رجلًا ظاهرَ الوضاءة، أبلجَ الوجه، حسنَ الخُلق، لم تُعِبْه ثُجلة، ولم تُزرِ به صُعلة، وسيمٌ، قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، في لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم

يُتحدرن، أبهى الناس وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، ربعة لا تقتحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفودٌ محشود، لا عابسٌ ولا مُفند."

فلما سمع زوجها هذا الوصف البديع، قال وكأن قلبه قد عرف الطريق قبل أن تراه عيناه:

"هذا والله صاحب قريش الذي ذكروا لنا من أمره ما ذكروا، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلًا".

كلمات تفيض يقينًا وتوقًا، وكأن الفطرة النقية استيقظت في قلبه، فدلّته على خاتم النبيين، الذي صدق الله فيه وعده إذ قال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]،وقال أيضًا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦.]

لقد كان اللقاء عند خيمة أم معبد لقاء نورٍ وكرامة، نقش في الأرض أثرًا، وفي القلوب يقينًا، وخلّد في صفحات السيرة صورةً من صور جمال النبوة وعظمة الرحلة المباركة.

الفوائد المستفادة من الهجرة

فوائد عقدية:

- كرامات الأنبياء حق، وهي من دلائل النبوة، كجريان اللبن من شاةٍ هزيلة لا تدرّ، بمجرد مس النبي صلى الله عليه وسلم لها ودعائه.
- قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، فهو يخرج الحليب من الضرع اليابس، ويجري الخير على يد من اصطفاهم لنبوته.
- بركة النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة بنصوص الشرع، وآثارها باقية، وتظهر في أمكنة وظروف لا يُنتظر فيها الفرج، كخيمة أم معبد.
- الاعتقاد بأن النبي صلى الله عليه وسلم عبدٌ رسول، لا يملك التصرف في الغيب بذاته، بل بدعائه وتوفيق ربه، كما قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» ثم دعا الله.
- وجوب الإيمان بجمال صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلقية، فإنها من دلائل نبوته، وقد عُرف بها عند من لا يعرف دينه.
- الناس يعرفون الحق إذا خلصت فطرهم من الهوى، كما عرفه أبو معبد من مجرد سماع الوصف، فالفطرة السليمة تهتدي إليه وإن لم تره.
- أهل السنة يثبتون ما أثبته الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من الخُلُق العظيم، ويوقنون أنه أكرم خلق الله وأعظمهم قدرًا عنده.

فوائد فقهية:

- جواز طلب الشراء أو الانتفاع من غير المسلم في حال السفر أو الحاجة، كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أم معبد عن وجود طعام يُشترى.
- تقديم الضيف في الشرب والأكل من مكارم الأخلاق، وقد سقى النبي صلى الله عليه وسلم أم معبد، ثم أبا بكر، ثم شرب هو آخرهم.
- جواز استعمال ما هو مملوك للغير بإذنه، ولو كان يائسًا منه، كما طلب الإذن في حلب الشاة التي لا تدر.

- حُسن الضيافة وصِفة إكرام الضيف من خِلال الإسلام الأصيلة، وقد جاءت في عمل أم معبد واستقبالها الطيب رغم حال الشدة.
- يُشرع ترك أثر من الخير في البيوت، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم اللبن عندهم قبل أن يرحل، وهذا من مكارم الكرام.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- خلق الرحمة لا يفارق النبي صلى الله عليه وسلم حتى في أصعب الظروف، فقد قابل الجدب بالقرب والابتسامة واللطف، لا بالضجر ولا الضيق.
- أدب النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر في كل أحواله، حتى في شدة الجوع والحاجة، فإنه سأل بلطف واستأذن بأدب، ولم يفرض نفسه رغم حاجته.
- قوة التوكل لا تعني ترك الأسباب، بل السعي والدعاء، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا ومسح الضرع.
- الحياء والتواضع سمت النبوة، فقد شرب النبي صلى الله عليه وسلم آخرهم، وهذا من أدبه العالي مع مَن حوله.
- وصف أم معبد للنبي صلى الله عليه وسلم يُظهر أن جمال الخُلق يسبق المواقف، ويظهر أثره في أول لقاء، فمن أعطاه الله الخُلُق، أحبه الناس قبل أن يعرفوه.
- لسان الصدق يفتح القلوب المغلقة، وكلمات أم معبد كانت جسرًا لأبي معبد نحو الإيمان، فالكلمة الطيبة باب من أبواب الدعوة.
- حُسن الاستماع والتفاعل مع الحق دلالة على حياة القلب، فقد صدّق أبو معبد الخبر فور سماعه الوصف، وقال: "هذا والله صاحب قريش"...

فوائد دعوية وتاريخية:

- الدعوة قد تنتشر من غير قصد مباشر، فكلمة امرأة صادقة أو مشهد من الرحمة قد يكون سببًا لهداية إنسان، كما فعل وصف أم معبد بزوجها.
- الهداية قد تأتي من موقفٍ بسيط في الطريق، فرب مشهد عابر أبلغ من ألف خطبة، كما كان لقاء خيمة أم معبد.
- جمال السيرة النبوية في تفاصيلها الدقيقة شاهدٌ على نبوته، فإن هذا اللقاء الخفيف دوّنته القلوب قبل الصحائف.
- الدعوة لا تحتاج صخبًا، بل نورًا وصدقًا، وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم خيمة واحدة، فترك فيها أثرًا لا يُنسى.
- نقل الصفات الخَلقية للنبي صلى الله عليه وسلم بدقة مما ينبغي الاعتناء به، إذ فيه تقوية للإيمان، وربط القلوب بالمصطفى.

مخالفات الواقع المعاصر:

- الغفلة عن عظمة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، والانشغال بصور مشوهة أو سطحية تُروَّج عن شخصيته، بخلاف ما وصفته أم معبد.
- الانشغال بالقشور عن الجوهر، فقلّ من يهتم اليوم بتأمل صفات النبي صلى الله عليه وسلم خُلُقيًا وخَلقيًا، رغم أنها كانت مفتاح الهداية لكثيرين.
- قلة الرحمة في واقع الناس، حتى بين الأهل والجيران، والنبي صلى الله عليه وسلم يرحم شاة هزيلة، ويواسي امرأة فقيرة.
- سوء الأدب في الحديث والطلب عند الحاجة، بخلاف خلق النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل بلين، واستأذن بأدب.
- قلة الثقة ببركة الطاعة والدعاء، واعتقاد كثير من الناس أن البركة خرافة، مع أن واقع السيرة مليء بشواهدها.

- تراجع قيمة الضيافة في بعض البيوت، وأصبح الضيف يُستثقل، في حين أن أم معبد لم يكن عندها شيء، لكنها استقبلت بلطف وبحثت عن ما تقدمه.
- استخفاف بعض الناس بوصف النبي صلى الله عليه وسلم وكأن معرفته أمر ثانوي، مع أن من وصفه وصفًا صادقًا كأم معبد كاد قلبه يُسلم من قبل أن يراه.
- انتشار خطاب التجهم والتنفير من الدين، وغياب الخطاب النبوي الذي جمع بين الوقار والبهاء والرقة والجمال، حتى في صوت النبي صلى الله عليه وسلم.
- ضعف يقين كثير من الناس في أن الدعوة تصل بأبسط الوسائل، وبأقل الموارد، ما دامت صادقة، وها هي امرأة واحدة خلدت وصفًا فتح قلوبًا بعد ألف عام.

انتهى الفصل الثاني ويليه الفصل الثالث ان شاء الله

الفصل الثالث

من فجر الدولة إلى شمس التمكين والتشريع

مقدمة

حين وطئت قدما النبي محمد صلى الله عليه وسلم أرض يثرب، لم يكن يستبدل دارًا بدار، بل كان **يرسم ملامح أمة** على تراب جديد، ويغرس في أرضها بذور العدل، والإيمان، والرحمة. فالهجرة لم تكن هروبًا من بطش، بل كانت **عبورًا من مرحلة البلاء إلى زمن البناء**.

استقبله أهل المدينة لا كغريب، بل كمن طال انتظاره، وارتفعت أصواتهم بالتكبير، كأنهم استقبلوا شمسًا بعد ليل طويل. وهناك، في أول دار هجرتها الأرواح إلى الله، **وُضعت اللبنات الأولى للدولة الإسلامية** :مسجدٌ يُرفع فيه الأذان، وإخاءٌ يمحو فوارق النسب واللون، ودستورٌ يُكتب بالحبر والتقوى، لتنطلق أول دولة في التاريخ تقودها **النبوة لا الطمع، والوحي لا المصالح**.

وفي هذه المرحلة المباركة، بدأت **شمس التمكين** تُشرق رويدًا رويدًا. انتقلت الدعوة من حالة الصبر إلى قوة الرد، ومن التوجيه الخاص إلى **التشريع العام** .فأنزل الله الأحكام، ونظّم العلاقات، وشرع الحدود، وبُني مجتمع قائم على الأخلاق والشورى والجهاد، لا يفرق فيه بين سيد وعبد، ولا بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

في هذا الفصل، نرافق النبي صلى الله عليه وسلم من لحظة دخوله المدينة، إلى غزواته الكبرى، وبناء المجتمع، وعقد المعاهدات، وتأسيس القيم التي ستُضيء التاريخ من المدينة إلى كل بقعة بلغها نور الإسلام. إنها **رحلة النبوة من فجر الدولة... إلى شمس التمكين والتشريع**.

الباب الأول: مرحلة التأسيس المدني والدعوي قبل إذن الجهاد

مقدمة

لم يكن دخول النبي محمد صلى الله عليه وسلم المدينة مجرد انتقال جغرافي، بل كان **نقلة في مسار النبوة** من الدعوة في الظلام إلى بناء الحياة في وضح النهار. لقد بدأ زمنٌ جديد، زمن لا يُقاس بعدد الغزوات، بل **بعدد اللبنات التي وُضعت في جدار الأمة**، والأسس التي شُيّدت لحضارةٍ ستغيّر وجه الأرض.

كانت هذه المرحلة مرحلة **زرع الجذور لا رفع السيوف**، و**تشكيل الوعي لا فتح الحدود**. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّم الناس كيف يصلون معًا، وكيف يُقيمون العدل بينهم، وكيف يُوحّدون الصف رغم تنوع الأنساب والعقليات.

في هذه المرحلة المباركة، كُتب أول دستور عرفته المدينة، ونُسجت شبكة من العلاقات الاجتماعية والدينية، قامت على **المساواة والحرية والتعايش والبيعة**، وبرزت مفاهيم الأخوة، والنظام، والعمل، والصبر.

كل ذلك تمّ **قبل أن يُؤذن للمؤمنين بحمل السلاح**، في مشهد يُظهر أن الإسلام لا يبني دولته بالعنف، بل **بالعقيدة والخلق والحكمة**. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُربّي جيلًا على الثبات، والصدق، والانضباط، ليكونوا أهلًا للجهاد حين يأذن الله.

في هذا الباب، نطالع مرحلة التأسيس الحقيقي للدولة، وبناء الدعوة على قواعد متينة من العلم والوعي والتنظيم، قبل أن يأتي زمن المواجهة.

الفقرة الأولى: نزول النبي في قباء... أول خُطوةٍ للنور على أرض الأنصار

كان النسيمُ عليلًا يُداعب أطراف المدينة، كأنّ الأرضَ تتأنّق لاستقبال الزائر العظيم. والقلوبُ هناك، في قباء، تخفقُ بانتظار الطلعة المُباركة... حتى أشرقت مشارف يثرب بنورٍ لم تعرفه من قبل.

ها هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم يطأ بقدميه الطاهرتين أرض قباء، وخلفه صاحبه الصِّديق رضي الله عنه، وقد أنهكهما وعثاءُ السفر، وأضناهما طول الطريق، لكنّها الهجرة العظيمة التي فتحت للعالم أبواب النور، ومزّقت ظلمات الجاهلية.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم قباء يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، ونزل ضيفًا كريمًا على الشيخ الوقور **كلثوم بن الهدم** رضي الله عنه، من بني عمرو بن عوف، فأكرمه غاية الإكرام، ومكث عنده أربعة أيامٍ هي أول عهد المدينة بالنور النبوي.

وفي تلك الأيام الميمونة، وضع النبي صلى الله عليه وسلم أول لبنةٍ لبناء الأمة، فأسّس مسجد قباء بيديه الشريفتين، فكان أول مسجدٍ أُسِّس بعد البعثة، من طينٍ، نعم، لكنه حَمَل في قلبه نورَ التوحيد، وشهد أول سجودٍ على أرض المدينة.

نزلت في هذا المسجد العظيم آيةٌ تتلى إلى يوم القيامة، يقول الله تعالى:﴿**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ**﴾]التوبة: ١٠٨.[

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم فضلَه فقال" :**من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه، كان له كأجر عمرة**)"رواه ابن ماجه والنسائي وصححه ابن خزيمة والحاكم وابن حبان.(

وقد كان صلى الله عليه وسلم يزوره كلَّ سبت، ماشيًا أو راكبًا، وفاءً للبدايات الطاهرة، وتكريمًا لأول دارٍ فتحت ذراعيها للنور.

هنا... في قباء، بزغ فجر الدعوة على أرض الأنصار، ووُضعت أول لَبنة لمجتمع الإيمان، فبورك في أرضها وأهلها، وكانت قباء مفتاح النصر، وأول دارٍ استظلّت براية الإسلام.

الفوائد المستخلصة من الفقرة

فوائد عقدية

- تأسيس مسجد قباء على التقوى يدل على أن العبادة لا تُقبل إلا إذا كانت على أساس التوحيد والإخلاص لله تعالى، وهو أصل من أصول العقيدة.
- زيارة النبي صلى الله عليه وسلم المتكررة لمسجد قباء تكشف عن مكانة أماكن العبادة في الإسلام، وأن ارتباط المسلم بالمسجد هو جزء من عقيدته ودينه.
- مدح الله لمسجد قباء في القرآن فيه إثبات لفضيلة المساجد التي تُبنى على التقوى، وأن الله يرضى عن أماكن الطاعة ويحبها، ومن أحب ما يحبه الله فهو مؤمن صادق.
- في الحديث عن أجر الصلاة في مسجد قباء كأجر عمرة، إشارة إلى أن مضاعفة الأجور بيد الله تعالى، وهي من صفة الربوبية التي يجب الإيمان بها.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم النزول عند رجل صالح من الأنصار فيه بيان لعقيدة الولاء لأهل الإيمان، وأن أهل الطاعة يُقرّبون ويُكرمون.

فوائد فقهية

- يُستحب زيارة مسجد قباء والصلاة فيه لما ورد من فضلها، وهذا من السنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- يُستحب الطهارة عند الذهاب إلى المسجد، لأن الوعد بالفضل في الحديث متعلق بمن تطهر في بيته، فدلّ على فضل الطهارة واستحبابها قبل الصلاة.
- بناء المساجد من الطين أو غيره جائز، فالمعتبر هو تقوى الله في إنشائها، لا زخرفها، وهذا أصل فقهي في أبواب المساجد.
- استقبال الضيوف وإكرامهم من السنن الثابتة، خاصة إذا كانوا من أهل الفضل والعلم، كما فعل كلثوم بن الهدم رضي الله عنه.
- تحديد الأيام التي مكث فيها النبي صلى الله عليه وسلم في قباء يُفيد في ضبط التواريخ الشرعية والأحداث لبناء الأحكام على وقائع صحيحة.

فوائد أخلاقية

- أدب الأنصار في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم، وتهيئة الأرض للنور، يعكس صدق المحبة والتوقير، وهي من الأخلاق الإسلامية العظيمة.
- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لمسجد قباء وزيارته له دائمًا، يُعلّمنا خلق الوفاء للأماكن المباركة ولأهل الخير والإحسان.
- كرم كلثوم بن الهدم رضي الله عنه في استضافة النبي صلى الله عليه وسلم، يُعد نموذجًا في إكرام الضيف، وهو خُلُقٌ لا يُفرّط فيه المؤمن.
- مضي النبي صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد بنفسه، فيه تواضع القائد، ومشاركته لأصحابه في أعمال الخير.
- إشادة النص بظهور النور بعد الظلمة فيه تربية على التفاؤل وعدم اليأس، وأن النور يأتي بعد العناء، وهذه قيمة أخلاقية مهمة في طريق الدعوة.

فوائد دعوية وتربوية

- أول خطوة للنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة كانت بناء المسجد، ما يدل على أن بناء القلوب على التوحيد والتربية أولى من بناء الجدران.
- بدأ النبي صلى الله عليه وسلم تأسيس المجتمع من مسجد، لا من قصر، وهذه دعوة للدعاة إلى أن يربوا الناس في بيوت الله، لا في ساحات الجدل العقيم.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم دار رجل كبير في السن ليكون أول مستقر له، فيه رسالة في توقير الكبار وربط الناس بهم في بداية الدعوة.
- تثبيت أقدام الأنصار بالإيمان قبل الجهاد يعلمنا أن التمكين لا يكون إلا بعد التربية، وهو منهج نبوي تربوي.
- ذكر النور والسجود والتقوى في أول مسجد بناه النبي صلى الله عليه وسلم، إشارة إلى أن الأمة لا تنهض إلا على الإيمان والخضوع لله.

مخالفات الواقع للنص

- عزوف كثير من المسلمين عن المساجد اليوم، وقلة صلتهم بها، رغم أن أول خطوة للنبي صلى الله عليه وسلم كانت تأسيس المسجد وربط الناس به.
- تضييع السنن النبوية كزيارة مسجد قباء، فلا يكاد يزوره كثير ممن يحج أو يعتمر، ولا يُعرف فضله إلا عند القليل.
- تغييب دور المسجد عن تربية الناس، وتحويله في بعض البلاد إلى صوامت لا حركة فيها ولا دعوة، على خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- إكرام الضيف أصبح في واقع الناس يفتقر إلى الحفاوة الشرعية، خاصة مع ضيوف الدين وأهل الفضل، وقد تراجعت الأخلاق في هذا الباب.
- قلة الوفاء من كثير من الناس للأماكن المباركة والبدايات الطيبة، فلا يعودون إلى أهل الخير ولا يذكرون المعروف، وقد خالفوا بذلك هدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- غياب مفهوم "المسجد هو نواة الأمة"، وظهور دعوات منحرفة تدعو إلى فصل الدين عن بناء المجتمع، وهم من **الفرق** التي نبّه عليها النبي صلى الله عليه وسلم، ممن يدّعون التجديد وهم يهدمون أصول الدين باسم الحضارة.
- اختزال الدعوة في العمل السياسي أو الإعلامي أو الحركي، وترك تربية النفوس في المساجد، وهي من محدثات أهل البدع الذين يُقدّمون الوسائل على المقاصد ويتركون أصل النبوة.

الفقرة الثانية: موكب النور... حين دخل النور المدينة، واحتضنه بيتٌ طينيّ

كان ذلك اليومُ فجرًا جديدًا أشرقت فيه المدينة لا بشمس السماء، ولكن بشمسٍ تمشي على الأرض، تُضيء القلوب قبل أن تُضيء الطرقات، وتبعث في الأرواح حياةً بعد موات... إنه يومُ دخول خيرِ من وطئ الثرى، يومُ استقبال المدينة للنور المبين، محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

خرج الناسُ من ديارهم أفواجًا، كأنما نُفِخ في الصور، رجالٌ ونساء، شيبٌ وصبية، يعتلون السطوح، ويتسابقون إلى الطرقات، تتعلّق أعينهم بالأفق في لهفة، وقلوبهم تخفق كأنها تهتف: "جاء النبي! جاء رسول الله!" لم يكن الهتاف من أفواههم، بل من أرواحهم التي ظلت تتحرق شوقًا للقائه.

مكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام في قباء، وأسّس فيها أول لبنة لمسجد يُرفع فيه اسم الله، ثم تحرّك موكب النور في صبيحة يوم الجمعة، متجهًا إلى قلب المدينة، فمرّ بديار بني سالم بن عوف، فكانت أول جمعةٍ يصليها النبي في المدينة، وأيّ جمعة؟ جمعة التأسيس، جمعة الولادة الجديدة لدولة التوحيد.

وما إن اقترب الركب من قلب المدينة، حتى ازدادت القلوب خفقًا، وتزاحم الناس على ناقة النبي، كلُّ واحدٍ يرجوه ويستعطفه: "هلمّ إلينا يا رسول الله، النزول عندنا أكرم وأحب!" ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يردّ بلطفٍ ووقار: "دعوها، فإنها مأمورة، فحيث بركت فهو المنزل." وكأن الناقة تسير بوحيٍ من السماء، تبحث عن أرضٍ قدّر الله لها أن تكون موضع النور.

حتى إذا وصلت ديار بني النجار، أخواله من جهة عبد المطلب، بركت الناقة في مكانٍ متواضع، كان لغلامين يتيمين، فتبسّم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "ثَمّ المنزل إن شاء الله." وما إن نزل عن ناقته، حتى تسارع الصحابة ليحملوا متاعه، ولكن أبا أيوب الأنصاري سبَقهم بحبّه وشوقه، فاحتمل المتاع وجرى به إلى بيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد أشرق وجهه: "المرء مع متاعه".

كان بيت أبي أيوب طينيًا بسيطًا، لكنه كان في تلك اللحظة أعظم بيتٍ على ظهر الأرض، بعد بيت الله الحرام، لأنه أوى الحبيب صلى الله عليه وسلم. وكان من طابقين، فاختار النبي الطابق السفلي رفقًا بزائريه، فما كان من أبي أيوب إلا أن قال في اضطراب: "يا رسول الله، لا ينبغي أن أكون فوقك!" فردّ عليه بلطفٍ يغمره الحُبّ: "يا أبا أيوب، أرفق بنا أن نكون في السفل، لما يغشانا من الناس".

لكن القلب المحب لا يهنأ وهو أعلى من موطئ قدم رسول الله، فكان أبو أيوب يمشي فوق رؤوس أصابعه حياءً من النبي، وإذا انسكب ماءٌ من الطابق العلوي، أسرع يطهره بثوبه، خشية أن يقطر على حبيب قلبه، حتى ضاق صدره وقال في حرجٍ لا يُحتمل: "يا رسول الله، لا راحة لي وأنا فوقك!" فأذن له النبي أن يُبدّل معه، فصار هو في العلو، والنبي في الأعلى منزلةً ومقامًا.

هكذا دخل النور المدينة، لا يُزف بالحرير ولا يُستقبل بالموكب السلطاني، وإنما تحتضنه القلوب، ويُفرش له بالأشواق، ويُحمل متاعه حبًّا قبل الأيدي... لقد بدأت مرحلةٌ جديدة، استقر فيها النور على الأرض، وابتدأت أعظم صفحات التاريخ... صفحاتٌ تُكتب بنور، وتُقرأ بالدموع.

الفوائد المستخرجة من الفقرة

فوائد عقدية

- محبة النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم أركان الإيمان، وقد ظهرت في قلوب أهل المدينة حين خرجوا أفواجًا يتسابقون لاستقباله، وعيونهم ترقب الأفق شوقًا، مما يدل على أن الإيمان الصادق يُولد حبًا صافيًا للنبي الكريم.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "دعوها فإنها مأمورة" فيه دلالة على أن أقدار الله تجري بحكمته، وأن ما وقع من سير الناقة إلى موضع معين إنما هو بتوجيه إلهي، وهذا أصل في عقيدة القضاء والقدر.
- تسابق الصحابة إلى خدمة النبي صلى الله عليه وسلم وتقديم منازلهم له هو من دلائل صدق الإيمان، ويُظهر مكانة النبي في قلوبهم، وهو من أعظم صور الولاء لأهل الإيمان والاتباع الحق.
- قوله صلى الله عليه وسلم: "ثمّ المنزل إن شاء الله" فيه إثبات لمشيئة الله المطلقة، وهي من لوازم التوحيد في الربوبية، وفيه أدب النبوة في تعليق الأمور على مشيئة الله.
- برك الناقة في أرض غلامين يتيمين من بني النجار، لتكون موضع المسجد النبوي، يدل على أن فضل الله لا يُقاس بالمكانة أو المال، وإنما يُؤتيه من يشاء، وفيه إشارة إلى عدل الله وتواضع نبيه صلى الله عليه وسلم.
- ما فعله أبو أيوب من توقير وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، من مشيه على رؤوس أصابعه وخشيته أن ينزل عليه ماء، يبيّن أن توقير النبي من لوازم الإيمان، وأن تعظيمه حيًّا وميتًا عبادة لله.
- إقامة أول صلاة جمعة في المدينة على يد النبي صلى الله عليه وسلم، واعتبارها جمعة التأسيس، يدل على مركزية التوحيد والعبادة في حياة الأمة، وأن النبوة جاءت لتقيم الدين لا لتحصد السلطان.

فوائد فقهية

- بناء النبي صلى الله عليه وسلم لمسجد قباء أول ما نزل في المدينة، يدل على أن أولويات إقامة الدين تبدأ ببناء المساجد، فهي محل اجتماع الأمة وتربية القلوب.
- إقامة صلاة الجمعة في ديار بني سالم، مع قلة العدد وحداثة الهجرة، يدل على أن شعائر الإسلام لا تُؤجل، وأن الواجبات تُقام متى وُجدت القدرة.
- قبول النبي صلى الله عليه وسلم استضافة أبي أيوب، وبياته عنده، فيه جواز الضيافة، وفضلها، خاصة لأهل العلم والصلاح، وهو خلق مستحب في الشرع.
- ما جرى من تقديم أبي أيوب متاع النبي صلى الله عليه وسلم، يدل على استحباب خدمة أهل الفضل، وأن ذلك لا يُنافي الكرامة بل يزيد العبد رفعة.
- طلب أبي أيوب تبديل الطوابق مع النبي صلى الله عليه وسلم فيه مشروعية مراعاة الحياء والقلق النفسي، وأن المضيف له أن يطلب ما يريحه ما لم يُخالف الشرع.
- تعبير النبي صلى الله عليه وسلم بلطف عند رفض النزول في البداية: "أرفق بنا أن نكون في السفل"، يُعلّم الدعاة أدب الاعتذار، وأن التوجيه لا يكون دائمًا بالمنع المباشر، بل بحكمة ورفق.

فوائد أخلاقية

- استقبال أهل المدينة للنبي صلى الله عليه وسلم بالأرواح قبل الأجساد، يُظهر منزلة المحبة في القلوب، وأن الحب الحقيقي يُترجم إلى أفعال لا أقوال.
- حياء أبي أيوب الأنصاري وحرصه على ألا يكون فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أدب رفيع، يدل على أن الحياء من أهل الفضل علامة على نقاء القلب.
- تسابق الناس في طرقات المدينة لاستقبال النبي صلى الله عليه وسلم، فيه خلق الإيثار، والتسابق إلى الخير، والتكريم لمن يستحق، وهو مبدأ راسخ في حياة المسلمين.
- النبي صلى الله عليه وسلم قابل طلبات الناس المتكررة بنزوله عندهم باللطف والوقار، وهذا خلق من أخلاق النبوة يُعلّم

القائد كيف يُراعي مشاعر الجميع دون أن يَعدِل عن الحق.

- في مشي أبي أيوب على رؤوس أصابعه حياءً من النبي صلى الله عليه وسلم صورة بديعة في توقير المقام النبوي، وتدل على أن الأدب مع العظماء سلوك قلبي يظهر في الجوارح.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم الطابق السفلي رفقًا بالناس، ثم قبوله الانتقال إلى العلوي حين ألحّ أبو أيوب، فيه خلق التواضع وحسن التعامل مع من يحب الخير.
- بساطة بيت أبي أيوب، ومع ذلك نال به الشرف الأعظم لأنه آوى الحبيب صلى الله عليه وسلم، فيه إشارة إلى أن **البركة ليست في فخامة الدور بل فيمن يسكنها ويُذكر الله فيها**.

مخالفات الواقع

- ضعف محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب كثير من المسلمين اليوم، حيث تجد المظاهر الإسلامية تغيب عن حياتهم، وتُستبدل بمحبة أهل الفن واللهو والضلال.
- غياب توقير السنة النبوية، والتعامل مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم كأنها نصوص تاريخية، لا وحي واجب الاتباع، بل صار بعض الناس يقدّم الرأي على الحديث.
- انصراف المسلمين عن المساجد، رغم أنها أول ما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فتجد بيوت الله اليوم خالية إلا من القليل، بينما تعج المقاهي والملاعب بالناس.
- قلّة الأدب مع أهل الفضل والعلم في واقعنا، بينما كان الصحابة يتأدبون حتى في موضع أقدامهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، واليوم نرى من يرفع صوته على العلماء ويستخف بهم.
- استبدال موازين القرب والمكانة، فبينما نال غلامان يتيمان شرف اختيار الله لأرضهم لتكون موضع المسجد، صار معيار الشرف في زماننا هو المال والجاه والمكانة الدنيوية.
- غياب الحياء من النفوس، حيث ترى الجرأة في الحديث مع الكبار وأهل الفضل، وقد كان أبو أيوب يمشي على رؤوس أصابعه حياءً من النبي صلى الله عليه وسلم.
- ضعف فقه التوكل على الله، والاعتماد الكامل على الأسباب، بينما علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمور تجري بتقدير الله، وعلّق اختياره بالوحي الإلهي.
- التعلق بالمظاهر في استقبال الكبراء والزعماء، بينما دخول النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بموكب سلطان، بل كان محمولًا بالحب ومُفرشًا بالأشواق، واليوم قد يُستهان بالبساطة ويُحتقر التواضع.
- ظهور فرق ضالة في زماننا تطعن في الصحابة الذين حملوا الإسلام، وتقدح في جيل المدينة المبارك، وهم فرق منحرفة وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يمرقون من الدين، وهم يفسدون عقول الناس ويحرّفون الولاء عن أهله.

الفقرة الثالثة موطن النور... حين ابتدأت الدولة من محرابها

ما إن استقرت قدما الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم على أرض المدينة، وهدأت أنفاس الركب النبوي في دار أبي أيوب، حتى التفت صلى الله عليه وسلم إلى أعظم ما تُبتدأ به الحضارات، وأجلِّ ما تُشاد به الدول، وأقرب ما يُستجلب به رضوان الله: *بناء المسجد*.

لم ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكتمل مؤسسات الدولة، ولم يؤخّر بناء المسجد إلى حين انتظام الجيوش أو توافر الأموال، بل شرع في تأسيسه أول ما دخل المدينة، وكأنه يريد أن يعلّم البشرية كلها أن قوام العمران هو الإيمان، وأن

أول لبنة في صرح الدولة المسلمة لا توضع في بلاط السلطان، بل في *ساحة المسجد*، حيث تفيض الرحمة، وتُبنى الأرواح، وتُصاغ العقول، وتُغرس المبادئ في أعماق القلوب.

وقد شاء الله أن يكون موضع هذا المسجد المبارك هو نفس الموضع الذي بركت فيه ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، فأشار إليه بقوله" :*هاهنا المنزل إن شاء الله* ".وكان هذا المكان ملكًا لغلامين يتيمين من بني النجار، فأبى أن يأخذه هدية، واشتراه منهما بماله، وفيه يومئذ قبور جاهلية، وأشجار نخل، وأرض غير مُمهدة، فأمر بنقل القبور، وقلع النخل، وتسوية الأرض... ثم ابتدأ موكب *البناء*.

ما أبهى ذاك المشهد! النبي الكريم، سيد ولد آدم، بأبي هو وأمي، يحفر الأرض بيديه المباركتين، يحمل اللبن والطين على كتفيه، والغبار يغطي جبينه الطاهر، وهو ينشد في تواضع الزاهدين، وثقة العارفين:
"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة".

ويجاوبه الصحابة، تلهبهم المحبة، وتدفعهم الغيرة، وتملأ قلوبهم الحماسة، قائلين:
"لئن قعدنا والنبي يعملُ... لذاك منا العملُ المُضلّلُ"!
فيا لها من مدرسةٍ تصوغ القادة من الطين، وتربي العظماء على ثرى البساطة والكدح.

وكان المسجد بسيط الهيئة، متواضع البناء... جدرانه من اللبن، وسقفه من جريد النخل، وأعمدته من جذوعه، وأرضه مفروشة بالحصباء. لا زخرفة تُبهر، ولا منارة تُشاهد، ولا قبة تُلفت الأنظار، ولكنّه مع ذلك كان أعظم مسجدٍ في التأريخ تأثيرًا، وأشرف دارٍ انطلقت منها أنوار النبوة إلى مشارق الأرض ومغاربها.

من رحابه خرج الدعاة، وفي محرابه صيغت الخُطط، وعلى منبره تلا النبي آيات الهدى، وبه أُقيمت الأخوة، وتآلفت القلوب، وذابت العصبيات، وأُعلنت فيه أولى معالم الدولة المسلمة.
وعلى جنباته بنيت حجرات أمهات المؤمنين، وتفيأت ظلاله طائفةٌ مباركة من الصحابة عُرفوا بأهل الصفة، جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم في قلب المسجد، ليشهدوا الوحي حيًّا، وليكونوا نواة التربية ومدرسة الزهد والتقوى.

هكذا بدأ النور من تراب المسجد، وتلك كانت أول سطور الرسالة في صفحات الدولة...
لا تُكتب بالحبر، بل تُكتب بالدموع، والتضحيات، وحب الله ورسوله.

الفوائد والعبر المستفادة

فوائد عقدية

- في ابتداء النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد فور وصوله إلى المدينة دليل على أن **الإيمان وتوحيد الله هما أساس كل حضارة مسلمة**، وأن التأسيس العقدي مقدم على أي بناء دنيوي.
- ربط بناء الدولة بالمسجد يدل على أن **السلطة في الإسلام لا تنفك عن العبادة**، ولا عن مرجعية الوحي، وأن الدولة في الإسلام قائمة على تحكيم شرع الله لا الهوى البشري.
- رفض النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الأرض هدية من الغلامين اليتيمين وشراؤها منهما بماله، يُثبت **كمال عدله صلى الله عليه وسلم، وتنزّهه عن أكل أموال الناس بالباطل**، ويُجلي منزلة الأمانة في سلوك الأنبياء.
- ما ورد من مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في البناء، دليل على **بشريته الكاملة من جهة، وكمال قيادته من جهة أخرى**، إذ لم تكن نبوته مانعة له من التعب والعمل، وهذا توازن عقدي في تصوّر شخصية النبي.
- جعل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد مركزًا للعبادة والتخطيط والقيادة يدل على **وحدة الدين والدولة في الإسلام**، وأن الفصل بينهما بدعة وافدة من فكر الفرق الضالة التي مزقت الدين وجعلته طقوسًا جوفاء.

- وجود أهل الصفة في المسجد، ومكانهم في قلب الحياة النبوية، يدل على **عناية الإسلام بالزهد والصدق والربانية**، لا من خلال التصوف المبتدع، بل على منهج الصحابة الذين تربوا على عين الوحي.
- في وصف المسجد رغم بساطته بأنه "أعظم مسجد في التاريخ تأثيرًا"، ردّ واضح على أهل البدع الذين يجعلون **البركة مرتبطة بالشكل والمظهر لا بالاتباع الصادق والهدي النبوي**.

فوائد فقهية

- ابتداء النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد قبل أي مؤسسة أخرى يُعد أصلًا في فقه الأولويات، فالمسجد هو منطلق الحياة الإسلامية، ومصدر التوجيه الشرعي والاجتماعي والسياسي.
- إزالة القبور من الأرض التي بُني عليها المسجد يدل على **تحريم الصلاة في المقابر أو على قبور الناس**، وهو أصلٌ فقهي متين يخالف ما عليه بعض الفرق التي تبني المساجد على الأضرحة وتدعو الناس للطواف بها.
- رفض النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الأرض مجانًا فيه تقرير لفقه احترام الملكية الخاصة، وتحريم أكل أموال الناس بغير طيب نفس، ولو كانوا أيتامًا، ولو في أمر عظيم كالمسجد.
- مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في البناء تدل على **مشروعية العمل اليدوي، وفضله، وخصوصًا في أعمال الخير كالمساجد**، وأنه لا تعارض بين الشرف والكدّ.
- بناء المسجد باللبن وجريد النخل مع القدرة على الزينة، يُفهم منه كراهة المبالغة في زخرفة المساجد، وأن **المقصود منها هو العبادة لا الزينة**.
- استقرار أهل الصفة في المسجد، يدل على **جواز أن يُتخذ المسجد مأوى للفقراء والمجتهدين في العبادة إذا دعت الحاجة**، مع ما فيه من فضل تعليمهم وتقوية صلتهم بالوحي.
- استخدام النبي صلى الله عليه وسلم المسجد كمقر لتعليم الناس وتدبير شؤون الدولة يُثبت أن **المساجد ليست للعبادة فقط، بل مركز لتعليم الدين، وإقامة شؤون الأمة**.

فوائد أخلاقية

- مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في حمل اللبن والطين درس في **التواضع العملي**، حيث لم يكتف بالتوجيه، بل نزل إلى العمل، وحفّز أصحابه بالمثال لا بالكلام فقط.
- إنشاد النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة..." يدل على **زهد حقيقي في الدنيا، وتركيز على الهدف الأخروي حتى في لحظة التأسيس والبناء**.
- ردّ الصحابة على النبي بقولهم: "لئن قعدنا والنبي يعمل..." فيه **قمة الحياء، والغيرة الإيمانية، وحب الاقتداء**، وهو تربية على المبادرة، لا الاتكالية.
- بساطة بناء المسجد تعكس أن **العظمة لا تكون في المظاهر، بل في المعاني التي يحملها البناء، والقلوب التي تعمره بالإيمان**.
- بناء النبي والمسلمين المسجد معًا يُرسخ مبدأ **العمل الجماعي، والمشاركة في تحمل المسؤولية، دون استعلاء أو تفرد**.
- إقامة أهل الصفة في المسجد وتربيتهم فيه يُعلمنا أن **الرعاية الاجتماعية تبدأ بالاهتمام بالقلوب وتزكية النفوس لا بإغراق الناس في الترفيات**.
- اتخاذ المسجد منطلقًا لكل شيء يعكس أن **القائد الناجح لا ينسى أصل رسالته حتى في أصعب لحظات البناء والتأسيس**.

مخالفات الواقع

- غياب دور المسجد في واقع الأمة اليوم، حيث حُصر في الصلوات فقط، وتُركت وظيفته الكبرى في **قيادة الناس وتعليمهم وربطهم بالله**، وهو انقلاب خطير على سنة النبي صلى الله عليه وسلم.
- فصل الدين عن الدولة، وجعل المسجد مجرد مَعْلم ديني بعيد عن شؤون الأمة، هو **من أعظم البدع الفكرية التي ابتُليت بها الأمة في العصر الحديث**، وهو من عمل الفرق التي نقلت لنا الفكر التغريبي.
- المبالغة في زخرفة المساجد وبناء القباب المزخرفة والمنارات الفخمة، مع هجرها من طلاب العلم والدعوة، يخالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في البساطة والوظيفة النافعة للمسجد.
- انتشار ظاهرة التسوّل والتكاسل باسم الزهد، بينما كان أهل الصفة مع فقرهم **يشهدون الوحي، ويتعلمون، ويجتهدون في العبادة، لا يعيشون على أكتاف الناس بلا هدف**.
- ضعف القدوة العملية في كثير من مجالات الدعوة، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم **يعمل قبل أن يأمر، ويبني قبل أن يُنظّر، ويُعلّم بالقدوة لا بالكلام فقط**.
- استيراد نماذج الحكم الغربية العلمانية، التي تفصل الدين عن الحياة، وتُقصي المسجد عن القيادة، هي من آثار **فرق الحداثيين والعقلانيين الجدد** الذين خالفوا نهج النبوة في تأسيس الدولة.
- ضعف المفاهيم العقدية في تأسيس المشاريع الإسلامية، إذ يُبدأ اليوم بالمؤسسات المادية دون تأسيس روحي إيماني، خلافًا لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ ببناء المسجد قبل الجيوش والدواوين.
- الإعراض عن الزهد الحقيقي، والافتتان بالمظاهر، والتفاخر بالمباني دون أثر تربوي، يخالف حال النبي وأصحابه الذين **ربّوا أنفسهم على الحصباء وتربوا في ظل الجريد**، فانطلقت دعوتهم للعالم كله.

الفقرة الرابعة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار... قلوبٌ تآلفت في ظل الإيمان

ما إن استقرت أقدام المهاجرين في أرض المدينة، حتى أشرق نورُ المؤاخاة، وأعلن النبيُّ الكريم صلى الله عليه وسلم ولادةَ أعجبِ عقدٍ اجتماعيٍّ وأروعِ ميثاقٍ بشريٍّ عرفه التاريخ. لم تكن المؤاخاة التي أقامها بين المهاجرين والأنصار مجرّد اتفاقٍ على المعونة وتبادل المنافع، بل كانت رباطًا قلبيًا، ومزيجًا عجيبًا من الحبّ الصادق، والإيثار النادر، والذوبان الكامل في بوتقة الأخوّة الإيمانية.

لقد هاجر الصحابة من مكة وهم لا يملكون إلا ما حملته قلوبهم من يقين، وأرواحهم من عزيمة. تركوا وراءهم الديار والكنوز، وذكريات الطفولة، ومجالس الآباء، وكل ما تألفه النفس من مألوف الدنيا، وقدموا إلى المدينة بقلوبٍ مهاجرةٍ إلى الله ورسوله، لا زاد لهم إلا الإيمان.

وفي المقابل، وجدوا بين الأنصار رجالًا لم يحملوا فقط اسم "أنصار"، بل كانوا ترجمة حية لمعاني النصرة والمروءة والكرم. استقبلوهم بقلوبٍ أوسع من ديارهم، وآثروهم على أنفسهم وهم بهم فقراء، فوقف الأنصاري أمام أخيه المهاجري ليقول في شهامة نادرة: "يا أخي، إن لي بستانين، فاختر أيهما شئت فهو لك، وإن لي زوجتين، فانظر أيّهنَّ تعجبك، أطلّقها لك لتتزوجها من بعد عدّتها."!

أيُّ روحٍ هذه التي سكنت المدينة؟! وأيّ نورٍ هذا الذي عمّ أرجاءها؟! لقد كانت المؤاخاة مشروعًا ربانيًا يذيب الفوارق ويصهر النفوس، حتى لم يعد للقبيلة، أو المال، أو النسب، أو الأرض من سلطان على القلوب.
وهنا تجلّت عظمة الإيمان في أجلى مظاهرها، إذ لم يغترّ المهاجر بهذا العرض، ولم يتعلّق قلبه بما في يد أخيه، بل وقف شامخًا، عزيزًا، وقال في أدب المؤمن وعزة التقي: "بارك الله لك في مالك وأهلك، دلّني على السوق". فكان أول من سنّ سنة الكسب والاعتماد على النفس في أرض الغربة، وهو في أشدِّ الحاجة.

لقد مضت الأيام، وتوثقت هذه الأخوة حتى جاوزت حدَّ المحبة إلى التوارث، فكان الأنصاري يورّث أخاه المهاجري، قبل أن يُنزل الله حكمه الذي أعاد الحقوق إلى ذوي الأرحام، بعد أن أدّت المؤاخاة دورها في بناء المجتمع.

وهكذا، لم تكن المؤاخاة صفحةً عابرة في كتاب السيرة، بل كانت البذرة التي أُسّس بها مجتمع الإيمان، مجتمعٌ قامت لبناته على الحبّ لا الحسب، وعلى الإيثار لا الاستئثار، وعلى العقيدة لا العشيرة.
لقد تحوّلت يثرب إلى مدينةٍ لا تنبت الزرع فقط، بل تُثمر رجالًا. مدينةٌ يسكنها الفضل، ويتنفس فيها الإخاء، وتنبض فيها القلوب على وقع: "إنما المؤمنون إخوة."

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- دلّت المؤاخاة على أن أعظم رابطة تجمع بين الناس هي رابطة الإيمان بالله ورسوله، فهي التي تُذيب الفوارق وتُقرّب المسافات، وتُخرج الإنسان من ضيق نفسه إلى سعة الإخاء في الله.
- المؤاخاة من دلائل نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد استطاع بنور الوحي وتأييد الله أن يُحدث تغييرًا جذريًا في نفوس أصحابه، ويجمعهم على التآلف والإيثار بعد أن كانوا قبائل متفرقة.
- أثبتت المؤاخاة أن الإيمان لا يكون صادقًا حتى يُثمر أثرًا عمليًا ظاهرًا في التعاملات، فليس الإيمان مجرد أقوال، بل رابطة تفرض الالتزام بالبذل والعطاء والتضحية.
- من لوازم الإيمان الحق التجرّد لله، كما فعل المهاجرون حين تركوا كل شيء، ولم يتعلقوا إلا بالله، فهاجروا بأرواحهم وأعمالهم، لا بأموالهم ومصالحهم.
- ما وُجد الإيمان في قوم إلا ألّف بين قلوبهم، مصداق قوله تعالى: ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذه نعمة لا يدركها إلا من تذوّق طعمها.

فوائد فقهية

- المؤاخاة التي كانت سببًا للتوارث بين المهاجرين والأنصار حُكم شرعي مؤقت ثبت بالوحي ثم نُسخ، وفيه دليل على مرونة الشريعة في التعامل مع الحاجات المرحلية للمجتمع.
- يجوز بذل المال والأهل لمن يُحتاج إليه في أوقات النوازل إذا كانت النية صادقة، مع مراعاة الأحكام الشرعية في العِدَد والأنكحة، كما فعل الأنصاري في قصته.
- يُستحب طلب الرزق باليد، وهو من معالي الشيم التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم عمليًا، حين لم يُرغّب المهاجر في أخذ مال أخيه، بل وجّهه إلى السوق.
- لا يُشرع التوارث بين المؤمنين إلا بالقرابة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ [الأنفال: ٧٥]، فلا يُبنى ذلك على مجرد الأخوّة الإيمانية بعد نسخ الحكم.
- يدل مسلك الأنصار والمهاجرين على أن التكافل بين المسلمين لا يقتصر على المال فقط، بل يشمل المعونة النفسية والاجتماعية، وهذا أصلٌ معتبر في الفقه الاجتماعي.

فوائد أخلاقية

- الإيثار غاية في السمو الأخلاقي، وقد تجلّى في أروع صوره في فعل الأنصار الذين بذلوا المال والديار من غير مَنّ ولا أذًى، وهذا من خُلق الكرام.
- العزة في النفس من سمات المؤمن الكامل، إذ رفض المهاجر أن يتكفّل به أخوه واختار الكسب بنفسه، مع شدّة فقره، فجمع بين التواضع والعفة.

- الأخوّة الحقة تُعبّر عن نفسها بالبذل دون طلب، والتعفف دون إحراج، وهذا ما تحقق في مؤاخاة الصحابة، فكان العطاء كريمًا والقبول عزيزًا.
- أنفع ما يبنيه الإنسان هو الإنسان لا البنيان، وقد بنت المؤاخاة رجالًا لا جدرانًا، وأثمرت قلوبًا نابضة لا عقارات صامتة.
- القلب المؤمن يُحب لأخيه ما يحب لنفسه، لا يحسده ولا يُبغضه، فكان الأنصاري يعرض على أخيه زوجته وبستانه، لا يُبقي لنفسه إلا ما يُرضي الله.

فوائد تربوية واجتماعية

- المشروع النبوي في بناء المجتمع يبدأ من إصلاح القلوب لا من توزيع الثروات، ولهذا بدأ صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة، لا بتقسيم الموارد.
- حين يتربّى الناس على الإيمان، يسهل عليهم تقديم الغريب على القريب، والغريب يُصبح أخًا، لا دخيلاً أو غريمًا.
- التربية النبوية ربّت المهاجرين على الصبر والعفة، وربّت الأنصار على الكرم والاحتواء، فاجتمع الطرفان على صفاء لم تصنعه المصالح.
- ما أُسّس المجتمع على العقيدة إلا ونجح، ولو كان فقيرًا، وما تأسس على الدم والنسب إلا وانهار، ولو امتلك الدنيا بأسرها.
- الإخاء الحقيقي ليس ميثاقًا مكتوبًا، بل ميثاق في القلوب، وهكذا ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، حتى فاضت نفوسهم حبًا ووفاءً.

مخالفات الواقع

- يعيش كثير من المسلمين اليوم في مجتمعات متجاورة الأجساد، متباعدة الأرواح، فقد ماتت الأخوّة، وغلبت الفردية والأنانية على العلاقات.
- صارت المصالح المادية هي الحاكم على العلاقات، يُحب الناس من يُعطيهم، ويكرهون من لا نفع عنده، فذهبت روح الإيمان من التعاملات.
- أصبح بعض المسلمين في زمننا لا يأنفون من الأخذ ولو بغير حق، بل يتكاسلون عن الكسب، خلافًا لخلق المهاجر الذي استعلى على العوز وسأل السوق.
- يتعامل بعض الناس اليوم مع اللاجئين والمهاجرين نظرة دونية، ويضيقون بهم، ويُنسون حق الأخوّة، ويجعلون حدود الجغرافيا أقوى من روابط الدين.
- طغت العصبية الحزبية والقبلية والطائفية، وصار البعض لا يُناصر إلا من وافقه في فكره، ويُعادي من خالفه، ولو كان من أهل القبلة، وهؤلاء من وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم "يقتتلون على دعوى الجاهلية."
- قَلَّ في زماننا من يُؤثِر غيره على نفسه، بل كثر الشح حتى بين الإخوة، فلو أتيح له أن يأخذ مال أخيه ما توانى، فضلًا عن أن يعرض عليه شيئًا من ماله.
- نسي كثير من الناس قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠]، فغلب عليهم التناحر والتراشق، حتى في المجالس الدينية، وكلٌّ يدّعي تمثيل الدين، وهو أبعد الناس عن خُلق الجماعة والرحمة.

الفقرة الخامسة : بيوت النبوة... سكينة في حجرات الطاهرات

ما إن سكنت الجدران الأولى للمسجد النبوي في ترابه المبارك، حتى مدّ الحبيب صلى الله عليه وسلم نظره نحو موضع آخر، يبني فيه سكينة القلب، ومأوى الروح، ومنازل الحب الطاهر... فشرع في بناء الحجرات التي ستؤوي أمهات المؤمنين، لتكون بجوار المسجد، قرب قلبه، وقرب وحي السماء.

كانت تلك الحجرات البسيطة، الصغيرة في مساحتها، أعظم من القصور، وأطهر من المعابد، لأنها شهدت نور النبوة، ونزل فيها جبريل، وكان يسري في جدرانها عبق الذكر، ويتهجد فيها الحبيب صلى الله عليه وسلم والليل يسدل ستاره، والسماء تتنزل بالوحي رحمة وسكينة.

بُنيت أول الأمر حُجرتان: واحدة لسَودة بنت زمعة، وواحدة لعائشة، الصدّيقة بنت الصديق، التي عقد النبي عليها في مكة، وبنى بها بعد الهجرة... ثم توالت الأيام، وتعددت الزوجات، فزادت الحجرات حتى بلغت تسعًا، كل حجرة تؤوي قلبًا نقيًّا من قلوب أمهات المؤمنين، وزوجة من زوجات خير الخلق أجمعين.

كانت الحجرة لا تتجاوز بضعة أذرع، جدرانها من اللبن المجفف، وسقفها من جريد النخل، بابها يفتح على المسجد، كأنها متصلة برسالته، لا تفصلها عن العمل والدعوة والدعاء سوى خطوات قليلة.

تحدّثت عائشة عن بيتها فشهدت شهادة الزهد فقالت: "ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض"، وتروي بحياء العارفين: "كنا نمكث الشهر والشهرين، ولا يوقد في بيت رسول الله نار." وكان فراشه جلدًا محشوًا ليفًا، لا حرير فيه ولا زينة، وكان إذا قام الليل، وركع أو سجد، لامست أنفه قدم عائشة من ضيق المكان، فتقبض رجليها حتى يسجد نبي الرحمة.

لكن ما أعظم تلك الحجرات! فما بين اللبن والجريد، نزل جبريل، وتلا الوحي، وترددت آيات القرآن. لم تكن تُزيَّن بستائر ولا مزخرفة بألوان، إنما كان أثاثها الخشية، وستائرها الحياء، وأزهارها الذكر، ومصابيحها الدعاء، وسقفها التوكل.

في تلك البيوت، تربّت الأمة، وتشكّل وجدانها، وفي تلك الحجرات، تجلّى معنى الطهارة، ورُسِمَت سُنة العفاف، ونبت الحبُّ على نور العبادة لا على شهوة الجسد.

كانت حجرات، لكنها عند الله قصور... وكانت ضيقة، لكنها وسِعت رسالة السماء، فهنيئًا لأمهات المؤمنين، سكنى بيتٍ جاور قلب النبي، ونزل فيه جبريل.

الفوائد والعبر المستفادة

فوائد عقدية

- بُنيت حجرات النبي صلى الله عليه وسلم بجوار المسجد لتكون امتدادًا لرسالته، وفي هذا دلالة على أن حياة النبي الخاصة والعامة كلها وحي وهدي، فبيته دعوة، ومسجده تعليم، وسيرته نور يسري في كل شأن.
- سكَنُ أمهات المؤمنين في هذه البيوت شرفٌ خصّهن الله به، واصطفاءٌ إلهي لنساء طاهرات يُجاورن نبيًّا يُوحى إليه، وفي ذلك إثبات لمنزلة النبوة ومنزلة نسائه في الدين.
- تجلّت في حجرات النبوة معاني الزهد والرضا، مما يُرسّخ في القلوب أن الكرامة عند الله لا تقاس بالمساحة والمظاهر، بل بقرب القلب من الله، وهو أصل في عقيدة الولاء لله لا للدنيا.
- نزول الوحي في هذه البيوت يثبت أن طهر المكان يتبع طهر القلوب، وأن الأرض تُشرّف بشرف من سكنها، فتلك الجدران الصغيرة كانت مسكنًا للملائكة وموضع تنزل جبريل.
- سكَن النبي صلى الله عليه وسلم في بيوت ضيّقة يردّ على أهل البدع الذين يزعمون أن الولاية والنبوة لا تليق إلا بالثراء والملك، فالله يصطفي الأنبياء للرسالة لا للترف، كما اختار داود وسليمان وأيوب ومحمد عليهم السلام.

فوائد فقهية

- سكَن النبي صلى الله عليه وسلم مع عدد من الزوجات في حجرات متجاورة، يدل على مشروعية التعدد بشرطه، وأن الأصل فيه الإصلاح، لا ما يتصوره بعض الناس من التوسع في المتع.
- في سكناه بجوار المسجد تعليمٌ عملي لأهمية صلة البيت بالعبادة، ويُستفاد منه تفضيل المجاورة للمساجد للرجال والنساء لما فيها من تحصيل العلم والدعوة ومجالس الذكر.
- حديث عائشة في وصف الزهد في الطعام والعيش يدل على جواز التقلل من الدنيا، بل استحبابه لمن يخشى الفتنة، ويُستدل به على فضل القناعة، وعدم وجوب اليسار في الحياة الزوجية.
- سجود النبي صلى الله عليه وسلم وملاصقة أنفه لقدمي عائشة يبيّن جواز الصلاة في المكان الضيق، ما دام يسع الأركان، وهو أصل فقهي يُستنبط من أدق تفاصيل السيرة.
- عدم إشعال النار في البيت الشهر والشهرين يدل على جواز البقاء بلا طعامٍ مطبوخ، ويُبطل ما يظنه بعض الناس من أن المطبخ والنعيم شرط للعيش الكريم.

فوائد أخلاقية

- زهِدت بيوت النبوة في زخارف الدنيا، لكنها ازدانت بالخُلق العظيم، مما يعلّمنا أن أعظم زينة للبيوت هي الصدق والحياء والعفاف لا الأثاث والمظاهر.
- في وصف فراش النبي صلى الله عليه وسلم تربية للمسلمين على التواضع، وأن السكينة لا تُشترى بالمفروشات الغالية، بل تُصنع بالإيمان والرضا.
- كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وأهله حياءٌ واحترامٌ وأدب، وهو أدب الأنبياء، وفيه تعليمٌ للرجال أن القرب من الأهل لا يعني سقوط الهيبة، بل ازدياد الحياء.
- البيوت التي تملؤها الذكر والدعاء تَشيع فيها الرحمة وتغشاها الملائكة، وهذا هو سبب السكينة في بيوت النبوة، لا كبر حجمها ولا غزارة متاعها.
- التواصل بين النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته كان على أسس من العفة والمودة والرحمة، وهو الأصل في بناء البيوت لا الصراخ ولا الأنانية.

فوائد تربوية واجتماعية

- تربّى الصحابة على معاني الزهد والعفاف في بيت النبوة، مما يدل على أن التربية الفعالة لا تحتاج للترف، بل للصدق، فالبيت الفقير قد يُخرّج أمة.
- في صِغَر حجرات النبي صلى الله عليه وسلم تربية للأمة على القناعة، وعدم النظر إلى اتساع بيوت الكفار أو زينتها، لأن المعنى فيمن يسكن لا في جدرانٍ باردة.
- جعل الله سُكنى أمهات المؤمنين في جوار المسجد درسًا للأمة أن المرأة الصالحة تعيش في ظل العلم والعبادة، لا في ظلال الأسواق واللهو والموضة.
- الحياة الزوجية في بيت النبوة كانت مبنية على الستر والصبر، لا على الشكوى والتبرم، وهذا تربية للنساء أن الصبر زينة، والحياء خلق، والسكينة نعمة.
- البيوت التي كانت لا تُوقد فيها نارٌ شهرًا، أصبحت مركز إشعاع تربوي، فليس فقر البيت عذرًا لفساد الأبناء إذا وُجد الإيمان.

مخالفات الواقع

- كثير من بيوت المسلمين اليوم امتلأت بالزخارف، لكنها خلت من الذكر، فغابت السكينة، وكثُرت المشكلات، لأن الأثاث لا يُقيم بيتًا، بل تُقيمه القلوب الطاهرة.

- أصبحت المرأة في كثير من المجتمعات تقيس كرامتها بمساحة البيت وعدد الغرف، لا بقربها من المسجد أو قرب قلبها من الإيمان.
- انتشرت اليوم ثقافة التفاخر بالبيوت والديكورات والفرش الفاخر، وقلّ من يقتدي ببيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان ضيّقًا لكنه يسع جبريل.
- بعض الناس اليوم لا يرضى ببيتٍ بسيط للزواج، بل يشترط الرفاهية الكاملة، حتى فُتحت أبواب العنوسة وضاعت معاني الزهد والعفاف.
- ابتُلي الناس بمقارنة بيوتهم ببيوت الأغنياء والكفار، ونُسيت حجُرات النبي صلى الله عليه وسلم التي لم تُؤثّث إلا بالتقوى والرضا، وهي خير عند الله من كل قصور الأرض.
- انقلب ميزان بناء البيوت، فصار يُنظر للموقع والسعر والتشطيب، ولا يُنظر لجوّ الإيمان وذكر الله، وهذا قلبٌ لمفهوم "السكينة" كما أرادها الله.
- تغيّرت نظرة النساء لمفهوم السكن الزوجي، فصار بعضهنّ لا يقبلن إلا بالترف والراحة، ولو على حساب الدين والاستقامة، ونسين أن أمهات المؤمنين كنّ يبتن على الجوع راضيات.

الفقرة السادسة وثيقة المدينة... حين خطّ الوحيُ دستور الحياة

ما إن وطئت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض يثرب، حتى بدأ فجرُ أمةٍ جديدة يُشرق من بين شعابها، أمةٍ لا يجمعها عصب النسب، ولا تربطها مصالح المال، بل تصهرها العقيدة في بوتقة الإيمان، وتُقيم بنيانها على دعائم العدل والرحمة والحق.

وكان لا بد لهذا الكيان الوليد، وسط خليطٍ متنوع من المهاجرين والأنصار، واليهود والمشركين، من وثيقةٍ تُنظم هذا التعايش، وتضبط حركة المجتمع الجديد، وتؤسس لعهده المبارك نظامًا يُحتذى على مر الدهور.

فجاءت *الوثيقة النبوية*، المعروفة بـ"صحيفة المدينة"، كأول عقدٍ اجتماعي في الإسلام، وكأنها سِفرٌ من أسفار النور، سطّر بأحرفٍ من عدل، ونُقش على صفحات الزمان بمِداد من هدي النبوة، لتعلن عن ميلاد دولةٍ لا يُشبهها كيان، وتفتتح عهدًا تُساق فيه القلوب سوقًا إلى الطمأنينة والرحمة.

جاءت الوثيقة في لغةٍ شامخة، وبنودٍ قاطعة، تُنادي بأن الإسلام ليس محضَ عبادةٍ في زوايا المساجد، بل هو نظام حياة، ودستور أمة، وحضارة عدلٍ وإحسان.

وحملت في طياتها مبادئَ تُدهش العقول:

فالمؤمنون أمةٌ واحدة من دون الناس، يتناصرون ويتكافلون، والمرجعية العليا في كل خلاف إلى الله ورسوله، وأمن المدينة حرمةٌ لا تمس، ودماؤها مصونة، وأهلها في ذمة الإسلام وعدله سواء، واليهود أهل عهد ما داموا على السلم والوفاء.

وهكذا، صارت المدينة المنوّرة لا مجرد دارٍ للهجرة، بل عاصمةً للحق، ومأرزًا للإيمان، وفي مقدّمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، القائد والمرجع، ورأس الدولة، الذي وحّد القبائل المتفرقة، والقلوب المتنافرة، في عقدٍ وثيقٍ من المحبة والطاعة.

لقد كانت وثيقة المدينة، في حروفها ومعانيها، إعلانًا عن ارتقاء البشرية إلى مدارج النور، وصحوة العقل من سباته الطويل، وانطلاق دولة الإسلام في أولى خطواتها نحو صناعة التاريخ، وحمل رسالة السماء إلى الأرض.

الفوائد والعبر المستفادة:

فوائد عقدية

- الإسلام ليس دينًا روحيًا منزويًا، بل عقيدة شاملة تنظم حياة الإنسان بكل جوانبها: عقدية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، مما يدل على كمال هذا الدين وربانيته.
- مرجعية الإسلام في كل نزاع إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].
- وحدة الأمة الإيمانية مبنية على العقيدة، لا على العِرق أو النسب أو المصالح الدنيوية، وهذا من تمام الولاء للمؤمنين والبراء من التفرقة الجاهلية.
- الإسلام يُقرّ بالعقود والعهود، ويحترم التعايش السلمي مع غير المسلمين إذا وفَوا بعهدهم، وهذا من محاسن الشريعة في باب التعامل مع غير المسلمين.
- ولاية النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة كانت دينية وسياسية، فهو نبيٌ يُوحى إليه، وقائدٌ مطاعٌ، مما يدل على ارتباط الدين بالسياسة على بصيرة وهدي.

فوائد فقهية

- الصحيفة النبوية تُعتبر أصلًا من أصول السياسة الشرعية، إذ أقامت نظامًا للحكم والتعايش يُستنبط منه فقه إدارة الدولة والمجتمع.
- جواز إبرام العهود مع غير المسلمين، وضمان حقوقهم ما داموا ملتزمين بشروط العقد، وهو أصل في فقه المعاهدات.
- حماية الدماء والأعراض في الإسلام فريضة لا تسقط بالتعدد العِرقي أو الديني، وهذا يشمل المسلمين والمعاهدين، مما يدل على سعة العدل الإسلامي.
- المرجعية القضائية العليا يجب أن تكون للشرع، لا للأهواء أو الأعراف، وهذا أصل فقهي في كل تشريعٍ يحكم المسلمين.
- التكافل بين أبناء الأمة مبدأ شرعي لا يسقط بتغير الزمان، ويُستنبط منه فقه النفقة، والدية، والنصرة، والتعاون على البر.

فوائد أخلاقية

- وثيقة المدينة كانت درسًا في أخلاق القيادة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يحكم بالسيف بل بالعدل والحكمة، فربط القلوب قبل أن يُقيم الدولة.
- ترسيخ قيمة الوفاء بالعهد، حيث احترم النبي صلى الله عليه وسلم عهود اليهود ما داموا على السلم، وهو خلق كريم حتى مع المخالف.
- العدل قيمة عليا في الإسلام، وقد تجلت في الوثيقة حين ساوت بين أهل المدينة في الأمن والحقوق.
- إشاعة الطمأنينة في المجتمع لا تكون إلا بالعدل والحق، لا بالهيمنة والتسلط، وهي سمة الدولة النبوية.
- وحدة الكلمة والصف مظهر من مظاهر النضج الأخلاقي للمجتمع المسلم، وهو ما أكدت عليه الصحيفة في بنودها.

فوائد دعوية وتربوية

- نجاح الدعوة في إقامة الدولة لا يكون إلا بعد تربية النفوس على العقيدة والإيمان، كما حصل في مكة ثم الهجرة.
- الحوار والتفاهم من وسائل الدعوة، ويظهر ذلك في التعايش مع اليهود وفق ضوابط واضحة دون تنازل عن الثوابت.
- التربية على المسؤولية الجماعية من أسس بناء المجتمع المسلم، كما تضمنته الوثيقة حين حمّلت الجميع حماية المدينة والتكافل.
- لا دعوة مؤثرة بلا قدوة، والنبي صلى الله عليه وسلم كان في المدينة النموذج الكامل للراعي العادل والقائد الحكيم.
- الدعوة إلى الله لا تقتصر على المساجد، بل تشمل بناء المجتمعات على الإسلام، وإقامة دولته بالشورى والعدل.

مخالفات الواقع

- ربط كثيرٍ من الناس وحدة الأمة بالعِرق أو الوطنية أو اللغة، في تناقض صريح مع أصل التوحيد الذي يربط الأمة بالعقيدة لا بالدم.
- استبدال شرع الله بقوانين بشرية لا مرجعية فيها لله ولا لرسوله صلى الله عليه وسلم، في حين كانت مرجعية المدينة إلى الوحي.
- التراخي في احترام العهود والمواثيق، بل أصبحت الخيانة سمة في بعض المواقف الدولية، بينما كان الوفاء من أساس الصحيفة.
- الغلو في التفريق بين الدين والدولة، وترويج مقولة أن الدين لا شأن له بالحكم، مع أن وثيقة المدينة كانت دستورًا لدولةٍ يحكمها النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي.
- تساهل بعض المنتسبين إلى الإسلام في حرمة الدماء، بينما كانت صحيفة المدينة تُعلن حرمة القتل والاعتداء ولو مع المخالف.
- ضعف التكافل الاجتماعي في مجتمعاتنا، مع أن الوثيقة جعلت التكافل ركيزة في تأسيس الدولة، مما أدى لتفكك العلاقات المجتمعية.
- قبول التفرقة بين المسلمين إلى طوائف وفرق متصارعة، بينما الصحيفة قامت على أساس "أمة واحدة"، فيا له من بُعد عن روح الإسلام.

الفقرة السابعة بنود وثيقة المدينة... دستور العدل وبداية الحضارة

لم تكن "وثيقة المدينة" مجرد كلماتٍ مدادُها الحبر، تُسطَّر على رقاعٍ وتُعلَّق في المجالس، بل كانت روحًا تسري في شرايين الدولة الفتيّة، وميلادًا حضاريًّا لمجتمعٍ لم تعرف الجزيرة له مثيلًا، مجتمعٍ يقوم على دعائم راسخة من الإيمان، والعدالة، والتعايش. لقد خطَّ النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الوثيقة ميثاقًا يُعلي من قيمة الإنسان، ويصون الحقوق، ويضبط العلاقات، ويوحّد الصفوف تحت راية الدين، وحكم الله ورسوله.

كانت صحيفةً جامعة، دستورًا ناضجًا سابقًا لعصره، تضم ما يقارب خمسين بندًا، تعالج أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والأمنية والدينية، وتُرسِّخ مبادئ العدل والحرية والتكافل، وتشمل ثلاثة أطياف رئيسة من سكان المدينة:

المسلمون من المهاجرين والأنصار

اليهود من مختلف بطونهم

سائر سكان المدينة من غير المسلمين

- **أولًا: بنود تخص المسلمين**

في طيّات هذه الوثيقة، كانت أولى اللبنات في بناء أمة مؤمنة، متراصة، تؤمن بوحدة العقيدة، وتتكافل كالجسد الواحد، وتذود عن المظلوم، وتُقيم العدل في وجه الظالم، فجاء فيها:

وحدة الصف الإيماني": إن المؤمنين المتقين أمة واحدة من دون الناس".

تحقيق العدالة، وكبح الظلم والبغي": وأن المؤمنين على من بغى منهم، أو ابتغى ظلمًا، أو فسادًا".

التكافل الاجتماعي الفاعل": وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم، وأنهم يعينونه بالمعروف".

حماية الدماء، والوفاء بالعهود" :وأنه لا يُقتل مؤمن في كافر، ولا يُنصر كافر على مؤمن".

ثانيًا: بنود تخص اليهود

رغم اختلاف العقيدة، أقرت الوثيقة لهم بحق العيش الآمن، والحرية في الدين، والحماية في حال العدوان، ما داموا ملتزمين بالسلم والعدل، فجاء من بنودها:

الحرية الدينية مصونة" :لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم".

التحالف الدفاعي المتوازن" :وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن كل طائفة تنفق على نفسها".

تحريم العدوان في المدينة" :وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة".

حفظ الجوار، ومنع الأذى" :وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم".

ثالثًا: بنود عامة لإدارة الدولة

لم يكن هذا الميثاق مجرد اتفاق مرحلي، بل نواة لدولة ذات مرجعية إلهية، تُحكم بشرع الله، وتمنع الفوضى، وتضع الجميع على قدم المساواة أمام القانون:

المرجعية العليا للنبي صلى الله عليه وسلم" :وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم".

تحريم الغدر والتواطؤ مع الأعداء" :ولا يُجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه مؤمن".

العدل المجرد من العصبية" :وإن يد المؤمنين جميعًا على من بغى منهم، ولو كان ولد أحدهم".

رعاية الضعفاء، وصون حقوقهم :بندٌ مضمر في كل سطرٍ من الصحيفة، ينبض برحمة الإسلام وإنصافه.

لقد كانت وثيقة المدينة من أعظم ما كتب التاريخ في تأسيس الدول، إذ مزجت بين الوحي والواقع، وبين الحقوق والواجبات، وبين العدالة والتعايش، لتُعلن بدء عصرٍ جديد، قوامه القرآن، وقائده محمد، وشريعته الرحمة، وعدالته لا تظلم فيها نفسٌ ولا تُهدر فيها حرمة.

الفوائد والعبر المستفادة:

فوائد عقدية:

- وثيقة المدينة تُظهر أن المرجعية العليا في حياة الأمة لا تكون إلا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، مما يؤكد أصلًا من أصول العقيدة وهو وجوب التحاكم إلى الوحي في كل نزاع.
- النص على وحدة المؤمنين المتقين «من دون الناس» يُرسّخ قاعدة الولاء والبراء، وأن الانتماء الحقيقي في الإسلام يكون على أساس الإيمان لا العرق ولا الوطن ولا اللغة.
- جعل النبي صلى الله عليه وسلم المرجع الأخير في كل خلاف، يؤكد عصمته التشريعية وأنه مبلغ عن الله، لا يخرج عن الوحي، فطاعته طاعة لله.
- نَفْيُ النصرة عن الكافر ضد المؤمن، يقرر عقيدة مفصلية وهي تحريم موالاة أعداء الدين، وهي عقيدة اختل ميزانها عند كثيرين اليوم.
- إقرار العدل والرحمة في الوثيقة نابع من أن الإسلام شريعة ربانية، لا من اجتهاد بشري، فالعدل والحرية في الإسلام نابعة من التوحيد لا من نظم بشرية تتبدل.

فوائد فقهية:

- تضمنت الوثيقة أصول فقه السياسة الشرعية في إدارة الدولة، من حماية الحقوق، ومنع الظلم، وتحقيق الأمن، وإقامة التحالفات المشروعة بشروطها.
- إقرار الحرية الدينية لليهود وعدم إجبارهم على الإسلام يُثبت قاعدة (لا إكراه في الدين)، مع وجوب التزامهم بعقد الذمة وشروطه ما داموا في عهد السلم.
- جاءت الوثيقة بتحريم الفوضى والغدر، وهي من القواعد الكلية الكبرى في فقه المعاهدات والعلاقات الدولية في الشريعة.
- فرضت الوثيقة التكافل بين المسلمين، وهذا أصل في فقه الأموال الاجتماعية، يُبيح الزكاة وسائر صور الإنفاق لإقامة المجتمع المسلم.
- التنصيص على "لا يُقتل مؤمن في كافر" فيه إثبات لقاعدة فقهية مهمة، وهي حفظ دماء المسلمين أولى وأشد حرمة، وتقييد القصاص بضوابط الشرع لا العاطفة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- تُعلمنا الوثيقة أن العدل قيمة لا تتجزأ، فلا يجوز أن يُظلم أحد ولو اختلف في الدين أو العرق، ما دام تحت عقد أمان أو عهد.
- إشاعة مبدأ الجوار الحسن والوفاء بالعهد يُنمّي خلق الوفاء والمسؤولية الاجتماعية، ويُعزز الثقة بين أفراد المجتمع.
- وحدة المسلمين وتراحمهم وتكافلهم من الأخلاق العليا التي يجب أن تُغرس في نفوس الأجيال، ولا تقوم أمة إلا بها.
- الوثيقة تُعلّمنا أدب الخلاف، وأن التنازع يُرد إلى الشرع، لا إلى العصبيات أو الأهواء أو السلاح.
- إشراك فئات متعددة من غير المسلمين في منظومة العدل والأمن، يعزز خُلُق الرحمة والتسامح دون تفريط في الثوابت.

فوائد دعوية وفكرية:

- الوثيقة تمثل نموذجًا دعويًا راقيًا في التعامل مع غير المسلمين، فتُظهر رحمة الإسلام وعدله، وتُبطل دعاوى العنف والإقصاء المنسوبة للإسلام زورًا.
- وثيقة المدينة تفضح ضلال الفرق الضالة اليوم التي تتبنى منهج التفجير والتكفير، بحجة "إقامة الدولة"، فالنبي صلى الله عليه وسلم بدأ بناء الدولة بتعايش وعدل، لا بسفك دماء الأبرياء.
- يظهر من الوثيقة أن إقامة الحكم الإسلامي لا تعني إلغاء الآخرين، وإنما ضبط العلاقة معهم وفق شريعة الله، لا أهواء المتطرفين أو انحرافات الليبراليين.
- الوثيقة تُسقِط حجج الخوارج الذين يُكفّرون المجتمعات بزعمها لا تحكم بالشرع، رغم أن أصل الدولة لا يتأسس إلا تدريجيًا بالحكمة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- يُستفاد من الوثيقة أن العدل وسيلة من وسائل الدعوة، فحين يرى الناس عدل الإسلام ووفاءه، يُقبلون عليه طواعية، وهو ما غفل عنه كثير من الدعاة.

مخالفات الواقع:

- كثير من المسلمين اليوم يتحاكمون إلى غير شرع الله في النزاعات، ويرضون بأحكام جاهلية لا ترجع إلى الكتاب والسنة.
- تلاشى في واقعنا كثير من صور التكافل، فأصبح المسلم لا يسأل عن أخيه، وربما رآه مفرحًا (مُثقَلًا بالدين أو الهمّ) فلم يمد له يد المساعدة.
- كثير من الأنظمة أو الجماعات تُناصر الكفار على المسلمين سياسيًا أو إعلاميًا أو عسكريًا، وهو من مظاهر خيانة

العقيدة.

- سقطت قيمة الجوار في مجتمعاتنا، وكثر أذى الجيران، وقل من يؤدي حقوقهم، فضلًا عن معاملتهم كالنفس.
- صار العدل في مجتمعات كثيرة يُطبق بحسب الانتماء والوساطة، بينما تسقط الحقوق عن الضعفاء، وهذا ضد روح الوثيقة التي أقامت العدل على الجميع.
- انتشر الفكر التكفيري في بعض الفئات، ممن يُكفّرون من لا يُوافقهم، ويُكفرون الحكام والعوام، ويُفسدون البلاد بحجة الغيرة على الدين، مخالفين سبيل النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسس الدولة بالحكمة والصبر والعدل لا بالدم.
- بعض أهل الأهواء اليوم يُطالبون بالحرية المطلقة، ويُلغون أحكام الشرع باسم "الدستور المدني"، وهو مخالف لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي جعل الحكم مرجعه إلى الله ورسوله لا إلى أهواء الناس.
- أصبحت المعاهدات والاتفاقات الدولية اليوم تُبنى على المصالح المجردة، دون ضوابط شرعية، وتُضيَّع فيها حقوق المسلمين، بخلاف ما كانت عليه وثيقة المدينة من عدل وانضباط.

الفقرة الثامنة: سوق المدينة... انبعاث النور من بين أنقاض الاحتكار

ما إن وطئت قدمُ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أرضَ المدينة، حتى شرع ببناء أركان الدولة الجديدة، لا بمعول الجدران، بل بمعاول القيم، يرسّخ الأساس لبنيانٍ يقوم على الإيمان، لا على الأطماع، وعلى العدل، لا على الأهواء. وكان من أعمدة هذا البناء: "الاستقلال الاقتصادي"، فالنبي صلى الله عليه وسلم ما كان ليرضى أن تظل أرزاق المسلمين رهينة بأيدي قومٍ يتحكمون في السوق، ويتلاعبون بأقوات الناس.

وقد كانت الأسواق آنذاك خاضعة لليهود – وبخاصة بني قينقاع – يفرضون فيها ما يشاؤون من الربا، ويرفعون الأسعار متى شاءوا، ويغلقون أبواب البيع إلا لمن ارتضوه، ويسيطرون على مجرى المال كأنه نهرٌ لا يشرب منه إلا من بايعهم على الذلّ والخضوع.

لكن نور النبوة لا يرضى بالظلم، ولا يسكت عن استعباد الأقوات. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإقامة سوق جديدة، لا سلطان فيها إلا للحق، ولا راية ترفرف فوقها إلا راية العدل والتقوى. سوقٌ يتنفس فيها المسلم حرًّا، يبيع ويشتري وهو يذكر الله، يتحرّى الحلال، ويتورّع عن الشبهة، ويبتغي الرزق من باب الطهارة لا الطمع. قال صلى الله عليه وسلم:

"من جاء إلى سوقنا هذا، فباع فيه كيلًا أو وزنًا، فليذكر الله، ولا يكن من الغافلين]".رواه الطبراني، وصحّح معناه بعض أهل العلم]

سوقٌ لا ضرائب تُرهق الضعفاء، ولا مكوس تُكدّر الرزق، ولا احتكار يُميت القلوب. لم يكن مكانًا للبيع فقط، بل كان مدرسةً للإيمان، ومنبرًا للصدق، وساحةً يتدرب فيها التجار على تقوى الله قبل أن يزنوا بأيديهم الموازين.

فما لبث هذا السوق أن نهض وازدهر، وسرعان ما ذاع صيته في المدينة وخارجها، حتى اغتاظت قلوب اليهود، لما رأوا سلطانهم المالي يتهاوى، واحتكارهم القديم يتفكك. لكنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام تيار الإصلاح، ولا أن يُوقفوا زحف الصدق والعدل، فقد وُضعت اللبنة الأولى لاقتصادٍ إسلامي، يقوم على الأخلاق قبل الأرباح، وعلى التقوى قبل التجارة.

هكذا أسّس النبي صلى الله عليه وسلم سوقًا، ليس ككلّ الأسواق... بل كان سوقًا يُربّي قبل أن يُربح، ويزكّي النفوس قبل أن يزكّي الأموال.

الفوائد والعبر المستفادة:

الفوائد العقدية:

- في تأسيس النبي صلى الله عليه وسلم لسوق جديد مستقل عن سيطرة اليهود تأكيد على أن السيادة الاقتصادية جزء من تمام التوحيد، فلا يجوز أن يكون رزق المسلمين خاضعًا لهيمنة من لا يدينون لله بدين.
- رفض النبي صلى الله عليه وسلم لاحتكار اليهود وتحكّمهم في السوق يدل على أن الإسلام لا يقرّ التبعية لغير الله، ويغرس في المسلمين مبدأ "الولاء لله وحده"، لا لقوة المال ولا للنفوذ.
- إقامة السوق على أساس الذكر والتقوى برهان على أن العقيدة ليست محصورة في الشعائر، بل تشمل سلوك المسلم في كل شؤونه، ومنها الاقتصاد والتجارة.
- إشراف النبي صلى الله عليه وسلم على تنظيم السوق بنفسه يبيّن أن الحاكم في الإسلام مسؤول عن تحقيق التوحيد في واقع الناس، ولو في تفاصيل حياتهم اليومية.
- في هذا الموقف ردّ عملي على من يفصلون الدين عن الدولة، فإن بناء الدولة النبوية بدأ من السوق لا من القصر، ومن العقيدة لا من العرش.
- السوق الإسلامي كان بوابة لتمييز أهل الإيمان عن المنافقين وأهل الأهواء، إذ لا يثبت في بيئة العدل والذكر إلا من صحّت عقيدته وسَلِمت نيته.
- في كون السوق مدرسة للإيمان وتقوى الله، تأكيد على أن التجارة ليست مضمارًا للربح فقط، بل ميدانٌ للاختبار العقدي في صدق المعاملة وخشية الله في السر والعلن.

الفوائد الفقهية:

- تحري الحلال في البيع والشراء واجب شرعي، وقد دلّ الحديث المرفوع أن من باع بالكيل أو الوزن فعليه أن يذكر الله، فالمعاملة لا تصح إلا على ميزان التقوى.
- لا يجوز فرض الضرائب والمكوس التي تُرهق الفقراء وتُفسد السوق، إذ الأصل في السوق الإسلامي هو التيسير ورفع الحرج، لا إثقال الكواهل.
- الاحتكار محرّم، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، وتحكّم في أرزاقهم، وقد أبطله النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل لا بمجرد القول.
- السوق في الإسلام ليس مرفقًا مدنيًا فقط، بل له أحكام شرعية يُراعى فيها الحلال والحرام، ويمنع فيها الغش والخداع والربا.
- قيام السوق الجديد بأمر النبوة دليل على جواز تدخل الدولة في إنشاء البدائل الاقتصادية إذا فسد الأصل، درءًا للمفاسد وجلبًا للمصالح.
- لا يُشترط في التجارة في السوق الإسلامي سوى تحقق الأمانة والعدل، فليست هناك قيود طبقية أو احتكارية، بل كل من التزم بالضوابط فله الحق في البيع والشراء.
- الذكر في السوق من السنن المهجورة التي يغفل عنها الناس، وقد جاء الحثّ عليها في الحديث، مما يدل على فضلها وعظيم أثرها في طرد الغفلة والربا والطمع.

الفوائد الأخلاقية:

- السوق الإسلامي مدرسة للصدق، فلا مكان فيه للغش والكذب، ومن تربّى فيه صدقًا وإيمانًا انعكس ذلك على أخلاقه في كل جوانب الحياة.
- إقامة السوق على العدل والتقوى يربي التاجر على الإحساس برقابة الله، حتى لا يغش ولا يحتكر، ولو غاب عنه الرقيب البشري.
- في السوق النبوي تحوّلت التجارة من وسيلة للثراء إلى طريق للزكاء، فصار التاجر يتاجر بنية الصدق لا بجشع الربح.
- التعليم النبوي في السوق علّم الناس أن الورع لا يختص بالمحراب، بل يشمل المكيال والميزان، والربح والمكسَب.
- إلغاء الطبقية في السوق، وإفساح المجال لكل تاجر ملتزم، يؤسس لخلق المساواة والتواضع بين الناس، مهما اختلفت أرزاقهم.
- ربط البيع بالذكر يُعيد صياغة الأخلاق داخل السوق، فيتحول إلى واحة ذكر بدلاً من أن يكون مرتعًا للغفلة والطمع.
- التاجر المسلم في السوق النبوي ليس مجرد بائع، بل هو داعية بخلقه، وسفير لقيم دينه في ميدان الحياة.

المخالفات الواقعية:

- سيطرة غير المسلمين، أو المنحرفين عن العقيدة، على كثير من مفاصل الاقتصاد الإسلامي، حتى صارت أقوات الشعوب في أيديهم، وتلك صورة من صور التبعية المذمومة التي نهى عنها الشرع.
- شيوع الربا والاحتكار في أسواق المسلمين، بل وظهور من يروّج لهما من أبناء المسلمين أنفسهم، بحجج "المصلحة" و"المرونة الاقتصادية"، مخالفًا بذلك الهدي النبوي.
- تحويل الأسواق إلى أماكن للغفلة والمجون، بدل أن تكون ساحات للذكر والتقوى، حتى قلّ أن تجد من يذكر الله في سوقه أو يراقب الحلال والحرام في تجارته.
- فرض الضرائب والمكوس الباهظة على صغار التجار، في الوقت الذي يُعفى فيه الكبار أو يحتكرون السوق تحت أسماء رنّانة تخالف العدل النبوي.
- انتشار الغش في الموازين والمكاييل، مع ضعف الرقابة الشرعية، وقلة من يتورّع عن الكسب المشبوه، بخلاف ما أسسه النبي صلى الله عليه وسلم.
- غياب السوق الإسلامي القائم على القيم، وظهور سوق رأس المال المجرد من الأخلاق، مما يجعل التاجر يقيس نجاحه بحجم الربح لا بدرجة الصدق.
- تغييب البعد الإيماني في النشاط الاقتصادي، إذ لا يُذكر الله في مجالس المال والتجارة، بل يُستبدل الذكر بالمزايدات، والتقوى بالتحايل، والبركة بالمخادعة.

الفقرة التاسعة: مجلس التشاور وصوت السماء يدوي

ها هو نور الإسلام يسطع في أرجاء المدينة المنوّرة، حيث تتفتح المساجد كزهور النور على طول الدروب، وتزدهر القلوب بحلاوة الإيمان، ويزداد الناس ارتباطًا بدعوة التوحيد.

في هذا المشهد المبارك، كان لزامًا أن يُرفع صوتٌ يسمع في الأفق، ينادي الجماهير ويجمعهم على موعد الصلاة، كما تجمعهم العقيدة الراسخة والراية العالية.

كان المؤمنون قبل ذلك يتجمعون للصلاة دون نداء ينبههم، فشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حول وسيلة تُعلم الناس بدخول وقت الصلاة، فتداولوا أفكارًا منها اتخاذ ناقوس كناقوس النصارى، وأخرى بوقًا على مثال اليهود، غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى التشبه بأهل الكتاب، رافضًا ذلك التماثل، راغبًا في أمر جديد يُختار بعناية.

ثم أتاهم الخبر من عبد الله بن زيد بن عبد ربه، الذي شهد في منامه رؤيا بديعة، رأى رجلاً عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسًا، عرض عليه أن يشتريه، لكن ذلك الرجل أرشده إلى أفضل من ذلك، وأخبره بالكلمات الخالدة: "الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله".

وحين أطل الصباح، أتى عبد الله بن زيد يحدّث النبي صلى الله عليه وسلم عن رؤياه، فبشّره النبي بأنها رؤيا صادقة، بإذن الله، وأمر بلالًا – صاحب الصوت الأندى والأروع – أن يرفع هذا النداء لأول مرة في أرجاء المدينة.

فإذا بصوت الأذان يعلو، يهتز له السكون، ويرتجف له القلب، ويسمعه كل مؤمن ومؤمنة في أزقة المدينة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد شهد تلك الليلة ذاتها رؤيا مماثلة، فلما أتى يحدث النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: "قد سبقك بها عبد الله بن زيد".

وهكذا صار الأذان، نداء السماء الذي انبعث من قلب المؤمن، ليكون الصرخة الخالدة على أرض الأرض، تنبض بالحياة مع كل فجر، ترفع نداء التوحيد خمس مرات في كل يوم وليلة، حاملة على أجنحتها نور الإسلام، تبشر وتُحيي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، في مشهد أبدي لا ينقطع ولا يخبو.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الأذان دليل على أن الإسلام دين منظم، يُبنى على الوحي والتوجيه الرباني، لا على تقليد أهل الأهواء أو اتباع الموروثات الباطلة.
- رفض النبي صلى الله عليه وسلم الاقتداء باليهود والنصارى في وسيلة الإعلام بالصلاة يبرز مبدأ البراءة من أهل الكتاب في شعائر الدين، وأن الأصل في الشريعة هو التفرّد لا التماثل.
- تصديق النبي صلى الله عليه وسلم لرؤيا عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وقبوله بها واعتبارها "رؤيا صادقة"، يدل على أن الرؤى الصالحة قد تكون وسيلة من وسائل الإلهام الرباني إذا وافقت الوحي ولم تخالفه.
- الأذان شعار توحيدي خالص، تتكرر فيه عبارات "الله أكبر" و"لا إله إلا الله"، مما يجعله إعلانًا يوميًا بعلوّ شأن العقيدة وتذكيرًا متواصلًا بعظمة الله وربوبيته وألوهيته.
- الأذان من شعائر الإسلام الظاهرة التي لا يجوز تعطيلها ولا استبدالها، وهو من مظاهر التميز العقدي التي تُعرف بها ديار الإسلام وتُفرّق بها بين دار التوحيد ودار الكفر.
- في تكليف بلال رضي الله عنه برفع الأذان، مع كونه عبدًا حبشيًا، دليل على أن معيار القَبول في الإسلام هو الإيمان والعمل الصالح، لا النسب ولا الجاه، مما يؤكد المساواة التي تفرضها العقيدة.
- ارتجاف القلوب لسماع الأذان يدل على أن نداء التوحيد يخاطب الفطرة، ويُحيي الإيمان في النفوس، وهذا من دلائل صدق هذا الدين وأثره في الأرواح.

الفوائد الفقهية:

- الأذان فرض كفاية على المسلمين في كل بلدة، وهو واجب في كل صلاة جماعة في المساجد، لما له من أثر في الإعلام بدخول الوقت وإظهار شعائر الإسلام.
- البدء بالتشاور بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يدل على جواز الاجتهاد في الوسائل المشروعة، ما دامت الغاية شرعية، مع ضرورة موافقة الوحي.
- يُسنّ أن يكون المؤذّن حسن الصوت، كما اختار النبي صلى الله عليه وسلم بلالًا رضي الله عنه، وهذا يدل على عناية الشريعة بجمال الوسيلة في تبليغ الحق.
- اعتماد رؤيا عبد الله بن زيد رضي الله عنه في التشريع العملي للأذان، لم تكن مستقلة، بل لما وافقها الوحي وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أصل في قبول الرؤى بشروطها.
- تثبيت نصوص الأذان بهذا الترتيب يُعدّ من السنة المتبعة، ولا يجوز الزيادة أو النقص منها بحسب الأهواء، لأنه توقيفي من النبي صلى الله عليه وسلم.
- في أمر النبي صلى الله عليه وسلم لبلال بالأذان مباشرةً عقب الرؤيا، دليل على سرعة تنفيذ ما وافق الحق، وعدم التردد في إعلان شعائر الإسلام.

الفوائد الأخلاقية:

- تشاور النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه يُعلمنا خلق الشورى، وعدم الاستبداد بالرأي، حتى لو كان من يتخذ القرار هو المعصوم.
- قبول النبي صلى الله عليه وسلم رأي عبد الله بن زيد – وهو من عامة الصحابة – يرسّخ مبدأ التواضع والعدل في الأخذ بالحق دون النظر إلى منزلة القائل.
- اختيار بلال للأذان يربّي الأمة على كسر الحواجز العنصرية، فصوت الحق لا يُقاس بلون البشرة، بل بقوة الإيمان.
- تكرار الأذان يوميًا يعلّم المسلمين الانضباط والارتباط بالمواقيت، فلا يعيشون في فوضى، بل في نظام إيماني يذكّرهم بالله في كل حين.
- ربط النداء إلى الصلاة بكلمات التوحيد يعلّمنا أن الحياة كلها يجب أن تُبنى على العقيدة، لا على العادة أو التقاليد.
- مشاركة عمر بن الخطاب رضي الله عنه برؤيا مماثلة، وعدم اعتراضه لما أخبره النبي أن عبد الله بن زيد سبقه، يُربّي على الإخلاص ونبذ التنافس على الظهور.

المخالفات الواقعية:

- تقليد بعض المسلمين في إعلام الصلاة لوسائل الإعلام الغربية أو الموسيقى بدلًا من الأذان، مخالفة صارخة لتميّز الإسلام وشعائره.
- تعالي أصوات الغناء والموسيقى من الأبنية والطرقات في بلاد المسلمين، في الوقت الذي يُضعف فيه صوت الأذان، أو يُقصّر عمدًا، فيُقدّم صوت الشيطان على صوت السماء.
- إهمال بعض المؤذنين للأذان أو تقديمه بلا خشوع، مع أنه نداء التوحيد الذي ينبغي أن يُقال بأعظم صوت وأصدق نية.
- تساهل بعض البلاد في منع الأذان أو خفضه بحجة "الإزعاج"، في حين لا يُمنع أي صوت دنيوي، وهذا من مظاهر الذل الذي أصاب شعيرة عظيمة من شعائر الدين.
- استهانة بعض المسلمين بكلمات الأذان، فلا يجيبونه، بل يستمر في لهوه وانشغاله، وكأنما لم يُنادَ من السماء، وقد نُدب للإجابة والذكر عند سماعه.
- انتشار مَن يُنكر تأثير الرؤى أو يستهزئ بها، مع أن هذه الحادثة تثبت أن الرؤيا الصالحة – إذا لم تخالف الشرع – قد تكون وسيلة للهداية والإلهام بإذن الله.

- غياب الشورى بين كثير من مسؤولي الأمة، رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم مارسها، فكيف بمن دونَه من أهل الرأي والقوة؟!

انتهى الباب الأول ويليه الباب الثاني ان شاء الله تبارك وتعالى

الباب الثاني: في ظلال النبوة... وأقنعة اليهود

مقدمة

في المدينة، حيث بزغ نور النبوة، وبدأت ملامح الدولة تتشكل، وارتفعت رايات الإسلام، كانت قلوبٌ أخرى تضمر الحقد، وتلبس قناع الولاء، وتخفي تحت ستار العهد سكين الغدر. لم يكن اليهود غرباء عن المدينة، بل كانوا أهل كتاب، وأصحاب مكرٍ قديم، وقلوبهم مليئة بحسد دفين لمن خُتمت به النبوة من غير بني إسرائيل.

استقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم بصفح الحليم، وكتب معهم أول دستور عرفه البشر ينظّم التعايش بين المختلفين، وأقرّ لهم بحرية الدين، وحماية الدم، وحق السكنى، والمشاركة في الدفاع عن المدينة. لكنهم ما إن رأوا الإسلام ينتشر، والناس يدخلون في دين الله أفواجًا، حتى انكشفت الوجوه، وسقطت الأقنعة، وظهر ما في نفوسهم من الغدر والخيانة.

كذبوا، وحرّفوا، ونقضوا العهود، وحاولوا تفريق الصف، وتأليب الأعداء، والاغتيال الخفي، وإثارة الشبهات، حتى لم يبق فيهم عهدٌ إلا ونقضوه، ولا مكرٌ إلا ودبروه.

ومع ذلك، ظل النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل معهم بالحكمة، ويقيم الحجة، ويدعوهم بالتي هي أحسن، حتى إذا بلغ الغدر ذروته، وقعت المواجهة العادلة، وسُطرت أحكام الله فيهم، لتبقى دروسًا خالدة في السياسة النبوية، وفي فقه التعامل مع الخائنين.

في هذا الباب، نمشي في ظلال النبوة، لنكشف أقنعة الغدر، ونتأمل في دروس الحذر، ونتعلّم من هدي النبي صلى الله عليه وسلم كيف يُقام العدل، ويُصان الأمن، وتُحمى الدعوة من الداخل قبل الخارج.

الفقرة الأولى: لماذا استوطن اليهود المدينة؟

لم يكن حُضور اليهود إلى يثرب ضربًا من المصادفة، ولا نزوحًا عابرًا عن وطن قديم، بل كان قدومًا مشبعًا بالعقيدة، مرسومًا على خريطة الانتظار، محفوفًا بأملٍ توراتيٍ قديم. لقد هاجروا من ديار الشام، يُحدوهم وعدٌ في كتبهم، وبشارة ترددت في أسفارهم، تُخبر أن نبيًّا سيُبعث في أرض النخيل، ذات الطلع النضيد، والماء العذب، والهواء اللطيف.

فاستوطنوا يثرب منذ قرون، وجعلوها موطِنًا ومربِعًا، وتوزّعوا في أنحائها: سكن بنو قينقاع قلب المدينة، واستقر بنو النضير في جنوبها، وعاش بنو قريظة على أطرافها. بَنوا الحصون، وشيّدوا القلاع، وأحكموا الاقتصاد، واحتكروا الأسواق، ومارسوا الربا والاستعباد، وظنّوا أنهم بها مالكون، وعلى ساكنيها سادةٌ وحُماة.

لكنهم لم يأتوا إيمانًا بنبيٍ سيهتدون به، بل طمعًا أن يكون ذلك النبي الموعود منهم، يرفع لواءهم، ويعيد أمجاد المرسلين من بني إسرائيل. وكان علماؤهم يحدّثون العرب، ويتوعّدونهم: "سيأتي نبي آخر الزمان، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم"، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما" :*كانت يهود تستفتح على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به*".

وما إن بزغ فجر النبوة، وظهر الهادي محمد صلى الله عليه وسلم، لا من صلب إسرائيل، بل من نسل إسماعيل، حتى اسودّت وجوههم، وهاج الحقد في صدورهم، وانقلبت أفئدتهم من الترقب إلى الجحود، ومن الرجاء إلى الكراهية... فأعرضوا عن الحق الذي عرفوه، وكفروا بالآيات التي حفظوها، لأن الله اصطفى من غيرهم، وفضّل بكر إسماعيل على فروع يعقوب.

لقد نزلوا المدينة يومًا يُمنّون النفس بالخلافة النبوية، ولكنهم لما جاءهم الحق من غير أبوابهم، أنكروه، وحاربوه، ومضوا في طريقهم يكتمون النور، ويطفئون المصابيح، وإن كانت أيديهم تحمل كتابًا يعرف خاتم النبيين كما يعرفون أبناءهم!

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- اعتقاد اليهود بأن نبيًّا سيبعث في أرض الحجاز يثبت أن البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت ثابتة في كتبهم، وأن إنكارهم له كان عنادًا وجحودًا، لا جهلًا ولا التباسًا.
- نزولهم المدينة لم يكن لهدف الهداية، بل انتظارًا مشروطًا بنزول النبي في بني إسرائيل، وهذا يدل على تعصّبهم العرقي، وتقديمهم الانتماء القومي على الإيمان الحق، وهو من أعظم انحرافاتهم العقدية.
- رفضهم الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم لمجرد كونه من نسل إسماعيل، لا من نسل يعقوب، يبيّن أن انحرافهم عن التوحيد تَمثّل في الحسد والكبر، كما فعل إبليس أول من عصى بهذا الذنب.
- مع علمهم بأن النبي الموعود هو محمد صلى الله عليه وسلم، كما يعرفون أبناءهم، فإنهم كفروا به عمدًا، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة: ٨٩]، وهذا من صفات أهل الضلال الذين عرفوا الحق فتركوه.
- تمنّيهم أن يكون النبي منهم ليس حبًّا للنبوة، بل طمعًا في الملك والسيادة، مما يوضح أن نواياهم لم تكن تعبّدية بل دنيوية، وهذا خلل عقدي كبير في تصور النبوة ووظيفتها.
- ادّعاؤهم أن النبي سيقاتل معهم ويعيد مجدهم المزعوم، فيه تحريف لطبيعة الرسالة التي تأتي لهداية الناس لا لنصرة طائفة بعينها على غير الحق.
- أفعالهم في المدينة من احتكار وربا واستعباد، رغم انتظارهم لنبي، تدل على فسادهم العقدي العميق، إذ لا يستقيم انتظار النور مع معصية ظاهرة للرب، وهو من دلائل نفاقهم وانفصامهم.

الفوائد الفقهية:

- تحصّن اليهود في الحصون والقلاع دون حاجة حقيقية لها يُظهر جواز اتخاذ الأسباب الدفاعية، لكن مع التحذير من الغرور بها أو الاعتماد عليها بدل الاعتماد على الله، كما وقع لهم.
- احتكارهم للأسواق وممارسة الربا والاستعباد يخالف أصول الشريعة التي جاءت بتحرير الإنسان وتحقيق العدل في المعاملات، ويبيّن سببًا من أسباب قتالهم لاحقًا.
- في سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن وجود اليهود في المدينة أول الأمر، ثم مواجهتهم بعد ظهور عداوتهم، دليل على أن المدار في العلاقة مع غير المسلمين هو الموقف من الحق لا مجرد وجودهم.
- ما ورد من تهديدهم للعرب بأنهم سيقاتلونهم مع النبي المنتظر، ثم كفرهم به لما جاء، يدل على أن النصرة لا تكون إلا لأهل الإيمان، ولو ادّعى غيرهم العلم والدين.

- في تقسيمهم للمدينة على أساس قبلي وتحكمهم في مفاصلها، بيان لحرمة التغلغل غير المسلم في مفاصل الدولة المسلمة، خصوصًا إذا كان بنية الهيمنة والسيطرة.

الفوائد الأخلاقية:

- استقرار اليهود في يثرب طمعًا في النبوة يعلّمنا خطر التعلّق بالأحلام المجردة دون صلاح حقيقي في السلوك، فالله لا يهب فضله لمن لا يستحقه، ولو تمنّاه.
- الحسد والكبر من أكبر أسباب الجحود، كما فعل اليهود، فإنهم ما كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا لأنه ليس منهم، وهذا داء يهلك القلوب ويُعمى الأبصار.
- في حقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم رغم علمهم بصدقه، تحذير من فساد القلب إذا أُشرب الكبر، فإن العلم وحده لا يهدي، ما لم يكن مقرونًا بالتواضع والانقياد.
- في طمسهم للحق، وهم يعلمونه، دعوة للمسلم أن يكون نقيًّا في قلبه، لا يكتم علمًا، ولا يلبّس على الناس، ولا يمنع النور عنهم لمصلحة أو هوى.
- زيف المظاهر الدينية عند اليهود، وهم يمارسون الربا والاستعباد، يبين أن التقوى ليست أقوالًا ولا مظاهر، بل عملٌ ظاهر وباطن، وإلا كان الدين زيفًا ونفاقًا.

المخالفات الواقعية:

- لا يزال أهل التوراة المحرّفة وأحفادهم اليوم يعلمون الحق، ويكتمونه، ويحاربونه، ويقودون حملات التشويه على الإسلام رغم معرفتهم برسالته، كما فعل أسلافهم.
- من الفرق المنتسبة للإسلام اليوم من تسلك مسلك اليهود في التعصّب العرقي أو القومي، وترد الحق إذا لم يكن من جماعتها أو سلالتها، فتنكر الحق وتناصب أهله العداء.
- يوجد اليوم من يحمل شعارات دينية كما فعل اليهود، لكنه يمارس الاستغلال والاحتكار والربا والفساد، ويدّعي مع ذلك أنه من أهل الحق، وهو بذلك يكرّر انحرافات بني إسرائيل.
- انتشرت دعاوى النبوة أو الاصطفاء العرقي في بعض الطوائف الباطنية المنحرفة، وتلك فرية باطلة مخالفة لمنهج النبوة، لا تختلف عن أحلام اليهود القديمة.
- توجد في الأمة أصوات تنادي بالتقارب مع من كذّبوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، والتماس الاعتراف منهم، وكأن الشرعية تستمد منهم لا من رب العالمين، وهذا من آثار ضعف العقيدة واستلاب الهوية.
- بعض دعاة "الإبراهيمية" في هذا العصر يروّجون لوحدة الرسالات، ويُسقطون الفوارق العقدية بين المسلمين واليهود والنصارى، مخالفين بذلك النصوص الصريحة والواقع التاريخي الذي فضح كفرهم بالنبي الخاتم رغم علمهم.
- أصبح في بعض ديار الإسلام من يطبّق "هيمنة اقتصادية" مشابهة لما فعله اليهود في المدينة، فتُدار ثروات الأمة بأيدي قلّة مستكبرة، تحت شعارات براقة، كما كان حال بني قينقاع والنضير وقريظة.

الفقرة الثانية يعرفونه كما يعرفون أبناءهم... ولكن الحسد يطمس البصائر

لم يكن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم مجهولًا في صحائف أهل الكتاب، ولا اسمه غريبًا على مسامع علمائهم، بل كان ذكره يتردّد في مجالسهم، وصفاته تتكرر على ألسنتهم، كأنها مشاهد حيّة، تُروى من جيل إلى جيل،

محفورة في ألواح صدورهم، كما تُحفر الصور في القلوب الحانية. لقد كان محمدٌ عندهم نبيًّا معلومًا، لا غموض في أمره، ولا التباس في شأنه، يُعرف في كتبهم، كما يُعرف الولد بين يدي أبيه.

قال ربنا الجليل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾، فما أعجب هذه المعرفة التي شبّهها الله بأقرب المعارف وأصدقها! أليس الرجل إذا نُصب له ألف غلام، ميّز ولده بينهم بنظرة؟ فكذلك كان أهل الكتاب يعرفون محمداً، لا اشتباه في وصفه، ولا ارتياب في حقيقته.

ولكن...

لم تكن العلة في جهلهم به، بل في قلوبهم التي اسودّت حسدًا، وانتفخت كبرًا، فأطفأت أنوار الفطرة، وسدّت طرق الإيمان، ولبّست على العقول بلباس العصبيّة. لقد استكبروا أن يكون خاتم المرسلين من غيرهم، من بني إسماعيل، لا من بني إسرائيل! فغلبهم الحسد على البصيرة، وجرّهم الكبر إلى الكفر، فانقلبوا على أعقابهم، وهم يعلمون أنه الحق.

وقد صدق عبد الله بن سلام رضي الله عنه – وكان رأسًا في أحبار اليهود – حين قال":ما إن رأيتُ وجه محمد صلى الله عليه وسلم، حتى علمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب"، فكانت المعرفة يقينًا، وتحوّل اليقين إلى إيمان، فأسلم وجهه لله، وشهد شهادة الحق، وصدع بها دون مواربة.

أما أولئك الذين ران على قلوبهم الكِبْر، فقد ظلّ بعضهم يدور في أسواق المدينة، ينظر في وجه النبي خِفية، ثم يُسرّ إلى رفيقه: "هو، والله، هو"، ثم يعود إلى قومه مطأطئ الرأس، لا يستطيع إلى التصديق سبيلًا.

إنهم لم يكونوا ينكرون الحقيقة، بل كانوا يهربون منها! حتى قال الله فيهم: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾.

وهكذا، يُعلّمنا هذا المشهد العظيم أن المعرفة لا تنفع إذا لم تكن معها خشية، وأن اليقين لا يُثمر إذا لم يُروَ بماء الصدق، وأن القلب إذا عشش فيه الحسد، أفسد عليه نور البصيرة، ولو قامت الحجج عليه كالشمس في رابعة النهار.

الفوائد والعبر المستفادة

الفوائد العقدية:

- في قوله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ إثبات أن أهل الكتاب كانوا يعلمون صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم علم اليقين، لكن لم ينتفعوا به، وهذا يقرر أن قيام الحجة لا يلزم منه حصول الهداية إن لم تصح النية.
- الحسد والكبر من أخطر أمراض القلوب التي تصرف الإنسان عن قبول الحق، ولو علمه وتيقنه، وهذا ما وقع لعلماء بني إسرائيل، فالمعرفة لا تنفع بدون إخلاص وتجرد لله.
- فضل الله في النبوة لا يُحكَم فيه بالعِرق والنسب، بل يصطفي الله من يشاء من عباده، واختياره للنبي محمد صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل فيه رد على من جعلوا الاصطفاء حكرًا على بني إسرائيل.
- في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه دلالة على أن من علماء أهل الكتاب من أنصف، وترك التعصب، فهداه الله، وهذا يؤكد أن الهداية لمن صدق في الطلب، لا لمن غلّف قلبه بأوهام العِرق والتقليد.
- الإيمان ليس مجرد معرفة ذهنية، بل هو انقياد قلبي واستجابة عملية، فكم من عارف بالحق لا يعمل به، وكم من جاحد يظهر خلاف ما يبطن.
- الحسد قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر، ولو كان من أهل العلم، كما جرى لأحبار اليهود، وهذا يبين أن الانحراف العقدي قد يبدأ من داء خُلقي لم يُعالَج.
- تأكيد القرآن على معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم يفيد أن تكذيبهم له كفر عناد، وهو أشد الكفر وأخبثه، ولهذا استحقوا اللعنة في قوله: ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾.

الفوائد الفقهية:

- إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه بمجرد أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن الإيمان يجب أن يُبادر إليه متى ثبت الحق، ولا يجوز تأخيره، فإن التثاقل عنه نوع من الإعراض.
- في تصديق عبد الله بن سلام لنور الوجه دلالة على مشروعية الاستدلال بقرائن الصدق الظاهرة، لكن بشرط أن يُبنى عليها العلم ويتبعها التحقيق والبيان.
- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم صفاته وأحواله للناس، حتى يطمئنوا لصدقه، يدل على أن الداعية مأمور بالوضوح ورفع اللبس، لئلا تبقى حجة لأهل العناد.
- لا يُعذر من عرف النبي صلى الله عليه وسلم وصفًا واسْمًا ولم يتبعه، لأن مجرد المعرفة لا تُجزئ، بل لا بد من الإيمان والانقياد، وهذا أصل في الرد على أهل الإرجاء الذين يكتفون بالتصديق دون العمل.

الفوائد الأخلاقية:

- الحسد من أمراض القلوب التي تُفسد البصيرة، وتغلق منافذ الهداية، ولو كانت المعرفة يقينية؛ لذا وجب على المؤمن أن يجتهد في تطهير قلبه، لا في تراكم المعلومات فقط.
- ترك عبد الله بن سلام قومه رغم مكانته بينهم، واتباعه للحق، درس في الشجاعة والصدق، وأن من طلب رضا الله لا يلتفت إلى مواقف الناس.
- تردّد بعض علماء اليهود في الاعتراف بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومراقبتهم له من بعيد، ثم عودتهم دون إعلان الحقيقة، نموذج لضعف النفس أمام ضغط البيئة والهوى، وهو خُلُق مذموم.
- تمثيل معرفة النبي بمعرفة الأبناء يبين عمق أثر المعرفة الحقّة في القلب، فليست العلم النافع بمجرد المعلومة، بل بالتغلغل في الوجدان.
- المعرفة الحقيقية بالحق تُلزم الإنسان التصديق والعمل، فإن لم يثمر ذلك، فهو دليل على خلل في القلب لا في المعلومة.

المخالفات الواقعية:

- يوجد في زماننا من يعرف صحة الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم من غير المسلمين، ومع ذلك يرفض الدخول في الإسلام، كِبرًا أو حفاظًا على الجاه والمكانة أو اتباعًا للهوى، كما فعل أحبار اليهود.
- من الفرق المنحرفة من يعلم فساد منهجه، ويُبصر الحق في غيره، لكنه يُصِر على باطله حسدًا وتعصّبًا لمرجعه أو زعيمه، متبعًا مسلك أهل الكتاب في الجحود بعد المعرفة.
- بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة في هذا الزمان يُحاربون أهل السنة، ويطعنون في علمائهم، رغم علمهم بصدق منهجهم، ولكن الحسد أو الغيرة أو طلب الظهور يصدّهم عن الاعتراف بالحق.
- كثير من الناس اليوم يتعلّقون بالمعلومات الدينية دون تهذيب للقلب، فيعرفون الأحكام والعقائد، ولكنهم لا يتأثرون بها، فتكون معرفتهم كمعرفة أحبار بني إسرائيل: بلا خشية، ولا عمل.
- يتكرر في واقعنا أن يكون بعض أصحاب البدع والفرق المنحرفة قد تربّوا على السنة، وعرفوا أدلتها، ثم مالوا إلى الابتداع، إما طمعًا في الدنيا أو حسدًا لأهل الحق، فهم بذلك يُعيدون سيرة من "كفروا بما عرفوا."
- أصبحت بعض وسائل الإعلام تسوّق لأهل البدع والهوى، رغم معرفتهم بتضليلهم للأمة، كما فعل اليهود حين كتموا الحق مع معرفته، والسبب واحد: إرضاء أصحاب النفوذ، لا الله تعالى.

الفقرة الثالثة حين تطلّعوا إليه... عرفوه بقلوبهم قبل أعينهم، ثم اختاروا طريق اللعنة والحسد

قصة حييّ بن أخطب وأخيه ياسر، نموذج للعقول التي أنكرت بعد أن أيقنت، وللقلوب التي كفرت بعد أن أُشربت الحسد.

فما إن تنفّس صبح المدينة، واستقبلت يثربُ المهاجرةُ وجهَ نبيّ الرحمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، حتى خرجت القلوب قبل الأقدام، واشتاقت العيون قبل الأفئدة، وتزاحمت الأجساد في الطرقات، تنشد وجهًا طالما انتظروه، وكلماتٍ كأنها تعانق الأرواح قبل أن تصافح الأسماع.

خرج المسلمون الجدد يطوفون حول النور، أهل الأوس والخزرج، رجالهم ونساؤهم، شبابهم وشيوخهم، وخرج معهم قوم من أهل الكتاب، أولئك الذين كانت صدورهم تحفظ من التوراة بشاراتٍ، وتَعرف من أوصاف النبي المنتظر تفصيلًا لا يحتمل اللبس، كأنهم يرونه في صحائفهم رأيَ العين. وكان في مقدمتهم رجلان من عتاة الأحبار في يهود المدينة، ممن أوتوا علمًا وذكاءً ونفاذ بصيرة في نصوص الكتب: **حييّ بن أخطب** وأخوه **ياسر**.

وقفا بعيدًا عن الزحام، ولكن القلوب كانت أقرب من الأعين، ترقب المشهد العظيم، وتنظر في قسمات وجه النبي صلى الله عليه وسلم، في إشراقة محيّاه، وهيبة نبوته، وصفاء حديثه. ولم يطل بهما التوقف، فما إن وقعت أعينهما عليه حتى اهتزّ كيانهما، وتزلزلت دواخلهما، وتحدثت نظراتهما بلغة لا تخطئها القلوب:

"هو... هو، والله هو"!

عادا إلى منزلهما والخوف يرتعد في أعماق روحهما، لا من شك، ولكن من يقينٍ ثقيلٍ لا تطيقه النفوس الحاسدة.

التفت ياسر إلى أخيه يسأله بصوت المتردد المتشبث بالأمل الأخير:

"أهو هو؟" فقال حييّ، وهو يطوي على قلبه نار الحسد" **:نعم، والله إنه لهو"!**

قال ياسر" **:فما أنت صانع؟"**

فقال حييّ جملةً كتبت على صفحات الكفر سطرًا لا يُمحى" **:عداوته ما حييت"!**

يا الله...! أفيُعقل أن يُبصر المرء النور ثم يشيح عنه بوجهه؟! أن يلمس الحق ثم يُكفّر به؟! أن يعرف يقينًا أن هذا هو رسول الله، ثم يعاهد قلبه على عداوته؟!

نعم... إذا تمكن الحسد من القلب، أطفأ أنوار العقل، وأغلق منافذ الفطرة، وصمّ الآذان عن الهدى، وأعشى البصر عن الحقيقة، وجعل صاحبه يختار طريق الهلاك بعناد لا يُفهَم، وغرور لا يُطاق.

لقد عرفوا أنه هو... ولكنهم لم يريدوا أن يكون من بني إسماعيل، بل تمنوا لو أنه جاء من صلبهم، من بني إسرائيل، من سبط لاوي أو بيت هارون، فلما خيّبت السماء ظنونهم، أضمروا العداء، وتجرّعوا مرارة الحسد، وارتكسوا في أوحال الكبر والإنكار.

ومن هنا أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن أول من سيواجهه في المدينة ليس الجاهل الذي لا يدري، ولكن العالم الذي علم فكفر، وعرف فأنكر، وأبصر فتعامى، لا لنقص حجة، بل لفجور في الخصومة، وكِبر في القلب، وغلٍّ لا يُشفى.

وهكذا، كانت تلك اللحظة هي البذرة الأولى للعداوة المعلَنة، والنقطة التي انطلقت منها خيوط التآمر والخيانة. فالنفوس التي رفضت الإيمان بعد العلم، هي أشد خطرًا من التي تجهل، لأنها تُكذب بلسانٍ يقرّ في داخله بالتصديق، وتُنكر بقلوبٍ امتلأت يقينًا... ولكنها خذلتها النية، وأهلكها الحسد.

الفوائد والعبر المستفادة

فوائد عقدية:

- ثبوت أن الكفر لا يكون دائمًا عن جهل، بل قد يكون بعد العلم واليقين، كما وقع لحيي بن أخطب، فيتأكد بذلك أن الهداية لا تكون بكثرة المعلومات، ولكن بانقياد القلب وقبول الحق.
- أن الحسد والكبر من أعظم أسباب الكفر بالله، حتى لو كان الإنسان من أهل العلم، كما فعل علماء بني إسرائيل الذين عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم بصفته واسمه ثم أنكروه حسدًا.
- أن معرفة الحق لا تساوي الإيمان به ما لم يصحبها تصديق قلبي وقبول وانقياد، ولذلك فإن الفرق الضالة، وإن عرف بعضها الأدلة، فإنها ضلت بتركها الانقياد لأمر الله.
- أن الله يبتلي بعض عباده بالعلم واليقين ليُظهر من يتبع الحق ممن يعرض تكبرًا، كما قال تعالى عن أمثالهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾.
- أن الكبر على الحق من صفات الكافرين، وليس للمؤمن أن يرد الحق إذا خالف هواه أو جاء على يد من لا يُحب، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الكبر: بطر الحق وغمط الناس" (رواه مسلم.(
- أن الله قد يجعل النبوة والعلم والدين في قومٍ دون غيرهم، فيبتلي بذلك قلوب الآخرين، فمن كان مخلصًا رضي بقسمة الله، ومن كان متكبرًا أعرض، كما فعل بنو إسرائيل عند مجيء النبي الخاتم من بني إسماعيل.

فوائد فقهية:

- يُستفاد من هذا المشهد أن الحسد لا يُعذر به صاحبه شرعًا، بل هو ذنب قلبي شديد العقوبة، يجب مدافعته والسعي في علاجه، فهو من كبائر القلوب المهلكة.
- أن العالم إذا أنكر الحق مع علمه فقد يكون أضل من الجاهل، وتكون شهادته حجة عليه، ولذا قال العلماء: "المبتدع العارف أقبح حالًا من الجاهل المتبع."
- أن من صفات المنافقين وأهل الأهواء كتمان ما يعرفونه من الحق إذا خالف أهواءهم، بخلاف أهل الإيمان الذين يُعلنون ما علموا، ولا يخافون في الله لومة لائم.
- أن رفض النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا كفرًا بواحًا، فإن من عرفه ثم عاداه، فقد كفر، ومجرد الحسد أو الكبر لا يبرر هذا الكفر، بل يضاعف إثمه.

فوائد تربوية وأخلاقية:

- الحسد داء يفتك بصاحبه قبل غيره، فإنه يأكل قلب صاحبه، ويحرمه لذة الرضا، ويمنعه من رؤية الحق إذا خالف مصلحته.
- أن من الأخلاق المذمومة العناد بعد وضوح الحق، لأن ذلك علامة على فساد القلب، وتؤدي بصاحبها إلى الكفر أو النفاق أو الفجور.
- أن العدل والإنصاف يقتضيان أن يقبل الإنسان الحق من أي جهة جاء، لا أن يُعرض عنه لأن قائله لا ينتمي إليه أو لا يحبه.
- أن من علامات القلب المريض أن يفرح بالباطل ويغتم للحق، كما وقع لحيي وأمثاله، الذين خاب أملهم لأن النبي لم يكن منهم.
- أن من الناس من لا ينكر لجهله، بل لفجوره في الخصومة، وهذا يُوجب الحذر الشديد في التعامل مع أمثالهم، والتمسك بالحق ولو كثر المنكرون.

مخالفات الواقع:

- انتشار من يُسمّون أنفسهم "مفكرين" أو "باحثين" وهم في حقيقتهم يعرفون الإسلام وفضله، ويقرّون بأصوله في بواطنهم، ثم يعادونه ويشككون فيه أمام الناس، طمعًا في المناصب أو اتباعًا لأهواء فاسدة.
- وجود من ينتسبون للعلم والدعوة، ثم ينكرون ما علموا من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويقدمون المناهج العقلية أو الحداثية عليها، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم على باطل.
- قيام بعض من ضلّوا عن منهج أهل السنة، من الفرق الضالة، بالطعن في أصول الدين ومسلّماته بدافع الحسد أو التعصب، لا لعدم علمهم، بل لأن قلوبهم امتلأت بغلاً على أهل الحق.
- الترويج في الإعلام ومواقع التواصل لفكرة أن الإسلام يجب أن يُعاد تفسيره، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصلح لكل زمان ومكان، وهذا كفرٌ بيّن، يتستر بثوب "التجديد"، وأصحابه في الحقيقة يشبهون حيي بن أخطب في معرفتهم بالحق وإنكارهم له.
- تعمُّد بعض الكُتّاب والطاعنين في السنّة المطهّرة الطعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم، أو أصل العرب، تهوينًا لمكانة الرسالة، وهم يعلمون صدقه، ولكنهم يريدون إخراج الناس من الدين بطريقة خبيثة.
- قيام بعض دعاة البدعة والضلالة من أهل الكلام والفلسفة، بالطعن في البشارات الواردة في التوراة والإنجيل عن النبي صلى الله عليه وسلم، رغم ثبوتها، نكايةً في أهل السنة وغيرةً من بيانهم لحقائق النبوة.

الفقرة الرابعة عبد الله بن سلام... حين بزغ النور فأطفأ ظلام الحسد

ما إن أشرقت شمس النبوة في أفق المدينة الطيبة، حتى أخذت القلوب تهتدي كما تهتدي السواحل لنور الفنار، وتنهض الأرواح من رقاد الغفلة، تستقبل صباح الهداية بعد ليلٍ طويل من الترقب والانتظار. ومن بين تلك القلوب المتعطشة، بزغ قلب نادر... قلب لم تدنسه الأهواء، ولم تطفئ وهجه ظلمة الكبر ولا دخان الحسد، قلبٌ بقي حيًّا في زمن ماتت فيه كثير من القلوب، واستسلمت للجهل أو الغرور.
إنه عبد الله بن سلام رضي الله عنه، الحبر الجليل، والعالم النبيل، وأحد أركان المعرفة في يهود المدينة، ممن قرؤوا التوراة لا قراءة حفظٍ فقط، بل قراءة فَهْم وتدبّر، حتى كان يُشار إليه بالبنان: هذا أعلمهم، وأصدقهم، وأقربهم إلى الفطرة النقية.

بلغ سمعه – كما بلغ سمع كل من بالمدينة – أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد نزل بين ظهرانيهم، وأنه يزفُّ للناس رسالة من رب السماوات، فخرج عبد الله بن سلام من بين قومه، لم يَحمل في قلبه جدالاً، ولا لفًّا من حيل السياسة أو زيف الرياء، بل ساقته الرغبة الصادقة، وعينُ الباحث عن الحقيقة، وقدمُ المؤمن الذي يسبق إلى كل نور.

وما إن ألقى بصره في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، حتى توقفت الدنيا في عينيه، وكأنّ قلبه هتف من أعماق الصدق":والله إن هذا الوجه ليس بوجه كذّاب"!
فما حاجته بعد إلى المناظرات، وقد تكلمت الفطرة قبل البيان، ونطقت الروح قبل اللسان؟!

اقترب... وسأل... وأصغى إلى أولى كلمات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، كلمات ليست ككلمات الفلاسفة أو الخطباء، بل نور يُسكب، وضياء يُغمر به القلب:

"أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصَلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".

حينها، لم يتردد، ولم يُمهل نفسه مهلة المترددين، بل نطق الشهادتين بقلب ملؤه اليقين، ووجهٍ غمره السرور، وقام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله".

ولكن المصطفى صلى الله عليه وسلم، بعين النبوة، ونفس القائد الحصيف، أراد أن يكشف لقومه عوار قلوبهم، وأن يُظهر للعالمين كم هم قوم يعرفون الحق ثم يُنكرونه، ويُبصرون النور ثم يطفئونه حسدًا ...فقال لعبد الله: "اجعلني خلف ستر، ثم سَلْ عني قومك قبل أن يعلموا بإسلامك ".

فوقف عبد الله أمام قومه يسألهم: "يا معشر يهود، ما تقولون في عبد الله بن سلام؟"
فأجابوا دون تردد: "سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا، وابن أعلمنا ".قال: "أفرأيتم إن أسلم؟ "فصرخوا دهشةً وإنكارًا: "حاشا لله، ما كان له أن يُسلم"!
عندها أسقط في أيديهم، وصرخ فيهم عبد الله بالحقيقة المُدوّية" :أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله"!
فما لبثوا أن انقلبوا على أعقابهم، وقالوا: "هو شرُّنا، وابن شرّنا"!

فيا سبحان الله!
نزل عليهم الحق فأنكروه، وتكلمت الفطرة فكمّموها، لا لأن البينة غائبة، بل لأن الحسد إذا تمكن من القلب، أطفأ البصائر، وحرّف الموازين، وأضلّ العقول، حتى يُصبح الحق في أعينهم باطلًا، ويصير الباطل محبوبًا مقبولًا!
لم يكن اعتراضهم على الرسالة، بل على أن يُبعث النبي من ولد إسماعيل لا من بني إسرائيل!
وما أعجب القلوب إذا غلّفها الغرور، وسقاها الحسد!

ولذا، شهد له النبي شهادة تبقى خالدةً في جبين الدهر، فقال صلى الله عليه وسلم" :**عبد الله بن سلام في الجنة".**
فطوبى له! نجا بإيمانه من الحسد، وارتقى بإخلاصه إلى الفردوس، وكتب الله اسمه في عليّين، لأنه لم يجعل بينه وبين الحقّ حجابًا من قوميةٍ، أو كبر، أو هوى.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- أن الفطرة السليمة تهتدي إلى صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم دون حاجة إلى جدال أو كثرة برهان، كما قال عبد الله بن سلام: "إن هذا الوجه ليس بوجه كذاب."
- أن الإيمان الحق لا يحتاج إلى مقدمات طويلة، بل إذا صادف قلبًا نقيًا استجاب مباشرة، وصدّق وآمن، كما فعل عبد الله بن سلام.
- أن النبوة ليست إرثًا لقومٍ دون قوم، بل هي اختيار من الله، ولا يُعترض على اختيار الله، ومن رد النبوة لأنها لم تأتِ من قومه، فقد كفر بحكم الله، وهوى مع الهوى.
- أن بعض القلوب تعرف الحق ثم تنكره حسدًا، ومن أنكر الرسالة بعد علمه بها فإنه كافر كفر عناد، كما فعلت يهود مع عبد الله بن سلام.
- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم نفاق قوم عبد الله، لذلك استعمل الحكمة لكشف زيفهم، وفي ذلك دلالة على أن الإيمان يُظهره الله ويعزّه ولو كره الكافرون.
- أن مَن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة فشهادته حق وصدق، ومن أكرمه الله بالإيمان الصادق، ونجاه من الحسد والكبر، استحق أعلى المنازل، كما وقع لعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

فوائد فقهية:

- أن شهادة غير المسلم إذا كانت فيمن لم يُعرف إسلامه بعد، تعتبر حجة على قومه إن كانوا يعلمون صدقه، وقد يُستخدم هذا الأسلوب لإقامة الحجة على الجاحدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله.

- أن المبادرة إلى الإيمان عند ظهور الحق من أعظم أعمال القلوب، ولا يُشترط الانتظار أو البحث الطويل إذا وضحت الدلائل، بل الواجب المسارعة، كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾.
- أن من السنة التفريق بين الحق والهوى في الحكم على الأشخاص، وأن التقلب في المواقف دليل على فساد الميزان، كما فعل اليهود لما أسلم عبد الله.
- أن إظهار شهادة التوحيد عند العلم بالحق واجب، ولا يجوز كتمان الإيمان إلا في حالة الضرورة القصوى، وعبد الله بن سلام ما كتمه إلا للحظة إظهار الحق ثم أعلنه.

فوائد تربوية وأخلاقية:

- أن الصدق مع النفس والانقياد للحق من أعظم ما يُنجّي العبد من فتنة الهوى والتعصب، وهو ما تميز به عبد الله بن سلام رضي الله عنه.
- أن الكبر والحسد يحرفان الإنسان عن قبول الحقيقة، حتى لو شهد بها، فالقلب الحاسد لا يطيق رؤية من تفوّق عليه في الفضل، ولو كان نبيًا.
- أن من علامات القلب الحي أنه لا يغتر برأي قومه، ولا يخشى عتابهم، بل يتبع ما يراه حقًا، كما فعل عبد الله بن سلام حين فارق قومه دون تردد.
- أن الثناء على الإنسان لا يُعتد به إذا تغيّرت المواقف لأهواء النفوس، فمن مدحه قومه عند الجهل، قد يذمونه عند الحق، وهذا من علامات القلوب المريضة.
- أن المسلم إذا أكرمه الله بالإيمان يجب أن يُعلن شكره ويثبت عليه، ولو عارضه أهل الأرض، فإن أهل الإيمان غرباء في زمانهم.

مخالفات الواقع:

- كثرة من يُظهرون التقدير لبعض الدعاة أو العلماء ما داموا لا يُخالفون أهواءهم، فإذا أعلن العالم موقفًا شرعيًا يخالف رغباتهم انقلبوا عليه، وشنعوا به، تمامًا كما فعلت يهود مع عبد الله بن سلام.
- وجود من يُنكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لا جهلًا، بل تعصبًا لقومياتهم أو أديانهم، ويعلمون صدقه ولكن الحسد والكبر يمنعهم من الإذعان للحق.
- ظهور نغمة القومية الجاهلية عند بعض الكتاب والمفكرين، ممن يرفضون أن تكون النبوة من العرب، أو يُلمّحون بأن ذلك كان خطأ تاريخيًا، تشكيكًا في حكمة الله.
- تقديم الانتماءات السياسية أو الوطنية أو القبلية على الدين، فيرفض بعض الناس الحق إذا خالف مصلحتهم أو قومهم، كما رفضت يهود الحق لأنه جاء من ولد إسماعيل.
- انتشار من يتعصبون لأهلهم ومجتمعاتهم، ويمنعون أبناءهم من اتباع طريق الحق بحجة أنه "يخالف عادات العائلة" أو "يشوّه صورة القبيلة"، وهو من جنس اعتراض بني إسرائيل.
- من أهل البدع والفرق من يُبغض أهل السنة ويطعن فيهم، لا لخلل في عقيدتهم، بل لأنهم أظهروا السنة وبينوا الحق الذي يخالف هواهم، كما أظهر عبد الله بن سلام الحق فبغضوه.

الفقرة الخامسة نبيّ الرحمة... لا يتغير أمام الخصومة

ها هي آية الرحمة تتجلى في أسمى معانيها وأبهى صورها في خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان لا يغير طبعه ولا يخضع لأهواء من حوله، بل ظل راسخًا كالجبل في ثبات خلقه الرباني الرفيع، يُلقي الودّ والرحمة حيثما حلّ، ويتعامل مع الجميع باللين والعدل والإحسان، حتى مع أعدائه الذين أظهروا له البغضاء، أو أضمروا له السوء والمكر.

وقد تجلّت هذه الرحمة النبوية في أسمى صورها بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، حيث لم يُبدّل موقفه من أهل الكتاب، بل دعاهم إلى البر والتعاون، وأحسن إليهم في كل شأن، رافضًا أن يمنعهم حقوقهم أو يهين دماءهم وأموالهم، طالما كانوا صادقين في عهدهم ولم يبدؤوا بالخيانة.

روى الإمام أحمد بإسناد حسن، قصةً تمس القلب، حين عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى غلام يهودي كان يخدمه، فإذا به على فراش الموت، فجلس عند رأسه، ونطق له بلينٍ ورحمة: "يا غلام، قل لا إله إلا الله"، فما كان من الغلام إلا أن نظر إلى أبيه يستأذنه، فأذن له قائلاً: "أطع أبا القاسم"، فشهد الغلام بالشهادة، ومات مسلماً، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ممتلئًا بالفرح يقول: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار". تلك الكلمات المباركة التي خرجت من قلب نقي، لا يتملقه، ولا يرجو دنياه، بل فرح بنجاة روح إلى نور الهداية، حيث لا فرق بين كبير أو صغير، مسلم أو غير مسلم في دعوة الرحمة.

ومرّ النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم بجنازة، فقام لها احترامًا، فقالوا له: "إنها جنازة يهودي"، فأجاب بقوله الذي يختصر كل معاني الإنسانية والرحمة: "أليست نفسًا؟" تأمل هذا الجواب البليغ، الذي يؤكد على أن الكرامة الإنسانية قائمة قبل أن تكتمل الهداية، وأن الإسلام يحمل في جوهره احترام النفس البشرية، ويتعامل معها بإحسان، مهما اختلفت المعتقدات.

وقد بلغ تعامله معهم أوج الثقة والعدل، حتى إنه رهن درعه عند يهودي مقابل طعام لأهله، ولم يجد ما يفتدي به الدرع حتى توفي، وهذا المثال يعكس شجاعة القلب وسعة الصدر، رغم علمه بحقد البعض، لكنه لا يحكم على الناس بما في نفوسهم، بل بما يظهرونه من عهد وذمة.

وهكذا أرست سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة إيمانية راسخة: أن الرحمة ليست ضعفًا، وأن العدل لا يُعطى للمحسنين فقط، بل هو حق لكل من التزم بالعهد، وإن خان العهد، وأعلن الخيانة، فإن العدل يُقام بحزم وصدق، دون ظلم أو انتقام، بميزان النبوة الحكيم، الذي جمع بين الرحمة والعدل في أبهى تجلياتهما.

هذه هي رحمة النبي صلى الله عليه وسلم التي لا تتبدل، ولا تنحرف عن سبيل الحق، مهما كثرت الأهواء واشتدت الأعداء، لتكون نورًا يهتدي به القلوب قبل الأبصار، ودرسًا خالدًا في العفو والرحمة والعدل.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- ثبوت أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله، وقد زكّاه ربه في خُلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ومن أعظم دلائل نبوته بقاء خلقه في العدل والرحمة أمام الخصومة، بلا ميل أو تبدل.
- أن الأصل في دين الإسلام هو الرحمة بالخلق، وأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم شاملة لكل أحد، لا تفرّق بين الناس بسبب الدين أو العِرق، بل تدعوهم جميعًا إلى الحق برفق وعدل.
- أن النجاة من النار لا تكون إلا بالإسلام، ولهذا فرح النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام الغلام، لأن الهداية هي أعظم نعمة.
- أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك الهداية القلبية لأحد، ولكنه حريص على دعوة كل نفس، فإن هدى الله قلبها فرح بها، وإن أصرّت على الكفر لم يظلمها، بل يُقيم عليها الحجة.

- أن حسن المعاملة لا يُنافي البراء من الكفر، فالمعاملة الطيبة ليست تزكية لعقيدة باطلة، وإنما هي من أخلاق النبوة في دعوة الناس برفق، كما فعل صلى الله عليه وسلم مع اليهود.
- أن الإسلام لا يحكم على الناس بالظنون، بل يُعاملهم بحسب ظاهرهم، ويحفظ لهم حقوقهم ما داموا على العهد، وهي قاعدة أصيلة في شريعة الإسلام، بخلاف ما تزعمه الفرق المنحرفة من الغدر والكذب على غير المسلمين.

فوائد فقهية:

- جواز معاملة غير المسلمين في البيع والشراء والإجارة، ما داموا في عهد وذمة، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه، ورهن درعه عند يهودي.
- استحباب زيارة المريض ولو كان غير مسلم، إذا كان في ذلك تأليف لقلبه، ودعوة إلى الإسلام، كما زار النبي صلى الله عليه وسلم الغلام اليهودي.
- مشروعية عرض الإسلام على غير المسلم عند مرضه أو موته، مع مراعاة اللين في الدعوة، والدعاء له بالهداية، رجاء إنقاذه من النار.
- جواز القيام لجنازة غير المسلم إذا كان في ذلك إظهار لرحمة الإسلام واحترام النفس البشرية، وليس تعظيمًا لكفره، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه.
- جواز قبول إسلام من كان يهوديًا أو نصرانيًا ولو كان غلامًا، متى ما نطق بالشهادتين، ويُحكم له بالإسلام بمجرد النطق، كما أسلم الغلام اليهودي.
- إثبات أن العدل حق لكل أحد، مسلمًا كان أو غير مسلم، ما دام ملتزمًا بالعهد، وهذا من أصول الفقه الإسلامي، لا كما تزعم الفرق الضالة التي تُسقِط العدل إذا خالف الهوى أو الطائفة.

فوائد تربوية وأخلاقية:

- أن العدل والرحمة لا يكونان تابعَين للهوى ولا موقفًا ظرفيًا، بل خلقًا ثابتًا لا يتغير بتغيّر الناس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع من عاداه.
- أن العفو لا يعني الضعف، بل هو مظهر من مظاهر قوة النفس، وهو ما جسّده النبي صلى الله عليه وسلم في كل مواقفه، فلم يُبدّل أخلاقه أمام شدة الخصومة.
- أن الأصل في المعاملة مع الناس هو الإحسان، ما لم يظهر منهم عداوة وخيانة، فالإحسان قد يكون سببًا للهداية، كما وقع مع غلام اليهود.
- أن القائد الحق لا يحمل الحقد في قلبه، بل يتعامل مع الناس بما يُصلحهم، ولو أساؤوا إليه، وهو ما يفتقده كثير من قادة الدنيا الذين تفسدهم الخصومة.
- أن الأخلاق النبوية تُعلّمنا كيف نزن الناس بميزان الرحمة والعدل لا بميزان الهوى أو الحقد، ومن ظُلم، ثم حافظ على خُلقه، فقد اقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم.

مخالفات الواقع:

- انتشار صور من الغلظة والفظاظة في دعوة غير المسلمين، وكأن الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين، مما ينفر الناس من الإسلام، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا غلامًا يهوديًا بلينٍ ورحمة حتى هداه الله.
- ظهور من يُعامل غير المسلمين بالجفاء المطلق، ويظن أن العدل والإحسان إليهم ضعف في الدين، وهذا خلاف الهدي النبوي الذي رهن درعه عند يهودي، وتعامل معهم بالحسنى ما داموا على العهد.

- التناقض في مواقف بعض المنتسبين إلى الدعوة، فتراهم إذا خاصموا فَجَروا، وإذا غضبوا أهانوا، بخلاف خُلق النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم تتغير رحمته أمام العداوة.
- ظهور جماعات منحرفة تُحرّض على نقض العهود، والغدر بغير المسلمين دون موجب شرعي، وتُسيء بذلك إلى صورة الإسلام، مخالفة بذلك خُلق النبي صلى الله عليه وسلم في العدل والوفاء.
- تصرفات بعض المسلمين التي تهين النفس البشرية قبل أن تُظهر لها دعوة الإسلام، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في جنازة يهودي: "أليست نفسًا؟"، فكم من نفوس تُنفر من الإسلام بسبب قسوة السلوك.
- طعن بعض دعاة الغلو في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين، إما تأويلاً باطلًا أو تجاهلًا للسنة، ويتبعهم عوامّ يُحمّلون الإسلام ما ليس فيه من الغدر والتشدد، بينما سيرة النبي شاهدة على الرحمة والتوازن.

الفقرة السادسة ميزان لا يَميل... محمد صلى الله عليه وسلم نبيُّ العدل في زمن الجَور

لم يكن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نبيًا كغيره من العظماء الذين أقاموا مُلكًا أو حكموا أمة، بل كان نبيًا يحمل ميزان السماء، لا يُنقص كفّة، ولا يُرجّح كفّة إلا بما أمر الله، حتى صار العدل على يديه تجسيدًا حيًّا، يراه الخصم قبل الصديق، ويشهد له العدو قبل الحبيب.

كان العدل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ لا يتغير، وقاعدة لا تتزلزل، لا يُفرّق فيه بين مسلم ويهودي، ولا بين قريب وعدو، بل يقيم الحقوق على أساس الوفاء لا الهوى، وعلى نور الوحي لا رغبة النفس. ولهذا لم يكن غريبًا أن يشهد له ألدّ أعدائه قائلين: "ما عهدنا عليه كذبًا قط، ولا رأينا منه غدرًا أو خيانة"، كيف لا وهو القائل" **:إن لصاحب الحق مقالًا"**، حتى لو خرجت مقالته من فم يهودي جافّ الكلمة، غليظ العبارة؟

ومن أعجب المواقف التي أضاء فيها نوره صلى الله عليه وسلم في زمن الظلمة، ما رواه أبو داود والنسائي أن رجلًا من اليهود جاءه يطالبه بدَين، وكان هذا اليهودي فظًّا في قوله، غليظًا في تعبيره، فقال له كلامًا يعلو فيه صوت الجفاء، فثار له الصحابة غيرةً وحميةً، وهمّوا أن يُؤدّبوه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يزن الأمور بميزان النبوة لا بردّ الفعل، أوقفهم وقال" **:دعوه، فإن لصاحب الحق مقالًا"**، ثم أمرهم أن يُعطوه سِنًّا من الإبل، فقالوا: لا نجد إلا أفضل منها، فقال" **:أعطوه، فإن خيركم أحسنكم قضاءً."**

فأيُّ سموٍّ هذا الذي يجعل النبي يرد الغليظة بالحُسنى؟! وأيُّ قامة في العدل هذه التي لا تُميّز بين دين ودين إذا حضر الحق؟! لم تكن تلك المعاملة مجاملةً، بل كانت قناعةً، ومبدأً لا يتغير، أنه لا يُظلم عنده أحد، ولا يُقصى من له حقّ، ولو كان على غير ملّته، ما دام قد عاش بين المسلمين بالعهد.

لقد أظهر هذا الموقف أن الإسلام ليس دين الهوى والولاء الأعمى، بل هو دين الميزان، لا يحرم أحدًا حقه، ولا يهين مخالفًا لعقيدته، إذا لم يظهر خيانةً أو ينقض عهدًا، بل له من الكرامة والعدل ما للمسلم، كما أن عليه ما على المسلم من وفاء والتزام.

ولذلك، لم يكن عجيبًا أن يُجمع المنصفون من غير المسلمين عبر التاريخ، على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أعدل من حكم، وأوفى من عاهد، حتى قال بعضهم: "لو أن الدنيا كلها وُضعت في كفة، وعدل محمد في كفة، لرجحت كفّة محمد"، وما شهدوا بذلك إلا لما رأوا من أخلاقه ومواقفه، وما لمسوه من عدله في أرضٍ كانت تموج بالظلم، وتئن تحت وطأة التفرقة والهوى.

إنها عدالة النبوة... لا يُعطي لأحد فوق حقه، ولا ينزع من أحد ما يستحق، بل يقيم الناس على ميزان: "من وفى فله، ومن خان فعليه"، لا على ميزان: "من أحببناه أكرمناه، ومن خالفنا أهنّاه"، ولهذا أقام دولةً لم يعرف التاريخ مثلها في إنصاف الخصوم، قبل مناصرة القريبين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم كان نابعًا من الوحي الإلهي، لا من العُرف أو الهوى، مما يدل على أن الشريعة مصدر العدل المطلق، وأن مصدر الأخلاق في الإسلام هو الوحي لا العقل البشري المتقلب.

- شهادة الخصوم بعدالة النبي صلى الله عليه وسلم تُعد من دلائل نبوّته، إذ لا يمكن أن يجتمع خصوم متفرقون على وصف رجل بالكمال في بابٍ من أبواب الحق، إلا وكان ذلك من علامات صدقه.

- مبدأ العدل في الإسلام يشمل المخالفين في الدين، ما داموا تحت عهد وأمان، وهو من خصائص هذه الشريعة التي جاءت لهداية البشرية لا لاستئصال من خالفها.

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهودي، وهو في موطن قوة، يبيّن أن النبوة ليست مجرد تبليغ، بل هي قيادة بشرية نموذجية، على منهج الوحي، وبهذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم حجة عملية قائمة على الناس.

- الإسلام لا يُقر الظلم ولو على الكافر المعاهد، وهذه قاعدة إيمانية راسخة، تظهر أن العدل في الإسلام ليس مرتبطًا بعصبية دينية، بل هو عبودية لله تعالى، والتزام بأمره في كل أحد.

فوائد فقهية:

- الحديث يدل على مشروعية رفع الصوت بالمطالبة بالحق إذا لم يكن فيه تعدٍّ، لقوله صلى الله عليه وسلم: "دعوه، فإن لصاحب الحق مقالًا"، وهو دليل على أن لصاحب الدين حقًا في التعبير ما لم يتجاوز الأدب العام.

- فيه جواز إعطاء الأفضل من جنس الدين إذا لم يوجد المثل، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "أعطوه، فإن خيركم أحسنكم قضاءً"، وفيه فضل الوفاء بأحسن مما اتُّفق عليه.

- الحديث دليل على أن الحاكم أو من في منصب القيادة يجب أن يتحلى بالحِلم، وأن لا يستفزه تصرّف من يطالبه بحق، بل يوزن المواقف بالعدل لا بردات الفعل العاطفية.

- فيه دليل على جواز معاملة أهل الذمة والمعاهدين في البيع والشراء والاستدانة، وأن لهم حقًّا على المسلمين ما داموا ملتزمين بالعهد، وهو من فقه المعاملات مع غير المسلمين.

- اشتملت الرواية على قاعدة فقهية عظيمة وهي: أن الحقوق لا تُبنى على المحاباة، بل على الوفاء بالعقود، مهما كانت ديانة صاحب الحق، ما دام العهد قائمًا.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- موقف النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن الحِلم والرفق مقدمان على الغضب والاندفاع، خصوصًا عند الغضب، وأن الإنسان مهما كان محقًا في غيرته يجب أن يضبط مشاعره بميزان الحكمة.

- المعاملة بالحسنى حتى مع من يُسيء الأدب دليل على الأخلاق النبوية العالية، وهو منهج يجب أن يُقتدى به في التعامل مع المخالفين والمستفزين.

- الإسلام لا يبني دولته على الثأر والانفعال، بل على ضبط النفس والعدل في الخصومة، مما يؤسس لأخلاق مجتمعية راقية، تحفظ للجميع كرامتهم.

- رد الإساءة بالإحسان، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع غلظة اليهودي، هو أعظم طريق لتليين القلوب وفتح أبواب الهداية، وهذا من مكارم الأخلاق التي بُعث لأجلها النبي.

- رفع مكانة "العدل" فوق كل ولاء وعصبية، يدل على أن الأخلاق في الإسلام لا تُختبر مع الأصدقاء، بل تُختبر مع الخصوم والمخالفين، وهنا يظهر التميّز الحقيقي.

فوائد دعوية:

- الموقف يعلّم الداعية أن التعامل مع غير المسلمين يجب أن يكون على ميزان العدل والإنصاف، لا التشنج والانفعال، لأن الهداية لا تُنال بالقهر بل بالحكمة.

- نقل شهادة غير المسلمين بعدل النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته من أعظم الوسائل الدعوية لترغيب الناس في الإسلام، لأنها نابعة من غير متحيّز.

- موقفه صلى الله عليه وسلم مع اليهودي نموذج دعوي في فن كسب القلوب، والظهور بمظهر الحَكم لا الخصم، وهو ما تحتاجه الدعوة اليوم مع المتشككين والمخالفين.

- تقديم صورة الإسلام بأنه دين الوفاء والعدل حتى مع المخالفين، هو أبلغ رد على من يروجون أن الإسلام دين عنف وإقصاء، وهو أيضًا حماية للأمة من دعاوى الأعداء.

- الدعوة إلى الله لا تقتصر على الخطب والوعظ، بل تُمارَس بالفعل والسلوك، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فكان عدله دعوة قائمة، وعفوه منهجًا يهدي القلوب.

مخالفات الواقع:

- تفشّي مبدأ "الانتصار للحزب لا للحق"، وهو ما يخالف العدل النبوي الذي أنصف اليهودي في وجه الصحابة، فكثير من الناس اليوم لا ينصفون إلا من أحبّوا، ولو ظلم.

- غياب ميزان الشريعة في الخصومات، واستبداله بميزان المصالح أو الهوى أو الانتماء، فترى من يُكرَم لأنه تابع، ويُظلَم آخر لأنه مستقل.

- التحامل على غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية دون اعتبار لعهد أو ذمة، وهو خلاف منهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي حفظ للمعاهدين حقوقهم كاملة.

- بروز بعض الفرق التي تنزع العدل من العقيدة، وتُقصي كل مخالف بحجة الولاء والبراء، مخالفين بذلك ميزان النبوة في إقامة العدل حتى مع اليهودي الغليظ القول، وهؤلاء هم أهل الغلو والفرقة، لا يسيرون على هدي النبي بل على طريق الخوارج.

- بعض من يُنسب إلى العمل الدعوي أو الإسلامي يظن أن النبل في الغضب لا في الحِلم، وأن الشجاعة في الرد لا في كظم الغيظ، وهذا خلاف منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو منهج مَن شابهوا المرجئة أو المتعصبين فكريًا.

- من صور الظلم المنتشرة اليوم: تسليط الإعلام على الخصوم وإخفاء محاسنهم، والتساهل في تبرير أخطاء المقربين، مما يناقض مبدأ العدل الذي "لا يُعطي لأحد فوق حقه، ولا ينزع من أحد ما يستحق."

- استخدام بعض المتحدثين في الشأن العام لميزان: "من وافقنا أكرمناه، ومن خالفنا أهنّاه"، وهي قاعدة جائرة تُهدم بها القيم وتُقلب بها الموازين، مخالفة تمامًا لقاعدة النبي صلى الله عليه وسلم: "من وفى فله، ومن خان فعليه."

الفقرة السابعة العدل حين يُطعن في الظهر... والنبي يُحاكم إلى يهودي!

في المدينة المنوّرة، حيث تنفّس الناس أولى أنسام الحرية تحت ظلال الوحي، وحيث أسّس النبي صلى الله عليه وسلم دولة لا تقف على أكتاف العصبية، ولا تتكئ على سلطان القوة، بل تعقد رايتها على ميزان العدل، وتُقيم بنيانها على كتاب الله، لا على هتافات القُربى ولا أهواء العشائر—وقعت حادثة زلزلت المفاهيم، ورفعت راية العدل على هامات الرجال، حادثةٌ تجلّى فيها صدق النبوة، وطهارة القلب، ونزاهة الحُكم، لتعلّم الأجيال أن العدل ليس شعارًا، بل مبدأ يُقام ولو على حساب المحبين والأقربين.

كانت تفاصيلها عجيبة، كأنها مشهد من دراما القدر، أبطالها بشر، وحاكمها السماء، وضحيتها الحقيقة المخبّأة تحت رماد الزيف.
طعمة بن أبيرق، فتى من أهل المدينة، تجرأ على جريمة سرقة، فاختلس درعًا من أحد جيرانه من المسلمين، ثم لمّا أُفتضح أمره، لم يكتفِ بجُرم السرقة، بل لبّس الحق بالباطل، ودسّ الدرع خلسة في بيت رجلٍ يهوديّ، كي يُضلّل الناس ويخرج من التهمة كما تخرج الشعرة من العجين.

جاء صاحب الدرع إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاكيًا، يحمل بين يديه لوعة الظلم، ومرارة الخداع. وحين وقف بنو أبيرق—عشيرة السارق—بين يدي النبي، لم يحملوا صدقًا ولا توبة، بل حملوا مراوغةً مفضوحة، وأرادوا من النبي أن يُجاريهم في الظن، وأن يُلقي بالتهمة على اليهودي البريء، بحجّة أن طعمة من المسلمين، ظاهر الإسلام، قريب الجوار.

وكاد النبي صلى الله عليه وسلم أن يطمئن إلى روايتهم، لولا أن الوحي نزل كالسيف القاطع، يفضّ نزاع الأرض بحكم السماء، ويبرّئ ساحة النبوة من أن تميل عن سواء الحق، فقال الله، جلّت قدرته :﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا**﴾
ثم أتبعها بتحذير مدوٍّ يطرق أبواب الضمير:﴿**ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة**﴾

فما أعظمها من آيات! صفعت بها السماء وجوه أولئك الذين أرادوا أن يُطفئوا نور العدل بعصبيّة الجاهلية، وأن يُقنعوا نبيّ الرحمة بأن القرابة تُغني عن البرهان، أو أن الإسلام غطاء لمن لبس الباطل ثوب الإيمان!

لكن محمدًا صلى الله عليه وسلم—الذي لا يحكم بهوى، ولا يُمالئ أحدًا على حساب الحق—وقف شامخًا على منبر العدل، وأعلن براءة اليهودي، وثبّت التهمة على طعمة، فلم يشفع له نسبٌ ولا ادّعاء إسلام، بل فرّ الجاني بعد ذلك من المدينة مذمومًا مدحورًا، لا تُقبل له توبة، ولا يُرفع له ذكر، وقد أصبح عبرة لكل خائن يتدثّر برداء الطهر ليُخفي دناءة الفعل.

أما اليهودي، فقد خرج مرفوع الجبين، لا لأن قومه أعانوه، ولا لأن ماله دفع عنه التهمة، بل لأن الإسلام نفسه—دين الله الخالد—هو الذي أنصفه، ونصره، ورفع صوته على الظلم، ليبقى صدى هذه القصة يُعلّمنا أن العدل في الإسلام لا يُهادن، وأن المحاباة ليست من شريعة محمد، وأن المظلوم، أيًّا كانت ملّته، له في ظلال الشريعة مأمنٌ وعدلٌ وكرامة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- وجوب تحكيم شرع الله في كل خصومة، وتصديق أن القرآن وحي من عند الله نزل ليُفصل بين الناس بالحق، قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾.
- إثبات صفة الحكمة لله عز وجل، فهو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويأمر نبيَّه أن لا يكون خصيمًا للخائنين.
- نزول الوحي في حادثة سرقة يدل على عناية الله بنصرة الحق ولو كان في شأن دنيوي، وهذا من دلائل صدق النبوة.
- في تصرف النبي صلى الله عليه وسلم عندما همَّ أن يحكم بالظن قبل نزول الوحي ثم امتثل للحق فورًا، دليل على عصمة الأنبياء من الإقرار على الخطأ، وتصحيح الله لهم بالوحي.
- أن عدل الإسلام شاملٌ للمسلم وغير المسلم، والنجاة عند الله لا تكون إلا بالحق، لا بالأسماء أو الدعاوى، فمن جادل عن الخونة في الدنيا لن يستطيع الجدال يوم القيامة أمام الله.
- انحراف بعض المنتسبين للإسلام عن العدل لا يقدح في الدين نفسه، بل الدين يتبرأ منهم، ويكشفهم، وينصر من ظلموهم، ولو كان المظلوم مخالفًا لهم في العقيدة.
- دلالة الآيات على أن الإسلام دين يُنصف حتى اليهودي إذا ظلم، وفي هذا رد على من يزعم أن الإسلام دين عنصرية أو عداء مطلق لأهل الكتاب، بل العبرة في الإسلام بالفعل لا بالدين وحده.

فوائد فقهية:

- أن العدل بين الناس فريضة واجبة لا يسقطها كون أحد الطرفين من المسلمين أو من الأقارب، أو حتى إن كان من أهل الظاهر الصالح، فالعدل يُقام على الجميع.
- وجوب إقامة الحجة قبل الحكم، وعدم الحكم بالهوى أو الميل للعاطفة أو العصبية، ولو كان الظالم ظاهر الإسلام، وكان المظلوم من غير المسلمين.
- يُؤخذ من الحادثة حرمة التجسس والتلفيق وإلقاء التهمة على البريء، وأن من فعل ذلك فقد أتى جُرمًا مركبًا من السرقة والبهتان.
- لا تُقبل التوبة ممن فرّ من إقامة الحد وتمادى في الكذب، ومات على ذلك، إذ التوبة لا تُقبل إلا بشروطها، ومنها رد الحقوق والاعتراف بالذنب.
- لا يجوز للقاضي أن يُجامل أحدًا في الحكم، ولا أن يحابي عشيرة، ولا أن يميل إلى الظن، ولو كان المتهم من أهل الفضل أو الصلاح الظاهري.
- لا يُبرأ أحد لمجرد نسبه أو كونه من المسلمين، بل تُراعى البينات، وهذا دليل على أهمية القرائن والأدلة في القضاء.
- براءة المظلوم يجب إعلانها صراحة، كما أعلنها النبي صلى الله عليه وسلم في حق اليهودي، وهذا لحفظ حقه ورفع التهمة عنه علنًا.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- أن العدل قيمة عليا لا تُنازع، ويجب أن تُقدم على كل اعتبارات العاطفة والانتماء، حتى لو خالف ذلك هوى النفس أو مصلحة الأقربين.
- لا شيء أفظع من أن يلبس الإنسان ثوب الطهر وهو خائن، فذلك يزيد قبح فعله ويفضح نفاقه، كما فعل طعمة بن أبيرق.
- الجرائم تتفاقم إذا صاحبها الكذب والمكر والتلفيق، فالجريمة الواحدة تتضاعف إذا تتابعت عليها صور الخداع.

- المسلم الحق لا يظلم أحدًا، ولو اختلف معه في الدين، فالمروءة والعدل من تمام الإيمان، وبهما يُعرف صدق التدين.
- الدفاع عن الباطل بدعوى العصبية أو لحفظ السمعة هو هلاك للنفس وللمجتمع، وهو من أخلاق الجاهلية التي جاء الإسلام ليهدمها.
- الاعتراف بالخطأ ورده إلى أهله، ولو بعد انكشافه، هو من علامات المروءة والرجوع إلى الله، لا التمادي في العناد والتبرير.
- من يفتعل الأكاذيب ليُبرّئ نفسه ظلمًا يُصبح عبرة للناس في سوء الخاتمة، وذُلّ المصير، كما حصل لطعمة.

فوائد دعوية وإصلاحية:

- على الدعاة وأهل الإصلاح أن يُرسّخوا في الناس أن الإسلام ليس غطاءً للمخالفات، بل هو دين الحق والعدل، ومن انحرف فقد خالف الإسلام لا مثّله.
- الواقعة درس للدعاة في بيان أن الانتصار يكون للحق لا للانتماء، ومن نصر ظالمًا بحجة القربى أو الصحبة فهو شريك في الظلم.
- يجب بيان عدل الإسلام مع غير المسلمين، وتذكير الناس أن العدل من القيم العالمية التي جاء الإسلام ليُتممها، لا ليُخفيها.
- لا يجوز إلباس الخائنين ثياب التدين والدعوة، كما تفعل بعض الفِرق المنحرفة التي تتستر بالإسلام وهي تسعى لنشر الفوضى، فالدين منهم بريء.
- الحكم العادل يرفع هيبة الدين، ويُبقي الثقة به في قلوب الناس، ولو كانوا من غير المسلمين، فالقاضي إذا عدل ملك القلوب.
- على الداعية أن يُعلّم الناس أن نُصرة المظلوم من شيم المسلمين، ولو كان المظلوم يهوديًا، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس اليوم يبرّئون الظالم إذا كان من جماعتهم أو حزبهم أو عشيرتهم، ويُهاجمون المظلوم لأنه "ليس منا"، وقد نهى الله عن هذا بقوله: ﴿ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾.
- يكثر في واقع المسلمين من يتستر خلف التدين وهو غارق في الخيانة والفساد، ويظن أن شكله أو اسمه الإسلامي يشفع له عند الناس، وهذه فتنة عظيمة.
- بعض القضاة والدعاة اليوم يجاملون الأقرباء وأصحاب النفوذ في أحكامهم وفتاويهم، ويُبدّلون أحكام الشريعة لهوى أو مصلحة، والحق أن العدل لا يعرف هوًى.
- كثير من الجماعات المنحرفة تفتعل الأكاذيب وتُلقي التهم زورًا لتُبرّئ أفرادها وتُدين خصومها، وهو من أخلاق الخيانة لا من نصرة الدين.
- البعض إذا وقع في جُرم لا يعترف، بل يبحث عن ضحية يلفّق لها التهمة، كما فعل طعمة، وهذا مشهد متكرر في دوائر العمل والإعلام بل حتى في البيوت.
- يوجد من يدافع عن الفاسدين والمفسدين لأنهم من نفس الفئة أو التوجّه، حتى لو ثبتت جرائمهم، فيخوض في الباطل دون ورع.
- ضعف العقيدة عند بعض الناس يجعلهم يتهاونون في أمر العدل، فيحسبون أنه يُقدَّم في حق من يُحبون فقط، لا على جميع الناس، وهذا من بقايا الجاهلية.

الفقرة الثامنة طبع لا يتغيّر... كيف قابل اليهود إحسان النبي وعدله؟

في المدينة المنوّرة، المدينة التي تفتّحت فيها أزهار العدل، وتفيّأت أرضها ظلال الرحمة، وأشرقت على أرجائها أنوار النبوة، أقام النبي صلى الله عليه وسلم دولةً لم تُبنَ على العصبية، ولا قامت على السيف والسوط، بل ارتفعت على أسس من الإنصاف والإحسان، وجعلت من العدل ميزانها، ومن الرحمة دستورها، ومن حفظ الحقوق مبدأها.

في تلك الدولة الفتيّة، التي جمعت شتات العرب واليهود، والمهاجرين والأنصار، والمسلمين والكتابيين، بل حتى من لم يؤمن بعد لكنه دخل في عهد رسول الله، نعم فيها اليهود بما لم يعهدوه في تاريخهم من أمان، فلا يُؤخذ أحدهم بجريرة غيره، ولا يُظلم في مال أو دم أو عرض، ولا يُكلفون فوق طاقتهم، ولا يُضرب فيهم بسوط الريبة والشك، بل عاشوا تحت ذمة الإسلام حياةً من الإنصاف والحرية والكرامة لم يعرفوها من قبل.

ولكن... ما أشد جحود القلوب إذا عشش فيها الحسد! وما أعظم لؤم النفوس حين تنكر الفضل وتكافئ الإحسان بالغدر!
هكذا كان حال اليهود في المدينة... خُلق لا يتغيّر، وقلوب لا تعرف الوفاء، وسرائر سوداء لا تزهر فيها شمس المعروف. ما قابلوا عدل النبي وإحسانه بالشكر، ولا استجابوا لرحمته بالمودة، بل أضمروا الحقد، وتستروا بالخيانة، وردّوا جميل العدل بمكر وكيد وخبث.

انظر إليهم وهم يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بألسنةٍ تهمس بالسمّ لا بالسلام، فإذا بهم يقولون له: "السام عليك" – أي الموت، لا الحياة – وهم يُخفونها بلبوس التحية، يتلفّظون بالكلمة الخبيثة في غلاف من الزيف، وهم يعلمون أنه يعي مرادهم، ولكنها طبيعة الخبث إذا استقر في الجَنان، لا يردعه علم، ولا ينهض له حياء.
وحين غضبت عائشة رضي الله عنها وردّت عليهم بما يليق، علّمها النبي صلى الله عليه وسلم أن يظل خُلق المسلم نقيًّا، حتى في وجه الخبث، وقال لها: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، وقد قلت: وعليكم»، فكان رفقه صلى الله عليه وسلم أبلغ رد، وعدله أعمق درس، وصبره مدرسة لا تُدرّسها الكتب.

لكن مكرهم لم يتوقف عند حدود الكلمات، بل تجاوزها إلى الأفعال الخبيثة... فقد بلغت بهم الجرأة أن سحروا النبي صلى الله عليه وسلم! نعم، سحره لبيد بن الأعصم، أحد يهود بني زريق، أخذ مشطًا وبعض شعرات، وسحره بها حتى أثر عليه بدنيًّا، لكنه لم يمسّ الوحي، ولم يُطفئ نور الرسالة، لأن الله تولّى نبيه بالحفظ، حتى أنزل عليه المعوذتين، فكانت شفاءً من السمّ والشرّ، ورُقيًّا من الحسد والمكر.
ومع أن الجريمة عظيمة، إلا أن النبي لم ينتقم، ولم يقتصّ، بل ترك الأمر لله، ليكون العدل مشفوعًا بالحلم، والصفح قرينًا بالقوة.

ثم كانت الطامة الكبرى... امرأة يهودية من خيبر تطهو الموت للنبي!
أعدّت له شاةً مشويّة، وملأتها سُمًّا زُعافًا، وسألت عن الموضع الذي يحبّه من اللحم، فزادت فيه السمّ، وأهدتها له، فلما أكل النبي منها مضغة، نطقت الذراع بلسان القدرة الإلهية، وقالت: "لا تأكلني، فإني مسمومة"، فتوقف صلى الله عليه وسلم، لكن الصحابي بشر بن البراء كان قد سبق إليه لقمة، فمات شهيد الغدر.
ولما سُئلت المرأة عن سبب فعلها، قالت بجرأة الباطل: "أردت إن كنت نبيًّا أن يمنعك الله، وإن كنت كاذبًا أُريح الناس منك!"، ومع ذلك... عفا عنها النبي أولًا، ثم أمر بقتلها لما مات بشر، ولم يكن ذلك انتقامًا، بل إقامة للحق، وإلا فقد سامحها أول الأمر، وهو قادر على القصاص منذ البداية.

أيّ بشرٍ هذا؟! وأي نفسٍ هذه؟! وأي قلبٍ يتسع لهذا الحلم والصفح، في وجه السحر والموت والغدر؟!
إنه محمد صلى الله عليه وسلم، نبيّ الرحمة، وحامل راية العدل، لا تزيده الإساءة إلا رقيًّا في خُلُقه، ولا تخرجه الفتنة عن إنصافه، حتى مع من يتربّص به ويكيد له.

فأي قوم هؤلاء اليهود؟! يعيشون في ظل نبي كريم، وعدلٍ لا يُجارى، ورحمة تفيض، ثم يردّون كل ذلك بالغدر والسمّ والسحر؟!

إنها طباع لا تتبدّل، وخسة لا تستحي، وعداوة لا تخبو جذوتها، كما قال الله عز وجل عنهم في محكم التنزيل:

﴿كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين﴾

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إقامة الدولة النبوية في المدينة كانت تأسيسًا عمليًا لعقيدة العدل والرحمة، فهي دولة لا تقوم على العصبية، بل على منهج الوحي والإنصاف، ما يؤكد أن العقيدة لا تنفصل عن واقع الحياة.
- حفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من آثار السحر البدنية وعدم تأثيره على الوحي، يدل على عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة، وهو من أصول العقيدة عند أهل السنة.
- إيمان المسلم بأن الله هو الحافظ والكافي، يظهر في إنزال المعوذتين لحماية النبي صلى الله عليه وسلم، مما يرسّخ التوكل على الله وحده.
- معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود بالحلم مع علمه بمكرهم، دليل على أن العدل ليس ضعفًا، بل هو التزام بشرع الله، وهذا أصل من أصول الإيمان بربوبية الله وعدله.
- حديث الذراع التي أنطقه الله تحذيرًا للنبي صلى الله عليه وسلم، يدل على قدرة الله الخارقة للعادة، وإثبات المعجزات الحسية لأنبيائه، وهي من دلائل النبوة التي تقوي إيمان المؤمنين.
- عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن المرأة اليهودية قبل أن يُقتل بشر بن البراء ثم الاقتصاص منها بعد موته، فيه بيان أن القصاص في الإسلام لا يكون بدافع الانتقام، بل هو حق شرعي لله وللمظلومين، وهذا من تمام الاعتقاد بعدل الله وأحكامه.
- وصف اليهود بالحقد والمكر والخبث رغم إحسان النبي إليهم، يوافق ما قرره الله عز وجل في القرآن عن طباع أهل الكفر من بني إسرائيل، وأنهم لا يؤمنون مهما رأوا من آيات، وهذا من الإيمان بالغيب الذي أخبر به الله.

فوائد فقهية:

- حماية الذمي في الدولة الإسلامية واجب شرعي، وله حق الأمان والعدالة ما دام تحت عهد المسلمين، وهذا أصل من أصول الفقه في باب أهل الذمة.
- لا يُؤاخذ أحد بجريرة غيره، ولا يُظلم في مال أو دم، وهو أصل فقهي في العدالة الجنائية في الإسلام، حيث لا تُقام الحدود أو العقوبات إلا على الجاني وحده.
- تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة الرفق حتى مع المسيء يدل على أن حسن الخلق ليس اختيارًا، بل هو تكليف شرعي في التعامل، خاصة في باب الرد على أهل الكتاب.
- عدم معاملة السحر بالسحر، بل بالرقى المشروعة والقرآن، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بقراءة المعوذتين، دليل على تحريم طرق السحرة والكهان ووجوب التداوي المشروع.
- قتل المرأة اليهودية بعد وفاة بشر، لا أولًا، فيه فقه دقيق في وجوب استيفاء شروط القصاص وارتباطه بتحقق الجناية، لا مجرد النية أو المحاولة.

- يجوز للولي الشرعي أن يعفو في القضايا الشخصية، ولكن إذا ترتب على الجناية قتل أو ضرر ظاهر فلا بد من إقامة الحد، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت بشر.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود رغم كيدهم، وتعامله بالرفق والحلم، يعلّم المسلم أن كمال الأخلاق لا يُظهره إلا التعامل مع المسيء.
- قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة: «إن الله رفيق يحب الرفق» يرسي قاعدة تربوية أن الغضب ولو كان مبررًا يجب أن يُضبط بميزان الحكمة.
- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الأذى المتكرر من اليهود يدل على أن القائد الحق لا يتصرف بدافع الانفعال، بل يتعالى على الإساءة ويتصرف بمسؤولية.
- إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لمن تحته في الذمة، وتعليمه أصحابه ذلك، يزرع في المجتمع قيمة الإنصاف ولو مع المخالف في الدين.
- كتمان الشر وإظهاره بلبوس الخير، كما فعل اليهود بقولهم "السام عليك"، يكشف خطر النفاق الأخلاقي، ويدعو المسلم للتحلي بالصدق في الأقوال والنوايا.

فوائد دعوية وسلوكية:

- الإحسان إلى أهل الكتاب ليس دعوة دينية لهم فقط، بل خلق دعوي راقٍ، يُظهر جمال الإسلام حتى لمن لا يؤمن به.
- الرد على الأذى بالدعاء المعتدل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وعليكم»، أسلوب عملي في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.
- إظهار صفات النبوة العملية في المواقف الشديدة أعظم تأثيرًا في هداية القلوب من الخطب والكتب، وهذا منهج نبوي في الدعوة.
- عدم الانسياق وراء ردات الفعل العنيفة حتى عند الغدر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، يعلّم الداعية أن لا يخسر أخلاقه عند استفزاز الناس.

مخالفات الواقع:

- انتشار الكراهية للعدل والتسامح مع أهل الذمة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، من بعض من جهلوا فقه التعامل مع غير المسلمين في الإسلام.
- كثرة من يُطالب بالانتقام والقصاص الفوري عند أي أذى، مخالفًا خلق الحلم والعفو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم.
- ظهور دعاوى التغريب أو التبشير الثقافي الذي يخدع الناس بألفاظ ظاهرها التسامح وباطنها العداء، كما فعل اليهود من قبل بقولهم "السام عليك"، وكما تفعله اليوم فرق المنافقين وأهل البدع المعاصرة تحت مسميات براقة.
- ضعف يقين كثير من المسلمين في حفظ الله وتقديره، رغم وضوح دلائل العناية الإلهية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وركونهم إلى الأسباب المادية وحدها.
- غفلة بعض المسلمين عن حقيقة السحر وخطره، واعتباره خرافة، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحر وثبت ذلك في الصحيحين، مما يدل على أن الإنكار سببه ضعف في الإيمان بالغيب.

- طعن بعض فرق أهل الضلال، كالخوارج المعاصرين أو أتباع العقلانية الزائفة، في حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم بزعم أنه يقدح في نبوته، متناسين العصمة في الوحي، وهذا طعن في الدين نفسه.
- تغليب مناهج الانفعال والثأر في العمل الإسلامي عند بعض أصحاب الفكر المنحرف، بدلًا من الاقتداء بخلق النبي صلى الله عليه وسلم في العدل والرحمة حتى مع العدو.
- ضعف التربية على الحلم والرفق في بيوت المسلمين، وغياب هذا الخلق في المؤسسات الدعوية والتربوية، على خلاف ما علّمه النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة.

انتهى هذا الباب ويليه الباب الثالث ان شاء الله تبارك وتعالى

الباب الثالث: حين أذِنَ الله بقتال من بغى... من الإذن إلى بدر الكبرى

مقدمة

بعد أعوام من الصبر والتضييق، والاعتداء والحرمان، وبعد أن أقام النبي صلى الله عليه وسلم دولته، وربّى أتباعه على التوحيد والصبر والإحسان... نزل الإذن الإلهي بالجهاد، لا ليكون سيفًا طائشًا، بل سيفًا منضبطًا بالوحي، لا يُرفع إلا لردّ العدوان، وكسر شوكة الطغيان.

بدأ هذا الباب من السيرة مع أول إشارات السماح بمواجهة الباطل بالسلاح، فكانت السرايا الأولى إشارات تمهيدية، ثم ارتفع صوت الوحي بإعلان الجهاد المشروع، حتى كان يوم الفرقان... يوم بدر الكبرى، الذي ميّز الله فيه الصفوف، ورفع فيه أعلام النصر لعباده الصادقين.

في هذا الباب نتابع رحلة الجهاد من لحظة الإذن، إلى أول نصر عسكري ظاهر في تاريخ الإسلام، فنرى كيف كان الجهاد عبادة، لا ثأرًا، ورحمة، لا همجية، ومدرسةً في القيادة والتوكل والتخطيط، قبل أن يكون ميدانًا للسيوف والرماح

الفقرة الأولى الإذن السماوي بقتال الظالمين... لماذا تأخّر؟

ثلاث عشرة سنة متوالية... والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الصادقين يرسفون في قيود الظلم، ويكتوون بنيران الأذى، ويُسلَّط عليهم قوم لا يعرفون للرحمة وجهًا، ولا للعدل طريقًا.
ثلاث عشرة سنة تتوالى، وسياط القهر تُلهب ظهور الضعفاء، وصخور البطش تُثقل صدورهم، وقيود الجاهلية تحاصر دعوتهم، تُسفك دماؤهم في الطرقات، ويُسحبون على الرمال كأنهم لا وزن لهم في أعين الظالمين، تُنهب أموالهم، وتُكسر بيوتهم، ويُطردون من أوطانهم، لا لشيء إلا لأنهم قالوا: ربنا الله.

والعجيب، بل المعجزة في ذاته... أنهم لا يردّون أذى بأذى، ولا يواجهون بطش الظالمين بالسيف، ولا يغضبون لأنفسهم وقد قُطّعت أجسادهم وأُهينت كرامتهم، بل صبرٌ يتلوه صبر، وحِلم يتبعه حِلم، وكأنهم يُعِدّون أرواحهم لمرتبة أعلى، وكأنما الجراح تصقلهم لا تُضعفهم، وتطهرهم لا تُهدّهم.

حتى جاء يوم من أيام مكة الحالكة، جلس فيه خباب بن الأرَتّ، وهو عبد مستضعف، حُرِّق ظهره بنار الكفر، وتقرّح من شدّة السياط، فزحف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يئن أنين المكلوم، ويخنق صوته الألم، وقال كلمته الخالدة، التي

كانت ترجمانًا لأنين المقهورين في كل عصر:
"يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟"!

وهنا، تتجلّى صورة النبوة في أبهى معانيها... لم يجب النبي بكلمات تُذكي نار الغضب، ولا بشكوى تستنهض الثأر، بل ذكّره، وذكّرنا، أن الطريق إلى النصر مفروش بالألم، وأن السالكين له لا بد أن يُبتَلوا حتى يُمحّصوا، فقال صلى الله عليه وسلم:
"كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُشق باثنتين، ما يصده ذلك عن دينه"!

يا الله! أيّ صبر هذا؟! وأي مدرسة ربّانية هذه التي تُخرّج رجالًا يُشقّون نصفين ولا يتزحزحون عن عقيدتهم؟!

لقد كانت تلك السنوات الثلاث عشرة – في حقيقتها – ليست سنوات قهر، بل دورة تربوية ربانية، تُخرّج جيلًا يعرف كيف يصبر حين يكون الصبر فقهًا، ويقاتل حين يكون القتال فريضة.
جيلٌ تخلّص من حظوظ النفس، وتحرر من نوازع الانتقام، وتشرب أن الجهاد ليس غضبةً طائشة، ولا سيفًا يُستلّ حين يُستفز الشعور، وإنما هو طاعة لله، وميزانُه الحق، وغايته رضا الله ورفع الظلم لا تشفي الصدور.

فلما نضج الإيمان، واستوى عوده، واشتدّ ساعده... جاء الإذن المنتظر، لا من الأرض، بل من فوق سبع سماوات، ليُخلّد في القرآن آية من نور وعدل:﴿**أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ [**الحج: ٣٩**]

فيا لها من آية!
ويالله من إذن!
إذنٌ بدأ بإثبات مظلوميتهم، لا بشحنهم على القتال، إذ لم يكن القتال طموحًا لهم، ولا منطلقهم الطمع أو الحمية، بل هم أُذن لهم بعد أن استُنفدت كل سُبل السلم، وبعد أن فُتحت كل نوافذ البلاء، وبعد أن طُعنوا في كل ما يملكون، في النفس، والمال، والدين.

ثم جاءت الآية التالية تُزيد المشهد بيانًا:﴿**الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍ إلا أن يقولوا ربُنا الله**﴾

فأيّ ظلمٍ أشد من هذا؟! وأيّ دعوة في التاريخ دُفعت من أرضها فقط لأنها قالت الحق؟! فهل يُلام المؤمن إذا ذاد عن دينه؟ وهل يُعاب المظلوم إذا رفع رأسه ليدفع عن نفسه البغي؟

وما أعظمها من حكمة، أن يبدأ الجهاد في الإسلام لا بالأمر، بل بالإذن! وكأن الله يُربّي القلوب على أن هذا الطريق لا يُسلك إلا بتأنٍّ، وبميزانٍ من التقوى لا من الحماسة، ليعلم كل من يحمل السلاح في الإسلام أن الجهاد ليس طريقًا للثأر، ولا وسيلة للغضب، ولا منصة لتفريغ الحقد، وإنما هو عبادة... عبادةٌ لا تقلّ في عظمتها عن الصلاة والصيام.

ثم جاءت سورة الأنفال تُجلي المقصد الأسمى من القتال، فقال تعالى:﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾
فالغرض الأسمى: إزالة الفتنة، وكسر قيود الطغيان، وتحرير الناس من عبودية البشر إلى عبودية الله وحده، لا السيطرة على الأوطان، ولا سفك الدماء، ولا فرض الدين بالقوة.

وهكذا... طوى الإسلام صفحة الصبر الجميل، وفتح صفحة الدفع النبيل، وارتفعت راية الجهاد لا على حطام الأحقاد، بل على أساس الرحمة والعدل، وبدأ التحوّل الأعظم في تاريخ الدعوة: من فقه الضعف إلى فقه التمكين، ومن كظم الغيظ إلى فقه الدفع، ومن الآهات المكبوتة، إلى زئير السيوف في وجه الطغيان.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثلاث عشرة سنة على الحق دون أن يردوا الأذى، هو دليل على أن العقيدة تُبنى أولًا على الصبر والإيمان، لا على الانفعال والاندفاع، فالإيمان قبل القوة.
- تأخر الإذن بالقتال حتى يكتمل التمحيص يرسّخ في قلوب المؤمنين أن النصر بيد الله، وأن الأمر لله وحده، لا لمنطق القوة ولا الحماسة، وهذا من تمام التوحيد في تدبير النصر.
- ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ابتلاء من قبلهم، وفيه بيان أن طريق العقيدة هو طريق تمحيص، وهو ابتلاء من الله لعباده، ليميز الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون﴾.
- كون الجهاد جاء بالإذن لا بالأمر يرسّخ أصلًا عقديًا عظيمًا وهو أن التشريع كله لله، وأنه لا يتحرك المؤمن إلا بإذن ربه، وليس بناء على دوافع بشرية أو غايات دنيوية.
- الآية: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ تُبيّن أن الأصل في التشريع هو إزالة الفتنة لا فرض الدين، وهذا من عدل الله في أحكامه، ومن توحيده في التشريع والمقاصد.
- نُصرة الله للمظلومين جاءت من السماء، وهذا من أصول العقيدة في وعد الله بنصرة عباده المستضعفين متى تحققوا باليقين والتمكين في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾.

فوائد فقهية:

- الأصل في التعامل مع الباطل وأهله هو الصبر ما دام المسلمون في حالة استضعاف، والقتال لا يُشرع إلا بإذن من الله، وفق المصلحة الشرعية وليس ردات الفعل.
- جهاد الدفع في الإسلام لا يكون لمجرد رد الظلم فحسب، بل لا بد أن تتحقق فيه نية العبادة ورفع الفتنة، وإزالة الطغيان، وفق ضوابط الشرع.
- القتال في الإسلام لا يكون ابتداءً، بل لا يُفتح إلا بعد استنفاد سبل السلم، وهذا أصل فقهي مهم يميز الإسلام عن مذاهب البغي والعدوان.
- الجهاد عبادة وليس سياسة ولا وسيلة ضغط، ويشترط لصحة العبادة الإخلاص والمتابعة، وهذا يُفهم من تأخر الإذن وبداية الجهاد بالإذن لا بالأمر.
- سورة الأنفال تُبيّن المقاصد العليا من الجهاد، وهو إزالة الفتنة، وإفراد الدين لله وحده، لا لتحقيق مطامع سياسية أو توسعية.
- لا يُلام المظلوم إذا دافع عن دينه وعرضه، وهذا أصل في فقه الدفاع المشروع، ورد الاعتداء إذا بلغ غايته، وهو من فروض الكفايات إذا توفرت الشروط.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذى قومه، وعدم رده العدوان بالعدوان، هو أعظم درس في التحكم بالغضب، وضبط النفس، وانتظار أمر الله.
- تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن الابتلاء سنة ماضية في طريق الدعوة، يُربّي الجيل المؤمن على الثبات أمام المحن.
- الصبر الطويل قبل التمكين كان مدرسة ربانية أعدت القلوب لتكون قوية بالإيمان لا بالسلاح فقط، فالتربية تسبق النصر.
- تخلص الصحابة من حظوظ النفس هو الذي أهّلهم لحمل راية الجهاد بعد أن أصبحوا لا يتحركون بدافع الانتقام بل بنية

العبادة.

- تحويل الجراح إلى طاقة دعوية، والصبر إلى رصيد إيماني، هو درس في كيفية البناء الداخلي للإنسان المسلم، ليكون صالحًا للتمكين.

فوائد دعوية وسلوكية:

- الجهاد لا يبدأ في الإسلام بالغضب والانفعال، بل يبدأ بترسيخ العقيدة والصبر الطويل، وهذه قاعدة عظيمة في فقه الدعوة والتغيير.
- خباب بن الأرَتّ لم يخرج على الناس يشكوا، بل توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا منهج تربوي في ضبط الغضب وتوجيهه للقيادة الربانية.
- التدرج في الدعوة والبناء النفسي للجيل الأول يثبت أن الإصلاح لا يأتي بالثورات المتهورة، بل بالصبر والبصيرة والعمل المتواصل في تربية النفوس.
- لا يكون المجاهد الحقيقي جاهزًا للقتال حتى يُجرد نفسه من الأحقاد، ويتحرر من الغضب، ويكون مخلصًا لله، لا باحثًا عن مجد أو تشفٍ.
- التربية على أن الجهاد ليس لإراقة الدماء، بل لرفع الظلم وحرية العقيدة، تُصلح نية المجاهد وتوجه سلوكه ليكون نافعًا لا هادمًا.

مخالفات الواقع:

- تساهل بعض الفرق المنحرفة في إعلان القتال دون إذن شرعي ولا ضوابط فقهية، بل بدافع الحماسة أو الغضب، مما شوّه مفهوم الجهاد، وجرّ على الأمة الويلات.
- انتشار أفكار الثأر والتكفير والانتقام بين الشباب دون تربية عقدية وأخلاقية تسبق ذلك، مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في التدرج.
- استغلال بعض الجماعات المنحرفة لمظلومية الأمة كذريعة لتبرير الفوضى والقتال العشوائي، دون الرجوع لأهل العلم والفتوى، مخالف لمنهج النبوة.
- اعتبار القتال وسيلة للتعبير عن الغضب السياسي أو الظلم الاجتماعي، كما تفعل فرق البدع الثورية، مخالف للمقصد التعبدي الذي جعل الجهاد عبادة.
- بعض من يُحاربون في هذا الزمان لا يعرفون أن الجهاد لا يُستحل إلا بإذن شرعي وتحت راية صحيحة، ويعتبرون ذلك تقليدًا أعمى، كما تفعل فرق الخروج والضلال.
- تصوير النصر وكأنه لا يأتي إلا بالسلاح، وتجاهل التربية والصبر، يفتح بابًا للغلو، ويخالف السنن الربانية في التمكين.
- خلط كثير من دعاة الحماسة بين الجهاد المشروع والفتنة الممنوعة، مما أضر بالدعوة وشوه صورة الإسلام في العقول والقلوب.

الفقرة الثانية: سرية عبيدة بن الحارث... حين رُفع أول لواء للجهاد، وبدأ الطريق إلى بدر

كان الإسلام في المدينة يومها كغصنٍ طريّ خرج للتو من رحم الأرض، لم تشتد عروقه بعد، ولم تكتمل أوراقه، لكنه كان حيًّا نابضًا، تتفجّر في عروقه دماء الإيمان، وتشتعل في أطرافه جذوة اليقين، جذوةٌ لا يطفئها ماء، ولا تهزمها ريح، لأن لها أصلًا في السماء.

ووسط أجواء الحذر والانتظار، وحالة من الترقّب المشوب بالقلق، وبين أمل يتراءى في الأفق، وخطر يُحدق من كل ناحية... كان لا بد أن تُكتب الصفحة الأولى من صفحات الجهاد، وكان لا بد أن يُرفَع أول لواءٍ يُعلن أن الدعوة التي وُئدت في مكة، بدأت تبعث في المدينة حياةً جديدة، وإن كانت الأعواد ما زالت غضّة، إلا أن العزم فيها أشد من الحديد.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، بإعلان أول خطوة على طريق الجهاد، فاختار رجلًا من خاصّته، ابن عمّه، وابن عمّ بيته، عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه، الصحابي الجليل الذي كان الإيمان قد صاغ قلبه من نور، وأعدّه ليكون صاحب الشرف الكبير... شرف حمل أول راية في سبيل الله.

خرج عبيدة رضي الله عنه في ستين رجلًا من المهاجرين الصادقين، ولم يكن بينهم من الأنصار أحد، فالعهد لا يزال قريبًا، والقلوب تتهيأ، والبيعة لم تكتمل فصولها بعد، والإذن بالقتال حديث عهد بالسماء، نزل يتهادى على قلوب تتشوّق للثبات لا للثورة، وللبناء لا للانفجار.

سار العبيديون المهاجرون، يطوون الرمال بنعال الثبات، حتى بلغوا موضعًا بالحجاز يُقال له **بطن رابغ**، على طريقٍ تمرّ منه قوافل قريش، وأعينهم تترقّب، وقلوبهم تخفق، لا طلبًا للدماء، بل لإبلاغ رسالة: *إن للمسلمين اليوم كيانًا، وإن قوافل الظالمين لن تمرّ في أرض الإسلام دون نظر.*

وكانت قافلة قريش بقيادة أبي سفيان تمرّ بالمكان، ومعه ثلاثمئة من فرسان قريش، مدجّجون بالسلاح، مزهوّون بالقوة، مطمئنّون إلى عُرف الجاهلية أن من لا يقاتل لا يُحسب له حساب.
لكن الصدمة لم تكن في نزال، بل في مشهد فريد... رجلان من رجال قريش يخرجان من صفوفها، ويتركان الركب، ويتوجّهان بخطى ثابتة نحو معسكر المسلمين، ليخلعا عن نفسيهما عباءة الشرك، ويلبسا ثوب النور، ويضعا أقدامهما على طريق الهجرة واليقين... إنهما: **المقداد بن عمرو**، و**عتبة بن غزوان**، كانا في ذلك اليوم شهوديْن على صدق الرسالة، وعلى أن القلوب إذا صدقت، فلن يثنيها جمع ولا جيش.

وعادت السرية إلى المدينة دون أن يُرفع فيها سيف، لكن سُجّلت في دفاتر التاريخ كأول نَفَس للجهاد، وأول صفعة لهيبة قريش، وأول تحرّك يُعلن أن مرحلة الإعداد قد بدأت، وأن الطريق إلى بدر لم يكن وليد اللحظة، بل خُطوة تلو خطوة، ومرحلة بعد مرحلة، يمهّد الله لها برجالٍ من معدن الذهب المصفّى.

لقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم لواءه الأول، ورفعه عبيدة رضي الله عنه، فكانا سطرين عظيمين في مقدمة قصة التمكين، فالقافلة بدأت تسير، والأرض بدأت تشهد ميلاد أمة، والسماء تُمهّد لنصر آتٍ، وبدر تلوح في الأفق البعيد، تنتظر رجالها.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- رفع أول راية للجهاد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد أن الجهاد لا يكون إلا بإذن الشرع، وأنه عبادة توقيفية لا مجال فيها للأهواء والاجتهادات الفاسدة.
- اختيار عبيدة بن الحارث رضي الله عنه لحمل أول لواء فيه إشارة إلى أن القيادة في الإسلام تُعطى لأهل الإيمان والتقوى، لا لأصحاب الشوكة والمنعة فقط، وهذا من توفيق الله لأوليائه.
- إسلام المقداد وعتبة في ذلك الموقف، رغم شدة المواجهة المحتملة، يُظهر أن الهداية بيد الله، وأن القلوب إن صدقت،

فإن الله يشرح لها الصدر، ولو كانت في وسط جحافل الكفر.

- خلو السرية من الأنصار مع كونهم في المدينة، فيه دلالة على أن النبوة لا تُخضع الناس للواجبات قبل التمهيد والتدرج، وهذا من حكمة الشريعة، ومن الإيمان بأن التكليف يكون على قدر الطاقة والاستعداد.
- عودة السرية دون قتال، رغم الاستعداد لذلك، هو دليل على أن الجهاد في الإسلام ليس غاية في ذاته، بل وسيلة محكومة بالحكمة والضوابط الشرعية، فهو خاضع لأمر الله، لا لرغبة الناس أو تهورهم.
- هذه السرية كانت بداية الطريق إلى بدر، وبدر من أعظم دلائل النصر الإلهي، ما يؤكد أن النصر لا يكون مفاجئًا، بل بقدر الله وبسُننه التي تمشي على مراحل التمحيص والتدرج والإعداد.

فوائد فقهية:

- بداية القتال في الإسلام لم تكن بهجوم مباشر بل بسريّة مرابطة ترسل رسالة ردع، وهو أصل فقهي في فقه الجهاد يُسمّى "التخويف والتهيئة"، وهو غير القتال الفعلي.
- يُستفاد من تأخر مشاركة الأنصار أن العقود والبيعة تُراعى في الفقه الإسلامي، فلا يُكلّف أحد بشيء قبل تمام العقد، وفيه احترام للعهود والمواثيق.
- انسحاب السرية بعد تحقق غرضها الدعوي لا يُعدّ فشلًا، بل يُعلّم أن من مقاصد الجهاد: البلاغ وإظهار القوة، لا مجرد خوض المعركة، وهو من فقه المقاصد.
- لم يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالغارات المباغتة، بل ببعث سرية تُظهر الموقف وتنتظر الفعل، مما يُقرّر أصلًا فقهيًا في احترام أمان الناس ما لم يظهر العداء.
- إسلام رجال من قريش أثناء المواجهة دون قتال، يُبيّن أن الجهاد لا يُلغِي أثر الدعوة، بل قد يكون مقدمة لإقناع قلوبٍ لم تهتدِ بالكلمة، فكان الموقف جاذبًا لهم، لا طاردًا.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- بدء السرايا برجال من المهاجرين فقط، وهم الأشد إيمانًا وصبرًا، فيه حكمة تربوية، وهي أن أهل الشدائد هم من ينبغي أن يكونوا في الصفوف الأولى للتكليف.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لعبيدة لحمل الراية يدل على فقهه التربوي، في تكليف الأكفاء بأدوار تناسب مكانتهم، بما يُشعرهم بالشرف ويزيد ولاءهم.
- وصف المهاجرين بأنهم "يطوون الرمال بنعال الثبات" يُجسّد أخلاق الصبر والتحدي والثبات في سبيل الله، وهذه من القيم التربوية العليا.
- عدم رفع السيوف رغم وجود العدو، فيه تربية على الانضباط وضبط النفس، وهي صفة قلّ من يملكها في لحظات التوتر، لكنها من دلائل الإيمان الراسخ.
- ارتداد اثنين من صفوف قريش إلى معسكر المسلمين فيه عبرة أن القلوب الصادقة لا تبقى طويلة في جبهة الباطل، وهذا يربي المؤمنين على حسن الظن بهداية الناس مهما بدا حالهم ظاهريًا.

فوائد دعوية وسلوكية:

- السرية لم تكن مجرد تحرك عسكري، بل كانت بلاغًا دعويًا يُعلن للعالم أن الإسلام أصبح له كيان يُدافع عنه، وهذه من وسائل الإعلان الحضاري للدين.
- إسلام المقداد وعتبة في ذلك الموضع يدل على أن المواقف الحازمة في سبيل الله قد تكون أبلغ من آلاف الخطب في

زعزعة قلوب أهل الباطل ودفعهم نحو الهداية.

- لم تكن السرية انتقامًا أو ردًّا لظلم قريش، بل كانت بلاغًا بأن الدعوة لا تموت، وهذا الفرق الجوهري بين فقه الثأر وفقه الدعوة.
- المنهج النبوي في التدرج بالسرايا قبل الدخول في معركة بدر الكبرى هو درس لكل من يعمل للدين، أن لا يستعجل الثمار، بل يسير بخطى ثابتة متأنية.
- عودة السرية دون قتال فيه دعوة عملية لكثير من الناس أن النصر لا يُقاس بإراقة الدماء، بل بتحقيق الأهداف المرحلية، وأن كل خطوة على طريق الدعوة محسوبة ومقصودة.

مخالفات الواقع:

- انحراف بعض الفرق في زماننا، حيث يرفعون رايات القتال باسم الدين دون إذن شرعي، ويبدأون الدماء قبل الدعوة، مخالفين بذلك المنهج النبوي في التدرج والبناء.
- تساهل كثير من الجماعات الخارجة عن منهج أهل السنة في اعتبار أي مواجهة مبررًا للجهاد، دون فقه في المواثيق والعقود، كما فعلت بعض الفرق الثورية، فضلّوا وأضلوا.
- يظن بعض المتحمسين اليوم أن الدعوة لا تُثبت إلا بالانفجار، ولا يكون للإسلام قوة إلا بالصدام، بينما أول سرية في الإسلام عادت دون قتال، ومع ذلك كانت فتحًا معنويًا كبيرًا.
- غفلة كثير من المسلمين عن أن الجهاد وسيلة وليس غاية، فراحوا ينشئون الصراعات طلبًا للحرب، لا ابتغاءً لرفع الظلم أو تحقيق مقاصد الشرع.
- تسرب عقلية التهور عند بعض المنتسبين للعمل الإسلامي، ورفضهم لفكرة التدرج، ومخالفتهم للمنهج النبوي الذي سار خطوة خطوة نحو التمكين، لا قفزًا على الواقع.
- تصوير القوة العسكرية على أنها المعيار الوحيد لحضور الإسلام في الساحة، مع إغفال أثر التربية والإيمان واليقين، رغم أن أول تحرك في الإسلام كان بروح الإيمان لا بروح المواجهة.

الفقرة الثالثة: سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه... أسد الله يواجه أبا جهل

في لحظةٍ كان فيها ليل الظلم لا يزال مخيّمًا فوق ربى مكة، وكانت نيران الحقد في صدور قريش تزداد اشتعالًا على دين الله، وبينما كانت المدينة تنفض عن كتفيها غبار الاضطهاد، وتتهيّأ لتكون منارة النور، ومقرّ السيادة، انطلقت أولى إشارات التحوّل من الدعوة إلى الدولة، ومن الصبر إلى الدفع، ومن السكوت الطويل إلى رسم الملامح الأولى للجهاد.

وفي هذا السياق الجليل... أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سريةً أخرى بعد سرية عبيدة بن الحارث، لتُعلن لمكة أن زمن الاستضعاف قد ولّى، وأن لأهل الإيمان اليوم رايةً وراية، وسيفًا وجنودًا، وصوتًا لا يُسكَت، وعزمًا لا يُكسر.

وكان على رأس هذه السرية رجلٌ ليس كغيره من الرجال... بل أسدٌ من أسود الله، سُمِّي بذلك من فوق سبع سماوات، وسُمِّي به في الأرض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، إنه البطل المغوار، والمجاهد الجسور **:حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.**

خرج حمزة في ثلاثين فتى من المهاجرين، لا يحملون معهم سوى الإيمان الصادق، ولا يتسلّحون إلا بالعقيدة التي زلزلت قلوب الطغاة، وكان هدفهم قافلةً لقريش تمرّ على ساحل البحر، في مكان يُعرف بـ"سيف البحر"، وقد خرجت مزهوّة

بما تحمله من بضائع وقوة، وعلى رأسها كبير الطغاة :**أبو جهل عمرو بن هشام**، يقود معه ثلاثمئة رجل من جبابرة مكة وصناديدها.

يا لروعة هذا المشهد!
ثلاثون قلبًا نابضًا بالإيمان، يواجه ثلاثمئة صدرٍ منتفخٍ بالغرور والكفران!
ثلاثون سيفًا تلمع في أيدي أهل الحق، أمام مئة ضعفها من سيوف الباطل!
ما أضعف الكثرة إذا خلت من النور... وما أعظم القلة إذا عمرها الله باليقين!

لقد تقابل الفريقان على حافة البحر، وكادت أن تكون أول مواجهةٍ دامية، لكن الله بلطفه ساق رجلاً حكيمًا إلى ساحة التوتر ...**مجدي بن عمرو الجهني**، وكان حليفًا للفريقين، فدخل بينهما كما يدخل البلسم على الجراح، وهدّأ النفوس، وامتصّ الغضب، حتى انفض الجمع دون أن تُراق قطرة دم، ودون أن تُشهَر السيوف.

وعاد حمزة ورجاله الأبطال إلى المدينة، دون قتالٍ ولا غنائم، لكنهم عادوا وقد كتبوا في تاريخ الدعوة سطرًا جديدًا، سطرًا يقول: إن الإسلام بدأ ينهض بسيفه، وأن أعداءه لن ينعموا بالأمان بعد اليوم.

وقد كان في هذه السرية شرفٌ آخر... شرف رفع أول راية في تاريخ الجهاد في الإسلام، رايةً بيضاء نقية، لا تُلطّخها الجاهلية، ولا تُدنّسها الأحقاد، قد حملها بطلٌ آخر من رجالات الإيمان :**أبو مرثد الغنوي رضي الله عنه**، فكان أول من تشرف بأن ترفرف راية الإسلام بين يديه في مواجهة قريش.

وهكذا... سُطّر في سجل المجد فصلٌ جديد، يعلنه أسد الله، وتخفق رايته فوق الرمال، ويشعر به الطغاة في مكة، أن عهد الصمت قد انقضى، وأن للحق رجالًا، إن لم يقاتلوا اليوم... فهم للغد قادمون، وإن لم تُشهر سيوفهم بعد... فصليلها قريب.

فهل لك أن تتخيل كم كانت هذه السرية، وإن لم يُسفك فيها دم، شعلةً أيقظت في الأمة أولى مشاعر العزة؟!

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الجهاد في الإسلام لا يقوم على العصبية ولا حبّ الانتقام، بل على عقيدة التوحيد ورفع راية الدين، كما خرج حمزة رضي الله عنه وجنوده لا يحملون إلا الإيمان.
- النصر ليس مرتبطًا بالكثرة والعدة، بل بعون الله ويقين المؤمنين به، فثلاثون مؤمنًا وقفوا بثبات أمام ثلاثمئة من صناديد الكفر.
- من عقيدة أهل السنة أن الله يسوق الأسباب بحكمته، ومن ذلك مجيء مجدي الجهني لحقن الدماء، وهو تصرفٌ يدل على أن الله يُجري اللطف على أيدي من يشاء من عباده.
- رفع الراية البيضاء رمزٌ لنقاء التوحيد، فليس في الإسلام دماء تسفك ظلمًا، بل راية الجهاد تُرفع على العدل والدعوة.
- من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن دعوته لم تكن عشوائية، بل منظمة، تسير وفق وحي وتدبير إلهي واضح المعالم، حتى في إرسال السرايا الأولى.

فوائد فقهية:

- يجوز إرسال السرايا واستعمال القوة الرادعة إذا ظهر للمسلمين القدرة، وكان ذلك لمصلحة الدين، وهذا من باب السياسة الشرعية القائمة على تحقيق مقاصد الشريعة.

- جهاد الدفع يُشرع إذا تعرض المسلمون للخطر، وإن لم يقع قتال، فمجرد إرسال السرية فيه رسالة ردع وتأمين للمجتمع المسلم الناشئ.

- يجوز للإمام أن يُرسل من يقوم بالمهمات الدفاعية قبل إعلان الحرب الشاملة، وذلك لحماية الدولة الوليدة وتأمينها.

- اتُّخذ من رفع الراية سُنّة في الجهاد، تُعرف بها جبهة المسلمين، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين وضع أول راية بيضاء في الإسلام.

- لا يُشترط وقوع قتال لتحصيل أجر الجهاد، فهذه السرية رجع أصحابها بلا غنيمة ولا دم، ومع ذلك نالوا شرف السبق والجهاد.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- في سيرة حمزة رضي الله عنه دروس في الشجاعة المقيدة بالحكمة، فلم يكن الاندفاع من أجل القتال، بل لنصرة الحق مع ضبط النفس عند الحاجة.

- موقف مجدي الجهني يعلمنا أثر الكلمة الطيبة والتصرف الحكيم في نزع فتيل الفتنة، حتى في أشدّ لحظات التوتر.

- رفعة النفس لا تكون بالغلبة الظاهرة، بل بالثبات على المبدأ، وهو ما أظهرته هذه القلة المؤمنة في وجه الطغيان.

- القائد الحق هو من يربّي رجاله على الإيمان أولاً، لا على الطمع في الغنائم، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين أرسل سرية لا تطلب دنيا، بل عزّة الدين.

- في هذه السرية تربية عملية على التحمل والصبر وعدم التسرع في القتال، رغم استفزاز الأعداء وكثرة عددهم.

فوائد دعوية وسياسية:

- إرسال السرايا في بداية تكوّن الدولة الإسلامية رسالة دعوية سياسية بأن المسلمين أهل قوة لا يُستضعفون.

- هذه السرية تمثّل مرحلة الانتقال من الكتمان إلى الجهر بالدعوة وبسط النفوذ، وهو جزء من فقه التمكين التدريجي في الأرض.

- في دعوة الإسلام مزجٌ بين اللين والحزم، وهذا ما ظهر من خروج السرية ثم حقن الدم، ليعلم الناس أن الإسلام لا يطلب القتال إلا ضرورة.

- ظهور راية الإسلام الأولى أمام قريش إعلان رسمي أن للإسلام راية مستقلة عن جاهلية قريش، لا تتبعهم ولا تخضع لهم.

- كانت السرية بمثابة إعلان تأسيس لمهابة الدولة الإسلامية، وبداية رسم ملامح الأمة التي تحمي عقيدتها وسكانها.

مخالفات الواقع:

- كثير من المسلمين اليوم يرون العزة في التبعية لقوة الكثرة والماديات، وينسون أن قوة المؤمن في يقينه لا في عدده.

- ضعف التربية العقدية والربانية عند بعض شباب الأمة، يجعلهم يتعاملون مع الجهاد كوسيلة انتقام لا دعوة قائمة على العدل والرحمة.

- انشغال كثير من الحركات المنحرفة بـ"التمكين السياسي" ولو على حساب الدماء البريئة، بخلاف منهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي ضبط اندفاع القوة برشد الوحي، فلم يُسفك دمٌ في هذه السرية رغم وجود العدو.

- بعض الفرق الضالة – كالخوارج والمرجئة – يفرّطون أو يُفرّطون في فهم الجهاد، فالأولى تراه قتالًا مستمرًا بلا حكمة ولا إذن شرعي، والثانية تُبطله بالكلية، وكلا الفريقين على ضلال.

- تساهل بعض الناس في اتهام العلماء والدعاة بأنهم لا ينصرون الدين إن لم يُشهروا السيوف، بينما هذه السرية تثبت أن العزّة قد تكون بالثبات وإرسال الرسائل لا بإراقة الدماء.

- كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم لا تُقيم وزنًا لرمزية الراية الشرعية، فترفع شعارات الجاهلية والفرق، بدلاً من أن تجتمع تحت راية الإسلام النقية.

- في واقعنا من يُشعل الفتن بدلاً من أن يطفئها، ويزيد الاحتقان بين أبناء الأمة، بينما مجدي الجهني بحكمته أنقذ الموقف بلا قتال.

الفقرة الرابعة: سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه... الطلقة الأولى في ملحمة الجهاد

ها هي خُطى الجهاد تمضي وئيدةً في ظاهرها، لكنها عميقة الأثر، تمهد السبيل نحو أعظم مشهد فاصِل ستشهده البشرية على ثرى "بدر"، حيث ستتكسر هيبة الباطل على صخرة الإيمان.
من سرية إلى أخرى، كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يُخرّج فرسان العقيدة، ويغرس فيهم معاني الفداء، ويُعلن لقريش، بل للعالم أجمع، أن عهد القهر قد انقضى، وأن للإسلام رجالًا لا يهابون الردى، قد باعوا أرواحهم لله، واشتروا الجنة.

وفي سياق هذه التربية الجهادية النبوية، كانت السرية الثالثة التي أُرسلت بعد الهجرة، فاختار لها النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا ليس ككل الرجال... رجلًا من العشرة المبشَّرين، ومن أوائل من أسلم، ومن أمهر الرماة الذين نفخر بهم في تاريخنا: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ذلك الشاب الذي كانت دعوته مستجابة، ويده لا تخطئ، وعقيدته لا تلين.

انطلق سعد في سرية خفيفة، لا يتجاوز عددها ثمانية رجال، كلهم من المهاجرين، دون أن يصحبهم أحد من الأنصار، فالعهد لا يزال قريبًا، والبذور الأولى لمجتمع المدينة لم تكتمل نضجًا بعد.
وكانت وجهتهم منطقة "الخرّار"، على الطريق الواصل إلى مكة، يرصدون قافلة تجارية لقريش مضت قبلهم بأيام، هدفهم لم يكن القتال الصريح، بل قطع شريان الإمداد، وزلزلة أمن القوافل، وإرباك حسابات قريش.

ولم تقع مواجهة، لكن وقع في تلك الرحلة ما سطّره التاريخ بماء الفخر:
لقد انطلق أول سهم في سبيل الله...رمى به سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ليكون أول من سنّ سنة الجهاد بالسهم

والرمح، ويكتب اسمه بحروفٍ من نور في سجلّ الخالدين.
كان ذلك السهم رسالة صامتة لكنها مدوية، تنذر بأن هذا الدين لن يُحمى بعد اليوم إلا بالدماء الزكية، والتضحيات الجليلة.

عادت السرية إلى المدينة دون قتال، لكنها عادت تحمل "شرف الشرارة"، ووسام البداية.
لقد انطلق سهم التغيير، وانطلقت معه ملحمة الكفاح المقدّس...
ملحمة ستصل في فصولها إلى بدر، ثم تفتح أبواب مكة، وتنشر نور الإسلام في الدنيا، وتُخلِّد أسماء المجاهدين في سجلات العز والكرامة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- مشهد انطلاق أول سهم في سبيل الله يُؤكّد أن الجهاد في الإسلام فريضة شرعية ذات أصول ربانية، ليست عبثًا ولا عدوانًا، بل عبادة وقربة، يُبتغى بها وجه الله لا المغنم أو الاستعلاء.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يُظهر بجلاء أن القيادة في الإسلام لا تُمنح بالمحسوبية، بل تُعطى للأتقى والأصلح والأقوى إيمانًا، مما يدل على أن الشريعة تُعلي من شأن الكفاءة والديانة.
- الإشارة إلى أن المسلمين انطلقوا لا لبدء القتال، بل لقطع شريان الإمداد، يدل على حكمة الشريعة في وضع التدابير الوقائية لحفظ بيضة الإسلام، وأن الإسلام ليس دين عدوان بل دين درء المفاسد وجلب المصالح.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم لرجال الإسلام بأنهم "باعوا أنفسهم لله واشتروا الجنة" استلهامٌ من قوله تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، وفيه تقرير لعقيدة الولاء لله والتجرد له.
- ربط الجهاد بالتربية النبوية يدل على أن الجهاد ليس مجرّد سلاح وحرب، بل هو ثمرة للتوحيد والتزكية، وفيه ردّ على أهل البدع الذين يحوّلون الجهاد إلى مشروع حزبي لا صلة له بالمنهج النبوي.

فوائد فقهية:

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم سريّة من ثمانية فقط يدل على جواز بعث الكتائب الصغيرة لتأدية المهام الاستطلاعية أو التكتيكية، وأن الفقه الجهادي النبوي يقوم على المرونة والتدرج لا التهور.
- عدم وقوع قتال رغم نية الإرباك يدل على مشروعية الحرب الاقتصادية في الإسلام، مثل إضعاف قوى العدو بقطع الإمداد، وهو نوع من الجهاد المشروع دون اشتراط حصول المواجهة المسلحة.
- وصف هذه السرية بأنها "شرف الشرارة" دليل على أن من سنّ سنة حسنة في الإسلام – كفتح باب جهاد جديد – كان له أجرها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم" *من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها*] "...رواه مسلم.[
- كون أول سهم انطلق في سبيل الله دون قتال فعلي، يدل على أن النية في الجهاد لها وزن عظيم، وأن العمل وإن لم يُتمّ، فإنه يُكتب لصاحبه بنيته ومقاصده.

فوائد أخلاقية:

- إرسال سرية صغيرة دون دعم أنصاري، مع خطر الطريق، يبرز خلق التضحية، وحب الفداء، والإقدام، وتقديم مصلحة الإسلام على النفس والراحة.
- اختيار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رغم صغر سنه، يدل على ثقة القيادة بالشباب إذا اجتمع فيهم الإيمان

والرجولة، وهو خلق رفيع في تمكين الكفء لا كبير السن فقط.

- انطلاق السرية دون رغبة في القتل وسفك الدماء، يُظهر أدب المجاهد المسلم، فلا يُقاتل إلا حين يُؤمر، ولا يتجاوز هدفه المشروع.
- التوثيق التاريخي للحدث يدل على أن الأمة تعتز بكل بذرة إخلاص زرعها رجالها، وفيه دعوة لكل مسلم أن يبذل ما يستطيع، فرب عمل صغير يخلّده الله ببركة الإخلاص.

مخالفات الواقع لنص الفقرة:

- في واقعنا اليوم، نرى من يُنكر مشروعية الجهاد أصلًا، ويعتبر الحديث عنه تحريضًا على العنف، وقد وقع في ذلك بعض من تأثّر بالطرح العلماني الغربي الذي يريد إلغاء روح العزة في الإسلام.
- في المقابل، نجد من اتخذ راية الجهاد وسيلة لنشر الفتن والخراب، دون فقه ولا إذن من ولي الأمر، وهؤلاء هم من سلكوا سبيل الفرق المنحرفة التي ابتعدت عن نهج النبي صلى الله عليه وسلم في ضبط الجهاد بضوابطه الشرعية.
- نرى من يُخوّن ولاة الأمر إذا تأنّوا في أمر الجهاد، مع أن السرية في النص لم يُكتب لها قتال، فدلّ على أن القرار الشرعي يُقدّر الواقع، ولا يُستعجل فيه القتال دون نظر في المصلحة والمفسدة، بخلاف هؤلاء المتعجلين المفسدين.
- ضعف روح التضحية في شباب المسلمين اليوم، وتعلقهم بالراحة والمظاهر، على عكس رجال السلف الذين خرجوا وهم لا يملكون إلا الإيمان وسلاحًا بسيطًا، ولكنهم قدّموا أرواحهم لله.
- غياب الاعتزاز بتاريخ الأمة الجهادي، حتى في مناهج التعليم والإعلام، مع أن مثل هذه المواقف تمثّل مفاتيح الرفعة والعزة، بينما يُمجَّد تاريخ الغزاة والمستعمرين في بعض البيئات.
- تغييب القدوات الربانية مثل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من واقع الشباب، واستبدالهم بمشاهير الترف واللهو، مما يُسهم في تفريغ الأمة من نماذج البطولة الصادقة.

الفقرة الخامسة: سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه... أول دمٍ أُريق، وأول غنيمةٍ أُخذت في سبيل الله

بدأت أنفاس الجهاد تُزهر في أرجاء الجزيرة، لا لتبعث في القلوب الفزع، بل لتعلن أن عهد الاستضعاف قد مضى، وأن لأهل الإيمان درعًا وسيفًا، وصوتًا يجلجل في آفاق الأرض بعد أن ظل طويلًا في طيّ الكتمان.

لم تكن رايات الإسلام تمضي لتبطش، بل كانت تسير لتبني، ولتقول للظالمين: إن للإسلام رجالًا إذا عاهدوا صدقوا، وإذا نُودي للجهاد لبّوا، وإذا حانت ساعة النزال ثبتوا.

وفي تلك الأجواء التي تشحنها التوترات، وتملؤها الترقبات، بعث النبي صلى الله عليه وسلم سريةً من نوعٍ خاص، ستكون منعطفًا فاصلاً في طريق الجهاد، وستظل خالدةً في ذاكرة الأمة، لا لأنها شهدت نصرًا عسكريًا فحسب، بل لأنها حملت في طياتها أول دمٍ سُفك، وأول مالٍ أُخذ، وأول أسرى في سبيل الله، وفتحت للأمة أبواب الاجتهاد في ظل النص، وكيفية الموازنة بين الغيرة على الدين وضوابط الشرع.

اختار لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد السابقين الأولين، وابن عمته من جهة الأم، الفارس المجاهد: عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه. سلّمه النبي كتابًا مختومًا، وأوصاه وصية القائد المربّي، فقال له: "لا تفتحه حتى تسير يومين، ثم امضِ لما فيه، ولا تُكرهن أحدًا من أصحابك على السير معك". فانطلقت السرية مطمئنةً بقيادتها، عازمةً على امتثال أمر نبيها، تحفها ملائكة السماء، وتشهد خطواتها أرضٌ تتهيأ لأن تُروى بدماء المجاهدين.

مضى عبد الله برجاله الثمانية، كلهم من المهاجرين، لا أنصاري بينهم، وما أن مرّ اليومان، حتى فتح القائد الكتاب، فقرأ فيه أمرًا دقيقًا: "إذا نظرت في كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصّد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم". نظر إليهم وقد علا وجهه نور العزيمة، وقال لهم: «من أحب منكم الشهادة كما أحبها فليمضِ، ومن كره الموت فليرجع، فقد أذنت له». فلم يتراجع منهم أحد، بل ساروا كأنهم يرون الجنّة تُمدّ لهم في خطواتهم.

وصلوا إلى نخلة، ولبثوا فيها يترصّدون، وبينما هم كذلك، مرت قافلة لقريش، تقلُّ أربعة رجال، فيهم: عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله، والحكم بن كيسان. وكان ذلك في آخر يوم من رجب، شهرٍ حرّمه الله على القتال، فاضطربت القلوب: أيغتنمون الفرصة وقد لا تتكرر؟ أم يمسكون عن القتال وقد دخل الشهر الحرام؟!

غلب على ظنهم أن الشهر قد انقضى، فوثبوا على القافلة، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا اثنين، وفرّ الرابع. ثم عادوا إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنيمة، وما أن رآهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى تبدلت ملامحه، وغضب غضبًا شديدًا، وقال: "ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام!" ثم أعرض عن الغنائم، ورفض الأسرى، وكأن السماء تنتظر حكمًا يُنصف الصدق، ويرشد الخطأ.

حتى نزل القرآن الكريم، يحكم بالكلمة العادلة، ويوجه الأبصار إلى ما هو أعظم من خطأ فردي وقع فيه المجاهدون: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧.]

فبانت الحكمة، وتجلّى ميزان الحق، وغُسلت القلوب من ظنونها، وعادت الغنائم إلى موضعها، وقُبِل الفداء، وأُطلق الأسرى، بل وأسلم أحدهم، وهو الحكم بن كيسان، فكان ممن عظُم إسلامه، وأكرمه الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وهكذا، سجّلت سرية عبد الله بن جحش أول تجربة ميدانية فيها اجتهادٌ وخطأ، ثم تصويب من السماء، وفتحٌ لغنيمةٍ، ودرسٌ للأمة، أن الجهاد ليس مجرد سيف يُشهَر، بل نورٌ يُهتدى به، تُضبط خطاه بوحيٍ، وتُوزن أعماله بميزان الله لا بهوى الرجال.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- الجهاد في سبيل الله مبدأ عقدي، لا يُطلق فيه السيف لبسط النفوذ، بل لإعلاء كلمة الله، ونصرة المستضعفين، وبناء الحق، وهو في أصله عبادة تُضبط بالوحي لا بالأهواء.
- من تمام الإيمان أن يُوازن العبد بين الغيرة على الدين والانقياد للشرع، فلا تُدفعه حرارة العاطفة إلى تجاوز النصوص، كما أن الخطأ في الاجتهاد لا يُبطل النية إن صلحت، ما دام صاحبه يرجع عند قيام الحجة.
- اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم في هذه السرية رغم وقوع الخطأ، ثم نزول التصويب من السماء، يدل على أن العصمة للوحي فقط، وأن ميزان الحق في الإسلام ليس باتباع الرجال، بل باتباع الحق أينما وُجد.
- الله عز وجل أنزل القرآن ليكون حَكمًا عدلًا، لا يُغفل خطأ المجتهدين ولا يتجاهل مكر المشركين، وفي ذلك تأصيل أن مرجعية الأمة في القضايا الكبار يجب أن تكون للوحي لا للشعارات أو الضغوط.
- الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الحق من أعظم خصائص أهل الإيمان، بخلاف أهل البدع والفرق المنحرفة الذين يرون الرجوع ضعفًا، ويُغالون في آرائهم وإن خالفت النص.

الفوائد الفقهية:

- القتال في الشهر الحرام محرَّمٌ شرعًا، وإن وقع فيه قتالٌ باجتهادٍ خاطئ، فلا يُقرّ الخطأ، بل يُردّ إلى حكم الشرع، ولو ترتب عليه مكاسب ظاهرة.

- فعل عبد الله بن جحش وأصحابه كان اجتهادًا لا إذنًا نبويًا، وفيه أصل فقه الاجتهاد في غياب النص، وضوابطه، وما يترتب عليه من تصويب أو عذر.

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يُقرّ الغنيمة قبل نزول الوحي، مما يدل على أن الأموال المكتسبة من طريق غير مشروع لا تُقبل حتى يبيحها الشرع، وفيه فقه "وقف التصرف حتى تتضح المشروعية."

- في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" بيان أن الإذن بالجهاد لا يُستفاد من عموم الدعوة، بل يُحتاج فيه إلى توجيهٍ صريح من ولي الأمر الشرعي، لا اجتهادات فردية.

- قبول النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم بعد نزول الحكم، وإطلاق الأسرى، يُؤسس لقاعدة فقهية: أن الخطأ إذا بُني على اجتهاد سائغ، ثم ثبت صوابه بعد ذلك، فآثاره تُصحّح، ويُؤخذ بأخف الضررين.

الفوائد الأخلاقية:

- وفاء الصحابة لعهد القيادة، وعدم تراجعهم بعد عرض القائد الخيار، يعكس صدق العزيمة والإخلاص في العمل الجماعي، واحترام القرارات الشرعية.

- غضب النبي صلى الله عليه وسلم عند الخطأ، مع عدله في الحكم، يُعلم القادة أن الغضب لله لا يمنع من العدل، ولا يُغني عن الإنصاف، فالحكم لله لا للهوى.

- اجتهاد الصحابة، ثم قبولهم بالتوجيه الإلهي، يعلّمنا التواضع للحق، والبعد عن التعصب للرأي أو التبرير للأخطاء، وهذه سمة أهل الإيمان لا أهل الأهواء.

- إسلام الحكم بن كيسان بعد أسره، يفتح باب الأمل في هداية الأعداء، ويزرع في قلوب المجاهدين خلق الرحمة حتى مع الخصوم، لا التشفّي ولا الإذلال.

- في سرية عبد الله بن جحش درس في الإخلاص، وأن العمل الذي قد تظنه الأمة صغيرًا، يُخلّده الله إذا وقع فيه صدقٌ، وصحبه جهد وتضحية.

الفوائد التربوية والدعوية:

- السرية رغم صغرها العددي، كانت كبيرة في أثرها، وفي ذلك دلالة على أن بركة العمل ليست بكثرته، بل بصدق القلوب، والنية الخالصة لله.

- توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله: "لا تفتحه حتى تسير يومين" تربية عملية على الطاعة، والسرية في الأمور الدعوية، وأن الجندية تقتضي الانضباط.

- أدب عبد الله بن جحش في عرضه الخيار على أصحابه، وعدم إكراههم، يُعلّم القادة حسن التعامل مع الأتباع، والتربية على العزيمة لا القسر.

- تصويب الخطأ اجتهاديًا بنزول وحي، فيه تعليم للناس أن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله لا بد أن يكونا مقيدين بالعلم، لا بمجرد الحماسة أو الغيرة المجردة.

مخالفات الواقع:

- كثير من الناس اليوم يُطلقون العبارات عن الجهاد بلا علم، فيُزينون للشباب القتال في غير موضعه، ويقعون في الفوضى والعدوان بحجة نصرة الدين، دون ضوابط ولا إذن شرعي.

- بعض الفرق الضالة – كمن تبنوا الفكر الخارجي – يجعلون من الأخطاء الفردية ذريعة لتكفير المجتمعات والحكام، ويعتمدون الهوى والاندفاع لا النص والعدل، فيخربون البلاد ويقتلون العباد باسم الدين، والدين منهم براء.

- في واقعنا المعاصر من يتعمدون استفزاز الحكومات وإحداث الصدامات تحت شعار "الغيرة للدين"، بينما سرية عبد الله بن جحش كانت منضبطة بتوجيه النبوة، ولم يتحركوا إلا بأمر مباشر، وهذا مما غاب عن أولئك المفتونين.

- من مظاهر الانحراف المعاصر، تبرير بعض الجماعات لأخطاءهم العقدية والسياسية، وعدم رجوعهم للحق عند ثبوت الخطأ، بخلاف الصحابة الذين تراجعوا مباشرة عند نزول الحق من السماء.

- من واقعنا كذلك، من يتاجرون بالدين، ويتخذون من الجهاد وسيلة للسطو على الأموال أو فرض النفوذ، ويجعلونه غطاءً سياسيًا، فيخالفون تمامًا روح الجهاد التي بُنيت على نور الوحي وعدل الشريعة.

الفقرة السادسة: غزوة بدر... يومٌ فرق الله فيه بين النور والظلمات

ما كانت بدرٌ يومًا حادثةً عابرة في سجل الوقائع، ولا مجرّد معركةٍ طاحنة التقى فيها صفّان وتواجه فيها سيفان، بل كانت فجرًا مشرقًا في ليلٍ طويلٍ من الظلم والطغيان،

هناك، في صحراء بدينة، كتب الله عزّ وجل صفحةً خالدة من صفحات النصر لدينه، وأعلى فيها لواء التوحيد، وأطاح بعروش الكفر، وأذلّ فيها جبابرة قريش الذين طالما عتوا عن أمر ربهم، وأوقدوا نيران الفتنة في وجوه المستضعفين من عباده.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه الكرام لا يريدون قتالًا ولا دمارًا، وإنما خرجوا لاعتراض قافلةٍ تجاريةٍ لقريش تحمل أموالًا جُمِعت من عرق المستضعفين وسُرقت من صدور المهاجرين، لكنّ القدر كان يحمل في طيّاته أمرًا أعظم، ومشيئةُ الله كانت تُعدّ هذا الجمع النقيّ لموقعةٍ فاصلةٍ تزلزل أركان الجاهلية.

أراد الله أن يكون هذا الخروج أول امتحانٍ عمليّ للإيمان إذا اصطدم بالكفر، واختبارًا حقيقيًا للصّدق إن قابل السيوف والرماح.

ثلاثمئة وبضعة عشر من الرجال الأتقياء، لا يحملون من السلاح إلا النزر القليل، ولا يركبون إلا راحلتين أو ثلاث، ولا يستندون إلى قوةٍ دنيوية، لكنهم حملوا قلوبًا عامرة بالإيمان، وأرواحًا مشتعلة باليقين، فأمدهم ربهم بجنودٍ من السماء، وأنزل عليهم سكينةً من عنده، وكتب لهم من النصر ما لم يخطر لهم على بال. وأما أعداؤهم، فانهارت صفوفهم، وتزعزعت قلوبهم، وزُلزلت أقدامهم، وولّت قوتهم الأدبار، فغدا بأسهم بينهم، وسالت دماء رؤوس الكفر على رمال بدر، ترويها لا دموع الظالمين بل دماء المستكبرين.

هناك، على رمال بدر، مات الكِبْر في مهده، ودفن الطغيان في قبره، وعلت راية (لا إله إلا الله) فوق كل رايةٍ أخرى، تُعلن بداية مرحلةٍ جديدة من التمكين بعد طول ابتلاء، وعهدًا جديدًا تُكسَر فيه الأصنام، وتُهدم فيه قواعد الشرك، ويُرفع فيه نداء السماء: أن حيّ على الجهاد في سبيل الله، وحيّ على نصر الدين.

كان يوم بدرٍ من أيام الله العظام، يومًا لن يُنسى، ومشهدًا خالدًا من مشاهد البطولة والفداء، يفيض بعطر العزة، ويهمس في آذان الأجيال بأن الصبر على طريق الله لا يضيع، وأن الثقة بوعد الله لا تخيب، وأن النصر لا يُهدى، بل يُنتزع من بين أنياب الشدائد.

وهكذا بقيت بدرٌ، لا تُروى بالحبر فقط، بل تُكتب بالدم، وتُورّث في الصدور قبل السطور، يرويها الأجداد للأحفاد، لا ليتسلّوا بها، بل ليشدّوا بها عزمهم، ويوقنوا أن من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، نال شرف الدنيا ورفعة الآخرة.

الفوائد المستنبطة من الفقرة:

الفوائد العقدية:

- الإيمان بنصر الله لأوليائه وعدٌ قطعي، يُحققه الله في الوقت الذي يشاء، وبالطريقة التي يشاء، ولو قلّ العدد، وضعُف العتاد، كما نصر الله النبي صلى الله عليه وسلم في بدر بجنود من السماء.

- الله عز وجل يختبر صدق الإيمان عند ملاقاة الأعداء، ويميز به أهل الحق من أهل النفاق، فالمواقف العظيمة تظهر فيها الحقائق العقدية التي قد تُخفى في الرخاء.

- غزوة بدر برهان واضح على أن التمكين لا يُنال إلا بالصبر والصدق، والاعتماد على الله وحده، لا على الأسباب المادية، وفيها ردّ على من يُعلّق النصر بالقوة والعتاد وحده.

- النصر لا يكون للمسلمين إلا إذا تحقق فيهم شرط النصر: الإيمان والتقوى والطاعة، ولذلك كانت بدر فتحًا وتكريمًا لقومٍ باعوا أنفسهم لله، لا لمنتمين فقط بالاسم إلى الإسلام.

- في نصر بدر دليل أن التوحيد الخالص هو الأساس في بناء الأمم، وأن الكفر مهما بلغ جبروته، فإن مصيره إلى الذل والاندحار، متى ما قام الحق ونطق أهل الإيمان.

الفوائد الفقهية:

- جواز القتال في الإسلام إذا كان للدفاع عن الحقوق المسلوبة، كما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لاعتراض أموال أُخذت ظلمًا من المهاجرين.

- في بدر دليل على جواز القتال إذا تحقق فيه إذن النبي صلى الله عليه وسلم، وتوافرت المصلحة الشرعية، مع الإعداد المعنوي وإن قلّ الإعداد المادي.

- نصر الله لعباده في بدر رغم قلة العدد والعدة يُقرّر أصلًا فقهيًا: أن النصر ليس متعلقًا دائمًا بالقوة الظاهرة، بل يُعطى بحُسن التوكل والعمل الصالح، وهذا من رحمة الشريعة وتوازنها.

- في ثبوت أن يوم بدر من أيام الله تشريعٌ لسنّة تذكير الناس بأيام نصر الدين، وأنها تُعدّ مواطن تربية للأجيال، تُروى فيها المواقف العظيمة لا لمجرد الفخر، بل للعبرة والعمل.

- الشهداء الذين سقطوا في بدر لهم حكم خاص في الفضل والمكانة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وفي هذا أصل لتفضيل أهل الفضل السابق.

الفوائد الأخلاقية:

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه دون نية للقتال ثم خوضهم المعركة عند لزومها يُعلّم المسلم الاستعداد للتضحية، وأن المؤمن لا يفرّ عند التكاليف، بل يثبت عند الشدائد.

- في بدر درسٌ في الفداء والإيثار، فقد ثبت الصحابة رغم قلة العدد والراحلة والسلاح، لأن النفوس كانت كبيرة، تُحب الله ورسوله فوق كل شيء.

- قوة المشهد وانهيار صفوف العدو، يُغرس في النفوس عزة المؤمن، وأنه لا ينكسر ما دام على الحق، حتى ولو اجتمعت عليه الدنيا كلها.

- من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يخرج يريد الدم، وإنما ردّ المظالم، ولم يُقاتل إلا مضطرًا، وفي هذا خلق الرحمة المقترن بالحزم، لا العنف المتوحش الذي تبرّأ منه الإسلام.

الفوائد التربوية والدعوية:

- غزوة بدر تُربّي الأجيال على الثقة بالله، وعدم الاغترار بالكثرة، فالنصر ينزل بقلوب تعلّقت بالله، لا بأسلحة تعلّقت بالمادة فقط.

- من تأمل بدر أيقن أن طريق الدعوة محفوف بالابتلاءات، لكن عقباه تمكين ونصر، وأن كل دمٍ سال في سبيل الله، فإن الله يكتبه في سجل الخالدين.

- تعلّمنا بدر أن البطولات لا تُبنى بالأساطير، بل بالتضحية والثبات في اللحظات الفاصلة، وهذا ما يحتاجه جيلٌ قد تعب من الكلام، ويبحث عن قدوة حقيقية.

- في إحياء يوم بدر تربية للأمة على أن النصر لا يُنتزع إلا بثمن: تضحيات، ودموع، وصبر، ولا مكان فيه للمترددين والمتقاعسين.

- رواية الغزوات للأحفاد ليست حكايات تسلية، بل هي وصايا تُسلّم كالسيوف للأجيال، ليعلموا أن العزة لا تورث بالدم فقط، بل بالإيمان والعمل.

مخالفات الواقع:

- في واقعنا كثيرٌ من المسلمين يظنون أن النصر لا يأتي إلا إذا توافرت القوة العسكرية وحدها، وينسون أن بدرًا انتصر فيها ثلاثمئة مؤمن على ألف مشرك، لأن النصر من عند الله لا من العتاد.

- بعض الفرق الضالة اليوم – كمن تبنوا الفكر الخارجي – يجعلون من الجهاد وسيلة للدمار، ويحوّلون معارك الدين إلى فوضى سياسية، بلا إذن ولا شرعية، بخلاف بدر التي كانت منضبطة بوحي السماء.

- من مظاهر الانحراف أن بعض المتكلمين اليوم يسخرون من سيرة الجهاد، ويصفونها بأنها "رجعية"، مع أن بدرًا كانت شرفًا تاريخيًا وإنسانيًا، وحفظًا للكرامة لا فوضى دموية.

- في واقعنا المعاصر جيلٌ لا يعرف من بدر إلا اسمها، ولا من الجهاد إلا صورًا مشوّهة، بسبب التجهيل المتعمد، وتغييب التربية الإيمانية المرتبطة بالسيرة.

- بعض المحسوبين على الإسلام يظنون أن مجرد الانتماء يكفي لنيل النصر، ويغفلون عن شرط الإيمان والتقوى والعمل الصالح، كما تحقق في أهل بدر، وهذا من أعظم أسباب الانهزام اليوم

الفقرة السابعة : طلائع النفير... كيف بدأت الحكاية الخالدة؟

لم تكن بداية بدر مجرد صفحة تُطوى بين صفحات السِّير، أو حادثة عابرة في مسار النبوة، بل كانت شرارةَ فجرٍ جديد، وملحمةً تمهّد الطريق لأعظم انتصار عرفته الأرض في صدر الإسلام. لم يخرج فيها المسلمون مدججين بالسلاح، ولا تسلَّحوا لها بعددٍ أو عتاد، إنما كانت نيتهم نية استردادٍ لما سُلب، وعدالةٍ لما انتُهِك، خرجوا لاعتراض قافلة لقريش مثقلة بالكنوز، يتقدَّمها رجلٌ لطالما كان رأس الحربة في وجه الدعوة، وأشدَّ خصومها مكرًا وكيدًا... أبو سفيان.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن في تلك القافلة بعضًا من حقوق المسلمين التي اغتصبتها قريش يوم هجّرتهم من ديارهم، وسلبت أموالهم، ومزّقت شملهم، فجاءت تلك الخروج الأولى استردادًا مشروعًا، وعدلًا يُقيم ما اعوجّ، وينصر من ظُلم.

انطلقت القافلة النبوية من المدينة المباركة في رمضان، من السنة الثانية للهجرة، تضم في صفوفها نحو ثلاثمئة وبضعة عشر قلبًا مملوءًا إيمانًا، يقينهم في الله أثقل من سلاحهم، وعدتهم توكّل لا يتزعزع، معهم فرسان فقط، وسبعون بعيرًا يتعاقبون على ركوبها، لا يترفع فيهم أحد عن أحد، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جاء دوره في السير، مشى كواحدٍ منهم، لا تمييز ولا كِبر، إنما تواضعٌ تشرّبته الأرواح، وقائدٌ يعيش بين جنوده لا فوقهم.

لكن الحدث لم يمضِ كما رُسم، فقد جاءت الأنباء عند مشارف "الصفراء" أن القافلة قد نجت بمهارة قائدها، وأن قريشًا أرسلت جيشًا كالسيل الجارف، يضم زهرة بطونها، وسادة مكة، وغطرستها المستعلية، لا لحماية القافلة فحسب، بل ليثأروا من تلك القلوب التي تجرّأت على اعتراضهم.

عندها لم تعد الرحلة رحلة استرجاع أموال، بل صارت مقدّمة لفصلٍ جديد من فصول الصراع الأزلي بين النور والظلام، بين التوحيد والشرك، بين الهدى والضلال.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه في لحظة مصيرية، يشرح لهم الموقف، يشاورهم في أمر اللقاء المرتقب، وقد تبيّن لهم جميعًا أن المعركة باتت قدرًا لا مفر منه، فإما الثبات أو الهلاك، إما النصر أو الشهادة.

وهكذا بدأت فصول بدر، من مجرّد قافلة، إلى قرارٍ رباني أراد أن يكون هذا اليوم يومًا من أيام الله، يُسطَّر في كتب التاريخ لا بالحبر، بل بدماء الشهداء، وأنفاس الصادقين، ودموع المبشَّرين بالفوز في الدنيا والآخرة.

إنه اليوم الذي كانت أولى خيوطه خيوط حقٍّ يُنتزع، فإذا به يتحوّل إلى يوم تمكين، وعزٍّ، ومفترق طرقٍ بين مرحلتين من تاريخ هذا الدين العظيم.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- في تحويل الخروج من غرض اعتراض قافلة إلى معركة فاصلة، بيان أن الله يُدبّر الأمور بحكمته، وأن مشيئته سبحانه قد تُخالف تدبير العباد، ليُظهر بها نصره، ويحق بها الحق، وفي هذا توحيد رباني لمقام القضاء والقدر.

- كان يقين الصحابة في الله أعظم من عدتهم، فدلّ ذلك على أن التوكل الصحيح لا يعني ترك الأسباب، بل يعني اعتماد القلب على الله ولو قلت الوسائل، وهذا أصل من أصول العقيدة الصحيحة.

- مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه قبل المعركة تعلّمنا أن الشورى مبدأ من مبادئ الحاكمية في الإسلام، وليس الحاكم بمعصوم من الاستشارة، بل هو عبدٌ مأمور، وما دام الوحي ينزل عليه، فقد سنّ للأمة نظامًا راسخًا في القيادة الراشدة.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله مع جيشه بيان واضح لعقيدة أهل السنة: أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لكنها لا تُنال إلا بالتواضع، والانقياد لله، لا بالترفّع ولا الكبر، ولا بالرئاسة الفارغة كما يفعل أهل البدع الذين يغترون بشعارات القيادة.

- يوم بدر بداية لتحقق وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين، إن هم صبروا واتقوا، وفي هذا بيان لحقيقة عقدية عظيمة، أن التمكين لا يكون إلا بعد الابتلاء، ولا يُعطى إلا لمن يستحقه.

الفوائد الفقهية:

- كان خروج النبي صلى الله عليه وسلم لاعتراض قافلة قد استولت على أموال المسلمين، وهذا أصل فقهي في مشروعية استرداد الحقوق المسلوبة إذا عجز صاحب الحق عن استيفائها بالوسائل السلمية.

- في طلب النبي صلى الله عليه وسلم المشورة من الصحابة، تأصيل لفقه المشاورة قبل الإقدام على الأمور العامة، وأن الإمام أو القائد لا ينفرد برأيه في القضايا الكبرى.

- كانت القافلة التجارية سببًا لحدث عسكري، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُبادر بالقتال حتى تبين الموقف تمامًا، وهذا فيه فقه التدرّج في القرار، والبعد عن التهور، وهو مبدأ في فقه السياسة الشرعية.

- لم تكن الغاية من الخروج قتالًا وإنما مظلمة، فلما تبدل الحال، تحولت النية إلى القتال في سبيل الله، وفي ذلك فقه تحويل النية إلى جهاد مشروع إذا استجدت المعطيات وتغيّرت الظروف.

- مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في السير على قدميه، وعدم تمييزه عن جنوده، فيه فقه في عدم جواز استئثار القائد بامتيازات غير لازمة، بل يكون مثلهم، وهذا مبدأ عادل في فقه الإمامة والجندية.

الفوائد الأخلاقية:

- في تواضع النبي صلى الله عليه وسلم، إذ كان يتعاقب على البعير مع أصحابه، مشهدٌ يُربّي الأمة على التواضع، وأن القيادة الحقيقية ليست في التميز والترف، بل في القرب من الناس والقيام معهم.

- في استعداد الصحابة للمعركة رغم تبدل خطتها، عظة في سرعة استجابتهم، وثباتهم على المبادئ، وتحمّلهم للتكاليف، وهذه من أعظم أخلاق أصحاب الدعوات الربانية.

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يتخذ القرار فرديًا رغم مقامه، بل شرح لهم الموقف وشاورهم، وفي هذا درس في الأدب القيادي، والاحترام المتبادل بين القائد والجنود.

- كان موقف الصحابة في لحظة المفترق بين الحياة والشهادة ملحمة أخلاقية خالدة، تثبت أن الإيمان يصنع من البشر أبطالًا، لا ينتظرون النصر بل يصنعونه بالصدق والثبات.

- في تسليم القلوب لقضاء الله يوم بدر، ومواجهة المشهد الجديد بنفس راضية، درس أخلاقي عظيم في الاستعداد لأي قدرٍ من الله، طالما هو في سبيله، سواء كان نصرًا أو استشهادًا.

الفوائد التربوية والدعوية:

- تُعلّمنا بدر أن الانتصارات العظيمة لا تبدأ دائمًا بقرارٍ واضح، بل قد تبدأ من موقفٍ بسيط، يتحوّل بقوة الإيمان إلى أعظم التحولات التاريخية.

- تصرّف النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه للصحابة في لحظة الانتقال من اعتراض القافلة إلى المواجهة مع جيش قريش، يُعلّم الدعاة كيفية إدارة الأزمات والتكيّف مع المتغيرات من غير تهوّر ولا تخاذل.

- ما جرى في أول بدر يعلّم الجيل الجديد أن القضايا الكبرى تبدأ غالبًا من نيات صادقة، وعملٍ متواضع، لكنّ الله يُبارك فيه فيرفعه إلى ما لا يُتوقع.

- الوقوف على مشارف المعركة، بعد أن أفلتت القافلة، ثم الثبات على خيار المواجهة، يُعلّم التربية على الصبر، وعلى الانضباط وقت الأزمات، لا التراجع والانهزام.

- غزوة بدر في بدايتها تُربّي على الحزم مع الظلم، فقد كان قصد النبي صلى الله عليه وسلم استرداد ما سُلب، لا أن يستسلم للأمر الواقع، وفي هذا درس في نصرة المظلوم واسترداد الحقوق دون فوضى.

مخالفات الواقع:

- من الناس اليوم من يُخطّط ويُنفّذ أعمالًا قتالية بلا رجوع إلى أهل العلم والولاية الشرعية، ويبرر ذلك بنيات حسنة، وهذا خلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في بدر، حيث لم يتحرك إلا بوعي، ومشاورة، وإذن رباني.

- بعض الفرق المنحرفة – كالذين يقدّسون رموزهم ويغيبون عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم – يتخذون من التوكل غطاءً للتهور، ويزعمون أن قلة العدة تكفي دائمًا، دون إعداد أو تدرّج، ويُغفلون سنن الله في النصر، بخلاف ما فعله أصحاب بدر.

- من مظاهر الانحراف الفكري: استهانة بعض الشباب اليوم بفقه الشورى، واعتبارها ضعفًا، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الموحى إليه شاور أصحابه، وبهذا يُردّ على من يرى أن القائد أو الداعية لا يُسأل ولا يُناقَش.

- واقع بعض الجماعات اليوم فيه تعالٍ من القادة على الأتباع، ورفض لمبدأ التواضع، وتمييز واضح في المعاملة، بخلاف سيرة النبي صلى الله عليه وسلم الذي مشى على قدميه كواحد منهم، وتواضع لهم، بل تعاقب معهم على الراحلة.

- من الانحرافات الواقعية: فصل التربية عن العمل الدعوي، فنرى حركات تهتم بالمواجهة دون تأصيل أخلاقي أو قلبي، أما أهل بدر فخرجوا بقلوب مؤمنة، وتوكل صادق، وكان البناء التربوي مُقدّمًا على الاصطفاف القتالي.

الفقرة الثامنة: قريش تحتشد للثأر... والنار تشتعل في قلب الجاهلية

لم يكن ما حدث من النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج مع أصحابه الكرام يعترضون قافلة قريش مجرد حركة عسكرية عابرة، ولا مغامرة مقصودة لتهديد تجارة مكة، بل كان استردادًا مشروعًا لحقٍّ مسلوب، ونهبٍ جائر لطالما عاناه المؤمنون يوم هُجّروا من ديارهم وأُخرجوا من أرضهم بغير جرم إلا أن قالوا: ربنا الله.

وحين بلغ الخبر أبا سفيان، وكان قائد القافلة، استنفر دهاءه المعروف، وفطنتَه التي طالما خبِر بها دروب الصحراء وسُبل النجاة، فعدّل خط سيره إلى طريق الساحل، وساق القافلة بعيدًا عن أعين المطاردة، حتى أنجاه الله، ثم لم يكتف بذلك، بل أرسل رسالة عاجلة إلى مكة، يقول فيها: "ارجعوا، فقد نجت القافلة!" وكأن الأمر قد انتهى...

لكن مكّة لم تسمع نداء العقل، بل أصاخت السمع لنداء الكِبر والانتقام. لم تكن ترى في تحرك النبي صلى الله عليه وسلم نحو القافلة مجرد غارة، بل رأته تهديدًا مباشرًا لكبريائها، وصفعة على وجه سلطانها، واستهانة بمهابتها بين قبائل العرب. فاستشاطت نخوة الجاهلية، وثارت ثائرة الكبر، وارتفعت رايات الحقد تحت سماء مكة.

هنالك، نهض أبو جهل، وقد انتفخ صدره غطرسة، وجالت في عينيه نيران الكبر، فقال قولته الشهيرة التي تجلّي بواطنهم: "والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فننحر الجزر، ونسقي الخمر، وتغني لنا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا"!
لقد أرادها مهرجانًا للبطش، واستعراضًا للطغيان، ومسرحًا يراق فيه الدم ليُكتب بالدم رسالة رُعبٍ إلى الجزيرة كلها: أن لا أحد يجرؤ على اعتراض قريش!

فانطلقت قريش بجيش جرّار، قوامه ألف مقاتل، في مقدمتهم مئة فارس مدججين بالسلاح، تحيط بهم ستمئة درع لامعة، وتجرهم ثلاثة آلاف بعير، يتقدمهم الكِبر وتدفعهم شهوة الثأر، وتغلفهم سكرة الزهو، وكأنهم في عرس لا معركة، وفي ترف لا حرب.

ولم يكن من بقي في مكة بمنأى عن حمى هذه الحملة، بل صار كل متردد فيها موصومًا بالجبن، حتى قيل لمن تخلّف: لا مكان لك بين الرجال!
فانبعث الطغيان من كل بيت، واجتمع الكفر في قافلة واحدة، لا تدري أنها تسير إلى قدر الله، وإلى مصير كُتب في اللوح المحفوظ، أن يكون لهم فيه الخزي المبين.

وعلى الضفة الأخرى، في المدينة الطاهرة، لم يكن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يعدّ جيشه بالعدة والعتاد، بل هيّأهم بزاد الإيمان، وسقّاهم من نبع التوكل، وبثّ في قلوبهم يقين النصر من عند الله، وأيقظ في أرواحهم معنى الجندية الحقّة، فخرجوا لا بطرًا ولا رياءً، بل خرجوا مستنصرين بالله، ثابتين في أرض وعدهم فيها ربهم إحدى الطائفتين.

شتّان إذًا بين جيشٍ خرج يعلو فوق الأرض خُيلاء، وجيشٍ خرج وعيونه معلّقة بالسماء. شتان بين من غنّى على أبواب بدر، ومن بكى بين يدي الله في جوف الليل يسأله النصر أو الشهادة...

فهل تُقاس تلك الجموع الهائجة بجندٍ اصطفاهم الله لساعة الحق؟ وهل يثبت طغيان قريش في وجه عناية الرحمن؟
كلا والله، فالموعد بدر، والميدان مشهود، والنهاية كتبها رب العرش قبل أن تتحرك أقدامهم...

الفوائد المستنبطة من الفقرة

الفوائد العقدية

- من أعظم دلائل الإيمان بالله: التوكل عليه في الشدائد، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أعدّ أصحابه إيمانيًا لا عدديًا، وأيقن أن النصر من عند الله وحده.
- الاعتراض على أهل الإيمان والصدّ عن سبيل الله، ولو من جهة الاقتصاد والتجارة، لا يُغيّر قدر الله المكتوب في اللوح المحفوظ، بل يكون سببًا لهلاك الظالمين.
- علم الله الأزلي شامل لكل التحركات والأحداث، فما كانت حركة قريش إلا إلى مصير محتوم سبق به القلم، وجرى به القدر.
- من أسماء الله: "العزيز والقهار"، تجلت معانيها حين جمع الكفر قوته، فأنزل الله بهم خزيه.
- اصطفاء الله لعباده لا يكون بالقوة أو النسب، بل بالتقوى واليقين، فقد اصطفى من عباده جندًا لا يملكون عدة ولا عدداً، لكنهم يملكون قلوبًا معلّقة بالله.
- لا يقف كبر أهل الباطل أمام مشيئة الله، فالعاقبة دومًا للمتقين، مهما علا طغيان الباطل حينًا.
- النصر من عند الله لا يتوقف على العدة، بل على صدق العبودية، والتجرد لله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فوائد فقهية:

- يجوز للمسلمين استرداد حقوقهم المغصوبة من الكفار المعتدين إذا توفرت القدرة والفرصة، وهو من باب دفع الظلم واسترداد المظالم.
- في القتال المشروع، يشترط أن يكون تحت راية شرعية واضحة، لا لطلب الدنيا، وإنما لإعلاء كلمة الله، كما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
- إذا خاف المسلمون من غدر العدو، جاز لهم اتخاذ الحِيَل والخطط لتجنّب الشر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في بدر وكما فعل أبو سفيان في التمويه عن القافلة.
- لا يجوز الخروج للقتال من أجل رياء أو تفاخر أو عصبية جاهلية، بل ذلك من أسباب الهلاك كما كان شأن قريش.
- لا يُعدّ من تخلف عن القتال في الباطل جبانًا، بل الشجاعة الحقة أن تعرف متى تنصر الدين، ومتى تعتزل الباطل.
- اعتماد المسلم يجب أن يكون أولًا على الإيمان، ثم يأخذ بالأسباب دون تعلق بها، كما هيأ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه روحيًا قبل تجهيزهم ماديًا.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الكبر والغطرسة من أشد الأخلاق تدميرًا للنفوس، وهي التي قادت أبا جهل إلى الهلاك رغم علمه بعاقبة الظلم.
- التواضع لله والثقة به هما مفتاح النصر، لا الزهو بالقوة كما فعلت قريش حين غنّت وتباهت وهي تخرج للحرب.
- القيادة الحقة تقوم على تزكية الأرواح وبث الإيمان، لا فقط على تعبئة الجيوش، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- العقل لا يقف عند أبواب الكبر، فمكة رفضت صوت العقل حين دعتها العصبية الجاهلية إلى الحرب.
- الثقة بالله في الملمات تزرع الطمأنينة في القلوب، كما كان حال الصحابة الذين خرجوا لا بطراً ولا رياءً.
- الغناء واللهو عند مقدم المعارك من خصال أهل الباطل، بينما البكاء والتضرع من صفات أهل الحق.
- من شمائل القائد المسلم: زرع المعاني الإيمانية في النفوس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، لا إثارة الغرور كما فعل أعداؤه.

فوائد دعوية وسلوكية:

- على الداعية أن يربّي أتباعه على معاني التوكل والثبات، لا على العصبيات والانفعالات، فإن البناء الحقيقي يبدأ من الداخل.
- لا يجوز تعظيم قوة الكفار في قلوب الناس، بل يجب ترسيخ أن قوتهم إلى زوال إذا قابلها إيمان صادق.
- المنهج الرباني في النصر يبدأ بتزكية النفوس قبل إعداد السيوف، فلابد من بث الإيمان قبل الجهاد.
- الحذر من استثارة العواطف باسم الكرامة أو القومية، فإنها جاهلية عمياء تهلك أصحابها، كما هلكت قريش حين استجابت لصوت الحميّة لا صوت الحكمة.

مخالفات الواقع:

- تعظيم بعض المسلمين لقوة الأعداء، وربطهم بين النصر والتفوق المادي فقط، خلاف لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي علّق النصر بالإيمان لا بالعدة.
- انتشار النزعة القومية أو القبلية أو الوطنية على حساب العقيدة، مما يحيي نداء الجاهلية في قلوب المسلمين كما أحياه أبو جهل.
- استهانة بعض الناس بترك الجهاد الحقيقي بالنفس والدعوة والعلم، مع تعظيم الجهاد اللفظي والشعارات، كما فعلت قريش حين أرادت الاستعراض لا الجهاد.
- انخداع كثير من الشباب المسلم بشعارات براقة تصدر من أهل الفرق المنحرفة التي تدعو لقتال يُبنى على الثأر والانتقام، لا على الشرع والدين، كما فعل أهل الجاهلية.
- غفلة بعض قادة المسلمين عن بناء الإيمان في جنودهم وشعوبهم، واهتمامهم بالمظاهر والشعارات دون صناعة الوعي واليقين بالله.
- اتهام أهل الحِكمة بالجبن حين يعتزلون الفتن أو يتريثون في القرار، كما فعلت قريش حين سَخِرت ممن لم يشارك في الباطل.
- ترك بعض المسلمين التضرع إلى الله في الملمات، والاتكال على القوة السياسية أو العسكرية وحدها، بخلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

الفقرة التاسعة: شورى النصر... حين ارتفعت أصوات الإيمان من الأرض إلى السماء

في سهلٍ يتنفس الانتظار، وتحت شمس الحقيقة التي لا تحابي، وقف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يستشرف الموقف بعين البصيرة، وقد علم يقينًا أن السيوف ستتكلم، وأن اللقاء المحتوم مع جموع قريش قد أصبح قدرًا لا مهرب منه، وأن الحروف الآن لا بد أن تُكتب بالدم لا بالحبر، وبالصدق لا بالهوى.

هناك، في ذلك المشهد الذي تتجلى فيه عظمة القيادة النبوية، التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه نظرة ملؤها الحكمة، وقال لهم كلماتٍ خالدةً تهزّ الأعماق قبل الآذان: «أشيروا عليّ أيها الناس.»

لم يكن هذا السؤال عابرًا، بل كان سؤالًا يُختبر به الصدق، وتُوزن به البيعة، فقد كانت البيعة الأولى في العقبة عهدًا على الحماية داخل المدينة، لا على القتال خارجها. فهل آن للأنصار أن يكتبوا صفحة جديدة من الوفاء، وأن يخطّوا بدمائهم توقيعًا صادقًا على وثيقة نصرة خاتم المرسلين؟ وهل يثبتون إذا تغيّر المكان واحتدم الميدان؟

فانبرى الصدق من أفواه الرجال، وتقدّمت كلمات الولاء على ألسنة الطاهرين، فتكلم الصديق أبو بكر رضي الله عنه، ثم تلاه الفاروق عمر رضي الله عنه، حتى جاء صوت المقداد بن عمرو رضي الله عنه كالرعد في سماء الحسم، يقول للنبي صلى الله عليه وسلم في مشهدٍ تشرئب له الأعناق:
"يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فوالله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لنبيهم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، ومن بين يديك، ومن خلفك."

يا لها من كلمات! لو نُفخت فيها الأرواح لأحيت جيشًا بأكمله.

عندها التفت النبي صلى الله عليه وسلم نحو الأنصار، وهو يعلم أن الموقف يتطلب كلمتهم، فكان لفراسة القلوب أن تسبق الألسنة، فنهض سيدهم، الأسد الهادئ، سعد بن معاذ رضي الله عنه، وقال ما تهتز له الجبال:
"لقد آمنا بك، وصدقناك، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوك غدًا."

كأن تلك الكلمات لم تكن مجرد حروف، بل كانت سهامًا تمضي في السماء، تُسجَّل في لوح المجد، وتُتلى في محاريب التاريخ، فاستقرت في صدر النبي صلى الله عليه وسلم بردًا وسلامًا، وعلم أن القلوب قد بايعت قبل أن تبايع الأيدي، وأن الرجال رجالُ عزيمة لا يعرفون الرجوع، ولا يهوَون طريق التردد.

ومضى ركب النصر، يقوده نبيٌّ مؤيد من السماء، وخلفه صفوف الإيمان المتينة، كأنهم بنيان مرصوص، فشتّان بين من خرج يطلب الدنيا، ومن خرج ليقيم دين الله في الأرض.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- وحدة صف المؤمنين خلف القيادة النبوية المباركة من أصول التمكين والنصر، وفيها تأكيد على أن النصر ليس بعدد ولا عُدة، بل بثبات العقيدة وصدق التوكل على الله.
- مشروعية الشورى في الإسلام حتى مع النبوة، مما يثبت أن العصمة لا تلغي التوجيه الرباني بفتح الباب لمشاركة الأمة في القرار، وهذا أصل من أصول الحكم الراشد.
- تعظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم لا تعني نفي طبيعته البشرية، بل هو بشر يوحى إليه، يستشير، ويصغي، ويقود، ويُبلّغ عن ربه، وهذا توازن عقدي يضبط مقام النبوة بعيدًا عن الغلو.
- الاستجابة التامة لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، دليل الإيمان الحق، كما قال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء: ٦٥].
- نُصرة النبي صلى الله عليه وسلم واجبة في كل زمان، وهي من مقتضيات الإيمان به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فوائد فقهية

- الشورى مبدأ شرعي مشروع في الإسلام حتى في أعقد المواقف، وقد أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بها، مما يدل على أن الحاكم لا يستبد برأيه مهما بلغت منزلته.
- الوفاء بالبيعة عقد لازم لا يُنقض، ويتأكد عند تغير الظروف والمواقع، فلا يُقبل من المسلم نقض البيعة بالتأويل أو

التهوين، بل يجب عليه الصدق مع الله في العهد.

- القتال تحت راية الحق وقيادة الإمام المسلم مشروعٌ إذا توفر شرط العدل والنصرة للإسلام، كما فعل الأنصار، وهذا أصل في مشروعية القتال في سبيل الله.
- لا يُشترط الإلزام بموضع البيعة مكانًا وزمانًا ما دام المقصود نصرة الدين، وهذا يُفهم من انتقال البيعة من داخل المدينة إلى القتال خارجها.
- تثبت الإمامة الفعلية لمن بايعه الناس على الطاعة والنصرة، كما ظهر في موقف الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد أخلاقية

- الصدق عند الشدة علامة على صفاء القلب وقوة الإيمان، وقد ظهر في كلمات الصحابة رضي الله عنهم في ساعة الحسم.
- الوفاء عند تغير الأحوال من أصدق صفات الرجولة، وهو من مكارم الأخلاق التي تثبت في أوقات الأزمات لا في مواسم الأمن.
- الجرأة في قول الحق من غير تهور ولا تردد خلقٌ نبيل، وقد تجلّى في كلمات المقداد وسعد رضي الله عنهما.
- الثقة بالقائد والاطمئنان لتوجيهه من صفات الجند المخلصين، وقد ظهرت في قولهم: «لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.»
- الإخلاص في النية لا يحتاج ضجيجًا، بل يظهر في المواقف، كما ظهر في قول: «علم أن القلوب قد بايعت قبل أن تبايع الأيدي.»

فوائد دعوية وتربوية

- الدعوة الصادقة تبني قلوبًا لا تتزعزع، وولاءً لا يتغير بتغير الموقع، بل يزداد رسوخًا في الشدائد.
- القيادة الرشيدة لا تفرض أمرًا، بل تستثير القلوب بالعقل والحكمة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «أشيروا عليّ.»
- ترسيخ مبدأ أن الجماعة المؤمنة ليست جمعًا من الأشخاص، بل بناءٌ عقائديٌ متماسكٌ قاعدته الإيمان، وسقفه الطاعة، ودعامته الإخلاص.
- النماذج العظيمة تُلهم الأجيال، ومواقف الصحابة رضي الله عنهم أعظم مناهج التربية، إذ تُمثل القيم في أصفى صورها.
- لا تُبنى النصرة الحقيقية للشريعة إلا بالتضحية، وليس بالكلام فقط، وهذه سنة ماضية في كل من سار على طريق الحق.

مخالفات الواقع

- اليوم يُقدّم كثير من الناس بيعاتهم بالكلام، ثم ينقضونها عند أدنى تغير في الظروف، فتتبدل الولاءات ويهون الثبات.
- ضعف قيمة الشورى في كثير من المجالس القيادية المعاصرة، حيث يسود الاستبداد بالرأي، ويُغيب صوت الحكماء والعلماء.
- صارت كثير من الانتماءات مجرد شعارات، دون استعداد للتضحية، فإذا جاء وقت الفداء ظهرت الهشاشة وضعف الولاء للدين.

- انتشار طائفة من الناس تدّعي نُصرة الدين، لكنها ترفع السلاح بغير علم، وتُفتي بغير بصيرة، فتخالف بذلك منهج الصحابة رضي الله عنهم الذين لم يتحركوا إلا خلف نبيٍ مؤيدٍ من الله، وبأمر مشروع.
- في زمننا كثُر المتكلمون باسم الإسلام دون صدق في البذل أو أمانة في الطاعة، وكلما جد الجدّ تراجعوا، وهم أشبه بمن قال الله فيهم: ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ [الأحزاب: ١٩].
- ظهرت **فرق** تدّعي اتباع السنة، لكنها لا تعرف معنى البيعة الشرعية، ولا الوفاء، ولا طاعة الإمام في غير معصية، فضلّوا وأضلّوا، وكانوا فتنة في ديار المسلمين.

الفقرة العاشرة: ليلة الفرقان... بكاء القائد وتضرعه في محراب السماء

حين أرخى الليل سدوله الداكن على ربوع بدر، وانطفأت أصوات المساء، وتحولت الطرق إلى سكون مطبق، كانت القلوب المؤمنة تشتعل ناراً من الإيمان، والأرواح ترفرف بين خشية اللقاء العظيم والرجاء المديد. فبين أجواء ذلك السكون المهيب، عاشت النفوس على شفا موعدٍ لا يشبه أي لقاء سابق، موعدٌ يشهد على تاريخ الإسلام بأكمله، يوم يُكتب فيه فصلٌ جديد من فصول النور والدم، يوم الفرقان بين الحق والباطل.

في تلك الليلة المباركة، لم يدع النبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه للراحة، ولا غفى له جفن، بل كان قائمًا بين يدي ربه، مستغرقًا في مناجاةٍ خاشعة، تدعو بقلوب منكسرة، ودموعٍ جارية على وجنتيه، حتى سقط رداؤه عن كتفيه في تعبير عن الحزن العظيم الذي يستولي عليه. كان يقول بقلب متقطع:
"اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض."

لم يكن يتضرع لنفسه، بل كان يسجد بحزنٍ عميقٍ لرب العالمين، يدعو ويناجي، يطلب النصرة ليس من أجل ذاته، بل من أجل دين الله الذي حارب له، ومن أجل أصحابه الصادقين الذين صدقوه، وثبتوا على العهد ولم يبدلوا.

وفي تلك اللحظة، وقف بجانبه الصديق أبو بكر رضي الله عنه، يقترب بلين، يحاول أن يسكّن وجدان القائد ويواسيه، فقال له":يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك."

فكان أن أنزل الله سكينته على صدر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ووهبه من الطمأنينة ما يملأ أركان قلبه، وبشره بالنصر المبين، حتى أراه في المنام مصارع أعدائه قبل أن تنطلق المعركة، وكأنها لوحة إلهية مرسومة، دقيقة في تفاصيلها، لا تخطئ موقعًا ولا زمانًا.

ولم تكن هذه الليلة فقط ليلة بكاء النبي صلى الله عليه وسلم، بل كانت ليلة استراحة القلوب المؤمنة. فقد ألقى الله تعالى على أعينهم نعاسًا، أمنًا ورحمة، فأغشي النوم أفئدتهم التي ما فتئت تنبض بالخشية والرجاء، حتى استيقظوا صباحًا وقد ثبت الله أقدامهم، وأعدّهم ليوم اللقاء العظيم، ليكونوا في أصعب اختبار وأعظم امتحان، حاملين على أكتافهم راية الحق، ومؤمنين بوعد الله الذي لا يخلف.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- من دلائل كمال توحيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يرَ النصر متعلقًا بقوة جيش ولا بعدد العُدة، بل تعلّق قلبه كليًا بالله، فقام يدعوه في محراب الليل، وهذا تأصيل عقدي عظيم في أن النصر لا يُطلب إلا من الله وحده.

- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لانكساره بين يدي ربه مع أنه نبي معصوم، يدل على أن كمال الإيمان يقتضي دوام اللجوء إلى الله، والخضوع الكامل له، وعدم الاغترار بما أوتي المؤمن من فضل أو مقام.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض"، دليل على عظمة التوحيد في قلبه، وخوفه على انطفاء نور الدعوة، مما يرسخ أن أعظم غاية عند أهل الإيمان هي بقاء دين الله وعبادته في الأرض.

- ما وقع من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم بمصارع القوم دليل على إثبات كرامة الوحي، وعلى أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة، وهذا من أصول الإيمان بالغيب.

- نزول السكينة على النبي صلى الله عليه وسلم وعد إلهي محقق، فيه إثبات لصفة السكينة والطمأنينة التي يضعها الله في القلوب، وهي من آثار الإيمان بالقضاء والقدر.

- ما نزل على الصحابة من النعاس في ساحة القتال، أمنًا ورحمة من الله، يدل على أن الطمأنينة الحقيقية لا تكون بكثرة الوسائل، وإنما بربانية القلوب وتعلقها بالخالق.

فوائد فقهية

- يجوز للمسلم أن يُظهر تضرعه وبكاءه في الدعاء عند الشدة، فقد بكى النبي صلى الله عليه وسلم حتى سقط رداؤه، مما يدل على جواز الانكسار الظاهر بين يدي الله في الدعاء.

- الدعاء في أوقات الشدة والليل له فضل عظيم، ويُشرع الإكثار منه في مواضع الحاجة الكبرى، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة بدر.

- تكرار الدعاء والإلحاح فيه لا ينافي الأدب مع الله، بل هو من كمال العبودية، فقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم يكرر دعاءه ويبالغ في التضرع دون فتور.

- المواساة في المواطن العظيمة مشروعة، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم، فهو تأييد ومشاركة وجدانية تعين على الثبات.

- يُشرع أن يواسي المؤمن أخاه بذكر وعد الله، كما قال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم: "فإنه منجز لك ما وعدك"، وهذا دليل على تأصيل اليقين في قلوب المؤمنين بوعد الله.

فوائد أخلاقية

- مشهد بكاء النبي صلى الله عليه وسلم وخضوعه لربه، يعلّمنا أعظم دروس التواضع والانكسار، حتى في أعلى درجات القيادة، فالقائد الحق لا يستغني عن الله.

- وقوف أبي بكر رضي الله عنه بجانب النبي صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظة، وإظهاره للرفق والحنان، يدل على خلق الصحبة الصادقة التي تواسي وتشد الأزر في أحلك الظروف.

- عدم نوم النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، وإيثاره العبادة على الراحة، يربي القلوب على الإخلاص وتحمل المسؤولية والبعد عن التراخي في لحظات المصير.

- سكون الصحابة وتسليمهم لأمر الله، وقيامهم لصلاة الفجر بعد نعاس الأمن، صورة عظيمة من الثبات والتسليم واليقين، تنم عن خلق الصبر ورباطة الجأش.

فوائد دعوية وتربوية

- الدعوة إلى الله تحتاج إلى قلوب مشتعلة بالإيمان، وإرادة صلبة، كما كانت قلوب الصحابة في تلك الليلة، فالثبات لا يأتي من فراغ، بل من تربية إيمانية سابقة.

- الدعاء من أجل الدين وأهله لا من أجل النفس فقط، هو منهج الأنبياء، وعلى الدعاة أن يتربوا على هذا الأصل، ألا يجعلوا نصرة الدعوة وسيلة لمصالح ذاتية أو حزبية، كما تفعل بعض الفرق المنحرفة التي تلبس لبوس الدين، وهي في حقيقتها أصحاب أهواء.

- الإعداد القلبي والنفسي للفتن والابتلاءات أهم من الإعداد الحسي، إذ كان النصر مؤسسًا على يقين وثقة بالله لا على توازن القوة، وهذا منهج أصيل في التربية الدعوية.

مخالفات الواقع المعاصر

- تساهل كثير من القادة والدعاة اليوم في طلب العون من الناس ووسائل القوة، وتعلقهم بها أكثر من تعلقهم بالله، خلافًا لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من اللجوء الكامل إلى ربه.

- ضعف الإخلاص في نوايا بعض العاملين للإسلام اليوم، فتراهم يطلبون النصر لمشروعاتهم ومذاهبهم لا لدين الله، وقد يفرحون بالظهور أكثر من فرحهم بتمكين الحق.

- اختفاء مشهد البكاء والدعاء في حياة كثير من المسلمين، حتى في أحلك اللحظات، مما يدل على ضعف التعلق بالله، وغلبة الجفاف الروحي على القلوب.

- غياب مشهد الصحبة الصادقة المساندة، فلا تجد اليوم من يواسي أخاه في الدعوة أو البلاء إلا نادرًا، وكأن الصحبة صارت مصالح لا أخوة.

- تحول بعض الفِرق الضالة إلى تأصيل مسارات الصراع من أجل الحكم والسيطرة لا من أجل التوحيد، وهم يتكلمون باسم الدين ويهتفون باسم الله، ولكنهم أبعد الناس عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين بكوا في الليل، لا من أجل أنفسهم، بل من أجل لا تُطفأ شعلة التوحيد في الأرض.

- أصبحت معاني الطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين شبه غائبة، فلا ترى إلا الخوف والقلق والجزع، لأن الصلة بالله ضعيفة، والتربية على التسليم لله شبه غائبة في واقع الناس.

الفقرة الحادية عشرة: أنفاس النبوة... تبعث الحياة في قلوب المجاهدين

في بدر، يوم التقى الجمعان، وقف القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم لا على تلةٍ يأمر من بعيد، بل في قلب الميدان، بين جند الإيمان، والريح تعبث بالرمال، والسكون يُخيم على اللحظة، إلا من خفق القلوب بين رجاءٍ في نصرٍ يُرَجّى، وخشيةٍ من مصيرٍ لا يُدرى.

هنالك، انطلق صوت النبوة من بين الصفوف، لا يُلقي أوامر المعركة فحسب، بل يُلقي في الأرواح نفحات من العرش، تُذيب جليد الخوف، وتصبّ في العروق عزائم لا تنكسر.

قال لهم، كما روى مسلم»:**والذي نفس محمد بيده، لا يُقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**« فيا له من نداء، ما أشدّ وقعه على قلوب الصادقين! ويا لها من جنّة، كأنها تُنادي من بُعد :*هلمّوا إليَّ يا أهل بدر*

فوقعت كلماته في القلوب وقع الزلزال، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يحثّ على القتال كما يفعل قادة الجيوش، بل كان يغرس في القلوب مشهدًا من الجنّة يُرى بعين الإيمان، ويقول كما نقل أهل السِّيَر» :**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**« وإذا بعمير بن الحمام يسمعها، فيرمي تمراته من يده، وكأنما الدنيا كلها باتت تمراً لا يُؤخِّر، ثم يهتف" *بخٍ بخٍ! ما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلوني"!*، وينطلق نحو الموت كأنما انطلق إلى عرسٍ ينتظره، أو وعدٍ صدقه الله ورسوله.

وتتوالى آيات التثبيت، فينزل قول الله تعالى يُخلّد هذا التحريض النبوي في كتاب لا يأتيه الباطل:
﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**﴾ **[الأنفال: ٦٥]**
فما كان تحريضه مجرد حماسة، بل فتحًا من الله، وما كان صبرهم مجرد احتمالٍ للوجع، بل قوة تُسقط الجبال، وكان إيمانهم سلاحًا تُهزم به جيوش الشرك ولو كانوا أضعافًا مضاعفة.

ولم يكن صلى الله عليه وسلم بعيدًا عن سوح القتال، بل مشى بين الصفوف، يُعدّ العُدّة ويُسوّي القلوب، ويشدّ الأزر ويوقظ الهمم، حتى إذا جاء أوان الحسم، قبض قبضة من تراب، ونفثها في وجوه الأعداء، وقال»:**شاهت الوجوه**«! فأيده الله تأييدًا من فوق سبع سماوات، وقال في كتابه:﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾ **[الأنفال: ١٧]**

ثم رأوه وقد اعتزل الصف قليلاً، يرفع يديه إلى السماء، وقد سقط رداؤه عن كتفيه من شدّة الابتهال، يناجي ربّه بكلمات ترتجف لها القلوب» :**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض**«
حتى بعث الله جبريل بالبشرى *!قد أُجيب دعاؤك، والنصر قد أظلّك*.

فيا ليت شعري، كيف تُهزم قلوب نفخت فيها أنفاس النبوة؟
وكيف تنكسر أرواح سقَتها كلمات الوحي، وربّاها محمد صلى الله عليه وسلم ؟
وكيف لا تنتصر جماعة قلوبها معلّقة بالسماء، وأقدامها راسخة على الأرض، تمضي للموت وفي أعينها ضوء الفردوس؟

لقد كان تحريضه صلى الله عليه وسلم فتحًا من الله، وصمته تسليمًا، ودعاؤه مددًا من السماء، وخطاه بين الصفوف بيانًا لا يُنسى، علمت به الأجيال أن النصر لا يُولد من كثرةٍ ولا عُدّة، بل من صِدقٍ وإيمانٍ وصبر.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد بوعد الجنة يرسّخ في القلوب أن النصر من عند الله، لا من شجاعة القادة أو براعة الخطط، وهو تأصيل عقدي في الاعتماد على وعد الله لا على الأسباب وحدها.

- قوله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده...» تأكيد على أن القسم بالله من دلائل التوحيد واليقين، وهو من أساليب الأنبياء لترسيخ الحق في النفوس، مع تعظيم المقسم به.

- تصديق عمير بن الحمام بوعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى ترك التمر وأقبل على الموت، يدل على أن الإيمان بالغيب من أعظم صفات أهل الإيمان، فالله وعد، ورسوله بلّغ، والمؤمن صدّق فمضى.

- قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فيه تأكيد على أن الفعل الحقيقي لله، ولو ظهر في الظاهر أنه من البشر، وهو من أصول عقيدة القدر والإيمان بخلق أفعال العباد.

- إرسال الله لجبريل بالبشرى بعد دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يدل على إثبات صفة الرحمة لله، واستجابته لدعاء عباده الصالحين، وهو من توحيد الربوبية والإثبات.

- هذا المشهد يربي الأمة على أن أسباب النصر لا تقتصر على العدة والعتاد، بل أعظمها الإيمان والتوكل والدعاء، وهو ما يخالف منهج الماديين الذين لا يرون إلا المحسوسات.

فوائد فقهية

- في الحديث دليل على فضل الجهاد في سبيل الله، وفضل من قُتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، وأنه يدخل الجنة مباشرة، وهو باب عظيم من أبواب الشهادة.

- يجوز للقائد الشرعي أن يحثّ جنوده على الجهاد بذكر ثواب الله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وليس بتحفيز غرائز الغضب أو العصبية.

- تحريض القائد لأصحابه بنفسه، ومشيه بين الصفوف، عملٌ مشروع في الجهاد، وهو من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويجمع بين القيادة الروحية والميدانية.

- القبض على التراب والنفث به في وجه العدو فعل خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، أيده الله به، ولا يُشرع فعله لغيره، لثبوت خصوصيته بنص القرآن.

- الإلحاح في الدعاء عند شدة الكرب سنة نبوية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع العلماء على مشروعية رفع اليدين في الدعاء عند الضرورة.

فوائد أخلاقية

- كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في القيادة، لم يعتزل الميدان ولم يكتفِ بإصدار الأوامر، بل خالط الصفوف بنفسه، وغرس فيهم الروح، وهو خلق التواضع الحقيقي في القيادة.

- شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم ليست في قوته الجسدية، بل في ثباته القلبي وإقدامه المتوكل على الله، وهذا أعظم ما تُربى عليه النفوس في الشدائد.

- صدق عمير بن الحمام وإخلاصه في طلب الجنة يُعلّم الأجيال أن القلوب إذا امتلأت باليقين لم تلتفت إلى زخارف الدنيا، بل تعلّقت بالآخرة ولو كان ثمنها الموت.

- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وتضرعه في قلب المعركة، فيه تعليم للأمة أن النصر يُستمد من السماء لا من صيحات الجيوش، وهو درس في العبودية والتوكل.

فوائد دعوية وتربوية

- على الدعاة أن يتعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم أن أعظم وسائل التحفيز للحق هو الإيمان بالغيب ووعد الجنة، لا المزايدات الشعاراتية التي تعجّ بها خطابات كثير من المتكلمين اليوم.

- تربية النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة قبل المعركة، وملء قلوبهم بالإيمان، دليل على أن التربية القلبية قبل المواجهة هي السبيل للنصر، وهو ما تفتقده أكثر الحركات التي تتصدر المشهد اليوم بغير علم ولا تزكية.

- تحفيز النبي صلى الله عليه وسلم للأرواح لا بالعداوة ولا بالثأر، بل بالجنة، يُظهر أن القتال في الإسلام ليس للانتقام بل لإعلاء كلمة الله، وهذا ما تنحرف عنه بعض الفرق التي تقتل وتدمّر باسم الدين، وهي في حقيقتها فِرق ضالة كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم، خوارج مارقة عن الدين، شعارهم القتال وغايتهم الفوضى.

- واقعية الخطاب النبوي وارتباطه بالوحي، يعلم الدعاة أن لا سبيل للثبات في الفتن إلا بكلمات من كتاب الله وهدي نبيه، لا بشعارات من عند البشر.

مخالفات الواقع المعاصر

- غياب صورة القائد القدوة في كثير من حركات اليوم، حيث يتصدرهم من يتكلم كثيرًا ولا يعمل، ويأمرون الناس بالتضحية وهم أول المتخلفين عنها.

- طغيان الخطاب العاطفي المجرد على بعض الجماعات، دون ارتباط بالوحي ولا تحفيز على الجنة، مما جعل دعوتهم تفقد روح الإخلاص، وتنقلب إلى تعبئة نفسية لا تمت للتوحيد بصلة.

- التشكيك في الجهاد المشروع تحت ولاية شرعية والاستخفاف بفضله، مقابل تقديس الثورات والانقلابات، هو من فكر الخوارج الذين قلبوا الموازين، وجعلوا السيف سبيلاً للإصلاح بدلًا من الدعوة والتزكية.

- ضعف التربية الإيمانية عند كثير من الشباب، حيث تراهم يُقبلون على المغامرات أو المشاريع باسم الإسلام، لكن بلا وضوح في النية، ولا رسوخ في العقيدة، بخلاف ما كان عليه أهل بدر الذين كانت الجنة نصب أعينهم.

- الاكتفاء بالعدة الحسية، وتغليب الموازنات المادية فقط، مع إهمال الإيمان والتوكل والدعاء، هو منهج بعيد عن سبيل النصر، ويقود للهزيمة النفسية قبل العسكرية.

- انشغال كثير من المنتسبين للدعوة بالخطاب السياسي أو التحريضي، دون بناء إيماني حقيقي، هو انحراف عن سبيل النبي صلى الله عليه وسلم، الذي ربّى القلوب قبل أن يدفعها للميادين.

الفقرة الثانية عشر بدء المعركة... وهبوط ملائكة السماء إلى أرض بدر

مع أولى خيوط فجر ذلك الصباح المبارك، وقف النبي محمد صلى الله عليه وسلم في صفوف أصحابه، يمد يده الحكيمة، يضبط الصفوف ويُقوّمها كمن يُشعل قدرًا قديمًا، يغرس في نفوس المقاتلين روح الثبات والصبر، ويبني بهم جيشًا

لا يُقهر، لا يلين في وجه الرياح العاتية. كانت تلك اللحظات علامة الانطلاق، فبعد طول انتظار وتوتر، لم يعد هناك مجال للرجوع أو التراجع، فقد دقت ساعة الفرقان، وبدأت جيوش الحق والباطل تتقابل، وكان الضعف البشري يقف متواضعًا أمام جبروت الإيمان، وسلطان قوة الحق ينتصر على جبروت الباطل.

خرج في تلك اللحظة فرسان قريش، عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، يحملون الهامَّة والعناد، يطلبون المبارزة، فبرز لهم ثلاثة من فرسان الأنصار الشجعان، إلا أن قريشًا أصرت على أن يكون القتال بين أبناء العمومة، حتى تسود الشجاعة التي تليق بأهل الحسب والنسب.

فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته:
"قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي."

فأقبل هؤلاء الأسود الثلاثة، أسود الإيمان وبطولات التاريخ، ودار بين الطرفين قتالٌ أظهر فيه الإيمان قوته، قُتل فيه عتبة وشيبة والوليد، وأُصيب عبيدة إصابة بالغة أودت بحياته لاحقًا، فارتفعت راية الإسلام معلنة أول نصر في معركة النور، معلنة بداية عهد جديد للمجاهدين.

ثم التحم الجمعان، وعلت الهتافات الحماسية من المؤمنين:
"يا منصور أمت"!،

فتوقدت النفوس، واشتعلت حماسة الصحابة، فيما اهتزت جموع الكافرين وترنحت في مهب الصدمة، ولم يكن غريبًا أن تهبط ملائكة الرحمن بنفس الله، لتقاتل إلى جانب جنود الإسلام، كما وعد رب العالمين نبيه:﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩.]

وفي ذروة القتال، وقف النبي صلى الله عليه وسلم في عريش القيادة، يدعو ربه بخشوع، يشد على أيدي أصحابه بالثبات، يبشرهم بالنصر الأكيد، ويثبت عزائمهم، ويقول لهم":والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجلٌ يُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة."

وهكذا انطلقت ساعات المعركة الأولى في بدر، تسطر فيها صفحات من بطولة الإيمان، وتبشر بنصر عظيم لم تعرف له الجزيرة مثيلاً، إذ كانت بداية عهد التمكين والفتح، وظهور قوة الإسلام التي لا تقهر.

.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر بدعاء واستغاثة، دليل على أن القلوب المؤمنة لا تستمد عونها إلا من الله، وأن الاعتماد القلبي في الشدائد يجب أن يكون على قدرة الله وحده، لا على القوة أو العُدة.

- هبوط الملائكة للقتال إلى جانب المؤمنين فيه إثبات لعقيدة الإيمان بالملائكة، وأنهم يساندون المؤمنين في مواطن الشدة بأمر الله، وهو جزء من الغيب الذي يجب التصديق به على الوجه الذي ورد به النص.

- نزول الملائكة ردٌّ على منكري الغيبيات من أهل الكلام والمذاهب الفلسفية الذين أنكروا أن يكون للملائكة تدخل في الكون، وهو انحراف عن العقيدة الصافية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم.

- ما وقع من إصابة عبيدة بن الحارث ومقتله لاحقًا بعد المبارزة فيه إثبات لحكمة الله في الابتلاء والتمحيص، وأن النصر لا يلغي سنة الابتلاء، بل يعظّم أجره، وهو من عقيدة الرضا بالقضاء والقدر.

- قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يُقاتلهم اليوم رجل... إلا أدخله الله الجنة» فيه إثبات لصفة الجنة كجزاء إلهي عاجل للشهداء، وهو جزء من عقيدة اليوم الآخر، وأن الجنة حق والنار حق، لا مجازًا ولا رمزًا.

فوائد فقهية

- دلالة مبارزة الصحابة لأبطال قريش على مشروعية المبارزة في القتال بشروطها، وهي أن تكون بإذن الإمام، وأن تترتب عليها مصلحة للمسلمين.

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه لتوجيه الصفوف يدل على استحباب تقويم الصفوف في الجهاد، كما يُشرع ذلك في الصلاة، وهو من أعمال التنظيم والتهيئة للمعركة.

- قوله صلى الله عليه وسلم: «قم يا عبيدة... يا حمزة... يا علي» يدل على جواز تسمية المقاتلين بعينهم وتكليفهم بمهام مباشرة في المعركة، وهو أصل في التخطيط العسكري النبوي.

- علو أصوات التكبير والتحفيز في المعركة بعبارات كـ"يا منصور أمت!" من السنن الفطرية في الجهاد المشروع، وهو من وسائل الإثارة المشروعة للثبات والعزم.

- تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وتبشيرهم بالنصر في قلب المعركة سنة نبوية، يجب أن يقتدي بها القادة في بث الأمل والثقة بالله في نفوس المجاهدين.

فوائد أخلاقية

- شجاعة الصحابة رضي الله عنهم في المبارزة تدل على أن القوة لا تُقاس بالجسد فقط، بل بالإيمان الذي يملأ القلوب، وهو خلق الشجاعة النابعة من صدق العقيدة.

- إصرار قريش على المبارزة مع أبناء العمومة يكشف عن جهلهم وتعصبهم للأنساب، بينما الإسلام قدّم التقوى والعمل، لا الحسب والنسب، وهو خلق نبيل في موازين التقييم.

- استبسال الصحابة في القتال، رغم قلة العُدة، يدل على خُلق الثبات ورباطة الجأش، وتقديم الدين على النفس والراحة، وهو درس في الفداء الحقيقي.

- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في عريش القيادة، ورفعه للقلوب نحو الجنة، دليل على تواضعه، وحنانه، وقيادته الروحية، لا فقط السياسية أو العسكرية.

فوائد دعوية وتربوية

- مشهد تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وتذكيرهم بالجنة، يربّي الدعاة أن طريق التمكين يبدأ من تربية النفوس على طلب الآخرة، لا على الشعارات السياسية أو المكاسب الدنيوية.

- التحفيز على الجهاد بذكر الجنة لا بغريزة الغضب أو العصبية، كما يفعل بعض الدعاة المعاصرين، هو تربية ربانية نبوية لا تنحرف عن مقاصد الشريعة.

- قتال الملائكة مع المؤمنين لا يعني الاكتفاء بالدعاء دون الأخذ بالأسباب، بل هو دليل على الجمع بين التوكل والعمل، وهو نهج تربوي يجب أن تسير عليه الدعوات الصادقة.

- قوله صلى الله عليه وسلم: "قم يا عبيدة..."، يدل على تخصيص الأكفاء للمهام المناسبة، وليس تقديم من يُرضي العاطفة أو الانتماء، وهو أصل في حسن إدارة العمل الدعوي.

- القيادة النبوية التي تمزج بين التوجيه العسكري والتثبيت الإيماني تفضح مناهج الفرق الضالة التي تقود بلا علم، وتُحرّض بلا دعوة، وتزرع الحماسة بلا تربية، وهم خوارج العصر الذين يغررون بالشباب للدمار لا للنصر.

مخالفات الواقع المعاصر

- افتقاد كثير من الجماعات المعاصرة إلى قائد يجمع بين الروح والدعوة والعقل والتخطيط كما كان النبي صلى الله عليه وسلم، فترى قادتهم يدفعون الشباب للمهالك دون بصيرة، ثم يختفون في لحظة الجد.

- اختفاء مفهوم "الاحتساب والنية" في القتال عند كثير ممن يرفعون شعار الجهاد اليوم، حيث صار القتال عندهم وسيلة لكسب النفوذ والسلطة، لا طلب الجنة، وهذا انحراف عن منهج أهل بدر.

- استبدال التحفيز الإيماني بالتحريض الطائفي أو السياسي، كما تفعله بعض الحركات المسلحة، يخالف المنهج النبوي الذي ربى الصحابة على صدق النية والهدف، لا على شعار الصراع.

- بعض من ينتسبون للعمل الدعوي اليوم يقدّمون أهل الشهرة والسطوة لمواقع القيادة، ولو كانوا بلا كفاءة، بينما في الإسلام يُقدّم أهل الفضل والعلم والسابقة، كما قدّم النبي صلى الله عليه وسلم حمزة وعلي وعبيدة.

- إنكار بعض المنتسبين للعقلانية نزول الملائكة، واعتبار ذلك خرافة، هو انحراف خطير عن أصول الإيمان بالغيب، وترويج لمنهج أهل الكلام الذين ردّوا نصوص الوحي بدعوى العقل.

- تغييب التربية الروحية في ميادين الإصلاح، واستبدالها بخطاب مادي أو ثوري، أدى إلى انكسار كثير من الدعوات وانحرافها، لأن قلوب أصحابها لم تُربَّ كما رُبيت قلوب أهل بدر.

الفقرة الثالثة عشرة: الشيطان في بدر الهارب المذعور

ها هو الشيطان، في بدر... الهارب المذعور، المخذول الحقير، الذي طالما ملأ الأرض وعودًا كاذبة، وزيّن للناس سوء أعمالهم، فإذا جدّ الجد، وإذا علا صوت الملائكة في سماء بدر، وإذا تنزل مدد الله من فوق سبع سماوات، كان أول من انكشفت سوءته، وأول من ولّى الأدبار وهو يرتعد رعبًا ويصرخ هروبًا!

في يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، يوم بدت فيه وجوه الإيمان ناصعة، ووجوه الكفر دامسة، لم يكن إبليس بمعزلٍ عن ساحة الصراع، بل تسلّل في هيئة رجل من البشر، تقمّص صورة سُراقة بن مالك المدلجي، ومشى بين صفوف قريش مزهوًا بنفسه، نافخًا في نار غرورهم، يزيّن لهم الباطل، ويضرب على صدورهم بثقة شيطانية غادرة، مرددًا قولته المخدوعة: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

كان يهمس في آذانهم وعود النصر، وينفخ في رُوعهم أن الحق معهم، حتى إذا بدأت جيوش السماء تهبط، وإذا أجنحة الملائكة ترفرف فوق رؤوس المؤمنين، وإذا مدد الله يهب كريح صرصر، تزلزل الكيان الشيطاني كله، وانكشفت حقيقته الجبانة، فصرخ ذلك المخلوق الملعون وهو يرتعد ذعرًا: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

هنا سقط القناع عن وجهه الكاذب، وانقلب من داعم إلى خاذل، ومن حليف إلى فار، ومن جريء إلى مرتجف. أراد بعض المشركين الإمساك به، فإذا هو يتخلّى عن قناعه البشري، ويظهر في صورته الحقيقية، يدكّ الأرض برجليه، يغوص في الرمال، ويصيح صيحة اليائس: النجاء النجاء!

وقد وصف ابن عباس رضي الله عنهما المشهد في رواية مؤثرة فقال: "رأى إبليسُ الملائكةَ، فذهب ليرتدَّ، فجعل الوليد بن المغيرة يمسكه، فيضرب في صدره وظهره، فلمّا رأى الوليدُ أن لا يد له به، خلّى عنه، وولَّى مدبرًا" رواه الطبري بسند حسن.

وتلك سُنّته التي لا تتبدل، وتلك طبيعته منذ الأزل، كما قال ربنا في موضع آخر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ۖ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

فهو يَعِد ولا يفي، يُمنّي ولا يُعطي، يُغوي ولا ينصر، يُشعل الفتنة ثم يفرّ، يملأ الطرق زخرفًا ثم يتخلى عنها عند أول زلزلة من جنود السماء.

فيا من تتبعون خطواته، أفقوا! فإن من استنصر بالشيطان أذلّه، ومن وثق بوعوده خذله، فكيف يُؤمَن لمخادعٍ ينهار عند طلعة الحق، ويذوب فزعًا من صوت ملَك، ويهرب مذعورًا من وهج السماء؟!

إنه الشيطان... لا يزال كما هو: الجبان الأول، والمخذول الأكبر، والعدو الأزلي لكل من سار إلى الله مستقيمًا.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إبليس لا يملك من أمر النصر شيئًا، مهما أظهر من قوة أو دعم؛ فالملك لله وحده، والنصر لا يكون إلا من عنده سبحانه.
- الجن والشياطين قد يتشكلون بأشكال بشرية، لكنهم لا يستطيعون الثبات أمام جند الله وملائكته، وهذا يدل على ضعفهم رغم مكرهم.
- الملائكة جنود الله تعالى، ينصر بهم أولياءه، ويُذِل بهم أعداءه، وهذا من دلائل الإيمان بالغيب التي يجب الإيمان بها.
- الشيطان عدوٌّ قديم لبني آدم، لا يرضى لهم خيرًا أبدًا، وإن زَيَّن لهم الباطل، وادّعى الوقوف إلى جانبهم.
- من صفات المؤمن أن يُوقن بأن الشيطان لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، كما دلّت عليه آيات الكتاب.
- الخوف من الله من صفات أهل الإيمان، أما خوف الشيطان من الله فهو خوف مذلة لا ينفعه، لأنه لم يُثمر طاعة ولا توبة.
- ما ورد من تشكُّل الشيطان في صورة بشر، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ فيه ردّ على الغلاة من الفرق الذين ينكرون عالم الغيب أو يؤولون الشياطين والملائكة على غير وجهها الشرعي.
- عاقبة المتبعين للشيطان أنهم يُخذلون في الدنيا قبل الآخرة، وهذه سنة ربانية في من أطاع عدو الله.
- من دلائل صدق النبوة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر بأحداث يوم بدر تفصيلًا، ومنها فرار الشيطان، وقد وقع ذلك كما وصف، مما يوجب الإيمان بنبوته.

فوائد فقهية:

- لا يجوز للعبد أن يغترَّ بقوة الكافرين ولا بكثرة عددهم، فالعبرة بنصرة الله لا بظاهر الأسباب.
- وجوب الحذر من مكر الشيطان وخطواته، وأنه قد يأتي في صورة ناصح، أو متعاطف، أو صاحب رأي، فلا يُتبع في شيء.

- في الآية إثبات أن الشيطان قد يتكلم على ألسنة أوليائه، فيجب الحذر من كل قول لا يوافق شرع الله، ولو بدا منطقيًا.
- مشروعية التوكل على الله في ميادين القتال، وعدم الاتكال على عدد أو عُدّة.
- لا يجوز الفرح بنصرة الباطل ولو كان في صورة انتصار مؤقت، فإن ذلك من تزكية الشيطان.
- تسلل الشيطان في صورة إنسان يُفهم منه قاعدة شرعية: الحكم على الظاهر لا يكفي، فقد يتلبس الباطل بثياب الحق.
- وصف القرآن لحال الشيطان وفزعه يوم بدر يعلّمنا أن المخلوق لا يُرجى منه النفع المطلق، فكل نفع بيد الله.

فوائد أخلاقية:

- من علامة صدق العبد أن يثبت في الفتن، لا أن يفرّ كما فعل الشيطان حين رأى الحق ظاهرًا.
- لا يليق بالمؤمن أن يُخدع بزخرف القول، أو يُفتن بكلام يُجمّل الباطل، كما خدع إبليسُ المشركين في بدر.
- الشجاعة الحقيقية في الثبات على دين الله، لا في الصراخ والغرور الذي لا يصمد عند ظهور الحق.
- كشف الله جبن الشيطان في بدر فيه تربية للمؤمن على أن الخوف الطبيعي لا يُضعف من الثبات، إنما الخوف من الخذلان هو المهلك.
- لا يغترّ العبد بمن يكثرون الكلام في نصرة الباطل؛ فإن أولهم هروبًا عند الشدة، كما فعل إبليس.
- من الأخلاق الرديئة: تزكية النفس بالباطل، والتباهي بالدعم الكاذب، وهذا من أخلاق الشيطان.
- خذلان الشيطان لمن أطاعوه فيه تربية للمسلم على الوفاء، وأن الخذلان في الشدائد صفة ذميمة.

فوائد دعوية وتربوية:

- تربية الناس على الحذر من الزينة الباطلة التي يروّجها الشيطان، سواء في الأقوال أو الأفعال أو السياسات.
- على الداعية أن يبيّن للناس أن الشيطان يسلك أساليب متعددة لإغواء الناس، فيجب تعريتها وفضحها.
- من مهام الدعوة: كشف الأساليب التي يزيّن بها الشيطان الباطل، وأنها تتكرر في كل زمان بصورة جديدة.
- يجب تربية النفوس على أن العبرة بالثبات عند المحن لا بالكلام عند الأمان.
- من وسائل الدعوة الناجحة، ضرب الأمثلة من السيرة ومشاهد الصحابة، كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما في وصفه لمشهد إبليس.

مخالفات الواقع:

- الانبهار ببعض الأنظمة الغربية أو الزعامات السياسية التي تروّج الباطل وتزعم أنها مع الشعوب، ثم تتخلى عنهم في الشدائد، وهذا من سنن إبليس في الخذلان.
- تصديق وعود الأعداء، حتى لو كانت تحت شعارات إنسانية أو تحالفات كاذبة، والواقع يشهد أنها تتخلى عند الشدائد.
- تزيين الباطل عبر وسائل الإعلام والبرامج التي تبثّها قنوات الشر، فيقع فيها كثير من عوام المسلمين بسبب الجهل والغفلة.
- اتباع أهل الأهواء من الفرق الضالة التي ترفع شعارات براقة وتدّعي الدفاع عن الدين، لكنها عند الأزمات تتبرأ من أتباعها وتُسلّمهم للفتن، كما تفعل الفرق المرجئة والمعتزلة والخوارج الجدد.
- وجود شباب يُفتنون بخطابات حماسية لبعض الدعاة غير الموثوقين، الذين يتكلمون باسم الدين ثم يتخلّون عنهم أو يُسلّمونهم إلى المهالك.
- تساهل بعض المسلمين في تتبع خطوات الشيطان عبر مواقع التواصل، حيث يُزيَّن المنكر في قوالب مضللة، ولا ينتبه الناس لحقيقته إلا بعد الوقوع في الفتنة.

نسيان أن النصر لا يُنال إلا بالتقوى والاعتصام بالله، والانشغال بدل ذلك بالأسباب الظاهرة فقط، كما فعل مشركو بدر حين اغتروا بكثرتهم وبالشيطان.

الفقرة الرابعة عشر سقوط الطغاة ومصرع الجبابرة: نهاية العلوّ الباطل

في ساحة بدر، حيث اختلط وهج الشمس ببريق السيوف، وتعانق هدير السماء بزئير الرجال، كانت ساعة الفصل قد بلغت ذروتها، وكان الوعد الإلهي بالنصر قد بدأ ينسج خيوطه في تفاصيل المعركة. هناك، على تلك الأرض الطاهرة، دارَت رحى القتال، واختلط الغبار بالدماء، وارتفعت صيحات التكبير تخرق حاجز الزمن، تشهد لحظة من أعظم لحظات النور في تاريخ البشرية.

قريشُ التي خرجت بتيهها وغرورها، تحمل لواء الكبر على أكتاف الجبروت، لم تكن تدري أن خُطاها تلك إنما تسير بها إلى حتفها، وأن الأرض التي داستها نعالهم لم تكن ترحب بهم، بل كانت تنتظر أمر ربها لتبتلع كبرياءهم وتطوي صفحة الطغيان.

سقط أول الجبابرة... الوليد بن عتبة، ومن بعده أبوه عتبة وعمّه شيبة، سقطوا جميعًا تحت ضربات الحق، كأوراق خريفٍ عصفت بها رياح السماء. وكانت رؤوس الكفر تتهاوى واحدة تلو الأخرى، كأنها شُهب انطفأت، لا تملك لنفسها ضوءًا ولا بقاء.

وأما أبو جهل، طاغية قريش، وجِدار الكفر الأعظم، فكان يصيح في قومه مزهوًا بنفسه، مخمورًا بزيف العظمة: "لا تُهزموا، وإن قُتلتم فلا تُهزموا!"، كلمات تخرج من قلبٍ أعماه الكِبر، وطمس بصيرته الغرور. وما هي إلا لحظات، حتى انقض عليه غلامان من الأنصار، معاذ ومعوذ رضي الله عنهما، في بطولة تشهد لها السموات، فطعناه طعنات أحنت هامته، وأذابت كبرياءه، حتى خرّ صريعًا يتخبط في دمائه.

مرّ به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ذلك الصحابي النحيل في الجسد، العظيم في الإيمان، فوجد الطاغية لا يزال يتنفس أنفاسًا متقطعة، فوقف فوق صدره، ووضع قدمه على عنقه، وقال بصوت الحق المنتصر: "أأنت أبو جهل؟"، ففتح الكافر عينه الغارقة في الدماء، وقال بكبرياءٍ يائس: "وهل فوق رجلٍ قتله قومه؟" فأجهز عليه ابن مسعود رضي الله عنه، ثم حمل رأسه المثقلة بالضلال، وجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتهلل وجهه الكريم، وارتفعت أسارير الفرح على محياه، وقال" :**هذا فرعون هذه الأمة"**، في وصف بليغ يلخّص تاريخ الطغيان في رجلٍ واحد.

لقد قُتل في بدر سبعون من رؤوس الكفر، وأُسر مثلهم، وكانت الضربة ساحقة مزلزلة، لم يعرف لها العرب مثيلًا، ولم يسجل التاريخ قبلها نصرًا يُضاهي عظمتها. أما المسلمون، فلم يُقتل منهم إلا أربعة عشر نفسًا طاهرة، طارت أرواحهم إلى بارئها في يومٍ اختلط فيه الدم بالعزّ، والشهادة بالخلود.

وكان المشهد رهيبًا، يعجز عنه الوصف: الطغاة الذين طالما جثموا على صدور الضعفاء، اليوم يُطمرون تحت التراب، لا يُعرف لهم صيت ولا مقام، والمستضعفون الذين بالأمس ما كانوا يُؤبه لهم، اليوم تصلي عليهم السماء، وتبكي لفقدهم الأرض، وتهتف لهم الملائكة من علياء الجنان.

نعم، كانت بدر "يوم الفرقان"، فرق الله فيه بين الحق والباطل، وكتب فيه للتاريخ أولى سطور النور، وعلَّم الدنيا أن الطغاة إلى زوال، وأن عاقبة المتقين لا تُمحى مهما امتد الظلم وتطاول الليل.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إثبات سنّة الله في نصرة المؤمنين مهما قلّ عددهم، وأن النصر لا يتوقف على كثرة العدد والعدة، بل على صدق الإيمان والاعتماد على الله.
- دلالة مشهد بدر على أن الله عز وجل يقلب موازين القوى متى شاء، ويُسقط من شاء من الطغاة، في الوقت الذي يختاره سبحانه، مما يثبت لله وحده صفات العظمة والتدبير.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم لأبي جهل بأنه "فرعون هذه الأمة" فيه بيان أن الأمم لا تخلو من طغاة، وأن صفة الفرعونية متكررة في التاريخ، لكن نهايتهم دائمًا إلى هلاك، تأكيدًا لوعد الله.
- في فرح النبي صلى الله عليه وسلم بمصرع الطغاة بيان لعقيدة الولاء والبراء، وأن الفرح بهلاك أعداء الله من مظاهر محبة الدين ورفعته.
- معركة بدر تطبيق عملي للإيمان بالملائكة، إذ نزلت الملائكة تقاتل مع المؤمنين، وهذا من أصول الإيمان التي يجب اعتقادها.
- ثبات الصحابة في القتال، واعتبارهم النصر من عند الله، تأكيد على أن التوكل على الله لا ينافي الإعداد، بل هو جوهر العقيدة في القتال في سبيل الله.

فوائد فقهية:

- جواز قتل القائد الكافر في ساحة القتال، ولو على يد من دونه، لما فيه من كسر شوكة الكفر ورفع راية الحق، كما فعل معاذ ومعوّذ بأبي جهل.
- جواز التمثيل بالكفار على وجه التشهير بجبروتهم المنهار، كما حمل ابن مسعود رأس أبي جهل للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يدخل هذا في النهي عن التمثيل لما فيه من مصلحة شرعية.
- مشروعية الفرح بانتصار المسلمين وهلاك الطغاة، كما تهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم عند رؤيته لرأس أبي جهل.
- أهمية الرجوع إلى القيادة في نتائج المعارك، كما فعل ابن مسعود رضي الله عنه حين جاء بالرأس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تصرف فردي.
- الأسر في الإسلام لا يُعامل معاملة القتل، بل له أحكام أخرى، كما ثبت في أسر سبعين من المشركين، ويدل على تنظيم قواعد الحرب في الشريعة الإسلامية.

فوائد أخلاقية:

- الكبر والغرور والعلو على الناس طريقٌ للهلاك، كما هو حال أبي جهل وعتبة وشيبة، فالأخلاق السيئة سبب سقوط الجبابرة.
- مشهد ابن مسعود فوق صدر الطاغية يُعلّمنا أن العزة لا تكون بالجسد، بل بالإيمان والصدق والثبات، فالعظمة تُوزَن بالإيمان لا بالهيبة الظاهرة.
- بطولة الفتيين معاذ ومعوّذ رضي الله عنهما درس في الشجاعة والإقدام والتضحية، وأن نصرة الدين ليست حكرًا على الكبار.
- في سقوط الطغاة عبرة أن الدنيا لا تدوم لأحد، وأن من توهّم العظمة نُكس رأسه وأُذلّ، وهذه تربية على التواضع.

🔷الشهادة في سبيل الله ليست خسارة، بل رفعة وخلود، كما حدث مع شهداء بدر الأربعة عشر، فهم الرابحون وإن فُقدوا في الدنيا.

فوائد تربوية ودعوية:

🔷بدر درس تربوي في أن العقائد لا تُنتصر بالخطب، بل بالتضحيات، وأن المواقف هي الميدان الحقيقي للثبات على المبادئ.

🔷ترسيخ مفهوم "النصر الحقيقي" في التربية الإيمانية، وهو أن يسقط الباطل أمام صولة الحق، لا أن يعلو الصوت أو تكثر الشعارات.

🔷الواقعية في التربية النبوية تتجلّى حين ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين أبي جهل وفرعون، لبيان أن الطغيان له أشكال متكررة، وأن على الأمة أن تميّزه وتحذره.

🔷التربية على حب الصحابة وتقدير مواقفهم، حيث يظهر في الفقرة فضل ابن مسعود ومعاذ ومعوذ رضي الله عنهم، وهو من صميم منهج أهل السنة.

مخالفات الواقع المعاصر:

🔷السكوت عن الطغيان والتطبيع مع رموز الكفر والعلو في الأرض، بدعوى الواقعية أو الحكمة، وهذا مخالف لنهج بدر الذي كان مواجهة مباشرة للجبابرة.

🔷تعظيم بعض الطغاة في الإعلام أو تزويق صورتهم، ولو كانوا من رؤوس الفساد والظلم، وهذا عكس ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين فضح طغيان أبي جهل.

🔷ضعف عقيدة الولاء والبراء في واقع المسلمين، فلا يُفرحون بهلاك رؤوس الكفر، بل يُظهر بعضهم التأثر لحالهم، وهذا تميع عقائدي مخالف للفرح الذي أظهره النبي صلى الله عليه وسلم.

🔶الإعجاب بالقوة المادية للكافرين واعتبارها معيارًا للتفوق، بينما معركة بدر علمتنا أن النصر من عند الله لا من أدوات البشر.

🔶ظهور من يُلمّع فرعون الأمة المعاصر باسم "الحرية" أو "الاختلاف السياسي"، وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم "فرعون"، ولم يُجز تبريرهم أو تلطيف صورتهم.

🔶نفي وجود الطغاة في عصرنا، أو منع وصف بعض القادة المتجبرين بأنهم على نهج فرعون، ولو استحلوا دماء الأبرياء، وهذا تعطيل لسنة التدافع التي جاءت بها النصوص.

الفقرة الخامسة عشرة: حديث الموتى عند القليب... حين نطق السكون

سكنت العاصفة، وهدأ زئير السيوف، وجفّ الدم على رمال بدر، فلم يبقَ إلا الأجساد التي كانت بالأمس تنفخ كبرًا وتتكلم استعلاءً، ها هي الآن هامدةٌ لا حراك فيها، قد سُحقت تحت أقدام الحق، وسقط عنها زيف القوة، وانطفأ فيها بريق الجبروت.

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق أرضٍ شهدت معجزةً من معجزات السماء، يطأ بخطاه الطاهرة ذات الرقعة التي دارت عليها أعظم مواجهة بين النور والظلام، بين الوحي والوثنية، بين توحيد السماء وغرور الأرض.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تُجمع جثث رؤوس الكفر ممن لطالما سفّهوا دعوته، وآذوا أصحابه، وسخروا من آيات الله، تُسحب جثثهم سحبًا لا تكريم فيه ولا وداع، وتُلقى في حفرةٍ عميقة مهجورة من آبار بدر القديمة، تُعرف بالقليب، حيث لا شاهد عليهم إلا التراب، ولا نادب لهم إلا الريح.

ثم اقترب النبي صلى الله عليه وسلم من شفير القليب، يحدّق في هذا القاع الذي أصبح قبراً لجحافل الطغيان، ونادى أسماءهم واحدًا تلو الآخر، بنداءٍ تقشعرّ له الجلود وتضطرب له الأفئدة، فقال بصوت الحق الواثق:
"يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا."

صمتٌ ثقيل خيّم على الموقف، وسؤالٌ انفجر صداه في عمق التاريخ: أكان يتحدث إليهم؟ أيسمعون؟
فقال الصحابة مندهشين: "يا رسول الله، أتخاطب أقوامًا قد جيّفوا؟"
فردّ النبي صلى الله عليه وسلم ردًا يهزّ العقول ويزلزل القلوب:
"ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون."

آهٍ من ذلك المشهد الجليل! إنه ليس حديث شماتة، ولا لحظة انتقام، بل بلاغٌ من نبي الرحمة والصدق، يُلقي فيه كلمة الفصل لمن أعرضوا بالأمس عن سماعها، فإذا بهم اليوم يسمعونها في القبور، ولكن لا ينطقون، يوقنون بالحق، ولكن لا توبة تنفع، ولا مهرب يُرجى.

لقد سمعوا نداء الحق في الحياة فكذبوه، ثم سمعوه في القليب فخرسوا، فانكشفت لهم الحقيقة التي طالما أنكروها، وزالت عن أعينهم سُحب العناد، وانمحى من قلوبهم دخان الكبر، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن صارت الإجابة ضربًا من المحال.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بأن الله ينصر أولياءه ويذل أعداءه، مهما بدا لهم من علوٍ في الدنيا، كما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم في بدر، وأهلك رؤوس الكفر الذين كانوا يسخرون من دعوته.
- إثبات أن وعد الله حق لا يتخلّف، وهو ما أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم بوضوح حين قال: «فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا»، وهذه شهادة يقين وطمأنينة، وهي من تمام الإيمان.
- إثبات أن الميت يسمع كلام الأحياء إذا شاء الله له، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، وهو ردّ واضح على من أنكر السمع في البرزخ، من الفرق المنحرفة كالمعتزلة ومن تأثر بهم.
- يقين المؤمن بحياة البرزخ وما فيها من إدراك وحساب، خلافًا لمن ينكر الحياة البرزخية أو يجعلها غيبًا لا دليل عليه، وقد دل الحديث على أنها حياة حقيقية من نوع آخر، يُدرك فيها الميت ما لا يدركه الأحياء.
- إثبات صدق النبوة والرسالة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، بل كل وعد بلّغه من ربه فإنه يقع كما أخبر، وهذا من دلائل الرسالة ومعجزات الصدق.

فوائد فقهية:

- جواز مخاطبة الميت إذا كان المقصود بها التذكير والاتعاظ للأحياء، لا الاستغاثة أو الطلب منه، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم عند القليب، وهذا يُردّ به على الذين اتخذوا القبور مواطن نداء واستغاثة.

- جواز معاملة أعداء الله بالإهانة بعد موتهم، وعدم احترام جثثهم، إذا كانوا أهل كفر وعدوان، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بسحب جثثهم بلا تكريم ولا وداع، ورماهم في القليب.

- أن القبور ليست بالضرورة أن تكون مكرّمة، بل قد يُجعل موضع الهوان قبرًا لأهل الهوان، فحُفَر بدر كانت مهجورة، ومع ذلك ألقي فيها أعتى طغاة مكة، لتكون عبرةً لمن يعتبر.

- مشروعية تعظيم مواطن النصر الإلهي، والوقوف عندها بالتذكير والاتعاظ، كما وقف النبي صلى الله عليه وسلم في بدر متأملًا ما جرى فيها من نصر رباني وبلاء إلهي للمجرمين.

- أن بلاغ الدعوة لا يتوقف عند موت المدعو، بل قد يُبلّغ بالرسالة بعد موته من باب إقامة الحجة عليه وتمام البلاغ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الموقف.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- التواضع أمام قدرة الله، فكم من طاغية جبار نُزع عنه الجبروت لحظة موته، وهذا يُعلّم النفس ألّا تغترّ بالقوة والجاه، فإن النهاية أمام التراب، لا تميّز فيها.

- الصدق في النصر لا يكون بالتشفّي والشماتة، بل بالعبرة والتذكير، وهذا ما ظهر من وقفة النبي صلى الله عليه وسلم عند القليب، لم يكن منتقمًا، بل مبلّغًا.

- أهمية الإيمان بالغيب في ثبات القلب، فالصحابة تعجّبوا من مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم للموتى، لكنه بيّن لهم الغيب الذي لا يُدرك بالحواس، وهذا يُربّي على الإيمان دون تشكك.

- من أخلاق أهل الحق أن يجعلوا حتى لحظات الانتصار منابر دعوة، لا مجال فيها للكبر أو الانتقام، بل البلاغ والحكمة، وقد كانت تلك وقفة نبوية عظيمة في التربية والدعوة.

- خطورة التسويف بالتوبة، فإن الطغاة ما كانوا يجهلون الحق، بل كبُر عليهم اتباعه، حتى جاء الموت فكشف لهم اليقين، ولكن بعد فوات الأوان.

مخالفات الواقع المعاصر:

- كثير من الناس اليوم يُنكرون عذاب القبر ونعيمه أو يشككون في سماع الميت، متأثرين بآراء الفرق الكلامية المنحرفة كالمعتزلة ومن سار على طريقتهم من العقلانيين الجدد، مخالفين صريح السنة الصحيحة.

- التوسل والاستغاثة بالأموات عند القبور لا يزال منتشرًا، ويظنه كثير من الناس من البر، بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يُنادِ أهل القليب طلبًا أو رجاءً، بل بلاغًا وتبليغًا فقط.

- التعظيم المفرط للقبور والمقبورين حتى جعلوها مواطن احتفال وتقديس، بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يُعطِ قبور الكفار إلا الإهانة والردم، وهذا فرق جوهري في العقيدة.

- في زماننا يشيع التكبر والاستعلاء، حتى بين المسلمين، فمن الناس من ينفخ الكبر في كلماته ومواقفه، غافلًا عن أن النهاية قد تكون كحفرة القليب... فلا كبر يبقى، ولا صوت يُسمع.

♦قلّ من يوقن أن الموت يأتي بغتة، وأن الطغيان لا يحول دون التراب، بل غلب على كثير من الناس الغرور بالدنيا والجاه والمال، وكأنهم خالدون لا يُسألون.

♦يُشيع بعض المفتونين اليوم أن الدين لا علاقة له بالسيادة ولا القوة، بينما غزوة بدر بيّنت أن الدين يُعلي أهله ويُذل خصومه، وهذا جزء من نصر الله لأوليائه، لا كما يروّج له منكرو الجهاد وأهل البدع.

الفقرة السادسة عشر السبي والغنائم... حينما أطلت الفتنة برأسها في قلب النصر

ما إن وضعت الحرب أوزارها في بدر، وتبددت سحب المعركة عن أرضٍ عبقت بدماء الشهداء وارتوت بعطر التضحيات، حتى علت راية الإسلام خفاقة، تنبض بالعزة، وتحمل في طياتها بشائر النصر الأول.

سقطت رؤوس الجبابرة، وانهارت أصنام قريش على أعتاب الهزيمة، ومُزقت رايات الشرك تحت أقدام رجالٍ ما عرفوا غير الإيمان سلاحًا، ولا غير الجهاد طريقًا.

ولكن ما أعجب هذه النفس البشرية، حينما تهب عليها رياح الفتنة من حيث لا تحتسب!
ففي اللحظة التي ظنّ فيها الجميع أن أبواب السماء قد فُتحت ابتهاجًا، أطلت الفتنة برأسها، في ثوب جديد لم يألفه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من قبل.

لم تكن فتنة شكّ أو نفاق، بل فتنة اجتهاد وحرص، لكنها كانت كفيلة بأن تُذكّر الجميع بأن النفس، مهما علت، لا تُؤمَن عليها غوائل الدنيا.

لقد خلفت المعركة سبعين أسيرًا من رجال قريش، كثيرٌ منهم من سادات مكة وأثريائها، ممن ملؤوا الأرض يومًا صلفًا واستكبارًا، فإذا بهم اليوم في قبضة المؤمنين، أذلّاء صاغرون .وتباينت الآراء في مصيرهم بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم:
فطائفة رأت أن في قتلهم تطهيرًا لما لوّثوا به مكة من دماء وآهات، وأن في إراقة دمهم براءةً للجرح، ووفاءً للثأر، وتأديبًا لكل باغٍ وطاغٍ.
وطائفة أخرى رأت أن تأخير قتلهم، وقبول الفداء منهم، أجدى للإسلام، وأقرب إلى الحكمة، ففي أموالهم تقويةٌ للمسلمين، وفي إطلاقهم تهيئةٌ لعقولٍ لعلها تُدرك النور بعد الظلمة.

واحتدم النقاش، وارتفعت الأصوات، واشتدّ الجدل بين رجالٍ ما اختلفوا يومًا في ربهم، لكنهم اختلفوا في اجتهادهم.

ولم يمضِ وقت طويل حتى جاء الوحي ليُسكِت الضجيج، ويؤدّب بحكمة، ويُصحّح المسار بقسطاس الحق، فقال عزّ وجل:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ... لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

فكانت آية تُربي، وتُهذّب، وتقول بلطف جليل: ما كل اجتهاد صواب، وإن كان صادرًا من صدورٍ طاهرة، فالموازين لا تُقاس بالنيات وحدها، بل تُوزن بنور الوحي، وعدل السماء، وحكمة النبوة.

ولم يكن السبي وحده هو الباب الذي دخلت منه الفتنة، بل لحقت به الغنائم، وما أدراك ما الغنائم!
اختلفوا: من الذي جمعها؟
ومن الذي قاتل أشدّ؟

ومن الأحق بالحظ الأوفر؟
وإذا بالقلوب التي وحدها الإيمان، تكاد تتنازعها الدنيا، في أول اختبار لما بعد النصر.

لكن الله الرحيم، الذي لا يترك هذه الأمة تتخبط في ظلال الشهوات، أنزل قرآنه العظيم يحسم الأمر من أول لحظة، فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ، قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

أي: لا أحد يملك التصرف فيها بهوى، ولا تُقسم بناءً على اجتهاد الأفراد، بل مردّ الأمر كله لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فهو الذي يقسمها بعدل، يزن الأمور بميزان الحق، لا بالمصلحة، ولا بالاجتهاد القاصر.

وهكذا تعلّمت الأمة درسًا بليغًا في أول نصرٍ عظيم: أن الجهاد لا يُبنى فقط على قوة السيف، بل على صفاء القلب، واستقامة الطريق، وتزكية النفس قبل المعركة وبعدها.
وأنّ أخطر ما يعقب النصر: فتنة المال، وفتنة القوة، وعلو النفس، إن لم يُضبط كل ذلك بزمام الوحي، ويُهذّب ببصيرة النبوة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بأن الله هو الذي يُنزل النصر، لا الجهد البشري وحده، كما ظهر في بدر، فمع قلّة عدد المسلمين وعدّتهم، نصرهم الله على أعدائهم، وهذا من دلائل التوحيد والافتقار لله وحده.

- أن الوحي هو المرجع الأعلى الذي يُرجع إليه عند اختلاف الآراء، ولو صدرت من خير الناس بعد الأنبياء، كما نزل الوحي يُصحّح اجتهاد الصحابة في أمر الأسرى والغنائم، وهذا من تمام الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

- بيان أن النصر لا يُعني رضا الله التام عن الأمة، فقد تقع الأمة في خطأ بعد النصر، فيُؤدّبها الله بوحيه وشرعه، وهذا تأصيل عقدي عظيم يمنع الغرور والانحراف بعد الفتح.

- أن تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم بوحي من الله، وأن أمر الغنائم والسبي ليس موكولًا لأهواء البشر، بل مردّه إلى الله ورسوله، مما يؤكد العقيدة في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم المطلقة.

- الإيمان بأن الله يمتحن عباده بعد النصر كما يمتحنهم في البلاء، وهذا من سننه في عباده، وهو من تمام التوحيد أن لا يغتر المؤمن بالعافية بل يفتقر لله في السراء والضراء.

فوائد فقهية:

- لا يجوز قتل الأسرى أو إطلاقهم إلا بما يراه الإمام المسلم، وفق المصلحة العامة، لا بناءً على العواطف أو المطالب الفردية، لأن الأمر موكول إلى الشرع، لا إلى الاجتهاد المجرد.

- دلّ الحدث على مشروعية الاجتهاد في المسائل التي لم يرد فيها نص، وأن الصحابة اجتهدوا ولكن تم تصحيح اجتهادهم بالوحي، وهذا يُبين حدود الاجتهاد الفقهي وضوابطه.

- أن قسمة الغنائم ليست حقًا مكتسبًا لكل من قاتل، بل تعود لله ورسوله، فيوزعها الإمام بحسب ما يراه من المصلحة الشرعية، لا بحسب طلبات المجاهدين، وهذا أصل في فقه الغنائم.

- أن الغنائم لا تُقسّم إلا بعد إذن الإمام أو من ينوب عنه، وأن النزاع فيها فتنة عظيمة يجب الحذر منها، وهو ما ظهر في أول غزوة مع أن الصحابة خير خلق بعد الأنبياء.

- أن الاجتهاد الفقهي لا يعصم صاحبه من الخطأ، وأنه قد يقع في اجتهاد فيه عتاب رباني، كما وقع لأصحاب بدر، دون أن يُنقص ذلك من قدرهم، وهو تأصيل في فقه التعامل مع اجتهاد العلماء.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- أن النفس البشرية مهيأة للفتنة ولو بعد النصر، وأن الأخطار التي تهدد القلوب أحيانًا تأتي بعد الإنجاز لا قبله، لذا لا بد من دوام المراقبة للنفس، وخاصة في لحظات العلو والانتصار.

- أن الصحابة لم يكونوا معصومين، بل وقعوا في اختلاف وجدال، ولكنهم كانوا يردّون الأمر إلى الله ورسوله فور نزول الوحي، وهذا هو المعيار الأخلاقي في الطاعة والرجوع للحق.

- التحذير من التنافس على الدنيا ولو في مواطن الجهاد، فإن القلوب إذا لم تُهذّب تفتن، ولو كانت خرجت في سبيل الله، وهو ما جرى في الغنائم، حين كادت القلوب أن تتنازع.

- التأكيد على أهمية تزكية النفس بعد النصر، كما تُزكّى قبل القتال، فالنصر الحقيقي ليس في ساحة القتال فقط، بل في غلبة النفس على شهواتها، وهذا أعظم درجات الجهاد.

- أن النية الطيبة لا تكفي وحدها إذا خالفت الوحي، فاجتهاد الصحابة في الأسرى والغنائم كان بدافع الخير، لكن وُجّه بالوحي، فالأخلاق تُضبط بالشرع لا بالمشاعر.

مخالفات الواقع المعاصر:

- تساهل كثير من الناس اليوم في ردّ الأمور الشرعية إلى العقل أو المصلحة أو السياسة، متناسين أن الأصل في الفصل هو الوحي، وهذا انحراف عن منهج السلف في التلقي والاتباع.

- وجود فِرق اليوم ترفع شعار الجهاد لكنها تفتن بعد النصر بالمال أو المناصب أو السلطة، فتتنازع على الغنائم والمكاسب، كما تنازعت الفرق الضالة يومًا على الدنيا باسم الدين، وهذا يُذكّر بفتنة الغنائم في بدر، لكنهم لا يعتبرون.

- تفشي روح الطعن في العلماء والحكام بحجة الاجتهاد والخلاف، كما وقع من بعض المغرورين اليوم، وهم لا يعلمون أن حتى الصحابة اختلفوا في اجتهادهم لكنهم رُدّوا إلى الله ورسوله، ولم يتعصبوا لرأي أو موقف.

- دخول بعض أهل الأهواء من فتنة المال والسلطة باب "المصلحة" لخرق الشرع، زاعمين أن الضرورات تبيح المحرمات دائمًا، وهذا مشابه لاجتهاد الصحابة الذي عاتبه الله، لكنهم لا يُنزّلون النصوص مواضعها.

- تهوين كثير من الدعاة اليوم من خطورة فتنة ما بعد النصر، وكأن التمكين هو النهاية، مع أن القرآن أشار إلى أن النصر قد يُتبعه فتنة، ليُظهر الصادق من المنافق، كما حصل بعد بدر.

- التغافل عن إصلاح النفوس والقلوب في الدعوات المعاصرة، والتركيز على التمكين الظاهري، مع أن الآية والحدث يعلّمان أن تزكية النفوس أساس قبل النصر وبعده، وهو ما يغفل عنه كثير من الحركات المعاصرة.

الفقرة السابعة عشرة: العودة إلى المدينة... أصداء النصر، وملامح التمكين

عاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى طيبة الطيبة، لا كما خرج منها، بل عاد محاطًا بجلال النصر، تسير بين يديه أصداء بدر، وتسبقه أنفاس الملائكة التي قاتلت معه، وتحفّ موكبه المهيب مهابةٌ ألقاها الله في قلوب أعدائه قبل أوليائه.
لقد خرجوا يومًا، لا يملكون غير توكل ويقين، وقلوب ترتجف بين خوف من عدو شديد، ورجاء في نصر الله المجيد، أما اليوم... فها هم يعودون بنصرٍ أدهش العقول، ورفع الرؤوس، وكتب للتاريخ أول صفحة عزّ للإسلام لا تُطوى.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، ولسانه لا يفتر عن حمد الله وتمجيده، يعلّم أمته في أول لحظات التمكين أن النصر ليس من عتاد ولا كثرة، بل من السماء نزل، ومن الإيمان تولّد، ومن الصبر وصدق التوكل نما وترعرع.
كان بإمكانه صلى الله عليه وسلم أن يُظهر مظاهر العظمة، وأن يُنصب رايات الفخر، ولكنه آثر أن يربّي القلوب على الزهد في الظهور، والعزّ في الخضوع لربّ النصر والفتح المبين.

شرع صلى الله عليه وسلم في تنظيم ما بعد المعركة بميزان دقيق، لا تميل كفته لهوى، ولا ترجف به العاطفة.
فوزّع الغنائم كما أمره الله، بعدل لا يعرف محاباة، وقسط لا يُراعى فيه إلا أمر السماء، وأظهر للناس أن الإسلام لا يعرف ظلمًا حتى في لحظات الغلبة.
ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالإحسان إلى الأسرى، فكان الأسير في بدر يُكرم ضيفًا، ويُطعم من أطيب الطعام، حتى قال بعضهم في اندهاش صادق: "ما رأينا قومًا أكرم من أصحاب محمد."

ولم تكن الغنائم عنده مجرد ذهب وفضة، بل جعل فداء بعض الأسرى تعليمًا، فربط الثمن بالعلم، وأعلى من قدر الكلمة، وغرس في النفوس أن أولى انتصارات الأمة تبدأ من حبر الأقلام قبل سيوف الساحات.

وهكذا... لم تكن بدر نهاية معركة، بل كانت بداية حضارة، ونقطة تحوّل في مسار الرسالة، وبداية ظهور دولة تقيم العدل، وترفع قدر الإنسان، وتؤسس بنيانها على الإيمان قبل السلطان، وعلى التربية قبل التمكين.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- أن النصر من عند الله لا من البشر، ولا من العدد والعدة، كما دلّت عليه عودة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة محفوفين بألطاف الله، بعد أن خرجوا وهم لا يملكون إلا التوكل واليقين.

- التمكين الحقيقي لا يكون إلا من الله، فهو الذي يُلقي المهابة في القلوب، وينصر أولياءه ولو كانوا قلة، كما ألقى الله مهابة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أعدائه قبل أوليائه.

- الإيمان بأن الملائكة تقاتل مع المؤمنين بنصوص الوحي، وهذا من العقيدة التي يجب التسليم بها، وقد قاتلت الملائكة في بدر، كما دلّ على ذلك القرآن والسنة، وهي من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو.

- أن النصر لا يدل بالضرورة على رضا مطلق، بل قد يكون وسيلة للابتلاء، وقد يُبتلى العبد بعده، لذا بقي النبي صلى الله عليه وسلم في حال تواضع وذكر وحمد، ليعلّم الأمة ألا تغترّ بالتمكين.

- أن النبي صلى الله عليه وسلم مشرّع لا يتصرّف بهواه، فكل ما فعله بعد النصر من قسمة الغنائم والتصرف في الأسرى، إنما كان بوحي وأمر إلهي، وهو من دلائل النبوة والتسليم لحكم الله ورسوله.

فوائد فقهية:

- توزيع الغنائم من اختصاص الإمام، وليس من حق المجاهدين أن يقسموها أو يتصرفوا فيها، بل تُقسم بحسب حكم الله ورسوله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعد بدر.

- مشروعية الإحسان إلى الأسرى في الإسلام، حتى في حال القوة والغلبة، وهذا من عدل الشريعة، وقد أكرم الصحابة أسرى بدر إكرامًا أدهشهم، وهو تعليم نبوي رفيع في معاملة العدو بعد الأسر.

- جواز الفداء بالمال أو التعليم، وقد فدى النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأسرى بأن يُعلّموا صبيان المدينة، فدلّ ذلك على مرونة الشريعة في فداء الأسرى بما يحقق مصلحة الأمة.

- أن التعليم والعلم من أعظم ما يُفتدى به، وأنه يُساوي في القيمة الذهب والفضة، بل قد يكون أعلى منهما، مما يدل على مكانة العلم في الإسلام، واهتمام النبي صلى الله عليه وسلم به في أوائل الدولة.

- أن الإمام المسلم مسؤول عن تنظيم شؤون الأمة بعد النصر، ولا يكتفي بالجانب العسكري، بل يُحسن ترتيب الجوانب الاجتماعية والتعليمية، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بتنظيم شؤون الأسرى وتوزيع الغنائم.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- أن النصر الحقيقي لا يكون بالمظاهر والرايات، بل بالخضوع لله، وتربية القلوب على التواضع، وهذا ما جسّده النبي صلى الله عليه وسلم حين عاد منتصرًا ولم يُظهر زهوًا أو فخرًا.

- التربية على الزهد في الشهرة والظهور حتى في لحظات العز، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يستغل النصر في التفاخر، بل جعل منه منطلقًا لزرع التواضع والخضوع لرب العالمين.

- أن الإسلام يُربّي على العدل حتى في لحظات القوة، فلا يُظلم أحد، ولا يُجامل أحد، وقد وزّع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم بعدل كامل، فدلّ ذلك على أخلاق الدولة المسلمة.

- أن القدوة في السلوك بعد النصر أعظم من الكلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم علّم الناس بالتصرف لا بالشعار، ورفع قيم العدل والعلم والتربية في أول انتصارات الإسلام.

- أن بناء الأمة لا يكون بالتمكين العسكري فقط، بل لا بد من تربية وإصلاح ووعي، وهو ما بادر به النبي صلى الله عليه وسلم بعد المعركة مباشرة، فبدر كانت بداية حضارة لا نهاية صراع.

مخالفات الواقع المعاصر:

- كثير من الحركات اليوم إذا نالت نصرًا جزئيًا أو تمكينًا وقتيًا، بادرت إلى الظهور والاستعلاء والزهو، ورفعت رايات الفخر والتمجيد لأنفسها، على خلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة متواضعًا ذاكرًا حامدًا.

- التهاون في معاملة الأسرى، سواء بالإساءة أو بتجاوز العدل، في زمننا بات أمرًا ظاهرًا عند بعض الجهات، بينما شرع الإسلام الإحسان إليهم، بل وكانوا يُطعَمون من أطيب الطعام، فيا بعدَ ما بين النهجين!

- الغفلة عن قيمة العلم والتعليم في بناء الأمة، فقلّ من يربط بين التمكين والعلم، بينما النبي صلى الله عليه وسلم بدأ أولى خطوات الدولة بفداء الأسرى مقابل التعليم، ونحن اليوم نهدر عقول الأمة ولا نُقيم للعلم وزنًا.

- الميل إلى الظلم والتمييز في التوزيع في كثير من المجتمعات، لا يُراعى فيه أمر الله بل يُراعى الهوى أو القوة أو النسب، بينما النبي صلى الله عليه وسلم وزّع الغنائم بميزان السماء، لا بحسب ما يرضي الناس أو يكسب تأييدهم.

- اعتبار بعض الناس أن النصر نهاية المطاف، فيركنون ويغفلون عن استكمال البناء التربوي والإيماني، مع أن بدر نفسها كانت منطلقًا لاختبار الأمة في الزهد والعدل والعلم، ولم تكن محطة ختام.

- وجود من يظن أن الدولة الإسلامية تُقام بالسلطة وحدها، بينما النبي صلى الله عليه وسلم بنى دولته على الإيمان والتربية والعلم قبل القوة، وهو فرق جوهري بين منهج النبوة ومنهج أصحاب الأفكار المنحرفة.

الفقرة الثامن: عشرة: الصهر الأمين... من ظلمة الأسر إلى نور الإسلام

في زمنٍ كانت القلوب فيه تتعلق بالمروءة قبل المال، وتزن الرجال بالوفاء لا بالمناصب، كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى القر

شيّ، من رجالات قريش المعدودين، شريف النسب، كريم الخُلق، معروف في قومه بالتجارة والصدق والأمانة. وكان ابن خالة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فكان بهذا النسب من أهل البيت القريبين.

وفي الجاهلية، حين لم يكن قد أشرقت شمس النبوة بعد، أحب النبي صلى الله عليه وسلم أن يُزوِّج ابنته الكبرى زينب بذلك الشاب النبيل، لما رآه فيه من رجاحة عقل، وأمانة في الكسب، وصفاء في الخلق، فكان الزواج المبارك، واجتمعت القلوب على المحبة والسكينة، وكانت زينب رضي الله عنها تُكنُّ لزوجها حبًا كبيرًا، وكان يبادلها الود والوفاء، فعاشا زمنًا في ظلال الهدوء والمودة، قبل أن تهبَّ على مكة رياح الوحي والتكذيب.

حتى إذا بُعث النبي صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام، وآذنت مكة بتغير ملامحها، كانت زينب أول من بادر بالإيمان من النساء بعد أمها، ولكن أبا العاص بقي على دين قومه، لا عن عناد أو تكبر، بل تورعًا عن خيانة ما وجد عليه آباءه، ومع ذلك لم يواجه النبي صلى الله عليه وسلم بأذى، ولم يمنع زوجته من دينها، بل حفظ لها عقيدتها، وستر عليها شعائرها، فكان نادرًا في زمانه، ومؤدبًا حتى في اختلاف العقيدة.

ثم وقعت الهجرة الكبرى، وانتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبقيت زينب وحيدة في مكة، تعيش مع زوجها المشرك بقلب مؤمن، وعيون دامعة، ترقب أخبار أبيها في المدينة، وتهفو نفسها للقاء، لكن أمر الله كان أعظم من عاطفة اللقاء.

ثم جاءت غزوة بدر، وخرج فيها أبو العاص مع قريش، لا حبًا في قتال النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن وفاءً لقومه، ومشاركةً في ما رآه رجولة في ذلك الوقت، فوقع في الأسر بأيدي المسلمين، فصار أسيرًا في يد جيش فيه أبو زوجته وجد أبنائه!

ولما بلغ الخبر زينب، أخذت أغلى ما تملك: قلادةً كانت أمها خديجة رضي الله عنها قد أهدتها لها يوم زفافها، قلادةً تسكن فيها الذكريات، وتنعقد حولها عواطف الطفولة والأمومة، وأرسلتها في فداء زوجها، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم القلادة، رقّ قلبه، واغرورقت عيناه بالدموع، حتى خيّم على المجلس صمت الهيبة والتأثر، وقال للصحابة:

"إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها، فافعلوا"

فقالوا جميعًا: نعم، يا رسول الله.

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أبا العاص، واشترط عليه أن يُرسل زينب إلى المدينة، فوفى أبو العاص بالعهد، وأرسلها مع أحد أقربائه، لتلحق بأبيها في دار الهجرة.

وهكذا افترق الزوجان، قلوبهما مفعمة بالشوق، لكنه فراق العقيدة، فراق لا يُبنى على الكراهية، بل على انتظار الهداية، وقد مضت زينب في المدينة صابرة محتسبة، لم تتزوج غيره، ترجو أن يُلهم الله قلبه النور.

ومرت السنون حتى جاءت السنة السادسة للهجرة، وكان أبو العاص قد خرج في تجارة لقريش، فاعترضه المسلمون وأخذوا أمواله، لكنه استطاع الفرار بنفسه، ودخل المدينة متخفيًا في ظلمة الليل، واستجار بزينب، فخرجت تُعلن في المسجد أن أبا العاص في جوارها، ولم تكن شريعتنا قد نُسخت في هذا الحكم بعد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

"قد أجرنا من أجرتِ يا زينب".

ثم خاطب الصحابة الكرام، وطلب إليهم أن يُعيدوا إليه أمواله، إن شاؤوا، دون إلزام، فما كان منهم إلا أن أعادوا كل المال، دون أن يُمسّ منه درهم واحد.

فلما عاد أبو العاص إلى مكة، وكان لا يزال على دين قومه، ردّ الأمانات إلى أهلها، ثم أعلن إسلامه هناك، وجاء مهاجرًا بنفسه إلى المدينة، لا مطاردًا ولا مأسورًا، بل طائعًا مختارًا، قد شرح الله صدره للإيمان.

فلما وصل المدينة، ردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم زوجته زينب، دون حاجة إلى عقدٍ جديد، لأن الفرقة لم تكن بطلاق، بل كانت بسبب الدين، فلما زال السبب، عاد الوصل.

لكنّ الأفراح لا تدوم في دار الابتلاء، فقد توفيت زينب بعد مدة يسيرة، متأثرة بما عانته من ألم الفراق، ووحشة الانتظار، ووهن البدن، فطوى الله صحيفتها بدموع الشوق وصدق الإيمان، ولقيت ربها على العهد والوفاء.

رحم الله زينب، وأرضى عنها، وجعل لها في الجنة منزلاً يليق بصبرها، ورزقنا الله قلوبًا تُشبه قلبها، ثباتًا وصدقًا وحبًا في الله.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- محبة النبي صلى الله عليه وسلم لا تُغني عن الإسلام، فمهما عظُم النسب، لا ينفع صاحبه دون توحيد الله واتباع رسوله، كما لم ينفع أبا العاص قربه من بيت النبوة حتى شرح الله صدره للإيمان.
- الإسلام لا يُكره الناس على الدخول فيه، بل يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي العاص، فلم يُجبره رغم المصاهرة والقرب، حتى أسلم باختياره.
- الهداية بيد الله وحده، ولو كانت بيد البشر لاهتدى أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كأبي طالب وأبي العاص، ولكن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن.
- حفظ العهد والوفاء بالأمانات من صفات المؤمنين، وهي من آثار الإيمان، ولذلك كان أبو العاص قبل إسلامه قريبًا من نور الهداية بهذه الصفات، حتى لحق بركب الإيمان.
- الإسلام يُعلي من قدر الوفاء والستر، ويُقر الجوار حتى لو كان من امرأة مسلمة لرجل غير مسلم، ما دام لم يُنسخ الحكم بعد، كما أقر النبي صلى الله عليه وسلم جوار زينب لأبي العاص.

- الزواج في الإسلام ليس مبنيًا على الطمع والمكاسب، بل على الأخلاق والدين، حتى زوّج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته لرجل لم يكن قد أسلم بعد، لكنه كان عفيفًا أمينًا صادقًا.

فوائد فقهية:

- إذا أسلمت المرأة وبقي زوجها على الكفر، فالعصمة تبقى حتى تنقضي العدة، فإن لم يسلم فيها انفسخ النكاح، وهذا ما حصل لزينب رضي الله عنها حين بقيت في بيت أبي العاص ثم لحقت بأبيها.

- ردّ المرأة إلى زوجها الكافر بعد إسلامه لا يحتاج إلى عقد جديد إن لم تكن قد تزوّجت غيره، لأن الفرقة كانت لعلة زالت، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين رد زينب إلى أبي العاص بعد إسلامه.

- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لجوار زينب لأبي العاص يدل على مشروعية الاستجارة والجوار، وكان ذلك قبل أن يُنسخ الحكم، وهذا من فقه التدرج في التشريع.

- استئذان النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة في رد الأسير وأموال القافلة يدل على أن حقوق الغير لا تُزال إلا بإذنهم، وهذا أصل في فقه الأموال.

- قبول الفداء في الأسرى كان جائزًا في صدر الإسلام، ومنه فداء أبي العاص، وهو ما يدل على أن الأمر فيه تخيير للحاكم بين المنّ والفداء والقتل، بحسب المصلحة.

- إذا خرجت المرأة من دار الكفر إلى دار الإسلام بعد الفرقة الشرعية، فإنها لا ترجع للكافر حتى يُسلم، كما حصل لزينب حين أرسلها أبو العاص إلى المدينة.

فوائد أخلاقية:

- الوفاء بالعهد خُلُقٌ عظيم، تجلى في أبي العاص قبل وبعد إسلامه، حين لم يمنع زينب من دينها، ثم حين أعاد الأموال إلى أهلها في مكة رغم أنها كانت أمواله.

- الحياء والتأدب في الخلاف دليل على صفاء النفس، وقد ظهر ذلك في تعامل أبي العاص مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يؤذه يومًا رغم اختلاف العقيدة.

- الزوج الصالح يحفظ حقوق زوجته حتى في الخلاف، وقد كان أبو العاص مثالاً في ذلك، فلم يُكره زينب على ترك دينها، ولم يمنعها من ممارسته.

- العاطفة الصادقة بين الزوجين لا تزول بالخلاف، بل تصمد في وجه الفراق، كما ثبتت زينب على حب زوجها، حتى بعد مفارقته لها بسبب العقيدة.

- برّ البنات وتقدير مشاعرهن من مكارم الأخلاق، وقد ظهر ذلك في بكاء النبي صلى الله عليه وسلم عند رؤيته لقلادة زينب، ورقّ قلبه لفداء أسيرها.

- الصبر على الفراق من دلائل الإيمان، وقد ظهرت هذه الأخلاق في زينب رضي الله عنها، حين احتسبت ألم الفراق، ولم تتزوج غير زوجها، حتى كتب الله الهداية.

فوائد دعوية وتربوية:

- الصدق في المعاملة والتجرد عن الأهواء من أعظم أبواب الوصول إلى الهداية، كما كان صدق أبي العاص في ردّ الأموال سببًا في دخول الإيمان قلبه.

- الدعوة باللين، والمواقف النبيلة، تفتح القلوب المغلقة، وتُمهّد لدخول الإسلام دون ضجيج أو إكراه، كما أسلم أبو العاص بعد مواقف نبوية عظيمة لا تُنسى.

- التدرج في إصلاح الناس ومراعاة حالهم سنة نبوية، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعجل على أبي العاص بالإسلام، بل ترك له الباب مفتوحًا حتى عاد طائعًا.

- ترك الجدال العقيم، والخصومات الدينية مع من يُرجى هدايته، يدل على فقه الدعوة، وقد فعلته زينب مع زوجها، فثبتت على دينها، وأحسنت إليه، حتى اهتدى.

- القيم العائلية الأصيلة، كالحب المشروع، والصبر على الشدائد، والتماسك في المحن، لا تتناقض مع العقيدة، بل تزكّيها، إذا كانت مضبوطة بالشرع.

مخالفات الواقع:

- التهوين من شأن العقيدة في الزواج، حتى ترى اليوم من يزوج ابنته لرجل لا يصلي، أو فيه انحراف عقدي ظاهر، بحجة الأخلاق أو النسب، وكأن الدين أمر ثانوي.

- التعلق بالأنساب والمكانة الاجتماعية، وتقديم ذلك على الدين، حتى إن بعض الناس اليوم يرفض تزويج الرجل الصالح لأنه "ليس من مستوانا"، كما فعل أهل الجاهلية.

- التساهل في أمر الزوجة إذا أسلمت وبقي زوجها كافرًا أو تاركًا للصلاة، وكأن الشرع لا يفرّق بين الإيمان والكفر، بل ترى بعض النساء تُساكن أزواجًا لا دين لهم.

- الظلم في ردّ الأمانات، وعدم الوفاء بالحقوق، فقد أصبح كثير من الناس يأكلون أموال بعضهم بلا بينة، ولا يستشعرون أمانة المال.

- الطعن في العفائف تحت ذريعة اختلاف الدين أو القناعات، وقد كانت زينب مثالًا في العفّة والطهر، ومع ذلك كانت تُكرَم حتى في بيت غير المسلم.

- انتشار الجفاء في البيوت، وقسوة الأزواج في التعامل مع الزوجات، فلا ودّ ولا رحمة، على خلاف ما كان بين زينب وأبي العاص من حب ووفاء.

- ضعف الصبر عند النساء اليوم، حتى إن أقل خلاف يُفضي إلى الطلاق، ولا يُوجد حرص على بناء الأسرة، بخلاف زينب التي صبرت رغم البُعد الطويل.

- غياب خلق "الستر" في التعامل مع المخالف، فتجد من يفضح خصمه عند أول خلاف، أما زينب فأخفت أمر زوجها، وحفظت جواره، حتى قبل الإسلام.

- ضعف الفقه في مراعاة الأحكام المنسوخة، أو الاجتهادات التي مضى زمانها، فتجد من يُنزل أحكامًا قديمة على واقع جديد، بغير علم ولا بصيرة، وهذا خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في ضبط الأمور بأوقاتها.

الفقرة التاسعة عشر الظهور الأول للمنافقين... نارٌ تحت الرماد

ما إن عاد النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم إلى طيبة مظفرًا منصورًا، تملأ أنفاسه الشكر، وتفيض جوانحه بحمد الله على ما آتاه من نصر عزيز، حتى بدأت المدينة تنبض بحركة غريبة، ليست كباقي الحركات. لم تكن صيحات تهليل أو مظاهر فرح فحسب، بل كانت هناك وجوه تتكمش، ونظرات تزوغ، وصدور تمتلئ غيظًا مكتومًا كأنها تغلي بنار تحت الرماد، تنتظر ريحًا تهب فتشعلها. لقد بزغ فجر صنف جديد من الأعداء، لم يأتِ مدجّجًا بالسلاح كما جاءت قريش، ولم يصطفّ في الميدان مقاتلًا في وضح النهار، بل تسلل خلسة إلى الصفوف، يخفي السُمّ في ثنايا الابتسامات، ويطعن بخنجر النفاق من وراء الحجاب.

إنها لحظة ميلاد المنافقين... الذين لا يجرؤون على إعلان الحرب، لكنهم يتقنون صناعة الوهم. يلبسون لبوس الإيمان، وهم أبعد الناس عن نوره، ويُظهرون الولاء، وقلوبهم تضج بالكراهية. لم تكن هذه الفئة معروفة قبل بدر، لكن حين عاد المسلمون بنصر أذهل العرب، وأعاد رسم خريطة القوة في الجزيرة، بان المعدن، وظهرت الشوائب.

كان عبد الله بن أبيّ بن سلول، كبير الخزرج، يمني نفسه بتاج الزعامة على المدينة قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها، وكان قومه يعدونه ليكون الملك الموعود. غير أن قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، ومبايعة الأنصار له بالإيمان والطاعة، أطفأت وهج طموحه، وأحبطت مشروع زعامته. فاختنق صدره بحقدٍ لم يستطع إظهاره، وكظم الغيظ سنين، يتربص اللحظة التي تُخرج ما أُضمر.

فلما وقعت بدر، وانكسر صنم قريش بسيوف الإيمان، وعاد المسلمون مرفوعي الجبين، قد علَتْ هيبتهم في الأرض، ورُفعت راية الإسلام عاليةً خفاقة، ازداد الحنق في قلب عبد الله بن أبيّ، وأدرك أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد صار سيد المدينة بلا منازع، فانقلب قلبه، لكن لسانه لم يجاهر، بل أعلن الدخول في الإسلام، ظاهريًا، خضوعًا للواقع لا تصديقًا بالحق، خوفًا من السطوة لا رغبة في الهداية.

ومن يومها، بدأت مرحلة خطيرة من الصراع، لا مع سيوف العدو الظاهر، بل مع سهام المنافقين المسمومة التي لا تُرى، ولكنها تصيب. لقد أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، دخلوا المساجد ولكن لم تدخل الهداية قلوبهم، جلسوا في الصفوف يسمعون الخطب، لكنهم كانوا يهمسون في الزوايا، ويزرعون الشك، ويتناجون في الظلام.

لقد أخذوا من الغنائم نصيبًا، وطعنوا في قسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمتعوا بحماية الدولة، بينما يخططون في خفاء لهدمها. ففضحهم الله في كتابه، وأبان حقيقتهم للناس، فقال سبحانه:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وهكذا، لم تكن بدر نهاية لصراع السيوف فقط، بل كانت بداية لمرحلة أشد وأدهى، مرحلة الجهاد مع ألسنة المنافقين، وغدر الخونة من الداخل، الذين هم، كما وصفهم القرآن، "في الدرك الأسفل من النار"، لأن عداوتهم أشد وأنكى، إذ تخفي نفسها بوجهٍ مزيف، وتضرب الأمة من حيث لا تحتسب.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- النفاق لا يكون إلا في أهل الإسلام، ولا يظهر إلا حين يُعز الدين وتظهر شوكته، لأنه وسيلة يتستر بها أصحاب القلوب المريضة خشية السلطان، لا طلبًا للحق.

- الإيمان الحقّ ليس كلمات تُقال، بل تصديق قلبي وانقياد عملي، فمن قال بلسانه ما لم يصدق به قلبه، فهو عند الله من المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

- المنافقون أخطر على الأمة من الكفار الظاهرين، لأنهم يلبسون ثوب الإسلام، ويطعنون من داخله، وهم كما وصفهم الله في "الدرك الأسفل من النار."

- النفاق لا يجتمع مع محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل هو علامة على فساد السريرة وسوء الطوية، وإن تظاهر صاحبه بالعبادة والصلاح.

- النصر الذي يمنّ الله به على المؤمنين قد يكون سببًا في افتضاح أهل النفاق، كما كانت بدر مفتاحًا لظهور صنف المنافقين، الذين لم يَظهروا قبلها.

- إظهار الإسلام مع إبطان الكفر يُخرج صاحبه من الملة، ويجعله في أشد دركات النار، وهذا أصل عقدي في تعريف النفاق الأكبر.

فوائد فقهية:

- لا يُعامل المنافق في الظاهر إلا بما يُظهر من الإسلام، ما لم يقم عليه دليل قاطع، وهذا هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع عبد الله بن أبيّ وأمثاله.

- الجهاد لا يكون فقط بالسيف، بل منه ما هو أعظم خطرًا: جهاد الكلمة، والرد على الشبهات، وكشف دسائس المنافقين، وهو فرض على الكفاية متى قام به البعض سقط عن الباقين.

- لا يُحرم المنافق من حقوقه في الدولة ما لم يُظهر خيانته علنًا، وقد كان عبد الله بن أبيّ يتمتع بالحماية ويأخذ من الغنائم، لأن الحكم على الظواهر.

- إشاعة الشكوك والتناجي في المجالس لزرع الفتنة بين المؤمنين من كبائر الذنوب، وفيه تحذير من التجسس والهمز واللمز، كما كان ديدن المنافقين.

- لا تجوز المبالغة في التزكية لمجرد المظاهر الدينية، لأن المنافقين كانوا يجلسون في الصفوف ويسمعون الخطب، ولكنهم كانوا يخفون العداوة في الصدور.

فوائد أخلاقية:

- الحسد والغيرة المذمومة من أخطر ما يفسد القلوب، وقد كان عبد الله بن أبيّ يحسد النبي صلى الله عليه وسلم على المحبة والقيادة التي نالها، فصار ذلك دافعًا لنفاقه.

- الزعامة إذا كانت لغير الله، أورثت صاحبها تعاسةً وحقدًا، وهذا ما جرى لعبد الله بن أبيّ، إذ ضاع ملكه الموهوم فاختار طريق الغدر لا طريق الهداية.

- طعن الناس من الخلف خيانة، والنفاق صورة قبيحة لهذا الطعن، وهو من أرذل الأخلاق التي يمقتها الإسلام، ويُنزّه عنها أصحابه.

- ستر الباطن السيء خلف الابتسامات الكاذبة خلق خبيث، وهو ما اشتهر به المنافقون، فقد كانوا يُظهرون الولاء، وقلوبهم تضج بالكراهية.

- النفوس الصادقة تفرح بنصر الحق، أما القلوب المريضة فتحزن حين يظهر الدين، لأنها لا ترى في الإسلام عزًّا بل ترى فيه تهديدًا لأهوائها.

فوائد دعوية وتربوية:

- التربية على الإخلاص، وتنقية القلوب من الرياء، ضرورة في كل زمان، حتى لا يقع الإنسان في دركات النفاق وهو لا يشعر، خاصة في مواطن الظهور والرياء.

- الانتصارات الإسلامية يجب أن تُوظّف في تثبيت العقيدة لا التفاخر، لأن من أخطر آثار النصر ظهور المنافقين، كما حصل بعد بدر.

- التربية على التواضع بعد النصر ضرورة، لأن المنافقين يتربصون بأهل الإيمان عند كل فرحة، ويُشعلون الحسد حين يرون نعمةً لم يحصلوا عليها.

- الصراع الفكري أخطر من الصراع العسكري، ويجب إعداد الأمة له، لأن أعداء الداخل قد يهدمون ما لا تهدمه جيوش الخارج.

- الواجب على الدعاة كشف نفاق الداخل بالحكمة والبصيرة، دون تهويل أو تفريق للصف، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين، لم يفتعل معهم فتنة، لكنه لم يتركهم بلا بيان.

مخالفات الواقع:

- التساهل في كشف نفاق المعاصرين بحجة عدم إيذاء أحد، حتى صار بعضهم يُدافع عن أصحاب الأهواء ويُجاملهم باسم "اللين"، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفضحهم بوحي الله، دون ظلم أو اعتداء.

- انتشار النفاق العملي في واقعنا، كأن يقول أحدهم: "نحب الدين"، ثم يطعن في أحكام الشريعة، ويُهوّن من شأن الحجاب أو الحدود أو الولاء والبراء.

- خيانة بعض من يتظاهرون بالدين من الداخل، بدعوى المصلحة، وهم في الحقيقة يخذلون الأمة في مواطن العز، ويُفرّطون في الثوابت إذا تغيرت الموازين.

- تسلل أهل البدع إلى المساجد والمؤسسات التعليمية، ونشرهم للشكوك بين شباب الأمة، تمامًا كما كان المنافقون يجلسون في المجالس ويناجون في الظلام.

- انخداع الناس بالمظاهر دون التثبّت من البواطن، حتى صار كل من أطلق لحيةً أو ارتدى زيًا إسلاميًا يُعد داعية، وإن كان في قلبه غشّ للأمة.

- غفلة بعض المسلمين عن خطر المنافقين، والتركيز فقط على أعداء الخارج، رغم أن الطعن من الداخل هو الأقسى أثرًا، كما بيّن الله في وصفهم بـ"الدرك الأسفل من النار."

- الوقوع في فتنة الحسد بين الدعاة وطلاب العلم، ومحاربة من يرفعهم الله، كما فعل عبد الله بن أبيّ، فطغى حسده على بصيرته، وكان سببًا لهلاكه.

انتهى الباب الثالث ويليه الباب الرابع ان شاء الله تبارك وتعالى

الباب الرابع: ما بين بدر وأحد... عام التمكين والامتحان

مقدمة

بعد أن دوّت أصداء النصر في بدر، وارتفعت راية الإسلام خفاقةً في سماء المدينة، بدأ فصلٌ جديد في مسيرة الدعوة، عنوانه :**التمكين في الأرض، والامتحان في الطريق**.

لم يكن الانتصار في بدر نهاية المطاف، بل كان إيذانًا بمرحلة دقيقة من البناء الداخلي، والتعامل مع آثار النصر، واستحقاقات القيادة، وتحديات الواقع. ففي هذه الفترة **توسّع نفوذ المسلمين، وازدادت هيبتهم بين القبائل، وأسلمت وفود، واهتزت قلوب، وتحركت قريش بخوفٍ وحقدٍ أكبر**.

لكن التمكين لا يأتي بلا اختبار، ولا يرتفع البناء إلا إذا ثبتت قواعده على الصبر والصدق والولاء، فجاءت الابتلاءات في صور شتى: من الداخل بالنفاق والخيانة، ومن الخارج بالكيد والتآمر، وكان أبرز ذلك الاستعداد لمعركة قادمة ستهزّ المدينة :**معركة أُحد**.

في هذا الباب نعيش مع **عام ما بعد بدر**، عامٍ شهد **تحولات كبرى** في جسد الأمة، وظهور ملامح النفاق، وغزوات هامة، وقصص مؤثرة، وأحداث تُظهر كيف يربي الله عباده على عينه، بين **تمكينٍ يفرح القلوب، وامتحانٍ يصفّي الصفوف**.

الفقرة الأولى: صدى بدر... حين تزلزلت جزيرة العرب

لم تكن بدرٌ يومًا مجرد معركة عابرة في سجل الوقائع، بل كانت رجفةً عنيفة هزّت قلب الجزيرة، وقلبت موازين الهيبة والقوة، وسكبت في شرايين التاريخ لحظة فاصلة، انتقلت فيها السيادة من رماد الأصنام إلى نور التوحيد، ومن سطوة قريش إلى راية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ومن مكة الجاهلية إلى مدينة النبوة حيث سكن الإيمان واستقرت الرايات.

أفاقت العرب على خبر دوّى في الأرجاء كالصاعقة: محمدٌ صلى الله عليه وسلم يهزم قريشًا، ويجندل صناديدها، ويُسقط كبرياءها في ساحة بدر، حيث لا كفة راجحة بالأعداد، ولا قوة ظاهرة بالسلاح، بل مددٌ من السماء، ونصرٌ من رب الأرض والسماء.

لم تصدّق القبائل ما سمعت لأول وهلة، ولكنها سرعان ما رأت الأسى يخيم على وجوه قريش، ورؤوسها مطأطئة، وقد رُدّت إلى مكة تحمل أوجاع الهزيمة، وأسماءً طالما كانت تُخيف العرب، فإذا بها الآن مدرجةٌ في عداد القتلى أو الأسرى. لقد كانت الصدمة فوق الوصف، والوقع أعظم من وقع السيوف.

وها هي ألسنة الناس تلهج: إن يكن محمدٌ قد غلب قريشًا، أفلا يكون مؤيدًا من الله؟! وإن كان جيشه قليلًا، فكيف كُسرت شوكة الجبابرة؟! لا بد أن في الأمر سرًا من السماء... أو مددًا من رب العالمين.

وبدأ الصدى يخلّف آثاره العميقة في كل الجهات:

◉**في مكة :**انقلبت الدور مأتمًا، تساقطت هيبة قريش كما تتساقط أوراق الخريف، واشتعلت نيران الثأر في الصدور، وتعالت الأصوات بالانتقام، في مشهد اختلطت فيه المرارة بالهزيمة، والحزن بالذل.

◉**وفي المدينة :**علت راية النبي صلى الله عليه وسلم، وازداد يقين الصحابة بأنهم على الحق المبين، وثبتت أركان الدولة الفتية، وسرت في النفوس أنفاس العزة، وقد رأوا كيف نصر الله نبيه وأذل أعداءه.

◉**وفي قبائل العرب :**دبّ التردد في إعلان العداء، وسرت في القلوب رهبة من هذا الدين الذي يكسِر قريشًا في أول لقاء، وبدأت الأعين تترقّب من بعيد، والنفوس تتساءل: ما سرّ هؤلاء؟ وما هذا الدين الذي يقلب المعادلات في لحظة؟

◉**أما يهود المدينة :**فقد ازدادوا حنقًا، وأدركوا أن سلطانهم يذوب أمام هذا النور الزاحف، وأن أيام المكر والهيمنة باتت معدودة، وهم يرون الإسلام يعظم في الأرض ويعلو شأنه يومًا بعد يوم.

نعم، لقد كانت بدر فجرًا جديدًا في تاريخ الرسالة، وبداية تمكين حقيقي للإسلام، لا في المدينة وحدها، بل في الجزيرة كلها. ومنذ ذلك اليوم، غدت بدر كلمة تهزّ قلوب المشركين، وتُلهم أرواح المؤمنين، وتُتلى في المجالس والمواسم، حتى صاروا يهمسون في كل نادٍ: بدر... بدر... بدر...

ذلك يومٌ عظّمه الله في كتابه، ورفعه في قلوب أوليائه، فطوبى لمن شهده، وطوبى لمن استبصر بمعناه، وتحيّا قلوبٌ لا تزال تستنشق عبيره وتستضيء بنوره.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

🔷النصر لا يكون بكثرة العدد ولا بقوة العُدّة، وإنما هو من عند الله وحده، يؤتيه من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾، وقد ظهر ذلك جليًّا في بدر حيث قلة العدد وغلبة الجبابرة.

🔷المعركة الفاصلة التي تنصر فيها راية التوحيد، ولو كانت صغيرة ظاهرًا، أعظم عند الله من معارك الجيوش العظمى، لأنها تقوم على نصرة دينه ورفع كلمته.

🔷قدرة الله عز وجل فوق الأسباب الظاهرة، فقد كسر شوكة قريش رغم تفوقها العددي والعددي، ليُعلم أن القوة لله جميعًا، وأن الإيمان مقدم على السلاح.

🔷الله عز وجل يُؤيّد من نصره ويُذلّ من عاند رسله، وقد جعل يوم بدر فرقانًا بين الحق والباطل، فأي قوم نصروا الدين رفعهم الله ولو كانوا قلة.

- تمكين الدين لا يكون دفعة واحدة، بل يبدأ بخطوات ربانية محكمة، وكانت بدر أول خطوة حقيقية في تمكين الإسلام في الأرض.

- الرهبة التي ألقاها الله في قلوب المشركين بعد بدر من دلائل تأييده لعباده، وهي من جنود الله الخفية، كما قال سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

فوائد فقهية:

- التأريخ للأحداث الكبرى في الإسلام يُعدّ من سنن التأصيل الشرعي، وقد جعل الله يوم بدر يومًا مذكورًا في كتابه الكريم، وأشار إليه في قوله: ﴿ويوم بدرٍ إذ أنتم أذلة﴾.

- إظهار الفرح بنصر الإسلام سنة مشروعة، وهو مما يُدخل الطمأنينة على قلوب المؤمنين، كما فرح الصحابة بعد نصر بدر، وظهرت آثار ذلك في المدينة.

- لا يجوز للمسلم أن يُحقر النصر بسبب قلة العدد أو ضعف الإمكانات، فإن الله قد ينصر عباده بالقليل ليكون أبلغ في الدلالة على تأييده لهم.

- يجوز للمسلمين أن يُظهروا قوتهم وهيبتهم بعد النصر إن كان في ذلك ردع للأعداء، وقد ظهر ذلك بعد بدر حيث دبّ الرعب في قلوب القبائل، ولم يُنكر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأثر.

- تعظيم أيام النصر الديني واستحضار معانيها في القلوب والمجالس من مظاهر إحياء شعائر الله، كما كان الصحابة يذكرون بدرًا في محافلهم.

فوائد أخلاقية:

- الثبات على المبادئ في أوقات الضعف يجعل النصر في أوقات القوة عزيزًا ومشرّفًا، كما صبر الصحابة في مكة، حتى أعزهم الله في بدر.

- العزة التي يشعر بها المؤمن بعد نصر الله له، ليست غرورًا ولا كِبرًا، بل يقينًا بأن الله لا يُضيع من نصره، ولذلك امتلأت المدينة يقينًا وعزيمة بعد بدر.

- الغطرسة لا تدوم، فكم من قومٍ علا شأنهم وتكبروا في الأرض، حتى أذلهم الله كما أذل صناديد قريش في يوم بدر.

- كتمان الحقد على الإسلام لا يمنع ظهوره مع الزمن، كما فعل اليهود بعد بدر، حيث أظهروا الغيظ والحسد حين رأوا التمكين لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

- الاعتراف بالحق إذا ظهر يحتاج إلى صدق في القلب، وقد أنكر كثير من المشركين ما رأوه من آيات النصر، لأن القلوب مغلقة بالكبر.

فوائد دعوية وتربوية:

- النصر الرباني له أثر نفسي عظيم في نفوس الأعداء والمخالفين، فينبغي للدعاة أن يُحسنوا توظيفه في ترسيخ العقيدة واليقين في قلوب الناس.

- معركة بدر ليست فقط حادثة تاريخية، بل محطة إيمانية تُغذي الأرواح، وتبني الثقة في وعد الله، وتُحيي الرجاء في نصر الدين مهما طال الزمان.

- الدعوة تحتاج إلى صبر قبل النصر، وتثبيت بعده، فقد ثبت الصحابة قبل بدر في أذى مكة، ثم ازدادوا يقينًا بعد النصر.

- التفاعل الوجداني في المجتمعات مع الحدث الإيماني (كنصر بدر) يؤكد أثر القدوة والانتصار في نشر العقيدة، إذ بدأ الناس يتساءلون: من هؤلاء؟ وما سرّ دينهم؟

- يجب على أهل الإيمان أن يُدركوا أن النصر اختبار، لا نهاية الطريق، وأن ما بعده أعظم من قبله، كما بدأت المؤامرات بعد بدر من المنافقين واليهود.

مخالفات الواقع:

- جحود نِعم الله على الأمة عند كل نصر، ونسبة النصر إلى القوة أو التخطيط وحده، دون ردّه إلى الله، مع أن بدر كانت درسًا في أن النصر من السماء.

- ضعف استحضار التاريخ الإيماني في نفوس المسلمين اليوم، حتى صار كثير منهم لا يعرف عن بدر إلا اسمها، ولا يدرك عظمتها في التمكين والفتح.

- التهوين من شأن النصر على الباطل بحجة أن العدو قوي، مع أن الله نصر نبيه صلى الله عليه وسلم في بدر بأقل العدد والعتاد، ليعلّم الأمة أن العبرة باليقين لا بالكثرة.

- تكرار لهجة الخوف من أعداء الإسلام اليوم وكأنهم لا يُهزمون، مما يولد يأسًا في النفوس، ويغفل عن سنن الله في التمكين كما حصل في بدر.

- تخاذل بعض المسلمين عن فرحة انتصار الدين، بل قد يُظهر بعضهم التأفف أو "الحياد" إذا ظهر للإسلام نصر، كما فعل بعض ضعاف الإيمان في المدينة بعد بدر.

- تقديم التحليلات السياسية والعسكرية وحدها لفهم الأحداث، وإغفال العامل الإيماني في النصر، فيبتعد الناس عن التوحيد والتوكل، ويقعون في أسر الماديات وحدها.

- غياب أثر بدر في صناعة الأجيال، فلا تُروى سيرتها في بيوت كثير من المسلمين، ولا تُعلّم معانيها، فتنشأ أجيال لا تعرف قدر المعارك التي مهدت لبقاء الإسلام.

الفقرة الثانية: التمكين في المدينة... زمن الولادة الثانية للدولة

ما إن عاد النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم من بدر منصورًا مؤيدًا، تحفّه ملائكة النصر، وتلهج باسمه قلوب المؤمنين، حتى انقلبت صفحة المدينة المنورة إلى عهد جديد لم تعهده من قبل، عهد سطر فيه التاريخ ميلاد الدولة الإسلامية الحقة، ليس على الورق ولا في القلوب فقط، بل في الواقع الملموس، والهيبة المشهودة، والسيادة الراسخة.

لم يكن نصر بدر مجرّد انتصار في معركة، بل كان صرخة في وجه الشرك، تعلن أن زمن الطغيان قد ولّى، وأن راية الحق قد رفرفت فوق سيوف المؤمنين، لتبشر ببزوغ فجرٍ جديد. كانت المعركة شهادة من السماء أن هذه الرسالة ربانية، وأن هذا الدين باقٍ، وأن قائده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو نبي الحق، ليس في قلب أصحابه فحسب، بل في ميزان الأرض كلّها.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم والمدينة غير المدينة، دخلها وهي تفيض بعزة النصر، وتنبض بهيبة القائد. لقد أصبح الرجل الذي طُرد من مكة بالأمس، هو القائد المطاع، والحاكم العادل، والمعلّم المربي، يشار إليه بالبنان، وتنتظر كلمته القبائل، وتُحسب له حسابات الملوك والسادة.

وفي أجواء النصر، لم يُغفل النبي صلى الله عليه وسلم تثبيت الداخل، وإعادة ترتيب الصفوف، وبناء قواعد الدولة على أسس الإيمان والعقل والحكمة. فكان أول ما عني به أن يُرسّخ في القلوب أن النصر من عند الله، لا من العُدّة والعَدَد، ولا من غنائم تُقتسم، فقال الله تعالى في تنزيله:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ [الأنفال: ٤١]، فكانت الآية تربية قبل أن تكون تشريعًا، وهداية قبل أن تكون تقسيمًا، لتعلّم القلوب أن الغنائم لا تشتري النصر، وأن الرضا بقسمة الله خير من كنوز الأرض.

ثم التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصف المؤمن، يربّيه بعد النصر كما كان يربّيه في لحظات الشدة، فكانت سورة الأنفال تنزل على قلوب الصحابة كالغيث على الأرض العطشى، تنقّي النفوس من العجب، وترد الفضل كله إلى رب الأرباب، وتؤكد أن النصر ليس غاية، بل وسيلة لبناء الإنسان، وتقويم الروح، وربطها بالله لا بالنتائج.

وكان من تمام الحكمة أن يغرس النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ الطاعة في نفوس أصحابه، فقد كان من أوضح دلائل النصر في بدر أن الصف لم يتنازع، وأن القلوب كانت على قلب رجل واحد، خلف نبي واحد، لا يُخالف أمره، ولا يُجادل في حكمه، فكان لزامًا أن تُرسّخ هذه الطاعة كأصلٍ في بناء الأمة، لا استثناء مؤقت في لحظة حرب.

وما هي إلا أيام، حتى شعر الصحابة أنهم ليسوا مجرد أتباع لقائد منتصر، بل أصحاب دعوة عالمية، ورسالة ربانية، وأن المدينة التي احتضنتهم لم تعد دار نجاة فحسب، بل غدت قاعدة انطلاق، ومنارة إشعاع، ومركز قيادة لأمة ستبلغ رسالتها ما بلغ الليل والنهار.

لقد تحوّل الخوف إلى أمن، والضعف إلى قوة، والانكماش إلى مبادرة، وكان هذا التمكين بداية لعهد جديد، تشهد فيه الجزيرة أن في المدينة دولة، وفي الدولة نبي، وفي النبي صلى الله عليه وسلم وحي، وفي الوحي نور لن يُطفأ إلى قيام الساعة.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- **بدر ليست مجرد معركة بل آية من آيات الله**، دلّت على أن النصر لا يكون بكثرة ولا بعدّة، بل بالله وحده : محمدٌ صلى الله عليه وسلم يهزم قريشًا... بل مددٌ من السماء، ونصرٌ من رب الأرض والسماء.(
وهنا نعلم أن :الاعتقاد الجازم بأن النصر من عند الله أصل من أصول التوحيد، وأن الاعتماد على الأسباب دون رب الأسباب خذلان.

- **تثبيت القلوب بأن الرسالة من عند الله**، وأن ما جرى في بدر تأييد إلهي لنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم):كانت المعركة شهادة من السماء أن هذه الرسالة ربانية(...

وهنا نعلم أن :من أعظم دلائل صدق النبوة أن الله ينصر نبيه على الرغم من قلة العدد والعدة، وهو ما يتكرر في التاريخ الرباني دائمًا.

- **توحيد الجهة المنصورة والطاعة المطلقة للنبي صلى الله عليه وسلم** هي من أسباب النصر، والدليل على صدق الاتباع :فكان لزامًا أن تُرسّخ هذه الطاعة كأصلٍ في بناء الأمة.(...

وهنا نعلم أن :من دلائل الإيمان الحق، التسليم الكامل لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، فهو لا ينطق عن الهوى، ولا يُؤيَّد إلا بوحي.

فوائد فقهية:

- **تشريع الخُمس وتوزيع الغنائم نزل بعد بدر مباشرة،** وكان تربية للمؤمنين قبل أن يكون تقسيمًا ماليًا:فقال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ [الأنفال: ٤١.([

وهنا نعلم أن :أحكام الغنائم تُربّي النفس على الزهد، وترك الطمع، والرضا بقسمة الله، وهذا باب من أبواب تزكية القلوب.

- **الآيات نزلت عقب النصر لتوجه المؤمنين إلى الأدب مع الله،** لا إلى الغرور بالنصر :فكانت الآية تربية قبل أن تكون تشريعًا، وهداية قبل أن تكون تقسيمًا .(...**وهنا نعلم أن :**الفقه الحق ليس فقط في الفروع، بل في فهم المقاصد والمرامي التربوية للأحكام.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- **أن النصر قد يكون فتنة إن لم يُرَبّ أصحابه عليه،** ولذلك جاءت سورة الأنفال بعد بدر لتزكية النفوس):فكانت سورة الأنفال تنزل على قلوب الصحابة كالغيث.(...

وهنا نعلم أن :التربية بعد النصر أولى من التربية في الشدة، لأن الفتنة في وقت القوة أعظم.

- **أن الطاعة وعدم التنازع من أعظم أبواب التمكين،** كما ظهر في وحدة الصحابة خلف النبي صلى الله عليه وسلم:

من أوضح دلائل النصر في بدر أن الصف لم يتنازع.(...

وهنا نعلم أن :الجماعة لا تقوم إلا على طاعة، والطاعة لا تستقيم إلا بالإيمان، فمن فقدها فقد الركن الركين في العمل الجماعي.

- **أن العزة الحقيقية ليست في المال أو النسب، بل في الاتباع والتقوى:** دخلها وهي تفيض بعزة النصر... وقد أصبح هو القائد المطاع.(...

وهنا نعلم أن :من أراد الرفعة في الدنيا والآخرة فليطلبها من بابها: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا﴾.

فوائد سياسية واقعية:

- **أن نصر بدر أرسى جذور الدولة الإسلامية فعليًا في المدينة:**

)ما إن عاد النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم من بدر... حتى انقلبت صفحة المدينة.(...

وهنا نعلم أن :الدولة لا تقوم فقط بالعقيدة، بل تحتاج إلى شوكة تُظهرها، وهيبة تحرسها، وهذا ما بدأ يتحقق في بدر.

- **أن المدينة تحوّلت إلى مركز قيادة، وأن الأمة بدأت تخرج من الانكماش إلى الانطلاق:** لقد تحوّل الخوف إلى أمن، والضعف إلى قوة.(...

وهنا نعلم أن :التمكين سنة ماضية لأهل الإيمان، لكنه لا يأتي فجأة، بل بعد بذل وصبر وجهاد.

صور من الواقع المخالف

- **التساهل في الطاعة والانضباط الجماعي داخل الأمة اليوم،** والانقسام على القادة والعلماء:

بينما في بدر كانت الطاعة التامة سببًا للنصر، نجد اليوم جدالًا في كل صغيرة وكبيرة، بل مخالفة متعمدة للأوامر الشرعية بدعوى الاجتهاد أو الحرية، مما جلب على الأمة الفرقة والخذلان.

- **الاغترار بالقوة المادية والتقنيات الحديثة، والاعتقاد أن النصر رهن بها فقط:** مع أن الله نصَر نبيه صلى الله عليه وسلم بقلة العدد، لكن كثيرًا من أبناء الأمة اليوم يظنون أن التقدم لا يكون إلا بتبعية للغرب وعدته، لا بإيمان صادق واتكال على الله.

- **ضياع معاني التربية بعد الانتصار،** حيث تتحول الإنجازات إلى وسيلة للغرور لا لبناء القلوب: والحق أن التربية بعد النجاح أهم من التربية في لحظات الفشل، لأن الشكر أصعب من الصبر.

تسطيح مفاهيم الدولة والتمكين والقيادة في الخطاب العام، والانفصال بين الدين والواقع السياسي: مع أن الإسلام هو الذي أسّس أول دولة ذات سيادة حقيقية تحت راية التوحيد، كثيرون اليوم ينادون بفصل الدين عن الدولة، وكأن التمكين لا علاقة له بالوحي

الفقرة الثالثة: غزوة بني سُليم... حين أرهب النورُ الظلامَ قبل أن يُشهر سيفًا

لم تكد المدينة تنفض عن ساحاتها غبار النصر من بدر، ولمّا تجفّ بعد دموع الفرح في عيون المؤمنين، حتى تحرّكت غيوم جديدة في الأفق... غيوم تنذر بالعدوان، لا من قريش المنهزمة، بل من قبائل بني سليم المتربّصة، ومعها جموع من غطفان، تهمّ بخطى الغدر نحو مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ظنًّا منهم أن المسلمين قد أنهكتهم المعركة، وأن السيوف لا تُشهر مرتين، فربما تكون هذه ساعة الغفلة والثأر.

وقد كانت أعينهم تتطلع إلى الطريق الشرقي من المدينة، حيث لا حصون تحمي، ولا حواجز تُرهب، فظنّوا أنه السهم الأسهل في خاصرة الدولة الفتيّة.

لكنّ الله أوحى لعبده الصادق الأمين، وكشفت عيون السماء ما تحاك في ظلام البوادي. فما إن بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى هبّ كالسيل الجارف، لا ينتظر الهجوم، بل يصنع المبادرة، واختار ثلاثمائة من خيار أصحابه، وسار بهم في سرعة البرق إلى جهة نجد، حتى بلغ موضعًا يُعرف بـ"الكُدْر" — ماءٌ كانت ترده بنو سليم، فتحوّل الماء مأمنهم إلى مَهلكة رُعبٍ، وهربٍ جماعيٍّ دون مواجهة.

لقد فوجئ الأعراب بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم، وهم ما ظنّوا أنه سيبرأ من بدر إلا بعد شهور، وإذا بهم يرونه اليوم يقف على تخومهم، والريح تحرّك لواءه، وهيبة النبوة تُدكّ أوهامهم، فسقطت قلوبهم في أقدامهم، وفرّوا لا يلوون على شيء.

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في ديارهم ثلاثة أيام، لم يلقَ فيها قتالًا، لكنها كانت أيامًا كفيلة بأن تُبدّل موازين القوى في جزيرة العرب؛ فالغزوة – وإن خلت من صليل السيوف – كانت مليئةً بصليل الرسائل الاستراتيجية:

- أن المدينة النبوية ليست واحةً تغفو على وسادة النصر، بل قلعةٌ يقظة تحرسها عين النبوة، وتحيط بها عزائم الرجال.

- وأن الإسلام لا ينتظر حتى يُضرَب في عقر داره، بل يخرج ليغلق أبواب الفتنة قبل أن تُفتح، ويردع الشر قبل أن يُنفث سُمّه.

- وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس نبيًّا في المسجد فقط، بل قائدٌ يقرأ حركة القبائل، ويراقب كل شاردة وواردة حول دولته، فلا يُؤتى من غفلة، ولا يُسبق إلى ضربة.

لقد عادت السرية إلى المدينة بلا دماء، ولكنها عادت بنصرٍ من نوع آخر: نصر الهيبة، ونصر المبادرة، ونصر الرعب الذي ألقاه الله في قلوب خصوم الإسلام، فلا يُقال من بعدُ: إن الطريق إلى المدينة سهل، ولا يُظنّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغفل عن أطراف دولته، أو ينتظر حتى يُستفز... بل هو – بأبي هو وأمي – صانع التوازنات، ومهندس الأمن، وقائد الأمة في السلم والحرب.

.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- أنَّ الله عز وجل هو من يوحي إلى نبيّه صلى الله عليه وسلم، فيكشف له خفايا الأعداء ومكائدهم، وهذا يدل على استمرار معونة السماء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه مؤيَّد بوحي رباني.

- أن النصر الحقيقي لا يكون بكثرة العَدد والعُدد، وإنما بهيبة الإيمان، وبركة الطاعة، والرعب الذي يُلقيه الله في قلوب أعدائه، كما قال تعالى" *سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ*] "آل عمران: ١٥١.[

- أن هيبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أعدائه من دلائل نبوّته، ومن الآيات المستمرة التي تُظهر صدق دعوته.

- أن عقيدة الولاء والبراء تفرض على الأمة أن تكون يقظة تجاه من يريد بها شرًّا، وأن لا تُؤخذ فيهم رأفة عند التهديد أو الغدر، فاللين في غير موضعه ضعفٌ في العقيدة.

فوائد فقهية:

- أن من السياسة الشرعية المبادَرة إلى ردّ العدوان قبل وقوعه، واتخاذ الإجراءات الاستباقية، وهذا أصلٌ في فقه الجهاد وسياسة الدولة الإسلامية.

- أن قتال العدو ليس شرطًا في الغزو، بل يكفي تحقيق مقصود الردع وتثبيت الأمن، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين انسحب العدو قبل القتال.

- أن من الفقه في إدارة الدولة أن يختار القائد من الجنود خِيارهم في المهمّات الكبرى، كما اختار النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة من خيرة الصحابة، مما يدل على أهمية الكفاءة في التكليف.

- أن الغزو لا يُشترط له وجود معركة مباشرة حتى يُعدّ غزوة، بل يكفي الخروج بالجيش وتحقيق المقاصد الشرعية من الردع وبسط الأمن.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- أن على القائد أن يكون يقظًا لا تغفله نشوة النصر، فالحذر بعد النصر أولى من الحذر وقت الهزيمة، وهذه من صفات القيادة الراشدة.

- أن الإسلام يعلّم أبناءه المبادرة والعمل قبل أن يُفاجَأوا، لا التواكل والانتظار، فالمسلم لا ينتظر حتى تُؤخذ منه المبادرة، بل يصنع الأحداث.

- أن من الأخلاق القيادية أن يُرهب العدو دون ظلم، ويُظهر القوة دون اعتداء، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الحزم والرحمة.

- أن الثقة في الله لا تعني التراخي، بل تعني الحذر والعمل، والتخطيط والاستعداد، والنبوة هي أرقى مثال لذلك التوازن.

فوائد استراتيجية وسياسية:

- أن الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية لا يكون فقط بالحروب، بل بالمبادرات الذكية، والتحركات الاستباقية، وإدارة التوازنات.

- أن الردع الإعلامي والنفسي له أثر يفوق أثر السيوف أحيانًا، وهو ما حصل حين فرّ الأعداء قبل أن يُشهر المسلمون سيوفهم.

- أن السياسة النبوية قائمة على قراءة الواقع بدقة، ومعرفة تحركات الخصوم، ومتابعة التفاصيل الأمنية دون إغفال، وهذا يُبطل مقولات المتساهلين في شأن أمن الأمة.

مخالفات الواقع:

- التفريط في الحدود والثغور، وترك أماكن الضعف في أطراف الأمة دون حماية، مما يطمع فينا العدو ويُكرر العدوان دون رادع.

- غفلة بعض ولاة الأمور والجهات المسؤولة عن التحركات المعادية، واعتمادهم على ردّ الفعل فقط، دون اتخاذ إجراءات استباقية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

- انتشار التصور الخاطئ أن الإسلام دين مساجد فقط، ولا علاقة له بالسياسة وإدارة الأمن، وهذا مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان إمامًا وقائدًا ومدبّرًا.

- ترويج بعض الفرق المنحرفة – كالمرجئة الجُدد – لمفاهيم خاطئة من مثل ترك الردع والهيبة بدعوى الرحمة، وتقديم السلم في غير موضعه، مما يخالف الحكمة النبوية.

- سقوط بعض المنتسبين للفكر في التساهل مع الأعداء، وعدم تقدير أهمية إظهار القوة والهيبة، في وقت أصبحت فيه صورة الإسلام مشوهة عالميًا، وهذا مخالف للهدي النبوي في تحقيق توازن الرهبة والرحمة.

- ضعف التحليل الاستراتيجي عند كثير من المتصدرين، مما يجعلهم لا يفهمون أبعاد الأحداث إلا بعد وقوعها، ويبررون التراخي بقلة الموارد، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبادر ولو بثلاثمائة رجل فقط.

الفقرة الرابعة : غزوة السويق... حين تهاوت عزيمة الثأر تحت أقدام الهزيمة

ما إن انقشع غبار بدر، وخيّم على قريش ذلّ الهزيمة، حتى التهبت صدورهم بنار الثأر، وغصّت حلوقهم بمرارة الانكسار. هناك في مكة، وقف أبو سفيان مضطرب النفس، تائه الخطى، والعار يعضّ قلبه، فأقسم في لحظة غضب أن لا يمس رأسه ماء الغُسل حتى يغزو محمّدًا صلى الله عليه وسلم، ولو بصفعة خفيفة تشفي غليله، وتوهم قومه أنه لم يسكت على الذلّ.

فانطلق في مائتين من فرسان قريش، لا في جيش مدجّج، بل في سرية صغيرة خفية، أشبه بما يُسَمى اليوم بحرب العصابات، هدفها الإرباك لا المواجهة. تخفّى في سيره حتى بلغ أطراف المدينة، ونزل على بني النضير من يهودها، سرًا، يطلب عونًا وغذاءً، فلبّوا له الطلب، وبذلوا له الطعام والدعم، في أول صورة جليّة من صور الخيانة التي كانت تُخفيها أقنعة العهد والمعاهدة.

وبعد ليلة أو ليلتين، وبينما المدينة نائمة تحت أجنحة الأمن، باغت أبو سفيان أحد الأنصار من الأعراب وقتله غدرًا، ثم ولى مدبرًا، يطوي الأرض طيًّا، لا يلوي على شيء سوى الفرار، وقد أدرك أنه اقترب من حدود الهلاك.

وكان في ركبهم أكياس من "السويق" — دقيق محمّص كانوا يقتاتون به — فلما أثقلهم الهرب، أخذوا يُلقونه خلفهم ليخففوا حملهم ويُسرعوا خطاهم، فجعل المسلمون يسيرون في أعقابهم، فيلتقطون أكياس السويق من هنا وهناك، وكأن آثار الهاربين تكشف خيبتهم دون قتال.

فما إن بلغ الخبر مسامع النبي صلى الله عليه وسلم، حتى هبّ من فوره، وخرج في مئتين من أصحابه، يطلبون المشركين، وينشدون القصاص، لكنّ أبا سفيان كان قد سبقهم إلى الفرار، وعاد إلى مكة، يحمل وهم النصر، وعار الخوف.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه دون قتال، لكن الغزوة لم تخلُ من مكاسب عظيمة، بل كانت كاشفة لأكثر من وجه:

- فقد أظهرت يقظة النبي صلى الله عليه وسلم، واستعداده الدائم لحماية المدينة، مهما صغر حجم العدوان أو خفي.

- وأما يهود المدينة، فقد سقط القناع، وانكشف المستور؛ فها هم يقدمون العون سرًّا لمن تلطّخت يداه بدماء المسلمين، في أول خرق واضح للعهود.

- كما كشفت الغزوة عن بداية الحرب النفسية بين مكة والمدينة، حيث بات المشركون يشنّون غارات خفيفة، لا رجاء لهم في النصر، بل يسعون لزعزعة الأمن، وتخويف المؤمنين، بعد أن أذهلهم النصر الإلهي في بدر.

وسُمّيت هذه الحادثة بـ**"غزوة السويق"**، لا لأن السلاح كان فيها هو الغالب، ولكن لأن السويق — طعام الجبناء حين يُلقونه هربًا — صار رمزًا لغزوة بلا سيوف، لكنها فضحت من كانوا يظنون أنفسهم في مقام القادة.

وهكذا سُجّلت الغزوة في صفحات السيرة، لا كمعركة عسكرية، بل كمعركة للوعي، تُظهر الفرق بين من يحرس المدينة باليقين، ومن يهاجمها بالخيبة.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- النصر والهزيمة بيد الله تعالى، لا بكثرة العدد ولا قوة العُدة، وقد ثبت ذلك في فرار أبي سفيان وجنده رغم أنهم بادروا بالغزو.
- يقين النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله حافظ دينه وناصر جنده يظهر في تحركه المباشر للدفاع عن المدينة دون تردد، وهذا من تمام التوكل الصحيح.
- انكشاف خيانة اليهود يؤكد أن العهود لا تُنقَض إلا من أهل الغدر والخيانة، مما يرسّخ عقيدة الولاء والبراء ويُظهر من هم أعداء الدين الحقيقيون.
- إقدام النبي صلى الله عليه وسلم على الخروج بنفسه رغم عدم وضوح حجم العدوان، يدل على أن الدفاع عن بيضة الإسلام واجب شرعي، وهو من أصول العقيدة في حفظ الدين.

فوائد فقهية

- يجوز للمسلمين الخروج في طلب العدو والدفاع عن أنفسهم ولو لم يتحقق قتال، ويُشرع ذلك حتى في حالات الغزو الخفيف أو العدوان المحدود.
- ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من الخروج دون استشارة عامة أو إعلان مسبق، دليل على جواز المبادرة السريعة عند اقتضاء الحال الأمني والعسكري، دون الإخلال بالشورى العامة في الأمور الكبرى.
- عدم وقوع القتال لا يُبطل اسم الغزوة، مما يدل على أن التسمية تتبع النية والتحرك وليس الاشتباك فقط، وهو أصل في فقه السير والمغازي.
- تقديم العون الحربي للكفار المعتدين يعد خيانة كبرى تنقض العهد، ويترتب عليها التعامل مع الطرف الخائن بحزم وعدل، وفق شروط العهود والعقود.

فوائد أخلاقية وتربوية

- حال أبي سفيان بعد بدر يُظهر كيف يجرّ الذلُّ الكبرَ إلى التهور، وهو درس في أن الكبر لا يولد بطولة، بل يجرّ صاحبه إلى الخزي والاندفاع الأحمق.
- سلوك أبي سفيان في قتل الأعربي غدرًا ثم الفرار يوضح صورة الجبن المقنّع بالبطولة، وهو سلوك شائن لا يصدر إلا من النفوس المهزومة.
- التسمية بـ"غزوة السويق" فيها تربية للأمة على أن بعض النصر معنوي، يُعرّي العدو نفسيًا ويهزمه إعلاميًا وإن لم تقع معركة ميدانية.
- جمع الصحابة للسويق أثناء المطاردة يرسم صورة واضحة عن الروح المعنوية العالية، والإيمان بأن الهارب لا يخيفهم، بل يُخزي نفسه.

فوائد دعوية وسياسية

- الغزوة تُبين أهمية اليقظة الأمنية، وأن حماية الداخل الإسلامي مسؤولية لا تقبل التهاون، حتى لو كان العدو لا يظهر بكامل عدته.
- أول خيانة علنية من يهود المدينة تُعدّ مؤشرًا مبكرًا على سلوك فرق أهل الكتاب في نقض العهود وتآمرهم مع أعداء الإسلام، وهي دعوة دائمة لليقظة والتمييز.
- كانت الغزوة من أوائل صور الحرب النفسية، مما يدل على أن زعزعة الثقة والأمن من وسائل العدو المتكررة، ويجب مواجهتها بالثبات والوعي لا بالتوتر والانسحاب.

- كشف الضعف في معسكر الكفار لا يكون فقط في ميدان القتال، بل أيضًا في كشف نواياهم وألاعيبهم، وهي مهمة دعوية وإعلامية ينبغي للأمة أن تقوم بها.

مخالفات الواقع

- كثير من أبناء الأمة اليوم يُغفلون عن دور الوعي في معارك الدين، ويركزون على صورة الانتصار بالسلاح فقط، فيُغفلون أهمية الثبات النفسي والإعلامي.
- التغافل عن خيانة أعداء الداخل، وتسويغ التعاون معهم تحت دعاوى الإنسانية والانفتاح، يشبه تمامًا ما فعله يهود بني النضير حين خانوا العهد سرًا.
- في زماننا تكثر فرق الضلال الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الولاء لأعدائه، وهم امتداد لأولئك الذين أعانوا أبا سفيان، ومثلهم تُفضح نواياهم حين يُكشف تآمرهم.
- يروج اليوم في بعض البيئات لفكرة أن رد العدوان يجب أن يكون بالقانون لا باليقظة والمبادرة، وهذا خلاف فعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي خرج بنفسه ليرد العدوان ولو لم تقع معركة.
- بعض الناس اليوم يضخمون الفشل المعنوي للعدو ويعدّونه نصرًا له، كما عاد أبو سفيان يتوهم النصر وقد فرّ، فيتشابه حال هؤلاء بمن يخدعون أنفسهم بمعارك وهمية لا حقيقة لها.
- غابت عن كثير من الدعوات الإسلامية أهمية ربط الأحداث بالغزوات النبوية، لاستخلاص السنن الربانية في النصر والهزيمة، في حين أن السيرة مليئة بالكنوز الموجهة للواقع.

الفقرة الخامسة: غزوة ذي أمر... حين ارتجفت الجبال من هيبة محمد صلى الله عليه وسلم

لم تهدأ المدينة طويلًا من خفقات السيوف في بدر، حتى أخذت رياح الحرب تعصف من جديد، لكنّها هذه المرة لم تهب من الجنوب، بل مالت عنقها من الشمال الشرقي، حيث قبائل غطفان، قوم عرفتهم العرب بقوة البأس، وجرأة اللقاء.

وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن غطفان قد اجتمعوا في باطن الصحراء، وأخذوا يحشدون الرجال، ويتنادون للثأر، لا حبًّا في القتال، بل حسدًا للإسلام، وكراهية لما بزغ من نور المدينة.

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ممّن ينتظر السهام أن تُرمى، ولا أن تقع الضربات على الأبواب؛ بل بادر كعادته، وأخذ زمام المبادرة، فخرج في أربعمائة من أصحابه، قلوبهم من حديد، وعيونهم لا تعرف النوم إلا على أمن العقيدة، ونفوسهم لا ترضى إلا بالنصر أو الشهادة.

وتقدمت تلك الكتيبة المؤمنة نحو ذي أمر، وهي منطقة فيها ماءٌ لبني ثعلبة من غطفان، وكان الرعب قد سبقهم كأنه جيش آخر، فحين سمع المشركون بوصول النبي صلى الله عليه وسلم، تفرّقوا في رؤوس الجبال، لا يجمعهم سوى الخوف، ولا يظلهم سوى الذل، وولّوا الأدبار كأنّهم لم يكونوا يومًا طلاب ثأر.

عندها نزل النبي صلى الله عليه وسلم هناك، وأقام في تلك المنطقة قرابة شهرٍ كامل، لم يكن شهرَ انتظار، بل كان شهرَ إظهار للقوة، وتثبيتٍ لأركان الدولة، وبثٍّ للطمأنينة في قلوب المؤمنين، حتى علمت العرب أن المدينة ليست دار دعوة فقط، بل حصنٌ منيع، ترعاه السماء، ويُحرس بجنود الإيمان.

وفي هذه الغزوة المباركة، لمع نور موقفٍ من أعظم ما رُوي في سيرة الرحمة والعزة:

يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، وبينما هو مستظلٌّ في وقت راحته وقد أُخذ سلاحه، جاءه رجل من الأعداء، ووقف فوق رأسه موجهًا إليه سيفًا مسلولًا، ثم قال في خبثٍ وغدر: "من يمنعك مني؟!" فما اهتزّ قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ولا اضطربت روحه، بل نظر إليه بثبات الجبال، وقال بثقة لا يملكها إلا نبي" :الله."

فما إن نطقت شفتاه بالاسم الأعظم، حتى ارتعدت يد الرجل، وسقط السيف من قبضته، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، وأمسك السيف بيده، ثم نظر إليه وقال: "ومن يمنعك مني؟"، لكنه لم يضرب، ولم يشتم، ولم يثأر، بل عفا عنه وتركه يذهب، كأنما أراد أن يعلم الدنيا أن قوته من فوق سبع سماوات، وأن الرحمة لا تزول إذا اشتدت السيوف.

لقد كانت تلك الحادثة وحدها كفيلة بأن تعلّم أجيالًا من بعده أن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، منصور لا بسلاح، بل بعناية الرحمن، وأن قوته لا تُغريه بالبطش، بل تزكي فيه صفح الصفوة، وعفو السادة.

هكذا كانت غزوة ذي أمر، بلا دماء ولا طعن، لكنها سطّرت في صفحات التاريخ أن القيادة النبوية لا تنتظر الخطر حتى يدقّ الأبواب، وأن القلوب المؤمنة إذا تحركت بثقة، فرّت منها الجبال، وسقطت السيوف من أيدي الطغاة.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- تثبت هذه الغزوة أن الله تعالى ينصر أولياءه بتدبيره وعنايته، ولو لم يخوضوا قتالًا، كما قال تعالى: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم: ٤٧].
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم" *:الله* "ردًا على من هدده بالسيف، دليل على كمال التوكل على الله، وأنه وحده مصدر الأمن والنصر، وهذا من أصول العقيدة.
- سقوط السيف من يد العدو حين سُمي الله، آية من آيات الله الدالة على أنه يُجري المعجزات على يد نبيه تأييدًا له، وهذا من دلائل النبوة.
- عفو النبي صلى الله عليه وسلم وهو في موضع القوة يرسخ أن صفات الله في أوليائه تظهر متكاملة: العزة والرحمة، وهذا من تمام الإيمان بأسماء الله وصفاته.
- وصف المدينة بأنها ترعاها السماء، إشارة إلى أن حفظ الله للأمة قائم بدعوة الحق والقيادة الراشدة، لا بالمظاهر الدنيوية فقط، وهذا من الإيمان بالقدر والتوكل.
- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لقوته العسكرية ومع ذلك لم يقاتل، يدل على أن النصر قد يكون بالرعب الذي يُلقيه الله في قلوب الأعداء، كما قال صلى الله عليه وسلم" *نُصرت بالرعب مسيرة شهر*) "رواه البخاري.(

فوائد فقهية

- جواز المبادرة بالخروج للجهاد عند تحقق نية العدو، دون انتظار وقوع العدوان، حمايةً لبيضة الإسلام.
- جواز حمل السلاح والقيام بالرباط ولو لم يحصل قتال، كما أقام النبي صلى الله عليه وسلم شهرًا في ذي أمر بثًّا للطمأنينة.
- تعليم الناس بأفعال القادة، لا بالأقوال فقط، إذ بث النبي صلى الله عليه وسلم رسالةً عملية أن الدفاع عن الدين مسؤولية لا تقبل التأخير.
- جواز استخدام الترهيب المعنوي في الجهاد دون سفك دم، إذا كان ذلك يحقق المصلحة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين فرّ العدو من غير قتال.

- جواز العفو عن الأسرى والكافرين إذا اقتضت المصلحة الشرعية، كما عفا النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل الذي هم بقتله.

فوائد أخلاقية وتربوية

- عفو النبي صلى الله عليه وسلم في موضع الغلبة يعلّمنا أن أخلاق القوة لا تُلغى عند التمكين، بل تُظهر أسمى معانيها.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في موضع الخطر يربي الأمة على الشجاعة ورباطة الجأش والثقة بالله في أحلك المواقف.
- تعليم الصحابة الثقة في القيادة الربانية، وأن الطمأنينة تأتي من قوة العقيدة، لا من كثرة العدد.
- الموقف مع العدو الذي أشهر سيفه ثم عُفي عنه يربي على الحِلم وضبط النفس، ويُرسّخ أن التمكين لا يعني الانتقام.
- إقامة النبي صلى الله عليه وسلم شهرًا في ذي أمر رغم عدم حدوث قتال يدل على أن التربية بالرباط والمرابطة والانتظار أيضًا طريق لصناعة الرجال.

فوائد دعوية وسياسية

- حزم النبي صلى الله عليه وسلم وبادرته بالخروج يدل على أن القائد لا ينتظر الهجوم بل يحمي أمته بمبادراته الذكية.
- إعلان القوة دون الظلم، ونشر الهيبة دون دماء، رسالة للناس أن الإسلام دين قوة ورحمة في آنٍ واحد.
- جعل العدو يفرّ قبل اللقاء يحقق مكاسب سياسية ومعنوية أعظم من النصر بالسيف أحيانًا.
- إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في مكان التهديد ردعٌ سياسي ونفسي لكل من تسوّل له نفسه بالاعتداء.
- تركه صلى الله عليه وسلم لهذا العدو يُظهر سماحة الدعوة الإسلامية في أرقى صورها، مما يفتح القلوب قبل السيوف.

مخالفات الواقع

- تفريط كثير من المسلمين اليوم في التوكل الحق، إذ يبحثون عن أسباب الحماية من كل أحد إلا من الله.
- اعتماد بعض الشباب اليوم على العنف دون حكمة، وغياب فقه المبادرة والاتزان، مخالفٌ لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في ضبط القوة بالعقل والدين.
- غياب القدوة الربانية التي تبعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم مصدر الأمن والثقة لأصحابه.
- انعدام العفو عند القدرة في مجتمعاتنا، إذ يُرى الانتقام شجاعة، بخلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- تصوير بعض الطوائف المنحرفة – كأتباع أهل البدع من الغلاة والخوارج – أن العنف هو السبيل الوحيد لنصرة الإسلام، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة لم يسفك دمًا، ومع ذلك أظهر القوة وأرعب العدو.
- تقصير كثير من المسلمين في فهم حقيقة النصر، فيظنون أنه لا يكون إلا بقتل الأعداء، بينما النصر قد يكون بإلقاء الرعب في قلوبهم دون قتال، كما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم في ذي أمر.
- ترويج بعض الفرق المنحرفة – كالمرجئة الجدد – أن النصر لا يتعلق بالإيمان، ويعزلون بين الإيمان والنصر، بينما يتبين من هذا المشهد أن "الإيمان" هو أصل الطمأنينة، وسبب النصر.

الفقرة السادسة : غزوة الفُرُع إلى بني سليم... حين سار الهيبة قبل الجيوش

ما إن هدأت أنفاس المعركة الكبرى في بدر، ورفرف لواء النصر فوق المدينة، حتى بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يُحكم الطوق حول أمن دولته الفتية، في سياسة حكيمة لا تعرف الانتظار، ولا تُبقي للغدر فرصة أن يتسلل من أطراف البلاد. فقد بدت في الأفق إشاراتٌ مقلقة من جهة **بني سُليم**، وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن في نفوسهم حنقًا، وربما كان الغدر يغلي في صدورهم كما تغلي القدور.

فلم يتريث القائد العظيم، بل هبّ بنفسه، وخرج في كتيبة صغيرة لكن قلوبها عامرة بالإيمان، قوامها مئة من المهاجرين والأنصار، يحملون في أرواحهم نور الرسالة، وفي سواعدهم صلابة اليقين، قاصدين **الفُرُع**، وهي من مياه بني سليم، تقع بين مكة والمدينة على طريق نجد، يتردد فيها الرعاة والفرسان.

وما إن تناهى إلى أسماع بني سليم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قادم، حتى تفرّقوا في الشعاب وتواروا بين الجبال، لا جرأة على اللقاء، ولا قدرة على المواجهة، فقد سبقهم الرعب، وتقدّمت أمام النبي صلى الله عليه وسلم هيبة من السماء.

فنزل القائد الرحمة هناك، وأقام عدة ليالٍ، لا طلبًا للراحة، بل تثبيتًا للسيطرة، وبثًّا للطّمأنينة في القلوب، وردعًا لأولئك الذين توهّموا أن المدينة غافلة. وكانت خيام النبي صلى الله عليه وسلم على أطراف الفُرُع كالرايات التي تكتب التاريخ، تخبر الجميع أن يد الإسلام قد امتدت، وأن دولته ليست طيفًا في الصحراء، بل حقيقة تحميها السماء وتدفع عنها الأرض.

ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لم يُسفك فيها دم، ولم تُشهر فيها سيوف، لكنّها كانت **غزوة نصر دون قتال**، لأنها أرست قاعدة مهمة من قواعد الأمن: أن **الوقاية بالقوة خيرٌ من الانتظار للمواجهة**، وأن دولة الإسلام لا تنتظر أن يُؤتى أمنها من أطرافها.

ورغم قصر مدّتها، وبساطة تفاصيلها، إلا أن **غزوة الفُرُع** كانت حلقة من حلقات الحكمة النبوية، في وقت كانت فيه الدولة بحاجة لكل خطوة تبثّ الهيبة، وتبعث رسالة: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يُؤتى من غفلة، ولا تُؤخذ مدينته على حين غِرّة.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم على اليقين والثقة بالله لا على عدد الجنود، يثبت أن النصر الحقيقي من عند الله، لا بكثرة العدد والعدة، كما قال تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ [آل عمران: ١٢٦.]
- رعب بني سليم قبل وصول النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن الله يُلقي الهيبة في قلوب أعدائه لنبيه، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، وهذا من دلائل النبوة.
- تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم للطمأنينة في قلوب المؤمنين يعكس أن السكينة نعمة من الله، يغرسها في قلوب أوليائه، كما قال تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ [التوبة: ٢٦.]
- إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في الفُرُع بلا قتال وظهور الهيبة، يرسخ أن القوة التي يمنحها الله لعباده قد تغني عن القتال، وهذا من أوجه لطف الله بعباده المؤمنين.
- كون النبي صلى الله عليه وسلم لا يُؤتى من غفلة، فيه تعليم للأمة أن حفظ الدين من أعظم المقامات، وهذا من كمال الإيمان بأمانة الرسالة.
- وصف المدينة بأنها تحميها السماء وتدفع عنها الأرض، دليل على أن المسلمين حين يتمسكون بدينهم، يكون حفظهم من الله، وهو اعتقاد من لوازم التوحيد.

فوائد فقهية

- جواز المبادرة بالغزو إذا ظهرت علامات الغدر من العدو، دون انتظار حدوث الهجوم، وهذا من فقه السياسة الشرعية.
- يجوز للقائد أن يخرج بكتيبة صغيرة إذا كانت الغاية تحقيق الردع، لا خوض معركة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بمئة رجل فقط.
- من مقاصد الغزو في الإسلام: تأمين أطراف الدولة ومنع بؤر الفتنة، لا مجرد طلب القتال.
- إقامة الجيش في أرض العدو دون قتال وسيلة شرعية لإظهار السيطرة وتحقيق الردع، وهي من فقه الواقع الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم.
- في هذه الغزوة تعليم عملي لقاعدة: "درء الفتنة مقدم على انتظارها"، وهي قاعدة فقهية عظيمة في درء المفاسد قبل وقوعها.

فوائد أخلاقية وتربوية

- حنكة النبي صلى الله عليه وسلم في استباق الغدر بالحزم تعلّمنا الحذر، والبعد عن السذاجة السياسية، دون أن يكون ذلك مدعاة للظلم أو الاعتداء.
- ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بخطواته، وقيادته لجنده بنفسه، يرسخ في النفوس أن القدوة تبدأ من القمة.
- خروج النبي صلى الله عليه وسلم بعد بدر مباشرة يعلّمنا أن النصر لا يعني التراخي، بل الحذر والاستمرار في البناء.
- التهيئة النفسية للمؤمنين وإقامتهم في أرض العدو بلا قتال يربّيهم على الثقة والرباط والجاهزية، دون أن تكون الحرب شرطًا للرجولة.
- بث الطمأنينة في نفوس المؤمنين مسؤولية القائد، وذلك لا يكون إلا بالتصرفات الراشدة والحازمة.

فوائد دعوية وسياسية

- غزوة القُرُع تثبت أن الدعوة الإسلامية ليست مجرد كلمات، بل دولة تُحمى، ورسالة تُدافع عنها بالوسائل المشروعة.
- إرسال رسالة الهيبة دون سفك دماء دليل على أن الردع أعظم من القتال أحيانًا، وهي حكمة سياسية نبوية عظيمة.
- هذه الغزوة تمثّل درسًا للدول المسلمة في حماية حدودها ومقدراتها بالحزم قبل أن تُخترق.
- ترك العدو يفرّ دون مواجهته يُفهم أن الإسلام لا يسعى لسفك الدماء، بل لتحقيق الأمن والسلام من موضع قوة.
- وصف خيام النبي صلى الله عليه وسلم على أطراف القُرُع بأنها "تكتب التاريخ"، يدل على أهمية الرمز السياسي في تثبيت الهيبة، وأن التواجد وحده أحيانًا يكون كافيًا.

مخالفات الواقع

- تقصير كثير من حكام المسلمين في تأمين أطراف بلادهم، وترك مناطق الثغور بلا حراسة أو اهتمام، مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في الحذر والمبادرة.
- اعتماد كثير من الدول اليوم على ردة الفعل لا المبادرة، مما يجعلها هدفًا للعدو في الوقت الذي يريد، على خلاف السياسة النبوية.
- ضعف الهيبة التي يحملها الإسلام في قلوب الأعداء اليوم، نتيجة تراجع الإيمان، وغياب القيادة الراشدة، بخلاف ما كان عليه الحال زمن النبوة.
- تغليب البعض لفكرة "المسالمة المطلقة" حتى مع وجود بؤر تهديد وغدر، على خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة القُرُع، حيث جمع بين الحزم والرحمة.
- تفريط بعض التيارات المنحرفة – كأتباع الفرق الغالية – في مفهوم السياسة النبوية المتزنة، إذ يستبدلون الحكمة

بالرعونة، والوقاية بالمجازفة، مما يُسقط هيبة الإسلام بدل أن يرفعها.

- غياب الفهم لدى بعض الطوائف الفكرية المنحرفة بأن الإسلام لا يقوم إلا بالسيف، في حين أن هذه الغزوة كانت نصرًا بالهيبة دون قتال، وهذا ينسف مزاعم أهل الغلو والعدوان.
- إغفال كثير من الدعاة اليوم لبُعد السياسة الشرعية في حماية الدين، واقتصارهم على الكلام النظري، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزج بين التوجيه والقيادة الميدانية.

الفقرة السابعة : غزوة بحران... صولة العزّ دون صليل سيوف

لم تكد تمضي إلا شهور قليلة بعد أن عاد النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة الفُرُع، حتى هبّت رياح العزم من جديد، تحمل في طيّاتها رسالة واضحة لكل من تسوّل له نفسه أن يعبث بأمن المدينة، أو يُحدّث قلبه بغدر أو تمرّد.

ففي جمادى الأولى من السنة الثالثة للهجرة، سار النبي صلى الله عليه وسلم برجالٍ من خيرة أصحابه، قاصدًا أرضًا تُدعى **بَحْرَان**، تقع في جهة **تهامة**، قريبة من طريق مكة، تتربّع على مفترق طرقٍ بين القبائل، وتكمن فيها المخاوف كما يكمن اللص في الظلام.

لم تكن الرحلة إلى بحران نزهة، بل كانت خطوة ضمن خطة نبوية عظيمة، عنوانها :**الوقاية خير من العلاج، وهيبة الدولة تصنعها المبادرة لا الانكماش**

.فمنذ أن نصره الله في بدر، والنبي صلى الله عليه وسلم ينسج بيده الشريفة خيوط الأمن، يحرس المدينة بتحركاتٍ تُرعب الأعداء، وتبعث في نفوس أهلها الطمأنينة والسكينة.

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثمائة من الصحابة، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لا يطلبون دنيا، ولا يُقبلون على قتال طمعًا، إنما يسيرون خلف قائدهم ليقيموا دين الله، ويصونوا حماه.

فما إن بلغ خبر مسيرهم إلى من توهّم التجرؤ على المدينة، حتى تسلّلت الخوف في قلوبهم، وتفرّقوا في الشعاب كالأشباح، لا يُرَى لهم أثر، ولا يُسمع لهم همس.

فلم يُرَقّ دم، ولم تُسَلّ سيوف، ولكن **الهيبة وحدها قامت مقام الجيوش**، وكفى بالله ناصرًا ومؤيدًا.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله له أن يُقيم، ثم عاد إلى المدينة المنورة، عودة المنتصر بلا حرب، والغالب بلا معركة، فعادت القلوب أكثر يقينًا، والأعداء أكثر حذرًا، والمدينة أكثر أمنًا.

لقد حملت هذه الغزوة رسالة عميقة المدى: أن الإسلام ليس دين استسلام، وأن المدينة النبوية ليست مهدًا للسكون بل **قلبًا نابضًا بالعزة، وجيشًا متأهبًا لكل طارئ** .وأن **محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يترك الأمن للصدف، ولا ينتظر الشر حتى يطرق بابه، بل يسبق الخطر، ويفتح الأبواب قبل أن تُغلَق عليه.**

وهكذا كانت **غزوة بحران**، صفحة من صفحات القيادة النبوية الفذّة، تُسطّر بالحكمة والرؤية، وتُقرأ في صمت الغنائم، لا في ضجيج المعارك.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية:

- في مسير النبي صلى الله عليه وسلم إلى بحران تأكيد على أن الحفظ الحقيقي للأمن والنصر بيد الله، وأنه هو الناصر والمؤيّد لعباده المؤمنين، حتى دون وقوع قتال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

- بثّ الطمأنينة في نفوس أهل المدينة بفضل التحركات النبوية، يدل على أن السكينة نعمة من الله يغرسها في القلوب عند صدق الاتباع واليقين به، كما قال تعالى: ﴿فأنزلَ السكينةَ على قلوبِ المؤمنين﴾.

- في تفرّق الأعداء دون مواجهة دليل على أن الخوف من المؤمنين الموحّدين جند من جنود الله، يقذفه في قلوب خصومهم إذا صدقوا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر» (رواه البخاري ومسلم.(

- انقياد الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم في مهمات لا يُدرى مآلها، فيه تأكيد على وجوب طاعة رسول الله طاعةً تامة، لأنها من طاعة الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

- المبادرة بالدفاع عن حمى الإسلام قبل وقوع العدوان، تدل على عزة أهل الإيمان وثقتهم في وعد الله، وأن الإيمان لا يُربّى على الذلّ والاستكانة، بل على القوة المرتبطة بالتوكل والتسليم لله.

فوائد فقهية:

- مشروعية الغزوات الاستباقية عند وجود تهديد حقيقي، لردّ العدوان قبل وقوعه، وهو من فقه السياسة الشرعية في حفظ بيضة الدين والعباد.

- لم تكن كل الغزوات لقتال فعلي، فهذه الغزوة لم يقع فيها دم، مما يدل على أن المقصود بالغزو أحيانًا تحقيق المقاصد بالردع والهيبة دون سفك دماء، وهو من مقاصد الشريعة.

- في اصطحاب النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثمائة من الصحابة في هذه الغزوة، مع أنها لم تشهد قتالًا، دليل على أهمية إعداد القوة ولو لم يكن هناك حرب قائمة، كما قال تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

- العبرة ليست بكثرة القتال والغنائم، بل بإقامة الدين وحماية حِمَاه، ولهذا لم تُسجَّل هذه الغزوة كغنيمة بل كحكمة.

- عودة النبي صلى الله عليه وسلم بعد إتمام المقصود دون تمادٍ أو بغي، فيه إشارة إلى أن الأصل في القتال هو دفع العدوان لا طلب الدنيا أو الاعتداء، وهذا أصل فقهي في الجهاد الشرعي.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه: تربية الصحابة على الصدق في النية والوفاء بالعهد، لا يسيرون خلف أطماع بل خلف دعوة، وهي صفة عظيمة يجب أن يُربّى عليها المسلمون في كل زمن.

- في سير النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه مع جيشه رسالة عملية لقادة الأمة، أن لا يكتفوا بالتوجيه من بعيد، بل أن يشاركوا شعوبهم في تحمل المسؤوليات والشدائد.

- لم تكن الغزوة في ظاهرها إلا تحركًا عسكريًا، لكنها في حقيقتها كانت درسًا في القيادة النبوية، والبصيرة، وتقدير المآلات، وهذه من أعظم الأخلاق القيادية.

- عودة النبي صلى الله عليه وسلم بلا قتال تعلّمنا أن النصر لا يُقاس بعدد القتلى، بل بقدر ما يحققه من أمنٍ وهيبةٍ دون ظلم.

- هذه الغزوة رسالة بأن العزة لا تُنال بالصراخ والعنتريات، بل بالحكمة والبصيرة والتخطيط، وكل ذلك مع حسن الظن بالله، وهي قيم يجب أن تُغرس في أبناء الأمة.

فوائد دعوية وتربوية عامة:

- الإسلام ليس دين خمول أو استسلام، بل دين يقظة واستعداد، والسكينة لا تعني الجمود، بل الحركة الواعية التي تحفظ الكرامة وتدفع العدوان.

- النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحرك قبل وقوع الخطر، لا ينتظر الشر حتى يصل، وفي ذلك دعوة للمسلمين أن يسبقوا الأحداث ببصيرة لا بعشوائية.

- في هذه الغزوة درس عظيم في صناعة الهيبة، وأنها لا تأتي بالكلمات، بل بالمواقف، وأنّ الهزائم النفسية لا تُجبرها إلا المبادرة والثقة بالله.

- لم تكن هناك غنائم تُوزع، لكن كانت هناك قلوب فُتحت، وأعداء رُدعوا، ومدينة نامت آمنة، وهذه أعظم نتائج الدعوة الراشدة.

- الحكمة في القيادة أن تُغنيك رؤيتك عن كثير من المعارك، والهيبة التي تصنعها المبادئ أقوى من الرماح.

مخالفات الواقع:

- ترك كثير من الفرق المنحرفة فقهَ الاستباق والمبادرة، وركنوا إلى التواكل أو الجمود، بدعوى الزهد أو الصوفية الزائفة، حتى أضاعوا أمن المسلمين وديارهم.

- على الجانب الآخر، تنشأ فرق منحرفة تُحمّل السلاح بغير ضوابط، وتغزو الآمنين، وتدّعي بذلك نصرة الدين، وما هي إلا فوضى باسم الجهاد، تفتقر إلى بصيرة النبي صلى الله عليه وسلم في تخطيطه وعدله.

- في واقع اليوم، يظن بعض الناس أن النصر لا يتحقق إلا بالدماء، ويُغفلون أن الله قد ينصر بالرعب، أو يردّ كيد الأعداء دون حرب، كما في هذه الغزوة.

- كثرة من الناس اليوم يظنون أن العزة في الخطابات الرنانة والمظاهرات الصاخبة، لا في التخطيط والحكمة والرجوع إلى أهل العلم، فيُهزَمون نفسيًا، ويُساقون إلى مشاريع التيارات المنحرفة.

- غفلة كثير من الحكومات والأفراد عن فقه الأمن العام، وتركهم الثغور مفتوحة حتى يأتي العدو إلى عقر الدور، مخالف لسنن النبي صلى الله عليه وسلم الذي بادر لردّ الخطر قبل أن يصل المدينة.

- يتوهم بعض دعاة العصر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يهتم بشؤون الدولة والسيادة، بينما هذه الغزوة وأمثالها تردّ عليهم، وتُظهر أن السياسة الشرعية جزء من هدي النبوة.

الفقرة الثامنة: غزوة بني قينقاع... حين سقط القناع، وظهر النفاق

ما إن انقضت أيام بدر، وما زالت دماء النصر طرية على أديم المدينة، تعبق برائحة العزة، وتُروى بها قلوب المؤمنين فخرًا ويقينًا، حتى أخذت نار الخيانة تخبو تحت رماد الصلح، وتتحرّك جمرات الغدر في صدور قومٍ عاشوا بين المسلمين بعهدٍ ظاهر، وقلوبٍ تضمر الحسد والضغينة.

هناك، في قلب المدينة، وسط أسواقها وأحيائها، كانت قبيلة بني قينقاع من اليهود، تقيم بين ظهراني المسلمين، لهم عهد مكتوب، وميثاق موثوق. ولكن بعد بدر، لم يَطِب لهم أن يروا راية التوحيد تخفق عالية، تنشر ضياءها في أرجاء المدينة، وقلوب الأوس والخزرج تتفتح للإسلام، وتتعلق بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأت صدورهم تغلي بالحقد، ووجوههم تنطق بالبغضاء، وعيونهم تفيض شرًّا، لا يملكون له كتمانًا.

الشرارة... التي أشعلت اللهب

وفي سوقهم، حيث يعم الأمن، وتأتي النساء لقضاء الحوائج، كانت امرأةٌ مسلمةٌ طاهرة تمشي في عفافها كأنها سحابة لا تمس الأرض إلا بخفة، جلست لتشتري من أحد صاغة بني قينقاع، فاحتالوا عليها مكرًا وخسة، وربطوا طرف ثوبها وهي لا تدري، فلما قامت انكشف سترها، وبدت عورتها، فضحك القوم، وصخب المكان بالسخرية.

صرخت المرأة المسكينة، فهبّ لها شاب مسلم، غيور على عرضه، منتصر لدينه، فما إن رأى المشهد حتى سال الدم في عروقه حميَّةً، وسلّ سيف غيرته، فقتل الفاعل. فما كان من اليهود إلا أن انقضوا على الشاب، فقتلوه، في أول نقطة دم تُراق ظلمًا، وآخر حجاب يُمزق من عهد المروءة.

الرسول صلى الله عليه وسلم... يحذّر وينذر

بلغت الواقعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتعل قلبه غضبًا لله، وقام بصفته نبيًّا وقائدًا وأمينًا على الأمة، ومضى إلى بني قينقاع في سوقهم، يُذكّرهم بالعهد، وينذرهم من مغبة الخيانة، لكنهم –وقد طغى الكبر في قلوبهم– واجهوه بكلمات ملؤها الوقاحة والغرور، وقالوا في تحدٍّ سافر:

"يا محمد، لا يغرنّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فغلبتهم. أما نحن، فوالله لتعلمنّ أننا نحن الناس"!

كانت كلماتهم سهامًا مسمومةً، مزّقت ثوب العهد، وأعلنت بلا مواربة تمردهم، فاستدار النبي صلى الله عليه وسلم، يعدّ العدّة، ويهيّئ الصفوف.

الحصار... وانهيار الحصون

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتأهب، وسار بهم إلى حصون بني قينقاع، فضرب عليهم حصارًا شديدًا، دام خمسة عشر يومًا، لا يُرفع، ولا يلين. وكانوا في الحصون كالعصافير في الأقفاص، يتحصّنون وراء جدرانهم، وقد أكلهم الخوف، وألجمهم الذعر، لا يجدون حيلة ولا مفرًا.

ومع كل يوم يمر، كانت القبضة تشتد، والقلوب تنهار، حتى أذعنوا في النهاية، وطلبوا النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن تقطّعت بهم الأسباب، وانكسرت شوكتهم.

الشفاعة... ومرارة القرار

فلما جاء وقت الحكم، قضى النبي صلى الله عليه وسلم –وهو المؤتمن على العهد– أن يُقام عليهم حدّ الخيانة، لكن تقدّم رأس النفاق، عبد الله بن أُبيّ بن سلول، يتظاهر بالشفقة، ويقول: "يا محمد، أحسن إلى مواليّ!"، وتعلّق بثوب النبي صلى الله عليه وسلم، يرجوه ويلح، حتى أثّر بثقله في صدره الشريف.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم في صرامة الحق: «أرسلني»، فأبى، وقال: "والله لا أدعك حتى تُحسن إليَّ في مواليّ، كانوا لي عُدّة في الجاهلية!"، فأطلقه النبي صلى الله عليه وسلم، وتركهم له، وقال بكلمات تحمل الألم والتحذير: «هم لك، لا بارك الله فيك.«

فأُجلي بنو قينقاع عن المدينة، وخرجوا من ديارهم أذلّة خاسرين، وتركوا خلفهم أموالهم وسلاحهم، غنيمة للمسلمين، وموعظة للتاريخ.

وهكذا أسدل الستار على أولى صفحات المواجهة مع يهود المدينة، وانكشف الغطاء عن وجوهٍ كانت تداري الغدر بالابتسامة، وتخفي الحقد خلف عهود السلام. لقد علّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من نقض العهد، إنما يهدم بيته بيده، وأن الدولة الإسلامية لا تسمح أن يُمس عرض امرأة، ولا أن يُنقض ميثاقٌ وهي قائمة، راسخة، تحمي الحق وتردع الباطل.

الفوائد المستنبطة من الفقرة

فوائد عقدية

- في الحادثة تأكيد على أن النصر من عند الله، وأن عزة المسلمين مرتبطة بإيمانهم لا بعددهم، وهو ما ظهر بعد بدر، حين عزّ الإسلام وارتفعت رايته رغم قلة العدد.
- إيمان المسلم يوجب عليه نصرة الدين والغيرة على محارم الله، كما فعل الشاب المسلم الذي دافع عن المرأة، وهذا من آثار التوحيد الحق.
- دلّت القصة على أن من صفات المنافقين واليهود الغدر والخيانة والحسد، وهي صفات مذمومة تُنافي الإيمان والتوحيد الخالص لله.
- تثبت الواقعة أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه من لوازم الإيمان، فقد أحبّه أهل المدينة حتى كاد اليهود يجنّون من ذلك.
- موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن أبيّ، رغم كونه مؤلمًا، فيه دليل على أن الله يبتلي المؤمنين بمن في قلوبهم مرض، لحكمة في التمحيص والتمييز.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: «هم لك، لا بارك الله فيك» دعاء يدل على أن البركة تُرفع عن من ناصر أهل الخيانة، وهي عقيدة في عدل الله وانتقامه من الظالمين.
- إجلاء بني قينقاع فيه بيان لعقيدة الولاء والبراء، فلا يجوز إبقاء من خان العهد بين المسلمين، لما في ذلك من نقض مقاصد الدولة المسلمة.

فوائد فقهية

- يجوز للإمام أو الحاكم أن يُعاقب من خان العهد بالعقوبة المناسبة، ولو كانت الإخراج من البلاد، إذا رُفعت الخيانة وأصبحت معلنة.
- الأصل في العهود الوفاء، فإذا نُقض العهد من طرف، سقط لزومه من الطرف الآخر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع بني قينقاع.
- شفاعة المنافقين لأهل الغدر لا تُقبل في الشرع، ولكن قد تُراعى أحيانًا لمصلحة أعظم أو لدفع فتنة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع ابن أُبيّ.
- تعلّق عبد الله بن أُبيّ بثوب النبي صلى الله عليه وسلم، وتركه له، دليل على سياسة الحُكم في الإسلام، وأنها تُدار بالحكمة ومراعاة المآلات لا العاطفة وحدها.

- يجوز للمسلمين أن يغنموا أموال من نكث العهد إذا ثبتت الخيانة، والغنائم تُوزّع وفق حكم الشرع، لا الهوى أو الشهوة.
- حوادث الاعتداء على النساء في الأسواق تدخل في باب الحدود والتعزير، ويجوز للوالي تأديب المعتدي بما يردع مثله.
- الإنكار بالسيف من قبل الشاب الغيور، كان في غيبة الإمام، وعلى صورة مباغتة لا تتكرر دائمًا، فلا يُتخذ هذا أصلًا لتجاوز السلطات أو التعدي.

فوائد أخلاقية

- غيرة الشاب المسلم على عرض المسلمة تُظهر عظمة خلق الحمية في سبيل الله، وواجب المؤمن أن يغضب للحق كما يغضب لنفسه.
- صبر المرأة المسلمة على الابتلاء، وصراخها عند انتهاك سترها، دليل على عفافها وحيائها، وهي قدوة في حفظ العرض والستر.
- السخرية من أهل الإيمان، كما فعل اليهود، خلق دنيء يدل على طبع لئيم، والمسلم لا يسخر من غيره ولا يستهزئ بالمؤمنات.
- عدم استجابة بني قينقاع للإنذار، ومجابهتهم النبي صلى الله عليه وسلم بتكبر، يُظهر سوء الخلق والوقاحة، وهو عكس الأدب المطلوب مع أهل الفضل.
- النبي صلى الله عليه وسلم رغم غضبه، لم يبدأهم بقتال، بل أنذرهم وذكّرهم بالعهد، وهذا من حسن الخلق والحلم في موطن الغضب.
- قوله صلى الله عليه وسلم: «هم لك، لا بارك الله فيك» فيه بيان أن الدعاء يخرج من القلب عند الحزن والغضب، ولا يتجاوز فيه العدل والحق.
- التواضع والعفو لا يكونان مع أهل الكبر والغدر، بل الحزم والحسم هو الخلق المناسب مع من لا يُجدي معه الإحسان.

فوائد سياسية وقيادية

- النبي صلى الله عليه وسلم تصرّف كقائد حازم، يُوازن بين الرحمة والحزم، فيُمهل من خان، ثم يُعاقب عند الإصرار على الخيانة.
- حصار النبي صلى الله عليه وسلم لهم خمسة عشر يومًا يدل على أن الحروب تُدار بصبر وتخطيط، وليس بالعجلة أو ردات الفعل.
- استخدام النبي صلى الله عليه وسلم للحصار دون القتال المباشر يُعلّمنا أن الوسائل المتاحة لردع المعتدي متعددة، ويُراعى فيها أقل الضرر.
- عدم السماح بالخيانة داخل الدولة المسلمة، ولو من قبيلة كبيرة، يُثبّت الأمن ويُظهر هيبة الدولة ويمنع الفوضى.
- تسليم اليهود في النهاية، وطلبهم حكم النبي صلى الله عليه وسلم، دليل على ثبات قوة القيادة المحقة، وأن النصر مع الصبر.
- ترك النبي صلى الله عليه وسلم لبني قينقاع لعبد الله بن أُبيّ لم يكن ضعفًا، بل مراعاة للفتنة، وهذا من فقه الواقع السياسي.

مخالفات الواقع

- التفريط في حماية أعراض النساء، وترك الأسواق والميادين فوضى بلا مراقبة، حتى تُمس فيها المحارم وتنتهك الحرمات بلا غيرة.
- ضعف الغيرة في كثير من شباب المسلمين اليوم، حتى لا يتحرك قلب أحدهم إذا رأى الحرام يُمارس جهارًا في بيته أو حارته.
- التهوين من أمر العهد والميثاق، وانتشار الغدر بين الناس، حتى صار التوقيع والتعهد بلا قيمة ولا التزام.

- وجود فئات في بعض المجتمعات، تضمر العداء للإسلام وتعيش بين المسلمين، لا يلتزمون بميثاق ولا يحترمون قانونًا.
- ارتفاع أصوات تروّج للخيانة باسم حقوق الأقليات، وتهاجم من يدعو للحزم مع المفسدين، فتجعل من الخائن ضحية.
- دفاع بعض الناس عن المفسدين والمعتدين، وتبرير جرائمهم بدعاوى زائفة، كما دافع عبد الله بن أُبيّ عن بني قينقاع.
- غياب فقه القيادة لدى البعض، الذين يريدون من الحاكم أن يُنزل العقوبة في كل لحظة، دون مراعاة التبعات والفتن.
- استغلال المنافقين لمكانتهم الاجتماعية أو السياسية لتعطيل تطبيق الأحكام، كما استغل ابن أُبيّ مكانته للضغط على النبي صلى الله عليه وسلم.

انتهى الباب الرابع ويله الباب الخامس ان شاء الله جل وعلا

الباب الخامس: ما بعد بدر... ومقدمات الزلزال

مقدمة

من بدر بدأت الحكاية... ومن أُحد انفجرت الأسئلة.

لم يكن ما جرى في بدر معركةً فحسب، بل كان زلزالًا قلب وجه الجزيرة العربية، وأيقظ في قريش نارًا كانت توشك أن تنطفئ، فأعادتها جمرات الثأر إلى الحياة.

في مكة، لم يكن الصباح ككل صباح. الجراح لم تكن على جسد الرجال، بل في عمق الكبرياء الجاهلي، الذي ضُرب في خاصرته وهو في أوج سطوته.

صوت النادبين في بيوت قريش لم يكن صوت حزنٍ فقط، بل كان نذيرَ نارٍ تحت الرماد .ومن رحم الحزن وُلِدت عاصفة... سُمّيت لاحقًا :**غزوة أُحد**.

لقد بدأت مكة تجمع فلولها، وتُهيّج شعراءها، وتوقظ أحقادها، وتنسج خيوط الثأر من خيام المجازر إلى دهاليز الغدر.

وفي المدينة... حيث النور لا يزال يشعّ من بين الجراح، كان محمد صلى الله عليه وسلم يهيّئ النفوس لما هو آت، ويصنع رجالًا لا تهزمهم الجراح، لأنهم لم يُخلقوا ليرضوا بالدنيا، بل وُجدوا ليُحطموا جبال الباطل مهما اشتدّت.

وفي هذا الباب، نرافق أحداث أُحد **من أول ريح الثأر التي هبّت من مكة، إلى عودة الجراح إلى المدينة، ثم خروج الجريح إلى حمراء الأسد، لنختم بتأملات السماء في هذه المعركة العظيمة**، حيث الكلام الإلهي أنزل فصّل الحدث، وداوى الجراح، وربّى النفوس.

فلنفتح صفحات هذا الباب معًا، لنعيش: مشاهد البطولة مشاهد الضعف مشاهد الغدر ومشاهد التزكية الربانية...

وهناك، بين أحدٍ والسماء، سنجد نورًا جديدًا يُنبت في القلوب درسًا لا يُنسى.

الفقرة الأولى :ريح الثأر تهبّ من مكة

ريح الثأر تعصف في أزقة مكة، لا يهدأ الليل فيها ولا يبرح صدى الألم أركانها بعد بدر المجيدة...

في تلك الليالي الحالكة، لم تكن مكة تنام هانئة، بل كانت تسكنها أصداء الحزن الممزّق، وصرخات الثكالى التي تتلقف الأرواح كأنها لهيب نار لا ينطفئ. لم يكن هذا الحداد حزنًا خاشعًا، بل كان ثورة غضب تكوي القلوب، نارًا تُوقد لهيبها في صدور الأشراف والعامة، نارًا تسري في عروق قريش لتملأها عزمًا على الانتقام، لا انتقامًا عدلًا، بل ثأرًا أعمى مستعرًا كجمر الفحم.

هنا أبو سفيان، بوجهه الذي طالته شمس الغضب، يعلو صوته مدويًا في الأسواق والأزقة، يصرخ بكل ما فيه من حقد: "لا تسكن النساء، لا تُنشدوا الشعر، لا تأكلوا الطيب، حتى نأخذ بثأر بدر!"، وكأن مكة كلّها قد تحولت إلى جبهة واحدة تنبض بالثأر وتحتدم لها القلوب.

وهناك هند، المرأة التي لم تَهدأ دموعها، تمزق ثيابها فوق جسد أبيها وذويها، لكنها تحيك من خيوط حزنها شعلة انتقام لا تموت، تَغرّزها في قلوب أهل قريش لتُشعل نار الحقد على صدر كل رجل وامرأة.

وفي جنبات مكة، انتشرت أصوات الشعراء كالرعود، ينسجون قصائد حماسية تلهب النفوس، يثيرون الحمى في عروق القبائل البعيدة والقريبة، يطعنون في رجولة من يختار أن يبتعد عن ساحة القتال، وينثرون كلماتهم كسيوف مشحونة بالتحريض والتهديد.

وفي الأسواق، تتعالى خطب التحريض، فتتحول الوجوه إلى مواقد تحترق بالثأر، والصدور إلى أفئدة محروقة بالثورة القادمة. لقد كان الإعلام الجاهلي هنا سلاحًا لا يُبارى، يوجه الغضب ويركز الدماء، لا لطلب حق، بل لإيقاد نار الحرب والاقتتال.

هكذا، تحولت هزيمة بدر إلى صفارة استنفار عمومية، تحولت مكة بأسرها إلى معسكر ثأر ضخم، لا يعرف معنى للهدوء أو السلام، بل يستعد كل ساكن فيها لسيف يقطر دمًا، وقلب ينبض بالحقد، وروح لا تعرف سوى العنف والانتقام.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تظهر الفقرة أثر الهزيمة على أهل الشرك، وأنهم لا يرجعون إلى الله عند المصائب، بل يلجؤون إلى الثأر، وهذا فرق بين قلب مؤمن يرضى بقضاء الله، وقلب كافر يزداد عتوًّا.
- الثأر الأعمى الذي تبنته قريش بعد بدر يدل على فساد الفطرة التي لم تُهذّب بالإيمان، فالمؤمن إذا أصيب رجع إلى ربه، والكافر يزداد طغيانًا وكفرًا.
- استخدام قريش لكل وسائل التحريض دون اعتبار للحق والعدل يبين كيف أن من أعرض عن الوحي فإنه يُسلط عليه الهوى، ويهلك بسوء اختياره.
- يُستفاد من المشهد أن القلب إذا لم يعبد الله تعالى بصدق، عبَد ذاته، وانتصر لنفسه، فصار الثأر دينًا، والحقد عقيدة.
- مشهد الجاهلية في الانتقام يبيّن أن شريعة الله جاءت لإطفاء نار الثأر وتحكيم العدل، ومن لم يخضع لها، عاش في اضطراب دائم.
- إحجام قريش عن الاستسلام لله رغم الآيات البيّنات في بدر يدل على أن الهداية بيد الله، لا تحصل بقوة الدليل فقط، وإنما بتوفيق الله لعبده.

فوائد فقهية

- ما فعله أهل مكة من نشر التحريض وتهييج العوام على القتال يُعتبر نشرًا للفتنة، وقد جاءت الشريعة بالنهي عن الفتن والدعوة إلى السلم ما أمكن.

- لا يجوز التحريض على القتال والثأر بغير وجه شرعي، فكل قتال لا يكون في سبيل الله، ولا يحكمه شرع الله، فهو باطل ومردود.
- تحريم الإسلام للثأر الأعمى يظهر من خلال تقنين القصاص، ومنع الانتقام خارج إطار القضاء، بخلاف ما فعلته قريش.
- لا يجوز اتخاذ الإعلام وسيلة لبث الكراهية والطعن في الأعراض والرجولة كما كان يفعل شعراء الجاهلية، بل هو من المجازفات المحرّمة شرعًا.
- الشريعة تميز بين القتال المشروع والقتل للانتقام والحقد، فالأول يُراد به نصرة الحق، والثاني يُراد به إشباع الغضب والهوى.
- لا يجوز تعليق الناس بالعادات الجاهلية كربط الحزن بالامتناع عن الطيب والشعر، فالإسلام علّم الناس كيف يصبرون ويتعاملون مع المصائب وفق هدي النبوة.

فوائد أخلاقية

- الثأر إذا لم يُضبط بعقل ودين يُفسد النفس، ويجعل الإنسان عبدًا للغضب لا عبدًا لله، فيضيع الحق ويُستحضر الباطل.
- هند وغيرها ممن ملأت قلوبهم الحقد يمثلون أثر العاطفة حين تنفلت من ضوابط العقل والدين، فتقود الأمم إلى الحروب لا إلى الحلول.
- النداءات التي تطعن في رجولة من لا يُشارك في القتال، هي نوع من الضغط النفسي المُهين، وهي أخلاق جاهلية تُشعل الصراعات لا تُطفئها.
- تصوير المرأة في الجاهلية كأداة تحريض على الثأر، يُخالف صورة المرأة في الإسلام، التي تُربى على الحياء والعفاف، لا على الثأر والانتقام.
- جعل الشعر أداةً للفتن والتحريض في الجاهلية يُبيّن خطورة الكلمة حين تُستغل في الشر، وأثرها على إشعال الحروب.
- من أعظم الأخلاق في الإسلام كظم الغيظ، والجاهليون كانوا يجعلون الغضب عنوان الرجولة، وهو انحراف في الموازين الأخلاقية.

فوائد تربوية وسلوكية

- يجب تربية النفوس على التسليم لقضاء الله، لا على روح الثأر، فالمؤمن إذا هُزم عرف أن ذلك ابتلاء لا يُواجه بالعدوان بل بالصبر والعمل.
- وسائل الإعلام القديمة (الشعر والخطب) كانت سلاحًا لتوجيه العقول، مما يُلزمنا اليوم بحسن استخدام الإعلام في نشر الهدى لا الفتنة.
- يُربّى المسلم على أن يكون منصفًا حتى مع أعدائه، أما قريش فقد غابت عنهم كل موازين العدل، فلم يُميزوا بين مُحق ومبطل.
- لا يُعوَّل في تصحيح الخطأ على إثارة العاطفة فقط، فالعواطف الجاهلية لا تبني المجتمعات، بل تهدمها.
- شحن المجتمعات بالحقد يُفضي إلى تفككها وانهيارها، كما وقع لقريش حين أجّجت الثأر بين فئاتها فصاروا وقودًا لحروبهم.

مخالفات الواقع

- انتشار روح الانتقام بين بعض الشباب، تحت مسمى "الكرامة" أو "الرجولة"، وغياب فقه ضبط الغضب، مما يؤدي إلى سفك الدماء في الخصومات.
- استخدام الإعلام في التحريض على العنف، والطعن في غير المشاركين في المعارك، كما تفعل بعض الأصوات المتطرفة اليوم في إثارة العامة.

- تكرار تصوير المرأة كأداة في التحشيد السياسي والعاطفي، مع أنها في الإسلام ركيزة بناء، لا وسيلة صراع.
- ضعف الوعي عند بعض المجتمعات التي تُستفز بسهولة بالشعارات الحماسية دون فهم عميق للحقائق، مما يُسهل قيادتها للفتن.
- عدم التفريق بين الحزن المشروع والتصرفات الجاهلية التي تتبنى الغضب والثأر كرد فعل على المصائب.
- توارث بعض القبائل والعوائل لعادات الثأر التي لا تزال تحصد الأرواح حتى اليوم، خلافًا لما قررته الشريعة من وجوب العفو أو إقامة القصاص بعدل.
- إصرار بعض الفئات التي تنتسب إلى الإسلام على ممارسات إعلامية تُحاكي شعراء الجاهلية في الإثارة والتحريض، بلا بصيرة ولا خلق.
- استمرار بعض الخطابات في العالم الإسلامي التي تزرع الكراهية والبغضاء باسم الحميّة، وتُروّج للعنف بوصفه بطولة، وهو انحراف عن المنهج النبوي الرشيد.

الفقرة الثانية: جيش قريش يتحرك بثأر الجاهلية

ريح الثأر التي تلاعبت بأزقة مكة في البداية، صارت اليوم عاصفة عاتية لا تُقهر، تُسوق جموع قريش نحو موقعة قد وُقعت على جبين التاريخ، معركة لا سبيل بعدها إلى تراجع أو تراجع.

لقد اجتمعت قريش يومئذ كما لم تجتمع قط، وكل بيت فيها تهيّأ من ينقض ثأره، وكل أسرة اعتادت على دفن شهدائها وهم يرون في أعينهم لهيب الانتقام يشتعل. كان الحزن قد تلاقى مع النار والكبر والعناد في بوتقة واحدة، مختلطين، مكونين جيشًا هادرًا عازمًا على غسل عاره، واسترداد شرفه المهدور في وادٍ يُدعى أحد.

في طليعة هذا الجيش وقف أبو سفيان بن حرب، ذاك القائد الذي لم يكن رجل سياسة فحسب، بل كان يحمل على كتفيه عبء دماء سبعين رجلاً من أشراف قريش وأبطالها الذين سقطوا في بدر، كأنما يحمل على صدره صخرة ثقلها دماء المقتولين.

ومع أبو سفيان، كانت هند بنت عتبة تمشي في أحياء مكة، ناشرة الحماسة كأنها نيران تبعث الدفء في قلوب المتحاربين، تزرع الحمية في النفوس، وتعد العبيد والمشركين بمكافآت سخية إن كانوا أن ينالوا من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فتشعل فيهم لهيب الغيرة والعزيمة، فترتفع أصواتهم عالياً بالهتاف والنصر.

العتاد كامل، والعدد مكتمل، فلا يقلّ الجيش عن ألف مقاتل أو يزيد، متشحًا بمئتي فرس في مشهد مهيب لم تعرفه جزيرة العرب من قبل، معهم سبعمائة درع بُرّاقة وثلاثة آلاف بعير محملة بالسلاح من خزائن قريش، تلك التي أعدتها لعهد من الحرب لم تكن تعتقد أن ينتهي به الحال إلا بالنصر.

حتى النساء خرجن مع الجيش، لم يخرجن للحرب بسيوفٍ ولا رماح، ولكن كان حضورهن ذا دور حيوي، يملأن النفوس حماسةً ويهذبن الهمم، يصدحن بالأهازيج ويشحنّ القلوب، يدفعن المقاتلين إلى الصمود، فقد أدركوا جميعًا أن هزيمة بدر جاءت جزئيًا بسبب فرار البعض، ولذا تعهدوا أن لا يكون في صفوفهم من يلوذ بالفرار، فكان الصوت النسائي يصرخ في الساحات ويعيّر الفرّار.

ومن بين تلك الصفوف، كان هناك صناديد قريش يلمعون تحت شمس الغضب والثأر، رجالٌ عرفتهم الجزيرة وأيقنت قوتهم، منهم خالد بن الوليد بسيفه الذي لا يرحم، وعكرمة بن أبي جهل بعزيمته الصلبة، وصفوان بن أمية بحقده الذي لا يفتر، وعبد الله بن أبي ربيعة بخططه الحربية الدقيقة.

لقد خرجت قريش يومها، لا دفاعًا عن ذاتها فقط، بل ردًا على جرح عميق نُزف في بدر، خرجت لتحمي كرامتها التي اهتزت، ولم تكن هذه المعركة إلا محاولتها اليائسة لإطفاء نور السماء، ذلك النور الذي بدأ يتلألأ في المدينة، وهدى الأمة إلى طريق العزة والمجد.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تكشف الفقرة أن أهل الجاهلية كانوا يُسيّرون جيوشهم بعقيدة فاسدة، تقوم على الثأر والكبر، لا على طلب الحق، بينما دين الإسلام يدعو إلى القتال لرفع الظلم ونصرة التوحيد، لا لحظوظ النفس.
- خروج قريش بجيش مكتمل العدة، لم يُغنِ عنها من الله شيئًا، مما يدل على أن النصر ليس بكثرة العدد والعدة، بل بالتوكل على الله وطاعته، وهذا أصل من أصول العقيدة.
- سعي قريش لإطفاء نور الإسلام يثبت أن معركة الحق والباطل أزلية، وأن الباطل مهما علا، فإن الله ناصر دينه، ولو كره المشركون.
- تجييش قريش لأموالها وخزائنها ضد دعوة الإسلام يُبيّن أن الباطل يُنفق في سبيل حرب الحق، وهو ما وعد الله به في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦.]
- توظيف النساء في المعركة بالتحريض لا بالنزال، دليل على أن الكفر لا يعرف ضوابط في التكاليف، في حين أن الشريعة جاءت بتكليف كل فرد بما يناسب فطرته ومقامه.
- معركة أحد كانت جزءًا من قدر الله المحكم، وفيها تثبيت لقلوب المؤمنين أن الهزائم لا تعني نهاية الطريق، بل هي جزء من سنن الله في التمحيص والابتلاء.

فوائد فقهية

- لا يجوز التحشيد للحرب من أجل الثأر الجاهلي، فإن الحرب المشروعة في الإسلام تُبنى على مقصد شرعي واضح، كدفع العدوان أو نصرة المستضعفين.
- يُفهم من وصف الجيش وعدّته أن الإعداد المادي للمعارك لا يُغني دون إعداد إيماني، وهذا ما فرّق بين جيش قريش وجيش النبي صلى الله عليه وسلم.
- إخراج النساء للتحريض في مواطن القتال ليس من هدي الإسلام، بل جاء الإسلام بضوابط لمشاركة المرأة تحفظ كرامتها وتصونها عن التوظيف في الفتن.
- العهد الذي ذكرته الفقرة بلسان قريش على عدم الفرار يُذكّر بأن العقود الجاهلية قد تُبنى على العصبية والغلو، بخلاف العقود الشرعية المبنية على العدل والتوازن.
- لا يجوز استغلال وسائل التأثير الجماهيري (كالأهازيج والشعر والخطب) للتحريض على الباطل، بل يجب ضبطها بالحق كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في إعلامه الدعوي.

فوائد أخلاقية

- قيام هند بتحريض العبيد والوعود بالمكافآت يُظهر كيف يُستغل الفقراء في حروب الكبار، وهو خلق مذموم ينبني على الاستغلال لا الرحمة.
- كان صمود قريش مبنيًا على الكبر والعناد، وليس على مبدأ، مما يجعل أخلاقهم في الحرب أخلاقًا دنيئة، بعيدة عن القيم والمروءة.

- الفرق بين غضب الكافر والمؤمن، أن غضب الكافر يُولد الحقد، وغضب المؤمن يُولد الإصلاح، كما يظهر من تصرفات قريش مقابل تعامل النبي صلى الله عليه وسلم في معاركه.
- توظيف النساء لتحقير الفرّارين يُبرز انحراف الجاهلية عن خلق الستر والرحمة، بينما الإسلام يُعلّم أن العار الحقيقي هو في معصية الله لا في الفرار المجرد.
- الحماسة التي تولدها العاطفة المجردة عن الحكمة تُنتج فتنًا وهلاكًا، كما فعل شعراء قريش وخطباؤها في بث روح الانتقام بدل السلم.

فوائد تربوية وسلوكية

- المسلم يُربى على أن يُجاهد بعقيدة صحيحة، لا بثأرٍ أعمى، فكل معركة لا تبنى على الحق تُهلك أصحابها مهما كانت قوتهم.
- يُظهر المشهد ضرورة تربية الجيل على موازين شرعية في الحرب والسلم، لا أن يُزج بهم في معارك شعاراتية لا تمت للحق بصلة.
- القائد الحق لا يقود قومه بالحقد، بل بالعدل والحكمة، على خلاف ما فعله أبو سفيان قبل إسلامه حين قاد قريش بروح الثأر لا بروح القيم.
- لا يجوز للمجتمعات أن تبني هويتها على العداوة والحقد، كما فعلت قريش حين جمعت كل طاقتها لحرب دعوة الإسلام، فضاعت هويتها في لهب الثأر.
- من العوامل المؤثرة في الهزائم: الانقياد وراء الأصوات العالية بلا بصر ولا فقه، وهو ما وقع لقريش حين أجّجت الغضب بدل أن تراجع نفسها.

مخالفات الواقع

- ما زالت روح الثأر الجاهلي تعصف ببعض القبائل والمجتمعات، فتُسفك الدماء وتُشرّع الحروب لأسباب لا تمت للعدل بصلة.
- تُستغل المرأة اليوم كما استُغلت هند بالأمس، في ساحات الإعلام والمواقف التحريضية، بصورة لا تليق بمقامها في الشرع.
- لا يزال بعض المتحدثين اليوم يُحيون أسلوب شعراء الجاهلية في إثارة العواطف والحماسة الفارغة التي تقود الشباب للفتن والتهلكة.
- ضعف فقه الموازنة بين الإعداد المادي والمعنوي في كثير من حركات الواقع، فيُبالغون في التسلح ويتناسون البناء الإيماني، كما فعلت قريش تمامًا.
- تجييش العوام وتخديرهم بالعواطف باسم النخوة والكرامة، دون وعي شرعي أو بصيرة، يُؤدي إلى تكرار أخطاء الجاهلية بلباس معاصر.
- تسويق الحروب لأهداف نفسية (كردّ الكرامة أو غسل العار) لا يزال يُمارس في بعض وسائل الإعلام الحديثة، مما يدل على تكرار النموذج الجاهلي بصيغ جديدة.
- إشراك الأطفال أو الفئات المستضعفة في النزاعات، بوعد أو تحفيز، لا يزال أحد مآسي الواقع، وهو تكرار لما فعلته قريش مع عبيدها.
- انتشار قادة يرفعون شعارات الإصلاح، لكنهم في حقيقتهم يتحركون بدافع الحقد أو المنافسة، مما يفسد النيات ويُهلك الأتباع، كحال صناديد قريش قبل إسلامهم.

الفقرة الثالثة :إشارات التحذير من مكة: العباس يحمل نذر المواجهة"

في أزقّة المدينة المنورة، وبين أحضان أهلها وأهل الإيمان، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراقب المشهد بعين النبي الفاحصة، وبصيرة القائد الحكيم. كان يعلم يقينًا أن قريشًا لا تعرف النوم بعد هزيمتها في بدر، وأن تلك المعركة لم تكن نهاية الصراع، بل كانت بمثابة البداية لجولة أخرى أشد وأعظم، تلوح في الأفق، تقترب بخطى واثقة كالسحاب الأسود الداكن الذي يخبئ وراءه العواصف.

وفي خضم هذه الأجواء الملبدة بالتوتر والترقب، جاءه رسولٌ مسرع، قلبه يخفق كطائر مذعور، يحمل بين يديه رسالة مختومة مختومة بختم العباس بن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وسلم. كانت رسالة نذير، مشحونة بالصدق والإخلاص، من رجل أسلم قلبه خفية، ولم يعلن إسلامه بعد بين الناس، لكنه كان قد اختار طريق الحق في السر، وتيقن أن القادم أعظم من كل ما مضى.

في كلمات تلك الرسالة كان تحذير العباس شديد الوضوح، كشف عن تفاصيل حركة قريش، عن حجم جيشهم وعدده، عن اتجاههم نحو المدينة، وعن الخطر الذي يلوح في الأفق. طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون على أهبة الاستعداد، أن يهيئ النفوس والقلوب لمواجهة عاصفة مقبلة.

تلقّى النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة وهو هادئ كالمحيط في يوم صفائه، بقلب ثابت لا يرهبه شيء، وعقل متقد يستشرف الأحداث، فأمر بكتمان الخبر بين أهل الحل والعقد، وشرع بهدوء القائد العظيم في تعبئة النفس، والتحضير العسكري، والتخطيط الحكيم.

في الوقت ذاته، بدأت أنباء خفيفة تتسلل إلى أرجاء المدينة، تخفق بعض القلوب، وترتفع الأنفاس، وتتوجه العيون نحو السماء تترقب القدر. كانت هذه الرسالة بمثابة إيذان لا لبس فيه بأن الجولة الثانية من القتال قد حانت، ولكن هذه المرة ليست المعركة على مشارف بعيدة فقط، بل ستحط رحالها على حدود المدينة، وربما تتخطاها إن أتيحت لهم الفرصة.

فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم يعمل على تهيئة القلوب، يعمّق في النفوس الإيمان، يذكّر أصحابه بالنصر العظيم الذي تحقق في بدر، ويحثّهم على الصبر والثبات، مؤكدًا أن هذه المعركة ليست مجرد قتال بالسيوف فقط، بل هي معركة صدورٍ ملأتها الثقة واليقين، ورجاحة عقل، ورابطة ربانية بين العبد وربه.

كانت رسالته صلى الله عليه وسلم واضحة: نصر الله قريب لمن ثبت وقوى إيمانه، وهي رسالة تعكس مدى عظمة ذلك القائد الذي لم يعرف اليأس ولا الارتباك، بل كان رمزًا للثبات والرجولة واليقين المطلق بأن الله مع الصابرين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن الله مطلع على أحوال عباده، ويهيئ لهم أسباب النصر من حيث لا يحتسبون، كما هيأ لعباده المؤمنين رسالة العباس رغم كونه لم يُعلن إسلامه.
- في كتمان النبي صلى الله عليه وسلم للخبر وتدبيره للأمر سرًا دلالة على كمال التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب، وهذا أصل عقدي في عقيدة أهل السنة، وهو الجمع بين التوكل والعمل.
- الثقة المطلقة بالنصر من عند الله في أشد الأوقات تعكس عقيدة أهل الإيمان بأن النصر من عند الله لا من كثرة العَدد والعُدة، قال تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ [الأنفال: ١٠].

- وصف المعركة بأنها ليست مجرد مواجهة بالسيوف بل هي معركة صدورٍ ملأتها الثقة واليقين، يشير إلى أن الأصل في النصر عقدي قلبي، لا مادي حسي، وهو من مفاتيح التمكين التي نص عليها الشرع.

- يقين العباس بن عبد المطلب بأن النبي صلى الله عليه وسلم على الحق رغم عدم إعلانه الإسلام علنًا، دليل على أن الاعتقاد الحق قد يكون في القلب، لكن كماله لا يتم إلا بالتصريح والعمل.

- استشعار النبي صلى الله عليه وسلم لقرب الهجوم رغم عدم وجود خبر معلن من قريش، يعكس ما جاء في الحديث الصحيح: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» (رواه الترمذي وحسنه الألباني.)

- حث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الثبات وربطهم بالله دليل على أن معارك أهل الإيمان تُبنى أولًا على ربط القلوب بخالقها، لا بالأرض ولا بالقادة، وهذه من صفات جند الله في العقيدة السنية.

فوائد فقهية

- في قبول النبي صلى الله عليه وسلم لرسالة العباس، وهو لم يُعلن إسلامه، دليل على جواز قبول النصيحة والمعلومة من غير المسلم إذا أُمنت نيتُه، وظهر صدقه، وهذا من باب المصالح المرسلة.

- كتمان النبي صلى الله عليه وسلم للخبر عن عموم الناس وتعاملُه بهدوء مع الأمر، فيه فقه القيادة الرشيدة التي تراعي الحكمة والمصلحة، وعدم تهييج العامة بالأخبار قبل وقتها.

- تعبئة النبي صلى الله عليه وسلم للقلوب قبل العُدد فيه دلالة فقهية على أن تهيئة الجنود نفسيًا واجب قبل القتال، وهو من فقه الجهاد في الإسلام، حيث العبرة أولًا بثبات القلوب.

- العمل بسرية واستشارة أهل الحل والعقد دون إشاعة الخبر يبيّن فقه الشورى في الإسلام، وأن القيادة لا تنفرد بالقرارات المصيرية الكبرى دون الرجوع إلى أهل الحكمة والتجربة.

فوائد أخلاقية

- إخلاص العباس رضي الله عنه، رغم كونه في بيئة مشركة ومع كتمان إسلامه، فيه مثال راقٍ على الصدق الداخلي والحرص على نصرة الحق ولو في أصعب الظروف.

- رباطة جأش النبي صلى الله عليه وسلم وثبات قلبه عند وصول الرسالة، دليل على خُلق عظيم من أخلاق القادة الربانيين، حيث يكون الثبات في موضع الجزع من أعظم الأخلاق القيادية.

- تذكير النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بفضل بدر وثمرتها المعنوية فيه خلق الوفاء بالنعمة، والاعتراف بفضل الله في المواقف السابقة لتقوية النفوس في اللاحقة.

- الرسالة التي أرسلها العباس تعبّر عن صدق المشاعر الأخوية والحرص على سلامة المسلمين، وهذا من أعظم الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المسلم تجاه إخوانه ولو كان خائفًا على نفسه.

فوائد دعوية وتربوية

- التحذير الصادق من العدو، كما فعل العباس، فيه أسلوب دعوي غير مباشر، فالدعوة للحق ليست فقط بالكلام، بل بالنصرة والإعانة والإخلاص، حتى وإن لم تُعلن الدعوة صراحة.

- تركيز النبي صلى الله عليه وسلم على الجوانب القلبية في الإعداد، فيه منهج تربوي عظيم يدل على أن الإعداد النفسي الإيماني أهم وأسبق من الإعداد البدني والمادي في تربية الجيل المجاهد.

- بث الأمل في القلوب بأن نصر الله قريب، يربّي الأمة على التفاؤل ويمنع الإحباط واليأس، وهو منهج نبوي في تربية الأفراد عند الشدائد.

مخالفات الواقع

- ضعف ثقة كثير من المسلمين اليوم بنصر الله عز وجل، وتعلّقهم الكامل بالأسباب المادية فقط، دون اعتبار لقوة الإيمان واليقين، وهذا خلاف لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين ثبت وأعدّ النفوس.

- غياب فقه الكتمان والحكمة في التعامل مع الأزمات عند بعض الدعوات المعاصرة، حيث تُشاع الأخبار سريعًا دون نظر للعواقب، على خلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين كتم الرسالة.

- تقصير البعض في تهيئة النفوس في أوقات الشدائد، وتركيزهم على الجانب الحركي فقط، دون تقوية الصلة بالله، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ركّز أولًا على الإيمان.

- اعتبار بعض الناس أن الإيمان مجرّد كلمات، مع أن العباس رضي الله عنه أثبت أن العمل في الخفاء لنصرة الإسلام دليل إيمان عظيم، ولو لم يُعلن بعد.

- يأس كثير من الشباب من التمكين في زمن الفتن، بسبب كثرة المظالم، وقلة الفهم لسنن الله في النصر، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه جيشًا بألف وهو مع قلة عدد، بثبات ويقين.

- وجود فصائل وفرق اليوم تبث الرعب والقلق بين الناس بزعم الحذر من العدو، لكنهم لا يتبعون سبيل النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل الحكيم مع التهديدات، فيكشفون الأوراق، ويهدمون الاستقرار، ويدفعون الأمة نحو الفوضى باسم النصح والدعوة، وهذا من الانحرافات الفكرية التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال عن الفرق: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» (رواه أبو داود.)

- خلط كثير من الناس اليوم بين التوكل والتواكل، فيقع منهم إما اليأس من النصر أو التهوّر في التحرك، بينما النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الثقة بالله والإعداد الكامل.

الفقرة الرابعة : شورى الحِرص والغيرة في دار النبي صلى الله عليه وسلم

كانت المدينة المنورة تغلي في لهيب الترقّب، تتنفس أنفاس الشوق والحذر معًا، والقلوب مشحونة بالحماس والإيمان، والأنباء تتسابق من فم إلى فم، كأنها تنسج نسج القدر، حيث لحظة فاصلة ترتسم في الأفق، لحظة قُدّر لها أن تخلّد في صفحات التاريخ.

وفي بيت النبوة، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع أصحابه الكرام، لم تكن تلك جلسة عادية، بل كانت مجلس مشورة مفعمًا بروح القيادة والرؤية البصيرة، حيث يجتمع القائد الحكيم والمربّي الأمين، ليوقظ في نفوس أصحابه شعلة الأمل، ويُعلّمهم كيف تُدار الأمور بالأخذ بالرأي والتأنّي في قرار المصير.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يميل إلى موقف الحصن والاحتراز، يريد أن يبقى في المدينة يحميها، ويتصدّى لأعدائه من داخل أسوارها المنيعة، فالمدينة ليست مجرد موطن، بل درعٌ متين، وحصن حصين، وميدان يعرفه أهلها، عارفون بتفاصيله، وما يعينه على الصمود والثبات.

لكن حين أُتيحت الفرصة للمشاورة، انفجر حماس الشباب في صدور الذين لم يشهدوا بدرًا، لم يُثبط عزيمتهم خوف، ولم يردعهم التروّي، بل رفعوا أصواتهم قائلين: "يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يُظن بنا الجبن، ولا تضيع منا الفرصة الثمينة، فإننا مستعدون لنيل الشهادة في سبيل الله"!

اشتد النقاش، واحتدمت الحوارات، وتدفّقت المشاعر كالسيل الجارف، حتى عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته، يرتدي لامته المباركة، معلنًا قراره الحكيم بكلمات تخترق القلوب وتزلزل الأرجاء: "ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل".

حينها أدرك الصحابة أن عزيمة النبي صلى الله عليه وسلم قد تمّت، وأنه قرر السير قُدُمًا في طريق الجهاد، فرجعوا عن إلحاحهم وتمنّعوا، عاكفين على قراره الطاهر.

وهكذا، لم يكن القرار مجرد أمر عسكري، بل كان درسًا تربويًا خالدًا في فن المشورة، وفي كيف يكون التسليم بقضاء الله وحكمته، وفي معنى الغيرة الصادقة على الدين، والمسؤولية الجسيمة التي تُحتم على القائد والمُتباع معًا أن يكونوا جسدًا واحدًا في وجه التحديات.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الشورى مع كمال عقله ووحي السماء له، يدل على أن الأخذ بالمشورة لا ينافي التوكل، وهو من سنن الأنبياء وهدْيهم، وهو أصلٌ من أصول دين الإسلام.
- الإيمان بالقَدَر لا يعني السلبية، فمع أن ما جرى كان لحظة قدرية عظيمة، إلا أن الأمة مأمورة بالسعي، والشورى، واتخاذ الأسباب، ثم التسليم لحكم الله.
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل" إثبات لعزيمة الأنبياء وثباتهم عند الأمر الرباني، وتعليم للأمة أن أنبياء الله لا يُراجَعون بعد حسمهم بالأمر الشرعي.
- ترك النبي صلى الله عليه وسلم لرأيه الأول وقبوله برأي الأكثرية رغم كونه يوحى إليه، يُظهر علو مكانة الشورى في الإسلام، ما يدل على أن طاعة النبي ليست قهرًا، بل تعليم ورحمة وأُسوة.

فوائد فقهية:

- مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في أمر الخروج تدل على أن القضايا العامة والمصيرية تُعرض على أهل الرأي والخبرة، ولا يُنفرد بها الحاكم دون مشاورة أهل الحل والعقد، وهو أصل فقه الشورى.

- من الفقه في القرار النبوي أن ارتداء لأمته وامتناعه عن نزعها بعد ارتدائها، فيه دلالة على أن العزيمة إذا تمت في أمر الجهاد فلا تراجع عنها إلا بمسوغ شرعي، وفيه درس في الحسم والانضباط وعدم التردد.

- الاستعداد للجهاد من داخل المدينة أو خارجها كلاهما مشروع، واختلاف الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم في الوسيلة لا يطعن في أصل نيتهم الصالحة، مما يُستفاد منه سعة الاجتهاد في الوسائل لا الغايات.

- في هذا المشهد تأصيل لمسألة فقهية عظيمة، وهي جواز مراجعة الإمام إن لم يُبرم الأمر بعد، فإن أبرمه، لزم الجميع الطاعة والامتثال، ولا يجوز لهم الرجوع أو التمنع بعد إذعانه للعزم الشرعي.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- يُظهر هذا الموقف غيرة الصحابة على الدين، وحرصهم على المشاركة في الجهاد، وإن لم يُكتب لهم حضور بدر، مما يدل على تربية نبوية صنعت رجالًا يتمنون الموت في سبيل الله لا الغنيمة.

- حسن الأدب من الصحابة حين سكتوا بعد حسم النبي صلى الله عليه وسلم للأمر، وتراجعهم عن الإلحاح رغم حماسهم، يُعلمنا كيف يكون أدب التابع مع قائده، وخُلق الجندي مع قائده في الإسلام.

- موقف النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الحكمة والحنان، القيادة والحزم، حيث لم يُقصِ آراءهم، بل سمعهم، ثم أخذ قرارًا حاسمًا يُربّيهم عليه، وهذا من كمال القيادة التربوية.

- اجتمع في هذا المشهد فقه الموقف، والانفعال المشروع، والانضباط بعد القرار، وهو منهج تربوي متوازن في تربية الأجيال على الغيرة المضبوطة، والعاطفة المؤطرة بضوابط الشرع.

فوائد دعوية وسياسية:

- هذا المشهد يؤصل أن القيادة النبوية لم تكن استبدادية، بل قائمة على المشاركة والرؤية الجماعية، مما يؤكد أن الإسلام سابق إلى تبني منظومة سياسية تقوم على الشورى لا الفردية.

- إعلان القرار أمام الصحابة وفي جو مشحون بالحماس، فيه فقه التدرج في حسم الأمور، وعدم تسفيه الآراء، بل احتواؤها، وهذا مما يجب أن يُقتدى به في المؤسسات والدعوة وإدارة الاختلاف.

- موقف الشباب دليل على أهمية إشراكهم في قضايا الأمة، وتقدير حماسهم، بشرط أن يكون مؤطرًا بفقه الشريعة، لا أن يُترك لهم الحبل على الغارب، كما تفعل فرق الغلو التي تسوّق حماس الشباب إلى الفتن.

مخالفات الواقع:

- غياب مبدأ الشورى في كثير من الهيئات والمؤسسات الإسلامية اليوم، واتخاذ القرارات المصيرية بشكل فردي دون مشاورة، مما يورث الفساد والفوضى.

- تهميش الشباب وتجاهل طاقاتهم، بدلًا من توجيهها والبناء عليها، مما فتح الباب أمام الفرق المنحرفة التي غررت بهم، ودفعتهم نحو مسارات الغلو والتكفير.

- غياب القيادة التربوية التي تجمع بين الحزم والرحمة، مما جعل بعض الدعاة إما متساهلين بلا هيبة، أو غلاظًا بلا حكمة، ففُقد التوازن الذي مثّله النبي صلى الله عليه وسلم.

♦في واقعنا نجد من يُعلّق الجهاد على العواطف فقط، دون تروٍّ أو شورى أو تأصيل شرعي، ويجعلونه شعارًا لإثارة الفتن لا نصرة الدين، كما تفعل الفرق الغالية الذين يكفرون المجتمعات والحكّام ويفسدون باسم الجهاد.

♦بعض من يدّعون حب الدين لا يُسلّمون لقرارات ولاة الأمور والعلماء، ويتجاوزونهم باسم الغيرة والحماسة، وهذا مخالف لأدب الصحابة الذين سكتوا لما حسم النبي صلى الله عليه وسلم أمره، مما يدل على أن الغيرة لا تعني الفوضى.

♦في المؤسسات الإسلامية والدعوية اليوم، نرى تغليبًا للعاطفة على الحكمة، وتنازعًا على القرارات المصيرية دون انضباط شرعي، فتنقسم الصفوف، وتضيع الثقة، ويُفرّغ العمل من أثره.

الفقرة الخامسة على مشارف الامتحان العظيم

خرج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من طيبة الطيبة، يقود كتيبة من أطهر الرجال، ألفُ مؤمنٍ حملوا في قلوبهم شُعلة التوحيد، وفي أيديهم سيوف النصر أو الشهادة. سار بهم صلى الله عليه وسلم في موكب من الإيمان المتوهّج، نحو جبل أُحد، الجبل الذي سيشهد على صدق القلوب، ويختبر معادن الرجال.

كان الخروج ردًّا على نُكسة قريش بعد بدر، وإصرارًا على صيانة الرسالة، ووقوفًا في وجه العدوان لا رغبة في الدنيا، ولا طلبًا للفخر.

وبينما الجيش يشقّ طريقه في أرض الله، مرّوا ببستانٍ يملكه رجل كانت له في النفوس ذكرى صالحة، فإذا به اليوم يمثّل صفحة سوداء من صفحات النفاق... إنه أبو عامر الراهب، الذي بدل نعمة الله كفرًا، واستبدل النور ظلمةً، وارتضى لنفسه أن يكون في صف الشيطان بعد أن عرف صف الرحمن.

وقف ذلك الرجل الخائن عند حافة بستانه، ونادى منكسراً بصوتٍ كسيرٍ تختلط فيه نبرة الذلّ بنغمة الرجاء: "يا معشر الأوس! أنا أبو عامر!"... ظنّ أن صدى اسمه القديم سيوقظ فيهم حنينًا إلى الجاهلية، وأن ذكريات الزعامة ستدفعهم إلى الانفضاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن ما وجد إلا قلوبًا طهرتها بدر، وأنفسًا ربّاها الوحي، فردّوا عليه بلسان اليقين: "لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق!"، فارتدت عليه كلماته كالرماح، وتهاوت أمامه آماله كالسراب.

خاب الرجاء، لكن الحقد في صدره لم يخمد، والمكر في قلبه لم ينطفئ، فراح يحفر الحفر في طريق المعركة، علّ أحدًا من المسلمين يقع فيها، وربما ظفر بأذى يصيب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد كانت مشيئة الله أن تقع قدم الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في إحدى تلك الحفر، فيتعثر ويُصاب؛ فجرحت ركبته الشريفة، ونفذت حلقتان من المغفر في وجنته النورانية.

فإذا بالوفاء يتجلّى في صورة رجل... طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، يهرع إليه لا يهاب الموت، وينتزع الحلقات من وجه النبي صلى الله عليه وسلم بيديه، حتى سال الدم من أصابعه، وما اهتزت عزيمته، بل فداه بنفسه، حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله.»

وقد تسرّب إلى بعض الروايات المتأخرة زعمٌ أن النبي أو بعض أصحابه أتلفوا زرع أبي عامر أو قطعوا نخله، وليس لهذا الزعم أصل في كتب السيرة الموثوقة، بل تأباه شمائل النبوة وأخلاق الرسالة، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك في صريح قوله: «لا تقتلوا صبيًّا، ولا امرأة، ولا شيخًا كبيرًا، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه». لم تكن الحديقة ساحةَ معركة، ولا ميدانَ انتقام، بل محطةً عبرها الركب النبوي عابرًا لا مُعْتَدِيًا، فهكذا هي أخلاق من بُعث رحمة للعالمين.

وما إن دنا الجيش من جبل أحد، وبدأت ملامح المعركة ترتسم في الأفق، حتى وقع البلاء من الداخل، حين شقّ صفوف المسلمين عبد الله بن أبيّ بن سلول –رأس المنافقين– وانسحب بثلاثمائة رجل من جيش الإيمان، في لحظةٍ كاشفة، قال فيها مقولته الزائفة المضللة: "ما ندري علام نقتل أنفسنا؟"، ليفتن القلوب الضعيفة، ويختبر صبر المؤمنين.

لكن جيش النبي صلى الله عليه وسلم لم يضطرب، بل ثبت الباقون بثبات العقيدة، ومضوا خلف قائدهم ونبيهم، بنفوس ملؤها الصدق واليقين، لا تهتزّ لخذلان، ولا ترتجف أمام طعنات الغدر. حتى إذا بلغوا سَفْح جبل أُحد، وقف النبي صلى الله عليه وسلم يُرتب الصفوف بيد القائد الملهم، وعين المربّي الحكيم، وعزم النبي المصطفى.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أُحد ومعه كتيبة من أهل التوحيد يدل على أن العقيدة هي أساس البناء، وأن نصرة الدين لا تكون إلا بمن حمل الإيمان في قلبه، لا بالأعداد ولا الشعارات.

- مشهد طلحة رضي الله عنه وهو يفدي النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه يؤكد أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم عقيدة، وليست شعورًا عابرًا، وهي تقتضي التضحية الحقيقية لا الادّعاء اللفظي.

- صبر الصحابة وثباتهم بعد انسحاب المنافقين يرسخ معنى التوكل على الله، وأن النصر لا يُعلّق على الأسباب المادية فقط، بل على قوة الإيمان ويقين القلب.

- الرد الحاسم على أبي عامر الراهب رغم تاريخه السابق يدل على أن الولاء والبراء في الإسلام مبني على العقيدة، لا على النسب أو الماضي أو الانتماء القبلي.

- هذا المشهد يكشف بجلاء خطورة النفاق، وأنه من أعظم ما يهدد كيان الأمة من داخلها، كما قال الله تعالى} :هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ] {المنافقون: ٤.[

- في الفقرة تأكيد لعقيدة السُنّة في ضبط النقول والتمييز بين الصحيح والضعيف، ورفض الروايات المكذوبة التي تنسب ظلمًا للرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته، وهو من تعظيم الشرع والنبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية:

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه» أصلٌ في فقه الجهاد النبوي، وهو ينهى عن الإفساد في الأرض، ويؤصل لأخلاقيات الحرب في الإسلام، في مقابل الفوضى والعدوان الذي تفعله الفرق المنحرفة.

- اجتناب قطع نخيل أبي عامر رغم خبثه وعداوته، يدل على أن الإسلام لا يبيح العدوان على أموال الكفار المعاهدين أو ممن لم تقع منهم محاربة فعلية في ذلك الموضع.

- خيانة عبد الله بن أبيّ وانسحابه بثلث الجيش دليل على أهمية الثقة في أهل القلوب الصافية، وضرورة اختبار الإيمان قبل التمكين، كما أن في ذلك درسًا في فقه التعامل مع الخونة والمخذّلين دون التهوّر.

- ثبات من ثبت بعد الانسحاب يُؤصّل قاعدة فقهية في أن انسحاب بعض الجيش لا يوجب الفزع، بل يجب على من بقي أن يمضي في سبيل الله، مع أخذ الحذر والاستعداد.

مشهد ترتيب الصفوف عند أُحد بيد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو نبي وقائد، يرسخ سنة تنظيم الجيوش وإعداد المواقف قبل القتال، ويُستفاد منه أهمية التدبير وحُسن القيادة في أمور الأمة الكبرى.

فوائد أخلاقية وتربوية:

مشهد طلحة وهو يسيل دمه فداء للنبي صلى الله عليه وسلم يُقدّم درسًا في الوفاء الحقيقي، ويُبيّن كيف تُصنع البطولات في ميادين النصرة لا الكلام.

تعبير النبي صلى الله عليه وسلم عن طلحة بقوله: «شهيد يمشي على الأرض» يُظهر قيمة التقدير الحقيقي عند أهل الفضل، وكيف يربّي القائدُ أصحابه بالتشجيع والإنصاف.

رفض الصحابة لمحاولة أبي عامر في استمالتهم إلى الماضي، وردّهم عليه بكلمات الإيمان، فيه تربية على الثبات وعدم الحنين الجاهلي مهما كانت الذكريات.

عدم الانتقام من بستان أبي عامر رغم نفاقه، درس في ضبط النفس، والعدل مع الأعداء، ومخالفة الهوى في أوقات الغضب، وهذه من شمائل النبوة.

استمرار الجيش في طريقه رغم الخيانة، وتجاوز الأزمة بهدوء، يدل على تربية الصحابة على الثقة، والاتكال على الله، وعدم التهويل عند الفتن الداخلية.

فوائد دعوية وسياسية:

ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في وجه الانسحاب المنافق، وعدم التراجع، فيه درس لكل قائد أن لا يتأثر بمكر الماكرين، بل يمضي في سبيل الحق ويدعو للثبات.

كشف المنافقين في هذا المشهد رسالة لكل دعوة: أن البلاء سيفرز الصادق من الكاذب، وأن الدعوة لا تستقيم إلا بعد التمحيص، وهو سنة ماضية في تاريخ الأمم.

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أخلاقيات الحرب حتى مع المنافقين يدل على أن القيم النبوية لا تتغير بتغير العدو، ولا تسقط عند الغضب، ولا تتبدل في سبيل الرد أو الانتقام.

في هذا الحدث دلالة على أن التمايز بين الصفّ المؤمن والصف المنافق ضرورة دعوية، فلا يصح إغفال الخطر الداخلي بحجة وحدة الصف، ما لم يكن الصف مؤمنًا حقًا.

صبر النبي صلى الله عليه وسلم على جراحاته دون تأليب أصحابه على الانتقام، درس في القيادة الراشدة، وضبط المشاعر، وربط القلوب بالغاية الكبرى لا بالانفعالات.

مخالفات الواقع:

في واقع المسلمين اليوم من يبيع دينه بعرض من الدنيا كما فعل أبو عامر الراهب، بعد أن عرف الهدى، فينقلب على عقبيه، ويطعن في الدعوة وأهلها، ويسلك مسالك الفرق النفاقية التي تعين أعداء الأمة.

لا تزال هناك دعوات خبيثة تروّج لاستدعاء الحنين الجاهلي، من قوميات وعصبيات، يريد أصحابها هدم ثوابت الدين باسم الذكريات، كما فعل أبو عامر وهو ينادي الأوس.

- في زماننا من يُلبس ثوب الغيرة وهو يعمل على إسقاط المصلحين والدعاة، كما حفر أبو عامر الحفر ليسقط فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء من الفرق الماكرة التي تتسلل إلى الصفوف وتخرب من الداخل.

- انتشار الكذب على السيرة والطعن في النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة بروايات مكذوبة منسوبة زورًا، كما ادّعى بعضهم قطع نخيل أبي عامر، وهذا من سمات الفرق الزائغة التي تطعن في الشرع بحجة النقد.

- يُشاهد في واقعنا أن كثيرًا من الناس ينهزمون إذا رأوا قلة العدد أو خيانة المنافقين، فيتخلون عن الحق، وهذا ضعف في العقيدة، ومخالفة لطريق الثابتين من أصحاب أحد.

- هناك من يزعم الجهاد وهو يقطع النخيل، ويهدم البيوت، ويفجر في بلاد المسلمين، ويخالف أوامر النبي صلى الله عليه وسلم، فيخرب باسم الدين، وهذا من نهج الفرق الغالية الخارجة عن منهج أهل السنة.

- في كثير من التجمعات الدعوية اليوم، لا يُحسن التمييز بين الثابت والمنافق، ويُفتح المجال لكل متكلم، حتى إذا جاءت المحن، انكشف زيف كثيرين ممن تصدّروا قبل التمحيص.

الفقرة السادسة :ميدان أُحد... الأرض التي ستشهد العهد والدماء

وصل الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أطراف ميدان أُحد، ذلك الموضع الجليل الذي سيُسجل بمداد الدماء والأرواح أعظم فصول الوفاء والإيمان.

وقف صلى الله عليه وسلم متأملًا الجبل العظيم، جبل أُحد، الذي خُصّ بحب النبي صلى الله عليه وسلم، وحظي بحبّ المؤمنين، كما أخبر هو بنفسه حين قال: «أُحد جبلٌ يحبنا ونحبّه»... فليس هذا الجبل كأيّ صخرٍ أو تراب، بل هو كتلة من المشاعر الصامتة، والعهود الصلبة، يشهد اليوم أعظم العبر وأشد البلاء.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم في سكون الجلال، ينظر إلى ساحة المعركة، وكأن الأرض تنبئه بما سيجري فوقها من بلاء وابتلاء، ومجد وفداء... سيُسفك الدم الطاهر، وتُختبر السرائر، وتُرفع الأسماء التي صدقت في العهد مع الله إلى عليين.

نقل بصره الشريف صلى الله عليه وسلم بين الجبل والوادي، ثم إلى وجوه أصحابه الذين ما تراجعوا ولا ارتابوا، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه... تأملهم بنظرة القائد الرشيد، والمعلّم الحكيم، فعقد عزمه على خطة محكمة، بسيطة في ظاهرها، عظيمة في جوهرها، تفيض حكمةً وبصيرة، وتنبض بعقلية عسكرية لا يجاريها قائد.

انتقى صلى الله عليه وسلم خمسين من أمهر الرماة، وجعل عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، ثم أسند إليهم مهمة عظيمة، ووضع لهم وصية من ذهب، لا تحتمل جدالًا ولا اجتهادًا، فقال بكل حزمٍ ونور نبوي:
»احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا قد هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» [رواه البخاري.]

كان جبل عينين – الذي يُعرف اليوم بجبل الرماة – هو الموضع الذي اصطف فيه أولئك الأبطال، لا لحراسة الجبل، بل لحراسة ظهر الإسلام نفسه، كأنهم سور الإيمان المنيع.

ثم وزّع صلى الله عليه وسلم جيشه توزيعًا فذًا، شكل به نصف قوس، أجبر به جيش قريش على المواجهة المباشرة، فلا التفاف، ولا مكر، ولا مباغتة... بل هي ساعة الحسم.

رفع صلى الله عليه وسلم رايته البيضاء، وعقد الألوية، وربط القلوب بخالقها، ورفعها فوق الدنيا ومكاسبها، كأنما يقول: لسنا نحن من نخوض القتال، بل هو الله الذي يدبّر الأمر، وما نحن إلا جند في ميدان الامتحان، علينا الطاعة والثبات.

سكن الميدان لحظات، كأن الزمان تجمّد ليراقب الموقف، وكأن الأرض تحبس أنفاسها، فها هي اللحظة تقترب، لحظة التمحيص، لحظة الاختبار... الأرض ستنطق بالشهادة، والدماء ستخطُّ الميثاق، والسماء على موعد مع أرواحٍ ستصعد بعطر التضحية.

إنه ميدان أُحد... حيث تُختبر العقيدة، وتُسجَّل مواقف لا تمحوها القرون.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- محبة النبي صلى الله عليه وسلم لجبل أُحد وقوله: «أُحد جبل يحبنا ونحبّه» إثباتٌ لعقيدة الحب في الله، حتى في الجمادات، وأن الأرواح الإيمانية ترتبط بالأمكنة التي شرفها الله بطاعته وعبادته.

- في تأمل النبي صلى الله عليه وسلم للميدان بعين النبوة وإعداد المعركة بقلب المؤمن، بيانٌ لعقيدة الجمع بين التوكل على الله واتخاذ الأسباب، فالمؤمن يثق بالله لكنه لا يترك العمل.

- وصية النبي صلى الله عليه وسلم للرماة: «فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم»، ترسيخ لعقيدة السمع والطاعة، والانقياد الكامل لأمر القيادة الشرعية، وهو جزء من تمام الإيمان.

- وصف المعركة بأنها "ميدان امتحان" يرسخ عقيدة أن الدنيا دار ابتلاء، وأن المعارك ليست مجرد انتصارات أو هزائم، بل مواطن تمحيص، واختبار للصدق، كما قال تعالى} :وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ] {آل عمران: ١٥٤.[

- الإشارة إلى أن الله هو المدبّر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وجنده مجرد أدوات في يد القدر، ترسيخ لتوحيد الربوبية، والخضوع لقضاء الله عز وجل وتدبيره في النصر والهزيمة معًا.

فوائد فقهية:

- أمر النبي صلى الله عليه وسلم للرماة بعدم مغادرة أماكنهم ولو رأوا انتصارًا ظاهرًا، فيه دليل على وجوب الالتزام بالتكليف الشرعي في موضعه، وعدم تغييره بالظنون والاجتهادات الفردية.

- في حديث النبي صلى الله عليه وسلم توجيه فقهي حول الطاعة في الميدان العسكري، وأنها لا تتوقف على تصوّر الحال، بل على وضوح الأمر من القائد، وهو أصل في الانضباط العسكري الإسلامي.

- توزيع النبي صلى الله عليه وسلم للجيش بنصف قوسٍ يؤكد على فقه التخطيط والتكتيك في الإسلام، وأن المعركة لا تُخاض بعشوائية، بل بعقلية مدبّرة، تُراعي الأسباب مع التوكل.

- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لأمهر الرماة، وتكليفهم بمهمة استراتيجية، فيه تأصيل فقهي على مراعاة الكفاءة والخبرة في توزيع المهام، لا المجاملة أو التسوية بين غير المتساوين.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- استعداد النبي صلى الله عليه وسلم للمعركة بتأمل وصبر وتأنٍ، يُعلّم القادة أن مواجهة الأزمات لا تكون بالعجلة أو الاضطراب، بل بالحكمة والبصيرة.

- مشهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُهيّئ أصحابه للميدان بعزيمة وهدوء، يربي النفوس على الثبات عند اللقاء، وأن الهيبة لا تعني الفوضى، بل ترتيبٌ للقلوب والأفكار.

- توجيه الرماة بعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت الظواهر، يُعلّمنا الانضباط، والثبات على المبدأ، وعدم الاغترار بالمظاهر أو النصر المؤقت.

- الوصية التي لا تحتمل جدالًا ولا اجتهادًا، تربي النفوس على حُسن الفهم، وأن بعض المواضع لا تقبل الرأي الشخصي، بل تحتاج الطاعة المطلقة حفاظًا على الجماعة.

- وصف الأرض بأنها ستشهد العهد والدماء، يربّي على استحضار عظمة التضحية، وعلو مكانة المجاهدين، وأن الأرض تحفظ دماء الصادقين كما تحفظ كتب التاريخ أسماؤهم.

فوائد دعوية وسياسية:

- التحشيد الذي قاده النبي صلى الله عليه وسلم بإتقان وروح إيمانية، يُعطي مثالًا على أن القيادة الدعوية لا تنفصل عن التنظيم والتدبير، بل لا تنجح إلا بهما.

- تخصيص عبد الله بن جبير بقيادة الرماة، مع أنه شاب، يبرز أهمية تمكين الأكفّاء في مواقعهم دون نظر إلى السن، ما داموا أصحاب أهلية، وهذا مبدأ سياسي تربوي مهم.

- التخطيط المحكم للمعركة، وتضييق مسارات المباغتة، يُعلّم الدعاة كيف يخططون لمشاريعهم دون ترك ثغرات، وأن إدارة الصف تحتاج بصيرة وإحكامًا.

- في وصية النبي صلى الله عليه وسلم: "فلا تبرحوا مكانكم" توجيه لكل العاملين في ميادين الإسلام: الزم ثغرك، ولا تتجاوز حدودك، ولا تغادر موقعك ما لم يُؤذن لك، وإلا انهارت الجبهة.

مخالفات الواقع:

- ضعف الالتزام بالضوابط الشرعية في كثير من ساحات العمل الإسلامي، حيث ترى المتصدرين يتجاوزون القادة والعلماء باسم "الاجتهاد" كما تجاوز بعض الرماة وصية النبي صلى الله عليه وسلم، فحدثت النكسة.

- في واقعنا من يُغيّر مواقع التكليف الشرعي لأهوائه أو مصالحه، فيترك الثغور أو المهام إذا لم تلبِّ رغباته، ويبرر ذلك باجتهادات باطلة، وهذا ضربٌ من خيانة الأمانة.

- يُشاهد اليوم ضعف في التخطيط والتنظيم داخل بعض الهيئات الدعوية أو المؤسسات الشرعية، خلافًا لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الإحكام والدقة في توزيع الصفوف.

- غياب مفهوم "السمع والطاعة" في الجماعات العاملة للإسلام، واستبداله بالرأي والتمرد، يؤدي إلى الانقسام، كما وقع يوم أحد، حين عصى بعض الرماة التوجيه النبوي، فكان الثمن غاليًا.

- بعض المنتسبين للدعوة والجهاد اليوم يتعاملون مع الميادين بعاطفة لا بعقلية منضبطة، فيفتقدون الثبات، ويُسقطون التجارب، كما لو أنهم في حالة حماس لا التزام، وهذه خصلة من خصال الفرق الغالية التي لا تزن الأمور بميزان الشرع.

- في واقع الناس اليوم من يحتقر التكاليف الصغيرة، كحراسة موقع أو القيام بأمر بسيط، وينظر لها بعين التقليل، ولا يعلم أن هذا الموضع قد يكون هو حفظ الدين، كما كان جبل الرماة حراسةً لظهر الإسلام كله.

- كثير من أبناء الإسلام يجهلون أن الطاعة وقت الرخاء لا تُقاس بالطاعة وقت الفتن، كما في أحد، حيث ثبت من ثبت، وظهر من خالف، وقد تكرر هذا في واقعنا عند الفتن والابتلاءات.

الفقرة السابعة :صيحة النصر الأولى... فرحٌ لم يكتمل

أشرقت شمس اليوم الموعود، وألقت بأشعتها الذهبية على وادي أُحد، كأنها ترسل إنذارًا إلى الأرض بأن لحظة الشهادة قد اقتربت، وأن صفحات البطولة على وشك أن تُكتب بحروف من دمٍ ونور.

وفي الجانب المقابل، كانت قريش تُحكم صفوفها، وتعدُّ رجالها، وتنفخ في كِبرها المتوارث من بدر، وكأنها تقاتل لتغسل عار الهزيمة الأولى، لا لتثبت حقًا ولا تُعلي مبدأ.

وتقدّم أول من تقدم، طلحة بن أبي طلحة، حامل لواء قريش، يزهو بجسده وقوته، ويظن أن لواءه سيشقُّ الطريق نحو النصر... لكن الفارس الصنديد الزبير بن العوّام رضي الله عنه لم يمهله طويلًا، فما إن ناداه حتى برز له كالسيف المجرد، وأهوى عليه بضربة قاطعة، فصلت الأمل عن جسده، والنصر عن رايته، فخرَّ طلحة يتخبط في دمائه، وسقطت معه أول أنفاس الكبرياء القريشي.

وهنا، دوَّت تكبيرة عظيمة من حناجر المؤمنين، هزّت الوادي هزًّا، ورجَّت قلوب المشركين، وكأنها ناقوس النذير بأن الهزيمة قادمة، لا محالة.

وما إن هدأت رجفة تلك الضربة، حتى توالى فرسان قريش واحدًا بعد الآخر، يخرجون للمبارزة كأنهم يساقون إلى قدرهم المحتوم، فتتلقفهم سيوف الصحابة الأبرار، وتُسقطهم على رمال أُحد كما تسقط أوراق الخريف من شجرةٍ عجوز، لا قوة لها أمام الريح.

وسقطت راية قريش، ثم رُفعت، ثم سقطت، ثم رُفعت، سبع مرات... لكنها لم تكن راية مجد، بل كانت تحمل في طيّاتها لعنة العناد، وغرور الجاهلية، ومكر الشرك، فسقط كل من حملها، وكأنها تأبى أن تبقى مرفوعة أمام راية الحق.

وبدأ المسلمون يدفعون العدو بثقة تملأ الصدر نورًا، وتهز الأرض عزمًا، وتفكّكت صفوف قريش شيئًا فشيئًا، حتى بدا المشهد كأنه نصرٌ حتمي، فارتفعت أصوات الإيمان من كل جهة: **"الله أكبر"**، تهدر كما تهدر السماء بالمطر، وتكاد تهدم ما تبقّى من معنويات المشركين.

وفي وسط هذا الانتصار المتقد، لم يكن قلب القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم مشغولًا بالغنائم، ولا مفتونًا بالمشهد، بل كان بصره الشريف يرتفع مرارًا نحو جبل الرماة، يتفقد مواضعهم بعين المعلّم الرحيم، يدعو لهم، ويثبتهم بنظرات تحمل المحبة والتحذير، وكأنه يقول لهم: "اثبتوا... فإن الأمر لم ينتهِ بعد."

وتحت الجبل، كانت صيحة النصر الأولى تموج في الوادي، تُسكر القلوب بنشوةٍ عاجلة، وتهزُّ الوجدان بفرحةٍ قد تكون خادعة... رجال قريش يفرّون لا يلوون على شيء، ونساؤهم يصرخن في أطراف المعركة، وجيشهم يتحطم تحت أقدام الموحدين.

لكن في الأفق... كان هناك ما يدعو للقلق، همسة لم تُسمع، وظلّ لم يُفهم، كأن النصر قال: لم أكتمل بعد... وكأن الفرح خُطف قبل أن يستقر، فكان هذا **فرحًا مبكرًا... وفرحًا لم يكتمل**.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- النصر لا يُنسب إلى الأسباب الظاهرة، بل هو من عند الله، يؤتيه من يشاء، ولو بدا أنه قد تحقق فلا يُؤمَن مكر الله.
- ما وقع في أحد من تقلب الأحوال من نصر إلى انكسار دليل على أن سنة الله في الابتلاء والتمحيص جارية حتى في أحب خلقه، وأن الإيمان لا يُكافأ في الدنيا دائمًا بالظفر.
- الثبات على أمر الله وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم هي مناط النصر، لا الكثرة ولا القوة، ومن خالف الأمر الإلهي نُزع عنه التوفيق.
- الكبر والعناد من أعظم ما يمنع الهداية، ولو ظهرت دلائل الحق؛ فقد خرجت قريش لا لإحقاق حق بل لرد اعتبار الجاهلية، وهذا من مظاهر قسوة القلوب التي تصدّ عن التوحيد.
- في نظرات النبي صلى الله عليه وسلم للرماة عِظة أن الأنبياء لا يغفلون عن مواضع الضعف في أمتهم، وأن القيادة النبوية قائمة على الرحمة والحكمة، لا على الغنائم أو المظاهر.
- تكرار السقوط لراية الكفر دون نصر يدل على أن الله يُبطل كيد الشرك مهما طال رفع رايته، حتى وإن ظهر لحظة أنه غالب.

فوائد فقهية

- مشروعية المبارزة في المعارك متى اقتضت الحكمة الحربية ذلك، مع مراعاة قوة الطرف المبارز وثقة القيادة برأيه.
- طاعة الإمام واجبة في الحرب، كما في السلم، ولو رأى المجاهد خلاف ذلك، فإن مخالفة التوجيهات في أرض المعركة سبب للهزيمة.
- النظر في حال العدو وأسلوبه يُعدّ من فقه الحرب، فقد كانت قريش تخطط لأخذ الثأر لا لإقامة العدل، وهذا يؤثر على خطط التعامل معها.
- الدفاع عن بيضة الإسلام واجب متعين في حال تهديد الكفار للمجتمع المسلم، والنفير للقتال إذا دعا إليه الإمام فرض لا يجوز التخلّف عنه.
- لا يجوز الاغترار بظاهر النصر، بل يجب التمهل والتثبت حتى تكتمل المعركة، وهذا من فقه إدارة المعارك.
- من فقه القيادة أن يثبت الإمام جنده نفسيًا، ويراقب مواضع الخلل لا مواطن الزينة، فالنبي صلى الله عليه وسلم ما انشغل بالفرحة بل ببقاء النظام والتماسك.

فوائد أخلاقية

- الغرور سبب رئيس في الهزيمة، سواء أكان غرورًا فرديًا كما كان عند طلحة، أو جماعيًا كما كان عند قريش، فالكبرياء لا يصنع النصر.
- البطولة ليست بالقوة الجسمانية فقط، بل بالقلب المليء بالإيمان، فقد سقط الأبطال الجسديون من قريش أمام عزيمة

الصحابة.

- الاتكال على الغنائم والفرح المفرط بالنصر قد يكون سببًا في ضياع البركة وذهاب النتيجة، فيجب كبح النفس عن الاندفاع العاطفي.
- الرحمة ظاهرة في قلب القائد المؤمن، حتى في ميدان الحرب، فالنبي صلى الله عليه وسلم ما زال يدعو للرماة ويخشى عليهم، وهذا خلق لا يكون إلا في قلب طاهر.
- المشهد يدل على أن الصبر حتى تمام النصر خُلق عظيم، لا يُستعجل فيه ولا يُغترّ بمقدماته، فالأخلاق تظهر في لحظة المفترق.

فوائد تربوية

- التربية على الطاعة والانضباط أولى من النصر العاجل، لأن انتصار اللحظة قد يُفقد إذا ضاعت مبادئ السمع والطاعة.
- القادة الناجحون يعلّمون الجنود بالقول وبالنظر، وقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى بالنظرات، وكانوا يفهمونها، وهذا من أرقى أساليب التربية.
- مشهد سقوط راية الكفر وتكرار رفعها ثم سقوطها يعلم الشباب المسلم أن الباطل قد يعلو لحظة، لكنه يسقط حتمًا إن ثَبَتَ أهل الحق.

مخالفات الواقع

- كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم يفرحون بالنصر الظاهري أو المكاسب المادية، وينسون أن التمكين لا يتم إلا بالثبات على الطاعة، فيفرحون بالنصف الأول من النصر ثم يُهزمون بسبب التفلت والانقسام.
- نرى في واقع المسلمين اليوم من يجعل من كل نصر جزئي مادة للتفاخر والغلو في الأمل، دون أن يتأمل في عاقبة الاستعجال، كما حدث في أحد.
- بعض المشتغلين بالشأن العام إذا رأوا تقدمًا مؤقتًا ظنوا أنهم وصلوا، فخالفوا أوامر العلماء الربانيين وأهل القيادة الشرعية، فانتكسوا؛ كما خالف الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم فكانت الهزيمة.
- الكبر والغطرسة التي تُمارَس اليوم في الخطاب الإعلامي أو السياسي باسم "الهوية الإسلامية" تشبه في صورتها حال قريش الذين خرجوا بطرًا ورئاء الناس.
- كثير من فرق الضلال في زماننا، من الخوارج الجدد وأهل الأهواء، إذا انتصروا في معركة كلامية أو سياسية أو إعلامية، جعلوها نهاية المطاف، وبدؤوا في الطعن في الأمة وتفريق الصف، كما لو أن الغاية كانت انتصارهم الشخصي لا عزة الدين، وهذا عين ما فعلته قريش، إذ خرجت لا لإقامة حق بل لرد اعتبارها الباطل.
- بعض من ينتسب إلى الإصلاح اليوم يعيد رفع رايات الباطل من جديد، ويجعل من كل شعارات مضادة للدين وسيلة للتسويق، كما رُفعت راية قريش سبع مرات، لكنها كانت لعنة لا مجدًا.

الفقرة الثامنة :حينما عُصيت الأوامر... من قمّة النصر إلى هاوية الانكسار

لقد لاحت بشائر النصر في الأفق، وتبدّدت غيوم المعركة عن مشهدٍ لطالما تمنّاه المؤمنون... رايات قريش تتهاوى، وصفوفهم تتبعثر، والخوف يملأ قلوبهم، بينما راية الإسلام ترفرف في سماء أحد، عاليةً شامخة، يشهدها كل من في الوادي، كأنها تعلن للعالم أن الحق قد انتصر، وأن الكفر قد اندحر.

لكن على قمة الجبل... هناك حيث ثبت الرماة، رجالٌ اصطفاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرهم أمرًا لا يحتمل التأويل" :**لا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير."**

إلا أن فتنة الدنيا زحفت إليهم، كما تزحف النار في الهشيم، ولمع في أعين بعضهم بريق الغنائم، ولم يعودوا يرون في المعركة إلا ما بقي من متاع قليل، وأموال مبعثرة على الأرض.

فقال بعضهم متحمسين: "الغنيمة الغنيمة!... لقد هزم الله العدو، فما معنى أن نظل هنا؟"
لكن صوتًا نقيًّا، صادقًا، خرج من قلب الطاعة، من فم قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، يذكّرهم" :**أنسيتم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟"**

لكن الطمع كان قد غلّف الآذان، وأغلق على القلب بابه، فلم يسمعوا لنداء الطاعة، بل أصغوا لهمس الدنيا، ونزل منهم أكثر من أربعين، لا يرون في الأرض إلا الذهب والفضة.

وبقي القائد ومعه أقل من عشرة رجال... رجال اختاروا الطاعة على الغنيمة، والثبات على الزلل.

وفي اللحظة ذاتها... كان فارس قريش، خالد بن الوليد – وكان يومئذ على الشرك – يرقب الميدان بعين القائد الفَطِن، يبحث عن ثغرة، ويتحين فرصة... فرأى الجبل وقد خلا من رجاله، ورأى الباب الذي فُتح بعد أن كان موصدًا.

فاندفع بخيله كالسهم المنطلق، ومن خلف الوادي التفَّ على ظهر المسلمين، ومعه كتيبة من فرسان قريش، فانقضوا على من بقي من الرماة، فاستُشهدوا جميعًا... ثم صبّوا غدرهم على ظهور المؤمنين.

وفي لمح البصر... تحوّلت صيحات النصر إلى صرخات استغاثة، وتبدّلت فرحة القلوب إلى ذهولٍ يعصر الأرواح، واضطربت الصفوف، وارتجّ الميدان، وكأن أحدًا لم يكن بالأمس القريب ساحة نصر، بل صار اليوم ساحة بلاء واختبار.

هكذا انقلبت الموازين، لا بخيانة، ولا بنقص عدد... بل بعصيانٍ لأمرٍ واحد، أمرٍ لم يُحمل على الجد، ولم يُؤخذ بثقة، فكان كالمفتاح الذي إن فُقد، أُغلقت أبواب السلام، وفتحت أبواب الوجع.

نعم... إنها طاعةٌ واحدة، لكنها كانت الحصن الذي حمى الأمة، فلما تصدّع، دخل منه السهم، وتحوّل النصر إلى كسرٍ مرير، وباتت الدروس تكتب بدماء الشهداء.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الثبات على طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واجب عقدي لا يقبل التهاون، لأن طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، قال تعالى" :من يطع الرسول فقد أطاع الله] "النساء: ٨٠.[

- أن النصر والهزيمة بيد الله، يُقدّرها لحكمة، ولا ترتبط فقط بقوة مادية، وهذا من الإيمان بالقضاء والقدر الذي هو أحد أركان الإيمان.
- الفتن تأتي من زينة الدنيا، وقلّة العلم وضعف التوكل، كما أن الطاعة تُحصّن من الفتنة، ومن عصى انفتح عليه باب البلاء.
- السمع والطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم ولو خالفت ظواهر الأحوال، أصل من أصول الإيمان، لأن العقل لا يُقدَّم على النص.
- الإخلاص لا يكفي بدون متابعة للنبي صلى الله عليه وسلم، فالرماة نزلوا بحسن نية، لكنهم خالفوا النص، فكان الأثر مدمرًا.

فوائد فقهية:

- وجوب التزام الجماعة في حال القتال والطاعة الكاملة للقائد المسلم، كما فعل عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وهذا أصل في فقه الجهاد.
- أن الفتنة بالغنائم والمكاسب لا تُبرر مخالفة أمرٍ شرعي، ولا يُعذر من خالف السنة بدعوى المصلحة الظاهرة.
- من فقه المعركة وجوب التثبّت في تنفيذ التعليمات الشرعية وعدم ترك الثغور ولو ظُن أن القتال قد حُسم.
- في قصة الرماة دليل على قاعدة فقهية عظيمة" :الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف"، فبقاءهم كان سببًا في حماية الجيش، فنزولهم أضرَّ بالجميع.
- في الطاعة لأمر الإمام المسلم حياة للناس وأمن، وتركها سبب في سفك الدماء، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم" :من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله] "متفق عليه.[

فوائد أخلاقية:

- الطمع من أخطر الأخلاق التي تُسقط الإنسان من قمة الطاعة إلى حضيض المعصية، وقد يُزيّن للمرء المعصية فيظنها خيرًا.
- الصدق في الطاعة يظهر وقت الفتن، فعبد الله بن جبير وأصحابه رضي الله عنهم ثبتوا وقت النزول، فاستحقوا الشهادة والخلود في الذكر.
- مخالفة الكلمة الواحدة تفتح أبوابًا من الشرور، ولهذا كان الالتزام والانضباط سمة الأخيار.
- التذكير بالحق وإن رفضه الناس خُلق عظيم، فعله عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وهو خلق الناصحين ولو خالفهم الأكثر.
- الغنيمة السريعة قد تكون سُمًّا في ثوب ذهب، فليس كل ما يلمع ذهبًا، والقلوب المتصلة بالله تفرّق بين الفتنة والنِّعمة.

فوائد تربوية ودعوية:

- قصة أحد درس تربوي عظيم في عواقب مخالفة الأمر، ينبغي غرسه في الناشئة ليعرفوا قيمة الطاعة والانضباط.

- التربية على الصبر والثبات في موضع التكليف من أهم معالم التربية الإيمانية، لا سيما في مواقع العمل والدعوة.

- لا تُقاس الأمور بنتائجها الظاهرة فقط، بل بالثبات على المبدأ، فالثابتون على الجبل كانوا هم المنتصرين عند الله.

- فِقهُ اللحظة وحسن التقدير من صفات القائد الفطِن كما فعل خالد بن الوليد، وفيه دعوة للمربين أن يُربوا طلابهم على الوعي والفراسة.

- القصص النبوي التربوي ينبغي أن يُروى للأمة بأسلوب حيٍّ مؤثر يُبرز عبره، كما في تحويل لحظة النصر إلى نكسة بسبب معصية.

مخالفات الواقع:

- التهاون في طاعة أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بزعم أن الواقع يتغير وأن بعض النصوص لا تُناسب الزمان، كما يفعل بعض المتفلسفين من المنتسبين للإسلام، هو انحراف عقدي خطر، يُشبه موقف الرماة في أحد.

- كثرة من يُفتنون بزخارف الدنيا والمكاسب العاجلة حتى في ساحات الدعوة والجهاد، مما يؤدي إلى ضياع الثغور وفقدان البركة.

- طغيان النظرة المادية في بعض التوجهات المعاصرة التي تقيس كل شيء بالغنيمة والمكسب، ولو كان على حساب الدين والمنهج.

- ضعف مفهوم السمع والطاعة للقيادة الشرعية في نفوس كثير من المسلمين، مما أدى إلى الفوضى والتمرد والثورات التي جرّت الخراب.

- غياب صوت النصيحة الصادقة في بعض المجتمعات، حيث صار الناصح يُسكت، أو يُتهم بالتخلف، كما لم يُسمع صوت عبد الله بن جبير رضي الله عنه.

- غفلة كثير من الدعاة والمربين عن خطر ترك الثغور الدعوية والتعليمية، بسبب الانشغال بالهوامش والمكاسب السريعة.

- انخداع بعض المنتسبين للدين بكثرة الأتباع، وعدم اعتبارهم بعواقب المعصية، وكأن النصر مضمون دائمًا، مع أن الله يبتلي عباده حتى في أحلك لحظات النصر.

- انتشار منهج الفرق المنحرفة الذين يُسقطون أوامر الشريعة ويُسوّغون مخالفتها تحت شعارات المصالح والمرونة، وهم في الحقيقة يفتحون ثغورًا للعدو دون أن يشعروا.

الفقرة التاسعة دقائق تثبت الرجال... حينما زُلزلت القلوب بإشاعة الموت

تسارعت الأحداث، واختلطت الصفوف، والرماة قد هبطوا عن مواقعهم، وخالد بن الوليد انقض من الخلف كالسيل الجارف، والمشركون أعادوا كرتهم من الأمام... فوجد المسلمون أنفسهم بين فكّي كماشة، محاطين من كل جانب، قد تلاشت التنظيمات، وتبعثرت الرايات، وارتبكت الأقدام، وانكسر النظام.

وفي غمرة هذا الاضطراب... انطلقت صرخة شيطانية من قلب المعركة" :قُتل محمد"!
كلمة هزّت القلوب، لا كالسيوف تمزّق اللحم، بل كالسكاكين تمزّق الروح...
توقف بعض الصحابة، وجلست طائفة منهم من هول الفاجعة، وقالوا" :وما نصنع بعده؟ إن كان قد مات، فارجعوا إلى قومكم".

لحظة فاصلة... كانت كفيلة بأن تُحسم فيها المعركة لا بالسيوف، ولكن بالثبات أو التراجع... وهنا ظهر الرجال.

كان أنس بن النضر رضي الله عنه مارًّا على أولئك الذين جلسوا، فلمح في أعينهم الوجع، وفي ملامحهم الانكسار، فقال بصوت ملؤه العزم :ما تنتظرون؟"
قالوا" :قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم".
فقالها من أعماق الإيمان" :فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه".

ثم اندفع وحده كأنه جيش، لا يحمل إلا يقينه، ولا يسنده إلا صدقه، يقاتل في الله حتى سقط مضرجًا بثمانين ضربة، فلم يُعرف إلا ببنانه... فأنزل الله فيه وفي أمثاله:
﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي زاوية أخرى من الميدان... لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات، بل كان حيًّا، لكنه جُرح في وجهه الشريف، وشُجّت جبهته، وكُسرت رباعيته، وسال الدم الزكي على خديه، وسقط في حفرة نصبها له أعداؤه دهاءً ومكرًا.

فأحاط به أصحابه، لا بالكلمات بل بالأجساد... دافعوا عنه كما تُدافع الأرواح عن الحياة، وتلقّوا السهام بأكفّهم وصدورهم، وصنعوا حوله درعًا من إيمان... ثبتوا وثبّتوا، وصنعوا من اللحظة الجريحة نصرًا لا يُقاس بعدد القتلى والجرحى، بل يُقاس بثقل العقيدة في القلوب.

فبدأ الميزان يميل... لا لصالح العتاد، ولكن لصالح الثبات.
ولم يكن النصر عسكريًّا بقدر ما كان نصرًا إيمانيًّا نابعًا من أعماق العقيدة، وممهورًا باليقين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الثبات في المحن من دلائل صدق الإيمان، إذ يظهر في لحظات الفتن من كان راسخًا على العقيدة ومن كان متزلزلًا.
- محبة النبي صلى الله عليه وسلم ليست مجرد عاطفة، بل إيمان يُثبت في المواقف العصيبة، كما ظهر في من ثبت حين ظنّ موت النبي صلى الله عليه وسلم.
- الإيمان الحق لا يتعلق بالأشخاص، وإنما بالمنهج الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال أنس بن النضر: "فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه."
- مصائب الحياة لا تزعزع قلوب من امتلأت باليقين بالله، فالمؤمن الحق لا تهدمه الشائعات ولا تحبطه الأخبار الكاذبة.
- من دلائل الإيمان بالقدر أن يبقى العبد ثابتًا في الفتن، عالمًا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه.

- نُصرة النبي صلى الله عليه وسلم واجب إيماني لا يتوقف بموته، بل هو مستمر بالدفاع عن سنته والتمسك بمنهجه.

فوائد فقهية:

- ترك الميدان بلا عذر مشروع في لحظة المعركة يُعد من صور التولي يوم الزحف، وهو من الكبائر، إلا إن كان تحوّلًا لمصلحة القتال أو لإعادة التنظيم.
- يجوز للمسلم أن يدعو إلى القتال والشهادة حين تثبت الفتنة ويظهر العدوان، كما فعل أنس بن النضر رضي الله عنه.
- في مثل هذه النوازل تُعرف الأحكام الفقهية المرتبطة بالأمر بالمعروف في حال ضعف النفوس، كما فعل أنس حين وجّه الجالسين.
- الثبات في الجهاد عبادة قلبية قبل أن تكون حركة جسدية، ويُثاب المسلم عليها بنيّته قبل عمله.
- من واجبات الجهاد حماية القائد المسلم في المعركة، والنبي صلى الله عليه وسلم أولى الناس بذلك، فدفع الصحابة عنه دليل على هذا الأصل.

فوائد أخلاقية:

- الشجاعة لا تُقاس بالقوة البدنية، وإنما بالثبات حين يتزلزل غيرك، وهذا هو معدن الرجال في الشدائد.
- الإيثار أعظم ما يظهر في ساحات البلاء، إذ ضحّى الصحابة بأرواحهم ليحفظوا جسد النبي صلى الله عليه وسلم الشريف.
- الصدق في العهد يظهر حين يفرّ الناس، ومن صدق الله صدقه الله، كما في وصف الله تعالى لأمثال أنس بن النضر.
- الانكسار في المواقف الحرجة ليس عيبًا، لكن العيب أن يظل الإنسان جالسًا بعد الصدمة، فلا يفيق ولا ينهض.
- التماسك وقت الفوضى خُلُقٌ لا يعرفه إلا أصحاب النفوس العظيمة والإيمان العميق.

فوائد دعوية وتربوية:

- تعليم الناس أن العمل للدين لا يتوقف بوفاة القادة، فالدعوة مستمرة لأنها مرتبطة بالوحي، لا بالأشخاص.
- بث الروح الإيمانية في لحظات الانهيار هو مفتاح العودة والانبعاث، والداعية الحق من يُحسن بث هذا النور.
- الروايات المؤثرة من السيرة أعظم وسيلة لترسيخ المفاهيم التربوية في النفوس، وهذا مشهد يُدرّس في الثبات والصدق.
- الدعوة إلى العقيدة لا تتم فقط بالكلام، بل بالمواقف الصادقة التي تُثبت المبادئ وتزرعها في قلوب الناظرين.
- زرع روح التضحية والرجولة في الناشئة لا يكون بالشعارات، بل بعرض النماذج العملية من سيرة الصحابة.

مخالفات الواقع للنص:

- ضعف اليقين عند بعض المسلمين اليوم يُظهره هلعهم عند الإشاعات، وارتباكهم إذا رأوا تصدعًا ظاهريًا في المؤسسات الدعوية أو القيادية.
- التعلق بالأشخاص دون المبادئ، فتجد من يُصيبه الانهيار إذا غاب قائد أو عالم، فيترك الطريق كله ولا يكمل المسير.
- الغفلة عن فقه الابتلاء، فالناس اليوم إذا نزلت المصيبة أصابتهم الفوضى والخذلان، لا الثبات والعمل.
- قلة التفاعل مع السيرة النبوية عمليًّا، فالسيرة عند الكثير تُقرأ للبركة لا للاقتداء، بينما مشهد أحد وحده كفيل أن يُربي جيلاً كاملاً.
- ضعف التواصي بالثبات في الفتن، فقلّ من يقول: "قوموا فموتوا على ما مات عليه"، بل ينتشر خطاب الإحباط والهروب من المسؤولية.
- عدم تقدير النعمة في بقاء العلماء والدعاة الصادقين أحياء بين الناس، ولو غاب أحدهم اضطربت النفوس ووقعت في القنوط، وكأن الدين انتهى بغياب شخص.

الفقرة العاشرة :لحظات من البطولة والوفاء... في قلب الجراح

كانت أرض أُحد تبكي دمًا، وتئن جراحًا، ودماء الصحابة تنزف من الوجوه والصدور، كما تنزف القلوب ألمًا على ما أصاب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لكن في خضم هذا المشهد الدامي، ارتفع نداء الوفاء، وتجلّت ملاحم البطولة... لم تكن كلماتٍ تُتلى، بل أرواحًا تُهدى، وأجسادًا تُرمى بين السهام، لتكون درعًا لحبيب الله ورسوله.

هناك... وقف **طلحة بن عبيد الله** رضي الله عنه، وقد جعل من جسده جدارًا يحجز السهام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شلّت يده، وانكسرت أصابعه، وتفتحت جراحه، لكنه لم يتراجع، ولم يتردد... فكان جزاؤه من فم النبي صلى الله عليه وسلم":**أوجب طلحة**"، أي: أوجب له الجنة، فما أعظمها من شهادة!

وفي جانب آخر... وقفت امرأة عظيمة في سجل الخلود:
أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها، في قلب الميدان، تتلقى الطعنات، وتضرب بالسيف، وتذود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنها جدار من الصبر والإيمان، وهي تردد بلسان العزم" :**دعني أقاتل دونك يا رسول الله"!**

وثبت **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه، يرمي السهام بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فخرجت من فم النبوة أعذب الكلمات، وأغلاها على القلوب:
"ارمِ فداك أبي وأمي"، وما قيلت هذه الكلمة لأحد قبله ولا بعده، إنها وسام لا يُمنح إلا في لحظات الصفاء الإيماني.

ويأتي **أبو دجانة** رضي الله عنه، في مشهد يقطر وفاءً، يُحني ظهره للنبي صلى الله عليه وسلم ، ليكون ترسًا حيًّا له، وتخترق السهام ظهره، حتى امتلأ كالقنفذ... لكنه لم يتحرك، لأنه يعلم من يحمي.

أولئك لم يكونوا يسألون: "هل ننتصر اليوم؟"
بل كان سؤالهم: "هل يسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو فنيت أجسادنا؟"

إنها **بطولة لا تصنعها الحماسة، بل العقيدة ...وفاء لا ينبع من الغضب، بل من الحب...**
حبٌّ صادق، وإيمان راسخ، وعهد لا ينكسر في وجه الموت.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- محبة النبي صلى الله عليه وسلم من صميم الإيمان، وهي من أوضح علامات صدق العقيدة، لا تكتمل العقيدة إلا إذا كان حب النبي مقدمًا على النفس والمال والأهل.
- ما فعله الصحابة في أحد هو ثمرة اليقين الجازم بأن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واجبة في كل حال، وحمايته من لوازم الإيمان به.
- ما نطق به النبي صلى الله عليه وسلم في حق طلحة وسعد وأمثالهم من وعد بالجنة، دليل على أن الشهادة للصحابي بالجنة لا تكون إلا بوحي، فلا يُتجاوز ذلك بآراء عقلية أو ادعاءات محدثة.
- المواقف العظيمة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تؤكد أنهم خير القرون، وأن محبتهم واتباعهم من أصول عقيدة أهل السنة، بخلاف من يطعن فيهم أو ينتقصهم.
- مباهاة النبي صلى الله عليه وسلم ببعض أصحابه والدعاء لهم وتزكيتهم علنًا كقوله: "ارمِ فداك أبي وأمي"، من دلائل نبوته، وهي فضائل يجب توقيرها والاعتراف بها كما جاءت، دون تأويل أو تضعيف.
- الاعتقاد بأن الله يصطفي من عباده أولياء وشهداء يثبت ببيان النبي صلى الله عليه وسلم لا بتوهمات المبتدعة وأحلامهم المنحرفة، ومن هؤلاء المصطفين طلحة وأم عمارة وغيرهم من أبطال أحد.

فوائد فقهية

- يجوز للمرأة أن تشارك في الجهاد إذا دعت الحاجة وكان معها من الرقيب والضوابط ما يحفظ عرضها ودينها، كما فعلت أم عمارة رضي الله عنها، وهذا خلاف ما يراه من ينكر مشاركة المرأة في أي نفع عام.
- من فقه الجهاد أن يُقدَّم حماية النبي صلى الله عليه وسلم وكل ما يمثّل الدين على حماية النفس، وهذا أصل في فقه الأولويات حال الفتن أو القتال.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أوجب طلحة" فيه جواز التبشير بالجنة لمن ظهر منه ما يدل على ذلك بنص من الوحي، وهو من خصائص النبوة.
- جواز التمني بالشهادة وطلبها في سبيل الله، ويُرجى لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا أن ينال الأجر حتى لو لم يُقتل.
- ما فعله سعد وأبو دجانة من تترس ودفاع يدل على جواز بذل النفس لتكون وقاية لغيره في مواطن الشدة، وهذا من فقه التضحية.

فوائد أخلاقية

- الوفاء الصادق يظهر في مواطن الشدة لا في لحظات الأمن، وقد تجلى في ميدان أحد بأبهى صوره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
- المحبة إذا خالطت القلب صدقًا ظهرت في الأفعال، لا في الأقوال فقط، كما فعل أبو دجانة حين جعل جسده ترسًا للنبي صلى الله عليه وسلم.
- البطولة الحقيقية ليست في القتال المجرد بل في تثبيت القلب على الحق حتى عند نزف الجراح، كما ظهر في صبر طلحة وثبات أم عمارة.

- التنافس في التضحية من أجل نصرة الدين يدل على نقاء السريرة وصفاء القلب، كما ظهر في تتابع الصحابة على الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- الاعتراف بالفضل لأهله خلق نبوي عظيم، تجلى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم لطلحة وسعد وغيرهم، وهو درس للناس أن يشكروا الفضلاء ويُقدّروا جهودهم.

فوائد تربوية ودعوية

- التربية على حب النبي صلى الله عليه وسلم أساس في بناء الأجيال، فإن قلوب الصحابة لم تكن لتحمل هذا العطاء لولا رسوخ هذا الحب فيها.
- عرض سير البطولات الإسلامية في المحاضن التربوية يبني في النفوس معاني الإيثار والصبر، لا سيما حين تكون النماذج من الصحابة والصحابيات.
- الدعوة إلى العقيدة تكون بالفعل قبل القول، وقد كانت دماء طلحة وأم عمارة وأبي دجانة أعظم موعظة تُبيّن معنى الإيمان الحقيقي.
- تثبيت القيم الإيمانية في الأوقات العصيبة يعكس عمق التربية النبوية في نفوس الصحابة، فهم لم يتزعزعوا مع الجراح.
- القائد المربي هو من يحوز قلوب أتباعه بالحب والعدل والقدوة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فاجتمع حوله الوفاء والبطولة.

مخالفات الواقع

- تفاهة القضايا التي تشغل كثيرًا من الشباب المسلم اليوم مقارنة بقضية حماية الدين ونصرته، فبينما سأل أولئك: "هل يسلم رسول الله؟"، يسأل هؤلاء عن سفاسف لا وزن لها.
- برود المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم في قلوب كثير من المسلمين، حتى صار يُهان في وسائل الإعلام، ولا يتحرك لهم جفن ولا قلب.
- انتشار القدوات الزائفة في المجتمعات المسلمة، بينما تُهمل السِيَر المضيئة لأبطال الإسلام كالصحابة والصحابيات، وهذا من الانحراف في التربية.
- تسلل مفاهيم النفعية والأنانية حتى في ميدان الدعوة والعمل الخيري، بينما الصحابة ضحوا بأجسادهم دون أن يسألوا عن نصيبهم.
- تهميش المرأة المسلمة الملتزمة بدينها وتاريخها، وكأنها لم يكن لها دور في بناء الأمة، خلاف ما كانت عليه أم عمارة في أحد من شرف وثبات.
- طمس روح الجهاد والتضحية الحقيقية من نفوس كثير من الناس، واستبدالها بشعارات حزبية أو خلافات دنيوية، لا علاقة لها بحماية الدين ولا بنصرة الشريعة.
- استغلال بعض الفرق المنحرفة مفاهيم التضحية والبطولة في غير مواضعها، فيجعلونها وسيلة لتأجيج الفتن والطعن في الحكام، وهذا انحراف عن سبيل المؤمنين.
- طعن بعض الفرق في الصحابة رضي الله عنهم، واتهامهم بالجبن أو النفاق، في الوقت الذي سجلت فيه مواقفهم ملاحم في البطولة والوفاء لم يشهد التاريخ مثلها.

الفقرة الحادية عشرة :حمزة... سيد الشهداء ومرارة التمثيل

في قلب المعركة، حيث تعالت الصيحات، وارتفعت السيوف تلمع في وهج الشمس، كان هناك رجل لا ككل الرجال... إنه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، يمضي في ساحة الوغى كأنما في يده سيفان لا سيف، يضرب في صفوف المشركين فيتشقق الجمع، ويتناثر الفزع في قلوب الأعداء.

لم يكن فارسًا عاديًّا، بل كان جيشًا يمشي على قدمين، تقول الشهادات الصادقة من ميادين القتال:
"ما رأيت أحدًا كان أثبت قدمًا، ولا أقتل في أعدائه من حمزة"!
كان يضرب غضبًا لله، لا لحظّ النفس، وكان يرى الموت بعين المحب للقاء ربه، لا يخشى الردى، ولا يلتفت للخلف.

وفي زاويةٍ بعيدة من الميدان، كانت هند بنت عتبة ترقب الساحة بعيونٍ يملؤها الحقد، وقد أحرقتها نار بدر، فقد قُتل أبوها وعمها وابنها في المعركة الماضية، وما زالت دماؤهم تتلظى في صدرها، تبحث عن ثأر يشفي غليلها، ويطفئ لهيب الحقد المتأجج.

أغرت وحشي بن حرب، غلامًا حبشيًّا ماهرًا في الرمي، فسلّمته أمنيتها بثمن :حرية وذهب، إن قتل حمزة.

اختبأ وحشي خلف صخرة، يترصّد خطوات الأسد، يتحيّن اللحظة، فمرّ حمزة، شامخًا، مقبلًا...
فانطلقت الحربة كأنها سهمُ غدرٍ أُطلق من صدر الظلام، فغرست أنيابها في خاصرته الطاهرة، وصرخ الأسد الجريح، واهتز الجبل، وسقط حمزة على الأرض، لكنه سقط شامخًا، ما ولّى، وما فرّ، سقط وهو يزأر بالشهادة.

اقترب وحشي، ثم انسحب من خلف الميدان، وترك الجسد الطاهر وحده...
وما لبثت أن جاءت هند، وقد تجردت من كل رحمة، فأعملت حقدها في جسد الشهيد، قطّعت كبده، ومزّقت أنفه وأذنيه، ومثّلت بجثمانه الشريف تمثيلًا ترجف له القلوب وتقشعر له الجلود.

لكنها ما علمت أن التمثيل بجسد سيد الشهداء لن يشفي جراحها، بل سيزيدها خسارًا، ولن يطفئ نارها، بل سيصليها لهيبًا من الخزي في الدنيا، والوعيد في الآخرة... فالله جل جلاله له في الأمر حكمة، ووراء كل مصابٍ ابتلاءٌ وتمحيصٌ وتمكين.

وحين بلغ الخبر قلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، انفطر فؤاده، ومشى بخطوات يثقلها الحزن، نحو جسد عمّه، فلما رأى المشهد خرّت دموعه الطاهرة، وقال بوجع لا يشبهه وجع" :لن أُصاب بمثلك أبدًا... ما وقفت موقفًا أغيظ لي من هذا". ثم كبّر عليه سبعين تكبيرة، ودفنه بدمه، وقال" :رأيتُ الملائكة تغسله في جنةٍ من جنان الله".
فأي كرامة أعظم من أن يُغسّل الشهيد لا بماء، بل بأيدي ملائكة الرحمن في دار النعيم؟!

وهكذا ارتقى حمزة رضي الله عنه من تراب أحد إلى رياض الجنان،

وكتب الله له وسامًا خالدًا لا ينازعه فيه أحد من شهداء الأرض:
"سيد الشهداء ..."رضي الله عنه وأرضاه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- محبة المؤمنين لربهم تجعلهم يقدمون على الموت في سبيله دون خوف، كما كان حمزة رضي الله عنه يُقبل على الشهادة محبة للقاء الله لا فرارًا من الدنيا.

- وقوع البلاء على الأخيار لا يعني هوانهم عند الله، بل هو امتحان وتمحيص ورفع درجات، كما ابتُلي حمزة بالقتل والتمثيل، وكان ذلك رفعة له في الآخرة.

- إكرام الله للشهداء بعد موتهم دليل على عظيم منزلتهم، كما غسّلته الملائكة في الجنة، فهذه كرامة ربانية لا تكون إلا لأهل الإيمان الخالص.

- الثبات على الحق في لحظة الموت من دلائل صدق الإيمان، فقد ثبت حمزة حتى سقط وهو يزأر بالشهادة، فلم يفرّ، ولم يتراجع.

- الشهادة في سبيل الله من أعظم ما يُرتجى في الدنيا والآخرة، وهي من علامات صدق العقيدة، وقد اختص الله بها حمزة حتى سُمّي "سيد الشهداء."

فوائد فقهية:

- يجوز دفن الشهيد بدمه دون تغسيل أو تكفين كامل، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بحمزة رضي الله عنه، وهذا من الأحكام الخاصة بالشهداء في المعارك.

- تكبير الإمام على الشهيد أكثر من مرة في صلاة الجنازة وارد، فقد كبر النبي صلى الله عليه وسلم على حمزة سبعين تكبيرة، مما يدل على جواز التكرار إن وُجد سبب يدعو إليه.

- لا يجوز التمثيل بالموتى في الإسلام، ولو كانوا من الأعداء، فالتمثيل من أفعال الجاهلية المحرّمة، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه بعد حادثة حمزة.

- الإخبار برؤية الملائكة لأحد الصالحين في الجنة لا يكون إلا بوحي أو قرينة نبوية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن حمزة: "رأيتُ الملائكة تغسله."

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الثأر والحقد إذا تمكنا من القلب أفسداه، كما حدث مع هند التي تجاوزت كل حدود الرحمة بتمثيلها بجسد حمزة، ولم تزد بذلك إلا خزيًا ونارًا داخليًا.

- الإخلاص في الجهاد يجعل صاحبه لا يضرب لحظ النفس أو الانتصار للذات، وإنما لله وحده، كما كان حمزة رضي الله عنه يضرب غضبًا لله لا لغيره.

- الوفاء للقرابة والدين معًا يظهر في الحزن العظيم للنبي صلى الله عليه وسلم على عمه، وهذا يدل على رقة قلبه، وكمال بشريته صلى الله عليه وسلم.

- لا يجوز أن تكون المصائب مدخلًا للقسوة، بل يجب أن يُردّ الأمر إلى حكمة الله وتمحيصه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وراء كل مصابٍ ابتلاءٌ وتمحيصٌ وتمكين.)

- الصبر على المصائب من صفات الأنبياء والصلحاء، فقد صبر النبي صلى الله عليه وسلم على فقد حمزة، رغم ما لاقاه من ألم ومشهد مفجع.

مخالفات الواقع المعاصر لهذا المشهد:

- كثير من الناس اليوم لا يرضون بقضاء الله في المصائب، فتراهم يجزعون ويتسخطون إذا مات لهم عزيز، بدلًا من التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم وصبره على فقد حمزة.

- انتشار الحقد والانتقام بين الناس في الخصومات، حتى صارت الأعراض تُنتهك، والأجساد تُشوّه معنويًّا في وسائل الإعلام والمجالس، كتمثيل هند بجسد حمزة، لكن بصورة حديثة ولسان سليط.

- غياب روح الجهاد الحقيقي عند بعض المسلمين، فصار يُتّخذ وسيلة لمكاسب سياسية أو حزبية، لا ابتغاء وجه الله، وهذا خلاف ما كان عليه حمزة من الإخلاص الكامل.

- تجرؤ بعض أصحاب الأفكار المنحرفة على تغذية الأحقاد والطعن في المجتمعات المسلمة وحكامها من خلال روايات ناقصة أو أحداث مؤلمة، كما تستغل بعض الفرق حادثة مقتل حمزة للطعن في السيرة بغير علم.

- الغفلة عن مقام الشهداء الحقيقي، إذ أصبحت كلمة "شهيد" تُطلق على من لا يستحقها شرعًا، بل صار يُسمّى بها المفسد، أو من مات في فتنة أو ظلم، كما تفعل بعض الفرق الضالة.

الفقرة الثانية عشرة :حين تكلّمت العقيدة... وصمت السلاح

انتهى صليل السيوف، وخفت هدير الخيول، ولكن حرارة المعركة لا تزال مشتعلة تحت التراب، ودماء الشهداء تفور كما البركان، وأرواح المؤمنين معلقة ما بين الصبر والتساؤل: ماذا بعد؟
هدأت الجراح، ولم يهدأ الأنين، وسكنت الأجساد، ولكن النفوس لم تهنأ بالسكينة، فعدوّ الأمس لا يُؤمن غدره، والقلوب ما زالت تترقّب هجمة مباغتة.

كان المشهد مربكًا... المدينة قريبة، وجراح المسلمين ما زالت نازفة، والأحزان تنوء بها الجبال، وقريش ترى في نفسها نصرًا لحظيًّا قد يدفعها إلى اجتياح المدينة.
لكن... شيئًا ما كان يمنعها، رهبة تسري في العروق، وتوجسٌ يسكن القلوب، فمن رأى ثبات محمدٍ صلى الله عليه وسلم في أحلك اللحظات، أيجرؤ على لقائه في عقر داره؟
من علم أن جيش الإيمان لم ينكسر رغم المصاب، أدرك أن المدينة ليست لقمة سائغة، وإن بدت كذلك.

عندها وقف أبو سفيان، يعلو صوته في وادٍ من الدم والجراح، ينادي في صفوف المسلمين بصوت الجاهلية:
"أفي القوم محمد؟ "فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لأصحابه: "لا تجيبوه"،
ثم صاح ثانية: "أفي القوم ابن أبي قحافة؟ "فقال: "لا تجيبوه"،
ثم صاح ثالثًا: "أفي القوم ابن الخطاب؟ "فقال: "لا تجيبوه."

فاستشعر أبو سفيان لحظة من الفرح، وظنّ أن القوم قد قُتلوا، فقال: "أما هؤلاء فقد كُفيتموهم"!
فلم يتمالك عمر نفسه، وقال: "كذبتَ يا عدو الله! إن الذين ذكرتهم لأحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوءك"!
فقال أبو سفيان: "يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجال"
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار."

ثم أراد أن يرفع راية الشرك، وينتشي بصوت الأصنام فقال: "أعلُ هبل! فقال النبي صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا وما نقول يا رسول الله قال قولوا الله اعلى واجل

فقال أبو سفيان لنا العُزّى ولا عُزّى لكم "فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا تجيبونه؟"
قالوا: "وما نقول يا رسول الله؟ "قال: "قولوا: الله أعلى وأجل"،
قالوا: "الله أعلى وأجل."

فخرّت راية الوثنية في التراب، وارتفع صوت التوحيد من بين الجراح، وانتصر العقيدة حين تكلمت، وانزوى الباطل حين تعرّى.

سار جيش قريش بعد ذلك، متراجعًا نحو مكة، تجره أذيال الكبرياء، والشك يتآكل روحه. ولكن في الطريق، علت فيهم نغمة شيطانية أخرى:
"ما صنعنا شيئًا... قتلناهم حتى إذا لم يبقَ منهم إلا الشريد، تركناهم؟! ارجعوا فاستأصلوهم"!
ولكن... من يستطيع أن يكرّ وقد قذف الله الرعب في قلبه؟
من يرجع وقد كفّ الله يده عن أوليائه؟ قال تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤.[فرجعوا إلى مكة يخفون في صدورهم رجفة الفشل، وإن علت على ألسنتهم صيحات الزهو،
ورجع المسلمون إلى المدينة، وقد أثخنهم الجراح، ولكن لم تنكسر لهم راية، فقد سطّروا في أحد صفحة من نور، فيها معنى آخر للنصر...
نصر الإيمان والثبات، نصر الكلمة والتوحيد، نصر العزة التي لا تنحني، وإن ظنّ الناس أنها هُزمت.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- النصر الحقيقي عند أهل الإيمان لا يُقاس بكثرة القتلى ولا بعدد الغنائم، بل بثبات العقيدة وعلو راية التوحيد، كما ظهر في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد أحد.
- من عقيدة أهل السنة أن الشهادة في سبيل الله منزلة عظيمة، لكن الأهم منها هو سلامة العقيدة، إذ كان اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالرد على كلمات الشرك أكثر من الرد على الجراح.
- في قوله صلى الله عليه وسلم: "قولوا: الله أعلى وأجل"، دلالة على وجوب تعظيم الله وحده، والرد على كل صور الشرك، وعدم التهاون مع مظاهر الوثنية، حتى ولو كانت في كلمات.
- من أصول الإيمان أن الخلود في الجنة أو النار يتبع المعتقد، لا النسب ولا الموقع في الدنيا، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار."
- ثبات العقيدة أعظم سلاحٍ في وجه العدو، ولهذا لما رأى أبو سفيان ثبات المؤمنين رغم الجراح، تراجع عن الهجوم، ووقع الرعب في قلبه.
- الرعب الذي قذفه الله في قلوب المشركين سبب من أسباب نصر المؤمنين، وهو من دلائل تأييد الله لعباده الموحدين.
- رفع راية التوحيد هو جوهر دعوة الأنبياء، ولا ينبغي أن تضعف مهما اشتدت الجراح، لأن الكلمة أعظم من السيف إن كانت على الحق.
- في صمت النبي صلى الله عليه وسلم بداية، ثم رده بعد ذلك، تعليمٌ لنا أن العقيدة تُواجه بالحكمة في التوقيت، وليس بالتهور والانفعال.

فوائد فقهية:

- جواز كتمان الوجود في حال الحرب لأجل المصلحة، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ألا يجيبوا أبا سفيان.
- الرد على ألفاظ الشرك والباطل واجبٌ شرعي إذا أُعلن الباطل جهرًا، ويجب أن يكون الرد واضحًا ومجلجلًا كما علّم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه.

- لا يجوز ترك الباطل يعلو بين الناس بلا رد، خاصة إذا كان في صورة شعارات شركية، لأن في ذلك تمييعًا للتوحيد.
- تعلّم الصحابة من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم الردود العقائدية الثابتة، مما يدل على مشروعية تلقين الناس العبارات الشرعية للرد على الباطل.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- تعليم الصحابة السكوت عند المصلحة، وعدم الاستجابة لاستفزاز العدو، خلق من أخلاق القيادة النبوية التي تُربّي على الحكمة وضبط النفس.
- في صبر المسلمين رغم الجراح، نموذج للتربية على الإيمان بالقدر، وأن التضحيات لا تضيع ما دام التوحيد قائمًا.
- الردود على الباطل لم تكن سبًّا أو انفعالًا، بل كانت كلمات توحيدية راقية، مما يعلمنا كيف يكون الجدال بالحكمة.
- في رجوع جيش قريش دون تحقيق هدفه، تأديب للمسلمين في عدم اليأس حتى مع الألم، فالثبات يُخيف العدو أكثر من الصراخ.

فوائد واقعية دعوية:

- حال كثير من المسلمين اليوم يدل على أنهم فقدوا وعيهم العقدي، فتراهم يردّدون شعارات فيها ألفاظ شركية دون وعي، ولا يميزون بين كلمة التوحيد وكلمة الوثنية.
- في واقعنا من يُهزم في معركةٍ دنيوية، فينهار إيمانه، ويترك ثوابت الدين، بينما الصحابة ثبتوا رغم الجراح، وهذا يُظهر الفرق بين أهل العقيدة وأهل الهوى.
- بعض المسلمين اليوم إذا سُبّ الله أو النبي صلى الله عليه وسلم لم يغضبوا، بينما يغضبون إذا سُبّ ناديهم أو زعيمهم، وهذا قلبٌ للموازين، وانحراف في الولاء.
- ترى بعض الفرق المنحرفة اليوم تزعم أنها تدافع عن الإسلام، وهي تسعى لتقويض بلاد المسلمين من الداخل، وتُعين العدو تحت شعار "الحرب سجال" أو "الرد بالمثل"، بينما النبي صلى الله عليه وسلم كان يثبت التوحيد لا الانتقام.

مخالفات الواقع:

- سكوت بعض المسلمين عن المنكرات العَقَدية والشركيات العلنية في الإعلام أو الحياة العامة بحجة المجاملة أو التعايش، مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في الرد على "أعلُ هبل" و"لنا العزى."
- الانشغال بالمعارك الجانبية والتعصب لرايات دنيوية، بينما راية العقيدة والتوحيد في قاع الاهتمام، وهذا عكس ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في أحد.
- الاستهانة بألفاظ الشرك المنتشرة في الأغاني والمناسبات الدنيوية، في الوقت الذي حرص فيه النبي صلى الله عليه وسلم على إبطال مجرد شعار "أعلُ هبل."
- تصدر جماعات حزبية منحرفة تزعم أنها حاملة لراية الإسلام، بينما هي في حقيقتها فرَقٌ تفرق الأمة، وتُعادي عقيدة أهل السنة، وتُشوّه صورة الدين في الداخل والخارج.
- افتتان البعض بالمظاهر الفارغة و"الصيحات" الزائفة التي لا قيمة لها، في الوقت الذي يُهمل فيه العلم الشرعي والتوحيد الذي رفع الله به الصحابة رغم الجراح.

الفقرة الثالثة عشرة وداع الشهداء ودفن العظماء... قبور على سفح أُحد

عند سفح جبل أُحد، حيث تعانق الأرض دماء الأطهار، وتوشّحت الصخور بحمرة الفداء، وقف النبي صلى الله عليه وسلم، القلب يضطرب من الحزن، والعين تكاد تنهمر كالغيث، يتأمل في صمت مهيب مشهدًا تقشعر له الأرواح، وتبكي له السماوات. أجساد الصحب الأخيار مبعثرة بين ثنايا الثرى، وجوههم مقلوبة إلى غير القبلة لا عن نقصٍ في إيمانهم، ولكن لأن السيوف والمثالب قد فعلت بهم ما يفوق التصور، ورغم ذلك، فهم عند الله أعظم مقامًا، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلّ منزلة.

أطراف مبتورة، وجراح نازفة، ودماء تسيل كأنها عطر الشهادة... لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى في هذا كله عطر الخلود، ووسام الكرامة، وبشارة الجنة.

لم يرضَ أن يُنقلوا بعيدًا عن ميدان استشهادهم، بل أمر أن يُدفنوا حيث سقطوا، في نفس الأرض التي ارتوت من دمائهم الطاهرة، لتظل تلك البقعة شاهدة على بلائهم، ودالة على ثباتهم، ومنارة للثوار على درب الصدق إلى يوم الدين.

أمر صلى الله عليه وسلم ألا يُغسلوا، ولا يُكفّنوا إلا بثيابهم المضرّجة، فما حاجتهم إلى غسلٍ وقد طهّرتهم الشهادة؟ وما قيمة الأكفان وقد اكتست أرواحهم بأثواب الخلود؟! قال صلى الله عليه وسلم:
"زملوهم بدمائهم، فإنه ليس جرح يُجرح في الله إلا يأتي يوم القيامة يدمى، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك – "رواه النسائي وصححه الألباني.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، ويقدّم من كان أكثرهم حفظًا لكتاب الله، وكأن القرآن العظيم يكرم أصحابه حتى وهم في رحلتهم إلى الآخرة. روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقال:
"كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أُشير إلى أحدهما قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء – "رواه البخاري.

ثم توجه صلى الله عليه وسلم بقلبٍ مكلومٍ إلى أعظم شهداء اليوم، إلى أسد الله وأسد رسوله، إلى عمّه حمزة بن عبد المطلب، الذي مزّقته قريش شرّ تمزيق، فلم يتمالك النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وبكى بكاءً لم يُرَ مثله من قبل، وكبّره عليه سبعين مرة، إجلالًا له، واعترافًا بفضله، وعرفانًا بما قدم.

رأى الصحابة ذلك الحزن، فعلموا أن حمزة ليس مجرد عم، بل هو رفيق درب، ونصير رسالة، وسيد شهداء الله في الأرض. وقد جاء في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عنه" :رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض – " ذكره ابن كثير في "البداية والنهاية."

وهكذا، دُفن الشهداء في حضن جبل أُحد، قريبًا من السماء التي تفتحت لهم أبوابها، بعيدًا عن صخب الدنيا، حيث لا ضجيج ولا خيانة، بل سكون تعطره دماء الإخلاص، وثرى يفوح منه عبق الجنة. بقيت أجسادهم في الأرض، لكن أرواحهم في عليين، وخلّدت الأرض أسماءهم كما خلد التاريخ آثارهم، وبقي جبل أُحد شاهداً لا ينسى، يردد للزمن :هنا مرّ الأطهار، هنا سجد الدم، وهنا بكت السماء.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الشهادة في سبيل الله منزلة عظيمة عند الله، يختص بها من ارتضاهم، وتكون سببًا لعلو درجاتهم في الآخرة، لقوله صلى الله عليه وسلم: "أنا شهيد على هؤلاء."

- إكرام الله للشهداء بعد موتهم من دلائل عدله ورحمته، فقد اختصهم بكرامات كعدم الغسل والتكفين بثيابهم، وإبقاء آثار جراحهم ليوم القيامة، وهو من علامات القبول والرضا الإلهي.

- اعتقاد أهل السنة أن للشهداء حياة برزخية خاصة تليق بكرامتهم، وأن أرواحهم في الجنة، وهذا من الغيب الذي ثبت بالنصوص الصحيحة، فلا يجوز تأويله أو إنكاره كما تفعل الفرق الكلامية المنحرفة.

- التوسل بالشهداء أو التبرك بقبورهم شرك محدث، يخالف التوحيد الذي جاءت به النصوص، وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم الشهداء حُبًا ووفاءً، لا عبادةً واستغاثةً، وهذا فرق جوهري يجب التنبه له في العقيدة.

- تقديم صاحب القرآن في القبر دلالة على أن حفظ كلام الله عز وجل يرفع صاحبه في الحياة وبعد الممات، وهذا من تعظيم الله لأهله، ويجب اعتقاده دون غلو أو بدع، كما تفعل بعض الفرق الغالية في أهل القرآن.

فوائد فقهية:

- من السنّة أن يُدفن الشهيد في مكان استشهاده، ولا يُنقل إلى مكان آخر، لما في ذلك من الإبقاء على أثر الجهاد ومكان التضحيات.

- الشهيد لا يُغسل ولا يُكفّن كغيره، بل يُدفن بثيابه المضرجة بالدم، وهذا تشريع خاص بهم، ولا يجوز القياس عليه في غيرهم.

- يجوز دفن أكثر من شهيد في قبر واحد عند الحاجة، مع مراعاة تقديم الأفضل والأعلم، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بترتيب أهل القرآن في اللحد.

- تكبير النبي صلى الله عليه وسلم على الشهيد حمزة سبعين مرة فيه جواز التكرار في التكبير على الميت عند وجود موجب شرعي لذلك، ويُفهم منه مرونة عدد التكبيرات في بعض الأحوال الخاصة.

- لا يُشرع تخصيص القبور بالبناء أو القباب أو المزايا التذكارية، كما هو شائع في زمننا، بل الدفن الشرعي كان في الأرض دون علامات عظيمة، وهذا منهج السلف.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- الوفاء لمن ضحّى للإسلام خُلق نبوي عظيم، تجلى في بكاء النبي صلى الله عليه وسلم على حمزة، وتكبيره عليه، وهو دعوة لكل مسلم للوفاء لأهل الفضل.

- عاطفة النبي صلى الله عليه وسلم وحزنه الشديد على الشهداء دليل على أن القلب الرحيم لا يناقض الإيمان، بل هو سمة من سمات الرجولة المؤمنة.

- إعطاء كل ذي حق حقه حتى بعد الموت خلق رفيع، فقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم صاحب القرآن في القبر؛ لأن الفضل لا يُنسى ولو بعد الممات.

- البذل في سبيل الله منتهى الإخلاص، وقد جسده الشهداء بأجسادهم الممزقة، وهذه التربية تزرع في القلوب معاني الفداء والصدق مع الله.

- دم الشهداء ريح مسك في الآخرة، وهو رمز لطهارة القصد ونقاء السريرة، فكل تضحية صادقة لها أثرها المحمود عند الله.

مخالفات الواقع لهذا المشهد:

- كثير من المسلمين اليوم يعظمون قبور الشهداء والأولياء بالبناء والطواف والدعاء عندها، وهذا من وسائل الشرك التي نهى عنها الشرع، وهو انحراف عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع قبور الشهداء.

- بعض الجماعات المنحرفة اليوم ترفع شعار "الشهادة" لتبرير أعمال تخريبية وقتل للمسلمين وزعزعة الأمن، وهذا من التلبيس على الناس، وليس من الجهاد في شيء، بل هو من الفتن.

- غاب عن الأمة اليوم تكريم الحافظين لكتاب الله وتقديمهم، حتى صاروا في آخر الصفوف، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قدّمهم في القبر، فما بال الأحياء يُهملون؟

- قلّ الوفاء في زماننا لمن ضحّوا من أجل الدين، فتنكّر الناس لتضحيات السابقين، وقلّ من يذكر فضلهم، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمهم حتى بعد موتهم.

- كثر التشنيع اليوم على أحكام الشريعة المتعلقة بالشهيد، من بعض أهل الأهواء، بزعم مخالفتها "الحقوق الإنسان"، وتغافلوا عن أن هذه الأحكام من تشريعات الرحمن.

- أصبحت أجساد الشهداء تُعرض أحيانًا في الإعلام لأغراض سياسية أو حزبية، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتكريمهم بالدفن السريع والستر والدفن بثيابهم، لا باستعراض جراحهم على الملأ.

الفقرة الرابعة عشرة :عبد الله بن حرام... الشهيد الذي ناداه الله بلا واسطة

في صفحات المجد النبوي، تتلألأ أسماء، وتسطع أرواح، لكنها لا تضيء كما يضيء اسم عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة، الأنصاري السلمي، أبو جابر، أحد النقباء الأفذاذ، من أوائل من صافحوا يد النبوة تحت ظلال العقبة، حين بزغ فجر الدعوة في مكة، وانتشر نوره على أرض المدينة. كان من سادات بني سلمة، ورؤوس الأشهاد في بيعة العقبة الثانية، حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقلوبهم قبل ألسنتهم: "دماؤنا دون دمك، وأعراضنا دون عرضك، وما نملك دونك يا رسول الله."

كان عبد الله بن حرام ممن تنفست فيهم روح الإيمان حتى امتلأت شرايينهم ثباتًا وصدقًا، وقد أورث ولده جابر هذا الصفاء النبوي، إذ لم يُعرف أحد من الصحابة أكثر ملازمة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أبيه مثل جابر.

قبيل معركة أحد... حديث الوداع

فلما دنت ساعة المواجهة في أُحد، وسرت أنفاس الجهاد في طرقات المدينة، كان عبد الله أول المستجيبين، ولم يكن خروجه مجرد حماسة مقاتل، بل كان يقينًا محضًا من رجلٍ شمّ رائحة الشهادة، وتاقت روحه للخلود الأبدي. قبيل الفجر، توجه إلى ابنه جابر، ونظر إليه بعين الأب المحب والعبد الموقن، وقال كلمات تحفر في القلب كما يُحفر نقش الذهب في الحجر:

"يا جابر، إني لا أرى نفسي إلا مقتولًا في هذا اليوم، وإني والله لا أُخلّف بعدي أحدًا أحبّ إليّ منك، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فاقضِ عني ديني، واستوصِ بأخواتك خيرًا".

ما أرقّ تلك الوصية! إنها كلمات وداع من عبدٍ يعلم أن الدنيا سحابة عابرة، وأن اللقاء الحقيقي هناك، تحت ظل العرش، حيث لا دين يُقضى، ولا بنات يُراعين، بل حيث الأمن التام في جوار الكريم.

يوم الشهادة... ومثوى الأصدقاء

وفي يوم أُحد، قاتل عبد الله قتال الأبطال، وثبت حين اضطربت الأقدام، ورأى النصر في الدم، لا في العدد. ومضى يقاتل حتى سال دمه على الأرض الزكية، وتكاثر عليه المشركون، وكان ممن اشترك في قتله سفيان بن عبد شمس، فمزّقوه ومثّلوا به، كما مثّلوا بغيره من شهداء أُحد، في صورة دامية أبكت النبي صلى الله عليه وسلم، وأبكت السماء من فوقه.

وحين هدأت المعركة، جمع النبي صلى الله عليه وسلم جثامين الأطهار، وأمر أن يُدفن عبد الله في قبرٍ واحد مع صديقه ورفيق دربه عمرو بن الجموح، الذي كان أعرجًا، فتمنّى الشهادة، ومشى برجله المريضة إلى الجنة، فقيل له يوم القيامة – كما في الحديث" :– قم يا عمرو، فامشِ، فقد صحّت لك الجنة".

دُفنا معًا كما عاشا معًا، في قبرٍ واحد، أراده النبي صلى الله عليه وسلم رمزًا للوفاء، ورسالة للصحبة الصالحة التي لا يقطعها الموت.

كرامة السماء... وحديث بلا حجاب

وجاءت أعظم الكرامات، ورفع الله الغطاء عن المشهد، فأوحى إلى نبيّه ما يفيض بالعزاء، ويملأ القلب يقينًا. جلس جابر بن عبد الله بعد الغزوة حزينًا مكلومًا، فقد فقد أباه وسنده، فربّت النبي صلى الله عليه وسلم على كتفه، وقال له بصوتٍ يملؤه اللطف والأنس:

"يا جابر، ألا أخبرك ما صنع الله بأبيك؟ "قال: "بلى يا رسول الله".
قال: "إن الله لم يُكلّم أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كفاحًا – أي مواجهةً بلا واسطة – فقال له: يا عبدي، تمنّ عليّ أُعطك ".قال: "يا رب، تُحييني فأُقتل فيك مرة أخرى ".قال: "إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون".
قال: "يا رب، فأبلغ من ورائي ".فأنزل الله عز وجل قوله :﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩.]

يا الله! أي كرامة هذه؟! عبدٌ يُنادى من فوق سبع سماوات، يُطلب إليه أن يتمنّى، فيتمنى الشهادة مرة بعد مرة، لأنه ذاق حلاوتها، ووجد فيها ما لم يجده في حياةٍ بأسرها.

خلود الذكر... وعلو المقام

هكذا خُلد اسم عبد الله بن حرام، ليس فقط في كتب السيرة، بل في كتاب الله، وفي سجلات الخالدين عند ربهم، فهو ممن كُتب لهم أن تُروى قصتهم على منابر الجمعة، وتُحكى للأجيال، وتُقرأ كلما تليت آية الشهداء.

هو عبد الله بن حرام... سطرٌ خالد في دفتر الخلود، رجلٌ باع الدنيا فاشترى الرضا، فكان ممن قال فيهم الله:

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إثبات محبة الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم محبة تفوق النفس والمال والولد، كما ظهر في بيعة العقبة: (دماؤنا دون دمك...). وهذه المحبة أصل في الإيمان، وهي علامة صدق الصحبة والطاعة.

- الإيمان بالكرامة الربانية التي يهبها الله لعباده الصالحين، كما حصل لعبد الله بن حرام، فإن الله كلّمه بلا واسطة، وهذه كرامة عظيمة تدل على علو منزلته.

- إثبات أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، كما دلت عليه الآية الكريمة، وهذا من عقيدة أهل السنة في حياة البرزخ، وأن الشهداء لهم خصوصية فيها.

- الإيمان بأن الله تعالى يختار من عباده من يشاء للشهادة، وأن ذلك اختيار إلهي يدل على محبة الله للعبد، إذ اصطفاه لخاتمة عظيمة.

- إثبات صفة الكلام لله عز وجل، كما في الحديث: (كلّمه كفاحًا)، وهذا على ما يليق بجلاله، من غير تحريف ولا تعطيل، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

- الإيمان بأن ما يجري في الغيب من الكرامات والوحي واللقاء في البرزخ هو حق ثابت، ومن أنكره أو أولّه فقد خالف صريح الوحي.

- الإيمان بأن الله عز وجل هو الذي يرزق الشهداء بعد موتهم، وأن الرزق لا ينقطع عنهم، وهذه خصوصية عظيمة لمن مات في سبيل الله.

- إثبات أن الله عز وجل يُنزل الآيات مواساة لعباده، كما نزلت آية الشهداء بعد حديث جابر رضي الله عنه، وهذا من رحمة الله وحكمته.

فوائد فقهية:

- من الفقه في القتال في سبيل الله، أن نية الشهيد الصادقة ترفع منزلته، كما قال عبد الله بن حرام: (لا أرى نفسي إلا مقتولًا...)، وهذه النية أعظم من مجرد خوض المعركة.

- من الفقه في الوصية: مشروعية الوصية بالديون والذرية عند قرب الموت، كما فعل عبد الله مع ابنه جابر، وفي ذلك تأسٍ واتباع.

- من فقه الجنائز: جواز دفن الرجلين في قبرٍ واحد عند الحاجة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في شهداء أُحد، وخصّ عبد الله وعمرو بذلك لمكانة الصحبة بينهما.

- من فقه الشهادة: أن الشهداء لا يُغسلون ويدفنون بدمائهم ولا يُصلّى عليهم في بعض أحوال القتال، وقد ورد في أُحد ما يدل على تعجيل الدفن وعدم التغسيل، وهو من خصوصياتهم.

- من فقه الإيمان بالقضاء والقدر: أن الشهادة لا تمنع من تنظيم الأمور الدنيوية، فقد أوصى عبد الله بسداد دينه، وهذا فقه في ترتيب الواجبات حتى مع إحساسه بقرب الأجل.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- أن من علامات صدق الإيمان تقديم النبي صلى الله عليه وسلم على النفس والولد، كما في وصية عبد الله: (لا أحد أحب إلي منك إلا رسول الله)، وهذا تربية إيمانية عالية.

- مشهد وفاء النبي صلى الله عليه وسلم بجابر، ومواساته له بلطف، فيه تعليم لنا أن نرعى مشاعر المصابين، ونمسح دموعهم لا بألفاظ جافة، بل بكلمات تحمل معاني الآخرة.

- في دفن الصاحبين معًا وفاءً لصحبتهما في الدنيا درسٌ عظيم في صدق الأخوة، وأن الصحبة الصالحة لا تقطعها الممات، بل يُبعث المرء مع من أحب.

- في تمثيل المشركين بجثث الشهداء صورة من صور الوحشية الجاهلية، وفي صبر الصحابة على ذلك رفعة أخلاقية في عدم الانحدار للرد بالمثل.

- في اختيار عبد الله للشهادة رغم علمه بالحاجة إليه، درس في التضحية بالنفس في سبيل الله دون أن يتعلّق القلب بالدنيا، وإن كانت له فيها مسؤوليات.

فوائد دعوية وإيمانية:

- القصص المؤثرة مثل قصة عبد الله بن حرام طريقٌ فعّال لتثبيت القلوب على طاعة الله، وربط القلوب بحقائق الإيمان دون تنظير جافّ.

- في إعلان بيعة العقبة وتلك الكلمات العظيمة (دماؤنا دون دمك...) تذكير لأهل الدعوة أن طريق النصر يبدأ بالصدق، وليس بكثرة العدد ولا الصوت العالي.

- الإيمان الحقيقي يورَث، كما في علاقة عبد الله بابنه جابر، فقد تربى في بيت من بيوت الصدق والثبات، وهذا يحمّل الآباء مسؤولية عظيمة في غرس الإيمان في نفوس الأبناء.

- الحديث عن الكرامة واللقاء بلا واسطة دعوة لليقين والتسليم لعظمة ما أعده الله لعباده، وإحياء للرجاء في النفوس أن العمل الصالح لا يضيع.

مخالفات الواقع المعاصر:

- ترك بعض الآباء لأولادهم بلا وصايا واضحة ولا توجيه قبل الموت، وقد تُترك الديون معلّقة، ولا يُراعى حال البنات أو الزوجة، مما يؤدي إلى ضياع الحقوق.

- ضعف اليقين في الجنة والشهادة، فقلّ من يتمنى الموت في سبيل الله، بل غلب حب الحياة والركون إلى الراحة والترف على كثير من الناس.

- خفوت صوت الوفاء في العلاقات، فأصبح الصديق يُنسى بعد موته، بل تُنسى حتى حقوقه، بينما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بدفن عبد الله مع صاحبه وفاءً لصحبتهما.

- غياب القدوة الصالحة في كثير من البيوت، فلا يرى الابن من أبيه صلاة ولا خلقًا ولا إيمانًا، بل قد يرى التناقض، مما يورثه ضياعًا فكريًا وسلوكيًا.

- الغفلة عن الحديث عن الشهداء وسير الصالحين على المنابر، واستبدالها بكلام جافّ لا يُحيي القلوب، رغم أن سيرهم قرآنٌ يُتلى على الأحياء.

- جهل بعض المنتسبين إلى الإسلام بعقيدة أهل السنة في الشهداء، فيقعون في إنكار حياة البرزخ أو التأويل الباطل للكرامات، وهم من بقايا الفرق الكلامية القديمة الذين فرّقوا الدين وجعلوه شيعًا.

♦جرأة بعض من تربّوا على الفكر المنحرف في استغلال مثل هذه القصص للطعن في واقع الأمة وأئمتها، وادعاء أن البطولة الحقيقية غائبة، وهم بذلك يُثبطون ويُضلّلون الناس.

الفقرة الخامسة عشر : عودة الجراح إلى المدينة... أنينٌ يمشي على الأرض وصداه في السماء

لم تكن عودته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة عودة الفاتحين الذين يُستقبلون بالزغاريد والتكبيرات، ولا انسحابًا للمنهزمين الذين أثقلت ظهورهم الهزيمة... بل كانت عودة *الطاهر المجروح*، الذي قد نزف بدنه، وانكسر سِنه، وشُج وجهه، لكنه عاد وفي قلبه يقين لا تزلزله المصائب، وفي عينيه دمعة لم تسقط ولكنها أوشكت، وفي خطواته أنينٌ يسمعه كل من عرف معنى الفقد، وكل من ذاق طعم الألم.

عاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة الطاهرة، لا يجرّ قدميه فقط، بل يجرّ خلفه قلوبًا مفجوعة، وصدورًا تئن، وعيونًا تبحث عن الأحبة فلا تراهم.

وما بين وجع الجراح على جسده الشريف، وألم الفقد الذي خطف خيرة الرجال، كان صلى الله عليه وسلم يواسي القلوب المنكسرة، ويضمد الجراح النازفة، حتى وهو ينزف.

لقد كُسرت رباعيته، وشُج وجهه، وسال دمه الطاهر، حتى روي أن مالك بن سنان كان يَمص الدم من وجهه الشريف ثم لا يتفلُه، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: «مَجّه»، فيقول: "والله لا أمجّه أبدًا"، فيقول صلى الله عليه وسلم: «من مسّ دمه دمي لم تصبه النار» – رواه الحاكم وصححه، وذكره ابن كثير في السيرة.
لكن رغم كل ذلك، ما انحنى ظهره صلى الله عليه وسلم، وما ضعفت ثقته بربه طرفة عين، بل أشرق وجهه المضيء في ظلمات المحنة، كقنديل إيمان لا تنطفئ شعلته مهما تعاظمت العواصف.

دخل المدينة، والمدينة كلها واقفة عند الأبواب، نساءً يترقبن، أمهاتٍ خنقتهن العبرة، زوجاتٍ تُخبئ قلوبهن تحت العباءات، وكل واحدة تلهج بالسؤال: من نجا؟ من عاد؟ من فُقد؟
وكان صلى الله عليه وسلم يجيبهن، صابرًا محتسبًا، حتى إذا قيل لإحداهن: "استُشهد أبوك"، سألت: "ما فعل رسول الله؟"، فيقال: "بخير"، فتقول والكبد تنزف: "كل مصيبة بعدك تهون يا رسول الله ."رواه ابن إسحاق بسند حسن، وذكره ابن سعد في *الطبقات الكبرى*،

فتأمل هذا الحب، وتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عندهن أعز من النفس والأهل والولد!

لم تكن المدينة يومها تضحك، بل كانت تبكي... لكنّه لم يكن بكاء جزعٍ وانهزام، بل بكاء الموقنين بلقاء، والراجين لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، حيث يلتقون هناك عند الحوض، *ويشربون من يديه الشريفتين شربة لا يظمأون بعدها أبدًا*.

وفي غمرة الأحزان، يعلّم النبي صلى الله عليه وسلم أمّته كيف تكون العزة في الحزن، وكيف يكون الانضباط في الفجيعة، فينهى عن النياحة، ويقول»:ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» – متفق عليه.

وهكذا، لم تكن الهزيمة يوم أحد إلا دربًا من دروب التربية الإلهية، ومختبرًا لصبر أهل الإيمان، فدخلت المدينة طورًا جديدًا من الوعي، وصارت الأحزان سلّمًا يرتقون به نحو الجنة، وصاروا إذا بكوا، بكوا بأعين دامعة، وقلوب ثابتة، ووجوهٍ مشرقة برجاء اللقاء.

فيا لها من عودة... لم تكن فيها الزغاريد، ولكن كانت فيها العبرات النبيلة، ولم تكن فيها الأناشيد، ولكن فيها الأسماء العظيمة: حمزة، ومصعب، وأنس بن النضر...
أرواحٌ عادت إلى ربها راضية مرضية، وقلوبٌ بقيت خلفها تمشي على الجراح، ولكنها تمشي في طريق الجنة، خلف إمامها ومعلمها صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بأن الله يبتلي أحبّ خلقه بالمحن، كما ابتُلي النبي صلى الله عليه وسلم بجراح الجسد وفقد الأحبة، ليُعلّم أمته أن البلاء لا يتعارض مع علو المنزلة عند الله، بل هو من علامات المحبة الإلهية.

- إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر يتألّم ويفقد، لكنه موقن بربه، وهذا من لوازم الإيمان بنبوته، وأن مقامه لا يُنكر فيه البشريّة، بل يُفهم في ضوء العصمة والتكليف والاصطفاء.

- بيان كرامة دم النبي صلى الله عليه وسلم، إذ من مسّ دمه الطاهر بحق، نال كرامة النجاة من النار، وهذا من خصائصه التي لا تثبت لأحدٍ من البشر.

- محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم كانت أعظم من محبتهم لأنفسهم وأهليهم، كما قالت المرأة التي فقدت أباها: (كل مصيبة بعدك تهون يا رسول الله)، وهذا أصل في عقيدة أهل السنة، ويُخالفه من غلّف قلبه بشبهات الفرق الذين يطعنون في الصحابة أو يُقللون من شأنهم.

- الإيمان بأن المصائب مهما عظمت تهون إذا قُرنت بالإيمان، وأن الدنيا ليست دار قرار، بل هي مرحلة تمحيص وابتلاء يعلو فيها أهل الإيمان، وهذا من عقيدة أهل السنة في الصبر والرضا بالقدر.

- الإيمان بلقاء النبي صلى الله عليه وسلم في الآخرة، والشرب من حوضه الشريف، وهذا جزء من عقيدة أهل السنة في الإيمان بالحوض يوم القيامة، ويكذبه أهل البدع المتأثرون بعقائد الفرق التي عطّلت أحاديث الآخرة.

فوائد فقهية:

- النهي الصريح عن مظاهر النياحة والجزع عند المصيبة، كشق الجيوب ولطم الخدود، واعتبار ذلك من أفعال الجاهلية، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا...»، وهذا تحذير فقهي واضح من المحرمات في أحوال الحزن.

- من السنة ضبط الحزن والانضباط في الفجيعة، فلا يُمنع البكاء الطبيعي، لكن يُنهى عن كل ما فيه اعتراض أو تسخّط على قضاء الله.

- جواز مواساة المصابين بالكلمات الطيبة وبث الأمل، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل المدينة، وهو من السنن المهجورة اليوم في الجنائز، حيث قد تغيب الكلمة الرقيقة والمواساة المؤمنة.

- إثبات أن الذكرى في المصائب – كذكر الشهداء – سنة تربوية، تغرس الثبات في النفوس وتعين على الصبر، وهذا يُستنبط من ذكر أسماء الشهداء في المدينة حين رجع النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في المحنة أعظم درس في الصبر، إذ عاد مجروحًا، لكنه ضمّد جراح الآخرين، وهذه قمة الأخلاق القيادية والنفس العظيمة.

- في مشهد النساء عند أبواب المدينة درس تربوي في قوة المرأة المؤمنة، حيث لا تسأل أولًا عن مصابها، بل عن حال نبيها، وهذا يعلّمنا كيف تكون الأولويات عند الشدائد.

- في رد النبي صلى الله عليه وسلم على المتألمين بحنان وصبر، تربية نبوية على حسن الخطاب ومراعاة المشاعر حتى في أقسى الظروف، بخلاف الجفاف الذي يغلب على بعض أهل الخطاب اليوم.

- مشهد دخول المدينة بدون زغاريد، ولكن بدموع صابرة، يعلّمنا أن العزيمة لا تتناقض مع الحزن، وأن الحزن لا يعني الضعف، بل هو وقود للثبات.

- تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأمته كيف يرتقون بأحزانهم، وأن تُصبح المصيبة سلّمًا للآخرة لا سببًا للانهزام، وهو منهج تربوي فريد من نوعه لا تجده إلا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد دعوية وإيمانية:

- القصة تظهر كيف يُقدَّم الإيمان على المشاعر، وأن العبرة عند أهل الإيمان ليست فقط بالبكاء، بل بما يصحب البكاء من ثبات ويقين، وهذه تربية إيمانية رفيعة.

- من أساليب النبي صلى الله عليه وسلم الدعوية في المصائب: ربط الناس بالآخرة، لا بإحياء الأحقاد أو النفخ في الجراح، وهو منهج تربوي غائب عند من يدّعون الإصلاح ويثيرون الفتن.

- في ضبط المشاعر عند المصائب دعوة لأهل الدعوة والخطباء أن يُربوا الناس على التوازن، لا الإفراط في الانكسار، ولا الغلو في القسوة.

- بكاء المدينة لم يكن بكاء ضَعف، بل كان بكاء إيمان، وهذا يُبيّن الفرق بين البكاء المشروع والبكاء المنهزم، وهو ما يجب تعليمه اليوم للناس عند الفتن والنكبات.

مخالفات الواقع المعاصر:

- ضعف الثبات عند الابتلاء، وسرعة الجزع والتسخّط، وانتشار النياحة المحرّمة عند المصائب، في الجنائز والمآتم، مع تعظيم المظاهر البدعية كاللطميات والندب، مما يُخالف صريح حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

- تساهل كثير من الناس في الغلو العاطفي، حيث تُرفع صور الموتى وتُغنّى لهم الأشعار الحزينة، دون تذكير بالجنة أو باللقاء، وهذا من آثار الخطاب الضعيف الذي لا يربط القلوب بالله والآخرة.

- تغييب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في إعلام المسلمين، فلا يُذكر ثباته ولا صبره عند المحن، بينما تُضخّم سِيَر غيره من القادة أو الرموز، وغالبهم لا قدوة في السلوك ولا الإيمان.

- تساهل بعض المتأثرين بالفرق الكلامية في إنكار كرامة دم النبي صلى الله عليه وسلم أو الشرب من الحوض، لأنهم لا يثبتون النصوص كما جاءت، ويؤولونها أو يُنكرونها، وقد حذر منهم السلف في عقائدهم.

- استغلال أهل الهوى لمصائب الأمة للطعن في ولاة أمورها، واستثمار الأحزان في إذكاء الفتن، بخلاف منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم الأمة كيف تحوّل المصيبة إلى تربية لا إلى تمرد.

- تقصير الخطباء والدعاة في الحديث عن المعاني العقدية والتربوية عند الشدائد، بل قد يُكتفى بالحديث العاطفي الجاف، مما يُنتج أجيالًا سريعة الانهيار، ضعيفة الإيمان.

الفقرة السادسة عشرة :أُحد في ميزان السماء... حين تعلّمت الأرض من وحي السماء

حين سكنت الضوضاء، وهدأت رجّة المعركة، وجفّت الدماء على الرمال المخضّبة بدماء الشهداء، وحمل الليل على كتفيه جراح المدينة المنوّرة، ارتفعت أحداث أُحد من أرضها إلى سمائها... فلم تَبْقَ مجرد غزوة في التاريخ، ولا معركة عابرة في ذاكرة الأيام، بل حملها الوحي إلى علياء السماء، فأنزل الله في شأنها قرابة خمسين آية من سورة آل عمران، صارت دستورًا ربّانيًا لتفسير المصائب، ومحرابًا تربويًا لتزكية النفوس، ومدرسة نبوية يتعلم فيها المؤمن كيف ينهض من كبوته، وكيف يجعل من الانكسار بداية لانتصار.

لقد نزلت تلك الآيات لا لتُخبر فقط، بل لتُربّي، لا لتُسجّل الوقائع فقط، بل لتُطهّر المواقف والنيات، ولتغرس في قلوب الصادقين أن الهزيمة ليست نهاية الطريق، بل هي نقطة مراجعة، ولحظة تمحيص، وعينٌ فاحصة ترى ما لا يُرى وقت الزهو والانتصار. قال تعالى :﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١٤٠]
فعلّمهم ربهم أن النصر والهزيمة لا يُوزّعان عشوائيًا، بل تُدَاوَل الأيام بحكمة بالغة، يُعطيها الله من يشاء ليُميّز، ويأخذها عمّن يشاء ليُطهّر، فما كل نصر كرامة، ولا كل انكسار نقمة. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ...﴾
فيا لها من تربية ربّانية... تُعلّم الأمة أن طريق النصر يمرّ أحيانًا من بين أشلاء الشهداء، وأنّ التمكين لا يأتي حتى يُغربل الصف، وتُختبر القلوب، وتنكشف السرائر، وتُسحب أقنعة النفاق من فوق الوجوه المتلونة.

كانت أُحد ميدانًا ربّانيًا لفرز المعادن، وامتحان القلوب، وتهذيب الصفوف... ظهرت فيها منازل الرجال، وانكشفت فيها سرائر القلوب، وانجلت الحقائق كأنّما صُقلت بمرآة الوحي.

رأينا في أُحد رجالاً بألف، وربما بأمّة...
رأينا أبا دجانة، يطأ بخطاه بين الصفوف، وقد لبس عصابة الموت، يتقدّم ليقي النبي صلى الله عليه وسلم بصدره وسيفه.
ورأينا سعد بن أبي وقاص، يرمي بين يديه السهام، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول له: «ارمِ فداك أبي وأمي» – متفق عليه.
ورأينا طلحة بن عبيد الله، يصدّ السهام عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده حتى شُلّت، وهو القائل بعدها: "كنتُ أقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي، حتى شُلّت"، فما نسيها له رسول الله، ولا نسيتها السماء.

ورأينا أنس بن النضر، وقد تكسّرت سيوف الصبر في يديه، يقول: "واهاً لريح الجنة! إني لأجد ريحها دون أُحد"، فينغمس في القتال حتى يُمزّق جسده، فلا يُعرف إلا ببنانه – رواه مسلم.

رأينا وفاء الأنصار، وبطولة المهاجرين، وثبات الصحابة الكرام، كلٌّ سطّر بدمه وسيفه على سفح الجبل سطورًا من المجد والولاء لا تُنسى.

لكننا رأينا كذلك لحظة خلل... عندما ترك الرماة مواقعهم، رغم تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم لهم ألا يبرحوا مكانهم، فخالفوا، وكانت العاقبة أن دار عليهم دولاب الابتلاء.
فسقط منهم الشهداء، وأُصيب النبي صلى الله عليه وسلم، وكادت الفاجعة تعمّ، حتى شاع في الناس أن محمدًا قد قُتل.
فما كانت تلك المخالفة عبثًا، ولا نتائجها بلا معنى، بل كانت درسًا خالدًا إلى يوم القيامة: أن الطاعة حياة، وأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم ليس رأيًا يُجتهد فيه، بل وحيٌ يُتّبع.

نزلت الآيات لتقول: هذه ليست هزيمة تُميت، بل صدمة تُفيق، وبصيرة تُوقظ، وامتحان يُطهّر.

إن غزوة أُحد لم تكن هزيمة في ميزان السماء، بل كانت فتحًا من نوعٍ آخر ...فتحًا للقلوب على طهارة النية، وفتحًا للعيون على سنن النصر والتمكين، وفتحًا للصف على التمحيص والاصطفاء.
لم يُرد الله أن يُهزم المؤمنون، ولكن أراد أن يُربّوا، أن يتطهّروا، أن يرتقوا.

فيا من تقرأ تاريخ أُحد، لا تقرأه كصفحة مضت، بل كمرآة تعكس لك حقيقة الطريق... طريق الدعوة والجهاد والتمكين، لا تمشيه الأرجل فقط، بل تمشيه الأرواح المخلصة، والقلوب الممحّصة، والنيات الطاهرة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بأن أقدار النصر والهزيمة بيد الله وحده، وأنها لا تقع عبثًا، بل تدبيرًا منه عز وجل لتحقيق مقاصد إلهية، كما في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

- إقرار أهل السنة بأن الهزيمة لا تعني بالضرورة غضب الله، كما أن النصر لا يعني دومًا الرضا، بل قد تكون الهزيمة لحكمة تربوية، والنصر استدراجًا، وهذا توازن عقدي لا تعرفه الفرق الغالية.

- الإيمان بأن الامتحان والتمحيص سنّة ربانية جارية على المؤمنين، وأن التمكين لا يأتي إلا بعد غربلة الصفوف وكشف المنافقين، وهذا من عقيدة الابتلاء التي يثبتها أهل السنة في ضوء النصوص.

- الإيمان بأن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباع أمره أصل في الدين، وأن مخالفته ليست اجتهادًا سائغًا، بل معصية لها عواقب، كما ظهر في موقف الرماة.

- الإيمان بأن الله يرفع بعض عباده بالشهادة، وأنه يختارهم تطهيرًا واصطفاءً، لا عذابًا ولا مذلة، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

- في أُحد تجلّت حكمة الله في البلاء، وظهر أن الموازين في السماء تختلف عن موازين الأرض، وأن الخسارة الظاهرة قد تكون في ميزان الغيب فوزًا وفتحًا.

فوائد فقهية:

- من الفقه المستنبط من أُحد: وجوب الالتزام بأوامر القيادة الشرعية خاصة في أوقات الفتن والمخاطر، وأن مخالفة القائد الواجب طاعته تجلب الفتنة والخذلان.

- من الفقه أن ترك الموقع بلا إذن، ولو مع حسن النية، لا يُعفي من العاقبة، ما دام الأمر الشرعي واضحًا، وهذا دليل على أهمية ضبط النية بالفعل الموافق للشرع.

- في تكرار التنبيه النبوي على الثبات: أن التوجيهات في لحظات الحسم ينبغي أن تُحفظ ويُعاد تذكير الناس بها، لأنها موازين نجاة لا اجتهادات شخصية.

- من الفقه أن النصر لا يُناط بعدد ولا عدّة، بل بموافقة السنن الإلهية، وعلى رأسها الطاعة والإخلاص والصدق، وهو ما غاب عن الرماة في لحظة الطمع في الغنيمة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- في وصف أُحد بأنها مدرسة ربانية، تربية على أن المصائب دروس لا مآسي، وأن الأحداث المؤلمة إذا وُضعت في يد الإيمان، تحوّلت إلى وسائل تزكية وارتقاء.
- أظهرت أُحد ثبات الصحابة وبطولتهم، مما يُربّي النفوس على الفداء، والتضحية، وتحمل المسؤولية في أصعب اللحظات، وهذا خلق القيادة الصادقة.
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد: «ارمِ فداك أبي وأمي» تربية نبوية على غرس الشجاعة والتقدير، وتشجيع المجاهد على المضي قدمًا، وهي سنة في تثبيت الصفوف.
- في مواقف الصحابة الذين قاتلوا حتى شُلّت أيديهم أو مُزّقت أجسادهم، تربية على الصدق في العهد، وتقديم العمل على الكلام، وهذا خلق قلّ في زمان الشعارات دون تضحيات.
- ظهور المخالفة وسط الطاعة، يعطينا درسًا في أن الصفوف المباركة قد يقع فيها خلل من بعض أفرادها، وهذا لا يُبطل خيرية الصف، لكنه يوجب المراجعة.

فوائد دعوية وإيمانية:

- أُحد ليست فقط غزوة تاريخية، بل مرآة مستمرة تعكس حال الأمة، وعلى الدعاة أن يُذكّروا بها في كل وقت تُصاب فيه الأمة بضعف أو خلل.
- جاءت الآيات بعد أُحد تُصلح لا تُوبّخ، وتُربّي لا تُجَرّح، مما يدل على أن وظيفة المربي ليست التشفي عند الفشل، بل الإصلاح عند السقوط.
- أُحد درّست الأمة أن الطريق إلى التمكين ليس مفروشًا بالزغاريد، بل بالدموع والدماء والصدق، وعلى الدعوة أن تُعدّ أتباعها لهذا الواقع، لا للزهو والانتصارات الخادعة.
- كان النبي صلى الله عليه وسلم وسط الانكسار يُعيد بناء النفوس، ولم ينشغل بالشكوى أو بالبحث عن المذنبين، بل نقل الأمة من الحزن إلى العبرة، وهذه رسالة لكل مربٍ وداعية.
- بيان دور الوحي في تفسير الأحداث الواقعية، وأن القرآن لا ينفصل عن الشأن العام، بل يفسّره ويهذّبه ويُصلحه، وهذا خلاف الفرق التي تفصل بين الدين والواقع.

مخالفات الواقع المعاصر:

- تجاهل سنن الله في النصر والهزيمة، واعتبار التمكين حتمًا زمنيًا أو حقًا مكتسبًا، دون تربية وتمحيص، مما يجعل بعض الناس يصطدمون بالواقع إذا لم يأتِ النصر كما تمنوا.
- تفريط بعض الدعوات المعاصرة في إعداد الصفوف إيمانيًا، مما يجعلها تنهار عند أول هزيمة، وتضطرب كالبنيان الضعيف، في حين أن غزوة أُحد كانت دورة تأهيل ربانية لأهل العقيدة.
- مخالفة الأوامر الشرعية أو القيادية باسم "الاجتهاد الفردي" أمر شائع اليوم، ويؤدي في كثير من الأحيان إلى ضياع الجماعة وتشتت الصفوف، كما فعل الرماة.

- اختزال التربية في الخطب والبرامج دون المرور على ميدان الصبر والتزكية، خلاف ما كان في أُحد، حيث لم تكن التربية كلامًا بل دمًا واختبارًا.

- نظرة بعض المتأثرين بالفرق الفكرية المعاصرة إلى التاريخ النبوي على أنه مجرد تراث، لا عبرة، تُفرغ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من قوتها التربوية والربانية.

- تحميل بعض الفرق المنحرفة كل إخفاق للأمة على الحكام فحسب، دون مساءلة الشعوب أو الدعوات أو الفرد عن مدى طاعته لربه، بينما أُحد علّمتنا أن البلاء يوزّع بالتقصير والنية لا بالاسم والمنصب.

الفقرة السابعة عشرة: حديث القرآن عن غزوة أحد

لم تكن غزوة أحد مجرد معركة تقليدية بين جيشين يتنازعان النصر، بل كانت صفحة قرآنية خالدة، كتبتها السماء بحروف من نور، لتكون تربيةً للأمة، وتهذيبًا للصف، وتمحيصًا للقلوب، وتثبيتًا للدعوة، ودرسًا خالدًا للأجيال.

فمنذ اللحظة الأولى، يتجلى حديث القرآن عن "أحد" في سياقٍ إيمانيّ عظيم، حيث خرج المسلمون صفًّا متراصًّا خلف نبيهم صلى الله عليه وسلم، قلوبهم عامرة باليقين، وأرواحهم تواقة للنصر، لكن الابتلاء سُنّة ربانية لا يُعفى منها أهل الإيمان، ولهذا لم يخلُ الصف من الخلل، فقد انخذل عبد الله بن أُبيّ رأس النفاق، ورجع بثلث الجيش، ليظهر صدق الصادقين، وتتم التصفية الربانية ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

وبينما كان المؤمنون يستعدون لملاقاة العدو، نزلت بشائر السماء، ترفع من معنوياتهم وتغرس فيهم الطمأنينة، وتبشرهم بمدد ربانيّ كريم:﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾، فيا لها من عزوة تُقاد بجند الأرض وتعضدها ملائكة السماء.

ثم ينقلنا القرآن إلى لحظة الانتصار الأول، حيث شعر المسلمون ببشائر النصر، وأحسّوا العدو ينهزم أمامهم، فصدقهم الله وعده، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، لكنّ المخالفة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم حين نزل بعض الرماة عن مواقعهم طمعًا في الغنائم، كانت نقطة التحول الحاسمة، وهنا تتجلى سنة الابتلاء في أبهى معانيها، فقد دار دولاب المعركة، وابتُلي الصف المؤمن، ونزلت الآيات كاشفة سبب ما حدث:﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

ولم يكن القرآن ليترك النفوس المنكسرة دون مواساة، فراح يربّت على قلوب الجرحى والمفجوعين في أحبتهم، ليبين لهم أن الجراح ليست نهاية الطريق، بل هي جزء من دورة الحياة والتمحيص الإلهي:﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

ومع دخول الفوضى ميدان المعركة، انتشرت الإشاعة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قُتل، فتزلزلت القلوب، واضطربت الصفوف، وكاد الإيمان أن يُنتزع من بعض القلوب، فأنزل الله آية تقطع جذور التعلق بغير الله وتربط القلوب بالرسالة لا بالأشخاص :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

ثم يختم القرآن هذا الدرس العظيم بخطاب مليء بالرحمة، يفتح أبواب التوبة ويُزيل غبار اليأس، ويؤكد أن الهزيمة لا تعني الإقصاء، وأن الخطأ لا يسقط المؤمن من عين ربه إن تاب وأناب :﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وهكذا، كانت غزوة أحد في القرآن الكريم درسًا بليغًا، لا في فنون القتال، بل في عمق التربية الإيمانية، والتجرد لله، والصدق مع القيادة، والثبات في وجه الزلل، والتوبة بعد العثرة، فلا يُقْرَأُ حديثُ "أحد" إلا ويهتزّ له القلب وتذرف له العين، فهي معركة صنعت رجالًا، وربّت أمة، وصاغت خطابًا قرآنيًّا خالدًا يعلّم كيف تصاغ النفوس قبل أن تُقاد الجيوش

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- غزوة أحد ليست مجرد واقعة تاريخية، بل هي تربية عقدية للأمة على أن النصر والهزيمة من عند الله، وأن قدر الله ماضٍ في عباده، فيجب الإيمان بالقضاء والقدر في الشدة والرخاء.
- تثبيت القرآن للقلوب وقت الأزمات يدل على أن القرآن مصدر يقين ورباط للقلوب، فهو كلام الله الذي ينزل السكينة والطمأنينة، وهذا أصل من أصول الإيمان بالله وكلامه.
- الابتلاء سنة ربانية لا يُستثنى منها أحد، حتى أهل الإيمان، وهذا يُظهر عدل الله في سننه، ويُربي المؤمن على الاستسلام لحكم الله والتسليم لمشيئته.
- صدق الوعد الإلهي للمؤمنين في لحظة النصر ثم المحنة بعد المخالفة، يُعلمنا أن النصر بيد الله وحده، لا يُنال إلا بالطاعة، ويُسحب عند المعصية، وأنه ليس مرتبطًا بالأشخاص أو العدد.
- تربية القرآن للصحابة عند الفجيعة في النبي صلى الله عليه وسلم تؤصل العقيدة الصحيحة في التعلق بالله وحده، لا بالأشخاص مهما علت مكانتهم، وهو رد على أهل الغلو في المشايخ أو القادة.
- التوبة بعد الزلل وبيان أن الشيطان قد يستزل المؤمن، لكن الله يغفر لمن تاب، يُقرر قاعدة عظيمة في العقيدة وهي أن الذنب لا يخرج المسلم من دائرة الإيمان إذا لم يستحلّه، وأن باب التوبة مفتوح.

فوائد فقهية:

- وجوب طاعة القيادة الشرعية في الميدان، ويتفرع عن ذلك فقه الطاعة في غير معصية، وحرمة الخروج على أمر القائد في ما فيه مصلحة عامة، ولو ظنّ الجندي أن له رأيًا آخر.
- تحذير الشريعة من التنازع والاختلاف، لما فيه من إضعاف الصفوف، سواء في الحرب أو السلم، وهو أصل في فقه الاجتماع واتحاد الكلمة.
- الإشارة إلى أن المعصية تُضعف الجبهة الداخلية ولو كان ظاهر الحال هو القوة، وفيه فقه الآثار الدنيوية للذنوب على الأمة جمعاء.
- ردّ الشريعة على الإشاعات في حال الفتن والمصائب، وعدم قبول الأخبار إلا من مصادر موثوقة، وهو أصل في فقه التعامل مع الأنباء في أوقات الأزمات.
- إثبات أن الهزيمة لا تقتضي سقوط العدالة ولا إسقاط الأحكام، فالعفو الإلهي عن المخطئين مع بقاءهم في الصف يُفهم منه فقه العذر بالجهل والخطأ والضعف البشري.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- صدق النية واليقين بالله كان حال الصحابة في بداية المعركة، وهذا يعلّمنا أن الإخلاص والتجرد لله هو أساس كل عمل ناجح.

- ذكر الخلل في الصف ونزول الرماة يُظهر أثر الطمع وحب الدنيا في تضييع النصر، وهو دعوة أخلاقية لزهد القلب والتجرد.

- تثبيت القرآن للمنهزمين معنويًّا فيه تربية عظيمة على الصبر والرضا بقدر الله، وعدم اليأس بعد الخطأ أو الفشل.

- التربية على الانضباط والتماسك وعدم التسرع في القرار وقت الفتن، كما في لحظة إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أصل أخلاقي في الثبات ورباطة الجأش.

- رحمة الله التي نزلت بعد الهزيمة تُربّي في النفس خلق الحياء من الله، والرجوع إليه، وترك القنوط، وهذا من أعظم أخلاق المؤمن.

فوائد دعوية:

- الخطاب القرآني في "أحد" دعوة عملية للمربين والدعاة أن يربّوا الناس على العقيدة أولًا، لا على النصر فقط، فصناعة الرجال أعظم من صناعة الغلبة.

- تركيز القرآن على التوبة بعد الزلل يعطينا منهجًا دعويًّا في احتواء المخطئ، لا طرده ولا التشهير به، وهو من فقه الدعوة والاحتواء.

- كشف الله أمر المنافقين في المعركة يُعلم الدعاة عدم الانخداع بالمظاهر، وأن الصف قد يضم من ليس من أهله، فلا بد من التصفية والتمحيص بالحكمة.

- التربية القرآنية في "أحد" نموذج للدعاة في كيف يربّون الجيل على معاني التوكل والاعتصام بالله لا بالأسباب.

فوائد سياسية شرعية:

- التأكيد على الطاعة الجماعية واتباع القيادة المتمثلة في النبي صلى الله عليه وسلم أصل في السياسة الشرعية، فلا صلاح للأمة إلا بالائتلاف على إمام عدل.

- كشف المنافقين وعدم مجاملتهم في الولاء والبراء، دون ظلم أو اعتداء، فيه بيان لموقف الشريعة من دعاة التخذيل الذين يُنافقون باسم "الحرية" وهم يهدمون الصف من داخله.

- قطع التعلق بالقادة إذا ماتوا أو أصيبوا يُؤسس لقاعدة عظيمة في السياسة: أن الولاء للحق لا للأشخاص، وأن القيادة تتغير، لكن الدين لا يتغير.

مخالفات الواقع المعاصر:

- غياب فقه الابتلاء عن كثير من المسلمين، فتراهم إذا نزلت بهم الهزيمة اتهموا الدين أو شكّوا في النصوص، وقلّ من يُحسن التأمل في قوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

- تساهل فئات من الناس –من عوام وجهّال مثقفين– في نشر الإشاعات، وتداولها دون تثبّت، كما وقع في أحد عند شائعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فتتزلزل الصفوف ويختلط الحق بالباطل.

- تعلّق كثير من المسلمين بالأشخاص أو الرموز أكثر من تعلقهم بالحق، فإذا سقط أحدهم اضطربت عقيدتهم، ولو رُبُّوا على قوله تعالى: ﴿أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ لما تأثروا بسقوط أحد.

- ترويج بعض الفرق المنحرفة –كالمرجئة وأهل التأويل الفاسد– أن المعصية لا تضر، وهذا يخالف ما قرره القرآن في غزوة أحد من أن مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم كانت سببًا للهزيمة.

- استغلال بعض الفرق الضالة –كأصحاب الفكر الخارجي– للنصوص التي تتحدث عن الابتلاء والتمحيص، لتكفير المجتمعات أو الطعن في الحكام، وهذا من الغلو والافتراء، فالقرآن علّمنا التوبة لا الثورة.

- ضعف فقه الطاعة عند بعض الفئات الشبابية في زماننا، فيرون أنهم إذا خالفوا أمر وليّ أمرهم لمصلحة يقدّرونها فلا بأس، ونسوا أن الرماة نزلوا بمصلحة دنيوية (الغنيمة) فكانت عاقبة عصيانهم الهزيمة.

- قلة الصبر عند البعض بعد الزلل، فتراه يقنط ويبتعد عن الطاعة إذا زلّت قدمه، والقرآن علّمنا أن الخطأ لا يسقطك من عين الله إن عدت إليه وتبت.

الفقرة الثامنة عشر : غزوة حمراء الأسد... حين مشى الجرحى بالعزّة، فارتعد العدو من هيبة الثبات

لم تكن ليلة المدينة بعد أُحد كأيّ ليلةٍ قبلها، فقد لفّها السكون الحزين، وتسلّل إلى جنباتها وجع لا يُوصف.

أنين الأرامل، وبكاء اليتامى، وتنهيدات الثكالى كانت ترتفع من الدور المكلومة كصدى يطوف بالمدينة المنهكة... المدينة التي لم تجفّ فيها الدماء بعد، ولم تُدفن فيها الجراح، ولم تُغلق فيها صحائف الفقد.

لكن في وسط هذا الحزن، ووسط آهات التعب والخذلان، انبعث صوت من بيت النبوة لا يعرف التراجع، صوتٌ واثق، مملوء بالإيمان والثبات:

"حيّ على الخروج... من كان في أُحد، فليلبِّ النداء".

إنه محمد صلى الله عليه وسلم، الذي لا يُثنيه ألم، ولا يُقعده جرح، ولا يعرف للخذلان طريقًا... إنه نبيّ العزيمة، رسول الإصرار، الذي يُعلّم أتباعه أن الانكسار لا يُداوى بالبكاء، بل بالقيام من تحت الركام.

نعم، الجراح ما تزال دامية، والقلوب ما زالت تئنّ من لوعة الفقد، لكن ما أطفأ الألم وهجَ العقيدة، بل زاده اشتعالًا... فخرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة في اليوم التالي مباشرةً بعد أُحد، ومعه سبعون من صحابته، معظمهم مجروحون، وبعضهم لا يكاد يحمل جسده، يسير متوكئًا على صاحبه، يضع يده على جرحه لئلا ينزف، لكنه ما اشتكى، ولا بكى، بل خرج وفي صدره جذوة لا تنطفئ، وعزيمة لا تضعف، وولاء لا يُشترى.

لم يكن هذا خروجًا عسكريًا عابرًا، بل كان إعلانًا مدوّيًا أن راية محمد صلى الله عليه وسلم لا تسقط، وأن دماء الشهداء وقودٌ لا تبريد، وأن المدينة وإن نزفت، فلن تُسلِّم الراية، ولن ترفع للعدو راية بيضاء.

سار الجيش المبارك إلى **"حمراء الأسد"**، موقع يبعد قرابة ثمانية أميال جنوب المدينة، وهناك ترسّخ المعنى النبوي في القلوب والواقع:

أن الإسلام لا يُحمى فقط بالسيف، بل يُحمى بالعزة، وبالخطوة التي تمشي نحو الله ولو كانت مكسورة، وبالجرح الذي ينزف وهو يقول" **:حسبنا الله ونعم الوكيل".**

وفي المقابل، حين بلغ قريشًا خبر خروج النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، اضطربت قلوبهم، وارتجفت عزائمهم، وقد ظنّوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لن يفيقوا من جراحهم، ولن يخرجوا من بيوتهم أيامًا... فإذا بالخبر يصفعهم:

النبي في الطريق إليكم!

فبعثوا من يُثبط عزائم المسلمين، فجاءهم **نعيم بن مسعود الغطفاني** -قبل إسلامه - يقول في صوتٍ تهويليّ:

"إن قريشًا قد جمعت لكم الجمع، وأعدت لكم ما لم تُعد من قبل"!

لكن المؤمنين الذين اشتدّ إيمانهم في الأزمات، لم يُجيبوا بالوجل، بل نطقوا بقلوب مُفعمة باليقين:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

يا الله! ما أصدق هذه القلوب، وما أقوى هذا الثبات، وما أروع هذه النفوس حين توكّلت على الله فهانت أمامها الجموع، وانكسرت دونها التهويلات.

لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم في **حمراء الأسد** ثلاث ليالٍ، وأمر بإيقاد النار ليلًا في أماكن متفرقة، حتى ظهرت الأضواء من بعيد، فكأنّ جيشًا لا يُحصى قد خيّم هناك، وبلغ ذلك القبائل ومَنْ هم في أطراف مكة، فتناقل الناس الخبر:

"محمد لم يُهزم... محمد عائد... محمد أقوى مما كان"!

فألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فانكفأوا راجعين، وقد تيقنوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وجنوده لا يُهزمون بجراح، ولا يُقهرون بخسارة، وأن سرّهم ليس في عددهم، بل في يقينهم.

ولم يكن في حمراء الأسد صليل سيوف، ولا ارتقاء في ساحات القتال، لكنه كان نصرًا يعلو على كل نصر...

نصرٌ يصنعه الإيمان لا الحديد،
فتحٌ تبنيه العزائم لا الجيوش،
ورعبٌ يُقذفه الله في قلوب الأعداء دون أن تُراق فيه قطرة دم واحدة.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لم يجرح عدوًّا، ولم يُحرّك سيفًا، لكنه عاد وقد ملأ الأرض هيبة، وعاد وقد كتب في سجلّ الدعوة أعظم الدروس:

أن الانتصار لا يُقاس بالميدان وحده،
وأن الجُرح إذا صاحبه الصدق أصبح سلاحًا،
وأن الرسالة إذا حملها الصادقون لا تنكسر وإن انكسرت الأجساد.

إن **حمراء الأسد** لم تكن مجرّد تحرّك عسكري، بل كانت بيانًا ربانيًّا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ما خُذل قط، وأن الله معه يُسدّده، ويُثبّته، ويزرع هيبته في قلوب أعدائه.

لقد كانت حمراء الأسد جوابًا عمليًا على كل من تساءل بعد أُحد:

هل انكسر المسلمون؟

فجاء الجواب في صورة قافلة من الجرحى، تمشي على الأرض بعزيمة جبال، وفيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلّم العالم أن الهزيمة الحقيقية أن لا تنهض، لا أن تُصاب.

فيا من تُبتلى، وتُخذل، وتُنهك... تذكّر حمراء الأسد، وتعلّم كيف يُقاوم الجُرحى، وكيف يُربك الصابرون الجيوش وهم لا يُطلقون سهمًا واحدًا...

فما أعظمك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أبهى دروسك!

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- توالي الابتلاءات على المؤمنين بعد أحد، وخروجهم في حمراء الأسد رغم الجراح، يرسخ في العقيدة أن الإيمان لا يُقاس براحة الجسد، بل بثبات القلب وصدق التوكل، وهذا من صميم الإيمان بالقضاء والقدر والصبر على الأذى في سبيل الله.

- إيمان الصحابة بأن الله ناصرهم رغم الخسائر السابقة، يؤكد أن النصر الحقيقي من عند الله، وأنه ليس مرهونًا بقوة السلاح، بل بصدق الاعتماد على الله، وهذا أصل من أصول العقيدة في باب التوكل.

- قول الصحابة: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ يُعبر عن التوكل الكامل على الله، وهذا التوكل عبادة قلبية عظيمة، من أعظم أنواع العبادات التي لا تصح إلا لله وحده.

- إلقاء الله الرعب في قلوب الكافرين دون قتال يدل على أن النصر والغلبة من آثار اسم الله *القهار* وأن الله يدافع عن المؤمنين بغير ما يتوقعه الناس، وهذا من لوازم الإيمان بأسماء الله وصفاته.

- البيان القرآني بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُخذل رغم الآلام يؤكد للمؤمنين أن ولاية الله لعباده لا تنقطع عند المصائب، بل تتجلى فيها، وهذه عقيدة راسخة تُفرق بين فهم أهل السنة وفهم أهل الأهواء الذين يظنون أن التمكين الدنيوي هو علامة الرضا المطلق.

فوائد فقهية:

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أحد مباشرةً رغم الجراح يُقرّر مبدأ المبادرة وعدم ترك الميدان للعدو يملؤه، وهذا أصل في فقه التدافع المشروع بين الحق والباطل.

- حثّ النبي صلى الله عليه وسلم من شاركوا في أُحد على الخروج إلى حمراء الأسد يؤصّل مبدأ ثبات الصف، وعدم تمكين العدو من الظن بأن المسلمين انهاروا، وهو أصل فقهي في باب حفظ هيبة الأمة.

- تصرف النبي صلى الله عليه وسلم في إشعال النيران في أماكن متفرقة يُفهم منه مشروعية استخدام الوسائل النفسية والميدانية المباحة في ردع العدو وإرهابهم، وهذا من فقه الحرب المشروع في الإسلام.

- عدم مقاتلة المشركين في حمراء الأسد رغم الاستعداد يُعلمنا أن المقصود من التحرك أحيانًا ليس القتال بحد ذاته، بل تحصيل الأثر السياسي أو النفسي أو الدعوي، وهو من فقه الموازنات والمصالح الشرعية.

- ثناء القرآن على من خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم رغم التعب والجرح يُثبت أن التكاليف الشرعية قد تبقى على المكلف في حال العذر، ما لم يبلغ حد الإعجاز، وهو من أبواب فقه الاستطاعة.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- خروج الجرحى مع النبي صلى الله عليه وسلم رغم الألم يُعلّمنا درسًا في الصبر والتجلّد، وأن الرجل يُقاس بثباته لا بعافيته، وهذا من أشرف الأخلاق الإيمانية.

- نداء النبي صلى الله عليه وسلم في لحظة الحزن يعلمنا أن القائد المربي لا يستسلم للظروف، بل يصنع منها فرصة لتربية أتباعه على الإصرار والهمة والعزة.

- ثبات الصحابة في وجه التهويل رغم المصائب يُربّي في النفس خلق الثقة بالله، وقوة النفس، وعدم الانخداع بالتهويل الإعلامي أو النفسي.

- الإشارة إلى أن المسلمين لم يشتكوا ولم يتذمروا وهم يضعون أيديهم على جراحهم، فيه درس عملي في الترفع عن الشكوى، والصبر الجميل الذي لا جزع فيه.

- تصوير النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقود قافلة الجرحى بعزيمة يعلمنا قيمة القيادة بالقدوة، وأن القائد لا يطلب من أتباعه شيئًا لا يفعله هو أولًا.

فوائد دعوية:

- قصة حمراء الأسد تُعلّم الدعاة أن البناء الحقيقي لا يكون في لحظة النصر فقط، بل في لحظات الانكسار، وأن دور الداعية الحقيقي هو الثبات لا الانفعال.

- بيان أن خروج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أُحد لم يكن خروجًا قتاليًّا، بل تربويًّا دعويًّا، يؤكد أن الرسالة تحتاج إلى حُسن إدارة المواقف، لا مجرد خوض المعارك.

- الموقف كله يُبين للدعاة أن بثّ العزة في النفوس المنكسرة أعظم من آلاف الخطب، فالفعل الصادق يبني، والكلمة الثابتة تُحيي.

- تربية الصحابة على عدم الالتفات إلى التهويلات الإعلامية، وعدم التأثر بها، يُرشد الداعية اليوم إلى ضرورة غرس المناعة الفكرية والنفسية في نفوس الناس.

- تعليم النبي صلى الله عليه وسلم للناس أن الانتصار الحقيقي هو النهوض بعد السقوط، هو منهج دعوي يعيد صياغة المفاهيم عند الأمة.

فوائد سياسية شرعية:

- إخراج النبي صلى الله عليه وسلم للجيش الجريح يؤكد أن القيادة الراشدة لا تترك الساحة للعدو يملأها بهيبته، بل تُظهر العزة ولو بالرمزية، وهو من فقه السياسة الشرعية في الردع المعنوي.

- نجاح هذا التحرك في إلقاء الرعب دون قتال يثبت أن من أدوات السياسة المشروعة في الإسلام: الحرب النفسية إذا كانت بحق، وقد أيدها القرآن بإظهار آثارها.

- كشف خرافة أن القوة تكمن في العدة والعدد، بل هي في علو الهمة وصفاء العقيدة، وهو ما يجب أن تُربّى عليه الأمة، بعيدًا عن الأفكار الانهزامية التي تُغذيها الفرق المنحرفة.

- وصف الله المؤمنين بأنهم زادهم الإيمان عند سماع التهديدات، يُعلم الحكام والعلماء أن التثبيت في الأزمات واجب الوقت، لا تهويلها ولا الانجرار خلفها.

مخالفات الواقع المعاصر:

- تفشّي روح الانكسار عند بعض المسلمين في حال الهزيمة، فتراهم يستسلمون ويعتذرون عن الدين، ولا ينهضون، بينما كان جرحى أحد يسيرون نحو العدو بلا تردد.

- اعتقاد بعض الناس أن النصر لا يكون إلا بالقوة العسكرية، فتهافتوا على طلب الدعم المادي وحده، ونسوا أن الرعب الذي قُذف في قلوب العدو لم يكن بحد السيوف، بل بصدق الإيمان.

- شيوع التهويلات الإعلامية والترويج لأكاذيب الأعداء، مع قلة من يتعامل معها بتثبّت ويقين، على عكس الصحابة الذين قالوا: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

- تراجع الكثير من الشباب عند أول صدمة أو انكسار، ويتركون ميادين الدعوة أو العمل الصالح، على خلاف منهج الجرحى الذين قاموا من تحت الركام وهم أكثر عزمًا.

- انتشار ثقافة الشكوى والتذمر في الخطاب العام، حتى أصبح الصبر قوة نادرة، مع أن الصحابة ساروا بأجسادهم المثخنة ولم يتفوه أحد منهم بكلمة جزع.

- تأثر البعض بأقوال المرجئة أو المفكرين المتأثرين بالفكر الغربي بأن العمل لا يُطلب في حال العجز أو الجرح، والقرآن والسيرة يُظهران أن الجرحى نالوا أعظم نصر، لا بأجسادهم، بل بثباتهم.

- وصف بعض الجماعات المنحرفة أن الهزيمة مبرر لنقض العقد الاجتماعي مع الأمة، والطعن في قياداتها، وهذا عين الضلال، فالرسول صلى الله عليه وسلم أثبت بعد الهزيمة أن الراية لا تُسلَّم، ولا يُشهر العصيان، بل تُشد الصفوف.

الفقرة التاسعة عشرة: بعث أبي سلمة إلى بني أسد... ردعٌ مبكر لما بعد أُحد

لم تمضِ أيامٌ قليلةٌ على وقع جراح أُحد العميقة، ولم تلملم المدينة جراحها بعد، حتى بدأت أصوات التحدي والإصرار تتعالى من قبائل العرب المتربصة، التي ظنت أن نصر قريش في أُحد قد أسقط شوكة المسلمين، وأن المدينة صارت فريسة سهلة، لا تُرهبها العواصف ولا تثني عزائمها النيران.

لكنّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك النور الساطع، لم يكن ليستسلم أو يضعف، بل أراد أن يرسل صرخة مدوية تُعلن للعالم أجمع أن المدينة وإن طالها الألم، فإنها لم تضعف ولا تنهزم، بل هي كالجبل الشامخ الذي لا تناله الرياح.

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر تحرّك قبيلة بني أسد بن خزيمة، تلك القبيلة التي تحرّضها قريش على شن هجوم مباغت على المدينة، لم يتوانَ في اتخاذ قرار سريع وحاسم، إذ بعث سريةً من خير صحابته تحت راية الفارس الجليل **أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد رضي الله عنه**، الرجل الذي كان جسده لا زال يعاني من آثار جراح أُحد، لكنه لم يُنكسر إيمانه ولا يهدأ قلبه عن سعيه في سبيل الله، وكان ذلك في شهر محرّم من السنة الرابعة للهجرة، أي بعد أقل من شهر على معركة أُحد التي سُطرت فيها صفحات البطولة والإباء.

خرج أبو سلمة في طليعة مئة وخمسين من أشجع رجال الصحابة، ترفرف في صدورهم روح العزة والكرامة، لا يخشون إلا الله، متسلحين بالإيمان، متقدين بحب نبيهم صلى الله عليه وسلم، وعزيمتهم لا تعرف الضعف، رغم ما على أجسادهم من جراحٍ وآلام.

وجابوا الدروب حتى وصلوا إلى ديار بني أسد عند موضع يُقال له "قطن"، فإذا بالقبيلة تفرّقت مذعورة، وابتعدت، عندما سمعت بخبر قدوم هذه القوة المسلمة، فلم يجدوا أحدًا يُواجههم، ولم تقع معركة، لكن هذه المعركة بلا دماء كانت أعظم

ردع وأشدّ ردعًا، وأبلغ في إيصال الرسالة، حتى أقام المسلمون في ديار بني أسد يومين، وأخذوا معهم من المواشي والغنائم ما يؤكد أن أهل المدينة ما زالوا أحياء، أقوياء، لا يُمكن قهرهم أو انتهاك أمنهم بسهولة.

وهذه الخطوة لم تكن مجرد تحرك عسكري، بل كانت بيانًا صريحًا لكل قبائل الجزيرة العربية أن مدينة محمد صلى الله عليه وسلم ليست لقمة سائغة، وأنها وإن انكسرت قليلاً في جولة، فإنها تنهض أعظم، وتتصدى بكل ما أوتيت من قوة، لتبقى شعلة الحق مضيئة في وجه الظلم.

ولكن في هذا المشهد الجهادي العظيم، هناك قصة إنسانية تأخذ بلب القارئ:

فقد خرج أبو سلمة رضي الله عنه وهو يعاني من آلام جراح أُحد التي لم تلتئم بعد، واشتدت عليه تلك الآلام في الطريق، حتى حين عاد إلى المدينة اشتد عليه المرض، ولم تمضِ أيام حتى انتقل إلى دار البقاء، شهيدًا بعد أن أثبت أن الجهاد لا ينقطع مع جرح، وأن قلوب المؤمنين لا تعرف الاستسلام، بل هي تتطلع دومًا إلى رضى الله، وتسعى حتى آخر نفس، رحم الله أبا سلمة، ورضي عنه، فقد خرج جهادًا فعاد شهادة، وكتب بدمائه ملاحم الإيمان التي لا تُمحى.

وفي كتب السيرة يروى أن أبا سلمة كان من السابقين في الإيمان، وناصرًا عظيمًا للنبي صلى الله عليه وسلم، لما رأى منه من حكمة وعزم، وكان موته بعد أُحد كأنه تتويج لحياة كلها عطاء وتضحية، وقد استحق في اخر عمره عند مفارقته للدينا ان ينال هذا الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ") رواه مسلم

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- ثبات المدينة بعد أُحد يدل على أن عزّة الإسلام ليست مرتبطة بانتصار عسكري، بل بوعد الله للمؤمنين، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولو تأخر النصر الظاهري.
- اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم قرارًا عسكريًا سريعًا يدل على كمال توكله على الله مع الأخذ بالأسباب، وهي من عقيدة أهل السنة في باب القضاء والقدر والعمل.
- قوة ردع المسلمين لقبائل العرب بعد أُحد تثبت أن الله يُمدّ أولياءه بعونه ولو بعد انكسار، فالعاقبة للمتقين حقًا، وهذا من مقتضى الإيمان بوعد الله ونصره.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سلمة بعد وفاته دليل على أن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم حق، والدعاء للميت من العقائد المتواترة عند أهل السنة والجماعة.
- خروج أبي سلمة للجهاد رغم جراحه يبيّن أن حب الله ورسوله يقدَّم على حب النفس، وهو من علامات الإيمان الصادق الذي يُورث الجنة والشهادة.

فوائد فقهية:

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم سريةً بعد أُحد يدل على مشروعية المبادرة بردع العدو إن ظهرت بوادر العدوان، وهو أصل في فقه السياسة الشرعية والدفاع عن بيضة المسلمين.
- أخذ المسلمين للغنائم من غير قتال يؤكد مشروعية الغنيمة إذا فرّ العدو وترك ماله، وهذا مما بيّنه فقهاء الجهاد بشروطه وضوابطه.

- إقامة الجيش في أرض العدو يومين تدل على جواز التمكّن المؤقت من أرض الكفار عند الحاجة الأمنية والعسكرية، واستثمار الحدث لرفع المعنويات وردع المعتدين.

- الدعاء الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سلمة فيه مشروعية الدعاء للميت بهذه الصيغة، وهو من السنن المهجورة التي ينبغي إحياؤها.

- في القصة دلالة على جواز خروج الجريح للجهاد إن كان قادرًا، وهو من فروع فقه الاستطاعة، شرط ألا يضرّ بنفسه أو من معه.

فوائد أخلاقية وتربوية:

- هذا الموقف يعلمنا الصبر والثبات وعدم الانهيار أمام المصائب، فالمدينة كانت تنزف، ولكنها وقفت شامخة، وكذلك المسلم عليه أن ينهض دومًا بعد كل كبوة.

- أبو سلمة رضي الله عنه علّم الأمة دروسًا في الإخلاص والتجرد، فقد خرج وهو يتألم، وواصل الطريق، فكان موته شريفًا بعد حياةٍ ملأى بالتضحية.

- روح الجماعة التي ظهرت في خروج الصحابة معًا رغم الجراح ترسّخ قيمة الأخوة في الله والتكافل العملي، لا بالشعارات فحسب.

- فرار بني أسد من غير قتال يكشف أن للهيبة وزنًا كبيرًا في معركة القلوب، وأن الثبات يولد الرهبة، وهو درس في إدارة الصراع بحكمة وشجاعة.

- البيان الصريح الذي قدّمه النبي صلى الله عليه وسلم لكل قبائل العرب من خلال هذه السرية يعلّمنا أن القوة لا تُخفى حين يكون المقصود بها حفظ الحق وردع الظلم.

مخالفات الواقع:

- تراجع كثير من المسلمين اليوم عن الصبر بعد الأزمات، وتحوّلهم إلى يأس وانهزام داخلي عند أول صدمة، عكس ما فعله الصحابة بعد أُحد.

- ترك كثير من الدعاة والأئمة اليوم لفريضة الجهاد بالبيان والنصح والوقوف في وجه الباطل، وانشغالهم بمصالح شخصية أو مجاراة لأهل الأهواء.

- شيوع مفاهيم الانهزامية في التربية اليوم، حتى بات الأب يُرَبّي أبناءه على الخوف والجبن بدل العزة والثقة بالله والثبات على الدين.

- التخاذل عن نصرة قضايا الأمة، واعتبار كل حراك لحماية المسلمين تهورًا أو جنونًا، بينما في قصة أبي سلمة رسالة واضحة أن المبادرة ضرورة.

- نسيان الناس لسنة الدعاء للميت، وتركهم للصيغ النبوية في الجنازات، واستبدالها بكلام عام أو بدعي، كما في كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم.

- تنكّر كثير من أبناء المسلمين لمن قدّموا أرواحهم في سبيل الله، فيُذكر الشهداء كأرقام لا كرجال لهم تاريخ وسير، بينما النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأبي سلمة، وأكرمه حيًّا وميتًا.

- انتشار فكر أهل البدع من الفرق الغالية الذين ينكرون فضل الصحابة أو يشككون في مواقفهم، ويقدحون في جهادهم، كالروافض والخوارج، بخلاف منهج أهل السنة الذين يرؤن الصحابة أبرّ الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا.

- غياب مفهوم الجهاد الحقيقي عند كثير من الناس، إمّا بانسياقهم إلى مفاهيم الخوارج الذين يحملون السلاح في غير موضعه ويُفسدون، أو بتأثرهم بفرق المرجئة الذين أخرجوا الجهاد من الإيمان وجعلوه فضلة لا تُذكر، وكلا الطريقين ضلال مبين.

الفقرة العشرون : سرية الرجيع... غدر القبائل ودماء الدعاة

في أعقاب معركة أُحد التي هزّت أركان المدينة، لم يكن الجرح النازف هو جرح السيوف وحدها، بل كان هناك جرحٌ أعمق في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم... جرحُ الغدر الذي سُقي بدماء الدعاة، وتزيّا بثوب الدعوة إلى الله، وهو في حقيقته خديعةٌ سوداء، نسجتها أيدٍ مأجورةٌ بخيوط النفاق والعدوان.

جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفرٌ من قبيلتي **عضل والقارة**، يزعمون الإسلام، ويطلبون أن يُرسل معهم من يُفقّههم في الدين ويُقرئهم القرآن، فاستبشر النبي صلى الله عليه وسلم بما بدا من ظاهرهم، وجهز إليهم **سرية من عشرة رجال**، كلهم من خيرة أصحابه، وعلى رأسهم **عاصم بن ثابت**، و**خبيب بن عدي**، و**زيد بن الدثِنة**، وغيرهم من الذين لا يحملون في قلوبهم إلا نور الدعوة، ولا خرجوا إلا حبًا لله وهدايةً للناس.

لكنّ الغدر كان يبيت نواياه في الظلام... لقد اتفقت **قريش** مع **بني لحيان** على أن يتربصوا بأصحاب هذه السرية، طمعًا في الثأر من بدر، وأغرتهم الأموال إن هم قتلوا الدعاة أو أسروهم.

وفي **موضع "الرَّجِيع"**، بين مكة وعُسفان، خرجت الجموع الغادرة تحاصر أولئك العشرة، فقاتل الصحابة قتال المستميت دفاعًا عن دعوتهم وبيعتهم، فاستُشهد **عاصم بن ثابت** ومَن معه، بعد أن أبَوا أن يُلقوا بأيديهم إلى الأسر، وقال عاصم: "اللهم أخبر عنا نبيك"، فكان كما دعا، فقد بلّغ الله خبره إلى رسوله.

وهنا نعلم أن الثبات على الحق قد يكون ثمنه الدم، لكنّ الله لا يُضيع مَن نصر دينه، ولو في أعماق الرمال.

أما **خبيب بن عدي** و**زيد بن الدثِنة**، فأُسروا وقُيّدوا، وبِيعوا في مكة، ليبدأ مشهد جديد من البطولة والعزيمة.

زيد بن الدثنة اشتراه **صفوان بن أمية** ليقتله ثأرًا لأبيه، فخرج به إلى التنعيم، وهناك قال له أبو سفيان –وهو لم يُسلم بعد– مستهزئًا: "أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا مكانك، وأنت في أهلك سالمًا؟"، فقال زيد كلمته الخالدة:
"والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي"!

فقال أبو سفيان: "ما رأيتُ من الناس أحدًا يُحب أحدًا كحب أصحاب محمد لمحمد."

وهنا نعلم أن المحبة الحقيقية للنبي صلى الله عليه وسلم ليست دعوى تُقال، بل بذلٌ يُقدَّم، وولاءٌ لا يتزعزع، وثباتٌ أمام الموت لا يزول.

أما **خبيب بن عدي**، فلبث في الأسر أيامًا عند **بني الحارث بن عامر**، حتى قرروا قتله، فأخرجوه إلى التنعيم ليُصلبوه، فطلب أن يصلي ركعتين، فصلّى صلاة مودِّعٍ خاشعٍ، ثم قال: "والله، لولا أن تظنوا أني إنما أطلتُها جزعًا من الموت، لأطلتها."

ثم قال في أبيات رقيقة تحت السياط والحديد:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلمًا
على أي شِقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلوٍ ممزعِ

فهنا نعلم أن الصدق في العقيدة يورث طمأنينةً في أشد الساعات، وأن القلب المعلق بالله لا يُرهبه الموت، بل يستقبله كالضيف المُحبّب، إن جاء في سبيل الله.

ولما انتهوا من صلب خبيب وقتله، قال النبي صلى الله عليه وسلم، كما في الصحيح»:**اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**«رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهنا نعلم أن الدماء الزكية لا تضيع عند الله، وأن الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، وأن دعوة المظلوم تصعد، وإن تأخرت الإجابة، فلا تظنّ الله غافلًا.

لقد كانت **سرية الرجيع** مأساةً في ظاهرها، لكنها شهادة في حقيقتها على صدق الدعوة، وعلى دماء طاهرة سُفكت لا لشيء إلا لأنها نادت بـ "الله ربنا"، فجاء من يُراد به أن يُطفئ النور، فإذا بالنور يزداد وهجًا، والإيمان يزداد رسوخًا، والناس يزدادون يقينًا أن هذا الدين لا تحمله إلا أرواحٌ قد باعت كل شيء، وربحت كل شيء.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بالقَدَر لا يُنافي بذل الأسباب، فقد خرج الدعاة بعلم النبي صلى الله عليه وسلم، وبإذن الله، ثم استُشهدوا، فدلّ ذلك على أن وقوع البلاء لا يعني سخط الله، بل قد يكون رفعة واصطفاء.
- الله عز وجل يوصل خبر أوليائه إلى نبيّه، كما أوصل خبر استشهاد عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أن لله من الكرامات ما يخص به أولياءه.
- محبة النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم أعمال القلوب، وتظهر عند المحنة، كما ظهر في موقف زيد حين آثر أن يُقتل ولا يُمس النبي صلى الله عليه وسلم بشوكة.
- الاستشهاد في سبيل الله دليل على صدق الإيمان، لأن الموت على العقيدة هو غاية ما يُبتلى به العبد، ولا يثبُت عليه إلا من صدق الله.
- لا يُضيع الله دعوة المظلوم، ولو بعد حين، كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على الغادرين، واستُجيبت دعوته، مما يُرسّخ الاعتقاد بعدل الله وحكمته.
- المِحنة في حياة الدعاة سنّة ماضية، وقدَر مكتوب، وهي من دلائل صدق الرسالة، لا من علامات الفشل أو الغضب الإلهي.
- ثبات الصحابة عند الأسر والقتل من أعظم دلائل الإيمان بالغيب، والإيمان بأن ما عند الله خيرٌ وأبقى، مما يدل على صحة يقينهم في الله واليوم الآخر.
- التصديق بوعد الله في نصرة دينه، ولو قُتل أصحابه، هو من أصول التوحيد، إذ إن النصر ليس فقط نصرًا ماديًا، بل أعظم النصر نصر الثبات.

فوائد فقهية:

- يجوز إرسال الدعاة لتعليم الناس ولو في بيئات غير مأمونة، مع أخذ الاحتياط، ما دام في ذلك مصلحة راجحة للدعوة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع سرية الرجيع.
- يُشرع للمسلم أن يقاتل دون دينه ولو تيقن الهلاك، كما فعل عاصم ومن معه حين رفضوا الأسر.
- جواز الصلاة قبل القتل، كما فعل خبيب، يدل على فضل ركعتي الوداع، وهي سنة مشروعة في مواضع القتل والشهادة.
- لا يُجبر الأسير على القول أو الإظهار بما يُخالف عقيدته، حتى لو كان تحت التهديد أو القتل، كما ثبت من إجابة زيد بن الدثنة.
- لا حرج على من دعا على من ظلمه بالهلاك إن كان فيهم العناد والإصرار على الظلم، كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على من غدروا بالصحابة.
- قول خبيب في سجنه واستئذانه للصلاة يدل على أن الدعاء والشعر والذكر المشروع يُقال حتى في أوقات الشدة، وأن العبد بين يدي ربه في كل حال.
- من السنة ألا يُطيل المصلي صلاته عند الضرورة، إلا إن علم أن تطويله لا يُفهم منه ضعف، كما قال خبيب.
- يُشرع تذكير الظالمين بدعاء المظلوم والقصاص يوم القيامة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه على الغادرين.

فوائد أخلاقية:

- الثبات عند الابتلاء من أعظم صفات المؤمنين، ولا يُثمر إلا عن صدق القلب وقوة الإيمان.
- الشجاعة في قول الحق والثبات على المبدأ، ولو كان الثمن الروح، هو من أعلى درجات الأخلاق.
- الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم والولاء له فوق الولاء للنفس والأهل، كما ظهر من الصحابة.
- الدعوة إلى الله مسؤولية عظيمة لا يقوم بها إلا من باع دنياه لله، واحتمل في سبيل ذلك الجراح والقتل.
- التضحية من أجل نشر الهداية سِمة الدعاة الصادقين، وهي التي تُثبت للناس أن هذا الدين ليس شعارًا، بل حقيقة تُعاش وتُبذل لها الأرواح.
- الدعاء للمظلوم وتمنّي العدل من الله من مكارم الأخلاق، وهو من آثار تعظيم النفس المسلمة ولو بعد موتها.
- الكرامة في الأسر والثبات في القيود خُلقٌ لا يتخلّق به إلا من ربّاه الإيمان، وقدوة في المجاهدة والرجولة.
- كتمان الألم، والإظهار للرضا والثقة بالله في أقسى المواقف، خُلقٌ عظيم يظهر في مثل هذه المواقف من الصحابة.

مخالفات الواقع:

- الاستهانة بدماء الدعاة، أو رميهم بالتهور إذا قُتلوا في سبيل الله، بينما في شريعتنا هم شهداء عند الله، لهم الفضل والسبق، وهذا من آثار الخلل العقدي في فهم البلاء والتمكين.
- ضعف محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب كثير من الناس، حتى صار بعضهم يُقدّم راحته أو شهوته على سنّته، بينما قال زيد: "ما أحب أن محمدًا يُصاب بشوكة وأنا في أهلي."
- الجُبن والتراجع في الدعوة عند أول ابتلاء، وقد كان الصحابة يُؤسرون ويُصلبون ويبتسمون ثباتًا ورضًا بما عند الله.
- التهاون في الصلوات، وعدم تعظيمها، بينما خبيب بن عدي جعل من ركعتين في ساحة القتل أعظم وصيته وآخر لحظاته.
- الشكوى والتضجر عند نزول المصائب، في حين أن خبيب قال: "لولا أن تظنوا أني أطلتها جزعًا"، ليُعلمهم أن المؤمن لا يجزع من الموت إن جاء في سبيل الله.
- نسيان أن دعاء المظلوم لا يُرد، والتساهل في ظلم الدعاة أو تحقيرهم، مع أن دعوة واحدة من مظلوم رفعتها السماء ودعا

بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- التشكيك في نوايا الدعاة والمجاهدين، واتهامهم بأنهم طلاب فتن أو دنيا، مع أن في سيرة الرجيع قُدّمت الأرواح طواعية لهداية الناس.
- تبنّي بعض الفرق الضالة لفكرة ترك الدعوة في أوقات الشدة، بدعوى "المصلحة"، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الدعاة في وقت شدة بعد أُحد، مما يُخالف مذهب أهل السنة في الدعوة والثبات.

الفقرة الحادية والعشرون: مأساة بئر معونة... حين ارتوت الأرض بدماء القرّاء

ما إن لملمت المدينة المنوّرة جراحها النازفة بعد مأساة سرية الرجيع، حتى توالت فواجع القدر، وجاءها النبأ المفجع كالصاعقة، يدوّي في سماء الإيمان وينكأ جراح القلوب، مأساة تقشعر منها الأبدان، وتبكي لها العيون قبل القلوب، مذبحة لم يشهد لها التاريخ مثيلًا، ذُبح فيها حملة المصاحف لا حملة السيوف، قُتل فيها حَفَظَة الوحي لا فرسان الحرب، قُرّاءٌ قضوا شهداء وهم يحملون أنوار السماء إلى أرضٍ ظنّوا أنها ستنصت لنداء الحق.

قدم وفدٌ من بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتظاهرون بالرغبة في الهدى، ويسألونه أن يبعث إليهم من يفقّههم في الدين ويعلّمهم كتاب رب العالمين، فاستجاب النبي صلى الله عليه وسلم بحسن ظنٍّ نابع من طُهر قلبه وصفاء سريرته، وأرسل إليهم نخبة من أعظم أصحابه، سبعين رجلًا من أهل الصُّفّة، ممن طهّرت أرواحهم بنور القرآن، وسما مقامهم بصدق الإيمان، كانوا يُعرفون في المدينة بـ"القرّاء"، لا لأنهم يقرؤون فحسب، بل لأنهم عاشوا مع كل آية، وحملوا الوحي في ليلهم ونهارهم، يُقيمون حدوده، ويُنيرون دروب الناس بكلماته.

هؤلاء الصفوة خرجوا لا يحملون رمحًا ولا سيفًا، بل يحملون في صدورهم آياتٍ أنزلها الرحمن، وأرواحًا متوضئة بالعقيدة، وقلوبًا تعلقت بالجنان. خرجوا على نية الدعوة، وصدق البلاغ، يحملون همّ الهداية لا راية القتال، متوكلين على ربهم، كما قال تعالى**{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}** [الأحزاب: ٣٩].

فلما بلغوا أرضًا تُعرف بـ"بئر معونة" بين بني سليم وبني عامر، خانهم من زعم الودّ وأضمر الحقد، عامر بن الطفيل، الذي أضرم نيران الغدر وجمع قبائل الشر، فأطبقوا على القرّاء كذئابٍ مفترسة، فذُبحوا ذبحًا جماعيًا شنيعًا، نُحرت تلك الأرواح الطاهرة على ثرى الغدر، ولم ينجُ منهم إلا رجل واحد – كعب بن زيد الأنصاري – كان قد أُثخن بالجراح، فوقع بين القتلى لا يُحرك ساكنًا، فأظنوه ميتًا، فكان الشاهد الوحيد على أفظع مذبحة للدعاة في صدر الإسلام.

وصل الخبر إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فاهتزّت المدينة بأكملها، وتألم فؤاد الحبيب كما لم يتألم من قبل، فرفع يديه في صلاته يدعو عليهم، ويقنت شهرًا كاملًا، يُبكي المآقي بندائه، ويرجّف المحاريب بألمه، قائلاً: **"اللهم عليك بعُصَيّة، اللهم عليك برِعل، وذكوان، وبني لحيان"**، يكررها ويخشع، فالدعاء كان مرآة لدمعةٍ لم تجف، وجرحٍ لم يندمل، وكبدٍ قد اشتعل من اللوعة.

وقد أنزل الله من فوق سبع سماوات ما يُواسي به القلوب، فقد ثبت في الصحيحين أن الصحابة كانوا يقرؤون: **"اللهم بلغ عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا"**، وكانت آيةً تتلى حتى نُسخت تلاوتها وبقيت عظمتها، محفوظة في الصدور، تهمس للتاريخ بأسماء هؤلاء الأطهار.

وهكذا خُلّدت فاجعة بئر معونة في ذاكرة الأمة، لا لتكون مجرد ذكرى، بل لتكون موعظة وبصيرة، تُعلّم الأجيال أن درب الدعوة محفوفٌ بالابتلاء، وأن السائرين إليه لا يُجزون دومًا بالحفاوة، لكنهم يُجزون عند الله، **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}** [آل عمران: ١٦٩].

مأساة بئر معونة لم تكن نهاية، بل كانت بداية لحكاية الفداء، ودليلًا على أن دماء القراء لا تذهب هدرًا، بل تُسقي بها شجرة الإيمان لتزهر دعوةً لا تُطفأ، ورسالةً لا تُغتال، ونورًا يضيء الدروب مهما تكالبت الظلمات.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الله عز وجل قد يبتلي أحب خلقه بأعظم الفواجع، لا لضعفٍ في مكانتهم، بل لرفعة درجتهم، كما حصل بقتل القرّاء الذين كانوا من أخيار الصحابة.
- ثقة النبي صلى الله عليه وسلم فيمن أظهر الإسلام نابعة من سلامة صدره، لكنّ ذلك لا يُنافي وقوع الغدر، مما يدل على أن الحكم على الظواهر لا يُنافي توكل المؤمن على ربه في عواقب الأمور.
- ثواب الشهداء الذين خرجوا في سبيل الدعوة أعظم من أن تُدرَك به مقاييس البشر، فقد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم، وهي كرامة عقدية عظيمة تُظهر فضل من مات على الإيمان.
- القنوت في النوازل مشروع، والدعاء على الظالمين من الكافرين سنّة نبوية حين يُعتدى على الدعاة والمؤمنين، ويُظهر أن الله لا يُهمل المظلوم.
- كون تلاوة الآية الخاصة بالشهداء نُسخت يدل على حكمة الله في التشريع، وأن الوحي كان يُواسي القلوب بآيات مخصوصة حسب الموقف.
- ما أصاب القرّاء لم يكن هزيمة، بل نصرًا ربانيًا من نوع آخر، يدل على أن العقيدة ترى الأمور بمنظار الآخرة لا بمنظار الدنيا.
- فضل الشهادة في سبيل الله عظيم، والقتل في طريق الدعوة من أعظم أبواب الجنة، وهذا يورث المؤمن يقينًا بعدل الله ورحمته.
- الخلود عند الله – لا في صفحات التاريخ – هو الغاية الكبرى، كما وعد الله الشهداء بأنهم أحياء عنده يُرزقون، وهذا أصل عظيم من أصول الإيمان.

فوائد فقهية:

- يُستحب اختيار أهل القرآن والدراية بالدين لتبليغ الدعوة وتعليم الناس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بإرساله للقرّاء.
- يجوز إرسال الدعاة إلى من أظهر الإسلام، ولو وُجد احتمال الغدر، ما دام في الأمر مصلحة عامة للدعوة.
- القنوت في الفجر وغيره مشروع عند النوازل، كما قنت النبي صلى الله عليه وسلم شهرًا يدعو على الغادرين.
- الدعاء على قبائل بأعيانها إذا ظلمت وقتلت أهل الإسلام جائز، كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على رِعل وذكوان ولحيان.
- يُشرع تبليغ الدين بالرفق واللين دون قتال، ما دام المقصود الهداية والتعليم، كما خرج القرّاء بلا سلاح، وإنما بلغوا بآيات الله.
- لا يُشترط أن يكون الداعية مقاتلًا أو فارسًا، بل قد يكون صاحب القرآن داعيةً كاملًا برسالته، وهذا يُبيّن تنوّع أبواب الجهاد في الإسلام.
- يُستحب قراءة آيات الاستبشار بالشهادة على قبور الشهداء للدعاء والتذكير، وإن كان لا يُقرأ القرآن على القبور تعبديًا، لكن ورود نص خاص يدل على مواضع التذكير.

فوائد أخلاقية:

- صدق النية في الدعوة ووضوح الهدف يظهر في أن هؤلاء القرّاء خرجوا لهداية الناس لا لمغانم أو مصالح، وهو خلق الدعاة الصادقين.
- البذل من أجل الدعوة بلا سلاح ولا عوض من الناس، يدل على طهارة النفس وسمو الهمّة، وهو من أخلاق الصفوة.
- الترفّع عن الظن السيئ، وحسن الظن بالمقابلين، سمة من سمات القيادة النبوية، لكنه لا يعني الغفلة عن أخذ الحذر.
- الإخلاص في حمل الرسالة يجعل صاحبها لا يلتفت إلى النتائج، بل يبذل ما عليه ثم يُفوّض أمره لله.
- الصبر على المصيبة، والدعاء عند الفاجعة، خلق نادر لا يصدر إلا من نبي، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عند سماعه الخبر.
- الوفاء للشهداء وتخليد ذكراهم والبكاء عليهم ليس ضعفًا، بل وفاءً وشهادةً على عظمة مقامهم.
- النطق بالحق والتذكير بفضل من مات على العقيدة واجب على أهل الإيمان، حتى لا تُنسى تضحياتهم.
- التربية على البلاء من خلال قصص السلف يعمّق الصبر في النفوس، ويربط الأجيال بثقافة التضحية لا الراحة.

مخالفات الواقع:

- غياب الثقة في أهل الدعوة اليوم، واتهام نواياهم، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم اختار القرّاء وولّاهم بلا تردد، دليل على فساد التصور عند بعض المسلمين المعاصرين.
- كثير من الناس صاروا يقيسون التمكين بمعايير مادية فقط، فيرون في القتل خسارة، ولا يدركون أن القتل في سبيل الله رفعة، كما في مأساة القرّاء.
- ضعف اليقين بثواب الله، والتعلّق بالدنيا، يجعل الناس ينفرون من طريق الدعوة إن لم يُعطَوا فيه سلامة وأمانًا، وهو خلاف ما كان عليه الصحابة.
- ترك الدعاء على الظالمين أو الاستحياء منه خوفًا من اتهامات أو مسايرات، يخالف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من قنوت وبكاء ونداء صريح.
- انشغال الناس بتفاهات الأخبار، بينما لا يحركهم استشهاد العلماء والدعاة، كما تحرّكت المدينة كلها عند مذبحة القرّاء.
- إضعاف ذكر سِيَر الشهداء والدعاة من المناهج والبرامج التربوية، مما جعل الأجيال لا تعرف من هم القرّاء، ولا تقتدي بهم.
- الغفلة عن قراءة القصص والمآسي التي تحمل العبر، والاشتغال بالروايات المزيّفة، بينما في مذبحة بئر معونة من العبر ما يكفي لتربية أمة.
- انتشار فكرة "السلامة أولى من البلاء" حتى لو تخلينا عن الدعوة، وهي فكرة منهزمة، تخالف منهج القرّاء الذين حملوا المصحف وساروا للميدان.

انتهى الباب السادس ويليه الباب السابع ان شاء الله جل وعلا

الباب السابع الغزوات الفاصلة بعد أُحد... تمهيد الهيبة وبناء الردع

مقدمة

أُحد... تلك الغزوة التي لم تنتهِ عند سفوح الجبل،
بل ظلّت آثارها تنزف في المدينة، وتضج بها الآفاق.
ظنّ كثير من العرب أن الدولة النبوية قد انكسرت، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم **لن ينهض بعد الهزيمة**،
فأخذت عيون القبائل تتطلع إلى المدينة، وتُعدّ أنفسها للانقضاض.

في هذا المناخ، كانت **السيوف تُشحذ، والمؤامرات تُنسج، والألسن تهمس في الداخل:**
"قد آن للمدينة أن تسقط"...

لكن النبي صلى الله عليه وسلم،
لم يتوقف عند الجراح، ولم يركن إلى الألم، ولم يُسلّم الزمام للخوف،
بل نهض ليُعيد رسم الخريطة، ويصنع في عامين ما يُدهش التاريخ.

ففي أقل من عشرين شهرًا بعد أُحد،
تحرك النبي صلى الله عليه وسلم في غزوات وسرايا تركت أثرًا بالغًا في توازن القوى،
غزوة لبني النضير الغادرين، وسرية لقلوب نجد المتربصة، وغزوة إلى بدر لتثبيت الهيبة،
حتى خرج صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى "دومة الجندل" في الشمال البعيد،
ليقول للعرب جميعًا: "لسنا في المدينة محاصَرين، بل أنتم محاصَرون بنا."

في هذا الباب، لا نروي حروبًا فقط،
بل نسرد **رؤية نبوية تُعلّم الدعاة والآباء والقادة:**
كيف تنهض الأمة بعد السقوط، وتستعيد السيادة بعد الجراح.

الفقرة الأولى غزوة بني النضير: زمن الخيانة لا يُرحم فيه العهد

لم تزل جراح أُحد نازفة، ودموع الثكالى لم تجف، وأرض المدينة لم تستعد بعد أنفاسها، حتى جاء طعنٌ من الداخل أشد إيلامًا من سيوف الخارج، إذ غرس خنجر الغدر في خاصرة المجتمع المسلم، لا من قريش أو غطفان، بل من قومٍ كُتب بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهدٌ وميثاق، وعاشوا بين المسلمين آمنين، حتى فضحتهم أفعالهم، إنهم **يهود بني النضير**، الذين خطّت أيديهم صفحة من سواد الخيانة في كتاب التاريخ.

كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم عهدٌ على السلم، فلما قَتل عمرو بن أمية الضمري خطأً رجلين من بني عامر – وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بني عامر عقد – خرج الحبيب صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه إلى ديار بني النضير، يطلب منهم المعاونة في دفع دية القتيلين، حسب ما اقتضاه العهد، وظنّ أن ذمة المعاهدين مصونة، وأن الوفاء لا يزال حيًا في قلوبهم. جلس صلى الله عليه وسلم إلى جدار من جدرهم في أمان الظاهر، ولكن في الخفاء كانت المؤامرة تُحاك، والمكيدة تُنسج بخيوط الغدر، فقد اجتمع زعماؤهم وتواصوا أن يصعد أحدهم إلى السطح ويلقي صخرة عظيمة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه غدرًا، ويمحوا بذلك نور الرسالة من الأرض.

لكن العناية الإلهية التي وعدت نبيها بحفظه كانت يقظة، فأوحى الله إليه بما دُبّر له، فقام صلى الله عليه وسلم هادئًا، وعاد إلى المدينة دون أن يُشعر أصحابه بما حدث، ثم أرسل إليهم بإنذار حازم" :**اخرجوا من المدينة، فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم** ."وهنا أسقط في أيديهم، لكنهم أصرّوا على الغي، ورسلوا إلى رأس النفاق عبد الله بن أُبي يطلبون منه النصرة، فوعدهم بالكذب، وأوهمهم أن المدينة ستثور معهم، وأن بني قريظة سيقاتلون بجانبهم، لكن الله كشف زيف وعوده، فخذلهم من وعدهم، وتركهم لمصيرهم.

عندها خرج النبي صلى الله عليه وسلم في الصحابة، وحاصر حصون بني النضير، فكان حصارًا يُعلن أن المدينة ليست مأوىً للغادرين، ولا ملجأً لمن نقض العهود. وأنزل الله تعالى في شأنهم سورة الحشر، فخلّد قصتهم للعبرة، قال تعالى:
}هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ] {الحشر: ٢.]

لقد كانت غزوة بني النضير مدرسة في السياسة الشرعية، بيّنت أن حماية الصف الداخلي لا تقل شأنًا عن مواجهة الأعداء في الخارج، وأن الحزم في وجه الخيانة رحمة بالأمة كلها. خرجوا من المدينة أذلة، يجرّون ذيول الخيبة، بعدما ظنوا أن حصونهم تمنعهم، فإذا بها شاهدة على ذلهم، وتاريخهم شاهد على أن **زمن السكوت عن الخيانة قد ولى**، وأن دولة الإسلام لا تحيا إلا بنقاء صفوفها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم" :**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.**"

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- وجوب الإيمان بأن حفظ النبي صلى الله عليه وسلم من القتل كان بعناية الله ووحيه، كما وعده ربه بحفظه حتى يبلغ الرسالة.
- إثبات صفة العلم لله سبحانه وتعالى، وأنه يعلم ما يخطط له الأعداء في السر قبل أن يظهر في العلن.
- وجوب الإيمان بأن الله يقذف الرعب في قلوب أعدائه متى شاء، وأن النصر بيده وحده.
- تصديق ما ورد في القرآن من إخراج بني النضير، وأنه معجزة باقية ودليل على صدق الرسالة.
- وجوب الإيمان بأن النفاق مرض قلبي خطير، وأن المنافقين خاذلون لأهل الباطل كما أنهم خاذلون لأهل الحق.
- الإيمان بأن نقض العهود من صفات الكفار وأهل الغدر، وهو سبب لسقوط الحماية الإلهية عنهم.

فوائد فقهية

- مشروعية إجلاء الغادرين ونقض العهد عن ديار المسلمين إذا تبيَّن خطرهم على الأمن العام.
- أن حماية الصف الداخلي للأمة من الخيانة واجب شرعي يقدَّم أحيانًا على مواجهة العدو الخارجي.
- مشروعية مطالبة المعاهدين بما تضمنته عقودهم من التزامات، مثل المساعدة في دفع الديات.
- جواز محاصرة المعتدين حتى يرضخوا للحق أو يخرجوا من ديار المسلمين.
- تحريم الغدر حتى مع الكفار، وأن الغدر خيانة للعهد الذي أقره الشرع.

فوائد أخلاقية

- أن الوفاء بالعهد من مكارم الأخلاق، وهو خُلُق المؤمنين، والخيانة من شيم الفاسقين والكافرين.
- الحزم في مواجهة الغدر ليس قسوة، بل حماية لحقوق المجتمع وصيانة لصفه.
- ضرورة الحذر من المظاهر الكاذبة للأمان، فكم من عدو يبتسم في العلن وهو يطعن في الخفاء.
- أن نصرة الباطل وإن كانت مغلفة بالوعود البراقة، فإنها تنتهي بالخذلان والعار.
- أن الاعتبار بالتاريخ وسير الأمم الماضية سبيل لتزكية الأخلاق وتقويم السلوك.

مخالفات الواقع

- انتشار خيانة العهود بين بعض الدول والكيانات، وتبريرها بالمصالح السياسية الزائفة.
- تساهل بعض المجتمعات في التعامل مع العملاء والخائنين وعدم اتخاذ مواقف حازمة لردعهم.
- ثقة بعض الناس بالمنافقين وأهل الغدر، مع أن التاريخ والشرع يكشفان خيانتهم المتكررة.
- ترك بعض الجماعات والأفراد الحذر الشرعي من المتربصين بدين الأمة، بدعوى التسامح غير المنضبط بالشرع.
- انخداع كثير من الناس بالحصون المادية والقوة الظاهرة، وغفلتهم عن أن الأمن والنصر بيد الله وحده.

الفقرة الثانية أسوار بني النضير... حين ينقلب الحصار إلى انتصار

في صباحٍ من صباحات المدينة، بعد أيامٍ قلائل من مأساة الرجيع وبئر معونة، تسلّل الغدر إلى قلبها في هيئة دعوة كاذبة، ومؤامرة خبيثة، تلبّست بثوب الضيافة.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يطلب معونة في دية قتيلين من بني عامر، قتلهما رجل من المسلمين خطأً، وكان بينه وبينهم عهد، فجاءهم يطلب البرّ والوفاء، فدبّروا الغدر والخيانة، وأضمروا الغدر في دار

الضيافة، وأرادوا أن يلقوا عليه حجرًا يُسقطونه على رأسه وهو جالس إلى جدار أحد بيوتهم. فأوحى الله إليه بما اعتزموا، فقام مسرعًا وعاد إلى المدينة، دون أن يدري أصحابه ما الذي حمله على ذلك.

لم تكن هذه الخيانة إلا فصلاً جديدًا في سجلّ الغدر اليهودي الذي لم يتوقف منذ وطئت قدماه الشريفتان أرض المدينة.

فبعث إليهم رسولًا يأمرهم بالخروج من المدينة خلال عشرة أيام، لكن نفوسهم المريضة أبت إلا التمرد، فاستكبروا، وتحصّنوا بحصونهم الشاهقة، وزيّن لهم عبد الله بن أُبيّ ومن نفاقه، أنهم إن قاتلوا، سينصرهم.

عندها تحرّك النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، على رأس جيش من أصحابه، يُطوّق الحصون، ويغلق الطرق، ويُحكم الحصار.

مشهد مهيب... لا طَرقَ سيوف، ولا صهيل خيل، لكن الصمت كان أبلغ من المعركة، والهيبة كانت أثقل من الرماح. كانت حربًا نفسية نادرة، يخوضها النبي صلى الله عليه وسلم بعبقرية القائد، وعدالة الحاكم، وصبر المربي.

أمر بقطع نخيلهم، ليكسر حاجز الأمان في نفوسهم، ويحطم أوهام الثبات في قلوبهم، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه" :حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فأنزل الله عز وجل: {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} "[رواه البخاري ومسلم.]

وبينما تمتدّ الأيام ثقيلة على أهل الحصون، كانت قلوبهم تتآكل من الداخل: خذلهم من وعدهم، وخاب رجاؤهم في حلفائهم، وتناقص الطعام، وانقطعت الآمال، وتكشّف لهم أن المدينة اليوم لا تبعث بوفد مصالحة، بل تُرسل إليهم حامل لواء الحق، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، في موكب عدلٍ لا يعرف التردد.

عندها لم يجدوا مناصًا إلا التسليم، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون الصلح، على أن يخرجوا من المدينة بأرواحهم، وما تحمله الإبل من الأموال إلا السلاح، فقبل منهم ذلك، وقال" :اخرجوا، لكم ما حملت الإبل إلا السلاح "]رواه ابن سعد والواقدي وغيرهما.[

وهكذا انفتحت أبواب الحصون لا تحت وطأة السيوف، بل بثبات المبدأ، وصدق القيادة، ونور الشريعة. خرجوا منها أذلاء، قد أثقلتهم الأموال، وخفّت عنهم الكرامة، وحملوا متاعهم على ظهور الرواحل، وتركوا وراءهم ديارًا باتت وقفًا للمؤمنين. لقد أرادوا قتل نبيّ، فخسروا الأرض، وذُبحَت في نفوسهم العزة.

وفي كل بيت من بيوت المهاجرين والأنصار، كانت تتردد آية النصر، يقرؤونها بقلوب ممتلئة يقينًا} :هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ {
]الحشر: ٢.[

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- وجوب الإيمان بحفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من كيد أعدائه حتى يبلغ الرسالة كاملة.
- إثبات أن الوحي من عند الله يكشف للمؤمنين ما يخفى عليهم، ويحميهم من مكر الماكرين.
- الإيمان بأن قذف الرعب في قلوب أعداء الدين من سنن الله في نصرة المؤمنين.
- التصديق بآيات القرآن التي نزلت في بني النضير، وأنها من دلائل النبوة وصدق الوحي.

- الإيمان بأن النصر قد يتحقق بدون قتال إذا شاء الله، بحكمته وتدبيره.
- بيان أن الغدر ونقض العهود من صفات الكفار وأهل الكتاب الذين حذرنا الله من موالاتهم.

فوائد فقهية

- مشروعية محاصرة المعتدين ومنع الإمدادات عنهم حتى يرضخوا للحق.
- جواز قطع أشجار العدو وإتلاف ممتلكاته إذا كان في ذلك مصلحة راجحة لكسر شوكته، كما ورد في الآية.
- جواز الصلح مع الأعداء إذا كان في ذلك حفظ لدماء المسلمين وتحقيق لمصالح شرعية.
- وجوب الوفاء بالعهد من طرف المسلمين حتى مع المخالفين، وتحريم الغدر ابتداءً.
- حق الإمام في إجلاء الغادرين من أرض المسلمين إذا تبيّن خطرهم على الأمن والدين.

فوائد أخلاقية

- أن الثبات على المبدأ والصدق في القيادة من أعظم أسباب النصر.
- أن الحزم في مواجهة الخيانة لا ينافي العدل ولا الرحمة.
- أهمية الحرب النفسية في كسر معنويات المعتدين قبل كسر قوتهم المادية.
- أن الأماني الكاذبة والوعود الزائفة لا تنجي صاحبها إذا تخلى عنه حلفاؤه ساعة الشدة.
- ضرورة الاعتبار بسير التاريخ وأخذ الدروس من مصائر الخائنين.

مخالفات الواقع

- تساهل بعض المجتمعات في التعامل مع العملاء والخائنين، وعدم اتخاذ إجراءات حازمة ضدهم.
- انخداع كثيرين اليوم بوعود القوى المعادية للإسلام، مع أن تاريخهم شاهد على خذلانهم ونقضهم للعهد.
- ترك بعض الحكومات أو الجماعات الحذر من المتربصين، بدعوى الانفتاح أو التسامح غير المنضبط بالشرع.
- ضعف الثقة بسنن الله في نصر المؤمنين، واعتماد بعض الناس على التحالفات المادية وحدها.
- إهمال دراسة التاريخ الإسلامي للاستفادة من دروسه في التعامل مع الأعداء والغادرين.

الفقرة الثالثة من المدينة إلى خيبر... نهاية نفوذ بني النضير

حين غربت شمس الغدر في المدينة، وأشرقت شمس العدل في سمائها، خرج بنو النضير أذلاء صاغرين، يحملون متاعهم على ظهور الإبل، ويمضون في موكب الخُسرة لا النصر، والخسران لا الغنيمة.

كانوا يتلفتون إلى الوراء، إلى حصونٍ طالما تفاخروا بعلوّها، وديارٍ ملأتهم زهوًا، ونخيلٍ كانت تمتد بظلالها على مجالسهم، فتركوا كل ذلك، ومضوا في صمتٍ ثقيلٍ يجلله الانكسار، بعدما مزّقت خيانتهم كل حبال الثقة، وأحرق الغدرُ جسور الوئام بينهم وبين المسلمين.

لم يُخرجهم السيف، بل أخرجهم الحق، ولم يُجلِهم عن المدينة قهرُ سلطانٍ، بل عدالةُ شريعة، أنزلتْ فيهم حكمًا من السماء، لا يحابي ولا يجامل، فـ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، و﴿لَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ [الحشر: ٣.]

خرجوا، لا لأن المدينة ضاقت، بل لأن قلوبهم ضاقت عن الوفاء، ونفوسهم امتلأت بغدرٍ لم تستطع أن تُخفيه الجدران، ولا أن تستره الكلمات.

ارتحلوا شمالًا، حتى بلغوا أرض خيبر، حيث المال الوفير، والتجارة الرائجة، والحصون المنيعة، فآووا إليها كما يأوي الذئب الجريح، يلملم أنفاسه استعدادًا للوثبة القادمة.

وفي خيبر، لم يكن همّهم أن يعيدوا بناء ما تهدّم من أخلاقهم، بل انشغلوا ببناء الحقد وتحريك الفتن، فبدأوا في مدّ خيوط المؤامرات، وبثّ دعايات التحريض ضد النبي صلى الله عليه وسلم، بل كانوا العقل المدبر لمشروع الأحزاب الذي اجتمعت فيه قوى الكفر من كل صوب، في محاولة يائسة لاجتياح المدينة.

روى ابن إسحاق وغيره من أهل السير أن **حييّ بن أخطب** -زعيم بني النضير- هو من سار بنفسه إلى قريش يُحرّضهم على النبي صلى الله عليه وسلم، ويعدهم بالنصر والتأييد، ويغريهم بالتحالف مع يهود خيبر، حتى نجح في تأليب الأحزاب، واجتمعت قريش وغطفان ويهود بني قريظة على موعد الغدر والخيانة. قال الله تعالى في وصفهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧.]

لقد ظن بنو النضير أن المسافة الجغرافية ستمنحهم أمانًا، وأن الانتقال من خاصرة المدينة إلى أطرافها سيجعلهم بمنأى عن عدل السماء، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، بنور البصيرة، كان يعلم أن الغدر لا يُشفى إلا بحسم، وأن السهام إذا لم تُكسر، عادت من بعيد أشدّ مضاءً.

ورغم كل ذلك، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم صاحب قلب مشحون بالحقد، بل كان نبي الرحمة، فلم يُعاقب كل بني النضير، بل أبقى في المدينة من ثبت براءته من الغدر، فحفظ لهم دماءهم، وصان لهم أموالهم، وجعل بينهم وبين المسلمين عهدًا محفوظًا. ومَن نَكَثَ فقد باء بالخسران، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨.]

وهكذا، لم يكن خروج بني النضير مجرّد حدثٍ سياسي، بل كان بداية طورٍ جديد من المواجهة، وفصلاً من فصول الكيد الآتي من بعيد، لكن الله ناصر دينه، وحافظ لنبيّه، ومُعزّ لجنده، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠.]

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن النصر والخذلان بيد الله تعالى، وأنه يُذل أهل الغدر ويُعز أهل الوفاء، كما حصل لبني النضير.
- الإيمان بأن أحكام الشريعة منزلة من عند الله، لا تحابي أحدًا، وأن عدل السماء فوق كل قوة أرضية.
- إثبات صفة الحكمة لله تعالى في إنزال العقوبة المناسبة بعباده، فكتب الجلاء على بني النضير رحمةً ولطفًا، ولولا ذلك لعُذبوا في الدنيا.
- وجوب الإيمان بأن نصرة الله لعباده سنة ماضية، وأن الله حافظ دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم مهما اجتمعت قوى الكفر.
- إثبات أن الله يعلم خفايا القلوب، ويجازي على النيات والبواطن، كما جازى المنافقين والمحرّضين على النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية

- مشروعية معاقبة الخائن بما يمنع شره، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع بني النضير بإجلائهم.

- جواز إبقاء العهود مع من لم ينقضها من غير المسلمين، وحفظ حقوقهم في دمائهم وأموالهم.
- مشروعية المبادرة إلى نقض العهد عند خوف الخيانة، ولكن على وجهٍ علني واضح كما أمر الله: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.
- مشروعية الأخذ بالأسباب العسكرية والسياسية لحماية الدولة الإسلامية، حتى مع من كان خارج حدودها.
- جواز التحالف مع من فيه مصلحة للمسلمين إذا التزم بالعهد، وحرمة التحالف مع الخائن أو الظالم.

فوائد أخلاقية

- الغدر والخيانة يمحو أثر كل نعمة ويبدل العز ذلًا، كما حدث لبني النضير.
- المؤمن الحق يحفظ عهده ووفاءه، ولو كان في موضع قوة، بخلاف أهل النفاق الذين ينقضون المواثيق.
- الحقد لا يداويه إلا الصفح أو الحسم العادل، أما التربص والمؤامرات فمآلها الخسران.
- القائد المسلم يجب أن يكون واسع الصدر، بعيدًا عن الانتقام الشخصي، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم.
- من أهم الأخلاق الإسلامية العدل مع المخالف، فلا يُؤخذ البريء بجريرة المسيء.

مخالفات الواقع

- انتشار الغدر والخيانة في التعاملات بين بعض الأفراد والمؤسسات، حتى بين من تربطهم مواثيق ووعود.
- تهاون بعض المسلمين في حفظ العهود مع غير المسلمين، مما يشوه صورة الإسلام.
- وجود من يبررون الخيانة ويزينونها بحجج سياسية أو مصلحية، وهو منهج أهل النفاق.
- اعتماد بعض القوى على بث الشائعات والتحريض ضد الصالحين، كما فعل بنو النضير والمنافقون.
- انشغال بعض الناس اليوم بجمع القوة المادية وترك إصلاح القلوب، مما يجعلهم فريسة للفتن والمؤامرات.

الفقرة الرابعة غنائم بني النضير... حين أشرقت المدينة بثروة العدل والموقف

لم يكن إخراج بني النضير من المدينة انتصارًا عسكريًا يسطّر في سجلات المعارك وحسب، بل كان منعطفًا اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا غيّر وجه المدينة المنورة، وأرسى دعائم استقلالها، وأزال عنها قبضة النفوذ اليهودي الذي كان يتحكم في كثير من مواردها. لقد غادر بنو النضير أرضهم، وتركوا وراءهم نخيلًا باسقة، وبساتين غنّاء، وبيوتًا عامرة، وأراضي فسيحة، كل ذلك دون أن يراق في سبيله دم، أو تُشهر له سيوف، بل كان فيئًا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم حكمًا من السماء، كما قال جل شأنه}:**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {**الحشر: ٦.]

فهو فيء لم يُحصَّل بوقع السيوف، وإنما بوقفة الحق في وجه الغدر، وبحزم الدولة في صيانة العهود. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه – كما روى البخاري" :–*كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، وما بقي يجعله في السلاح والكُراع عدةً في سبيل الله"*، فكان هذا الفيء أول مورد اقتصادي دائم يدخل بيت مال المسلمين بلا قتال مباشر، وفتحًا من نوع آخر، يمد الأمة بالقوة من غير دم، ويغنيها من غير غزو.

ولأن شريعة الإسلام ميزان عدل لا يحيف، فقد وزّع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفيء كما أمره الله، فجعله في مصالح الأمة العامة، وخصّ به المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، وأشرك معه ثلاثة من الأنصار

لفقرهم: سهل بن حنيف وأبو دجانة وغيرهما. أما سائر الأنصار، فكان موقفهم آية في الإيثار، إذ قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم كما في "صحيح البخاري" :"*إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديياركم، وإن شئتم كانت الأرض لهم وتكونون أنتم شركاء في الثمرة والمؤونة*"، فاختاروا المرتبة العليا من مراتب الإيمان، وقالوا بقلوب ملؤها اليقين" *بل نعطيهم ولا نأخذ شيئًا* ."فخلّد الله ذكرهم في كتابه}:**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**] {الحشر: ٩]، لتظل هذه الآية شهادةً أبدية على عظمة نفوسهم وسخاء أرواحهم.

لقد كانت غنائم بني النضير نعمة اقتصادية كبرى للمدينة، إذ تحوّلت من تابع في مواردها، ومنطقة تحت النفوذ اليهودي، إلى كيان مستقل مكتفٍ ذاتيًا، يُموّل جيوشه، ويعين فقراؤه، ويقوي دعوته، ويبني بنيانه، ويرسل راية الإسلام إلى الآفاق. وهكذا كان المال في دولة النبوة وسيلةً لتمكين الدين، وميدانًا يمتحن فيه الإيمان، ومضمارًا تُبنى فيه المروءات، لا غايةً لجمع الدنيا أو زخرف الحياة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن النصر والتمكين والفيء إنما هو بفضل الله وتقديره، وليس بقوة العباد وحدهم، كما قال تعالى: ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾.
- إثبات أن أحكام تقسيم الفيء والغنائم وُضعت بالوحي، فهي دين يتعبد به، وليست اجتهادًا بشريًا خالصًا.
- الإيمان بأن الرزق الحلال قد يأتي من غير قتال، إذا شاء الله، كما وقع في أموال بني النضير.
- الإيمان بأن الله يخلد مواقف الصادقين والمؤثرين في كتابه، لتبقى آياتهم شاهدة إلى يوم القيامة، كما خلد موقف الأنصار.
- الاعتقاد بأن المال في الإسلام أمانة لتحقيق مصالح الدين والأمة، وليس غاية في ذاته.

فوائد فقهية

- مشروعية تخصيص الفيء بمصارف محددة وفق نص القرآن، مثل تجهيز الجيوش ومصالح المسلمين العامة.
- جواز إعطاء الفقراء من غير المستحقين الأصلاء للفيء إذا اقتضت المصلحة، كما أشرك النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأنصار لفقرهم.
- أن الأصل في الفيء أنه حق عام للمسلمين تصرفه الدولة في مصالحهم، لا يختص به القائد أو الأغنياء.
- جواز إعطاء المهاجرين من أموال الفيء دون الأنصار إذا كان في ذلك مصلحة ظاهرة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- مشروعية الشراكة في الزرع والثمر على أن تكون الأرض لأحد والطاقة والعمل للآخر، كما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار.

فوائد أخلاقية

- الإيثار من أعلى مراتب الإيمان، ويبلغ ذروته حين يقدم الإنسان غيره على نفسه وهو في شدة الحاجة.
- المال في يد المؤمن وسيلة للبذل والعطاء، لا للبخل والكنز.
- العدل في توزيع الموارد يقوي أواصر المجتمع ويمنع الحسد والبغضاء.
- القائد العادل يجعل موارد الأمة لمصلحة الجميع، ولا يستأثر بها لفئة دون أخرى إلا لحاجة شرعية.
- الصدق في النية يظهر في كيفية التصرف في المال العام، إذ يكون لصالح الدين والناس لا لمكاسب شخصية.

مخالفات الواقع

- تضييع المال العام أو الاستئثار به من قبل فئة قليلة، خلافًا لعدل الإسلام في توزيعه.
- غياب روح الإيثار بين كثير من المسلمين اليوم، وسيطرة الأنانية والمصلحة الشخصية.
- توظيف موارد الأمة في مشروعات لا تخدم الدين ولا مصالح الناس، بينما الفقراء والمحتاجون يزدادون معاناة.
- ضعف الثقة بين الحاكم والمحكوم في بعض المجتمعات بسبب فساد توزيع الموارد، بخلاف ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

- الانشغال بجمع المال للترف والمظاهر بدل جعله وسيلة لتمكين الدين ونفع الأمة.

الفقرة الخامسة سرابُ الانتقام... حين شُرِّعت الأبواب أمام بدر الآخرة

مضى عامٌ هجريٌّ كامل منذ وقع المشهد المشهود في غزوة أُحُد – ذلك النهار الذي احتدم فيه الصراع بين دماء البطولة وزفرات الألم، حيث تراجع جيش الإسلام مثخنًا بالجراح، لا نتيجةَ جبنٍ ولا ضعف، بل بسبب اجتهادٍ بشري فتح للعدوّ ثغرة في الجبل، وتوهّج في صفحات التاريخ درسًا خالدًا في طاعة القائد، والتشبّث بالأمر الرحمن.

على سفوح أحد، سالت دماءٌ طاهرة زكية، استُشهد فيها حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، ومُصعب بن عمير حامل لواء الإيمان، وعبد الله بن حرام الذي كلّمه الله من غير واسطة، حتى لما إنكسرت قلوبنا سيوف الحزن، لم تنكسر عزائم الثبات، لأن اليقين لم يضعف، والثبات لم يتزعزع.

عاشته قريش ذلك العام في نشوةٍ متوهمة، تغذّى غرورها من هيبةٍ لم تصمد أمام الزمن؛ ظنّت أن الإسلام انكسر، وأن بريق عظمته تلاشى، لكنها أخطأت في الحساب، فكم جُرحَ المؤمنون كان شرارةً لعزيمتهم، وكيف أن الكبوة تولّد بعدها الوثبة.

حان موعد "بدر الثاني" في موسم التجارة الأعظم، إذ تتقاطر القوافل وتزدهر الأسواق، واستعدَّت قريش للقاءٍ ظنّته حتميًّا، لكن العزائم فترت، والقوى خارت، وانسحب أبو سفيان مع قومه، تاركين المعركة معلّقةً في طيات القدر، منقادة في حسابات النفس. وصدق الله إذ يقول:﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾ [آل عمران: ١٥١]، رُعبٌ يشق القلوب ويغسلها من عبث الكبرياء.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم تكن نياته الانتقام، بل شعاعٌ من التوحّد، وإعلانٌ بأن جراح أُحُد لم تُضعف اليقين، وأن المسلم لا يُلدَغ من جُحرين يتخلّف وراءه الغيظ ويعبث بالغضب.

خرج يحمل لواء التوكل، لا سيف الانتقام، ويقوده إيمانٌ حيّ، لا عبثٌ ويذوق الطريق بثقةٍ ثابتة، لا كبرياء متهور.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في بدر ثمانية ليالٍ، صامدين في أرض الموعد، رغم خلو الأفق من عدو. لم تذهب بهم السكينة نحو الضمير فقط، بل أقاموا سوقًا تجاريًا بفعل الأرواح الصلبة: باعوا واشتروا، وهم يرددون بصمتٍ فجره إيمانهم: «نحن أمة لا تنهزم فيها التجارة مع السيف، ولا تنهار النفوس عند غياب العدو. نحن صُنّاع وجود، أقوياء حتى في غياب القتال.«

وربح المسلمون تجارةً عظيمة، كما ورد في كتب السيرة، وكان من بين تجارهم عبد الله بن مسعود رضوان الله عليه وجماعة من الصحابة، فجمع الله لهم بين الربح الدنيوي والرضا الأخروي، بعد أن زادهم قوله تعالى:

﴿ ...فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ...﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، فينعطفون بالنعمة والفضل، لا بأس ينالهم، سائرين بدرب رضوان الله.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأصحابه مرفوعو الرؤوس، ليس لانتصارهم، بل لاستقامتهم، وصدق النية، وعذوبة الصبر. كما قال» :لا تتمنّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا» [رواه البخاري ومسلم]، فيا لها من وصيةٍ تُؤطر المجاهد الحقيقي: قويًا بالثبات لا بالغلبة، راجيًا العافية لا المشاهد.

وكان بدر الآخرة بيانًا جليًا أن الإسلام لا يُقهر بهزيمة، ولا يُكسر بجراح. خرج المؤمنون من أُحُد أصلب عودًا، أكثر عزيمة، وأنظف تنظيمًا. أراد المشركون أن يشعلوا نار الثأر، فإذا بها تنقلب عليهم رمادًا. أرادوا أن يرهبوا القلوب، فإذا بها تهتز لهيبًا بالإيمان. وترسّخت في الرمال دروسٌ نُقشت للأبد: أن النصر ليس في ضربة سيف، بل في مقام ثبات.

هكذا تبنى الأمم، ويصنع المجد: بصبرٍ طويل، وعزيمة لا تتعدد، ويقينٍ بأن الجراح لا تقتل، بل تُنبت رجالاً إن هم تلمّسوا أسرار الفتح الحقيقي.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن الهزائم والابتلاءات لا تعني تخلي الله عن عباده المؤمنين، بل قد تكون بابًا لتمحيصهم ورفع درجاتهم.
- اليقين بأن النصر من عند الله لا يُنال إلا بالطاعة، وأن المعصية قد تفتح للعدو ثغرة كما وقع في أحد.
- إثبات أن قذف الرعب في قلوب الكافرين من سنن الله في نصرة أوليائه، وهو وعد صادق متكرر عبر التاريخ.
- التوكل الصادق على الله من أعظم أسباب الثبات، وهو ما جسده خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه دون دافع انتقام.
- أن المجد الحقيقي للأمة لا يقاس بعدد المعارك المنتصرة فقط، بل بقدرتها على الصبر بعد الجراح، والثبات على المبدأ.

فوائد فقهية

- مشروعية إظهار قوة المسلمين أمام العدو ولو لم يقع قتال، لإرهابهم وردعهم عن العدوان.
- جواز الجمع بين المصالح الدنيوية المباحة والمصالح الدينية في وقت واحد، كما جمع الصحابة بين الربح التجاري وطلب الأجر.
- النهي عن طلب القتال ابتداءً، بل يُسأل الله العافية، فإن لزم فالثبات واجب.
- جواز إقامة الأسواق والمعاملات في أماكن النزول إذا أمنت المفسدة.
- أن الثبات على خطط القيادة وعدم الانسحاب قبل الأوان من أسباب حفظ هيبة الأمة.

فوائد أخلاقية

- كبح جماح الغضب وعدم الانجرار وراء الانتقام العاطفي، بل ضبط النفس وفق ميزان الشرع.
- تحويل الأزمات إلى فرص قوة ونمو، كما فعل المسلمون في بدر الآخرة بتحويل الغياب العسكري إلى نشاط اقتصادي.
- التحلي بالصبر الطويل بعد الشدائد، واليقين أن الجراح تصنع الرجال لا أن تهزمهم.
- الوحدة والتماسك وقت الأزمات، وهو ما ظهر في صفوف المسلمين بعد أحد.
- الاعتزاز بالثبات على المبدأ حتى دون نصر عسكري، لأن العزيمة منبع الكرامة.

فوائد سياسية ودعوية

- أن من مقاصد السياسة الشرعية في الحرب إضعاف هيبة العدو ورفع هيبة المسلمين في أعين الأمم.
- أن الثبات في الميدان حتى عند غياب العدو يبعث برسائل قوة سياسية وإستراتيجية للأطراف الأخرى.
- من فنون إدارة الصراع أن تبقى زمام المبادرة بيد المسلمين، وألا يُظهروا الضعف أو التردد.
- الحذر من الانخداع بالنصر المؤقت للعدو، فربما كان بداية انهياره الداخلي كما حدث لقريش.
- أن من أعظم أسباب تمزق الأمة اليوم اتباع فرق الضلالة التي تنشر اليأس أو تزرع الفتنة، مثل الخوارج الذين يرفعون شعارات براقة ويستحلون دماء المسلمين، والمرجئة الذين يضعفون منزلة العمل، والباطنية الذين يتآمرون مع أعداء الإسلام لإسقاط عزائم المسلمين.

مخالفات الواقع لنص الفقرة

- انشغال كثير من الحركات المعاصرة بالثأر الدموي والانتقام الأعمى، مما يجر الأمة إلى صراعات داخلية تستنزف قوتها.
- انخداع بعض المسلمين بمظاهر النصر الزائف لأعدائهم، فيظنون أن قوة الباطل دائمة، فيضعف يقينهم.
- تفرق الكلمة وقت الأزمات، وظهور النزاعات الحزبية والفكرية التي تضعف الصف الإسلامي.
- غياب التخطيط الاستراتيجي عند بعض القادة، وافتقادهم لفن إدارة الصراع كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في بدر الآخرة.
- ترك كثير من المجتمعات الفرص الاقتصادية والدعوية في الأزمات، فيكتفون بالشكوى بدل تحويل التحديات إلى مكاسب.
- ضعف مبدأ الثبات أمام تهديد الأعداء، وتنازل بعض الدول أو الجماعات عن ثوابتهم الشرعية تحت الضغط.
- تمكين بعض فرق الضلالة من التأثير في عقول الشباب، حتى صاروا أدوات في يد أعداء الأمة، يمزقون وحدتها باسم الجهاد أو الحرية.

غزوة ذات الرقاع

مقدمة

طريق الشوك... وسُقيا الثبات في قلوب الصحابة

كان الإسلام يومئذ يمدّ جذوره في أرض المدينة، ويرفع رأسه إلى قبائل الجزيرة، وتوشك براعمه أن تتفتح خارج الحجاز. لكن على أطراف نجد، كانت قبائل غطفان وغيرها تُقلّب عيونها في قوة المدينة، وتغلي قلوبها حسدًا، وتتحفز أرجلها في انتظار غفلة. كانت الأخبار تتواتر أن الغدر يُحاك في البعد، وأن السيوف تُشحذ في الظلام، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمسير، وخرج بمن معه من الصحابة إلى عمق البادية، في قافلة لا تحمل زينة الجند، ولا رايات الفخر، بل تحمل الإيمان وحده، وتشق طريقها فوق شوك الرمال، وتحت لهيب الشمس، لا تعرف إلا اليقين.

غزوة ذات الرقاع لم تكن صدامًا كبيرًا ولا معركة واسعة، لكنها كانت علامة على يقظة النبوة، وعلى أن الهزائم لا تصنع السكون، بل توقظ الحذر، وتُحرك العزم. خرج النبي صلى الله عليه وسلم في أرض وعراء، يصعدون الجبال وينزلون الشعاب، حتى تمزقت أقدام الصحابة، فلفّوا عليها الخِرَق، فسُمّيت الغزوة بـ"ذات الرقاع". هناك في الصحراء، كان الصحابة يتقلبون على الجوع، ويغالبون الظمأ، ويتحسسون أثر النبي صلى الله عليه وسلم في الرمل، فتهون الأوجاع، ويستيقظ فيهم شعور العزّة، أن هذه الطريق الصعبة، هي ذاتها التي تمهّد لفتح القلوب والبلاد.

لم تكن الغزوة فقط دربًا إلى قبائل غطفان، بل كانت دربًا إلى **تربية الصبر**، وتثبيت الشوكة، ورسالة إلى من يظنون أن المدينة منهكة بعد أُحد، بأن رجالها ما زالوا يغذّون السير، وأن القائد الذي جُرح أمس في المعركة، لا يزال اليوم يتقدّم الركب بنفسه.

وهكذا، مضى جيش الإيمان في رحلته، يُرسّخ مفهوم الدولة الحاضرة لا الدولة المتقوقعة، ويعلن أن الإسلام ليس جدارًا يُدافع عنه فقط، بل راية تُرفع، وحقٌّ يُحمى، ومشروع لا يُطفئه جرح، ولا يُوقفه تعب.

الفقرة الأولى المسير فوق الرمضاء... حين صارت الرمال جبينًا للسجود، والجراح أوسمة الثبات

ما بين لهيب الشمس ووهج الرمال، وما بين صليل التهديدات من قبائل غطفان وغيرها، قرّر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضي إلى "ذات الرقاع"، حيث لا ماء يروي، ولا ظلّ يُقيل، ولا درب يُطمئن، بل هي أرض قاحلة موحشة، تلفح الوجوه بحرّها، وتقطع الخطى بسكوتها الجاف. لكنها لم تكن أرضًا تُخيف من آمن، ولا طريقًا يُوهِن من صدّق بوعد الله.

سار النبي صلى الله عليه وسلم في ركبٍ من الصحابة الكرام، ما خرجوا لقتالٍ حتمي، بل خرجوا ليُرهبوا العدو بقوة الحضور، ويُظهروا أن المدينة ليست غارقة في جراح أحد، بل تعافت بالعقيدة، وتصلبت بالعزم.

كانت هذه الغزوة درسًا في السياسة العسكرية النبوية، وفي التربية الجهادية العملية، وفي فنّ بناء الهيبة قبل اللقاء.

كان الطريق طويلًا ومرهقًا، سارت فيه الأرجل قبل الركاب، واصطبر فيه الجسد قبل الراحلة.

لم تكن معهم الخيول المعدّة ولا السروج الناعمة، بل كان بعضهم يتعاقب على راحلة واحدة – كما روى البخاري ومسلم – ركب النبي صلى الله عليه وسلم ومعه علي بن أبي طالب وأبو لبابة وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، فكان الواحد منهم يمشي حتى تُنهك قدماه، ثم يركب قليلًا، ثم يعود للمشي، فكانوا مثالًا للمساواة، والصبر، والبذل الخالص لله.

مضوا يخطّون على الرمال قصة الوفاء، ويدوسون الشوك بأقدامٍ حفاة، حتى تقطعت جلودها، وسالت دماؤها، فتناول بعض الصحابة ما بقي من ثيابهم، ومزقوها أربًا أربًا، وربطوا بها أقدامهم الجريحة، حتى لا تهترئ اللحوم أو تحترق من الرمضاء. ومن هنا سُمّيت الغزوة بـ **ذات الرقاع** –كما قال الإمام النووي – أي ذات الخِرَق، لأنها رقّعت بها أرجل الصحابة من الجراح والتعب.

تأملهم أهل السماء، وارتجف لهم الشيطان، وغبطهم الملائكة، وبكت لأجلهم الرمال من شدّة الثبات.

لم يكن ذلك الطريق نُزهة ولا مطاردة، بل كان امتحان صدق ويقين. كل قطرة عرق تنزل على جبين أحدهم كانت تسطّر على الأرض: "ما نسينا أحدًا، لكنّا تجاوزناه بالعزم والمضيّ."

وروى الإمام أحمد وابن حبان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:**خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، فلفّفتُ قدميّ بخرق، فسُمّيت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا من الخِرَق.«**

وفي تلك الغزوة، نزلت آية صلاة الخوف، التي تُعلّم الجندي كيف يصلي لله وهو على أبواب القتال، ليبقى القلب متصلًا بالله في كل حال، قال تعالى :﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]، فكان تعليم الصلاة في ميدان المعركة إشارة ربانية أن القتال لا يقطع الصلة، وأن الجهاد ليس غفلة عن الله، بل اقترابٌ منه.

وهكذا علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم أن التمكين لا يأتي عبر الظلال الباردة، ولا عبر الأماني الكسولة، بل يُولد في الطرق الوعرة، ويُسقى من دماء الصادقين، ويُبنى على أكتاف من ربطوا أرجلهم الجريحة بخرق الإيمان، ومضوا. قال تعالى :﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢.]

ما كانت "ذات الرقاع" معركة دم، بل كانت ملحمة عزيمة، وسِفرًا من أسفار التكوين النبوي، للرجال الذين يحملون الرسالة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ليبلغوها للعالم.

.الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن النصر والتمكين لا يكونان إلا بعد الابتلاءات التي تكشف الصادقين وتصطفي الصابرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾.
- يقين المؤمن أن الجهاد في سبيل الله ليس مقطوع الصلة بالعبادة، بل هو ذروة سنامها، والصلاة فيه حاضرة حتى في ميدان القتال.
- إثبات أن وعد الله بالنصر مشروط بالثبات والصبر، لا بمجرد الخروج للحرب.
- أن الابتلاءات الجسدية والنفسية في سبيل الله علامة على صدق الإيمان، وليست دليل غضب من الله.
- أن قلوب المؤمنين تتقوى بذكر الله حتى في أشد المواقف، وأن الاتصال بالله في المعركة أعظم سلاح.

فوائد فقهية

- مشروعية صلاة الخوف في ميدان القتال، وأنها عبادة مقررة تحفظ الصلة بالله في أحلك الظروف.
- جواز تعاقب أكثر من شخص على راحلة واحدة إذا لم تتوفر الدواب الكافية، تأسّيًا بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
- جواز اتخاذ وسائل وقائية لحفظ الجسد من الضرر، كلفّ الأقدام بالخرق عند المشي على الرمضاء.
- أن من فقه السياسة الشرعية إظهار قوة المسلمين أمام العدو ولو لم يكن القتال حتميًا، لإرهاب المعتدي المحتمل.
- جواز السير الطويل للغزو دون نية القتال المباشر إذا كان فيه مصلحة عسكرية أو ردع سياسي.

فوائد أخلاقية

- الصبر على المشاق في نصرة الدين، وتحمل التعب والحرّ والجوع بلا شكوى ولا تراجع.
- المساواة بين القائد وجنوده في تحمل المشقة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعاقب مع أصحابه على الدابة.
- التضحية بالنفس والراحة لأجل نصرة الإسلام، حتى مع وجود البدائل المريحة لو أرادوا التراجع.
- روح الأخوة والتعاون، حيث يشارك الجميع في المشقة، فلا يتخلف أحد عن حمل العبء.
- التربية على الزهد في الدنيا، والاستعداد للتضحية بملاذها في سبيل الآخرة.

فوائد سياسية ودعوية

- من عبقرية القيادة النبوية أن إظهار القوة أحيانًا يكون كافيًا لردع الأعداء دون إراقة دماء.
- أن بناء هيبة الدولة الإسلامية لا يتحقق فقط بالانتصارات، بل أيضًا بالمسيرات الاستراتيجية المدروسة التي تُشعر العدو بالجهوزية الدائمة.
- أن الحفاظ على معنويات الأمة بعد أي هزيمة سابقة واجب سياسي ودعوي، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعد أحد.
- أن الأمة تحتاج إلى رجال تربيهم ميادين الصبر أكثر مما تربيهم ميادين الراحة، لأنهم هم حماة العقيدة عند الأزمات.
- التحذير من فرق الضلالة التي تحرّف مفهوم الجهاد، فبعضهم من الخوارج يستبيح دماء المسلمين، وبعضهم من المرجئة يُفرّغ الجهاد من معناه العملي، وبعضهم من الباطنية يتحالف سرًّا مع أعداء الإسلام لتمزيق الصف.

مخالفات الواقع لنص الفقرة

- ترك كثير من المسلمين الاستعداد الجاد، والاكتفاء بالشعارات، بخلاف حال الصحابة الذين خرجوا لذات الرقاع بثبات رغم المشقة.
- انتشار روح الدعة والترف حتى بين من يتصدّرون للعمل الدعوي أو الجهادي، مع غياب الصبر على التضحية الحقيقية.
- انفصال بعض المقاتلين أو العاملين للإسلام عن العبادة، حتى صار الجهاد عندهم نشاطًا عسكريًا بلا روح إيمانية.
- غياب المساواة بين القادة والجنود في كثير من الحركات والمؤسسات، حيث يعيش بعض القادة في رفاهية وجنودهم في العناء.
- تقديم المصالح الفردية على مصلحة الأمة، بخلاف ما فعله الصحابة حين آثروا العناء الجماعي على الراحة الشخصية.
- قلة الاهتمام ببناء الهيبة السياسية للأمة، والاكتفاء بردود الأفعال المتأخرة بدل التحركات الاستباقية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- تمكين فرق الضلالة من نشر مفاهيم منحرفة عن الجهاد، مما يؤدي إلى تشويه صورته، وتفريق كلمة المسلمين.

الفقرة الثانية: تحت ظلال الشجر... حين كان السيف معلقًا

في صمت البادية القاسية، حيث لا يُسمع إلا زفير الريح المتجول بين الصخور، ونبض القلوب الحذرة في أرضٍ تحفُّها عيون الأعداء من كل فجّ، وقف النبي صلى الله عليه وسلم يُقيم الصلاة، ويُعلّم أصحابه كيف يُعبد الله وهم في قلب الموت، وكيف تظلّ القلوب معلقة بالسماء، ولو كانت الرقاب مشرئبة للسيوف.

في ذات الرقاع، كانت الخُطا على الرمال جريحة، والأقدام مشدودة بالأقمشة الممزقة، ومع ذلك، لم تُؤخر الصلاة، ولم يُعذر فيها أحد، فالصلاة عمود الدين، لا يسقط تحت وطأة الخوف، بل يُشدّ ويُقام عند الترقب، ويزداد به المؤمن قربًا لا فرارًا. فأنزل الله سبحانه الآيات البينات تؤصّل هذا النوع من الصلاة، وتُثبت للأجيال أن العبادة في وقت الخطر، عبادة الصادقين:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ...﴾ [النساء: ١٠٢].

علّم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه صلاة الخوف، فصلّى بطائفة ركعة، ثم ثبتت تُرابط أمام العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بها الركعة الثانية، وهكذا تناوبوا بين الحراسة والعبادة، بين السيف والمحراب، في توازنٍ مهيب، يُربّي الأجيال أن دين الله لا يضيع فرضه، ولا يُقدَّم عليه شيء، حتى لو كانت السيوف مشهورة، والموت على بُعد خطوة.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن سهل بن أبي حثمة، وغيره، أن هذه الغزوة هي التي صلّى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف، وقد ثبتت بأحاديث كثيرة متواترة عن جمع من الصحابة، مما يدلّ على أهمية هذا الموقف في بناء العقل العسكري الإيماني للأمة.

وفي لحظةٍ من لحظات الغزوة، حين افترش النبي صلى الله عليه وسلم الأرض ليستريح، واستظلّ بشجرة وحده، كانت السماء تُمهّد لمشهدٍ لا يُنسى... مشهد يُختصر فيه معنى اليقين كله، وثقة القلب حين يكون على حدّ السيف. علّق النبي صلى الله عليه وسلم سيفه على غصن الشجرة، فأتى أحد المشركين يُباغته – واسمه **غورث بن الحارث** كما جاء في الصحيحين – فسلّ السيف، ووقف فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بلهجة المنتصر:

»مَن يمنعك مني؟«فقال النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة واحدة، حملت جلال التوحيد وطمأنينة القلب»:**الله.«**فارتعد الرجل، وسقط السيف من يده، وأخذه النبي صلى الله عليه وسلم، ووجّهه إليه وقال»:**ومن يمنعك مني؟«**فقال الرجل وقد تهاوت كبرياؤه: "كن خير آخذ"، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وتركه يرحل، فعاد إلى قومه يقول بصدق»:**جئتكم من عند خير الناس**] .«رواه البخاري ومسلم.[

ما كان ذلك الموقف مجرد عفو، بل كان درسًا بليغًا في الدعوة والثبات والتسامح، درسًا في أن الدعوة لا تُنصر فقط بالسيوف، بل تُنصر بالأخلاق التي تُلين القلوب، وتُرعب الأرواح دون أن تُريق دمًا.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم في قلب العاصفة، لا يجزع، ولا يتراجع، وعلّم أصحابه أن الثقة بالله لا تُقال بالألسن فقط، بل تُثبت في لحظات تكون فيها الجبال أنفسها تميد. قال تعالى:﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إنها التربية النبوية... تربية الصفوف في ظلال الخوف، لا على مقاعد الراحة، تربية تصنع رجالًا يُصلّون وسيوفهم معلّقة، ويحرس بعضهم بعضًا، وينام قائدهم في ظل شجرة بثقة لا تتزلزل، لأن الله معهم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن التوكل الحقيقي على الله يكون في المواقف الحاسمة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "الله" جوابًا

لسؤال المشرك الذي شهر السيف عليه.

- الإيمان بأن الصلاة لا تسقط عن المسلم في أي حال، حتى في ميدان القتال، لأنها عمود الدين وأعظم صلة بالله.
- اليقين بأن الحماية بيد الله وحده، وأن العبد لا يُصيبه إلا ما كتبه الله له.
- أن الطمأنينة في قلب المؤمن في أصعب المواقف ثمرة قوة الإيمان، وأن الخوف الطبيعي لا ينقض اليقين إذا لم يقد إلى تراجع عن الحق.
- أن الله يُؤيد أولياءه بالهيبة والرعب في قلوب أعدائهم دون قتال إذا شاء.

فوائد فقهية

- مشروعية صلاة الخوف على الصفة التي صلى بها النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه، وهي ثابتة بالأحاديث المتواترة.
- جواز تقسيم الجيش إلى طائفتين، إحداهما تحرس والأخرى تصلي، ثم يتبادلان.
- أن حمل السلاح في وقت الصلاة مشروع في حال الخوف، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾.
- جواز الاستظلال بالشجر أو ما تيسر من مظلات في السفر والغزو.
- مشروعية العفو عن الأسير أو المعتدي إذا كان في ذلك مصلحة شرعية راجحة.

فوائد أخلاقية

- الجمع بين القوة والرحمة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان قادرًا على قتل غورث لكنه عفا عنه.
- الثبات الانفعالي وضبط النفس أمام المواقف المفاجئة، وعدم الارتباك عند مواجهة الخطر.
- إظهار العفو والتسامح من أعظم الوسائل الدعوية لتليين قلوب الخصوم.
- التربية العملية على الجمع بين العبادة والحراسة، بحيث لا يطغى جانب على آخر.
- الشجاعة الحقيقية هي الثبات مع الحكمة، لا التهور ولا التردد.

فوائد سياسية ودعوية

- من الحكمة السياسية للنبي صلى الله عليه وسلم إظهار ضبط النفس أمام العدو، مما يعكس ثقة الدولة الإسلامية بنفسها.
- أن نشر هيبة المسلمين لا يكون دائمًا عبر القوة المادية، بل أيضًا عبر المواقف الأخلاقية التي تُربك العدو.
- أن القائد القدوة يؤثر في أتباعه بالموقف العملي أكثر من الخطب النظرية.
- التربية العسكرية الإيمانية تصنع جنديًا يجمع بين مهارة السلاح وروح العبادة.
- التحذير من فرق الضلالة التي تُفرغ الجهاد من معناه الشرعي، كمن يجعلونه مجرد عنف بلا ضوابط كالخوارج، أو من يلغون فريضة الجهاد القلبي والبدني كالمرجئة، أو من يستعينون بالكافرين على المسلمين كالرافضة والباطنية.

مخالفات الواقع لنص الفقرة

- ترك كثير من المسلمين اليوم الصلاة في أوقات الشدة، بحجة الانشغال أو الخوف، بخلاف ما فعله الصحابة في قلب المعركة.
- ضعف التوكل على الله، والاعتماد الكلي على الأسباب المادية، مما يجعل القلوب تهتز أمام التهديدات.
- غياب الجمع بين العبادة والعمل العسكري أو الدعوي، فإما يغلب أحد الجانبين على الآخر أو يُهمل تمامًا.
- إفراط بعض الجماعات في القسوة والقتل، مع إهمال جانب الرحمة والعفو الذي قد يكون أبلغ أثرًا.
- افتقاد القدوة العملية في بعض القادة، مما يضعف ثقة الناس فيهم، على عكس القائد النبوي الذي جسد الإيمان والعمل معًا.
- إهمال التدريب النفسي والانفعالي للمسلمين، مما يجعل كثيرين ينهارون عند المفاجآت أو التهديدات.
- تمكين فرق الضلالة في بعض المجتمعات، حتى غيّروا مفاهيم الجهاد والرحمة، فشوّهوا صورة الإسلام أمام العالم.

الفقرة الثالثة عودة بلا دماء... رسائل الرمال إلى قبائل الغدر

انقضت أيام الغزوة كما تمرّ نسائم الصحراء، هادئةً في ظاهرها، لكنها مشبعةٌ بالرسائل، مشحونةٌ بالدلالات.

لم تُسفك فيها دماء، ولم تُستلّ فيها السيوف لتضرب الأعناق، لكن سهام الهيبة كانت قد أُطلقت، وأوتاد الخوف غُرست في قلوب القبائل التي كانت تُمنّي النفس بيومٍ تُباغت فيه المدينة من ضعف أو فتور.

كانت غزوة "ذات الرقاع" إعلانًا واضحًا أن المدينة النبوية ليست حصنًا ينتظر الحصار، بل منارة تنبعث منها أشعة الردع لتسبق الخطر، وتمنع الفتنة قبل أن تولد.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، بجيشٍ لم يخض قتالًا، لكنه خاض معركة أخرى: معركة الثبات، والجَلد، والتمرين على المبادرة. خاضوا مسيرًا طويلًا فوق الرمال، وطووا الفيافي بأقدامٍ مثقوبة ومربوطة بالخرق، لا تشتكي، بل تكتب على وجه الصحراء: "هنا مرّ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه".

لم تكن أقدامهم وحدها تنزف، بل كانت عزيمتهم تتوهج في كل عرق، تُربّي الأرض أن تعود إلى خالقها شاهدة على صدقهم.

لقد كتب الله لهذه الغزوة أن تكون **غزوة رسالة لا غزوة سيف**، رسالةٌ إلى كل قبائل الغدر، أن المدينة يقظة، ونبيها لا ينتظر حتى يُقرَع عليه الباب، بل يخرج بنفسه، ويطرق أبواب الفتنة قبل أن تُفتح، ويقتلع بذر الشر قبل أن يُثمر. وهذا معنى قوله تعالى في صفة أهل الإيمان:﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، فها هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يُؤدّون الصلاة في صميم الخوف، ويأمرون بالهيبة في زمن التربص، وينهون الفتنة قبل أن تظهر.

وعاد الجيش... نعم، عاد كما خرج: لم تزدهم الغنائم متاعًا، لكن زادتهم التجربة بناءً، وزادت نفوسهم تهذيبًا، وصفوفهم ترتيبًا.

لقد تعلّموا أن النصر ليس فقط في رفع الرايات، بل في ضبط المشاعر، وتربية النفس، والقدرة على اتخاذ القرار في لحظة المشقة. أصبحوا أكثر وعيًا بمفهوم التمكين، وأنه ليس صخب المعارك فحسب، بل حكمة القيادة، وسبق الخطوة، وتوازن النفس.

أربكت هذه الغزوة حسابات القبائل، وبدّدت آمال المتربصين، وصاروا يفكرون ألف مرة قبل أن يُطلقوا سهمًا نحو المدينة؛ فقد أيقنوا أن هذا الدين لا يُؤتى من نومٍ أو تهاون، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُربّي رجالًا لا يُفاجَأون، بل يصنعون المفاجأة، ولا ينتظرون الخطر، بل يسبقونه بالعزم.

لقد دوّت في الصحراء، من غير قتال، رسائل مدوّية :**أن المدينة لا تغفو، وأن رجال العقيدة لا يستسلمون للتعب، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يُرهب بالسيف، بل يُرهب بالصبر والرباط**.كتب الله لهم أجر المجاهدين، وأعطى خصومهم درسًا بليغًا دون أن تُراق قطرة دم.

هكذا غدت ذات الرقاع، في ذاكرة السيرة، غزوة العزم بلا حرب، وغزوة القلوب التي نزلت إلى الميدان لتقول : **"نحن لا ننتظر التهديد، بل ندفنه في مهده."**

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- وجوب الإيمان بأن النصر والتثبيت بيد الله تعالى، وأنه قد يتحقق أجر الجهاد ومقصده ولو لم يقع قتال، إذا تحققت نية نصرة الدين والمرابطة في سبيل الله.
- إثبات أن التمكين الحقيقي هو في إقامة شعائر الدين، وأعظمها الصلاة، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما وصف الله المؤمنين في كتابه.
- الإيمان بصفة الحكمة لله سبحانه، إذ قد يقدّر غزوة بلا دماء لتكون أعظم أثرًا في قلوب الأعداء من المعارك الدامية.
- إثبات أن الهزيمة النفسية للأعداء من أعظم صور النصر التي يكتبها الله لأهل الإيمان، وهذا من سننه في عباده الصالحين.
- وجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في المبادرة لمواجهة الفتنة قبل وقوعها، فهو أعلم بمواضع الخطر، وهذه الطاعة من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة.

فوائد فقهية

- جواز الخروج للغزو والرباط قبل أن يبدأ العدو بالعدوان، إذا كان في ذلك دفعٌ للفتنة وحماية لبيضة المسلمين.
- مشروعية صلاة الخوف على ما ورد في السنة، كما صلاها النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة.
- أن الغنائم ليست شرطًا لصحة الجهاد، فقد يخرج المجاهدون بلا غنيمة، ويكون جهادهم مشروعًا وأجرهم كاملًا.
- وجوب إعداد القوة المادية والمعنوية، ولو لم يقع قتال، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

فوائد أخلاقية وتربوية

- التربية على الصبر على المشقة، كما سار الصحابة على الرمال الحارة وأقدامهم مثقوبة، دون تذمر أو شكوى.
- تقديم مصلحة الدين على مصلحة النفس، حيث فضّل الصحابة التعب والجوع على أن يُؤتى الإسلام من ثغرتهم.
- ضبط المشاعر وقت الشدة، والقدرة على التحكم في النفس وعدم الانجرار وراء الانفعال أو الغضب.
- تعلّم أن المبادرة في الخير والسبق للحق، من صفات الرجال الصادقين، لا ينتظرون حتى يهاجمهم الباطل.

فوائد سياسية واستراتيجية

- أن من السياسة الشرعية المبادرة بالتحرك قبل وقوع الخطر، فهذا يمنع العدو من التفكير في الهجوم أصلًا.
- الحرب النفسية قد تُغني عن الحرب العسكرية، إذا أُحسن التخطيط وأُرسلت الرسائل المناسبة للأعداء.
- إظهار اليقظة الدائمة، حتى يدرك الخصوم أن المسلمين لا يُؤتون من غفلة أو تهاون.
- وحدة الصف الداخلي والالتزام بالقيادة هي أعظم قوة سياسية في مواجهة الأعداء الخارجيين.
- هذا النهج يقطع الطريق على فرق الضلالة التي تتربص بالأمة لتثير الفتن من الداخل، مثل الخوارج الذين يستغلون الثغرات الأمنية والفكرية للطعن في جماعة المسلمين وإضعاف شوكتهم.

مخالفات الواقع المعاصر

- تقاعس كثير من الدول والمجتمعات المسلمة عن المبادرة لردّ الفتن قبل وقوعها، حتى إذا وقعت كان التعامل معها متأخرًا وضعيفًا.
- ضعف اليقظة الأمنية والفكرية، مما جعل كثيرًا من الأعداء ينجحون في زرع الفتن الداخلية قبل أن تُكتشف.
- انتشار روح الرفاهية المفرطة التي جعلت الشباب ينفرون من تحمل المشقة في سبيل نصرة الدين.
- ظهور فرق الضلالة المعاصرة التي تتزيّا بلباس الدين وتعمل على شق صف الأمة، وتفتح ثغرات للأعداء باسم

الإصلاح أو الثورة، وهم في الحقيقة على طريقة الخوارج المارقين الذين حذر منهم النبي صلى الله عليه وسلم.

- غياب ثقافة "الحرب النفسية" و"الردع المعنوي" في كثير من سياسات المسلمين اليوم، مما شجّع الخصوم على التجرؤ.
- انشغال بعض المجتمعات بالصراع الداخلي، وإهمال العدو الخارجي المتربص.

غزوة دومة الجندل... حين بلغ السيف أطراف الروم

مقدمة

لم تكن المدينة وحدها هي التي تشهد تحركات النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تكن قبائل الحجاز فقط تحت أنظار الدولة النبوية. بل كانت عين النبوة تسبق أقدام العساكر، تُراقب الغدر في أقاصي البادية، وتحصي الأنفاس التي تتحرك في المدى البعيد. هناك، على تخوم الشام، حيث تتلاقى أطراف الجزيرة بأطراف الروم، كانت **دومة الجندل** تنام على حافة الحدث. قبائلها تعربدت على القوافل، وقطّاع الطرق بدأوا يتهددون أمن التجارة والدعوة، فنهضت المدينة في وقتٍ لم يكن أحد يتوقع أن تصل إليه يد النبي.

كانت المسافة إلى دومة الجندل طويلةً تُقدّر بأكثر من خمس مئة كيلو، والطريق مُوحش، مليء بالمفاجآت والمخاوف، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرر أن يسبق الخطر، وأن يُعلن لأهل البوادي، بل ولجيران الروم أنفسهم، أن الدولة المسلمة لم تعد أسيرة حدود المدينة، بل صارت تُمسك بخيوط القوة في الجزيرة كلها.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه، في غسق الليل، لا يعلم أحد بوجهة المسير، حتى فوجئ الناس بأن رايات المدينة ترتفع فوق الرمال الممتدة نحو الشمال. كانت رحلةً للتأديب، ولكنها أيضًا رحلة للتخويف، ورسالة للمجتمع الدولي آنذاك :**الإسلام لن ينتظر حتى تأتيه الغارات، بل سيلاحق جذور الفتنة في أقصى الأرض.**

وهكذا، ولدت غزوة دومة الجندل كأبعد تحرك عسكري للنبي صلى الله عليه وسلم حتى تلك اللحظة، وكأول خطوة نحو مواجهة القوى الكبرى، في تمهيد تاريخي لما سيكون لاحقًا :**غزوة تبوك... وبداية فتح الشام.**

الفقرة الأولى مسيرٌ طويل في ليل الصحراء... حين صارت هيبة المدينة تسبق ظلّ السيوف

لم تكن غزوة دومة الجندل كبقية الغزوات التي عرفتها أرض الجزيرة، بل كانت منعطفًا استراتيجيًا في مسار الدولة النبوية، وتحوّلًا مدهشًا في فلسفة الحضور الإسلامي على خريطة العرب.

إنها الغزوة التي لم يُرفع فيها سيف في وجه عدوٍ محدد، لكنها رفعت هيبة الإسلام في وجه الزمن كله.

انطلق النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، لا في نفرٍ قليل، بل في كتيبةٍ عظيمة بلغت ألف مقاتل، يسيرون في سكون الليل، دون إعلان ولا صوتٍ يسبقهم، لا طبول حرب، ولا رايات تُنشر على الطرقات، بل يتحركون كما يتحرك الوحي: في هدوءٍ تام، لكنه زلزالٌ في قلوب من يرقبون من بعيد.

كان المسير طويلًا، امتدّ يخترق الصحراء الشاسعة، ويطوي أرضًا لم تجرؤ جيوش من قبل على أن تتخذها طريقًا لحملة عسكرية.

لكن جيش الإيمان لا يعرف جغرافيا مغلقة، ولا حدودًا يقف عندها، فقد تجاوزوا مضارب القبائل، ومرّوا بين ديار المتربصين، لا ليخوضوا قتالًا فقط، بل ليقولوا :المدينة لم تعد تترقب الخطر، بل تصنع الأمن، وتغزو الفتن قبل أن تتحرك.

لم يكن الطريق معبّدًا ولا ممهّدًا، بل كان مرهقًا، والبرد يلسع الوجوه، والليل طويل يطوي الأجساد في صمته، لكن ما وهن العزم، وما ارتجف في القلوب شيء، بل كانت عيون الصحابة تتقد نورًا، فيها فهم جديد، وتربية عميقة :أن هذا الدين لا يعرف الثبات في رقعةٍ ضيقة، بل هو رسالة توسّع، وهمّ عالمي، لا يرتضي الجمود في بقعة، ولا يُحبس في جغرافيا محدودة.

لقد حملت غزوة دومة الجندل بُعدًا جديدًا في صناعة الهيبة، وأثبتت أن الإسلام لم يعد دين نجاةٍ فردية، ولا دعوة في نطاق الحرم، بل مشروع أمة تزرع الأمن، وتبني السياسة على بصيرة، وتُربّي القلوب على أن المسؤولية لا تنتهي بحماية المدينة، بل بسبق المخاطر، وكسر أنيابها قبل أن تعضّ.

قال ابن هشام في "السيرة"، وابن سعد في "الطبقات"، والواقدي: إن الأخبار بلغت النبي صلى الله عليه وسلم أن دومة الجندل صارت مركزًا لقطاع الطرق، وأنهم يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فبادر بالخروج إليهم، وسار جيشه ليلًا، يُغالبون التعب والجوع والصقيع، حتى بلغوا مضارب العدوّ، فإذا القوم قد تفرقوا رُعبًا، قبل أن يسمعوا صوت حافر، أو يروا طرف سيف.

إنه المشهد الأعجب... لم يُسمع في دومة الجندل صليل سيوف، لكن ارتجفت فيها القلوب، وسبقها الخوف، ففرّ القوم في الصحارى، وكأن رائحة الإيمان بلغت أنوفهم قبل وقع الأقدام.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم أيامًا في الأرض، وبعث السرايا، فوقع في الأسر بعضٌ منهم، وغنم المسلمون شيئًا من الأموال، ثم عاد الجيش كما خرج، دون قتال، لكنّه ترك في تلك النواحي خريطةً جديدة للإسلام، تقول بلغة واضحة : الإسلام لا ينتظر على أبواب المدينة، بل يصل إليكم حيث لا تتوقعون، ويُرهبكم ولو لم تروا رايته.

وكأن هذه الغزوة تصدق فيها الآية الكريمة:﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال»:نُصِرتُ بالرُّعب مسيرة شهر] «رواه البخاري ومسلم.[

لم تكن غزوة دماء، بل كانت غزوة هيبة. لم تكن غزوة قتل، بل غزوة ردع. لم تكن غزوة ردّ فعل، بل غزوة سبق واستباق. عاد النبي صلى الله عليه وسلم منصورًا، لأن الرسالة وصلت، والرعب سبق، وأصبح لهيبة المدينة ظلٌّ يُرهب دون قتال.

لقد طُبعت على جبين الصحراء في ذلك اليوم كلماتٌ لا تُنسى" :المدينة لا تنام، ونبيّها لا يُفاجأ، وأصحابه لا يعرفون السكون حتى يسبقوا الريح إلى مظانّ الخطر."

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- عظمة توكل النبي صلى الله عليه وسلم على الله مع إحكام التخطيط، إذ جمع بين الثقة المطلقة بربه وبين الأخذ بكامل الأسباب المادية.
- تصديق وعد الله بنصر المؤمنين بالرعب قبل القتال، وهو من أعظم دلائل تأييد الله لأوليائه.
- بيان عالمية الرسالة الإسلامية، وأنها لا تُحبس في حدود جغرافية أو قومية.
- الإيمان بأن الحماية الحقيقية للأمة تأتي من الله، وأن الأخذ بالأسباب جزء من تحقيق العبودية له.
- إظهار أن النصر قد يتحقق دون إراقة دماء إذا شاء الله، وأن الغاية في الإسلام ليست القتل، بل إقامة العدل والأمن.

فوائد فقهية

- جواز السير بالجيش ليلًا سرًا إذا كان أبلغ في تحقيق المقصود.

- جواز خروج الإمام بنفسه على رأس الجيش إذا اقتضت المصلحة.
- مشروعية إرسال السرايا بعد الوصول لتأمين المنطقة.
- جواز أخذ الغنائم والأسرى من العدو ولو لم تقع معركة مباشرة إذا فرّوا خوفًا.
- جواز التحرك العسكري الاستباقي إذا وُجدت دلائل على نية العدو الاعتداء.

فوائد أخلاقية

- الصبر على مشاق الطريق وتحمل البرد والجوع في سبيل نصرة الدين.
- الإخلاص في العمل وعدم ربطه بالمكاسب المادية.
- الانضباط والطاعة الكاملة لأوامر القائد.
- الثبات النفسي أمام المشاق والشدائد.
- استحضار الهدف الكبير مما يجعل المشقة تهون.

فوائد سياسية

- قوة الحضور السياسي للدولة النبوية على خريطة الجزيرة العربية من خلال سياسة الردع.
- أهمية المبادرة في ردع التهديدات قبل أن تتحول إلى خطر فعلي.
- ترسيخ صورة الدولة المسلمة القادرة على حماية حدودها البعيدة.
- أن السياسة في الإسلام قائمة على البصيرة والعدل، لا على العدوان.

فوائد عسكرية

- أهمية عنصر المفاجأة في التحركات العسكرية لتحقيق النصر بأقل تكلفة.
- فعالية التحرك السريع والقوي في قلب مناطق بعيدة لزرع الهيبة.
- التخطيط اللوجستي الدقيق لعبور الصحراء الطويلة بألف مقاتل.
- أن الحشد الكبير في بعض المواقف يكون وسيلة ردع نفسية للعدو.

فوائد تربوية

- تربية النفوس على أن الدعوة مسؤولية ممتدة لا تتوقف عند حدود المدينة أو الوطن.
- غرس قيمة الاستباق للمخاطر بدل انتظارها.
- تعليم الأمة أن الأمن الحقيقي يبدأ من قوة المبادرة لا من رد الفعل.
- تربية القلوب على الاستعداد الدائم، وعدم الركون للدعة والراحة.

فوائد تاريخية

- غزوة دومة الجندل شكلت نقطة تحول في استراتيجية الدولة النبوية.
- هذه الغزوة مثال فريد لانتصار الهيبة دون معركة دامية.
- وضحت للقبائل البعيدة أن الإسلام قوة حقيقية تصلهم أينما كانوا.
- أثبتت أن موقع المدينة أصبح مصدر أمن ورعب في آن واحد.

مخالفات الواقع

- غياب منهج الاستباق للمخاطر في واقع الأمة، والاكتفاء بردود الأفعال بعد وقوع البلاء، مما يضاعف الخسائر.
- انتشار الفكر الانهزامي الذي يجعل المسلمين يظنون أن مواجهة القوى المعادية أمر مستحيل، بدلًا من الثقة في وعد الله

بالنصر لمن أخذ بالأسباب.

- اقتصار نظرة كثير من المسلمين على الدين باعتباره شعائر فردية فقط، وإهمال بُعده في إقامة العدل وحماية الأمة.
- ضعف روح التضحية وتحمل المشاق في سبيل نصرة الدين، مع انشغال الناس باللهو والترف والراحة.
- فقدان الانضباط في العمل الجماعي، مما يضعف المشاريع الكبرى ويجعلها عرضة للفشل.
- تغلغل **فرق الضلالة** في عقول بعض الشباب عبر وسائل الإعلام ومواقع التواصل، تبث الشبهات وتزيّن الانحراف عن منهج أهل السنة والجماعة.
- جرأة هذه الفرق على الطعن في ثوابت الدين، وتحريف النصوص عن مواضعها لتبرير أفكارها المنحرفة.
- سعي هذه الفرق لتشويه صورة العلماء الربانيين، وفصل الشباب عنهم، حتى يسهل عليهم قيادة عقولهم نحو الفتنة.
- نشر أفكار تؤدي إلى التمرد على الجماعة المسلمة وشق صف الأمة، مما يفتح أبواب الدماء والفوضى.
- استغلال الأزمات السياسية والاقتصادية لإشعال الفتن والتحريض، بدلًا من الدعوة للإصلاح بضوابط الشرع.
- شيوع حالة من اللامبالاة بالأمن العام، حتى صار بعض المسلمين لا يكترث لما يحاك ضدهم إلا إذا مسّ بيته أو ماله مباشرة.
- انتشار التحزبات الجاهلية والعصبيات القومية التي تفرّق الأمة، بدل اجتماعها على كلمة التوحيد.
- الغفلة عن قيمة "هيبة الإسلام" في نفوس الأعداء، والاكتفاء بالشكل دون القوة الفعلية.

الفقرة الثانية على أطراف الشام... حين تكلّمت الخُطى بلغة السياسة والرسالة

ما كانت غزوة دومة الجندل رحلة عابرة، ولا حملة عسكرية عادية، بل كانت إيذانًا بتحوّلٍ جذريّ في بوصلة الدعوة، وانتقالًا حاسمًا من الداخل إلى الآفاق، من المحيط المحلي إلى المجال الإقليمي، ومن التعامل مع القبائل إلى مخاطبة القوى الكبرى على تخوم الشام.

هناك، في الصحراء الممتدة بين المدينة والشمال، لم يُبعث الجيش النبوي لمجرد تأديب قطاع طرقٍ كانوا يقطعون الطريق على التجّار، بل خرج النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في ألف من أصحابه، يقطع المسافات الطويلة، ويُسابق الخطر قبل أن يصل تخوم دولته.

لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمن لا يتحقق بالأسوار، بل بالاستباق، وأن الدولة لا تُبنى فقط على السيف، بل على البصيرة وامتلاك زمام المبادرة.

كانت دومة الجندل إحدى بوابات الشام، حيث تسكن قبائل عربية تحت نفوذ الروم، وتُعدّ نقطة حيوية في شبكة التجارة بين الشام والجزيرة. وبهذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليُرسل رسائل مدوّية:

إلى قبائل البادية: أن المدينة النبوية ليست غافلة، وأن ظلها يمتد إلى أقصى الشمال.

وإلى الروم: أن الإسلام لم يعد شأنًا داخليًا في يثرب، بل أصبح مشروعًا أمميًا، له أعينٌ ترقب، وجنودٌ يتحركون، ورايةٌ ترفرف في الأفق البعيد.

وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى دومة الجندل، فلم يجد القوم إلا وقد تفرّقوا، تسبقهم رجفة الخوف، وكأن الرعب قد بُعث إليهم قبل أن تطأ أقدام الصحابة الرمال، وتقدّم الإيمانُ إلى مضاربهم قبل أن يُسمع وقع سنابك الخيل.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم في المنطقة أيامًا، وبعث السرايا، فأُسر منهم رجال، وغنم المسلمون بعض المال، لكن الغنيمة الحقيقية كانت في تلك الهيبة التي سكنت القلوب، والرسالة التي وصلت إلى أعماق الشام: أن الإسلام حاضر، حيث لم يكونوا يظنون.

لم يكن في الغزوة قتال، ولكن كان فيها انتصار. لم يُرفع فيها السيف، لكن رُفعت فيها هيبة الرسالة. وقد سجّلت كتب السيرة هذا الحدث الفاصل لا باعتباره مواجهةً عسكرية، بل لأنه كان قفزة استراتيجية في بناء الدولة الإسلامية، ومفصلًا في رسم خريطة جديدة للقوة في الجزيرة.

وقد تحقق فيه قوله تعالى}:**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** {
]الأنفال: ٦٠[
فقد كانت رهبة القوة هذه أبلغ من حد السيوف، وأسرع من وقع النبال.

وكان فيه من التطبيق العملي لقوله صلى الله عليه وسلم":**الحرب خدعة**] "صحيح البخاري]، فكان الخروج مفاجئًا، والهدف غير مُعلن، والخطة مرسومة بصمتٍ شديد، حتى بدت المدينة وكأنها نائمة، بينما جيشها يتحرك بخطى العزم في قلب الصحراء.

وهكذا، لم تكن غزوة دومة الجندل مجرد موقفٍ طارئ، بل كانت إعلانًا سياسيًا ورسالةً دولية، تقول لكل من على أطراف الجزيرة:
إن للإسلام أفقًا لا يُحاصر، ورسالة لا تُوقفها حدود، ونبيًا لا يُداهمه الخطر بل يُداهمه، وبيني أمةً لا تنتظر الدفاع بل تصنع المجد وتؤمن المستقبل.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن الإسلام دين عالمي لا يُحبس داخل حدود جغرافية، بل رسالته تمتد إلى كل أفق، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾.
- وجوب الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج بنفسه مع التخطيط المحكم.
- أن من سنن الله في النصر أن يُلقي الرعب في قلوب الأعداء قبل المواجهة الفعلية، كما وقع في دومة الجندل.
- مشروعية إظهار القوة لترهيب أعداء الله وعدو الأمة، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم﴾.
- أن الأمن الحقيقي للأمة لا يتحقق بالتحصين المادي وحده، بل بالإيمان واليقين بالله، وامتلاك زمام المبادرة.

فوائد فقهية

- جواز أن يقود الإمام بنفسه الجيش إذا اقتضت المصلحة.
- جواز التحرك العسكري المفاجئ دون إعلان الهدف، إذا كان ذلك أدعى لتحقيق الغاية.
- جواز إرسال السرايا في أرض العدو بعد الوصول لفرض السيطرة وتأمين المنطقة.
- مشروعية الغزو الاستباقي لردع قطاع الطرق ومنعهم قبل وقوع جرائمهم.
- جواز أخذ الغنائم والأسرى حتى من غير وقوع قتال إذا تحقق النصر بالهيبة والرعب.

فوائد اخلاقية

- الصبر على مشقة السفر وتحمل وعورة الطريق في سبيل نصرة الدين.
- الطاعة والانضباط في تنفيذ الخطط المرسومة بدقة.
- الإخلاص في العمل وابتغاء وجه الله، لا مجرد المكاسب المادية.
- شجاعة الإقدام على مناطق نفوذ القوى الكبرى دون خوف أو تردد.
- استحضار الهدف الكبير الذي يهون أمامه كل تعب.

فوائد سياسية

- أن الغزوة كانت إعلانًا سياسيًا لقوة الدولة الإسلامية أمام القبائل والروم.
- أهمية الوصول إلى مناطق النفوذ الكبرى لتغيير الموازين السياسية.
- أن الردع الاستراتيجي قد يحقق نتائج أعظم من الحرب المباشرة.
- أن السياسة في الإسلام تقوم على الجمع بين الحزم والبصيرة.

فوائد عسكرية

- قوة عنصر المفاجأة في شل حركة العدو قبل المواجهة.
- أثر التحرك السريع نحو مناطق بعيدة في رفع الهيبة.
- التخطيط الصارم والكتمان التام في تحريك الجيوش.
- أن الحشود الكبيرة قد تكون أداة ردع دون إراقة دماء.

فوائد تربوية

- تربية الأمة على أن تكون المبادِرة لا المنتظِرة للهجوم.
- غرس قيمة الاستباق للأخطار قبل وقوعها.
- تعليم أن العزيمة والجدية في حماية الدين لا تعرف الكسل أو التراخي.
- إحياء روح العمل الجماعي المنظم.

فوائد تاريخية

- أن غزوة دومة الجندل كانت نقطة تحول في انتقال الدعوة إلى الأفق الإقليمي.
- أنها كانت أول احتكاك مباشر مع أطراف نفوذ الروم.
- أنها رسخت صورة المدينة كقوة سياسية وعسكرية مؤثرة.
- أنها نموذج لانتصار الهيبة دون سفك دماء.

مخالفات الواقع

- اقتصار كثير من المسلمين اليوم على رد الفعل بعد وقوع الأزمات، بخلاف منهج الاستباق النبوي.
- ضعف الوعي بأهمية القوة الردعية في حماية الأمة وهيبتها.
- تربية الأجيال على الانكماش والخوف من القوى الكبرى، بدل الثقة بوعد الله.
- غياب التخطيط الإستراتيجي البعيد المدى في كثير من مؤسسات الأمة.
- انشغال الناس باللهو والترف عن تحمل مسؤوليات حماية الدين.
- تغلغل فرق الضلالة في عقول بعض الشباب، تبث الشبهات وتزيف الحقائق باسم الحرية أو الإصلاح.
- استغلال هذه الفرق للجهل بالدين لتغيير مفاهيم الولاء والبراء، وتزيين موالاة أعداء الله.

- تحريف النصوص الشرعية عن مواضعها لتبرير التمرد على الجماعة المسلمة وشق الصف.
- محاولة هذه الفرق فصل الأمة عن علمائها المعتبرين، لتبقى بلا مرجعية تضبطها.
- نشر الفكر الفوضوي الذي يرفض النظام، مما يفتح أبواب الدماء والفتن.
- تغليب المصالح الشخصية أو القطرية على مصلحة الأمة الجامعة.
- ضعف الروح الجهادية بمعناها الشامل (جهاد الدعوة، وجهاد النفس، وجهاد الحجة.(
- الغفلة عن أن إظهار قوة الإسلام وهيبته واجب مستمر، وليس حدثًا تاريخيًا مضى.

الفقرة الثالثة غزوة بغير سيوف... وهيبة تمهّد لطريق تبوك

لم يكن في غزوة دومة الجندل صليلُ سيوفٍ، ولا تصادمُ صفوف، لكنها كانت غزوة بكل معاني العظمة: خرج فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وزُرعت فيها المهابة، وثُبّتت فيها قواعد القيادة الممتدة.

لم يكن الهدف القتال فحسب، بل الحضور، والإشعار، والتهيئة النفسية والجغرافية لما هو أعظم. لقد كان هذا التحرك تمهيدًا أوليًّا لرسم طريق الغزوة الكبرى القادمة :**غزوة تبوك**، حين تزاحم رايات الإسلام حدود الروم.

عادت القافلة النبوية من أقاصي الصحراء، والمدينة تستقبل رجالًا لم يخوضوا معركة، لكنهم عادوا من ميدان تربية. قطعوا مئات الأميال، ورجعوا بتصوّر جديد عن حجم الدولة، وعن رسالتهم العالمية.

لم يعودوا أصحابَ حدود، بل صاروا جنودَ أمةٍ تحمل مشروعًا ربانيًّا يطرق أبواب الأرض من أقصاها إلى أقصاها.

لقد أثبت النبيُّ صلى الله عليه وسلم بهذا التحرك أن الدعوة لا يُغني عنها الخطاب وحده، بل تحتاج إلى **الهيبة في الأرض، والتخطيط البعيد، وبعث الرسائل غير المباشرة في أرض الواقع** .

وكانت دومة الجندل أول معراجٍ دعويٍّ نحو الشام، وبداية الانتقال من الداخل العربي إلى العالم الأكبر.

لم تكن غزوة مواجهة، بل غزوةً معنوية عظيمة التأثير، كسرت العزلة، وأعلنت نضج الدولة الإسلامية، وجهوزيتها لتكون قوةً حاضرةً على خريطة الأحداث

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تأكيد أن الإسلام دين عالمي، ورسالة ربانية تتجاوز الحدود الجغرافية لتطرق أبواب الأرض كافة.
- وجوب الجمع بين تبليغ الدعوة وإظهار قوة الإسلام وهيبته في الأرض، لأن الخطاب وحده لا يكفي.
- أن التخطيط البعيد والمبادرة من سنن الأنبياء في إقامة الدين ونشره.
- مشروعية بعث الرسائل غير المباشرة للأمم والشعوب ضمن العمل الدعوي والسياسي.
- بيان أن نصرة الدين ليست دائمًا في ساحات القتال، فقد تكون في خطوات استراتيجية تبني هيبة الأمة.

فوائد فقهية

- جواز التحرك العسكري دون نية القتال الفوري إذا كان الهدف الردع أو التهيئة لمرحلة أكبر.
- جواز السفر الطويل للمصلحة العامة للدعوة ولو لم يقع فيه قتال.
- مشروعية إظهار القوة أمام القوى الكبرى لإبلاغ رسالة الإسلام وردع العدو.
- أهمية تهيئة الجنود نفسيًا ومعنويًا قبل مواجهة كبرى، كما كان تمهيد دومة الجندل لتبوك.
- جواز أن تكون الغزوة لأهداف معنوية وسياسية لا لمواجهة مسلحة مباشرة.

فوائد أخلاقية

- الصبر على طول الطريق ومشاق الصحراء في سبيل نصرة الدين.
- التربية على النظر الواسع لقضايا الأمة بدل الانحصار في الشأن المحلي.
- ترسيخ روح الانضباط والطاعة في تنفيذ الخطط البعيدة.
- غرس الثقة في قدرة الأمة على بلوغ آفاق بعيدة في الدعوة والسياسة.
- العمل بروح الفريق الواحد تحت قيادة موحدة.

فوائد سياسية

- غزوة دومة الجندل كانت خطوة مدروسة لإيصال رسالة سياسية للروم والقبائل على حدودهم.
- أن حضور الدولة في الساحة الإقليمية يعزز هيبتها ويؤمّن حدودها.
- أن السياسة النبوية تبني القوة عبر مراحل متدرجة، تبدأ بالتهيئة وتنتهي بالمواجهة عند الحاجة.
- أن إظهار الجاهزية للمواجهة المستقبلية يردع العدو عن التفكير في الاعتداء.

فوائد عسكرية

- أهمية التحرك الميداني قبل المعركة الكبرى لاختبار القدرة على قطع المسافات وتأمين الطرق.
- أن التحرك العسكري قد يكون أداة تدريب وتأهيل للجنود قبل المواجهة الحقيقية.
- أن كسر العزلة الجغرافية للأمة ضرورة في التخطيط العسكري الإستراتيجي.
- أن الغزو المعنوي قد يسبق الغزو الميداني ويمهّد له.

فوائد تربوية

- تربية الأفراد على الارتقاء بالتصور من الانتماء المحلي إلى الانتماء للأمة.
- تعليم أن إعداد القوة وبناء الهيبة جزء من العبادة.
- غرس فهم أن النصر يُبنى على مراحل، تبدأ بالتهيئة وتنتهي بالتمكين.
- تعزيز الصبر والتحمل في سبيل الأهداف الكبرى.

فوائد تاريخية

- أن غزوة دومة الجندل كانت تمهيدًا مباشرًا لغزوة تبوك، أكبر مواجهة مع الروم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.
- أنها شكلت أول خطوة استراتيجية نحو الشام خارج الحدود الداخلية للجزيرة.
- أنها أثبتت نضج الدولة الإسلامية وقدرتها على التفكير الإقليمي والدولي.
- أنها كسرت العزلة السياسية والعسكرية للمسلمين في ذلك الزمن.

مخالفات الواقع

- انشغال بعض المسلمين اليوم بالقضايا الجزئية داخل حدودهم، وإهمال البعد العالمي للإسلام.
- غياب التخطيط البعيد المدى في كثير من المشاريع الدعوية والسياسية للأمة.
- ضعف الاهتمام بإظهار قوة الأمة وهيبتها أمام القوى المعادية، مما جرّأ الأعداء.
- تقصير في تهيئة الأجيال نفسيًا وفكريًا لمواجهة التحديات الكبرى.
- انتشار الفكر الانعزالي الذي يرفض الانخراط في قضايا الأمة خارج الإطار المحلي.
- ترك الساحة الإعلامية والسياسية لخصوم الأمة حتى صاروا هم من يصنع الرسائل للعالم.
- تغلغل فرق الضلالة التي تحارب فكرة عالمية الإسلام، وتدعو إلى حصره في الطقوس الفردية.
- محاولة هذه الفرق تشويه صورة الدعوة الجهادية المشروعة، ووصمها بالتطرف لإبعاد المسلمين عنها.
- بث أفكار الانهزامية أمام القوى الكبرى، واعتبار الصدام معها قدرًا لا يمكن دفعه.
- ضعف الوعي بأن نصرة الدين قد تكون في خطوات استراتيجية وهيبة معنوية، لا في القتال وحده.
- الغفلة عن أهمية الإعداد المسبق للمواجهات الكبرى، والاكتفاء بردود الأفعال.
- تضخيم الخلافات الداخلية بين المسلمين حتى تنشغل الأمة بنفسها عن عدوها الخارجي.

انتهى الباب السابع ويليه الباب الثامن ان شاء الله تعالى

الباب الثامن غزوة الأحزاب... يوم الجمع والزلزال

مقدمة

في عامٍ شديدٍ من أعوام المدينة، اجتمعت على الإسلام جموع الكفر كما لم تجتمع من قبل، قريشٌ وغطفانُ واليهودُ والمنافقون... تداعت قلوبهم حقدًا، وساقتهم أهواؤهم كالسيل الجارف يريد اقتلاع نبتة الإيمان من جذورها.
كانت المدينة الصغيرة محاصرة من كل جانب، الريح تعصف، والقلوب تبلغ الحناجر، والظنون تزلزل النفوس. هناك تمايز الصفان: صفٌّ يؤمن بأن وعد الله حق، وصفٌّ يقول *ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا*.

وفي تلك اللحظات الحالكة، بزغ نور اليقين من بين الرمال، ثبت النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثغر الإيمان، يزرع في أصحابه الأمل وهم يحفرون الخندق، ويقول بثقة السماء:

»اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة.«

كانت غزوة الأحزاب امتحانًا للإيمان، وتمحيصًا للصفوف، وتاريخًا يُسطّر فيه أن النصر لا يكون بكثرة العَدد ولا بوفرة العُدَد، وإنما بثبات القلوب على الوعد.
فما إن انقشع الغبار حتى نزل قول الله جلّ وعلا يخلّد الموقف العظيم:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

الفقرة الأولى ريح الغدر تهبّ من خيبر... مؤامرة بني النضير على المدينة

لم يُطفئ جلاءُ بني النضير عن المدينة نار حقدهم، ولم تُطفئ الرحيل من حصونهم جذوة العداوة في صدورهم، بل حملوا معهم إلى خيبر قلوبًا سوداء تتربص بالإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، ونفوسًا امتلأت غلاً وكراهيةً لكل ما جاء به من نور وهدى.

وما إن استقرّوا هناك، حتى بدأوا ينفثون سمومهم ويحيكون خيوط الغدر في الخفاء، يطرقون أبواب قريش وغطفان وبني قريظة، يحرّضونهم على حرب شاملة، ويعرضون المال والسلاح، ويعدونهم بالخيانة من داخل المدينة.

لقد أرادوا أن يشعلوا أكبر مؤامرة شهدتها الجزيرة العربية آنذاك، مؤامرة الأحزاب التي تهدف لإبادة الدولة الوليدة واقتلاع الإسلام من جذوره، وإعادة الجاهلية لتعلو المنبر من جديد.

تحرّك وفدهم إلى مكة بخبث مدروس، يثيرون في قريش نار الثأر لأحد، ويغذّونهم بشهوة الانتقام، ويؤكدون لهم أنهم سيكونون عونًا لهم من الداخل.

قاد هذه المؤامرة زعماؤهم الكبار، وفي مقدمتهم حيي بن أخطب، وسلَّام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، أولئك الذين عرفتهم المدينة بالغدر ونقض العهود، فلم يكتفوا بالخروج منها، بل جعلوا من خيبر قاعدة لإدارة الصراع ضد الإسلام. وكانوا يعلمون أن ما يقدمون عليه مغامرة قد تجرّ على الجميع الهلاك، لكن الكراهية أعمت بصائرهم، وقدّموا الحقد على الحساب والعقل.

وهكذا بدأت نذر المعركة تتجمع، لا من قريش وحدها، بل من قلوب امتلأت حقدًا في خيبر، ونفوس بايعت الشيطان على أن تطفئ نور الله، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

ولم تكن المدينة حينها تدري أن الريح التي هبّت من الشمال ستتحوّل إلى أعنف عاصفة عسكرية تواجهها حتى ذلك الحين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، لكنّها كانت معركة كتب الله فيها العاقبة للمتقين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- العداوة للإسلام عقيدة راسخة في قلوب الكافرين لا تزول إلا بزوال كفرهم، مهما أظهروا من مودة زائفة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.
- سنة الله في أن الحق يُحارب من الباطل بكل قوة، وأن أهل الكفر يتعاونون مع اختلافهم العقدي ضد الدين الحق.
- ثبات وعد الله بنصر أوليائه وحفظ دينه، مهما كانت قوة الأعداء وتكالبهم.
- الابتلاء بالشدائد والتهديدات من سنن الله لتمحيص الصف المؤمن وكشف المنافقين.
- الحقد والغل من أمراض القلوب التي تحجب العقل عن رؤية العواقب وتدفع إلى التهلكة.

فوائد فقهية

- وجوب أخذ الحيطة من أعداء الإسلام وإعداد القوة قبل هجومهم، تنفيذًا لأمر الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.
- حرمة الغدر ونقض العهود، وأنه من صفات المذمومين في الدنيا والآخرة.
- مشروعية العمل الاستخباري وجمع المعلومات عن العدو لدفع شره.
- لزوم اجتماع كلمة المسلمين تحت راية واحدة عند مواجهة الأخطار الكبرى.

فوائد سلوكية

- الحذر من الانسياق وراء الحقد والانتقام، فذلك يعمي القلب ويُفسد التدبير.
- الانضباط في الأزمات، وعدم الانجرار للعواطف التي تضر أكثر مما تنفع.
- الثبات أمام التهديدات والضغوط النفسية، والثقة في وعد الله بالنصر.
- التخطيط المحكم في إدارة الأزمات، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب.

فوائد أدبية

- قوة التصوير في الربط بين "ريح الغدر" وواقع المؤامرة، مما يرسخ المشهد في الأذهان.

- توظيف المشهد القرآني ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ...﴾ في رسم صورة وجدانية للهول الذي واجهه المؤمنون.
- إبراز المفارقة بين النور الذي جاء به الإسلام والظلام الذي أراده الأعداء.
- عرض الشخصيات المعادية بأسلوب يكشف عن دافعها النفسي والعقدي دون تهويل غير مبرر.

فوائد سياسية

- الأعداء قد يستخدمون المال والسلاح والتحالفات السياسية لإسقاط الدول من الداخل قبل المواجهة العسكرية.
- إدارة المعركة الإعلامية والنفسية جزء من الحرب، كما فعلت قريش بتحريك دافع الثأر.
- وجود قواعد خارجية لإدارة الصراع ضد الأمة يضاعف الخطر على أمنها واستقرارها.
- التآمر الداخلي مع القوى الخارجية أخطر على الأمة من المواجهة المباشرة.

مخالفات الواقع

- سعي بعض القوى الدولية والإقليمية اليوم لتكرار سيناريو الأحزاب، بحشد التحالفات العسكرية والسياسية والإعلامية لضرب وحدة الأمة.
- انتشار فرق الضلالة التي تخدع الشباب بشعارات براقة، وتغرس فيهم فكر التكفير والخروج، فتقودهم إلى الفتن وسفك الدماء، على منهج الخوارج الذين حذر منهم النبي صلى الله عليه وسلم.
- وجود تيارات فكرية منحرفة تعمل على التشكيك في ثوابت الدين، وتزيين الانحلال، وتفريغ الشباب من عقيدتهم حتى يسهل استغلالهم.
- تعاون بعض المنتسبين للإسلام مع أعداء الأمة في مشاريع إعلامية أو سياسية، مقابل مصالح دنيوية، على نهج المنافقين في العصور السابقة.
- انشغال كثير من المسلمين بصراعات داخلية جانبية، مما يضعف الصف ويفتح الباب أمام الطامعين.
- غياب الوعي التاريخي عند بعض الأجيال، مما يجعلهم يكررون أخطاء من سبقهم في التعامل مع العدو.
- ضعف التربية العقدية الصحيحة، وترك المجال للمنابر غير المؤتمنة لتشكيل وعي الشباب.

الفقرة الثانية : طبول الكفر تُقرع... وألوية الباطل ترفرف على أبواب المدينة

ما إن بسط بنو النضير حبال فتنتهم، وألقوا طُعوم الغدر في مجالس قريش، حتى دوّت نداءاتهم في أروقة الشرك، وأشعلوا فتيل الحقد المتوارث في صدور أعداء الدين.

فما كان من صناديد مكة إلا أن هبّوا يلبّون تلك الدعوة المسمومة، فقد كانت قلوبهم لا تزال تعتصر وجعًا من يوم بدر، وتفيض مرارة من أحد، وتشتعل رغبة في الثأر، كالنار تحت الرماد، تنتظر من ينفخها.

ثم ما لبثت قريش أن أرسلت بيدها إلى القبائل الكبرى، تنفخ في رُكام العداوة، وتوقظ الأحقاد السُّبات، تدعوهم لحلفٍ لا تحكمه شريعة، ولا يضبطه حق، بل يجمعه بُغض الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، ويغذّيه الكيد اليهودي الخبيث الذي شبّ في خيبر واستطال.

فجاءت الإجابة سريعة من غطفان، ومن سُليم، وفزارة، وأشجع، وسائر بطون العرب الذين ما أطفأ الإسلام أنوار زيفهم، حتى أعلنوا حربًا شاملة، اجتمعوا فيها على باطلهم، وتنازلوا عن أنانيّاتهم لأجل إسقاط مدينة الحق.

وهكذا، في وقتٍ وجيز، تحوّلت الجزيرة إلى ساحة إعداد، وتكاثفت الجموع، وتدفّقت القبائل من بطون الصحارى كالسيل الجارف، حتى بلغت جموعهم ما يقارب **عشرة آلاف مقاتل**، في مشهدٍ لم تألفه العرب من قبل.
ركائب موقّرة بالسلاح، وقلوب متخمة بالعداء، وجباه لا تعرف لله خضوعًا، يحملهم رجاءُ نصرٍ موهوم، وتدفعهم مكيدة يهودية ماكرة، خطّت لها بنو النضير فصولها، وتعهّد قادة قريش تنفيذها، وسَكَنت لها صدور الأحزاب، ظنًّا أن ساعة القضاء على الإسلام قد دنت، وأن جذوة التوحيد قد آن لها أن تنطفئ إلى الأبد.

لقد كان يوماً من أيام التاريخ البشري الأسود، يومًا تجلّى فيه تحالف الباطل بأقبح صوره، واتحدت فيه قلوب لا يربطها ميثاق ولا يجمعها شرف، إلا بغض الله ورسوله، واجتمع فيه الأعداء تحت راية واحدة:
راية إسقاط المدينة، واجتثاث النور من منبعه، وإنهاء آخر فصل من فصول الرسالة.

ولكن... غاب عنهم جميعًا أن فوقهم **ربًّا يَرَى، وعليمًا لا يغفل، ومهيمنًا لا يُقهَر**، وأن تلك الجموع وإن عظمت، فإنها في علم الله كغثاء، لا تبلغ ذَرّة من قدرة العزيز الجبّار.

قال تعالى:**﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾**
﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١.]

ولم يكن ذلك الجمع الحاشد مجرّد خطر عسكري، بل كان **أعظم فتنة مرّت على الإسلام منذ هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم**، اختبارًا نازفًا لصبر المؤمنين، وغربالًا صفّى الصفّ، وأظهر المنافق من الصادق، والثابت من المهتزّ، فكان كما وصفه ربّ العالمين في محكم التنزيل:**﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾**]الأحزاب: ٢٢.[

وجاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في مثل هذه الأزمات:
»حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ«، وهي الكلمة التي تكسِر جيوشَ الشرك وإن عظمت، وتُبقي راية التوحيد وإن خفّ عدد جنودها.

وهكذا مضى الركب النبوي، ثابت الجنان، رابط الجأش، ينظر إلى هذا الطوفان البشري، وهو يعلم يقينًا أن الله **ناصرٌ دينه، ومُعزّ جُنده، ومُذلّ أعداءه، ولو اجتمعوا من أطراف الأرض.**

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- اجتماع أهل الكفر على حرب الإسلام أمر قديم ومتجدد، وهو من سنن الله في الابتلاء، كما اجتمع الأحزاب من شتى الملل.
- الحقد المتوارث على الدين وأهله من أعظم دوافع الكفر، وهو ما حمل قلوب قريش على الثأر بعد بدر وأحد.
- قدرة الله فوق كل قوة، وجند الله منصورون ولو تكالب عليهم أهل الأرض جميعًا.
- الفتن العظيمة تكشف حقيقة الإيمان، وتميز الصادق من المنافق، والمستقيم من المتلون.
- الثقة في وعد الله ونصره من أعظم ما يثبت القلوب في الأزمات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

فوائد فقهية

- مشروعية التحصن والاستعداد لمواجهة العدو قبل وصوله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب.

- عقد الأحلاف بين قوى الكفر إذا كان على الباطل، يحرم على المسلمين المشاركة في ذلك أو معاونته.
- الدعاء والتوكل على الله عند الشدائد من أعظم أسباب النصر، كما قال صلى الله عليه وسلم: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.»
- حفظ بيضة الإسلام واجب شرعي، ولو أدى ذلك إلى مواجهة جيوش متعددة في وقت واحد.

فوائد سلوكية

- الثبات أمام الأزمات وعدم الانهيار النفسي من علامات قوة الإيمان.
- الحذر من أن تتحكم المشاعر السلبية، كالانتقام والحقد، في قرارات الفرد أو الجماعة.
- الانضباط تحت قيادة واحدة في وقت الخطر، وعدم الخروج عن الصف، ضرورة للفوز.
- الصبر على البلاء مع اليقين بحكمة الله يورث العزة والنصر.

فوائد أدبية

- قوة التصوير في الربط بين طبول الكفر وألوية الباطل، مما يجسد المعركة نفسيًا قبل وقوعها.
- تصوير مشهد الزحف القبلي كالسيل الجارف يترك أثرًا بصريًا ووجدانيًا يعمق المعنى.
- ربط النص بالألفاظ القرآنية يعمق المصداقية ويربط الحدث بعناية الله.
- إظهار المفارقة بين عظمة حشود الباطل وصغرها أمام قدرة الله يعزز الأمل في النصر.

فوائد سياسية

- الأعداء يوظفون المظلومية التاريخية والشحن العاطفي لتجميع الحلفاء ضد عدو مشترك.
- المال والإعلام والتحريض من أهم أدوات بناء التحالفات الحربية المعادية.
- الخطر الداخلي (التحريض من داخل الأمة) قد يكون أشد فتكًا من الهجوم العسكري المباشر.
- الحروب الكبرى غالبًا ما تكون نتيجة تخطيط مشترك بين عدة أطراف، وليس قرارًا منفردًا.

مخالفات الواقع

- استمرار محاولات القوى العالمية والإقليمية لإعادة مشهد الأحزاب بتحالفات سياسية وعسكرية وإعلامية لضرب وحدة الأمة.
- نشاط فرق الضلالة من داخل الأمة، تبث أفكار التكفير والخروج، فتستدرج الشباب إلى هاوية القتال في الفتن، على نهج الخوارج الذين حذر منهم النبي صلى الله عليه وسلم.
- تيارات فكرية منحرفة تعمل على إذابة الفوارق بين الحق والباطل، وتزين الانحلال العقدي والأخلاقي بحجة الحرية والانفتاح.
- توظيف الإعلام المعاصر في تهييج الأحقاد وإحياء العصبيات القبلية أو القومية لتفتيت الصف الإسلامي.
- انشغال بعض طاقات الأمة في معارك داخلية هامشية، مما يسهل على العدو الخارجي التمدد.
- تهاون بعض المسلمين في الوعي بتاريخهم، فيكررون أخطاء الماضي، كالثقة المفرطة في عهود الأعداء.
- ضعف بناء الحصانة العقدية لدى النشء، وترك المجال للمنصات الفكرية المشبوهة لتشكيل وعيهم.

الفقرة الثالثة :قريش تعبئ جيوشها... وتخرج بكل ما تملك من سلاح وحقد

عاد صدى المؤامرة اليهودية الخبيثة يتردد كالرعد في أودية مكة، وجاءت رياح الفتنة من خيبر محمّلةً بأحقاد بني النضير، تهزّ نفوس المشركين، وتوقظ نار الثأر في صدورهم.

أوصل اليهود إلى قريش رسائل مسمومة فيها كل ما يحرّك غريزة الانتقام ويوقظ بقايا الحقد المدفون منذ بدر وأحد، زاعمين أن المدينة المنوّرة قد ضعفت، وأن الصف الإسلامي قد تمزّق، وأن خلافات الأمس بين الأوس والخزرج قد عادت لتنخر جسد الجماعة، وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قد ملّوا القتال، وتفرّقوا عنه، وما عادوا على قلب رجل واحد.

ولم يكتفوا بالكذب والتضليل، بل أغدقوا على قريش الوعود، وبذلوا المال، وعاهدوا على الخيانة من الداخل، حتى قالوا" :**نحن معكم من داخل المدينة، نضرب من الخلف وأنتم من الأمام**"، في مؤامرة شيطانية أحكمت خيوطها، واكتملت أركانها.

فما إن استقرت هذه الرسائل في آذان صناديد قريش، حتى دبّت فيهم روح الشرّ، وهبّوا مسرعين إلى دار الندوة — هذا المجلس الأسود الذي طالما انعقد على باطل، وكان يومًا ما ساحة التخطيط لقتل النبي صلى الله عليه وسلم — حتى أعادوا الكرة، وقرّروا أن يجمعوا العرب كلهم تحت راية واحدة، راية إبادة الإسلام، وإسقاط المدينة على من فيها.

أرسلوا الرسل إلى قبائل العرب من غطفان وفَزارة وسُليم وأشجع، يعرضون عليهم المال والتحالف، ويثيرون فيهم أحقادًا قديمة، ويُشعلون أوار العصبية الجاهلية.

فما لبث أن جاءت الإجابات من كل حدب وصوب، وأعلنت القبائل الكبرى ولاءها لحرب محمد صلى الله عليه وسلم، وخرجت بجيوشها مدجّجة بالسلاح، تعلوها رايات الحقد، وتقودها أطماع الدنيا.

سارت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وخرج معها سادة مكة وأشرافها، ترافقهم النساء كما في أحد، يضربن الدفوف، ويغنين بأناشيد الحماسة والثأر، يرددن ما قالته هند في أحد، أو نحوه:

"نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
إن تُقبلوا نعانق
وإن تُدبروا نفارق
فراق غير وامق"!

لقد خرجوا بكل ما يملكون من عدة وعدد، قرابة عشرة آلاف مقاتل، لم تشهد جزيرة العرب لهم مثيلًا، جيش لم يكن مثله يومًا في تاريخ الحروب القبلية، يقوده وهم النصر، وتحركه شهوة الانتقام، وتوجهه يد يهودية خبيثة، ماكرة، تدفعهم نحو المدينة بشهوة الذبح، وشهوة السلطة.

لكنّهم لم يعلموا أن وراء هذه المدينة نبيًّا مصطفى، بشّر به الوحي، ووعده الله بالنصر والفتح، نبيًّا لا يخذله ربه، ولا يتخلى عنه مولاه، ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، نبيًّا أعدّ رجالًا قلوبهم كالصخر، وأرواحهم معلقة بالسماء، يثبتون إذا اضطرب الناس، ويقاتلون إذا انهار الجبناء، لا يهابون كثرة العدد، لأنهم يعلمون أن النصر ليس بكثرة الجموع، وإنما بتأييد رب الأرباب. وقد وصف الله عز وجل حال هؤلاء المتآمرين وأحزابهم في كتابه، فقال: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾**
﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾] الأحزاب: ١٠-١١[

وهكذا دقّت طبول الحرب الكبرى، وتحرّكت قوافل الشرّ نحو المدينة، في أكبر معركة تهدد الإسلام منذ ولادته، لكن أهل المدينة كان معهم الله، ومعهم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وكان لهم في النصر موعد، وفي الثبات درس، وفي العقيدة حصن لا تهدمه جيوش الدنيا.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تكالب قوى الكفر والضلال على الإسلام وأهله سنة ماضية، وهو من أعظم الابتلاءات التي يمتحن الله بها عباده، كما في غزوة الأحزاب.
- الكذب والتضليل من أبرز صفات أهل الكفر، وهم يستخدمونه كسلاح في الحرب النفسية على المؤمنين.
- حفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من أعظم دلائل صدق النبوة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.
- النصر من عند الله وحده، وليس بكثرة العدد أو قوة السلاح، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.
- الشدائد العظيمة تمتحن الإيمان، وتكشف عن معدن القلوب، فيثبت المؤمن ويهتز المنافق.

فوائد فقهية

- وجوب التحري عن الأخبار وعدم تصديق دعايات العدو التي تهدف إلى بث الفرقة بين المسلمين.
- حرمة الغدر والخيانة، وأنها من صفات أهل الضلال الذين لا يقيمون وزنًا للعهود.
- مشروعية الاستعداد الكامل في مواجهة العدو، بإعداد العدة وتعبئة الصفوف، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.
- وحدة الصف تحت إمرة القائد المسلم من أعظم أسباب النصر في مواجهة التحالفات المعادية.

فوائد سلوكية

- الثبات عند الأزمات واليقين في وعد الله يقوّي عزيمة الصف المؤمن.
- الحذر من الانخداع بالمظاهر والقوة المادية للعدو، فالمؤمن ينظر بعين العقيدة قبل عين الواقع.
- التضحية بالراحة والدنيا في سبيل نصرة الدين من صفات الصادقين.
- نبذ العصبية الجاهلية التي يستغلها العدو لإشعال الفتن بين المسلمين.

فوائد سياسية

- الحرب النفسية والإعلامية سلاح فعّال في يد العدو، وقد استخدمها اليهود مع قريش في بث الشائعات.
- المال وسيلة رئيسية في بناء التحالفات العدائية ضد الأمة.
- استغلال الخلافات الداخلية وإشعال العصبيات القبلية من أقدم أساليب إسقاط الدول.
- التحالفات المعادية قد تضم أطرافًا متباينة في المصالح لكن تجمعهم مصلحة واحدة هي ضرب الإسلام.

مخالفات الواقع

- تكرار سيناريو بث الشائعات من قبل أعداء الأمة اليوم لإضعاف الثقة بين المسلمين وقيادتهم.
- وجود فرق ضلالة داخل الأمة تُعيد إنتاج فكر الخوارج، تدعو للخروج وإثارة الفتن، فتفتح الباب لأعداء الإسلام.
- قوى فكرية وإعلامية منحرفة تروّج الأكاذيب عن أوضاع المسلمين لإضعاف الروح المعنوية.
- بعض الجهات تتعاون مع العدو الخارجي ماديًا أو إعلاميًا، وتبرر ذلك بمصالح وقتية.
- ضعف الوعي لدى بعض المسلمين بتاريخ المؤامرات السابقة، فيقعون في نفس الشراك التي وقع فيها من قبلهم.

- انتشار العصبيات المقيتة القبلية أو الحزبية التي تُستغل لضرب وحدة الصف.
- غياب التربية الإيمانية التي تزرع الثقة في وعد الله وتحصّن الشباب من الانجراف وراء الدعايات المعادية.

الفقرة الرابعة: المدينة في خطر... وقيادة النبوة تستنفر العقول والقلوب

لقد خيّم على المدينة هدوءٌ ثقيل، كأنّه صمت ما قبل العاصفة، لكنّه لم يكن هدوءَ الطمأنينة، بل هدوءَ النفوس التي تشعر بالخطر الداهم، كأن المدينة كلها باتت قلبًا نابضًا بالخوف، يخفق بين ضلوع الزمان. ترددت الأخبار كالرعد في سماء مضطربة: "الأحزاب قد تأهّبوا، وطبول الحرب تُقرَع، وسيوف الموت تلمع تحت شمس الصحراء!" ولم يكن ما يُقال عن خيانة بني النضير إلا كمن يصبّ الزيت على نارٍ متقدة، فالغدر قد زرع بذور الفتنة، وها هي أوشكت أن تُثمر نارًا تلتهم كل شيء.

لكن في قلب العاصفة، وقف النبي صلى الله عليه وسلم بثبات النبوة، وهدوء الواثق بوعد ربه، لا تهتز له شعرة، ولا يرتجف له صوت، فالموقف جسيم، والأمانة ثقيلة، ولا بد من تدبير يليق بهذا الامتحان العظيم. فلم يحتكر الرأي، ولم ينعزل عن أصحابه، بل جمعهم كما كان يفعل في الشدائد، يفيض عليهم من حكمته، ويستنير بما في قلوبهم من فطنة وتجربة، في مشهدٍ يُعلّم الأمم معنى القيادة الرحيمة، التي تسمع، وتُشاور، وتُكرم الرأي، وترفع من قيمة الشورى.

قال تعالى**{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}** [آل عمران: ١٥٩] وقال سبحانه مادحًا نُبل أصحابه**{وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ}** [الشورى: ٣٨].

فاجتمع المهاجرون والأنصار، وكلُّ واحدٍ منهم يحمل في صدره همّ الدين، وخوفًا على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعلى المدينة التي آوته، فسال الرأي في مجلسهم كما يسيل الماء الرقراق في جدولٍ طيّب، وكلٌّ منهم يُدلِي بما يرى، حتى قام سلمان الفارسي رضي الله عنه، الفارس الحكيم، القادم من بلاد المكر العسكري والدهاء الحربي، وقد لمع في عينيه بريق الفكرة، فقال بكل وقار"**:يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس، إذا حوصرنا خندقنا حولنا".**

كانت كلمة سلمان كفتحٍ من الله، لم يألفه العرب في حروبهم، ولكنها نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم بردًا وسلامًا، فهزّ رأسه إعجابًا، وأمر فورًا بتنفيذ الفكرة، وبدأ المسلمون يحفرون خندقًا عظيمًا، يقطع الطريق على أعداء الله، ويكتب أول سطر في ملحمة "الخندق."

فما كان ذلك الحفر مجرّد شقّ في التراب، بل كان شقًا في قلوب المنافقين، الذين لم تُعجبهم روح الانضباط، ولا مشقّة الجهاد، فتكشّف نفاقهم في معاول التخاذل والتثبيط. قال الله تعالى عنهم:
{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب: ١٢].

لكن على الجانب الآخر، كان الحفر اختبارًا لصبر المؤمنين، وتزكيةً لصدقهم، فشدّوا المآزر، وضربوا بالمعاول، وأعينهم تفيض دمعًا من خشية الله، وقلوبهم معلّقة بوعد النصر، وقد خلد القرآن هذا الثبات بقوله:
{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٢٢].

لقد بدأت الملحمة... لا في ميدان الحرب، بل في ميدان الشورى، فهناك تبدأ المعارك الحقّة، حيث تتلاقى العقول المؤمنة، والقلوب الصادقة، خلف نبيٍّ عظيم، يوحى إليه من فوق سبع سموات، ويصنع من كل لحظةٍ اختبارًا، ومن كل موقفٍ مدرسة، ومن كل أزمةٍ برهانًا جديدًا على صدق الرسالة، وعظمة الرسالة، وقداسة المسيرة.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في المواقف العظيمة دليل على كمال توكله على الله ويقينه بوعده، وهو من صفات الأنبياء التي يجب الاقتداء بها.
- إيمان الصحابة بأن النصر بيد الله لا بالمكيدة وحدها، مما يظهر تمام التوحيد في قلب المؤمن عند الشدائد.
- ما جاء في الآيات من مدح الشورى يبيّن أن اتباع أوامر الله سبب البركة والنصر، وأنها عبادة وقربة لا مجرد أمر إداري.
- ابتلاء المنافقين والمريض قلوبهم يحقق وعد الله بتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من سنن الله في عباده.

فوائد فقهية

- جواز الأخذ بتجارب الأمم الأخرى إذا لم تخالف الشرع، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بقبول فكرة سلمان الفارسي.
- مشروعية إعداد العدة وابتكار الوسائل الدفاعية للحفاظ على بيضة الإسلام.
- الشورى في الأمور العامة سنة مؤكدة، وهي واجبة في مصالح الأمة الكبرى.

فوائد أخلاقية

- التواضع النبوي في الإصغاء لرأي أصحابه رغم كمال علمه، وهو خلق عظيم يجب على القادة وأهل العلم التحلي به.
- الإخلاص في خدمة الدين يجعل صاحبه يبذل جهده مهما كانت المشقة، كما فعل الصحابة في حفر الخندق.
- الشجاعة الأدبية في طرح الرأي النافع ولو كان مخالفًا للمألوف، كما فعل سلمان الفارسي رضي الله عنه.

فوائد سلوكية

- التعاون العملي في الشدائد يربط القلوب ويقوي الصف، ويمنع الفرقة بين المسلمين.
- الانضباط في تنفيذ أوامر القيادة الشرعية سبب في النجاح وتحقيق الأهداف.
- الصبر على الشدائد والبرد والجوع في سبيل نصرة الدين من أعظم أعمال البر.

فوائد سياسية وعسكرية

- التخطيط المسبق والتحصين قبل وصول العدو من أصول النصر في الإسلام.
- المرونة العسكرية في استحداث أساليب جديدة للحرب عند الحاجة.
- كشف صفوف الداخل وتمييز المنافقين من المؤمنين من آثار الحصار والحروب.

فوائد إدارية وقيادية

- القائد الناجح يشرك أهل الرأي والخبرة في القرار ولا ينفرد به إذا كان الأمر مصلحة عامة.
- القيادة بالقدوة العملية تُلهم الأتباع وتزيد من حماسهم للعمل.
- تكريم أصحاب الفضل والخبرة برفع شأن آرائهم يزيد من ولائهم وإخلاصهم.

فوائد اجتماعية

- وحدة المجتمع المسلم أمام الأخطار الخارجية ضرورة لحفظ الكيان.
- استثمار مهارات وخبرات أبناء المجتمع بمختلف خلفياتهم في خدمة المصلحة العامة.
- إظهار التقدير للآراء النافعة يعزز روح الانتماء والتكاتف.

فوائد نفسية

- الثقة بوعد الله ورسوله تولد الطمأنينة في أصعب الظروف.
- الشورى تبعث الأمل وتزيل الإحباط في الأزمات.
- الابتكار في مواجهة الأزمات يرفع المعنويات ويكسر اليأس.

فوائد تاريخية وحضارية

- غزوة الخندق مثلت تحولًا استراتيجيًا في الفكر الحربي العربي آنذاك.
- إدخال أسلوب الخندق من الفرس إلى العرب يعد من مظاهر التبادل الحضاري النافع.
- الأحداث الكبرى غالبًا تبدأ بقرار إداري أو شوروي قبل أن تكون مواجهة ميدانية.

مخالفات الواقع للنص

- ضعف التوكل على الله في الشدائد والاعتماد على الأسباب المادية وحدها.
- تهميش آراء ذوي الخبرة وإقصاؤهم من مراكز القرار.
- انتشار الفردية والاستبداد بالرأي في إدارات بعض المؤسسات والمجتمعات.
- غياب روح الشورى الحقيقية في كثير من المجالس، وحصرها في الشكل دون المضمون.
- تجاهل الابتكار في معالجة المشكلات والتمسك بالأساليب التقليدية حتى لو أثبتت فشلها.
- ضعف الانضباط الجماعي في العمل المشترك، وظهور روح التخاذل عند المشقة.
- الانقسام المجتمعي في مواجهة الأخطار، وترك التنازع يضعف الجهود.
- استهانة بعض الناس بخطر المنافقين وأصحاب القلوب المريضة في الصفوف الداخلية

الفقرة الخامسة: معاول الإيمان... رجال الحفر في سبيل الله

ما إن استقر رأي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على إقامة خندقٍ يحمي المدينة من زحف الأحزاب، حتى انطلقت العزائم كما تنطلق السهام، وتفجرت الهمم في صدور الرجال كما يتفجر النبع من أعماق الصخور. لم يتأخر أحد، ولم يتثاقل قلب، ولم يلتفتوا إلى شدة البرد، ولا إلى قسوة الجوع، ولا إلى الخطر المحدق. لقد ساروا خلف نبيهم صلى الله عليه وسلم، يحملون في صدورهم الإيمان، وفي أيديهم المعاول، وعلى أكتافهم التراب، وفي قلوبهم جَنَّات عرضها السماوات والأرض.

لقد خرجوا جميعًا، المهاجرون والأنصار، شبابًا وشيوخًا، في مشهدٍ تهتز له الجبال هيبة، وتجف له المآقي خشوعًا، يقتسمون المعاول، ويتداولون الحفر، ويتواصون بالصبر كما يتواصون بالسلام، ويتنادون فيما بينهم كما في الصحيحين:

"اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَة، فاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَة."

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الخلق وأكرمهم، في طليعة العاملين، لا يأمر من بعيد، ولا يكتفي بالنظر والمشورة، بل نزل معهم في أعماق الخندق، وحمل التراب على ظهره المبارك، حتى غطى الغبار وجهه الشريف، وتعلّقت به أيدي الصحابة كما يتعلّق القلب بمصدر الأمان والقدوة. يقول البراء بن عازب رضي الله عنه كما في "الصحيحين:"

"رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الأَحْزَابِ حتَّى وَارَى عَنِّي الغُبَارُ جِلْدَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: (وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا."(

وكان صلى الله عليه وسلم يُشاركهم الألم، ويبتسم في وجوههم، ويكفكف تعبهم بكلمات من نور، ويرفع هممهم ببشائر من السماء، فإذا اعترضتهم صخرةٌ عصيّة، استعصت على فؤوسهم، نادوا نبي الرحمة، فيأخذ المعول بيده الكريمة، ويضربها، فيتطاير الشرر، ويكبر قائلاً كما في الحديث الصحيح:

"اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، واللهِ إني لأبصرُ قصورها الحمراء الساعة"...
"اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، واللهِ إني لأبصرُ قصر المدائن الأبيض"...
"اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن، واللهِ إني لأبصرُ أبواب صنعاء الساعة)"...*رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني(*

وهكذا، كان الحفر ملحمة من ملاحم الإيمان، لا مجرد جهد جسدي، بل تربية ربانية، وتزكية نفسية، وصناعة جيل لا تهزه المحن. كانوا يتغنون بأشعار عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، رضي الله عنهما، ويرددونها كما تردد الأرواح الأذكار عند الزحف، تهزُّ بها قلوبهم، وتطرد الملل والتعب.

وهناك، في أطهر ساحة عرفها الحصار، تجلت عظمة القيادة النبوية، فكان النبي صلى الله عليه وسلم قائدًا من وسط الخندق، لا من فوق التلال، قدوةً في التضحية، ورمزًا في العطاء، ومرآةً لكل قائد يأتي من بعده، كأنما ينطق حاله:

"لن تُقادَ الأمم بالترف، ولا تُصنع البطولات من فوق الكراسي، بل تُصاغ العزة في عُمق المعاناة، على جبين الجهد، ومن صلابة الكف المتعب."

لقد كانت تلك الأيام حبلى بالبطولات، حافلةً بملاحم الصبر، تروي للأجيال أن الإيمان الحق لا يعرف التواني، وأن جنود الله لا يصنعهم الكلام، بل يخرّجهم الميدان. ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾]الأحزاب: ٢٣.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه العمل بنفسه مع كمال منزلته دليل على تواضعه وكمال إيمانه، وأن القرب من الله لا يمنع من مباشرة الأسباب.
- ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بوعد الله، وبشائره التي ذكرها عند الحفر، ترسخ الإيمان بالغيب الذي أخبر به الوحي.
- ما ظهر من استبشار الصحابة ببشائر الفتوحات يبين وجوب تصديق خبر النبي صلى الله عليه وسلم واليقين به.
- إيمان المؤمنين بأن النصر من عند الله، وأن العمل إنما هو أخذ بالأسباب المأمور بها.

فوائد فقهية

- جواز تحفيز العاملين بالعمل الصالح بذكر ثوابهم وبشائر النصر.
- استحباب مشاركة القائد العاملين في أعمالهم، لما فيه من كسر الكِبر وبث روح الإخاء.
- جواز ترديد الأشعار المباحة التي ترفع المعنويات وتعين على العمل والجهاد.

فوائد أخلاقية

- التواضع النبوي في النزول إلى مستوى العمل مع أصحابه، لا ينفرد بالأمر من مكان مرتفع.

- التضحية بالراحة والجهد في سبيل الله خُلق عظيم يتربى عليه المؤمنون.
- الكلمة الطيبة والابتسامة في وقت المشقة من الأخلاق التي تقوي الروابط بين القائد وجنده.

فوائد سلوكية

- التعاون العملي بين المسلمين في الأزمات هو سلوك نبيل يرسخ وحدة الصف.
- مواجهة المشقة بروح الإيمان والذكر بدل التذمر والشكوى.
- بث الحماس بين العاملين بإشراكهم في الأناشيد والشعارات الإيمانية.

فوائد سياسية وعسكرية

- رفع الروح المعنوية للجنود قبل القتال يسبق في أثره الإمداد المادي.
- البشارة بالنصر قبل المعركة تقوي العزيمة وتثبت الصفوف.
- إشراك الجميع في العمل الدفاعي يحول المجتمع كله إلى خط دفاع أول.

فوائد إدارية وقيادية

- القائد الناجح يعمل من وسط ميدان العمل، مما يعزز الثقة به ويزيد من التفاف الأتباع حوله.
- القدرة على تحفيز الفريق بكلمات موجزة ومؤثرة من أهم صفات القيادة.
- القدوة العملية أقوى في الإقناع من الأوامر الكلامية.

فوائد اجتماعية

- إشراك مختلف الفئات في العمل يعزز روح التضامن ويقوي الروابط بين طبقات المجتمع.
- الأعمال المشتركة في الشدائد تصنع روابط أخوة أعمق من الكلام النظري.
- تبادل المعاول وتقاسم الأدوات صورة عملية للتكافل الاجتماعي.

فوائد نفسية

- تحويل العمل الشاق إلى مناسبة للذكر والشعر المباح يزيل الملل ويجدد الطاقة.
- مشاركة القائد مشقة العمل مع جنوده تبعث الطمأنينة وتكسر الحواجز النفسية.
- الإيمان بالبشائر المستقبلية يجعل النفس تتجاوز ألم الحاضر.

فوائد تاريخية وحضارية

- مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في الحفر حدث تاريخي يرسخ مفهوم القيادة بالميدان في الحضارة الإسلامية.
- حفر الخندق كان مدرسة للأمة في العمل الجماعي والقيادة الميدانية.
- الأشعار التي كانت تردد أثناء الحفر صارت جزءًا من التراث الحربي الإسلامي.

مخالفات الواقع

- غياب روح المشاركة العملية بين القادة والجنود أو الرؤساء والمرؤوسين في كثير من الميادين.
- ضعف الثقة بوعود الله والاكتفاء بالنظر للأسباب المادية فقط.
- قلة الصبر على المشقة في الأعمال الجماعية، وسرعة التذمر.
- غياب التحفيز الإيماني والروحي في مواقع العمل والمشاريع الإسلامية.
- ضعف التعاون بين فئات المجتمع في الأزمات، وانشغال كل فرد بمصلحته الخاصة.

- استعلاء بعض أصحاب المناصب وابتعادهم عن معاناة من تحت أيديهم.
- ترك العمل الجماعي عند ظهور الصعوبات، والانشغال بانتقاد غير العاملين بدل العمل نفسه.

الفقرة السادسة: كرامة في دار جابر... ونفحات البركة في قدر قليل

في قلب معركةٍ لم تبدأ سيوفها، لكن تعب الجهد قد فُتح من كل جانب، وبدأت النفوس تتصبب عرقًا من وطأة الحفر وشدة البرد، وأمعاء الصحابة رضي الله عنهم تتلوى من الجوع الذي لا يرحم، حتى ربط بعضهم الحجر على بطنه، كما في الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال:"**إنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدية شديدة، فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا**"...

وسط هذا الجهاد الصامت، والبرد الذي يخترق العظام، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، لا يميّزه في الهيئة شيء، بل كان أكثرهم تعبًا، وأعظمهم بَذلًا، يحمل التراب على ظهره الطاهر، ويدعو للمجاهدين، ويربت على أكتافهم بكلمات النبوة التي تبث العزم في القلب الكسير.

ولمّا رأى جابر بن عبد الله رضي الله عنه في وجه النبي صلى الله عليه وسلم خطوط الجوع مرسومة بوضوح لا تخطئه العين، ارتجّ قلبه من الألم، وغلبته الرحمة، فعاد إلى بيته مهرولًا، يحمل همّ نبيه أعظم من همّه الشخصي، وقال لزوجته بصوتٍ تختلط فيه اللهفة بالرجاء:"**لقد رأيت في رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا ما أظنه يحتمله، فهل عندك شيء؟**"

فقالت المرأة الصالحة، رفيقة درب الجهاد: "عندي صاع من شعير، وعناق" — وهي أنثى صغيرة من المعز.

فذبحها، وطحنت الشعير، وخبزته، ثم مضى إلى النبي صلى الله عليه وسلم متخفيًا كأنما يخشى أن يُكشَف السرّ فيفسد الخجل فرح العطاء، وقال في أدب المحبة :**يا رسول الله، إني صنعت لك شيئًا قليلًا، فتعال أنت ورجل أو رجلان**".فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم، بعين الواثق برزق ربه، وسأله بلين وتأنٍ" :**كم هو؟** "فقال جابر: "شيء يسير."

هنا تجلّى مشهد من مشاهد العظمة النبوية... لم يُخفِ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر، ولم يتسلل خفية كما أُشير إليه، بل رفع صوته الجليل وقال" :**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع لكم سُوْرًا، فحيّ هلاً بكم**"!

توقف الزمان في لحظة ذهول، وجابر ينظر كمن سقط عليه الجبل، وعاد مسرعًا إلى زوجته، وصوته يتقطّع من الرهبة:

"**ويحكِ! قد جاءكِ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار وكل من معه**"!

فقالت المرأة المؤمنة بقلب يفيض يقينًا" :**الله ورسوله أعلم**".

دخل النبي صلى الله عليه وسلم دار جابر، فأمر أن يُجعل اللحم في قدر، والعجين في خبّاز، ثم مدّ يده الطاهرة، يكسر الخبز، ويغرف اللحم، ويقول" :**أدخِل عشرة، عشرة**".

فأقبل الرجال يتوافدون أفواجًا، يأكلون ويشبعون، ثم يخرجون، ويدخل غيرهم، حتى أكل الجميع — وكانوا جمعًا غفيرًا ولم ينقص الطعام شيئًا، بل بقيت البركة تفيض من ذات اليد المباركة التي تمسّ السماء بالدعاء، وتمسّ القلوب بالسكينة.

لقد كانت هذه الكرامة النبوية آية ناطقة، لا بمجرد الشبع من الجوع، بل برفع الحجاب عن عالم الغيب، ليعلم المؤمنون أن الذي خلق الخلق لا يُعجزه أن يرزقهم، وأن يدًا إذا باركها الله فلا حدّ لفيضها.

وقد ثبتت هذه القصة الجليلة في "الصحيحين" عن جابر، وفيها» :حتى أكلوا أجمعون، وخرجوا، والطعام كما هو، وكأنه لم يُمس .«وهو من أعظم دلائل النبوة، كما قال الحافظ ابن حجر في "الفتح." وهذا المعنى يُؤيده قوله تعالى: **﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾**]الطلاق: ٣ [ويذكّرنا بدعاء الملائكة لعباد الله :**اللهم أعطِ منفقًا خلفًا".**

فيا لها من مشاهد! لم تكن مجرّد طعام قُدّم، بل قصة يقين نُسجت بخيوط الإيمان، ودروسًا خالدة تُلقّن في مدرسة النبوة؛ حيث يعلو الجوع على موائد الكرامة، وتُكسر قيود الضعف أمام مدّ يدٍ باركها الرحمن!

.الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن الله تعالى قادر على خرق العادات وإظهار الكرامات لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك من دلائل نبوته.
- التوكل الحق على الله هو الاعتماد على ربه مع الأخذ بالأسباب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في إطعام الجمع من الطعام القليل.
- اليقين بأن الرزق بيد الله وحده، وأنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب.
- تصديق أخبار الغيب إذا جاءت من المعصوم صلى الله عليه وسلم، وعدم استبعادها بعقل أو قياس.
- محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم بلغت مبلغ الإيثار وتفضيل حاجته على حاجاتهم.

فوائد فقهية

- جواز إظهار الكرامة النبوية للعامة لزيادة الإيمان واليقين.
- جواز اجتماع الناس على الطعام القليل إذا وُجدت فيه بركة.
- مشروعية استئذان أهل البيت قبل دعوة الآخرين إلى الطعام.
- من السنة أن يُقدَّم الطعام على دفعات إذا كثر عدد الضيوف.
- استحباب الدعاء لأهل البيت الذين أكرموا الضيف.

فوائد أخلاقية

- المبادرة إلى إكرام الضيف، وخاصة إذا كان الضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أهل الفضل.
- الحياء والأدب في عرض الدعوة، كما فعل جابر حين قال: "شيء قليل."
- الصبر على شدة الجوع مع الاستمرار في العمل والجهاد.
- شكر الزوجة المؤمنة وثباتها عند المواقف المفاجئة.
- التواضع في التعامل مع الناس، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بمشاركته الجميع.

فوائد سلوكية

- الإيثار وتقديم حاجة الآخرين على النفس في الشدة.
- نشر روح المشاركة وعدم الاستئثار.
- العمل الجماعي في تقديم الطعام وإدارته.
- البشاشة وبث الطمأنينة في قلوب الناس أثناء الشدائد.

فوائد اجتماعية

- تقوية الروابط بين المهاجرين والأنصار من خلال مشاركة الطعام.
- إظهار القدوة في الكرم والتعاون بين أهل المدينة.
- تشجيع الناس على الثقة في قدرة الله على تفريج الكرب.

فوائد تاريخية وحضارية

- تسجيل هذه الحادثة في كتب الحديث من أعظم ما حفظته الأمة من سيرة نبيها صلى الله عليه وسلم.
- الحادثة توثّق جانبًا من حياة الصحابة في غزوة الخندق، وتكشف طبيعة التحديات التي عاشوها.

مخالفات الواقع

- ضعف اليقين بقدرة الله على تيسير الرزق، حتى صار كثير من الناس يظنون أن الأسباب المادية وحدها هي التي تجلبه.
- شيوع البخل بين بعض المسلمين وترك إكرام الضيف إلا إذا كان من أهل الجاه أو المصلحة.
- قلة الإيثار، حيث يقدم الكثيرون حاجاتهم الشخصية على حاجة إخوانهم.
- فقدان روح التعاون في البيوت بين الزوج والزوجة في خدمة الضيوف أو أعمال الخير.
- ضعف الثقة في قادة المسلمين إذا اتخذوا قرارات في الأزمات، بخلاف الثقة المطلقة التي كان الصحابة يمنحونها للنبي صلى الله عليه وسلم.
- انتشار ثقافة الاستهزاء بالقصص النبوية واعتبارها خيالية عند أصحاب الأفكار المنحرفة، وهي من أعظم دلائل النبوة.
- انبهار بعض المسلمين بالمدنيات المادية حتى نسوا أن البركة بيد الله، فصاروا يربطون الكثرة بالإشباع وينكرون أثر البركة.

الفقرة السابعة: الخندق يحبس العدو... والإيمان يحبس الخوف

كانت المدينة تنام على الخوف وتستيقظ عليه، وقد حاصرها الزمان والمكان، وأطبقت عليها غياهب المحنة من كل اتجاه... وكأنها على موعد مع ليلة شتاء حالكة، لا دفءَ فيها إلا دفءَ الدعاء، ولا ضياء إلا بريق اليقين، ولا سلاح إلا التوكل والصبر.

ها هي قريش، قد جمعت العرب من كل فجّ، وتحزّبت الأحقاد من كل قبيلة، فجاء الأحزاب يملؤون الأرض صهيلًا وصليلًا، يطرقون حدود المدينة وهم يزمجرون كأنهم وحوش تتعطّش للدماء، لا يردّهم خلق، ولا تحكمهم مروءة، ولا يجمعهم دين، إنما الذي وحّدهم جميعًا: حقدهم الأسود على الإسلام، وغلّهم الدفين على محمدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأخيار.

عشرة آلاف مقاتل أحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، وتوزعوا في أطرافها يخططون للهجوم والاقتحام، حتى قال أبو سفيان صراحة: "نبيدهم عن آخرهم، فلا يبقى منهم عين تطرف"!

لكنهم فوجئوا بحاجز لم يكن في حسابهم، ولم تخطر لهم فكرته قط، وهو من دهاء الفارس الفارسي سلمان رضي الله عنه: لقد حفر المسلمون خندقًا طويلًا، عميقًا، امتد كالسدّ بين المدينة والغزاة! كان شيئًا جديدًا على العرب، فوقف الفرسان في حيرة مذهولة، تتلفت أعينهم باحثة عن منفذ، وتضرب خيولهم الأرض ولا تجد لها سبيلًا للعبور، فتعود القهقرى صاهلة مستنفرة.

وفي الصفوف الأولى عند الخندق، كان يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، لا في قصر القيادة، بل في خندق المواجهة، يشرف على الحراسة، يشد من عزائم رجاله، يتنقّل بينهم بثغرٍ باسم، وسكينة مهيبة، وعينٍ ترى الغيب من وراء الغيب، وكأنه يقول لكل قائد من بعده: "لن تُقاد الرجال من فوق التلال، بل من قلب الميدان."

كان حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه: علي بن أبي طالب، الزبير بن العوام، طلحة، سعد بن معاذ، وسائر المهاجرين والأنصار... رجال لفحهم البرد، وربطوا على بطونهم الحجر، لكنّ وجوههم كانت تضيء بنور الإيمان، وقلوبهم تعانق السماء يقينًا وثباتًا، يرابطون في حراسة الخندق ليلًا ونهارًا، والعدو فوق رؤوسهم، والنفاق يتحرك من خلفهم.

وفي خضمّ هذا المشهد المهول، حيث تقطّعت الأسباب، وبلغت القلوب الحناجر، واشتد الخوف، وادّلهمّ الليل، نزل قول الله عز وجل يُصوّر الحال أصدق تصوير: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا** ﴾]الأحزاب: ١٠-١١[

ثم كانت الطعنة الأعظم، والخيانة الأخطر، حين خانت **بنو قريظة** عهدهم، وانقضّوا على الميثاق الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وتآمروا مع الأحزاب ليضربوا المسلمين من الخلف، في لحظة يُحاصر فيها المؤمنون من الأمام.

لقد كان البلاء عظيمًا، والاختبار عسيرًا، والمحنة شاملة... حتى ظهر النفاق في المدينة، وارتجت الصفوف، وسرى الخوف في الضعفاء كالسهم، لكن في وسط هذا الرعب، ووسط العتمة القاتمة، ارتفعت أصوات الثابتين تهمس بثقة:

﴿ **وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾]الأحزاب: ٢٢[﴿ **هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾]الأحزاب: ٢٢[

ما أجملها من لحظة! لحظة يُحاصر فيها الإيمان من كل جانب، ولا يبقى للمؤمنين إلا الله، فإذا بهم يقولون من أعماقهم: حسبنا الله، نعم المولى ونعم النصير...

وهكذا كانت معركة الخندق: مدرسة في التوكل، وتربية في الثبات، وتزكية في وقت العُسر، وصناعة لجيل لا تزلزله الجيوش، ولا تهزمه الخيانات، لأنهم أدركوا أن النصر لا يصنعه السلاح وحده، بل تصنعه القلوب المتوكلة، والعزائم الصادقة، والقيادة النبوية الرشيدة.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إن سنة الله تعالى في عباده أن يبتلي المؤمنين بألوان الشدائد حتى يتمايز الصف، ويظهر الصادق من الكاذب، وهذا من تمام حكمته ورحمته بعباده إذ يطهّر القلوب من علائق الدنيا.
- أن التوكل الصادق على الله عز وجل عند انقطاع الأسباب الظاهرة هو أعظم سلاح للمؤمن، فهو الذي يثبت القلب ويورث النصر ولو اجتمعت الدنيا على هزيمته.
- أن النصر لا يُنال بكثرة الجنود ولا بقوة العتاد، وإنما يتحقق بإذن الله إذا قامت القلوب باليقين به، وجمعت بين الأخذ بالأسباب الشرعية والتعلق بالمسبب سبحانه.
- أن من علامات الإيمان الراسخ ازدياد التسليم واليقين عند نزول البلاء، بخلاف أهل النفاق الذين تزلزلهم المحن وتكشف ضعف عقيدتهم.

- أن الإيمان الحق يضبط انفعالات النفس ويحجزها عن الانهيار أمام الخوف، فيبقى القلب رابط الجأش مطمئنًا بذكر الله.
- أن الفتن تكشف أهل الأهواء من المنافقين والخوارج والمرجفين، فيميز الله المؤمنين المخلصين منهم كما وعد في كتابه.

فوائد فقهية

- جواز الاستفادة من خبرات وتجارب الأمم الأخرى إذا كانت مباحة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ فكرة الخندق من الفرس، وهذا أصل في جواز الاقتباس مما لا يخالف الشرع.
- مشروعية اتخاذ التحصينات الدفاعية إذا كان في ذلك حفظ لدماء المسلمين وصيانة لبلادهم من العدوان.
- استحباب مشاركة القائد بنفسه في أعمال الميدان وتقوية عزائم المقاتلين بالقدوة العملية، وهذا من السنن النبوية في القيادة.
- تحريم نقض العهود والمواثيق، وأن الغدر من كبائر الذنوب، وخيانته أشد إذا كانت في وقت الحرب.

فوائد أخلاقية

- الوفاء بالعهد خُلُق رفيع من أخلاق المؤمنين، يرفع صاحبه عند الله وعند الناس، ولا يليق بأهل الإيمان التفريط فيه.
- الثبات على المبدأ في أوقات الخوف والضيق من دلائل صدق الإيمان وقوة الخلق.
- الصبر على الجوع والبرد وقلة ذات اليد في سبيل نصرة الدين من شيم الرجال الكبار.
- الإيثار والتضحية وبذل النفس والمال لحماية الجماعة المسلمة من أرفع القيم التي يتربى عليها المؤمنون.

فوائد سلوكية

- أن ربط القلب بالله في زمن الشدائد يقي النفس من الانهيار النفسي والفكري، ويحميها من الانجرار وراء دعايات المرجفين.
- أن روح العمل الجماعي والتكاتف في أوقات الأزمات تصنع المعجزات وتربك العدو مهما كان قويًا.
- أن الإيجابية والمبادرة بالحلول العملية أكرم على المؤمن من الجلوس لانتظار الفرج بلا عمل.

فوائد سياسية وعسكرية

- أن اجتماع الأعداء على حرب الإسلام لا يكون لعدالة قضيتهم، وإنما توحدهم أحقادهم ومصالحهم المشتركة.
- أن التخطيط المسبق وابتكار وسائل دفاعية جديدة يغير مسار المعركة ويربك صفوف الأعداء.
- أن أخطر ما يواجه الأمة في وقت الحرب هو الغدر الداخلي من المنافقين والمتواطئين مع العدو.
- أن التحالفات المبنية على الأهواء والمصالح الدنيوية سريعة الانهيار إذا تعارضت مصالح أطرافها.

فوائد إدارية وقيادية

- أن القائد الحق يعيش مع جنوده في الميدان، يشاركهم الخوف والجوع والبرد، فينال محبتهم وثقتهم.
- أن رفع الروح المعنوية للمقاتلين وقت الأزمات من أعظم أسباب الثبات والنصر.
- أن وضوح الرؤية عند القائد وإدراكه لمكامن الخطر الداخلي والخارجي يحدد قراراته المصيرية.

فوائد اجتماعية

- أن تكاتف المجتمع بجميع فئاته وقت الشدة هو خط الدفاع الأول أمام الأخطار.
- أن خيانة فئة قليلة يمكن أن تفتح الباب لانهيار المجتمع كله إذا لم تُواجه بحزم.
- أن الأزمات الكبرى تصنع روابط متينة بين أفراد المجتمع المؤمن.

فوائد نفسية

- أن الثقة بالله واليقين بوعده يبددان مشاعر الخوف ويمنحان الطمأنينة حتى في أحلك الظروف.
- أن الابتكار في مواجهة الخطر يعيد الثقة بالنفس ويكسر شوكة اليأس.

فوائد تاريخية وحضارية

- أن معركة الخندق كانت نقطة تحول فاصلة في تاريخ الصراع مع قريش والأحزاب، حيث تحولت المبادرة بعد ذلك للمسلمين.
- أن إدخال فكرة الخندق إلى التاريخ العسكري الإسلامي يمثل إضافة حضارية أثبتت مرونة الشريعة في الاستفادة من الخبرات.

مخالفات الواقع

- انتشار روح اليأس والاستسلام عند كثير من المسلمين عند أول أزمة، بخلاف ما أمر الله به من الثبات والصبر.
- الاعتماد الكلي على الوسائل المادية وإهمال التوكل الصادق على الله في مواجهة التحديات.
- وجود قيادات في بعض ميادين العمل الإسلامي والسياسي تنعزل في المكاتب الفاخرة وتترك الصفوف تواجه الخطر وحدها.
- تفشي نقض العهود بين الدول والجماعات، حتى بين المسلمين، مما جلب الهزائم المتكررة.
- الانقسام الداخلي بين المسلمين وتناحرهم، مما سهّل لأعدائهم السيطرة على مقدراتهم.
- ترك الإعداد المسبق والتخطيط الجاد، والاكتفاء بردود الأفعال المرتجلة بعد وقوع الكوارث.
- إهمال العمل الجماعي وسيطرة الأنانية والمصلحة الفردية على حساب المصلحة العامة.
- ترك الأخذ بالعلم والخبرة الميدانية، ورفض الاستفادة من تجارب الآخرين بحجة الاكتفاء بالقدرة الذاتية.
- نشاط أهل الأهواء من المنافقين والخوارج والمرجفين في أوقات الأزمات لبث الفتن والشبهات، وإضعاف ثقة الشباب بقيادتهم وعلمائهم، حتى يزجوا بهم في مشاريع هدم للأمة.
- انتشار الخطاب العدمي الذي يزرع في نفوس الشباب كراهية مجتمعاتهم وولاة أمرهم، حتى صار بعضهم أداة في يد أعداء الأمة دون وعي.

الفقرة الثامنة: الفتنة العظمى... خيانة من الداخل تهز المدينة، لكن ثبات النبوة يوقظ اليقين

في قلب العاصفة، والريح تعصف بوجوه المجاهدين، والبرد يلسع الأطراف، والخوف يتسلّل من كل فجّ، كانت المدينة المنوّرة تحبس أنفاسها، تترقب المجهول. تحاصرها الأحزاب من الخارج، والجوع والخوف من الداخل، والليل يطول كأن لا فجر له. وبينما الناس في الخندق، والعيون ساهرة، والقلوب واجفة، جاء النبأ المهول...

لقد خان بنو قريظة!

ما أشد وقع الخيانة إذا جاءت من جدارٍ كنت تحسبه لك ظهرًا! ما أفظع الطعنة حين تأتي من جارٍ تعاهدت معه على السِّلم والأمان!

أتى الخبر كالصاعقة، يخلخل الجدران، ويشقّ القلوب نصفين... لقد نقض بنو قريظة العهد، وفَتَحوا صدورهم لأعداء الله، ومدّوا جسور الغدر لأبي سفيان وأحزابه، في ساعةٍ عزّ فيها النصير، وضاق فيها الفضاء على من آمن بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم.

لم تكن خيانتهم مجرد مخالفة، بل كانت فتنةً عظمى، تقطع أوصال المدينة وتُربك صفوفها.

كانت ديارهم في عُمق المدينة، وكأنهم الباب الخلفي الذي استراح له المؤمنون، فإذا به ينفتح فجأة على جيش الأحزاب!

وهنا، تجلّى ثبات النبوة في أعظم صوره... لم يضطرب قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تتغيّر ملامحه، بل ارتفع صوته الجليل يكبّر، يُبشّر، يُوقظ العزائم، وينفخ الأمل في الأرواح المنهكة» :**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، أتاكم نصرُ الله** «أخرجه أحمد بإسناد حسن.[

يا الله! أيّ يقينٍ هذا؟ وأيّ قلبٍ ذلك الذي يزداد سكونًا عند اشتداد العاصفة؟

وهنا نزل الوحي يُخلّد تلك اللحظة في قرآن يُتلى إلى يوم الدين: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الأحزاب: ١٠-١١.[

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم وفدًا من عقلاء المدينة، من خيرة أصحابه: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير رضي الله عنهم جميعًا، ليقفوا على حقيقة الموقف. فذهبوا، وقلوبهم تسترجع، وأرواحهم تئن تحت وطأة الموقف.

ورجعوا... وقد حملوا في أعينهم صدق الخبر، وفي وجوههم حزن الموقنين، وقالوا: «خان القوم«!

فساد المدينة سكون رهيب... كأن القلوب توقفت عن النبض، والأنفاس تجمّدت في الحناجر.

لكنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم ما خشي لحظة، ولا وهن له عزم، بل قام كقائدٍ ربّانيّ، يشقّ ليل الفتنة بنور التدبير.

أمر بتحصين البيوت، وإدخال النساء والصبيان في الحصون، وأعاد ترتيب الصفوف، وأخذ يربط قلوب الصحابة بوعد الله، ويذكّرهم بالفرج القريب، وكأنه يردد معهم في صمتٍ بليغ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾] آل عمران: ١٧٣.[

في تلك اللحظة الفاصلة، لم تكن المدينة فقط محاصرة، بل كانت الفتنة قد بلغت الذروة، واختلطت الأصوات بالخوف، والدموع بالتكبير... لكن النبوة كانت في أبهى تجلياتها، تزرع الرجاء، وتُثبّت الصفوف، وتُنبت من رحم الألم بشائر النصر.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أن من سنن الله في الأمم أن تكون أشد الفتن خطرًا هي تلك التي تأتي من الداخل، إذ تمتحن الإيمان وتكشف الصادق من المنافق، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.
- أن الغدر ونقض العهود مع المسلمين من صفات الكفار والمنافقين، وهو من أعظم صور الظلم والعدوان الذي حرمه الله وأوعد عليه بالعقوبة.

- أن ثبات القلب عند اشتداد البلاء علامة على كمال التوكل واليقين بوعد الله، وهي صفة الأنبياء والصالحين.
- أن الله سبحانه قد يبتلي عباده بتكالب الأعداء من الخارج وتآمر الخونة من الداخل في وقت واحد ليزداد تعلقهم به وحده.
- أن الفزع والاضطراب في المحن دليل ضعف الإيمان، بينما الاطمئنان والثبات من آثار صدق اليقين بالله وحسن الظن به.
- أن النصر والفرج بيد الله، يرسله متى شاء وكيف شاء، ولو بدا للناس أن كل أبواب النجاة قد أُغلقت.

فوائد فقهية

- مشروعية إرسال القائد وفدًا من أهل الرأي والخبرة للتحقق من الأخبار قبل بناء القرارات عليها، وهذا من فقه التثبت في النوازل.
- جواز اتخاذ التحصينات لحماية النساء والصبيان عند الخوف من غزو أو اقتحام، وهو من واجب ولي الأمر.
- أن ترتيب الصفوف وتنظيم القوة عند الأزمات من فروض الكفايات التي يقوم بها الإمام لحفظ بيضة المسلمين.
- أنه لا يجوز عقد عهد مع من عُلمت خيانته إلا لمصلحة راجحة وتقدير صحيح للمآلات.

فوائد أخلاقية

- الوفاء بالعهد خُلُق رفيع، ونقضه من أرذل الأخلاق، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم أوفى الناس بالعهد.
- الصدق في نقل الأخبار، كما فعل سعد بن معاذ وأصحابه حين رجعوا بالخبر الصريح دون تهوين ولا تهويل.
- الصبر والثبات في المواقف الحرجة من أخلاق الكبار وأصحاب الهمم العالية.
- إشاعة الأمل في القلوب المنهكة خُلُق قيادي عظيم يعيد الحياة إلى النفوس.

فوائد سلوكية

- الحذر من الانسياق خلف الأخبار المزلزلة قبل التثبت، حتى لا يزداد الاضطراب بين الناس.
- التحلي بالهدوء عند الأزمات يمنع من قرارات متسرعة تزيد الخطر.
- التزام الجماعة في الفتن والاعتصام بالقيادة الشرعية يحفظ الصف من التمزق.

فوائد سياسية وعسكرية

- أن أخطر ما يهدد كيان الأمة ليس هجوم الأعداء من الخارج فقط، بل تآمر الخونة من الداخل.
- أن حفظ الجبهة الداخلية وتحصينها من الاختراق أولى خطوات النصر العسكري والسياسي.
- أن المعلومات الدقيقة والموثوقة أساس القرارات الصحيحة في الحرب والسلم.
- أن الأزمات الكبرى تحتاج إلى قرارات عاجلة وحاسمة من القيادة لمنع الانهيار الداخلي.

فوائد إدارية وقيادية

- القائد الناجح يوزع المهام على من يثق برأيهم وحكمتهم، كما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم وفدًا للتحقق.
- أن القيادة الرشيدة تجمع بين التخطيط العسكري والتحصين النفسي للأتباع.
- أن القائد يملك قدرة على تحويل الخوف إلى حافز، واليأس إلى أمل، بالخطاب الحكيم والعمل الحازم.

فوائد اجتماعية

- أن أمن المجتمع لا يقوم فقط على قوة الجيش، بل على تماسك الداخل وثقة الناس ببعضهم.
- أن خيانة فئة قليلة قد تهدم الاستقرار العام وتفتح ثغرات للعدو.
- أن التعاون بين عقلاء المجتمع وأهل الرأي مع القيادة ضرورة عند المحن.

فوائد نفسية

- أن التذكير بوعد الله والفرج القريب يعيد الطمأنينة للنفوس المرتجفة.
- أن مواجهة الأخبار الصادمة باليقين والهدوء يحدّ من أثرها النفسي المدمر.

فوائد تاريخية وحضارية

- أن حادثة خيانة بني قريظة مثال تاريخي باقٍ على خطر الغدر الداخلي عبر العصور.
- أن المدينة النبوية شهدت في تلك الأيام تلاقي أعنف صور الحصار الخارجي والفتنة الداخلية، مما جعل النصر بعده أكثر رسوخًا في الوجدان الإسلامي.

مخالفات الواقع

- سرعة الاضطراب والهلع عند سماع الأخبار المقلقة، دون تثبت أو صبر.
- انتشار الغدر والخيانة في المعاهدات بين بعض الدول أو الفصائل، مما يجر الويلات على الأمة.
- وجود فئات داخل المجتمعات المسلمة تعمل لصالح أعداء الدين، تبث الشائعات وتضعف الثقة بالقيادات الشرعية.
- نشاط المنافقين والخوارج والمرجفين في التحريض على الفتنة وإثارة الانقسام الداخلي، مستغلين الأزمات لتحقيق مآربهم.
- استغلال بعض أصحاب الأفكار المنحرفة للمحن في نشر خطاب عدمي يزرع الكراهية بين المسلمين ويؤلب بعضهم على بعض.
- التهوين من شأن العهود والمواثيق، وكأنها أوراق بلا قيمة، مما أدى لفقدان المصداقية بين الناس.
- انشغال بعض القادة المعاصرين بالمظاهر والبروتوكولات الفارغة بدل متابعة الميدان عند وقوع الأزمات.
- إهمال حماية الجبهة الداخلية، وترك الثغرات التي يتسلل منها العدو الفكري أو العسكري.
- ضعف الخطاب الإيماني الذي يذكّر الناس بوعد الله، مما جعل الخوف واليأس يسيطران على النفوس في أوقات الأزمات.
- اعتماد القرارات المصيرية على أخبار غير مؤكدة أو معلومات مشوشة، مما يسبب الكوارث.

الفقرة التاسعة: الدعاء والتضرّع... سلاح المؤمن في الشدائد

في تلك اللحظات الحرجة التي اختلط فيها الليل بالأنين، وتلبدت فيها سماء المدينة بغيوم التهديد، واصطكت فيها الأسنان من البرد والجوع والخوف، كان قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم مرفوعًا لا إلى السماء فحسب، بل إلى من فوق السماء، إلى الذي لا يُرد من رجاه، ولا يُخيّب من دعاه.

لقد اجتمع على المدينة ظلامان: ظلام الليل، وظلام الحصار، وأُغلقت في وجوه المؤمنين الأبواب إلّا بابًا واحدًا، لا يُغلق أبدًا... باب الدعاء.

فهناك، في أعماق خيمته، بعيدًا عن الضوضاء، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعًا يديه، باكيًا، متضرعًا، موقنًا بالنصر وإن تأخّر، مرددًا كلماتٍ تنفذ إلى العرش، يهتز لها كيان السماء:

»اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم — «رواه البخاري ومسلم.

يا الله، ما أعظم هذا الالتجاء!

دعاء من نبيّ يواجه عشرة آلاف محارب بأسلحتهم وعددهم، وهو لا يملك إلا قلبًا عامرًا باليقين، ولسانًا لا يعرف إلا ذكر الله، ويدين لطالما امتدت للسماء في السلم والحرب، في الرخاء والشدة.

أحزاب الكفر تتربص من الخارج، وخيانة بني قريظة تفتك من الداخل، والليل بارد طويل لا ينقضي... لكن رغم ذلك، لم تهتزّ شعرة في إيمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتغير لحن الرجاء في دعائه. بل ظلّ يناجي، ويتوسل، ويرفع صوته إلى ربه قائلًا» :حسبنا الله ونعم الوكيل.«

تلك الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام يوم أُلقي في النار، فرددها محمد صلى الله عليه وسلم حين أُضرمت نار الحرب حوله، فكان المآل كما في قصة الخليل :﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٣–١٧٤.]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالخندق ليلًا، يفتش عن رجل يحمل له خبر العدو، فينادي والرجفة في المدينة تزداد» :هل من رجل يأتيني بخبر القوم؟.«

أي يقين هذا؟! وأي قيادة هذه؟! إنه لا يكل ولا يمل، ولا يستسلم للخوف، بل هو مثال في الجمع بين العمل والدعاء، بين التخطيط والافتقار، بين السيف والدمعة.

وفي ذلك الحصار، علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الدعاء ليس طوق نجاة فحسب، بل هو سلاح أمضى من السيوف، وأن المؤمن إن انقطعت به السبل، وتكالبت عليه الأهوال، فإن السماء لا تُغلق، والرب لا ينام، والفرج أقرب مما يتصور.

بل إن الله وصف حال المؤمنين في ذلك الموقف بقوله: ﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠–١١.]

لكنّ مع هذا الزلزال، ثبت من ثبّت الله، وصدق من صدق وعد الله، فقالوا: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢.]

فما أعظم هذا المشهد حين يلتقي الفزع بالدعاء، والخوف باليقين، والبشرى بالنصر!

وهكذا كانت تلك اللحظات الخالدة: درسًا خالدًا في معنى الاعتصام بالله، والانكسار بين يديه، وسرّ النصر الذي لا يُكتب إلا على أبواب السماء.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الدعاء المستمر في الشدائد يبرز أن الله هو المالك المطلق لكل شيء، وأن الثقة الحقيقية لا تكون إلا فيه وحده، وهذا يعكس توحيدًا عمليًا عميقًا لا يغيره اشتداد المحن.
- الارتباط بوعد الله والثقة به تظل قائمة مهما بدت الظروف مظلمة، فيظهر من ذلك أن الإيمان هو أساس الثبات على الدين رغم الابتلاءات العظمى.
- المؤمن الذي يوازن بين العمل وأسباب القوة وبين الاعتماد على الله في دعائه يعيش حالة من العبودية الكاملة التي تبعد عنه الغلو والتقصير في حق الله.
- إبراز حميمية العلاقة بين العبد وربه في الدعاء والدموع والتعليم أن هذه العبادات ليست مجرد طقوس، بل مواقف

تُعزّز من قوة الإيمان في القلب.

- تفصيل الابتلاءات التي تظهر صدق الانتماء، فالابتلاء يفرّق بين المخلصين والزائفين في الإيمان، وهي سنة إلهية حكيمة تهدف إلى تطهير الأمة.

فوائد فقهية

- العمل بالدعاء في ميادين القتال يُعتبر سنة مؤكدة ترفع من معنويات المجاهدين وتُكمل الإجراءات الوقائية المادية.
- تأمين الحصون وإدخال الضعفاء إليها أمر واجب من الواجبات الشرعية التي يجب مراعاتها في إدارة شؤون الجماعة وقت المحن.
- إرسال من له رأي رشيد للتحقق من الأخبار يعكس فقهًا عميقًا في إدارة الأزمات، فلا تُتخذ قرارات مصيرية على أساس الظنون أو الإشاعات.
- الجمع بين الجهد الروحي والعمل الميداني يُعلّمنا منهجًا متكاملاً في السلم والحرب، يحفظ التوازن بين القلب والجسد.

فوائد أخلاقية

- التواضع والانكسار بين يدي الله في الملمات يمنع الغرور ويزرع في النفس أخلاق العبودية الخالصة لله.
- الصدق في الاعتراف بحجم المخاطر يعزز من المسؤولية ويُشجع على التعاون الجماعي.
- بث الأمل في النفوس من خلال الذكر والتوكل يرسّخ قيم الصبر والتلاحم الاجتماعي.

فوائد سلوكية

- ثبات النفس وسط المحن يمنع اتخاذ قرارات متسرعة قد تضرّ بالمعركة أو المجتمع.
- التكرار المتواصل للذكر يرسّخ قوة داخلية ويقوّي مقاومة الخوف.
- الجمع بين المبادرة والسؤال عن الأخبار يدفع إلى سلوك المسؤولية واليقظة الدائمة.

فوائد سياسية وعسكرية

- القيادة التي ترتكز على التوكل بالله تبني جبهة صلبة لا تهتز أمام التحديات.
- التحصين الروحي جزء لا يتجزأ من الاستعدادات العسكرية والسياسية.
- الاعتماد على أهل الرأي في اتخاذ القرارات يحمي الجماعة من الهزات الناتجة عن الشائعات.

فوائد إدارية وقيادية

- القيادة التي تمزج العمل بالصبر واليقين تكتسب ثقة أتباعها وتُعزز الشرعية.
- إظهار القائد لبُعده الإنساني في الدعاء يقربه من الناس ويزيد التلاحم.
- حماية الضعفاء واجب إداري ضروري لحفظ الأمن والاستقرار الاجتماعي.

فوائد اجتماعية

- العمل الجماعي في الدعاء والذكر يعمّق الروابط الاجتماعية ويقوّي التلاحم في المحن.
- نقل الأخبار بصدق يُجنب الفوضى ويُحافظ على استقرار المجتمع.

فوائد نفسية

- اللجوء إلى الله يخفف من الضغوط النفسية ويُنعش الطمأنينة.
- الشعور بأن هناك من يملك القدرة المطلقة يمنح قوة نفسية على الصمود.

فوائد تاريخية وحضارية

- هذا المشهد يرسخ في الذاكرة الإسلامية منهجًا في التوازن بين العمل والروحانية.
- حفظ السيرة بهذا الشكل أثرى خطاب الأمة في الصبر والدعاء عبر الأجيال.

مخالفات الواقع

- في زمننا الحاضر، أصبحت الظاهرة التي لم تكن معروفة من قبل هي الانقطاع التام عن الدعاء المستمر، واستخدام الدعاء كخيار أخير فقط عند الكروب، مما يدل على ضعف الاعتصام بالله وانفصال القلب عن الله في الشدائد.
- ظهر في كثير من المجتمعات اعتماد مطلق على الوسائل المادية والتقنية دون ذكر الله أو التوكل عليه، وهذا تفرقة خطيرة عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم، فأصبح العمل بدون اعتماد روحي ممنهج شائعًا وغير مقبول شرعًا.
- برزت ظاهرة استبعاد البُعد الروحي في التخطيط والإدارة لدى القادة، فغاب الدعاء والذكر عن برامج المواجهة، مما أدى إلى جيوب معنوية هشة رغم قوة السلاح والعتاد.
- تفاقم التعلق الزائد بالأخبار الإعلامية والتحليلات الجافة، حتى صار كثير من الناس يعيشون في حالة قلق دائم ويفقدون الروحانيات، في حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين السؤال عن الأخبار والتوكل والدعاء المستمر.
- ظهرت فرق من أهل الأهواء الذين يحطّمون مفهوم الدعاء السليم، ويصورونه كنوع من التخلف أو الخرافة، وبذلك زرعوا اليأس والتمرد على السنن الربانية بين شباب الأمة.
- نشأت حركة ممنهجة لدى جماعات ضالة لتشويه ثمار الدعاء والذكر الصادقين، واستغلال الأزمات لتجنيد الشباب على أيديولوجيات معادية للإسلام الصحيح.
- توسع تأثير القادة والأنظمة التي لا تجمع بين العمل واليقين، مما تسبب في فقدان الثقة بين القواعد وخلق فراغ روحي خطير.
- تراكم اتخاذ قرارات مصيرية مبنية على شائعات أو معلومات غير مؤكدة أدى إلى أزمة ثقة عامة في قيادات الأمة، وأضعف روح الجماعة وأثار البلبلة.
- تحولت العبادة أحيانًا إلى مظاهر شكلية بريئة، دون إحساس حقيقي بالتوكل والخضوع، مما يهيئ النفوس للسقوط في الفتور الروحي.
- غياب التربية المنهجية الصحيحة في تربية الشباب على الجمع بين العمل والدعاء مهد الفرصة لانتشار الإلحاح على دوافع خارجية غير شرعية ومدمرة.
- شهدنا انتشار انتقادات غير بناءة، تصل إلى التجريح والتعميم في نقد القيادات الشرعية، مما يُعتبر مخالفة صريحة لآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويضعف الجبهة الداخلية.
- التهويل الإعلامي للأزمات دون توفير خطاب بديل للتوازن والتطمين يعمّق من شعور الإحباط، ويفتح المجال للمرجفين للانقضاض على وحدتنا.
- ضعف الخطاب الدعوي الذي يوازن بين الدعاء والعمل الصحيح، وهذا الخلل يُسهل انتشار البدع والأفكار الضالة التي تُبعد الشباب عن منهج التوكل الشرعي.

الفقرة العاشرة: رجل بأمّة... نعيم بن مسعود يُفرّق الأحزاب ويقلب موازين التاريخ

في لحظةٍ من أحلك لحظات المدينة، حيث اشتدّ الخطب، وتكالبت الجيوش من كل صوب، وسدّت الأحزاب الأفق بجنودها وعدّتها، وانحنى الظهر من وطأة الخوف، وبلغت القلوب الحناجر، وزلزلت الأرض زلزالها... في خضمّ هذا المشهد المعتم، بزغ نور مفاجئ من حيث لا يحتسب المؤمنون، بل ومن حيث لا يرجون.

خرج رجل من قلب معسكر الأعداء، من صلب قريش وغطفان، كان بالأمس يحمل سيفه في وجه المسلمين، فإذا به اليوم يقبل بقلب يضطرب بخشية الله، ولسان يلهج بالشهادتين، وعين تدمع من خشية تأخره عن ركب المؤمنين.
إنه **نعيم بن مسعود الغطفاني**، الذي شاء الله له الهداية في ساعةٍ لا يُستقبل فيها أحد، ولا يُسمع فيها إلا صليل السيوف وهدير الرياح.

جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحت جنح الليل، وقد خنق الحصار أنفاس المدينة، والجوع قرص البطون، والخيانة قد نمت جذورها في داخل الحصون، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم بصوت يقطر صدقًا:

"يا رسول الله، قد هداني الله للإسلام، وما علم بإسلامي أحد من قومي، فمرني بما شئت ".فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عينيه نور الأمل المتجدد، وقال» :**إنما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذّل عنّا ما استطعت، فإن الحرب خُدعة** — «متفق عليه.

وهنا بدأت معركة من نوعٍ آخر... معركة لا تُدار بالسيوف، بل بالعقول، لا تُخاض على صهوات الخيل، بل في ظلال الخيام، وبين الكلمات المتقنة والمكائد المحكمة.

مضى نعيم بن مسعود في دهاءٍ المؤمن الفطن، وعزيمة من أيقن أن نصرة هذا الدين لا تكون دائمًا بحمل السيف، بل أحيانًا تكون بحمل الفكرة، وتدبير الحيلة.
ذهب أولًا إلى **بني قريظة**، أولئك الذين خانوا العهد وغدروا في وقت الشدة، وكان بينهم موثوقًا فيه، فقال:

"يا بني قريظة، قد عرفتم ودي لكم، ونصحي إياكم، وإن قريشًا وغطفان لا مقام لهم، إن وجدوا فرصةً رجعوا إلى بلادهم، وخلوكم وحدكم لمحمد، فانظروا أن تأخذوا من قريش وغطفان رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم حتى لا يتخلوا عنكم".

ثم أسرع إلى **قريش وغطفان**، وقال:

"ألا إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأرسلوا إلى محمد يعرضون الصلح، ويطلبون أن يأخذ منكم رهائن من أشرافكم، فإذا وصلتهم سلّموهم إليه، فضرب أعناقهم! فلا تعطوهم أحدًا".

وهكذا بثّ الشكّ بين أطراف الأحزاب، وأوقد في قلوبهم نار الريبة، وزلزل أركان ثقتهم، حتى أصبح كل فريق يتوجّس من الآخر، وأحجم الجميع عن القتال، وبدأ التفكك يدبّ في صفوفهم كما يدبّ السوس في الخشب المهترئ.

وكان الله سبحانه قد أنزل في هذه اللحظة آيات تصف هذا التحوّل العجيب، وتربط قلوب المؤمنين بمدبر النصر من فوق سبع سماوات: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾]الأحزاب: ٢٥[

وما علم الأحزاب أن الله قد سلّط عليهم رجلًا واحدًا، لا سلاح معه، ولا راية يحملها، وإنما يحمل بين جنبيه قلبًا مؤمنًا، وعقلًا راجحًا، ولسانًا صدوقًا، ودهاءً مؤيدًا من السماء.

لقد صدق فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم« :**نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر** — «رواه البخاري.
ومن الرعب أن يُفرّق الجمع، وتُهزم الكثرة، بخطّة من رجل واحد... كان وحده أمة.

فسبحان من يجعل من المؤمن الضعيف جندًا من جنوده، ويُجري على لسانه النصر، ويؤيد فكرته من فوق سبع سماوات.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- في كل قصة هداية جديدة، يتجلى أن الله سبحانه هو الذي يفتح أبواب الهداية لمن يشاء في الوقت المناسب، وأن الهداية ليست بيد البشر بل بيد الله وحده، مما يعزز التوحيد والإيمان بالقضاء والقدر.
- قدرة الله على تحويل عدو إلى نصير تبين أن التغيير الحقيقي لا يحدث إلا بيد الله، وأن النصرة الإلهية تأتي بطرق لا يتوقعها البشر.
- الحكمة الإلهية في توظيف عباده لحفظ الدين، حتى وإن كان ذلك عبر شخص واحد ذو إيمان وذكاء، تُثبت أن النصرة ليست بالعدد بل بتأييد الله وقدرته على التغيير.
- ربط الأحداث بنصوص القرآن يؤكد أن الله سبحانه هو المتصرف في الكون كله، وأن النصوص القرآنية تشرح لنا حكمة الأحداث وتثبت صدقها.

فوائد فقهية

- حسن استثمار العلاقات الاجتماعية والروابط القبلية في تحقيق أهداف دينية تُظهر فقهًا في التعامل مع الواقع، وتعلم كيفية إدارة الصراعات بذكاء.
- الاستعانة بأشخاص موثوق فيهم في المواقف الحرجة أمر مشروع ويدخل في باب المشورة والحكمة في الدين.
- كسب الوقت بإثارة الشكوك بين الأعداء نوع من فنون الحرب التي جُعلت مباحة في الشريعة لتعزيز موقف المسلمين.
- التعامل مع العدو بحذر ودهاء، وعدم القتال العشوائي، من مبادئ الفقه الحربي الإسلامي.

فوائد أخلاقية

- صدق الإيمان يقود صاحبه إلى التضحية والتغير الحقيقي، ويجعل القلب مهيأ للنصر بحسن الخلق والنية الصافية.
- الثقة بالله والتوكل عليه تثمران صبرًا وثباتًا حتى في أصعب الظروف.
- الالتزام بالحق دون تسرع أو تعصب يعزز من الروابط الاجتماعية ويقوي الصفوف.

فوائد سلوكية

- التصرف بحكمة ودهاء في مواجهة الأزمات يمنع الفوضى ويحقق الأمن والاستقرار.
- استغلال الوقت والفرص مهما كانت ضيقة ضرورة للسلوك الناجح في المواقف الحرجة.
- التحلي بالصبر وعدم الاستسلام للخوف من أهم خصال السلوك الإيماني.

فوائد سياسية وعسكرية

- استخدام الحيلة والتخطيط الذكي وسائل مشروعة في حروب الدفاع، تدعمها السنة النبوية.
- زرع الريبة بين الأعداء يُضعف جبهتهم ويقود إلى التفكك والضعف.
- قيادة النبي صلى الله عليه وسلم الحكيمة تُظهر أهمية اختيار الرجال المناسبين لتنفيذ الخطط.

فوائد إدارية وقيادية

- تمكين الرجال المخلصين ذوي العقل الراجح من إدارة المواقف الصعبة يعزز قوة القيادة.
- الهدوء والثبات في لحظات الأزمات يرفع من معنويات الفريق ويمنع الاضطراب.
- العمل على بناء تحالفات داخلية وخارجية يُعد من أساسيات الإدارة الناجحة في الظروف الحرجة.

فوائد اجتماعية

- الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع الإسلامي تُعدّ ركيزة للتماسك والتعاون في الشدائد.
- أهمية حفظ الأمن الداخلي وعدم الانجرار وراء الخيانات الداخلية التي تفتك بالوحدة.

فوائد نفسية

- الإيمان بأن الله هو المعين يمنح القوة النفسية لمواجهة اليأس والضغوط.
- تحفيز الفرد على اتخاذ موقف إيجابي بدلاً من الاستسلام للظروف.

فوائد تاريخية وحضارية

- هذا المشهد يعكس دور الفرد المؤمن في صناعة التاريخ وتحويل الموازين بقوة الإيمان والتدبير.
- حفظ هذه القصة في السيرة النبوية يعزز تراث الأمة ويغذي ثقتها بنفسها في أوقات المحن.

مخالفات الواقع

- بات من غير المعهود أن يغيب عن المجتمعات الإسلامية ذوو الإيمان الحقيقي الذين يحملون هم الأمة ويعملون بذكاء وحكمة لإنقاذها، مما يفاقم الفوضى والضعف.
- انتشر في زمننا فرق ضالة تزرع الفرقة بين أبناء الأمة، وتستغل الجهل لتفريق الصفوف، وتُبعد القلوب عن التوكل على الله والثقة بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- تراخى الكثير من القادة عن استثمار العلاقات الاجتماعية والسياسية لصالح الأمة، فتفككت الجبهات أمام أعداء الداخل والخارج.
- كثرت الخيانات الداخلية والخروج على ولي الأمر، مما يضعف الصف الإسلامي ويُسهل للعدو مهمة اقتحام الأمة من الداخل.
- ضعف الفكر الاستراتيجي الديني الذي يجمع بين الحكمة والدهاء، مما أدى إلى تراكم الأزمات وتفاقمها.
- انتشار جهلة يستهينون بأهمية التخطيط والذكاء في مواجهة الأعداء، ويعتمدون فقط على القوة المادية، مما جعلهم فريسة سهلة للانكسار.
- كثرت فرق أهل البدع التي تعيق الوحدة، وتروج لأفكار مغلوطة عن كيفية التعامل مع الأزمات، مما يُبعد الشباب عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم الحقيقي.
- انتشار الهزيمة النفسية واليأس وسط جموع المسلمين، حيث قل من يحملون الروح القتالية واليقين في النصر.
- ضعف الثقة بين أفراد المجتمع والمسؤولين، مما يفتح الباب أمام الفتن الداخلية والتناحر على المناصب.
- غياب الرجل الواحد الذي يستطيع بحكمته وإيمانه أن يغير مجريات الأمور، وهو أمر كان معهودًا في زمن الصحابة لكنه غائب اليوم.

الفقرة الحادية عشر : الليل يمضي في رياحٍ مرعبة... ومشهدُ الفرج يبدأ من قلب الظلمة

حلّ الليل... وما أقساه من ليل، طويلٌ، موحشٌ، جافٍ، تقرع فيه الريحُ الوجوه، وتزلزل القلوب، والناس يبيتون لا يدرون: هل يبقون حتى الصبح؟ أو يُؤخذون على حين غِرّة؟

المسلمون خلف الخندق، في بردٍ قارص، وبطونٌ خاوية، وعيونٌ لا تنام، والقلوب بلغت الحناجر.
ومع كل هذا الكرب، **لم تقع معركة جماعية بين الفريقين**، إلا **واقعة فردية حاسمة**، حين اندفع **عمرو بن ودّ العامري**، أحد أشجع فرسان العرب، وتمكن مع قلةٍ من رفاقه أن يتخطى الخندق.

وقف ينادي بصوته المدوي في تحدٍّ :هل من مبارز؟"
فتقدم له الفتى الشجاع، علي بن أبي طالب، وهو لا يزال شابًا دون الثلاثين، فما إن رأى النبي صلى الله عليه وسلم إصراره، حتى قال له":**إنه عمرو"!**قال عليّ بثبات":وإن كان عمرو"!

فأذن له النبي، فخرج إليه، وتبارز الفارسان، حتى انتهت المعركة بسقوط عمرو بن ودّ قتيلًا على يد أسد الله، وعاد عليّ مكبرًا، تهتزُّ له المدينةُ من خلف الخندق.

قال النبي صلى الله عليه وسلم":**بَرَزَ الإيمان كلّه إلى الشِّرك كلّه"**
وما هي إلا برهة، حتى ارتدّ من عبر الخندق، وانسحب المشركون من تلك المحاولة الفاشلة، وعلموا أن ثغور الخندق عصيّة عليهم.

في تلك الليلة، ومع احتدام الحصار، أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف ما عليه القوم، ومن بقي منهم، وهل هناك استعداد لهجومٍ أخير، فدعا أصحابه وقال:

"من يأتيني بخبر القوم وهو رفيقي في الجنة؟"

فلم يجب أحد من شدة البرد والخوف، ثم دعا مرة ثانية، ثم ثالثة، فما قام أحد، وكان هذا حال الصحابة من شدة الرعب، لا من ضعف اليقين.

فقام **حذيفة بن اليمان**، وقد اختاره النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له" :ادخل في القوم، وانظر ما يصنعون، ولا تُحدثن شيئًا حتى تأتيني".

تسلل حذيفة في الظلام، بين خيام الأحزاب، والرياح تعصف بكل شيء، والبرد يشلّ الأطراف، لكنه رأى مشهدًا لا يُنسى:

خيامٌ تُقلع، قدورٌ تُكفأ، نيرانٌ تنطفئ، رجالٌ يرتجفون، وأبو سفيان يصيح فيهم وهو ينهى عن الكلام خشية تسلل العيون!
ثم خطبهم قائلاً:

"يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام... لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولَقينا من هذه الريح ما ترون! والله لا تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء... فارتحلوا فإني مرتحل".

فما هي إلا لحظات، حتى نادى مناديهم بالرحيل، فشدّوا رحالهم على عجل، وركبوا دوابهم، وتركوا المعسكر بما فيه، لا يلوون على شيء.

وعاد حذيفة ليجد النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، فانتظره حتى سلم، ثم أخبره بما رأى، فتهلل وجهه، وقال:

"الحمد لله الذي كفانا القتال، وردّ الكيد عنّا".

وبينما كان الفجر يبزغ على المدينة، كانت جيوش الأحزاب قد انقلبت خائبة، تمضي في الصحراء تقودها الريح، وتجر أذيال الخيبة والانكسار، بعد أن بقيت شهرًا كاملًا تُرهب وتتوعد، فإذا بها تنكفئ مهزومة بلا قتال!

لقد **كفى الله المؤمنين القتال**، وأيد نبيّه بالريح وجنودٍ لم تُر، فكان نصرًا من السماء، عجزت عنه خطط الأرض.

ورجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وفي وجهه إشراقة النصر، وفي قلبه يقينٌ لا يلين، وسُرَّ المسلمون سرورًا لم يذوقوا مثله منذ الهجرة، فقد انكسر آخر زحف قريشي كبير على المدينة

.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- نصرة الله للمؤمنين تتمّ بقدرته وحكمته، وهو القادر على أن ينصر رسوله بجنود غير مرئية كما وصف القرآن، وهذا يظهر أن النصر الحقيقي لا يُقاس بعدد المقاتلين فقط، بل بتأييد الله الذي لا يُدركه الحواس.
- الابتلاءات التي تصيب المؤمنين هي من سنن الله في اختبار الإيمان ورفع الدرجات، وإن الثبات وسط الشدائد هو دليل على صدق الإيمان وحسن الظن بالله.
- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لليقين وسط المحن يعلّمنا أن التوكل على الله والثقة بوعده ثابتة لا تتغير بتقلب الأحوال، وأن النصر هو من عند الله وحده.
- المعركة ليست فقط بالقوة المادية بل بالإيمان والتوكل، والقرآن يربط بين المعركة الظاهرة والنصر الإلهي المخفي، فيؤكد أن القتال حق، ولكن هو جزء من أسباب، والله هو المسبب الحقيقي للنصر.

فوائد فقهية

- استعداد المسلمين النفساني والمادي للقتال يتطلب تربية روحية وأخلاقية عميقة، كالتي كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحضرها قبل المعارك.
- الاستطلاع وجمع المعلومات من قلب العدو ضرورة شرعية لتحضير الخطط الحربية ودراسة الأعداء بدقة.
- التقدير السليم لظروف العدو (كالبرد والضعف والانهيار النفسي) جزء من حسن الإدارة في الحرب، ويُساعد على اتخاذ القرارات الصحيحة.
- السماح بالخروج للمبارزة الشخصية في الحرب له أثر نفسي عميق في رفع معنويات الجنود، وهو سنة نبوية في رفع الروح المعنوية.

فوائد أخلاقية

- الشجاعة والثبات تحت الضغط مهما كانت الظروف يبرزان قوة الأخلاق الإيمانية.
- القائد العادل الرحيم يُراعي هموم أتباعه، ويعرف أن ضعف النفس طبيعي في الشدائد، فينتظر حتى يتشجعوا.
- الكذب والخيانة مكروهان في القتال، كما يظهر من قول أبو سفيان وحالة تراجع الأحزاب، ما يذكر بضرورة التزام المصداقية حتى مع العدو في حدود الشريعة.

فوائد سلوكية

- الجرأة على المواجهة المباشرة تعزز ثقة الفرد بنفسه وبمجتمعه.

- قدرة الصحابي حذيفة على التسلل والتمويه تعكس أهمية الحكمة والذكاء في التعامل مع المواقف الحرجة.
- الصبر في الشدائد والانتظار حتى تتبلور الأمور من صفات السلوك الراشد.

فوائد سياسية وعسكرية

- الانسحاب التكتيكي من قبل الأحزاب يعكس ضعف الروح القتالية وانعدام الوحدة، وهذا يبرز أهمية الوحدة السياسية والعسكرية في الدفاع عن الدين.
- إشاعة الإحباط والريبة بين صفوف العدو من الاستراتيجيات الناجحة في الحرب.
- الاستعداد الكامل لمواجهة العدو من دون التسرع، واتباع أوامر القائد يعزز الانضباط العسكري.
- نصر المسلمين رغم قلة العدد يُظهر أن القيادة الحكيمة والإيمان الصادق يفوقان عدد العدو وأسلحته.

فوائد إدارية وقيادية

- استدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أكثر من مرة حتى يتحقق من استعدادهم يعكس اهتمام القائد بحالة رجاله النفسية وجاهزيتهم.
- اختيار الرجل المناسب (حذيفة بن اليمان) للقيام بالمهمة الصعبة يؤكد أهمية التخصص في القيادة والإدارة.
- نشر الأخبار الصحيحة ورفع معنويات الناس ببيان نتائج الاستطلاع من القائد يزيد الثقة والطاعة.

فوائد اجتماعية

- التضامن الاجتماعي والتلاحم في أوقات المحن يخلق قوة لا يستهان بها في حماية المجتمع والدين.
- مشاركة الصحابة في الخندق رغم المشقة تعكس روح التعاون والتآزر التي تحمي الأمة من الفتن.

فوائد نفسية

- بث الطمأنينة واليقين في النفوس رغم الظروف العصيبة يمنح قوى نفسية هائلة على الصمود والثبات.
- مواجهة الخوف بالثقة بالله والرجاء بالنصر تخلق توازنًا نفسيًا يقلل من الهلع والذعر.

فوائد تاريخية وحضارية

- هذه المعركة تمثل مدرسة للأجيال في الصبر والثبات والإيمان، وما يزال تأثيرها محفورًا في التاريخ الإسلامي عبر القرون.
- حفظ السيرة بهذا التفصيل يعزز القيم الحضارية الإسلامية في مواجهة المحن والتحديات.

مخالفات الواقع

- في زمننا، قلّ من يتشبّه بالمؤمنين الأشداء الذين يثبتون في وجه المحن، وغالبًا ما ينتشر الضعف النفسي واليأس بين الناس.
- تشتت الصفوف والتمزق الاجتماعي من أكثر أمراض الواقع الذي يُفقد الأمة مناعتها أمام أعدائها.
- قلّ الالتزام بالجهاد والنفير، وكثرت الأعذار والتسويف، مما يخلط بين الضعف والخوف الحقيقي وبين الفشل في تحمل المسؤولية الشرعية.
- انتشار الفرقة والفتن الداخلية بدلاً من التلاحم، حيث يميل كثيرون إلى التجريح بدل الوحدة، ويفتقر المجتمع إلى روح التعاون كما في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.
- انعدام الاستعداد الحقيقي، سواء على المستوى النفسي أو المادي، وانعدام الثقة في القيادة التي هي ركيزة النصر، بسبب كثرة الفتن والشكوك بين الناس.
- تسرب الخوف والرعب لا من قبيل المعركة فقط، بل من عدم الثقة في النفس والقائد، مما يؤدي إلى انهيار الروح

المعنوية.

- ضعف الالتزام بالقيم الأخلاقية في المعارك السياسية والاجتماعية، حيث كثرت الخيانات والإشاعات التي تضعف من قوة الأمة.
- تغييب روح التضحية والثبات التي كانت سمة الصحابة الكرام، والافتقار إلى القدوة الحسنة في زمن الغربة.
- كثرة الجماعات التي تروج للتشكيك والتفرقة، مما يعيق من الوحدة ويبعد الشباب عن منهج القرآن والسنة.

انتهى الباب الثامن ويليه الباب التاسع بمشيئة الله تعالى

الباب التاسع غزوة بني قريظة حين يسدل ستار الخيانة

مقدمة

ما إن انقشع غبار **غزوة الأحزاب**، وسكنت رياح الخوف، واطمأنّ الناس إلى أن العاصفة قد هدأت، حتى جاءهم البلاء من حيث لم يحتسبوا.
فما كادت سيوف المسلمين تُغمد، حتى أُعلن الغدر من داخل المدينة نفسها!
قومٌ عاهدوا الله ورسوله، وأخذت منهم المواثيق الغليظة أن لا يخونوا، فإذا بهم ينقضون العهد في ساعةٍ عصيبة، ويطعنون الأمة من الظهر يوم كانت أشدّ ما تكون حاجةً إلى الأمان.

هناك ارتفع النداء من السماء، نداءٌ يهزّ القلوب ويستنهض الهمم:

»مَنْ كانَ سامِعًا مُطيعًا، فلا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ«!

فهبّ المؤمنون كأنهم سيل من نور، لا يطلبون دنيا، ولا يسعون إلى غنيمة، وإنما يلبّون أمر الله ورسوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعلمون أن الغدر خيانةٌ لله قبل أن يكون خيانةً لعباده، وأن من نقض العهد مع الله فلا حرمة له ولا أمان.

كانت **غزوة بني قريظة** فصلًا حاسمًا في تاريخ المدينة، يوم نزل الحكم الإلهي العادل، ليطهّر الصفّ من خيانةٍ غدرَت بالأمانة، وليعلّم الناس أن من خان الله ورسوله، فإنما يخون نفسه ويهلكها.
وهكذا انتهى عهد النفاق المقنّع، وتطهّرت المدينة من شوائب الغدر، وارتفعت راية العدل الإلهي خفاقة فوق رؤوس الصادقين.

الفقرة الأولى: العودة من الخندق... ونداء السماء بالنفير الجديد نحو بني قريظة

لم يكن الوقت وقت راحة، ولا اللحظة لحظة استرخاء... فما إن وضعت الحرب أوزارها ظاهرًا، وما إن همَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلع درعه الشريف بعد أيامٍ مديدة من الحصار والخوف والجوع، حتى جاءه الأمر من السماء... لا لطمأنة النفس، بل لفتح جبهة جديدة، فيها يظهر صدق العهد، ويُمحص الإيمان.

دخل عليه جبريل عليه السلام، وقد اعتلى فرسًا عظيمًا، عليه لامة الحرب، متشحًا بوقار الجندية السماوية، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم بنبرة الجزم والعتب": **أوقد وضعت السلاح؟! فما وضعت الملائكة أسلحتها بعد، وإن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة، فإنهم خانوا العهد، ونكثوا الميثاق.**"

وما كان من نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم إلا أن قال كلمته العظيمة الخالدة التي سارت بها الركبان، وارتعدت منها فرائص الخونة»: **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.**«

إنه النداء الإلهي على لسان النبي المختار صلى الله عليه وسلم... نداء الطاعة والتجرد، نداء الحق في وجه الغدر.

فهبّ المؤمنون من فورهم، والقلوب ما زالت تخفق بأصداء الخندق، والأجساد لم تذق طعم الراحة بعد، والعيون لم تغفُ منذ ليالٍ، ومع ذلك، لم يتأخر منهم أحد، كأنّما تُساق أرواحهم قبل أجسادهم إلى ميدان الطاعة، وميثاق الجهاد.

فانطلقت الكتائب المؤمنة، تتقدّمها راية التوحيد، وتحفّها ملائكة السماء، تسير بخطى الإيمان، وعزيمة لا تلين، وكأنّ أجسادهم المثقلة بالتعب لم تكن إلا سُفنًا تمخر بها رياح الرضا، ووقودها حب الله ورسوله.

﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾]الأحزاب: ٢٣.[

كان موقفًا يهزّ الجبال، ويُربّي الأجيال... أن الطاعة لا تؤجل، والجهاد لا يُؤخَّر، والنصر لا يعني الركون، بل يعني شكر النعمة بالمزيد من البذل، والثبات على العهد.

وفي المدينة، انتشر النداء، فاهتزت القلوب، وتذكّر الناس قول الله تعالى:﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾]النور: ٥١.[

أما بنو قريظة، فلما شاهدوا السحابة المهيبة من الغبار ترتفع في الأفق، عرفوا أن الذي كانوا يخشونه قد أتى... عرفوا أن الغدر لا يمر بلا حساب، وأن الله يُمهل ولا يُهمل.

لقد خانوا العهد يوم كانت المدينة في كربها، ونقضوا الميثاق في أحرج لحظات الأمة، وتآمروا مع الأحزاب لطعن الإسلام من الظهر... فكان لا بد من القصاص، وكان لا بد أن يُقال بلسان الحال :﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾]الأنفال: ٥٨.[

إنها لحظةٌ فارقة في تاريخ الدعوة، فيها يتجلّى معنى الاستجابة التامة لله ورسوله، ومعنى الإيمان العملي الذي لا يعرف التثاقل ولا التواني.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه كما في الصحيحين واصفًا حال الصحابة يومها": **فما صلى أحد العصر إلا في بني قريظة**"، منهم من صلى في الطريق امتثالًا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم من أخر الصلاة حتى وصل، وكلاهما مأجور، لأن الهدف كان واحدًا: نصرة الحق وطاعة الرسول.

وهكذا... يكتب التاريخ أعظم دروسه، حين يصوغها رجالٌ باعوا أنفسهم لله، وجعلوا من التعب طاعة، ومن الأمر عزيمة، ومن النفير عبادة... فسلامٌ على أولئك الأبطال، وسلام على قائدهم الذي لا يعرف فتورًا في سبيل الله، محمد صلى الله عليه وسلم، وسلامٌ على من سار على نهجهم، وصدّق بالعهد ووفّى.

.الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- طاعة الله ورسوله واجبة في كل حين، خصوصًا عند نداء الجهاد، فالإيمان يتطلب انقيادًا تامًا لأوامر الدين بلا تأخير أو تردد، وهذا هو جوهر الالتزام العقيدي الذي ثبت في سير الصحابة.
- الخيانة والفساد الداخلي من أعظم الكبائر التي يُحاسب عليها الله، ويؤدي نقض العهد إلى استحقاق العقوبة، ما يدل على حرمة العهد وضرورة الوفاء به ضمن أركان الإيمان.
- تأكيد الله عز وجل على الاستجابة الطيبة للدعوة، وإجلال كلمة المؤمنين "سمعنا وأطعنا" دليل على حقيقة الإيمان الذي لا يشوبه ريبة أو تردد، وأن الطاعة من علامات الاتباع الحق.
- نصرة الدين واجبة وفرض على المؤمنين، وهي من مظاهر الإيمان العملي الذي يعكس صدق القلب والروح، وهذا يظهر أن الجهاد حق مقدس مرتبط بالدين والوفاء بالميثاق.

فوائد فقهية

- عدم تأجيل الأمر بالقتال أو تأخير الجهاد يعد من ضوابط الفقه التي تُعلي من مكانة المبادرة في الطاعة والعمل الصالح.
- صلاة العصر في مكان غير المسجد المعتاد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم تعكس مرونة الفقه في التعامل مع الظروف الطارئة وأهمية الطاعة دون تأخير.
- التكليف بالجهاد يشمل جميع المسلمين القادرين، وقد يتضمن الانتقال بين جبهات القتال تبعًا لتطورات الحرب وأمر القائد.
- القصاص من الخائنين مبدأ فقهي ثابت يحمي أمان الجماعة، ويكفل حفظ العهد، ويكسر شوكة الخيانة ويمنعها.

فوائد أخلاقية

- الوفاء بالعهد والميثاق من أعلى درجات الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المؤمن، والخيانة من أبغض الصفات وأعظم الظلم.
- التضحية والصبر على التعب في سبيل الله من أسمى صفات النفوس الرفيعة التي يتحلى بها المسلمون الصادقون.
- المحافظة على وحدة الصفّ في أوقات الشدة من القيم الأخلاقية الجوهرية التي تحفظ كيان الأمة وتبعدها عن التمزق والضعف.

فوائد سلوكية

- الاستجابة السريعة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم تعكس أعلى درجات الانضباط والطاعة، وهو سلوك يتطلب التربية الروحية والتدريب المستمر.
- بذل الجهد والتعب في سبيل الهدف الكبير يرسخ في النفس قوة الإرادة والقدرة على الصبر والثبات في المحن.
- حب العمل والاشتياق للنفير كعلامة على قوة الانتماء والحرص على نصرة الحق.

فوائد سياسية وعسكرية

- الحفاظ على جبهة ثابتة وتوجيه الجهود نحو الخونة يمثل استراتيجية حربية مهمة تحصن المدينة وتقطع أوصال العدو

من الداخل.

- القيادة الحكيمة للنبي صلى الله عليه وسلم في استغلال اللحظة وتوجيه الجهود تعزز من فرص الانتصار، وتكشف أهمية اتخاذ القرار المناسب في التوقيت المناسب.
- تحرك الجيش المؤمّن بسرعة ونظام، وارتباطهم بولاية النبي، يبرز أهمية القيادة الموحدة والانضباط العسكري في الحروب.

فوائد إدارية وقيادية

- قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على تحريك الهمم المتعبة، ورفع الروح المعنوية في أوقات الشدة، توضح مهارات القيادة الدينية والإنسانية معًا.
- التوجيه الإلهي المباشر للرسول يبين أهمية الاتكال على الوحي والإرشاد الإلهي في صنع القرارات المصيرية.
- تسيير جيوش المنظمة بسرعة وكفاءة رغم التعب والظروف الصعبة يعكس قدرة الإدارة على تنظيم الجهود وتحقيق الأهداف بفعالية.

فوائد اجتماعية

- الشعور بالمسؤولية الجماعية تجاه الدين والوطن يدفع الأمة إلى الالتفاف والتكاتف في مواجهة الأزمات.
- المشاركة الجماعية في أداء الفروض كالصلاة حتى في ظروف الحرب تُعزز من الترابط الاجتماعي والروحي.
- التعاون في الطاعة تعمق التواصل بين أفراد المجتمع وتدفعهم للثبات والصبر.

فوائد نفسية

- تأكيد الله عز وجل على أن الاستجابة للنداء ترفع معنويات المؤمنين، وتزيد من ثقتهم في نصر الله والرسول، ما يخفف من وقع التعب والخوف.
- حفظ وحدة الصف والدينونة الجماعية تساهم في تقوية النفس ومقاومة الضعف والهزيمة النفسية.

فوائد تاريخية وحضارية

- هذه الواقعة تسجل نموذجًا خالدًا للالتزام الصادق في الظروف الصعبة، وهي درس للأجيال في الإيمان والعمل والتوكل.
- توثيق السيرة النبوية يرفع الوعي بين المسلمين بقيمة الطاعة وحسن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

مخالفات الواقع

- في زماننا، الكسل والتراخي في الجهاد وطاعة أوامر الدين صار من الأمور العادية، على عكس استجابة الصحابة السريعة التي كانت بلا تردد.
- ضعف الالتزام بميثاق الجماعة، وكثرة الخيانات الداخلية التي لا تزال تنخر في جسد الأمة، ما يشبه خيانة بني قريظة من حيث الضرر.
- انتشار التفكك والانشقاقات التي تفرق الصفوف، ولا تجعل الأمة في وحدة قوية كما كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.
- تأجيل العمل الصالح وعدم المبادرة في الوقت المناسب، سواء في الجهاد أو في مجالات أخرى، مما يضعف الأمة أمام أعدائها.
- عدم الالتزام بالصلاة وأداء الفروض في أوقاتها مع وجود الأعذار اليسيرة، وهو مخالفة صريحة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالالتزام والطاعة.
- ضعف الثقة بالقادة الشرعيين، والتشكيك بهم بدون دليل، مما يُسبب انشقاق الأمة ويُضعفها أمام أعدائها.

- غياب روح التضحية والاستعداد للبذل في سبيل الدين، وكثرة الأنانية والكسل، وتفضيل الراحة على الطاعة.
- انتشار الفرق التي تدعو إلى التخلف والجمود، وتخالف منهج السلف الصالح، مما يبعد الشباب عن حيوية الدين وتعاليمه الصحيحة.

الفقرة الثانية : »يا خيل الله اركبي«... الزحف نحو خيانة الداخل

لم يكن الليل قد انقضى عن المدينة بعد، ولم تجف دماء الخندق، ولا هدأت صدور المجاهدين التي كانت تضطرب تعبًا ويقينًا، حتى دوّى نداء السماء مرة أخرى، يأمر المؤمنين بأن لا يستريحوا بعد... فما وُضعت السيوف، ولا استرخت أعصاب الملائكة، وما زالت صفحة الغدر مفتوحة تنتظر العدل أن يُطوى بها آخر سطر.

فقد خانت بنو قريظة العهد في أحلك اللحظات، حين كانت المدينة محاصرة، والقلوب بلغت الحناجر من شدة الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]. وكانت طعنتهم من الظهر، خيانة لا تُغتفر، وغدرًا ما بعده غدر، وقد قال الله عز وجل عنهم :﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾]التوبة: ١٢٦.[

وفي تلك اللحظة المشحونة، التي لم يذق فيها المجاهدون طعم الراحة، ولم تبرأ فيها الجراح، نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم، كما في الصحيحين، فقال له« :**أوَضعتَ السلاحَ؟! فإنّا لم نضع أسلحتنا بعدُ، انطلقْ إلى بني قُريظة، فإني سائرٌ أمامَك أُزلزلُ بهم حصونَهم، وأقذفُ في قلوبِهم الرُّعبَ.**«

فهبّ النبي صلى الله عليه وسلم كالسيل الجارف، وأمر مؤذّنَه أن ينادي في الناس« :**من كان سامعًا مطيعًا، فلا يُصلِّيَنَّ العصرَ إلا في بني قريظة** — «رواه البخاري ومسلم.

ثم علت صرخته الشريفة تهزّ جنبات المدينة:
»**يا خيلَ اللهِ اركبي** — «كما ورد في «المغازي» للواقدي وغيره، وهي صيحة الاستنفار التي كانت تُطلق عند نُزول النوازل وعظيم القتال، فانتفضت القلوب، واشتعلت الهمم، وكأن السماء نفسها قد انحنت تسمع وترى.

مضى الجيش النبوي، يطوي الرمال طيًّا، والعرق يسيل من الجباه، لكنه عرق الطاعة، ودم الحمية، ووهج الغيرة على حرمات الإسلام. لم يكونوا طلاب مال ولا دنيا، وإنما طلاب حق، وحماة ميثاق، ومطهرين للصف من دنس الخيانة الذي كاد أن يُجهز على الأمة من الداخل، وهي بعدُ في مهدها.

كانوا يدركون أن الخيانة من الداخل أفتك من عشرة آلاف فارس من الخارج، فكل سهم لا يُصوَّب إلى العدو، قد يغرسه خائنٌ في ظهرك، وإن التهاون مع الغادرين في وقت الحرب يفتح الباب لفسادٍ لا يسده إلا سيلٌ من دماء البراءة.

ولما وصلت الجموع المباركة إلى بني قريظة، وجدوا الحصون قد أُغلقت، والوجوه شحب لونها من الهلع، فقد علموا أن الحق قد جاء، وأن السيف سينزل حكمه، وأن الحصون مهما اشتدّت، لا ترد بأس الله إذا جاء:
﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَنَعَتْهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**﴾]الحشر: ٢.[

لقد حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حصارًا شديدًا كما في الصحيحين، دام خمسة وعشرين ليلة، حتى استسلموا. ثم أنزل الله حكمه عليهم على لسان سعد بن معاذ رضي الله عنه، فكان عدلًا أنزله الله من فوق سبع سماوات:
»**أن يُقتل رجالُهم، وتُسبى نساؤهم وذراريهم، وتُقسم أموالهم**«، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:
»**لقد حكمتَ فيهم بحُكمِ اللهِ من فوق سبعِ سمواتٍ** — «رواه البخاري ومسلم.

وهكذا طُويت صفحة الغدر، لا انتقامًا ولا بطشًا، وإنما قطعًا لذيل الخيانة، وتحصينًا للمجتمع من طعنة الداخل.

إنها قصة نداءٍ ملائكي، واستجابةٍ نبوية، وزحفٍ مبارك، ودرس خالد في أن الأمة إذا أرادت العزّ، فعليها أن تطهّر صفوفها من الغدر، وتُعلِي راية الطاعة، وتستجيب لنداء السماء دون تردد» **:يا خيل الله اركبي.«**

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- ثبات الإيمان واليقين بالله تعالى في أحلك اللحظات، مع العلم بأن المحن والفتن اختبار من الله لعباده.
- الله سبحانه وتعالى يراقب عباده وينصرهم على أعدائهم، وهو القوي العزيز الذي يكفي المؤمنين القتال وينصرهم من حيث لا يحتسبون.
- العقوبة الإلهية على الخيانة والنكث بالعهد، حيث يُفتَن الخائنون مرارًا ولا يتوبون، وهذا دليل على غضب الله عليهم وامتناع رحمته إذا استمروا في غيهم.
- الطاعة لله ولرسوله واجبة، وأن الأمر بالقتال والنفير من الله والرسول لا يجوز تركه أو التهاون فيه، بل هو حق على كل مؤمن.

فوائد فقهية

- جواز قتال الخونة والمارقين في حالة الخيانة العظمى التي تهدد أمن الأمة وسلامتها.
- وجوب الاستجابة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم في جميع الظروف، خاصة في أوقات الشدائد والحروب.
- مشروعية فرض الصلاة في أماكن وأحوال غير معتادة، كصلاة العصر في بني قريظة امتثالًا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.
- إباحة استخدام أساليب الحصار والتكتيكات العسكرية لضمان حفظ الأمن واستتباب النظام في الدولة الإسلامية.

فوائد أخلاقية

- الصدق مع العهد والمواثيق من أعظم الفضائل، وأي خيانة لها عواقب وخيمة على المجتمع والأمة.
- الشجاعة في مواجهة الخيانة والغدر حتى في أصعب الظروف، كما ظهر في نفير النبي وأصحابه.
- التضحية في سبيل الله والذود عن حمى الدين والمجتمع، والتسليم الكامل لأمر الله ورسوله.
- الحذر من دسائس العدو الخفي، وأهمية اليقظة الروحية والأخلاقية تجاه أعداء الداخل.

فوائد سلوكية

- الاستعداد الدائم للواجبات الشرعية، وعدم الركون للراحة أو التهاون حتى في فترات الظفر المؤقتة.
- التفاعل السريع والاستجابة الطوعية للدعوات النبوية والعمل الجماعي الموحد في وجه المحن.
- أهمية الإخلاص في العمل والتوجه إلى الله بالدعاء والتضرع عند الشدائد.
- الاعتراف بالحق والتوبة من الخطأ ضروري في النجاة الفردية والجماعية.

فوائد سياسية وعسكرية

- أهمية وحدة الصف الإسلامي والتكاتف في مواجهة الأعداء، خاصة عند الخطر الداخلي والخارجي.
- مواجهة الخيانة الداخلية بكل حزم وعدل، لأن الخونة أكثر خطورة من أعداء الخارج.
- الذكاء في إدارة المعارك وفتح جبهات الحسم في الوقت المناسب لمنع تفكك الصفوف.

- أثر القيادة النبوية الحكيمة في توجيه الجيش وتحفيزه على القتال والإصرار.
- استخدام الحصار والتكتيكات الاستراتيجية لتحقيق النصر بجهد أقل وأضرار أقل.

فوائد إدارية وقيادية

- الحزم في اتخاذ القرارات في أوقات الأزمات، والقيادة المباشرة من قلب الحدث.
- استنهاض الهمم بإصدار الأوامر الواضحة والدعوة إلى الطاعة والالتزام.
- التفويض الذكي في المهام، كاختيار حذيفة بن اليمان للقيام بالاستطلاع.
- إدارة الأزمات بالموازنة بين العمل العسكري والاستعداد النفسي للجيش.
- استثمار معنويات الجيش من خلال التشجيع والتطمين المستمر.

فوائد اجتماعية

- أهمية الحفاظ على تماسك المجتمع الإسلامي من الداخل، وتحذير من الفتن والفرقة التي تأتي من الخونة.
- الدور الكبير للمجتمع في دعم المجاهدين وتأمينهم وتأصيل مبدأ الطاعة للجميع.
- أثر الخيانة على انكسار المجتمع وتفككه، وكيف أن الإخلاص في العهد يحفظ تماسك الأمة.
- حتمية محاربة الغدر والفساد لمنع الفساد المجتمعي.

فوائد نفسية

- كيف يعزز اليقين بالله والثقة بوعده الصبر والثبات في أحلك الظروف.
- أثر الدعاء والتضرع على تهدئة النفوس وتقوية العزائم.
- التغلب على الخوف بالرغبة في الطاعة والعمل واليقين بنصر الله.
- أهمية الإيمان بقدرة الله على تحويل الهزيمة إلى نصر مع الصبر والاستعانة به.

فوائد تاريخية وحضارية

- معركة بني قريظة كدرس تاريخي في محاربة الخيانة الداخلية وتأمين الدولة من الداخل.
- تطبيق العقوبات الشرعية العادلة التي تحمي أمن الدولة والمجتمع الإسلامي.
- تجسيد القيادة النبوية الحكيمة التي جمعت بين الرحمة والعدل والشدة حين تستدعي الحاجة.
- تأثير هذه الأحداث في ترسيخ قواعد الدولة الإسلامية الأولى وتعليم الأجيال اللاحقة دروسًا في الحزم والثبات.

مخالفات الواقع

- انتشار فرق الخوارج وأصحاب الفرق الضالة الذين يزعمون الفضيلة مع اقترابهم من مواقف الخيانة والفتن الداخلية، مما أدى إلى تفكك الشباب وإضعاف الروح الجماعية التي أمر بها الإسلام.
- تساهل كثير من الناس في محاربة الفساد الداخلي أو التغاضي عنه، وترك مجال للغدر والخيانة أن تنتشر بين صفوف الأمة، مما يجعلها ضعيفة وهشة أمام الأعداء.
- ضعف الوعي الديني الصحيح لدى الشباب، مما يجعلهم فريسة لأفكار متطرفة تزرع الفرقة بين أبناء الأمة وتكفر الحاكمين الشرعيين وتضعف القاعدة الجماهيرية للدولة الإسلامية.
- تنازع بعض الجماعات على السلطة والقيادة بالوسائل غير الشرعية، مما يشابه في الواقع موقف الخونة الذين نكثوا العهد في المدينة.
- غياب حس المسؤولية الجماعية، وانتشار الفردانية والانعزال، بعكس حالة الصحابة الذين تلاحموا ولبوا النداء النبوي

بلا تردد.

- ضعف الالتزام بالدين في أوقات الشدة والفتن، حيث يميل البعض إلى التخاذل والهروب من الواجبات الشرعية، على خلاف مثال الصحابة حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلّ العصر إلا في بني قريظة.»
- استخدام بعض الفرق الضالة لقضايا الفتنة الداخلية للتمرد على الحكام المسلمين، وتوظيف ذلك في تبرير أعمال العنف والتخريب، مما يهدد أمن البلاد واستقرارها.
- ضياع مبدأ الحذر من الخونة وأصحاب الأدوار الخفية، الذين قد يتسللون بين صفوف المسلمين ليقضوا على الوحدة واليقين من الداخل.
- انتشار الغلو والتطرف في بعض المناطق، مع ضعف الدعوة الوسطية التي تدعو إلى الوحدة والصفح والحكمة، فيخسر المسلمون بذلك ثباتهم وأمنهم الداخلي.

الفقرة الثالثة : لحظة الانهيار... حين أطبق الحق على الباطل، فتهدمت قلاع الخيانة على رؤوس أصحابها

ما إن امتدت أيام الحصار على بني قريظة، حتى بدأت جدران حصونهم تنزف خوفًا، والقلوب تنخلع من صدورهم رجفة، وكل أمل كانوا يلوذون به تقوّض تحت أقدام جيش الإيمان.

لقد كانت لحظة تتكلم فيها السنن الإلهية" *فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار*] "الحشر: ٢.[

سُدّت الأبواب، وضاقت الحِيَل، وغرّتهم خيانتهم التي ركنوا إليها يومًا، فإذا بهم في مهبّ السيف، عُزّلًا من نصير، عُراة من الحجة. حينها نادى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخُيّروا بين ثلاث: أن يسلموا فيأمنوا، أو يقاتلوا فيموتوا، أو ينزلوا على حكمه الكريم.

فأبوا الإسلام، وكأن الكفر قد غلّف قلوبهم بغطاء لا يُخترق، وارتعدوا من القتال وقد رأوا أن نصر الله نازل لا محالة، ولم يبقَ لهم إلا أن يتشبثوا بأوهى خيوط النجاة... فتوسّلوا أن يُحكّم فيهم أحد حلفائهم من الأوس.

قالوا" :نرضى بحكم سعد بن معاذ."

ظنّوا أن رابطة الحلف أقوى من عُروة الدين، وغفلوا أن الإيمان إذا سكن القلب فلا يحكمه إلا الحق، ولا يستميله هوى، ولو على حساب الأقربين. لقد كان سعد حينها جريحًا، قد فُتح له باب من أبواب الآخرة، فدُعي من فراش مرضه ليحكم في من خانوا الله ورسوله في ساعة العُسرة.

جاء محمولًا على دابّة، والدماء لم تجفّ من جرحه، لكنه يحمل بين جنبيه قلبًا لا يلين في الحق، ولسانًا لا يتلوّن في الحُكم، وعقيدة صلبة لا تنكسر أمام المجاملة أو الانحياز.

وفي مشهد مهيب، لا يُنسى، قال لهم سعد في كلمات خالدة، صارت منارة في سجل العدل:

»فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم وأموالهم«،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم» :لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة«رواه البخاري ومسلم.

وهكذا سقطت آخر أوراق التوت عن وجوه الخيانة، وأُسدل الستار على فصلٍ طويل من الغدر والطعون في الظهر، ليبدأ عهدٌ جديد من الأمن، يُطهّر المدينة من غدر الداخل، بعدما طهّر الله ظاهرها من زحف الأحزاب.

فهل وعى التاريخ أن دولة لا تقوم على العدل، تُهدّها خيانة الداخل قبل ضربات العدو؟
وهل أيقن المؤمنون أن النصر ليس فقط في سوْق السيوف، بل في الثبات على مبادئ لا تحيد، ولو أمام الدم والقرابة؟

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الجزاء من جنس العمل: الله تعالى ينصر عباده المؤمنين ويُهلك أعداءه، وينزل الرعب في قلوب الكافرين والخونة، وهو القاضي العادل الذي يحكم بين الناس بحكم لا يُرد.
- الإيمان الحقيقي لا يتغير بالقرابة أو المصالح الشخصية، بل هو عروة متينة لا تلين أمام الغدر والخيانة، ويُحكم بالحق حتى لو كان الحكم مؤلمًا.
- استحقاق العقاب الشرعي للذين خانوا الله ورسوله وأهلوا الحصون للعدو، وأن ذلك من عدل الله الذي يعلو فوق كل اعتبار دنيوي.
- النبي صلى الله عليه وسلم يقرّب حكم سعد بن معاذ لأنه حكم الله من فوق سبع سماوات، دلالة على أن أحكام الشرع هي حكام سماوية لا يجوز مخالفتها.

فوائد فقهية

- جواز التشريع الشرعي في أحكام القصاص للذين خانوا العهد وأذوا الأمة، وهي من صميم تطبيق الحدود والقضاء الشرعي.
- الاستناد إلى حكم شرعي يُصدر من رجل ثقة مأمون، وهو دليل على ضرورة التزام الحكم الشرعي وعدم التفريط فيه.
- جواز اختيار الحُكم بين الخصوم، شريطة أن يكون الحكم وفق الشرع، كما فعل بنو قريظة عندما قبلوا حكم سعد بن معاذ.
- تأكيد مشروعية قتال الخونة وإنزال العقاب بهم للوقاية من الفساد والدمار الاجتماعي.

فوائد أخلاقية

- قيمة العدل المطلق، حتى في أصعب الأحوال وأمام أقرب الناس، والابتعاد عن المحاباة والانحياز.
- تحذير من الغفلة والاعتماد على الحلفاء الأضعف من الولاء الحقيقي لله ولرسوله، وأن الولاء الحقيقي للإيمان لا يخضع لمصالح دنيوية.
- الصبر والثبات على الحق، مهما كان الثمن، وألا ينخدع الإنسان بظواهر الأمور أو الخديعة.
- الوعي بخطورة الغدر والخيانة وتأثيرهما المدمر على المجتمع.

فوائد سلوكية

- عدم المساومة على المبادئ والقيم، والثبات في المواقف الصعبة، حتى لو كان ذلك يعني مواجهة الخطر والاضطرار إلى تنفيذ أحكام صارمة.
- أهمية التحلي بالشجاعة في اتخاذ القرارات الحاسمة التي تحفظ أمن المجتمع وسلامته.

- تقبل الحكم الشرعي بصدر رحب، حتى وإن كان مؤلمًا، لأن ذلك هو سبيل الاستقامة والنجاة.
- الحرص على تنفيذ العدالة بالوسائل التي تحقق الاستقرار وتردع الظلم.

فوائد سياسية وعسكرية

- ضرورة اتخاذ مواقف حاسمة تجاه الخونة والمارقين للحفاظ على أمن الدولة من الداخل.
- الحكمة في اختيار القادة والأشخاص الأكفاء لتولي مهام القضاء والحكم في الأزمات.
- أهمية تحكيم القانون الشرعي في معالجة قضايا الأمن الداخلي وعدم التهاون مع الخونة مهما كانت الظروف.
- التأكيد على أن النصر الحقيقي ليس فقط في القتال، بل في بناء دولة عادلة تقوم على مبادئ الحق والعدل.

فوائد إدارية وقيادية

- قوة القيادة التي تتحلى بالعدل والرصانة والتمسك بالحق حتى في أصعب الظروف.
- أهمية اتخاذ القرار المناسب بسرعة وحزم لمنع تفاقم الأوضاع وإحكام السيطرة على الوضع.
- استثمار حالة المرض أو الضعف الجسدي في خدمة القضية الأكبر، حيث كان سعد بن معاذ جريحًا لكنه صدر حكمًا حازمًا.
- التنسيق بين مختلف الجهات والأطراف لضمان تنفيذ الأحكام الشرعية وإرساء الأمن.

فوائد اجتماعية

- أثر الخيانة على تدمير الأواصر الاجتماعية وإضعاف المجتمع الإسلامي، وضرورة الحفاظ على الأمن الجماعي.
- أهمية الولاء لله ولرسوله فوق كل الولاءات القبلية أو العصبية.
- دور المحاكم الشرعية في حفظ تماسك المجتمع وتحقيق العدالة بين أفراده.
- ضرورة الوعي المجتمعي بخطورة الخيانة وأثرها في هدم المجتمعات وأمنها.

فوائد نفسية

- قوة الإيمان التي ترفع الإنسان فوق أهوال المواقف الصعبة، وتمكنه من تحمل الأحكام الصعبة دون ضعف.
- دور اليقين بالعدل الإلهي في تهدئة النفوس وتقوية العزيمة لمواجهة المصاعب.
- تحرير النفس من الوهم والاعتماد على أسباب النجاح الحقيقية، وهي التمسك بالحق والعدل.

فوائد تاريخية وحضارية

- سجل تاريخي خالد في موقف عدل الإسلام وصرامته في مواجهة الخيانة، وكيف أن الأحكام الشرعية قد أرسيت لحماية الدولة والمجتمع.
- درس تاريخي في تمكين الحق على الباطل مهما طال الزمن أو اشتدت الظروف.
- ترسيخ قيمة العدل في السياسة الإسلامية كأساس لبناء الدولة والمجتمع.
- إظهار كيف يمكن لمواقف الفرد الواحد كالصحابي سعد بن معاذ أن تغير مجرى التاريخ.

مخالفات الواقع

- غياب تطبيق العدالة الشرعية بشكل جلي في كثير من البلدان الإسلامية، حيث تُرك الفساد والخيانة بلا عقاب، مما أدى إلى تفاقم الفساد الداخلي.
- ضعف المحاكم الشرعية وتأثرها بالضغوط السياسية، وغياب الحزم في مواجهة الخونة والمفسدين.
- انتشار الولاءات العصبية والقبلية التي تعلو على الولاء للإسلام، مما يُضعف الروابط الوطنية ويؤدي إلى التناحر

والصراعات الداخلية.

- غياب الوعي المجتمعي بخطورة الخيانة الداخلية، وانتشار التسامح الخاطئ مع ممارسات تؤدي إلى تمزيق الصفوف.
- وجود قيادة غير عادلة أو متخاذلة، لا تتخذ القرارات الحاسمة عند المواقف الحرجة، مما يُضعف الدولة ويزيد من فرص الفساد والغدر.
- التردد في تنفيذ أحكام الشرع في كثير من الأحوال بسبب خشية الضغط السياسي أو الاجتماعي، على عكس موقف النبي صلى الله عليه وسلم وسعد بن معاذ.
- إهمال تأصيل ثقافة العدل وعدم التهاون مع الخونة في نفوس أجيال المسلمين، مما يؤدي إلى ضعف الالتزام والتقاعس في حماية الدين والمجتمع.

الفقرة الرابعة التحكيم العادل... وسعد بن معاذ على منصة القضاء الإلهي

ما إن خفَتَ صوت السيوف، وانحنى بنو قريظة تحت وطأة الحصار المطبق، ورضخوا لحكم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، حتى وقع ما لم يكن في حسبانهم... فقد أحال النبي صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى رجل منهم، خَبِر دهاليز نفوسهم، وشاركهم في سلمهم وحربهم، وكان أقرب إلى وجدانهم من أي أحد آخر.
إنه سعد بن معاذ رضي الله عنه... سيد الأوس، فارس الإيمان، وجرح الخندق ما يزال ينزف على ساعده كأنّه توقيع الشهادة قبل أوان الرحيل.

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُعلي شأن العدل، ويجعل التحكيم شاهدًا خالدًا على أن الإسلام لا يُقيم دولته على الحقد، ولا يقتصّ بغير حق، ولا يَصدر في حكمه عن غضب أو هوى.

فجاءوا بسعد محمولًا على دابّة، وقد أثقلته الجراح، ونفَسُه يعلو ويهبط كأنه ينازع بين الدنيا والآخرة، لكنه ما إن أطلّ بوجهه حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة»:قوموا إلى سيدكم] «رواه البخاري ومسلم[
تكريمًا لمقامه، وتقديرًا لمكانته، وتهيئةً للعدالة أن تُقال على لسان من لا يحابي، ولو كان المحكومون أبناء حلفه وعشيرته.

وقف سعد، وما بينه وبين لقاء الله إلا خطوات من وجع ووقت، لكنه كان يعلم أن ساعة العدل لا تتكرر كثيرًا، وأن من وقف في مقام القضاء بميزان الشريعة، فإن الله يُجري على لسانه ما يرضاه.

فنظر إليهم، وقد خيّم عليهم الصمت، ثم قال في كلمته التي سَجلها التاريخ بحروف من نور»:أحكم فيهم أن يُقتل رجالهم، وتُسبى نساؤهم وذراريهم، وتُقسم أموالهم.« فما كاد ينتهي من كلمته، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم» :لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات] «رواه البخاري ومسلم.[

لقد نطق سعد بما وافق القضاء الإلهي الذي لا يَميل، ولا يظلم، ولا يُؤخذ فيه الناس بغير بينة، فقد خان بنو قريظة العهد في لحظة حرجة كادت أن تجهز على المدينة من الداخل، وتحالفوا مع الأحزاب، وبيّتوا الغدر وهم يعلمون، قال الله تعالى:
}وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب، فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا] {الأحزاب: ٢٦.[

وهكذا طويت صفحة سوداء من كتاب المدينة، لكن ما طُويت برمح يُشهر، ولا بسيف يُرفع، وإنما طُويت بعدلٍ ربّانيّ، نطق به لسان عبدٍ صادقٍ كان قلبه معلّقًا بالسماء، لا تُغويه العواطف، ولا تُعميه القرابات.

وما هي إلا أيام، حتى ارتحل سعد إلى ربه، فاهتزّ لموته عرش الرحمن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: »اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ] «رواه البخاري ومسلم.[

أيّ قضاء ذاك الذي يُهتز له عرش الجليل؟ وأيّ مقامٍ ذاك الذي يُقابَل برضى الله قبل أن يُحمل الجسد إلى القبر؟

لقد سطّر سعد في هذه اللحظة دستورًا خالدًا: أن الشريعة فوق الحلف، وأن الحق أعلى من القبيلة، وأن من رضي بالله حكمًا، فلن يخاف لومة لائم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تحكيم القضاء الشرعي العادل هو تنفيذ لحكم الله تعالى الذي لا يظلم ولا يميل إلى الهوى.
- إقرار أن الإسلام لا يبني دولته على الحقد أو الانتقام الجائر، وإنما على العدل والحق مهما كان الثمن.
- ثبات العدل الإلهي لا يتغير بقرابة أو تحالفات، بل هو قضاء ربانِيّ ينطق به العبد الصادق.
- مكانة الصحابة خاصة كأشخاص معصومين في تطبيق شرع الله، كما في شأن سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي اهتز له عرش الرحمن لموته.
- أهمية الاستعداد للقاء الله والرضا بحكمه، كما ظهر في استشهاد سعد رضي الله عنه، وأثر ذلك العظيم في السماء والأرض.

فوائد فقهية

- جواز إسناد الحكم إلى شخص من أهل النزاع يكون عادلاً وخبيراً بنفسه وظروفهم، شرط أن يلتزم بالشرع.
- ضرورة تقديم العدل مهما تعارض مع المصالح الشخصية أو القرابات، فالشريعة فوق كل اعتبار.
- إعمال مبدأ الحُكم بناءً على البينة والعدل، مع منع الانحياز أو تحكيم العواطف في القضاء.
- تجسيد مفهوم القضاء العادل في الإسلام كضمانة لتحقيق الأمن والاستقرار.

فوائد أخلاقية

- التأكيد على قيمة النزاهة والصدق في أداء المهام الحساسة، وأن القاضي يجب أن يكون بعيدًا عن المحاباة.
- التحلي بالشجاعة في قول الحق وتطبيق العدالة حتى في مواجهة الأقربين والأنصار.
- الاحترام والتكريم لمن يحمل الأمانة ويحكم بالعدل، كما أُكرم سعد رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.
- الابتعاد عن الغضب والعواطف في مواقف الحكم، والتركيز على مبادئ الحق والعدل.

فوائد سلوكية

- الثقة بالله والاعتماد عليه في المواقف الصعبة التي تتطلب قرارات حاسمة.
- ضرورة الاستعداد لتحمّل تبعات الحكم العادل، حتى لو كان قاسيًا أو مؤلمًا.
- الالتزام بالنظام الشرعي كدليل على النضج والمسؤولية في القيادة.
- قبول الأحكام الشرعية بحسن نية ورضا، مع الصبر على نتائجها.

فوائد سياسية وعسكرية

- تأكيد أن الحكم العادل هو الأساس المتين لبناء الدولة الإسلامية واستقرارها.
- دور القيادة في اختيار الحاكم العادل القوي الذي ينفذ الشرع بوضوح وحزم.
- أهمية القطع مع الخونة والغادرين الذين يهددون أمن الدولة من الداخل.
- ضمان الحماية الاجتماعية والسياسية من خلال تطبيق الحدود والقوانين الإسلامية.

فوائد إدارية وقيادية

- قدرة القائد على اتخاذ القرارات الصعبة في ظروف استثنائية مع الالتزام التام بالعدالة.
- تعزيز مكانة القضاة والحكام الشرعيين كمرتكز أساسي لنجاح الإدارة السياسية.
- التزام القيادة بالمعايير الشرعية في كل حكم يصدر، وعدم التهاون مع الظلم.
- التقدير والاحترام لمن يحمل مسؤولية القضاء العادل في المجتمع.

فوائد اجتماعية

- دور القضاء العادل في طرد الفساد والمفسدين من المجتمع لحماية أفراده.
- تقوية الوحدة الاجتماعية بقطع دابر الخيانة والفساد.
- تعزيز الثقة بين أفراد المجتمع من خلال وجود نظام قضائي عادل يطبق بدون تحيز.
- حماية الضعفاء والأرامل والأيتام من الظلم بعد تطبيق الحكم الشرعي.

فوائد نفسية

- رفع معنويات الأمة بثقة في عدل الشرع ونزاهة الحكم.
- تخفيف القلق من ظلم القضاة أو الطغاة لأن الحكم عند الله هو العدل المطلق.
- تهدئة النفوس عند مواجهة قرارات قاسية بفهم أنها تطبق لأجل الحق.
- تحفيز الصحابة والمسلمين على الثبات والتمسك بالشرع مهما كانت التحديات.

فوائد تاريخية وحضارية

- توثيق موقف خالد في تاريخ القضاء الإسلامي يظهر عدل الإسلام وصرامته.
- درس حضاري في أهمية الالتزام بمبادئ العدالة ونزاهة الحكم لضمان استمرار الدولة.
- تصوير العلاقة بين القيادة والعدل كأساس لنجاح الحضارة الإسلامية.
- إبراز دور الصحابة في بناء دولة إسلامية قوية قائمة على قواعد شرعية.

مخالفات الواقع

- ضعف وجود قضاء عادل ومستقل في كثير من الدول الإسلامية المعاصرة، مما يؤدي إلى انتشار الفساد والظلم.
- انتشار المحاباة والتحيز في المحاكم وتأثر الحكم بالعلاقات الشخصية والقبلية.
- تقليل قيمة القضاة والحكام الشرعيين، مما يضعف ثقة الناس في القضاء ويؤدي إلى التفكك الاجتماعي.
- تهميش الدور القيادي الشرعي في الدولة، وغياب الوعي بمكانة العدالة في حفظ المجتمع.
- غياب التكريم والاحترام لمن يحمل مسؤولية القضاء العادل، وعدم توفير الدعم اللازم لهم.
- تردد القيادات السياسية في اتخاذ قرارات حاسمة بسبب الخوف من فقدان الدعم السياسي أو الجماهيري.

- ضعف الثقافة الشرعية لدى كثير من الناس، مما يجعلهم يرفضون تطبيق الأحكام الشرعية أو يطالبون بالتساهل مع المخالفين.

الفقرة الخامسة : العدالة تُنفّذ... ويذوق الخونة عاقبة الغدر

لم تكن كلمات سعد بن معاذ صرخات غضبٍ عابر، ولا نفثات ثأرٍ قبلي، بل كانت صدىً لحكمٍ علويّ، تجرّد فيه من كل عاطفة، وارتقى إلى مقامٍ لا يُنطق فيه إلا بما يُرضي الله.

وحين نطق بحكمه» :**أُحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتُقسّم أموالهم** «لم يتردّد النبي صلى الله عليه وسلم، بل صدّق عليه فورًا بقوله العظيم» :**لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**] «رواه النسائي وصححه الألباني.[

هنا ساد الصمت، وسقطت كل شُبهات الهوى، فقد صدر القضاء من قلب مؤمن، وأُقِرَّ من قِبَل نبيٍ مرسل، وأمضاه ربٌّ عليٌّ حكيم.

فأُخرج المقاتلون واحدًا تلو الآخر، وكانوا قرابة الأربعمائة، أو يزيدون، ممن ثبتت خيانتهم، وخذلانهم للمسلمين في أحرج لحظات غزوة الخندق، حيث كادت المدينة أن تسقط بخيانتهم من الداخل، وهم يفتحون صدورهم لأعداء الإسلام.

اختار لهم النبي صلى الله عليه وسلم موضعًا يُقال له "الخندق"، فحُفرت الحُفر، ونُفّذ فيهم القضاء.
ضُربت أعناقهم لا شهوةً للدماء، بل إقامةً للعدل، وإطفاءً لنار الفتنة قبل أن تستعر، وتصونًا لمدينة الوحي من السقوط بالخيانة.

ما سالت تلك الدماء إلا جزاء ما كسبت أيديهم، دماءٌ خانت العهد، وهددت أمة، وأرادت أن تغدر في أشد اللحظات، فنزل عليهم العدل كالسيف، قاطعًا كل ذريعة، وحاسمًا لكل فتنة.

أما نساؤهم وذراريهم فقد سُبوا، وأُخذت أموالهم، فقُسّمت بين المسلمين، وساد الأمن، واطمأنت المدينة بعد أن زال أخطر طابور خامس عرفه التاريخ.

وفي غمرة هذا المشهد الجليل، وبينما الناس مشغولون بتنفيذ القضاء، **انفجر جرح سعد بن معاذ، وكأن الدم أراد أن يكتب السطر الأخير في قصة فارس العدل**، وما هي إلا لحظات حتى عانقت روحه السماء، بعد أن أدت رسالتها، وختمت سيرتها بما يُرضي ربها. فما أكرمها من نهاية، وما أصدقها من شهادة، فقد قال فيه نبي الرحمة» :**اهتزّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ** «رواه البخاري ومسلم.[

لقد رحل سعد، لكن بقيت عدالته حيّة تُتلى في صفحات التاريخ، تُعلّم الأمم أن الحق لا يموت، وأن العدل إذا نزل من فوق سبع سماوات، فلا مجال فيه للهوى ولا للتأويل.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- يجب تنفيذ حكم الله تعالى في القصاص من الخونة والمفسدين، فهو أمر شرعي قطعي لا يجوز التهاون فيه.
- تنفيذ أحكام النبي صلى الله عليه وسلم وحكمه دليل على التوحيد الكامل واتباع الشريعة دون تحريف أو تقصير.

- العدل هو من صفات الله الجليلة، وتنفيذ الحكم العادل علامة على إيمان راسخ واتباع الحق الإلهي.
- الإيمان يتطلب طاعة أوامر الله ورسوله في كل الأحوال، وخاصة في أحكام القضاء والقصاص.

فوائد فقهية

- يجب تطبيق القصاص على الخونة الذين خانوا الدين والأمة، حفاظًا على أمن المجتمع واستقراره.
- النبي صلى الله عليه وسلم هو القائد الشرعي الأعلى الذي يقرر مكان ووقت التنفيذ، وهو مقتدى به في تطبيق الشريعة.
- التفرقة بين القصاص الذي هو فرض وحق شرعي وبين الانتقام أو الجرائم التي لا شرعية لها.
- تقسيم أموال المعتدين بعد تنفيذ الحكم هو واجب شرعي لتعويض المجتمع ورد الحقوق.

فوائد أخلاقية

- العدل يجب أن يُنفذ من دون تحيّز أو انحياز، والبعد عن المجاملة مهما كانت الظروف.
- تجريد الحكم من كل عاطفة أو قبليّة، والالتزام بالحكم الإلهي فقط.
- احترام حق الله والعدل يعلوان فوق كل المصالح الشخصية أو القبلية.
- المثابرة على تطبيق العدل هي من صفات المؤمن الحقيقي.

فوائد سلوكية

- يجب الاستعداد لتحمل تبعات تطبيق العدل حتى لو كانت مؤلمة أو صعبة.
- الثقة المطلقة في حكم الله ورسوله وتطبيقه دون تأجيل أو تردد.
- تقبل النتائج بصدر رحب والتمسك بالشرع مهما اشتدت المحن.
- الحرص على تنفيذ الأحكام الشرعية بدقة وإخلاص.

فوائد سياسية وعسكرية

- لا بد من تطهير المجتمع من الخونة والمفسدين للحفاظ على أمن الأمة واستقرارها.
- اتخاذ القرارات الحاسمة والحازمة من قبل القيادة الشرعية هو ضرورة للحفاظ على الدولة.
- تطبيق العقوبات الشرعية هو الوسيلة الوحيدة لردع الخيانة والفتنة.
- العدل هو أساس القوة والاستقرار السياسي والعسكري.

فوائد إدارية وقيادية

- تطبيق العدل بالحزم هو معيار القيادة الصالحة والناجحة.
- احترام القضاء الشرعي وتنفيذه دون استثناء دليل على الاستقامة والحرص على العدل.
- عدم التهاون مع الخونة مهما علت مكانتهم أو قربتهم.
- توحيد الجهود بين القيادة الدينية والعسكرية لتثبيت الأمن والعدل.

فوائد اجتماعية

- حماية المجتمع من الفتن والخيانة التي تهدد أمنه واستقراره.
- تقسيم أموال الخونة بعد تنفيذ العقوبة هو رد الحقوق وضمان عدالة اجتماعية.
- تعزيز قيم الولاء والبراء والابتعاد عن الخيانة والغدر.
- العقوبة ليست انتقامًا، بل وسيلة للحفاظ على وحدة الأمة وسلامة مجتمعها.

فوائد نفسية

- الاطمئنان إلى أن العدل الإلهي ينفذ مهما تعثرت الأمور.
- رفع معنويات المؤمنين بأن الحق لا يُهزم مهما اشتدت المحن.
- قبول الابتلاءات والشدائد كجزء من عدالة الله في تحقيق المصالح العليا.
- تحفيز الصبر والثبات على الحق في النفوس.

فوائد تاريخية وحضارية

- تثبيت نموذج عدالة ربانية شرعية تُدرس للأجيال عبر التاريخ.
- تأكيد دور الصحابة في تحقيق العدل وتأسيس الدولة على قواعد متينة.
- إبراز العلاقة بين العدل الإلهي واستقرار الدولة الإسلامية.
- إعطاء درس عملي في محاربة الخيانة داخل المجتمع الإسلامي.

مخالفات الواقع

- تقاعس كثير من الحكومات في تطبيق أحكام القصاص على الخونة والمفسدين، مما يفتح أبواب الفساد.
- تحجيم دور القضاء الشرعي أو التراجع عنه لصالح حلول مصلحية أو سياسية.
- انتشار المهادنة مع الخونة بحجج واهية، مما يضر الأمن والاستقرار.
- ضعف الوعي بأهمية تطبيق حكم الله وحكم رسوله في القضاء والقصاص.
- تمجيد العواطف أو القرابات على حساب العدل والحق.
- غياب القيادة الحازمة التي تُطبّق العدل بلا هوادة.

الفقرة السادسة: ارتجّ له العرش... موت سعد بن معاذ سيّد الأوس

ما إن أنهى سعد بن معاذ رضي الله عنه كلمته العظيمة في بني قريظة، الكلمة التي صدع بها بالحق، ووافق فيها قضاء الله من فوق سبع سماوات، حتى بدا وكأنّ الأرض تتهيأ لوداع رجلٍ نادرٍ، حمل الأمانة وأدّاها، ونطق بالحق ولم يرهبه في الله لومة لائم.

كان جرحه في يوم الخندق ما يزال يئنّ، ولكنه ما خذله، كأنّه أُمر أن يصبر حتى تنقضي مهمته الخاتمة... فلما اكتملت رسالته، ورضي القلب بإنفاذ حكم الله، انفجر الجرح، وكأنّ دمه الطاهر أراد أن يُكتب به آخر سطر من سيرة بطلٍ من أهل الجنة.

فما لبث إلا قليلًا، حتى سلّم روحه الطيبة، وعرجت إلى ربها، راضية مرضيّة، بعد أن ثبت يوم اشتدّ البلاء، ونصر الله يوم خذل الناس.

وبينما كان الصحابة يتهيأون لتغسيله وتكفينه، **أُعلن في السماء نبأٌ جلل، ترجّفت له أعمدة الكون، وارتجّ له عرش الرحمن.**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**] «رواه البخاري ومسلم.[

أيُّ مقامٍ هذا؟ أيُّ منزلةٍ عظيمةٍ تلك التي تُزفّ إليها روح مؤمن؟
إنها رتبة لا تُنال بكثرة صلاةٍ ولا صيامٍ فقط، بل بالصدق عند اللقاء، والثبات عند اشتداد الخطر، والوفاء للعهد مع الله والرسول.

جاء في صحيح *مسلم* أن جبريل عليه السلام نزل يسأل النبي صلى الله عليه وسلم :**من هذا الذي مات؟ لقد فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش.**«

وفي رواية عند الطبراني بإسناد حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال» :**لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك.**«

فيا لله !...ما أعظمها من خاتمة!
ملك الموت لم يأته وحده، بل نزلت معه جموع الملائكة، في موكب من نور، يزفون روح فارسٍ ثبت حين زلّت الأقدام.

لقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنًا على فراق سعد، وبكى الصحابة معه، ولكنها لم تكن دموع ضعف، بل دموع وداعٍ لفارسٍ ترجل بعد أداء المهمة، دموع فخرٍ بخاتمة تهتزّ لها السماء.

وكان صلى الله عليه وسلم يذكره كثيرًا، حتى قال فيه» :**هذا العبد الصالح الذي اهتز له عرش الرحمن، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة]** «رواه النسائي وصححه الألباني.[

ولم ينسه أصحابه بعد موته، بل كانوا إذا ذُكر سعد في المجالس، خشعت القلوب، واهتزّت الأرواح، وقالوا:
»كان رجلاً بدريًا، نقيَّ القلب، عظيم الموقف، ثابتًا عند الشدائد، صدوقًا في بيعته، ما خذل الله ولا رسوله.«

نعم، لقد نزلت فيه سنّة من سنن الله، حيث قال تعالى :﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾]الأحزاب: ٢٣.[

إنه سعد بن معاذ... رجلٌ باع الدنيا بالآخرة، وصدّق الله، فصدّقه الله، فجعل له الخلود في قلوب المؤمنين، والرجفة في عرش الرحمن، وموكبًا من الملائكة لا يُرى إلا لمن أتمّ البلاء وأوفى بالعهد.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الثبات على الحق والصدق مع الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم هو سبب نيل رضا الله وعلو المقام في الآخرة، كما ظهر في حياة سعد بن معاذ رضي الله عنه.
- أجر الصبر وتحمل البلاء في سبيل الله عظيم، والله يجازي عباده الصادقين بكرامات عظيمة مثل اهتزاز عرش الرحمن لموتهم.
- الإيمان لا يقتصر على الأقوال أو العبادات الظاهرة فقط، بل هو صدق في اللقاء مع الله، وثبات عند الشدائد، والوفاء بالعهد مع الله ورسوله.
- الملائكة تشهد للعباد الصالحين وتكرمهم بمظاهر عظيمة في السماء، كناية عن مكانتهم ورضا الله عنهم.
- الله تعالى يختار عباده الصالحين لمراتب عالية في الجنة، وذلك بمنزلة سعد بن معاذ الذي شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بمقام رفيع.

فوائد فقهية

- ثبوت منزلة الصحابي في الآخرة وتكريمه عند الله يثبت وجوب حب الصحابة والاعتراف بمكانتهم.
- دليل شرعي على أن البلاء والمرض مع الصبر عليه يُكفّر الذنوب ويرتقي بالعبد في درجات الآخرة.
- التحري والتمسك بالعدل في الحكم هو من أعظم مكاسب الدين، وعلو مقام القاضي الصالح كالذي حكم سعد.

فوائد أخلاقية

- الوفاء بالعهد من أعظم الفضائل، وبه يرتقي العبد إلى منازل رفيعة عند الله والناس.
- الصبر على الألم والابتلاء دليل على قوة الإيمان وصدق المحبة لله.
- دموع الفراق الحزينة ليست ضعفًا، بل فخرٌ واعتراف بالجميل والمواقف الصادقة.

فوائد سلوكية

- العمل الصالح المستمر حتى النهاية، وعدم التراجع عند الشدائد، هو سبيل الفوز بالثبات والرضا الإلهي.
- الحزن على فقد الصالحين نعمة، ويُظهر مكانتهم وأثرهم في النفوس.

فوائد سياسية وعسكرية

- قوة الأمة وثباتها في الشدائد مرتبط بقيادة رشيدة وصادقة تتحلى بالعدل والإيمان.

فوائد إدارية وقيادية

- القائد الصالح يضحي بنفسه ويبقى مخلصًا حتى النهاية، وهذا يترك أثرًا عميقًا في النفوس ويحفز الأمة على الصبر والجهاد.

فوائد اجتماعية

- المواقف البطولية الصادقة تترك بصمة لا تمحى في التاريخ والمجتمع، ويُستدل بها على قوة التلاحم والتماسك الاجتماعي.

فوائد نفسية

- ثقة المؤمن في جزاء الله وعظم أجر الصبر تُنعش القلب وتجعله يتحمل المشقات بطمأنينة.

فوائد تاريخية وحضارية

- قصة سعد بن معاذ تمثل نموذجًا خالدًا في ثبات الصحابة ونبل المواقف التي تُروى للأجيال، وتعكس سنن الله في تمييز الصالحين والكرامات الربانية.

مخالفات الواقع

- التهاون في الوفاء بالعهد مع الله ورسوله، حيث ينتشر اليوم بين كثير من الناس الغدر والتخاذل في المواقف الصعبة، وهو أمر مرفوض شرعًا وعقلاً .

- انتشار ضعف الصبر على الابتلاءات، وتهافت الناس على الترف والهروب من المشاق، خلافًا لمنهج الصحابة الذين صبروا حتى نالوا رضى الله

- تقلل فرق البدع من منزلة الصحابة العظام، وتحاول الانتقاص من شأنهم، وهذا مخالف لمنهج أهل السنة في تثبيت حب الصحابة واعتبارهم قدوة

- إهمال التمسك بالعدل في القيادة والقضاء، مما يؤدي إلى فساد في المجتمع وانتشار الظلم، خلافًا لما حدث مع سعد بن معاذ الذي وقف على العدل مهما كلف الثمن

- ضعف اليقين بحضور الملائكة وتقدير منزلتهم، مما يجعل الناس يغفلون عن حقائق الغيب التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم

- تحجيم مكانة الثبات على الحق والوفاء بالعهد إلى مجرد شعارات دون تطبيق عملي، مع انتشار المظاهر العكسية في كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة

- استهانة البعض بحقيقة الحساب والجزاء العظيم الذي ينتظر الصادقين والصابرين، وهو من أسمى العقائد التي يحث عليها الإسلام

- تفشي ثقافة الضعف النفسي والهروب من مسؤولية الالتزام في أوقات المحن، بعكس الصحابة الذين ثبتوا حتى النهاية.

الفقرة السابعة : العودة إلى المدينة... حين تنفّس الصدق، وسقط آخر أقنعة الخيانة

عاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لا عودة المنهك من حرب، بل عودة القائد المنتصر، والرسول المؤيد، والراية المرفوعة في علياء النصر المبين.

عاد صلى الله عليه وسلم وقد أزال الله على يديه شوكة الغدر المزمنة التي نخرت في جسد الأمة من داخل حصونها، إنهاءً لفتنة طال لهيبها، وتطهيرًا لبيئة المدينة من أخطر طابور خامس عرفه التاريخ: يهود بني قريظة.

لقد كان الخطر داخليًا لا خارجيًا، ولكن الله الذي تولى نصر نبيه في بدر، وأيده بجند من السماء في أحد، قد أتم النعمة الآن بكسر ظهر الخيانة من الداخل، حتى لا تبقى بعد اليوم قلاع تأوي الغادرين، ولا عهود ينكثها الماكرون دون حساب.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ومن معه من جنود التوحيد مكللين بالنور، تطوف على وجوههم آثار السجود واليقين، وتحفهم ملائكة السماء وهم يعودون إلى الحصن الأمين، بعد أن أذهب الله عنهم رجس اليهود والمنافقين.

عادوا وألسنة الأطفال تشدو بالتكبير، وقلوب النساء تلهج بالحمد، وصدور المؤمنين تتنفس أمانًا افتقدوه طويلًا... فعاد الأمن بعد أن اقتلع الله جذور الفتنة، وعاد السلام بعد أن دفنت الخيانة تحت تراب الخندق.

لقد كانت معركة بني قريظة، لا مجرد نزالٍ عسكري، بل إعلانًا إلهيًّا أن لا موطئ قدم بعد اليوم للخونة في كيان الإسلام، وأن الرسالة باقية، لا تهددها خيانات ولا تحاصرها مؤامرات.

ثم كان أن جمع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم، فأعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه، وقسّمها بالسوية بين المجاهدين، بعدلٍ لا يميل، وقسطٍ لا يحيف، وكان من بين السبي نساء وأطفال، فجرى عليهم حكم الله بما يناسب حالهم، رحمة في موضعها، وحزمًا في موضعه، ومصلحة للأمة لا تنفك عن عدل الشريعة الغراء.

وهكذا، لم يكن النصر فقط سيفًا يشهر، بل كان أيضًا تطهيرًا داخليًا دقيقًا، أزال الله به الغثاء، وثبّت به دعائم الولاء والصدق والإيمان، وكأن الآية القرآنية نزلت تشهد لحقيقة ما جرى:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦]

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]

لقد كُتب بعد هذه الوقعة فصل جديد من فصول السيرة، فصلٌ عنوانه **التمكين**، ومتنُه **العدل والوفاء والهيبة**، ومعناه أن الدولة النبوية لم تعد فقط فكرة في العقول، بل صارت واقعًا يملأ الآفاق، وأن المدينة قد تطهرت من كل رجس، واستعدت لتكون قاعدة الإسلام الكبرى في العالم.

فما أعظم العاقبة للصادقين، وما أبهى النصر إذا تزينت خطواته بسنن الله، وارتفعت راياته فوق رؤوس المخلصين.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- **تنقية المجتمع من الخونة ضرورة إيمانية:** تجلى في قصة بني قريظة أن الله لا يترك الخيانة تفسد كيان الأمة، بل يعاقب عليها بشدة حفاظًا على وحدة الصف والإيمان.
- **نصر الله وتثبيت الدين بيده:** النصر الحقيقي هو الذي يُحرز بقدرة الله، إذ إنه يمحو الفتنة ويثبت الدين، كما حدث في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم على بني قريظة.
- **العدل هو أساس التمكين:** العدل في تقسيم الغنائم وحكم السبي يظهر أن التمكين السياسي مرتبط بالعدل والوفاء بما أمر الله به.
- **التحاكم إلى شرع الله شرط لاستقرار الدولة:** تطبيق أحكام الشريعة، حتى في المسائل الدقيقة مثل السبي، هو علامة على صلاح الدولة واستقامتها.
- **حفظ الدين لا يكون إلا بطرد أعدائه، داخليًا وخارجيًا:** فلا سبيل للإسلام إلا بقطع دابر الخونة والمنافقين، كما دلت الآيات الكريمة.

فوائد فقهية

- **تفصيل أحكام السبي واضحة وموثقة:** إظهار رحمة الله في حكم السبي لنساء وأطفال بني قريظة وفق شرع الله، مع الحزم والعدل في الوقت ذاته.
- **حكم السبي لا يتعارض مع الرحمة:** بل يتخذ في موضعه الصحيح لينسجم مع مصلحة الأمة ودينها.
- **أهمية العدل في تقسيم الغنائم:** ليكون لكل ذي حق حقه دون ظلم أو تحيز.

- **تثبيت الحكم الشرعي لا بيد الغلبة أو الهوى :**بل بالعدل والقسط، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في تطبيق حكم بني قريظة.

فوائد أخلاقية وسلوكية

- **الصادقون يُكرّمون ويُثبتون في النصر :**لا مكان للمتخاذلين أو الخونة في طريق الحق.
- **الوفاء بالعهد ركيزة لا يمكن الاستغناء عنها :**فهو سبب النصر وتمكين الدولة.
- **الإيمان الحقيقي يُثمر صبرًا وتضحية :**حتى في أصعب اللحظات.
- **الطمأنينة والأمان داخل المجتمع لا تتحقق إلا بالعدل والقضاء على الفساد :**مما يعزز الروح المعنوية ويقوي الجماعة.

فوائد اجتماعية وسياسية

- **تنقية الصف الداخلي أهم من مواجهة العدو الخارجي :**لأن الخيانة الداخلية تهدد أمن الأمة من الداخل.
- **تثبيت دعائم الدولة يحتاج إلى حكم عادل وحازم :**وهذا هو سر دوام الدولة النبوية وتمكنها.
- **الدولة الإسلامية التي تقيم شرع الله تستعيد أرضها وأموالها :**كما ورد في الآيات، وهي سنة ربانية في تثبيت الإسلام.
- **نصر الأمة لا يتحقق إلا باتحادها وتوحيدها على كلمة الحق.**

فوائد نفسية وروحية

- **عودة النبي صلى الله عليه وسلم والجيش مظفرة تملؤها السكينة والرضا :**تبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين بعد عناء وشدائد.
- **النصر من الله يبعث الأمل والتفاؤل في قلوب المؤمنين.**
- **الذكر الدائم لنعمة النصر والعدل يزيد من تعلق القلب بالله والرسول.**

مخالفات الواقع

- **تساهل كثير من المسلمين اليوم في مواجهة الخيانة الداخلية :**سواء كانت فكريّة، عقائدية، أو عملية، مما يؤدي إلى تمزيق الصف وأضعاف الأمة.
- **انتشار البدع والأهواء التي تفسد العقيدة وتفرق الجماعة، دون حزم ولا رادع.**
- **ضعف تطبيق شرع الله في كثير من المسائل الحياتية، ومنها قضايا الأمن الداخلي ومكافحة الفساد، على خلاف النبي صلى الله عليه وسلم.**
- **التسامح المفرط مع المخالفين والخونة أحيانًا، مما يؤدي إلى ضعف الدولة وتفككها.**
- **ضعف الوعي بضرورة الوفاء بالعهد مع الله والرسول والتمسك بالقيم الإسلامية الأصيلة.**

- قلة التفات كثير من المسلمين إلى أهمية العدل في الحكم والتطبيق الشرعي، مما يفتح المجال للظلم والفساد.
- انشغال البعض بالمظاهر الفارغة عن جوهر العقيدة والعمل بها، مما يبعد الأمة عن النصر الحقيقي والتمكين.

انتهى هذا الباب ويليه الباب العاشر بمشيئة الله تبارك وتعالى

الباب العاشر: من بعد بني قريظة إلى غزوة بني المصطلق

المقدمة

انقضت غزوة الأحزاب، وانتهت معها مرحلة عظيمة من مراحل الصراع، حيث صمدت المدينة تحت الحصار، وتهاوت جيوش المشركين على أعتاب خندق الإيمان، ثم كان القضاء على بني قريظة إعلانًا بأن المدينة صارت آمنة من الداخل والخارج.

لقد انكسر شوكة الكفر الظاهرة، لكن بقيت جذور النفاق تختبئ في الظلال، تستعدّ للنفث والفتن.
ومع أن السيوف عادت إلى غمدها بعد طول جهاد، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرف للدعة طريقًا، بل انطلق يعيد ترتيب الصفوف، ويطهّر الجزيرة، وينتقل من غزوة إلى سرية، ومن انتصار إلى تمكين، في خطوات هادئة تارة، وسريعة حازمة تارة أخرى، يشق بها الطريق نحو الفتح الأكبر.

في هذا الباب نعيش مع **سرايا استباقية** تطهّر الدروب من فلول الغدر، ومع **غزوات تأديبية** ترهب الطامعين، ومع **فتن داخلية** كشفت معدن القلوب وأظهرت أهل الإيمان من المنافقين.
وفيها أيضًا **تشريعات عظيمة** غيرت وجه الحياة الاجتماعية، كزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب، وحادثة الإفك، وتربية الأمة على الصبر واليقين.

سنقف مع كل حدث، **نستلهم الدروس والعبر، ونكشف ما ثبت مما لم يثبت، ونربط بين الماضي النبوي وواقعنا المعاصر**، لنخرج بإذن الله بفهمٍ أعمق لمسيرة هذا الدين.

فإلى الفقرات...

الفقرة الأولى: العودة إلى المدينة... حينما تتكلم الأرض والسماء بلغة النصر

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طيبة، المدينة التي احتضنت الوحي وأهله، والتي طالما ضجّت بقلق الخيانة، وتوشّحت بالسهر الطويل خوفًا من طعنات الغدر التي قد تأتي من داخلها لا من خارجها.

عاد صلى الله عليه وسلم وقد طهّر أرضها من رجس بني قريظة، أولئك الذين نكثوا العهد في أحلك أيام الأحزاب، وكادوا أن يكونوا الخنجر المسموم في ظهر الأمة.

لقد عاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وجيشه المظفّر، لا تعلوهم سحابةُ حزن، بل ظلّهم النصر والعز، والطمأنينة التي تتنزل على القلوب بعد صبر طويل. عادوا والجباه مشرقة، والقلوب مطمئنة، والألسنة تلهج بالحمد والشكر، إذ ردّ الله كيد الكافرين، وكف بأس الغادرين.

قال الله تعالى{ :وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا{]الأحزاب: ٢٥.[

لقد أُسدل الستار على فتنة كبرى، وأُغلقت آخر ثغرة داخلية كانت تؤرق جسد الأمة الفتيّ، وبدأت صفحة جديدة، لا تشوبها خيانة، ولا يعكر صفوها نفاقٌ ظاهر.

ولم تكن عودته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة عودة راحةٍ وسكون، بل عودة بُنيت على أساس جديد من الصدق والولاء والعدل، تُؤذن بعصر جديد تُرسّخ فيه قواعد الدولة على أرض صلبة لا تتزحزح.

جمع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم التي أفاءها الله على المؤمنين، وقسمها بين المجاهدين بعدلٍ ورحمة، ولم يُقصِ أحدًا، ولم يُحابِ أحدًا، ووزع السبي بما تقتضيه الأحكام الربانية، إذ قال سبحانه:

}مَّا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ {الحشر: ٧.[

ولم تكن تلك الغنائم دافعًا للترف، بل وقودًا لبناء كيانٍ جديد، يشد أزر الدولة الفتية، ويعزز أركانها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويدفع بالعجلة إلى الأمام نحو عزٍ وتمكين.

إن تطهير المدينة من طابور الخيانة لم يكن مجرد نصر عسكري، بل كان نصرًا للقيم، وتجديدًا للعهد بين القيادة والصف، إذ لم يعد في المدينة بعد اليوم من يجرؤ على نقض عهد، أو التآمر على الإسلام والمسلمين دون أن يعلم أن العقوبة تنتظره، وأن العدل لا ينام.

جلس النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، بعد أن كفى الله المؤمنين القتال، وكان يعلم أن الراحة الحقيقية لا تكون في الدنيا، بل إنما هي في الجنة، فمضى يعدّ العدّة، ويجهّز القلوب، ويبني العقول، ويغرس في نفوس الصحابة أن النصر ليس نهاية الطريق، بل هو بدايةٌ لمسؤولية أعظم، ومسيرٍ أطول، وأمانةٍ أثقل.

وبدأت مرحلة ما بعد الغزوات الكبرى... مرحلة البناء الداخلي، وتأمين الصفوف، وتهيئة الأمة لحمل الرسالة إلى خارج الجزيرة، ولولا هذه اللحظة الفاصلة، لما كان لرايات الإسلام أن تخفق فوق حصون الروم، وتطرق أبواب كسرى، وتصل إلى قلوب العجم وسواحل الأندلس.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- **النصر من عند الله وحده :**فتطهير المدينة من الخيانة هو تدبير إلهي وتأييد رباني، يثبت أن الله هو القوي العزيز الذي ينصر عباده المؤمنين.
- **الولاء للقيادة الربانية شرط لاستمرار النصر :**فقد ثبت أن صدق الولاء للرسول صلى الله عليه وسلم هو الأساس في تمكين الدولة الإسلامية.
- **العدل والرحمة في تطبيق شرع الله :**تقسيم الغنائم والسبي كان بمنهج شرعي رحيم وعدل راسخ، دليل على أن الإسلام يحكم بالحق لا بالهوى.
- **الابتعاد عن النفاق والخيانة ضرورة لاستمرار الأمن والإيمان :**فلا يجوز أن تسمح الأمة بخونة يفسدون الصف من الداخل.

الفوائد الفقهية:

- **أحكام الغنائم والسبي يجب أن تطبق بعدل تام :**وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم دون محاباة أو ظلم.
- **الغنائم ليست غاية بل وسيلة لبناء المجتمع :**وهي لتقوية الاقتصاد ودعم الأفراد والمؤسسات في الدولة.
- **أهمية الشمولية في تقسيم الغنائم :**تشمل ذوي القربى، اليتامى، المساكين، وابن السبيل، ما يعزز التكافل الاجتماعي.
- **الاستعداد الدائم والمسؤولية بعد النصر :**النصر لا يعني نهاية العمل، بل بداية مرحلة جديدة للبناء.

الفوائد الأخلاقية والسلوكية:

- **الصبر على المحن ثم الفرح بالنصر مع شكر الله :**هو سلوك المؤمن الحق.
- **الإخلاص في العمل والولاء للدين والقيادة :**من مقومات بناء المجتمع المسلم.
- **الوعي بأن النصر مسؤولية كبرى :**يدعو إلى الاستمرار في الاجتهاد والعمل.
- **الابتعاد عن الغرور أو الكسل بعد النجاح :**لأن الراحة الحقيقية في الآخرة، وليس في الدنيا.

الفوائد الاجتماعية والسياسية:

- **تطهير الصف الداخلي أساس صلب لبناء الدولة :**وهو ما يؤدي إلى تمكين الدولة الإسلامية وتعزيزها.
- **العدل في توزيع الغنائم يعزز الوحدة ويقوي الروابط الاجتماعية.**
- **تأكيد أن الدولة الإسلامية لا تقوم على القوة العسكرية فقط، بل على العدل والصدق والوفاء.**
- **مرحلة ما بعد النصر هي مرحلة البناء والتأسيس للانطلاق في نشر الدعوة.**

الفوائد النفسية والروحية:

- **الطمأنينة بعد النصر تعطي راحة نفسية للمؤمنين.**
- **التسليم لحكمة الله في كل موقف يزيد من الإيمان واليقين.**
- **الشكر لله على النصر والتثبيت، ورفع المعنويات للجميع.**
- **التذكير بأن الراحة الحقيقية في الآخرة، مما يحفز على الاستعداد الدائم.**

مخالفات الواقع:

- **تراخي كثير من الناس في الولاء الحقيقي لله ولقيادته الشرعية، مما يهدد وحدة الأمة.**
- **ضعف تطبيق العدل في المجتمعات الإسلامية اليوم، سواء في الحكم أو في تقسيم الحقوق.**
- **الكثير من الانقسامات والنفاق الذي يؤثر في الصف الداخلي ويضعف الدول الإسلامية.**
- **قلة الوعي بضرورة البناء الداخلي بعد تحقيق نصر ظاهري، ما يؤدي إلى تشتت القوى.**

- **انشغال البعض بالمظاهر والترف بدل العمل الدؤوب لبناء المجتمع وتحقيق العدالة.**
- **قلة الشكر والرضا بحكمة الله في كل الأحوال، مما يؤدي إلى قلق نفسي وفقدان الطمأنينة.**

الفقرة الثانية: سَرِيَّةُ الحَزْمِ والهَيْبَة... وثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فِي أَسْرِ العِزَّةِ وَالْإِسْلَامِ

ما كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من أولئك الذين ينتظرون العدو حتى يُطرق الباب، ولا كان من القاعدين حتى يُداهمهم الغدر؛ بل كان إذا شعر بخطرٍ يلوح في الأفق، أرسل البأس قبل أن يرسل الرسائل، وأطلق السرايا قبل أن تشتعل النيران. كانت سراياه صلى الله عليه وسلم بمثابة بيانٍ يسبق البيان، وريحٍ تسبق الغيث، لا تترك للعدو مهربًا، ولا تُمكن للغادر فرصة.

وفي محرم من السنة السادسة للهجرة، بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن قبيلة بني بكر بن كلاب تتحفز للغدر، وتدبّر عدوانًا مباغتًا على المدينة، فبعث محمد بن مسلمة رضي الله عنه في ثلاثين من فرسان الحق، يُمثلون هيبة الإسلام المتقدّمة، وحُرّاس النبوة المستبقين.

مضت السرية إلى موضعٍ يُعرف بالقرطاء، تسري بخطى الليل، وتخترق هدوء الرمال كأنها برقٌ يشقّ السماء.

داهمت القوم على حين غفلة، فقُتل منهم عشرة، وفرّ الباقون، وتشتت الجمع الذي كان يخطّط في الخفاء، فخابت الفتنة قبل أن تبدأ.

لكنّ الفتح الأكبر لم يكن في عدد القتلى، بل في أسيرٍ واحد... رجلٍ لا يُجهله العرب، ولا يخفى اسمه على أحد، سيد من سادات بني حنيفة، ورأس من رؤوس اليمامة، إنه ثمامة بن أثال الحنفي، رجل الصحراء الباسل، وملك قومه المطاع.

اقتيد ثمامة إلى المدينة مقيّدًا، لا كمن يُهان، بل كمن تُفتح له أبواب العز، دون أن يعلم. رُبط في سارية من سواري المسجد النبوي، فكان في قلب بيت الله، ينظر إلى وجوه المؤمنين، ويشهد صلواتهم، ويسمع كلام الله يُتلى صباح مساء، ويرى خلق محمد صلى الله عليه وسلم، وأدب أصحابه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمرّ عليه في كل يوم، ويخاطبه برفق المحب، لا بعجرفة المنتصر، فيقول له:
»ما عندك يا ثمامة؟ «فيجيبه بعزة الأسياد وثقة الحكماء:
»عندي خير: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل منه ما شئت.«

تكرّر الحوار ثلاثًا، لا يزيد ثمامة عن قوله، ولا ينقص، حتى جاء اليوم الثالث، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإطلاقه بلا فداء، ولا شرط، ولا مقابل!

خرج ثمامة من المسجد، لم يمضِ بعيدًا، حتى اغتسل، ثم عاد بقلبٍ آخر، ونفسٍ أخرى، ووقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم معلنًا شهادة الميلاد من جديد، لا شهادة البدن، بل شهادة الروح.

قالها بصدقٍ يهزّ القلوب» :**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. والله، ما كان وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، وما كان دينٌ أبغض إليّ من دينك، فقد أصبح أحبّ الدين إليّ«...**

فأيُّ سحرٍ هذا؟!
إنه سحر القرآن، وجمال الخلق، وعظمة النبوة، التي حوّلت سجينًا إلى داعية، وعدوًا إلى نصير، وقائدًا في قومه يأمر فيُطاع.

عاد ثمامة إلى دياره في اليمامة، رجلًا غير الرجل، يحمل في صدره نورًا، وفي قلبه عزمًا، وفي عقله خطةً سياسية بارعة، فقال لقومه» **:يا بني حنيفة، والله لا يُصبين أحد منكم حبة حنطة على قريش حتى يأذن رسول الله«!**

فقطع عن مكة ما كان يصلها من قوت اليمامة، وكان أولَ من سنَّ سياسة الحصار الاقتصادي في الإسلام، فاشتدّ الجوع على قريش، واضطرت أن ترسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله أن يأمر ثمامة بإعادة الحنطة، فكان ذلك إرغامًا لهم لا بالسيف، بل بالطعام، وبأيدي من كانوا يومًا أعداء.

وهكذا تحوّلت السرية الصغيرة إلى فتح عظيم، وأسيرٌ واحدٌ إلى ناصرٍ كبير، وبيت الله إلى محراب هداية، فأنزل الله من السماء سُننه التي لا تتبدل{ **:إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** }سورة النصر: ١–٣.[

وفي صحيح السيرة، جاء في رواية ابن هشام وابن إسحاق، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد إسلام ثمامة: **»انطلقوا به إلى حائط بني فلان، فاغتسل، ثم أقبل فأسلم.«**

فسبحان من يهدي من يشاء، ويكتب للنصر وجوهًا لا تُحصى، ويجعل من أسرٍ إلى حرية، ومن خصمٍ إلى حبيب، فهل بعد هذا البيان بيان؟!

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أن النبي صلى الله عليه وسلم هو القائد الحكيم الذي يعلم مسبقًا ما يدبّر العدو من مؤامرات، وهو صاحب البصيرة والسبق في التصدي للشر.
- أن الغدر والخيانة صفات مذمومة وذنوب كبرى، تدعو لمواجهة صارمة بحكمة وعدل.
- أن الإسلام دين الحق الذي لا يترك العدو فرصة للغدر أو التسلل، ويضع الحلول المبكرة ويُظهر الهيبة والقوة.
- أن الدعوة الإسلامية ليست فقط بالسلاح، بل بالخلق العظيم والرحمة حتى مع الأسرى، وهذا دليل على عظمة الدين ورقيه.
- أن التوبة والإسلام حق يمكن أن يدخل حتى أعظم الأعداء إلى رحاب الحق بنعمة الله وهدايته.
- أن شهادة التوحيد هي أعظم شهادة وأصدق ميلاد روحي، تُغيّر قلوب الناس مهما كانت مواقفهم السابقة.

فوائد فقهية

- جواز وأهمية بعث السرايا لتحصين الدولة الإسلامية وقطع الطريق على الأعداء، وعدم الانتظار للمواجهة المباشرة فقط.
- حق الأسير في التعامل الإنساني وعدم الإهانة، بل مراعاة أدبه وكرامته، وإظهار الرحمة معه.
- جواز إطلاق الأسرى بلا فداء كنوع من الرحمة والعفو حين تستدعي المصلحة العامة.
- أهمية حفظ النظام والتتابع في الحوار مع الأسرى وبيان موقفهم، وعدم استعجال الحكم عليهم.
- جواز تنفيذ سياسة الحصار الاقتصادي لإضعاف العدو، خاصة إذا كانت الوسيلة لتحقيق نصر أكبر دون قتل أو تدمير مباشر.

فوائد أخلاقية

- الحزم والهيبة كصفات قيادية يجب أن تتحلى بها الأمة وقادتها في مواجهة الأخطار.
- الرحمة والرفق حتى مع الأعداء، وعدم التعالي أو الغطرسة عند النصر.

- الثبات على المبادئ والصدق في القول والعمل.
- الاستقامة في العدل وعدم المجاملة حتى مع الأقربين أو المحابين.
- التسامح والإحسان عند ظهور التوبة والندم الصادق.

فوائد سلوكية

- ضرورة التروي وعدم التسرع في الحكم على الناس، والتعامل معهم برفق وتكرار الحديث لإظهار الحكمة.
- تقبل الحق والتغيير الحقيقي القائم على قلب وروح صادقة، وليس فقط شكل أو قول.
- تقوية الإيمان وإعادة بناء النفس بعد الهداية والتوبة، وترك الماضي السيئ خلف الظهر.

فوائد سياسية وعسكرية

- السرايا والتحركات المبكرة لمنع الفتنة قبل وقوعها.
- أهمية قيادة حكيمة تعرف كيف تحاصر العدو اقتصادياً، لا تعتمد فقط على القتال المباشر.
- تحويل الأسرى إلى حلفاء وأدوات قوة سياسية داخلية وخارجية.
- الدور الكبير لرجال الدولة المخلصين في كسر شوكة العدو بوسائل متعددة.
- الاستخدام الاستراتيجي للموارد الاقتصادية كأسلحة فعالة في الحروب.

فوائد إدارية وقيادية

- القيادة بالرحمة والحزم معًا.
- التواصل المستمر مع الجميع حتى الأعداء لجذبهم للحقيقة.
- الثبات على العدل والإنصاف وعدم الانحياز في الحكم.
- التوازن بين القوة والرفق في إدارة الشؤون السياسية والعسكرية.

فوائد اجتماعية

- دمج الأسرى والمهاجرين إلى المجتمع الإسلامي بعد الهداية.
- تعزيز وحدة الصف المسلم والقضاء على الفتنة الداخلية قبل الخارجية.
- كسر شوكة التحالفات القبلية المعادية للإسلام.

فوائد نفسية

- تأثير بيئة المسجد والذكر المستمر في تغيير النفوس.
- قوة الإيمان في تغيير المشاعر تجاه السابقين من الأعداء.
- الاستقرار النفسي الناتج عن التوبة والرجوع إلى الله.

فوائد تاريخية وحضارية

- توثيق سياسة الحصار الاقتصادي كأحد أساليب الحرب المشروعة في الإسلام.
- بداية تحويل الأسرى إلى قادة مجددين للدعوة والإسلام.
- إثبات قدرة الدولة الإسلامية الناشئة على مواجهة الأخطار بخطط متعددة الأبعاد.

مخالفات الواقع

- انتشار الغدر والخيانة في كثير من المجتمعات الإسلامية، وعدم اتخاذ موقف صارم وحاسم تجاهها

- تراجع هيئة الدولة أو ضعفها في اتخاذ قرارات حاسمة ضد الفرق الضالة التي تخطط للفتن والتخريب.
- تجاهل أو تقاعس بعض القادة عن رصد المؤامرات مبكرًا، وانتظار وقوع الفتن حتى تتفاقم.
- عدم التعامل بالحكمة مع المخالفين والضالين، مما يؤدي إلى تعميق الخلافات والفتن بدلاً من الإصلاح.
- ضعف تطبيق مفهوم الحصار الاقتصادي والضغط السياسي كوسائل سلمية في مواجهة أعداء الأمة، والاعتماد الزائد على الحلول العسكرية فقط..
- نقص الوعي العقائدي والسلوكي لدى الناس مما يجعلهم عرضة للانجرار وراء الفرق الضالة وأصحاب الأهواء.
- ضعف التحصين النفسي والروحي عند الأفراد، وعدم إشباعهم بحلاوة الإيمان، مما يفتح المجال للتغيير السلبي بدلاً من الإيجابي

الفقرة الثالثة: سرية عُكّاشة بن محصن إلى الغَمْر... عيون النبوّة لا تنام، وسيوف الولاء لا تغفو

ما إن هدأت سنابك الخيل العائدة من القرطاء، وعاد محمد بن مسلمة رضي الله عنه ينفض عن درعه غبار السرى والنزال، حتى دوّى في المدينة نداء النبوة من جديد، فالعين التي تسهر على العقيدة لا تعرف الدعة، والقلب الذي يحمل همّ الأمة لا يطمئن إلى سكون الظواهر.

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم فارسًا آخر من فرسان العقبة، وبطلًا من رجالات بدر، إنه عُكّاشة بن محصن الأسدي رضي الله عنه، رجلٌ ما عُرف إلا وشعلة الحماسة في عينيه، وصدق الإيمان في نبضات قلبه، وسيفه إن سلّه، لا يُغمد إلا بعد أن ينكفئ الباطل.

وجّهه النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة، على رأس أربعين من الصحابة الأطهار، إلى أرض الغَمْر، حيث رُصدت تحركات مشبوهة من بقايا بني أسد بن خزيمة، الذين لم تهدأ في صدورهم نيران الحقد، ولم تنطفئ من قلوبهم جذوة الكراهية، يبيّتون أمرًا خفيًا لضرب المدينة غدرًا.

لكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن رجل ردّة فعل، بل كان – بإلهام الوحي – يضرب حيث لا يتوقع العدو، ويرسل السرايا كأنها السحاب إذا أرعد أمطر، وإذا برق أخاف، حتى كأنما قال الله تعالى فيهم:
}وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ] {الأنفال: ٦٠.[

ولم يكن السيف هو الحل في كل حين، فقد بثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عيونَه من المؤمنين، يرصدون الأنباء، ويجمعون الأخبار، وكان عُكّاشة رجل المرحلة، يحمل في قلبه يقظة الفؤاد، وفي عقله حنكة الفارس.

وبينما تتهيأ السرية للانقضاض، سبقها الخوف إلى ديار العدو، فقد بلغهم أن عُكّاشة آتٍ لا يلوي على شيء، فهاموا في الشعاب، وتفرّقوا في الوديان، كأنما هم الجراد المنتشر، لا يأوون إلى مأمن، ولا يطمئنون إلى قرار.

عاد عُكّاشة برجاله دون أن تُسَلّ سيوف، لكنّه عاد بغنيمة أعظم من المال والدماء... عاد بالنصر المعنوي، وهيبة الإسلام التي تسبق الرماح، وتغني عن القتال.

لقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن النصر لا يُقاس دائمًا بعدد القتلى، بل يُقاس برجفة الخوف في قلوب الأعداء، وتشتت جمعهم قبل اللقاء، وهذا هو الفتح الذي لا يُرى بالأعين، بل يُقرأ في أثره**{:فَأَلْقَيْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ] {**آل عمران: ١٥١.[

وهكذا، مضت سرايا النبوة تجوب جزيرة العرب، لا لِتُبيد الشعوب، بل لِتُقيم الحجة، وتؤمّن الطريق، وتزرع في القلوب أن للإسلام عينًا لا تنام، وسيفًا لا يضعه إلا من أمره الله بذلك.

وكانت هذه السرية مثالًا على أن سياسة النبي صلى الله عليه وسلم جمعت بين الحزم والحكمة، فحيث يكون الحذر أولى من الضرب، يقدّمه، وحيث يكفي التخويف عن سفك الدم، يكتفي به... ليظل سيفه مشرعًا، ولكن بعدل، ويقظته دائمة، ولكن برحمة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- وجوب اليقظة الدائمة على حفظ العقيدة والدين من كل خطر داخلي أو خارجي، لأن العين التي تسهر على العقيدة لا تعرف الدعة، والقلب المؤمن لا يطمئن للسكون.
- تأكيد أن النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بإلهام الوحي، فلا ردّة فعل عشوائية، بل تخطيط إلهي استراتيجي في مواجهة أعداء الله.
- وجوب الإعداد للقوة الدنيوية (عسكرية واستخباراتية) دفاعًا عن الدين، كما أمر الله تعالى في قوله: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم} [الأنفال: ٦٠].
- أن النصر من الله يكون أحيانًا بنزول الرعب في قلوب الأعداء دون قتال، فهو فتحٌ من الله يُظهر أثره النفسي والروحي.

الفوائد الفقهية:

- جواز إرسال سرايا سرية للتحري والضرب الاستباقي للأعداء حفاظًا على أمن الأمة وحماية الدين.
- تأصيل حكم الشريعة في حسن التخطيط العسكري والوقائي، وعدم الاقتصار على القوة العسكرية العلنية فقط.
- جواز الاكتفاء بالتخويف والرعب لإثبات السيطرة الأمنية، دون الإقدام على سفك دم إذا تحقق الهدف.

الفوائد الأخلاقية:

- حسن التعامل مع الأسرى والعدو، حيث لم يُظهر النبي صلى الله عليه وسلم أو أصحابه تعصبًا أو غضبًا جامحًا، بل كانوا يعاملون بأسلوب رفيق وحكيم.
- الصبر واليقظة معًا، وأن الحكمة والعقل مع قوة الإيمان تُثمر نصرًا عظيمًا.
- التواضع والرحمة في التعامل، وعدم الغلو أو التعسف في المواجهات، وهو نهج نبوي يُحتذى.

الفوائد السلوكية:

- ضرورة النشاط الدائم وعدم الكسل في العمل من أجل حماية الدين والأمة.
- استثمار كل فرصة للضرب المباغت ضد أعداء الدين قبل أن تتفاقم الأخطار.
- أهمية التحلي بالحنكة والفطنة في إدارة المواقف الصعبة.

الفوائد السياسية والعسكرية:

- أهمية الحرب النفسية (التخويف والردع) كجزء من الاستراتيجية العسكرية الإسلامية.
- توظيف عناصر الاستخبارات والمعلومات في كشف تحركات الأعداء والرد المبكر.
- الجمع بين الحزم والرحمة في العمليات العسكرية والسياسية.
- حسن اختيار القادة والفرسان لقيادة العمليات، وبث الروح المعنوية في الجيش.

الفوائد الإدارية والقيادية:

- التفويض المناسب للقادة المؤهلين مثل عكاشة بن محصن، وتزويدهم بالسلطة الكافية لتنفيذ المهام.
- الإدارة الحكيمة لموارد القوة البشرية وتنظيم الفرق السرية بفعالية.
- القيادة بالقدوة، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يُراقب ويشجع ويحفز القادة مع احترامهم.

الفوائد الاجتماعية:

- ترسيخ مفهوم الولاء للدين والرسول على فوق الولاءات القبلية أو العصبية الضيقة.
- تحييد الفتن والخطر الداخلي قبل أن يتسع ويهدد المجتمع المسلم.
- إبراز دور المجتمع في دعم القيادة والتعاون في حفظ الأمن.

الفوائد النفسية:

- بث الطمأنينة في نفوس المؤمنين عبر الحماية الأمنية والاستباقية.
- رفع معنويات الجيش والأمة بنصر معنوي يسبق القتال.
- زرع الخوف والرعب في نفوس العدو كوسيلة نفسية فعالة.

الفوائد التاريخية والحضارية:

- توثيق نمط عسكري ذكي، قائم على التخطيط والوقاية، يُعد من أبرز سمات الجهاد النبوي.
- إظهار روح التفاني والإخلاص التي كانت سببًا في بناء دولة قوية متماسكة.
- بداية بناء دولة الإسلام على قواعد ثابتة من الحذر والحزم والرحمة، التي جعلت منها قوة يحسب لها حساب.

مخالفات الواقع:

- انتشار الخمول والكسل بين كثير من أبناء الأمة في متابعة حماية العقيدة، والانشغال بالمظاهر الدنيوية على حساب الجهاد والعمل المستمر.
- ضعف اليقظة الدينية والروح القتالية عند غالبية الشباب، مع انتشار ثقافة الاستسلام والخنوع.
- كثرة التفريط في التخطيط الأمني والاستخباري، مما يتيح للفرق الضالة والباطلة التحرك بحرية داخل المجتمعات الإسلامية.
- انتشار فرق أهل الأهواء والبدع الذين يفتقرون للوعي الحقيقي بضرورة حماية العقيدة، بل ويساهمون بنشر الفتن وإضعاف الهمم.
- تقصير كثير من القادة والحكام في تطبيق مبدأ الجمع بين الحزم والرحمة، فتتحول الحكمة إلى تهاون أو إلى قسوة مفرطة بلا توازن.
- ضعف الوعي بأهمية الحرب النفسية والتخويف المشروع للعدو، فيُترك الأعداء يترصدون الأمة ويخططون دون رادع.
- تفشي النزاعات الداخلية والصراعات التي تُشتت القوى بدلاً من توحيدها تحت راية الحق والعدل.
- غياب القدوة الصالحة بين القادة، مما يضعف الالتزام والاستعداد لتلبية النداء.
- انتشار الخيانة والتخاذل، حتى في بعض مواقع المسؤولية الحساسة، مما يهدد أمن الأمة واستقرارها.

الفقرة الرابعة غزوة بني لِحيان... حين خرجت القيادة بالثأر، وعاد الجيش بلا دماء

لم تكن مأساة الرجيع مجرد صفحة أُغلقت في سفر الأيام، بل كانت جرحًا غائرًا في قلب النبوة، ودمًا نقيًّا سال ظلمًا لا ينساه الأوفياء.

خبيب بن عدي وأصحابه رضي الله عنهم، أولئك الدعاة الذين أُرسلوا لتعليم الناس، فغُدر بهم بأبشع صورة، واستُدرجوا إلى الموت غدرًا، لا في ساحة قتال، ولكن في فخٍّ دبّره بنو لحيان ومن والاهم.

ومضت الأيام، حتى جاء جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم ينهض من المدينة، والقلب يشتعل بحرارة الفقد، والعين ترنو إلى القصاص، لا انتقامًا لذات، ولكن لتقرير مبدأ: أن دم المسلم لا يضيع، وأن دعوة الحق لا تُغتال وتُنسى.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في مئتين من أصحابه، وما أشجعهم حين يسيرون خلفه، يملؤون الأرض عزة، والسماء دعاء. ولأن الحرب خدعة، فقد أظهر عليه الصلاة والسلام أنه يريد الشام، يُموّه على العدو، ويُخفي وجهته، ليمنعهم من أخذ العدة والهرب.

حتى إذا بلغ بطن **غِرَان**، وهو من ديار بني لِحيان، تبيّن أن الخبر قد سبقهم، وأن العيون أوشكت أن تنبه القوم، فتفرّقوا في رؤوس الجبال، كأنما عصفت بهم الريح، فلا يُرى منهم إلا بقايا الأثر.

لم يكن لقاء القتال، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرجع أدراجه.

بل أقام يومين كاملين في أرضهم، يرسل في المكان رسائل الخوف، ويثبت للعدو أن راية الحق إن تأخرت، فإنها لا تسقط، وأن حساب المظالم عند محمد صلى الله عليه وسلم لا يُطوى بالنسيان.

ثم أرسل عشرين فارسًا إلى عسفان وبطن رابغ، مواقع حساسة، ليُشعر من حولهم أن يد الإسلام طويلة، وأن من غدر يُرهب، ولو لم يُؤخذ، مصداقًا لقوله تعالى{:**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ... تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**] {الأنفال: ٦٠].

ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، دون أن تُراق قطرة دم، ولكن دروس العزة والعقيدة كانت قد كُتبت في الأرض.

لقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُري الأمة أن دماء الدعاة ليست رخيصة، وأن الرد على الخيانة لا يلزم أن يكون بالسيف دائمًا، فكم من رعبٍ غرسه الحضور دون ضرب، وكم من رسالة وصلت دون كلمة.

وما أبلغ ما قاله خبيب بن عدي يوم قُتل مظلومًا":اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبقِ منهم أحدًا."
فلم يُطل المدى، حتى صار دعاؤه شوكة في حلوقهم، وجاءت السرايا والغزوات تترى تُرعب من تساهل بدمه، وتُري الدنيا أن دين الإسلام لا ينسى رجاله.

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- حرمة دم المسلم عظيمة، ودماء الصالحين لا تُضيع عند الله، وحق القصاص قائم شرعًا وثابت في السُنة.
- المبدأ الإسلامي في وجوب تثبيت العدل والقصاص، ليس انتقامًا شخصيًا بل إنفاذ لحق ووقف للظلم.
- أن النصر والعزة ليست بالضرورة مرتبطة بسفك الدم، وإنما قد تكون بالعزة المعنوية والتخويف.

الفوائد الفقهية:

- جواز اتخاذ وسائل متعددة للردع والقصاص، منها الحصار، وإثارة الخوف، دون الاشتباك المباشر إذا لم تقتضِ الضرورة.
- أن التخطيط العسكري يتطلب تمويه العدو بإظهار نية غير حقيقية، وهو جزء من الخداع المشروع في الحرب.
- الإقامة في أرض العدو لتهديده نفسياً وضمان ردعه، وهي من وسائل الحرب المشروع شرعًا.

الفوائد الأخلاقية:

- قوة الصبر والثبات على المبدأ رغم الألم والفقد، مع الحفاظ على العدل وعدم الاغترار بالدماء.
- علوّ الهمة في طلب الحق والقصاص، مع حفظ التوازن والرفق في التعامل مع الخصوم.
- تأصيل شعور المسؤولية الجماعية تجاه دماء الشهداء والدعاة.

الفوائد السلوكية:

- ضرورة الحزم في مواجهة الخيانة وعدم التساهل مع المعتدين.
- استخدام الذكاء والتخطيط بدلًا من العنف المفرط، وتوظيف مختلف الوسائل للنصر والردع.
- الإصرار على الحق وعدم التراجع رغم صعوبة الطريق.

الفوائد السياسية والعسكرية:

- أهمية الحرب النفسية والردع كأدوات حاسمة في تحييد الأعداء.
- تنظيم الجيش وإرسال سرايا صغيرة لمواقع استراتيجية لتعزيز السيطرة والرعب.
- استخدام التمويه في إخفاء الوجهة الحقيقية للجيش، مما يدل على براعة التخطيط العسكري.

الفوائد الإدارية والقيادية:

- القيادة الحكيمة التي تجمع بين الحزم والتروي، وتحدد أهدافها بوضوح دون الحاجة إلى العنف دائماً.
- قدرة القائد على تحفيز الجنود بروح العزة والكرامة، مع التأكيد على الهدف الشرعي النبيل.

الفوائد الاجتماعية:

- تعزيز مفهوم حماية الدماء ووجوب التضامن الاجتماعي في الدفاع عن الدين وأهله.
- ترسيخ معاني الوفاء لدماء الشهداء وعدم السماح بالنسيان أو التساهل.

الفوائد النفسية:

- بناء الثقة في قلوب المؤمنين بعدم ضياع حقوقهم مهما طال الزمن.
- نشر الرعب والخوف في قلوب الأعداء كوسيلة نفسية فعالة دون الحاجة لسفك الدماء.

الفوائد التاريخية والحضارية:

- توثيق النهج الإسلامي في الجهاد والقصاص الذي يجمع بين الرحمة والحزم.
- درس تاريخي في كيفية الاستفادة من الدروس السابقة (مأساة الرجيع) لتقوية الدولة الإسلامية.
- إبراز قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على قيادة جيش متوازن يستخدم كل الوسائل الشرعية.

مخالفات الواقع:

- غياب الحس الوطني والولاء للدين عند كثير من الناس، مع انتشار التساهل في الدفاع عن العقيدة وحقوق الشهداء.
- تكرار التهاون مع فرق الفساد والبدع الذين ينكرون مشروعية القصاص أو يعطون أعذارًا للظالمين.
- استسلام كثير من المسلمين للهزيمة النفسية والخوف، وعدم السعي لردع أعداء الدين بوسائل شتى.
- ضعف التخطيط الأمني والعسكري عند بعض الحكام، وغياب الاستباقية في مواجهة أعداء الأمة.
- كثرة التناحر الداخلي الذي يشتت القوى ويُضعف موقف المسلمين أمام خصومهم.
- عدم تذكّر دماء الشهداء وحقوقهم، مما يفتح الباب لتكرار الخيانات والاعتداءات.
- استغلال أهل البدع والأهواء واقع الأمة الممزق لنشر الفوضى وتشويه صورة الجهاد والقصاص الشرعي.

الفقرة الخامسة: غزوة ذي قَرَد

ما إن تنفّس الصبح عن بياضه، وأشرقت المدينة بنورها، حتى باغتتها خيول الغدر، فدوّى في مراعيها صوت النهب والخيانة. كانت فرقة من فرسان بني غطفان، يقودهم عيينة بن حصن الفزاري، قد انقضّت كالسيل على إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غفلة من الناس، فنهبوا الإبل، وقتلوا الراعي المسكين – واسمه يسار، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم – ولم يكتفوا بذلك، بل اختطفوا امرأة مسلمة، وهربوا نحو الشمال، يتطلعون إلى غنيمة آثمة، لم يراعوا فيها عهداً ولا ذمّة.

لكن من حسب أن المدينة ستنام على ضيم، فهو واهم، ومن ظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتباطأ في طلب الحق، فقد جهل من هو محمد. فبلمح البصر، دوّى الصوت في أرجاء المدينة:

"النفيرَ النفيرَ"!

وانطلقت القلوب قبل الأقدام، يحملها الغضب النبوي، والغيرة الإيمانية، وكان على رأس النفير النبي القائد صلى الله عليه وسلم، لا يتخلف، ولا يني، كأنه شعلة تسري بين الصفوف.

وانضم إلى النفير نحو مئتي رجل، فيهم من الشجاعة ما لو وُزّع على الدنيا لكفاها، وكان في المقدمة فارس من طراز فريد، لا يعرف الكلل ولا الملل :سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وكان في ذلك اليوم صائمًا، لكنه لم ينتظر راحلة ولا أميرًا، بل اندفع وحده، يجري على قدميه خلف الغزاة، كأن الأرض تُطوى له.

وكان يرشقهم بالنبال، ويستنجد بالناس، وهو يصيح بأعلى صوته صيحة العرب في النوازل:

"يا صباحاه! يا عباد الله"!

فزلزلت صيحته قلوب القوم، وألقت الرعب في صدورهم، فبدأوا يتفرقون، وتركوا الإبل والمرأة والأسلاب، وفرّوا بأرواحهم من هول ما ظنوه جيشًا، فإذا هو رجل واحد، يملك قلب أمة، وعزيمة جيش.

يقول سلمة بن الأكوع كما في "صحيح مسلم» :"فخرجتُ أوّل الناس، واستقبلني عبد الرحمن بن عوف، ومعه الآخرون، فسألتهم فأخبروني، فانطلقت أعدو وحدي، حتى لقيتهم عند ماء يقال له "ذي قَرَد"، فجعلت أرميهم بالنبل وأقول: أنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع.«!

واستطاع سلمة أن يستنفر الناس، ويلحق العدو، وأن يعيق فرارهم حتى لحق بهم الجيش، فقتل من قتل، واستردوا الإبل، وحرّروا المرأة، وعادوا منصورين، دون أن يُراق دم مسلم، ودون أن يُفرّط في ذمّة أو كرامة.

وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم يومين في ذي قَرَد، يرسي الرسالة ويُرهب العدو، ثم عاد إلى المدينة، وقد غُسلت إهانة الغدر بماء النخوة، وسُطرت بطولة نادرة، في سجلّ من العزّ والكرامة.

وهكذا تعلّم الأمة من نبيّها صلى الله عليه وسلم أن
القيادة لا تنتظر، والغدر لا يُسام، والمعتدى عليه لا يُنسى.

وما أعظم قوله تعالى، حين يُرشد عباده إلى الحزم والردع :(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) {النحل: ١٢٦[
وقوله جل في علاه} :فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ] {البقرة: ١٩٤].

وأما في السنة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل سلمة بن الأكوع كما في صحيح مسلم:

»سَلَمَةُ فَتًى مُقَدَّمٌ فِي النَّبَلِ.«

وهكذا خُتمت غزوة "ذي قَرَد" ــ أو "الغابة" كما سمّاها بعض أهل السير ــ في صفحات العز، لتُعلّمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قائد عبادة فقط، بل قائد ميدان، يُبادر ويقود بنفسه، ويُربي رجالًا أفذاذًا، يصومون عن الطعام، لكن لا يصومون عن الواجب.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الاعتداء على المسلمين لا يجوز ولو على ذمة واحدة، لأن دماءهم معصومة، والاعتداء عليها جريمة دينية قبل أن تكون عدوانًا بشريًا.
- النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم قدوة في نصرة الحق، وهو لا يرضى بأن تُنتهك حرمات الإسلام دون أن يتحرك، مما يدل على وجوب نصرة المظلوم والغضب لله.
- معية الله للمتقين المذكورة في قوله تعالى {واعلموا أن الله مع المتقين} هي معية خاصة تقتضي النصر والتأييد، وقد ظهرت في سرعة استجابة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه للنفير.
- القيادة النبوية ليست فقط تعليمًا، بل جهادًا وتضحيةً، مما يثبت أن الإسلام دين عبادة وقتال حين تُنتهك الحرمات.
الحق في الإسلام له وزن عظيم، والانتصار له واجب شرعي، لا يُغتفر فيه التخاذل والتهاون.
- النص على فضل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في الحديث الصحيح دليل على أن التفاضل بين الصحابة يكون بالتقوى والعمل، لا بالحسب أو النسب.

فوائد فقهية

- من قُتل مظلومًا وهو يدافع عن مال أو عرض، فهو شهيد، كما في قصة يسار مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- جواز تعقب المعتدين والقتال دفاعًا عن النفس والدين والعِرض، ولو في وقت الصيام، ويجوز الفطر حينها، كما فعل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه لاحقًا.
- المرأة في الإسلام ليست مهدورة الكرامة، بل يُستنفر الناس جميعًا للدفاع عنها، وهذا يدل على حرمة الاعتداء على النساء ولو في أحلك الظروف.
- جواز الغزو والقتال إن كان الغرض هو رد العدوان واسترداد الحق المغصوب، لا الطمع أو السيطرة، لقوله تعالى: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.}
- النفير العام مشروعٌ إذا نزل بالمسلمين بلاء يستوجب الدفاع، كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، دون انتظار إذن أو تأخر.
- مبدأ العقوبة بالمثل مشروع في الشريعة، مع بقاء فضيلة العفو في محلها، بحسب المصلحة والقدرة.

فوائد أخلاقية

- الغضبة لله من علامات الإيمان، وهي مقدّمة على الغضب للنفس أو القبيلة، لأن الإيمان يجعل المؤمن يغلي حين تُنتهك حرمات الله.
- المباغتة والغدر صفات ذميمة لا تليق إلا بالجبناء، كما فعل عيينة ومن معه، وهذا يُقابَل بالصدق والشجاعة في الرد.
الصدق في الحماية والرعاية يُورث الشرف حتى في الموت، كما ظهر في الراعي يسار رضي الله عنه الذي مات دون الإبل.
- الهمة العالية تجعل الإنسان يفعل ما لا تفعله الجموع، كما فعل سلمة وحده حين تصدّى للعدو وهو بلا سلاح ولا دابة.
الغيرة الإيمانية هي الدافع الحقيقي للمؤمن في التحرك، فهي فوق العادات، والصيام، والتعب، وكل الموانع الأخرى.
- الاعتزاز بالانتماء الصالح، كما قال سلمة: "أنا ابن الأكوع"، يدل على أن الإسلام لا يذيب الهويات الفاضلة، بل يزكيها وينسبها للعمل الصالح.

فوائد دعوية

- القدوة العملية في النصر والبطولة أقوى أثرًا في تربية الأمة من الأقوال وحدها، وقد جسّد النبي صلى الله عليه وسلم هذا في موقفه.
- التحفيز بالصياح ورفع الصوت المشروع في مواضع النفير وساعات الشدة يُثير الغيرة، ويُوقظ القلوب، كما فعل سلمة رضي الله عنه.
- تمجيد النبي صلى الله عليه وسلم لأعمال أصحابه يدل على أهمية التشجيع والثناء الصادق في التربية، ورفع الهمم.
- القصص الواقعية من السيرة تُعد من أقوى وسائل الدعوة، لأنها تشرح المعاني بلسان الفعل، لا بلسان الوعظ المجرد.

فوائد تربوية

- الاستجابة الفورية للنداء تدل على تربية نبوية غرست في الصحابة روح الفداء وعدم التلكؤ، وهي تربية ينبغي إحياؤها.
- الرجولة الحقيقية تُقاس بالثبات عند الفزع، لا بكثرة الكلام، كما ظهر في سرعة تحرك النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.
- التكليف يجب أن يُقابل بالمبادرة، ولو لم يكن الإنسان في حالة مثالية، كما كان سلمة صائمًا ثم قام بالمهمة دون تردد.
- التضحية والبذل من أجل الجماعة لا من أجل الذات، هي سمة النفوس العظيمة، والبطولات الفردية الخالدة تبدأ من هذا المعنى.

ما يخالف الواقع

- تفريط كثير من المسلمين اليوم في الغيرة على أعراضهم، حتى إذا اعتُدي على النساء لم تتحرك فيهم نخوة ولا دين.

- ضعف الاستجابة الفورية لنُذر الخطر التي تصيب الأمة، بل يسود التثاقل وانتظار الآخرين ليقوموا بالواجب.
- فقدان روح القيادة الجادة التي تنصر المظلوم وتردع المعتدي، وقد حلّ محلها التنديد الكلامي والشجب الخاوي.
- غلبة الأنانية على كثير من شباب الأمة اليوم، فلا يتحرك أحد إلا إذا مُسّ شخصيًا، بخلاف ما كان عليه سلمة الذي غار لله وحده.
- قلة وجود النماذج العملية الصادقة في ميادين التربية والتعليم والدعوة، مما يجعل الجيل يفتقد المثل الحي الذي يراه ويقتدي به.
- انتشار الظن بأن الدين فقط صلاة وصيام، وغُيّبت حقيقة أن فيه جهادًا وشجاعة وقيادة ورباطًا، كما كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

غزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع)

مقدمة

غزوة لم تكن كغيرها من الغزوات؛ فقد انتقل فيها التهديد من خارج المدينة إلى داخلها، وتموجت المشاعر بين النصر والابتلاء، وبرزت فيها حكمة القيادة، وظهر نفاق المنافقين، ونزل فيها قرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

الفقرة الأولى: غزوة بني المصطلق... حينما سافر البصر النبوي إلى تخوم الخطر

ما إن انقشعت غيوم الأحزاب، وسكن هدير الخنادق، حتى عاد النبي القائد صلى الله عليه وسلم إلى يقظته الاستراتيجية التي لا تنام، وبدأت عين النبوة تمسح الأفق من جديد، لا تستسلم لغفلة، ولا تغمض على غدر.

فبعض الغزوات لا تبدأ من هجوم، بل من هاجسٍ صادق وشمٍّ نَبويّ لا يخطئ... وما إن لاحت الأنباء بأن الحارث بن أبي ضرار – سيد بني المصطلق من خزاعة – يجمع الأحلاف ويحشد السيوف ويوقد طبول الحرب ضد مدينة النور، حتى انتفض القلب النبوي قبل السيوف، ونهضت المدينة على نبأٍ خطير.

ولم تكن الأخبار لتُؤخذ جزافًا، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، فارس الخبر اليقين، إلى ديار بني المصطلق، فكان كعين النسر، يسبر الأخبار من منابعها، ويعود مؤكدًا ما ورد من تقارير: "نعم، القوم يعدّون العدّة، ويتهيأون للهجوم."

وما إن ثبتت المعلومة، حتى نهض النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، فجمع الصحابة، وساق جيشًا من خيرة الرجال، بلغ عدده قرابة سبعمائة مقاتل، فيهم أهل السابقة والفضل، وفيهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، رأس النفاق، وأعوانه المتربصون، الذين ما فتئوا يطعنون من الداخل كلما علت راية الإسلام.

وكان ذلك في شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، فأوكل النبي صلى الله عليه وسلم أمر المدينة إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه، ومضى يطوي الرمال، ويقود الركب، في مسير وقائي إلى ماء **"المريسيع"**، المورد الذي كانت تجتمع عنده جموع بني المصطلق.

ولم تكن هذه الغزوة غزوة دم فقط، بل كانت غزوة فكر استراتيجي، ودليل قيادة نبوية لا تنتظر السهام حتى تخترق الديار، بل تذهب إلى منابعها، وتضرب التهديد في مهده. إنها الضربة الاستباقية المحكمة، التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم بها أن يرسل رسالة مدوّية لكل متربص: "المدينة ليست لقمة سائغة، والرسالة لا يُؤتى أمنها من طرف من الأطراف."

لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمن لا يصنعه الانتظار، بل اليقظة، وأن السكون بعد النصر قد يكون مقتل الأمم إن أغمضت عيونها عن الطامعين.

فكان خروجه صلى الله عليه وسلم درسًا بليغًا في الحكمة العسكرية، ودليلاً على صدق قوله تعالى**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ]** {النساء: ٧١ [وقال سبحانه**{ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ]** {الأنفال: ٦٠.[

ولم يكن هذا النفير خوفًا ولا جبنًا – حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم – بل كان تجسيدًا عمليًّا لقوله جلّ شأنه:

}وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] {آل عمران: ١٣٩.[

وما أجمل ما ورد في *سيرة ابن هشام* وكتب المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك بني المصطلق وهم غارّون، لا يعلمون أن سيف السماء قادم إليهم، فتمت الغزوة بنصرٍ سريع، واستسلامٍ غير متوقَّع.

وكانت من نتائج هذه الغزوة أن وقعت السيدة **جُوَيْرِيَة بنت الحارث** رضي الله عنها في السبي، فاستأذنته في فداء نفسها، فعرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم الزواج بها، فوافقت، فأعتق المسلمون بسببها مئةً من قومها، وقالوا: "أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وكان ذلك سببًا في إسلام كثير من بني المصطلق، فكانت الغزوة غزوة سيف وقلب، وقوة ورحمة. وقد قال الحافظ ابن حجر في *الفتح* تعليقًا على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بها:

"كان في زواجه بها خير وبركة، فقد أعتق المسلمون ما بأيديهم من السبايا، وقالوا: هؤلاء أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم."

وهكذا علّمنا الحبيب صلى الله عليه وسلم أن القائد لا ينتظر الخطر ليصل إليه، بل يقرؤه من ملامحه، ويستعد له قبل أن يدق الأبواب، وأن النصر لا يكون بالسيف وحده، بل بالبصيرة، وبالقلوب الطاهرة التي تعرف متى تمضي، ومتى ترحم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- عصمة النبي صلى الله عليه وسلم لا تمنع عنه الاجتهاد في شؤون القيادة والتدبير، ما يدل على التوازن بين الوحي والعمل بالأسباب، وهذا من تمام الحكمة الربانية في بعث النبي بشرًا رسولًا.
- إثبات أن النصر والهزيمة من عند الله، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل هو من تمام الإيمان بربوبية الله وتدبيره.
- دلّت الغزوة على أن العاقبة دائمًا لأولياء الله وأهل الإيمان، ولو كثر أهل الكفر، مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} [الحج: ٤٠.[
- بيان أن الإسلام ليس دين سيف وعدوان، بل هو دين رحمة وعدل، وأن الجهاد لا يُشن إلا لدفع شر أو حماية أمة أو تبليغ رسالة، لا لمطامع دنيوية.
- أن من دلائل صدق النبوة ما يظهر من فقه النبي صلى الله عليه وسلم في الأحداث، وحكمته في التصرّف، ومآلات الأمور التي تقع كما قدّرها.

- إسلام بني المصطلق بعد هذه الغزوة يدل على أن الإسلام يُفتح به القلوب كما تُفتح به الحصون، وهو دين هداية لا قهر.

فوائد فقهية:

- جواز الغزو الاستباقي إذا ثبتت نوايا العدوان، حفظًا للأمة من الخطر، وهو من باب درء المفاسد قبل وقوعها.
- أن للإمام أن يُرسل من يتثبت له من الأخبار قبل الإقدام على حرب، وفيه مشروعية التحري في الأمور الخطيرة.
- جواز النكاح من السبي بعد الاستبراء، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم بجويرية رضي الله عنها.
- حسن العشرة مع الزوجة والكرم في المعاملة قد يثمر آثارًا عظيمة على مستوى الأمة، كما كان زواجه صلى الله عليه وسلم سببًا في عتق مئة نفس.
- جواز اتخاذ الأسرى وإطلاقهم بما يراه الإمام من المصلحة، من فداء أو عتق أو المنّ، وهو راجع لاجتهاده في تحقيق الأصلح.

فوائد أخلاقية:

- اليقظة وعدم الغفلة من صفات القائد الرباني، فلا يركن إلى الأمن الظاهر، بل يرقب بوادر الشر من بعيد.
- تقديم الحذر والعمل الجاد قبل أن تقع المصيبة من شيم المؤمنين، والكسل والارتجال من خصال الفاشلين.
- أن القيادة الناجحة تُربّي الأتباع على الهمة والسبق لا على التراخي والانتظار، وفي خروج النبي صلى الله عليه وسلم قبل العدو درس بالغ في الإيجابية والجدّ.
- الرحمة ظاهرة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حتى في ميادين الحرب، فلم يكن القتال في الإسلام غاية، بل وسيلة لدفع الشرّ وتحرير الناس من الظلم.
- أن حسن التعامل مع الآخرين، حتى الأسرى، قد يكون سببًا في هدايتهم، فالأخلاق أسبق في التأثير من السيوف.

فوائد دعوية:

- الزواج من جويرية رضي الله عنها كان بابًا واسعًا لدخول الإسلام إلى قلوب قومها، وهو من فقه الدعوة بالمواقف لا بالكلام فقط.
- أن تصرفات القائد والداعية تُراقب من الناس، وقد تكون سببًا في دخولهم الإسلام أو نفورهم منه، فلابد من الحكمة في التعامل.
- أن فتح القلوب مقدم على فتح المدن، ولا يتم ذلك إلا بخلق ورفق، وهذا من أعظم أسلحة الدعوة.

فوائد سياسية وعسكرية:

- الغزوة تُظهر أهمية العمل الاستخباراتي في الدول، والاعتماد على رجال الثقة لجمع المعلومات.

- أن الردع الاستباقي يُفشل كثيرًا من خطط الأعداء، ويُشعرهم بقوة المسلمين، فلا يجرؤون على الاعتداء.
- أن الحروب تُدار بالعقول قبل أن تُدار بالسلاح، والنصر يُصنع بالتخطيط قبل المواجهة.
- أن كشف العدو وإرباكه قبل هجومه يُربك تماسكه الداخلي، كما وقع لبني المصطلق حين فُوجئوا بالمجاهدين وهم في غفلتهم.

ما يخالف الواقع:

- اعتماد كثير من الحكومات الإسلامية اليوم على رد الفعل لا الفعل، فلا تتحرك إلا بعد أن يُلدغ أمنها، خلافًا لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في الضرب الاستباقي الحكيم.
- ضعف التنسيق الاستخباراتي في الأمة الإسلامية، حتى أصبحت تعيش في غفلة عن الأخطار المحدقة بها، سواء عسكرية أو فكرية.
- قلة القادة الذين يجمعون بين الفطنة العسكرية والرحمة النبوية، فتجد الإفراط في العنف أو التساهل المهين.
- غياب مفهوم الحذر الشرعي والتأهب في نفوس كثير من المسلمين، حتى أصبحوا يركنون إلى الراحة ويغفلون عن كيد الأعداء.
- ضعف استثمار الانتصارات في نشر الإسلام، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بزواجه من جويرية، حيث جعل الغزوة رسالة، لا مجرد معركة.

الفقرة الثانية: اللقاء عند ماء المريسيع... نصر من غير دم، وفتح من غير كلفة

ما إن وصلت طلائع الجيش النبوي إلى ماء **المُرَيْسِيع** حتى بدا المشهد كأنما الأرض تنتظر فصلًا من فصول العزّة، تتنزّل فيه معاني النصر من السماء لا من الأرض، ويُكتب فيه للتاريخ أن العاقبة لأهل الإيمان.

كان **الحارث بن أبي ضرار** قد حشد رجال بني المصطلق، وتحصّن عند ذلك المورد المائي، ينتظر ساعة اللقاء.

فرتّب النبي صلى الله عليه وسلم صفوف جنده، كأنه يرسم لوحة من الانضباط والإيمان، وتقدّم بنفسه يقود الركب، بين أكابر الصحابة، لا تخيفه الجموع، ولا تزعزعه الأخبار، لأنه يعلم أن النصر من عند الله.

فما إن التقى الجمعان، حتى بدأت المنازلة، لكنها لم تكن إلا كلمح البصر، فانهزم بنو المصطلق سريعًا، وكأنما انكشفت قلوبهم قبل أن تُكسر سيوفهم. وسرعان ما وقع منهم كثير في الأسر من الرجال والنساء والذرية، وكان من لطف الله أن استُشهد من جيش الإسلام رجل واحد فقط، وكأن الله تعالى شاء أن يُظهر عظيم رحمته في ميدان كان يُظن أنه سيكون مشهدًا للدماء.

لقد تجلّت في هذه الغزوة سُنّةٌ ربانية عظيمة، قال الله تعالى عنها:﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾]آل عمران: ١٢٦[وفي مثل هذه المواطن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»:اعلم أن النصر مع الصبر» [رواه الترمذي.]

وهذا النصر لم يكن ثمرة كثرة أو عُدّة، بل تجلّى فيه **نور القيادة النبوية** التي تستمد عزيمتها من السماء، وتستوثق نصرها بوعد الله لا بحسابات الأرض.

ومن رحم ذلك اللقاء، بزغ نور جديد: كانت **جُوَيْرِيَة بنت الحارث**، ابنة قائد القوم، من بين السبايا، فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فصارت أمًّا للمؤمنين، وبزواجها أُعتق مئات من قومها، إذ قال الناس: "أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فأطلقوا ما بأيديهم من الأسرى.
فكان زواجها **فتحًا بعد الفتح، ورحمة بعد النصر**، وانقلبت العداوة إلى ولاء، والخصومة إلى قرب، وصدق الله تعالى:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾]الممتحنة: ٧.[

وهكذا عادت راية الإسلام إلى المدينة أعلى مما كانت، يُرهب بها الأعداء، وتخفق في القلوب قبل أن تخفق في الرايات.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- النصر لا يتحقق بكثرة عدد ولا قوة عدة، بل بتوفيق الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وكما علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن النصر مع الصبر.
- يقين النبي صلى الله عليه وسلم بوعد الله عز وجل دليل على وجوب الثقة المطلقة بعناية الله لعباده المؤمنين، وأن النصر وعد إلهي لمن قام بشرطه.
- ما وقع في هذه الغزوة من قلة الدماء ووفرة النتائج يثبت أن الله عز وجل يرحم عباده حتى في ميادين الحرب، وأن رحمته سبقت غضبه.
- ما نتج عن هذا اللقاء من إسلام عدد كبير من بني المصطلق بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم من جويرية، يبيّن أثر الرحمة في فتح القلوب، وأن الهداية من عند الله وحده.
- تأكيد مبدأ الولاء للإيمان لا للأحساب، حيث انقلبت العداوة إلى مودة بعد الإسلام، بتقدير الله عز وجل، فيصدق قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ... مَّوَدَّةً﴾.

فوائد فقهية

- جواز اتخاذ الأسرى من النساء سبايا إذا كانوا من الكفار المحاربين، بشرط ما تقرره الشريعة في أحكام السبي، ويُستحب العتق إن ترتب عليه خير أعظم.
- جواز زواج المسلم من السبية بعد عتقها، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع جويرية رضي الله عنها، وكان في ذلك مصلحة دعوية عظيمة.
- في هذه الغزوة دليل على جواز المبادرة بالقتال إذا ثبت عزم العدو على العدوان، وهو من باب الدفاع الشرعي الاستباقي.

- يدل تصرف الصحابة رضي الله عنهم بعتق الأسرى بسبب صلة المصاهرة على اعتبار المقاصد الشرعية في تحرير الرقاب وجلب المصالح العامة.

- استحباب ترتيب الصفوف والانضباط قبل القتال، وهو من السنن النبوية في الجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾.

فوائد أخلاقية

- التواضع النبوي يتجلى في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فقط قائدًا من بعيد، بل في مقدمة الصفوف مع أصحابه.

- ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بجويرية من العتق والزواج، ثم ما فعله الصحابة من عتق الأسرى، يبيّن علوّ أخلاق أهل الإيمان، وتغليبهم للرحمة حتى في وقت الغلبة.

- رحمة الإسلام لا تقف عند العدو المهزوم، بل تمتد لتصل إلى قلوب خصومه، وتفتح لهم أبواب الخير، كما فُتح لقوم جويرية.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تأثره بجمع الأعداء يعلّمنا الشجاعة والثقة بالله وعدم الاضطراب أمام التهديدات.

- الغزوة تحمل معنى كبيرًا من معاني العفو والصفح، حيث لم يعاقَب كل من أُسر، بل حصل العفو والإحسان، مما أدى إلى هداية القلوب.

فوائد دعوية

- الزواج النبوي من جويرية كان وسيلة عظيمة في الدعوة، فقد فتح قلوبًا كثيرة، ويُستفاد منه أن حسن التعامل والرحمة يؤثران في نشر الإسلام.

- هذا النصر كان وسيلة لإظهار عزة الإسلام أمام القبائل، مما أدى إلى دخول كثير منهم في دين الله، فالغزوة كانت بابًا لهداية لا انتقام.

- المبادرة النبوية بالرحمة بعد النصر تثبت أن الدعوة لا تكون دائمًا بالكلام، بل بالموقف، وبجمال الخلق، وبإظهار العدل والرفق.

- ما قاله الصحابة: "أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم" يبيّن أثر محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه، وحرصهم على كل ما يرتبط به في الدعوة.

ما يخالف الواقع

- كثير من الحكّام اليوم لا يبادرون إلى درء الخطر عن أوطانهم إلا بعد أن تقع الكارثة، بعكس المنهج النبوي القائم على الحذر والاستباق.

- غاب في كثير من المواقف السياسية والعسكرية في عالم المسلمين اليوم خلق الرحمة بعد النصر، وظهرت صور الانتقام والتشفي بدلاً من الدعوة والعدل.

- في واقعنا يُهمل دور القائد في أن يكون قدوة في الميدان، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في المقدمة، مما أوجد انفصالًا بين القادة والجنود في كثير من المجتمعات.

- لم تعد الخطوات الدعوية ترتكز على الحكمة كما في غزوة بني المصطلق، بل دخل كثير من الدعاة في أساليب انفعالية لا تجلب القلوب بل تنفرها.

- كثير من الناس اليوم يظنون أن النصر يأتي فقط بالقوة المادية، ويُهملون دور الإيمان والتوكل والبصيرة، خلافًا لما علّمه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة.

الفقرة الثالثة: البركة العظيمة... من الرقّ إلى بيت النبوة

في خضمّ وقائع الغزوة، وبين مشهد الأسرى والقيود، كانت **جُوَيْرِيَة بنت الحارث**، سيّدةٌ نبيلة، ابنة زعيم قومها، قد سقطت في الأسر، بعد أن كانت تُحيطها العزّة والسؤدد في ديار بني المصطلق. لكنها لم تُسلم نفسها لليأس، بل حملت في قلبها عقلًا راجحًا، ونفسًا أبيّة، وإيمانًا بالقَدَر، فتوجهت إلى نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، تلتمس معونة على **الكتابة**، لتفكّ رقّها بمال تدفعه.

نظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هي امرأةٌ حازمة، عاقلة، وذات أدب وجمال، فأشفق على حالها، وعرض عليها ما هو خير من المكاتبة، فقال: «**أَوَ خَيْرٌ من ذلك؟**» قالت: وما هو؟ قال: «**أقضي عنك كتابتك وأتزوجك.**»

إنه عرضٌ لا تصنعه الأهواء، بل تُنطقه النبوة، وتُبرمه الرحمة، وتُباركه السماء.

فقالت جُوَيْرِيَة في بساطةٍ الواثق: "نعم"، فكان زواجها زواجَ بركة، لم يقتصر نفعه على فرد، بل امتدّ ليغمر أمة. فلما علم الصحابة بخبر المصاهرة قالوا: "**أصهار رسول الله لا يُسترقّون**"، فأعتقوا من بأيديهم من أسرى بني المصطلق، حتى أُطلق ما يقرب من مئة بيت، بفضل الله ثم بسبب هذا الزواج المبارك.

تحولت جُوَيْرِيَة من أسيرة في دار الغُربة، إلى زوجة كريمة في بيت النبوة، تُطالع الوحي، وتنهل من معين الرسالة، وتغدو أمًّا للمؤمنين، فاختلطت دموع الأسْر بأكاليل الشرف، وخرج قومها بحرية كاملة من ظلمات الرقّ، ببركة امرأة واحدة.

فيا لها من كرامة ساقها الله من حيث لا يُحتسب، ويا له من مشهدٍ يُعلِّم الدنيا أن الإسلام لا ينظر إلى الصور، بل يُقيم للنفوس أقدارها، ويجعل من لحظة الانكسار بوابةً للتمكين، ومن رقّ الدنيا سُلّمًا إلى جنان الآخرة.

﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾]البقرة: ١٠٥ [﴿**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾]الحديد: ٢١[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام لا يردّ النفوس الصادقة، بل يفتح لها أبواب الرحمة والكرامة مهما كان ماضيها، فهو دين ينظر إلى القلوب لا إلى الأشكال أو المناصب.
- من دلائل النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤيَّد بالتوفيق في قراراته، فتزويجه لجويرية لم يكن تصرفًا بشريًا

محضًا، بل رحمة مباركة ساقها الله لما فيها من خير واسع للأمة.

- ما يقع من الرقّ أو الأسر هو من أقدار الله التي يخبّئ فيها الخير لعباده، فالهوان الظاهر قد يكون بابًا لعزّ دائم، كما وقع لجويرية رضي الله عنها.
- أقدار الله تُظهر أن رحمته أوسع من تصورات البشر، وأنه سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا يسّر له الأسباب من حيث لا يحتسب.
- الله سبحانه يبتلي عباده بالشدائد ليصطفي منهم من يُظهر صدقه في البلاء، كما أظهره حال جويرية، فكان ذلك سببًا لرفعتها في الدنيا والآخرة.
- النبوة لا تتحرك بدافع الهوى أو الرغبة الشخصية، وإنما بهدى من الله وتقديرٍ لحكمة بالغة، كما في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من جويرية.

فوائد فقهية

- الرق لا يُنافي الكرامة الإنسانية في الإسلام، بل أحكامه تُراعي الحقوق وتفتح باب التحرير، كالكتابة والمكاتبة، وهو مما يوافق مقاصد الشريعة في رفع الحرج وجلب المصلحة.
- يجوز للإمام أن يتصرف في الأسرى بما يرى فيه المصلحة العامة، كالإعتاق أو المصاهرة، وهذا يدل على مرونة السياسة الشرعية في مراعاة الأحوال.
- زواج النبي صلى الله عليه وسلم من جويرية دليل على جواز زواج السيد من الأمة بعد عتقها، وفيه ترغيب في تحرير الرقاب.
- الزواج في الإسلام قد يكون وسيلة شرعية لتحقيق مصالح عليا للأمة، متى ما أُحسن النظر فيه وضُبط بالشرع، كما في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بجويرية.
- إعتاق الأسرى بسبب المصاهرة النبوية يبين فضل صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن لأهله حقًّا محفوظًا في قلوب المؤمنين.

فوائد أخلاقية

- المرأة العاقلة صاحبة الهمّة قد تنجو من أعظم البلايا بحكمتها وثباتها، كما فعلت جويرية حين اختارت الخطاب الرفيع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بدل الاستسلام للحزن.
- من أخلاق النبوة الرفق بالضعفاء، والنظر في حاجاتهم بعين الشفقة لا القهر، وهو ما تجلّى في عرض النبي صلى الله عليه وسلم الزواج على جويرية.
- الحياء والقبول الرزين من جويرية رضي الله عنها في مثل هذا الموقف يدل على كمال عقلها، وأن المرأة إذا اجتمعت فيها الديانة والعقل كانت سببًا للخير العام.
- الصحابة الكرام رضي الله عنهم بادروا بفعل الخير دون إلزام، لما علموا بحال جويرية، فكان من أخلاقهم التحرر من شح النفس والإحساس بالمروءة تجاه الأقارب والمصاهرة.
- الكرامة لا تُنتزع من الإنسان بالظروف، بل تبقى محفوظة لمن صبر وصدق، كما عادت لجويرية مكانتها في بيت النبوة بعد أن كانت أسيرة.
- القلوب الكبيرة لا تُؤسَر بالقوة، بل تُملك بالإحسان، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين غيّر القلوب بعداوة إلى ولاء بالمحبة والبر.

فوائد اجتماعية

- المصاهرة قد تكون وسيلة ناجحة لبناء جسور بين المتخاصمين، خاصة إذا كانت قائمة على مصلحة شرعية، كما في زواج جويرية رضي الله عنها.
- المرأة في الإسلام ليست أداة فتنة أو احتقار، بل قد تكون مفتاحًا للإصلاح المجتمعي إذا حازت على التقدير والرعاية.

- الكرم المجتمعي في إعفاء الأسرى بعد الزواج يدل على أن المجتمع المسلم يُربّى على الوفاء لأهله، والتقدير لعلاقات النسب والإيمان.
- تحوُّل الأسرى من وضع الذل إلى الكرامة يبين أن المجتمع المسلم لا يُرسّخ الطبقية، بل يرفع المستضعفين إذا ظهرت فيهم ملامح الصلاح والفضل.

مخالفات الواقع

- ضعف شعور بعض المسلمين اليوم بقيمة المصاهرة النبوية، وتساهلهم في انتقاص أمهات المؤمنين أو تهميش مكانتهن.
- انتشار النظرة المادية البحتة في التعامل مع المرأة، وغياب التقدير للعقل الراجح والأدب الراقي، مما يقلل من فرص الصالحات في الإصلاح المجتمعي.
- ضعف الهمة لدى كثير من الأسرى أو أصحاب الابتلاءات في طلب العتق المعنوي أو الفعلي، وتهاونهم في السعي الشريف للخروج من الأزمات.
- قلة استعمال وسائل الإصلاح الاجتماعية المشروعة، كالمصاهرة الحكيمة أو العفو العام، لحل النزاعات بين الأطراف المتخاصمة في الأمة.
- الجفاء والغلظة في التعامل مع الضعفاء، مع أن السنة النبوية تمتلئ بصور الشفقة والعطاء، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع جويرية.

الفقرة الرابعة: حادثة الإفك... المحنة التي زلزلت أركان المدينة، ومهدت لبراءة من فوق سبع سموات

ما إن عاد النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق، والقلوب يملؤها الحمد على النصر والظفر، حتى كانت المدينة المنوّرة على موعد مع فتنةٍ عميقةٍ، لم تعصف بالأسوار، ولكنها أوشكت أن تعصف بالقلوب والإيمان! فتنة لم تكن من نيران السيوف، ولا من مكر اليهود، بل من سهامٍ مسمومة خرجت من ألسنة المنافقين، تتّجه إلى أطهر بيتٍ عرفته الدنيا... بيت النبوة.

خرجت عائشةُ رضي الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، وكان ذلك بعد أن فُرض الحجاب، فكانت تُحمل في هودج، لا يُعرف وجودها من عدمه لخفّتها ونحافتها. وفي طريق العودة، لما نزل الجيش للراحة، خرجت لقضاء حاجتها، فلما عادت، افتقدت عقدًا لها، فقعدت تبحث عنه، فلما رجعت إلى مكان الجيش، إذا بالركب قد ارتحل، وحملوا الهودج ظنًّا منهم أنها فيه، فانقطعت رضي الله عنها عن الجيش.

فمكثت مكانها تنتظر أن يفتقدها القوم فيرجعوا إليها. وبينما هي جالسة في موضعها، مرّ بها أحد الصحابة الصالحين، صفوان بن المعطّل رضي الله عنه، وكان قد تأخّر عن الركب.

فلما رأى هيئة جالسة لوحدها، عرفها، وكان قد رآها قبل نزول الحجاب، فقال دون زيادة" **:إنا لله وإنا إليه راجعون**"، ثم أناخ ناقته، وأشاح بوجهه حياءً، فركبت، وسار بها دون أن يتفوّه بكلمة.

وصلت عائشة رضي الله عنها إلى الجيش مع صفوان عند الظهيرة، وهنا بدأت نار الفتنة تلتهب، إذ تلقّف عبد الله بن أبيّ بن سلول –رأس النفاق في المدينة– هذا المشهد، وجعل منه شرارةً لاتهام عائشة رضي الله عنها في عِرضها، فخاض معه نفرٌ من المنافقين، حتى خاض بعض المؤمنين معهم بجهالة، فأطلقوا الألسنة، ونشروا الشائعات، وسرى الإفك كما تسري النار في الهشيم.

اشتدّ الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينزل عليه وحي يبرئ زوجه الطاهرة، فآثر الصبر، ووقف وقفة المربّي الكبير، لا يتكلم، ولا يعاتب، لكنه يُراقب النفوس، ويختبر القلوب، ويرى المواقف.

أما عائشة رضي الله عنها، فما إن علمت بالخبر، حتى اعتصرها الحزن، وغلبها البكاء، واشتد بها المرض، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تمكث في بيت أبويها، فأذن لها، ومكثت هناك تبكي، حتى قال أبوها أبو بكر الصديق رضي الله عنه" *بوالله ما رُفعت عيناها عن البكاء، خشينا أن تنفطر كبدها"!*

ومضت الأيام ثقيلة على بيت النبوة، وعلى المدينة كلّها، حتى دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة بعد شهر من المحنة، وجلس إليها، وقال كلامًا نابعًا من رحمة نبوية، وعدلٍ إيماني، حيث قال:
"يا عائشة، إنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرّئك الله، وإن كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب، تاب الله عليه".

فقالت عائشة رضي الله عنها، وهي تبكي بكاءً حارًا مريرًا:
"*والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به. فإن قلت لكم: إني بريئة – والله يعلم أني بريئة – لا تصدقوني، وإن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أني بريئة – لتصدقني! والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف : *﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾* [يوسف:١٨] "*]

ثم تحولت إلى جنبها، وناجت ربها، وقد كانت تظن – من شدة ألمها وتواضعها – أن الله سيُظهر براءتها برؤية يراها النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تكن تظن أن ينزل فيها قرآنٌ يُتلى إلى يوم القيامة.

لكن ما هي إلا لحظات، حتى نزل الوحي على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي، وغطّاه بثوبه، ثم سُرّي عنه، وهو يبتسم، فقال"**:أبشري يا عائشة، أما والله لقد برّأك الله "!**ثم تلا قول الله تعالى : *﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾* [النور: ١١.]

ففرح البيت كله، وفرحت المدينة، وعمّت البشرى، وتنفّست القلوب بعد اختناق، لكن عائشة، المؤمنة الصادقة، أبت إلا أن ترفع بصرها إلى السماء، وتقول بكلمات لا تُنسى" **:والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي"!**

الفوائد المستفادة من الفقرة

الفوائد العقدية:

- أن الله سبحانه يبتلي عباده لحِكَم عظيمة، وقد تقع المحنة في أطهر البيوت لتكون عبرة للأمة .وهنا نعلم أن العقيدة الصحيحة تقتضي الرضا بقضاء الله، والثقة بحكمته في أشد الابتلاءات.

- أن الوحي لا يتبع العاطفة، بل يأتي بأمر الله، ولو تأخّر نزوله شهرًا كاملًا، فإن لله في تأخيره حكمة .وهنا نعلم أن المؤمن ينبغي أن يوقن أن التمكين والتفريج من عند الله، في الوقت الذي يقدّره هو لا ما نتمناه نحن.

- أن الله يُظهر براءة عبده الصادق إذا صبر واحتسب، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا .وهنا نعلم أن الله جلّ جلاله لا يضيع أولياءه، وإن طال البلاء واشتد الظلم.

- أن من تولى كِبر الإفك له عذاب عظيم، وهذا من العقيدة في عدل الله عز وجل .وهنا نعلم أن العقيدة توجب الإيمان بعدل الله في الدنيا والآخرة، وأن عقوبة من آذى أولياءه عظيمة.

الفوائد الفقهية:

- أن من اتُّهم بباطل فله أن يستعين بالصبر والدعاء، وله أن يستدل بآيات الصبر كما فعلت عائشة رضي الله عنها .وهنا نعلم أن الرجوع إلى كتاب الله عند الفتن من دلائل التثبّت والفقه في الدين.

- أن المظلوم لا يُلزم بأن يُقسم أو يُدافع إن علم أن القلوب قد مالت، وله أن يفوّض أمره إلى الله .وهنا نعلم أن في هذا سعة ورحمة من الشريعة لمن ابتُلي بظلم لا يستطيع دفعه.

الفوائد الأخلاقية:

- حياء صفوان بن المعطل رضي الله عنه وحرصه على غضّ بصره وركوب عائشة دون كلمة واحدة، درسٌ في العفّة والنزاهة .وهنا نعلم أن الرجال يُعرفون في مواطن الخلوة والمحنة، لا في الزينة والظهور.

- صبر النبي صلى الله عليه وسلم، وسكوته دون تعجّل، وامتحانه للناس بالصمت، من دلائل الحِلم والأناة .وهنا نعلم أن العاقل لا يستبق الأحداث، بل يُحسن التصرف في الأزمات حتى تتبيّن الأمور.

- كلام النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة بلطف وإنصاف، وعدم اتهامه لها، دليل على علوّ خُلقه وإنصافه حتى مع أقرب الناس .وهنا نعلم أن الخُلق النبوي يسمو فوق العاطفة، ويُحسن الظن حتى يتبيّن الحق.

- تواضع عائشة رضي الله عنها، وعدم ظنها أن تنزل فيها آيات، مع يقينها ببراءتها، خلقٌ عظيمٌ في التواضع لله . وهنا نعلم أن الصدّيقين يخشون الله حتى مع نقاء سريرتهم، ويرجون ستره ولو كانوا أبرياء.

الفوائد الدعوية:

- أن السيرة النبوية تُعلّم الدعاة كيف يواجهون الشائعات ويُربّون الناس على التثبّت .وهنا نعلم أن الدعوة لا تكون بالصخب والردّ الفوري، بل بالحكمة والصبر حتى يفرّج الله.

- أن الفتن تُظهر معادن الناس، وتُفرّق بين المنافق والمؤمن، والداعية ينبغي أن يُحسن فَهم المواقف في زمن المحن .وهنا نعلم أن التربية الإيمانية تظهر عند الشدائد، لا في الرخاء.

الفوائد السياسية والاجتماعية:

- أن حادثة الإفك كادت تعصف بأركان المجتمع المسلم، لكنها في حقيقتها طهّرت الصفوف وكشفت المنافقين . وهنا نعلم أن المحن قد تكون خيرًا خفيًا للأمة في تنقية صفوفها، إن أحسنت التعامل معها.

- أن المجتمع يجب أن يتثبّت قبل نقل الكلام، وأن الإشاعات تُدمّر البيوت وتُضعف الجماعات .وهنا نعلم أن الإعلام الكاذب أخطر من سيوف الأعداء، لأنه يضرب في القلوب والضمائر.

- أن عرض المؤمن أعظم من أن يُتداول في المجالس، ولو كان صاحبه بعيدًا، فكيف إذا كان من آل بيت النبوة؟ وهنا نعلم أن الشريعة تُعلّمنا صيانة اللسان، وأن الكلمة قد تهوي بصاحبها إلى النار.

ما يخالف الواقع:

- كثير من المجتمعات اليوم تستهين في نقل الكلام، وتُطلق الألسنة في أعراض المسلمين، دون بينة أو تثبّت . وهنا نعلم أن هذا الواقع مخالف لما أمر به الله من التثبّت، وقد يُعرّض المجتمعات لعذابٍ عظيم.

- بعض الناس يُشارك في نشر الشائعات بحسن نية، كما وقع لبعض الصحابة، وهو في الحقيقة ذنب عظيم .وهنا نعلم أن حسن النية لا يُبرر الخطأ، وأن اللسان مسؤول.

الفقرة الخامسة : حكمة النبوة في محاكمة الإفك... وتجلّيات العدل والرحمة

لم تكن حادثة الإفك مجرّد سحابة صيف في سماء المدينة، بل كانت زلزلةً عنيفةً هزّت القلوب، وكشفت الأقنعة، وأورثت الأمة جرحًا نازفًا لا يزال يُستلهم منه الدروس والعبر.

وحين نزل الوحي من فوق سبع سماوات ببراءة الصدّيقة الطاهرة عائشة رضي الله عنها، لم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك النور الإلهي، بل تبع ذلك بحُكمٍ يُقيم ميزان العدل، ويطهر الصف من دَنَسِ الشائعة.

فأمر بجلد مَن ثبت تورّطه من المؤمنين في رمي العفيفة، وهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش رضي الله عنهم، تأديبًا لهم على جُرأتهم في إشاعة الفاحشة، رغم إيمانهم وصحبتهم.

أما عبد الله بن أُبيّ بن سلول – رأس النفاق، ومهندس الفتنة – فقد تُرك دون إقامة الحد، رغم علم النبي صلى الله عليه وسلم بنفاقه، رحمةً بالأمة، وحكمةً سياسية تربوية راشدة.

فقد كان الناس حديثو عهد بالإسلام، ولم يكن نفاقه ظاهرًا لهم، فلو قُتل أو عُوقب علنًا، لقال قائل: إن محمدًا يقتل أصحابه!

وهكذا تجلّت حكمة النبوة في أحكم صورها؛ عدلٌ لا يُفرّط، ورحمة لا تُفرّط، وفقهٌ دقيق في إدارة الأزمات، يُوازن بين الحقوق والمصالح، ويراعي المآلات.
لقد كانت حادثة الإفك مدرسة في الفقه النبوي، تُعلمنا أن إدارة الفتن ليست بالانفعال والغضب، بل بالبصيرة، وسعة الأفق، ورجاحة العقل، وتقديم مصلحة الأمة على الانتصار للنفس.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- ثبوت براءة عائشة رضي الله عنها بنص القرآن دليل على أن عصمة العرض للمؤمن الصادق منحة من الله، وأن الله يدافع عن عباده المؤمنين.

- نزول الوحي ببراءة عائشة رضي الله عنها دليل قطعي على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لا يكون مثل هذا فيمن هو كاذب.

- إدراك أن المصائب والابتلاءات قد تكون خيرًا خفيًا في طي المحنة، كما قال تعالى: ﴿لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم﴾، وهو مبدأ عقدي في الثقة بحكمة الله في قضائه.

- في ترك النبي صلى الله عليه وسلم إقامة الحد على عبد الله بن أبيّ رغم نفاقه الظاهر له، إشارة إلى أن العقوبة الشرعية مرتبطة بظهور البينة أمام الناس لا بالعلم القلبي، وهو تأصيل لأصل مهم في باب الإيمان والحكم على الناس بالظاهر.

فوائد فقهية

- إقامة حد القذف على من ثبت عليه التورط في إشاعة الفاحشة، ولو كان من الصحابة، دليل على أن الشريعة لا تُجامل في إقامة الحدود متى ثبتت، مهما كان قدر الشخص.

- عدم إقامة الحد على من لم تثبت عليه البينة، وإن كان معروف الحال، يعلّم أن إقامة الحدود تحتاج إلى البينة الظاهرة لا إلى الظن أو العلم الخاص.

- الفقه النبوي في السياسة الشرعية يظهر في الموازنة بين إنكار المنكر علنًا ومراعاة المآلات، وهو أصل فقهي معتبر في باب المصالح والمفاسد.

- تأديب المسلم وإن كان صالحًا إذا وقع في إشاعة الفاحشة يدل على أن الصحبة والإيمان لا يعصمان من الجزاء إن وقع الذنب، وهذه عدالة شرعية خالدة.

فوائد أخلاقية

- الحذر من الخوض في الأعراض، ولو كان بدافع الجهل أو الحماس أو حسن الظن بالمعلومة، فإن ذلك قد يجر على المسلم العقوبة في الدنيا والآخرة.

- العدل الذي مارسه النبي صلى الله عليه وسلم مع الجميع، حتى من أصابه الضرر في عرضه، يعلمنا أن العدل خُلُقٌ لا يتبدّل أمام المشاعر الشخصية.

- الترفّع عن التشفي، والرحمة بالمخطئين، من شيم الكبار، فقد عفا النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن أبيّ ظاهرًا، رغم جرمه العظيم، حفاظًا على وحدة الصف.

- تغليب مصلحة الأمة على حظ النفس خُلق نبوي رفيع، يُربي القادة على أن التضحية الشخصية أحيانًا هي عين النجاح الجماعي.

فوائد تربوية

- الفتنة تُظهر معادن الناس، وتُربي النفوس على الصبر والتثبت، وتُعلّم أن الإشاعة ليست مجرد كلمة، بل جريمة تهز المجتمع.

- حسن إدارة الأزمة من النبي صلى الله عليه وسلم بالصمت والتروّي ثم الحُكم، يعلّم القادة والآباء والدعاة فن الصبر وضبط النفس عند النوازل.

- حادثة الإفك درس في كيفية تصحيح الأخطاء دون تحطيم المخطئ، بل بالتأديب العادل، وهي رسالة في التربية بالرحمة لا بالقسوة.

- تقديم مصالح الأمة وعدم الاستعجال في المعالجة، يعلّم المربين والدعاة أن الرؤية بعيدة المدى أحيانًا أنفع من العلاج الفوري المتعجل.

ما يخالف الواقع

- غلبة التسرّع في إصدار الأحكام على الناس بمجرد إشاعة أو صورة أو منشور دون تثبّت أو تبيّن، مما يناقض المنهج النبوي في التروّي والحكمة.
- فقدان العدل في كثير من وسائل الإعلام والمجالس، حيث يُشهر بالناس بلا بيّنة، وتُهدر كرامات الأبرياء تحت ستار "الحرية" أو "النقد."
- الانفعال المفرط من بعض المتدينين عند الأزمات، فيقعون في الغضب أو الظلم أو التعميم دون بصيرة أو فقه للمآلات.

غياب روح الرحمة والعفو والتقدير للمصالح العامة في بعض القرارات المجتمعية أو الدعوية، مما يؤدي إلى مزيد من التفرقة والفتن.

الفقرة السادسة :ثمار الابتلاء في حادثة الإفك... دروس ربانية وتمييز للصفوف

الامتحان الأعظم... حين هبّت عاصفة الإفك على بيت النبوة وقلوب المؤمنين

لم تكن حادثة الإفك مجرّد إشاعة عابرة، ولا امتحانًا لبيت النبوة فحسب، بل كانت زلزالًا اجتاح المدينة المنورة، رجّ صرح الإيمان، وبلغ مداه كل بيت، ولامس قلوب المؤمنين والمؤمنات جميعًا.

ثلاثة أشهر كأنها دهور، عاشتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بين الألم والاتهام، والدمع والدعاء، والرجاء والثبات، لا تدري ما يُحاك لها في الخفاء، ولا ما يُتداول عنها في الخفاء، وقد نزل بها من الهمّ ما لو نزل على جبلٍ لاندكّ من ثقله.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق، يتقلب في تلك الأيام بين الحزن والحيرة، والصبر والتؤدة، يُحب زوجته، ويعرف طهرها، لكنه لا يقطع بأمرٍ دون وحي السماء، فيعلّم الأمة درسًا خالدًا: أن التثبت عند الفتنة عبادة، وأن التريث قبل إصدار الحكم دليل النبوة لا طيش العاطفة.

◆تمييز الصفوف: كشف الأقنعة وتعرية القلوب

لقد أراد الله لهذا الابتلاء الجلل أن يكون كالكير، يُمحص به المعدن، ويُفرز فيه الزائف من الخالص. فظهرت الوجوه على حقيقتها، وارتفعت أقوام، وسقط آخرون في الحضيض. خرج عبد الله بن أبيّ بن سلول – رأس النفاق – من جُحره، ينفث سمومه في عرض الطاهرة، ففضحه الله في الدنيا قبل الآخرة. أما المؤمنون الصادقون فوقفوا صفًّا واحدًا، يدافعون عن عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون بقلوبٍ يغمرها اليقين: «سبحانك، هذا بهتان عظيم» [النور: ١٦].

وتجلّت الغيرة المحمودة في قلب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: «يا رسول الله، النساء غيرها كثير، وسل الجارية تصدقك الخبر»، وجاء أسامة بن زيد رضي الله عنه يشهد بما علم من خيرها، وتجلّت العناية الربانية في كل كلمة وكل موقف.

◆السمو بالأخلاق الإسلامية: مدرسة الوحي في أدب القول

نزل الوحي ليؤدّب الأمة، ويغرس في قلوبهم ميزان الكلمة، ومنهج التعامل مع الأخبار، فبيّن أن التسرع في نقل الكلام جريمة، وأن الواجب على المؤمن إذا سمع ما يُنكر، أن يحسن الظن، ويكفّ لسانه، ويطلب الدليل. قال تعالى:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ...﴾ [النور: ١٥ .]﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧.]

آيات من سورة النور نزلت تربي جيلاً طاهراً، وتؤسس مجتمعًا لا تهزّه الإشاعات، ولا تفتّ في عضده الأكاذيب، بل يزن بالكلمة بميزان الشرع، ويُحكّم فيها قلبه قبل لسانه.

◆تكريم الطاهرة المبرّأة: براءةٌ من فوق سبع سموات

أراد الله تعالى أن يجعل لعائشة رضي الله عنها براءة لا تنالها شهادة البشر، بل شهادة رب البشر، فنزل جبريل الأمين بالآيات، فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم على زوجته، فزال الهمّ، وجرت دموعها شكراً لله، وتحوّل الألم إلى عزّ، والامتحان إلى وسام شرف في سجل الطاهرات.

وقد رُوي أن عائشة رضي الله عنها قالت – كما في الصحيحين – لما بُرئت:

"فوالله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بشيء يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرّئني الله بها"...

فإذا بالله جلّ في علاه، يخلّد ذكرها في كتابه، وتُتلى براءتها إلى يوم القيامة، فيا لها من منزلة، ويا له من فضل عظيم!

◆رسالة خالدة للبشرية:

في حادثة الإفك عبرة للأمة كلها، في كل زمان ومكان: أن الطعن في الأعراض من أعظم المحرمات، وأن الله غيور على أوليائه، يغضب لغضبهم، ويدافع عنهم، ويكشف كيد من أراد بهم السوء. قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩.]

فالإشاعة تهدم الأوطان، وتكسر القلوب، وتُفسد الثقة بين أفراد الأمة، ولكن التربية النبوية علّمتنا أن الأمانة في اللسان هي مفتاح الأمان في المجتمع، وأن الحق لا يُخذل، ولو طال الليل، فلا بد للصبح أن ينبثق.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- من حكمة الله عز وجل أن يبتلي أولياءه بأعظم الابتلاءات ليميز الخبيث من الطيب، كما وقع في حادثة الإفك، فتكون الفتنة تمحيصًا وتربيةً ورفعًا للدرجات.
- نزول البراءة من السماء دليل على أن الوحي محفوظ من الله، وأن كلامه حق، وأنه يدافع عن عباده الصادقين ويبرئ ساحتهم.
- من صفات الله أنه الغيور على أوليائه، يغضب لغضبهم، وينتصر لهم حين يُظلمون، كما انتصر لعائشة رضي الله عنها بنصوص قرآنية خالدة.

- تدبير الله في البلايا أعظم من تدبير البشر في النعم، ففي كل بلاء حكمة، ولو ظهر أنه شرّ محض، فالله يخرج به خيرًا عظيمًا.

- التثبّت في الفتن من صفات المؤمنين، ومن ثمار الإيمان بالوحي والقدر، وقدوة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة دليل حي على ذلك.

فوائد فقهية

- يجب التثبت من الأخبار قبل تصديقها ونقلها، خاصة ما يتعلق بالأعراض، ويُعد نشر الإشاعة كبيرة من الكبائر تستوجب العقوبة.

- يُشرع أن يُعرض الأمر الكبير على أهل الرأي والعلم كفعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عليٍّ وأسامة رضي الله عنهما، طلبًا للمشورة.

- في ترك النبي صلى الله عليه وسلم إصدار حكم حتى يأتي الوحي، تعليم للأمة أن الحكم في القضايا الكبرى لا يُبنى على الظن ولا العاطفة.

- الشريعة تُوجب حسن الظن بالمؤمنين، وتُحرّم سوء الظن ورمي الأبرياء بلا بينة، ويُعتبر ذلك من جرائم اللسان التي يترتب عليها حد أو وعيد.

- النصوص القرآنية التي نزلت في حادثة الإفك أصل في قواعد التعامل مع الشائعات، وفيها تأصيل للضوابط الشرعية في نقل الكلام.

فوائد أخلاقية

- حادثة الإفك تعلّم المؤمن كظم الغيظ، وضبط النفس، والصبر في مواطن الفتن، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

- الطعن في الأعراض بلا بيّنة من أقبح الأخلاق وأخطرها، وهي من خصال المنافقين الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا.

- من الأخلاق النبوية الرفيعة التي ظهرت في الحادثة: التؤدة، والحِلم، والعفو، والعدل، والتعامل بالحكمة مع الجميع.

- الإحسان في الظن والعدل في القول وعدم التسرع في إطلاق الأحكام، من صفات القلب السليم واللسان المهذّب.

- براءة الصدّيقة رضي الله عنها تُعلّم النساء خاصةً، والأمة عامةً، أن الثبات مع العفّة يُورث عاقبة حميدة وشرفًا أبديًا.

فوائد تربوية

- الامتحانات الإلهية هي مدارس لتربية القلوب، وفيها دروس في اليقين، والتوكل، والرجوع إلى الله في أحلك اللحظات.

- غرس ميزان الكلمة في المجتمع يبدأ من تربية الجيل على مراقبة اللسان، وتعظيم حقوق المسلمين في أعراضهم.
- الفتنة تُظهر معادن الناس، وتُربيهم على صدق الإيمان أو تفضح نفاقهم، فتكون التربية بالتجربة والابتلاء.
- التربية الإيمانية الحقة تقتضي الوقوف مع الحق مهما كان، وعدم الاندفاع خلف العاطفة أو مجاراة التيار العام.
- النصوص الواردة في حادثة الإفك تبني مجتمعًا قائمًا على الأخلاق، ومُحصّنًا من الشائعات، ومنيعًا ضد التفرقة.

ما يخالف الواقع

- انتشار الغيبة والبهتان والطعن في الأعراض عبر وسائل التواصل دون تثبّت أو خوف من الله.
- ضعف الوعي بخطورة الكلمة، وغياب ميزان الشرع في الحكم على الناس، مما أدى إلى تجرؤ العوام على العلماء والصالحين.
- الاستجابة السريعة للإشاعات دون تحقق، وتداولها كأنها حقائق، حتى لو هدمت بيوتًا ودمّرت أعراضًا.
- قلة من يُحسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات، وكثرة من يطعن في النيات ويتهم الأبرياء لمجرد الظن أو العاطفة.
- غياب التربية على الانضباط في الفتن، وعدم الاقتداء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم في التؤدة والتثبت.
- من شناعة فِرَق الخوارج أنهم يطعنون في أعراض المؤمنين ويتّهمون خيار الصحابة ويُكفّرون المسلمين بالظن والهوى، كما فعل أسلافهم في زمن الفتن.

الفقرة السابعة حين لاحت فتنة الجاهلية... وأطفأها نور النبوة

في طريق العودة من ماء المريسيع، كانت القافلة النبوية تسير في سكينةٍ ظاهرها الطمأنينة، وباطنها يحمل بقايا جراحٍ لم تندمل بعد من حملات المنافقين ومؤامراتهم.

كانت المدينة تقترب، لكن فتنةً كادت أن تهزّ أركان الصف الإسلامي هزًّا عنيفًا كانت تتربص في ثنايا القلوب.

بينما كان الصحابة يزدحمون حول مورد الماء، إذا باحتكاكٍ عابر يحدث بين *جهجاه بن سعيد الغفاري*، مولى عمر بن الخطاب من المهاجرين، و*سنان بن وبر الجهني*، من الأنصار. اشتد بينهما التلاسن، فصاح الأنصاري" :**يا للأنصار"!**، وردّ المهاجري" :**يا للمهاجرين."!**

وهنا، انفجرت أول شرارة من شرارات العصبية الجاهلية، فهاجت النفوس، وأوشك الحطب أن يشتعل... لحظة واحدة فقط كادت أن تعيد نار الجاهلية إلى صدر الإسلام، وتكسر وحدة الصف الذي صاغه الوحي، وربّاه قلب النبوة.

ولكن... كانت عين النبوة ساهرة، وكانت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الماء المبارك الذي أطفأ الله به لهيب الفتنة.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، ووجهه يتلألأ غضبًا وهيبة، وقال بكلمته العظيمة التي هزّت أعماق القلوب:

"دعوها، فإنها منتنة) "*صحيح البخاري و مسلم*

عبارة قصيرة... لكنها كانت كفيلة بإسكات كل صوتٍ للعصبية، وقمع كل خيطٍ من رواسب الجاهلية، ووأد نارٍ كادت تأكل الأخضر واليابس.

إنها الجاهلية حين تتسلّل في ثياب الغيرة والانتصار للذات، ولكنها تسقط سريعًا حين يتكلم الوحي. لقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم الأمة من خلال هذه الحادثة أن الرابطة الإيمانية فوق كل رابطة، وأن العصبية الجاهلية مهما تزينت لا تُرضي الله، ولا تصلح بها أمة.﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠[

فأيّ دعوى تُفرّق بين المؤمنين بعد أن جمعهم الله في هذه الكلمة النورانية؟

لكنّ الفتنة لم تخمد تمامًا...

في الزاوية الأخرى، وتحديدًا في ظلال الغلّ والحقد، جلس رأس النفاق، *عبد الله بن أبيّ بن سلول*، يتأمل في تلك اللحظة التي كادت تعيد له ملكًا ضاع يوم دخل الإسلام المدينة. فقال بكلمته الحاقدة المسمومة:

(أَوَ قد فعلوها؟ سَمِّنْ كلبك يأكلك! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعز منها الأذل)*صحيح البخاري*

قالها متوعدًا النبي صلى الله عليه وسلم، ومشيرًا إلى نفسه بـ"الأعز"، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ"الأذل"! فكانت الكلمة سهامًا من نفاق، فضحها الله بوحي من فوق سبع سماوات:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون: ٨[

وكان هناك شاب لم تحتمل أذناه هذا السُمّ... إنه *زيد بن أرقم*، الصحابي الصادق، الذي سمع مقالة النفاق، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخبره بها صادقًا نقيًّا.

لكن رأس النفاق أنكرها، وصدقه بعض الناس، وعاتبوا زيدًا، فتألم لذلك، وشعر بالخذلان، حتى أنزل الله عز وجل تصديقه في سورة "المنافقون"، فسُرّي عن قلبه، وأُثبت صدقه، ورفع الله شأنه، وبقي اسمه في سجلّ الصادقين.

وما أعظم الموقف حين جاء *عبد الله بن عبد الله بن أبيّ*، ابن رأس النفاق، وكان من خيرة الصحابة، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم في شجاعةٍ وإيمان:

"يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلًا، فمرني أنا أقتله، فإني لا أطيق أن أرى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتل مسلمًا بكافر"! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم بكل رأفةٍ ورحمة" :**بل نترفق به ونُحسن صحبته ما دام بيننا."**

*الله أكبر !*أيُّ حلمٍ وأيُّ خُلُقٍ وأيُّ قيادة هذه؟

لقد أخرس النبيُّ صلى الله عليه وسلم صوت الجاهلية بكلمة، وأخرس صوت النفاق بالحكمة، وأعطى البشرية درسًا خالدًا في كيف تُبنى المجتمعات على رابطة العقيدة لا على الدم، وعلى الإيمان لا على الأنساب، وعلى الأخوّة لا على العصبيات.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أن رابطة الإيمان فوق كل رابطة دنيا، فلا يجوز أن تسود العصبيّة القبلية أو الحزبية على رابطة الإخاء الذي أقرّه الله.
- أن الوحي كلام حيّ يطفئ فتيل الجاهلية ويقوّي التماسك العقدي؛ كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم القاصعة تُلجم النفوس قبل أن تفتك بالصفّ.
- أن الفتنة تكشف المنافقين وتُميّز الصادقين، فالأزمات هي ميزان بَيّن في كشف المواقف الحقيقية.
- أن نصرة الحق وبلاغه واجبة حتى لو كان مصدر البلاغ صغيرًا أو ذا موقع دون، فصدق الراوي يُثبت وينال تثبيت الرب.
- أن حلم القيادة أحيانًا مصلحة شرعية لازم مراعاتها، فالإصلاح بالحلم حين تُحقق المصلحة أعظم من الجزع والعنف.
- أن جزئية الأقوال الذاهبة إلى التجريح لا تُترك دون كشف؛ القرآن يبيّن مواضع النفاق ويُسدّ باب التبرير للمنافقين.

فوائد فقهية

- تحريم العصبية الجاهلية شرعًا وواجب تداركها فورًا بالبيان الشرعي الدال على الأخوّة.
- وجوب تحرّي الخبر وتثبيته، وقبول شهادة الصادق ولو على من هو أكبر مكانةً في القبيلة.
- مشروعية اتخاذ الحلم في التعامل مع المخطئ إذا كانت المصلحة الشرعية تقتضي ذلك وعدم الإضرار بالصحابة أو بسمعة الدعوة.
- حق الأمة في إزالة الفتن بوسائل شرعية متدرجة: الوعظ، الإنكار الخاص، الإنكار العام إذا اقتضت المصلحة.
- أن كشف النفاق يدخل في باب نصح الأمة وبيان المنافقين لمنعهم من استغلال الثغرات العقدية.

فوائد أخلاقية

- أن التواضع وتهذيب النفس أفضل من الانفعال، وأن الحلم خلق يقوّي الجماعة أكثر من ثورة الغضب.
- أن الصدق والشجاعة في تبليغ الحق من أعظم الأخلاق التي تُصلِح الجماعة وتمنع الفتنة.
- أن صفة الرحمة بالخطأ (مع الطلب بالإنابة) تديم الألفة وتمنع التشظّي.

فوائد سلوكية

- سرعة ضبط النفس والحدّ من التفاعل الانفعالي أول خط دفاع أمام فتيلة النزاع.
- تشجيع ثقافة الإبلاغ الصادق والمسؤول بدل الصمت أو التهويل؛ فالإبلاغ المنضبط يصون الجماعة.
- تعليم التدرج في الحلول: مقاربة المشكلة بهدوء أولاً ثم الحزم عند لزومه.

فوائد سياسية وعسكرية

- أن التفاف الصف الداخلي قوة استراتيجية؛ تَمزُّق الداخل يهبط بالقدرة على المواجهة الخارجية.
- أن القيادة التي تمنع الفتنة مبكرًا تحفظ موارد الأمة عناء النزاع الداخلي وتؤمّن ظهرها.
- أن المنافقين عند الفرقة يعملون لمصلحة الخصم؛ كشفهم واجب أمني وديني.

فوائد إدارية وقيادية

- واجب القائد أن يتدخل فورًا ويقطع جذور الفتن قبل تفشّيها، لا أن يتردّد أو يؤجل.
- الحكمة في التعامل مع ذوي النفوذ تتطلب توازنًا بين الحزم والتروّي حفاظًا على المصلحة العامة.
- لا بد من آليات مجتمعية للإصلاح داخل المجموعات تمنع انفجار النزاعات إلى شقاق دائم.

فوائد اجتماعية

- ترسيخ مفهوم الأخوّة الإيمانية كأساس لكل علاقة اجتماعية يمنع عودة الجاهلية.
- ضرورة تعليم الأجيال أن الكرامة لا تُبنى على التفخيم القبلي بل على الالتزام الديني والأخلاقي.

فوائد نفسية

- كبح العجلة والانفعال يمنح المجتمع طمأنينة نفسية ويخفض مستويات العنف.
- تثبيت ثقافة التوبة والصلح يخفف من ضغط الانتقام الشخصي ويعطي فسحة للرجوع.

مخالفات الواقع

- تقديس الولاءات القبلية والطائفية فوق الولاء للإسلام؛ كثيرٌ اليوم يُقدّم انتماءه الحزبي أو العشائري على كلمة التوحيد.
- تسرع الناس اليوم في تأييد شائعاتٍ قبل التثبت، وتنتشر بيانات وتدوينات تُشعل الفتن في ساعاتٍ معدودات.
- ضعفُ أجهزة التوجيه الديني الوسطي؛ فراغُ العلم الوسطي أوجد ميدانًا للجهل والبدع والقول الفارغ.
- ظهورُ «مروجين» على المنصّات يزاودون بالدين ويشجعون على العصبيّات، وهم من فرق أهل الأهواء والبدع التي تفتك بالشباب عقائديًا.
- استثمارُ بعضِ السياسيين أو الجهات للنزاعات القبلية لصالح مكاسب آنية، فتتحوّل خلافات بسيطة إلى فتن كبرى.
- خوف الشهود الصادقين من التبليغ لِمَخاوفٍ مهنية أو اجتماعية؛ فيُترك الحقّ دون مناصرة لصاحبه.
- انتهاز المُنافِقين/المرجِفين لمواقف الضعف في المجتمع لاستعادة نفوذٍ مفقود؛ يعملون على إذكاء النعرات وإرباك السلطة الشرعية.
- غيابُ معاييرٍ واضحة للتعامل مع المترددين بين الحق والباطل؛ فيُغفَل عنهم حتى يكبر فسادهم.
- رواج ثقافة «الانتقام الاجتماعي» عبر الوسائط بدل طرق الإنكار الشرعي المنضبط، فتتعاظم الثأرات بين الأُسر والقبائل.
- تغييبُ التربية على مفهوم الأخوّة الإيمانية في المدارس والمناهج، فالجِيل لا يعرف أن المؤمن أخو المؤمن.
- ضعفُ دور الأئمة والعلماء الوسطاء في الوقوف عند الثغرات الاجتماعية قبل أن تتوسع، وملء هذا الفراغ بأصواتٍ متطرفة.
- التهاون عند بعض القيادات المحلية في التدخّل الحاسم لمصلحة الجماعة، بحجج «السلام الاجتماعي»، فيتغلغل الخبث ويكبر.
- ارتفاعُ منسوب الكبرياء والمظاهر القبلية بين الأفراد المؤثرين، فيُقدّمون شرف القبيلة على شرف الإيمان.
- استخدامُ الإعلام والصحافة الإلكترونية للتضخيم وصناعة الأعداء الداخليين بغرض الشهرة أو الربح، على حساب وحدة الأمة.
- غيابُ أنظمة واضحة للإنصاف في الخلافات الداخلية يجعل الحلول رهينة النفوذ والمال لا بالحق والشرع.
- تقاعسُ المؤسسات التربوية عن تعليم الشباب أدوات التثبت والمنهج العلمي، فتصبح الجماهير فريسة للافتعال.
- انتشارُ ثقافة «تكفير المخالف» أو تجويز القطيعة على أول هفوة، ما يسهّل انقسام الجماعة ويعطّي أرضًا للمرجفين.
- تغافل كثيرين عن خطورة اختلاط الدين بالسياسة الحزبية الضيقة، مما يطرح الولاء للأحزاب فوق الولاء للشرع.
- استئثارُ فئاتٍ بالدين لشهرةٍ أو مصلحة، واستغلالهم للمناسبات لإذكاء العصبيات بدل تبصير الناس بعقيدتهم.
- ضعفُ المحاسبة الداخلية عند الخطأ؛ فتبقى الأخطاء الصغرى دون معالجة حتى تتحول إلى أحقادٍ مدمرة.

ا لفقرة الثامنة : العدالة النازلة من السماء... سرية كُرْز بن جابر إلى العُرنيين (شوال ٦ هـ(

قصة الغدر المروّعة، وكيف أقام النبي صلى الله عليه وسلم ميزان العدل الإلهي على رؤوس الجناة

كانت المدينة النبوية تتنفس الصعداء، بعد أن انقشعت سحب الفتنة وأُسدِل الستار على محنة حديث الإفك، التي كادت تُزلزل الجبال، فإذا بالوحي ينزل يبرئ الطاهرة المبرأة من فوق سبع سماوات، ويصون عرض النبي صلى الله عليه وسلم في آياتٍ تُتلى إلى قيام الساعة.

وفي خضم هذا التعافي، وبينما المسلمون يسترجعون أنفاسهم من المحن، وقعت جريمة شنيعة، تئنّ لها القلوب وتبكي منها العيون، غدرٌ لا يليق إلا بأعداء الإنسانية، وخيانة لا يُتصور أن تصدر ممن ذاق نور الإسلام.

فقد جاء نفرٌ من قبيلة *عُرينة*، في ظاهرهم طلابُ هدى، يظهرون الإسلام، ويطلبون القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما علم الناس أن قلوبهم لم تُسلم وإن تلفظت الألسنة بالشهادتين!

أصابهم مرض في أبدانهم، فكان رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم كما وصفه ربه}:لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ] {التوبة: ١٢٨.[

فأشار عليهم النبي الكريم أن يخرجوا إلى *لقاح الصدقة*)الإبل الحلوب) في ظاهر المدينة، ليأخذوا من ألبانها وأبوالها، لما ثبت من أثرها في التداوي، كما جاء في الحديث الصحيح":إن ناسًا من عُرينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتووا المدينة، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من أبوالها وألبانها".
صحيح البخاري و ومسلم خرجوا وقد أُكرموا، وسُخّرت لهم النعمة، وأُعطوا من حرّ مال المسلمين، وتُرك معهم راعٍ أمينٌ يرعاهم ويرعى الإبل، فما كان جزاء الإحسان إلا الغدر والخيانة.

فإذا بهم يثبون على الراعي المسكين، يُهوون عليه بالسيوف، فيفقأون عينيه، ثم يقتلونه قتلة وحشية، تنفطر لها الأكباد. وساقوا الإبل وهربوا في جنح الليل، يُمنّون أنفسهم بأنهم نجوا بفعلتهم.

لكن في المدينة نبيٌّ لا يُفرّط في حدود الله، ولا يُمهل من دنّس حرمة الدماء.
فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم *كرز بن جابر الفهري* رضي الله عنه في كتيبةٍ من فرسان الحق، تطلب العدل وتنشد القصاص، وتحمل راية {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: ١٧٩.[

ولم تلبث هذه السرية أن لحقت بالعرنيين، فأدركتهم يد السماء، وسُوقوا إلى المدينة ليُحاكموا بميزان العدل الإلهي، لا بهوى البشر.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإقامة حد *الحرابة* عليهم، وهو حدٌ عظيمٌ شرّعه الله في كتابه، فقال}:إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{المائدة: ٣٣.[

فأُقيم فيهم الحد، قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسُمرت أعينهم، وتركوا في الحرة – وهي أرضٌ قاحلة – حتى ماتوا، جزاءً وفاقًا لما فعلوا.

وقد ثبت ذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال :فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم، فأُتي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم في الحرة حتى ماتوا)".البخاري مسلم إنها عدالة الله تمشي على الأرض بخطى النبوة، لا تظلم أحدًا، ولا تهمل دمًا، ولا تنسى مظلومًا

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ الله تعالى عدلٌ لا يرضى بالظلم، وقد شرع القصاص لتحقيق الحياة وحماية الأرواح، كما في قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}، وهذا يدل على كمال عدله سبحانه، وأن دين الإسلام دين حفظٍ للدماء والأنفس.

◆ رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جمعت بين الرحمة والعدل، فهو رؤوف بالمؤمنين، لكنه لا يتهاون في حدود الله، وهذه هي صفة النبوة كما دلّت الآية: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ.}

◆ ثبوت النبوة من خلال موافقة القضاء النبوي لنصوص الوحي المنزل، ومنه إقامة حد الحرابة كما أمر الله، مما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى.

◆ الوحي الإلهي مصدر الهداية والتشريع، وقد نزل الوحي بعد الإفك ليبرئ الصديقة رضي الله عنها، ثم نزلت آية حد الحرابة ليبين الله به الحكم في الجريمة التالية، مما يدل على أن التشريع محفوظ من فوق سبع سماوات.

◆ المؤمن لا يُحكم له بالإيمان الكامل بمجرد النطق بالشهادتين ما لم يأتِ بمقتضى الإيمان، وقد غدر العرنيون رغم إسلامهم الظاهري، فدل ذلك على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد.

فوائد فقهية

◆ حد الحرابة يُقام على من جمع بين القتل وأخذ المال وترويع الآمنين، ويُنفّذ بحسب الجريمة، وهذا الحد من أعظم الحدود التي تحفظ الأمن وتردع أهل الفساد.

◆ التداوي بألبان وأبوال الإبل ثابتٌ في السنة النبوية، وقد أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم من اشتكوا بطونهم، فهو بابٌ مشروعٌ من أبواب التداوي، لكن دون نسبة الشفاء إليها استقلالًا.

◆ الحدود تُقام بموجب الدليل الشرعي لا بالعاطفة أو الهوى، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإقامة الحد على العرنيين مع شناعة فعلهم، ولم يتركهم لأنهم تلفظوا بالإسلام.

◆ إعطاء مال الزكاة للفقراء والمرضى مشروع، ولو كانوا ممن يُظهر الإسلام ظاهريًا، ما لم يثبت منهم غدرٌ أو خيانة.

◆ مَن قتل عمدًا وغدرًا وأخذ المال فقد استحق أشد العقوبات، ويُعامل بحكم المحارب لله ورسوله، ولا يُكتفى فيه بالقصاص فقط إن تعددت جناياته.

فوائد أخلاقية

◆ من أعظم صور الخيانة أن يُغدَر بالمُحسن، ومن أقبح صور الجحود أن يُقابل الإحسان بسفك الدم، كما فعل العرنيون مع النبي صلى الله عليه وسلم والراعي.

◆ العدل لا يتعارض مع الرحمة، بل قد تكون إقامة الحد على المجرم أرحم بالأمة وأحفظ لحقوق الضعفاء، وفي ذلك حماية للمجتمع من الفوضى.

◆ خيانة العهد والغدر من صفات المنافقين، ولا يُعرف ذلك في سيرة أهل الإيمان الصادق، ولهذا سُمِّي الغادر خائنًا لعهود الله ورسوله.

◆ الرحمة بالناس لا تعني التهاون في حقوق الله أو إهمال القصاص للمظلوم، بل الرحمة الحقيقية أن تُصان الأنفس وتُحفظ الحرمات.

◆ الوفاء والأمانة من خصال المسلمين، ويقابلها الغدر والخيانة، وهما من أخلاق أعداء الله مهما أظهروا من شعارات ظاهرية.

فوائد دعوية وتربوية

◆ تأمل عدل النبي صلى الله عليه وسلم في أشد المواقف يُعلّم الدعاة أن إقامة الدين لا تكون بردة فعل غاضبة، بل بضبط النفس وتحكيم الشرع.

◆ الحوادث الجسام التي تمر بالأمة يجب أن تكون موضع عظة وتربية وتذكير، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم حول هذه الجريمة إلى درس عملي في إقامة العدل ونصرة المظلوم.

◆ التربية على الحذر من المنافقين وأهل الغدر واجبة، فهم قد يُظهرون الإسلام ويُبطِنون العداء، كما صنع العرنيون.

◆ القصاص في الجرائم الكبرى لا يُعتبر تشددًا أو تطرفًا، بل هو رحمة بالناس وحفظٌ للأمن، وعلى الدعاة أن يبيّنوا هذه المعاني بوضوح.

◆ القصص النبوي الواقعي أبلغ في التأثير من أي خطاب، ولهذا كانت هذه الحادثة موعظة بليغة لكل من تساهل في الدماء أو الغدر.

ما يخالف الواقع

◆ تفشّي التساهل في الدماء، وتبرير القتل والخيانة بحجج ظاهرها الرحمة وباطنها الظلم، في حين أن الشريعة تجرّم الغدر وتوجب القصاص.

◆ وجود أصوات تُطالب بإلغاء الحدود باسم الإنسانية، رغم أن الشريعة أثبتت أن القصاص حياةٌ ورحمة، بينما التساهل في حدود الله جلب الخراب والقتل والدماء في المجتمعات.

◆ انتشار تلميع الخائنين والغادرين وإظهارهم بمظهر الضحية في الإعلام أو الواقع، في حين أنهم قتلة مجرمون يجب أن يُفضحوا لا يُدافع عنهم.

◆ ظهور من ينكر حد الحرابة أو يراه منسوخًا أو وحشيًا، مع أنه نزل في القرآن وطبقه النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من اتباع الهوى ومخالفة الوحي.

◆ التهاون في كشف المنافقين أو التغافل عن صفاتهم بدعوى "الستر" أو "عدم التفرقة"، في حين أن السيرة النبوية علّمتنا كيف نُحذر من خطرهم ونتعامل معهم بحزم وعدل.

الفقرة التاسعة: الدعوة تمضي إلى الشمال... سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل (شعبان ٦ هـ)

حين بدأت شمس الإسلام تشرق على أطراف الجزيرة، وتنسج بنورها خيوط الرحمة والهداية على الرمال الجرداء والجبال الوعرة، لم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم بأن يكون أثر دعوته محصورًا في المدينة أو بين بطاح مكة، بل كانت رؤيته صلى الله عليه وسلم تمتد بعيدًا، تحمل نور الرسالة إلى الآفاق، وتشق الطريق نحو الشمال، حيث تقع **دومة الجندل**، في مفترق الطرق بين الحجاز والشام والعراق، منطقةٌ حيويةٌ يقصدها التجار، وتستقر فيها قبائل عربية بعضها نصراني وبعضها وثني، يحيون حياة مختلطة بين المدنية والبادية.

وفي شعبان من العام السادس للهجرة، اختار النبي صلى الله عليه وسلم أحد أعمدة المهاجرين وأفذاذ الصحابة، عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ليقود هذه المهمة المباركة، فكان تكليفًا يحمل في طياته أمانة الكلمة قبل السيف، وألقَ في قلب القائد مشعلَ الدعوة قبل لهيب المواجهة .قال له النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوصيه:
"إن أطاعوك فتزوج بنت ملكهم]"الطبقات الكبرى لابن سعد سيرة ابن هشام

فخرج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقد انطلق يحمل في قلبه القرآن، وفي فمه كلمات الهدى، يسير لا كفاتح بالسيف، بل كرسول بالحكمة، يناديهم إلى الإسلام، ويحدثهم عن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، ويعرض عليهم دينًا جاء ليحرر النفوس، ويهدي الحائرين، ويقيم الميزان بالقسط.

وكانت البشرى أن **أسلم القوم**، ودخل ملكهم في الإسلام، وبسطوا أيديهم لمصافحة الإيمان، فانقلبت الأرض الخصبة في دومة الجندل إلى روضة من رياض التوحيد.

وكما وعد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد زوّج عبد الرحمن بن عوف تماضر بنت الأصبغ، كريمة القوم وابنة سيدهم، فكان زواجًا في سبيل الدعوة، ومفتاحًا من مفاتيح المودة التي أمر الله بها، قال الله تعالى**{وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً]{**الروم: ٢١.]

ولم تكن هذه السرية كما قد يُظن حملةَ سلاحٍ وكرًّا وفرًّا، بل كانت **سرية دعوية سلمية**، تمضي بأدب الرسالة وجلال البلاغ، لتفتح القلوب قبل أن تفتح البلدان، وتغرس بين القبائل جسورًا من الإيمان، وتؤسس لعلاقات متينة قائمة على الرحمة، قال الله تعالى :**ادْعُ إِلِىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ]{**النحل: ١٢٥.]

وهكذا، سارت سرية عبد الرحمن لا كقافلة عسكرية، بل كنسمةٍ ربانية، وحلقةٍ من حلقات البلاغ الذي حمله النبي صلى الله عليه وسلم، لتصل الرسالة إلى قلب الشمال، في زمنٍ كانت فيه الدعوة تبني حضارة القلوب، قبل أن تبني صروح الدول.

لقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح الصامت أن الإسلام لا يحتاج دائمًا إلى جيوش الجرار، وإنما قد يكفي في بعض المواطن **رجلٌ صالحٌ، يحمل خلقًا كريمًا، ولسانًا صادقًا، وقلبًا مفعمًا بالحق.**

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين عالمي جاء للناس كافة، لا يختص بقوم أو مكان، كما ظهر في امتداد الدعوة إلى دومة الجندل شمال الجزيرة.
- النبي صلى الله عليه وسلم مؤيد من الله، مُرسل لهداية الناس أجمعين، فدعوتُه شاملة، ومنهجه في تبليغ الرسالة محكم.
- الإسلام دين هداية ورحمة، لا يبدأ بالغزو والسيف، بل بالكلمة الطيبة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما فعل عبد

الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

- إسلام القوم برهان على أن الهداية من الله وحده، وأن الدعوة تقوم على البلاغ المبين، لا على الإكراه أو السيطرة.
- وعد النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بزواجه من بنت ملكهم إذا أسلموا يُثبت صدق نبوته، وتمام ثقته بنصر الله.

هذا الحدث يؤكد أن أصل الإسلام الدعوة إلى التوحيد أولًا، فهو يفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد.

فوائد فقهية

- يجوز للقائد المسلم أن يعقد الزواج في أرض الدعوة إن دعت إليه مصلحة شرعية كما زوّج النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بنت ملك دومة الجندل.
- الزواج من نساء أهل البلد الداخلين في الإسلام وسيلة من وسائل توثيق العلاقات الدعوية والسياسية إذا روعيت مقاصد الشرع.
- الدعوة أولى من القتال، فإن أجاب المدعوون إلى الإسلام وجب الكف عن القتال، ولا يقاتلون إلا إذا امتنعوا ومانعوا.
- أعمال السرايا تتنوع بحسب المقصد: فإن كان القوم آمنين، لم تُبعث إليهم السرايا لحرب بل لدعوة، كما في هذه السرية.
- الوصية في السفر والدعوة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أوصى عبد الرحمن بن عوف بتلك الوصية الخاصة، فكانت سنة وعهدًا ودليلًا على عناية القيادة بالجنود والدعاة.

فوائد أخلاقية

- دعوة عبد الرحمن بن عوف قامت على اللين والحكمة لا على العنف والغضب، فنجحت في فتح القلوب قبل الأبواب.
- التواضع في التعامل مع الأقوام المخالفين، وحسن الخلق، كانا سببًا في إقبالهم على الإسلام.
- الوفاء بالوعد خُلق نبوي، فقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بالزواج إن أسلم القوم، فوفى له.
- الرفق بالمدعوين من أبرز سمات الدعوة الناجحة، ولا يُنظر إلى المدعو باحتقار بسبب دينه أو جنسه أو لغته.
- الأدب في البلاغ عن الله سمة أصيلة في الدعاة، كما فعل عبد الرحمن بن عوف، إذ أظهر جمال الإسلام لا بسيفه بل بحسن منطقه وخلقه.

فوائد دعوية وتربوية

- كان اختيار عبد الرحمن بن عوف لهذه المهمة درسًا في وضع الرجل المناسب في الموضع المناسب، فالقائد الداعية يحتاج إلى فقه ودراية لا مجرد شجاعة.
- زواج عبد الرحمن من ابنة سيد القوم بعد إسلامهم دليل على أهمية بناء روابط المودة والمحبة في طريق الدعوة.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم يُرسل عبد الرحمن ليُجبر الناس، بل ليُعلّمهم ويهديهم، فيكون بذلك قدوة للدعاة إلى يوم الدين.
- الدعوة إلى الله تحتاج إلى نفوس صافية وقلوب مخلصة وألسنة صادقة، لا مجرد خطط وأساليب ظاهرية.
- النبي صلى الله عليه وسلم أرسى مبدأ تأسيس العلاقات بين الشعوب على أساس الإيمان لا العصبية أو الهيمنة، فكان هذا الأساس سبيلاً للسلام الحقيقي.

ما يخالف الواقع

- كثير من الدعاة اليوم يبدأون الدعوة بالصدام لا بالحكمة، فتضيع الرسالة قبل أن تصل، ويهلك الناس قبل أن يسمعوا البيان.
- يغفل بعض المسلمين عن أن الدعوة تحتاج خلقًا حسنًا، فيسيئون إلى الإسلام بسوء طباعهم وألفاظهم الجافة.
- تُختزل الدعوة في وسائل التواصل والشعارات الجوفاء، بينما يهملون القدوة الصالحة والكلمة الهادئة، كما فعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

- بعض الشباب يظنون أن تغيير المجتمعات لا يكون إلا بالثورة والصدام، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عبد الرحمن بالرفق والبلاغ، ففتح الله له القلوب بلا دماء.
- يظن البعض أن الزواج في سبيل الدعوة غير مشروع، أو لا ينبغي الالتفات إليه، بينما هذه السرية تؤكد أنه وسيلة مشروعة للتقارب والتأليف والدخول في الإسلام.
- تُتهم الدعوة الإسلامية اليوم بأنها تبدأ بالسيف، بينما الواقع التاريخي الصادق يُثبت أن أول أدواتها الكلمة والخلق والعهد، كما في دومة الجندل.

انتهى الباب العاشر ويليه الباب الحادي عشر ان شاء الله تبارك وتعالى

الباب الحادي عشر: صلح الحديبية ـ الفتح الأعظم الذي سبق السيوف

مقدمة

في سجلّ السيرة المحمدية، تقف **الحديبية** شامخةً كمنعطف تاريخي فاصل، لم يكن مجرد هدنة عابرة، بل كان **فتحًا مبينًا** سبق الفتح الأعظم لمكة.
على ثراها سطّر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه دروس الصبر والحكمة، وهنالك تَجلّت معاني السياسة الشرعية في أبهى صورها، حيث غُلّبت **المصلحة العليا** على الحماسة العاطفة، وغدا الصلح الذي بدا للبعض تنازلًا، **منصة تمكينٍ وعلوٍّ للإسلام**.

الفقرة الأولى: الحنين إلى البيت العتيق... حين انطلقت القلوب قبل الأقدام نحو مكة (ذي القعدة ٦ هـ)

لقد مضت سنونٌ على فراق أحبّ البقاع إلى الله، وقلوب الصحابة معلّقة بالكعبة تعتلج بالشوق، والأعين تفيض رغبة في السجود تحت أفياء البيت الحرام، بعد أن باعدت بينهم وبينه سياط الجفاء، وصدود قريش، ومضايق الغربة في المدينة.

وفي تلك الأيّام التي كانت المدينة تتنفس فيها سكينة النصر وطمأنينة التثبيت، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا أثّرت في نفوس أصحابه أيما تأثير، رأى أنه يدخل مكة هو وأصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين، آمنين، لا يخافون. فرح بها النبي صلى الله عليه وسلم، إذ كانت رؤيا حق، ورؤيا الأنبياء وحي، فبشّر بها أصحابه، فانفرجت وجوههم وتفتّحت قلوبهم، وتهامسوا بينهم: "قرب اللقاء بالبيت."!

عند مطلع شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه الأكيد على الاعتمار، لا مستثيرًا حربًا، ولا متحفزًا لقتال، بل قاصدًا بيت الله بقلوبٍ طاهرة وسيوفٍ مغمدة، وطلب من أصحابه أن يتجهزوا للرحلة المباركة، وأمرهم ألا يحمل أحد منهم سلاحًا إلا سلاح المسافر، لا خناجر مشرعة، ولا رايات مهيبة، وإنما الهَدْي المقلّد، والسكينة الملبَّدة، والنية الظاهرة في كل مشهد وسلوك.

خرج في هذه المسيرة الإيمانية قرابة ألفٍ وأربعمائة من خيرة المؤمنين، فيهم البدريون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وفيهم الأنصاري الذي بايع بيعة العقبة، وفيهم من باع الدنيا وهاجر بدينه، فيهم الطهر، واليقين، والبصيرة، واصطحب النبي صلى الله عليه وسلم الهدي معه – سبعين بدنة مقلّدة – حتى تكون أعلام السلم والنسك ظاهرة لا لبس فيها، إخبارًا صريحًا بأنّ القوم لا يريدون حربًا، وإنما جاءوا يُلبّون لله مخلصين.

وانطلق الموكب النبوي في رحلته الخاشعة، كأنهم في نسكهم يسيرون بين جبال التوحيد ووديان الخضوع، تلهج ألسنتهم بالتلبية:

"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك"،وسكينة تغمر القلوب، وثقة بوعد الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح: ٢٧.]

وفي الطريق، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليغفل عن رسالته الكبرى، فالدعوة إلى الله لا تعرف توقفًا، ولا تحدّها أسفارٌ أو مسافات، فكان يدعو القبائل التي تمر بها القافلة إلى الإسلام، يبسط لهم الحجة، ويرغّبهم في رحمة الله، ويبيّن لهم صدق دعوته. فآمن بعضهم، وتردد آخرون، وخاف بعضهم سيف قريش، ولكن البذرة زُرعت، والأثر كُتب، وكان ذلك من أولى بشائر النصر الآتي، والفتح القريب.

كان ذلك الخروج العظيم تمهيدًا لصلح الحديبية، الذي سيقلب الموازين، ويكسر الجمود بين الإسلام والجزيرة، ويفتح طريق الدعوة واسعًا، ويكون مقدمة لفتح مكة المهيب بعد ذلك بعامين، ويصدق قول الله جل وعلا:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح: ١.]

وهكذا تمضي الدعوة، لا تكلّها الطريق، ولا يثنيها الصدّ، وكل خطىً فيها مرسومة بقدر، محفوفة بملائكة، ويقينها أن الله لا يُخلف وعده.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

◆ رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وحيٌ من الله، وهذا إثبات لنبوّته، وتصديق للوحي الإلهي، وأن ما رآه كان حقًّا، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.

◆ في ذكر الآية {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} دليل على أن الفتح من عند الله، وفيه إثبات لعقيدة التوكل والتفويض الكامل لله في الأمور كلها.

◆ يقين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بوعد الله يعكس مقام الإيمان بالقدر وحسن الظن بالله، وأن النصر وإن تأخر فهو آتٍ لا محالة.

◆ استمرار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته في الطريق يبين أن العقيدة الإسلامية ليست مناسكية فقط، بل هي رسالة متكاملة مستمرة في كل أحوال المؤمن.

فوائد فقهية:

◆ جواز الخروج للعمرة في الأشهر الحرم، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، وهو من أشهر الحج.

مشروعية تقليد الهدي إعلانًا للنُّسُك، وأنه من السنة أن يُظهر النسك في السفر للعمرة أو الحج.

◆ يُستفاد من المسير بلا سلاح هجومي أن الأصل في نسك العمرة السلم، ولا يقاتل لأجل دخول مكة بل يُظهر النية والطاعة.

◆ في اصطحاب النبي صلى الله عليه وسلم للهدي والنية الظاهرة تعليمٌ للناس أن يبيّنوا مقصدهم في السفر الديني وأن يتجنبوا اللبس أو الفتنة.

فوائد أخلاقية:

- الشوق الذي اعترى الصحابة للبيت الحرام يعلّمنا فضيلة الوفاء للمقدسات، وتعلّق القلب بمواضع الطاعة.
- الخروج في هذه الرحلة بنفوس خاشعة وأسلحة مغمدة يُظهر قيمة السلام في الإسلام، وأدب التذلل بين يدي الله.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على الدعوة في الطريق، رغم مشقة السفر، يُعلّم الداعية الصبر والتحمل والانشغال بالخير في كل الأحوال.
- ثقة الصحابة برؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وتبشيرهم بها يُربي على الإيجابية، واستبشار الخير، والإيمان بوعد الله.

فوائد دعوية:

- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للقبائل في طريقه إلى مكة تؤكد أن الفرص الدعوية لا تُفوّت، حتى في السفر وأوقات النسك.
- في تأجيل الدخول إلى مكة لحكمة ربانية رغم تعلق النفوس، إشارة إلى أن الدعوة تحتاج إلى تدرج وتوقيت مناسب، ولا تُستعجل النتائج.
- زراعة البذور الدعوية في النفوس حتى لو لم تظهر نتائجها المباشرة، هو نهج نبوي يجب أن يقتدي به الدعاة.

فوائد تربوية:

- انقياد الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم دون تردد يربي على الطاعة المطلقة لولي الأمر الشرعي إذا دعا لطاعة الله.
- تصوير المشهد الإيماني في الطريق يعزز قيمة الصحبة الصالحة، وأن الجماعة المؤمنة في سفرها وعبادتها سبب للسكينة والرحمة.
- تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه كيف يكون السلوك في مواضع الخلاف أو المواجهة المحتملة فيه تهذيب للنفوس، وتربية على ضبط الانفعال.

مخالفات الواقع:

- ضعف الشوق في قلوب كثير من المسلمين اليوم إلى بيت الله الحرام، حتى من المقتدرين، وقد أصبحت الكعبة عند البعض مجرد مَعلَم سياحي لا مقصد تعبدي.
- عدم مراعاة آداب السفر والنُّسُك، فكثير من المسافرين للحج أو العمرة يفرطون في إظهار الترف أو يلغون الأثر التعبدي للرحلة.
- قلة استغلال الأسفار والأوقات العامة في الدعوة والتعليم، بل تحول السفر عند كثيرين إلى غفلة ولهو.
- ضعف اليقين بوعد الله، والتشكيك في تحقق النصر أو الخير، خلافًا ليقين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين صدقوا الرؤيا قبل أن تقع.

◆ ظهور التحزب والاختلاف في كثير ممن يسمى جماعات اليوم إذا دعا القائد أو العالم إلى أمرٍ لا يوافق أهواءهم، على عكس طاعة الصحابة المطلقة في السلم والنسك.

الفقرة الثانية: اعتراض قريش ومنعها النبي صلى الله عليه وسلم من دخول مكة

ما إن تناهى إلى مسامع قريش أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة في جمع من أصحابه، قاصدًا بيت الله الحرام، حتى انقلبت مكة على صفيح من الغضب، وارتجفت أعصابها ارتجاف الكبرياء الجاهلية، وثارت ثائرة الشرك في صدورهم، كأنهم لم ينسوا بعدُ كيف أُسقطت هيبتهم يوم بدر، ولا كيف مُزّق غرورهم على أسوار الخندق، فإذا بهم يتناجون: أيدخل محمدٌ مكة؟! أيطوف بالبيت الذي أخرجناه منه؟! أيُعقل أن تُفتح له أبواب الحرم، وقد أغلقناها دونه منذ سنين؟!

لقد كانت نار الحقد لم تخمد في صدورهم، ولا عادت عقولهم إلى رُشدها بعد، فتداعى زعماؤهم، واستنفروا فرسانهم، وعقدوا أمرهم على أن يمنعوه، ولو كلّفهم ذلك مهج الأرواح.

فبعثوا كرز بن جابر الفهري في كوكبة من الفرسان، يركضون الخيل بين الجبال، يثيرون الغبار، ويرهبون القبائل، ويقفون على طريق الركب النبوي، يُراد لهم أن يكونوا سيف الردع، ورسالة التهديد، لعل النبي صلى الله عليه وسلم يرجع عن قصده، أو يهاب الصدام.

لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ممن يثنيه الوعيد، ولا ممن تصرفه الجلبة عن الطريق. كان يمشي على هدى رؤيا صادقة، ويقين راسخ بوعد الله، وكان في قلبه إيمان لا تزعزعه جيوش الأرض، بأنه سيطوف بالبيت، وأنه سيدخله آمنًا مطمئنًا، لا بسيفٍ مشهر، بل بهديٍ مسوق، وقلوبٍ خاشعة. كيف لا وهو الذي قال الله في شأنه**{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ]** {الفتح: ٢٧.[

فأبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل من الطريق الذي تترصده قريش، وسلك طريقًا غير مألوف، متجهًا يمنةً عن الطريق المعتاد، حتى انتهى به المطاف إلى أرض "الحديبية"، على أطراف الحرم، قريبًا من مكة، ولكن دون أن يطأ أرضها. فكان هذا الالتفاف ضربة مُباغتة لقريش، خالفت توقعاتهم، وأربكت حساباتهم، فأخذوا يعيدون النظر، كيف يواجهون نبيًا جاء زائرًا لا غازيًا، طائفًا لا فاتحًا.

وهناك، في أرض الحديبية، بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم – القصواء – فلم تتحرك. فقال الصحابة: خلأت القصواء! أي توقفت دون سبب. لكنّ نبيّ الرحمة والنبوة ردّ عليهم بلغة الإيمان، وبصيرة من يعرف أسرار القدر، وقال صلى الله عليه وسلم":ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل "رواه البخاري ومسلم.

فكأن الله، سبحانه، أراد أن يقول لهم: إن لهذا الموقف شأنًا عظيمًا، وإن هذا الموكب المهيب لن يدخل مكة قسرًا كما أرادت قريش، ولكن سيدخلها بأمر الله، وفي وقت أراده الله، كما شاء أن يُمنع أصحاب الفيل من دخولها، شاء أن يُحبس نبيّه في أطرافها؛ ليكون ذلك تمهيدًا لفتح أعظم، وعهد جديد.

لقد كان الموقف درسا في السياسة النبوية، التي جمعت بين اللين والحكمة، وبين التوكل على الله والتخطيط المتقن، لا يطلب النبي صلى الله عليه وسلم النصر بغرور، ولا يُقدم على المواجهة بسفه، إنما يحمل راية السلم، ويقدم على كل خطوة بقلب يملؤه الرضا بالله، وحكمة تُضيء له طريق النبوة.

هنا، عند الحديبية، بدأت مرحلة جديدة، عنوانها:
السلم اختيار الأقوياء، والحكمة سلاح الأنقياء، والصبر طريق الفتح المبين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إيمان النبي صلى الله عليه وسلم بوعد الله وثقته المطلقة بتحقق الرؤيا الصادقة دليل على وجوب الإيمان بأن ما وعد الله به رسوله حق لا يتخلف، كما قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...}، وهو أصل من أصول العقيدة في الإيمان بالقدر والغيبيات.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم أمام التهديدات واطمئنانه بقضاء الله تعالى يُعلّمنا أن القوة الحقيقية للمؤمن نابعة من يقينه بالله وتفويضه للأمور إلى رب العالمين.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولكن حبسها حابس الفيل" يُظهر إيمانًا راسخًا بأن الله هو المتصرف في الكون، وأن الأسباب مهما عظمت لا تعمل إلا بمشيئة الله، وهذا من أعظم ما يُرسّخ توحيد الربوبية.

- اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم أن توقف ناقته كان لحكمة إلهية، يعلمنا أن كل ما يقع للمؤمن من حوادث وأقدار هو بعلم الله وحكمته، مما يربي القلب على التسليم والرضا.

فوائد فقهية:

- دخول النبي صلى الله عليه وسلم إلى أطراف الحرم دون القتال، مع قدرته على المواجهة، يدل على جواز ترك بعض المباحات – كدخول مكة في هذه الحالة – إذا ترتب على ذلك مفسدة أعظم، وهو من فقه الموازنات.

- سلوك النبي صلى الله عليه وسلم طريقًا غير مألوف تفاديًا للصدام يُستفاد منه مشروعية التخطيط السياسي وتدبير الأمور بحكمة دون تهور، ولو كان ذلك بتغيير الظاهر من العادات أو المسارات.

- امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال رغم الاستفزازات يُظهر مشروعية تجنب الحرب إن لم تكن مصلحة راجحة، ويبيّن أن السلم أصل ما لم تُنتهك الحرمات أو يُمنع الحق.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم إن ناقته لم تخلُ وإنما حُبست، دليل على أنه يجوز رد التأويلات الخاطئة في الأمور، ويُشرع تصحيح الأقوال الشائعة المخالفة للواقع.

فوائد أخلاقية:

- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على عناد قريش وتربصها، وتعففه عن الدخول قهرًا، يربي النفس على خلق الحلم وضبط الغضب، خصوصًا عند القدرة.

- تعليمه لأصحابه أن المواقف لا تُفسر بالأهواء، بل بالنظر الشرعي، كما في رده على ظنهم في الناقة، فيه دعوة إلى تعويد النفس على البصيرة لا التسرع.

- حكمته صلى الله عليه وسلم في التعامل مع موقف شديد التوتر دليل على أن القائد الناجح هو من يملك أعصابه في الشدائد ويقود من معه بالرحمة والروية.

- تقديمه صلى الله عليه وسلم للسلم والتفاهم قبل المواجهة يُظهر أخلاق النبوة في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالصدام والاستعلاء.

فوائد تربوية:

- تعليمه صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن الأمور تجري بتقدير الله فيه تربية على الإيمان العميق والثقة المطلقة في أقدار الله، مهما خالفت الظاهر أو رجاء النفس.
- الموقف كله يعلّم الأمة أن التريث في المواقف المتأزمة أرجح من الانفعال، وهو تدريب على فقه المواقف والتعامل مع الشدائد بتوازن.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم "حبسها حابس الفيل" يربط الأحداث بتاريخ العقيدة، ويعلّم المسلم ربط الحاضر بالماضي لفهم السنن الإلهية.
- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لليقين بالله أمام أصحابه فيه تعليم عملي لهم، وهو من التربية بالقدوة، وهي أنفع الوسائل التربوية.

فوائد دعوية:

- استعمال النبي صلى الله عليه وسلم للّين في موضع كان يمكن أن يُستخدم فيه الشدة، درسٌ للدعاة أن الدعوة لا تعني القوة في كل موطن، بل استعمال الحكمة في الوقت المناسب.
- موقف الحديبية يُعلّم الدعاة أن العمل الدعوي يحتاج إلى مرونة في الوسائل مع ثبات في الغاية، فلا تراجع عن الهدف لكن بتنوع الطريق المؤدي إليه.
- خروجه صلى الله عليه وسلم للعمرة رغم المخاطر فيه رسالة للدعاة أن لا يمنعهم تخويف الناس أو ضجيج الأعداء عن أداء الشعائر ونشر دعوة الحق.

ما يخالف الواقع:

- ما أكثر من يظن اليوم أن النصر لا يكون إلا بالسلاح والقوة، ولا يدركون أن الحكمة والتدرج والسلم من أعظم أبواب التمكين، كما كان في الحديبية.
- تفكير بعض الناس اليوم أن من ترك المواجهة فقد تنازل عن الحق، خلاف ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين ترك دخول مكة حفظًا للمصلحة.
- انتشار سوء الظن بالله واليأس من نصره عند كثير من المسلمين، في وقت كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّم أمته الثقة التامة بوعد الله، ولو طال الزمن.
- ضعف التوكل على الله عند كثير من الدعاة في زماننا، واعتمادهم الكلي على الأسباب المجردة، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين التوكل والتخطيط.
- موقف قريش المتعنت والمعاند لوعد الله، ومواجهتهم لنبي الله وهم يعلمون صدقه، يُشبه موقف فرقة **اهل الاهواء** الذين يقدمون عقولهم على نصوص الشرع، فيردّون النصوص التي لا توافق هواهم، وهذا من مسالك أهل الزيغ الذين حُرموا بركة التسليم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.
- كذلك في موقفهم من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، وما أظهره من يقين، ردٌ على **اهل الارجاء** الذين يرون الإيمان مجرد تصديق، فها هو النبي صلى الله عليه وسلم يصدّق ويعمل، ويجعل اليقين باعثًا للحركة، لا تكاسلًا أو تسويفًا.

الفقرة الثالثة: الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية: الماء يتفجّر من الصخر

وصل الركب النبوي المبارك إلى أطراف الحرم، حيث موضع الحُديبية، تلك الأرض الجافة التي تلفحها حرارة الشمس، وتئن من قسوة العطش، لا ظل فيها يَقي، ولا ماء يُروى منه الصادي.

حطّ النبي صلى الله عليه وسلم رحاله هناك، ومعه أطهر الخلق من أصحابه، قد أعياهم السفر، واشتدت عليهم حرارة الهجير، وجفّت الحلوق، ويبست الأجواف، وبلغ العطش منهم مبلغًا عظيمًا، حتى بدا وكأن الحياة توقفت على قطرة ماء.

كان في الحديبية بئرٌ مهجور، قد نضب ماؤه، واجتمع الصحابة حول النبي صلى الله عليه وسلم يُخبرونه: «يا رسول الله، لا ماء!» فكان الجواب من نبي الرحمة معجزةً تُروى بمداد النور، حيث أخرج سهمًا من كنانته الشريفة، وأمر بوضعه في قاع البئر، فما إن استقر فيه، حتى نبضت الأرض بالحياة، وتفجّر الماء من أعماقها، كأنها كانت تخفي بين طبقاتها بشرى السماء.

يقول الصحابي البراء بن عازب رضي الله عنه كما في *صحيح البخاري*»:كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفير البئر، فدعا بماء فمضمض، ثم مجه فيها، ثم دعا، فاستنزح فاستخرج، فشربنا حتى روينا.«

لقد ارتوى الجيش، وشرب الظمآن، وسُقي الهدي، وارتخت الأعصاب، وكأن السماء قد بعثت هذا الماء رسالة: أن الذي فجر الماء تحت أقدام نبيه، قادر على أن يُلين قلوب الجبابرة، ويمهد سبيل الفتح المبين.

في ذلك الوقت، كانت أعين قريش ترقب من بعيد، تتابع خطوات محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفي صدورهم غيظٌ يتأجج، وخوفٌ يتصاعد.

وكان الموقف ينذر بالاشتعال، فكل شيء على الحافة. لكن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم لم يكن يحمل سيفًا ليغزو، إنما كان يحمل نُسُكًا وهديًا ليُعتمر، وقلوبًا تتجه إلى الله شوقًا للطواف والسجود.

رغم التوتر، بقي النبي صلى الله عليه وسلم ثابت الجأش، متزن العقل، واسع الصدر، لا يرد على العناد بمثله، ولا على الجفاء بغلظة، وإنما يواجه التوتر بصبر الحكماء، وسكينة من علّمه ربّ السماء: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾]القلم: ٤.[

بدأت الرسائل تتقاطر، يتبادلها الفريقان، كل رسول يحمل رأي قومه، وكل طرف يحاول أن يقف على الخيط الدقيق بين الحرب والسلام. فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم بديل بن ورقاء الخزاعي، ليبلغ قريشًا: «إنما خرجنا معتمرين، لا محاربين». ولم تكن الكلمات وحدها كافية، فتواردت الوفود، وأرسل القرشيون مكرز بن حفص، ثم أرسلوا الحُليس بن علقمة – سيد الأحابيش – وكان رجلاً وقورًا بصيرًا، فلما رأى الهدي مقلدًا، والناس في لباس الإحرام، دمعت عينه، وقال من أعماق الفطرة» :ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن بيت الله«!

لكن كبرياء قريش أبت إلا الغطرسة، فردّوا وجههم عن الحُليس، فازداد يقين الرجل ببراءة محمد صلى الله عليه وسلم وعدالة مطلبه، وأدرك أن العناد لا يُخفي الحق، وإن حاول أن يغطيه بالضجيج.

وفي خضم هذه المفاوضات المتوترة، كانت الأخلاق النبوية تلقي بظلها الوارف، فقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم كل رسول بالبشاشة، وأعطى كل وفد مكانته، ولم يُهن خصمًا، ولم يعنّف متحدثًا، بل أجاب بالحكمة، وردّ بالحلم،

وسعة الأفق. كانت تلك المواقف تمهيدًا لوثيقة عظيمة، ستُكتب بحروف من نور، وستكون مفتاحًا لصلح فتح الله به القلوب، ومهّد به طريق الفتح الأكبر.

فأيُّ قلب لا يُفتن بحُسن خُلق هذا النبي؟ وأيُّ عقل لا يخشع لثباته وحكمته؟!﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾]التوبة: ١٢٨.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إيمان النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله سبحانه قادر على أن يروي الجيش في أرض قاحلة هو يقين بوحدانية الله وربوبيته وتصرفه المطلق في الكون، وهذا من صلب التوحيد الذي جاءت به الرسل.

- تفجّر الماء بوضع سهم النبي صلى الله عليه وسلم في البئر فيه دليل على كرامات الله لأنبيائه وآياته التي يجريها على أيديهم، وهو أمر يثبّت القلوب على الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته.

- قول البراء بن عازب رضي الله عنه ووصفه للحادثة إقرار من الصحابة رضوان الله عليهم بأن ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات هو تصديق من الله له، وهو ما يجب الإيمان به، وعدم إنكاره كما تفعل بعض الفرق المنحرفة.

- استدلال النبي صلى الله عليه وسلم بفعله القليل على النتيجة العظيمة فيه تربية على الاعتقاد بأن الأسباب لا تنفع إلا بإذن الله، وأن التوكل على الله لا يُنافي بذل الأسباب، وهذا من كمال التوحيد.

- بقاء النبي صلى الله عليه وسلم في موضع لا ماء فيه رغم العطش الشديد، وانتظاره الفرج من الله، يظهر التسليم لحكمة الله والرضا بقضائه، وهو من أصول الإيمان بالقدر التي يغفل عنها كثير من الناس.

فوائد فقهية:

- مباشرة النبي صلى الله عليه وسلم لمشكلة انعدام الماء بالحكمة والفعل، لا بالصراخ أو الفوضى، فيه تعليم للقيادة الراشدة في إدارة الأزمات، وأن الفقه في الواقع لا يقل عن فقه النصوص.

- استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه عند الحاجة للماء دليل على استحباب التوجه إلى الله في الشدائد، وطلب الفرج منه قبل التفكير في الحلول المادية المجردة.

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للرسل إلى قريش وإظهار نية العمرة يدل على جواز المفاوضات بين المسلمين وأهل الكفر إن كانت في مصلحة الدعوة وحقن الدماء، وهو من فقه السياسة الشرعية.

- استقبال النبي صلى الله عليه وسلم للرسل دون غلظة، ومنحهم مكانتهم، فيه دليل على جواز الإكرام في الخطاب مع غير المسلمين إن كان يُرجى به تليين قلوبهم أو إزالة الشبه.

- ما فعله الحُليس من الانحياز للحق حين رأى الهدي والنسك يدل على أن من شهد شعائر الإسلام من غير المسلمين قد تقوم عليه الحجة بالفطرة، وهذا أصل فقهي في باب الدعوة.

فوائد أخلاقية:

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في موقف الضعف الظاهر، وصبره على العطش الشديد دون تذمر، يعكس علو أخلاقه وصبره النبوي العظيم.

- ردّه صلى الله عليه وسلم على الحدة باللين، وعلى التوتر بالحكمة، فيه أعظم الدروس في خلق الحلم، وهو من صفات الأنبياء والصلحاء.

- البشاشة التي استقبل بها صلى الله عليه وسلم الوفود، مع كونه في موقف قوة معنوية، تُظهر خُلق التواضع الجم، وهو من أبرز أخلاق النبوة.

- تجنب النبي صلى الله عليه وسلم للمهانة أو الانتقاص من الخصوم، مع قدرتهم على إيذائه، يُظهر خُلق العدل والإنصاف، حتى مع الأعداء.

- دمع عين الحُليس عند رؤية الهدي درس في أثر المظهر التعبدي في تليين القلوب، وهو خُلق يُترجم من الداخل إلى فعل ظاهر يلمس القلوب.

فوائد تربوية:

- قصة تفجر الماء تربي القلوب على الثقة بنصر الله وفرجه في أشد المواطن يأسًا، وهو منهج تربوي عظيم يزرع الأمل في النفوس.

- تحلّي النبي صلى الله عليه وسلم بالهدوء في موقف التهديد يعكس تربية ربانية في ضبط المشاعر وعدم الانجرار للغضب، وهو درس في تربية القيادة.

- مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم لعناد قريش باللين يُعلّم المؤمن أن الحلم باب من أبواب التأثير، وأن الناس لا تُقاد إلا بالحكمة لا بالصراخ.

- بث النبي صلى الله عليه وسلم الطمأنينة في أصحابه رغم العطش يدل على أن القائد المربي لا يُظهر الضعف بل يُطمئن القلوب ويقود بثبات.

- أدب النبي صلى الله عليه وسلم في الرد على الوفود يعلمنا أن حسن الخلق لا يعني الضعف، بل هو أقوى أدوات التأثير في المواقف المتأزمة.

فوائد دعوية:

- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لمقصد العمرة بوضوح أمام قريش فيه بيان أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون صريحة في مقاصدها، واضحة في غاياتها.

- طريقة تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الوفود يُبيّن أن الدعوة لا تقتصر على الكلام، بل تشمل الأخلاق والتصرفات التي تُترجم المعاني.

- سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن المهاترات وردّه بالهدوء فيه تعليم للدعاة أن الجدال والخصومة لا تفتح القلوب، بل تثير العناد.

- ترك النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يتكلموا مع الوفود أحيانًا يُظهر أن العمل الدعوي عمل جماعي، وليس حكرًا على الفرد.

- الحُليس لما رأى النسك دمعت عينه، دليل أن التأثير بالدعوة قد يكون من مجرد هيئة أو فعل تعبدي، لا بكثرة الجدال.

ما يخالف الواقع:

- في زمننا، كثير من الناس ييأسون من الفرج إذا ضاقت السبل، ولا يتوجهون إلى الله بقلوب صادقة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

- ضعف خُلق الحلم عند المسلمين اليوم، وكثرة ردود الفعل الغاضبة، حتى في أبسط المواقف، بخلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من صبر واتزان.

- اعتقاد البعض أن المفاوضة مع الخصوم ضعف، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم فاوض وراسَل وأدار الموقف بحكمة دون أن يتنازل عن الحق.

- قلّ أن ترى اليوم في المواقف الدعوية تلك الأخلاق النبوية من البشاشة وسعة الصدر، بل ساد الجفاء والفظاظة التي تنفّر القلوب.

- في واقع الناس اليوم، لا يُحسن كثير من القادة أو الدعاة التعامل مع المخالف أو المحاور، فيسيئون الأدب أو يرفعون الصوت، بخلاف خُلق النبي صلى الله عليه وسلم.

- في إنكار بعض الفرق لمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم الحسية كنبع الماء وتفجّره من تحت يده، طعن خفي في النبوة، لأنهم يجعلون هذه الآيات رموزًا أو مجازًا لا حقائق، وهم بذلك يقدّمون خيالهم على النقل الثابت.

الفقرة الرابعة: عثمان في قلب العاصفة.. وبيعة الرضوان التي هزّت السماء

وبينما الحديبية تغلي بالمشاعر، وتكاد رمالها تشهد على صبر الصحابة الممتد، ظلت قريش تماطل وتراوغ، لم تفتح باب السلم، ولم تغلق باب الحرب، بل تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأطهار معلَّقين على أعتاب الحرم، بين شوق إلى البيت العتيق، وخطر العداء المترصد.

كانت السياسة المكية آنذاك قائمة على الحيرة، والمناورة، كأنها تريد أن تُنهك العزائم، وتُربك القرار النبوي، لكن هيهات.

عندها، قرر الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يُرسل إلى قريش رسولًا يحمل كلامًا لا غموض فيه: "إنا لم نأتِ لقتال، وإنما جئنا معتمرين، قاصدين بيت الله الحرام".

وكان لا بد أن يكون هذا الرسول ممن له حرمة في قريش، وله وجاهة في أعينهم، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا من صفوة أصحابه، من أولي الحياء والوقار، من جعلته الملائكة تستحي منه: إنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ذو النسب العريق، والمقام الكريم، والموقف السديد.

ناداه النبي صلى الله عليه وسلم، ونفث في أذنه كلمات التكليف، فركب عثمان إلى مكة، وفي قلبه يقين، وفي خطاه ثبات، وعلى كتفيه أمانة عظيمة.

دخل مكة تحت أنظار القوم، فاستقبله بعض مشركيها ممن كان بينهم وبينه صلات قرابة، فعُرض عليه عرضٌ يُغري الضعفاء، قالوا: "إن شئت أن تطوف بالبيت فطف"، لكنه رضي الله عنه نظر إليهم نظر الثبات، وقال: "ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم"، الله أكبر! أيُّ إخلاص هذا؟! وأيُّ وفاء؟! أبى أن يتقدم على نبيه ولو بخطوة، رغم أن مكة كلها كانت بين يديه!

ثم طال مقامه في مكة، وأبطأت العودة، وبدأ القلق يزحف إلى معسكر الحديبية، وبلغ القلوب الحناجر، حتى تسرّبت شائعة رهيبة هزّت الوجدان: "قُتل عثمان!"، فارتجّ المكان، وارتفعت همسات الغضب، وتطايرت شرارات الغيرة والوفاء، أيُقتل سفير رسول الله؟! أتُهان راية السلام؟!

وهنا، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحت شجرة في الحديبية، بجبينه الوضّاء، ونوره الذي يضيء ما حوله، فدعا أصحابه للبيعة، بيعة الوفاء والثبات، بيعة الاستبسال إن دعا المقام، بيعة لا مجال فيها للتردد ولا مكان فيها للرجوع، قال: «بايعوني على الموت»، فتسابق إليه الصحابة، رجالًا ونساءً، يمدون أيديهم الشريفة إلى يده المباركة، ويقولون من أعماق الإيمان: "نبايعك يا رسول الله على ألا نفر"، إنها بيعة الرضوان، التي شهدت عليها السماء.

بل كانت لحظة بيعتهم لحظة نزول الرضا الإلهي، فارتفعت الآيات من فوق سبع سماوات، شاهدة ومبشّرة، فقال الله تعالى في كتابه العظيم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾]الفتح: ١٨[

أي شرف هذا! أن ينال الإنسان شهادة رضى من الله في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة! لقد خلدت تلك اللحظة في سفر الخلود، وصارت مشهدًا من مشاهد العظمة، لا تمحوه السنون، ولا تغيب عنه العيون.

وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: "أنتم خير أهل الأرض"، وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة.

وجاء في الصحيحين عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن أصحاب بيعة الرضوان : "لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة"، وفي رواية" :أنتم خير أهل الأرض."

فهكذا كانت الحديبية... امتحانًا للقلوب، وصقلًا للنفوس، وتمهيدًا للنصر، وبيعة كانت أعظم من السيوف، وأقوى من الجيوش، بيعة خطّت في السماء قبل أن تُدوَّن على الأرض، ورضا من الله سبق الفتح والنصر.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الإيمان بأن الله سبحانه يتولى شؤون أوليائه، ويُجري الأمور لحكمته، يظهر جليًا في تأخير عودة عثمان رضي الله عنه، وتمهيد الأمر لبيعة الرضوان، فالمؤمن يُسلّم للقدر وإن خالف ظنه.
- ثبات عثمان رضي الله عنه ورفضه الطواف دون النبي صلى الله عليه وسلم فيه دلالة على كمال التوحيد في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتقديم أمره على هوى النفس.
- بيعة الرضوان وذكرها في القرآن برضا من الله عن المبايعين، فيه إثبات لصفة الرضا لله على الوجه اللائق بجلاله، وأنه يرضى عن عباده المؤمنين إذا صدقوا معه، وهذا من عقيدة أهل السنة.
- نزول الآيات الكريمة تصديقًا للموقف، فيه تأكيد على أن الوحي يؤيد الحق، وأن كل ما وافقه فهو المقبول، وهو دليل على وجوب الاحتكام إلى نصوص الشرع، لا إلى الأهواء والآراء.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحابه: "أنتم خير أهل الأرض" إثبات لفضل الصحابة رضي الله عنهم، وتقديمهم في الفضل، وهو من أصول العقيدة عند أهل السنة، بخلاف أهل البدع.

فوائد فقهية:

- بيعة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم على الموت في سبيل الحق تبين مشروعية عقد البيعة على أمور عظيمة لحفظ الدين، وأن البيعة تقتضي الوفاء والثبات.
- قبول النبي صلى الله عليه وسلم تأخر عثمان رضي الله عنه عن العودة، وعدم التسرع بالحكم، يدل على فقه التثبت، وتحري الحقائق قبل اتخاذ القرارات.
- منع عثمان رضي الله عنه نفسه من الطواف دون النبي صلى الله عليه وسلم فيه فقه تعظيم السنّة، وتقديم الموقف الجماعي على مصلحة الفرد.
- بيعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام دليل على مشروعية مشاركة المرأة في النصرة والثبات على العقيدة في المواقف العظيمة.
- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم لرسول إلى قريش في وقت التوتر يؤكد مشروعية السعي إلى نزع الفتيل بالمفاوضة قبل رفع السلاح، إن كانت المصلحة في ذلك.

فوائد أخلاقية:

- حياؤه رضي الله عنه وتورعه عن التقدم على النبي صلى الله عليه وسلم في أمر تعظيم لخلق الوفاء والاحترام، وهو من أرفع مراتب الأخلاق.
- ردّ عثمان رضي الله عنه على عرض الطواف برفض مؤدب فيه تعليم لأدب الثبات دون غلظة، وأن المواقف القوية لا تحتاج إلى ضجيج.
- تصرف النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه خبر مقتل عثمان – قبل التثبت – ببيعة جماعية على الموت، دليل على استشعاره للمسؤولية وتحمّله لحماية من أرسله.
- وقوف الصحابة رضوان الله عليهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم في أصعب المواقف يُظهر التربية النبوية على الجماعية والإخلاص والتجرد.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم عن الصحابة: "أنتم خير أهل الأرض" فيه تقدير للفضل، وتشجيع على الثبات، وهو من مكارم الأخلاق في القيادة.

فوائد تربوية:

- قصة عثمان رضي الله عنه تعلم الأمة أن الولاء للنبي صلى الله عليه وسلم مقدم على كل عرض دنيوي، مهما كان مُغريًا.
- بيعة الصحابة تحت الشجرة تربي النفس على الوفاء في أشد المواقف، وعلى استعداد القلب للتضحية دون تردد.
- وصف النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بأفضلية أهل الأرض تربية على العزة الإيمانية، وتنمية الشعور بالشرف في نصرة الحق.
- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه ليبلغ قريش رسالة سلمية فيه تربية على حسن الظن، ومحاولة إصلاح المواقف بالحكمة.
- إشاعة مقتل عثمان وما ترتب عليها من بيعة عظيمة يُظهر أن الأزمات قد تحمل في طياتها من الخير ما لا يُدرك لحظتها، وهو درس في الإيجابية والتفاؤل.

فوائد دعوية:

- اختيار عثمان رضي الله عنه لما له من وجاهة في قريش يعلّم الدعاة اختيار من يحسن الخطاب، ويملك التأثير، فليس كل أحد يُرسل.
- رفضه رضي الله عنه الاستجابة لعرض الكفار مع قدرته، فيه دعوة للدعاة أن يثبتوا أمام المغريات وألا يساوموا على المبادئ.
- موقف النبي صلى الله عليه وسلم في جمع أصحابه للبيعة رغم الشائعة الجارفة، يعلّم الدعاة أهمية إدارة الأزمات بروح الإيمان لا الذعر.
- تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم للبيعة وجعلها تحت الشجرة، وربطها برضا الله، فيه تربية للدعاة على أن العمل الصادق في الشدائد هو الذي يُخلّده الله.
- مدح النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة بعد الحادثة يدل الدعاة على أهمية رفع معنويات من حولهم بعد المواقف العصيبة، وشكرهم.

ما يخالف الواقع:

- قلة الوفاء اليوم في المواقف الصعبة، حتى بين أصحاب الدعوات، حيث يتخلى بعضهم عن بعض عند أول محنة، بخلاف وفاء الصحابة.
- تساهل كثير من الناس في نشر الشائعات دون تثبت، وقد يترتب عليها قرارات خطيرة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم تصرّف بحكمة ولم يتهور.
- ندرة من يرفضون العروض المغرية حفاظًا على دينهم وولائهم، بينما عثمان رضي الله عنه رفض طوافًا مشروعًا تعظيمًا للنبي صلى الله عليه وسلم.
- ضعف بيعة القلوب اليوم، حيث تُقال الكلمات وتُنكث العهود بسهولة، ولا يُرى أثر للعزم الذي بايع به الصحابة تحت الشجرة.
- كثير من الناس لا يرون للصحابة فضلًا، ويتهاونون في مكانتهم، خلافًا لما أثبته الله لهم من رضا وشهادة بالخيرية.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنتم خير أهل الأرض" والآية الكريمة التي أثبتت رضا الله عنهم ردّ صريح على الرافضة الذين يطعنون في الصحابة ويتبرؤون منهم، بل يُكفّر بعضهم عثمان رضي الله عنه، وهم بذلك قد خالفوا القرآن والسنة وإجماع الأمة .

الفقرة الخامسة: قدوم سهيل بن عمرو.. ومفاوضات العزّة تحت ظلال النبوّة

ما إن سكنت النفوس بعد بيعة الرضوان، حتى لاح في الأفق بصيص من الأمل، يحمل معه تباشير السَّلام بعد طول الترقب. فها هي قريش، وقد خفَّت حدتها، ترسل رجلًا من ساداتها إلى معسكر النبي صلى الله عليه وسلم، يطلب الصلح والمهادنة. وكان المبعوث رجلاً ليس كسائر الرجال، إنه **سهيل بن عمرو**، خطيب قريش ولسانها المفوَّه، صاحب الرأي والوجاهة.

تقدَّم سهيل نحو معسكر المسلمين بوجه متجهم، يمشي في خطى مثقلة بعبء الكبرياء المكّي، ولكن عينه لا تخفى ما يجده في نفسه من يقين بأن الحق بدأ يسطع نوره، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من القادة، بل هو نور يسري في الظلمات.

وما إن رآه النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال في فطنة القائد المتفائل" :**قد سَهُلَ لكم من أمركم**"، فقراءة النبي صلى الله عليه وسلم للوجوه والأقدار لم تكن كقراءة سواه، بل كانت بوحي رباني، وبصيرة نبوية.

جلس سهيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليُبرما معًا عقدًا يكون ميثاقًا للسلام، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم **علي بن أبي طالب رضي الله عنه** ليكتب الصحيفة، وقال له" :**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**"، فتوقّف سهيل وقال: لا أعرف هذا، ولكن اكتب" :**باسمك اللهم**"، فهي الكلمة التي كان أهل الجاهلية يفتتحون بها.

ولم يغضب النبي صلى الله عليه وسلم، بل قابل التصلب بالرفق، فقبل، ليُعلِّم أتباعه أن العزّة لا تعني العناد، وأن الحكمة في الموضع أحيانًا أعظم من ألف انتصار.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم" :**اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله"...**
فقاطعه سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، ولكن اكتب" :**محمد بن عبد الله.**"
فنظر النبي صلى الله عليه وسلم وقال" :**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني**"، ثم قال لعلي" :**امحها**"،
فقال علي في وفاءٍ عظيم: "لا، والله لا أمحوها أبدًا!"، فمحاها النبي صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة، وهو القادر أن يرفض، ولكنه قدَّم مصلحة الدعوة، واحتسبها لله، ليعلِّم أتباعه دروسًا في التواضع والعظمة في آنٍ واحد.

وكانت الشروط التي وضعتها قريش قاسية في ظاهرها:

ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام، ولكن يُؤذن لهم بالعمرة في العام القادم.

وأن من أتى إلى المدينة من مكة مسلمًا يُرَد، أما من ارتد ورجع من المدينة إلى مكة فلا يُرد.
ورغم ما في هذه البنود من الغبن الظاهر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قَبِل بها، واضعًا نصب عينيه ما وراء الصلح من فتوح، وما بعد الحكمة من نصرٍ مؤزر.

وفي تلك اللحظات الحرجة، **دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو**، ودماؤه تسيل من آثار القيود، مكبلًا بالسلاسل، يصرخ بالحق، ويتوسل بالدموع إلى معسكر النبوة، فرحًا بوصوله إلى من ينصر المظلوم، ويأوي الطريد. فها هو يصرخ: النجدة يا معشر المسلمين!
ولكن سهيل، وكان أباه، قال: هذا أول من أطلب رده،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم" :**إنا لم نُبرم الكتاب بعد**"،فقال: فإني لا أصالحك على شيءٍ حتى ترده إليّ،
فوافق النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر بردّ أبي جندل، وسط ذهول الصحابة ودموعهم المكظومة، وكأن القلوب تقطَّعت وهم يرون الأخ يُدفع إلى الأسر من جديد.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن يملك نفسه من الغضب"**:ألست نبي الله؟"!**
قال: "بلى"قال: "ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟"!قال: "بلى"قال: "ففيمَ نعطي الدنية في ديننا؟"!
فقال النبي صلى الله عليه وسلم" :**إني عبد الله، ولن يضيعني**"
وفي رواية قال له" :**يا ابن الخطاب، أنا رسول الله، ولن يعصيني، ولن يضيّعني.**"

وهنا سطعت الحقيقة في قلوب الصادقين، فليست الشروط هي المعيار، بل الثقة في الله ورسوله، واليقين أن النصر لا يُقاس بعاجل المواقف، بل بعواقب الأمور، وقد نزلت البشرى بعد ذلك مباشرة:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾]الفتح: ٢٨[

لقد أثبتت هذه المفاوضات أن العزّة لا تُنال بالصوت المرتفع، ولا بالقبضة المشدودة، وإنما تُنال بثبات المبدأ، ونبل الأخلاق، وحكمة القيادة. وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم، عزيزًا في صبره، حكيمًا في قراره، كريمًا في تنازله، ومؤيدًا من السماء في كل خطوة يخطوها.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم مؤيد بوحي من الله، فبصيرته في المواقف ليست اجتهادية محضة بل بنور النبوة.
- إثبات صفة العلم لله تعالى، وأنه سبحانه يدبّر الأمور بعواقبها لا بلحظتها، وقد يجري الأمور بما تكرهه النفوس لحكمة بالغة.
- الإيمان بأن النصر من عند الله وحده، لا يرتبط بالأسباب الظاهرة وإنما بتوفيق الله.
- تصديق أن كل فعل للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن الدين هو وحي يُتبع، حتى في صبره وتنازله، لأنه لا ينطق عن الهوى.
- اليقين بأن من صفات النبي صلى الله عليه وسلم العصمة من الضلال والخطأ فيما يبلغ، ولذلك قال: "لن يعصيني، ولن يضيّعني."
- في موقف عمر رضي الله عنه دليل على جواز السؤال في أمور الدين من باب الفهم، مع التسليم للنبوة إذا وضّحت.

فوائد فقهية

- جواز المهادنة مع العدو إذا اقتضتها مصلحة أعظم للإسلام وأهله، ولو تضمن ذلك التنازل عن بعض الحقوق الظاهرة.
- إثبات مبدأ الوفاء بالعهود حتى مع غير المسلمين إذا تم الاتفاق عليها، ولا يجوز نقضها لمجرد الهوى أو الغضب.
- جواز كتابة العقود بين المسلمين والكافرين بما يفهمه الطرف الآخر، وإن خالف الصياغة المعتادة للمسلمين إذا دعت الحاجة لذلك.
- جواز محو الاسم الشريف من الوثيقة أو الخطاب إذا اقتضت المصلحة الشرعية، دون أن يُعد ذلك نقصًا في مقام النبي صلى الله عليه وسلم.
- جواز وقوع الكافر والد الخصوص في العداوة والخصومة، كما في ردّ أبي جندل، ولا يمنع ذلك من المعاملة وفق العقد.

فوائد أخلاقية

- التواضع النبوي في أبهى صوره، حيث قبل النبي صلى الله عليه وسلم محو وصف "رسول الله" من الصحيفة من أجل مصلحة عليا.
- رفق النبي صلى الله عليه وسلم في التفاوض، وحلمه أمام تصلب سهيل، دليل على أن الحكمة تغني عن الصراخ والعنف.
- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الابتلاءات الظاهرة، دليل على أن الثبات عند المواقف العصيبة خلق النبلاء.
- وفاء عليّ رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ورفضه محو وصفه الشريف، يدل على عمق الحب والولاء لأهل الحق.
- ما فعله عمر رضي الله عنه يدل على غَيْرة المؤمن الصادق، وحرصه على العزة لدين الله، ولكن حين يعلم الحق يتراجع ويُسلّم.
- دموع الصحابة لم تمنعهم من الانقياد لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من تمام الأخلاق والانضباط.

فوائد دعوية وتربوية

- الداعية الحق لا يبحث عن الانتصار اللحظي، وإنما عن العواقب التي تُثمر للإسلام نصرًا وبقاءً.
- في الحادثة درس عظيم للدعاة أن يفرّقوا بين التنازل عن الشكل الظاهري حين لا يضرّ بالدين، وبين التنازل عن العقيدة أو التوحيد.
- التربية النبوية تظهر في اللحظة التي أمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بردّ أبي جندل رغم بكائه، فذلك درس في الانقياد للمصلحة الكبرى.
- في القصة تأصيل لتربية النفس على الإيثار والتسليم لله، لا للانفعال والعاطفة المجردة.

فوائد قيادية وسياسية

- القائد الناجح يوازن بين المبادئ والمصالح، فلا يتنازل عن الأولى، ولا يفرّط بالثانية.
- القائد لا ينبغي أن ينقاد لثورات اللحظة بل يُحكم نظره في المستقبل البعيد، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الصلح.
- في القصة نموذج للتفاوض النبوي الذكي، حيث استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يُمرر المصلحة دون أن يُفجِّر الخلاف.
- استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يربّي الأمة على الصبر والمصلحة، وهي من أعقد المهام القيادية.

ما يخالف الواقع

- انتشار العقلية الانفعالية التي ترفض التنازل حتى فيما لا يضر بالدين، وتُصوّر الثبات بأنه التصعيد لا الحكمة.
- تصرف كثير من المنتسبين للدعوة اليوم بردود أفعال عاطفية تفتقد التأصيل الشرعي والبصيرة بالمآلات.
- ضعف يقين بعض الناس بحكمة الشريعة، فيعترضون على التسليم لنصوص الشرع عند تعارضها مع العاطفة.
- غياب القيادة التي تحكم الموقف بالرؤية المتزنة بدل المواقف الارتجالية أو المهاترات الإعلامية.
- تفشي ثقافة المطالبة بالحقوق ولو أدى ذلك إلى خراب أو فتنة، دون مراعاة للمصلحة العامة أو الميزان الشرعي.

الفقرة السادسة: لحظات العتاب والتربية والفتح القريب

ما إن انفضّ مجلس الصلح، وانطوت صحائف بنوده، حتى خيّم على قلوب الصحابة جوّ من الأسى والحيرة، وأحاطت بهم مشاعر تختلط فيها الغصة بالعبرة، والحكمة بالعاطفة الجياشة.

لقد جاءوا محرمين، قاصدين بيت الله الحرام، متقلدين سيوفهم لا للحرب ولكن تعظيمًا للبيت العتيق، فكيف يُردّون عنه وهم على مشارفه؟!

كيف يُقيّد أبو جندل ويُعاد إلى سجّانه، وهو يصرخ مستغيثًا؟!

كيف يُملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمحو اسمه الشريف "محمد رسول الله" ليُكتب بدلًا منه "محمد بن عبد الله"، والكل يعلم أنه رسول الله حقًا وصدقًا؟!

كانت لحظة قاسية على أهل الإيمان، لا يُنكرون طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن النفوس أبت أن تصمت، فما رأت في الظاهر إلا ما يُشبه التنازل والإجحاف، وظنت أن في ذلك دنية في الدين.

في ذلك الموقف الذي تزلزلت فيه الأفئدة، وقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قلبه يضجّ بحب الدين، ونفسه تغلي بالغيرة على الحق، فتقدّم إلى النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبًا إياه بلهفة المحب، وصدق الناصح:

ـ "يا رسول الله، ألسنا على الحق؟"قال صلى الله عليه وسلم" :بلى"قال" :أليسوا على الباطل؟"
قال صلى الله عليه وسلم" :بلى"قال" :فلم نعطي الدنية في ديننا؟"
فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات يقين راسخ، تنبع من نور النبوة، وحكمة التسليم :إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري) "أخرجه البخاري ومسلم

لم يكتفِ عمر، بل مضى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، مستفتيًا، فقال له الصدّيق وقد شرب من معين الثقة برسول الله صلى الله عليه وسلم" :إنه رسول الله، وليس يعصي ربّه، وهو ناصره. فالزم غرزه، فإنه على الحق) "البخاري

هدأت نفس عمر، وسكنت قلوب الصحابة، وإن بقي في الصدور شيء من وجيب الرجاء أن يأتي من عند الله ما يشرح الصدر، ويؤكّد حسن المسير... ولم يلبث ذلك الرجاء أن تحوّل إلى يقين عظيم، حين تنزّلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم آيات سورة الفتح، فأشرق وجهه بالنور، وغمره الفرح، وقال لأصحابه:

"لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس) "أخرجه الإمام أحمد والحاكم

ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآيات الباهرة:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الفتح: ١–٢[

فأدرك الصحابة آنذاك أن ما ظنوه تراجعًا، إنما هو تقدم من حيث لا يشعرون، وأن ما حسبوه خسارة، هو فتح في طيّته نصر أعظم. كان صلح الحديبية ـ في ميزان البشر ـ حزنًا وثقلاً، لكنه في ميزان السماء فتحًا مبينًا، فتحًا للعقول والقلوب، فتحًا يُمهد لغزوة خيبر، ويفتح الأبواب لوفود الإسلام القادمة من أقاصي الجزيرة، ويفرض على قريش احترامًا جديدًا لقوة المسلمين.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يخطو إلا بنور من الله، وكان طريق الفتح ـ كما علمهم ـ لا يُقاس بما يبدو في الساعات الأولى، بل بما يُثمر في الأمد الطويل.

وها هم الصحابة يعودون إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة، لكنهم عادوا والقرآن يصفهم بأنهم الفائزون، والمفلحون، والمبايعون تحت الشجرة الذين رضي الله عنهم، وفتح لهم، ورفع ذكرهم، وسيسجل التاريخ أن تلك اللحظات التي خضعت فيها النفوس لحكمة الوحي، كانت من أعظم أبواب النصر والتمكين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- وهنا نعلم أن الإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا يُقاس بالعواطف أو المشاعر، بل بتصديق الوحي واتباعه ولو خالف الظاهر.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على التسليم لأمر ربه رغم شدة الابتلاء دليل على يقينه الجازم بأن النصر من عند الله لا من ظاهر القوة أو العُدة.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري" أصل في التوكل الحق، واليقين بوعد الله، واعتقاد أن النصر لا يكون إلا من عنده.

- في تسليم الصحابة لأمر الله بعد نزول الآيات دلالة على أن القلب المؤمن يتقلب بين الرجاء والتسليم حتى يطمئن بالوحي.

- عقيدة أهل السنة تقوم على أن ما قضاه الله فهو الخير، وأن الفتح قد يكون خفيًا في أوله، ظاهرًا في عاقبته.
- تصديق الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول سورة الفتح يبيّن أن الإيمان يزداد وينقص، وأن اليقين يعلو بآيات الله وأحكامه.
- من معاني الفتح في العقيدة: أن الله يفتح على عباده من أبواب الرضا والهدى والتمكين ما لا يدركونه بعقولهم، إذا صدقوا في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية

- لا يجوز للمسلم الاعتراض على أحكام الشرع بعقله أو عاطفته، وإنما عليه التسليم لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- ما دام النبي صلى الله عليه وسلم قال وفعل، فالحق فيما قاله وفعله، ولا يُترك فعله باجتهاد غيره، ولو بدا فيه ما يُخالف العرف أو الظاهر.
- جواز المشاورة في الأمور، كما فعل عمر مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، لكن لا يكون الاعتراض إن ثبت أن الأمر وحي من عند الله.
- صلح الحديبية مثال على أن السياسة الشرعية قد تقتضي التنازل عن بعض الظاهر لمصلحة الدين العليا، ولا يُعد ذلك ضعفًا.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولست أعصيه" فيه تأصيل لوجوب عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ، والاقتداء بأوامره.
- الفقه في معاملة العدو لا يقتصر على السيف، بل قد يشمل الحكمة والصلح الذي يؤدي إلى تمكين أعظم، كما وقع في الحديبية.

فوائد أخلاقية

- الفاروق عمر رضي الله عنه ضرب مثالًا في الغيرة الصادقة والحرص على الدين، لكنه حين عَلِمَ أن الأمر وحي، انقاد ولم يُصرّ، وهذا من كمال الخُلُق.
- صدق المشاعر لا يُبرّر مخالفة الوحي، والخلق الراسخ يظهر عند الانقياد لأمر الله، لا عند اتباع الهوى.
- الحكمة تقتضي الصبر والتأني في مواضع الغضب، والاعتبار بمآلات الأمور لا بظواهرها.
- تعليم الصحابة من خلال المواقف العملية أعمق أثرًا من الخطب المجردة، وقد رباهم النبي صلى الله عليه وسلم على التسليم والثقة لا الجدال والاعتراض.
- الخلق النبوي في الحلم والصبر على اعتراض عمر رضي الله عنه يبيّن سَعة صدر القائد الحكيم، وحرصه على تربية الأتباع دون كسرهم.

فوائد تربوية

- التربية النبوية تسير بالنفوس من الانفعال إلى التسليم، ومن الحيرة إلى اليقين، ومن الجزع إلى الفتح والرضا.

- في إعادة عمر رضي الله عنه السؤال لأبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن التربية تحتاج إلى تأكيد، وأن الصحبة الصالحة تعين على الثبات.
- التأخر في ظهور النتائج لا يعني الخطأ في الطريق، والتربية الإيمانية تُعلّم المسلم أن ينظر إلى الثمرة لا إلى لحظة الزرع.
- من أعظم ثمار التربية أن يتحوّل الموقف المؤلم إلى لحظة مجد، يُستخرج منها الدروس، كما فعل الصحابة حين نزلت سورة الفتح.

فوائد دعوية

- القائد الداعية ينبغي أن يَصبر على تسرّع الأتباع، ويُبصرهم بحقائق الأمور دون قسوة أو تجهيل.
- الداعية إلى الله يُعلّم الناس بالحال والموقف كما يعلّمهم بالقول، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج إلى كثير كلام ليفهموا عِظم الفتح.
- الحكمة في الدعوة تقتضي النظر إلى عواقب الأمور، وليس الانفعال بردود الأفعال الظاهرة.
- ليس من منهج الدعوة الحق أن يُستثار المسلم لكل استفزاز، بل أن يتأنى ويتّبع الدليل والشرع والغاية.

ما يخالف الواقع

- كثير من الناس اليوم لا يُفرّقون بين الظاهر والحقيقة، فيحكمون على الأحداث من منطلق العاطفة، دون نظر في حكم الشرع أو مآلات الأمور.
- الاعتراض على العلماء والدعاة لمجرد أن أقوالهم لم توافق هوى الناس صار شائعًا، دون التفكر في أنهم قد بنوا أقوالهم على علم وتوجيه شرعي.
- صار البعض يُنكر التسليم لشرع الله إن لم يوافق منطقه، ويظن أن كل ما لا يفهمه فهو مجحف، كما قال الصحابة في بداية الموقف "أرأيت ما في هذا الصلح؟"
- أصبح الاستعجال في النتائج، والحكم على الدعوات من خلال أثرها اللحظي، سببًا في نكوص كثير من الناس عن طريق الحق.
- ضعف الصبر على الابتلاء، والظن بأن التراجع الظاهري هزيمة، مما يخالف تمامًا تربية النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة في هذا الموقف.

الفقرة السابعة: طاعة مؤجَّلة... ولكنها طاعة!

ما إن طويت صحيفة الصلح، وبدأ المسلمون يعدّون للرجوع دون دخول مكة، حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه، وقد اكتملت شعائر العمرة في نفوسهم دون أن تُستكمل على الأرض، فقال بصوت الآمر الرحيم:

"قوموا فانحروا، ثم احلقوا)"أخرجه البخاري ومسلم

لكن المفاجأة أن أحدًا لم يتحرك !قالها مرة ثانية، فلم يُجبه أحد .ثم ثالثة... ولا من مجيب.

لم تكن معصية، ولم يكن فيها تردّد عن الطاعة، وإنما كانت دهشة غمرت القلوب، وهم يرون أحلام العمرة تتبدّد، ومشهد الرجوع دون دخول الحرم يخيّم كالغصة في الحناجر. كانت لحظة ثقل نفسي، ألجمت الألسنة، وأعجزت الجوارح، حتى غلب الصمت على الموقف، وكأن الأوامر لم تُسمع.

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبًا إلى خيمته، وقد اعتراه ما يعتري القائد حين لا يرى من جنوده استجابةً، مع أنه ما عهد منهم إلا الطاعة المبصرة، والثقة المطلقة.
فقال لأم سلمة رضي الله عنها، يشكو إليها ما لقي من الناس.

وهنا تبرز حكمة أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ورضيعة الفقه والبصيرة. فما كانت مجرد زوج، بل كانت عونًا في الملمات، وعقلًا راجحًا في أوقات الحيرة، فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم:

"يا نبي الله، أتحبّ ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلّم منهم أحدًا كلمة، حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالقك فيحلقك) ".رواه أحمد وابن حبان

وكانت الكلمة في موضعها، والرأي من صاحبة حكمة ونظر. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أشارت، ولم يُكلم أحدًا، فنحر بدنه، ثم دعا حالقه فحلق شعره.

فلما رأى الصحابة ما فعله نبيهم، تيقّنوا أن الأمر قد تمّ، وأنه لا رجعة فيه، ولا تراجع عن الصلح، ولا أمل في أداء العمرة هذا العام. فهبّوا مسرعين، وكأنهم في سباق إلى الطاعة، ينحرون ويحلقون، حتى قال الراوي:

"حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا من الغم) "رواه البخاري

لقد كانت طاعة مؤجلة، ولكنها في حقيقتها طاعة!
فلم تكن معارضة، بل كانت دهشة الموقف، وثقل الانكسار، وشدة التعلق بأمل العمرة.

وهكذا علمهم النبي صلى الله عليه وسلم، بصبره وفعله، أن القائد لا يصرّ على تكرار الأمر حين لا يُستجاب، بل يقدّم القدوة، فيتبعوه، ويجسد الطاعة بالفعل، فتتدفّق النفوس من بعده نحو الامتثال.

وفي هذا الدرس التربوي العظيم: أن الطاعة قد تتأخر عن التنفيذ حين يثقَل القلب أو ينكسر الرجاء، لكنها لا تموت في نفوس الصادقين، فإذا أُذِّن لها بالقدوة، أزهرت ولو بعد صمت، وانقادت ولو بعد تأخر..

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الطاعة المطلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي جزء من الإيمان، وإن تأخرت الاستجابة فإنها لا تُعد معارضة ما دام الأصل هو التسليم والاتباع.

- رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وكل أمر منه هو وحي من الله، فكان خروجه ونحره دون أن يُكلم أحدًا تطبيقًا لهدي النبوة المبني على الحكمة الإلهية.

- ثبات الإيمان لا يُقاس بردود الفعل العاجلة، وإنما بحقيقة التعلق بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولو غلبت النفس لحظةً، فإنها لا تنقض أصل الإيمان.

- ثقة النبي صلى الله عليه وسلم برأيه المبني على الوحي، وعدم توقفه عند ردود فعل الصحابة، يدل على أن الحق لا يرتبط بكثرة الاستجابة بل بثبوته من مصدره.

فوائد فقهية

- فيه مشروعية تقليد الهدي والحلق لمن تحلل من نسك دون إتمامه بسبب مانع شرعي.

- تدل الحادثة على أن الطاعة لا يلزم أن تكون بالقول فقط، بل بالفعل أيضًا، وأن تقديم القائد الفعل أولًا قد يكون في بعض الحالات أنفع من تكرار الأمر.

- يجوز تأخير تنفيذ الأمر الظاهر إذا لم يكن عن معارضة، بل بسبب ظروف نفسية أو غلبة شعور، وهو ما لا يقدح في الامتثال الشرعي إذا زال العارض.

- في الحديث جواز أن يُنصح القائد أو العالم من أهله وقرابته ممن عرف بالحكمة والبصيرة، وقد يُؤخذ برأي المرأة إذا كان صوابًا.

فوائد أخلاقية

- من أخلاق القيادة النبوية الرحمة والتفهم، فلم يعنّف النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رغم عدم استجابتهم المباشرة، بل اعتزل، واحتسب، وقدّم الفعل الصامت.

- حكمة أم سلمة رضي الله عنها تظهر فضل النساء العالمات، وأن البصيرة لا تُحصر في الرجال، بل للمرأة دور في النصح والتدبير حين تمتلك العلم والرزانة.

- في الموقف تجلٍّ لصبر النبي صلى الله عليه وسلم وتأنّيه مع من يحبونه، فإن القلوب المخلصة قد تتأخر استجابتها لعاطفة أو كرب، لا لعناد أو مخالفة.

- الصحابة رضي الله عنهم لم ينقلبوا عند الصدمة، بل تأثروا ثم رجعوا للامتثال فور اتضاح الموقف، وهذا خلق الجيل التقي الذي ينهض بعد العثرة ولا يتمادى فيها.

فوائد تربوية

- القدوة العملية من أعظم وسائل التربية، فإن الأفعال أبلغ من الأوامر، وقد يُحيي الفعلُ الصادق طاعاتٍ نامت في النفوس.

- التربية على الصبر في الأزمات وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام من أهم صفات القائد الناجح، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في هذه اللحظة الصعبة.

- من أساليب إصلاح النفوس أن يُترك المجال لها لتُراجع نفسها دون ضغط، فحين زال أثر الصدمة تحركت الهمم واشتعلت نار الطاعة من جديد.

ما يخالف الواقع

- كثير من الناس اليوم إذا تأخر الأمر عن مراده، أو لم تتحقق رغباته، انقلب على عقبيه، وترك الطاعة، وكأن الإيمان مشروط بالمكاسب والمظاهر.

- قلة من الناس اليوم يقبلون على الطاعة دون تشجيع مباشر أو حافز دنيوي، بينما الصحابة انطلقوا حين رأوا القدوة، أما اليوم فقلّ من يتحرك دون مطالبة مستمرة.

- انتشار من يعارضون القرارات الشرعية أو التربوية عند أول مشهد يخالف هواهم، دون صبر أو تفكر في العواقب، وهو خلاف ما فعله الصحابة الذين تراجعوا بهدوء بمجرد وضوح الرؤية.

- الانفعال ورد الفعل المتهور أصبحا عند بعض الناس دليلاً على الإخلاص، مع أن الدرس النبوي هنا يُظهر أن الحكمة والصمت وضبط النفس أصدق تعبير عن الصدق في أوقات الفتنة.

- ظهر في هذا الموقف الفرق بين المنهج النبوي القائم على الحكمة والتدرج، وبين مناهج الخوارج الذين لا يعرفون إلا المواجهة والتكفير عند أول خلاف في الظاهر.

- الخوارج قد يجعلون من تأخر الطاعة أو عدم وضوح الموقف حجة على الكفر أو الخروج، بينما في منهج النبي صلى الله عليه وسلم لا يُحكم على القلب من لحظة اضطراب ما دام الأصل هو الطاعة والانقياد.

الفقرة الثامنة: صلح الحديبية.. بوابة الفتح الحقيقي للدعوة

ما إن خفت حدة العاصفة، وعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، حتى بدأت تباشير الخير تتنزل، كما يتنزل الغيث على أرضٍ طال عطشها، فتهتز وتربو وتخرج من كل زوجٍ بهيج.

كان الصلح ـ في ظاهره ـ تنازلًا، لكنه في باطنه كان فتحًا ربّانيًا، كفّ فيه القتال، وسُمح فيه بالتواصل، وانطلقت فيه الكلمة إلى الآذان والقلوب دون حصار ولا اضطراب.

عشر سنوات من الأمان بين المسلمين وقريش... فتُركت السيوف في أغمادها، وسكنت القلوب من توجّس العدو، فانفتح الطريق للدعوة، بعد أن كانت مغلقة بالحرب والخوف والترقب.

لم يعد الصحابة مشتّتين بين الغزو والحراسة، ولا منشغلين بصد العدوان؛ بل تفرّغوا لحمل النور، ونشر الرسالة، فبلغ الإسلام ما لم يبلغه في كل سنوات الجهاد مجتمعة.

ورأى الناس في الإسلام وجهه الحقيقي :دينًا لا يفرض نفسه بالسيف، بل يُقدّم نفسه بالحكمة والموعظة الحسنة. ورأوا في نبي الرحمة خُلقًا يأسر القلوب، قبل أن تراه في ساحات النزال.

ولم تكد تمضي الشهور، حتى وقعت المفاجآت التي لم تخطر على بال أحد:
دخل في الإسلام **خالد بن الوليد** سيف قريش، و**عمرو بن العاص** داهية العرب، و**عثمان بن طلحة** حاجب الكعبة، الذين كان كل واحدٍ منهم جدارًا منيعًا في وجه الإسلام.

فإذا بهم، وقد لامست قلوبهم الحقيقة، يركبون الطريق إلى المدينة، لا محاربين، بل خاشعين... يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ليصبحوا من بعد ذلك أعمدة النصر، وأبطال الفتح، وسيوفًا في يد الإسلام، بعدما كانوا سيوفًا عليه!

ذاك هو الفتح الحقيقي:
فتحٌ لا تراق فيه الدماء، بل تفيض فيه الهداية .فتحٌ لا يكسر الأجساد، بل يفتح العقول والقلوب على نور الله.

وهكذا كانت "الحديبية" مفتاحًا للفتح الأكبر بعد عامين، حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة، لا على رأس جيشٍ متعطشٍ للثأر، بل تحت راية الرحمة، ولسان الصفح، وقلب العفو، يقول لأعدائه بالأمس:

"اذهبوا فأنتم الطلقاء"

لقد كان هذا هو الإسلام في أعظم صوره، وهكذا كانت الحكمة والرفق أعظم سلاح في يد الدعوة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن كل ما يقدّره الله فيه خير، فالمؤمن قد يرى في ظاهر الأحداث تنازلًا أو تراجعًا، بينما يكون في باطنها نصر وتمكين، كما كان صلح الحديبية فتحًا ربانيًا.
- من أصول الاعتقاد أن الهداية من الله وحده، فمن كان سيفًا على الإسلام قد يصير بسابق علم الله وقدره سيفًا له، إذا شرح الله صدره للإيمان.
- تصديق وعد الله بأن العاقبة للمتقين، وإن تأخر النصر المادي، فإن التمكين الحقيقي يبدأ بفتح القلوب لا بكسر السيوف.
- الإيمان بأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم مرسل بالحق، وأن دعوته قائمة على الرحمة والهداية، لا على الإكراه والعنف.
- بيان فضل النبوة والاصطفاء، إذ لم يكن ما تحقق من نصر وفتح نتيجة دهاء بشري، بل بحكمة ربانية أيّد بها نبيه صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية

- جواز عقد الصلح مع العدو إن كان في ذلك مصلحة للمسلمين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية، ولو تضمّن ذلك ترك بعض الحقوق الظاهرة.
- من مقاصد الشريعة كفّ القتال إذا تحققت المصلحة الكبرى للدعوة، فليس القتال هدفًا، بل وسيلة إذا اضطر إليها الداعي.
- الحكمة تقتضي النظر في المآلات، فما قد يُظن ضعفًا في موقفٍ ما، قد يثمر نصرًا أعظم في مآل الأيام، وهو من فقه الموازنات المشروع.

- جواز تأجيل بعض الأعمال الجهادية إذا اقتضت الحاجة نشر الدعوة، فالدعوة أولى وأسبق من السيف في منهج الإسلام.

فوائد أخلاقية

- الرفق والحلم والصفح من أعظم الأخلاق التي بها تُفتح القلوب، وقد غلبت هذه الصفات ساحة الحرب وأسلحة القتال.
- الخلق الحسن أبلغ في التأثير من السطوة، وقد كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم سببًا في دخول كبار المعادين في الإسلام.
- العفو عند المقدرة هو من مكارم الأخلاق، وقد مارسه النبي صلى الله عليه وسلم في أبهى صوره بقوله لأعدائه: "اذهبوا فأنتم الطلقاء."
- التواضع في الانتصار من أعظم صفات القيادة النبوية، فلم يُظهر النبي صلى الله عليه وسلم شماتة ولا غرورًا، بل دخل مكة خاشعًا متواضعًا.

فوائد دعوية

- من أعظم أبواب الدعوة فتح القلوب قبل فتح البلاد، ولهذا فإن السكينة والأمان كانت مدخلًا لهداية كثير من الناس.
- الدعوة لا تحتاج دومًا إلى صوت السلاح، بل تحتاج إلى وضوح الحق وحكمة العرض، ليُقبل الناس على الإسلام عن بصيرة.
- الداعية الصادق قد لا يرى ثمرة دعوته في الحال، ولكن الله يُظهر بركتها مع الأيام، كما حصل بدخول عظماء قريش في الإسلام بعد الصلح.
- التفرغ للدعوة بعد وقف القتال كان أنجح وسيلة لنشر الإسلام، ما يدل على أن الاستقرار سبيل من سبل النجاح الدعوي.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يظنون أن الإسلام لا يُنتصر إلا بالسيف والعنف، ويجهلون أن النبي صلى الله عليه وسلم قدّم الدعوة بالحكمة والعفو والصفح، فحقق أعظم الانتصارات القلبية.
- نرى في واقعنا من يستهينون بخلق العفو والرفق، ويعدونه ضعفًا، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أظهره في قمة النصر، وقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء."
- انشغال بعض المتدينين بالدعوة إلى العنف والعداوة، بدلًا من التفرغ لحمل نور الوحي والرحمة إلى الناس.
- قلة من الدعاة اليوم من يتفرغ لنشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويفضل كثيرون المواجهة والصدام حتى مع من أمِنهم الله عليهم.
- ضعف الإيمان بالنتائج غير المباشرة، وكأن الناس لا يقيمون للدعوة وزنا إلا إذا كانت نتائجها مادية سريعة.

♦ من ضلالات الخوارج أنهم لا يرون للإسلام قوة إلا في السيف، ويُكفرون مخالفيهم، ويُقصون فقه الموازنات والرفق، بينما دلّت الحديبية على أن الفتح الحقيقي هو ما يكون بالحكمة والتأني، لا بالعجلة وسفك الدماء.

الفقرة التاسعة: حِكمة فوق السطور... وبصيرة تعلو البنود

كان المشهد يوم الحديبية كلوحةٍ باهتةٍ في عيون الكثيرين، يرون فيها انكسارًا لا يُحتمل، وتنازلاتٍ لا تُطاق... بنودٌ قاسية تُدَوَّن أمام أعينهم، وسيوفٌ تُغمد وقد كانوا على مقربةٍ من مكة، تملؤهم أشواق الطواف حول البيت العتيق.

لكن وراء الورق... كانت الحِكمة الإلهية تُرَتِّب فتحًا لا تدركه العيون العجلى، ولا القلوب التي اعتادت رؤية النصر في برق السيوف، لا في مداد الأقلام.

كل بندٍ كُتِب يومها، كان في ميزان الله نصرًا مبينًا، وإن خالف ظنه ظنون الصحابة أنفسهم.
وقد قال سبحانه في كتابه بعد الصلح مباشرةً: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [الفتح:١]

فأي فتح هذا الذي ينزل بعد صلحٍ ظاهره الهزيمة؟ إنه فتح البصيرة لا فتح البندقية... فتح الدعوة لا فتح السيوف.

وها هو البندُ الذي استثقله المؤمنون، حين نُصَّ فيه أن **"من جاء محمدًا من قريش يُرَدُّ إليهم، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يُرَدُّ إلى المسلمين** — "هذا البند الذي جرَح القلوب، وترك غصصًا في الحناجر، انقلب في أشهرٍ معدودة إلى خنجرٍ في خاصرة قريش، وسيفٍ مسلولٍ على تجارتها.

خرج **أبو بصير عتبة بن أسيد** بعد أن رُدّ قسرًا إلى الكافرين، ولكنه ما لبث أن فرّ، وانضم إليه آخرون من المسلمين المضطهدين، حتى اجتمعوا على سيف البحر، فكوّنوا **سَرِيّةً مستقلة** من المطاردين، يقطعون على قريش قوافلها، ويهددون أمنها التجاري، فاضطربت مكة، وارتعدت فرائص سادتها، وجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتوسلون إلغاء هذا البند، بعدما كانوا يرونه عنوان نصرهم!

وقد روى ابن إسحاق في "السيرة" أن عددهم لما بلغ نحو سبعين، ضجّت قريش، وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم:
"والله ما نأمن منهم أن يفتنوا علينا من بين أظهرنا، فأرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن".
فبصبر النبي صلى الله عليه وسلم وطول نظره، وقعوا في شرطهم، وأسقطوا ما كانوا به يتشددون.

وكذلك البند الذي منعهم من دخول مكة هذا العام، تحوّل من حرمانٍ موجع إلى تمهيدٍ مشرق، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعد عام في **"عمرة القضاء"**، مهيبًا في مشيته، مرفوع الرأس، تحفُّ به هيبةُ الرسالة، لا يحمل سيفًا، وإنما يحمل عهدًا، دخل معززًا مكرمًا، يطوف بالبيت الذي أُخرج منه من قبل.

ثم ما لبثت الهدنة نفسها ـ التي حسبها بعض الصحابة ذلًّا ـ أن كانت **نقطة الانطلاق الكبرى للإسلام؛** إذ ما إن سكت صوت السيوف، حتى انطلقت ألسنة الدعاة، وانفسحت السبل أمام الكلمة الطيبة، فدخل في الإسلام من العرب في عامين من الهدنة، أكثر من الذين أسلموا في العشرين سنة السابقة لها!
وقد قال الزهري" :**فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حين التقى الناس، فلما أُمن الناس بعضهم من بعض، تكلّموا وتلاقوا، فلم يُكَلَّم أحد في الإسلام يعقله إلا دخل فيه".**

وهكذا يظهر للقلوب الواعية أن **الله لا ينصر دينه بالحماسة المجردة، وإنما يرفعه بالحكمة، ويُعليه بالاتباع،** ويُجري نصره من حيث لا تحتسب الأوهام ولا تحسب العقول.

}وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] {البقرة: ٢١٦]

وقال سبحانه عن صلح الحديبية في سورة الفتح :**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ] {**الفتح: ٤]

فما أعظم هذه المدرسة النبوية التي تعلمنا كيف يكون النصر بصبرٍ وحكمةٍ وصدق اتباع، لا بعاطفةٍ وحدها، ولا بحرارة اللحظة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أن الله سبحانه يُجري النصر بأسباب قد لا تبدو في ظاهرها نصراً، بل قد تظهر كتنازل أو ضعف، كما أنزل الله قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} عقب صلحٍ ظاهره الهزيمة، مما يدل على أن الفتح الحقيقي هو ما وافق حكم الله لا حكم العيون البشرية.

- أن الله سبحانه يُنزل السكينة في القلوب عند مواضع الشدّة والمحن، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}، وفي هذا تثبيت للمؤمن عند تقلبات الأحوال وشدة البلاء.

- أن الإيمان يزيد وينقص، كما دل عليه قوله تعالى: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}، وهذا أصل عقدي عظيم خالف فيه أهل الإرجاء، ومنه يظهر أثر السكينة الربانية في ترسيخ الإيمان وزيادته لا بمجرد المعلومات بل بثبات القلب عند الأمر الإلهي.

- أن النصر والتوفيق بيد الله وحده، لا بحماسة البشر ولا بتخطيطهم المجرد، فإن النصر قد يأتي من حيث لا تحتسب العقول، وهذا يعلّم العبد التوكل والركون إلى وعد الله لا إلى ظنّه ورأيه.

- أن من صفات الله الحكمة البالغة، وأن أفعاله وتدبيره لا يُحيط بها عقل البشر، ولهذا قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وفي هذا إبطال لقياس العقل على النص، وردّ على من يجعل رأيه مقدمًا على شرع الله كأهل الاعتزال.

فوائد فقهية

- أن المعاهدات في الشريعة ليست دليل ضعف، بل قد تكون من تمام القوة، إذا كان في ذلك مصلحة راجحة للمسلمين، كما وقع في صلح الحديبية.

- أن من فقه النبي صلى الله عليه وسلم قبوله لشروط فيها مشقة ظاهرًا على المسلمين، لكنه علم أن المآل فيه خير للإسلام، وهذا أصل في فقه الموازنات والمصالح والمفاسد، بشرط أن يُبنى على علم وحكمة.

- جواز اشتراط بنود ظاهرها الجور على المسلمين، إذا كانت الضرورة تقتضي ذلك، كما شرطت قريش ردّ المسلم إليهم دون العكس، ومع هذا قبله النبي صلى الله عليه وسلم لحكمة راجحة.

- أن الحاكم أو ولي الأمر قد يتخذ قرارات استراتيجية لا يُدرك حكمتها عامة الناس، وهذا لا يُقدح في صدق نيته، بل يجب الصبر والامتثال حتى تتضح الحكمة، كما صبر الصحابة رغم ما وقع في نفوسهم من ألم.

- أن الوفاء بالعهد واجب حتى مع الكفار، ما لم ينقضوا العهد هم، وهذا من ثوابت الشريعة في باب الجهاد والسياسة الشرعية، ولهذا بقي النبي صلى الله عليه وسلم على بنود الحديبية حتى نقضت قريش العهد.

فوائد أخلاقية

- أن الصبر على مرارات اللحظة ثمرته فرجٌ عظيم، وفتحٌ مبين، وهذا من أعظم دروس الحديبية: أن اللحظة المؤلمة ليست نهاية الطريق، بل مفتاح الانتصار.

- أن في الحِلم وطول النفس وترك الغضب مواضع نصر لا تدركها الحماسة العاجلة، كما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على شروط قريش رغم قسوتها.

- أن العفو عند المقدرة من أخلاق الأنبياء، فقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعد عامين، منتصرًا، لكنه قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فكان عفوه سببًا في دخول قلوب من عاداه.

- أن القدوة الفعلية في المواقف العصيبة هي أعظم وسيلة دعوية، فقد رأى الناس حِلم النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه في تعامله، فدخلوا في الإسلام فوجًا بعد فوج.

- أن الحكمة في التصرف، وإن خالفت الحماسة، هي طريق النصر والبقاء، وقد ثبت ذلك في صلح الحديبية، حيث ربحت الدعوة مع أن ظاهر الأمر كان ضدها.

فوائد دعوية وتربوية

- أن انفتاح الأجواء للدعوة أعظم تأثيرًا من السيوف، فحين توقفت الحرب، دخل في الإسلام من العرب أكثر ممن أسلموا خلال عشرين عامًا، مما يبين أثر الكلمة إذا أُطلقت في بيئة آمنة.

- أن تقديم الدين بالحكمة والموعظة الحسنة أبلغ أثرًا من عرضه في ميادين الصدام، ولهذا رأى الناس الإسلام وجهًا آخر لما سكن القتال، فآمن من كان من قبل من أشد أعدائه.

- أن حسن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل يجتمعان، فالنبي صلى الله عليه وسلم قبل الشروط، لكنه لم يُهمل أثرها، بل صبر وتابع الدعوة حتى جاءت النتائج من حيث لم يحتسب الناس.

- أن بناء الدعوة يحتاج نفسًا طويلًا، وتقديرًا لعواقب الأمور، وليس مجرد ردود أفعال وقتية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الصلح.

- أن الدعوة لا تقوم على الانفعال، بل على الثبات، وعمق النظر، وحسن الظن بوعد الله، وهذه دروس متكررة في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع مواقف الحديبية.

ما يخالف الواقع

- الغفلة عن الحكمة الربانية في مجريات الأمور، واعتياد الحكم على الأمور من ظواهرها دون بصيرة، وقد باتت عامة الأمة اليوم ترى النصر فقط في الانتصار العسكري، وتغفل عن نصر الكلمة والهداية.

- التسرع في رفض أي مبادرة سلمية، ولو كانت بشروط ظاهرة الجور، دون تأمل في مآلاتها ومصالحها، ولو فعل المسلمون كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، لوجدوا البركة في النتائج.

- تسفيه العلماء والدعاة إذا اتخذوا مواقف تُخالف العاطفة العامة، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية، حيث كره الصحابة الشروط، لكن الله أثنى على الموقف.

- تصور بعض الناس أن الدعوة لا تقوم إلا بالعنف، مع أن هذا من الجهل بما ثبت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من أن الهداية الكبرى جاءت حين سكن القتال، وظهر خُلق الإسلام.

- غياب خلق العفو والصفح عند النصر، وقد أصبح كثير من المسلمين لا يذكرون إلا الثأر والانتصار، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في لحظة نصره: "اذهبوا فأنتم الطلقاء."

- تعظيم الحماسة المجردة على حساب الحكمة والاتباع، وهذا من أسباب انحراف بعض الدعوات الحديثة التي لم تزن الأمور بميزان الشرع، بل اتبعت العاطفة.

- من ضلال المرجئة إنكارهم زيادة الإيمان ونقصانه، في حين أثبت الله ذلك في قوله: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}، فالإيمان عند أهل السنة قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

- من ضلال المعتزلة وأهل الرأي تقديمهم للعقل على النقل، وعدم إيمانهم بالحكمة الإلهية إذا خالفت قياساتهم، بينما أهل السنة يوقنون أن الله يعلم ونحن لا نعلم.

- من ضلال الخوارج أنهم يرون في التنازل أو الصلح خيانة وضعفًا، ويكفرون من فعل ذلك، بينما ثبت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلح كان فتحًا مبينًا، وأن العبرة بالمآلات لا بالمظاهر

الفقرة العاشرة: رجوع الفاتحين بلا قتال... مشهد النصر الخفي

عاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من الحديبية، لا كما يعود المنهزمون منكسرين، ولا كما يرجع المتفاوضون بأيدٍ خالية من المكاسب، بل عاد كما يعود الفاتح المنتصر، وإن لم تُسفك في معركته قطرة دم، ولم يُشهَر فيها سيف. عاد وهو يحمل بين جنبيه بشرى النصر الأعظم، الذي لم تُدرِك ملامحه الأبصار بعد، ولكنه في ميزان الوحي أعظم فتح وأجلّ نصر.

لقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة معه، يحملون في قلوبهم غُصص الألم من شروطٍ رأوها مجحفة، وبنودٍ أثقلت صدورهم بالحزن، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في جزع: "ألسنا على الحق وهم على الباطل؟!"، ولكن الحكمة النبوية كانت ترى أبعد من حدود اللحظة، وتبصر من وراء الغيب ما لا تراه الأبصار.

وما إن خطّت أقدام الركب أرض المدينة، حتى انشقّ نور الوحي في ليل المدينة، وجاء جبريل عليه السلام بخبرٍ من السماء، يبدّد الحزن، ويزيل الشك، ويرفع الحجاب عن سرّ هذا الصلح، فإذا بالرب الجليل يقول في مطلع سورة من أعظم سور القرآن} :**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**] {الفتح:١[،
فتحًا لا يدوّي فيه صليل السيوف، ولا يُدوَّن في سجلات الحرب، ولكنه يدوّي في القلوب يقينًا، ويُدوَّن في صحف الملائكة نصرًا مبينًا.

نعم، إنه فتحٌ بلا معركة، ولكنه فتح بأرفع أسلحة النصر:
بالعقل الثاقب، وبالبصيرة النيّرة، وبالصبر الذي تُزلزل به الجبال ولا يتزعزع، صبرٍ ضرب النبي صلى الله عليه وسلم فيه المثل الأعلى، يوم ردّ أبا جندل إلى قريش ودموعه تسيل، وصبر معه أصحابه وهم يذوقون مرارة الشرط، ولكنهم كانوا على يقين بصدق الوعد{:وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا] {الطلاق:٢.[

ولمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى{ :إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا{، غمرته السكينة، وأشرق وجهه نورًا، وقال – والفرحة تملأ صدره" :– **لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة، لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس** "أخرجه أحمد، والبخاري بصيغة الجزم معلَّقًا.[

كان الصحابة يوم الحديبية يرون أن الرجوع دون عمرة هزيمة، لكن الوحي كان يقول لهم{ :هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] {الفتح:٤.[

عاد النبي صلى الله عليه وسلم وقد طهّره الله من الأحزان، وأيّده بالسكينة، وثبّت فؤاده بالوحي، وعاد معه الصحابة وهم يرددون بألسنة الإيمان ما كانت قلوبهم يومًا تعجز عن إدراكه:
إن من أطاع الله ورسوله، سلِم من الفتنة، ونال البصيرة، وظفر بالفتح، ولو جاء بعد صبرٍ وألم.

وكانت عودته صلى الله عليه وسلم تمهيدًا لفتحٍ أعظم، فيه يدخل الناس في دين الله أفواجًا، ويُرفع الأذان من فوق الكعبة التي طالما نودي عندها بالباطل، ليصدح منها" :**الله أكبر، الله أكبر**"، وما ذلك إلا لأن الصلح كان بوابة النصر، وكان الصبر سبيل التمكين، وكان الرجوع يوم الحديبية رجوع الفاتحين، وإن لم تُرفع فيه راية قتال.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- النصر لا يُقاس بالظواهر المادية بل بميزان الوحي، فرب فتحٍ بلا قتال أعظم عند الله من معركة تُسفك فيها الدماء.
- الوحي هو مصدر اليقين والسكينة، ومن صدّق به نجا من الحزن والشك واضطراب الفهم.
- من صفات الله عز وجل أنه يفتح لعباده من الخير ما لا يدركه نظرهم القاصر، ويفتح لعباده الصادقين بوسائل لا تحضر في ظن البشر.
- الإيمان بالوحي يُزيل الغشاوة عن البصائر، ويجعل المؤمن يرى بعين الوعد الإلهي لا بحدود الظرف والزمان.
- تحقق وعد الله لعبده ورسوله صلى الله عليه وسلم دليل قاطع على صدق نبوته، وأن ما يأتي به من الوحي حق لا ريب فيه.
- استقرار السكينة في القلوب فضل من الله يُثبّت الإيمان، ويجعل العبد في مأمن من الفتن والتقلبات النفسية.
- الابتلاء لا ينفي محبة الله ولا نصره، بل قد يكون عين التمكين، وهذا ما لا تدركه الفرق المنحرفة كالمعتزلة الذين ربطوا المنزلة بالمنزلة ورفضوا الحكمة الإلهية في الابتلاء.

فوائد فقهية:

- يجوز عقد الصلح مع الكفار وإن تضمّن بنودًا ظاهرها مجحفة، إذا كان في ذلك مصلحة راجحة للمسلمين.

- الصلح لا يُشترط فيه أن يكون عادلًا ظاهرًا، بل أن تتحقق به مقاصد شرعية أعظم، كحقن الدماء، وفتح أبواب الدعوة.
- مدار الأحكام على المصالح والمفاسد، والعبرة بالمآلات، لا بما تراه النفوس في لحظة الانفعال.
- في الرجوع عن العمرة دون أداء النسك، دليل على مشروعية ترك العبادة الظاهرة إذا كان في ذلك مصلحة أعلى، كحقن الدماء.
- الصبر على تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في الصلح واجب، ولو تألمت منه النفوس، ما دام النبي صلى الله عليه وسلم أقرّه.
- حديث النبي صلى الله عليه وسلم في حبه لسورة الفتح يدل على جواز الفرح بنزول السورة واستشعار أثرها في النفس والعمل.
- يُشرع للراعي الصبر على أذى أصحابه إذا جهلوا الحكمة من التصرف، كما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على اعتراض عمر رضي الله عنه.

فوائد أخلاقية:

- القائد الحق هو من يملك البصيرة والصبر والحكمة، لا من يندفع وراء العاطفة أو صوت الجماهير.
- الصبر وقت الغموض أعظم من الصبر وقت الوضوح، لأن حقيقته لا تظهر إلا في لحظة الشدة.
- الإيمان بالوعد الإلهي يُورث السكينة في النفس، ويجعل المرء في طمأنينة مهما تعقدت الأسباب.
- قبول الحكم الشرعي وإن خالف ما تهواه النفس خلق من أعظم الأخلاق، وهو عنوان صدق العبودية.
- الحزن عند رؤية الظلم لا يُنافي الإيمان، لكن الانقياد لأمر الله هو طريق الرضا والسعادة.
- الصحابة ضربوا أروع الأمثلة في التسليم بعد البيان، وإن كان في البداية عندهم جزع واضطراب.
- فرحة النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي وسكينته بعد نزول السورة، درس في الإيمان والرضا بقضاء الله.

فوائد تربوية:

- من أعظم أساليب التربية النبوية ترسيخ الإيمان بالقدر واليقين بوعد الله مهما خفيت الحكمة.
- بيان الغاية من الأحداث يُربّي القلوب على التوازن وعدم الاندفاع في الأحكام.
- إشراك الصحابة في الألم ثم رفعه بالوحي يُعلّمهم أن التمكين لا يأتي بلا بلاء، ولا نصر بلا ابتلاء.
- السيرة النبوية تغرس في النفوس التربية على الصبر والرضا والبصيرة في الفتن، وهي من أعظم الدروس لأجيال الأمة.

فوائد دعوية:

- الدعوة إلى الله تحتاج إلى مراحل، وقد يكون فيها تراجع ظاهري لكنه يسبق نصرًا عظيمًا، كما في صلح الحديبية.
- من وسائل النصر في الدعوة: الحلم، واللين، وتحقيق المصلحة الشرعية لا المكسب العاجل.
- الصلح أتاح للنبي صلى الله عليه وسلم نشر الإسلام في بيئة آمنة، فدخل الناس في دين الله أفواجًا بعد ذلك.
- استعمال الحِكمة وتقديم مصلحة الدعوة على مظاهر القوة الظاهرة أصل في منهج النبي صلى الله عليه وسلم.

ما يخالف الواقع:

- غلبة الظن عند كثير من الناس أن النصر لا يكون إلا بالسيف، وأن الصلح ضعف، في حين أن السيرة تثبت أن التمكين قد يبدأ من صلح بلا قتال.
- كثير من المنتسبين للعمل الإسلامي اليوم يستعجلون النتائج، ويرفضون الحكمة والمراحل، ويطعنون في القرارات الشرعية إذا لم توافق مزاجهم.
- الناس في هذا الزمان يميلون إلى المظاهر والانتصارات الشكلية، ويغفلون عن عمق المكاسب التي تأتي عبر الصبر والبصيرة والهدوء.
- ضعف اليقين عند فئة من المسلمين يظهر في جزعهم من أي تراجع ظاهري، وغياب الثقة في وعد الله بالنصر للمؤمنين الصادقين.
- بعض المتصدرين يقودون الناس بردود الفعل لا بالبصيرة، فيُهلكون ولا يُصلحون، بعكس منهج النبي صلى الله عليه وسلم.
- الخوارج في كل زمان يطعنون في الصلح ويتهمون قادة الأمة بالخنوع، ويكفرونهم إن لم يرفعوا السيف، على خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية.

الفقرة الحادية عشرة: أبو بصير... رجل بأمّة

لم تكن الحديبية نهاية الصراع، بل كانت بدايته الجديدة، صراعًا لا بالسيوف، بل بالعقيدة والوعي والثبات.
وما إن هدأت المدينة بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية، وإذا برجلٍ يقتحم المشهد، يحمل في وجهه آثار المعاناة، وعلى يديه قيود الظلم، ولكن في عينيه نور لا يُطفَأ، وعزم لا يَخبو.

دخل المدينة شاحبًا منهكًا، لكنه كان شامخ الروح، قوي الإيمان، وكأن في خطواته وقعًا يقول" :ما فررت من مكة لأحيا، بل جئتُ لأحمل راية لا تموت".
إنه **أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي**، من أولئك الذين باعوا الدنيا ليشتروا رضا الله، فخرج من سجن قريش باحثًا عن مأوى الإيمان، لا ملاذ الجسد.

وقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم والرجفة تعصف بجسده، ولكن اليقين يملأ صدره، فقال بصوتٍ تتخلله أنفاس الرحلة الطويلة" :**يا نبي الله، قَدِمتُ إليك مسلمًا فارًّا بديني، فآوني واجعل لي عندك مقامًا**".

فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم بعينين تختلط فيهما المحبة بالحزن، والرحمة بالحكمة، ثم قال كلمته الخالدة التي نقشت في ذاكرة الأمة معنى الوفاء بالعهود": **يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، وما يسعنا من الله أن نغدر ".**
]أخرجه عبد الرزاق والطبراني وغيرهما.[

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وإن كانت نفسه تتوق إلى نصرة المستضعفين ـ مؤتمنًا على عهدٍ، لا يفرّط فيه، ولو كلّفه ذلك فراق أحبّ الناس، فقد قال الله **(وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا)** الإسراء:٣٤.[

وما هي إلا لحظات حتى قدم رسولان من قريش يطالبان بأبي بصير، كما ينص على ذلك بندٌ مؤلم من بنود صلح الحديبية، بندٌ يقضي بأن من أتى من قريش مسلمًا إلى المدينة، وجب ردّه إليهم.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسليمه، وأُخذ أبو بصير مكرهًا، لكنه لم يكن ليسلّم دينه معهم، فما إن وصلوا إلى منطقة العيص، وهي على طريق الساحل بين مكة والمدينة، حتى اشتبك مع أحد مرافقيه، وتمكّن من قتل أحدهما بسيفه، وفرّ الآخر راجعًا إلى المدينة، مذعورًا يصرخ" **:يا رسول الله، قُتل صاحبي"!**

ولما وصل أبو بصير إلى النبي صلى الله عليه وسلم من فوره، قال له النبي صلى الله عليه وسلم" **:ويح أمّه، مسعّر حرب لو كان له أحد) "!**أخرجه أحمد وغيره.
وهو تعبير نادر من النبي صلى الله عليه وسلم يُشيد فيه بقوة رجل واحد، وكأن فيه شُعلة قتال تكفي أُمّة.

فهم أبو بصير المعنى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وأن المدينة لن تكون له مأوى الآن، فرحل بعيدًا، ولكن ليس إلى مكة، بل إلى حيث لا سلطان لقريش، إلى تلك المنطقة بين مكة والمدينة، وأقام هناك معسكرًا صغيرًا للمؤمنين المطاردين.

وما لبث أن أخذ إليه المسلمون الفارّون بدينهم يلتحقون واحدًا تلو الآخر، حتى تكوّنت منهم كتيبة غير رسمية، لا تنتمي لدولة، لكنها تنتمي لدين، لا تحتمي بسور، ولكن يحميها الإيمان.

وبدؤوا يُغيرون على قوافل قريش، يقطعون طرق تجارتها، وينغّصون عليها أمنها، حتى أذاقوها من الذل ما لم تذقه في أعظم معاركها،
فكتبت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم ترجوه أن يأويهم إليه في المدينة، و**تنازلت طائعة عن شرطها الجائر** :أن يُردّ من جاء مسلمًا إلى المدينة.
وهكذا ...**سقط البند الأكثر قسوة في صلح الحديبية**، لا بخطبة مدوية، ولا بجيش جرّار، بل بثبات رجل واحد، حوَّله الله إلى أُمّة.

إنه أبو بصير... رجل بأمّة، صدق الله فصدقه الله، ومنح الأمة درسًا خالدًا أن الثبات على المبدأ قد يهدم صرح الظلم بأكمله.
وصدق الله العظيم إذ يقول **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** آل عمران:٢٠٠.[

.الفوائد المستفادة من الفقرة:

فوائد عقدية

- الثبات على العقيدة قد يغيّر موازين الصراع ويقلب ملامح الواقع دون الحاجة إلى قوة مادية، لأن النصر وعد من الله لعباده الصادقين.
- الفرار بالدين عبادة عظيمة تُؤجر عليها النفوس المؤمنة إذا قامت بها طاعة لله لا حبًا للسلامة، وقد فعلها أبو بصير إيثارًا لما عند الله.

- الوفاء بالعهد وإن ترتب عليه ألمٌ أو فراقٌ أو مفسدة ظاهرية، هو عبودية لله، يقدّمه أهل الإيمان على هوى النفس.
- قوله صلى الله عليه وسلم: "ما يسعنا من الله أن نغدر" أصل في توقير أمر الله وحرمة نقض العهد، حتى في حالات المشقة والضعف، وهي من صفات أهل التوحيد.
- حماية الدين تُقدم على حماية النفس، ولهذا ضحّى أبو بصير بجسده وراحته ليُحافظ على دينه، مؤمنًا بأن الله ينصر من ينصره.
- أن الرجل إذا صدق مع الله في نيّته وسلوكه، فإن الله يفتح به ويجعل له من أمره يُسرًا، ولو لم يكن له من القوة إلا صدق التوجه.
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي بصير: "مسعّر حرب" إشارة إلى أن الله قد يجعل من العبد الواحد آيةً في النكاية بالباطل، متى كان على الجادة.

فوائد فقهية

- من الوفاء بالعقود والعهود بين المسلمين والمشركين، وجوب الالتزام بما وقّعه الإمام أو وليّ الأمر مع غير المسلمين، ولو في حال الكره والمشقة.
- العهود السياسية التي تعقدها الدولة الإسلامية يجب احترامها من قِبل الأفراد، ولا يجوز لأي فردٍ أن يخرقها، حتى لو كان على حق في دعواه.
- الردّ لمن جاء مهاجرًا وفق عهد سياسي لا يُعدّ إقرارًا للباطل، بل هو التزام شرعي بالعهد، دون رضًا بالظلم الواقع.
- لا يُقام الجهاد الفردي من الأفراد إذا كان ذلك يؤدي إلى الإضرار بجماعة المسلمين أو نقض عهودهم، وهذا ظاهر في ترك النبي صلى الله عليه وسلم إيواء أبي بصير.
- المضطر لا يُحاسب على تصرفه لحماية دينه إذا لم يجد ملجأً، وهذا ظاهر في فعل أبي بصير حين قُيّد وأُعيد مكرهًا.
- كلمة النبي صلى الله عليه وسلم "ما يسعنا من الله أن نغدر" تدل على وجوب الانضباط بالتكليف الشرعي وإن تعارض مع الميول والمشاعر.

فوائد أخلاقية

- من صدق مع الله صدقه الله، وجعل له في قلوب الناس منزلة ومكانة، كما صنع بأبي بصير.
- الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب، صار صاحبه لا يطيق أن يرى الذلّ على دينه، ولا يتحمل أن يُساوم على عقيدته.
- أبو بصير جمع بين قوة النفس وتواضع القلب، شجاعة المواجهة وسكينة المهاجرين، وهي من صفات أصحاب الهمم العالية.
- التضحية بالنفس والراحة من أجل نصرة الدين خلقٌ جليل من أخلاق أهل الإيمان، ينبغي تعليمه للأجيال لا نظريًا بل عبر النماذج الخالدة.
- قوة التأثير لا تتطلب كثرة عدد، بل تتطلب صدقًا وثباتًا، فكم من رجل بأمّة، وكم من أممٍ لا قيمة لها.
- في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "ويح أمّه، مسعّر حرب لو كان له أحد!" ثناء على من اجتمعت فيه البصيرة والبطولة، وهي من أعظم صفات القادة الربانيين.

فوائد دعوية وتربوية

- لا بد أن تُربى النفوس على أن المبدأ أغلى من الحياة، وأن الثبات عليه أثمن من الأمان الظاهري.
- من أدوات التربية الإيمانية غرس العزة في النفوس، حتى ترى الهروب بالدين شرفًا، لا خذلانًا، كما فعل أبو بصير.
- الأحداث الكبرى في حياة الأمة قد يصنعها أفراد مغمورون ولكنهم مخلصون، وهذا من سنن الله في الدعوات.

- القصص الواقعية المؤثرة كقصة أبي بصير تربي الأجيال على فقه المواقف لا مجرد سماع النظريات.
- ينبغي أن يُعرّف الناس بأن التنازل الظاهري أمام الظالم لا يعني الخضوع، بل قد يكون تمهيدًا لنقض الظلم من جذوره.

فوائد سياسية واجتماعية

- الضغط الاقتصادي وسيلة فعالة في مواجهة الطغيان، وقد استخدمه أبو بصير ومن معه بنجاح، وهو مما يدل على أهمية فهم الواقع وأدوات التأثير فيه.
- العمل المنظم، حتى من خارج الدولة، إذا التزم بالشرع، قد يُحدث أثرًا بالغًا، دون حاجة إلى الصدام المباشر.
- حين تعجز الأنظمة أو تُقيدها العهود، يفتح الله لعباده المخلصين من الأفراد مسارات جديدة تُقضى بها الحاجات وتُدفع بها الظلمات.
- الانتماء للدين مقدم على الانتماء للوطن أو القبيلة أو الحدود السياسية، وقد أظهره أبو بصير حين رفض الرجوع إلى مكة، رغم أنها بلده.

ما يخالف الواقع

- ضعف الشعور بأهمية الثبات على العقيدة في النفوس، حتى بات كثير من الناس يقدم راحته أو مصالحه على دينه في أبسط المواطن.
- استسهال نقض العهود والمواثيق حتى بين المسلمين أنفسهم، فضلاً عن غيرهم، خلافًا لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم.
- انعدام وجود النماذج التربوية العملية في حياة كثير من الدعاة، واعتماد الخطابة المجردة من التطبيق، مما أفقد الكلمات روحها.
- الركون إلى الأمن الزائف والاكتفاء بالنجاة الفردية ولو ضاع الحق العام، على خلاف ما فعله أبو بصير.
- العجز عن تحمّل تبعات المواقف الإيمانية والفرار من معسكر الثبات إلى حضن السلامة ولو مع الذل.

- الخوارج يُخرّبون أحكام العهد ويكفرون ولاة الأمور ويُشعلون الفتن، والنبي صلى الله عليه وسلم بيّن أن العهد يُحترم، ولو على حساب العاطفة، وهو ما لم تفقهه هذه الفرقة المنحرفة.

الفقرة الثانية عشرة: ثمار الحديبية... الفتح الذي سبق السيوف وسبقته الحكمة

خرجوا من الحديبية بصدورٍ مكلومة، وأشواقٍ ذابلة، لم يمسّ الكعبة طائفٌ منهم، ولا ارتفع في مكة صوتُ تلبية، ولا سجدوا لله عند البيت سجدة، فعادوا والقلوب تنوء بحمل الكمد، والرؤوس تنحني تحت سقف الحزن، وكأنّ الجراح قد أُثخنت مرتين: مرةً حين صُدّوا عن البيت الحرام، ومرةً حين رضوا ببنودٍ بدت للعين المجردة كأنها قيودٌ ظالمة على رقابهم.

لقد عاد الصحابة رضوان الله عليهم يجرّون أذيال الألم، وقد كان فيهم من صاح مستنكِرًا: «يا رسول الله، ألسنا على الحق؟!»، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «بلى»، قال: «أفلسنا بالمسلمين؟!» قال: «بلى»، قال: «فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟!» [رواه البخاري]، ولم يكن يعلم ذلك الصحابي، ولا كثير من جنده البررة، أن هذا الصلح الذي بدا لهم هزيمةً من وجهٍ، هو في ميزان السماء فتحٌ مبين، وأن الله عز وجل يخبئ لهم من وراء هذا الصبر كنوزًا من الفتح، وخزائن من الخير.

ما دروا يومئذ أن السماء كانت تنسج خيوط النصر من خيوط الحكمة، وتؤسس على مهلٍ صرح الدولة، وتبني بعين التدبير أركان الفتح العظيم، لا على جماجم، ولا فوق دماء، بل على بصيرة، وثبات، وصبرٍ على مرارات المراحل.

فما هي إلا أيّام معدودات، حتى بدأت تباشير الفتح تتساقط عليهم كالثمر الناضج من أعنان السماوات؛ فإنّ هدنة الحديبية قد رفعت السيف ولو مؤقتًا، لكنها فتحت المجال للّسان، فخرج الإسلام من دائرة الحصار، إلى أفق الانتشار، وأضحى الناس آمنين يسمعون كلام الله، ويُنصتون للقرآن، ويجالسون المسلمين، بلا حربٍ ولا خوف، فدخل الإسلام في القلوب كما تدخل الشمس من كوةٍ مفتوحة، بلا استئذان، وبلا مقاومة.

وخرج الدعاة من الصحابة إلى قبائلهم، يحدّثونهم عن الله، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وعن الرحمة التي جاء بها، فآمن الواحد، ثم عاد إلى قومه فصار داعية، فأسلم العشرات، ثم المئات، فانتشر الإسلام كما تنتشر الروائح الطيبة في مجلسٍ هادئ.

بل لقد أثمرت الحديبية ثمراتٍ مذهلة في عامين فقط، دخل فيهما في الإسلام من الناس أضعاف من دخلوا في كل ما مضى قبلها! وما بلغ عدد المسلمين في الحديبية إلا ألفًا وأربعمائة، حتى صاروا بعد عامين عشرة آلاف يفتحون مكة، في مشهدٍ مهيب، لم يُرَ مثله، وبهذا صدق ما قاله الزهري رحمه الله:

»ما فُتح في الإسلام فتحٌ كان أعظم من صلح الحديبية، إنما كان القتال حين التقى الناس، فلما وضعت الحرب أوزارها، واختلط الناس، لم يُكلّم أحد بالإسلام إلا دخل فيه.«

وكأنّ قلوب قريش نفسها بدأت تتغير؛ فبعض زعمائها أسلموا قبل الفتح، ومنهم من رقّ قلبه ولان خطابه، حتى إن أبا سفيان نفسه جاء قبل الفتح يرجو تثبيت الحلف، ويطوف على بيوت الصحابة ليكلمهم في الشفاعة، بعدما كانت تلك البيوت تُداهم وتُؤذى. إن الإسلام حين تُرفع عنه سيوف الأعداء، وتُفسح له الساحة بالحجة، يدخل العقول من أبوابها، ويتربع على العرش في القلوب.

وهكذا كتب الله لهذا الصلح أن يكون فتحًا بلا دم، نصرًا بلا صليل سيوف، فتحًا ابتدأ بالحكمة، وتوَّجته البركة، فأنزل الله فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة:(**انَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا**] {الفتح: ١–٣.[

ولما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم، تهللت أساريره، وارتاحت نفسه، وقال في فرحٍ لا يوصف:

»لقد أنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس« [رواه البخاري معلّقًا، وأحمد بسندٍ متصل.[

فتأمّل كيف يكون الصبر سُلّمًا للتمكين، وكيف تصنع الحكمة ما لا تصنعه الدماء، وكيف تكون النصرة من الله حين نستسلم لأمره، ونثق بوعده، ونرضى بحكمته.

نعم، إنه الفتح الذي سبق السيوف... وسبقته العقول... وسُجّل في صحائف المجد بأنه نصرٌ أبيض لا دم فيه، ونقطة تحول عظيمة في مسيرة الدعوة الإسلامية، نصرٌ أهدته السماء لعبادٍ صدقوا، فصدقهم ربهم، ففتح لهم فتحًا مبينًا.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الصبر على أقدار الله المؤلمة قد يُخفي وراءه نصرًا عظيمًا، ومن ظن أن النصر لا يكون إلا بالسيف فقد قصر نظره عن سنن الله في التمكين.
- الله سبحانه هو الذي يختار لعباده الخير وإن خفي عليهم، وما يراه الناس هزيمة قد يكون في ميزان السماء فتحًا مبينًا.

- الإيمان بنصر الله لا يتوقف على رؤية الظفر الفوري، بل ينبني على التسليم لحكمته سبحانه والثقة بوعده.
- من تمام الإيمان بالله تصديق وعده ورضا النفس بحكمه، ولو جاء على خلاف الهوى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي: «بلى.»
- الفتح الحقيقي يكون من عند الله وحده، وليس من صنع البشر ولا من كثرة العَدد والعُدة.
- القرآن كلام الله، وقد أنزل الله سورة كاملة تتحدث عن هذا الفتح، فدل على تعظيم هذا الحدث عند الله تعالى، وعلى أن الاعتقاد بما يُنزله الله من قرآن هو أصل من أصول العقيدة.
- ارتباط مغفرة الذنوب بالنصر في هذه السورة يدل على أن فضل الله شامل لعباده، وهو يربط لهم ما بين العاقبة الحسنة والأعمال الصالحة والثبات.

فوائد فقهية

- الإسلام يُقدّم المصلحة العامة للدعوة ولو خالف ذلك رغبة النفس الفردية، ومنه القبول بشروط صلح الحديبية رغم ظاهرها القاسي.
- مشروعية الهدنة مع الأعداء إن ترتبت عليها مصلحة راجحة للمسلمين، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية.
- الدعوة إلى الله لا تتوقف على القوة الظاهرة، بل يكون لها أثر أعظم أحيانًا عند السلم والانفتاح.
- لا مانع شرعي من تأجيل بعض الحقوق إذا كان في ذلك مصلحة دينية راجحة، كما أُجّل دخول مكة حفظًا لدماء المسلمين ولتحقيق غايات أعظم.
- الانتشار السلمي للدعوة سبب من أسباب دخول الناس في الإسلام، وهو من الوسائل المشروعة التي أقرها الشرع.

فوائد أخلاقية

- الصبر والثبات على مواقف الحق حتى مع الشعور بالظلم هو من أعظم أخلاق الصادقين.
- التحمل في سبيل الله، وعدم الاستعجال في النتيجة، دليل على عمق الإيمان وقوة اليقين.
- الحكمة في التعامل مع الخصوم، وعدم الانجرار إلى ردات الفعل المتسرعة، طريق إلى النصر الحقيقي.
- الصدق في النية والرضا بحكم الله يصنع للعبد مكانة عظيمة عند الله وإن خفيت ثمار ذلك على العيون.
- الهدوء وضبط النفس في أوقات الشدة مفتاح للفتح والتمكين، كما ظهر في موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية.

فوائد دعوية

- حين أُتيح للمسلمين الكلام والدعوة بلا خوف، انتشر الإسلام بسرعة عجيبة، مما يدل على قوة الحجة ونور الرسالة.
- الدعاة الحقيقيون يحملون الرسالة للناس بالرفق والرحمة، ولا يحتاجون لدماء ولا صراخ، بل لحكمة وصبر.
- الدعوة في أوقات السلم قد تكون أبلغ في التأثير من الدعوة في أوقات الحرب.
- الانفتاح بين الناس، والسماح باللقاء والمجالسة، سبب من أسباب الهداية، كما حصل بعد الحديبية.
- أثر الداعية الصادق يمتد لقومه، فقد يُسلم رجل، ثم يتحول إلى داعية يدخل الناس على يديه في الإسلام.

فوائد تاريخية وسيروية

- عدد المسلمين في الحديبية كان قرابة ١٤٠٠، وبعد عامين صاروا ١٠,٠٠٠ يفتحون مكة، وهذا يبيّن أثر الحديبية المباشر في التمكين.
- صلح الحديبية كان نقطة تحول في مسار الدعوة الإسلامية، ومرحلة مفصلية سبقت فتح مكة.
- الزهري رحمه الله فهم من الحديبية أعظم فتح، وهو من علماء التابعين الذين درسوا السيرة بإجلال وتأمل.

- سورة الفتح نزلت بعد صلح الحديبية، مما دل على تأييد الله الكامل لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.
- إسلام بعض زعماء قريش قبل الفتح دليل على أن اللين والسلم قد يُليِنان القلوب التي لم تلن بالحرب.

مخالفات الواقع

- قلة الصبر على الأقدار، ورفض كثير من الناس لحكم الله إذا خالف رغباتهم.
- الاعتماد على القوة المادية وحدها لنصرة الدين، وتغييب فقه الحكمة والمصلحة في العمل الدعوي والسياسي.
- الاستعجال في تحقيق النتائج، والجزع عند التأخر، مع أن سنة الله قائمة على التدرج والتمحيص.
- الاعتماد على الشعارات والانفعالات بدل من ضبط النفس والثبات الذي يصنع النصر الحقيقي.
- ضعف فهم كثير من الدعاة اليوم لفقه التفاوض والمصالح والمفاسد، مما يؤدي إلى تفويت المكاسب الشرعية.
- الطعن في العلماء والدعاة حين يسلكون طريق الحكمة، كما طعن بعض الصحابة في ظاهر صلح الحديبية، مع أنه كان فتحًا عظيمًا.

انتهي الباب الحادي عشر ويليه الباب الحادي عشر بإذن الله

الباب الثاني عشر: الدعوة العالمية... حين خاطب النورُ ملوكَ الظلام

مقدمة

لم تكن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قاصرةً على الحجاز، ولا محصورةً في مكة والمدينة، بل كانت مشكاةَ نورٍ أراد الله لها أن تُضيء الأكوان، لا أن تبقى حبيسة الصحراء.

وحين وُقّع صلح الحديبية، ووضعت الحرب أوزارها بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش، تنفست الدعوة الصعداء، وانطلقت بأمانٍ جديد خارج حدود الجزيرة العربية، فها هو الحبيب صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الآفاق البعيدة، إلى الملوك الذين يحكمون الأرض من مشرقها إلى مغربها، يدعوهم إلى توحيد الله، وطاعته، واتباع آخر رسله.

لقد آن لراية التوحيد أن تخرج من خيمة الصحراء إلى قصور الروم، وبيوت الفرس، وأرض الأقباط، وعرش الحبشة، وعروش الشام والبحرين واليمامة.

لقد كانت هذه الخطوة إعلانًا عمليًّا أن الإسلام ليس دينًا قبليًّا ولا محليًّا، بل دين الله الذي ارتضاه للعالمين.

وكانت الرسائل النبوية نداءً مهيبًا في رقة، قويًّا في أدبه، واضحًا في بيانه، يهزّ عروش الجبابرة ويطرق أبوابهم، ليس طلبًا للملك أو المال، بل دعوة للنجاة، وبلاغًا من الله إلى خلقه.

وهكذا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم **عصر العالمية** في الدعوة، ليعلم الناس أن هذا الدين جاء **رحمةً للعالمين، وهدايةً للناس أجمعين، لا لفئة دون فئة، ولا لزمن دون زمن.**

الفقرة الأولى: حين أوحى النبي إلى القلم أن ينطق بأكثر من لسان

ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يومًا أسيرًا للّغة الواحدة، ولا حبيسًا في دائرة القوم الذين عاش بينهم، بل كانت أنظاره تمتد إلى ما وراء الجبال والبحار، وإلى ما بعد الأعراق واللهجات، يبصر ببصيرته النبوية سُنن الله في المدافعة بين الحق والباطل، ويعلم أن البلاغ المبين لا يكتمل حتى يُفهم، وأن الحجة لا تقوم إلا إذا سُمعت بلسان القوم الذين أُرسل إليهم.

فما إن تأسست نواة الدولة في المدينة، واطمأنت الدعوة في أرضها، حتى التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى وسيلة لا تقل أهمية عن السيف في ميدان الجهاد: إنها **اللغة**، إنها **أداة البلاغ الأولى، ومفتاح العقول والقلوب.**

فدعا نفرًا من أصحابه ممن أشرق الإيمان في صدورهم، وأوقد الذكاء عقولهم، وأمرهم بتعلم لغات الأمم من حولهم، فالتفت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه وقال له" **:تعلَّم الكتابة بالعبرانية، فإني والله ما آمن يهود على كتابي"**

فتعلمها في بضعة عشر يومًا، حتى صار يقرأ كتبهم ويكتب إليهم.

وسأل زيد بن ثابت رضي الله عنه" **:هل تعرف السريانية؟** "قال: لا .قال" **:تعلَّمها"**،

فما مرّت سوى سبعة عشر ليلة، حتى كان زيد يقرأ ما كتبوا، ويردّ عليهم بما فهموا.

وهكذا... لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو قومه إلى دين الله فقط، بل كان يُعدّهم لقيادة العالم، ولحمل مشاعل الهداية إلى أقصى الأرض وأدناها، فجهّزهم بأدوات التأثير، وأعطاهم مفاتيح التواصل، وعلمهم أن الدعوة إلى الله لا تُنصر بالعاطفة وحدها، بل بالعلم والحكمة، وبفهم النفوس واللغات والسياقات.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) إبراهيم: ٤
فلا بيان إلا بلغة مفهومة، ولا دعوة إلا ببلاغ مبين، ولا حجة إلا بعد البيان.

إنه تمهيد نبوي راقٍ، للانتقال من **طور الدعوة المحلية إلى العالمية، ومن همس السر إلى جهر الرسالة للعالمين،** فبعث النبي صلى الله عليه وسلم برسائله إلى ملوك الأرض في الشرق والغرب، يكتب لهم بلسانهم، ويدعوهم بالحكمة والموعظة، مستفتحًا عهدًا من البلاغ لم تعرف البشرية مثله.

وها نحن اليوم، في زمن تكاثرت فيه الوسائل، وتنوعت فيه الألسن والمنابر، أحوج ما نكون إلى أن نستلهم من هذا المشهد النبوي الخالد:
أن **الحق لا بد أن يُقدم بلغة تُفهم، وحجة تُدرك، وأسلوب يأسر العقول والقلوب.**

فيا أبناء محمد صلى الله عليه وسلم... إن الدعوة ليست كلمات تقال، بل رسالة تُحمل، وعلم يُفهم، وقلوب تُخاطب، ووسائل تُتقن، وحق يُبلغ.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين عالمي لا يختص بقوم دون قوم، بل هو رسالة للناس كافة، وهذا من مقتضى ربانية المصدر.
- النبي صلى الله عليه وسلم كان على بصيرة من سنن الله الكونية، ومنها سنة المدافعة بين الحق والباطل، مما يدل على أن الإيمان لا ينفصل عن فهم الواقع.
- من مقتضيات البلاغ المبين أن يكون مفهومًا، وهذا يقتضي استعمال الوسائل المناسبة في كل زمان ومكان، وهو من تمام الحجة.
- الله تعالى لم يرسل رسله إلا بلغة أقوامهم ليتحقق البيان، ففهم الدين لا ينفصل عن فهم الوسائل.
- العصمة في التبليغ ليست مانعًا من اتخاذ الأسباب، بل النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بتعلم اللغات ليحفظ الدعوة من التحريف.

التبليغ عن الله لا يكفي فيه الإخلاص وحده، بل لا بد معه من الفهم والتأهيل والتمكن في أدوات الدعوة.

فوائد فقهية

- تعلم اللغات المباحة يدخل في باب الوسائل، والوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا ترتب عليها نفع للدعوة فهو من فروض الكفايات.
- لا يُشترط في البلاغ أن يكون بلغة القرآن، بل يجوز بل يجب أن يُترجم المعنى الصحيح إلى ما يفهمه المخاطبون، تحقيقًا لمقصود البيان.
- في حديث النبي صلى الله عليه وسلم لزيد وعبد الله بن سعد دليل على أن تعلم ما يحفظ به الدين من فتن الأعداء أمر معتبر شرعًا.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على السرية في بعض المراسلات فيه جواز كتمان بعض الأمور الدعوية عند الخوف من التزوير أو التحريف.

- إرسال الكتب إلى الملوك بلغاتهم يدل على جواز مخاطبة غير المسلمين بألسنتهم للحكمة والدعوة، وهو أصل في مخاطبة الكفار بالحسنى.

فوائد أخلاقية

- في المشهد النبوي ترسيخ لقيمة الجدية في تبليغ الدعوة، وأنها مسؤولية عظيمة لا تُؤدى بالعشوائية.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تأهيل أصحابه علميًا يدل على أنه لا مكان للكسالى والمتواكلين في ميادين الدعوة.
- تشجيع النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه على التعلم السريع والفاعل يربّي في النفوس حب العلم وتحمل التكاليف لنصرة الحق.
- في المبادرة التي قام بها الصحابة استجابةً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم خلق الطاعة والانضباط في تنفيذ الأوامر.
- الاهتمام باللغة والبيان خلق دعوي رفيع، يدل على أن الدعوة ليست انفعالات عاطفية، بل علم وفهم وذوق.

فوائد دعوية

- البلاغ لا يكون مبينًا إلا إذا وُصل للناس بلغة عقولهم وقلوبهم، وهذه سنة نبوية يجب أن تُتبع في كل دعوة.
- التنوع في وسائل الدعوة مطلب شرعي، فلا يصح حصرها في أسلوب واحد مهما كان أصله قويًا.
- العالمية في الدعوة لا تعني التفلت من الثوابت، بل تعني حسن استخدام الوسائل والمخاطبة بحسب الحال.
- استعمال اللغة المؤثرة والمناسبة من أساليب الحكمة في البلاغ، وهو مما أمر الله به رسله.
- نقل الدعوة من المحلية إلى العالمية يقتضي بناء الكفاءات، والنبي صلى الله عليه وسلم وضع هذا الأساس.
- حمل الحق مسؤولية وليس مجرد قول، ولا بد لحامله أن يتقن الوسائل التي توصله إلى الناس.

ما يخالف الواقع

- ضعف شديد في إعداد الدعاة لغويًا، وانغلاق على اللغة الواحدة وكأن الإسلام لا يُفهم إلا بها.
- حصر الدعوة في مجرد الخطب والكلمات دون اعتبار لحاجة الناس إلى الفهم والتواصل بلغاتهم وثقافاتهم.
- الاستعلاء على تعلم لغات الأقوام الأخرى بحجة العصبية الدينية، وهذا مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.
- غياب التخطيط في توصيل الدعوة عالميًا، مع كثرة الوسائل الحديثة التي لم تُسخّر كما ينبغي.
- انشغال كثير من الدعاة بالشكل دون الجوهر، حتى صارت بعض الدعوات استعراضية تخلو من البلاغ المبين.
- التقصير في فهم سنن الله في الصراع بين الحق والباطل، مما يجعل كثيرًا من الجهود الدعوية سطحية وضعيفة التأثير.

الفقرة الثانية: خاتم النبوة الذي طُبِع به بلاغ السماء إلى الأرض

كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى أن الدعوة إنما هي رسالةٌ للعالمين، لا تقف عند حدود الحجاز، ولا تُحاصرها جبال مكة ولا أسوار المدينة، بل هي نور الله الذي أراد له أن يضيء وجه الأرض، وأن يتردد صداه في قاعات الملوك كما يتردد في أفئدة الفقراء.

فنظر صلى الله عليه وسلم في أمر الرسائل التي سيبعث بها إلى عظماء الأمم، وسلاطين الدنيا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، لا شريك له. وكان من عاداتهم يومئذٍ أنهم لا يقرؤون كتابًا لا يُختم بخاتم السلطان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :إن الملوك لا يقرؤون كتابًا إلا مختومًا "رواه البخاري ومسلم

فأرسل إلى أصحابه يستشيرهم، فكان رأيهم أن يتخذ خاتمًا خاصًا به، يكون ختمًا لكتبه ورسائله، فوافقهم، وصاغ خاتمًا من فضة خالصة، ونقش عليه:
(محمد رسول الله)
لكن انظر إلى الترتيب الذي ارتجف له الذهب والفضة، وتعظّم فيه الخاتم رغم بساطته!
جعل "محمد" في السطر الأسفل، و"رسول" في الوسط، و"الله" في الأعلى،
ليظل اسم الله هو الأعلى، وما سواه تحته، ولو كان محمدًا رسول الله!

إنه خاتم النبوة، لكنه لم يُصنع زينةً لليد، ولا ترفًا للعرض، وإنما أُعدّ ليكون سفيرًا صامتًا، يختم به النبي صلى الله عليه وسلم بلاغاته إلى ملوك الأرض، يوثّق به دعوة الله، ويطبع به رسائل التوحيد التي ستهز عروش الجبابرة وتوقظ النائمين.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يبعث في رسائله كلمات مجاملة، بل كان يبعث بلاغًا من السماء إلى الأرض، يكتب فيه بلسان الوحي:

"من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين]"...رواه البخاري
ولم يكن يخاطبهم بلغة التهديد، بل بلغة الرحمة التي قال الله فيها{وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)الأنبياء: ١٠٧.]

إنه التوحيد يُبعث ممهورًا بخاتم النبوة، تتفتح به أبواب القصور، كما تتفتّح به قلوب الرجال، إنه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا تُقيّدها حدود ولا تعرقلها سياسات، بل تمضي مختومةً بخاتمٍ لا يلمع بالفضة فقط، بل يضيء بنور الرسالة وصدق النبوة.

وهكذا، أصبح ذلك الخاتم البسيط أعظم من التيجان، وأبلغ من السيوف، فقد حمل على صغر حجمه ختم الرسالة، وتوقيع النبوة، وتوثيق البلاغ الأخير من السماء إلى الأرض (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا) {الأعراف: ١٥٨.]

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الدعوة المحمدية دعوة عالمية، شاملة للناس كافة، لا تختص بجنس ولا أرض، مصداقًا لقوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا.}
- من كمال النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب عظماء الأرض وأرباب السلطان بدعوة التوحيد، مما يدل على أن الإسلام رسالة ربانية لا تخشى أحدًا ولا تخضع لأحد.
- الرسائل التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأباطرة تضمنت أصول الدين وبيان التوحيد ووجوب الإيمان بالرسول، مما يدل على أن تبليغ العقيدة مقدم على المصالح السياسية أو المجاملات الدنيوية.
- ختم النبي صلى الله عليه وسلم رسائله باسم الله في الأعلى يدل على تعظيم اسم الله وتقديمه في كل شأن، وأن السيادة العليا له وحده.
- في قوله صلى الله عليه وسلم لهرقل: "أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين" تأكيد لعقيدة أن الإيمان حق على كل أحد، من عامة الناس إلى ملوكهم، وأن التوحيد هو النجاة مهما علت رتبة الإنسان.

- الرحمة التي بُعث بها النبي صلى الله عليه وسلم تشمل حتى أعداءه، إذ خاطبهم بالدعوة لا بالقتل، وبالبلاغ لا بالتهديد، فالإسلام دين الرحمة حتى مع المخالفين.

فوائد فقهية

- اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتمًا خاصًا للرسائل يُفهم منه جواز اتخاذ الوسائل العرفية التي تؤدي إلى تحقيق المقاصد الشرعية، مثل الخاتم لتوثيق الخطابات الرسمية.

- مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في أمر الخاتم تدل على أهمية الشورى في الأمور الاجتهادية والإدارية التي لم يرد بها نص، حتى وإن كان النبي مؤيدًا بالوحي.

- نقش اسم الله في الأعلى ثم "رسول" ثم "محمد" يدل على جواز النقش على الخاتم إن خلت من المحاذير الشرعية، مع تقديم اسم الله وتعظيمه.

- جواز مخاطبة الكفار كتابةً بدعوة الإسلام، وأن الدعوة إليهم مشروعة، بل واجبة بحسب القدرة، وفيه دليل على أن وسائل الدعوة متنوعة بحسب الأحوال.

فوائد أخلاقية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على مخاطبة الملوك بلغة مؤدبة غير متعالية، رغم عداوتهم، يدل على خُلق عظيم في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

- أدب النبي صلى الله عليه وسلم في جعل اسم الله فوق اسمه في الخاتم يُظهر التواضع الجم وتعظيم الله في القلب والعمل.

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم رسائل التوحيد إلى سلاطين الأرض، رغم أنهم لم يسألوا أو يطلبوا، فيه درس في المبادرة وعدم الاكتفاء بردة الفعل، بل حمل الرسالة إلى كل أحد.

- الخاتم كان وسيلة لإيصال الحق، لا مظهرًا للزينة، وهذا يدل على أن المؤمن يجعل كل شيء في حياته في خدمة الدين لا في خدمته هو.

فوائد دعوية

- الدعوة لا تنحصر في الأقوال فقط، بل تشمل الوسائل المادية مثل الرسائل والخاتم والترتيب المنظم، فالدعوة تحتاج إلى تخطيط.

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بدعوة القريبين، بل سعى للوصول إلى ملوك الدنيا، مما يدل على سعة أفقه الدعوي واهتمامه بإيصال الدين إلى كل الناس.

- مخاطبة الملوك بلغة واضحة جامعة: "أسلم تسلم" من أبلغ أساليب الدعوة، تُظهر الحق دون خشونة، وتجمع بين البيان والرحمة.

- في بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وكسرى وغيرهم دعوة لكل داعية ألا يحتقر وسيلة أو يزهد في دعوة أحد، فكل قلب قابل للهداية.

ما يخالف الواقع

- غفلة كثير من المسلمين اليوم عن عالمية الإسلام، وحصرهم الدين في العبادات الفردية، دون حمل همّ الدعوة للأمم الأخرى.

- ضعف العناية بإتقان وسائل الدعوة العصرية، وغياب المهنية في تقديم الإسلام بطرق يفهمها العالم بلغاته وأدواته.

- تحوّل الوسائل الدعوية –كالكلمة والصورة والصوت– إلى مظاهر جوفاء، بلا مضمون مؤثر، خلافًا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي طبع على خاتمه رسالة واضحة متكاملة.

- تجاهل بعض الدعاة للبلاغ المبين والوضوح في الدعوة إلى التوحيد، واستبداله بالكلام العاطفي أو الخطاب العام الذي لا يُظهر حقيقة الدين.

انفصال كثير من الخطابات الإسلامية اليوم عن النور الرباني، وانشغالها بمصالح الدنيا أكثر من همّ البلاغ إلى العالمين.

الفقرة الثالثة: رسالة السماء إلى عظيم الروم (هرقل)

حين أتمَّ الله على نبيه صلى الله عليه وسلم النعمة، وثبَّت أركان الدولة، ونصَر الدعوة، لم يتوقف عند حدود الجزيرة، بل رفع البصر نحو العالم، فالدعوة التي بعث بها للعالمين، لا يجوز أن تُحبس في صحراء، ولا أن تُكتم بين الجبال.

وكان أول من وجّه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا من ملوك الأرض :**هرقل ملك الروم**، إمبراطور أعظم مملكة على وجه الأرض يومئذ، وكان مقيمًا في **بيت المقدس** عند وصول الكتاب.

فاختار النبي لهذه المهمة رجلاً كريمًا، هو الصحابي الجليل **دحية بن خليفة الكلبي** رضي الله عنه، صاحب طلعة بهية، وهيئة وقورة، وعقل راجح، وكان جبريل عليه السلام أحيانًا يتمثل بصورته.

وحمل دحية رسالة من محمد بن عبد الله، نبي آخر الزمان، إلى عظيم الروم، فيها نداءٌ من السماء، لا يُخاطِب فيه سلطانًا بجاهه، بل يدعوه إلى طريق الهداية" :**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** آل عمران: ٦٤ [رواه البخاري ومسلم تلقى هرقل الرسالة بتمهُّل واهتمام، وأدرك من لهجتها أنها ليست كلمات سياسيٍّ يريد النفوذ، بل بلاغ نبيٍّ يحمل نورًا من السماء.

وبحث هرقل عمّن يعرف خبر هذا النبي، فجيء له بـ**أبي سفيان بن حرب** –وكان مشركًا آنذاك – فجعل هرقل يسأله أمام أشراف قريش حتى لا يكذب، فقال له:

- كيف نسبه فيكم؟
- هل كان في آبائه من ملك؟
- أتبعه الأشراف أم الضعفاء؟
- هل يزيدون أم ينقصون؟

- هل يغدر؟
- هل قاتلتموه؟ وماذا كانت نتيجة المعارك؟

فأجابه أبو سفيان بأجوبة صدق، وكان كل جواب يزيد من يقين هرقل، حتى قال في النهاية": **إن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدميَّ هاتين ،وإني كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه،**
ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه"! فبكى من حضر، لكن كِبر الملك، وحسابات العرش، وسلاسل السلطان، غلبت يقين الفطرة، فآثر هرقل ملكه على الإيمان، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾]النمل: ١٤.[

إنها دعوة السماء التي طرقت أبواب القصور، بنفس الصوت الذي نادى به النبيُّ صلى الله عليه وسلم في شعاب مكة، لم تتغيّر الرسالة، ولم تتبدّل اللهجة، إنها **رسالة التوحيد من خاتم النبوة إلى عروش الجبابرة**.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التبليغ بالدعوة إلى الله شاملةٌ لكل الناس، عربًا وعجمًا، ملوكًا وفقراء، وهو من مقتضى الإيمان بأن الرسالة المحمدية عامة للعالمين، لا تختص بقومٍ دون قوم، قال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا.}
- الدعوة إلى الإسلام دعوة توحيد خالصة، لا مكان فيها لشرك أو اتخاذ أرباب من دون الله، وهذا ظاهر في قوله: {ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا.}
- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للملوك والسلاطين لم تكن بدافع سياسي أو رغبة في التوسّع الدنيوي، وإنما بوحي من الله، فهي رسالة من عبدٍ لله ورسوله إلى عبادٍ من خلقه، يدعوهم إلى عبادة ربهم وحده.
- الإسلام يُقرّ لأهل الكتاب أنهم على دين سابق، لكنه يدعوهم إلى الكلمة السواء التي هي جوهر التوحيد، وبهذا يظهر عدل الرسالة ووضوحها.
- الحق إذا بلغه العاقل النزيه، ظهر له صدقه، وإن جحده، فإنما يجحده استكبارًا، كما فعل هرقل، وقد دل القرآن على هذه الحقيقة في قوله: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا.}
- يقين هرقل بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، مع امتناعه عن الإيمان، يبيّن أن الهداية توفيق من الله، وأن الاستكبار قد يمنع قبول الحق حتى مع ظهوره.

فوائد فقهية

- مشروعية إرسال الرسائل الدعوية إلى الكفار لدعوتهم إلى الإسلام، ويدخل فيها ما يُكتب أو يُخاطَب به غير المسلمين اليوم من دعوة وتبليغ.
- التوقيع باسم "محمد عبد الله ورسوله" فيه بيان لأدب التواضع، واعتراف العبد بعبوديته لربه قبل رسالته، وهو أدب يُسن في الخطابات الشرعية.
- البدء بالبسملة في الرسائل والمعاملات سنة نبوية، ويُستحب الاقتداء بها في مراسلاتنا.

- تكرار النبي صلى الله عليه وسلم لعبارة "أسلِم تسلم" يدل على حرصه على إيصال المعنى بعبارة واضحة تجمع بين الدعوة والترغيب.
- تحذير النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل من إثم التبعة يدل على مسؤولية القادة في ضلال أتباعهم إذا منعوهم عن الهداية.

فوائد أخلاقية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على اختيار أفضل أصحابه لهذه المهمة يدل على أهمية اختيار السفراء والدعاة ذوي الهيبة والخلق الحسن.
- أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب مع هرقل مليء بالحكمة والرحمة، فلا تعالٍ ولا تهديد، بل دعوة بالحسنى، مع وضوح في بيان العاقبة.
- أمانة أبي سفيان في نقل الحقائق عن النبي صلى الله عليه وسلم رغم عداوته له آنذاك، درس في الصدق والإنصاف حتى مع الخصم.
- تأمل هرقل، وسؤاله التفصيلي عن النبي صلى الله عليه وسلم، يعلّمنا التثبت عند الحكم، والرجوع إلى أصحاب الخبرة عند التحري عن الأمور الكبرى.
- تفضيل هرقل لملكه على الإيمان يعكس أثر حب الجاه والمنصب في صدّ الناس عن الحق، وهو ما ينبغي الحذر منه.

فوائد دعوية

- الرسالة الدعوية لا تتغيّر بتغير المخاطبين، بل تبقى ثابتة في لهجتها وغايتها، سواء خوطب بها الفقير أو الملك.
- الداعية يبلّغ البلاغ نفسه دون أن يُغيّر في جوهر الدعوة لإرضاء أحد، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته لهرقل.
- موقف هرقل يُظهر أن بعض النفوس قد تصل إلى اليقين، لكنها لا تُسلم إلا إذا زالت عنها موانع الكبر والمصلحة الدنيوية.
- الحكمة في العرض، والتدرج في البيان، والسؤال عن تفاصيل الحال، من وسائل التأثير في المدعو كما فعل هرقل في استنطاق أبي سفيان.

ما يخالف الواقع

- كثير من المسلمين اليوم يقصرون دعوة الإسلام على بيئتهم ومحيطهم، ويغفلون عن عالمية الرسالة ووجوب تبليغها للأمم الأخرى، ولو بالوسائل الحديثة.
- بعض من يدعون إلى الإسلام اليوم يُخففون من معاني التوحيد أو يُجاملون على حساب العقيدة لأجل كسب رضا المدعوين، وهذا مخالف لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا بوضوح إلى ترك الشرك.
- في واقعنا، نرى طمسًا لهوية الدعوة في بعض البلاد، والتباسًا في الخطاب الدعوي، بحيث لا يُفهم منه ما هو الحق وما هو الباطل.

- ضعف اليقين عند كثير من الدعاة اليوم بقدرة الإسلام على التأثير في الأمم والشعوب الأخرى، حتى صار بعضهم يُحجّم الرسالة وكأنها عاجزة عن بلوغ الملوك والعقلاء.

- بعض الفرق من الخوارج في زماننا يجعلون خطاب الدعوة للسلاطين كفرًا أو نفاقًا، بينما سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تقرر خلاف ذلك، إذ خاطب هرقل وغيره بالرفق والحكمة والدعوة إلى الإسلام، لا بالتكفير أو التفسيق.

الفقرة الرابعة: دعوة إلى التوحيد... وتمزيقٌ قاد إلى الزوال

ما إن بعث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم رسالته إلى هرقل عظيم الروم، حتى حمل قلمه الشريف إلى مملكة أخرى طالما زاحمت الروم على السيادة وتنازعت معهم سلطان الدنيا، إنها بلاد فارس، مملكة الأكاسرة، حيث يتربع كسرى بن هرمز على عرشٍ يتكئ على قرون من الكبرياء والجبروت.

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا آخر، ليس من أجل الدنيا ولا السلطان، وإنما دعوة سماوية تحمل في طياتها نور التوحيد وهداية من الرحمن. واختار لحمل هذه الرسالة رجلًا من خيرة أصحابه، فارسًا عاقلًا شهما، هو الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، صاحب التاريخ العطر والمواقف الخالدة.

ومضى عبد الله، يحمل في يده كتابًا يفيض نورًا، لا يحمل كلمات ملك ولا سطور زعيم، بل هو كلام نبي يوحى إليه، كتب فيه صلى الله عليه وسلم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، فإن توليت فإن عليك إثم المجوس"...

فلما وقف الكتاب بين يدي كسرى، انتفخ صدره بالغرور، وغلت الدماء في عروقه المتعجرفة، كيف يُبدأ هذا الكتاب باسم محمد، واسم كسرى لا يُقدَّم؟! كيف يكتب إليه عبدٌ من رعاياه ـ كما زعم ـ يخاطبه بنداء فوق نداء الملوك؟!

فاستشاط غضبًا، وأخذ الرسالة بيديه المرتعشتين من الكبر، ثم مزقها شر ممزق، ظانًا أن بتمزيق الورق يُسكت صوت النبوة، وأن بإنكار الحرف يُطفأ نور السماء. وما علم أن ذلك الحبر الممزوج بالوحي، لا يُمحى بيد بشر، وأن ذلك الخط النبوي إنما خُط في سِفر التاريخ قبل أن يُخط على الورق!

وحين بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما فعله كسرى، لم يغضب لنفسه، ولم يثور انتقامًا لهيبته، بل أطلق كلمته التي لم تكن إلا وعدًا من السماء، فقال" **:مزّق الله ملكه كما مزّق كتابي** "*رواه البخاري*

وما هي إلا أيام وسنين، حتى بدأت نُذُر الزوال تتساقط على عرش كسرى، فاندلعت الفتن في مملكته، وتنازعت الأكاسرة على السلطان، وبدأت دويلة فارس تتهاوى من داخلها قبل أن تمسها سيوف المسلمين.

وجاء زمن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان النور الذي وعد به النبي صلى الله عليه وسلم قد عمّ الجزيرة، وامتدت الرايات حتى دكت حصون المدائن، وفتح الله على يدي المسلمين بلاد فارس، وسقط كسرى وسقطت معه عروش الطغاة، حتى قال بعض أهل التاريخ:

"ما بقي من بيت كسرى أحدٌ له شوكة، إلا وصار تحت أقدام المسلمين، كما أخبر النبي الأمين صلى الله عليه وسلم".

وكأن السماء نادت يومها :﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]
ذلك الذي مزق كتابك، قد مُزق ملكه، وبقيت أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم، لا تكتب اليوم إلى كسرى فحسب، بل تقرأ الدنيا كلها اسمك صباح مساء، وترفع الأذان باسمك خمس مرات في كل أفق، فما أعلاه من خلود!

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الدعوة إلى الإسلام دعوة ربانية، لا تنطلق من أطماع دنيوية أو حسابات سياسية، بل هي وحي من الله يُبلغ به نبي مرسل، وهذه خاصية رسالات السماء التي تستمد عظمتها من الله لا من الملوك.

- تقديم اسم النبي صلى الله عليه وسلم على اسم كسرى في الرسالة فيه تأكيد على أن مقام النبوة أعظم من كل سلطان أرضي، فلا سلطان يُعظم فوق دعوة الحق والتوحيد.

- موقف كسرى من تمزيق الرسالة مع أنها دعوة من الله فيه دلالة على أن الطغاة يردون الوحي لا لخلل في الحجة، ولكن لكبرٍ في نفوسهم وعلوٍ في الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

- وعد النبي صلى الله عليه وسلم بتمزيق ملك كسرى فيه إظهار لصدق النبوة وإعجاز الوحي، حيث وقع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم، فتحقق وعد الله للمرسلين بالنصر والتمكين.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم بعد تمزيق الكتاب يعلّم المؤمنين التوكل على الله، وأن أهل الإيمان لا يُهزمون بتمزيق الورق، لأن الله حافظ دينه ولو كره الكافرون.

فوائد فقهية

- إرسال الرسائل إلى الملوك وأهل الكتاب للدعوة إلى الإسلام يدل على مشروعية تبليغ الدعوة إلى غير المسلمين، ويُعد ذلك من الجهاد بالبيان.

- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للملوك صريحة: "أسلم تسلم"، مما يدل على أن الدعوة إلى الإسلام لا تُوارب، بل يُبين فيها التوحيد بوضوح، دون مجاملة أو تقديم مصالح دنيوية.

- استخدام عبارة "سلام على من اتبع الهدى" فيه تأصيل لما يُقال في مخاطبة غير المسلمين، وأن السلام الكامل لا يُطلق إلا على أهل الإسلام، بخلاف من خالف سبيلهم.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فإن توليت فإن عليك إثم المجوس" يدل على أن من وُلّي أمر قومٍ في الدين أو الدنيا كان عليه وزرهم إن أعرض عن الحق، وهو أصل في تحمل القادة أوزار أتباعهم إن ضلوا بهم.

فوائد أخلاقية

- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن حذافة رضي الله عنه لحمل الرسالة يعلّمنا أهمية اختيار من يمثل الإسلام ممن يُحسن البلاغ، ويجتمع فيه العقل والشجاعة وحسن الخلق.

- كسرى مزّق رسالة التوحيد بيده، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُقابل الإساءة بإساءة، بل رفع الأمر إلى الله ودعا عليه بدعوة نبوية، وهذه قمة الصبر وضبط النفس في مواجهة الإهانة.

- الكبرياء والغرور هما أول طريق السقوط، فقد هلك كسرى بفعله، وكان تمزيق الرسالة رمزًا على ما في قلبه من استكبار، فلما بطر الحق، ابتلاه الله بزوال المُلك.

- التاريخ لا يخلّد أصحاب التيجان، وإنما يخلد أصحاب الرسالات، فها هو ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يُتلى في العالم، بينما لا يُذكر كسرى إلا مقرونًا بالهزيمة والاندثار.

فوائد دعوية

- البلاغ إلى الناس كافة ولو كبر شأنهم هو من هدي الأنبياء، فلا يخشى الداعية سلطانًا ولا يمنعه مقام، لأن الدعوة أمانة لا يسقطها كبر الملوك.

- الدعوة الحقّة تُبنى على التوحيد لا على استرضاء الناس، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب من كسرى تحالفًا سياسيًا بل دعاه إلى الإسلام الصافي، وهو أول ما يجب على كل داعية.

- التاريخ يُعلّم الدعاة أن التغيير الحقيقي يبدأ بكلمة حق، وقد بدأت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم برسائل، فأنبتت دولًا، وأثمرت فتحًا، فليست الدعوة هينة.

- الثقة بالوعد الإلهي تقوّي قلب الداعية، فكما وعد النبي صلى الله عليه وسلم بزوال ملك كسرى وقد وقع، فليعلم الدعاة أن الله ناصر دينه ولو بعد حين.

مخالفات واقعية

- في زماننا يُقدَّم رضا الملوك والسلاطين على بيان التوحيد، فتُجامل العقائد الباطلة في سبيل المصالح الدنيوية، وهذه خيانة لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم.

- ضعف اليقين في وعد الله بالنصر جعل كثيرًا من المسلمين يظنون أن الدعوة لا تقوم إلا تحت راية القوة السياسية، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ برسائل لا تحمل إلا التوحيد.

- تمجيد الطغاة وتبرير جرائمهم وإطفاء صوت الدعاة هو واقع شبيه بما فعله كسرى، حيث يتكرر تمزيق رسائل الحق وإنكار صوت الوحي بصور جديدة كإغلاق المنابر أو محاربة العلماء.

- غياب الصبر والحكمة عند بعض الدعاة اليوم جعلهم يقابلون الإهانة بالتهور لا بالحكمة النبوية، فخسروا هيبة الدعوة وعمق أثرها.

الفقرة الخامسة: المقوقس... حين طَرَقَ النورُ بابَ قلبٍ أغلقَه الخوفُ على تاجٍ زائل

في تلك الليالي المباركة من ليالي المدينة، حيث يتنزل الوحي، ويُضاء القلب قبل المصباح، وحيث النبي محمد صلى الله عليه وسلم يُحمل همَّ تبليغ الرسالة إلى مشارق الأرض ومغاربها، بعث الحبيب صلى الله عليه وسلم برسالة نورٍ جديدة، تشقُّ عباب البحر، لتُعرَض على قلبٍ حُفّ بالخوف، وغُلّف بغشاء الملك والسلطان... إنها الرسالة التي حُملت إلى المقوقس، عظيم القبط، حاكم مصر والإسكندرية، ذاك الذي طأطأت له الرؤوس، ولكن لم يسجد قلبه بعد لما سجدت له الجباه.

اختار النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة الصحابي الجليل **حاتم بن أبي بلتعة** رضي الله عنه، رجلٌ يحمل في صدره صدق العقيدة، وفي فؤاده نور النبوة، وفي لسانه حكمة المرسلين.

وانطلق حاتم، لا يحمل بين يديه رسالة بشر، بل يحمل وحيًا مختومًا بكلمات خالدة:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من محمدٍ عبدِ اللهِ ورسولِه، إلى المقوقس عظيم القبط، **سلامٌ على من اتبع الهدى**، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط) *رواه مسلم وغيره*

ما أروع تلك الكلمات! فيها دعوة بالتي هي أحسن، وتذكير بالعدل، وعرض للحق بلا إكراه، كما قال تعالى: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)** آل عمران: ٦٤

وصل حاتم مصر، وما أرهب الموقف! قصورٌ شاهقة، وحُجّابٌ وجند، وعروش تتمايل، وأبواب تُغلق، ولكنه لم يخف. فالموفد من محمدٍ صلى الله عليه وسلم لا يقف على باب مخلوق خائفًا، بل يقف شامخًا، يعلوه نور الرسالة، وعزة الإيمان.

دخل على المقوقس، الرجل الذي عُرف بالحكمة والرزانة، وقرأ المقوقس الرسالة، ثم التفت إلى حاتم، وسأله عن هذا النبي... فحدّثه الصحابي بأجمل ما يُحدَّث به: عن محمدٍ الصادق الأمين، الطاهر في نسبه، الكريم في خلقه، العادل في حكمه، الرحيم بأمته... حتى رقّ قلب المقوقس، واهتز وجدانه، وقال" :لقد نظرت في أمر هذا الرجل، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، وليس بساحرٍ ولا كاهن، بل وجدت أمارات النبوة في وجهه وكلامه، وسأفكر في أمره".

آهٍ يا مقوقس! لو أن القلب الذي رأى النور أذن له أن يسكن، لو أن الفكر الذي اقتنع ترك للحق أن يمضي، لكنّ الخوف على التاج غلّف البصيرة، وقيد الخطى.

تردد المقوقس، ولم يسلم، ولكنّه لم يردّ الرسالة ردَّ استهزاء، بل ردّ ردًّا لطيفًا، وأكرم المبعوث، وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم هدايا عظيمة، منها:

جاريتان :**مارية القبطية** وأختها سيرين. وبغلة بيضاء تُسمى **الدلدل**، وألف مثقال من الذهب، وبعض الكسوة والعطر.

فقبل النبي صلى الله عليه وسلم الهدايا، وتزوج مارية، فولدت له ابنه **إبراهيم**، الذي لم يعِش طويلًا، فلما مات، بكى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاء الأب الحاني، وقال قولته المؤثرة" :إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون) .*رواه البخاري ومسلم*

هكذا كانت القصة... قصة رجل رأى النور ولكن غلبه الخوف، وسمع الحق ولكن أخرسه الطمع، وارتعش قلبه للصدق، لكن خشي أن يفقد الملك. وصدق الله العظيم إذ قال **(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)**]الحج: ٤٦[

فما أشبه اليوم بالأمس، كم من مقوقس في هذا العصر؟! يعرفون الحق، يلمحون النور، لكنهم لا يتبعونه، لأنهم يخشون أن تسقط التيجان من فوق رؤوسهم، ولا يعلمون أن التاج الحقيقي هو تاج الإيمان، لا تاج الذهب والفضة.

.الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

- إرسال النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس وغيره من الملوك يدل على عالمية الرسالة المحمدية، وأن الإسلام دعوة شاملة للبشرية كلها لا تختص بقوم أو مكان.

- الرسالة النبوية التي بُدئت بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" تؤكد أن أصل هذا الدين هو التوحيد، والرحمة، والهداية، لا العنف والإكراه.

- قوله صلى الله عليه وسلم: "أسلم تسلم" يؤكد أن النجاة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالإسلام، وأن الكفر سبب الهلاك الأبدي ولو عَظُمَ شأن الكافر في الدنيا.

- توقير النبي صلى الله عليه وسلم للمقوقس رغم كفره الظاهر يُظهر خلق الأنبياء في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي سمة الأنبياء ودعاة الحق.

- تأثر المقوقس بصفات النبي صلى الله عليه وسلم يعكس أن علامات النبوة كانت ظاهرة واضحة لكل ذي فطرة نقية، مما يدل على أن الحجة قائمة على من سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وبلّغته الدعوة.

- قبول النبي صلى الله عليه وسلم الهدايا من المقوقس يدل على جواز قبول الهدايا من غير المسلمين في غير مواضع العداوة، ما لم تكن مصحوبة بمذلة أو شبهة.

فوائد فقهية

- بعث النبي صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى الملوك والعظماء هو أصل في جواز مراسلة الكفار بدعوتهم إلى الإسلام، وهذا أصلٌ من أصول الجهاد الدعوي.

- تصرف المقوقس بعدم قبول الإسلام وقبوله الدعوة بلين، دون إساءة، يدل على أن من بلّغته الحجة ثم لم يُسلم، لا يُعذر إن قامت عليه الحجة، حتى لو أحسن السلوك الظاهري.

- إرسال الصحابة رسلًا وسفراء يدل على جواز التمثيل الدبلوماسي في الإسلام ضمن الضوابط الشرعية، بل وفضله عند توفر شروطه.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فإن توليت فإن عليك إثم القبط" يُستدل به على أن القادة مسؤولون عن أقوامهم، فإذا ضل القائد أضلّ، وإن اهتدى أنقذهم.

- قبول النبي صلى الله عليه وسلم لهدايا المقوقس وتزوجه مارية منها يدل على جواز تزوج الأمة الكتابية إذا صلحت ورضي بها المسلم، وهذا أصل في الفقه.

فوائد أخلاقية

- إخلاص حاتم بن أبي بلتعة رضي الله عنه في تبليغ الرسالة، وشجاعته أمام الملوك، درس في الثبات والثقة بدعوة الحق مهما كان خصمك عظيمًا.

- رد المقوقس اللبق رغم عدم إسلامه يُعلمنا أن الحق قد يُقابل أحيانًا بأدب لكنه لا يُتبع، مما يحث المسلم على عدم الانخداع بالظاهر حتى يُرى أثر القبول الحقيقي.

- بكاء النبي صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم، رغم أنه نبي، يدل على إنسانية النبي صلى الله عليه وسلم، ورقة قلبه، وعمق شعوره الأبوي، وهو تعليم لنا أن الرحمة ليست ضعفًا.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولا نقول إلا ما يرضي ربنا" يعلمنا الانضباط الشرعي حتى في أشد مواقف الحزن، في زمن تفيض فيه الألسن بالاعتراض والتسخط.

- إنكار المقوقس للسحر والكهانة عن النبي صلى الله عليه وسلم بناء على صفاته، يظهر أثر الصدق وعلو الأخلاق في إسقاط شبهات المبطلين من تلقاء أنفسهم.

فوائد دعوية

- الرسالة النبوية نموذج للدعوة الموجَّهة، المبدوءة بالسلام، المنتهية بعرض الإسلام دون غلظة، وهي منهج متكامل في دعوة غير المسلمين.

- وصف المقوقس للنبي صلى الله عليه وسلم بالصادق العادل الرحيم، يدل على أن الدعوة تكون أبلغ إذا تحلى الداعية بالصفات النبوية العملية لا بمجرد القول.

- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لصحابي مثل حاتم، فيه إشارة لاختيار الدعاة المناسبين لطبائع الأقوام الذين يُدعون، فالدعوة علم وفن.

- تردد المقوقس بسبب التاج يعلم الدعاة أن العقبات أحيانًا تكون دنيوية بحتة، فلابد من معرفة ما يمنع الناس من قبول الحق ومعالجته بالحكمة.

تكرار "أسلم تسلم" هو دعوة مختصرة جامعة، ينبغي أن تكون من أساليب الدعوة المعاصرة، بكلمات قليلة ومعانٍ عظيمة.

ما يخالف الواقع

- تقديم الدنيا على الدين: كم من الناس اليوم يعرفون الحق ويعترفون به، لكنهم يؤثرون عليه المناصب والواجهات الدنيوية، كما فعل المقوقس خوفًا على التاج.

- ضعف أثر النور: كثير من المسلمين يرون نور الدين، ويُعرض عليهم، ولكنهم لا يدعونه يسكن في قلوبهم، لأن الغلاف المادي والطموح الدنيوي يمنع النور من الدخول.

- انبهار الناس بالمظاهر: دخول حاتم إلى القصور لم يُؤثر فيه، أما اليوم فإن بعض الدعاة يُفتنون بالمظاهر والمناصب فيتغير خطابهم ويفتر عزمهم.

- التكريم الظاهري دون تغيير داخلي: كما أكرم المقوقس حاتمًا وأهدى للنبي صلى الله عليه وسلم، فكثير من الناس اليوم يُظهرون الاحترام للدين ولكنهم لا يلتزمون به في حياتهم.

- البكاء في غير طاعة: بينما بكى النبي صلى الله عليه وسلم بكاء الطاعة والرضا بأمر الله، صار بعض الناس اليوم يبكون جزعًا وتسخطًا على قضاء الله، وهو خلاف السنة.

الفقرة السادسة: النجاشي... الملك الذي أنصف بلا لقاء، وآمن بلا رؤيا، وسجد لله من وراء المحيطات

هناك في أرض الحبشة، حيث يسكن المطر أطراف النهار ويبيت، وتخضرّ الأرض كأنها سجادةٌ من الجنة فرشتها السماء، وتهبّ الرياح محمّلة بعبير السلام، ولد قلبٌ نادرٌ في زمانه، نَبَض بالعدل والرحمة، قبل أن يسمع برسالة محمد

صلى الله عليه وسلم. إنه النجاشي، الملك الذي لم تقم له دولةٌ فقط، بل قامت في قلبه دولةُ الإيمان، وإن لم تكتحل عيناه برؤية خير الأنام.

حين اشتدت وطأة الجحود في مكة، وضاق صدر الأرض على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، واشتعلت نار العذاب في دروبهم، أشار عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفروا إلى أرضٍ لا يُظلم فيها أحد، إلى ملكٍ لا يُخاف جوره، ولا تُخشى سُلطته. قال لهم نبيّهم:
"إن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا)".رواه أحمد وغيره بإسناد حسن.(

وكانت تلك الأرض هي الحبشة، وذاك الملك هو أصحمة بن أبجر، النجاشي العادل، الذي حمل في قلبه من الفطرة ما أعدّه لتلقي النور، ولو من وراء ألف ميل، ومن غير أن يرى وجه صاحبه.

وصلت جموع المهاجرين إلى أرضه، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فدخلوا عليه، وقد خالط الخوف صدورهم، لكنهم ما باعوا دينهم، ولا غيّروا قناعتهم، ولمّا سأله عمرو بن العاص ـ وكان يومئذٍ على شركه ـ أن يسلمهم إليه، طلب النجاشي أن يسمع منهم أولًا.

فألقى جعفر تلك الكلمات التي رجّت أركان القصر، وحدّثه عن الإسلام، وقرأ عليه شيئًا من سورة مريم، حتى اغرورقت عينا الملك بالدموع، وقال قولته الخالدة:
"إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة".

فحمى المهاجرين، وأكرم وفادتهم، وصدح بالحق، وإن أخطأه اللقاء.

وبعد سنوات، وبعد صلح الحديبية، وفي زمن بَدَأت فيه رسائل النور تتقاطر على ملوك الأرض من بين يدي خير البشر صلى الله عليه وسلم، خطّ النبي صلى الله عليه وسلم رسالةً إلى النجاشي، حملها إليه الصحابي عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، وفيها:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم من محمدٍ رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد:
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخه"...

فلما قرأ النجاشي الرسالة، انتفض قلبه خشوعًا، وانسكبت دموعه على خديه الطاهرين، وقال بلهجة المُصدّق المُحب:
"أشهد أن هذا الذي جاء به محمد حق، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدميه".

فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم جوابًا كريمًا، فيه الإقرار برسالته، وأرسل إليه بهدايا طيبة، وأعلن إسلامه إيمانًا صادقًا، لا تدفعه مصلحة ولا يجرّه نفاق.

ولم يَرَ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الملك العادل، لكنه حين وصله خبر وفاته، رفع يديه إلى السماء، وكأنه يريد أن يضمّه من وراء السحاب، وقال لأصحابه" :**إن أخاكم النجاشي قد مات، فقوموا فصلوا عليه)** متفق عليه

فصلّى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب، وهي منقبةٌ لم تقع لأحدٍ قبله ولا بعده من الملوك.

ولعل في ذلك قوله تعالى:
}وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ] {آل عمران: ١٩٩[

هكذا كان النجاشي... ملكًا على العرش، وعبدًا في محراب الإيمان. لم يطلب لقاءً، لكن الله بلّغه النور، فاستضاء به، وسجد لله، وآمن بالرسول صلى الله عليه وسلم، فكان ممن قال الله فيهم{ :**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**] {البقرة: ٣.[

مات النجاشي جسدًا في الحبشة، لكن روحه صعدت من أرض الخُضرة والمطر إلى جوار سيد البشر في جنّاتٍ ونهر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الحق ليس مشروطًا برؤية النبي صلى الله عليه وسلم، فالله يهدي من يشاء، ويُدخل في رحمته من صدّق بالغيب دون أن يراه، كما آمن النجاشي.
- رسالة النبي صلى الله عليه وسلم موجهة إلى جميع الناس، ملوكًا ورعية، عربًا وعجمًا، فهي رسالة عامة خالدة، لا تخص قومًا دون قوم.
- تصديق النجاشي بالرسالة وبأن عيسى عبدٌ لله وكلمته، إبطال لعقيدة النصارى المحرفة، وإثبات لتوحيد الله وتنزيهه عن الشرك.
- ما حصل من النجاشي هو تطبيق لقوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}، وهذا يدل على فضل الإيمان بالغيب، وعلو منزلة أهله عند الله.
- من عقيدة أهل السنة أن الإسلام يجبُّ ما قبله، وأن من آمن وصدّق واستقام، فإنه يُغفر له ما قد سلف، وهذا ظاهر في إسلام النجاشي.
- صلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه وهو في الحبشة، دلالة على أن الشهادة له بالإيمان تُلحقه بالمؤمنين، وإن لم يُعرف حاله للناس.

فوائد فقهية

- في الحديث دليل على مشروعية صلاة الغائب، وقد فعلها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، وهي سنة مؤكدة عند من لم يُصل عليه في بلده.
- الرسائل الدعوية للملوك دليل على جواز بل وجوب تبليغ الدعوة إلى أهل السلطة والحكم، بالأسلوب الحكيم والبيان الواضح.
- تضمين الرسائل ذكر صفات الله الحسنى، وبيان العقيدة الصحيحة، يُعدّ تعليمًا للدين ودعوة للتوحيد، لا يقتصر على النصوص المجردة.
- في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للنجاشي، تأدب شرعي في المكاتبة مع غير المسلم، وبيان أن التبليغ لا يعني التجريح ولا العدوان.
- من الفقه أن الهدايا بين المسلمين وغيرهم إن كانت على وجه حسن العلاقة والبلاغ، لا تُعدّ موالاة محرمة، كما قبلها النبي صلى الله عليه وسلم من النجاشي.
- يُستفاد من القصة اعتبار دار الكفر التي لا يُظلم فيها أحد ملجأ للمضطهدين المسلمين إن لم يكن لهم مأوى، على أن تُصان عقيدتهم فيها.

فوائد أخلاقية

- عدل النجاشي رغم كونه نصرانيًا يومها يدل على أن العدل خُلق فطري فاضل، ويكون سببًا للهداية ولقبول الحق.
- تواضعه حين قال: "لو كنت عنده لغسلت عن قدميه" يُظهر عظمة الخلق، ويكسر كِبر الملوك الجبابرة الذين يعاندون حتى مع وضوح الحق.
- استماعه بإنصاف، وعدم التسرع بالحكم رغم مكانته، دليل على خُلُق حسن في التعامل مع المختلفين.
- حسن معاملة النجاشي للمهاجرين، وإكرامهم، يُبرز أخلاق الحماية والنجدة ونصرة المستضعفين، وهي خلق نبيل في كل زمان.
- إخلاص النجاشي، وإيمانه الصادق دون رياء أو طمع في دنيا، يدل على صفاء النفس، ونقاء القلب حين تُقبل على الحق.
- خجل المهاجرين من الظلم، وخوفهم مع تمسكهم بالدين، صورة أخلاقية نادرة للثبات على المبادئ في وجه الفتنة.

فوائد دعوية

- الموقف يُعلّمنا أن الكلمة الصادقة الخالصة قد تفتح قلب ملك في قصره، كما فعل جعفر بن أبي طالب، وأن البلاغ إذا صدر من الصدق وصل.
- تلاوة القرآن على غير المسلمين، خاصة في مواضع ترقّق القلوب كقصة مريم، وسيلة دعوية مؤثرة ومجربة، كما أثر في النجاشي.
- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للرسائل بعد أن ثبت صلح الحديبية فيه دلالة على أن الوقت المناسب للدعوة يُراعى ويُنتقى.
- الرسائل النبوية كانت مليئة بالتوحيد والبيان العقائدي، ما يُظهر أهمية البدء بالدعوة إلى أصول الدين، لا إلى الفروع.
- جعفر رضي الله عنه لم يُخفِ شيئًا من دينه، بل صدح به رغم الخوف، وهذا درس للدعاة أن الصدع بالحق لا يمنع من الحكمة.
- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانت دعوة للحق والرحمة، لا للمصلحة ولا الإكراه، والنجاشي آمن لأنه وجد فيها النور.

مخالفات واقعية

- قلّ من يتّصف اليوم بعدل النجاشي، فترى كثيرًا من الحكّام يظلمون، ولا يسمعون من المظلوم قبل أن يحكموا عليه، بل يناصرون الباطل بسلطانهم.

- أصبح الكثير من المسلمين يستحيون من إعلان دينهم في المجتمعات الغربية، بينما المهاجرون الأوائل ثبتوا رغم الخوف والتشريد.

- يُرى اليوم من يتكلم في العقيدة أمام غير المسلمين كلامًا مجملاً مميعًا، بينما النبي صلى الله عليه وسلم بيّن عقيدة عيسى عليه السلام بوضوح وجرأة في رسالته.

- بعض الناس يظنون أن الإسلام لا يصل إلى الناس إلا بالمواجهات والخطب الصاخبة، بينما هذه القصة تثبت أن بلاغًا صادقًا واحدًا يهدي الله به من يشاء.

- ضاعت اليوم عند بعض الدعاة فقه الموازنة في مخاطبة الملوك وأهل السلطة، فتارة يُفرطون بالمداهنة، وتارة يُغلون بالتكفير والسبّ، وهدى النبي صلى الله عليه وسلم بين ذلك.

- كثير من الدول التي تُسمى إسلامية لا تؤوي المظلومين، بل تُسلّمهم للجلادين، بينما النجاشي وهو نصراني يومها، آوى المسلمين وأكرمهم.

الفقرة السابعة :الحارث بن أبي شمر... المُتكبّر الذي أدار ظهره للخلود

من تخوم الشام، من تلك الأرض التي تبتهج بزهورها وتخضرّ سنابلها وتبتهج جنّاتها، خرج رجلٌ من علية القوم، يلفّه المجد الدنيوي من كل جانب، ويتبختر على عرشٍ تحفّه الألقاب والأوسمة، إنه الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك من ملوك العرب النصارى، وحاكم دمشق ووليُّ قيصر الروم على الشام. رجلٌ جمع بين الجاه والسلطان، وبين رفعة النسب ونفوذ السيف، لكن قلبه كان خاوياً من نور الإيمان، موصَداً دون دعوة السماء.

في زمن امتدت فيه الرحمة من المدينة إلى الآفاق، بعث النبي صلى الله عليه وسلم رسالته المباركة إلى هذا الملك المتوَّج، يدعوه بها إلى أن يخلع عباءة الكبر، ويلبس رداء التوحيد، وينجو بنفسه من جحيم الباطل، قبل أن تطويه صفحات النسيان الأبدي.
وقد حمّل هذه الرسالة نورًا من نور النبوة، الصحابي الجليل شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه، فمضى غير هيّابٍ ولا وجل، يحمل كلمات الله إلى ملكٍ متعجرف، لا يرى فوق جبينه إلا تاج السيادة ولا يسمع فوق صوته إلا صدى العروش.

وفي الرسالة النبوية، قال صلى الله عليه وسلم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.
أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يجعل الله لك أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين".

كلماتٌ من السماء، رقراقة كالمطر، لكنها وقعت على قلبٍ قد قساه الجبروت، وطغى عليه زهو الملك، فما ازداد بها إلا نفورًا.
فما إن فرغ شجاع بن وهب من تلاوة الرسالة، حتى انتفخ الكبر في صدر الحارث، وعلت نبراته الغاضبة، وصاح صياح المتجبر المصدود:

"من هذا الذي يكتب إليّ بهذا الكلام؟! لولا أن الرسل لا تُقتل، لما تركت هذا الرجل يعود حيًّا"!

ثم مضى مسرعًا إلى هرقل ملك الروم، يريد أن يُشركه في ردّ الرسالة، ويتقوّى به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، متوهّمًا أن الجاه عند المخلوق يعصم من دعوة الخالق!
لكن هرقل، على ما كان عليه من كفر، تمالك نفسه، وأظهر حنكةً لم يكن الحارث من أهلها، إذ لم يندفع إلى القطيعة، بل تأمّل، وتريّث، وأدرك شيئًا من النبوة، وهو القائل لاحقًا كما في الصحيحين:

"فلو كنت أعلم أني أخلص إليه لتجشّمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) ".رواه البخاري ومسلم(

أما الحارث، فقد غلبته شهوة السلطان، وقهره حبّ التاج، فآثر الدنيا على الآخرة، وأعرض عن الدعوة التي لو قبِلها لخلّده التاريخ، ولسُجّل في سفر المهتدين إلى قيام الساعة.
لكنها الكبرياء... التي أوردت أممًا موارد الهلاك.
قال الله عز وجل (فَأَمَّا ثَمُودُ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فصلت: ١٧ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)النمل: ١٤

لقد خسر الحارث الخلود، لا لأن النور لم يُعرض عليه، ولكن لأنه أغلق عينيه خشية أن يرى، وسدّ أذنيه لئلا يسمع نداء الفطرة، وتمنطق بالكبرياء فمات قبل أن يولد الإيمان في قلبه.

وهكذا... يُعرض الحق، فيراه قومٌ فيقبلونه، فتعلو بهم الدرجات في الدنيا والآخرة، ويعرض عنه آخرون، فيُطوى ذكرهم بين صخور التاريخ، وتبقى أسماؤهم شاهدًا على الخسارة الأبدية.
وقد صدق نبي الهدى صلى الله عليه وسلم حين قال:

"ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: شيخ زانٍ، وملك كذّاب، وعائل مستكبر) رواه النسائي وحسنه الألباني

فما أكبرها من خسارة حين يُعرض الإنسان عن الحق، لا جهلاً به، ولكن استكبارًا عليه!

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الرسول صلى الله عليه وسلم بلّغ دعوة التوحيد للعالمين، وبيّن أن النجاة لا تكون إلا بالإيمان بالله ورسوله، وأن التولي عنها يستوجب العقوبة.
- الله سبحانه جعل قبول الإيمان سببًا لمضاعفة الأجر، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "أسلم تسلم، يجعل الله لك أجرك مرتين"، وهذا أصل من أصول العقيدة في عدل الله وفضله.
- الاستكبار عن دعوة التوحيد هو مانع قلبي يمنع الهداية، وقد ضرب الله به مثلًا لأقوام أهلكهم بسبب عنادهم وجحودهم، رغم علمهم بالحق كما في قوله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا.}
- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم موجهة لكل أحد، فلا أحد فوق أن يُدعَى إلى الإسلام مهما بلغ من ملك أو جاه، مما يثبت عالمية الرسالة ووجوب قبولها.
- الخلود في الجنة مربوط بالإيمان والاتباع، وليس بالجاه أو النسب أو السلطان، كما خُلّد أصحاب الإيمان وطُويت صحائف أهل الكبر.
- النبي صلى الله عليه وسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبد الله ورسوله، وفي هذا تأصيل لمعنى الشهادتين، ومركزية هذين الأصلين في الإسلام.

فوائد فقهية

- يحرم قتل الرسل والرسل يُؤمّنون ولو كانوا يحملون رسالة دعوة إلى دين جديد، وهذا من أعراف الجاهلية التي أقرها الإسلام تأديبًا لا تأصيلًا، ومخالفتها تُعد من أعمال الظلم والعدوان.
- مضاعفة الأجر لمن آمن من أهل الكتاب واردة في النصوص، لكنها مشروطة بتحقق الإيمان الصادق، لا بمجرد الانتساب، لقوله صلى الله عليه وسلم: "يجعل الله لك أجرك مرتين."
- الرد على الدعوة بتهديد الرسل يُعد محاربة لله ورسوله، وهو من صور الجحود العملي التي تزيد الكفر كفرًا.
- حمل الرسائل والدعوة إلى الله هو من مهمات الصحابة، وكان يُبعث بها رجال صدق، وفيه جواز إرسال الدعوة المكتوبة للحكام والملوك.

فوائد أخلاقية

- الاستكبار عن قبول الحق يقتل النور من القلب، ويمنع الإنسان من النجاة ولو كانت أمامه.
- التأني والتثبت عند عرض الدعوة، كما فعل هرقل، أدعى للفهم والهداية من الاندفاع والتهور كما فعل الحارث.
- من أخلاق العظماء أن يتواضعوا أمام الحق، ولو لم يؤمنوا به، أما التكبر فهو سمة النفوس الخاوية التي لا ترى إلا ذاتها.
- الزهد في الدنيا والسلطان سبيل إلى الآخرة، أما التشبث بهما على حساب الإيمان فهو طريق إلى الخسارة والندم.
- من لا يسمع نداء الفطرة، ولا يتأمل دعوة السماء، قد يُكتب له الضياع رغم ما يُظهره من القوة والملك.

فوائد دعوية وتربوية

- من تمام البلاغ أن تُرسل الرسالة مع رجل شجاع، ثابت، لا يخشى في الله لومة لائم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال شجاع بن وهب رضي الله عنه.
- الدعوة لا تنتقي المدعوّ على أساس جاهه أو مقامه، بل تُبلَّغ لكل أحد، فإن قُبلت كان فيها النجاة، وإن رُدّت كانت الحجة قائمة.
- ينبغي للداعية أن يصبر على ردود الفعل المتعجرفة من المدعوين، فإن شجاع بن وهب رضي الله عنه لم يجزع رغم تهديد الحارث له.
- بيان حال الأمم السابقة الذين استحبوا العمى على الهدى، يُعد عبرة للمكذبين المعاصرين، وفيه ترسيخ لمعنى السنن الإلهية في التعامل مع من أعرض عن الحق.

ما يخالف الواقع

- رؤية بعض الناس أن أهل المال والسلطان في غنى عن التذكير والدعوة، وتركهم يتيهون في الدنيا دون نُصح.
- عدم إرسال الدعوة إلى بعض الجهات أو الشخصيات المؤثرة بدعوى أن لا فائدة من ذلك، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الملوك، وأوصل إليهم الحق مكتوبًا.
- جرأة بعض الطغاة على دعوة الإسلام، وتهديد دعاته، بل والتضييق عليهم، كما فعل الحارث بن أبي شمر، وهذا يتكرر اليوم بأساليب شتى.
- انخداع كثير من الناس ببريق الدنيا، واعتقادهم أن السلطان يمنح النجاة، بينما في الواقع قد يكون سببًا للهلاك إن لم يُستخدم في طاعة الله.
- انتشار الكبر العملي في رفض النصوص الشرعية أو السخرية من الدعاة، بدعوى التحضر أو العصرية، وهذا مشابه لحال الحارث حين ردّ الدعوة متكبرًا.

الفقرة الثامنة :هوذة بن علي... الملك الذي ساوَم فخسر الطريق إلى الخلود

في قلب جزيرة العرب، هناك حيث تتعانق الرمال والنجود، وتعلو ربى اليمامة بسُهولها وبطاحها، وُجد رجلٌ تربع على عرش قومه، لا تنقصه فراسة الملوك، ولا دهاء الزعماء. كان اسمه **هوذة بن علي الحنفي**، ملك اليمامة وسيد قومه من بني حنيفة.

تميز بالحكمة السياسية والدهاء الدبلوماسي، وتفطّن إلى مكانه بين القبائل، لكنّه رغم ذلك كان قلبه موصدًا عن نور الحق، وستره غشاء من حب الجاه وسكرة المُلك.

بلغت مكانته النبيَّ الكريم محمدًا صلى الله عليه وسلم، فعزم على أن يبلّغه دعوة التوحيد كما بلغها غيره من الملوك. فأرسل إليه رسولًا من خير أصحابه، **سليط بن عمرو العامري** رضي الله عنه، حاملاً كتاب النبوة، وكلمات النور، يدعوه فيها إلى الإسلام، ويُنذره من الإعراض، كما قال الله تعالى**{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا }**]الأعراف: ١٥٨[
{وَأَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ] {الشورى: ١٣.[

فقرأ هوذة كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسّ بجلال الدعوة، وجمال البيان، وهزّه صدق الخطاب، لكنه... لم يكن ممن تطهّرت نفوسهم، ولا من الذين يستجيبون لله والرسول إذا دعاهم لما يحييهم.
فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بردٍ فاسد النية، ملوث الغرض، قائلاً:
"ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، فإن جعل لي محمد من الأمر شيئًا أتبعه"!
أراد أن يشتري النبوة بمنصبه، وأن يساوِم على الرسالة بحطام من الدنيا! ظنّ أن الإسلام يُعطى لمن يفاوض، ويُساوَم عليه كما يُساوَم على الدنيا! ونسِي قول الله تعالى**{يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا دِينَ اللَّهِ لَعِبًا وَلَهْوًا]** {الأعراف: ٥١.[

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ممن يُساوِمون على العقيدة، ولا من يبيعون دينهم في سوق السياسة. فردّ عليه بحسم النبوة وقوة الإيمان، قائلاً**"لا، ولا كرامة لك في الإسلام، ولا يُستأكل بهذا الدين".**
فانكفأ هوذة على عقبيه، وأعرض عن دعوة الحق، وما هي إلا أيام معدودة حتى أدركته منيته، فقُبض على كفره، لم يُمهل للتوبة، ولم يُعط مهلة للإيمان.

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر موته، فقال قولته الموحية" :**أما هو فهلك في غبراء من قومه "**.رواه الطبري في *تاريخه*، وابن سعد في *الطبقات*، بإسناد حسن.

مات هوذة وقد ضيّع الفرصة التي تُكتب بحروف من نور، مات وهو قاب قوسين أو أدنى من الخلود بين صفوف المهتدين، لكنه آثر جاهًا فانٍ، ومُلكًا يزول، فضلّ الطريق إلى الجنة، واختار العمى على الهدى.

لقد ضرب لنا النبي صلى الله عليه وسلم مثالًا في الثبات والعزة، في رفض المساومة على هذا الدين، فقد جاء في الحديث:
"واللهِ لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ ما تركتُه حتى يُظهِرَه الله أو أُهلِكَ دونَه] ".رواه ابن هشام في السيرة، وهو حسن بشواهده.[

فليت شعري... كم من ملكٍ سجد لجاهه قومه، ورفعه الناس، لكنّه عند الله لا يساوي جناح بعوضة؟! وكم من عبدٍ آمن من قلبه، فكان عند الله خيرًا من ملء الأرض من أمثال هوذة؟

إنها الموازين الربانية، لا تُقاس فيها القلوب بالعرش، بل يُوزن فيها الصدق والإيمان، ويُرفع بها المتواضعون، ويُخذل بها المتكبرون والمساومون.

الفوائد المستفادة من الفقرة

◆ .فوائد عقدية

- الإيمان الحق لا يُنال بالمساومة ولا يُشترى بالمناصب، بل هو توفيق من الله لمن أخلص نيته وصدق قلبه.
- النبوة منصب رباني، لا تُنال بالحيلة ولا بالطلب، وإنما يصطفي الله لها من يشاء من عباده.
- الإعراض عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد بلوغها، مع معرفتها، يُعد كفرًا وجحودًا يوجب الهلاك.
- من دلائل النبوة صدق الموقف وثبات المبدأ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يساوِم على العقيدة رغم إغراء المناصب.
- مَن مات على الكفر بعد قيام الحجة عليه لا يُمهل ولا يُرجى له نجاة، وقد توعّده الله بالهلاك والخذلان.
- الدين عند الله واحد لا يقبل التفاوض ولا التعديل، ومن أراد الأخذ به بشروطه فقد اتخذ دين الله لهوًا ولعبًا.

فوائد فقهية

- لا يُشترط في قبول الإسلام تقديم المناصب أو المكاسب، بل يُشترط فيه الإخلاص لله والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم.
- الرد على المساومة في الدين يجب أن يكون واضحًا لا مداهنة فيه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- من ترك الإسلام وعرض عليه فلم يقبله إلا بشرط، فإن شرطه مردود وبقاؤه على كفره واضح.
- إذا مات الكافر بعد الدعوة والبيان دون توبة، فإنه يُحكم عليه بالموت على الكفر، ولا يجوز الترحم عليه.

فوائد أخلاقية

- الجاه والمنصب قد يُعمِي القلب عن رؤية الحق إذا لم يُزَكَّ القلب بالإخلاص والتواضع.
- رفض النبي صلى الله عليه وسلم للمساومة يُعد قدوة في الثبات على المبدأ والعزة في الموقف.
- من علامات الخذلان أن يُعرَض على الإنسان الحق واضحًا فيرفضه طمعًا في دنيا زائلة.
- المؤمن يقدّم طاعة الله ورسوله على كل حظ من حظوظ النفس، ولو كان مُلكًا عظيمًا.

فوائد دعوية وتربوية

- الداعية يجب أن يكون حازمًا في موطن العقيدة، ولا يقبل المداهنة في أصول الدين.
- من البلاغة الدعوية إرسال من تُحسن به الدعوة كحال سليط بن عمرو رضي الله عنه.
- المساومة على الدين من أساليب أعداء الحق، ويجب بيان فسادها للناس.
- النبي صلى الله عليه وسلم ضرب أعظم الأمثلة في الصدع بالحق حتى مع الملوك والزعماء.

ما يخالف الواقع

- قبول بعض الدعاة اليوم التنازل عن بعض أصول الدين لأجل القبول السياسي أو الشهرة الإعلامية.
- إشراك المناصب والجاه في نية الدخول في الإسلام من بعض ضعاف النفوس أو المترددين في الحق.
- مداهنة بعض من ينتسب للدعوة لأهل البدع أو أهل النفوذ طمعًا في مكانة دنيوية.
- كثرة المساومات في ساحات العمل الدعوي على حساب التوحيد والمنهج الصحيح.
- تصدر بعض من لا يصلحون للبلاغ والتبليغ لدعوة الملوك والزعماء، بلا علم ولا حكمة، مما يُفسد ولا يصلح.

الفقرة التاسعة :المنذر بن ساوى... أميرٌ سَكن البحر فسكن الإيمان في قلبه

على ضفاف الخليج العربي، حيث تلامس أمواج البحر رمال الجزيرة، وتسطع شمس الأمل في سماء الهدى، بُعث النور إلى قلوب ما كانت قد عرفت الإسلام بعد.

وهناك، في قلب البحرين، كان أميرها المنذر بن ساوى التميمي، رجلًا من طينة غير التي عُجن منها ملوك الكِبر والجبروت، فلم يكن في قلبه صلف كسرى، ولا في نفسه كِبرياء قيصر، بل كان عقلًا راجحًا، وفؤادًا مفتوحًا للحق، يتوق إلى نورٍ يُبدّد ظلمات الجاهلية، ويهفو إلى رسالة تهدي روحه إلى سواء السبيل.

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر هذا الأمير العاقل، فكتب إليه رسالةً مباركة تحمل نداء السماء، وأرسلها مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، وكان من خِيار الصحابة وأفصحهم وأتقاهم، وكانت الرسالة ـ كعهدها ـ تفتتح بنور التوحيد:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك.
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أما بعد:
فإني أذكّرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، ومن يُطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي،
وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وإنّي قد شفّعتك في قومك، فدعهم إلى الإسلام، فإن أطاعوك فاقبل منهم، وإن هم أحبّوا غيره فأخلد إليهم،
وإن أسلموا أقررتهم، وعلى من أقام على يهوديته أو مجوسيته الجزية".

ولمّا بلغ الكتاب المنذر بن ساوى، لم يتردد، ولم يتعلل، ولم يُساوِم كما ساوم هوذة، ولم يُمزق كما فعل كسرى، بل أقبل على الرسالة بقلبٍ يقظ، وعقلٍ متدبّر، فقرأها بنور الفطرة، وفتح قلبه لما جاء فيها، فإذا بنور الإيمان يتغلغل في روحه، ويبدّد حجب الشك والتقليد، فقال في جواب خاشع ملؤه التصديق واليقين:

"يا رسول الله، إني قد قرأت كتابك، وفهمت ما دعوت إليه، وقد آمنت وأسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله،
وقد بعثت إليك بالرجل الذي جاءك بكتابك، فأنا أشهد أنه أمين عندي مأمون".

فاستبشر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر إسلامه، وكتب إليه رسالة فيها الدعاء والثناء، والتوجيه والبِرّ، وقال له فيها:

"أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأُثني عليك خيرًا، وأوصيك بالله عز وجل، فإنه من يُنصح فإنما ينصح لنفسه،
وإنه من يُطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا".

وكانت وصيته صلى الله عليه وسلم له في ختام الرسالة تفيض بالعدل والرحمة:

"وإني قد شفّعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاعف عنهم، وإنه من عاد بعد ذلك فإن الله منتقم منه".

فاستحق المنذر أن يُخلَّد اسمه في سجل المؤمنين، وكان ممن نال بشارة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:

"اللهم اهد دوسًا وائتِ بهم"

فكان من أوائل من استجاب، وأسس لإسلامٍ سينتشر في أرجاء الخليج وفارس، وكان العلاء بن الحضرمي منارة من منارات الدعوة التي أضاءت تلك الربوع بنور الإسلام.

قال تعالى{ :**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**] {الشورى: ٣٨–٣٩]

ومات المنذر بعد ذلك على الإسلام، ثابت الجنان، مستقيم اللسان، مؤمنًا بالله ورسوله، فطوبى له من أميرٍ لم تغره الدنيا، بل شرّفه الله بالإيمان، وخلّد ذكره في قلوب المؤمنين إلى يوم الدين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان هداية من الله، ينزلها على من شاء من عباده إذا علم في قلبه صدق الطلب وصفاء الفطرة.
- الرسالة المحمدية صلى الله عليه وسلم عامة، لا تختص بالعرب ولا بسكان الحجاز، بل هي دعوة عالمية تشمل الملوك والعامة على حد سواء.
- التصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو ركن من أركان الإيمان، لا يصح إيمان من جحد نبوته أو ردّ دعوته.
- من أطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، لأن طاعته من طاعة الله عز وجل.
- الإسلام يعلي قدر من استجاب للحق، ولا ينظر إلى مكانته الدنيوية، بل إلى ما في قلبه من صدق واتباع.
- التوحيد هو مفتاح الإسلام، وهو أول ما يُدعى إليه الناس، كما جاء في رسائل النبي صلى الله عليه وسلم.
- الله تعالى يقبل توبة من أسلم بعد الكفر، ويبدّل سيئاته حسنات إن صدق واستقام.
- الجزاء الأخروي مبني على الإيمان والعمل، لا على الحسب أو النسب أو الملك والسلطان.
- الله عز وجل يحب من عباده النصح، ومن نصح فقد نصح لنفسه، لأن ثمرة الطاعة تعود على العبد لا على الربّ.
- ثبات المنذر على الإسلام حتى الموت دليل على أن العاقبة للمتقين، وأن الإيمان أثبت من أمواج البحر إن رسخ في القلب.

فوائد فقهية

- من السنة دعوة أهل الكتاب والمجوس إلى الإسلام، فإن أبوا فالجزية تُفرض عليهم مع إبقائهم على دينهم.
- الرسل والدعاة نواب عن النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة والتعليم، وطاعتهم من طاعته.
- لا يُكره الناس على الإسلام، لكن يُعرض عليهم، فإن أسلموا قُبل منهم، وإن أبوا ولم يحاربوا فُرضت عليهم الجزية.
- وليّ الأمر المسلم يُقرّ من أسلم على ما كان عليه من المال والدار إن لم يكن فيه ضرر على المسلمين.
- من دخل في الإسلام طواعية وثبت عليه حتى الممات يُعدّ من خيار المؤمنين.
- المراسلات الدعوية وسيلة شرعية استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته إلى غير المسلمين.
- الدعاء بالهداية لقبيلة أو شخص جائز، بل مستحب إذا كان فيه رجاء استجابة، كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم لدوس.
- عفو الحاكم عن أصحاب الذنوب إن لم تكن الحدود واجبة عليهم مما يُثاب عليه، وهو من الرحمة التي يحبها الله.
- الجزية لا تُؤخذ إلا من أهل الكتاب أو من في حكمهم، لا تُؤخذ من الوثنيين الذين لا ذمة لهم إلا بالإسلام أو السيف.

فوائد أخلاقية

- تواضع المنذر بن ساوى حين قرأ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم دليل على نقاء القلب، وخلوه من كبر الملوك وجبروتهم.
- حسن ظن العلاء بن الحضرمي في الناس وثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليه دليل على أهمية الأمانة والصدق في الدعوة.
- ترك المساومة في الحق وقبوله مباشرة خلق من أخلاق النبلاء الذين قدّروا الدين فوق الدنيا.
- الرد الجميل من المنذر ببعثه العلاء مع رسالة التصديق يعلمنا الوفاء والصدق والحرص على إيصال النور كما أتى.
- تشجيع الخير والثناء عليه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع المنذر باب من أبواب تثبيت المهتدين وتحفيزهم.
- الإنصاف من النفس والعدل مع الرعية من أعظم ما يُمدح به الحاكم، وهو ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم.
- الرحمة بالناس، والعفو عنهم إذا أسلموا أو تابوا من الذنوب، خلق رباني يُحبه الله لعباده.

فوائد دعوية

- البدء بالتوحيد في الدعوة هو النهج النبوي الأول، وهو أساس كل دعوة صحيحة.
- إرسال الدعاة إلى البلدان قبل الفتح العسكري يدل على أن الإسلام دين دعوة لا إكراه، سلم لا عدوان.
- المخاطبة بالرفق والثناء على الخير الذي عند المدعو، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته، سبيل لفتح القلوب.
- الرسالة الدعوية يجب أن تُكتب وتُلقى بأسلوب يحمل التوحيد والموعظة والترغيب والترهيب.
- الاستفادة من أصحاب البلاغة والبيان والفصاحة في تبليغ الدعوة أمر مطلوب، كما كان العلاء بن الحضرمي.

فوائد قيادية

- القائد المؤمن يقدم مصلحة الدعوة على مصلحته الشخصية، ويستجيب للحق مهما كلّفه.
- من صفات القيادة الراشدة: حسن استقبال الحق، وترك العناد، واتخاذ القرار في ضوء الوحي لا الهوى.
- القائد الذي يستجيب للدعوة يسهل على قومه اتباعه، وله فيهم كلمة مسموعة تعين على نشر الدين.
- المبادرة في اتخاذ القرار دون مماطلة من صفات القادة المؤثرين في الناس.

ما يخالف الواقع

- كثير من حكام المسلمين اليوم لا يفتحون قلوبهم للدعوة ولا يناصرون الدعاة، بل يصدونهم أو يحاربونهم.
- كثير من أصحاب السلطة والرياسة يُغالون في حفظ مناصبهم على حساب الدين، فلا يستجيبون للحق ولا يسمحون لأحد بنشره.
- انصياع بعض القادة اليوم للضغوط الخارجية يمنعهم من نصرة دين الله أو دعوة أقوامهم إلى التوحيد.
- قلة من ولاة الأمور يُظهرون التقدير للدعاة والعلماء، بل يُهمّش صوت الحق ويُرفع الجهل والجهلاء.
- غياب نماذج القادة العادلين الذين يعفون عمن أساء ويتلطفون في سياسة الناس، كما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم المنذر.
- كثر في زماننا من يردون دعوة الحق لأسباب دنيوية أو سياسية أو خوفًا على مناصبهم، كما فعل كسرى.

انتهى الباب الثاني عشر ويليه الباب الثاني عشر بإذن الله

الباب الثالث عشر من فتح خيبر إلى نقض العهد

مقدمة

صفحاتُ السيرة لا تزال تفوحُ بعطر النصر والإيمان، فما إن أشرقت شمسُ **خيبر** حتى أذلَّ الله بها حصونَ اليهود، وارتفعت رايةُ الإسلام عاليةً تُخبر الدنيا أن الحقَّ إذا قام في الأرض فلا يُقهر، وأن الله ينصرُ من نصره ولو بعد حين.
كانت خيبرُ يومها حصونًا منيعة، ورجالًا أغرّاء بالدهاء، لكنّ الإيمان الصادق اخترقَ حجارتهم الصماء، فانهارت قلاعهم أمام يقينٍ لا يتزعزع، وإخلاصٍ لا يلين.
خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع الرأس، مطمئنَّ الفؤاد، مؤيدًا من ربِّ العزة بنصرٍ لم يكن بالحيلة ولا بالقوة، بل بنورٍ من السماء يهدي به الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولكن... ما لبثت الغدرات أن تسللت في الظلام من جديد، فقد كانت **خيبر** بداية نصرٍ عظيم، وبداية امتحانٍ أشدّ.
فالمنافقون يتربصون، واليهود الذين بقوا في الجزيرة لا يزالون يحملون حقدهم القديم، ينسجون خيوطَ الغدر في الخفاء، ويُعدّون لما هو أبعد من الهزيمة.
وهكذا كانت المرحلة من **فتح خيبر إلى نقض العهد** فصلًا جديدًا في مدرسة النبوة، تتجلى فيه حكمة القائد، وصبر المؤمنين، وعدل السماء حين يقتصّ من الغادرين.

إنها صفحات تُعلّمنا أن النصر لا يعني نهاية الطريق، وأن ما بعد كل فتحٍ امتحان، وما بعد كل نصرٍ مسؤولية، وأن الله جلّ وعلا يُداول الأيام بين الناس ليظهر الصادق من المدّعي، والثابت من المتلوّن، والمخلص من الغادر.

في ظلال ليل المدينة الوادعة، كان النسيم يهمس بقدوم حدث جلل، وكانت القلوب المؤمنة تخفق بإيقاع جديد، فها هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، نبي الرحمة وقائد الغر الميامين، يتأهب لملاقاة عدو طال غدره، وعظُم شره، وتمادت خناجره في طعن جسد الدعوة الطاهرة. إنها خيبر... معقل المكر اليهودي، وحصن الخيانة المنيع، الذي طالما تحصّن فيه أهل الغدر، وتآمروا من وراء أسواره على الإسلام وأهله.

ما إن عاد النبي صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية، وقد سطر بمداده الهادئ نصرًا عظيمًا يفوق وقع السيوف، حتى بدأ يعدّ العدة للمرحلة التالية، فكانت خيبر نصب عينيه، لا انتقامًا، ولكن لتطهير الأرض من آخر معاقل الخيانة، ولتأمين دعوته من خنجر في الظهر، طالما وُجه في غفلة من الزمان.

الفقرة الأولى : خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر... الزحف المقدس على معاقل الغدر

لقد علم صلى الله عليه وسلم أن قادة خيبر ما نسوا إذ طُردت قينقاع، وأُجلِيَ النضير، وأنهم ما فتئوا يحرّضون القبائل، ويغذّون الفتن، ويجمعون الأحلاف لضرب الإسلام، فكان لزامًا أن تُكسر شوكتهم، وتُدكّ قلاعهم، لئلا يُطعن الحق من خاصرته.

أصدر النبي صلى الله عليه وسلم أمره :أن لا يخرج معه إلا من شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة، أولئك الذين قال الله فيهم:

}لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ] {الفتح: ١٨[،

وكان في ذلك تكريمًا لهم، وتربية لمن تخلف يوم الحديبية رجاء غنيمة لا تأتي من دون تضحية.

بدأت جحافل الإيمان تتحرك، يقودها خير خلق الله، وقد جعل المسير في الليل، والكمون في النهار، حكمةً وتخطيطًا ومفاجأةً للعدو، حتى دنا الركب من خيبر، فتوقف النبي صلى الله عليه وسلم، ورفع كفيه الطاهرتين إلى السماء، يناجي ربه العظيم بكلمات التوحيد والخشوع:

"اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، إنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها"(*رواه النسائي بسند حسن*)

ثم التفت إلى أصحابه، وقد امتلأت عيونهم بعزم النصر، وتلألأت أفئدتهم ببشائر الفتح، وقال بصوت القائد المُلهم:

"قوموا باسم الله" (*رواه أحمد في المسند*)

فقاموا، كأنما تسير الجبال الراسيات، وخفقت راية الإسلام في الأفق، تعانق السماء، وترفرف بشارةً بقرب النصر.

في ذلك الموكب المبارك، كان الإيمان هو السلاح، وكانت النبوة هي القائد، وكان النصر وعدًا لا يتخلف، كما قال تعالى:

}وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] {الحج: ٤٠[

وكان وعد الله قد اقترب.

إنها لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة... خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم لا ليأخذ مالًا، ولا ليطلب ملكًا، بل ليطهّر الأرض من أدران الغدر، ويقيم فيها لواء الحق، فيمضي الدين آمنًا مطمئنًا، يزرع النور حيثما حلّ، ويهدم الظلام حيثما وُجد.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ويأمر بأمر الله ويخطط بنور من ربه، فكل خطوة في سيره محاطة بهداية إلهية.
- أن الغدر والخيانة من صفات الكافرين، ولا سيما اليهود، وقد بيّن القرآن صفاتهم، ومن العقيدة البراءة من أهل الغدر والعداوة لهذا الدين.

- أن النصر من عند الله وحده، لا بالمادة ولا بالكثرة، وإنما بالنية الخالصة ونصرة الدين، لقوله تعالى: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ.}

- إثبات أن الدعاء من أعظم سلاح المؤمنين، حتى في أشد لحظات المواجهة، والدعاء توحيد وتفويض وافتقار، كما في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند دخول خيبر.

- أن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لمن شهد بيعة الرضوان دليل على أن الله يرضى عن عباده المؤمنين إذا صدقوا ووفوا، وأن الرضا الإلهي منزلة عظيمة لا تُنال إلا بالإخلاص والتضحية.

- أن الفتح والنصر سنن ربانية متعلقة بالسنن الإيمانية لا بالهوى أو المطامع، ومن العقيدة أن الدين لا يقوم بالغدر، بل بالحق والعدل والنور.

فوائد فقهية

- جواز اتخاذ الحيلة والخداع المشروع في الحرب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين سار ليلًا وكمَن نهارًا، وهذا من فقه الجهاد المشروع لا الغدر المحرّم.

- مشروعية تخصيص فئة في الغزو والمشاركة بناء على مواقفهم الإيمانية، كما خص النبي صلى الله عليه وسلم من شهد بيعة الرضوان.

- استحباب الدعاء عند دخول القرى والمدن الجديدة، والدعاء المأثور عند دخول النبي صلى الله عليه وسلم خيبر دليل على ذلك.

- أن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن خاصًا به، بل هو تعليم لأمته أن تستفتح بالأدعية العظيمة في المواطن المهمة.

- استحباب التكبير والتحرك باسم الله في المواطن المهمة، كما قال صلى الله عليه وسلم: "قوموا باسم الله"، وهو أصل في التوكل والنية.

فوائد أخلاقية

- أن الوفاء للدين يقتضي الحذر من كل طعنة في خاصرته، وأن الغافل عن كيد الأعداء إنما يغفل عن أمانة عظيمة.

- أن القائد الحقيقي يربّي أصحابه على التضحية والثبات لا على الطمع والمغانم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تربيته لمن تخلفوا عن الحديبية.

- أن الحزم في القرار لا ينافي التوكل، فقد كان التخطيط حاضرًا، والدعاء حاضرًا، والعزم لا يُبالي بعقبات الطريق.

- أن العدل في السيرة النبوية يتجلى في أن النبي صلى الله عليه وسلم ما غزا إلا من بدأ الغدر والخيانة، فليست دعوته دعوة انتقام، بل تطهير وعدل.

- أن النية الصادقة تصنع الفرق بين الفاتحين الطغاة، والرسل الدعاة، وأن القلوب حين تمتلئ صدقًا ترى النصر وإن لم يتحقق بعد.

فوائد تربوية

- أن القائد يجب أن يكون قدوة في الشجاعة والدعاء والحكمة، فالنبي صلى الله عليه وسلم جمع بين القيادة القتالية، والقيادة الإيمانية، والقيادة التربوية.
- أن التربية على مواقف عظيمة كبيعة الرضوان تصنع رجالًا للفتح، وأن من تربى في المواقف الصعبة أثبت قدمًا في الفتح والنصر.
- أن ترسيخ مفهوم "الزحف المقدس" على باطل متجذر، يُغرس في النفوس عظمة هذا الدين وعدله، ويعمّق في الأمة مفهوم نصرة الحق ولو بعد حين.
- أن العبرة في الفتح ليست بالمظاهر، بل بما يزرعه من أمان للإيمان، وما يفتح من قلوب، وما يهدم من كيد.

ما يخالف الواقع

- ضعف استشعار كثير من المسلمين اليوم بخطورة التآمر على الدين، وغفلتهم عن مخططات العدو التي تطعن من الظهر كما فعل يهود خيبر.
- غياب القدوات الصادقة في القيادة في كثير من المجتمعات الإسلامية، حيث تختلط النيات بالمصالح، فلا يظهر فيها من يتحرك بدافع تطهير الأرض لله لا لمكاسب دنيوية.
- ضعف حضور الدعاء في المواقف المصيرية، واعتماد كثير من الناس على الأسباب المادية المجردة دون التفات إلى التوكل على الله واللجوء إليه.
- تفريط بعض المسلمين في استحقاق نصر الله، بإيثار الدنيا على الدين، وطلب الغنيمة دون استعداد للتضحية.
- قلة وعي كثير من المسلمين بتاريخ عداوة اليهود للإسلام، وعدم ربطهم بين ماضيهم الأسود وحاضرهم المحتقن بالمكر والعداء للإسلام.

الفقرة الثانية: وصول الجيش النبوي إلى خيبر... حين خفقت راية التوحيد على أسوار المكر

تقدّم ركب النور تحت راية الحق، حتى بلغ مشارف خيبر، تلك الأرض التي طالما استتر فيها الغدر، وتحصّن فيها الحقد، وتجمّعت في أرجائها جيوش الكيد والدسائس. وإذا بالحصون تتبدّى في الأفق كأشباح شاهقة، تعلو التلال كأنها جبال راسيات، متراصة البنيان، متعانقة الجدران، يعلوها الحذر، وتخنقها الريبة، ويحرسها سلاح الخيانة.

لم تكن خيبر مدينة واحدة، بل كانت كالمتاهة الحربية، تحفّها سلسلة من الحصون، كل منها يلوذ بمرتفَعٍ حصين، يخال الناظر أنها لا تُؤتى من فوقها، ولا تُغلب من تحتها، لكنّ جنودها لم يكونوا يعلمون أن جيش محمد صلى الله عليه وسلم لا يعتمد على العدة والعتاد فحسب، بل يسير تحت رايةٍ كتب الله لها أن لا تُنكّس أبدًا.

كان اليهود آمنين خلف أسوارهم، يتفاخرون بما أعدّوا من سلاح ومؤن، وقد غرتهم قوتهم ومناعة حصونهم، فإذا بالمفاجأة الكبرى تحلُّ عليهم كالصاعقة، حين لمحوا في الأفق رايات التوحيد تقترب، ونور النبوة يخترق ظلام كيدهم،

وسيوف الإسلام تلمع تحت أشعة فجر جديد. لقد أذهلتهم سرعة وصول النبي صلى الله عليه وسلم، وأربكتهم قوة جيشه وحسن تنظيمه، فاضطربت صفوفهم قبل أن يلتقي الجمعان.

عندها، وقف القائد الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم بين جنوده، يوزع الخطط كما يُوزع النور على الظلام، فقسم الحصون إلى مرحلتين محكمتين:

المرحلة الأولى :استهدفت حصون "نطاة" و"الشق"، وفيها أشهر الحصون وأشدها تحصينًا، وعلى رأسها "حصن ناعم" و"الصعب بن معاذ"، وهما من أعتى ما بني من قلاع خيبر.

المرحلة الثانية :كانت موجهة نحو حصون "الكدْمية"، وتشمل "حصن القموص" مقر زعيمهم "كنانة بن أبي الحُقَيق"، و"الوطيح"، و"السلالم"، وغيرها مما التجأ إليه اليهود بعد سقوط الحصون الأولى.

كانت خطة النبي صلى الله عليه وسلم تقوم على الحصار الممنهج لا المجازفة، والضغط النفسي لا الاندفاع الأهوج؛ فأراد أن يُحكم الخناق على كل حصن على حدة، فيتسلل الرعب إلى قلوب المحاصَرين، ويتنقل الوجَل من حصن إلى حصن، كما يتنقل الليل في مفاصل الجسد.

وها هي بشائر الفتح تلوح في الأفق... ففي ليلة من ليالي الحصار، ترامت صيحات التكبير مع نسمات الفجر، إذ باغت المسلمون حصن ناعم، وكان أشدها منعة، فسقط سريعًا تحت وطأة الإيمان، وبه بدأ عهد الانهيار في صفوف القلاع المحصنة.

وعندما عَلِم النبي صلى الله عليه وسلم بسقوط أول الحصون، أشرق وجهه المبارك، وارتفع صوته بالتكبير، وقال مخاطبًا الصحابة، ومبشرًا بهلاك الحصون:

"الله أكبر! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين] "رواه البخاري ومسلم.[

لقد صدق وعد الله، وظهر الحق، وزهق الباطل، وانكشفت حصون العناد كأنها قباب من ورق، فلم تُغنِ عنهم جدرانهم شيئًا، كما قال الله تعالى}:فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ] {الحشر: ٢.[

وهكذا بدأت خيبر تئن، وقلوب أهلها ترتعد، فقد علموا أن الذي جاءهم ليس كغيره من الأعداء، بل هو نبي مرسل، وموعود منصور، وقد قال ربه} :إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] {غافر: ٥١.[

إنه فتحٌ لم يكن فيه استعلاء، بل كانت فيه رحمة بالضعفاء، ووفاء بالعهد، وعزة في الحرب، كما علّمهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان يقول في كل معركة:

"سيروا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا "رواه مسلم.[

فهكذا كانت الجيوش تسير على درب النور، بقيادة النبي الذي ما هزم في معركة إلا بعد أن يحكم قواعد العدل والرحمة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن النصر من عند الله وحده، لا بكثرة العَدد ولا العُدة، كما ظهر في ثقة النبي صلى الله عليه وسلم رغم

تحصينات خيبر.

- ثبوت أن الله ينصر رسله وأولياءه في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا.}
- إثبات صفة الفعل لله تعالى من القَذف والإهلاك، كما قال: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ... وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، وهو على ما يليق بجلاله.
- الإيمان بأن ما وعد الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من التمكين والفتح وقع كما هو، مما يزيد المؤمن يقينًا بصدق الرسالة.

في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه "مبعوث مرسل" تذكيرٌ بعقيدة الرسالة وأنه لا يتحرك بهواه، بل بوحي من ربه.

فوائد فقهية

- جواز اتخاذ الحصار وسيلة للفتح دون الدخول في مواجهة مباشرة إذا دعت الحاجة، وهو من فقه السياسة الشرعية في الحرب.
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا" تأصيل لأحكام وآداب الجهاد في الإسلام، ومنع التعدي في المعارك.
- استحباب التكبير عند النصر، فقد كبّر النبي صلى الله عليه وسلم عند سقوط أول الحصون، وفيه شكر لله على النعمة.
- حرمة الغدر حتى مع العدو، والنهي عن الغلول والتمثيل، مما يدل على التزام الشريعة حتى في حال القوة والانتصار.
- جواز تقسيم الجهد العسكري إلى مراحل وخطط متدرجة بحسب المصلحة، كما قسّم النبي صلى الله عليه وسلم الحصون إلى مرحلتين.

فوائد أخلاقية

- في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة رحمة بالضعفاء، ووفاء بالعهد، وعدل في القتال، وعدم استعلاء رغم الغلبة.
- قوله صلى الله عليه وسلم: "سيروا باسم الله..." فيه تربية للمجاهدين على استحضار نية الجهاد في سبيل الله لا من أجل الدنيا أو الانتقام.
- من أخلاق القيادة النبوية حسن التنظيم والعدل، وتوزيع الخطط وعدم ترك الأمور للفوضى، بل قيادة تُشع نورًا وعدلًا. النبي صلى الله عليه وسلم لم يُباغتهم بغدر، بل سار بأخلاق النبوة، مما يعلّمنا ألا ننتصر إلا بقيمنا لا بحِيَل أعدائنا.

فوائد دعوية

- ظهور نور النبوة أمام جيوش الباطل له أثر في زلزلة نفوسهم، مما يدل على قوة الرسالة لا فقط قوة السلاح.
- في النصر الذي تحقق دعوة للعالمين أن هذا الدين منصور ولو كره الكافرون، وأن عاقبة المكر تعود على أصحابه.
- القصة تعلّم الدعاة أن النصر لا يكون فقط بالكلام، بل باتباع السنن الكونية، والتوكل على الله، والعمل بالسبب.
- الفتح لم يكن وسيلة لإذلال الآخرين، بل لرفع راية التوحيد، ونشر العدل، ورد العدوان، وهذا أعظم ما يُدعى إليه الناس.

فوائد واقعية

- التمادي في الاعتماد على القوة المادية دون نظر في عاقبة الأمر يجعل صاحبه ينهار عند أول صدمة.
- إذا اجتمع الحقد والكيد داخل القلوب، فإن الحصون لا تنفع، لأن انهيار الداخل يسبق انهيار الجدران.
- المجتمعات التي تبني أمنها على الخداع والتآمر ستسقط ولو امتلكت أقوى الوسائل، لأن الباطل لا يدوم.
- في قيادة النبي صلى الله عليه وسلم للمواقف درس لكل مسؤول أن النصر لا يكون بالارتجال، بل بالتخطيط والحكمة والصبر.

ما يخالف الواقع

- اليوم نرى من يظن أن بناء الجدران والسلاح وحده يحميه، وينسى التوكل على الله والعمل بشرعه.
- كثير من الجيوش الإسلامية المعاصرة تُدار بغير أخلاق الإسلام، فتقع في الغدر والغلول، ولا تُميز في الحرب بين عدو ومدني، فيخسرون بذلك النصر الحقيقي.
- من الناس من يعجب بقوة أعداء الله ويظن أنها لا تُهزم، فيُصاب بالهزيمة النفسية، مع أن الله أذلّ أممًا أشد منهم.
- غياب الرحمة والعدل عن كثير من الحروب اليوم يجعلها وحشية لا رسالة لها، مخالفة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- اليهود الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر كانت لهم صفة ظاهرة من صفات أهل الزيغ: الكيد والمكر والغدر، وهي صفات مشتركة مع فرق من المنتسبين للإسلام مثل الخوارج الذين خالفوا الجماعة ورفعوا السيف على الأمة، والمرجئة الذين ألغوا أثر العمل في الإيمان فزهدوا في الجهاد.

وكذلك المعتزلة الذين قدّموا العقل على النص، فأنكروا النصوص التي تتحدث عن نصر الله لعباده إن خالف ظنونهم، وهؤلاء يجعلون النصر مرهونًا بالوسائل فقط دون إيمان أو توكل

الفقرة الثالثة: بطولات الصحابة وتسليم الراية لعلي رضي الله عنه

ما أشدّ لحظات الحصار حين يطول الانتظار، وتتعاقب الأيام ثقيلةً كأنها دهرٌ ممتد! كانت خيبر ـ بقلاعها الشامخة وأسوارها المنيعة ـ تزداد تحصنًا، وكان اليهود يتحصنون خلف جدرانها كمن يئس من الحياة، وقد ألقوا في رُوعهم أن قلاعهم عصيّةٌ على الفتح، وأن ما وراء الأسوار كافٍ ليصدّ زحف المسلمين.

السهام تنهال من الشقوق، والنيران تُقذف من فوق الحيطان، والزيوت المغلية تصبُّ على من اقترب، وكأنها جهنم مصغّرة قد نُصبت على الأرض. ومع ذلك، ثبتت أقدامُ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وقف الصحابة شامخي الجباه، رابطين على قلوبهم بالصبر، يتقربون إلى الله بكل ساعة حصارٍ، وكل نظرة تحدٍّ، وكل قطرة عرقٍ تسيل من جباههم في سبيل هذا الدين العظيم.

وفي ليلة من ليالي الحصار، تجلى فضل الله على عباده المجاهدين، وارتفعت بشائر النصر في الأفق. نادى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ـ بنور النبوة وصدق الإلهام ـ نداءً خَلّدته كتب الصحاح، واشتاقت له قلوب الصحابة:

"لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَه، ويُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُه، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ]"رواه البخاري ومسلم

فتزلزلت القلوب من الشوق، وكلّ واحد منهم تمنى لو يُنادى اسمه، لا حبًّا في رايةٍ ترفرف، بل شوقًا إلى شهادة عظيمة يُشهد بها على محبة الله ورسوله، وأن الله ورسوله يحبه، وأيُّ شرف أعظم من ذلك؟!

وفي الصباح، كانت القلوب معلقةً بنظرات الحبيب صلى الله عليه وسلم، وكان عليه نور الوحي، ونفَس القيادة، فقال: "أين علي بن أبي طالب؟"

فأخبروه أنه في خيمته، يشكو ألمًا في عينيه قد أعيَاه، فبعث إليه، فأُتي به، والوجع ظاهر على محيّاه، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم من ريقه الشريف، وتفل في عينيه، ودعا له، فبرئت عيناه حتى كأن لم يكن بهما وجع، فقام عليٌّ يشق الصفوف، وقد تبدلت علّته قوة، وأشرق وجهه بنور الشفاء والاصطفاء، فناول النبي صلى الله عليه وسلم الراية إليه، وقال له ما رواه أحمد:

"انفُذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من أن يكون لك حُمْر النعم]"رواه البخاري ومسلم

فتقدّم أسد الله، يسير تحت راية النبوة، ومن خلفه صفوفٌ مؤمنة تتبعه وقلوبهم تهتف: الله أكبر! وارتفعت أصوات المؤمنين بالتكبير، حتى خُيّل لمن في الحصون أن القيامة قد قامت، وارتعدت فرائصهم من وقع أقدام أهل الإيمان.

وهنا، خرج فارس خيبر الأشهر، مرحب، بلباسه المدجج، وسلاحه المرهف، ينشد بفخره القديم:

"قد عَلِمتْ خيبرُ أني مرحبُ،
شاكِ السلاحِ بَطَلٌ مُجرَّبُ"

فما هي إلا لحظات حتى تقدّم علي رضي الله عنه، وقلبه طودٌ لا يهتز، ولسانه يهدر قائلاً في بأس الأسود:

"أنا الذي سمتني أمي حيدرة،
كليث غاباتٍ كريهِ المنظرة،
أوفيهم بالصاع كيل السندرة"

ثم التقيا، والتقت السيوف في ملحمة من نور ودم، وما هي إلا ضربةٌ واحدة من يدٍ طهرها الله بالحبّ، فخرّ مرحب صريعًا، وانفتح الباب أمام المؤمنين، وانهارت بوابة الحصن، وعلا صوت الحبيب صلى الله عليه وسلم بالتكبير:

"الله أكبر! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين] "رواه البخاري ومسلم[

إنها لحظة من لحظات الفتح الرباني، فيها اجتمع النور بالشجاعة، والوعد بالنصر، والكلمة الصادقة بسيف الإيمان. لحظة تشهد فيها الأرض والسماء أن هذا الدين لا يُنصر إلا برجالٍ يحبهم الله ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الأحزاب: ٢٣[

طوبى لعلي، وطوبى لرجالٍ تسابقوا إلى المكرمات، وسطروا بدمائهم وسيوفهم وقلوبهم أعظم ملاحم النصر والإيمان.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه وتعالى يحب من عباده من اتصف بالإيمان الصادق، وأن محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أعظم مقامات العبد، كما أن نيل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم دليل على صحة العقيدة واستقامة القلب.

- أن النصر من عند الله وحده، وهو الذي يفتح على من يشاء من عباده، وليس بالقوة أو العدد، وإنما باليقين والصبر والاتباع.

- الكرامات ثابتة لأولياء الله الصالحين، ومنها شفاء علي رضي الله عنه بتفل النبي صلى الله عليه وسلم في عينيه، مما يدل على أن الله يكرم عباده على يد أنبيائه.

- أن محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم نابعة من إيمان راسخ، بدليل تمنيهم أن يكونوا ممن يحبهم الله ورسوله، وهو مقام عقدي عظيم لا يُنال بالادعاء، بل بالاتباع والتضحية.

- أن الإيمان بالقدر والرضا به يظهر في ميادين الجهاد، فهم يعلمون أن النصر من عند الله، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم.

فوائد فقهية

- دلالة الحديث على مشروعية الدعوة إلى الإسلام قبل القتال، وهو من هدي النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أمر عليًا أن يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال.

- فيه دليل على جواز اتخاذ الراية في الجهاد وتنظيم الصفوف والانضباط تحت راية واحدة، وأن القيادة من الأمور الشرعية التي ينبغي أن تُسند إلى الأكفأ.

- الحديث يدل على أن الجهاد لا يكون للقتل أو الغلبة، وإنما للدعوة إلى التوحيد وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

- جواز التفل والرقية من النبي صلى الله عليه وسلم وبيان أن ذلك سبب للشفاء، وفيه تأسٍّ لمن رقى أو قرأ من العلماء والصالحين أن لا يدّعوا لأنفسهم شيئًا من الخصائص النبوية.

- النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لعلي رضي الله عنه مراتب العمل الصالح، فجعل هداية رجل واحد أعظم من أموال الدنيا، مما يدل على عظم أجر الدعوة إلى الله.

فوائد أخلاقية

- ثبات الصحابة رضي الله عنهم في وجه الحصار رغم شدة البلاء يعلمنا الصبر في وجه الشدائد وعدم التراجع عن المبادئ مهما اشتدت الظروف.

- التنافس بين الصحابة في طلب الراية لم يكن لدنيا يصيبونها، بل حبًا في نيل محبة الله ورسوله، مما يدل على صفاء السريرة والصدق في العمل.

- أدب الصحابة في سؤالهم وتمنيهم أن يكونوا ممن يُحبهم الله دون حسد أو بغضاء، فيه درس في نقاء القلب عند التنافس في الخير.

- شجاعة علي رضي الله عنه ورباطة جأشه، وهو يخرج من المرض مباشرةً إلى القتال في سبيل الله، صورة من صور العزيمة النابعة من الإيمان الصادق.

- احترام النبي صلى الله عليه وسلم لقدرات أصحابه، وتقديره لعلي رضي الله عنه رغم مرضه، فيه درس في الإنصاف، وفي أن التمكين يكون للأتقى لا للأقوى بدنًا.

فوائد دعوية وتربوية

- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يربط القلوب بالله لا بالأسباب، فالهداية والنصر والعزة من الله، والتعليم يكون بمثل هذه المواقف المؤثرة.

- التربية على التدرج في الدعوة، حيث يبدأ الداعية بالبيان والتعريف قبل المواجهة، وهو نهج نبوي رفيع يدل على الحكمة.

- أن الدعوة تكون بالموعظة والبيان قبل استعمال القوة، وأن القتال شرع لإزالة العوائق عن الدعوة لا لأجل القهر والسيطرة.

- أن تعليم الصحابة وتربيتهم كان من خلال المواقف العملية أكثر من مجرد الأقوال، وهو منهج تربوي عظيم ينبغي أن يُحتذى.

فوائد قيادية

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل الراية في يد الأكثر طلبًا أو الأعظم أمنية، بل في يد الأكفأ والأصلح، وهو علي رضي الله عنه، فدل على أن القيادة لا تُعطى بالرغبة، بل بالكفاءة.
- توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بدقة: "انفذ على رسلك"، يدل على أن القائد يجب أن يكون منضبطًا، لا يتعجل، ولا يتصرف بالعاطفة.
- الموقف كله درس في صناعة القادة، وأن من أحب الله ورسوله، وأحبّه الله ورسوله، هو الأجدر أن يُقتدى به ويُتّبع.

ما يخالف الواقع

- ضعف شوق الناس اليوم إلى نيل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، واشتغالهم بمحبة الدنيا والشهوات.
- قلة الصبر على الأذى في سبيل الله والدعوة إليه، في حين أن الصحابة ثبتوا في وجه الزيوت والنيران والسيوف.
- ضعف روح التضحية في سبيل الدين، وتقديم الراحة والرفاهية على نصرة الدين، بينما كان الصحابة يقدمون أرواحهم بلا تردد.
- ضعف همة المسلمين في تحصيل العلم والدعوة، حتى بات كثير منهم لا يعرف كيف يدعو إلى الله بالحكمة والبصيرة.
- غياب مبدأ الكفاءة في كثير من مناحي القيادة الإسلامية اليوم، وتقديم غير الأكفأ في المناصب الشرعية والدنيوية.
- إهمال سنن النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة، واختزال الجهاد في معانٍ مشوهة، إما بتعطيله تمامًا أو بغلو منحرف.

الفقرة الرابعة :الصلح مع يهود خيبر بعد الفتح – بسطُ العدل وعلوُّ السياسة النبوية

وما إن أسدل الليل أستاره على أرض خيبر، وقد خمدت نار الحرب، وانكسر شوكة المكر، حتى عمّ السكون أرضًا طال شغبها، وانقشعت غيوم العداوة عن حصون طالما تمترست خلفها رماح الغدر وسهام الخيانة.
لقد دانت خيبر، بعد أن نُكِّست راياتها، وسقطت حصونها كأنها لم تكن، ودخل نور الإسلام من أبوابها التي طالما أُوصِدت في وجه الحق، وأُغلِقت دون رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم.

ولم يكن فتح خيبر مجرد نصر عسكري، بل كان مشهدًا من مشاهد الرحمة النبوية، تتجلى فيه عظمة الحاكم وعدل الفاتح. فعندما وضعت المعركة أوزارها، وارتفعت راية التوحيد فوق القلاع، لم يسفك النبي صلى الله عليه وسلم دمًا بعد فتح، ولم يُهجر قومًا بعد هزيمة، بل أرسل إليهم من يدعوهم إلى الصلح، فلبّوا مضطرين، وقد رأوا أن لا قبل لهم بجندٍ مؤيَّد من السماء.

جاؤوا إليه صلى الله عليه وسلم خائفين، مذعنين، وقد غاضت نفوسهم في وَهَن، يطلبون منه الأمان على أنفسهم وأهليهم، فهم أهل زرع لا سيف، وأرباب حرث لا حرب.

عرضوا عليه أن يُبقِيَهم في أرضهم، يعملون ويزرعون، على أن يكون له نصف الثمار.

فنظر إليهم نبي الرحمة بعين السياسة الراشدة، وقلب الحاكم العادل، وقال لهم (:نُقِرُّكُم فيها ما شِئنا]"أخرجه البخاري ومسلم

فصاروا بذلك أُجراء في أرضٍ لم يَملِكوها، يدفعون نصف غلّتها كل عام للمسلمين، يعيشون تحت حكم الإسلام، في كنفه وأمانه، ما أقاموا على العهد.

لقد أبدع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصلح تدبيرًا يُدرَّس في السياسة الشرعية؛ جمع فيه بين بسط الأمن، وتحقيق المصلحة، وحسن المعاملة، دون أن يُمكّن لعدوٍ أن يتجذر، أو خائنٍ أن يتآمر.

وكان في ذلك مصداق قوله تعالى:﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾]الأنفال: ٦١[.

وها هي خيبر تُكتب في صفحات التاريخ، لا كموقع عسكري فحسب، بل كأنموذج للحكم الراشد، حيث يُغلّب العقل على الانتقام، وتُراعى المصلحة دون التفريط بالثوابت، وتُعطى كل نفس حقها، ولو كانت في الأمس من ألدّ الخصوم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- في الصلح النبوي مع يهود خيبر تجلّت صفة الرحمة التي بعث بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن هدفه القتل والإبادة، بل الهداية والعدل، وهذا من دلائل صدقه ونبوته.
- الإسلام لا يُفرض بالقهر بل يُعرض بالحجة، وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح يؤكد أن الإسلام دين دعوة لا دين استئصال.
- مشروعية التوكل على الله عند عقد الصلح، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، دليل على أن الإيمان لا يُناقض التدبير بل يُكمّله.
- الله سبحانه يسن سنن النصر ثم يختبر عباده عند القدرة، وهل يُقيمون شريعته أم ينتقمون للهوى، والنبي صلى الله عليه وسلم ضرب أروع الأمثلة في الالتزام بأمر الله في العدل والرحمة.
- هذا الفتح والصلح برهان على أن الله ينصر رسله، ويمكن لدينه، ولو بعد أن تتعاقب المحن، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

فوائد فقهية

- جواز إبقاء الكفار في أرض المسلمين بعقد إجارة مؤقتة إن اقتضت المصلحة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر، بشرط ألا تكون لهم السيادة أو التمكين.

- العقود التي تُبنى على شرط "ما شئنا" تفيد جواز التأقيت في المعاملة إذا اقتضت الضرورة، وهو أصل من أصول السياسة الشرعية.
- توزيع الغنائم وتحقيق مصلحة المسلمين من الأرض المفتوحة يُقرّ فيه اجتهاد الإمام، ولا يلزم أن تُقسم الأرض إن ظهرت مصلحة أعظم في إبقائها بأيدي أهلها.
- الصلح مع الكافر جائز شرعًا إذا تحققت به مصلحة راجحة للمسلمين، ولا يُعد خيانة للتوحيد بل تطبيقًا لفقه الموازنات والمصالح.
- ما جرى مع يهود خيبر أصل فقهي يُبنى عليه باب كامل من أبواب المعاملات مع غير المسلمين في ظل الدولة المسلمة.

فوائد أخلاقية

- في صلح خيبر تتجلى أخلاق الحلم والتجاوز عند المقدرة، وهي من أخلاق الأنبياء والصديقين.
- غلبة الرحمة على الانتقام خُلُقٌ عزيز لا يصدر إلا من قلوب عظيمة، وقد جسّده النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف.
- إحسان المعاملة حتى مع العدو عند ضعفه من شأنه أن يُورث الأمن النفسي ويهيئ النفوس للقبول بالحق.
- العدالة لا تعني أن يأخذ الإنسان كل ما يقدر عليه، بل أن يعطي كل ذي حق حقه، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.
- الصلح بعد الحرب لا يعني الذل، بل هو تعبير عن سمو النفس وشموخ القيادة، ما دام فيه حفظٌ للحق وأمانٌ للناس.

فوائد دعوية وتربوية

- السياسة الشرعية لا تنفصل عن الدعوة، بل هي من أدواتها، وقد استثمر النبي صلى الله عليه وسلم النصر لفتح أبواب الهداية لا لإغلاقها.
- الصلح كان بابًا للدعوة العملية التي تَظهر فيها محاسن الإسلام وعدله، مما قد يكون أعظم تأثيرًا من الكلام المجرد.
- التربية على الإنصاف ولو مع الخصوم تُورث التقدير وتُظهر صورة الإسلام الحقيقية، وهذا مما يجب أن يُربى عليه الدعاة.
- إظهار أخلاق العدل بعد النصر أبلغ في الدعوة من الانتصار ذاته، لأنه يُعلّم الناس كيف يُستخدم النصر في طاعة الله.

فوائد سياسية وإدارية

- هذا الحدث دليل على أن السياسة في الإسلام تُبنى على الرحمة والمصلحة وليس على الغلبة المجردة، وتُراعى فيها النتائج المستقبلية.

- حسن تدبير النبي صلى الله عليه وسلم للموقف بعد الفتح مثال يُدرّس في إدارة المراحل بعد الأزمات وتحقيق الاستقرار.
- إعطاء الأمان للعدو المقهور بشرط عدم الإخلال بالعهد يُحقق استقرارًا مرحليًا، دون تفريط بالثوابت ولا تمكين للأعداء.
- تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الموقف بتوازن بين الحزم والرحمة أرسى قاعدة الإدارة العادلة بعد النزاعات.

مخالفات الواقع

- كثير من الأنظمة اليوم إذا انتصرت على عدوها استباحت دمه وأرضه وماله، ولا تقيم وزنًا لرحمة أو خلق، خلافًا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- تُدار الحروب في عصرنا بوحشية مفرطة حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها، فلا يُراعى فيها حق لأسير ولا يُعطى أمان لمن طلبه.
- السياسة في زماننا كثيرًا ما تُفصل عن الدين والأخلاق، بينما كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم مُلتحمة مع الوحي والعدل.
- لا يُراعى في معاهدات اليوم غالبًا مقاصد الشرع، بل تُبنى على المصالح الدنيوية المجردة، ولو أكلت حقوق الضعفاء وأذلت المظلومين.
- هناك من يخلط بين الولاء والبراء وبين فقه السياسة الشرعية، فيرفض الصلح مطلقًا دون اعتبار للمصلحة أو تحقيق مقصود الشريعة، فيضيع فقه الموازنات.
- ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم يُخالف طريقة الخوارج الذين يرون أن مجرد وجود الكافر في أرض الإسلام موجبٌ للقتال الدائم، دون اعتبار للصلح أو العهد أو المصلحة.

الفقرة الخامسة :تقسيم الغنائم – عدل النبوة وسُنَّة الرحمة

وما إن خمدت نار الحرب، وانحسرت سُحُب الغبار عن ساحة خيبر، حتى وقف النبي صلى الله عليه وسلم على أرضها الطيبة، لا ليجمع الغنائم لنفسه، ولا ليُرضي بها خواطر المحاربين كما يفعل الملوك، وإنما ليُقسّمها بمنهاج من وحي السماء، وعدلٍ لا يُجارى، وموازين لا تميل عن الحق قيد شعرة.

لقد كانت غنائم خيبر عظيمة، فالحصون المنيعة أضحت في قبضة الإيمان، والأرض المثمرة دانت للموحدين، بما فيها من زرع ونخل وسلاح ومتاع. فلمّا نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم نظر من يُحاسب قبل أن يُحاسب، جعل الأرض كلها فيئًا للمسلمين، وأقرَّ اليهود على زراعتها مؤقتًا، على أن يكون للمسلمين نصف ثمرتها، كما جاء في الحديث: **"نُقِرُّكم فيها ما شِئنا "**رواه البخاري ومسلم[،
فأصبحت خيبر ملكًا للمسلمين، تُدَار بحكمة، وتُوزَّع بميزان التقوى.

ثم أذن منادي النبي صلى الله عليه وسلم **(لا يَدخل الغنيمة إلا من شهد الحديبية)**
فكانت هذه الغنائم جزاءً لأهل الوفاء الذين رجعوا من صلح الحديبية دون أن يُسلّ سيف، وقد ابتُلوا بالصبر والرضا، فنزل فيهم قول الله تعالى :﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾]الفتح: ١٨.[
فجُعلت غنائم خيبر تعويضًا عن خلوّ أيديهم يوم الحديبية، وكان ذلك من تمام عدل الله، وعدل نبيّه صلى الله عليه وسلم .

ولم يَغفَل النبي صلى الله عليه وسلم عن الضعفاء، فكان للنساء سهم، كما أعطى بعض الصبيان من الغنيمة، تكريمًا لجهادهم أو لخدمتهم، ومن بين من نالت شرف القسم أم المؤمنين صفية بنت حيي، فقد وقعت في السبي، فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم ، وتزوجها، وكان عتقها صداقها، فجعلها الله بذلك من أمهات المؤمنين، فكانت قصتها مشعل هداية، وسُنَّة رحمة، يُكرم بها من كانت تُمتهن في الجاهلية، فترتفع بالإسلام إلى ذرى العزة.

وقد روى البخاري في "صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُقسّم الأرض مباشرة، بل جعلها على صورة وقف للمصلحة العامة، تُنتج للمسلمين ثمرًا سنويًا، توزع في بيت المال، فتُصرف في مصالحهم، وقد علّل الفقهاء ذلك بأنه أنفع للمسلمين من التوزيع الفردي.

وهكذا، كُتبت غنائم خيبر صفحة من صفحات النور، لا تحكمها الأهواء، ولا تسوقها المحاباة، بل تجري على تقوى من الله، وميزانٍ لا يزيغ.

وكان ذلك شاهدًا من شواهد النبوة، ودليلًا على أن هذا الدين لا يبني مجده على جماجم الناس، بل على قواعد العدل والرحمة، كما قال تعالى:﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾]آل عمران: ١٤٠[،
فإذا دالت الأيام للمؤمنين، فلا يظلمون فيها أحدًا، بل يوزعونها بميزان رباني، لا يحابي فيه قريبًا، ولا يجحف فيه بعيدًا

الفوائد المستخرجة من الفقرة

فوائد عقدية

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم في تقسيم الغنائم شاهد على نبوّته، إذ لم يكن نبيُّ الرحمة صلى الله عليه وسلم يستغلُّ النصر لمصالح شخصية، بل يُحكِّم شرع الله ويقيس الأمور بميزان السماء.
- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لليهود بالعمل في الأرض بأجرة واشتراط المشيئة دليل على أن التصرف في الملك لله وحده، وأن العبد لا يملك مطلق التصرف في الأمور إلا بإذن الشارع، مما يرسخ أصل العبودية.
- اقتصار الغنيمة على من شهد الحديبية يرسّخ عقيدة أن الله يجزي أهل الابتلاء والمحنة، ويرفع قدرهم، ويُظهر صدق وعده، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- زواج النبي صلى الله عليه وسلم من صفية بعد عتقها يؤكد أن مقام النبوة لا تحكمه الأهواء، بل تسير على هدي الوحي، وقد شُرع فيه بيان مكانة آل البيت، وفضل من أسلم ممن كان من أعداء الدين.
- هذا المشهد من تقسيم الغنائم فيه إثبات أن الإسلام لا يبني مجده على القهر والبطش، بل يُنصر بالرعاية الربانية والتزام أوامر الله، لا بشهوة المال أو حمية الجاه.

فوائد فقهية

- جعل الأرض فيئًا للمسلمين دون تقسيم، والعمل بها من قبل اليهود بأجر سنوي نصف الثمار، يدل على جواز إجارة الذمي في أرض الفيء إذا كانت المصلحة العامة تقتضي ذلك.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "نقرّكم فيها ما شئنا" أصل في أن ولاية غير المسلم في أرض الإسلام مشروطة، وتبقى بيد الإمام المسلم ينقضها متى شاء لمصلحة راجحة.

- اشتراط أن لا يشارك في الغنيمة إلا من شهد الحديبية يؤسس قاعدة أن الفضل في الغنيمة لا يُعطى بمجرد الإسلام، بل يُراعى فيه السابقون وأهل التضحية.
- إعطاء المرأة سهمًا من الغنيمة يدل على ثبوت حقها في الغنيمة، ولو لم تقاتل، إن كانت قد شاركت بما يُعد نفعًا للمجاهدين.
- توزيع الثمار كل سنة على المسلمين دون تمليك الأرض أصل في جواز الوقف العام لأراضي الغنائم إن كان أصلح للأمة.

فوائد أخلاقية

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم في تقسيم الغنائم، دون ميل لأحد، وإنصافه لأهل الحديبية، يُعلم القادة والأمراء أن العدل لا يُفرّق بين قوي وضعيف، ولا بين قديم وحديث.
- رحمته صلى الله عليه وسلم بصفية، وتحويل مصيرها من السبي إلى الكرامة، يُظهر كيف يرفع الإسلام الضعيف ويكرمه، ويُخرج الناس من ذل الجاهلية إلى نور العدل والرحمة.
- إيثار النبي صلى الله عليه وسلم مصلحة الأمة على المكاسب الشخصية في تقسيم الأرض دليل على زهد القائد العظيم، واستعلائه على الدنيا.
- إدخال الأطفال والنساء في قسم الغنائم تكريم لهم، وتعليم للأمة بأن الجهود مهما صغرت لا تُنسى، وأن العطاء ليس حكرًا على من يقاتل بالسيف فقط.
- جعل الأرض تدار بالوقف العام يرشد إلى أن المصلحة الجماعية أولى من المصلحة الفردية إذا تعارضتا.

فوائد تربوية

- مشهد عدل النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّم المسلمين أن النصر لا يُتوج بنهب ولا فوضى، بل يُضبط بالشريعة، ويوجه بالرحمة والإنصاف.
- تخصيص الغنائم لمن شهد الحديبية يُربّي النفوس على الإخلاص، وأن من بذل وقت الابتلاء هو من يستحق الثواب زمن التمكين.
- قصة صفية تُربّي النفوس على تجاوز الأحقاد، وتُعلّم أن العفو مع التمكين من أخلاق الكبار.
- التوزيع العادل للغنائم دون تمييز يعلم الأمة أن الكرامة في الإيمان، لا في النسب ولا الجاه، ولا يُرفع أحد إلا بعمله.
- تحويل الأرض إلى وقف عام يُربّي على حفظ المال العام، والحرص على المصالح العامة، بدلًا من النزعة الفردية الأنانية.

فوائد دعوية

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم بعد النصر باب من أبواب الدعوة، يفتح القلوب قبل الآذان، ويجعل الناس يدخلون في دين الله حبًّا لا رهبة.
- رفع مكانة صفية رضي الله عنها زواجًا وعتقًا دعوة عملية لأقوامها، يُراد بها إبطال كبر الجاهلية، وبعث رسالة التسامح الإسلامي.
- التعامل الحسن مع يهود خيبر بعد الهزيمة، وتوظيفهم في الأرض، يُظهر أن الإسلام لا يُعادي الناس لأشخاصهم، بل يُعاملهم بالحق والعدل.
- الاقتصار على أهل الحديبية يُبرز قيمة الثبات في أوقات المحنة، وهو درس دعوي لأهل الحق أن العاقبة لهم ولو بعد حين.

ما يخالف الواقع

- في واقع كثير من الدول الإسلامية، يتم العبث بأموال الأمة دون عدل، ويُقسَّم المال العام بين المحسوبين والمقربين، لا على ميزان الشرع والتقوى.
- أصبحت المناصب والغنائم اليوم وسيلة للترضيات السياسية والمكاسب الشخصية، بينما النبي صلى الله عليه وسلم جعلها تكريمًا لأهل السابقة والإيمان.
- النساء اليوم ما زلن في كثير من المجتمعات يُعاملن بدون اعتبار لحقوقهن الشرعية في الإرث والغنيمة وغيرها، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاهن حقًّا صريحًا.
- لا يُراعى في توزيع المغانم المعنوية أو المادية اليوم سوابق الناس ولا إخلاصهم، بل يُقدَّم من لا خُلطة له بالجهاد ولا الدعوة.
- واقع العمل المؤسسي والوقف العام متراجع، وتغلب عليه الفردية، بينما دلّ فعل النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية بناء كيانات نفعية للمسلمين عبر الوقف والتوزيع المنضبط.

الفقرة السادسة :زواج النبي صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي رضي الله عنها

في لحظة امتزج فيها غبار السيوف برائحة النصر، وهدأت فيها زلزلة خيبر بعد طول المقاومة، تألقت في سماء السيرة مشهديّة من أرقّ مشاهد النبوة وأعمقها أثرًا في القلوب: مشهد زواج النبي محمد صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

هي ليست امرأة عادية... بل ابنة سيد بني النضير، سليلة ملوك بني إسرائيل، كانت تُدعى في قومها "الملكة الصغيرة"، يُشار إليها بالبنان، وتحفّها الهيبة أينما حلت، حتى قال عنها الناس: ما رُئيت يهودية أجمل منها.

لكن الحرب لم تترك شيئًا على حاله، فبعد أن قُتل زوجها كنانة بن الربيع -وكان من أشد المعادين للنبي صلى الله عليه وسلم- ووقعت صفية في السبي، كان من الممكن أن تُدرج مع غيرها ضمن الغنائم... غير أن عينا النبوة رأت فيها ما هو أرفع من مجرد متاع، رأت فيها نفسًا تبحث عن النور، وروحًا خُلقت للكرامة لا للمهانة.

اقترب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا كمُنتصرٍ يتسلّى، بل كنبيٍّ يحمل قلبًا يفيض رحمة، ويدًا تمسح الألم، فقال لها كما جاء في الحديث الصحيح :اختاري، فإن اخترتِ الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترتِ اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك] "رواه النسائي وأحمد بإسناد صحيح[،
فلم تتردد صفية رضي الله عنها، بل قالت: "يا رسول الله، لقد هويتُ الإسلام، وصدّقتك قبل أن تدعوني، وما لي في اليهودية من حاجة، وما لي فيها من والد ولا أخ"، فقد قتلتهم الحرب، وبقي لها قلبها... فأسلمت، وأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل عتقها مهرها.

وما أروع ما قاله الصحابة آنذاك، كما روى ابن سعد" :لو لم يعتقها وجعل عتقها صداقها، لكانت من الإماء"، لكنها بعين النبوة رُفعت إلى مقام أمهات المؤمنين، وجعل الله من زواجها درسًا خالدًا في الرحمة والكرامة.

لقد شاء الله عز وجل أن يُري الناس من خلال هذا الزواج أن الإسلام لا يهين النساء وإن كن من سبي الحرب، بل يرفعهنّ، ويعيد إليهنّ إنسانيتهن، فيرتقين من ماضٍ فيه الذل إلى مستقبل فيه الطهر والمجد.
وإنه ما طرق قلب صفية رضي الله عنها الإسلام، إلا فتحت أبوابه على مصراعيه، وأقبلت روحها على النور كأنها تعرفه، فكان إسلامها حرية حقيقية لا تزييف فيها ولا إجبار، بل اختيارٌ خالصٌ لله ورسوله.

واستقر بها المقام في بيت النبوة، فصارت أمًّا من أمهات المؤمنين، يُضرب بها المثل في العقل والجمال والحياء، حتى قالت عنها عائشة رضي الله عنها" :ما رأيت امرأةً أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وما رأيت امرأة كانت أكرم على قومها منها]"رواه ابن سعد.[

وأينما ورد ذكر صفية رضي الله عنها، تعلّم الناس أن الإسلام لا ينظر إلى الماضي والأنساب، بل إلى الإيمان والقلوب، وأن المرأة إذا أكرمها الله بالإسلام، فقد أعزّها أعزّ شرف، ورفعها أرفع مقام.

فسبحان من قال :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾]الحجرات: ١٣[،
وصدق نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال" :النساء شقائق الرجال] "رواه أحمد وأبو داود.[

هكذا رسم النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة مشهدًا خالدًا، يُدرّس في الحب والطهر والعدل والكرامة، في وقتٍ كانت الأمم ترى المرأة متاعًا مهانًا في الحروب، فجاء الإسلام، فجعلها أمًّا للمؤمنين، وشريكة للنبي الأمين، صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- إثبات النبوة من خلال الرحمة والعدل، فإن هذا المشهد يبرز جانبًا من دلائل نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يتعامل مع صفية كقائدٍ منتصر، بل كنبيٍّ جاء ليهدي لا ليُذل، وهذه الرحمة لا تصدر عن طاغية ولا ملك، بل عن نبي يوحى إليه من الله.

- زواج النبي صلى الله عليه وسلم من صفية رضي الله عنها يبين شمولية دعوته، فهي لم تكن محصورة في العرب، بل جاء بدين عالمي يخاطب بني إسرائيل وغيرهم، فيؤمن به كل من نظر بعين البصيرة، وبهذا يظهر أن دعوته صلى الله عليه وسلم ناسخة لما قبلها، ومهيمنة على الأديان السابقة.

- في إسلام صفية رضي الله عنها بيان أن الهداية بيد الله، فمن كانت بين قومٍ أهل كتابٍ وتقاليد، فإن الله إن أراد بها خيرًا أخرجها من ظلماتهم إلى نور الإسلام، وهذا يؤكد أن الله يهدي من يشاء، ولا يحول بين العبد والهداية إلا الكِبر أو الأهواء.

- أن الكرامة في الإسلام لا تقوم على النسب ولا الحسب، بل على الإيمان والتقوى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فصفية التي كانت من نسل ملوك بني إسرائيل صارت أمًّا للمؤمنين بعد إسلامها، لا بنسبها، بل بإيمانها.

فوائد فقهية:

- صحة نكاح المرأة من السبي إذا أسلمت واعتقها الرجل، ويكون عتقها مهرها كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع صفية، وهو مذهب جمهور الفقهاء، مستدلين بهذا الحديث الصحيح.

- جواز تخيير المرأة الأسيرة بين الإسلام واللحاق بقومها، وعدم إكراهها على الدين، وفي ذلك دلالة على عدالة الإسلام حتى مع من وقعوا تحت سلطانه.

- أن عتق الأمة يجعلها حرة يجوز الزواج بها، وأنه إذا جعل العتق صداقًا صحّ النكاح، كما ورد في حديث: «وجعل عتقها صداقها.»

- جواز زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السبي، وأن ذلك لا يُعدُّ من الإكراه، بل إن كان عن اختيارها وإسلامها، صح العقد وارتفع المقام، كما حدث مع صفية رضي الله عنها.

فوائد أخلاقية:

- في هذا المشهد دروسٌ في الرحمة النبوية، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرفق بالأسيرة من أن يُعاملها كغنيمة، بل رأى فيها إنسانة تستحق الاحترام، ورفيقة تستحق الحياة الكريمة.

- من أخلاق النبوة الإنصاف والعدل حتى مع من كان عدوًا، فصفية كانت من بيت يُكنّ العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يُهِنها، بل أعزّها، ورفعها إلى مقام الطهر.

- أدب التخاطب مع النفس الجريحة، ففي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في تخييرها ما يُعلّمنا كيف نراعي مشاعر الآخرين ولو كانوا أسرى، لا سيّما النساء.

- الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، فقد شهدت عائشة رضي الله عنها لصفية بالجمال والمكانة، مما يدل على خلق الإنصاف في زمن تنافس الضرائر.

فوائد دعوية وتربوية:

- أن أعظم طريق للدعوة هو المعاملة، فقد أسلمت صفية رضي الله عنها لا عن ضغط، بل عن يقين، لما رأت من أخلاق النبوة وعدله ورحمته.

- الدعوة باللين والرفق تصنع من القلوب المغلقة أبوابًا مفتوحة، فصفية التي نشأت على الكره والبغض لمحمد صلى الله عليه وسلم، فتحت قلبها للإيمان لما رأت أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

- أن زواج النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن شهوة، بل دعوة، ووسيلة لنشر الرحمة والتأليف بين القلوب، وبيان مكانة المرأة، وهذا الرد العملي على من طعن في تعدد زوجاته.

- أن في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مواقف عملية تردّ على كل من يتهم الإسلام بإهانة المرأة، فها هو يرفع امرأة من السبي لتكون من أمهات المؤمنين، بلا تكلّف ولا رياء.

فوائد اجتماعية وتاريخية:

- أن هذا الزواج أسهم في تأليف قلبٍ من أعقد القلوب على الإسلام، فصفية كانت من بيتِ قيادةٍ يهودي، فصار بيت النبوة، وهذا فيه بُعد سياسي واجتماعي عظيم.

- أن المرأة في الإسلام تُكرم حتى لو كانت من عدوّ، فإذا أسلمت فلها من الحقوق ما لغيرها، دون نظرٍ إلى جنسها أو نسبها.

ما يخالف الواقع:

- ما زال بعض المسلمين ينظر إلى المرأة المسلمة التي دخلت في الإسلام من غير العرب نظرة دونية، بينما النبي صلى الله عليه وسلم قد رفع من شأن امرأة من بني إسرائيل وجعلها أمًا للمؤمنين، والإسلام لا يفرّق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

- في زمنٍ تستغل فيه الحروب النساء وتُعامل فيه الأسيرات كسلعة، يظهر جهل العالم بالإسلام الذي رفع المرأة حتى في حال الأسر، وجعل لها كرامة وإنسانية.

- تغيب الرحمة عن قلوب كثير من الدعاة في هذا الزمان، فلا يراعون مشاعر المقبلين الجدد على الإسلام، بينما النبي صلى الله عليه وسلم كان رقيقًا في عرضه للإسلام على صفية، متفهّمًا لحالتها النفسية، مما جعلها تُقبل بكل قلبها على الدين.

- يتجرأ بعض المتأثرين بالغزو الفكري على الطعن في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من بعض زوجاته، ويعدونه من باب الشهوة، والحقيقة أنه تشريع وسنة وكرامة للمرأة، ومواقف صفية رضي الله عنها خير شاهد على ذلك

- غلاة الخوارج الذين يكفّرون بمجرد المعصية، لا يرون في صفية رضي الله عنها ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم من استعدادٍ للهداية، ويُغلقون باب الرحمة عن التائبين والمُقبلين، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح لهم أبواب النور.

الفقرة السابعة السم في الشاة المسمومة بعد فتح خيبر: نصل الغدر في يد العاجزين

ما إن أُسدِل الستار على ملحمة خيبر، وارتفعت راية الإسلام خفّاقةً فوق حصونها الشامخة، حتى بدأت بقايا الحقد الدفين تتحرك في الظلام... إذ لا يزال في صدور القوم لهب لم يخمد، وغيظ لم يُشفَ.

فإذا بإحدى نساء اليهود –زينب بنت الحارث، أخت سلام بن مشكم، وكان من قتلى خيبر– تسللت لتنسج مؤامرة خبيثة. أرادت أن تغدر، لا بقائدٍ منتصر، بل بنبيٍّ مؤيَّد، لتثبت بذلك فشلًا آخر في وجه النبوة. سألت: "أيّ أجزاء الشاة أحبّ إلى محمد؟" فقيل لها: "الكتف".
فزادته سمًّا، سمًّا قاتلًا، يعصف بالبدن إذا ما لامسه، وقدّرته على أن يكون قاتلًا بلا سيف!

وقدّمت الشاة المشوية للنبي صلى الله عليه وسلم كأنها هدية مسالِمة، لا تحمل في طيّاتها سوى الودّ، وهي تحمل الموتَ بين خيوط لحمها.
فلما مدّ النبي الكريم يده الشريفة إليها، وأخذ منها مضغة، لم يكد يبلعها حتى لفظها وقال على الفور:

"ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة "رواه أبو داود (٤٥١٢) وصححه الألباني.]

لقد أنطق الله الشاة، فأخبرت نبيَّه بما أُخفي عنها، وأيّ آيةٍ أعظم من أن يُنبَّأ النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يُدرك بالحسّ؟
لكن أحد الصحابة –بِشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه– كان قد أكل منها قبل أن يُعلَن الخبر، فوقع السمّ في جوفه، وظلّ يُصارع أثره أيّامًا، حتى استُشهد متأثّرًا بما أكل، رضي الله عنه وأرضاه.

فاستُدعيت المرأة، وسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدوء الواثقين:**"ما حملكِ على ما صنعتِ؟"**
فقالت بجرأةٍ وقحة:**"أردتُ أن أقتلك. فإن كنت نبيًّا، فسيُخبرك، ولن يضرك، وإن لم تكن، استرحنا منك"!**

لقد كانت كلماتها كالسهم المسموم الآخر، تكشف عن الحقد الدفين والحيلة اليائسة، لكنّ النبي صلى الله عليه وسلم –وهو القادر على القصاص– لم يقتلها في بادئ الأمر، بل عفا عنها، إذ لم يكن قد مات أحد بسبب فعلها.

فلما توفي بشر رضي الله عنه، قُتلت زينب قصاصًا به، كما في بعض الروايات المعتمدة عند أهل السِّيَر، كابن إسحاق وغيره، ولم يكن ذلك لثأر، بل لتحقيق العدل، **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾**]البقرة: ١٧٩.[

لكن الأمر لم ينتهِ هنا...

فقد بقي أثر السم في جسد النبي صلى الله عليه وسلم، وظلّ يعاوده ألمُه، حتى قال في مرض وفاته:

"ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع أبهري منها "رواه البخاري

و"الأبهر" شريانٌ عظيم إذا انقطع مات الإنسان. فما أبلغها من شهادة، أن يموت خاتم النبيين متأثرًا بفعل الغدر، بعد أن عاش عمره مجاهدًا صابرًا داعيًا محتسبًا!

إنها ليست حادثة سمٍّ فحسب، بل لوحة عظيمة من مشاهد النبوة:

فيها دليل على صدق الوحي، فقد أنطقت الله الشاة لتُخبر نبيَّه.

وفيها عظيم الحلم والعدل، فلم يُقدِم النبي على القتل إلا بعد ثبوت القصاص.

وفيها شهادة على أن الأنبياء بشر، يُصيبهم ما يصيب الناس، وأنهم يصبرون على البلاء كما لا يصبر أحد.

وفيها بشارة لشهيد خيبر، بشر بن البراء، الذي ذاق من تلك الشاة ما أورثه مقامًا في الشهداء، فخلّد الله اسمه في هذه الحادثة المباركة.

فطوبى لنبيٍ عاش كريمًا، ومات شهيدًا، وخرج من الدنيا كما دخلها: صابرًا محتسبًا، قد بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وتركنا على المحجّة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- تصديق النبي صلى الله عليه وسلم بوحي من الله عز وجل من أعظم دلائل النبوة، وقد جاءت حادثة الشاة المسمومة لتؤكد أن الله يؤيده بالمعجزات التي تعجز البشر، كأن تُنطق له الشاة المذبوحة بالسم، وهذه من الآيات الخارقة التي تخرس ألسنة المكذبين.

- إن عِلم النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يُرى ولا يُدرك بالحس، يدل على ارتباطه بالوحي، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهو تأييد رباني لا يكون إلا لنبي صادق.

- ثبوت بشريّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذ مرض النبي صلى الله عليه وسلم وتألم، بل مات متأثرًا بذلك السم، مما يُبطل عقيدة الغلاة الذين يرفعون الأنبياء فوق مقامهم البشري، كما يُرد على من زعم أن الأنبياء لا يصيبهم مرض أو أذى.

- القصاص مبدأ شرعي من صميم دين الله، لا يحركه الحقد ولا تدفعه الشهوة، بل هو تحقيق للعدل الإلهي، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، وهذا يؤكد أن الشريعة جاءت بحفظ النفوس لا بالثأر الأهوج.

فوائد فقهية:

- جواز العفو عن الجاني إذا لم يُفضِ فعله إلى الهلاك، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين عفا عن زينب أولًا، ولم يقتص منها إلا بعد موت الصحابي بشر رضي الله عنه، وهذا يدل على ضبط القصاص وعدم الاستعجال فيه إلا بعد تحقق الضرر.

- ثبوت القصاص من المرأة إذا قتلت عمدًا، وهو إجماع عند الفقهاء، ويُرد بذلك على من يدّعي أن المرأة لا تُقتَل بالرجل أو أن العدل لا يشملها، فالشريعة تُساوي في الحدود بين الجنسين عند تحقق الجناية.

- يجوز قبول الهدية من غير المسلم في حال السِّلم، ما لم يثبت قصد الغدر أو الضرر، ويُستفاد من تقديم اليهودية الشاة المشوية للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما قبله دون أن يكون في الظاهر ما يدل على الغدر.

- العمل بالقرائن لا يكفي لإقامة الحدود، فقد لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم المرأة مباشرة بناء على احتمال، بل تحقق من وقوع القتل نتيجة فعلها، فاقتصّ.

فوائد أخلاقية:

- حِلم النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع زينب رغم فعلها القبيح يُعلّمنا أن العفو عند المقدرة خُلُق الأنبياء، وأن العدالة لا تكون دائمًا بالانتقام، بل بالنظر في النتائج والمآلات.

- شجاعة الصحابة رضي الله عنهم في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى لو لم يكن ذلك مقصودًا، فقد كان بشر رضي الله عنه سببًا في كشف المؤامرة، ومات شهيدًا فداءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

- الغدر لا يصدر إلا من النفوس المريضة والعقول المنهزمة، إذ عجزت اليهودية عن المواجهة فاستعملت السم خفية، والغدر من أخبث صفات النفوس، لا يصدر إلا عن خيانة جبانة.

- مواجهة البلاء بالصبر والاحتساب من سمات المؤمن الكامل، وقد صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أثر السم طوال حياته، بل مات متأثرًا به، فكان في ذلك أسوة للصابرين.

فوائد دعوية:

- حادثة السمّ تصلح أن تُقدَّم كبرهان على صدق النبوة لمن يُنكر الرسالة، فهي واقعة تاريخية صحيحة أيد الله بها نبيه بمعجزة حسية.

- لم يستغل النبي صلى الله عليه وسلم الحادثة لتوسيع القتال أو الاعتداء على اليهود كلهم، بل تعامل مع الجريمة بحدودها، فكان في ذلك درس في الحكمة وعدم التعميم في ردود الفعل.

- يُعلّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الدعوة لا تُقابل بالإيذاء حتى لو آذاك الناس، فكان بالإمكان الانتقام من كل اليهود، لكنه اقتصر على من ثبت جرمه.

فوائد تربوية:

- الحذر من الانخداع بالمظاهر، فكم من هدية ظاهرها الودّ، وباطنها السمّ، لذا وجب التثبت والتأني في التعامل، وعدم الركون للثقة المطلقة بمن عُرِف بالعداوة.

- عاقبة الغدر لا تذهب سدى، فالله يُظهرها ولو بعد حين، وقد أظهر ما في قلب زينب، وأنطق الشاة، فكانت عبرة لكل من يُضمر الشرّ في ثوب الطيبين.

- البلاء قد يكون بابًا للرفعة، فموت بشر رضي الله عنه لم يكن خسارة، بل شهادة عظيمة خلدها التاريخ، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

ما يخالف الواقع:

- التهاون في الغدر والكذب بين المسلمين أنفسهم، فقد صار بعض الناس لا يأنف من الكذب في العقود، أو الغش في الهدايا، أو الإضرار بالناس خفيةً ثم التظاهر بالنية الحسنة.

- ضعف الصبر عند الابتلاء، فإن كثيرًا من الناس إذا أصابه شيء يسير من المرض أو الأذى، جزع وتسخّط، وقلّ من يحتسب البلاء ويصبر كما صبر نبي الله صلى الله عليه وسلم.

- تضييع العدل في الخصومات، إذ قد يُعاقب الناس بالجملة على جرم فرد، بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يتجاوز الجاني نفسه، حتى وإن كانت القضية حساسة.

- تهاون بعض المسلمين في قبول أيّ شيء من الأعداء بدعوى التسامح، دون وعي بحقائق القلوب ولا حذر من الغدر، وقد نهانا الله عن الركون للذين ظلموا.

الفقرة الثامنة :من أسلم بعد فتح خيبر: حين يُثمر النصرُ إيمانًا، ويُزهر الجهادُ هداية

لم يكن فتح خيبر نصرًا عسكريًّا فحسب، بل كان زلزالًا هزّ أعماق الجزيرة، وارتجّت له عروش الوثنية، وانتفضت له القلوب المتحجّرة، فاهتزّت مكة في كبريائها، وجزع زعماء قريش وهم يَرَون النبي صلى الله عليه وسلم، الذي خرج مهاجرًا ضعيفًا، يعود ظافرًا منصورًا، يُخضع خيبر الحصينة، ويضع تاج عزّها في يد التوحيد.

لقد كان فتح خيبر إعلانًا مدويًا عن تحوّل الموازين، وكان كأنفاس الفجر تسبق شمس الفتح الأكبر. ومن رحم هذا النصر، ولدت قلوب جديدة، أنارتها الهداية، وأدركت أن الطريق إلى محمد صلى الله عليه وسلم ليس طريقًا إلى رجلٍ منتصر فحسب، بل إلى رسولٍ مؤيد، ونبيٍّ مصطفى.

وفي مقدمة الذين أسلموا بعد خيبر:

عمرو بن العاص رضي الله عنه

ذاك الذي عُرف بدهائه، وقوة رأيه، وحسن تدبيره، وكان من أعيان قريش، وسفرائها السياسيين، ورجالها المحنكين.
وقف يومًا مع نفسه بعد خيبر، وتأمل تلك الرايات التي خفقت، والجدران التي سقطت، والقلاع التي انهارت، وقال في قلبه:
"والله لقد استبان الأمر، وإن الرجل لَنَبِيٌّ، وإنه لا يَسْلَم له العرب، فوالله لأذهبن إليه وأُسْلِم".

وفي **صحيح مسلم**، يروي عمرو عن لحظة إسلامه فيقول"**:أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابسط يدك أبايعك. فبسط يده، فقبضت يدي. قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط .قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يُغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟"!**

فبايع وبكى، وعاش بعد ذلك مجاهدًا في سبيل الله، فتح الله على يديه **مصر**، وكتب اسمه بين عظماء الفاتحين، بعد أن كان من خصوم الرسالة!

خالد بن الوليد رضي الله عنه.

كان رمح قريش، وسيفها المسلول ضد الإسلام، ولكن النور حين يخترق القلب، لا تُفلح سيوفُ الجاهلية أن ترده.

رأى خالد مشهد خيبر، فاهتزّ له كيانه، وقال لنفسه" *لقد استبان كل شيء، ومحمدٌ لا يُغلب"!*
فركب مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، ومضوا إلى المدينة، يبحثون عن حياة جديدة، وعن يقين طالما جاهدوه.

فلمّا دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، أقبل خالد وبايع، فابتسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "**نِعم عبد الله خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين** "رواه أحمد وصححه الألباني.[

وهكذا، أصبح "سيف الله المسلول"، وأبلى في بدر الإسلام بلاء من لا يُقهر، حتى قال فيه الصديق يوم موته: *"عجزت النساء أن يلدن مثل خالد"*.

عثمان بن طلحة رضي الله عنه

حامل مفتاح الكعبة، وسادن بيت الله قبل الإسلام، وكان من الأشراف المعروفين في مكة.
ورغم قُربه من الحرم، لم يعرف النور إلا بعد خيبر، يوم قرأ النصر رسائل السماء المكتوبة باليقين.

انطلق مع رفيقيه، عمرو وخالد، إلى المدينة، وقد جمعهم توق واحد: أن يُعانقوا الإسلام، ويقفوا تحت راية الحق.
فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه، كأنما يرى الفتح قادمًا في وجوههم.
وكان إسلامهم من أعظم الثمرات التي أثمرت بعد خيبر، وقال بعض أهل السيرة:
"خرج الثلاثة معًا من مكة، كأنهم يُشيّعون الجاهلية من قلوبهم، ويُودّعون زمن العناد".

وهكذا... كان فتح خيبر بداية عهدٍ جديد، ظهرت فيه **بشارة قوله تعالى:﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾**]النصر: ١-٢.[

فيا لعظمة النصر إذا اقترن بالهداية...ويا لجمال أن يدخل المرء في دين الله من باب القناعة، لا من باب السيف.
فمن لم تفتح قلبه الرسائل، فتحته **السيوف المؤيدة بالوحي**، ومن لم تؤثر فيه الحجج، أثّر فيه صدق محمد صلى الله عليه وسلم، حين قال": **نصرتُ بالرعب، وأُتيت جوامع الكلم]** "...متفق عليه.[

فهل نكتب نحن اليوم في سجل الذين اتبعوا، أم في هامش الذين ترددوا؟
ذاك سؤالٌ يجيب عنه القلب، حين يعرف صدق النبي صلى الله عليه وسلم، ويذوق طعم الإسلام!

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بالنصر الرباني لا ينفصل عن الإيمان بصدق الرسالة؛ فلولا أن الله أيّد نبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر لما اهتزت قلوب قريش، ولا استبان عمرو بن العاص أن الرجل نبيّ حقًا.

- النصر من دلائل النبوة، ففتح خيبر لم يكن مجرّد انتصار عسكري، بل برهان إلهي على تأييد السماء لمحمد صلى الله عليه وسلم.

- إسلام كبار قريش بعد الفتح يدل على أن الهداية بيد الله، وأن الله يفتح القلوب في الوقت الذي يشاء، لا في الوقت الذي نُريده نحن.

- قوة اليقين في قلوب الصحابة بعد إسلامهم تُظهر أن الإيمان الحق لا يكون تقليدًا أو خضوعًا لقوة، بل قناعة تامة بصدق الرسالة، كما وقع مع خالد وعمرو.

- الإيمان يهدم ما قبله من الكفر، وهذه قاعدة عظيمة من أصول الدين، نصّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟.»

- النصر سبب في دخول الناس أفواجًا في دين الله، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾، مما يدل على ارتباط الهداية بإرادة الله الكونية وفتوحه الربانية.

فوائد فقهية

- مشروعية مبايعة الداخل في الإسلام للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنها كانت تتم باليد دلالة على الرضى والالتزام.

- توبة الكافر عند إسلامه تُوجب محو ما قبلها من الذنوب، كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص في الحديث الصحيح.

- الفتح في الإسلام لا يعني الإكراه على الدين، وإنما يكون وسيلة لإزالة الحواجز بين الناس وبين الدعوة، ثم يُخيّرون بعد ذلك، وهذا ظاهر في قصة من أسلموا بعد خيبر.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم عن خالد: "سيف من سيوف الله" تقرير لجواز إطلاق الألقاب الشرعية التي تدل على شرف العمل، إذا ثبتت بألفاظ نبوية.

- حصول الإسلام بإقرار القلب والنطق بالشهادتين، وليس بطول المعايشة للدعوة؛ فقد كان عمرو وخالد يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، ولكن الله فتح قلوبهم في وقته.

فوائد أخلاقية

- اليقين إذا دخل القلب غيّر مجرى الحياة كلها، فعمرو وخالد وعثمان خرجوا من مكة إلى المدينة يسوقهم صدق الإيمان، لا طمع ولا خوف.

- عظمة الصحابة رضي الله عنهم في أنهم لم يستكبروا عن الرجوع إلى الحق، رغم ماضيهم في العداء، بل انقلبوا أنصارًا وأبطالًا في ميادين الدعوة والجهاد.

- الرجوع إلى الحق فضيلة لا يُحسنها إلا الكبار؛ فالنفوس الصغيرة تعاند، أما القلوب الصادقة فتهتدي بمجرد أن ترى النور، كما فعل هؤلاء الثلاثة.

- النصر الحقيقي لا يكون على الأجساد فقط، بل على القلوب، وإذا دخل الإيمان القلوب، صار العدو القاسي أخًا ناصحًا، والمقاتل المهاجم نصيرًا للإسلام.

فوائد دعوية وتربوية

- النصر قد يكون أبلغ في الدعوة من آلاف الخطب، إذا اقترن بحسن الخلق وصدق الرسالة، فإن المشهد يسبق الكلمة في كثير من الأحيان.

- الفتوحات الإسلامية ليست لفرض الدين، بل لتمهيد الطريق إليه؛ ومن شاء فليؤمن، كما آمن عمرو وخالد دون إكراه، بل عن قناعة ويقين.
- من ظنّ أن الإسلام انتشر بالسيف فقد كذّب هذه النماذج الثلاثة، التي أسلمت بعد أن أيقنت بالحق، لا بالسلاح.
- الداعية لا يدري متى تؤتي دعوته ثمارها، فقد تمرّ سنوات ثم يهتدي أحدهم بمشهد أو موقف، كما وقع بعد خيبر.

ما يخالف الواقع

- بعض الناس اليوم يظن أن الدعوة لا تنجح إلا باللين وحده، وينكر أثر النصر والتمكين في نشر الدين، مع أن الله فتح بخيبر قلوبًا لم يفتحها قبلُ بالحجج.
- انتشار الفكرة القائلة بأن الإسلام انتشر بحدّ السيف، وهي دعوى باطلة تُكذّبها أحداث السيرة، ومنها إسلام هؤلاء الثلاثة عن قناعة لا عن خوف.
- قليلون من يُراجعون مواقفهم إن ظهر لهم الحق، بينما كان الصحابة الكبار يُسارعون إلى التوبة والرجوع، خلافًا لكبراء اليوم الذين يعاندون الحق حتى وهم يرونه.
- فقدان الهمّ الدعوي عند بعض المسلمين اليوم، فلا يفرحون بدخول الناس في الإسلام كما فرح به النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يسعون في فتح قلوب الغافلين.

سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة (في شوال من السنة السابعة للهجرة)

في أجواء النصر التي فاح عبيرها بعد فتح خيبر، وبينما كانت المدينة المنوّرة تزهو بظلال التمكين، وقلوب الصحابة يملؤها اليقين بأن وعد الله حق، لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستسلم لطمأنينة ظاهرية قد تُخفي بين جنباتها نذرَ غدرٍ كامنة. فالنبي القائد، صلى الله عليه وسلم، كان واسع النظر، نافذ البصيرة، لا تغفو له عين عن مواقع التهديد، ولا يغفل فكره عن أمن الطريق، خاصة أن الطريق إلى مكة وما حولها لا يزال يعجُّ ببقايا أحقاد المشركين.

وقد بلغه صلى الله عليه وسلم أن بني الملوّح من كنانة – وهم قوم عرفوا بالغدر، وكانوا قد فتكوا ببعض من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم – لا يزالون يعيثون في الأرض فسادًا، يُهدّدون القوافل، ويُنذرون بخطر لا يُستهان به. لم تكن خيبر نهاية المواجهة، بل بداية لمرحلة جديدة، فيها يثبت الإسلام قدمه، ويقطع دابر الخيانة، ويُؤسس لأمنٍ مستقرّ في أرضٍ كانت تضجّ بفوضى الحروب.

وهنا، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم فارسًا من فرسان الدعوة، وقائدًا من قادة النصر، ممن تمرّسوا في ساحات القتال :غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه.

أمره أن يخرج في سرية تتكوّن من مئة وثلاثين من الصحابة الأخيار، ليتوجهوا صوب الميفعة، وهي منطقة جنوب مكة، تقع على طريق القوافل، حيث يعسكر العدو المتربّص.

لقد كان هدف السرية واضحًا: مباغتة العدو، وردعهم عن التعرض للمسلمين، وتطهير الطريق من بقايا الغدر. فانطلقت السرية في سكون الليل، صامتة الخطى، تُخفي جمر العزم تحت رماد الهدوء، تسير وكأنها نسمة في الفجر، لا تُرى ولا تُسمع، حتى بلغت مواضع بني الملوّح عند "المصابيح" قرب الميفعة.

وفي مشهد مشحون بالتوتر، خرج لهم عكرمة بن أبي جهل –ولم يكن قد أسلم بعد – على رأس فرسان من قريش، ظنًّا منه أنه يستطيع أن يعيد أمجادًا خبت نارها، أو أن يوقف مدًّا إلهيًا أذن الله له بالنفاذ. فكانت مفاجأة المواجهة على الأبواب، ولكن القائد المؤمن لا يُفاجَأ.

لقد أبدع غالب بن عبد الله في فنون الحيلة والخدعة الحربية، فأمر رجاله بانسحاب تكتيكي موهوم، يُوهم العدو بفرارٍ كاذب، ثم باغتوهم بعودة خاطفة كأنها صاعقة من السماء! كما أوقدوا نارًا ليلًا في موقع خالٍ، ليُضلّوا عيون المتربّصين، ثم انقضّوا من حيث لا يُنتظرون.

وكانت الغنيمة: نصرًا بأقل الخسائر، ورسالة مهيبة أن يد محمدٍ صلى الله عليه وسلم طويلة، تضرب حين يُظن أنها لا تمتد، وأن عينه يقظة، لا يلهيها نصر عن ترسيخ أمن، ولا يشغلها فرح الفتح عن درء الغدر.

فقتل من بني الملوّح من قُتل، وفرّ الباقون مدحورين، وعاد جيش الإيمان إلى المدينة المنوّرة منتصرًا، يحمل لواء الكرامة، ويكتب في صحائف الفخر فصلًا جديدًا من فصول العزة الإسلامية.

لقد جسّدت هذه السرية معاني عظيمة من الإيمان والعمل واليقظة، وكانت ترجمة حيّة لقوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾]الأنفال: ٦٠.[

وفيها عِظة بليغة أن القيادة النبوية لا تُبنى على ردّ الفعل، بل على قراءة المستقبل، ورسم الطريق، وقطع دابر الغدر قبل أن يتجذر.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- من صفات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يغفل عن مواضع الشرّ، ولا يركن إلى الظواهر، بل يقرأ ما خلف الأحداث، وفي ذلك إثبات لصفة كمال النبوة والقيادة بالوحي والمعونة من الله، لا بالظن والتجربة المجردة.
- تأكيد على أن النصر ليس غاية في ذاته، بل وسيلة لتمكين الدين، وإعلاء كلمة الله، واستمرار الحذر حتى بعد الفتح دليل على أن نِعَم النصر لا تعني انتهاء الابتلاء.
- وعد الله بالنصر والتمكين متحقق، ولكن لا يتحقق بالتمني بل بالعمل والإعداد، وهذا من تمام الإيمان بالقدر المشروع، الذي يجمع بين التوكل والسعي.
- وجود بقايا أهل العداء والغدر في أطراف الجزيرة رغم الفتوحات يُذكّر المسلم أن العداوة لدين الله باقية ما بقي الليل والنهار، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا.
- في قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ إثبات أن من الإيمان أن يُعدّ المسلم ما يستطيع من الوسائل، وأن هذا داخل في طاعة الله، بل هو أمر شرعي تعبدي.

فوائد فقهية

- جواز استخدام الحيلة والخدعة في القتال ما دامت لا تشتمل على غدر أو نقض عهد، بل تُعد من تمام الكياسة والفقه في الحرب.

- مشروعية إرسال السرايا من الإمام أو من ينوب عنه لحفظ الأمن ومصالح المسلمين، وهذا من واجبات الولاية العامة.

- الغنيمة المشروعة التي تُكتسب في الجهاد لا بد أن تكون بإذن الإمام وفي موضع مشروع، بخلاف الغصب والنهب الذي يُسمى زورًا جهادًا عند أهل البدع.

- اتخاذ التدابير العسكرية – كالإيهام بإيقاد النار في موضع خالٍ – يدخل في باب التدبير المباح شرعًا لتحقيق مصلحة عامة للمسلمين.

- هذه السرية دليل على أن الجهاد لا يكون دائمًا مواجهة مباشرة، بل قد يكون استباقيًا لردّ الخطر المتوقع، وهذا من تمام فهم باب دفع الصائل.

فوائد أخلاقية

- من خُلق القائد الحق أنه لا يغتر بالنصر، بل يزداد تواضعًا وحذرًا، ويستمر في بذل الأسباب.

- في القائد غالب بن عبد الله رضي الله عنه مثال حيّ على صفات القائد المسلم: الجرأة، والحكمة، والقدرة على الخداع الحربي بلا خيانة.

- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه الذين قُتلوا غدرًا لم يُنسه، بل كان دافعًا لأخذ الحق وكسر شوكة الغادرين، وفي هذا غيرة على دم المسلم وكرامته.

- تأديب المعتدين والضرب على أيدي الغادرين هو من حسن الخلق العام، لأن الأخلاق لا تكون فقط في اللين، بل في الحزم حين يجب.

فوائد تربوية ودعوية

- المسلم مطالب دائمًا باليقظة والوعي، فلا يغتر بالرخاء المؤقت، ولا يغفل عن مكر الأعداء.

- من دروس السرية أن الدعوة لا تعني الضعف، ولا يعارض الجهاد الدعوي الجهاد بالسلاح إذا احتيج إليه لدفع عدوان أو حماية مسيرة الدين.

- في انطلاق السرية ليلًا في سكون وتخطيط، درس عظيم في أن الأعمال الجليلة لا تحتاج إلى صخب، بل إلى صبر وتدبير.

- من صفات المؤمنين أنهم إذا أُمروا أطاعوا، فخرج هؤلاء الصحابة في سرية غير معلنة امتثالًا، لا تساؤلًا ولا اعتراضًا.

فوائد قيادية وسياسية

- وضوح الهدف عند القائد أساس في نجاح المهمة، وقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم هدف السرية من أولها: الردع والتأمين.

- القيادة النبوية تُعلّمنا أن معالجة الشر قبل استفحاله من أصول السياسة الشرعية، لا الاكتفاء بردود الفعل.

- من حكمة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يفتح على نفسه جبهات كثيرة في وقت واحد، بل راقب المشركين المتبقين وسدّ الثغور قبل أن تهبّ الفتن.

مخالفات الواقع

- الغفلة العامة عن دراسة السيرة النبوية من هذا الجانب العملي القيادي، مما جعل كثيرًا من أبناء الأمة لا يرون في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلا صور الوعظ دون فهم للسياسة الشرعية.

- الانبهار بالحضارات المعاصرة جعل بعضهم يسخر من خطط النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية، ويعدّها بدائية، في غفلة عن روحها الإيمانية وعبقريتها الواقعية.

- ضعف الشعور بالانتماء للأمة جعل بعض المسلمين يظنون أن ردع المعتدين أو تأديب الغادرين ليس من مكارم الأخلاق، مع أن السيرة تشهد بعكس ذلك.

- التراخي في الحذر الأمني حتى من داخل مجتمعات المسلمين، حيث تُترك بعض الثغرات الفكرية والإعلامية دون رقابة، تُذكّرنا بخطر الغفلة التي لم يقع فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه.

ملحمة مؤتة.. حين وقف الإيمان في وجه الجحافل

في سنةٍ من سنوات النور، وتحديدًا في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، دوّت صرخة المجد على ثرى مؤتة، أرض الأردن الحالية، فارتجّت الأرض تحت أقدام الطهر، واهتزّ التاريخ ليخلّد أول مواجهة عظيمة بين راية التوحيد وسيوف الإمبراطورية الرومانية، ذلك العملاق المتجبّر الذي لم يكن يتخيل يومًا أن تواجهه ثُلّة من المؤمنين، لا عتاد لهم ولا عُدة، إلا قلوبًا امتلأت يقينًا، وأرواحًا توّاقة للشهادة في سبيل الله.

لقد بدأت المأساة بيد آثمة، يدٍ امتدت إلى رسول من رسل السلام، لا يحمل سيفًا ولا رمحًا، بل يحمل كتابًا وهدى. كان **الحارث بن عمير الأزدي** رسولًا أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك بُصرى، يحمل دعوة التوحيد، ويعرض رسالة الرحمة على من لا يزالون في ظلمات الشرك.

فما كان من شرحبيل بن عمرو الغساني – أحد عمال الروم – إلا أن استقبله بالسيف بدل السلام، فأراق دمه الطاهر، فكان أول رسولٍ يُقتل في الإسلام، في خرقٍ سافرٍ لكل مواثيق الأمم، وعدوانٍ أثيمٍ على مقام الرسالة.

بلغ الخبر المدينة، فاهتزت أركانها، واضطرب قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى قيل" :ما غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم قطّ غضبةً أشد من غضبته يوم قُتل الحارث بن عمير"، فكان لا بد من الرد، لا طلبًا للثأر المجرد، بل نصرةً للدين، وحمايةً لحرمات الرسل، وإقامةً لهيبة الدولة الناشئة في وجه طغاة الأرض.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز جيشٍ لم يكن كبير العدد، لكنه كان عظيم القدر، ثلاثة آلاف فارس، تقودهم العقيدة لا القيادة، ويحرّكهم الوحي لا الغنيمة، وعيّن لهم ثلاثة قادة على الترتيب :زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل فعبد الله بن رواحة، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدّق ببصيرته في كتاب القدر، يعلم أنهم سيلقون ربهم شهداء، فيُرتّب لهم مراتب الشرف قبل أن تطأ أقدامهم أرض المعركة.

ورغم أن العدو كان غاشمًا، لم يُرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُرسل الجيش لمجازر عمياء، بل صدحت وصاياه الرحيمة في فجاج المدينة، تُؤصّل أدب الحرب الإسلامي:

»اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا فانِيًا، وستجدون قومًا في الصوامع فدعوهم وما هم عليه)«رواه أحمد وغيره، بسند صحيح.(

وهكذا خرج الجيش، وكل قلب فيه يخفق ما بين رجاء الشهادة، وخشية التقصير. وكان عبد الله بن رواحة يبكي، فسأله أصحابه: «ما يبكيك يا ابن رواحة؟» فقال»:أما والله ما بي حبّ الدنيا، ولا صبابة إليها، ولكني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فلم أدرِ كيف لي بالصدر بعد الورود«!

وهناك، على مشارف معان، تلقّوا الخبر الكارثة :مئتا ألف مقاتل من الروم ومن تحالف معهم من العرب النصارى، في مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين! لم تكن معركة متكافئة، بل كانت فاصلةً بين منطق السماء ومنطق الأرض، بين حسابات الإيمان وحسابات القوة.

تردّد بعض الصحابة، وراودتهم فكرة إرسال رسول للنبي صلى الله عليه وسلم لإخباره بالتفاصيل، فقال عبد الله بن رواحة كلمته الخالدة»:يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإما النصر، وإما الشهادة«!

فتحركت القلوب قبل الأقدام، وزأرت الأرواح في سماء مؤتة، والتقت الصفوف.
فكان زيد بن حارثة – أول القادة – يحمل الراية كأنها قلبه، فقاتل قتال الأبطال، حتى خر صريعًا، والنبي صلى الله عليه وسلم ينقل لأصحابه في المدينة مشهد المعركة لحظة بلحظة، كأنه يراهم رأي العين، فيقول: "أخذها زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر) "...رواه البخاري.(

ثم تقدم جعفر بن أبي طالب، ابن عم النبي، ومَنْ له في قلبه مكان لا يدركه إلا من عرف الحب النبوي. قاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى سقط مضرجًا بالدماء، فبشّره النبي صلى الله عليه وسلم من فوره فقال:

"لقد أبدله الله بدل يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء"، فسُمّي :جعفر الطيّار، وخلّده التاريخ بدمائه، قبل أن تخلده ألسنة الشعراء.

ثم كانت الراية لعبد الله بن رواحة، وفي لحظة من لحظات التردد البشري، كان يُجالد نفسه، يقول:

»يا نفس، ما لك تكرهين الجنة؟! والله لئن لم تُقتلي تموتي، هذا حمام الموت قد صُبّ، وما أنت إلا قطرة في بحر المجاهدين«!
ثم هجم على القوم فاستُشهد، وانضم إلى ركب الشهداء الأبرار.

سقط القادة الثلاثة، وكادت الراية أن تضل طريقها، حتى حملها ثابت بن أقرم، ثم نادى الناس: «اصطلحوا على رجل منكم!» فقالوا: «أنت!» قال: «لا، ولكن أدلّكم على من هو لها: خالد بن الوليد.«

خالد الذي لم يمضِ على إسلامه إلا أشهرٌ معدودة، لكنه وُلد قائدًا، وكأنما سُقيت عروقه من نهر الحروب. استلم القيادة، وأعاد ترتيب الصفوف، وابتكر خطة عبقرية، بدّل مواقع الميمنة والميسرة، حتى ظن العدو أن مددًا قد جاء من المدينة، ثم بدأ بانسحابٍ ذكيٍّ منظم، يقطعه قتال شجاع حينًا، ومناورة حذقة أحيانًا، حتى أمن الجيش الانسحاب الكامل دون خسائر إضافية، في مشهدٍ يعجز عنه كثير من قادة الجيوش الكبرى.

وعاد الجيش إلى المدينة، وقد ساد الوجوم وجوههم، لا لأنهم خسروا، بل لأنهم فقدوا من كانوا أرواحًا تسير على الأرض. استقبلهم بعض الناس باللوم فقالوا" :يا فرارون"!
فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا شديدًا، وقال" :ليسوا بالفرّارين، ولكنهم الكرّار إن شاء الله) "!رواه البخاري.(

وهكذا، كُتبت على صخور مؤتة ملحمةٌ، سطّرها الشهداء بدمائهم، ورسمها خالد بسيفه، وعطّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثنائه، فكانت درسًا خالدًا في معنى الإقدام، ومقام الشهادة، وعبقرية القيادة، وصدق الوعد، ويقين النصر.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾]البقرة: ٢٤٩.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الرسالة الإسلامية ليست مجرد دعوة أرضية، بل هي وحي من السماء يُرسل به رسول، وقتل الرسول يُعد اعتداءً على مقام الرسالة لا على شخصٍ فحسب.

- النبي صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن الهوى، وقد كان غضبه الشديد عند مقتل الحارث بن عمير دليلاً على أن الرسل من البشر لهم حرمة عظيمة، لأنهم يحملون كلام الله.

- تعيين النبي صلى الله عليه وسلم للقادة الثلاثة بالترتيب قبل المعركة فيه دلالة على علمه الذي أطلعه الله عليه، وتصديقه للوحي والقدر.

الكرامة التي ظهرت لجعفر بن أبي طالب – أن يُبدله الله جناحين – من دلائل الإيمان بالغيب وما أعده الله لعباده الصادقين.

- استمرار المعركة رغم قلة العدد دلالة على أن النصر ليس مرتبطًا بالأسباب المادية وحدها، بل هو من عند الله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾.

- تصحيح النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة حين ظنوا أن الجيش فرّ، بأنهم "الكرار"، فيه تقرير لعقيدة الولاء والنصرة للمؤمنين، حتى في أحلك اللحظات.

- جهاد الصحابة لم يكن طمعًا في دنيا ولا غنيمة، بل في سبيل الله، طلبًا للشهادة، وهذا أصل في الإخلاص.

- الله عز وجل يختار من يشاء للشهادة، وترتيب النبي صلى الله عليه وسلم للقيادة وكأنما يعلم مصيرهم فيه تسليم للقدر وتوقير لأمر الله.

فوائد فقهية

- الاعتداء على الرسل مُحرّم شرعًا، وهو خرق صريح لعهود الأمان، ويُوجب الرد المشروع.

- وصايا النبي صلى الله عليه وسلم للجيش قبل القتال – بعدم الغدر، والتمثيل، وقتل النساء والصبيان والشيوخ – أصلٌ عظيم من أصول فقه الجهاد الإسلامي، وهو مبدأ مستمر في كل زمان.

- جواز تغيير القائد في أرض المعركة إذا اقتضت المصلحة، كما فعل ثابت بن أقرم حين سلّم الراية لخالد بن الوليد، مما يدل على تقديم الكفاءة.

- استعمال الحيلة العسكرية والمكر الحربي جائز إذا كان فيه نصر للمسلمين وحقن لدمائهم، ما لم يشمل الغدر بالعهود أو نقض الأمان.

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للرسل إلى الملوك للدعوة يدل على مشروعية تبليغ الدعوة لغير المسلمين ولو في حال العداوة.

فوائد أخلاقية

- استقبال رسول النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل جريمة أخلاقية تنم عن خسة لا عن شجاعة.

- بكاء عبد الله بن رواحة وخوفه من الورود على النار، مع أنه في طريقه للجهاد، صورة من صور المحاسبة للنفس والحياء من الله.

- القيادة الحقيقية تُبنى على الإيمان والصدق، لا على الشهرة أو المدة، وهذا ما ظهر في تسليم الراية لخالد بن الوليد رغم إسلامه القريب.

- رفض ثابت بن أقرم تولي القيادة مع قدرته عليها، وإشارته إلى من هو أولى بها، خُلق نادر من الإيثار والتجرد من حب الظهور.

- ثبات القادة الثلاثة حتى الموت، وتقديمهم أنفسهم طواعية، غرسٌ لقيم التضحية والإيثار، وصدق الوفاء بالعهد مع الله.

- النبي صلى الله عليه وسلم يثني على الجيش عند رجوعه ويبرئهم من تهمة الفرار، فيعلّم الأمة كيف تحترم مشاعر المجاهدين وتقدّر جهودهم.

فوائد دعوية وتربوية

- الرد على قتل رسول الدعوة لم يكن انتقامًا شخصيًا، بل دفاعًا عن حرمة الرسالة، وهذا تأصيل لمبدأ نصرة الدين لا الذات.

- وصية النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة كانت دعوةً للتوحيد قبل أن تكون إعلانًا للحرب، مما يُبيّن أن الأصل في الإسلام هو دعوة القلوب قبل ضرب الرقاب.

- جعل القيادة بالتتابع في يد ثلاثة من خيرة الصحابة يُربّي الأمة على تحمل المسؤولية والتهيؤ للموت في أي لحظة.

- دعوة عبد الله بن رواحة للصحابة بالمضي وعدم التردد زرعت في قلوبهم الحماسة والإيمان، وهذا دور المربّي الحقيقي في لحظات الحسم.

- النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى المعركة في المدينة وكأنه بينهم، فكان ذلك أبلغ درس في أهمية المتابعة والرعاية الدعوية حتى في البعد المكاني.

فوائد سياسية وجهادية

- مقتل رسول النبي صلى الله عليه وسلم كان عدوانًا سياسيًا صارخًا يتطلب موقفًا حازمًا لإثبات هيبة الدولة الإسلامية الناشئة.

- رغم أن العدو إمبراطورية كبرى، لم يتردد النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهتها، ما يدل على أن موازين القوة لا تُحدد دائمًا الموقف، بل العقيدة والمبدأ.

- خطة خالد بن الوليد الحربية الذكية أثبتت أن حسن التدبير قد يُغني عن كثرة العدد، وهذا من فقه السياسة الشرعية في إدارة المعارك.

- رد النبي صلى الله عليه وسلم على من عيّروا الجيش عند رجوعه رسالة للأمة بأن النصر ليس بالنتيجة الظاهرة فقط، بل بالثبات والنية والنية.

مخالفات الواقع

- الجهل بأدب الجهاد عند كثير من الشباب، حيث تُرتكب باسم الإسلام تجاوزات في الحروب تسيء إلى الدين وتخالف وصايا النبي صلى الله عليه وسلم.

- انتشار المفاهيم المنحرفة التي تقدّم فكرة الغنيمة أو الانتقام على الجهاد الحق، وتُسوّق لقتال عشوائي لا يُراعي حرمة شيخٍ ولا صبيٍّ ولا آمن.

- كثير من الناس بات يُشكك في قدرة قلة مؤمنة على مواجهة قوى الباطل، رغم وضوح الآيات والوقائع التاريخية التي تؤكد عكس ذلك.
- غياب روح التضحية في النفوس، وبروز التعلّق بالدنيا والوظيفة والسلامة بدل الإقدام والصدق.
- التسرع في الحكم على المجاهدين أو الدعاة بالفشل لمجرد تراجع ظاهري، مثلما فعل من قال: "يا فرارون!"، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم وصفهم بالكرار.

انتهى هذا الباب ويليه الباب الثالث عشر ان شاء الله

الباب الرابع عشر: من الغدر إلى الفتح: الطريق إلى النصر المبين

مقدمة

لقد كان صلح الحديبية، في نظر المتعجلين، انكسارًا للمسلمين وإعطاءً للدنية في دينهم، ولكن الله سبحانه وتعالى سماه **فتحًا مبينًا**، لأن الفتح لا يُقاس دائمًا بصليل السيوف، بل بحسن التقدير، وبُعد النظر، وثقة القلب بوعد الله.

فلما التزم المسلمون بالعهود، وأظهروا صدقهم، ونشروا الإسلام بالدعوة لا بالإكراه، ظهر الحق وزهق الباطل، وبدأت قريش تترنح تحت وطأة الحقيقة التي ظلت تُنكرها لسنين: محمد صلى الله عليه وسلم نبي الله حقًا، ودينه لا مرد له.

لكنّ قريشًا – وقد أضناها التكبر، وأعماها الحسد – لم تلبث أن **نقضت عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم**، فدعمت بني بكر سرًا بالسلاح والرجال ليغدروا بحلفاء المسلمين من خُزاعة، فكانت جريمتهم هذه بمثابة **رصاصة الرحمة في صدر كبريائهم**، إذ عجّلت بسقوطهم الذريع أمام جيوش الإسلام، وأذلتهم يوم دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة في أعظم فتوح الإسلام بلا قتال.

إنها قصة **الغدر الذي سرعان ما جرّ الهزيمة والخزي**، وعبرة في أن النصر ليس فقط في الكثرة والعتاد، بل في **الصدق والثبات والالتزام بميثاق الله**.

.

الفقرة الأولى: نقض العهد: غدر بني بكر بخزاعة

في ليلةٍ خرس فيها صوت العدل، وارتفعت فيها رايات الغدر فوق رؤوس الجاهلية، سال الدم ظلمًا وعدوانًا عند ماء الوتير، ودوّى في سماء مكة صدى الخيانة... إنها الليلة التي اعتدت فيها بنو بكر – حلفاء قريش – على خُزاعة، حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جريمة لا تُغتفر، ونقضٍ صريحٍ للعهد الذي أُبرم في صلح الحديبية، والذي نصّ على أن «من أحبّ أن يدخل في عهد محمد دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه»، فدخلت خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم، ودخلت بنو بكر في حلف قريش.

ولكن قلوبًا امتلأت بالحقد، وأفئدة أضلتها الجاهلية، لم تَرق لها هدنة السلام، ولم تحتمل أن يرى الناس واحة أمنٍ في صحراء العداء. فدبّر بنو بكر عدوانهم غدرًا في ظلمة الليل، وتعاونت قريش معهم سرًا، وأمدّتهم بالرجال والسلاح، في خيانة سافرة ومكيدةٍ خسيسة.

قال ابن إسحاق في سيرته» :وكان الذي كان من أمر بني بكر وخزاعة، أن بني بكر عدوا على خزاعة، فاقتتلوا، وأمدّت قريش بني بكر بالسلاح والرجال، حتى قتلوهم على ماء الوتير، فصرخت خزاعة مستغيثين برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلبّى النداء«.

لم يكن عدوانًا مجردًا، بل كان طعنة في خاصرة العهد، وهدمًا لجسر السلام، واعتداءً على قومٍ في ذمة الإسلام. هرب من نجا من خزاعة، يسابقون الأنفاس، ويقطعون الفيافي صوب المدينة، يحملون دماء إخوانهم على جباههم، وصرخات الثكالى في أفئدتهم.

دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم في مشهد يهتزّ له الوجدان، فقالوا والدموع تسبق الكلام:

"يا محمد، انصرنا، فقد نُقض العهد، وسُفك الدم"!

فسكت النبي صلى الله عليه وسلم لحظة، ثم نظر إليهم بعين من حمل أمانة العدل، وعاد في وجهه ذاك الغضب النبوي الذي لا يظهر إلا إذا انتهكت الحرمات. لقد فهم الجميع أن ساعة الحسم قد دنت، وأن قريشًا قد اختارت نهايتها بيدها.

إن العهود في الإسلام ليست حبرًا على ورق، بل هي ميثاق مشدّد، وعقد غليظ، يُستمد من قول الله تعالى:

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾]الإسراء: ٣٤[

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾]التوبة: ٤[

فما بالك بمن غدر وقتل ومالأ العدو سرًا؟

لقد تحرك قلب المدينة كلها، وأيقن الصحابة أن الحدث جلل، وأن استغاثة خزاعة ليست كغيرها. فما كانت المدينة تسكت على ظلم، ولا كان نبيها صلى الله عليه وسلم يغضّ الطرف عن دمٍ أُهريق بغير حق.

هنا بدأت الإرهاصات التي سبقت **فتح مكة**، ذلك الفتح العظيم الذي لم يكن حربًا فقط، بل كان تطهيرًا للبيت الحرام من رجس الوثنية، وتحقيقًا لوعد الله بنصر دينه، وسقوط رايات الشرك التي لوّثت ربوع مكة.

فغدر بني بكر بخزاعة، هو الحدث الذي عجّل بالفتح، وفتح للحق أبواب مكة، ليطوي النبي صلى الله عليه وسلم صفحات الغدر، ويرفع راية العدل فوق ربوعها.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الغدر من صفات الجاهلية التي أبطلها الإسلام، والإسلام دين الوفاء والصدق والعدل، لا يعرف الغدر ولا الخيانة، والعهود في الإسلام تُعتبر من العقود الغليظة التي يسأل الله تعالى عنها العبد يوم القيامة.
- من صفات النبي صلى الله عليه وسلم كمال العدل، ونصرة المظلوم، وحمل أمانة الأمة، وهذه الصفات من أمهات العقيدة في النبوة والرسالة، وهي جزء من الإيمان به صلى الله عليه وسلم واتباعه.
- استجابة النبي صلى الله عليه وسلم لنداء خزاعة المستغيثة، دليل على أن نصرة المظلوم من معالم الرسالة، وأن نُصرة المستضعفين من واجب الأمة، وهذا أصل من أصول الولاء لأهل الإسلام والبراء من المعتدين عليهم.

- الفتح المبين الذي أعقب الغدر هو من دلائل النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، فكل نصر جاء بعد مظلمة وصبر هو تحقيق لوعد الله الصادق.

- العهد في الإسلام له حرمة عظيمة، ونقضه كبيرة من الكبائر، بل من خصال المنافقين، كما قال صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [رواه البخاري ومسلم.]

فوائد فقهية

- العهود التي تعقد مع غير المسلمين إذا كانت على شروط محددة ولم يظهر منهم ما ينقضها، فهي واجبة الوفاء ما لم ينقضها الطرف الآخر، وهذا من باب المعاملة بالعقد لا بالدين.

- الاستغاثة بالمؤمنين في حال الظلم والعدوان أمر مشروع، والنصرة واجبة متى تحقق الظلم، وقد استجاب لها النبي صلى الله عليه وسلم عمليًا، فأقرّ مشروعية السعي لنصرة المستضعفين.

- المعاهدة والتحالفات في الإسلام يجب أن تكون مبنية على العدل والوفاء، ولا تُترك للهوى السياسي، وإذا حصل فيها غدر فالإسلام لا يُبقيها قائمة، بل يُعلن براءته منها.

- الاستجابة للغدر والعدوان ليست انتقامًا، وإنما هي حماية للعقود، وحفظ لذمة المسلمين، وردع للمعتدين، ولا تُعارض مبدأ السِلم الذي يحث عليه الشرع ما لم يُنقض من طرف الكفار.

فوائد أخلاقية

- الوفاء بالعهد خُلق عظيم يميّز المسلم عن غيره، ومَن غدر فقد تخلّى عن صفة من صفات الكرام، وتزيّن بخلق من أخلاق اللئام.

- نصرة المظلوم وإن بعدت المسافة، خلق نبوي متجذّر، يعلّم الأمة أن لا تعيش في عزلة عن آلام المسلمين، وأن تُحرّكها الصرخات ولو من أقصى الأرض.

- الصدق في المواقف والوضوح في التعامل من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قدوة لمن أراد أن يكون وفيًا، لا يخون ولا يماطل ولا يتواطأ على باطل.

- مواجهة الغدر لا تكون بغدر مثله، بل بالحق والعدل، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يغدر، ولم يفتك، بل واجه الباطل بقوة الحق، وهذه قمة الشرف الخُلقي.

فوائد دعوية وتربوية

- أحداث السيرة النبوية تربي المسلمين على مواقف الرجولة، والوقوف عند حدود الله، وتعلمهم أن الحزم في مواقف العدوان ضرورة شرعية، لا تعني التسرع ولا الظلم، بل تعني الثبات على المبدأ.

- نشر قيم العدل والوفاء في المجتمعات من وسائل الدعوة إلى الإسلام، ويجب أن يُربى عليها الأبناء في البيوت، ويتخلق بها المسلمون في معاملاتهم، حتى يُظهروا الصورة الحقيقية للإسلام.

- يجب على العلماء والدعاة أن يوضّحوا للناس خطورة الغدر ونقض العهود، لا سيما في واقع كثرت فيه الخيانات، وقلّ فيه الأمن، ليبقى الدين هو حصن العدالة وقلعة الوفاء.

مخالفات الواقع

- كثير من المسلمين اليوم لا يُقيمون للعهود وزنًا، في تعاملاتهم التجارية أو الاجتماعية أو السياسية، وتجد من يوقّع العهود والعقود، ثم يمزّقها إذا خالفته مصلحته، وهذا من أخلاق المنافقين لا المؤمنين.

- السكوت عن المظلومين، والتغافل عن صرخات المستغيثين، صار واقعًا في كثير من البلدان، حتى باتت نصرة المظلوم شُبهة عند البعض، والوقوف مع الحق مخالفة قانونية، وهذا مخالف لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

- بعض المسلمين اليوم يتغافلون عن أمانة الكلمة، فلا يوفون بوعد، ولا يصدقون في عهد، بل يتلاعبون بالبيانات والتصريحات، ثم يدّعون أنهم يمثلون الإسلام، وهم على غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

- كثير من منابر الدعوة والإعلام لم تعد تُبرز خُلق الوفاء والعدالة، وصارت تُجمّل مواقف الغدر السياسية تحت شعارات زائفة، وهذا من الانحراف عن منهج النبوة.

الفقرة الثانية: محاولة يائسة: قريش تُرسل أبا سفيان إلى المدينة

لمّا بلغ قريشًا أن سيوف بني بكر قد دنّست ماء الوتير بدماء خزاعة، وأنّ أخبار الغدر قد وصلت إلى المدينة، سرت في مكة رجفة لم تعهدها من قبل، وشعر صناديد قريش أن الأمر جدّ لا هزل فيه، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم – رسول العدل وحامي العهد – لن يسكت على الدم المهدور، ولا على العهد المنقوض.

لقد دبّ الرعب في قلوب سادة مكة... إنهم يعرفون جيدًا من هو محمد، يعرفون صدقه، وشجاعته، ووفاءه لعهوده، ويعلمون أن عاصمة الإسلام لا تعرف التخاذل حين يُستصرخ أهلُها لدمٍ سُفك بغير حق.

اجتمع زعماء قريش في مجلس طارئ، تتنازعهم الحيرة، ويعصف بهم الخوف، وأجمعوا على قرار مهزوز، يدلّ على ضعفهم:
"لنرسل أبا سفيان، سيد مكة، إلى محمد، يُجدد العهد، ويعتذر، ويُطفئ نيران الغضب"!

فخرج أبو سفيان، بكل ما كان يحمل من كبرياء زائف، في مشهدٍ طغى عليه الذل والانكسار. كانت خطاه فوق رمال الحجاز تُحدّث نفسه:
أيُجدي الاعتذار؟ وهل تُصلح كلمةٌ ما أفسدته دماء الغدر؟

دخل المدينة التي طالما ناوأها، ووقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطرق الباب... فلم يُفتح.
كان النبي صلى الله عليه وسلم قد علم أن هذا ليس وقت المجاملات، ولا زمن قبول أعذار باردة، فالأمر قد تجاوز حدود السياسة إلى مقام الدم والوفاء.

أدار أبو سفيان وجهه إلى بيتٍ يعرفه، بيت ابنته أم حبيبة – زوج النبي صلى الله عليه وسلم – لعله يجد فيه بعض حنان الأبوة، وبابًا للتأثير العاطفي.

دخل البيت، وهمّ أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا بابنته تطوي الفراش وتحجبه عنه. فقال مذهولًا:

"يا بُنيّة، أرغبتِ بي عن هذا الفراش؟ "فقالت بثبات":هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلا تجلس عليه"!

يا الله! كيف قلب الإسلامُ هذه الفتاة؟! كانت قبل سنوات في مكة تحت سطوة أبيها، وها هي اليوم ترفع راية التوحيد في وجهه، لا تُجامل في دين، ولا تُساوم على طهارة العقيدة.

خرج أبو سفيان مذهولًا من ردّ ابنته، يبحث في المدينة عن وجهٍ يأوي إليه، فذهب إلى أبي بكر، فصدّه، ثم إلى عمر، فقال له عمر بصرامة:

"أنا أشفع لكم عند رسول الله؟! والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به"!
ثم مضى إلى عليّ، وفاطمة، فكلهم صدّوه، ولم تُفتح له أبواب المدينة.

كانت المدينة كلها على قلب رجلٍ واحد" :**لا عهد مع الغادرين، ولا أمان لمن نكث المواثيق"!**

رجع أبو سفيان إلى مكة خائبًا يجرّ أذيال الهزيمة النفسية، يحمل في عينيه ذلًا، وفي صدره يقينًا لا شك فيه، فأعلنها أمام قريش" :**والله ما رأيتُ قومًا أوفى لعهد، ولا أشد تمسكًا بالحق، من أصحاب محمد"!**

وهكذا سقطت آخر أوراق السياسة، وانهارت محاولات امتصاص الغضب. لقد تحرّك الحق، ولم يعد هناك مجال للمفاوضات، فآن للسيف أن يتكلم، وآن للحق أن يعود إلى البيت الذي أُخرج منه:

﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾]القصص: ٨٥[

لقد اقتربت ساعة **فتح مكة**، وبدأت خيوط الفجر تنسج على جبينها قصة النصر الأكبر، والخضوع الأعظم للحق، والذلّ التام للباطل وأهله...

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم وثباته على الحق كان من أوضح علامات نبوته، فقد هابه أعداؤه وعلموا أنه لا يسكت على ظلم، وهو دليل على تأييد الله له وتمكينه بدين الحق.

- الإسلام يعلّم الولاء والبراء بوضوح، كما ظهر في موقف أم حبيبة مع أبيها المشرك، حيث قدّمت العقيدة على روابط الدم، وهذا من تمام الإيمان.

- من دلائل عظمة هذا الدين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على قلب رجل واحد، لا يهادنون في دين الله، ولا يجاملون من خان العهد، وهذا من أصول أهل السنة: اجتماع الكلمة على الحق.

- الثبات على التوحيد ورفض الشرك ولو من أقرب الأقربين من علامات صحة العقيدة، فقد وصفت أم حبيبة أباها بأنه "رجل مشرك نجس"، وهذا تعبير قرآني واضح في براءة المسلم من الشرك وأهله.

- الإيمان الحق يغيّر النفوس ويقلب الموازين، فقد كانت أم حبيبة تحت سلطان أبيها، فلما آمنت، أصبحت ثابتةً أمامه لا تساوم في دينها، وهذا من آثار الهداية الربانية.

- النصر وعدٌ من الله لعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وهذا الوعد يشمل عودة الدين إلى موطنه وتمكين أهله في الأرض.

فوائد فقهية

- عدم قبول اعتذار المعتدي في وقت لا ينفع فيه الاعتذار مشروعٌ إذا اقترن الاعتداء بنقض العهد وسفك الدم، فالإسلام يُقدّم العدل على المجاملات.
- يجوز للمسلم أن يرد الزائر المشرك من فراش الطهارة، كما فعلت أم حبيبة، لأن الكافر نجس المعنى، فلا يُكرم في شعائر المسلمين.
- لا تُقبل شفاعة في نقض المواثيق إذا كان فيها تفريط في دماء أو ظلم ظاهر، فكما رفض الصحابة شفاعة أبي سفيان، لمكانة العدل والحق في الإسلام.
- تغليب المصلحة العامة للأمة مقدم على العواطف الخاصة، كما ظهر في موقف أم حبيبة من أبيها، وفي رفض الصحابة قبول شفاعة أبي سفيان، لأن العهد قد نُقض.
- نقض العهد من الطرف الآخر يبيح الاستعداد للحرب، ويُسقط الالتزام السابق، وهذا ما فهمه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين استعدوا لفتح مكة.

فوائد أخلاقية

- العدل في الإسلام لا يعرف التحيز ولا يقبل المساومة، وقد ظهر ذلك في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع المعتدي حتى لو جاءه في صورة مسالم.
- الصدق والوفاء من أعظم الأخلاق التي ميّزت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شهد بذلك أبو سفيان نفسه.
- الثبات على المبادئ من صفات المؤمنين، كما ظهر في موقف أم حبيبة، فقد واجهت أباها بثبات وثقة ولم تُضعفها العاطفة.
- احترام عهد الجماعة والتماسك في الموقف خلقٌ عظيم، ظهر في تماسك الصحابة عند رفض شفاعة أبي سفيان، فلم يخرج أحد عن موقف الجماعة.
- الاعتراف بالحق حتى من الخصوم دليلٌ على قوة المبدأ، فقد اعترف أبو سفيان بعلو أخلاق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا شهادة من العدو.

فوائد دعوية

- من وسائل الدعوة العملية إظهار ثبات أهل الإسلام على مبادئهم، فإنها تترك أثرًا أقوى من مجرد الكلام، كما حدث مع أبي سفيان.
- وضوح العقيدة في مواقف المسلمين العملية أقوى من ألف خطبة، فقد جسدت أم حبيبة حقيقة التوحيد في موقفها من أبيها، وهذا أعظم دعوة.
- موقف المسلم من الباطل يجب أن يكون حازمًا لا تميع فيه، فإن اللين في غير موضعه يُفقد الدين هيبته، والرسالة أثرها.

- الدعوة إلى الله تتطلب تربية الأمة على معاني الولاء لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والبراءة من الشرك والمشركين، كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم.

مخالفات الواقع

- مجاملة بعض المسلمين لأعداء الله في هذا العصر تحت مسمى "التسامح" حتى مع من يهدمون الإسلام ويطعنون في دين الله، خلافٌ لموقف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

- التهاون في الولاء والبراء باسم "الإنسانية" أو "حقوق الإنسان"، أدى إلى تساهل كثير من المسلمين في الوقوف مع الحق ضد الباطل.

- اعتذار المعتدي أو المجرم يُقبل عند البعض اليوم دون مراجعة للحقائق، وهذا مخالف لموقف النبي صلى الله عليه وسلم حين رفض أن يفتح الباب لأبي سفيان.

- البعض يغلب الروابط العائلية أو القبلية على ثوابت الدين، فيرضى بكفر قريبه أو انحرافه ويجالسه ويجامله، مخالفًا بذلك موقف أم حبيبة التي منعت أباها المشرك من فراش النبي صلى الله عليه وسلم.

- موقف أم حبيبة في تطبيق البراءة من المشركين يخالف ما تفعله **المرجئة** الذين يجعلون الإيمان مجرد معرفة القلب، دون التزام عملي ظاهر، فلو كانت مرجئةً لقالت: أبي يعرف أن محمدًا رسول، ويكفيه ذلك!

- تماسك الصحابة ورفضهم لشفاعة أبي سفيان يخالف سلوك **غلاة الصوفية** الذين يقبلون كل الناس باسم "المحبة"، حتى لو كانوا من أعداء الدين، ويُجاملون المشركين في أعيادهم، ويعدون ذلك من الأخلاق!

- حزم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة مع ناقضي العهد يخالف ما عليه **المعتزلة** الذين قد يُغلبون العقل أو السياسة على النص، فيرفضون الحسم بدعوى النظر في المصالح، بينما كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم هو الثبات على الحق.

الفقرة الثالثة: تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة في سرية تامة

ما إن انسكبت دماء خزاعة على ماء الوتير ظلمًا وعدوانًا، في ليلةٍ اختلط فيها الغدر بصليل السيوف، حتى ارتجف قلب المدينة، وتحركت مشاعرها كأنها جسد واحد، تنبض غضبًا للمظلوم، وتشتعل نصرةً للعهد المنكوس.

وكان في قلب هذا الجسد، قلبٌ لا ينام عن الحق، ولا يغفو عن عدل الله في أرضه...
قلب النبي صلى الله عليه وسلم، الذي ما كان ليترك الغدر دون ردّ، ولا أن يُسفك دمٌ في جواره وهو ساكن الطرف.

فأعلنها قرارًا من غير نداء، وأسرّها خطة من غير صوت، وبدأ يعدّ العدة لفتح مكة... ولكن في سرٍّ هو أشدّ من ظلمة الليل سكونًا، وأكتم من الريح حين تحتبس في الفجاج.

لم يُخبر صلى الله عليه وسلم بوجهته أحدًا، حتى خلصاؤه من المهاجرين والأنصار، فقد أراد فتحًا لا يراق فيه دم، ونصرًا يدخل القلوب قبل أن تفتح الأبواب.

وجهز جيشًا لم تشهد له جزيرة العرب نظيرًا؛ عشرة آلاف مؤمنٍ، صدورهم كالدروع، وقلوبهم كالجبال، وجباههم مشرّعة إلى السماء ترجوا نصر الله كما وعد في كتابه :﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾]الفتح: ١[

وما علموا إلى أين يسيرون، ولا لمن ترفع السيوف، فالأمر كله عند صاحب الوحي صلى الله عليه وسلم، الذي كان حريصًا أن لا تتسرب نسمة خبر إلى آذان قريش.

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بكتمان الوجهة، بل قطع الطرق على الأخبار، وسعى لتشتيت الأنظار؛ فبعث أبا قتادة رضي الله عنه في سرية صغيرة نحو الساحل، ليظنّ الناس أن الهدف أرضٌ غير مكة.

لكن في خضم هذا الكتمان، كادت خيانة أن تُفسد ما خبأته السماء من نصر قريب...

فقد كتب أحد الصحابة، حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، كتابًا إلى قريش يُخبرهم فيه بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسله مع امرأة تخفيه في شعرها.

لكن الذي لا يخفى عليه شيء، سبحانه، أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بخبرها، فأرسل عليًا والزبير رضي الله عنهما على خيول الحق، يطويان الفيافي حتى لحقا بها في روضة خاخ، وانتزعوا منها الرسالة، فعادت القافلة بالأمانة، وعاد حجاب السر محفوظًا بعناية الله.

وقف حاطب أمام النبي صلى الله عليه وسلم، وعيناه تدمعان، وقال":يا رسول الله، والله ما كفرت ولا ارتددت، ولكنني لست من قريش، ولا لي بها عشيرة، فأحببت أن أتخذ عندهم يداً لعلها تحمي أهلي هناك"!...

فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عينيه رحمة لا تُضاهى، وسكوتٌ هو أبلغ من كل كلام.

عندها انتفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فغلي الدم في عروقه، وقال :يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق"!

فقال صلى الله عليه وسلم، بكلمةٍ هي تاج على رأس كل من شهد بدرًا" :**وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم "!**أخرجه البخاري ومسلم[

فأطرق عمر، وقد بلّت دموعه لحيته، وسكتت السيوف احترامًا لقدر أصحاب بدر، الذين كتبوا مجدهم في السماء قبل الأرض.

وبقيت المدينة على همسها، وعلى صمتها المجلجل...
تمشي إلى الفتح بخطى الواثقين، وتُخفي أمرها عن العيون، لأنها تمضي إلى مكة، لا للقتل ولكن ليفتح الله بها قلوبًا طال عليها الغلق، وليلد التاريخ من جديد فجرًا اسمه" :**فتح مكة**."

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فقد أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بخيانة حاطب، وهذا من دلائل علم الله المحيط، وتصريفه للأمور بما لا يدركه البشر.
- في الحديث "لعل الله اطلع على أهل بدر..." دلالة على أن مغفرة الله سبحانه وتعالى قد تنال العبد بسبب صدق عمل سابق، وهذا من آثار سعة رحمته وغفرانه لعباده المؤمنين.

- مشيئة الله نافذة في حفظ دينه ونبيه صلى الله عليه وسلم، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يُفشوا سرًّا أراده الله مخفيًّا لما استطاعوا، إذ هو سبحانه الذي تكفّل بحفظ هذا الدين ونصره.

- النبوة لا تنال بالاجتهاد ولا بالمكانة الاجتماعية، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُطلع حتى خلّص أصحابه على وجهته، لأنه صلى الله عليه وسلم يتبع الوحي، لا العاطفة ولا العشيرة.

فوائد فقهية

- جواز كتمان الوجهة في الحرب، بل واستحباب ذلك إن كان فيه مصلحة شرعية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة.

- لا يُكفّر المسلم بالذنب أو الخيانة إذا لم تقم عليه الحجة أو يكن في قوله ما يوجب الكفر الصريح، فحاطب رضي الله عنه لم يُكفَّر رغم فعله الخطير.

- قبول الأعذار الظاهرة ممن له سابقة عظيمة في الإسلام، وعدم الحكم عليه إلا ببينة، كما قُبل عذر حاطب رضي الله عنه.

- تعظيم الصحابة السابقين في الجهاد، وأهل بدر خصوصًا، والاعتراف بفضلهم ومكانتهم عند الله.

- دلالة الحديث على أن الكبائر قد تُغفر بمحض فضل الله، خصوصًا لأهل البلاء والنصرة الذين قدموا لله ما لا يقدر عليه غيرهم.

فوائد أخلاقية

- كتمان السر من أعظم الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المؤمن في مواضع الفتن والشدائد.

- ثبات الصحابة وتعاونهم في حفظ سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبيّن أثر التربية النبوية التي غرست فيهم روح الطاعة والوفاء.

- الموقف الحاسم من حاطب من قبل الصحابة لا ينبع من قسوة، بل من غيرتهم على دين الله، ثم لما بيّن عذره، انقلب الغضب إلى احترام وصمت.

- رقة النبي صلى الله عليه وسلم ورحمته واضحة في تعامله مع حاطب، حيث لم يُعنّفه، ولم يفضحه، بل قابل فعله بالصفح والستر.

- عمر رضي الله عنه كان شديد الغيرة على الدين، لكن طاعته لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وسكوته بعد ذلك، درس في التسليم والانقياد.

فوائد دعوية

- الدعوة بالسر إذا اقتضت الحكمة ذلك أبلغ من الجهر في بعض المواطن، كما أن الحركة بالدعوة تحتاج فقهًا في التوقيت والبيان.

- مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لحقن الدماء حتى مع الكفار يُظهر أن الإسلام لا يسعى للقتال لأجل القتال، بل لأجل إحقاق الحق.

- ثقة النبي صلى الله عليه وسلم في نصر الله رغم التحديات دليل على أن الداعية الحق يجب أن يكون واثقًا بربه، ثابتًا في هدفه.
- تمهيد النبي صلى الله عليه وسلم للأرض قبل الفتح يوصل رسالة بأن النصر لا يكون بالعشوائية، بل بتخطيط وهدوء وانضباط.

ما يخالف الواقع

- غياب قيمة كتمان الأسرار في مؤسسات المسلمين اليوم، خصوصًا ما يتعلق بخطط الدعوة والعمل الإسلامي.
- انتشار التسرع في الحكم على الناس دون التحقق من مقاصدهم أو إعذارهم، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع حاطب.
- قلّة الوفاء اليوم لمن قدّموا أعمالًا عظيمة للإسلام في وقت سابق، مع كثرة من يتطاول عليهم ويشكك في نياتهم لأخطاء يسيرة.
- غلبة الانفعال على كثير من المصلحين اليوم عند وقوع الأخطاء، دون ميزان العدل والرحمة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- ضعف روح التعاون والاتحاد في المواقف العصيبة، بخلاف ما أظهره الصحابة من وحدة صف وتكتم شديد لحفظ خطة الفتح.

الفقرة الرابعة: حين تحرّك النور... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة

في سكون المدينة الوادعة، وبين جدرانها التي شهدت الوحي والجهاد والصبر، كانت الأنفاس محتبسة، والقلوب تخفق في صمت مهيب... فقد آن أوان الوعد القديم. آن للمظلوم أن يُنصر، وللبيت الحرام أن يُطهّر، وللحق أن يدخل مكة عزيزًا ظاهرًا.

فلما اكتمل العَدد واستعدّ العُدد، نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشّحًا عزيمته، متوكلًا على ربّه، وخرج من المدينة الطاهرة على رأس جيش هو الأعظم في تاريخ الجزيرة حتى تلك اللحظة، جيش لم ترَ الرمال مثله، ولا سمعت القلوب بمثله... عشرة آلاف من وجوه الصحابة، صدّيقون، وبدريون، وأحديّون، أنصاريّون ومهاجرون، رجال رضعوا الإيمان في مهد الرسالة، وتربّوا في مدرسة القرآن والوحي والجهاد.

كان الخروج في رمضان... رمضان الذي فيه أُنزل القرآن، وكانوا صائمين، متعبين، في حر الهجير وطول الطريق، ولكنّ أرواحهم كانت تظللها ملائكة السماء، وتدفعها بشائر النصر. ما تخلف أحد، وكأنّ الأرض كانت تزفهم زفًا إلى بيت الله الحرام.

اقترب النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، وخطة الفتح في ذهنه مرسومة بريشة النبوة، لا يريد قتالًا ولا سفك دم، بل يريد إذلال الجاهلية بلا رمح، وكسر الأصنام بلا دماء.

فنادى القائد الأعظم، صلى الله عليه وسلم، فتوزعت الرايات، وتفرق الأبطال على جهات مكة الأربع، في مشهد من النظام والعزم:

🔷لواء المهاجرين مع خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، قادمًا من الجنوب الشرقي، يحفّه المهاجرون الذين تركوا كل شيء لله.

🔷لواء الأنصار مع سعد بن عبادة رضي الله عنه، من الغرب، يحمل راية النصرة التي رفعوها يوم العقبة، وها هم يتمّونها في مكة.

🔷الزبير بن العوام، حواري النبي صلى الله عليه وسلم، على رأس الأوس والخزرج، يسير من الشمال، ثابتًا كالجبل.

🔷أما قلب الجيش فكان مع أبي عبيدة بن الجراح، الأمين، يسير مباشرةً خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُحاذيه خِيرة الرجال، والسكينة ترفرف على كتائبهم.

وكانت الخطة المحكمة: أن يدخل كل فوج من جهة، فيطوّقوا مكة تطويقًا تامًا، حتى لا يُراق دم ولا تُرفع سيوف، فلقد قالها صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري»:إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لم تحلّ لأحد قبلي، ولا تحلّ لأحد بعدي، وإنما أحلّت لي ساعةً من نهار.«

وفي مرّ الظهران، أقام النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر بإيقاد عشرة آلاف نار في جنح الليل، فأضاءت شعاب الوادي كأن النهار قد عانق الظلام... واهتزت مكة من أعماقها، وارتجفت فرائص قريش وهي لا تعلم من القادم!
رأت ليلًا كأنه نهار، ونيرانًا كأنها تنذر بزوال سلطان الوثن، فامتلأت القلوب رعبًا، وكأنهم يسمعون وقع أقدام الملائكة.

وفي هذه اللحظة العظيمة، كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد خرج من مكة يتلمس الأخبار، فلما رأى هذا المشهد المهيب — جيش الإيمان في كامل هيبته — رقّ قلبه، واهتزت مشاعره، فركب بغلة النبي البيضاء، يبحث عن ابن أخيه العظيم.

ولمّا التقى به، أسلم لله وجهه وقلبه ولسانه، واحتضنه النبي صلى الله عليه وسلم، في لحظة امتزجت فيها الدماء بالنبوة، والنسب بالإيمان، وبدأ العباس يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤمِّن لقريش سبيلاً للسلام، قبل أن يغرقهم سيل الفتح.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال كما في الصحيح»:من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.«

لقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة متواضعًا، مطأطئ الرأس، وهو المنتصر، خاشعًا، متخشّعًا، يرد الحق إلى أهله، ويُطفئ نار الوثنية دون أن يريق دمًا، تحقيقًا لقوله تعالى :﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١.]

وهكذا... بدأ الفتح بخطى نورانية، ودموع الفرح تتدفق على خدود الصحابة، والملائكة ترفرف فوق رؤوسهم، فقد آن لمكة أن تُطهّر، وآن لبيت الله أن يُرفع فيه الأذان من فوق الكعبة، لا باسم اللات والعزى، ولكن باسم الله الأحد...

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- 🔷 الإيمان بأن النصر من عند الله وحده، وأن التوكل عليه سبيلُ الظفر والتمكين.
- 🔷 إثبات النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما أيده الله به من الوحي والنصر والخطة المحكمة دون معلم بشري.
- 🔷 في مشهد الفتح دليل على أن الله يؤيد أولياءه بالملائكة ويهيّئ لهم النصر ولو قلّ زادهم وكثر عدوهم.
- 🔷 التصديق بأن الكعبة بيت الله الحرام، وأن تطهيره من مظاهر الشرك عبادةٌ عظيمة تُبذل في سبيلها الأرواح.

- إثبات أن الله يذل الباطل ويزهقه متى جاء الحق، وأن الباطل زائل مهما طال بقاؤه.
- دخول العباس رضي الله عنه في الإسلام في ذلك الموقف دليل على أن الهداية بيد الله، يهدي من يشاء ولو كان قريبًا من النبوة ولم يُسلم إلا بعد حين.
- سلامة مكة من القتال تنفيذ لأمر الله ورعاية لحرمته، وبيان لقداسة هذا البيت العظيم.
- أن النصر الحقيقي ليس بكثرة العُدة، بل بقوة الإيمان وصدق التوكل على الله سبحانه.

فوائد فقهية

- مكة لا يجوز القتال فيها إلا في ساعةٍ من نهار، وقد خُصّ بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مما يدل على خصوصية البلد الحرام.
- إقامة النبي صلى الله عليه وسلم بمرّ الظهران واستعداده فيه تُظهر جواز اتخاذ الخطط العسكرية المحكمة لإرهاب العدو دون مخالفة للشريعة.
- في قوله صلى الله عليه وسلم: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...» مشروعية التأمين في الحرب إن ترتب عليه حقن الدماء ودفع الضرر.
- دخول مكة دون قتال يدل على أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح إذا أمكن تحقيق المقصود الأعظم بدون سفك دماء.
- حمل الصحابة للرايات وتوزيعهم على جهات متعددة فيه دليل على تنظيم الجيش وتوزيع المهام من فقه القيادة والضبط.
- الصحابة كانوا صائمين في الفتح، وفي ذلك دلالة على أن الجهاد لا يُعارض الصيام، وأن العمل الصالح لا يسقط في سبيل التكاليف.

فوائد أخلاقية

- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم عند الفتح وهو في أعلى درجات النصر يعلّم الأمة خُلُق الخشوع والرحمة حتى مع الأعداء.
- ثبات الصحابة في شدة الطريق وحرّ الهجير وصيام رمضان يعلّمنا الصبر والاحتساب والثبات على الطاعة مهما اشتدت الظروف.
- اجتماع المهاجرين والأنصار في الفتح صورة عظيمة من صور الإخاء والتعاون ونبذ التعصب للقبيلة أو الفئة.
- طلب العباس رضي الله عنه الأمان لقومه دليل على الرحمة حتى مع من أسرف وظلم، وأن الشفقة على الأهل لا تعارض الغيرة على الدين.
- مشهد احتضان النبي صلى الله عليه وسلم لعمه بعد إسلامه يعلّمنا الوفاء، وحسن الصلة، واستقبال التائبين بالحفاوة والتقدير.

فوائد تربوية

- في الفتح المهيب تربية على أن النصر الحقيقي ليس بإراقة الدماء، وإنما بتحقيق العدل وإقامة التوحيد وإزالة الباطل.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الدخول بلا قتال تربية للأمة على أن الغاية لا تبرر الوسيلة، وأن الكرامة في الرفق والعفو لا في البطش والدماء.
- تهيئة النفوس للنصر دون غرور أو بطر، وتعليم الأمة أن تعيش لحظة العزة بتواضع وخشية.
- في بثّ الرايات وتنظيم الجيش تربية على أهمية العمل الجماعي وتوزيع الأدوار تحت قيادة موحدة ذات رؤية واضحة.

مخالفات الواقع

- في زماننا اليوم، كثرت الفتوحات العسكرية والسياسية التي ترتكز على القتل والتخريب وسفك الدماء دون رحمة أو تروٍّ، بخلاف فتح النبي صلى الله عليه وسلم.
- افتقدت الأمة في كثير من مواطنها خُلُق التواضع عند النصر، فترى من يزهو بالمنصب والسلطان، لا يعرف للرحمة موضعًا.
- كثير من أبناء الأمة في هذا الزمان لا يتحمّلون المشقة في سبيل الدعوة والدين، بل يتراجعون لأدنى تعب أو حر.
- قلّ التوكل الحقيقي على الله، واستُبدل بالأسباب المادية وحدها، وكأن النصر لا يُنال إلا بها.
- انشغلت القلوب بشعارات سياسية ومطالب دنيوية، وغاب عنها أن العزّة كل العزّة في التوحيد والطاعة والانقياد لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- في هذا الفتح المهيب يظهر الرد العملي على ضلالات الخوارج الذين يجعلون الجهاد سفكًا للدماء وترويعًا للآمنين، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة بجيش عظيم دون أن يُريق دمًا، مراعيًا لحرمات الله وحقوق الناس.

الفقرة الخامسة: إسلام أبي سفيان... من عرش الزعامة إلى لواء الخضوع

في ليلةٍ لم يسكب فيها القمرُ نوره، ولا زقزق طيرٌ في وادي مرّ الظهران، بدا كل شيء ساكنًا إلا قلوب قريش التي تضطرب وجلاً، ووجوه المسلمين التي تضيء كأنها المصابيح، إذ كانت شعلة الإيمان في ذلك الوادي ألهب من لهب النيران التي أُضرمت، فقد اشتعلت عشرة آلاف نار على جنبات الطريق، إيذانًا بقرب الفتح، واقتراب اللحظة التي ستُزهق فيها رايات الشرك، ويعلو فيها صوت التوحيد.

خرج العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، على بغلة النبي البيضاء، يتنقل في عتمة الليل، يبحث عن نافذة للسلام قبل أن يُفتح باب الحرب، يُنادي: ألا من مُبلّغٍ لقريش أن تسلم قبل أن يُصبح وجهها في التراب، وتُداهمها كتائب الحق من حيث لا تشعر!

ويا للقدر...! في جنح الليل، التقى العباس برجلٍ يعرفه، ولكن الليل ألبسه الخوف، إنه **أبو سفيان بن حرب**، كبير قريش، وعميد جاهليتها، كان قد خرج خفية يتسلق الجبال، يتشمم الأخبار، لعله يتحقق: أهو محمد صلى الله عليه وسلم؟ أهو هذا الجيش الزاحف الذي يضرب الأرض بعزيمة الإيمان؟!

فقال له العباس بصوتٍ فيه رجاء وصراحة" **:يا أبا سفيان، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد جاء في عشرة آلاف من المسلمين، لا قِبَل لكم بهم، أسلِمْ تَسْلَمْ"!**

وما إن انتهت كلماته، حتى أخذ بيده ومضى به في جنح الليل، حتى دخل به على النبي صلى الله عليه وسلم في خيمته النورانية.

هناك، في حضرة من كانت قريش كلها تحاربه، وقف أبو سفيان... الزعيم المتوج، الذي لطالما وقف على منابر قريش يزمجر ويهدد، وها هو الآن يقف ذليلًا، مطأطئ الرأس، بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، الذي لم تزد قوته العظمى إلا تواضعًا ورحمة.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم في لطف العارف، وحزم القائد، وشفقة الهادي:
"أما آن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ "فقال أبو سفيان: "بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأوصلك! والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا"!

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم" :**أما آن لك أن تعلم أني رسول الله؟"**
فتردد... فما زال في قلبه بقية من كِبر الجاهلية، فقال: "أما هذه، فإن في النفس منها شيء"!
فقال له العباس رضي الله عنه وقد ضاق صدره" :**ويحك! أسلِمْ قبل أن يُضرب عنقك"!**
فصاح أبو سفيان في لحظة رجوع الفطرة" :**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله".**

يا الله...! من كان قبل ساعات يتسلل جبال مكة ذعرًا، صار الآن من أهل لا إله إلا الله، وارتفعت راية الهداية فوق قلبه، فطوبى لمن ناداه ربه بعد طول ضياع: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾]القصص: ٥٦[

ثم طلب النبي صلى الله عليه وسلم من العباس أن يُريه جند الإسلام، فقال له" :**اذهب به إلى مضيق الوادي، فليمر به الجيش ليرى هيبة الإسلام"!**

ومرت الجموع... كالسيل إذا انفجر، وكالجبال إذا سارت، تمر راية تلو راية، وفصيلة بعد فصيلة، حتى أقبلت كتيبة الأنصار والمهاجرين، كأنهم بنيان مرصوص، فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، لا يُرى منه إلا عيناه من شدة ما عليه من الحديد، والمهابة التي تلفه لفًا.

فاضطرب قلب أبي سفيان، وهتف مبهورًا :**يا عباس، لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيمًا"!**
فقال له العباس رضي الله عنه" :**ويحك يا أبا سفيان! إنها النبوة، لا المُلك"!**

نعم، إنها النبوة التي أخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

ثم نطق النبي صلى الله عليه وسلم بكلماته الخالدة، التي تُسطَّر بماء الذهب، في عفوٍ قلّ نظيره، ورحمةٍ لا تنبع إلا من نبع النبوة :**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن".**

فما إن سمعها أبو سفيان، حتى ركض يطوي الأرض طيًا، نحو مكة، يصرخ في الناس، يناديهم بأعلى صوته:
"يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، من دخل داري فهو آمن"!

وما أعظم تلك اللحظة... لحظة الانكسار بين يدي الحق، لحظة أن يُسلِم القلبُ بعد طول عناد، ولحظة أن يتحول سيد قريش إلى جندي في جيش محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن أبصر النور، وسجد لله رب العالمين.

﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾]سورة النصر[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الهداية بيد الله وحده، لا يملكها نبي مرسل ولا ملك مقرب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، وفي إسلام أبي سفيان برهان ناصع على ذلك، فقد شهد الحق بعد طول عناد، بفضل الله لا بجهد أحد.

- النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقًا، وإنكار رسالته عن علم وعناد جحود وكفر، والتردد في التصديق بها بعد وضوح الحجة لا يُبقي لصاحبه عذرًا.

- دلّت القصة على أن التوحيد هو الغاية التي دعا إليها كل الأنبياء، وهو أول واجب على كل مكلّف، وبه تنجو الأرواح من النار، وتُقبل الأعمال، وتُمحى الأوزار.

- النبوة ليست ملكًا دنيويًا ولا سلطانًا بشريًا، وإنما هي مقام اصطفاه الله لعباده، فالنبي صلى الله عليه وسلم جاء بهدي رباني، لا ليملك رقاب الناس، بل ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

- أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وقراراته من وحي، لأنها نابعة من مقام النبوة والرسالة، فليس فيها هوى، وإنما فيها هدى ورحمة وعدل.

- في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم بالأمان لمن دخل بيت أبي سفيان، تأكيد على أن الأمر والنهي والتشريع والولاية لله ورسوله، لا يشاركه فيهما أحد.

- من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن من خاصموه وحاربوه آمنوا به بعد اليقين، كما قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾، وإسلام أبي سفيان من أعظم هذه الشواهد.

فوائد فقهية

- في الحديث عمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، تأصيل لفقه الأمان، وبيان أن السلطان الشرعي يجوز له أن يجعل لمن شاء من الناس حرزًا وأمانًا ما دام فيه مصلحة راجحة.

- في أمر النبي صلى الله عليه وسلم للعباس بإظهار الجيش أمام أبي سفيان تقرير لمبدأ إظهار القوة قبل المواجهة، وهو من فقه السياسة الشرعية في ترهيب العدو ودفعه إلى السلم.

- كلام العباس لأبي سفيان: "أسلم قبل أن يُضرب عنقك" فيه مشروعية الإنذار للممتنع عن الإسلام إذا تحقق فيه وصف المحارب، وأن الإسلام يجب ما قبله إن سبق السيف اللسان.

- تعليق الأمان على الدخول في دار أو المسجد الحرام، يدل على أن دار المسلم يمكن أن تُجعل حرزًا لغيره إذا وُثِق بالأمن منه، ما يدل على مرونة الشريعة في تحقيق مقاصدها.

- في تقديم دعوة السلم قبل القتال تعليم لنا بأن الأصل في الجهاد هو دعوة الناس إلى الإسلام أو الجزية أو الكف عن العداء، وليس القتل والقتال ابتداءً.

فوائد أخلاقية

- في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من أبي سفيان حينما وقف ذليلًا مطأطئ الرأس، دليل على أن التواضع عند النصر من شيم الأنبياء، فلم يشمت بعدو ولا انتقم، بل استقبله بالعفو والرحمة.

- ما أروع حلم النبي صلى الله عليه وسلم حين خاطبه أبو سفيان بإعجاب: "ما أحلمك وأوصلك!"، فالقوة مع الحلم من خصال العظماء، وهي مفتاح لقلوب المعاندين.

- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم رحمته في إعلان الأمان لأهل مكة يرسخ في النفوس أن العفو عند المقدرة من أرقى الأخلاق النبوية التي يجب أن تُقتدى.

- العباس رضي الله عنه مارس خلق المبادرة والنصح، فخرج يبحث عن حل يحقن الدماء، وهذا من شيم المصلحين الذين يحملون همّ الناس ولو كانوا خصومًا.

- في تغير موقف أبي سفيان في لحظات من الكبر إلى الإذعان للحق تذكير لكل مغرور أن العزة الحقيقية في الخضوع لله، وأن الانكسار بين يديه هو رفعة في الدنيا والآخرة.

فوائد دعوية وتربوية

- إظهار هيبة المسلمين وجموعهم أمام أبي سفيان كان سببًا في إذعانه، وهذا يدل على أن من وسائل الدعوة: إظهار قوة أهل الحق واجتماعهم وتماسكهم، فإن ذلك مما يرعب الباطل ويجتذب الحائرين.

- في كلمات النبي صلى الله عليه وسلم الموجهة لأبي سفيان، تعليم للدعاة بأن يكون خطابهم واضحًا حازمًا، لا مجاملة فيه للباطل، مع رحمة تُشعّ من نبراته.

- احتضان النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان بعد الإسلام، وعدم إهانته رغم عدائه الطويل، فيه دعوة للدعاة إلى احتواء التائبين والمخطئين، لا إقصائهم ولا تصنيفهم على ما مضى من ذنوبهم.

- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أما آن لك أن تعلم؟" أسلوب بديع في دعوة من يملك قلبه بقايا كبرياء، فيه تذكير رقيق وفتح لباب الرجوع.

- العباس لم يتساهل حين تردد أبو سفيان، بل قال بصرامة: "ويحك! أسلم قبل أن يُضرب عنقك!"، فهذا منهج دعوي متوازن بين اللين في الخطاب، والحزم عند التردد.

ما يخالف الواقع

- كثير من الناس اليوم لا يقرّون بأن الهداية بيد الله، بل يعلّقون القلوب بأشخاص وظروف، ويظنون أن فلانًا هو الذي يملك تغيير القلوب، وفي هذا افتئات على رب العالمين.

- البعض إذا رأى أهل الباطل يُسلمون أو يُظهرون الخير شكك في نياتهم ولم يُحسن الظن، بينما النبي صلى الله عليه وسلم فتح الباب لأعدى خصومه، ولم يغلقه أمامهم إذا صدقوا التوبة.

- هناك من يظن أن العزة في المال أو الجاه أو الزعامة، بينما هذا المشهد يعلّمنا أن العزة في التوحيد، والذل كل الذل في الإعراض عن الله.

- انتشرت في زماننا صورة مشوّهة للدعوة، تعتمد على المجاملة للباطل، أو العنف في الدعوة، وخير ما يُصحح هذا المسار هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة أبي سفيان، إذ جمع بين الوضوح والحزم والرحمة.

- كثير من الناس اليوم يظنون أن العفو ضعف، مع أن عفو النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح كان أعظم تجلٍّ للقوة والقيادة والتمكين.

- دل هذا المشهد على ضلال فرقة الخوارج الذين يجهّلون الناس بالعموم، ويكفرونهم بسبب تأخيرهم في الإسلام أو بسبب ذنوب ماضية، بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يُشكك في إسلام أبي سفيان رغم تأخره، بل قبله وأكرمه.

الفقرة السادسة :دخول الفاتحين... فتحٌ مبينٌ وتواضع نبيٍّ أمين

كان اليوم العاشر من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، يومًا محفورًا في ذاكرة التاريخ، محفوفًا بالرهبة والجلال، تتقاصر أمام هيبته الكلمات، وترتجف له أفئدة الطغاة. أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لانطلاق الجيش الأعظم، الذي لم تشهد جزيرة العرب له مثيلًا، ولا سمعت السماء بتلاحم أروع منه، ولا رأت الأرض جندًا كهؤلاء قط. عشرة آلاف قلب يخفق بالتوحيد، ومهاجرٌ وأنصاريٌّ وبدريٌّ يمضون في صفٍ واحدٍ خلف لواء النبوة، كأنهم بنيان مرصوص.

خرجوا لا طمعًا في دنيا، ولا رغبة في مغنم، بل خرجوا ليعلوا كلمة الله، وليحطموا صروح الشرك التي أظلمت قلوب قريش، خرجوا ليطهّروا البيت الحرام، وليعيدوا النور إلى أرض الوحي، ويُقيموا المهابة في أرض طال فيها الباطل.

كان الجيش صائمًا... صابرًا... شمس الحجاز تضرب الوجوه، والسراب يمتد على الرمال، والطريق طويلٌ ووعر، ولكن القلوب كانت مشتعلة بنور الإيمان، فلم يُفطر منهم أحد، امتثالًا وتعظيمًا لشهر الله المبارك.

حتى إذا بلغوا موضع كُراع الغميم –وهو مكانٌ قريب من مكة – تراءى للنبي صلى الله عليه وسلم تعب أصحابه، ورأى الإرهاق يخطّ آثاره على وجوه الجنود، وقد أضناهم المسير والصيام، وهم على وشك لقاء العدو.

فوقف القائد المربي، والرحيم بأمته، الذي يُراعي الضعيف ويشد أزر القوي، وقال قولته التي دوّنتها كتب السنّة:

»إِنَّكُمْ مُصْبِحُونَ عَدُوَّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا).«*أخرجه مسلم.(*

ثم دعا بقدحٍ من ماء أو لبن، فرفعه بيده الشريفة، حتى رآه الناس، ثم شرب منه وهم ينظرون، فشرب الناس تبعًا له، وكان ذلك تعليمًا بأن الرخصة في موضعها عبادة، وأن القوة في اللحظة المناسبة فقه، وأن القيادة الحكيمة هي التي تعرف متى تصبر، ومتى تفطر، ومتى تتقدم، ومتى تتوقف.

لقد علّمهم أن النصر لا يأتي بسواعدٍ متعبة فحسب، ولا بعزائم مرهقة، بل هو توفيقٌ من الله، وتخطيطٌ مُحكم، وطاعةٌ لله ولرسوله، وتقديم لما يقوي النفس ويشد العزم في ساعة اللقاء.

ثم واصل الجيش زحفه، صفوفًا متراصة، كأنهم جدار لا يُخترق، وجنود لا يزيغ بصرهم عن راية التوحيد، حتى إذا بزغت شمس اليوم العشرين من رمضان، وقفوا على أبواب مكة، لا بقلوب المنتقمين، بل بأفئدة الرحماء، يهللون ويكبرون ويذكرون الله على ما هداهم، وما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله.

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة... لا كما يدخلها الملوك المنتصرون، ولا كما يدخلها الطغاة الفاتحون، بل دخلها حبيب الله، وسيد ولد آدم، متخشعًا لله، متواضعًا لخالقه، مطأطئ الرأس، حتى كاد جبينه الشريف يلامس ظهر ناقته من شدة الخضوع، وهو يتلو:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[*الفتح: ١ .*]

يا الله... أيُّ عظمة هذه؟ !أيُّ فتحٍ هذا الذي يُقابَل بالتواضع لا الكبر؟ !وأيُّ قلبٍ هذا الذي ما زال يخشى الله في ساعة التمكين؟!

كانت لحظة الفتح أعظم من أن تُختزل في انتصار عسكري، كانت فتحًا للقلوب قبل الحصون، وكان شعارها الذي دوى في أرجاء مكة» :الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرْحَمَة.«

نعم، إنه يوم الرحمة، لا يوم الانتقام. يوم العفو لا يوم العقاب. يوم هداية لا إبادة.
لقد وزّع النبي صلى الله عليه وسلم الكتائب بعنايةٍ ودقة، تحرس المداخل، وتضبط النظام، وتمنع كل عبث أو تجاوز، وكأنهم ملائكة في ثياب البشر.

دخل نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم مكة، وقلوب الصحابة تتبع قلبه، وأعين الناس تذوب هيبة لجلاله، فلم يكن الفتح مجرد نصر، بل كان عودةً للحرم إلى أهله، وعودةً للحق إلى موضعه، وعودةً للرحمة بعد طول قسوة.

وهكذا دخل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا، متواضعًا، شاكرًا، طائعًا... ومن خلفه أمة، ومن أمامه فتحٌ، وفي قلبه نور لا ينطفئ.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه هو الذي ينصر عباده المؤمنين إذا حققوا التوحيد، والنصر لا يُنال إلا بتوفيق الله، لا بالقوة البشرية المجردة.
- تجلّت في هذا الفتح ثمرة التوكل على الله، والإيمان بوعده، حيث أتم الله نصره على نبيه صلى الله عليه وسلم بعد صبر طويل.
- هذا المشهد يُظهر أن النبوة ليست تشريفًا دنيويًا بل تكليف رباني، فمنزلتها تستوجب أعظم درجات التواضع والخشوع، كما ظهر في حال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدخل مكة مطأطئ الرأس.
- في مشهد الإفطار بيان لعقيدة أهل السنة في أن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تُؤتى عزائمه، فالرخصة ليست ضعفًا بل رحمة وحكمة من الله.
- الفتح لا يعني فقط غلبة دنيوية، بل هو علامة على رضا الله تعالى عن عباده المؤمنين، وتأييده لهم في موطن الشدة بعد الابتلاء.
- دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة متخشعًا خاشعًا يعلّمنا أن النصر لا ينبغي أن يورث الغرور، بل يزيد المؤمن افتقارًا لربه وخضوعًا لعظمته.

فوائد فقهية

- جواز الفطر في رمضان في حال السفر والمشقة، وهو من الرخص المشروعة بدليل فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأمره لأصحابه.
- بيان أن الإمام إذا أفطر وأظهر ذلك للناس يسن لهم الاقتداء به، ففعله عليه الصلاة والسلام تعليمٌ وسنّةٌ وإقرار.
- في الحديث أصل من أصول القواعد الفقهية، وهو أن التيسير مطلوب عند وجود المشقة، ومن مقاصد الشريعة رفع الحرج.
- الإفطار هنا كان في وقت استعداد للقاء العدو، وهو تطبيق عملي لمراعاة المصلحة الشرعية في تقديم القوة على الصوم في مثل هذه المواطن.
- حسن توزيع الكتائب وحراسة المداخل يدل على أهمية التنظيم والترتيب والاحتياط في الأمور العامة، وهي من الفقه القيادي النبوي.

فوائد أخلاقية

- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم عند الفتح قمة في التربية الخلقية، إذ لم تغره القوة ولا النصر، بل زاده ذلك خشوعًا لله.
- تقديم النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة على العقوبة في ساعة التمكين يُربي الأمة على الحلم والعفو عند القدرة.

- تحمُّل الصحابة المشقة في الصيام رغم السفر والحر، يدل على قوة عزيمتهم، وصدق التزامهم بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- في هتافهم بالتكبير والتهليل لحظة النصر، تنبيه إلى ضرورة إرجاع الفضل لله دائمًا، والاعتراف بجميله عند كل توفيق.
- إطاعة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم في كل المواقف دلالة على صفاء قلوبهم، وشدة تعظيمهم لأمر القائد المُرسل من الله.

فوائد دعوية وتربوية

- الفتح علمنا أن الدعوة لا تقف عند السلاح، بل قلوب الناس تُفتح بالأخلاق والتواضع قبل أن تُفتح البلدان بالقوة.
- رفع النبي صلى الله عليه وسلم شعار (اليوم يوم المرحمة) يُعد مدرسة في بناء مجتمعات الرحمة والعفو، لا مجتمعات الانتقام والتشفي.
- القيادة النبوية كانت حاضرة في كل موقف: في التخفيف، وفي التوزيع، وفي الخشية، وفي الإعداد، وهذا هو المنهج الحق في بناء القيادات.
- كان الفتح دعوة صامتة دخلت بها قلوب أهل مكة قبل بيوتهم، إذ أُدهشوا بأخلاق محمد صلى الله عليه وسلم وسماحته.
- التربية النبوية لم تكن فقط في المساجد، بل كانت في ميادين الجهاد والسير، تُعلِّم الناس متى يأخذون ومتى يعفون.

ما يخالف الواقع

- قلة التواضع عند من يُمكّن لهم الله، إذ ترى الكثير إذا أُعطي منصبًا أو غلب خصمًا تكبّر وطغى ورفع نفسه على الناس.
- عدم فقه كثير من المسلمين لمعنى الرخصة، فبعضهم يتشدد بلا علم ويظن أن الفطر في السفر ضعفٌ في الدين.
- فقدان الرحمة في الصراعات المعاصرة، إذ يسود منطق الانتقام والتشفي عند الغلبة، لا خلق الحلم والصفح النبوي.
- ضعف في التربية القيادية في مجتمعاتنا، فلا يُعلَّم الناس متى يصبرون ومتى يتراجعون، ومتى يكون الحزم ومتى تكون الرحمة.
- تقديس القوة المجردة، وغفلة كثير من الناس عن أن النصر الحقيقي هو عودة القلوب إلى التوحيد، لا مجرد فتح الأرض.

- تُخالف فرقة الخوارج هذا المشهد الرباني العظيم، فهم يرون الشدة والتكفير والتنكيل عند التمكين، وينكرون العفو والرحمة عند القدرة، فدينهم عنف وغلظة لا خضوع ولا شكر

الفقرة السابعة : الجيش يتوزّع.. والفتح يبدأ

فجرٌ مختلف في تاريخ الأرض... يوم مشهود من أيام الله، ذلك اليوم العشرين من رمضان في السنة الثامنة للهجرة، حينما ارتفعت رايات التوحيد ترفرف على مشارف مكة، وجيش الإيمان ينساب في الوادي العظيم كالسيل العرم، عشرة آلاف من الرجال، أفئدتهم تهفو إلى البيت العتيق، وقلوبهم خاشعة لمقام التقديس، ونفوسهم موقنة أن وعد الله حق.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء، بعين القائد الحكيم، وبقلب النبي الرحيم، يُلقي نظراته على هذا الجيش الزاحف، يُوزّع الكتائب بيدٍ حازمة، ويبسُط الرحمة بقلبٍ مفعم بالعفو، يضع كل لواء في موضعه كما تُرصّ الجواهر في تاج الفتح، وكأنّ الملائكة تقود الموكب من علٍ.

لقد خطط الحبيب صلى الله عليه وسلم لدخول مكة تخطيطًا عسكريًّا حكيمًا، توزّع فيه الجيش إلى أربعة ألوية كبرى، كلُّ لواءٍ منها يُجسّد معنى الطاعة والبطولة والسكينة:

- اللواء الأول: راية الميمنة، عقدها لأسد المعارك خالد بن الوليد رضي الله عنه، ذلك الفارس الذي أسلم متأخرًا، فسدّ ما مضى بجهادٍ لا يُجارى، أمره أن يدخل من جهة الحديبية، حيث التضاريس الوعرة، والأسلاك الطبيعية التي لا تخترقها إلا العزائم، فما خاف ولا تردد، بل زأر كليثٍ يمضي في سبيل الله.

- اللواء الثاني: راية الميسرة، وضعها في يد الزبير بن العوّام رضي الله عنه، أحد العشرة المبشرين بالجنة، فدخَل من كَداء، حاملاً راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان كأنما يحمل قلب الحبيب صلى الله عليه وسلم بين كفيه، لا يبتغي من الفتح مغنمًا، وإنما يطلب الرضا والرضوان.

- اللواء الثالث: راية المؤخرة، يقودها أمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه، دخل من الشمال، ينساب في الوادي برفق، وقد أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يرفع سيفًا إلا دفاعًا، فكان يصدّ العنف بالحكمة، ويُقابل القسوة بالحِلم.

- اللواء الرابع: راية القلب، في كنف النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، يسير في موكب الهيبة والنور، من كُداء العليا، بينه وبين الملائكة ستر من الطهر، يقود الفتح الأعظم بقلبٍ لا يعرف الحقد، وبجَبينٍ لا يعرف التكبر، وقد طأطأ رأسه تواضعًا، حتى مسّ شعره الشريف عنق ناقته.

وكان شعار الجيش بأسره يردد على كل لسان»:اليوم يوم المرحمة«،
كلماتٌ نزلت كالمطر على أرضٍ عطشى، تُبشّر المدينة التي أخرجت نبيها، بأنه لا ثأر اليوم، بل عفو ورحمة.

لكن هذا العهد لم يُلتزم به في كل المواقع... ففي موضع الخندمة، حيث فرقة خالد بن الوليد رضي الله عنه، اعترضتهم حفنة من فتيان قريش الذين لم يُدركوا بعد أن النبوة غلبت، وأن الحق قد عاد إلى أهله، فقاتلوا، فاضطر خالد للرد، ودارت معركة خاطفة، لم تطل إلا بمقدار هبوب الريح، قُتل فيها اثنا عشر من المشركين، واستشهد من المسلمين رجلان، وسرعان ما انقشع الغبار، وسقط السلاح، وعاد الهدوء إلى قلب مكة.

أما بقية الكتائب، فقد دخلت دون قطرة دم، ولا صليل سيوف، دخلوا والناس ينظرون في ذهول، كيف لهذا الذي أُخرج وقوتل وشُتم أن يعود بالعفو والرحمة؟!

دخلوا ومكة تفتح أبوابها للنور، والرايات تتناثر في الأحياء، كأنها أزهار ربيع على أرض طال خريفها، والناس يخرجون من بيوتهم تتملكهم الرهبة، يتوقعون الانتقام، فيلقاهم وجه النبي صلى الله عليه وسلم بالبِشر، وعيناه تفيض بالرحمة، وكأن لسانه يردد ادخلوها امنين المقيمين فيها والداخلين

إنه يوم يليق بسيد الأنبياء، وبشريعة الرحمة، وبمدينة طال حرمانها من السكينة، يومٌ لا يُنسى في تاريخ البشر، فيه انتصر العفو على الانتقام، وارتفعت رايات التوحيد فوق هام السحاب.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- نصر الله لعباده المؤمنين وعدٌ حق لا يتخلف، وقد تجلى في فتح مكة حين انقادت الأرض لحكم الله، وظهر الدين رغم كيد الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١].
- إثبات أن الله ينصر أنبياءه وأولياءه، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال أمد الباطل أو علا صوته.
- مشهد التواضع من النبي صلى الله عليه وسلم لحظة الفتح دليل على كمال عبوديته لله، وأن النبوة لا ترفعه عن الخضوع لربه، بل تزده تقوىً وذلاً لله.
- عظمة الرحمة في دين الإسلام تتجلى حتى في لحظات القوة والتمكين، فهو دين قائم على العدل لا على الظلم، وعلى العفو لا على الحقد.
- الملائكة جنود من جنود الله، تسير بأمره، وتشارك في مواطن النصر تثبيتًا لأهل الإيمان، كما شاركت في بدر وحنين، وظهر أثرها المعنوي في فتح مكة.

فوائد فقهية

- جواز تقسيم الجيش وتوزيع الكتائب حسب ما يقتضيه الاجتهاد العسكري والسياسي، ما دام ذلك لا يُخالف النصوص الشرعية.
- مشروعية اتخاذ شعار للجيش في المعركة لتمييز صفوفه، كما اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم "اليوم يوم المرحمة" شعارًا للفتح.
- جواز قتال من يُبادر بالقتال حتى في حال العفو العام، إذا لم يلتزم السلم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع من قاتل في موضع الخندمة.
- التأكيد على أن الأصل في الفتح عدم سفك الدماء ما أمكن، وأن السيف لا يُرفع إلا عند الضرورة القصوى، وهذا من أعظم مقاصد الشريعة.
- بيان أن الإمام أو القائد مسؤول عن ضبط كتائب جيشه وعدم تجاوزهم، كما وجّه النبي صلى الله عليه وسلم كل كتيبة بوصية محددة.

◆فوائد أخلاقية

- التواضع في لحظة الانتصار خلق نبوي عظيم، ظهر حين طأطأ النبي صلى الله عليه وسلم رأسه تواضعًا يوم فتح مكة.
- العفو عند المقدرة من أعظم خصال النبوة، وقد تجلى في شعار الجيش وفعله الفعلي داخل مكة: "اليوم يوم المرحمة."
- القيادة الحقيقية مزيج من الحزم والرحمة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يوزع الألوية بيد حازمة وقلب مفعم بالعفو.
- الإخلاص والصدق في النية يُثمر الثبات والسكينة، كما في قلوب الصحابة الذين دخلوا الفتح بلا رياء ولا طلب دنيا.
- الرحمة تتجلى في التعامل حتى مع من عاداك إذا رجع إلى الحق، فمكة كلها خضعت تحت العفو رغم ما صدر منها.

فوائد دعوية وتربوية

- النصر الدعوي لا يكون بالقهر والجبروت، بل بالرحمة والقدوة، كما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يدعو الناس بالإحسان لا بالسيف.
- حسن التخطيط واتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل، بل هو من تمامه، وقد خطط النبي صلى الله عليه وسلم للفتح توزيعًا دقيقًا للكتائب.
- الدعوة إلى الله يجب أن تتحلى بالحكمة، والعفو، والصبر، لا بالتهور والانفعال، وهذه كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في الفتح.
- أثر الكلمة الطيبة في النفوس لا يُقارن بالعنف، فشعار "اليوم يوم المرحمة" اختصر للناس طبيعة الرسالة في ثلاث

كلمات.

- التربية على الوفاء والصبر تُثمر ثباتًا عند المحن، كما ظهر في جيل الصحابة الذين فتحوا مكة بلا غرور ولا تعدٍّ.

ما يخالف الواقع

- كثير من المنتسبين للإسلام اليوم إذا تمكنوا بطشوا وظلموا، ولم يُظهروا خلق العفو الذي تحلى به النبي صلى الله عليه وسلم في عز النصر.
- عند بعض المسلمين ضعف في تقدير التخطيط الشرعي للنجاح، فيخلطون بين التوكل والتواكل، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.
- قلة التواضع في حال النصر، بل يتفاخر بعض المنتصرين بالتمكين ويجعلونه وسيلة لانتقاص الآخرين، بعكس النبي صلى الله عليه وسلم.
- غياب الرحمة من الخطاب الدعوي والسياسي أحيانًا، حتى يُظن أن الإسلام لا يعرف إلا الحزم، وهذا منافٍ لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم.
- بعض القادة في الأمة اليوم لا يفرقون بين العدل والانتقام، بينما كان فتح مكة نصرًا للعدل والعفو لا للانتقام الشخصي
- الخوارج يرون أن العفو ضعف، ولا يعرفون للرحمة قدرًا، وهذا يُخالف تمامًا فعل النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم نصر، حينما رفع شعار المرحمة، وعفا عمن آذاه وقاتله.

الفقرة الثامنة :موكب الفاتح... ودخول الرحمة في أعظم ساعات النصر

في صبيحة من أعظم أيام التاريخ، وفي لحظةٍ نادرةٍ سجّلها الزمان على صفائحه بماء الذهب، كان الكون كله يستعد لحدثٍ سماويٍّ عظيم :دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا.

تحرّك موكب النور على أطراف مكة، وعلى رأسه خير من مشى على الثرى، النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، راكبًا ناقته القصواء، تحيط به كتائب النور، صفوف من الأبطال الذين ربّاهم الوحي، وصاغتهم المحن، واحتضنتهم دعوة السماء، حتى صاروا مناراتٍ تمشي على الأرض.

وكانت أعين أهل مكة ترقب المشهد من وراء الجدران، وقد تملكهم الخوف والوجل، فها هو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي آذوه، وأخرجوه، وحاربوه، يعود اليوم في موكب الظفر، والرايات ترفرف من حوله، والمهابة تملأ الأرجاء.

لكنّهم لم يروا طاغيةً متجبرًا، ولا فاتحًا متعجرفًا، بل رأوا نبيًّا كريمًا، يميل رأسه الطاهر تواضعًا، وقد التصق ذقنه الشريف برحل ناقته، حتى كاد جبينه المبارك أن يمس سنامها، من شدة خضوعه لربه، وانكساره بين يدي نعمته، وهو يردّد: «اللهم اجعلها فتحًا مباركًا «كما جاء في بعض روايات ابن سعد في "الطبقات الكبرى."

لم يُرَ عليه صلى الله عليه وسلم يومًا أكثر خُشوعًا ولا انكسارًا من هذا اليوم، ولم يكن في قسمات وجهه انتشاء، ولا في خطواته خُيلاء، بل كان يمشي وقلبه يسبّح، ولسانه يلهج بالحمد، وعيناه تغرورقان من الفرح والرهبة... فقد تحقّق وعد الله، وصدق الميعاد، وآن للبيت العتيق أن يعود إلى طُهر التوحيد، بعد طول عبث الأوثان.

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ • وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا • فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ] {النصر: ١-٣.[
ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها فحسب، بل كان يعيشها في تلك اللحظة بكل جوارحه.

ثم مضى صلى الله عليه وسلم بخطاه المباركة نحو المسجد الحرام، فطاف بالبيت طواف الشكر، وكان المشهد أشبه بزلزالٍ روحيّ يهزّ أركان الشرك... فقد كانت الكعبة يومئذٍ تطوف بها الأصنام بدل أن يُطاف بها، ثلاثمائة وستون صنمًا معلّقة في جوفها وعلى جدرانها، فكان صلى الله عليه وسلم يطعنها بالقوس التي في يده، فيخرّ كل صنم على وجهه كأنما خاف من نظرة التوحيد قبل أن تصيبه طعنة اليقين!

وكان صلى الله عليه وسلم يقول بصوته الذي زلزل جبال الوثنية»:جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا «]الإسراء: ٨١[،
وجاء في رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند البخاري :دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُبًا، فجعل يطعنها ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل".«

وفي لحظاتٍ قليلة، سقطت الأصنام التي عمرت قرونًا، وكأنها تُجتث من جذورها، لا لصنمها، بل لأن النور قد حلّ، فإذا جاء النور، تلاشت الظلال.

وكانت تلك اللحظات درسًا خالدًا للأمة :أن النصر حين يأتي، لا يُنسيك التواضع، وأن القوة لا تعني الانتقام، وأن الفتح لا تكتمل عظمته إلا إذا دخل الرحمة معه،
فما أعظم هذا الموكب، وما أرحم هذا الفاتح.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات أن النصر من عند الله وحده، لا من كثرة عدد ولا عتاد، فالنبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة خاشعًا خاضعًا، مما يدل على تمام يقينه بأن الفتح هو منحة ربانية لا كسب بشري.
- عظمة التوحيد وعلو منزلته، فقد كان أول ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم أن طهّر البيت من الشرك، وفي هذا تعظيمٌ لمقام توحيد الله تعالى، وأنه الأصل الذي تُبنى عليه الأمة.
- أن وعد الله لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين وعدٌ حقٌّ لا يتخلف، كما وقع في هذا اليوم الذي صدق فيه الميعاد، وهذا من دلائل النبوة وصدق الرسالة.
- دلّ خضوع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح على كمال عبوديته لله، وهو سيد ولد آدم، مما يُثبت أن أكمل الخلق هم أعظمهم خضوعًا لله، لا كبرياء فيهم ولا تعاظم.
- تأكيد أن الحق إذا جاء، فإن الباطل يزول، كما قال الله تعالى: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}، وهذه قاعدة عقدية في الصراع بين التوحيد والضلال، متكررة في تاريخ الأنبياء.
- إثبات أن الإسلام هو الدين الخاتم، الذي يهدم ما قبله من شرك، فدخول الناس أفواجًا في دين الله بعد الفتح هو من أعظم دلائل ختم الرسالة وبقاء الشريعة.

فوائد فقهية

- مشروعية طواف الشكر عند تحقق نعم عظيمة عامة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين طاف بعد الفتح، وهو من أعظم صور الشكر العملي.

- جواز إزالة المنكر بالقوة عند القدرة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين طعن الأصنام بيده، فدل على أن الشرك لا يُجامل، بل يُهدم ويُزال.

- استحباب قراءة الآيات المناسبة للمواقف، كما قرأ صلى الله عليه وسلم {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} أثناء إسقاطه للأصنام، فيربى الناس على اقتران الفعل بالوحي.

- مشروعية الانحناء تواضعًا لله تعالى، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين ألصق ذقنه برحل ناقته، وهو خضوع لا يُفعل لمخلوق، بل لرب الأرباب.

- أن التواضع لا يُنافي إظهار القوة والهيبة في مواضع النصر، فقد دخل صلى الله عليه وسلم مكة بجيش منتصر، ومع ذلك لم يتكبر، فجمع بين القوة الشرعية والتواضع المشروع.

فوائد أخلاقية

- التواضع في لحظات التمكين من صفات الصادقين، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينسَ لحظة الأذى والإخراج، ومع ذلك دخل متواضعًا لا منتقمًا.

- عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة رغم ما فعلوه به، أعظم شاهد على خُلُقه الكريم، وأن الرحمة كانت شعار فتحه، لا الغضب والانتقام.

- صدق المشاعر النبوية في الفرح بنصر الله، والخشوع عند تذكر نعمته، يدل على قلبٍ حيٍّ لا تغريه الدنيا مهما عظمت.

- أن من رُبّوا على الوحي، كما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يصيرون صفوفًا من الأبطال المربّين، لا رعاعًا ينتقمون أو يبطشون.

- زهد النبي صلى الله عليه وسلم في مظاهر الانتصار، فلم يرفع رأسه فخرًا، بل خفضه تواضعًا، مما يُرشد الأمة إلى أن الفتح الحقيقي هو فتح القلب بطاعة الله.

فوائد دعوية وتربوية

- في لحظة الفتح الأكبر، قدّم النبي صلى الله عليه وسلم درسًا عمليًا للأمة في أولوية التوحيد قبل كل شيء، فكان أول أعماله هو هدم الأصنام، لا توزيع الغنائم.

- فتح مكة كان دعوة بليغة بالفعل قبل القول، حيث دخل الناس في دين الله بعد أن رأوا عظمة خُلق النبي صلى الله عليه وسلم وعدله.

- أن التربية الجهادية ليست بالبطش، بل بالتزكية، فقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الصبر والرحمة، لا الغضب الأعمى.

- ضرورة الاقتران بين العمل الدعوي ومقام التضرع، فمع الفتح كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويستغفر ويسبح، ولم يغفل لحظة عن ربه.

ما يخالف الواقع

- أن كثيرًا ممن يُرفعون اليوم عند لحظات الانتصار أو القوة، يعلو في وجوههم الكبر، وتعلو أصواتهم بالغرور، فلا نرى فيهم شيئًا من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم عند الفتح.

- أن بعض الحركات التي تدّعي نصرة الإسلام اليوم تبدأ دعوتها بالقتال قبل التوحيد، وتدعو إلى الهدم قبل البناء، وتقدّم الشدة على الرحمة، فخالفوا بذلك منهج محمد صلى الله عليه وسلم.

- أن الطواف اليوم بالقبور والمزارات عند بعض المنتسبين إلى الإسلام يُشبه ما كانت عليه الكعبة من قبل، من عبادة الأصنام، مما يدل على أن معركة التوحيد ما زالت قائمة.

- أن كثيرًا من الناس في لحظات التمكين يجعلها فرصة للانتقام وتصفية الحسابات، بينما فتح مكة كان يوم رحمة وعفو، لا يوم دماء.

الفقرة التاسعة : في محراب التوحيد... لحظة تطهير البيت

لقد آن للبيت العتيق أن يعود كما أراده الله، طاهرًا موحدًا، بعد أن لطّخه الجهل بالشرك، وعفّره الهوى بعبادة الحجر، وأحاطته الأصنام من كل جانب كأنها تملك له ضرًّا أو نفعًا.

دخل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم **جوف الكعبة**، وهو الذي طال شوقه إلى لحظة تطهيرها، لم يخطُ إليها بجسده فقط، بل دخلها بروحه الطاهرة، يحمل بين جنبيه رسالة السماء.

فإذا بالجدران من الداخل مغطاة بصور وتماثيل، وقد نُقشت رسومات مزيفة تُظهر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ أطهر من عرفتهما البشرية ـ وهما **يستقسمان بالأزلام!**
فاهتز قلبه الشريف، وانتفضت روحه غيرةً للتوحيد، وقال وهو في قمة الألم والنقمة المقدّسة:
»قاتلهم الله، واللهِ ما استقسما بها قط «صحيح البخاري]، في نفيٍ قاطعٍ لتلك الكذبة التي أرادت أن تجعل من أنبياء الله وسيلة لتبرير الوثنية!

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن تُمحى كل صورة، وتُهدم كل تماثيل، ويُكنس كل أثر للشرك، **حتى لم يبقَ في الكعبة صنمٌ ولا رسمٌ إلا واندثر**، كما اندثرت هيبة الجاهلية بين يديه.

ولم يكن هذا تطهيرًا لجدران، بل كان تطهيرًا للقلوب والعقول، كان إعلانًا أن البيت قد عاد لله وحده، لا يُعبد فيه سواه، ولا يُذبح لغيره قربان، ولا يُدعى عند أعتابه إلا هو جلّ في علاه.

ثم وقف صلى الله عليه وسلم في سكينة العابد، وجلال الموحد، **فصلّى ركعتين في جوف الكعبة**، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين،
وجعل وجهه إلى الجدار المقابل للباب، ولم يُحدِّد زاوية معينة، فلم يكن في الكعبة يومئذ قبلة إلا الله،
ثم خرج ولسانه يقطر حمدًا، وقلبه يغمره نور، **فقد أُعيد البيت إلى صيغته الأولى... إلى التوحيد الخالص.**

ولم يكن هذا الفتح فتح أبوابٍ وجدران، بل كان فتح القلوب على الحقيقة، لذلك وقف صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة، وأمسك بعضادتي الباب، كأنه يُمسك ناصيتي الجاهلية ليذبحها بكلمة الحق، وألقى خطبته الخالدة التي نقشتها الأرواح في ذاكرة الأزمان:

»يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب«
ثم تلا قول الله العظيم**}** :**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] {**الحجرات: ١٣.[

وهكذا سقطت أصنام المعنى كما سقطت أصنام الحجر،
ذابت عصبيات الدم، وانمحت أوهام النسب، وتساوى الناس جميعًا تحت راية {لا إله إلا الله{،
فلم يبقَ للألقاب الجاهلية أثر، ولا للأنساب كبرياء...
فالناس من آدم، وآدم من تراب... والتقوى هي المعيار.

كان ذلك اليوم لحظة **طهارة شاملة** :طهارة بيت، طهارة قلب، طهارة مجتمع، وطهارة تاريخ،
إنه محراب التوحيد، الذي لا تقف فيه إلا الأرواح الساجدة، ولا يُرفع فيه إلا لواء" :**قل هو الله أحد."**

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- هذا المشهد يظهر كيف أن التوحيد هو أعظم مقصود من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو أول ما بدأ به، وآخر ما ختم به، إذ لم يدخل الكعبة ليزهو بالنصر، بل ليطهّرها من مظاهر الشرك.
- في قوله صلى الله عليه وسلم: «قاتلهم الله، واللهِ ما استقسما بها قط» إنكار واضح لنسبة الكفر والضلال إلى الأنبياء، وهذا أصل من أصول العقيدة: تنزيه الأنبياء عن الكبائر ومظاهر الشرك.
- مشهد محو الصور والتماثيل يثبت بوضوح أن الشرك لا يُزال إلا بالتوحيد، وأن محاربة مظاهر الوثنية عبادة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس غيرةً على التوحيد.
- إثبات أن الله تعالى لا يُعبد إلا بما شرع، ولا يجوز اتخاذ وسائط ولا رسوم ولا تماثيل قربى إليه، وهذا تأصيل لمفهوم العبادة عند أهل السنة.
- تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} بيان أن التفاضل في العقيدة قائم على التقوى لا على الأعراق أو الأنساب، وهذا أصل في التوحيد ونفي كل مظاهر التقديس البشري الجاهلي.

فوائد فقهية

- صلاة النبي صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة سنّة ثابتة، وفيها مشروعية الصلاة في جوفها، واستحباب ركعتين فيها لمن تيسّر له ذلك.
- عدم التحديد بزوايا معينة داخل الكعبة عند الصلاة فيها دليل على أن جميع جهاتها قِبلة، وقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تعبدًا لله لا تعظيمًا لموضع خاص فيها.
- وجوب إزالة كل ما يناقض التوحيد من معابد المسلمين، سواء تماثيل أو صور أو طقوس شركية، وفيه دليل على هدم الأصنام والصور في المساجد والبيوت.
- حرمة اتخاذ الصور والتماثيل وسيلة في الدين، حتى وإن زُعِم أنها تمثل أنبياء، بل إن ذلك من وسائل الشرك.

فوائد أخلاقية

- التواضع العظيم الذي ظهر من النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم لحظات النصر، حيث لم يفاخر، ولم يُهِن أحدًا، بل وقف ليعظهم، ويهديهم، ويقيم فيهم عبودية الله.
- بيان أن الفتح الأعظم ليس في فتح المدن وإنما في تطهير القلوب والعقول، وهذا يُعلِّم الأمة أن المعارك الحقيقية هي مع الشرك والجاهلية، لا مع الأفراد والجماعات.
- النزول من نخوة الجاهلية، والدعوة إلى التواضع ونبذ العصبية، وبيان أن التفاضل بين الناس بالتقوى، لا بالنسب ولا الحسب.
- الرحمة التي أظهرها النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطهّر البيت، فلم يدمّر الكعبة، بل طهّرها وأعادها لغاية التوحيد، مما يعلّمنا أن الإصلاح يكون بالحكمة لا بالفوضى.

فوائد تربوية

- ضرورة تعليم الناشئة أن من أعظم أهداف الدعوة محو مظاهر الشرك، وأن التربية على التوحيد لا تكتمل إلا بالغيرة على حرماته.
- تربية النفس على الحذر من التعظيم غير المشروع للأشخاص، والوقوف ضد كل من يريد أن يجعل من الرموز الدينية ستارًا للشرك.
- تذكير الأمة بأن صلاح الأمة يبدأ من تطهير قلوبها، قبل عمارتها ظاهرًا، وقدوة ذلك في فتح مكة.
- دعوة المجتمع إلى نبذ الفخر بالأحساب والأنساب، وإعادة بناء العلاقات على أساس التقوى والعدل.

ما يخالف الواقع

- تساهل كثير من المسلمين اليوم في دخول الشرك إلى بيوتهم ومساجدهم من خلال الصور والتماثيل "الزخرفية"، بحجة الزينة، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم طهّر أقدس بيت من مثلها.
- وجود بعض الدعاة أو المثقفين الذين لا يُنكرون على من يُعظّم القبور أو الصور الدينية، بل يرون ذلك من التراث أو التعبير عن الحب، وهذا من آثار الجهل بالتوحيد.
- رجوع العصبيات الجاهلية من باب القبيلة أو الحزب أو الطائفة، واعتبارها سببًا للتمييز، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ألغى ذلك تمامًا بقوله: «الناس من آدم، وآدم من تراب.»
- عدم الغيرة على التوحيد لدى بعض أبناء المسلمين، بل قد تجد من يُنكر على أهل الغيرة ويصفهم بالتشدد، وقد كانت غيرة النبي صلى الله عليه وسلم على التوحيد أعظم من غيرته على نفسه.
- تقليد بعض المسلمين لطقوس الوثنيين والصوفيين الغلاة، الذين يذبحون عند الأضرحة، ويتوسلون بأصحاب القبور، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُبقِ في البيت أثرًا لذلك.

الفقرة العاشرة القلوب التي أسلمت حين عفا... عفوُ القادر حين يَقدر

ها هو النبي العظيم صلى الله عليه وسلم، واقفٌ على باب الكعبة، في لحظةٍ نادرةٍ من لحظات التاريخ، لحظةٍ تنحني عندها القلوب، وتدمع لها العيون، وتخرّ لها الجبال خشوعًا...
مكةُ كلّها عند قدميه، تلك التي أخرجته طريدًا، وضيّقت عليه أرضها وسماءها، تُفتح الآن دون قتالٍ يُذكر، خاضعةً خاشعةً لراية لا إله إلا الله.

وقف صلى الله عليه وسلم والفتح بين يديه، والرايات خافقة، وسيوف الصحابة برقٌ لامعٌ في أفق النصر، والعرب ترقب ما هو صانعٌ بأعدائه.

وجوه قريش حوله شاحبة، تذكّرت ما كان ...كم أوغلوا في إيذائه!
كم دسّوا له السم، وآذوا أتباعه، وألقوا سلى الجزور على ظهره وهو ساجد!
كم قادوا الحملات لإطفاء نور الله... فهل حان وقت القصاص؟

لكنّه محمد صلى الله عليه وسلم ...رسول الرحمة، لا رسول النقمة.

نظر إليهم نظرة الأب الرحيم وقد اجتمعوا أمامه منكّسي الرؤوس، يترقّبون كلمته كما يترقب الغريق أن يُلقى له حبل النجاة، ثم قال، بصوتٍ لم يكن فيه حدّة المنتصر، بل حنان المشفق، وعظمة المتسامح» :يا معشر قريش، ما تظنّون أني فاعل بكم؟«

كأنّ الزمان توقف في تلك اللحظة!
فتلفّت بعضهم إلى بعض، وقالوا بكلماتٍ مرتجفة" :خيرًا، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم".

فقالها صلى الله عليه وسلم، كلمةً زلزلت جبال الأحقاد، وأذابت صخور العداوة، وهزّت الأرواح:

»لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء] «رواه البيهقي وصححه ابن حجر]

ما أعظمها من كلمة !كلمةٌ خرجت من قلبٍ طاهرٍ لم يعرف الحقد، قلبٍ تربّى في مدرسة {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} [النور: ٢٢]،
وسقى أصحابه من كأسها في كل محنة، حتى إذا تمكّن من الرقاب، لم يعرف لطريق الانتقام سبيلاً، بل فتح القلوب قبل أن يفتح الحصون.

لم يُعنّف، ولم يُعذّب، ولم يُقِم ساحة للثأر ...بل أطلق الحرية للنفوس، وعتق الرقاب من أسر الذنب والذل.
أعاد لهم كرامتهم وهم في حضيض الذل، وجعل من تلك اللحظة جسرًا بين الجاهلية والنور.

وهل كان أحدٌ في التاريخ يملك أن ينتقم كما ملك هو؟ لكنّه اختار طريقًا لا يعرفه إلا الأنبياء،
طريق العفو عند المقدرة،
كما عفا يوسفُ عليه السلام عن إخوته، قال: {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ] {يوسف: ٩٢.]

وهكذا، لم يدخل الناس في دين الله بالسيف... بل دخلوا بالعفو الجميل، وبالرحمة التي لم يروا مثلها قط،
دخلوا لأنهم رأوا أن هذا الدين يُطهّر القلوب قبل الأجساد، ويُقيم الدولة على التسامح، لا الانتقام.

لقد أسلمت القلوب قبل الألسن، وخشعت الأرواح قبل الجباه، وانبعث فيهم النور الذي لا يُقاوَم...
فهذا هو الإسلام... وهذا هو محمد صلى الله عليه وسلم...

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

:فوائد عقدية

- الإسلام دين يقوم على صفاء العقيدة ونقائها، ومن أعظم مظاهر ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عن أعدائه يوم الفتح، ليبين أن الدين لا يقوم على الغل ولا الحقد، بل على الرحمة والصفاء، وهو ما يُظهر حقيقة التوحيد الذي لا يُخالطه كبر ولا انتقام.

- عفو النبي صلى الله عليه وسلم كان تجليًا عمليًا لمعاني أسماء الله وصفاته، فهو عبد الله ورسوله الذي يمثل الرحمة الإلهية في أرضه، وقد عفا كما يعفو الغفور، وستر كما يستر الستير، ليُعلِّمنا أن التخلق بصفات الله من أعظم مقامات الإيمان.

- مشهد العفو العظيم يُظهر أن الإسلام دين يُهذب النفس، ويزرع في القلوب محبة الله من خلال اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، الذي قال الله فيه: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، فاقتدى بيوسف عليه السلام في العفو، ليُعلِّم أمته أن الأنبياء على قلب واحد في التسليم لله.

- في هذا الموقف تتجلى حقيقة العبودية، حين يملك النبي صلى الله عليه وسلم القوة فلا يستخدمها للانتقام، بل للعفو، لأن العبودية لله تُعلّم العبد أن الحكم والملك لله وحده، وليس له أن يستطيل على خلق الله ولو ظلموه، وهذا من أعلى مقامات التوحيد.

فوائد فقهية

- في الحديث دلالة على أن العفو عند القدرة مشروعٌ ومندوب، بل هو من أخلاق الأنبياء، ولا يُشترط في العفو إعلان التوبة من الطرف الآخر، بل يُسنّ العفو وإن لم يتغير حال المُذنِب، إذا كان في ذلك تأليفًا للقلوب ودفعًا للشر.

- عدم إقامة النبي صلى الله عليه وسلم الحد على قريش يوم الفتح، رغم ما فعلوه، يدل على أن حدود الردع لا تُطبّق في حالات خاصة على من أسلم بعد حرب، إذا رأى الإمام أن المصلحة العامة والرجوع إلى الإسلام أولى من إقامة العقوبة، وهذا أصل فقهي في باب السياسة الشرعية.

- العفو الصادر من الإمام الأعظم له وقع خاص في التشريع، ويُظهر أن ولي الأمر له سلطة تقديرية إذا رأى أن العفو أقرب لتأليف القلوب ودفع المفسدة.

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يُعامل قريشًا على ظاهر أفعالهم الماضية، بل نظر إلى ما صاروا عليه من الانكسار والاستعداد للرجوع، وهذا أصلٌ في فقه التعامل مع التائبين، لا يُحاسبون بما مضى إذا صلحت قلوبهم وظهرت عليهم علامات الرجوع.

فوائد أخلاقية

- العفو من أعظم الخصال التي تُطفئ نار الحقد، وتفتح أبواب القلوب، وقد تجلى ذلك في عفو النبي صلى الله عليه وسلم عمن آذاه، فذاب العداء، وولدت المحبة.

- العفو عند المقدرة يُظهر كرم النفس وسمو الروح، وهو دليل الشجاعة الحقيقية، لا الجبن أو الضعف، لأن أقوى الناس من يقدر ثم يعفو، والنبي صلى الله عليه وسلم كان أقواهم وأعظمهم عفوًا.

- الرحمة التي ظهرت في كلمات النبي صلى الله عليه وسلم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، زرعت في قلوب الكفار خجلًا، وتحولت تلك المشاعر إلى إيمان، لأن النفوس لا تتغير بالإذلال، بل بالإحسان.

- في هذا الموقف درسٌ عظيم في التربية: أن القائد لا ينتصر على الناس بالعصا، بل بالعقل والرفق، فقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يُسقط ثلاثين عامًا من العداوة بكلمة واحدة.

◆فوائد دعوية

- أعظم ما يدخل الناس في دين الله ليس الحجة العقلية فقط، بل الرحمة السلوكية، والتسامح الأخلاقي، وقد دخل الناس أفواجًا حين رأوا أخلاق الإسلام قبل أن يسمعوا أحكامه.

- الداعية حين يملك ناصية الموقف ثم يعفو، يفتح بذلك قلوبًا أُغلقت، ويُمهّد لطريق الهداية بلا حاجة إلى جدال، وقد كان عفو النبي صلى الله عليه وسلم دعوة بليغة فاقت الخطب والمواعظ.

- القدوة العملية هي أبلغ أسلوب للدعوة، والنبي صلى الله عليه وسلم حين عفا بيّن للناس أن الإسلام ليس دعوة للانتقام بل دعوة للسلام والرجوع إلى الفطرة.

- في هذا الموقف دعوة ضمنية إلى أن نُظهر الإسلام كما هو، لا كما تُشوهه الصور الإعلامية، فلو أن الناس رأوا حقيقة الإسلام كما رآها قريش في يوم الفتح، لما تأخروا عن الدخول فيه.

مخالفات واقعية

- كثير من المسلمين اليوم يغلب عليهم حب الانتقام والتشفي، حتى ولو كان الطرف الآخر قد تاب، فلا يقبلون له توبة، ولا يفتحون له باب الرجوع، وكأنهم لم يسمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء.«

- انتشار منطق "لن ننسى" و"لن نغفر" حتى في أبسط الخصومات بين المسلمين، مما يدل على جهل عظيم بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في العفو، وتشبّهٍ بأخلاق الجاهلية التي تقوم على الثأر والبغضاء.

- بعض الناس إذا تمكّن في منصب أو جاه، استعرض قوته بالتشفّي والظلم، مخالفًا بذلك خلق النبي صلى الله عليه وسلم الذي ملك مكة كلها ثم عفا، مع أنه المظلوم لا الظالم.

- قلة من الدعاة من يتحلى بخلق العفو عند إساءة الناس إليه، فترى بعضهم يردّ على الإساءة بإساءة، وعلى الشتيمة بشتم، وكأن الدعوة ساحة خصومة، لا ميدان رحمة وتربية.

- من ضلال الخوارج أنهم لا يعرفون معنى العفو عند المقدرة، ولا يقرّون بفقه الموازنة بين المصالح والمفاسد، فلو شهدوا مشهد العفو في يوم الفتح، لأنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم ووصموه بالتفريط، كما يفعلون مع ولاة أمر المسلمين اليوم حين يتجاوزون عن خصومهم لمصلحةٍ راجحة.

الفقرة الحادية عشرة : تطهير البيت... وإعلاء كلمة التوحيد

ما إن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا، حتى اتجهت خطاه نحو بيت الله العتيق...
لم يأخذه بريق النصر، ولم تشغله نشوة الغلبة، ولم يلتفت إلى ما يلتفت إليه الفاتحون عادة، بل سار بخطى ثابتة إلى الكعبة، حيث تجثو الأصنامُ ذليلة، في انتظار السقوط.

كان بيت الله قد ابتُلي في قرون الجاهلية بأن ضاق صدره بتلك الأصنام، فامتلأ بها حتى بلغ عددها ثلاثمئة وستين صنمًا، كل صنمٍ يُعبد من دون الله، باسم قبيلة أو طاغوت أو وهم.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم والهيبة تكسو جبينه، والسكينة تسير أمامه، بيده قوسٌ يشير به نحو الطواغيت، ولسانه يتلو آيةً من أعظم آيات النصر: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾]الإسراء: ٨١[

ما إن أشار إلى صنمٍ، حتى هوى!
وما إن نطق بالحق، حتى انكشفت الأوهام، وتكسّر الباطل، وسقطت الأصنام واحدًا تلو الآخر، في مشهدٍ تقشعر له الجلود، وتبكي له القلوب.

حتى إذا لم يبقَ في جوف الكعبة صنمٌ يُعبد، نظر صلى الله عليه وسلم إلى الجدران، وقد نُقشت عليها صور باطلة، منها صورة إبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام !فتألم لذلك وقال" :قاتلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام] "!رواه البخاري[

فأُزيلت الصور، ومُسحت النقوش، وطُهّرت الجدران كما طُهّر القلب، وعاد البيت كما أراده الله:
"محرابًا للتوحيد، ومنارًا للهدى، ومهوى قلوب المؤمنين".

ومنذ ذلك اليوم، لم يُعبد في الكعبة إلا الله، ولم يُرفع فيها إلا ذكره، ولم تُسجد فيها الجباه إلا له وحده، لا شريك له.

لقد كانت لحظة تطهير الكعبة رمزًا لانتصار التوحيد على الشرك، وانتصار النور على الظلام، وقيام الدولة الإيمانية على أنقاض الوثنية...
وها هو الحق، إذا جاء، لا يُبقي للباطل عُذرًا، ولا يترك له مقامًا، بل يزهقه زهوًا ويُسقطه سحقًا.

ومن ذلك اليوم... سقطت الأصنام، وبقي التوحيد سيدًا في مكة إلى قيام الساعة.

.الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ التوحيد هو أساس الدين وأعظم أركانه، وقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم لأجل إقامته وهدم ما سواه من الشرك والوثنية، كما ظهر في تطهير الكعبة من الأصنام.

◆ من دلائل صدق النبوة أن يكون أول ما يفعله النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح هو تعظيم شعائر الله، وعلى رأسها البيت الحرام، وهذا من تمام الإيمان وتعظيم الحرمات.

◆ القرآن الكريم له سلطانٌ يزلزل أركان الباطل، كما ظهر عند تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم لقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، مما يدل على أثر الوحي في قلوب أهل الإيمان وأعداء الحق على السواء.

◆ لا يصح توحيد ولا عقيدة صحيحة إلا بإنكار الشرك وتطهير مظاهره، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أزال الأصنام والصور من الكعبة، ورفض أي تأويل باطل يُنسب إلى الأنبياء، كاستقسام إبراهيم بالأزلام.

◆ الغلو في تعظيم المخلوقين والأنبياء وتحريف سيرهم من أفعال الجاهلية التي يُنكرها الإسلام، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم نسبة الاستقسام بالأزلام إلى إبراهيم عليه السلام إنكارًا شديدًا.

فوائد فقهية

◆ تطهير المساجد من كل ما يخالف التوحيد والشرع واجبٌ شرعي، ويجب إزالة المنكرات الظاهرة فيها، ومنه إبطال كل ما يُعبد من دون الله أو يُتخذ سببًا للشرك.

◆ يحرم تعليق الصور أو النقوش ذات المعاني الشركية أو التي تُنسب زورًا للأنبياء في المساجد، كما يُستفاد من إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لصورة إبراهيم عليه السلام في الكعبة.

◆ يُشرع الدخول إلى المساجد بسكينة وخشوع، كما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وكأنّه في محراب، رغم أنه في موكب نصر.

◆ لا يجوز تأخير إنكار المنكر إذا كان صاحبه قادرًا عليه، وقد بادر النبي صلى الله عليه وسلم فور فتح مكة بتطهير الكعبة دون تأجيل أو تسويف.

فوائد أخلاقية

◆ من دلائل صدق الإيمان أن لا يُغيّر النصر من طباع صاحبه، بل يزيده تواضعًا وسكينةً، كما ظهر في مشهد دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا.

◆ عظمة الإنسان ليست في غلبته لعدوه، ولكن في إخلاصه لله، وقد تجلى ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم حين لم ينشغل بأمجاد النصر، بل سعى لتطهير بيت الله مما يُغضب الله.

◆ القلب الذي تعظّم فيه حرمة الله، لا يشغله مجد ولا فتنة، ولا تغويه لحظة تمكّن، وهذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

◆ التألم لحرمة الأنبياء، والغيرة على حقائق دينهم، من الأخلاق الإيمانية العالية، وقد ظهر في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قاتلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام".

◆فوائد دعوية

◆ الانتصار الحقيقي للدعوة يكون حين تُمحى مظاهر الباطل ويُظهر التوحيد، لا حين تُرفع رايات الأشخاص أو الشعارات الفارغة.

◆ الداعية الحق لا يرضى بأنصاف الحلول، بل يسعى لإزالة الباطل من جذوره، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يترك صنمًا ولا نقشًا إلا وأزاله.

◆ النصر لا يُقاس بعدد من خضع، بل بما ظهر من توحيد، ولذلك كان أول عملٍ بعد الفتح هو تطهير البيت العتيق.

◆ الآية التي تلاها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ هي مبدأٌ في الدعوة: الحق لا يجتمع مع الباطل، ولا يُهادنه.

ما يخالف الواقع

◆ في كثير من مساجد المسلمين اليوم مظاهر شركية وخرافات ومبتدعات، من تعليق صور وكتابات وتمائم تُنسب زورًا للأنبياء أو الأولياء، دون إنكار أو إزالة.

◆ يُعلَّق في بعض الجوامع أسماء وأدعية تحمل غلوًا في الصالحين أو مزاعم كاذبة نسبت للأنبياء عليهم السلام، كترويج أن فلانًا يعلم الغيب أو يملك النفع والضر، وهذا من أعظم صور الانحراف العقدي.

◆ كثير من الناس يُدخلون إلى المساجد سلوكيات تُنافي السكينة والهيبة، فيدخلها بعضهم للهو أو للرياء أو لمجرد العادة دون قصد التعظيم والعبادة، مخالفين ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من تعظيمٍ وهيبة عند دخول بيت الله.

◆ ينشغل بعض "الدعاة" اليوم بإبراز انتصارات سياسية أو حزبية، ويغفلون عن أعظم النصر: نصر التوحيد، وتطهير العقيدة من شوائب الشرك والبدع.

.

الفقرة الثانية عشرة: الخطبة الجامعة... إعلان مبادئ الإسلام الخالدة يوم الفتح

ما إن طهّر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة من رجس الأصنام، وأسقط آلهة الوهم والباطل تحت قدمي التوحيد، حتى ارتقى في الناس مقام المعلِّم، مقام النبي الخطيب، مقام المؤسس لمرحلة ما بعد الفتح، يوم لا ظلم بعده، ولا جاهلية، ولا استعلاء.

وقف صلى الله عليه وسلم في ساحة المسجد الحرام، والناس من حوله كأنما على رؤوسهم الطير، ما بين خائفٍ يرجو، أو مندهشٍ من حسن العفو، أو مُحبٍّ اغرورقت عيناه بنور الهداية...
كانت مكة بأسرها تُنصت، وقلوب أهلها ترجف، وألسنتهم تردد في صمت: ماذا سيصنع محمدٌ بمن آذوه، وحاربوه، وشردوه؟

فبدأ خطبته بالسؤال الذي حمل قلوبهم على كفّ الانتظار " **:يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟"**

فأجابوا، وقد عرفوا من أخلاقه ما عرفوه، ومن سماحته ما أذهلهم، ومن رحمته ما أحيى قلوبهم:
"خيرًا، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم". فقالها صلى الله عليه وسلم كلمةً تهتز لها الجبال، وتذوب لها قلوب الكارهين:
"اذهبوا فأنتم الطلقاء] ".رواه البيهقي وصحّحه ابن حجر[

أطلقهم أحرارًا بلا شرطٍ ولا قيد، وأعتق رقابهم من الانتقام، وفتح لهم أبواب التوبة، وأعلنها صريحة مدوية:
العفو قبل السيف، والرحمة قبل العقاب.

ثم وقف خطيبًا في الناس، يُرسّخ قواعد الإسلام الكبرى، ويُسقط أصنام الجاهلية المعنوية، بعدما أسقط أصنامها الحسية:

قال صلى الله عليه وسلم، كما في "الصحيحين" :"**إن الله حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحلّ القتال فيها لأحدٍ قبلي، ولا يحلّ لأحدٍ بعدي، وإنما أُحِلّت لي ساعة من نهار، وهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة"...**

ثم طوى صفحة الجاهلية، بكل ما فيها من مفاخر وهمية، ونعرات قبَلية، وظلم تاريخي، فقال" :**ألا إن كل مأثرةٍ كانت في الجاهلية تحت قدميّ هاتين موضوعة".**

ثم بدأ بإعلان العدالة الاجتماعية الكبرى، بإلغاء الدماء والثارات القديمة، فقال" :**ألا وإن كل دمٍ كان في الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه: دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب".**

وفي لمسة عملية تُظهر صدق المبادئ، لم يبدأ بدماء أعدائه، بل بدأ بدم ابن عمه! ليعلم الناس أن العدل في الإسلام لا يعرف محاباة.

ثم انتقل إلى إعلان إسقاط الطغيان الاقتصادي الجاهلي، وإلغاء الربا، الذي كان أداة استغلال للضعفاء، فقال" :**ألا وإن كل ربا موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوعٌ كله".**

هكذا، وبكلمات تُسجَّل بماء الذهب، أعلن النبي صلى الله عليه وسلم ميلاد أمة جديدة، تقوم على التوحيد لا الوثن، وعلى العدل لا الهوى، وعلى الرحمة لا القهر. **سقطت الجاهلية بسيوف الكلمة، لا بكلمة السيف.**
وأُغلقت أبواب الاستعلاء، وفُتحت أبواب التوبة، وبدأ النور يُضيء من مكة إلى العالمين.

في هذا الموقف، نزلت الآيات تُخلد اللحظة، وترسم الصورة الإلهية لانتصار الحق:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾]النصر: ١-٣[

وصدق عبد الله بن عباس حين قال" :**هو أجلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله به**] ".رواه البخاري[

فكان فتح مكة، إعلان بداية النهاية، لا لأن الرسالة انتهت، ولكن لأن التبليغ قد تمّ، والعهد قد وُضع، والحق قد ساد.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- العفو العظيم الذي أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم في يوم فتح مكة يدل على كمال العبودية لله، وأنه صلى الله عليه وسلم ما أراد من دعوته نصر الذات أو الثأر للنفس، بل كان غايته تبليغ دين الله، وهذا من أعظم دلائل صدقه ونبوّته.
- تحريم مكة إلى يوم القيامة يدل على أن الأحكام الشرعية لا تتبدل بتبدل الزمان أو السلطان، وإنما هي من أمر الله عز وجل الذي لا يُرد، مما يؤصل أن التشريع من خصائص الرب وحده.
- إسقاط مظاهر الجاهلية الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، إعلان واضح أن الإسلام دين شامل، لا يرضى بالجاهلية في أي صورة، وأن التوحيد لا يتم إلا بإفراد الله بالتشريع والطاعة، كما هو بإفراده بالعبادة.
- إلغاء الربا ودماء الجاهلية يؤكد أن الإسلام لا يقبل شيئًا من إرث الباطل، ولو كان سارٍ العُرف أو مقبولًا في مجتمعات الجاهليين، بل هو هدم شامل لكل ما يخالف شرع الله.
- الربط بين فتح مكة ونزول سورة النصر يدل على أن الفتح الحقيقي ليس في غلبة الجيوش، بل في دخول الناس في دين الله أفواجًا، وهذا من تمام الفهم الصحيح لمقاصد الرسالة.
- استغفار النبي صلى الله عليه وسلم بعد النصر وتمام الدعوة يعلّمنا أن العبد لا يركن إلى عمله، مهما عظُم، بل يستغفر ويُسبّح، متواضعًا لله، عارفًا بحقه.

فوائد فقهية

- بيان تحريم مكة على القتال والتحريش إلى يوم القيامة، فيه أصل فقه التحريم الأبدي للحرم المكي، وأنه لا يُستباح إلا بخصوص ما أذن فيه الشرع في ساعته.
- إعلان النبي صلى الله عليه وسلم وضع الربا كله، فيه أصل قاعدة "الربا الجاهلي باطل جملة وتفصيلًا"، وفيه إبطال الذرائع التي يُراد بها تمرير المعاملات الربوية باسم المصلحة أو الضرورة.
- ابتداء النبي صلى الله عليه وسلم بإلغاء دم قريب له، وتركه دم أعدائه، فيه أصل فقه "درء المفسدة العامة بترك الانتقام الخاص"، وهو باب من أبواب السياسة الشرعية الرشيدة.
- في إسقاط دماء الجاهلية وسقوط العصبية القبلية، تأصيل لقاعدة المساواة في الدماء والحقوق، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وهي قاعدة في القضاء والحدود وسائر أبواب المعاملات.

فوائد أخلاقية

- إعلان العفو الشامل عن أهل مكة بعد أن أسرفوا في إذاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أعظم درس في الحِلم والصفح والعفو، خاصة عند التمكُّن.

- العدل النبوي الذي بدأ به الأقربين في وضع الدماء والربا، درس في النزاهة والشفافية، وأن المصلح يبدأ بنفسه وأهله.
- كلمة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، من أعظم ما قيل في اللحظات الفاصلة، جمعت الرحمة والسياسة والحكمة، وفيها رقيٌّ أخلاقي نادر في قادة البشر.
- السكينة التي صاحبت النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته تدل على أن المؤمن إذا تَمكَّن ازداد وقارًا، وإذا ظُلم فُتح له باب الصبر، وإذا انتصر ظهرت فيه صفات الشكر لا الكبر.
- في خطبته الجامعة إعلان مبادئ سامية تُعلّم القادة أن المجتمعات لا تُبنى بالانتقام، بل بالحكمة والرحمة والعدل والمساواة.

فوائد اجتماعية

- إسقاط مظاهر الجاهلية الاجتماعية، كالفخر بالأحساب والثارات القديمة، إصلاحٌ عظيم في بناء مجتمع قائم على الإيمان لا العِرق، وعلى الأخوة لا العصبية.
- إلغاء الربا يُمثّل ضربة حاسمة لنظام الاستغلال الاقتصادي، ويمهّد لبناء سوق إسلامية عادلة تقوم على النفع المتبادل لا الاستغلال.
- الإعلان الصريح لمبادئ العدالة والمساواة يُمهّد لتحرير الناس من الطبقية والظلم الاجتماعي، ويُشعر كل إنسان بقيمته الحقيقية.

ما يخالف الواقع

- انتشار مظاهر الانتقام والتشفي في المجتمعات عند التمكُّن، حتى في المجتمعات الإسلامية، خلاف لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح.
- عودة العصبيات القبلية والفخر بالأنساب والجهات، في الخُطب والمناسبات والسجالات، مع أن الإسلام وضعها تحت قدميه.
- السكوت عن الربا في أنظمة كثيرة في ديار المسلمين، بل تبريره أحيانًا بمصالح اقتصادية، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم وضعه كله صراحة.
- انتشار الظلم الاجتماعي، والتمييز بين الناس بحسب الجاه أو المال أو الانتماء، مما يناقض إعلان النبي صلى الله عليه وسلم أن العدل هو الأساس.
- استحياء بعض الدعاة من التصريح بالحق عند التمكين، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن مبادئه بلا مواربة.

الفقرة الثالثة عشرة :رَدُّ الأَمَانَةِ إلى أَهْلِهَا... درسٌ خالد في عدل النبوّة ومهابة الوحي

ما إن انقشع غبار الفتح، وارتفعت راية التوحيد فوق جبال مكة، حتى اجتمع الناس حول البيت العتيق، ينتظرون بقلوب واجفة وعيون دامعة، ما عسى أن يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمفاتيح الكعبة، ومَنْ سيُشرَّف بخدمتها بعد اليوم، وقد زال سلطان قريش الجاهلي، وآن لدولة الإسلام أن تبسط عدلها وهيبتها.

كان مفتاح الكعبة يومئذٍ في يد عثمان بن طلحة الحجبي، من بني شيبة، سدنة البيت عبر الأجيال، الذين ورثوا هذا الشرف من لدن إسماعيل عليه السلام، ولم تزل أيديهم عليه حتى ذلك اليوم المهيب. ولمّا فتح الله على رسوله صلى الله

عليه وسلم مكة، ودخل البيت وصلى فيه، ثم خرج وقد علاه وقار النبوة وجلال التمكين، تقدَّم إليه عمُّه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو صاحب سقاية الحجيج، فقال يرجو القرب والفضيلة:

"يا رسول الله، اجمع لنا بين السقاية والحجابة"!

كان يرجو أن تُضمّ إليه خدمة البيت بعد أن كانت في غيرهم، فما دام الأمر اليوم للحق، فليُجمع له الشرفان. لكنه نسي –أو كاد– أن دولة النبوة لا تُقام على المحاباة، ولا تُؤسس على العصبية، وأن محاكم الوحي لا تقضي إلا بالعدل، ولو على أقرب الناس إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

فبينما القوم على هذا الحال، إذا بجبريل الأمين يهبط من السماء بآيةٍ من كتاب الله، آيةٍ أُنزلت لتُخلّد هذا الموقف، ولتكون معيارًا إلهيًا في كل زمانٍ ومكان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

نزل الوحي ليقول: لا مجاملة في دين الله، ولا استئثار في بيت الله، ولا يُنتزع الحق من أهله لطول النسب أو قُرب الصلة. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة، ودعاه وقال له بعبارةٍ تفيض وقارًا، وتُسطَّر في دواوين الوفاء:

"خُذُوهَا يَا بَنِي طَلْحَةَ، تَالِدَةً خَالِدَةً، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِم "رواه الحاكم وصححه، وقال ابن كثير في التفسير: سنده حسن، وتتابعت كتب السيرة على ذكره

يا الله! ما أعدله من نبي، وما أروعه من موقف! يومَ أُتيح له أن يصنع ما يشاء، لم يُجامل عمَّه، ولم يُقصِ خصمًا قديمًا، بل سلّم الأمانة لأهلها، تأسّيًا بإبراهيم عليه السلام الذي قال لربه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وصدق الله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ومن يومها، بقي المفتاح في يد بني طلحة –بني شيبة– كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوارثوه أبًا عن جد، حتى يوم الناس هذا، شاهدًا ناطقًا على أن هذا الدين ما جاء ليستبدل سلطانًا بسلطان، بل جاء ليقيم الموازين بالقسط، ويضع كل أمانةٍ في كفّ من يستحقها.

هذا هو الإسلام حين يحكم، وهذه هي النبوة حين تُمكَّن: عدلٌ لا يُجامل، ووحيٌ لا يُحابي، وسُنّةٌ تمشي على الأرض بنور الله.

فهل نُعيد اليوم للأمانة حرمتها؟ وهل نرفعها على مقاعد المسؤولية كما رفعها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح؟

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- عدل النبي صلى الله عليه وسلم في تمكين أهل الأمانة من أماناتهم هو من دلائل النبوة، إذ لا يحابي القريب ولا يُقصي العدو، بل يُنزل الناس منازلهم بميزان الوحي، وهذا من توحيد الاتباع لله لا للهوى.
- نزول جبريل عليه السلام بالآية في موقف عملي يرسّخ أن الوحي يحكم شؤون الأمة، ويبيّن أن المرجعية في التشريع والعلاقات والسلطة هي لله وحده لا لشخص ولا عصبية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ينزعها منكم إلا ظالم"، تقرير أن من نزع الحق من مستحقه فقد ظلم، والظلم سبب لعقاب الله، وفيه تأكيد لعقيدة الجزاء، وأن الله لا يُضيع حقًا.
- ردّ الأمانة إلى أهلها يوم الفتح –رغم غلبة النبي صلى الله عليه وسلم– دليل على أن النصر لا يغير من ثوابت الدين شيئًا، وأن الحكم بما أنزل الله لا يتبدل حسب الحال.

◆ الإسلام دين الهيمنة بالحق لا بالهوى، ومن تمام التوحيد أن لا يُعظَّم في الدين إلا من عظّمه الله، لا بحسب النسب، وإنما بحسب الأمانة والتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣.]

فوائد فقهية

◆ الآية الكريمة أصلٌ عظيم في باب الولاية العامة والخاصة، وأن من شروطها الأمانة، فلا تُعطى لمن لا يستحقها ولو كان قريبًا أو عزيزًا.

◆ في رد النبي صلى الله عليه وسلم المفتاح لأهل الحجابة إثبات لحق الميراث في الوظائف الخادمة للمسجد الحرام ما دام القائم بها أهلًا لها، وهذا أصل في حفظ الحقوق المتوارثة إذا لم تُخالف الشرع.

◆ قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ينزعها منكم إلا ظالم" دليل على تحريم غصب المناصب والحقوق ممن يستحقها، وتحذير من الدخول في الولايات بغير حق.

◆ السنة العملية في هذا الموقف تبيّن أن النبوة ليست اجتهادًا بشريًا، بل هي اتباع للوحي، فحتى في القرارات السلطانية لم يُجامل النبي صلى الله عليه وسلم، بل التزم أمر الله فور نزول الآية.

◆ الآية أصل في وجوب ردّ الودائع، ويدخل فيها كل أمانة شرعية أو دنيوية، سواء في الأموال أو في المناصب أو في النصيحة أو في السرّ، فكل ذلك داخل تحت عموم ﴿أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾.

فوائد أخلاقية

◆ موقف النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّم الأمة أن الأمانة فوق العلاقات، وأن المروءة تقتضي ردّ الحقوق إلى أصحابها وإن كانوا خصوم الأمس.

◆ وفاء النبي صلى الله عليه وسلم مع بني طلحة رغم جاهليتهم السابقة فيه تعليم للخلق الكريم، وأن من أُوتي خصلة الخير لا يُجحد حقه ولا يُقصى لعداوة قديمة.

◆ نزول الوحي في هذا الموقف يربي على علو خُلق الحزم مع النفس في تطبيق الشرع، وعدم الميل العاطفي في مواطن التمكين.

◆ قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تَالِدَةً خَالِدَةً" فيه حسن اللفظ وجمال الوفاء، وتقدير لمكانة العدل، وتهذيب للنفوس أن لا تستقوي بالغلبة، بل بالحق.

◆ الأمانة ليست مجرد خُلق فردي، بل مسؤولية عامة، والتساهل فيها مفسدة للأمم، وأيّ مجتمع ضيّع الأمانة ضاع فيه العدل، وساد فيه الفساد.

◆فوائد دعوية وتربوية

◆ على الدعاة أن يتعلّموا من هذا الموقف أن الدعوة لا تبرّر ظلم أحد، وأن التمكين الحقيقي في الالتزام بالوحي لا باتخاذ الدين سلّمًا للمصالح.

◆ يعلّمنا هذا المشهد أن القدوة أبلغ من الخُطب، فموقف النبي صلى الله عليه وسلم كان درسًا عمليًا للأمة كلها، في تقديم الأمانة على كل اعتبار.

◆ يجب تعليم الأبناء والطلاب أن الأمانة هي معيار الشرف، لا النسب ولا الجاه، وأن الحق لا يُعرف بالقرابة بل بالصدق.

◆ في التوازن بين سقاية العباس رضي الله عنه وحجابة بني طلحة، تربية على التخصص، وأن توزيع الأدوار بحكمة خير من جمع المناصب بغير وجه حق.

◆ تأديب النفس عند الطمع بغير حق، ولو بوجه طيب، من أهم الدروس التربوية التي يعلمها هذا الموقف.

ما يخالف الواقع

◆ انتشار تولية المناصب في كثير من بلاد المسلمين بالمحسوبية والقرابة، دون نظر إلى الأمانة والكفاءة.

- تضييع الأمانات في كثير من قطاعات الحياة، من الوظائف العامة إلى الأسر الصغيرة، حتى بات الخائن مقدَّمًا والأمين متَّهَمًا.
- نزع الحقوق من أهلها بزعم المصلحة أو الغلبة السياسية، وكأن شرع الله لا يُحكم إلا في كتب الفقه، لا في واقع السلطة.
- غياب الاعتراف بفضل السابقين في بعض المجتمعات، بحيث يُقصَون لمجرد خلاف أو توجه، وتُسلَب منهم أماناتهم بغير وجه حق.
- غياب التربية على هذا النوع من المواقف النبوية في المناهج والتعليم والدعوة، مما أدى إلى فصل بين الدين والواقع في أذهان كثير من الناس

الفقرة الرابعة عشرة :البيعة العامة للرجال والنساء... حين أشرقت مكة بنور الإسلام

ما إن طهّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم البيتَ الحرام من رجس الأصنام، وأعاد له بهاء التوحيد، حتى تنفّست مكة الصعداء، كأنما انزاح عن كاهلها ركامُ قرونٍ من الظلم والوثنية، فتهافت الناس من أحياء مكة وسهولها وجبالها، تتسابق خطواتهم نحو المسجد الحرام، وكلّهم توق إلى الدخول في هذا الدين العظيم الذي طالما حيل بينهم وبينه.

جلس النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام، جلسة الملك الرحيم، والقائد الفاتح، والداعية الرفيق، فاستقبل الوفود تلو الوفود، يبايعونه على الإسلام، والطاعة، والولاء للعقيدة، والانقياد لأوامر الله تعالى، فكأن الأرض كلّها تدفّقت على الحرم تبايع، وتُسلِّم القلب قبل اليد، والروح قبل الجسد.

مدّ الرجال أيديهم، يبايعونه بيعة صدقٍ ويقين، وكان مما بايعهم عليه: الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهجر الشرك والوثنية، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وترك الزنا والسرقة، واجتناب شهادة الزور، فعُقِدت عُرى الولاء بين القلوب، لا بين الكفوف فقط.

ثم جاءت النساء المؤمنات، نساءٌ طالما عانينَ من ظلم الجاهلية، وأُهدرت إنسانيتهن، فجئنَ اليوم يشهدن فجر الحرية والنور، ويطلبن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبايعنه كما بايع الرجال، فأنزل الله آية كريمة تُنزلهن منزلة التكريم والإجلال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وكانت بيعة النساء قولية لا مصافحة فيها، كما حفظت لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذاك الموقف النبوي الشريف، فقالت»:ما مسّت يدُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يدَ امرأةٍ قطّ، إلا امرأةً يملكها» [رواه البخاري ومسلم.]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي تولّى أخذ البيعة من النساء بالقول وليس بالمصافحة بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم، في مشهد ربّاني مهيب، تختلط فيه دموع التوبة بفرحة الهداية، وتُصفَّى فيه القلوب على بيعة ربانية لا يُراد منها جاه ولا دنيا، وإنما إيمان صادق، واستقامة على الطريق.

وهكذا... أشرقت مكة بنور الإسلام، وتفتّحت قلوب أهلها على كلمة التوحيد، وامتلأ كل بيتٍ منها بنفحات الهداية، حتى قيل" :ما بقي في مكة بيتٌ إلا دخله الإسلام."

وكانت سورة النصر نبوءةً قرآنيةً تشهد على هذا المشهد المبارك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣.]

فيا لها من ساعة مشهودة... دخل الناس فيها في دين الله أفواجًا، لا قهر فيها ولا إكراه، بل نورٌ دخل القلوب، فأنار العقول، وأعاد لمكة طُهرها، وللإنسان كرامته، وللنساء عزتهن، وللبشرية جمعاء رسالة الخلود:
أن هذا الدين، دينُ الله، يهدي به من يشاء، ويكتب به للمؤمنين عزةً في الدنيا، ونجاةً في الآخرة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام هو دين التوحيد الخالص الذي يطهر القلوب والبلاد من رجس الشرك والوثنية، وهو الدين الذي اختاره الله لعباده، ولا يقبل غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

- عقيدة الولاء والبراء تظهر جليًا في لحظات البيعة، فالولاء يكون لله ولرسوله وللمؤمنين، لا للأصنام أو الجاهلية أو الولاءات الباطلة.

- الإيمان الصادق ليس كلمات تقال، وإنما هو استسلام كامل لله تعالى، يدخل في ذلك الاعتقاد، والانقياد، والعمل، ولذلك كانت البيعة تتضمن أصول الإيمان وأعمال الجوارح.

- من دلائل صدق النبوة أن آيات القرآن كانت تنزل توافق الأحداث بدقة، فكانت آية بيعة النساء نازلة بعد مجيئهن، في تأييد واضح من السماء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- النبوة رحمة وشفقة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو نبي الرحمة الذي جمع بين هيبة القيادة ولين الخطاب، فكان قبوله للبيعة من الرجال والنساء على حد سواء، علامة واضحة على أن الدين يخاطب الإنسان كله، رجلًا وامرأة، عقلًا وروحًا.

- الفتح والنصر من عند الله وحده، فلا النصر بكثرة، ولا بالغلبة، بل بنصر الله وهدايته للقلوب، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

فوائد فقهية

- بيعة النساء في الإسلام تُؤخذ بالقول دون المصافحة، وهذا أصل من أصول الفقه في التعامل بين الرجال والنساء، يدل على حفظ الشريعة لحرمات النساء، وقطع كل باب يؤدي إلى الفتنة.

- البيعة في الإسلام تُؤخذ على أساس الالتزام بالفرائض وترك الكبائر، فليست شعارات تُقال، وإنما هي عهد بين العبد وربه يُحاسَب عليه.

- للإمام أن ينيب غيره في أخذ البيعة أو العهود، كما أناب النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أخذ بيعة النساء.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في عقد البيعة، ولذلك نصّت الآية على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، والمراد المعروف المشروع، لا ما تهواه النفوس.

◆ قَبول التوبة مشروع، بل مأمور به، حتى لمن أسرف على نفسه في الجاهلية، مادام قد تاب، فجاء قوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾، مما يدل على أن قبول التوبة لا يحتاج إلى واسطة بشر، بل هو عفو إلهي يتنزّل على المذنب الصادق.

فوائد أخلاقية

◆ هذا المشهد يُظهر عظمة التواضع في القيادة، فقد جلس النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، لا في قصرٍ ولا على عرش، بل بين الناس، يسمعهم ويبايعهم، في خلق نبوي يُعلّم القادة والأمة كيف تكون القيادة بالرحمة لا بالتسلط.

◆ الفرح بالهداية والتوبة لا يقلّ شأنًا عن الحزن على الذنوب، فالدموع التي اختلطت ببيعة النساء كانت دموع عز، لا ذل، ودموع فرح، لا ندمٍ فقط.

◆ تكريم الإسلام للمرأة يظهر في لحظة البيعة، إذ جعل الله لهن شأنًا مستقلًا في العهد، وبيّن ما يُطلب منهن كما يُطلب من الرجال، فكانت لهن بيعة تليق بهن كنساء مؤمنات مسؤولات.

◆ إعطاء الناس حريتهم في الدخول في الإسلام، دون قهر أو إكراه، يدل على رفعة هذا الدين، وأنه دين الحق الذي يدخل القلب بلا سيف ولا ضغط.

◆ تلك اللحظة التي تجمّع فيها الناس حول التوحيد تعلّمنا أن المجتمعات لا تُصلحها الأنظمة، بل تصلحها العقيدة حين تستقر في القلوب وتُترجم إلى سلوك.

فوائد دعوية وتربوية

◆ كان النبي صلى الله عليه وسلم مربّيًا قبل أن يكون فاتحًا، فقد استثمر لحظة الفتح في تثبيت الإيمان لا في استعراض القوة، فجلس يبايع ويعلّم ويوجه، لا ليعاقب أو يثأر.

◆ فتح مكة لم يكن فتحًا للبلاد فحسب، بل كان فتحًا للقلوب، وكانت الدعوة هي المنتصرة، لا السيف، وفي ذلك درس للدعاة أن النصر الأعظم هو دخول القلوب في طاعة الله.

◆ طريقة عرض الشريعة في البيعة، بدايةً بالعقيدة ثم بالأعمال الظاهرة، يُعلّم الدعاة التدرج والتوازن في مخاطبة الناس، فلا يُحمّلون الناس من الشرائع ما لا يطيقون قبل تصحيح العقيدة.

مخالفات الواقع

◆ كثير من الناس اليوم يدخلون في الإسلام أو يلتزمون شرعه لكن دون بيعة حقيقية في القلب، فلا يظهر أثر الدين على سلوكهم، كأنهم أسلموا بالجوارح دون الأرواح.

◆ تُؤخذ البيعة في بعض الجماعات المعاصرة بصورة مبتدعة، يُربط فيها الولاء لقائد أو تنظيم لا لله ورسوله، وهي خيانة لمعنى البيعة الشرعية التي كانت لله وحده.

◆ غاب في واقع كثير من القيادات الإسلامية المعاصرة خُلق الرحمة والتواضع، فلا يجلس القائد مع الناس جلسة المربي ولا يستمع إليهم، بل يتكبر ويتسلّط، وشتان بين من يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم وبين من يُشبه الجبابرة.

◆ المرأة في كثير من المجتمعات تُعامَل إما بإقصاء باسم الدين، أو بانفلات باسم الحرية، بينما بيعة النساء في الإسلام كانت توازنًا عجيبًا بين المسؤولية والتكريم.

◆ يُهمل كثير من الناس اليوم فهم سورة النصر فهمًا عمليًا، فيظنون أن الفتح مقصور على ساحات المعارك، بينما المقصود الأعظم هو فتح القلوب لدين الله ودخول الناس فيه أفواجًا بسبب صدق الدعوة ورحمة الخطاب.

الفقرة الخامسة عشرة :إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وتثبيت أركان الدولة والتوحيد بعد الفتح

لما فتحت مكة، وارتفعت راية التوحيد، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البلد الحرام ظافرًا منصورًا، لم تكن غايته أن يُسطر نصرًا عسكريًا يُعجب به القادة، ولا أن يعلو صوت التكبير فحسب، بل كانت غايته أسمى، ومهمته أعظم، هي غرس جذور التوحيد في أرض طال ليلها، وتثبيت دعائم الإيمان في بلدٍ لطالما خيّم عليه ظلام الشرك والوثنية.

فمكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد الفتح **نحو تسعة عشر يومًا**، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال:

»أقام النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح بمكة تسعة عشر يومًا، يُقصِّر الصلاة «رواه البخاري ومسلم

وخلال هذه الأيام المضيئة، قام بأعمال جليلة أزالت ركام الجاهلية، وأرست أسس النور، وشكّلت ملامح المجتمع الإسلامي الجديد في مكة المكرّمة، فكانت بحق أيامَ فتحٍ على القلوب بعد أن انفتح الحرم.

أولًا: تعليم الداخلين في الإسلام وتأسيس العقيدة

لم تكن مكة بعد الفتح كالأمس؛ فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، وامتلأت القلوب شوقًا لمعرفة هذا الدين الذي أشرق نوره في ديارهم.
فجعل النبي صلى الله عليه وسلم شغله الشاغل أن يُعلّم أهل مكة الجدد مبادئ الإسلام العظيم، ويشرح لهم أصول التوحيد الخالص، ويبين لهم أركان الإيمان والعبادة، ويزرع في قلوبهم أن لا معبود بحقّ إلا الله، لا حجر يُعبد، ولا بشر يُقدَّس، ولا صنم يُرجى.

كان يعلّمهم أن العبادة حقٌّ خالص لله وحده لا شريك له، وأن من أعظم ما بعثه الله به: هدمُ ما سوى الله في القلوب، كما هدمه في الواقع، قال الله تعالى:
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقد روى ابن إسحاق في "السيرة" أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف في المسجد الحرام يُقرّب الناس إلى الله، ويشرح لهم معنى الإسلام، ويأمرهم بإخلاص العبادة، فكان المجلس مجلسَ علمٍ وهداية، لا انتقام ولا زهو بالنصر.

ثانيًا: إرسال السرايا لتطهير الأرض من الأصنام

ولم يقتصر النبي صلى الله عليه وسلم على تطهير الكعبة المشرّفة وحدها، بل امتدّت يد الإصلاح لتشمل أطراف الجزيرة، فبعث السرايا تلو السرايا، لهدم ما تبقّى من الأصنام والأوثان التي ظلت تُعبد من دون الله عز وجل، حتى لا تبقى شائبة من شوائب الوثنية في الأرض التي شرّفها الله بالوحي والرسالة.

فأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم "العُزّى" التي كانت أعظم أصنام قريش، وبعث سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه لهدم "مناة" صنم الأوس والخزرج، وأرسل المغيرة بن شعبة وأبا سفيان لهدم "اللات" في الطائف، كما جاء في كتب السيرة (ابن هشام، والطبري، وابن كثير.(

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق بذلك أمر الله تعالى :﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]،
فلا مكان لصنمٍ في أرضٍ أشرقت فيها شمس التوحيد، ولا مقام لوثنٍ في حضرة القرآن والبيان.

ثالثًا: تعيين أمير وتعليم الناس القرآن والدين

ومن جلال التنظيم وبُعد النظر، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك مكة بعد الفتح بلا قيادة، بل أمّر عليها شابًا من خيرة شباب قريش، هو **عتّاب بن أسيد رضي الله عنه**، وكان حينها في سنٍّ لا يتجاوز الحادية والعشرين، لكنه كان متين الإيمان، راسخ اليقين، أهلًا للأمانة والمسؤولية.

كما أرسل معه **معاذ بن جبل رضي الله عنه**، أحد فقهاء الصحابة وعلمائهم، ليقوم بتعليم الناس القرآن الكريم، وتفقيههم في أمور دينهم، كما جاء في "سيرة ابن هشام"، وكان هذا من بواكير التنظيم الإداري والعلمي في مكة بعد الفتح.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدرك أن النصر الحقيقي ليس بكثرة الغنائم، بل ببناء النفوس وتعليم الناس الدين، ولهذا قال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن – وهو تعميم يُفهم منه ما فعله في مكة أيضًا» :– إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: أن يوحّدوا الله «...رواه البخاري ومسلم

وهكذا...

ثبتت أركان الإسلام في مكة، وأشرقت الأرض بنور ربها، وظهرت معالم التوحيد في البلد الحرام، فكان فتح مكة فتحًا للقلوب، وهداية للناس، ونصرةً للدين، وتحقيقًا لوعد الله جلّ وعلا:
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢].

رابعًا: أذان بلال من فوق الكعبة

أمر النبي **صلى الله عليه وسلم بلال بن رباح رضي الله عنه** أن يؤذّن فوق الكعبة، فكان مشهدًا يهزّ القلوب: عبدٌ حبشيّ كان يُعذّب في رمضاء مكة يُرفَع اليوم ليعلن التوحيد من فوق البيت الحرام.
وكان الأذان في ذلك الموضع **إعلانًا عالميًّا بانتصار التوحيد، وسقوط الجاهلية، وكرامة الإيمان.**

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- غرض النبي صلى الله عليه وسلم من فتح مكة لم يكن دنيويًا بل كان غايته غرس التوحيد وتثبيت العقيدة، مما يدل على أن أعظم غايات الرسالة هو تصحيح المعتقد لا مجرد التمكين السياسي.
- استمرار النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم التوحيد بعد الفتح يدل على أن العقيدة لا تُؤسس مرة وتنتهي، بل هي أساس دائم يجب تثبيته في النفوس.
- إرسال السرايا لهدم الأصنام يؤكد أن بقاء رموز الشرك يُخالف مقتضى الإيمان، وأن من مقتضيات التوحيد إزالة الشرك من الواقع والقلوب معًا.
- النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أن العبادة حقٌّ خالص لله، وهذا أصل من أصول التوحيد، لا يتحقق الإسلام إلا به.
- إخلاص الدين لله وحده كما أمر الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ دليل على أن كل عبادة مشوبة بغير الله باطلة، ولو كانت في أرض الحرم.
- ربط النصر الحقيقي بهداية القلوب لا بالغلبة العسكرية، يعلّمنا أن النصر المحمود شرعًا هو الذي يُحقق التوحيد ويزيل مظاهر الشرك.

فوائد فقهية

- مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد الفتح تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة، وهو دليل فقهي على جواز القصر في الإقامة القصيرة التي لم ينو فيها إقامة دائمة.
- تعيين أمير على مكة بعد الفتح يدل على أهمية وجود ولاية شرعية تُنظّم حياة الناس، ولا يُترك المجتمع بلا راعٍ ولا حاكم.
- تكليف معاذ بن جبل بتعليم القرآن والدين يثبت فقه الأولويات، وأن التعليم والدعوة مقدمٌ على أي عمل إداري أو تنظيمي.
- إزالة الأصنام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم يدل على مشروعية إزالة المنكرات الظاهرة بالقوة عند القدرة، وأن ذلك من مهمات الحاكم المسلم.
- عدم الاقتصار على تطهير الكعبة، بل إرسال السرايا للأماكن البعيدة، يدل على أن حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تتقيد بالمكان بل بالاستطاعة والواجب الشرعي.

فوائد أخلاقية

- لم يُبادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الانتقام ممن عادوه بل انشغل بتعليمهم وهدايتهم، وهو خلق عظيم في العفو والصفح والدعوة بالحكمة.
- الحرص على تربية الداخلين في الإسلام يدل على أن القيادة الناجحة تبدأ ببناء الإنسان لا باستعراض القوة، وهو مبدأ أخلاقي في التعامل مع الناس بعد النصر.
- اختيار شاب مثل عتاب بن أسيد رغم صغر سنّه أميرًا يدل على أن الثقة في أهل الكفاءة والإيمان لا ترتبط بكبر السن بل بالاستقامة والقوة.
- مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام بعد الفتح كان مجلس علم لا زهو، مما يعكس خلق التواضع عند أعلى درجات النصر والتمكين.
- اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بغرس اليقين في القلوب يدل على أن أعظم ما يُؤسس في النفوس هو الإخلاص والصدق مع الله لا المظاهر الفارغة.

فوائد دعوية وتربوية

- البدء بتعليم التوحيد عند دخول الناس الإسلام هو منهج نبوي في الدعوة يُقدم الأساس قبل الفروع، ويُرشد الدعاة إلى ترتيب الأولويات.
- ربط التعليم بالقدوة، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يُعلّم الناس، يدل على أن الداعية أول من يجب أن يتحرك في الميدان.
- إرسال معاذ بن جبل للتعليم يدل على أهمية تخصيص أهل العلم للتربية والدعوة، وعدم ترك الناس على جهلهم بعد دخولهم الإسلام.
- الاستمرار في الدعوة والتعليم بعد النصر يبيّن أن مهمة الأنبياء لا تنتهي بالفتح، بل تستمر بهداية الناس وتعليمهم.
- حسن التنظيم بين القيادة السياسية والعلمية (عتاب أميرًا ومعاذ معلمًا) يُقدّم نموذجًا متكاملًا للدعوة الشاملة التي تجمع بين السياسة والعلم.

ما يخالف الواقع

- الانشغال بالسيطرة السياسية دون إصلاح العقيدة، واعتبار النصر هو السيطرة لا الهداية، في مخالفة صريحة لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم.
- التهاون في إزالة مظاهر الشرك الظاهرة بحجة التسامح أو الحرية، بينما النبي صلى الله عليه وسلم أزالها وأرسل السرايا لهدمها.

- إهمال تعليم الناس أصول الدين والتوحيد بعد دخولهم الإسلام، وتركهم بلا توجيه ولا تربية، مما يُعرضهم للانحرافات العقدية والبدعية.
- تقديم غير الأكفاء في المناصب بدعوى الوجاهة أو الجاه، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم قدّم عتابًا شابًا قويًا في دينه.
- ترك المساجد والمجالس العامة فارغة من العلم والدعوة، رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل مجلسه في الحرم مركزًا للهداية بعد الفتح.
- الخوارج في كل زمان يُظهرون الغلظة والبطش بعد النصر، بينما النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة تعامل بالرحمة والتعليم، مما يفضح مسالك الغلو التي تسلكها هذه الفرقة في التسلط باسم الدين.

انتهى الباب الرابع عشر ويليه الباب الخامس عشر بإذن الله جل وعلا

الباب الخامس عشر: عام الغنائم والتحديات (غزوة حنين والطائف)

المقدمة

بعد أن فُتحت مكة، وظهر الإسلام علنًا في أقدس بقاع الأرض، دخل الناس في دين الله أفواجًا، وبدأت القبائل تفِد على النبي **صلى الله عليه وسلم** مبايعةً ومعلنةً إسلامها.
غير أن طريق النصر لم يكن مفروشًا بالورود، فما أن استقرّ الأمر في مكة، حتى برزت **تحديات كبرى** من خارجها، أبرزها تحرك قبائل **هوازن وثقيف**، اللتين شعرتا أن الإسلام بات يُهدد مكانتهما ونفوذهما في جزيرة العرب.

وفي هذا الجو، خرج النبي **صلى الله عليه وسلم** بجيشٍ ضخم هو الأكبر في تاريخ الدعوة حتى تلك اللحظة، ليواجه **خطرًا عسكريًا وعقديًا**، اجتمع فيه الكيد الخارجي مع خللٍ داخلي، ظهر في غرور بعض المسلمين بعددهم، حتى قال بعضهم: **"لن نُغلب اليوم من قلة!"** فأنزل الله عليهم درسًا عمليًا في حُنين، حيث كادوا يُهزمون رغم كثرتهم، حتى ثبت من ثبت، وانقلبت الهزيمة إلى نصرٍ بعد نداء النبي **صلى الله عليه وسلم** واستجابة الصفوة.

ثم أعقبها حصار **ثقيف في الطائف**، بما فيه من **صبرٍ وابتلاء** وحنكةٍ نبوية في التعامل مع رفض القوم للإسلام، مما يُظهر أن **النصر ليس دائمًا بالفتح والسيف، بل بالصبر والبصيرة**.

لقد كان هذا العام بحق **عام الغنائم والتحديات**:

انتصر فيه المسلمون، لكن بعد انكشاف القلوب.

وكثر فيه المال، لكن زادت معه الفتن.

وظهرت فيه حاجتنا إلى العلم والإخلاص، أكثر من حاجتنا إلى العدد والعدة.

ففي أحداث **حنين والطائف، دروسٌ وتزكية، وتمحيصٌ وتربية، وغنائمُ وابتلاء**، كل ذلك في ظل القيادة النبوية الحكيمة التي لم تكن ترى في النصر نهاية الطريق، بل بداية مسؤولية جديدة.

الفقرة الأولى: شرارة التحدي تُوقد بعد الفتح: بداية حنين

ما إن أشرقت شمس الفتح على جبال مكة، ونُكِّست رايات الشرك من فوق أستار الكعبة، حتى خيّم الخوف على قلوب القبائل التي طالما كانت سيدة البوادي وسلطانة الرمال.

كانت مكة -أم القرى- قد دانت للنبي الأمي صلى الله عليه وسلم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وارتجّ البيت العتيق بصوت التهليل والتكبير: "الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده."

ومع هذا الزحف الرباني الذي لا يُرد، شعرت بعض القبائل الوثنية أن أيام سيادتها الدنيوية قد أوشكت على الأفول، وأن سلطان محمد صلى الله عليه وسلم قد استقر في قلوب الناس قبل أن يستقر في أرضهم. فاجتمع رأي هوازن وثقيف، وهما من أشد القبائل بأسًا وأطولها باعًا في القتال، أن يجمعوا الجموع ويضربوا ضربتهم قبل أن تصل إليهم الدعوة ويدخلوا في سلطان الإسلام عنوة.

التحرك المرتبك وقيادة غير ناضجة

وتقدّم للقيادة شاب فتِيّ الحماسة، قليل التجربة، اسمه مالك بن عوف النصري، فخطب في الناس خطبة المتحمس وقال: "اجعلوا نساءكم وأموالكم وأبناءكم خلف صفوفكم، ليشدّوا من عزيمتكم، فلا تفكروا في فرار!" وكان يظن أن صوت بكاء الطفل، وصراخ النساء، ورؤية المتاع والذهب المصفوف، سيجعل كل رجل يقاتل حتى الرمق الأخير.

ولكنّ الشيخ المجرب، والفارس المعتق، دريد بن الصمة، كان حاضرًا في الجيش، وإن بلغ من الكبر عتيًّا، فقد بقي له من الحكمة ما يزن به الجبال. فلما سمع في ظلام الليل صياح الدواب، وبكاء الأطفال، وصراخ النسوة، قال مندهشًا:

"ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وصياح الصبيان؟ "!فقيل له: "إن مالكًا ساق مع القوم نساءهم وأموالهم وذراريهم ."فغضب غضب الحكماء وقال" :رعيَ بَنوُهُم إن كان مالك صدقكم، هل يردّ المنهزم شيء؟! إن كانت لكم لم ينفعكم إلا رجلٌ بسيفه، وإن كانت عليكم فضحتم في نسائكم وأموالكم."

ثم أقبل على مالك يعظه وينصحه ويذكّره بمآثر الأيام الماضية، وقال:

"لقد شهدت يوم كذا وكذا من أيام العرب، وما رأيت مثل رأيك هذا"!
ولكن الحماسة أطاحت بالحكمة، فلم يُصغَ لصوت العقل، وسار الجيش إلى وادي حنين، حيث نصبوا كمينًا محكمًا على طريق المسلمين، ليباغتوهم في ممر ضيق بين الجبال.

في هذا المشهد تتجلى سنن الله

وهكذا بدأت طلائع معركة حنين التي سجّلها القرآن الكريم في أوضح تصوير وأبلغ بيان، حيث قال الله تعالى:
﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥.]

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال:

"شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء"...
ويصف كيف ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه الانكسار المؤقت، حتى نادى:
"أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"،
فانقلبت الهزيمة إلى نصر، بفضل ثباته ويقينه.

ومضات تربوية من المشهد

- في خروج هوازن وثقيف بهذه العجلة دون وعي بالتغيرات الجديدة، عبرة في خطورة المكابرة أمام نور الحق.
- وفي إقصاء الحكمة لصالح الحماسة، تذكير بخطورة قرارات المتهورين إذا تصدّروا، وهو ما عبّر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

"يا أيها الناس، إن منكم مُنفرين..." [متفق عليه.]

❖وفي شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم وثباته في أشد لحظات الاضطراب، مدرسة في القيادة والاعتماد على الله في الملمات.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ الإيمان بأن النصر بيد الله وحده لا بكثرة العدد ولا قوة السلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، فالنصر والتوفيق مرهون بالتوكل على الله لا بالأسباب وحدها.
التصديق بأن الله يُملي للباطل أحيانًا حتى إذا أخذه لم يُفلِتْه، وقد مكّن لبعض القبائل القوة والعدة، ثم أوقع بهم ليُظهر سنة التدافع.

◆ في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في موطن انكشاف جيش المسلمين برهان على أن الله يُؤيّده بالتثبيت الرباني، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢.]

◆ في ظهور هزيمة المسلمين أول الأمر ثم قلبها نصرًا، إظهار لسنة من سنن الله أن النصر قد يتأخر ليُمحص الله القلوب، ويكشف ما فيها من عُجب أو تواكل.

فوائد فقهية

◆ في تقديم القائد الشاب مالك بن عوف نفسه للقيادة دون أهل الخبرة، تحذير من التسرع في تصدُّر المناصب قبل التأهل لها، وهو مما يُلحق بالأمر الشرعي: (من وُلي أمرًا من أمر المسلمين فرفق بهم فهو منهم، ومن شقّ عليهم شق الله عليه.(

◆ يجوز اتخاذ الخطط الحربية التي تُشعل حماسة الجند، بشرط أن تكون ضمن المشروع، غير أن ربط القتال بالأبناء والنساء وسيلة مذمومة لما فيها من تعريض الحرمات للهلاك.

◆ إظهار النساء في ميادين القتال بهذا الشكل يُعد من اتخاذهم دروعًا بشرية، وهو أمر محرم شرعًا، لكونه إخلالًا بحرمة النفس والعِرض.

فوائد أخلاقية

◆ من أخطر أخلاق القادة الطائشين تقديم الحماسة على الحكمة، وهي خيانة للأمانة وتضييع للدماء، كما فعل مالك بن عوف.

◆ من شمائل الكبار التواضع للحق، وقد خسر القوم حين أعرضوا عن نصيحة دريد بن الصمة، وفي ذلك تحذير من التكبر على صوت التجربة.

◆ تُظهر هذه الحادثة عظمة خُلق الثبات عند النبي صلى الله عليه وسلم، فهو لم يُغره كثرة جيشه، ولم يُزَلزله تفرقهم، بل ثبت حين انهار من حوله.

◆ وفي شهادة العباس وأبي سفيان له في تلك اللحظات، درس في حفظ العهد وصدق الصحبة، حين يُعرف الرجال عند الشدائد.

فوائد تربوية ودعوية

◆ المكابرة في وجه الدعوة بعد ظهور الحجج والآيات علامة على جهل القلب لا على شجاعة النفس، كما فعلت ثقيف وهوازن.

◆ يُخطئ بعض الناس حين يظنون أن سلطان الدين سلطان أرض، فيقاتلون لتأخير دخوله، غير مدركين أنه استقر في القلوب قبل أن يُحكم على الرقاب.

◆ في تجاهل الصوت العاقل –كصوت دريد– لحساب الصوت المرتفع، تنبيه للدعاة والمربين بعدم الانجرار خلف المظاهر الحماسية دون تبصر.

◆ هذا المشهد يُربّي القلوب على أن النكسة المؤقتة لا تعني الهزيمة، بل قد تكون تمهيدًا للفتح إذا رافقها الثبات، كما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم.

ما يخالف الواقع

◆ في زماننا تُقصى أصوات الحكماء من الساحة، ويُقدّم الشباب عديمو التجربة في مواقع التأثير والقيادة، مما يُوقع المجتمعات في صدامات دامية بسبب رعونة الرأي وجهل الواقع.

◆ كثير من الناس اليوم يربطون الحق بالعدد، فيظنون أن الكثرة علامة صحة، ولو قرأوا قول الله تعالى ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ لعلموا أن الكثرة قد تكون فتنة لا نصرة.

◆ تسود في واقع الأمة اليوم نزعة الحماس غير المنضبط، ويُقصى صوت العلماء الربانيين بدعوى أنهم "أصحاب كلام بارد"، ويُستبدلون بمن لم يعرفوا فقه المآلات ولا عواقب الأفعال.

◆ في بعض الدعوات الحديثة يُزعم أن الثبات على الحق موقف رجعي، بينما يقدّمون التنازل على أنه "واقعية"، ويُسخرون من من ثبت على المبدأ كما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين.

◆ يكثر في إعلام هذا العصر تصوير الأعداء على أنهم لا يُقهرون، مما يزرع الهزيمة النفسية، بينما علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن العبرة بالتوكل والثبات لا بعدد ولا عتاد.

الفقرة الثانية: جيشٌ لم يُرَ مثله... ودهشةُ وادي حنين

ما كادت مكة تُطهَّر من أوضار الشرك، وتخضع لراية التوحيد، حتى وجَّه النبي صلى الله عليه وسلم أنظاره إلى ما هو أبعد، نحو صدّ الموجة المرتدة من قوى الشرك المتأهبة، التي استشعرت في فتح مكة نهايتها المحتومة.

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة متجهًا إلى وادي حُنين في شوال من السنة الثامنة للهجرة، وقد اصطحب معه جيشًا لم تعرفه الجزيرة من قبل عددًا وهيبة، جيشًا يضم اثني عشر ألفًا من المسلمين: عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين صحبوه من المدينة، وألفين من الطلقاء، الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح، بعضهم حديث عهد بجاهلية، وبعضهم ما زالت تراوده نوازع الهوى والقبيلة.

كان الجيش في عدده مهيبًا، وفي هيئته مزلزلًا، حتى قال بعضهم – ممن لم يذق بعد حلاوة التوكل – قولًا حمل بذور الضعف من حيث أراد القوة:

"لن نُغلب اليوم من قِلّة"!

كلمة خرجت، فأبطلت من البركة ما لا يبطل بمائة ألف رمح، إذ فيها تعويلٌ على العدد، وغفلةٌ عن مدبر السموات، الذي بيده وحده النصر والخذلان.

فكره النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة، وأدرك بفراسة النبوة أنها شرارة لابتلاء قادم، فالنصر لا يُكتب للجموع إلا إن رُفعت رايات القلوب إلى السماء.

وسار الجيش في زهوٍ ظاهر، لم يكن كبرًا، ولكنه غفلة نصرٍ لم يُختبر بعد، حتى وصل إلى وادي حُنين، الوادي العميق المنحني، تحفُّه الجبال، وتنطبق فيه أضلاع الأرض، حتى صار الكمين فيه يسيرًا، والهروب منه عسيرًا.

هناك، في تلك البقعة الصعبة، كانت جموع هوازن وثقيف قد سبقت إلى الأرض، ونصبت كمينًا رهيبًا، فبينما المسلمون ينزلون الوادي في أول النهار، إذ انفجرت السهام من جنبات الجبال كأنها انقضاض النسور، يرمونهم عن يمين وشمال، من أمام ومن خلف، وارتجّ الوادي برجاله، وهاجت الأرض بسيوفها.

وانهزم كثير من الجيش، وتفرّق الناس، خاصة من الطلقاء ومن كان حديث عهد بالإسلام، فجاشت النفوس بالقلق، والصفوف اضطربت، والرايات سقطت، حتى قيل" :**لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا رهطٌ من المهاجرين والأنصار، وأهل بيته الكرام".**

لكنّ القلب الذي ثبت يوم أحد، ويوم الخندق، لن يضطرب في حنين.

فركب النبي صلى الله عليه وسلم بغلته البيضاء، شاهقًا فوق الخوف، ماضيًا نحو العدو، ينادي بصوتٍ ترجف له الجبال:

"أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"!

صرخة التثبيت، وكلمة الواثق، نداء من لا يرتجف أمام الموت، بل يندفع إليه ليُحيا به دين الله.

ثم التفت إلى عمّه العباس رضي الله عنه، وكان جهوري الصوت، فقال له:

"نادِ أصحاب السمُرة"!

أي الذين بايعوه تحت الشجرة يوم الحديبية، نادهم باسْمِ ما ثبتوا به يوم الرهبة.

فأخذ العباس ينادي، صوته يجلجل بين الجبال:

"يا أصحاب السمُرة! يا معشر الأنصار"!

فإذا بالقلوب ترتد إلى صدورها، وإذا بالأقدام التي اضطربت تثبت، وإذا بالجُند ينقضّون كالسيل العارم، يُقبلون من كل وادٍ، كأنهم ما عرفوا الهزيمة قط.

وكانت لحظة الانقلاب والنصر، تلك اللحظة التي تُمحى فيها آثار الضعف، وتُكتب فيها صفحات النصر، لحظة قال الله فيها

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦.]

إنه الدرس الإلهي :**لا نصر بعدد، بل بثقة، ولا غلبة بقوة، بل بتوكل.**

وقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم يومها ثبات الجبال، وأثبت الله به من حوله، حتى انقلبت المعركة، وهُزمت هوازن، وغنم المسلمون ما لم يغنموا مثله من قبل. وما أشبه تلك اللحظات بكلمات ربانية خالدة:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩.]

فهل وعي المسلمون الدرس؟

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوكل على الله وحده هو أساس النصر، لا العدد ولا العُدّة، وهذا من أصول التوحيد والإيمان.
- إعجاب المؤمنين بكثرتهم دون الاعتماد على الله يُعد خللاً في التوحيد وسببًا للهزيمة.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في الميدان أعظم دليل على صدق نبوته واعتماد قلبه على الله عز وجل دون سواه.

- نزول السكينة من الله على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يدل على أن الطمأنينة والنصر من عند الله لا من الظروف الأرضية.
- إرادة الله عز وجل أن يُعلِّم عباده الدرس التربوي الإيماني من خلال الأحداث الكبرى دليل على ربوبيته وتدبيره الدقيق لعباده.
- التفريق بين المؤمنين الصادقين والمنافقين أو حديثي العهد بالإسلام يقع غالبًا في أوقات الشدة، وهي سنة ماضية من سنن الله.

فوائد فقهية

- جواز الاستعانة بالمؤلفة قلوبهم أو الطلقاء في الجهاد بعد إذ دخلوا الإسلام، بشرط أن يكون ذلك في مصلحة راجحة.
- ثبوت السنة في مناداة المجاهدين بأوصاف سابقة شريفة لهم عند الحاجة للثبات، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "نادِ أصحاب السمرة."
- دلالة السياق على أهمية تربية الجيش تربية عقدية قبل القتالية، فضعف العقيدة يؤدي إلى الهزيمة ولو كان العدد ضخمًا.
- خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حُنين بعد فتح مكة يبيّن مشروعية المبادأة بالعدو متى تهيأت القوة.
- جواز ركوب البغلة في الحرب، وليس من شرط الجهاد أن يكون على فرس فحسب.

فوائد أخلاقية

- الغفلة عن الله في لحظة النصر قد تكون سببًا في الهزيمة الفورية، وهو درس تربوي عظيم.
- الثقة المفرطة بالنفس تورث الخذلان، أما الثقة بالله فتنبت الثبات والنصر.
- الشجاعة الحقيقية هي الثبات عند الفزع، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في قلب المعركة.
- النداء الذي أطلقه النبي صلى الله عليه وسلم كان نداء ثقة وثبات، لا كبرياء، وهو يُعلِّمنا كيف يكون الثبات في مواطن الفزع.
- الرجوع إلى القيادة والثبات عند النداء من صفات النفوس العظيمة التي تأثرت بالإيمان.
- من الخلق الحسن في القائد أن يعرف رجاله، ويذكرهم بمواقفهم الشريفة ليستنهض هممهم.

فوائد دعوية

- ينبغي للداعية أن يُربّي أتباعه على التعلق بالله لا بالأسباب المادية، فالإعجاب بالكثرة دون اعتماد على الله مهلكة.
- الداعية لا بد أن يكون أول من يثبت عند المحن، كما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا هو مفتاح التأثير في الآخرين.
- استدعاء المواقف القديمة التي فيها ثبات وبذل تساهم في إحياء النفوس وإثارة الحمية الإيمانية من جديد.
- الانكسار في البداية لا يعني الهزيمة الكاملة، بل قد يكون مقدمة لنصر أعظم إذا صحح الناس نواياهم.
- في عرض القصة الدعوية تأصيلٌ مهمٌّ لتقديم القدوة الحقيقية في القائد والداعية، في شخص النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد تربوية

- الانتصارات لا تُربّي النفس إن لم تُقرن بالإيمان، بل قد تزيد من الغرور إن لم تُضبط بالعقيدة.
- الثبات سلوك قلبي قبل أن يكون حركيًّا، وإذا ثبت القلب ثبت الجسد.
- غرس روح التوكل والثقة بالله أهم من غرس مهارات القتال في بناء الجيل.

- كل انكسار مؤلم يحمل في طياته فرصة تربوية عظيمة لترميم القلوب وتقوية العقيدة.
- نقل القصص التاريخية الحقيقية فيه تربية للأجيال على فهم السنن الإلهية.

ما يخالف الواقع

- تعويل كثير من المسلمين اليوم على الأعداد والأسلحة والمظاهر دون الرجوع إلى الله والاعتماد عليه.
- انبهار بعض الدعاة والمصلحين بكثرة المتابعين والمناصرين دون أن يربّوهم على التوحيد والصدق والثبات.
- ضعف الثقة بالله في القلوب، حيث أصبحت التحليلات السياسية والعددية هي الموجِّه الأساسي لتفكير المسلمين بدل الإيمان.
- غياب القدوة الثابتة في الأزمات، إذ قلَّ من يثبت اليوم كما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة الشدة.
- قلة من يستنفر الأمة بالنداء الإيماني الصادق، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم نادى: "أنا النبي لا كذب."
- ضياع التربية الإيمانية في صفوف كثير من المنتسبين للإسلام، إذ ينهار كثير منهم عند أول فتنة أو تحدٍّ.

الفقرة الثالثة: نداء الحسم... ونصر من السماء

في أشد لحظات المعركة اضطرابًا، حين تقطعت الأوصال بين الصفوف، وتهاوت رايات الطمأنينة تحت وطأة المفاجأة، واهتزّ وادي حنين بصيحات السهام والخيول والرماح، وقف النبي صلى الله عليه وسلم في ساحة الوغى، كأنه جبل لا تهزه العواصف، ولا تزحزحه الفواجع، وقد انفضّ عنه الكثير ممن لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، وتراجع من غرّه الكثرة أو خذلته النفس عند الصدمة.

وقف صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء، لا يُداري ضعفًا ولا يطلب مهربًا، بل ينادي في الناس نداء الشجاعة والإيمان والثبات، بصوت نبيٍ لا يعرف الوهم، ولا يستسلم للخوف" :**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"!**

صوت يتغلغل في جنبات الوادي، ينفذ إلى الأرواح فيبعثها من سباتها، ويطرق قلوب المترددين طرْق الفجر لأبواب الظلام.

ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان رجلاً جهوري الصوت، قوي النداء، أن يرفع صوته بما يوقظ الذاكرة ويُحيي العهد القديم، فقال" :**يا أصحاب الشجرة! يا أصحاب بيعة الرضوان"!**

فكأنما نُفخت الروح في الأجساد من جديد، وارتفعت القلوب من قاع الخوف إلى قمة البطولة، فأقبل المهاجرون والأنصار كأنهم أسود خرجت من غابات العقيدة، يعرفون صوت من ناداهم، ويُلبون نداء من بايعوه تحت ظلال الشجرة على الموت في سبيل الله، فكرّوا على الأعداء في مشهد يهتز له الوادي وترتجف له الجبال.

لقد كان من ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظات العصيبة: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، والفضل بن العباس، وغيرهم من أهل الوفاء والصمود، ممن باعوا أنفسهم لله فما خافوا لومة لائم.

وفي لحظة فاصلة، أخذ النبي صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى، فرماها في وجوه القوم، وقال بصوت الحق: **"شاهت الوجوه"!**

فكان لتلك الرمية وقعٌ فوق السيوف والرماح، إذ نزلت معها ملائكة الرحمن، وحلّ الرعب في قلوب المشركين، فولّوا الأدبار يجرّون أذيال الهزيمة.

وهنا نزلت الآية العظيمة، تسجّل لحظة الانقلاب والانتصار:﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]**

نزل النصر من السماء لا حين اجتمع العدد، بل حين انكسر القلب لله، وزال العُجب، وثبت الصف بالإيمان لا بالسيوف.

ولقد كان هذا الموقف مدرسة إيمانية، تعلّم فيها المسلمون أن العبرة ليست بالكثرة، بل بيقين القلب، وصدق التوكل، ونقاء النية. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد المعركة، كما في صحيح مسلم:
"نُصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي".

وهكذا، تعلّم المسلمون درسًا خالدًا: أن النصر لا يُشترى بالسيوف، بل يُمنح بالصدق والافتقار، وأن الثبات في لحظة الهزيمة قد يكون أعظم من النصر نفسه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التثبيت في ساعة الفزع العظمى لا يكون إلا بتوفيق من الله، ومن دلائل النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت حين تزلزلت الأقدام، وهذا من علامات عصمته وصدقه.
- أن الله تعالى يُنزل جنودًا من ملائكته لا تُرى بالعين، وهذه عقيدة ثابتة تؤكد وجود عالم الغيب، وأن الملائكة جندٌ من جند الله يُقاتلون مع المؤمنين عند الحاجة.
- السكينة التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين هي منحة ربانية، وهي من دلائل المعية الخاصة لأهل الإيمان في أوقات الشدة، وقد أثبتها الله في مواضع عدة من القرآن.
- أن الله يعذب الكافرين في الدنيا والآخرة، وعدلُه تعالى لا يُسأل، وأن ما نزل بهم من الهزيمة هو جزاء كفرهم، لا مجرد سبب مادي.
- أن النصر ليس متعلقًا بعدد أو عُدّة، بل هو من عند الله، يُنزل على من يستحقه من عباده الصادقين، وهذا مما يجب اعتقاده واليقين به دون التعلق بالأسباب وحدها.
- النبي صلى الله عليه وسلم مُؤيد من ربه بالرعب يُلقيه في قلوب أعدائه، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، كما قال: "نصرت بالرعب"، وهو نصر من عالم الغيب.

فوائد فقهية

- جواز استعمال النداء بالألقاب الشرعية التي تُذكّر بالعهود الإيمانية، مثل: "يا أصحاب الشجرة"، لما فيها من تهييج للقلوب وربط بالوفاء بالعهد.
- جواز الرمي بالحصى اليسير في الحرب إذا كان يُقصد به التأثير المعنوي أو الرمزي، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من السنة العملية التي لها أثر باطني وروحي.

◆ أن الثبات في أرض المعركة واجب شرعي في حال القدرة، ولا يجوز الفرار، وقد أثنى الله ورسوله على من ثبتوا في وقت الهزيمة.

◆ فيه استحباب أن يتولى المناداة في المواقف الكبرى من كان جهوري الصوت، لما في ذلك من بلوغ التأثير وإثارة الهمم، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم العباس رضي الله عنه.

◆ أن القتال في سبيل الله لا يكون حمية ولا عصبية، بل استجابة لنداء الإيمان وبيعة العقيدة، وهو معنى يُستخرج من تلبية أصحاب الشجرة لنداء النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد أخلاقية

◆ فيه مشهد عظيم من الشجاعة والثبات والقيادة النبوية، إذ ثبت النبي صلى الله عليه وسلم حين اضطرب الناس، فكان القدوة في مواجهة الشدائد.

◆ أن الرجوع بعد الفزع، والعودة للحق عند التذكير، من أخلاق الكبار، فهؤلاء الذين فرّوا رجعوا ولبّوا النداء، فلم يُغلق في وجههم باب الكرامة.

◆ فيه تعليم للمؤمن أن لا يركن إلى الكثرة، ولا يفتن بها، بل يفتخر بالإيمان والتوكل، فالعبرة بالصدق لا بالعدد.

◆ أن الذكرى تُحيي القلوب، ونداء الماضي الإيماني كبيعة الرضوان أعاد النفوس إلى عزائمها، وهو دليل على أهمية تذكير النفس بعهودها القديمة مع الله.

◆ فيه تقدير لمن ثبت وبقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في لحظات الوهن، وأن الوفاء في المحن أعظم من الوفاء في الرخاء.

فوائد دعوية

◆ على الدعاة أن يثبتوا عند اشتداد المحن، ويظهروا يقينهم بالله، فإن ثباتهم يُحيي القلوب، ويقوّي الصفوف، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين.

◆ أن حسن اختيار الكلمات، والتذكير بالمواقف الإيمانية السابقة، له أثر بالغ في بعث الهمم وإحياء القلوب المترددة.

◆ ينبغي أن يكون للداعية صوتٌ جهوري في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، كما كان صوت النبي صلى الله عليه وسلم في الوغى مدويًا ثابتًا.

فوائد واقعية

◆ التاريخ يعلمنا أن التحولات الكبرى قد تبدأ من لحظة ثبات رجل واحد، فكم من مواقف ضعفت فيها الجموع ثم نصر الله الأمة بثبات القائد، والمواقف لا تُقاس بعدد من ثبت فقط، بل بقيمة الثبات ذاته.

◆ أن الهزائم الظاهرة قد تكون مداخل لنصر باطن، إذا صدق المؤمنون وأقبلوا على الله بالتوبة والافتقار، كما حصل في حنين.

◆ أن كثيرًا من الذين خُدعوا بالكثرة أو خذلتهم أنفسهم يمكن أن يعودوا إذا ذُكروا بعهدهم مع الله، فوظيفة القادة أن يُحيوا هذا العهد في القلوب.

ما يخالف الواقع

◆ في واقع المسلمين اليوم، يتكرر الافتتان بالكثرة والعدة، ويُظن أن النصر يُنال بمجرد العدد، دون صدق التوكل والافتقار إلى الله.

◆ قلة الثبات في لحظات الأزمات والمواقف الحرجة، وانفضاض كثير من الناس عن الثوابت حين تغشاهم الفتن أو يُخيّل إليهم أن الغلبة للباطل.

◆ ضعف صوت القادة الربانيين في كثير من الميادين، وقلة من يجهرون بالحق في ساعة الانكسار، في حين أن اللحظة تكون بأمس الحاجة لنداء مثل: "أنا النبي لا كذب"...

◆ نسيان العهود الإيمانية السابقة، وتبدّل النفوس بعد صفاء، وكأن أصحاب العهد الأول لا يُذكّرون بعهدهم، وهذا خلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين نادى "يا أصحاب الشجرة."

الفقرة الرابعة: دعوة للثبات... ونزول الملائكة وانقلاب المعركة

في لحظةٍ حبست فيها الأرض أنفاسها، واشتدت فيها غشاوة الغبار فوق رؤوس الرجال، وتضعضعت فيها صفوف المسلمين بين صدمة المفاجأة وعصف الكمين، ارتفع صوت النبوة وسط وادي حنين كأنه الرعد في كبد السماء، يزيح الخوف عن القلوب ويوقظ في الأرواح جذوة الإيمان:

"أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"!

لم يكن هذا مجرد نداء، بل كان صيحة الصدق في وجه الزيف، وراية الثبات في ميدان الانهيار، وسراجًا يُنير دروب القلوب التي أوشكت على التيه في لجة الفزع.

ومع هذه الصيحة المباركة، أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمّه العباس رضي الله عنه، وكان جهير الصوت قوي النداء، أن يُنادي في الناس نداءً يوقظ فيهم الذكريات العزيزة، ويبعث في صدورهم صلابة العهد:

"يا أصحاب السمرة! يا أهل بيعة الرضوان"!

نداء ما إن اخترق أسماعهم حتى ارتجّت به أعماقهم، فتذكّروا تلك اللحظات الخالدة تحت الشجرة، حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت دونه، لا يفرّون ولا يتخاذلون.

فتسابق الأبطال، وتدافع الصفوة من المهاجرين والأنصار، كأن الجبال قد انشقّت لتلد أسودًا جديدة، وكأن أرواح بدر وأحد قد عادت لتحمل السيوف من جديد. هرعوا إلى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، والقلوب تخفق شوقًا للثبات، والأرواح تشتعل حماسة للذبّ عن صاحب الرسالة الخاتمة.

عندها، أخذ النبي صلى الله عليه وسلم حفنةً من الحصى، ورماها نحو العدو، وقال بكلماتٍ تهزّ الجبال:

"شاهت الوجوه"!

رُميت حفنة صغيرة، لكنها وقعت في قلوب أعدائه كالصواعق، إذ كانت إيذانًا بانقلاب موازين المعركة، وبداية الانهيار الكامل لذلك الجمع الحاشد الذي اغترّ بكثرته.

ثم رفع الحبيب صلى الله عليه وسلم يديه الطاهرتين إلى السماء، ودعا دعاء المستغيث الوجل، دعاء الحبيب الذي يعلم أن النصر لا يأتي من السيوف، بل من عند ربٍّ لا يُخيّب رجاء من وثق به، فقال:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني! اللهم أنجز لي ما وعدتني! اللهم إن شئت لا تُعبد بعد اليوم"!

فاستُجيب الدعاء من فوق سبع سماوات، وهبط مدد السماء، ونزلت السكينة، وأقبلت جنود الرحمن في صفوف الغيب، لا تُرى بالأبصار ولكن تُحس في القلوب وفي انكسار الأعداء.

قال الله تعالى:﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾]التوبة: ٢٦[

إنها ملائكة الرحمن، تزأر في الخفاء، وتبث الثبات في صفوف المؤمنين، وتقذف الرعب في صدور هوازن، حتى تزلزلت أقدامهم، وانكسرت شوكتهم، وارتدوا مدبرين كأنما تساقطت السماء على رؤوسهم.

قال الله جل جلاله في وصف المشهد بكل أبعاده: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾]التوبة: ٢٥-٢٦[

كان درسًا بليغًا في العقيدة والتوكل، أن الكثرة لا تصنع النصر، وأن من اعتمد على العدد ضاع، ومن لجأ إلى الله نجا، فكانت حنين تذكرةً خالدةً لكل جيل :أن النصر لا يُشترى بالسيوف، بل يُوهب لأصحاب القلوب الصادقة.

ولم يبق في ساحة القتال سوى الجثث المترامية، والغنائم المتناثرة، والقلوب التي عرفت سرّ النصر، وعادت أكثر تعلقًا بالله، وأشد محبة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يقين لا يزلزله اضطراب الواقع، فحين اشتدت المعركة لم يُثبّت الناس إلا قوله: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"، وفي ذلك تأكيد لرسوخه في مقام النبوة وربط الأمة بها وقت الشدة.

- أن الملائكة تنزل لنصرة المؤمنين في لحظات العسر والابتلاء، لا يُرَون بالأبصار، لكن يُشعر المؤمن بأثرهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

- أن النصر محض منحة من الله تعالى، لا بسبب كثرة العدد ولا شدة السلاح، بل هو من عنده وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

- أن التوكل الصادق على الله هو ثمرة الإيمان الحق، فقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم دعاء المضطر الوجل المستعين بربه، رغم كونه نبيًّا مؤيدًا، ليعلّم الأمة أن الاستغاثة بالله هي سلاح المؤمن الأول.

- أن الله يُنزل السكينة في قلوب عباده المخلصين في أشد المواطن اضطرابًا، وهذا من أعظم دلائل رحمته وثمرات الإيمان.

- أن الغلبة الحقيقية ليست لمن ملك الأرض، بل لمن ملك قلبه باليقين، فالكثرة التي أعجبت المسلمين لم تغنِ عنهم شيئًا حتى عادوا إلى الله.

◆ أن كرامة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة في وقوفه بثبات وسط فرار أصحابه، وفي استجابة السماء لدعائه، وهو دليل محبة الله له ورفعة منزلته.

فوائد فقهية

◆ جواز تذكير الناس بالمواقف العظيمة السابقة لإحياء معاني الثبات والوفاء في القلوب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر العباس رضي الله عنه أن ينادي: "يا أصحاب السمرة! يا أهل بيعة الرضوان."!

◆ جواز استعمال الوسائل التي تقوّي العزائم وتحفّز النفوس في وقت المحنة، ومنها النداء بالألقاب الشريفة التي تذكّر بالعهد.

◆ أن الدعاء في موطن الشدة مشروع، بل هو من أعظم أسباب الفرج، كما في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في حنين.

◆ أن الرمي ولو بأدوات ظاهرها يسير إذا صاحبه إذن من الله أو نية صادقة فقد يكون سببًا للنصر، كما في رميه صلى الله عليه وسلم الحصى مع قول: "شاهت الوجوه."!

◆ فيه مشروعية التوكل مع العمل، فالنبي صلى الله عليه وسلم ثبت في الميدان، ونادى، ودعا، ولم يقتصر على الدعاء وحده.

◆ استحباب النداء بصوت عالٍ في حال الضرورة لبعث الحمية الإيمانية، وقد وُكّل به العباس رضي الله عنه لشدّة صوته.

فوائد أخلاقية

◆ الثبات في الشدائد هو عنوان الرجولة الصادقة، والنفوس الكبيرة هي التي تزداد عزمًا وقت الهزيمة.

◆ الوفاء بالعهد فضيلة عظيمة، فقد كانت بيعة الرضوان ذكرى عزيزة على الصحابة، أعادتهم للثبات والتضحية.

◆ محبة النبي صلى الله عليه وسلم تُترجم أفعالًا في أرض المعركة، لا أقوالًا في أوقات الراحة، فقد هرع الصحابة إليه لا لطلب الأمان، بل للفداء والتضحية.

◆ أن الغرور بالقدرات سبب للخذلان، والتواضع لله والرجوع إليه هو سرّ الثبات والنصر.

◆ أن النصر يُربّي النفوس الصادقة، ويجعلها تعود بعده أكثر قربًا من الله، لا أشد غرورًا بذاتها.

◆ أن تربية النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة غرست فيهم معاني الإقدام وقت الخوف، والثقة بالله وقت الفزع.

فوائد دعوية وتربوية

◆ أن تذكير الناس بتاريخهم الإيماني ومواقفهم المشرفة يُعيد لهم هويتهم، ويحيي فيهم معاني العزة والثبات.

◆ أن القدوة العملية أعظم وسيلة دعوية، وقدوة النبي صلى الله عليه وسلم في الثبات يوم حنين كانت هي الدرس البليغ الذي أعاد للأمة توازنها.

◆ أن القائد الصادق هو من يسبق جنوده إلى موطن الخطر، لا من يختبئ خلفهم، والنبي صلى الله عليه وسلم كان وحده ثابتًا حين ولّى غيره مدبرين.

أن الداعية ينبغي أن يُربي النفوس على التعلق بالله، لا على الأعداد، ولا على الوسائل المادية، وهذا أعظم طريق لبناء الأجيال.

◆ أن ربط الانتصارات بنصرة الدين لا بنصرة الأشخاص يخرج بالأمة من الانتصار الزائف إلى نصر حقيقي يثبّت الإيمان ويُعلي الرسالة.

ما يخالف الواقع

◆ اغترار كثير من المسلمين اليوم بالعدد والعُدّة، وتوهمهم أن النصر سيأتي من المال أو التحالفات أو القوة العسكرية، دون رجوع حقيقي إلى الله.

◆ ضعف التعلق القلبي بالله في أوقات الشدة، وقلّة الدعاء والتضرع، حتى صار كثير من الناس لا يعرف الله إلا في الرخاء، وإن نزل البلاء ضجّ بالسخط أو اتجه لغير الله.

◆ تفكك مشاعر الوحدة الإيمانية التي تُولد الثبات، فلا تذكير ببيعة ولا استحضار لعهد، ولا تجد في الميدان من يقول: "يا أصحاب المساجد، يا أهل القرآن"، إلا نادرًا.

◆ غلبة الطابع الفردي على الأمة، وتراجع صورة القائد القدوة، فلا يرَ الناس من يُثبتهم بثباته، ويقودهم بتوكله، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم.

◆ انبهار الشباب المعاصر ببريق القوة الزائفة، وتقديس بعضهم لرموز دنيوية بعيدة عن الدين، حتى باتوا يظنون أن العزة في غير سبيل الله.

◆ قلة من يربط الأحداث الجسام بالسنن الربانية، فلا تُفهم النكسات على أنها نتيجة ضعف التوكل أو الغرور، بل تُحمل على العدو فقط.

الفقرة الخامسة :إلى الطائف... حيث تتحصّن ظلال الجاهلية ويعلو صوت العناد

ما إن انقشعت سحابة الهزيمة عن وادي حنين، حتى ارتجّ الجنوب برجع الخطى المتقهقرة، وتدافع المنهزمون من هوازن وثقيف في مشهد تناثر فيه الكبرياء، وتكسرت فيه رايات الجاهلية تحت أقدام جنود الإيمان، تدافعوا مهرولين نحو آخر الحصون، وملاذ الخائفين ...الطائف!

تلك المدينة الجبلية العاتية، التي كانت تُعانق السحاب بحصونها العالية، وتُخبئ في جدرانها عناد قرون طويلة، وكبرياء أمة اعتادت أن تتوهم أن العزَّ في الحجارة، لا في السجود، وفي الحديد، لا في الوحي المنير.

دخلوا الطائف يجرّون أذيال الخيبة، يتنفسون الهزيمة، ويتكئون على جدران الوهم، وقد استقر في قلوبهم رعبُ صيحات الحق التي زلزلت أركانهم في حنين، ولم تنفعهم كثرتهم، ولا جموعهم المدجّجة.

وعلى رأس ذلك الجمع المتهالك وقف مالك بن عوف النصري، القائد الشاب الذي كان بالأمس يسوق قومه إلى الميدان بثقة الغرور، فإذا به اليوم يقودهم إلى الحصون مسربلًا بالخزي، متشبثًا بأسوار الطائف كالغريق يتشبث بعود من قش.

فأوصدت ثقيف أبوابها، لا أبواب الحصن فحسب، بل أبواب العقول والقلوب، ولبس أهلها لِباس الاستعداد، ولكن لا استعداد للهداية، بل استعداد للمواجهة... مواجهة النور بالسهام، ومصارعة الهدى بالحجارة.

شدّوا الأبواب، ورصّوا اللبنات، وارتفعت أصواتهم تملأ الأرجاء:

"الحصار! الحصار! ليُغلق كل شيء على الخارج والداخل "!كأنهم أرادوا أن يحاصروا النور، ويمنعوا صوت السماء من اختراق جدرانهم!
وكأنهم نسوا أو تناسوا أنّ ربَّ هذا النور قال:﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾]التوبة: ٣٢.[

وقد نقل أهل السير أن ثقيفًا كانت من أمهر العرب في فنون الحصار، وبرعت في هندسة الحصون، وصناعة المنجنيقات، وتفريغ السهام من فوق الأسوار كالمطر الغزير.
قال ابن إسحاق في سيرته" :تحصنت ثقيف في حصونها، وأغلقت أبوابها، واستعدت للقتال".
وفي روايةٍ أخرى:
"وكانوا قد بنوا حصنًا كأنما صُبَّ صبًّا، وأعدّوا فيه سلاحًا وخزائن، فكأنهم كانوا يعدّون له منذ زمان".

وهنا، تتجلى آية أخرى من آيات الله في سلوك البشر، كيف أن المذنب إذا لم يُدركه ندم، احتمى بالخطيئة، وتحوّل الجدار بينه وبين الحق إلى سجنٍ صنعه بيديه، قال الله تعالى :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾]المائدة: ١٠٤.[

وهكذا كان الطائف في تلك اللحظة... مدينة تلبّست بالخوف، وخلف جدرانها تحصّن الكبرياء، واصطفّ العناد، وأُعلنت الحرب لا بالسيوف فقط، بل برفض الهداية التي أقبلت إليهم تحملها يد الرحمة المهداة، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

لكنّ التاريخ يشهد، والقلوب المؤمنة توقن، أنَّ الحصون مهما اشتدّ بناؤها، لا تصدُّ نور الله إذا أراد أن ينفذ، ولا تحجز عن القلب رحمةً إذا قُدّر لها أن تصل.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- نور الله لا يُطفأ بمحاولات البشر، ولو اجتمع الكافرون على ذلك، لأن تمام نوره وعدٌ إلهي لا يُخلف، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وفي ذلك إثبات لعظمة قدرة الله ونفوذ إرادته فوق إرادة الخلق.

- من معاني الهداية الربانية أنها لا تُمنح بمجرد توفر الأسباب الظاهرة، بل بفضل الله وتوفيقه، فمن حُرِمها فذلك لمرض في قلبه أو كبرياء حجبه عن استقبال النور.

- التشبث بالجهل والعناد واتباع ما عليه الآباء دون دليل، كما وصفه الله تعالى، من صور الإعراض عن الوحي، وهو سلوك مذموم دل على فساد المعتقد واتباع الهوى، وهو منافٍ لحقيقة التسليم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

◆ خوف الكافرين من وصول الدعوة إلى عقول الناس وقلوبهم يدل على يقينهم ببطلان ما هم عليه، وهذا يعزز عقيدة أن الإسلام هو الدين الحق الذي تفرّ منه القلوب المريضة لأنه يفضح عورات الباطل.

فوائد فقهية

◆ ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من محاصرة الطائف بعد حنين يبيّن جواز الحصار في الجهاد، متى اقتضت المصلحة الشرعية ذلك، وأنه من أساليب الحرب التي أقرها الإسلام.

◆ إعداد العدو للحصون والسلاح يعطينا قاعدة فقهية حول وجوب إعداد القوة في المقابل، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وأن عدم الإعداد من التضييع.

◆ رفض ثقيف للدعوة بالرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم بعد الهزيمة، لا في حال قوة فقط، يبين أن الدعوة تُبلّغ للناس في كل الأحوال، وأن الهداية قد لا تقترن بانكسار العدو فقط بل تحتاج إلى تليين القلوب.

فوائد أخلاقية

◆ العناد والكبر يمنعان صاحبهما من الاستجابة للحق مهما كان واضحًا، ولذلك لم تنفع ثقيف كثرتها ولا تحصينها حين قابلت الوحي بالرفض.

◆ الاعتراف بالخطأ فضيلة، لكن حين يتمسك المذنب بخطيئته ويدافع عنها ويحصّن نفسه ضد النصح، يكون ذلك علامة على موت القلب، وفساد الباطن.

◆ الخوف من الهزيمة لا ينبغي أن يُقابل بتصلب في الباطل، بل بالخضوع للحق، كما فعل بعض من انهزموا في حنين فآمنوا، بخلاف من تحصن بالكبر فازداد ضلالًا.

فوائد دعوية

◆ البلاغ لا يتوقف عند الانتصار أو الهزيمة، بل يستمر رغم رفض المدعوين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الطائف، فقد أصرّ على إبلاغهم رغم صلفهم وتحصّنهم.

◆ الداعية لا يجب أن ييأس من محاولة إصلاح القلوب، حتى لو رأى منها صدودًا، لأن الفتح الرباني قد يتأخر، ولكن لا يُعدم أثر الدعوة ولو بعد حين.

◆ من وسائل صد الناس عن الهداية استخدام القوة والعتاد لمحاصرة صوت الحق، لكن هذا لا يمنع الداعية من الثبات، بل يرفع من قدر الجهاد في سبيل إيصال الدين.

فوائد تاريخية

◆ حصار الطائف كان أحد أصعب المواقف في حياة الدعوة بعد الفتح، لكنه يمثل صورة من صور المواجهة بين النور والظلمة، ويبين كيف أن الكفر يستميت في الدفاع عن بقائه ولو بالبناء والتحصين لا بالحجة والبرهان.

◆ مالك بن عوف، الذي قاد قومه للقتال، لم يكن في أول الأمر مستعدًا للحق، لكنه بعد فترة أدرك الخطأ وأسلم، وفي ذلك دلالة على تغير القلوب بمرور الوقت.

ما يخالف الواقع

◆ في زماننا تتكرّر صورة أهل الطائف في من يغلقون قلوبهم وعقولهم عن نور الوحي، ويتحصّنون خلف وسائل الإعلام والأفكار المستوردة لصدّ الناس عن الإسلام الصحيح.

◆ كثير من الناس اليوم يظنون أن العزة في المال أو السلاح أو التحالفات السياسية، ولا يدركون أن العز الحقيقي في التذلل لله والتمسك بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

◆ بعض النظم والمجتمعات تصنع حصونًا فكرية وتشريعية تمنع وصول الشريعة الصحيحة إلى واقع الناس، وتمنع الدعاة من بيان الحق، في محاولة مشابهة لمحاصرة النور، كما فعلت ثقيف.

الفقرة:السادسة بين الجدران واليقين.. بداية الحصار العظيم

ما إن خفت غبارُ حُنين، واندحر جمع الكافرين يجرّ أذيال الهزيمة، حتى انكفأت جموع هوازن وثقيف إلى معقلهم الأخير، إلى الطائف... المدينة المنيعة التي طالما اتكأت على جدرانها الحصينة، وتحفّزت في شعابها الوعرة، كأنما كانت على موعد مع هذا المصير منذ الأزل.

تسللت فلول المنهزمين داخل أسوار الطائف، يلهثون من وطأة الهزيمة، تلاحقهم صيحات "الله أكبر" وقد سكنت في مسامعهم، فزادتهم خوفًا على خوف. فأغلقوا الأبواب بإحكام، وشدّوا السلاح، وحصنوا الجدر، ورفعوا رؤوسهم خلف الشُرُفات، يترقبون سيوف الحق القادمة، وكلّهم ظن أن الحجارة والخشب ستصدُّ قدر السماء، وتمنع بأس الله إذا جاء.

عندها لم يتلكأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يسترح جنده الذين خرجوا من معركة للتو، بل مضوا قُدمًا بقيادته المباركة، يطوون الأرض طيًّا نحو الطائف، بقلوب موصولة بالسماء، وهممٍ لا تُقهر. كان يعلم أن الطريق ليس سهلاً، وأن الخصم خلف الأسوار شديد، لكن ما بين جنبيه يقين لا يتزعزع أن النصر بيد الله، لا بكثرة ولا بعدّة.

لقد حمل النبي صلى الله عليه وسلم معه ما يلزم من آلات الحرب آنذاك: المنجنيق والدبابات (وهي أبراج خشبية متحركة يتقدم بها المقاتلون للاقتراب من الأسوار)، مجسّدًا بذلك الأخذ بالأسباب مع كامل التوكل على الله تعالى، وهو القائل:
"احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز] "رواه مسلم.[

وعندما اقترب الجيش الإسلامي من أسوار الطائف، تهيّأت الصفوف في منظر لا يُرى له نظير، لا صخب فيه ولا تشتّت، وإنما خطوات صامتة تخترق الوديان، وعيون ترنو إلى القلاع، وقلوب معلقة برب الأرباب.

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُنصَب المنجنيقات، وتُدفع الدبابات، وتبدأ الكتائب في التقدم المنظم نحو الأسوار، تحت وابل من السهام والرماح، في مشهد يسطره التاريخ:
قلوبٌ مؤمنة تُزاحمُ الحجارة، وصبرٌ يشقُّ طريقه بين السهام، ويقينٌ يعلو فوق الجدران.

وكان أهل الطائف من أمهر العرب في الرمي، كما ذكر ابن إسحاق، فانهالت النبال كالسيل على رؤوس المجاهدين، ورغم ذلك، لم تُسمع منهم أنّة جزع، بل صبرٌ وثباتٌ واحتساب، يبتغون الأجر قبل النصر.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقودهم كقائد جيوش فحسب، بل كرسول هداية، يدرك أن القتال لا يُراد به سفك الدماء، وإنما رفع راية الدين، وهداية من ضلّ. فقد ثبت في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى شدة بأس العدو داخل الحصن، ورأى إصابة بعض أصحابه، قال:
"إنا قافلون غدًا إن شاء الله"، وذلك ليشاور ويوازن بين المكث والرجوع، ثم رجع فحاصرهم أيامًا أخرى.

وهكذا دارت الأيام على الطائف، حصارٌ من الخارج، ودعوات من القائد لفتح القلوب المغلقة من الداخل، وقد أنزل الله في مثل هذه المواقف قوله :﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]،وقوله سبحانه :﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

لقد كان الحصار مشهدًا تتجلّى فيه حكمة القيادة، وثبات الصف، ويقين التوكل، وعاقبة من يحتمي بالحجر ويغلق قلبه عن نور الحق. وما زالت القصة تمضي...

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوكل الحقيقي لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل يجمع بينهما، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أخذ بالمنجنيق والدبابات، وهو مع ذلك واثق أن النصر من عند الله.
- اليقين بنصر الله للمؤمنين حق لا يتخلف، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- الظن أن التحصن بالجدران والحصون يُغني عن قدر الله هو من الجهل بقدرة الله ونفي لصفة التوكل عليه.
- قيمة الإيمان تظهر عند الشدة، فقلوب المجاهدين كانت معلقة بربها في وقت الخطر، ما يدل على التعلق بالله وحده لا بالعدة.
- الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُرد القتال لمجرد القتال، بل هداية القلوب، مما يدل على أن الدعوة إلى الله مقدمة على سفك الدماء.
- النصر لا يأتي بكثرة العَدد والعُدد، بل بالإيمان الصادق واليقين بالله عز وجل.

فوائد فقهية

- الأخذ بوسائل القتال الحديثة والجديدة في زمنها مشروع، ما دام لا يخالف الشرع، كما استخدم النبي صلى الله عليه وسلم المنجنيق والدبابات.
- مشاورة القائد لجنده قبل اتخاذ قرار حاسم أمرٌ مندوب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إنا قافلون غدًا إن شاء الله."
- يجوز للمسلمين محاصرة العدو مدةً طويلة إذا اقتضت المصلحة، وقد حاصر النبي صلى الله عليه وسلم الطائف عدة أيام.
- الرجوع من القتال إذا اقتضته المصلحة لا يُعد هزيمة بل حكمة، كما رجع النبي صلى الله عليه وسلم يومًا ليوازن ويستشير.
- الصبر على أذى العدو وثبات المجاهدين في الحصار من الأمور المطلوبة شرعًا، وفيه أجر عظيم.

فوائد أخلاقية

- قوة الصبر عند المجاهدين تظهر في ثباتهم تحت وابل السهام دون أنة أو جزع.
- القيادة النبوية جمعت بين القوة في الحرب والرحمة في الدعوة، فلم يكن القتال غايته، بل وسيلة لهداية القلوب.
- الهمة العالية في متابعة الطريق بعد معركة حنين مباشرة تدل على علو الإرادة ونُبل المقصد.
- النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في الحكمة والتأني، فلم يتسرع بالهجوم، بل قدّر الحال والمآل، وعمل وفق المعطيات.
- الثقة بالله لا تعني التراخي أو التكاسل، بل تدفع للعمل والاجتهاد وتحمل الشدائد.

فوائد دعوية

- الدعوة إلى الله مستمرة حتى في ميادين القتال، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو فتح قلوب أهل الطائف.
- الغاية من القتال في الإسلام ليست الإبادة، بل إيصال رسالة التوحيد وهداية الخلق.
- الواقع يُظهر أن كثيرًا من الناس يتحصنون خلف تقاليدهم وأوهامهم، كما تحصن أهل الطائف خلف الجدران، فيرفضون دعوة التوحيد لا لأنها غير بيّنة، بل لأن قلوبهم مغلقة.
- تقديم النبي صلى الله عليه وسلم للهداية على المعركة درس عظيم للدعاة أن الدعوة مقدمة على الانتصار الظاهري.

مخالفات الواقع

- ظن بعض الناس اليوم أن الاعتماد على القوة العسكرية والتقنية وحدها كفيل بنصرة الأمة، متناسين أهمية التوكل على الله والإيمان به.
- وجود أصوات في واقعنا تروّج أن الانتصار لا يأتي إلا بتقليد الغرب في عدتهم وعددهم دون إصلاح حقيقي في العقيدة والأخلاق.
- كثير من القادة اليوم لا يوازنون بين العدل والرحمة في قراراتهم، بل يندفعون خلف المكاسب دون اعتبار للهداية أو مصلحة الأمة.
- يتسرع بعض الناس في الحكم على المواقف العسكرية والسياسية، دون تروٍّ أو مشاورة، مخالفين بذلك هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تأني اتخاذ القرار.
- قلة الصبر على البلاء والمحنة، وظهور الجزع عند أدنى امتحان، خلاف ما كان عليه الصحابة من الصبر والثبات تحت الحصار.

الفقرة السابعة :مكر ثقيف ومقاومتها... وسقوط الشهداء الأبرار

ما إن أحاط الجيش النبوي بأسوار الطائف، وأُقيم الحصار كما تُقيم السماء سُحبها الممطرة، حتى كشّرت ثقيف عن أنيابها، وأظهرت ما أخفته من مكائد ومكر، فكانت كمارد جريح يتحصن خلف جدران الخوف، ويتحين اللحظة للطعن من الظل. خرج الماكرون من ثقيف من شُرف الحصون، كالأفاعي تسعى بين الصخور، يتوارون خلف السُرُج والنوافذ، ويرمون بوابل السهام المسمومة، وقد اختاروا لذلك أمهر رُماة العرب، فكانوا لا يُخطئون هدفًا، ولا يُضيّعون سهمًا، وكأنهم أعدّوا لهذا اليوم عدّته منذ سنين.

وكانت السهام لا تتوقف، تُمطر كالغيث، لكنها ليست غيثَ حياة، بل مطرُ موت، تتساقط على رؤوس الطاهرين الذين خرجوا في سبيل الله، فتغرس في الأجساد المؤمنة، وتخطّ بدمائهم الزكية ملحمة الفداء.
سقط شهداء أبرار... رجالٌ عاهدوا الله منذ بدر، وأيقنوا منذ أحد أن الشهادة تشتاق إليهم كما يشتاقون إليها، فاختارهم الله في هذا اليوم ليكونوا من أهل الوعد الصادق.

قال الله تعالى:﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾]الأحزاب: ٢٣.[

فمنهم من قضى نحبه تحت أسوار الطائف، راضيًا مرضيًا، كأن أرواحهم ترفرف على أبواب الجنة، وتنتظر أن يؤذن لها بالدخول، بعدما خضّبت الأرض بدمائهم، وتزينت صحائفهم بالخاتمة التي يتمناها الصالحون.

وقد روى أهل السِّيَر، منهم ابن إسحاق والواقدي، أن من الشهداء في هذا الموطن كان **عبد الله بن أبي بكر الصدّيق**، أصابه سهم فاستُشهد، كما أُصيب **أصيب بن الحارث بن عتيك** من بني سلمة، و**عباد بن بشر**، وغيرهم من خيرة الصحابة.

فحزن النبي صلى الله عليه وسلم حزنًا عميقًا، وكأنّ قلبه ينزف مع كل شهيد يُرفع إلى السماء، ورفع يديه الشريفتين إلى السماء، يضرع إلى الله رب العالمين:
"اللهم تقبلهم في الشهداء، وداوِ جراح قلوبهم في الفردوس الأعلى".

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم أنّ الموت في سبيل الله حياة، وأن الشهادة ميثاق عزيز لا يُعطى إلا لمن صدق، فكان يواسي أصحابه، ويشد من أزرهم، ويربّت على قلوبهم المثقلة بالحزن، ويذكّرهم بقوله تعالى:
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾]آل عمران: ١٦٩.[

ورغم قسوة الموقف، وثقل الجراح، لم تتزعزع الصفوف، بل ثبت المسلمون ثبات الجبال الرواسي، لا تزلزلهم رياح الموت، ولا يثنيهم وابل النبال. ظلوا على العهد، يتقدّمون برؤوس شامخة، وقلوب معلقة بالسماء، يطرقون باب النصر بصبر الرجال، وعزم الأبطال.

كان القائد العظيم محمد صلى الله عليه وسلم في مقدمتهم، لا يُغادرهم طرفة عين، يتنقل بين الصفوف، يُلهمهم الصبر، ويواسي الجرحى، ويُذكّرهم بالوعد الحقّ، وأن الجنة أقرب إلى أحدهم من رمح عدوه، قائلاً:
"ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة".
رواه الترمذي بإسناد حسن.

هكذا كان المشهد: دموعٌ تنسكب على الشهداء، وسيوفٌ تلمع في وجه الطغيان، وقلوبٌ لم يزدها الحصار إلا يقينًا، ولم تزدها السهام إلا توقًا للقاء الله.
لقد كانت ثقيف تظن أنها تحتمي بحصونها، ولكنها لم تكن تعلم أن المؤمن حين يتحصن بالله، فإن الجدران لا تصده، وإن السهام لا تردّه، وإن روحه لا تسكن حتى تبلغ الجنة أو تذوق إحدى الحسنيين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الموت في سبيل الله ليس فناءً، بل حياة أبدية أكرم الله بها الشهداء، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، وهذا
- إثبات لحياة البرزخ الخاصة التي ينعم بها الشهداء عند ربهم.
- ثبات المؤمن في وجه المكائد والشدائد نابع من يقينه بوعد الله وصدق إيمانه بالغيب، فالقلب المعلّق بالآخرة لا تزعزعه النكبات الدنيوية.
- الشهادة لا يُنالها كل أحد، بل هي اختيار إلهي لمن صدق الله، كما قال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وفيه إثبات أن الاصطفاء للشهادة مرتبط بصدق الإيمان والعهد.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لقبول الشهداء وطلب الفردوس لهم فيه دلالة على أن من أعظم مراتب القبول عند الله أن يُكتب العبد في الشهداء، ويرزق الفردوس الأعلى.
- النبوة لا تُنافي رقّة القلب وحزن الفقد، بل تزيده رقة ورحمة، فقد حزن النبي صلى الله عليه وسلم على الشهداء، وهو يعلم مكانتهم، وهذه صفة الكُمّل من أهل الإيمان.

◆ من دلائل صدق النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو القائد الذي يربط القلوب بالله ويثبتها باليقين، فليس فقط صاحب وحي، بل معلم ومربٍّ وموصل للأرواح إلى منازل العبودية العليا.

فوائد فقهية

◆ في مشروعية الحصار العسكري للأعداء إثبات لوسائل الجهاد التي توازن بين القوة والتخطيط، وأن الإسلام لا يمنع اتخاذ الأسباب المادية للنصر.

◆ في اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لأرض المعركة ما يدل على فقهه في التدبير الحربي، إذ لم يقتحم الحصون ابتداءً بل أحكم الطوق عليهم وأعد للأمر عدته.

◆ جواز التربيت والمؤاساة للجرحى ومَن أصابهم الحزن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك بنفسه، وهذه سنة في التخفيف على أهل المصاب.

◆ استحباب دعاء القائد لجنده، خصوصًا في مواضع الشدة، وأن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم تقبلهم..." يؤخذ منه تأكيد على فضل الدعاء في ميدان القتال.

◆ من السنة تذكير المجاهدين بثواب الله وفضله، وأن الجنة هي السلعة الغالية، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ألا إن سلعة الله الجنة"، وهذا الحديث أصل في تحفيز المؤمنين في سبيل الله.

فوائد أخلاقية

◆ الوفاء بالعهد مع الله من أرفع منازل الأخلاق، والشهداء هم الذين لم يبدلوا تبديلاً، بل ظلوا أوفياء حتى آخر قطرة من دمائهم.

◆ الثبات في مواطن الشدة لا يكون إلا من أصحاب القلوب الصادقة، فالثبات خلق رفيع لا يعرفه إلا الصادقون.

◆ التضحية بالنفس في سبيل نصرة الحق، هي ذروة سنام مكارم الأخلاق، ولا يُقدم عليها إلا من عظّم أمر الله وأحبّ دينه فوق نفسه.

◆ مواساة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رغم انشغاله بالقيادة، دليل على خُلق الرحمة واللين، وهي من أخص صفاته صلى الله عليه وسلم.

◆ نُبل الصبر على الجراح، وعلو الهمة رغم النكبات، يدل على معدن الرجال الذين لا تغيّرهم النكبات ولا تُفت في عضدهم المصائب.

فوائد دعوية وتربوية

◆ التربية الجهادية ليست تربية غضب أو انتقام، بل تربية يقين وصبر واحتساب، ولهذا ثبت الصحابة رغم شدة الحصار والقتل.

◆ القائد التربوي لا يقتصر دوره على التخطيط، بل يكون في الصفوف الأولى، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم، ليكون قدوة حسية ومعنوية.

◆ ربط الأحداث بنصوص الوحي يُعطي التوجيه بعدًا إيمانيًا، كما ربط النبي صلى الله عليه وسلم موقف الشهداء بآيات الجنة وكرامة الشهداء.

◆ تذكير الناس بالموت في لحظات الشدة لا يُضعف النفوس، بل يثبتها، ويجعلها ترى ما بعد الموت أزهى من الدنيا، فهذه تربية الإيمان.

ما يخالف الواقع

◆ قلة من الناس اليوم من يرضى بالتضحية في سبيل الله، ويفضلون العافية والدنيا على الجهاد والبذل في ميادين النصرة.

◆ ضعف العزاء في المآسي والأحزان، فلا تواسي الأمة جرحاها ولا تُعظم شهداءها كما كان حال النبي صلى الله عليه

وسلم مع أصحابه.

- كثير من قادة الأمة اليوم غائبون عن ميادين المواساة والاحتكاك بالشعوب، بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يمر بنفسه على الجرحى.
- غياب روح العزة والثبات عند الشدائد، وتفشي الخور والجبن عند كثير من أبناء المسلمين عند أول نازلة.
- بعض المسلمين اليوم يظنون أن النصر لا يأتي إلا بكثرة العدد والعدة، ويغفلون عن حقيقة الإيمان والثبات، التي كان الصحابة يواجهون بها حصون الطغيان.

الفقرة الثامنة :جرأة الاقتحام ومحنة الجراح... فصل من فصول البطولة النبوية

حين امتدَّ ليل الحصار على أسوار الطائف، وتلبّد أفق النصر بشيءٍ من الغموض، ولم تلِن شوكة ثقيف خلف جدرانها العالية وأبوابها الموصدة، وقف النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بقلبٍ المؤمن، وعقل القائد، لا يعرف للركون سبيلاً، ولا يرضى بانتظارٍ قد يُغري العدو أو يُضعف العزم. فكان صلى الله عليه وسلم كما وصفه ربُّه:﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾]النمل: ٧٩.[

نظر صلى الله عليه وسلم في أمر الحصار، ثم عزم على الخطوة الجريئة التي لا يقدم عليها إلا أرباب اليقين، فأمر بمحاولة اقتحام مباشر للقلعة.

لقد كانت مجازفة محسوبة، لكنها تفيضُ بالشجاعة والتخطيط، وتحمل في طياتها رسالة أن النصر لا يُنال بالأمنيات، بل بخطى ثابته، وقلوبٍ عامرة بالتوكل، وأسبابٍ تُبذل حتى آخر رمق. قال صلى الله عليه وسلم: **"احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز]** "رواه مسلم.[

فتقدَّم الأبطال من الصحابة — نخبة الشجاعة، ورجال الفداء — يزحفون تحت غطاءٍ من "الدبّابات الجلدية"، دروعٍ عظيمة صنعت من جلود سميكة، صُممت لتقيهم وابل النبال، وترفع عنهم لهيب القِسيّ المترصدة بهم من كل فج. إنها أول مرة في التاريخ الإسلامي يُستخدم فيها هذا النوع من أدوات الحصار، وقد أورد ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (ج١٥٠/٢)، وابن هشام في "السيرة" (ج١٣٤/٤)، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنصب المنجنيق، واستعمال الدبّابات الجلدية، فكان بذلك فاتحًا لمرحلة جديدة من التنظيم العسكري في الفتح الإسلامي، حيث اقترنت البصيرة النبوية بوسائل القوة المتاحة، وجُعل التوكل على الله قائدًا لها.

وما إن اقتربوا من الأسوار، حتى سالت عليهم ثقيف ما أعدّته من كرات النار، وحديدٍ مُحمى، وسهامٍ مسمومة، تتساقط عليهم كما تتساقط الأمطار الغزيرة على قمم الجبال، وإذا بهذه المحاولة تتحول إلى ملحمة دامية، يسقط فيها الشجعان صرعى، ليس على الأرض فحسب، بل بين مراتب الشهادة والرضوان.
سقط بعضهم مضرجين بدمائهم، وأجسادهم تخبر عن بطولةٍ لا توصف، وقلوبهم قد طارت إلى ما وعد الله به عباده: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾]آل عمران: ١٦٩.[

وعاد من نجا منهم مثخنًا بالجراح، يحمل بين جنبيه ألمًا لا يُضاهى، لكنّ وجوههم كانت تشع بنور الرضى، فقد أدّوا ما عليهم، ورفعوا راية الثبات في وجوهٍ أبت أن تذل.

عندها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتراجع المؤقت، لا عن ضعف، ولا عن خيبة، بل ليُعيد ترتيب الصفوف، ويمنح الجنود فسحة للراحة والتخطيط.

فالقائد الحكيم يعلم أن النصر لا يكون دائمًا في الضربة الأولى، وأن التراجع أحيانًا يكون مفتاحًا للفتح المبين.

وفي طيّات القرار، ظل الإيمان مشتعلًا، والعزم متقدًا، فلم يُعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خارت عزيمته، أو ذبل أمله، كيف لا؟ وهو الذي قال الله له:﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**﴾]آل عمران: ١٦٠.[

وهكذا خطّت هذه اللحظات سطورًا من ذهب، تروي لنا كيف يُدار الصراع بين الإيمان والمكر، بين التخطيط والثبات، بين الشهادة والنصر، على يد أعظم قائد وأشجع جند عرفهم التاريخ.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ الإيمان بأن النصر من عند الله وحده، مهما طال الأمد أو اشتد الخطب، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

◆ وجوب التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، وهو توكل مبني على يقين بالحق لا على تواكل وعجز.

◆ تصديق ما أخبر الله به عن حياة الشهداء عنده، فهم أحياء يُرزقون كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، وهذا من أصول العقيدة في الغيب.

◆ الاقتناع بأن الفتح والنصر لا يُدرَك إلا بإذن الله، وليس بقوة العتاد وحده، فكل سبب لا ثمرة له دون إذنه وتقديره عز وجل.

فوائد فقهية

◆ جواز استعمال الوسائل العسكرية الجديدة والمبتكرة إن لم يكن فيها مخالفة شرعية، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه باستخدام المنجنيق والدبّابات الجلدية.

◆ جواز التراجع في القتال لأجل المصلحة والموازنة بين القدرة والمخاطرة، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن نقصًا في الشجاعة.

◆ الحصار من أساليب القتال المشروعة في الإسلام إذا دعت الحاجة إليه، وهو من جملة التخطيط الحربي المعتمد.

◆ القتال في سبيل الله يُعد من أعظم القربات، وموت المجاهد في سبيل الله يُرجى له الشهادة، وهو مقام رفيع لا يُنال إلا بالصبر والثبات.

فوائد أخلاقية

◆ الشجاعة في موضعها دليل الإيمان والعقل، لا تهورًا، وإنما إقدامٌ محسوب يحمل بين جنبيه العزيمة والبصيرة.

◆ القائد الناجح هو من يجمع بين القوة والحكمة، ويعرف متى يقدم ومتى يتراجع، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الملحمة.

◆ تحمل الأذى في سبيل الله من شيم الكرام، وقدوة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الثبات على الحق هي أبلغ دروس الصبر والتحمل.

◆ تقديم النفس في سبيل العقيدة دليل صدق، والرضا بالقدر بعد الإصابة خلق سامٍ يدل على صفاء القلوب وعلو الهمم.

مخالفات واقعية

◆ التواكل وترك الأسباب مع الادعاء بالتوكل، وكأن النصر ينزل بغير بذل أو عمل، وهو خلل في الفهم والعقيدة.

◆ تصوير الجهاد وكأنه مغامرة غير عقلانية، في حين أن السيرة النبوية تؤكد أنه قائم على الإعداد والتخطيط المحكم.

◆ التخلي عن الثبات أمام أول عقبة، وعدم الصبر في مواطن الشدة، بينما كانت الملاحم النبوية قائمة على الثبات حتى مع الجراح والمحن.

◆ ضعف روح الفداء والتضحية في الأمة اليوم، إذ أصبح كثير من الناس لا يتحمل عناء الكلمة، فضلاً عن حمل راية العمل والنصرة.

◆ تصوير التراجع في المعارك أو القرارات كفشل، مع أنه قد يكون في كثير من الأحيان عين الحكمة إذا كان لمصلحة أعظم.

الفقرة التاسعة :شهداء حصار الطائف... عطر الأرض بدماء الأطهار، وسطور المجد بمداد الأبرار

في قلب الحصار المتقد، حيث اشتد لهيب المعركة، وتعانقت السيوف والرماح فوق صخور الطائف، سُطِّرت ملحمة من أعظم ملاحم الثبات والفداء، لم يكتبها قلم، بل خطّتها الأرواح الزكية حين ارتقت، وسقاها الدم الطهور الذي روّى أرض الطائف، حتى فاحت منها رائحة الجنة.

هناك، على ثرى تلك البلدة التي استعصت على الفتح، وقف رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ما وهنوا، وما تراجعوا، وما قالوا إلا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧.]
تقدّموا صفوف القتال بقلوب ثابتة، وأرواح متعلّقة بالسماء، قد باعوا أنفسهم لله، فاشترى، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١.]

أولئك هم اثنا عشر كوكبًا من مهاجرين وأنصار، كتب الله لهم الخلود يوم اصطفاهم شهداء على أبواب الطائف، فنالوا وسام الشهادة في زمن النبوة، وأمام أعين سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، الذي رفع يديه المباركتين وقال دعاءً تخلّده الأيام والليالي:"**اللهم تقبلهم في الشهداء**]"رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.]

نعم، لقد صعدت أرواحهم إلى السماء، لكن أسماءهم بقيت خالدة في الأرض، تُتلى على ألسنة المؤمنين، وتُذكر عند مواطن البطولة، فهم من كتبوا صفحات من نور في تاريخ الإسلام، بأقلام من دم، وبمداد من صدق ويقين.

من المهاجرين الأطهار الذين استُشهدوا في حصار الطائف:

سعيد بن سعيد بن العاص :من أبناء المهاجرين الذين نشؤوا في بيت عز وشرف، فاستشهد ثابتًا على خطى الصحابة الكرام.

عرفطة بن جناب :حليف بني أمية، فاختار الحق وأهله، وقدم دمه قربانًا في سبيل الله.

عبد الله بن أبي بكر الصديق :الابن البار للصديق رضي الله عنه، أصابه سهم أثناء الحصار، ولبث يعاني حتى مات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فعدّه بعض أهل العلم في شهداء الطائف، جزاء إصابته في المعركة.

عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة :أخو أم المؤمنين أم سلمة لأمها، سطّر فصلاً من فصول الشجاعة والنصرة.

عبد الله بن عامر بن ربيعة :من حلفاء بني عدي، سلك درب الكرام في جهاده واستشهاده.

السائب بن الحارث بن قيس السهمي، و **أخوه عبد الله بن الحارث** :أخوان اجتمعا في النسب والجهاد والموت في سبيل الله.

جليحة بن عبد الله الليثي :من بني سعد بن ليث، نال الشهادة مرفوع الجبين، مشرق الختام.

ومن الأنصار الكرام الذين سُقوا من كأس الشهادة في هذا الحصار العظيم:

ثابت بن الجذع السلمي :فارس من بني سلمة، ما تأخر عن ميادين العزّ يوم نادى المنادي للجهاد.

الحارث بن سهل بن أبي صعصعة :من بني مازن، خطّ بدمه آخر رسالة للمحبين الصادقين.

المنذر بن عبد الله الساعدي :من بني ساعدة، أضاء سماء الطائف ببطولته واستشهاده.

رقيم بن ثابت بن ثعلبة الأوسي :من رجال الأوس الأبطال، نقش اسمه في لوح الشرف يوم الطائف.

أولئك هم الأبرار الذين قدّموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله، وخلّدهم التاريخ حين باعوا لله أغلى ما يملكون، فربحوا التجارة التي لا تبور.

وكانت دماؤهم الطاهرة زادًا لهذا الدين، وبذورًا أنبتت نصرًا مؤزرًا لاحقًا، فقد أُذن بعد ذلك بفتح الطائف، وكان لما قدّمه الشهداء من دماء أعظم الأثر في تمهيد الطريق للنصر.

إنهم شهداء في سجل السماء، لا تُنساهم الأرض، بل تفخر أنهم مروا عليها، وأنها حملت جثامينهم، واحتضنت أجسادهم، كما تحتضن الأرض أكرم كنز يُودَع فيها.

وهل ننسى قول الحبيب صلى الله عليه وسلم":والذي نفسي بيده، لا يُكلم أحد في سبيل الله – والله أعلم بمن يُكلم في سبيله – إلا جاء يوم القيامة، وجرحه يَدمى، اللون لون الدم، والريح ريح المسك]"رواه البخاري ومسلم.[

فهنيئًا لهم، فقد سالت دماؤهم عطرًا يُزكّي الأرض، وارتفعت أرواحهم طيورًا تسرح في الجنة حيث شاءت، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة:

فوائد عقدية

◆ الشهادة في سبيل الله منزلة عظيمة اختص الله بها من شاء من عباده، وهي تجارة رابحة مع الله عز وجل، دل عليها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾، وفيها الإيمان بالغيب وما أعده الله للشهداء.

◆ ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على الشهداء وقبول دعائه لهم دليل على أن الشهادة فضل من الله وتكريم في الدنيا قبل الآخرة، لا يُنال إلا بالصبر والصدق.

◆ حياة الشهداء عند ربهم حق ثابت دل عليه الحديث النبوي وقبله القرآن الكريم، وأن دماءهم تَعبق مسكًا يوم القيامة، إشارة إلى تكريم أرواحهم في البرزخ.

◆ الإيمان بالقدر وحسن الخاتمة، فقد قُتل بعض الشهداء في آخر لحظات المعركة فكانت تلك اللحظة هي خير لحظة لهم، وهو من تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

فوائد فقهية

◆ الجهاد في سبيل الله باقٍ إلى قيام الساعة، وهو من شعائر الإسلام التي لا تُهمل متى وُجدت شروطه وضوابطه الشرعية.

◆ إثبات مشروعية دعاء القائد لشهداء المعركة بالقبول والرفعة، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، وهو مما يُسن فعله بعد كل قتال في سبيل الله.

◆ احتساب من أصيب في المعركة ومات بعدها بشهادة له أصل في الشرع، إذا ثبت أنه مات من أثر الجراح وكان مشاركًا في المعركة بحق.

◆ من السنة إحياء ذكر الشهداء وتعليم سيرهم، وتخليد أسمائهم في مجالس العلم والخطاب؛ لما في ذلك من تثبيت القلوب وتعظيم التضحية في سبيل الله.

فوائد أخلاقية

◆ الوفاء بالعهد مع الله يقتضي الثبات في الميدان، كما كان حال الشهداء حين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ولم يبدلوا.

◆ التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والأمة خلق عظيم لا يُدركه إلا من امتلأ قلبه بالإيمان واليقين، وقد تجلى ذلك في مواقف الصحابة يوم الطائف.

◆ التنافس في ميادين الفداء كما كان بين المهاجرين والأنصار يدل على تكامل الصف المسلم، حيث تتسابق القلوب لا الألسنة فقط.

◆ ربط الشهادة بالعطر والريح الطيبة إشارة إلى نقاء نية الشهيد وصفاء سريرته، وأن الأعمال تتزين بالإخلاص لا بكثرة القول.

مخالفات واقعية

◆ ضعف الحديث عن الشهداء في مناهج التربية والبرامج الإعلامية، مما يقلل من روح الفداء في نفوس الأجيال.

◆ نظرة بعض الناس اليوم إلى الموت في سبيل الله على أنه تهور أو ضياع، لا عبادة وقربة، وهو من آثار ضعف الإيمان بالغيب وما أعده الله للشهداء.

◆ اعتقاد كثيرين أن النصر لا يكون إلا بعدد أو عتاد، بينما هذه الفقرة تظهر أن النصر الحقيقي يُمهَّد بدماء الصادقين لا بمجرد التخطيط.

◆ قلة من يتمنى الشهادة اليوم أو يدعو لنيلها، مع أن الصحابة كانوا يعدّونها شرفًا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتمناها ويحث عليها.

الفقرة العاشرة اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في وسائل الحصار

درسٌ خالد في عبقرية القيادة، وسموّ الرحمة

في قلب المعركة، حيث يعلو أزيز السهام، وتتحصّن المدينة خلف جدرانها العالية، تتجلّى أعظم صور القيادة النبوية حين تُختبر العقول، وتُحاصر العزائم، ويُظن أن الفتح بعيد المنال. هناك، على مشارف الطائف، كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم قائداً لا كغيره من القادة، لا يَركن إلى الحظوظ، ولا يرضى بالجمود، بل يُعلم البشرية معنى الاجتهاد في الأسباب، والتفاني في ابتكار الوسائل، دون أن تضعف قدمه عن الثقة بالله، ولا تغيب عن قلبه الرحمة، وإن اشتدت الحرب.

ضرب النبي صلى الله عليه وسلم حصارًا محكمًا على أسوار الطائف، المدينة الحصينة، ذات الأبراج المتينة، وأهلها ممن تمرّسوا في صدّ الغزاة. ولكن لم يكن صلى الله عليه وسلم ينتظر الفتح يأتيه صدفة، بل انطلق يعالج المعركة بعقل مدبّر، ونفسٍ مجتهدة، وقيادة تستقرئ الممكن والمستجد، فاستعمل وسائل غير مألوفة للعرب آنذاك، بل بعضها لم يكن يعرفه العرب إلا سماعًا في أخبار الروم والفرس.

فمن أولى خطوات الحصار، أنه أمر بقطع أعنابهم، وهي مورد رزقهم، وذخر ثروتهم، فأصابهم الرعب، وامتلأت قلوبهم بالجزع، فخرج وفد منهم يناشدونه بالله والرحم أن يكف عن ذلك. فما كان من صاحب القلب الرحيم، والنفس الطاهرة، إلا أن رقّ لحالهم، وتجلّت فيه أعظم آيات الرحمة، فأمر بكف اليد، رغم أن في استمرار الحصار نصرًا محتملاً، لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان ليُقابل الجزع بالغلظة، بل هو الرحمة المهداة كما وصفه ربه:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

ثم أمر صلى الله عليه وسلم بصناعة المنجنيق، آلة لم يألفها العرب من قبل، تُقذف بها الحجارة على الحصون، وهي من أدوات القتال التي نقلتها بعض القبائل من الفرس والروم، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يرَ في ذلك بأسًا، بل شرّع للأمة أن الوسائل ما دامت مباحة، فإنها تأخذ حكم المقاصد.
وأمر أيضًا بصنع الدبابة الخشبية، وهي آلة تُشبه الساتر المتحرك، يدخل تحتها الجنود ويتقدمون نحو الحصن في أمان، فكانت نقلة نوعية في فهم أدوات الحرب، وفصلاً جديدًا في فقه الوسائل.

لم يكن هذا الاجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم عن تهور أو تسرع، بل كان خلاصة شورى ومشورة، وتقدير للموقف، وتعليم للأمة أن التوكل لا يعني التواكل، وأن الأخذ بالأسباب سنة الأنبياء في الملمات.
وقد كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشاورة لأصحابه، يُنصت لرأيهم، ويُقدّر مقترحاتهم، حتى ولو كان وحي السماء يؤيده، كما قال تعالى:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾]آل عمران: ١٥٩.[

وهكذا قدّم النبي صلى الله عليه وسلم نموذج القائد الذي لا يغلق الأبواب، ولا يتعصّب للأساليب القديمة، بل يفتح الطريق أمام الأمة لتطوّر أدواتها، وتجدد فهمها، ما دامت تحت راية الشريعة، وفي حدود الإباحة والعدل والرحمة.

ولم يكن اجتهاده صلى الله عليه وسلم خاليًا من الدرس القيمي، فقد تكررت مواقف الرحمة والإنسانية حتى في قلب الحصار، بل قال بعد أن طال الحصار:
"إنا قافلون إن شاء الله"،
وانسحب النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يريق دمًا إضافيًا، لأن الغاية لم تكن قتلًا ولا انتقامًا، بل دعوة وهداية، فإن لم يدخل الناس في دين الله، فلا يُكره أحد. قال تعالى:﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾]البقرة: ٢٥٦.[

وقد أظهر النبي صلى الله عليه وسلم في حصار الطائف، كما في سائر غزواته، ذلك التوازن البديع بين الحزم واللين، وبين الجهاد والرحمة، وبين العقل المبدع والقلب الرفيق، فأثبت للعالم كله أن النبوة ليست علمًا بالوحي فقط، بل حكمة في التدبير، وبراعة في القيادة، ورحمة في التعامل، وسبقٌ في الفكر.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ الإيمان بأن النبوة لا تعني ترك الاجتهاد ولا تعطيل الأسباب، بل النبي صلى الله عليه وسلم مع كمال وحيه، كان يجتهد ويُحسن التدبير، وهذا من كمال بشريته وعبوديته لله.

◆ التوكل الحقيقي على الله لا يتعارض مع بذل الوسائل والبحث عن النصر بالقدرات المشروعة، وهذا من تمام العقيدة في القدر والعمل.

◆ تصرف النبي صلى الله عليه وسلم في ميدان الحرب برحمة وعدل يؤكد أن الإسلام دين شامل يجمع بين الإيمان بالغيب والعمل الصالح والرحمة بالخلق، لا دين قسوة وغلظة كما تصفه الأهواء.

◆ إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لمبدأ "الوسائل تُبنى على المقاصد" ما دامت مشروعة، يدل على مرونة الشريعة في الوسائل، وثباتها في الغايات، وهذا من دلائل كمال هذا الدين.

فوائد فقهية

◆ جواز قطع موارد العدو الاقتصادية في الحرب إذا كان ذلك يضعفه دون أن يكون فيه مخالفة شرعية، وهو من فقه المصلحة العسكرية.

◆ جواز استخدام أدوات ووسائل قتال مستوردة من حضارات أخرى ما دامت مباحة، وهذا أصل في جواز الاقتباس من غير المسلمين في الوسائل المدنية والعسكرية.

◆ التراجع من القتال لا يُعد هزيمة إن كان لتحقيق مصلحة أو دفع مفسدة أكبر، بل هو من فقه الموازنة ومراعاة الواقع، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

◆ مشاورة القائد لأتباعه سنة مؤكدة، وقد فعلها النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه مؤيد بالوحي، ليُعلّم الأمة العمل بالشورى في النوازل والمصالح.

فوائد أخلاقية

◆ القيادة الناجحة تجمع بين القوة والرحمة، بين الحزم واللين، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قمة في هذه المعاني، حتى في أحلك المواقف.

◆ الرحمة بالعدو والشفقة على المحاصرين ليست ضعفًا، بل هي من تمام الإنسانية والنبل في الخصومة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكف اليد لما رقّ لحالهم.

◆ الانفتاح على الأفكار الجديدة في الوسائل دون تعصب، يدل على مرونة التفكير القيادي النبوي، وأن الحق ليس محصورًا في المألوف.

◆ احترام آراء الآخرين والاستماع إليهم، حتى مع وجود التأييد الإلهي، يُعلّم الأمة أدب التواضع والشورى، وهو خُلق جليل قلّ من يتمثل به اليوم.

مخالفات واقعية

◆ إهمال الأسباب والركون إلى الدعاء فقط عند الشدائد، وكأن النصر سيأتي دون اجتهاد أو تخطيط، وهو من مظاهر التواكل المخالف للعقيدة.

◆ الغلظة والقسوة في التعامل مع الخصوم، دون مراعاة للجانب الإنساني أو إمكانية الرحمة، خلاف لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في أحلك ميادين القتال.

◆ الجمود على الوسائل القديمة، ورفض تطوير أدوات العمل الدعوي أو الإداري أو العسكري، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم سبق زمانه في ذلك.

◆ تجاهل مبدأ الشورى، والاستبداد بالقرار، واعتبار القيادة تفردًا لا مشاركة، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس مشاورة لأصحابه.

الفقرة الحادية عشرة: نداء النبوة من تحت أسوار الطائف: عتقٌ ورحمة، وحكمةٌ تُحطم الحصون

حين اشتد الحصار على الطائف، ومرّت الأيام ثقيلةً على من تحصّن خلف جدرانها، كانت القلوب في الداخل تضطرب، والنفوس تئن تحت وطأة الكرب، والأنفاس تتلاحق في ضيق لا تفتحه إلا حكمة من نور النبوة.

في تلك اللحظة الحرجة، خرج من رسول الله صلى الله عليه وسلم نداءٌ يَخترق الجدران، لا يحمل صوت التهديد، ولا رائحة الحديد والنار، بل يحمل مفاتيح التحرير، وبشائر الرحمة، وإعلانًا من قائدٍ اصطفاه الله ليكسر قيود الرق ويبعث الأمل في القلوب المنكوبة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الناس":**من نزل إلينا من عبيدهم فهو حر**] "أخرجه ابن سعد في الطبقات، وابن هشام في السيرة.[

ما أعظمه من نداء! إنه ليس فقط إعلان عتق، بل هو نداء يوقظ الفطرة التي طال عليها الأمد، وينفخ في أرواح المستضعفين روح الحياة من جديد. لم يكن المقصود مجرد استمالة عسكرية، بل كان فتحًا من نوع آخر، فتحًا للقلوب قبل أن يكون فتحًا للحصون.

لقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أن كثيرًا من العبيد الذين يقاتلون في صف الطائف إنما يُساقون سوقًا إلى ساحة المعركة، يُمنعون من حرية الاختيار، ويُستخدمون دروعًا بشرية خلف قضبان العبودية. فكان هذا النداء بمثابة إعلان إنساني نبيل، يعيد الاعتبار لهؤلاء، ويضع لهم يد النجاة من ظلمات الرق إلى أنوار الإسلام.

وكان لهذا القرار أثر بالغ، إذ بدأ بعض العبيد يتسلّلون، ويتركون سلاحًا ما اختاروه، ويتجهون إلى معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث الأمان والكرامة والحرية.

إنه مشهد فريد تتجلّى فيه عبقرية القيادة النبوية، التي لا تكتفي بخطط الحصار الظاهرة، بل تضرب العدو في عمق أعماقه، وتُضعف قواه من الداخل، بأسلوب لم يكن للعرب عهدٌ به، لكنه أسلوب لا يعرفه إلا من أُوتي الحكمة وفصل الخطاب.

وهكذا اجتمع في هذه المبادرة النبوية ما لا يجتمع في غيرها:

رحمةٌ إنسانية تستهدف المستضعفين.

حكمةٌ نفسية تُفكك صف العدو من داخله.

سياسةٌ حربية تقلب موازين المعركة بلا سيف.

ودعوةٌ ربانية تفتح باب النجاة لكل قلب راغب.

إنه التطبيق العملي لقوله تعالى:
﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾]القصص: ٥.[

وقد نَبَّه العلماء إلى أن هذا النوع من الأساليب يُعد من أرقى ما يفعله القادة في الحروب، لا سيما إذا كان محفوفًا بالعدل ومقاصد الرحمة. فقد قال الإمام ابن القيم في "زاد المعاد:"

"وكان صلى الله عليه وسلم شديدًا على أهل الحرب، لكن رفيقًا بالمستضعفين، كثير الحيلة في نصرة الحق، ولا يُفوّت وسيلة إلا أخذ بها، ما دامت مباحة ومشروعة."

هكذا علّم النبي صلى الله عليه وسلم أُمته أن العدل لا يُفارَق حتى في ميادين القتال، وأن الدعوة لا تُنسى حتى بين صليل السيوف، وأن العتق والتحرير قد يكونا أعظم من كل نصر مادي، لأنهما يفتحان أبواب الهداية والبصيرة.

الفوائد المستفادة من القصة

فوائد عقدية

- عدل الإسلام ورحمة النبي صلى الله عليه وسلم تشمل حتى ميادين القتال، مما يدل على شمول الشريعة وتمامها، وأنها من عند الله الذي لا يُظلم عنده أحد.

- تحرير المستضعفين وإعانتهم على نيل كرامتهم هو من معاني التوحيد الحق، الذي لا يرضى بالرق والذل إلا بحق شرعي، ويُعلي كرامة الإنسان.

- عتق العبيد ليس مجرد عمل دنيوي، بل عبادة يُبتغى بها وجه الله، كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم ليحررهم من قيد الظلم، ويدعوهم إلى نور الإسلام.

◆ إثبات أن الدين الحق لا يُكره عليه أحد، ولا يُفرض بالقهر، بل تُفتح له القلوب بالرحمة والعدل، وهذا من أصول الاعتقاد في الدعوة الشرعية.

فوائد فقهية

◆ جواز الوعد بالحرية والضمانات الشرعية لمن يفرّ من جيش الكفار إلى المسلمين، خاصة إن كان مكرهًا أو مستضعفًا.

◆ استمالة قلوب الضعفاء من صفوف العدو بوسائل مباحة مشروعة هو من السياسات الجائزة في الحرب، إذا كانت تؤدي إلى مقاصد شرعية.

◆ تشريع العتق في الإسلام لا يقتصر على كفارات، بل يُستحب في مواضع الرحمة والإحسان، ويُعد من أبواب الفضل العظيم.

◆ نداء النبي صلى الله عليه وسلم بالحرية للمستضعفين يُظهر أن القيادة النبوية لا تفصل بين الأحكام الشرعية ومصالح الأمة، بل تجمع بينهما في ميدان التطبيق.

فوائد أخلاقية

◆ الرحمة في الحرب من أعظم صفات القائد المسلم، وقد تجلت في نداء النبي صلى الله عليه وسلم حين عرض الحرية على العبيد رغم عداوة قومهم.

◆ نصرة المظلوم وتحرير المستعبد من الظلم خُلُقٌ نبوي رفيع، ينبغي أن يكون شعار كل من سار على طريق الإصلاح.

◆ الحكمة في التعامل مع العدو ليست ضعفًا، بل قوة وذكاء، وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم طريق تفكيك العدو من داخله دون إراقة دم.

◆ الإحسان إلى من أقبل على الإسلام سبب في ثباته واطمئنانه، وقد اختار العبيد الفرار إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العدل والكرامة في دعوته.

مخالفات واقعية

◆ تجاهل قضايا المستضعفين في العالم الإسلامي، والتقاعس عن نصرتهم، بينما النبي صلى الله عليه وسلم نصرهم حتى وهم في صف العدو.

◆ نزع الرحمة من العمل الدعوي أو السياسي، وتعامل بعض الجهات مع الناس بعقلية القهر لا عقلية الرحمة، وهذا خلاف منهج النبوة.

◆ غياب مفهوم العدل في الحروب المعاصرة، واستبداله بالانتقام والتشفي، في الوقت الذي علّم فيه النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه أن الرحمة لا تُغادر الميدان.

◆ استخدام قضايا المستضعفين لأغراض سياسية مجردة دون نية الإصلاح، بينما النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين تحريرهم وهدايتهم.

◆ الخوارج غلوا في التكفير والقتال، فلا يعرفون رحمة ولا يُفرقون بين عدو ومكره، بينما النبي صلى الله عليه وسلم فرّق بين العدو المعتدي والعبد المظلوم، فدعاه وحرّره.

.

الفقرة الثانية: رفع الحصار... عندما يُعلّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن التراجع قد يكون قمة النصر

تثاقلت الأيام تحت جدران الطائف، وتراكمت الساعات ثقيلةً من الحذر والترقّب، فالحصن في منعة، وأهله في صلابة، وعيون الصحابة تترقّب الفتح، وقلوبهم معلّقة بأن تُختم هذه الغزوة كما خُتمت أخواتها، بنصرٍ مبين ورايات مرفوعة.

لكن المدينة استعصت، والقلوب خلف الجدران لم تنكسر، والسهام ما برحت تطارد جيش الإسلام ليل نهار، وكأن السماء قد أرادت أن تعلّم أمة محمد صلى الله عليه وسلم درسًا جديدًا: أن النصر ليس دائمًا في مواصلة الضغط، وأن الهزيمة قد تكون في الإصرار، لا في الانسحاب.

وهنا، وفي لحظة من أعظم لحظات النبوة حكمةً وتجردًا، وقف النبي القائد صلى الله عليه وسلم يتأمل المشهد كله بعين البصيرة، لا بعين العاطفة، ثم أمر برفع الحصار، والعودة إلى الجِعْرانة، حيث الغنائم الوفيرة من غزوة حنين لا تزال بانتظار التقسيم.

يا له من قرار!
قرار لا يصدر إلا عن قائد رباني، يعرف متى يُقدِم ومتى يُحجم، يعرف أن العناد في غير موضعه ضعفٌ لا قوة، وأن الإذعان لسنن الله هو الطريق الأقصر إلى النصر الحقيقي. قال الله تعالى:﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾]آل عمران: ١٤٠[.

لقد أراد الصحابة الفتح، وتمنّت نفوسهم أن يُظفروا بمن أمطرهم بوابل من السهام، ومن صدّ دعوتهم بشدة وغلظة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم علّمهم – كما علّم الأمة من بعدهم – أن النصر لا يُنتزع بالعجلة، ولا تُقطف الثمار قبل نضجها.

وها هو القرار النبوي يتجلّى كدرس خالد في فنّ القيادة الإيمانية:
أن البطولة ليست في كسب الجولة، بل في إحسان تقدير اللحظة، وفي حفظ الأرواح، وفي الرضا بحكم القدر إذا أغلق الله بابًا، وانتظار فتح باب آخر .فقد قال الله تعالى :﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾]آل عمران: ١٥٩[، وهذا ما فعله الحبيب صلى الله عليه وسلم.

ورحل الجيش، ولم تُفتح الطائف ...لكن ما أعظم ما فُتح يومها!
لقد فُتح بابٌ من أبواب الفقه في السنن، وبابٌ من أبواب التربية النبوية العميقة، وفُتح للأمة طريق الفهم الرشيد لفقه النصر والتأني، والعزيمة والحكمة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّم الأمة أن النصر بيد الله لا بمجرد القوة أو الحصار، وأن الإيمان بالقدر يقتضي التسليم

حين يُغلق الله بابًا ولو مع قوة الأسباب.

◆ تقدير النبي صلى الله عليه وسلم للواقع وعدم الاستمرار في الحصار يُظهر فقهه العظيم بسنن الله الكونية، ويعلّم أن الاعتماد الحقيقي يكون على الله لا على الوسائل فقط.

◆ قوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ فيه إقرار بأن لله تعالى حكمة في تقليب أحوال الأمم، فليس دوام النصر علامة الرضا، ولا كل تأخر هزيمة.

فوائد فقهية

◆ جواز التراجع العسكري في حال تعذر تحقيق المقصود، ما دام ذلك مبنيًا على المصلحة والفقه في المآل.

◆ قرار النبي صلى الله عليه وسلم بالانسحاب يُعلّم أن التراجع عن الحصار ليس فرارًا، بل من فقه التدبير وشرع الله إذا كان الأصلح.

◆ الرجوع إلى الجعرانة لتقسيم الغنائم يدل على تنظيم النبي صلى الله عليه وسلم لشؤون الدولة والغنائم، وعدم الانشغال عن ترتيب مصالح المسلمين.

فوائد أخلاقية

◆ في التراجع النبوي تواضع وقبول للواقع دون كبر أو عناد، وفيه تعليم للأمة أن الاعتراف بواقع الحال ليس ضعفًا بل قوة.

◆ النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثالًا عظيمًا في ضبط النفس وعدم الانجراف وراء العاطفة، وفي تعليم أصحابه فن التروي وسعة الصدر.

◆ في القرار تربية للنفوس على أن العزيمة لا تعني المكابرة، وأن الحكمة مقدَّمة على الحماسة الفارغة.

مخالفات واقعية

◆ من مظاهر الواقع اليوم أن كثيرًا من القادة أو المسؤولين يظنون أن الرجوع عن القرار أو الاعتراف بعدم النجاح يُعد هزيمة، فيُكابرون ويستمرّون في الخطأ.

◆ الاندفاع في اتخاذ القرارات عند بعض الناس اليوم دون دراسة للواقع أو اعتبار لمآلات الأمور يُفضي إلى فساد عظيم، بخلاف نهج النبي صلى الله عليه وسلم.

◆ قلة من المسلمين اليوم يُدركون أن النصر ليس دائمًا ماديًا، بل قد يكون في درسٍ يُرسخ مبدأ، أو خلق يُهذّب أمة.

◆ خالف الخوارج هذا الفقه النبوي، إذ كانوا يرون أن التراجع أو التأني في المواجهة ضعف في العقيدة، فخرجوا على جماعة المسلمين وسفكوا الدماء بزعم الجهاد، لأنهم لا يفقهون فقه النصر ولا رحمة الشريعة، ولا يدركون أن من تمام الإيمان الصبر على القدر، والتسليم لحكم الله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الثالثة عشرة: الجِعْرانة... حين تعالت القلوب على الغنائم، وانتصرت الرحمة على الرغبة

عاد الركب النبوي من تحت أسوار الطائف إلى الجِعْرانة، والقلوب مثقلة بذكريات الحرب، والعيون لا تزال تلمح بقايا الدخان في الأفق، والسيوف لم تجف بعد من عرق الجهاد.

مع النبي صلى الله عليه وسلم رُفوف الغنائم، وخلفه جيش ظافر، لكن الموكب لم يكن موكب طامع في الدنيا، بل كان

موكب الرسالة... يقوده نبيّ الرحمة صلى الله عليه وسلم، لا تستهويه الأموال، ولا تستعبده الأنفال، ولا تأسره نشوة النصر، وإنما يسوقه هاجس الهداية، ويحدوه نداء :﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾]المائدة: ١١٨.[

تجمّع الناس في الجِعْرانة ينتظرون لحظة القسمة، وأشرأبت الأعناق، وتطلعت النفوس، فالغنائم كثيرة، والثمن باهظ من دماء وأرواح، والقلوب تترقّب الإنصاف.

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأ، وتأنّى، وسكت حين اشتدت اللهفة، كأنّما يريد أن يُربّي النفوس على حقيقة أعمق من الذهب والفضة، فيقول لهم بصمته:
"ليست الغنائم أغلى من هداية القلوب، ولا المال أحق بالبقاء من نسمةٍ تهتدي بنور الله".

وما هي إلا لحظات، حتى أقبل وفد هَوازِن، ووجوههم تكسوها غبرة الحرب، وعيونهم تفيض من الدمع، وقد أسلموا لله خاشعين، وقالوا:
"يا رسول الله، هؤلاء أبناؤنا ونساؤنا، لم يبق لنا سواهم، فارحم ضعفنا، وردّ علينا فلذات أكبادنا".

تأثّر النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الموقف، وتأثرت معه القلوب النقيّة، ووقف خطيبًا في الناس يقول:
"إن هؤلاء القوم قد اختاروا الإسلام، وإن ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لهم، فأما ما كان لغيرنا فاستشفعوا إليّ فيهم".

يا الله... ما أرقّه من مشهد، وما أرحمه من قائد!
لم يأمر بردّ السبايا من موقع السلطان، بل فتح باب الشفاعة الرحيمة، وأطلق للأمة فرصة أن تصنع قرارها من وحي الإيمان لا من سلطان الأمر.

وما إن سمع الصحابة ذلك، حتى تسابقت القلوب قبل الأيدي، وارتفعت الأصوات من كل جهة، وكأن الأرض نطقت بإجماع المحبة":رضينا يا رسول الله، رددنا إليهم أبناءهم ونساءهم"!

فإذا بالصحابة – أولئك الذين خرجوا للجهاد، وخاضوا المعارك، وتحمّلوا المشاق – يرمون الدنيا خلف ظهورهم، ويُضحّون بالمال والسبايا، في مشهد يُسطَّر بماء الذهب، ويُقرأ على مرّ العصور درسًا خالدًا في الإيثار.

وهكذا ارتفعت راية الرحمة فوق الغنائم، وعلّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المال لا يُقارن بدمعة يتيم، ولا بغصة أمٍ فقدت صغيرها.

ثم بعد أن سكنت القلوب، وهدأت العيون، ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم يقسّم الغنائم، لا كمن يوزع مالًا، بل كمن يغرس في كل سهمٍ بذرةً من نور الدعوة.

فأعطى المؤلفة قلوبهم، أولئك الذين بالأمس كانوا أشد أعدائه، فأغدق عليهم العطاء، يُعطي الواحد منهم مائة من الإبل، فينظر الناس في دهشة، حتى قال بعضهم":إن محمدًا ليُعطي عطاء من لا يخشى الفقر]"!رواه مسلم.[

كان يعطيهم وهو يرى فيهم قلوبًا بدأت تلين، ونفوسًا تتفتح لنور الإسلام، فاستعمل المال كما يُستعمل المفتاح لفتح الأبواب المغلقة، وقال عنهم" :إني لأُعطي الرجل وأدع من هو أحب إليّ منه، مخافة أن يكبه الله في النار]".رواه البخاري.[

أما الأنصار، أولياء النصر، وسند الدعوة، فقد كانت لهم لحظة أخرى... لحظة يحسن أن نُفرد لها مشهدًا خالصًا، حين تألمت نفوسهم وعاتبت، فخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات لا تزال تسري في الأرواح إلى يوم القيامة

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن الهداية بيد الله، وأن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم كان همه الأول هو هداية الناس لا جمع المال، كما دل عليه قوله تعالى على لسانه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، وهذا يُرشد إلى التعلق بأسماء الله وصفاته في التعامل مع الخلق: الرحمة، المغفرة، والعدل.

- وجوب تقديم مرضاة الله تعالى وهداية الخلق على المصالح الدنيوية، ولو كانت مالًا كثيرًا، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أرجأ قسمة الغنائم واهتم بهداية وفد هوازن.

- بيان عظمة الرحمة النبوية وكونها من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يتعامل مع وفد هوازن بمنطق الغنيمة والسلطان، بل بمنطق الشفاعة والتعليم، وهو من كمال تجرده لله سبحانه وتعالى.

- إثبات أن المال سبب وليس غاية، وأنه قد يُستعمل شرعًا لأهداف عقدية كترقيق القلوب وفتحها للإسلام، وهذا هو فقه المؤلفة قلوبهم الذي بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم وأقره القرآن الكريم في مصارف الزكاة.

فوائد فقهية

- مشروعية تأخير توزيع الغنائم لمصلحة راجحة، مثل انتظار وفد قد يُسلم أو النظر في أمرٍ تربوي يتعلق بالمقاتلين، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الجِعْرانة.

- جواز شفاعة الإمام أو الحاكم في رد السبي إذا أسلم أصحابهم، إذا كان ذلك من باب التربية والترغيب، لا الإلزام القهري، كما ظهر من موقف النبي صلى الله عليه وسلم.

- مشروعية إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم والمال العام ولو كانوا حديثي عهد بإسلام، إذا قُصد بذلك تثبيتهم على الدين، كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان وسهيل بن عمرو وغيرهم.

- مشروعية تفريق الإمام الغنائم بنفسه، وتقديره لمصالح كل طائفة على حدة، فقد أعطى المؤلفة وترك الأنصار، وأعطى البعض أكثر من غيرهم، وهذا يرجع للاجتهاد والتقدير لا للمساواة المجردة.

فوائد أخلاقية

- التربية على الإيثار وترك الدنيا عند تزاحمها مع القيم، فقد ضرب الصحابة مثالًا خالدًا في ردّ السبايا طوعًا لله تعالى، ولم يتشبثوا بما كسبوه من جهادهم.

- أهمية الرحمة في معاملة الآخرين، حتى في ميدان الغنائم والانتصار، فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل رد الأبناء والنساء مقدَّمًا على اقتسام المال، ليؤكد أن القلوب أولى بالعناية من الأجساد.

- في الموقف تجسيد لخلق الحياء والوفاء، فوفد هوازن جاؤوا خاشعين، مستسلمين، باكين، فاستحقوا الرحمة، وهذا يدل على أن صدق القلب يظهر في الملامح والألفاظ، ويؤثر في القلوب الطيبة.

- مراعاة مشاعر الناس عند اتخاذ القرار، فقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة خيارهم في التنازل، فلم يُجبر أحدًا، بل رباهم على أن يُقدّموا من أنفسهم، فكان ذلك أنفع لهم وأكرم في الأثر.

مخالفات واقعية

- التهافت على المال عند أدنى فرصة، واعتبار الغنيمة هدفًا لا وسيلة، مما جعل كثيرًا من الناس اليوم لا يفكر في هداية ولا دعوة ولا مصلحة عامة، إنما في الربح الفردي السريع.

- التبرم من كل تأخير مادي أو نفع دنيوي، وكأن الدنيا هي الميزان الوحيد للنجاح، بينما تأتي النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن بعض المصالح الكبرى تتطلب الصبر.

- ضعف الرحمة في قلوب كثير من المسلمين اليوم، حتى صاروا يُنفقون الأموال على الشهوات، ويقترون بها في مواضع الشفقة، خلافًا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي قدّم الشفقة على المال.

- قلة الإيثار في العلاقات الاجتماعية، فصار الناس اليوم يخاصمون من أجل حقٍّ دنيوي، ولو كان يسيرًا، بخلاف ما فعله الصحابة الذين ضحّوا بأموالهم من أجل دمعة يتيم.

- في تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه على الإيثار والرحمة والتجرد عن الدنيا ردٌّ على منهج **الخوارج** الذين يُكفّرون الناس لأدنى مخالفة، ويُغلّبون أحكام الدماء، ويتجاهلون الرحمة في الشريعة، وهو من أعظم مظاهر انحرافهم عن سبيل النبي صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الرابعة عشر: الأنصار... حين بكى النبي صلى الله عليه وسلم في خيمة الجِعْرانة

في خيمة من خيام الجِعْرانة، لا يُميّزها رفٌ من أدم، ولا يُحاط بسُتور من سندس، اجتمع رجال لا ككل الرجال؛ رجال حملوا همّ هذا الدين يوم تنكّر له القريب والبعيد، رجال قيل عنهم في الملأ الأعلى» *قومٌ آمنوا بي ولم يروني*. «كانوا أحياء بقلوبهم، لا بأبدانهم فقط، صدّقوا، وهاجروا، وآووا، ونصروا، وبذلوا، ثم صبروا.

هنالك، وعلى أعتاب خاتمة ملحمة حنين، حيث انطوت صفحة من أعظم معارك الإسلام، كانت خيوط الابتلاء الجديد تنسج نفسها على غير ما ألفوه من الدماء والسيوف؛ إنّه ابتلاء الغنيمة، وفتنة المال، وسُكرة العطاء.

الوادي يضج بالغنائم، هوازن قد تركت وراءها نساءً وذرية ومتاعًا لا يُحصى، والناس ينتظرون القسمة، وقد علت الأبصار شاخصة نحو يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، تترقب أن تنبسط بالعطاء.

وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم يقسم، ولكن على غير ما توقع الناس، فجعل يُعطي من أسلم حديثًا، من كان بالأمس في صفوف العداء، من قاتل ثم أسلم، ممن تُرجى هدايتهم وتثبيتهم: مائة بعير لصفوان، ومثلها لأبي سفيان، بل رُوي أنه أعطى بعضهم مائة بعير ثم أعادها له مرةً وثانيةً وثالثة حتى قال صفوان: "والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ) "!*رواه مسلم*(

ولكن... أين الأنصار؟ أين الذين احتضنوه حين طُرد، وآووه حين أُهين، وآمنوا به حين كذّبه سادة قومه؟ لم يُعطِ أحدًا منهم شيئًا.

هنالك تسللت همسات من الألم في أوساطهم، ما بين استغراب صامت، وعتب مكلوم، قالوا في أنفسهم كلمات خرجت من حرقة المحبة لا من جحود العطاء" *يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم"!*

بلغت هذه الكلمات مسامع النبي صلى الله عليه وسلم... ولكن كيف سيتعامل الحبيب المصطفى مع أحبابه؟ هل يغضب؟ هل يعاتب؟

لا، بل يُرسل سيد الخزرج، سعد بن عبادة رضي الله عنه، فيطلب منه أن يجمع له الأنصار في الحظيرة، وحدهم، دون أحد من الطلقاء، أو المؤلفة قلوبهم.

جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، متوشحًا بردائه، تحمله قدماه لا على عرش من ذهب، بل على جمر من الحزن والعتب، دخل على الأنصار وهو يعلم أنه ما شكا أحد منهم لأجله، وإنما هو ألم الغربة عن قلبٍ أخلصوا له، وخافوا أن تُشاركهم فيه القلوب التي لم تذق مرارة البذل من أجله.

وقف بينهم، وقال بصوته الذي لم تعرف الأرض أصدق منه لهجة ولا أبر منه نغمة:

"يا معشر الأنصار، ما حديثٌ بلغني عنكم؟ أوجدتم في أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟"!

ثم راح صلى الله عليه وسلم يذكّرهم بما بينهم من العهد والإحسان، لا ليُمنّ، بل ليُبين.

"يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فألّفكم الله بي؟"

قالوا: "الله ورسوله أمنّ وأفضل". فقال صلى الله عليه وسلم" :ألا تجيبونني؟"
قالوا وقد خنقت العبرة أصواتهم: "وبم نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل".

هنا انهمرت دموعه صلى الله عليه وسلم، وتقطّعت الكلمات في حلقه، لكنه أتمها بكلمات لو كُتبت على صدور الرجال لكان ذلك لها موضعها:

"أما والله، لو شئتم لقلتم فلصَدقتم وصُدّقتم: أتيتنا مكذّبًا فصدّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فواسيناك... أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟"!

ثم صرخ قلبه قبل لسانه، وقال:

"أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار!

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار"!

فما إن فرغ، حتى أجهش القوم بالبكاء، خنقت العبرة أصواتهم، وتتابعت شهقاتهم كأمواج بحرٍ هائج، ما تركت عينًا إلا أغرقتها. ضجّت الخيمة بالبكاء، لا بكاء الشكوى، بل بكاء الولاء، بكاء الوفاء، بكاء أن تكتشف أنك أغلى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا وما فيها. قالوا بقلوبهم قبل ألسنتهم" :رضينا برسول الله قسمًا وحظًا"...

وما أجمل ما ذكره الله تعالى عنهم في كتابه المجيد: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]

نعم... رجع الناس بالغنائم، وعاد الأنصار برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فرحُهم به أغلى، ووصله عندهم أبهى، وقربه في قلوبهم لا يُضاهيه كنز ولا متاع.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله تعالى يبتلي عباده بالسراء كما يبتليهم بالضراء، واختبار الغنيمة والمال قد يكون أشد من اختبار السيف والدماء.

- محبة النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان، ورضا الأنصار به قسمةً وحظًا هو تعبير عن كمال الإيمان وتقديمه على شهوات الدنيا.
- الوفاء للنبي صلى الله عليه وسلم والتعلق به دِين وعقيدة، وليس مجرد عاطفة بشرية، ولذلك مدح الله الأنصار في القرآن على ذلك.
- اختيار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون من الأنصار لو لم تكن هجرة، يدل على فضلهم العظيم، وكونهم من خير أولياء الله بعد المهاجرين.
- التثبيت على الإيمان نعمة كبرى، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ووكلتكم إلى إسلامكم"، مما يدل أن الإيمان الصادق يغني عن التثبيت بالعطاء.
- بكاء النبي صلى الله عليه وسلم من شدة محبته للأنصار وحرصه عليهم يدل على أن الرحمة النبوية أصل عظيم في دعوته، وهي من دلائل نبوته.
- الربط بين الهداية والإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم دلائل صحة المعتقد، فالهداية لا تتم إلا بنور رسالته.

فوائد فقهية

- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنيمة وإن لم يكن لهم سابقة في الإسلام، إذا كان في ذلك مصلحة راجحة للإسلام والمسلمين.
- يُسن للقائد أن يُراعي قلوب أصحابه وأن يعالج ما يطرأ فيها بالحكمة واللين لا بالزجر والعقاب.
- جواز حبس الغنيمة مدة بعد المعركة وعدم تعجيل قسمتها حتى تُراعى المصالح الشرعية.
- الأفضلية في القسمة لا تكون دائمًا بحسب السبق والجهاد، بل قد تتقدم المصلحة العامة على الاستحقاق الفردي.
- كلام الصحابة رضي الله عنهم إن كان عن تألم لا اعتراض، ولم يُجهر به، لا يعد معصية توجب العقوبة.
- سياق الغنيمة يعلّم ضرورة التفريق بين الغنائم الخاصة التي يملكها المجاهدون، والفيء الذي يوزّع لمصالح الأمة.

فوائد أخلاقية

- الصدق في المحبة يظهر عند لحظة الألم لا عند لحظة النصر، وقد ظهر حب الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم حين خافوا أن يتركهم.
- الوفاء خلق نبيل، ظهر في النبي صلى الله عليه وسلم حين قابل ألم الأنصار بالاعتراف بفضلهم.
- الإيثار من أعلى مراتب الأخلاق، وقد مارسه الأنصار حتى في لحظة القسمة حين قالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظًا.
- الإصلاح بين القلوب الغيورة من واجب القائد، ولا يكفي السكوت عن الألم الداخلي إن كان يهدد الصف.
- التواضع في مخاطبة الناس ولو كنت قائدهم يدل على علو الخلق، وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار كأنهم أنداده لا أتباعه.
- الاعتراف بالفضل لأهله منهج نبوي، فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار بمواقفهم المشرفة من غير إنكار ولا تجاهل.

فوائد تربوية

- من الأخطاء التربوية أن يُربى الناس على العطاء فقط، بل يجب أن يُربوا على الثبات والصبر دون انتظار مقابل.
- الدموع الصادقة هي وسيلة تطهير للنفوس، وقد اجتمع فيها النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار في هذا الموقف

التربوي المؤثر.

- العدل وحده لا يكفي في التربية القيادية، بل لابد من الرحمة والاعتراف بالفضل ومعالجة المشاعر بحكمة.
- التذكير بالنعمة القديمة عند فتنة النعمة الجديدة منهج نبوي في تقويم المشاعر وتصحيح المفاهيم.
- من أعظم وسائل التربية أن تُربى القلوب على القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على الجري وراء حطام الدنيا.
- الاحتواء العاطفي للمخلصين في وقت الغفلة والانكسار يعيد إليهم الثقة، ويجعل ولاءهم أقوى مما كان.

فوائد دعوية

- مراعاة الداخل الدعوي أوجب من كسب الخارج المعادي، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُغفل الأنصار رغم اهتمامه بتأليف قلوب المؤلفة.
- الداعية الناجح لا يكتفي بنجاح الظاهر بل يُفتش عن همسات القلوب ويعالجها بلطف.
- التعامل مع الشكاوى العاطفية في صفوف الدعاة ينبغي أن يكون بالحوار والتقدير لا بالاتهام والتسفيه.
- من أخلاق الداعية الناجح أنه لا يُفرّق بين أصحابه إلا بحسب الثبات لا بحسب الحظوظ المادية.
- التفريق بين الثابتين في الدعوة والمتذبذبين ضروري في أسلوب الخطاب، ولا يُسوّى بينهم في التكريم والاهتمام.
- الشفافية في الخطاب مع أصفياء الدعوة من أهم أسباب دوام المحبة والثقة بين القائد وجنده.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يُقدّمون المؤلفة قلوبهم وأصحاب المصالح الدنيوية، ويُهمشون المخلصين الثابتين الذين حملوا الدعوة في الشدة.
- قلّ من القادة من يُحسن مخاطبة مشاعر رجاله بإخلاص ويعترف بفضلهم، بل إن بعضهم يحتقرهم ويُقصيهم عند أول فرصة.
- صرنا نرى كثيرًا من العاملين للدين تتأثر نفوسهم بسرعة عند أدنى حرمان أو شعور بالتجاهل، ولا يصبرون كما صبر الأنصار.
- في واقعنا المعاصر، تُقاس القلوب بالمكاسب والمناصب، لا بالحب الحقيقي والوفاء للدعوة، عكس ما فعله الأنصار.
- كثير من الدعوات لا تربي أتباعها على الرضا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه، بل تُربيهم على التنافس على المنافع.
- الدعوة عند البعض اليوم قائمة على العطاء المادي فحسب، دون أن تُربى القلوب على الإيمان الذي يُغني عن التثبيت بالعطايا.

الفقرة الخامسة عشر العمرة من الجِعْرانة... تتويج الفتح بالنسك، وغسل القلوب بعد الغبار

بعد أن هدأت العواصف، وسكنت قعقعة السيوف في وديان حُنين، وبعد أن انطفأت جذوة المعركة التي خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في سبيل التوحيد، وانجلت سحب الفتنة التي تجمعت من أركان هوازن وثقيف، بدا مشهد الجزيرة العربية وكأنه يتهيأ لنقلةٍ مباركة... نقلة من دماء الشهادة إلى صفاء السجدة.

كان الناس في الجِعْرانة، وقد عادت السيوف إلى أغمادها، والغنائم قد وُزعت، والقلوب بين شكرٍ ودهشة، وبين حنينٍ إلى البيت الحرام. وفي ذلك الموضع المشرّف الذي عسكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم لأيام، حيث خُزنت الغنائم، وحسمت المواقف، وابتُلِيَت القلوب بالفتنة والوفاء... هناك اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرارًا يليق بخاتمة نبوته: أن يُتوَّج الفتح بالنسك، وأن تُختم الملاحم بالطواف حول البيت، وأن تُغسل أرواح المؤمنين بماء زمزم، كما غُسلت أرض الحجاز من رجس الشرك.

فلبّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الجِعْرانة، محرمًا معتمرًا، وهو الذي لم ينس يومًا أن مهمته الأولى هي دعوة القلوب إلى الله، لا فقط حسم المعارك. خرج في موكبٍ مهيب، ليس فيه صخب الانتصار، بل وقار الطاعة، وليس فيه زهوُ الغنيمة، بل تواضع الذاكرين.

مضى على راحلته، يُردِّد بصوته الشريف الذي أسلمت له الجبال والأودية:

"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك".

كان المشهد يفيض روعةً وجمالًا... جموع الصحابة تسير خلفه، قلوبهم تهتف قبل ألسنتهم، ودموعهم تغسل وجوههم من عناء الحروب، كأنهم جميعًا يولدون من جديد على أعتاب البيت العتيق.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة، دخول الطائع المحب، لا دخول الغازي المنتصر.

لم يُشمّر عن ساعده ليفرض سلطانًا، بل رفع يديه ليُعلن عبودية خالصة لربّ هذا البيت.

ولم يكن في قلبه إلا أن يتمم ما بدأه خليل الله إبراهيم عليه السلام: أن يكون البيت مقامًا للناس وأمنًا، ومحرابًا للتوحيد، لا مَعلَمًا للجاهلية والكبر.

فطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت سبعًا، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم حلق رأسه الشريف، تواضعًا لله، وكأن كل شعرة تسقط من رأسه تحمل معها ذنوب أمة، ووساوس دنيا، وغبار غزوة.

وقد أقام بمكة ثلاثًا، في تلك العمرة التي لم تُسجل فقط في كتب المناسك، بل في قلوب العارفين، الذين أدركوا أن الفتح ليس كسر أسوار، بل فتح الصدور بنور الإيمان، وأن النصر الحقيقي ليس إخضاع الأجساد، بل هداية الأرواح.

فلم تكن عمرة الجِعْرانة مجرد شعيرة، بل كانت إعلانًا نبويًّا بليغًا أن كل قطرة دم أُريقت، وكل عَرَق سال، لم يكن في سبيل غنيمة أو جاه، بل في سبيل أن يُرفع الأذان، وتُتلى الآيات، وتُعبَد الكعبة، لا الأصنام.

وقد صدق الله إذ قال:﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾]النصر: ١–٣[

وهكذا رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، بعد أن قرّت عينه بالنصر، وطابت نفسه برؤية البيت، وعادت معه القلوب عامرة، طاهرة، متعلّقة بالسماء أكثر من تعلّقها بالأرض. وعاد معه الصحابة وقد عرفوا أن الركب الذي يعود برسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يُقاس بحمل من الغنائم، ولا بعير من الذهب، لأنهم رجعوا بالرضا، والهدى، والحب، والإيمان... وكلها من أعظم المغانم.

.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- مشهد العمرة من الجِعْرانة يثبت أن النصر الحقيقي في الإسلام ليس دنيويًا ماديًا، بل هو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، وأن العبادات هي ثمرة الجهاد وعلّته الكبرى، قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

- عمرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح فيها تأكيد على أن الغاية من الرسالة هي دعوة القلوب إلى التوحيد، لا الاستعلاء أو التسلط على رقاب الناس، ما يدل على تجرد النبي صلى الله عليه وسلم لله، وإخلاصه في تبليغ رسالته.

- في تلبية النبي صلى الله عليه وسلم من الجِعْرانة: "لبيك اللهم لبيك..." إقرار بتوحيد الألوهية والربوبية، ونفي الشرك، وهذا أصل العقيدة، فالتلبية تعلن الولاء التام لله وحده.

- موقف النبي صلى الله عليه وسلم من مكة بعد فتحها، حيث دخلها متواضعًا عابدًا، لا متجبرًا منتصرًا، فيه بيان لصفة العبودية الكاملة لله، والتي هي من أعلى مراتب الإيمان.

- ختم النبي صلى الله عليه وسلم عمل الجهاد بالطواف والسعي والحلق يدل على ترابط العقيدة والشعائر، فكل عمل عسكري شرعي غايته إقامة الدين لا مطامع الدنيا.

فوائد فقهية:

- يستحب لمن فرغ من الجهاد أن يُعقب نسكه أو عمرته أو حجه إن تيسر، تأسّيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم في عمرته من الجِعْرانة.

- في قوله: "فلبّى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجِعْرانة محرمًا معتمرًا" دليل على جواز الإحرام من أدنى الحل لأهل مكة أو من كان قريبًا من مكة، وهو أحد مواضع الإحرام.

- من السنة أن يقرن المؤمن بين الطاعة والطاعة، وأن لا ينسى العبادة في أوقات النصر والغنيمة، بل يزداد شكرًا لله على نعمه.

- في ترديد النبي صلى الله عليه وسلم التلبية بنفسه، مع جمع الصحابة حوله، تعليمٌ للناس بالإحرام العملي، وفيه دلالة على أن التلبية تُقال جهراً ليستفيد الناس ويتعلموا.

- في حلق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه بعد العمرة دليل على أن الحلق بعد العمرة من السنة، وهو أفضل من التقصير، وفيه أثر من التواضع واتباع السنة.

فوائد أخلاقية:

- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم في دخوله مكة رغم النصر المؤزر يعلّم الدعاة والقادة أن العظمة في الخضوع لله، لا في التكبر على الناس.

- دموع الصحابة وهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة بعد الغزوة تدل على رقة قلوبهم وصدق محبتهم لله ورسوله، وأن النصر الحقيقي يولّد الخشوع لا الغرور.

- في ذكر أن "الموكب ليس فيه صخب الانتصار، بل وقار الطاعة" تعليم للمسلمين أن النصر يجب أن يُقابل بالشكر والخشية لا بالتفاخر والتجبر.

- عبادة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح تزرع في الأمة خلق الوفاء مع الله، وأن الفتح لا يعني انتهاء الطريق، بل بداية دوام الطاعة.

- الاستسلام لحكم الله، والرضا بما قسمه، كما فعله الصحابة بعد توزيع الغنائم، يدل على التربية العالية على الإنصاف والزهد في الدنيا.

فوائد تربوية:

- العمرة بعد الفتح كانت محطة تربوية عظيمة للصحابة، تعلّموا فيها أن التعلق بالبيت الحرام والنسك هو ثمرة كل تضحية سابقة.

- النبي صلى الله عليه وسلم ربّى أصحابه على أن الطاعة في السعة أعظم من الطاعة في الضيق، وأن الاستقامة بعد النصر أشد مشقة من الثبات في الابتلاء.

- هذا المشهد يربّي الأمة على التوازن بين القوة الروحية والقوة القتالية، وأن المؤمن لا يستغني بإحداهما عن الأخرى.

- إخلاص النبي صلى الله عليه وسلم وتجرده من حظوظ النفس يُعلّم القادة كيف يُربّون الناس بأفعالهم قبل أقوالهم.

فوائد دعوية:

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يُدرّب أصحابه على أن الدعوة لا تقف عند حدود الحرب والسلم، بل تمتد لتُظهر معاني التوحيد في كل مشهد.

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم في موكبٍ مهيب للعمرة بعد النصر كان دعوة بليغة للتوحيد أمام من شهد المعركة، وفيه رسالة واضحة عن غاية هذا الدين.

- هذا المشهد يعلم الدعاة أن هداية القلوب هي المقصد الأول، وأن على الداعية أن يكون همّه إصلاح القلوب لا جمع الأموال أو المناصب.

مخالفات الواقع:

- في زماننا، يُغفل كثير من الناس عن عبادة الله بعد الفتوحات والانتصارات، فيتجهون للمفاخرة والتكاثر، ويغيب عنهم استحضار أن الفتح نعمة تحتاج شكرًا لا غفلة.

- من الناس اليوم من يرى النصر في كثرة المال والمكاسب، لا في صلاح القلوب ودوام الطاعة، مع أن هذا هو جوهر النصر الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة الجِعْرانة.

- يُعاني واقعنا من قادة أو مؤثرين إذا انتصروا أظهروا التكبر والاستعلاء، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من تواضع وخضوع لله بعد النصر.

- يجهل كثير من المسلمين اليوم السنة في العمرة، أو يهملون التلبية والذكر حال الإحرام، وقد كان الصحابة يرفعون أصواتهم بها خلف النبي صلى الله عليه وسلم، في جوٍّ من الخشوع والمحبة.

♦في واقعنا من يُقلّل من شأن المناسك والعبادات ويجعلها شعائر شكلية، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهرها بأجمل صورة بعد فتح عظيم، ليُعلن أنها جوهر الرسالة.

الفقرة السادسة عودة الحبيب إلى المدينة... رجوع النور إلى دار الهجرة

في ليلةٍ من ليالي الدهر المباركة، بعدما أسدل الزمان ستاره على أعظم مشاهد النصر والرحمة، وبعدما خفّت ضوضاء الغنائم، وانفضّت جموع الأعراب، وأمِن الناس بعد خوف، وعزّ الإسلام بعد ذل، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثرى مكة الطاهر، وقد أنهى عمرته من الجِعرانة، يودّع البيت الذي أُخرج منه يوماً، وهو يقول بقلبٍ ينزف حبًا وهيبةً:

"والله إنكِ لأحبّ بلاد الله إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت] "رواه الترمذي.[

لكن قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وإن رقّ لمكة، قد اشتاقت روحه إلى المدينة، المدينة التي آوته وآمنت به، وشهدت تنزّل الوحي في جنباتها، المدينة التي بُنيت فيها دولة الإيمان، ورُفعت فيها المآذن، وتجلّت فيها أخوة العقيدة.

وحين اشتدت ظلمة الليل، وغفت العيون، تحرك الركب النبوي من الجِعرانة، يلفّه السكون إلا من همسات التسبيح، وأصداء التهليل، وترانيم الحمد التي كانت ترتفع من قلبٍ يعرف أن النصر من عند الله وحده:

﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾]آل عمران: ١٢٦.[

يسير النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمة الركب، وجهه يشعّ نورًا كأنما الليل يُمزَّق ضوءًا بين يديه، والصحابة من حوله يلهجون بالثناء والدعاء، يرفعون أكفّهم بالحمد، ويطوون الأرض شوقًا إلى موطن الرسالة، حيث سُطرت أعظم معاني الفداء والتضحية.

وقبل أن يغادر مكة، لم يتركها عبثًا، بل وضع فيها لبنة القيادة، وغرس فيها بذرة العلم، فولّى على أهلها فتى قريش الفقيه عتاب بن أسيد رضي الله عنه، ذلك الشاب النقي، الذي جعل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أميرٍ على أم القرى بعد الفتح، مع أنه لم يبلغ العشرين بعد، ليعلم الناس أن القيادة لا تقاس بالأعمار، بل بالهمة والعقل والإيمان.

ثم أرسل معه الإمام المعلم، والعالم الرباني، ومفتي الأمة، معاذ بن جبل رضي الله عنه، ليكون شعلة نور، يبث في أهل مكة العلم والتقوى، ويصوغ من قلوبهم أمةً تهتدي بنور القرآن" :يَأْتُونَكِ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ] "الحج: ٢٧.[

واصل الركب سيره، يطوي المسافات طيَّ الفاتحين، حتى إذا بلغ ذي الحليفة –ميقات أهل المدينة – بات فيها ليلته، ثم صلّى في بطن الوادي، المكان الذي باركه الله ببركة نبيّه، فحيث صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حلّ النور والسكينة، ورفرفت الطمأنينة فوق القلوب.

وحين لاحت أنوار المدينة في الأفق، وبدت مآذنها تتلألأ في وهج الشمس، وكادت جدرانها تنطق شوقًا ومحبةً، كبّر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثًا، ثم أنشد بكلماتٍ هي تاج الحمد ومسك الختام:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده "رواه مسلم.[

كلماتٌ تنبع من قلبٍ عرف الله في الرخاء والشدة، في السراء والضراء، في الهجرة والنصرة، كلماتٍ تسجد بها القلوب قبل الجباه، وتحني لها الأرواح قبل الجوارح، هي إعلان خضوع، لا أمام عرشٍ أرضي، بل أمام عظمة الرب الجليل.

أما المدينة، فلم تكن تنتظر عودة جسد، بل عودة رسول، عودة نورٍ إلى منبعه، عودة القلب إلى قلبه، خرج أهلها من كل فج، رجالاً ونساءً، شيبًا وشبابًا، يهللون، يكبرون، والدموع تسبق الكلمات، والفرح يسبق الخطوات، كيف لا؟ وقد عاد إليهم حبيبهم، معلمهم، قائدهم، نبيهم صلى الله عليه وسلم، وقد صدق الله وعده، وأتمّ عليه النعمة، وأظهر دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون.

لقد كانت عودته تلك إعلانًا بأن الجهاد لم يكن غاية، بل وسيلة، وأن الغاية كانت الهداية، وأن النصر ليس نهاية الطريق، بل هو بداية لمرحلة جديدة، عنوانها البلاغ، وشعارها الصبر، ومآلها الجنة.

الفوائد المستفادة من القصة

فوائد عقدية

- النصر لا يتحقق إلا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾، وهذا يؤكد توحيد الربوبية والألوهية، وأن الله وحده هو الذي يملك النصر والعزّة.
- حب النبي صلى الله عليه وسلم لمكة وحنينه لها لا يناقض تفضيله للمدينة، بل يدل على أن محبة الأوطان أمر فطري، لكن الولاء لله ولدينه مقدّم على كل شيء.
- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، تأصيل لتوحيد الأفعال، وأن النصر من عند الله لا من كثرة العدد ولا من عدّة الحرب.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "آيبون تائبون عابدون..." إشارة إلى أن العبودية لله هي غاية الغايات، حتى بعد النصر والفتح، مما يرسخ عبودية الشكر والخضوع لله دائمًا.
- تولية النبي صلى الله عليه وسلم لعتاب بن أسيد ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما تدل على أن العلم والتقوى شرطا القرب من الله والولاية في الدين، لا مجرد النسب أو الجاه أو السن.

فوائد فقهية

- استحباب قول: "آيبون تائبون عابدون..." عند الرجوع من السفر، فقد قاله النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته، كما رواه مسلم.
- من السنة أن يُصلّى في الأماكن التي صلّى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، إذا ثبت ذلك، كما فعل في وادي ذي الحليفة، لكن دون اعتقاد خصوصية لم يثبت بها دليل.
- يجوز أن يُولى الشاب الإمارة إذا كان ذا علم ودين وكفاية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عتاب بن أسيد رضي الله عنه.
- الإمامة في الدين لا تُناط بكبر السن وإنما بكمال العلم والفقه، ولهذا أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى مكة مع صغر سنّه، ليعلّم الناس دينهم.
- العبادات والأذكار عقب السفر أو النصر مشروعة، وفيها تربية على دوام الشكر والتواضع، وعدم الاغترار بالعافية والنصر.

فوائد أخلاقية

- التواضع العظيم للنبي صلى الله عليه وسلم في كلمات حمده وثنائه بعد الفتح يدل على أن القائد الحق هو من ينسب الفضل إلى الله، لا إلى نفسه.
- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لمكة رغم أنه أُخرج منها، يُظهر عظمة خلقه وصدق عاطفته، وأن القلوب الصادقة لا تنسى الفضل ولا تمتلئ بالحقد.
- شوق الصحابة للمدينة ورجوعهم بالتكبير والذكر يظهر التربية النبوية على تعظيم الله في كل الأحوال، حتى في الفرح والانتصار.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لأكفأ الصحابة في التعليم والإمارة يدل على عظمة البصيرة في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.
- فرح أهل المدينة بعودة النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المشهد العاطفي الكبير يدل على عمق المحبة التي كانت بينهم، وهو نموذج للارتباط بين الراعي والرعية في أعظم صوره.

فوائد دعوية وتربوية

- الجهاد في الإسلام وسيلة لا غاية، والغاية الكبرى هي الهداية لا القتل أو الغلبة، وهذا أصل مهم في الفهم الصحيح لمنهج الجهاد.
- العائد من النصر لا يرفع راية الغرور بل راية البلاغ والدعوة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فاستأنف التعليم والتوجيه.
- التربية على العقيدة والفقه أول ما يُبدأ به بعد الاستقرار، ولهذا أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى مكة بعد الفتح.
- على الدعاة أن يكونوا من أهل العلم والتقوى، كما اختار النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا، فالعلم بدون تقوى لا يهدي، والتقوى بدون علم لا تُرشد.
- السير في الليل والقيام بالذكر والتسبيح في السفر يربّي النفس على الخلوة بالله، ويُعمّق اليقين والتوكل والتفويض إليه سبحانه.

مخالفات الواقع

- قلة من الناس اليوم يرجعون إلى أوطانهم وأحوالهم بعد التمكين أو الفتح بشكرٍ وتواضع، بل يُصاب بعضهم بالعُجب والاستعلاء.
- تفريط في تحكيم أهل العلم والتقوى في مناصب المسؤولية، وتقديم من لا يصلحون للقيادة بدعوى السن أو النفوذ أو المصالح.
- انشغال المسلمين بعد كل نصر دنيوي بالمكاسب والظهور الإعلامي بدل الانشغال بالبلاغ والدعوة وتثبيت القلوب على الإيمان.
- غياب المحبة الصادقة والفرح الحقيقي بعودة الصالحين والدعاة المخلصين، واستبدال ذلك بإعلام يروّج لأهل الفجور والمصالح.
- قلة التأمل في نعم الله بعد التمكين والرجوع من السفر، وانشغال الناس بالمظاهر والأمور التافهة بدل شكر الله على النعم..

انتهى هذا الباب الخامس عشر ويليه الباب الخامس عشر إن شاء الله

الباب السادس عشر غزوة تبوك ـ ساعة العسرة واختبار الصفّ

مقدمة

حين اشتدّ القيظ، واشتعل الحرّ في جزيرة العرب، وأدبرت الثمار، ونضب الزاد، ودعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم الناس إلى الجهاد في سبيل الله، في ساعة عسرة، لا يخرج فيها إلا الصادقون، ولا يثبت فيها إلا المؤمنون، انكشف حال الناس، وظهر المخلص من المتردد، والمجاهد من القاعد.

إنها **غزوة تبوك**، التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أعالي الشام، دون قتال، ولكنها كانت أعظم امتحان لصدق الإيمان، وصدق الولاء، وصدق الانتماء. غزوة لم يُرفع فيها سيف، ولكنها غربلت الصفّ، وكشفت عن قلوب المنافقين، وأثبتت رجاحة الإيمان في قلوب المؤمنين.

فيها تاب الله على المتخلفين الصادقين، وفضح الكاذبين، وتجلت حكمة القيادة النبوية، وصبر النبي الكريم، وسعة صدره، وتثبيت الله له.

في هذا الباب، نروي تفاصيل الغزوة، ونستخرج من وقائعها الدروس العقدية والفقهية والتربوية، ونقارن بين حال أولئك الصادقين، وبين واقعنا اليوم، لنرى كم نحن بحاجة إلى "تبوك جديدة" في القلوب، لا في الأرض.

الفقرة الأولى: التمهيد لغزوة تبوك: نُذر الخطر وإعلان النفير

لم تكد المدينة تنفض عن وجهها غبار المعارك، ولم تجف دموع الوجدان من حنين الطائف وفتوحات مكة، حتى هبّت رياح التهديد من الشمال، من وراء تخوم الشام، حيث كانت جيوش هرقل تتحرك في صمتٍ ثقيل، وتنذر بعاصفةٍ مدمّرة.

جاءت الأنباء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن هرقل قد هيّأ جيوشًا جرّارة، بلغ عددها مئة ألف من الروم والعرب النصارى، ومعهم مَن تحالف من القبائل الحدودية، يخططون لزحف كاسح، يريدون به خنق الدعوة وهي لمّا تنشر أجنحتها، ووأد النور في مهده، وكسر شوكة الإسلام في أرض الحجاز.

وكان الوقت وقت قَيْظٍ لاهب، تذوب فيه الصخور، وتشتعل فيه الرؤوس، وقد بدأ الثمر يلوح على نخيل المدينة، والناس في شوقٍ إلى ظلٍّ وماء، بعد أعوامٍ مضنية من السير والقتال، وكأن الأرض كلها قد اتفقت على التثاقل، والقلوب على التردد.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ليُؤخر أمرًا لله، ولا أن ينتظر حتى يطرق الخطر الأبواب، فهو القائد الرؤوف إذا سُئل اللين، والشجاع المقدام إذا دنا الخطر. فهبّ هبّةً مزلزلة، وهتف في المدينة بنداءٍ لا يحتمل التأجيل" :النَّفِيرُ! النَّفِيرُ إلى تَبُوك"!

وكانت المفاجأة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالخروج *جهارًا نهارًا*، لا كما اعتاد في غزواته من كتمان الوجهة والتمويه، بل أعلنها واضحةً مدوّية، يعلّم فيها المسلمين معنى الصدع بالحق، ويجعل منها رسالة رادعة للأعداء: أن هذه الأمة لا تُؤخذ على حين غِرّة، ولا تُكسر على حين غفلة.

لقد جاء نداء السماء موافقًا لنداء الأرض، فقال الله جلّ في علاه{:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ] {التوبة: ٣٨.[

إنه صوت السماء يوبّخ من تردد، ويحثّ من تلكّأ، ويكسر أوتاد الدنيا المغروسة في القلوب. فكان لا بد من اختبار، ولا بد من غربلة، ولا بد أن يُميز الصادق من المنافق، والمحبّ من المدّعي.

قال ابن كثير رحمه الله" :وهذه الآية الكريمة من أشد ما نزل في معاتبة المؤمنين وتوبيخهم، حين ركنوا إلى الراحة في دار الغرور".

وما كان هذا النفير إلا ابتلاءً ظاهرًا، قال الله تعالى{ :لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ] {التوبة: ٤٨.[

ولقد جاءت لحظة الحقيقة، واختبار الإيمان. فمَن الذي سيفارق ظلّ النخيل، ويركب الظمأ والعراء؟ من الذي سيقدّم وعد الله على وعد الثمار؟ من الذي سيسير في حرّ الأرض طلبًا لجناتٍ تحتها الأنهار؟

إنها غزوة تبوك، التي قيل عنها" :*غزوة العُسرة*. "قال الله تعالى{ :الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ] {التوبة: ١١٧.[

في هذه الساعة الحرجة، صدق المؤمنون وعدهم مع الله، ولبّوا نداء السماء، فتسابقوا بالمال والزاد والأنفس، ومنهم من بكى لأنه لا يجد ما ينفق، وقال النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين:

"من جهز جيش العسرة فله الجنة". فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأنفق وأجزل، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم" :ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم".

يا لها من بداية، تدل على أن غزوة تبوك لم تكن كغيرها، لقد كانت اختبارًا على كل المستويات: حرارةٌ في الأجساد، وحرارةٌ في النفوس، وسيوف لم تُشهَر بعد، لكنها تتصارع داخل القلوب.

وهكذا، انطلقت القافلة، لا إلى قتالٍ مؤكد، بل إلى ربٍ يُبتغى، ونصرٍ يُرجى، وإيمانٍ يُمتحن.

وكان نداء النبي صلى الله عليه وسلم أكبر من حشدٍ عسكري، لقد كان إعلان ولاءٍ لله، وتجديد بيعةٍ تحت لهيب الشمس، مفادها :لن نركن إلى ظلّ، ولن نأوي إلى متاع، حتى نكون حيث أمرتنا، يا ربنا".

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه هو الذي يأمر بالنفير في سبيله، ويبتلي عباده ليميز الصادق من المنافق، مما يدل على حكمته وعدله وعلمه التام بما تكنّه الصدور.
- التوكل الحقيقي على الله لا يعني انتظار النصر من الأسباب الظاهرة، بل الخروج إليها بإيمانٍ عميق بأن النصر من

عنده سبحانه وحده.

- الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلّغ عن الله، ونداؤه في المدينة امتثال لأمر الله، مما يدل على وجوب طاعته طاعة كاملة لأنها من طاعة الله عز وجل.
- الابتلاء في الدنيا من سنن الله، به يُعرف المخلص من المدّعي، والمؤمن من المنافق، ولا يكون هذا إلا في دار امتحان وفناء، لا في دار نعيم وبقاء.
- حب الدنيا والركون إليها من أعظم أسباب التثاقل عن طاعة الله، مما يدل على ضعف الإيمان وخلل التوحيد.
- الجزاء الأخروي حق، وقد جعله الله جزاء من يبذل في سبيله بنفسه وماله، كما وعد من جهّز جيش العسرة بالجنة.

فوائد فقهية

- جواز إعلان الجهاد في حال الخطر القريب الظاهر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك بخلاف ما اعتاد في غيرها من الكتمان.
- من جهّز الغازي فقد نال أجر المجاهد، بل وعده النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، كما ورد في الحديث الصحيح.

الآية: {انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} دالة على وجوب النفير إذا دعا الإمام في حال الخطر الذي يتهدد ديار المسلمين ودعوتهم.

- من لم يجد ما ينفق عليه للجهاد وكان صادق النية، بكى حزناً على فوات الخير، فدلّ على أن العذر بالعدم لا يمنع الأجر لمن صدق.
- الإمام المسلم ينبغي له أن يقدّر المصلحة ويُبادر بالمواجهة قبل أن يصل الخطر، كما بادر النبي صلى الله عليه وسلم لرد عدوان الروم قبل أن يقع.

فوائد أخلاقية

- الصدق في الإيمان يُعرف في المواقف الصعبة، لا في الأقوال المجردة، وقد تميز في تبوك الصادقون من غيرهم.
- من أعظم صور الإخلاص أن يبذل الإنسان ماله وجهده في وقت الشدة، كما فعل عثمان رضي الله عنه.
- حب الراحة والدنيا قد يثقل القلب عن الطاعة ويقعده عن نصرة الحق، فكان لابد من تهذيب النفس بكسر هذا الميل.
- الغيرة على دين الله والدفاع عنه من أخلاق النبوة، كما ظهر في هبّة النبي صلى الله عليه وسلم رغم شدة الحر والتعب.
- البكاء على فوات الطاعة من دلائل حياة القلب، وندم الصادق على فوات الخير أعظم من عمل كثير من المدّعين.

فوائد تربوية

- تعليم القلوب ألا تنتظر حتى يداهمها الخطر، بل تُبادر بالنصرة والبذل قبل الوقوع في الأزمات.
- التربية على وضوح المقصد في الدعوة، وعدم الخوف من إظهار الحق، كما ظهر في إعلان النبي صلى الله عليه وسلم للغزوة.
- تحقيق التربية على التضحية، لا يكون إلا ببيئات شاقة، تُختبر فيها عزائم الرجال وصدق الإيمان.
- القدوة العملية من القائد أعظم تأثيراً من مجرد الأوامر، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من نهض ونادى بالنفير.

فوائد دعوية

- بيان أن إعلان الدعوة في وجه الأعداء من أعظم وسائل الردع والتأثير، لا سيما عند ظهور العزم والجدية.
- الدعوة تحتاج أحيانًا إلى مواقف قوة وشدة لتثبت صدقها، كما احتاجت في تبوك إلى هبّة صارمة في وجه الروم.
- التدرج في تربية الأمة، بحيث يُربّى الناس أولًا على التوحيد ثم على التضحيات، حتى يأتي زمن العسرة فيُثبتوا.

مخالفات الواقع

- تثاقل كثير من المسلمين اليوم عن نصرة الدين، مع أنهم يعيشون في رخاء وراحة، لا حرّ ولا جوع ولا عطش.
- الركون إلى الدنيا ومتابعة الشهوات من أهم أسباب التثاقل والتأخر عن الدعوة والجهاد والمواقف الجادة.
- تخاذل بعض من ينتسبون للعلم أو القيادة عن إعلان الحق جهارًا، مراعاةً لمصالحهم أو خوفًا من الناس، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن غايته ووجهته.
- قلة من يبكون على فوات الطاعات، وندرة من يتألم لفوات ميادين الخير، حتى صارت دموع البعض لأجل الدنيا فقط.
- غياب القدوة العملية في كثير من المواقع القيادية، فلا يُرى من يأمر الناس بالبذل إلا وهو أول المتخلّفين عنه.
- الخوارج قد يعظمون الجهاد اسميًا، لكنهم لا يعرفون حقيقته الشرعية، إذ يوجهون سيوفهم للمؤمنين لا للكافرين، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك من المبادأة بالعدوّ الكافر دون غدر أو اعتداء.

الفقرة الثانية: تجهيز جيش العُسرة... مواسم الإيمان وصدق الامتحان

لم تكن تبوك مجرّد غزوةٍ في الصحراء، بل كانت غربالًا نقّى صفّ المؤمنين، وميز بها الله الخبيث من الطيب.
كانت اختبارًا لا للسيقان التي تمشي، بل للقلوب التي تحمل همّ العقيدة، وللنفوس التي تسعى في دروب السماء!

في قيظ الصيف، حيث تلهب الشمس الجباه، ويشتدّ أوار الهجير، وتبدأ الثمار تبتهج بالنضج، كانت الدعوة النبوية تتصاعد في سماء المدينة كأذانٍ في فجر الكفاح:
النفير، النفير إلى تبوك!

لم تكن رايات الحرب تلوّح من قريب، بل جاء البلاء من جهة الشمال، من وراء الصحراء والرمال، حيث تجمّعت جيوش الروم، ومعها نصارى العرب، فقيل إن هرقل جهّز مئة ألف مقاتل، يريد أن يجهز على دولة الإسلام قبل أن تُكمل نموها، قبل أن يشتدّ عودها.

وهنا وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك القلب العظيم الذي لا يلين، والبطل الذي لا يعرف الراحة، ينادي في الناس، يوقظ العزائم، ويهتف في زمن الثمار والظلال:
حي على الجهاد!
فمن شاء الجنّة فليُشعل في قلبه نار التضحية، ومن أراد رفقة النبيين فليحمل مع رسول الله همّ الدعوة، وليشقّ طريقه في لظى الهجير.

قال الله تعالى موبخًا المتخلفين، وموقظًا المثبطين: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ]** {التوبة: ٣٨.[

لقد كانت تبوك "غزوة العُسرة"، لا لكثرة العدوّ فقط، بل لشدّة الحال، وندرة الزاد، وطول الطريق، وحرارة الزمن، وقلة الماء، حتى قال الله عنها: **{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ]** {التوبة: ١١٧.[

وفي مشهد تهتزّ له أعمدة الزمان، وترقّ له قلوب الملائكة في السماء، وقف النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى البذل، يدعوهم إلى النفقة، إلى الجود، إلى العطاء.

فأين أنت يا عثمان؟

ها هو ذا عثمان بن عفان رضي الله عنه، يقوم لله قيام المُحب، ويأتي بألف دينار في حجره، فيقلّبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه الشريفتين، ويقول دعاءً لو قيل في الأرض لتزلزلت:
"اللهم ارضَ عن عثمان، فإني راضٍ عنه "ثم ينظر إلى الناس ويقول قولًا تهتزّ له القلوب:
"ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم) "رواه الترمذي وصححه الألباني.(
لقد جهّز ثلث الجيش وحده، أياديه تصنع التاريخ، ونيّته تكتبه في صحف الخالدين.

وإذا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الفاروق، يأتي بنصف ماله، يحدّث نفسه أن يسبق أبا بكر يومًا... لكن كيف تسبق من باع الدنيا كلها؟ فإذا بالصديق رضي الله عنه يأتي بكل ماله، لا يُبقي درهمًا ولا دينارًا!
وحين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم" **:ما أبقيت لأهلك؟"** قالها وهو مطمئن القلب، ثابت اليقين:
"أبقيت لهم الله ورسوله!"

جاءت نساء المؤمنين بحُليّهن، فأسلمن الذهب والفضة، وجاء الفقراء بوسق من تمر، ومن لا يجد إلا شقّ تمرة لم يتخلف.
وجاء أقوامٌ لا يملكون دابة ولا زادًا، وقلوبهم تقطر شوقًا، ولكنهم لا يستطيعون الخروج، فوقفوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطلبون أن يحملهم، فلما قال لهم:
"لا أجد ما أحملكم عليه"، انصرفوا ودموعهم كأنها قطرات الغيم في موسم الحزن، وخلّدهم الله في كتابه فقال:
}وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ] {التوبة: ٩٢.[

فيا الله... ما أعظم هذه القلوب!
تُحبّ الجهاد وهي لا تملك عُدّته، وتبكي شوقًا وهي ممنوعة بالجسد، حاضرة بالروح.

كانت تبوك بوابة صدق، وامتحان قلوب، وموسم اصطفاء... لم تكن الغاية النصر في معركة، بل بناء أمة تعرف أن الجنة لا تأتي بلا تعب، وأن الطريق إلى الله لا يُفرش بالورود.

يا لها من ساعة!
سُمّيت بساعة العُسرة، لكنها في السماء **:ساعة الفتح الحقيقي**، حيث تنتصر القلوب على الشهوات، وتعلو الأرواح فوق حسابات الأرض.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- حب الجهاد في سبيل الله دليل على صدق الإيمان، كما أن النفور عنه دليل على ضعف العقيدة أو نفاق القلوب.
- النصر الحقيقي لا يكون بكثرة العدد والعدة، بل بعون الله وتوفيقه، فمن خرج صادق النية نال القبول عند الله ولو لم يقاتل.
- الله تعالى يبتلي عباده في الدنيا ليُظهر صدق إيمانهم، ويميز الطيب من الخبيث، كما دل عليه غربال تبوك.
- التوكل الحقيقي على الله هو ما فعله الصديق رضي الله عنه عندما قال: "أبقيت لهم الله ورسوله"، وهو تعبير عن الثقة المطلقة بالله تعالى.
- البذل في سبيل الله من صفات أهل الإيمان، وهو من موجبات رضا الله، كما دل عليه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان.

- الله تعالى يخلّد في كتابه حال المؤمنين الصادقين ولو لم يخرجوا للجهاد، إذا حال العذر بينهم وبين العمل، وهذا من كمال عدل الله ولطفه.
- حب الجنة، والرغبة في رفقة النبيين، من مقامات الإيمان العالية التي تحرّك القلوب وتدفعها للبذل والتضحية.

فوائد فقهية

- الإنفاق في الجهاد عبادة عظيمة لها فضل كبير، ويجوز للمسلم أن يتصدق بجميع ماله إذا كان واثقًا من صبر أهله ورضاهم.
- تجهيز الجيوش والنفقة على المجاهدين في سبيل الله من أعظم القربات التي يتقرب بها المسلم إلى الله.
- يجوز التفاضل بين الناس في العمل، فمن جهز ثلث الجيش أو أنفق أكثر، فله فضل بحسب بذله، كما في قصة عثمان رضي الله عنه.
- من لم يجد وسيلة للجهاد لكنه كان صادق النية، كُتب له الأجر كاملًا، وهذا أصل من أصول الفقه في اعتبار نية العاجز إذا كان صادقًا.
- قبول صدقة القليل -كشق تمرة- يدل على أن الإسلام يعتبر القليل إذا خرج من قلب صادق، وأن العبرة ليست بكثرة العطاء فقط.
- يشرع للمسلم أن يجهز غيره للجهاد إذا لم يستطع الخروج بنفسه، كما فعل بعض الصحابة، وفي ذلك أجر عظيم.

فوائد أخلاقية

- الوفاء للدعوة والرسالة لا يُقاس بالظروف بل بالإرادة الصادقة، كما ظهر في بُكاء من لم يجد ما يركب عليه.
- الشجاعة والصدق في المواقف العصيبة هما ما يميز أهل الإيمان عن أهل النفاق.
- التنافس في فعل الخيرات، كما فعل عمر وأبو بكر، هو من أجمل صور الأخوة الصادقة التي يتسابق فيها الصالحون للخير لا للدنيا.
- الحياء من التقصير في حق الله، والبكاء عند العجز عن الطاعة، صفة من صفات القلوب الحية.
- البذل من النساء في سبيل الله -ولو كان من حُليهن- يدل على أن المرأة المؤمنة حاضرة في ميدان الطاعة والوفاء والعطاء.
- الثبات في وقت الشدة، وتحمل العناء من أجل إعلاء دين الله، من خصال النفوس النبيلة.

فوائد تربوية

- على الداعية أن يكون قدوة في الدعوة والتضحية، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من دعا وأول من خرج.
- غرس قيمة الجهاد في القلوب لا يكون بالتكليف وحده، بل بالتربية السابقة، كما ظهر في تفاعل الصحابة مع نداء الجهاد.

- التربية على الإيمان الحقيقي تتجلى في ربط النصر بالآخرة لا بالدنيا، وبالقبول عند الله لا بالنتائج الظاهرة.
- على الأمة أن تربي أبناءها على البذل، لا على الراحة والدعة، فالجنة لا تأتي بلا تعب ولا تضحية.
- تكرار المحن والشدائد في طريق الدعوة هو وسيلة لتربية الصف وتصفية القلوب من التعلق بالدنيا.

ما يخالف الواقع

- التكاسل عن نصرة الدين والانشغال بالدنيا، حتى في أوقات الأزمات، يشبه حال من عاتبهم الله بقوله: {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.}
- قلة الإنفاق في مشاريع الدعوة والجهاد في سبيل الله، مع كثرة الأموال في أيدي المسلمين، يخالف حال عثمان والصحابة الكرام.
- غياب القدوات الداعية والباذلة، ممن يُشعلون الحماس ويوقظون الهمم، خلاف لحال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج بنفسه ينادي بالجهاد.
- ضعف تربية الجيل على معاني البذل والتضحية، وإيثار الرفاهية والراحة، يناقض تربية الصحابة التي أنتجت جيش العُسرة.
- ندرة البكاء من خشية الله أو من العجز عن الطاعة، بينما كانت الدموع في قلوب الصحابة تسيل صادقة حارة.
- تحول كثير من المجالس الإسلامية إلى مواضع للجدل والنقاش لا للعمل والبذل، بينما الصحابة كانوا يتسابقون إلى الإنفاق دون تردد .

الفقرة الثالثة: دموع العاجزين الصادقين... نبضُ الصدق الذي بلّله العذر

في ظلال غبار النفير، وتحت شمسٍ تلفح الوجوه، تسللت قلوبٌ صادقة إلى قلب ساحة الجهاد، لا تحمل سلاحًا، ولا تمتطي ظهرًا، لكنها تملك أعظم زاد :**النية**.

جاءوا إلى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأعينهم تشع رجاء، وقلوبهم تتأرجح بين أمل اللقاء وشبح الحرمان، وقالوا بلهفة تُقطّع القلوب :**يا رسول الله، احملنا نغزُ معك"!**

نظر إليهم بعين الرحمة، بعين القائد الذي يعرف معادن رجاله... رأى في وجوههم الشوق، وفي صدورهم نارًا تتلظى للجهاد، لكن يده خالية، وسلاحه الصدق، فكانت إجابته كالسيف على القلوب" :**لا أجد ما أحملكم عليه"...**

فما إن سمعوها حتى تولّوا...
ولكن لم يولّوا إدبارًا، بل ولّت وجوههم جهة السماء، وقلوبهم تسير خلف الركب،
وسالت دموعهم كأنها **ماء النية الخالص،**
دموع رجالٍ حُبسوا عن الجهاد بأجسادهم، لكن أرواحهم كانت تعدو خلف الجيش في كل وادٍ.

فخلّدهم الله في كتابه، ورفع شأنهم بين أهل الأرض والسماء :**﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]**

وبينما يسير الجيش في الصحراء، يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وهو بعيد عنهم بجسده، قريب منهم بروحه، ويقول لأصحابه :**إن بالمدينة لرجالًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم... حبسهم العذر**] "رواه البخاري ومسلم.[

ما أعظمها من منزلة !أقعدهم العذر، فارتفعت نواياهم، وغابوا عن الصفوف، فحضروا في سجل الخالدين...

إنها **دموع الصدق** ...دموع من قعد بأمر الله، لا بتقصير، فنالوا أجر المجاهدين، وهم بين الجدران، لأن نيتهم طوت الفيافي، وسكنت ساحات الوغى.

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة

فوائد عقدية

- النية الصادقة تُبلغ صاحبها منازل العاملين، ولو حُبس عن الفعل بعذر شرعي، وهو من تمام عدل الله تعالى وحكمته ورحمته بعباده.
- إثبات علم الله بنيات القلوب، وأنه يُجازي العبد على صدق طويّته، ولو لم يُقدّر له العمل، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.
- ثبوت صفة الرحمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي رحمة بشرية نبوية، غير الرحمة الإلهية، وقد رآها الصحابة في نظرته لهؤلاء العاجزين.
- حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "حبسهم العذر" يدل على إثبات القدر، وأن العذر قد يمنع الإنسان من العمل، ولكن لا يمنعه من الأجر.
- الصحبة الحقيقية لا تكون بالجسد فقط، بل قد تكون بالنية والنية الخالصة تُدرك بها المعالي، ويُنال بها أجر القرب والمشاركة.
- هذه النصوص دالة على كمال التشريع في الإسلام، وأنه يربط الأحكام بالمقاصد والنيات، لا بالأشكال والهيئات وحدها. رفع الله من ذكر هؤلاء في كتابه العزيز، دليل على أن الشرف عند الله بالتقوى والصدق، لا بالمكان أو الصورة.

فوائد فقهية

- من كان له عذر شرعي حقيقي، فهو معذور عند الله تعالى، وينال أجر العمل الذي نواه إن صدق، ولو لم يُباشر الفعل.
- نية الجهاد مع العذر تكتب لصاحبها أجر الجهاد كاملًا، وهذا أصل يُقاس عليه في سائر العبادات والعقائد، كمن نوى الصيام أو الحج ولم يستطع.
- الدموع التي تفيض حزنًا على فوات الطاعة دليل على فضلها، وأنها تُعدّ من أعمال القلب التي يُثاب عليها العبد.
- لا يجوز لمن عجز عن العمل أن يزدري نفسه، بل عليه أن يحفظ قلبه ويُخلص نيته، فذلك باب أجر عظيم.
- التعبير في الحديث بـ "حبسهم العذر" يفيد أن العذر لا يُطلب ولا يُستحب، ولكنه إذا وقع قَدرًا يُحتسب به الأجر.

فوائد أخلاقية

- من أصدق صفات أهل الإيمان: الحزن على فوات الخير، والتألّم لعدم المشاركة في الطاعة.
- الحياء من التقصير، والرغبة الصادقة في اللحاق بالصالحين، خُلق نبيل يدل على حياة القلب وسلامة الفطرة.

- الرجولة الحقّة لا تُقاس بالقوة الجسدية، بل بصدق النيّة، وسلامة القصد، والتعلّق الصادق بالمعالي.
- دموع العاجزين الصادقين درس لكل من قعد عن الطاعة بلا عذر: أن ينظر كيف يحزن أهل العذر، وهو قادر لا يشعر!
- الرحمة في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء، تُعلّمنا أن لا نُهين من قعد بعذر، ولا نُقلّل من أجره.

فوائد تربوية

- النبي صلى الله عليه وسلم ربّى أصحابه على أن الشرف في النية والعمل لا في المظاهر، وهذا أساس في تربية النفس.
- تربية الإيمان تُخرج من القلوب حنينًا للجهاد، ولو لم تستطع الأجساد اللحاق، وهذا من ثمار غرس العقيدة الصافية.
- ينبغي أن يُربّى الجيل على تعظيم النية، وتقدير العمل وإن لم يُرَ أثره، فالمعيار عند الله هو الصدق لا الظاهر.
- الأجر في الإسلام مبني على الاجتهاد والصدق، لا على النتيجة المجردة، وهذه تربية تُنقّي القلوب من الرياء.

مخالفات الواقع

- قلة من الناس اليوم يحزن على فوات الطاعة، ولو كان قادرًا، بل يُفرح البعض بفواتها ويعدّ ذلك "راحة!"
- ضعف الإحساس بالتقصير في حق الله، وقلة التأثر بترك الجهاد في النفس والمال والدعوة والعلم، بخلاف حال السلف.
- قلة البكاء من خشية الله، ومن فوات الخير، حتى صار البكاء عند كثيرين لا يخرج إلا عند المصائب الدنيوية.
- كثير من الناس إذا عُذر عن طاعة، اتخذ ذلك ذريعة للكسل والقعود، ولم يُبقِ على نيّة أو شوق، بل يستبشر بالعذر!
- بعض من يُمنعون من العمل الدعوي أو الجهادي أو العلمي، يُصاب بالفتور أو الحقد أو القنوط، ولا يثبت كما ثبت الصادقون.

الفقرة الرابعة: خُذلان المنافقين... نفاقٌ يتسلّل في الظلال

في الوقت الذي كانت فيه قلوب المؤمنين تتوق إلى ميادين العزّة، وتتسابق الأقدام إلى ساحات الجهاد، وتُقدَّم الأموال والأنفس قربانًا في سبيل الله، كانت هناك طائفة **خبيثة تتوارى خلف الستار**، تراقب الركب لا لتلحق به، بل لتخذله... إنهم **المنافقون**، أهل الدسائس، الذين لا يُجيدون المواجهة، بل يطعنون من الخلف.

ما أعلنوا تخاذلهم أول الأمر، بل زيّنوا **أعذارهم الكاذبة** بثياب الورع الزائف، وراحوا **يبثّون التثبيط في النفوس**، ويسرّبون الوهن إلى العزائم، ويقولون في همسٍ خبيثٍ ماكر" **:لا تنفروا في الحر!..."** أي قلوبٍ تلك التي تخشى حرّ الشمس وتغفل عن **حرّ جهنم؟**
كأنما الجنة تُنال في الظلال، أو أن ميادين الفتح تُقام في غرفٍ مكيّفة!

فجاءهم الردّ من السماء، نزل كالصاعقة، لا يُبقي لهم عذرًا ولا يُقيم لهم عذرًا :﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ **[التوبة: ٨١]**

إنه صوت ربّ العالمين، يُبكّت الجُبناء، ويفضح خبايا الصدور ...حرّ الدنيا أهون من نفخة من جهنم، وإن نار الشمس، مهما بلغت، لا تُقارن بشرارة من سعير الآخرة!

ثم واصل القرآن فضحهم، فسجّل عليهم موقفًا يُتلى في المحاريب والصلوات إلى يوم الدين:
﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]

أي فرح هذا؟ !إنه **فرح الغافلين** ...فرحٌ بالمعصية، لا يعقبه ندم، بل يُفضي إلى نكال وعذاب.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم طبيعة هؤلاء القوم الذين تخلّفوا عن الغزوة، حين قال" :**إنما تخلف عنكم الذين كرهوا أن ينفقوا، وكرهوا أن يجهدوا معكم، فجلسوا خلفنا**] "جاء في معنى ذلك الحديث في الصحيحين.[

يا لله!
كم بين من جلس مجاهدًا بعذره ونيّته، وبين من تخلّف **فرِحًا بالراحة، كارهاً للجهاد**، متخفّيًا برداء النفاق؟
لقد سجّل الله ذلك الفرق، وبيّن أن **الفرح بالمعصية شؤم على القلب**،
فمن لم يُسارع إلى التوبة، صارت تلك الفرحة أولى خطواته إلى **سخط الله وسوء المصير**.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- من دلائل صدق الإيمان أن الله يطّلع على خفايا القلوب، فيجازي على النية كما يجازي على العمل، ويُثيب الصادقين وإن حُبسوا عن الفعل بعذر شرعي، لأن رب العالمين لا يخفى عليه خفيّة.

- النفاق عاقبته الخسران في الدنيا والآخرة، لأن الله جل جلاله يفضح المنافقين ويُظهر خباياهم، ويمقت كذبهم وتزييفهم، وقد جعلهم في الدرك الأسفل من النار، وذلك جزاء من أظهر الإيمان وأبطن الكفر والفساد.

- الله سبحانه وتعالى لا يرضى عن التخلّف عن أمره، ولا عن الفرح بالمعصية، فالموقف من أوامر الله إما طاعة يثاب عليها العبد، أو معصية يُبغض لأجلها، ولا مقام بين ذلك لمن لم يتب.

- من صفات الربوبية أنه سبحانه ينزل الآيات تكشف المنافقين وتفضحهم، وهذا من كمال عدله ورحمته بأهل الإيمان، ليُعلم المؤمن من الفاسق، والصادق من الكاذب.

فوائد فقهية

- يحرم التثبيط عن الجهاد وواجبات الدين، ولو بالكلام أو الإشارة، لما في ذلك من الإفساد في الأرض والإضرار بالمجتمع المسلم.

- الفرح بالمعصية وعدم الندم عليها من كبائر الذنوب، ويُخشى على صاحبه سوء الخاتمة، وهذا أصل معتبر عند أهل السنة في باب التوبة والإنابة.

- العذر الشرعي يمنع المؤاخذة ويُبقي الأجر إن وُجدت النية الصادقة، بخلاف من تخلّف بغير عذر، فإن عليه إثم التخلّف وإن تظاهر بالورع.

- النفاق من أعظم الكبائر، ويتضمن الكذب، والغش، وإظهار ما لا يُبطن، وقد توعّد الله عليه بأشد العذاب.

فوائد أخلاقية

- الصدق في النية من أعظم أعمال القلب، وقد يرفع صاحبه إلى مقامات المجاهدين، ولو لم يخرج في الصفوف، لأن الله لا ينظر إلى صور الناس ولكن إلى قلوبهم.

- التظاهر بالصلاح مع حب المعصية من علامات فساد القلب، والأخلاق الصادقة لا تجتمع مع النفاق ولو لبس أثواب الورع.

- الجبن والتثبيط عن الخير سلوك خبيث، لا يضر الفرد وحده، بل يتعدى إلى الجماعة، ويُضعف عزيمة الأمة، وهو خلق مذموم شرعًا وعقلاً.

- الفرح بترك الطاعات، والارتياح للبعد عن ميادين الخير، هو دلالة على خلل في الفطرة وانقلاب في القيم، ويجب على المؤمن أن يخاف من هذا الحال.

فوائد دعوية

- يجب على الدعاة التحذير من النفاق ومظاهره، وكشف أساليب المنافقين في محاربة الدين، لأنهم يُضعفون الصف من داخله ويزرعون الشك والفتنة.

- الربط بين النصوص القرآنية والواقع الدعوي يُظهر عظمة التشريع، ويقوي يقين الناس في عدالة الله، ويفضح طرق أهل الزيغ دون أن يُحتاج إلى تسميتهم بأعيانهم.

- الاستدلال بالقرآن في فضح الباطل هو منهج نبوي أصيل، وعلى الدعاة سلوكه في كل زمن يظهر فيه التلون والمداهنة باسم الدين.

ما يخالف الواقع

- يتكرر اليوم مشهد النفاق في ثوب جديد، حيث يتظاهر البعض بالإصلاح وهم يخذّلون عن شريعة الله، ويُهوّنون من شأن الجهاد والدعوة، بدعوى العقلانية أو الحرص على السلم، وهم في حقيقتهم يخدمون أعداء الدين.

- تُزيَّن المعاصي عند كثير من الناس بمسميات براقة كـ"الحرية الشخصية" أو "واقعية العصر"، ويُفرح بها جهارًا، دون حياء من الله أو ندم على التفريط.

- كثر في المجتمعات من يستهزئ بالترغيب في الجهاد والدعوة، ويعتبر ذلك تخلّفًا ورجعية، وقد بلغ الأمر ببعضهم أن يحرّض على الساخرين لا على المقصّرين.

- تُظهر بعض الشخصيات العامة دعم القيم، لكنها تُسهم في نشر التثبيط والانحلال باسم "الفن" أو "الإعلام"، وبهذا تقع في نفاق خفي خطير يلبس لباس النصيحة والحرص، وهو في الحقيقة خذلانٌ مبطَّن.

- فرقة المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، من أخطر الفرق التي حذّر منها النبي صلى الله عليه وسلم، وهم سبب في الهزائم الداخلية للأمة، لأنهم يخالطون المؤمنين ويُثبّطون عزائمهم، ويستخدمون شعارات الدين كستار لأغراضهم الدنيوية.

- وقد أظهر القرآن صفاتهم في سور عديدة كالتوبة والنساء والمنافقون، فدلّ ذلك على خطورة مكرهم، ووجوب الحذر منهم، لأنهم لا يواجهون الحق بالحجة، بل يخونونه من الداخل، ويزرعون الوهن في الصف

الفقرة الخامسة :المتخلّفون عن غزوة تبوك: بين دخان النفاق وظلال التواني

حين صدح صوت النبي صلى الله عليه وسلم في الناس بالنفير العام إلى تبوك، لم يكن ذلك نداءً عابرًا، بل كان امتحانًا للقلوب قبل الأبدان، واختبارًا صارخًا للصدق والإخلاص، في زمنٍ يشتدّ فيه القيظ، وتلتهب فيه الرمال، وتشتاق النفوس إلى الظل والماء والثمار اليانعة. لم تكن غزوةً كسائر الغزوات، بل كانت غزوة العُسر، غزوة التصفية، التي غربلت الصفوف، وأماطت اللثام عن وجوه النفاق، وكشفت خفايا النفوس.

فأما فريقٌ من الناس، فقد آثروا الظلال الباردة على الهجير، والدعة على المسير، فتنكّبوا طريق الجهاد، وتذرّعوا بالأكاذيب، واختلقوا الأعذار، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا مع القاعدين، وهم في قرارة قلوبهم لا يحملون همّ الإسلام، ولا يتطلّعون لرفعة الدين، قال الله عنهم}:فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ] {التوبة: ٨١.[

كلماتهم كانت سهامًا تُغرس في قلوب الضعفاء" :*لا تنفروا في الحر* ..."كأنّ الجنة تُنال بأمانٍ وراحة، وكأن الجهاد يُؤدى في القصور وتحت ظلال الأشجار!

لكنَّ الجواب جاء من فوق سبع سماوات، يحمل زجرًا يقضّ مضاجعهم، وتبكيتًا يعري عقولهم} :قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا.{ يا لها من فضيحة أبدية! صفحات القرآن قد خلدت خذلانهم، والزمان لا يزال يُدين تراجعهم وتخلفهم!

وأما الفريق الآخر، فقد تخلّف لا نفاقًا، ولا كرهًا للجهاد، بل ضعفًا وتسويفًا وخذلانَ نفس، قعدت بهم أقدامهم، واعتذرت عنهم قلوبهم. ومن أولئك: كعب بن مالك رضي الله عنه، الصحابي الجليل الذي شهد العقبة وبدرًا، ولكن شاء الله أن يختبره في تبوك.

يروي كعب قصته والندم يقطر من كل لفظ، فيقول":لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة. والله، ما اجتمعت عندي راحلتان قبلها قط، حتى اجتمعتا لي في تلك الغزوة"!

لقد كانت غزوةً أعلنها النبي صلى الله عليه وسلم صراحة دون تورية، لما فيها من شدة، قال كعب:
"وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، إلا تبوك، فإنها كانت في حرٍّ شديد، وسفرٍ بعيد، وعددٍ كثير. فصرّح بها ليُتهيأ الناس".

لكن كعب، وهو في كامل قوّته، وقع في شَرَك التسويف، فقال لنفسه:
"سأتجهز غدًا... وسألحق بهم بعد أيام... وما زلت كذلك حتى خرج النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا لم أقضِ من جهازي شيئًا".

ومرّت الأيام، وسار الركب، وارتفعت راية الجهاد، وكعب لا يزال في المدينة، يجوب طرقاتها حائرًا... لا يرى فيها إلا رجلاً طُعن في نفاقه، أو رجلاً عذره الله.

وهكذا كانت العاقبة... لم يكن في قلبه نفاق، لكنه سقط في شَرَك الكسل، وأُسِر بحبال التردد، فضاعت منه غزوة هي من أشرف الغزوات، ووقع في بلاء لا يرفعه إلا الصدق والتوبة.

لقد ضرب الله بهذا الحدث مثلاً باقياً إلى يوم الدين: أن التخلف لا يكون دومًا خيانة، فقد يكون من أهل الطاعة من غلبته نفسه، ولكن الفارق كل الفارق، هو في التوبة والاعتراف، وفي صدق العودة، وفي أن يتبع التعثّر دمعة وندمًا، لا تبريرًا وتماديًا.

ولذلك قال الله عن كعب وأصحابه بعد أن تابوا وصدقوا} :وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] {التوبة: ١١٨.[

وهنا درسٌ عظيم :ليس كل من تخلف عدوًا، ولا كل من تقدم وليًا، وإنما هي النوايا والعزائم، والتوبة والندم، والرجوع إلى الله بعد الزلل، فكم من قاعدٍ في الظاهر مجاهدٌ في الباطن، وكم من سابقٍ بجسده متأخرٌ في نياته!

.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله عز وجل يبتلي عباده لا ليعلم حالهم، فهو العليم، ولكن ليظهر ما في نفوسهم أمام أنفسهم والناس، وهذا من مقتضى حكمته وعدله.
- من أسماء الله الحسنى :*التواب الرحيم*، كما في قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، وهذا يتضمن إثبات صفة التوبة والرحمة له على وجه الكمال.
- عذاب الله أشد من كل ألم دنيوي، وحر جهنم أعظم من حر الدنيا، كما قال تعالى: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا.{ القرآن الكريم يُخلّد المواقف، ويكشف حقيقة القلوب، فهو كتاب هداية وتمييز بين الحق والباطل.
- من تمام عدل الله عز وجل أن يفضح المنافقين في الدنيا ويجازيهم في الآخرة، بينما يقبل توبة المذنب الصادق إذا رجع إليه.
- النية محل اعتبار في الأحكام الشرعية، فالله لا يعامل المتخلفين جميعًا معاملة واحدة، بل يفرّق بين من تخلف نفاقًا، ومن تخلف عجزًا أو تسويفًا.

فوائد فقهية

- الإعلان بالغزوة -كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك- يجوز إذا كان فيه مصلحة للمسلمين، بخلاف الأصل في التورية للتمويه على العدو.
- يشرع للمسلم أن يتوب من الذنب ولو بعد فوات وقته، وأن يجهر بندمه إذا اقتضت المصلحة ذلك، كما فعل كعب بن مالك رضي الله عنه.
- الاعتذار عن الجهاد بغير عذر معتبر لا يُعذر به صاحبه، بل هو إثم، وقد يكون من علامات النفاق.
- الاعتراف بالذنب دون تبرير هو طريق القبول، ولهذا أثنى الله على الثلاثة الذين خُلّفوا لأنهم لم يكذبوا.
- من فاته عمل صالح لعذر أو زلل ثم تاب، فإن توبته مقبولة، ويُرجى له الأجر إن صدقت نيته وتوبته.
- القاعدة الشرعية :النيات مدار الأحكام، ويتفرع عنها أن التخلف عن الطاعة قد يُعذر به صاحبه بحسب حال قلبه وصدقه.

فوائد أخلاقية

- من صفات المنافقين أنهم يثبطون غيرهم عن الخير، ويزينون القعود والراحة، ويستخدمون الكلمات المسمومة لتثبيط العزائم.
- الصدق مع النفس والاعتراف بالتقصير من شيم المؤمنين، كما فعل كعب بن مالك رضي الله عنه.
- التسويف قاتل للطاعات، ومهلك للأعمال، وهو داءٌ خطير يصيب حتى الصالحين إن لم يجاهدوا أنفسهم.
- الصادق في توبته يشعر بالضيق من الذنب، ويندم عليه، ولا يفرح بتأخره ولا يُبرره.

- الرجوع إلى الحق خُلق عظيم، لا يقوم به إلا من كان صادقًا في إيمانه، شجاعًا في قلبه، متواضعًا لربه.
- المؤمن يتألم إذا فاتته الطاعة، ويحزن على فوات الفرصة، وهذا من علامات حياة القلب.

فوائد دعوية

- التمييز بين المنافق والمتخاذل في الأسلوب الدعوي مهم؛ فالمنافق يُكشف ويُحذر منه، أما المتخاذل فيُرغّب ويُعان.
- من الحكمة في الدعوة أن يُضرب المثل بالمواقف الثابتة في السيرة، لتقوية النفوس وربطها بنماذج واقعية.
- عرض القصة بصيغة الندم والتوبة -كما فعل كعب- يترك أثرًا في السامعين، ويبعث فيهم روح الأمل والرجوع.
- الفضح العلني للمنافقين كان لحكمة عظيمة؛ لئلا يُفتتن الناس بكلامهم، وهذه سنة ماضية في الدعوة عند الحاجة.

فوائد تربوية

- الابتلاءات تُربي النفوس، وتُغربل الصفوف، وتميّز الصادق من الكاذب.
- القدرة الجسدية ليست هي المعيار الوحيد في الطاعة، بل يُبتلى الإنسان أحيانًا في عزمه وهمته.
- التربية على المسارعة إلى الطاعة وعدم التأجيل من أهم ما يُنقذ النفس من الزلل.
- الصدق في الرجوع إلى الله أعظم من الزلل ذاته، فمن صدق ندمه، رفعه الله وإن وقع.
- المربي الناجح هو من يغرس في الناس قيمة الاعتراف بالتقصير، لا التبرير، ويعلمهم أن الرجوع إلى الحق فضيلة.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يُعرضون عن نصرة دين الله، ويقعدون عن ميادين الدعوة والجهاد، وهم قادرون، مكتفين بالأعذار.
- انتشرت في المجالس كلمات تُثبّط عن الالتزام والعمل للدين، تشبه قولهم: "لا تنفروا في الحر"، وكأن الجنة بلا تعب.
- كثير من المسلمين لا يشعر بالحزن إذا فاته الخير، بل يبرر لنفسه ويستمر في التقصير دون توبة.
- الناس اليوم تُعجب بالشكل والمظاهر، فيحسبون كل متقدم مخلصًا، ويغفلون عن النوايا، فلا يميزون بين المنافق والمخلص، ولا بين المتخاذل الصادق والمخادع.

الفقرة السادسة مسيرٌ في الهجير... تقوده النبوّة وتكتنفه التربية

خرج النبيُّ المختار صلى الله عليه وسلم من طيبة الطيبة، وقد نادى منادي الجهاد في الناس، فهبَّ الجيش العظيم من المدينة، تحت لهيب شمسٍ محرقة، وفي قيظٍ يلهب الرمال ويلسع الوجوه، والزاد قليل، والماء شحيح، والمسافة بعيدة، والعدو قويٌّ مرصود، والثمار قد طابت، والظلال تدعو بالأفياء، ومع ذلك سارت القلوب العامرة بالإيمان، وامتدت الأرواح على أجنحة اليقين، تستبشر بوعد الله، {وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ} [الروم: ٦].

كان جيشًا عظيماً لم تشهد له العرب مثيلاً، ثلاثون ألفًا من المؤمنين، يتقدمهم إمام الهدى، وخير الورى، محمدٌ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، يمضي أمامهم كالبدر في الدجى، يفتح الطريق بالهدي قبل السلاح، ويوقظ في النفوس جذوة الصبر، ويبعث في الأرواح عزائم لا تلين.

كان هذا الجيش هو جيش العُسرة، سُمّي كذلك لما نزل بهم من شدة، حتى قال الله عنهم{**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**] {التوبة: ١١٧.[

لم يكن هذا المسير مجرّد انتقال من موضع إلى آخر، بل كان مدرسةً نبوية تمشي على الرمال، وتكتب على وجه الصحراء دروسًا من الثبات والتضحية والإخلاص. كان كل موقف في الطريق محطة تربوية، وكل مشهد يحمل عبرة، وكل نَفَس يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم يُعلّم ويربّي ويهدي.

ومن أعظم تلك المحطات :**مروره صلى الله عليه وسلم بديار ثمود في الحِجْر**، ديار قومٍ أغناهم الله، فبغَوا، وأمهلهم، فطغَوا، حتى أهلكهم الله بصيحةٍ جعلتهم جثثًا هامدةً في عقر دارهم، جزاءَ من كذب الرسل.
فلما مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بأرضهم، رأى آثارهم البائدة، وبيوتهم المنحوتة في الجبال، فلم يرَ فيها موضعاً للأنس أو الراحة، بل رآها آيةً للعظة والخوف، فغطى رأسه بثوبه الشريف، وأسرع السير، ونهى الناس عن دخولها إلا على حال البكاء والخشية، وقال قولته الخالدة":**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم**"رواه البخاري.

يا لها من تربيةٍ تهزّ القلوب، وتنذر الأرواح أن لا تأمن مكر الله، وأن تعتبر بمصارع الغابرين.

وفي أثناء الطريق، اشتدت الكروب، وقلّ الماء، وعطش الناس حتى شكَوا، فكان دواؤهم رفع أكفّ الضراعة إلى رب الأرض والسماء، فرفع النبيُّ صلى الله عليه وسلم يديه إلى مولاه، فاستجاب الله الدعاء، وأمطرت السماء، فتناثر الغيث على الجيش، وتفجّرت الرحمة من السحاب، حتى رَوَوا واطمأنوا، فشربوا، وسقوا، وحمدوا.

قال أحد الصحابة كما في الصحيحين":**كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فاشتكى الناس إليه العطش، فدعا الله فأنزل الله المطر، فملأ القُرب وشرب الناس، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.**"

وكان إذا نزل منزلاً في الطريق، لم يكن يُمضي الوقت في السكون أو النوم، بل كانت كل وقفة درسًا، وكل ليلٍ محطّة إيمانية، يذكّر فيها بالله، ويغرس في أصحابه بذور اليقين والصبر والتوكل.

لقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم جيشه في الطريق قبل أن يبلغ أرض العدو، فكانت النفوس قد تهذّبت، والعزائم قد شحذت، والقلوب قد امتلأت توكلًا، فلمّا وصلوا تبوك، كانت القلوب أقوى من السيوف، والإيمان أرسخ من الجبال.

وصل النبي صلى الله عليه وسلم بعد مسيرٍ طويل لم تلن فيه عزيمته، ولم تنكسر له إرادة، بل زادته المشقة قوة، وجعلت من جيشه نموذجًا تربويًّا خالدًا يُدرّس للأمم.

فهذه الرحلة لم تكن فقط غزوةً بالسلاح، بل كانت تربيةً على الطريق، تُنبت من رمال الصحراء رجالاً، وتزرع في المحنة روح النصر، وتُعلّم البشرية كيف يسير النور في قلب الظلام.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بوعد الله سبحانه وتعالى هو ركيزة عظيمة في العقيدة، {وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ} [الروم: ٦]، وهو من لوازم
- التوكل على الله والثقة المطلقة بحكمته ورحمته، فلا يهتز قلب المؤمن وإن اشتدت الأزمات.
- الله عز وجل يتوب على من شاء من عباده تفضلًا وكرمًا، كما قال عن جيش العسرة: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ...}، فالتوبة من الله دليل على رحمته، وهي من صفاته العظيمة التي يجب الإيمان بها.
- من أصول العقيدة الإيمان بأن الله هو المستجيب للدعاء، وقد ثبت استجابته لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد العطش فأنزل المطر، وهو دليل على قدرة الله وإحاطته ورحمته بعباده.
- الخوف من مكر الله واجب على العبد، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ذلك عمليًّا حين مرّ بديار المعذَّبين فقال: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين"، وهذا منهج عقدي في

تربية القلب على الخشية والتذلل.

- الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم شرط في النجاة، وقد قرنه النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة التوحيد حين قال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله"، وهذا بيان أن الإيمان لا يكتمل إلا بهما معًا.

فوائد فقهية

- يجوز الخروج للجهاد في حال شدة الحر والمشقة إذا دعت الحاجة، بل قد يكون ذلك من أعظم الطاعات، وهو مستفاد من خروج النبي صلى الله عليه وسلم في حرّ الصيف إلى تبوك.
- النهي عن دخول مساكن المعذبين إلا على حال البكاء والخوف يُستفاد منه قاعدة فقهية وهي: أن العبرة ليست فقط بالمكان بل بالحال والنية عند زيارته، فتُكره زيارة أماكن الهالكين على وجه التلهي أو الإعجاب، ويُسنّ البكاء والخشوع عند المرور بها.
- من السنة رفع اليدين بالدعاء في حال الكرب العام وطلب الغوث من الله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أصل في فقه الاستسقاء والدعاء عند الشدائد.
- يثبت من الحديث أن التعليم والتربية لا تنحصر في أوقات خاصة، بل تمتد إلى كل وقت ومكان، فحتى في السفر والغزو يجب أن لا يُترك تذكير الناس بالله، وهذا من باب الأمر بالمعروف في جميع الأحوال.
- الاعتبار بديار الظالمين فيه دليل على مشروعية العظة والعبرة من آثار الهالكين، لكن لا يُجعل ذلك وسيلة للتعظيم أو التبرك أو التشبه، وهو أصل في سدّ الذرائع.

فوائد أخلاقية

- الثبات في طريق الحق ولو اشتدت الكروب خُلقٌ عظيم من أخلاق المؤمنين، وقد تجلّى ذلك في مسير جيش العسرة تحت لهيب الشمس وقلة الزاد، فكانوا قدوة في الصبر واليقين.
- من أعظم الأخلاق التي رُبّي عليها الصحابة: التوكل الحقيقي على الله، حين اشتد العطش فلم يجزعوا، بل رفعوا أكفهم إلى السماء، وهذا درس في الأخلاق الإيمانية العملية.
- كان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة في كل شيء، فقد كان يمشي أمام جيشه، يعلّمهم ويفقّههم، ولم يكن منعزلًا في راحة أو غفلة، فهذه القيادة التربوية هي الخلق الأكمل في من يتصدّر الناس.
- استحضار العبرة في كل موقف هو خُلق تربوي عظيم، يُربي في القلب الخشية من الله، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عند مروره بديار ثمود، ولم يجعل من السير فرصة للهو أو الغفلة.
- من الأخلاق التربوية التي علّمها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه: استثمار كل موقف لتعميق الإيمان وغرس القيم، فحتى عند العطش أو التوقف في الطريق كانت اللحظات تمتلئ بذكر الله والتزكية.

فوائد تربوية

- هذه الغزوة كانت نموذجًا تطبيقيًّا في التربية العملية، فكل خطوة كانت درسًا، وكل مشقة كانت تربية على الصبر والرضا، مما يدل على أن التربية أعظم من مجرد التعليم النظري.
- المواقف الصعبة تفرز المعادن الأصيلة، فجيش العسرة خرج رغم كل أسباب الفتور، مما يربي في النفس قوة الإرادة ورباطة الجأش، وهو ما يجب أن يُربّى عليه الشباب اليوم.
- تربية النبي صلى الله عليه وسلم كانت ممتدة الزمان والمكان، فلم تكن مقتصرة على المسجد، بل امتدت إلى الطريق والسفر والمعركة، وهذا هو تمام القدوة.
- الربط بين المشقة والنصر في الطريق التربوي النبوي يُعلّم أن النصر لا يأتي إلا عبر التمحيص والابتلاء، وهذه سنة ربانية ينبغي أن تُغرس في نفوس الأمة.

- التذكير بمصارع الظالمين وأحوال الهالكين هو أسلوب تربوي فعّال لتحريك القلوب، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم عمليًّا لا وعظًا فقط، مما يجعل أثر العظة أبلغ في النفوس.

ما يخالف الواقع

- قلة من القادة اليوم من يربّي أتباعه في الطريق كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، بل كثير منهم مشغولون بالمظاهر والسلطة، لا يربّون ولا يذكّرون.
- غالب الناس اليوم يتبركون بآثار الهالكين، ويزورون أماكن المعذَّبين على سبيل السياحة، لا العظة والاعتبار، وهو خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي نهى عن ذلك إلا على حال البكاء والخشية.
- أصبح الكثيرون لا يربطون بين المصائب وبين قلة التضرع إلى الله، بل يلجؤون إلى الأسباب المادية وحدها، وينسون الدعاء والتوكل الذي هو أساس النجاة، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في العطش.
- التربية اليوم في كثير من البيوت والمؤسسات صارت مفقودة أو سطحية، بينما تربية النبي صلى الله عليه وسلم كانت تمتد حتى في أشد الظروف، وهذا من أعظم ما نفتقده.
- في زمننا الحاضر كثير من الناس يطلبون الراحة ويتكاسلون عن أعمال الدعوة والجهاد في سبيل الله، ويقدّمون راحتهم على واجباتهم الشرعية، وهذا يخالف ما كان عليه جيش العسرة من استعداد وبذل رغم المشقة.

الفقرة السابعة: الوصول إلى تبوك وموقف الروم

وأخيرًا... بلغ الركب النبوي أرض تبوك، بعد أن عبر النبي صلى الله عليه وسلم بجيش العُسرة تلك الصحارى المحرقة، وطوى بهم مفاوز العناء، وخاض بهم وهادًا من الشدة والابتلاء.

وصل الجيش، وقد أرهقتهم المسافات الطويلة، وأذاب أجسادهم قيظ الحجاز، وأتعبهم طول المسير، لكنّ أرواحهم كانت في علياء الإيمان محلقة، وأفئدتهم تستبشر بلقاء العدو، وترتقب نصر الله الموعود.

نزل جيش الإيمان في أرض تبوك، واصطفت الخيام على رمالها الساخنة، واستراح المجاهدون في ظلال الطاعة، بعد أن أظهروا للعالم كيف يُصنع النصر من رحم الشدة، وكيف يُستخرج الثبات من جوف المحن. ثلاثون ألفًا كانوا، يقودهم المصطفى صلى الله عليه وسلم، يلوّح على جبينه نور النبوة، وتنساب من كلماته أنهار التثبيت، ويشعّ من صمته جلال الهيبة.

لكن العجب كل العجب... لم يُرَ للروم أثر، ولم يُسمع لهم صوت. أين هم الذين أعدّوا العدّة، وجيشوا الجيوش؟ أين كتائبهم التي ضجّت بها الأخبار في المدينة؟ لقد علموا بمسير النبي صلى الله عليه وسلم، فزلزلت أقدامهم، وخارت قلوبهم، وألقى الله في صدورهم من الرعب ما جعلهم يولّون الأدبار قبل اللقاء.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]... إنها سنة الله في الذين آمنوا، أن تكون مهابتهم سابقة لسيوفهم، وأن تنكسر شوكة الباطل أمام عزائم الصادقين.

لقد علم الروم أن هذا الجيش لا يقاتل من أجل الأرض ولا المغنم، وإنما يحمل عقيدة تزلزل الجبال، ويقوده نبي مؤيد بالوحي، تسير أمامه ملائكة النصر، وتنسج له العناية الإلهية طريق الفتح والتمكين. فآثروا السلامة على المواجهة، واختبأوا خلف حصونهم، وتركوا الميدان فارغًا، كأنما الأرض نطقت بهيبتهم: لا طاقة لنا اليوم بمحمد وأصحابه.

ومع أن المعركة لم تدر رحاها، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بتبوك عشرين ليلة، يُرسي فيها قواعد السياسة، وينشر لواء الدعوة، ويُخضع القبائل تحت راية الإسلام، لا بإراقة دم، ولكن بهيبة الحق، وبصوت الوحي، وبخلق الرحمة.

فأقبلت إليه الوفود، وجاءه أهل أيلة، وجرباء، وأذرح، يطلبون الصلح والأمان، فصالحهم صلى الله عليه وسلم على الجزية، وأقر لهم عهودًا أمانًا لا تزال محفوظة في كتب التاريخ، تشهد بسموّ هذه الرسالة، وعدالة هذا الدين. وكان من ذلك ما جاء في *صحيح البخاري* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال":لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو يريد تبوك، أمر بلالًا فنادى بالصلاة جامعة، فصلى بالناس، ثم خطبهم ووعظهم، ثم رجع إلى بيته..." [الحديث بطوله في باب غزوة تبوك.]

ومن أعظم من صُولِح يوحنا بن رؤبة، صاحب أيلة، الذي استجاب، وأعطى الجزية، وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتاب أمان، فيه" :هذا كتابٌ من محمدٍ النبيِّ رسولِ اللهِ ليُوحَنَّا بنِ رُؤبةَ وأهلِ أيلةَ، سفنُهم في البحرِ وسائرُهم في البَرِّ، لهم ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ محمدٍ النبيِّ..." [رواه أبو داود والبيهقي.]

لقد تحولت تبوك من ساحة قتالٍ متوقّع، إلى منبرٍ من منابر الدعوة، ومقامٍ عظيمٍ يُظهر فيه الله عز وجل دينه، وينشر فيه نوره، ولو كره الكافرون.

وهكذا... عاد جيش الإيمان من تبوك، لا وقد خاض معركةً بالسيف، ولكن وقد خاض معركةً أعظم... معركة الثبات، والانتصار بالهيبة، وإرغام العدو على الانسحاب دون أن يُشهَر في وجوههم سلاح، وهذا من تمام قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢.]

عادت القلوب أكثر يقينًا، والنفوس أكثر عزيمة، والإسلام أعز وأقوى، بعد أن أثبت أن الهيبة التي يلقيها الله في قلوب أعدائه، لا تُقاوَم، وأن الجيوش المؤمنة إنما تنتصر قبل أن تصل.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الهيبة التي يُلقيها الله في قلوب أعداء المؤمنين دليل على أن النصر من عند الله، لا بكثرة العَدد ولا العُدَد.
- إنما ينتصر أهل الإيمان بهدي الوحي والتمكين من الله، لا بالمصالح الأرضية أو الغايات الدنيوية.
- ثبات القلوب في مواطن الشدة من علامات صدق الإيمان، وهو فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده الصالحين.
- التأييد الإلهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجيشه هو جزء من عقيدة الولاء لله والنصرة لدينه.
- معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ليست فقط في خوارق العادات، بل في آثار نبوته من مهابة وفتح وتمكين.
- النصر بالرعب سنة ماضية أيد الله بها أنبياءه وعباده الصادقين، وهي من دلائل صدق الرسالة وعلو الدين.

فوائد فقهية

- مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب وإقرارهم على دينهم مقابل دفعها، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل أيلة.
- جواز تأخير القتال عند تحقق مصلحة أعظم كإظهار هيبة الإسلام أو استجابة الأعداء للصلح.
- ثبوت التعامل بعقود الأمان والصلح مع غير المسلمين، وهو باب مستقل في الفقه الإسلامي له شروطه وضوابطه.
- من السنة إلقاء الخطب الجامعة عند النوازل والغزوات، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين جمع الناس وخطبهم.
- وجوب الوفاء بعقود الأمان والصلح التي يُبرمها ولي أمر المسلمين مع غيرهم، ما لم يُنقض العهد.

فوائد أخلاقية

- في مواقف الشدة والابتلاء تتجلى معادن الرجال، ويُعرف الصادق من المدّعي، والثابت من المتلون.
- الهيبة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم عند أعدائه نابعة من الصدق، والتقوى، وقوة الشخصية، لا من الصياح أو العنف.
- خلق الرحمة الذي تعامل به النبي صلى الله عليه وسلم مع وفود الأعداء دلّ على سموّه في خُلُقه، وعظيم حلمه، وعلو مقامه.
- احترام العهود وعدم الغدر من صفات المؤمنين الملتزمين بدينهم، ولو كان الطرف الآخر كافرًا.
- العمل الجماعي المنضبط خلف القيادة الصالحة يُثمر قوة وثباتًا، حتى دون الدخول في معارك مباشرة.

فوائد دعوية

- نشر الدعوة قد يكون بالكلمة والهيبة أكثر من السيف، كما حصل في تبوك.
- حُسن التعامل مع وفود غير المسلمين وتخييرهم بين الإسلام أو الجزية هو من فقه الدعوة، لا من ضعف أو انهزام.
- استغلال المواقف السياسية والعسكرية لبسط الدعوة وإقامة العدل يُعد من حكم الدعوة الراشدة.
- عظمة الرسالة المحمدية تتجلى في قدرتها على ضم قلوب المخالفين حتى قبل دخولهم الإسلام.
- الموقف الدعوي في تبوك أكد أن الإسلام لا يسعى للدماء، بل للبيان والهداية، متى وُجدت الاستجابة.

فوائد تربوية

- تعليم الجيل أن النصر ليس شرطًا أن يكون بالسيف، بل بالثبات والعقيدة والهيبة التي يلقيها الله في قلوب الأعداء.
- غرس معاني العزة والثقة بنصر الله، ولو بدا العدو أكثر عُدة وعددًا.
- تربية النفس على الصبر في الشدائد، وانتظار موعود الله دون استعجال.
- القيادة النبوية في تبوك تعلّم الأمة كيف تُدار الأزمات بحكمة وقوة، لا بردود الأفعال أو التهور.
- ربط النصر بالاستقامة والصدق، لا بالوسائل الظاهرة فقط، تربية عظيمة للأجيال القادمة.

مخالفات الواقع

- زوال الهيبة من نفوس الكفار تجاه المسلمين، بل واحتقارهم لدينهم وشعائرهم، وهو عكس ما كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.
- استبدال لغة الحكمة والرحمة في الدعوة بلغة العنف أو التمييع، ففُقدت قوة التأثير في قلوب الناس.
- ضعف الثقة بنصر الله، وانشغال المسلمين بتحصيل الأسباب المادية فقط، دون تعلق قلبي بالتمكين الإلهي.
- تقاعس كثير من الدعاة عن نشر الإسلام عالميًا بالحق والحكمة، مع توفر السبل والوسائل لذلك.
- غياب القيادة الراشدة التي توحد الكلمة وتحمل الناس على الصبر والعزة والثبات على الحق.

- من معتقد الخوارج أنهم لا يُقرّون بشرعية المعاهدات مع غير المسلمين، ويرون القتال فرضًا في كل حال، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قَبِل الجزية وصالح من صالحه، مما يفضح انحراف فهمهم.

الفقرة الثامنة: اللقاءات والمراسلات في تبوك: فتح القلوب قبل الحصون

لم تكن إقامة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في تبوك مقام استراحة بعد عناء، ولا كانت وقفةَ مترددٍ ينتظر عدوًّا لا يأتي، بل كانت أيامًا من العمل الدؤوب، والتخطيط الحكيم، والدعوة الراشدة، والسياسة الرحيمة. هناك، تحت سماءٍ تَكاد تَشْويها الشمس، وفي أرضٍ قد غبر أديمها من وطء أقدام المجاهدين، حوّل النبي صلى الله عليه وسلم ميدان الترقب إلى منبر دعوة، وساحة اللقاءات إلى منصة لتثبيت عدل الإسلام وهيبته في أرجاء الشمال.

لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المعصوم المؤيد بوحي السماء، أن النصر لا يكون فقط في صليل السيوف وقرع الطبول، بل يكون حين تُفتح القلوب للحق، وتُكسَر شوكة الباطل بسيف الكلمة، وهيبة الأخلاق، وسمو الرسالة. ولذا استثمر مقامه في تبوك لتوسيع الأفق، ومد جسور السلم، واستدعاء العقول إلى نور الإسلام.

ومن أعظم ما وقع في تلك الأيام المباركات، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد في سرية خاصة، إلى دومة الجندل، حيث يقيم أكيدر بن عبد الملك الكندي، أحد ملوك العرب المتنصرين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لخالد" :إنك ستجده يصيد البقر"، فكانت النبوءة على وجهها، كما رواه أهل السير، إذ خرج أكيدر في ليلة مقمرة يصيد، فهاجت عليه البقر، فركب ومعه قلة من رجاله، فوقع في أيدي المسلمين، وأُسر دون قتال. جيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في هيبة ملك، فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بحلمه المعهود، وأمانه المعروف، فصالحه على الجزية، وأطلق سراحه، فعاد إلى قومه، وقد عَلِم أن هذا الدين لا يأتي بالخراب، بل يُقبل بالهدى والحق والعدل.

وأقبل وفد أهل أيلة على النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون الصلح، فأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكتب لهم كتاب أمان، جاء فيه:

"هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل أيلة، أن لهم البحر، ولهم البر، بجميع ما هم فيه، من بر أو بحر، ولهم ذمة الله وذمة محمد النبي."...

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى أهل أذرح، وأهل جرباء، وغيرهم من قرى الشام القريبة، فجعل لهم عهد الأمان، على أن يدفعوا الجزية، ويقرّوا بالصلح، فسالموه على الطاعة، وكتب لهم كتبه المشهورة التي تداولها المؤرخون، وحفظها المسلمون جيلاً بعد جيل، كوثائق للعدالة المحمدية، والرحمة النبوية.

وهكذا، دون أن يُشهَر سيف، ولا أن يُسفك دم، دانت القبائل للنبي صلى الله عليه وسلم، لا خوفًا من بطشه، بل رهبة من عدله، وإعجابًا بحلمه، ويقينًا أن هذا الرجل ليس كغيره من الملوك، بل نبيٌّ يُوحى إليه من السماء، وسراجٌ يهدي بنور ربه.

وقد تحققت آيات الله على أرض الواقع، فمن ذلك قوله تعالى:﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾]آل عمران: ١٥١[

وقوله سبحانه :﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾]الأنفال: ٦١[،

فكان السلم في تبوك جُنوحًا إلى الحق، لا استسلامًا للباطل، وكان صُلحُها مقدّمة لفتح الشام، وتمهيدًا لانحسار سلطان الروم من هذه الأرض المباركة.

إنه الإسلام في أجلى صوره، حين يعلو ولا يُعلى عليه، لا بالعنف، ولكن بالعقل، لا بالجبر، ولكن بالعدل، لا بالطغيان، بل بالرحمة. وهكذا عاد النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك، وقد أقام صرح الهيبة والعدل في أرض لم تُسفك فيها قطرة دم، لكنها امتلأت بنور الهدى، وعبير النبوة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين رحمة وعدل لا يقوم على القهر، بل على دعوة العقول وفتح القلوب.
- النبي صلى الله عليه وسلم مؤيد بالوحي، وما صدر عنه من تصرفات في تبوك كان وحيًا وهديًا.
- تحققت آيات الله في الواقع كما وعد، ومنها إلقاء الرعب في قلوب الكافرين دون قتال.
- إسلام الملوك والقبائل يدل على أن القلوب إذا خضعت للحق عرفت أنه وحي من الله لا مجرد سياسة بشرية.
- النبوة منزلة عظيمة لا تُقارن بملك، والنبي صلى الله عليه وسلم جاء برسالة لا بمطامع دنيوية.

هيبة الإسلام لا تأتي من البطش وإنما من عدله وربانيته.

فوائد فقهية

- يجوز أخذ الجزية من أهل الكتاب إذا طلبوا الصلح، مع ضمان حقوقهم.
- من السنة توثيق العقود السياسية والصلحية كتابة، وحفظها من باب الأمانة والعدل.
- يجوز إرسال السرايا الاستطلاعية أو العقابية عند الحاجة، حتى في حال السلم العام.
- الصلح مع غير المسلمين يُشترط فيه أن يكون على الطاعة وعدم الاعتداء.
- أمان الإمام أو نائبه لأهل الحرب معتبر، وله آثار شرعية.
- الجزية لا تُؤخذ إلا مع تأمين الحماية والعدل لمن دُفعت منهم.

◆فوائد أخلاقية

- حلم النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الأسرى والوفود كان سببًا في دخول الناس في دين الله.
- العدل يُرهب أعداء الإسلام أكثر من السيف، لأنه لا يُجارى.
- الرفق والرحمة والكرامة في التعامل تفتح مغاليق القلوب المغلقة.
- عدم الإهانة في الأسر، والصفح عند المقدرة، خُلق نبوي عظيم.
- المواقف العظيمة تُخلّد حين يقترن الجهاد بالحكمة، والقوة بالعدل.

فوائد دعوية

- الدعوة لا تُحصر في المساجد، بل تمتد إلى كل ميدان حتى ميدان الجهاد.
- فتح القلوب بالبيان أولى من فتح الحصون بالسنان متى ما وُجد السبيل لذلك.
- الكتابة وسيلة دعوية مهمة في نقل القيم الإسلامية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في العهود.
- الهيبة التي تنشأ عن الموقف النبوي تُعد أعظم من ألف خطبة إذا خلت من القدوة.
- الدعوة القائمة على الحلم والعدل تُسقط دعاوى الأعداء وتُظهر نور الرسالة.

فوائد سياسية

- المقام في تبوك كان من أعظم مظاهر القوة السياسية النبوية رغم قلة الموارد وبعد المسافة.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتظر العدو بل بادر إلى فرض الحضور الإسلامي في مناطق نفوذ الروم.
- الانتصار السياسي أحيانًا يكون أعظم من النصر العسكري، لأنه يُرهب العدو دون خسائر.

- عقد الصلح مع أطراف متعددة في وقت واحد يوحّد الجبهة الداخلية ويشتت العدو.
- الهيبة السياسية تُبنى بالصدق والعدل، لا بالخداع والمكر.

مخالفات الواقع

- الزعم بأن الإسلام لا ينتشر إلا بالسيف يناقض صلح تبوك وما شابهه من الوقائع.
- تحول كثير من السياسيين والدعاة في زماننا من لغة العدل إلى لغة المصلحة المجردة، فضاعت هيبة الدعوة.
- قلة من يقتدي اليوم بحلم النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الخصوم والأسرى، فتُهدر الفرص الدعوية.
- الاعتماد على العنف اللفظي أو المادي في الدعوة يُنفر الناس، ويُطفئ نور الرسالة.
- غياب فقه الصلح والعقود الدولية الإسلامية عند بعض الحركات في زمننا أدى إلى فتن عظيمة.

- من ضلال الخوارج في القديم والحديث، زعمهم أن القتال هو الوسيلة الوحيدة لنصرة الدين، فخالفوا هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك، حيث نشر الإسلام بالسلم والعدل.
- المرجئة بزعمهم أن الإيمان مجرد معرفة قلبية، لا يرون أثرًا للإسلام في إقامة العدل في الأرض، فأسقطوا الجانب العملي من الدين.
- غلاة الصوفية يُعرضون عن الجانب السياسي والهيبة الإسلامية باسم الزهد والتجرد، مما يُضعف جانب تمكين الدين في الأرض، وهذا خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمع بين الروح والسياسة.

الفقرة التاسعة: خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك: مدرسة الثبات والعزيمة

في تلك البقعة الجافة من أرض العرب، حيث لا ظلّ يُرتجى، ولا ماء يُنتظر، وقف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، على ثرى تبوك الملتهب، يواجه وجوهًا أنهكها السفر الطويل، وجباهًا لفحها حر الشمس، وقلوبًا تتقلب بين الرجاء والخوف، واليقين والاختبار. كانت أرضًا قاحلة، لكنها تحولت في لحظات إلى ميدان روحاني تفيض فيه معاني العزة والثبات، حين اعتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانًا مرتفعًا، ونظر إلى جنده، أولئك الأطهار الذين خرجوا في "ساعة العسرة" طاعةً لله ورسوله، لا يملكون إلا قلوبًا عامرة بالإيمان، وأبدانًا تسير على وقع التوكل والرجاء.

فخطب فيهم خطبة موجزة اللفظ، عميقة المعنى، تشق طريقها إلى الأرواح قبل الأسماع، قال فيها صلى الله عليه وسلم:

»إنكم ستقدمون على قومٍ جُعل في قلوبهم رُعبُكم، وسترجعون إن شاء الله عائدين سالمين، فلا يرغبن أحد منكم عن الغزو، ولا يتخلفن رجل له جهاز، أو عنده طاقة، إلا بإذن مني، فإن من يتخلف بغير إذني فهو آثم قلبه، ولن يبارك الله له في ماله ولا في ذريته.«

يا لها من كلمات، خرجت من فم الطاهر المصدوق، فزلزلت بقايا التردد، ومزّقت أردية التثبيط، وهدمت بنيان النفاق، وغرست في القلوب معاني الصدق، وثبّتت العزائم على درب الجهاد والبلاغ، بلاغ الحق إلى الناس كافة.

لم تكن هذه الخطبة مجرّد كلمات في زمان أزمة، بل كانت إعلانًا للنفير، وتأكيدًا على أن الطريق إلى الله لا يعرف التواني، ولا مكان فيه لمتخاذل أو مدّعٍ. إنها دعوة للجهاد الحقيقي، لا بالسيف فقط، بل بالنفس والنية والصدق والإخلاص، وقد صدق الله إذ قال:﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾]السجدة:١٧.[
وهؤلاء كانوا ممن عمل، وثبت، وتحمّل.

وفي خطبته تلك، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب أجسادًا متعبة، بل أرواحًا تتوق إلى مرضاة الله، فكان يحذّرهم من الكذب، لأنه أول سُلم المنافقين، ويحذر من الإرجاف، لأنه سلاح المهزومين، ويحذر من التثبيط، لأنه عاهة النفوس الضعيفة التي لم تتذوق طعم اليقين. ألم يقل الله عز وجل فيهم :﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾]التوبة:٤٧.[

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أعظم المربين، لم يجعل من غزوة تبوك مجرد تحرك عسكري، بل جعل منها مدرسة إيمانية متكاملة، يتخرج فيها الرجال وقد تخلّصوا من رواسب الدنيا، وتطهرت نفوسهم من دنس الرياء والكسل.

كانت خطبته بيانًا لرسالة الإسلام، أن الجهاد ليس توسعًا لأرض، ولا بحثًا عن غنيمة، بل امتحانٌ للقلوب، وتصفيةٌ للصف، وغربلةٌ للنيات.

وفي ظلال تلك الخطبة، تفتحت بصائر الصحابة على حقيقة التوكل، وأن الله ناصر من نصره، وكافي من وثق به، فأنزل الله في حقهم :﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾]التوبة:٤٠[، وأكد للمؤمنين أنهم منصورون بالرعب قبل اللقاء، كما قال جلّ شأنه:
﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾]آل عمران:١٥١.[

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال»:نُصرتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر «رواه البخاري ومسلم.

لقد كانت خطبته صلى الله عليه وسلم في تبوك درسًا خالدًا في القيادة، وفصلاً من فصول التربية النبوية التي تصنع الرجال وتبني الأمم، فخرجوا منها لا كجنود، بل كدعاة صادقين، ورسل للحق في الآفاق.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن الله هو الذي يُلقي الرعب في قلوب الكافرين قبل أن يلقاهم المؤمنون، وأن النصر بيده لا بكثرة العدد والعدة.
- يقين المؤمن بأن ما وعد الله به من نصر وثواب وجزاء على الأعمال هو حق لا يتخلف، وهذا من صميم التوحيد في الأسماء والصفات.
- اعتقاد أن الغزوات في الإسلام لم تكن توسعًا دنيويًا بل طاعةً لله وابتغاءً لرضاه، وهو من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر.
- الإيمان بأن من خالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بغير إذن فقد آثم قلبه، وفي هذا إثبات لسلطة التشريع والبيان للنبي صلى الله عليه وسلم.
- تصديق أن التثبيط والإرجاف والكذب من خصال النفاق، والنفاق من أعظم الأخطار العقدية التي تهدد الصف الإسلامي.

فوائد فقهية

- حرمة التخلف عن الجهاد في وقت النفير العام دون إذن شرعي، وأنه يُعد من الكبائر الموجبة للإثم.
- بيان أثر المعصية على المال والذرية، فإن البركة تُرفع بسبب الذنب كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «فهو آثم قلبه، ولن يبارك الله له في ماله ولا في ذريته.«
- جواز خطاب الجيش وتحفيزه قبل القتال، وهو من السنة النبوية الثابتة في غزواته صلى الله عليه وسلم.
- أن للجهاد أحكامًا تتعلق بالنية والصفاء والإخلاص، لا بمجرد الحضور والمشاركة، وهذا يدل على فقه المقاصد في

التشريع.

- مشروعية التحذير من النفاق والصفات المنافية للإيمان في المجتمعات الإسلامية، خاصة في أوقات الأزمات والمواقف المفصلية.

فوائد أخلاقية

- التحذير من الكذب والإرجاف والتثبيط، لما فيها من إفساد للقلب والمجتمع، ودورها في إضعاف الصفوف وتفريق الجماعة.
- تعظيم فضيلة الصدق والإخلاص والتوكل، وأنها سمات أهل الإيمان الذين يصنعون الفرق في الميدان قبل أن يدخلوا ساحة القتال.
- صناعة الرجال تحتاج إلى تربية عملية في ميادين الشدة، لا مجرد خطب نظرية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك.
- التقاعس والتخاذل عن نصرة الحق من علامات ضعف النفس وفساد النية.
- الطاعة في وقت الشدة من أعظم ما يثبت الإيمان ويقوّي العزيمة.

فوائد دعوية

- ضرورة استخدام الخطب والكلمات المؤثرة في لحظات الشدة لتثبيت الإيمان وغرس المعاني الربانية في النفوس.
- أن التربية النبوية هي تربية مواقف ومعانٍ، لا مجرد ألفاظ، وأن التربية الجهادية تغرس في المدعوين الصدق واليقين.
- ربط الواقع بالوحي في الخطاب الدعوي سبيل لغرس المعاني الإيمانية وبناء الوعي الراسخ عند الناس.
- الخطيب والداعية يجب أن يكون مربيًا، لا ناقلًا للمعلومات فحسب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد سياسية

- القيادة في الإسلام تعتمد على إشعال المعنويات وبناء النفوس قبل خوض أي معركة، ولا تقوم فقط على التخطيط العسكري.
- أن غزوات النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن عدوانًا، بل لحماية الرسالة وتأديب المعتدين، ولهذا كانت تنطلق بقيم إيمانية وروحية، لا أطماع مادية.
- أهمية تصفية الصف الداخلي قبل مواجهة العدو الخارجي، وهذا يتحقق بكشف المنافقين والمثبطين قبل الاصطفاف في ساحة المواجهة.

ما يخالف الواقع

- ظهور التثبيط عن نصرة الدين والاستهزاء بالدعوة والجهاد بزعم الحكمة والاعتدال، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسكت عن ذلك بل حذر منه وشدّد فيه.
- اعتبار بعض الناس أن الغزوات كانت لأغراض دنيوية أو توسعية، وهو قول باطل يطعن في نية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
- تفريط كثير من المسلمين اليوم في طاعة العلماء والدعاة الربانيين، بينما كان الصحابة لا يخرجون أو يتخلفون إلا بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم.
- انشغال الناس اليوم بزينة الحياة الدنيا، وإعراضهم عن المعاني العظمى من التضحية والثبات والجهاد، حتى صار العطاء والبذل في سبيل الله أمرًا غريبًا عند كثيرين.

♦ انتشار الكسل والركون إلى الراحة عند كثير من أبناء الأمة، مع أن الإسلام دعا إلى الجد والعزيمة والهمة العالية، خاصة في أوقات الأزمات.

الفقرة العاشرة: عودة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد غزوة تبوك

عاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من تبوك، عودة المنتصر دون قتال، والظافر دون دماء، بعد أن ميّز الله الخبيث من الطيب، وفضح زيف المنافقين، وكشف خبايا القلوب التي كانت تُظهر الولاء وتُخفي الغدر، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣.]

لقد كانت غزوة تبوك ميدان اختبار إيماني، وميزان غربلة دقيقة للصف الإسلامي، فما كانت رحلةً عسكرية فحسب، بل كانت فصلًا من فصول التربية النبوية، وسِفرًا من أسفار صناعة الرجال.

وفي طريق العودة، نزل النبي صلى الله عليه وسلم ببعض المنازل، وكان أخطر ما وقع في هذه الرحلة المباركة، تلك المؤامرة الآثمة التي دبرها نفر من المنافقين، تآمروا بليل، وتواطؤوا في الظلام، ليغتالوا النور!
ففي عقبة وعراء، ضيقة المسلك، مظلمة الجوانب، أرادوا أن يدفعوا راحلة النبي صلى الله عليه وسلم، فتهوي به إلى أسفل الوادي! وكانوا قد تلثموا لئلا تُعرف وجوههم، لكن الله لا تخفى عليه خافية، ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥.]

أمر النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، أن يرافقاه في هذا الموضع الدقيق، وأمر عمارًا أن يقود الراحلة من أمامها، بينما يكون حذيفة من خلفها، يرعى خطاها بعين الحذر وسيف اليقظة.
فلما اقترب أولئك الملثمون الخائنون، صرخ فيهم حذيفة صيحة رجلٍ لا يهاب الموت، فانقلبت خططهم إلى هزيمة، وتبعثرت مؤامرتهم في الهواء، وفرّوا لا يلوون على شيء، كأنهم شياطين الليل وقد فُضح أمرهم بنور الإيمان.

ولم يفضحهم النبي صلى الله عليه وسلم أمام الناس، رغم جرمهم الذي يستحق ذلك، بل حفظ أسماءهم، وهمس بها في أذن حذيفة، فكان حذيفة منذ تلك الليلة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رغم جلالته ومقامه، يسأل حذيفة مخافتًا: "أنشدك بالله، هل سماني لك رسول الله؟"، خشية أن يكون ممن وُسم بالنفاق!

وفي طريق العودة، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم غافلًا عن أحوال الناس، بل كان يتنقّل بين الصفوف، يربّت على القلوب، ويعلّمهم آيات الصبر، ويربطهم بالسماء في زمن المحن. حتى إذا أشرفت المدينة على أفق البصر، خفق قلبه الطاهر شوقًا، وبسط ذراعيه حنانًا، وقال لمن حوله: «هذه طابة، وهذا أُحدٌ جبل يحبنا ونحبه» رواه البخاري.

وحين اقترب الركب النبوي من أبواب المدينة، خرج أهلها رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، بقلوب تفيض شوقًا، وعيون تدمع فرحًا، يرددون بأصوات الإيمان نشيد الحب والولاء:
"طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع ... وجب الشكر علينا ما دعا لله داع."
إنها لحظة لا تُنسى، عبّر فيها الناس عن عرفانهم، وفرحهم، وامتنانهم لعودة النبي صلى الله عليه وسلم سالمًا، وقد حمل إليهم نصرًا من الله وفتحًا قريبًا، وأعاد إلى المدينة نورها الأبهى.

لقد كان هذا الاستقبال إعلانًا جديدًا للبيعة، وتجديدًا لعهد الإيمان، وبداية مرحلة من مراحل النصر الروحي، الذي يتجاوز حدود السيوف والرماح، ليصل إلى قلوبٍ طهّرها الجهاد، وزكّاها الثبات، وربّاها المصطفى صلى الله عليه وسلم على عينه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه يُميز في سننه الكونية بين المؤمن والمنافق، ويبتلي عباده ليظهر صدق الصادقين وكذب الكاذبين.
- الفتن من تقدير الله عز وجل، وهي وسيلة إلهية لتمحيص القلوب وكشف المنافقين، وفيها يظهر علم الله المحيط بالغيب.
- من دلائل النبوة أن الله حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم من كيد المنافقين، ولو اجتمعوا وتواطؤوا، فإن حفظ الله لا يغلبه مكر الماكرين.
- علم الله الشامل لا يخفى عليه شيء، حتى خطط الليل وخيانات السر، فهو يخرج الخبء في السماوات والأرض.
- من دلائل الإيمان محبة الأماكن التي أحبها النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها مرتبطة بعقيدة الولاء والانتماء لسنته وشريعته.
- سلامة الصدر وخوف النفاق من صفات المؤمنين، كما ظهر في سؤال عمر رضي الله عنه، وهو من المبشرين بالجنة.

فوائد فقهية

- الستر على أهل المعاصي إذا لم يترتب عليه مفسدة عامة منهج نبوي، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع المتآمرين حين لم يفضح أسماءهم للناس.
- الحذر من مواضع التهم من الفقه، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمرافقة حذيفة وعمار له في العقبة، ليدفع الشبهة قبل وقوعها.
- من السنة إظهار الفرح بسلامة القائد المسلم وعودته من الجهاد، كما استقبل أهل المدينة النبي صلى الله عليه وسلم بفرح وابتهاج.
- الوفاء والبيعة المتجددة من مظاهر تعزيز الجماعة والسمع والطاعة، كما فعل أهل المدينة حين جددوا البيعة بعد العودة.

فوائد أخلاقية

- المؤمن الصادق لا يغتر بالسلامة الظاهرة، بل يفتش في قلبه عن خفايا النفاق، كما فعل عمر رضي الله عنه رغم منزلته.
- الوفاء للقيادة الصالحة، ومحبة القائد المسلم الصادق، من أخلاق المؤمنين، وقد ظهر ذلك في موقف أهل المدينة.

- التربية بالقدوة والفعل أبلغ من مجرد القول، وغزوة تبوك كانت ميدان تربية لا مجرد ساحة معركة.

- الشجاعة الحقيقية ليست في رفع السيوف فقط، بل في حماية المبادئ والوقوف في مواضع الخطر، كما فعل حذيفة وعمار.

- الصبر والثبات في زمن المحن من علامات الإيمان الراسخ، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثالًا في الصبر والربط بالله أثناء العودة.

فوائد تربوية

- القيادة الناجحة لا تنشغل فقط بالتوجيه العام، بل تتفقد أحوال الناس وتواسي القلوب وتُعلي من المعنويات، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في طريق العودة.

- حسن التعامل مع الأحداث الكبرى وصياغتها في قالب تربوي يترك أثرًا عميقًا في النفوس، وغزوة تبوك نموذج لذلك.

- إعطاء المسؤوليات لأهلها منهج تربوي نبوي، فاختيار حذيفة وعمار لمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في موضع الخطر كان تدريبًا على المسؤولية والثقة.

- الخطر الحقيقي في الصف ليس من الخارج فقط، بل من الداخل حين يتسلل النفاق ويُخفى الغدر تحت ستار الطاعة، وهي تربية على الوعي واليقظة.

ما يخالف الواقع

- ضعف استشعار بعض الناس لسنن الابتلاء، فتراهم يتذمرون عند كل محنة، ولا يرون فيها حكمة إلهية للتمييز والتمحيص.

- غياب مفهوم محبة القيادة الصالحة واحتضانها، بل صار البعض يتربص بها ويتمنى سقوطها بدعوى النقد والحرية.

- قلة الوعي بفقه السترة، فتجد من يسارع إلى التشهير بالمذنبين حتى دون بينة، بخلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في ستر المنافقين دون مصلحة ظاهرة للفضيحة.

- سوء الظن وانتشار اتهام الناس بالنفاق دون خوف على النفس، مع أن عمر رضي الله عنه خشيه على نفسه وهو من العشرة المبشرين بالجنة.

- انصراف كثير من القيادات الدعوية عن الجانب التربوي والقلبي، واشتغالهم بالشعارات العامة دون أن يربتوا على القلوب ويواكبوا المحن بروح حانية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

- من مسالك الخوارج إسقاط القيادة المسلمة لأجل أخطاء محتملة أو مجرد شكوك، ولو كانت القيادة مصلحة راشدة كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا بخلاف منهج أهل السنة الذين يحفظون البيعة ويجددون العهد ولا يخرجون على أئمتهم ما أقاموا فيهم الصلاة.

الفقرة الحادية عشر : قدوم المنافقين المخلَّفين واعتذارهم

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، وقد أتمّ الله له النعمة، ونصره بغير قتال، ورفع ذكره، وأظهر دينه، وأبان للناس الصادقين من الكاذبين، والمخلصين من المداهنين. فبينما قلوب المؤمنين ترفرف فرحًا، وأرواحهم تزهو بنصر الطاعة وثبات العقيدة، إذا بأبواب النفاق تُفتح، ويأتي الذين خُذِلوا يوم العسرة، وتخلفوا عن ركب المجاهدين، ولم يحملوا همّ نصرة الدين، أولئك الذين قال الله عنهم :﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾]التوبة: ٨٧.[

جاءوا يلوذون بظاهر الإسلام، ويتترسون بأيمان كاذبة، علّها تشفع لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يحلفون بالله ما لم يكن، ويدّعون الأعذار، ويذرفون دموع التماسيح، يظنون أن حسن البيان يُخفي خيانة الجَنان، وأن زخرف القول يغني عن صِدق الفعل.

دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم جماعةً إثر جماعة، وكلٌّ منهم يُبدي أسفه، ويختلق الأعذار، ويُقسم بالله أغلظ الأيمان أنهم ما أرادوا تخلفًا، ولا قصدوا خذلانًا، ولكنهم أُكرهوا أو حيل بينهم وبين الخروج. ولكن الله، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فضح نفاقهم، وبيّن زيفهم، فقال جل جلاله :﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾]التوبة: ٩٤.[

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في غفلة عن كذبهم، ولا كان عن حقيقتهم غافلًا، فقد أنزل الله عليه من الأخبار ما يكشف الستار عن وجوه النفاق التي لبست أقنعة التقوى، ولكن خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم كان فوق ذلك كله، فلم يشهر بهم، ولم يفضحهم في الناس، بل ترك سرائرهم إلى من يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى :﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾]التوبة: ١٠١.[

فكان موقف النبي صلى الله عليه وسلم تجسيدًا للرحمة، والحكمة، والبصيرة، والتسليم لأمر الله، فقبل أعذارهم في الظاهر، وردهم بكلمة لا تزيد على ظاهر ما يدّعون، دون أن يُصدقهم ولا أن يُكذبهم، لأنهم قوم لا يُرجى صلاحهم، فقال لهم كما جاء في سورة التوبة:﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾]التوبة: ٩٥.[

هكذا رسم النبي صلى الله عليه وسلم منهجًا تربويًا بديعًا في التعامل مع المتلونين، فلم يتعجل في إنزال الأحكام، ولم ينشغل بهم عن المؤمنين الصادقين، بل وضع كل شيء في موضعه، فأعرض عنهم إعراض الكرام، وتركهم في غياهب نفاقهم، يتخبطون في الظلمة، وقلوبهم خاوية من نور الإيمان، ليكون هذا الموقف درسًا لكل من يأتي بعدهم، أن النفاق لا يُجدي، وأن التلون لا يُنجي، وأن الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته.

وبهذا المشهد، كُشف الغطاء عن قلوب طالما لبست لباس الصلاح، ورفعت راية الإسلام زورًا، فكان التمييز رحمة، والامتحان تطهيرًا، والرجوع من تبوك بداية عهد جديد من صفاء الصف، وصدق الطريق.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- النفاق من أعظم أبواب الكفر، وهو خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، وقد بيّن الله صفات المنافقين في القرآن ليُحذَر منهم.
- علم الله محيط بخفايا القلوب، فلا تنطلي عليه التمثيليات ولا تنفعه الأيمان الكاذبة ولا الأعذار المصطنعة، فهو سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

- وعد الله بالنصر والتمكين مشروط بالإيمان الصادق والعمل المخلص، لا يُنال بمظاهر التدين الكاذبة ولا بادعاء الانتماء.
- التمييز بين المؤمن والمنافق من سنن الله في عباده، ليطهر الصف ويُظهر الصادقين، وقد تكون الفتن والمحن وسيلة لهذا التمييز.
- النفاق لا ينجو به صاحبه في الدنيا ولا في الآخرة، بل هو رجس ومأواه جهنم، كما أخبر الله عز وجل في كتابه.

فوائد فقهية

- لولي الأمر أن يحكم بالظاهر ويكل السرائر إلى الله، خاصة إذا لم يُقيم المنافق الحجة عليه أو لم تظهر منه قرائن تُوجب العقوبة.
- الإعراض عن أهل النفاق وترك الجدال معهم سنة نبوية إذا ظهر كذبهم وفساد قلوبهم، فلا يُشتغل بهم عن الصادقين.
- قبول الأعذار الظاهرة ممن لا يُوثق بدينهم لا يعني التصديق لهم، بل هو إجراء تحفظي فيه جمع بين الحكمة وعدم إشاعة الفتنة.
- ليس كل من أبدى الإسلام يُعامل معاملة المؤمنين في الباطن، بل لا بد من التمييز بين الظاهر الذي تُبنى عليه الأحكام، والباطن الذي أمره إلى الله.

فوائد أخلاقية

- كثرة الحلف علامة على الكذب والريبة، وخُلُق المنافقين قائم على التزوير والخداع وليس على الصدق والصراحة.
- خلق النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع أهل النفاق كان قمة في الرحمة والحكمة، فلم يُعاملهم بجفاء رغم وضوح كذبهم، بل أعرض عنهم دون إذلال أو فضيحة.
- المؤمن لا يُغتر بالبيان المزخرف ولا بالكلام العاطفي إن لم يكن وراءه صدق فعل وثبات موقف، بل يعتبر ذلك من أساليب التمويه والنفاق.
- الإيمان الصادق يورث صاحبه رفعة وثباتًا في المواقف، بينما التلون والنفاق لا يورثان إلا الذل والخذلان.

فوائد دعوية

- الداعية ينبغي أن يكون بصيرًا بصفات المنافقين وأن يحذر منهم دون أن يشغل دعوته بمحاربتهم علنًا إن كان ذلك يؤدي إلى فتنة أو ضرر أعظم.
- السكوت عن المنافقين حين لا تُقام الحجة البينة لا يعني الرضا عنهم، بل هو من الحكمة في تقديم الأهم، وهو بناء صف المؤمنين.
- كشف النفاق لا يكون دائمًا بالفضيحة الصريحة، بل قد يكون بالإعراض الحكيم الذي يُفهم منه التبرؤ دون صدام.

تربية الأمة على التمييز بين الصادقين والمتلونين ضرورة في زمن الفتن، ويُستلهم من مواقف النبي صلى الله عليه وسلم منهج متكامل في ذلك.

فوائد سياسية

- النفاق يُضعف الصف الداخلي في أي مشروع نهضوي أو جماعي، والتساهل في كشف المنافقين قد يُؤدي إلى تمكينهم من مفاصل القرار.
- القيادة الرشيدة لا تنخدع بكثرة المتملقين، ولا تفتح لهم أبواب الثقة بمجرد القول، بل تبني علاقاتها على المواقف والتضحيات.
- التسامح مع المنافقين لا يعني الثقة بهم أو إشراكهم في القرارات المصيرية، بل هو من باب دفع الفتنة وحفظ الصف.

مخالفات الواقع

- تفشي النفاق في كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة، حيث يظهر بعض الناس بمظهر التدين ويخفون في قلوبهم العداء للإسلام أو استغلال الدين لمصالحهم.
- تهاون بعض المسؤولين والعلماء في كشف التلون والنفاق، وإعطاء أصحاب الوجوه المتعددة منابر التأثير والتوجيه.
- تصديق كثير من الناس اليوم للأعذار الكاذبة التي يُدلي بها المنافقون رغم وضوح تناقضها مع أفعالهم، مما يُعينهم على مواصلة الفساد في الصف.
- انتشار ظاهرة المجاملة على حساب الحق، حيث يُجامل المنافق خوفًا من الفضيحة أو الاتهام بالتشدد، فيُترك ليبث سمومه في الأمة.
- إقصاء الصادقين في بعض المواطن بدعوى أنهم "حادّون" أو "غير واقعيين"، بينما يُقرَّب المتلونون أصحاب الواجهات المزيفة .

الفقرة الثانية عشر: حين تكلّم القلب.. قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه

عادت الجموع المؤمنة من تبوك، والقلوب ترفرف بأجنحة النصر، والنفوس مغمورة برضا الله، والجباه شامخة بثباتها في ساعات العسرة والبلاء.. غير أن في المدينة قلوبًا تخفق خجلًا، ونفوسًا أضناها الندم، تتوارى خلف الظلال، تخشى العتاب، وتنتظر المصير.

كان من بين هؤلاء، رجل صدق الله فيما بعد، فصدقه الله، رجل اسمه كعب بن مالك رضي الله عنه، أحد شعراء الإسلام، وأحد من شهد بيعة العقبة وبدرًا، حتى إذا جاءت ساعة الجد، تخلف.. لا نفاقًا، ولا تهاونًا، بل غُلبت نفسه يومًا، فعصته، ثم لما أفاق من غفلته، وجد جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غاب في الأفق، وقد فاته الشرف العظيم.

مرت الأيام ثقيلةً عليه كأنها جبال، والمدينة تترقب عودة النبي صلى الله عليه وسلم، وكعب يرقب كل لحظة، وكل غيمة في السماء، لعلها تبشر برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم.. حتى إذا أقبل الركب، علم كعب أن ساعة الصدق قد حانت، وتفجرت في قلبه ينابيع الإيمان، وعزم ألا يكذب، وألا يلفّق لنفسه عذرًا، فالتوبة لا تُبنى على كذب، والله لا يخدع، وإن خُدع الناس.

يصف كعب الموقف بنفسه، فيقول – كما في صحيح البخاري ومسلم» :– فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، حتى إذا قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادمًا، زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه.«

دخل كعب المسجد، وقلبه يقرع بين أضلاعه كطبول الرجفة، ونفسه تتلو آيات الندم، ولما وقف بين يدي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ناداه النبي صلى الله عليه وسلم في لطف المغضب الحليم:

"تعال."

وهنا وقف كعب بين خيارين: أن يكذب لينجو، أو أن يصدق ليرجو.. فقال قولته الخالدة، التي سجلها القرآن في سجل التوبة» :يا رسول الله، أما والله، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك حديث كذب ترضى به عني، ليوشك الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك

حديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو عفو الله، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.«

قالها، ثم أنزل بصره، منتظرًا حكم السماء، فصمت النبي صلى الله عليه وسلم برهة، ثم التفت إلى الصحابة، وقال قولًا يحفر في القلوب قبل أن يُكتب في السطور" :**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك."**

ومضت الأيام، وكان كعب يعيش في عزلة، هو وصاحباه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، لا يكلمهم أحد، حتى زوجاتهم اعتزلنهم، وكان الناس يبتعدون عنهم كأنهم مجذومون، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وأيقنوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

وفي الليلة التي أذن الله فيها بفرج السماء، أشرقت المدينة بنور التوبة، ونزل قول الله:﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨.]

فجاء من يبشر كعبًا، فركض إلى المسجد لا يملك فرحته، وخرّ ساجدًا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبكي ويضحك في آنٍ واحد، فالتوبة أكرم من الدنيا، والعفو أوسع من كل فرحة.

قال كعب» :يا رسول الله، إن من توبتي أن أتصدق بكل مالي»، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **"أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك."** ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم ما تُختم به صحائف العمر" :**أما إن الله قد تاب عليك."**

ومن يومها قال كعب» :فوالله ما أعلم أحدًا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، والله ما تعمّدتُ منذ ذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم أن أقول إلا صدقًا إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيه ما بقيت.«

العبرة والخاتمة:

هذه القصة ليست مجرد فصل من السيرة، بل هي درس خالد في معنى التوبة، في شجاعة الصدق، في رحمة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي رجاء العبد بربه الغفور الرحيم.
إنها تقول لك: لا تيأس إن زلت قدمك، فالباب لا يُغلق، والرحمة أوسع، ولكن اصْدُق.

قال النبي صلى الله عليه وسلم" :عليك بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا] "رواه البخاري ومسلم.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه هو التواب الرحيم الذي يفتح أبواب الرحمة للتائبين، مهما عظمت ذنوبهم، إذا صدقوا في رجوعهم إليه.
- من صفات الله عز وجل أنه يتوب ليُوفق العبد للتوبة، ثم يقبلها، كما في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.
- لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذه عقيدة راسخة تؤكد أن الهرب من العقوبة لا يكون إلا بالفرار إلى الله بالطاعة والتوبة.
- محبة الله لعباده لا تنقطع رغم الذنب، بل تظهر في قبوله لتوبتهم وعفوه عنهم إذا صدقوا.
- الله لا يُخدع، ولا تُنال مرضاته بالكذب، وهذا تأصيل عقدي في إثبات علم الله المحيط بعباده، واستحالة خداعه سبحانه.

- من دلائل النبوة أن القرآن نزل موافقًا لحدثٍ خاص بشخص واحد، يخلده ويمجده ويجعل توبته آية تتلى، وهو من علامات صدق النبوة وتمام الرسالة.

فوائد فقهية

- الصدق في التوبة شرط لقبولها، ولا يصح أن تُبنى على كذب أو تزوير، كما دل عليه موقف كعب رضي الله عنه.
- العقوبة الشرعية بالهجر والإعراض عن المخطئ في بعض الأحوال جائزة إذا كانت منضبطة بهدي الشريعة وتؤدي إلى صلاحه.
- جواز اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم قرارًا بالهجر كنوع من التربية والتأديب، مع توقيف الحكم النهائي على وحي السماء.
- للوليّ أو الحاكم أن يمنع التائب من التصدق بجميع ماله إذا رأى المصلحة في إمساك بعضه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع كعب.
- لا يُعامل التائب دائمًا بالعقوبة الظاهرة، بل يُترك أمره لله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حتى يقضي الله فيك."

فوائد أخلاقية

- الصدق شجاعة لا يقدم عليها إلا أصحاب القلوب الحية، كما صنع كعب رضي الله عنه في موقف لا يُنسى.
- من علامات الإيمان أن ينكسر القلب بعد الذنب، وأن يحترق بنار الندم كما كان حال كعب ومن معه.
- من مكارم الأخلاق أن يعترف الإنسان بخطئه دون تبرير ولا عذر مفتعل، بل يتحمل المسؤولية كما فعل كعب.
- الاعتراف بالذنب بين يدي الصالحين وأهل الفضل لا يُنقص من قدر الإنسان بل يرفعه ويزيده مهابة.
- الفرح بالتوبة نعمة عظيمة يهبها الله للقلوب الصادقة، وتكون هذه الفرحة أشرف من كل فرح دنيوي.
- حفظ اللسان بعد التوبة عن الكذب علامة على صدق العبد في توبته واستقامته على الطريق.
- الحياء من الله ومن رسوله صلى الله عليه وسلم هو ما يدفع القلوب الحية إلى الصدق والندم.

فوائد دعوية وتربوية

- في هذه القصة دعوة لكل مذنب بأن لا ييأس من رحمة الله مهما طال به الذنب، إذا صدق في توبته.
- القصص الصادق المؤثر من السيرة أبلغ في التربية من مئة موعظة مجردة، لما فيها من الصدق والعبرة.
- الهجر التربوي – حين يُطبّق بضوابطه الشرعية – له أثر في ردع النفس، وتنبيه الغافل، وإحياء القلب.
- من وسائل التربية المؤثرة: أن يُترك المخطئ ليشعر بثقل خطئه بينه وبين ربه دون قسوة ظاهرة أو فضيحة.
- أثر الصدق في النفوس عظيم، ورب كلمةٍ صادقة تُخلّد صاحبها في سجل الأبرار، كما وقع لكعب رضي الله عنه.
- من أساليب الإصلاح التربوي أن يُعزز موقف الصادق، ويُشهر به في الخير، ليكون قدوة لمن بعده.

فوائد سياسية واجتماعية

- في تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه تنبيه على خطورة الغياب عن المواقف العامة الكبرى، وأنه ليس أمرًا شخصيًا بل يطال الأمة.
- عدم مشاركة الأفراد في أوقات العسرة قد يُعد خيانة معنوية للمجتمع، حتى لو لم يكن بدافع نفاق، بل حتى بالغفلة أو ضعف النفس.
- قوة المجتمع المسلم تكمن في وضوح المواقف، والفرز الصادق بين من ثبت ومن تخلف، حتى تُبنى الثقة على الحقائق

لا المجاملات.

- الشفافية في الاعتراف بالتقصير في العمل العام، مهما كلفت، أجدى من التبرير والكذب الذي يُقوّض هيبة الجماعة.

مخالفات الواقع

- تساهل كثير من الناس اليوم في الكذب من أجل الخروج من المآزق، ولو في أمور دينهم، خلافًا لما فعله كعب حين صدق.
- قلة من يجرؤون على الاعتراف بخطئهم أمام الناس، مع كثرة المبررين والمموّهين، وهذا خلاف خلق الصادقين.
- غياب الهجر التربوي في المجتمعات، مما جعل الخطأ يُستهان به، وصار مرتكب المعصية يُجالس ويُجلّ كمن لم يذنب.
- كثرة من يتوبون باللسان دون أن يظهر أثر التوبة في أفعالهم أو أخلاقهم، على خلاف توبة كعب التي أثمرت صدقًا دائمًا.
- النظر إلى الذنب على أنه أمر عادي في حياة بعض الناس اليوم، بينما كعب رضي الله عنه ضاقت عليه الأرض بذنبه.
- من منهج الخوارج عدم قبول توبة من وقع في معصية كهذه، وجعلهم يُكفّرون التارك ويُقيمون عليه حد الردة، بخلاف ما دل عليه القرآن وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد تاب عليك."
- المرجئة يُهوّنون من شأن المعصية، ويرون أن مجرد الإيمان كافٍ ولو لم تصحبه توبة، بينما القصة تؤكد أن الصدق في التوبة والعمل شرط في النجاة.
- غلاة الصوفية قد يدّعون التوبة دون التزام ظاهر بالشريعة، بينما كعب رضي الله عنه صدق في التوبة قولًا وفعلًا، والتزم بحكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، وامتثل الهجر والصبر عليه حتى نزلت توبته

الفقرة الثالثة عشر: من ليل المحنة إلى فجر التوبة.. محنة الثلاثة الذين خُلِّفوا

خرج كعب بن مالك رضي الله عنه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو لا يدري ما الله فاعل به. قد صدق ولم يعتذر، وثبت حيث زل غيره، لكنه الآن في امتحان عسير لا يعلم أحد مداه إلا الله. عاد إلى بيته، وقلبه يئن أنينًا لا يسمعه الناس، لكنه يسمعه من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

اجتمع عليه الناس، كلٌ يلومه بطريقته، يذكرونه بأن كثيرًا من المتخلفين اختلقوا الأعذار فقبلها النبي صلى الله عليه وسلم، واستغفر لهم، فلماذا لم يكن منهم؟ لماذا لم يقل كما قالوا، ويمضي في سبيله؟ قال له قومه:

"والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت أن تكون كغيرك ممن اعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما كان يكفيك ذنبك أن يستغفر لك؟"

كانت كلماتهم كالسكاكين، تنغرس في صدره، فيفتح لها قلبه بلا مقاومة، لكنه لا يندم على صدقه، وإن كان قد تمنى أحيانًا أن لو كذب ليرتاح، لكنه يعلم أن راحة الكذب كسراب في فلاة، يراه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ثم نزل أمر الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم أن يُهجَر الثلاثة الذين خُلّفوا عن غزوة تبوك، أمرٌ يقطع الأوصال، ويهزّ القلوب. اجتنبهم الناس، فلا يُكلمون، ولا يُسلّم عليهم، ولا يُؤنسون، ولا يُواسى لهم خاطر. قال الله عز وجل:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾]التوبة: ١١٨.[

كانت أيامًا ثقيلة، ولياليٍ موحشة، قلوبهم في ضيق لم تعرفه من قبل، والأرض ـ رغم سعتها ـ أضحت كالقبر لا ينفسح لهم فيها موطئ قدم.

وكانت المحنة أشد ما تكون على كعب، فقد كان أقواهم بدنا، وأجلدهم عزمًا، وأبعدهم عن التهمة، لكنه الآن أكثرهم تألمًا. خرج كعادته إلى السوق، يمشي بين الناس فلا يكلمه أحد، يدخل المسجد فيسلم، فلا يُرد عليه، ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة، فيحول النبي وجهه عنه، فلا يرى منه إلا الجفاء، وما كان ذلك الجفاء إلا امتحانًا ربانيًا تمضي به السنن، ويُرفع به الصادقون.

ذات يوم، دفعه الشوق الجارف إلى المحبة والوداد أن يقف على جدار بيت ابن عمه أبي قتادة، وكان أحب الناس إليه، سلّم عليه فلم يُجب، فاستعطفه قائلاً:

"أنشدك بالله، أتعلم أني أحب الله ورسوله؟" لكن الصمت كان سيد الموقف، ثم أتاه الجواب البعيد البارد:

"الله ورسوله أعلم". فانحدرت دموع كعب، وولىّ قلبه ينوء تحت جبال الهم والأسى.

ثم جاءت الطامة الكبرى، حين وصل إليه رجل من أهل الشام، نبطيٌ يبيع الطعام في المدينة، يبحث عن كعب بن مالك، فلما دُلَّ عليه، ناوله رسالة من ملك غسان، يدعوه فيها إلى الالتحاق بهم، ويعده بالعز والمكانة إن ترك محمدًا صلى الله عليه وسلم وقومه! فقرأ كعب الرسالة، فإذا هي فتنةٌ تُعرض له في أحلك لحظاته. وما كان منه إلا أن قال:

"وهذه أيضًا من البلاء"! ثم مضى بها إلى التنور، فأشعل فيها النار حتى أكلتها نيران الغضب، وقال بلسان الثبات:

"والله ما أريد بها إلا الله ورسوله"!

ثم مضت أربعون ليلة من الخمسين، وإذا برسول من رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرق الباب، ليس بحكم التوبة، بل بأمر جديد، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعتزل زوجته، كما أمر صاحبيه مرارة وهلال. فقال كعب لامرأته الوفية:

"الحقِي بأهلك، فلا تقربي إليَّ شيئًا حتى يقضي الله فيَّ".

فاستجابت مطيعة، مؤمنة، وخرجت، وازداد على قلبه الليل سوادًا.

أما هلال بن أمية، فقد كانت زوجته تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تخدمه، وقد ذهبت إليه فقالت:

"يا رسول الله، إن هلالًا شيخٌ ضعيف، ليس له خادم، أفتكره أن أخدمه؟"
فقال النبي صلى الله عليه وسلم" :لا، ولكن لا يقربكِ".
قالت" :والله يا رسول الله، ما به من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا".

وكانت الأيام تمر، والليالي تمتد ثقيلة، وكل يومٍ يمضي أشد من الذي قبله، حتى بلغ الليل الخمسين.

وفي صبيحة يوم مبارك، إذ بكعب يسمع من على جبل سلع صوتًا يناديه بأعلى صوته:

"يا كعب بن مالك! أبشر"! فخر ساجدًا، يبكي وقد أيقن أن الله قد تاب عليه. وانطلق يعدو، يسبق الريح فرحًا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا بالناس يتوافدون يهنئونه، ويدفعه الشوق إلى الحبيب، فإذا هو بطلحة بن عبيد

الله، أول من قام إليه فصافحه وهنّأه. دخل كعب المسجد، والأنوار في عينيه قبل وجهه، وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يُشرق وجهه كأنه فلقة قمر، وقال له صلى الله عليه وسلم" :**أبشر بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك".**

فقال كعب" :يا رسول الله، أمن عندك هذا أم من عند الله؟ "فقال صلى الله عليه وسلم:
"لا، بل من عند الله". فأشرق قلب كعب بنور التوبة، وأيقن أنه ما خسر يوم صدق، وإنما ربح الدنيا والآخرة.

قال كعب رضي الله عنه :فوالله، ما أنعم الله عليَّ من نعمة بعد أن هداني للإسلام أعظم من صدقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأني لم أكن كذبت، فهلكت كما هلك الذين كذبوا".

وقد أنزل الله فيهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، فقال جل جلاله:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾]التوبة: ١١٨.[

وهكذا تحوّلت المحنة إلى منحة، والعزلة إلى عزة، وصار الثلاثة المخلَّفون رموزًا للتوبة الصادقة، والصدق الذي يُنجي، والإيمان الذي لا يُقهر.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- البلاء الذي يقع على المؤمن قد يكون رفعة له في الدين، وتمييزًا من الله عز وجل بين الصادقين والمنافقين، واصطفاءً إلهيًا لمن أحبه الله.
- من أسماء الله الحسنى :*التواب الرحيم*، كما جاء في ختام الآية، وفيه إثبات أن الله يتوب على عباده ليتوبوا هم، فهو الموفق لتوبة العبد والمُتقبّل لها.
- قلب المؤمن الصادق لا يجد ملجأً إلا إلى الله، ولا يطمئن إلا إليه، حتى وإن ضاقت عليه الدنيا بما رحبت.
- الفرج من عند الله وحده، لا من عند الناس، ولا من ملوك الأرض مهما زينوا الفتن بالعروض المغرية.
- ترك الاستجابة للفتن في أحلك الأوقات دليل على إخلاص العبد لله تعالى، وهو علامة على قوة الإيمان وثبات اليقين.
- الرضا عن الله، واليقين بعدله ورحمته، يُثمر توبةً صادقة تُرفع بها الدرجات وتُغفر بها السيئات.

فوائد فقهية

- هجران النبي صلى الله عليه وسلم للثلاثة كان بأمرٍ من الله، وفيه مشروعية الهجر للتأديب والتربية حين تدعو الحاجة، ما لم يكن فيه ظلم أو قطيعة محرمَة.
- اعتزال المرأة لزوجها في حال أمر الشارع بذلك واجبٌ شرعًا، كما في أمر النبي صلى الله عليه وسلم نساء الثلاثة، مما يدل على طاعة المرأة لوليّها في حدود الشرع.
- المرأة لا يجوز لها أن تخدم زوجها إلا في حدود الشرع إذا كانت في حال اعتزال شرعي، كما في حال زوجة هلال، ولذا قيّد النبي صلى الله عليه وسلم خدمتها بعدم القربان.
- الصدق واجبٌ على المؤمن، حتى وإن ترتب عليه ضيق أو أذى، والكذب لا يُجدي نفعًا في الآخرة ولو نفع في الدنيا.
- السجود عند سماع البشارة العظيمة مما يجوز فعله شكرًا لله، وقد فعله كعب بن مالك عند سماع خبر قبول التوبة.
- يحرم على المسلم قبول العروض التي تأتيه من الكفار أو المنافقين لترك دينه أو التراجع عن مواقفه، ولو زينوا له العز والمنصب.

فوائد أخلاقية

- الصدق مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع الناس، هو النجاة الحقيقية، مهما بدا ظاهرُه شدة وبلاء.
- المؤمن الحق يختار الموقف الأصعب إذا علم أنه يرضي الله، ولو كان بوسعه اختيار طريق أسهل يُغضب ربه.
- الصبر على الجفاء، والرضا بما كتب الله، من علامات ثبات القلب على الطاعة، وسمات أصحاب العزائم من أهل الإيمان.
- التوبة الصادقة تصنع من العبد رمزًا وقدوة، وتُحوّل ماضيه المؤلم إلى تاريخ مشرّف يذكره الناس بخير إلى يوم القيامة.

الشوق إلى المحبة والوداد لا يسوغ مخالفة أمر الله، فالصادق يضبط مشاعره ضمن دائرة الطاعة، كما فعل كعب مع أبي قتادة.

- الدموع التي تخرج من قلبٍ محزون على التقصير في حق الله، أحبّ إلى الله من كثير من الأعمال، وهي علامة حياة القلب.

عدم الانتقام من من هجره الناس، أو من لامه أهله، دلالة على صفاء النفس، وعلو الهمة، وحب الخير للناس ولو جفوه.

فوائد دعوية

- ذكر القصص المؤثرة من حياة الصحابة، لا سيما في التوبة والصدق، من أعظم أبواب الدعوة إلى الله وتحريك القلوب.
- الموقف العملي من الصحابة تجاه الفتنة يدل على أن التربية النبوية أثمرت نفوسًا صلبة لا تهتز أمام العروض ولا تُفتن.
- التحذير من فتن العروض الدنيوية التي قد تأتي في لحظات الضعف، هو جزء مهم من الخطاب الدعوي الواقعي.
- استثمار اللحظات المؤلمة في ترسيخ المعاني الإيمانية في النفوس يجعل التوبة أكثر رسوخًا وثباتًا في القلوب.
- الدعوة إلى الله لا تكون دائمًا بالكلام، بل قد تكون بالموقف الصادق، كما فعل كعب حين أحرق رسالة الغساسنة.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم لا يرون بأسًا في الكذب إذا نجاهم من موقف محرج، وقد يُسمّونه ذكاءً أو دبلوماسية، والحق أنه مهلكة.
- التوبة عند بعض الناس صارت مؤجلة، بينما الثلاثة خُلّفوا خمسين ليلة فقط، فبكوا وتفجرت قلوبهم شوقًا إلى قبول الله، حتى تاب عليهم.
- العروض الدنيوية اليوم صارت تُقدّم في أثواب مختلفة لتفتن المسلمين عن دينهم، وقليل هم من يردها كما ردها كعب.
- قضية الهجر في الله أصبحت منسية في واقعنا، فلا الناس يهجرون لأجل الله، ولا يربّون على ذلك، بل أصبح يُستنكر أحيانًا عند الحديث عنه.
- الصدق عند البلاء قلّ من يثبت عليه اليوم، إذ يسارع كثيرون إلى تغيير مواقفهم أو بيع مبادئهم تحت ضغط الناس أو شهوة السلامة.
- النظر إلى المجتمع على أنه هو المقياس جعل كثيرًا من الناس يقلدون المخطئين لأنهم الأكثر، كما حاول قوم كعب أن يلوموه لعدم اعتذاره كغيره.

- الموقف من رسالة ملك غسان فيه تعرية لمناهج الفرق التي تسعى إلى إغراء أهل السنة بالانضمام إلى أهل البدع أو أعداء الدين بزخرف القول أو عروض الدنيا، كما تفعل بعض فرق الغلو في زماننا.
- الثبات على التوبة والصدق رغم الضغوط الخارجية هو الذي يميز أهل السنة عن المرجئة الذين يظنون أن الإيمان يُقبل بلا عمل ولا موقف.
- الانقياد التام لأمر النبي صلى الله عليه وسلم في الهجر والاعتزال، دون تمرد أو تذمر، فيه ردٌّ على من يطعن في الصحابة أو يرى أن أقوالهم تخالف أفعالهم، كما زعمت المعتزلة وأهل الزيغ.

الفقرة الرابعة عشرة: هدم مسجد الضِّرار.. عندما احترق النفاق بنار الصدق

في الوقت الذي كانت فيه رايات الإسلام تخفق في الأفق، تمضي في طريقها نحو النصر بثبات وإيمان، وتتجهز القلوب والأبدان لمعركة تبوك في حر الهجير وشدة العسرة، كان في الخفاء خنجر يُشحذ، وسهم يُرشق، وسرٌ خطير يُدبّر في ظلمات النفوس التي ما آمنت يومًا، وإن أظهرت الإيمان.

اجتمع نفر من المنافقين، قلوبهم مظلمة بالحسد، وأفئدتهم خاوية من نور الهداية، فتآمروا سرًّا على ضرب الصف المؤمن من الداخل، وأعدّوا خطة خبيثة في ثياب العبادة، فقاموا ببناء مسجد... نعم، مسجد! لكنه لم يُبنَ ليُعبد فيه الله، بل ليكون وكراً للتآمر، ومنبرًا للفرقة، ومنطلقًا للفتنة، يُفرّقون به بين المؤمنين، ويُرسّخون به ولاءهم لرجلٍ ضالٍ مرتدٍ يُقال له : **أبو عامر الراهب**.

كان أبو عامر قد تنكر للإسلام بعد أن استكبر عن التسليم للنبي صلى الله عليه وسلم، وغادر إلى بلاد الروم، يَستجدي قيصرها أن يمدّه بجند يعينونه على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووعدهم بأنه سيعود متى ما وُفِّر له مأوى آمنًا في المدينة... فكان "مسجد الضرار" هو ذلك الملاذ.

اختار المنافقون موقع مسجدهم بجوار **مسجد قباء**، أول مسجد أسس على التقوى، في محاولة ماكرة لستر نياتهم، وإظهار ظاهر الصلاح، وجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى تبوك بوجه المتواضعين، وألسنة المتملقين، فقالوا:

"يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا للضعفاء وأصحاب الأعذار، ولمن تعذّره المطر في الليالي الباردة، فهلا أتيتنا فصلّيت لنا فيه؟"

فلم يُوحَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد بحقيقتهم، فأجابهم بلين" :إن قَدِمْنا المدينة إن شاء الله صلّينا فيه".

لكن الله الذي لا تخفى عليه خافية، والذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، أنزل وحيه الفاضح لنواياهم، المُبيّن لسرهم، فقال في سورة التوبة: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ**﴾]التوبة: ١٠٧.[

فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أمرًا صريحًا حاسمًا: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ**﴾]التوبة: ١٠٨.[

فلما عاد النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك منصورًا مؤيدًا، وكرّت الجموع الخائنة تطلب منه الدخول إلى مسجدهم المزيف، نزل بهم القصاص الرباني قبل أن تطأه قدماه الطاهرتان، فأمر صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه الأخيار أن يذهبوا إلى ذلك البناء الخبيث، وأن يُحرقوه بالنار، ثم يُهدَم حتى لا يبقى له أثر، وذرّوا ترابه في الريح ليكون عبرة لكل خائن ومتآمر.

فكان ذلك المشهد درسًا خالدًا في أن المسجد لا تُقيمه الأحجار، بل تُقيمه **النية الصادقة**، والقلوب المؤمنة، والولاء لله ولرسوله. وأن البناء إذا لم يُشَدّ على أساس من التقوى، فمصيره أن ينهار، ولو زخرفوه بآياتٍ ومآذن.

وصدق الله، فما أعظم بيانه، وما أصدق حكمه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- النية أساس القبول عند الله، حتى لو كان الفعل في ظاهره عبادة كالصلاة وبناء المساجد، فإن الله لا يقبل إلا ما أُريد به وجهه وابتُغي به رضاه.
- الله سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويُبطل كيد الكائدين وإن ظهروا بمظاهر الصلاح، فهو العليم بذات الصدور.
- الولاء الكامل يجب أن يكون لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأي ولاءٍ لعدوّ الله هو كفر ونفاق مهما تزيّا أصحابه بزيّ الإسلام.
- العبادات الظاهرة لا تنفع صاحبها ما لم تُبنَ على الإيمان والتقوى، بل قد تكون حُجّة عليه إن قصد بها غير الله.
- من أعظم صفات الله تعالى عدله وحكمته في فضح المنافقين وإبطال مكرهم، فهو سبحانه لا يُمهلهم إلا لحكمة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فوائد فقهية

- المسجد لا يُعتبر مسجدًا شرعًا إلا إذا أُسس على التقوى والطاعة، أما ما بُني للإضرار والفرقة فلا تُجرى عليه أحكام المساجد، بل يُهدم.
- يجوز لولي الأمر أن يهدم ما بُني من المساجد أو دور العبادة إذا كانت وسيلة للإفساد أو مركزًا للتخطيط ضد الإسلام والمسلمين.
- لا يجوز للمسلم الصلاة في مكانٍ يُعلم أنه أُسس على باطل، ولو زُيّن بآيات وعبارات دينية، لأن الأصل في العبادات التأسيس على الإخلاص والتقوى.
- لا يُكتفى في أمور الدين بمجرد الظاهر، بل لابد من التثبّت والرجوع للوحي عند التباس النيات والظروف.
- جواز الحرق والهدم لما فيه مفسدة عظيمة على الدين، إذا صدر بأمر من ولي الأمر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بمسجد الضرار.

فوائد أخلاقية

- الصدق في النية والولاء لله تعالى هو ما يُعلي العمل، ويُثبّت بنيانه، أما الرياء والخداع فمصيرهما الانكشاف والهدم.
- النفاق داء خطير، يلبس ثياب الصلاح، ويتظاهر بالغيرة على الضعفاء، بينما قلبه مع أعداء الله، وهذا من أبشع صور الخيانة.
- المؤمن لا ينخدع بكثرة الزخرفة والمظاهر الخداعة، بل ينظر إلى الحقائق والنيات، مستنيرًا بهدي الوحي.
- حسد المنافقين وغيظهم من نصرة الإسلام دافع لهم في كيدهم، مما يُظهر خطورة الحسد إذا تمكن من القلب.
- القلوب المريضة تُخفي العداوة في لبوس النصيحة، والمصلح الحق يكشف هذه الحيل ويقف لها بالمرصاد.

فوائد دعوية

- الدعوة إلى الله يجب أن تُبنى على الإخلاص والتجرد من الهوى، وإلا صارت وسيلة لهدم الدين لا لنصرته.
- الانتصار للدين لا يكون ببناء الأبنية ولا بكثرة الظواهر، بل بصفاء العقيدة وقوة الولاء لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- التحذير من المنافقين يجب أن يكون واضحًا وصريحًا، لأن خطرهم على الأمة أعظم من خطر الكفار الظاهرين.
- من أعظم وسائل المنافقين في محاربة الدعوة التستر بالرحمة والحرص على الضعفاء، وهي وسيلة باطلة لتمرير أهدافهم.
- هدم النبي صلى الله عليه وسلم لمسجد الضرار رسالة دعوية قوية تُبيّن أن الدين لا يُنصر إلا بالحق، ولو غضب المنافقون.

فوائد سياسية

- التحالف مع أعداء الأمة، ولو بحجة المصالح، خيانة كبرى وسبب في خذلان المسلمين، كما فعل أبو عامر الراهب حين استعان بالروم.
- تثبيت صفوف الداخل أهم من مواجهة العدو الخارجي، إذ لا نصر مع وجود النفاق والخيانة داخل الصف.
- إظهار الموقف السياسي الواضح من رموز الكيد والخيانة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم تجاه مسجد الضرار، ضرورة لحماية الأمة من التميع والانخداع.
- الخطة الخبيثة حين تُقام باسم الدين تُصبح أشد فتكًا، مما يوجب على قادة الأمة وعلمائها كشفها مهما كانت مموّهة.

نصرة الإسلام تقتضي أحيانًا إجراءات حاسمة ضد من يتسترون بالدين وهم في حقيقتهم أعداؤه، ولو أدى ذلك إلى هدم ما يُسمى مسجدًا.

مخالفات الواقع

- انتشار ظاهرة بناء المساجد والمراكز الدينية التي تُستخدم كواجهة للتمويل المشبوه، أو لترويج أفكار مريبة تحت ستار الدين.
- وجود شخصيات تتظاهر بالصلاح والغيرة على الدين، بينما تخطط في الخفاء لإثارة الفتن وتأجيج الخلافات بين المسلمين.
- التسامح الزائد مع المنافقين المعاصرين الذين يطعنون في ثوابت الدين باسم حرية الفكر والاجتهاد.
- ضعف الحزم في التعامل مع بؤر الفساد العقدي والفكري رغم وضوح خطرها على الأمة، ووجود أدلة على ارتباطها بجهات معادية.
- تغافل بعض الناس عن نوايا المخادعين الذين يظهرون بمظهر الناصحين، ويُرددون عبارات الرأفة بالضعفاء، وهم يخططون لإفساد الصف الداخلي.

الفقرة الخامسة عشرة: موت رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول: نهاية حياةٍ امتلأت غدرًا ومكرًا

ما إن أقبل النبي صلى الله عليه وسلم بوجهه النوراني من غزوة تبوك، تلك الغزوة التي كُشفت فيها وجوه النفاق، وتمايزت فيها الصفوف بين أهل الصدق وأهل الريب، حتى بدأت المدينة تتهيأ لعودة الحياة إلى مجراها المعتاد.

وإذا بخبر يتسلّل بين الأزقة والبيوت، ثم لا يلبث أن يعمّ المدينة بأسرها: إن عبد الله بن أُبيّ بن سلول، كبير المنافقين، ورأس الفتنة، قد اقتربت ساعته، وها هو على فراش الموت، يتخبط في أنفاسه الأخيرة.

هذا الرجل، الذي كان يحمل في صدره أحقاد الجاهلية، ويرى في دعوة الإسلام تهديدًا لمجده الزائف، وعرشه الذي لم يُقام، ظلّ طيلة حياته شوكةً في خاصرة الصفّ الإسلامي، يُظهر الولاء ويبطن العداء، يندسّ بين الصفوف فينخرها بالفتن، ويثير الشبهات، ويخذّل عن الجهاد، ويهوّن من عظمة الإسلام، ويغري بين المؤمنين، حتى صار يُقال عنه بلا تردد: رأس المنافقين.

كان هو من قال في غزوة بني المصطلق في وقاحةٍ وصفاقة» *لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل* «]المنافقون: ٨[، يقصد نفسه بالعز، ويقصد بالنبي صلى الله عليه وسلم الذل، حاشاه! فأنزل الله قوله ردًا عليه:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾]المنافقون: ٧.[

ومع كل هذا السجلّ الحافل بالخيانة والتآمر، لم يُقابل النبي صلى الله عليه وسلم إساءته بمثلها، بل ظل يعامله بالحلم والرفق، علّ قلبه يلين، أو تعود إليه بصيرة الفطرة. حتى إذا نزل به الموت، حمل قلب ابنه عبد الله -وكان من خيرة شباب الصحابة صدقًا وإيمانًا- رجاءً خافتًا، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يرجوه شيئًا عظيمًا:
"يا رسول الله، أعطني قميصك حتى أكفّن فيه أبي، لعل الله أن يخفف عنه".
فلم يتردد الحبيب صلى الله عليه وسلم، وخلع قميصه المبارك وأعطاه له، رحمةً بابنه، ورجاءً في هدايةٍ كانت قد فات أوانها، بل قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بنفسه كما في بعض الروايات، وقال" *اللهم اغفر لعبد الله بن أبيّ*".

بل أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه صلاة الجنازة، وكان ذلك قبل أن يُنهى عن ذلك صراحة، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذلك الفاروق الذي يُفرّق الله به بين الحق والباطل، وقال بحرقة المؤمن الغيور:
"يا رسول الله، أتصلي عليه وقد قال يوم كذا كذا، وفعل يوم كذا كذا؟"!فقال له النبي صلى الله عليه وسلم في ردٍ يفيض رحمة» :إني خُيّرتُ، فاخترتُ، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له، لزدتُ عليها«رواه البخاري ومسلم.[

فلم يكن ذلك حبًّا لعبد الله بن أُبيّ، وإنما رحمةً منه صلى الله عليه وسلم بابنه، واستجابةً لنداء الرحمة التي بُعث بها للعالمين.

لكن الموقف كان عظيمًا، يتطلب حسمًا إلهيًا، فانقطع الوحي بآية فاصلة، تشق طريق الحق من باطل النفاق:
﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾]التوبة: ٨٤.[

فامتثل النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ربه، ولم يُصَلِّ عليه، ولم يقم على قبره، وكانت هذه الآية بداية منهجٍ جديد في التعامل مع المنافقين، منهج لا تحكمه العاطفة البشرية، ولا يوجّهه الحزن الإنساني، بل يقوده نور الوحي، وبصيرة الشريعة، ومقاصد الرحمة الربانية.

لقد علّمنا هذا الموقف أن شفقة النبي صلى الله عليه وسلم لا تُقارن، وأن رحمته تتعدّى حتى من عاداه، لكنه في النهاية لا يُقدّم على أمر الله أمرًا، ولا يُقدّم عاطفة على وحي، ولا رقة قلب على هدى السماء.

وفي هذا درس عظيم للأمة: أن لا تنخدع بمن يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، وأن لا تؤخذ بالعواطف حين يتعلق الأمر بحق الله ورسوله، فالمنافق لا يُقيم للإسلام وزنًا، وإن صلى وصام وتكلم بالقرآن، وقد قال الله عنهم:
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾]النساء: ١٤٥.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان لا يُنال بالظاهر، بل بالتصديق الباطن والعمل، فمهما أظهر المرء من شعائر الإسلام فإن النفاق لا يُخفيه مظهر.
- الله تعالى مطّلع على السرائر، ويعلم ما يُبطنه العبد وإن أظهر خلافه، وقد يتأخر كشف المنافق لحكمة ربانية.
- عقوبة المنافقين أشد من الكفار المجاهرين، إذ جعلهم الله في الدرك الأسفل من النار، لخبث طويتهم ومحاربتهم للحق تحت ستار الإسلام.

- الوحي هو المهيمن على التصرفات في قضايا الولاء والبراء، حتى لو خالفت الرحمة الفطرية أو العاطفة القلبية.
- النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك مغفرة الذنوب لمن مات على الكفر، ولا تنفعه شفاعته إن لم يُقدّر الله له الهداية، فالغفران بيد الله وحده.
- من منهج الوحي أن يُفصل بين الأحكام العاطفية البشرية والأحكام الشرعية الإلهية، فلا مجال لمحاباة في دين الله.
- المنافقون يُعدّون كفارًا في الميزان العقدي، ولو نطقوا بالشهادتين، لأنهم كذبوا الله ورسوله في بواطنهم.

فوائد فقهية

- جواز إعطاء الثياب لتكفين الميت إذا ترتب على ذلك مصلحة شرعية معتبرة، كتأليف قلوب أهله، ما لم يكن في ذلك مفسدة.
- دلّ الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُصَلِّ على احد من المنافقين بعد عبد الله بن أُبيّ بعد نزول النهي، مما يدل على حرمة الصلاة على من مات على نفاق أو كفر.
- إذا صدر النهي من الله عن فعل معين، وجب الامتثال فورًا وترك ما يخالفه، حتى لو تعلّق الأمر بمقام النبي صلى الله عليه وسلم.
- الصلاة على المنافقين، وطلب المغفرة لمن أظهر الإسلام وأبطن الكفر، محرّمة بعد نزول الآية، فلا يُترحم عليهم.
- الإمامة في الصلاة على الجنازة لها اعتبارها، ولا يجوز أن يتقدم أحد على أمر الله فيها، مهما كانت منزلته أو شفقته على الميت أو أهله.

فوائد أخلاقية

- من كمال أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم رحمته حتى بأشد أعدائه، ومعاملته لهم بالحسنى رجاء هدايتهم.
- رعاية مشاعر الأبناء حتى إن كان والدهم من أهل النفاق أو العداء، دليل على رقي النفس، واتزان العاطفة بالشريعة.
- الوفاء من النبي صلى الله عليه وسلم حتى لمن عاداه، ما دام في ذلك تحقيق لمقصد شرعي راجح، كالرحمة بالابن الصالح.
- الغيرة على الدين من صفات المؤمن الحق، كما كان حال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة على المنافق، وهو إنكار غيرة لا اعتراض شرعي.
- العدل في التعامل مع الناس، فلا يُرفع أحد عن مقامه بأثر من العاطفة، بل يُعطى كل إنسان ما يستحقه شرعًا.

فوائد دعوية وتربوية

- الشفقة وحدها لا تُبني بها المواقف الدعوية، بل يجب أن تُضبط بنور الوحي وأحكام الشريعة.

- كشف المنافقين من أعظم مقاصد الدعوة، لأنهم أشد خطرًا على صف الأمة من العدو الظاهر.
- تربية الناس على أن الأحكام تُبنى على البصيرة والشرع لا على المظاهر أو الأعراف أو العاطفة المجردة.
- التوازن بين الرحمة والحزم من صفات الداعية الناجح، كما جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين إعطاء القميص وامتناع الصلاة.
- الداعية ينبغي أن يتعلّم من موقف عمر رضي الله عنه الحزم والغيرة إذا رأى أن في الأمر خدشًا لحرمة الدين، ولو لم يكن القصد سوءًا.

مخالفات الواقع

- الانخداع بمظاهر بعض الناس ممن يُظهر الإسلام ويُخفي العداء، ويُقدَّمون في المجالس والقيادات والفتاوى رغم فساد نياتهم.
- تغليب العاطفة على الشرع في التعامل مع من يعادون الدين، فتُرفع شعارات "التسامح" و"الرحمة" في غير موضعها.
- الاستهانة بأقوال المنافقين ومواقفهم، وتبريرها بأنها "رأي آخر" أو "وجهة نظر"، مع أنها طعن في الدين ونصوصه.
- الصلاة على بعض الشخصيات التي حاربت الشريعة ووقفت ضدها، بحجة "الاجتماع الوطني" أو "المكانة الاجتماعية."
- عدم التفريق في الحكم بين من أظهر الإسلام صدقًا ومن نافق به رياءً، مما يُسبب فسادًا في العقيدة وتشويشًا على الناس .

انتهى الباب السادس عشر ويليه الباب السادس عشر ان شاء الله

الباب السابع عشر: عام الوفود

المقدمة

في العام التاسع من الهجرة، أشرقت شمس الإسلام على ربوع الجزيرة، وبدأت القبائل تتقاطر إلى المدينة طائعة، بعد أن تبدّدت غياهب الشرك، وتكسّرت أصنام الجاهلية تحت سنابك الحق، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون.

لقد كان ذلك العام مشهدًا فريدًا في تاريخ الرسالة، إذ توافدت وفود العرب من أقطار شتّى، تحمل في ملامحها رهبة النبوة، وفي كلماتها ترقب المصير، فمنهم من جاء معلنًا الإسلام خاشعًا، ومنهم من جاء مترددًا يطلب الحجة والبيان، ومنهم من جادل واستكبر، فما لبث أن انكسر غروره تحت وهج النور المبين.

ولئن كانت المعارك الحاسمة قد مهّدت الطريق لانسياب الدعوة، فإن الحكمة النبوية، وسعة الصدر، وصدق التوجيه، هي التي ثبتت جذورها في القلوب والعقول.

ففي هذا الباب، نطالع أخبار الوفود: عقولًا آمنت، وقلوبًا خشعت، وألسنة نطقت بالشهادة، فتغيّرت معالم الجزيرة في عام واحد، وانقلبت الموازين، ليُكتب في سجل النبوة: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، فدخل الناس في دين الله أفواجًا.

في هذا الباب نعيش ثلاث مراحل مشرقة من النبوة:

إسلام مالك بن عوف النصري :وكيف تحوّل من قائد للعدوان إلى فارس في ركب الدعوة.

عام الوفود :حيث دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتجلّت حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع القبائل.

غزوة تبوك :حيث يُكتب المجد بلا قتال، ويظهر صدق الإيمان في ساحة البلاء.

فهلمَّ نُصغِي بقلوبنا، ونستضيء من سيرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ونغترف من معينها ما يُحيي فينا الروح، ويقوّي فينا العزيمة، ويزيدنا حبًا واتباعًا لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الأولى: إسلام مالك بن عوف النَّصْري... حين ينهزم السيف أمام نور الحق

كان الزمن يطوي صفحاته بين بدر وحنين، وكان النصر يُوشك أن يكتب سطوره الخاتمة، يوم أن دانت مكة لخاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم، وانفرط عقد قريش تحت رايات التوحيد، وتبددت أحلام الوثنية تحت أقدام الموحدين.

ثم جاءت **غزوة حُنين**، تلك المعركة التي حسب فيها المشركون – من هوازن وثقيف – أن التفوق العددي كفيل بقلب الموازين، وأن حشودهم الغفيرة ستطفئ نور الله! وكان في مقدمة هؤلاء شابٌّ فتًى، لكنه جسور، ذو هيبة في قومه، فارس يُشار إليه بالبنان، وقائد مطاع لا تُردّ له كلمة، إنه **مالك بن عوف النَّصْري**.

رأى مالك جيش محمد صلى الله عليه وسلم يخرج من مكة كالطوفان، يعبر وادي حُنين بثقة المؤمنين، وكان قد أمر جنوده أن يبيتوا لهم كمينًا من خلف التلال والوديان.

ثم دارت المعركة، وما هي إلا لحظات، حتى تزلزلت صفوف الكافرين، واضطربت جموعهم، وولى من ولى منهم مدبرًا. رأى مالك بأمّ عينه جيش الوثنية يتهاوى، وجنود النفاق ينهارون، فانسحب مع فلول قومه إلى **الطائف**، متحصنًا بحصونها المنيعة، محاولًا لملمة ما تبقى من كبرياء زائل.

هناك، في الطائف، لم يكن للزمن طَعم، ولا للنجاة أمل. الحصار طال، والأيام تثقل على القلب، والحق يسطع نوره من كل صوب. كان الليل يُؤنسه، لكنه لا يهدّئ في صدره ذاك الاضطراب العجيب... شيء ما يهمس في داخله: "إن هذا الدين لا يُقاوَم، وإن هذا النبي صلى الله عليه وسلم لا يُهزم."

وما إن تنفّس صبح من الصباحات، حتى أخذ القرار الذي كان يتردد فيه طويلًا... ترك الطائف خائفًا، وتوجه إلى **نجد**، حيث قومه من بني نصر، وهناك وصله كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رسول من عنده، يدعوه فيه إلى الإسلام، ويعده بردّ أهله وماله، بل ويزيد: أن يُكرمه ويقربه، إن هو أسلم وآمن.

توقف مالك مع نفسه طويلًا... أهو عرض سياسي؟ أم هو وعد زعيم؟ كلا! لقد رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم من قبل، وسمع عنه، وشهد عدله ورحمته، وعلم أنه ليس طالب دنيا، ولا متعطشًا للسلطان، بل هو نبيٌّ يؤيَّد من السماء، يأتيه الوحي، ويستنير بنور الله، فاستيقن أن هذا هو الطريق.

ركب راحلته، وقلبه يسبق خطواته، وكلما اقترب من المدينة أحس كأنه يقترب من ذاته الضائعة، حتى دخلها، وسُمح له بالدخول على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وهناك... حدث ما لم يتوقعه قلبه المتردد!

استقبله النبي صلى الله عليه وسلم بابتسامة المرسلين، وبشاشة من كانت رحمته أسبق من غضبه، وعرف له قدره، وقدّر مكانته، ولم يثقل عليه بكلمة لوم واحدة، بل احتضنه بحكمة النبوة، وروح الدعوة، حتى قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له"**:إنك كنت عظيمًا في قومك، وإن الإسلام لم يزدك إلا شرفًا**] "دلائل النبوة للبيهقي (١١١/٥)[(
وإن كان هذا الأثر مرسلًا بلا سند متصل، لكنه يتناغم مع روح الحادثة، وعظمة ما حدث.

ثم ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على قومه، فكان كما أراد له، رجع إليهم بوجه جديد، وقلب جديد، ولسان يلهج بكلمة التوحيد، فأسلمت بنو نصر على يديه، وكان ذلك من أعظم الفتوح في **نجد**، بل كان من دلائل البصيرة النبوية في كسب القلوب، وتوظيف الطاقات.

لقد كان مالك بن عوف بالأمس عدوًّا مقاتلًا، ثم صار اليوم جنديًّا للحق، وحاملًا لراية التوحيد... هكذا تصنع **الدعوة بالحكمة**، وهكذا يؤتي اللهُ النصر من حيث لا يحتسب البشر.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وقال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢]

وكان من أعظم صور ذلك: إسلام مالك، ودخوله في دين الله، الذي غيّر حياته، وأعاد بناء مجده، لا على أساس القبيلة، ولكن على أساس العقيدة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الصادق لا يكون إلا عن يقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته، لا عن مصالح دنيوية أو طمع سياسي.
- النصر في الإسلام لا يُنسب إلى الكثرة والعدة، بل إلى تأييد الله عز وجل لعباده المؤمنين.
- الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُقوَّم كملك أو زعيم، بل كنبي مؤيد بالوحي، منبع الرحمة والعدل والنبوة.
- الدعوة إلى الإسلام قائمة على الوحي، وليس على المصالح أو التحالفات الأرضية.
- الرجوع من الكفر إلى الإسلام هو هداية من الله، وتوفيق قلبي، لا يمكن للمرء أن يملكه دون عون من الله تعالى.
- إسلام الشخص لا يرفعه فقط في الدنيا، بل يشرّفه بشرف الإيمان بالله ونبيه صلى الله عليه وسلم.
- الدخول في دين الله يعني الخروج من ولاء الجاهلية ودخول ولاء العقيدة الخالصة لله.
- الأنبياء – ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – يدعون بالحكمة واللين، وهي من صفات النبوة لا تُكتسب بل تُوهب من الله.

فوائد فقهية

- الإسلام يَجُبّ ما قبله، فمالِك بن عوف لم يُؤاخذ على ما فعله قبل الإسلام، بل رُفعت مكانته وولاّه النبي صلى الله عليه وسلم.
- لا يُمنع الكافر من الدخول على الإمام إذا كان في الأمر مصلحة شرعية ودعوية.
- جواز تأليف القلوب بمال أو منزلة إذا كان ذلك يُرجى منه الخير للإسلام والمسلمين، كما حصل مع مالك.
- الاعتبار بالمعاني لا بالأسماء، فالقائد السابق للوثنية قد يكون أنفع للمسلمين بعد الإسلام من بعض المسلمين الضعفاء.
- تولية الإمام لمن أسلم حديثًا إن ظهرت عليه الكفاءة والصدق والقدرة على التأثير في قومه.
- اللين والرحمة في التعامل الدعوي مع الخصم السابق، من منهج الأنبياء، ويُراعى في إقامة الحجة وجذب القلوب.

فوائد أخلاقية

- اللطف في الخطاب، والبشاشة في اللقاء، والصفح عن الزلات من أعظم ما يكسر العداوة ويفتح القلوب.
- القائد الحكيم لا يُهين خصمه إذا تاب، بل يرفع قدره ويشعره بقيمته في الدين الجديد.
- اعتراف المرء بالحق والتجرد له دليل على صدق النفس وشرفها، كما فعل مالك بن عوف.
- الحياء من الخطأ لا يمنع الإنسان من الرجوع إلى الحق، بل يزيده رفعة، متى ما صدق في توبته.
- الشجاعة الحقيقية ليست فقط في القتال، بل في التراجع عن الباطل واتباع الحق.
- الصبر في الدعوة، وانتظار الثمرة، من أسباب الفتح والنصر، كما حدث مع هوازن وثقيف.
- الحكمة في كسب القلوب أعظم أثرًا من انتصار السيوف، كما ظهر في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد دعوية

- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تُثمر في أعتى القلوب، ولو بعد حين.
- الرسل لا يفرضون الدين بالقهر، بل يرسلون الكتب والكلمات قبل السيوف والجنود.
- الرسالة الإسلامية دعوة للعقول والقلوب قبل أن تكون سيطرة على الأجساد والبلدان.
- التقدير والاحترام للمدعوين – حتى لو كانوا خصومًا سابقين – يُعين على دخولهم في الإسلام.
- رب داعية واحد صادق يستطيع تغيير قبيلة بأكملها، كما غيّر مالك قبيلته بعد إسلامه.
- البصيرة النبوية في الدعوة تشمل توظيف الطاقات البشرية وتحويلها من ضد للإسلام إلى جنود له.

فوائد تربوية

- القائد الحق لا ينكسر داخليًا بهزيمة مادية، بل يبحث عن موطن النور والحق متى ظهر له.
- التردد في قبول الحق لا يعني الكفر، بل قد يكون مرحلة تمهيدية للهداية متى كان في القلب صدق.
- التاريخ لا يُخلّد من قاتل، بل من اهتدى ونفع، فمالك بن عوف خُلد بسبب إسلامه لا بسبب معاركه.
- المراجعة الداخلية للحق، والجلوس مع النفس، وسؤالها: "أين الصواب؟" من أنفع وسائل الوصول للهداية.
- القرارات المصيرية لا تُتخذ تحت وقع الحماس بل بعد تأمل وتفكر وصدق نية، كما فعل مالك.

مخالفات الواقع

- الاعتماد على كثرة العدد والعدة في نصرة الدين دون الالتفات إلى الإيمان والتوكل على الله.
- تأخر كثير من الدعاة اليوم في احتواء التائبين الجدد وتركهم عرضة للتيارات المنحرفة.
- قسوة بعض المتدينين في التعامل مع التائبين الجدد، ومعاملتهم بازدراء أو تذكيرهم بماضيهم.
- قلة توظيف الكفاءات التي أسلمت أو عادت إلى الحق، وحرمانهم من مواقع التأثير بدعوى "سوء ماضيهم."
- اعتبار الإسلام مجرد هوية ثقافية لا تحول الإنسان من داخله ولا تبني قلبه على التوحيد الخالص.
- انتشار خطاب العداء والانتصار للنفس باسم الدعوة، وغياب الحكمة النبوية في جذب المخالفين.

الفقرة الثانية: وفد ثقيف... حين انحنى العناد أمام نور النبوة

لم يكن الحصار حول أسوار الطائف مجرد معركة عسكرية فحسب، بل كان زلزالًا هزَّ قلوب ثقيف من أعماقها، فمهما تحصنوا خلف الحجارة، فقد اخترق نور الإسلام جدران الكبر التي كانت تعلو في نفوسهم، وأيقنوا بعد غزوة حنين أن القوة وحدها لا تصنع النصر، وأن هذا الدين ليس كسائر الدعوات، بل هو أمر من السماء، قد شُقّ طريقه إلى القلوب قبل أن يُفتح له الحصن.

انكسرت شوكة الطغيان، وانطفأ لهيب الكبر، وسكنت العاصفة، فاجتمع عقلاء ثقيف، وقد خفّف الزمن من عنادهم، وتحدثت ضمائرهم قبل ألسنتهم:

إنه لا سبيل للمكابرة بعد اليوم، وقد بزغت شمس النبوة من المدينة، وأنارت جزيرة العرب، ولم يبقَ في الظل غيرهم!

فقال بعضهم لبعض:

لقد رأينا ما فعل محمد صلى الله عليه وسلم ببني بكر وخزاعة وقريش وهوازن، أفننتظر حتى يأتينا ونحن في عقر دارنا؟!

وهكذا اجتمع رأيهم على إرسال وفد منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يعلنون فيه الاستسلام، ويطلبون فيه الإسلام، لكن على طريقتهم هم!
خرج الوفد بقيادة عبد ياليل بن عمرو، وكنانة بن عبد ياليل، ومعهم نفر من سادة ثقيف، وفي بعض الروايات كان معهم عروة بن مسعود قبل إسلامه الكامل.

فلما دخلوا المدينة، استقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم بما عُرف عنه من الحلم والرفق، وأكرم نزلهم، ثم دار بينهم حوار طويل شائك، كشف عن طبائع لا تزال تتعافى من آثار الجاهلية، ونفوس مترددة بين بقايا الشرك وأنوار التوحيد.

◆شروط الوفد العجيبة!

ما إن جلسوا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدأوا بطرح شروطهم، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إعفاءهم من أركان الإسلام، وكأنهم يُريدون الدخول في الدين دون أن يتزحزحوا عن جاهليتهم، فقالوا:

أن تُعفيهم من **الصلاة،**
وأن تُسقط عنهم **الجهاد،**
وأن تُبقي لهم صنمهم "اللات "**ثلاث سنين** دون هدم،
فلما رُفض، قالوا :**سنتين،** ثم **سنة،** ثم **شهرًا،** ثم قالوا: دعها قائمة **أيّامًا** فقط!
ثم قالوا: لا نُجبر على كسرها بأنفسنا، وليكسرها غيرنا.
وطلبوا كذلك: أن لا يُحرّم عليهم **الزنا،** ولا **الربا،** ولا **الخمر،**
وأن لا يُجبَروا على جمع الصدقات بأنفسهم، ولا على هدم بيوتهم المبنية على حرمات اللات.

◆ردّ الحبيب صلى الله عليه وسلم... حُكمٌ من السماء!

لم يغضب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقم عليهم الحجة بصيحة تُقصم ظهورهم، بل ردّ عليهم بردّ الواثق الموحى إليه، فردّ الشروط واحدًا تلو الآخر، يبين لهم أن الإسلام ليس على هواهم، بل هو دين الله الذي لا يُقبل معه مساومة على أركانه أو محرماته.

فلما طلبوا إسقاط الصلاة، قال النبي صلى الله عليه وسلم بعبارة قاطعة":**لا خير في دين لا صلاة فيه**) "رواه الإمام أحمد في المسند بسند حسن.(

ورفض كل شرطٍ يمسّ حرمة من حرمات الله، أو يُبقي جاهليتهم قائمة.
أما ما لا يمسّ أصل الدين، فقد أبدى فيه مرونة الحكيم، فأعفاهم من جمع الصدقات بأنفسهم، وقَبِل أن يُهدم الصنم بيد غيرهم، وأجّل ذلك أيامًا قليلة فقط حتى تهدأ نفوسهم. ثم بعث **أبا سفيان بن حرب** و**المغيرة بن شعبة** لهدم **اللات،** وكانت تلك لحظة فاصلة في تاريخ الطائف.

◆رجع الوفد... ورجعت الطائف

رجع وفد ثقيف إلى قومهم بعد أن شهدوا ثبات النبي صلى الله عليه وسلم، وعدله، ورحمته، وقد حملوا معهم الإسلام لا كما أرادوا، بل كما أراد الله.

فما إن أشرقت شمس الحق على الطائف، حتى أذعن القوم، ودخلوا في دين الله أفواجًا، بعد طول كبرياء.

◆وهكذا...

كان هذا الوفد نقطة تحوّل عظيمة، تحققت فيها حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في كسب القلوب، وتجلّى فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾]القصص: ٥٦[وظهر فيها معنى الرحمة التي بعث بها الحبيب صلى الله عليه وسلم، إذ قال الله تعالى :﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾]آل عمران: ١٥٩[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بأن النصر لا يُنال بالقوة وحدها، بل بتأييد الله، كما ظهر لقوم ثقيف بعد غزوة حنين.
- أن الدين الحق لا يُخضع للشروط البشرية، بل يُقبل كما أنزله الله، وهذا من مقتضيات التوحيد والانقياد لله.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على أحكام الوحي دون مساومة يدل على أن الدين وحي منزل، لا يُمكن تغييره لإرضاء الناس.
- أن الهداية بيد الله وحده، ولو كانت بيد النبي صلى الله عليه وسلم لهدى أحبّ الناس إليه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.
- أن الإسلام لا يُبقي أثرًا من آثار الشرك، ولو كان عظيمًا في نفوس الناس، فلا يُجمع بين التوحيد والشرك أبدًا.
- أن النبي صلى الله عليه وسلم مُبلّغ عن الله، لا يملك أن يُسقط الصلاة أو يُحلّ الحرام، مما يرسخ عقيدة أن التشريع لله وحده.

فوائد فقهية

- أن الصلاة ركن لا يُقبل دين بدونه، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا خير في دين لا صلاة فيه"، مما يدل على وجوبها وأنها لا تسقط بحال الاختيار.
- أن الزنا والخمر والربا محرّمات لا تقبل المساومة، وهي من الكبائر التي يجب تركها للدخول في الإسلام الصحيح.
- جواز تأخير بعض الأمور التي لا تمس أصل الدين تأليفًا للقلوب، كترك هدم الصنم أيامًا معدودة.
- جواز أن يتولى غير المسلم هدم معالم الشرك في بلده، إذا كان في ذلك مصلحة شرعية، كما قبل النبي صلى الله عليه وسلم أن يُهدم الصنم بيد غيرهم.
- أن جمع الزكاة يُمكن أن يوكل إلى غير المزكي إذا كان في ذلك مراعاة للحال أو مصلحة عامة.

فوائد أخلاقية

- أن الحلم والرفق في الدعوة أبلغ أثرًا من العنف، وقد كان ذلك من أسباب إسلام وفد ثقيف.
- أن التواضع للحق إذا ظهر، خلق نبيل، وقد فعله عقلاء ثقيف بعد إدراكهم الحق.
- أن الصدق مع النفس والاعتراف بالخطأ طريق للنجاة، كما اجتمع عقلاؤهم وقالوا: لا سبيل للمكابرة بعد اليوم.

- أن الحكمة في الرد والرحمة في البيان تفتح القلوب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد ثقيف.

فوائد دعوية

- أن كسب القلوب يُمهد لقبول الدعوة، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين أكرم وفدهم رغم شروطهم المستفزة.
- أن بعض الناس لا يُسلِمون دفعة واحدة، بل يتدرجون في قبول الحق، وللداعية أن يرفق بهم حتى يستقيموا.
- أن الدعوة لا تنجح بالقهر، بل بالثبات والحكمة، وقد أذعن أهل الطائف في النهاية لما رأوا ثبات النبي صلى الله عليه وسلم.
- أن النصر الحقيقي في الدعوة ليس في كسب الجدل، بل في ثبات الحق حتى يخضع له المخالف.

مخالفات الواقع

- بعض الناس اليوم يظنون أن بإمكانهم أن يختاروا من الدين ما يوافق أهواءهم ويتركون ما يشاؤون، كما فعل وفد ثقيف.
- انتشار التساهل في ترك الصلاة وادّعاء الإسلام مع ترك أركانه، وهو مما لا يصح معه دين.
- قبول بعض المجتمعات بإبقاء مظاهر الشرك كالأضرحة والقبور المبنية، بدعوى "التدرج" أو "العادات"، وهو مما ينافي التوحيد.
- وجود من يُطالب بتحليل الربا والخمر والزنا بدعوى أنها لا تتناسب مع العصر، كما طلب وفد ثقيف.
- ظن بعض الدعاة أن عليهم تغيير الأحكام لإرضاء المدعوين، وهذا خلاف منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الثبات على الوحي.

الفقرة الثالثة قصة إسلام عروة بن مسعود الثقفي: النور الذي قُتل قبل أن يُطفأ

حين يلفّ الليل الأرض بظلمته، وتنزوي القلوب في زوايا الضلال، يكون في الناس رجالٌ لا يُغريهم الظلام، ولا يرضون بالدعة، بل يتلمّسون النور من وراء الحجب، ويقفون على أعتابه بكل ما أوتوا من عقل وحكمة وجرأة... ومن أولئك كان **عروة بن مسعود الثقفي**، سيد ثقيف وأحد حكمائها، ورجلها البليغ العاقل في زمنٍ اشتدت فيه غشاوة الجاهلية، وخفّ فيه صوت العقل إلا عند القليل.

شهد عروة **صلح الحديبية** رسولًا عن قريش إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فوقف وجهًا لوجه مع النور، ورأى بصدق من هم أتباع هذا النبي، رأى رجالًا لا يتحركون إلا بإذن نبيهم، ولا يرفع أحدهم طرفه في حضرته، يتسابقون على وضوئه، ويتمسحون بنخامته، ويخفضون أصواتهم إجلالًا له. كان المنظر مشهدًا مهيبًا، تنحني أمامه الأكابر، ويخترق القلوب من شدّة صدقه وروعة هيبته.

فلم يملك عروة إلا أن يُقرّ بهذا المشهد المذهل، وقال قولته التي سطرتها كتب السيرة بمداد النور:

"يا معشر قريش، إني قد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي، فوالله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدًا صلى الله عليه وسلم، والله ما تنخّم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره) "...*رواه البخاري، رقم: ٢٥٨١* (

لم يكن ذلك اللقاء مجرد مهمة سياسية، بل كان شرارةً سرت في قلب عروة، تؤذنه بأن الحق قد ظهر، وأن الطريق إليه واضح، ولكن الهداية تحتاج وقتًا لتنضج في قلب الباحث عن الحقيقة.

ومضت السنون، وفتح الله مكة، وظهر الإسلام، ولم يعد لعزة الجاهلية صوت. فإذا بعروة يركب مطيّته، ويقطع الفيافي والوديان، قاصدًا المدينة المنورة، وقد عزم أمره، وبصُر قلبه، فجاء يبايع النبي صلى الله عليه وسلم، موقنًا أنه النور، وأن ما عداه ظلام.

أسلم عروة، وما كان إسلامه إسلام رجلٍ يبحث عن مكان في الدنيا، بل إسلام صادقٍ باحثٍ عن رضا الله، وتاقت روحه لأن يُعلي صوت الحق في قومه، ويهدم ما أُقيم من باطلهم على أنقاض الأصنام.

فقال للنبي صلى الله عليه وسلم" **:يا رسول الله، إني أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام".**

فتلكأ النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له في نبرة الأب الحاني" **:إنهم قاتلوك".**

لكن عروة، وقد بلغ من يقينه ما جعله يستهين بالموت، قال في ثقة الواثق بمحبّة قومه له" **:يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم".**

فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن يعلم أن تلك الخطى المتوجهة إلى الطائف، لن تعود.

وصل عروة إلى قومه، وصعد إلى سطح داره، وجعل ينادي بأعلى صوته" **:يا معشر ثقيف، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله".**

وكانت المفاجأة... قومه الذين ظنّ فيهم الوفاء، لم يحتملوا النور الذي انبعث من بيته، فقابلوا النور بالحجارة، والحكمة بالسهام، والصدق بالخيانة. فانهالت عليه الرماح، وارتفعت السهام، وخرَّ جسده الطاهر شهيدًا، قبل أن تُكمل كلماته طريقها إلى القلوب.

وهو يحتضر، نظر إلى أهله، وقال بكلماتٍ تكتب بماء الذهب:

"هذه كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، قد كنت أرى أني إن قتلت كنت شهيدًا، فادفنوني مع الشهداء".

وارتفعت روحه إلى بارئها، في مشهدٍ مهيبٍ تكسوه العزة، وتنزل عليه السكينة.

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر استشهاده، قال فيه قولًا عظيمًا يُرفع به شأنه في الدنيا والآخرة:

"إنه كان في قومه مثل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه) "*رواه الإمام أحمد في المسند، رقم: ١١٨٩٤، والحديث حسن بشواهده*(

ولقد صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فقد شبّه عروة بذلك الرجل الصالح الذي ذكره الله في سورة يس، حين قال تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(*يس: ٢٠-٢٧* (

وهكذا، خُتمت حياة عروة بن مسعود الثقفي، لا بتاج الجاهلية، بل بتاج الشهادة... ومات عظيمًا كما عاش، وكُتبت قصته في سجل الخالدين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الحق إذا خالط القلب ظهر أثره في التصديق والعمل ولو كلّف ذلك الروح، كما فعل عروة حين آمن ثم جهر بالدعوة رغم تحذير النبي صلى الله عليه وسلم.
- عظمة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه كانت نابعة من يقينهم بأنه رسول الله حقًا، وهي من دلائل النبوة وعلامات صدق الرسالة.
- الشهادة كرامة ربانية ينالها من صدق مع الله، وهي ليست نهاية بقدر ما هي رفعة في الدنيا والآخرة.
- الهداية بيد الله، وقد تتأخر عن من يرى الحق، لكنها تأتي لمن أخلص الطلب، كما وقع لعروة حين شهد صدق النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية ثم أسلم لاحقًا.
- من دلائل النبوة شهادة من شهدوا الأمم والحكام، ثم رأوا في محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يروه في غيره، فشهدوا له ولو لم يسلموا فورًا، كعروة في البداية.
- من علامات القبول عند الله أن يُختم للعبد بخير، وأن يرزق الشهادة على التوحيد، وهذه من دلائل حسن الخاتمة.
- قصة عروة دليل على أن من صدق في طلب الحق، وأخذ بالأسباب، وصدق عزمه، بلّغه الله الغاية وأكرمه بما يحب، وإن قُتل في الطريق.
- النور الذي بعث الله به نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم لا تطفئه سهام ولا يُوقفه قتل ولا يُغلبه الظلام، فهو نور لا يُطفأ.

◆فوائد فقهية

- من السنة التأني في دعوة من يُخشى عليه الهلاك، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين حذّر عروة من أن قومه سيقتلونه، فالداعية مأمور بالتحري لا الاندفاع.
- يجوز لمن ترجّحت عنده المصلحة في الدعوة أن يقدم عليها ولو غلب على الظن الهلاك، كما فعل عروة بعد إذن النبي صلى الله عليه وسلم.
- للشهيد أحكام تخصه، ومنها الدفن مع الشهداء، وعدم غسل بدنه، كما طلب عروة حين قال: "ادفنوني مع الشهداء".
- الاعتراف بفضل النبي صلى الله عليه وسلم وثناء من عرف مكانته، دليل شرعي على فضله، وهو مما يُستشهد به في كتب السيرة والفقه.
- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم على قول عروة بعد موته ورفعه له منزلة صاحب يس، فيه دلالة على أن الشهادة تثبت ولو بغير معركة مباشرة إن كانت نية الشهيد إقامة الدين.

فوائد أخلاقية

- الصدق في طلب الحق يُثمر عزة في الموقف وثباتًا في القرار، كما ظهر في شخصية عروة بعد إسلامه.
- من الوفاء للحق أن يجهر الإنسان به ولو خالف أهله وقبيلته، فلا يبيع دينه بحب الناس له، كما لم يُبالِ عروة بمحبة قومه له حين علم أنهم على باطل.
- الرجولة الحقيقية ليست في السيادة والنسب، بل في اتخاذ الموقف الصحيح وإن كلف الحياة.

- من الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث العبد بصدق عن مشاهد العظمة التي رآها، كما فعل عروة بعد رؤية تعامل الصحابة مع نبيهم.
- المؤمن حين يوقن بالحق لا تردّه عنه سهام الجهل ولا طعن الأقربين، بل يزيده يقينًا وثباتًا.

فوائد تربوية

- التدرج في الهداية أمر واقع، فليس كل من رأى الحق استجاب له مباشرة، وقد يحتاج بعض الناس إلى تأملات وسنوات حتى يطمئن قلبه كما حصل مع عروة.
- تربية الصحابة على توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتقديم أمره، ترك أثرًا دعويًا حتى في أعدائهم، مما يدل على أثر السلوك في نشر الدعوة.
- التضحية لأجل العقيدة لا تكون كلمة تُقال، بل فعل يُترجم، كما ضحى عروة بنفسه لأجل دعوة قومه.
- الجرأة في الحق لا تعني التهور، بل لا بد من الجمع بين الحماسة والروية، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم مترددًا في إرسال عروة لقومه.

◆مخالفات الواقع

- التهاون في توقير سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل وبعضهم يُهوّن من أمر السنن ويزعم أن الالتزام بها ليس من الدين في شيء.
- قلة من الدعاة اليوم من يُقدّمون أرواحهم للدعوة، وأكثرهم يبحث عن السلامة والمناصب لا الشهادة والحق.
- الغرور بحب الناس، والظن بأن القربى والقرابة كافية لقبول الدعوة، بينما تُظهر القصة أن أقرب الناس قد يرفضون الحق إن خالف أهواءهم.
- غياب التضحية في سبيل إيصال النور، إذ أصبحت الدعوة اليوم تُقاس بالأرباح والنتائج لا بالصدق والثبات.
- كثرة من يدّعون الدعوة إلى الله، وهم لم يذوقوا حرقة الشهادة ولا صدق البلاغ، ولم يعرفوا عاقبة الصدع بالحق في وجه الباطل.

الفقرة الرابعة: هدم صنم "اللات"... حين سقطت آلهة الزيف تحت أقدام التوحيد

في لحظةٍ تهتز لها قلوب الموحدين فرحًا، وترتجف لها قلوب المشركين وجلاً، دوّى صوت التوحيد في سماء الطائف، وأُسدل الستار على عهدٍ مظلم طالما ترددت فيه التمتمات الباطلة باسم "اللات"، تلك التي نُسجت حولها الأساطير، وزُينت بالأستار والذهب والهيبة الزائفة، حتى صار الناس يطوفون حولها كما يطوف الموحدون بالبيت الحرام! لكنها لم تكن إلا جمادًا أبكم لا يضر ولا ينفع، تقف شاخصة أمامهم، شاهدة على غفلتهم، وسكوت عقولهم، وضياع قلوبهم.

فلما أشرقت شمس الهداية من المدينة، وأسلمت ثقيف بعد طول لجاجٍ وعناد، ورضيت بالدخول في دين الله عز وجل، جاءهم الأمر النبوي الصارم الصادق: لا إسلام مع بقاء الأوثان، لا توحيد مع طاغوت منصوب، لا نور مع بقايا الظلمة! فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابي المغوار، والفارس الثقفي الجريء، المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ليقضي على آخر معقلٍ من معاقل الوثنية في ديارهم.

فمضى المغيرة رضي الله عنه ممتثلًا أمر النبي صلى الله عليه وسلم، موقنًا أن الحق إذا جاء زهق الباطل، صاعدًا جبل الأصنام لا رهبة فيه ولا وجل، حاملاً فأسه على كتفه، وضاربه بكل عزم وإيمان، حتى سقطت "اللات" صريعةً تحت قدميه، لا تحرك ساكنًا، ولا تصرخ مستغيثة، ولا تدفع عن نفسها ضربًا ولا إذلالًا!

وقف أهل الطائف ينظرون في ذهول، بعضهم قد شدّه الموقف، وبعضهم تسمر في مكانه لا يصدق ما يرى، بل ظنّ فريقٌ منهم أن نارًا من السماء ستنزل على من مسّ "اللات" بسوء، وأن المغيرة سيلقى حتفه في الحال! لكن هيهات... لقد ماتت "اللات"، بل لم تكن يومًا حيّةً حتى تموت، ولم تكن ربًا حتى تغضب! وإنما هو الزيف الذي طالما لبّس على القلوب، حتى جاء النور ففضحه، كما قال الله جل في علاه":قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا] "الإسراء: ٨١].

بل روى أهل السِّيَر أن المغيرة لم يكتفِ بهدمها، بل أضرم فيها النار، فأحرق أستارها وذهَبها وزينتها، ليعلم القوم أن ما كانوا عليه ليس إلا وهْمًا، وأن الأوثان لا تستحق إلا الحرق والذل، لا السجود والتقديس.

وهكذا... ارتفع صوت "الله أكبر" في الطائف، حيث كان يُسمع من قبلُ همس الدعوات إلى "اللات"، ورفرفت رايات التوحيد في أرضٍ طالما سجدت للأوثان، وانتهى عهدٌ مظلمٌ كانت "اللات" فيه تُعبد من دون الله، ليبدأ عهد النور والحق والإيمان، تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة". رواه البخاري

وكان "ذو الخلصة" صنمًا يُعبد، فشبّه النبي صلى الله عليه وسلم حال الجاهلية بعبادة الأصنام، وهي تعود في آخر الزمان، ليعلم الناس أن التوحيد لا يستقر إلا في قلوبٍ يقظة، تحطم الأصنام أينما وُجدت، سواء كانت من حجر، أو شهوة، أو جاه، أو سلطة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوحيد لا يكتمل مع بقاء أثر من آثار الشرك؛ فإزالة مظاهر الوثنية شرط لتحقيق إخلاص العبودية لله عز وجل.
- الأصنام لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، والاعتقاد بقدرتها على التأثير شركٌ يناقض أصل الدين.
- إيمان المسلم يجب أن يكون راسخًا بأن الحق إذا جاء زال الباطل، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.
- الاستجابة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم في قضايا التوحيد واجبة دون تردد، لأنها امتثال لأمر الله تعالى.
- من خصائص هذا الدين هدم كل ما يُعبد من دون الله، ماديًا كان أو معنويًا، فلا يُبقي الإسلام أثرًا للشرك.

فوائد فقهية

- جواز الاستعانة بالوسائل الحسية – كالهدم والحرق – في إزالة مظاهر الشرك متى اقتضت المصلحة الشرعية ذلك.
- الأصل أن بقاء معابد الأوثان بعد دخول أهلها الإسلام ممنوع، إذ لا يجتمع في الإسلام توحيدٌ وشرك.
- العمل على تطهير البلاد الإسلامية من كل ما يذكّر بالشرك واجب على ولي الأمر ومن يقوم مقامه.

فوائد أخلاقية

- شجاعة المغيرة رضي الله عنه في مواجهة أوهام الناس دليل على أن المؤمن لا يرهبه باطل، وإن عظم في أعين الجاهلين.
- اليقين في الله يولد قوةً في الموقف، فلا يلتفت المؤمن إلى خرافات أو أساطير.
- إزالة المنكرات تحتاج إلى عزم وجرأة، وهو خُلقٌ نبويّ سار عليه أصحابه من بعده.

فوائد سلوكية

- المسلم الحق يقتلع من قلبه كل صنم معنوي: من هوى أو مال أو جاه، تمامًا كما يُقتلع الصنم المادي.
- ترك التعظيم الباطل للرموز الزائفة من سلوكيات الموحدين الذين امتلأت قلوبهم بتعظيم الله وحده.

فوائد قيادية وإدارية

- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم للمغيرة رضي الله عنه لهدم "اللات" يُبرز أهمية إسناد المهام لمن عُرف بالشجاعة والصلابة.
- القيادة الرشيدة لا تؤجل القرارات المصيرية المتعلقة بالتوحيد، بل تحسمها فورًا لإزالة مظاهر الانحراف.

فوائد تاريخية وحضارية

- سقوط "اللات" يمثل رمزًا لتحول حضاري كامل؛ من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.
- التاريخ يثبت أن الأمم التي تتمسك بالخرافة تُبنى حضارتها على الوهم، أما حين تتبنى التوحيد فإنها تؤسس لنهضة راسخة.

مخالفات الواقع

- شيوع تعظيم القبور والأضرحة في بعض المجتمعات، بما يشبه طواف الجاهلية حول الأصنام.
- بقاء آثار من مظاهر الشرك في ديار المسلمين تحت مسمى "التراث" أو "الثقافة الشعبية"، مما يطيل أمد الجهل ويعيق نقاء التوحيد.
- ظهور ما يشبه الأصنام المعنوية: كتعظيم الأشخاص، أو تقديس الأفكار البشرية، حتى صار بعض الناس يرفعونها فوق شرع الله.
- انتشار الخرافات التي تربط بين الأحداث والبركة أو النحس بمجرّد لمس حجر أو أثر، مما يعيد صورًا من وثنية الجاهلية.
- ضعف الغيرة الإيمانية عند كثير من المسلمين اليوم على نقاء التوحيد، فلا يتحركون لإزالة الشركيات أو التحذير منها.
- عودة صور الجاهلية في آخر الزمان – كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم – بتعلق الناس بأصنام جديدة قد تكون في صورة أهواء وشهوات، مما يذكّر بخطورة الغفلة عن سنة الله في بقاء الصراع بين التوحيد والباطل.

الفقرة الخامسة: عامر بن الطفيل... كبرياء ينهار على عتبة النبوة

بعد فتح مكة، انفرجت أبواب الجزيرة العربية على نور الإسلام، وبدأت القبائل تفد إلى طيبة الطيبة، مستجيبةً لنداء التوحيد، ومبايعةً رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعدما كانت بالأمس تتربص وتكابر. وكان من بين تلك الوفود وفد بني عامر بن صعصعة، قبيلة ذات بأس وفصاحة، وكان يتقدمهم فارسها المغرور، ورجلها المتعجرف، عامر بن الطفيل، الذي كانت العرب تضرب به المثل في الفروسية والبأس، لكنه كان أسير كِبْره، وسجين طموحه للرياسة.

دخل عامر على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسعى لهدى، ولا يتلهف على الحق، بل دخل متبخترًا، نافخًا بأنفه، يظن أن له الحق أن يفاوض كما يهوى، وأن يضع شروط الإسلام كما يشاء، فقال في وقاحة المتغطرس:

"يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟"

سؤالٌ ينضح تكبرًا، كأنه لا يريد الإسلام لذاته، بل يريد صفقةً يتربّع بها على كاهل الدين!

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بجواب العدل، لا يُمَيّز بين عربيٍ ولا أعجمي، ولا بين غنيٍ ولا فقير، إلا بالتقوى، فقال له:

"لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم".

لا امتياز، لا طبقية، لا سيادة لأحدٍ في دين الله إلا بسيادة الإيمان، ولا كرامة إلا لمن أطاع الله.

لكن عامرًا لم يرق له ذلك، فقد أراد الإمارة لا الإيمان، والسلطان لا السجود، فردّ بجنون المتكبر:

"أو تجعل لي الأمر من بعدك؟ "وفي رواية" :أجعل لك ظهري وتكون لي النسوة"!

وهنا تجلى الموقف النبوي، في أبهى صوره، نبيٌّ لا يُساوِم، ولا يُجامل، ولا يبيع دين الله لقاء طموح زائف أو وعدٍ أجوف، فردّ عليه صلى الله عليه وسلم بكل هيبة النبوة:

"الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء". ثم لما تمادى عامر في تهديده، وملأ المجلس بجنون العظمة، قال:

"لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا"! فردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة تهزّ عروش الطغيان:

"يمنعك الله".

كلمة واحدة، لكنها سيفٌ من نور، قصمت ظهر الغرور، وسجلت للتاريخ أن حماية هذا الدين ليست بعدد ولا عدة، وإنما برعاية الله وحفظه لعباده المؤمنين.

خرج عامر من المجلس وقد احترق داخله، فلم يرضَ أن يسلم بلا سلطان، ولا أن يخضع بلا عرش، ومضى في طريقه حتى إذا صار في بعض نواحي نجد، أصابته غُدّةٌ ففتكت به، وخرّ صريعًا لا يعرفه أحد، لا جيش ولا نساء ولا سلطان، ومات كما يموت البعير لا يدري أحد بمكانه!

وقد ذكر أهل السير أنه قال وهو يحتضر، يتقلب في ندمٍ لا يجدي" :والله، لقد أصابني هذا بدعوة الرجل الصالح"!

نعم، لقد أصابتك دعوة من لا يُظلم عنده أحد، ولا يردّ الله دعاءه، كما قال تعالى" :وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا] "الإسراء: ١١.[

لقد أراد أن يهدد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيله ورجاله، فهدّه الله بمرضٍ لا يُرى، وأذله بآلام لا يُسمع أنينها، ليعلم الجميع أن العز لا يكون إلا بطاعة الله، وأن الرياسة الحقيقية هي أن تكون عبدًا لله لا عبدًا للهوى والسلطان.

فمضى عامر، وبقيت كلمة النبي صلى الله عليه وسلم خالدة:

"يمنعك الله".

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام لا يميز في أصل الدين بين الناس بحسب النسب أو الجاه أو المال، بل العدل الإلهي يساوي بين الخلق في التكاليف والجزاء، ويجعل التفاضل في ميزان التقوى لا غير، كما قال الله تعالى" :إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ "]الحجرات: ١٣.[

- عزة الدين وثقة النبي صلى الله عليه وسلم بوعد الله دليل على الإيمان بأن الحفظ والنصر بيد الله لا بأسباب الدنيا، فهو القائل: "يمنعك الله"، وهي كلمة تحمل يقينًا بأن الله هو الناصر والحافظ لمن أقام دينه.

- موت الطغاة والمستكبرين في الذل والهوان، دليل على عدل الله وانتقامه من المتكبرين، وأن الرياسة والملك لا تدوم لمن عارض دينه، كما قال سبحانه" :وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ] "هود: ١٠٢.[

- دعوة المظلوم، لا سيما دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، لا تُرد، بل يصيب الله بها من شاء من عباده ولو بعد حين، مما يؤكد الإيمان بصفة العدل في الله وأنه لا يُظلم عنده أحد.

فوائد فقهية

- من عرض الإسلام على الناس أن يُعرّفوا به دون إغراء بمنصب أو جاه، فالإسلام يُعرض كما أنزله الله لا كما يرغب الطامعون، ومن شروط صحة الدخول في الإسلام أن يكون طوعًا خالصًا لا رياء فيه ولا طمعًا دنيويًا.

- لا يجوز عقد الصلح أو دخول أحد في الإسلام بشرطٍ يميّزه عن بقية المسلمين بما يخالف الشرع، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يرضَ أن يجعل لعامر لا الإمارة ولا السيادة، بل "لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم."

- من السياسة الشرعية ألا يُمكّن أهل الأهواء أو أصحاب الطموحات السلطوية من مناصب تؤثر في الدين أو الدولة، كما لم يمكن النبي صلى الله عليه وسلم عامرًا من أي سلطان مع بُعده عن الإيمان وإعراضه عن الحق.

فوائد أخلاقية

- الكبر والغرور من أعظم ما يحجب الإنسان عن الحق، فها هو عامر بن الطفيل يرى النور رأي العين ثم يُعرض عنه بسبب كِبرٍ استقر في قلبه، فكانت عاقبته الذل والخذلان.

- عزة المؤمن لا تتنازل أمام المتكبرين، والنبي صلى الله عليه وسلم في موقفه مع عامر ضرب أروع مثال في الثبات على المبدأ والكرامة، فلم يتنازل عن دينه مقابل سلطان ولا نساء ولا وجاهة.

- الإخلاص في الدعوة يقتضي الصدق مع المدعوين، وعدم إغراء أصحاب النفوس المريضة بما يفتح عليهم باب التسلط باسم الدين.

- من صفات القادة الربانيين الصبر والحكمة والثبات، ومن صفات المتكبرين الطيش والعجلة والتهور، وقد ظهر ذلك جليًا في المقارنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامر في هذا المشهد.

فوائد متنوعة

- من دلائل النبوة أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تُصيب حتى من أنكرها، كدعائه على عامر، فهلك كما أخبر، مما يزيد إيمان المؤمن بصدق الرسالة.

- الرياسة الحقيقية ليست في السيادة الظاهرة بل في خضوع القلب لله، فقد كان عامر سيدًا في قومه لكنه عبدٌ للهوى، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم عبدًا لله لكنه سيد الناس بإيمانهم.

- عاقبة المكر والتهديد للدين والرسالة عاقبة وخيمة، فمن هدد النبي صلى الله عليه وسلم بخيل ورجال، هدّه الله بمرضٍ لا يُرى، فصار عبرة لكل من يعاند الدين.

- الناس لا يذكرون من مات إلا بقدر ما خدم الحق أو حاربه، فموت عامر لم يُعرف له قدر ولا ذكر، لأن عناده أطفأ اسمه، بينما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم خالد لا يزول.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم إذا دُعوا إلى التوبة أو الصلاح، بدأوا يسألون: "وماذا سنكسب؟"، أو يشترطون المناصب أو الحظوة الاجتماعية قبل أن يلتزموا بشرع الله، وكأنهم يمنّون على الله إسلامهم!

- تجد بعض دعاة الدنيا يروّجون للدين على أنه وسيلة لمكاسب سياسية أو مالية أو سلطوية، فإذا لم تُعطهم المناصب انقلبوا على أعقابهم وأعرضوا عن الدعوة، كما فعل عامر.

- لا يزال بيننا من يظن أن التغيير لا يكون إلا بالقوة والعدة، ويغفل أن الله هو المانع والحافظ، فتراهم يتوسلون الوسائل المادية ويغفلون عن التوكل الصادق على الله.

- في زمن الشهرة والجاه، كثير من الناس لا يقبلون النصح أو الدعوة إلا من وجهاء أو أصحاب سلطة، ويزدرون أهل الدين لأنهم لا يملكون زخرف الدنيا، وهذا من بقايا الجاهلية.

- من طريقة عامر في طلب الرياسة قبل الإيمان، يظهر مذهب الخوارج الذين جعلوا الإمامة قبل العقيدة، فكانوا يطلبون الحكم ويسفكون الدماء ولو لم يُقيموا التوحيد، بل يقدمون السلطان على الإيمان.

الفقرة السادسة: وفد عبد القيس... الإيمان إذا أقبل من البحرين

في زمن انكسرت فيه شوكة الكفر، وارتفعت فيه راية التوحيد، كانت المدينة تتهيّأ كل يوم لاستقبال قلوبٍ جديدة تنبض بالإسلام، ووجوهٍ أشرقت على نور الهداية. وبين تلك الوفود المتتابعة، أقبل وفد عبد القيس من أرض البحرين.

لم يكن فيهم من يطلب جاهًا، ولا جاءوا يفاوضون على رياسة، بل قدموا يحملون بين ضلوعهم شوقًا للإيمان، وقلوبًا طاهرة أرهقها طول البُعد عن النبي صلى الله عليه وسلم، يحول بينهم وبينه كفار مضر، ويمنعهم من لقائه إلا حرمة الأشهر الحرم.

فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، استقبلهم بوجهه المشرق، يفيض حنانًا وبشرًا، فما أن سألهم عن حالهم حتى أجابوا بلهجة الصدق واليقين:

"يا رسول الله، إنّا لا نصل إليك إلا في الأشهر الحرم، وحائلٌ بيننا وبينك كفار مضر، فمُرنا بأمرٍ فصل، نُخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة".

ما أعظم هذا السؤال! ما أصدقه! قوم لم يسألوا عن الدنيا، ولا طلبوا شيئًا منها، إنما سألوه عن طريق يوصلهم إلى الجنة، وعن كلمة يهتدون بها، ويهدون بها غيرهم.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغرس فيهم دعائم الدين، ويختصر لهم المَنهج في كلمات:

"آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع...
آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم...
وأنهاكم عن الدباء، والنقير، والحنتم، والمزفت".

يا له من توجيه نبوي شامل! بدأ بالعقيدة، وتوّجها بالأركان، وختمها بالتنزيه عن وسائل الإثم، فجمع لهم أصول الدين وفروعه، وبين لهم الحلال والحرام في كلمات نورانية، تصلح أن تكون دستورًا لكل قادم للهداية.

وكان في الوفد غلام لم يبلغ، لم يكن له بين الرجال شأن، اسمه الجارود بن العلاء، لكنه كان يملك قلبًا عظيمًا، وبصيرة حاضرة، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ فيه ملامح مستقبل مشرق، فقال له:

"إن فيك لخصلتين يحبّهما الله: الحِلم والأناة".

يا سبحان الله! ما أوسع نظر النبوة! ترى في الغلام ما لا يراه الرجال، وتغرس في قلبه من الآن معاني الخلق والقيادة، ليكون لبنة من لبنات هذا الدين.

ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم لهم، وأكرم وفادتهم، حتى أصبح وفد عبد القيس من خير الوفود أثرًا في الإسلام، فبلغوا، وأبلغوا، وثبتوا على العهد، حتى قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم:

"خيرُ أهلِ المشرقِ عبدُ القيس ".رواه البخاري ومسلم(

نعم، لا بالموقع الجغرافي، ولكن بالخضوع والانقياد، لا بالغنى ولا الجاه، ولكن بصدق النية وصفاء القلوب، فصاروا نموذجًا يُحتذى، ومَثَلاً يُضرب، بأن الإيمان إذا أقبل من البحرين، فإنه يملأ المدينة نورًا، ويبلغ بها عنان السماء.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الصادق لا يُقاس بالمسافات، وإنما بالقلوب التي تهفو إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولو حال بينها وبينه ألف حاجز.

- التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم والانقياد لأمره علامة على صفاء العقيدة وسلامة الفطرة.
- الحرص على السؤال عن طريق الجنة دليل على علو الهمّة، ومظهر من مظاهر الإيمان الحق الذي يطلب الآخرة ولا يلتفت إلى الدنيا.
- شرح النبي صلى الله عليه وسلم للإيمان بأنه شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، فيه بيان
- أن العقيدة تشمل الإيمان القلبي والعمل الظاهر معًا، بخلاف مذهب المرجئة الذين حصروا الإيمان في التصديق فقط.
- الثناء النبوي على الحِلم والأناة يبين أن الأخلاق الفاضلة من صفات يحبها الله، وهي متفرعة من كمال الإيمان.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم للوفد وتبشيره لهم فيه إشارة إلى فضل من أقبل على الدين طائعًا مختارًا، وأن الله يكرم من أتى إليه بقلب منيب.
- في الحديث شهادة من النبي صلى الله عليه وسلم بأن عبد القيس من خير أهل المشرق، وهذا يدل على أن الخيرية تُنال بالإيمان والاستجابة لا بالنسب أو الوطن أو القومية.

فوائد فقهية

- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وبيان أن هذه من أركان الإسلام المتفق عليها.
- في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وأن تعطوا الخمس من المغنم" دليل على فريضة الخمس في الغنائم، وهو مما أجمع عليه أهل العلم.
- النهي عن استخدام أواني الدباء والنقير والحنتم والمزفت يدل على سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، لأن هذه كانت تُستخدم في تخمير الشراب، والمنع منها حماية من العودة إلى سلوك الجاهلية.
- إجمال الأحكام وبيانها عند الحاجة من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التعليم، كما في قوله: "آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع"، وهذا أصل في باب التعليم والفتيا.
- أهل الذمة في البلاد البعيدة إذا حال بينهم وبين الهجرة أو اللقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم عذر شرعي، لم يُؤاخذوا به، وكان عليهم التبليغ بما علموه، وهذا أصل في فقه الاستطاعة.

فوائد أخلاقية

- الصدق في الطلب، والحرص على الجنة، من أعظم صفات النفوس الطيبة، التي لم تُلوّثها الشبهات ولا تُعكّرها الشهوات.
- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم في لقائه بالوفد، واستقباله لهم بالبِشر، يدل على خُلُقه العظيم وتربيته للناس بالرفق واللين.
- الثناء النبوي على صفتي الحلم والأناة يؤكد أن القيادة لا تقوم على العنف والتهور، بل على العقل والرزانة.
- النظر إلى أصحاب القدرات من الشباب وتشجيعهم من خلال الثناء والاهتمام يُنمّي فيهم المسؤولية ويصنع جيلًا ناضجًا.
- الوفد الصادق حين يعود إلى قومه يبلغ ما تعلّمه، فلا يحتكر العلم، بل يُبلّغ الرسالة، وهذا من صفات المصلحين.

فوائد دعوية وتربوية

- تقديم السؤال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بـ"أمر فصل" فيه أدب عالٍ مع العالم والمرشد، وحرص على الوضوح واليقين في الدين.
- الحرص على تبليغ من وراءهم يدل على فهمهم لرسالة الإسلام، وأن الدعوة لا تقف عند حدود الشخص، بل تشمل المجتمع.
- الوفود الصادقة تعلّمت من جلسة واحدة ما لم يتعلمه المتكاسلون في سنين، والسبب في ذلك: الإخلاص وصفاء القلوب.
الوصايا المختصرة التي تحمل أصول الدين نافعة للناس في أول الأمر، وهي منهج نبوي في تعليم الداخلين في الإسلام.

- غرس النبي صلى الله عليه وسلم للخلق في الغلام الصغير يؤكد أن التربية تبدأ من سنٍّ مبكرة، وأن للغرس أثرًا في بناء الشخصية.

مخالفات الواقع

- كثر اليوم من يُقبل على الدين لا طلبًا للحق، وإنما طلبًا للهوية أو التقاليد أو المصالح.
- يقلّ من يسأل عن "أمر يدخل به الجنة"، وكثر السؤال عن الرخص والتخفيفات والجدل الفقهي لا للعمل بل للتهرب.
- ضعف جانب التبليغ في المجتمعات، فالكثير يتعلم ولا يبلّغ، ويسمع الخير ولا ينقله، على عكس وفد عبد القيس.
- يُهمَل كثير من الشباب ولا يُلتفت إلى صفاتهم القيادية، ويُستهان بمواهبهم الخلقية، فلا يُوجّهون كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- ضَعُف في كثير من الدعوات المعاصرة تقديم الأصول العقدية والأخلاقية على الجوانب الشكلية أو الشعارات العامة

الفقرة السابعة: وفد بني حنيفة... حين يتسلل الطمع في ثوب الدعوة

في عام الوفود، إذ كانت قلوب العرب تهفو إلى المدينة المنورة، وتزحف الوفود من كل حدب وصوب لتبايع على الإسلام، جاء وفد من قبيلة بني حنيفة، تلك القبيلة المشهورة بالشدة والبأس، تحمل في ظاهرها ملامح الوقار، ولكن كانت تخفي في طياتها رجلاً سيلتف عليه الزيف، ويظهر فيه الكذب، ويخادع النبوة.

جاءوا إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستقبلهم كما يستقبل الشمس إذا أقبلت، ببشره الكريم، ووجهه المضيء، ولسانه العذب، أكرمهم، وأجلسهم، وبسط لهم دعوة الإيمان.

أسلموا جميعًا، وصدقت نيّاتهم... إلا رجلًا واحدًا منهم، كان يُحدّق في النبي صلى الله عليه وسلم لا بعين المحبة، ولا بشوق الإيمان، وإنما بعين الحسد والطمع والأنانية.
اسمه مسيلمة بن حبيب، رجل ذو نظرات جامدة، وكبرياء مقيت، يلبس الوقار ليخدع، ويتظاهر بالتعقل ليُموّه، ولكنه كان يخفي بين أضلاعه قلبًا مريضًا متعطشًا للرياسة، لا يبحث عن الحق، بل عن الحُكم!

فما أن انتهى المجلس، حتى أفصح عن مكنون نفسه، وكشف عن طموحه الملوث، فاقترب من النبي صلى الله عليه وسلم وقال في جرأةٍ وقاحة" :إن جعلتَ لي الأمر من بعدك، اتبعتك"!

يا الله! ما أجرأه! يشترط على من لا ينطق عن الهوى، ويظن أن أمر النبوة ملكٌ يُورّث، أو سلطة تُقسم بين الرجال!
فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ردًّا حاسمًا، فيه من الوضوح ما يقطع طمع الطامعين، ومن القوة ما يكسر شوكة المتكبرين" :لو سألتني هذا العود ما أعطيتكه، ولن تعدو أمر الله فيك، وإنك إن أدبرتَ يهلكك الله".

ثم أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى رؤيا رآها، عبّرها بوحي الله، وفسّرها بنور النبوة، فقال:

"كأنّي أريتُ في المنام أني في يدي سوارين من ذهب، فكرهتهما، فنُفِخ فيهما فسقطا، فأُوِّلا بالكذابَين، أحدُهما العنسي، والآخر مسيلمة)".رواه البخاري

نعم، لقد علم النبي صلى الله عليه وسلم بنور الوحي أن هذا الرجل ليس كما يبدو، وأنه سيخرج يومًا على الأمة بادّعاء النبوة، وأنه سيكون فتنة عظيمة، وبلاءً كبيرًا.

انصرف الوفد، وكلهم على إسلام وإيمان، إلا هذا الرجل المريض، الذي عاد إلى قومه وقد اشتعلت فيه نار الطموح الفاسد، فبدأ ينسج الأكاذيب، ويدّعي الوحي، ويكتب السجع الركيك الذي لا طعم فيه ولا نور، ويقول:
"والفيل، وما أدراك ما الفيل، له زُلوم طويل"...
فأضحك الناس بعقله، وأضلّ به بعض الجهلة من قومه، فاتبعه من ضلّ وسفه، وضلّ من اتبعه.

وهكذا صار مسيلمة الكذاب، أحد أعظم الكذابين في تاريخ الإسلام، وكان له في الردة صولة، حتى جهّز له الصديق أبو بكر جيشًا عظيمًا بقيادة خالد بن الوليد، فاقتُل في يوم اليمامة شرّ قِتلة، وقطّع جسده سيوف المجاهدين، ليكون عبرةً لكل من ادّعى ما ليس له، ونازع النبوة وأهلها.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" :إن بين يدي الساعة كذابين، فاحذروهم) ".رواه مسلم

وفي رواية عند البخاري" :لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه نبي".

وكان مسيلمة الكذاب أحدهم، بل من أخطرهم وأشهرهم، فقُتل على الكفر، وخُتم له بالخزي، ومات بعد أن تلاعب به الشيطان، وظن أنه سيكون ندًّا لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- النبوة وحيٌ من الله، لا تُنال بالطلب ولا يُشترط فيها شرط، ومن زعم أنه يستحقها أو يفاوض عليها فقد كفر بربه، كما فعل مسيلمة الكذاب حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "إن جعلت لي الأمر من بعدك اتبعتك"، فكان في قوله طعن في الوحي، وجهل بحقيقة الرسالة.

- من علامات صدق النبوة الإخبار بالغيب، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن رؤياه في مسيلمة والعنسي، فتحققت كما أخبر، وكان في ذلك تصديق لما نُبئ به.

- الإيمان ليس ادعاءً باللسان، بل تصديق بالجنان واتباع بالعمل، ولهذا لم ينفع مسيلمة نطقه بالشهادتين ما دام قلبه منطويًا على الكفر والطمع في النبوة.

- الله سبحانه يبتلي الأمة بأهل الكذب والافتراء، فيميز الصادقين من المتبعين للهوى، وقد قدّر الله أن يظهر من الكذابين من يدّعي النبوة، لتبقى المحنة قائمة ويُعرف المخلص من المدّعي.

- ختم الله النبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ادعى النبوة بعده فهو كاذب، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الكذابين سيفتنون الناس، مما يؤكد ضرورة التصديق بختم النبوة.

فوائد فقهية

- لا يجوز لأحد أن يشترط على الحاكم الشرعي أو صاحب النبوة شروطًا، خاصةً فيما يتعلق بالسلطة أو الولاية، لأنها ليست محل تفاوض، بل هي حق لله يُنزّله حيث شاء.

- يجوز تعبير الرؤى والاستدلال بها إذا كانت من النبي صلى الله عليه وسلم أو جاءت على وجه لا يُخالف النصوص الشرعية، كما فعل النبي حين عبّر رؤياه عن الكذابَين.

- جواز مجابهة أهل البدعة والكذب بقوة الردع والقتال إذا تطلب الأمر، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين أرسل جيشًا لمحاربة مسيلمة الكذاب بعد ادعائه النبوة وافتتانه للناس.

- من ضوابط الحكم على الأشخاص ألا يُغتر بظاهر الإسلام دون فحص الباطن عند ظهور قرائن الكفر والنفاق، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع مسيلمة حين كشف مكنونه بعد قوله الوقح.

- محاربة المرتدين من أعظم الواجبات، وفيها حفظ للدين، وردع لكل من يحاول زعزعة ثوابته، وقد فعله الخلفاء الراشدون، وهو أصل شرعي ثابت.

فوائد أخلاقية

- الطمع في المناصب والرياسات قد يُفسد على العبد دينه ودنياه، كما فعل بمسيلمة الذي دخل المدينة ظاهريًا للإسلام، وباطنه متعطش للجاه.

- التواضع والانقياد للحق من شيم المؤمنين، وأما من يرى نفسه ندًّا للحق وأهله فهو أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان.

- على الداعية أن يُفرّق بين مَن يقبل الدعوة حبًا في الله، ومَن يدخل فيها لأغراض دنيوية، ويُحسن الظن، لكنه لا يُسلّم القيادة لمن ظهرت منه بوادر الانحراف.

- الكذب طريق الهلاك، ومسيلمة صار مضرب المثل في الكذب، حتى لُقب بالكذاب، لأن الكاذب لا يُفلح مهما زيّن كذبه بالسجع والتمويه.

- من علامات العقل والحكمة أن يقف الإنسان عند حدّه، وأما التطلّع إلى ما ليس له فهو سفه مهلك، كما جرّ مسيلمة إلى الردة واللعنة الأبدية.

فوائد دعوية

- من الحكمة في الدعوة أن تُظهر الرحمة في البداية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين استقبل الوفود ببشر وكرم، ثم يُظهر الحزم عند الحاجة، كما فعل مع مسيلمة لما بدرت منه نوايا الفساد.

- لا يصح أن يُترك أصحاب البدع ينشرون باطلهم دون بيانٍ ورد، فإن لم يردعهم البيان رُدّ عليهم بالسيف، وهذا ما حصل في قصة مسيلمة.

- البيان الواضح في الدعوة من أعظم ما يكشف الكذابين، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قولًا يفصل به في شأن مسيلمة حتى لا يُفتن به من لا يعلم.

- لا يُغتر بكثرة الأتباع حول الباطل، فإن الجهلة قد يتبعون الباطل إذا زُيّن لهم، كما حصل في أتباع مسيلمة، لذا فالمعيار هو الحق لا العدد.

- لدعوة لا تحتمل المجاملات في الأصول، ومن رأى من المدّعين طمعًا في ما ليس له، وجب عليه أن يصدع بالحق ويقطع السبيل على الكاذبين.

مخالفات الواقع

- انتشار فكرة أن كل من نطق بالشهادتين يُعامل معاملة المؤمن الكامل، دون نظر إلى معتقده وسيرته الظاهرة، كما يُفعل اليوم مع دعاة الزندقة المتسترين بالإسلام.

- تساهل كثير من الناس في تتبّع الكذابين والدجّالين الذين يدّعون الوحي والاتصال بالسماء، ويُروّجون ذلك باسم "الإلهام" أو "الرؤى"، مما يُمهّد لعودة فتن الكذابين في لباس جديد.

- تهاون بعض الدعاة في كشف أصحاب الأطماع الدنيوية الذين يدخلون في الدعوة ويتكلمون باسم الدين لهدف الوصول إلى السلطة، فيُتركون دون مساءلة حتى تُفسد دعوتهم العقول والقلوب.

- الانبهار بالشخصيات المؤثرة في الإعلام والدعوة، وإن كانت متناقضة العقيدة أو ظاهرة الكذب، بدعوى قبول الناس لهم أو انتشارهم، مما يشبه افتتان بعض الناس بمسيلمة.

- ترك الحزم في مواجهة من يتعدى على الثوابت الشرعية، والتساهل مع من يتكلم في النبوة أو الوحي باستهزاء أو سخرية، وهذا مخالف لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع مسيلمة.

- مسيلمة الكذاب من أوائل رموز **الفرق الباطنية الكذابة** التي استحلّت النبوة وقالت بالوحي بعد خاتم النبيين، ومثلهم اليوم أصحاب "الملهمين" و"المحدثين" الذين يدّعون تلقي الشرع منامًا أو إلهامًا.

الفقرة الثامنة: وفد طيء... حين انحنى المجد عند أعتاب النبوة

في عام الوفود، حين أخذت قلوب العرب تشدّ الرحال إلى المدينة المنورة، تضيء وجوههم بشائر الإسلام، وتهمس أرواحهم بأمل النجاة، قدم وفد من قبيلةٍ ذات حسبٍ وشرف، وفدٌ مهاب، يتقدّمه رجل يُضرب به المثل في الرجولة والفروسية، فارسٌ لا يُشق له غبار، ولا يُجارى في ميادين النزال، إنه زيد الخيل.

كان طويل القامة، مهيب الطلعة، يركب الفروسية كما يُركب السحاب، فإذا مضى في ساحة الوغى حسبه العدوّ جيشًا وحده، تتحدث عنه العرب في مجالسها، وتُنشد فيه الأشعار، وتُشيد بشجاعته الركبان.

فلما بلغ خبره النبي صلى الله عليه وسلم، قال" :ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيته دون ما قيل، إلا زيد الخيل، فإنه فوق ما يُقال ".رواه ابن سعد وغيره بإسناد حسن.

فلما دخل زيد المدينة، دخلها لا كفارس يبحث عن مجد، ولكن كروح تائهة وجدت ضالتها، وكقلبٍ عطش وجد ماء الحياة بين يدي نبي الرحمة.

استقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم، كما يستقبل النور القلوب المظلمة، وجلس إليهم، وبدأ يعظهم، بكلام لا يُشبه كلام البشر، بل يُشبه الوحي إذا نزل، يُحيي الأرواح كما تُحيي السماء الأرض بعد موتها.

فبكى الرجال، وخشعت القلوب، وتزلزلت صخور الكِبر في النفوس، فما كان من زيد إلا أن قال بلسان يفيض صدقًا:

"يا رسول الله، ما أحسن هذا الذي تدعو إليه! أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله".

ابتسم له النبي صلى الله عليه وسلم، وأمسك بتلك الروح التي كانت تبحث عن الحق وسط ضوضاء المجد والسيوف، وقال له:

"ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام، إلا رأيته دون ما وصف به، غيرك".

ثم وضع له اسمًا جديدًا، اسمًا يليق بالمرحلة الجديدة، التي ودّع فيها الجاهلية، وارتقى في مدارج الخير، فقال:

"أنت زيد الخير، لا زيد الخيل"!

لقد كان يُعرف بفارس الخيل، فأصبح فارس الخير، يُجاهد في سبيل الله لا في سبيل القبيلة، ويركض نحو الجنة لا نحو الغلبة.

ثم رفع النبي صلى الله عليه وسلم كفَّيه الطاهرتين، ودعا له دعاءً سكن في سجل الخالدين:

"اللهم اغفر لزيد الخير، اللهم اغفر لزيد الخير".

وكان من شدة صدقه، ومن عمق أثر الموعظة، أنه لما عاد إلى قومه، جعل يُناديهم إلى الإسلام بكل ما أوتي من حُجة وبلاغة، فما زال فيهم حتى أسلم أكثر قومه، ومات بعدها بزمن يسير، على الإيمان، مطمئنًا، وقد ختم الله له بخاتمة السعداء.

رحم الله زيدًا... ما أروع أن يُخلّد اسمك في دعاء نبي، وما أعظم أن يُغيّر الإسلام عنوانك من فارس الخيل إلى فارس الخير!

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الحق يُبدل ما في القلب ويهديه إلى الحق ولو بعد مجد الجاهلية، كما فعل الله بزيد رضي الله عنه حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يطلب الدنيا بل يطلب الحق.
- من دلائل النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم يُلهِم أن يُميّز بين من هو صادق في طلب الحق ومن يتظاهر به، كما ميّز بين زيد وغيره من العرب الذين جاءوه قبله.
- النبوة ليست مقامًا دنيويًّا يُقاس بمنزلة الفارس أو السيادة، بل مقامٌ ربّاني يهدي الله إليه من يشاء، فمن جاءه خاشعًا متجردًا قَبِله الله ورفع قدره.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم مستجاب، ومن نال منه دعاءً فهو من الفائزين، ودعاؤه لزيد: "اللهم اغفر لزيد الخير" هو شهادة صدق ورفعة.
- الدخول في الإسلام لا يُقصي المجد السابق إذا صَحّ الإيمان، بل يجعله وسيلة لرفع الدين ونصرة الحق، كما أصبح زيد بعد إسلامه داعيةً صادقًا إلى قومه.

فوائد فقهية

- تغيير الاسم لما هو خير وأحسن سنة نبوية، كما غيّر النبي صلى الله عليه وسلم اسم زيد من "الخيل" إلى "الخير"، لما في الاسم من أثر في النفس والمعنى.
- من السنة الترحيب بالوفود وإكرامهم وإظهار المحبة لهم، لا سيما إذا كانوا في طلب الحق، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي أحسن استقبالهم وبسط لهم الدعوة.

- الدعاء للأصحاب بظهر الغيب سنة نبوية عظيمة، وخاصة الدعاء بالمغفرة، وهو من الهدي الثابت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.
- البلاغ والدعوة إلى الإسلام فرض على كل من علم الحق، كما فعل زيد رضي الله عنه حين رجع إلى قومه فدعاهم للإسلام حتى أسلم أكثرهم.
- قبول توبة المشرك وجعل الإسلام يمحو ما قبله من خطايا أمر ثابت في الشريعة، فلا يُحاسب الداخل في الإسلام على ما كان منه في الجاهلية.

فوائد أخلاقية

- الحق إذا صادف قلبًا صادقًا أذعن له دون تردد، ولو كان صاحبه فارسًا مهابًا كزيد، فالخشوع ليس ضعفًا بل كمال رجولة.
- المسلم الصادق يُوظف مكانته ومجده السابق لنصرة دين الله، لا للكبر والعلو، كما فعل زيد حين دعا قومه بعد إسلامه بكل قوة وصدق.
- التواضع عند تلقي الموعظة صفة الصادقين، وزيد لما سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم بكى وأقرّ بالإسلام رغم عزة نفسه ومكانته بين العرب.
- من صفات النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يُثني على الناس بالحق، ويذكر فضلهم إذا ظهر إخلاصهم، كما قال في زيد: "فهو فوق ما يُقال."
- الصادق لا يرضى أن يكون مجده لنفسه فقط، بل يحرص على إيصال الخير لمن حوله، وهذا ما فعله زيد حين عاد لقومه يحمل رسالة الهداية.

فوائد دعوية وتربوية

- المدح إذا كان صادقًا وله أثر إيجابي في النفوس فهو أسلوب تربوي نبوي، كما أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على زيد ليشدّ من أزره ويرفع مكانته.
- الداعية الناجح هو من يبدأ بإصلاح نفسه ثم ينتقل إلى غيره، وزيد لم يكتفِ بإسلامه، بل بدأ فورًا بدعوة قومه، فكان مُصلحًا.
- التغيير يبدأ من القلوب، فإذا تغيّر القلب تغيّرت الأسماء والطباع والمقاصد، وهذا ما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم حين غيّر اسم زيد ليرسخ فيه المعنى الجديد.
- القدوة الصالحة تُلهم الناس، وزيد بعد أن أسلم صار قدوة لقومه، فأسلم أكثرهم ببركة صدقه ودعوته.
- الصدق في الطلب يُثمر الهداية، ومن أتى الله صادقًا بلّغه، ولهذا قال زيد: "يا رسول الله، ما أحسن هذا الذي تدعو إليه."

مخالفات الواقع

- كثير من أهل المجد الدنيوي اليوم يأنفون من الحق إذا جاءهم من غير طريق الجاه أو المنصب، فلا يخضعون له كما خضع زيد الخير.
- ضعف تأثير الموعظة في القلوب إلا من رحم الله، إذ أصبحت كثير من النفوس لا تبكي عند سماع الحق، ولا تتحرك عند موعظة القرآن.
- قلة من أهل الشهرة والمكانة يستعملون تأثيرهم في دعوة الناس إلى الله، بل يستعملونه غالبًا في ترويج الباطل أو حظوظ النفس.
- انتشار مظاهر الكِبر والزهو بالنفس حتى بعد الإسلام، فلا تُرى على كثير من المسلمين اليوم تلك الخشية والتواضع

التي ظهرت على زيد بعد إسلامه.

- قلة من الناس تُغيّر أهدافها بعد الهداية، فتبقى آثار الجاهلية في النفوس، عكس زيد الذي غيّر حتى اسمه ووجهته وسعيه. **في العام التاسع من الهجرة، أشرقت شمس الإسلام على ربوع الجزيرة، وبدأت القبائل تتقاطر إلى المدينة طائعة، بعد أن تبدّدت غياهب الشرك، وتكسّرت أصنام الجاهلية تحت سنابك الحق، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون.**

الفقرة التاسعة: حين زار النصارى مدينة النبوة... لقاء بين الحق والهوى

في سنة الوفود، حيث استقرت دعائم الدولة، وبلغت دعوة الإسلام الآفاق، طرق أبواب المدينة المنورة وفدٌ ليس كسائر الوفود، وفدٌ جاء من نجران جنوب جزيرة العرب، لا يطلب جاهًا ولا مالًا، بل جاء يحمل دينًا وعقيدة، ويبحث عن حوار، لكنه حوار عقيدة لا حوار مصالح، إنه **وفد نصارى نجران**.

كانوا نحو ستين رجلًا، على رأسهم ثلاثة من أعمدة قومهم، وزعماء ملّتهم: **العاقب وعبد المسيح، والأسقف أبو حارثة بن علقمة** .

هؤلاء لم يكونوا مجرد وجوه اجتماعية، بل كانوا فقهاء في دينهم، متبحّرين في اللاهوت، يقرأون التوراة والإنجيل، ويحفظون الأنساب والروايات.

دخلوا المسجد النبوي، لا تواضع في الملبس، ولا خشوع في الهيئة، بل كان لباسهم من حرير وديباج، يحمل زينة الدنيا، وكأنهم أرادوا أن يلبسوا مظهرهم مكان حُجّتهم. فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الهيئة، كره ذلك، فبعث إليهم من يُبلغهم أن يعودوا إلى بيوتهم، فيُبدلوا لباس الزينة بلباس الوقار.

ولما رجعوا وقد بدّلوا ما عليهم، وألقوا عن كواهلهم زينة الأجساد، أُذن لهم بالكلام، فدار في المسجد حوار عظيم، من أرقى ما شهدته الإنسانية في سجالات العقيدة والحق، حوار بين الوحي والعقل، بين النبوة والتقليد، بين نور الإسلام وظلال التحريف.

تحدّثوا عن **عيسى عليه السلام**، وأصرّوا على ألوهيته، فكان رد النبي صلى الله عليه وسلم لا من عنده، بل من عند الله، يتلو عليهم من آيات سورة آل عمران: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** *[آل عمران: ٥٩]*

فما كان عيسى عليه السلام إلا عبدًا كريمًا، خلقه الله بكلمته، كما خلق آدم من تراب، فمن جعل الخلق سببًا للألوهية، فقد ألّه آدم قبل عيسى!

لكنهم جادلوا، وحاجّوا، وتعنّتوا، رغم وضوح الحجة، وبيان الدليل، فأنزل الله أمرًا عجيبًا، اختبارًا للصدق، وإثباتًا لمن هو على الحق، فقال تعالى: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾** *[آل عمران: ٦١]*...

المباهلة! تلك السنة الربانية التي يُفصَل فيها النزاع بدعاء مَن هو على الحق أن ينزل الله لعنته على الكاذبين!

وقَبِل النبي صلى الله عليه وسلم التحدي، وخرج في مشهد لم تعرف البشرية له مثيلًا، إذ جاء حاملًا أقدس أهل الأرض: **الحسن والحسين** ريحانتيه، و**فاطمة** الزهراء قلبه، و**علي** ابن عمه وسيفه، يخرج بأحبّ الناس إليه، من صفوة أهل بيته، لا يخشى عليهم إلا إن كان على باطل، وهيهات!

فلما رأى النصارى ذلك الموقف، وتلك الهيبة، والوجوه التي تُشبه نور السماء، تردّدوا، وتراجعوا، وقالوا فيما بينهم : "والله إنكم لترون وجوهاً لو دَعَوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا".

فآثروا السلام على المباهلة، وطلبوا الصلح، ورضوا أن يدفعوا **الجزية**، على أن يُتركوا وما يعبدون، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم، وأقرّهم على ما هم عليه، لكن بعد أن زُلزلت قلوبهم بالحق، ولعلّ بعضهم عاد يُفكر فيما سمع، وتلك بداية الهداية.

وهكذا طوى وفد نجران صفحته في السيرة، لا بحرب ولا عنف، بل بحوار وعقل، وبرهان وقرآن، وبرحمة من نبيّ قال الله عنه} :**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**] {*الأنبياء: ١٠٧* [

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام هو الحق الذي أرسله الله ليُظهره على الدين كله، ودعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم دعوة ربانية يُؤيدها الوحي لا تتبع الأهواء أو المصالح.
- عقيدة التوحيد هي جوهر دعوة الأنبياء، وعيسى عليه السلام عبد لله ورسول، لا يجوز رفعه فوق منزلته كما فعل النصارى، الذين غلَوا فيه حتى عبدوه.
- القياس القرآني بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام يدل على بطلان دعوى ألوهية عيسى، لأن كليهما مخلوق بأمر الله، فالله وحده هو الخالق المتصرّف.
- المباهلة وسيلة ربانية للفصل في القضايا العقدية الكبرى، وهي لا تُطلب إلا حين يُكذّب الطرف الآخر بعد ظهور الحجة، دلالة على أن العقيدة الحقّة تُثبَت بصدق اليقين لا بكثرة الجدل.
- من أعظم دلائل صدق النبوة استعداد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُباهل بأحبّ الناس إليه، مما يدل على يقينه الكامل أنه على الحق.
- تقديم البرهان من الوحي، لا من مجرد العقل أو المجادلة، هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.

فوائد فقهية

- جواز عقد الصلح مع غير المسلمين إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين، دون الإقرار على باطلهم، مع أخذ الجزية ممن يُقرُّ على دينه.
- دخول أهل الكتاب لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم يدل على جواز دخول غير المسلم المسجد إذا لم يكن فيه امتهان، وكان لمصلحة شرعية كالحوار والدعوة.
- المباهلة ليست وسيلة دعوية عامة، بل هي وسيلة خاصة تُستخدم في مقام الحِجاج إذا قامت الحجة وتعنّت الخصم.
- من آداب المجلس الإسلامي أن يكون الحضور على هيئة الوقار والتواضع، فلباس الحرير والديباج والزينة في مقام النقاش الديني مرفوض.

فوائد أخلاقية

- من تواضع لله أكرمه، ومن تكبّر أذله الله، وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم لباس الوفد المزخرف لما فيه من تعالي.
- الحوار الذي يُبنى على احترام الطرف الآخر وإقامة الحجة لا يُفضي إلى نزاع، بل إلى إظهار الحق وتهذيب النفوس.
- الحق لا يحتاج إلى صراخ ولا إلى مظهر، بل يكفيه أن يُعرض بصدق، فالوجوه التي ظهرت في المباهلة كانت أصدق من ألف كلمة.

- اللين في دعوة المخالف، والرحمة في التعامل معهم، سمةٌ نبوية أثّرت في نفوس النصارى، فجعلتهم يتراجعون دون إكراه.

فوائد دعوية وتربوية

- موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران نموذج في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، دون أن يُفرّط في العقيدة أو يُساوم على الحق.
- النقاش العقائدي ينبغي أن يُبنى على العلم، لا على مجرد العاطفة أو التقاليد الموروثة.
- الثقة في الحق الذي يحمله الداعية تعطيه القوة في عرض دعوته، وهذا ما ظهر في استعداد النبي صلى الله عليه وسلم للمباهلة.
- الداعية الصادق لا يخشى النتائج لأنه يعتمد على الله، كما لم يتردد النبي صلى الله عليه وسلم في المباهلة وهو يعلم أنه على الحق.

مخالفات الواقع

- تراجع كثير من المسلمين اليوم عن عرض الإسلام بثقة، ويُقدّمونه وكأنه مجرد رأي ضمن الآراء، لا دين حق نزل من السماء.
- أصبح الحوار عند بعض المنتسبين للدعوة مائعًا، يُساير الباطل ولا يُقيم الحجة، بحجة التقارب والتسامح، ولو على حساب التوحيد.
- كثر اليوم من يُقدّم العقل على الوحي، فإذا تعارضت النصوص مع أفهامهم الفاسدة، تركوا النصوص واتبعوا الهوى.
- تهاون كثير من المسلمين في مسائل الولاء والبراء، فقبلوا بمصطلحات عقائدية فاسدة من غير المسلمين باسم التعايش، دون بيان الحق أو إظهار الباطل.
- تساهل الناس في مظاهر الترف والكِبر، وأصبحت الزينة والمظهر هي التي تُلفت النظر، ولو في مواضع يجب فيها التواضع والخشوع.

- تظهر عقيدة النصارى المنحرفة في تأليه المسيح عليه السلام، وهي مشابهة لما قالته **غلاة الصوفية** الذين رفعوا الأولياء إلى مقام الألوهية، وادعوا فيهم خصائص الرب، وهذا من الشرك الأكبر.

الفقرة العاشرة: وفد بني تميم... صوت البادية في حضرة النبوة

في العام التاسع للهجرة، كانت المدينة تغصّ بوفود العرب، تحمل في خطاها أسئلة الزمان، وتطلعات القبائل، وأشواق القلوب إلى نور النبوة.

ومن قلب البادية، جاء وفد بني تميم، قبيلة الخطباء والشعراء، أهل الفصاحة والمفاخرة، يحملهم الكِبْر القبلي كما تحمل الريحُ الغبار في هجير الصحراء.

برز من بينهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم، وجاؤوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن مفاخرهم ومكانتهم بين العرب.

وصلوا إلى المدينة فلم يعرفوا أدب الخطاب، ولا مهابة مقام النبوة، فوقفوا عند حجرات النبي صلى الله عليه وسلم ونادوا بأصوات مرتفعة"**:يا محمد، اخرج إلينا "!**فنزل القرآن يؤدبهم، ويربيهم، ويضع لهم ميزان الأدب قبل العلم، فقال عز من قائل :**﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]**

جلسوا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وطلبوا أن يُؤذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب، يمدح قومه بفصاحة ورصانة، ثم أنشد الزبرقان بن بدر أبياتًا تتغنّى بمجد تميم، وتفاخر العرب.

فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثابت بن قيس، خطيبه المفوَّه، وقال :**قم فأجب الرجل".**
فقام ثابت، فكأنما نزلت على لسانه سحائب البيان، فردَّ الرد البليغ، وأعاد الميزان إلى نصابه، ثم أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى شاعر الدعوة، حسان بن ثابت، فقام ينشد من الشعر ما هزّ القلوب، وأدهش الأسماع، فأيقن بنو تميم أنهم بين يدي رجلٍ مؤيَّد من السماء، خَطِيبُه أفصح، وشاعرُه أبلغ، وبيانُه أسمى من أن يُجارى.

حينها، سكنت نفوسهم، وخشعت قلوبهم، وأسلموا عن قناعة، وقد تيقنوا أن النبوة ليست فخرًا قبليًا، بل نورٌ ربانيٌّ يُهدي به الله من يشاء.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بالنبوة ليس مبنيًّا على مظاهر الفخر القبلي أو البيان البلاغي، بل على ما يؤيّد به الله نبيه صلى الله عليه وسلم من دلائل النبوة وعلامات الصدق.
- عظمة مقام النبي صلى الله عليه وسلم تستوجب الأدب والتوقير، مما يدل على أن احترام النبي صلى الله عليه وسلم من كمال الإيمان.
- نزول الوحي لتأديب بني تميم يدل على أن العقيدة تُؤخذ عن الله، وأن القرآن مصدر التربية والهداية، لا الأعراف القبلية أو الثقافات البشرية.
- خضوع بني تميم بعد بيان الحجة يؤكد أن القلوب مفطورة على معرفة الحق متى تجردت من الهوى، وأن الهداية بيد الله.
- إسناد الخطابة والرد إلى ثابت بن قيس، وإنشاد الشعر من حسان بن ثابت، ثم إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لهم، يدل على أن من دلائل صدق النبوة التوافق بين الوحي والواقع، والعجز عن معارضته لا في القرآن ولا في رجاله.

فوائد فقهية

- يؤخذ من القصة أن صوت الإنسان ينبغي أن يكون خفيضًا عند العالم والإمام، خاصة في حضرة من له الفضل والمكانة، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم؟! وهذا أصل في أدب المجالس.
- في القصة دليل على جواز التحدث بين المسلمين بالمدح المباح والأنساب من غير كِبر ولا مبالغة، إذا كان في سياق مشروع ولم يتضمن باطلًا.
- يُستفاد جواز المفاخرة في ميدان الحق لرد اعتداء أهل الباطل إذا لم تكن بغرور أو عصبية، بل بحكمة وإظهار فضل أهل الإيمان.

- في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لخطباء المسلمين على الرد الفصيح، وتقديمه خطيبًا ثم شاعرًا، ما يدل على ترتيب الوسائل بحسب الحال: أولًا بالحجة، ثم بالعاطفة، ثم بالدعوة.

- إسلامهم بعد الخطاب والرد يُفهم منه أن من مداخل الدعوة تبيين فضل أهل الإسلام في أخلاقهم وعلمهم، وليس فقط في النقل المجرد، بل بجمال الأسلوب وحسن العرض.

فوائد أخلاقية

- الرفع بالصوت أمام الكبار والعلماء، وخاصة النبي صلى الله عليه وسلم، خلق مذموم، ومن علامات قلة العقل والأدب.

- التمادي في الفخر القبلي من دون اعتبار للحق والحكمة يؤدي إلى التكبر والتعصب ورفض الحق.

- البلاغة الحقيقية ليست في مدح النفس بل في نصرة الحق، وهذا ما فعله ثابت بن قيس رضي الله عنه حين خاطبهم بأدب وبيان، لا بكِبر ولا هجاء.

- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم حين أذن لهم بالكلام، واستمع إليهم رغم جهلهم، يدل على عظمة خُلقه وصبره على الناس.

- الإقناع لا يكون أبدًا بالصراخ أو المظاهر، وإنما بالحجة والبيان والرفق، وهو ما غيّر قلوب بني تميم حتى أسلموا.

فوائد دعوية

- الدعوة إلى الله تحتاج إلى تقديم الأدب على البيان، والسكينة على الفصاحة، لأن التأثير القلبي لا يحدث إلا إذا هُيئت له النفوس بالاحترام.

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخدم أعوانه في البلاغ، ويُظهر فضائل أصحابه، مما يُفيد في العمل الجماعي والتخصص في ميادين الدعوة: فخطيب يرد، وشاعر يُعبّر، وقائد يوجّه.

- الرد على الباطل ينبغي أن يكون متزنًا، لا يساوي بين الحق والباطل، ولا يسلك نفس أسلوب المتكبرين، بل يعرض الحق في أبهى صورة.

- الإسلام يعلو بالحجة لا بالغلبة، وينتصر في ميادين البيان كما ينتصر في ميادين القتال، لأن نصر الله يشمل كلاهما إذا صح القصد.

- الداعية ينبغي أن يتحلى بالحلم أمام الجهل، ولا يغلق أبواب القلوب حتى مع من يخطئون في الطريقة، فقد يكون وراء الجفاء قلوب مهيأة للحق.

مخالفات الواقع

- في واقع الناس اليوم من يرفعون أصواتهم فوق صوت أهل العلم والدعوة، ويستهينون بمكانة العلماء والفضلاء، متذرعين بحرية التعبير، وهو مشابه لنداء بني تميم الجهلي.

- كثير من الناس يظنون أن الفخر بالقبيلة أو النسب أو المال يُعطيهم وزنًا في الدين أو يرفع منزلتهم عند الله، وهذا عين ما وقع فيه بنو تميم قبل أن يُؤدَّبوا بالوحي.

- ضعف أدب الخطاب بين الناس اليوم في المجالس وعلى المنصات يُخالف أدب الإسلام في تقديم التوقير والأدب على كل شيء، خاصة في مجالس العلم والدين.

- بعض الدعاة اليوم يردّون على المخالفين بانفعال وتهكّم، بدل أن يُظهروا قوة الحق بهدوء وبيان كما فعل ثابت وحسان رضي الله عنهما.

- من الناس من لا يتأثر بالبيان والدعوة إلا إذا قُدّم بأسلوب مؤثر وجاذب، ومع ذلك يقصر كثير من الدعاة في تحسين أدواتهم الخطابية والبلاغية، بخلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في حسن العرض واختيار الأنسب.

الفقرة الحادية عشرة: ضِمام بن ثعلبة... سفير الصحراء الباحث عن الحق

جاء العام التاسع للهجرة، وبدأت القبائل تفِد إلى طيبة الطاهرة، تستمع للقرآن من فم رسوله صلى الله عليه وسلم، وتستنير بأنوار النبوة.
ومن بين تلك القبائل، جاءت قبيلة **بني سعد بن بكر**، القبيلة التي أرضعت سيد البشر، والتي حملت له في الذاكرة حليب الطهر، ونسيم البرية.

لم يكن على رأس الوفد زعيم قبلي، ولا شاعر خطيب، بل رجل واحد، جسّد الصدق في أعظم معانيه، اسمه **ضِمام بن ثعلبة**.
ركب ناقته، وقطع مفاوز الصحراء، لا يحمله طمع، ولا تسبق خطاه شبهة، إنما جاء يبحث عن اليقين.

دخل المدينة، وأناخ ناقته على باب المسجد، ثم خطا خطواته إلى الداخل، وسأل بلهجة أعرابية خشنة، دون تكلّف: **"أيكم محمد؟** "فأشار له الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا" :**هذا الرجل الأبيض المتكئ".**

تقدّم ضِمام بثبات، وقال" :**يا ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك".**
فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم، وقال" :**سل عما بدا لك".**

فبدأ ضِمام يسأل، سؤال الباحث لا المجادل، سؤال الصادق الذي يريد أن يهتدي:

أنشدك بالله، آلله أمرك أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا؟ "فقال النبي" :**اللهم نعم**" وأن نترك ما كان يعبد آباؤنا؟"
اللهم نعم وأن نصلي الصلوات الخمس؟" اللهم نعم" وأن نصوم رمضان؟" اللهم نعم" وأن نؤتي الزكاة؟"
اللهم نعم" .وأن نحج البيت؟ اللهم نعم". وحين فرغ من أسئلته، قال ضِمام بكلمات كأنها إعلان نوراني في صمت الصحراء" :**آمنت بما جئتَ به، وأنا رسولٌ من ورائي من قومي، وأنا ضِمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر".**

ثم استدار راجعًا، كما جاء، لا يريد دنيا ولا منصبًا، فقط يحمل في قلبه نورًا وفي فمه دعوة.
وما إن مضى يومان، حتى أسلمت قبيلته بأسرها، فكان ضِمام وحده أمة في رجل، وداعية سبق زمانه، صدق فصدّقه الله.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- وجوب عبادة الله وحده لا شريك له وترك الشرك كله، وهذا أصل دعوة الرسل، وقد أكّده النبي صلى الله عليه وسلم لضِمام في جوابه المكرّر "اللهم نعم."
- صحة إسلام المرء إذا نطق بالشهادتين وأقرّ بأركان الإسلام، ولو لم يُطل البحث والكلام، إذ العبرة بتحقيق أصل الدين لا بكثرة الجدال.
- الإيمان الحق هو ما وافق الوحي وجاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، لا ما اعتاده الناس أو ورثوه عن الآباء.

الإقرار ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتصديقه فيما جاء به، هو مدخل النجاة ومنهج الاتباع الحق، لا ما تقرره الأهواء أو المذاهب البشرية.

- الإيمان يتضمّن التصديق والانقياد، فقول ضِمام "آمنت بما جئت به" كان قولًا نابعًا من يقين واتباع، وليس مجرد تصديق نظري.

فوائد فقهية:

- بيان أركان الإسلام الخمسة كما جاءت في حديث ضِمام: التوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، مما يدل على أنها أصول العمل الظاهر.
- جواز السؤال عن المسائل الشرعية ولو بتعبير غير مهذب أو غير متكلف، إذا كان صاحبه صادق النية، وقد أجاز النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لضِمام.
- يجوز للعالم أن يتألف قلب السائل وأن يتجاوز عن خشونة الأعراب في السؤال إذا علم صدقهم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بابتسامه لضِمام.
- من أسلم على هذا الوجه الموجز وأقرّ بالأركان وصدق النبي صلى الله عليه وسلم، صحّ إسلامه، ولا يشترط الدخول في تفاصيل الأحكام ابتداء.
- يجوز للرجل أن يكون رسولًا إلى قومه في تبليغ الدعوة إذا فهم أصل الدين وثبت إيمانه، كما فعل ضِمام حين قال: "وأنا رسول من ورائي من قومي."

فوائد أخلاقية:

- الصدق في الطلب، والجد في الوصول إلى الحق، من أعظم أخلاق طالب الهداية، وقد مثّله ضِمام أصدق تمثيل.
- ترك التكلف والتصنع في الحديث من صفات من يريد الحق، وقد كان ضِمام يتحدث بعفوية ووضوح، فكان ذلك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- التواضع في السؤال والاعتراف بعدم المعرفة، خلق عظيم يفتح أبواب العلم، وقد فعله ضِمام في حضرة النبوة.
- الإخلاص في النية يجعل من الإنسان فردًا بأمة، كما كان ضِمام في دعوته لقومه، فلم يُرد مالًا ولا شهرة بل هداية.
- المبادرة في الدعوة بعد العلم، من دلائل صدق الإيمان، فإن ضِمام ما كاد يتيقن حتى رجع إلى قومه مبلغًا غير متردد.

فوائد دعوية:

- على الداعية أن يكون واضحًا مباشرًا، لا يلتف في الكلام، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع ضِمام.
- التأني في الحوار وإعطاء السائل فرصة ليُفرغ ما عنده، منهج نبوي في إيصال الحق، لا العجلة والقطع.
- الدعوة لا تحتاج إلى كثرة الوسائل إن وُجد الصدق، فبكلمة واحدة من رجل صدوق دخلت قبيلة كاملة في الإسلام.
- البداءة بتصحيح العقيدة قبل أي عمل من أولويات الداعية، فقد ابتدأ ضِمام بالسؤال عن التوحيد وعبادة الله وحده.
- بيان بساطة الإسلام وسهولة الدخول فيه، يُحبّب الناس في الدين، ويرد على دعاوى التعقيد والتنفير.

مخالفات الواقع:

- غلبة الجدال العقيم اليوم عند كثير من المتعلمين، وطلب الشهرة بالأسئلة الغريبة، لا بهدف الوصول للحق كما فعل ضِمام.
- عدم احترام بعض طلاب العلم للأدب مع العلماء أو الشيوخ، ومع ذلك لا يجدون حلمًا كحلم النبي صلى الله عليه وسلم، فينفرون من الدين.
- انتشار الطمع في الدنيا عند بعض من يتصدر للدعوة، وطلب الجاه والمنصب، بخلاف ضِمام الذي رجع دون طلب شيء من ذلك.
- ضعف المبادرة في الدعوة عند كثير من المسلمين اليوم، فقد يتعلم أحدهم السنة سنين طويلة ولا يُبلّغ بها أهل بيته، بخلاف ضِمام.
- التكلف في الحديث والتصنع في الدعوة، حتى صارت الأقوال مزوّقة والأفعال مخالفة، بينما كان ضِمام صادقًا، واضحًا، مباشرًا.

الفقرة الثانية عشرة: وفد بني عُذرة... شهامة النسب، وصدق الإيمان

في أواخر العام التاسع للهجرة، ذلك العام الذي سُمّي بعام الوفود، حينما أشرقت شمس الإسلام على كل بقعة في جزيرة العرب، وتوافدت القبائل إلى المدينة المنورة طائعة مختارة، تحمل في قلوبها لوعة السؤال، وفي أعين رجالها بريقُ

الرجاء، قد حنّت أفئدتهم إلى نور الوحي، واشتاقت أرواحهم إلى الوقوف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك النبي الذي غيّر الله به مجرى التاريخ، ونقل البشرية من الظلمات إلى النور بإذن ربها.

وفي تلك الأيام، قدم وفد بني عُذرة، تلك القبيلة العريقة التي امتزج فيها المجد بالنسب، والقوة بالشرف، والتي يرجع نسبها إلى قضاعة، أحد بطون العرب القوية القديمة. ما كان وفودهم إلى المدينة مجرد لقاء عابر، بل كان موعدًا مع التحوُّل، وميلادًا لحياة جديدة في ظلال الإيمان.

قدم الوفد المبارك، وكان عددهم اثني عشر رجلًا من خيار قومهم، يتقدمهم جمرة بن النعمان العُذري، حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فأسرهم وقارُه، وخَفَرَه، وضياءُ وجهه، الذي من رآه علم أنه ليس بوجه كذّاب. فما إن سمعوا آيات الذكر الحكيم تتلى، وما إن أصغَوا إلى بيانه العذب، حتى خشعت القلوب، وسكنت النفوس، واستيقظت فطرهم تبحث عن الحق، فآمنوا بالله ربًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، وبالإسلام دينًا ومنهجًا. فأسلموا عن صدق ويقين، وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الطاعة والنصرة، فكتب لهم كتابًا يُثبت إسلامهم ويُكرم وفادتهم، وأوصى بهم خيرًا، وأثنى عليهم بما فيهم من شهامة الرجال، وصدق النية، وصفاء القلوب.

وقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عنهم، كما عند الإمام أحمد" :بنو عُذرة من خير قبائل العرب"، ولم يكن مدحه صلى الله عليه وسلم لهم مبالغة، بل كان وصفًا نابعًا من بصيرته النبوية، فهو صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى.

كان إسلام بني عذرة إسلام صدقٍ لا يعرف الرياء، وإيمانًا لا تشوبه شائبة التقليد أو المجاراة، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم :﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]
فلما رجعوا إلى ديارهم، لم يرجعوا كما جاؤوا، بل عادوا دعاةً إلى الله، يحملون مشعل النور إلى قبائلهم، وينشرون دعوة التوحيد في أرجاء قومهم، حتى شاع الإسلام بينهم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فعدّت قبيلتهم من أوائل القبائل القضاعية إيمانًا واستجابة.

هكذا دخلت بنو عُذرة إلى الإسلام، لا عن رغبة في مال، ولا طمع في جاه، بل عن بصيرةٍ ويقين، فصدقوا الله فصدقهم، وأكرمهم بخير الدين، ونالوا بذلك وسامًا خالدًا من رسول الله صلّى الله عليه وسلم، أن كانوا من خير قبائل العرب.

. الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام هو النور الذي أخرَج الله به البشرية من الظلمات إلى النور، وهذا النور لا يُنال إلا باتباع الوحي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم.
- من دلائل صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يظهر على وجهه من الوقار والنور، وما انطوت عليه نفسه من الصدق، حتى أن من رآه علم أنه ليس بوجه كذاب.
- الحق الذي جاء به الإسلام يوافق الفطرة، فإذا خلا القلب من الأهواء استجاب للحق كما استجابت قلوب وفد بني عذرة.
- الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وإنما هو مبلغ للوحي، وهذا أصل عظيم في العقيدة يتعلق بعصمته فيما يبلغ عن ربه.
- الإيمان الحق هو ما كان نابعًا من اليقين، خاليًا من الريبة والشك، كما وصف الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.
- الدعوة إلى الله بعد الإيمان من لوازم العقيدة الصادقة، وهو مما يثبّت الإيمان ويُثمر الهداية لغيرهم.

فوائد فقهية

◆مشروعية كتابة الكتب للوفود والداخلين في الإسلام، تثبيتًا لإسلامهم، وتوثيقًا لعهدهم، وهذا أصل في التوثيق الشرعي.

◆بيعة الوفد للنبي صلى الله عليه وسلم على الطاعة والنصرة دليل على أن من لوازم الإسلام الالتزام بشرع الله ونصرته.

◆حسن الوفادة والإكرام للداخلين في الإسلام أمر مسنون، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بوفد بني عذرة خيرًا.

◆مدح المسلم إذا كان فيه خير، وإظهار فضله، لا حرج فيه، إذا كان ذلك بحق ومنضبطًا، كما مدح النبي صلى الله عليه وسلم بني عذرة.

فوائد أخلاقية

◆شهامة النسب وعلو الحسب لا تغني شيئًا إن لم تقترن بصدق الإيمان، وقد جمع بنو عذرة بين المكرمة الخُلقية والإسلام الصادق.

◆الخشوع عند سماع القرآن وتلاوته من دلائل صدق القلب واستعداده لقبول الحق.

◆التجرد من التقاليد القبلية والعصبيات، والبحث عن الحق دون تعصب، من أعظم مظاهر طهارة النفس

◆التحول من مجرد زائر إلى داعية بعد الإسلام يدل على صدق العزيمة والغيرة على الدين.

◆ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على صفاء قلوبهم وصدق نيتهم أصل في مدح هذه الأخلاق وتقديمها.

فوائد متنوعة

◆ عام الوفود كان محطة حاسمة في نشر الإسلام وبلوغه الآفاق، ودخول القبائل فيه طوعًا لا كرهًا، مما يدل على انتشار الدعوة بالحكمة.

◆ قبيلة بني عذرة كانت من أوائل القبائل القضاعية التي استجابت للإسلام، فدلّ على سرعة انتشار الإسلام بين القبائل بعد ثبوت الحجة.

◆إسلام بني عذرة كان تحولًا حضاريًا، إذ دخلوا في الإسلام من غير رهبة سيف أو طمع في دنيا، بل عن قناعة وبصيرة.

◆مجيء الوفود إلى المدينة يثبت أن المدينة كانت هي مركز الدعوة والإشعاع، وهذا من دلائل عظمة الدولة النبوية.

مخالفات الواقع

◆كثير من الناس اليوم يدخل في الإسلام أو يلتزم بالطاعة لغايات دنيوية، كالمنفعة أو الشهرة أو الظهور، بخلاف ما كان عليه بنو عذرة من صدق الإيمان.

◆نجد اليوم من يتصدر في الدعوة وهو لم يتلقَّ العلم ولا عرف حقيقة الدين، بينما وفد بني عذرة عادوا دعاة بعد تلقيهم الحق عن النبي صلى الله عليه وسلم.

◆قلة من المسلمين اليوم من يحمل مشعل الدعوة في أهله وقبيلته، بخلاف وفد بني عذرة الذين عادوا دعاةً وناشرين للتوحيد.

◆بعض الناس يظنون أن المدح لا يكون إلا لأهل الشهرة أو المال، بينما النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على الوفد لصدقهم ونقاء قلوبهم.

◆النفور من سماع القرآن عند كثير من الناس اليوم، بخلاف هؤلاء الذين خشعت قلوبهم حين سمعوا آيات الذكر الحكيم.

الفقرة الثالثة وفد جهينة... السهولة في الطريق، والصدق في الطلب

في صحراء العرب الشاسعة، وبين شعابها ومضاربها، استقرّت قبيلة **جهينة**، تلك القبيلة التي نبغت فيهم الفروسية، وعُرفوا بالنجدة، وتميّزوا بثباتهم وشدة بأسهم، لكن ما إن أشرقت شمس الإسلام، وأخذ النور يزحف من المدينة المنورة حتى أطراف الحجاز، حتى هبّت النفوس الطيبة تبحث عن الحق، وترتحل إلى منبع الهدى، وما أشرفه من سفر، وما أطيبه من مطلب!

وفي السنة التاسعة من الهجرة، عام الوفود، حين دانت الجزيرة بأكملها لدين الله، وتوافدت القبائل من كل فجٍّ عميق، تحمل في أكفّها بيعةً، وفي قلوبها توقًا إلى الإيمان، جاء **وفد جهينة**، يحملون في وجوههم صدقًا، وفي أعينهم تواضعًا، وفي قلوبهم صفاءً وحنينًا إلى الوحي، يرأسهم رجل من خيارهم، هو **عبد الله بن عوف الجهني**، أحد الصحابة الذين نُقل عنهم حديث نبوي شريف، فكان لوفدهم شأن، ولكلماتهم وقع في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

دخلوا على الحبيب صلى الله عليه وسلم، فاستقبلهم بوجهه الطاهر، الذي كان إذا تبسّم أضاء المكان، فاستبشر بهم، وفرح بقدومهم، وأكرمهم، وأوسع لهم مجلسه، ثم دعا لهم بخير، وضرب لهم مثالًا في اللين، والرفق، والرحمة، كما قال رب العزة في وصف نبيه :﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ [**آل عمران: ١٥٩**].

ولكنّ العجب كل العجب، مما نُقل عنهم حين وقفوا بين يديه صلى الله عليه وسلم، فما اشترطوا، وما طلبوا مالًا، ولا مناصب، ولا شروطًا كما فعلت بعض الوفود، بل أقبلوا بقلوب مفتوحة، ونفوس خاشعة، وقالوا بكل صدقٍ وتجرد:
"جئناك يا رسول الله، لا نُشترط عليك شيئًا، إنما نسألك أن تدعو لنا بالهداية"!

الله أكبر! ما أصدقها من كلمات! وما أطهرها من نية! جاؤوا يطلبون ما لا يطلبه إلا من عرف قيمة الدين، فدلّ ذلك على فطرة سليمة، وعقل راجح، ويقين ناصع، وصدق طلب، فكانوا من أيسر الوفود وأحبها إلى قلبه صلى الله عليه وسلم.

فأيّ وفدٍ هذا؟ !وفد جاء لا يريد إلا الهداية!
وفدٌ اختصر الدنيا كلها في دعاء واحد يخرج من فم النبي صلى الله عليه وسلم!

لقد جسّد وفد جهينة قوله تعالى :﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾ [**المائدة: ١٦**]،
فاستحقوا أن يسلكوا سبل السلام، ويغنموا خيري الدنيا والآخرة.

ثم لم يكن إسلامهم تقليدًا ولا خجلًا، بل عن بصيرة ويقين، فتعلموا، وتفقهوا، وحملوا الدين إلى قومهم، فانتشر الإسلام في ربوعهم، وكانت جهينة من القبائل التي حافظت على العهد، وثبتت على الإسلام بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تُعرف عنهم ردة ولا تمرد، بل وفاء وصدق.

ومن بعد تلك الوفادة، وُلد في قلوبهم نور جديد، ومجدٌ آخر، لا يُقاس بالحسب ولا النسب، بل بشرف الإيمان، ووسام الدعوة، حتى كان منهم لاحقًا جموع من أهل الجهاد والفتوحات، وكان فيهم الخطباء، والدعاة، وحملة القرآن.

فطوبى لوفدٍ دخل التاريخ من باب الصدق، وطوبى لقلوبٍ قدّمت الهداية على كل شيء، فهداها الله، وجعلها ممدوحةً في الدنيا، مرجوّةً في الآخرة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين يُطلب للهداية فيه لا لمطامع الدنيا، ومن صدق في طلبه لله، هداه الله ورفع قدره في الدنيا والآخرة.

- الهداية من أعظم النعم التي يُسأل الله إياها، وهي أعظم من المال والجاه، ولهذا كان دعاء جهينة للهداية من دلائل معرفتهم بحق الله وتعظيمهم لدينه.

- النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، فمدحه ودعاؤه لقبيلةٍ ما شهادةٌ شرعية تُبيّن فضلهم وصدقهم، لأن قوله حقٌّ ووحيٌ من عند الله.

- الوفاء بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم علامةٌ على الإيمان الصادق، ومن لوازم تصديق النبوة ودوام الإخلاص لله عز وجل، بخلاف من ارتد بعده صلى الله عليه وسلم.

- المدح النبوي لجهينة وطلبهم الهداية يدل على صلاح الفطرة، وأن الفطرة النقية تميل إلى التوحيد وتطلب رضا الله، وتُعرض عن زخارف الدنيا.

- صدق الطلب، وصفاء النية، وإخلاص الوجهة لله وحده، هي من أعظم ما يُرجى به سلوك سبيل السلام الموصوف في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

فوائد فقهية

- الوفادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم للتعلم والتفقه والدخول في الإسلام سنة ماضية، وتُستفاد منها مشروعية طلب العلم والسفر لأجله.

- تُستحب الدعوة بالخير للمسلمين، كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم لقبيلة جهينة بالمدح والمغفرة، مما يدل على أن من له فضل يستحب الإشادة به والدعاء له.

- يُفهم من مدح النبي صلى الله عليه وسلم لقبائل معينة أن المفاضلة بين الناس في الإسلام تكون بالتقوى والعمل، لا فقط بالنسب، وإن اجتمع النسب مع الإيمان كان ذلك فضلاً مضاعفًا.

- تُظهر القصة أن عدم اشتراط الناس في بيعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم دليلٌ على صحة البيعة، وأن الأصل في الدخول في الدين أن يكون عن طواعية، لا عن مساومة.

فوائد أخلاقية

- أدب الدخول على النبي صلى الله عليه وسلم، والتواضع بين يديه، مما يُنبئ عن صفاء القلوب، وهو من الأخلاق التي كانت سببًا في نيلهم دعاء النبي ومدحه.

- الزهد في الدنيا، وترك الاشتراط، وحصر الطلب في الهداية، من دلائل طهارة النفس وشرف المقصد، وهو خلق عزيز في زمن الماديات.

- الوفاء بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وثباتهم على الإسلام دون تردد أو ارتداد، خلق نبيل يدل على الإخلاص والصدق والرجولة.

- حُسن الظن، والانقياد، والرضا، والطلب بلين، كلها أخلاق ظهرت في هذا الوفد، فكانت سببًا في حب النبي صلى الله عليه وسلم لهم.

فوائد دعوية وتربوية

- من صور الدعوة الحكيمة أن تُقابل الوفادة والتقرب باللين والرفق، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك مفتاح للقلوب وتأليف للنفوس.

- التاريخ الإسلامي سجل لمن صدق وثبت، فهو يُكرم من عمل، ولا يلتفت إلى الادعاءات، ولهذا بقي ذكر جهينة مخلدًا لما حملوه من صدق في الطلب، ووفاء في العهد.

- التربية على الإخلاص في الطلب، وتقديم الهداية على متاع الدنيا، تزرع في النفوس تعظيم الدين، وهذا هو الأساس في بناء المؤمن الرباني.

- من أسس التمكين للدين: صدق الطلب، وصفاء القلب، والبذل في سبيل نشره، كما فعل وفد جهينة حين عادوا دعاة بعد أن وفدوا طلاب هداية.

مخالفات الواقع

- كثرة من يطلبون العلم أو يتقربون إلى الدين لأغراض دنيوية؛ من شهرة، أو منصب، أو مال، فيخالفون صدق وفد جهينة الذي لم يطلب إلا الهداية.

- ضعف صدق الطلب عند كثير من طلاب الدين اليوم، فيطلبون الفتوى لما يُناسب أهواءهم، لا لما يُرضي الله، بخلاف وفد جهينة الذين جاؤوا بلا شرط، وطلبوا الهداية فقط.

- انتشار اشتراط الناس للمنافع عند الدخول في العمل الدعوي أو الإسلامي، وقلّ أن ترى من يعمل لله خالصًا لا يُريد جزاءً ولا شكورًا.

- غياب خلق الوفاء بالعهد والثبات على الإسلام عند كثيرين، ممن ارتدوا عن الثوابت في أزمات العصر، أو باعوا دينهم بدنيا غيرهم، على خلاف وفد جهينة الذين ثبتوا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

- ضعف تربية الناس على قيمة الهداية كأعظم مطلب، وانشغالهم عنها بمطالب دنيوية زائلة، حتى لم تعد الهداية في قائمة طموحاتهم وأدعيتهم.

الفقرة الرابعة: وفد غامد... نور على نور

في عام الوفود، ذلك العام الذي تكسّرت فيه أصنام الجاهلية، وتهاوت فيه رايات العصبية، وانطلقت فيه القلوب تبحث عن الحق كما يبحث الظمآن عن الماء، كانت قبيلة غامد من أولئك السعداء الذين أسرعوا إلى النور بلا تردد، وأقبلوا إلى المدينة المنورة بخطى المتواضعين، وقلوب المنيبين، جاءوا يطلبون الهداية لا الرفعة، ويرجون الحق لا الدنيا.

قدم وفد غامد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي مقدمتهم عبد الله بن عوسجة الغامدي، رجل من خيرة القوم، يحمل في قلبه نور الفطرة، وفي عينيه أثر الإيمان، ومعه رجال من خيار القبيلة، ما خُدعوا بزيف الدنيا، ولا غرّهم سلطان القبائل، بل صدحوا بكلمة الحق:
جئناك يا رسول الله بالإسلام راغبين، لا مشروطين ولا مترددين.

فلما بلغوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكرمهم النبي الكريم، وبشّ في وجوههم، وفرح بمقدمهم، واستقبلهم كما يستقبل الأب أبناءه، والمعلّم طلابه، وأجلسهم في مجلسه، وسمع حديثهم، ورأى في وجوههم الصدق، وفي هيئتهم السكينة.

فدعا لهم بخير، وبايعوه على الإسلام بيعة طاهرة، لا تخالطها شبهة ولا ريبة، ثم أرسل معهم من يعلمهم الدين، وأوصاهم بالصلاة والزكاة، والدعوة في ديارهم، فهم رسل إلى قومهم، كما قال له ربه:﴿ادْعُ إِلِىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]،
وكما أوصى أصحابه دومًا بقوله":بلغوا عني ولو آية."

ومن جميل ما وُصف به وفد غامد، أنهم لم يكونوا كغيرهم من الوفود الذين جاؤوا بعقول التجارة، وقلوب التردد، يطلبون الأمان مقابل الإسلام، أو يعرضون شروطهم قبل التسليم، بل جاؤوا طائعين، بلا قيد، مستسلمين بلا شرط، فكانوا مثالًا نادرًا للصدق، ورمزًا من رموز الانقياد.

جاؤوا يحملون في صدورهم قول الله تعالى:﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]،فثبتهم الله، وأكرمهم، وكان لهم في الهداية نصيب عظيم.

وما أعظم أن يكون الوفد بلا شرط، والبيعة بلا تردد، والطلب بلا دنيا !فذاك هو الإسلام حين يملأ القلب قبل اللسان، ويُطاع قبل أن يُطلب له ثمن.

لقد دخل وفد غامد إلى المدينة في زمن الغلبة، لكنه خرج منها بالإيمان، والعلم، والدعوة، والصدق، فكانوا من أولئك الذين حملوا الأمانة، ونقلوا الرسالة، وتركوا في ديارهم أثرًا لا يُمحى.

فطوبى لغامد، وطوبى لمن سار على خُطاهم، ممن فهموا أن أعظم ما يُطلب من نبيّ الهدى هو:
"الهداية لا الهبات، والحق لا الحطام".

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الوفود الصادقة في طلب الهداية، كوفد غامد، هم مثال حي على تحقيق التوحيد وتجريد العبادة لله وحده، فهم لم يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم دنيا ولا مناصب، بل أقبلوا راغبين في الإسلام، فدلّ ذلك على صدق التوجه إلى الله، وتجردهم من شوائب الشرك والرياء.
- الانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم دون شرط أو تردد هو من دلائل الإيمان الحق، إذ أن الإيمان يقتضي التسليم الكامل للنبي صلى الله عليه وسلم قولًا وطاعة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥.]
- دعاء المؤمن بالثبات وعدم الزيغ بعد الهداية، كما ورد في قولهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، من علامات سلامة العقيدة، وخوف المؤمن من الانحراف والردة، وهو أدب قلبي عظيم ينبغي التخلّق به.
- اتباع الوفود المنيبة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير اشتراط، هو من أصدق مظاهر التصديق بالوحي، والانقياد للغيب، وتقديم الشرع على الهوى.
- النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد مرشد دنيوي، بل رسول رباني يُطلب منه الدعاء والهداية، فكان طلبهم منه الهداية طلبًا لما لا يُطلب إلا من رسول مرسل، وهو ما يدل على معرفتهم بمقام النبوة والرسالة.

فوائد فقهية

- بيعة وفد غامد على الإسلام تضمنت الالتزام بأركانه العملية: الصلاة، الزكاة، والدعوة، مما يدل على أن الدخول في

الإسلام لا يتم بمجرد النطق، بل يشمل الالتزام العملي، وهذا أصل فقه بيعة الإسلام.

- قيام النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال من يعلّمهم الدين، يُفهم منه أهمية تعليم الوافدين والداخلين في الإسلام أحكام الشريعة، وهذا أصل في وجوب تعليم الداخلين الجدد في الدين، وأن العلم مقدَّم على العمل.
- أمرهم بالدعوة إلى الإسلام في قومهم، مع كونهم حديثي عهد به، فيه جواز بل وجوب تبليغ ما يُعلم ولو كان قليلاً، كما قال صلى الله عليه وسلم: "بلّغوا عني ولو آية"، وهو أصل في باب الدعوة.
- من السنة إكرام الوفود وقبول بيعتهم والفرح بقدومهم، وهذا أصل في فقه التعامل مع القادمين على الإسلام أو من يُظهرون الاستقامة، ويُرشد إلى حسن استقبالهم.
- تقديم الهداية على الدنيا في الطلب يُظهر فقه ترتيب الأولويات في الشريعة، فطلب الإيمان مقدم على طلب المصالح الدنيوية، وهو فقه غائب عند كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم.

فوائد أخلاقية

- تواضع وفد غامد حين قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، ورضاهم بأن يكونوا طلاب علم لا طلاب جاه، يُظهر خُلُق التواضع، وهو من أعظم الأخلاق التي مدحها الإسلام.
- الصدق في الطلب، كما ظهر في قولهم "جئناك بالإسلام راغبين"، من أعظم أخلاق المؤمن، فالصدق بداية الهداية، وهو دليل على صفاء السريرة ونقاء النية.
- عدم ترددهم ولا اشتراطهم يدل على خُلُق الحياء من الله، والانقياد الكامل للحق، وهو خُلُق نفيس يدل على قوة اليقين ورجاحة العقل.
- استقبال النبي صلى الله عليه وسلم لهم بوجه بشوش وبشارات ودعاء، يدل على خُلُق حسن الاستقبال، والتودد إلى الناس، وهو خُلُق دعوي فعّال ينبغي أن يُقتدى به.
- حملهم للدين إلى قومهم بعد رجوعهم يدل على خُلُق الأمانة وحب الخير للغير، وهذا من صميم أخلاق الأنبياء والدعاة الصادقين.

فوائد دعوية وتربوية

- قبول النبي صلى الله عليه وسلم لبيعتهم، مع قلة ما جاءوا به من طلب، يدل على أن الدعوة ليست بالمظاهر والشروط، بل بصدق الإقبال.
- كانوا دعاةً إلى قومهم بعد أن تعلّموا، مما يدل على أن خير من يدعو هو من ذاق طعم الهداية بنفسه، فصار لسان حاله: "ذقنا حلاوة الحق فذوقوه."
- الربط بين القدوة والتعليم، حيث علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم وأرسل من يُعلّمهم، أصل في التربية المتكاملة: القدوة والتعليم معًا.
- الدعوة تحتاج إلى بيئة حاضنة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يهيّئ الوفود لهذا بالدعاء والإكرام، فكان لذلك أعظم الأثر في استمرارهم على الإسلام.
- القلب إذا امتلأ بالإسلام دخل الإنسان به في طور جديد من الإصلاح الذاتي، ثم الإصلاح المجتمعي، كما فعل وفد غامد عند عودتهم لقبيلتهم.

مخالفات الواقع

- جاء وفد غامد بطلب الهداية لا الدنيا، بينما اليوم كثير من الناس لا يطلب من الدين إلا ما يحقق له منفعة دنيوية، من جاه أو مال أو منصب.
- كانوا طائعين بلا قيد، بينما نرى اليوم من يُقبل على الإسلام أو الطاعة بشروطه الخاصة، أو ما يسمونه بـ "الإسلام

العصري"، الذي لا ينزع حرامًا ولا يلتزم بواجب.

- كان النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة المعظَّمة في القلوب، واليوم كثير من الناس يعظمون المشاهير والدعاة المتزينين بالشاشات أكثر من تعظيمهم لسنته صلى الله عليه وسلم.
- كان تعليم الدين وتعلمه مقصدًا لوفد غامد، بينما نرى اليوم كثيرًا من المسلمين يهجرون حلقات العلم ومساجد التعلّم، ويكتفون بفتات من الدين.
- كانوا دعاة بعد أن تعلّموا، واليوم كثير ممن يتصدرون الدعوة لم يتأصلوا في العلم، فاختلطت دعوتهم بالجهل والهوى والفتنة .

الفقرة الخامسة عشرة: وفد أشجع... قومٌ إذا عزموا مضوا

في عام الوفود، حين ارتفعت راية التوحيد في سماء الجزيرة، وتهافتت القبائل إلى المدينة المنورة كما تتهافت الفراشات إلى نور المصباح، كانت قبيلة أشجع من أولئك الذين خلعوا عن أرواحهم رداء الجاهلية، وأقبلوا بقلوب طاهرة ونفوس جادة، يطلبون الإسلام لا مساومة فيه، ويرجون الهداية لا شرط معها.

قبيلةٌ عُرفت بالحزم، وشهد لها التاريخ بالشدة والنجدة، لكنها لما شعّ عليها نور الرسالة، ورأت رايات الإيمان ترفرف، علمت أن القوة في الطاعة، وأن الشدة الحقّة في الثبات على الهدى، فجاء وفد أشجع في موكب مهيب، يقوده مسعود بن رجاء الأشجعي، الصحابي الذي كان لوفادته أثرٌ في تاريخ قبيلته، ولبصمته ذكرٌ في سجل الإيمان.

دخلوا على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ووجوههم مشرقة بنور القبول، وقلوبهم عامرة باليقين، فقالوا بلسان واحد وقلب واحد:
جئنا نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، جئناك طائعين، مستسلمين، نقرّ بالوحدانية، ونبايعك على السمع والطاعة.

ففرح بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبسط لهم وجهه الشريف، واستقبلهم كما يستقبل العظماء، وأكرمهم بما يليق بأهل الصدق، ثم مدَّ يده الطاهرة فبايعهم، ودعا لهم بخير، وأرسل معهم من يُعلّمهم دينهم، ويُفقّههم في أمر صلاتهم وزكاتهم، ويُعينهم على هداية قومهم.

ما طلبوا دنيا، ولا سألوا مالًا، ولا اشترطوا شروطًا كما فعل غيرهم، بل دخلوا في الإسلام دخول الموقنين، الذين قال الله فيهم :﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وجاءوا ممتثلين لأمر الله :﴿فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

كان وفد أشجع مثالًا حيًّا لقومٍ فهموا أن الإسلام لا يُؤخذ بالمساومة، ولا يُعتنق بالهروب من الهزيمة، بل هو إقبال صادق، ووفادة طاهرة، تسجّل في صحائف الخلود، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى] "متفق عليه[، وكانت نيتهم خالصة، ووفادتهم مباركة، فكتب الله لهم القبول في الأرض والسماء.

لقد دوّن التاريخ اسمهم في صفحات النور، وجعل وفادتهم من العلامات البارزة في عام الوفود، ذلك العام الذي قال فيه الله تعالى :﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١-٣].

فهنيئًا لأشجع ما وفدوا، وهنيئًا لهم ما بايعوا، وهنيئًا لهم ما ثبتوا عليه بعد الرجوع، فقد أثبتوا أن الحزم لا يكتمل إلا بالإيمان، وأن الشدة لا تُثمر إلا إذا وُضعت في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

.الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام يُطلب للنجاة لا للمنفعة، فمن طلبه بلا شرط ولا مساومة نال القبول والهدى من الله.
- التوحيد هو أصل الدين، ومفتاح الإسلام، ولا يتم الإيمان إلا به.
- طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أصول الإيمان، والإذعان لحكمه شرط لصحة الاعتقاد.
- الثبات على الهداية بعد الدخول في الإسلام علامة على صدق النية وسلامة القلب.
- الله يكتب القبول في الأرض والسماء لمن أخلص النية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات."
- الدخول في الإسلام يكون بالاعتقاد الجازم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق رسالته.
- الإسلام دين تسليم لا اعتراض، وقبول لحكم الله ورسوله دون منازعة.
- التوفيق للخير من علامات عناية الله بالعبد، كما وفّق الله وفد أشجع للإسلام الحق.

فوائد فقهية

- البيعة على الإسلام تشمل السمع والطاعة، وهي من معاني الالتزام العملي بالدين.
- من مهام النبي صلى الله عليه وسلم إرسال من يعلم الناس الدين بعد دخولهم في الإسلام، مما يدل على فرضية التعلُّم والتفقّه.
- من أول ما يُعلَّم الداخل في الإسلام: الصلاة والزكاة، مما يدل على أسبقيتهما في الواجبات العملية.
- المعلمون والدعاة يجب أن يُرسلوا إلى كل من يدخل في الإسلام ليكمل له إيمانه بالعلم والعمل.
- مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتم باليد، مما يدل على مشروعية المصافحة في البيعة.

فوائد أخلاقية

- الصدق في الطلب، والوضوح في النية، من أعظم ما يرفع قدر الإنسان.
- الحزم الحقيقي لا يكون في العنف أو الجفاء، بل في ثبات القلب على الحق.
- الاستسلام للحق بلا تردد خلق عظيم من أخلاق أهل الإيمان.
- أهل الوفاء يُثبتون على ما عاهدوا الله عليه، فلا يخونون بعد الرجوع.
- احترام القائد، وتقديم الطاعة له عن طواعية، من دلائل رجاحة العقل وسلامة القلب.

فوائد دعوية وتربوية

- الدعوة إلى الإسلام كانت تتم بوضوح وبلا مساومة، ما يدل على وجوب صدق الداعية وتجرده.
- التدرّج في تعليم الداخلين في الإسلام، بتقديم الأهم فالأهم، من أساليب التربية النبوية.
- من حسن التأثير الدعوي: البشاشة، والكرم، والاستقبال الحسن، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- قدوم القبائل طوعًا بعد ظهور الحق يدل على أثر الانتصار في نشر الدعوة، لكن لا يغني عن صدق النية.
القدوة العملية من الصحابة كانت سببًا في هداية أقوامهم، ومن ذلك وفد أشجع.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يطلبون الدين للدنيا، ويُظهرون الإسلام لمصلحة أو مظهر، لا لحق يُراد ولا عقيدة تُصدَّق.
- انتشرت في زماننا عقليات تجعل من الإسلام مصلحة تفاوضية، لا طاعة خالصة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

- قلةٌ من الناس تدخل في طاعة الله بصدق، وأكثرهم يُظهر القبول وفي قلبه تردد أو نفاق عملي.
- ضعف التربية الدينية بعد الدخول في الإسلام؛ إذ لا يُتابَع الداخلون إلى الدين بتعليم أو ترسيخ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع وفوده.
- النية غائبة عن كثير من الأعمال اليوم، فلا يُطلب العمل لله، بل يُراد به الجاه أو الرياء، وهو ما يخالف إخلاص وفد أشجع.

الفقرة السادسة عشرة: وفد عبد القيس الثاني... عودة الصادقين إلى مورد النور

ما إن عاد وفد عبد القيس الأول إلى ديارهم، حتى علت أصواتهم بنداء الحق، يدعون قومهم إلى الإسلام، ويسقونهم من معين الهداية، بما وعَوه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وبما رأوه من أخلاق النبوة وعظمة الرسالة... ولم تكن دعوتهم صدىً عابرًا، بل كانت نارًا مباركة أضاءت ليل الجاهلية في قلوبهم، فاستجابت أفئدة، وانقادت رقاب، وأشرقت أرضهم بنور الله.

ثم كان ما كان... إذ لم يلبثوا إلا يسيرًا حتى عادوا إلى المدينة، وفدًا ثانيًا، أكثر عددًا، وأشد شوقًا، وأعمق فهمًا. عادوا وقد ألهبهم الحنين إلى مجلس النبوة، وإلى لُقيا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، يحملون في قلوبهم أسئلة المتعلمين، وفي أيديهم صحائف المحبة والطاعة.

دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليهم بالبِشر والسرور، وقال لهم بعبارة خالدة ملأت القلوب طمأنينة: **"مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى "**رواه البخاري ومسلم، في إشادة واضحة بصِدقهم، ورفعة شأنهم، ونبل مقصدهم.

لقد أتوا لا يسألون عن دنيا تُمنح، ولا عن غنيمة تُقسَّم، بل طرقوا باب النبوة يسألون عن الدين... عن الحلال والحرام... عن الأشربة التي تَفسد الألباب، وعن الأنساب التي يختلط فيها النقاء بالدخيل، وعن الوضوء الذي يُطهر الجسد والروح، وعن كل ما يُقرّبهم من ربهم، ويُرضي عنهم نبيهم.

فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أجابهم إجابة المعلم الرحيم، والفقيه المبين، ففصّل لهم شرائع الإسلام، وعلّمهم أصول الإيمان، كما روى البخاري ومسلم في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم" :**آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس. وأنهاكم عن الدُّبَّاء، والحنتم، والمُزفَّت، والنقير"**
فكان هذا البيان أصولًا تُحفظ، وتفاصيل تُبلّغ، وسُقيا طاهرة لقوم عطاشى إلى النور.

وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم لهم شهادة تكتب بماء الذهب، فقال كما في صحيح ابن حبان (**إن خير أهل المشرق عبد القيس** ي) فيا له من وسام، ويا لها من شهادة، أن يُزكّيهم من لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلم.

ثم لم يتركهم يمضون إلى ديارهم دون أن يبعث معهم من يُعلّمهم ويُقيمهم على الجادة، فأرسل معهم الصحابي الجليل **العلاء بن الحضرمي**، ذلك العابد المجاهد، الذي كانت له مواقف تُروى في الثبات والكرامة، فكان أميرهم، ومعلمهم، ومقدَّمهم في الخير والفضل.

وهكذا عاد الوفد إلى قومهم، وقد ازدادت أرواحهم صفاء، وصدورهم انشراحًا، وجيوبهم محملة بالعلم، وقلوبهم مفعمة باليقين، فكانوا مناراتٍ في قبائلهم، وألسنة صدق في الدعوة إلى الله.

وصدق الله تعالى إذ يقول :﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾]فصلت: ٣٣[.

الدروس المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان بالله يشمل شهادة التوحيد والعبادات الأربع كما علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الأصل الذي تُبنى عليه سائر الأعمال.
- رجوع عبد القيس مرةً ثانية دليل على أن القلب المؤمن لا يشبع من منابع النور، ولا يكتفي بلقاء واحد مع الهدي والهدى.
- عناية النبي صلى الله عليه وسلم بتعليم الوفد تفاصيل الحلال والحرام، وأصول الإيمان، تبين أن العقيدة لا تُختزل في مجرد كلمات، بل هي علم وفهم وعمل.
- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى" يتضمن تزكية نبوية لطهارة قلوبهم وصفاء عقيدتهم، وفيه أن المؤمن الصادق لا يخزى.
- الشهادة من النبي صلى الله عليه وسلم لعبد القيس بأنهم "خير أهل المشرق" تؤكد أن ميزان الفضل هو الإيمان والاتباع، لا النسب ولا الجغرافيا.

فوائد فقهية

- في الحديث تعليم لأركان الإسلام: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصوم، مع بيان فرض الخمس من الغنيمة، وهي من الحقوق المالية الواجبة.
- النهي عن الأشربة الأربعة (الدباء، والحنتم، والمزفت، والنقير) فيه أصل في تحريم الوسائل المؤدية إلى الفساد، وفيه اعتبار لسد الذرائع.
- سؤال الوفد عن الوضوء وأمور الدين يدل على مشروعية سؤال أهل العلم عن الفروع والتفصيلات، لا سيما إذا تعلقت بعبادة أو معاملة.
- إرسال العالم المعلِّم (العلاء بن الحضرمي) مع الوفد أصلٌ في بعث الدعاة والمعلّمين للأمصار، وهو من السنة الراسخة في تعليم الناس الدين.

فوائد أخلاقية

- كانوا في الوفادة الثانية أكثر شوقًا وأعمق فهمًا، وفي هذا إشارة إلى أن تكرار الجلوس في مجالس العلم يزيد في التزكية والرفعة.
- إقبالهم على النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة النافعة يدل على الأدب في طلب العلم، وحُسن السؤال، وسعة الصدر في التلقي.
- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم معهم، وبشاشته، واستقباله لهم بكلمات الثناء، درسٌ في خلق القائد والمعلم في احتواء الناس.
- وفاؤهم بعد الرجوع وقيامهم بالدعوة في قومهم هو من علامات الإخلاص وصدق المحبة، إذ لا يقتصر الخير على النفس بل يتعدى للناس.

فوائد دعوية

- عودة الوفد بأسئلة جديدة ومقصد صادق دليل على أن الدعوة ليست لحظة، بل سعي مستمر للترقي في الهداية ونفع الآخرين.
- قيامهم بالدعوة بعد الوفادة الأولى يُعلّمنا أن المتعلِّم لا ينتظر التمكّن التام، بل يبدأ بما علم، وينقل الخير ولو قلّ.
- تقديم النبي صلى الله عليه وسلم التعليم والدعوة على الأمور الدنيوية يرسم طريق الدعاة: لا تشغلهم الدنيا عن الغاية العليا.
- إرسال العلاء معهم مع علمه وورعه يدل على أهمية أن يكون المعلّم قدوة في علمه وخلقه وثباته، لا مجرد ناقل للمعلومة.

مخالفات الواقع

- قلة من الناس اليوم يعودون لمجالس العلم بنفس الشوق الذي أقبل به وفد عبد القيس، بل يتكاسلون عن حضور الدروس أو التواصل مع العلماء.
- أصبحت الوفود إلى العلماء – إن حدثت – للسؤال عن الرخص، أو تأويل الشبهات، لا للسؤال عن الحلال والحرام بدافع التديّن الصادق.
- يُقبل كثير من الناس على الماديات والوظائف والدنيا، ويهملون طلب العلم الشرعي، فلا ترى في صدورهم همًّا لفهم دينهم ولا نشره.
- انشغل بعض الدعاة المعاصرين بالقضايا الجانبية، أو بالشهرة، عن تعليم أصول الإسلام والوضوء والصلاة والطهارة والإيمان كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- قلة من الناس اليوم إذا تعلموا بادروا إلى تعليم غيرهم، بل كثير منهم يطوي العلم في صدره، أو يراه خاصًا به، لا دعوةً للناس.

الفقرة السابعة: وفد دوس... ثمرة دعوة الصادقين، ومظهر رحمة النبيين

في أعماق أرض اليمن، وفي ربوع قبيلة **دوس**، ولد النور في قلب رجل حكيم، عاقل، فصيح، نابه، عُرف بين قومه بالدهاء والبيان، هو الصحابي الجليل **الطفيل بن عمرو الدوسي** رضي الله عنه، سيدٌ في قومه، مطاعٌ فيهم، كريم النَّفس، واسع الفهم.

قدِم الطفيل إلى مكة في أيامٍ طغى فيها ضجيج الكفر، وتكاثرت فيها السدود أمام دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فحذّره صناديد قريش من الاستماع إلى هذا "الساحر" كما زعموا، حتى وضعوا في أذنه القطن كي لا يسمع القرآن! لكن نور الفطرة كان أقوى من ظلمة الشك، فما لبث أن أنصت للقرآن، وتفتّح قلبه لكلام الرحمن، وأسلم طواعية بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إسلامه بداية مرحلة جديدة في تاريخ قومه.

عاد الطفيل إلى دوس، يحمل بين جنبيه نور الرسالة، ويدعو قومه ليل نهار، بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يجد إلا صدودًا وإعراضًا، ونفورًا من دعوة التوحيد. فاشتد حزنه، وتألّم صدره، حتى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال:
"يا رسول الله، إن دوسًا قد عصت وأبت، فادع الله عليهم"!
وفي موطنٍ يُنتظر فيه الغضب والدعاء بالهلاك، أشرقَت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم كالشمس بين الغيوم، فرفع يديه الطاهرتين وقال"**:اللهم اهدِ دوسًا، وائتِ بهم**"رواه ابن حبان .

دعوة رحمة خرجت من قلب رسولٍ ما خُيّر بين الانتقام والمغفرة إلا اختار الرحمة، فكان كما قال الله تعالى فيه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

وقد استجاب الله دعاء نبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم، إذ جاءت البشائر من أرض دوس، بأن الطفيل لم يفتأ يدعو، ويذكّر، ويصبر، حتى أقبل قومه على الإسلام أفواجًا، فلما فتحت خيبر، كانت دوس على موعد مع الوفادة، فجاءوا إلى المدينة وفدًا كريمًا، يحملون راية التوحيد، يقودهم شيخهم الطفيل بن عمرو، وقد أسلم معه خلق كثير، ومن بينهم صحابي جليل سيُصبح لاحقًا **أحفظ هذه الأمة لحديث نبيها**، إنه **أبو هريرة رضي الله عنه**.

دخلوا المدينة بأقدامٍ سارت في درب الهداية، وقلوبٍ تفيض شوقًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقبلهم نبي الرحمة بالترحاب، وأسكنهم المدينة، وأفاض عليهم من علمه وتربيته، وربطهم بحلق الذكر والعلم، فكانوا نعم القوم، إيمانًا وتعليمًا وسعيًا.

لقد تحوّل الدعاء بالهداية إلى مشهد إيماني رائع، تُروى فيه الرحمة، ويُكتب فيه الصبر عنوانًا للنجاح الدعوي، وصدق الله إذ يقول:﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾]النحل: ١٢٥.[

وهكذا دخلت دوس في الإسلام، وخرج من رحمها رجالٌ حفظوا السنن، وبلّغوا الشريعة، فكانت وفادتهم إلى المدينة وفادة خير، وعودتهم إلى ديارهم عودة رسلٍ يحملون مشعل الهداية إلى الأجيال.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين الفطرة، ونور التوحيد أقوى من ظلمات الكفر مهما حاول أهل الباطل صده.
- من صفات النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة: الرحمة العامة التي شملت حتى من خالفه وعاداه.
- الدعاء بالهداية للمخالفين منهج نبوي عقدي يدل على أن القلوب بيد الله، يهدي من يشاء.
- الثبات على الدعوة مع الصبر والاحتساب سبب في تحقيق وعد الله بهداية الناس.
- من دلائل النبوة أن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم مستجاب، ومنه دعوته بدعاء الخير والهداية.
- لا يجوز اليأس من رحمة الله وهداية العباد مهما طال الصد والإعراض.
- التوحيد هو الرسالة الكبرى التي جاء بها الأنبياء، وهو أعظم ما يُدعى إليه.
- ارتباط الإيمان بالعلم والعمل والتعليم من أصول منهج أهل السنة والجماعة.
- الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه، ومنها حفظ السنن ونشر العلم، هي فضل من الله لا تكون إلا لأهل التوحيد والاتباع.

فوائد فقهية

- الدعاء على الكافرين ليس الأصل، وإنما الأصل الدعاء لهم بالهداية ما لم يتحقق فيهم شرط القتال والمعاندة.
- مشروعية الدعاء بالهداية لأقوام بأعيانهم، كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم لقوم دوس.
- من السنة إكرام الوفود وتوفير سبل العلم والتعليم لهم، وتعليمهم أمر دينهم.
- من السنة الترحيب بالضيوف وقبول توبتهم وتوجيههم إلى حلق الذكر.
- يُستدل بهذا الحديث على أهمية ملازمة العلماء ومجالس الذكر لمن أراد الفقه في الدين.
- مشروعية استخدام الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله، وهو أصل دعوي ثابت بنص القرآن.
- من المشروع الصبر على صدود المدعوّين عن الحق، مع استمرار البلاغ دون كلل.

فوائد أخلاقية

- الرحمة خُلق عظيم لا ينفك عن قلب الداعية الصادق، وقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في تعامله.
- الصبر على أذى الناس وعدم اليأس من هدايتهم خلق دعوي نبيل يؤتي أكله بإذن ربه.
- حلم النبي صلى الله عليه وسلم وتأنّيه مع قوم أعرضوا عن الحق، هو خلق يُحتذى في الصبر على المخالف.
- الحكمة في الدعوة ليست ضعفًا، بل هي منتهى القوة، وقد جعلها الله سبيلاً للهداية.
- كتمان الغيظ والدعاء بالهداية بدل الانتقام مظهر من مظاهر كمال النفس وعلو الهمة.
- عدم استعجال النتائج خُلق ضروري لمن أراد أن يكون مؤثرًا في دعوته.

فوائد دعوية

- أثر الداعية في قومه يتعاظم إذا كان ذا مكانة فيهم، كما كان الطفيل بن عمرو في قومه.
- المثابرة في الدعوة مع الحلم واللين أقوى من أساليب الغلظة والانفعال.
- الدعوة لا تقف عند الصدود، بل تستمر مع التذكير والإلحاح الجميل، كما فعل الطفيل رضي الله عنه.
- من أعظم وسائل نشر الدعوة: الصبر، والعودة إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلبًا للتوجيه.
- القدوة العملية من الداعية أعظم وسيلة تأثير، كما ظهر في سعي الطفيل المتكرر لهداية قومه.
- من حسن السياسة الدعوية: استغلال المناسبات الكبرى كالوفود والغزوات لتعزيز مكانة الإسلام.

فوائد تربوية

- تعليم الصحابة على يد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد تلقين، بل تربية بالموقف والمثال.
- ربط الوافدين الجدد بحلق العلم والعبادة أسلوب تربوي ناجح في تثبيت الإيمان.
- التدرج في الدعوة والتربية يُثمر دخولًا جماعيًا في الدين، كما وقع مع دوس.

الإقامة في بيئة صالحة – كإسكان النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة الجدد في المدينة – من أعمدة التزكية.
تحفيز القادمين الجدد بمكانة الشرف في الإيمان والعلم يزيدهم ثباتًا واستعدادًا للدعوة.

مخالفات الواقع

- تساهل كثير من الناس اليوم في الدعاء على المخالفين أو العصاة دون دعوة لهم بالهداية، مخالفين بذلك هدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- قسوة بعض الدعاة في مخاطبة الناس وإغلاظ القول لهم، مما يؤدي إلى نفور المدعوين، على عكس المنهج النبوي في الرحمة والرفق.
- استعجال كثير من الدعاة للنتائج الفورية، فييأسون من الناس بسرعة ولا يصبرون على دعوتهم.
- ضعف ارتباط الدعاة بحلق العلم والذكر، واهتمامهم بالمظهر دون التربية والتزكية.
- غلبة أساليب التحقير والتنفير على وسائل الدعوة المعاصرة، وقلّ من يلتزم بالحكمة والموعظة الحسنة.
- اعتقاد البعض أن مكانة الداعية مرتبطة بشدته على الناس، لا برحمته وصبره عليهم.

الفقرة الثامنة وفد مزينة... قومٌ أحبّهم الله، وأثنى عليهم رسول الله

في السنة الخامسة من الهجرة، وفي وقتٍ كان الإسلام فيه يشقّ طريقه بثبات بين قبائل العرب، جاءت إلى المدينة وفود، وكان من أعظمها أثرًا وأصدقها إيمانًا :وفد مزينة رضي الله عنهم، وفدٌ كريم، اجتمع فيه العدد، وصدق العزيمة، وسلامة القلب.

قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، نحو أربعمئة رجل، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ما جاؤوا طمعًا، ولا خوفًا، ولا راودتهم شبهة، ولا ساقهم جدال، بل وفدوا إليه مؤمنين طائعين، موقنين أنه رسول الله حقًّا، فسلّموا قيادهم للحق، ودخلوا في الإسلام طوعًا واختيارًا، واصطفّوا صفوفًا يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وعلى السمع والطاعة، في المنشط والمكره.

وقد كان فيهم شاعرٌ لبيب، يُقال له :النجاشي المزني، فوقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنشد الشعر، ويُعبّر عن فرحة القوم بالإسلام، واعتزازهم بالهداية، وسعادتهم بلقاء من أرسله الله رحمة للعالمين، فتبسم له النبي صلى الله عليه وسلم، وسُرّ بقوله.

وما أعظم الشهادة إذا جاءت من فم الصادق المصدوق! فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم كلمةً تكتب بماء الذهب، وتُخلّد في سجل الشرف والفضل، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ جُهَيْنَةُ، وأَسْلَمُ، وغِفارُ، خَيْرًا مِن بَنِي تَمِيمٍ، وبَنِي عبدِ اللهِ بنِ غَطَفانَ، وعامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ ومَدَّ بها صَوْتَهُ فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، فقَدْ خابُوا وخَسِرُوا، قالَ: فإنَّهُمْ خَيْرٌ. وفي رِوايَةِ أبِي كُرَيْبٍ أرَأَيْتُمْ إنْ كانَ جُهَيْنَةُ، ومُزَيْنَةُ، وأَسْلَمُ، وغِفارُ). رواه البخاري ومسلم.

شهادة نبوية رفعت مقامهم، وقدّمتهم في موكب الإيمان، لا لحسبٍ ولا نسب، بل لصدق التوجه، وسلامة الفطرة، وسرعة الاستجابة، فكانوا ممن وصفهم الله بقوله :﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾]الحجرات: ١٥.[

كان قدومهم إلى المدينة مهيبًا، وموقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرقًا، وعودتهم إلى ديارهم محمّلةً بالعلم والإيمان، فصاروا دعاةً في قومهم، ورسل خيرٍ إلى أهليهم، حتى عمّ نور الإسلام أرضهم، وأينعت فيهم شجرة الهداية.

لقد ضرب وفد مزينة مثلًا يُحتذى في سرعة الاستجابة، وصدق البيعة، وتقديم الدين على كل اعتبار، فرضي الله عنهم، وأرضاهم، وجعلنا ممن يسير على دربهم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الحق لا يقوم على تقليد ولا على مصالح دنيوية، بل ينبع من تصديق جازم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، كما فعل وفد مزينة الذين جاؤوا مؤمنين طائعين دون تردد أو ارتياب.
- من دلائل صدق النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم يُؤيَّد في أقواله وأحكامه بشهادات عظيمة كقوله عن مزينة: "خير من..."، وهي شهادة من لا ينطق عن الهوى، مما يعزز اليقين بصدق رسالته وأمانته.
- المراتب عند الله ليست بالحسب والنسب، وإنما بالإيمان والتقوى والاستقامة، كما دلّ عليه تفضيل الله لمزينة ومدلج وجهينة وغفار وأسلم على غيرهم.

◆ محبة النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الأقوام ليست محبةً عاطفية مجردة، بل مؤسّسة على صفاء التوحيد، وصدق الإيمان، وسرعة الانقياد للحق.

◆ من كمال الإيمان أن لا يخالطه شكّ، ولا تردد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، وهو ما تحقّق في وفد مزينة، فكانوا من أهل المرتبة العالية في الإيمان.

فوائد فقهية

◆ المبايعة على الإسلام والسمع والطاعة في المنشط والمكره أصل من أصول جماعة المسلمين، وهي بيعة دينية شرعية لا تُبنى على المصلحة الشخصية، بل على الالتزام الشرعي.

◆ الوفادة على الإمام الأعظم أو من يقوم مقامه مشروعة إذا كانت لله، ومن مقاصدها طلب العلم، وتجديد البيعة، والتعبير عن الولاء للدين.

◆ جواز التعبير عن الفرح بالدين والولاء له بالشعر والكلمة الطيبة، إذا خلت من الباطل، وقد تبسم النبي صلى الله عليه وسلم لسماع شعر النجاشي المزني.

فوائد أخلاقية

◆ الصدق في العهد والبيعة من أبرز صفات المؤمنين، كما ظهر في وفد مزينة حين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم بقلوب طاهرة، وهمم صادقة.

◆ الحياء من الله والتواضع للحق يورث العبد رفعة عند الله، كما رفع الله مزينة، لا لأنهم أكثر عددًا، بل لأنهم كانوا أكثر إخلاصًا ويقينًا.

◆ الإيمان الصادق يولّد سعادة واعتزازًا بالهداية، لا خجلًا منها، وقد عبّر وفد مزينة عن ذلك في شعرهم وموقفهم ومبايعتهم.

◆ نقل الهداية إلى الآخرين من أعظم صور الأمانة، فقد عاد وفد مزينة دعاةً، بعد أن حملوا من المدينة مشعل العلم والإيمان.

فوائد دعوية

◆ الداعية الحق هو من يقدّم الدين على كل مصلحة، ويتحرّك بدافع الإيمان، لا بدافع العادات أو العوائد، وقد كان هذا حال مزينة.

◆ الوفود الصادقة تفتح في الدعوة أبوابًا واسعة من التأثير، فهي تجمّعٌ على الهداية، ورسالةٌ إلى من وراءهم من الأقوام.

◆ الرسوخ في الإيمان والاستجابة السريعة للحق أعظم ما يُؤهّل الداعية لأن يكون قدوة، وقدوة مزينة بقيت عبر العصور.

مخالفات الواقع

◆ كثيرٌ من الناس اليوم لا يُقبل على الدين إلا بدافع الخوف أو المصلحة أو التبعية، ولا يظهر فيهم صدق العزيمة ولا سلامة القلب عند الإقبال على الشرع.

◆ قلة من المسلمين اليوم يوفون بعهدهم وبيعتهم، سواء على مستوى الالتزام بأوامر الله، أو السمع والطاعة لولاة أمرهم في المعروف، وهو ما يخالف حال مزينة الذين بادروا وبايعوا بثبات.

◆ يغلب على البعض اليوم التردد والارتياب عند سماع الحق، فيتأخرون في الاستجابة، وربما ينكرون أو يساومون، بخلاف من وصفهم الله بقوله: ﴿ثم لم يرتابوا﴾.

◆ التفاخر بالأنساب والحسب قد طغى على كثير من القلوب، حتى بات معيار الشرف هو القبيلة أو العائلة، لا الإيمان والتقوى، وهذا يخالف ميزان التفضيل الذي ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

الفقرة التاسعة عشرة :وفد بني أسد... حين يتكلّم القلب بما لا يُرضي، ويفضح اللسان ما تُخفي الصدور

في السنة التاسعة للهجرة، سنة الوفود، حيث أخذ نور الإسلام يتشعّب في جزيرة العرب، ويتسابق الناس للدخول في دين الله أفواجًا، حملت طرق المدينة قوافل القبائل، وازدحمت ساحاتها بالوفود القادمة من كل حدب وصوب، ومن بين تلك الوفود، جاء **وفد بني أسد بن خزيمة**.

جاؤوا في عدد قليل، نحو ثلاثة عشر رجلًا، لكن أصواتهم كانت عالية، وكلماتهم مليئة بالعُجب والمَنّ، وعلى رأسهم رجل يُدعى **طليحة بن خويلد الأسدي**، رجلٌ قويُّ الشخصية، شديد البأس، لكنه لم يُحسن فهم مقامات النبوة، فادّعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد بعد ضياع، وحَسُن إسلامه، وكان له جهاد مشهود في حروب الردة.

دخل القوم على النبي صلى الله عليه وسلم وقد سبقتهم كتب ورسائل، يذكرون فيها أنهم **أسلموا من تلقاء أنفسهم**، دون قتالٍ أو دعوةٍ أو ضغط، وكأنهم بذلك يُمنّون على النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، ويُظهِرون أن دخولهم في الدين **فضلٌ منهم، لا نعمةٌ من الله عليهم!**

وقد قالوا قولًا يُفهم منه أنهم يعتقدون أنهم فضّلوا النبي صلى الله عليه وسلم، حين لم يخرجوا عليه كما خرج غيرهم، وأنهم جديرون بالثناء والتقدير.

لكنّ الذي يعلم ما تُخفي الصدور، ويرى ما وراء العبارات، أنزل فيهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾]الحجرات: ١٧.[

فما أعظم هذا التوجيه الرباني! وما أبلغ ما فيه من تصحيح للمفاهيم! فالإيمان **ليس هدية تُمنَح للبشر من أنفسهم**، بل هو فضلٌ يُنزله الله في القلوب، ويهدي إليه من يشاء.

لقد كشف هذا الوفدُ نموذجًا من الناس الذين **يتعاملون مع الإيمان بمنطق المكاسب والتفاخر، لا بمنطق الشكر والانقياد**، فجاء الرد الإلهي ليُربّي النفوس على التواضع أمام نعمة الهداية، وليُعلّمنا أن أعظم ما في هذا الدين: أن الله منَّ علينا به، لا أن نمنّ نحن به على أحد.

وفي هذا الوفد من العبر ما يغني:

أن **القلوب لا تخفى على الله**، ولو تخفّت خلف كلماتٍ مُزخرفة. وأن **الإيمان الحقيقي ليس دعوى باللسان، بل انقياد بالوجدان**. وأنّ **فضل الهداية لا يُقابل بالامتنان والتعالي، بل بالشكر والخضوع**.

فلئن جاء وفد بني أسد بكلماتهم العالية، فقد عادوا بدرسٍ إلهيٍّ خالدٍ، أنَّ **منّة الإيمان لا تُنسب إلى العبد، بل إلى المولى الكريم**. رضي الله عن من صدق منهم في نهاية المطاف، وتاب الله على من رجع إلى الحق بإخلاص، وجعلنا وإياكم من أهل اليقين والتواضع، الذين إذا مَنَّ الله عليهم بالإسلام قالوا :﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾]آل عمران: ٨.[

.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه هو وحده الذي يمنّ بالهداية على من يشاء، ولا يملك أحد أن يمنّ على الله بدخوله في الإسلام، لأن الهداية محض فضل من الله لا يُنال إلا برحمته.
- الإيمان ليس مجرد كلمة تُقال، بل هو تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وما لم يجتمع ذلك لم يكن إيمانًا نافعًا.
- من صفات الله تعالى علمه المحيط بالسرائر والضمائر، فهو يعلم ما تُخفي الصدور، ويجازي العباد على ما في قلوبهم، لا على مظاهرهم فقط.
- القرآن الكريم يُنزَّل لتقويم المفاهيم الخاطئة، وتصحيح العقائد المنحرفة، كما صحّح اعتقاد من ظن أن الإسلام يُعَدّ فضلًا من العبد لا نعمة من الله.
- التواضع أمام نعمة الهداية هو من دلائل صحة الإيمان، والكبر والعُجب بها من أمارات فساد المعتقد.

❖فوائد فقهية

- لا يُعدّ الإسلام مقبولًا شرعًا إذا لم يُبْنَ على التواضع والاستسلام لله، إذ العُجب والمنّ بالإسلام منقصة في النية قد تفسد العمل.
- النية لها أثرٌ عظيم في قبول الأعمال، وإسلام المرء يجب أن يكون خالصًا لله، لا لغرض دنيوي ولا لمباهاة أو تفاخر.
- يدل تصرف النبي صلى الله عليه وسلم على أن الوافد للإسلام يجب أن يُعلَّم ويُوجَّه، خاصة إن ظهرت منه علل في النية أو القول، وأن يُترك له باب التوبة بعد الخطأ.
- من هداية الله لعباده أن يردَّهم عن الباطل، كما حصل مع طليحة حين رجع إلى الحق بعد ادعائه النبوة، فحَسُن إسلامه وجاهد مع الصحابة.

فوائد أخلاقية

- العُجب بالنفس والمنّ على الآخرين من أقبح الأخلاق التي تُسقِط قدر المرء، حتى لو ظهر عليه الخير في الظاهر.
- التواضع هو خلق الأنبياء وأهل الإيمان، وهو علامة القبول عند الله، والعلو والغرور من علامات الخذلان.
- كتمان القلب لما فيه لا ينفع، إذا كان اللسان يفضحه، فالمؤمن الحق هو من وافق سرّه علانيته.
- من شكر النعمة أن يعرف العبد قدرها، وألا ينسبها لنفسه، بل يقرّ بأنها منّة من الله عليه.
- التعامل مع الدين على أنه مكسب دنيوي يفسد القلب، ويمحو أثر الإيمان من النفس.

فوائد دعوية

- ينبغي للداعية أن يُبيّن للناس أن الدخول في الإسلام نعمة من الله، لا مجاملة لأحد ولا مكافأة دنيوية، وأن يُحذر من

الرياء والمنّ في العبادات.

- الرد على الشبهات العقدية والاعتقادات الفاسدة واجب دعوي، كما فعل القرآن حين نزل لتصحيح اعتقاد وفد بني أسد.
- يجب على الداعية ألا ييأس من هداية أحد، فطليحة الذي ادّعى النبوة قد تاب ورجع، فالمفتاح بيد الله وحده.
- الوضوح في بيان الأخطاء لا يتعارض مع الرحمة، فقد نزل الوحي يُصحّح، والنبي صلى الله عليه وسلم استقبلهم مع ذلك برفق.

فوائد تربوية

- تربية النفس على التواضع والخضوع لله هي من أهم ثمرات الإيمان، ومن لم يُربَّ عليها فربما وقع في الغرور والعجب.
- الإنسان قد يُخطئ في فهم الدين أو يسيء التقدير، لكن الباب مفتوح دومًا للتصحيح والعودة، ما دام القلب صادقًا في طلب الحق.
- من أعظم صور التربية أن يُوجَّه المخطئ دون إحراجه، وأن يُعلّم برفق ما دلت عليه النصوص.
- غرس معنى أن الهداية نعمة، والتقوى توفيق، يربي في القلب دوام الحاجة إلى الله وعدم الاغترار بالنفس.

فوائد لغوية

- تعبير "يمنّون عليك أن أسلموا" فيه تعبير قرآني دقيق، حيث جاء الفعل المضارع ليُفيد تكرار فعل المنّ، وكأنهم لا يكتفون بقولها مرة، بل يكررونها في كلامهم وسلوكهم.
- قوله: "بل الله يمنّ عليكم" جاء تقديم اسم الجلالة للاختصاص والتوكيد، لتثبيت معنى أن النعمة لله وحده دون غيره.
- في وصفهم بـ"أصواتهم عالية" ملمح لغوي يُفيد أن من عادة المتكبّر أن يرفع صوته لا ليُسمِع، بل ليتفاخر ويتعالى.

فوائد تاريخية

- كان وفد بني أسد من جملة الوفود التي جاءت في السنة التاسعة للهجرة، وهي المعروفة بسنة الوفود، حيث انتشر الإسلام بعد فتح مكة.
- قصة طليحة بن خويلد الأسدي تمثل تحولًا بارزًا في التاريخ الإسلامي، من مدّعٍ للنبوة إلى مجاهد في حروب الردة، وهو من الأمثلة على من تاب بعد زيغ.
- الوفود كانت تأتي من كل أرجاء الجزيرة، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم سياسة حكيمة في التعامل مع كل وفد بحسب حاله ونواياه.

مخالفات الواقع

- أن كثيرًا من الناس اليوم يتعاملون مع التديّن وكأنه منّة منهم على المجتمع أو على الدعوة، فيُظهرون أنهم قدّموا شيئًا للأمة بصلاتهم أو التزامهم، لا أنهم نالوا نعمة عظيمة به.
- بعض المنتسبين للإسلام أو العمل الدعوي يطلبون بذلك الجاه أو الثناء، ويُظهرون الإسلام وكأنه سلعة يُمنّ بها على الناس، لا عبادة لله خالصة.
- التفاخر بالانتماء إلى الدين دون عملٍ حقيقي أو انقياد صادق، هو من أعظم ما يُفسد العمل ويمنع القبول.

قلة من الناس من يربط نعمته بالإيمان ويشكر الله عليها، بل تجد الأكثرين ينسبون الفضل لأنفسهم، ويتناسون المنة الإلهية.

- الرياء والتظاهر بالصلاح في بعض المجتمعات أصبح وسيلة للمكانة الاجتماعية، حتى اختلطت النيات، وفسدت القلوب، إلا من رحم الله .

الفقرة العشرون :وفد غسان... حين انحنى المَلكُ للحق

في أطراف الشام، حيث يختلط العرب بالروم، وتختال الملوك في قلاعها، كانت قبيلة **غسان** تعيش في ظل الحضارة الرومانية، تلبس لبوس الملوك، وتدين بالنصرانية، حتى غدا ملوكهم يُلقبون بـ"ملوك غسان"، ومن أشهرهم : **الحارث بن أبي شمر**، و**المنذر بن الحارث**.

لكن الفطرة لا يغطيها تاج، ولا تقتلها البلاطين، فإذا لاح نور الحق من المدينة، بدأ الرجوع الصادق... وها هو **وفد غسان**، خمسة عشر رجلًا من كبارهم، يتركون الأبهة، ويسيرون نحو طيبة، بعد أن **اهتز عرش الروم في تبوك، وانكشفت زيف القوة أمام عظمة الحق**.

جاءوا والنور في وجوههم، والإجلال في قلوبهم، ودخلوا على **رسول الله صلى الله عليه وسلم**، لا كرسل ملوك، بل **كعباد خاشعين**، شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

استقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم **استقبال النبلاء، لا ملوك الجاه، بل ملوك القلوب**، وأكرم وفادتهم، وبايعوه على الإسلام، وخرجوا من عنده **بقلوب جديدة، وكتابٍ نبويٍ كريم**، فيه عهدٌ بالأمان، وحدودٌ للحقوق والواجبات، وسُنّةٌ من سنن دولة الإسلام في التعامل مع الداخلين في الدين من أطراف القوة والنفوذ.

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، بل **أرسل معهم من يعلّمهم القرآن، ويغرس فيهم لبنة العقيدة، ويقيم عليهم الحجة والرحمة**.

وهكذا تحولت غسان من مملكة تابعة للروم إلى **بُقعة جديدة من أرض الإسلام**، يُرجى لها أن تخرج من تحت ظلال الصليب إلى عدل الشريعة، ومن تقليد الملوك إلى اتباع خير الخلق.

وفي قصة وفدهم لفتات:

أن **الدين لا يقف أمامه جاهٌ ولا نسب**، فمتى ظهر الحق، انكسر الباطل، وإن طال.

وأن **أهل النفوذ إذا أسلموا صادقين، كانوا أبوابًا للهداية لمن وراءهم**.

وأن **النبي صلى الله عليه وسلم كان يوازن بين السياسة والرحمة، فيمد اليد ويزرع الهداية**.

فيا وفد غسان، لقد فتحتم بابًا... لم تغلقه ممالك الأرض، بل شرّفته السماء.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين الفطرة، وإن طال الانحراف، فمتى لاح نور التوحيد انقاد له من شرح الله صدره، ولو كان من ملوك الأرض.
- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم دعوة عالمية، لا تخص العرب وحدهم، بل يدخل فيها من كان من أهل الروم أو غيرهم.
- الدخول في الإسلام لا يتحقق إلا بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهو ما فعله وفد غسان.
- حب النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره من أصول الإيمان، وقد ظهر ذلك في دخولهم عليه خاشعين، لا متكبرين.
- القرآن مصدر الهداية الأعظم، ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم من يعلّمهم إياه بعد إسلامهم.

- الإسلام لا يقرُّ التبعية للكفار، بل يسعى لتحرير النفوس من سلطانهم إلى سلطان الله تعالى وحده.
- العهد الذي يعقده النبي صلى الله عليه وسلم يُعد من عقود الشرع الملزمة، إذ هو تشريع وتأسيس لمن بعده.

فوائد فقهية

- يجوز أن يعقد الإمام أو ولي الأمر عهد أمان مع من دخل في الإسلام حديثًا، يبيّن فيه الحقوق والواجبات.
- التعليم والتزكية لا تنفك عن الدعوة، فمن دخل الإسلام يحتاج إلى من يعلّمه ويُرشد قلبه بعد الإسلام.
- السفر للدعوة والتبليغ سنة متبعة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أرسل مع الوفد من يعلّمهم.
- البيعة على الإسلام تشمل الاعتقاد والعمل، وهي بمثابة إعلان رسمي للدخول في الدين، كما فعل وفد غسان.
- من حقوق الداخل في الإسلام حديثًا أن يُرفق به، ويُكرم، وتُعان روحه الجديدة على الثبات والنمو.

فوائد أخلاقية

- التواضع في طلب الحق من أعظم علامات صدق القلب، فقد جاء الوفد من مملكة إلى نبي، لا متعاليًا بل خاشعًا.
- الوفاء بالعهد من خلق النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أعطاهم كتابًا فيه الأمان والضمان، وحفظ الحقوق.
- الإجلال لرموز الدين، وطلب العلم من أهله، خُلُق كريم، وقد ظهر في حالهم عند دخولهم على النبي صلى الله عليه وسلم.
- الرحمة لا تُناقض الحزم، بل هي ركن من أركان النجاح في التعامل، وقد جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في استقباله لهم.
- الملوك والوجهاء متى تواضعوا للحق، علت مراتبهم، وصاروا سببًا في هداية أقوامهم.

فوائد دعوية

- إسلام أصحاب النفوذ قد يفتح للأمة أبوابًا كانت مغلقة، لأن لهم التأثير والقدرة على نقل الدعوة لغيرهم.
- الدعوة إلى الله لا تقتصر على الفقراء والمستضعفين، بل تشمل كذلك الملوك وأهل القرار، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- العهد والبيعة في الإسلام أصلٌ في تنظيم علاقة الداخلين في الدين الجديد بالمجتمع المسلم.
- التعليم بعد الدخول في الإسلام ضرورة دعوية، لأن الإيمان لا يثبت إلا بالعلم والعمل.
- تأليف القلوب باب من أبواب الدعوة، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم في طريقة استقباله للوفد.

فوائد تربوية

- الداعية الناجح لا يكتفي بإلقاء الكلمة، بل يؤسس ويزرع، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أرسل معهم من يعلمهم.
- النفوس الكبيرة تنقاد للحق إن وُجِّهت توجيهًا صحيحًا، فمهما كانت خلفيات الناس فإن الفطرة تهتدي إذا صدقت.
- التغيير الحقيقي يبدأ من القلب، ووفد غسان رجعوا بقلوب جديدة، لا بمجرد توقيع على عهد.
- تحرير النفس من سلطة التقاليد والولاء لغير الله من أهم علامات النضج الإيماني.
- التعامل الحسن مع الداخلين في الإسلام يُعينهم على الثبات، ويجعلهم سفراء صادقين للدين في مجتمعاتهم.

فوائد لغوية

- "وفد" من مادة (و-ف-د) وهي تدل على القَصْد، وقد سُمي الآتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفودًا لأنهم قصدوه جماعة.

- "الأبهة" تدل على المظهر الفخم والهيئة المتكلفة، وقد تخلّى عنها وفد غسان عند مجيئهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
- "كتاب نبوي كريم" فيه دلالة على الرسالة المكتوبة، وهي من أدوات التوثيق في التعامل بين الأطراف.
- "باهتَ زيف القوة أمام عظمة الحق" أسلوب بلاغي فيه مقابلة بين القوة الظاهرة والزيف الباطن، وبين الحق الثابت.
- "ملك القلوب" استعارة تشير إلى أن القيادة الحقيقية هي بقيادة القلوب لا بالجبر والسلاح.

فوائد تاريخية

- قبيلة غسان كانت من القبائل العربية التي تنصرت بسبب علاقتها الطويلة مع الروم.
- ملوك غسان كانوا حلفاء للروم، وكانوا يمثلون نفوذًا قويًا في أطراف الشام.
- غزوة تبوك كانت سببًا في زلزلة هيبة الروم، وتهيئة كثير من القبائل للنظر في دعوة الإسلام.
- رسائل النبي صلى الله عليه وسلم، ووفادة القبائل، كانت من أبرز معالم السنة التاسعة للهجرة.
- الوفود كانت وسيلة لانتشار الإسلام في عمق المجتمع العربي، بما فيه من قبائل ذات ولاءات قديمة لغير الإسلام.

مخالفات الواقع

- كثير من دعاة اليوم يُغفلون جانب تعليم من أسلم أو اهتدى، فيُترك بلا رعاية تربوية، فيضعف أو ينتكس.
- بعض من يدخل في الإسلام من أهل النفوذ يُستقبل استقبالًا إعلاميًا أجوف، دون تأسيس علمي أو متابعة.
- تُنسى اليوم معاني التواضع للحق، ويُظن أن الدين يُؤخذ بمنصب أو شهرة، لا بخضوع وصدق.
- ضعف روح البيعة والانتماء الجاد للدين في نفوس كثير من المسلمين اليوم، حتى عند بعض من وُلد مسلمًا.
- قلة من يتعامل مع الداخلين في الإسلام برحمة وتعليم، ويغلب عند البعض الجفاء أو الإهمال.

الفقرة الحادية والعشرون: وفد أزد شنوءة... حين نزلت القمم لتصعد بالإيمان

من أعالي الجنوب العربي، من تلك الجبال التي تنطق بالشموخ، وتروي حكايات المجد في مهب الرياح العاتية، خرج وفدٌ من الأحرار... من **أزد شنوءة**، قبيلةٌ ضربت في العرب بسهمين :**سهم الفصاحة وسهم الكرامة**، حتى قيل إنهم سادة البيان، وأبناء الحكمة، وحملة المجد من اليمن.

لم يأتوا هاربين، ولم يسيروا في أثر الغالبين، بل **أتوا طائعين مختارين**، يحملون في صدورهم لهفة اللقاء، وفي أعينهم نور الترقب، وفي قلوبهم توقٌ إلى الهداية التي أشرقت على ربوع الجزيرة. قادهم **صُرَد بن عبد الله الأزدي**، رجلٌ عرفته القمم، وشهدت له السيوف، ومعه رهط من خيار قومه، **بضعة عشر نفسًا**، كل منهم أشبه بنجم في سماء الفضيلة.

ضيافة الإيمان... حين انسكب النور في القلوب

وصلوا المدينة، فاستقبلهم الصحابي الجليل **فروة بن عمرو رضي الله عنه**، وكأن المدينة كلها خرجت معهم، تُحيّي هذا الوفد الكريم .**أنزلهم كرامًا، وأكرم مثواهم**، وعاشوا في رحابه عشرة أيام، عشرةٌ كانت كافية لأن تنقشع غشاوة الجاهلية، وتنهمر عليهم أنهار الهداية.

فإذا بهم بعد العشرة **رجالًا مؤمنين، يحملون التوحيد في صدورهم، واليقين في عيونهم**، وكيف لا؟! وقد جالسوا الصحابة، واستناروا بنور المدينة، وسعدوا بلقاء نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، فبايعوه على الإسلام، وكان **صُرَد أولهم وأصدقهم**.

النبوة تكرّم وتُكلّف... من البيعة إلى الراية

رأى فيهم النبي صلى الله عليه وسلم **معادن الكرام، وسيوف الحق، ونوايا المجاهدين**، فاختار صُرَدًا أميرًا على من أسلم من قومه، **فالإسلام لا يكتفي بالإيمان، بل يُتوج الإيمان بالعمل والجهاد والدعوة**.

قال له صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الروايات» :يا صُرَد، إنك من الملوك، وإن الله مولاك، فقاتل المشركين بمن أسلم من قومك«

وكانت هذه شهادة نبوية بنبله، وتكليفًا إلهيًّا بالقيام بأمر الله، فلبّى النداء دون تردد، وخرج بالموحدين من قومه، يحملون كتاب الله في صدورهم، والسيوف في أيديهم، إلى **أرض اليمن التي ما زالت فيها حصون للشرك باقية**.

جرش... معركة النور والسيوف

سار صرد حتى نزل بمدينة **جرش**، وهي من مدن اليمن المحصنة، يسكنها قومٌ من خثعم ومشركو اليمن .**دعاهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة**، لكنهم **أبوا واستكبروا**، فحاصرهم شهرًا كاملًا، وأغار على مواشيهم، فبدأ الحصار **يأكل أمنهم وأقواتهم**.

ثم جاء التخطيط الحربي الماكر: انسحب صرد إلى جبل يُقال له **شَكَر (وقيل كُشَر(**، فأوهمهم بالفرار، فخرجوا خلفه في زهو النصر، فلمّا صاروا في العراء، **انقضّ عليهم المسلمون كالسيل، وقاتلوهم قتال الأبطال، حتى نصرهم الله**.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤٩[

وكان النصر لإخوان العقيدة، وانهزم أهل الشرك، وارتجّت حصون جرش تحت أقدام الموحدين.

الوحي يسبق البريد...

وفي المدينة، وفي الوقت ذاته، **كان رجلان من جرش قد سبقوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم**، يريدان أن يُرياه أحوال قومهم، فدخلوا عليه بعد صلاة العصر، فإذا به صلى الله عليه وسلم يسأل سؤالًا يهز القلوب:

»بأي بلاد الله شَكَر؟« قالوا: ببلادنا جبل يُقال له كُشَر. فقال النبي صلى الله عليه وسلم» :ليس بكُشَر، ولكنه شَكَر، وإن بدن الله لتنحر عنده الآن«! هنا ارتجف القادمان، لقد **سبق الوحيُ إليهم بنبأ الهزيمة**، وهم لا يزالون يظنون أن قومهم في منعة، ففزعوا إلى أبي بكر وعثمان، وقالوا: "إن النبي صلى الله عليه وسلم قد نعى إلينا قومنا!"، فقاموا إليه يرجونه أن يدعو لقومهم، فقال» :**اللهم ارفع عنهم.**«

وفي هذه الكلمات النبوية عظمة :**فهو نبي نُصِر على أعدائه، ومع ذلك يسأل الله أن يرحمهم، لعل الله أن يهديهم**.

وحين عاد الرجلان إلى جرش، وجدوا كل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم واقعًا، **فخرج وفد من أهل جرش يسلمون، لا عن خوف، بل عن يقين**، لا عن سيف، بل عن نور سبق السيف.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإسلام دين الفطرة، متى وصل النور إلى القلوب، انقشعت ظلمات الجاهلية مهما عظمت الحضارات أو حصنت القلاع.
- النصر والتمكين بيد الله وحده، لا يرتبط بكثرةٍ ولا عُدّة، وإنما بالتوحيد والإيمان والعمل الصادق.
- النبوة وحيٌ من الله، وتكليفٌ إلهي، لا يُستمد من سلطان الأرض، بل من أمر السماء.
- الإيمان ليس كلمات تُقال، بل هو بيعة صادقة، وتكليف بعمل وجهادٍ في سبيل الله.
- الله سبحانه هو مولى المؤمنين ونصيرهم، يُجري النصر على أيديهم إذا استقاموا على أمره.
- رحمة النبي صلى الله عليه وسلم لم تقتصر على المؤمنين، بل دعا حتى للكافرين برفع العذاب عنهم رجاء هدايتهم.
- سبق الوحي لعلم البشر دليل على صدق النبوة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مؤيَّد من رب العالمين.

فوائد فقهية

- البيعة على الإسلام تشمل الالتزام بجميع شرائعه، لا مجرد النطق بالشهادتين.
- تولية الأمراء في الإسلام ليست على أساس النسب أو الجاه، بل على أساس الإيمان والكفاءة.
- قتال المشركين مشروعٌ بعد دعوتهم، فإذا أصروا على الكفر جاز قتالهم بعد الإنذار.
- الحصار والانسحاب الحربي من وسائل الحرب المشروعة إذا اقتضت المصلحة، بشرط الالتزام بالضوابط الشرعية.
- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم برفع العذاب عن قوم مشركين يُفهم منه جواز الدعاء للمشركين بالهداية والرحمة قبل موتهم.

فوائد أخلاقية

- الإخلاص في الوفادة، والتواضع في القدوم، من علامات صدق النية في طلب الحق.
- من علامات القائد الصادق: الرحمة، والتخطيط، والصبر في الدعوة، والكرم في القيادة.
- كرم الصحابة في استقبال الوفود، وإكرامهم لضيوف الإسلام، مظهر من مكارم الأخلاق الإسلامية.
- الرحمة بالنفوس، والحرص على هدايتها، هي خُلق الأنبياء، لا الغلظة والتشفي عند النصر.
- الشجاعة لا تكون في القتال فقط، بل في الثبات على المبدأ، والمضي في الطريق ولو كان وعراً.

فوائد دعوية

- الوفود من القبائل كانت وسيلة دعوية فعّالة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب.
- استقبال النبي صلى الله عليه وسلم للوفود وتكليفه للرجال بالدعوة دليل على أهمية تنظيم العمل الدعوي وبناء القيادات.
- ربط الدعوة بالجهاد، وتكليف الداخلين في الإسلام بالعمل، منهج نبوي في تنمية الطاقات وتفعيل الإيمان.
- اختيار صُرَد ليكون أميرًا على قومه يُظهر أهمية تمكين الكفاءات الدعوية في مواطنها.
- الدعوة لا تتوقف عند الكلام، بل تحتاج إلى قوة تحميها عند رفض الطغاة والمستكبرين.

فوائد تربوية

- الإقامة في المدينة عشرة أيام غيرت قلوبهم، مما يدل على أثر البيئة الصالحة والصحبة المباركة في تزكية النفوس.
- الإسلام يصنع من كل رجلٍ عادي قائدًا إن التزم بطريق النبوة، وهذا يفتح باب الأمل لكل فرد.
- نُبل صُرَد في تلقي التكليف، وسرعة استجابته، نموذج تربوي للقادة في تحمل المسؤولية دون تردد.
- الحكمة في التعامل مع العدو، والموازنة بين الشدة واللين، تربية عملية للمجاهدين والدعاة.

- قصة الوحي عن جبل شَكَر تربي في المسلم الثقة بأن الله لا يخذله، ولو بعد حين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى.

فوائد لغوية

- الاسم (صُرَد) في اللغة يدل على طائر صغير شجاع، وهذا من باب مناسبة الاسم لحامله.
- استخدام التعبير "فإذا بهم رجالًا مؤمنين" من أساليب التحوّل المفاجئ، وهو من بلاغة التصوير في العربية.
- "النبوة تكرّم وتُكلّف" تركيب بلاغي جمع بين الإعلاء والتكليف في عبارة موجزة، من بديع العربية.

فوائد تاريخية

- أزد شنوءة من القبائل المشهورة في اليمن، ولهم دور بارز في الفتوحات الإسلامية لاحقًا.
- جرش كانت مدينة يمنية محصنة، فيها مشركو خثعم، وكانت مركزًا مهمًا في جنوب الجزيرة.
- قصة الحصار وفتح جرش وقعت في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي من ثمار دعوة الوفود.
- الوحي الذي سبق بذكر جبل "شكر" دلالة على اتصال السماء بالأرض في أدق التفاصيل السياسية والعسكرية في السيرة.

مخالفات الواقع

- إقبال الناس اليوم على الكفر والنفاق العالمي، وتقليد الكفار في سلوكهم دون وعي، بينما وفود القبائل أسلمت من نورٍ لا من سيف.
- تولي غير الأكفاء مناصب الدعوة والقيادة في زماننا، بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يولِ إلا من رأى فيه الإيمان والكفاءة.
- ضعف أثر الصحبة اليوم، مع كثرة من يعيش بين الصالحين دون أن يتغير، بينما عشرة أيام في المدينة غيّرت الوفد كله.
- قلة التخطيط في العمل الدعوي والعسكري، بينما خطة صُرَد كانت مزيجًا من الحكمة والشجاعة والإخلاص.
- ندرة الدعاء بالرحمة لأعداء الإسلام في الدعوة اليوم، خلافًا لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا لأهل جرش بالرفع لا بالهلاك.

الفقرة الثانية والعشرون: وفد أزد عُمان... من وهج الرمال إلى وحي السماء

في جنوب الجزيرة، حيث تمتدّ الرمال الذهبية كأنها صفحات لم تُكتب بعد من كتاب الهداية، وتلامسها الشمس كل صباح وكأنها تُلقي عليها سلامًا من السماء، بزغ فجر جديد في عُمان... فجرٌ ليس من نور الشمس، بل من نور الوحي والحق المبين.

هناك، حيث كانت الصحراء تنقّي الأرواح كما تنقّي الرمال حباتها، انطلقت رسالة من طيبة الطيبة، تحملها يد صدق، ويمضي بها قلب ملؤه اليقين... عمرو بن العاص رضي الله عنه، رسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى ملكي عُمان :جيفر وعبد، ابني الجُلندى، من سادة الأزد وفرسان المجد.

فما إن وصلتهما رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حتى فاضت القلوب خشوعًا، وكأن الكلمات لم تكن كلمات، بل سهامًا من نور تخترق حجارة الشكوك لتزرع في قلوبهم الإيمان.

قرأ عمرو بن العاص الرسالة بصوت يقطر هيبةً ونورًا، وقال في بعضها كما رواه البيهقي بسند حسن:

"من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام: أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًا، ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام، وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على ملككما."

فما هي إلا لحظات حتى انقادا لدعوة الحق، وأسلم الملكان طوعًا، لا رهبةً من سيف، ولا طمعًا في دنيا، بل إذعانًا لنورٍ أضاء ما بين السماء والأرض. ثم تبعتهم القبائل، ودخل أهل عُمان في دين الله أفواجًا، كما قال الله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١-٣.]

وتوالت بشائر الخير، فجاءت وفود الأزد تطرق أبواب النبوة في المدينة، يحدوها الشوق للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعزم على التشرّف بالأخذ عنه مباشرة، فلقد آمنوا أن السمع من فمه الشريف صلى الله عليه وسلم كأنما يُسقى القلب من نبع الجنة.

جاء أسد بن بيرح الطاحي، من خيار رجالهم، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم من يعلّمهم الدين ويقيم فيهم شرائع الرحمن، فاستجاب لهم الحبيب، وأرسل معهم العارفين بالقرآن والفقه ليكونوا نورًا في أرض النور.

ثم أتى سلمة بن عياذ الأزدي يسأل عن الإسلام، فلما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، وكلامًا لو نزل على جبل لتصدّع، أسلم في الحال، وأسلم معه قومه من دون تردّد، فقد أشرقت قلوبهم قبل أن تشرق شمس الإيمان عليهم.

أما مازن بن غضوبة، فرحلته مع الهداية تُدوَّن بماء الذهب؛ إذ رأى في صَنَمه -الذي طالما ظنه آلهة- صوتًا يهتف به أن: قم واطلب التوحيد، واهجر عبادة الأوثان! فشدّ الرّحال بنفس مؤمنة، وسار نحو المدينة النبوية، وهناك، بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، انشرح صدره، وأشرق قلبه، وأعلن إسلامه. ثم عاد إلى بلاده، ليس كما خرج، بل عاد داعيةً ومعلّمًا، وكان أول من أسلم من أهل عُمان، وهو الذي أسس أول مسجد فيها، مسجد المضمار في ولاية سمائل، ليبقى شاهدًا على أول خطى النور في تلك الأرض الطيبة.

ويا لسَعادة الوفادة! ويا لِعِطر المدح النبوي الذي زكّى ذكر الأزد! فقد أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثناءً يفوح طيبًا في الآفاق، فقال كما في *صحيح ابن حبان* وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه:

"نِعْمَ القومُ الأزد، طيبةٌ أفواهُهم، برّةٌ أيمانُهم، تقيةٌ قلوبُهم، نصروا النبي صلى الله عليه وسلم، وحسنوا في الإسلام."

وقال أيضًا" :الأزدُ مني وأنا منهم، أُغضب لهم إذا غضبوا، وأرضى لهم إذا رضوا] "رواه ابن ماجه[بسند ضعيف .و الصحيح ما رواه الترمذي وأحمد وصححه الألباني" :**الأمانةُ في الأَزدِ، والحياءُ في قُريشٍ)**

بل بلغ من محبته لهم أن قال كما في *مسلم*" :لو أن أهل عُمان أتيت، ما سبّوك ولا ضربوك."

فأي فخر هذا؟! وأي مجدٍ أعظم من أن يُباهي بك النبي صلى الله عليه وسلم، ويُثني عليك بهذا الثناء؟! لقد صافحت يدُ الأزد يدَ النبوة، وأصغت قلوبهم لوحي السماء، فاندرجوا في سلك النور، وكانوا من المصطفَين السابقين.

فهنيئًا لعُمان وأزدها، شرف الإيمان، ووسام المدح النبوي، وعبق الوفادة التي خلدها التاريخ، وباركها الله في السطور والصدور.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية.

- في قصة وفد أزد عُمان ما يدل على أن الإيمان الحق إذا بلغ القلوب الصادقة، أزال عنها ظلمات الجاهلية، ولو كانت مستقرّة في أوهام الأوثان والصور.

- الرسالة النبوية الموجهة إلى ملكي عُمان تضمنت تقرير التوحيد ووجوب الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، مع بيان أن الكفر مآله الزوال، وأن الدين الحق هو الإسلام.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم في الرسالة: "أسلما تسلما"، فيه دلالة على أن السلامة الحقيقية لا تكون إلا بالدخول في الإسلام، وأن النجاة لا تحصل إلا لمن اتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

- إذعان ملكي عُمان للحق دون سيف ولا ضغط يدل على أن الفطرة السليمة إذا بلغتْها دعوة التوحيد الصافية، انقادتْ لها دون تردُّد، وهذا من دلائل صدق النبوة.

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للمعلمين مع الوفود يُظهر أن الإسلام ليس مجرد دعوة اسمية، بل دين علم وتعليم، وأن الإيمان الصحيح يقوم على العلم بالقرآن والشرائع.

- إيمان مازن بن غضوبة بعد رؤيا توحيدية، ثم ذهابه بنفسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يرسّخ أن التوحيد لا يستقر في القلب إلا إذا طُلب بإخلاص وتجرد، وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الشورى: ١٣].

- مدح النبي صلى الله عليه وسلم للأزد فيه إثبات لمحبة النبي لأهل التوحيد الخالص، وفيه تأصيل لمبدأ الولاء الإيماني على أساس الدين لا العصبيات.

فوائد فقهية

- في إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للمعلمين مع الوفود، ومنها وفد الأزد، تقريرٌ لأصل عظيم في الفقه، وهو وجوب التعليم بعد الدخول في الإسلام، وأن على الدولة المسلمة أن ترسل العلماء والمعلمين إلى الأماكن الجديدة.

- تضمُّن الرسالة النبوية بيانًا للسياسة الشرعية، حيث جمع فيها بين الدعوة بالحكمة، والإنذار بالعاقبة، وهذا من أصول فقه الدعوة.

- ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من مكاتبة الملوك، وإرسال الرسائل الرسمية إليهم، هو من أصول المعاملة السياسية في الإسلام.

- طلب أسد بن بيرح الطاحي من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم من يعلّمهم، يدل على مشروعية طلب المعلم والداعية، وأن الجماعة المسلمة يجب أن تطلب العلم وتؤسّس له.

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للقراء والفقهاء يُعد تأصيلًا لتوظيف أهل العلم في وظائف التعليم والإرشاد لا مجرد الإقامة والقيادة.

- تأسيس مازن بن غضوبة لأول مسجد في عُمان يدل على أن بناء المساجد من أول واجبات الجماعة المسلمة في أي بقعة جديدة.

فوائد أخلاقية

- انقياد الملوك للحق دون تكبر فيه تأديب لأهل النفوذ في كل زمان، أن لا يمنعهم جاههم ومقامهم من الانصياع لدعوة الله.

- مدح النبي صلى الله عليه وسلم للأزد بصفات: طيبة أفواههم، برة أيمانهم، تقية قلوبهم، يدل على أن الإسلام يُزكّي الأخلاق ويهذّب الطباع.

- وفادة الأزد على النبي صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وطلبهم المعلمين، يدل على حرصهم على الخير، واستشعارهم مسؤولية الدعوة في قومهم.

- مازن بن غضوبة لما رأى ضلال عبادة الأصنام لم يُكابر، بل ترك ما ألفه قومه، وسعى للحق، وهذه منزلة عظيمة في التجرد لله.

- وصف النبي صلى الله عليه وسلم لهم بأنهم لا يسبّون ولا يضربون يدل على أن الإسلام يحبب في الرفق، وينبذ طباع الغلظة.

فوائد دعوية

- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للرسل إلى الملوك فيه دلالة على أن الدعوة يجب أن تصل لأصحاب التأثير أولًا، لما في هدايتهم من أثر في أقوامهم.

- استعمال النبي صلى الله عليه وسلم للخطابات المكتوبة، وتذييلها بالتحذير، فيه تنبيه للدعاة على الجمع بين الترغيب والترهيب.

- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تقتصر على العرب بل وصلت إلى الملوك في مشارق الأرض ومغاربها، مما يؤصل عالمية هذا الدين.

- إرسال من يُعلّم القرآن والشرائع مع الوفود يدخل في التخطيط الدعوي البعيد، لا الاكتفاء بالبلاغ اللحظي، بل تأصيل التربية.

فوائد سياسية وتربوية

- قبول الملوك للدعوة وانقيادهم السلمي لها يدل على إمكانية دخول الشعوب في الإسلام دون حرب، وأن قوة الحجة مقدمة على حجة القوة.

- استجابة النبي صلى الله عليه وسلم لطلب التعليم، مع إرسال معلمين، يمثل النموذج المثالي لتكامل القيادة النبوية بين السلطة والتربية.

- تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لمن نصره وآمن به مبكرًا يُنشئ ولاءً إيجابيًّا بين القيادة والناس، ويصنع أمة مترابطة بالتقدير والوفاء.

مخالفات الواقع

- أصحاب النفوذ والسلطة والتأثير كثير من المتنفذين(أصحاب النفوذ والسلطة والتأثير) في زماننا يَرَون في الدعوة الدينية تهديدًا لمصالحهم، فيرفضونها لا عن جهل، بل عن كبرياء وحبٍّ للنفوذ.

- كثير من البلاد التي يدخلها الإسلام اليوم لا ترسل لها الدول علماء لتعليم الناس، فيُتَرَكون بلا توجيه أو على مفاهيم خاطئة.

- غابت عن بعض الجماعات والدول سُنّة إرسال المعلمين والفقهاء إلى من يدخلون في الإسلام، فكأن الدعوة تنتهي عند النطق بالشهادتين.

- في زماننا كثير من الناس يتعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم كرمز تاريخي لا كقائد مُتّبع، فلا ينظرون إلى سنّته إلا على سبيل التبرك لا الالتزام.

- بدلًا من أن يُمدح أهل التقوى كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، صار يُمدح أصحاب المال والمظاهر، ولو كانوا على فجور.

- لم يعد هناك حرص شعبي عام على تأسيس المساجد وتعليم القرآن كما فعل مازن بن غضوبة، بل أُهملت هذه المعاني في زحمة الحياة المادية.

الفقرة الثالثة والعشرون :وفد تجيب... وجوهٌ أشرقت بالإيمان، وقلوبٌ ملأها نور اليقين

في فجرٍ من أفجر الطاعة، وعلى بساطٍ من الإخلاص والعزيمة، ارتفعت أقدامُ وفدٍ من قبيلة تجيب، تشقُّ الرمال والوديان لا طلبًا للدنيا، ولا سعياً وراء جاه، بل يحملهم الشوق إلى وجه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ويحدوهم اليقين إلى حضرة من بُعث رحمةً للعالمين.

جاءوا المدينة المنوّرة، مدينة النور والإيمان، وما كانت رحلتهم قصيرة المسافة فحسب، بل كانت عظيمة الغاية، رفيعة النية؛ جاءوا وفي أعينهم بريق المحبة، وعلى وجوههم أثر الخشوع، وفي أيديهم صدقاتهم التي فرضها الله تعالى عليهم، وقدّموها بلا منٍّ ولا تباطؤ، بل قالوا بلسان العابد الخاشع:
"يا رسول الله، سقنا إليك حق الله في أموالنا".

فتلقّاهم النبي صلى الله عليه وسلم ببِشر المحبة، وكرم المضيف، وأشعة الرضا تغمر وجهه الطاهر، ثم قال لهم:
"ردّوها، فاقسموها على فقرائكم".

لكنهم، وقد تشرّب الإيمان قلوبهم، وذاقوا حلاوة اليقين، أجابوا بعبارات تصعد في مدارج الصدق:
"ما قدمنا عليك إلا بما فَضَل عن فقرائنا".

فنظر إليهم الصدِّيق رضي الله عنه وقد أشرق قلبه سرورًا، ثم قال:
"يا رسول الله، ما قدم علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحيّ من تجيب"!

فأقرّ النبي صلى الله عليه وسلم شهادته، وقال قولًا عظيمًا، يُعلِّق القلوب بربها، ويُعرّف النفوس بمصدر كل هدى:
"إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد الله به خيرًا شرح صدره للإيمان".
وهو مستلهم من قوله تعالى}:فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام] {الأنعام: ١٢٥.[

ولم يكن مقامهم في المدينة مقام زائرٍ عابر، بل مقام تلميذٍ متعطّش، تفيض نفسه بالرغبة في التعلّم والفقه، فأقاموا أيامًا يسألون عن القرآن، ويتلقّون السنن، ويرتشفون من معين النبوة الصافي، والنبي صلى الله عليه وسلم يزداد حبًّا لهم وإعجابًا بحسن سمتهم وصدق نواياهم، حتى أمر بلالًا رضي الله عنه أن يكرم وفادتهم، ويُعلي منزلتهم.

لكنهم لم يطيلوا البقاء، فما جاءوا طلاب دنيا، بل رُسُل هدى إلى قومهم. قالوا وقد سُئلوا عن سرعة عودتهم: "نرجع إلى من وراءنا، فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلامنا إيّاه، وما ردّ علينا".

فلما آن أوان الوداع، أكرمهم النبي صلى الله عليه وسلم إكرامًا لم يُعطَ أحدًا قبله، ثم سألهم: "هل بقي منكم أحد؟" قالوا: غلامٌ خلّفناه على رحالنا، وهو أحدثنا سنًّا.

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه، فجاء الغلامُ الطيب النفس، لا يسأل مالًا، ولا جاهًا، بل قال من قلبٍ صافٍ: "يا رسول الله، إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، إنما أسألك أن تسأل الله أن يغفر لي، ويرحمني، ويجعل غناي في قلبي".

فاستجاب له النبي الرحيم، ورفع كفّه المباركة، وقال" :اللهم اغفر له، وارحمه، واجعل غناه في قلبه".
وهكذا صدق في قول النبي صلى الله عليه وسلم" :ليس الغِنى عن كثرة العرض، ولكن الغِنى غِنى النفس) ".رواه البخاري ومسلم.

ومضى الزمن، حتى لقي النبي صلى الله عليه وسلم الوفد مرة أخرى في منى، في حجّة الوداع، فبادرهم بالسؤال عن الغلام، فقالوا" :يا رسول الله، ما رأينا مثله، ولا أحدًا أقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا، ما نظر نحوها ولا التفت إليها". فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم" :الحمد لله، إني لأرجو أن يموت جميعًا". فتعجّب أحدهم وسأله: أوَ ليس يموت الرجل جميعًا؟ فأجاب المعلم المربي صلى الله عليه وسلم إجابةً تُفَسّر حال كثير من الناس:
"تشعّب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك".

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واشتداد الفتنة في اليمن، وارتداد كثير من قبائلها، ثبت ذلك الغلام اليافع، كالجبل لا تهزّه الأعاصير، فقام في قومه واعظًا وذاكرًا، يُذكّرهم بالله، ويثبّتهم على الإسلام، حتى لم يرتدّ منهم أحد.

فأثنى عليه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وأوصى عامله زياد بن لبيد قائلاً" :أكرمه، وأحسن إليه، فإن له قدم صدق".

فما أعظم صدقة القلوب إن صفت، وهمة العقول إن سمت، ووفاء الأرواح إن ثبتت.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان الحق يُشرق على الوجوه ويملأ القلوب نورًا، ومن دلائله أن يحمل الإنسان صدق النية في السير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لدنيا يصيبها بل لطلب الهدى، وفي هذا تصديق عملي بأن الهداية من الله وحده.

- توجيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن الهدى بيد الله، وتعليقه صلى الله عليه وسلم الأمور بمشيئة الله، فيه إثبات أن الله هو الهادي، لا يملك أحد أن يهدي أحدًا إلا بإرادة الله، وهذا من تمام التوحيد في باب الأسماء والصفات.

- قبول النبي صلى الله عليه وسلم صدقات وفد تجيب ثم ردها عليهم ليقسّموها على فقرائهم، فيه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتصرّف من تلقاء نفسه، بل بهدي من ربه، وهو عبد رسول لا يُحلّ ولا يُحرّم إلا بما أمره الله.

- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم للغلام بالمغفرة والرحمة و"أن يجعل غناه في قلبه" فيه تأصيل أن الله هو الذي يغني ويفقر، وأن الغنى الحقيقي غنى النفس لا المال، وهذا مرتبط بتوحيد الربوبية.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأرجو أن يموت جميعًا" ثم بيانه أن بعض الناس تتشعّب بهم الأهواء، يدل على أن فساد القلب بالأهواء يقطّع صاحبه، ويخرجه عن كمال الإيمان، وهذا من دقائق العقيدة في مسألة اتباع الهوى.

- ثبات الغلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في زمن الاضطراب من دلائل صدق الإيمان، إذ إن الثبات عند الفتنة من علامات الهداية والاصطفاء، والله يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت.

فوائد فقهية

- في إرسال وفد تجيب صدقاتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم دليل على مشروعية بعث الزكاة إلى الإمام أو نائبه، وأن من الفقه أن تُجمع لتُصرف في مصارفها الشرعية.

- رد النبي صلى الله عليه وسلم الصدقات إليهم، وتوجيهه لهم أن يقسّموها على فقرائهم، يدل على تقديم فقراء البلد في استحقاق الزكاة.

- إقامة الوفد في المدينة لتلقي القرآن والسنة دليل على استحباب الرحلة لطلب العلم، وفضل ملازمة العلماء لأجل التفقه في الدين.

- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم للغلام بالرحمة والمغفرة دليل على جواز الدعاء للمسلم بمثل ذلك، وأن الطلب المشروع هو ما كان متعلّقًا بالآخرة لا حظوظ الدنيا.

- قول أبي بكر الصدّيق في وصيته لعامله: "أكرمه، وأحسن إليه" فيه دليل على مشروعية إكرام من له بلاء في نصرة الدين وثبات على الحق.

- عدم سؤال الغلام مالًا رغم صغر سنّه، وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء، يدل على أن الزهد محمود، ولو كان السائل فقيرًا.

فوائد أخلاقية

- وفد تجيب أظهروا إخلاص النية، وصدق الطلب، وترك الرياء والمنّ، وهذه صفات المؤمن الصادق الذي لا يبتغي إلا وجه الله.

- بريق المحبة في أعينهم، والخشوع في وجوههم، وصدق القول في لسانهم، كل ذلك يدل على جمال الأخلاق حين تكون نابعة من الإيمان.

- إعجاب النبي صلى الله عليه وسلم بسمتهم، وتقديره لصدق نواياهم، يعلّمنا أن حسن الخلق له مكانة عظيمة عند الله وعند رسوله.

- الغلام الذي لم يسأل مالًا، بل سأل الدعاء، ثم لم يتعلق بالدنيا بعد ذلك، نموذج راقٍ للرضا والقناعة، وغنى النفس، والتعفف.

- ثبات الغلام وقت الفتنة، وقيامه مقام الواعظ، يرسّخ قيمة المسؤولية والثبات والنصح للأمة، وعدم الانجراف مع التيارات عند الشدائد.

فوائد دعوية وتربوية

- رجوع الوفد إلى قومهم بسرعة ليخبروهم بما رأوه وسمعوه، يعكس روح البلاغ والرسالة، وأن الداعية لا يحتكر العلم بل يسعى لنشره.
- إقامة الوفد عند النبي صلى الله عليه وسلم لأيام في تعلّم القرآن والسنن، فيها تأكيد على ضرورة التلقي عن العلماء الربانيين وعدم الاستعجال.
- موقف الغلام حين قال: "إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي"، فيه درس في التفرّد بالنية والهمة العالية، وطلب ما يبقى لا ما يفنى.
- النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل عن الغلام بعد مدة، يعلّم الدعاة أهمية المتابعة والسؤال عن أحوال المدعوين، لا الاكتفاء باللقاء الأول.
- وصية أبي بكر الصدّيق بإكرام الغلام تدل على أهمية حفظ المعروف والاعتراف بالفضل، وهذه قيمة تربوية عالية.

ما يخالف الواقع

- في زماننا من يسافر لأجل الدنيا والتجارة والسياحة، ويغيب عن طلب العلم وزيارة أهل الفضل، بينما وفد تجيب شدّوا الرحال طلبًا للهداية.
- كثير من الناس اليوم يقدمون الصدقة مع المنّ والتأفف، أما وفد تجيب فقدموا صدقاتهم بلا تباطؤ ولا مِنّة، بل بصدق وخشوع.
- في واقعنا من يطلب الدنيا من أهل العلم، ويتزلف للوجهاء، ويُظهر الحاجة، بينما غلام تجيب لم يسأل مالًا بل سأل دعاءً بالرحمة والمغفرة.
- يلهث الناس اليوم خلف المال والمظاهر، ويشكون من الفقر رغم ما عندهم، بينما الغلام عاش غني النفس، قانعًا بما أعطاه الله، لم يلتفت إلى الدنيا.
- عند كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم تجد عند الفتنة انقلابًا، وتلوّنًا، وانخداعًا بالشعارات، بينما الغلام ثبت وقت الردة، وقاد قومه للثبات.

الفقرة الرابعة والعشرون: قدوم الجارود بن المعلّى وسلمة بن عياض: مسيرة قلبين نحو النور

في زمنٍ كانت فيه الأرض تغطُّ في ظلمات الوثنية، ويعلو صوت الجاهلية، كان هناك رجال يقرؤون في الكتب القديمة بشاراتٍ عن نبي آخر الزمان، يحمل في يمينه نورًا، وفي يساره رحمة، يملأ الأرض عدلًا بعدما مُلئت جورًا.

فنهض من أرض عبد القيس فارسٌ يحمل في قلبه رجاءً صادقًا، هو الجارود بن المعلّى، وقد كان نصرانيًّا قرأ الإنجيل وسمع نداء الروح، ورافقه في رحلته المباركة سلمة بن عياض الأسدي، فتحالفا لا على دمٍ كما تفعل الجاهلية، بل على طلب النور، والسبق إلى الهداية.

قال الجارود لصاحبه في لحظة صدق:
"إن خارجًا خرج بتهامة يزعم أنه نبي، فهل لك أن نخرج إليه؟ فإن رأينا خيرًا دخلنا فيه، فإن كان نبيًّا فللسابق إليه فضيلة، وأنا أرجو أن يكون النبي الذي بشّر به عيسى ابن مريم".

وانطلقا من أرض الشرق إلى يثرب، يشقان الطريق على جَمر الترقّب، كلٌّ منهما يحمل في صدره ثلاث مسائل، لم يُطلِع بها رفيقه، يتوسّلان بها إلى التثبّت من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن هو أجابهما بما في سريرتهما، فلا شك أنها النبوة التي لا يخطئها القلب.

فلما بلغا المدينة، ودخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سأله الجارود" *بِمَ بعثك ربك يا محمد؟*"
فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تناثرت من كلامه لآلئ النور، فقال:

"بشهادة أن لا إله إلا الله، وأني عبد الله ورسوله، والبراءة من كل ندٍّ أو وثنٍ يُعبد من دون الله تعالى، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت. {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦"].

فقال الجارود" *إن كنت نبيًّا، فأخبرنا بما أضمرناه في صدورنا*".
وهنا غشِيَ النبي صلى الله عليه وسلم شيءٌ كالسِّنة، ثم رفع رأسه، وعرقُه يتقاطر على وجهه الطاهر، فإذا به يقول في يقين النبوة وعزة الوحي" :أما أنت يا جارود، فقد أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية، وعن حلفها، وعن المنيحة.
ألا وإن دماء الجاهلية موضوعة، وحلفها مشدود لم يزده الإسلام إلا شدّة، ولا حلف في الإسلام.
ألا وإن الفضل الصدقة، أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة، فإنها تغدو برفد وتروح بمثله".

ثم التفت إلى سلمة وقال :وأما أنت يا سلمة، فقد أضمرت أن تسألني عن عبادة الأصنام، وعن يوم السباسب، وعن عقل الهجين.
أما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: ٩٨.]
وأما يوم السباسب، فقد أعقب الله منه ليلة خير من ألف شهر، فاطلبوها في العشر الأواخر من رمضان، فإنها ليلة بلجة، سمحة، لا ريح فيها، تطلع الشمس في صبيحتها لا شعاع لها.
وأما عقل الهجين، فإن المؤمنين إخوة، تتكافأ دماؤهم، يجير أقصاهم أدناهم، وأكرمهم عند الله أتقاهم".

فما إن فرغا من سماع الجواب حتى تهللت وجوههما بنور الإيمان، وقالا بملء يقينهما:
"*نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله*".

وأكرمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجازهما بما يليق بكرامة السابقين، فقد دخلا الإسلام لا تقليدًا، بل عن تدبّر وتمحيص، فرزقهما الله نورًا في القلب، وبركة في السير، وكان قدومهما من الشواهد العظيمة على صدق الرسالة وامتداد الهداية، وقد صدق الله وعده} :**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**] {محمد: ١٧.]

الدروس المستفادة من الفقرة .

فوائد عقدية

- الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا يُبنى على العاطفة أو الهوى، بل على النظر والتفكر في دلائل النبوة، ومن أعظمها موافقة خبره لما أخفاه الناس في صدورهم، وهذا من دلائل صدقه صلى الله عليه وسلم، ومن خصائص الوحي.

- الإسلام دين التوحيد الخالص، وأول ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم هو الشهادة لله بالوحدانية، ونبذ كل ندٍّ أو وثن، وهذا أصل العقيدة وأساس النجاة.

- معرفة الجارود بن المعلّى ببشارة عيسى بن مريم بنبي آخر الزمان، وتصديقه بهذه البشارة، دليل على أن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جزء من الإيمان الحق بعيسى عليه السلام، كما جاء في النصوص القرآنية.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن دماء الجاهلية موضوعة" فيه بيان لعظيم عدل الإسلام، وأنه ينسخ الباطل والظلم، ويقيم العدل، وهذا من كمال شريعة الله.

- معرفة النبي صلى الله عليه وسلم لما أضمره الرجلان في صدريهما دون أن ينطقا به، دليل على صدق نبوته، إذ لا يعلم الغيب إلا بوحي من الله.

- الآية {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} تقرر مبدأ البراءة من الشرك وأهله، وتغرس في القلب اليقين بعاقبة المشركين، وهو من أصول العقيدة في الولاء والبراء.

فوائد فقهية

- بيان النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه الله به: الشهادة، الصلاة، الزكاة، الصيام، والحج، فيه تأكيد على أركان الإسلام الخمسة كأساس عملي للدين.

- ردّ النبي صلى الله عليه وسلم على مسألة المنيحة بقوله إن الفضل فيها صدقة، يعلمنا أن أعمال البر الصغيرة، كمنح ظهر الدابة أو لبن الشاة، تُعد من الصدقة الجارية.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويجير أقصاهم أدناهم" فيه تقرير قاعدة المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات، ومنها ما يتعلق بالديات والضمانات.

- نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الحلف في الإسلام، مع تأكيده على الحلف السابق بين القبائل إذا كان فيه نصرة للحق، فيه دلالة على أن الإسلام يُقِر ما وافق مقاصده، ويردّ ما خالفها.

- حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر وتوصيفها بدقة، يدل على مشروعية تحريها في العشر الأواخر من رمضان، واستحباب الاجتهاد في تلك الليالي.

- التأكيد على إيتاء الزكاة بحقها، يدل على أن الزكاة ليست فقط أداءً شكليًا، بل لا بد أن تؤدى وفق شروطها ومقاصدها.

فوائد أخلاقية

- الجارود وسلمة تركا الجاهلية، وسافرا طويلًا بحثًا عن الحق، وهذا نموذج في الصدق والإخلاص في طلب الهدى.

- صدق النية في المسير إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وتحريهم الحق دون إخبار أحد بالمسائل الثلاث، فيه تجرّد لله، وبعد عن الرياء.

- قبول الحق عن اقتناع بعد سؤال وتثبت، وعدم اتباع الهوى أو التقليد، يدل على فضيلة التبصر وعدم التعجل.

- قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الفضل في المنيحة يدل على علو خُلق الإيثار، وأن الكرم لا يُقاس بعظم العطاء، بل بنية المعطي.

- تهلل وجهيهما بنور الإيمان بعد جواب النبي صلى الله عليه وسلم، يدل على أثر الإيمان في إشراق الوجه، وراحة القلب.

فوائد دعوية وتربوية

- استبشار النبي صلى الله عليه وسلم بقدوم الجارود وسلمة، وتلطفه في الإجابة، يُعلّم الدعاة ضرورة حسن الاستقبال لمن يبحث عن الحق.

- معرفة النبي صلى الله عليه وسلم بمقاصد السائلين وتفصيله في الرد، تبرز أهمية الفقه في الدعوة، والجواب بما يناسب حال المدعو.

- فتح المجال للأسئلة حتى في الأمور التي وقعت في الجاهلية، دليل على أن الإسلام لا يمنع من السؤال، بل يهذب غايته ويوجهه إلى العلم.

- تأصيل مبدأ التكافؤ والمساواة بين المؤمنين، من خلال قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمنون إخوة"، فيه توجيه دعوي للتماسك المجتمعي بين المسلمين.

- مدح السابقين إلى الإسلام وتكريمهم يرسّخ في النفس أهمية السبق إلى الطاعة، وأن من بادر فله أجر وفضل على من جاء بعده.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يُعرضون عن البحث عن الحق، ويستسلمون لما عليه الآباء والمجتمع، بينما الجارود وسلمة تجاوزوا ثقافتهم وديانتهم طلبًا للهدى.

- أصبح السؤال اليوم في كثير من المجالس للدنيا والمنافع، لا للتثبت من أمر الدين، بينما هؤلاء جاءوا وفي قلوبهم ثلاث مسائل تتعلق بالعقيدة والمنهج.

- قلّ في هذا الزمان من يُسافر لطلب العلم أو التثبت من الحق، بل يسافر الناس اليوم للهو والسياحة، ولا يعبؤون بأمر الهداية.

- بدل أن يطلب كثير من الناس في زماننا المنيحة والرفد لأخيه المسلم، نرى الشحّ والتقاتل على الدنيا، وتقديم المصلحة الخاصة على العامة.

- مبدأ "المؤمنون إخوة" غاب في مجتمعات كثيرة، وبرزت العصبيات الحزبية، والقبلية، والمناطقية، على حساب وحدة الصف الإسلامي.

- في تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم أن العبادة لغير الله مصيرها إلى النار، ردٌّ على غلاة الصوفية الذين يعبدون الأولياء ويدعونهم مع الله، ويزعمون أنهم وسائط، وهم في الحقيقة مشركون في العبادة.

- تأكيده صلى الله عليه وسلم أن دماء الجاهلية موضوعة، بخلاف الخوارج الذين يرون الدماء وسيلة للدين، فيستحلون قتل الناس بغير حق باسم الدين، بينما النبي صلى الله عليه وسلم نبذ دماء الجاهلية، وجاء بالرحمة.

- بيان تكافؤ دماء المؤمنين وتآخيهم في الإسلام، فيه رد على من يفرّق بين المسلمين بالإيمان الظاهري أو الأعمال القلبية وحدها كما تفعل **المرجئة**، الذين يُقصِرون الإيمان على المعرفة دون العمل أو الانقياد.

الفقرة الخامسة والعشرون: وفادة الحارث بن حسان البكري: حين تنطق الصحراء بالحكمة

في صفحات السيرة المضيئة، تتجلّى مواقف تكتبها الأقدار بحروف من نور، ويكون أبطالها رجالًا لم تمنعهم كثافة الرمال، ولا بعد المسافات، من أن يسيروا إلى النور، يحملون قلوبًا فيها نبض الرجاء وضياء الفطرة، ومن هؤلاء **الحارث بن حسان البكري**، أحد وفود العرب إلى سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

امتطى الحارث صهوة دابته، يقطع الصحارى القاحلة، يشكو مظلمةً وقعت من **العلاء الحضرمي**، فكان يريد أن يُفرغ ما في صدره أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكنه في طريقه، عند **الرَّبذة**، إذا بعجوز من بني تميم قد انقطع بها السفر، قد أعجزها الدرب، وهدّها التعب، فاستغاثت به، تستأذنه أن يبلغ بها النبي صلى الله عليه وسلم، فما تردد، بل **أضاءت نخوته بريقًا في صحراء الجفاء**، فحملها على دابته، وواصل السير وهو يُطوي الأرض طيًّا كأنما تحمله الرحمة لا الدابة.

فلما دخل المدينة، وجد المسجد يعجُّ بالوجوه النورانية، و**راية سوداء تخفق في الأفق**، وبلال بن رباح رضي الله عنه متقلّد سيفه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستعدّ لإرسال سرية بقيادة **عمرو بن العاص** رضي الله عنه.

فما إن سلّم الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أذن له بالدخول، ونظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم بعين الحكمة وسأله"**:هل كان بينكم وبين تميم شيء؟"**
قال الحارث: نعم، وكانت لنا الغلبة عليهم. ثم قصّ عليه خبر العجوز، فأذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدخول، في مشهد من مشاهد الرحمة والعدل.

ثم سأل الحارث النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل **"الدهناء"**، وهي أرض فلاة، فاصلاً بين قومه وقوم تميم، كحدٍ جغرافي يمنع الاحتكاك، فما إن سمعته العجوز حتى هبّت كأنما شبّت فيها الحياة من جديد، وقالت بحدةٍ ظاهرة:
"يا رسول الله، فأين يضطرّ مُضَرُك؟ "!وكان في سؤالها فطنة سياسية، تنبئ عن وعي العجائز العاقلات.

وإذا بالحارث يشعر أنه أدخل نفسه في مأزق، فاستعان بحكمة المثل، وقال:
"إن مثلي كما قال الأول: مِعزى حملت حتفها، حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا! أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد"! فانتبَهت العجوز وقالت" **:وما وافد عاد؟"**
ولم تكن تجهل خبره، لكنها أرادت أن تُسمعه يُحسن الحكاية. فأخذ الحارث يقصّ ما حفظته العرب عن عبرة قوم عاد، فقال:

"إن عادًا لما أقحطوا، أرسلوا وافدًا يستسقي لهم، فنزل على معاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا، يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان، يقال لهما الجرادتان.
فلما انقضى الشهر، خرج إلى جبال مهرة، فرفع أكفّه إلى السماء وقال:
اللهم إنك تعلم أني ما جئت لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، إنما جئت لأسقي قومًا عطاشًا.
فمرّت به سحابات سود، فنودي منها: 'اختر'. فاختار إحداها، فقيل له: 'خذها رمادًا ورَمَدَدًا، لا تبقِ من عاد أحدًا'.
فأرسل الله عليهم ريحًا صرصرا عاتية، أهلكتهم عن بكرة أبيهم".

فقالت العرب بعد ذلك قولتها الشهيرة، التي خلّدها التاريخ عبر الأجيال" **:اللهم لا تجعلنا كوافد عاد".**

وهكذا رجع الحارث وقد حمل في قلبه دروسًا، ما كان له أن يتلقاها من غير معلم النبوة، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي جعل من كل موقف فرصة للتعليم، ومن كل وفد منبرًا للهداية.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تظهر في وفادة الحارث بن حسان البكري دلائل واضحة على أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، بل يسوس الأمة بوحيٍ من الله، فتدل أسئلته وأحكامه على النبوة والربانية في التوجيه.
- الرد الحكيم من النبي صلى الله عليه وسلم في مشهد العجوز، وتقديره لكلامها، يكشف عن كمال العدل في شريعته، وأنها شريعة تُنصف حتى المستضعفين، وهو ما يدل على أن العدل أصلٌ من أصول دين الله.
- دعاء وافد عاد وإهلاك الله لهم يدل على إثبات صفة العدل والحكمة لله تعالى، وأن الدعاء لا يُقبل من فاسقٍ مُخادع، ويُستنبط منه خطر الاستهزاء بمقامات الدعاء، مما يؤكد أن الله يسمع ويرى ويُجازي بالحق.
- في قول الحارث: "أعوذ بالله ورسوله" استدلال من السلف على جواز التوسل إلى الله بمحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وبالبراءة من معصيته، لا بذاته، مما يُبيّن خطأ غلاة المتصوفة الذين يُغْلون في مقامات التوسل والذوات.
- قصة وفد عاد فيها تحذير من أن الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، وهو أصل عقدي في الإيمان بالجزاء الإلهي وبأن الله لا يظلم أحدًا.

فوائد فقهية

- في إذن النبي صلى الله عليه وسلم للعجوز بالدخول إلى مجلسه مع الرجال بيانٌ لجواز حضور المرأة مجالس العلم والنصيحة مع الضوابط، مما يدل على شمولية الشريعة واتزانها في حفظ الحياء دون حرمان من الخير.
- طلب الحارث بجعل "الدهناء" فاصلًا جغرافيًا، ورده عليه بالعقل والحكمة، يُفيد أن مسائل تنظيم الحدود بين القبائل أو الدول مما يخضع للمصالح والمفاسد، ويُقرُّ شرعًا بما يحقّق السلم الاجتماعي.
- مشهد السرية وإعداد النبي صلى الله عليه وسلم لها، مع كونه في مجلس وفد، يدل على أهمية الجمع بين استقبال الوفود والدعوة، وبين الاستعداد للجهاد، وأن كلًّا منهما لا يُغني عن الآخر.
- في قول الحارث: "أعوذ بالله ورسوله" تأصيلٌ لمسألة في الفقه تتعلق بلفظ الاستعاذة، وهل يُستعاذ برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والصحيح أنه استعاذ برسول الله صلى الله عليه وسلم أي من سخطه أو حكمه لا بذاته استقلالًا، وهو جائز في حياته دون بعد موته.
- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم للحارث عند قصّه لعبرة عاد، وعدم إنكاره عليه، يُعدّ أصلًا في جواز رواية أخبار الأمم السابقة للعظة، بشرط أن لا تُخالف ما جاء في الوحي.

فوائد أخلاقية

- في حمل الحارث للعجوز على دابته رغم مشقّة السفر درسٌ عظيم في إغاثة الملهوف، وأن النخوة لا تُطفئها الحاجة، بل تزداد في أوقات الشدة، وهذا خُلق من أخلاق المروءة التي تبني الأمم.
- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم باستقبال الأعراب والوفود، وسماعه لكلٍ منهم بوجهه وبكامل اهتمامه، يدل على خُلق عظيم في حسن الاستماع وعدم التكبر على أحد مهما كان شأنه.
- في تراجُع الحارث عن طلبه، وقوله مثل المثل المعروف: "معزى حملت حتفها"، تواضعٌ وحكمة، تُعلّم المسلم أن لا يأنف من الاعتراف بالخطأ، وأن العاقل من يرجع إلى الصواب ولو تأخر.
- موقف العجوز في حُسن السؤال، وفي تذكير الحارث بمصير وافد عاد، درسٌ في قوة المرأة العاقلة إذا اجتمعت فيها التجربة والدين، وأنها قد تكون ناصحة مخلصة حتى لخصمها.

- في تحويل المجلس من شكوى شخصية إلى درس عام في التاريخ والعبرة، يظهر دور القيادة في تحويل المحن إلى فرص تعليم وهداية، وهو من أدب التأثير والموعظة.

فوائد تربوية

- في مسير الحارث إلى النبي صلى الله عليه وسلم رغم بعد المسافة، دليل على علوّ الهمة، وأن النفوس العظيمة لا تثنيها المشاق عن طلب الإنصاف أو التعلم.
- الربط بين الحكاية والموعظة في قصة عاد، يعمّق أثر القصص في النفوس، ويؤصل لمنهج نبوي في التعليم بالمثال والعبرة.
- في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من العجوز، وموقف الحارث من كلامها، تربية على الاستماع للضعفاء، وأن الحق لا يُعرف بالقوة بل بالدليل، وهو تربية على الإنصاف.
- استحياء الحارث بعد كلام العجوز، يدل على أثر الصالحين في تربية من حولهم، وأن المجالس الصالحة تُهذّب النفوس تلقائيًا دون خطاب مباشر.

مخالفات الواقع

- تفريط الناس اليوم في الاستماع لنصح النساء العاقلات، بل النظر إليهن نظرة دونية في المجالس، وحرمانهن من التأثير بحجة ضعف العقل أو الفهم، مع أن في العجوز التميمية مثالًا يُكذّب ذلك.
- ضعف خلق المروءة والنخوة في كثير من المجتمعات، حيث أصبح المحتاج يُترك في الطريق، ولا يُغاث إلا إذا وُجد مقابل أو مصلحة.
- كثرة المجالس التي تُهدر فيها الأوقات دون توجيه أو عظة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم جعل حتى وفود الشكاوى منابر للهداية والتعليم.
- تردد بعض الناس اليوم في الاعتراف بخطئهم، أو الرجوع عن قولهم إذا ظهر صوابه، بينما في موقف الحارث تعليم عملي على الرجوع إلى الحق دون تردد.
- جفاء كثير من الناس مع من يُخالفهم، وعدم قبولهم للنصيحة ممن يرونه خصمًا، بينما هذا الوفد فيه تعامل شريف بين المختلفين.

- في قصة وافد عاد عبرة لأهل الزيغ من الفرق، ممن يدّعون القرب من الله وهم في الباطن مفرّطون، فالدعاء لا ينفع من فاسقٍ لا يُبالي بالمعصية، كما وقع من وافد عاد الذي سُقي الخمر وسُمع الغناء، ثم تجرّأ على الدعاء. وهذا تنبيه على حال المرجئة الذين يزعمون أن الإيمان وحده يكفي دون العمل، وقد أُهلك أمثالهم ممن تجرّؤوا على الله.
- كما أن موقف العجوز في ردّ الباطل بالحكمة يُخالف طريق الخوارج الذين لا يعرفون حوارًا ولا حجة، بل يُكفرون ويُفسدون دون بصيرة، والعجوز كانت صاحبة حجة وبصيرة دون انفعال أو غلو.

الفقرة السادسة والعشرون: وفدُ حِمْيَر: حينما أشرقت شمس التوحيد على ربى اليمن

في مشهدٍ يعبق بالإيمان، وتزدان أرجاؤه بأريج النبوة، خطَّ وفدُ حِمْيَر صفحاتٍ ناصعة في كتاب الهداية، حين شدّوا الرحال إلى المدينة المنورة، يحملون بين أيديهم وثيقة الإسلام، ويبسطون أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة أهل اليمن، وقلوبهم تفيض سكينة، وأرواحهم ترفرف بين جنبات النور.

لقد تبدّد ليل الجهل الطويل عن أرض اليمن، وها هي شمسُ التوحيد تبسط ضياءها على رُباها، فتورق القلوب الميتة، وتنبت في الأفئدة وعود الإيمان.

لم يكن قدوم وفدهم إلى طيبة كبقية الوفود، بل جاءوا لا يسألون دنيا، ولا يستجدون جاهًا، إنما جاءوا طائعين منقادين، مسلمين مؤمنين، يطلبون العلم والدين، ويرجون الفقه والقرآن، ويتطلّعون إلى القضاء بحكم الله، لا بأهواء البشر.
روى الإمام أحمد في "المسند" عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال :جاء وفد حمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا :يا رسول الله، ابعث معنا رجلًا يفقهنا في الدين، ويعلمنا القرآن، ويقضي بيننا بشرع الله.
فاستجاب الحبيب المختار لطلبهم، وما أعظمه من طلب، وما أشرفه من مقصد! فبعث معهم الإمامَ الفقيهَ معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقد ألبسه من العلم والتقوى ما يليق بمقامه، وقال له وهو يودّعه ويصطفيه للمهمة العظيمة:

»إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحّدوا الله، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإذا صلّوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم«
رواه البخاري ومسلم \

ما أعظمها من وصية! تبدأ بالتوحيد، أساس الدين وعموده، ثم الصلاة، عماد الإسلام، ثم الزكاة، طُهر الأموال، وسدّ خلّة المحتاجين.

وقد روى ابن إسحاق وابن سعد وابن كثير في السيرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بالوصية في المجلس، بل خرج يودع معاذًا رضي الله عنه بنفسه، يمشي على قدميه، ومعاذ على دابته، حتى بلغ أطراف المدينة. ثم التفت إليه، فقال بصوتٍ خاشع، يقطّع نياط القلب» :يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، فمرّ بمسجدي وقبري.«

فما إن سمع معاذ تلك الكلمات الموجعة، حتى فاضت عيناه بالدمع، وانخلع قلبه من بين أضلاعه، وبكى لفراق الحبيب صلى الله عليه وسلم، وها هو يرى أنه قد لا يعود ليراه بعد هذا اليوم! مشهد تكتب له القلوب بمداد الحب، وتغمره الأرواح بخشوع الصادقين.

وهكذا، مضى معاذ إلى اليمن، لا تسبقه إلا نية صادقة، ولا يرافقه إلا نور الوحي، يحمل مشعل الهداية إلى أرض كانت ترزح تحت أغلال الجهل، ويغرس في تربة حمير شجرة الإيمان، التي أينعت ثمارها، وبسطت أغصانها على أهل اليمن.

وكان معاذ معلمًا ومفتيًا وقاضيًا وسفيرًا للإسلام، يفقّه الجاهل، ويعلّم الناس القرآن، ويقضي فيهم بحكم الله، مطبقًا قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عنه كما في الحديث»:أعلم أمتي بالحلال والحرام: معاذ بن جبل «رواه البيهقي وصححه الألباني.]

هكذا كان وفد حمير، وهكذا كانت رسالات الوفود في عهد النبوة: لا وفود مجاملة، ولا طلب مناصب، بل قلوب تهفو إلى الله، وصدور تمتلئ شوقًا إلى العلم والعمل، وسفراء يحملون الدين لا الدنيا.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ الوفود إلى النبي صلى الله عليه وسلم كانت تعبيرًا عن إقرارٍ بنبوته، وتصديقٍ برسالته، وتسليمٍ بحكم الله وحده، وهو من أصول الإيمان.

◆ طلب وفد حمير أن يُبعث معهم من يفقههم ويعلمهم القرآن ويقضي بشرع الله دليل على تعظيمهم للمرجعية الإلهية، وتقديمهم للشرع على العقول والأهواء، وهو من تمام التوحيد.

◆ وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ أن يبدأ بالتوحيد قبل كل شيء تُظهر أن التوحيد أصل الدين، ومقدمة كل عبادة، وأن الأعمال لا تُقبل بدونه.

◆ قوله صلى الله عليه وسلم: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب» يدل على أن الدعوة تبدأ بإصلاح العقيدة حتى مع أهل الكتاب، وأن التوحيد هو المعيار الأول في الميزان العقدي.

◆ وداع النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ وتذكيره بمكان دفنه فيه إشارة إلى الإيمان بالقدر، والاستعداد للموت، والتسليم لأمر الله.

◆ قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دليل عقدي صريح على أن من لم يحتكم إلى شرع الله لا يصح إيمانه، ولو زعم أنه مؤمن.

فوائد فقهية

◆ الترتيب النبوي في الدعوة (التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة) يدل على أن الواجبات الشرعية تُبنى على أساس الإيمان، ثم يُنتقل في فقه التدرج إلى بقية الأركان.

◆ بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن يُثبت مشروعية إرسال العلماء إلى البلدان لتعليم الناس، ويُعد أصلًا في نظام الإفتاء والقضاء.

◆ قوله صلى الله عليه وسلم: «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» يؤصل لمبدأ عدالة التوزيع، ويثبت أن الزكاة واجبة بنص الشارع، ولها مصرف شرعي محدد.

◆ التعليم والقضاء من مهام أهل العلم، ولا يجوز أن يُعهد بهما إلى الجهال، بل يُختار لهما من جمع بين الفقه والتقوى.

◆ بعث الإمام معلمًا وقاضيًا ومفتيًا في آنٍ واحد يُظهر أهمية التكامل في وظائف الشرع، وأن المفتي يجب أن يكون ذا دراية بالحكم والواقع معًا.

فوائد أخلاقية

◆ خشوع النبي صلى الله عليه وسلم عند وداع معاذ، ومشيه على قدميه إلى أطراف المدينة، يدل على تواضعه العظيم ورفقه بأصحابه.

◆ دموع معاذ عند وداع النبي صلى الله عليه وسلم تعبّر عن الحب الصادق والوفاء العميق للمعلم الأول والقدوة الأكمل، وهي من علامات الصدق في المحبة.

◆ النية الصادقة التي حملها معاذ، والسفر في سبيل نشر الدين، كل ذلك من أسمى صور التضحية والبذل لأجل الله.

◆ وفد حمير جاءوا لا يطلبون دنيا ولا مناصب، بل جاءوا يطلبون العلم والدين، وفي ذلك مثالٌ يحتذى في الإخلاص والتجرد لله.

◆ الوفود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت رسالات صدق، لا مجاملة ولا تكلف، مما يدل على صفاء النيات وصدق الاتجاه إلى الله.

فوائد دعوية وتربوية

◆ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم معاذ كيف يبدأ بالدعوة يدل على أهمية التأصيل التربوي للدعاة، وضرورة توجيههم قبل إرسالهم.

◆ كان معاذ داعية عمليًا، لا نظريًا، يمارس الدعوة والقضاء وتعليم القرآن، مما يُظهر أن القدوة العملية أقوى في التأثير من مجرد الأقوال.

◆ البيئة اليمنية كانت مستعدة لقبول الحق، ولذلك أُرسل إليهم معاذ دون قتال أو إكراه، مما يدل على أن القلوب إذا استعدت استجابت بسهولة للحق.

◆ التدرج في الدعوة أصل تربوي، فلا يصح إرهاق المدعوين بما لم يعرفوا أصله بعد، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبدأ معاذ بالتوحيد.

ما يخالف الواقع

◆ انتكاس كثير من الناس عن تحكيم شرع الله، واستبداله بقوانين البشر، رغم أن الإيمان لا يتم إلا بالتحاكم إلى الوحي.

◆ صورة الوفود في هذا الزمان انقلبت، فأصبحت تبحث عن مصالح دنيوية، وتركّز على العلاقات والمنافع، لا على حمل الدين ونشره.

◆ ضعف التكوين الشرعي لمن يُرسلون اليوم لتعليم الناس أو يُنصبون في مناصب الفتيا والقضاء، مع أن هذه الوظائف لا تُعطى إلا لأهل العلم الراسخين.

◆ قلة من يحرصون على تعلم القرآن والفقه من أهله، مع كثرة من يطلبون الجاه والمكانة دون زاد علمي أو نية خالصة.

◆ شحّ المحبة الصادقة للنبي صلى الله عليه وسلم في القلوب، حتى صارت ذكراه تمرّ عند كثيرين بلا دمعة، ولا توقير، ولا محبة حقيقية.

الفقرة السابعة والعشرون وفد الداريين: من ظلال الكنيسة إلى نور النبوة

في زمانٍ كانت فيه القلوب تائهة في ظلمات العقيدة، والأنفس عطشى للحق، لم تكن فلسطين المباركة بمعزلٍ عن نور الرسالة، فقد بدأت أصداء الوحي تتردد في أطراف الشام، وتتسلل إلى الأرواح المرهفة الباحثة عن الحق، وكان من بين أولئك رجلٌ من بني الدار، نصرانيٌّ من بيتِ علمٍ ونسك، يقال له :**تميم بن أوس الداري**، عرف في قومه بالفصاحة والهيبة، وكان من أهل العبادة والعقل، قد سكنت في قلبه تساؤلاتٌ لم تُجِب عنها الأناجيل، ولم تُطفئها صلوات الكنائس.

وبينما هو كذلك، إذ بلغه أمر النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، الذي خرج من بطحاء مكة برسالة التوحيد، فاهتز قلبه شوقًا، واشتعلت في صدره جذوةُ الإيمان قبل أن تراه العين، فقرر الرحيل إلى طيبة الطيبة، ومعه أخوه **نعيم**، يحملان على أكتافهما أحمال الترقب، وفي قلبيهما يقينٌ أن هذا هو النور الذي انتظروه دهرًا.

ركبا البحر من ساحل فلسطين، قاصدين المدينة المنورة، فلما وصلاها دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجثيا بين يديه، وأعلنا إسلامهما وبيعتَهما على الإيمان والجهاد والنصح لكل مسلم، فكانا من وفد الحقّ، لا وفد الجاه، ووفد الإيمان، لا وفد الدنيا.

وكان تميم رجلاً فصيحَ اللسان، مهيبَ الطلعة، تقيَّ القلب، قد أُشرب حبَّ التلاوة والقيام، فكان من الذين لا ينامون إلا قليلًا، ويتلون كتاب الله آناء الليل، يذرفون الدمع كلما مرّت بهم آيةُ وعدٍ أو وعيد.
وقد أحبه النبي صلى الله عليه وسلم، وأدناه منه، وكان يأنس بحديثه، ويجلسه مجلس الكرام.

ومن أعجب ما كان من شأن تميم رضي الله عنه، ما رواه مسلم في "صحيحه" عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع الناس يومًا، ثم قال»:حدثني تميم الداري حديثًا وافق ما كنت أحدثكم به عن المسيح الدجال «...ثم ذكر حديث الجسّاسة، وما كان من شأن تميم في رحلته البحرية، حين تاه في البحر، حتى أُلقي به إلى جزيرة، فوجد فيها الجساسة والدجال، وهو من أعجب الأحاديث في صحيح مسلم، فجعله النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر يحدّث الناس، وأقرّه، بل جعله شاهدًا موافقًا لما كان يخبر به من قبل.

ثم أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضًا في **بيت لحم**، من أرض فلسطين، وذلك من حر ماله لا من مال المسلمين، فكان أول من أُقطع أرضًا بالشام بعد الفتح، كما روى ابن سعد والبلاذري، وكان تميم رضي الله عنه من أول من أوقد **السراج** في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فأضاء المسجدُ بنوره، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال» :نوّر الله قلبك كما نوّرت بيت الله.« والحديث ضعيف لم يروى بأسانيد صحيحة

وأقام تميم بعد وفاة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بالشام، يعلّم الناس، ويقرأ عليهم القرآن، وكان إذا قرأ، خنقته العبرة، وغلبه البكاء، حتى يسمع نشيجه من بعيد، فما زال على ذلك حتى لقي ربَّه، ثابتًا على العهد، حاملًا للواء الإيمان في الشام. لقد صدق الله وعده، فقال}:**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**] {القصص: ٥٢-٥٣.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- أن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء من عباده، ولو كان من بيئة نصرانية مشبعة بالتقاليد الدينية والنسك، كما هدى تميمًا الداري من ظلمات الكنيسة إلى نور الإسلام، مصداقًا لقوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.}

- أن التوحيد الخالص هو الحق الذي تطمئن إليه النفوس السليمة والعقول النقية، حتى لو نشأت على غيره، كما وقع لتميم حين اشتعل قلبه إيمانًا قبل أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- أن النبوة لا تُعرف بالمعجزات الظاهرة فقط، بل تُعرف بعلامات الحق التي تهتدي إليها الأرواح، كما اهتدى تميم الداري بمجرد سماعه بأمر النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.

- أن إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لتميم في حديثه عن الدجال تصديق نبوي صريح، يؤكد الإيمان بالغيب كما ورد عن النبي، ويثبت حقيقة وجود الدجال وأنه من علامات الساعة الكبرى.

- أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة ليست مبنية على نسب أو جاه، بل على التقوى والصدق، ولهذا أدنى تميمًا وأحبه، وجعله يتحدث على المنبر، مع كونه حديث عهد بإسلام.

- أن الله تعالى ذكر في كتابه أن من أهل الكتاب من يؤمن حين يتبين له الحق، كما قال: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ}، وتميم رضي الله عنه منهم.

فوائد فقهية:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع تميمًا أرضًا من ماله الخاص، وفيه دليل على جواز الهبة الخاصة من الحاكم من ماله، لا من مال بيت المال، وأنه يجوز التمليك الفردي دون أن يكون من الغنيمة.

- أن طلب العلم والإقامة له مشروع، ولو في بلاد بعيدة، كما أقام تميم في الشام يقرئ الناس ويعلّمهم بعد أن تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم.

- أن من آداب طلب العلم أن يأتي الطالب بنفسه إلى أهل العلم، كما فعل تميم عندما سافر من فلسطين إلى المدينة، وكان من الممكن أن يرسل غيره، لكنه جاء بنفسه.

- جواز التحديث من غير النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر، إذا أُقر على ذلك، كما فعل تميم بإذن النبي صلى الله عليه وسلم حين روى حديث الجساسه في المسجد.

- أن من السنة إضاءة المساجد وإكرامها، كما فعل تميم حين أوقد السراج، وفيه دليل على استحباب بذل المال في عمارة المساجد وصيانتها.

فوائد أخلاقية:

- أن الفصاحة وحسن البيان نعمة من الله إذا زُينت بالتقوى، كما كان تميم رضي الله عنه فصيحًا مهابًا، لكنه جمع إلى ذلك الورع والتعبد.

- أن التواضع هو خلق الصادقين، فمع ما كان لتميم من مكانة في قومه، جثا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في هيئة المستسلم الباحث عن الحق.

- أن أهل الإيمان الحقيقي لا يكونون من أهل الترف والدعة، بل يعيشون الليل تلاوة ودمعًا وخشوعًا، كما وصف تميم بقيامه وبكائه وخشوعه في التلاوة.

- أن البكاء من خشية الله علامة حياة القلب، كما كان تميم يغلبه البكاء حين يتلو القرآن، ويسمع نشيجه من بعيد، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله.«...

فوائد دعوية:

- أن أهل الكتاب الذين لم تحرف فطرتهم يقبلون على الإسلام حين يُعرض عليهم عرضًا نقيًا صافيا، ولهذا جاء تميم بن أوس إلى المدينة طائعًا لا مدفوعًا.
- أن من وسائل التأثير في الدعوة: الصدق، والتقوى، والمهابة، والكلام البليغ، وهي الصفات التي اجتمعت في تميم فكان لها أثره العظيم بين الناس.
- أن الداعية يجب أن يجمع بين العلم والعمل، كما كان تميم يقرأ ويبكي، ويقيم الليل، ويعلّم الناس حتى وفاته.

ما يخالف الواقع:

- ضعف التوجه إلى البحث عن الحق عند كثير ممن نشأ في بيئة غير إسلامية، بينما تميم سافر من الشام إلى المدينة بحثًا عن الهداية، وقد لا يتحرك كثيرون اليوم مع توفر السبل.
- ندرة البكاء من خشية الله في صلاة الناس وتلاوتهم، على خلاف ما كان عليه تميم الداري رضي الله عنه من بكاء دائم عند آيات الوعد والوعيد.
- غلبة حب الشهرة والظهور على بعض المتصدّرين للدعوة، في حين أن تميم جاء طائعًا متواضعًا، لم يطلب جاهًا، بل طلب الحق وحده.
- قلة من يتورعون في استخدام المال العام، على خلاف النبي صلى الله عليه وسلم الذي أقطع تميمًا من ماله الخاص، مراعيًا العدل والورع في إدارة الموارد.
- انشغال بعض الناس اليوم ببناء المساجد من باب المباهاة لا من باب التقوى والنية الصالحة، بينما تميم أوقد السراج في المسجد فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم دعاءً عظيمًا يدل على قبول الله لعمله.

الفقرة الثامنة والعشرون :وفد بني الرُّؤاس: حين جاء الإيمان يمشي على أقدام البوادي

في أواخر أيام النبوة، وقد استقرَّ أمر الإسلام في جزيرة العرب، وأشرقت شمسه في أفق الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، بدأت قلوب البوادي تهفو إلى النور، وتنتقل من الترقب إلى التصديق، ومن التردد إلى الانقياد.

ومن تلك البوادي، برز رجال من بني الرُّؤاس، وهم بطنٌ من بني كلاب، من قبيلة عامر بن صعصعة، وقد سمعوا نداء الوحي، فتتابعت أخبار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسامعهم، فوجدت في قلوبهم أرضًا طيّبة، لم تلوّثها أهواء السياسة، ولا أطماع الدنيا، فقاموا إلى الحق قيامًا لا تردد فيه، وساروا إلى المدينة، يحملون بين ضلوعهم رغبةً صادقة في الإسلام، وطاعةً خاشعة لربِّ الأنام.

تقدّمهم رجلٌ شريف يقال له :**كعب بن عبيد الرؤاسي**، وقيل :**قيس بن عبد الله** –كما اختلفت الروايات – لكنه كان على كل حال من خيارهم وسادتهم، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فألقى السلام، ورد النبي صلى الله عليه وسلم عليه، وبسط له يده الطاهرة، فبايعه على الإسلام، وعلى السمع والطاعة، والنصح لكل مسلم.

فرح النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، وأكرم وفادتهم، ثم حمّلهم ما هو أعظم من الذهب والفضة، إنه **أمانة البلاغ**، ودعاهم أن يعودوا إلى قومهم معلمين ومبشرين، فقال لهم" :بلِّغوا عني من وراءكم"،
فكانوا كما أُمروا، دعاةً إلى الله في قومهم، يحملون لواء الهداية إلى أبناء الصحراء، ويرددون كلمات التوحيد في مضارب القبائل، وقد ملأت قلوبهم الطمأنينة، ونفوسهم اليقين.

لم يذكر أهل السير أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطعهم أرضًا، ولا كلّفهم منصبًا، لأنه رأى فيهم من يحمل الرسالة لا الرياسة، ومن يضيء للناس الطريق لا من يطلب المقام العالي.

لقد دخلوا الإسلام لا طمعًا ولا رهبة، بل استجابةً لنداء الفطرة، التي قال الله فيها} :**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**] {الروم: ٣٠.[

وهكذا خرج وفد بني الرؤاس من المدينة، لا محمّلين بالذهب، بل بالهداية، لا حاملين للورق، بل للوحي، عادوا إلى قومهم ومعهم النور، وبه أحيوا قلوبًا، وهدموا أصنامًا، وعلّقوا راية "لا إله إلا الله" في بوادي بني كلاب.

الفوائد المستخلصة من الفقرة :

فوائد عقدية

- الإيمان الصادق لا يُنتظر فيه المعجزات بل تُحرّكه الفطرة السليمة حين تسمع دعوة الحق.
- من علامات صدق الرسالة المحمدية أنها أثّرت في أهل الفطرة من دون إغراء دنيوي أو ضغط سلطوي.
- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بلغت الآفاق، وشرح الله بها صدورًا لم تلوثها الشبهات أو الأهواء.
- التوحيد هو الأساس الذي بُنيت عليه دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي دخلت به الوفود في دين الله أفواجًا.
- محبة النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان، وقد تجلّت في حرصهم على مبايعته طوعًا ومحبةً.
- تكليف النبي صلى الله عليه وسلم للوفد بتبليغ الرسالة يدل على مسؤولية كل مسلم في الدعوة إلى التوحيد والحق.
- الرسالة المحمدية جاءت موافقةً للفطرة، وهذا برهان على صدق مصدرها الرباني.

فوائد فقهية

- تشرّف الصحابة بمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم، مما يدل على أصول البيعة الشرعية.
- عدم إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم أرضًا أو مناصب لوفد بني الرؤاس فيه دلالة على أن الإسلام لا يُدخل الناس فيه بجاه أو مال.
- جواز إرسال من أسلم من الوفود لتعليم قومهم والدعوة بينهم، وفيه تأصيل لأصل التبليغ والدعوة بين الأهل.
- من وظائف المسلم بعد تعلم الدين أن يُبلّغه لمن وراءه، وهو واجب بحسب الاستطاعة والعلم.
- إكرام النبي صلى الله عليه وسلم للوفود من السنن المهجورة في التعامل مع من يأتي راغبًا في الخير.
- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة على التبليغ لا التمكين السياسي أو الأرضي، بل الدعوة والتعليم أولًا.

فوائد أخلاقية

- الصدق في الطلب يظهر في خلوّ القلوب من أطماع الدنيا، وهو من علامات القبول.
- التواضع في السعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم رغم شرفهم القبلي يبين أن الإسلام يعلو فوق العصبيات.
- الوفاء بالوعد وتحمل مسؤولية البلاغ بعد الرجوع إلى قومهم خلقٌ رفيع يُحتذى به في نشر الخير.

- الطمأنينة التي ملأت قلوبهم بعد الإسلام تدل على أثر الهداية في استقرار النفس وسكون القلب.
- الزهد في الرياسة والمنصب خلق الأنبياء والدعاة الصادقين، وقد وُفِّق إليه وفد بني الرؤاس.
- رجال البادية رغم جفوتهم كانوا يحملون في قلوبهم فطرةً نقيةً إذا مسّها النور، أزهرت هدايةً وصدقًا.

فوائد دعوية

- الدعوة الصادقة لا تحتاج إلى وسائل مادية بقدر ما تحتاج إلى قلوب صادقة وهمم عالية.
- الرجوع إلى القوم للدعوة والتعليم بعد اللقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم منهج نبوي في نشر الدين.
- من وسائل نشر الإسلام أن يتولّى أهل القبائل دعوة قومهم، لأنهم أدرى بطباعهم وأقرب إليهم.
- التدرّج في البلاغ والبدء بالكلمات الجامعة مثل: "بلّغوا عني" من أصول التربية والدعوة.
- التأثير الحقيقي يكون حين يقترن العلم باليقين، وقد عادوا دعاة بعد أن دخل الإيمان قلوبهم.
- المعلّم الحق هو الذي يُرسَل لينير، لا ليُسيطر، ويبلّغ، لا ليتسلّط.

مخالفات الواقع

- كثير من الدعاة اليوم يطلبون الدنيا من خلال الدعوة، فيُقدّمون المناصب والمكاسب على التبليغ والصدق في النية.
- التكليف بالمسؤوليات الدعوية أصبح عند البعض منّةً تُنتظر عليها المكافآت، لا عبادةً تؤدى بإخلاص.
- قلّ في هذا الزمان من يبلغ دعوة الله بقلب نقي خالٍ من التحزّب أو المصالح الشخصية.
- انشغل الناس اليوم بالدعوة في وسائل التواصل من غير فقه ولا علم، ولم يتزودوا بما بلّغ به الصحابة.
- القبائل والمجتمعات التي أنعم الله عليها بالعلم والدين أصبح كثير من أبنائها منشغلين بالدنيا، منصرفين عن تعليم قومهم.

- إذا رغبت في مزيد من التحليل أو إدراج عناصر أخرى من الفوائد كالتربوية أو السياسية أو الإيمانية، فأنا مستعد.

الفقرة التاسعة والعشرون :وفد بني سعد هُذيم: من أطراف الشام إلى قلب المدينة النبوية

في أفق الشام البعيد، حيث تهبُّ نسائم الشمال، وتتناقل الركبان أخبار محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وتترامى أصوات المآذن في الجزيرة، كانت هناك قبيلة من قضاعة، تُدعى بنو سعد هُذيم، تسمع في كل يوم جديدًا عن هذا الدين العجيب، وعن النبي الذي غيّر وجوه العرب وقلوبهم.

ما لبثت أنوار الهداية أن تسللت إلى صدورهم، فنبضت قلوب رجال منهم بالإيمان، واشتاقت أرواحهم إلى منبع النور، فرحلوا من أطراف الشام إلى طيبة، يحملون التوحيد بين ضلوعهم، ويحدوهم الشوق إلى لقاء النبي صلى الله عليه وسلم، والنظر في وجهه المبارك، وسماع كلامه الموحى.

كان في وفادتهم رجال من خيارهم، يُقال لأحدهم :خُريم بن أوس السعدي، وقيل :عمرو بن الأحوص السعدي، دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلوبٍ طاهرة، وأفئدةٍ مقبلة، فسلّموا عليه، فاستقبلهم بابتسامته النورانية، ثم بايعوه على الإسلام، وعلت وجوههم أنوار اليقين، ورددوا الشهادتين بلهفة الصادقين.

سرّ النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، وأكرم وفادتهم، ودعا لهم بخير، وربما رأى فيهم ذلك الإخلاص الذي يجعل من الرجل قبيلة، ومن البسيط داعية، فحمّلهم أمانة البلاغ، ومضوا من مجلسه الطاهر وقد امتلأت صدورهم هداية، وارتوت أرواحهم من نبع النبوة.

عادوا إلى قومهم، لا كما ذهبوا، بل عادوا دعاةً مصلحين، يعلّمون الناس الصلاة بعد أن كانوا لا يعرفون سوى الدعاء للأوثان، يغرسون التوحيد في البيوت والقلوب، كما غرسه فيهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان من ثمار وفادتهم أن انتشر الإسلام في ديارهم، وانقلب الجهل نورًا، والصمت عن الحق دعوة، حتى صاروا أنصارًا للدين بعد أن كانوا من الغافلين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- من دلائل صدق النبوة أنها بلغت أطراف الشام، فحرّكت القلوب من على بُعد، وألهبت الشوق إلى الإسلام.
- الإيمان الحق لا يحدّه مكان، فمن الشام البعيد هاجت أرواح الوفد شوقًا إلى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه من علامات الهداية.
- الصدق في الطلب والإخلاص في النية سبب في قبول العمل، وقد تجلى ذلك في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم لهم ودعائه لهم.
- الشهادتان ليستا مجرد لفظ، بل تلهّفهم للنطق بهما كشف صدق القلب وقوة التصديق.
- تبليغ الدعوة مسؤولية من نال شرف اللقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما أمرهم فبلّغوا.
- الدين لا يُبنى على الحسب والنسب، بل على صدق القلب ويقين الإيمان، وقد كان فيهم رجال من خيارهم لا يُعرف لهم جاه دنيوي.

فوائد فقهية

- مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تشمل الإيمان والعمل، والدعوة والنصيحة، وهو أصل في بيعة المسلمين إلى اليوم.
- استقبال النبي صلى الله عليه وسلم للوفود بوجه طلق وسعة صدر سنة نبوية في التعامل مع القادمين إلى الحق.
- الدعاء للوفود وإكرامهم من السنة المهجورة التي ينبغي إحياؤها مع طلبة العلم والمقبلين على الدين.
- جواز إرسال المسلم المعلَّم إلى قومه داعيًا، وفيه دليل على أهمية الرجوع إلى الأهل بالعلم والدعوة.
- الدعوة إلى الصلاة والتوحيد أول ما يُعلَّم، كما بدأ وفد بني سعد بهذين الأصلين في أقوامهم.
- ليس من شرط الداعية أن يكون فقيهًا كبيرًا، بل الصدق والإخلاص كافيان ليجعله الله سببًا للهداية.

فوائد أخلاقية

- الرحلة من الشام إلى المدينة تدل على عظمة الطلب، وتحمل المشاق لنيل الخير، وهي من خصال طالب الهداية.
- البساطة لا تمنع التأثير، بل قد يكون الرجل البسيط داعيةً مصلحًا إن صدق مع الله، كما رأى فيهم النبي صلى الله عليه وسلم.
- العطاء المعنوي أبلغ من المادي، فقد رجعوا من المدينة لا بدنيا، بل بهداية حملوها في قلوبهم وأودعوها في قومهم.
- تغيير الحال بعد الهداية من علامات صدق الإيمان، وقد انقلبت بفضلهم قبيلتهم من الغفلة إلى النور.

- الحياء والتواضع من علامات الموفَّقين، وقد دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم بأفئدة مقبلة طاهرة، لا متكبرة ولا مترددة.

فوائد دعوية

- الهداية قد تبدأ بخبر، ثم شوق، ثم سفر، ثم لقاء، ثم بلاغ، وهذه مراحل دعوية تتكرّر في كل عصر.
- نشر الإسلام يبدأ من القلوب، ثم يتحرك على الأقدام، كما فعل وفد بني سعد من الشام إلى المدينة، ثم من المدينة إلى قومهم.
- الداعية الحق لا يعود إلى قومه كما كان، بل يعود بزادٍ من النور، وهمٍّ في الصدور، وصدقٍ في النية.
- التحول من الغفلة إلى النصرة يدل على أثر الدعوة حين تقع في قلوب صادقة، وهي دعوة للدعاة ألا ييأسوا من المجتمعات الغافلة.
- لا يُشترط في انتشار الإسلام المال أو السلطان، بل تكفي صدور امتلأت يقينًا، وألسنة تنطق بالحق، وقلوب تهفو إلى الله.

ما يخالف الواقع

- كثيرون يسمعون عن الإسلام اليوم كما سمع بنو سعد، لكن لا يتحرك فيهم الشوق، ولا يهتز لهم وجدان، والسبب هو موت الفطرة أو شوائب الهوى.
- قلة هم من يرحلون لطلب العلم أو لقاء العلماء، بينما كان هؤلاء يرحلون مئات الأميال للقاء النبي صلى الله عليه وسلم.
- الإسلام في زماننا بلغ الآفاق، لكن من يبلغ الناس بعد اللقاء؟ من يرجع بالدعوة إلى أهله كما فعل السعديون؟
- تحوّل كثير من الدعوات اليوم إلى دعوات كلامية دون أثر عملي، بينما غيّر وفد بني سعد واقعهم بالدعوة والعمل.
- نجد من يكتفي بالشهادتين دون أن يُعلّم الصلاة أو ينشر التوحيد في بيته، بينما وفد بني سعد غرسوا الدين في البيوت والقلوب

الفقرة الثلاثون: ختام الوفود ومصداق الوعد الإلهي: لما اكتمل النور وصدَق الوعد

في السنة التاسعة من الهجرة، أشرقت المدينة المنوّرة على مشهدٍ لم تعرف له الجزيرة مثيلًا، فقد أضحت طيبة قِبلة القلوب، ومهوى الوفود، تأتيها القبائل أفواجًا من أرجاء الجزيرة، من الحجاز واليمن، ومن تهامة ونجد، ومن أقاصي الشام وأطراف البحرين. إنها **عام الوفود**، عام النصر الظاهر والدعوة الظافرة.

لم يكن ما يجري مشهدًا عابرًا من السياسة أو المجد الدنيوي، بل كان تجليًا عظيمًا لوعد الله الذي أوحاه إلى نبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم، فها هي القبائل التي كانت بالأمس تغزو وتقاتل، اليوم تُقبِلُ على الدين الجديد طواعيةً، معلنةً خضوعها لله رب العالمين، باحثةً عن النور الذي غيّر التاريخ، وعن الرجل الذي علَّم البشرية كيف تهتدي.

كل وفدٍ كان يحمل قصة فداء، وملحمة هداية، وانقلابًا مباركًا من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإيمان، من عبادة الحجر إلى توحيد خالق البشر، من التفاخر بالحسب والنسب، إلى التنافس في الخضوع لله والعمل الصالح.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبلهم ببشر وجهه، ويضمهم بحكمة قلبه، يعلّم الجاهل، ويرشد الحائر، ويدعو لكل وافد بخيرٍ لا ينقطع، ثم يختار من صحابته من يرافقهم، يُعلّمهم القرآن، ويغرس فيهم شعائر الإيمان، فيعودون إلى أقوامهم مصابيح هدى، ودعاة إصلاح، يحيون ما مات، ويقيمون ما انهدّ.

وهكذا صدَق الوعد، وبلغت الرسالة مداها، وارتفع صوت الحقّ على صوت الباطل، ووقعت البشرى التي نزل بها قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ سورة النصر: ١-٢]

لقد جاء النصر، وتمّ الفتح، وتحقّقت الرؤية، وامتلأت أرض الجزيرة بتسبيح الموحدين، وصدحت المساجد بعد أن كانت الأصنام تملأ الساحات، وسجدت الجباه التي طالما سجدت للحجارة، لله الواحد القهّار.

وما هي إلا شهورٌ معدودة، حتى اكتمل نور النبوة، وتمَّ بلاغ الرسالة، وآن لروح النبي صلى الله عليه وسلم أن تستعد للقاء ربها، بعدما أتمّ الله به الدين، وأظهر به الحق، وأعلى كلمته. فكان الخطاب العلويّ الوداعيّ الذي نزل من السماء:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾] سورة النصر: ٣[

كلماتٌ نزلت من فوق سبع سماوات، تحمل نغمة الوداع، وإيذان الختام، وتسليم الأمانة، فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وعرف أن البلاغ قد تمّ، وأن عهد النبوة قد اقترب من غروبه، ولكن المجد الذي أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور الوحي، سيبقى خالدًا إلى قيام الساعة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله تعالى وعد نبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر والتمكين، وقد تحقّق الوعد كما أخبر سبحانه، وهذا يدل على صدق النبوة وتمام الرسالة
- إقبال الناس أفواجًا على الدخول في الإسلام دليل على أن هذا الدين من عند الله، وأن الهداية لا تكون إلا بتوفيقه
- إسلام القبائل طوعًا وانقيادها للتوحيد بعد الجاهلية فيه برهان على أن الفطرة السليمة تهتدي إلى الله إذا زال عنها غبار الهوى والضلال
- قول الله تعالى: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ يدل على أن المؤمن لا يغتر بالنصر والإنجاز، بل يقرّ بفضل الله ويستغفره ويتواضع له
- نزول هذه السورة في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى قرب انتهاء مهمته النبوية، وأن الرسالة قد تمّت، وهذا من عقيدة ختم النبوة
- إيمان الصحابة بأن الوحي حق، جعل أبا بكر رضي الله عنه يبكي فور سماع السورة، لأنه فهم منها دلالة الفراق، وهي عقيدة التسليم للوحي وما فيه
- ظهور الإسلام وانكسار الأصنام علامة على أن التوحيد هو الغاية العليا، وأن الله لا يرضى بالشرك طرفة عين

فوائد فقهية

- تعليم الوفود القرآن عند رجوعهم إلى أقوامهم فيه مشروعية إرسال المعلّمين والدعاة إلى الأماكن الجديدة في الإسلام
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته بعناية لتعليم الناس يدل على أهمية اختيار المؤهَّلين لتبليغ الدين
- استقبال الوفود وإكرامهم يُؤخذ منه فقه استقبال الضيوف وتقدير مكانة من جاء يطلب الهداية
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الدعاء لمن جاءه دليل على فضل الدعاء للداخلين في الإسلام خاصة في بدايات التزامهم

- توديع النبي صلى الله عليه وسلم للناس وتسليم الأمانة لهم بعد تمام البلاغ أصل في فقه تبليغ الدعوة وإتمام المسؤولية قبل الموت

فوائد أخلاقية

- وجه النبي صلى الله عليه وسلم كان طليقًا لمن يلقاه، وهذا خلق كريم يجب أن يتحلّى به الدعاة في استقبال الناس
- توجيه الجاهل برفق، وهداية الحائر بصبر، خلق نبوي يُعلّمنا كيف نعامل الناس باختلاف مستوياتهم
- ما حملته الوفود من رغبة في الهداية وتخلٍّ عن الكبرياء الجاهلية يُربّي النفوس على التواضع للحق والتجرد لله
- تحوّل الناس من الفخر بالأنساب إلى العمل الصالح يشير إلى أن المعيار الأخلاقي في الإسلام هو التقوى لا الحسب والنسب
- دمج النبي صلى الله عليه وسلم بين التعليم والرحمة، بين البلاغ والقدوة، منهج أخلاقي متكامل في التعامل مع الداخلين في الإسلام

فوائد دعوية وتربوية

- النبي صلى الله عليه وسلم كان يُربّي الدعاة قبل إرسالهم، ويجهزهم بالعلم والإيمان، مما يدل على أهمية التأهيل قبل العمل
- عودة الوفود إلى أقوامها دعاة إصلاح يبيّن أثر القدوة العملية في نشر الدين
- الإصلاح لا يكون بالصدام مع المجتمعات، وإنما بالعلم واللين، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في عام الوفود
- تفريق النبي صلى الله عليه وسلم بين الجاهل والحائر في التعامل يدل على أهمية فهم حال المدعو وتقديم ما يناسبه
- البكاء عند فهم دلالة السورة من أبي بكر رضي الله عنه يُعلّمنا فقه التأثر بالقرآن والبصيرة في معانيه

ما يخالف الواقع

- قلّ من يبكي عند سماع القرآن اليوم أو يتأثر بدلالاته كما تأثّر أبو بكر رضي الله عنه، بل أصبح سماع السورة يمر مرورًا عابرًا بلا تدبر
- صار كثير من الداخلين في الإسلام حديثًا يُتركون بلا تعليم ولا متابعة، فيخفت أثر الإسلام في حياتهم
- ضعُف حرص الدعاة على الدعاء للناس كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم مع كل وافد
- أُهمل جانب التربية في الدعوة، فغلبت الأساليب الجافة الخالية من الرحمة والعلم على التعامل مع الناس
- أصبح معيار التفاضل في المجتمعات المسلمة قائمًا على النسب والمال والمظاهر، لا على العمل الصالح والتقوى
- كثير من المسلمين اليوم يفرحون بالفتوحات السياسية أو الإنجازات المادية، ولا يربطونها بالاستغفار والتسبيح كما أمر الله في سورة النصر
- قلّ أن يُعلَّم الداخل إلى الإسلام أصول التوحيد والعبادة، ويُكتفى بإشهار لفظ الإسلام دون تأصيل لمعانيه
- بعض من يتصدرون لتعليم الناس ليسوا من المؤهلين، فيَفسد التعليم ويضعف الأثر، بخلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار المعلمين

انتهى هذا الفصل ويليه الفصل الرابع والأخير ان شاء الله

الفصل الرابع في ظلال الختام والاتمام

مقدمة

في ظلال الختام والإتمام

ها نحن نطوي آخر صفحات الرحلة المباركة، نلتمس دفء الختام، ونرتشف من عذوبة الإتمام، وقد بلغت السيرة ذروتها، واكتمل النور الذي أشرق في بطحاء مكة، وتجلى في المدينة، وعمّ الجزيرة بل أطلّ على آفاق الدنيا. إنها اللحظات التي اجتمعت فيها الرسالة، وانتهى بها البلاغ، فشهد التاريخ أعظم وداع، وأفجع لحظة، وأصدق امتداد.

في هذا الفصل، لا نسرد الأحداث بجمود التاريخ، بل ندخلها من بوابة المشاعر والوعي، نستعرض أواخر ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من ترسيخٍ لركائز الدولة، وإزالةٍ لما بقي من شوائب الجاهلية، وإتمامٍ لشعائر الدين، كما ظهر ذلك في تعيين الولاة، وهدم الأصنام، وحجة الوداع التي جسدت البيان الختامي لمشروع النبوة.

ثم ننتقل إلى الباب الثاني، حيث نسمع خفقات الوداع، نرى الإرهاصات التي أنذرت بقرب الرحيل، ونشهد آخر لحظات النور بين يدي أمةٍ كادت قلوبها أن تنفطر لفراقه. هنا لا نبكي فحسب، بل نتعلم كيف يكون الختام في حياة الكبار، وكيف يورث الأنبياء الرسالة لا المال.

وأخيرًا، نفتح الباب الثالث لنتساءل: كيف نُحيي هذا الامتداد؟ كيف لا تنطوي السيرة بصفحات الكتاب، بل تنبض في سلوكنا وأقوالنا ومناهجنا؟ كيف نكون نحن امتداد السيرة، حاملين لرايتها، ناصرين لحقها، مؤتمين بهديها؟

في ظلال الختام والإتمام، لا نغلق الكتاب... بل نفتحه من جديد، ليبدأ فينا عهد جديد من التخلق، والتدبر، والتأسي، فإن السيرة لا تموت... ما دامت القلوب تحيا بها.

الباب الاول: استقرار الدولة وخاتمة الرسالة

مقدمة

كانت الجزيرة العربية في عام الوفود قد دانت للنبي محمد **صلى الله عليه وسلم**، وأقبلت القبائل من كل فجٍّ عميق تعلن خضوعها للدين الحق، وتدخل في الإسلام أفواجًا، حتى اكتمل البناء، وارتفعت راية التوحيد فوق الرمال التي طالما عانقت الأصنام.

لكن النبي **صلى الله عليه وسلم** –الذي بُعث هاديًا ومعلِّمًا ومبشِّرًا ونذيرًا – لم يركن إلى الكثرة، ولا إلى التصفيق الظاهري، بل كان يعلم أن الرسالة لا تكتمل إلا بثلاثة أعمدة :**تمكين الدعوة، وتصفية البقايا، وبلاغ الخاتمة**.

فانطلقت البعوث من المدينة، لا تحمل السيوف فحسب، بل تحمل نور الوحي، وهدى القرآن، تبث التوحيد، وتعلِّم الناس دينهم، وتجتثُّ ما بقي من آثار الوثنية والجهالة.

وكانت **حجة أبي بكر** رضي الله عنه أول إعلان عن استقرار الدولة، وإشارة إلى النضج السياسي والديني، وتطبيقًا عمليًّا لما نزل من القرآن في صدر سورة براءة: أن لا يطوف بعد العام مشرك، ولا يقترب البيت من لا يعرف قدره.

ثم جاءت **حجة الوداع**، التي صدع فيها النبي **صلى الله عليه وسلم** بما لم يتبق بعده عذر لأحد، فوقف على عرفات، وسط أكثر من مائة ألف نفس، يعلن الحقوق، ويهدم الجاهلية، ويؤصّل للإنسانية، حتى صدح فيهم» :اللهم هل بلّغت؟«

فجاء الجواب من السماء:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

إن هذا الباب فصلٌ أخيرٌ في زمن النبوة، وعهد جديد في عمر الأمة، إذ انتهى الوحي، وتم الدين، واستقر الحكم، وانطلقت الدعوة... فصلى الله على محمد، **كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**.

المحور الأول: تثبيت الدولة وبسط سلطان الإسلام في الجزيرة

الفقرة الأولى: إرسال الدعاة والمعلمين إلى أنحاء الجزيرة

ما إن انقضى عام الوفود، وتدفقت القبائل من أطراف الجزيرة على المدينة النبوية تبايع وتؤمن، حتى انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مرحلة جديدة من مراحل بناء الأمة، مرحلةٍ لا تقل أهمية عن الجهاد والسرايا والفتوحات، بل هي روح ذلك كله وجوهره :مرحلة ترسيخ الإيمان وتعليم الشريعة وتزكية النفوس.

لقد أراد صلى الله عليه وسلم أن لا يكون الإسلام مجرّد كلمة تُقال، أو بيعة تُعقد، وإنما عقيدةً تُغرس في القلوب، وعبادةً تُعاش في الجوارح، وشريعةً تُحكم بها الخصومات، ونورًا يُبدد ظلمات الجهل والهوى. فكان لزامًا أن يُرسل المعلمين والدعاة والقضاة، من خيرة أصحابه، إلى القبائل التي دخلت في الإسلام، يعلّمون الناس القرآن والفقه، والصلاة والطهارة، والحدود والفرائض، والعدل في القضاء، والرفق في الدعوة.

فبعث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام، إلى اليمن، ومعه أبو موسى الأشعري، صاحب القلب الحيّ والصوت النديّ. وقال لهما وصيةَ معلمٍ خبير، ومربٍ رؤوف:

"يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا) "رواه البخاري.(

وفي رواية":إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة "...إلى آخر الوصايا العظيمة.

وكان صلى الله عليه وسلم يختار لكل أرض من يُناسب أهلها، فيبعث العالم الحكيم، والفقيه العاقل، والقارئ الحافظ، ممن يتّقن البيان، ويعقل طبائع الناس، ويُحسن تنزيل الشريعة في واقعهم.

وأرسل إلى نجران الصحابي الجليل عمرو بن حزم، ومعه كتابٌ نبويٌّ عظيم، فيه تفصيل الحدود، والفرائض، والديات، والزكاة، وسائر ما تحتاجه الأمة في تنظيم حياتها، وهو من أشهر كتب النبي صلى الله عليه وسلم التي كُتبت، وقد تلقّته الأمة بالقبول، ودوّنه أئمة الحديث والفقه في مصنفاتهم.

كما أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مناطق من اليمن، وكان له فيها مواقف شامخة، يعلّم الناس، ويقضي بينهم، ويقيم فيهم العدل. ومن مواقفه المشهودة: أنه حكم في قضيّة شائكة ففصل فيها بالعدل والحكمة، فأُعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقضائه، وقال له كما في الصحيح":اللهم ثبت لسانه واهدِ قلبه."

لم يكن أولئك الدعاة مجرّد مبلغين لأحكام الدين، بل كانوا سفراءَ النبوة، وممثلين لدولة الإسلام، يجمعون بين العلم والعمل، والتعليم والتزكية، والحكمة والحزم، والقضاء والإمامة، فكانوا نواةً لمجتمعٍ رباني، يعبّد الناس لربهم، ويوصل إليهم نور الوحي كما أنزل.

وهكذا امتدّ ضوء الإسلام من المدينة إلى كل أرجاء الجزيرة، فصدَق وعد الله، وتمّت نعمته، وأُقيمت الحجة على من بلغ، مصداقًا لقوله تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾]الإسراء: ١٥.[وقال سبحانه :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾]التوبة: ٣٣.[

لقد كان أولئك المعلّمون والدعاة، امتدادًا لرسالة النبوة، وبُناةً لصرح الأمة، ولبناتٍ في جدار الحضارة الإسلامية، التي لم تبنَ بالسيوف وحدها، بل بالكلمة الطيبة، والعلم الصادق، والعدل الراسخ.

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الإيمان لا يكتمل إلا بعقيدة تغرس في القلوب وتُترجم إلى عمل ظاهر في الجوارح، وهذا من منهج أهل السنة في الجمع بين الإيمان الباطن والعمل الظاهر.
- تصديق وعد الله ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونشر الهداية، وأنه لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالبيان والرسالة.
- بيان أن النبوة لا تنقطع آثارها بموت النبي صلى الله عليه وسلم، بل تستمر برسالة العلم والدعوة التي يحملها ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة.
- وجوب الإيمان بأن الله يرسل الرسل ويصطفي من يشاء لحمل شريعته، وهو القادر على نشر دينه وظهوره على الدين كله، ولو كره أهل الباطل.
- الاعتقاد بأن الدين لا يتم إلا بالوحي المنزل، وأن العقل لا يستقل وحده بمعرفة ما يرضي الله، بل يحتاج إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم.

فوائد فقهية

- بعث النبي صلى الله عليه وسلم الدعاة لتعليم الناس أحكام الدين، يدل على وجوب تبليغ العلم ونشر الشريعة في الناس، وأن ذلك من فروض الكفايات.
- منهجه صلى الله عليه وسلم في إرسال معاذ وأبي موسى وغيرهما يعلّم فقه الأولويات في الدعوة، ابتداءً بالتوحيد، ثم الأركان، ثم الأحكام.
- كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعث به عمرو بن حزم أصلٌ في كتابة الأحكام والوصايا، ويعدّ من أقدم المصادر الفقهية المدوّنة.
- إثبات مشروعية القضاء بين الناس، وإرساء قواعد العدالة، واختيار أهل الفقه والعلم للقضاء، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب.
- الرفق والتيسير أصل في الدعوة وتعليم الناس، وهو قاعدة عظيمة في فقه المعاملة مع العامة، وخاصة المبتدئين في الدين.

فوائد تربوية وأخلاقية

- رفق النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ وأبي موسى "يسّرا ولا تعسّرا" أصل تربوي في معاملة المتعلمين

والناس عامة.

- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم للدعاة من أهل العلم والفضل يدل على أهمية تزكية النفس والتأدب قبل تصدر العلم والدعوة.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم القبائل بعد إسلامها يدل على أن الهداية لا تكتمل إلا بالعلم والتربية بعد الدخول في الإسلام.
- مدح النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب ودعاؤه له فيه تشجيع للصفوة وإبراز المواقف المشرّفة، مما يعين على بناء القدوات.
- تنزيل الدعوة على واقع الناس بحسب طبائعهم وبيئاتهم أدب تربوي دعوي يُعلَّم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار من يناسب كل قوم.

فوائد دعوية

- منهج النبي صلى الله عليه وسلم في إرسال الدعاة بعد دخول الناس في الإسلام دليل على أن الدعوة لا تقف عند حدود التبليغ، بل تحتاج إلى متابعة وتعليم مستمر.
- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم للدعاة من ذوي الصفات المتكاملة (علم، حكمة، فقه، بيان) يرشد إلى أهمية إعداد الداعية إعدادًا شاملًا.
- وصايا النبي صلى الله عليه وسلم تبين أن الدعوة تقوم على التيسير والبشرى، لا على التعسير والتنفير، وهو منهج دعوي ثابت.
- تنقل الصحابة إلى الأمصار مع العلم والتزكية يدل على أن الداعية لا بد أن يكون قدوة سلوكية، لا مجرد ناقل للمعلومة.
- مهمة الداعية لا تنحصر في التعليم فحسب، بل تشمل القضاء، وتزكية النفوس، وتربية المجتمعات، وبناء الأمة.

فوائد حضارية

- بناء الدولة الإسلامية لم يكن بالسيف وحده، بل بالكلمة والعلم والتعليم، وهذا أصل في التمدن الإسلامي وقيام الحضارة الإسلامية.
- امتداد ضوء الإسلام في أنحاء الجزيرة بعد إرسال المعلمين يوضح أن النهضة الحقيقية تبدأ من التعليم وبناء الإنسان.
- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته إلى الأطراف يُثبت أن الحضارة الإسلامية قائمة على نشر العدل والعلم، لا على الاحتلال أو الغزو.

ما يخالف الواقع

- ضعف الاهتمام في كثير من بلاد المسلمين اليوم بإعداد دعاة مؤهلين شرعيًا وعلميًا وتربويًا، والاعتماد على غير المؤهلين في تصدّر الدعوة.
- تفريط بعض الجماعات في العلم الشرعي، وركونهم إلى الحماسة والتهييج، مع إغفال التدرج والتأصيل، مما يفسد ولا يصلح.
- انتشار الدعوة على وسائل التواصل دون ضوابط علمية، أدى إلى تسطيح الدين واختلاط المفاهيم عند كثير من الناس.
- غلبة التشدّد في خطاب بعض الدعاة، خلافًا لوصية النبي صلى الله عليه وسلم بالتيسير والرفق.
- ضعف المؤسسات العلمية في القيام بدورها في نشر العلم والفتوى، وترك الساحة لغير المؤهلين.

الفقرة الثانية تعيين الولاة والعمّال... عدلٌ يرسّخ دولة الإسلام

لم تكن غاية النبي صلى الله عليه وسلم من الدعوة فتح الأرض فقط، بل فتح القلوب، ولا كان مراده أن يعلو صوت الإسلام في الجزيرة العربية وحسب، بل أن يترسخ في النفوس نظامًا ربانيًّا يُقيم العدل، ويُحيي السنن، ويصون الحقوق، ويحكم بين الناس بما أنزل الله.

وحين دانت الجزيرة كلها لدين الله، وانتشرت راية التوحيد في أرجائها، انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خطوة حاسمة في تثبيت دعائم الدولة، ألا وهي **تعيين الولاة والعمّال والقضاة** في الأقاليم المختلفة، لتُنفّذ الشريعة، وتُصان مصالح الناس، وتُجمع الزكاة، وتُرفع المظالم، ويُعلّم الناس أمر دينهم في كل قرية ووادي.

وما كانت هذه التعيينات ارتجالًا، بل **اختيارات محسوبة، تراعي الكفاءة والأمانة، والعلم والخبرة، والقبول بين الناس** .فقد كان صلى الله عليه وسلم يعرف رجاله، يُزكّيهم، ويضع كلّ واحدٍ في الموضع الذي يُحسن فيه العمل، فكان من تمام عدله وحكمته.

فولّى:

زياد بن لبيد البياضي على حضرموت، لما عُرف به من فقه ورجاحة عقل.

الأقرع بن حابس على بني تميم، وهو سيّدهم المطاع، فاجتمع له الدين والشرف.

العلاء بن الحضرمي على البحرين، وكان عابدًا زاهدًا، وقائدًا حكيمًا.

عباد بن بشر على قباء، وهو من السابقين، ومن أصحاب القرآن.

عمرو بن العاص على عُمان، لحكمته وحنكته، وكان أهلها من أهل الكتاب، فناسبهم علمه وفطنته.

عتّاب بن أسيد على مكة بعد الفتح، وكان شابًا في السادسة والعشرين، لكنه نضج بالإيمان والعلم، فأصبح أول والٍ على مكة في الإسلام، وحَسُنَت ولايته وأثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يكتفي بتعيينهم، بل **يكتب إليهم الكتب، ويعلّمهم المنهج، ويوصيهم بتقوى الله، والرفق بالرعية، وتحقيق العدل، وتحميل الناس على الشريعة بالحكمة** .كما فعل مع معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن، فقال له"**:كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**"فقال: أقضي بكتاب الله قال: "فإن لم تجد؟"قال: فبسنة رسول اللهقال: "فإن لم تجد؟"قال: أجتهد رأيي ولا آلو فضرب النبي صلى الله عليه وسلم صدره وقال"**:الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله ورسوله)** "رواه أبو داود بسند ضعيف .(

لقد كانت هذه السياسة الإدارية النبوية، برهانًا ساطعًا على أن **العدل أساس الملك**، وأن من أراد أن يُقيم دولة الإسلام فليؤسّسها على تقوى من الله ورضوان، وعلى رجال ربّانيين، يعرفون قدر الأمانة، ويُقيمونها في الناس بالحق، ويُعلّمونهم كيف يعبدون الله، وكيف يحكمون الشريعة في واقعهم.

وكانت تلك البعثات والولايات نواةً لأول دولةٍ في الإسلام تُدار بالشورى والعدل والعلم، وتُربّى فيها النفوس على الخشية من الله، قبل النظر في حساب الناس.

قال الله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾]النساء: ٥٨.[

وهذا ما فعله نبيّ العدل والرحمة، محمد صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إقامة العدل في الأرض غايةٌ شرعية من غايات الرسالة، وليس مقصود الدعوة الإسلامية مجرّد السيادة على الأرض، بل الهداية القلبية، وتحكيم شريعة الله.
- تثبيت دعائم الدولة الإسلامية كان بأمر الله وعلى هدي النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أن السياسة الشرعية جزءٌ من الدين، لا من مبتدعات الناس.
- اختيار الولاة والقضاة قائم على الكفاءة والتقوى، مما يبيّن أن الولاية في الإسلام عبادةٌ وأمانة لا تُعطى بالهوى.
- المنهج النبوي في القضاء والاجتهاد مأخوذ من الوحي، ومنضبط بضوابط الشرع، مما ينفي عن الإسلام تهمة الجمود أو التفريط.
- الولاية في الإسلام تُؤدى بأمر الله، وهي أمانة يسأل الله عنها العبد، ولذلك عظّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وربّى عليها أصحابه.

فوائد فقهية

- القضاء في الإسلام مراتب: يبدأ بالنص من الكتاب، ثم السنة، ثم الاجتهاد المنضبط.
- يجوز تعيين الشباب الأكفاء في المناصب إذا توفرت فيهم شروط القيادة والأمانة، كما في ولاية عتاب بن أسيد على مكة.
- تجب على الوالي مراعاة أحوال الناس وما يناسبهم عند التطبيق، مع عدم الخروج عن الشريعة.
- الإمام يُراسل ولاته وعمّاله ويوصيهم بما يحقق العدل، ويُتابعهم، وهذا أصل في المتابعة الإدارية الرشيدة.
- ولاية القضاء والعمالة تُعطى لأهل العلم والخبرة والتقوى، لا للقرابة أو المصالح الشخصية.

فوائد أخلاقية

- العدل قيمة عليا يجب ترسيخها في المجتمع مهما بلغت الفتن والمصالح، وقد أقامها النبي صلى الله عليه وسلم عمليًا.
الرفق بالرعية خلقٌ نبوي، وهو واجبٌ على كل والٍ ومسؤول.
- الثقة بين القائد وجنوده تنشأ من التربية والقدوة، كما ظهر في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ، وثنائه على ولاة أموره.
- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم يظهر في تعليمه لأصحابه وتقديره لاجتهاداتهم، لا في فرض رأيه فقط.

فوائد دعوية

- حسن اختيار الدعاة والولاة من أعظم وسائل نجاح الدعوة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تعييناته المتعددة.
- القدوة العملية أقوى في التأثير من مجرد الكلام، ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجالًا يُعلّمون ويُربّون.
- الخطاب الدعوي يجب أن يُناسب أحوال المدعوين، كما أُرسل عمرو بن العاص لأهل الكتاب نظرًا لفطنته.
- التزكية القلبية جزءٌ من مهمة الولاة والدعاة، وليس المطلوب منهم التعليم فقط، بل التربية أيضًا.

فوائد إدارية وسياسية

- القيادة النبوية جمعت بين المركزية في التشريع، واللامركزية في التسيير، فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم الولاة صلاحياتٍ ضمن منهجٍ مضبوط.
- الحكم في الإسلام يقوم على الشورى والعلم والعدل، لا على الاستبداد أو الجهل.

- كل والٍ مسؤولٌ عن أهل عمله أمام الله أولًا، ثم أمام الأمة، مما يضع نظام محاسبة ضميري وشرعي.
- توزيع الولاة على الأقاليم يعكس فقه الواقع وإدراك النبي صلى الله عليه وسلم لحاجات كل بيئة.

مخالفات الواقع

- كثير من ولاة الأمر اليوم لا يُختارون على أساس الأمانة والكفاءة والعلم، بل على أساس الولاء الحزبي أو المصالح الشخصية.
- غياب العدل في كثير من المحاكم والمؤسسات، واختلال موازين الحق، مما يُناقض تمامًا المنهج النبوي في القضاء.
- تحوّلت مناصب الولاية والعمالة إلى وسيلة للترف والمفاخرة، بدلًا من كونها مسؤولية عظيمة أمام الله.
- قلة المكاتبة والتواصل بين القيادات وموظفيهم، وغياب التوجيه والتربية، مما يفرغ العمل من روح الرسالة.
- كثير من الرعاة لا يعرفون الرعية، ولا يُحسنون تنزيل الشريعة في واقعهم، فيتسببون في نفور الناس لا هدايتهم.

الفقرة الثالثة: هدم ما بقي من الأصنام... تطهير الجزيرة من الشرك

لم تكن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم دعوة جزئية تُبقي على أنصاف الحلول، أو تسكت عن مظاهر الباطل، بل كانت دعوة كمالٍ وشمول، تأبى أن يبقى في الأرض صنمٌ يُعبد، أو وثنٌ يُعظَّم، بعدما أشرقت شمس التوحيد، وصدع الأذان بـ "أشهد أن لا إله إلا الله."

فلما دانت الجزيرة بدين الله، وامتلأت القلوب بنور الإسلام، **تحركت الإرادة النبوية لتُطهّر الأرض من آثار الشرك كلها**، فكان لابد من كسر الأصنام، وهدم المعابد الوثنية، ليس قسرًا على القلوب، بل **غلقًا لأبواب الفتنة، ودرءًا لأسباب الردة، وتنفيذًا لوصيته صلى الله عليه وسلم» :لا يجتمع في جزيرة العرب دينان)** «رواه مالك والبيهقي وصححه الألباني.(

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم السرايا، واحدة تلو الأخرى، **تقتلع الشرك من جذوره، وتهدم ما بقي من الأصنام التي طالما أضلت الناس عن طريق الله**، وأراهم كيف يُمحى الباطل بالفعل، كما مُحي بالكلمة والبيان.

فبعث **خالد بن الوليد** إلى **العُزّى**، أعظم أصنام قريش بعد اللات ومناة، فذهب فهدمها، ثم رجع .قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هل رأيت شيئًا؟ «قال: لا .قال: «ارجع فاهدمها .«فرجع خالد، فإذا بامرأة سوداء ناشرة شعرها، تصرخ وتتمرغ، **فجعل يضربها حتى خرّت صريعة، فعاد وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال» :تلك العُزّى، ولن تُعبد بعد اليوم)**«رواه أحمد والنسائي بسند حسن.(

وبعث **عمرو بن العاص** إلى **سُوَاع** –صنم هذيل – فهدمه، ولم يُبق له أثرًا.

وبعث **سعد بن زيد الأشهلي** إلى **مناة**، وكان معبودًا لمزينة وهذيل وغيرهم، فهدمه أيضًا، وطهّر الساحة من رجسه.

وبعث **الطفيل بن عمرو الدوسي** إلى صنم قومه **ذو الكفّين**، وكان يُعبد في دوس، فهدمه بيده، وعاد يُبشّر قومه بزوال الظلام، وإشراق النور.

وأرسل **علي بن أبي طالب** إلى اليمن، فهدم ما كان فيها من الأصنام، **منها "نخلة" و"كعبة نجران** "التي كانت تُعظَّم كتعظيم الكعبة، فجعلها أثرًا بعد عين.

لقد كانت هذه السرايا رسائل عملية تقول للناس:

إن التوحيد لا يكتمل إلا بإزالة الشرك من الأرض والقلوب معًا، وإن الحق لا يرضى بمزاحمة الباطل في أرض واحدة.

وهكذا خُتمت السيرة النبوية بتطهير الجزيرة من الأوثان، كما خُتمت القلوب بالإيمان، وكان تمام البلاغ، وكمال الرسالة، وبداية عهدٍ جديد تُحكم فيه الأرض بكتاب الله، ويُعبد فيها الله وحده لا شريك له.

قال الله تعالى :﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾]الإسراء: ٨١.[

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوحيد لا يكتمل إلا بزوال الشرك من الأرض والقلوب، فالشرك لا يُستبقى احترامًا لعقائد الناس بل يُمحى صيانة للتوحيد.
- إزالة الأصنام ليست فقط مظاهر مادية بل هي تطهير روحي يرسّخ العقيدة في النفوس.
- الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرضَ ببقاء معبد شركي واحد، لأن الإسلام دين الكمال والحق الذي لا يقبل المشاركة في العبودية لله.
- توحيد العبادة لله وحده لا يتحقق إلا بإنهاء كل ما يُعبد من دون الله، لأن ذلك من تمام تحقيق شهادة "لا إله إلا الله."
- الحق إذا جاء أزاح الباطل ضرورةً، فهما لا يجتمعان، وهذا من سنن الله في الصراع بين النور والظلام.

فوائد فقهية

- إزالة الأصنام ليست من باب الإجبار الديني، بل من باب حماية المجتمع المسلم من أسباب الردة والفتنة، وهو من مقاصد الشريعة.
- جواز بعث السرايا لهدم معاقل الشرك دون إعلان حرب إذا كان المقصد إزالة مظاهر الكفر في أرض الإسلام.
- لا يُكتفى في القضاء على الشرك بالبيان والدعوة، بل يُتبع بالفعل المؤيد من ولي الأمر، لإتمام واجب الحسبة.
- الولاية الشرعية تملك حق إزالة المنكرات العظيمة من جذورها، ما دام ذلك يحقق مصلحة الدين ويمنع الفتنة.

فوائد أخلاقية

- الحزم في إزالة الباطل لا ينافي الرحمة، بل هو من تمام الرحمة بالخلق أن يُبعد عنهم ما يضلهم.
- الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك الأمور تتراكم بل كان سبّاقًا في إنهاء مواطن الانحراف.
- كل من وُلّي أمرًا شرعيًا يجب أن ينهض بمهمته ولا يتردد في نصرة الدين، كما فعل خالد وعمرو وعلي رضي الله عنهم.
- الصدق في تبليغ الدين يظهر في استكمال العمل حتى نهايته وعدم الاكتفاء بالظاهر، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم خالدًا بالرجوع حتى أبطل ما تبقّى من رموز الشرك.

فوائد تربوية

- تطهير الأرض من الشرك هو تربية للأمة على نقاء العقيدة، وتحصين للجيل من مظاهر الانحراف العقدي.
- التدرج في بيان الباطل ثم العمل على إزالته يعلّم المربّين أن التربية لا تكتمل إلا بالفعل المؤثر، لا بالقول فقط.
- ضرب القدوات التي قامت بإزالة الشرك يُغرس في الناشئة معنى الشجاعة في نصرة العقيدة والعمل على تحقيقها.

فوائد دعوية

- الداعية الحق لا يقف عند البلاغ النظري، بل يسعى لتغيير الواقع وفق الشريعة، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال السرايا.
- هدم الأصنام دعوة عملية للتوحيد تعادل مئات الخطب، لأنها تنزع قدسية الباطل من النفوس.
- الدعوة إلى الله تقتضي إزالة الحواجز بين الناس وبين الحق، ومن أعظمها مظاهر الشرك المادية التي تُغري العامة.

ما يخالف الواقع

- إبقاء الأضرحة والمقامات الشركية التي تُزار ويُدعى عندها غير الله، بل ويُحلف بها ويُطلب منها الشفاء والذرية.
- وجود من يتساهل في بقاء مظاهر الشرك بحجة احترام ثقافات الشعوب أو التعدد الديني حتى في بلاد المسلمين.
- الدعوة إلى "التسامح الديني" بمعناه الفاسد الذي يُبقي الشرك والوثنية دون إنكار ولا إزالة.
- وجود دعاة يدافعون عن بقاء القبور المبنية والمزارات الصوفية بزعم أنها من التراث الإسلامي، وهي مظاهر شرك بيّن.
- إهمال كثير من الأنظمة الإسلامية لمظاهر الشرك التي تتفشى في القرى والمدن دون حسيب أو رقيب، مما يُعيد الوثنية في ثوب جديد.

الفقرة الرابعة: حَجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه... تمهيدٌ للتوحيد ونهايةٌ لعهد الجاهلية

في السنة التاسعة من الهجرة، وبينما كانت رايات الإسلام ترفرف على أرجاء الجزيرة، وحناجر المؤمنين تصدح بـ"الله أكبر"، أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُقيم الحجة على الناس في موسمها الأعظم، فبعث أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه أميرًا على أول حجٍّ إسلامي خالص، دون أن يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي لم يُكتب له بعد أن يؤدي حجة الإسلام.

خرج أبو بكر رضي الله عنه على رأس موكبٍ من الصحابة، يحملون مشاعل الهدي النبوي، ويُعلِّمون الناس كيف يؤدون المناسك كما أُمروا، لا كما توارثوها من جاهليةٍ شوهت الطهر، واستباحت العورات، وجعلت من البيت الحرام ملتقى للعُراة، ومسرحًا للشرك والأنصاب.

وفي هذه الأثناء، نزل صدر سورة "براءة" (التوبة)، يحمل إعلانًا إلهيًا واضحًا: أن لا مكان بعد اليوم لشركٍ أو نجاسةٍ في هذه الأرض الطاهرة، ولا لعهدٍ يُخالف عهده سبحانه. قال تعالى :﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾] التوبة: ١.[

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقته القصواء، يلحق بأبي بكر ليبلّغ كلمات الله في أيام الله، في أعظم مشهدٍ يجتمع فيه الناس من كل فجٍّ عميق.

وفي يوم النحر، في ذلك الموسم المهيب، وقف عليٌّ رضي الله عنه يُنادي بما أمره به النبي صلى الله عليه وسلم، وأصغت الأسماع، واهتزت القلوب، فكان من نداءه» :لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر) «متفق عليه: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.(

لقد كان هذا اليوم فاصلًا في تاريخ الإسلام، وإيذانًا بأن البيت الحرام قد عاد إلى طهره الأول، بيتًا للتوحيد، لا يُدنّس بالشرك ولا يُطاف فيه إلا بثياب العفة والطاعة.

وكانت تلك الحجة العظيمة تمهيدًا لحجة الوداع التي سيقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم في العام التالي، ليشهد الناس أتمّ صورةٍ من صور التوحيد والاتباع، بلا خرافة ولا وثن، بلا شركٍ ولا عُري.

وقد ختمت سورة التوبة هذا المشهد بقوله تعالى:﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾] التوبة: ٣.[

فهكذا طهّر الله بيته من دنس المشركين، وأعلن للعالم أن لا اجتماع بعد اليوم بين التوحيد والوثنية، ولا مقام في الأرض المقدسة إلا لأهل الإيمان.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- التوحيد شرط لدخول الجنة، فلا يدخلها إلا نفس مؤمنة حقًا بالله تعالى، كما جاء في إعلان عليّ رضي الله عنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم.
- إفراد الله بالعبادة ونفي الشرك شرط لقبول الأعمال، وهو ما جسدته هذه الحجة التي أعلنت البراءة من المشركين، وإنهاء كل مظهر شركي في أطهر بقعة.
- عدم الجمع بين التوحيد والشرك في دار الإسلام أصل عظيم، تجلّى في أمر الله ورسوله بأن لا يُحجّ بعد العام مشرك، تأكيدًا على نقاء عقيدة أهل الإيمان.
- بلاغ الله من خلال رسوله صلى الله عليه وسلم في يوم الحج الأكبر هو من أعظم صور إقامة الحجة على الناس، بما لا يُبقي لهم عذرًا بعده.
- نفي العُري والطواف به حول البيت هو حماية لجانب الحياء والإيمان، ودليل على أن الفطرة السليمة لا تجتمع مع ممارسات الجاهلية ولو في أرض مقدسة.

فوائد فقهية

- جواز أن يكون الأمير العام على الحج غير النبي صلى الله عليه وسلم، كما في إرسال أبي بكر رضي الله عنه أميرًا، مما يدل على نيابة الإمام العادل في إقامة الشعائر.
- التدرج في الأحكام الشرعية يظهر في منح المشركين الذين لا عهد لهم أجلًا مقدرًا بأربعة أشهر قبل انقضاء الأمان، مما يدل على مراعاة مبدأ الإنذار قبل القتال.
- من السنة إبلاغ الناس بأحكام الدين العظيمة في المحافل العامة، كما فعل علي رضي الله عنه في موسم الحج، وهي فرصة عظيمة للدعوة والتعليم.
- الحج لا يكون إلا للمسلم، ولا يصح أن يؤديه المشرك، وهو ما نص عليه النداء النبوي في هذه الحجة، فالحج عبادة توحيد خالصة لا تقبل الشرك.
- المنع من طواف العراة من باب سد الذريعة وصيانة الحرمات، وهو أصل فقهي معتبر في الشريعة لحفظ الدين والحياء.

فوائد أخلاقية

- الحرص على الطهر والعفاف في الشعائر مظهر من مظاهر الإيمان، وقد أكدت الحجة الإسلامية ذلك بمنع العُري في الطواف.
- الصدق في التبليغ وأداء الأمانة تجلّى في حرص أبي بكر وعلي رضي الله عنهما على إيصال كلام الله ورسوله كما أُمروا، بلا تأخير ولا تبديل.

- الوقوف بوضوح أمام الباطل وإعلان البراءة منه يحتاج إلى شجاعة إيمانية، كما فعل الصحابة في نداء التوحيد وقطع عهد المشركين.
- العدل حتى مع المخالفين ظهر في الوفاء بعهود المشركين لمن له عهد إلى مدته، وهو من مكارم الأخلاق في الإسلام.
العمل الجماعي في الدعوة وتنظيم الحشود للحج على نهج النبوة هو صورة من صور التعاون على البر والتقوى.

فوائد دعوية

- استغلال المواسم الكبرى كالحج لإبلاغ الرسالة من أنجع وسائل الدعوة، لأن القلوب فيها أقرب للخشوع والقبول.
- الوضوح في الخطاب مع الناس مطلب شرعي، وقد تجلى في قول علي رضي الله عنه: "لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة..." مما يدل على أهمية البيان القاطع.
- إعلان البراءة من الشرك بشكل علني لا يعني الغلظة، بل هو واجب دعوي حين يُراد به حفظ الدين وإظهار الحق.
- الربط بين العقيدة والسلوك – كتوحيد الله ولبس ثياب الحياء في الطواف – هو منهج قرآني ودعوي متكامل في التربية الإسلامية.

مخالفات الواقع

- وجود مظاهر من الطواف حول القبور والأضرحة اليوم، واعتقاد البعض أنها تقرّبهم إلى الله، مع أن الإسلام نهى عن إشراك غير الله في عبادته.
- إحياء بعض مظاهر الجاهلية في بعض البلدان الإسلامية، من عُريٍ في مواسم، واختلاط في شعائر، مع نسبة ذلك إلى الدين ظلمًا.
- تساهل بعض الدعاة المعاصرين في إعلان البراءة من الشرك، بدعوى التعايش، مما يُضعف أصل الولاء والبراء في العقيدة الإسلامية.
- وجود من يقرّ دخول غير المسلمين للحج والعمرة بدعوى الحرية الدينية، وهو مخالف للنصوص القطعية التي حرّمت ذلك.
- ضعف الحياء عند بعض المسلمين، من خلال لباس فاضح في الطواف أو غيره، مما يُشبه أحوال الجاهلية الأولى .

الفقرة الخامسة: حجَّة الوداع... خُطى الختام في مسيرة النور

في السنة العاشرة من الهجرة، وبعد أن سطع نور التوحيد في أرجاء الجزيرة، واندحر الشرك تحت أقدام الإيمان، وتطهرت المشاعر من أنجاس الوثنية، أذِن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يُتِمّ الركن الركين، ويُعلن للعالم ختام المسيرة :**إنه وقتُ الحج، وقتُ التعليم، وقتُ التبليغ الأخير.**

فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنادي الناس بصوته الهادي الذي خالطت نبراته نُذر الوداع، فقال»:**يا أيها الناس، إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**«رواه مسلم.(

فكانت الكلمات كنداء السماء، **تتردَّد أصداؤها في أرجاء المدينة والقبائل والبوادي، تُوقظ الأرواح وتُثير الأشواق،** فأقبلت القلوب قبل الأقدام، وتحرّكت قوافل المشتاقين من كل فجٍّ عميق، لا تكاد تجد قبيلة إلا وفيها من لبى النداء، **يُريد أن يحج مع الحبيب صلى الله عليه وسلم، أن يشهد المناسك من عينه، أن يتعلَّم منه كما لو كان آخر لقاء.**

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه على الحج، فتهافت الصحابة من كل حدب، حتى جاوز عددهم مئة ألف، كما جاء في الروايات، وهو أعظم موكبٍ إيماني شهده الزمان، موكب الطهر والتجرد والانقياد.

وفي يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة المباركة، وقد علاه السكون والوقار، والقلوب من حوله تخفق بالشوق، والأعين تتبع خُطاه بخشوع.

نزل صلى الله عليه وسلم بذي الحُليفة، **فتجرد من ثيابه، واغتسل غُسل الطاهر المتجه للملك الديان، ثم لبس إزاره ورداءه، وقلّد هديه، وركب راحلته، ولبّى بالتوحيد، فاهتزت الدنيا بندائه واهتزت معه القلوب»:لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.«**

كلماتٌ ليست مجرد ترديد، بل **ميثاقٌ متجدد، تُعلن فيه النفوس أنها لله وحده، لا تتبع إلا هديه، ولا تنقاد إلا لشرعه.**

وانطلق الركب المبارك، يسير في أرض الله ملبِّيًا، مكبِّرًا، مهلِّلًا، والناس من خلفه، يقتدون به خطوةً بخطوة، ولفظًا بلفظ، وحركةً بسكون.

كان صلى الله عليه وسلم يُعلِّمهم كما يُعلِّم الوالد ولده، ويُريهم مناسكهم كما أُمر، حتى اكتمل بذلك البلاغ، وأوشكت الرسالة أن تتم، **وكانت حجَّته صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وحجة البيان، وحجة التمام.**

قال الله تعالى :﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾] الحج: ٢٧[وهذا هو التأذين الأعظم، وقد جاء الناس من كل فج، وعلى رأسهم إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الحج عبادة عظيمة يُظهر فيها المسلم تجرده التام لله وحده، ويجدد فيها إعلانه للتوحيد الخالص، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لبيك لا شريك لك.«
- إعلان النبي صلى الله عليه وسلم للحج في عامه العاشر يدل على إتمام الله تعالى للدين، واكتمال النعمة، كما جاء في قوله تعالى في ختام تلك الحجة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾.
- تجرد النبي صلى الله عليه وسلم عند الميقات، واغتساله ولبسه الإحرام وتلبيته، كل ذلك يدل على تعظيمه لشعائر الله، وهو من تقوى القلوب.
- الانقياد التام لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في الحج هو من أعظم مظاهر الاتباع الذي لا يقبل الله من العبد غيره، ومن خالفه لم يُقبل منه عمله، ولو أحسن النية.
- حج النبي صلى الله عليه وسلم تعليمًا للأمة، وإتمامًا للبلاغ، وهو من أعظم دلائل رحمته بأمته وقيامه بأداء الأمانة على الوجه الأكمل.
- دعوة إبراهيم عليه السلام بالحج تحققت كاملة في حج النبي صلى الله عليه وسلم، وظهر أثر التأذين العظيم في مجيء الناس من كل فجٍّ، وهذا من دلائل صدق النبوة.

فوائد فقهية

- فرضية الحج ثابتة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله فرض عليكم الحج فحجوا»، فهي ركن من أركان الإسلام لا يتم الدين إلا به.

◆ الإحرام لا يكون إلا من الميقات المخصص، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أحرم من ذي الحُليفة، وعلّم الأمة مواضع الإحرام.

◆ الاغتسال للإحرام سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه تعظيم لشعيرة الدخول في النسك، ونظافة ظاهرة وباطنة.

◆ التلبيات التي كان يرددها النبي صلى الله عليه وسلم هي ما ينبغي الالتزام به دون زيادة أو بدعة، وهي إعلان للتوحيد والتجرد من الشرك والرياء.

◆ اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في المناسك واجب، وقد قال: «خذوا عني مناسككم»، فكل عمل في الحج يجب أن يُرجع فيه إلى فعله وقوله.

فوائد أخلاقية

◆ تدافع الصحابة من كل مكان للحج مع النبي صلى الله عليه وسلم يدل على شدة محبتهم له، وحرصهم على اتباعه والتعلم منه.

◆ سير النبي صلى الله عليه وسلم بسكينة ووقار يُعلّم الأمة خلق التعظيم والسكينة في أداء العبادات، خاصة في الشعائر العظيمة.

◆ تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في كل موقف يدل على حسن الخلق، والرحمة بالمتعلمين، والصبر على تعليم الناس.

◆ التجرد من الثياب والزينة في الإحرام يُربي النفس على الزهد، والتواضع، وترك مظاهر الدنيا، والتساوي بين الناس أمام الله.

◆ حرص الناس على الحج مع النبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا أثر القدوة، وأهمية أن يكون القائد مربِّيًا ومعلِّمًا بأفعاله لا بأقواله فقط.

فوائد دعوية وتربوية

◆ إعلان النبي صلى الله عليه وسلم للحج وقيامه به أمام الناس يُعد ختامًا عمليًا لمسيرته في التبليغ، وتعليمًا حيًا للدين قبل وفاته.

◆ الحج كان موسمًا عظيمًا للدعوة والتعليم الجماعي، حيث اجتمع فيه الناس من كل القبائل والبلدان ليتعلموا الدين من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة.

◆ خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «يا أيها الناس» فيه دعوة عامة شاملة لكل البشرية، وليس حصرًا على جماعة أو فئة معينة.

◆ مشهد اقتداء الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم خطوة بخطوة يُعطي الداعية درسًا في أهمية التربية بالقدوة، لا بمجرد الكلام.

ما يخالف الواقع

- تفريط كثير من المسلمين في أداء الحج رغم قدرتهم عليه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على فرضيته، وهذا يدل على ضعف الاستجابة.
- كثير من الناس اليوم يؤدون الحج بلا علم ولا اتباع، ويقعون في مخالفات شرعية، بينما النبي صلى الله عليه وسلم حج ليعلم الناس المناسك كما أُمر بها.
- غياب روح التوحيد في أداء الشعائر عند بعض الحجاج، حيث تختلط النسك بالأدعية المبتدعة، والتمسح بالمباني، مما يناقض التوحيد الخالص الذي أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم.
- افتقاد الأمة لقادة ربانيين يُعلّمون الناس كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل، ويقتدى بهم في السلوك والدعوة والاتباع.
- ظهور بعض أشكال الرياء أو التصوير أثناء أداء المناسك، مما ينافي التجرد لله، ويقلل من أثر التذلل والانقياد.

الفقرة السادسة: مشهد الإحرام والخروج إلى البيت الحرام

في العام العاشر من الهجرة، أذن الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يُتمّ ركن الحج، فكان ذلك الإذن السماوي إعلانًا بانتصار التوحيد، وانمحاء آخر مظاهر الشرك من جزيرة العرب. وما إن تناقل الناس الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم عازمٌ على الحج، حتى ضجّت المدينة، وتحرّكت القلوب تهفو إلى البيت الحرام، وترتجف شوقًا لرؤية الحبيب في نسكه، تهتدي بخطاه، وتتشبث بسنته، وتقتفي أثره.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة، في موكب النور، يوم السبت لخمسٍ بقين من ذي القعدة، ومعه أمواجٌ بشرية من المؤمنين، تفيض بهم الأرض، جاؤوا من كل فجٍّ عميق، لا يحملهم إلا الشوق، ولا يدفعهم إلا الحب، ولا يجمعهم إلا الإيمان. كانوا كما وصفهم الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

"نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلُ ذَلِكَ" رواه مسلم.

فلما بلغ صلى الله عليه وسلم *ذي الحليفة* -وهي ميقات أهل المدينة، وتُعرف اليوم بـ"آبار علي"- نزل بها، وبات فيها ليلةً ملؤها السكينة والخشوع، وكأنّ الزمان قد توقف انتظارًا للحظة الإهلال. وفي صباح اليوم التالي، قال صلى الله عليه وسلم:

»أتاني آتٍ من ربي فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرةٌ في حجة« *رواه البخاري ومسلم*.

اغتسل صلى الله عليه وسلم، فكان طهوره نورًا على نور، ثم تطيّب بأطيب ما يجد من الطيب، تهيؤًا للوقوف بين يدي المولى عز وجل، وقصّ شيئًا من شعره، ثم تقلد هديه وأشعره، أي شقّ سنامه ليُعلم أنه هديٌ لله، ثم لبس إزاره ورداءه الأبيضين، رمز الفقر إلى الله، والتجرد من كل حطام الدنيا، والتفرغ التام للعبودية والإنابة.

ثم صلى ركعتين في مسجد الشجرة، حيث ميقات المدينة، وبعدها امتطى راحلته، وما إن استوت به على البيداء، حتى انفجرت الكلمات من صدره الطاهر، فدوّى في الأفق صوت التوحيد»:**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.**«

ترددت التلبية في السماء، وارتجّت لها الأرض، واهتزّت بها القلوب، وتلقفها الصحابة بأصوات خاشعة، حتى كأن الصحراء كلها تلبي، والجبال تردد، والريح تسبّح.
قال جابر رضي الله عنه» :فلما استوى على راحلته أهلّ، فلبى الناس بتلبيته.«

ولم ينسَ الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يُعلِّم الأمة نية الإخلاص في العبادة، فكان من دعائه بعد الإحرام:

»اللهم اجعلها حجةً لا رياء فيها ولا سمعة «*رواه ابن ماجه، وصححه الألباني*.

ما أعظم هذا المشهد !وكأنّ القيامة قد قامت، وكأن النفوس قد خُلعت من الدنيا ولبست لباس الآخرة، وجموع المؤمنين تزحف نحو البيت العتيق، مرددة بصوت واحد، ولسان واحد، وعقيدة واحدة" :**لبيك اللهم لبيك**."

لقد تحقّق قوله تعالى:﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾]الحج: ٢٧.[فها هو الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يؤذّن، وها هم الرجال يأتون، وها هي الأرض تشهد أعظم مشهدٍ في تاريخها بعد بدر والفتح.

مشهدٌ مهيب، لا يشبهه في رهبة الموقف إلا يوم الحشر، يوم تُساق القلوب إلى ربها خاشعة، والعيون باكية، واللسان لا يلهج إلا بالتكبير والتهليل.

يا الله! ما أبهى هذا الحشد الطاهر، وما أصفى هذه القلوب المخلصة، وما أشد الحنين في أرواحهم إلى لقائك!

الفوائد المستفادة من الفقرة:

فوائد عقدية

◆ الحج عبادة عظيمة يُظهر فيها التوحيد في أبهى صوره، وفي مشهد الإهلال بالتلبية إعلان صريح بوحدانية الله تعالى، وخلعٍ لكل ما سواه من الولاء والانقياد.

◆ إفراد الله تعالى بالحمد والنعمة والملك كما جاء في التلبية هو اعتراف عملي بأن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر، لا يملك أحد مع الله شيئًا.

◆ مشهد إحرام النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه أصحابه مناسكهم يدل على أن العبادات توقيفية، لا تُبتدَع فيها أهواء ولا تُخترع فيها طقوس، إنما هي كما علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

◆ استحضار نية الإخلاص عند التلبس بالنسك دعاءً وتعليمًا من النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أهمية تصحيح القصد في العبادات، وأن الرياء والسمعة يفسدان حتى أعظم العبادات إن دخلاها.

◆ استجابة الناس لنداء النبي صلى الله عليه وسلم بالحج من كل فجٍّ عميق هو تحقيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، وهو من دلائل صدق الرسالة المحمدية وتمام الدين.

فوائد فقهية

◆ الميقات الزماني للحج يبدأ من شوال، والمكاني لأهل المدينة هو ذو الحليفة، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، فيُشرع الإحرام منه لمن جاء من المدينة.

◆ السُّنّة أن يغتسل المُحرِم، ويتطيّب في بدنه قبل إحرامه، دون أن يُبقي الطيب بعد الإحرام، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

◆ يُستحب للمسلم أن يُصلي ركعتين عند الإحرام كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد الشجرة.

◆ من السُّنن الفعلية شعيرة إشعار الهدي وتقليده، وهي من شعائر التقرب إلى الله وتُظهر الاستسلام والطاعة.

◆ جواز الإهلال من على ظهر الدابة بعد المسير من الميقات، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أهلّ بالتوحيد بعد أن استوت به راحلته.

◆ جواز الجمع بين العمرة والحج بنية التمتع أو القِران، لقوله صلى الله عليه وسلم: «عُمْرَةٌ في حَجَّة.»

◆ يُسن رفع الصوت بالتلبية للرجال، وترديدها بصوت واحد فيه إعلان جماعي للوحدة الإسلامية حول التوحيد والطاعة.

فوائد أخلاقية

◆ مشهد التجرّد من ثياب الزينة ولبس الإزار والرداء يُربّي النفس على التواضع، ويُذكرها بهوان الدنيا وسرعة زوال مظاهرها.

◆ اجتماع المؤمنين من أطراف الأرض على عبادة واحدة، وزيٍّ واحد، وهتاف واحد، يُرَبِّي الأمة على التآلف والوحدة والتجرد من العصبيات الجاهلية.

◆ تربية النفس على الإخلاص منذ اللحظة الأولى للعبادة كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة» هو منهج تربوي عظيم يجب أن يسري في كل العبادات.

◆ هذا الحشد النقي يُظهر أهمية صحبة الصالحين في العبادة، وكيف تقوّي عزيمة الطاعة وتُعين على صدق الإقبال على الله.

فوائد دعوية وتربوية

◆ ينبغي للعلماء والدعاة أن يُعلِّموا الناس العبادات من خلال القدوة الفعلية، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يُريهم المناسك كما يُعلم الوالد ولده.

◆ مشهد الحج يُعد دورة إيمانية متكاملة، يتعلّم فيها الناس معاني الإخلاص، والعبودية، والتجرد، والاتباع، وينبغي تربية الأجيال على استحضار هذه المعاني عند أداء الشعائر.

◆ يجب غرس محبة النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في قلوب الناس من خلال ربطهم بمواقفه الشريفة وسننه الثابتة، كما في حجة الوداع.

◆ إحياء السُّنن المهجورة في مواسم الحج، مثل إشعار الهدي والدعاء بالإخلاص، من مقاصد التذكير الدعوي المؤثر.

مخالفات الواقع

◆ كثيرٌ من الناس اليوم يؤدون الحج على أنه عادة اجتماعية، أو سياحة دينية، دون أن يستشعروا التوحيد أو يتجردوا من الرياء والسمعة.

◆ يغيب عن بعض الحجاج مفهوم الاقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في تفاصيل الحج، فيكتفون بالمناسك الشكلية دون روحها ومعانيها العظيمة.

◆ يجهل كثير من المسلمين اليوم ميقاتهم الزماني والمكاني، ويقعون في أخطاء في الإحرام بسبب غياب العلم والتعلم.

◆ بعض الحجاج يُشوّهون صورة الحج برفع الأصوات في غير مواضعها، أو التصوير أثناء النسك لمجرد التفاخر ونيل الإعجابات، مما يُخالف دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «لا رياء فيها ولا سمعة.»

◆ ضعف استشعار الإخلاص والإنابة في النفوس، حتى صار الرياء ينخر بعض العبادات دون أن يشعر أصحابها، خصوصًا في زمن وسائل التواصل التي جعلت بعضهم يحرص على التصوير أكثر من الخشوع

الفقرة السابعة: آلام الجسد وشفافية القضاء وتحنان النبي صلى الله عليه وسلم على أهله

تحرّكت القافلة النورانية من المدينة صوب البيت العتيق، تسير على هدى الوحي، وتستنشق نسائم الطهر مع كل نسمة تهبّ من أرض مكة. وكان الحبيب صلى الله عليه وسلم يتقدّمهم، تفيض عيناه بالشوق، ويهتف قلبه بالحبّ، وتتسارع خُطاه شوقًا إلى البيت الذي أُسّس على التقوى.

وفي الطريق، حيث الرمال تتوشّح بالحكمة، والنسيم يحمل ترانيم التلبية، بلغ الركب المبارك موضعًا يُقال له **لحْي جَمَل**، فإذا بآلام الجسد تبدأ تسري في بدن النبي صلى الله عليه وسلم، ويشتد عليه وجع الرأس، حتى أثقل الجسد الشريف، فشعر بصداعٍ ينهش راحته، وألمٍ يطرق جبهته.

ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يضجر، ولم يتكدر، بل ضرب لأمته أروع الأمثلة في فقه التداوي، وهو محرم، فأمر بالحجامة، فاحتجم في وسط النهار، وهو لا يزال متلبسًا بالإحرام، ليعلّم الأمة أن التوحيد لا يُنافي الطب، وأن العبادة لا تُصادم التداوي، وأن الرخصة من الله لا تُعكّر صفو الطاعة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما»:احتجم النبي صلى الله عليه وسلم وهو محرم .«رواه البخاري ومسلم.

وهكذا، سطّر النبي صلى الله عليه وسلم درسًا عظيمًا في **توازن الشريعة** بين الروح والجسد، بين التكليف والرحمة، بين العبادة والتيسير.

ثم واصل الركب النبوي المهيب مسيره، حتى نزلوا بـ**عُسفان**، وهناك، لمع مشهد آخر من مشاهد الفقه النبوي، وشفافية القضاء، ورحمة الإسلام، حيث أقبل الصحابي الجليل **سُراقة بن مالك** رضي الله عنه، وقد رقّ قلبه وامتزجت في وجدانه حرارة الإيمان بحياء السؤال، فقال بأدب العالمين، وتوقير الطالبين»:يا رسول الله، اقض لنا قضاء من لا يدري ما كان قبله.«

كأنما أراد أن يقول: يا رسول الله، جُبلنا على الجاهلية، وعشنا أيامًا لم تشرق فيها شمس الإسلام، فأرِنا اليوم بداية جديدة، صفحة بيضاء، طُهرت من أدران الماضي، نريد أن نبدأ حياتنا كأننا وُلدنا الآن في ظلال الشريعة.

فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم، وشرقت الدنيا بأنواره، وقال مبشرًا مطمئنًا:

»إن الله قد أدخل عليكم في حجكم هذا عمرة، فإذا قدمتم من تطوف بالبيت وبين الصفا والمروة فقد حلّ، إلا من كان معه الهدي .«رواه البخاري ومسلم.

يا لها من بشارة! ويا له من يسرٍ في التشريع! لقد كان الصحابة قد نَوَوا الحج والعمرة معًا (قِرانًا)، فجاء هذا التشريع العظيم، فحوّل القِران لمن لم يسق الهدي إلى تمتّع، فصار هذا أول إعلان بالتشريع للتمتع في الإسلام، رحمة من الله، وامتنانًا لعباده، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥.]

ثم تابع النبي صلى الله عليه وسلم المسير حتى بلغ موضعًا يُقال له **سَرِف**، لا يبعد عن مكة سوى أحد عشر كيلومترًا، وهناك نزل ليستريح قليلاً، ودخل على أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها، فوجدها تبكي بحرقة، تغالب دموعها بكمّها، وفي وجهها آثار حزنٍ عميق. نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم نظرة الزوج الرؤوف، والمربّي الرحيم، فقال:

»ما يبكيك يا عائشة؟« فأجابت بصوتٍ متهدّج تخنقه العبرة» :لوددتُ والله أني لم أحج هذا العام.«

فتفطن النبي صلى الله عليه وسلم لما بها، وسألها برقة ورفق» :لعلك نفستِ؟ «قالت: «نعم.«
فقال» :إن ذلك شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي ما يفعل الحاج، غير ألا تطوفي بالبيت حتى تطهري .«رواه البخاري ومسلم.

يا الله! ما أعظم هذه الكلمة!
لقد جمع فيها النبي صلى الله عليه وسلم **بلاغة المشرّع**، و**عطف الزوج**، و**رحمة النبي بالأمة**.

طمأن قلبها، ورفع عنها همّها، وأثبت للأمة كلها **قاعدة فقهية راسخة** :أن الحيض لا يمنع من شيء من المناسك سوى الطواف، لأنه لا يصح إلا بطهارة.

ولما طهرت عائشة، قضت عمرتها، وقُرّت عينها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر يرافقها إلى التنعيم، لتُحرم بعمرة جديدة.

ثم تحرّك موكب النور من سَرِف إلى مكة، والأنظار تتّجه نحو البيت، والقلوب تخفق في كل خطوة، حتى بلغوا موضعًا يُعرف بـ**بئر ذي طُوَى**، وكان ذلك المكان معروفًا بطيب مائه، وجمال موقعه، وهو في موضعٍ يُعرف اليوم بـ"جرول."

هناك بات النبي صلى الله عليه وسلم ليلته، ثم في صباح اليوم التالي، اغتسل غُسل الدخول إلى مكة، وصلى الفجر، واستعد للدخول إلى البيت الحرام.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة من **ثنية كداء**، وهي من أعلاها، بخلاف دخوله يوم الفتح، حيث دخل من **كُدى** السفلى، وهذا من تعظيم شعائر الله، أن يدخلها من الأعلى، ليلقي نظرة أولى من علٍ على البيت، كما لو كان القلب يرتقي من قمة الشوق إلى قمة اللقاء.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢.]

وهكذا دخل مكة، في أجمل مشهد يرويه التاريخ، وقد جمع في تلك الرحلة الشريفة بين آلام الجسد وصدق التوكل، وبين لطف التشريع وسماحة القضاء، وبين حنان الزوج ورحمة المعلم، وبين فقه النبوة وتربية الأمة.

الفوائد المستفادة من الفقرة:

فوائد عقدية

- المرض لا يتنافى مع كمال النبوة، بل هو من جملة ما يبتلي الله به عباده ليظهر صدق توكلهم وتمام صبرهم.

◆ النبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّم أمته بأقواله وأفعاله، وما يصدر عنه من توجيهات في حجه وسائر أحواله هو وحي يُتّبع، وهذا من تمام الإيمان برسالته.

◆ التيسير في الشريعة دليل على رحمة الله بعباده، وقد دلّ فعله صلى الله عليه وسلم على أن الشريعة جاءت بتشريع يناسب حال الإنسان وظروفه.

◆ الإيمان يشمل الاعتقاد والاتباع، ويظهر في الخضوع لحكم الله والتسليم لأوامره، كما فعل سراقة بن مالك رضي الله عنه بطلبه قضاءً جديدًا وفق الشريعة.

◆ الطهارة شرط لصحة الطواف، وهذا من تعظيم شعائر الله، والعبادة تُؤدى وفق ما شرعه الله لا بحسب رغبة النفس.

◆ الاعتراف بالقدر، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: "إن هذا شيء كتبه الله"، يُظهر الإيمان بالقضاء والقدر كأصل من أصول العقيدة.

فوائد فقهية

◆ يجوز التداوي بالحجامة حال الإحرام، ولا يُعد ذلك من محظورات الإحرام، بشرط اجتناب المحظورات الأخرى كالطيب.

◆ تشريع التمتع في الحج لمن لم يسق الهدي يدل على مرونة الأحكام الفقهية بحسب الحال، وأن القِران لا يُلزم من لم يأتِ بالهدي.

◆ الحيض لا يمنع من جميع المناسك، بل يمنع من الطواف فقط، ومن ثم تقضي المرأة الطواف إذا طهرت، وهذا من ضبط أحكام الحيض في المناسك.

◆ إذا حاضت المرأة قبل الحج ، فإنها تحرم وتؤدي المناسك كلها ما عدا الطواف، وتطوف بعد طُهرها دون أن تُعيد الإحرام.

◆ الاغتسال لدخول مكة سنة، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من تعظيم شعائر الله، ولا يُشترط له طهارة كاملة بل هو مشروع تطييبًا وتعظيمًا.

◆ دخول مكة من أعلاها سنة، كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، لما في ذلك من تعظيم النسك ومراعاة أفضلية المواضع والمداخل.

فوائد أخلاقية

◆ تحمّل النبي صلى الله عليه وسلم للمرض دون شكوى يُعلِّمنا الصبر والثبات عند البلاء، خاصة في أداء العبادات.

◆ رفقه صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها عند حزنها، وتعليمه لها بحكمة، يُبرز نموذجًا عظيمًا في التعامل الزوجي المبني على الرحمة والعطف.

◆ حُسن سؤال الصحابة، وتأدبهم في طلب الأحكام، يدل على أهمية التوقير في طلب العلم والتواضع عند الجهل.

◆ حُسن القيادة النبوية في إدارة الركب رغم المرض يدل على القوة النفسية والروح المعنوية العالية، وهي صفات مهمة لكل قائد ومربٍ.

◆ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على توضيح الرخص وعدم ترك الناس في حرج يربي الأمة على الاعتدال والرحمة في التوجيه.

◆ الوفاء للزوجات في الأحوال المختلفة، وتعامل النبي صلى الله عليه وسلم بلطف مع عائشة في ظرفها، يعلّم الأمة معاني النبل والكرامة.

◆فوائد تربوية

◆ تربية الأمة على توازن الشريعة بين التكاليف وبين الرحمة، وأن الإسلام لا يفرض ما لا يُطاق، بل يراعي حال الإنسان

وظروفه.

- تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالأفعال في المواقف الميدانية يغرس فيهم فهمًا حيًا للدين لا يقتصر على الحفظ النظري.
- الربط بين الطاعة والمحبّة القلبية، كما في سير النبي صلى الله عليه وسلم شوقًا إلى البيت، يُربي القلوب على حب العبادة.
- بيان أن الإسلام لا يُقصي المخطئين في الجاهلية، بل يفتح لهم صفحة جديدة بالإيمان والتوبة، كما أراد سراقة رضي الله عنه.
- غرس فضيلة الحياء من الله، والانكسار عند الذنب، كما في قول سراقة، مما يدل على عمق تربية الصحابة على محاسبة النفس.
- الاعتناء بالتفاصيل في النسك والسلوك يُربي المسلمين على الاتباع الدقيق، والاهتمام بالسنن الظاهرة والباطنة.

مخالفات الواقع

- تهاون كثير من الناس في التداوي المشروع، واعتقاد بعضهم أن التوكل ينافي الأخذ بالأسباب، خلافًا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم.
- غلبة التوتر والانفعال عند المرض على بعض المسلمين، وغياب ثقافة الصبر والرضا والسكينة عند البلاء.
- جهل كثير من النساء بأحكام الحيض في الحج والعمرة، مما يؤدي إلى وقوع أخطاء فادحة في أداء المناسك.
- عدم احترام كثير من طلاب العلم اليوم لأدب السؤال والتلقي، وميل بعضهم إلى المجادلة والمراء بدل التواضع والتسليم.
- ضعف الروح التعبدية عند بعض الحجاج، حيث يذهب كثير منهم وكأنهم في رحلة سياحية، دون حضور قلبي وشوق إلى شعائر الله.
- قلة من يُعظّم شعائر الله كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يغتسلون لدخول مكة ولا يراعون سنن الدخول والخروج.
- غياب الرحمة واللطف في كثير من البيوت، وخاصة في تعامل الأزواج مع زوجاتهم عند المرض أو العذر الشرعي، على خلاف خلق النبي صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الثامنة: المشهد الجليل: دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة، وطوافه وسعيه

ها هو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعود إلى مكة التي أُخرج منها يومًا، يعود إليها مهابةً في أعين الناس، مطمئنًّا في جنانه، منصورًا بنصر الله، يطأ أرضها بعدما اشتاقت إليه شعابها وأحجارها، بل واشتاق إليه البيت الحرام نفسه، شوق الجذع اليابس يوم حنَّ لفراقه صلى الله عليه وسلم.

دخل من أعلاها، من "ثنية كَداء"، متواضعًا لا كالمُنتصرين المتغطرسين، بل خافض الرأس، منحنٍ لجلال ما يرى، ولسُبحان من ردَّه إلى حرمه آمنًا، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما روى الإمام أحمد:
"دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا] "رواه أحمد والبيهقي.[

يا له من مشهد! القلوب تخفق، والأنفاس تتسارع، والعيون تدمع، فلقد عاد الحبيب إلى الأرض التي بُعث فيها، الأرض التي لقي فيها ما لقي من أذى، فإذا بها تستقبل اليوم طوافه وسعيه، وقد دانت له قلوب المؤمنين، وخشعت له قلوب الجاحدين.

ثم توجّه صلى الله عليه وسلم إلى زمزم، ذلك الماء الذي فجره الله تحت أقدام إسماعيل عليه السلام، وشرب منه، وسكب على رأسه الشريف، وكأنما يغتسل لا من تعب السفر فحسب، بل يغتسل من الشوق المتراكم، ويغتسل بالشكر، ويغتسل بالدموع المنسكبة من محاجر المُحبين.

ثم اقترب من الحجر الأسود، ذلك الركن الجليل الذي ابتدأ الله به بناء البيت، فاستلمه وقبّله، ومسحه بيديه الشريفتين، ثم مسح بهما وجهه، تعظيمًا لشعيرة من شعائر الله، واتباعًا لسنة الخليل إبراهيم عليه السلام، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال:
"رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود ويقبّله] "رواه البخاري ومسلم.[

وفي ذلك الموضع، رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يزاحم الناس على الحجر، وكان رجلاً شديدًا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما في رواية البيهقي» :يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله، وهلل وكبّر.«
يا له من تعليمٍ راقٍ، يفيض رحمةً ورفقًا، ويؤسس لفقه أدب الزحام والرفق بالخلق!

ثم خرج صلى الله عليه وسلم متوجهًا إلى الصفا، فلما دنا منه تلا قول الله عز وجل} :إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة:١٥٨ [ثم قال : »أبدأ بما بدأ الله به] «رواه مسلم.[

فصعد على الصفا حتى إذا رأى البيت الحرام، استقبله، وكبّر وهلل، ورفع يديه بالدعاء، وهو يقول:
»الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده] «رواه مسلم.[

ثم نزل إلى بطن الوادي، وقد أسرع في مشيته، سعيًا كما سعى هاجر في طلب الماء، تواضعًا لله، واقتداءً بخطى الخليل إبراهيم عليه السلام، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم:
»لا يُقطع الأبطح إلا شَدًّا، اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي] «رواه أحمد وابن ماجه.[

وكان يسعى حتى يدور إزاره على ركبتيه من شدة الحركة، صورة تفيض تواضعًا وخشوعًا.

فلما بلغ المروة، رقى عليها، وكبّر، وهلل، ودعا كما دعا على الصفا، وأكمل سعيه بين الصفا والمروة، وازدحم عليه الناس من كل فجٍّ، حتى خرجت النساء من بيوتهن، ليشهدن مشهد النبي صلى الله عليه وسلم في نسكه، وما كان يُضرب بين يديه أحد، ولا كان الناس يُفسحون له، فلما اشتد الزحام ركب ناقته، ليراه الناس، وليتم سعيه راكبًا، تعليمًا ورحمة.

ثم لما أنهى السعي، أمر أصحابه رضي الله عنهم ممن لم يكن ساق الهدي أن يتحللوا، ويجعلوها عمرة، وكان في الأمر مشقة في نفوسهم، إذ خرجوا للحج لا للعمرة، فشقّ عليهم التحلل، فقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه كما في الصحيحين:
"تذاكرنا بيننا، وقلنا: خرجنا حجاجًا لا نريد إلا الحج، حتى إذا لم يكن بيننا وبين عرفة إلا أربع ليالٍ أمرنا أن نُفيض إلى نسائنا."!

فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، غضب، ودخل على عائشة رضي الله عنها، فقالت له: "من أغضبك؟ أدخله الله النار!"، فقال صلى الله عليه وسلم» :أوَما شعرتِ أني أمرت الناس بشيء، فإذا هم يترددون؟] «رواه مسلم.[

ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وخطب فيهم، فقال كما في الحديث :قد علمتم أني أتقاكم لله، وأصدقكم، وأبرّكم، ولولا أني سقت الهدي لحللت كما تحلّون، فحلّوا. فلو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ، ما سقتُ الهدي. فحللنا، وسمعنا، وأطعنا] «رواه البخاري ومسلم.[

فحلّ الصحابة رضي الله عنهم، وقصّروا شعرهم، وتطيبوا، ولبسوا ثيابهم، وعادوا إلى حالهم، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ساق الهدي معه، فبقوا على إحرامهم حتى يوم النحر.

مشهد لا يُنسى...
مشهدٌ يجمع بين الهيبة والجمال، بين عبودية خالصة، وتعليمٍ نبويٍّ رفيع، بين الحنين والدموع، بين المهابة والانقياد.
هو الحبيب صلى الله عليه وسلم، كما وصفه الله تعالى :(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[التوبة:١٢٨].

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الله سبحانه هو الذي ينصر رسله ويظهر دينه ولو بعد حين، كما نصر نبيه صلى الله عليه وسلم وأعاده إلى مكة منصورًا بعد أن أُخرج منها.
- توحيد الله وتعظيم شعائره من صلب العقيدة، ويظهر ذلك في استلام الحجر وتقبيله، والسعي بين الصفا والمروة اتباعًا لأمر الله.
- التكبير والتهليل في النسك عبادة قلبية ولسانية تُظهر تعلق القلب بالله وحده، وتُبرز وحدانيته المطلقة في النصر والملك والتدبير.
- من دلائل النبوة أن النبي صلى الله عليه وسلم تحققت له الوعود الإلهية بنصره وهزيمة الأحزاب، وهو مصداق قوله: «أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.»
- الغضب للحق مشروع، ويدل على غيرة النبي صلى الله عليه وسلم على أمر الله حين تردد الصحابة، مما يدل على حرص الأنبياء على تنفيذ أمر الله وعدم التهاون فيه.
- مشاعر الحنين والانقياد والدموع في الطواف والسعي والتضرع ليست مظاهر عاطفية مجردة، بل تجسيد لحقيقة العبودية والتذلل لله، وهي من أصول الإيمان.

فوائد فقهية

- دخول مكة من أعلاها وبتواضع، سنة نبوية تُستحب عند دخول مكة للحج أو العمرة.
- تحطيم الأصنام حول الكعبة يبيّن حرمة التماثيل ووجوب إزالتها من أماكن العبادة.
- استلام الحجر الأسود وتقبيله سنة، والاقتصار على الإشارة إليه عند الزحام، مع التهليل والتكبير، ويدل على أهمية التيسير والرفق في أداء النسك.
- يجوز السعي راكبًا عند الضرورة أو التعليم أو الحاجة، كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين ركب ناقته في الزحام ليُعلم الناس.
- السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان العمرة، ويبدأ بما بدأ الله به، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أبدأ بما بدأ الله به.»

◆ يجوز التحلل بعد العمرة في حج التمتع لمن لم يسق الهدي، وهو أمر واجب بطلب النبي صلى الله عليه وسلم، ولو شق على النفس.

◆ فيه دليل على أن تغيير النية من الإفراد إلى التمتع جائز للحاج إذا لم يسق الهدي.

◆ من ساق الهدي لا يتحلل حتى يبلغ الهدي محله، وهو دليل على ارتباط الأحكام بالحال الشرعية للحاج.

فوائد أخلاقية

◆ تواضع النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة بعد نصره يعلّمنا أن الانتصار لا يُقابل بالكِبر، بل بالتواضع والخضوع لله.

◆ رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه وتوجيهه لعمر رضي الله عنه بعدم مزاحمة الضعفاء نموذج في الرفق واللين في أعظم المواطن.

◆ تردّد الصحابة ثم انقيادهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الانقياد للحق ولو خالف هوى النفس.

◆ الحرص على تعليم الناس في الزحام، وإظهار السنن رغم المشقة، خلق عظيم في البلاغ والرحمة والتواضع.

◆ فرح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعبيره عن النصر بالتكبير والتهليل، درس في شكر الله في لحظات القوة لا التفاخر بها.

◆ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يراه الناس في الزحام وهو يُتم السعي، يدل على أهمية التعليم بالقدوة مع رحمة المعلّم.

فوائد تربوية

◆ في مشهد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة درس في الصبر الطويل وانتظار الفرج بعد الشدة.

◆ تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم للناس في المناسك، رغم التردد، يدل على أهمية الثبات عند التكاليف وعدم التراخي عند الجد.

◆ الدعاء عند رؤية الكعبة، واستشعار النصر الإلهي، يُعلّم تعظيم شعائر الله وربط الواقع بسننه في النصر والتمكين.

◆ مشهد السعي الذي فيه مشقة يعلّم الجيل أن العبادة تتطلب بذلاً وجهدًا ولا تكون دومًا سهلة أو مريحة.

◆ قبول الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم رغم مشقته النفسية، يعلّمنا فقه الانقياد، وأن الطاعة قد تأتي على خلاف المرغوب.

فوائد دعوية

◆ تعليم النبي صلى الله عليه وسلم للناس في المناسك لحظة بلحظة، يوضح أهمية البيان العملي في تبليغ الدين.

◆ خطبته صلى الله عليه وسلم عند تردد الناس دليل على وجوب الحسم في الموقف الدعوي حين يُخشى التراجع عن السنن.

◆ ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين طاعته وتقواه، وبيانه أنه لو استقبل من أمره ما استدبر لفعل خلاف ما فعله، يبين صدق النبي في تبليغ الوحي وتقديم القدوة الحسنة.

◆ تعظيم الشعائر بالقول والفعل دعوة صامتة لكنها مؤثرة، تظهر أثر القدوة في دعوة الناس.

مخالفات الواقع

◆ إقبال كثير من الناس على الحج والعمرة شكلاً دون تعظيم شعائر الله في قلوبهم، فيُرَوْن في المناسك وهم لاهون بالتصوير أو العبث أو الجدال.

◆ الزحام الشديد عند الحجر الأسود مع إيذاء الآخرين ورفع الصوت والتدافع، خلاف ما وجّهه النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه.

◆ قلة التواضع في القلوب بعد النصر أو النجاح، إذ يُقابل بعضهم التمكين بالكِبر والتعالي لا بالشكر والانكسار لله.

◆ التثاقل عن الفقه في مناسك الحج، وتكرار الأخطاء كل عام، مع توفر العلم، خلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من تعليم وتكرار ورفق.

◆ التهاون في الانقياد لأحكام الشرع إذا خالفت أهواء الناس، مثل تردد الصحابة أولًا في التحلل، لكنه اليوم يُقابل بالعصيان أو الجدل أو التحايل.

◆ ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من تعظيم الشعائر وتقبيل الحجر والطواف والسعي على سنته، فيه ردّ على غلاة الصوفية الذين يبتدعون في هذه المواطن رقصًا وأذكارًا مبتدعة لا أصل لها..

◆ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم الناس في كل موقف من المناسك، فيه ردّ على المتكلمين الذين زعموا أن العقل مقدم على النقل، بينما هو صلى الله عليه وسلم لا يقدّم رأيًا على وحي.

الفقرة التاسعة – نزول النبي صلى الله عليه وسلم الأبطح قبل يوم التروية

وما إن أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف والسعي، حتى أمر من لم يكن ساق الهدي من أصحابه أن يتحللوا من إحرامهم، ففعلوا طائعين ممتثلين، طافوا وسعوا، ثم قصّروا، ولبسوا ثيابهم، وتهيؤوا لأيام الحج. أما هو صلى الله عليه وسلم، فبقي على إحرامه، لم يتحلل، لأنه ساق الهدي معه من المدينة، ونزل بالأبطح، ذلك الموضع الطيب المُسمّى بـ"المحصّب"، القريب من منى، حيث يجتمع السكون بعبق الطاعة، والسكينة بظل النبوة.

وكان مقامه صلى الله عليه وسلم فيه أربعة أيام: من الأحد حتى الأربعاء، استعدادًا ليوم التروية وما بعده. وقد ضُربت له قبةٌ حمراء من أَدَم – أي من الجلد – فكان فيها، لا يحجبه حاجب، ولا يبعده حرس، فهو في قلب أصحابه، وبين ظهرانيهم، يراهم ويرونه، يأنسون به ويهتدون بنوره، يرشدهم إلى مناسكهم، ويربيهم على سنته، ويملأ نفوسهم بالإجلال والطهر، والتجرد لله وحده لا شريك له.

وكان صلى الله عليه وسلم متواضعًا في مقامه، رفيقًا بأصحابه، يقصّر الصلاة بهم، لا ينعزل، ولا يترفّع، بل يُشركهم في كل خطوة، ويهبهم من ذاته ووضوئه ونور وجهه الشريف. حتى روى أبو جحيفة رضي الله عنه فقال:

»رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في قبةٍ حمراء من أَدَم، ورأيت بلالًا أخذ وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت الناس يبتدرون ذلك الوضوء، فمن أصاب منه شيئًا تمسح به، ومن لم يصب أخذ من بلل يد صاحبه«
وفي رواية:
»فأخذوا بيديه فمسحوا بها وجوههم، قال: فأخذتُ بيده، فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحةً من المسك «رواه البخاري ومسلم.[

وفي تلك الأيام الزكية، قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن، وكان قد سُرّح من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيادة جيشٍ وتوزيع الصدقات، وساق معه هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فلما دخل على فاطمة رضي الله عنها، وجدها قد تزينت، ولبست ثيابًا مصبوغة، واكتحلت، فأنكر عليها ذلك، فقالت له:

»إن أبي أمرني بهذا .«فمضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسأله عن أمرها، فقال له:
»صدقت، صدقت، أنا أمرتُها به.«ثم قال له»:بِمَ أهللت؟ «قال عليّ» :قلت: اللهم إني أهلّ بما أهلّ به نبيك.«
قال» :فلا تحلّ.« وكذلك قدم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم» :بِمَ أهللت؟«
قال» :أهللتُ كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم .«قال» :هل سُقت الهدي؟ «قال» :لا .«فقال له صلى الله عليه وسلم:
»طُف بالبيت، وبالصفا والمروة، ثم تحلل «رواه البخاري.[

وفي اليوم السابع من ذي الحجة، خطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس بعد الزوال، يعلّمهم مناسكهم، ويفقههم في دينهم، ويعدّ قلوبهم للوقوف بعرفة، ويجدد فيهم عهد الإيمان، فكم من قلبٍ رقّ، وكم من عين دمعت، وكم من نفسٍ امتلأت شوقًا للوقوف في صعيد عرفة، بين يدي ربها، مع خير الخلق صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى} :وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ] {الحج: ٢٧.[

فهؤلاء هم الذين لبّوا النداء، وأتوا شعثًا غبرًا، يرجون الرحمة، ويقتفون أثر النبي صلى الله عليه وسلم، الذي قال عن هذه الرحلة»:خذوا عني مناسككم]«رواه مسلم.[

.الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- النبي صلى الله عليه وسلم مشرّع، يُؤخذ عنه الدين، ومناسك الحج خاصة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «خذوا عني مناسككم.«
- التقرب إلى الله بأنواع العبادات الظاهرة والباطنة، ومنها البقاء على الإحرام وامتثال الأمر دون نقاش.
- إثبات محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمهم له، ومسارعتهم للتبرك بآثاره، وهو من محبة النبي الجائزة في حياته دون غلو.
- الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في مناسك الحج عبادة قلبية قبل أن تكون عملًا بدنيًا، تدل على الإيمان الصادق.
- اجتماع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على تعظيمه والتأسي به من أعظم صور وحدة أهل الإيمان، ودليل على كمال التوحيد والاتباع.
- اتباع سنته صلى الله عليه وسلم في أدق تفاصيل النسك، وحرصه على التعليم المباشر، من دلائل كمال الرسالة وتمام الدين.

- إثبات فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعلو منزلته بين أصحابه، ومع ذلك كان متواضعًا، فجمع الكمال البشري كله.
- بقاء النبي صلى الله عليه وسلم على إحرامه يدل على أن الحكم الشرعي قد يختلف باختلاف الحال، كمن ساق الهدي ومن لم يسق، وهذا من الحكمة والتشريع الرباني.

فوائد فقهية

- من لم يسق الهدي جاز له أن يتحلل من العمرة يوم التروية ويجعلها عمرة متمتع، وهذا فعل جمهور الصحابة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم.
- من ساق الهدي بقي على إحرامه قارنًا أو مفردًا، ولا يجوز له التحلل إلا بعد النحر.
- التقصير بعد السعي كافٍ للخروج من الإحرام في حال التمتع، ولا يشترط الحلق.
- جواز نصب القباب والخيام للراحة في الحج، ولا تُنافي الزهد ما دامت من غير إسراف.
- القصر في السفر سنة مؤكدة وإن طالت الإقامة، وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم في الأبطح مقصرًا.
- مشروعية خطبة الحج يوم السابع من ذي الحجة للتذكير بالمناسك وتعليم الناس، وهي سنة نبوية مهجورة في كثير من البلاد.
- جواز الإهلال بالحج بنية المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم، كما فعل علي وأبو موسى رضي الله عنهما، مما يدل على أن النية لها أثر في صحة النسك.
- سوق الهدي له أثر في التخيير بين التحلل وعدمه، وهذا من دقائق فقه النسك.
- إهلال التابع بما أهلّ به المتبوع جائز، كما وقع من علي رضي الله عنه، ويُستحب في حال الجهل أو عدم القدرة على التفصيل.

فوائد أخلاقية

- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر في جلوسه بين أصحابه دون حاجب أو حرس، وهذا درس في القرب من الناس.
- تربية الصحابة على التجرد لله، والتخفف من الترف، والتحلي بالزهد في هذه الأيام المباركة.
- التربية على حسن الظن، فقد أنكَر عليٌّ على فاطمة رضي الله عنهما تزينها، ثم تبين له أن الأمر كان بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يعنفها بل رجع للحق.
- الخلق النبوي في المعاملة، فلم يغضب النبي صلى الله عليه وسلم من سؤال أصحابه وتكرارهم، بل أجابهم بكل رفق وبيان.
- الرفق في التعليم، حيث علّم صلى الله عليه وسلم الناس في خطبة الحج مناسكهم بأسلوب مؤثر، يرقق القلوب ويهيئها للطاعة.
- الحرص على الجماعة والأنس بالصحبة الصالحة، ظاهر في مقام النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، لا يعتزلهم ولا يستأثر بنفسه.

الحرص على التهيؤ للعبادة إعدادًا نفسيًا وروحيًا، لا بدنيًا فقط، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم طيلة تلك الأيام المباركة.

فوائد دعوية وتربوية

- التعليم العملي أولى من التنظير، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم الصحابة المناسك بالقدوة الحية لا بمجرد القول.
- ترسيخ السنة بين الناس يكون بالممارسة والشرح، لا بالشدة والإنكار المجرد، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع

أبي موسى وعلي رضي الله عنهما.

- الداعية ينبغي أن يعيش بين الناس، لا ينعزل عنهم، حتى يتأثروا بسيرته قبل كلامه.
- التدرج في التعليم مطلوب، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينزل من المدينة إلى عرفات مباشرة، بل أقام في الأبطح يهيّئ الناس ويعلمهم ويفقههم.
- الدعوة ليست في المسجد فقط، بل في القبة، وفي الطريق، وفي كل مقام يكون فيه الناس محتاجين إلى العلم والهدي.

التهيئة النفسية قبل العبادة الجماعية مهمة، فالحج يبدأ عمليًا قبل التروية، بتليين القلوب وتعظيم الشعائر وشرح المقاصد.

ما يخالف الواقع

- قلة من يسألون أهل العلم عن تفاصيل النسك ويتبعون الأقوال الصحيحة، ويقع كثير منهم في أخطاء عظيمة في الحج بسبب الجهل أو التقليد.
- الافتتان بالمظاهر في الحج لدى كثير من الناس، من خلال الفُرُش الفاخرة والطعام الزائد والتصوير المفرط، مما يخالف روح التواضع والتجرد.
- كثير من الحجاج اليوم لا يتأسون بالنبي صلى الله عليه وسلم في التواضع ومخالطة الناس، بل يتكبر بعضهم أو يتعامل بفوقية في الزحام والخدمات.
- هجر سنة خطبة السابع من ذي الحجة، فلا تُلقى في أكثر بلاد المسلمين، مع أنها سنة نبوية عظيمة لتعليم الناس.
- ضعف الارتباط بالسنة، فقلّ من يقول اليوم: "أهللت بما أهلّ به نبيك"، مع أنها سنة واضحة جاءت عن خيار الصحابة.
- انشغال كثير من الحجاج بالجوانب الشكلية للحج عن التربية القلبية، فلا يُرَى أثر للحج على سلوكهم بعد رجوعهم.
- قلة من يقتفون أثر النبي صلى الله عليه وسلم في الحج خطوة بخطوة، ويأخذون عنه مناسكهم بحق، كما أمر صلى الله عليه وسلم.

الفقرة العاشرة: في ظلال التروية وعظمة عرفة

أشرقت شمس الخميس، الثامن من ذي الحجة، على أرضٍ ملأتها الخشوع، وسكنت فيها الأرواح، واستعدت القلوب قبل الأبدان للقاء ربها في مشهد من أعظم مشاهد الدنيا. إنه يوم التروية، الذي ترتوي فيه الأرواح من معين الطاعة، وتفيض فيه القلوب شوقًا إلى عرفات، حيث الرحمة والمغفرة والنجاة.

في هذا اليوم، أمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان قد تحلل من عمرته، أن يُحرم بالحج من رحاله، من حيث هو نازل، إيذانًا بانطلاق قافلة الإيمان نحو منى، خطوةً أولى على طريق الذكر والمغفرة.

وفي لحظة تختلط فيها المشاعر بين الطاعة والتألم، دخل صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها، فوجدها دامعة العين، كسيرة النفس، فقد حاضت، ولم تطف بالبيت، وتحسرت أن يفوتها الحج مع الناس. فقال لها صلى الله عليه وسلم برقة الأب الحنون، ونور النبوة»:ما شأنكِ؟«قالت: "شأني أني قد حضت، وقد حلّ الناس، ولم أحلل، ولم أطف بالبيت، والناس يذهبون إلى الحج الآن." فقال لها صلى الله عليه وسلم، بكلمات تكتب بماء الذهب:

»إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاغتسلي ثم أهلي بالحج) «رواه البخاري ومسلم.(

كلمات قليلة، لكنها كالبلسم في صدرها، فهدأ روعها، واستكانت نفسها، ورضيت بما قضى الله، واستجابت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم تحرّك الركب النبوي، وفي مقدّمه رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام خلفه، ملبّين خاشعين، ترجّ قلوبهم قبل ألسنتهم بنداء» :لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك.«

وصلوا إلى مِنى، فصلّى بهم صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، كلّ صلاةٍ في وقتها، لكن

قصر الرباعية منها، فكانت ركعتين ركعتين، يُعلِّم بذلك أُمته التيسير، ويرسم لها طريق القرب والطاعة، في هدوء روحاني يملأ الزمان والمكان.

ثم جاء فجر الجمعة، التاسع من ذي الحجة، يوم عرفة، ذلك اليوم الذي يباهي الله فيه ملائكته بعباده الواقفين على صعيده، ويغفر فيه الذنوب العظام، ويُعتق فيه الرقاب من النيران، كما قال صلى الله عليه وسلم:
»ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة) «رواه مسلم.(

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تُضرب له قبة من شعر عند نَمِرة، فجلس فيها حين زالت الشمس، ثم ركب ناقته القصواء، وسار حتى نزل في بطن وادي عُرَنَة، فاجتمع الناس من حوله، وأشرقت على الكون كله أعظم خطبة في تاريخ البشرية، خطبة تمثّل إعلان حقوق الإنسان الأعظم، ونقطة التحوّل من جاهلية جائرة إلى نورٍ وعدل ورحمة.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم على ناقته، وخطب الناس بلسان الصدق، فقال» :إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا . «إلى أن قال» :وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله «رواه مسلم)، وفي رواية أخرى» :كتاب الله وسنتي) «رواه الحاكم وصححه الألباني.(

ثم رفع صلى الله عليه وسلم إصبعه إلى السماء، وأشار بها إلى الناس، وقال» :اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد.«
فيا له من مشهد يكتب في صحف الخلود، ويظل نوره مشتعلاً في صفحات الدهر.

ثم أمر بلالًا فأذّن، ثم أقام الصلاة، فصلى صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر والعصر جمع تقديم وقصرًا، لا يفصل بينهما إلا إقامة، وكانت القراءة فيهما سرًّا، وكان ذلك اليوم المبارك موافقًا ليوم الجمعة، فاجتمع له شرف الزمان والمكان والموقف، في أعظم يوم عرفته الإنسانية، كما قال الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾]المائدة: ٣[، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة في ذلك اليوم، فجاءت إعلانًا بختم الرسالة، وإتمام النعمة، وكمال الدين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- القلوب تستعد في مواسم الطاعات للقاء ربها، وهذا من تمام التوحيد وتعظيم الرب جل جلاله.
- إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لأمر الله في أقدار النساء، وتقريره أن الحيض أمر كتبه الله على بنات آدم، دليل على الإيمان بالقدر ووجوب التسليم لحكم الله.
- تباهي الله تعالى بالواقفين بعرفة أمام ملائكته يدل على عظيم منزلتهم عنده، وفيه إثبات صفة الفعل لله تعالى على ما يليق بجلاله.
- إشارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء عند الشهادة على الأمة فيها إثبات علو الله تعالى، وأنه في السماء كما هو معتقد أهل السنة والجماعة.
- نزول قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] إعلان بكمال الدين ونسخ كل شريعة بعدها، وفيه رد على أهل البدع والفرق المنحرفة التي تزعم نقص الدين أو جواز زيادته بالرأي.

فوائد فقهية

- يشرع للمتمتع أن يحرم بالحج من مكانه في يوم التروية.
- دمج النبي صلى الله عليه وسلم بين الصلاتين جمع تقديم بعرفة وقصر الرباعية فيه تعليمٌ للناس أن الجمع والقصر من

السنن المؤكدة في السفر وأيام الحج.

◆ إقامة الصلاة بالناس بعد الخطبة مباشرة من السنة النبوية، ولا يشترط تقديم الخطبة على الصلاة في عرفة كما هو في الجمعة.

◆ في الحيض لا تطوف المرأة، لكن لها أن تُحرم بالحج وتفعل سائر المناسك إلا الطواف حتى تطهر، وهذا من الفقه النبوي الدقيق.

◆ صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في منى كل صلاة في وقتها، مع قصر الرباعية، يُعلّم الجمع بين المحافظة على الوقت والرخصة في القصر.

فوائد أخلاقية

◆ رفق النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها، وتحننه على حالها، دليل على الرحمة واللين في المعاملة، خاصة وقت الضعف والضيق.

◆ توجيه عائشة إلى التسليم لقضاء الله ونهيها عن الجزع يُربّي النفس على الرضا والطمأنينة.

◆ حجّ الصحابة خلف النبي صلى الله عليه وسلم واتباعهم له في كل المناسك فيه درس عملي في طاعة القائد والاقتداء بالهدي النبوي.

◆ المشاعر المختلطة في الحج من بكاء وخشوع وشوق تدل على رقة القلب الحي، وتعظيم شعائر الله من أعظم أخلاق أهل الإيمان.

◆ وقوف النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم مشهد خطابي يُؤكد مسؤولية الكلمة، وأن أعظم القادة هم من يربّون أمتهم على القيم والعدالة والصدق.

فوائد تربوية

◆ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقبة التي أُقيمت له ثم خروجه في الوقت المحدد يربي على التنظيم والاستعداد للمهام الكبيرة.

◆ اجتماع الناس حول النبي صلى الله عليه وسلم عند الخطبة يعزز قيمة الاجتماع على كلمة الحق وعدم التفرق.
حرص النبي صلى الله عليه وسلم على التعليم العملي في مناسك الحج يكشف أهمية التوجيه بالمواقف لا بالكلام المجرد فقط.

◆ دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بـ"اللهم اشهد" فيه تربية على الإخلاص واستحضار مراقبة الله في القول والعمل.
مشهد حجة الوداع يعلمنا الختام الحسن، وأن المرء إذا أتم عمله ختمه بالبيان والبلاغ والمسؤولية أمام الله.

فوائد دعوية

◆ ألقى النبي صلى الله عليه وسلم خطبته الكبرى في أوسع جمع بشري، ليكون البلاغ عامًا والدعوة واضحة، وفيه أهمية الخطاب الجماهيري في بيان أصول الدين.

◆ في ذكر خطبة الوداع تذكير دائم بالدعوة إلى حفظ الدماء والأموال، وتقديم النصيحة للأمة كلها من على منبر الحج.

◆ إعلانه صلى الله عليه وسلم انتهاء البلاغ ورفع إصبعه للسماء يعلم الداعية أن مهمته البلاغ، والله يتولى الهداية.

◆ ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين الاعتصام بالقرآن وبين النجاة من الضلال يرشد الدعاة إلى أن الأصل هو الكتاب والسنة لا العاطفة والشعارات.

◆ اصطفاف الصحابة خلف النبي صلى الله عليه وسلم واستماعهم للخطبة بصمت يؤصل لأدب السماع في المجالس الدعوية والتعليمية.

ما يخالف الواقع

- ضعف تعظيم الناس اليوم لشعيرة الحج، واقتصارهم على الصورة دون حضور القلب والخشوع.
- قلة من يُعظِّم الزمان والمكان كما عظّمه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فترى بعض الحجاج يقضون عرفة في نوم أو لهو.
- غفلة كثير من النساء عن فقه الطهارة في الحج، والجهل بكيفية التعامل مع الحيض كما علمه النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة.
- بعض من يحج لا يصلي في وقتها، أو يصلي بلا طمأنينة، بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من الجمع والقصر في وقته وبخشوع.
- غياب خطباء يقتدون بخطبة النبي صلى الله عليه وسلم، يبيّنون فيها للناس ما يُصلح دينهم ودنياهم، بل استُبدلت خطب عرفة اليوم بكلام مكرر لا يغيّر في القلوب شيئًا.

الفقرة الحادية عشرة: المشهد الخاشع: الوقوف الأعظم والتجلّي الأتم

في مشهدٍ تهتز له الأرواح، وتضطرب له القلوب المؤمنة، وتكاد تنخلع له الأفئدة من شدة ما فيه من جلال وبهاء، وجمعٍ بين هيبة المقام ودموع التوحيد، هناك في بطحاء عرنة، وعلى صعيد عرفات الطاهر، وقف النبي صلى الله عليه وسلم في يومٍ لم يشهد الزمان له مثيلاً، ولا تكرر في الدهر له شبيه.

كان ذلك بعد أن خطب خطبته العظيمة في الناس، ثم صلى الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، في وادي عرنة، بسكينة تغمر الأجواء، وخشوع يَسِمُ الجباه، ثم ركب راحلته القصواء، وسار متوجهًا بخطى المنيب إلى حيث تفيض الرحمات، وتتنزل البركات، حتى بلغ أسفل جبل الرحمة، ذلك الجبل الذي لم يصعده النبي صلى الله عليه وسلم، بل وقف عنده، ليعلّم الأمة أن العبرة ليست بالمكان، وإنما بالموقف والإخبات، والصدق في الدعاء والتجرد من شواغل الدنيا.

أوقف راحلته عند الصخرات، وجعل بطنها إلى الجبل، واستقبل القبلة بقلبٍ منيب، ورفع يديه الطاهرتين إلى صدره، كحال المسكين المستجدي، والخاشع المنتظر للرحمة، وبدأ دعاءً ليس كمثله دعاء، ومناجاة تذيب القلوب الحية، وتبكي العيون البصيرة.

كان صلى الله عليه وسلم يهلل، ويكبر، ويدعو، ويبتهل، ويرفع يديه، ثم يخفضهما، ثم يعود فيرفعهما، يدعو بخضوع، ويُظهر فقره إلى ربه، وتُشاهد في قسمات وجهه آثار الرجاء والخشية، حتى أمالت الشمس قرصها نحو الغروب، وسكنت الرياح، وخشعت الأصوات، وارتفعت الأرواح إلى آفاق الطهر.

قال صلى الله عليه وسلم، مشفقًا على أمته، ناصحًا لها، ومبعدًا إياها عن البدع والغلو في الأماكن:وقفت هاهنا، وعرفة كلها موقف"رواه مسلم.

وأمر أصحابه أن لا يقفوا في بطن وادي عرنة، لأنّه ليس من عرفة، فقال صلى الله عليه وسلم" عرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرنة"رواه ابن خزيمة، وصححه الألباني.

وفي هذا اليوم الأغر، تعالت أنفاس التوحيد إلى السماء، فاهتز لها الكون، وتجاوبت الجبال مع ذكر الرحمن، وردد النبي صلى الله عليه وسلم دعاءً هو خلاصة دعاء الأنبياء:

"خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير"رواه الترمذي وحسنه.

فأيّ ذكرٍ أعظم من هذا؟! وأيّ مقامٍ أكرم من هذا المقام؟! لقد اجتمع التوحيد مع الدعاء، واجتمع النور مع الرجاء، وارتفعت الأيدي، ودمعت العيون، واهتزت القلوب.

وفي تلك اللحظة العظيمة، لحظة التجلّي، تجلّى الله جل جلاله على عباده الواقفين، نظَر إليهم نظرة رحمة، نظرة تُبدّد الذنوب، وتغسل الخطايا، وتُعلن العفو العام عن الأمة، وقال سبحانه، مباهيًا بهم ملائكته الأطهار:

"انظروا إلى عبادي، أتوني شعثًا غبرًا، أشهدكم أني قد غفرت لهم"رواه أحمد وابن خزيمة وصححه الألباني.

وهذا الحديث له نظائر، منها ما رواه مسلم:

"ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟"

وفي هذا الموقف العظيم، نزل من السماء نبأ جلل، آيةٌ تهتز لها السماوات والأرض، آيةٌ ختمت رسالة السماء، وأعلنت تمام الدين، وكمال الشرعة، ورضا الله بالإسلام دينًا خالدًا لا يقبل غيره}:الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا]{المائدة: ٣.[

تلاها النبي صلى الله عليه وسلم على الناس، فعرف الفاروق عمر رضي الله عنه أن وراء الكمال نقصًا لا مفرّ منه، وأن البلاغ قد تمّ، وأن النور سيتبعُه الغروب، فبكى وقال بقلبٍ مكلوم":ما بعد الكمال إلا النقصان."

وكان كما فهم، إذ لم يعش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، ثم مضى إلى الرفيق الأعلى، بعد أن بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده.

يا له من موقفٍ يسجّل في صفحات الخلود، ويا لها من لحظاتٍ تُطبع في أعماق القلوب، ويفنى الزمان ولا تنمحي آثارها..

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

◆ التجلي الإلهي على أهل الموقف يوم عرفة دليل على علوّ الله جل جلاله، وأنه ينزل نزولًا يليق بجلاله، دون تكييف ولا تمثيل، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

◆ مباهاته سبحانه بعباده يوم عرفة فيها إثبات صفة الفعل لله تعالى، من نظرٍ ومباهاتٍ ورضا، وهي صفات فعلية تليق بجلاله، لا تُشبه صفات المخلوقين.

◆ اتفاق الأنبياء على كلمة التوحيد يدل على وحدة العقيدة الربانية، وأن لا إسلام إلا بتحقيق "لا إله إلا الله، وحده لا شريك له"، وأنها رأس الدين وأساس النجاة.

◆ نزول قول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} في هذا الموضع الشريف يؤكد أن الإسلام قد كَمُل، وأن كل من زاد في الدين أو نقص فقد اتهم الشريعة بالنقص والخلل.

◆ فرح النبي صلى الله عليه وسلم بتمام الدين، وقراءته للآية في ذلك المقام، فيها دلالة على أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم هو آخر الشرائع، ولا وحي بعده، ولا دين مقبول سواه.

◆ تأثر عمر رضي الله عنه بالآية يدل على فقه الصحابة في ربط الأحداث بالعقيدة، وفهمهم أن كمال الدين إيذان بانتهاء الوحي، وأن النبوة قد أدّت رسالتها، وسيأتي أجلها لا محالة.

فوائد فقهية

◆ في وقوف النبي صلى الله عليه وسلم عند الصخرات دون صعود جبل الرحمة تعليمٌ عملي بأن العبرة ليست بالمكان بل بإخلاص العبادة، وفيه ردّ على من يتتبع الآثار من غير دليل شرعي.

◆ من السنة عدم الوقوف في بطن وادي عرنة، لأنه خارج عن حدود عرفة، وهو مما نبّه عليه النبي صلى الله عليه وسلم حفاظًا على صحة النسك.

◆ حديث "عرفة كلها موقف" فيه بيان لسعة الموقف، وأن النسك لا يتوقف على موضع معين، بل يجب على الحاج أن يتحرى الوقوف في أي جزء من عرفة داخل حدوده الشرعية.

◆ جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر يوم عرفة جمع تقديم، يُستحب للحاج أن يفعله ليشتغل بالدعاء والذكر بعد الصلاة إلى غروب الشمس.

◆ رفع اليدين في الدعاء يوم عرفة سنة مؤكدة، وهي هيئة الخضوع والابتهال، وتدل على تعظيم هذا اليوم المبارك وخصوصية الدعاء فيه.

◆ الإكثار من التهليل والتكبير يوم عرفة هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من أعظم ما يُتقرّب به في ذلك اليوم.

فوائد أخلاقية

◆ تجلي الخشوع والخضوع في موقف عرفة من النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا التواضع في الدعاء، والانكسار بين يدي الله، وعدم التعالي بالعبادة.

◆ ظهور الفقر والتذلل من النبي صلى الله عليه وسلم وهو خير خلق الله، درس بليغ في أن القرب من الله لا يكون بالمنزلة بل بالخضوع والافتقار.

◆ الرحمة العظيمة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه على أمته تظهر في دعائه وموقفه، وهو منهج للرحماء من الدعاة والأئمة في أن يحبوا الخير للناس ويُشفقوا عليهم.

◆ كلمة عمر رضي الله عنه "ما بعد الكمال إلا النقصان" تبرز بُعد نظر الصحابة وتفكرهم العميق، وتعليمنا التأمل في السنن الربانية، واستعداد النفس للفقد بعد النعمة.

فوائد تربوية

◆ تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأمته بأفعاله قبل أقواله في الحج يُعد نموذجًا للتربية العملية المؤثرة، حيث يُترجم التوجيه إلى تطبيق مباشر.

◆ تأكيده على تجنب البدع والغلو في الأماكن يُرشد الأمة إلى الاعتدال، وتربية النفوس على التوحيد الخالص، دون تعظيم مواضع لم يُرد تعظيمها شرعًا.

◆ ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين الدعاء والتوحيد في هذا الموقف الجليل تربية على أن الدعاء لا يُقبل إلا إذا كان مبنيًا على توحيد الله وإخلاص الدين له.

مخالفات الواقع

◆ انتشار تعظيم بعض الأماكن في الحج من غير دليل، كالصعود على جبل الرحمة أو التمسح بصخراته، مما يخالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم يصعده ولم يأمر بتعظيمه.

◆ تفريط بعض الحجاج في الدعاء يوم عرفة، وانشغالهم بالتصوير أو اللهو أو الحديث، وهو من أعظم المخالفات لهذا الموقف الجليل الذي هو أرجى أيام العام للعفو والرحمة.

◆ الجهل بحدود عرفة والوقوف خارجها مما قد يُفسد النسك، وهو مخالف لما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم بترك بطن وادي عرنة.

◆ قلة من يستشعرون في الحج فقه الرحمة والتوبة والذل بين يدي الله، فتُؤدى المناسك بصورة ظاهرية دون حضور القلب وصدق الإنابة.

الفقرة الثانية عشرة: المشهد البديع: موتٌ في ثوب الإحرام، وميلادٌ في عرصات القيامة

في يومٍ من أيام الله الخالدة، يومٍ ترتفع فيه الأرواح عن أوحال الأرض، وتُحلّق فيه الأرواح على أجنحة التلبية والدموع والدعاء، كان الحج شاهداً على مشهدٍ لن تطويه صفحات الزمن، ولن تغيب عنه ذاكرة العاشقين لمواسم القرب من الله.

في صعيد عرفات، حيث تتنزل الرحمات، وتُقال العثرات، وتُغفر الزلات، كان أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا على ناقته، متجردًا من الدنيا في ثوبي الإحرام، ولسانه يلهج بـ: «لبيك اللهم لبيك»، وقلبه مشدودٌ إلى السماء، لا يرى إلا وجه الله، ولا يسمع إلا نداء الغفران.

وفي لحظة من لحظات القدر، إذا بالناقة تثور وتصرعه أرضًا، فيخرُّ ميتًا على ثرى عرفات، مفارقًا الدنيا على نية القرب من الله، ومختومًا له بلُباس الطاعة، وتلبية المشتاق.

فنظر إليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، بعين الرحمة والرفق، وأصدر أمره الخالد الذي لا يزال يُتلى في مجالس العلم والموعظة إلى يومنا هذا:

"اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبِّيًا" متفق عليه.

يا لها من خاتمة!...
أي شرف هذا الذي ناله هذا الرجل، أن يموت في أطهر البقاع، في أطهر الساعات، في أطهر الثياب، على أطهر نية؟

أن يُبعث يوم القيامة على هيئة التلبية، في موكب الحجيج الأخروي، تُناديه البُشرى من كل جانب: هذا عبدٌ أقبل على الله، فاستقبله الله قبل أن يُكمل طريقه.

إنه تأكيد لما قاله النبي صلى الله عليه وسلم":إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى — "رواه البخاري ومسلم.

فما أعظم نية الوفادة إلى الله، وما أعظم جزاءها، حتى وإن لم يكتمل الفعل، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في بشارة عظيمة لكل من قُبض على طاعة":يُبعث كل عبد على ما مات عليه " رواه مسلم.

فطوبى لمن ختم الله له بلُباس الطاعة، وخُلع عليه برداء القبول، واحتضنته رحمة الله وهو يهمّ بمغفرة عظيمة في عرفات.

أيّها القارئ، تأمّل هذا الموقف، وتخيّل أن يموت إنسان وهو يلبّي ربّه، ويُدفن بثياب الإحرام، لا يُجمَّل ولا يُطيّب، لأن زينة لقائه عند الله هي صدقه في النية، وإخلاصه في الوفادة، وإجلاله للوقوف بين يدي الله.

فهنيئًا له... قد نادى: لبيك، فلبّاه ربُّه!

الفوائد المستفادة من هذه الفقرة :

فوائد عقدية

- الإيمان بأن الله جل جلاله يختار لعبده خاتمته على قدر صدقه، فالرجل مات ملبّيًا فبعثه الله كذلك، تصديقًا لعدله ورحمته وعلمه بما في القلوب.
- إثبات أن الله يبعث الناس يوم القيامة على هيئاتهم عند الموت، مما يدل على البعث الجسماني الحقيقي، وهذا من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة.
- التصديق بأن الله يقبل نية العمل الصادق حتى لو لم يُستكمل فعله، فالأعمال مرهونة بالنيات، وهذا من عدل الله وإحسانه.
- إثبات أن الله جل جلاله يحب عباده المقبلين عليه، فيتولاهم برحمته ويكرمهم بمزيد القرب، ويشرّفهم بالموت في حال الطاعة، وهذا من صفاته العظيمة.
- بيان أن الله يغفر لعباده بغير حساب إن هم صدقوا في طلب القرب منه، وأنه يقبلهم ولو في لحظة واحدة من لحظات العمر، إن كانت صادقة.

فوائد فقهية

- تغسيل الميت المحرم يكون بماء وسدر دون تطييب أو تغطية للرأس، وهذا نص نبوي صريح يُبيّن أحكام التعامل مع المحرم إذا مات وهو في النسك.
- المحرم إذا مات فإنه لا يُطيّب، ولا يُغطّى رأسه، ولا يُخرج من ثياب الإحرام، وهذه أحكام شرعية خاصّة بالموت في الإحرام لا يجوز مخالفتها.

◆ يُشرع دفن الميت في ثيابه إن مات وهو محرم، لأن في هذا متابعة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوز لحدود الشرع.

◆ يدل الحديث على أن الإحرام لا يسقط بالموت، بل تبقى أحكامه حتى يُبعث صاحبه على تلك الحال، وهذا يُبطل قول من يرى سقوط أثر العبادة بالموت.

فوائد أخلاقية

◆ تعظيم نية الإخلاص لله، وأنها هي ميزان القبول، حتى إن لم يُكمل الإنسان عمله، فالله يكرمه بنيته كما كُرِم هذا الصحابي.

◆ في قصة الصحابي تعليم عظيم لقلوبنا أن نُحسن الظن بالله، وأن نقبل عليه بصدق، فرب عمل قليل سبقت فيه النية الصالحة يُرفع به العبد مقامات.

◆ الصدق في السير إلى الله أعظم ما يبلّغ العبد رضاه، وقد يظهر هذا في لحظة ختام عمر الإنسان، فيكشف الله بها سريرته.

◆ الخاتمة الحسنة ليست حكرًا على من طال عمره أو أتم نسكه، بل هي لمن صدق وأخلص وأحب، ولو مات قبل بلوغ الغاية الظاهرة.

فوائد دعوية وتربوية

◆ في قصة الرجل المحرم درس للدعاة في التربية على حسن النية والتجرد لله، وتعليم الناس أن الله لا يضيع خطواتهم نحوه، حتى لو ماتوا في الطريق.

◆ دعوة لتذكير الناس بأن موسم الطاعات فرص عظيمة لنيل الخاتمة الحسنة، وأنّ على كل مسلم أن يُقبِل بقلبه في تلك اللحظات.

◆ ترسيخ مبدأ أن قبول الله لا يُقاس بطول العمل أو شكله، بل بنيته وصفائه، وهذا يربّي في النفوس رجاء القبول والخوف من الرد.

مخالفات الواقع

◆ التساهل في النيات وإهمال الإخلاص لله، حتى صار كثير من الناس يقصدون المشاعر لأغراض دنيوية أو شكلية، دون حضور قلبي ولا صدق في الوفادة.

◆ غفلة كثير من المسلمين عن طلب الخاتمة الحسنة، فلا يُفكرون أن يُختم لهم وهم في عبادة، أو يتمنّون الموت وهم مقيمون على معصية.

◆ اهتمام بعض الناس بتجهيز الجنائز بتكاليف الدنيا وزخارف الزينة، بدلًا من التأسّي بما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم للمحرم الذي مات، أن يُدفن كما هو، بثياب الطاعة والتجرد.

◆ ضعف الإيمان في قلوب كثير من المسلمين بأن الله يبعث الناس على ما ماتوا عليه، فترى بعضهم يموتون على لهوٍ أو فجورٍ أو معصية وهم لا يخشون ذلك.

◆ قلّة الحديث في المنابر والمجالس عن قيمة النية، رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم قرنها بكل عمل، وجعلها ميزانًا للقبول والخاتمة.

الفقرة الثالثة عشرة: مشهد الإفاضة – السكينة في الزحام

غابت شمس يوم عرفة، وقد حملت معها ذنوب المغفور لهم، وغُرَّت وجوه العائدين إلى الله، وخفَّت أرواح المنيبين، وسكنت القلوب التي ضجَّت بالدعاء والتكبير والتلبية، ثم آن لموكب النور أن يتحرك... فها هو موكب النبوة يتحرك بين ألوف مؤلفة، لم تكن جموعًا صاخبة، بل كانت أفئدةً تهوي إلى الله، وقلوبًا متعلقة بالرحمن.

في ذلك الغروب، حيث تعانق شعاع الشمس أطراف الجبال المهيبة، افترشت الأرض وقارًا، وتوشّحت السماء بالجلال، وسارت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الصفوف، وهو يردد التلبية:
"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والمُلك، لا شريك لك"،
وقد أردف خلفه حبيبه وابن حبه، أسامة بن زيد رضي الله عنه، فتعلّقت القلوب بالمشهد، واهتزت له الأرواح، فذاك الذي علَّم الدنيا معنى التوحيد، يسير بخشوع المنيب، ووقار النبي، وسكينة العابد.

كانت خطوات الناقة هادئة، تمشي الهوينى، لا تعرف العجلة ولا تدفعها رغبة في السبق، فرأسها يكاد يلامس قدم النبي صلى الله عليه وسلم، كأنها تستحي أن تسبق روحه الطاهرة.

لكن خلفه بدأت الأصوات تعلو، والدواب تُساق بعنف، وصهيل الإبل يختلط بصراخ الدافعين، وكأن نفوسًا استعجلت المبيت ونسيت الوقار، فالتفت إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسكينة القائد المربي، وأشار بسوطه إشارة حازمة حانية، ثم نطق بكلمات خالدة تُعلّم الأمم إلى يوم القيامة:

"أيها الناس، عليكم السكينة، فإن البرّ ليس بالإيضاع "رواه البخاري ومسلم.

ليعلّم أنَّ الزحام لا يبيح الأذى، وأنَّ السبق في المناسك ليس سباق أقدام، بل سباق قلوب، وأنَّ البر لا يُنال بالسرعة التي تفقدك الخشوع، بل بالرفق الذي يورثك القبول.

وفي هذه اللحظة تتجلى **قواعد الشريعة في أسمى معانيها:**
اليسر، ورفع الحرج، ومنع الأذى، وإيثار السلامة، فالغاية لا تبرر الوسيلة، والمقصد لا يُنال بما يفسد على الآخرين مناسكهم.

قال تعالى}:**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ** [البقرة: ١٩٨] {
فجعل الله الإفاضة ذكرًا وسكينة، لا صياحًا وضجيجًا.

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم في هدوء العابدين، وسكينة الواصلين، حتى أتى طريق المَأزِمين – وهو المضيق الذي يمر بين جبلين – لكنه لم يأمر بسلوكه، ولم يخصه بفضيلة، بل سار فيه تيسيرًا لا تعسيرًا، واتباعًا لا ابتداعًا.
ولهذا قال أهل العلم: لا يُشرع للناس أن يصروا على هذا الطريق إذا ضاق بهم، بل عليهم أن يسلكوا الأيسر، فمقاصد الشريعة قائمة على **رفع المشقة، ودفع الضرر.**

ومضى حتى وصل الشعب الأيسر قرب مزدلفة، فنزل صلى الله عليه وسلم وبال فيه، وتوضأ وضوءًا خفيفًا، فما إن ركب دابته حتى قال له أسامة بن زيد رضي الله عنه" :**الصلاة يا رسول الله "!**فقال صلى الله عليه وسلم بكل اطمئنان:
"الصلاة أمامك – "أي لن تُصلّى هنا، بل في مزدلفة.

فلما بلغها، توضأ وأسبغ الوضوء، ثم أمر بالأذان، فأُقِيمت الصلاة، فصلى المغرب ركعتين بلا نوافل بينهما، ثم أقيمت صلاة العشاء فصلاها ركعتين أيضًا، ثم أناخ الناس رواحلهم، وسكنت الأجساد بعدما سكنت الأرواح، وخلد الحجيج إلى النوم.

وهنا تتجلى التربية النبوية من جديد:

فقد نام رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة المباركة، ولم يُحيها، ليعلِّم الأمة درسًا بليغًا، أن العبادة لا تكون فقط بالسهر والقيام، بل تكون أحيانًا **بالراحة استعدادًا لطاعة أعظم**، وهي يوم النحر، يوم الحج الأكبر.

وهذا من فقه النبوة، وكمال البيان، أن يُربَّى العابدون على التوازن بين الجهد والرحمة، بين النشاط والراحة، بين القوة والرفق.

ومضة للقلوب

ما أجمل أن نتعلّم من هذا المشهد أن السكينة ليست ضعفًا، بل عبادة، وأن الرفق ليس تراجعًا، بل حكمة، وأن التنظيم والهدوء أبلغ في البر من التهور والتسرع.

وإن أعظم من الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة، هو الإفاضة من الذنوب إلى الطاعات، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن التسرع في الحياة إلى السكينة في السير إلى الله.

فالبرّ ليس بالإيضاع... ولكن بالاتباع.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أن التوحيد هو روح الحج ومقصده الأعظم، وكل المناسك تسير في ظلاله، كما ظهر في تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإفاضته.
- أن البرّ في الشريعة ليس صورةً ظاهرية أو حركةً سريعة، بل هو عبادة قلبية يلازمها العمل على الوجه المشروع.
- أن الرفق والسكينة من معالم الدين، وأنها عبادة يثاب عليها العبد كما يثاب على باقي الطاعات.
- أن مقاصد الشريعة قائمة على رفع الحرج ومنع الأذى، ولو كان في عملٍ مشروع كالإفاضة.
- أن السنة مقدمة على البدعة ولو كانت البدعة في صورة اتباع أو تخصيص مكان لم يشرعه النبي صلى الله عليه وسلم.
- أن العبادة الحقة هي التي يوافق ظاهرها باطنها، فتسكن الجوارح كما تسكن القلوب.

فوائد فقهية

- مشروعية السكينة في الانتقال بين المناسك، وأن الإسراع المفضي للأذى ممنوع شرعًا.
- أن الغاية لا تبرر الوسيلة في العبادات، فلا يجوز ارتكاب المخالفات بحجة إتمام النسك.
- بيان جواز السير في أي طريق ميسر إلى مزدلفة، وأن التزام طريق بعينه بلا دليل بدعة محدثة.
- الجمع بين المغرب والعشاء في مزدلفة بلا نوافل بينهما هو السنة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- جواز النوم ليلة مزدلفة وعدم استحباب إحيائها، وأن ذلك من سنته صلى الله عليه وسلم.
- مراعاة التيسير في المناسك وترك ما فيه تضييق على الناس ولو كان فعله ممكنًا.

فوائد أخلاقية

- أن الهدوء في الزحام خُلق نبوي يعكس الرحمة وحسن المعاملة.

- أن القائد يربّي أتباعه على السكينة بفعله وقوله معًا.
- أن الرفق في الحركة واللين في التوجيه أدعى لقبول الموعظة من الشدة والعنف.

فوائد سلوكية

- ضبط النفس في المواقف المزدحمة وعدم الانجرار وراء عجلة الآخرين.
- إيثار سلامة الآخرين على رغبة النفس في السبق أو الانفراد.
- تعويد النفس على التنظيم والهدوء حتى في أشد مواسم الازدحام.

فوائد سياسية وعسكرية

- أن وحدة الصف والانضباط في الحشود ضرورة أمنية كما هي ضرورة شرعية.
- أن القائد الذي يضبط حركة الجماعة يمنع الفوضى التي قد تُستغل من المنافقين أو الأعداء.
- أن الالتزام بالتعليمات المركزية يحفظ النظام ويقي الأمة من الخلل في المواقف الكبرى.

فوائد إدارية وقيادية

- أن القيادة الناجحة توجه الجموع بلطف وحزم في آن واحد.
- أن القائد يقدّم القدوة العملية قبل إصدار الأوامر.
- أن إدارة الأزمات الميدانية تبدأ بالوقاية لا بردّ الفعل المتأخر.

فوائد اجتماعية

- أن مراعاة شعور الآخرين في الزحام من أعظم صور التعاون الاجتماعي.
- أن التنظيم الجماعي في الشعائر ينعكس على سلوك الأفراد في حياتهم اليومية.

فوائد نفسية

- أن السكينة تمنح الحاج طمأنينة داخلية وتبعده عن التوتر في المواقف المزدحمة.
- أن النوم والراحة أحيانًا عبادة إذا كان فيهما استعداد لطاعة أعظم.

فوائد تاريخية وحضارية

- أن مشهد الإفاضة النبوية نموذج خالد في إدارة أكبر تجمع بشري بلا فوضى ولا أذى.
- أن حفظ روح العبادة وسط الزحام أحد ملامح الحضارة الإسلامية في الشعائر.

مخالفات الواقع

- تعجّل كثير من الحجاج اليوم في المناسك، فيدفعون ويزاحمون بلا اعتبار لأذى الآخرين.
- تخصيص بعض الناس طرقًا ومسارات في الحج بزعم الفضيلة دون دليل شرعي، مما يضيق على غيرهم.
- تحويل بعض المشاعر إلى ساحات صراع على السرعة والمكان، بدل أن تكون ساحات ذكر وخشوع.
- الغفلة عن مقاصد الشريعة في التيسير، واستبدالها بعادات أو ممارسات تؤدي للمشقة والضرر.
- انتشار ثقافة «سبق المكان» على حساب روح العبادة، وكأن الفضل في الموضع لا في الطاعة.
- إحياء ليالي مزدلفة بالسهر والضوضاء على حساب الراحة استعدادًا ليوم النحر.
- ترك بعض الحجاج للصلاة على هيئتها الشرعية، فيصلي المغرب والعشاء في أماكن متفرقة مخالفة للسنة.
- ضعف الانضباط الجماعي، مما يفتح باب التدافع والحوادث المؤسفة في الزحام.

- تحوّل بعض المواسم إلى مظاهر تصوير وبث مباشر، تصرف القلوب عن الخشوع المطلوب.
- غياب التوجيه العملي من بعض المسؤولين والقائمين على تنظيم الحشود، مما يترك المجال للفوضى.
- استعجال الخروج من المشعر الحرام قبل الذكر المشروع، تفويتًا لمقصد قرآني صريح.
- انتشار سلوكيات فردية قائمة على الأنا في الحج، بدل روح التعاون والإيثار.
- عدم استيعاب بعض الناس أن العبادة تشمل الهدوء والنظام، لا الحركات العشوائية.
- الاستناد إلى الأعراف الموروثة في أداء المناسك، ولو خالفت السنة الصحيحة .

الفقرة الرابعة عشرة: مشهد الإفاضة من المشعر الحرام ورمي جمرة العقبة – وقار الخاتمة ونداء التوديع

في سكون الأسحار، حيث يسكن الصخب وتخشع الأرواح، وحيث تتنزل السكينة من السماء كنسيم الفجر حين يداعب الوجدان، وقف النبي صلى الله عليه وسلم على مشعر مزدلفة، وقد أضاء جبينه بنور القرب، واهتزت القلوب حوله شوقًا وتضرعًا، وتعلقت الأرواح بالرجاء، وامتزجت دموع المحبين بندى الفجر المبارك.

هناك، حيث "المشعر الحرام"، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن صلى الفجر بأول وقته، واستقبل القبلة، ورفع يديه، يلهج لسانه بالتكبير والتهليل والدعاء، في موقف هو صورة للوقار الكامل والانكسار الخالص، فدعا ربّه طويلًا، حتى أسفر الصبح، وانجلت الظلمة، وكأنما أراد أن يزرع في قلوب الأمة أن الدعاء في تلك اللحظات هو زاد الطريق، وأن القرب من الله أعظم من كل منسك.

وقد سبق ذلك مراعاة الرحمة والرفق، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن محصورًا في الطقوس المجردة، بل كان أبًا رؤوفًا بأمته، رقيق القلب على ضعفهم، فحين أقبل الليل بنسيمه البارد على مزدلفة، أذن للضعفة من النساء والمرضى وكبار السن أن يفيضوا إلى منى قبل زحمة الناس، فخرجوا في حماية الرحمة، بعد أن استأذنوا من القلب الكبير، فكانت سنّته رحمة، وكان فعله شفقة.

وفي تلك الساعات المضيئة، جاء رجل من أعماق الجزيرة، أنهكه السفر وأعياه السير، إنه **عروة بن مضرس الطائي** رضي الله عنه، وقد بلغ به الشوق إلى هذا الموقف أن قال:
»يا رسول الله، جئت من جبل طيّ، أتعبت نفسي، وأنصبت راحلتي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟«
فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم نظرة مشفقة، ثم أجابه بجوابٍ فتح به أبواب الرجاء لكل من جاء بعذر أو تأخر عن الركب، فقال:
"من شهد معنا هذه الصلاة، ووقف معنا حتى نفيض، وقد أفاض قبل ذلك من عرفات ليلًا أو نهارًا، فقد تم حجه وقضى تفثه) "رواه أحمد.(
وكأنما كان صوته صلى الله عليه وسلم يردّد قوله تعالى :﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾]الحج: ٧٨.[

ثم بدأ موكب النور يسير من مزدلفة إلى منى، إفاضة لا يشوبها عجلة، ولا يقطع سكينتها صخب، فقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالوقار، وسار والسكينة تظله، فلما بلغ وادي **مُحَسِّر** –ذلك الوادي الذي نزل فيه بأس الله على أصحاب الفيل – أسرع في المشي، إشارة إلى التبرؤ من مواضع العقاب، كما فعل في كل موطن نزل فيه عذاب بأممٍ سبقت.

وعند هذا الموضع، قال للنبلاء من أصحابه أن يلتقطوا له حصى الجمار، فأعطاه **الفضل بن العباس** رضي الله عنه سبع حصيات صغارًا كحصى الخذف، فقبضها صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة، ثم قال:
"بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) "رواه أحمد.(
فكانت كلماته تلك ميزانًا وسطًا بين التراخي والتشدد، وبيانًا بأن القلوب إذا امتلأت بالتقوى، أغناها الصدق عن المبالغات المرهقة.

ثم ركب ناقته، وأردف خلفه الفضل، وتقدم الركب المبارك حتى بلغ **جمرة العقبة الكبرى**، وقد دخل وقت الضحى، ومعه بلال وآخرون من الصحابة، أحدهم يأخذ بخطام راحلته، والآخر يظله من شمس النهار.

وفي هذا المقام الجليل، نزل النبي صلى الله عليه وسلم، واستقبل الجمرة، وجعل الكعبة عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم رماها بسبع حصيات، يكبّر مع كل واحدة منها، وكان لا يزال يلبي حتى رمى الجمرة، فلما فرغ من الرمي، أمسك عن التلبية، لتكون نهاية التلبية عند أول عمل من أعمال يوم النحر.

وكان مشهدًا مهيبًا، ازدحم فيه الناس من كل فج، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يغرس فيهم أدب الشعيرة، فقال:
"يا أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضًا، وإذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصى الخذف) "رواه أبو داود وأحمد.(

ثم تطاول بركابه، وجال ببصره في وجوه الحجيج، كأنه ينظر إليهم نظرة المودّع، فرفع صوته بالبيان، وألقى وصية جامعة، ومقولة خالدة، تصلح لكل زمان ومكان، فقال" :**خذوا عني مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه)** "رواه مسلم.
وفي هذا التوجيه إشارة بالغة، وكأنها خاتمة رسالة، وأشبه ما تكون بوصية مودّع، تمتلئ حروفها بالعبرة وتفيض بالرحمة.

ثم ارتفعت نبرة صوته صلى الله عليه وسلم في أرجاء منى، ودوّى نداؤه بين الجموع، فقال":**ألا تسمعون؟"**
فقال رجل: يا رسول الله، ماذا تعهد إلينا؟فقال صلى الله عليه وسلم:
"اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم) "رواه أحمد

وكأنما جمعت هذه الكلمات دين الله في أربع: عبادة، وصلاة، وصيام، وطاعة، وهي مفاتيح الجنة التي لا تُفتح إلا بها.

وهكذا انقضى مشهد من أعظم مشاهد المناسك، لكنه كان يحمل في طياته وداعًا غير مصرح، وخطابًا أخيرًا من الحبيب إلى قلوب المحبين، وكأن الأفق يقول لكل سامع :ها قد تم النسك، وآن أوان اللقاء القريب مع ربه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- القرب من الله تعالى هو أعظم مطلوب، وذروة المقامات الإيمانية، وقد ظهر هذا في مداومة النبي صلى الله عليه وسلم على الدعاء والتضرع في المشعر الحرام حتى أسفر الصبح.
- إثبات صفة الرحمة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي من دلائل نبوته، إذ لا يصدر هذا الرفق العام إلا عن نبي مؤيد من ربه.
- في قوله صلى الله عليه وسلم لعروة بن مضرس: "فقد تم حجه"، دليل على سعة رحمة الله، وأن القبول من الله لا يرتبط بالمظاهر بل بنيّة صحيحة وعمل يسير وفق الطاقة.
- التحذير من الغلو في الدين أصل عظيم من أصول العقيدة، وسبب في هلاك الأمم السابقة كما ثبت في الحديث.
- أمره صلى الله عليه وسلم بأخذ المناسك عنه فيه إثبات لوجوب طاعته واتباعه، وأن سنته وحي واجب الاتباع، وهو من

أصول الإيمان.

- قوله: "اعبدوا ربكم" تأصيل لأصل التوحيد، وأنه الأساس الذي تبنى عليه سائر الأعمال، وبه يدخل العبد الجنة.

◆ فوائد فقهيه

- السنة أن يُصلى الفجر في مزدلفة بأول وقته، ثم يُستقبل القبلة ويُكثر من الدعاء حتى يسفر الصبح.
- جواز التقديم في الإفاضة من مزدلفة للضعفة من النساء وكبار السن، وهو من باب التيسير ورفع الحرج في أداء المناسك.
- من أدرك الصلاة بمزدلفة ووقف بها، وقد وقف قبل ذلك بعرفة، فقد أدرك الحج ولو لم يكن في الموكب منذ البداية، وفي هذا دليل على صحة الحج في هذه الحالة.
- استحباب السير من مزدلفة إلى منى بسكينة ووقار، مع الإسراع اليسير في وادي محسر، اقتداءً بفعل النبي صلى الله عليه وسلم.
- مشروعية التقاط حصى الجمار من مزدلفة أو من الطريق، وأن تكون الحصيات صغارًا كحصى الخذف، بلا غلو.
- التكبير مع كل حصاة عند رمي الجمرة هو السنة، ويُقطع التلبية عند أول جمرة يوم النحر.
- السنة عند رمي جمرة العقبة أن يستقبل الرامي الجمرة، ويجعل الكعبة عن يساره ومنى عن يمينه.

فوائد أخلاقية

- الرفق بأهل الحاجة والضعف خُلق نبوي عظيم، وينبغي أن يتخلق به كل من له مسؤولية تجاه الناس.
- الوقار في السير، والسكون في الشعيرة، والبعد عن الصخب والزحام المفرط من أخلاق الحج التي أرساها النبي صلى الله عليه وسلم.
- استقبال الناس بمشاعر الرحمة والشفقة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عروة بن مضرس، دليل على كمال الخلق، وباب مفتوح لبث الأمل في قلوب المتعثرين.
- تحذيره صلى الله عليه وسلم من إيذاء الآخرين عند رمي الجمرات يدل على عظيم حرصه على سلامة الناس وأمنهم في مناسكهم.
- في قوله: "خذوا عني مناسككم" تواضع النبوة وصدق النصيحة، حيث يودع الأمة بوصية جامعة.
- وصيته الأخيرة شاملة تجمع أهم أصول السلوك الديني: العبادة، الصلاة، الصيام، الطاعة، وفيها بيان أن النجاة ليست بالتشدد بل بالالتزام بأركان الدين الأساسية.

فوائد تربوية

- تكرار الدعاء والثبات عليه حتى الفجر يعلم الأمة قيمة الإلحاح في الدعاء وصدق التضرع في ساعات الإجابة.
- فتح باب الرجاء لمن جاء متأخرًا عن الركب يُربي الأمة على فقه الأعذار والنظر في مقاصد العمل لا صورته فقط.
- تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو يربي المسلم على الاعتدال والوسطية في كل العبادات، دون تفريط أو إفراط.
- وصيته الجامعة تُعلم المسلم أن الدين ليس تعقيدًا، بل هو أوامر واضحة، من فعلها نجا وسعد.

فوائد دعوية

- السنة في الدعوة أن تبدأ بالتوحيد والعبادة، كما قال صلى الله عليه وسلم: "اعبدوا ربكم."
- التيسير في الفتوى والتعامل مع الناس بالرحمة منهج نبوي في دعوة الخلق، لا التشديد والتنفير.
- كلامه صلى الله عليه وسلم في مواطن الجمع الكثيف دليل على أهمية اغتنام الفرص الكبرى لتوجيه الناس بالعبارات الجامعة الموصلة.

- التحذير من الغلو في الدين باب من أبواب الدعوة إلى الوسطية، وهو أصل دعوي يغفل عنه كثير من المتصدرين للدعوة.

مخالفات الواقع

- قلة من يحرص على الدعاء الطويل في المشاعر المقدسة، إذ يغلب العجلة والانشغال بالمظاهر على الخشوع والتضرع.
- التقصير الشديد في مراعاة الضعفة وكبار السن أثناء أداء المناسك، حيث يُترك كثير منهم دون عون أو تيسير.
- تفريط كثير من الحجاج في الترتيب الصحيح لأعمال النسك، مع الجهل بأماكن الوقوف والمواضع الشرعية للرمي.
- انتشار الغلو في بعض الشعائر، كالحرص على الحصى الكبير، أو رمي الجمار بعنف، مما يخالف السنة ويعرض الآخرين للأذى.
- قلة الالتفات لوصايا النبي صلى الله عليه وسلم الجامعة، والركون إلى التعصب للرأي أو اتباع العادة دون الرجوع إلى الهدي النبوي.

الفقرة الخامسة عشر انشودة النحر ومواكب الفداء

في صباح منى المشرق بيوم النحر، إذ تضوعت أرجاء الوادي بعبق التكبير، وارتجّت قلوب الحجيج على إيقاع التهليل، اصطفّت البدن المئة كأنها صفوف جندٍ منسوبة إلى ميدان الطاعة، شامخة الأعناق، تترقب شرف أن تُهراق دماؤها في سبيل الله. كان المشهد أشبه بلوحة سماوية، يختلط فيها صوت البشر بأصداء الملائكة، وتنعكس عليها أشعة الرحمة من وجه سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

لم يكتفِ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يكون آمراً من بعيد، بل تقدّم بنفسه، فرفع السكين بيدٍ طهّرها الوحي، وشرع يباشر النحر، واحداً تلو الآخر، حتى بلغ بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة، عددًا يوافق سنيّ عمره المبارك، وكأن كل ذبيحة منها تمثل عامًا من عمره الزاكي، أفناه في هداية البشر وإغاثة المستضعفين. كانت حركاته عليه الصلاة والسلام مزيجًا من الوقار النبوي والرحمة العظمى، لا يقطر منها إلا معنى الإحسان.

ثم سلّم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه السكين، فأتمّ ما تبقّى من البدنات — سبعًا وثلاثين — في مشهد يعكس وحدة الصف وامتداد البركة، وكأن بين القائد وخليله لغة من نور، لا تُكتب في الكتب، إنما تُحسّ في نبض الأرواح.

وبعد أن هدأت سكاكين النحر، أمر صلى الله عليه وسلم أن يُؤخذ من كل بدنة جزءٌ من اللحم، فتُجمع في قدرٍ واحد، يُطهى فيه الخليط المبارك، ويأكل منه هو وأصحابه، تعليمًا للأمة أن الهدي ليس مظهراً أجوف، بل رزقٌ يتقاسمه الجميع، وأن الفقراء والأرامل والمساكين هم أول أهل المائدة. حتى أجرة الجزارين، أبى أن تكون من لحم الهدي، ودفعها من ماله الشريف، لتبقى القربة خالصة لله وحده.

وفي ختام المشهد، رفع صوته المشرق بالهداية قائلاً: «نحرتُ هاهنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم»؛ إشارةً إلى يسر الدين، وتأكيدًا أن الطاعة لا تتقيد بمكانٍ واحد، وأن العيد يوم انفتاح القلوب، لا تضييقها.

وهكذا مضت تلك اللحظات، محفورة في ذاكرة الزمان، لتشهد أن النحر في الإسلام ليس مجرّد ذبح، بل أنشودة ولاء وفداء، تتردد أصداؤها ما دام الليل والنهار.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تعظيم شعائر الله أصل من أصول الإيمان؛ فالنحر لله عبادة قلبية قبل أن يكون عملاً ظاهراً، ومقصدُه تحقيق الولاء لله وحده، لا رياءَ فيه ولا سمعة.
- محبة النبي صلى الله عليه وسلم تابعة للإيمان وداخلة في كماله، ويُترجَم صدقُها باتباع هديه في الشعائر لا بالاكتفاء بالانفعال العاطفي.
- بركةُ طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم عامة للأمة؛ فامتثال سنته في الهدي سببٌ لدوام الخيرات ودفع النقص، والبركةُ من الله لا من الذبائح في ذاتها.
- الاجتماع على السنة سبب للألفة والسكينة؛ إذ تُطفئ الشعائرُ المؤداة على الهدي النبوي نوازعَ الأثرة وتجمع القلوب على التوحيد.

فوائد فقهية

- الهديُ في حجة النبي صلى الله عليه وسلم كان مائة بدنة، ونحرَ بيده الشريفة ثلاثاً وستين ثم وكَّل علياً رضي الله عنه في الباقي؛ وفيه جوازُ التوكيل في النحر.
- يُشرَع أن يُؤخذ من كل بدنة جزءٌ ويُجمع في قدر ويؤكل منه؛ وفيه جوازُ أكل المهدِيِّ من هَدْيه وتعليمُ الأمة بالفعل العملي.
- لا تُعطى أجرةُ الجزار من لحم الهدي ولا من جِلوده؛ بل تُدفع له أجرةٌ مستقلة، صيانةً للقربة من الخلط بالمقابِل.
- قوله صلى الله عليه وسلم: «نحرتُ هاهنا، ومِنى كلُّها منحر» يدل على سعة المكان في النسك ورفع الحرج، فلا يتقيد النحر بموضع بعينه داخل منى.
- الهديُ قربةٌ تُراعَى فيها شروط السلامة من العيوب، ويُقدَّمُ فيها حقُّ الفقراء والمساكين على مظاهر التفاخر والولائم الخاصة.

فوائد أخلاقية

- قدوةُ القائد الخادم؛ باشرَ النبي صلى الله عليه وسلم النحرَ بنفسه، فزرع خلقَ البذل وخفْضِ الجَناح للمؤمنين.
- النزاهةُ المالية وحراسة النيات؛ منعَ صلى الله عليه وسلم أن تكون أجرةُ الجزار من اللحم، ليبقى العمل خالصاً لله.
- الرحمةُ والمواساة؛ جمعُ اللحم في قدر واحد إشارةٌ إلى إطعام الجميع وعدم تمييز طبقة على أخرى.
- التواضعُ في مواسم الفرح؛ فالعيدُ عبادةٌ ومواساة، لا منصَّةُ مباهاة وصخب.

فوائد سلوكية

- تحويلُ العاطفة إلى طاعةٍ منضبطة؛ فالمشهد عاطفيٌّ جليل لكنه محكومٌ بفقهٍ ورفقٍ وتنظيم.
- المشاركةُ العملية؛ تقسيم الأعمال بين النبي صلى الله عليه وسلم وعليٍّ رضي الله عنه وبقية الصحابة يربّي على روح الفريق.
- ترشيدُ الاستهلاك؛ الأكل بقدرٍ، والإطعامُ الأوسع للفقراء، ومنعُ جعل القربة ذريعةً للإسراف.

فوائد سياسية وعسكرية

- توحيدُ الصف وإظهار قوة الأمة بالاجتماع على شعارٍ شرعي واحد؛ فالمشهدُ إعلانٌ لهويةٍ جامعة تُقوّي الداخل وتُهيب بالخصوم بلا صخب.
- رسائلُ اليسر في الأحكام تُطفئ دعاوى الفرق الغالية التي تُضيّق بغير علم، كما تردُّ تفلتَ المرجئة الذين يُفرغون الشعائر من معانيها.

فوائد إدارية وقيادية

- التفويضُ المنضبط؛ إتمامُ عليٍّ رضي الله عنه بقيةَ النحر بإذن النبي صلى الله عليه وسلم نموذجٌ لحُسن توزيع الأدوار.
- حوكمةُ القُرَب؛ فصلُ أجرةِ العامل عن عين القُربة يمنع تضارب المصالح ويصون المال العام.
- إدارةُ موارد النسك؛ جمعُ أجزاءٍ من كل بدنة وطهوُها يُظهر تخطيطاً عملياً يُشعِر الجميع بالشراكة والعدل.

فوائد اجتماعية

- مركزيةُ الفقراء في العيد؛ فالهدي موردُ إطعامٍ وسدِّ خَلَّةٍ لا احتفالٍ طبقي.
- صناعةُ الألفة الأسرية والمجتمعية؛ مشاركةُ الطعام من الهدي تُعمِّق الروابط وتُضعف الأنانية.
- ترسيخُ معاني العيد: عبادةٌ وإحسانٌ وبهجةٌ منضبطة، لا مظاهرَ فارغة.

فوائد نفسية

- إشعارُ المؤمن بثمرة الطاعة الفورية: سكينةٌ وطمأنينةٌ تتولد من عملٍ موافقٍ للسنة.
- تهذيبُ الدافعِ الفطري للفداء والعطاء ليُستثمر في نسكٍ مشروعٍ يُريح الضمير ويزكّي النفس.
- تحويلُ الفرح إلى شكرٍ عملي يقطع دابرَ الكآبة الموسمية بعد المواسم.

فوائد تاريخية وحضارية

- مشهدُ النحر في حجة الوداع معيارٌ تشريعيٌّ وتوثيقيٌّ لهدي الشعيرة للأمة من بعده، يجمع بين العبادة والتنظيم والعدالة.
- إسنادُ التنفيذ لرموزٍ من كبار الصحابة يورّثُ الهديَ عملياً للأجيال، فتبقى الشعيرة حيةً في الوعي والسلوك.

مخالفات الواقع

- تحويلُ النسك إلى استعراضٍ بصري: تصويرُ الذبائح وبثُّها طلباً للمديح، مع تزيين الموائد وإهمال ستر الفقراء؛ وهذا يُذهب الإخلاص ويُدخل الرياء.
- إعطاءُ الجزار أجرتَه من لحم الأضحية أو جِلدها، وهو خلافُ الهدي الصحيح؛ والصواب دفعُ أجرةٍ مستقلة.
- التباهي بالسلالات والأثمان والمزايدات الإعلامية، حتى يُقدَّم الوجهُ الاجتماعي على مقاصد القربة والإطعام.
- فوضى الذبح في الطرقات وإيذاءُ الجيران بتلويث الدماء والروائح وتعطيلُ المرور، مع نقصٍ في اشتراطات النظافة والصحة.
- الذبحُ بغير توفر شروط التذكية أو بآلاتٍ مُنهِكة للحيوان، والذبحُ أمام أُخريات؛ وفيه قسوةٌ وتعدٍّ يخالف الرحمةَ المأمور بها.
- سوءُ توزيع اللحوم: احتكارُ بعض الوسطاء، أو تكديسُها في ثلاجات الخاصة، وحرمانُ المحتاجين في القرى والأطراف.
- خلطُ القُربة بالمقابِل؛ اشتراطُ دعاياتٍ أو مكاسبَ تجاريةٍ باسم مشاريع الأضاحي، مما يجرح صفاء النية.
- غلوُّ بعض الفِرَق في التشديد بغير بيّنة، حتى يضيّقوا ذرعاً بيسر الشريعة، فيقع الناس بين غلوٍّ متشدد وتسيّبٍ مُتَرخِّص.
- اتخاذُ موسم العيد منبراً للطعن بالجملة في ولاة أمور المسلمين، وهي طريقةٌ من طرائق الخوارج تُورِث الفوضى وتُفرِّق الصف، والواجبُ النصحُ بالعلم والعدل دون إثارةٍ ولا تعميم.
- تهوينُ شأن الفقراء في الخطاب الأسري: ينشغل الآباء بالولائم والرحلات ويُهمَلُ تعليمُ الأبناء معاني القُربة والإنفاق.
- الغشُّ في الأضاحي (تسمينٌ مصطنع، إخفاءُ العيوب)، وأكلُ أموال الناس بالباطل، وضياعُ الأمانات في الوكالات غير المنضبطة.
- استبدالُ التكبير المشروع بإيقاعاتٍ ومظاهرَ مُحدَثة تُلهي عن الذكر وتُخرج العيد عن خشوعه.

الفقرة السادس عشر: تاج الحب في يوم النحر

في أفق حجة الوداع، حيث كانت القلوب مشدودة إلى كل حركة من حركات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، بزغ مشهد من أنقى وأصفى صور العشق النبوي، مشهد لا ينساه التاريخ، بل يسطره بماء الذهب ودموع المحبة. كان يوم النحر قد أشرق بنوره الخاص، يوم تعانق فيه الطاعة بالحنين، وتلتقي فيه شعائر الحج بأعظم درس في الوفاء.

فبعد أن رمى النبي صلى الله عليه وسلم جمرة العقبة، وأراق دم هديه تقربًا لربه جل وعلا، جلس بوقار النبوة وهيبة الرسالة ليحلق رأسه الشريف. لم يكن ذلك الحلق مجرد إزالة لشعيرات، بل كان كأنما تتساقط أنوار، وتتناثر بركات، وتفيض من بين أنامل الحلاق إلى قلوب الصحابة قبل أن تصل إلى أيديهم.

بدأ الحلاق بالشق الأيمن من الرأس المبارك، والناس من حوله في صمت مهيب، يختلط فيه ترقب العيون بخفقان القلوب. كل شعرة تسقط كانت في نظرهم أغلى من الدر والياقوت، بل أغلى من الأرواح ذاتها.

وحين فرغ من ذلك الشق، نادى النبي صلى الله عليه وسلم أبا طلحة الأنصاري، فأعطاه الشعر وأمره أن يوزعه بين الناس. فانطلقت الأيادي المرتجفة بالشوق، تتسابق وكأنها تتنافس على الجنة نفسها، إذ كانوا يعلمون أن هذه الشعيرات ليست كسائر الشعور، بل هي مما مسه الوحي، وحفته الملائكة، وضمته الجبهة التي سجدت لله في الليل والنهار.

ثم حُلق الشق الأيسر، وإذا بالمشهد يتكرر بأشد مما كان، كأن نفوس القوم لم تكتفِ بعد، بل زادها الشوق اشتعالًا. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه" *فجعل الناس يقتتلون على شعره*"، ولم يكن ذلك قتال طمع أو دنيا، وإنما كان صراع قلوب على بركة جسده الطاهر، وإرث محبته التي غرست في أرواحهم.

هنا يبرز مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه، الفارس الذي لا تهزه الجيوش، وهو يأخذ ناصية من شعرات النبي صلى الله عليه وسلم، ويضعها في قلنسوته، وكأنها درع من نور، يؤمن يقينًا أنها تحمل له النصر من الله، وترد عنه سهام العدو قبل أن تبلغه. وهناك أم سليم، الطاهرة الصادقة، تضم ما ظفرت به من شعراته إلى طيبها، وكأنها تريد أن يمتزج عطر الدنيا بأنفاس الآخرة.

لم يكن هذا التبرك شركًا أو انحرافًا، بل كان صورة ناصعة من صور الحب الصادق، الذي يعرف قدر النبي صلى الله عليه وسلم، ويوقن أن ما مس جسده الشريف طاهر مبارك، فيه أثر النبوة وريح الجنة. لقد كانت شعراته في قلوبهم كالبوصلة التي لا تشير إلا إلى الحق، وكالسهم الذي لا يخطئ هدف النصر، وكالراية التي إذا رُفعت انتصر جند الله. ومن تأمل هذا المشهد أدرك أن الأمة لم ولن تعرف محبة مثل محبتهم، ولا شوقًا يضاهي شوقهم، إذ أحبوه حبًا لا ينطفئ، حتى تمنى كل واحد منهم لو افتدى روحه بشعرة من رأسه الشريف.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره، فإن الصحابة بلغوا في ذلك غاية الحب والوفاء، حتى كانوا يتسابقون على شعره الشريف.
- إثبات بركة آثار النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما مس جسده الطاهر فهو طيب مبارك، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.
- التبرك المشروع بآثار النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بالنصوص الصحيحة وأفعال الصحابة، وليس من الشرك أو الغلو المذموم.

- بيان أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم أصل من أصول الإيمان، ولا يكمل إيمان العبد إلا بها، وأنها كانت عند الصحابة أعظم من محبتهم لأنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فوائد فقهية

- استحباب توزيع البركة على المسلمين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء شعره لأبي طلحة ليقسمه بين الناس.
- أن حلق الرأس يوم النحر من نسك الحج، وأنه يبدأ بالشق الأيمن ثم الأيسر، وهو سنة نبوية عملية.
- جواز إكرام بعض الصحابة أو القريب أو العالم بهدية من آثار الخير ليتبرك بها، كما أكرم النبي صلى الله عليه وسلم أبا طلحة.

فوائد تربوية

- الحب الصادق للنبي صلى الله عليه وسلم يثمر تضحية وبذلًا لا يشبهه حب آخر، كما فعل الصحابة حين تزاحموا على شعره.
- الحرص على الاقتداء بالصحابة في تعظيم شعائر الله وآثار نبيه، بدل الانشغال بتوافه الأمور.
- الأمة اليوم بحاجة لإحياء معاني المحبة النبوية الصحيحة، بعدما غلب على كثير من القلوب الجفاء مع سنته والانشغال بغير هديه.

فوائد واقعية

- في زمننا ضعفت مظاهر التوقير للنبي صلى الله عليه وسلم عند كثير من المسلمين، حتى صار ذكر سنته في المجالس أقل من ذكر أخبار الدنيا.
- كثير من المسلمين اليوم يفتخرون بآثار زعماء أو مشاهير الدنيا، بينما لا يفتخرون بحفظ سنة النبي صلى الله عليه وسلم أو العمل بها.
- فقدت الأمة حرارة الحب النبوي الذي كان يلهب قلوب الصحابة، فاستبدلته بمدائح لفظية لا تدفع للعمل ولا تحرك الجوارح لطاعته.

الفقرة السابعة عشر مواكب النور في طواف الإفاضة

أطلَّ صباح يوم النحر على مشعر منى، والجبال من حوله تردد صدى التكبيرات، والقلوب تفيض من نهر الطاعة، وقد غمرها فيض الرضا بتمام النعمة. كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية على الخيام، لكنها لم تكن أحرَّ من وهج الإيمان الذي توقد في صدور الحجيج. هنالك، وبعد أن رمى النبي صلى الله عليه وسلم جمرة العقبة الكبرى، رمى معها كل ما يثقل النفوس من أهواء وشهوات، ثم أهرق دم هديه الطاهر، ليكون شاهداً على تمام النسك وإتمام العهد مع الله.

جلس صلى الله عليه وسلم ليحلق رأسه، فما كان حلق الشعر إلا إعلانًا عن تجدد العهد ونقاء السريرة، وتخلي القلب عن زينة الدنيا وزخارفها، كما تخلى الرأس عن الشعر المتساقط. كان المشهد أشبه بميلاد جديد للحاج، وبياض الصفحات يسطع من وجوه القوم، وكأنهم خرجوا من أرحام المغفرة كيوم ولدتهم أمهاتهم.

ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم ناقته القصواء، يسير بها بخطوات واثقة نحو البيت العتيق، ليؤدي طواف الإفاضة. لم يمشِ على قدميه ضعفًا أو عجزًا، وإنما طاف راكبًا ليُرى من قِبَل الأمة، وليرى هو وجوههم التي أشرقت بالرضا، وليغرس في القلوب أن الإمام ينبغي أن يكون قريبًا من أمته في النسك كما في الحرب والسلم. كان الحجيج

يزاحمون من حوله، والعيون تتلألأ شوقًا لرؤيته، والشفاه تتعطر بالتكبير والتهليل. وكلما مر بالحجر الأسود أشار إليه بمحجنه إشارة المحب العارف بمقام المعظَّم، وكأن لسان حاله يقول: هنا تلتقي القلوب بالمحبوب، وهنا يذوب الجسد في طاعة المعبود.

دارت أشواط الطواف السبعة، وكل شوط منها صفحة من كتاب الهدي النبوي، يُقرؤها صلى الله عليه وسلم على أمته قراءة المعلم المشفق، فيقول: «افعلوا ولا حرج» ليبدد وساوس الخوف من التقصير، ويزرع في النفوس أن هذا الدين جاء ليسر لا لعسر، ولرحمة لا لمشقة. وحين فرغ من الطواف، صلى خلف مقام إبراهيم ركعتين بخشوع يتردد صداه في أرجاء الحرم، ثم انطلق إلى الصفا والمروة يسعى بينهما، يطوي المسافة بخطوات المباركين، ويطوي معها دروسًا في الصبر واليقين والتوكل.

وهكذا كان طواف الإفاضة على يدي خير الأنام صلى الله عليه وسلم مشهدًا جامعًا بين جمال العبادة وجلال القيادة، تتزين به صفحات السيرة كما تتزين السماء بنجومها، ويبقى على مر الدهور مشعل هداية ونبراس يضيء طريق القاصدين إلى البيت الحرام.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- تعظيم التوحيد يظهر في جعل المناسك وسيلة لذكر الله لا لمظاهر الناس، فالإفاضة والطواف والسعي غايتها تعبيد القلب للرب وحده، وهذا هو لبّ العقيدة.
- محبة النبي صلى الله عليه وسلم حقيقتها الاتباع لا الادعاء؛ فالمشهد يقرر أن القرب من سنته أقرب طريق لرضا الله، بعيدًا عن الغلو أو التفريط.
- قاعدة اليسر ورفع الحرج أصلٌ إيماني؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحج «افعلوا ولا حرج» يرسّخ أن الشريعة رحمة من الرحمن، وأن التشدد بلا دليل انحراف عن الجادة.
- توقير شعائر الله من تقوى القلوب؛ فالسكون والسكينة في الطواف والسعي تعبير عقدي عن الهيبة لله وتعظيم شعائره.
- الاجتماع على البيت الحرام مظهر لوحدة الأمة على عقيدة واحدة، لا تُقدَّم عليه رابطة عِرق أو بلد أو لسان.

الفوائد الفقهية

- ترتيب أعمال يوم النحر سنّةٌ لا يجب التزامها ترتيبًا لازمًا؛ فمن قدّم بعض النُسك أو أخّرها فالأصل فيه «لا حرج» بنص السنة الصحيحة.
- مشروعية الطواف راكبًا للحاجة والمصلحة العامة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ليُرى ويُعلّم؛ فلا تضييق مع وجود العذر.
- الإشارة إلى الحجر الأسود تكفي عند العجز أو المشقة، ولا يجوز المزاحمة المؤذية طلبًا للاستلام.
- صلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم بعد طواف الإفاضة سنّة مؤكدة مع مراعاة عدم أذية الناس أو تعطيل السير.
- السعي بعد طواف الإفاضة مشروع لمن لم يسعَ قبلُ؛ فيُراعى حال النسك دون تعسير أو تكلّف.
- حفظ الأنفس وتجنب الأذى أصلٌ مقدّم على فضائل الأفعال؛ فكل ما يوقع في ضرر مسلم يترك وإن كان فيه فضل.

الفوائد الأخلاقية

- السكينة خُلُقٌ ملازم للعبادة؛ الهدوء في الزحام أدب مع الله قبل أن يكون أدبًا مع الخلق.
- الرفق بالناس شعار المتعبّدين؛ فالشدة على الخلق في الحرم إساءة تُفسد ثواب العمل.

- التواضع في النسك عنوان صدق؛ لا مكان للمباهاة وعرض الذات في مواطن الإخبات.
- الحياء من الله يظهر في ترك ما يشين العبادة ولو كان مباحًا إذا أفسد القلوب أو صرفها عن الذكر.
- التعاون والبِشر وخفض الصوت أخلاقٌ تصون حرمة المكان وتشيع السكينة في القلوب.

الفوائد السلوكية

- ضبط النفس في الازدحام مهارة عبودية؛ يكفّ اللسان واليد ويحتسب الأجر عند الضيق.
- ترتيب الأولويات: أداء النسك على وجهه مقدَّم على التتبع للمندوبات التي تُفضي للأذى.
- الانضباط في المسارات والالتزام بالتعليمات سلوكٌ تعبدي لا إجراء تنظيمي فحسب.
- الاقتصاد في الوقت والجهد وحسن الاستعداد قبل الحركة بين المشاعر يقلل التوتر ويزيد الخشوع.
- حفظ البيئة والنظافة عبادة تُحفظ بها حرمة الحرم وتكمُل بها الطاعة.

الفوائد السياسية والعسكرية

- قرب الإمام من الناس أصلٌ في السياسة الشرعية؛ ظهوره صلى الله عليه وسلم للتعليم والطمأنة يقطع الشائعات ويشد اللحمة.
- إدارة الحشود برسائل قصيرة واضحة («لا حرج») تُطفئ احتقان الجماهير وتمنع الاضطراب.
- توحيد الشعارات والذكر يحفظ الصف من الشقاق، ويمنع تسلل أصحاب الأهواء إلى مواطن الشعائر.
- تقديم المصلحة العامة (سلامة الحشود) على بعض الفضائل الجزئية يوافق مقاصد الشريعة في الرعية.

الفوائد الإدارية والقيادية

- القيادة بالقدوة: يعلّم القائد بنفسه، ويختار الوسيلة الأوفق ليرى الناس التطبيق العملي.
- وضوح التعليمات وبساطتها يَسِمُ القرارات الناجحة في أوقات الذروة.
- مراعاة الضعفاء وكبار السن في تصميم الحركة بين المشاعر معيار نجاح إداري لا يُستغنى عنه.
- توزيع الزمن بين العبادة والراحة تخطيطٌ قيادي يحفظ الكفاءة حتى نهاية النسك.
- المرونة المنظمة: السماح بخيارات مشروعة (تقديم وتأخير) يخفف الضغط ويمنع الاختناق.

الفوائد الاجتماعية

- المساواة العملية: الكل في نسك واحد وشعار واحد، فتذوب الفوارق وتتجلّى الأخوّة الإيمانية.
- تعزيز روح التكافل؛ إعانة المتعثر وإفساح الطريق من تمام البر.
- كسر العصبيات الضيقة؛ المشاعر تربي على أن الهوية الجامعة هي الإيمان والعمل الصالح.
- تهذيب الذائقة الجماعية نحو السكينة وخفض الصوت وحفظ الحقوق في الزحام.
- إشاعة القدوة الحسنة؛ التزام الأقلية الواعية بالآداب يعدّل سلوك الكثرة بالتأثير العملي.

الفوائد النفسية

- السكينة دواء قلق الأداء الديني؛ قاعدة «لا حرج» تخفف الوساوس وتبعث الطمأنينة.
- رؤية القائد المقتدى به تبعث الأمان الجمعي وتخفض التوتر في الحشود.
- الانتقال المنظّم بين المناسك يمنح الدماغ «روتينًا مطمئنًا» يعين على الخشوع.
- المشاركة الجماعية في الذكر تبني مشاعر الانتماء الصحي بدل التنافس المَرَضي.
- استحضار المقصد يبدّد توتر التفاصيل؛ من عرف الغاية هان عليه طريقها.

الفوائد التاريخية والحضارية

- حجة الوداع قدّمت نموذجًا خالدًا لإدارة شعيرة عظمى يجتمع لها الناس من آفاق الأرض.
- تواتر العمل النبوي في المشاعر أسّس معيارًا حضاريًا للسلوك العام في مواسم كبرى.
- مركزية الحرم في تشكيل وعي الأمة عبر القرون؛ موسم تربوي يعاد كل عام لتصحيح البوصلة.

مخالفات الواقع

- مزاحمة شديدة عند الحجر الأسود وركن اليماني تؤدي لإيذاء المسلمين، مع أن الإشارة تكفي عند العجز.
- تصوير الذات والبث المباشر في الطواف والسعي بما يشغل القلب ويؤذي المارة ويجرّ الرياء الخفي.
- رفع الأصوات بالهتافات غير المشروعة أو أدعية جماعية مُحدثة تُربك الحشود وتخالف هدي السكينة.
- فتاوى من غير أهلها داخل المشاعر، يجرّون الناس إلى تشدد أو تفلّت، ويخالفون «لا حرج» الثابتة.
- تعطيل مسارات الحركة بالجلوس للتصوير أو الانتظار الجماعي، وإغلاق المداخل بلا مراعاة للغير.
- سبّ وشتم عند الازدحام، وتنازع على مواضع الصلاة، مع أن حرمة المكان أعظم وأوجب للكفّ.
- رمي القمامة وترك المخلفات في المشاعر بما يضرّ الناس والبيئة ويخالف مقاصد الطهارة.
- تعظيم مظاهر اللباس والمقتنيات واعتبارها معيار الفضل، والغفلة عن خشوع القلب وتواضع الجوارح.
- استغلال المواسم لبث مقالات أهل الأهواء؛ كطرح شبهات الخوارج في التكفير أو بدع الرافضة في الطواف والسعي، بما يفرّق الصف ويشوّش العبادة.
- التلاعب بمواعيد المناسك طلبًا للراحة الخاصّة على حساب النظام العام، ثم لوم المنظمين بدل محاسبة النفس.
- إهمال كبار السن والنساء في الزحام وعدم إعانتهم، مع أن حقهم آكد في مواضع المشقة.
- تضييع الصلوات مع الجماعة بحجة الإرهاق أو الانشغال بالتنقل، مع القدرة على التنظيم المسبق.
- تحويل الحج إلى موسم تسوّق واستعراض، بدل كونه موسم توبة وتجديد عهد.
- تحميل نصوص اليسر على هوى النفس لتبرير التفريط، أو عكسه بالتشدد الذي يُنَفِّر، وكلاهما خروج عن منهج أهل السنة في الاعتدال.
- اتخاذ الكلام على أخطاء الأفراد مطعنًا بالجملة في ولاة أمور المسلمين؛ والمنهج الحق الدعاء لهم بالنصح والعدل، لا إثارة الفتن ولا التهييج.

الفقرة الثامنة عشر: أيام التشريق ومنزل المحصب... انسياب الطاعة في أدق التفاصيل

ما إن انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أداء مناسك الحج، حتى عاد إلى منى، وكأن الطاعة لا تعرف انتهاء، وكأن النفوس التي ذاقت لذة القرب لا تطيق الفراق. عاد صلى الله عليه وسلم ليعيش مع أصحابه مشهدًا إيمانيًّا فريدًا، عنوانه: الثبات على الطاعة حتى النهاية. فما كانت أيام التشريق مجرد استراحة بعد النسك، بل كانت امتدادًا لمعاني الانقياد والخضوع، كما وصفها القرآن :﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**﴾]البقرة: ٢٠٣[، فهي أيام ذكر ودعاء، وشكر وثناء، ومراقبة لله لا تنقطع.

لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم في منى ثلاث ليالٍ بعد النحر، يرمي الجمار في كل يوم بعد الزوال، يبدأ بالصغرى، وهي التي تلي مسجد الخيف، فيرميها بسبع حصيات، يكبر مع كل واحدة، ثم يتقدم قليلًا، فيقف طويلاً مستقبلًا القبلة، رافعًا يديه بالدعاء، في صورة توقظ في القلوب خضوعًا عجيبًا.

ثم يرمي الجمرة الوسطى، ويفعل مثلما فعل عند الأولى، دعاءً وخشوعًا، ثم يتجه إلى جمرة العقبة فيرميها، ولا يقف عندها، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحاح.

ولم يتعجل النبي صلى الله عليه وسلم كما تعجل كثير من الناس اليوم، بل بقي حتى رمى في اليوم الثالث عشر، تربيةً للأمة على التأني في الطاعة، وعلى إتمام العبادة بكمالها، لا بمظاهرها فقط.
وقد قال تعالى :﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾]البقرة: ١٩٦.[

ومن رحمة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، أنه لم يجعل الناس على وتيرة واحدة، بل راعى الأحوال، وخفف عن أصحاب الأعذار، فأذن للعباس رضي الله عنه أن يبيت بمكة لأجل سقاية الحجاج، وأجاز لرعاة الإبل أن يرموا في يوم واحد عن يومين، وما ذاك إلا لأنه رحمة مهداة، كما قال الله :﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

ثم لما أكمل الرمي، اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى **المُحصَّب**، وهو مكان يُقال له الأبطح، أو خيف بني كنانة، حيث أقام صلى الله عليه وسلم في قُبّة ضُربت له هناك، بعد أن سبقه إليه مولاه أبو رافع رضي الله عنه، فجعل له موضعًا يرتاح فيه.
ولم يكن اختيار النبي لهذا المكان اعتباطًا، بل كان تذكيرًا بموقف تاريخي، فقال لمن سأله عن وجهته:
"نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر] "متفق عليه[،
إشارة إلى الموضع الذي تحالفت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب أيام الحصار الظالم، في شعب أبي طالب.

وهناك، في المحصب، صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم اضطجع قليلاً، حتى جاءت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قلبٌ يتوق إلى الفضل، وروح تشتاق لمزيد من الأجر، فقالت:
يا رسول الله، يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع أنا بحجة؟ فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم حرصها، ولم يردها، بل قال:
"أوما كنت طفت ليالي قدمنا مكة؟ "قالت: لا .قال" :**فاخرجي مع أخيك إلى التنعيم، فأهلي بعمرة**] "متفق عليه.[
فأمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أن يرافقها، فقال" :**اخرج بأختك من الحرم، فلتهل بعمرة، ثم افرغا، ثم ائتيا ها هنا، فإني أنظركما حتى تأتيا"،**
فخرجت معه، وأحرمت من التنعيم، فلما طافت وسعت، عادت فوجدت النبي صلى الله عليه وسلم قد انتظرها، فما إن أكملت عمرتها، حتى أذّن بالرحيل، فارتحل الناس جميعًا.

يا لجمال هذا المشهد!
امرأة تطلب زيادة من الخير، ورسولٌ لا يردّ من طرق بابه، ورحمةٌ تغمر الضعفاء، وتنظيمٌ يحكم أدق التفاصيل... كأن الحج لم يكن مجرد مناسك، بل مدرسة تربوية متكاملة، يتعلّم فيها المؤمن كيف يكون عبدًا لله في كل وقت وحين، وكيف تظل الطاعة جاريةً في الدم، لا تنقطع عند نهاية الشعائر.

فسبحان من علَّم نبيّه، وكمَّل به الدين، وأظهر به للناس أن العبادة لا تُختزل في طقوس، بل هي حياةٌ ممتدة، لا تنفصل عن السلوك والمواقف والنيات.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- مشهد الثبات على الطاعة في أيام التشريق يُظهر كمال العبودية لله تعالى، ويُجسد أن العبد لا يملك لنفسه خروجًا من دائرة الطاعة مهما بلغ، وهذا من أعظم معاني التوحيد والانقياد لله عز وجل.

- تتابع الذكر والدعاء في أيام التشريق، كما أمر به القرآن، يدل على أن العبادة عند أهل التوحيد لا ترتبط بأماكن أو أزمنة فقط، بل هي حال دائم في القلب والجوارح، كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾.

- مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحاب الأعذار، وتخفيفه عنهم، دليل على أن دين الإسلام قائم على الرحمة والعدل، وأن الشريعة من عند اللطيف الخبير، لا من صنع بشر، وأن نبيها مرسل من رب العالمين رحمةً للعالمين، كما قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

- تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بالموقف التاريخي في خيف بني كنانة يُظهر أن معركة التوحيد طويلة، وأن الوقوف ضد أهل الكفر والباطل منهج رباني لا يتغير، وهو مما يعزز في القلب الإيمان بوعد الله ونصره للمؤمنين.

- في انتظار النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، مشهد من مشاهد كماله النبوي، الذي يعكس الرحمة والرأفة والحرص على الخير للأمة، ويؤكد أن النبوة ليست مكانة تشريف فقط، بل قيام بحقوق الخلق وتزكية نفوسهم.

- العبادة الممتدة في تفاصيل الحياة هي ثمرة من ثمرات صدق التوحيد، فالمؤمن الموحد لا يُفرغ قلبه من الله بعد أداء الشعائر، بل يعيش لله، في كل وقت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فوائد فقهية

- الإقامة بمنى ثلاثة أيام بعد يوم النحر، ورمي الجمرات بعد الزوال بالترتيب المعهود، سنةٌ فعلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وبيانٌ لما كان عليه هديه العملي في الحج.

- الوقوف للدعاء بعد رمي الجمرة الصغرى والوسطى سنة مهجورة ينبغي إحياؤها، فقد داوم عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وأظهر بها المعاني التعبدية بعد أداء الشعائر.

- ترك التعجل، والبقاء حتى اليوم الثالث عشر، هو الأكمل في الحج لمن لا عذر له، وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وأقرب للهدي التام، وفيه تربية عملية على كمال التعبد.

- الإذن للعباس رضي الله عنه بالمبيت خارج منى لأجل السقاية، والتيسير للرعاة في الرمي، يدل على سعة الرخص في الشريعة للحاج بحسب حاله، وهي رخص مقررة بنص النبوة، لا بالهوى ولا القياس الفاسد.

- اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم منزلًا في المحصب، والصلاة فيه، ثم الاضطجاع، يدل على جواز النزول به، لا على وجوبه، كما ورد عن جماعة من أهل العلم.

- إحرام عائشة رضي الله عنها من التنعيم للعمرة بعد الحج، دليل على جواز الإفراد بين النسكين لمن أراد، وعلى جواز الاعتمار بعد الحج لمن لم يطف قبل.

- انتظار النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة حتى تفرغ من عمرتها يدل على جواز انتظار الرفقة والتنسيق بينهم في مواعيد الرحيل، وهو من التنظيم المشروع في مناسك الحج.

فوائد أخلاقية

- استمراره صلى الله عليه وسلم في الطاعة بعد نهاية المناسك يعلمنا أن القلوب المؤمنة لا ترتاح إلا في ظل الطاعة، وأن لذة القرب من الله لا يعدلها شيء من متاع الدنيا.

- خشوع النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء بعد الرمي، ورفعه يديه، وطول وقوفه، يربي المؤمن على التذلل في المحاريب، والانكسار بين يدي الكريم.

- عدم رده صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها حين طلبت العمرة، مع أنها ليست واجبة، بل تطييب لخاطرها، فيه أعظم دروس الرحمة بالضعفاء والسعي في إسعادهم.

- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم بانتظاره لعائشة حتى تعود، فيه تعليم الرجال كمال الوفاء، وحسن التقدير للنساء في رغبات الطاعة، وهو أدب نبوي رفيع.

- اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بتذكير أصحابه بموقف خيف بني كنانة يعلمنا أن القائد الصادق يُحيي في نفوس أتباعه الذاكرة الإيمانية، ليبقوا على صلة بمعركة العقيدة.

فوائد تربوية ودعوية

- في تنقله صلى الله عليه وسلم بين المناسك ثم المبيت، ثم المحصب، ثم تنظيم حركة النساء في العمرة، ثم انتظار الجميع للرحيل، مشهد متكامل لمنهج التربية بالقدوة والتنظيم.

- الإشارة إلى مشهد المبيت بالمحصب تربّي الدعاة على التذكير بمواقف التاريخ الدعوي في حياة الأمة، وربط الحاضر بالماضي لتعميق العبرة والولاء لدين الله.

- حرص عائشة رضي الله عنها على مضاعفة الأجر، وطلبها لعمرة مع أنها غير واجبة، يعلّم النساء ألا يكتفين بما هو أدنى، بل ينافسن في الطاعات طلبًا لما عند الله.

- تدرج النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة في الجواب والسؤال حتى تفهم الحكم، منهج نبوي في التوجيه يقوم على الإقناع والتدرج، لا على القهر والإملاء.

مخالفات الواقع

- تعجل الناس اليوم في الخروج من منى، في أول فرصة، دون استكمال اليوم الثالث عشر، مما يخالف فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وهدي السكينة والتأني في الطاعة.

- اختزال كثير من الناس لمناسك الحج في حركات ظاهرية، دون روح الدعاء والخشوع، كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم بعد رمي الجمرات.

- نسيان جانب الرحمة والتيسير في الشريعة، حتى إن البعض يشدد على من له عذر في الرمي أو المبيت، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص للرعاة والعباس.

- غياب التذكير بتاريخ الإسلام في نفوس الحجاج، وترك استحضار المواقف التربوية مثل موقف المقاطعة في خيف بني كنانة، رغم أن فيها بناءً للولاء الإيماني.

- قلة العناية بتنظيم حج النساء، وعدم التيسير عليهن أو مراعاة حالهن كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة، مما يُخالف روح الرحمة التي جاء بها الإسلام.

الفقرة التاسعة عشر: وداع الحبيب صلى الله عليه وسلم لمكة بعد تمام المناسك

لما أتمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم مناسك الحج، وبلغت القلوب غايتها من الطهر والسكينة، أراد أن يختم هذه الرحلة الإيمانية العظيمة بخاتمة تظل خالدة في وجدان الأمة، فأمر الناس ألا يغادروا مكة حتى يكون آخر عهدهم بالبيت العتيق، ذاك البيت الذي إليه تهفو الأرواح، وتشد إليه القلوب، وتتعلّق به الأنفاس كما تتعلّق النجوم بالسماء.
قال صلى الله عليه وسلم»:**لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت**) «رواه مسلم.(
فكان هذا التوجيه النبوي إشعارًا بأن الفراق عن مكة لا يكون إلا بعد وداعٍ يليق بمقامها، وداعٍ يجعل القلب معلّقًا بها حتى بعد مغادرتها.

وفي أثناء تلك اللحظات الحاسمة، لحظات الخروج من أقدس أرض وطأتها قدم، برزت مشاهد رقيقة تجلّت فيها رحمة النبي صلى الله عليه وسلم ولطفه وحنوه بأهله وأصحابه.
فها هي أم المؤمنين **صفية بنت حيي** رضي الله عنها، وقد حاضت بعد طواف الإفاضة ليلة النفر من منًى، فتخوفت أن تحبس ركب النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت":ما أراني إلا حابستكم "!فقال لها بلغة مليئة بالحنان والمراعاة:
»**عقرى حلقى! أوما كنت طفت يوم النحر؟** «قالت: بلى .قال» :**لا بأس، انفري**) «متفق عليه.(
وهكذا طمأن قلبها، وخفف عنها، وبيّن للأمة أن الشريعة لا تضيق على أصحاب الأعذار.

وفي موقف آخر من مواقف الرحمة النبوية، جاءت أم سلمة رضي الله عنها، وكانت مريضة لا تقوى على المشي، تشكو حالها للنبي صلى الله عليه وسلم، فما زاد على أن قال لها» :**طوفي من وراء الناس وأنت راكبة**.«
قالت :فطفت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جانب البيت وهو يقرأ:﴿**وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ**﴾
]الطور: ١–٢] (متفق عليه.(كأنما كان يقرأ على نفسه وعلى أمته كتاب التكليف والبلاغ، في لحظة يُوشك أن يختم بها رسالته في أقدس مكان.

ثم كان وداع مكة..
اللحظة التي لا تنسى، اللحظة التي انصرف فيها الحبيب صلى الله عليه وسلم من مكة بعد أن طاف طواف الوداع، حيث خرج من *الثنية السفلى*)وتُعرف اليوم بمنطقة الشبيكة)، وما من حجر في مكة ولا شجر ولا موضع إلا وودّعه بنظرة ملؤها الحب والحنين.

خرج، وخرجت معه قلوب المحبين، عادت القبائل كلٌّ إلى دياره، لكنها عادت وأرواحهم معلّقة بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي ما زال أثره يلوح في النفوس، وصورته لا تفارق الأعين، بعد أن بلّغ عن ربه وأدى الأمانة، وقال في أعظم مشهد شهده عرفات»:**ألا هل بلغت؟**«قالوا: نعم.فرفع صلى الله عليه وسلم إصبعه إلى السماء، وقال:
»**اللهم فاشهد، اللهم فاشهد**) «رواه مسلم.

وهكذا طويت صفحة حجة الوداع، لكنها بقيت مفتوحة في قلوب المؤمنين إلى يوم الدين.

وفي طريق العودة، لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الروحاء – وهي على مسافة نحو ٨٠ كيلومترًا من المدينة – التقى بركب من الناس، فقال لهم»:**من القوم؟**«قالوا: المسلمون.قالوا» :**ومن أنت؟**«قال» :**رسول الله**.«فرفعت امرأة طفلًا صغيرًا وسألوه *ألهذا حج؟* "فقال صلى الله عليه وسلم»:**نعم، ولك أجر**) «رواه مسلم
فأي شرف أعظم من هذا؟ أن يُكتب لهذا الصبي حج، وتُكتب لأمه أجرُ نيّتها وعملها وجهدها، وهو لا يدري من الدنيا شيئًا!

حتى إذا بلغ صلى الله عليه وسلم "ذا الحليفة"، بات بها حتى أصبح، ثم صلى في بطن الوادي المعروف بوادي العقيق، وبدأ بالدخول إلى المدينة من طريق "المعرّس"، فلما رأى المدينة تلوح في الأفق، كبّر ثلاثًا، ولسان حاله يقول فرحًا وسجودًا وحمدًا:

»لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده) «رواه مسلم.

عاد إلى المدينة التي أحبّها، فعادت بها الحياة، وتنفّست الجدران، وتفتحت القلوب.

ولمّا كان كثير من الناس قد مُنعوا من الحج بسبب الجدري الذي تفشّى في المدينة، ومنهم الصحابية **أم سنان الأنصارية** رضي الله عنها، فإن النبي صلى الله عليه وسلم – وهو الرحمة المهداة – لم ينس من تخلّف بعذر، بل أعطاهم أملًا وفضلاً لا يُقاس، فقال لها حين أخبرته أنها لم تحج»:**عمرة في رمضان تعدل حجة معي)** «متفق عليه.(
فكانت بشارة عظمى، ومواساة ربانية، ونفحة من نفحات النبوة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون آخر عهد الناس بالبيت طواف الوداع فيه تعظيم لمكانة الكعبة في قلوب المؤمنين، وتأكيد على أن التعلق بالبيت الحرام ليس شعورًا ظرفيًا، بل هو ارتباط قلبي دائم نابع من الإيمان.
- قوله صلى الله عليه وسلم في عرفات: «اللهم فاشهد» إعلان إتمام البلاغ، وتأكيد لعقيدة ختم النبوة، وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر رسالات السماء، ولا وحي بعده، كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾.
- قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن أثناء الطواف، في تلك اللحظة الختامية، فيها بيان أن القرآن هو مصدر الهداية والبلاغ، وأن مهمة النبوة قائمة على التبليغ لا الابتداع.
- طمأنته صلى الله عليه وسلم لصفية وأم سلمة، وتعليمه أن الأعذار لا تمنع القبول، فيه ترسيخ لأصل من أصول العقيدة، وهو أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأن الشريعة رحمة من الله لا عذاب.
- تسليم المرأة بأن طفلها يحج، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم، ولك أجر» يُظهر أن النية الصادقة تُثاب عليها الأمة، ولو لم يكن العمل كاملاً من جهة الفاعل، وهو من تمام عدل الله ورحمته.
- استقبال النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة بالتكبير والدعاء، وإعلانه أن النصر من عند الله وحده، فيه ترسيخ لعقيدة التوحيد في النصر، وأنه لا يُنسب إلى الخلق، بل إلى رب الخلق وحده.
- قوله صلى الله عليه وسلم لأم سنان: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي» فيه ترغيب في العمل الصالح، وبشارة لمن فاته بعض الخير بعذر، وهي من معاني الربوبية القائمة على الفضل والإحسان.

فوائد فقهية

- طواف الوداع واجب عند الجمهور، لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت»، وهو طواف خاص بالخروج، لا يغني عنه طواف الإفاضة.
- جواز الطواف للمرأة الراكبة حال المرض أو العجز، كما أفتى النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة، وهذا يدل على أن الطهارة الكاملة أو المشي ليسا شرطين لازمين للطواف في حالات العذر.

- من طافت طواف الإفاضة قبل حيضها، لم يلزمها طواف آخر، كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم لصفية رضي الله عنها، وفيه بيان أن الطهارة في طواف الإفاضة شرط أداء، لا شرط صحة بعد الوقوع.

- حجة الطفل الصغير صحيحة، لكنه لا يُجزئه عن حجة الإسلام، وهذا يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم: «نعم، ولك أجر»، فالإثابة للأم، لكن لا يعني ذلك إسقاط الفرض عن الطفل حين البلوغ.

- يدل فعل النبي صلى الله عليه وسلم بالنزول بذا الحليفة والصلاة في وادي العقيق على فضل هذه الأماكن، وعلى استحباب الصلاة في الأماكن المباركة في طريق العودة.

- دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة من طريق "المعرّس" يفيد استحباب الاقتداء به في طريقة الدخول والخروج من الأماكن، خاصة عند القدرة، وهو من سنن السفر.

- تعليقه الفضل على عمرة رمضان يدل على أن الزمان سبب في مضاعفة العمل، وأن العبادة في الأزمنة الفاضلة لها مزية تزيد على سواها، وهذا من فقه المواقيت في الشريعة.

فوائد أخلاقية

- وداع النبي صلى الله عليه وسلم لمكة بعد أداء المناسك في مشهدٍ مفعم بالحنين والدموع يربي الأمة على الوفاء للأماكن المباركة، ويعلّمهم كيف تُبقي الروح ارتباطها بمواطن الطاعة.

- مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم للمرضى والضعفاء في الحج، ومعاملته لهم بالرفق، كما في قصة أم سلمة، يعكس أعظم معاني اللين والرحمة في القيادة.

- تعليقه صلى الله عليه وسلم على حج الصغير، وثناؤه على نية الأم، فيه تعليم للمربين أن يشجعوا أهل الطاعة، ويغرسوا معاني الإيمان في الصغار منذ نعومة أظفارهم.

- استقبال النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة بالتكبير والدعاء والسجود الحمدي، فيه تربية على شكر الله في لحظات النصر والرجوع، لا الاكتفاء بالفرح الدنيوي.

- مواساته صلى الله عليه وسلم لأم سنان التي منعت من الحج بسبب الوباء، فيه أعظم القدوة لمن ابتُلوا بمنع أو مرض، أن يُواسوا غيرهم ويحتسبوا الأجر عند الله، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فوائد تربوية ودعوية

- إصراره صلى الله عليه وسلم على أن يكون الطواف هو آخر العهد بالبيت، فيه توجيه للمؤمن ألا يخرج من الطاعة إلى الدنيا فجأة، بل يودّع العبادة بوداع يليق بها.

- استحضار النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن في لحظة الوداع، وتعليمه الأمة أن العودة للحياة لا تكون إلا بزاد من الوحي، هو منهجٌ تربوي يُرسي دعائم الاستمرار في الطاعة بعد المناسبات العبادية.

- وصيته للناس بعدم التسرع في الرحيل من مكة قبل الوداع، تربية على عدم العجلة في الطاعات، والاستفادة الكاملة من لحظات القرب من الله.

- تربية الأمة على حسن النية في الأعمال، كما في حج المرأة وطفلها، يعلم المسلمين أن الله مطّلع على السرائر، ويجازي حتى على نيات الخير، ولو لم تظهر آثارها كاملة.

- تثبيته لأهل المدينة الذين حُرموا من الحج ببشارة عمرة رمضان، دعوة للاستمرار في العمل وعدم اليأس من اللحاق بالأجر، فباب الفضل لا يُغلق.

مخالفات الواقع

- تفريط كثير من الحجاج في طواف الوداع، وانشغالهم بالتجهيز للسفر، بل إن بعضهم يسافر دون طواف، مما يُخالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم ويُعرضهم للخلل في حجهم.

- غياب الرحمة في التعامل مع النساء والضعفاء في مناسك الحج، مما يجعل بعضهن يشعرن بالضيق والحرج، في حين أن هدي النبي صلى الله عليه وسلم كان التيسير والطمأنينة.

- ضعف التربية الإيمانية على الارتباط القلبي بمكة والمشاعر، حيث يتحول الحج لدى البعض إلى جولة سياحية تنتهي بمجرد مغادرة الطائرة، دون أن تبقى آثار القرب من الله في القلب.

- تجاهل بعض الدعاة والمربين لغرس معاني النية في الأطفال وتعويدهم على الطاعة، رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت حج الطفل وشجّع أمه، في غرس إيماني مبكر.

- إهمال تربية الناس على حُسن الختام في المواسم الإيمانية، حيث يعود كثير منهم بعد الحج إلى الانشغال التام بالدنيا، كأنهم لم يمرّوا بموقف وداع الطاعات.

الفقرة العشرون : الوداع الأخير من حج الوداع: لحظات الفِراق المهيبة

ها هو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يغادر مكةَ المكرمةَ، يغادرها وقد غمرتها أنوار النبوة، وطهرتها خطاه الشريفة، وغمرها صوته العذب يصدح بالتكبير والذكر والتسبيح، يغادرها بعد أن أتم نسك الحج، ذاك النسك الذي لم يكن في خطواته عبثٌ، ولا في كلماته اجتهاد، بل كل حركة وكل سكون، كل وقوف وكل دفع، كان بوحيٍ من السماء، وهدايةٍ من رب الأرض والسماء، كما قال الله تعالى:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾]النجم: ٣-٤.[

لقد كان وداعًا يقطر وجيبًا، وداعًا للبيت العتيق الذي طالما اشتاق إليه، وطاف حوله، وناجى عند أركانه، وأُوذي على أعتابه، فأبَى أن يكون آخر عهده به إلا طوافًا خالصًا لله، فأمر الناس قائلاً:
»لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت) «رواه مسلم(،
يريد أن يغرس في القلوب حنينًا لا ينقطع، وارتباطًا لا ينفصم بالبيت الذي جعله الله قيامًا للناس.

وفي هذا الوداع، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يودّع الحجارة، بل كان يودّع أمته... يودّعها بكلماتٍ حفرت في جبين الزمان، خطبها في يوم عرفة، وكرّرها في منى، وجمع فيها جوامع الكلم، فحرّم الدماء، ووصى بالنساء، وأوصى بالأمانة، وتركها أمانة، وقال في مشهد تقشعر له الجلود وتفيض له العيون» :ألا هل بلغت؟ «قالوا: نعم، فرفع إصبعه إلى السماء، وقال» :اللهم فاشهد، اللهم فاشهد) «رواه مسلم.(

وفي تلك الأيام المباركة، نزل عليه أعظم بيان، بشارة الخاتمة، وإيذان الختام :﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾]المائدة: ٣[،
فأيقن من له قلب أن الرسالة قد تمّت، وأن النبوة على وشك الوداع، وأن الشمس التي أشرقت على الدنيا يوم بُعث محمد صلى الله عليه وسلم قد بدأت تميل نحو المغيب.

ثم انصرف النبي صلى الله عليه وسلم عن مكة، وقد ملأ قلبه الشكر والامتنان، وامتلأت عيون أصحابه بالدموع، وتعلقت أبصارهم بمن علّمهم الإيمان، وهم يعلمون أنه الوداع، فخرج من "الثنية السفلى" - وهي اليوم في الشبيكة - متوجهًا نحو المدينة، ومعه القلوب تهتف، والأنفس تلهج، وهو يردد عند دخول المدينة، بعد رحلةٍ من أعظم الرحلات في تاريخ البشرية:

»لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده) «رواه مسلم.(

كانت هذه الحجة، "حجة الوداع"، أعظم مدرسة عملية في التربية النبوية، جمعت أركان الإسلام، وأصول الإيمان، ومكارم الأخلاق، وصقلت القلوب، وشرحت الصدور، وجسّدت الشريعة واقعًا حيًّا، يتعلمه الناس خطوةً بخطوة من فم نبيهم صلى الله عليه وسلم، الذي قال الله فيه :﴿لَّقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾]التوبة: ١٢٨.[

لقد أتم النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأدى الأمانة، وربى الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. فسلامٌ على النبي في سفره وإقامته، في حجه ومناسكه، في وداعه وعودته، في حياته ومماته، اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد، عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون..

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق من تلقاء نفسه، بل كل أقواله وأفعاله بوحي من الله، وهذا أصل من أصول العقيدة في عصمته صلى الله عليه وسلم في التبليغ.
- إتمام الدين وتمام النعمة دليل على كمال هذا الدين عقيدة وشريعة، فلا يُحتاج بعده إلى زيادة ولا تعديل، ومن اعتقد أن هناك ما يُستدرك أو يُبدل فهو طاعن في الدين.
- الدين الذي رضيه الله للناس هو الإسلام، ومن ابتغى غيره فقد ضل وغوى، وهذا أصل في الولاء والبراء، لا يقبل الله دينًا غيره.
- مقام النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة مقام البلاغ والبيان، وهو الأمين على الوحي، وقد شهد الله له بأداء الرسالة، وشهدت له الأمة بذلك، في مشهد عظيم من مشاهد العقيدة.
- النبوة ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلا نبي بعده، ومن ادعى النبوة بعده فهو كاذب دجال، وهذا من أصول العقيدة في باب النبوة.
- محبة النبي صلى الله عليه وسلم ليست محبة عاطفية مجردة، بل محبة توقير وطاعة واتباع، وهي جزء من الإيمان، لا يتم إيمان العبد إلا بها.

فوائد فقهية:

- استحباب جعل آخر عهد الحاج بالبيت هو الطواف، وهو ما يسمى بطواف الوداع، وهو واجب عند جمهور الفقهاء، إلا على الحائض.

- من مناسك الحج أن تؤدى وفق هدي النبي صلى الله عليه وسلم بدقة، لأن حجه كان بوحي، فيجب على الناس الاقتداء به في كل حركة وسكون.
- التكبير والذكر من شعائر الحج، ويُسن الإكثار منها في كل المواضع، كما ثبت من هديه صلى الله عليه وسلم في رحلته المباركة.
- تأكيد أهمية خطبة عرفة وما حوته من مقاصد الشريعة، وهي أصل في فقه المقاصد، وقد تناولت قواعد عظيمة في حفظ الدماء والأعراض والحقوق.
- مشروعية الذكر عند الرجوع من السفر، واستحباب الدعاء الوارد في الحديث عند العودة من الحج أو العمرة أو الغزو.

فوائد أخلاقية:

- في وداع النبي صلى الله عليه وسلم لأمته مشهد بالغ التأثير، يدل على رحمته وحرصه عليهم، وتلك قمة الأخلاق النبوية في الرعاية والشفقة.
- التواضع النبوي ظاهر في خطبته وفي وداعه، رغم مقامه العظيم، فإنه ودّع الأمة بكلمات تقطر مسؤولية، لا افتخار ولا تعالٍ.
- غرس الحنين في القلوب للبيت الحرام، والارتباط به، مما يدل على علو شأن الأماكن المقدسة، وأثرها في تزكية النفس وصقل الروح.
- حرصه صلى الله عليه وسلم على أداء الأمانة وتبليغ الرسالة حتى آخر لحظة، يدل على الوفاء والصدق وحب الخير للناس.
- في بكاء الصحابة عند الوداع صورة من صور الحب العظيم بين المعلم وتلاميذه، والقائد وأتباعه، وهو حب مبني على الأخلاق والإيمان لا المصالح.

فوائد دعوية وتربوية:

- تربية الأمة على الاتباع الكامل للرسول صلى الله عليه وسلم، لأن كل ما فعله في الحج كان بوحي، فلا مجال للاجتهاد في أمرٍ بُيّن ووضّح.
- بيان أهمية غرس القيم في النفوس في أوقات التأثير الكبرى، فقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الأمة في مشهد عرفة وغرس فيهم أعظم الوصايا.
- التأكيد على أن التربية الحقيقية تُستلهم من التطبيق العملي لا التنظير، ولهذا كانت حجة الوداع مدرسةً عمليةً جامعة.
- من وسائل التبليغ الناجح تكرار الوصايا وتأكيدها في أكثر من موطن، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في منى وعرفة.
- المشهد يعلمنا أن القدوات لا تكتفي بالكلام، بل تجسّد ما تدعو إليه واقعًا حيًا، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

مخالفات الواقع:

- غفلة كثير من الناس عن تعظيم السنة في أداء النسك، فتجدهم يبتدعون في المناسك ويخالفون هدي النبي صلى الله عليه وسلم بحجة "التيسير" أو "الاجتهاد المعاصر."
- ضعف الارتباط بالبيت الحرام، وقلة الحنين إليه، وكأن القلوب لم تعد تشعر بقيمته ومكانته، وكأن السفر إليه صار عادة لا عبادة.
- قلة من يعتبرون مناسك الحج مدرسة تربوية، وكأن الغاية مجرد إتمام الأركان دون أثر إيماني أو أخلاقي باقٍ في القلب والسلوك.
- تفريط الناس في تبليغ الدين للجيل الجديد، فلا تجد التأكيد على أداء الأمانة وتوريث القيم كما كان يحرص النبي صلى الله عليه وسلم.
- انشغال الناس بعد المناسك بالتصوير والتفاخر ونقل الرحلة للناس، عوضًا عن الذكر والتسبيح والدعاء والرجوع إلى الله بصدق.

انتهى هذا الباب ويليه الباب الثامن عشر بإذن الله تعالى

الباب الثاني: سطور الوداع الأخيرة

مقدمة

ما أصعب أن تخطّ القلوب كلمات الوداع، وما أشدّ أن تُروى بالحبر دموعُ المحبين! كيف للمداد أن يصف لحظةً أظلم فيها نور الدنيا، واهتزّت فيها قلوب المؤمنين؟
لقد آن أوان الرحيل، ورحلت الشمس التي أشرقت على القلوب قبل الأفق، وارتجّت المدينة التي عرفت النور على يديه، تهفو الأرواح إلى صوته، وتنكر أن تُصدّق الفقد.

كان الوداع ثقيلًا... لا يُحتمل، فقد نزلت فصوله رويدًا رويدًا، كأنّما السماء كانت تُمهّد للحدث الجلل، وتُهيّئ القلوب للزلزال العظيم... ما بين اشتداد مرضه الشريف، ووصاياه الأخيرة، ونظراته التي ودّعت الدنيا دون أن تغادرها في قلوب أصحابه.

في هذا الباب، نفتح **سطور الوداع الأخير** ...لا لنرثي من لا يُرثى، بل لنستلهم العِبر من أعظم لحظات الخلود... حين ودّع الحبيب أمته، وبقي هداه حيًّا في القلوب إلى يوم الدين.

الفقرة الأولى إرهاصات الوداع والرحيل

ما أشدّ لحظات الفقد، وما أرهف وقعها إذا نزلت كالسهم على قلوب محبّة، تتعلّق بالروح قبل الجسد، وتأنس بالوجه قبل الصوت، وتستنير بالهدي قبل اللقاء! فكيف إذا كان هذا الراحل هو من أرسله الله رحمةً للعالمين، ومنّ به على المؤمنين، وقال في حقه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

كيف تكون لحظة الرحيل، إذا كانت من حبيبٍ علَّم البشرية كيف تُصلّي، كيف تُحب، كيف تبكي من خشية الله، وكيف ترجو رحمته؟!
كيف إذا أزف موعد مغادرة من أضاءت خطاه الظلمات، وسقانا من نهر الرسالة الصافي، وجعلنا – بعد الضلال – أمةً وسطًا، نشهد على الناس ويشهد علينا؟!

لقد بدأ النسيم يحمل رائحة الوداع، ولكن ليس وداعًا عابرًا كسائر الوداع... بل وداعٌ يهزُّ أركان القلوب، ويبعثر فيها الحنين، ويفتح جراح الشوق قبل أن تلتئم.

كانت المدينة الوادعة تسير أيامها في هدوء، لكنه الهدوء الذي يسبق هزّة الرحيل... همساتُ القلوب الصادقة بدأت تتساءل بصمت: هل آن أوان الفراق؟

بدأت الأرواح تشعر أن شمس الرسالة، التي أشرقت من غار حراء، باتت على وشك المغيب، وأن النور الذي غمر الأكوان بكلمة "اقرأ" يتهيأ للعودة إلى أصله: إلى النور الذي لا ينطفئ أبدًا.

وها هو الحبيب صلى الله عليه وسلم، يقف على ثغر من ثغور الأمة، يودّع فتى العلم والدعوة معاذ بن جبل رضي الله عنه، ويرسله إلى اليمن، فتمتلئ عبارات الوداع بدموع النبوة، وحرارة الفؤاد، فيقول له:
"يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري "رواه أحمد بسند حسن.
فبكى معاذ، وما بكى من فراق بلد أو مكان، بل من فراق قلبٍ لم يعرف البشر قلبًا أحنّ منه، ولا لسانًا أصدق، ولا خلقًا أزكى.

وكانت هذه الكلمات كناقوسٍ يُقرع في أسماع الصحابة: أن الموعد اقترب، وأن النفس المطمئنة تُنادى للرجوع إلى ربّها راضيةً مرضيّة.

ثم جاءت اللحظة الكبرى في يومٍ لم تعرف الأرض له مثيلًا، يوم الحج الأكبر، حيث اجتمع مئة ألف من المؤمنين حول الحبيب صلى الله عليه وسلم، فارتقى جبل الرحمة، ونادى في الناس بخطبةٍ هي أعظم ما دوّنه التاريخ في وصايا الرحيل.
خطبةٌ جمعت بين التوحيد والحقوق، والمبادئ والأحكام، والمحبة والدموع... ثم ختمها بتلك الكلمات التي خنقت أنفاس الصحابة وهزّت القلوب" **:لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا** "رواه مسلم.

فسكت الجمع، لكنّ القلوب صرخت، وسرى في الأرواح يقينٌ مؤلم: أن هذا الحج هو "حجّة الوداع"، وأن الخاتم صلى الله عليه وسلم يُلقي آخر خطبة، ويرتقي آخر منبر، وينظر آخر نظرة إلى أمته من على جبل الرحمة.

ولم تكن إرهاصات الرحيل كلامًا فقط، بل كانت السماء ترسل إشاراتها... فنزلت سورةٌ قصيرة في مبناها، عظيمة في معناها، سورة النعي، كما فهمها من فقه عن الله، وفهم أسرار الرسالة:
قال تعالى:﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ • وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا • فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣.]

فما إن نزلت حتى بكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبكى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد قال: "إنها نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم."
قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى ولنا أبناء مثله؟
فقال عمر: إنه ممن قد علمتم.فدعاني ذات يوم، وقال: ما تقول في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟
قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه الله له..." [صحيح البخاري.]

لقد أدرك الأبرار أن النور الذي بين أيديهم، قد آن له أن يعود إلى السماء، وأن القلب الذي احتمل همّ الأمة، وسهر لأجلها، وعرق وجاهد، قد آن له أن يسكن... في رحاب ربه.

أتمّ الله به الدين، وأكمل الرسالة، فشهدت السماء قبل الأرض، ونزل قوله سبحانه:
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣.]

لقد سلَّم الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وتركها على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فيا عينُ ابكي، ويا قلبُ انخلع، فقد أظلّ زمن الوداع، وأوشكت الأرض أن تفقد أطهر من مشى عليها.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- مقام النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة هو مقام البلاغ والرحمة والهداية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذه صفات إلهية عظيمة منحها الله لنبيه، تدل على مكانته في العقيدة وعلى وجوب محبته وتعظيمه وطاعته.

- الرسالة المحمدية جاءت من الله، وبلغها النبي صلى الله عليه وسلم كما أُمر، والاعتقاد بأنه بلّغ كل ما أُوحي إليه ركن من أركان الإيمان بالرسالة، ومن شك في ذلك فقد انحرف عن الصراط المستقيم.

- فهم الصحابة ومن بعدهم من العلماء ـ كابن عباس رضي الله عنهما ـ لنزول سورة النصر بأنها إيذان بانتهاء النبوة يدل على أن شؤون حياة النبي صلى الله عليه وسلم كانت بوحي، ويجب الإيمان بأن موته كذلك كان مقدرًا معلنًا بوحي.

- نزول قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ من أعظم أدلة كمال هذا الدين وعدم قبوله للزيادة أو النقص، فمن زعم غير ذلك فقد وقع في زيغ المرجئة أو غلوّ أهل البدع.

- الإيمان بأن النبوة خُتمت برسول الله صلى الله عليه وسلم أصلٌ عظيم، ومن ادّعى استمرار الوحي بعده أو وجود من هو على صلة بالسماء بعد موته فهو من أهل الزيغ والضلال.

فوائد فقهية:

- قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: "عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا" فيه تعليم لطريقة الوصية عند الفراق، وأن الداعية والمعلّم ينبغي أن يغتنم اللحظات الأخيرة لتوصيل أعظم ما في قلبه.

- خطبة عرفة جمعت بين الأحكام والمبادئ والتوحيد، وهي أصل في فقه الخطب، وأهمية الخطبة الجامعة التي تبني الأمة وتحفظ أصول الدين.

- فهم ابن عباس رضي الله عنهما للسورة على أنها نعي للنبي صلى الله عليه وسلم يدل على فقه الاستنباط من النصوص، وأهمية تعليم المتعلم كيف يربط بين ظاهر النص ومقصوده.

- الإشارة إلى الحج كأعظم تجمع إيماني دعوي يدل على استحباب استثمار المواقف الكبرى في إلقاء التوجيهات العامة والوصايا الجامعة.

- في البكاء عند فهم الآيات دلالة على فقه القلب، وأن التدبر عبادة، والدموع عند تدبر القرآن من السنن المفقودة التي ينبغي بعثها في الأمة.

فوائد أخلاقية:

- الموقف بين النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ مليء بالعاطفة الصادقة، وهو درس عظيم في التوديع النبيل، وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الحنان والحزم في آخر اللحظات.

- بكاء الصحابة عند سماع كلمات الوداع دليل على وفائهم ومحبتهم، وأن المحبة الصادقة لا تبنى على العطاء المادي، بل على الصدق في الدعوة والإيمان.

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ وصاياه في الموقف العظيم يدل على الأمانة وعلو الهمة، وأن من صفات القائد الصادق أن يغتنم كل لحظة لخدمة أمته.

- قول العباس وأبي بكر في فهم السورة وبكائهما عندها، يدل على رقة القلب، وهي خُلُقٌ إيماني عظيم، لا يُستهان به، بل هو دليل حياة القلب وسلامته.

- وصف المدينة حينها بـ"الهدوء الذي يسبق هزّة الرحيل" يذكّر بخلق التماسك في المحن، وأن على المؤمن أن يضبط مشاعره في اللحظات العصيبة، ويُحسن التصرف فيها.

فوائد دعوية وتربوية:

- تدريج النبي صلى الله عليه وسلم في تهيئة الأمة للوداع يُعد منهجًا في التربية النفسية، وتعليم الاستعداد للفقد والانقطاع بأسلوب مؤثر ومتزن.

- في خطبة الوداع ألقى النبي صلى الله عليه وسلم أعظم وصاياه، مما يبين أهمية انتقاء اللحظات القوية للتأثير الدعوي، وأن الناس أقبل ما يكونون في تلك الأوقات للوصية.

- الدمج بين التوحيد والحقوق في خطبة الوداع يدل على أن الدين ليس عبادات مجردة، بل نظام شامل يتكامل فيه الإيمان والسلوك والمعاملات.

- توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ يدل على دور المعلّم في إعداد من يخلفه أو يعمل في ميدان الدعوة، وأن إعداد القادة من وظائف النبوة.

- العناية بفقه الأحداث وربطها بالوحي كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، يُعلّم الدعاة كيف يقرؤون الواقع ويستنبطون منه، لا أن يكونوا غافلين عن معاني الوحي في مجريات الأمور.

مخالفات الواقع:

- قلة من المسلمين اليوم يربطون بين مشاعر الفقد والرسالة، فتجدهم يبكون لمصائب الدنيا ولا يبكون لفقد أعظم من علّمهم وأخرجهم من الظلمات.

- ضعف استحضار سنّة النبي صلى الله عليه وسلم في التوديع والتوصية، حتى أصبحت علاقات المعلّمين بالمتعلمين جافة خالية من الروح والوصية.

- غياب الخطب الجامعة التي تبني الأمة وتربطها بالتوحيد، واستبدالها أحيانًا بخطب موسمية سطحية لا تصوغ الوعي ولا تحيي العقيدة.

- قلة التفاعل مع آيات القرآن كما تفاعل الصحابة، فكثير من الناس يقرؤون سورة النصر ولا يفقهون أن فيها تلميحًا إلى نهاية أجل النبي صلى الله عليه وسلم، وانتهاء مهمة البلاغ.

- غياب البكاء من خشية الله ومن تدبر القرآن عن كثير من المساجد والمجالس، وكأن البكاء صار غريبًا لا يليق، وقد كان من شأن أولياء الله.

الفقرة الثانية بعثُ أسامة بن زيد: وصية النبي العملية قبل الرحيل

في أيامٍ تختلط فيها أنفاس الوحي بأصداء الرحيل، وتخيم على المدينة نُذرُ الوداع الأخيرة، أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُسطّر صفحةً أخيرة من صفحات القيادة، لا تُكتب بالحبر، بل تُكتب بالدم والعزيمة والعقيدة. لم تكن وصيته الأخيرة وصيةً باللسان فقط، بل كانت وصيةً بالفعل، وصيةً تجوب الأرض وتمزق أوهام الأعداء، وتقول للعالم: *مات محمد، ولكن دعوته لا تموت!*

أمرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلو صوت الألم

في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، وقبل أن يشتد عليه المرض، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس في لحظةٍ من لحظات القوة المتبقية له، ونادى بالتعبئة. أمر بتجهيز جيشٍ ضخم، وجعل على رأسه شابًا لم يتجاوز العشرين من عمره، أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، ابن مولاه وحبيبه الذي تربّى في بيته، وكان أبوه زيدٌ يُدعى "حبّ رسول الله" قبل أن يُستشهد في مؤتة. لقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يردّ الوفاء بالوفاء، ويورّث القيادة لمن عرف طعم البذل والتضحية في بيت النبوة.

وجهة الجيش كانت نحو "أُبْنَى" من أرض الشام، حيث قُتل زيدٌ وجعفر وعبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة. إنها أرض الجراح المفتوحة، والمجد الصامت، فجاء بعثُ أسامة وكأنه بلسم الشرف يُسكب على تلك الأرض الطاهرة، ورسالة صارخة للروم: *لن يُثني الإسلام رحيل نبيه، ولن تنكسر رايته حتى وإن انكسرت القلوب من بعده.*

همسات التردد، وصيحة الحسم

فُوجئ بعض الصحابة بتولية هذا الشاب الفتيّ على جيشٍ فيه شيوخ المهاجرين وكبار الأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. لم يُصرّحوا بذلك، ولكن بلغ الخبرُ سمع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يَسمع همس القلوب، ويقرأ الخواطر كما يُقرأ السطر في الصحيفة، فخطب الناس وقال قولًا خالدًا كالسيف:

»أنفذوا بعث أسامة، فوالله لئن طعنتم في إمارته لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وإنه كان خليقًا للإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإنه لمن أحب الناس إليّ«*رواه ابن سعد بإسناد حسن، وله شواهد يتقوى بها.*

في هذه الكلمات دروسٌ للأجيال لا تنقضي: احترامُ القيادة، وتقديمُ الكفاءة على السن، وبناءُ جيلٍ يحمل الراية من بعد الشيوخ. لقد علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا البعث أن الدعوة لا تموت بموت الدعاة، وأن القيادات لا ترتبط بالعمر، بل بالقلب والتقوى والعزيمة.

جيش على مشارف المدينة... وقلبٌ على مشارف السماء

تحرّك الجيش حتى بلغ منطقة "الجُرُف"، وهي على بُعد أميالٍ من المدينة، هناك نصبوا معسكرهم، ينتظرون خروج الحبيب صلى الله عليه وسلم ليودّعهم كما ودّع معاذًا من قبل، لكن المرض قد اشتد، والأنفاس أصبحت ثقيلة، وارتجفت المدينة على أنين النبوة وهي تودّع آخر أيامها.

لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تكتحل عيون الجيش بوداعه، فقد شُغل الجسد بآلامه، ولكن قلبه كان مع البعث، يوصي به، ويؤكد عليه، حتى إنه وهو طريح الفراش أخذ يكرر في وصاياه:

»أنفذوا بعث أسامة... أنفذوا بعث أسامة«...

ختمُ الوصية بدموع الوفاء

فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتجّت الأرض تحت أقدام المدينة، وذابت القلوب من هول المصاب، وقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه شامخًا، يقبض على الوصية كما تُقبض على الجمر، ويقول كلمته التي سطّرها التاريخ بماء الذهب:

"والله لا أحلُّ عقدةً عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم".

فنفّذ بعث أسامة، وسار الجيش تحت راية الشباب، ليُعلن من جديد أن هذه الأمة لا تموت، لأن نبيها صلى الله عليه وسلم لم يورّث مالًا ولا قصرًا، بل ورّث أمةً تقود العالم، وشبابًا تُكمل الطريق، ومنهجًا من السماء لا يتوقّف عند القبور.

لقد صدق الله وعده، وورثت الأرض راية النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى:﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤.]

وهكذا، كانت آخر الوصايا، هي وصية الانطلاق، لا التوقّف، ووصية الجهاد، لا الاكتفاء، ووصية الثقة بالشباب، لا التردد والتخوّف.

لقد رحل الجسد، لكن بقيت الرسالة... تمضي بأقدامٍ كانت تمشي خلفه، وتحمل رايته، وتردد في الطرقات صدى صوته المبارك:
اللهم بلّغت... اللهم فاشهد.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الرسالة باقية لا تموت :موت النبي صلى الله عليه وسلم لا يعني انقطاع الدين أو توقف الجهاد، بل يدل على أن الرسالة من عند الله، مستمرة بعد موت حاملها، وهذا من كمال الربانية في الإسلام.
- النبوة وحيٌ وفعل :بعثُ النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة مع كونه في مرض موته دليل على أن النبي مأمور حتى آخر لحظة، فقراراته ووصاياه وحي، وليست اجتهادات بشرية مجردة.
- الإيمان بالقدر :اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لشاب صغير في ظرف حرج، وموته بعد ذلك، يؤكد أن الأمور لا تسير بالمقاييس البشرية فقط، بل بأقدار الله واختياره، وفيه درس في التسليم لحكمه.
- كمال الدين قبل الوفاة :حرص النبي على بعث أسامة قبل وفاته بوضوح، يندرج ضمن إتمام البلاغ والوصية، وأن كل ما تركه من توجيه يجب أن يؤخذ بمنتهى الالتزام.

◆فوائد فقهية

- تنفيذ وصية الميت واجب :إصرار أبي بكر على تنفيذ بعث أسامة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، يدل على وجوب تنفيذ وصية الميت خاصة إذا كانت في أمر من أمور الدين والدعوة.
- ولاية الصغير الكفء جائزة :إمارة أسامة وهو شاب تثبت أن الأهلية في القيادة لا تعتمد على السن فقط، بل على الكفاءة، وهي قاعدة فقهية في شؤون الإمارة.

- الرد على الاعتراضات في القيادة :دفاع النبي عن تولية أسامة، وتذكيره بإمارة أبيه، أصلٌ فقهي في قطع التنازع حول أهلية الأمير، وأن الاعتراض بغير وجه شرعي فساد.

- الوفاء في الإمارة والاختيار :تولية أسامة فيها بعدٌ فقهي في مراعاة الفضل والسابقة والوفاء، وهي معايير معتبرة شرعًا عند اختيار القادة.

فوائد أخلاقية

- الوفاء للمخلصين :تولية أسامة بن زيد وفاءٌ من النبي لأبيه زيد بن حارثة الذي استشهد في مؤتة، وهذا من أعظم دروس الوفاء في القيادة.

- احترام الشباب :إعطاء القيادة لشاب صغير درسٌ في احترام طاقات الشباب والثقة بهم، ونقضٌ للسلوكيات المتعالية عليهم في كثير من المجتمعات.

- الثقة في الجيل الجديد :النبي صلى الله عليه وسلم لم يُورّث القيادة لجيل الصحابة الكبار فقط، بل أعدّ الخلف مبكرًا، وهو خُلق تربوي قيادي نادر.

- حزم القيادة في الشدائد :رغم مرضه، خاطب النبي الناس بحسم في أمر بعث أسامة، وهو درس في المسؤولية والثبات حتى في أحلك الأوقات.

فوائد دعوية وتربوية

- وصية عملية لا قولية فقط :بعث أسامة لم يكن مجرد كلام، بل تطبيق واقعي لمنهج "الإعداد بعد الرحيل"، وهو منهج دعوي عظيم.

- التربية بالثقة والتكليف :النبي لم يلقِ المواعظ عن القيادة فحسب، بل مارسها بتسليم الراية لأسامة، ليكون قدوة في بناء القادة بالفعل لا بالقول.

- تربية الأمة على الاستمرار :بعث الجيش رغم اشتداد المرض يعني أن استمرار العمل للدين لا يتوقف على الأشخاص، بل هو التزام دائم.

- غرس مبكر للجيل القادم :تمكين أسامة في سن مبكرة غرسٌ لروح القيادة في جيل الشباب، وهو من أسس التربية النبوية المؤثرة.

مخالفات الواقع

- ضعف الثقة بالشباب :كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم تُقصي الشباب عن القيادة وتشكك في قدراتهم، خلافًا لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

- الوصايا العملية تُهمَل :في زمننا، يكثر الكلام عن الخلافة والنهضة، دون اتخاذ خطوات عملية كالتي فعلها النبي في بعث أسامة.

- كثرة التردد في القرارات :بينما حسم النبي قراره رغم اعتراض البعض، نرى اليوم تردّدًا كبيرًا في اتخاذ قرارات دعوية أو قيادية بسبب الحرج الاجتماعي أو ضعف الثقة.

- الاستخفاف بوصايا الكبار :كثير من الوصايا التي يتركها العلماء والمصلحون تموت معهم، لعدم وجود من يحملها، بعكس موقف أبي بكر الذي نفذ وصية النبي فورًا.

الفقرة الثالثة: بداية المرض وإرهاصات الرحيل

كانت الدنيا تميل نحو الغروب، وكأن الكون بأسره بدأ يتهيأ لوداع خاتم النبيين، حين أقبل شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، حاملاً معه عبق الوداع الأخير، وعلامات انطفاء شمسٍ أشرقت على العالم كله بنور النبوة والرحمة.

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجته المباركة، حجة الوداع، وقد بلغ البلاغ المبين، وأدى الأمانة، وأكمل الله له الدين، فسمعت الدنيا صدى قوله سبحانه وتعالى**{ :الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي]** {المائدة: ٣.[وكانت تلك الكلمات إيذانًا بأن الرسالة قد اكتملت، وأن الرحيل بات وشيكًا.

في تلك الأيام، بدأ جسد النبي الطاهر يشكو، لا من ضعف بشري فحسب، بل من بشائر لقاء، وحنين إلى الرفيق الأعلى. فقد أصيب صلى الله عليه وسلم بصداعٍ شديد، وارتفعت عليه الحمى، وكان يسكب الماء على رأسه مرارًا، يطلب برودته، لا لينعم بالراحة، بل ليقوى على القيام، وليواصل حمل الأمانة حتى النفس الأخير.

ومع اشتداد المرض، لم يركن صلى الله عليه وسلم إلى الفراش، بل خرج إلى الناس، يتحامل على نفسه الطاهرة، يقف بهم في الصف، يؤمّهم، يخطب فيهم، يوصي، وينذر، ويعلّم، كأنما يودّعهم واحدًا واحدًا، وكأنه يقول لهم" **:قد أديت رسالتي، فاستمسكوا بها بعدي."**

✦زيارة البقيع ليلًا

وفي ليلةٍ من لياليه الأخيرة، حمل الحنين روحه الطاهرة إلى أحبّ بقعةٍ من بقاع المدينة إلى قلبه بعد المسجد، إلى بقيع الغرقد، حيث ترقد أجسادٌ أحبها، ودعا لها، وصلى عليها، فاستأذن عائشة رضي الله عنها، وخرج تحت جنح الظلام، يتهادى جسده المنهك، وروحه تسمو إلى السماء.

اصطحب مولاه أبا مويهبة، وقال له في همس يقطر شوقًا"**:يا أبا مويهبة، إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع".**
فوقف بينهم، في سكون الليل، يناجي ربه، ويستغفر للموتى، ثم ألقى كلماتٍ ترجف لها القلوب:
"يا أبا مويهبة، إني قد خُيرت بين أن يؤتيني الله خزائن الأرض والخلد فيها ثم الجنة، وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة".

أي يقين هذا؟! وأي حب للقاء الله؟! وهل يختار غيره من عرف ربه كما عرفه الحبيب صلى الله عليه وسلم؟!
قال الله تعالى**{:إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ]** {الزمر: ٣٠} **[ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ]** {الزمر: ٣١[

✦أثر السمّ ونفحات الشهادة

ولم تكن الحمى وحدها ما أنهك الجسد النبوي، بل كان هناك ألمٌ أعمق، وجُرحٌ قديم ظلّ يسري في العروق، منذ يومٍ من أيام خيبر، حين وضعت له امرأة يهودية سمًّا قاتلًا في شاة، فقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها في مرضه:

"يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم".

]رواه البخاري.[

وهكذا، ختم الله له الحياة بنور النبوة، وعطر الشهادة، فجمع له بين المقامين كما لم يجتمعا لأحد من خلقه.

✦خطبة التخيير.. وإرهاص الرحيل

وحين دنا الفجر الأخير، صعد صلى الله عليه وسلم منبره، وقد علاه الضعف، لكن كلماته كانت أشد من السيوف في قوتها، وأرقّ من النسيم في رقتها، فقال يخبر أصحابه بلغة التلميح البليغ:**"إن عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده".**

ففهم الصديق ما لم يفهمه غيره، وذرفت عيناه، وقال من أعماق فؤاده :**فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله"!**

فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعين الحب والوفاء، وأثنى عليه أعظم الثناء، وقال:

"إن أمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذًا من الناس خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوّة الإسلام. لا يبقينّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر ".رواه البخاري ومسلم

إنها لحظات عظيمة، يُودّع فيها النبي صلى الله عليه وسلم أحبته، يربّت على القلوب، ويثبت الأقدام، ويجعل أبا بكر وصيًّا غير منصوص، يُفهم بالحب والتلميح.

✦ومضة الختام

وهكذا، كانت أيام المرض إرهاصات وداع، ومقدمات لقاء، ورحلة عروجٍ من دار الفناء إلى دار البقاء، من صلاة على الأرض إلى تسبيح في عليين، من بكاء أصحابه على فراقه، إلى فرح الملأ الأعلى بقدومه.

نسأل الله أن يجمعنا بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في الفردوس الأعلى، وأن يرزقنا حسن الاتباع، كما رزقه الله كمال البلاغ.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- **كمال الرسالة قبل الرحيل** :إعلان إكمال الدين في حجة الوداع دليل على أن الشريعة قد تمت، وأنه لا يُزاد فيها ولا يُنقص، مما يؤسس لقاعدة كبرى في العقيدة وهي رفض البدع المحدثة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.
- **اختيار لقاء الله من كمال الإيمان** :قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فاخترت لقاء ربي والجنة" فيه أن المؤمن الكامل يُحب لقاء الله، كما في الحديث "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه"، وهذا من علامات صحة المعتقد واليقين بالله واليوم الآخر.
- **ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في أشد الابتلاءات** :استمراره في الدعوة والتعليم والخطابة وهو يعاني المرض الشديد يدل على أن النبوة ليست مجرد منصب تشريفي بل أمانةٌ تُحمل حتى الموت، ويُستفاد منه أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم في البلاغ حتى آخر لحظة من حياته.

- **إثبات بشرية النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته** :قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ردٌّ واضح على الغلاة الذين يرفعون النبي فوق مقامه البشري، وهو من صلب عقيدة أهل السنة في باب النبوات.

- **النبوة والشهادة اجتمعتا له** :موته بسبب السمّ مع الحمى يدل على أن الله ختم له بالشهادة، وهذا فضلٌ عظيم لم يُجمع لغيره، ويُؤخذ منه أن الله يختار لعباده الصالحين أعلى المقامات في الخاتمة.

فوائد فقهية

- **زيارة القبور والاستغفار للأموات مشروعة** :زيارة النبي صلى الله عليه وسلم للبقيع واستغفاره لهم فيها دلالة على استحباب زيارة القبور للدعاء والاستغفار لا للتبرك أو الطواف، كما تفعله طوائف ضالة.

- **التلميح في الإمامة والتوريث السياسي مشروع إذا تحقق به المقصود** :تلميح النبي بتفضيل أبي بكر دون تصريح في مرض موته أصلٌ في اعتماد الإشارة والتلميح متى كان ذلك أدعى للقبول والطمأنينة، وهو ما فعله أبو بكر لاحقًا في استخلاف عمر.

- **منع الخلّة لغير الله** :قوله صلى الله عليه وسلم: "لو كنتُ متخذًا من الناس خليلاً لاتخذتُ أبا بكر..." فيه تقرير أن أعظم رابطة هي رابطة الدين، وأن أكمل الحب لا يكتمل إلا لله تعالى، وهو أصل في منع التعلق المفرط بالمخلوقين.

- **إبقاء المسجد على الطهارة من التوسع الشخصي** :أمر النبي صلى الله عليه وسلم بسد الخوخات في المسجد إلا خوخة أبي بكر، دليل على أن المسجد لا يُفتح فيه ما يخل بجمعيته ولا يُتخذ مداخل شخصية إلا لحاجة معتبرة.

فوائد أخلاقية

- **تحمل الألم في سبيل الدعوة** :خروج النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه ليؤم الناس ويعلمهم وهو يعاني الحمى والصداع الشديد، درسٌ عظيم في الصبر والبذل.

- **الحنين للأحبة والوفاء لهم** :زيارته للبقيع واستغفاره لهم، دليل على وفائه لأصحابه الأموات، وهو خلق نبوي كريم يُغفل عنه في زمن الانشغال بالدنيا.

- **الرقة في التوديع** :وصف المرض بأنه إرهاصات لقاء، واختيار النبي صلى الله عليه وسلم لألطف العبارات في خطبة التخيير، فيه أدب رفيع في مخاطبة القلوب، وخلق الرحمة في أحلك اللحظات.

- **الوفاء للأصدقاء في المواقف العصيبة** :ثناء النبي على أبي بكر أمام الناس إعلانٌ لحبٍّ نبوي صادق، وتقديرٌ للوفاء الذي أبداه أبو بكر، وهو من أخلاق الصفوة.

فوائد دعوية وتربوية

- **التدرج في التهيئة للحدث الجلل** :لم يصدم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بخبر موته فجأة، بل مهد لهم عبر خطبة التخيير وزياراته وكلماته، وهذا منهج دعوي حكيم في إعداد النفوس للأحداث العظام.

- **بناء الخلفاء بالتلميح والتثبيت** :تلميح النبي بفضل أبي بكر، وفتح خوخته، وتثبيته أمام الصحابة هو إعدادٌ نفسي للأمة للقبول بخلافته دون نزاع.

- **البلاغ لا يتوقف حتى الموت** :قول النبي "قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع"، واستمراره في الخطابة والوصية حتى آخر لحظات حياته، يدل على أن الداعية لا ينقطع عن التبليغ ما دام فيه بقية روح.

- **الخطاب بالموعظة الرقيقة أشد وقعًا** :حديث التخيير لم يكن توجيهًا مباشرًا بل عبر موعظة توصل المعنى بإشعارٍ وجداني، وهذا أدعى للتأثير والاستيعاب.

مخالفات الواقع

- **الركون للراحة عند أدنى تعب** :كثير من الناس اليوم يعتذرون عن أقل واجبات الدين بدعوى المرض أو الانشغال، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يُؤمّ الناس وهو يعاني الحمى الشديدة.

- **الانشغال بالأحياء ونسيان الأموات** :في واقعنا يغيب الدعاء والاستغفار للموتى، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يزورهم ويستغفر لهم في مرضه.

- **غياب التلميح الحكيم في تأهيل القيادات** :في مجتمعات اليوم يندر إعداد الخلفاء أو القادة بأساليب حكيمة تشبه تلميح النبي لأبي بكر، ويغلب التنازع بعد الفقد.

- **تعظيم الأحياء ونسيان المبلغ الأول** :في كثير من الواقع يتم تعظيم أشخاص في الأمة فوق الحد، ويُنسى منهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يُخلّف مالًا ولا قصرًا، بل العلم والرسالة

الفقرة الرابعة: اشتداد الألم، وتمريضه في بيت عائشة، وأمره أبا بكر أن يصلي بالناس

ما أشدها من لحظات، وما أوجعها من أيام!
بدأت شمس الدنيا تغيب شيئًا فشيئًا عن وجه الأرض، حين استحكم المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك الجسد الطاهر الذي لم يكن يعرف الكلل في دعوة، ولا التعب في جهاد، ولا الفتور في قيام، بدأ يئنّ من وطأة الحمى، والضعف، والصداع، والآلام.

كان صلى الله عليه وسلم في بيت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، حيث اشتد عليه الوجع، فصار يردّد، لا يسأل عن طعام، ولا عن شراب، وإنما يقول في حنان المحبّين وحياء الأتقياء:
"أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟"
كلمات قليلة، لكنها تحمل لوعة الاشتياق، ومكنون الشوق، لمنزله الأثير، قلبه الهادئ، ورفيقته الوفية... بيت عائشة رضي الله عنها.
لم يكن يُريد أن يحرج أمهات المؤمنين، فما صرّح ولا طلب، وإنما كرر السؤال بأدب الأنبياء، وإشارة العظماء.
ففهمن ما أراد، وسلّمن الأمر، ورضين بمحبة، وكأن كل واحدة تقول:
"اذهب يا حبيب الله حيث تهفو روحك، فكل دورنا فداء نظرة من عينيك الطاهرتين".

فخرج صلى الله عليه وسلم من بيت ميمونة، تحمله قدمان أنهكهما الوجع، يتهادى بين عمّيه العباس بن عبد المطلب، وابن عمه ووصيّه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ورجلاه تخطان الأرض من شدة الضعف، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها، وهناك... بدأت أيام الوداع.

في ذلك الركن الطاهر، تساقطت الدموع، وتكثفت الرحمة، وانهمر النور.
هناك، اشتدّ عليه المرض، فكان يُغمى عليه من شدة الحمى، حتى إذا أفاق، كان أول ما يسأل عنه:
"أصلّى الناس؟"

أيّ قلب هذا الذي يسأل عن الأمة وهو في سكرات الألم؟ أيّ نفس عظيمة هذه التي تحترق لأجل جماعة المسلمين وهي بين الحياة والموت؟

فإذا قيل له: "لا، هم ينتظرونك"،
طلب أن يُصبّ عليه الماء ليغتسل، لعلّه يستطيع النهوض، لكنه لا يقوى، يُغمى عليه مرة أخرى، ثم يفيق، ويسأل السؤال ذاته، ويكرر المحاولة، مرة بعد مرة...فلما غلبه الوجع، قالها قول العازم المبلّغ المعلِّم":مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس".
]رواه البخاري ومسلم[

يا الله... أي تكريمٍ هذا؟ وأي تزكيةٍ تلك؟ إنها إمامة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم!
من محراب النبوة، وأمام الصحابة، وبأمر من السماء.

فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك، حرصت على أبيها، فقالت في رقة" :يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مقامك لا يُسمِع الناس من البكاء ".فقال صلى الله عليه وسلم في حزم الرسل ورحمة المعلمين":إنكنّ صواحب يوسف، مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس]".رواه البخاري

وفي رواية عند مسلم قال صلى الله عليه وسلم" :يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر".

هكذا صلّى الصدّيق، تلميذ النبوة، وخليل المحراب،
وقف يُؤمّ الناس، والنبي صلى الله عليه وسلم حيٌّ يُرزق، لكنه خلف الستار، يرقب المشهد بعين من بلّغ وأدّى وأوفى.

وقد جاءت تلك اللحظة المباركة إيذانًا ربّانيًّا بأن القيادة بعد النبوة ستكون للصديق، وأن راية الإسلام ستبقى مرفوعة، وإن رحل حاملها الأول، فإن حامليها من بعده سيكملون الطريق على المحجة البيضاء.

قال الله تعالى :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾] آل عمران: ١٤٤]

وصدق الله... ما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم إلا رسولًا... لكن أيّ رسول؟
هو الذي أورث الأمة صلاةً لا تنقطع، ومنهجًا لا يزيغ، وأصحابًا أوفياء، وخليفةً صدّيقًا.
رحم الله نبيّنا... ما أصدق نُصحه، وما أرحم قلبه، وما أبهى وداعه...

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- رحيل النبي صلى الله عليه وسلم لا يُنقِص من عظمة رسالته ولا يقطع استمرار الدين، لأنه بشرٌ رسول، والدين باقٍ ببقاء وحيه ومنهجه، كما قال تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسول﴾.

- إثبات بشرية النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يمرض ويتألم، خلافًا لغلاة الصوفية الذين يرفعونه فوق مقامات البشر ويعتقدون له صفات لا تليق إلا بالله.

- علم الله وتقديره شمل كل شيء، فقد شاء سبحانه أن يختم حياة نبيه صلى الله عليه وسلم بأيام اشتداد المرض ليعلّم الأمة الصبر، ويُظهر فضل خليفته، ويُقيم الحجة الباقية عليهم.

- إمامة الصديق بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحياة من أعظم دلائل صحة خلافته ورضا الله عنها، وفي هذا ردّ على فرق الزيغ الذين أنكروها أو طعنوا فيها.

- محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم كانت مقرونة بالتسليم لقضائه واختياره، وهي من علامات كمال الإيمان كما أرشد النبي بقوله: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين."

- النبي صلى الله عليه وسلم يُعلم أمته حتى في لحظات الألم، ويؤكد بعظيم فعله أن الإمامة في الدين والقيادة في الصلاة لا تُترك هملاً، بل يُراعى فيها الأكفأ والأتقى.

فوائد فقهية

- جواز انتقال المريض من بيت إلى بيت حال قدرته، وخاصة إن كان ذلك أخف عليه أو أحب إليه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين انتقل إلى بيت عائشة رضي الله عنها.

- جواز الصلاة خلف من يغلب عليه البكاء في الصلاة ما دام يُسمع الناس، كما في وصف عائشة لأبيها بأنه لا يُسمِع من البكاء.

- تقديم أبي بكر للإمامة يدل على أن الأفضل في الإمامة هو الأتقى والأعلم، لا مجرد الأرفع صوتًا أو الأقوى جسدًا.

- ترسيخ مبدأ أن إمامة الصلاة أحق الناس بها هو أولى القوم بالقرآن والعلم، وهذا أصل يُبنى عليه في ترتيب أهل الفضل في الوظائف الشرعية.

- جواز أن يُصلي المسلم إمامًا بأمر من غيره وإن كان الإمام الأعلى موجودًا لكنه عاجز، كما أمّ أبو بكر الناس والنبي صلى الله عليه وسلم حاضرٌ خلف الستار.

- استدلّ العلماء بهذا الحديث على أن إمامة أبي بكر في الصلاة كانت تمهيدًا لإمامته في الخلافة، فدل ذلك على اعتبار الصلاة معيارًا من معايير الأهلية العامة.

فوائد أخلاقية

- حياء النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه مع نسائه ظهر في عدم تصريحه بطلب الانتقال إلى بيت عائشة، بل كرر سؤالًا مؤدبًا يفهم منه مراده، وهذا من خلق العظماء.

- وفاء أمهات المؤمنين، واستجابتهم لمراد النبي صلى الله عليه وسلم دون جدل، دليل على كمال طاعتهن، وحسن العشرة، والتسليم لفضله ومحبته.

- حرص عائشة رضي الله عنها على والدها، وشفقتها عليه، مثالٌ للبرّ والرحمة بين الأبناء والآباء، مع مراعاة حق النبي صلى الله عليه وسلم.

- وصف أبي بكر بالرقة والبكاء في الصلاة يدل على أن الخشوع والعاطفة الصادقة لا تتنافى مع القيادة، بل قد تكون من علامات القلوب الحية.

- دموع الصحابة في بيت عائشة، ومتابعتهم لحال النبي صلى الله عليه وسلم، دليل على صدق محبتهم ووفائهم وعمق علاقتهم بالنبي كأب ومعلم وقائد.

- تكرار النبي صلى الله عليه وسلم لسؤال "أصلّى الناس؟" يدل على عظيم مسؤوليته تجاه الأمة، وأن القائد الحقيقي لا تغيب عنه أحوال من يقودهم ولو كان في أشد ألمه.

فوائد تربوية ودعوية

- على الداعية أن يربي أتباعه على الاعتماد على الله لا على الأشخاص، فها هو النبي صلى الله عليه وسلم يُمهد برفق لنقل القيادة، ويهيئ النفوس لفقده، دون أن تتزعزع القلوب.

- تثبيت الأمة بالصلاة في المحن والشدائد هو من سنن النبوة، فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل الصلاة حاضرة في سكرات مرضه، ليبقى الدين ظاهرًا رغم الغياب الجسدي.

- استخدام النبي صلى الله عليه وسلم للرمز والتكرار أحيانًا لتوصيل المقصود فيه تعليمٌ للدعاة ألا يعجلوا في التصريح إن كان التلميح أفيد وأرفق.

- التربية بالإشارة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فيها ترسيخ لقيم الفهم، ورفع لمقام الفطنة لدى المتلقين، بدلًا من الإملاء الجاف.

مخالفات الواقع

- ضعف تعظيم كثير من المسلمين اليوم للصلاة، فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو في أشد مرضه يسأل عنها، بينما كثيرون اليوم لا يسألون عن الصلاة حتى وهم في كامل صحتهم.

- غياب مبدأ تقديم الأتقى والأعلم للإمامة والقيادة، وتبدله في كثير من الأماكن بمحاباة أو تقديم غير الأكفّاء لأسباب دنيوية.

- قلّة الحياء والذوق في الطلب والمعاملة داخل البيوت، بينما يعلّمنا النبي صلى الله عليه وسلم كيف يُطلب الشيء بلطف وأدب دون جرح أو إحراج.

- تجاهل كثير من الأزواج والمصلحين لأدب النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع النساء، فكان أرفق الناس وأحسنهم عشرة.

- قلة الوفاء والتقدير عند بعض النساء تجاه أزواجهن، مقارنة بما فعلته أمهات المؤمنين حين سلّمن برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حيث يشاء في مرضه.

الفقرة الخامسة :وصاياه الأخيرة: أنفاسُ النبوة تهمس بالوصايا

في الأيام الأخيرة من حياته الشريفة، حين اشتد عليه الألم، وبلغ المرض مبلغه، لم يكن قلب الحبيب صلى الله عليه وسلم مشغولًا بجسده، ولا لاهِيًا بأوجاعه، بل كانت روحه الطاهرة معلّقة بأمته، مشغولة بمصيرها، واجفة على دينها، وكأن أنفاسه الأخيرة كانت حروفًا من نور، تسطّر آخر مشاهد الرسالة الخاتمة.

كان صلى الله عليه وسلم يفتح عينيه فيسألهم" :أصلّى الناس؟ "فإذا قيل: "لم يُصلّوا، هم ينتظرونك"، أفاق وتوضأ وأراد أن يقوم، فيغلبه الوجع، فيعود مغمى عليه. لكنه لا يزال يسأل" :أصلّى الناس؟ "وكأنما يريد أن تكون آخر ما يودع به الدنيا: صلاةً يُقيمها، ووصيةً بها يُختم عهده.

فلما أدرك أن القدَم لن تقوى، أوصى وهو يُصارع الموت":الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم"!
تتردّد الوصية على شفتيه، مرارًا وتكرارًا، وكأنها زبدة الرسالة، ومفتاح النجاة، ووصية الوداع من نبيٍّ يعلم أن الصلاة هي عمود الدين، وسرّ الصلة بين العبد وربه، فمن ضيّعها فقد ضيّع دينه.

ثم قال، وقد غلبه الوجع، وارتفعت روحه إلى مشارف الأفق الأعلى، لكن قلبه لا يزال هنا، في الجزيرة الطاهرة:
"أخرجوا المشركين من جزيرة العرب".
رسالة خالدة، أن أرض التوحيد لا يجتمع فيها النور والظلمة، ولا يُقيم فيها شركٌ مع الرسالة الخاتمة.

ثم أوصى بأهل الوفود والعهود، فقال":أجيزوا الوفد بما كنت أُجيزهم به".
كأنه يقول للأمة: استمروا في نهجي، وأكرموا الزائر كما كنت أفعل، واحفظوا العهد كما كنت أحفظ، فالرسالة باقية، والدولة قائمة، ولا تموت السنة بموت صاحبها.

وما نسي الأنصار، ولا غفل عن أوفى الناس له يوم قلّ الناصر، فحشرهم في آخر كلامه، ورفع شأنهم في أعظم اللحظات، فقال:
"أوصيكم بالأنصار خيرًا، فإنهم كرشي وعيبتي، وإن الناس سيكثرون ويقلّون، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم".
يا لها من وصية في الوفاء! تُحفظ بها كرامة قومٍ نصَروا حين خذل الناس، وبذلوا حين بخل غيرهم، وأسكنوه في ديارهم وقلوبهم.

ثم حذّر من أول أبواب الانحراف، وقطع الطريق على فتنة الغلو، فقال صلى الله عليه وسلم، وقد غلبه الوجد:
"لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".
حتى لا تُرفع القبور مكان الدعاء، ولا يُنسى التوحيد في زحمة المحبة، فجناب التوحيد عنده أعظم من كل شيء.

يا لله، ما أعظمك يا رسول الله!
في لحظات الوداع، والحمى تحرق الجسد، والمرض يُهدّ الجوارح، ما زلتَ تفكر في أمتك، تخاف عليهم من التفريط، وتوصيهم بالصلاة، والوفاء، والتوحيد، والأنصار...

وهكذا ختمت النبوة كلماتها، فكانت وصايا لا تموت، بل تُروى على ألسنة المحبين، وتُكتب بماء الدموع، وتُتلى في المحاريب، وتُورَّث كما يُورث النور.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الوصية المتكررة بالصلاة في آخر لحظات النبي صلى الله عليه وسلم دليل على مكانتها العظيمة في الإسلام، وأنها أعظم مظاهر العبودية والتوحيد، فلا يُتصور إيمانٌ بلا صلاة.
- قوله صلى الله عليه وسلم: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب" يدل على أن التوحيد يجب أن يُصان من شوائب الشرك، وأن التعايش مع العقائد الوثنية في أرض الرسالة أمر مرفوض شرعًا.
- تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من اتخاذ القبور مساجد يُثبت أن الغلو في الصالحين يؤدي إلى الشرك، ويؤكد عناية الإسلام بسد ذرائع الشرك، وهذا ردّ صريح على غلاة الصوفية ومن شابههم.

- لعن اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد فيه إثبات لعقيدة الولاء والبراء، وبيان لانحراف هذه الملل، وأنهم ضلوا عن طريق التوحيد.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على التحذير من الشرك حتى في آخر لحظاته يدل على أن أعظم ما يُخشى على هذه الأمة هو الوقوع في الشرك أو وسائله، وأن حفظ جناب التوحيد أولى الأولويات.

- قوله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار: "كرشي وعيبتي" فيه تقرير لحبّ النبي صلى الله عليه وسلم لهم، وفضلهم، وأن الصحبة والسابقة تُورث مكانةً لا تُنسى، وهي عقيدة أهل السنة في الصحابة.

- وصية النبي صلى الله عليه وسلم بالأمانات والعهود، كقوله: "أجيزوا الوفد بما كنت أُجيزهم به" فيها إثبات لمكارم الأخلاق النبوية، وأنها ليست خُلُقًا شخصيًا بل تشريعًا دائمًا، وهي من دلائل النبوة.

فوائد فقهية

- التأكيد على الصلاة يدل على أنها من آخر ما يُوصى به المحتضر، فهي أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

- وجوب إخراج المشركين من جزيرة العرب حكم شرعي ثابت، وهو من السياسات الشرعية لحماية العقيدة، وقد فعله الخلفاء الراشدون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

- الوصية بإكرام الوفود دليل على استحباب إكرام الزائرين والضيوف، خاصة من جاء بعهود أو يمثل قومًا، وأن هذا من سنن النبي صلى الله عليه وسلم في سياسة الدولة.

- إكرام الأنصار وفضلهم مما يدل على فقه التمييز بين السابقين وأهل الفضل في الحقوق والتقدير، وهو أصل في باب الحقوق والولاء والمراتب الشرعية.

- التحذير من بناء المساجد على القبور يقتضي تحريم ذلك شرعًا، كما أفتى بذلك جمهور أهل العلم، ويدل على سدّ الذرائع المؤدية إلى الشرك.

فوائد أخلاقية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته حتى في سكرات الموت مظهر عظيم من الإيثار والرحمة، وهو أعظم قدوة لكل قائد ومربّ وداعية.

- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار حتى في لحظة الاحتضار يُعلمنا ألا ننسى من وقفوا معنا في الشدائد، وأن الوفاء من شيم الكبار.

- حفظ العهد مع الوفود والغرباء فيه دعوة للكرم والصدق مع الآخرين، وأن السلوك الإنساني النبيل لا يتغير بتغير الظروف، بل هو من ثوابت الدين.

- تحذيره من الغلو في القبور مع ما فيه من ألم المرض يدل على شدة غيرته على أمته، وخوفه من انحرافهم، وهذا من أعمق صور الرحمة والحب الحقيقي.

فوائد تربوية ودعوية

- وصاياه الأخيرة كانت شاملة لأسس الدين: الصلاة، التوحيد، حفظ العهد، حقوق الصحابة، التحذير من البدع، مما يدل على أن التربية الدعوية لا تُختصر في جانب وتُهمَل الجوانب الأخرى.

- التكرار في الوصية بالصلاة يدل على أهمية التكرار في الدعوة لتثبيت المعاني، خاصة في الأمور العظيمة، كما يُستحب التذكير بها في المجالس والمواعظ.

- تقديم المسائل الكبرى في الوصايا – كالصلاة والتوحيد – يُعلّم الدعاة ترتيب الأولويات، فلا ينشغلون بالهامشي عن الجوهري.

- الإشارة إلى بقاء السنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فيه طمأنة للأمة، وتعليم بأن الرسالة مستمرة ما دامت تطبّق، وأن موت القائد لا يعني موت المشروع.

مخالفات الواقع

- التفريط في الصلاة ظاهر اليوم في واقع كثير من المسلمين، حتى أن بعضهم لا يُصلي أبدًا، مع أنها آخر ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُصارع الموت.

- كثرة من يهوّنون من أمر الشرك أو يروّجون لبناء القباب والمشاهد على القبور، مخالفين لوصية النبي صلى الله عليه وسلم في تحذيره من اتخاذ القبور مساجد.

- إهمال وفاء العهود، وسوء معاملة الوفود والزائرين، وانتشار الكذب والغش في التعاملات، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ختم حياته بالتأكيد على حفظ العهد.

- ضعف تعظيم كثير من المسلمين للصحابة، بل وجرأة بعضهم على سبّهم أو التقليل من شأنهم، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع ذكر الأنصار في آخر لحظاته.

- إغفال الكثير من الدعاة اليوم للحديث عن التوحيد والتحذير من الشرك، وانشغالهم بقضايا ثانوية، على خلاف وصية النبي صلى الله عليه وسلم في لحظاته الأخيرة.

الفقرة السادسة: البيعة الصامتة والوداع الرقيق

في صباحٍ من صباحات المدينة الحزينة، وقد بدأت شمسها تشرق على أيامٍ توشك أن تطوى، كان المسجد يغصُّ بقلوبٍ معلّقة تنتظر طيف الحبيب، ونفوسٍ تعتصرها الغصّة، وقد أثقلها النبأ بأن نبيها صلى الله عليه وسلم يشتد عليه الوجع يومًا بعد يوم.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد تقدّم الصفوف بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يؤم الناس في الصلاة، والمحراب يشهد غيابه، والقلوب تفتقده، والأنفاس تترقب طلته. وفي بيت عائشة رضي الله عنها، كان الألم قد بلغ بالنبي صلى الله عليه وسلم منتهاه، حتى كانوا يصبّون عليه الماء مرارًا ليخفّفوا عنه ما يجد، علّه يستجمع قوته ليخرج إلى أحبّ الأماكن إليه.

وفجأة، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يطلّ، يتكئ على رجلين من أهل بيته: العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قدماه الشريفان تخطان الأرض من شدة الضعف، ورأسه معصوب، والأنين لا يُسمع، لكنه يقرأ في وجهه صدق العزم، وعلو المقام.

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها –كما في الصحيحين– هذا المشهد الخالد فقالت:

"خرج النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه بين رجلين، تخط رجلاه في الأرض، بين العباس ورجل آخر".

وسُئل عبد الله بن عباس عن الرجل الآخر، فقال: "هو عليّ".

دخل المسجد، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم، همّ بالتأخر عن الإمامة، فالنبي حيٌّ حاضر، ولا مقام لأحد بين يديه. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشار إليه" *مكانك*".

يا الله! أي مشهد هذا؟! النبي صلى الله عليه وسلم، المعصوب الرأس، المرهق الجسد، يصرّ على الخروج إلى بيت ربه، لا لشيء إلا ليجتمع بالمؤمنين في صلاةٍ، كانت آخر صلاةٍ له معهم. يجلس إلى جنب خليله في الدنيا، أبا بكر، فيصلي قاعدًا، وأبو بكر يصلي قائمًا، والناس يقتدون بأبي بكر، الذي يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، في ترتيب عجيب، وسكينةٍ مهيبة، وإشارات لا تنطق، لكنها تقول كل شيء!

كانت تلك الصلاة أعظم بيان صامت، بل أبلغ من الخُطب، فقد شهدت تثبيت إمامة أبي بكر، ومبايعته بالصلاة قبل أن تُبايَع بالأيدي، وكأنها بيعة الأمة على السجادة لا على السيوف.

إنه نبي الأمة، يُودّعهم وهو واقف بينهم، لا يتكلم كثيرًا، لكن كل حركةٍ منه كانت وحيًا، وكل إشارة كانت طريقًا، وكل خطوة كانت ختمًا لمشهد الرسالة، وكأنه يقول للأمة: "ها قد جاء من بعدي من تستأمنونه على دينكم، فلا تختلفوا".

وقد كان هذا الخروج من أعظم مشاهد التثبيت والتمهيد لخلافة أبي بكر رضي الله عنه، ولذلك جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" :اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر." (رواه الترمذي)

يا لها من لحظة... لحظة ترجف فيها القلوب، وترتجف فيها الأرواح، فالحبيب الذي طالما كان يقف أمامهم إمامًا في الصلاة والدين، ها هو اليوم يصلي قاعدًا بجوار خليله، في صلاةٍ كانت آخر ما جمعه بالأمة جماعةً.

إنها صلاة الوداع، صلاة الرسالة التي اكتملت، صلاة الإمامة التي نُقلت، صلاةٌ أذنت بانتهاء فصل النبوة، وابتداء فصل الخلافة.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته إلى المسجد مع شدة ضعفه يدل على عظيم مكانة الصلاة، وأنها آخر ما يُختم به عهد النبوة، مما يرسخ عقيدة التوحيد والخضوع لله حتى في أعظم الظروف.
- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم الأمة وإرشادها حتى في سكرات المرض يؤكد أن البلاغ النبوي لا ينقطع حتى آخر لحظة من حياة الرسول، وهو من دلائل الصدق والرسالة.

- إشارتُه صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أن يبقى إمامًا، وهو حاضر، تدل على إقرار إمامته وتقديمه للأمة، وهذا فيه تأييد رباني لخلافته، وردّ على أهل البدع الذين يطعنون في خلافة الصدّيق.

- صلاة النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا، وأبي بكر قائمًا، والناس يقتدون بأبي بكر، فيها إثبات لطاعة أولي الأمر في غير معصية، وهي أصل من أصول أهل السنة في باب الإمامة والطاعة.

- ترتيب الصفوف خلف أبي بكر الذي خلفه النبي صلى الله عليه وسلم، يُثبّت أن الخلافة الراشدة امتدادٌ لخط النبوة، وأن الأمة إذا سارت على نهجهم فهي على الصراط المستقيم.

- استناد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عليّ والعباس رضي الله عنهما في خروجه للمسجد، يدل على أنه بشر يصيبه الضعف والمرض، وليس له من صفات الربوبية شيء، وهو رد على غلو غلاة الصوفية الذين ينسبون له العصمة المطلقة من آلام البشر.

فوائد فقهية

- خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهو في مرض الموت يدل على فضل الجماعة، وأن حضورها إن أمكن يُقدم على الراحة والتخفيف، فهي شعيرة لا يُتهاون بها.

- إمامة القاعد بالقائمين، كما في صلاته صلى الله عليه وسلم وهو جالس وأبو بكر قائم، دليل على جواز ذلك إن دعت الحاجة، وهو من الرخص الثابتة في الشريعة.

- تقديم أبي بكر للإمامة في الصلاة حتى في حضور النبي صلى الله عليه وسلم بإشارته، يُعد توجيهًا عمليًا للأمة باعتماد الأتقى والأصلح في القيادة الدينية، وهذا من فقه ترتيب الولايات.

- صلاة النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا في الصف وأبو بكر إمام قائم تدل على جواز اختلاف الهيئة بين الإمام والمأمومين إن اقتضت الضرورة، وهو مما اتفق عليه أهل الفقه.

- هذا الموقف يُعدّ من أقوى الأحاديث التي يُستدل بها على أن الإمامة في الصلاة تُعدّ تمهيدًا معتبرًا في اختيار الإمام العام (الخليفة)، وهو أصلٌ شرعي في تأصيل حقّ أبي بكر.

فوائد أخلاقية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الخروج إلى المسجد وهو يتهادى بين رجلين يعلم الأمة أن القيادة الحقيقية لا تنفصل عن الأمة حتى في أقسى الظروف، بل تزيد قربًا ورعاية.

- حياء أبي بكر رضي الله عنه وتراجعه عند رؤية النبي صلى الله عليه وسلم دليل على خُلق عالٍ من التواضع والتقدير، وهو خلق السادة في الأمة.

- صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الأوجاع، وسعيه لإتمام الصلاة مع الجماعة، فيه تعليم للمؤمنين على التجلّد والثبات في المحن، وتقديم الجماعة على الراحة.

- مشهد الصلاة الذي ساد فيه السكون والهيبة والسكينة، يعكس أثر الصدق في العبادة، والإخلاص في الطاعة، والخشوع في الجماعة، وهي من أخلاق القلوب التي غفل عنها الكثير اليوم.

فوائد تربوية ودعوية

- تثبيت خلافة أبي بكر بالصلاة قبل بيعة السقيفة درس في التمهيد الحكيم، ويعلم القادة ألا يغفلوا عن إعداد الأمة لتلقي التغيير بسلاسة.

- إشارات النبي صلى الله عليه وسلم كانت أبلغ من الخطب، وفيها دليل على أن المربي الحكيم قد يُرشد بالإشارة والموقف أكثر من الكلام، إذا عظُم مقام القدوة.

- هذا المشهد يعلم الأمة أن القيادة لا تكون بالصوت المرتفع ولا بالهيبة المصطنعة، بل بالاتباع الصحيح والثقة المورثة من المعلم الأول، صلى الله عليه وسلم.

- ترتيب الصلاة: الناس خلف أبي بكر، وأبو بكر خلف النبي صلى الله عليه وسلم، فيه توجيه تربوي بأن الأصل في الأمة أن تكون على صلة متصلة بمنهج النبوة، لا تنفصل عنه لحظة.

مخالفات الواقع

- ترك كثير من المسلمين اليوم الصلاة مع الجماعة بلا عذر، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إليها وهو في شدة المرض، مما يدل على ضعف تعظيمهم لشعائر الله.

- ضعف الأدب مع الأئمة والعلماء والولاة، بينما كان أبو بكر يتأخر تواضعًا وأدبًا مع النبي صلى الله عليه وسلم، في وقت نجد فيه كثيرًا من الناس يجهلون مقام أهل الفضل.

- انتشار العصبية الحزبية والصراعات السياسية، في الوقت الذي أراد فيه النبي صلى الله عليه وسلم أن يورّث للأمة خلافة راشدة موحدة تقوم على الصلاة والتقوى لا على السيف والخصام.

- غياب التمهيد الحكيم لتسليم المناصب والقيادة، فغالب ما نشاهده اليوم من انتقال للسلطة مشوب بالفوضى والمفاجآت، على خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في ترسيخ إمامة أبي بكر..

الفقرة السابعة: رفع النبي صلى الله عليه وسلم الستر ونظر إلى أصحابه في آخر لحظات حياته

يا له من صباح لا يُنسى...! صباحٌ كتب في صحائف الخلود، وصُبغ بدموع الفقد، وغلف بأنفاس النبوة الأخيرة، التي كانت تنثر نورها للمرة الأخيرة على جيلٍ من الأطهار.

كان ذلك صباح يوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، والفجر قد أضاء سماء المدينة، وقلوب المؤمنين ترفرف بخشوع في بيت من بيوت الله، حيث اصطف الصحابة رضوان الله عليهم يؤدون صلاة الجماعة، يتقدّمهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بأمرٍ من الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وفي حجرة النبي صلى الله عليه وسلم، كان الوجع قد اشتد، والأنين قد طال، لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان ليستسلم لأوجاع الجسد، ولا ليغفل عن أمته، كيف وهو الذي قال: **"أُمَّتِي أُمَّتِي"!**
عينه لا تزال ترقب جموع المصلين، وقلبه لا يزال يفيض حنانًا عليهم، يشتد عليه المرض، لكن روحه لا تزال متعلقة بهم، كأنها تسأل: كيف حالكم بعدي؟ هل لا زلتم على الصف كما ربيتكم؟ هل لا زال الصف منتظمًا، والإمام قائما، والقلوب خاشعة؟

وفجأة... ينشق الستر الذي بين حجرته والمسجد، وترتفع الرؤوس، وتنبهر الأنظار!
إنه هو! إنه محمد صلى الله عليه وسلم!
وقف متكئًا، وقد بان الشحوب في وجهه الطاهر، لكنه كان مشرقًا كأنما خالط بياضه نور السماء، وصفاؤه بهاء الملائكة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه في روايته لذلك المشهد العظيم":بينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الاثنين وأبو بكر يصلي بهم، لم يفاجئهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك"...

يا الله! أي تبسُّمٍ هذا؟! وأي وداعٍ هذا؟ !تبسُّمٌ فيه رضا، ونظرةٌ فيها ارتياح، كأنما يقول:
"الحمد لله... تركتُ فيكم من يُقيم الصلاة، ويُحكم الجماعة، ويقود السفينة من بعدي بحكمة ووقار".

حاول أبو بكر أن يتأخر أدبًا وتوقيرًا، وظن أن الحبيب سيخرج للصلاة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إليه أن اثبت، كما أنت ...أكملوا الصلاة ...أكملوا الطريق...

ثم أرخى الستر بيده الشريفة، فأغلقه بهدوء ...وكانت تلك آخر نظرة، وآخر تبسُّم، وآخر إشراقة.

ولم يُفتح الستر بعدها إلا على صوت البكاء، ونحيب القلوب، حين فُجع الصحابة، وفُجعت الأرض، وانتقل الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

قال الله تعالى :﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ، قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾]آل عمران: ١٤٤[

هكذا ودّع الأمة، لا بكلماتٍ تُسمع، بل بمشهدٍ يُروى، وعبرةٍ تُحفظ، وصلاةٍ تُخلَّد.

ابتسامةُ وداعٍ فيها الطمأنينة ...وإشارةُ ختامٍ فيها التثبيت ...ثم إسدالُ سترٍ فيه الرحيل.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الصلاة بالجماعة حتى في أشد لحظات مرضه يدل على عظيم مكانتها في الدين، وأنها من شعائر الإسلام الكبرى التي لا تسقط إلا بعذر.
- إشارته صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أن يثبت إمامًا يدل على إقرار النبوة لإمامة الصديق، ويؤكد أحقيته بالخلافة، وفيه رد على من أنكرها من أهل الزيغ.
- ارتباط قلب النبي صلى الله عليه وسلم بأمته حتى في لحظات الاحتضار فيه دليل على أنه الرحمة المهداة، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وتعلّق بمصير أمته حتى آخر نفس.
- تبسُّمه صلى الله عليه وسلم وهو يرى الصفوف منتظمة دليل على رضاه عن حالهم، ورضا النبي من علامات رضا الله، وهذا يبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين بأن العمل بالسنّة طريق مرضاة الله.
- الآية التي خُتمت بها الفقرة فيها تأصيل عقدي واضح للثبات على الإيمان بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وأن موته لا ينقض أصل الدين، ولا يُسقط وجوب الاتباع.

فوائد فقهية

- استخلاف النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في الصلاة فيه أصل لجواز استخلاف الإمام عند العذر، وفيه تقديم للأفضل.

- عدم خروجه صلى الله عليه وسلم للصلاة رغم تبسّمه ورغبته، يدل على أن المرض الشديد يُعدّ عذرًا يسقط حضور الجماعة.

- إشارته لأبي بكر أن يبقى إمامًا مع وجوده هو صلى الله عليه وسلم تدل على أن الإشارة من الإمام أو من الأعلى منزلة تُعتدّ بها في الأحكام.

- كشف الستار ورؤية المصلين في أثناء الصلاة دون أن يقطعها أحد، دليل على أن ما لا يخل بهيئة الصلاة من نظر أو تبسم لا يبطلها.

فوائد أخلاقية

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الاطمئنان على أصحابه في أشد مرضه، يدل على عمق المسؤولية، وشدة الرحمة، وعظيم الوفاء.

- ابتسامة النبي صلى الله عليه وسلم رغم الوجع تُعلِّمنا كيف نغلب الأمل على الألم، وأن نبشاشة الوجه من دلائل النبل والرضا حتى في أشد الظروف.

- احترام الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، ومحاولة أبي بكر التأخر له، يعلّمنا أدب التقديم والتأخر مع أهل الفضل، وعدم مزاحمتهم.

- بكاء الصحابة بعد موته صلى الله عليه وسلم لا يدل فقط على الفقد، بل على شدة الحب، وصدق التعلق بالقدوة، وهذا من كمال الوفاء.

فوائد دعوية وتربوية

- هذا المشهد الختامي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يختصر منهجه التربوي كله: الصلاة، الجماعة، القدوة، الطمأنينة، حسن الختام.

- كان بإمكان النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصي بوصايا كثيرة، لكنه اختار أن تكون آخر صورة له مرتبطة بالجماعة، ليبقى معنا هذا الدرس مدى الحياة.

- تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر إمامًا في حضرته يدل على أهمية ترسيخ القيادة الرشيدة في الأمة، وتوريث الثقة، وتثبيت أهل الكفاءة.

- وداع النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالصورة لا بالكلمة دليل على أن التربية تكون بالفعل أبلغ من القول، والمواقف الصامتة قد تكون أعظم أثرًا من الخطب الرنانة.

مخالفات الواقع

- تفريط كثير من المسلمين اليوم في حضور صلاة الجماعة، وانشغالهم عنها بأمور الدنيا، رغم أنها كانت آخر ما حرص عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

- ضعف تعلق الناس بالسنّة، حتى صار كثير منهم لا يعرف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ولا في الجماعة، فضلًا عن الاقتداء.

- الاستخفاف بالموت، والركون إلى الدنيا، ونسيان أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ودّع الدنيا، وأن لكل عبد سترًا سيسدله في يوم ما.

- تضييع معنى القدوة في الأمة، حتى قلّ من يربّي أولاده وتلاميذه على رؤية النماذج الحيّة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم الناس بالفعل قبل القول.

- غياب مفهوم الثبات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وظهور من يتبع هواه أو فرق الضلال إذا غاب الإمام، بدلًا من الثبات على منهج النبوة.

الفقرة الثامنة: اللحظة الحاسمة... حين لبّى الحبيب نداء السماء وودّعته فاطمة الزهراء

في صباحٍ مشحونٍ بأنفاسٍ متقطعة، ورجفةُ الألم تُزلزل الجسد النبوي الطاهر... اشتدّ المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الحُمّى تأكل أوصاله المباركة، فراح يغمس يده في الماء، ثم يمسح وجهه الشريف، ويتمتم بصوتٍ تخلله الأنين، لكنه مغمور بالتسليم":**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات"...**

وفجأة... دخلت فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

بنتُه الحبيبة... وقطعةٌ من روحه... وشبيهةٌ لا تخفى على العيون، في مشيتها، في سمتها، في هيبتها...

فلما وقع بصرها عليه على هذه الحال، ما وسعها إلا أن انفجرت بالبكاء، وقلبها يتمزق:

"وا كرب أبتاه"!

فإذا بعينيه المباركتين تفتحان لها، ينظر إليها نظرة الأب الرحيم، ونظرة المربي الحنون، ونظرة الحبيب المفارق، ثم يبتسم لها... يبتسم والوجع يمزقه، ليواسي قلبها، ويخفف عنها فجيعة المشهد:

"ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم"...

ثم أشار لها أن تقترب... فاقتربت، فانحنت عليه، وهمس في أذنها شيئًا... فبكت.

ثم همس ثانية... فابتسمت من بين دموعها.

كانت لحظات، لكنها حملت مفاتيح الغيب... قالت بعد وفاته:

"أخبرني أنه يُقبض في وجعه هذا، فبكيت، ثم أخبرني أني أولُ أهله لحوقًا به، وأنني سيدةُ نساء أهل الجنة، فضحكتُ".

أي قلبٍ ذاك يا فاطمة، الذي سمع أنه الوداع ولم ينهَر؟
أيّ صدرٍ وسِع تلك البشرى الثقيلة؟ وأي ابتسامةٍ نبتت من بستان الحزن؟

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، وفي يده سواك، فوقعت عليه نظرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأدركت عائشة مراده، فأخذته، وطيبته بفمها، ثم ناولته إياه، فاستاك به استياكًا ما رأوه مثله قط.

كأنه أراد أن يلقى ربّه بأطيب رائحة، وأزكى هيئة، بعد أن طيّب الله به قلوب البشر، وطهر به أفواههم من الشرك والكذب والفجور.

ثم رفع عينيه إلى السماء... ومد يده، وترددت أنفاسه الأخيرة في كلماتٍ تُفتت الصخر وتُذيب القلوب:

"بل الرفيق الأعلى... بل الرفيق الأعلى"...

تعلّق قلبه هناك... هناك حيث جبريل عليه السلام ينتظر، وحيث الأنبياء في شوق، وحيث العرش العظيم يُهيّأ لاستقبال أكرم من مشى على وجه الأرض.

كانت الدنيا تستبقيه، تستصرخه...
ابقَ معنا يا رسول الله... من يداوي القلوب الجريحة؟
من يُطفئ نار الفتن؟ من يرشد الحيارى؟
من يُحيي الأرض بالوحي، ويقيم الميزان بين البشر؟

لكنّ نداء السماء كان أبلغ... وكان قلبه مع الله.

وفي لحظةٍ ناعمة، مال رأسه الشريف على صدر عائشة رضي الله عنها، وسكنت أنفاسه، وارتفعت روحه الطاهرة إلى الملأ الأعلى، إلى الرفيق الأعلى...

وانطفأ النور، لكنّ نوره لا ينطفئ...

مات من أخرج الله به الناس من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد.
مات من علّم البشرية كيف تُحبّ، وتَعفّ، وتُعطي، وتغفر.
مات من ملأ الأرض رحمة، والقلوب إيمانًا، والبيوت سكينة.

فداك نفسي وأبي وأمي يا رسول الله...
جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته، ورسولًا عن رسالته.
اللهم اجعلنا من أهل سنّته، وتحت لوائه، وعلى حوضه، وبين يديه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الموت حق على كل أحد، حتى على أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من أعظم دلائل بشرية النبي وعبوديته لله، وأنه لا يُعبد إلا الحي الذي لا يموت.
- سكرة الموت من أشد ما يمر به العبد عند فراق الدنيا، وهي مما شاء الله أن يبتلي بها الأنبياء كما ابتلا بها سائر خلقه.
- تكرار النبي صلى الله عليه وسلم: "بل الرفيق الأعلى" فيه اختيار محبة الله والدار الآخرة على الدنيا، وهو أعظم مراتب التوحيد واليقين.
- قبض النبي صلى الله عليه وسلم في حجر عائشة رضي الله عنها وموته على فراشه من دلائل كرامته واصطفاء الله له.
- رفع النبي صلى الله عليه وسلم يده إلى السماء عند الوفاة، دليل على تعلّق القلب بالله وحده في أشد اللحظات، وأنه هو المقصود في كل حال.
- إخبار النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بأنها سيدة نساء أهل الجنة تصديق لما وعد الله به عباده المؤمنين من الكرامة في الدار الآخرة، ودليل على علمه صلى الله عليه وسلم ببعض الغيب الذي أطلعه الله عليه.

- كون النبي صلى الله عليه وسلم يبتسم لفاطمة في لحظة الألم والفراق، ثم يخبرها بالبشارة، دليل على كمال الرحمة بالنفس والغير، وأن البلاء لا ينافي الرضى والتسليم.
- قول فاطمة رضي الله عنها: "أخبرني أنه يُقبض في وجعه هذا" إثبات لمعجزة الإخبار بالمغيبات بإذن الله، وهي من دلائل النبوة.

فوائد فقهية

- استياك النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته يدل على استحباب السواك عند دخول الصلاة واللقاء مع الله، وخصوصًا في أحوال الذكر والوفاة.
- مباشرة عائشة رضي الله عنها للسواك وتهيئته للنبي صلى الله عليه وسلم دليل على جواز التطيب والتجمل حتى في أحوال المرض والوفاة، وفضل الزوجة الصالحة في إعانة زوجها على طاعة الله.
- كون النبي صلى الله عليه وسلم مات على صدر عائشة رضي الله عنها من جملة خصوصياته، ويُستفاد منه فضل عائشة رضي الله عنها، وعلو منزلتها بين أمهات المؤمنين.
- إخبار النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بأنها أول أهله لحوقًا به فيه دلالة على فضلها، وبه يُستأنس لترتيب الإرث والموت في بعض الأوقات بحسب علم الغيب.
- عدم الجزع والاعتراض عند سكرات الموت، بل الثناء والتسليم والذكر، هو السنة، كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في أشد حالاته.

فوائد أخلاقية

- النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتألم، يبتسم لابنته ليواسيها، وهذا من أعظم صور الرحمة والحنان والوفاء في العلاقة بين الآباء والأبناء.
- مواساة النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة رغم شدة مرضه يدل على كمال الخُلق النبوي في تطييب خواطر من حوله، وهو درس في التفاني في المحبة والرعاية.
- فاطمة رضي الله عنها تبكي حين سمعت قرب الفقد، لكنها تبتسم حين سمعت البشرى، دليل على الإيمان والتسليم، وأن حلاوة الإيمان تخفف أحزان الفقد.
- تهيئة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه للقاء ربه بأطيب هيئة وأطيب رائحة درس في العناية باللقاء مع الله، واستحضار مقام الوقوف بين يديه.
- رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في لقاء الله، وتكراره: "بل الرفيق الأعلى" مثال حي على أن المحبة الحقة لله تهوّن كل ألم، وتُنسي كل فراق.

فوائد دعوية وتربوية

- موت النبي صلى الله عليه وسلم رغم منزلته العظمى، يربي القلوب على اليقين بفناء الدنيا، ويُربّينا على التعلق بالحي الذي لا يموت.
- كون النبي صلى الله عليه وسلم يُمتحن بسكرات الموت، مع أنه سيد ولد آدم، فيه درس أن البلاء لا يدل على غضب الله، بل قد يكون رفعةً وتطهيرًا.
- بكاء فاطمة ثم ابتسامها بعد سماع البشارة، يعلّمنا كيف نُبدل الحزن بالصبر، واليأس بالرضى، متى صدقنا في التوكل على الله، وأحسنا الظن به.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على طيب الفم بالسواك عند لقاء الله، دعوة لكل مسلم أن يتهيأ للقاء ربه بطهارة الظاهر والباطن.

- كان النبي صلى الله عليه وسلم في أشد مرضه، لكنه يوجّه، ويربّي، ويواسي... في هذا تربية للدعاة على الصبر، ومواصلة الرسالة إلى آخر لحظة.

مخالفات الواقع

- كثير من الناس اليوم يواجهون الموت بالجزع، أو الاعتراض، أو الغفلة، دون تسليم أو ذكر أو استعداد حقيقي للقاء الله.
- غاب عن كثير من الأبناء والبنات معنى البر الحقيقي، فلا تجد من يواسي والده أو أمه كما فعلت فاطمة رضي الله عنها، ولا من يُحسن استقبال المصائب بالبشرى والرضى.
- تفريط الناس في الاستعداد للقاء الله، فلا يُراعى طيب الهيئة ولا طهارة القلب، بل يلقى العبد ربّه على غفلة، أو على معصية، دون توبة أو رجوع.
- ضعف اليقين في قلوب المسلمين اليوم، فتراهم يتشبثون بالدنيا كأن لا آخرة بعدها، ولا ترى من يردد بصدق: "بل الرفيق الأعلى."
- تفريط كثير من الناس في السواك وسُنن الفطرة، رغم فضلها وثبوتها عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى في لحظات وفاته.
- قلة من يقتدون بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في المواساة، والرحمة، والتفاني في المحبة، خصوصًا في اللحظات العصيبة.

الفقرة التاسعة: الزلزال الأعظم... ساعة رجّت الأرض والقلوب

ما إن أرخى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الستر بينه وبين الناس، إيذانًا بانتهاء آخر خيط من خيوط الوصل الدنيوي، حتى خيّم على المدينة سكونٌ عجيب، كأنما توقف فيه الزمان، واختنق فيه الهواء، وسُحِبت الأرواح من الأجساد، ولم يبقَ في المدينة شيء على حاله...

ثم ما هي إلا لحظات، وإذا بعائشة رضي الله عنها تخرج من الغرفة التي احتضنت أطهر جسد، وهي تجرّ قدميها ببطء، والدموع تنسكب من عينيها كنهرٍ فقد مجراه، والعبرة تخنق صوتها، لتبلغ القوم بالخبر الذي رجّ الأرض رجًّا، وزلزل النفوس زلزالًا عظيمًا...

لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا الله... أيُعقل أن يكون هذا حقيقةً لا حلمًا؟ أن يُطوى الكتاب الذي تنزّل عليه الوحي؟ أن يتوقّف النور الذي انبثق من بين جنبيه؟! كيف تحتمل الأرض فُقدان من أضاء ظلامها؟! من كان صوته مهبط النور، ومجلسه سُفْرة الرحمة، وبسمته أمان القلوب؟!

ضجّ المسجد بالبكاء... وارتفعت الأصوات بالحسرة والذهول، حتى بدت المدينة وكأنها أُخذت في قبضة الموت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو الذي خدمه عشر سنين:
"ما رأيت يومًا كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما رأيت يومًا كان أظلم ولا أقبح من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم".
رواه الدارمي بسند حسن.

لقد انطفأ السراج الذي أضاء الكون توحيدًا ورحمةً وعدلًا... ومات من كان قلبه معلقًا بالسماء، ولسانه لا يفتر عن الوحي، ويداه تسابقان إلى الخير... فكيف لا تبكي المدينة؟!

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الجبل الراسخ، والأسد الغضنفر، فقد وقف يومها تائهًا بين الحقيقة والخيال، مأخوذًا بعظمة المصاب، مذهولًا من حجم الفقد... فصاح في الناس:
"إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي، والله ما مات! ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم"...

وكان في حالٍ لا يُحتمل، حتى إنه هدد من يجرؤ على القول بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: "من قال إن محمدًا قد مات، ضربت عنقه"!
لقد أبت قلوبهم أن تُسلِّم بهذه الحقيقة المروعة... فكان الإنكار هو الحجاب الأخير بين عقولهم والفاجعة.

وفي خضم هذا الطوفان من الدموع والذهول، جاء الثابت حين اضطرب الناس، وجاء الصادق حين سقطت الكلمات... جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ذلك القلب الذي لا يرتجف، والعقل الذي لا يضل، والروح التي ربّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

دخل على الحبيب المسجّى، فاقترب منه برقة العاشق، وانكبّ عليه، فقبّل جبهته الطاهرة، وقال بكلمات تذيب الصخر:
"بأبي أنت وأمي، طبت حيًّا وميتًا، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ولن تُذاق بعدها موتة أبدًا".

خرج الصديق من الغرفة، وأمر عمر أن يسكت، فلم يفعل، فتركه وتوجّه إلى الناس، وارتقى المنبر، ونطق بكلماتٍ صارت نبراسًا للأجيال، تهزُّ القلوب بثباتها وصدقها:

"أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيّ لا يموت".
ثم تلا عليهم قول الله تعالى الذي صار كالبلسم على الجراح، وكالضياء في العيون:
﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا، وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤]

فكأن القلوب قد سُمّرت في مكانها، وكأن السمع لم يعرف هذه الآية من قبل، يقول عمر رضي الله عنه، وهو الذي كان يهدد من يذكر موت رسول الله:
"فوالله، لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقّاها الناس، فما يُسمع بشرٌ إلا يتلوها. فسقطتُ على الأرض، وما تحملني رجلاي، وعلمت أنه قد مات ".رواه البخاري. نعم... مات من كانت دعوته حياةً للأمم...
مات من بكته السماء والأرض، وبكاه الحجر والشجر، وبكته الأرواح المؤمنة، والقلوب الطاهرة...
مات من قال فيه ربه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

فداك أبي وأمي يا رسول الله...
اللهم صل وسلم وبارك على محمد، عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون...
اللهم اجعلنا من أتباعه الصادقين، المحبين له، المتمسكين بسنّته، المحشورين تحت لوائه، الظامئين إلى الحوض على يديه، والمجاورين له في جنات النعيم.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لا تنقص من نبوته ولا من مكانته، بل هو عبدٌ رسول، لا يُعبد من دون الله، وهذا هو لبّ العقيدة الإسلامية التي تُفرّق بين الخالق والمخلوق.
- قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل﴾ إثبات أن جميع الأنبياء ماتوا، ومنهم محمد صلى الله عليه

وسلم، وأن بقاء الرسالة لا يعني بقاء صاحبها.

- ردّ أبي بكر رضي الله عنه على إنكار عمر لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم فيه بيان أن الإيمان بالله الحي الذي لا يموت هو أصل النجاة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة البلاغ لا غاية العبادة.
- قبول الصحابة لموت النبي صلى الله عليه وسلم بعد تلاوة الآية يدل على رسوخ التوحيد في قلوبهم، وأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- الآية العظيمة التي تلاها أبو بكر رضي الله عنه تبيّن أن الثبات على الدين لا يرتبط ببقاء الأشخاص، بل بالعبودية لله وحده.
- قول أبي بكر: "طبت حيًّا وميتًا" فيه اعتقاد طهارة جسد النبي صلى الله عليه وسلم وعلو منزلته حتى بعد موته، وهو من دلائل خصوصياته.
- إيمان الصحابة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أُكمل له الوحي، وانتهت مهمته، يؤكد عقيدة ختم النبوة، وأنه لا نبي بعده.

فوائد فقهية

- سكون أبي بكر رضي الله عنه وثباته وقت الفاجعة فيه تعليم عملي لما يجب على المسلم من الصبر، وإعمال العقل عند حلول المصيبة.
- اجتماع الصحابة عند المسجد وانتظار التثبت قبل التصرف يدل على أهمية التثبت في النوازل، وأن الفتنة تبدأ بالاستعجال.
- قول أبي بكر رضي الله عنه الآية على المنبر يدل على أهمية الرجوع إلى القرآن في تثبيت الأمة، وأنه المرجع الأول عند الشبهات والمصائب.
- قبلة أبي بكر لجبهة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته دليل على جواز تقبيل الميت، وخاصة لمن يحب، وهو فعل الصحابة رضوان الله عليهم.
- مناداة أبي بكر لعمر وإسكاته بالحجة الشرعية لا بالقوة، يدل على منهج أهل السنة في الحِوار والرد على المخالف بالحكمة والبيان.

فوائد أخلاقية

- مشهد حزن عائشة رضي الله عنها وبكاء الصحابة على النبي صلى الله عليه وسلم من غير نياحة ولا جزع، يعلمنا أن الحزن لا ينافي الإيمان، وأن الرحمة لا تُخرج عن الصبر.
- ثبات أبي بكر رضي الله عنه رغم شدة المصيبة يدل على سمو التربية النبوية التي غرست فيه قوة الإيمان ورباطة الجأش.
- إقدام أبي بكر رضي الله عنه لإعلان الحقيقة، في وقت تراجع فيه غيره، يعلّمنا أن القائد الحقيقي هو من يثبت عند المِحَن، ويُرشِد غيره بالصدق لا بالعاطفة.
- اعتراف عمر رضي الله عنه بخطئه بعد تلاوة الآية يُظهر تواضع الكبار، وعدم الإصرار على الباطل متى تبيّن الحق. شدة تأثير الخبر في قلوب الصحابة دليل على عمق محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي محبة قائمة على الإيمان لا على العصمة أو التقديس المبتدع.

فوائد دعوية وتربوية

- اللحظة العصيبة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت فرصة لأبي بكر ليُعلّم الأمة أول درس بعد النبوة: أن الله هو المقصود والمعبود، لا الأشخاص.

- طريقة أبي بكر في تهدئة الفتنة، بقراءة القرآن وربط القلوب بالله، درس للدعاة في معالجة الأزمات بإرجاع الناس إلى النصوص، لا إلى العواطف.
- قصة عمر رضي الله عنه في إنكاره موت النبي صلى الله عليه وسلم درس في أن النفوس قد تُصدم من البلاء، ولكن سرعان ما تعود إلى الجادة بالعلم والقرآن.
- أظهر الصحابة في هذه اللحظة فقهًا عمليًا في إدارة الأزمة: إثبات الخبر، تهدئة الفوضى، بيان العقيدة، وهو منهج لكل نازلة تمر بالأمة.
- تحرك أبي بكر رضي الله عنه رغم المصاب، وخروجه للناس مباشرة، يعلم الدعاة والعلماء أن التصدر للحق وقت الفتن من واجباتهم الكبرى.

مخالفات الواقع

- كثير من المسلمين اليوم يُعظّمون الأشخاص فوق الشريعة، ويجعلون الولاء للأسماء لا للحق، فيُفتنون بوفاة أو غياب أحدهم كما فُتن بعض الصحابة حتى قام أبو بكر رضي الله عنه يثبتهم.
- الانهيار والجزع وقت المصائب دون رجوع إلى الكتاب والسنة أصبح ظاهرة في كثير من المجتمعات، بينما الصحابة ثبتوا حين تذكروا القرآن.
- كثير من الناس اليوم يتأثرون بالخطباء المتحمسين دون وعي علمي، كما تأثر الناس بكلام عمر أول الأمر، حتى جاء التثبيت من عالمٍ ثبت.
- قلة من يدركون اليوم أن الموت لا يعني نهاية الرسالة، ولا توقف العمل، بل الواجب هو المضي على طريق النبي صلى الله عليه وسلم دون فتور.
- في واقعنا تجد من يتخذ من موت العلماء والدعاة مصيبة تُبرر له التراجع والانقلاب على المنهج، بينما أبو بكر علّمنا أن الثبات لله، لا للأشخاص.

الفقرة العاشرة: حديث السقيفة ومولد الخلافة الراشدة

ما إن أُسدل الستار على حياة خير البشر، وأشرق صبحٌ لا يحمل في نوره ضياء النبوة، حتى خيّم على المدينة جوٌّ مهيبٌ من الصمت والذهول، كأن الزمان قد توقف، وكأن المكان فقد ملامحه، وكأن الأرواح تنتظر إشراقة أملٍ بعد أفول شمس الوحي...
لقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وانتقل الناس من بكاء الفقد إلى همٍّ آخر، أعظم من الحزن، وأخطر من المصيبة: من يقود هذه الأمة بعد نبيها؟

في تلك اللحظات الحرجة، اجتمع سادة الأنصار في سقيفة بني ساعدة، يُسابقون الخطر قبل أن يشتعل، وكانوا كما قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، اجتمعوا لا طمعًا في حكم، ولكن خوفًا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من التفرق والتنازع.

لم يكن اجتماعهم مؤامرة، ولا تحزّبًا، بل كان غيرة صادقة على هذا الدين، ولكن الموقف كان جللًا، والعواطف جياشة، والقلوب مملوءة بالحزن والتوجس، فكان لا بد من كلمةٍ تجمع الكلمة، وتمسك زمام الأمة.

بلغ الخبر أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، فخرجوا مسرعين إلى السقيفة، كأنهم يسابقون الزمن، فالخطر لا ينتظر، والفرقة إذا وقعت لا تُرتق. دخلوا السقيفة والقلوب تخفق، لا وقت للبكاء

ولا للدفن الطويل، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن مصلحة الأمة مقدمة، وأن وحدة الصف من أعظم القربات، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣.]

أراد عمر أن يتكلم، فتقدَّمه أبو بكر، الرجل الذي كان ثاني اثنين في الغار، وصاحب السر والمقام العالي، فقال له: "على رِسلك يا عمر"، ثم قام يخطب في القوم، فبدأ حديثه بما يليق بأهل الفضل، فأثنى على الأنصار، وذكر سابقتهم ومكانتهم، وأنهم هم الذين آووا ونصروا، ثم بيَّن أن العرب لا ترضى أن تؤمّر إلا من قريش، لأنها أوسطهم نسبًا، وأعظمهم جاهًا، وهم قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم طرح حلاً ناصعًا، يقطر صدقًا وورعًا، فقال: "قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر أو أبا عبيدة"، فكان كمن نثر التواضع في زمن يتصارع فيه الناس على الكراسي، وكأنها كانت لحظة تجلٍّ، أظهر الله فيها معدن الصدّيق.

فما إن سمع عمر تلك الكلمة، حتى ارتجف قلبه من أثرها، وتفتحت بصيرته، وهبّ بقوة وثبات، فأخذ يد أبي بكر وقال في لهجة لا تحتمل التردد:
"بل نبايعك أنت، فأنت أفضلنا، وأنت صاحب رسول الله في الغار، وأنت الذي صلّى بنا في مرضه"، كما في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه:
"مُرُوا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس] "رواه البخاري ومسلم.[

فمدّ الناس أيديهم، وبايعوا الصديق، وأُسدلت بذلك رحمة الله على المدينة، فانعقدت الخلافة، لا بالدم، ولا بالسيف، ولكن بالشورى والرضا، وأصبحت أول خلافة راشدة في الإسلام، خلافة أُقيمت على أكتاف الصادقين، لا الطامعين، وعلى مشورة المخلصين، لا أصحاب الأهواء.

لقد كانت لحظة السقيفة درسًا خالدًا في فقه السياسة الشرعية، وفي فقه إدارة الأزمات، وقد حُقّ لها أن تُدرس لا كواقعة تاريخية، بل كنموذج إيماني راشد في زمنٍ تتنازع فيه القلوب قبل الأيدي.

فيا ليت من تولوا أمر المسلمين بعد ذلك، تعلموا من سقيفةٍ لم تُسكب فيها قطرة دم، ولم يُرفع فيها سيف، بل وُلدت منها دولة أقامت العدل، ومضت بالنور في الآفاق.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- عصمة الأمة من الضلال الكلي ثابتة بنصوص الشرع، ومن ذلك أن الله يسّر لها في لحظة خطرة مثل لحظة وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من يحفظ كيانها ويوحّد صفها، كما وقع في سقيفة بني ساعدة.
- ثبوت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم يتجلّى في تهيئة أصحابه لأعظم المواقف، فقد تركهم على المحجة البيضاء، فتصرفوا بحكمةٍ تدل على عمق تربيته النبوية لهم.
- من دلائل حكمة الله عز وجل أن جعل أمر الإمامة والخلافة في هذه الأمة شورى، لا وحيًا بعد النبي صلى الله عليه وسلم، لتمييز الصادقين من المتسلطين.
- الإيمان بأن أفضل الأمة بعد نبيها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، يدل على الالتزام بمنهج أهل السنة، في ترتيب الصحابة على الفضل والسابقة.
- النص الشرعي الذي أمر فيه النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُصلي بالناس في مرضه، دليل على أن الإمامة في الدين والدنيا تُناط بالأصلح، لا بالأقرب نسبًا أو الأعنف بأسًا.

- الله جل جلاله يُسدِّد المؤمنين في الملمات، ويوفقهم للاجتماع على الحق، إذا خلصت نواياهم، كما هدى الصحابة إلى مبايعة أبي بكر دون سيف ولا فتنة.

فوائد فقهية

- الخلافة تنعقد بالشورى والرضا، لا يشترط فيها النص الصريح من النبي بعد وفاته، بل يُرجع فيها إلى أهل الحل والعقد.
- الأفضل في تولي الإمامة من توفرت فيه شروط الكفاءة والسابقة والقبول عند الناس، كما توفرت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
- مراعاة الأعراف القبلية إذا لم تصادم الشرع تدخل في فقه السياسة الشرعية، كما راعى أبو بكر حال العرب بأنهم لا يرضون إلا بقرشي للإمامة.
- تقديم غير النفس في المناصب مع القدرة عليها يدل على مشروعية الترشيح دون الطمع، وهذا فعله أبو بكر حين رشّح عمر وأبا عبيدة.
- البيعة لا تصح بالإكراه، بل تكون عن طواعية ورضا، وهذا ما وقع في سقيفة بني ساعدة.
- إمامة الصلاة من أدلة التقديم في الإمامة الكبرى إذا أُقرت من النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قول عمر: "أنت الذي صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم."

فوائد أخلاقية

- تواضع أبي بكر في ترشيحه غيره للخلافة رغم أنه الأفضل، يعلّم الأمة أن القيادة تكليف لا تشريف.
- حرص الأنصار على وحدة الأمة رغم حزنهم، يدل على صدق محبتهم لهذا الدين، وارتفاعهم فوق الأهواء الذاتية.
- قبول عمر ومن معه كلام أبي بكر دون تعصب لرأيهم الأول، يعكس خلق الإنصاف وقبول الحق ممن جاء به.
- الأدب العالي في خطاب السقيفة، رغم التوتر واللحظة الحرجة، يدل على تربية نبوية رفيعة تأدب بها الصحابة رضي الله عنهم.
- تقديم المصلحة العامة على المشاعر الشخصية والآلام العاطفية، كما فعل الصحابة حين تركوا البكاء على النبي صلى الله عليه وسلم وذهبوا للسقيفة.
- إقرار الفضل لأهله، كما أثنى أبو بكر على الأنصار، يُعلم الأمة الوفاء والشكر وعدم جحود المعروف.

فوائد تربوية

- السقيفة نموذج تربوي حيّ في إدارة الأزمات واتخاذ القرار في أحلك الظروف.
- أول خطوة في البناء بعد الشدائد هي تثبيت القيادة الراشدة، وهذا ما فعله الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.
- الانطلاق من المبادئ في أحلك المواقف لا من العواطف، درسٌ عظيم في الثبات، كما ظهر في سلوك عمر وأبي بكر.
- مشهد السقيفة يغرس في النفوس أهمية المبادرة عند الخطر، وعدم التأخر بحجة الحزن أو الانشغال.
- وعي الصحابة بأهمية جمع الكلمة يدل على نضجهم التربوي والعقدي، وأنهم فقهوا قوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾.

ما يخالف الواقع

- غلبة الأهواء والمصالح الحزبية على كثير من الساعين للسلطة في زماننا، خلاف ما فعله الصديق حين رشّح غيره قبل نفسه.
- كثرة النزاعات والفتن بين المسلمين اليوم عند حدوث الفُرقة، بدل أن يهرعوا لجمع الكلمة كما فعل الصحابة في السقيفة.

- استهانة بعض الفرق المسماة زورا وكذا (الجماعات) اليوم بدماء المسلمين للوصول للحكم، بينما الصحابة أسسوا الخلافة دون سفك قطرة دم واحدة.
- جعل الإمامة الدينية والدنيوية اليوم بيد غير المؤهلين من أهل الجهل أو الطغيان، خلاف ما قرره الصحابة من تقديم الأكفأ والأورع.
- تغييب الشورى في نظم الحكم لدى أكثر الدول والجماعات، رغم أنها كانت الأساس في ولادة الخلافة الراشدة.

الفقرة الحادية عشر: الغسل... لحظات تسكب الدموع، وتكتب بالحُبّ والخشية على صفحات القلوب

هدأ الضجيج بعد أن هزّ المدينة زلزال الفقد، وسكنت النفوس التي كادت تذوب من حرارة المصيبة، وجفّت العيون من البكاء، وكأن المدينة قد دخلت في صمتٍ جنائزي، يهيّئ القلوب لوداعٍ ليس ككل وداع.

اجتمع أهل البيت، وأحباب النبي صلى الله عليه وسلم في بيته الطاهر، يتشاورون في أعظم مهمة تُناط بالبشر: كيف يُغسّل جسد أطهر من نسيم الفجر؟ كيف تُمدّ يدٌ على جسدٍ كان مهبط الوحي، ومهوى القلوب، ومصدر النور والهداية؟ كيف يُغسّل من كانت الملائكة تحفّ مجلسه، وكان جبريل عليه السلام رفيقه، وربه جل في علاه يكلّمه بوحيه؟!

فقالوا مترددين والرهبة تملأ نفوسهم: "ما ندري، أنُجردُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نُجردُ موتانا؟ أم نغسله وعليه ثيابه؟"

وفي لحظةٍ ألقت السكينة ظلالها، وغلبهم النعاس من شدة الحزن والتفكير، فإذا برؤيا واحدة تتكرر على ألسنتهم: صوت يقول لهم جميعًا:
"غسِّلوا النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه".
لقد كان وحيًا من السماء، جاء ليحفظ جسده الشريف من أن تُكشف عورته، كما حفظ الله حياءه في حياته وبعد وفاته.

فبدأت لحظة الغُسل، وهي أشرف ما قام به بشر بعد الأنبياء.
كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو من تولى غسل النبي صلى الله عليه وسلم بيده، وكان يقول وهو يلمس الجسد الطاهر:
"كنت أقلبه، فما كنت أجد ما أجد من الميت، كان كأنه حيٌّ بيننا، لم يتغير منه شيء".

وكان العباس عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم، وابناه الفضل وقُثم، يصبّون الماء، ومعهم أسامة بن زيد، الحبيب الوفيّ، وشُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
كان العباس وولداه يصبّون الماء، وعليّ يُغسِّله، وأسامة وشُقران يُناولان الماء، وكلهم في هيبةٍ وصمت، وقلوبهم تقول:
"ما وجدنا منه إلا طيبًا، كأنما خرج من طيبٍ مسكوب".

وقد روى البيهقي وابن سعد وابن حبان وابن حزم وغيرهم هذا المشهد الجليل، وأكدته كتب السيرة والتاريخ المعتمدة.

غُسِّل صلى الله عليه وسلم من فوق ثيابه، لا يُمسُّ جسده إلا برفقٍ، ولا يُحرك إلا بخشوع، وكأن القائمين عليه يلمسون نورًا لا جسدًا.

ثم كُفِّن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما أوصى هو بنفسه، في ثلاثة أثواب بيض، سَحولية من قطن، لا قميص فيها ولا عمامة، كما روى البخاري ومسلم، وكان ذلك زهدًا ورفعة، ليُعلِّم أمته أن الكفن لا يزيد من قدر المرء شيئًا، وأن العبرة بما في القلب والعمل.

يا لله... أي لحظةٍ تلك؟!

يجتمع فيها الحزن مع الشرف، والدموع مع اليقين، ويُغسَّل خاتم النبيين، الذي بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وها هو الآن يُودَّع، لا بكلمات، بل بدموع تُسكب حبًا وهيبة.

وقد قال الله تعالى في كتابه العظيم :﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾]الزمر: ٣٠ [وقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متَّ فهم الخالدون﴾]الأنبياء: ٣٤ [وقال:﴿كل نفس ذائقة الموت﴾]آل عمران: ١٨٥[

فمضى الحبيب صلى الله عليه وسلم، ولكن بقيَت سُنته بيننا، وسيرته تضيء دروب السالكين، وصوته ما زال يُسمع في القلوب المؤمنة التي تعاهَدت أن تسير على أثره، وتبكيه شوقًا، كما بكى الصحابة حبًا ووفاءً.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، عدد من صلى عليه، وعدد من لم يصل عليه، واجعلنا من الذين يحشرون تحت لوائه، ويسقون من حوضه، ويجاورونه في الفردوس الأعلى، آمين.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- الأنبياء عليهم السلام يصطفِيهم الله عز وجل، ويُجري عليهم ما لا يُجري على غيرهم من البشر، ومن ذلك حفظ جسد النبي صلى الله عليه وسلم حيًا وميتًا، وصيانته من الابتذال حتى بعد وفاته.
- الوحي لا ينقطع حتى يُتم الله به أمرًا مقدرًا، فقد نُزِّل الوحي لتوجيه الصحابة في كيفية غسل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من دلائل عناية الله به حتى بعد وفاته.
- الملائكة تحف مجالس النبي صلى الله عليه وسلم، وجبريل عليه السلام كان رفيقه، وهذا يدل على المقام العظيم الذي أُوتيه عند الله عز وجل.
- نفي الخلود عن البشر جميعًا، ووقوع الموت على الأنبياء، عقيدة ثابتة دل عليها الكتاب، وفيها رد على من غلا في مقام النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنكر موته.
- الإيمان بحياة البرزخ، وأن ما بعد الموت ليس فناءً مطلقًا بل انتقال إلى دار أخرى، يُغسل فيها الميت ويكفن ويُودع بعناية ورحمة، كما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم.
- من دلائل النبوة أن تبقى رائحة جسده صلى الله عليه وسلم طيبة بعد موته، وهذا من خصائصه التي لا تُوجد في غيره.

فوائد فقهية

- يشرع تغسيل الميت من غير تجريده إن دعت الحاجة إلى ذلك، كما حصل في تغسيل النبي صلى الله عليه وسلم فوق ثيابه، وهذا فيه مراعاة للستر والحياء.
- يجوز الاسترشاد بالرؤيا إن توافقت مع النصوص، ولا تُؤخذ كحجة مستقلة، لكن رؤيا الصحابة هنا أُقرت ووافقت ما ينبغي.
- يجوز أن يغسّل الرجل زوجته أو قريبه الميت إذا كان من محارمه، كما تولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه تغسيل النبي صلى الله عليه وسلم.
- السُّنة أن يُكفن الميت في ثلاثة أثواب بيض من قطن، ليس فيها قميص ولا عمامة، كما ورد في تكفين النبي صلى الله

عليه وسلم.

- تُستحب العناية بتغسيل الميت وتطييبه، وتولي ذلك من أحبائه وأقرب الناس إليه، كما حصل مع أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.
- من السنة أن يُغسل الميت بخشوع وهيبة، ويُعامل برفق، وهذا يدل على حرمة المسلم بعد موته.

فوائد أخلاقية

- حياء النبي صلى الله عليه وسلم كان محفوظًا في حياته وبعد وفاته، وهذا يعلّم الأمة عِظم خلق الحياء وعلو قدره.
- تواضُع الصحابة رضي الله عنهم رغم قربهم من النبي صلى الله عليه وسلم، ووجلهم من أن يمدوا أيديهم عليه، يدل على مقام الأدب والهيبة مع أهل الفضل.
- محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم تجلّت في دموعهم وصمتهم وهيبتهم، وهذا دليل على الصدق في المحبة، لا بالقول فحسب بل بالفعل والسلوك.
- الوفاء للنبي صلى الله عليه وسلم لا يكون بالبكاء فقط، بل بامتثال ما أوصى به وسار عليه، وهو ما ظهر في التزامهم بتوجيهه حتى في تكفينه.
- من شرف الإنسان أن يُغسله الصالحون ويحضر جنازته أهل الفضل، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم محاطًا بأصحابه وأحبائه في تلك اللحظات.
- هيبة الموت لا تُلغي اليقين، بل تزيد الإيمان وتُظهر حقيقة الدنيا، وهذا ما عاشه الصحابة في وداع النبي صلى الله عليه وسلم.

فوائد تربوية

- موقف الصحابة عند تغسيل النبي صلى الله عليه وسلم يُربي الأمة على التعظيم مع الأدب، والرهبة مع الانقياد، والحياء مع الامتثال.
- تغسيل النبي صلى الله عليه وسلم بأيدٍ محبة طاهرة يُعلمنا أن مرافقة الصالحين والوفاء لهم في حياتهم وبعد وفاتهم من أعظم القربات.
- اجتماع الصحابة للتشاور قبل العمل يُؤصل أدب الشورى في النوازل، وأن القرارات لا تُؤخذ على عجل بل بتأنٍّ وهدوء.
- السكينة التي ألقتها الرؤيا على القوم تربي المؤمن على أن المخرج في الشدائد يكون من عند الله، وأنه إذا ضاق الصدر جاء الفرج من السماء.
- زهد النبي صلى الله عليه وسلم في كفنه دليل على أن المظاهر لا ترفع قدر الإنسان، وأن العبرة بالتقوى لا بالثياب ولا الزينة.

مخالفات الواقع

- تفريط كثير من المسلمين اليوم في تجهيز موتاهم، فيُغسَّل الميت بلا هيبة ولا خشوع، بل أحيانًا بلا طهارة كاملة ولا ستر للعورة.
- إهمال كفن الميت عند بعض الناس، والاكتفاء بثياب رخيصة أو مهترئة، دون اعتبار لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في الكفن.
- غياب الأدب عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، بل والتجرؤ على مقامه الشريف في بعض وسائل الإعلام، والتهوين من سنته وسيرته.
- قلة الحديث عن الموت في واقع الناس، والاغترار بالحياة حتى في اللحظات التي تُذكِّر بالآخرة، وكأنهم خالدون.

- غلبة العادات على الجنائز في بعض المجتمعات، حتى صار الاهتمام بالمظاهر والموائد أكثر من العناية بالميت ودعائه وتجهيزه كما أمر الشرع.

الفقرة الثانية عشر : تجهيز الحبيب صلى الله عليه وسلم وتغسيله ودفنه: مشهد وداع لا يُنسى

بعد أن عرجت روح الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وهدأت الصيحات، وجَفَّت العيون من البكاء، واستقرّت القلوب المكلومة تحت صدمة الفقد، اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم في بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث خُتمت رحلة النبوة، وانطوت صفحة الوحي، وبدأت لحظة من أعظم لحظات التاريخ الإسلامي ...**لحظة توديع الجسد الطاهر، بعد أن ودّعوا الروح الطاهرة.**

❖من الذي تولّى تغسيله؟

اجتمع الصفوة من آل البيت وأصحاب القرب، والقلوب بين مرتجفةٍ من الهيبة، ومترددةٍ من رهبة الحدث، وتساءلوا:
هل نُجرده من ثيابه كما نصنع بموتانا؟ أم نغسله وعليه ثيابه؟
فلم يكن في القلوب قرار، حتى غلبهم النعاس، فرأوا رؤيا عجيبة، كأنها الوحي، جاءتهم تسري في المنام تقول:
"غسّلوا النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه".

فكان ذلك علامة، ولم يكونوا ليجسروا على أمرٍ كهذا إلا بإشارة ربانية.

وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبيل وفاته» :**لا يُغَسِّلَنِّي أحدٌ غيرُ عليٍّ**]«رواه الطبراني وغيره بسند حسن.[

فكان الذي تولّى الغسل :**علي بن أبي طالب رضي الله عنه**، وهو ابن عمه وصهره وأقرب الناس إلى قلبه، يعاونه:

العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم،

وابناه **الفضل وقثم**، و**شُقران** مولى النبي صلى الله عليه وسلم، و**أسامة بن زيد** حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم،

و**أوس بن خولي** من الأنصار، وقد استأذنهم أن يُشرك معهم فكان له ذلك.

وكان علي رضي الله عنه يقول" :**كنتُ أقلبه، فما كنتُ أجد ما أجد من الميت، كأنه حي، طيِّب الرائحة".**
حتى قالوا جميعًا":**ما وجدنا منه إلا طيبًا"!**

صبّ العباس وولداه الماء، وغسله علي بيديه الشريفتين، فوق ثيابه، حياءً من جسدٍ ما رآه أحدٌ إلا واهتدى، وما خالطته عينٌ إلا وأحبته، يغسلونه بخشوع، كأنهم لا يغسلون جسدًا، بل يغسلون رسالة، وتاريخًا، ونورًا عمَّ الأرض.

❖تكفينه ودفنه:

وبعد أن طيّبوه، كفنوه في **ثلاثة أثواب بيض سَحولية**)نسبةً إلى سحول باليمن)، من قطن، ليس فيها قميص ولا عمامة، كما أوصى صلى الله عليه وسلم.
فقد ورد في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها":**كُفِّن رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في ثلاثةِ أثوابٍ بيضٍ سحوليةٍ من كُرْسُفٍ، ليس فيها قميصٌ ولا عمامةٌ]** ".رواه البخاري ومسلم.[

ثم وُضِع على سريره في حجرة عائشة، والناس يدخلون للصلاة عليه أفرادًا، لا يؤمهم أحد، **فصلّى عليه الرجال أولًا، ثم النساء، ثم الصبيان**، وكانوا يدخلون فوجًا فوجًا، في صمتٍ مهيب، وخشوعٍ تام، كأن الأرض قد توقفت عن الدوران، تنتظر اللحظة التي يُرفع فيها الجسد الشريف إلى مثواه الأخير.

ثم جاء وقت الدفن، واحتار الصحابة: أين ندفنه؟
فجاءهم الحل من حديث سمعه أبو بكر رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:
"سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قُبِض نبيٌ إلا دُفن حيث يُقبض] ".رواه الترمذي وأبو داود بسند حسن.[

فحُفر القبر في نفس الحجرة التي تُوفي فيها، وكان الذي نزل في قبره:
علي بن أبي طالب، والفضل، وقثم، وشُقران.

ودفنوه ليلة الأربعاء، أي بعد وفاته بيوم ونصف، وكان سبب التأخير لانشغال الصحابة بأمر الخلافة أولًا، ثم تجهيز الحبيب صلى الله عليه وسلم.

❖ **وقفات وعبر:**

لم تُكشف عورته صلى الله عليه وسلم حتى في موته، لأن **الله طهّره حيًّا وميتًا**.

لم يُصلى عليه جماعةً، لأنه **إمام الأمة كلها**، فلا يتقدمه أحد في الصلاة.

دُفن في بيته، لا في المسجد، حتى لا يُتخذ قبره مزارًا يُعظّم فيه على غير هدى، ومع ذلك، جعله الله من أعظم مواطن الرحمة، فكل من زاره بصدق، نال نصيبًا من قوله تعالى :**﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]**

❖ **ختامًا:**

هكذا ودّع الصحابة الحبيب صلى الله عليه وسلم، وداعَ الجسد، بعد أن بقي النور في القلوب، والسنّة في الأيدي، والحنين في الأرواح...
ودُفن خيرُ من وُطئ الثرى، لكنه حيٌّ في قلوب محبيه، باقٍ في آيات ربه، خالدٌ في سنّته، مشهودٌ له في السماء، ومأثورٌ له في الأرض.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، عددَ من صلى عليه المصلّون، وغفل عن ذكره الغافلون.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- عناية الله عز وجل برسوله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، كما كانت في حياته، تتجلى في حفظ عورته وصيانة جسده، وهو من دلائل الخصوصية النبوية.
- النبي صلى الله عليه وسلم لا يُتقدم عليه أحد حتى في الصلاة بعد وفاته، لأنه إمام الأمة في الدين والدنيا، وهذا من خصائص النبوة التي لا يشاركه فيها غيره.
- الرؤيا التي اتفقت عليها قلوب الصحابة وغلبهم بها النعاس، وبيّنت كيفية الغسل، هي من الإلهام الرباني الذي يجري على أولياء الله في مواضع الضرورة، وليست تشريعًا مستقلًا.
- النص على دفن الأنبياء في المكان الذي تُقبض فيه أرواحهم، يدل على أن أمرهم موكول إلى ربهم، فلا يُدفنون حيث

شاء الناس، بل حيث شاء الله.

- القبر ليس موضعًا للعبادة أو التبرك، ولو كان قبر النبي صلى الله عليه وسلم، بل يُزار اتباعًا لا ابتداعًا، وتحت ضوابط الشرع.
- الحياة الحقيقية هي حياة البرزخ، والتي تبدأ بالدفن، وما من نبي إلا دُفن حيث مات، ليكون جسده محفوظًا في أشرف حال.
- كرامة جسد النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة في ثباته وطيب رائحته، وهذا من دلائل نبوته وبقاء أثره الطيب في الأرض.

فوائد فقهية

- يجوز تغسيل الميت فوق ثيابه عند الحاجة، كما وقع مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يُشترط كشف جسده إذا خُشي من ذلك مفسدة أو حياء.
- من السنة أن يُكفن الميت في ثلاثة أثواب بيض من قطن، ليس فيها قميص ولا عمامة، وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي اتفق عليه الصحابة.
- يُصلى على الميت فرادى إذا كان إمام الأمة، كما في حال النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا استثناء مخصوص بمقامه.
- يجوز دفن الميت في البيت إذا توفرت الحاجة والمصلحة لذلك، كما دُفن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة رضي الله عنها.
- السنة أن يتولى الغسل والتجهيز الأقربون والأحباء من الصالحين، كما غسّله علي والعباس وأهله.
- تأخير دفن الميت لمصلحة شرعية معتبرة، كأمر الخلافة أو انتظار تجهيزه، لا يُعد تفريطًا، إذا لم يُخش منه تغير أو مفسدة.

فوائد أخلاقية

- حياء النبي صلى الله عليه وسلم حيًّا وميتًا، يُعلم الأمة خلق الستر والعفة، وأن الحياء من أعظم أخلاق المؤمنين.
- هيبة الصحابة رضي الله عنهم أمام جسد النبي صلى الله عليه وسلم رغم قربهم منه، تدل على تعظيمهم له مع الحب والوفاء.
- محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ظهرت في صمتهم وخشوعهم عند الصلاة عليه، ما يعكس صدق المحبة الخالية من التكلّف والرياء.
- وفاء الصحابة بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم في أدق اللحظات (مكان الدفن، الكفن، التغسيل)، يدل على أمانتهم وصدقهم في حمل هذا الدين.
- المشاركة في تغسيل النبي صلى الله عليه وسلم كانت شرفًا، لكن الصحابة لم يتسابقوا عليها طلبًا للظهور، بل تقدموا بأدبٍ وخشوع.

فوائد تربوية

- الأحداث العظيمة تقتضي ضبط النفس والعمل بالعقل والوحي لا العاطفة، كما فعل الصحابة حين جمعوا بين تجهيز الحبيب صلى الله عليه وسلم وترتيب أمر الخلافة.
- المواقف المؤثرة تُبنى على اتباع الهدي، لا الابتداع، وقد سار الصحابة على ما علمهم إياه النبي صلى الله عليه وسلم بدقة في هذه اللحظات.
- ترك العجلة في الأمور الكبرى كالغسل والدفن، ما دامت المصلحة الشرعية تقتضي ذلك، دليل نضج الصحابة وتوازنهم في إدارة الأزمات.

- رعاية جسد النبي صلى الله عليه وسلم كأنه نورٌ يُغسَّل، يعلّم الأمة أن من عظمة المقام النبوي أن تُعامل سيرته وأقواله وأثره بكل توقير وتعظيم.
- التسليم لأخبار الصادقين من الصحابة، كقول أبي بكر في حديث الدفن، منهج تربوي يُعلمنا الثقة بأهل العلم والفضل عند الملمات.

مخالفات الواقع

- كثرة المظاهر المبتدعة اليوم في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، من التبرك بالحجرة، ورفع الأصوات، والدعاء عند القبر، وكل ذلك مما نهى عنه الشرع.
- قلة الاهتمام في كثير من المجتمعات بتغسيل موتاهم على السنة، حيث تختلط العادات بالجهل، ويُترك ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.
- غفلة كثير من المسلمين عن فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في زمن الطمأنينة، في حين كانت قلوب الصحابة لا تفتر عن الصلاة عليه حتى عند وداع جسده.
- من الناس اليوم من يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم زيارة سياحية، خالية من الأدب القلبي والخشوع، بعكس ما فعله الصحابة في صلاتهم عليه ودعائهم عند دفنه.
- عدم تمييز كثير من الناس بين تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم المشروع، والتعظيم المبتدع الذي يؤدي إلى الغلو، كما تفعل بعض الفِرَق في القبور والمزارات.

الفقرة الثالثة: عشر يوم أظلمت فيه المدينة

لقد طلع صباح لم تعرف المدينة المنوَّرة في تاريخها مثله، صباحٌ لم يكن كالأيام، إذ غابت فيه الشمس التي لم تكن تشرق من الأفق فحسب، بل كانت تشرق من قلبها، روحًا ونورًا ورحمة، هو قلب سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. كانت المدينة قبل ذلك اليوم ليست مجرد أرض وحجارة، بل كانت مَهبط الوحي، ومأوى الهجرة، وميدان النور الذي بدد ظلمات الجاهلية. وما إن جاء اليوم الذي قبض فيه الحبيب صلى الله عليه وسلم، حتى انطفأ ذلك النور الذي ملأ الدنيا، وارتدت معالمها كسيرةً واجمة، وكأن السماء أطبقت على الأرض.

وقد وصف أنس بن مالك رضي الله عنه ذلك الموقف بما يقطع نياط القلب، فقال" :لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء"، ثم تابع" :وما نفضنا عن أيدينا من تراب قبره حتى أنكرنا قلوبنا"، أي أن الأرواح تبدلت، والقلوب لم تعد هي القلوب، إذ كان صلى الله عليه وسلم حياة القلوب قبل أن يكون حياة الأجساد.

رجع الصحابة من دفن الجسد الطاهر الذي طالما أظلهم برحمته، وقد خيَّم الحزن عليهم كالسحاب الأسود، لا يعرفون كيف يمضون بقلوب تائهة إلا أن يستمدوا قوتهم من وعد الله :﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾]آل عمران: ١٤٤[. وفي وسط ذلك الموقف، علت أصوات البكاء والأنين، وخرجت الكلمات من أفواههم وكأنها سهام في قلوب المؤمنين.

ها هي فاطمة الزهراء رضي الله عنها، بضعة المصطفى وأقرب الناس إليه، تنادي من قلبها المكلوم" :يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه."

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي عاش في كنفه منذ صغره، يقول بمرارة" :*كانت الأرض بعده مُرَّةً*"، وكأن الوجود كله فقد طعمه ولونه.

أما أنس رضي الله عنه فيكرر عبارته التي تفيض بالألم" :لما دفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعنا، وكأننا لم نعرف قلوبنا من قبل"، وكأن روحًا كانت تظلهم، فلما ارتفعت، بقيت الأجساد وحدها.

لقد شعر الصحابة أنهم أصبحوا أيتامًا بحق، ليس لفقد والد من لحم ودم، بل لفقد أبوة الرحمة التي وسعتهم، والهداية التي قادتهم، والوحي الذي ربط السماء بالأرض.

ورغم ذلك، كانوا يعلمون أن الأمانة باقية، وأن ما تركه لهم صلى الله عليه وسلم من كتاب الله وسنته هو النور الباقي، كما قال في حياته" :تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي ."وهكذا بدأ عهد جديد، عنوانه الثبات على الرسالة، وحملها إلى العالمين، بقلوب تنزف حزنًا ولكنها تنبض يقينًا.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية

- إثبات بشرية النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه يموت كما مات الرسل قبله، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، وردًّا على الغالين فيه من أهل الأهواء الذين يرفعونه فوق مرتبة العبودية.
- وجوب الإيمان بأن حياة القلوب الحقيقية في اتباع الوحي، وأن انقطاع الوحي بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم لا يعني انقطاع الهداية، إذ أبقاها الله في كتابه وسنة نبيه.
- تقرير أن النبوة رحمة ونور من الله، وأنها أجلّ نعمة على الأرض، فإذا قبض النبي صلى الله عليه وسلم بقي أثرها في سنته وهديه.
- التمسك بوصية النبي صلى الله عليه وسلم «كتاب الله وسنتي» أصل النجاة من الفتن والانحرافات العقدية.
- بيان أن اليقين بقدر الله يثبت القلوب عند الشدائد، وأن موت النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الابتلاءات التي تحتاج إلى ثبات على الدين.

الفوائد الفقهية

- الاستدلال بالآية في أحداث المصائب على لزوم الثبات وترك الردة أو الانحراف بعد الابتلاء.
- مشروعية تذكير الناس بالوحي والشرع عند النوازل العظيمة كما فعل أبو بكر رضي الله عنه.
- دفن النبي صلى الله عليه وسلم في موضع وفاته سنة جارية، كما دفن في حجرة عائشة رضي الله عنها.
- البكاء على الميت من غير نياحة جائز، وهو مما وقع من الصحابة رضي الله عنهم يوم وفاته صلى الله عليه وسلم.

الفوائد الأخلاقية

- الوفاء للنبي صلى الله عليه وسلم بذكر فضله وحفظ وصيته بعد وفاته.
- صدق العاطفة التي لا تخرج عن حدود الشرع؛ إذ اجتمع الحزن العميق مع التسليم لقضاء الله.
- التعبير عن الألم بألفاظ مأثورة وأدب جم، كما فعلت فاطمة الزهراء رضي الله عنها.
- الأخوة الصادقة تظهر في مواساة بعضهم لبعض وقت الحزن، لا في التنازع والفرقة.

الفوائد السلوكية

- التحول من مرحلة التلقي المباشر من النبي صلى الله عليه وسلم إلى العمل المستقل بالوحي، دون توقف أو تراخٍ.
- عدم الاستسلام للحزن حتى يشلّ العمل، بل تحويله إلى دافع لمواصلة الدعوة وحمل الرسالة.

- التزام الجماعة والرجوع إلى القيادة الشرعية في النوازل الكبرى.
- ضبط المشاعر حتى لا تؤدي إلى أقوال أو أفعال تخالف الشرع.

الفوائد السياسية والعسكرية

- ثبات القيادة الراشدة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم منع الأمة من الانقسام والانهيار.
- سرعة حسم الموقف من خلال تذكير الأمة بآيات الوحي حافظ على وحدة الصف.
- وفاة القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم لم تمنع استمرار المشروع الإسلامي في الفتح ونشر الدين.
- بيان أهمية إعداد الصف الثاني من القادة القادرين على إدارة الأزمات.

الفوائد الإدارية والقيادية

- التخطيط المسبق من النبي صلى الله عليه وسلم ببيان المرجعية (كتاب الله وسنته) حال غيابه، ضمان لاستمرار العمل.
- قدرة أبي بكر رضي الله عنه على إدارة الصدمة بالأدلة الشرعية مثال على القيادة الرشيدة.
- أهمية وضوح الرؤية في الأزمات الكبرى حتى لا تتفرق الأمة.
- بث الطمأنينة في النفوس بعد المصيبة عمل قيادي يحفظ الاستقرار العام.

الفوائد الاجتماعية

- وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كشفت قوة الرابطة الإيمانية التي جمعت المهاجرين والأنصار.
- المصائب العظمى توحد المجتمع إذا اجتمعوا على الوحي والحق.
- تعظيم مكانة العلماء والخلفاء الراشدين كمصدر توجيه في الفتن.
- الحزن الجماعي دليل على محبة صادقة تشترك فيها الأمة كلها.

الفوائد النفسية

- الصبر على فقدان أعظم محبوب بعد الله من أعظم أنواع الصبر.
- معرفة أن الفقد سنة ماضية يخفف من وقع المصيبة.
- الشعور باليتم الروحي يمكن تجاوزه بالتمسك بالوحي.
- استحضار وعد الله يعيد الطمأنينة بعد الاضطراب العاطفي.

الفوائد التاريخية والحضارية

- وفاة النبي صلى الله عليه وسلم نقطة تحول تاريخية نقلت الأمة من عهد النبوة إلى عهد الخلافة.
- الموقف أظهر أصالة نظام الحكم في الإسلام وقدرته على الاستمرار.
- بداية حركة الفتوحات كانت امتدادًا لوصية النبي صلى الله عليه وسلم بحمل الرسالة للعالمين.

مخالفات الواقع

- الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم حتى رفعه بعضهم فوق مرتبة العبودية، وهو من مسالك الغلاة والفرق المنحرفة.
- تقليد أهل الأهواء في اتخاذ المصائب ذريعة للطعن في ولاة الأمور، كما يفعل الخوارج في عصرنا.
- إحياء البدع في مواسم الحزن على النبي صلى الله عليه وسلم، كإقامة المآتم والموالد المحدثة.
- ضعف التمسك بوصيته صلى الله عليه وسلم في العمل بكتاب الله وسنته، والاكتفاء بالعاطفة المجردة.
- التعلق بأشخاص أو مشايخ أكثر من التعلق بالوحي، مما يسبب الانقسام بعد وفاتهم.

- انتشار مقولات اليأس عند الفتن، مع أن الواجب الثبات وحمل الرسالة كما فعل الصحابة.
- ترك العمل للإسلام بحجة الظروف الصعبة، مخالفًا لنهج الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.
- الانشغال بالجدل في مكان دفنه أو جسده عن العمل بسنته ودعوته.
- اعتبار بقاء الإسلام مرهونًا بحياة الأشخاص، وهو خطأ عقدي ينافي حفظ الله لدينه.
- اتباع روايات ضعيفة أو موضوعة في وصف وفاته، مما يفتح باب التحريف.

الفقرة الرابعة عشرة: تثبيت الدولة وتنفيذ وصايا الحبيب صلى الله عليه وسلم

ما إن هدأت أمواج الحزن، وسكنت العبرات بعد رحيل خير البريّة صلى الله عليه وسلم، حتى نهض أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى مقام الخلافة، كأنما أعدّه الله ليكون جدار الأمة في لحظة الانهيار، وسُورها في ساعة العاصفة، فبدأ يضع اللبنات الأولى في صرح الدولة الإسلامية الجديدة، مستمسكًا بوصايا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يثنيه عن الحقّ صوت خوف أو تردد.

إنفاذ جيش أسامة.. الوفاء في أبهى صوره

كان آخر ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته، أن يجهز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه، ليخرج إلى بلاد الشام في مواجهة الروم، أعداء الرسالة وخصوم العقيدة. وكان أسامة شابًا لم يتجاوز العشرين، فوجد بعض الصحابة في أنفسهم شيئًا، وقالوا: كيف نُسيّر جيشًا وقد مات رسول الله؟ وكيف نخلي المدينة وعدوّ الله قد يتربّص بها؟

لكن أبا بكر، بصيرٌ بوصية رسول الله، ثابتٌ كالجبل في وجه العاصفة، قال قولته التي سارت بها الركبان:

"والله لا أحل لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم"!

وخرج يودّع الجيش بنفسه، ماشٍ على قدميه، وقائد الجيش أسامة راكبٌ على فرسه، فكان في هذا الموقف درسٌ خالد في الطاعة والوفاء، والعزة والتجرد، وكيف تكون القيادة استمدادًا من نور النبوة لا من رجفة السياسة.

حروب الردة.. سيف الصدّيق في وجه الفتنة

وما هي إلا أيام، حتى ارتدت بعض قبائل العرب، وادّعى النبوة أقوام، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة، وقالوا: كنا نؤديها لرسول الله، أما الآن فلا زكاة ولا طاعة!

عندها تجلت عظمة الصديق رضي الله عنه، وظهر صدقه في ساعة البلاء، فقال كلمته التي زلزلت باطل المرتدين:

"والله لو منعوني عِقالًا كانوا يؤدّونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه"!

فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد دهش من عزمه" **:كيف تقاتل الناس وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»؟"**

فردّ أبو بكر بكلمةٍ أحكم من السيوف، وأشدّ من النيازك في وجه الباطل" **:والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال"!**

وما هي إلا شهور، حتى قاد أبو بكر جيوش الإيمان، وسارت رايات التوحيد فوق القبائل المتمرّدة، حتى عاد العرب إلى حظيرة الدين، وتهاوت فتنة الردة تحت أقدام الصدّيق، فثبت الله به أركان الدولة، وطهّر الأمة من النفاق والزيغ، وصدق الله وعده، وأعزّ دينه.

الفوائد المستفادة من الفقرة

فوائد عقدية:

- في ثبات أبي بكر الصديق رضي الله عنه على إنفاذ وصية النبي صلى الله عليه وسلم، بيان أن أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ملزمة بعد وفاته كما كانت في حياته، وأن المؤمن لا يتردد في تنفيذ ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن طاعته عبادة لله عز وجل.

- إن إرسال جيش أسامة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فيه تأكيد على أن حماية الدين ونشره واجب دائم لا ينقطع بموت الأنبياء، وإنما يستمر بقيادة أهل الإيمان الذين يحملون مشعل النبوة من بعدهم.

- مواجهة أبي بكر للمرتدين تثبت أن من أنكر ركنًا من أركان الإسلام المجمع عليها، كمنع الزكاة، فإنه يُعد مرتدًا عن الدين، وتُقام عليه الحجة وتُقاتل فئته إذا أبت الرجوع، وهذه قاعدة من قواعد أهل السنة في حماية بيضة الإسلام.

- في قوله "لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة" دليل على أن الإيمان لا يتجزأ، وأن من آمن ببعض الدين وكفر ببعضه فقد ضل سواء السبيل، وأن شرع الله لا يُؤخذ بالهوى.

فوائد فقهية:

- ثبات أبي بكر على إنفاذ جيش أسامة رغم الظروف الأمنية والسياسية المتقلبة يدل على قاعدة فقهية عظيمة، وهي: أن تنفيذ أمر الشارع مقدم على الاعتبارات الظرفية والاجتهادات السياسية إذا ثبت النص.

- قتال مانعي الزكاة يدل على أن الزكاة حق واجب للدولة المسلمة، وليست مجرد تبرع طوعي، وأن من امتنع عن أدائها جحدًا أو تمردًا فإنه يُقاتل، وهذا أصل في فقه الحدود والردة عند جمهور العلماء.

- في إنفاذ جيش أسامة رغم صغر سنه تأصيلٌ لقاعدة: أن العبرة في التكليف والقيادة بالكفاءة والاختيار الشرعي، لا بالسن أو الأعراف القبلية، ما دام أهل الحل والعقد أقروا الاختيار.

- إرسال الجيش مع وجود التهديد الداخلي يثبت جواز تعدد الجبهات عند الحاجة، إذا توفرت الكفاءة القيادية والإيمان بالغاية، وهو من فقه التوازن في حفظ الأمن والدعوة معًا.

فوائد أخلاقية:

- موقف أبي بكر في تنفيذ وصية النبي صلى الله عليه وسلم فيه خلق الوفاء والصدق مع الله ورسوله، وهو خلق عظيم قلّ في زمن المصالح والمجاملات.

- خروجه يودّع الجيش ماشياً على قدميه، وأسامة راكب، يُعلم القادة أن القيادة تواضع وتربية بالقدوة، لا استعلاء ولا تعالي.

- في حروبه مع المرتدين نموذج في الشجاعة، ورباطة الجأش، والثبات على المبدأ في وجه الارتداد والانهيار، وهو درس لكل من يلي أمرًا من أمور المسلمين.

- قول أبي بكر "لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة" فيه قوة في الحق وعدل في الموقف، ويعلمنا أن المواقف الحاسمة لا تحتاج إلى مداهنة، بل إلى رجال صادقين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

فوائد تربوية:

- هذا المشهد كله يُعلم الأمة أن النوازل والمصائب لا تُواجه بالدموع والانهيار، بل بالعزائم والقيام بالواجبات، كما فعل الصدّيق رضي الله عنه.
- يُربينا هذا الموقف على المبادرة في الأزمات، وأن التأخر عن الميدان يضاعف الخسائر، أما المبادرة المدروسة فهي سر الثبات والنصر.
- يظهر من هذا الحدث أن التربية النبوية خرجت رجالًا على قدر المرحلة، فأسامة الشاب يقود، والصديق يُقارع، وعمر يُراجع ثم يُذعن، وكلهم ينهض بحمل الرسالة، وهذه ثمار التربية الإيمانية.

فوائد دعوية:

- الدعوة إلى الله لا تتوقف بموت الدعاة، بل تنتقل الأمانة إلى من بعدهم، ولهذا أنفذ أبو بكر جيشًا لنشر الدعوة خارج المدينة رغم المصيبة العظمى.
- في قتال المرتدين حمايةٌ لصفوف الدعوة من الاختراق الداخلي، وفيه تعليم أن أول ما يجب على الدعاة بعد الفتنة: تطهير الداخل من النفاق قبل مواجهة الخارج.
- الوفاء بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم هو أبلغ صور نصرة الدعوة، وليس فقط بالبكاء عليه أو تكرار الكلام في فضائله، بل بالعمل بما بلّغه وأوصى به.

مخالفات الواقع:

- التردد في نصرة الدين باسم الحكمة الزائفة، بينما أبو بكر رضي الله عنه لم يتردد لحظة في إنفاذ جيش أسامة رغم حداثة سنه ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم.
- انشغال المسلمين اليوم بالخلافات الجانبية، وتركهم لمعركة الزكاة والتوحيد، والسكوت عن طوائف تمتنع عن الزكاة أو تؤخرها ولا يُنكر عليهم.
- ضعف الحزم في اتخاذ المواقف الشرعية الواضحة أمام المرتدين المعاصرين، الذين يطعنون في أركان الدين ويزعمون الانتساب إلى الإسلام.
- تقديم السياسة والحسابات المصلحية على الأوامر الشرعية، عكس موقف الصدّيق رضي الله عنه الذي جعل وصية النبي صلى الله عليه وسلم فوق كل اعتبار.

انتهى هذا الباب ويليه بإذن الله عز وجل الباب التاسع عشر

الباب الثالث: كيف نكون نحن امتداد السيرة؟

مقدمة

لقد طُويت صفحات السيرة، لكنها لم تُغلق. خُتمت حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لكن رسالته حيّة لا تموت، وهداه ماضٍ لا يتوقف. لقد رحل جسده الشريف إلى الرفيق الأعلى، لكنه ترك بين أيدينا مشكاة النور، ومنهج الحياة، ودستور النجاة. لم تكن السيرة مجرد أحداث تُروى، ولا تاريخًا يُتلى، بل هي روح تسري في أمة، ومنهج يهدينا سواء السبيل.

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، منذ بعثته إلى أن واراه الصحابة في لحده، كانت **رحلة فداء وبذل وعطاء**، كانت **صوت التوحيد يُنادي في صحراء الشرك، ونور الإيمان يُبدد ظلمات الجهل، وعدل النبوة يُزلزل عروش الطغاة** .فبأي قلب نقرؤها؟ وبأي أعين نطالعها؟ أما آن أن نكون امتدادًا لها؟!

هذا الباب هو **دعوة قلبية صادقة** لكل مسلم ومسلمة، أن يكونوا صفحة جديدة في كتاب السيرة، تُمثل روحها في واقعنا، وتُعيد مجدها في أيامنا، فـ"محمد رسول الله" صلى الله عليه وسلم، ليس ذكرى تُحتفى، بل **قدوة تُحتذى، ورسالة تُحمل، وسيرة تُعاش**.

هنا، سنقف مع عشرين فقرة تمثل مفاتيح العودة، وطريق العمل، وسبيل التغيير، لنكون بحق :**أمة السيرة، أمة محمد، أمة الشهادة على الناس**.

الفقرة الأولى: عظمة ما قدّمه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته

أيها القارئ الكريم،
هل وقفت يومًا وقفة تدبّر وتأمل، وسألت نفسك: من أين لي هذا النور الذي يضيء عتمة حياتي؟ من أين لي هذه الصلاة التي تسمو بي عن طين الأرض؟ من أين لي هذا الإيمان الذي يربط على قلبي؟ من أين لي هذا الرجاء في جنةٍ عرضها السماوات والأرض؟
إنه من مشكاة النبوة... من قلبٍ امتلأ بالوحي، ثم انطلق يضيء للناس درب الهداية، إنه محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم.

لقد جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدنيا غارقة في ظلماتٍ متراكبة: عقول تعبد الحجر، وقلوب لا تعرف الرحمة، وأمم تستعبد الإنسان، وتحتقر الضعيف.
فأرسل الله تعالى نبيَّه رحمةً للعالمين، نورًا يمحو به ظلمة الجاهلية، وعدلًا يُقيم به ميزان السماء في الأرض.

جاع... ليشبع غيره،
بكى... لتضحك أمته،
أُوذي... ليأمن الناس،
طُرد... ليُقيم أمة،
عاش غريبًا... ليردّ الناس إلى الحق،
ومات ودرعه مرهونة... ليورّثنا الدين، لا الذهب والفضة.

ما من خيرٍ تنعم به الأمة اليوم، إلا وهو من غرس يديه، وما من نور نهتدي به، إلا وهو من وهج قلبه، وما من سبيل إلى الله، إلا وقد مهّده لنا بدمعه ودمه وصبره وجهاده.

لقد قدّم لنا صلى الله عليه وسلم أعظم ما يُقدّم:
قدّم لنا ربًّا نعرفه،
وقدّم لنا طريقًا نسلكه،
وقدّم لنا غاية نرجوها،
وقدّم لنا نفسه ...لتهتدي بها الأرواح، وتسكن بها القلوب.

فيا ورثة النور،
هل وفّيناه حقه؟
هل أحببناه كما ينبغي؟
هل نصرنا سنته كما نصرنا أنفسنا؟
هل سرنا على طريقه؟
هل حملنا رسالته كما أراد؟

إنه صلى الله عليه وسلم لم يترك لنا إلا ما يُحيينا:
ترك لنا كتابًا لا يضل من تمسّك به،
وسنّةً لا يزيغ من اتبعها،
وأخلاقًا تعلو بها الأمم،
ودعوةً تنتشل الإنسان من حضيض الدنيا إلى سموّ السماء.

فيا أبناء هذا النبي العظيم،
كونوا أهله، كونوا ورثة رسالته، واصدقوا الله في محبته، وادفعوا عنه بالعلم والعمل، والاتباع والبلاغ...
لعلّ الله يكرمنا بلقياه على الحوض، ويجمعنا تحت لوائه، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

الفقرة الثانية: من بعده... رجال سهروا الليالي ليبقى النور مشتعلاً

ما إن أغمض النبي صلى الله عليه وسلم عينيه الطاهرتين، مودِّعًا الدنيا، حتى خيّم على المدينة سكون عجيب...
سكون ليس كأي سكون، بل كان كأنّ السماء قد أغلقت مصابيحها، وكأنّ جبريل قد طوى جناحيه، وكأنّ الوحي قد قال كلمته الأخيرة، ثم ارتحل.

لكن سرعان ما تحرّك رجالٌ رباهم بين يديه، وشربوا من صفاء قلبه، وتخرّجوا من مدرسة نبوّته، رجال لم يسمحوا للحزن أن يعطّل المسير، ولم يرضوا أن تكون دموعهم غطاءً عن أداء الواجب، بل حملوا الراية من بعده، كأنهم خُلقوا ليكونوا امتدادًا لرسالته، وحلقةً من حلقات النور المتصل الذي لا ينقطع.

أبو بكر الصديق، أول من صدّق، وأول من قام مقام النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة.
حين اضطرب الناس من موت الحبيب، وقف هو شامخًا كالجبل، وقال قولته التي خلدها التاريخ:

"من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت".
ثم تلا قول الله تعالى{:وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم }]آل عمران: ١٤٤.[

ثبت الصديق حين ارتدّت القبائل، وقاتل مانعي الزكاة، وقال مقولته الخالدة:

"والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه".
وأرسل جيش أسامة بن زيد رغم اعتراض البعض، تنفيذًا لوصية النبي صلى الله عليه وسلم، ليُفهم العالم أن موت الجسد لا يعني موت الرسالة، وأن الوحي قد توقف، لكن الحق لم ولن يتوقف.

ثم جاء عمر بن الخطاب، الفاروق، فانفتحت على يديه الدنيا، وامتدت حدود الإسلام شرقًا وغربًا، ووقف كسرى وقيصر أمام عدل الإسلام مذهولين، إذ لم يروا من قبلُ رجلًا يقول لحاكمه:

"لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناك بسيوفنا"، فيرد الخليفة: "الحمد لله الذي جعل في أمتي من يقوم عمر إذا اعوجّ".

وفي زمنه، بلغ الإسلام شواطئ المحيط، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، لا بسطوة السلاح، ولكن برهبة العدل، وهيبة التقوى، وصدق الدعوة.

ثم جاء عثمان بن عفّان، الحيي السخي، فجهّز جيش العسرة، واشترى بئر رومة للمسلمين، وبذل ماله في سبيل الله حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم":ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" [رواه الترمذي.]
ليثبت أن للإحسان مكانًا في نصرة هذا الدين، وأن السخاء بابٌ من أبواب الجهاد.

ثم جاء علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، بحر العلم، وعلَم الزهد، ومثال الشجاعة النبيلة.
قاتل ببسالة، وحكم بعدل، وتكلم بحكمة، وعلّم الأجيال كيف يكون الإنسان فارسًا في النهار، عابدًا في الليل، لا تلهيه المعارك عن الذكر، ولا تُضعفه المحن عن الصبر.

ثم توالت القوافل... قوافل من الرجال الذين عاهدوا الله أن لا يهنأ لهم عيش حتى يبلغوا الرسالة كما سمعوها.
الصحابة والتابعون، العلماء والربانيون، ساروا على دربه، وسافروا في الفيافي، واجتازوا الصحارى والبحار،
بلغوا بدعوته إلى أواسط الصين، وجبال السند، وسواحل الأندلس، وكهوف أفريقيا،
لا يريدون دنيا، ولا يبتغون متاعًا، بل يحدوهم قول الله تعالى:

}قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني] {يوسف: ١٠٨.[

كان أحدهم يحمل المصحف في صدره، والسيف في يمينه، والدمع في عينه، والشوق إلى الجنة في قلبه،
ولو سألته: "لِمَ تحمل كل هذا؟"
لقال: "وفاءً لنبيٍّ عاش يقول: أمتي... أمتي. وبكى لأجلنا قبل أن نولد، وخاف علينا من نار لم نرها بعد، ودعا لنا بقلبٍ تفيض به الرحمة".
وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال":وددت أني لقيت إخواني" قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: "بل أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني] "رواه مسلم.[

لقد مضى الجسد الشريف إلى الرفيق الأعلى، لكن الرسالة بقيت،
تنتقل من قلب إلى قلب، ومن جيل إلى جيل، نورها لا ينطفئ، وضياؤها لا يخبو،
يحملها من صدق في حبه، وامتثل أمره، وسار على طريقه، وكان له امتدادًا في الأرض، لا قاطعًا لهذا النور.

الفقرة الثالثة من سار على الدرب وصل

إن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليست صفحات في كتاب، ولا قصة يُتسلى بها على ألسن الرواة، ولا تاريخًا نتغنّى به كلما خفَتت شعلة الهمّة، بل هي مشعل النور الذي أنار الله به ظلم الحياة، ومنهاج الصدق الذي قامت عليه أركان الإيمان، ودستور أمة عظيمة كتب الله لها أن تكون شاهدة على الناس، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣.[

هي حياةٌ كاملة، تنبض بالإيمان، وتفيض بالحكمة، وتسير على خُطى السماء، فكل خطوة خطاها النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت بإذن الله، وكل كلمة نطق بها إنما هي وحي يوحى، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤.[

لقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر أيامه، مودّعًا أمته في حجة الوداع، فقالها كلمة باقية إلى يوم الدين" :تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي] "رواه مالك في الموطأ بلاغًا.[

ثم سلّم الأمانة، وتركنا على طريق الهداية، لا التباس فيه ولا اعوجاج، طريقٍ صافٍ كصفاء قلبه، مستقيمٍ كاستقامة خُلقه، واسعٍ كرحمته، مضيءٍ بنور ربّاني لا ينطفئ، كما قال في الحديث الصحيح: "تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك] "رواه ابن ماجه.[

وما إن ارتفع الجسد الشريف إلى الرفيق الأعلى، حتى سار الصحب الكرام على ذات الدرب، غيروا وجه الدنيا، وفتحوا البلاد والقلوب، وجعلوا من السيرة حياةً تمشي على الأرض. لم يكونوا يقرؤونها في الكتب فقط، بل كانت في أعينهم دموع، وفي قلوبهم نار حنين، وفي سلوكهم خُلق نبي.

كانوا يرون أن محمّدًا صلى الله عليه وسلم لم يُبعث لهم وحدهم، بل للعالمين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فحملوا همّ الأمة، وبثّوا نور الرسالة، وساروا على طريقٍ مفروشٍ بالشوق والجهاد.

فهذا أبو بكرٍ رضي الله عنه يقول حين ارتدت بعض القبائل" :أينقص الدين وأنا حي؟"!، وكأن السيرة كانت تجري في عروقه دمًا، ويقينه فيها لا يتزحزح.

وهذا عمر، فتح الله به مشارق الأرض ومغاربها، وما كانت في يده إلا عصا التقوى وسيف العدل، يسير بالناس على نهج معلمه الأول، محمد صلى الله عليه وسلم.

وعثمان أنفق وواسَى، وعلى يده حفظ الله كتابه، وجمع الأمة على مصحف واحد، وكأنما كان يحرس نور الوحي بأمواله.

وعليٌّ، باب العلم، فارس الميدان، ومرآة النبوة في الشجاعة والزهد، نذر نفسه للحق، ومشى في ركاب السيرة حتى استُشهد وهو يردد كلمات توحيدٍ ما فارقته منذ أن شبّ.

ثم جاء من بعدهم قومٌ ساروا على الأثر، وجعلوا من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم نبض قلوبهم، وحركة أرواحهم، ودليل خطاهم. من صدق في اتباعه، وسلك سبيله، ووضع سُنته أمام عينه، فقد نجا، وكان حقًا من أهل النور.

إن من سار على هذا الدرب، لا بد أن يصل، ومن تشبّه بالقوم، فهو منهم، ومن عاش للسيرة، عاش لله، وذُلّ له كلُّ صعب، وهان عليه كل عسير، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣.[

أما من أعرض عن هذا الدرب، وابتعد عن هدي هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فإنه في التيه وإن ظنّ أنه على طريق، وفي ظلمات الجهل وإن أحاط نفسه بأضواء الدنيا.

فيا قارئ هذه الكلمات: إن كنت تريد النجاة، فاجعل سيرة محمد صلى الله عليه وسلم رفيقك، واقرأها لا بعينك فقط، بل بقلبك، وامشِ بها، وامشِ فيها، فإن من سار على الدرب... وصل.

الفقرة الرابعة: السيرة ليست للتاريخ... بل للحياة

ليست سيرة النبي صلى الله عليه وسلم صفحات مطوية بين دفّتي كتاب، ولا أحداثًا حُبكت بحبر التاريخ لتُروى في المجالس وتُحكى للتسلية، بل هي مشكاة نور، ومنهاج خلود، ودستور أمةٍ تبحث عن هويتها في زمن التيه، وتتشوّق إلى طريق النجاة وسط أمواج الفتن المتلاطمة.
إنها مرآة تعكس الجمال الحقيقي للإسلام حين يُعاش، وتصور الواقع المنشود حين يسكن الإيمان في القلوب، وتتحول المبادئ إلى أفعال، والمثل إلى مواقف.

لقد كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قرآنًا يمشي على الأرض، كما قالت عنه أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها" :كان خلقه القرآن"، فكل خُطوة من خُطاه بيانٌ إلهي، وكل حركةٍ من حركاته تفسير عمليٌّ لما أنزله الله من هُدى، قال تعالى :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾]القلم: ٤.[

كان صلى الله عليه وسلم لا يأمر بشيء إلا وكان أول الملتزمين به، ولا ينهى عن خلق إلا وكان أبعدَ الناس عنه، علَّم العالمين أن الإيمان ليس كلمات تُقال، بل حياة تُعاش.
غرس في النفوس الصدق والتواضع، وربّى القلوب على الصبر والبذل، وأخرج من مدرسة النبوة رجالًا قادوا الأمم، ونوَّروا الآفاق.

وحين نقرأ السيرة اليوم، فلا يليق بنا أن نقرأها كأخبار العجائب، أو حكايا الأسلاف، بل نقرأها بقلوب المحبّين، وأرواح السالكين، نقرؤها لنعرف كيف نأكل كما أكل، وننام كما نام، ونتواضع كما تواضع، ونحكم كما حكم، ونصبر كما صبر، ونسامح كما سامح، ونخاف الله كما خافه، ونحيا لله كما عاش لله.

فالسيرة النبوية ليست ترفًا ثقافيًا، بل هي طريق الهداية، وهي النور الذي قال الله تعالى عنه:
﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾]المائدة: ١٥[، وما النور إلا النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال كثير من المفسّرين.

ومن الخطأ الفادح أن نجعل السيرة مادة تكميلية في مناهجنا، أو نكتفي بسردها للأطفال كقصص قبل النوم، بينما هي في الحقيقة "المصدر العملي الأول لفهم الإسلام، بعد القرآن الكريم."
هي السراج الذي يُضيء للحيارى دروبهم، والبوصلة التي تعيد التائهين إلى المسار، ومن اتبع هذا النور لا يضلّ، ومن أعرض عنه أضاع نفسه، وضل عن سواء السبيل.

إننا حين نعيش في ظلال السيرة، نستشعر قول الله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾]الأحزاب: ٢١[،
فهذه ليست دعوة للتأمل فقط، بل نداءٌ للاقتداء، وتحريضٌ على أن نُعيد تشكيل أنفسنا وأسرنا ومجتمعاتنا على ضوء ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

فيا من تُفتّش عن القدوة... دونك السيرة، فيها الطُّهر كلّه، والنبل كلّه، وفيها جمال لا يبهت، ونور لا يخبو.
ويا من يريد الله والدار الآخرة... فليجعل من السيرة غذاءً للقلب، وخارطةً للعقل، وسُلّمًا للارتقاء.

من جعلها نبضًا لقلبه، أحياه الله، ومن أهملها، فقد مات قلبه وإن كان بين الأحياء.
فليست حياة القلب بكثرة الأنفاس، بل بقُرب السِّير من سيرة من قال فيه ربه:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

الفقرة الخامسة: السيرة... مرآة التذكير بالحقيقة

حين تقرأ السيرة النبوية، فإنك لا تفتّش في سجلّات الماضي، ولا تذرع الزمن بحثًا عن أثرٍ مضى وانقضى، بل تقف أمام مرآةٍ صافية، صقِيلةٍ من نور، تعكس لك جوهر الحقيقة ...**حقيقة الدين** كما أراده الله، لا كما بدّلته الأهواء، **وحقيقة النفس** حين تصفو لربّها، فتُحسن الظن، وتصبر وتتوكل، **وحقيقة الحياة** بما فيها من شدائد وفتن، ومجاهدةٍ وصعود.

إن كل مشهد من مشاهد السيرة هو صدمة وعيٍ توقظك من سبات الغفلة، وتذكيرٌ صارخ وسط صخب الدنيا، يناديك لتعود إلى الأصل.

تذكير **بأن الله هو الغني القوي، العزيز الحكيم**، لا يُغلب، ولا يُهزم، وأن النصر لا يصنعه العَدد ولا العتاد، بل يَصنعه اليقين والتقوى، قال تعالى :﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾]الأنفال: ١٠.[

تذكير **بأن الصبر طريقٌ إلى المجد**، وأن الابتلاء سنّة لا تتخلّف، بل هي السبيل لتمحيص الصفوف وتنقية النفوس، قال الله تعالى :﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾]العنكبوت: ٢.[

تذكير **بأن للحق ثمناً**، وبأن طريق الدعوة محفوف بالأذى والخذلان والتكذيب، كما قيل له صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا...**﴾]الأنعام: ٣٤.[

تذكير **بأن الدنيا ظلّ زائل، وأن الآخرة هي الوطن الحقيقي**، قال النبي صلى الله عليه وسلم" *ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.*"

تذكير **بأنك إن كنت مع الله، فلن يضيعك أحد، وإن خذلك الناس كلهم.**
وقد قيل لصاحب الغار" :**لا تحزن إن الله معنا**"، فكان المعية الإلهية خيرًا من ألف جيش.

بل إنّ مشاهد السيرة تتحدث بلغات القلوب، وتضرب على أوتار الوجدان:

غار ثور يهمس لك في لحظات الخوف" :*كن مع الله، ولا تبال...*"

غزوة حنين تصرخ في وجه الغرور" :*إياك أن تعجب بالكثرة، فالنصر لا يُشترى بها...*"

أُحُد يبصّرك بحقائق الرسالة" :*ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئًا...*"

الهجرة تعلّمك أن الوطن ليس ترابًا، بل حيث يُعبد الله وتُقام حدودُه ويُرفعُ ذكره.

فالسيرة ليست قصة... بل **مرآة**، كلّما نظرت فيها بصدق، رأيت نفسك:
رأيت موقعك من الله، ومكانك في خارطة الإيمان، ومقدار إخلاصك، ومصيرك إن سلكت سبيله أو أعرضت عن هديه.

هي مرآة تُريك من أنت في ميزان السماء، لا في أنظار الناس .مرآةٌ من نور، لا تكذب، ولا تُجمّل، ولا تخدع، فمن تأمّل فيها، عرف حقيقته ...ومن أعرض عنها، عاش بوهمٍ من زخرف الحياة، حتى يُفجأه الرحيل.

الفقرة السادسة: السيرة النبوية أمانُ الأمة في زمن الفتن، وسُفُنُ النجاة حين تعصف الرياح

إذا ادلهمّت الفتن، وهاجت أمواج الباطل، وتكسّرت مجاديف العقول في بحار الحيرة، وغرقت القلوب في لُجج الشبهات والشهوات، فلا مرفأ آمن، ولا شاطئ نجاة، إلا في سفينة السيرة النبوية التي أعدّها الله لعباده المؤمنين، لتكون منارًا يهدي في الظلمات، ودربًا يُفضي إلى النجاة، وحصنًا منيعًا تعتصم به الأمة من التيه والضياع.

إن السيرة العطرة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ليست مجرد أحداثٍ تُروى، ولا مواقف تُسرد، بل هي كتاب هداية مفتوح، وميزان عدلٍ لا يختل، وبوصلة لا تنحرف، ترسم للأمة طريق الثبات حين تموج الدنيا بالاختلال، وتغرس في القلوب يقينًا يضيء في ليالي الشك، وتمنح العقل رشدًا حين تُسقط الفتن كل الثوابت.

لقد قال الله عز وجل:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾]الأحزاب: ٢١[،
فما من موقفٍ إلا وله فيه صلى الله عليه وسلم قدوة، وما من فتنة إلا وأرشدنا فيها إلى السبيل.

تأمل ثباته صلى الله عليه وسلم يوم أن راوده أهل مكة عن دينه، فطلبوا منه المساومة، وراودوه عن الرسالة، وأرادوا منه أن يلين فيلينوا، فأبى، وكان الجواب المجلجل في وجه الباطل:
"والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه."أيّ ثبات هذا؟ وأيُّ يقينٍ يسكن في قلب نبيٍّ يعرف أن الطريق محفوف بالأذى، ومع ذلك لا يزحزحه عن الحق زاجرٌ ولا مغرٍ؟

وفي حجته الأخيرة، حين استودع الأمة وصاياه الأخيرة، وكان يعلم أن الفتن قادمة، والابتلاء واقع، قال صلى الله عليه وسلم":**فإنه من يعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ]** "...رواه أبو داود.[
لقد كان يُنبئنا أننا سنشهد زمنًا تُخلط فيه الأوراق، وتُزيّن فيه البدع، وتُفتن فيه العقول... فما السبيل؟ التمسك بالسيرة، والعضّ على منهج النبوة.

وفي السيرة مواقف تُربي القلوب، وتوقظ العقول، وتُعلّم الصبر في الشدائد؛ كيف ثبت صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب ثلاث سنين على الجوع والحصار؟ كيف كان يربّي أصحابه على أن النصر لا يُنال إلا بالصبر؟
تأمل قوله صلى الله عليه وسلم لخباب بن الأرتّ، حين جاء يشكو شدة العذاب:
"والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله... ولكنكم تستعجلون] "رواه البخاري.[
فكانت السيرة درسًا في الصبر، والتوكل، وانتظار الفرج مع الثبات على المبادئ.

ومن أراد النجاة في زمن الانحراف، فليتأمل حال الصحابة، كيف كانوا يعودون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كل نازلة، ويتعلّمون منه الحذر والبصيرة. في أحد، حين تزلزلت القلوب، وكان الاختبار شديدًا، جاء التوجيه الرباني:
﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾]آل عمران: ١٤٤[
تثبيت وتذكير بأن الحق لا يتوقف بموت الرجال، بل هو مسيرة لا تنقطع.

إن السيرة النبوية ليست فقط روايات عن الغزوات والهجرة والمعارك... بل هي مرجعية فكرية، ومصدر أمان نفسي وروحي، تُعيد للأمة توازنها حين تفقده، وتردها إلى أصلها حين تتشظى، وتحصّنها من الفتن الفكرية، ومن مسالك الضلال، ومن البدع والمحدثات.

ومن رام النجاة وسط الفتن المتلاطمة، فليجعل السيرة النبوية رفيقة قلبه، ودليله في حياته، وموئله عند اضطراب الأهواء، فإن فيها العلم، والحكمة، والتزكية، والهداية، والبصيرة.

فلا يُؤمَن الفتنة إلا من سلك طريق محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يُنجى من الضلالة إلا من استمسك بسنّته، ولا يُثبت في زمن الزيف إلا من شرب من نبع سيرته حتى ارتوى قلبه، واستقامت رؤيته.

الفقرة السابعة السيرة تعني العودة إلى الخلافة... إلى المجد الضائع والعز الغائب

ليست السيرة النبوية كتابًا يُقرأ على أطراف المجالس، ولا قصة تُروى للتسلية والتأمل، بل هي مشروع أمة، ودستور نهضة، ومنهج حياة متكاملة، فيها الشفرة التي تُبعث بها العزة من جديد، والمفتاح الذي تُفتح به أبواب التمكين، والنبراس الذي يهدي إلى عودة الخلافة على منهاج النبوة، التي بشّر بها نبي الهدى صلى الله عليه وسلم في قوله العظيم...:ثم تكون خلافة على منهاج النبوة«رواه أحمد وصححه الألباني.(

لقد جاءت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إيذانًا بولادة أمة لا تموت، وانبعاثًا لحضارة لا تغيب شمسها، وصناعة لرجال لا تزلزلهم العواصف، ولا تستهويهم زخارف الأرض.
لم يكن صلى الله عليه وسلم صاحب خطاب حماسي، بل كان مؤسس دولة، وباني حضارة، ومربّي رجال، وخاتم نبيين، وأمام يديه تتشكل أركان الأمة التي ستنير المشارق والمغارب.

من ظلمات الجاهلية، أقام دولة على عين الله، تحكم بالوحي، وتقود بالحق، وتنشر العدل، وترفع راية لا إله إلا الله على أطلال الطغيان، وخرائب الظلم، وسدود الجهل.

إنّ من يقرأ السيرة بعين العارف وبصيرة المؤمن، لا يكتفي بالبكاء عند مشهد الهجرة، أو الحنين لغار حراء... بل يدرك أن هذه المواقف كانت لِبنات في بناء دولة، وجذورًا لشجرة عظيمة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

كانت السيرة منهجًا في صناعة الإنسان قبل السلطان، وتربية الجيل قبل إقامة الدولة، ووضع الأساس قبل رفع البناء.

حين نتأمل كيف بنى النبي صلى الله عليه وسلم دولته من قلب المدينة، لا بقوة الحديد، بل بروح الإيمان، ومنهج القرآن، وأخلاق الرحمة، ندرك أن العودة إلى السيرة ليست عودة عاطفية، بل عودة إلى أعظم مشروع تحريري عرفته البشرية.

قال الله تعالى}:هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون){*التوبة:* ٣٣ (

وفي كل سطر من سيرته صلى الله عليه وسلم، تشع مفاهيم الحكم الرشيد، والعدل الباذخ، والشورى في اتخاذ القرار، وحفظ الحقوق، ورفع الظلم، والتخطيط الحاذق للغزوات، وتنظيم المجتمع على أسس الإيمان والولاء لله.

إذا أردنا العودة إلى الخلافة، فعلينا أن نبدأ من السيرة...
فالسيرة هي البذرة، ومنهج النبوة هو الطريق.

فما أحوجنا اليوم إلى أن نُخرج من بين صفحات السيرة رجالًا كأبي بكر في ثباته، وعمر في عدله، وعثمان في إنفاقه، وعلي في فقهه، وخالد في بأسه، وسعد في قيادته...
رجالًا يعيدون للأمة مجدها، ويقيمون الدين كما أقامه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى}:وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم{...)النور: ٥٥(

وعدٌ صادق من رب العالمين، لا يتحقق إلا إذا سلكنا ذات الطريق، وشربنا من ذات المعين، واستنرنا بنور السيرة كما استنار به الجيل الأول.فالخلافة ليست وهمًا ينتظر، بل واقعًا يُصنع...
ولا تُقام على العواطف والشعارات، بل على سُنن النصر وأسباب التمكين.

ومن أحب أن يرى فجرها، فليقرأ السيرة...
وليس فقط ليتأثر، بل ليعمل، ويُربي، ويُعد، ويبني...
فمن هنا يبدأ الطريق.

الفقرة الثامنة من حُرِم السيرة... حُرِم النور والهدى والدليل

يا له من خُسران مبين أن يُحرم امرؤ من أعطر سيرة، وأجلّ حياة، وأكمل قدوة!
ويا لها من قسوة في القلب، أن يُفتح لحديث كل تافه، ويُغلق عن ذكر سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم!

السيرة ليست مجرد أحداث يُقرأ تسلسلها، ولا قصة تُروى على سبيل العظة أو التأثر العابر، بل هي روح تسري في الأمة فتحييها، ونورٌ يُسكب على القلوب فتستنير به، وطوق نجاة في بحر الفتن المتلاطم، وبوصلةُ استقامة في زمن التيه، ومصباح هدى في ليل الحضارة البهيم.

قال الله تعالى}:قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور){*المائدة: ١٥-١٦* (
قال أهل التفسير :*النور* هو النبي صلى الله عليه وسلم، كما قاله مجاهد وقتادة والطبري.

فيا من حرص على كل علم، هل عرفت سيرة نبيك؟
ويا من حفظ أخبار المشاهير، هل حفظت مواقف من حياة سيد المرسلين؟
ويا من يشتاق إلى الجنة، كيف تشتاق إليها وأنت لا تشتاق لصاحبها الذي يُطرق بابها أولًا؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم»:أنا أول من يقرع باب الجنة)*رواه مسلم*(

من لم يعرف حياة نبيه صلى الله عليه وسلم، فبأي قلب يشتاق إليه؟
وبأي ميزان يحبه؟
وكيف يثق بطريقه؟
ومن أي باب يسلك سنته؟

السيرة ليست ترفًا للخواص، بل ضرورة لكل مسلم، ومصدر من مصادر الإيمان، ومدرسة متكاملة في العقيدة والفقه والتربية والسياسة والأخلاق، وميدان تتعلم فيه كيف يكون الثبات حين يُخذل الناس، والرحمة حين تشتد القسوة، والحكمة حين تضل العقول، والعفو حين يطلب الجميع الثأر.

وإن أعجب العجب أن تُملأ عقول الناس بأسماء المغنين والممثلين والمشهورين، وتُهجر سيرة من علّم الدنيا كيف يكون الحياء، وكيف يُبنى الرجال، وكيف تُقاد الأمم، وكيف يُعبد الله حقًا!

قال الله تعالى}:لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا{
)الأحزاب: ٢١ (

ولقد قرر العلماء أن الجهل بالسيرة هو أصل لكثير من الضلالات الفكرية، والانحرافات السلوكية، والاضطرابات العقدية؛
كم من شبهةٍ فتنت قلوبًا ما كانت لتفعل، لو أن أصحابها عرفوا مواقف النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف تعامل مع المخالف، وكيف خاطب المشرك، وكيف أدّب المنافق، وكيف أدار الأزمات، وكيف حافظ على وحدة الصف، ووازن بين المبادئ والمصالح، وأرسى قواعد الرحمة والعدل والواقعية النبوية.

إن من يُحرم من السيرة، فقد حُرم من نور النبوة، ومن شرف الاقتداء، ومن حلاوة المعرفة، ومن طمأنينة الفهم، ومن دفء الصحبة مع خير خلق الله.

إنها خسارة ليست بعد السيرة، بل في تركها أصلًا...
خسارة في الهوية، وفي الإيمان، وفي الفهم، وفي الطريق.

فمن أراد أن يرى الحق، فلينظر في سيرة من لا ينطق عن الهوى.
ومن أراد أن يتلمّس النور، فليسر على خُطى من بُعث بالنور المبين.
ومن أراد أن يخرج من ظلمات الحيرة، فليدخل مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها النور كلّه، والهُدى أجمعه، والدليل الأوضح، والقدوة التي لا يضل من تبعها.

قال صلى الله عليه وسلم»:تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي(«*رواه مالك في الموطأ*(

الفقرة التاسعة الابتعاد عن السيرة... هوى في مزالق الذل، وقطعٌ لحبل العز

حين تنأى أمة الإسلام عن سيرة نبيها صلى الله عليه وسلم، فإنها لا تهجر مجرد صفحاتٍ من التاريخ، ولا تتخلى عن ذكريات الأجداد، بل تفارق النبع الذي تفيض منه كرامتها، وتنقطع عن الجذر الذي تستمد منه هويتها، وتشيّع بمحض إرادتها سرّ قوتها ومجدها وعزّها بين الأمم.

السيرة ليست حكايات تُروى في المجالس، ولا فصولًا تدرَّس في المدارس فحسب، بل هي المنهاج الرباني الذي صاغ به الله أمةً من رعاة غنم، فقادوا ممالك الأرض، وحرّروا العقول، وأنقذوا الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.
إنها ليست سيرة رجلٍ عاش ومضى، بل سيرة أمةٍ قامت به، ونهضت على عينيه، ومضت على نوره، وعلت باسمه، وتاهت يوم أن تخلّت عن خُطاه.

وكلما ابتعدت الأمة عن سيرته صلى الله عليه وسلم، واقتفت آثار غيره، شرقًا كان أو غربًا، نبذوها بعد أن نبذت هدي نبيها، وأذلوها بعد أن تخلّت عن أسباب عزها.

قال الله تعالى}:**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى) {***طه: ١٢٣-١٢٤ (*

ومن أصدق من الله قيلًا؟!

فما نزلت بالأمة ضائقة، ولا تسلّط عليها عدو، ولا تفرّقت بها السبل، ولا اشتدّت بها الفتن، إلا يوم ابتعدت عن نور السيرة، وتنكبت عن هدي صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، فذاقت طعم الهوان، ووجدت مرارة الاستضعاف، وسُلّطت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»:يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

قالوا: يا رسول الله، أمن قلّة نحن يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن .«قالوا: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت)*رواه أبو داود*(

فهذا هو الوهن... حين تُهجر السيرة، وتُقدَّم ثقافات البشر على نور الوحي، ويُبحث عن القدوات في شاشات الغرب بدلًا من أنوار المدينة، ويُتخذ الدستور من غير سنته، والطريق من غير هديه، والخطط من غير فقهه.

وليس أشد إظلامًا من حال أمةٍ تُولد كل يوم على ألسنة دعاتها ألف خطة نهضة، وألف مشروع تجديد، وألف وعد بالرفعة، لكنها لا تبدأ من حيث بدأ النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تبني كما بنا، ولا تربي كما ربّى، ولا تقود كما قاد، فأنى لها النصر؟! وأنّى لها التمكين؟!

إن الأمة لا تعود إلى مكانتها، ولا تسترجع مجدها، إلا إذا عادت إلى السيرة لا حفظًا فحسب، بل تطبيقًا وتفعيلًا، واستلهامًا في الخطاب والتخطيط، في التربية والسياسة، في الاقتصاد والدعوة، في الميدان والبيت، في المحراب والمتجر، في السلم والحرب.

قال الله تعالى}:**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا {** *الأحزاب: ٢١ (*

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :من كان متأسِّيًا فليتأسَّ بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم.«

فإذا عادت الأمة إلى سيرة نبيها صلى الله عليه وسلم، عادت إلى العز، لا بجهدها فحسب، بل بمعونة من السماء، ونصر من رب الأرض والسماء .وإذا أقبلت على سنته، أقبل الله عليها .وإذا أعادت قراءة حياته، أعاد الله إليها الحياة.

فيا أبناء الأمة، عودوا إلى السيرة، ففيها مجدكم، وعزكم، وبقاؤكم.

عودوا إلى ذلك النور الذي أضاء ظلام الجزيرة، فعمّ به الكون...

عودوا إلى الصادق الأمين، إلى المعلم الأول، إلى قائد البشرية وسيد ولد آدم، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

الفقرة العاشرة: أمة بلا سيرة... كجسد بلا روح، وكقلب بلا نبض، وكسماء بلا شمس

ليست السيرة النبوية مجرد قصة تُروى، أو أحداث تُسرد في الكتب، أو محفوظات تُكرّر على الألسن... بل هي الحياة حين تنبض بالمعنى، والروح حين تتصل بالسماء، والهوية حين تبحث عن جذورها، والنهضة حين تفتش عن منهجها، والسُّمو حين يسعى إلى قدوته الكاملة.

من كان يظن أن السيرة صفحات محفوظة في كتب التراث فقد ظَلَمَها، ومن جعلها حكايات للأطفال فقد جَهِلَها، ومن ظن أن الأمة تستطيع أن تنهض بغيرها فقد خَسِر الطريق، وغرِق في سراب الأوهام.

لقد كانت هذه الأمة أمةً قائدة حينما كانت تسير على خُطا نبيها صلى الله عليه وسلم، تحفظ هديه، وتقتفي أثره، وتستن بسُنّته، ففتحت القلوب قبل البلاد، ونشرت العدل قبل الجيوش، وأنارت العالم يوم كانت الدنيا تتخبط في دياجير الظلم والجهل.

ويوم تخلّت الأمة عن سيرة نبيها، وعافت سيرته، واستبدلت بها سير الأباطرة والفنانين واللاعبين والروائيين والمشاهير... هانت على أعدائها، وتبعثرت هويتها، وغرقت في التيه، وذبلت روحها حتى كأنها جسد يمشي بلا حياة.

إن الأمة حين تنزع السيرة من منهجها، فإنها تنزع النور من طريقها، وتنتزع الإلهام من شبابها، وتُطفئ شعلة القدوة في قلوب أطفالها، وتجعلها فريسة للضياع، تتبع السراب، وتُشبه ولا تُشبه، وتُقلد ولا تقتدي، وتُعجب ولا تعتز.

ومن العجب، بل من الألم العميق، أن ترى أجيالًا اليوم تحفظ أسماء أبطال خياليين، وتحاكي شخصيات لا حقيقة لها، وتُبهر بوجوه براقة على الشاشات، بينما تُعرض عن سيرة خير من وطئ الثرى، رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، لا تعرف كيف كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ولا كيف كان يرحم الأطفال، ويبكي لدمعة اليتيم، ولا كيف كان يقود الجيوش، ويصبر على البلاء، ويزرع الأمل في القلوب المحطمة.

إن السيرة النبوية ليست بديلاً عن العلم، بل هي بوابته الكبرى، وليست تعارض الفكر، بل تُنقيه من الغلو والتسيب، وليست عائقًا أمام الحضارة، بل هي دعامتها الكبرى.

قال الله تعالى}:لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا] {الأحزاب: ٢١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي – "رواه مالك.

فمن ترك سيرته، ترك الأسوة، وترك النجاة، وترك النور، وترك الرسالة، فكيف يأمن على دينه من أعرض عن سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم؟! وكيف يبني مجدًا من لا يقتفي أثر من شيّد أمة من فتات بشر، وربّى رجالًا كانوا أعزة على الكافرين رحماء بينهم؟!

أمة بلا سيرة، أمة بلا ذاكرة...
أمة بلا سيرة، أمة بلا مرجعية...
أمة بلا سيرة، أمة بلا مشروع...
بل أمة بلا سيرة، هي أمةٌ بلا روح.

الفقرة الحادية عشرة: تعظيم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم... ليس نافلةَ حب، بل فرضُ دين

ليس تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم زفرة عاطفية في لحظة خشوع، ولا دمعة رقراقة عند سماع اسمه الشريف، ولا كلمات نرددها على ألسنتنا حين يُذكر بيننا... بل هو *دينٌ وعبادة، واتباعٌ وسلوك، وعهدٌ متجدد في كل لحظة من لحظات العمر*.

هو تقديم له على النفس والهوى، والناس والآباء والأبناء، بل على كل ما يهوى القلب أو تشتاق إليه الروح، مصداقًا لقوله تعالى:﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾]الأحزاب: ٦.[

ومن عظمة هذا التعظيم أن جعله الله شرطًا في صحة الإيمان، فقال سبحانه:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾]النساء: ٦٥[،
وقال النبي صلى الله عليه وسلم":لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين] "البخاري.[

وما كانت سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم تُكتب في دفاتر الذكريات، ولا تُروى على سبيل التسلية كما تُروى القصص، بل كانت – وستظل – *مرآةً حقيقيةً لتعظيمه، وبرهانًا صادقًا على محبته*، فمن أحب النبي حقًا، أحب سيرته، واحتضنها قلبه، وسرى بها في دمه، وتحدث بها في بيته، وغرسها في ولده، ودافع عنها في مجتمعه، وأراها للعالم حيّةً في سلوكه قبل أن ينطق بها لسانه.

تعظيم السيرة يعني أن نوقن أن كل لحظة فيها، وكل موقف، وكل كلمة أو دمعة أو ضحكة أو غضبة، إنما هي *هديٌ رباني، موصول بالوحي، مؤيد من الله، ليس فيها عبث ولا تصرف بشري معزول*.

تعظيم السيرة يعني أن نعاملها كمنهاج حياة، لا كأوراق تاريخ؛ وأن نستلهم منها معالم الحق في زمن الفتن، ونواجه بها الانحرافات الفكرية، ونرد بها شبهات المشككين، ونستحي بها من أنفسنا حين تنزلق في تيارات التغريب والتقليد.

وما أبعدنا اليوم عن هذا التعظيم!...
حين نرى شبابًا يُعجبون بصرخات مغنٍّ غربي، أو حركات لاعب شهير، أو أقوال مفكر متحرر، بينما لا يعرف أحدهم كم *غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من هنّ أمهات المؤمنين، ولا كم صلى وكم بكى، ولا كيف ودّع الدنيا، ولا ما كانت وصاياه لأمته وهو على فراش الموت*!

وما أقبح أن ترى من يتجرأ على مقامه الشريف باسم "التحليل التاريخي"، فيفصل بينه وبين الوحي، وينسب أفعاله للبيئة لا للوحي، أو يحلل سيرته كأنها سيرة زعيم قومي لا نبي ختم الله به الرسالات.

كلا والله!
ما أكرم الله أحدًا كما أكرم نبيه،
ولا رفع أحدًا كما رفعه،
ولا قرن اسم أحد باسمه في الأذان والصلاة والذكر كما قرن اسمه،
ولا كتب لأحد الخلود في القلوب والكون كما كتبه له.

فحقٌ علينا – كل مؤمن ومؤمنة – أن نعظّمه، ونعظم سيرته، ونجعلها نبض حياتنا، وأن نعلّم أبناءنا أنه لا عز لنا إلا بهديه، ولا نجاة لنا إلا في طريقه، ولا روح في الأمة إلا بسيرته.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، واجعل سيرته نورًا في قلوبنا، وهديًا في حياتنا، ودعوةً في ألسنتنا، ونصرةً في سلوكنا، ونجاةً لنا يوم نلقاك.

الفقرة الثانية عشر: ومن وفَّى فقد نجا

ما أعظمها من أمانة، وما أجلَّها من رسالة! لقد اختار الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليكون خاتم النبيين، وحامل نور الوحي، ورافع لواء الهداية، فأدَّى الأمانة في أبهى صورها، وبلَّغ الرسالة كاملة غير منقوصة، حتى قال في آخر حجة له، وعلى صعيد عرفات الطاهر:
»اللهم هل بلغت؟« فارتجّت القلوب، وارتفعت الأصوات: "نشهد أنك قد بلغت، وأدّيت، ونصحت."
فقال: «اللهم فاشهد» [رواه مسلم.]

لقد جاهد في الله حق جهاده، حتى ورم قدمه، وأدمى نعليه، وتفطّرت شفتاه، واشتعل الشيب في رأسه، لا لشيء من متاع الدنيا، ولكن ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ربّى جيلاً فريدًا، سكب في قلوبهم نور التوحيد، وزرع في أرواحهم حب الله ورسوله، حتى صاروا شموسًا تضيء الأرض، وسفراء هدى في ليل الجاهلية، فانقلبت البشرية على يديه من عبث التيه إلى قوامة الاستقامة. ترك لهم منهجًا من نور، وسنةً كالشمس في رابعة النهار، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يعرض عنها إلا خاسر، ولا يُهملها إلا من استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

أليس هو الذي قال الله فيه:﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** ﴾، أي: يشق عليه ما يشق عليكم، ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** ﴾، أي: لا يهدأ له بال حتى تُنقذوا من النار،﴿ **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾]التوبة: ١٢٨[؟
أفهذا الحريص علينا، الرحيم بنا، تُنسى هديه؟ ويُعرض عن سيرته؟ ويُقدم عليه قول غيره من شرقٍ أو غرب؟!

ما أتعس أمةً تنشغل بحكايات الغرب، وتُعظم مشاهير الفُسّاق، وتهيم بأسماء نكرة من زعماء هوت بهم عروشهم في مزابل التاريخ، بينما يغيب عنها اسم أسامة الذي رُفع لواءه في الخامسة عشرة، وسعد الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وبلال الذي أُثخن ظهره بالجلد ولم يقل سوى: "أحدٌ أحد."

أتبكي قلوب الصحابة حين ودّعوه، ولا تبكي قلوبنا؟
لقد دخل الصديق رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مسجّى، فقبّله بين عينيه، وقال: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله! طِبتَ حيًّا وميتًا" [رواه البخاري.]
وبكت فاطمة الزهراء رضي الله عنها حتى اختنق صوتها، وقالت: "يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه... يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه."

كانوا يوقنون أن الحياة بعده ليست كما كانت معه، لكنهم لم يكتفوا بالبكاء، بل حوّلوا حزنهم إلى عزم، وفقدهم إلى عمل، فحملوا ما ترك، ونشروا ما بلّغ، وساروا على دربه حتى دانت لهم الدنيا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

فهل جزاؤه اليوم أن تُنسى سنته، وتُغفل وصاياه، ويُقدَّم الهوى على هدْيه؟
وهل من الوفاء أن تُعرض عن حديثه بحجة "الواقعية"؟ أو تُفسر سيرته وكأنها نتاج بيئة لا وحي؟!

كلا، والله.
الوفاء الحقيقي ليس في الكلمات، بل في الاتباع.
ليس في العواطف، بل في الاقتداء.
ليس في مدح السيرة، بل في معايشتها.
فأعظم صور الوفاء للنبي صلى الله عليه وسلم أن نكون مرآته في حياتنا؛ في صدقنا، وعفتنا، وأمانتنا، وتواضعنا، وزهدنا، وجهادنا، وتضحيتنا.

الوفاء له أن تُردّ سنته على الجاهلية المعاصرة، أن تكون سلاحًا في مواجهة الانحراف، أن تكون مشعل هداية وسط ظلام الفتن.

قال الله تعالى:﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾]الأعراف: ١٥٧[.

ومن وفّى نجا، ومن خان الوعد خُذل.
فيا من تُحبّ النبي صلى الله عليه وسلم: كن له وَفِيًّا، تكن معَه يوم القيامة، وتشرب من يده شربة لا تظمأ بعدها أبدًا.

الفقرة الثالثة عشر: نصرة السيرة بالعلم والعمل

إنّ نصرةَ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ليست نشوةَ لحظةٍ تعلو فيها الأصوات وتنطفئ بعدها الأعمال، ولا حماسةً عاطفيةً عابرةً سرعان ما يخبو وهجها، بل هي عهدٌ وميثاق، وفهمٌ وعمل، وتعلُّمٌ وتطبيق.

إنّ السيرة النبوية المباركة ليست كتابًا يُقرأ لمجرد المتعة، ولا تاريخًا يُروى لمجرد الثقافة، بل هي حياةٌ تُستعاد، ودروسٌ تُستلهم، وطريقٌ يُسلك، وهديٌ يُحتذى، وسُنةٌ تُنشر وتُحيى في واقع الناس، كما أحياها جيل الصحابة رضي الله عنهم، حين نصروا نبيهم صلى الله عليه وسلم لا بكثرة المقال، ولكن بكمال الاتباع وجلال الفداء.

إنّ من أراد أن يذوق طعم نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، فليُقبل على سيرته إقبال الظامئ على المورد العذب، وليطلبها كما يطلب الجائع خبزه، والعليل دواءه، والضالّ هدايته.
فليقرأها بعيون المحب، لا بعين المتفرج، وليتعلّمها بلسان التوقير، لا بعقل التهميش والتحليل البارد، فإنها ليست سيرة بشرٍ عادي، بل سيرة من قال الله فيه:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾]القلم: ٤.[

فما كلُّ من قرأ السيرةَ قد نصرها، وما كلُّ من سرد الأحداثَ قد وعى المقصود، بل الناصر حقًّا هو من جعل من كلّ موقف نبوي درسًا لحياته، ومن كل خُلقٍ محمديٍّ منهجًا في سلوكه، ومن كل توجيهٍ نازلٍ من الوحي نبراسًا في ظلمات الفتن والتيه.

أترى الصحابةَ الكرام كيف نصروا نبيهم؟ لم يكتفوا بالحفظ والرواية، بل ترجموا السيرة إلى حياة، وجعلوا هدي النبي صلى الله عليه وسلم نبضًا يسري في أحاديثهم، وخُطاهم، وحُكمهم، وجهادهم، وأسرهم، ومعاشهم.
روى الإمام مالك أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يتتبع مواضع نزول النبي صلى الله عليه وسلم في طريق الحج فيقف حيث وقف، ويبيت حيث بات، ويُديم التأسي به في أدق التفاصيل، لأنه كان يرى في ذلك تعظيمًا ونصرةً وهديًا لا يُفرَّط فيه.

وحين سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلقه صلى الله عليه وسلم قالت" :كان خُلُقُه القرآن] "رواه مسلم]، أي أنّ حياته كلَّها كانت تفسيرًا عمليًّا لكتاب الله، فكيف بنا نطلب القرآن ونهجر التفسير العمليّ الذي تجلى في سيرة من أُنزل عليه؟

لقد نصرت الأمة نبيها يوم حملت علمه في عقولها، ونور هديه في قلوبها، وشعلة رسالته في أيديها، فسادت به الدنيا، وبلغت رسالتُه ما بلغ الليل والنهار.
ويوم اكتفينا بذكره في الاحتفالات، دون إحياء سنته في البيوت والمجتمعات، ضاعت النصرة، وغلبتنا الجاهليات، وإن كثر المدّاحون.

قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾]آل عمران: ٣١[،
فليست المحبة كلامًا، بل اتباعًا، وليست النصرة صوتًا، بل سيرًا على أثر من قال فيه رب العزة:
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾]التوبة: ١٢٨.[

فمن أراد أن يكون جنديًّا في صفوف النصرة المحمدية، فليكن أول ما يحمله علم السيرة، وأول ما يسلكه نهج النبي صلى الله عليه وسلم، وأول ما يُحييه في الناس سنّته وأخلاقه، ولسانه دائم الترديد:
"اللهم اجعلني مرآةً لهدي نبيك، وسائرًا على خطاه، ما أبقيتني في أرضك."

فمن نصر، نُصِر، ومن خذل، خُذِل، ومن وفَّى، فقد نجا.

الفقرة الرابعة عشر كيف نُعيد السيرة إلى واقع الناس؟

إن السيرة النبوية ليست كتاب تاريخ تُطوى صفحاته بعد دراسته، ولا مجموعة من القصص تُسرد للسامرين على سبيل التسلية، ولا تراثًا يُعلّق في المتاحف أو يُحتفل به في المواسم والمناسبات، بل هي النور الذي أرسله الله في شخص نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم ليضيء دروب البشرية حتى قيام الساعة.

لقد كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قرآنًا يمشي على الأرض، نورًا يهدي، ورحمةً تسع الخلق، وعدلًا يضبط الميزان، وإيمانًا يحيي القلوب، وتزكيةً تطهّر الأرواح، وهي اليوم ـ كما كانت بالأمس ـ المنهج الذي لا صلاح للبشرية إلا باتّباعه، والسبيل الوحيد إلى النجاة والفلاح.

قال الله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾]الأحزاب: ٢١.[

فمن أراد أن يجد الأسوة، ويستنشق عبق الهداية، ويتذوق حلاوة القرب من الله، فلينظر في سيرته صلى الله عليه وسلم نظرة حياة لا نظرة حفظ، نظرة اقتداء لا نظرة إطراء.

وإن أردنا أن نعيد السيرة النبوية إلى واقعنا، فليس ذلك بحفظ أسماء الغزوات أو ترتيب الأحداث، ولكن ببعث روحها في كل زاوية من زوايا الحياة:

نعيد السيرة حين تتحول بيوتنا إلى محاريب نور، وساحات صدق، تُحيا فيها سنته صلى الله عليه وسلم في التعامل، والتربية، والتوجيه، والمظهر والمخبر.

نعيد السيرة حين تصبح خطب الجمعة دروسًا في الاقتداء لا مجرد مواعظ، وحين تُبث دروس العلماء والدعاة محمولة على جناح السيرة النبوية لا على سير الغرب والمشاهير.

نعيد السيرة حين تصبح المواقف اليومية مشاهد واقعية تعكس أخلاقه صلى الله عليه وسلم: صدقه في السوق، تواضعه في البيت، حلمه في الغضب، وفاءه في العهد، رحمته مع الصغير، عدله مع الجميع.

نعيد السيرة حين نربط السيرة بالواقع؛ فإذا نزلت بنا نازلة، سألنا: ماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ليفعل لو كان بيننا؟

نعيد السيرة حين تدخل إلى مناهج التعليم لا كصفحة عابرة بل كهوية تُصنع بها العقول، وتُغرس بها القيم، وتتشكل بها النفوس.

نعيد السيرة حين نطلق العنان للأدباء، والكتّاب، والمبدعين أن ينسجوا من خيوطها أدبًا طاهرًا، وسردًا نقيًّا، يحاكي الأرواح ويأسر العقول.

نعيد السيرة حين نرى على الشاشات أعمالًا فنية صادقة، تمثل حياة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته من غير تهوين ولا تهويل، ولا زيادة ولا نقص، بل تقدمها كما هي: نورًا، وحقًّا، وجمالًا.

نعيد السيرة حين نتّبع ولا نبتدع، ونحيي السنن التي أماتها الناس، ونميت البدع التي أطفأت نور الهدي، ونقيس كل فكرة وسلوك وموقف بهديه لا بعقول البشر وتقليد الغرب.

نعيد السيرة حين نكون نحن السيرة، نُترجمها بأفعالنا، ونعكسها في سلوكنا، فنصدق كما صدق، ونصبر كما صبر، ونعفّ كما عفّ، ونربّي كما ربّى، ونجاهد كما جاهد، ونرحم كما رحم.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ": كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل، قال: يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شركك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك["...*رواه أبو داود*.]
فانظر كيف كانت السيرة حاضرة في أدق اللحظات، حتى عند نزول الظلام!

إننا لا نريد أن نحفظ السيرة في دفاتر، بل أن نُجسّدها في حياتنا، نريد أن تتحرك السيرة في الأسواق، والمدارس، والمكاتب، والمنازل، أن تصبح واقعًا يراه الناس، لا خطابات يسمعونها ثم ينفضّون.

ومن وفَّى فقد نجا، ومن قصّر فقد خذل،﴿**فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾]هود: ١١٢.[

الفقرة الخامسة عشرة: من السيرة تبدأ الصحوة

حين تتعثر الأمم، وتضيع البوصلة، وتتشابك الطرق، لا خلاص لها إلا بالعودة إلى أصلها الأول، ومنبعها الصافي، إلى الجذور التي أنبتت المجد، وشكّلت الهوية، وأوقدت النور في الظلمات.

وما من أمةٍ ابتغت النهوض من سباتها، أو التملص من قيود ذلها، إلا وبدأت رحلتها بوقفة مع النفس، تبحث فيها عن قدوةٍ حقيقية، لا تُحني رأسها لرياح التبعية، ولا تتنكّر لروحها في زحام العولمة.

وأيّ قدوةٍ أسمى من النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم؟
وأيُّ سيرةٍ أبهى وأجلى من تلك السيرة التي سارت بسناها قوافل الفاتحين، وانبعثت من عبيرها حضارات العالمين؟
سيرةٌ ليست كأي سيرة، بل كانت مشعلاً أنار للبشرية طريقها، وقائدًا أعاد تعريف الإنسان، وأخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

إن الصحوة الحقيقية التي تُحيي القلوب وتبني العقول تبدأ من لحظةٍ يتوقف فيها الإنسان عند مشاهد السيرة، فيرى فيها مدرسةَ تربيةٍ متكاملة، لا تُغفل جانبًا من جوانب النفس والحياة.

فما قامت الصحوة في أمة من الأمم، إلا حين التفتت إلى سيرة نبيها صلى الله عليه وسلم، تدرسها لا للتسلية، وتحفظها لا للتفاخر، وإنما لتنهض بها، وتستضيء بأنوارها، وتسير على خُطاها.
كم من قلبٍ ميت بعثته آية من آيات السيرة!
وكم من نفسٍ مأسورة أطلقها مشهد من مشاهد الجهاد، أو لحظة من لحظات العفو، أو دمعة من دموع الرحمة!

لقد بدأت الصحوة الحقيقية في عهد الصحابة حين نزل الوحي على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فساروا خلفه بلا تردد، فصاغهم الوحي صياغةً جديدة، وعجنهم في تنور الابتلاء، فخرج منهم الجيل الذي زلزل الأرض، ونشر النور، وأقام القسط.

ثم امتد ذلك النور إلى التابعين، فمن تبعهم، كلما أحيوا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم، عزّوا وتمكّنوا. وكلما طُمست تلك السيرة في القلوب، وذُهل الناس عنها، خبت الصحوة، وتفرّقت السبل، وتاهت الأهداف.

قال الله تعالى:﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾]الأحزاب: ٢١.[

إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليست فقط سيرة قائدٍ عسكري، ولا مصلحٍ اجتماعي، ولا معلمٍ أخلاقي، بل هي مشروع نهضة شامل، يبدأ من تصحيح العقيدة، ويعبر عبر سلوك النفس، وينتهي ببناء الأمة.

وما نشاهده اليوم من ضعفٍ في الأمة، وتخبطٍ في مشاريعها، وتضاربٍ في رؤاها، إنما هو – في حقيقته – نتيجةٌ مباشرة لغياب روح السيرة عن واقعها.
أصبح كثير من الناس يعرفون عن سير الفاتحين، وعباقرة الغرب، وقادة الحداثة، أكثر مما يعرفون عن صبر النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف، وعن حلمه في مكة، وعن عدله في المدينة، وعن زهده على فراش الحصير، وهو سيد البشر.

وما أكثر من يحفظون نسبه الشريف، ويجهلون سلوكه الرفيع!
وما أضعف من يهتفون باسمه، ثم لا يُقيمون دينه، ولا ينهجون هداه!

قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عظيم يربط بين المعرفة والاتباع:
"تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي] "رواه الحاكم وصححه الألباني.[

فمن رام صحوةً بلا سيرة، فقد كمن يغرس الشجرة بلا جذور.
ومن دعا إلى التغيير دون أن يُربّي على هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو كمن يبني على الرمل، لا يلبث أن ينهار بنيانه.

إننا اليوم لا نحتاج إلى مزيد خطب نارية، ولا إلى هتافات وقتية، بل نحتاج إلى أن نغرس روح النبوة في الأجيال، ونبني الإنسان على معالم السيرة، في عبادته، وأخلاقه، وفكره، وزهده، وجهاده، وتخطيطه، ومعاملته.

ولن يُكتب النجاح لأي دعوة لا تُقيم أساسها على السيرة، لأن السيرة ليست تاريخًا يُروى، بل منهجًا يُحيا، ورسالةً تُتّبع، وهدايةً تُجسّد في الواقع.

فمن السيرة تبدأ الصحوة، ومن دونها يُغتال الوعي، وتضيع الهوية، وتُسحق الشخصية الإسلامية في زحام التغريب.

الفقرة السادسة :من عاش السيرة في نفسه، أحياها في الناس

إن السيرة النبوية لم تُبعث إلينا لتُعلّق على الجدران، أو تُروى في المجالس كأخبار الماضين، أو تُقرأ في المجالس ثم تُنسى في زحمة الحياة، بل جاءت لِتُبعث في القلوب حياةً، وفي العقول هدى، وفي السلوك نبراسًا، إنها ليست صفحاتٍ من تاريخٍ يُقرأ، بل أنفاسُ قدوةٍ تُتَّبع، ومشاعلُ نورٍ تُقتدى، ومنهجُ حياةٍ يفيض بالحكمة، ويتدفّق بالرحمة، ويتلألأ بالحق والعدل والجمال.

ومن أراد أن يُحيي السيرة في الناس، فليبدأ بإحيائها في نفسه، فإن السيرة لا تُبعث بالكلمات، بل بالأفعال، ولا تُنشر بالشعارات، بل بالقدوات، ومن سار على درب المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى غلبت شمائله على نفسه، وسكنت أخلاقه في جوارحه، وامتلأ قلبه بحبّه، ثم سرى ذلك النور إلى بيته وسلوكه وتعاملاته، صار كأنما هو مرآة تعكس للناظرين صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتُعيد لهم شمائله، وتُعرّفهم بهديه من غير أن ينطق بكلمة.

لقد قال الله تعالى في كتابه :﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾]الأحزاب: ٢١[
وهذه الأسوة لا تُفهم حقًا إلا إذا عُيشت، ولا تُورث أثرًا إلا إذا رآها الناس أمام أعينهم حقيقةً تُجسّد.

وقد كان الصادقون من هذه الأمة أعظم دعاةٍ إلى السيرة، لا بكثرة خطبهم، بل بصدقهم في تمثيلها، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله":كانوا إذا طلبوا العلم عملوا به، فبلغهم العمل فصاروا قدوةً لغيرهم".
نعم، هذا هو السر، أن يرى الناس السيرة تمشي على الأرض، لا في أوراق الكتب، بل في سلوك تاجر صادق، أو معلم رحيم، أو جار حليم، أو إمام عادل، أو ربّ أسرة يربّي أبناءه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُربّي أمته.

ولم يكن أعظم في نشر الإسلام من هذا النموذج العملي الصادق، فلما دخل الإسلام بلاد السند والهند وأطراف الصين وأفريقيا، لم تدخله الجيوش، بل دخلته أخلاقُ التجار المسلمين، وعدلُ القضاة، وسمتُ العلماء، ورحمةُ الدعاة، فكانوا كما وصف الله:﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾]السجدة: ٢٤.[

فيا من تريد إحياء السيرة في الناس، ابدأ بنفسك، وكن لها حاملًا، وفي خُلقك ممثلًا، وفي بيتك مُطبّقًا، واجعل من نفسك دعوةً صامتةً تنطق بصدق السيرة، فربّ صمتٍ أبلغ من ألف خطبة، وربّ خُلقٍ يهدي، ما لا تهديه المواعظ.

واعلم أن كل عبدٍ صدق في اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، فهو في موضعه جنديٌّ في جيش الإحياء، وبذرةُ صحوةٍ في أرضٍ متعطشة، وقطرةُ نورٍ في ليلٍ مظلم، وهو على ثغرٍ من ثغور النبوة، فالله الله أن يُؤتى الإسلام من قِبلك.

الفقرة السابعة عشر: السيرة في البيوت: من المحضن إلى المنبر

إن أعظم الميادين التي تُبعث فيها السيرة النبوية حيّةً نابضةً، ليست المنابر ولا المحافل ولا المنتديات، بل هي البيوت؛ نعم، البيوت التي يسكنها الناس، وتتنفس فيها الأرواح، وتتشكل فيها الطباع، وتُغرس فيها المعاني الأولى.
البيت هو مهد الإيمان، ومصنع الرجال، ومدرسة الأجيال، وهو أول مجتمعٍ يلتقي فيه الإنسان بالحب، والحنان، والتوجيه، فإن عُمّر بنور السيرة، وامتلأ بعبق النبوة، أخرج قلوبًا تعرف الله، ونفوسًا تهتدي بهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالبيت الذي تُفتح فيه صفحات السيرة النبوية، وتُروى فيه شمائل الحبيب صلى الله عليه وسلم، وتُحيى فيه سننه، بيتٌ تُظلّه السكينة، وتغشاه الرحمة، وتحفّه الملائكة، ويهتز له عرش المحبة في السماء.
قال الله تعالى:﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾]طه: ١٣٢[،وقال أيضًا:﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾]التحريم: ٦.[
وهذا لا يكون إلا بأن نجعل من بيوتنا محاريب ذكر، ومجالس علم، ومواطن قدوة.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم قدوةٍ في بيته، لم يكن في بيته نبيًا يعلو عليهم، بل كان زوجًا رفيقًا، وأبًا عطوفًا، وخادمًا لأهله، يتواضع في مجلسه، ويشارك في شؤون داره، وكان من لطفه أنه إذا دخل بيته، بدأ بالسواك، كأنما يُهيّئ نفسه للقاء الأحبة.
عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت:
"**كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**] "رواه البخاري.[

وفي رواية":**كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.**"
فأيُّ قدوةٍ هذه؟! وأيُّ نورٍ أضاء به بيوته؟! بل وأيّ حنانٍ سكن قلبه وهو يُشرك أهل بيته في نبوته، حبًا وتواضعًا وخدمة؟!

فإن كنا نرجو أن نُحيي السيرة في الواقع، فلنُحيها أولًا في بيوتنا، فإن البيوت هي البذور، وإن الثمار لا تُقطف إلا من غراسٍ صادق.

فلنبدأ:
–بزرع محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أهلينا، حتى إذا ذُكر اسمه اهتزت الأفئدة، وارتعشت العيون، وانطلقت الألسن تقول :**اللهم صل وسلم على نبينا محمد.**
–ولنروي لأبنائنا شمائله، ونقرب لهم صور حياته، لا بأسلوب جامدٍ مملّ، بل بروحٍ شغوفةٍ تُشعرهم أن هذا النبي ليس بعيدًا عنهم، بل هو في بيتهم، بينهم، معهم.
–ولنجعل من كل موقفٍ يومي في البيت فرصةً لتطبيق هديه، فإذا غضب أحد، ذكّرناه بحِلمه، وإذا ضاق صدر أحد، قرأنا له من رحمته، وإذا نشزت الكلمة، ألحقناها بخلقه صلى الله عليه وسلم.

وما أجمل أن تجتمع الأسرة كل أسبوعٍ مرةً، تقرأ شيئًا من سيرته، ثم تتحول المعلومة إلى خُلُق، والحكاية إلى سلوك، والسيرة إلى حياة.

ما أحوجنا إلى بيوتٍ، إذا ذُكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم، اضطربت القلوب شوقًا، وتحرّكت الأرواح وجدًا، وسالت الدموع محبةً، وارتفعت الأصوات بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، كأنما يُبعث من جديد في جنباتها.

الفقرة الثامنة عشرة: السيرة على منابر الدعاة والخطباء: من نور السماء إلى قلوب الأرض

إن المنبر لم يُقم ليكون منصة كلمات، ولا وسيلة لملء الفراغ الزمني بين الأذان والإقامة، بل وُضع ليكون مرآةً تعكس نور السماء على وجوه العباد، وليُذاع من فوقه الهدى، وتُبث منه الرسالات، وتُسكب من خلاله القلوب المؤمنة كما تسكب الأم رؤيتها في عين طفلها.
فأيّ نورٍ يُرجى من منبرٍ لا يُضاء بذكر محمدٍ صلى الله عليه وسلم؟
وأيّ حياةٍ تنبض في خطبةٍ لا يرفرف فيها هدْي الحبيب، ولا تُستلهم من شمائله روحُ البيان؟

لقد كانت الخُطبة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَسًا من أنفاس النبوة، وكان المنبر سلّمًا يرتقي به الناس إلى معارج الهداية. فها هو صلى الله عليه وسلم يقوم على أعواد منبره، فتفتح قلوب أصحابه، وتفيض أعينهم، كأنما يُقرَأ عليهم القرآن أول مرة، وكأنهم يسمعون خطابًا من الوحي لا من بشر.
قال الله تعالى:﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾]آل عمران: ٣١[،
فما وسيلة الاتباع إن لم يكن التعرف؟! وما طريق المحبة إن لم يكن التذكير بسيرته صلى الله عليه وسلم؟

إن السيرة النبوية ليست تاريخًا يُروى، ولا سردًا يُحكى، بل هي حياة تنبض في القلب، وعقيدة تتغلغل في النفس، وأخلاق تصوغ الإنسان على عين محمد صلى الله عليه وسلم، وشريعةٌ تُفهم من مواقفه قبل نصوصه.
فكيف يصعد الخطيب منبرًا، وهو لا يحمل من السيرة نبضًا؟!
وكيف ينادي الناس إلى الله، وهو غافل عن أقرب طريقٍ إليه: طريق الحبيب صلى الله عليه وسلم؟!

إن الخطيب الصادق، والداعية الموفَّق، هو من يجعل من السيرة مادة خطابه، ومن شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم زاد موعظته، ومن مواقفه عبرة حديثه، ومن معاملاته نبراس دعوته.

فيُحدّث الناس عن رحمته التي وسعت العاصي قبل الطائع، وعن حلمه الذي احتوى الجاهل، وعن تواضعه الذي خضعت له رقاب العظماء، وعن حكمته التي هدت قلوب القبائل والأمم.
عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم "لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا] "رواه البخاري ومسلم.[
فكيف لا تُذكَر أخلاقه على المنابر؟ وكيف لا تُستخرج منها الدروس في زمنٍ تموج فيه الفتن، وتضطرب فيه البوصلة؟

إن أعظم ما يُحيا به المنبر، ويُنتشل به الناس من ضياع الأقوال وكثرة الآراء، هو العودة الصادقة إلى سيرة نبيهم صلى الله عليه وسلم، بحيث يُنزَّل الخطاب من عرش السيرة إلى واقع الناس، يُخاطب حاجاتهم، ويُداوي جراحهم، ويُحرّك القلوب لا لتبكي فحسب، بل لتعمل وتقوم.

فليكن لكل خطبة نصيبٌ من سيرته،ولكل منبر عطرٌ من ذكره،
ولكل داعيةٍ قلبٌ يخفق بحبه، ولسانٌ يلهج بسنّته، وسلوكٌ يتخلق بأخلاقه،
فبذلك تحيا الأمة من جديد، ويقوم الدين على أركانه، وتُبعث السيرة في القلوب كما بُعثت الرسالة أول مرة.

الفقرة التاسعة عشرة: السيرة في مناهج التعليم: نورٌ يتربى عليه الجيل

ليست السيرة النبوية صفحة عابرة في كتاب التاريخ، ولا ملحقًا هامشيًا في نهاية المناهج التعليمية، يُسرد على عجل، أو يُدرّس كأنّه من الآثار القديمة!
بل السيرة حياةٌ نابضةٌ بالهدى، وروحٌ تسري في أوصال الأمة، وأصلٌ من أصول البناء الإنساني المتكامل.
كيف لا، وهي تحكي سيرة خير من وطئ الثرى، وأكمل الخلق خَلقًا وخُلقًا، محمد صلى الله عليه وسلم، الذي قال فيه ربه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾]القلم: ٤[،وقال عن بعثته:﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم**﴾]التوبة: ١٢٨.[

إن السيرة النبوية ليست مادةً تُحشى بها المقررات، بل هي مادة الحياة، التي تُربّي القيم، وتؤسس العقائد، وتبني العقول، وتوجّه السلوك، وتُقيم النفوس على ميزان الوحي، وتحرّرها من كل زخرفٍ دخيل.

في السيرة:

توحيدٌ يسكبه النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه قبل أن تسطره الكتب.

أخلاقٌ تُمارَس قبل أن تُلقَّن، وصدقٌ يَظهر في كل موقف، وعدلٌ يتجلّى في أصغر الأمور.

تشريعٌ يُنزّل على واقع الناس، لا يبقى في الأوراق، بل يُعاش في الأسواق والبيوت والمساجد.

تربيةٌ تصنع رجالًا، وتُقيم أمة من لا شيء، كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم من جيل الصحراء رجالًا أقاموا حضارةً شهد لها التاريخ.

سياسةٌ تُدار على أساس العدل والشورى، لا على المكائد والمصالح، **واقتصادٌ** يؤسس على التكافل والبركة، لا الجشع والربا.

إدارةٌ وقيادة، حنانٌ ورحمة، صبرٌ على الأذى، جهادٌ في الله، ورفقٌ بالمخالف، ورؤيةٌ مستقبلية ترسم ملامح النهوض.

إن تغييب السيرة أو تقزيمها في مناهج التعليم جرمٌ في حق الأجيال، ووأدٌ لهويتهم، وتغريبٌ ناعمٌ مقنَّع، يُقصي نور النبوة ليُبدله بظلام الانبهار الزائف، وتيه الاقتداء بالمجهول.

كيف نرجو من جيلٍ أن يعتزّ بدينه، وهو لا يعرف نبيّه؟
وكيف نطلب من شاب أن يكون رجلًا بأخلاقه، وهو لم يرَ النموذج الكامل في محمد صلى الله عليه وسلم؟
كيف نغرس في طلابنا الاعتزاز بالإسلام، وهم يتعلّمون من الشرق والغرب كل يوم، ولا يُعرَض عليهم قدوتهم الأولى، الذي قال الله فيه :﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾]الأحزاب: ٢١[؟

إن الواجب على صناع المناهج والمربين والمعلمين أن يجعلوا السيرة النبوية أساسًا في بناء الطفل، وجسرًا لعبور الشاب نحو الفهم الراشد، وسراجًا يهتدي به الطالب في كل مرحلة من حياته.
لا تُدرَّس السيرة على أنها قصص تُقرأ، بل على أنها مشروعٌ يُحتذى، وقدوة تُتّبع، وتاريخٌ يُعاش في كل تفاصيل الحياة.
فليرَ الطالب نبيَّه صلى الله عليه وسلم وهو طفلٌ صادق، وشابٌ عفيف، وتاجرٌ أمين، وزوجٌ رحيم، وأبٌ حانٍ، وصاحبٌ وفيّ، ومجاهدٌ صابر، وقائدٌ حكيم، وإمامٌ عادل، وعبدٌ خاشع لربه قائمٌ في الليل ساجد.

حينها فقط، سينمو الجيل على التوازن، ويتكوّن وعيه على التكامل، ويُبصر بنور النبوة لا بزيف الإعلام، ويعتز بهويته لا بثقافات دخيلة، ويرى في نبيّه صلى الله عليه وسلم المنارة التي تضيء له طريق الدنيا والآخرة.

الفقرة العشرون: السيرة في الإعلام: استردادُ الوعي المفقود

في زمانٍ تتسابق فيه الوسائل وتتعدد المنصات، صار الإعلام سلاحًا ذا حدين، يملك أن يهدي كما يملك أن يُضل، وأن يرفع كما يقدر أن يُسقط، وأن يُحيي القلوب أو يميتها.
ولئن كانت الكلمة يومًا تُلقى من على منبر المسجد، فإنها اليوم تُلقى من على منابر الإعلام، فتصل إلى الآفاق في لحظات، وتتشكل بها العقول، وتُصاغ بها القناعات، ويُبنى بها وعي الأجيال.

لقد أصبح الإعلام هو المعلِّم الصامت، والمربّي الخفي، الذي يدخل كل بيت، ويطرق كل قلب، ويُغرس في الأذهان قبل أن تصل الكلمة من فم المعلم أو خطبة الخطيب.
ومن هنا، فإن تغييب السيرة النبوية عن منابر الإعلام هو تغييبٌ للهُدى، وهو انسحابٌ مقصودٌ للنور، وفسحٌ للطُرق أمام الظلام ليتسلل إلى القلوب والعقول، حتى يُستبدل بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم سِيَر الممثلين والمغنّين والمشاهير من كل لونٍ فارغ، ويُمحى من الأذهان وجه النبي صلى الله عليه وسلم المشرق، لتحلّ محله صورٌ دخيلة، مشوهة، باهتة.

إن هذا التغييب ليس عارضًا، بل هو جزء من مؤامرة قديمة متجددة؛ تستهدف القدوة قبل أن تستهدف الأمة، وتطمس النموذج حتى تهيم الشعوب في التيه.
أفلا تراهُم كيف يجهلون مَن بُعث بالرحمة للعالمين، ويعرفون مَن يرقص على الشاشات؟!
أفلا ترى حال شبابٍ يُبصر في كل يوم وجه لاعب أو ممثل، ولا يعرف عن وجه نبيّه إلا رسمًا ساخرًا في صحيفة مغرضة؟!

قال الله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾]التوبة: ٣٣[،
وهذا الظهور لا يكون فقط بحدِّ السيف، بل بسطوة الكلمة، وسلطان البيان، ونفوذ الصورة، وقوة التأثير.

فمن واجب الإعلام في زمن الغربة هذا، أن يكون منبرًا ينقل نور السيرة إلى العالمين، لا بوصفها موروثًا ساكنًا في بطون الكتب، بل بوصفها نبعًا متجددًا من الهداية، ومنهجًا حيًّا يُصلح الإنسان والمجتمع.

نعم، نحن لا نريد سيرةً تُحكى، بل نريد إعلامًا يُجسّد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب عصري، مشوّق، مراعٍ للذوق والوسيلة، يحاكي قلوب الناس وعقولهم.

نريده إعلامًا يُنتج البرامج الوثائقية الجادة، التي تسرد الأحداث بعمقٍ وتحليلٍ لا بخيالٍ سطحي.

نريده أن يصنع الحلقات التربوية الهادفة، التي تغرس في الأطفال محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أن تكتفي بإضحاكهم.

نريده أن يُعدّ المقاطع التعليمية القصيرة التي تُنير الدقائق، وتفتح بابًا لفهم السيرة في عالمٍ لا يصبر على المطولات.

نريده أن يُبدع في المقالات المصوّرة، والقصص البصرية، والمنشورات المُتقنة، التي تُقدّم النبي صلى الله عليه وسلم كما هو: هاديًا ومعلّمًا، نبيًّا ورسولًا، رحمةً للعالمين، لا كما يُراد له أن يُقدَّم: إرهابًا مُتوهّمًا، أو شخصيةً تاريخية منقطعة عن الواقع.

إن الإعلام الذي نحتاج إليه، هو الذي يردّ للناس نبيّهم صلى الله عليه وسلم؛
يُقدّمه للعالمين بصفته المعلم الذي يُخرج البشرية من الجهل، والمخلّص الذي يحرّر الإنسان من الظلم والتِّيه.
إعلامٌ يجعل من السيرة مرآةً يرى فيها الجيل صورة الإسلام الحق:

إسلامًا يرحم ولا يقسو،

يوجّه ولا يُفرّق،

يبني ولا يهدم،

يربي القلوب قبل أن يُقنع العقول،

ويُصلح الدنيا لا على حساب الآخرة.

وما أحوج الأمة اليوم إلى أن تُبعث فيها السيرة من جديد، لا في المنابر وحدها، بل في كل شاشةٍ يُبصرها الطفل، وكل مقطعٍ يشاهده الشاب، وكل صورةٍ تُنشر في الفضاء الواسع.
فوالله ما ضاعت الأمة إلا حين ضاعت القدوة، وما ضاعت القدوة إلا حين سُحبت من ساحات التأثير، وقُدّمت بديلًا عنها نماذج تافهة، تسكن في القاع وتُرفَع على الأعناق.

فلنُعد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قلوب الناس من جديد، عبر الإعلام الراشد، والكلمة الصادقة، والصورة الهادفة، فإن هذا من أعظم الجهاد في زمن الفتن، وأقوى سبل ردّ الهجوم الناعم الذي يُسلخ به المسلم من نبيه، من غير سلاح ولا

الفقرة الحادية والعشرين: العودة إلى السيرة... عودة إلى الذات

حين نعود إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فلسنا نعود إلى حكاية من التاريخ، ولا إلى قصة تُروى للتسلية، بل نعود إلى أنفسنا، إلى فطرتنا الأولى، إلى الأصل الذي خرجنا منه، والروح التي نفخ الله فيها من نوره، والنور الذي به نهتدي في زمن الظلمات.

إنها ليست صفحاتٍ نقرأها، ولا أحداثًا نحفظها، بل هي حياة نُبعث فيها من جديد، وعينٌ نُبصر بها طريقنا، ومِرآة نرى فيها حقيقتنا، وميزانٌ نزن به تقصيرنا، ومشعلٌ نستضيء به في ليل الشكوك والمحن.

السيرة ليست كتابًا بين دفّتين، بل روحٌ في قلب الزمان، تنبض بالوحي، وتتنفس بالصدق، وتسري في شرايين الأمة، تربطها بنبيها، وتشدّها إلى السماء، وتُخرجها من دوائر التيه إلى آفاق اليقين.

من عاش السيرة بحق، أحسّ أنه يعيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة بلحظة، يسمع خفق قلبه، وهمس دعائه، وصدى خُطاه الشريفة، يرى كيف بُنيت أعظم أمة بخطى واثقة، لا بعجلة، وبحكمةٍ لا بارتجال، وبرحمةٍ لا بقسوة.

إن السيرة ليست ماضينا فحسب، بل هي حاضرنا الذي نُضيّعه، ومستقبلنا الذي لا يُبنى إلا على أساسها.
فيها سرّ العزّة، وسرّ البعث من بين ركام الضعف والانكسار، وسرّ التحوّل من الضعف إلى القوة، ومن الفُرقة إلى الوحدة، ومن الحيرة إلى الرسوخ.

إن العودة إلى السيرة ليست رفاهية ثقافية، ولا ترفًا دينيًّا، بل هي ضرورة وجودية، وحتمية مصيرية؛
فلا نهضة تُرجى بلا قدوة، ولا عزّة تُنال بلا هُدى، ولا بعث للأمة إلا من نبع السيرة، ولا بناء لمشروع إلا من نور النبوة.

قال الله تعالى:
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾]الأحزاب: ٢١[
فهذه الأسوة ليست فقط لمن قرأ، بل لمن رجع، واشتاق، وتأمل، وتغيّر، واتّبع.

عودتنا إلى السيرة، هي عودتنا إلى ذواتنا التي شتّتها البُعد، وأرهقها الضياع، وجفّفها الجفاء.
هي عودتنا إلى النبع، قبل أن نموت ظمأً على ضفاف السراب.

هي عودتنا إلى النور، قبل أن يبتلعنا ظلام التيه.
هي عودتنا إلى رسول الله، قبل أن نُحرَم شفاعته، ونحن نجهله، ولا نُحسن حبه، ولا نقتفي أثره.

فهل آن لنا أن نعود؟

الفقرة الثانية والعشرين: فليبدأ كلٌّ منّا الآن... لقد آن الأوان

كفى انتظارًا وتسويفًا، فقد طال بنا المقام في محاريب التمني، وغرقنا في مداد الحروف، واكتفينا بالدموع تفيض من العيون، ولم نخطُ خطوةً بعد.

لقد آن الأوان...

آن أن يتحوّل الشوق إلى عمل، وأن يصبح الحنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دافعًا للاتباع، لا مجرد لحن يُتغنّى به في المجالس.

آن أن نُنزِل السيرة من علياء الكتب إلى أرض الواقع، من صفحات التاريخ إلى وجدان الأحياء، من مداد الأقلام إلى أفعال الرجال.

آن أن نكفّ عن التغني بأمجادٍ صنعها السابقون، ونشرع في صناعة أمجادٍ تليق بأن نُرفع بها يوم القيامة مع الصادقين.

آن أن نخلع لباس التمنيات الواهنة، ونلبس درع الجد، ونمتطي صهوة العزم، ونقتحم ميدان التغيير.

فمن اليوم...

ليبدأ كلُّ والد في بيته ببناء بيئةٍ تُشبه بيت النبوة؛ بيتٌ لا يُرفع فيه صوت على الحق، ولا يُؤخر فيه فرض، ولا تُنسى فيه سنة.

ولتبدأ كلُّ أمّ بتربية قلبٍ نقي، وعقلٍ راجح، وجيلٍ يُذكّرنا بأبطال بدر، وسكينة بيت علي وفاطمة رضي الله عنهما.

وليبدأ كلُّ معلّم في فصله، لا بتلقين الحروف، بل بغرس المعاني، لا بصناعة متفوقين في الدرجات، بل مربين في الأخلاق.

وليبدأ الخطيب على منبره، والداعية في كلمته، والكاتب في قلمه، والطالب في سلوكه، والتاجر في صدقه، والموظف في أمانته، والعامل في إتقانه، والجار في حُسن جواره، والطبيب في رحمته، والشرطي في عدله...

ليبدأ كلٌّ منا الآن، في المساحة التي أودعها الله بين يديه، مهما كانت ضيقة، فالنبي صلى الله عليه وسلم بدأ وحده، وسط ظلام دامس، وجاهلية عمياء، واليوم قد امتلأت الأرض بنوره، وامتلأت القلوب بحبه.

قال الله تعالى:﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾]يوسف: ١٠٨[
فمن كان محبًّا صادقًا، فليكن من "ومن اتبعني"، لا من الذين يكتفون بالحرف ويغفلون الأثر.

فلنُشعل شعلة الاتباع، لا نشعل فقط شموع الذكرى.ولْنرفع معًا أكفّ الضراعة وقلوبنا تهتف بالإيمان:

اللهم اجعلنا من أنصار نبيك، وإن تأخر بنا الزمان، واجعلنا ممن يُحيون سنّته، لا ممن يدرسونها ثم ينسون، وانصر بنا دينك كما نصرتَ به أهل بدر، وارزقنا شرف الاتباع كما رزقتهم شرف الصحبة، اللهم آمين.

.

وها قد مضت الصفحات... فهل آن لنا أن نبدأ الحياة؟

خاتمة: في ظلال السيرة النبوية...

ها نحن قد طوينا صفحاتٍ كتبناها بالدمع قبل الحبر، وسطرناها بمشاعرٍ لا تعرف التكلّف، بل خرجت من عمق القلب، لتشهد أننا عشنا لحظات من الصفاء النادر، حين مشينا على خطى المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتأملنا معالم الطريق التي سار فيها، فصرنا كأننا نسمع خفق نعليه في شعاب مكة، ونشتمّ عبير سنّته في أزقة المدينة.

لقد عشنا مع النور في زمن الظلمة، في عالمٍ تكسرت فيه القيم، واضطربت فيه الموازين، فإذا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم كالسراج في الدجى، تهدي التائه، وتطمئن الحائر، وتربّت على قلب الموجوع.

سلكنا معه دروب البشرية الحائرة، لا كمن يقرأ حكاية رجل عظيم، بل كمن يتفيأ ظلاله، ويستنشق عبير خُطاه، ويتلمّس في كل مشهدٍ من حياته أثر الرحمة المهداة، التي قال الله عنها:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾]الأنبياء: ١٠٧.[

في ظلال السيرة... صفا القلب بعدما أرهقته شوائب الدنيا، وارتفعت الروح بعدما أثقلها ركام الشهوات، وأذرفت العين دمعًا لم تبكه من قبل، وسجد العقل – لا بالجبهة فقط – بل بالبصيرة، إجلالًا لعظمة هذا الدين، وسمو هذا النبي، وجلال هذا الطريق.

في ظلال السيرة... رأينا كيف يُولد المجد من رحم الضعف، حين وُلد يتيمًا، فعاش كريمًا، ومات عظيمًا.
وكيف يُبعث النور في قلب الصحراء، حين خرج من مكة وحده، ثم عاد إليها في عشرة آلاف مؤمن.
وكيف يُبنى الإنسان الربّاني على عين الله، يربيه ربه، ويزكيه، حتى يكون آيةً تمشي على الأرض، كما وصفه الله عز وجل بقوله:﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾]القلم: ٤.[

في ظلال السيرة... أيقنّا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس رجلًا من رجال التاريخ تُروى قصته، بل هو روح تسري في جسد الأمة، ونبض حاضرها، وبوصلة مستقبلها، وسبب عزتها في كل زمان.
فهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه":أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام"*رواه أحمد وصححه الحاكم*.

في ظلال السيرة... فهمنا أن الدين ليس محفوظاتٍ تُتلى، ولا أناشيد تُردّد، ولا طقوسًا شكلية تمارس.
بل هو حياة تُعاش، وسلوك يُقتدى، وأمانة تُحمل، وراية تُرفع، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي"*رواه الحاكم والبيهقي، وهو حسن*.

فيا ترى، بعد كل هذا النور، هل نعود إلى الظلام؟
هل نخرج من ظلال السيرة إلى قسوة الغفلة وحرّ الجفاء؟
هل نطوي الصفحات ونطوي معها العزم والنية والاتباع؟ أم نمضي، ونتحول من قرّاء للسيرة إلى حملةٍ لها، ومن مشاهدين إلى ورثة لهذا النور؟
ألا فلنبقَ في ظلالها، نعيش بها، ونموت على دربها، ونبعث تحت لوائها.

إن ظلال السيرة ليست لحظة خشوعٍ عابرة، ولا دمعة إعجابٍ تُذرف وتمضي، بل هي طريق عزة، ومشروع نهوض، ونهج إصلاح، وصيحة بعث لأمة تتلمس طريق العودة.
هي ميراث محمدٍ صلى الله عليه وسلم، الذي يجب أن نحمله كما حمله الصحابة، ونسقيه من أرواحنا كما سُقي من دمائهم.

- فاللهم اجعلنا في ظلال نبيك ما حيينا، واهدِ قلوبنا للسير على خطاه،
- واجعل لنا في كل لحظة من سيرته نورًا يهدينا، وزادًا يحيينا، وبشرى تلقانا يوم نلقاك،
- وابعثنا تحت لوائه، واسقنا من حوضه، واجعلنا ممن يقال لهم يوم القيامة:

﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾]الحاقة: ٢٤.[

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من سار على هديه إلى يوم الدين.

انتهيت منه في يوم السبت الثاني والعشرون من شهر صفر عام ١٤٤٧ هجرية الموافق الثاني والعشرون من شهر أغسطس ٢٠٢٥ ميلادية

اهم المصادر والمراجع لهذا الكتاب

أولًا: كتب السيرة النبوية المعتمدة

سيرة ابن هشام –تحقيق مصطفى السقا وآخرين.

الطبقات الكبرى –ابن سعد.

السيرة النبوية –محمد بن يوسف الصالحي الشامي.

الروض الأنف –السهيلي.

زاد المعاد في هدي خير العباد –ابن قيم الجوزية.

دلائل النبوة –البيهقي.

سبل الهدى والرشاد –الصالحي الشامي.

السيرة النبوية الصحيحة –أكرم ضياء العمري.

الرحيق المختوم –صفي الرحمن المباركفوري .

هذا الحبيب يا محب –أبو بكر الجزائري .

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين –محمد الخضري بك.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى –القاضي عياض .

ثانيًا: كتب التاريخ الإسلامي

تاريخ الطبري –محمد بن جرير الطبري .

الكامل في التاريخ –ابن الأثير .

البداية والنهاية –ابن كثير .

ثالثًا: كتب الحديث وشروحها)للاستشهاد بالأحاديث الصحيحة)

صحيح البخاري –الإمام البخاري .

صحيح مسلم –الإمام مسلم .

سنن أبي داود –أبو داود السجستاني .

سنن الترمذي –الإمام الترمذي .

سنن النسائي –الإمام النسائي .

سنن ابن ماجه –الإمام ابن ماجه .

مسند الإمام أحمد –الإمام أحمد بن حنبل .

فتح الباري شرح صحيح البخاري –ابن حجر العسقلاني. **شرح النووي على صحيح مسلم** –الإمام النووي .

رابعًا: المواقع الإسلامية المعتمدة التي بحثنا فيها

المكتبة الشاملةshamela.ws –

جامع الكتب الإسلاميةbooks.islamway.net –

الدرر السنيةdorar.net –

الألوكةalukah.net –

الإسلام سؤال وجوابislamqa.info –

إسلام ويبislamweb.net –

صيد الفوائدsaaid.net –

المحتويات

في ظلال السيرة العطرة ٢
مقدمة الكتاب ٥
الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بين يدي الساعة شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ٥
الباب الأول: أهمية السيرة النبوية ٦
مقدمة ٦
الفقرة الأولى: منزلة السيرة النبوية في قلوب السلف ٦
الفقرة الثانية: خطر الجهل بالسيرة النبوية ٧
الفقرة الثالثة: علاقة السيرة النبوية بعلوم الشريعة ٨
الفقرة الرابعة: كيف غيّرت السيرة النبوية التاريخ والبشر ٩
الفقرة الخامسة: السيرة ليست قصصًا تُروى، بل حياة تُحتذى ١٠
الفقرة السادسة: السيرة ميزان الفهم الصحيح للدين ١١
الفقرة السابعة: السيرة مفتاح الإصلاح الفردي والمجتمعي ١٢
الباب الثاني: أهداف دراسة السيرة النبوية ١٣
مقدمة ١٣
الفقرة الأولى: الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم هو الغاية الكبرى ١٣
الفقرة الثانية: السيرة النبوية.. غيث الإيمان ومصدر اليقين ١٤
الفقرة الثالثة: السيرة النبوية.. مصنع النفوس العظيمة ومهد التوازن الإيماني ١٥
الفقرة الرابعة: السيرة النبوية... مِشكاة تزكية النفوس ١٦
الفقرة الخامسة: السيرة... مفتاح لفهم القرآن والسنة ١٧
الفقرة السادسة: السيرة النبوية... طريق لصناعة الوعي الحضاري ١٨
الباب الثالث: مصادر السيرة النبوية ومناهج الاستمداد منها ١٩
مقدمة ١٩
الفقرة الأولى: القرآن الكريم... هو المصدر الأول للسيرة ٢٠
الفقرة الثانية: السُّنَّة النبوية... الوعاء الأكبر لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠
الفقرة الثالثة: كتب السيرة المدوّنة... مرآة الزمن الأول، وصدى الحفظ الصادق ٢١
الفقرة الرابعة: روافد السيرة... كتب الشمائل والدلائل والمغازي ٢٢
الفقرة الخامسة: ضوابط التعامل مع السيرة النبوية ٢٢

الباب الرابع: مراحل السيرة النبوية وأهم سماتها ٢٤
مقدمة ٢٤
الفقرة الأولى: مرحلة ما قبل البعثة – إعداد رباني ٢٥
الفقرة الثانية: المرحلة المكية – غرس العقيدة والثبات على الحق ٢٥
الفقرة الثالثة: الهجرة – نقطة التحوُّل الكبرى في السيرة ٢٦
الفقرة الرابعة: المرحلة المدنية – بناء الدولة وتكميل التشريع ٢٧
الفقرة الخامسة: ختام السيرة – الوفاة وبقاء المنهج ٢٧
الباب الخامس: خصائص السيرة النبوية ٢٩
مقدمة ٢٩
الفقرة الأولى: السيرة النبوية محفوظة بحفظ الله ٢٩
الفقرة الثانية: السيرة شاملة لكل جوانب الحياة ٣٠
الفقرة الثالثة: السيرة محفوظة بالثقة، منقولة بالأمانة ٣٠
الفقرة الرابعة: السيرة واقعية لا خيال فيها ٣١
الفقرة الخامسة: السيرة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان ٣١
الفقرة السادسة: السيرة مترابطة متكاملة لا تنفصل أجزاؤها ٣٢
الفقرة السابعة: السيرة مصدر لفهم الإسلام وتذوق حقيقته ٣٢
الباب السادس: مراحل الدعوة النبوية ٣٣
مقدمة ٣٣
الفقرة الأولى: المرحلة السرية للدعوة – حكمة البدايات ٣٤
الفقرة الثانية: إعلان الدعوة – بداية المواجهة ٣٤
الفقرة الثالثة: أذى قريش وتكثيف الحرب على الدعوة ٣٥
الفقرة الرابعة: الهجرة إلى الحبشة – أول ملجأ آمن ٣٥
الفقرة الخامسة: عام الحزن وثبات النبي صلى الله عليه وسلم ٣٦
الفقرة السادسة: عرض الدعوة على القبائل – بحث عن النصير ٣٦
الفقرة السابعة: الإسراء والمعراج – تثبيت في زمن الانكسار، ونقلة روحية إلى آفاق النور ٣٧
الفقرة الثامنة: الهجرة الكبرى – انتقال النور إلى المدينة ٣٨
الباب السابع بناء الدولة في المدينة ٤٠
مقدمة ٤٠
الفقرة الأولى: استقبال الأنصار – القلوب قبل الدور، والدموع قبل الدار ٤١
الفقرة الثانية: بناء المسجد النبوي – صرحُ الإيمان ومؤسسةُ الدولة الأولى ٤١
الفقرة الثالثة: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار – نسيجُ القلوب ووحدةُ المصير ٤٢
الفقرة الرابعة: وثيقة المدينة – عهد العدل والتعدد تحت راية التوحيد ٤٣
الفقرة الخامسة: تنظيم الجبهة الداخلية – إصلاح النفوس وتثبيت الصف ٤٤
الفقرة السادسة: بدايات المواجهة العسكرية – تحويل القوة إلى سياسة ٤٥
الفقرة السابعة: غزوة بدر الكبرى – الفرقان بين الحق والباطل ٤٦
الفقرة الثامنة: العهود والخيانات: صفحات من التعامل النبوي مع يهود المدينة ٤٧

الفقرة التاسعة: غزوة أُحد – دروس في الثبات والوعي ٤٨
الفقرة العاشرة: تثبيت الأركان في وجه العواصف: الغزوات الدفاعية بعد بدر وأحد ٤٩
الفقرة الحادية عشرة: صلح الحديبية: الفتح الأعظم قبل أن تُفتح مكة ٥٠
الفقرة الثانية عشرة فتح مكة: نصرٌ يُضيء بلا دم، وتمكين بلا انتقام ٥٢
الفقرة الثالثة عشرة: غزوة حنين: حين غَشِيَ الغرورُ الأبصار، وكشف الثباتُ عن جوهر النصر ٥٣
الفقرة الرابعة غزوة تبوك: في ساعة العُسرة يُعرف الرجال ٥٤
الفقرة الخامسة عشرة: حجة الوداع: إعلان التمام وتأكيد البلاغ ٥٥
الفقرة السادسة عشرة: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم – انقطاع الوحي وامتداد الرسالة ٥٦
الباب الثامن: الشمائل النبوية – صورة الجمال الكامل ٥٨
مقدمة ٥٨
الفقرة الأولى: جمال خلقه صلى الله عليه وسلم – كأن الشمس تجري في وجهه ٥٨
الفقرة الثانية: رائحة طيّبة تفوق الطيب – عطر النبوة الذي لا يُشترى ٥٩
الفقرة الثالثة: هيبة النبوة – لا يملأ أحدٌ عينيه منه ٦٠
الفقرة الرابعة: مشيته– كأنما ينحدر من صبب ٦١
الفقرة الخامسة: حياؤه صلى الله عليه وسلم – خُلقٌ كان يستحي منه الملَك ٦٢
الفقرة السادسة: مزاحه صلى الله عليه وسلم – لا يقول إلا حقًّا ٦٢
الفقرة السابعة: صمته وكلامه – إذا تكلم سكت جلساؤه ٦٣
الفقرة الثامنة: نظره – خفض الطرف ونظر التقدير ٦٤
الفقرة التاسعة: مظهره – نظافة وأناقة وتوازن ٦٤
الفقرة العاشرة: نومه واستيقاظه – عبادة بين جنبيه ٦٥
الفقرة الحادية عشر ضحكه وبكاؤه – توازن في المشاعر ٦٦
الفقرة الثانية عشرة: تعامله مع الأطفال – رحمة تتجلى في أبهى صورها ٦٦
الفقرة الثالثة عشرة عدله صلى الله عليه وسلم – لا يُجامل في الحق، ولا يَميل عن العدل ٦٧
الفقرة الرابعة عشرة: تواضعه صلى الله عليه وسلم – عظمة تتخفى في بساطة، ومقام يتجلى في التواضع ٦٨
الفقرة الخامسة عشرة: رحمته بالحيوان – نورٌ عمّ كل حي، ورحمةٌ وسعت حتى البهائم ٦٩
الفقرة السادسة عشرة: شمائله كلها دعوة ناطقة – هديٌ يتحرك على الأرض ٦٩
الباب التاسع: النبي صلى الله عليه وسلم في حياته اليومية – دقائق السيرة العملية ٧١
مقدمة الباب ٧١
الفقرة الأولى مع أسرته – الرحمة في أسمى صورها، ونبل القيادة في أدق تفاصيلها ٧١
الفقرة الثانية: في السوق – حيث يُباع الصدق قبل السِّلع، وتُوزن الأخلاق قبل البضائع ٧٢
الفقرة الثالثة: في السفر – عبادة وقيادة وتواضع ٧٣
الفقرة الرابعة: في المجلس – حسن الاستماع والتوجيه الرشيد ٧٤
الفقرة الخامسة: في الضحك والبكاء... حين تتجلّى إنسانيّة النبوّة ٧٤
الفقرة السادسة في المرض... حين تتجلى عظمة الصبر، وجمال الرضا ٧٥
الفقرة السابعة: في الأزمات... حيث يولد الثبات، ويُروى العقل بحسن التدبير ٧٦
الفقرة الثامنة: في النوم والاستيقاظ... عبادة لا تنقطع ٧٧

الفقرة التاسعة: في طعامه وشرابه... قناعة الشاكر، واعتدال الحكيم ٧٨
الفقرة العاشرة: في ملبسه ومظهره... وقارٌ يعلوه الجمال، وبساطة تتلألأ بالنور ٧٨
الفقرة الحادية عشرة: في بيته... تواضعُ نبي، وحنانُ أب، وخُلقُ رسول ٧٩
الفقرة الثانية عشرة: في تعامله مع الأطفال... قلبٌ كبير، ويدٌ حانية، وتربيةٌ راقية ٨٠
الفقرة الثالثة عشرة: في تعامله مع الضعفاء... قلبٌ يحنو، ويدٌ تنصر، ورحمةٌ تفيض ٨١
الفقرة الرابعة عشرة: في تعامله مع النساء – احترامٌ ينبع من الرحمة، وإنصافٌ تُظلله النبوة ٨١
الفقرة الخامسة عشرة: في تعامله مع أصحابه – وفاءٌ يسمو، ومحبّةٌ تُؤنس، وتقديرٌ يزرع الولاء ٨٢
الفقرة السادسة عشرة: في صفاته الشاملة – كمالٌ لا يُجارى، وجمالٌ لا يُوارى ٨٣
الباب العاشر: أثر السيرة والشمائل في بناء الإنسان ٨٥
مقدمة ٨٥
الفقرة الأولى: السيرة النبوية: زاد الإيمان، وسرُّ الثبات ٨٥
الفقرة الثانية: السيرة النبوية: عقيدة تمشي على الأرض ٨٦
الفقرة الثالثة: السيرة النبوية: مَعين الأخلاق ومصنع التزكية ٨٧
الفقرة الرابعة: السيرة تهذّب العاطفة وتضبط الانفعالات – مدرسة التوازن النبوي ٨٨
الفقرة الخامسة: السيرة تعلّمنا كيف نعيش لله لا للناس – دروس في الإخلاص النبوي ٨٩
الفقرة السادسة: السيرة ترسم طريق الصبر في زمن الشدائد – مدرسة الثبات النبوي ٩٠
الفقرة السابعة: السيرة توقظ الوعي وتفتح البصيرة – مدرسة الحكمة والتفكير العميق ٩١
الفقرة الثامنة: السيرة تُخرّج رجالًا لا تُكسرهم الدنيا – مدرسة صناعة العظماء ٩١
الفقرة التاسعة: السيرة تُحيي الأمل وتكسر جدران اليأس ٩٢
الفقرة العاشرة: السيرة.. مدرسة القلوب وفن التعامل مع الناس ٩٣
الفقرة الحادية عشرة: السيرة تغرس العدل وتنشر الرحمة ٩٤
الفقرة الثانية عشرة: السيرة تربي على التواضع وتسقط الكِبر ٩٤
الفقرة الثالثة عشرة: السيرة تفتح أبواب الرجاء للتائبين ٩٥
الفقرة الرابعة عشرة: السيرة تعلّمنا كيف نتعامل مع الخطأ ٩٦
الفقرة الخامسة عشرة: السيرة تُربّي على الوفاء وحفظ الجميل ٩٧
الفقرة السادسة عشرة: السيرة تعلّمنا كيف نواجه الحياة بقلب المؤمن ٩٧
الباب الحادي عشر: منهج السيرة في تربية الجيل ٩٩
مقدمة ٩٩
الفقرة الأولى: السيرة منهج تربوي متكامل لا نظير له ٩٩
الفقرة الثانية السيرة تغرس الإيمان قبل الأحكام ١٠٠
الفقرة الثالثة: السيرة تُعلّم قبل أن تُلزم ١٠١
الفقرة الرابعة: السيرة تُربّي بالعِبرة لا بالعصا ١٠٢
الفقرة الخامسة: السيرة تهذّب الغرائز... لا تلغيها ١٠٢
الفقرة السادسة: السيرة... توازن بين الروح والجسد ١٠٣
الفقرة السابعة: السيرة تُربي على العِزَّة لا الانكسار ١٠٤
الفقرة الثامنة السيرة تُبني الرجال لا الأتباع ١٠٤

الفقرة التاسعة: السيرة تُربي على المبادرة وتحمل المسؤولية ١٠٥
الفقرة العاشرة: السيرة تُربي على الصبر لا التبرم ١٠٥
الفقرة الحادية عشرة: السيرة تصنع الثقة لا التردد ١٠٥
الفقرة الثانية عشرة: السيرة تُعلّم الحزم لا التهور ١٠٦
الفقرة الثالثة عشرة: السيرة توازن بين الرحمة والعدل ١٠٧
الفقرة الرابعة عشرة السيرة تُعلِّم فقه الأولويات ١٠٨
الفقرة الخامسة عشرة: السيرة لا تُدرّس فقط، بل تُعاش ١٠٩
الباب الثاني عشر: معالم الطريق – كيف نسير في دروب السيرة؟ ١١١
مقدمة ١١١
الفقرة الأولى: السيرة ليست سردًا زمنيًا... بل رسالة خالدة ومنهج حياة ١١١
الفقرة الثانية: السيرة النبوية بعين الفقيه والمربّي والمصلح ١١٢
الفقرة الثالثة: وثيق السيرة وتمييز الصحيح من الضعيف: بين أمانة الرواية ونور الهداية ١١٣
الفقرة الرابعة: فقه الغزوات والجهاد في ضوء مقاصد الإسلام ١١٤
الفقرة الخامسة: كيف نقرأ السرايا والبعوث؟ ١١٥
الفقرة السادسة: فقه المراحل الدعوية في سيرة خير البرية صلى الله عليه وسلم ١١٦
الفقرة السابعة: فقه الابتلاء في السيرة النبوية: تربيةٌ بالنار، وتمييزٌ في المحنة ١١٧
الفقرة الثامنة: السيرة النبوية تُقرئنا فقه الانتصار والانكسار: كيف يولد النصر من رحم الألم ١١٨
الفقرة التاسعة: السيرة النبوية وتأسيس الدولة المسلمة: حين تتحول الرسالة إلى حضارة ١١٩
الفقرة العاشرة: السيرة النبوية وتزكية النفوس: حين تتنزل التربية من السماء ١٢٠
الفقرة الحادية عشرة: السيرة تربي جيلًا ربانيًّا ١٢١
الفقرة الثانية: السيرة وتزكية المجتمعات ١٢٢
الفقرة الرابعة عشرة: السيرة... مصدر الإلهام، ومنبع الصبر، وسرّ الثبات ١٢٤
الفقرة الخامسة عشرة: السيرة... ميزان فقه الأولويات ١٢٤
الفقرة السادسة عشرة: السيرة مشروع حياة لا ينطفئ ١٢٥
الباب الثالث عشر: الحاقدون على السيرة... ماذا أرادوا؟ وماذا خسروا؟ ١٢٦
مقدمة ١٢٦
الفقرة الأولى: لماذا تُهاجَم السيرة النبوية؟ ١٢٧
الفقرة الثانية: الطعن في السيرة طعن في النبوة ١٢٨
الفقرة الثالثة: أدوات الطاعنين: القطع، والتأويل، والتشويه ١٢٩
الفقرة الرابعة: الطعن في الغزوات: تشويه أنقى راية رُفعت في التاريخ ١٣٠
الفقرة الخامسة: الطعن في زواجه صلى الله عليه وسلم: شبهات الباطل في وجه أطهر المقاصد ١٣١
الفقرة السادسة: منهج المحدثين في تدوين السيرة – عدالة وضبط لا مثيل له ١٣٢
الفقرة السابعة: الرد على الطعن لا يعني تنزيه كل رواية ١٣٣
الفقرة الثامنة: من يطعن في السيرة... ماذا قدّم للبشرية؟ ١٣٣
الفقرة التاسعة: لماذا لا يُطعن في سيرة غيره كما يُطعن في سيرته؟ ١٣٤
الفقرة العاشرة: لماذا السيرة هي المستهدفة الأولى؟ ١٣٥

الفقرة الحادية عشرة: السيرة أعظم من أن تُشوه، وأطهر من أن تُدنّس ١٣٦
الفقرة الثانية عشرة: الطعن في السيرة... طعنٌ في قلب الإسلام النابض ١٣٧
الفقرة الثالثة عشرة: ما الذي دفع الطاعنين إلى النّيل من السيرة النبوية؟ ١٣٨
الفقرة الرابعة عشرة: السيرة ليست حكرًا على المسلمين، بل هدية للعالمين ١٣٩
الفقرة الخامسة عشرة: الطعن في السيرة ارتداد عن الفطرة ١٤٠
الفقرة السادسة عشرة: مهما طعنوا فيها... ستبقى السيرة ١٤١
الباب الرابع عشر: ما يجب على الأمة تجاه السيرة ١٤٢
المقدمة ١٤٢
الفقرة الاولى: اول واجب على من عرف السيرة ان يحب صاحبها حبا صادقا لا يشوهه تردد ولا يخالطه شك ١٤٣
الفقرة الثانية: أن نقرأ السيرة بعقلٍ واعٍ، وقلبٍ محب، وعزيمة على الاتباع ١٤٣
الفقرة الثالثة: أن نُعلِّم السيرة للأجيال كما نُعلِّم القرآن الكريم ١٤٤
الفقرة الرابعة: أن نُدافع عن سيرته ، ونردّ عنها سهام الطاعنين والشبهات ١٤٥
الفقرة الخامسة: أن نُحيي السيرة في واقعنا وسلوكنا ١٤٦
الفقرة السادسة أن نجعل السيرة مصدرًا لوحدة الأمة ونهضتها ١٤٧
الفصل الثاني ١٤٨
من ظلال التمهيد إلى شمس الإعلان ١٤٨
مدخل ١٤٨
الباب الأول الأرض تنتظر – ضياع النبوات وغياب الهداية ١٤٩
مقدمة ١٤٩
الفقرة الأولى: الأرض تنتظر – ضياع النبوات وغياب الهداية ١٤٩
الفقرة الثانية: العرب... شعب بلا دولة، ولكن يحمل الميراث ١٥٢
الفقرة الثالثة: قريش – القبيلة المُصطفاة لحمل آخر رسالة ١٥٤
الفقرة الرابعة: البيت الحرام – مركز النور ومهوى القلوب ١٥٨
الفقرة الخامسة: زمزم – الماء المبارك في الأرض المباركة ١٦١
الفقرة السادسة: حادثة الفيل.. حينما تولّى الربُّ حماية البيت الحرام ١٦٣
الفقرة السابعة: عام الفيل.. عام الميلاد والنور والاصطفاء ١٦٦
الفقرة الثامنة: نسب النبي صلى الله عليه وسلم... أطهر الأنساب، وأشرف الأصول ١٦٨
الفقرة التاسعة: بشارة الكتب السابقة بالنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ١٧٠
الفقرة العاشرة: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى... ومولد الوعد المنتظر ١٧٣
الفقرة الحادية عشرة: الجزيرة قبل البعثة – ظلمات بعضها فوق بعض ١٧٦
الفقرة الثانية عشرة: أهل الكتاب قبل البعثة – علم يعرفون ويكتمون ١٧٩
الفقرة الثالثة عشرة طلائع النور – دلائل قرب البعثة النبوية ١٨١
الفقرة الرابعة عشرة: الناس يبحثون عن النور – قلوب تعلّقت بالسماء ١٨٤
الفقرة الخامسة عشر شيبة الحمد.. المولد المبكر للهيبة والوقار ١٨٧
الفقرة السادسة عشرة: عبد الله بن عبد المطلب... النور الذي اصطفته العناية الإلهية ١٩٠
الفقرة السابعة عشرة: آمنة بنت وهب – مهد النور وأمه ١٩٣

الفقرة الثامنة: عشر حادثة الفيل ١٩٦
الباب الثاني التمهيد للنبوة: من الميلاد إلى البعثة ١٩٩
مقدمة الباب التمهيد للنبوة ١٩٩
الفقرة الأولى ميلاده صلى الله عليه وسلم – يوم وُلدت الشمس من جديد ٢٠٠
الفقرة الثانية تسميته محمدًا – الاسم الذي لم يُسمّ به أحد قبله ٢٠٣
الفقرة الثالثة مراحل الرضاعة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم – لمسات الرحمة منذ اللحظة الأولى ٢٠٥
الفقرة الرابعة محمد الرضيع... حين أُرضع النور ٢٠٨
الفقرة الخامسة شقّ الصدر: حين أعدّت السماء قلب الأرض ليستقبل الوحي ٢١١
الفقرة السادسة عودة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمّه آمنة – لقاء قصير لكنه خالد في الوجدان ٢١٣
الفقرة السابعة : إلى كنف الجد: عبد المطلب... ومهابة النبوة المبكرة ٢١٦
الفقرة الثامنة إلى بيت العم – كفالة أبي طالب، والرحمة الموروثة ٢١٩
الفقرة التاسعة رحلته الأولى إلى الشام – أولى خطوات المجد النبوي ٢٢١
الفقر العاشرة في ساحة السهام... قلب لا يميل إلى الظلم ٢٢٣
الفقرة الحادية عشر في دار العدل... يدٌ وُضعت لنُصرة المظلوم ٢٢٦
الفقرة الثانية عشر: اليد التي رفعت الحَجَر وبنت القلوب ٢٢٨
الفقرة الثالثة عشر في كنف الدعاء – شبابه بين الفقر والطهر ٢٣١
الفقرة الرابعة عشر: كان محمدًا قبل أن يكون نبيًّا – أمانة تشهد لها الجاهلية ٢٣٣
الفقرة الخامسة: عشر زواج النور بالنور – خديجة في حياته ٢٣٥
الباب الثالث باب بدايات النور: من أولى بشائر الوحي إلى رفع الصوت بالحق ٢٣٨
مقدمة ٢٣٨
الفقرة الأولى: تمهيد النبوة – الخلوة في غار حراء ٢٣٩
الفقرة الثانية: النبوةُ اصطفاءٌ إلهي، لا تُنال بكسبٍ ولا تُدرَك بجهد ٢٤١
الفقرة الثالثة : إشراق النبوة... حين أذن الله للسماء أن تتكلم ٢٤٤
الفقرة الرابعة الليلة التي غيّرت وجه التاريخ... إشراق النبوة وارتجاف الجبل ٢٤٧
الفقرة الرابعة : "اقرأ"... أول نداءٍ من السماء يهزُّ صمت الأرض ٢٥٠
الفقرة الخامسة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها... أول الثابتين، وسيدة اليقين ٢٥٣
الفقرة السادسة : أبو بكر الصدّيق... قلبٌ أضاء بنور اليقين قبل أن يُخاطَب بالوحي ٢٥٦
الفقرة السابعة: عليّ بن أبي طالب... الفتى الذي سبقه النور، ومهد له القدر بأمر الله ٢٥٨
الفقرة السابعة : زيد بن حارثة... العتيق الذي باع الرق ليشتري المحبة ٢٦١
الفقرة الثامنة حين ارتفعت تكبيرة الجماعة الأولى... البداية الخاشعة في شعاب مكة ٢٦٤
الفقرة التاسعة: دار الأرقم... البيت الصغير الذي هزَّ أركان الجاهلية ٢٦٨
الفقرة العاشرة حين أقبل الصادقون... إشراقة الإيمان في قلوب الصفوة ٢٧١
الباب الرابع: حين ارتفع صوت التوحيد في بطاح مكة ٢٧٤
الفقرة الأولى النداء في دار الأسرة... حين أشرق صوت النبوة في بيت العشيرة ٢٧٤
الفقرة الثانية الجهر بالدعوة... حين انشق ليل مكة بصوت التوحيد ٢٧٧
الفقرة الثالثة حين اضطرب الباطل من جلال صوت الحق ٢٨٠

الفقرة الرابعة الابتلاء في مكة... نارٌ تصهر القلوب وتصنع رجالًا من نور ٢٨٣
الفقرة الخامسة: إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه السيف الذي نصر الدعوة ٢٨٧
الفقرة السادسة: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... حين انحنى السيف للنور ٢٩٠
الفقرة السابعة : حين أرادت قريش أن تشتري الرسالة... محاولات المساومة السياسية ٢٩٤
الفقرة الثامنة : ضغط قريش على أبي طالب... حين أرادوا خنق النور من باب القرابة ٢٩٧
الفقرة التاسعة: حين فشلت المساومة... صعدت سياط الأذى ٣٠٠
الفقرة العاشرة: لهيب البغضاء في بيت القرابة... أبو لهب وزوجه ٣٠٢
الفقرة الحادية عشر: أبو جهل.. طاغية قريش، وعدو الوحي الأول ٣٠٦
الفقرة الثانية عشر : هجرة المسلمين إلى الحبشة... حين فرّ الإيمان من بطش الظلم إلى حضن العدل ٣٠٩
الفقرة الثالثة عشرة: رحلة العودة: صدمة الواقع ومرارة الانتظار ٣١٣
الفقرة الرابعة عشرة : الهجرة الثانية إلى الحبشة: أملٌ جديد وتحدٍّ قديم ٣١٥
الفقرة الخامسة عشر: حصار الشعب: ليل الظلم وسراج الإيمان ٣١٨
الفقرة السادسة عشر: نقض الصحيفة... صرخة العدل في وجه الظلم، ونصرة من خارج أسوار الشعب ٣٢١
الفقرة السابعة عشر عام الحُزن... حين تكسّرت الدعوة على صخرة الفقد ٣٢٤
الفقرة الثامنة عشر: الرحلة إلى الطائف: حين تحدّثت الجراح... وناجى الألم السماء ٣٢٧
الفقرة الثامنة عشر... تسلية السماء لقلبٍ كُسِر في الأرض ٣٣٠
الفقرة التاسعة عشر: الحدث الذي زلزل مكة: الإسراء والمعراج وبزوغ فجر الصدّيق ٣٣٤
الباب الثالث من دعوة القبائل إلى فجر الدولة ٣٣٨
الفقرة الاولى: العرض على القبائل... طرق الأمل حين تُغلق الأبواب ٣٣٨
الفقرة الثانية بنو عامر بن صعصعة... الطموح السياسي يُعمي البصيرة ٣٤٢
الفقرة الثالثة: بنو شيبان بن ثعلبة... حكمة الرجال لا تغني عن نور الإيمان ٣٤٤
الفقرة الرابعة :بنو حنيفة... قبيلة القوة التي اختارت الضلال ٣٤٧
الفقرة الخامسة: بنو كندة... الطمع في المُلك يُفسد نية الدعوة ٣٥٠
الفقرة السادسة : من شدة الظلام... إلى إشراق الفجر: لقاء النور بأهل يثرب ٣٥٣
الفقرة السابعة: بيعة العقبة الأولى... قلوبٌ بايعت السماء في صمت الجبال ٣٥٥
الفقرة الثامنة: مصعب بن عمير... من الترف إلى التضحية، ومن نعيم الدنيا إلى سفارة السماء ٣٥٨
الفقرة التاسعة : بوادر النور في يثرب... وثمار الدعوة الأولى ٣٦١
الفقرة العاشرة : حين نبتت نواة الدولة من دموع الشوق وبذور الإيمان ٣٦٤
الفقرة التاسعة: الشوق إلى الخروج... حين ضاقت الأرض بالإيمان وتفتحت السماء لبذر النور ٣٦٧
الفقرة الحادية عشر: الصحابة يهاجرون خفيةً... والمدينة تفتح قلبها لنور الإيمان ٣٧٠
الفقرة الثانية عشر: الصحبة يا رسول الله... حين اختار النبي رفيق الدرب ٣٧٣
الفقرة الثالثة عشر غار ثور... حين رعَت السماء أقدار الرسالة ٣٧٦
الفقرة الرابعة: عشر سراقة... والسواران الموعودان ٣٧٨
الفقرة الخامسة عشر: اللقاء المبارك عند خيمة أم معبد ٣٨١
الفصل الثالث ٣٨٥
الباب الأول: مرحلة التأسيس المدني والدعوي قبل إذن الجهاد ٣٨٦

الفقرة الأولى: نزول النبي في قباء... أول خُطوةٍ للنور على أرض الأنصار ٣٨٦
الفقرة الثانية: موكب النور... حين دخل النور المدينة، واحتضنه بيتٌ طينيّ ٣٨٩
الفقرة الثالثة موطن النور... حين ابتدأت الدولة من محرابها ٣٩١
الفقرة الرابعة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار... قلوبٌ تآلفت في ظل الإيمان ٣٩٤
الفقرة الخامسة : بيوت النبوة... سكينة في حجرات الطاهرات ٣٩٦
الفقرة السادسة وثيقة المدينة... حين خطّ الوحيُ دستور الحياة ٣٩٩
الفقرة السابعة بنود وثيقة المدينة... دستور العدل وبداية الحضارة ٤٠١
الفقرة الثامنة: سوق المدينة... انبعاث النور من بين أنقاض الاحتكار ٤٠٤
الفقرة التاسعة: مجلس التشاور وصوت السماء يدوي ٤٠٦
الباب الثاني: في ظلال النبوة... وأقنعة اليهود ٤١٠
الفقرة الأولى: لماذا استوطن اليهود المدينة؟ ٤١٠
الفقرة الثانية يعرفونه كما يعرفون أبناءهم... ولكن الحسد يطمس البصائر ٤١٢
الفقرة الثالثة حين تطلّعوا إليه... عرفوه بقلوبهم قبل أعينهم، ثم اختاروا طريق اللعنة والحسد ٤١٥
الفقرة الرابعة عبد الله بن سلام... حين بزغ النور فأطفأ ظلام الحسد ٤١٧
الفقرة الخامسة نبيّ الرحمة... لا يتغير أمام الخصومة ٤١٩
الفقرة السادسة ميزان لا يَميل... محمد صلى الله عليه وسلم نبيُّ العدل في زمن الجَور ٤٢٢
الفقرة السابعة العدل حين يُطعن في الظهر... والنبي يُحاكم إلى يهودي! ٤٢٥
الفقرة الثامنة طبع لا يتغيّر... كيف قابل اليهود إحسان النبي وعدله؟ ٤٢٨
الباب الثالث: حين أذِنَ الله بقتال من بغى... من الإذن إلى بدر الكبرى ٤٣٢
الفقرة الأولى الإذن السماوي بقتال الظالمين... لماذا تأخّر؟ ٤٣٢
الفقرة الثانية: سرية عبيدة بن الحارث... حين رُفع أول لواء للجهاد، وبدأ الطريق إلى بدر ٤٣٥
الفقرة الثالثة: سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه... أسد الله يواجه أبا جهل ٤٣٨
الفقرة الرابعة: سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه... الطلقة الأولى في ملحمة الجهاد ٤٤١
الفقرة الخامسة: سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه... أول دمٍ أُريق، وأول غنيمةٍ أُخذت في سبيل الله ٤٤٣
الفقرة السادسة: غزوة بدر... يومٌ فرق الله فيه بين النور والظلمات ٤٤٦
الفقرة السابعة : طلائع النفير... كيف بدأت الحكاية الخالدة؟ ٤٤٩
الفقرة الثامنة: قريش تحتشد للثأر... والنار تشتعل في قلب الجاهلية ٤٥٢
الفقرة التاسعة: شورى النصر... حين ارتفعت أصوات الإيمان من الأرض إلى السماء ٤٥٤
الفقرة العاشرة: ليلة الفرقان... بكاء القائد وتضرعه في محراب السماء ٤٥٧
الفقرة الحادية عشرة: أنفاس النبوة... تبعث الحياة في قلوب المجاهدين ٤٦٠
الفقرة الثانية عشر بدء المعركة... وهبوط ملائكة السماء إلى أرض بدر ٤٦٢
الفقرة الثالثة عشرة: الشيطان في بدر الهارب المذعور ٤٦٥
الفقرة الرابعة عشر سقوط الطغاة ومصرع الجبابرة: نهاية العلوّ الباطل ٤٦٨
الفقرة الخامسة عشرة: حديث الموتى عند القليب... حين نطق السكون ٤٧٠
الفقرة السادسة عشر السبي والغنائم... حينما أطلت الفتنة برأسها في قلب النصر ٤٧٣
الفقرة السابعة عشرة: العودة إلى المدينة... أصداء النصر، وملامح التمكين ٤٧٦

الفقرة الثامن: عشرة: الصهر الأمين... من ظلمة الأسر إلى نور الإسلام..... ٤٧٨
الفقرة التاسعة عشر الظهور الأول للمنافقين... نارٌ تحت الرماد..... ٤٨٢
الباب الرابع: ما بين بدر وأحد... عام التمكين والامتحان ٤٨٥
الفقرة الأولى: صدى بدر... حين تزلزلت جزيرة العرب ٤٨٥
الفقرة الثانية: التمكين في المدينة... زمن الولادة الثانية للدولة ٤٨٨
الفقرة الثالثة: غزوة بني سُليم... حين أرهب النورُ الظلامَ قبل أن يُشهر سيفًا ٤٩١
الفقرة الرابعة : غزوة السويق... حين تهاوت عزيمة الثأر تحت أقدام الهزيمة..... ٤٩٤
الفقرة الخامسة: غزوة ذي أمر... حين ارتجفت الجبال من هيبة محمد صلى الله عليه وسلم..... ٤٩٦
الفقرة السادسة : غزوة الفُرُع إلى بني سليم... حين سار الهيبة قبل الجيوش..... ٤٩٨
الفقرة السابعة : غزوة بحران... صولة العزّ دون صليل سيوف..... ٥٠١
الفقرة الثامنة: غزوة بني قينقاع... حين سقط القناع، وظهر النفاق ٥٠٤
الباب الخامس: ما بعد بدر... ومقدمات الزلزال..... ٥٠٨
الفقرة الأولى: ريح الثأر تهبّ من مكة..... ٥٠٨
الفقرة الثانية: جيش قريش يتحرك بثأر الجاهلية ٥١١
الفقرة الثالثة: إشارات التحذير من مكة: العباس يحمل نذر المواجهة" ٥١٤
الفقرة الرابعة: شورى الحِرص والغيرة في دار النبي صلى الله عليه وسلم..... ٥١٦
الفقرة الخامسة على مشارف الامتحان العظيم..... ٥١٩
الفقرة السادسة: ميدان أُحد... الأرض التي ستشهد العهد والدماء ٥٢٢
الفقرة السابعة: صيحة النصر الأولى... فرحٌ لم يكتمل ٥٢٥
الفقرة الثامنة: حينما عُصيت الأوامر... من قمّة النصر إلى هاوية الانكسار ٥٢٨
الفقرة التاسعة دقائق تثبت الرجال... حينما زُلزلت القلوب بإشاعة الموت..... ٥٣٠
الفقرة العاشرة: لحظات من البطولة والوفاء... في قلب الجراح..... ٥٣٣
الفقرة الحادية عشرة: حمزة... سيد الشهداء ومرارة التمثيل ٥٣٥
الفقرة الثانية عشرة: حين تكلّمت العقيدة... وصمت السلاح..... ٥٣٨
الفقرة الثالثة عشرة وداع الشهداء ودفن العظماء... قبور على سفح أُحد..... ٥٤١
الفقرة الرابعة عشرة: عبد الله بن حرام... الشهيد الذي ناداه الله بلا واسطة ٥٤٣
الفقرة الخامسة عشر : عودة الجراح إلى المدينة... أنينٌ يمشي على الأرض وصداه في السماء..... ٥٤٧
الفقرة السادسة عشرة: أُحد في ميزان السماء... حين تعلّمت الأرض من وحي السماء ٥٥٠
الفقرة السابعة عشرة: حديث القرآن عن غزوة أحد..... ٥٥٣
الفقرة الثامنة عشر : غزوة حمراء الأسد... حين مشى الجرحى بالعزّة، فارتعد العدو من هيبة الثبات ٥٥٦
الفقرة التاسعة عشرة: بعث أبي سلمة إلى بني أسد... ردعٌ مبكر لما بعد أُحد..... ٥٦٠
الفقرة العشرون : سرية الرجيع... غدر القبائل ودماء الدعاة..... ٥٦٣
الفقرة الحادية والعشرون: مأساة بئر معونة... حين ارتوت الأرض بدماء القرّاء ٥٦٦
الباب السابع الغزوات الفاصلة بعد أُحد... تمهيد الهيبة وبناء الردع..... ٥٦٩
الفقرة الأولى غزوة بني النضير: زمن الخيانة لا يُرحم فيه العهد ٥٧٠
الفقرة الثانية أسوار بني النضير... حين ينقلب الحصار إلى انتصار..... ٥٧١

الفقرة الثالثة من المدينة إلى خيبر... نهاية نفوذ بني النضير ٥٧٣
الفقرة الرابعة غنائم بني النضير... حين أشرقت المدينة بثروة العدل والموقف ٥٧٥
الفقرة الخامسة سرابُ الانتقام... حين شُرِّعت الأبواب أمام بدر الآخرة ٥٧٧
غزوة ذات الرقاع ٥٨٠
الفقرة الأولى المسير فوق الرمضاء... حين صارت الرمال جبينًا للسجود، والجراح أوسمة الثبات ٥٨٠
الفقرة الثانية: تحت ظلال الشجر... حين كان السيف معلقًا ٥٨٣
الفقرة الثالثة عودة بلا دماء... رسائل الرمال إلى قبائل الغدر ٥٨٥
غزوة دومة الجندل... حين بلغ السيف أطراف الروم ٥٨٨
الفقرة الأولى مسيرٌ طويل في ليل الصحراء... حين صارت هيبة المدينة تسبق ظلّ السيوف ٥٨٨
الفقرة الثانية على أطراف الشام... حين تكلّمت الخُطى بلغة السياسة والرسالة ٥٩١
الفقرة الثالثة غزوة بغير سيوف... وهيبة تمهّد لطريق تبوك ٥٩٤
الباب الثامن غزوة الأحزاب... يوم الجمع والزلزال ٥٩٧
مقدمة ٥٩٧
..... ٥٩٧
الفقرة الأولى ريح الغدر تهبّ من خيبر... مؤامرة بني النضير على المدينة ٥٩٧
الفقرة الثانية: طبول الكفر تُقرع... وألوية الباطل ترفرف على أبواب المدينة ٥٩٩
الفقرة الثالثة: قريش تعبئ جيوشها... وتخرج بكل ما تملك من سلاح وحقد ٦٠٢
الفقرة الرابعة: المدينة في خطر... وقيادة النبوة تستنفر العقول والقلوب ٦٠٤
الفقرة الخامسة: معاول الإيمان... رجال الحفر في سبيل الله ٦٠٦
الفقرة السادسة: كرامة في دار جابر... ونفحات البركة في قدر قليل ٦٠٩
الفقرة السابعة: الخندق يحبس العدو... والإيمان يحبس الخوف ٦١١
الفقرة الثامنة: الفتنة العظمى... خيانة من الداخل تهز المدينة، لكن ثبات النبوة يوقظ اليقين ٦١٤
الفقرة التاسعة: الدعاء والتضرّع... سلاح المؤمن في الشدائد ٦١٧
الفقرة العاشرة: رجل بأمّة... نعيم بن مسعود يُفرّق الأحزاب ويقلب موازين التاريخ ٦٢١
الفقرة الحادية عشر : الليل يمضي في رياحٍ مرعبة... ومشهدُ الفرج يبدأ من قلب الظلمة ٦٢٤
الباب التاسع غزوة بني قريظة حين يسدل ستار الخيانة ٦٢٨
مقدمة ٦٢٨
الفقرة الأولى: العودة من الخندق... ونداء السماء بالنفير الجديد نحو بني قريظة ٦٢٩
الفقرة الثانية: «يا خيل الله اركبي»... الزحف نحو خيانة الداخل ٦٣٢
الفقرة الثالثة : لحظة الانهيار... حين أطبق الحق على الباطل، فتهدمت قلاع الخيانة على رؤوس أصحابها ٦٣٥
الفقرة الرابعة التحكيم العادل... وسعد بن معاذ على منصة القضاء الإلهي ٦٣٨
الفقرة الخامسة : العدالة تُنفّذ... ويذوق الخونة عاقبة الغدر ٦٤١
الفقرة السادسة: ارتجّ له العرش... موت سعد بن معاذ سيّد الأوس ٦٤٣
الفقرة السابعة : العودة إلى المدينة... حين تنفّس الصدق، وسقط آخر أقنعة الخيانة ٦٤٦
الباب العاشر: من بعد بني قريظة إلى غزوة بني المصطلق ٦٥٠
الفقرة الأولى: العودة إلى المدينة... حينما تتكلم الأرض والسماء بلغة النصر ٦٥٠

الفقرة الثانية: سَرِيَّةُ الحَزْمِ والهَيْبَة... وثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فِي أَسْرِ العِزَّةِ وَالْإِسْلَامِ ٦٥٣
الفقرة الثالثة: سرية عُكّاشة بن محصن إلى الغَمْر... عيون النبوّة لا تنام، وسيوف الولاء لا تغفو ٦٥٦
الفقرة الرابعة غزوة بني لِحيان... حين خرجت القيادة بالثأر، وعاد الجيش بلا دماء ٦٥٩
الفقرة الخامسة: غزوة ذي قَرَد ٦٦١
غزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع(..... ٦٦٥
الفقرة الأولى: غزوة بني المصطلق... حينما سافر البصر النبوي إلى تخوم الخطر ٦٦٥
الفقرة الثانية: اللقاء عند ماء المريسيع... نصر من غير دم، وفتح من غير كلفة ٦٦٨
الفقرة الثالثة: البركة العظيمة... من الرقّ إلى بيت النبوة ٦٧١
الفقرة الرابعة: حادثة الإفك... المحنة التي زلزلت أركان المدينة، ومهدت لبراءة من فوق سبع سموات ٦٧٣
الفقرة الخامسة : حكمة النبوة في محاكمة الإفك... وتجلّيات العدل والرحمة ٦٧٦
الفقرة السادسة : ثمار الابتلاء في حادثة الإفك... دروس ربانية وتمييز للصفوف ٦٧٨
الفقرة السابعة حين لاحت فتنة الجاهلية... وأطفأها نور النبوة ٦٨١
ا لفقرة الثامنة : العدالة النازلة من السماء... سرية كُرْز بن جابر إلى العُرنيين (شوال ٦ هـ) ٦٨٥
الفقرة التاسعة: الدعوة تمضي إلى الشمال... سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل (شعبان ٦ هـ(..... ٦٨٨
الباب الحادي عشر: صلح الحديبية - الفتح الأعظم الذي سبق السيوف ٦٩١
الفقرة الأولى: الحنين إلى البيت العتيق... حين انطلقت القلوب قبل الأقدام نحو مكة (ذي القعدة ٦ هـ) ٦٩١
الفقرة الثانية: اعتراض قريش ومنعها النبي صلى الله عليه وسلم من دخول مكة ٦٩٤
الفقرة الثالثة: الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية: الماء يتفجّر من الصخر ٦٩٧
الفقرة الرابعة: عثمان في قلب العاصفة.. وبيعة الرضوان التي هزّت السماء ٧٠٠
الفقرة الخامسة: قدوم سهيل بن عمرو.. ومفاوضات العزّة تحت ظلال النبوّة ٧٠٣
الفقرة السادسة: لحظات العتاب والتربية والفتح القريب ٧٠٦
الفقرة السابعة: طاعة مؤجَّلة... ولكنها طاعة! ٧١٠
الفقرة الثامنة: صلح الحديبية.. بوابة الفتح الحقيقي للدعوة ٧١٢
الفقرة التاسعة: حِكمة فوق السطور... وبصيرة تعلو البنود ٧١٥
الفقرة العاشرة: رجوع الفاتحين بلا قتال... مشهد النصر الخفي ٧١٨
الفقرة الحادية عشرة: أبو بصير... رجل بأمّة ٧٢١
الفقرة الثانية عشرة: ثمار الحديبية... الفتح الذي سبق السيوف وسبقته الحكمة ٧٢٤
الباب الثاني عشر: الدعوة العالمية... حين خاطب النورُ ملوكَ الظلام ٧٢٨
الفقرة الأولى: حين أوحى النبي إلى القلم أن ينطق بأكثر من لسان ٧٢٨
الفقرة الثانية: خاتم النبوة الذي طُبع به بلاغ السماء إلى الأرض ٧٣٠
الفقرة الثالثة: رسالة السماء إلى عظيم الروم (هرقل(..... ٧٣٣
الفقرة الرابعة: دعوة إلى التوحيد... وتمزيقٌ قاد إلى الزوال ٧٣٦
الفقرة الخامسة: المقوقس... حين طَرَقَ النورُ بابَ قلبٍ أغلقَه الخوفُ على تاجٍ زائل ٧٣٨
الفقرة السادسة: النجاشي... الملك الذي أنصف بلا لقاء، وآمن بلا رؤيا، وسجد لله من وراء المحيطات ٧٤١
الفقرة السابعة: الحارث بن أبي شمر... المُتكبّر الذي أدار ظهره للخلود ٧٤٥
الفقرة الثامنة: هوذة بن علي... الملك الذي ساوَم فخسر الطريق إلى الخلود ٧٤٨

الفقرة التاسعة: المنذر بن ساوى... أميرٌ سَكن البحر فسكن الإيمان في قلبه ٧٥٠
الباب الثالث عشر من فتح خيبر إلى نقض العهد ٧٥٣
الفقرة الأولى: خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر... الزحف المقدس على معاقل الغدر ٧٥٤
الفقرة الثانية: وصول الجيش النبوي إلى خيبر... حين خفقت راية التوحيد على أسوار المكر ٧٥٦
الفقرة الثالثة: بطولات الصحابة وتسليم الراية لعلي رضي الله عنه ٧٥٩
الفقرة الرابعة: الصلح مع يهود خيبر بعد الفتح – بسطُ العدل وعلوُّ السياسة النبوية ٧٦٢
الفقرة الخامسة: تقسيم الغنائم – عدل النبوة وسُنَّة الرحمة ٧٦٥
الفقرة السادسة: زواج النبي صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي رضي الله عنها ٧٦٨
الفقرة السابعة السم في الشاة المسمومة بعد فتح خيبر: نصل الغدر في يد العاجزين ٧٧١
الفقرة الثامنة: من أسلم بعد فتح خيبر: حين يُثمر النصرُ إيمانًا، ويُزهر الجهادُ هداية ٧٧٤
سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة (في شوال من السنة السابعة للهجرة(..... ٧٧٧
ملحمة مؤتة.. حين وقف الإيمان في وجه الجحافل ٧٨١
الباب الرابع عشر: من الغدر إلى الفتح: الطريق إلى النصر المبين ٧٨٦
الفقرة الأولى: نقض العهد: غدر بني بكر بخزاعة ٧٨٦
الفقرة الثانية: محاولة يائسة: قريش تُرسل أبا سفيان إلى المدينة ٧٨٩
الفقرة الثالثة: تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة في سرية تامة ٧٩٢
الفقرة الرابعة: حين تحرّك النور... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ٧٩٥
الفقرة الخامسة: إسلام أبي سفيان... من عرش الزعامة إلى لواء الخضوع ٧٩٨
الفقرة السادسة: دخول الفاتحين... فتحٌ مبينٌ وتواضع نبيٍّ أمين ٨٠٢
الفقرة السابعة: الجيش يتوزّع.. والفتح يبدأ ٨٠٤
الفقرة الثامنة: موكب الفاتح... ودخول الرحمة في أعظم ساعات النصر ٨٠٧
الفقرة التاسعة: في محراب التوحيد... لحظة تطهير البيت ٨١٠
الفقرة العاشرة القلوب التي أسلمت حين عفا... عفوُ القادر حين يَقدر ٨١٢
الفقرة الحادية عشرة : تطهير البيت... وإعلاء كلمة التوحيد ٨١٥
الفقرة الثانية عشرة: الخطبة الجامعة... إعلان مبادئ الإسلام الخالدة يوم الفتح ٨١٨
الفقرة الثالثة عشرة: رَدُّ الأَمَانَةِ إلى أَهْلِهَا... درسٌ خالد في عدل النبوّة ومهابة الوحي ٨٢٠
الفقرة الرابعة عشرة: البيعة العامة للرجال والنساء... حين أشرقت مكة بنور الإسلام ٨٢٣
الفقرة الخامسة عشرة: إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وتثبيت أركان الدولة والتوحيد بعد الفتح ٨٢٦
الباب الخامس عشر: عام الغنائم والتحديات (غزوة حنين والطائف(..... ٨٣٠
الفقرة الأولى: شرارة التحدي تُوقد بعد الفتح: بداية حنين ٨٣٠
الفقرة الثانية: جيشٌ لم يُرَ مثله... ودهشةُ وادي حنين ٨٣٣
الفقرة الثالثة: نداء الحسم... ونصر من السماء ٨٣٦
الفقرة الرابعة: دعوة للثبات... ونزول الملائكة وانقلاب المعركة ٨٣٩
الفقرة الخامسة: إلى الطائف... حيث تتحصّن ظلال الجاهلية ويعلو صوت العناد ٨٤٢
الفقرة:السادسة بين الجدران واليقين.. بداية الحصار العظيم ٨٤٥
الفقرة السابعة: مكر ثقيف ومقاومتها... وسقوط الشهداء الأبرار ٨٤٧

الفقرة الثامنة: جرأة الاقتحام ومحنة الجراح... فصل من فصول البطولة النبوية..... ٨٥٠
الفقرة التاسعة: شهداء حصار الطائف... عطر الأرض بدماء الأطهار، وسطور المجد بمداد الأبرار ٨٥٢
الفقرة العاشرة اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في وسائل الحصار ٨٥٥
الفقرة الحادية عشرة: نداء النبوة من تحت أسوار الطائف: عتقٌ ورحمة، وحكمةٌ تُحطم الحصون ٨٥٧
الفقرة الثانية: رفع الحصار... عندما يُعلّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن التراجع قد يكون قمة النصر ٨٦٠
الفقرة الثالثة عشرة: الجِعْرانة... حين تعالت القلوب على الغنائم، وانتصرت الرحمة على الرغبة ٨٦١
الفقرة الرابعة عشر: الأنصار... حين بكى النبي صلى الله عليه وسلم في خيمة الجِعْرانة..... ٨٦٤
الفقرة الخامسة عشر العمرة من الجِعْرانة... تتويج الفتح بالنسك، وغسل القلوب بعد الغبار ٨٦٧
الفقرة السادسة عودة الحبيب إلى المدينة... رجوع النور إلى دار الهجرة..... ٨٧١
الباب السادس عشر غزوة تبوك – ساعة العسرة واختبار الصفّ..... ٨٧٤
الفقرة الأولى: التمهيد لغزوة تبوك: نُذر الخطر وإعلان النفير ٨٧٤
الفقرة الثانية: تجهيز جيش العُسرة... مواسم الإيمان وصدق الامتحان..... ٨٧٧
الفقرة الثالثة: دموع العاجزين الصادقين... نبضُ الصدق الذي بلّله العذر ٨٨٠
الفقرة الرابعة: خُذلان المنافقين... نفاقٌ يتسلّل في الظلال ٨٨٢
الفقرة الخامسة: المتخلّفون عن غزوة تبوك: بين دخان النفاق وظلال التواني ٨٨٥
الفقرة السادسة مسيرٌ في الهجير... تقوده النبوّة وتكتنفه التربية..... ٨٨٧
الفقرة السابعة: الوصول إلى تبوك وموقف الروم..... ٨٩٠
الفقرة الثامنة: اللقاءات والمراسلات في تبوك: فتح القلوب قبل الحصون ٨٩٣
الفقرة التاسعة: خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك: مدرسة الثبات والعزيمة ٨٩٥
الفقرة العاشرة: عودة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد غزوة تبوك..... ٨٩٨
الفقرة الحادية عشر : قدوم المنافقين المخلَّفين واعتذارهم..... ٩٠١
الفقرة الثانية عشر: حين تكلّم القلب.. قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه ٩٠٣
الفقرة الثالثة عشر: من ليل المحنة إلى فجر التوبة.. محنة الثلاثة الذين خُلِّفوا..... ٩٠٦
الفقرة الرابعة عشرة: هدم مسجد الضِّرار.. عندما احترق النفاق بنار الصدق..... ٩١٠
الفقرة الخامسة عشرة: موت رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول: نهاية حياةٍ امتلأت غدرًا ومكرًا ٩١٢
الباب السابع عشر: عام الوفود..... ٩١٦
في العام التاسع من الهجرة، أشرقت شمس الإسلام على ربوع الجزيرة، وبدأت القبائل تتقاطر إلى المدينة طائعة، بعد أن تبدّدت غياهب الشرك، وتكسّرت أصنام الجاهلية تحت سنابك الحق، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون. ٩١٦
الفقرة الأولى: إسلام مالك بن عوف النَّصْري... حين ينهزم السيف أمام نور الحق..... ٩١٧
الفقرة الثانية: وفد ثقيف... حين انحنى العناد أمام نور النبوة ٩١٩
الفقرة الثالثة قصة إسلام عروة بن مسعود الثقفي: النور الذي قُتل قبل أن يُطفأ ٩٢٢
الفقرة الرابعة: هدم صنم "اللات"... حين سقطت آلهة الزيف تحت أقدام التوحيد..... ٩٢٥
الفقرة الخامسة: عامر بن الطفيل... كبرياء ينهار على عتبة النبوة..... ٩٢٨
الفقرة السادسة: وفد عبد القيس... الإيمان إذا أقبل من البحرين ٩٣٠
الفقرة السابعة: وفد بني حنيفة... حين يتسلل الطمع في ثوب الدعوة ٩٣٣
الفقرة الثامنة: وفد طيء... حين انحنى المجد عند أعتاب النبوة..... ٩٣٦

الفقرة التاسعة: حين زار النصارى مدينة النبوة... لقاء بين الحق والهوى ٩٣٩
الفقرة العاشرة: وفد بني تميم... صوت البادية في حضرة النبوة ٩٤١
الفقرة الحادية عشرة: ضِمام بن ثعلبة... سفير الصحراء الباحث عن الحق ٩٤٤
الفقرة الثانية عشرة: وفد بني عُذرة... شهامة النسب، وصدق الإيمان ٩٤٦
الفقرة الثالثة وفد جهينة... السهولة في الطريق، والصدق في الطلب ٩٤٩
الفقرة الرابعة: وفد غامد... نور على نور ٩٥١
الفقرة الخامسة عشرة: وفد أشجع... قومٌ إذا عزموا مضوا ٩٥٤
الفقرة السادسة عشرة: وفد عبد القيس الثاني... عودة الصادقين إلى مورد النور ٩٥٦
الفقرة السابعة: وفد دوس... ثمرة دعوة الصادقين، ومظهر رحمة النبيين ٩٥٨
الفقرة الثامنة وفد مزينة... قومٌ أحبّهم الله، وأثنى عليهم رسول الله ٩٦١
الفقرة التاسعة عشرة: وفد بني أسد... حين يتكلّم القلب بما لا يُرضي، ويفضح اللسان ما تُخفي الصدور ٩٦٣
الفقرة العشرون: وفد غسان... حين انحنى المَلَكُ للحق ٩٦٦
الفقرة الحادية والعشرون: وفد أزد شنوءة... حين نزلت القمم لتصعد بالإيمان ٩٦٨
الفقرة الثانية والعشرون: وفد أزد عُمان... من وهج الرمال إلى وحي السماء ٩٧١
الفقرة الثالثة والعشرون: وفد تجيب... وجوهٌ أشرقت بالإيمان، وقلوبٌ ملأها نور اليقين ٩٧٥
الفقرة الرابعة والعشرون: قدوم الجارود بن المعلّى وسلمة بن عياض: مسيرة قلبين نحو النور ٩٧٨
الفقرة الخامسة والعشرون: وفادة الحارث بن حسان البكري: حين تنطق الصحراء بالحكمة ٩٨٢
الفقرة السادسة والعشرون: وفدُ حِمْيَر: حينما أشرقت شمس التوحيد على ربى اليمن ٩٨٥
الفقرة السابعة والعشرون وفد الداريين: من ظلال الكنيسة إلى نور النبوة ٩٨٨
الفقرة الثامنة والعشرون: وفد بني الرُّؤاس: حين جاء الإيمان يمشي على أقدام البوادي ٩٩٠
الفقرة التاسعة والعشرون: وفد بني سعد هُذيم: من أطراف الشام إلى قلب المدينة النبوية ٩٩٢
الفقرة الثلاثون: ختام الوفود ومصداق الوعد الإلهي: لما اكتمل النور وصدَق الوعد ٩٩٤
الفصل الرابع في ظلال الختام والاتمام ٩٩٧
الباب الاول: استقرار الدولة وخاتمة الرسالة ٩٩٨
المحور الأول: تثبيت الدولة وبسط سلطان الإسلام في الجزيرة ٩٩٩
الفقرة الأولى: إرسال الدعاة والمعلمين إلى أنحاء الجزيرة ٩٩٩
الفقرة الثانية تعيين الولاة والعمّال... عدلٌ يرسّخ دولة الإسلام ١٠٠٢
الفقرة الثالثة: هدم ما بقي من الأصنام... تطهير الجزيرة من الشرك ١٠٠٤
الفقرة الرابعة: حَجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه... تمهيدٌ للتوحيد ونهايةٌ لعهد الجاهلية ١٠٠٦
الفقرة الخامسة: حجَّة الوداع... خُطى الختام في مسيرة النور ١٠٠٨
الفقرة السادسة: مشهد الإحرام والخروج إلى البيت الحرام ١٠١١
الفقرة السابعة: آلام الجسد وشفافية القضاء وتحنان النبي صلى الله عليه وسلم على أهله ١٠١٤
الفقرة الثامنة: المشهد الجليل: دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة، وطوافه وسعيه ١٠١٧
الفقرة التاسعة – نزول النبي صلى الله عليه وسلم الأبطح قبل يوم التروية ١٠٢١
الفقرة العاشرة: في ظلال التروية وعظمة عرفة ١٠٢٤
الفقرة الحادية عشرة: المشهد الخاشع: الوقوف الأعظم والتجلّي الأتم ١٠٢٧

الفقرة الثانية عشرة: المشهد البديع: موتٌ في ثوب الإحرام، وميلادٌ في عرصات القيامة ١٠٣٠
الفقرة الثالثة عشرة: مشهد الإفاضة – السكينة في الزحام ١٠٣٣
الفقرة الرابعة عشرة: مشهد الإفاضة من المشعر الحرام ورمي جمرة العقبة – وقار الخاتمة ونداء التوديع ١٠٣٦
الفقرة الخامسة عشر انشودة النحر ومواكب الفداء ١٠٣٩
الفقرة السادس عشر: تاج الحب في يوم النحر ١٠٤٢
الفقرة السابعة عشر مواكب النور في طواف الإفاضة ١٠٤٣
الفقرة الثامنة عشر: أيام التشريق ومنزل المحصب... انسياب الطاعة في أدق التفاصيل ١٠٤٦
الفقرة التاسعة عشر: وداع الحبيب صلى الله عليه وسلم لمكة بعد تمام المناسك ١٠٥٠
الفقرة العشرون : الوداع الأخير من حج الوداع: لحظات الفِراق المهيبة ١٠٥٣
الباب الثاني: سطور الوداع الأخيرة ١٠٥٧
الفقرة الأولى إرهاصات الوداع والرحيل ١٠٥٧
الفقرة الثانية بعثُ أسامة بن زيد: وصية النبي العملية قبل الرحيل ١٠٦١
الفقرة الثالثة: بداية المرض وإرهاصات الرحيل ١٠٦٤
الفقرة الرابعة: اشتداد الألم، وتمريضه في بيت عائشة، وأمره أبا بكر أن يصلي بالناس ١٠٦٧
الفقرة الخامسة: وصاياه الأخيرة: أنفاسُ النبوة تهمس بالوصايا ١٠٧٠
الفقرة السادسة: البيعة الصامتة والوداع الرقيق ١٠٧٣
الفقرة السابعة: رفع النبي صلى الله عليه وسلم الستر ونظر إلى أصحابه في آخر لحظات حياته ١٠٧٦
الفقرة الثامنة: اللحظة الحاسمة... حين لبّى الحبيب نداء السماء وودّعته فاطمة الزهراء ١٠٧٩
الفقرة التاسعة: الزلزال الأعظم... ساعة رجّت الأرض والقلوب ١٠٨٢
الفقرة العاشرة: حديث السقيفة ومولد الخلافة الراشدة ١٠٨٥
الفقرة الحادية عشر: الغسل... لحظات تسكب الدموع، وتكتب بالحُبّ والخشية على صفحات القلوب ١٠٨٨
الفقرة الثانية عشر : تجهيز الحبيب صلى الله عليه وسلم وتغسيله ودفنه: مشهد وداع لا يُنسى ١٠٩١
الفقرة الثالثة: عشر يوم أظلمت فيه المدينة ١٠٩٤
الفقرة الرابعة عشرة: تثبيت الدولة وتنفيذ وصايا الحبيب صلى الله عليه وسلم ١٠٩٧
الباب الثالث: كيف نكون نحن امتداد السيرة؟ ١١٠٠
الفقرة الأولى: عظمة ما قدّمه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ١١٠٠
الفقرة الثانية: من بعده... رجال سهروا الليالي ليبقى النور مشتعلاً ١١٠٢
الفقرة الثالثة من سار على الدرب وصل ١١٠٣
الفقرة الرابعة: السيرة ليست للتاريخ... بل للحياة ١١٠٥
الفقرة الخامسة: السيرة... مرآة التذكير بالحقيقة ١١٠٦
الفقرة السادسة: السيرة النبوية أمانُ الأمة في زمن الفتن، وسُفُنُ النجاة حين تعصف الرياح ١١٠٧
الفقرة السابعة السيرة تعني العودة إلى الخلافة... إلى المجد الضائع والعز الغائب ١١٠٨
الفقرة الثامنة من حُرم السيرة... حُرم النور والهدى والدليل ١١٠٩
الفقرة التاسعة الابتعاد عن السيرة... هوى في مزالق الذل، وقطعٌ لحبل العز ١١١٠
الفقرة العاشرة: أمة بلا سيرة... كجسد بلا روح، وكقلب بلا نبض، وكسماء بلا شمس ١١١٢
الفقرة الحادية عشرة: تعظيم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم... ليس نافلةَ حب، بل فرضُ دين ١١١٣

الفقرة الثانية عشر: ومن وقَّى فقد نجا..... ١١١٤
الفقرة الثالثة عشر: نصرة السيرة بالعلم والعمل..... ١١١٥
الفقرة الرابعة عشر كيف نُعيد السيرة إلى واقع الناس؟..... ١١١٦
الفقرة الخامسة عشرة: من السيرة تبدأ الصحوة..... ١١١٧
الفقرة السادسة: من عاش السيرة في نفسه، أحياها في الناس..... ١١١٨
الفقرة السابعة عشر: السيرة في البيوت: من المحضن إلى المنبر..... ١١١٩
الفقرة الثامنة عشرة: السيرة على منابر الدعاة والخطباء: من نور السماء إلى قلوب الأرض..... ١١٢٠
الفقرة التاسعة عشرة: السيرة في مناهج التعليم: نورٌ يتربى عليه الجيل..... ١١٢١
الفقرة العشرون: السيرة في الإعلام: استردادُ الوعي المفقود..... ١١٢٢
الفقرة الحادية والعشرين: العودة إلى السيرة... عودة إلى الذات..... ١١٢٤
الفقرة الثانية والعشرين: فليبدأ كلٌّ منّا الآن... لقد آن الأوان..... ١١٢٤
وها قد مضت الصفحات... فهل آن لنا أن نبدأ الحياة؟..... ١١٢٥
اهم المصادر والمراجع لهذا الكتاب..... ١١٢٧